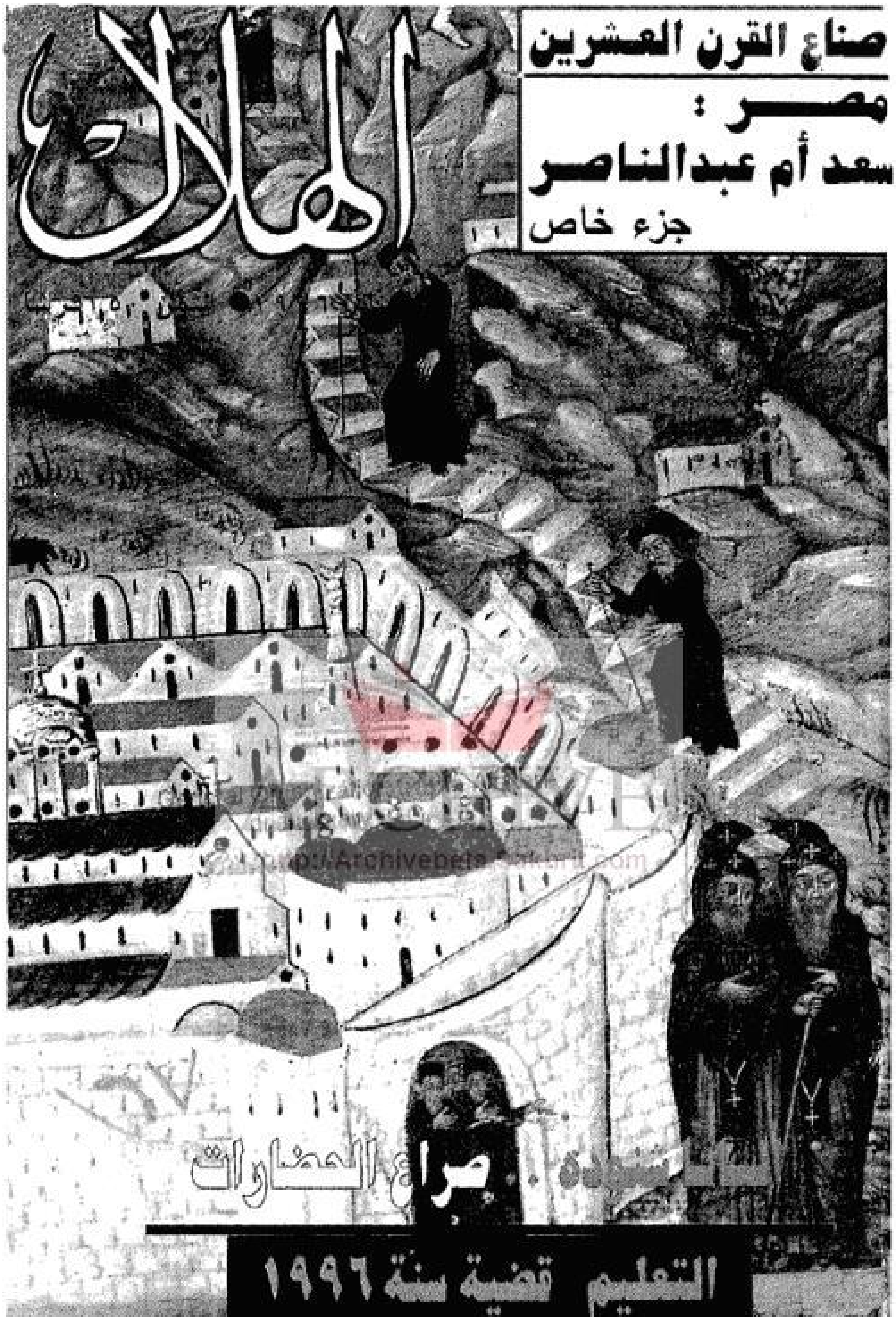

الهلال
صناع القرن العشرين
مصر :
سعد أم عبدالناصر
جزء خاص
صراع الحضارات
التعليم قضية سنة ١٩٩٦



المرأة الشـــــــابة

لوحة للفنان الفرنسي ادجار ديجا (١٨٧٩) - المتحف الوطني .. لندن

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الادارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١,٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ١,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوروبا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فكر وثقافة

صناع القرن العشرين

جزء خاص

فى هذا العدد



تفصيلة من « أيقونة » من طراز الفن السيناني - القرن الخامس عشر الميلادى
من مجموعة مقتنيات دير سانت كاترين

شعر وقصة

دائرة حوار

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

عـزيــزى القارىء

كل عام وأنت بخير .

فى سرعة يختفى وجه العام الذى عرفناه ، ويطل علينا وجه عام جديد، والعام الجديد بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للجنس البشرى . والتغيرات فى العالم أسرع من الخيال وأعنف من كل التوقعات ، وبلغت معدلات التغير ما لم يشهده العالم من قبل. ووصلت التغيرات إلى كل شىء حولنا ، من لا يلاحقها أو يتوقف يسقط في بئر التخلف العميق . والباقى من الزمن أربع سنوات ، ونجد أنفسنا فى سنة ٢٠٠٠ ، ونخرج من القرن العشرين لكى ندخل القرن الحادى والعشرين .

ومع العام الجديد . نطل على حصاد الماضى ، نرى ماذا عملنا ، وما الذى علينا أن نعمله ؟ . ومن حرفتهم الكتابة ، فهناك الكلمة الفعل، وهناك كلمة مثل الحب الذي يبذر ثم ينتظر الحصاد .

ووقفة التأمل هذه لاتكتفى بالنظر إلى السنوات التى نعيشها بل تمتد إلى الماضى والمستقبل، فليس فى أيامنا هذه فرصـة الخمـول أو الرتابة.

ويواصل الهلال نشر أهم صناع القرن العشرين ويعرض أهم الأفكار والأشخاص من زوايا مختلفة ونفرد له جزءا خاصا، وسنواصل فى الأعداد المقبلة استعراض الشخصيات التي غيرت العالم، لكى نلمس حركة الزمن وندرك أبعاد المستقبل وكيف نتعامل معه.

ومن حصاد الماضى ، ما قمنا به عندما استكمل «الهلال» عامه المائة في سبتمبر ١٩٩٢ ، واتخذ الاحتفال مظاهر شتى ، من بينها إعادة اصدار السنة الاولى من الهلال وأصدرنا «سجل الهلال المصور» وهو مجلد ضخم

من جزءين يحوى مئات الصفحات من الصور النادرة ، كما أصدرنا في جـــزءين موسوعة أهم مائة كتاب كان لها أكبر الأثر في تفكير الانسان العربي ، وهي الكتب التي تبشر بالتنوير وأن يستبدل العقل بالنقل ، والعدل بالظلم ، والحوار بالاملاء ، والابداع بالاتباع ، وأحلام التقدم بأوهام التخلف.

ومما نعتز به أشد الاعتزاز ، هو الدور الذى قامت به «الهلال» نحو الحى الذى نشأت فيه منذ خمسين عاما فى حى السيدة زينب ، أى أن الهلال قضى نصف عمره في هذا الحى الشعبى العريق ، وأردنا أن نقدم نموذجاً يحتذى ، يؤكد دور المؤسسة فى محيطها ، واقترحنا لذلك أن يتم ترميم الآثار التاريخية فى الحى ، واقترحنا ترميم مدرسة السنية أقدم مدارس البنات فى مصر ، وتبنى البنك الأهلى هذا المشروع ، واقترحنا إقامة مكتبة عامة فى الحى ، واستجاب بنك مصر لاقتراحنا ، وساهم فى المشروع صندوق التنمية الثقافية . وهى المكتبة التى افتتحت مؤخراً وأطلق عليها مكتبة طلعت حرب ، ومازالت دعوتنا إلى ترميم بيت السناري في حارة مونج تنتظر التنفيذ.

إن كل شىء فى العالم اليوم يحاول أن يفتح صفحة جديدة على مشارف قرن جديد ، ولعل وقفتنا تكون لفتح صفحة جديدة من الهلال تربطنا بالمستقبل ، فالقرن القادم يفتح ذراعيه ، ولا يجوز أن نرتد إلى الوراء .

نحن أمة تبحث عن المستقبل ، تراثنا يمتد وراءنا آلاف السنين وسوف يذهب أدراج الرياح إذا جمدناه ولم نتخطاه. إن ماضي مصر والبلاد العربية يمتد إلى ماض بعيد ، ولكن ماذا يجدى هذا الماضى إذا كان حاجزا يقف بيننا وبين المستقبل .

المحرر

صراع الحضارات

بقلم : البابا شنوده الثالث



- فكرة عابرة عن الحضارات القديمة .
- تأثر الشرق حاليا بحضارة الغرب .
- الصراع الحالى بين الشرق المتحفظ ، والغرب (المتحرر)

الحضارات بدأت أولاً فى الشرق..

لعل أقدمها كانت الحضارة المصرية، ثم الحضارة البابلية . وحضارة أخرى فينيقية، وحتى الحضارة اليونانية كانت تعتبر شرقية أيضاً. كان انتماء اليونان إلى الشرق أكثر من انتمائها إلى الغرب . كما أن نصف قارات العالم التى فى الغرب (أمريكا الشمالية - أمريكا الجنوبية - أستراليا) ما كانت قد اكتشفت بعد . وكانت تسكنها شعوب بدائية.

قامت حضارة أخرى فى الهند، أساسها الفلسفة والنسك.

وعندما قامت الإمبراطورية الرومانية . وأزالت من أمامها إمبراطورية الإسكندر الأكبر ومن خلفه من البطالمة، قيل ذلك المثل المشهور «الرومان انتصروا على اليونان عسكرياً أو سياسياً، ولكن اليونان انتصروا عليهم ثقافياً».

على أن الرومان اعتبروا أنفسهم أرقى شعوب العالم، وكل الشعوب الأخرى برابرة. وكلمة Barbarus فى اللغة الرومانية تطلق على الأجنبى، وجمعها Barbari ومعناها أجانب. فماذا يسمون اليونان الذين كانوا يسيطرون على الثقافة فى العالم وقتذاك، ومنهم كبار الفلاسفة أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة

الرواقيين؟... ماكان من الرومان إلا أنهم اعتبروا اليونان Semi Barbarians أى نصف برابرة ، أو شبه برابرة!

وانقسمت الإمبراطورية الرومانية العظمى إلى دولتين: الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومه، واستولت على غالبية بلاد أوربا. والدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، واستولت على تركيا، وبلاد الشرق الاوسط ومنها مصر والشام وفلسطين، وما يجاور تلك المنطقة من بلاد، وأثرت عليها.

وفي سنة ٤٧٦م انتصرت القبائل المتبربرة بقيادة «اودو أكد» على الدولة الرومانية ونعنى بهذه القبائل المتبربرة كما دعوها (أى غير الرومانيين): قبائل الإنجلز والسكسون والسلاف والفرنجة والجرمان والقوط. وتكونت من هؤلاء دول صارت دول الغرب العظمى . فالإنجلز كونوا إنجلترا، والسلاف الشماليون كونوا تشيكوسلفيا.. والسلاف الجنوبيون كونوا يوجوسلافيا، والفرنجة كونوا فرنسا، والجرمان كونوا ألمانيا، وهكذا.

الألمان اعتبروا أنهم من الجنس الآرى ، الذى رأوا أنه أرقى أجناس العالم.. وبلغ من مبالغتهم فى تمجيد جنسهم ، أن بعض علمائهم اعتبروا أن كل الشخصيات العظيمة فى التاريخ لابد أن اصلها كان من الجنس الآرى.

بعد ذلك اكتشفت قارات الغرب أى الأمريكتان وأستراليا، ودخلتها شعوب من أوربا، وأقامت فيها حضارات ظلت تنمو وتنمو، حتى صارت من أعظم الحضارات الحديثة ، وفاقتها علماً، كما فاقتها فى العمارة، وفى المخترعات. ودخلت فى منافسات مع حضارات أوربية كثيرة.

لكننا هنا لا نود أن نتكلم عن الصراعات في الغرب، إنما سنتكلم عن الصراع بين الشرق والغرب .

● التأثر بالغرب

ظل الشرق محتفظا بحضارته الخاصة المتحفظة إلى أن دخل إليه الغرب بطرق شتى وأثر عليه كثيراً فى مجالات متعددة لايمكن تجاهلها، وبخاصة بعد حكم المماليك الذى ساعد على تدهور الشرق.

لا ننكر أنه حدث بعد ذلك غزو حضارى، انتقل من الغرب إلى الشرق كان ذلك أولاً عن طريق العلم، بالمدارس التى أسسها أهل الغرب فى بلادنا، وبالبعثات

التى أرسلناها إلى جامعات الغرب، وتأثير ذلك كله فى انتقال تقاليد وعادات وثقافات، وفيما امتلأت به مكتباتنا من كتب ودوائر معارف، ما استخدم منها كما هو وما ترجم منها إلى العربية.

ولا ننسى الفترات التى سيطر فيها الغرب سياسياً على بلاد الشرق، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، وما حدث بعدها من وقوع كثير من بلاد الشرق تحت الحماية أو تحت الانتداب لعشرات من السنوات، تركت فيها بصماتها الغربية فى عديد من نواحى الحياة.

بل قبل هذه الحرب، لاننسى الاستعانة بالغرب فى بعض مشروعات، حتى أننا نلاحظ أن الاحتفال بافتتاح قناة السويس التى قام بحفرها فرديناند ديلسبس كان احتفالاً تسوده المظاهر الغربية. وكان الخديو إسماعيل يجاهر بأنه يريد أن تكون القاهرة كقطعة من فرنسا

وتوالى التأثير الغربي عن طريق وسائل الإعلام

هذه التى استطاعت نقله بما تنشره من أفلام وأوبريت وأغان وحفلات وأخبار، وما يمكن تقليده من كل ذلك. بل إن وسائل الإعلام نفسها هى من ضمن انتشار الحضارات الغربية . وبواسطتها أصبحت بلاد العالم فى حالة اختلاط مستمر، يؤثر بعضها فى البعض الآخر، بحيث من الصعب أن نقول إن هناك حضارة خاصة منعزلة تماماً عن حضارة أخرى.

المجتمع بدأ يتغير في الشرق وتطغي عليه الحضارة الغربية :

وفى مقدمة ذلك ما حدث من جهة تحرير المرأة، وما قام به قاسم أمين فى هذا المجال وبدء تعليم المرأة، وإنشاء مدرسة لذلك على يد البابا كيرلس الرابع، ثم انتشار المدارس للفتيات فى كل مكان. كذلك بتعليم المرأة، أخذت تلتحق بالوظائف وترتقى فيها، حتى وصلت إلى مرتبة الوزير . واشتغلت فى التعليم وصارت ناظرة لمدرسة، كما اشتغلت فى العلم الاجتماعى بكل أنشطته وفى الطب والمحاماة وعضوية البرلمان وغير ذلك.

وبتأثير الحضارة الغربية تغيرت ملابس الرجال أيضاً، واعترف المجتمع بذلك فأطلق عليها اسم الملابس الإفرنجية وملابس النساء تغيرت أيضاً، ودخلت فيما

يسمى باسم الموضة، وكلما تغيرت الموضة فى بلاد الغرب، تغيرت فى الشرق أيضاً.

وإذ ارتقى التعليم وتأسست الجامعات، عرف الشرق التعليم المشترك في الجامعات.

وأصبحت الشابة تتلقى التعليم إلى جوار الشاب فى كليات الجامعة، الأمر الذى لم يكن معروفاً فى الشرق من قبل. وبتفوق المرأة أحيانا، صارت ترتقى مناصب التدريس فى الجامعة، وتصل إلى درجة الاستاذية ورئاسة القسم، ويتتلمذ عليها شبان ورجال، وترأس اجتماعات مدرسين. وما كان الشرق يألف هذه الصورة قبلاً.

والحضارة الغربية ومجالات التعليم والخلطة، أثرت علي اللغة أيضا فدخلت فى استعمالنا اليومى ألفاظ غربية لم تكن معروفة، مثل التليفون والتلغراف والراديو والتليفزيون، والمايسترو، والبار، والموضة، والماتش والجول والتنس والباسكت، وكما فى مجال الإعلام والرياضة، كذلك فى مجال الطب والدواء دخلت إلينا ألفاظ الفيتامينات بأنواعها، والـ Anti Biotics بل أسماء العلوم نفسها دخلتها ألفاظ غربية مثل الجغرافيا والفلسفة والجيولوجيا، والمغناطيسية، والفيزياء، والكيمياء، وما إلى ذلك من ألفاظ.

هنا لا نستطيع أن نقول صراع حضارات، إنما تبادل المعرفة.

وهكذا دخلت فى حياتنا اليومية كثير من المخترعات بأسمائها مثل البوتاجاز، والفيديو، والبولدوزر، والكاسيتات والكمبيوتر وألفاظ المونولوج والديالوج، يستعملها حتى العوام بألفاظها دون حاجة إلى ترجمة، ودخلت إلينا أنواع كثيرة من الفن.

ودخل التأثير أيضا فى البناء والعمارة والمواصلات

مضى عهد الأهرامات والمسلات، وأتى عهد ناطحات السحاب والأبراج والفيلات. وبعد أن كان البناء بالحجر، أصبح بالحديد والأسمنت والخراسانة، وعرف الشرق أنساقا من البناء لم تكن معروفة. وأصبح هناك خبراء فى كل فنون البناء. المستشفيات منها لها تصميمات خاصة تتفق مع أغراضها الطبية، وكذلك المصانع والمدارس والمكتبات.

كذلك لاننسى التأثير الغربى فى المواصلات التى صارت شيئاً جديداً لم يعرفه الشرق من قبل. من الطائرة إلى القمر الصناعى إلى مركبات الفضاء. إن العالم فى كل ذلك يتعاون ويتسابق، ولا أقول أبداً يتصارع.

في الحضارات الحديثة كل دولة تنتفع بما وصلت إليه الأخرى، وتحاول أن تزيد عليها

نقول هذا في كل مجالات العلوم والمخترعات التي تزيد كل يوم . وكذلك في مجال الصحة العامة وما تصل إليه اكتشافات الطب والدواء والتسابق في خدمة الإنسانية ومعالجة الأمراض المستعصية، وتفادي الأوبئة، وإنقاذ ضحايا الكوارث الطبيعية.

الخلاف والصراع

ومع رقي الغرب في العلوم، فقد وجد خلاف بينه وبين الشرق في أمور أخرى:

فمن نواحي الخلاف والصراع المفهوم الخاطيء للحرية وسوء استخدامها:

ولهذا الموضوع فروع عديدة، لأنه بسوء استخدامهم للحرية أفسحوا المجال لانحرافات خلقية واجتماعية ودينية كثيرة.

والواقع أنه لاتوجد حرية مطلقة يفعل فيها الإنسان كل مايريد بلا ضابط.. إنما الإنسان حر بحيث لايتعدى على حريات وحقوق غيره، وبحيث لايكسر النظام العام ولا يخرج على القانون، وأيضا في حريته لا يكسر وصايا الله، ولا يشذ عن القوانين المرعية والاخلاق العامة . فلا يجوز لإنسان مثلاً أن يمشي عارياً في الطريق ويقول أنا حر.. أفعل ما أشاء! ولا يجوز له أن يغتصب ما لغيره ويقول أنا حر آخذ ما أشاء! ولا يجوز له أن يفقد أدبه في تعامله مع والديه، ويقول أنا حر أتعامل كما أشاء! ولا يجوز له أن يتعاطى المخدرات، ويقول أنا حر فيما أتعاطاه....

في الغرب وصل سوء استخدام الحرية إلى فساد الخلق وانتشار الشذوذ الجنسي...

ونحن لا ننكر أن الشذوذ الجنسي خطية يمكن أن تحدث في أي بلد، وبخاصة في المجتمعات المغلقة . ولكن الأمر العجيب هو أن ينتشر هذا الشذوذ في بلاد الغرب بكثرة لافتة للنظر، وأيضا في علانية وعدم حياء. فيعلن أولئك الشواذ عن أنفسهم أنهم شواذ Homosexuals سواء أكانوا شواذ بطريقة سلبية أو إيجابية.. وأحيانا يلبس ذلك الشاذ حلقاً في أذنه اليمنى أو اليسرى ليدل على نوعية شذوذه بلا خجل! وتنشر لأمثال هؤلاء صور في المجلات!

وأكثر شراً من هذا أن يجد أولئك الشواذ من يدافع عنهم في شذوذهم!

إما باسم الحرية، باعتبار أن كل شخص حر في أن يبحث عن متعته الشخصية بالأسلوب الذي يروقه! أو بأن كثيراً من هؤلاء قد ولدوا هكذا ، فالشذوذ جزء من طبيعتهم ومن تكوينهم الجسدي لا يلامون عليه.. ونحن نقول لهم إن كان الأمر خاصاً بخطأ عضوي في جسده، فيجب أن يعالج طبياً، وإن كان فساداً في خلقه، فيجب أن يؤدب ويقاد إلى التوبة..

ولكن على أي الحالات لا يجوز تبرير الخطأ، ولا يجوز للمجتمع أن يقره .

ولا يجوز لإحدى المحاكم أن تبيحه وتصرح به كما حدث في إحدى المحاكم بأمريكا التي أجازت زواج رجل برجل.. الأمر المشين والمخجل!!

وهنا يقع بعض الغربيين في مشكلة اجتماعية أخرى، في تعريف الأسرة وتكوينها .. فنحن في الشرق نعرف الأسرة بأنها علاقة شرعية بين رجل وامرأة في ظل الدين قد ينتج عنها نسل تثبت شرعيته أيضاً. ولكن هذا التعريف الواضح هو موضع نقاش في بعض بلاد الغرب، فقد تتكون الأسرة في نظرهم من اثنين مرتبطين لايشترط اختلافهما في الجنس . وهذا فساد واضح يجد من يدعو إليه!

أما من ناحية الارتباط الديني في الزواج، فقد وجد الزواج المدني ولا يشترط فيه دور رجل الدين في عقده.. وللأسف زحف هذا النوع من الزواج الى بلاد المشرق.. ووجد إلى جواره أيضا الزواج العرفي!

إن الشرق بطبيعته هو حارس للمبادىء والقيم

ويمكن فيه لرجل الشرطة أن يقبض على أي إنسان يرتكب في الطريق عملاً مخلاً بالآداب، كما يقبض على من يرتكب جرائم خلقية ولو في مسكن مغلق . ولكن الحرية في بلاد الغرب تسمح بأعمال نعتبرها في الشرق مشينة، يمكن أن تحدث في الطريق، ولا يعتبر مرتكبها مخطئاً. بل الذي ينظر إليه أو يلوم (حريته) هو المخطىء، فهذه من أموره الشخصية Privacies!!

ولذلك من الأمور العجيبة ليس فقط أن الشواذ يعلنون عن أنفسهم، بل أكثر من هذا أن يطالبوا لأنفسهم بحقوق كشواذ، يقرها المجتمع أو يجد من يدافع عنها. بينما في الشرق إن وجد شواذ، فانهم يخجلون من وضعهم ويستترون.

من مساوىء استخدام الحرية فى الغرب أيضاً، فقدان الآباء لسيطرتهم فى الأسرة، وكذلك الأزواج!

فقد يستخدم الأب حقوقه على ابنه أو ابنته إلى سن معينة، ثم بعد ذلك لا حقوق له.. وهنا فالعقوق يحميه القانون. وما أسهل تمرد الأبناء على آبائهم باسم الحرية.. وكذلك تمرد الزوجة على زوجها، بأسلوب لايمكن قبوله فى الشرق.

إن عبارة رب الأسرة التي تطلق على الزوج أو الوالد فى الشرق، تكاد لا تستعمل إطلاقاً في الغرب!

ومن هذا المنطلق ساد تفكك الأسرة إلى حد بعيد، وانتشر الطلاق وكثرت أسبابه، وأيضا باسم الحق وباسم الحرية..

وباسم الحرية انتشر الإدمان، وكثرت الأمراض الناتجة عن الفساد الخلقى.

وعلى الرغم من أن الغرب حازم جداً فى قواعد مرور السيارات، فإنه لا حزم له فى مرور التيارات الفكرية والقواعد الخلقية..

فكل إنسان حر فى أن يفكر كما يشاء، وأن ينشر أفكاره، وبلا ضابط. ومن هنا وجد الكثير من البدع. وحتى فى مجال الدين، كل إنسان فى الغرب له أن يعتنق مايشاء، وأن يفسر الدين كما يشاء. وهكذا وجدت عشرات المذاهب، ولعل من أهم المذاهب الجديدة التى وجدت فى أمريكا وانتشرت فى القرن العشرين.. شهود يهوه.. ويتبع هذا المذهب ملايين من الناس، ويدعون إلى مذهبهم فى كثير من بلاد الشرق أيضاً. كذلك مذهب المورمون، وله أتباع بالملايين أيضاً. وهيئاته منظمة جداً، وغنية. كذلك مذهب السبتيين الأدفنتست. وكلها مذاهب حديثة ظهرت فى أمريكا وانتشرت.

إن الشرق يتميز بأنه محافظ، بينما يقال عن الغرب إنه متحرر والبعض يحارب التحفظ بأسلوب مثير إذ يسمونه (الانغلاقية)! ولكن التحرر ليس معناه أن يتحرر الإنسان من القيم والمبادىء والأخلاقيات، وإلا فإنه يصل إلى التسيب وليس إلى التحرر. وبهذا يصل أيضا إلى الضياع واللامبالاة. أما القيم والأخلاقيات فإنها ليست قيودا على الحرية، وإنما هى ضوابط لها تحميها من الفساد الشخصى وإفساد المجتمع..!

لقد نشأ الوجوديون في بلاد الغرب ، وأرادوا أن يسلكوا حسب هواهم في كل خطيئة. ورأوا أن وصايا الله تقف ضد أهوائهم الخاطئة، فتمردوا على الله أيضا، وكأنما شعارهم هو «من الخير أن الله لا يوجد، لكي نوجد نحن» «فليبق الله في السماء، ويترك لنا الأرض نوجد فيها».

إن القيم ووصايا الله تشبهان شاطيء النهر

لا تحدان حريته، إنما تضبطان مسيرة، حتى لا تنسكب مياهه على الأرض وتحولها إلى مستنقعات. أترى من حق النهر أن يثور على شاطئيه ويعتبرهما قيودا على حريته..

وهنا أختتم مقالي هذا بأن أقول:

ليست الحضارة هي مجرد العلم والمخترعات التي تميز بها الغرب، إنما الحضارة أيضا في حفظ القيم والمبادئ. وتعريفنا للشعب المتحضر المتمدن، ليس فقط هو الشعب الذي أمكنه أن يستخدم كل الوسائل الحديثة التي تسهل الحياة وتعطيها رقيا اجتماعيا، إنما أيضا الشعب الذي يستطيع أن يحيا حياة راقية في روحياته، وفي ضبط النفس عن الانحراف وراء الهوى.

فالذي يستطيع أن يتحرر من الهوى الداخلي، ويتحرر من الخطية والعادات الخاطئة، هو بلاشك الذي يستطيع أن يستخدم حريته الخارجية بأسلوب سليم.

كذلك فإن الخطأ الذي ينتشر في المجتمع: إن لم نستطع أن نمنعه، فعلى الأقل لا نقبله ولا نشرعه..

وعلينا أن نحافظ على الجيل المقبل الذي يعيش في بلاد الغرب، ونعلمه معنى الحرية الحقيقية، ونحميه من أية انحرافات في المجتمع، سواء كانت انحرافات خلقية، أو انحرافات فكرية. وفي انبهاره بما وصل إليه الغرب من رقي في العلم وفي المخترعات والانجازات، عليه أن يضع أمامه باستمرار المثل والقيم، ورقي الإنسان من داخل قلبه وروحه. فالإنسان الداخلي هو الأهم، وهو الذي يريده الله تبارك اسمه..

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

«قصائد للصغار والكبار»

يقول الشاعر نصار عبد الله فى آخر قصيدة من قصائد هذا الديوان «إلى الشاعر الذى لم يعد يكتب إلا للصغار» :



«أنت الذى سمى الهزيمة بالهزيمة
واستدار لكى يقول العار عار !
أنت الذى نفض الغبار عن القلوب
فلم يجد غير الغبار !
أنت الذى رفع الستار عن الستار عن الستار
هتك الإزار فكان أن لا قبلة ترجى
ولا قدس يزار !!
أنت الذى ما عاد يكتب غير للأمل المؤمل فى الصغار
مازال يكتب للصغار لكى يطهرهم
من الجن التي صاغت ملامحها أكاذيب الكبار».

وكان حق هذه القصيدة أن تكون مقدمة للديوان ، ولكن الشاعر استبقاها إلى نهايته - كما يبدو - حتى لا يكشف اللعبة ، من أولها ، فقد عودنا الشعراء الذين يكتبون للأطفال أن يرشدوهم إلى حكمة الحياة من خلال قصصهم المنظومة - غالبا- على ألسنة الحيوانات ، وربما دسوا فى بعضها شيئا من النقد لأعمال الساسة أو أحوال المجتمع ، فهم دائما يسلكون إلى غرضهم طريقا غير مباشر ، يكسون الدرس الأخلاقى ثوب القصة ، أو يشيرون بالقصة الخيالية البادية السذاجة إلى وقائع يدركها الكبار دون الصغار ، أما نصار عبد الله فيستخدم القالب الشعرى

نفسه بطريقة معاكسة ، إذ يعبر صراحة عن حقائق يتجاهلها الكبار ، وقد لا يخطىء فهمها الصغار . وإذا كان ثمة معنى يخفيه وراء هذه اللعبة ، فهو أن سبيل الشعر ، الذي يقول الحقيقة ، لم يعد هو سبيل الشعراء في هذه الأيام .

هذا الديوان - إذن - يمكن النظر إليه على أنه محاولة لانعاش الشعر بالعودة به إلى لغة الفطرة بعد أن كاد يذبل في آنيته الزجاجية التي صنعتها الثقافة . فالشعر الحر الذي كان في انطلاقته الأولى تعبيرا عن وعي جديد بالحياة وتصور جديد لرسالة الشاعر ، لم يلبث أن اعتراه الخوف فانطوى علي نفسه يجسم أحلام الذات المعذبة ويأوى إلى غابات الرموز وهكذا أصبحت القصيدة لا تعنى غير نفسها ، ولا تستمد حياتها إلا بالنظر إلى مثيلاتها ، والنظر لا يغنى عن الحقيقة شيئا .

الشعراء هم الموكلون بإصلاح اللغة كلما فسدت . تتغير الأشياء وتبقى اللغة ، ومن ثم فإصلاح اللغة ، يعنى إعطاء الأشياء أسماءها ، والاسم نفسه يتغير معناه أو تتغير قيمته بتغير ما يطلق عليه ، وبذلك تتجدد اللغة . فاللغة لا تتجدد من تلقاء نفسها ، بل بتفاعلها المستمر مع الأشياء والقصيدة لا تتجدد بحوارها مع مثيلاتها ، بل بحوارها مع الحياة . قد تبدو القصيدة جديدة لأنها اصطنعت أسماء جديدة ، وهى نفس القصيدة القديمة وإنما ليست ثوبا آخر ، فقد استبدلت أسماء بأسماء ، لا علاقة لها بالحقيقة ، وقد تبدو القصيدة مجرد «معارضة» لقصيدة قديمة ، مع إنها قصيدة مختلفة ، لأن الأسماء اكتسبت معاني مختلفة .

● الأقوياء والضعفاء

تعال نتأمل معا هذه القصائد الثلاث التى أتحدت فى العنوان «الخيزران والبلوط» ، كما أتحدت فى الموضوع ، وهو المقارنة بين الأقوياء والضعفاء ولكن «توزيع الأدوار» بين الأقوياء والضعفاء فى المجتمع قد اختلف بين كل من الشاعرين الفرنسيين ، لافونتين فى القرن السابع عشر ، وجان أنوى فى النصف الأول من القرن العشرين ، والشاعر العربى نصار عبد الله فى زمننا هذا ، وبذلك اختلفت دلالة كل من البلوط الصلب الشامخ والخيزران اللدن القمىء فبلوط لافونتين يسخر من خيزرانه الذى ينوء بحمل عصفور صغير ، وينحنى إذا لامسته أى ريح ضعيفة ثم يدعوه إلى أن يأتى ليعيش فى ظله ، متمتعا بحمايته . ولكن الخيزران راض بحاله ، فاذا كانت الطبيعة قد حرمته القوة ، فهى أيضا لم تحوجه الى استعمالها ، وها هو ذا لايزال فى مكان ،

تهب عليه الريح فينحنى حتى تعبر وينتهى أمرها ويظل هو باقيا ، وبينما هما في حوارهما إذ بريح شديدة قادمة من الشمال ، فتعصف بالبلوط وتقتلعه من جذوره ، ويبقي الخيزران الذى قابلها بالإنحناء . ذاك عصر بدت فيه العلاقة بين الطبقات ثابتة قد قررتها الطبيعة أو قررها الله ، ولكن الحكمة الإلهية قد جعلت لكل طبقة فضيلتها الخاصة ، وألزمت كل فرد حدود طبقته ، فكانت الحكمة التي علمها الشاعر للصغار والكبار هي ألا يفتر قوى بقوته ، ولا يأسى ضعيف لضعفه . أما جان أنوى الذى نشأ فى أوربا بين حربين طاحنتين ، ورأى تقلب الحظوظ بالأفراد والجماعات ، وشيوع النزعة الفردية التي جعلت «الذات» محور كل شيء ، ومشاعر الذات بديلا من الفضائل ، فيهزأ – على لسان البلوط – بالقصة القديمة البالية ، فهو يعرفها جيدا ، ولكنه لم يعد يرى فيها إلا دعوة للخضوع ، وهو يرفض أن يكون الخضوع فضيلة للبشر – هل خضع الفرنسيون لجحافل النازى حين اجتاحت أرضهم ؟ – والخيزران نفسه لا يتحدث عن الانحناء ، بل يزعم أن له طريقته الخاصة فى المقاومة: ونحن الصغار ، الضعفاء جدا ، الهزالى جدا ، الأذلاء جدا، الحذرين جدا ، الذين هم مهمومون دائما بحياتهم البسيطة ، أكثر قدرة مع ذلك على مقاومة كل عواصف العالم من بعض المغرورين الذين يتخيلون أنفسهم ضخاما! وعلى خلاف لافونتين ، لا يجعل أنوى موت البلوط ونجاة الخيزران نهاية القصة ، بل يجعل البلوط العملاق مصرا على تحديه ، حتى وهو يعاني سكرات الموت ، فهو ينظر إلى الخيزران الشامت ويقابل نظرته التى التهبت غلا – وكأنه لايزال يحسد البلوط على قيمته النبيلة ! – يرد عليه بابتسامة عليلة جميلة – قائلا : ورغم هذا فمازلت بلوطا .

● الزلزال والبلوط

يضيف نصار عبد الله فصلا جديدا إلى القصة ، فلايزال الحوار ممتدا بين البلوط والخيزران ، الخيزران – كما تتوقع– يثرثر مفتخرا بسياسته الحكيمة التى مكنته من البقاء فى أرضه ، وكأن شيئا لم يكن ، والبلوط فى غضبه يسب الخيزران لأنه هو – البلوط – يموت ميتة الرجال ، ولا يعيش عيشة الغوانى ، وهنا يذكره الخيزران بانه لم يعد يستطيع أن يفخر بنبل ولا فضيلة . (الكلب الحى خير من الأسد الميت !) فربما أصبح خشبه نيرا على قفا الثيران ، أو سريرا ينام عليه الفجور ! وهنا تتدخل فى الحوار شخصية ثالثة ، برزت من خلال حادث جديد غير

منتظر ، فقد قام زلزال دحرج البلوط
وعجن الخيزران ، وانفجر النجيل
ضاحكا:
إنى أنا المنتصر الوحيد فى النهاية
أنا الذى أهمله الكبار فى الحوار
ولم تشر إليه أسطر الحكاية»

مرة أخرى تغيرت علاقات القوى ، فلم تعد القوة تنفع ولا السياسة تشفع ، فهناك زلزال قادم يمكن أن يطيح بالجميع ، وعندئذ تعود الحياة إلى نقطة البداية ، حيث لا مجال لقوة ولا سياسة . هل هذه نهاية «متفائلة» أو «متشائمة»؟ أرى أننا تجاوزنا حدود التفاؤل والتشاؤم ، إنما هو صوت نذير ، وبما أن الناس لم يعودوا يسمعون لصوت النذير ، إذن فليأتهم النذير فى هذا الصوت الساخر ، وأن كانت سخريته تبطن تعليقا موجزا بليغا على حركة التاريخ .

وإلى هذا المعنى نفسه ، وبنفس الأسلوب الساخر إن كانت سخريته أشد إضحاكا وأشد مرارة ، تشير القصيدة الأولى فى الديوان ، «التيس والمرآة» ، وهي قصيدة قصيرة ، فلنستمع إليها كاملة :

«يوما ما
وقف التيس يحدق فى المرآة
فرأى التيس يحدق فى المرآة
هز التيس الرأس ..،
فهز التيس الرأس
ظن التيس بأن التيس الآخر يتحداه
ثار وهب وسب أباه ..
فثار التيس وهب وسب أباه
نطح التيس التيس
فانخلع القرن وشج الرأس

★★★

وقف التيس يحدق فى اللاشيء
فرأى .. لا شيء
تمتم لا بأس
قد فر التيس الرعديد أمام التيس الصنديد
لا بأس ....
حتى لو خلع القرن وشج الرأس

★★★

يا كل تيوس العصر
هذا ثمن النصر .. »

الخطاب هنا يعم العصر كله ، شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، فلم يعد فى وسع

أحد أن ينكر أن الكارثة - إن وقعت - لن تفرق بين شرق وغرب ، أو شمال وجنوب ، وربما كان الوقت قد حان ليتكلم النجيل ! فالبلوط المتجبر والخيزران السياسى قد اتحدا فى تيس لا ينطح إلا نفسه ، ولا يهلك إلا نفسه ، ولكن لا تحسبن أن للنجيل وطنا يعيش فيه آمنا وحده ، بعيدا عن صراع التيوس ، فالصراع - وهو سنة الحياة من قديم - قد قسم البشر فى كل مكان قسمين غير متكافئين : فاما أن تكون آكلا وإما أن تكون مأكولا ، وهنا أيضا تلعب التثنية الخادعة - على المستوي الأسلوبى - دورا مهما إذ توحى إلى القارىء أن كل واحد من الاثنين يمكن أن يحل محل الآخر ، حسب اختلاف الأحوال . فهل تملك - حقا - أن تختار ؟ هذه هى المعضلة ، فإذا لم يكن لنا بد من أن نختار بين هذين الطرفين - وهما فى الحقيقة متداخلان - فليس ثمة خيار :

خنزيران التقيا فى حقل
دخلا من نفس الباب معا
وارتقيا درجات البهو معا
ومعا طافا بجميع الأركان
هذا أول ما كان

التقيا
وارتقيا
واستقيا صدر الديوان
أصبح ما بينهما شبران
ولكن الفارق شتان
الأول خنزير خنزير
والآخر خنزير إنسان
الأول فى عينيه النظارة ،
وفى فمه السيجار
والآخر مشوى منه تشع النار
خنزيران التقيا ذات مساء
أو ذات نهار
دخلا من نفس الباب معا
وارتقيا درجات البهو معا
لكن حين انفض الحقل وآب السمار
فرق بين الخنزير وبين أخيه الخنزير مزاح الأقدار

★ ★ ★

قال الخنزير الآكل إذ أضناه التذكار
لابد لنا أن نختار
إما أن نأكل أو أن نؤكل
من ذا يملك ألا يختار
إلا الأحجار ..»

أنظر الي عمق السخرية فى هذين السطرين الأخيرين ، سخرية جعلت «المستحيل العادي» يقترب من «المستحيل العقلي» . فإذا كانت ظروف الحياة فى هذا الزمن تحتم علينا أن نختار بين أحد أمرين : إما أن نكون آكلين وإما أن نكون مأكولين ، فقد أصبح من المستحيل «عادة» أن نكون إلا واحدا منهما . ولكن هذه الاستحالة العادية جعلت الخيار ليس بخيار ، حين جعلتنا «مضطرين» إلى أن «نختار» ، أى أنها جعلتنا نجمع بين نقيضين يستحيل الجمع بينهما فى حكم العقل .

المستحيل العقلي

نصار عبد الله أستاذ للفلسفة ، يعرف جيدا الفرق بين المستحيل العادى والمستحيل العقلى ، ولكنه توريهما فى لغة شعرية سهلة يمكن أن يقرأها الأطفال ، ولكننى أحسبك تتساءل : هل أراد أن يحيرنا بين هذين الخنزيرين ، حين جعل «الخنزير الخنزير» في عينيه نظارة وفى فمه سيجار ، و«الخنزير الإنسان» مشويا تشع منه النار ؟ أم تراه خلط بين «الأول» و«الآخر» دون أن يقصد ذلك الخلط ؟

أنا لا أملك هنا إلا الحدس ، والمعنى الذى أحدسه – على تقدير أن الخلط مقصود – هو أن لفظ «الخنزير» لا يراد به مجرد الهجاء «الخنزير الخنزير» ، الذى يأكل ، هذا هجاء ، أما «الخنزير الآخر» ، الذى يؤكل ، بعد أن يشوى علي النار ، فهذا إنسان ، وتلك هى المأساة ، فليس فى أكل الخنزير شيء يثير الاهتمام (اذا أخرجنا الحكم الدينى من المسألة) ومن ثم يمكن أن يقال فيه شعر ، ولكن أكل الانسان (الخنزير) لأخيه الانسان ، كما يؤكل الخنزير ، هذه هى المصيبة !

★★★

المستقبل مطوى فى ظلمات الغيب ، ليس فى مقدور بشر أن يحدثنا عنه . يقول بعض الناس : العلم والتكنولوجيا سيحولان أحلام الماضى إلى حقائق . نقول لهؤلاء : الشعر وحده هو الذى يملك النبوءة ، في الحدود التي جعلها الله – أو جعلتها الطبيعة ، قولوها كيف شئتم – للانسان – ونبوءة الشعر – عندما يرجع إلى لغة الفطرة – بشير أو نذير. ■



منطق العنف

بقلم : د . مراد وهبه

«ما لم يوجد بعد هو الحق» . هذه العبارة ، التى افتتح بها هذا المقال ، مناقضة لعبارة هيجل في مقدمة كتابه «فلسفة الحق» حيث يقول :

«إن مهمة الفلسفة هى فهم ما هو كائن ، لأن ما هو كائن هو العقل . والبصيرة العاقلة التى تصالحنا مع ما هو واقعى تدور على إقرار أن العقل هو مثل زهرة فى صليب الحاضر ، ومن ثم فهو الذى يمكننا من الاستمتاع بهذا الحاضر»

ومعنى هذه العبارة أن هيجل يضع العقل في مستوى أفقى مع الواقع . وأنا أتفق معه ، ومع ذلك فأنا أفترق . الاتفاق من حيث أن العقل يتجه إلى إدراك الواقع. ولكن الافتراق هو في أن هذا الإدراك للواقع لا يبدأ من الواقع القائم ، ولكن من الواقع القادم ، أى الواقع المستقبلى ، أى لا يبدأ مما هو كائن ، ولكن مما سيكون . وهذه البداية مردودة إلى التمايز بين الإنسان والحيوان فى علاقة كل منهما بالواقع . فالإنسان ، فى نهاية أى عمل ، يصل إلى نتيجة كانت قائمة فى مخيلته عند بدء العمل . ومعنى ذلك أن نشاط الإنسان ينطوى على فكرة «الغاية» ، وأن فكرة الغاية تتجاوز الواقع من أجل العمل على تغييره .

الكائن والممكن والصراع بينهما

ومن هذه الزاوية فإن العبارة - مفتتح هذا المقال - تكشف عن مفارقة ، وأعنى بها أن الحقيقة لها علاقة عضوية مع ما هو ممكن وليس مع ما هو كائن . والنزاع قائم بين ما هو كائن وما هو ممكن منذ بداية الفكر الفلسفى . ففي الفلسفة اليونانية القديمة العقل هو الملكة العارفة التى تميز بين ما هو حق وما هو باطل ، من حيث أن الحقيقة هى شرط الوجود الواقعى . وبفضل هذه الوحدة بين الحقيقة والوجود الواقعى يعتبر الوجود أفضل من اللاوجود . فاللاموجود تهديد للوجود بل هو مدمر له .

أما أنا فأرى المسألة على عكس ذلك . فالوجود الواقعي أو الواقع القائم هو المهدد الحقيقى للاوجود، أى لما هو ممكن، أو لما سيكون ولهذا فعلى العقل أن يقيس الوجود باللاوجود ، أى يقيس الكائن بما هو ممكن . وإذا كان هذا المقياس مقبولا فإن ما سيكون هو البديل عما هو كائن .

وهكذا يتجاوز العقل الواقع القائم بمعنى أن العقل يتحرك مما هو ممكن إلى ما هو كائن . وهذه الحركة من شأنها أن تحدث تغييرا فى الواقع القائم من خلال الممارسة العملية . ولهذا فإن العقل عنيف، وبالتالى فإن العنف فعل عقلانى . ولكن ليس كل عنف عقلانيا فالعنف العقلانى هو الذى ينشد تغيير الواقع من أجل أنسنته ، أى يكون ، إنسانيا . وهذا هو العنف الإنسانى . وهو مضاد للعنف اللاإنسانى .

العنف الدموى والمواجهة المسلحة

فى بداية التسعينات من القرن التاسع عشر نشر المفكر الروسى بليخانوف مقالا بعنوان «السلطة والعنف» موجها ضد الفوضويين الذين يدفعون مفهوم العنف إلى حد العقيدة المطلقة . يقول : «إذا استعرضنا أية ثورة من ثورات القرن

التاسع عشر مثل ثورة ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ فليس أمامنا سوى سلسلة من أفعال العنف الدموى والمواجهة المسلحة . وقد ضللت هذه الأفعال الفوضويين . ويمكن ايجاز ضلال هؤلاء على النحو التالى «حيث أن العنف شائع فى كل الثورات فالإجابة بالعنف كاف وحده لتفجير الثورة» .

خطأ الفوضويين إذن هو فى تصورهم أن العنف كوسيلة لهدم النظام القديم قد استحال إلى عقيدة مطلقة كافية وحدها لإحداث الثورة ، ومن ثم يقرر الفوضويون أن استخدام العنف يلزم منه نجاح الثورة، وهذا المنطق الفوضوى هو منطق الأصوليين ابتداء من سبعينيات هذا القرن، وهو المنطق الذى يتصور العنف على أنه القوة المبدعة فى التاريخ .

فالأصوليون – فى المجال الدينى – هم ملاك الحقيقة المطلقة على نحو ما أرى فهم يمزجون المطلق بالنسبى ، والحقيقة الأبدية بالحقيقة العابرة ، وبذلك يدافعون – بعنف – عن حقيقة لا هوتيّة وكأنها رسالة أبدية فيعجزون عن التعامل مع الواقع القائم ، ليس لأنهم مجاوزون لهذا الواقع ، وإنما لأنهم يتحدثون عن وضع ماضوى فيمنحون مصداقية أبدية لرؤية نسبية. وفى هذا السياق يصبح الأصوليون – على تنوع مللهم ونحلهم – ممهدين لما اسميه «صراع المطلقات» .

صراع المطلقات

وصراع المطلقات لا تستقيم معه الدعوة إلى سلام العالم . فسلام العالم ليس ممكنا إلا بنفى ملكية الحقيقة المطلقة. وهذا النفي ليس ممكنا الا بنفى العلوم التي تزعم ملكية الحقيقة المطلقة. ذلك ان هذه العلوم تنفي مشروعية الرأى المخالف بدعوى انه مناف للحقيقة المطلقة. وهذه الدعوى مسايرة للمطلق من حيث انه لا يقبل التعدد والمفارقة هنا أن تعدد المطلقات مهدد للمطلقات.

ومن شأن هذا التهديد أن يقضى مطلق على باقى المطلقات، وهذا هو منطق المطلق اذا اريد به ان يحكم الواقع.

ومما هو جدير بالتنويه هو ان الأصوليين - على تنوع مللهم ونحلهم - ممولون من الرأسمالية الطفيلية، وهي رأسمالية محصورة فى تجار الخلسة في سوق الاستهلاك والوسطاء الذين يغرقون الأمة بسلع الترف المستوردة بالمشروع وغير المشروع، أو إن شئنا الدقة قلنا المستوردة بغير المشروع ليس إلا. ومحصلة العلاقة العضوية بين ملاك الحقيقة المطلقة والرأسماليين الطفيليين تدمير حضارة الإنسان . وهذا هو منطق العنف اذا تلامس العنف مع المطلق فى المجال الدينى .

أقوال معاصرة



الاميرة ديانا



شيمون بيريز



البرتو سوردى

● «لن أذهب فى هدوء»

الاميرة ديانا زوجة الأمير تشارلز ولى عهد انجلترا

● «التعصب القومي والديني رافدان لظاهرة الأصولية التي ترجع الى حالة الاغتراب السائدة الآن»

المستشرق الألمانى استيفان وايلد

● «فى وسع أى ممثل موهوب أن يكون مخرجا، ولكن ليس فى وسع أى مخرج موهوب أن يكون ممثلا»

الممثل والمخرج الإيطالى البرتو سوردى

● «البوسنة ليست حربا . فلا هى فيتنام ، ولا هى الصومال ولا هى لبنان!!

ريتشارد هولبروك مساعد وزير الخارجية الأمريكية

● «كثير من الناس يعتقدون إنهم رسل الله، فى حين إنهم رسل الشيطان»

شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل

● «حصلت المرأة في مصر على كل حقوقها القانونية، ومع ذلك يلاحظ إنها تمتنع عن ممارسة تلك الحقوق»

السفيرة المصرية ليلى عمارة

● «القتل أبشع أسلوبا من الرقابة»

المسرحى الانجليزى هارولد بنتر . تعليقا على على اعدام المسرحى النيجيرى كن ويوا

● «اذا كنت عاشقا حقا للعمل الذى تقوم به . فحياتك تصبح خارج الزمان»

عارضة الأزياء الامريكية كارمن

● «الثورات الاجتماعية يقوم بها الفقراء ، والمحرومون من العدالة لا الذين يعيشون مستمتعين بالرخاء»

المؤرخ الانجليزى ايريك هوبز بوم

السيرة الذاتية والصدق مع النفس

بقلم : د. محمود الطناحى

كتب الأستاذ صلاح عيسى فى عدد الهلال «مايو ١٩٩٥» كلمة ، جعل عنوانها : «السِّيرة الذاتية ، السؤال الذى لم يجب عنه أحد» ، وقد عرض فى هذه الكلمة لقلة كُتب السِّيرة الذاتيّة فى المكتبة العربيّة ، وردّ هذا إلى أننا «نحن العرب نعيش فى ظلّ منظومة معلنة من القيم الخلقية الاجتماعية تتصف بالتزمت ، ونتظاهر جميعا باحترامها ، مع أنها تتناقض عادة مع منظومة القيم الخلقية الفردية التى يؤمن بها كلٌّ منّا ، ويمارس حياته على أساسها ، ومع ذلك فهو يحرص على أن يقدّم نفسه للآخرين فى الصورة التى تكفل رضاءهم عنه، بصرف النظر عن حقيقته ، حتى أصبح ذلك قاعدة يقننها المثل الشعبى الذى يقول : «كل ما يعجبك والبس مايعجب الناس» ، ثم استطرد بعد ذلك إلى صور من النفاق الاجتماعى ، قال عقبها : «وهذا هو الذى جعل الأدباء والسّاسة العرب يعزفون عن كتابة سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما جان جاك روسو اعترافاته» .

وهذا كلام يردده الناس كثيرا ، ويعجبون به ، ويرضون عن قائله ، لكنى قبل أن أستطرد إلى مناقشته وبسْطه والزيادة فيه أحبّ أن أوضّح أنّ المثل الشعبى «كل مايعجبك والبس مايعجب الناس» ليس كما فهم الكاتب الفاضل مُسوِّغا «ولاتقل مبرراً» للنفاق الاجتماعى ، وإرضاء الناس ليس غير ، وإنما معناه عندى : أن يحرص الإنسان فى ملبسه على رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العرف الاجتماعى ، وإن لم يصح هذا الفهم والتفسير يكون الكلام ساقطا لا محالة ، لأن إنساناً مهما جهد واجتهد لايستطيع أن يلبس لباساً يرضى كلُّ الناس .

● مثل قديم

وقد ذكر هذا المثل أحمد باشا تيمور ، فى كتابه الأمثال العامية ، صفحة ٤٠٤ ، وقال فى تفسيره : «لأن ما تأكله تابع لشهوة نفسك ، وأمّا ما تلبسه فالمراد به التزين للناس ، فليكن على مايعجبهم» وأرى أن أحمد تيمور قد قصّر أيضا فى بيان حقيقة معنى هذا المثل ، حين أغفل قضيّة رعاية الذوق العام ، وعدم مصادمة العرف الاجتماعى ، وهما المقصد والغاية من هذا المثل .

فائدة : قد يظن بعض الناس أن هذا المثل الشعبى «كل مايعجبك والبس ما يعجب الناس» مثل معاصر ، أو قريب من المعاصرة ، والحقيقة أنه كلام قديم ، عُمره نحو «١٤٠٠» سنة ، فهو من كلام أبى عمرو بن العلاء ، إمام العربية ، وأحد القراء السبعة ، المتوفى «١٥٤هـ» ، مع اختلاف فى بعض العبارات ، فقد روى أنه نظر إلى بعض أصحابه وعليه ثياب مُشْهِرة ، فقال : «يابُنَىّ ، كل ما تشتهى والبس ما يشتهى الناس» والثياب المُشْهِرة : الفاضحة المفضوحة ، وقد نظم هذا المثل بعض الشعراء القدامى ، فقال :

إن العيــــون رمتْك مذْ فجأتها ... وعليــــك منْ شُهر اللبــاس لباسُ
أمّا الطعامُ فكُلْ لنفسك ما اشتهتْ ... والبسْ ثيابك ما اشـــتهاه الناسُ

انظر المثل والشعر فى لطائف الظرفاء ، للثعالبى ص ٥٢ ، وبهجة المجالس ، لابن عبد البر ٢/٥٨ ، والكشكول ، لبهاء الدين العاملى ٢/٤٠٤

★★★

ثم لنعد إلى مافتحه أمامنا الأستاذ صلاح عيسى ، فأقول : إن حبّ النفس مركوز فى الطباع ، ثابت فى أصل الخلقة ، فطرة فطر الله الناس عليها ، يستوى فيها العربىّ والعجمى ، ولا بأس على الانسان أن يستر عيوب نفسه ، مادام ذلك الستر لايضرّ غيره بإبطال حق أو إحقاق باطل، وما أصدق كلمة الأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله «إنى لا أكذب ولكن أتجمل» فالتجمل مطلوب ، أما الكذب فمرفوض ، ومن أسوأ مظاهر الكذب : الكذب مع النفس ، بأن يطوى الإنسان نفسه على شىء ، ويقابل الناس بشىء آخر ، وهو داء معروف فى كل الأزمان والعصور ،

لكنه زاد في أيامنا هذه ، لأسباب ودواع كثيرة ، يعرفها الناس ولايجهلونها .

على أن بعض الناس قد يتظاهر بأنه يجرى فى طريق الإنصاف وهَضْم النفس ، فيزعم أنه يعرض على الناس شيئًا من عيوبه ومساويه ، ولكنه يترفّق فى ذلك ترفقا واضحاً ، بل إنه يخادع ، فيقول : إن من أشدّ عيوبى الثقة الزائدة بالناس ، أو إن من مساوئى التفريط فى حقوقى ، وبذل حبّى لمن لايستحقه من الناس ، وهذه كلها ضروب وألوان من خداع النفس ، لأنه كلامٌ صدره ذكر العيوب والمساوىء ، وعَجُزه ضارب فى مدح الذات بعروقه ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما يقول سادتنا البلاغيون ، ولعلّ كثيراً من السِّير الذاتية التى نقرأها فى هذه الأيام من هذا الباب ، فضلاً عما فى بعضها من ثلب للآخرين وتجريحهم .

على أننا لاننتظر ممن يكتبون سيرتهم الذاتية أن يكشفوا لنا عن عيوبهم الفاضحة ، ويطلعونا على عوراتهم ومساوئهم القادحة ، لأن هذا يصادم موروثاتنا الدينية وأعرافنا الأخلاقية ، ثم إنه من النَّبالة والمروءة أن تسكت أنت عن ذكر سوءاتك ، ويسكت الناس عن ملاحقتك واستنطاقك بما تكره ، وفى هذا وذاك نعود إلى موروث دينى :

فمن الأول : ما أخرجه مسلم فى صحيحه «باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه من كتاب الزهد والرقائق» من حديث أبى هريرة ، يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كلُّ أمتى مُعافاة إلاَّ المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ، ثم يُصبح قد ستره ربُّه ، فيقول : يافلان ، قد عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيبيت يستره ربُّه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه» صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٢٩١ .

ومن الثانى : ما أخرجه أحمد فى مسنده ، من حديث أبى برزة الأسلمىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ، ولاتتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته» مسند أحمد ٤٢١/٤ ، وأخرجه مرةً أخرى من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلفظ : «لاتؤذوا عباد الله ولاتعيّروهم ، ولاتطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته» مسند أحمد ٢٧٩/٦ .

أما مايطلبه الأستاذ صلاح عيسى ، من أن يكتب العرب سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما «جان جاك روسو» اعترافاته ، فهذا ليس عدلا ، وليس إنصافا ، مع مافيه من إغفال للموروث الدينى ، فجان جاك روسو ومن إليه من

سائر القوم يرجع إلى بيئة مختلفة عن بيئتنا ، وأعراف اجتماعية مباينة لأعرافنا، وموروث ديني يغاير موروثنا .

وليس يخفى أن مصطلح «الاعترافات» عند القوم له دلالة خاصة ترتكز على أساس ديني ، وتتطلب اجراءات ووسائط يعرفها الناس ، أما في موروثنا الديني فالأمر في غاية اليسر والسهولة ، فما عليك إلاّ أن تكاشف نفسك في لحظة صدق ، وحدك منفردا ، تبسط أخطاءك وخطاياك أمام عينك ، ناويا البراءة منها ، والخلاص من أثقالها ، طالباً من ربك ـ ليس بينك وبينه حجاب ـ العون على تجاوزها ، معاهداً له على عدم العودة إليها ، فإذا صح منك العزم واستجبت للبراءة والتوبة في ظاهر أمرك وباطنه ، خرجت من ذنوبك كلّها كيوم ولدتك أمّك ، وليس للناس بعد ذلك حاجة في أن يعرفوا ما كان منك وماصرت إليه ، فحسبهم منك الوجه الطيب والعمل الزاكي .

★★★

ويبقى في كلام الأستاذ صلاح عيسى ماينبغي الوقوف عنده ، والاحتفال به ، وهو «الصدق» فيما يكتبه الناس من سيرهم الذاتية .

والصدق فضيلة الفضائل ، وعنوان الشرف والكمال ، به يسمو الإنسان أمام نفسه ، وعليه يعظم في أعين الناس وإليه يعود صلاح المجتمع ، وجاء في الأثر : «الصادق يعطى ثلاث خصال: المَلْحة والمحبّة والمهابة» والمَلْحة بضم الميم وسكون اللام: البركة يقال: كان ربيعنا مملوحا فيه : أى مخصباً مباركا ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ٣٥٤/٤ ، وروى شبيهه عن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط ، قال : «للصادق ثلاث خصال : الحلاوة والملاحة والمهابة» سير أعلام النبلاء ، للذهبي ١٧٠/٩

وبعض الذين يكتبون سيرهم الذاتية يستطردون مع شهوة الحديث عن النفس إلى ذكر محاسن ومآثر لهم ، في مواقف ووقائع ، يضخمونها وينفخون فيها ، غير مدركين أن هناك من الناس من شهد هذه المواقف ، وعاش تلك الوقائع ، وغير متنبهين إلى أنهم ربما نقضوا كلامهم ذلك في مكان آخر مما كتبوه في سيرهم الذاتية أو في غيرها ، فكان واجباً عليهم أن يتذكروا هذا المثل الحكيم من أمثال العرب «إن كنت كذوبا فكن ذكورا» ، ويروى «كن ذكورا إذا كنت كذوبا» مجمع الأمثال للميداني ٧٤/١ ، ١٧٣/٢ ، وقد نظمه شاعر فقال :

تكذب الكذبة جهلا ... ثم تنساها قريبا
كن ذكوراً للذى ... تحكى إذا كنت كذوبا

جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكرى ٢/٣٩٦

***

وأعلى مراتب الصدق : الصدق مع النفس ، ومظاهر الصدق مع النفس كثيرة ، وجماعها ألاّ يخالف الظاهر الباطن ، وألاّ يصادم السرُّ العلن .

ويقرأ الناس في تراثنا ، على اختلاف علومه وفنونه ، كلاماً كثيراً ، منظوماً ومنثورا ، عن الصدق وفضائله ، في نصوص عالية موثقة ، لكنها تظل نصوصا مجردة ، يصدقها من يصدقها ، ويكذبها من يكذبها ، وتبقى ممارسات الناس وحدها شاهداً ودليلاً على التزامهم أبواب الصدق ، وتحريهم وجوهه ودروبه .

● الجزئى دون الكلى !

وهذه الممارسات مطروحة فى كتب التاريخ : تراجم وأحداثا ، وفى كتب الأدب والأخبار ، بل فى سائر ما كتبه العرب فى علومهم المختلفة ، ومن المؤسف أن هذه الممارسات التى تمتلىء بها كتبنا ومعارفنا لايقف الناس الآن عندها كثيراً بحُسْن التأمل والنظر ، بل إنها عند بعض الناس ألوان من النوادر والمسامرات التى تستخرج الضحك ليس غير ، بل إن بعضهم قد يُسرف فى «التفلسُف» فيرى أنها ممارسات مصنوعة ، فى أخبار يراد بها إضحاك الخلفاء والملوك ، للحظوة عندهم وأخذ عطاياهم ، وأن هذه الممارسات والأخبار إن صدقت فهى لاتخرج عن اهتمام العقل العربى بالجزئى دون الكلّى ، وهو كلام قد مللنا من الردّ عليه ، وهو فى جملته لايدلّ إلاّ على عدم المعرفة بكتبنا وتاريخنا .

ولو أردت أن أكتب لك أيها القارىء الكريم ما وقفت عليه من هذه الممارسات المطروحة فى الأخبار ، لاحتجت إلى مجلدات وأسفار ، فحسْبى أن اجتزىء هنا ببعضها ، لكن لى عليك أيها القارىء العزيز شرط واحد : هو أن تعطى هذه الأخبار حظّها من التأمل والتدبرّ ، وأن تتنبّه لذلك الخيط الذى يربط بينها ، وسيُفْضى بك هذا الخيط - إن شاء الله - إلى روح هذه الحضارة العربية القائمة على الصراحة والوضوح ، وشرط آخر : ألاّ تظن أنى أريد أن أسليك أو أضحكك بهذه النوادر ، وإن كنت أدعو لك أن يُضحك الله سنك ، ويبسط أساريرك .

وبعض هذه الأخبار مماّ وعتْه صدورُ الرُواة من عربيّة الجاهلية ، وكثيرا منه من عربية الإسلام

وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة ، وصورها شتىّ ، فإن أولاها بالعناية وأحقها بالتأمل : مايتصل منها بالاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، والإنصاف فى الحكم ، ولو كان مما يجرّ إلى الانتقاص من النفس ، وهو مايسميه

الناس الآن : الموضوعية ونقد الذات.

ومن أقدم ماعُرف من صور الإنصاف في تاريخنا الأدبي ، مايسمى في تاريخ الشعر بالمنصفات ، ويسميها الجاحظ «الأشعار المنصفة» البيان والتبيين ٢٣/٤ ، والأشعار المنصفة : «هي القصائد التي أنصف قائلوها أعداهم فيها ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرّ اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء» خزانة الأدب للبغدادي ٢٢٧/٨.

فالشاعر المنتصر لايغرّه انتصاره فُينسيه مارآه من عدوّه من بسالة في الطعن والضرب والرمي ، فهو يزهو بانتصاره ، لكنه يعترف لعدوّه بالثبات والجلد ، وهذا هو خلق الفرسان ، وقد جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي ستّ قصائد من هذه الأشعار المنصفة ، ثم ضم إليها بعض المقطوعات الشعرية في الإنصاف ، وقدّم لذلك كلّه بشيء من الدراسة التحليلية لهذا اللون من الشعر العربي ، وقد صدر هذا العمل عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٦٧م أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا منه الكثير مكتوبا في أخبار ، وممارساً في وقائع ، واكتفي هنا بخبرين من تاريخ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الأول من رسالته الشهيرة في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو على قضاء البصرة ، وفيها يقول : لايمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحقّ ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» الكامل للمبرد ٢٠/١.

فهذا خبر عن عمر ، في الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، ثم تأتي ممارسة عمر نفسه تصديقا له في ذلك الخبر الذي يرويه المفسرون في سياق تفسير الآية «٢٠» من سورة النساء ، وأصحاب السُنن في أبواب النكاح . فقد رُوي أن عمر خطب يوما فقال : «لاتغالوا صداق النساء ، فإنها لو كانت مُكْرَمةً في الدنيا أو تقوى عند الله ، كان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية وإن الرجل ليُثقل صدقة امرأته «أي مهرها» حتى يكون لها عداوة في نفسه» ، فقامت إليه امرأة، فقالت : ياعمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول :

(وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) فقال عمر : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر ، وفي رواية : «فأطرق عمر ، ثم قال : كلّ الناس أفقه منك ياعمر!» ، وفي أخرى : «امرأة أصابت ورجل أخطأ ، وترك الإنكار» تفسير القرطبي ٩٩/٥ ، وسنن ابن ماجه (باب صداق النساء ، من كتاب النكاح) ص ٦٠٧ ، والمصنف لعبد

الرزاق بن همام الصنعانى (باب غلاء الصداق ، من كتاب النكاح) ١٧٥/٦ .

★★★

وهذا باب آخر من أبواب صدق النفس ، وهو الصبر على تلك الأجوبة المسكتة التى يواجه بها مشاهير الرجال ، من أوساط الناس وضعفائهم ، وفى تلك الأجوبة أحيانا ما يكون مثل لذع النار أو نهش الأفاعى ، يصبر لها كبار النفوس ، لأنها تردهم إلى الحق ، وتعيدهم إلى الصواب ، وبعض من ذلك يسميه الناس الآن : الديمقراطية ، يكتب الناس عنها كثيرا ، ويمارسونها قليلا .

ومن ذلك مارواه الزمخشرى ، قال : حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء (أى الرواتب) فقام إليه رجل حميرى ، فقال : أصلح الله الأمير ، اتخذ جُندا من حجارة لاياكلون ولايشربون ! قال عمرو : اسكت ياكلب ، قال : إن كنت كذلك فأنت أمير الكلاب ! فأطرق عمرو ، وأخرج أرزاقهم (أى رواتبهم) ربيع الأبرار ٦٩٠/١ وحدث محمد بن حبيب ، قال : أخبرنى ابن الاعرابى ، قال : شهد أعرابى عند معاوية بشهادة ، فقال له : كذبت ! فقال الأعرابى : الكاذب المتزمل فى ثيابك ! فقال معاوية وتبسم : هذا جزاء من عجل . الهفوات النادرة للصابى ص ٢٥٥ ، وربيع الأبرار ٦٦٥/١.

وروى عن الفرزدق أنه قال : مااستقبلنى أحد بمثل ما استقبلنى به نبطى ـ والنبط : جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق ، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم ـ قال : أنت الفرزدق الذى يمدح الناس ويهجوهم ويأخذ أموالهم ؟ قلت : نعم قال : أنت فى الكنيف من قدمك إلى أنفك ، قلت : لم حاشيت العينين ؟ قال : حتى ترى هوان نفسك ، يقول الفرزدق : فبهت ، ربيع الأبرار ٧١٦/١ .

وروى عن الجاحظ ، قال : «ما خجلتنى إلا امرأة ، حملتنى إلى صائغ ، فقال : مثل هذا ، فبقيت مبهوتا ، فسألت الصائغ ، فقال: هى امرأة استعملتنى (أى طلبت منى أن أعمل) صورة شيطان ، فقلت : لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك ، فقالت : مثله» أى اصنع مثله . ربيع الأبرار ٨٥٣/١ ، ومعلوم أن الجاحظ كان دميماً قبيح الوجه .

● صحة العقل

وروى أن المحدث الجليل سفيان بن عيينه بكى يوما ، فقال له يحيى بن أكثم : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : بعد مجالستى أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بليت بمجالستكم ! فقال له يحيى ـ وكان حدثاً ـ : فمصيبة أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من مصيبتك ! فقال : ياغلام ، أظن

السلطان سيحتاج إليك ، ربيع الأبرار ٦٦٩/١ ، ويريد سفيان أن يصف يحيى بصحة العقل حين أحسن الدفاع عن نفسه وعن أبناء جيله ، ثم ردّ الملامة عليه ، وأن مثله جدير بأن يتخذه السلطان عوناً وسندا ، وفي رواية أخرى أن يحيى بن أكثم حين سمع هذا الكلام من سفيان بن عيينة قال له: أتنصف يا أبا محمد ؟ قال : إن شاء الله ، قال له : والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشدّ من شقائك بنا ، فأطرق وتمثل بشعر أبي نواس :

خـــل جنبيك لرام وامضـــي عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك مـــن داء الكلام

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩٣/١٤.

وقد ألف غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي المتوفى (٤٨٠ هـ) كتابا سماه «الهفوات النادرة» جمع فيه أخباراً عن سقطات الناس وأخطائهم التي أوقعتهم فيها الغفلة وسوء التقدير ، وكان أول خبر يورده من ذلك ماوقع فيه هو نفسه، يقول : «فأول ما أبدأ به ماخصني منه ، وهو أنني كنت جالساً وإلى جانبي أبو سعد القادسي ، أحد المتفيهقين المتشدقين ، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسفين ، فقلت مسرعاً متبرما : إنه ليشبه ابن القادسي فيما يتعاطاه ، مما يتجاوز فيه الصواب ويتخطاه ، ثم استيقظت من رقدة زلتي ، وانتبهت لهفوتي ، ثم ذكر بعد ذلك استدراكه على هذا الخطأ بتوجيه القول بعيدا عن ابن القادسي" .

ولم أر في أبناء هذا الزمان من يكثر من الاعتراف بخطئه ، والتنويه بمن دله على وجه الصواب ، من شيخنا أبي فهر محمود محمد شاكر ، وهو كثير عنده ، ومنه ما ذكره في المستدرك بآخر كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ، للمقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ) ، فقد صحح ماورد في ص ٢١٦ من الجزء الأول ، من قوله : «لم أجد ذكر أبي عامر الفاسق في حديث بعد خبره يوم أحد، إلا خبر موته عند هرقل ، وذلك عام حجة الوداع» فقال في الاستدراك : «وهذا خطأ مني ، فيه نسيان وعجلة ، إذ ليس يخفى خبر أبي عامر الفاسق في أمر مسجد الضرار» ، فلم يكتف بنسبة الخطأ إلى نفسه حتي ضم إليه النسيان مقروناً بالعجلة ، وهذا منهج شيخنا في كتاباته كلها ، وفي تحقيقاته أيضا ، وإنما ذكرت هذا المثال بعينه ، لأن كلام شيخنا هذا كان في سن الشباب ، وهو زمن الخيلاء والتيه ، فقد صدر الجزء الأول من كتاب المقريزي سنة ١٩٤٠م .

نواصل في العدد القادم كلام الناس ، وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم .

الخصوصية الإسلامية
للاستخلاف فى الثروات والأموال

بقلم : د. محمد عمارة

فى البعد الاجتماعى لنظرية الاستخلاف الإسلامية ، تكون الملكية الحقيقية - ملكية الرقبة - فى الأموال والثروات لله ، سبحانه وتعالى .. فهو خالقها ومالكها وهو المفيض لها فى الطبيعة ، نعما مسخرة للإنسان .. وللإنسان ، كإنسان ، فى هذه الأموال والثروات ملكية خاصة .. ملكية المنفعة ، يحوز .. ويستثمر .. ويتمتع ، من الحلال ، وفى الحلال ، ومع التوسط والعدل - دونما إسراف - وذلك وفق بنود عقد وعهد الاستخلاف .. فكما استخلف الله الانسان «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة» أخبره بأنه مستخلف فى الأموال والثروات «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير» .

وبهذه الفلسفة الإسلامية المتميزة فى القضية الاجتماعية ، تميزت مضامين العدل الاجتماعى فى الإسلام عن المذاهب التى غالت فى الفردية ، والأخرى التى غالت فى قهر الفردية .. فلقد توسط الإسلام ، فلم يجرد الإنسان من حق الملكية للثروات والأموال .. وأيضا لم يرفع الضوابط عن حريته فى التملك والتصرف.. وإنما وقف بهذه الحرية عن «حرية الخليفة» المحكومة بإرادة وأوامر ونواهى المالك الحقيقى للأموال والثروات ، سبحانه وتعالى .

وفى معرض الإشارات إلى هذه الوسطية الإسلامية الجامعة بين الملكية الفردية وبين المصلحة العامة .. بين الفرد والطبقة والأمة فى إطار عدالة الإسلام - دين الجماعة - نبه علماؤنا على دلالة إضافة القرآن لفظ «المال» إلى ضمير «الجمع» فى سبع وأربعين آية ، وإلى ضمير «المفرد» فى سبع آيات .. ودلالة



ذلك على مذهب الإسلام فى التكافل الاجتماعى ، الذى تتأسس على قواعده العدالة الاجتماعية الإسلامية .. وقالوا إن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن ينبه بذلك على «تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول : «إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم» ! .. وقالوا فى تفسير آية الاستخلاف فى الأموال «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» .. إن مراد الله هو أن يقول للناس : «إن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله ، بخلقه وإنشائه لها ، وإنما نولكم إياها وخولكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى أموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها .. وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره» .

☆☆☆

وهذا العدل الذى يبلغ به الإسلام إلى حيث يجعله اسما من أسماء الله الحسنى.. يرى علماؤنا أنه المراد «بالأمانة» التى حملها الإنسان دون المخلوقات «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» .. فقالوا إنها أمانات الأموال والعدل بين الناس فيها .. قد جعله القرآن الكريم من معايير وجوب طاعة الأمة لولاة أمرها أو سقوط هذه الطاعة فى التعاقد الدستورى بين الأمة وولاة أمورها «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» .

وهو فريضة عامة وشاملة .. فرضها الله ، سبحانه وتعالى ، حتى على المعصوم، صلى الله عليه وسلم : «فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم» .. تبدأ ميادينه من العدل مع النفس والبعد عن ظلم الإنسان حتى لنفسه .. «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى

أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا» .

وحتى هؤلاء «المستضعفين» فرض الله على القادرين الجهاد لتحريرهم من الاستضعاف «ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا» .

وتمتد فريضته - العدل - من ميدان «النفس» و«الذات» إلى ميدان الأسرة - لبنة الاجتماع والأمة - من بر الوالدين .. إلى العدل بين الأبناء .. «أعدلوا بين أبنائكم» .. حتى يشمل كل ميادين الحياة .. «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» .. ففي كل ألوان الحكم وميادينه .. ومع الأهل .. وفي كل الولايات، يجب إقامة العدل والقسط بين الناس .

بل لقد امتد الإسلام بآفاق فريضة العدل لتشمل «العدو» بعد أن شملت «الأولياء» .. فللأولياء «النصرة» - أي الإعانة - أما «العدل» فهو واجب حتى مع الأعداء «ياأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» .

☆☆☆

وأمام هذا المنهاج الإسلامي في العدل الشامل ، تبرز المفارقة الشاذة بينه وبين الواقع المعاصر للمسلمين .. فغير النهب الاستعماري لثروات الأمة ، والذي يمثل خللا فاحشا في عدالة العلاقات الاقتصادية بين البلاد الإسلامية وبين مراكز الهيمنة والاستغلال الغربية .. نجد الخلل في موازين العدل داخليا ، وبين أبناء الأمة أيضا .. فعندما يتفاوت دخل الفرد عبر دار الإسلام ، فيكون لدى مسلم مائة دولار ، ولدى مسلم آخر ثلاثة وعشرون ألف دولار ؟! .. وعندما تدفع الفاقة قطاعات من المسلمين فيتخلون عن إسلامهم لقاء رغيف خبز أو جرعة دواء؟! .. بينما تدفع التخمة ودولة المال شريحة من المترفين إلى حياة يتخلون هم فيها أيضا عن حقيقة الحياة الإسلامية ؟ .. وعندما تتسول الأمة غذاءها ، فتفقد لذلك كرامتها واستقلال إرادتها وتستورد أغلب ماتستهلك ، تاركة موادها الخام تنهب بأرخص الأسعار ، معطلة بذلك ملكات الزراعة والصناعة بين أبنائها ، ومشيعة

البطالة فى صفوف ملايينها ؟ .. على حين تستلب من أثريائها الفوائض النقدية ، بالترغيب وبالترهيب لتحاصر حينا .. وتجمد حينا آخر .. ولتوظف فى دعم الأعداء فى كل الأحايين ؟ وعندما يحال بين الأمة وبين صناعة سلاحها .. ويطلب منها التخلى عن عقيدة الجهاد - بل وحتى مصطلحه - ثم يفرض عليها استيراد السلاح بأرقام فلكية ، شريطة ألا تستخدمه ضد أعدائها، وأن يكون وقودا فى منازعاتها الداخلية المصنوعة والمصطنعة ؟

أمة جسد واحد

عندما تكون هذه بعضا من جوانب الصورة الاجتماعية للأمة .. الأمة التى أرادها الله بالتكافل الاجتماعى ، جسدا واحدا ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. والتى أراد الله لعزتها أن تكون من عزته ، سبحانه ، وعزة رسوله ، عليه الصلاة والسلام «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .. فإننا نجد أنفسنا أمام فريضة إسلامية معطلة ، هى فريضة العدل الاجتماعى ، وعلى الأمة الجهاد لإقامتها وأمام مظالم اجتماعية يورد بقاؤها الأمة موارد الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة .. فرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : «أيما أهل عرصة - مجتمع .. أو قرية .. أو حى - أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى » .. وهذا هو الواقع الظالم الذى يعيشه ملايين المسلمين اليوم .. جماهير معدمة .. وقلة مترفة ، يكرس ترفها أغلال الاستضعاف «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» .. وهذا الاستقطاب الاجتماعى الحاد يهدد وجود الطبقة الوسطى التى تمثل العمود الفقرى للتوازن الاجتماعى ولتوحيد الأمة ، ولحمل الرسالة الحضارية ، ومواجهة التحديات .

إن إقامة فريضة العدل الاجتماعى ، تتطلب مواجهة هذه السيطرة المستبدة لدولة الأغنياء «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم» .. ومواجهة «فردية الاستغناء» التى أثمرت هذا «الطغيان المالى .. «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» وضبط «الحرية الاقتصادية» التى شابهت حرية قوم نبى الله شعيب الذين «قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء».

وأن ننقذ فقراء الأمة ، بالعدل الاجتماعى من الكوارث التى تخل بتوازنهم ، فتذهلهم عن الدين والدنيا معا؟! وتحولهم إلى غثاء كغثاء السيل ، وعبء على حاضر الأمة ومستقبلها

وهذا العدل الاجتماعي يستلزم :

١ - تحرير ثروات الأمة من الاستغلال الأجنبي .

٢ - تحقيق التكامل للاقتصاديات الإسلامية المستقلة .

٣ - إحداث تنمية اقتصادية إسلامية شاملة .

٤ - توزيع العائد من التنمية وفق العدالة التي تحقق التوازن بين الطبقات .

تلك كانت ولاتزال هي مقاصد حركة الإحياء والتجديد الإسلامي في التحرر الاقتصادي والتنمية الشاملة ، والعدالة الاجتماعية .. منذ أن أعلن جمال الدين الأفغاني عن «الغاية الاقتصادية» لحركة «الجامعة الإسلامية» والتي قال إنها أن تكون:

● ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لأبناء الغرب يستنزفونها .

● ونفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية.

● وتحطيم نواجذ أوربية ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، تلك الموارد التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فسيظل عالة على الغرب».

وإقامة العدالة الاجتماعية الإسلامية .. وذلك :

١ - بإصلاح الواقع القائم والمتمثل في التفاوت العظيم والبون الشاسع والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب والذي أدى إلى وجود« ثراء فاحش وفقر مدقع ، والطبقة الوسطى تكاد تكون معدومة» إصلاح هذا الواقع «بتقريب الشقة بين مختلف الطبقات ، تقريبا يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع»

٢ - ومحاربة الربا .. وجمع الزكاة .. وفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي بحسب المال لا بحسب الربح - يعفى منها الفقراء طبعا - وتجبى من الأغنياء الموسرين وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة .. والتوسط بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين بتنظيم الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد .. وذلك حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن مايعنيهم أمره ، ويهمهم شأنه.

***

إن الإسلام دين الجماعة - دون إنكار التمايز المشروع ، المؤسس على الكفاءة والجهد - لكنه يقيم العلاقة بين مكونات الجماعة - الأمة - على التوازن - العدل - .. فالأمة في الرؤية الإسلامية، واحدة «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» وعلاقة مكونات الأمة الواحدة - أفرادا وطبقات وشعوبا وقبائل - بالكيان الواحد للأمة هي علاقة الأعضاء المتعددة والمتميزة - في القوة، والعطاء والأهمية ،

والاحتياجات ـ بالجسد الواحد الجامع لهذه الأعضاء .. وعن هذه الحقيقة يعبر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ولقد أطلق الإسلام مصطلح «الفريضة» و«الحق» على مختلف أوجه الإنفاق فى النفع العام .. ولم يقف بذلك عند فريضة الزكاة .. وقال المفسرون فى الإنفاق الذى تحدثت عنه الآية الكريمة «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون» .. قالوا : إنه «العفو» أى «ما فضل عن العيال. فالمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة».

وعلى هذا فإن توظيف الثروات الإسلامية فى التنمية الإسلامية على النحو الذى يحرر الأمة الإسلامية من وضع العالة على أعدائها هو فريضة إسلامية ، الأمة بأسرها آثمة حتى تقيمها فى اقتصاديات عالم الإسلام.

إن زكاة أموال المسلمين وزروعهم وتجاراتهم .. وزكاة الثروات المستكنة والمركوزة فى باطن الأرض ـ الركاز ـ وفى الخمس ـ «فى الركاز الخمس» .. كفيلة بأن تقيم «صندوقا» لتنمية عالم الاسلام فتحرر تنميته من الديون الأجنبية التى غدت قيودا ونزيفا يستنفد صادراتنا فى خدمة هذه الديون .. مع بقاء أصولها ، والجديد منها أخطبوطا يرهن إرادة الأمة ويورثها المذلة والهوان.

إنها فريضة إسلامية على حركة الإحياء والتجديد الإسلامية أن تنهض بها:

تحرير اقتصاديات الأمة وثرواتها .. وتنمية هذه الثروات .. وإقامة العدل الاجتماعى الإسلامى فى ديار الإسلام ،

إن فى المسلمين ملايين ، بل عشرات الملايين لا يجدون الكفاف .. وهذا يقطع بعدم شرعية الملكية للثروات التى غدت «دولة» بين الأغنياء .. فإذا جاع مؤمن فلا مال لأحد !

والغنى المباح إسلاميا لايفتح بابه إلا بعد تحقيق «حد الكفاية» لسواد الأمة .. وليس «حد الكفاف» .. وإذا كان فى ثروات الأمة مايسع أبناءها ، ويحقق لهم الكفاية بل و«الغنى» فإن ماينقصنا هو تحقيق العدل الاجتماعى ، الذى هو، أيضا، سبيل حفز الأمة لتنمية ثرواتها وتحريرها من براثن النهب والاستغلال . ■

تطوير التعليم

قضية سنة ١٩٩٦

بقلم : مصطفى نبيل

يقول الشيخ حسن العطار فى مطلع القرن التاسع عشر «إن مصر لابد لها أن تتغير، ولايمكن أن تتغير، إلا بأن نعلم في مصر من العلوم ما ليس فيها»



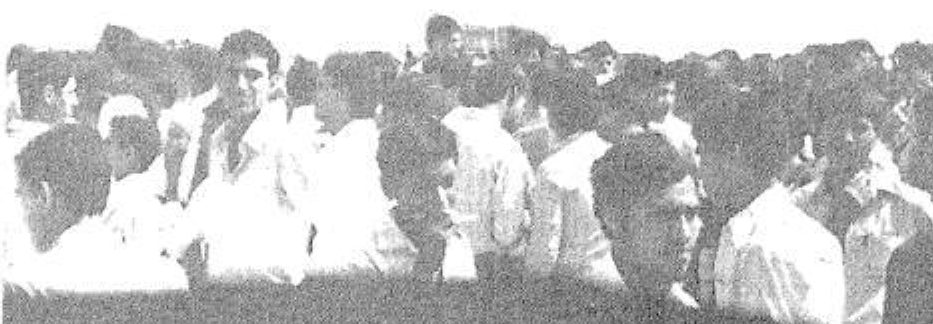






بعد أن أعلنت مصر أن التعليم قضية تمس الأمن القومى يتوقف عليها مستقبل البلاد، كقاطرة النهضة ، ونقطة البدء فى التقدم أو النكوص ، وبعد أن طرح وزير التعليم د.حسين كامل بهاء الدين قضية التعليم للحوار كقضية رأى عام تحتاج إلى مشاركة الذين سيتحملون أعباءها والذين يتمتعون بنتائجها ، وينادى بألا يقتصر الحوار على أروقة وزارة التعليم ولجانها وإنما يمتد إلى كل من تشغله قضية التعليم .

فهل يصل الرأى العام إلى الاتفاق العام والإرادة الموحدة حول أهداف ومتطلبات التعليم ، حتى يعطى قوة دفع إلى تطوير التعليم ، وحتى تتحول الأفكار والآراء إلى حقائق ووقائع .



قضية سنة ١٩٩٦

لقد عبر الجميع عن عمق الأزمة التى يعانى منها التعليم ، يقول د.حسين كامل بهاء الدين .. «لقد تظاهر المجتمع بأنه يوفى هؤلاء المعلمين أجورهم، وهم بدورهم تظاهروا بأنهم يؤدون عملهم ، والتظاهر المتبادل حقق كارثة !» ويقول د.حامد عمار .. «إن التعليم بصورته الحالية، يضر أكثر مما ينفع»!

وأمامنا ثلاثة كتب صدرت عن التعليم خلال شهر واحد ، يمثل كل واحد منها ورقة للبحث والمناقشة ، وهى لثلاثة خبراء وأساتذة أجلاء لكل منهم خبرته الواسعة فى التعليم ، أحدهما صدر عن كتاب الهلال ، «التعليم فى مصر» للدكتور سعيد اسماعيل على ، والثانى «التعليم فى زمن الانفتاح» للدكتور عبد العظيم أنيس ، والثالث «عن همومنا التربوية والثقافية» للدكتور حامد عمار ، والكتب الثلاثة تعكس اهتماما كبيرا بالتعليم ، وتقدم فرصة لحوار جاد شامل ، وخاصة مع بداية عام جديد ، وعلى مشارف القرن الواحد والعشرين .

● تحديث مصر

يلاحظ المتابع لتاريخ مصر الحديث ، المكان البارز الذى أعطته الحركة الوطنية للتعليم ، فتوسلت الحركة الوطنية بالتعليم لتحديث مصر أيام محمد على ، وبعدها تعلقت الحركة الوطنية بالتعليم كأداة لمناهضة الاحتلال البريطانى ، ووجدت مصر فى التعليم مخرجاً عندما تواجه حالة انحسار وطنى ، ولعل حياة الشيخ محمد عبده تقدم نموذجاً للعمل فى ظل أزمة طاحنة ، فهو أبرز المصلحين الذين جعلوا من تطوير التعليم هدفاً رئيسياً من أجل النهضة ، فبعد أن اشترك فى الثورة العرابية ، ورأى أحلامه وهى تنهار ، ورغم السجن والمنفى ، لم يكف عن العمل



الثورى ، وأصدر مع جمال الدين الأفغانى مجلة «العروة الوثقى» من باريس ، ودخل مصر سراً ، وفشلت محاولاته مرة أخرى، وأكاد أتخيله وهو فى المنفى ، وقد أرهقته حدة الانقسامات فى صفوف الحركة الوطنية ، وخيبة أمله بما يكتشفه من اختراق الدول الأجنبية لصفوف الحركة الوطنية ، فوقر لديه اقتناع بعقم المحاولات السياسية ، وضرورة الاعتماد على إعداد الشعب للنهضة وتسليحه بالعلم والمعرفة ، فطلق «السياسة» بمعناها المباشر ، وأخذ يردد لتلاميذه «إن السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا ، وأن جمال الدين الأفغانى كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم لأفاد أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة معا ، ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ ، فأجابنى جمال الدين .. إنما أنت مثبط !»

وترك لنا الشيخ محمد عبده تسجيلا لرأيه وتصوراً كاملاً عن التعليم كمدخل للإصلاح ، وأخذ يبشر به ، ونجح فى تحقيق جزء منه والخاص بإصلاح التعليم فى الأزهر الشريف ، وفى مقال له بعنوان ماهو الفقر الحقيقى ؟ تجد لب فكرته عن التلازم بين الثروة الطبيعية والثروة البشرية ، فالمسألة ليست وجود معادن ومزارع ، وإنما هى مسألة الأيدى التى ستستعمل هذه الثروة ، .. «وليس كل ماذكرته بكاف وحده فى الغنى والثروة ، والعزة والشوكة ، بل لابد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب ، الجليلة ، ورشاد الرأى فى استخدامها ، فإن ضلت الآراء وساء الاستعمال ، فهذا هو الفقر المدقع الذى يعسر علاجه ، لعدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التى تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلاده كإحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته..» الوقائع ع/ ١٠٧٢ / ـ الأعمال الكاملة.

● تناغم فلسفة التعليم

اتفق الخبراء الثلاثة على أن أزمة التعليم فى جوهرها ، هى أزمة فكر ، قامت عند غياب فلسفة واضحة للتعليم ، فالفكر الواضح يؤدى إلى ممارسة صحيحة ، أما تخبط الفكر واضطرابه فينعكس على تخبط خطواته واضطراب وتناقض ممارساته .

وتتسم هذه الفترة التى نعيشها من حياة العالم ، باهتزاز القيم وتناقض الأفكار ، وإنكار الفلسفات والأيدلوجيات، والحيرة بين صراع الحضارات أو تبادل الثقافات ؟ ، لايعرف العالم إن كان فى نهاية التاريخ أو بدايته ، والحيرة شديدة بين القديم والجديد ، بين مايجرى فى العالم المتقدم ومايعانيه العالم الثالث ، وتنعكس هذه الحيرة على الأفكار التى تتناول تطوير التعليم ، ولامخرج من هذه الحيرة إلا بمعالجة عدد من المعضلات الفكرية ، وإقامة هذه المعالجة على مفاهيم محددة ، ونظرة منهجية تجيب على الكثير من الأسئلة مثل ، ماذا نعلم ؟ ولماذا نعلم؟، وتقدم الإجابة فى مجموعها نسقا منطقيا

قضية سنة ١٩٩٦

متماسكا ، عندها تصل إلى نظرية تعليمية تقودنا إلى الابتكار ، وتربط بين التعليم والتنمية ، لا التعليم والمكانة الاجتماعية وحدها ..!

لذا لم يكن غريبا أن قادة الفكر - في العقدين الأخيرين - يهتمون بالتعليم ويعتبرونه قضية أساسية ، وأدرك الجميع أن المجتمع المتعلم يعرف مدى حاجته إلى التقدم والارتقاء ، ويدرك أفضل الطرق وأحسن الوسائل لتحقيق نهضته .

وعلى الجانب الآخر ، أقام المستشار البريطاني «دنلوب» نسق التعليم فى مصر، من أجل إخراج موظفين يتلقون التعليمات ويعجزون عن الابتكار والابداع والمبادرة !

وأمامنا الدور المهم الذى لعبه د. طه حسين فى التعليم ، كانت البداية وضع تصوره للتعليم فى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» ، وضمنه مشروعا كاملا لإصلاح التعليم وتطويره ، ووضع الأسس التى تقوم عليها السياسة التعليمية التى تحظى باهتمام من يشغلهم مستقبل الأجيال الجديدة ومستقبل مصر كلها ، وجعل الأفكار التى تناولها فى كتابه موضع حوار كل القوى الاجتماعية .

وكان أهم الموضوعات التى تناولها ، كيف يصبح التعليم بوتقة تصهر الأمة جميعا وتجعلها أمة متماسكة ، وطالب بأن يدخل جميع التلاميذ مهما اختلفت طبقاتهم تعليم عام واحد ، وهاجم وجود مؤسسات تعليمية منفصلة ، ومايؤدى إليه ذلك من مخاطر على التماسك الوطنى والاجتماعى .

ونجح فى تطبيق هذه الأفكار ، وجعل التعليم كالماء والهواء عقب توليه مسئولية وزارة المعارف ، أما اليوم فكثير من إنجازاته أخذت تذروها الرياح ، وظهرت من جديد الازدواجيات التى حذر منها ، ازدواجية بين التعليم الدينى والمدنى، وبين المدارس الحكومية والخاصة، بين التعليم الثانوى والفنى ، كما ظهرت مدارس اللغات ذات المصاريف الباهظة، والخطر الأكبر هو تضارب المناهج وغياب الفكر التربوى الواحد ، مما يؤدى إلى تحويل المجتمع إلى جزر منفصلة يتعطل بينها الحوار والاتصال ، ويكاد سكان هذه الجزر لايفهمون بعضهم بعضا .!

إذن الفكر الواضح وحده القادر على اختيار الأولويات ، ويحدد من أين نبدأ .؟ وأن يقدم الإجابة على الكثير من التساؤلات منها :

● كيف نطبق مجانية التعليم ونحقق تكافؤ الفرص مع نقص الموارد ؟

● كيف نوفق بين العالم المتسارع الخطى والذى أصبح كل بيت فيه مركزا الكترونيا للتعليم ، وارتفاع نسبة الأمية فى بلادنا..؟

● كيف يرتبط التعليم بالتنمية والبيئة؟

● كيف نحقق استقلال الجامعة ، وحرية البحث العلمي ؟ ، وغيرها من الأسئلة .

فبعد الوصول إلى الفكر الواضح تقوم المؤسسات الثابتة التي تنفذ هذا الفكر ، وتراعي اسلوب تجديد أو تغيير هذه السياسات ، التي لاتعتمد على الأشخاص، ولاتتغير بتغيرهم .

● إرادة التغيير !

وأزمة التعليم سريعاً ما تقودنا إلى قلب مشكلاتنا العامة ، فتدهور التعليم جزء لايتجزء من تدهور الخدمات العامة خلال الأعوام السابقة ، فلا يمكن عزل التعليم عن المستوى الاجتماعي العام ، ولايمكن تجنب التأثيرات السلبية الناتجة من تزايد الفجوة بين الأجور والأسعار ، ولا يجوز عزل المدرسة عن القيم والمفاهيم السائدة، ولا عزلها عما تبثه أجهزة الاتصال من صحافة وإذاعة وتليفزيون .

وتؤكد جميع الدلائل على أنه لايمكن إصلاح التعليم وحده ولكن من الضروري إصلاح العديد من الأوضاع المرتبطة بالتعليم فيتأثر التعليم بالضرورة بالمحيط الاجتماعي ، ومشاكله تعود إلى أخطاء تفرض نفسها على التعليم وتعوق تطوره .

وهل يمكن تطوير التعليم مع تجاهل الحاجة الماسة لزيادة إمكانياته وبالتالي زيادة نفقاته ؟ في وقت يطرح فيه الإصلاح الاقتصادي الذي يعني سياسة انكماشية، ويهدف إلى علاج العجز في ميزان المدفوعات عن طريق ضغط الانفاق العام ، وتصرف معظم ميزانية وزارة التعليم على «الباب الأول» ، أي الأجور والمرتبات ، وليس على المعامل ووسائل الايضاح والكتب والمكتبات.

ولعل دراسة اليونسيف ـ التي أوردها د. عبد العظيم أنيس ـ تقدم نموذجاً واضحاً على التأثير المتبادل بين التعليم والتنمية ، تقول : «إن أي محاولة جادة للتغلب على الآثار السلبية في ميدان التعليم لايمكن أن تقتصر على التعليم وحده ، وإنما ينبغي أن تتعداه إلى مجمل السياسات الاجتماعية والاقتصادية ، وبمعنى آخر فإن ترك تعميم التعليم الإبتدائي وإكساب الأطفال مهارات حقيقية للسياسات الراهنة وقوى السوق ينطوي على خطر أكيد على التنمية البشرية وبالتالي على قضية مستقبل التنمية بأكملها » .

ويتناول د.عبد العظيم أنيس علاقة الفقر بالتعليم ، يقول : «مع التأكيد على أن هناك اعتبارات تشد التعليم إلى الخلف لا سيطرة لوزارة التعليم عليها ، فمثلا لايكفي زيادة نسبة الانفاق على التعليم بل لابد من تحسين أحوال الفقراء لكي يمكنهم الاستمرار في التعليم .»

ويؤكد في موضع آخر قناعته .. «إن إصلاح التعليم إصلاحاً حقيقياً ، أمر شبه مستحيل ما لم يجر موازيا له إصلاح قطاعات وطنية أخرى ، مثل الصحة ، وقطاع الأجور ، والبطالة ، فنظام التعليم ليس إلا نسقاً جزئيا ضمن النسق الاقتصادي الاجتماعي العام في مصر ، يتأثر كل يوم وكل ساعة بهذا الذي يجرى

قضية سنة ١٩٩٦

فى النسق الاجتماعى والاقتصادى العام ويؤثر فيه ، لذلك فكل إصلاح جاد للتعليم ينبغى أن يكون ضمن خطة للإصلاح والنهوض الشامل» .

حقا .. إن الكثير من أحلام التربويين لايمكن تحقيقها ، لأنها جزء من الواقع فى مجموعه ، وهى تحتاج إلى عمل شامل على جميع الجبهات .

● مجانية التعليم

تقف قضية مجانية التعليم فى مقدمة القضايا التى تشغل التربويين ، فالوصول إلى صيغة تحافظ على مبدأ المجانية فى حدود الإمكانيات المتاحة ، هى قضية أساسية يتوقف عليها مستقبل التعليم ، بل ومستقبل المجتمع ، وجعله مجتمعا منتجا مواكبا للعصر .

فقد حقق المجتمع بعد طول صبر مكسبا مهما بإقراره مجانية التعليم ، والتى أكدها الدستور ، إلا أنه ترتفع بين وقت وآخر صيحات ترى أن المجانية هى التى أدت إلى إنخفاض مستوى التعليم!! متجاهلين أن حق الجميع فى التعليم يمثل الأداة الوحيدة لتحقيق المساواة وتكافؤ الفرص ، ومن أجل سد الفجوة بين قمة الهرم الاجتماعى وقاعدته ، بين الفقراء والأغنياء ، وفى أحد فرص المجتمع لاكتشاف الموهوبين وانتشالهم من قاع المجتمع إلى قمته وإعطاء فرصة للحراك الاجتماعى .

ومن يدرس التاريخ الاجتماعى للشرق، لايفوته أن يلحظ استقرار قيمة توفير التعليم لمن يطلبه ، وقد استقرت هذه القيمة فى الوجدان العام ، ففى عصر كان يأتى ساعيا من أعماق الريف من تنذره عائلته للتعليم ، فيصل إلى الأزهر الشريف، فيتوافر له علاوة على التعليم الإقامة والجراية

وهو ما أتيح لمعظم رموزنا الفكرية من عمر مكرم إلى محمد عبده .

لذا لم يكن غريبا أن أبرز ثلاثة حظى التعليم باهتمامهم ، وهم على مبارك ومحمد عبده وطه حسين ، خرج ثلاثتهم من أعماق الريف ، كما جاء فى سيرتهم الذاتية ، ولم يكن لأحد منهم إبعادية أو عزوة عائلية ، وإنما ترعرعوا فى عائلات تعرف قيمة العلم ونور التعليم .

ولابد من تناول قضية مجانية التعليم بصراحة وإجراء حوار حوله يشترك فيه جميع المهتمين ، ولايجوز مجرد الفخفخة ، وإنما لابد من الكلام الواضح ، حتى لايبقى شعار مجانية التعليم شعاراً مجرداً ، بعد أن كاد يخسره أصحابه ، فلم يعد التعليم مجانا ، وأصبحت الدروس الخصوصية هى بديل ما يدفع للمدرسة من مصاريف ، مما جعل التعليم صعبا على الفقراء ، وحان الوقت للوصول إلى إتفاق عام حول هذه القضية .

ويغيب عن المتحاورين ، وخاصة أولئك

الذين يتصورون إمكانية تطبيق قوانين السوق على التعليم ، وأولئك الذين يرون في الولايات المتحدة المثل الأعلى ، أن من أوائل الدول التي جعلت التعليم إلزامياً ومجانياً حتى الجامعة هي الولايات المتحدة الأمريكية ، مما أدى إلى تطورها الصناعي الكبير ، وجعل العامل الأمريكي أكثر تقدما من سواه ، كما أن أغلب طلاب الجامعات الأمريكية يحصلون على منح دراسية من مؤسسات مالية كبرى .

ويقول د. سعيد اسماعيل على حول هذه القضية .. «موارد تطوير التعليم فى الصخرة التى تتحطم عليها الكثير من الآمال فى تطوير التعليم ، فقد ناقشت الاستراتيجية - استراتيجية التعليم فى مصر عام ١٩٨٧ - عدداً من جوانبها وفى مقدمتها مجانية التعليم ، وماتقوم عليه من مبررات ، إلا أن هناك حقيقة لابد من الإشارة إليها والتحسب لها ، فإذا كان التمويل يتزايد بالفعل عاما بعد عام وبمعدلات كبيرة ، فإنه لايمكن مضاعفة هذا التمويل لمواجهة الطموحات التى تقتضيها استراتيجية تطوير التعليم ، لما يمثله من عبء اقتصادى كبير .

وقد لوحظ أن التعليم المجانى سوف يزيد من الضغط على مؤسسات التعليم ، وأن الغنى هو الذى يستفيد من هذه المجانية لأنه قادر على أن يوفر تعليما أفضل لأبنائه ..»

ويؤكد د. عبد العظيم أنيس أن أهم مايستثمر فيه المجتمع أمواله هو التعليم .. «إن بلادنا محدودة الموارد الطبيعية ، ولذلك فإن الاستثمار فى تكوين البشر قد يكون من أهم نقاط قوتنا إذا أحسنا استغلاله وانتبهنا أيضا إلى احتياجات بقية الوطن العربى.

وينتهى إلى أنه .. «فى عصرنا الحاضر لا توجد جماعة جيدة التعليم وفقيره ، كما لاتوجد جماعة أمية وليست فقيرة» .

ويشاركهما رأيهما د. حامد عمار ويقول : «أوضحت العديد من الدراسات العلاقة بين التحصيل الدراسي والإنجاز المدرسى من ناحية وبين الأحوال الاقتصادية والثقافية للأسرة من ناحية أخرى» ويزيد .. «يرى معظم المفكرين التربويين أن تكافؤ الفرص التعليمية وعدالة نظم الامتحانات باعتبارها المعيار المنصف الذي يحكم على الجميع سواسية، إنما يمثل وهما اجتماعيا وحضاريا .. فلا يمكن تصور نجاح أى سياسة اجتماعية تهدف إلى عدالة فى توزيع الدخول دون أخذ فرص التعليم بعين الاعتبار من أجل الوصول إلى الوفاق الوطني حول أهداف التعليم وغاياته العليا والمضامين والقيم والوسائل الملائمة لتنمية طاقات المواطن والوطن إلى أقصى مايمكن أن تبلغه» ، ولايمكن تصور النجاعة فى أى سياسة اجتماعية تهدف إلى عدالة فى توزيع الدخول دون أخذ فرص التعليم بعين الاعتبار ..»

وهاهم ثلاثة من أهم خبراء التعليم يؤكدون ضرورة الحفاظ على مجانية التعليم ، فكيف تبقى المجانية مع تناقص

قضية سنة ١٩٩٦

الإمكانيات المتوافرة ؟ .

وهذه قضية لايجوز فيها الغمغمة ، ولكن لابد من الكلام الصريح الواضح ، فسريان مجانية التعليم على أولئك الذين لاتؤهلهم قدراتهم على ذلك التعليم تخالف مبدأ تكافؤ الفرص ، وحرمان القادر على التعليم لعدم توافر المنشآت تخالف أيضا تكافؤ الفرص .

يقول د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم فى كتاب «مبارك والتعليم نظرة على المستقبل» ، «وفى المرحلة الثانوية والجامعية تكون المجانية للطالب الملتزم ، الذى يأخذ وظيفته الاجتماعية كطالب على محمل الجد ، ويبذل الجهد المطلوب فى أن يحقق نجاحه المتواصل ، أما من يتخذ المجانية شعاراً لسلبيته وتهاونه وإهماله باعتبار أن الدولة ملزمة بالانفاق على تعليمه مهما تعددت مرات رسوبه فالدولة لايمكن أن ترعى فشله ، وعليه أن يدفع نفقات تعليمه» وتبقى المشكلة فى المعيار الذى يميز بين الطالب الملتزم والطالب المتهاون؟ ، وحتى هذه الفكرة التى أعلنها الوزير لم يتم تطبيقها حتى اليوم .

وتتركز مخاوف العديد من التربويين فى أن تعالج قضية مجانية التعليم على الطريقة نفسها التى عولج بها موضوع حق المواطنين فى العلاج المجانى ، عندما رددت الحكومة تمسكها بتوفير العلاج المجانى ثم أخذ العلاج المجانى فى الإنهيار نتيجة نقص الاعتمادات ، ثم بدأت المستشفيات المجانية تجهز أقساماً بها أحدث تكنولوجيا على أن يدفع المرضى المترددون عليها ثمن علاجهم ، على أن تنفق هذه الأقسام على العلاج المجانى ، ولكن سرعان ماتغلب العلاج الجديد ، وتلاشى بالتدريج العلاج المجانى .

وكان الأولى بواضعى السياسة العلاجية ، أن يواجهوا نقص الموارد ، بأن يقصروا العلاج المجانى على من يحتاجه ولايملك نفقاته .

إن مجانية التعليم هى صمام الأمان فى المجتمع ، ويظل المطلوب الابتكار فى الحفاظ على المبدأ فى حدود الامكانيات المتوافرة .

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اعتبر التعليم مفتاح التقدم ومؤشراً أساسياً للتحديث ، واستطاعت كل من ألمانيا واليابان أن تغير أوضاعها وتتجاوز هزيمتها وانجاز السبق الاقتصادى عن طريق التعليم ، وكلما واجهت دولة عقبة ، عادت تنظر فى نظام التعليم ، ونجد الولايات المتحدة تلجأ إلى تغيير وتعبئة نظامها التعليمى لكى تواجه السبق الذى حققه الاتحاد السوفييتى عندما نجح القمر الاصطناعى الروسى سبوتنيك فى الإنطلاق إلى الفضاء عام ١٩٥٨.

وأخذت المنافسة بين الدول تتحول إلى منافسة فى كفاءة النظم التعليمية ، ومن يملك نظام تعليم أفضل هو الذى يكسب الجولة فى القوة الاقتصادية .

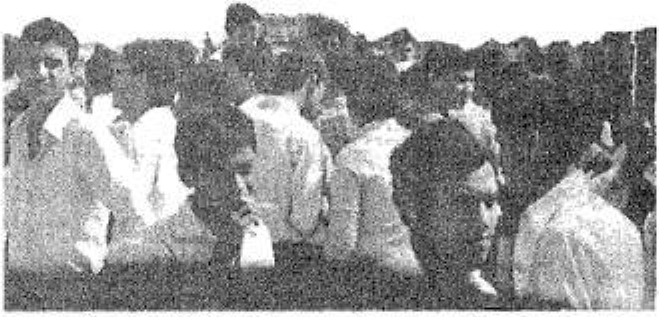
● التعليم والانفتاح

وبهذا المعنى كتب د. عبد العظيم أنيس كتابه التعليم في زمن الانفتاح، وهي مجموعة مقالات كتبها عن التعليم خلال الأربع عشرة سنة الأخيرة، والخيط الذي يجمعها هو ضرورة الحفاظ على مجانية التعليم، وأن أحوال التعليم تتدهور باستمرار منذ سياسة الإنفتاح، ويحكم الدكتور أنيس على التعليم باستخدام معيارين، أحدهما ديمقراطية التعليم، والثاني مدى تحديثه، والديمقرطية تعنى اتاحة فرصة التعليم للجميع، وهي ليست قضية عدالة اجتماعية فحسب، وإنما هي من أصول التنمية الاقتصادية الحقيقية، فالتعليم هو مفتاح المستقبل، ولم يعرف التاريخ تجربة واحدة للتنمية الاقتصادية دون توسع حقيقي في قاعدة التعليم الإلزامي لمدة تسع أو عشر سنوات.

ويقدم إلى أولئك الذين يحلو لهم دائما التغني بأمجاد مصر، دون أن يقدموا إليها أي جهد عام، بعض الأرقام الكاشفة، «نسبة الانفاق على التعليم الإجمالي من الناتج القومي تصل في مصر إلى ٥,٢٪ بينما تصل في الأردن إلى ٧,١٪ والمغرب ٧,٩٪ والجزائر ١٠,٨٪، وقيمة الانفاق الجاري على الطالب في مرحلة التعليم الأساسي في مصر ٨٨ دولاراً بينما تصل في تونس إلى ١٧٦ دولاراً وفي الأردن ٢٦٠ دولاراً وفي اسرائيل ٨٧٧ دولاراً!»

ويتساءل د. حامد عمار في كتابه «دراسات في التربية والثقافة» هل ما يحدث من تغيير - في التعليم - هو تغيير مظهري أم حقيقي؟، أم هي في الكثير من الحالات إجراءات لمجاملة بعض الفئات الاجتماعية أو لخدمة مصالحها أو لتهدئة الخواطر لدى أولياء الأمور أو الطلاب من أبناء الطبقات الوسطى والعليا ومن لف لفهم من الطموح والحراك من أبناء الشرائح الاجتماعية الأخرى».

وهذا المقال لايعدو أن يكون ملاحظات وتساؤلات، على هامش قضية تطوير التعليم، فحقا، إن تطوير التعليم هو القضية الأساسية سنة ١٩٩٦، ولعل ماطرحه الأساتذة الكبار د. عبد العظيم أنيس ود.حامد عمار ود. سعيد اسماعيل علي، يمثل بداية حوار شامل، ووفاق وطني حول التعليم ومستقبله.



هل من الضرورى إقامة مفاعل نـووى متوسط فى مصر ؟!

بقلم : د. حسين عبدالله *



● الكاتب وكيل أول وزارة البترول سابقا وممثلها لدى الاوبك ١٩٧٤ - ١٩٩٢ واستاذ اقتصاديات البترول ١٩٦٩ - ١٩٧٤ .

استثمرت مصر مبالغ وجهوداً طائلة على مدى سنوات عديدة لإعداد طاقة بشرية لا يقل عددها عن ٥٠٠ خبير وفنى فى مجال الطاقة النووية . ومن مقتضى الحكمة أن نحرص على ألا تتخلف تلك الطاقة البشرية الثمينة عن ركب التطور العلمي والتكنولوجي فى هذا المجال، وفي غيره من المجالات المرتبطة به ، وكلها مجالات حساسة وتقف علي مشارف الثورة العلمية والتكنولوجية التي يتوقع ان يشهدها القرن القادم باعتباره امتدادا للقرن العشرين. وإذا أخذنا فى الاعتبار ان احتياطيات مصر من البترول والغاز الطبيعي قد لا يمتد عمرها إلى ما بعد عام ٢٠١٠ فإن احتمالات التوصل إلى حلول للمشكلات التى تواجه الطاقة النووية، وخفض تكاليفها تبعا لذلك ، قد يجعل منها مصدرا للطاقة ، اقتصاديا وغير محدود . ولذلك نرى ان يقام فى مصر مفاعل نووى متوسط الحجم لكي يواصل فيه هؤلاء الخبراء بحوثهم وتجاربهم، ولكي تستمر عن طريقه مواكبتهم للتطورات العالمية الحديثة في هذا المجال . ولكن ينبغي ان يتخذ من الاحتياطات ما يكفي لحماية ذلك المفاعل من عوامل التخريب ، سواء كان مصدره محليا أو خارجيا .

تلقى الطلب على المفاعل النووى دفعة قوية نتيجة لارتفاع اسعار النفط خلال النصف الثاني من السبعينات، مما شجع الدول النووية الكبرى وغيرها على التوسع فى برامجها النووية. وانعكست نتائج ذلك التوسع عندما دخل الخدمة خلال عقد الثمانينيات فيض من المفاعلات النووية التى بدأت اقامتها فى ظل ارتفاع اسعار النفط واستغرق انشاؤها فترة طويلة. غير أن اقتصاديات الطاقة النووية لم تلبث أن انتكست ، فقد كان من الصعب خلال السنوات الأولى لانشاء المفاعلات النووية وضع تقدير سليم للنفقات والتكاليف علي مدى فترة تزيد على ٤٠ عاما وهى العمر الافتراضي للمفاعل . كذلك لم تقدر بدقة، فى ذلك الوقت ، نفقات التخلص من المفاعل بعد توقفه وخروجه من الخدمة Decommissioning بما فى ذلك التخلص من هيكله غير المنقول . فلما ظهر خلال السنوات الاخيرة، وبصورة أكثر واقعية، حجم وخطورة تلك المشكلة، ارتفعت تقديرات التكلفة كثيرا فوق ما كان متوقعا فى بداية ازدهار الطاقة النووية وخاصة خلال السبعينيات .

ومن ناحية أخرى ، فان تراخى الإحساس بالأزمة النفطية بعد انهيار اسعار النفط إلى أقل من النصف عام ١٩٨٦ وإلى ما يقرب بالقيمة الحقيقية (أى بعد أستبعاد اثر التضخم) من مستواها قبيل حرب اكتوبر، اضافة إلى ما وقع من حوادث نووية جسيمة وبصفة خاصة حادث ثرى ميل ايلاند TMI فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ وحادث تشيرنوبل فى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٦ ، جعل

مفاعل نووي متوسط في مصر

العديد من الدول التي أقبلت على الطاقة النووية تراجع خططها التوسعية ، فأخذ البعض يبطىء في تنفيذها وقام البعض بتجميد أو إلغاء برامجه النووية بالكامل .

دورة الوقود النووي :

لا تختلف محطة لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية عن محطة حرارية تدار بالفحم أو بالنفط أو بالغاز الطبيعي سوي ان التفاعل النووي يكون المصدر الحراري المستخدم في توليد البخار الذي يدير توربينات توليد الكهرباء، ويستخلص الوقود النووي عادة من اليورانيوم الذي يوجد في الطبيعة بنسبة تتراوح بين ١ - ٤ ارطال لكل طن من الركاز أو المادة الخام المستخرجة، وتتكون تلك المادة من نظيرين أحدهما اليورانيوم ٢٣٥ الذي يقبل الانشطار المتسلسل Fissile Isotope باستخدام الجيل الحالي من المفاعلات الحرارية . ولا تزيد نسبة تركز هذا النظير في المادة الخام من ٠,٧ ٪ ولذلك يلزم اغناؤه Enrichment لرفع النسبة إلى نحو ٣٪ حتى يصلح كوقود نووي .

ونظرا لارتباط عملية الاغناء بانتاج السلاح النووي فقد حرصت الدول النووية الكبرى على الاحتفاظ بها تحت اشراف أو رقابة الحكومة لضمان عدم انتشار الاسلحة النووية . ذلك أن صنع سلاح نووي يتطلب استخدام يورانيوم تتجاوز نسبة اغنائه ٢٠٪ أو استخدام البلوتنيوم الذي يمكن استخلاصه من الوقود النووي قبل أو بعد استخدامه . ووجه الخطورة بالنسبة للبلوتنيوم أن العالم لم يتوصل بعد إلي وسيلة يمكن بها إبطال صلاحيته لصنع السلاح النووي .

وتثير دورة الوقود في المفاعلات النووية عددا من المشكلات أهمها :

١ - إنه على حين لا تتجاوز تكلفة المادة الخام ١٠٪ من التكلفة الكلية للوحدة (كيلو وات ساعة) ، فان تكلفة اغناء الوقود النووي - والذي تتركز امكانياته في عدد محدود من الدول - قد تصل إلى ١٨٪ ولا تزيد تكلفة الصيانة والتشغيل على ١٠ - ١٥٪ بينما تتراوح التكلفة الرأسمالية بين ٥٧٪ في أوربا الغربية واكثر من ٧٠٪ في المواقع الصعبة في الدول الصناعية وفي الدول النامية حيث لاتتوافر البنية الاساسية اللازمة لاقامة تلك الصناعة . وعلى الدول النامية الساعية لاستخدام الطاقة النووية ان تأخذ ذلك التوزيع في الاعتبار عند حساب المكون الاجنبي في تكلفة بناء وتشغيل المفاعل . وفي تقديرنا أن المكون الاجنبي في تلك الدول والذي يشمل قيمة التكنولوجيا والمعدات والوقود بعد اغنائه قد لايقل في مجموعه عن ٧٠٪ من اجمالي التكلفة وقد ينطوي على الارتباط بدولة المصدر لفترات طويلة .

٢ - يستغرق التحلل الكامل لبعض المواد المشعة المستخدمة في التوليد النووي آلاف السنين ، ولذلك تثير تلك الصناعة مشاكل خطيرة من اهمها كيفية التخلص

من نفايات الوقود المشعة - Nuclear Waste والتي قد يستمر خطرها الاشعاعي لآلاف السنين .

٣ - إن تكلفة اعادة تصنيع الوقود النووى المستهلك لاتدخل فيما يعلن من تكلفة الطاقة النووية ، شأنها شأن تكلفة تفكيك ودفن المفاعل ونفاياته المشعة. وكان الطلب للاغراض العسكرية على البلوتنيوم الناتج من تلك العملية يخفف من تلك التكلفة، ولكن انفراج الحرب الباردة قد يؤدى إلى انكماش ذلك الطلب وبذلك يتحتم على الكهرباء النووية أن تتحمل بالكامل تلك التكلفة .

اقتصاديات الطاقة النووية :

مرت اقتصاديات الطاقة النووية منذ الخمسينيات بمراحل عديدة الا أنها مازالت للآن غير مستقرة ويرجع عدم استقرارها إلى عوامل عديدة من أهمها أن جانبا كبيرا من التكلفة لا تتضح معالمه بدقة الا عندما ينتهى العمر الانتاجي للمفاعل (٣٠ - ٤٠ سنة) ويتم تفكيكه ودفنه واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بعدم تسرب اشعاعاته لمدد طويلة جدا .

وتتفوق المحطة النووية على المحطات الحرارية التى تدار بمصادر الطاقة الحفرية من حيث انخفاض تكلفة الوقود، ولكنها تختلف عنها من حيث ارتفاع التكلفة الرأسمالية حيث تعتبر تلك التكلفة أهم عنصر فى تكلفة الطاقة النووية إذ قد تصل فى مفاعل الماء الخفيف إلى ٧٠٪ بينما لاتتجاوز التكلفة الرأسمالية فى محطة تدار بالفحم ٣٥ - ٦٥٪ تبعا لموقع المحطة من منجم الفحم وسعره .

وتتفاوت التكلفة الرأسمالية فى المفاعل النووى تفاوتا كبيرا تبعا لعناصر عديدة مثل حجم المشروع، وموقعه ، وما اذا كان الموقع يضم وحدة نووية أو وحدتين مما يخضع بالضرورة لحجم الطلب على الكهرباء كما تتفاوت التكلفة تبعا للشركة القائمة بالمشروع وما تتلقاه من دعم حكومي ، وايضا تبعا لطول أو قصر المدة التى يستغرقها اقامة المفاعل . فتكلفة وحدة كبيرة من حجم ١٣٠٠ ميجاوات قد لاتزيد بأكثر من ٥٠ - ٧٥٪ عن تكلفة وحدة حجمها نصف هذا الحجم . كذلك قد تنخفض تكلفة الوحدة الثانية فى حالة المحطات المزدوجة بنحو ١٠ - ١٥٪ عن تكلفة الوحدة الأولى .

ومن المسلم به أن الطاقة النووية لا تحقق أعلى عائد لها ، اقتصاديا وفنيا، الا اذا استخدمت لمواجهة حمل الأساس Base load ، وهو الحد الأدنى من الطاقة الكهربائية التى تستهلك فى أى وقت من النهار أو الليل وتستلزم استمرار تشغيل المفاعل بكامل طاقته دون توقف . أما حمل الذروة Peak load فلا يستلزم تشغيل المحطة اكثر من ساعات قليلة كل يوم وهو ما يتعارض مع طبيعة المحطة النووية . وكان المتوقع اذا استخدمت الطاقة النووية لمواجهة حمل الأساس الا يقل معامل السعة Capacity factor عن ٨٠٪ فى المتوسط ، غير أن نتائج التجربة الطويلة فى الدول النووية الرئيسية جاءت مخيبة لتلك التوقعات . ففى خلال الفترة

مفاعل نووى متوسط فــــى مصــــر

منذ بدء استخدام الطاقة النووية فى أواخر الخمسينيات وحتى نهاية ١٩٩٠ اثبتت التجربة أن ذلك المعامل لم يتجاوز ٦٢,٨٪ فى المتوسط (المرجح بحجم التوليد) وذلك فى الدول الاربع التى قامت بتوليد حوالى ٧٢٪ من اجمالى الكهرباء النووية فى العالم خلال الفترة المذكورة وهي الولايات المتحدة وفرنسا واليابان والمانيا .

وتواجه معالجة النفقات المقارنة لمصادر الطاقة الكثير من المشكلات لان ما ينشر منها كثيرا ما يخضع لاعتبارات سياسية واقتصادية متحيزة ، وقد لا ينشر معها من التفاصيل والأسس التى بنيت عليها ما يكفى للتحقق من سلامة التقدير . ومع ذلك فسوف نحاول فى الجدول التالى تقديم صورة معقولة للمدى الذي تتراوح خلاله الكلفة الفنية Technical cost لأهم المصادر المستخدمة فى توليد الكهرباء وهى الفحم وزيت الوقود (المازوت) والطاقة النووية :

غير أن القراءة الصحيحة لهذه التقديرات ينبغى أن تأخذ فى الاعتبار عددا من التوضيحات المهمة والتى نوجزها فيما يلى :

١ - إن تكلفة الطاقة النووية لا تتضمن تكلفة التخلص من المواد المشعة اثناء تشغيل المفاعل ، كما لاتتضمن تكلفة تفكيك ودفن المفاعل بعد انتهاء صلاحيته . وثمة خلاف كبير حول حجم تلك التكلفة ، وذلك لعدم وجود نموذج واقعى كامل لتفكيك ودفن مفاعل تجارى كبير . وقد قامت الولايات المتحدة فى عام ١٩٧٤ بتفكيك ودفن مفاعل صغير قوته ٢٢ ميجاوات مما اقتضى دفن نحو ٣٦٠٠ متر مكعب من المواد المشعة والملوثة وتكلفت العملية نحو ٦ ملايين دولار (بدولارات عام ١٩٧٤) وهو ما يعادل تكلفة بناء المفاعل ذاته ولم يكن قد انقضى على تشغيله اكثر من ٤ سنوات . ومن هنا يمكن أن نتبين حجم المخاطر والتكاليف التى تحيط بالتخلص من مفاعل تجارى كبير تصل قوته إلي اكثر من ١٠٠٠ ميجاوات بعد تشغيله لمدة ٣٠ عاما، مع العلم بان درجة الخطورة تتزايد مع زيادة الحجم ومع طول

	الفحم	زيت الوقود	طاقة نووية
كفاءة التوليد (٪)	٣٣	٣٣	٣٢
النفقة الرأسمالية (سنت / kwh)	٢ – ٤,٣	٢ – ٢,٥	٣,٨ – ١٠
النفقة الكلية (سنت / kwh)	٣,٨ – ٦,٩	٤,٨ – ٥,٧	٥,٣ – ١١,٨
المدة اللازمة للتشييد (سنة)	٣ – ٥	٣ – ٥	٤ – ١٢
التأثير السلبى على البيئة	عال	متوسط	موضع خلاف

زمن الاستخدام . وما زالت المشاكل التكنولوجية التى تكتنف التخلص من المفاعل ومواده المشعة بدون حل شامل وآمن ، كما لاتزال تكلفة هذا التخلص موضع خلاف حيث تتفاوت تقديراتها بين ٥٠ مليون دولار و ٢ مليارات دولار للمفاعل الواحد ، ويميل الرأى الغالب إلى انها لن تقل عن تكلفة التشييد .

٢ – إن التقديرات التى يتضمنها الجدول تعبر عن المشروعات التى تم التعاقد عليها فى مستهل عقد التسعينات لكى يكتمل بناؤها في أواخر العقد المذكور كما سحبت التكلفة علي اساس قيمة الدولار فى عام ١٩٩٠ .

٣ – إن التكلفة الرأسمالية قد قدرت فى المتوسط بنحو ١٥٠٠ دولار لكل كيلوات KW نووى وبنحو ٨٠٠ دولار لكل كيلو وات KW حرارى (فحم أو زيت وقود) .

٤ – إن تكلفة الوقود قد قدرت بنحو ٤٠ دولاراً لطن الفحم وبنحو ٨٠ – ١٠٠ دولار لطن زيت الوقود ، وهى الاسعار السائدة فى التجارة العالمية لهذين المصدرين .

٥ – إن سعر الخصم أو معدل الربح المفترض قد قدر بنحو ٨٪ صاف بعد خصم الضرائب بمعدل ٥٠٪ من الربح الاجمالي.

٦ – إن النفقة الكلية تشمل بالإضافة إلى النفقة الرأسمالية تكلفة الوقود ونفقات التشغيل والصيانة ، وذلك على اساس تشغيل المحطة بحمل اساسى للنظم الثلاثة بمتوسط ٧٠٪ .

٧ – إن التكلفة الموضحة بالجدول لا تتضمن نفقات حماية البيئة . فبالنسبة للفحم قد تزيد التكلفة الرأسمالية بنحو ١٥٠ – ٣٠٠ دولار لكل KW قدرة مركبة اذا استخدمت المعدات اللازمة لتنقية غازات العادم من ملوث مثل ثانى اكسيد الكبريت وفى تلك الحالة يمكن أن ترتفع التكلفة الرأسمالية بنحو ٢٠٪ وهو ما يؤدى إلى زيادة التكلفة الكلية بنحو ١٠٪. ومؤدى ذلك أن الفحم الخالى من ذلك الملوث يمكن أن يتمتع فى سعره بعلاوة تصل إلى ٢٠ دولاراً للطن . أما تكلفة حماية البيئة من الاشعاعات المرتبطة بالتخلص من النفايات النووية أو من هيكل المفاعل غير المنقول بعد خروجه من الخدمة فما زالت موضع خلاف كما ذكرنا .

٨ – إن التنميط فى بناء المفاعلات النووية Standardization يتفوق اقتصاديا على بناء النموذج المتفرد Unique design فالنظام الفرنسى الذى يأخذ بالتنميط ويطلق عليه «نظام القافلة» لتماثل وحداته يتفوق فى تكلفته الرأسمالية بنسبة ١ إلى ٣ على النظامين الامريكى والانجليزى ، وكلاهما يقوم على التفرد فى التصميم تبعا لاختلاف الموقع .

٩ – إن توافر البنية الاساسية كالطرق ومستلزمات البناء فى موقع معين يساعد علي خفض النفقة الرأسمالية، بينما قد يؤدى افتقار الموقع لتلك البنية إلى مضاعفة التكلفة . ومن الامثلة الشائعة وجود فجوة كبيرة بين الكلفة

مفاعل نووى متوسط في مصر

الرأسمالية فى الدول النامية وبين نظيرتها فى الدول الصناعية المتقدمة التى تتوافر فيها البنية الاساسية . ويمكن ايضا ان نلاحظ مثل هذا الاثر نتيجة لاختلاف نسبة ما يدخل فى بناء المحطة من عمالة ومستلزمات محلية ، وكذلك نتيجة لتذبذب معدلات تحويل العملة المحلية إلى العملات الاجنبية اللازمة لاستيراد المكون الأجنبى فى المشروع والذى تمتد فترة انشائه إلى سنوات طويلة .

١٠ - كذلك تتأثر التكلفة بسعر الخصم أو معدل الربح الذى تحدده الجهة القائمة بالمشروع ويتأثر عادة بالفرصة البديلة لاستخدام رأس المال المتاح للاستثمار ، كما يتأثر بسعر الفائدة فى حالة الاقتراض ، ويغير ذلك من العوامل غير النقدية مثل التفضيلات والقيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الحاكمة فى كل مجتمع .

وفى ظروف تتسم باللايقين حول اتجاه اسعار الوقود فى المستقبل ، أو مدى خطورة و تكلفة التخلص من المواد المشعة يغلب أن ترتفع درجة المخاطرة بالنسبة للطاقة النووية ويرتفع معها بالضرورة معدل الخصم والتكلفة الكلية بالتبعية .

(١١) لايدخل فى تقدير النفقات المقارنة ، وبالتالى لا يدخل فى أسباب التفاوت بين حديها الأعلى والأدنى ما ينتج عن اختلاف الكفاءة فى استخدام الوقود ، أو في كفاءة الإدارة والتنفيذ ، أو فى اختلاف أذواق المستهلكين وتفضيلاتهم . كذلك لايدخل فى تلك النفقات ولا فى أسباب تفاوتها نفقات نقل وتوزيع الطاقة الكهربائية والتي تصل في العادة إلى نحو ٥٠ - ٦٠٪ من نفقات التوليد فى موقع المحطة .

ولكن التفاوت بين الحدين الأعلى والادنى يعكس التفاوت الناتج عن : (أ) اختلاف الموقع ، حيث لوحظ فى الولايات المتحدة خلال السنوات الأخيرة أن التكلفة تتفاوت بنسبة ١ إلى ٥ نتيجة لاختلاف الموقع .(ب) اختلاف التكنولوجيا المستخدمة ، حيث تبين أن استخدام كل من فرنسا واليابان لنظام التنميط قد وضع النفقة فيهما قريبة من الحد الادني (ج) ادخال تعديلات اثناء بناء المفاعل : ومن الامثلة الحديثة على ذلك ارتفاع التكلفة الرأسمالية للمفاعل البريطانى Sizewell B خلال عامين من ١,٧ مليار جنيه استرلينى إلى ٢ مليار منهما حوالى ٢٠٠ مليون جنيه نتيجة لادخال تعديلات علي التصميم وادخال معدات اضافية أثناء التنفيذ .(د) اضافة هامش معقول فى تقدير النفقات لمواجهة عوامل اللايقين Uncertainty اللصيقة بتقدير النفقات .

ونخلص مما تقدم إلى أن التكلفة الفنية للطاقة النووية قد لا تتفوق على نظيرتها فى حالة التوليد الحراري إلا إذا تجاوز سعر المازوت ١٠٠ دولار للطن

وسعر الفحم ٧٠ دولاراً الطن . ولا يدخل في تلك المقارنة نفقات تفكيك ودفن المفاعل بعد انتهاء صلاحيته كما لا يدخل فيها تكاليف التخلص من النفايات المشعة أثناء تشغيله .

انكماش الطاقة النووية :

بلغت القدرة النووية المركبة عام ١٩٦٢ نحو ٣٢٩ ميجاوات موزعة على ٤٢٤ مفاعلا في ٣٠ دولة وبذلك حلت الكهرباء النووية في عام ١٩٩٤ محل ما يمكن توليده باستهلاك ٥٧٣ مليون طن من النفط، وفي مواجهة عوامل الضعف التي اخذت تحيط بمسيرة الطاقة النووية، وخاصة بعد حادثى TMI وتشيرنوبل وبعد انهيار اسعار النفط عام ١٩٨٦ واستمرار تدهور تلك الاسعار من حيث القيمة الحقيقية ، اخذت الدول التي تحمست في البداية للطاقة النووية وتوسعت في بنائها تبطىء أو تلغي تنفيذ ما سبق اصداره من أوامر ببناء مفاعلات جديدة ، كما عمد البعض إلى وضع برامج للتخلص مما تم بناؤه وتشغيله بالفعل .

ففي الولايات المتحدة ، وكنتيجة لحادث TMI لم يصدر منذ ١٩٧٩ وعلى مدى ١٥ عاما ، امر ببناء مفاعل جديد ، كما توالى الغاء بعض الطلبيات التي سبق صدورها . كذلك اعيدت ، في اعقاب TMI صياغة النظم والاشتراطات الحكومية . التي تمنح على أساسها التراخيص النووية بحيث صارت أكثر صرامة وابهظ كلفة، وهو ما انعكس في ارتفاع التكلفة عموما. ولا ينفي ذلك أن الصناعة قد شهدت خلال تلك الفترة بعض التحسينات التكنولوجية التي خفضت النفقة في بعض مكوناتها، ومن تلك استخدام اسلوب الانتشار الغازى Gas-eous diffusion بدلا من اسلوب الطرد المركزى Centrifuge في اغناء الوقود.

وفي الكتلة السوفيتية سابقا أدى حادث مفاعل تشيرنوبل في ١٩٨٦ إلى تركيز الانظار على مخاطر المفاعل الذي تعرض للحادث وهو من نموذج RBMK الذي كان يمد الاتحاد السوفيتي بحوالي نصف الطاقة النووية المولدة فيه وينتشر أيضا في دول شرق أوربا . كذلك تبين عند فحص المفاعل السوفيتي WER في المانيا عقب توحيد شطريها، وهو المفاعل الذي كان يمد المنطقة السوفيتية بنحو ٢٪ من الطاقة النووية، أنه غير آمن Un-safe. ومازالت الزوبعة التي اثارها تشيرنوبل تلاحق الصناعة من زوايا مختلفة، ومن ذلك وقف بناء ١٣ مفاعلا من المفاعلات الثمانية عشر التي كانت تحت الانشاء لحساب دول الكومنولث المستقلة.

وكانت اوربا الغربية من اسبق المناطق في التوسع في استخدام الطاقة النووية، حيث بلغ نصيبها في عام ١٩٩٢ نحو ٣٦٪ من الطاقة النووية في العالم، كما بلغ نصيب الطاقة النووية نحو ٤١٪ من اجمالي الكهرباء المولدة في اوربا الغربية في العام المذكور. غير أن مظاهر الانكماش النووى اخذت تظهر في اغلب دول اوربا الغربية بحيث لم يعد لأية دولة اوربية مفاعلات تحت الانشاء سوى فرنسا (٩ مفاعلات)، بل واتجهت بعض الدول إلى التخلص تدريجيا مما لديها بالفعل مثل السويد وسويسرا . كذلك اوقفت اسبانيا استكمال ٥ محطات نووية كانت قد صدرت الاوامر ببنائها، وتواجه الطاقة النووية معارضة قوية في دول أوربية أخرى مثل المانيا وهولندا والنرويج وكانت بريطانيا من اسبق الدول في أوربا الغربية

مفاعل نووى متوسط
فـــى [illegible]

فى تنفيذ برنامجها النووى، ولكنها اخذت تتباطأ فى التنفيذ بعد اكتشاف النفط فى بحر الشمال وايضا نتيجة لضغط نقابات عمال الفحم الذى يستخدم فى توليد الكهرباء. وقد نجحت بريطانيا عام ١٩٨٨ فى خصخصة قطاع الكهرباء باستثناء قطاع الطاقة النووية الذى اخفق فى اجتذاب الاستثمارات المطلوبة لعدم قدرته على منافسة الطاقة المولدة بالمصادر التقليدية.

ويرتبط بما تقدم ما يثار من شكوك حول مدى كفاية احتياطيات اليورانيوم لمواجهة احتياجات العالم إذ يرى البعض أن الاعتماد على تكنولوجيا الجيل الحالى من المفاعلات، وهو المفاعل الحرارى المحول Converter سوف يؤدى إلى نضوب احتياطيات اليورانيوم خلال فترة قد لاتتجاوز أعمار المفاعلات العاملة حاليا وما هو تحت البناء، ومن هنا اتجهت بعض الدول الى تطوير المفاعل المولد السريع Fast breeder reactor وهو المفاعل الذى يولد من الوقود أكثر مما يستهلك منه إذ يرفع المستخدم من الوقود النووى بنحو ٦٠-٧٠ مرة مثل المفاعل الحرارى، ولكن تكنولوجيا المفاعل المولد السريع مازالت للآن أكثر تعقيدا وأشد خطورة وأعلى كلفة من المفاعل الحرارى ولذلك تكاد الدراسات تجمع على أن ذلك المفاعل لن يدخل الخدمة على مستوى تجارى واسع خلال المستقبل المنظور.

محاولات إحياء الطاقة النووية:

لم يستسلم انصار الطاقة النووية للهزيمة رغم ما حاق بها من انكماش، من هذا المنطلق بذلت ومازالت تبذل جهود حثيثة بقصد احيائها والدفاع عن دورها، ولو فى المستقبل البعيد، وسنحاول فيما يلى ان نرصد أهم مظاهر المساندة التى تلقاها تلك الصناعة فى الوقت الحاضر:

١- تتجه الجهود العالمية الى تحسين مستوى الامان فى المفاعلات النووية، والاعتماد على أسلوب التنميط Standardization فى التصميم والتشغيل ووضع معايير متجانسة لنظم واشتراطات الامان، ومن ثم يمكن تحسين الاداء فنيا واقتصاديا. ومن ناحية أخرى تستهدف تلك الجهود تحسين كفاءة التمويل والادارة وذلك بتشجيع الشركات العاملة فى هذا المجال على الاندماج، أو اشتراك أكثر من شركة فى الوحدة النووية بدلا من اسنادها الى شركة واحدة. وقد أنشئ عدد من الهيئات المحلية والدولية للمعاونة فى تلك التحسينات ففى الولايات المتحدة انشئ معهد تشغيل الطاقة النووية INPO لدراسة مشكلاتها ووضع الحلول المناسبة لها. وفى أعقاب حادث تشير نوبل انشئت فى عام ١٩٨٩ الرابطة العالمية لمشغلى الطاقة النووية WANO وذلك بهدف تعظيم مستوى الامان فى جميع المفاعلات من خلال تبادل المعلومات والاتصالات بين اعضائها. ويساند هذه الجهود ما تبذله هيئات الطاقة النووية المحلية فى كل دولة وما تبذله أيضا الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA والتى يحاول أعضاؤها توسيع اختصاصها فيما يتعلق بأمور السلامة والامان النووى.

٢- تضمنت سياسة الطاقة الامريكية التى أعلنت فى خريف ١٩٩٠ أن الطاقة النووية سوف تصبح مصدرا مهما من مصادر الطاقة فى الولايات المتحدة بحلول

عـام ٢٠٣٠، وإن كـانت لم توضح كـيف سيتحقق هذا الهدف.

وقـد صـدر فـي عـام ١٩٩٢ القـانون الذى تبنى سـياسـة الطاقـة الأمـريكيـة مـسـتـحـدثا نظامـا جـديدا لإصـدار التـراخـيص النووية وهـو مـا يؤدى إلى خفض المخاطر المالية وتحسين اقتصاديات المشروع النووى وتبدو أهمية هذا الاجراء فى حالة الولايات المتحدة إذ تتفاوت فيها التكلفة بنسبة واحد إلى خمسة نتيجة لاختلاف الموقع والتفرد فى التصميم.

ومن ناحية أخرى يقوم معهد بحوث الطاقة الكهربائية EPRI فى الولايات المتحدة باعداد دراسة تستهدف تنميط المفاعلات وخفض نفقاتها. ويساند المعهد في جـهده برنامج مـفاعل الماء الخـفيف المحسن ALWR الذى تتبناه كل من وزارة الطاقة الامـريكية وصناعـة الطاقة النووية.

٣- وفى خط مـواز للخط الامـريكى تقـوم أوربا الغـربيـة بتشـجـيع التنميط وتحسين نظم التشغيل، ومن ذلك ما يقوم به المشـروع الفـرنسى الالمانى المشـترك Nuclear power international لتصميم وبناء الجيل الجديد من مفاعلات الماء الخـفـيف ويسـتـهـدف هذا المشـروع بالاضـافة الى التحسين التكنولوجى ازالة المنافسـة القـائمـة حـاليـا بين مـخـتلف المفـاعـلات الاوربيـة، وهـو مـا يؤدى الى تخفيف المخاطر وخفض النفقات، ومن ذلك ايضـا مـا يقـوم به البـرنامج الاوربى لمسـتلزمـات شـركـات الكـهـرباء EUR مستهدفا توحيد نظم واشتراطات الامان فى كل الدول الاوربيـة . ومـتى تحـقق هذا الهـدف ولقـيت الشـروط الموحـدة قـبـولا عريضا فى أوربا الغربية أمكن اقناع دول الكتلة السوفيتية باستخدام معايير مماثلة وبصـفـة خـاصـة دول شـرق ووسط أوربا التى تسعى للانضمام للاتحاد الاوربى.

ومن ناحية أخرى، فقد انتهت مفوضية الاتحـاد الاوربى من اعـداد تقـرير شـامل استـغـرق عـدة سنوات ويعـالج صناعـة الطاقة النووية فى اطار السـياسـة العـامة للطاقة فى الاتحاد الاوربى.

ويتضـمن التـقـرير مـشروع بروتوكول الطاقة النووية الذى سيلحق بميثاق الطاقة الأوربى European Energy Charter والذى يضـم ٥٠ دولة من بينهـا دول الكتلة السوفيتية. كذلك يتضمن التقرير مقـترحات لتحسين مسـتوى الامـان فى مفاعلات المنطقة السوفيتية ويناقش أنواع المفاعلات التى ستستخدم فى دول الاتحاد الأوربى خلال القرن القادم.

٤- وتقف اليـابان مـوقـفـا فريدا فى تبني الطـاقــة النووية والتــوسـع فى استخدامها ، وهو أمر يجد ما يبرره فى ارتفـاع درجة اعتمادها على الاستيراد لتوفير احتياجاتها من الطاقة، وبصفة خاصة النفط الذى تستهدف خفض درجة اعتمادها عليه من نحو ٥٥٪ حـاليا إلى ٤٧٪ بحلول عام ٢٠١٠.

ويلحق باليابان فى الاقبال على الطاقة النووية كـوريا الجنوبيـة، وفـرنسـا التى قـاربت أن تبلغ نقطة التـشـبع النووى، ثم عدد من الدول النامـية مثل الهند وتايوان والبرازيل وكوريا الشـمـالية واندونيسيا ورومانيا وارمينيا، ولكن لا يتوقع أن يكون لحجم الطلب فى الدول النامية تأثير كبير فيما يتعلق بانعاش الصناعة بعد ان تخلى عنهـا كـبـار المسـتـهلكين على نحـو مـا أوضحنا .

مصر في عام ١٩٠٠

بقلم: د. عاصم الدسوقي

يعد عام ١٩٠٠ حدا فاصلا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وفي هذا العام الذي اعتبره مجمع القرنين، كانت مصر تخلع رداء القرن التاسع عشر وتودعه، وتستقبل القرن العشرين في ثوب مختلف، تختلط فيه الألوان الجديدة بالألوان القديمة، وتتقاطع فيه الخطوط الرأسية بالافقية بالمتعرجة. وفي السطور التالية محاولة للتعرف على ملامح هذا الثوب بين العام المشترك والخاص المتفرد.

مع أواخر القرن التاسع عشر كانت بعض التحولات في مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قد اكتملت، وأصبحت تمثل الملامح التي دخلت بها مصر عالم القرن

وفى مقدمة هذه التحولات تبلور طبقة اجتماعية من ملاك الأراضى الزراعية، من خلال عدة قوانين وقرارات خاصة بتنظيم الانتفاع بالارض الزراعية منذ أواخر عصر محمد على (١٨٣٧م) أنتهت مع أزمة الديون فى عصر إسماعيل بإقرار حق الملكية القانونية.. وكانت الشريحة العليا من هذه الطبقة (كبار الملاك) قد بدأت العمل السياسى بشكل محدود ومحدد فى إطار الحياة النيابية التى شجعها الخديو إسماعيل كركيزة له فى مواجهة التدخل الأجنبى فى إدارة البلاد.. ثم تعاظم هذا الدور بعد عزل إسماعيل وتعيين ابنه توفيق حاكما وعندها بدأت القوى الأجنبية وخاصة إنجلترا تسفر



لمسة حب علي طريقة أول القرن العشرين

عن حقيقة نياتها فى احتلال البلاد متكئة على مصالح الدائنين. وعند ذلك التقت مصالح العناصر المصرية داخل الجيش مع أصحاب المصالح الزراعية الجدد، وبدأت الحركة الوطنية التى عرفت بالثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) والتى انتهت بالاحتلال البريطانى.

كان الاحتلال البريطانى بعد إنهاء «استقلال» مصر الذى استطاع محمد على أن يحققه للبلاد بشكل أو بآخر منذ انفراده بالحكم ١٨٠٥، وعلى هذا بدأت المطالبة بالجلاء والاستقلال والمقاومة. وبعد فترة من التهدئة التى فرضتها ظروف الرقابة البريطانية على الحركة السياسية، وشعور المصريين بعمق مأساة الهزيمة ونفى الزعماء إلى سيلان بالهند، ظهر مصطفى كامل على مسرح الحياة الوطنية بشكل محدود وغير ظاهر فى عام ١٨٩٠ وهو لايزال بالمدرسة الثانوية من خلال صحافة المدرسة ومن خلال ما كان يبثه من مشاعر وطنية فى خطاباته إلى أصدقائه.. ثم بشكل معلن منذ عام ١٨٩٤ فى فرنسا ومصر من خلال اللقاءات مع رجال السياسة فى عصره، ومن خلال الخطب السياسية فى كافة المنتديات والتجمعات.

● تناغم بين الوطنية والسلطة

وفى عام ١٨٩٨ والقرن التاسع عشر يوشك على المغيب التقى مصطفى كامل بالخديو عباس حلمى الثانى حاكم البلاد، فأصبح للحركة الوطنية بعد متفرد ومغاير عن طبيعتها أيام أحمد عرابى، إذ توحدت المشاعر بين الزعامة الوطنية الممثلة فى مصطفى كامل وبين قيادة البلاد الممثلة فى الخديو الحاكم، وذلك على عكس التنافر الذى كان قائما بين أحمد عرابى والخديو والذى نفذت من خلاله القوى الأجنبية إلى مصر.. وكان الخديو عندما تولى الحكم فى ١٨٩٢ وهو فى ريعان الشباب قد راعه أن يرى الإنجليز وقد سيطروا سيطرة تامة على الإدارة فى البلاد، فاعتزم أن يضع حدا لهذا الأمر.. ومن هنا وجد فى مصطفى كامل الذى كان فى عمره (ولد الاثنان فى عام ١٨٧٤) ضالة منشودة يتكيء عليه فى مقاومته للاحتلال البريطانى.. ورغم أن مصطفى كامل قطع علاقته بالخديو بعد الوفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا



صورة من شرفة القصر للخديو عباس (من اليسار) والأميرة خديجة اسماعيل
والامير محمد على

١٩٠٤ وتخلى الخديو عن فكرة المقاومة، فإن ما يعنينا فى هذا الخصوص ان مصر دخلت القرن العشرين والتناغم قائم بين صوت الوطنية ممثلا فى مصطفى كامل وسلطة الحكم الممثلة فى الخديو عباس حلمى ضد الاحتلال البريطاني.. وفى الوقت نفسه كانت الحركة الوطنية ترى فى فرنسا حليفا طبيعيا لها بسبب التناقض الفرنسى البريطانى حول السباق الاستعمارى.. ومثلما كان مصطفى كامل يستند إلى فرنسا، فقد كان يرى فى الدولة العثمانية أيضا سندا قويا، وكان قدرها عنده عظيما إذ قال فى أبريل ١٨٩٧ «أنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطنا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز».

وفى عام ١٩٠٠ كان مصطفى كامل قد أنشأ جريدة اللواء اليومية وكذا مجلة اللواء الشهرية. كما ألقى أشهر خطبه السياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية (٢ يونية ١٩٠٠) والتى شرح فيها الحالة السياسية فى مصر وشحذ عزيمة المصريين بالنضال من أجل استقلال الوطن.

وبتأثير ثقافة مصطفى كامل القانونية اصطبغت الحركة الوطنية بالصبغة القانونية التى كان أصحابها يرون أن الإحتلال الإنجليزى لمصر إجراء غير قانوني ويطالبون من ثم بتطبيق القانون دون ادراك ان الاحتلال إجراء غير مشروع أصلا.. ويجب الا ننسى أن مصطفى كامل التحق بمدرسة الحقوق لأنها تعلم الإنسان حقوق الأفراد والأمم.. وقد امتد تأثير هذه الصبغة على الحركة الوطنية حتى ثورة ١٩١٩.

مجلس شوري القوانين

ولقد نمت هذه الحركة بطبيعة الحال خارج إطار المؤسسة التشريعية فى مصر والتى كانت تخضع آنذاك لارادة المعتمد البريطاني. والحقيقة أن الاضطرابات السياسية التى وقعت فى مصرمنذ ١٨٧٩ وحتى وقوع الاحتلال قد عصفت بمجلس شورى النواب الذى كان إسماعيل قد أنشأه فى ١٨٦٦ وكان بمثابة الظهير للثورة العرابية ضد التدخل الأجنبى.. وفى أعقاب الاحتلال وحتى لا تبدو بريطانيا



محطة مصر .. كوبري الليمون ١٩٠٤



حديقة الازبكية فى أوائل القرن الحالي

«الديمقراطية» معادية للديمقراطية فى مصر، بادرت بإنشاء مجلس شورى القوانين فى العام التالى للاحتلال (أى فى ١٨٨٣) كان نصف أعضائه بالتعيين (١٦ عضوا من ثلاثين عضوا). ولم يكن لهذا المجلس كما يبدو من اسمه، سلطة قطعية فيما يعرض عليه من الشئون، بل أكثر من هذا تميز دور انعقاده لمدة عشر سنوات تقريبا (حتى ١٨٩٢) بالخضوع التام والاستسلام للإرادة البريطانية.. ثم بدأت الحياة تدب فى المجلس نسبيا مع تولى الخديو عباس الثانى الحكم وتبنيه للروح الوطنية، وإن كانت على استحياء ودون تشدد، إذ بدأ المجلس يعارض تقارير الموازنة العامة التى يضعها المستشار المالى الإنجليزى ويعارض اقرار نفقات جيش الاحتلال، وإن كان يقر كل الأمور فى النهاية.. ويبدو أن هذه المعارضة كانت بتأثير رئيس المجلس إسماعيل باشا محمد (رئاسته من ١٨٩٨ - ١٩٠٢) الذى كان من خاصة أصدقاء مصطفى كامل.

والواقع أنه مع نمو طبقة ملاك الأراضى الزراعية وقيادة الشريحة العليا منها للعمل السياسى كانت ثمة طبقات اجتماعية أخرى تتبلور وتتشكل بتأثير مجمل التحولات الاقتصادية التى شهدها المجتمع المصرى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر فبعد القضاء على سياسة الاحتكار التى أقامها محمد على، أصبح المنتج المصرى حرا فى العملية الإنتاجية وفى التصرف فى منتجاته، وانفتحت السوق المصرية أمام رأس المال الأجنبى. وكان لهذا التحول تأثيره على طبيعة الشرائح الاجتماعية التى كانت قائمة فى ظل قاعدة الاحتكار، إذ تدهورت طوائف الحرف ولم تستطع منافسة الواردات الأجنبية، واستقطبت عناصرها للعمل فى مشروعات رأس المال الوافد، بل لقد ألغيت الطوائف كتنظيمات مهنية فى عام ١٨٩١، وانشطرت الطائفة إلى شريحتين: شريحة تضم أصحاب المشروعات (النقابة المهنية)، والأخرى تضم العمال (النقابة العمالية).

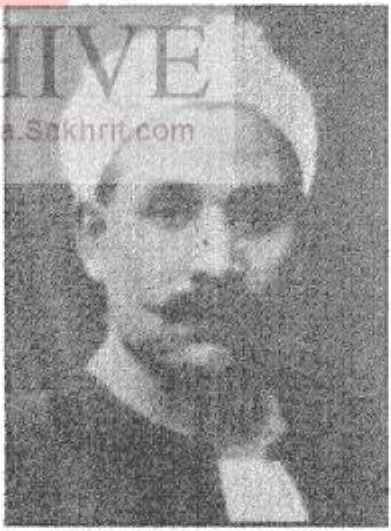
وكانت الشريحة الأولى تمثل بذرة طبقة أصحاب رءوس الأموال التى نمت فيما بعد والتحق بها المغامرون من الأجانب الذين وفدوا مع مناخ (الانفتاح) وكونوا شركات صناعية



الشيخ سلامة حجازي



الخديو عباس حلمي الثاني



مصطفى لطفي المنفلوطي



المطربة ألمظ

وتجارية وزراعية وبنوكا للتمويل وتجميع المدخرات وقد ضمت هذه الطبقة نسبة كبيرة من كبار ملاك الأراضى الزراعية من المصريين الذين بدأوا فى نقل جزء من ريع الأرض إلى مجال الاستثمارات التجارية والصناعية .

أما الشريحة الثانية من طائفة الحرفة فقد أصبحت تمثل أساس طبقة العمال الصناعيين من الصبية والأسطوات ، وكانت تتسع تدريجيا بفعل تركز رأس المال.

كما بدأت الطبقة الوسطى تتكون بفعل سياسة التعليم المدنى الحديث وتوظيف المتعلمين ، وأصبحت تضم المهنيين من المتعلمين وكذا الموظفين.

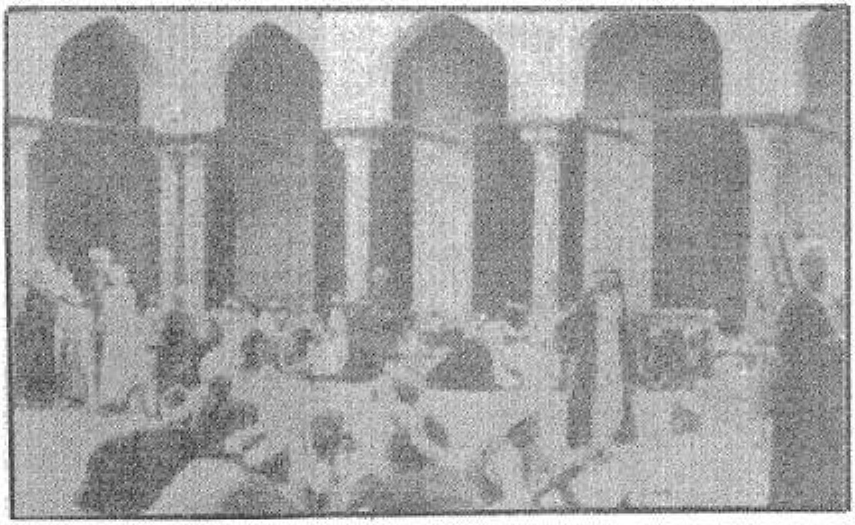
● تمصير الوظائف

وعند نهاية القرن التاسع عشر كان دور الأتراك فى مستويات الإدارة والسياسة والذى كان قائما فى مصر منذ فجر الغزو العثمانى يقترب من الانتهاء وذلك من خلال سياسة تمصير الوظائف التى بدأها محمد على ووسع الخديو إسماعيل دائرتها، ومع إحلال اللغة العربية محل التركية فى الدواوين ونمو الطبقة الوسطى من المتعلمين المصريين وتوقف ورود عناصر تركية من الأناضول ، ازدادت العناصر التركية فى مصر تمصرا وانتهى وجودها كطبقة متميزة وذاب أفرادها فى طبقات المجتمع المصرى كل حسب موقعه .

وقبيل أن ينتهى القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدأت سياسة تحرير الرقيق حيث تم تحرير أكثر من عشرين ألف عبد عند نهاية القرن . وقد أفاد هذا التحرير سوق العمل الحر مع تغلغل الاستثمارات الأجنبية .

والحق أن الطبقات الاجتماعية الجديدة فى مصر قد استوعبت فى صفوفها عناصر غير مصرية بتأثير حرية انتقال الأجانب إلى مصر مع انكسار سياسة الاحتكار الاقتصادى وقد كان لهذا تأثيره على حركة هذه الطبقات التى كانت نهبا لعدة ولاءات وفى نهاية القرن كانت مصر قد عرفت طريق الاضرابات العمالية فى المؤسسات التى كانت تضم الأجانب بشكل أساسى وعرفت أسلوب المواجهة الطبقية .

أما من الناحية الثقافية فقد كانت مصر فى عام ١٩٠٠ (عام مجمع



صحن الجامع الأزهر

الدفعة الأولي من مدرسة السنية والصورة تضم التلميذة نبوية موسى



القرنين) تزخر بصفوة من المثقفين من رجال الأدب والسياسة والعلم والفن وكان هذا بتأثير المناخ الفكرى الذى أشاعه الخديو إسماعيل . فمن المعروف أن إسماعيل بعث النهضة العلمية من مرقدها فأحيا التعليم المدرسى بمختلف مستوياته وكان قد تجمد فى أعقاب القضاء على تجربة محمد على وأخذ فى التدهور حتى لقد وصف خلفاؤه بكراهيتهم للعلم والتعليم . وبادر إسماعيل بإعادة ديوان المدارس وأعاد سياسة البعثات ، وشجع إنشاء الجمعيات العلمية والأدبية ، وشجع إنشاء الصحف وقد أدت هذه المؤسسات دوراً فعالاً فى تنمية المجتمع المصرى ثقافيا وسياسيا .

وعلى هذا ففى عام ١٩٠٠ كانت هناك عدة مدارس عالية وثانوية وابتدائية وصناعية ومدارس للبنات، ومدارس أوروبية لأبناء الإرساليات الدينية. ومن الهيئات العلمية التى كانت قائمة فى ذلك العام: المجمع العلمى الذى كان قد أنشىء أيام الحملة الفرنسية، وجمعية المعارف لنشر الثقافة من خلال التأليف والطباعة والنشر، والجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها .

● منابر سياسة فكرية

وبتأثير المناخ الثقافى الذى أوجده إسماعيل عرفت الصحف العلمية والأدبية والسياسية طريقها إلى مصر وقد تولاها نخبة من العلماء والأدباء المصريين والسوريين. وكان أبرز هذه الصحف فى عام ١٩٠٠: الأهرام، والوطن، والكوكب المصرى، ومرآة الشرق، والمقتطف، والمؤيد والهلال، والمقطم، واللواء، وأبو نضارة.. فضلا عن الوقائع المصرية. وكانت جميعها بمثابة منابر سياسية وفكرية التقت على صفحاتها مختلف التيارات الفكرية والسياسية التى كان لها دورها فى إنضاج الشخصية المصرية ووضعها على عتبات القرن العشرين .

وبدأ المثقفون العائدون من البعثات يفرضون وجودهم على ساحة الحياة الفكرية وقد تأثروا بطبيعة الحال بالحياة الأوروبية التى أطلوا عليها من حيث حرية الرأى فى ظل حياة نيابية دستورية كانوا يتطلعون إليها فى بلادهم المحتلة . وقد وجد هؤلاء طريقهم إلى الصالونات الفكرية



نساء المدينة جئن من الريف فى أوائل القرن

الشيخ محمد عبده فى اسوان عام ١٩٠٠



والمنتديات الأدبية التى انتشرت فى مصر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من ذلك صالون لطيف سليم باشا ، ومنتدى السيد البكرى وصالون أحمد تيمور وصالونات السيدات عائشة التيمورية والأميرة نازلي هانم فاضل والأميرة الكسندرة وعلى يد هؤلاء المثقفين تمت عملية نقل الأعمال الفكرية الأوربية إلى اللغة العربية بما تحمله من رؤى وأفكار وقيم.

وبتأثير هذا المناخ الثقافى والفكرى كانت مصر فى عام ١٩٠٠ قد قطعت شوطا عظيما فى رحلة الاستنارة وكانت كتابات مدرسة الطهطاوى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد ملأت الأسماع وأحدثت تراكما معرفيا بدرجة ملحوظة . وكانت الكتب ومقالات الصحف وأحاديث المنتديات الأدبية تدور حول النظرية السياسية وسلطات الدولة، والتعريف بأنواع الحكومات، والفصل بين السلطات، والحقوق المدنية ، والفرق بين الحاكم المقيد والحاكم المطلق، وأفكار التسامح الدينى ، وإمكانية أن يكون العقل مصدرا للحكم، وكتابات عن العدل والاستقرار بين الناس واعتبارهما معيار الحكم الصالح، وارتباط أخلاق المحكومين بأخلاق الحكام فى اعتلالها واستقامتها (راجع هنا كتابات الطهطاوى: تخليص الإبريز، ومناهج الألباب، وأيضا كتابات على مبارك فى علم الدين ، ونخبة الفكر).

كما كان البحث فى وحدة التاريخ المصرى واستمراريته رغم تعاقب الشعوب الوافدة والغازية قد بدأ قبيل أن ينتهى القرن التاسع عشر بسنوات قليلة (راجع كتاب اتربى أبو العز: الدر المنتخب فى تاريخ المصريين والعرب ١٨٩٤ ، وكتاب ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ١٨٩٨-١٩٠٠).

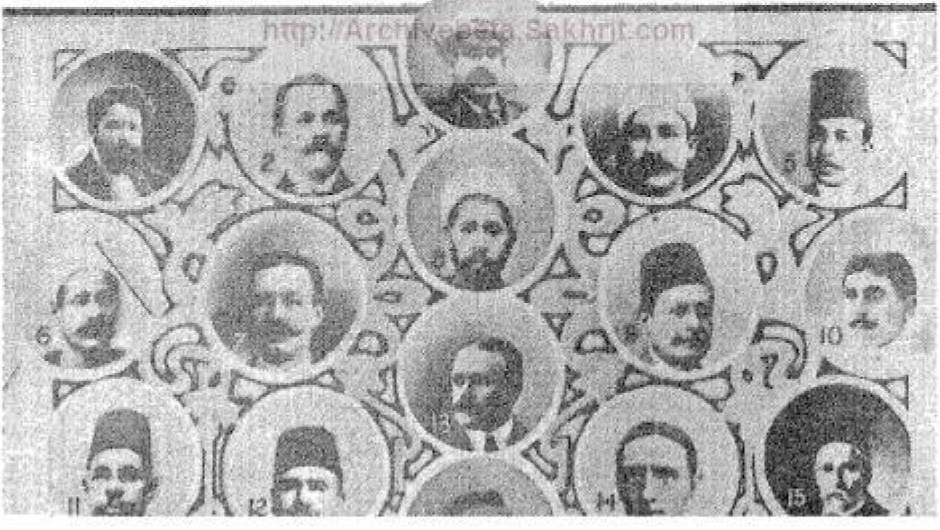
● الهوية المصرية

وفى تلك الفترة كان الجدل محتدما بين عدة مفاهيم وشعارات حول الهوية المصرية والشخصية الوطنية .. وهل يكون للوطن عقيدة واحدة يلتزم بها الجميع .. وأهمية أن يعيش الجميع فى تسامح فى ظل وئام وطني. ولقد كان السبب المباشر لهذا الجدل المثير شعار الجامعة الإسلامية الذى أطلقه جمال الدين الأفغانى وتلقفه السلطان

عبدالحميد ووظفه سياسيا فى إطار صراعه مع الغرب الأوربى (المسألة الشرقية). ومن الكتابات التى كانت ملء الأسماع والقرن التاسع عشر فى نهاياته ما كتبه أحمد لطفى السيد الذى رفض تأسيس الوطن على مذهب دينى واحد وقال إن الدين ليس بكاف وحده ليجمع بين الأمم إذ لايجمع بين الناس سوى المنافع ، وإن دار الاسلام ليست للمسلم بوطن ذلك أن وحدة الاعتقاد الدينى ليست كافية لإقامة التضامن الوطنى (المؤيد ١٨٩٢)، وشاركه فى هذا الرأى الشيخ على يوسف فى جريدة الآداب قبل أن يصدر جريدة المؤيد .

وقد طرح آخرون البديل المتمثل فى حرية المعتقد واختياره لأن الدين مرجعه إلى يقين صاحبه إذ كان للناس اختيار حتى فى أشد البلدان استبدادا (أخنوخ فانونس فى جريدة مصر ١٨٩٦) . ومن ناحية أخرى تم التأكيد على أن المصريين من ذرية واحدة ، وأن المسلمين منهم ليسوا إلا أقباطاً اتخذوا الإسلام دينا لهم (المؤيد ١٨٩٤)، وهو ما قاله مصطفى كامل نفسه فى ١٨٩٧ حين أكد أن القسم الأكبر من مسلمى مصر مصريون من

مجموعة من أبرز الصحفيين فى مصر . يظهر فى الصورة مصطفى كامل والمنفلوطى والشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش و د. صروف صاحب جريدة المقطم وصحفيون اجانب عملوا فى الصحف المصرية الناطقة باللغات الأوربية



نسل الفراعنة الأولين، وأن اعتناق الإسلام لايغير الدم المصرى .

ومن ناحية أخرى اقترب دعاة التنوير من الوضع المتدنى للمرأة فى مجتمع القرن التاسع عشر الذى كان مجتمع الرجل ، وتكلموا كثيرا عن حقوقها كفرد فى إطار الجماعة وحريتها التى يجب ألا تتجزأ ومساواتها بالرجل . وهكذا .. والقرن التاسع عشر آخذ فى الانتهاء ومن وحى مناخ فكر الاستنارة كتب قاسم أمين مجموعة مقالاته فى جريدة المؤيد عام ١٨٩٩ والتى نشرها فى كتابه الشهير «تحرير المرأة».

فى هذا المناخ الثرى ظهرت شخصيات مرموقة فى عالم السياسة والأدب والفن كانت تمثل وصلة بين الأجيال ومدخلاً لعالم القرن العشرين ويكفى أن نذكر أنه فى عام ١٩٠٠ كانت الناس تردد أسماء مصطفى كامل باعث الروح الوطنية، وأحمد لطفى السيد، وسعد زغلول وكان قاضياً بمحكمة الاستئناف ومن رواد صالون نازلى فاضل، وقاسم أمين، والشيخ محمد عبده أكتب العلماء وأعلم الكتاب كما وصفه لطفى المنفلوطى فى مختاراته، وإبراهيم المويلحى أستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب، وعائشة التيمورية طليعة اليقظة النسوية كما وصفتها الأديبة مـى، ومحمد طلعت حرب رجل الاقتصاد، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل باشا صبرى (وكيل وزارة الحقانية ١٨٩٩)، وأحمد محرم نابغة البحيرة كما وصفه مصطفى كامل.

وفى مجال الموسيقى والغناء والتمثيل كانت دار الأوبرا قائمة، وكذا المسرح الكوميدى بالأزبكية ومسرح زيزنيا بالأسكندرية .

وهكذا .. دخلت مصر القرن العشرين وهى تقاوم الاحتلال البريطاني سياسيا من خلال حياة نيابية غير مكتملة ، وبأقلام نخبة من المثقفين الذين حملوا لواء العقل وأشاعوا فكر الاستنارة في الصحافة والجمعيات والمنتديات للتأكيد علي تحرير العقل ، وتحرير الإنسان ، وتحرير المرأة ، ووحدة الوطن . وكانت تلك الشخصيات منارة هادية لجيل القرن العشرين .



اسكندر فرح



زوجة قاسم أمين



مدام ميشيل اول
محامية مصرية

شارع عباس الذى تحول بعد ذلك إلى شارع الملكة نازلى



صناع القرن العشرين

جزء خاص

رجل القرن

سعد أم عبد الناصر ....؟



بقلم

د. يونان لبيب رزق



مصطفى كامل



محمد فريد

..والقرن العشرون قد آذنت شمسه على مغيب. وبينما ينكب باحثو المستقبليات على استشراف آفاق القرن الجديد.. الواحد والعشرين، فإن الباحثين فى التاريخ ينقبون فى أوراق القرن الراحل باعتبارهم باحثين عن الماضى. هذا من جانب. ولضرورة عملهم للمتطلعين للمستقبل الذين يؤسسون تصوراتهم على مجريات هذا الماضى، من جانب آخر.

والتنقيب فى أوراق الماضى فى مصر، وعلى امتداد نحو مائة عام يفرز مجموعة لا تنتهى من صور الرجال الذين صنعوا المسار التاريخى العام لهذا القرن.. بعضهم بقبعات وآخرون بعمائم أو طرابيش وآخرون بكابات (!)، الأمر الذى يتوجب البحث عن جملة من المعايير يتم من خلالها اختيار ما آثرت «الهلال» أن تسميه برجل القرن!



جزء خاص

أول هذه المعايير تتصل بادراك البديهية التى قد يتغافل عنها حتى بعض العاملين فى حقل البحث التاريخى وهى أن عظمة الشخصية ترتبط فى العادة بقدرة صاحبها على استيعاب معطيات العصر الذى عاشه و اتلاؤم معها من جانب. وقيادتها من جانب آخر. مما يجعله فى النهاية صانعا لحركة التاريخ وليس لمجرد ترس من تروسها!

المعيار الثانى أن يكون الحكم على هذه الشخصية فى إطار عصرها فلا نطلب من عرابى أن يكون مصطفى كامل ولا نطلب من سعد زغلول أن يكون جمال عبدالناصر. فلكل عصر رجاله ولا يعرف التاريخ ذلك التوصيف الذى أطلق على المفكر والسياسى الانجليزى المشهور. السير توماس مور. توصيف «رجل لكل العصور»!

معيار أخير متصل بسابقه فإن المفاضلة بين من يمكن أن نوصفهم برجال القرن لا تتطلب بالضرورة تغليب شخصية على أخرى وهى آفة من آفات السياسة انتقلت لسوء الحظ لكتابات المؤرخين مما خلق تناحرا ظاهرا بين حقب العمل الوطنى المصرى.

فالحركة الوطنية التى تنامت ضد الاحتلال أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى، والتى قادها كل من مصطفى كامل ومحمد فريد قد أدانت بشدة عرابى ورفاقه تأسيسا على سببين:

أولهما : أن سوء إدارة هؤلاء للعمل الوطنى هو الذى أفضى فى النهاية الى وقوع البلاد تحت هيمنة الاحتلال البريطانى . وثانيهما: الموقف المتخاذل الذى اتخذه زعيم الثورة خلال فترة منفاه فى جنة آدم المسماة بجزيرة سيلان. حين بعث بخطاباته المتتالية للملكة فيكتوريا يلتمس منها العفو. الأمر الذى انعكس على استقباله فى محطة القاهرة بعد أن عاد الى ارض الوطن حيث لم يجد فى انتظاره الا بضعة أفراد لا يزيدون على أصابع اليدين!

دام هذا التناحر بعد طى صفحة الحركة الوطنية السابقة على الحرب العالمية الأولى، بوفاة زعيمها الأول مصطفى كامل (١٩٠٨) وبعده محمد فريد الذى توفى فى المنفى (١٩١٩) فى نفس توقيت اشتعال الثورة المصرية الشهيرة ، وكانت مصادفة غريبة، وإن كانت لها دلالات، ويبدأ أهم تلك الدلالات فى حالة التواصل التى عرفتها الحركتان.

ولم يأت الرفض هذه المرة من الحركة الوطنية الوليدة التى احتفت احتفاء ظاهرا بعودة جثمان محمد فريد من المنفى وإنما جاء من الزعامات الجديدة للحزب الوطنى، أحمد لطفى ثم حافظ رمضان التى ارتأت أنها قد قدمت التضحيات والوفد قطف الثمار.

وقد بدا هذا الرفض فى مسلك الحزب الوطنى بطول الفترة الممتدة حتى عام ١٩٥٢، حين تحالف مع كل القوى المعادية للوفد بدءا من القصر فى عهدى، فؤاد

وفاروق، ومرورا، بعهد صدقى بكل ما عرف عنه من سوء سمعة، وانتهاء باستخدام ثورة يوليو فى سنيها الأول لبعض شخوصهم، كان أشهرها سليمان حافظ، للقضاء على ما تبقى من الوجود الوفدى.

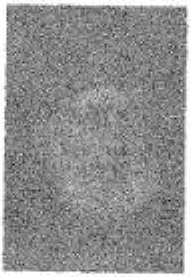
لعل ذلك يقودنا للحركة الوطنية فى مرحلتها الأخيرة.. حركة ما بعد يوليو عام ١٩٥٢ والتى قام زعماؤها بكل الوسائل بنفى وجود الآخرين. خاصة الحركة الوطنية فى مرحلتها السابقة، ومعلوم أن بعضا من ضيقى الأفق من رجالها كانوا كثيرا ما يرددون هذه المقولة الآثمة فى حق التاريخ وهى أن «تاريخ مصر قد بدأ عام ١٩٥٢»، وهى مقولة عانى منها كثيرون من المشتغلين بالكتابة التاريخية، وإن كان قد استثمرها آخرون من هؤلاء المشتغلين!

تأسيسا على كل هذه المعايير يمكن ان ننطلق بحثا وتنقيبا عن رجل القرن فى مصر.

* * *

مصطفى كامل، سعد زغلول، جمال عبد الناصر، يكاد يتفق المؤرخون على أنهم يشغلون مكانة متميزة فى الوجدان الوطنى العام للمصريين، وإن لم يكن هذا رأى بعض المشتغلين بالكتابة التاريخية!

بعض هؤلاء يختارون اسماعيل صدقى باعتباره شخصية متميزة لم تسع الى تملق مشاعر الجماهير، وانه نجح فى ذات الوقت من خلال سياسة عملية محددة أن يخرج بمصر سليمة من الأزمة الاقتصادية العاتية التى عرفها العالم فى مطلع الثلاثينيات، غير أن كل الدلائل تشير إلى أنه اذا كان الرجل قد احتل مكانا فى الوجدان الوطنى المصرى، فقد كان فى البقعة المظلمة من هذا الوجدان!



محمد على

البعض الآخر يغلب الاعتبار الاقتصادى على اختياراته فيضع رجل البنوك الشهير طلعت باشا حرب فى مكان الصدارة، ومع أن تلك الشخصية كانت، ولاتزال، تحتل مساحة واسعة من الوجدان الوطنى المصرى، ومع إنه لم يبق من آثار جميع رجال القرن الذى كاد ينصرم ما بقى من طلعت حرب، فإن المقارنة لا تجوز بين الزعماء السياسيين وبين رجال الاعمال فلكل منهم أدواته، ولكل منهم منطقه، وإن اتفقوا فى النهاية فى الدور الفعال الذى يؤدونه فى خدمة الوطن.

وحتى لا نغفل أيا من وجهات النظر فهناك من رجال الفكر السياسى من لعبوا دورا يرى البعض معه إنهم يستحقون أن يحظوا باللقب، لقب رجل القرن ويضعون فى الطليعة من هؤلاء استاذ الجيل الاستاذ أحمد لطفى السيد.

وينبغى هنا التمييز بين صنفين من العاملين فى الحقل السياسى، ذلك

الصنف الذى تعامل مع الوقائع بمنطق فهم الحاضر واستشراف المستقبل، وهو الصنف الذى حظى بالقدر الاكبر من الشعبية والمكانة الاوسع فى التاريخ، وقسم آخر انصرف للمستقبل دون أن يلقى بالا كافيا للحاضر، ويندرج فيه الاستاذ . ولعل التجربة التى خاضها فى انتخابات الجمعية التشريعية عام ١٩١٣ تقدم الدلالة على ذلك.

● **عطف العقلاء!**

فرغم الشهرة العريضة التى كانت للرجل فقد سقط فى تلك الانتخابات أمام أحد عمد الدقهلية . وكانت البرقية التى وصلته من سعد زغلول فى تلك المناسبة وجاء فيها «لئن سقطت فى الانتخابات فلك عطف العقلاء» تعبر بدقة عن ماهية هذا النوع من الرجال.. النوع الذى يكتسب مكانة خاصة بين الصفوة الذين اسماهم زغلول بالعقلاء.. ولكن لا تمتد الى القطاع العريض من المصريين المهتمين بالسياسة.

يبقى أخيرا التنبيه الى رؤية غير مصرية لرجل القرن فى مصر، فعديد من أصابع الكتاب الانجليز تشير الى اللورد كرومر الذى استمر معتمدا لبلاده فى مصر لنحو ربع قرن (١٨٨٣ - ١٩٠٧)، وقد رأى هؤلاء أن ذلك السياسى هو الذى أخذ بيد المصريين وادخلهم القرن العشرين من خلال جملة الاصلاحات التى أدعى فى كتابه المعروف «مصر الحديثة» أنه ادخلها على البلاد. حتى أن بعضا من هؤلاء قد اطلقوا عليه التوصيف الذى طالما اطلق على محمد على .. مؤسس مصر الحديثة The Founder of Modern Egypt ، بيد أن هذه الرؤية تبقى مقصورة على هؤلاء، ولا تمتد الى الوجدان الوطنى العام الذى استمر ينظر للرجل من منظور مختلف.. الاستعمارى الذى مكن للوجود الاحتلالى فى البلاد.

ومن خلال كل هذه المقارنات يبقى من جملة رجال القرن العاملين فى حقل السياسة ثلاثة يؤدى وضعهم تحت الفحص التاريخى لانتقاء أحدهم الى لعبة أقرب الى لعبة الكراسى الموسيقية (!). مصطفى كامل. سعد زغلول وأخيرا جمال عبد الناصر.

ومع أن الأول يبقى فى ضمير الأمة المصرية ذا مكانة خاصة للدور المتميز الذى قام به فى بث حركتها الوطنية بعد فترة كمون اعقبت فشل الثورة العرابية غير إنه يخرج مبكرا من المنافسة على كرسى «رجل القرن» ولجملة من اسباب.

فالفترة القصيرة جدا التى قضاها فى العمل السياسى خلال هذا القرن والتى لم تبلغ السنوات الثمان انهارت فيها جملة الركائز التى اعتمدها فى صياغة الحركة الوطنية إبان تلك الفترة التى نحكم عليه فى إطارها..

ركيزة أولى: الاعتماد على صاحب العرش، عباس حلمى الثانى، لضخ اسباب الحياة فى تلك الحركة، وهو الاعتماد الذى كان مرهونا بحجم العداء بين الخديو وبين دار المعتمد البريطانى ، ومعلوم انه ما أن

بدأ هذا العداء فى الانحسار حتى سحب عباس من تأييده للحركة الوطنية. بكل ما استتبع ذلك من صراعات داخل هذه الحركة كان اظهرها الصراع الذى احتدم بين الحزب الوطنى الذى قاده كامل وبين رجال الخديو على رأسهم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، الصحيفة الواسعة الانتشار فيما جرى فى القضية المعروفة باسم قضية الزوجية التى حدثت عام ١٩٠٤.

الركيزة الثانية: والتى انهارت فى ذات العام تمثلت فى توجه الحركة الوطنية فى ظل زعامة الرجل الى تدويل القضية المصرية بالنظر الى ما وراء الحدود.. خاصة الى فرنسا، وكان ماجرى فى نفس العام ١٩٠٤ من الاتفاق الفرنسى - الانجليزى المشهور الذى غل يد حكومة باريس من التدخل فى الشئون المصرية ضربة قاضية لهذا الاتجاه سببت احباطا شديدا للعاملين فى الحركة الوطنية المصرية عبر عنه مصطفى كامل فى خطبة مشهورة ألقاها على مسرح زيزينيا بالاسكندرية واعرب فيه عن رأيه بان هذا الاتفاق المشئوم ضربة جديدة لوطننا العزيز ولم اكن انتظر من فرنسا مجاراة انجلترا فى نسيان الوعود والعهود!

الركيزة الثالثة : بدت فى اعتماد الرجل للعثمنة باعتبارها طوق الانقاذ للوطن المصرى، وهو فى ذلك عانى من انفصام غريب بينه كممثل لهذا الوطن، وكأحد رموز التيار العثمانى . وكان فى ذلك مشدودا للماضى أكثر منه مستشرفا للمستقبل . الامر الذى ادخله فى محاولة تلفيقية للتوفيق بين النقيضين.


أحمد لطفى السيد

وصل هذا التلفيق الى حد الأزمة خلال الحادثة الشهيرة المعروفة بطابا، حين واجه الرجل خيارين أحلاهما مر، بين أن يقبل التفريط فى قطعة من التراب الوطنى لحساب العثمانيين وبين أن يتمسك بها ويبدو منحازا لذات الموقف البريطانى . وقد آثر الخيار الأول الامر الذى عرضه لانتقادات شديدة وأدى فى نهاية الامر الى بروز تيار جديد فى الحركة الوطنية، هو التيار الذى مثلته مجموعة من اسموا انفسهم اصحاب المصالح الحقيقية . والذى أصدر فيما بعد «الجريدة» وشكل «حزب الأمة» الذى قام على اتهام الرجل بالتفريط.

كان معنى ذلك ببساطة أن جملة الرهانات التى وضع عليها مصطفى كامل كل حاضره السياسي جاءت رهانات خاسرة، وإن بدت خلال عصر الرجل رهانات رابحة، بمعنى آخر ان الرجل راهن على الحاضر اكثر مما راهن على المستقبل . واحتلال مكانة خاصة فى التاريخ للرجال الذين راهنوا على الاثنين الحاضر والمستقبل . ولعل ذلك ما ادى الى انحسار هذه المكانة لمن راهن على

الحاضر فقط (كامل) ، أو لمن راهن على المستقبل فقط (لطفي السيد) بينما من راهن على الاثنين توفر في التاريخ المصرى للرجال قليلين.

بخروج مصطفى كامل من حلبة السباق لا يبقى من زعماء القرن سوى اثنان وكرسي واحد.. سعد زغلول وجمال عبدالناصر . ونجرى أولا وراء الأول قبل أن نلهث وراء الأخير!.

ليس صحيحا ما هو شائع من ان زغلول قد خرج من صفوف الشعب المصرى ليصنع هذه الزعامة الاسطورية، فالدراسة الحقيقية لتاريخ حياة الرجل تؤكد إنه قد خرج من قلب النظام.

على المستوى الاجتماعي كان أحد كبار ملاك الأراضي الزراعية وصهرا لرئيس النظار مصطفى باشا فهمي الذي كان يمثل أنئذ قمة من قمم الطبقة التركية الحاكمة.

وعلى الصعيد السياسي وزيرا للمعارف (١٩٠٦ ـ ١٩١٠) ، ثم وزيرا للعدل (الحقانية) خلال العامين التاليين. ورغم استقالته من هذا المنصب فقد نجح في الانتخابات التي جرت عام ١٩١٣ التي أدت ليس فحسب الى دخوله الجمعية التشريعية وإنما الى أن يصبح وكيلا لهذه الجمعية.

بيد أن ما أكسبه هذه المكانة المتميزة داخل ذلك النظام أصوله المصرية القحة الامر الذى دعا كرومر الى تقديمه للوزارة باعتباره أحد هذه الوجوه في مواجهة تعالى أصوات الاحتجاج من رجال الحزب الوطنى بان «المصريين غرباء في وطنهم».

احتل هذه المكانة أيضا بسبب المعارك التي خاضها ابان احتلاله لمنصب وزير المعارف مع المستشار البريطاني للوزارة.. المستر دوجلاس دنلوب خاصة حول قضية التعريب والانجليز . الأمر الذي اكسبه شعبيه كبيرة حتى بين صفوف الحزب الوطني، بيد انه أفقده في نفس الوقت تأييد دار المعتمد البريطاني.

وقد قاد ذلك الرجل في نهاية الأمر الى أن يخوض معركة الانتخابات للجمعية التشريعية عام ١٩١٣ عن دائرتين في القاهرة فيفوز بهما. ولأن يخوض بعد ذلك معركة الوكيل المنتخب داخل الجمعية فيفوز بها ايضا، وهو الفوز المزدوج الذي اضفى عليه من أسباب الشرعية الشعبية ما مهد له الطريق لقيادة ثورة عام ١٩١٩ . والحركة الوطنية بعدها وحتى وفاته عام ١٩٢٧ .

ويبدو عمر زغلول في احتلال مكان الزعامة المصرية قصيرا إذ لم يزد على ثمان سنوات الا قليلا، وكانت سنوات عاصفة لمصر وعاصفة لسعد، وبكل المقاييس.

فمن بين تلك السنوات الثمانية قضى سعد نحو عامين في المنفى، صحيح أن الرجل كان في خاطر المصريين، وعلى نحو غير مسبوق خلال تلك السنوات، غير إنه في النهاية كان اسيرا في إحدى

مستعمرات الامبراطورية .. مالطة أو سيشل أو جبل طارق.

من مظاهر الحدة ايضا تلك العلاقة الساخنة بين الرجل والسلطة ولا نقصد بها هنا سلطة الاحتلال فحسب بل سائر أطراف السلطة.. قصر عابدين. الوزارة . البرلمان.

السلطان فؤاد الأول، والذى اعتلى عرش مصر بلقب الملك بعد عام ١٩٢٢، استمر يبث العراقيل فى وجه «الزعامة الزغلولية» وبمختلف الوسائل . خاصة بعد النجاح الساحق الذى أحرزه الرجل والوفد فى الانتخابات التى جرت أواخر عام ١٩٢٣

المعارك بين الرجلين حول تشكيل الوزارة سواء ما اتصل بتمثيل الاقباط أو ما تعلق بالمكانة الاجتماعية لبعض الوزراء الذين اختارهم سعد والتى ارتآها الملك لا تتفق مع مكانة الوزارة (الغرابلى).

معركة أخرى حول تطبيق الدستور فيما حدث فى قضية تعيين خمسى أعضاء مجلس الشيوخ، وهى المعركة التى وصلت الى حد قبول التحكيم من قاض بلجيكى فى المحاكم المختلطة (فان دن بوش)، والتى انتهت بفوز زغلول، وهو الفوز الذى لم ينسه فؤاد للرجل.

لم يكن ثمة غرابة إذن أن يقتنص الملك فرصة حادثة اغتيال السردار أواخر عام ١٩٢٤ التى انتهت الى استقالة الوزارة الزغلولية تحت وطأة الإنذار البريطانى ، ليأتى بوزارة ملكية . هى وزارة أحمد زيور التى صرفت كل همها لطعن الزعامة الزغلولية وفيما تطوله من أنحاء جسدها !.

● عداء لسعد زغلول!

يقودنا ذلك إلى المؤسسة الثانية التى وإن كان زغلول قد ترأسها لنحو عام أو أقل قليلا فإنها بقيت بامتداد السنوات الثمانية معادية لزعامته سواء وقد تألفت من أنصار للملك، فيما حدث فى عهد الوزارة الزيورية «١٩٢٤ ـ ١٩٢٦»، أو من المنشقين عليه الذين أسسوا حزب الأحرار الدستوريين، والذى بلغ ذروته خلال العامين السابقين على تأليف وزارة الشعب برئاسته عندما بدا وكأن الأمة قد انقسمت بين سعديين وعدليين، وكان المستهدف الحقيقى من وراء هذا الانقسام ضرب الزعامة الزغلولية.

وينسحب ما جرى فى هذه المؤسسة على آخر المؤسسات التى شهدت تحديا لقيادة الرجل، ونقصد به الوفد نفسه، الذى عرف انشقاق مجموعة الأحرار الذين استمروا يشكلون أكبر الأحزاب السياسية المنافسة لفترة غير قصيرة وشاركوا فى كل المحاولات الساعية الى ضرب قيادة زغلول، ولو اقتضى الأمر التواطؤ مع من رأتهم الأمة أعداءها، سلطات الاحتلال أو قصر عابدين فيما تكرر فى اكثر من مناسبة خلال تلك السنوات القصيرة.

ورغم هذه التحديات المتعددة للقيادة الزغلولية فانه يبقى لهذه الشخصية دورها الشديد التميز فى الضمير الوطنى المصرى الذى قد لا يعدله سوى دور عبدالناصر رغم اختلاف الظروف

واختلاف الشخصيتين، وهو تميز تؤكده مجموعة من السمات.

فطريق الرجل امتلأ بالعثرات .. النفى، محاولات الاغتيال الجسدى والمعنوى ، خصومة أعتى القوى على مسرح السياسة المصرية، ولم يكن له من سند فى أغلب أوقات توليه قيادة الزعامة الوطنية سوى المساندة الشعبية، الأمر الذى يمكن القول معه إنه قد احتل مكانته بمساندة من لم يثق فيهم خصومه أو منافسيه وأثبت انه قد اختار الطريق الصحيح.

على الجانب الآخر يقدم سعد زغلول نموذجا فريدا للصلابة الوطنية وهى السمة التى اشترك فيها المتسابقون الثلاثة على كرسى «رجل القرن» بيد أنها كانت عند زغلول أقوى مما كانت عند رفيقيه ولأسباب نراها..

فقد تفرد فى جانب بنجاحه خلال سنى حياته الأولى فى الانخراط فى الارستقراطية المصرية، وهو ما لم يكن قد توفر لزميليه اللذين كانا من أبناء الطبقة الوسطى، وبالنسبة لعبد الناصر الشريحة الصغيرة منها، مما كان يجرد صلابته من أى طموحات شخصية.

يزداد هذا الامر تأكدا بملاحظة انه بينما دخل المتسابقان الآخران ميدان النضال الوطنى بكل تبعاته وهما فى ريعان الشباب، كامل فى العشرينات، وعبدالناصر فى الثلاثينات. فان زغلول قد دخله وهو فى الستينات مما يجعل صلابته محل تقدير لاشك فيه.

ويقدر العلاقة العدائية مع السلطة التى جسدها زغلول فان آخر المتسابقين على كرسى «رجل القرن»، جاء من أقوى مؤسساتها.. المؤسسة العسكرية.. جمال عبد الناصر، وكان يمكن أن يخرج من مجال السباق من أول دورة لولا انه قد تمرد عليها، هذا فى جانب واستخدمها لدفع عجلة التاريخ من جانب آخر، وهو الاستخدام الذى كان نعمة فى أحد جوانبه ونقمة فى الجانب الآخر!

التمرد على السلطة بدا فى ضربه لأهم رموزها . فيما جرى فى دوره فى التخلص من القصر، بعزل الملك ١٩٥٢ ثم بالغاء الملكية ذاتها خلال العام التالى.

بدا أيضا فى النجاح فى التخلص من قوات الاحتلال البريطانى بعد أكثر من سبعين عاما، فى اتفاقية الجلاء الشهيرة فى أكتوبر عام ١٩٥٤ والتى مهرها بتوقيعه الى جانب توقيع السير رالف ستيفنسون سفير المملكة المتحدة فى العاصمة المصرية.

بدا ثالثا فى ضرب طبقة الباشوات والبكوات التى استمرت تحكم مصر خلال ما يزيد على قرن من خلال سياسة قص الاجنحة.. الاجتماعية فيما بدا فى قانون الإصلاح الزراعى الشهير، والسياسية بجملة المحاكمات التى أجراها لهم خلال الأعوام الاولى من الثورة، وبحل الأحزاب.

وقد اتاحت المرحلة التاريخية التى تصدى فيها عبد الناصر لقيادة الامة

المصرية للرجل أن يصنع زعامته الاسطورية.

فقد عرفت تلك المرحلة انتهاء الاستعمار القديم وتآكل الامبراطورية العجوز بعد أن كانت الجيوش البريطانية قد جلت عن درة التاج، الهند، عام ١٩٤٧، وما تبع ذلك من جلاء تلك الجيوش عن سائر البلدان المحيطة مما وفر الفرصية لظهور البيئة السياسية التى صنعت الزعامة الناصرية..

جانب من هذه البيئة بدأ فى ظهور عالم الدول الصغيرة التى تحررت من الاستعمار والتى ارتأت حماية تحررها من خلال شكل من اشكال التنسيق بدأ منذ مؤتمر باندونج الشهير والذى كان بمثابة الميلاد لصناعة الزعامة الناصرية على مستوى العالم الثالث. وهى صناعة تضاف فى النهاية لرصيده كأهم المتسابقين حول الكرسى!

جانب آخر صنعته الحركات الوطنية فى العالم العربى التى لم يقف الرجل منها موقف المتفرج مما قاده الى الصدام الشهير مع الدولتين الاستعماريتين العتيدتين. انجلترا وفرنسا. عام ١٩٥٦، وهى الحرب التى خرج منها بطلا للعالم العربى بغير منازع.

● عبد الناصر زعيم بلا حدود

ونظن أن عبدالناصر كان الزعيم الوطنى الوحيد فى العصور الحديثة الذى تخطت زعامته الحدود المصرية، وهو بذلك قد اكتسب مكانة لم يكتسبها أى من الزعماء المصريين بمن فيهم زغلول، الذى لقى اعجابا عربيا لكنه لم يرق الى حد الزعامة

والملاحظ أن الرجل فى كل ذلك قد استخدم آلة الدولة المصرية لصنع زعامته الوطنية والعربية، وهى وإن كانت قد وفرت له الوسيلة السهلة فإنها قد قادت فى نهاية الامر الى إمكان ضرب مشروعه القومى بكل ما صحب ذلك بعدئذ من التشكيك فى الانجاز الذى قدمه لوطنه والذى سعى الكثيرون خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ الى تشويهه.

ومن ناحية أخرى فقد أفضى هذا الاستخدام الى تركيز السلطة فى ايدى الرجل على نحو غير مسبوق فى التاريخ المصرى، ربما منذ عهد محمد على باشا. وهو التركيز الذى نتج عنه على المستوى السياسى ظاهرة مراكز القوى. وترتب عليه على المستوى التاريخى اتهام الرجل بضرب الديمقراطية حتى انه لا يحلو لخصومه التاريخيين أن يقدموه فى صورة أكثر من صورة عدو الديمقراطية.

ومن ناحية أخيرة فقد عني ضرب الدولة التي توحد معها الرجل فيما حدث عام ١٩٦٧ ضرب زعامته . خاصة وأن أكثر ما تعرض للضرب كان المؤسسة العسكرية التي خرج منها عبد الناصر.

يبقي أخيرا ونحن نلهث وراء المتسابقين الرئيسيين في لعبة الكراسي الموسيقية أن نعترف انه علينا أن نلهث الي ماشاء الله فمن الصعب أن يحدد مؤرخ مهما كان قدره من الذي يمكن أن يفوز منهما بلقب رجل القرن!.

جزء خاص

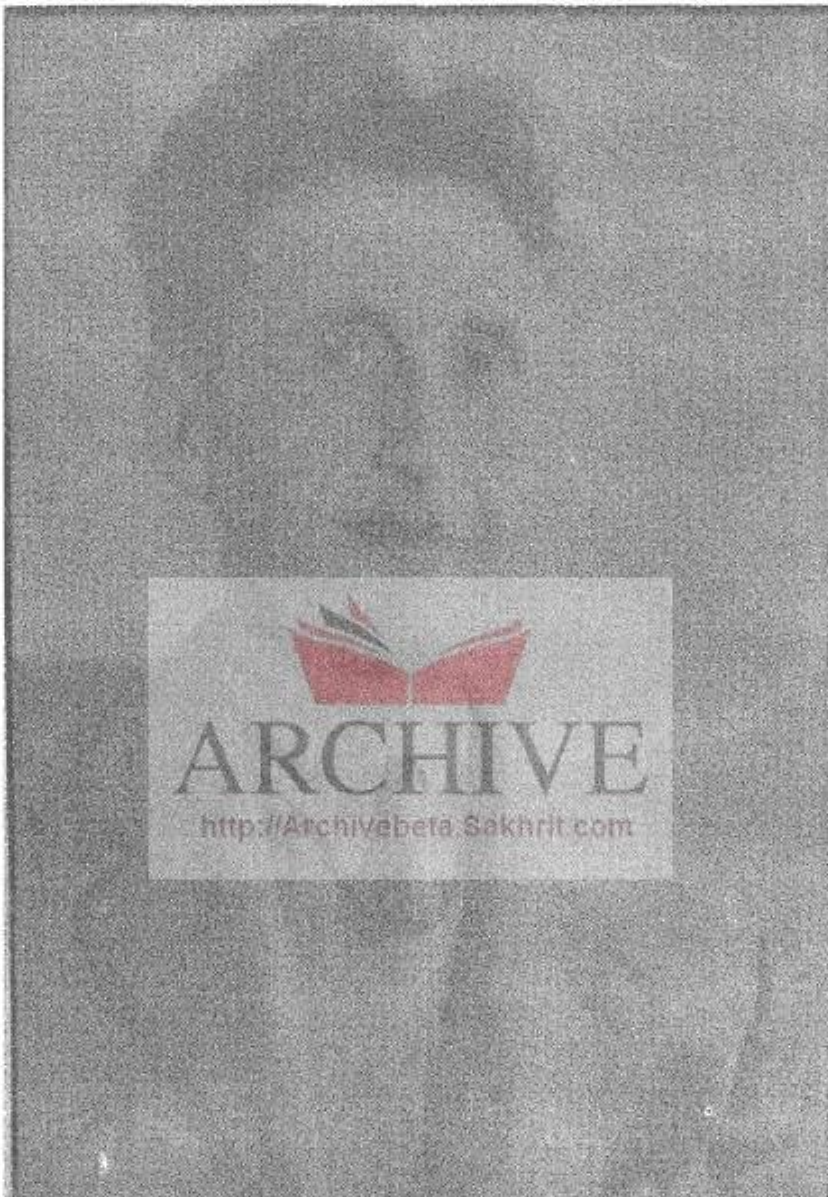
جورج أورويل

ضمير القرن العشرين

بقلم : د . جلال أمين

●● إذا زعم أحد ، كما سأزعم أنا ، أن جورج أورويل هو بلاشك «أحد صانعى القرن العشرين» ، وواحد من أكبر المؤثرين فى فكر هذا القرن ، فإن قلة من الناس قد تعترض ، وكثيرين قد يوافقون ، ولكنهم سيعطون لذلك تفسيرات مختلفة قد لا تكون كلها صحيحة وغرضى من هذا المقال أن أبين حجم هذا الأثر الذى تحقق لأورويل فى فكر هذا القرن ، وما أعتبره التفسير الحقيقى لهذا الأثر ●●

لقد ولد جورج أورويل فى مطلع هذا القرن (١٩٠٣) ، ومات فى منتصفه بالضبط (١٩٥٠) ، وكانت روايته التى نشرت قبل أقل من سنة من وفاته والتى سماها (١٩٨٤) ، قد أحدثت دويا شديدا وتحقق أورويل من نجاحها قبل أن يموت ، ولكنى لا أظن أنه كان يتوقع أن تظل هذه الرواية مقروءة ومطلوبة ومؤثرة طوال الخمسين عاما التالية ، وما أظن أنه كان يتوقع أن أعماله بوجه عام سوف تحظى باهتمام متزايد مع مرور الزمن ، وأن تزداد شعبيته سنة بعد أخرى بدلا من أن تخبو وتنطفىء ، وأن تصبح عبارة «عالم جورج أورويل» أو «العالم الأورويلى» تعبيرا مشهورا ومستقرا فى الفكر السياسى ، يفهم الناس المقصود منه إذا ذكر فى أى



چورج أورويل

جزء من العالم .

لقد اختار أورويل اسم الرواية (١٩٨٤) ، كما يقال باعتباره الترتيب المعكوس لرقمى السنة التى كان يكتبها فيها (١٩٤٨) ، وكان قد اختار لها اسم «آخر رجل فى أوروبا» ، ثم غيره ، وربما كان هذا الاسم الذى اختاره فى البداية أقرب إلى مقصده : فبطل الرواية رجل يظل حتى آخر لحظة يقاوم تسلط الدولة على حياة الناس وعقولهم ومشاعرهم ، ويحاول محاولة مستميتة الاحتفاظ بفكره المستقل ضد جبروت الدولة وطغيانها ، ولكن الرواية تنتهى بفشله ، وكان بهذا «آخر رجل فى أوروبا» يحاول هذه المحاولة، ويمكن للقارىء أن يتصور كيف يكون العالم بعد فشل هذه المحاولة الأخيرة : عالم رهيب ، هو ما يقصد الآن بعبارة «العالم الأورولى» يفقد فيه الناس أى قدرة على التصرف أو التفكير باستقلال ، وتسيطر فيه وسائل الإعلام سيطرة تامة على عقول الناس ومشاعرهم ، وتوجههم فى أى اتجاه ترى الدولة أن من مصلحتها توجيههم إليه . عالم من الناس وقد تحولوا إلى قطيع متجانس تمام التجانس ، فاقد لأى قدرة على الإبداع أو التخيل ، بل والقدرة على الحب والكراهية ، إلا على النحو الذى تقرره الدولة وتبثه وسائل الإعلام

كانت فكرة رائعة ، ظلت تدور فى ذهن أورويل وترهق جسمه العليل سنوات طويلة قبل أن يجلس لكتابتها ، وعندما أتمها وأعاد قراءتها أصابه الابتئاس إذ رأى فيما كتب «فكرة جيدة أفسدتها» على حد تعبيره ، وكان يقصد أن تنفيذ الفكرة كان أقل بكثير من مستوى الفكرة نفسها

وربما كان أورويل على صواب فى هذا إلى حد ما ، فالرواية تتسم أحيانا بالشطط والمبالغة ، وتتحول أحيانا من رواية إلى بيان سياسى . ولكنها مع ذلك لا تفقد أبدا عنصر التشويق ، وتظل بالطبع تعبيرا عن فكرة رائعة وخيال خصب ، وأهم من هذا وذاك أنها تعبر عن مصدر حقيقى للقلق على مستقبل البشرية .

○ أحد كبار صانعى القرن

هذا القلق المخلص والصادق مائة بالمائة على مستقبل البشرية هو فى رأيى السمة الأساسية التى تميز جورج أورويل عن غيره ، وهو ما يجعله، فى رأيى، أحد كبار صانعى القرن العشرين ، وواحدا من أكبر المؤثرين فى فكر هذا العصر ، وهو الذى ضمن لرواية (١٩٨٤) وللرواية الأصغر والسابقة عليها مباشرة (مزرعة الحيوانات Animal Farm) هذا

النجاح الباهر والانتشار الواسع حتى هذه اللحظة .

لقد قيل فى الروايتين ، «مزرعة الحيوانات و١٩٨٤» ، حين صدورهما فى سنتى ١٩٤٥ ، ١٩٤٩ ، على التوالى ، أن أورويل كان يقصد بهما نقد الاشتراكية السوفييتية . وأظن أن هذه النظرة سطحية للغاية . أما الاشتراكية فلا أعتقد ان أورويل غير رأيه فيها طوال حياته ، منذ أن كتب كتابه الذى يصعب تصنيفه هل هو رواية أم مجرد تسجيل بديع لحياة التشرد والضياع فى باريس ولندن (Down and Out in paris and- London) ، (نشر فى سنة ١٩٣٣) ، وحتى روايته الأخيرة (١٩٨٤) ، مرورا بمحاولته رسم صورة دقيقة بقدر الإمكان لما تعنيه البطالة فى الواقع فى كتاب (The Road to Wigan Pier) المنشور فى سنة ١٩٣٧ . إن كل كتابات أورويل تقريبا تكشف عن تعاطفه القوى مع الفقراء ، واحتقاره ونفوره الشديد من الطبقات الطفيلية فى المجتمع الإنجليزى ، التى كان هو نفسه ينتمى إلى إحداها وفضل أن يهجرها إلى الأبد وان ينضم إلى فريق المتشردين الضالين فى شوارع لندن وباريس على أن يساير طبقته الاجتماعية فى نفاقها وإعجابها بنفسها

بل ربما كان هذا النفور من طبقته الاجتماعية ، وما كان يرى فيها من رياء هو الذى دفعه إلى تغيير اسمه من «إيريك بلير» (Eric Blair) وهو اسمه الحقيقى إلى جورج أورويل وهو اسمه المستعار الذى اشتهر به ووضعه على كل كتبه ، وربما كان هذا هو السبب الذى دفعه أيضا إلى البحث عن وظيفة فى بورما بعيدا عن حياة الطبقة الوسطى الإنجليزية، ولكنه فى بورما عانى من نفس الشعور بالنفور والاحتقار لحياة الاستعماريين الإنجليز هناك وطريقة معاملتهم لأهل البلاد التى أتوا لاستغلالها، فكتب روايته الجميلة «أيام فى بورما» (Burmese Days) (نشرت فى سنة ١٩٣٤) .

هذا التعاطف القوى مع صغار الناس والمستضعفين فى الأرض لم يفقده أورويل طوال حياته ، ولكنه منذ اشتراكه فى الحرب الأهلية الأسبانية فى الثلاثينيات ، فقد ثقته فى الماركسيين والشيوعيين والدولة السوفييتية ، ومن المؤكد أيضا انه فقد إلى الأبد أى وهم يتعلق بالاعتقاد بأن حل مشكلة الفقر يمكن أن يأتى على يد «الدولة المستبدة» .

وشيئا فشيئا أصبحت الدولة المستبدة هى شغله الشاغل وهمه الحقيقى ، ومع ما

رآه من تطور سريع فى التكنولوجيا خلال الأربعينيات ، أخذ يسيطر عليه أكثر فأكثر، الخوف من أن يؤدى التقدم التكنولوجى إلى أن تصبح الدولة القوية التى تملك القدرة على التحكم فى وسائل التكنولوجيا الحديثة ، خاصة فى مجال الإعلام ، فى أكبر الأخطار التى تهدد حرية الإنسان واستقلاله الفكرى وكرامته عبر عن هذا فى البداية بطريقة عابرة ولكنها مؤثرة فى رواية صغيرة اسمها «محاولة لاستنشاق الهواء» (Coming up for Air) (نشرت فى ١٩٣٩) ، ثم عبر عنه بقوة أكبر بكثير فى «مزرعة الحيوانات» ، ثم استجمع كل قواه للتعبير عن مخاوفه من الدولة التكنولوجية الحديثة فى روايته الأخيرة (١٩٨٤) .

لاشك فى أن «مزرعة الحيوانات» كانت مستوحاة استيحاء مباشرا من تجربة الاتحاد السوفييتى ، ولكن من المؤكد أن رواية ١٩٨٤ كانت ترمى إلى شىء أبعد بكثير ، وكان أورويل يريد بها أن يلفت نظر الناس ، بأقصى ما يستطيع من قوة، إلى ما يهددهم من أفكار غسيل المخ فى ظل الدولة الحديثة ، أيا كانت الشعارات التى ترفعها هذه الدولة : اشتراكية أو رأسمالية أو فاشية والذى يعرف نمط الحياة فى بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تكنولوجيا ، كالولايات المتحدة مثلا ، يستطيع أن يرى فى كثير من مظاهر الحياة فيها ما يذكره بشدة برواية أورويل (١٩٨٤) . يكفى فقط أن تقارن التليفزيون الأمريكى وعاداته ونوع أثره فى الناس ، بجهاز «التليسكرين» فى رواية (١٩٨٤) ، واللهجة الهستيرية التى يستعملها المذيعون هنا وهناك ، ودرجة غسيل المخ التى يخضع لها المشاهد فى الحالتين .

☆ ☆ ☆

على أنه لا يعرف أورويل حقيقة من لم يقرأ مقالاته ، وأنا أميل ، مع كثيرين ، إلى الاعتقاد بأن مقالات أورويل أهم بكثير من روايتيه الشهيرتين . هو أولا كاتب مقال متميز وفريد ، ولا يكاد ، فى رأيى ، يكون له مثيل فى الأدب الحديث . وأنا لا أقصد فقط ولا أساسا سلاسة أسلوبه المنقطعة النظير ، ووضوحه التام ، وجمله القصيرة الخالية من أى لغو ، وأنك تقرؤه فتحس دائما بأن إنسانا من لحم ودم يكلمك ويصدقك القول ، وعدم ارتياحه للفصل بين

العام والخاص ، الموضوعى والشخصى ، بسبب شعوره بأن هذا الفصل ينطوى على تضحية بجزء من الحقيقة ، وهو يريد الحقيقة كاملة بقدر الإمكان . لا أقصد هذا فحسب أو فى الأساس ، وإنما أقصد ذلك الخيط المستمر فى كل مقالاته ، والذى يجعلك تشعر بأنك بانتقالك من قراءة مقال له إلى مقال آخر ، مهما كان اختلاف الموضوعين ، لا تغير الموضوع فى الواقع ، وإنما فقط تنتقل إلى جزء آخر من الصورة ، على أمل أن تظفر فى النهاية بالحقيقة الكاملة . هذه الوحدة الفريدة فى كتابات أورويل ، تنجم فى رأيى عن شيئين: الأول هو صدقه الدائم مع نفسه ومع قارئه ، والثانى شدة انشغاله ببعض الهموم الفكرية العامة والتى تأبى أن تفارقه. صحيح أنه كان متعدد الاهتمامات : يحب الطبيعة حبا جما ، وعاشق للفن والأدب ، ومشغول فى نفس الوقت بقضايا السياسة الدولية وقضيتى الحرية الفردية والفقر .. الخ ، ولكن عمق اهتمامه بهذه القضايا وقوة شعوره بها حولاها من قضايا عامة إلى قضايا شخصية ، فإذا به وهو ينتقل من تناول قضية إلى أخرى لا يدعك تشعر بأنك تنتقل من موضوع إلى آخر بل بأنك مستمر فى صحبة هذا المرشد العاقل والحكيم ، تتفرج على الدنيا من خلال رؤيته الخاصة لها .

● القطيع والغرائز

اقرأ مثلا مقاله «مقتل فيل» (Shooting an Elephant) هل هو مقال أم قصة قصيرة ؟ لا ندرى بالضبط ، ولكن أيا كان الأمر فإنه وصف رائع لشعور أورويل بمشكلة استمرت معه منذ كتب هذا المقال على الأقل (المنشور فى سنة ١٩٣٦) ، وحتى آخر رواية له ، وهو خضوع الفرد لتأثير «القطيع» سواء كان هذا القطيع هو «الرأى العام» الذى تحركه غرائزه أكثر من عقله ، «الرأى العام» الذى خلقته وشكلته وسائل الإعلام وتختلف أساليب غسيل المخ فى الدولة الحديثة .

★★★

جاء فى وصية جورج أورويل بند يتعلق بالكتابة عنه بعد موته ، إذ أوصى بألا يكتب أحد تاريخ حياته . وقد ظل هذا الجزء من الوصية محترما حتى سنوات قليلة مضت ، عندما بدأت تظهر بعض الكتب التى تترجم لحياته ، ومن هذه الكتب تظهر بوضوح شخصية أورويل : رجل أقرب إلى الحزن وأسرع استجابة لدواعى الاكتئاب منه لدواعى الفرح ، رقيق وبالغ الحساسية بمشاعر الناس بل

والحيوانات ، شديد الحاجة إلى الوحدة ، وقد يقضى شهورا فى جزيرة منعزلة لايكاد يرى فيها أحدا ، وإن كان يراقب بالساعات حركة الطيور ، قليل النجاح مع النساء ، ربما بسبب خجله وحبه للوحدة ، أو ميله للحزن أو بسبب شعور دفين منذ الصغر بأنه ليس وسيما أو جذابا للنساء ، قليل الاحتفال بالمظاهر وشديد الاحتقار لأى صورة من صور النفاق ... أهم شيء عنده الصدق ، وهو أم الفضائل فى نظره، بل لعله الفضيلة الوحيدة ، ومن ثم فإنه يرى مهمة الكاتب أن يتجاوز ويتغاضى عن كل ما يحجب حقيقة الأمور ، كل ما يتظاهر به الناس ويحاولون به حجب الحقيقة : ما يرتدونه من ملابس أو مجوهرات ، التشدق بما ليس فيهم ، الأسلوب المعقد والملتوى فى الكتابة ، العاطفية الزائدة والمصطنعة فى التعبير عن النفس ، الشعارات السياسية الكاذبة.. الخ . كل هذا يجب أن يهمله الكاتب ويتغاضى عنه حتى ينفذ مباشرة إلى حقيقة الأمور : حقيقة الناس والمشاعر، وحقيقة النظم السياسية ، وحقيقة الكاتب نفسه .

كتب عنه كتاب اسمه «الروح البللورية» (The Crystal Spirit) قصد به مؤلفه أن يصف نفس أورويل بأنها صافية كالبللور ، وقال عنه الفيلسوف البريطانى الشهير ألفرد إيير (A . J . Ayer) أنه واحد من هؤلاء الناس الذين إذا اعتقدت أنهم يقدرونك ، زاد تقديرك لنفسك . وأنا أعتبر أن من الأوصاف التى يمكن أن تطلق عليه ، كما يمكن أن تطلق أيضا على غاندى ، أنه كان «ضمير القرن العشرين». إن صانعى القرن العشرين كثيرون : من ستالين وهتلر إلى أينشتين وبيكاسو ، ولكن قليلين هم من عبروا عن ضمير هذا القرن : الذين كرهوا العنف وشجبوا الحرب ، ووقفوا إلى جانب الفقراء ، واحتقروا الكذب والدعاية السياسية ، وغضبوا لأى مساس بكرامة الناس ، ولم يروا أى مبرر للتمييز بين الأبيض والأسود، أو لتفضيل الأوربى على الأسيوى أو الأفريقى ، أو للرجل على المرأة ، وحلموا بمستقبل جميل للجميع ، وعبروا عن كل ذلك بفصاحة مؤثرة وفعالة. هؤلاء هم ضمير القرن العشرين ، ولابد أن يأتى جورج أورويل قريبا جدا من رأس القائمة ☐

عام جديد

شعر :

جليلة رضا

ياعام كم عام سواك مضى وخلف لى نجاه
ومشيت فى سردابه وخطاى تعثر فى خطاه
وشربت ملح الدمع من قمم الثلوج على الشفاه
وخرجت مثخنة الجراح لكى أعود الى سواه
ياهذه الأكذوبة الكبرى التى ترعى الحياه .. !

★★★

إنى لأعلم ما تخبىء فى الطريق وما توارى
خطوات عمرك كلها محفورة فوق الجدار
الصيف يمضى كالشتاء ، مع المساء مع النهار
أنا قد أراك وإنما كم أنت مجهول القرار
ماذا وراء الغيب ياربى وما خلف الستار ؟

★★★



من ألف عام جئت تغرس فى حنايا الروض ورده
هل كان لهوا ما صنعت أم انتقاما . أم موده
وتركتها للريح تلطمها بإصرار وشده
الوردة البيضاء ألبسها الشتاء الجهم برده
لن تستطيع اليوم أناملك الرقيقة أن تصده

★★★

ياعام انك كائن حى وعملاق مديد
أخشاك حين تهل ثم أزف مقدمك السعيد
أبكى الذى ولى عجوزا . ثم احتضن الوليد
فإذا شبيت ، اذا هرمت أعود أسأل من جديد
ستعود ! وى ! ستعود الدنيا .. ولكن هل أعود

★★★

(جزء خاص)

برتراند رصل

الفيلسوف المتمرد

بقلم: د. أحمد أبوزيد

لم يشغل أحد من فلاسفة القرن العشرين الرأي العام العالمى وأوساط المثقفين والهيئات الأكاديمية على السواء لفترة طويلة امتدت لما يقرب من ثلاثة أرباع القرن مثلما فعل الفيلسوف البريطانى الشهير برتراندرصل الذى يحب معظم مؤرخى الفلسفة فى بريطانيا الإشارة إليه باسم «لورد رصل» للإشارة إلى أصله الأرستقراطى وللإعتزاز والفخر بعلمائهم ومفكريهم وأدبائهم الأرستقراطيين.

فلقد أثار رصل اهتمام كل هذه الهيئات والأوساط خلال هذه المدة الطويلة ليس فقط بأفكاره الفلسفية وتحليلاته المنطقية وكتاباته في فرع من أصعب فروع الفلسفة وهو المنطق الرياضى، ولكنه أثار ذلك الاهتمام أيضا بكتاباته السياسية والاجتماعية المتمردة، وبمشاركته فى حركات الاحتجاج، والعصيان المدنى والخروج فى المسيرات والمظاهرات والإسهام فى الدعوات المختلفة لتحقيق حقوق الإنسان. وربما كان أقرب مثل إلى رصل فى ذلك هو الفيلسوف الفرنسى الذى لا يقل عنه شهرة وهو جان بول سارتر، مع الأخذ فى الاعتبار الفوارق بين الاثنين فى الأصل والنشأة ونوع التربية والتعليم والمؤثرات الاجتماعية والسياسية والتجربة الفلسفية والحياة الفكرية التى خضع لها كل منهما، بل إن سارتر ليس حالة فريدة فى تاريخ الفكر والمفكرين الفرنسيين، وذلك على اعتبار أن الفلاسفة الفرنسيين كانوا يشغلون أنفسهم فى أغلب الأحوال بأحداث



مجتمعهم وشئون العالم كله ، بل والمشاركة الفعالة فى الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية العامة مما ساعد على انتشار أرائهم وذيوعها بين عامة المثقفين بحيث لم تعد مقصورة على الأكاديميين والمشتغلين بالفلسفة وحدهم ، وهذا وضع يختلف كل الاختلاف عن السائد فى بريطانيا بشكل عام ، فالفلاسفة البريطانيون المعاصرون يميلون فى الأغلب إلى اعتبار أنفسهم (مفكرين محترفين) على مايقول أنتونى مانسر أستاذ الفلسفة بجامعة ساوثهامبتن ، ولذا فإنهم يقصرون جهودهم على مناقشة المشكلات الفلسفية الخاصة الصعبة والمعقدة دون أن يشغلوا بالهم كثيراً بالتفكير فى أمور الناس العاديين ، اعتقاداً منهم أن ذلك (الترفع) عن الانشغال بالأمور العادية سوف يرفع من شأن الفلسفة ويساعد على استمرارها وبقائها وصمودها فى عصر العلم . ولذا تعتبر حالة برتراندرصل حالة استثنائية إلى حد كبير . وليس من شك فى أن إسهامات رصل فى كل هذه الجوانب المختلفة والتى قد تبدو متناقضة ومتنافرة هى التى تجعل منه واحدا من كبار مفكرى القرن العشرين الذين يصعب إغفالهم أو التغاضى عنهم فى أية محاولة جادة للتأريخ للفكر فى هذا القرن الذى كاد ينصرم ويدخل هو ذاته فى سجل التاريخ.

تمرد برتراندرصل

والواقع أن أهم ما كان يميز حياة برتراندرصل هو التمرد على كل شيء بما في ذلك رفضه قبول كثير من المسلمات التى يقبلها المجتمع البريطاني سواء أكان ذلك في مجال الفلسفة أو الحياة الاجتماعية والسياسية أو حتى المعتقدات الدينية ، على أساس أن كل شيء يجب أن يخضع لحكم العقل وحده وأن يكون موضع مناقشة وفحص، وأدى به ذلك إلى الصدام مع الدولة ومع أصدقائه من اليمينيين واليساريين على السواء ومع رجال الدين ومع الأكاديميين في الجامعة سواء في بريطانيا أم في أمريكا إلى طرده أكثر من مرة من أكثر من جامعة بما فيها الجامعة التي تعلم فيها وارتبط اسمه بها على الأقل في أكثر من فترة من فترات حياته كأستاذ للفلسفة وهي جامعة كيمبردج . ولكن القضايا التي كان يفجرها والحركات التي كان يساندها ويشارك فيها نقلته خارج حدود النطاق الأكاديمي الضيق ووجدت تجاوبا مع الرأي العام العالمي في كثير من الأحيان كما أنه أفلح في أن يخرج بالفلسفة ذاتها إلى خارج ذلك النطاق الذي يضربه معظم الفلاسفة حول أنفسهم وأن يقرب كثيرا من الموضوعات الفلسفية إلى أذهان المثقفين غير المتخصصين .

وربما كانت ظروف حياة برتراندرصل المبكرة مسئولة عن هذا التمرد الذي امتازت به حياته الطويلة التي امتدت إلى مايقرب من قرن ، فقد ولد عام ١٨٧٢ وتوفي عام ١٩٧٠ وهو في الثامنة والتسعين من العمر . وقد ظل فكره على حالة عالية جدا من اليقظة والنشاط والإنتاج إلى وقت غير بعيد من وفاته بحيث يؤلف كتابا بعنوان «هل للإنسان مستقبل؟» عام ١٩٦١ وهو يقترب من سن التسعين مما يبين مدى انشغاله بمصير الإنسانية وهي المسألة التي شغلت فكره خلال كل حياته وانعكست في كثير من أعماله .

فعلى الرغم من أنه ولد في عائلة أرستقراطية يتميز معظم أفرادها بالميل إلى التفكير الحر التقدمي فإن مرحلة طفولته لم تكن سعيدة تماماً أو سهلة وإنما كانت تتميز بالانطواء بل والعزلة والابتعاد عن الناس والرغبة في الانفراد مع الذات ، وامتد ذلك إلى مرحلة شبابه حتى التحق بجامعة كيمبردج. فقد كان جده هو اللورد جون رصل الذي تولى رئاسة الوزارة مرتين، وكان أبوه الروحي بعد مولده هو الفيلسوف البريطاني الشهير جون ستيوارت مل إذ كان والداه على درجة عالية من الثقافة والتحرر الفكري بحيث كان أبوه من أنصار الدعوة إلى تحديد النسل وهي دعوة مفرطة في التقدم بل وثورية بمعايير ذلك العصر ، ولكن

برتراندرسل نفسه حرم من الوالدين جميعا قبل أن يصل إلى سن الرابعة ، وكان الأب قد أوصى قبل وفاته بأن يتولى أهل زوجته شئون تربية أولاده على اعتبار أن عائلة الأم كانت تعتنق نفس الأفكار التقدمية المتحررة والمستقلة عن قيود المجتمع الأرستقراطى فى بريطانيا حينذاك ، ولكن لم يؤخذ بهذه الوصية وبذلك احتفظت عائلة رسل بأبنائها وتولت شئون الأطفال بذلك جدتهم لأبيهم فأخضعتهم لنوع من التربية الصارمة التى تأخذ فى الاعتبار بشدة المعايير الأخلاقية والاجتماعية والدينية السائدة فى الطبقة العليا من المجتمع البريطانى وقد تلقى (برتى) الصغير - كما كانوا يدعونه - تعليما خاصا فى البيت على ما كان عليه العرف السائد فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر حيث كان أبناء الطبقة الأرستقراطية يتلقون تعليمهم فى بيوتهم على أيدى مدرسين خصوصيين وبذلك لم يخرج إلى التعليم الرسمى إلا حين التحاقه بجامعة كيمبردج ، وإذا كانت الوحدة والعزلة والابتعاد عن الناس مسئولة إلى جانب التربية والمعاملة الصارمة من الجدة عن متاعب برتراندرسل الشخصية فى بداية حياته ، فإنها كانت فى الوقت ذاته وراء تنمية الميل إلى التفكير الجاد فى أمور الحياة والمجتمع ، كما كانت مسئولة أيضاً إلى حد كبير عن ذلك التمرد الذى صبغ حياته كلها. والغريب أن الجدة لم تكن تحب أن تتكلم معه عن والديه، والمرة الوحيدة التى سألها فيها عن أبويه كان جوابها أنه يجب أن يحمد الله لأنه لم يعرفهما ، ويقول هو نفسه فى ذلك إنه أحس أنها كانت تغار منهما وقد عرف فيما بعد من الآخرين أنهما كانا على درجة عالية من الرقة وسمو التفكير وحرية الفكر وإن كان أبوه يعانى من الصرع .

وقد امتد ذلك التمرد إلى رفض الدين وتعاليمه وكانت الجدة تؤهله لدراسة اللاهوت فى الجامعة ليصبح من رجال الكنيسة ، ولكنه بدلا من ذلك اتجه إلى الفلسفة والمنطق وإلى الرياضيات ، وكان منذ البداية يناقش تعاليم المسيحية بل وفكرة وجود الله ذاته وإمكان الخلود وكان يرى أن عقله يرفضها جميعا . وحين سئل ذات مرة عن موقفه من الدين أجاب : «أقل مما يعتقده معظم الناس ، فقد أدى بى اشتغالى بعملى إلى أن أرفض كل المعتقدات المتعلقة بكل الأديان المعروفة، وإلى أن أتشكك فى كل الفلسفات التى تستخدم بطريقة فضفاضة مفهوم الكائن العضوى الحى» ، بل إنه أصدر عام ١٩٢٧ كتابا يعبر فيه عن موقفه من الدين وكان عنوان الكتاب هو «لماذا أنا غير مسيحى» ولكنه يذكر فى الوقت ذاته أن إحدى الهدايا الثمينة التى تلقاها من جدته فى إحدى المناسبات كانت نسخة فاخرة من الكتاب المقدس وأنها نقشت

بخط يدها على الغلاف من الداخل بعض الاقتباسات التى نقلتها عن بعض الإصحاحات، ويعترف بأن هذه العبارات أثرت تأثيرا قويا فى نفسه بما تحمله من قيم اجتماعية وأخلاقية وسلوكية وأنه ظل يسترشد بها طيلة حياته فى سلوكه وفى علاقاته بالآخرين .

بيد أن هذا التمرد ظهر بأقوى صوره - فيما يتعلق بحياته الفكرية وموقفه الفلسفى - فى تمرده بل ورفضه المنطق الأرسطى الذى كانت له السيادة منذ عهد أرسطو وبدلا من أن يتقبل المنطق الصورى تحول إلى المنطق الرياضى الذى اعتبره أكثر دقة وانضباطا . ولقد كان رصل يرى فى الرياضيات مخرجا ومهربا له من واقع حياته المؤلمة منذ الصغر ، وكان قد عرف هندسة أقليدس من أخيه الأكبر وهو لايزال فى الحادية عشرة من عمره وتعلق بالرياضيات منذ ذلك الحين. وحين ذهب إلى كيمبردج على أمل أن يدرس اللاهوت درس الرياضيات والفلسفة ولكنه تمرد أيضا على نوع الفلسفة التى كانت تسود مدرسة كيمبردج وهى فلسفة هيجل المثالية وتحول منها تحت تأثير زميله الفيلسوف جورج إدوارد مود - وكان يصغره بسنة واحدة - إلى فلسفة أكثر واقعية ، وكان يعطى كل جهده فى دراسة المنهج الفلسفى والأخلاق والإدراك الحسى، ولكن رصل لم يلبث أن رأى فى ذلك الاتجاه تطرفا شديدا فى واقعيته وماديته . ولم يكن يرضى بالمثل عن الأسلوب أو الطريقة التى تدرس بالرياضيات فى كيمبردج ويرى فيها إهانة كبرى للتفكير المنطقى وأن مايقوله هيجل عن الرياضيات كان مجرد هراء صادر عن عقل مشوش ومرتبك ونابع من عدم الفهم علي مايقول الأستاذ شيلب Schilp فى كتابه عن فلسفة برتراندرصل الذى صدر عام ١٩٤٤ . ولم يجد مفراً إزاء ذلك كله إلا أن يلجأ إلى الرياضيات وإلى المنطق الرياضى، اشترك مع استاذه ألفرد نورث هوايتهيد فى وضع الأسس المنطقية للرياضيات وأدى ذلك فى آخر الأمر إلى تأليف كتاب (برنكيبيا ماتيماتيكا) الشهير وأصبح رصل يعرف فى المحل الأول بين الكثيرين بهذا الكتاب لدرجة أن اسم هوايتهيد يكاد يتوارى بجانب اسم رصل . وقد صدر الكتاب على أية حال فى ثلاثة مجلدات فى الفترة بين ١٩١٠-١٩١٣ .

اهتمامه بعالم الرياضيات

ولكن اهتمام رصل الحقيقى بالرياضيات وإقباله على الكتابة فيها يرجع فى الحقيقة إلى عام ١٩٠٠ حين أتيح له حضور مؤتمر فى باريس واستمع إلى عالم الرياضيات الإيطالى جوزيبى بيانو الذى ملك عليه أمره بطريقة تفكيره وعرضه لأفكاره عن الرياضيات وإسهاماته

فى ذلك المجال . وقد يكون رسل متأثراً فى إعجابه بهذا العالم الإيطالى فى تأليفه لكتاب عن مبادىء الرياضيات صدر عام ١٩٠٣ أى قبل أن يعكف مع استاذه وصديقه هوايتهيد مع تأليف كتاب برنكيبيا ماتيماتيكا بسبع سنوات ، وكان ذلك الكتاب خطوة مهمة نحو إقامته لنظريته عن التكوينات المنطقية التى لم تلبث أن عبر عنها بعد ذلك بسنوات فى الشعار الذى كان ينادى بضرورة إحلال هذه التكوينات المنطقية محل الاستدلال والاستنتاج من كيانات غير معروفة تماما ولقد بلغ من اهتمامه وانشغاله بالرياضيات وعلاقتها بالمنطق كما ظهرت فى البرنكيبيا أن سيطرت الرياضيات على ذهنه بحيث يصف هو نفسه ذلك بقوله أنه حين عكف على الكتابة عن نظريته عن الأنماط بعد أن اكتشفها والتى يقوم عليها تفكيره المنطقى أخذ يكتب بحماس زائد وكان يتوقع أن ينتهى من العمل كله فى وقت معقول ولكن العمل استغرق كل وقته وجهده بحيث كان يعمل عشر إلى اثنتى عشرة ساعة يوميا لمدة ثمانية شهور فى السنة لمدة ثلاث سنوات . وحين انتهى من الكتاب كان قد أرهق ذهنيا وعاطفيا أيضا بحيث جفت ينابيع الحب تماما نحو زوجته.

وليس من شك فى أن كتاب برنكيبيا ماتيماتيكا أو أسس الرياضيات كان له تأثير قوى لسنوات طويلة على الفلاسفة البريطانيين ومنهم فتجنشتاين . ولكن هناك من مؤرخى الفلسفة من يقول إن ذلك الكتاب رغم أهميته التى لايمكن إنكارها لم يؤخذ على أنه نموذج يمكن لغيره من الفلاسفة والرياضيين والمناطقة أن ينهجوا على نهجه وأنه لم يفلح فى إرساء المثال والنموذج الذى يمكن أن تقوم عليه أسس رياضية بعد ذلك .

وقد لايهم هذا الكتاب وكتاباته الأخرى فى الرياضيات إلا المتخصصين ، ولكنها مع كتبه الفلسفية العديدة تؤلف ثروة فكرية خليقة بأن تضعه بين كبار مفكرى القرن العشرين فقد شملت أعماله الفلسفية خارج نطاق الرياضيات بعض الموضوعات الأخرى الصعبة العميقة كما هو الشأن بالنسبة لكتابه عن «عرض نقدى لفلسفة لايبنتز» (١٩٠٠) وكتابه «فى معرفة العالم الخارجى» (١٩١٤) وكتابه عن «تحليل العقل» (١٩٢١) وكتابه عن «تحليل المادة» (١٩٠٦) وغيرها ولكنه إلى جانب هذه الأعمال التى يمكن ألا تسترعى اهتمام سوى الفلاسفة المتخصصين، حاول أن يدخل الفكر الفلسفى إلى نطاق أوسع من المثقفين من خلال سهولة العرض ولكن دون إسفاف أو تنازل عن المعايير التى يتمسك بها كبار العلماء والمفكرين فى كل مايصدر عنهم ، ومن هنا كان كتابه عن «مشكلات الفلسفة» (١٩١٢) وكتابه الذى ذاع ذيوعا كبيرا جدا فى أوساط المثقفين عن «تاريخ الفلسفة الغربية» (١٩٤٥) وكان مصدر دخل كبير له خلال سنوات طويلة صعبة ، بل إنه كاد يكون هو المصدر الوحيد للدخل خلال تلك الفترة العصيبة التى وجد نفسه

فيها بدون عمل فى الجامعات ، وعليه التزامات مالية إزاء اثنتين من الزوجات السابقات ، ثم اتسع نطاق اهتماماته وكتاباته بالتالى بحيث شملت عددا كبيرا من مشكلات الحياة والمجتمع والسياسة والتعليم والأخلاق وغيرها ، فكان كتابه مثلا عن «الزواج والأخلاق» (١٩٢٩) وكتابه عن «الطرق إلى الحرية» (١٩١٨) وكتابه «الحرية والتنظيم فى الفترة من ١٨١٤ ـ ١٩١٤» (١٩٣٤) وكذلك كتابه عن «السلطة والفرد» (١٩٤٩) بل إن اهتماماته بالسياسة ظلت تلازمه حتى أواخر حياته بحيث أصدر عام ١٩٦٣ وهو فى الحادية والتسعين من عمره كتابه عن أفكار سياسية ، وكان الاهتمام بالسياسة دائما أحد هواجسه منذ بداية حياته العملية والأكاديمية بحيث نجد أن أول أعماله فى ذلك المجال كان عام ١٨٩٦ وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وبعد تخرجه من كيمبردج بقليل ونعنى بذلك كتابه عن «الديمقراطية الاجتماعية الألمانية».

● دخوله معترك السياسة

وقد حملته اهتماماته السياسية إلى خوض معترك السياسة على المستوى الواقعى وتمثل ذلك من ناحية فى إقدامه مرتين على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطانى دون أن ينجح فى الحالتين، وكان يعلن فى برنامجه الانتخابى عن مناصرته لحقوق المرأة وحقها فى الانتخاب وهو ماكان يرفضه الكثيرون من اليمينيين والمحافظين فى المجتمع البريطانى حينذاك ، كما تمثل فى معارضته للحرب ودعوته إلى السلام ومشاركته الفعلية فى الحركات الداعية لذلك ، وكلفه ذلك الحكم عليه بغرامة مالية أولا ثم السجن لمدة ستة شهور ، كما كلفه فقدان وظيفته فى الجامعة حين كتب عام ١٩١٦ كتابا عن فلسفة عدم اللجوء إلى الحرب. ولكنه على الصعيد الآخر لم يتردد فى إغضاب أصدقائه اليساريين حين اطلع على الأحوال فى الاتحاد السوفييتى وكتب عام ١٩٢٠ عن «البلشفية بين الممارسة والنظرية» كشف فيها عن مساوىء الحكم الشمولى وصدرت عنه بعض أحكام تحققت إلى حد كبير أيام حكم ستالين، وتكرر منه الموقف المعادى للحرب والدعوة إلى السلام وصدر عنه ما أغضب الحكومة البريطانية إزاء دعوته للإضراب وجلوسه فى الميادين مشاركة منه فى العصيان المدنى وتكررت أيضا إسهاماته فى المسيرات والمظاهرات وحركات الاحتجاج وقدم للمحاكمة للمرة الثانية لمواقفه السياسية . وهذا يذكرنا بمواقف سارتر السياسية وأوجه الشبه بين الفيلسوفين ولكن مع اختلاف مغزاه ، فحين أريد محاكمة سارتر للحكم عليه بالسجن رفض ديجول ذلك وقال عبارته الشهيرة «إن سارتر هو فرنسا» ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن تعتبر رسل هو بريطانيا وحكم القضاء البريطانى عليه

بالسجن لمدة شهرين ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن المدة تم تخفيضها إلى ستة أيام فقط أمضاها رصل فى المستشفى نظرا لتقدمه فى السن ولسوء صحته وربما أيضا احتراما لمكانته العلمية ومراعاة للشعور العام .

هذا التمرد نفسه وجد طريقه إلى نظرته إلى نوع التعليم الرسمى التقليدى فى بريطانيا وكتب فى ذلك فى مرحلة مبكرة نسبيا من حياته حين أصدر عام ١٩٢٦ كتابه «فى التعليم» ثم حاول أن يطبق آراءه المتحررة بشكل عملى فقام بمعاونة زوجته الثانية بإنشاء مدرسة تسير وفق مبادئه فى التحرر ليس فقط فى إبداء الرأى بل وأيضا فى الحب وألحق بها اثنين من أولاده هو نفسه ، ولكن لم تلبث سمعة المدرسة أن ذاعت وتكشفت الأمور عن بعض الفضائح العاطفية فى حياة رصل وزوجته نفسيهما، انعكس ذلك كله على حياته الأكاديمية ذاتها وانفصل رصل عن زوجته التى ظلت تشرف على المدرسة لعدة سنوات. وعلى أية حال فإن هذه التجربة باءت فى آخر الأمر بالفشل بعد أن أساءت إساءة بالغة إلى مكانة رصل بحيث رفضت إحدى الجامعات الأمريكية إتمام التعاقد معه على العمل فيها بعد أن كانت الاتصالات والمفاوضات حول ذلك قد تمت بالفعل .

وربما يكون الكثيرون من المثقفين قد انصرفوا بالفعل عن قراءة كتابات رصل بعد تصارع الأحداث والتغيرات الهائلة السريعة التى طرأت وتطرأ على الحياة الاجتماعية والسياسية وتغير الظروف والأوضاع فى العالم بحيث لم يعد يبقى الكثير من أعماله سوى جانبها التاريخى الذى يسجل آراءه فى الأوضاع التى كانت سائدة على أيامه . وكان هو نفسه يعترف بالتغيرات التى طرأت على حياته واهتماماته الفكرية التى تحولت من ميدان الفلسفة إلى ميدان السياسة إلى الأدب وكتابة القصة حيث صدرت له بعض القصص ومنح جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٥٠ وقد كتب رصل عن نفسه عام ١٩٥١ يقول إن ذكاءه كان يتدهور باطراد منذ سن العشرين ، فحين كنت صغيرا أحببت الرياضيات ولكن حين أصبحت الرياضيات صعبة بالنسبة لى تحولت إلى الفلسفة ، وحين أصبحت الفلسفة صعبة بدورها بالنسبة لى لجأت إلى السياسة ومنذ ذلك الحين ركزت اهتمامى على القصص البوليسية . ولكنه مع ذلك وحتى أواخر حياته كان يرفض قبول أى شيء على علته ويناقش كل شيء ويثير حوله الشكوك ويخضعه لأحكام العقل وهو القائل على أية حال حين تقدمت به السن «إننى أعتقد أنه ينبغى علينا أن ندخل إلى أفكارنا وآرائنا قدرا معينا من الشك» . وهذا القدر من الشك الذى يدفع إلى فحص ومناقشة حتى الأمور التى يسلم بها الفرد والمجتمع هو بعد أن يزول كل شيء وبعد أن ينسى كل شيء ـ هو أيضا القدر الباقى إلى الأبد من أحكام وأفكار ومواقف برتراندرصل ■

«جزء خاص»

اللولب المزدوج

قصة اكتشاف تركيب مادة الوراثة كما رواها «جيمس واطسون»

بقلم : د. أحمد مستجير

لم يسبق أن أثار بحث بيولوجى من الضجة العلمية مثلما أثار بحث واطسون وكريك الذى نشر عام ١٩٥٣ ، والذى وصف التركيب الجزيئى لمادة الوراثة : الدنا ، لقد فتح هذا البحث الصغير ـ المؤلف من ٩٠٠ كلمة ـ آفاقا لم يفكر فيها الإنسان قبلا ، بل ولم يكن يحلم حتى بها ، لقد أشعل ثورة علمية يزداد تأجج نيرانها منذ ظهرت وحتى الآن ، ولن تهدأ هذه الثورة لقرن يأتى ، فلقد فتحت لنا الطريق بالهندسة الوراثية وغيرها كى نبحث حتى عن كنه الإنسان ذاته ، ربما كان لنا حقا أن نقارن هذه الثورة العلمية بالثورة التى أشعلها يوما تشارلس داروين عندما نشر عام ١٨٥٩ كتابه «أصل الأنواع» ، سوى أن ثورة وطسون وكريك قد وجدت المناخ العلمى والتكنولوجى كى تتخذ مجراها سريعا نحو التطبيق العلمى .

لقد بدأ التداخل بين علوم البيولوجيا وعلوم الفيزياء يؤتى أُكله ، وحدة المعرفة ، الحلم الذى طالما راود عقول العلماء ، والذى تجلى من قبل عندما كتب إرڤين شرودجر ، الفيزيائى الألمانى العظيم ، كتابه الصغير «ماهى الحياة» عام ١٩٤٤ والحرب مازالت مشتعلة .



واطسون وكريك

والكتاب الذى نحن بصدد عرضه (اللولب المزدوج ، تأليف جيمس واطسون ، ١٩٦٨) لايعرف له مثيل فى أدبيات العلوم ، فيه يحكي واطسون الأمريكى قصة كشفه الخطير بكل تفاصيله يتحدث بصراحة غير مسبوقة عن العلماء كبشر : طموحاتهم ، آمالهم ، صراعاتهم الخفية ، نزواتهم ، أحزانهم إذ يخسرون

جولة فيحتشدون للتالية ، أفراحهم عندما ينتصرون على منافسيهم ، بل وحياتهم الخاصة ، كتاب تقرأ فيه جملا من قبيل : «إنك لايمكن أن تصبح عالما ناجحا إذا لم تعرف ، أن عددا كبيرا جدا من العلماء ليسوا فقط بلداء ضيقي الأفق، وإنما هم أيضا جد أغبياء !» ، ياله من سباق مجنون ، وهكذا كانت القصة حقا ، حتي ليكتبها كريك هو الآخر فيما بعد تحت هذا العنوان ، سباق يشعرك بأن ثمة ثمرة كانت قد نضجت وكأنما تبحث عمن يقطفها ، كان واطسون يدرك أن أول من يصل إلى حل التركيب الجزيئي لمادة الدنا سيحصل لاشك على جائزة نوبل ، ولقد وصل إلى الحل مع كريك ، وحصلا على الجائزة ، وخلدا اسميهما في عصرنا هذا لم يعد العلم يُوالى فقط من أجل إشباع فضول الإنسان وحبه للمعرفة ، وإنما أيضا من أجل جائزة نوبل ، ثم من أجل التطبيق العملي وبراءات الاختراع وما تدره من أموال ، لم يعد العالم هو ذلك المتبتل في المحراب ، العائش بعيداً في برج عاجي ينظر من عل !

● موريس وروزي

عندما كتب شرودنجر كتابه كان هناك اتفاق عام على أن الجينات ـ وحدات الوراثة ـ هي صور خاصة من جزيئات البروتين ، لكن عالم البكتريا إيفرى بمعهد روكفلر أعلن في نفس ذلك الوقت تقريبا أن الصفات الوراثية يمكن أن تنتقل من بكتيرة إلى أخرى عن طريق جزيئات من الحامض النووى الديوكى ريبوزى (الدُنا) والدُنا موجود بكروموزومات كل الخلايا ، ربما كانت الجينات جميعا إذن مكونة من الدُنا ، ومن ثم لن يأتى حل لغز الحياة بحل البروتينات ، وإنما بحل الدنا . كان العمل على الدنا بإنجلترا في ذلك الوقت هو الدائرة الخاصة بالفيزيائى الأعزب موريس ويلكنز ، بكلية الملك فى لندن ، ومن ثم لم يحاول فرانسيس كريك ـ بمعمل كافنديش بكامبريدج ـ أن يتدخل فيه ، بل أن موريس نفسه كان يثبط همة فرانسيس باستمرار إذ لم يكن يظهر الحماس الكافى للدنا ، وإنما كان يحكي عما تسببه مساعدته روزاليند فرانكلين له من متاعب.

لقد عيُنها لحاجته إلى من يعاونه فى أبحاثه على إنحراف الأشعة السينية فى الدنا ، لكنها اعتبرت الدنا موضوعها الخاص ، ولم تعتبر نفسها مساعدة ، لو أنها فقط وجهت بعض الاهتمام إلى ملابسها ! لو أنها استعملت يوماً أحمر الشفاه ليتلاءم مع شعرها الأسود ! لو أنها تذكرت أنها أنثى ! كلا ، كانت مترمتة وهبت حياتها للعلم ، كانت ذات طبيعة عدوانية ، ولم يستطع موريس المهذب أن يجد طريقة مهذبة لرقتها !

كان يعمل فى حمية فى دراسة الدنا وقد وضع نصب عينيه لينوس بولنج فى

كال تيك ، أكبر علماء الكيمياء الأمريكان ، لاشك أن بولنج قد أدرك أهمية جزىء الدنا ، وإلا فلماذا أرسل إلى موريس خطابا يطلب نسخة من صور الأشعة السنية للدنا المتبلر ؟ فيضطره إلى الرد قائلا إنه « يود لو تفحص بياناته قليلا قبل أن يرسل الصور » ! أصبحت مشكلة موريس هى روزى ، وأصبح من الصعب عليه أن يتجنب فكرة أن أفضل مكان تعمل فيه النساء هو معمل شخص آخر !

● البطل يظهر على المسرح

فى ربيع عام ١٩٥١ كان جيمس واطسون فى كوبنهاجن يدرس الكيمياء الحيوية مع هيرمان كالكر ، فى منحة دراسية بعد الدكتوراة ، كان اهتمامه بالدنا قد ازداد بسبب رغبته فى دراسة ماهية الجين ، رغبة كانت معه منذ كان طالبا بالجامعة ، وعندما أصبح طالبا بالدراسات العليا بجامعة إنديانا ، كان يأمل أن يُحل سر الجين دون أن يضطر إلى دراسة الكيمياء ، وقد نمت هذه الرغبة، جزئيا عن الكسل فقد كان يكره الكيمياء والفيزياء ، ثم وجد أن الحل الأمثل لمشكلة جهله بالكيمياء هى الرحيل إلى خارج الولايات المتحدة ، دفعه إلى ذلك أستاذة الميكروبيولجى سلفادور لوريا ، الذى كان يمقت كل الكيماويين ، كان لوريل يعمل على تكاثر فيروسات البكتريا «الفاجات» بعد أن بدأ الشك فى أن تكون شكلا من الجينات العارية ، وكان يرى أن الحل الحقيقى يتطلب فحص التركيب الكيمياوى لفيروس الجين ، ولما كان لايستطيع أن يدرس الكيمياء ، فقد رأى أن يشجع واطسون ، أول طلبته الجادين ، على التوجه إلى معمل أوربى ، فى ذلك الوقت كانت تجربة إيفرى قد أوحت بأن الدنا هو مادة الوراثة ، ربما كان تفسير التركيب الكيماوى للدنا إذن هو الخطوة الرئيسية نحو معرفة طريقة تضاعف الجينات ، كانت الحقائق الكيماوية عن الدنا قليلة ، ولم يكن معروفا سوى أن الأحماض النووية جزيئات عملاقة ، تُبنى من وحدات أصغر هى النوتيدات ، كان كل من يعمل على الدنا من علماء الكيمياء العضوية ممن لايهتمون بعلم الوراثة ، لم يقم واطسون فى معمل كالكر بأى عمل يمكن أن يقدم شيئا عن ماهية الجين وكيفية تضاعفه ، كان عليه أولاً أن يصبح كيماويا !

سافر فى رحلة إلى نابولى ليحضر اجتماعا عن «تركيب الجزيئات البيولوجية العملاقة» ، هناك نجده يقول «كنت فى بعض الأحايين أحلم فى يقظتى باكتشافى سر الجين ، لكننى لم أصل أبداً إلى أوهى فكرة محترمة ، فى هذا الاجتماع استمع إلى موريس ويلكنز وهو يعرض صورة للدنا مأخوذة باستعمال انحراف الأشعة السينية «وفجأة أثارتنى الكيمياء» ، وابتدأ يفكر فى الإنضمام إلى ويلكنز ثبتت صورة الدنا فى خياله ، كان من

المستحيل أن يبعد عن ذهنه مفتاحا محتملا لسر الحياة.

○ لولب ألفا

فى طريق عودته مر بچنيف ليتحدث مع عالم الفاچات السويسرى چين فاجيل، الذى كان قد عاد لتوه من كال تيك حيث استمع إلى محاضرة أعلن فيها لينوس بولنج عن آخر مبتكراته : لولب ألفا ، الذى يحل ـ جزئيا ـ تركيب البروتينات ، كان بولينج يحاضر كما لو كان قد عمل طول عمره على المسرح ، وظل يخفى نموذج اللولب حتى قرب نهاية المحاضرة عندما كشف الستار بفخر عن آخر منجزاته ، لم يكن ثمة مثيل للينوس ، كان يقفز إلى أعلى وإلى أسفل على المنصة ملوحا بيديه كما لو كان «حاويا» ، لو أنه أظهر بعض التواضع !

وجد الحاضرون أن نموذج ألفا جميل حقا ، كان لينوس هو أول من اقترح نموذجا صحيحا عن تركيب جزىء بيولوجى عملاق . لكن ، أفلا تصلح طريقته هذه للتطبيق على الدنا ؟

عاد واطسون إلى كوبنهاجن ، وفى لهفة قرأ بحث لينوس عن لولب ألفا ، ثم أعاد قراءته ، كان البحث أعلى من مستواه ، عليه أن يدرس انكسار الأشعة السينية فى الجزيئات العملاقة ، ليس غير كامبريدج كتب إلى لوريا ليزكيه ، فوجد له مكانا هناك .

○ الوصول إلى كامبريدج

وفى ذات يوم من أيام الخريف عام ١٩٥١ وصل الشاب جيمس واطسون إلى معمل كافنديش بجامعة كامبريدج كان قد بلغ الثالثة والعشرين ، دخل بعد الغذاء إلى مكتب ماكس بيروتس ـ وهذا كيميائى نمساوى الأصل يعمل على إنكسار الأشعة السينية فى بلورات بروتين الهيموجلوبين ، يعاونه فى ذلك السير لورانس براج مدير المعمل وحامل جائزة نوبل وأحد مؤسسى علم البلوريات . قابله السير لورانس العجوز ورحب به ، كان فى وضع المتقاعد. كيف له أن يهتم بالچينات !؟ عاد واطسون إلى كوبنهاجن وجمع حاجياته ورجع ، استأجر شقة لم يمكث بها أكثر من شهر ، فقد طردته صاحبة المنزل لأنه لايخلع حذاءه عندما يدخل البيت بعد التاسعة مساءً ، الساعة التى يأوى فيها زوجها إلى فراشه ، كما أنه كثيرا ما كان ينسى تعليماتها بعدم شد السيفون بعد هذه الساعة ، عرض عليه زميله چون كندريو حجرة صغيرة بمنزله ـ حجرة رطبة ، بشكل غير معقول . قَبِل العرض ، بالرغم من أنه كان يبدو «دعوة مفتوحة للإصابة بمرض السل»! ، ثم اكتشف بعد فترة قصيرة فى المعمل جمال الحديث مع فرانسيس كريك .

○ فرانسيس

لم يكن فرانسيس كريك متواضعا ، لا سمح الله ، هكذا يقول واطسون «ربما

كان كذلك في صحبة آخرين ، ولكنني لم أشهد هذا يوماً فأحكى عنه» ! كان في الخامسة والثلاثين عندما وصل واطسون معمل كافنديش ، كان مغمورا تماماً ، ذا صوت جهورى ، يتكلم بشكل أسرع ويصوت أعلى من أى شخص . فإذا ما ضحك ضج المعمل بأصداء ضحكاته ، كانت مناقشاته تزعج السير لورانس ، وكان صوته سببا كافيا لأن يترك براج المكان إلى حيث يجد الهدوء ! كان فرانسيس ينجذب إلى كل ماهو مهم ، فيشاكس زملاءه ويقترح عليهم على الفور تجارب يثبت بها آراءه ، ولم يكن يتورع عن أن يحكى أن فكرته الذكية ستدفع العلم إلى الأمام ، ونتيجة لذلك فقد كان ثمة خوف مكتوم منه ، يخافه الأصدقاء الذين قد ينجح في أن يفضح للعالم عقولهم المشوشة والتي تتخفى تحت السلوك المتحذلق الحذر لكليات جامعة كامبريدج».

النيوتيدات

لم يكن هناك عقبات تمنع واطسون من أن يتحدث مع فرانسيس بضع ساعات كل يوم ، علم منه بسرعة أن نجاح بولنج إنما يكمن في اعتماده على القوانين البسيطة للكيمياء التركيبية ، لم يكتشف لولب ألفا بالتحديق في صور الأشعة السينية ، إنما بالسؤال عن أى الذرات تحب أن توجد متجاورة ، كانت أداة عمله الرئيسية هي مجموعة من النماذج تشبه لعب الأطفال . لماذا إذن لايحل الدنا بنفس الطريقة ؟ ما عليه إلا أن يصنع مجموعة من النماذج الجزيئية ثم يجلس يلعب بها حتى الحل ! صحيح أن لولب الدنا لابد أن يكون أكثر تعقيدا من لولب ألفا ، فهذا الأخير هو مجرد سلسلة من الأحماض الأمينية تنثنى في تنظيم لولبي متماسك عن طريق روابط هيدروجينية . أما محيط جزئى الدنا فهو أسمك من أن يكون سلسلة واحدة من النوتيدات ، لابد أنه مكون من عدد من مثل هذه السلاسل.

يتألف جزىء الدنا من أربعة أنواع من النوتيدات هي الأدنين والجوانين ، والسيتوزين والثايمين ، هو ليس جزيئا منتظما إنما هو جزىء شديد التعقيد ، لم تكن النوتيدات مختلفة تماما ، فكل منها يحتوى على نفس المكونات السكرية الفوسفاتية ، إنما يكمن تمايزها في قواعد النتروجين التي يحتويها كل منها ، فهذه قد تكون بيورين «أدنين أو جوانين» أو بيريميدين «سيتوزين أو ثايمين» ، ولما كانت الروابط بين النوتيدات تشمل فقط مجاميع السكر والفوسفات ، فمن الممكن الفرض بأن الركيزة السكر فوسفاتية منتظمة تماما ، أما ترتيب القواعد فسيكون بالضرورة شديد التعقيد .

آه لو كان للدنا ، مثل لولب ألفا ، تركيب لولبي ! آه لو تمكن واطسون وكريك من صور الأشعة السينية الموجودة لدى موريس ويلكنز أو روزى !

لم يجد فرانسيس صعوبة في إقناع موريس بزيارة كامبريدج ، ولم يكن من الصعب اقناعه لما أتى بأن للدنا تركيبا لولبيا ، فلقد توصل وحده إلى ذلك بتفحص ماليه من صور انكسار الأشعة السينية للدنا ، كان يتوقع أن يكون للدنا تركيب من ثلاث سلاسل ، لكنه لم يكن يثق في إمكان الوصول إلى حل باستخدام لعبة بولنج في بناء النماذج .

ثم أخذ يحكي عن مضايقات روزى له، وكيف أنها ترفض الآن حتى أن تطلعه على نتائجها الجديدة ، وكيف أنه لن يتمكن من معرفة نتائجها إلا بالاستماع إلى محاضرتها التي ستلقيها بعد أسابيع ثلاثة ، ثم أنه قد رحب بواطسون إن رأى أن يستمع إلى المحاضرة ، وانهمك من ثم واطسون يدرس بعض البلوريات حتى يستطيع أن يفهم ماستقوله الآنسة !

● خناقة مع السير لورانس

فقد فرانسيس لفترة اهتمامه بالدنا بسبب خناقة حامية الوطيس مع السير لورانس ! كان بيروتس قد أعطاه بحثا له مع السير لورانس يعالج شكل جزيء الهيموجلوبين ، لاحظ فرانسيس أن جزءاً من المناقشة يعتمد على فكرة له كان قد طرحها وأذاعها على الجميع منذ نحو تسعة أشهر ورغم ذلك فلم يكن بالبحث ثمة شكر له ، أسرع إلى مكتب السير لورانس يطلب توضيحا ، إن لم يكن اعتذراً ، أنكر الأستاذ أن تكون له أية معرفة بفكرة فرانسيس ، وأحس بالإهانة البالغة من التضمين بالاحتيال وانتحال أفكار الآخرين لم يصدقه فرانسيس ، وقال له مايعنى ذلك ، قال له براج في غضب وهو يصرفه من مكتبه إنه سيظهر جديدا في أمر السماح له بالاستمرار في العمل في كافنديش بعد الانتهاء من الدكتوراة .

أسرع الزملاء بالتوسط لدى الأستاذ ، وبعد أن هدأ وضع على الرف مؤقتا فكرة رحيل كريك ، قال إن كريك يسبب له طنينا في أذنيه ، لقد أمضى خمسة وثلاثين عاماً لاينقطع له حديث ، ورغم ذلك فلم ينتج عنه شيء ذو قيمة !

● أول نجاح لفرانسيس

بعد أيام قليلة من المشادة مع براج ، وصل إلى المعمل بحث لعالم البلوريات في ث. ڤاند به نظرية عن كسر الجزيئات اللولبية للأشعة السينية ، كانت اللوالب آنئذ مركز اهتمام المعمل ، اكتشف فرانسيس على الفور عيبا جسيما في محاولة ڤاند وانشغل على الفور يضع نظرية صحيحة ، ظل فرانسيس بقية الصباح صامتا وقد غرق حتى أذنيه في المعادلات الرياضية ، ثم توقف بعد الغداء عن العمل ليصطحب أوديل ـ زوجته الفرنسية ـ إلى حفل لتذوق النبيذ ، وجده مملا ، عاد في صبيحة اليوم التالي ومعه الحل ، ومثله أيضا توصل بيل كوكران إلى

نفس الحل إن يكن بطريقـة أبسط ، ثم أنهما قاما بمراجعة لولب ألفا بالفحص النظرى لرسوم الأشعة السينية ، وكان التوافق من الجمال ليؤكد ضرورة أن تكون نظريتهما ونموذج لينوس صحيحين، وفى ظرف بضعة أيام كانا قد أعدا بحثا محترماً أرسل إلى مجلة «نيتشر» ، وصورة منه إلى لينوس ، كان هذا البحث هو أول نجاح أكيد لفرانسيس .

● محاضرة روزى

فى الوقت المنتظر لحديث روزى كان واطسون قد درس فى علم البلوريات مايكفى لتتبع محاضرتها ، كان يريد أن يفهم ما إذا كانت صور الأشعة السينية الجديدة التى ستعرضها تعضد التركيب اللولبى أم لا ، جلس فى قاعة المحاضرات يستمع إليها وهو يتخيل كيف ستبدو لو أنها خلعت نظارتها واهتمت قليلا بشعرها! كانت هى واثقة تماما من أن علم البلوريات هو الوسيلة الوحيدة لفهم تركيب الدنا ، لم تكن تهتم اطلاقا بنماذج لعب الأطفال التى يلعب بها بولينج ، فمن الممكن فقط لعبقرى كبولنج أن يلعب كصبى فى العاشرة ثم يصل بالرغم من ذلك إلى الحل الصحيح !

بعد المحاضرة اصطحب موريس واطسون إلى المطعم ليؤكد له أن التقدم الذى أحرزته روزى كان محدوداً ، وإن كانت صور الأشعة السينية التى عرضتها أفضل مما لديه .

● فى الطريق إلى اكسفورد

فى صبيحة اليوم التالى كان واطسون مع كريك فى القطار متجهين إلى اكسفورد لمقابلة دوروثى هودجيكين ـ أفضل العلماء الإنجليز فى علم البلوريات ، كان فرانسيس يريد أن يتباهى أمامها بنجاحه مع بيل كوكران فى وضع نظرية الانكسار اللولبى. سأل فرانسيس واطسون عن محاضرة روزى فلم يتذكر إلا القليل ، لقد كان الشخص غير المناسب لسماع روزى ، لكن البعض من هذا القليل قد أشار عند فرانسيس إلى أن النتائج تتمشى ظاهريا مع سلسلتين أو ثلاث أو أربع ، كانت القضية كلها تتركز فى الزاوية ونصف القطر عند التواء سلاسل الدنا حول المحور المركزى . قررا إذن الاهتمام بالنماذج التى تكون فيها الركيزة السكر فوسفاتية فى مركز الجزىء ، فهى وحدها الملائمة للتركيب الذى يعطى الانكسار البلورى الذى لاحظه موريس وروزى ، لكن ما الذى يعادل الشحنة السالبة لمجاميع الفوسفات فى ركيزة الدنا ؟ ليس فى العالم من هو أفضل من لينوس بولنج فى فهم ترتيب الأيونات غير العضوية فى الأبعاد الثلاثة ، نزلا من القطار ليتجها على الفور إلى مكتبه ، اشتريا كتاب بولنج «طبيعة الروابط الكيماوية» ، لم يكن للقاء دوروثى أهمية تذكر !

● نموذج السلاسل الثلاث

اكتشفا عند عودتهما إلى كافنديش أن النماذج الجزيئية ليست مرضية تماما ،

سيستغرق الأمر أسبوعاً لبناء نماذج جديدة ، هناك امكانية للوصول إلى حل في ظرف يوم أو نحوه ، ابتدأ واطسون يضيف قطعا من الأسلاك النحاسية إلى بعض نماذج ذرات الكربون ليحيلها إلى ذرات فوسفور كبيرة الحجم ، ثم رأى فرانسيس أن المشكلة قد تحل بمجرد التركيز على أفضل الطرق لطى النوتيدات، تركه واطسون وانهمك في تجميع نماذج السلاسل ، كلّ من يضع نوتيدات ، وعلى الغداء ، نحّيا فكرة لولب وحيد السلسلة فهو لايتوافق مع البراهين الجديدة ، وبعد محاولات طويلة توصلا إلى نموذج من ثلاث سلاسل تلتوى حول بعضها بطريقة ينتج عنها تكرر بلورى كل ٢٨ أنجستروم على طول محور اللولب ، وهذا أمر تتطلبه صور موريس وروزى ، انتهى العمل في النموذج صباح اليوم التالى ، كانت الخطوة المنطقية التالية هي مراجعة النموذج على مقاييس روزى الكمية بسرعة اتصل فرانسيس بموريس تليفونيا وأخبره أنه قد توصل إلى حل ، وأنه يود لو جاء ليراه ، قرر موريس أن يصل في اليوم التالى ليرى النموذج وسيصطحب معه روزى وأحد طلبتها ، وصل الضيوف وتفحصوا النموذج ، كان ماتذكره واطسون من محاضرة روزى عن المحتوى المائى لعيناتها خاطئا ، لابد أن يحتوى النموذج الصحيح للدنا على عشرة أضعاف كمية الماء الموجودة في النموذج المعروض ، النموذج لايصلح ، لابد أن يبدأ من جديد !

سمع السير لورانس بما حدث ، فأصدر قراراً بأن يتوقف كل من واطسون وكريك عن العمل في أبحاث الدنا ، لايعقل أن يظل مسئولاً عن التهريج المشين لعبقرى فاشل ! غير أن أحدا لم يحاول تنفيذ القرار .

● فيروس الطباق الموزايكي

عليهما أن يبدأ من جديد ، النموذج الذى توضع فيه الركيزة السكر فوسفاتية في قلب اللولب سيدفع بالذرات لتصبح أقرب إلى بعضها مما تسمح به قوانين الكيمياء ، انهمك واطسون في التدريب على استخدام كاميرا الأشعة السينية ، إن الأمر سيتطلب بضعة شهور قبل أن يتمكن من تمييز اللولب ، بدأ يعمل على فيروس الطباق الموزايكى ، لم يتصور أحد أنه سيتمكن ذات ليلة من الحصول على أشكال أشعة سينية تثبت أن الحامض النووى لهذا الفيروس لولبى ! صباح اليوم التالى كان جالساً في انتظار فرانسيس لم يتطلب الأمر منه أكثر من عشر ثوانٍ ليكتشف هذه الحقيقة !

● قانون شارجاف

أصبح الوقت مواتيا للتفكير في بعض التناسقات المثيرة في كيمياء الدنا التى اكتشفها إرفين شارجاف في جامعة كولومبيا ، كان شارجاف قد اكتشف أن عدد جزيئات الأدنين في كل تحضيرات الدنا يماثل عدد جزيئات الثايمين ، كما أن عدد جزيئات الجوانين معادل عدد جزيئات السيتوزين . كانت نسبة الأدنين ـ ثايمين

تختلف باختلاف الكائن الحى ، بعضها تزيد فيه هذه النسبة وبعضها تزيد فيه نسبة الجوانين ـ سيتوزين ، نبه واطسون كريك إلى هذه الحقيقة فلم تثر اهتمامه ، ثم لمع فى ذهنه الشك فى أن هذه التناسقات قد تكون مهمة .

● النسخ الذاتى للجين

القانون البيولوجى المضبوط هو قدرة الجين على أن يعطى نسخة منه طبق الأصل عند تضاعف الكروموزومات أثناء انقسام الخلية ، إن التضاعف يحتاج إلى إنتاج صورة مكملة «نيجاتيف» تعمل لتمثيل صورة جديدة أصلية ، كان فرانسيس يشعر أن تضاعف الدنا يشمل قوى جذب معينة تحدث بين الأوجه المسطحة للقواعد ، واتضح من جدله مع المتخصصين أن الأدنين يمكن أن يلتصق بالثايمين عن طريق أوجههما المسطحة ، وسيحدث نفس الشىء أيضا بالنسبة للقاعدتين : الجوانين والسيتوزين .

هذان هما زوجا القواعد التى لاحظ شارجاف وجود فردى كل منهما بكميات متساوية ، لم يعد هناك سبب لاستبعاد فكرة أن أصل التناسقات التى لاحظها شارجاف تكمن فى الشفرة الوراثية ، لابد أن بعض مجاميع النوتيدات تدل على أحماض أمينية معينة ، تساوى الأدنين والثايمين كان بسبب دور لم يكتشف بعد لترتيب القواعد .

تسلط على ذهن فرانسيس شعور بأن فى قواعد شارجاف يكمن المفتاح الصحيح ، فحاول أن يثبت تجريبيا وجدد قوى تجاذب فى المحاليل المائية بين الأدنين والثايمين ، وبين الجوانين والسيتوزين ، لكن جهوده لم تسفر عن شىء .

● خطاب من بولنج

كان بيتر بولنج ، ابن لينوس بولنج ، يدرس فى كافنديش فى ذلك الوقت ، تلكأ ذات يوم فى منتصف ديسمبر ووضع قدميه فوق المنضدة ، وأخبر واطسون كريك أن خطابا قد وصله من والده يخبره فيه أنه قد توصل إلى تركيب الدنا ، يالله ! والتفاصيل ؟ ليس ثمة تفاصيل بعد ، أخذ فرانسيس يمرر الخطاب إلى واطسون ليقرأه ثم يعيده ثانية ، حلت الكارثة ، ستُهان المعامل الإنجليزية مرة أخرى على يد الأمريكان ، سيسرق بولنج جائزة نوبل منهما لكن ... ألا يمكن أن يكون لينوس خاطئاً ؟

حل الكريسماس ، ولم ترد أنباء جديدة ، ارتفعت معنويات واطسون وكريك، لو أنه قد توصل إلى الحل لملأ الدنيا كعادته ضجيجا ، لكن .. كيف يستطيع بولنج أن يصل إلى الحل وهو يجهل تماما ما تم فى لندن ؟ وحتى لو كان قد اقترب من التركيب الصحيح فالأغلب أنه لن يقترب من سر تضاعف الجين.

مرت عطلة الكريسماس ، وبحث واطسون عن بيتر بولنج يسأله عن الأخبار، لاشىء لقد كتب والده بحثا عن تركيب الدنا ، وسيرسل منه نسخة إلى بيتر قريبا .

فى الأسبوع الأول من فبراير وصلت نسخة من البحث إلى السير لورانس

وأخرى إلى بيتر سلمها إلى واطسون وكريك ، كان النموذج لولبا ذا ثلاث سلاسل تقع فى مركزة الركيزة السكرفوسفاتية ، النموذج لايشبه إلا المحاولة المجهضة لهما فى العام السابق ، النموذج لاشك خاطىء! مجموعات الفوسفات فيه ليست متأينة . الحامض النووى ليس حامضا ! السلاسل بشكلها الموجود فى النموذج ستنفصل مباشرة ويتلاشى التركيب !

أمعقول هذا ؟ لقد نسى العملاق مبادىء الكيمياء ! لكنه لن يتوقف الآن بعد أن يعرف الخطأ ، لابد أنه سيعمل ليل نهار ـ حتى يصل إلى التركيب الصحيح ! فى المساء توجه فرانسيس وواطسون إلى مطعم يشربان معاً فى صحة فشل بولنج ، لم يحصل بولنج بعد على جائزة نوبل ، عليهما أن يسرعا فى العمل .

أسرع واطسون إلى موريس فى لندن يخبره بأن نموذج بولنج للدنا خاطىء ، أكد له موريس أنه يظن أن اللولب حقيقة ، لكن المشكلة تكمن فى عدم وجود أية نظرية بنيوية تسمح بتعبئة القواعد بشكل منتظم داخل اللولب ، الأمر الذى يعنى بالطبع صحة فرض روزى بأن القواعد لابد أن تكون فى مركز اللولب وأن تكون الركيزة خارجة .

وفى القطار أثناء العودة قرر واطسون أن يبدأ فى بناء نماذج ذات سلسلتين . العناصر البيولوجية لاتوجد إلا فى أزواج أليس كذلك ؟

فى اليوم التالى أخبر واطسون السير لورانس بكبوة بولنج ، فابتهج ولم يعترض على أن يقوم المعمل ببناء النماذج للقواعد الأربع ، وفى حديثه فيما بعد مع فرانسيس أكد واطسون على ضرورة أن تكون القواعد معبأة فوق بعضها فى وضع عمودى على ركيزة اللولب .

بعد أيام ثلاثة كان الميكانيكيون وقد جهزوا ذرات الفوسفور المطلوبة ، وحاول واطسون أن يبنى نموذجاً ذا سلسلتين مع ركيزة فى القلب ، لم يكن النموذج مرضيا، بدأ فى اليوم التالى فى تجريب نماذج ذات ركائز خارجية ، الموضوع لايزال صعبا .

● هيدى لامار تخطر عارية

مضى واطسون يتردد على نور السينما وهو يحلم فى غير وضوح بأن الحل قد يصله فجأة فى أية لحظة ، ذهب ليشاهد فيلم «النشوة» أملاً أن يرى هيدى لامار وهى تخطو عارية ، لكن مشهد السباحة الوحيد الذى تركه الرقيب الإنجليزى كاملا، كان هو صورتها العارية معكوسة على سطح ماء البحيرة ! امتلأ جو السينما بتعليقات الطلبة لاتقال ! مضى إلى مسكنه وقد أوغل الليل يحاول ولايزال حل سر القواعد التى ملأت حياته حتى وهو جالس فى السينما جلس فى مكتبه وأخذ يرسم صوراً صغيرة للقواعد ، محاولاً أن ينظمها بشكل يجعل الركائز الخارجية منتظمة ، حاول أن يطرد فيلم «النشوة» من ذهنه بالروابط الهيدروجينية التى تحفظ السلسلتين مجدولتين سويا ، لم يفلح فنام.

● الشبيه مع الشبيه

ولم تظهر فكرة معقولة إلا فى منتصف الأسبوع التالى ، عندما أدرك واطسون التضمينات الرائعة لتركيب للدنا يكون فيه

الأدنين روابط هيدروجينية تشبه الموجودة في بلورات الأدنين النقي ، ألا يجوز وجود إنزيم متخصص للأدنين «وأيضا للقواعد الثلاث الأخرى» يتسبب في وجود الأدنين دائما في مواجهة أدنين آخر على شرائط اللولب .

لو أن هذا كان هو تركيب الدنا فإن وجود سلسلتين مجدولتين سويا لهما تتابع قواعد متماثل لن يكون مجرد صدفة ، وإنما سيشير إلى أن إحدى السلسلتين كانت هي القالب الذي مُثلت عليه الأخرى، تحت هذا النظام تُنسخ الجينات بانفصال السلسلتين المتطابقتين ليُمثل عليهما شريطان جديدان ، فينشأ جزيئان من الدنا مطابقان للجزيء الأصلي ، فكرة رائعة ، تركيب ينسخ ذاته ، هل يمكن أن تكون مثل هذه الفكرة الجميلة خاطئة ؟!

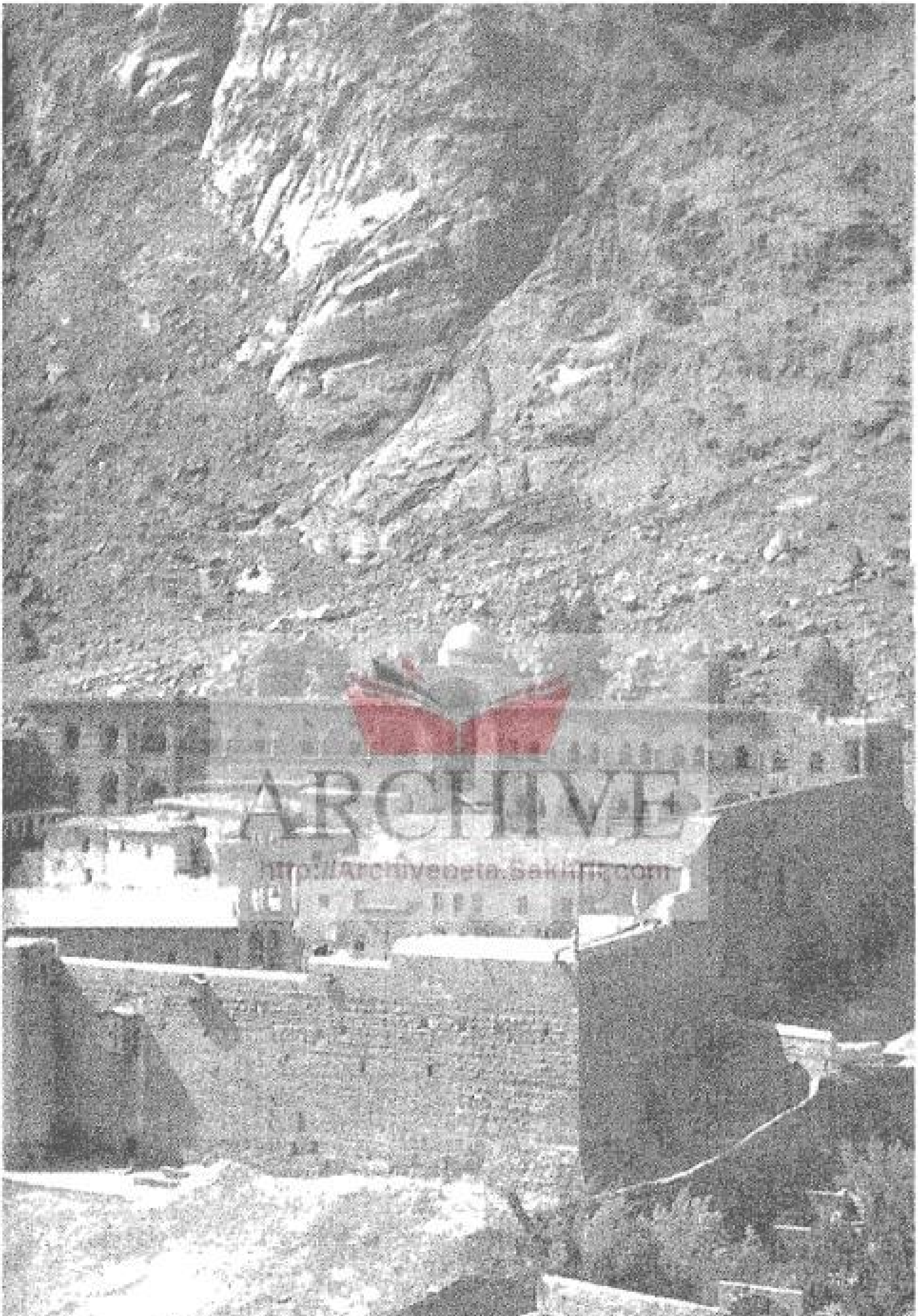
لكنها رغم ذلك تمزقت إلى شظايا ظهر اليوم التالي عندما أكد جيري دوناهيو عالم البلوريات إن الفكرة لاتصلح بسبب خطأ في تحديد أشكال القواعد ، حاول واطسون بعدئذ مع فرانسيس أن ينقذ فكرة الشبيه مع الشبيه ، لكن الأخير أكد أن هذا التركيب لايتفق مع النتائج البلورية ، ثم أنه لايعلل قواعد شارجاف القائلة إن الأدنين = الثايمين وإن الجوانين = السيتوزين !

● الوصول إلى الحل

كان المكتب خاليا عندما وصل واطسون صباح اليوم التالي ، بسرعة أخذ يحرك القواعد إلى الداخل في كل الأشكال الزوجية المحتملة ، فجأة لاحظ أن زوج الأدنين ـ ثايمين ، الذي تربطه رابطتان هيدروجينيتان ، يماثل في الشكل زوج الجوانين ـ سيتوزين . بدا أن الروابط تنشأ طبيعيا ، إن متطلبات الربط الهيدروجيني تشير إلى أن الأدنين سيزدوج دائما مع الثايمين فقط ، بينما للجوانين أن يزدوج فقط مع السيتوزين ، فجأة ظهرت قواعد شارجاف كنتيجة لتركيب لولب الدنا المزدوج ، ثم أن هذا النموذج يشير على الفور إلى نظام تضاعف مقنع تماما ، فهو يعني أن تتابع القواعد في السلسلتين المجدولتين سويا مكمل لبعضه ، فإذا أعطينا تتابع سلسلة تحدد التتابع في الأخرى أوتوماتيكيا يمكننا إذن أن نتصور سلسلة مفردة تعمل كقالب تُمثل عليه سلسلة أخرى ذات تتابع مكمل .

عندما دخل كريك واستمع إلى واطسون وتفحص النموذج جيدا ، وافق عليه ، وأضاف أن النموذج يقول إن ركيزة أي من السلسلتين لابد أن تجري في اتجاه مضاد لرفيقتها ، في مساء ذلك اليوم أعلن فرانسيس بكل فخر أنهما قد توصلا إلى «سر الحياة» ! إن تركيبا له مثل هذا الجمال لابد أن يوجد ، وصل بولنج إلى كامبريدج وهو في طريقه إلى بروكسل ، ألقى نظرة على النموذج ، وفي كياسة قال رأيه : نعم ، لقد توصل معمل كافنديش إلى الحل !

كتب واطسون وكريك البحث وأرسلاه لينشر في مجلة «نيتشر» يوم الثلاثاء ٢ أبريل سنة ١٩٥٣ ، كان واطسون قد بلغ الخامسة والعشرين ، وفي عام ١٩٦٢ حصل ومعه كريك وموريس على جائزة نوبل، ثم كان لعلوم البيولوجيا جميعا أن تتحول إلى طريق جديد واسع . ■





المكان الذى تحدث فيه الرب إلى موسى

سانت كاترين

بقلم : عرفة عبده على

عندما تشرق الشمس على دير «سانت كاترين - St. cathrine» على قمة جبل طور سيناء «تنكشف لنا نقوشاً لذكريات ، كتب لها أن تدوم إلى الأبد !..

أثر خالد .. وسجل تاريخى لمن يريد أن يستطلع سر الذين شيدوا للخلود ، ويستحضر صور الرهبان الذين أحلوا «سر المحبة» محل الخوف من مواجهة ما يجل عن الوصف «الله محبة» .

سانت كاترين

فهناك من المعالم والمشاهد ، ما يمكننا أن نجوس خلاله ونتأمله ، ومنها ما نكتفي بالمرور به ، وأخري نحب أن نمكث ونعيش فيها ، وكلها تتميز بدرجة من الروعة .. بيد أن المعالم التي نحب أن نعيش فيها : هي أسمي من غيرها ،ودير سانت كاترين من بين هذه المعالم !

وتروى الأساطير أن الدير قد شيد فى ذات المكان الذى أنس عنده موسى - عليه السلام - ناراً ، فأراد أن يأتى منها بقبس بالقرب من شجرة «العليقة» .. على قمة الجبل الذى صعد إليه موسى ، ليتلقى ألواح الشريعة الموسوية ، وعلى تل «الصفصافة» القريب ، صنع السامرى لبنى إسرائيل عجلاً من ذهب ليعبدوه ، فأضلهم عن ذكر الله !

● القديسة كاترين

عاشت القديسة كاترين بمدينة الأسكندرية ، فى عهد الأمبراطور «مكسيمانوس ٣٠٥ - ٣١٣م» نشأت في أسرة نبيلة ثرية ، كان عمرها ثمانى عشرة سنة ، حينما أبت أن ترتد عن المسيحية ، بل سعت إلى إقناع بعض العلماء فاعتنقوا المسيحية ، فما كان من الأمبراطور الطاغية إلا أن أمر بإحراق أولئك العلماء ، ثم أمر بتعذيبها أشد العذاب ، فربطوها فى عجلة التعذيب ، فتحملت آلاماً فاقت طاقة البشر ، وظلت ثابتة على إيمانها ، حتى أمر بقطع رأسها فاستشهدت عام ٣٠٧ .

وبعد مضى نحو خمسمائة عام ، رأى أحد الرهبان رؤيا ، بأن الملائكة قد حملت جسد القديسة ، ووضعته فوق قمة الجبل الذى يطلق عليه الآن «جبل كاترين» .. وأطلق اسمها على الدير ، بعد أن كان يعرف باسم دير العذراء .

ويرى بعض المؤرخين أن «كاترين» ليس اسماً للقديسة الشهيدة ، وإنما لقبت بهذا اللقب الذى يعنى فى الإغريقية «الطاهرة» .. وقد انتقلت شهرتها إلى الغرب ، وفي «الأسطورة الذهبية» كان حديث أحد رهبان مدينة روان بفرنسا ، الذى رحل إلى سيناء» فى القرن الثامن الميلادى ، وانقطع للعبادة بالدير سبع سنوات ، حتى انفصل اصبع من يد القديسة ، فحمله معه إلى ديره بمدينة روان .

ثم أسطورة «ريتشارد الأول» دوق نورمانديا ، الذى حملته الملائكة فى الرؤيا إلى هذا الدير ، حيث أدى الصلاة لله وسجد للقديسة كاترين !

ومن مدينة روان ذاعت سيرتها فى كل أرجاء أوروبا ، ورويت الحكايات عن «الأصبع الذى يخرج منه زيت مقدس يأتى بالمعجزات» ..!

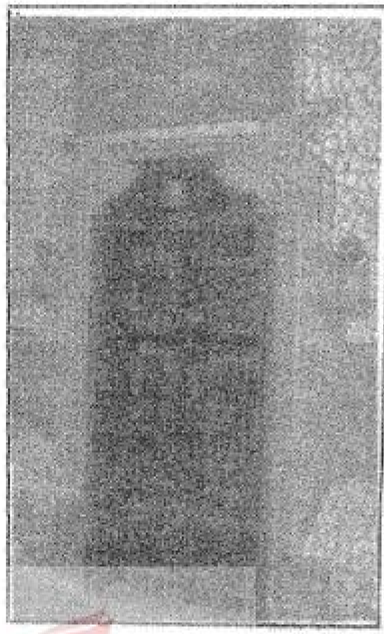
وروى فى تاريخ «جان دارك» شهيدة فرنسا ، أن القديسة كاترين قد ظهرت لها وشجعتها لتتحمل آلام الموت حرقاً !

● الدير

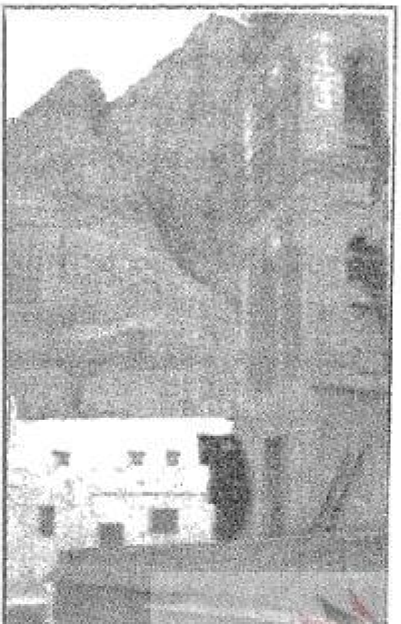
يقول «بروكوب» المؤرخ البريطانى : «فى المنطقة التى كانت تسمى بلاد العرب، وتسمى الآن فلسطين الثالثة ، صحراء واسعة لازرع فيها ولا ماء ، يوجد جبل ناء لايمكن الصعود إليه إلا بشق الأنفس ، قريباً من البحر الأحمر ، يسمى جبل سيناء ، يسكنه رهبان ونساك نذروا حياتهم للصلاة والصوم والتأمل والتفكر فى الآخرة .. ولما رأى الأمبراطور «جوستينيان Justinian» أنه ليس باستطاعته أن يمدهم بأية مساعدة ، لزهدهم فى المال ومتاع الدنيا ، قرر أن يبنى لهم معبداً باسم السيدة العذراء ، وفى سفح الجبل شيد لهم حصناً عام ٥٢٧م وخصص لهم قوة من الجنود لحماية الحصن وتأمين الطريق إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، كما أمر ببناء كنيسة فى هذا المكان المقدس كانت تعرف بكنيسة «التجلى» ..

وتذهب بعض الروايات إلى عصر أكثر قدماً ، فتقول أن الامبراطورة «هيلانة Helena» والدة القيصر قسطنطين ، عقب زيارتها لفلسطين ، قد توجهت عام ٣٤٢م لزيارة رهبان جنوب سيناء ، فتأثرت كثيراً بزيارة الشجرة المقدسة عند سفح جبل موسى ، فأمرت ببناء كنيسة فى نفس هذا المكان عرفت باسم العذراء مريم ، كما أمرت ببناء حصن يحتمى به الرهبان من هجمات البدو .

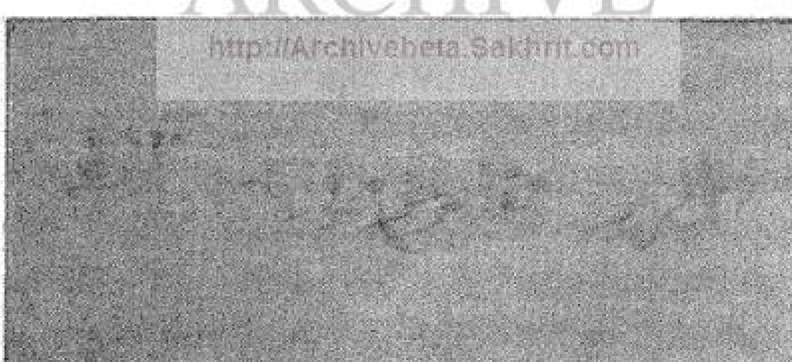
وللدير سور عظيم مشيد بأحجار الجرانيت ، يرجع جزء منه إلى السور الأصلى الذى شاده جوستينيان ، ويحيط السور بعدة أبنية داخلية ، بعضها فوق بعض ، تصل أحياناً إلى أربعة طوابق ، تخترقها ممرات ودهاليز ، ومن اختلاف أشكال الأبنية ، يستدل الزائر على أنها شيدت فى عصور مختلفة ، ويتراوح ارتفاع الجدران بين ١٢ و١٥متراً ،



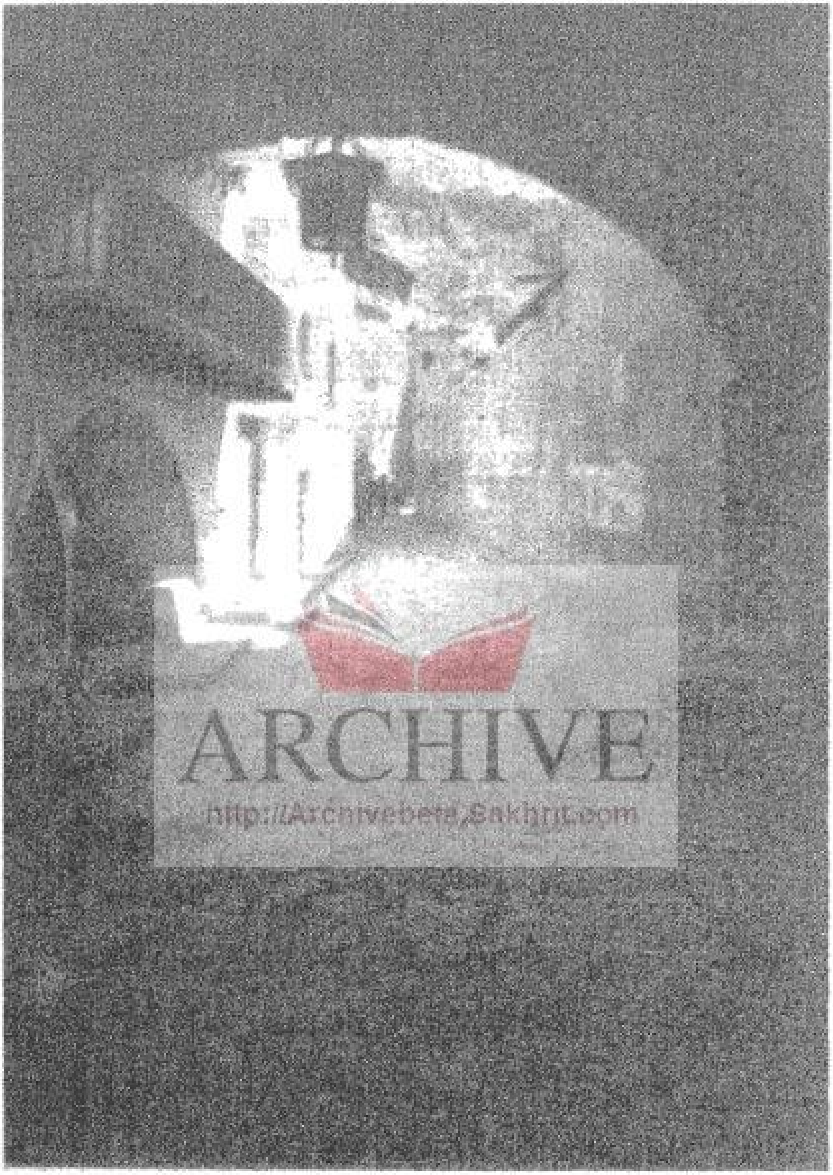
أحد أبواب الكنيسة الكبرى



راهب هبط من البرج بعد قرع الجرس



كتابات تذكارية لبعض الحجاج
على جدران الجامع



الجانب الايسر للكنيسة من الخارج

سانت كاترين

وسمكها نحو المترين وربع المتر ، وبالأركان أبراج ، فيبدو الدير شبيهاً بحصون القرون الوسطى .

وأهم المنشآت التى يضمها الدير : الكنيسة الكبرى ، كنيسة العليقة ، مسجد من العصر الفاطمى ، مكتبة ، قلايا الرهبان والزوار ، معصرة ، مخازن للحبوب والمؤن ، مطابخ ، طاحونتان ، وعدة آبار .

والكنيسة الكبرى ، والتى تعرف بكنيسة «الاستحالة» شيدت على طراز «البازيليكا» الرومانية : رواق فى الوسط ، وجناحان بالجانبين الأيمن والأيسر ، يفصلهما صف من الأعمدة ، وبها منبران من الرخام ، أحدهما مخصص لمطران الدير ، وهيكل رائع بنى على شكل نصف قبة مرسوم عليها صورة للسيد المسيح ، وصور للرسل والأنبياء ، منها لوحة لموسى وهو يتناول الوصايا العشر من يد امتدت إليه من أعلى ، ولوحة لموسى وهو يخلع نعليه ، وصورة للملكة تيودورا ، وأخرى للامبراطور جوستينيان .. ونقوش باليونانية والعربية ، تخلد ذكرى من أسهموا فى ترميم الدير أو نذروا له الأموال ، بالإضافة إلى مجموعة نادرة من الأيقونات تزدان بها الجدران ، أقدمها وأثمنها أيقونتا العذراء وكاترين ، كما تجذب الأنظار مجموعة من القناديل النفيسة ، وعند الباب الجنوبى ، إلى يمين المذبح ، صندوق من الرخام الفاخر ، تحفظ فيه جمجمة القديسة ويدها التى تزينها عدة خواتم ثمينة من هدايا الزوار .

وفوق باب الدير ، لوحتان من الرخام ، منقوش عليهما بالعربية واليونانية هذا النص التذكارى :

«أنشأ دير طور سيناء وكنيسة المناجاة الفقير لله الراجى عفو مولاه الملك الرومى المذهب يوستينيانوس ، تذكاراً له ولزوجته تاوضورة ، على مرور الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه ، ونصب له رئيساً اسمه ضولاس ، وجرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم الموافق لتاريخ السيد المسيح ٥٢٧» .

وقد زار الدير ، خلال القرن التاسع عشر ، عدد من الرحالة والعلماء والفنانين

المستشرقين ، منهم الإيطالي «بيترو ديللافالي» والفرنسي «ريفو» والفنان البريطاني الأشهر «دافيدروبرتس» والعالم الألماني «بوركهارت» الذي زار الدير أكثر من مرة ، وكان أول من وجه البحث العلمي نحو الوثائق والمخطوطات النادرة التي اشتهر بها الدير ، إلا أنه لم يتمكن من حصر كل محتويات المكتبة ، وقد وجه اهتمامه إلى دراسة المخطوطات العربية التي كان يبلغ عددها حتى ذلك العام ١٨٢٣ نحو سبعمائة وثيقة ، وقد أقام العالم «تيشندورف» عدة مرات بالدير في الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٨٥٩ ، وتمكن من الاستيلاء على عدد من المخطوطات والوثائق ،كان أشهرها المخطوط المعروف باسم «Codex syriacus» التوراة مكتوبة بالإغريقية ، يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي ، وقد نجح في تجميع الصحف ، الواحدة تلو الأخرى حتى عثر على النصوص كاملة ، ثم أهدى هذا المخطوط الفريد إلى قيصر روسيا ، وفي عام ١٩٣٣ ، اشترته الحكومة البريطانية بمبلغ مائة ألف جنيه استرليني وأهدته إلى المتحف البريطاني .

وتجدر الإشارة إلى ما سجله الشاعر والروائي اليوناني الأشهر «نيكوس كازنتزاكيس» في يوميات رحلته إلى مصر عام ١٩٢٧ ، خلال زيارته لدير سانت كاترين ، فكان حريصاً أن يلزم نفسه بما توحي به مشاعره ، في انطباعاته عن تلك الحياة الفطرية التي حفظت للشرق القديم الغامض سحره وفتنته .. فيقول :

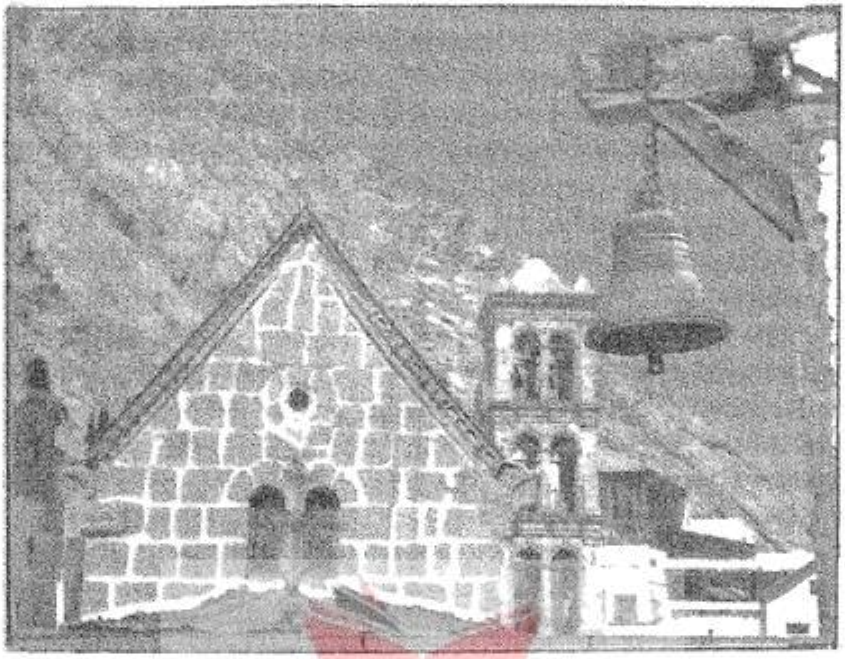
«.. بعد رحلة استمرت ثلاثة أيام ، في هذه الصحراء العابسة ، وجدت قلبي يثب لحظة مشاهدتي أشجار اللوز المزهرة ، تجولت بين واحات النخيل التي تحيط بالدير ، أصبحت إنساناً شرقياً ، فأنا هنا وسط هذه الجبال التي ذكرت في الكتاب المقدس ، أقف على هذا المشهد الرائع الذي ورد ذكره في العهد القديم ، حيث يرتفع أمامي من جهة الشرق «جبل المعرفة» المكان الذي ثبت فيه موسى «الأفعى النحاسية» .. وإلى الغرب سلسلة جبال سيناء والقمة المقدسة : المكان الذي تحدث فيه الرب إلى موسى ..

لم يتغير شيء في موروثات وتقاليد الرهبان منذ آلاف السنين ، إنهم يعيشون كما كانوا في عصر شعيب وموسى .. داخل كنيسة الدير، يبهر المرء لهذه الثروة، فالمشهد يزدحم بالشمعدانات الفضية ،

سانت كاترين


منارة الجامع وبرج الكنيسة يتآخيان داخل الدير

والأيقونات الذهبية تسمو فى أبهة وفخامة، تزدان بها الجدران والأعمدة ، وفى غرفة المقدسات تكدست أمامى صناديق الذخائر الضخمة ، وما تحويه من تذكارات مقدسة، أردية كنهوتية ذهبية و زخارف فخمة من الفن البيزنطى مغطاة باللآلى ، تيجان تتألق بالأحجار الكريمة ،تحف عاجية ، صلبان ثمينة ، تعاويذ وصولجانات .. كل هذا الكنز النادر حفظ بعيداً فى هذه الصحراء ، منذ قرون عديدة، متحف فريد لسير القديسين فى العالم .. أضاء أمين غرفة المقدسات، الشموع ، وبدأ يصلى ، وبخشوع فتح التابوت الكبير ، الذى يسجي فيه جثمان القديسة كاترين ، كانت يدها محلاة بالأساور ، والتاج الملكى يزين رأسها .. فى الخارج ، ألقيت بنظرات رفيقة على سور الدير وأبراجه ، تتوسطه الكنيسة ، وإلى جانبها ترتفع منارة جامع أبيض صغير ، وشعور عميق بأن الضمير الإنسانى السامى يتشكل هنا .. وهنا تنتصر الفضيلة على الصحراء !



واجهة الكنيسة الكبرى



شجرة (العليقة) المقدسة

تحية إلى مصر

فى يوم التضامن العالمى مع الشعب الفلسطينى

شعر : هارون هاشم رشيد

(١)

ونأتي مرة أخرى … نحيّي من هنا مصرا
نحيّي أمة لاتعرف … التسويف والغدرا
نحيّي شعبها الطيب … نسمو باسمه فخرا
نحيّي العلم والايمان … والابداع والفكرا
نحيّي الأزهر الشامخ … يطلع أنجمها زهرا
تضيء الكون كل الكون … تهدى النور والخيرا

(٢)

هنا باسم فلسطين … التى لاتعرف النكرا
هنا الأقصى مآذنه … هنا تستعجل الأمرا
هنا القدس التى منها … محمد خاشعا أسرى
تنادى ، ترفض الإرهاب … والأغلال والأسرا
هنا نحن على العهد … حفظنا عهدنا عمرا

(٣)

فيا مصر وإن طال … المدى بنضالنا صبرا
فمنك هنا لأمتنا … تجيء وتشرق البشرى
تضامنك الذى يبقى … لدعم نضالنا ذخرا
يشاركنا .. يؤيدنا … يشد لشعبنا أزرا
فأنت بحبنا أولى … وأنت بحبنا أحرى
معا شوقا إلى القدس … نصلى ، نرفع الذكرا
ولا نرضى لطهر القدس … أن يسلب أو يشرى
فيا مصر بكل الحب … شكرا مصرنا شكرا

قصة قصيرة

عودة الأسير



قصــة : بثينـة النـاصرى

رســوم : ســميحة حســنين

قبل كل شيء لم يكن المنزل الذى عاد إليه بيته ولا المرأة زوجته ولا الأولاد أبناءه.

أخذته السيارة إلى دار ذات طابقين مطلية باللون الأبيض تحيطها حديقة واسعة فى حى لم يطأه من قبل فى أطراف المدينة.

فى الداخل كانت ثمة امرأة نحيفة تتحرك عروق رقبتها بعصبية وينكمش جبينها بتقطيبة لم تفلح فى إزالتها الابتسامة التى غطت وجهها وهى ترحب به. اندفعت نحوه أول ما وضع قدمه داخل الدار ثم بدا وكأن شيئا ما قيّد اندفاعتها، فتوقفت ومدت له يدها.

أما الأولاد فقد جلسوا مسمرين على الأرائك داخل الصالة محرجين يبدو عليهم الاضطرار لالتزام السكون والأدب، وكأنهم فى حضرة ضيف سيغادر بعد قليل. كان يعرف ثلاثة منهم وإن كان عليه الآن أن يستعيد أسماءهم ويتأكد مَنْ منهم مَنْ .. أما الرابع أصغرهم فلم يتعرف عليه من قبل ولا يعرف حتى اسمه وكان قد ترك أمه حاملا به قبل عشر سنوات.

ابتدأ التعارف بأسئلة عامة منه وأجوبة مقتضبة منهم، وانتهى إلى صمت حرج معلق فوق الرؤوس. وسأل المرأة دون أن يستطيع رفع عينيه فى وجهها:

– متى اشتريتم المنزل؟

حتى صوتها تغير.. ازداد خشونة وهى تقول:

– لم نشتره جاهزا. لقد بنيته شبرا شبرا. بعت القديم واقترضت من البنك، وقد وقفت بنفسى على العمال. كان وقتا عصيبا.. مع مسئولية تربية أربعة أولاد. قال وهو يتلفت محدقا بالجدران والسقف:

– لقد أنجزت عملا رائعا.

قالت :

– وسددت آخر قسط من القرض العام الماضى.

– لم يدر فى خلدى أبدا أنك قادرة على الوقوف على قدميك. المرأة التي أتذكرها كانت تعتمد علىّ فى كل شيء.. عندما كنت أفكر بكم هناك كان هذا الشعور يعذبنى.

– كان وقتا عصيبا.. وعشر سنوات ليست بالقليلة.

– كلا

– والأيام تُغيـر الإنسان.

– نعم.

قالت بحماس :

– هل تحب أن تتفرج

قصة قصيرة

علــى البيت؟

- كما تحبين.

* * *

غرفة النوم لم تتغير.

الشيء الوحيد الذي لم يصبه التغيير، وأحس بالعرفان لها، فها هو الدولاب ذو الأبواب الأربعة وتاج الخشب المحفور بالورود والطيور ومنضدة الزينة بالمرآة المربعة التي يتوقف أمامها الآن فلا يرى الوجه الذي عرفه في هذه المرآة منذ عشر سنوات خلت. لقد ازداد نحافة، وبرزت عظام وجهه وابيض الشعر، وانحنى الكتفان بهم يضيف سنوات زائفة إلى عمره الحقيقي.

عندما حان وقت النوم.. كان السرير هو نفسه الذي ضم أحلامهما معا في الماضي من زمانهما والذي طالما حلم أن يعود للنوم عليه، ولكن المرأة والرجل كانا غريبين. حائر أن يمس جسدها وهو يغرق في جانبه من الفراش الوثير وأحس بها تنكمش بعيدا. حدق في سقف الغرفة يضيئه شعاع القمر المترامي عبر الشباك وراحت أفكاره تسبح ألوف الأميال.. تعبر الحدود إلى معسكر الأسر.. رأى وجوه من بقي من زملائه.. تخيلهم يفترشون الأرض غارقين في نوم ثقيل بعد عناء اليقظة، ترف على محياهم ابتسامات خاطفة وهم يحلمون بالعودة إلى البيت.

تصطك الأبواب الحديدية فجأة، ويصرخ بهم الحراس بخشونة: «انهضوا».

ينتبهون من أحلامهم ليجدوا أنفسهم يُدفعون بعصى غليظة إلى باحة المعسكر. يقعى في الطابور الطويل ويداه أعلى رأسه. يتمشى بينهم ضابط لم يتبين وجهه. كان يتحدث برتابة.. «لقد تخلى عنكم وطنكم.. إنكم هنا معنا إلى أن تتعفنوا».

تزداد أشعة الشمس لهيبا.. يحس بتشنج ذراعيه وساقيه وجفاف حلقه، وأنه لن يستطيع التحمل لحظة واحدة بعد الآن.. يقع على الأرض.. يتكالب عليه الحراس بالعصى ويسحب على الأرض من يديه حتى تكادان تنخلعان.. يُفتح باب زنزانة صغيرة مثل القبر ويرمى بها ويُغلق الباب باصطفاق يرن في دماغه. يرفع رأسه.. يجد أن سقف الزنزانة لا يسمح إلا بأن يجلس مطويا. يتكور في الظلمة وهو يئن أنينا متواصلا مثل حيوان جريح.

يسمع اسمه يتردد بإصرار. يفتح عينيه على سعتهما في الظلام.. ثم فجأة يغمر نور باهر المكان فيغمض جفنيه تألما.

- هل أنت على مايرام؟

- ماذا حدث؟

- لقد كنت تئن.

- كنت أحلم.

يحرك لسانا جافا في فمه وهو يضيف :

تأتى له المرأة بقدح ماء يعبه بلهفة.. ثم يستند على ظهر السرير. لم يعد يشعر بالرغبة فى النوم.

- هل تتصورين؟ كنت هناك أحلم كل ليلة بالبيت والآن وأنا فى البيت وعلى سريرى أحلم بالمعسكر.. يبدو أن العذاب لم ينته بعد.

- إذا كنت تريد أن تتحدث فإنى مصغية.

- كنت أريد أن أسألك لماذا لم تبعثى لى بطاقة أو رسالة طوال هذه السنوات؟

- لم نكن نعرف أنك على قيد الحياة.

- لماذا لم تحاولى أن تعرفى عن طريق الصليب الأحمر كما يفعل الجميع؟

- لقد حاولت فى البداية وقيل لى إن اسمك لم يكن مسجلاً لديهم.

قال بحدة :

- لو كنت بذلت جهدا أكبر لعرفت طريقى.. ولكنكم تخليتم عنى.

ارتفع صوتها وهى تقول :

- ليس لك أن تلومنى. كان ظرفا عصيبا وكان عندى من الهموم مايكفينى.. وقد اعتبرك الجميع مفقودا.

- من الواضح أن ظهورى مرة أخرى غير مرغوب فيه.. فها أنت ترفعين صوتك على.. والأولاد لا يعرفوننى.. فلم يكن عندك وقت لتحدثيهم عنى.. كنت مشغولة ببناء البيوت.. ماذا كان يعيب بيتنا القديم؟

نهضت من السرير وهى تقول بحزم :

- لن أرد عليك.

وغادرت الغرفة وهى تصفق الباب بشدة.

تلفت حوله مثل حبيس، شاعرا أن الجدران تضيق والسقف يهبط حتى لايستطيع أن يرفع رأسه.. فيكور جسده على السرير وقد ملأه إحساس أنه لم يغادر أسره وأن كل ما حوله زائف.. وكأنه يرى كابوسا لا ينتهى.. منزل واسع يكاد يطبق عليه.. أولاد غرباء.. وامرأة لايستطيع أن يمد نحوها إصبعا.

***

انسل مع نور الصباح محاذرا أن يحدث صوتا.. خرج إلى الحديقة.. هز غصن شجرة قريبة فتناثر الندى على وجهه وملابسه.. حانت منه التفاتة إلى جانبه فرأى أصغر أبنائه يجلس على السلالم المؤدية إلى المنزل. كان يضع رأسه بين كفيه الصغيرتين مستغرقا فى التفكير أو التأمل أو الحزن.

جلس إلى جانبه فبدا على الولد كأنه أخذ على حين غرة فابتعد قليلا عن الرجل الذى سأله:

- ماذا تفعل هنا فى هذا الوقت المبكر؟

- أفكر.

- أليس عليك أن تذهب إلى المدرسة؟

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- إذن لا داعى

قصة قصيرة

للذهاب إلى المدرسة.. أنا أيضا أريد أن نجلس مع بعضنا لنتعرف أكثر.

- ولكنني لا أريد الذهاب لسبب آخر.

- لابد أنه سبب وجيه.. هل لي أن أعرفه؟

- بسبب صديقي.

- ماذا فعل؟

- إنه جارنا أيضا ولابد أنه عرف برجوعك وسيخبر الجميع في المدرسة بذلك.

- وما ضير ذلك؟ ما العلاقة بين أن يعلم الجميع برجوعي ورغبتك في الغياب؟

أحنى الولد رأسه وتمتم :

- لأن الجميع يعتقد أنك مت شهيدا منذ عشر سنوات.

ألجمته المفاجأة فوجم.. ثم تساءل بعد فترة صمت طويلة :

- هل أنت الذي أخبرتهم بذلك؟ ما الضير أن أكون أسيرا؟

لزم الولد الصمت.

- هل كنت تفضل أن أكون ميتا؟

اندفع الولد يتكلم بسرعة وقوة وكأنه يكرر درسا محفوظا :

- أصدقائي يقولون إن الشهيد يموت وهو يدافع.. أما الأسير فإنه جبان يستسلم من أجل أن يعيش.

ابتلع ريقه وهو يقول :

- في الحرب الحقيقية الأمور ليست دائما على هذا النحو.. فليس كل أسير استسلم لأنه جبان.. فقد يكون هناك خطأ ما في خطة قائده.. أو تكون الذخيرة نفدت أو ربما بسبب تكاثر الأعداء على غير المتوقع.

هز الولد كتفيه غير آبه وقال :

- كنت أريدك أن تظل شهيدا في عيون أصدقائي.. كيف أريهم وجهي بعد اليوم؟

- كنت تفضل أن أكون ميتا.

هز رأسه غير مصدق ما سمعته أذناه.. وازداد إحساسه بالمرارة واليأس.

ها هو أصغر أبنائه يتمنى ربما في أعماقه لو لم يعد.. أن يظل رهن الأسر نسيا منسيا لئلا تحرجه عودته أمام أصدقائه.. ماذا عليه أن يفعل؟ هل يبحث عن حرب يقاتل فيها حتى يقتل؟ نهض فجأة وكأنه عزم على أمر، وصعد السلالم إلى باب المطبخ فالتقت عيناه بعيني زوجته التي كانت واقفة في الباب وفهم من نظراتها أنها استمعت إلى المحاورة مما زاد من شعوره بالعار وبأنه غير مرغوب به في هذا البيت.

اخترق المطبخ بعزم وثبات إلى الصالة ومن هناك ارتقى السلم إلى غرفة النوم.

* * *

«نهض من جانب ابنه واتجه إلى المطبخ التقت عيناه بعيني بنظرة بدت لي مليئة باللوم والعتاب، ثم أخذ طريقه عبر المطبخ

إلى الصالة وصعد السلم إلى غرفة النوم. قلت فى نفسى: لندعه يهدأ ويعود إلى طبيعته. كان الأولاد قد ذهبوا إلى مدارسهم ما عدا الصغير.. وانهمكت بعدها فى تحضير الغداء فلم أفطن لشىء غير عادى.. حين رجع الأولاد.. هيأنا السفرة لتناول الطعام وجلسنا على المائدة كالعادة، لم نفتقده إلا بعد أن قال ابنى الكبير:

- أين هو؟

ولم يقل «أبى» فطلبت منه أن يذهب ليناديه. بعد قليل رجع قائلا: لا أحد يرد من خلف الباب المغلق. عندئذ شعرت بالانزعاج حقا وخطر لى خاطر لا أدرى من أين جاء: أن يكون قد فعل بنفسه شيئا.. فإنه منذ أن عاد لم يكن طبيعيا. هرعت أقفز على السلم يتبعنى الأولاد. دفعت الباب بقوة لأجد نفسى وسط فراغ الغرفة.

- أين أبوكم يا أولاد؟

- لعله فى الحمام؟

وذهب أحدهم إلى الحمام فلم يجده أيضا.

وكررت السؤال:

- أين أبوكم يا أولاد؟

قال الكبير:

- لقد اختفت حقيبته التى جاء بها.

قال الصغير:

- ربما عاد إلى حيث كان.

نهره آخر:

- اسكت يا غبى».

***

«نهض من جانبى وهو يهز رأسه. كانت أمى تقف على باب المطبخ. تزحزحت من طريقه فاختفى فى الداخل. وبعد لحظات دخلت وراءه. لم يكن فى أى مكان. ذهبت إلى غرفتى وأخرجت مجلاتى التى قرأتها مرارا وجلست أتصفحها مرة أخرى فلم يكن لدى ما أفعله غير ذلك. بعد قليل سمعت صوت أقدام تروح وتجىء فى الغرفة العليا. ثم توقفت مليا حتى ظننت أنه جلس أو نام على السرير ولكن بعد حين سمعت ما يشبه صوت أقدام متلصصة على السلم. واربت باب الغرفة وأخذت بعين واحدة، أرقبه وهو يهبط السلم حاملا حقيبته الصغيرة التى جاء بها البارحة تلكأ قليلا قرب المطبخ مترددا ثم تسلل خارجا من الباب الخلفى.. مشيت وراءه بخفة ملتصقا بالحائط، ومن فتحة باب الحديقة رأيته يتوقف وسط الدرب متحيرا، يتلفت يمينا تارة ويسارا تارة أخرى، ثم هز حقيبته وكأنه استقر على رأى، وسار يمينا فى اتجاه الشارع الرئيسى. تابعته بعينى وهو يبتعد.. ذلك الرجل النحيل ذو الشعر الأشيب والظهر المحنى الذى قدم إلينا بالأمس وبات الليل فى بيتنا وحدثنى قليلا هذا الصباح تابعته حتى تلاشى فى الأفق».

دائرة الحوار

عروبة مصر

بقلم: د. محسن خضر

من كلمات سعد زغلول المحيرة حول إضافة «الصفر إلى الصفر» فى إشارته إلى جدوى العمق العربى لمصر، ووصولا إلى استجاباتنا لإجلاء العمالة المصرية من ليبيا مؤخرا، كيف يتعامل العقل المصرى مع مسألة العروبة ؟

تظل الحالة الفكرية متجددة وملحة فى فتح ملف الهوية القومية لمصر، وبالتحديد على مستوى النخبة والتى يشكل خطابها موجه البوصلة السياسية عند صناع القرار: بالقوة أو بالفعل ويشهد الخطاب الفكرى المطروح بين المثقفين المصريين استقطابا حادا - أحيانا - بالنسبة للمسألة القومية، والموقف من عروبة مصر، وتبعاته، ومسئولياته، ومن علاقة السياسى بالثقافى فى هذا الصدد، وخاصة مع تداخل وتشابك الخطابات القطرية والقومية والإسلامية والليبرالية.

وسبق لنا أن بينا فى كتابنا «تعريب مصر السياسى» تطور هذه العلاقة، وتطور المسألة القومية فى الوعى المصرى الحديث منذ الثورة العرابية وحتى ما بعد كامب ديفيد، وبينما تقدم السياسى الثقافى فى المسألة القومية فى الحقبة الناصرية، فإن البرجماتية الرئاسية والشعبية قد ميزت الحقبة الساداتية كيف ينظر المفكر المصرى المعاصر إلى الإشكالية؟

موقف زكى نجيب محمود

كشف حوار السبعينيات الشهير (١٩٧٨ - ١٩٨٠) عن قناعة المثقف المصرى المعاصر القوية بعروبته، وبهويته القومية، رغم غلبة النزعة القطرية على الخطاب الرسمى، وما رفده من مناخ القطيعة العربية بعد رحلة القدس الشهيرة، وبينما انفرد توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض بالتأصيل الثقافى للنزعة القطرية فإن عشرات المثقفين المصريين الذين شاركوا فى الحوار حاصروا هذه النزعة، وعملوا على امتصاص تردى المناخ والعداء الرسمى لالتزامات مصر القومية، ومجددين التأكيد على هوية مصر العربية، وإن كان هذا الحوار قد أفرز اتجاها فكريا خصبا لم يتم تعميقه أو الانتباه إليه بشكل كاف فى الخطاب الفكرى المنتج، وهو التأكيد على «العروبة الثقافية» فى مقابل «العروبة السياسية» التى تعرضت لتشكك وانتقادات حادة فى ظل القطيعة العربية لمصر، وهى حسبما عبر عنها زكى نجيب محمود «العروبة ثقافة لا سياسة - فى مساجلته بحوار السبعينيات المشار إليه - والتى أكد فيها على أن عروبة العربى هى وجوده الثقافى المتميز فهى لا تمنح بقرار كما يتوهم الواهمون، والوجود الثقافى عنده هو المقوم الأساسى للعروبة، وهذه العروبة كسب ثقافى يعيشه فى حياته اليومية، وهى خصائص ومناخ وتكوين



زكى نجيب محمود



جمال حمدان

يتمثل فى القيم ولقـــاءات وطرائق النظر

كان زكى نجيب محمود يعبـر عـن احباط المثقف الليبرالى من فشل التكامل العربى أو الاندماجية من ناحية، أو الصيغ السياسية التضامنية كجامعة الدول العربية، ولذا كان تركيز هذا الرافد من المثقفين على فصل السياسى عن الثقافى، والتأكيد على تجذير وتدعيم العروبة الثقافية فى مقابل العروبة السياسية، ومن المهم فى هذه الرؤية، إلى جانب ما سبق، أمران: الأول تحديده لأبرز الخصائص الثقافية التى تجمع العرب، وهى: اللغة العربية، والميل إلى القفز السريع من الجزء إلى الكل، ومن التفصيلات إلى العموميات، وتكثيف

المعنى أى باختصار الميل إلى التجريد، والميل إلى الادراك بالقياس.

والأمر الثانى فى رؤية زكى نجيب محمود بمبدأ التضايف، أو التنوع الجدلى الخلاق بالنسبة لتعدد الانتماءات، فلا تناقض بين عروبة العربى من جهة ومميزاته الإقليمية من جهة أخرى، ويشبه الأمر بالدوائر المتداخلة من الأضيق إلى الأوسع، وأنه ليس هناك انتماء واحد، يقول فى ذلك «أننى مصرى عربى فى آن واحد، ولمصريتى ميزات انفرد بها دون سائر العرب، ولعروبتى خصائص أشترك فيها مع سائر العرب على أن مصريتى وعروبتى كلتيهما ترتد آخر الأمر إلى نسيج ثقافى بعينه. وقولى أننى مصرى عربى معناه هو أننى أعيش ثقافة دائرتها الداخلية هى الميزات المصرية الخاصة ودائرتها الأوسع هى الخصائص المشتركة بين العرب أجمعين».

ولكن تبقى رؤية زكى نجيب محمود رغم خصوصيتها فى الابقاء على الأرضية المشتركة بين العرب، ورفع الانتماء القطرى إلى دائرة أوسع دون أن تلغى الأولى بل تستوعبها وتعتز بها، فإنها دعوة سكونية جامدة لا تسعى لتحويل عناصر المواءمة والاتفاق والتوحيد إلى مشروع توحيدى بالفعل أو كيان واحد، فهى تشبه مجموعة من المستمعين العرب المختلفى الجنسيات فى حفل لفيروز أو أم كلثوم، فهم يصلون إلى نفس الحالة المزاجية أثناء الحفل، ولكن بعد انتهاء الحفل يمضى كل إلى غايته، دون أن يفكر فى أن يحول هذه الحالة الإنفصالية المشتركة إلى توحيد واقعى حقيقى ومستمر.. إنها رؤية مسالمة، عقلانية تقنع ما هو كائن، وكان دون أن تفكر فى تجاوز هذه الوضعية إلى وضعية أشمل وأكثر استدامة. مرة ثانية ينعكس كفر المثقف الليبرالى العربى بالجدوى السياسية العمل العربى ولكن هذه الرؤية تحتفظ بالمقومات الثقافية المشتركة بعيدا عن اخفاقات وانتكاسات التجارب السياسية الفاشلة فى أغلبها

● رؤية جمال حمدان

وعند مفكر مصرى بارز كجمال حمدان للمسألة، ينبغى أن يكون الحديث عن الشخصية المصرية انغلاقا وتشبثا إقليميا بالمصرية إزاء «العروبة» فيتعامل مع المسألة من منظور علمى، فلا يعتبر الحديث عن الشخصية الإقليمية لمصر أو المغرب أو العراق يتضاد مع العروبة، ولا يعنى ردة إلى الفرعونية والبربرية والأشورية، ولا يتعارض القول بوجود عبقرية مكان خاص بكل أو باى قطر عربى مع دعوة القومية والوحدة العربية، فالتأكيد على الفروق الطبيعية لا يستدعى تجاهلها فى سبيل تجانس طبيعى باهت موهوم، ولا يجدى فى مواجهة الفروق الجغرافية بين الأقطار العربية علميا أو قوميا تجاهلها فى سبيل وحدة جغرافية منمطة، فالشخصية الإقليمية عند جمال حمدان تشبه الشخصية الإنسانية مكونة من سمات وعناصر عديدة، ولا يعنى

التفرد في الشخصية لكل قطر أي تنافر أو تضاد بينها ويؤكد على معنى الوحدة والتكامل، وتداخل القطرى والقومى فى الشخصية الثقافية لكل قطر عربى، فيقول:

«فمن الخلط إذن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان لهذا القطر أو ذاك يعنى تدعيم الدعوة الإنفصالية. وأن القول بتفرد أى أو كل قطر عربى هو تبرير للتجزئة السياسية أو سند للانفصال يتعارض مع القومية والوحدة العربية. وحقيقة الأمر أن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى. فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس أى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة وعقيدة سائدة، وهذه جميعا أركان متوافرة فى القومية العربية ربما كانت لا تتوافر فى قومية أخرى معروفة. والوحدة الوظيفية وحدة وظيفية تأتى من التنوع التركيبى لا من الوحدة التركيبية، وليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يحزب حركة القومية العربية أن تكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك». - شخصية مصر ص ١٣ - ١٥

تكشف شهادة جمال حمدان عن القناعات التالية:

عروبة مصر



توفيق الحكيم



أحمد عبدالمعطى حجازى

١ - يتفق مع رأى زكى نجيب محمود فى نظرية تعود حلقات الانتماء للإنسان العربى فالانتماء القطرى حلقة أساسية داخل حلقة أو دائرة أكبر هى الانتماء القومى، ومما يثرى الشخصية العربية العامة تنوع البيئات الجغرافية والشخصية الإقليمية.

٢ - إن تفرد الشخصيتين الجغرافية والثقافية لكل قطر عربى يعنى التعدد، ولا يتعارض مع التكامل القومى الأوسع.

٣ - إن الوحدة الثقافية هى ركيزة الوحدة القومية لا غيرها، وهو فى ذلك يقترب من طرح زكى نجيب محمود السابق.

٤ - إن مكوني التاريخ والجغرافيا أهم مقومات الوحدة الثقافية العربية والتي بدورها أهم مقومات الوحدة العربية السياسية.

٥ - إن شخصية مصر المتفردة، والعبقرية لا تكتمل بمفردها، ولا تنغلق بذاتها بل تمتلك فضاء أوسع من فضائها وهوية أعرض هي هويتها القومية العربية، وبالتالي أزال حمدان حساسية الانكفاء القطري عن المثقف المصري، وحل اشكالية التعارض المزعومة بين القطري والقومي.

● تراجعات التسعينيات

وفي التسعينيات انتقلت المسألة القومية في مصر إلى أرضية جديدة قوامها الثابت في تفاعله مع الطارىء والمتحرك والمستجد، ظلت العروبة الثقافية هي الضامن الأكبر، وحائط الصد الأخير أمام حدة الانكفاءات القطرية، والاتهامات العربية ضد المصريين، وخاصة في ظل ما أحدثته أزمة الخليج الثانية من استقطابات حدة في الرأي العام العربي قد أضعفت قناعات شرائح عديدة من المثقفين العرب ناهيك عن المواطن العادي بإمكانية محتملة أو مستقبلة للبعد السياسي للمسألة القومية وإمكانية إحراز نجاح في هذا الصدد، ناهيك عن تصاعد المد الديني في الحوار العربي المطروح على حساب الهوية القومية منذ عقدين على الأقل.

وشجعت حرب الكويت - في تطور آخر - وما تبعها من تصاعد النفوذ الأمريكي، والعجز العربي عن الاتفاق حول حل موحد أو تقديم حل عربي، شجعت على حدوث تراجعات ملحوظة لدى قطاع من المثقفين المصريين، وخاصة مع انهيار الاتحاد السوفييتي وتداعي المنظومة الاشتراكية والانتصار المؤقت للحل الرأسمالي والليبرالية العربية التي مثلتها دعوة «نهاية التاريخ»، والضعف الواضح في موقف الأنظمة العربية الراديكالية، وتقدم في هذا المناخ بمعطياته الجديدة تيار من الانكفاء القطري، أو إحياء الدعوة إلى الانتماء إلى الثقافة المتوسطية الأوربية، والجهر بالعداء للقومية والتشكيك في حقيقتها وجدواها وإمكان تحققها مستقبلا.

إنه حوار جديد يشبه حوار السبعينيات الشهير ولكنه يتم في هذه المرة في مناخ مختلف، وأرضية متغيرة نسبيا، ليس عامل القطيعة العربية لمصر هذه المرة، بل الضعف العربي ككل، وإخفاق النظام العربي وتوفير الحد الأدنى من فعالية سياسية عربية.

● المسألة عند أحمد عبدالمعطي حجازي

يتمثل تحليل مثقف مصري بارز هو أحمد عبدالمعطي حجازي معطيات المناخ الجديد وتحولاته..

إن حجازي القادم من «الرحلة الباريسية» لا يمتلك رؤية «وليدة» كرؤية الطهطاوي التنويرية، ولكن رؤيته «متحولة» عن رؤية قومية سابقة ومختلفة.

يقول حجازي في حوار أخير «أعطينا

كل شيء للقضية العربية بما في ذلك الديمقراطية لأن ١٩٥٢ لم يكن يحدث لولا هزيمة الجيش في فلسطين ضمنيا بالنظام الديمقراطي وقبلنا بفكرة المستبد العادل لكي يسلم الشرف الرفيع. ثم أهدرت كل ثرواتك المادية لكي تحقق فكرة العروبة، تحرر اليمن من نظامه المتخلف وتساعد سورية والجزائر إلخ، ثم أعطيت رمال الصحراء دماء أبنائك مرات عديدة متتالية والآخرون يتفرجون، والآخرون يستثمرون هذه الدماء، الآخرون يزدادون ثراء وتتحول دماؤك إلى بترول وزيادة في الأسعار. الآن الأمر اختلف خرجت بهزيمة واقتصاد ضعيف وثقافة تأثرت وقبلت بفكرة التسوية لكن أية تسوية تلك التي تسوى بين مصر وجزر القمر في الجامعة العربية.

لا أقول أكف عن أكون عربيا ولكن ينبغي أن نتحدث رابطة ثقافية. هذه العروبة تحرمني من الحديث عن أجدادي الفراعنة، وتحرمني الحديث عن أبائي الأقباط لأنني في الوقت الذي يتحدث فيه الآخرون عن البابليين والآشوريين وهزيل وحمير. أنت ممنوع من الحديث عن رمسيس الثاني واخناتون. إن بعض القوى الفاعلة العربية يستند إلى طبقات لها مصالحها في أن تنهض مصر أو لاتنهض.

لقد انخرطت بكل ذرة من كياني في المشروع الذي قاده عبدالناصر وبكل انحراف عن واجب الحاكم إزاء المحكومين الذين أعطوه كل شيء، رغم هذا، أنا معتز كل اعتزاز بما بذلته لأنني بذلته بصدق مصر كانت منخرطة بكل ذرة في ترابها مع هذا المشروع. كان مشروع شعب كل ما هنالك أننا كنا ناقصي وعي، وأعني نفسي وغيري ممن انخرطوا في هذا المشروع، وهو خطأ تقع فيه كل الشعوب غيرنا عندما تضحي بالديمقراطية، فالتضحية بالديمقراطية لا تحقق شيئا على الإطلاق».



حسين فوزي



لويس عوض

من المهم أن نتذكر أن حجازي كان في بداية رحلته الباريسية قد أصدر كتابه المهم «رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر» خلال سنوات القطيعة العربية والنبرة القطرية في الحقبة الساداتية، فكان أحد حراس الهوية العربية لمصر في هذه المحنة.

عروبة مصر

ولكن حجازى بتاريخه الناصرى العربى يعود لينقد فى حدة الحقبة الناصرية وموروثها الأيديولوجى.

يتفق حجازى مع زكى نجيب محمود وجمال حمدان فى إيمانهما بالركيزة الثقافية للعروبة، ناقدا بشدة وجهها السياسى متفقا مع زكي محمود فى هذا البعد، ولكن تبقى مسألة القطرى والقومى مهتزة عند حجازى، فانتماؤه القطرى الوطنى كمصرى يطل بقوة ناقدا سنوات «إخفاء كل خصوصية» وهو يعكس إخفاقه النظرى فى حل التناقض المحايث للاشكالية، ومقابل موقفى زكى محمود وجمال حمدان اللذين نجحا فى رفع التناقض السابق ببساطة من خلال ما أسمياه تعدد حلقات أو دوائر الانتماء، أو ما نسميه فى اجتماعيات الثقافة بالثقافة الكلية والثقافة الفرعية Sub- Culture فلم ير زكى محمود وجمال حمدان حرجا أو تعارضا فى الاعتزاز بالانتماء القطرى المصرى، والانتماء العربى كغيرهما من الأدباء والكتاب المصريين.

وسبق أن قرأنا مثل هذا النقد عند جمال الغيطانى ومحمود السعدنى وغالى شكرى.. وهى حقيقة لا يجب أن نتغافل عنها، وهى تعود فى رأيى إلى ضعف الانتماء القومى، والخطاب العروبى فى العقدين الأخيرين، إلى جانب ما أثارته الحقبة النفطية من تعارض المصالح وجانبية الغنائم، ولا تعود إلي تناقضه القطرى والقومى فى نفس الوقت.

ألا يجمعنا نجيب محفوظ وأم كلثوم ونزار قباني والطيب صالح أكثر ما يفعله «بيت العرب» ذاته أو المجالس الإقليمية فى المشرق والمغرب؟ ويبقى أن حجازى فى رأيه السابق يضع يده على مكمن للضعف فى مسألة العروبة وهى افتقاد القومى الديمقراطى، وينبه إلى أهمية ارتقاء الوعى القومى إلى إيمان عميق بالديمقراطية، نظرية وممارسة، حيث يحمل هذا الغياب – للديمقراطية – مسئولية فشل العمل القومي فى العقود الأربعة الأخيرة «فالتضحية بالديمقراطية لا تحقق شيئا على الإطلاق)

إن حجازى ينبهنا مجددا – برؤية المثقف التقدمى – إلى ما أسماه توفيق الحكيم من قبل «غياب الوعى» ودعوته إلى (عودة الوعى) وإن كان الحكيم يصفى حساباته بشكل أو بآخر مع الحقبة الثورية القومية العربية ككل وبوجهها الناصرى خصوصا.

ولكن تبقى القضية «المسكوت عنها» فى خطاب عبدالمعطى حجازى هى تلك العلاقة المذبذبة بين الرباط الغائم الذى يسوى بين الجميع ولا يميز بين (بداوة) و(حضارة). إن المفكر المصرى اليوم يؤكد على الطابع الثقافى للعروبة، وينفر من بعدها السياسى متأثرا بالانتكاسات المتتالية فى المسألة العربية، داعيا إلى فصل السياسى والثقافى، وتأسيس القومى على الثقافى وحده، ويرى فى المضمون الثقافى للعروبة المهمة الجديرة بالنضال، وهى دعوة تعبر عن العقلانية النقدية للمثقف المصرى المعاصر، ومراجعته الكبيرة للثوابت نفسها.

دائرة حوار

بقلم: د. عبدالوهاب المسيرى

اليهود وعقلية التذاكر

أدورنو وهوركهايمر والصراع العربى الإسرائيلى

كتب الدكتور مجدى يوسف فى مجلة الهلال عدة مقالات يدور معظمها حول مدرسة فرانكفورت، بعد أن لاحظ أن الحديث عنها باللغة العربية قد كثر هذه الأيام. ومع هذا، لم يشر الكاتب إلى أى من هذه المقالات، حتى نقرأها معه، وحتى نعرف مضمونها الحقيقى ونشاركه فى الحوار، خاصة وأنه يضيف قائلا: «وبلغ البعض من حماسه لتلك المدرسة أن تمنى لو وضع على رءوس أصحابها عقالا عربيا». وهذه صورة أقل ما توصف به أنها خفيفة الظل، ولنتخيل معى هوركهايمر وأدورنو وقد لبس كل واحد منهما عقالا عربيا، وكأنهم سياح فى الهرم أو بجوار ملهى ليلى! ومع هذا تظل هذه الصورة خالية من أى معنى أو مضمون لأنه لم يتنازل ويفصل معنى الصورة.

وبعض ما جاء في مقالات الدكتور مجدي يوسف يستحق الرد والبعض الآخر يتطلب التوضيح . ولأبدأ بنقطة وردت في مقال له بعنوان «في نقد الجدل السالب» (الهلال سبتمبر ١٩٩٥) . فقد أراد الدكتور أن يتناول موقف أحد مفكري مدرسة فرانكفورت (أدورنو) من الصراع العربي الإسرائيلي ، ولكن بدلا من أن يعطينا صورة كاملة مركبة (وهو كما يخبرنا يجيد الألمانية والاطلاع على المصادر الأصلية) ، فقد اكتفى بأن أخبرنا عن مقابلة تمت بينه وبين أدورنو عام ١٩٦٨ ، حين أخبره أدورنو «بعضمة لسانه» أنه تعاطف مع إسرائيل . ويخبرنا الدكتور أنه بناء عليه ، وبعد هذه الواقعة الخطيرة المذهلة ، فقد الرغبة في الكتابة عن أدورنو!

قضية خطيرة

وطريقة تناول الدكتور مجدي يوسف لقضية بمثل هذه الخطورة والتركيب تثير الدهشة . لا بأس من أن يذكر الكاتب تجربته الشخصية ، ولكن أن يختزل فكر واحد من أهم كتاب القرن العشرين وأكثرهم أهمية بخصوص قضية بمثل هذه الأهمية في عبارة واحدة قالها صاحبها في لحظة عابرة ، فهذا يدل على جسارة اختزالية . فموقف أدورنو وهوركهايمر من المسألة اليهودية والصراع العربي الإسرائيلي مرتبط برؤيتهم للكون وللعقل الأداتي والعقل النقدي (أنظر مقالنا في الهلال أبريل ١٩٩٥) ولا يمكن أن تصل إلى فهم هذا الموقف إلا من خلال عملية تفكيكية تركيبية ، تتجاوز التلقي المباشر لعبارة واحدة قالها صاحبها !

كان اهتمام هوركهايمر وأدورنو باليهود واليهودية كبيرا ، ولكنه لم يكن مركزيا ، إذ إنه ينبع من اهتمامهما العميق بقضية أشمل وهي قضية القمع والتسلط (التي تشكل الانشغال الأساسي بالنسبة لهما) . فالعداء لليهود ليس ظاهرة مستقلة من وجهة نظرهما ، وإنما هو جزء من التعصب ضد الأقليات والعداء الديمقراطية على وجه العموم ، والعداء للرأسمالية في بعض الأحيان ، فاليهودي لا يسقط ضحية عداء خاص موجه نحوه هو بالذات (ومع هذا في كتاب الشخصية التسلطية يوجد مقياسان، واحد لقياس التسلطية، وآخر لقياس درجة العداء لليهود).

وظاهرة القمع ذاتها مرتبطة في فكر هوركهايمر وأدورنو بالعقل الأداتي وبرغبة الإنسان الغربي في السيطرة على الطبيعة، بل إن الحضارة بالنسبة للإنسان الغربي إن هي الا طقوس الهيمنة الكاملة

في نقد «الجدل السالب»

بقلم: د. مجدي يوسف

كثر الحديث هذه الأيام عن «مدرسة فرانكفورت» و«نظريتها النقدية» باللغة العربية. وبلغ البعض من حماسه لتلك المدرسة أن تمنى لو يضع على رءوس أصحابها عقالا عربيا! أما البعض الآخر: فضموا من يرتاب لأفكار هذه المدرسة السالبة، أو مدرسة الجدل السالب، بصور شباب «الهيبيز» الذين يطلقون شعورهم ولحاهم ولا يستحمون بالشهر».

على الطبيعة، ولذا فهي في واقع الأمر ليست حضارة وإنما مدنية وحسب. ويربط أدورنو وهوركهايمر بين العداء لليهود من جهة والعقل الأداتي من جهة أخرى، أي أن ظاهرة العداء لليهود تخرج من نطاق الاقتصادي والسياسي لتدخل في نطاق المعرفي والحضاري. والعقل الأداتي عقل يود السيطرة الكاملة على الطبيعة، وهو اتجاه يتصاعد مع الفاشية. ولكن هذه الرغبة في السيطرة غير المحدودة تولد عند صاحبها إحساسا بالذنب، ولذا فالفاشي يسقط طموحه وطمعه على اليهودي فيحوله إلى الباحث عن السيطرة الكاملة.

ولكن لا يكتفي هوركهايمر وأدورنو بهذا التفسير بل إنهما يتعمقان في القضية. فهما يذهبان إلى أن من يحاول السيطرة على الطبيعة لا يرى سوى القوة، ولذا فصورة السعادة بلا قوة أو سلطة أو هيمنة تستفزه إلى درجة لا يمكنه تحملها. لأن مثل هذه السعادة ستكون سعادة حقيقية (على عكس السعادة الزائفة التي تستند إلى القوة). واليهود - حسب رأي هوركهايمر وأدورنو - يتمتعون بسعادة لا تستند الى أي قوة أو سلطة، بل إنه يتم خلط اليهود بالطبيعة ذاتها في الوجدان الغربي فهم يتقاضون أجورا بلا عمل، ولهم منزل ووطن بلا حدود، ودين بلا اساطير. ولكن المفارقة الكبرى تكمن في أن اليهودي رمز الطبيعة هو أيضا رمز المدنية في الوجدان الغربي، والمدنية معادية للطبيعة. فاليهودي مرتبط دائما بعمليات الريادة والتقدم والهيمنة على

الطبيعة. ولذا حينما تمردت الطبيعة على الحضارة (أى المدنية) كما حدث مع ظهور اللاعقلانية فى الغرب، أصبح اليهود هم موضع الكره. فالفاشية تجعل الثورة ضد قمع الطبيعة آلية لقمع الطبيعة. وهكذا تمت التضحية باليهود الذين كانوا آلية الهيمنة على الطبيعة، من أجل آلية أكثر شمولا للهيمنة عليها . إن هوركهايمر وأدورنو يذهبان إلى أن ظاهرة العداء لليهود ليست انحرافا عن الحضارة الغربية فهى مرتبطة بظهور العقل الأداتى الذى لا يضطهد اليهود وحسب بل وكل البشر والطبيعة بأسرها ولذا فإنهاء ظاهرة العداء لليهود لن يتحقق إلا مع محاولة قمع الطبيعة ذاتها.

ولكن بعد عام ١٩٤٧ وبعد سقوط هتلر أضاف هوركهايمر وأدورنو بعدا جديدا لإدراكهما لظاهرة العداء لليهود. فقد بدأ يريان أن العداء لليهود ليس مرتبطا بالعقل الأداتى وحسب، وإنما مرتبط بالعقلية الاختزالية «عقلية التذاكر» ككل. والفكر الفاشى «فى تصورهما» ليس مهما فى ذاته وإنما تعود أهميته إلى أنه تعبير عن هذه العقلية التى تتسم بالإسقاط الزائف ومحاولة إلغاء الموضوع تماما وتصفية الآخر. فالعداء لليهود متجذر فى اتجاه العقل الغربى نحو إنكار ما هو ليس شبيها لى «الآخر» والذى يشجع النزعة الشمولية نحو الهيمنة للحضارة الغربية. واليهود بهذا المعنى برفضهم أن يندمجوا فى هذه الحضارة يشكلون عقبة أمام عملية دمج البشر وإدخالهم فى شبكة السببية والهيمنة والإدارة الرشيدة حتى أصبح المجتمع الإنسانى مجتمعا ذا بعد واحد.

ثم بدأ هوركهايمر يحاول تفسير بعض جوانب فكره ورؤيته للكون بالعودة لبعض العناصر الأساسية فى العقيدة اليهودية. فصرح بأن رفض مدرسة فرانكفورت أن تصف المجتمع المثالى هو المعادل الحديث للحظر اليهودى القديم على النطق باسم الإله. وفى محاولة التفريق بين فكره وفكر ماركس يرى هوركهايمر أن ماركس تأثر بالمشيحانية اليهودية «التى تركز كثيرا على فكرة المجتمع الطوباوى». أما هو فيرى أنه تأثر بتحريم تصوير الإله. ولكن رغم هذا التحريم يظل الإله هو محل التطلع والتشوق.

عنصر النفي

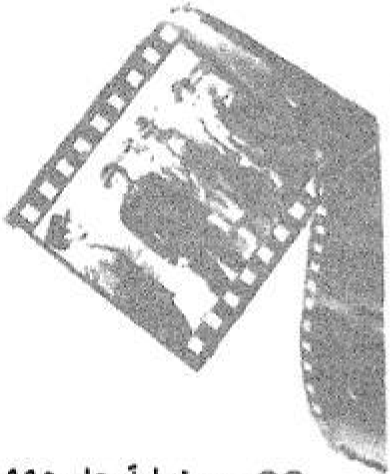
إن ما يحاول هوركهايمر قوله هنا هو إن فكر مدرسة فرانكفورت لم يسقط فى عقلية نهاية التاريخ المشيحانية على طريقة ماركس، بل احتفظ بالنسق مفتوحا وبالتجاوز حقيقة لا نهائية . وهو يرى أن

ذلك هو الترجمة العلمانية لبعض المفاهيم اليهودية «مثل تحريم نطق اسم الإله وتحريم تصويره». وإذا أردنا ترجمة هذا المصطلح شبه الديني إلى مصطلحنا الفلسفي لقلنا إنه بينما ورث ماركس الحلولية اليهودية والنزعة نحو التجسد فيها، فقد ورث هوركهايمر النزعة التوحيدية اليهودية التي ترى الإله منزها عن المادة «الطبيعة والتاريخ» لذا لا يمكن أن يتجسد الإله وينتهي التاريخ، وينغلق الجدل وينتهي التجاوز. ويرى هوركهايمر أن اليهود في علاقتهم بالبشر بهذا يمثلون عنصر النفي «بالمعنى الفلسفي» وهو ظاهرة صحية إيجابية، إذ إنه بدون هذا النفي يصل التاريخ إلى نهايته وتسود الشمولية.

وتطور موقف هوركهايمر من اليهود هو تعبير عن تطور موقفه من الماركسية. فقد انتقل من الإيمان بالبروليتاريا كآلية استرجاع الكل إلى الإيمان بأن أكثر ما يمكن أن يؤمل فيه الإنسان هو الاحتفاظ بجيوب من النفي، ومن ثم تزايد اهتمامه باليهود وبالمسألة اليهودية وبالعقيدة اليهودية. ومن هذا المنظور أصبح المفكر صاحب العقل النقدي «في مقابل العقل الأداتي» هو اليهودي الذي يرفض أن يستوعب في آليات المجتمع وأصبح العداء لليهود هو تعبير عن تلك الاتجاهات في المجتمعات التي تنحو نحو الشمولية والسيطرة على الطبيعة والإنسان.

لكل هذا كانت استجابة هوركهايمر لتأسيس الدولة الصهيونية مبهمة للغاية، فاليهود بعد أن كانوا جيبا من جيوب النفي الأساسية ورمز أمل تحقيق العدل في نهاية الزمان تحولوا إلى مجرد أمة مثل كل الأمم لها دولة قوية يتبعها جيش له قياداته العسكرية وأصبح يتبعها صناديق الجباية الخاصة بها «أي أن هوركهايمر كان يرى، شأنه في هذا شأن روزنزفايج أن اليهود «شعب غير تاريخي» وأن دخوله التاريخ ومعترك السياسة هو تصفيته لهويته اللاتاريخية هذه!».

إن الصهيونية في تصور هوركهايمر هي تعبير عن عدم الإيمان بالتعددية السياسية والثقافية، فإسرائيل هي مجرد دولة، قد تكون دولة مضطهدة تأوي المضطهدين ولكنها مع هذا ليست صهيون التي وردت في العهد القديم حيث يعيش كل الأتقياء من كل الشعوب في سلام.



أزمة سينما وهوجة مهرجان

بقلم: مصطفى درويش

●● مع نهاية عام ١٩٩٥، لم يبق على بداية الألفية الثالثة سوى ستين شهرا.

إذاً نحن على مشارف ذلك العصر الذى سيتحول فيه كل بيت فى بلاد الغرب، وبعض بلاد الشرق إلى مركز الكترونى كامل شامل للترفيه والتعليم.

مما يؤذن بتغييرات عميقة فى حياة الناس، من شأنها حتما أن تنتهى إلى صورة حضارية جديدة نراها الآن فى طريق التكوين كما قال بحق رائد الموجة الجديدة الفرنسية «جان لوك جودار». ●●

والآن والألفية الثانية تدنو سريعا من غايتها أخذ صانعو الأطياف يتساءلون عما يمكن أن يكون لهذه المتغيرات من أثر فى الحياة السينمائية، وفيما ينتجون من أفلام.

وأخذ بعضهم يتنبأ بما ستصير إليه الحياة السينمائية من قوة أو ضعف، ومن رقى أو انحطاط ومن تطور قد ينتهى بها إلى النمو أو ينتهى بها إلى الانقراض.

● الإعصار المميت

ومما زاد من أهمية التساؤلات والتنبوءات أنه منذ عقد أو يزيد والسينما تعانى فى جميع أنحاء العالم فيما عدا هوليوود، حيث مصنع الأحلام، من أزمة حادة، أشبه بإعصار يكاد يعصف بها، بسبب موجة من الاختراعات لعل أهمها الفيديو والكمبيوتر والهوائيات.

وبطبيعة الحال لم تكن السينما



ليلى علوى وإلهام شاهين وهالة صدقى (يا دنيا يا غرامى)

المصرية بمنجاة من ذلك الإعصار.

حقا عمرت بضعة عقود، واختلفت عليها فى أثنائها أحداث كثيرة متباينة وجهتها ألوانا من التوجيه، وأخضعتها لضروب من التطور.

وحتى عهد قريب كانت لاتزال حية، قوية تستمد حياتها وقوتها من أنها السينما الأولى مولدا فى الوطن العربى، فضلا عن أنها السينما الوحيدة على أرض الوطن التى استطاعت أن تقيم بنية تحتية لصرح عال، انتهى إلينا بتراث عظيم من أفلام متباينة، مختلفة، فيها لذة، وفيها متعة فضلا عن أن بعضها يرتفع الآن إلى مرتبة الآثار الرائعة التى يستمد منها المتفرج العربى غذاء القلب والعقل والروح.

● مقومات البقاء

على أنه، ولأول مرة فى تاريخها، تجد السينما المصرية نفسها محاصرة بخطر فقدان المقومات الثلاثة الأساسية، التى بدونها لا عاصم لفن وصناعة السينما من الجدب والعقم والإعدام.

تلك المقومات هى توافر المواهب والإسراع بتطبيق الاختراع فى صناعة الأفلام وحرية التعبير فالعصر الذى نعيش فيه، عصر انتشار الفيديو والهوائيات، قد عرض أصحاب المواهب السينمائية عندنا لمحنة الاستجابة لمقتضيات المسلسلات



والإعـــلانات، مما كـان سـبـبـا فى إضـعـاف فنهم، ثم استهلاكه وابتذاله فى نهاية المطاف والحديث عـمـا تعانيـه صناعـة السـينـمـا من تخلف في مـجـال تطبيق الاختراع حديث يطول.

اتساع الهوة

وهنا يكفى أن نلقى نظرة طائرة على تاريخ السينما منذ أن جاءت إلينا بفضل الأخوة لوميير، وإلى يومنا هذا، حتى يتبين لنا أن المسافة الزمنية بين تطبيق الاختراع فى الخارج وتطبيقه عندنا تتسع على مر الأعوام.

فعندما اخترعت السينما قبل مائة عام، وتحركت الصور على شاشة بيضاء فى أحد مقاهى باريس، لم يمض سوى أحد عشر شهرا على هذا الحدث الكبير، إلا وكان المصريون يشاهدون نفس الصور تتحرك فى الاسكندرية، ثم فى القاهرة بعد أيام.

وعندما تكلمت السينما لأول مرة فى بلاد العم سام، يوم السادس من أكتوبر لعام ١٩٢٧ لم تتكلم السينما عندنا إلا بعد ذلك التاريخ بحوالى خمسة أعوام.

وعندما أخذت أفلام هوليوود تتزين بالألوان بدءا من منتصف عقد الثلاثينيات، بقيت الأفلام عندنا على حالها، مقتصرة على اللونين الأبيض والأســود حـتى مشارف عقد الخمسينيات.

وعندما تقدم الصوت فى السينما العالمية بخطى سريعة، انتقلت به من الاستريو إلى الدولبى قبل ربع قرن من عمر الزمان، ثم قفزت به إلي النظام المسمى «تى اتش إكس» فالديجيتال الآن.

لم يتقدم الصوت عندنا خطوة واحدة، فحتى هذه الساعة، لم يخرج إلى النور فيلم مصرى واحد مسجل بالصوت الدولبى.

ولم تجهز به بطول وعرض مصر، سوى دار واحدة، وربما دارين.

وبدءا من منتصف عقد الستينيات والحديث لا ينقطع عن رداءة الصوت فى الأفلام، حتى أنه فى بعض الأحيان يصعب، ولا أقول يستحيل فهم الكلام.

رداءة الصوت!

وفى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير كانت رداءة الصوت هى القاسم المشترك بين «يا دنيا يا غرامى» و«إشارة مرور» و«ميت فل» و«عفاريت الأسفلت» و«التحويلة»، أى بين جميع الأفلام المصرية المتنافسة على جوائز المهرجان.

وكانت تلك الرداءة معرة وسط الأفلام القادمة إلينا من بلاد، بعضها ليس للسينما فيه، ما للسينما المصرية من تراث.



أحمد عبدالعزيز ضابط شرطة فى فيلم التحويلة



شريهان فى ميت فل

تبقى حرية التعبير سينمائيا، وعندها أقف قليلا لأقول أنها مثل الصوت، لم تتقدم خطوة واحدة إلى أمام، بل لعلها هى الأخرى تقهقرت خطوات إلى وراء.

● الماضى المجهول

فمعروف أن تلك الحرية مكبلة عندنا بقيود منذ أن فرضت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر، قبل ثمانين عاما.

وبعد تلك الحماية بحوالى أربعين عاما، وبالتحديد فى ٣١ من أغسطس لعام ١٩٥٥ صدر القانون رقم ٤٣٠ بتنظيم الرقابة على الأشرطة السينمائية ومصنفات فنية أخرى

وبدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥، تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية، عمل بأحكامه التى ظلت سارية المفعول دون أى تعديل زهاء سبعة وثلاثين عاما، وذلك إلى أن تنبه أولو الأمر فى مجال الثقافة والإعلام إلى أن تلك الأحكام لا تنصرف إلى أشرطة واسطوانات الفيديو، إذ كانت لاتزال فى رحم الغيب، قبل أربعين عاما إلا قليلا. فكان أن سارعوا إلى إصدار قانون تحت رقم ٣٨ لعام ١٩٩٢، عمل به اعتبارا من الرابع من يونيه من ذلك العام، وجاء متضمنا



تعديلات تسد ذلك النقص فى أحكام الرقابة على السينما.

وحتى ٢٨ من ابريل لعام ١٩٧٦ كان يكمل قانون الرقابة تعليمات من إدارة الدعاية والإرشاد التابعة لوزارة الشئون الاجتماعية صادرة في شهر فبراير لعام ١٩٤٧، أى فى عهد حكم السراى والاحتلال.

ويلاحظ على هذه التعليمات أنها لم تترك صغيرة أو كبيرة لها اتصال بالدين أو بنظام الحكم القائم أو بالجنس إلا وضعته فى باب الممنوعات.

وقد جرى نسخ تلك التعليمات بموجب قرار وزير الإعلام والثقافة رقم ٢٢٠ لعام ١٩٧٦ بشأن القواعد الأساسية للرقابة على المصنفات الفنية.

وأهم ما يلاحظ على ذلك القرار الوزارى أنه اقتصر على دمج المحظورات الوارد ذكرها فى تعليمات وزارة الشئون الاجتماعية، وعددها أربعة وستون محظورا، بحيث تقلص بها إلى عشرين محظورا.

وليس من شك أن السينما عندنا، فى ضوء تلك المحظورات، تواجه رقابة مجحفة بحق مبدعيها فى حرية التعبير.

● الوهم والخيال

وهذا فى وقت تستلزم فيه ثورة المعلومات التحرر من عقلية أهل كهف. يعيشون فى وهم وخيال أن الأمن يتحقق فى حماية سور الصين العظيم.

ولعل تدخل شرطة الآداب لمنع عرض عدد من الأفلام فى مهرجان القاهرة الأخير، يلقى بعض الضوء على استمرار تلك العقلية متحكمة فى صناعة الأطياف.

فمعروف أنه من الحق لذاك المهرجان، ألا يخضع لأحكام الرقابة، شأنه فى ذلك شأن جميع المهرجانات العالمية.

وأن يجرى استثناؤه منها أمر سهل يسير، يكفى له قانون أو ربما قرار رئاسى أو وزارى من مادة واحدة لا تزيد.

ولكن عقلية أهل الكهف تأبى ذلك الأمر السهل اليسير، مؤثرة عليه التعقيد بإخضاع جميع أفلام المهرجان للرقابة.

فتمنع بعضها منعا باتا كما حدث مع «الغريزة الأساسية» وكعب عال، قبل ثلاثة أعوام.

وتقتصر مشاهدة بعضها على الصحفيين، وتحصر مشاهدة بعضها الآخر فى نفر قليل من النقاد.

وعادة مثل هذه التصنيفات التحكيمية لعروض الأفلام، لا تحمل على محمل الجد، فلا أحد يلتزم بها.

● المسخ الكبير

وفى غفلة من الرقابة تتسلل تلك



القمر المرّ :
الفيلم الذى حقق
للمهرجان إيرادات خيالية

الأفلام الممنوعة من العرض العام إلى دور السينما، حيث يجرى عرضها، على حساب الأفلام الوارد ذكرها فى برنامج أسبوعى المهرجان. فتسود، نتيجة لذلك، فوضى وغوغائية يصعب معهما على المتفرج الجاد متابعة الأفلام.

فهو ببراءة يذهب إلى دار سينما، مسترشدا بالبرنامج ليرى فيلما ما، فلا يجده، وبدلا منه يجد فيلما آخر من ذلك النوع الحار المقصور مشاهدته على الصحفيين أو النقاد.

ويحضرنى هنا فيلم القمر المر لصاحبه المخرج رومان بولانسكى.

فقبل عامين، كنت لا أتوجه إلى دار سينما لمشاهدة فيلم ما من أفلام المهرجان، إلا وأرانى مطاردا بالقمر المر فأعود من حيث أتيت محبطا.

ومن بين ما يقال عن نجاح هذا الفيلم، أنه حقق، خلال أيام المهرجان إيرادات فاقت كل خيال.

المهم هو أن المهرجان بإخضاع أفلامه للرقابة وتصنيفاتها التعسفية، قد عرض عروضه لحالة من الفوضى والغوغائية، تؤذن لو كتب لها الاستمرار، أن تجعل منه مسخا بين المهرجانات.



ثقافة المهرجانات فى مصر

بقلم : محمود قاسم

بين شقى العامين، المنصرم، والجديد، يستعد جميع المهرجانيين لإقامة دوراتهم الجديدة بعد نجاح كافة الدورات الأخيرة للمهرجانات الفنية فى مصر وتحقيق أهدافها.

يعكس هذا النجاح مدى التغير الذى حدث لهوية الثقافة المصرية فى الأعوام الأخيرة، حيث تغيرت الموازين، وأصبحت المهرجانات هى العنوان الرئيسى للأنشطة الثقافية بكافة أشكالها.

وباعتبار أن معرض الكتاب سيقام مبكرا هذا العام، وفى الرابع من هذا الشهر، فإن ميلاد هذه المهرجانات قد بدأ قبل موعده المألوف الذى اعتبرناه فى السنوات السابقة، وبلا شك سوف تتحول أيام المعرض إلى احتفالية مهرجانية بالكتاب من ناحية، وبالقضايا الثقافية من ناحية أخرى،

كما ستمتلىء أرض المعارض بعشرات من باعة لعب الأطفال.. والكاسيت، وما إن ينتهي المعرض وفعالياته، حتى تبدأ ليالي رمضان الثقافية وعقب عيد الفطر سيتأهب المهرجانيون للاحتفال بتدهور أحوال السينما من خلال المهرجان الثاني للسينما الروائية. ثم مهرجان الإسماعيلية، ويستعدون في نهاية الصيف للذهاب إلى الإسكندرية والعودة إلى القاهرة مع بداية ديسمبر.

وفيما بين هذه المهرجانات تتشابك الاحتفاليات بالمسرح التجريبي، والمسرح الحر ومسرح الهواة، والفنون الشعبية، والفن التشكيلي، من صالون الشباب، إلى البينالي، ثم مهرجانات للأغنية، والموسيقى، والحرف الشعبية، وسوف تتعدد أماكن إقامة هذه المهرجانات، من القلعة إلى قاعة المؤتمرات، وشواطىء البحار، وسوف تأتي كاميرات التليفزيون، وسيأتي الصحفيون للحصول على الأخبار، وستتم فعاليات، وسيقوم مسئولون بقص الشرائط، وتعقد الندوات، وتنطلق التصريحات، وفي الليلة الأخيرة، ستعلن الجوائز وستطلع الصحف لعدة أيام تنشر أخبار هذه الجوائز، وحيثيات المنح، وما حدث في الكواليس.

وفي أغلب الأحيان، فإن أي مهرجان سوف يجبه مهرجان آخر، بمعنى أنه ما إن ينتهي مهرجان حتى يجد الناس أنفسهم في فعاليات أخرى، وفي أحيان كثيرة سوف يجد المهرجانيون أنفسهم وسط فعاليات مهرجانيين أو أكثر، مثلما يحدث عادة في أوائل سبتمبر، حيث تتداخل فعاليات مهرجانا الإسكندرية السينمائي، ونظيره للمسرح التجريبي

وبهذا المنظور فإن الأيام المهرجانية في مصر، يزيد عددها عن أيام السنة، ولا شك أن هذا يعكس مدى البهجة التي يعيشها الناس، فالمهرجانات مرتبطة بحفلات افتتاح، واستقبال، وموائد، ورحلات نيلية وبحرية للوفود، وتكريمات للنجوم، والمخضرمين، ومطبوعات، وتصفيق وآلاف المدعوين، وعشرات الجوائز الورقية، والمعدنية، وأحيانا ألوف الجنيهات للفائزين، فضلا عن ميزانيات ومكافآت للذين كانوا وراء المهرجان، وفعالياته..

كم هو رائع أن يكون لدينا مهرجان، أو كل هذا العدد من المهرجانات، بعد أن استقبل الناس أول مهرجان سينمائي في عام ١٩٧٦ بكل هذه الحفاوة. وسرعان ما تم اكتشاف مدى سحر المهرجانات فزاد عددهاسنة وراء أخرى..

وما توقعناه لعام ١٩٩٦ هو من خريطة أنشطة العام المنصرم، ومن المتوقع أن يزيد عدد هذه المهرجانات بالطبع عن العام الماضي تبعا للنجاح، وللإقبال الذي حدث مؤخرا لكل منها.. وبالتالي سوف تزداد عدد الليالي المهرجانية التي نعيشها.

لا يوجد عاقل واحد في هذه الدنيا يمكنه أن يقف ضد بهجة الناس أو أن يحاول إيقافها، فلاشك أن كل هذه الأنشطة مرتبطة بشعور ما من البهجة لدى المقبلين، أو المشاركين في هذه الفعاليات، وإنما على هذا العاقل أن يوازن بين ما يحس به الناس من إقبال على الحياة، وابتهاج، وبين ثقافته باعتبار أن الثقافة تنعكس على سلوك الأشخاص، وأن الفنون تعمل في المقام الأول على تصفية الناس من همومهم الخاصة وتنقيتهم من الجوانب المعتمة في داخل كلا منهم.

وبالتالي فإنه بالنظر إلى علاقة ثقافة الناس بهذه المهرجانات، فإننا سوف نجد هوة شاسعة بين الفعاليات، وبين ثقافة جماهير هذه المهرجانات، وإذا كانت السينما تجذب أكبر عدد من الناس باعتبارها الأكثر شعبية، فقد أفردنا لحصاد مهرجانات السينما في مصر مقالا في هلال يناير عام ١٩٩٥. وإن كنا نؤكد أن ما جاء في المقال يناسب ما سوف يحدث في مهرجانات السينما بمصر أيضا عام ٢٠٠٥ وما بعدها، باعتبار أن الأشياء تتغير كثيرا بمعدلات حادة في بلادنا، بدليل أن إيقاع مهرجانات السينما في بلادنا منذ عشرة أعوام لم تتحرك كثيرا عما حدث منذ أسبوعين.

وقد أشرنا في مقالنا هذا أن بلادنا التي بها كل هذا العدد من المهرجانات السينمائية السنوية تخلو من مجلة واحدة متخصصة في هذا الفن، بل إن الصحف السيارة تتعامل مع السينما باعتبار أخبار نجومها. وما يحصدون من جوائز أما مساحات

الثقافة السينمائية الحقيقية، فبالغة الضيق ، قياسا إلى مساحات الأخبار

ونحن لا نود المقارنة بين نسبة المهرجانات لدينا، وبين عدد المطبوعات المتخصصة، أو المساحات المخصصة لمتابعة أنشطة أفلام السينما مع دولة أخرى في أوربا، ولكن لماذا لا نقارن أنفسنا بدول عربية قريبة، فلدى سوريا مجلة «الحياة السينمائية»... وفي تونس «الفن السابع» وفي ليبيا «المسرح والخيالة». ورغم أن بعض هذه المجلات قد تعثر في انتظام صدروه، لكنها مجلات تتكلم أساسا بلسان فن السينما، وهناك في لبنان مجلة «فن» التي يحرر أغلب مادتها في القاهرة، ونقصد هنا مجلات السينما بصرف النظر عن المجلات الفنية التي تتابع أنشطة النجوم على اختلاف أنشطتهم.

هذا عن حال السينما، ومهرجاناتها، فماذا عن المسرح. فمن الواضح أن مهرجانات السينما لا تكلف الدولة مبالغ طائلة، باعتبار أن عوائد الأفلام، وكافة أنشطة المهرجان، تجعله يغطي تكلفته ، ويحقق أحيانا بعض الأرباح، عدا مهرجاني الأفلام الروائية، ومهرجان الإسماعيلية، اللذين تنظمهما وزارة الثقافة، ففي الأول ترصد مكافآت عالية للحاصلين على الجوائز، والمهرجان الثاني يدعو ضيوفه وأفلامه من أنحاء شتى من العالم.

تجريب.. في أرض غير مؤهلة

أما مهرجان المسرح التجريبي على سبيل المثال، وهو من أنشطة وزارة الثقافة، فتأتي إليه عشرات الفرق المسرحية من كل أنحاء العالم. ونعني بالفرقة هنا الممثلين، والطاقم الفني، والإداري، والديكورات، وأحيانا النقاد، والصحفيين، وإذا كان بعض أفراد هذه الفرق يأتون على نفقتهم فإن الإقامة لأكثر من عشرة أيام تتم في مصر وعلى نفقة الدولة، وكعادة كل المهرجانات، فهناك فعاليات مكررة، من افتتاح وحفلات استقبال، وعروض يحضرها إلا الهواة، وأسعار رمزية للتذاكر فإن ما يرتبط ثقافيا بهذه الأنشطة يستوجب المراجعة.

فعلى سبيل المثال، تقوم إدارة المهرجان بإصدار مجموعة من المطبوعات تتعلق بالتجريب في المسرح، فضلا عن نشرة يومية تعكس فعالياته،

وتتم فيها متابعة ندواته حول العروض المسرحية، ويأتى كل هذا النشاط فى دولة ازدهر فيها المسرح السياحى بكافة أشكاله، وتراجع فيها المسرح الجاد التقليدى، فما بحال التجريبى منه، وأصبح لدى جمهوره مفاهيم أن المسرحية تعنى مجموعة من القفشات والنكات، والتعليقات التلميحية.

أى أن المسرح التجريبى يأتى فى أرض غير مؤهلة لاستقباله ثقافيا، وفكريا، وعدد المتابعين له، والمستوعبين للاتجاهات الحداثية فيه، لا يتناسبون مع كل هذه الاحتفاليات، ومصاريفها الباهظة. وتأتى فى شعب أغلبه أمى فى الثقافة المسرحية، وأبجديات هذا الفن شبه مجهولة لديه.

والثقافة المسرحية فى بلادنا أقل شعبية من مثيلتها السينمائية، فإذا كانت بعض الصحف تخصص صفحات أسبوعية للسينما، تنشر فيها إعلانات عن الجديد من العروض، فإن العروض المسرحية تنشر فى بعض الصفحات الإعلانية التى قلما ينتبه إليها القارىء وإذا كانت هيئة الكتاب تصدر مجلة فصلية للمسرح، فإنها لا تتناسب مع كل هذه العروض المسرحية التى يشاهدها الناس طوال العام، عددا، ولا نوعيتها.

أى أن الأنشطة المهرجانية فى بلادنا فى واد، والثقافة المسرحية فى واد آخر، وليس مهرجان المسرح التجريبى هو الوحيد من نوعه فى مصر، فهناك المسرح الحر ومسرح الهواة ومسرح الأقاليم، والملتقى العربى الذى عقدت منه دورتان حتى الآن، وعدد ليالى هذه المهرجانات يقترب من الشهرين . وإذا كانت هذه المهرجانات تزدهر بين عام وآخر، فإن المطبوعات المتعلقة بالثقافة المسرحية تنكمش، مثل مجلة «تياترو» التى ما لبثت أن توقفت بعد صدورها بأعداد قليلة. كما أن مجلة «المسرح» التى تصدر أربع مرات فى العام لا تكفى وحدها لمتابعة هذه الأنشطة كما أن أرقام توزيعها تعكس عدد المهتمين فعليا بالمسرح فنا وأنشطة وثقافة ومن المفترض أن الكثير من هذه الأعداد يقرأها طلاب المعاهد الفنية بأكاديمية الفنون، ويعكس هذا الأرقام الحقيقية للمهتمين لوجه الله بفن المسرح.

تقليد جميل.. من الماضى

لو عملنا بمنطق أن الناس تهتم بهذه الفنون خالصة دون القراءة عنها،

أو متابعتها من خلال وسائل المعرفة والاتصال المعروفة، اسلمنا بأن المهرجانات ثقافة مستقلة، تتمثل فيما تقدمه من أنشطة ، ولعل هذا يكون سببا للمطالبة بتخصيص وزارة متخصصة للمهرجانات، باعتبار أن هذا النوع من الأنشطة قد توزع في العام الماضي بين وزارات عديدة، كأن تقوم وزارة السياحة بالإشراف على مهرجان التليفزيون، بل إن هناك صحيفة كبرى أعلنت منذ أسبوعين عن قيامها بإعداد مهرجان سينمائي ابتداء من العام الجديد.

ولو آمنا بهذا المنطق،من خلال عدم الإقبال على المطبوعات المتخصصة، وعدم وجودها فيما يخص الفن التشكيلي والمسرح، لقمنا بتلخيص دور وزارة الثقافة، باعتبار أن مؤسسات غير حكومية قد نجحت في إقامة مهرجانات كبرى، والدليل على ذلك أن مهرجان القاهرة السينمائي يقوم على أكتاف شخص واحد، وكذلك مهرجان الإسكندرية ، وقد شجع هذا في العام الماضي بعض الأشخاص لإقامة مهرجانات أخرى آخر ما مثل المهرجانات الذي تم فيه تكريم عدد من رواد الصحافة المصرية والعربية.

ولعل الثقافة الجماهيرية هي الجهة التي قامت بإحداث توازن بين ما نسميه ثقافة المهرجانات، وبين ثقافة المطبوعات، فإلى جانب الاحتفاليات المتنقلة بين المدن والنجوع والمحافظات، تدفقت المطبوعات خلال عام ١٩٩٥ من كتب عن الفنون المختلفة، كالفن الإيقاعي، والمسرح، والسينما ، وروايات ودراسات أدبية، وسلسلة الأدب العالمي، فضلا عن سلاسل دورية ومجلات.. ويبدو بذلك أن هناك توزنا بين الثقافتين متمثلا فيما نتابعه من إصدارات، وما يتم من ملتقيات ومؤتمرات. ولكن يبقى سؤال هل يتم اقتطاع ميزانيات المطبوعات من ميزانية المطبوعات من ميزانية أنشطة الثقافة الجماهيرية؟.

تحدث مثل هذه الاحتفاليات، في بلد أصبح فيه تكريم الحائزين على جوائز الدولة التشجيعية في كافة أشكال الإبداع يتمثل في دعوتهم لحضور حفل كبير تحضره القيادة السياسية بينما كان أقرانهم الحائزين على نفس الجوائز التشجيعية فيما قبل يحصلون على وسام من الدرجة الأولى، وبراءة لهذا الوسام، ومن الواضح أن مثل هذا التقليد قد أصبح شيئا من الماضي.

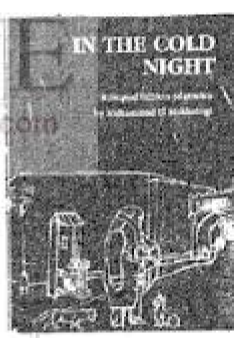
محمد المخزنجى

والانسان الحزين

بقلم : مها محمود صالح







فرحت بها كالكنز تقع عليه يدي دون تنقيب ، أو كالهدية أتلقاها من صديق علي غير انتظار !

إنها «الموت يضحك» أول مجموعة قصصية أقرؤها للقاص د . محمد المخزنجي . بدأت القراءة بحياد تحول بالتدريج الي إعجاب ثم حماس دفعني الي البحث عن مجموعاته القصصية الأخري وهي «الآتى ١٩٨٣» ، «رشق السكين ١٩٨٤» ، «سفر ١٩٨٩» ، «البستان ١٩٩٢» ، وتتوسطهن «الموت يضحك» ١٩٨٨ .

وما السطور التالية إلا محاولة منى - كقارئة - لفهم ذلك العالم الآسر الذي دخلته وانا أقرأ قصص المخزنجي .

يمثل الانسان .... الفرد .. بؤرة اهتمام د . محمد المخزنجي. الانسان الحزين ، أو الوحيد ، أو المعزول داخل شرنقة المرض أو خلف جدران السجن ، المتلهف في كل تلك الحالات على التواصل مع الآخرين والوثاب دائما لتخطى أزماته وآلامه !

تأكيد الوجود الانساني

المخزنجي مولع باستعراض أحوال الانسان العادية والاستثنائية – على حد سواء – وكأنما هو مكلف بتأكيد الوجود الانساني المتفرد في مواجهة آلة المجتمع .. الضخمة .. المكتسحة !

هكذا نجده يقتنص مواقف بسيطة تمر بالانسان العادى مرة ومرات فيصنع منها بأسلوبه المتميز ولغته المكثفة قصة أو أقصوصة جميلة ! من منا لم تراوده الرغبة في البكاء والجرى صارخا ما استطاع كما في قصة «هذه اللحظة» حيث يقول الراوى «شعرت على نحو مفاجيء أننى افتقد الحياة ، افتقد الحياة حقا منذ أمد بعيد ، وغشاني اليقين أننى كنت أحيا سنيني الأخيرة ميتا على نحو ما . شعرت بحاجة هائلة للبكاء ، المحرق ، وودت لو أجرى صارخا ما استطيع ، دون ان يتعرف على أحد في هذه الظلمة .

من لم يقف لحظة في خضم انشغاله بحياته ليتذكر أصدقاءه الذين لم يرهم منذ زمن رغم أنه لايفصل بينه وبينهم سوي عرض الشارع ، كما في قصة «الريحانة التى في الركن» ونفس الشيء يقال عن قصص «بقايا النار» و«وسط المائدة» و«الجزء والكل» ، و«سيد في البلد» وغيرهم .

لكن حياة الانسان ليست هي فقط تلك المواقف البسيطة العادية .. وإنما هى أيضا اكتشافات قد تكون رائعة ، أو مروعة ، أو كلاهما معا ، يمثل منحنيات مهمة في حياة الانسان فلا يكون بعدها مثل ما كان قبلها !

وعلى لسان الاطفال يقدم لنا المخزنجي بعض هذه الاكتشافات ، فى قصة «أمام بوابات القمح» طفولة تقف على اعتاب المراهقة. وعندما تواجه هؤلاء الأطفال مشكلة فما أسهل ، كعادة الأطفال ان يروا فى موت الغريم حلا لمشكلتهم . لكن زمزم ، الصبية التى تريدون قتلها ، تقاومهم وتنتصر عليهم بأنوثتها الوليدة التى تفتح عيونهم على شيء جديد لم يخطر لهم علي بال !

أقرأ القصة فتأخذني تلك العذوبة التى يصف بها المؤلف جسد الانثى كما يكتشفه الأطفال فيها ليل وفيها شروق فيها لين وفيها شدة .. فيها نزق وفيها اصطياد .. فيها طراوة ، فيها ملامسة ، فيها رحابة . فيها حنو ، فيها دفء ، فيها دعوة غامضة الي عالم غريب لم نعرفه من قبل .

وفي قصة «حيث الناس والبيوت» طفل يحكى كيف تعذبت أمه بالمرض حتي ماتت، وهو يبكى تحت سريرها يناجى الله ويرجوه ان يترك له أمه ويتوقف هو عن كل

الأشياء «الحرام» التى كان يفعلها. يقول الطفل كنت سلخة من بدنها الذى كان ضاويا ومهانا ، وفهمت مرارة قبل أوان المرارة : أن الموت ، هذا الطائر الجارح الاسود الخطاف البشع الذى لاقلب له يريد أن يخطف مني أمى التي كنت أحبها. بحجم الدنيا التى كنت أعرفها كلها يتكشف الطفل ، ونحن معه ، أن الموت ، ذلك القدر المفزع ، يهاجم أحبابنا فجأة بلا رحمة.. فنتألم ونبكى وما أن تجف الدموع حتي يتبدى لنا جمال الحياة .. بهيا.. وضيئا .. تصعب مقاومته ! وهكذا بعد أن كان الطفل يحبس أنفاسه فى محاولة لان يموت ويلحق بأمه ، أصبح حبس النفس لعبة جديدة يتميز بها عن أقرانه ويشعر بالدفء والتواصل مع الناس.

● الاحتفاء بالحياة.

يسرى في أعمال المخزنجى تيار من الاحتفاء بالحياة، تيار لامرئى يشف أحيانا حتي لا يكاد يبين ويتكشف أحيانا حتي يكاد يتجسد .. لكنه ابدا لايختفي !

من ذلك مثلا إنه رغم ازدحام عالم المخزنجى بضحايا القهر او المرض أو الوحدة ، فإنهم في توق دائم الى جمال الحرية ، وقوة الصحة ، ودفء الصحبة . وهو يختار ، في اطار قيمة الاحتفاء بالحياة تلك ، ألا يشغل نفسه او يشغلنا معه بتفاصيل معاناة هؤلاء المأزومين ، وإنما ينصب اهتمامه علي تلك اللحظات النادرة ، وقد تكون الوحيدة أو حتي الاخيرة التى يرفضون فيها الاستسلام الكامل لعذاباتهم واحباطاتهم ويصرون علي المقاومة وتزخر مجموعتا «الآتي» و«رشق السكين» بمثل تلك اللحظات الكاشفة ! فى قصة «عنبر البنات» فتاة مشلولة تشغل وقتها بتطريز اسمها مع كلمة «للذكرى» ، علي نيل ثوبها ، بعد أن رحلت زميلاتها عن العالم. وفى قصة «بضع زهرات» نجد مريض السل الذى يحاول اعادة ماء الحياة الى جسده بقطف زهرات حمراء يانعة ووضعها على مقربة من وجهه . وفي قصة «فى حضرة الجذام» نقرأ عن مريضات بالجذام يتصورن خطأ أن طبيب الأمراض الصدرية جاء للفرجة عليهن !

تبدأ المريضات محاصرة الطبيب ويحاولن لمسه بأجزاء أجسامهن التى شوهها المرض ! لكن الحصار يتحول الى رقصة مجنونة مشتعلة !

أما القصص التى تستعرض لحظات التحدى والمقاومة داخل السجن فهى كثيرة ومنها على سبيل المثال قصص :

«يوم للمزيكا» ، «الاسوار» ، «بشر الاقفاص» ، «١٣» ، لكن اهتمام المخزنجى لايقتصر على الانسان ! هو كما يبدو مغرم بإستكناه لحظات الصمود في مواجهة الصعاب بل ومقاومة الموت في حياة الانسان والحيوان ايضا !

فلا تكاد واحدة من مجموعاته تخلو من قصة أو أكثر عن طيور وحيوانات وأحيانا حشرات ! من هذه النوعية

قصص «ذبابة زرقاء» ، و«مذبحة النوارس» و «اليمامة المضروبة» و«الذئب» و«عصافير الجليد» و«فوق سطح ساخن» ، في قصة «ذبابة زرقاء»

أما قصة «فوق سطح ساخن» ففيها نملتان تسقطان على جسم غلاية تسخن على نار موقد مشتعل . ترتبك النملتان باحثتين عن مهرب من الموت المحدق بهما : جسم الغلاية يزداد سخونة، والماء يغلي على الفوهة ، والنار مشتعلة أسفل الغلاية !

إحدى النملتين تنجو ، اذ تخاطر وتقفز في الهواء مبتعدة عن الخطر ثم تنضم الى بقية النمل . اما النملة الثانية فهي : «تسكن مستسلمة .. تتقلص محترقة ، وتتفحم - تصير نقطة رفيعة سوداء ، تتلاشى .. تتلاشى».

ولعل قصة «ومع ذلك .. ورغم ذلك» تجسد بوضوح ، وبجمال ايضا ، قيمة الاحتفاء بالحياة .. تدور القصة حول انسان يعاني من الوحدة ، يعضه الارق فإذا نام تحولت أحلامه كوابيس ، لكنه يقاوم ميله الى الانتحار ويحدث نفسه قائلا:

مع ذلك ، ورغم ذلك ، يظل وجودنا في هذه الحياة على تكاثر آلامها وتضاؤل وابتعاد أصغر الاماني فيها .. يظل جديرا ببعض الفرح .. على الاقل فرح التنفس من هواء الصبح الطازج كل يوم من جديد» .

نفس المعنى يتكرر في قصة «الريحانة التي في الركن» حيث يقول الراوي: «كان شعورا فياضا بالفرح ان اكون موجودا في هذه الحياة التي تغمرها هذه الشمس ، ففتحت الشبابيك وخرجت الي الشرفة ، وسقيت الريحانة التي كنت قد نسيتها في الركن» .

الحياة إذن لا تخلو من الفرح .. وهي عند المخزنجي لاتخلو أبدا من المعنى ، فلا محل في رأيي للحديث عما يمكن تسميته عبثية الحياة أو لاجدواها أو غياب المعنى عن احداثها وعلاقاتها، في عالم المخزنجي، عكس ذلك تماما هو الصحيح!

في قصة «وسط الزحام» طبيب شاب يلتقي ، بالصدفة ، بامرأة في الطريق ، هي أمه فيفاجأ انها تحاول التملص منه . يتوهم عندها انها غاضبة لكن الحقيقة تتضح في كلمتها الاخيرة له قبل أن تذوب في الزحام : يابني روح انت في طريقك وسيبني. هدومي مش قد كدة باضناية».

أما في قصة «حضن» فالراوي يحكي كيف ركع وصالح ابنته التي يسميها «يمامة روحي» «فرص الأخير» اذ انه وهو يلاعبها وبدون قصد «ثنيت جلد الصغيرة الرقيق فوق أضلعها ، وضغطت وأنا أضم فكانت القرصة !»

أما الطبيعة ، فان القارئ لقصص د. محمد المخزنجي لايفوته اهتمام الكاتب وابرازه لعناصر الطبيعة المختلفة مثل طلوع الصبح ونزول الليل وتغير الفصول وزقزقة العصافير واختلاف انواع والوان الزهور ، المؤلف أيضا يلفت انظارنا الى

أن الاتصال بالطبيعة يجعلنا أكثر توافقا مع انفسنا ومع العالم ، بينما العداء للطبيعة يمكن ان يؤدى بنا الي كوارث ، وأكثر من ذلك فانه ، اي العداء للطبيعة ، قد يستوجب العقاب !

في قصة «البعيد» قاريء يفقد اتصاله بنص يقرؤه وكأنه كتب بلا معني . لكنه ما ان يرنو من نافذته ويمعن النظر في عناصر الطبيعة حتى «عاد المعني يتصل بي وأتصل به»

وفي قصة «ذئاب» تتعرض قرية لهجمات ملتاثة من الذئاب .

ويتكشف لأحد الصحفيين المتابعين للأحداث أن السبب في حالة الالتياث هو ان الكهوف التي تأوى اليها الذئاب بها مواد تجرد الجزئيات المستقرة من الكتروناتها فتؤينها ، وقد يكون السبب في ذلك ان نفايات مشعة تم دفنها سرا في هذه الكهوف .

أما قصة «العيبان» فتحكي عن قطع شجرة الكافور الضخمة التي تضم بين أوراقها الملتفة شذرات من تاريخ مصر لقد وقف اولئك الذين ارتبطت الشجرة بذكريات طفولتهم وصباهم يشاهدون سقوط الشجرة دون أن يحركوا ساكنا. وبعد السقوط المروع ، انطلقت العصافير ، التي افتقدت أعشاشها فوق الشجرة ، تنهش عيون المتفرجين كأنما تعاقبهم علي سلبيتهم اما القدرة علي الحلم ، فهي ليست وسيلة للهروب من الواقع .

انها تجاوز له ، تسامى عن الخضوع لمشكلات الواقع وأزماته. الحلم يجعلنا اكثر قدرة علي الاحتمال .. ويعطينا املا افضل في التغيير !

الانسان والمجتمع :

لعله من الضرورى ان نلفت النظر الي ان القاص د. محمد المخزنجي لايتجاهل تناول مشكلات المجتمع التي يعيش فيه ولايتهرب من مناقشتها ، ولكنه في اطار تركيز الاهتمام علي الانسان الفرد، يتناول تلك المشكلات من حيث وقعها علي الانسان وتأثيرها فيه ومن القصص التي تناقش مشكلات المجتمع «المخالسة» و«الموت يضحك» و « الفئران» و «حرب» و«علي أطراف اصابع الاقدام » في قصة المخالسة يطرح المؤلف موضوع التشدد في التدين من خلال طبيب نفسي يحيره التناقض بين التركيبة النفسية الهشة للمتقبات ومايبدينه من قوة في التعصب، ويغرق الطبيب في البحث عما يسميه «سيكلوجية التخفي» حتي تنتهي به الحال في قسم الشرطة مقبوضا عليه للاشتباه!

اما قصة «الموت يضحك» فهي تدور حول اسرة يكتشف افرادها في منتصف ليلة شتوية مطيرة ان منزلهم يتهاوى ! لقد سقطت قطعة من سقف الحمام فعلا والباقي منه على وشك السقوط !

ويقرر أفراد الاسرة بعد قليل من التشاور البقاء في اسرتهم في انتظار الموت تبدو ورغم النهاية التي تدعو الى

مقاومة الموت حتى اللحظة الاخيرة تبدو القصة فى أسلوبها مختلفة الى حد كبير عن باقي قصص المؤلف فالشخصيات متعددة ومتساوية في الأهمية ويكتفى المؤلف بالوصف الخارجي لها ولردود افعالها ، في مواجهة الحدث الرئيسى وهو سقوط المنزل، ويلعب الحوار دورا رئيسيا في القصة على خلاف معظم اعمال د . المخزنجي التى تعتمد على السرد.

ويتميز الحوار بالاغراق في العامية مع شيء من الخفة .. مما يعطي انطباعا بما يمكن تسميته الكوميديا السوداء وعلي عكس ذلك نجد قصة «على أطراف أصابع الأقدام» بدون كلمة حوار واحدة ، يقدم لنا المؤلف قصة بسيطة محكمة تطرح قضية الجمود الفكرى والديني ومايمكن ان يؤديا اليه . تدور القصة حول زوجين شابين أغلقا باب الشقة بالقفل من الخارج ، ثم شرعا يرقبان من وراء زجاج النافذة المطلة علي الميدان رجالا بلحى كثيفة يعملون من مناشيرهم الكهربية في تمثال امرأة ممتطية جوادا يبدو منطلقا عكس اتجاه الريح وإن كان الزوجان لايملكان تغيير ذلك الواقع الذى يضيقان به بل يكرهانه ، الا انهما لايستسلمان له تماما سطر : .

يخيلو القاريء داخل العالم القصصى لمحمد المخزنجي فيشعر انه يقتحم عالمه الشخصى ليس فقط لان استخدام ضمير المتكلم في السرد يغلب على اعماله، وانما ايضا لان الراوي كثيرا مايتشابه في ملامحه مع ملامح المؤلف . هو في كثير من الاحيان طبيب واذا عرفنا اسمه اى الراوى ، فهو محمد ، بل ومحمد المخزنجي بالتحديد كما فى قصة «لعلها تنام» يضاف الى ذلك ان لهجة المؤلف ، حتى عند استخدام ضمير الغائب ، لاتعرف الحياد! إنها لهجة عامرة بالتعاطف .. والرغبة في التواصل .. ولم لا أقول بالحب !

تلك الحميمية التى يصبغ بها محمد المخزنجي علاقته وأبطاله وبقارئه ايضا تتبدي في تخصيص المؤلف لإحدى مجموعاته ، بالاضافة الي قصص متناثرة في مجموعات أخري ، للحديث عن تجربة الغربة التى خاضها . تلك بالطبع هي مجموعة «سفر» يتأكد في تلك المجموعة ولع د . محمد المخزنجي باستعراض أحوال الانسان المختلفة ، سواء العادى منها أو الاستثنائى !

تبدأ المجموعة بقصة «نافذة قرب الجناح» حيث يستعرض المؤلف اللحظات الاخيرة للراوي قبل مغادرة الوطن. في البداية يطربه شعور الانعتاق من هموم إنسان فقير في العالم الثالث ، ثم يستبد به الشجن فيكاد يجهش بالبكاء ، والطائرة تستعد للاقلاع، تتوالى بعد ذلك

وتتعدد الخبرات التي يمر بها المغترب . مثلا ، الحنين الموجع للوطن شعور يسرى عبر المجموعة كلها لكنه يظهر أكثر في قصص مثل «الحلول» ، «استغراب» ، «صوت الشباب» ايضا تحسس عناصر الطبيعة الشمالية المختلفة والتأثر بها واضح عبر المجموعة لكنه يتضح أكثر في قصص منها «الغابة» ، «عصافير الجليد» ، «موقف الحديقة» ، «لغة جديدة» والمقارنة المباشرة أو المستترة بين الوطن والبلاد الشمالية البعيدة فهى واضحة في قصص مثل : «شمس على جليد» ، «حين مالت» ، «نصف راحة» ، «استغراب» ، «عطش» ، اما قصص «صوتك» ، «كمنجة للبحر» «نجوى الشجر» فهى تضم مشاعر حب رقيقة يغلفها الشجن اذ يتنازع الراوى حنينه للوطن من ناحية وحبه لفتاته من ناحية أخري وقرب نهاية المجموعة ، ينكشف للراوى ، في قصة «صدفة القلب» ان قلبه رغم الراحة والوفرة ليس على مايرام انه «لايمتلىء حتي تمامه ولايضخ بكل العافية ويقرر الراوى ان يعود : «ستعود العين ترى الهموم ، نعم وسيعود القلب يوجع. ولعله سيكون وجعا اشد ، بعد هذا البعد ، هذا الرغد . الذي كان «لكن ذلك القلب رغم الوجع سيكون قادرا علي الامتلاء حتي تمامه وضخ الدم في العروق غزيرا».

ماذا عن لغة د . محمد المخزنجى ؟

هى لغة متميزة ، تجمع بين البساطة والعمق ، بساطة التركيب وعمق التأثير .

اما البساطة فأظنها واضحة في تلك النماذج التى قدمتها من أعماله اما عمق التأثير فلعله يرجع الى اتصاف تلك اللغة بما يسميه استاذنا يحيى حقى «موسيقي النثر» . يقول يحيى حقى في كتاب «عشق الكلمة» ص ٢٤٠ - ٢٤١ مقارنا بين موسيقى الشعر وموسيقى النثر «موسيقى الشعر ناطقة يتذوقها اللسان والاذن معا . اما موسيقى هذا النثر فتحتانيه ، جوانيه ، لا علاقة لها بالاذن واللسان» .

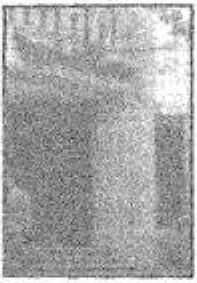
هل تلك الموسيقى هى التى تدفع القارىء الى اعادة قراءة النص القصصى ليستمتع بجمال اللغة ، تماما كما يعاود قراءة قصيدة شعرية جميلة ؟ وهل تحمل تلك الخاصية الموسيقية بعض النقاد على تسمية قصص د . محمد المخزنجي «قصص شعرية» ؟ لا أظنني أملك الاجابة المؤكدة علي تلك الاسئلة فلست الا قارئة ، تلقى بها قصص المخزنجى ، كما يفعل الشعر الجميل ، على تلك الحافة المدهشة بين السكون .. والترقب ، بين الرضا والتملل .. بين الواقع ... والحلم !!

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



صـ ١٦٣



صـ ١٦٥

تليفزيون

العرض مستمر ....
للعام الخامس والثلاثين !

☐ كل الأخبار والتنبؤات التى تنشرها الصحف عن برامج التليفزيون خلال شهر رمضان لهذا العام تؤكد أنه لا جديد على الخريطة .. ولا تجديد فى ماسبيرو ، وأن ماستعرضه قنوات التليفزيون الثمانية خلال الشهر الفضيل ، هو نفس ما عرضته فى رمضان الماضى ، وكل رمضان منذ خمسة وثلاثين عاما .. هى عمر التليفزيون ! .

ولأن الالتفاف حول الشاشة الصغيرة ، فى الفترة بين الإفطار والسحور ، قد أصبح ـ لأسباب اقتصادية واجتماعية ـ أحد طقوس الشهر الكريم ، ما يضمن درجة عالية من كثافة المشاهدة ، التى تجمع بين ثقافات كثيرة التنوع ، وأذواق شديدة التباين ، فقد تكونت تدريجياً ، تشكيلة خاصة من الفنون التليفزيونية ، أصبحت تعرف باسم «ثقافة رمضان» تتوجه إلى أعرض مساحة من مشاهدين التليفزيون ، وهم ـ أصلاً ـ أكبر الفئات التى تستهلك السلع الثقافية وليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم كله .

وهذه التشكيلة تنطلق من تصور ثابت بأن رمضان هو - أولاً - شهر للعبادة ، فلابد من تقديم برامج وعظية تضم عدداً من الأحاديث الدينية التقليدية ، وما لايقل عن أربعة مسلسلات دينية لاتخلو حلقة منها من عبارات مثل «ياقوم» و«خسئت» و«ثكلتك أمك» .. وهو ثانيا سهر للتسالي ، فلابد من تقديم برامج للمنوعات ، تسلي الصائم ، وتجمع بين المسابقات والحوارات والفوازير التي تتبادلها «نيللي» و«شريهان» ، ومجموعة من المسلسلات الدرامية يفضل أن يكون من بينها واحد يدور الصراع غير الدرامي فيه ، بين المخابرات المصرية والموساد ، وواحد تدور حوادثه في «الحلمية» أو «المنيرة» أو «بين السرايات» ، أو غيرها من أحياء العاصمة ! هذا فضلاً عن البرامج التي لا هي منوعات .. ولا هي مسلسلات ، ولكنها من «المخللات» ! .

وبهذه التشكيلة الجاهزة والثابتة ، يفوز ماسبيرو - فيما يتوهم - برضاء الرب والعبد .. وبدعاء الوالدين ! .

وبسبب حرص التليفزيون على أن تتضمن «تشكيلة رمضان» ما يظن أنه أفضل ما لديه ، والصراع الضاري بين صناع الفنون التليفزيونية على عرض أعمالهم خلال شهر الفرجة الكثيف ، يحدث ذلك الاختلال المزمن في خريطة برامجه، التي تزدحم في الشهر الفضيل بتلال من العروض يختلط فيه الغث بالثمين ، ومايستحق العرض بما لايستحق إلا الضرب ، على نحو يصيب المشاهدين بالتخمة وعسر الهضم .. فتتضارب مواعيد إذاعة البرامج بحيث يتطلب الأمر كمبيوتر للتنسيق بينها وتختلط حوادث حلقات المسلسلات - التي تصل في المتوسط إلى عشر حلقات من مسلسلات مختلفة يوميا - وتتداخل أسماء أبطالها ، وتشتبك جمل الحوار في الفوازير التي لاتقل - في العادة - عن خمس عشرة فزورة في اليوم ، فتقول «نيللي» لـ «شريهان» : خلاويص .. وترد عليها : «ثكلتك أمك» .

وبانتهاء الشهر الكريم ، تخلو مائدة ماسبيرو مما يستحق المشاهدة ، بعد أن قدم أهم ما لديه ، بينما ينصرف المشاهدون إلى علاج أنفسهم من «الانتفاخ العقلي» !.



وبصرف النظر عن مدى نجاح أو فشل تشكيلة رمضان ، فإن ثباتها لمدة ثلاثين عاما ، يكشف عن أن عباقرة ماسبيرو مصابون بتشكيلة من الأمراض ، من بينها نقص الابتكار وضحالة الخيال ونضوب القريحة ، وإلا لأدركوا مدى التأثير البالغ للجهاز الذى يديرونه فى بلد يكاد معظم الناس فيه يقتصرون عليه فى تثقيف أنفسهم ، وفى شهر أصبح الالتفاف حول التليفزيون من طقوسه الثابتة ، ومارسوا مسئوليتهم الحقيقية ، فابتكروا أشكالاً جديدة من الفنون التليفزيونية ، تجمع بين الفرجة والفكر ، وبين الجاذبية والعمق ، وتعالج مايواجهه الوطن من مشاكل معقدة ، من التطرف إلى السلبية ، ومن انهيار القيم إلى ضياع الذاكرة ، ومن ضعف الانتماء إلى تدهور القدوة ! .

فلعل هذا العام يكون الأخير الذى يكرر فيه التليفزيون - للعام الخامس والثلاثين على التوالى - عرض تشكيلة رمضان من المسلسلات والمنوعات والمخللات ! .

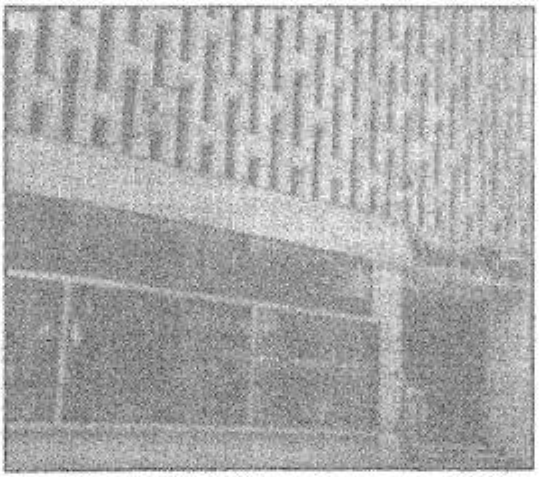
● صلاح عيسى

مسرح

مسرح الجمهورية

فى حى عابدين يقع مسرح الجمهورية الذى افتتحه رئيس الوزراء فى الشهر الماضى ، وهذا الحى ضم طائفة من مسارح مصر . ففيه تقع دار الأوبرا المصرية القديمة ومسرح «اسكندر فرح» بشارع عبد العزيز والذى تشغل سينما أوليمبيا مكانه حاليا . وقد ظلت فرقة اسكندر فرح تقدم عروضها على امتداد ١٨ عاما ، وكان الشيخ سلامة حجازى هو نجمها ومطربها ، ويضاف الى هذه المسارح المسرح الكوميدى الفرنسى الذى شيد عام ١٨٦٨ وافتتحه الخديو فى يناير ١٨٦٩ وكان يقع بجوار هيئة البريد بالعتبة وكان مخصصا للفرق الأجنبية .

أما مسرح الجمهورية فقد شيده لبنانى يدعى اسبرو فى يناير من عام ١٩٢٩ كدار سينما «رويال» وتم افتتاحها فى العام



نفسه كدار عرض من الدرجة الأولى نظرا لفخامة عمارتها وأناقة أثاثها ، وشهدت نشاطا غير عادى مع اختراع السينما الناطقة ودخول مصر مجال الانتاج السينمائى سنة ١٩٢٧ ثم تحولت إلى دار عرض مسرحى عام ١٩٦٠ باسم «مسرح الجمهورية» ، وتم تطويره من الداخل على أسس هندسية علمية ليصبح مناسبا لتقديم العروض المسرحية

استوعب المسرح ٣٥٠ مقعدا فى الصالة ، ٨ بناوير ، ١٥ لوج أول ، لوج ثان ، ٢٠٠ مقعد بلكون .

وفى الرابع من يناير ١٩٦١ تم افتتاحه بأوبريت «يوم القيامة» الذى كتبه بيرم التونسى ولحنه الشيخ زكريا أحمد وسيد مصطفى وعبد الوهاب حلمى وأخرجه زكى طليمات ، وكانت البطولة فيه لحورية حسن وابراهيم حمودة .. وقاد الأوركسترا والتوزيع عبد الرحيم على

وظل المسرح منذ افتتاحه حافلا بالأنشطة المتنوعة ، إلى جانب العروض التى كانت تحييها الفرق الرسمية التى تعاقبت عليه ، وفى بداية ١٩٧٩ انهى مسرح الجمهورية نشاطه الشتوى

مبكرا بعد أن تقرر الشروع فى تجديد المبنى وتطويره وتجميله ليصبح بديلا عن دار الأوبرا التى احترقت عام ١٩٧١ ، وبلغت نفقات التجديد فى ذلك الحين ٧٠٠ الف جنيه . وفى أكتوبر ١٩٧٩ تم افتتاح المسرح واطلاق اسم الجمهورية عليه بدلا من مسرح يوسف وهبى الذى كان قد التصق به .

توقف العمل بالمسرح مرة أخرى عام ١٩٩١ ، وبناء على دراسة علمية مفصلة قامت بها الادارة الهندسية بدار الأوبرا ، بدأ مشروع تطوير المسرح عام ١٩٩٤ ، بعد صدور قرار الحاق مسرح الجمهورية على دار الأوبرا . وكانت أولى خطوات التطوير هى التخلص من مشكلة المياه الجوفية ، وتغيير نظام الصالة ، واضافة «باسطة» مرتفعة إلى أرضية «الألواج» .. حتى تسهل على الجالسين فى الخلف مشاهدة المسرحية دون مشقة . وتعديل نظام التكييف . وتزويد خشبة المسرح بأجهزة إطفاء الحريق والتى يعمل بعضها أوتوماتيكيا . كما أزيلت البرانق التى تتخلل الشرفات الواقعة بين الأعمدة أسفل الأقواس هذا بالاضافة إلى تحديث نظام الصوت فى المسرح .

فى الشهر الماضى بدأ نشاط المسرح من جديد بأوبريت «ليلة من ألف ليلة» تأليف بيرم التونسى والحان أحمد صدقى وإخراج محسن حلمى وبطولة يحيى الفخرانى وعلى الحجار وأنغام ومحمد كامل ولطفى لبيب وميمى سالم ومنير مكرم وعبد الحميد حسن وشارك فى هذا العمل الضخم مالكوم رايت خبير الخدع الاسترالى و٢٥٠ فنانا بين ممثل وموسيقى وراقص . ليتضافر مجهود مخرج العرض محسن حلمى وأبطاله والفرقة القومية العربية للموسيقى بقيادة سليم سحاب ، وفرقة باليه أوبرا القاهرة باشراف د . عبد المنعم كامل .

● ابراهيم داود

أحمد صدقى



المسرح في «ليلة من ألف ليلة»

أوبريت تأليف:
بيرم التونسي
لحن :
أحمد شوقي
اخراج :
محسن حلمي

محسن حلمي



جميل أن تنظر الأوبرا بعين الرضا إلى تراثنا الغنائي المسرحي ، فتعيد تقديم أوبريت «ليلة من ألف ليلة» الذي كتبه بيرم التونسي ولحنه أحمد شوقي . فالابداعات الفنية تاريخ لا يموت في كل أمة . ولهذا الأوبريت جماليات بدائية بعضها مرتبط بفن الأوبريت الذي ينشد التبسيط الذي قد تطوله الفجاجة الميلودرامية ، فإن حاولت أن تنمقه أو تعمقه ربما أتلفته تماما . وبعضها نابع من عيوب عادة ما ينظر اليها بعين العطف باعتبارها درجة من درجات التطور التاريخي ، وهو ما يبرر خفة الفصل الأولى وانضباط إيقاعه حيث يتوازن الممثل والمغني ، وتظهر براعة بيرم التونسي في طزاجة الحوار والأغاني الشعبية ، بينما يتمدد الفصل الثاني في نسب غير منضبطة بين هذين العنصرين ، مما ينعكس بالضرورة على تكرار ايقاعات موسيقية وحركات راقصة بعينها بعد تألق الفصل الأول .

ويأتي الديكور والملابس ملمحين محيرين داخل العرض فعندما تتجمع الراقصات والراقصين في المشهد الأخير بعد أداء المجموعات لرقصات مختلفة عبر الفصل الثاني ، تبدو دقة وتناسق اللون وكأن المصمم بدأ باللوحة الأخيرة ليوزع مفرداتها على مساحة الفصل . وتتفرد ملابس كل من يحيى الفخراني وأنغام باتساق منطقها وجمالها على امتداد المسرحية فيراعى في الأول درامية الشخصية وبهلوانيتها ويراعى في أنغام بهاءها وجمالها حتى وهي في استعراض الشحاتين الأول .

وبينما يتناغم الديكور المرسوم والملابس في الفصل الأول سواء أمام الجامع حيث الملابس الكاحلة للشحاتين مع الحي العتيق أو في منزل الشحاذ ، يبدو الفصل الثاني وكأنه لمصمم آخر . فتتنافر نسب الأسود والأحمر في زخرفة قصر الوزير

يحيى الفخرانى





بيرم التونسى

(محمد كامل) مع ردائه الأسود فى نهبى ورداء زوجته (ميمى سالم) الأحمر . ولا يعبران عن القبح داخل القصر بقبح يؤذى عين المتفرج !

وكم كان جميلا لو أن الأوبرا فكرت فى تلك الخطوة وحشدت لها هذا الحشد الفنى دون الوقوع فى فخ الاحتفالات والافتتاحات . فقد فتشت الأوبرا فى دفاترها القديمة لافتتاح مسرح الجمهورية ، فتذكرت مشروعا صمم له خبراء إيطاليون الملابس والديكور منذ ست سنوات كان سيخرجه كرم مطاوع ، فمنحته هذا العام يومين من وقتها الغالى . ولكنها عادت فأعادت النظر وربما وجدت أن المخرج «محسن حلمى» استطاع ان يجمع فى ضربة واحدة نجم الغناء «على الحجار» ومستقبل الغناء «أنغام» والعظيم «يحيى الفخرانى» والممثل الخبيث «لطفى لبيب» الذى تجد صعوبة فى التعرف عليه فى الفصل الثانى بعد ان غير من صوته وهيئته تماما كما ظهر فى الفصل الأول ولحساب تغير موقف الشخصية .

أما الجميل حقا فهو تأمل تلك العلاقة التى تجمع بين يحيى الفخرانى «الشحاذ» وابنته «أنغام» ، فنرى فى أنغام مستقبل بطلة لاوبريتات حديثة أراها ست الحسن ونعيمة مع حسن الشاطر والمغنواتى . فما من أحد يخطىء شوقها للتمثيل كما تبدى فى أغنياتها المصورة ، وحضورها المسرحى فى هذا العرض .

وليحيى الفخرانى سجلت الذاكرة المسرحية عندى كيانا مسرحيا ممتعا . فمن الغريب أن «ليلة من ألف ليلة» تقدم شحاذا نصابا وساحرا قاتلا منتقما جبارا ، بينما أدى يحيى الفخرانى نفسه عام ١٩٩٣ شخصية عطوة أبو مطوة لألفريد فرج وإخراج سعد أردش .

وفى عام ٨٨ قدم «بهلوان» يوسف إدريس المزدوج : حسن الفرياوى رئيس تحرير ، وزعرب بهلوان السيرك» ، اخراج عادل هاشم .

فى تلك الشخصيات الثلاث يحتفظ يحيى دائما بتلك القدرة

الطفولية على الدخول فى الشخصية والتعليق عليها ، وعلى روح الكوميديا حيث ان اخطاءه دائما يمكن الرجوع فيها ، فالعنصر المسرحى الطاغى فى أدائه يذكرنا بأننا أمام مسرح ستنتهى حكايته الليلة فهو ممثل شكسبيرى مثالى بهذا المعنى .

ولذلك فهو يقتل وينتقم فى «ليلة من ألف ليلة» لكننا نظل نضحك على صوته واستعباطه وهو يستعطف الوزير أو الحاكم على نمط الشحاذين . ويخيل إليك ان على الوزير الذى قتله ويستلقى ممدداً على الأرض ان يفيق فورا وقبل ان يدخل الكواليس ليقول : هيه ضحكت عليكم .

أعتقد أن يحيى الفخرانى مهرجا معاصرا مصريا عظيما ليس من حقه أن يغيب عن خشبة المسرح ، ولا يبخس أحد قيمة المهرج ، فهو المحتفل بالحياة ومجددها وفيلسوفها المتألم أيضا لنزداد وعيا به .

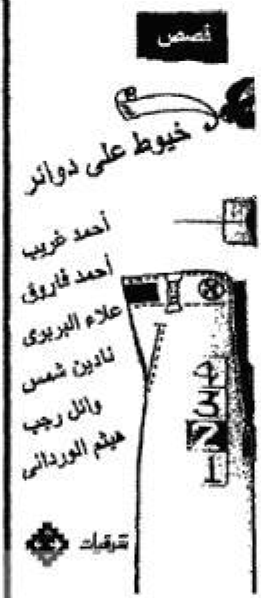
● مايسة زكى

كتب
كتابات جديدة أم حساسية جديدة ؟

يثور السؤال عن تناول كتابات جديدة لعدة كتاب لم يتجاوزوا العقد الثالث من العمر، أصدروا كتابا مشتركا كأحد خيوط على نوائر (دار شرقيات) بنوع من شجاعة المواجهة - أو التضامن بإزاء المواجهة: هل هذه حساسية جديدة أخرى، بعد أن مر نحو ثلاثة عقول على رسوخ الظاهرة التى عرفت بـ «الحساسية الجديدة»؟

واقترح، من الأول، أن هذه الكتابات لا تمثل نقلة أساسية فى تقنيات ورؤى ما عرفناه باسم الحساسية الجديدة التى لعلها قد أصبحت كلاسيكية الآن وأنها ببساطة تطوير وتعميق لتيار محدد من تلك الحساسية، هو تيار النظرة أو الحياد أو التشيؤ أى تلك الكتابة التى تعتمد من حيث الشكل لغة باردة هادئة النبرة ليس فيها احتدام أو حرارة العضوية والتورط، ومن حيث الرؤية تعتمد نظرة العين الصاحية التى ترصد «الأشياء» من الخارج على نحو «موضوعى» لا تتدخل فيه «الذات» ولا يختلج بالانفعال.

كتابة وائل رجب تذهب إلى آخر الشوط فى هذا التيار التقريرى أو النظر الميكروسكوبى للأشياء ورصدها باستخدام مصطلحات الفيزياء والميكانيكا والهندسة لكى ينقل الحياة العضوية بحيث يجردها من كل حيوية وتدفق وعفوية، بل يجسمها فى داخل



مواصفات تكاد تكون «علمية» جامدة ومحايدة.

يشاركه إلى حد ما فى هذا كل كتاب المجموعة: أحمد غريب، أحمد فاروق، علاء البربرى، نادية شمس وهيثم الوردانى.

من السمات العامة لهذه الكتابة ما اسميه كتابة «الفيديو كليب» حيث يغلب أن تأتى اللقطات الخاطفة الثقافية - كما يحدث فى الفيديو كليب، بومضات يؤلف بينها - أو لا يؤلف - تكتيك المونتاج السينمائي، ولكن المهم فى ذلك هو هل ثمة دلالة حقيقية فى هذا النوع من الكتابة؟ هل هذه الآلية، والشيئية، و«الخارجية» رفض كامل للتورط، تعبير عن «اللامبالاة» الأساسية التى أخذت تتسلل إلى وعى هذا الجيل، وعن انقطاعهم تماما عن كل مرجعية سياسية أو اجتماعية أو أيديولوجية؟ ولكن هذا الحياد - هذا الانقطاع هو فى نهاية الأمر موقف من المجتمع ومن الأيديولوجيا - وخاصة بعد ما عانيناه جميعا من انهيار الشعارات والقيم التى جلجلت فى الخمسينيات والستينيات ثم تكشفت عن خواء وخداع أو على الأقل عن إخفاق عدو وانجازات قليلة.

فإذا كان تيار «الحياد» الظاهرى عند كُتّاب مثل بهاء طاهر وإبراهيم أصلان ومحمود الوردانى، فى كتاباتهم الأولى - إنما يعنى فى التحليل الأخير تورطا حتى العنق وانشغالا عميقا بهموم اجتماعية في المقام الأول، معبرا عنها بحيلة الرصد الخارجى البارد الذى من شأنه أن يثير الغضب والانفعال لأنه نابع بالضبط منها، فإننى أخشى أن يكون فى قصص الفيديو كليب هذه ما يقترب من المعيشة (أى اللامبالاة) أو العدمية.

فى مناقشة مع بعض هؤلاء الكتاب، رفضوا هذا التصور، وأرجعوا أسلوب التحييد إلى ما أسموه تغييب الوعى أو تحويله إلى المعنى المسكوت عنه، مما يعنى فى النهاية إنكارهم لمقولة اللامبالاة أو العدمية. يبقى فى ذلك التبرير أن النصوص - فى معظمها - لا تؤيده، وقد يحتاج الأمر إلى مرانه فنية أكبر وأنضج، علي ما فى كتاباتهم من نضج وتحقق لاشك فيه.

من الخصائص الواضحة عندهم ذهابهم فى تناول المشاهد العضوية والجنسية إلى مدى لم يذهب إليه أحد ممن سبقهم، بمعنى أن تغليف هذه المشاهد بنوع من الشاعرية أو غمرها فى ضوء شفيف كان من الحيل الفنية التى لجأنا إليها - نحن المخضرمين - أما هم فإنهم يكسرون الطابع ببساطة ودون تعمد ودون أى جبن، يأخذون «المحرمات» مأخذ السلم به، من حيث اللغة أو التصور على السواء، وفي هذا مغامرة منعشة تدخل بالهواء الطلق إلى مناطق ظلت مغلقة ومحبوسة منذ أن تركها القدامى التراثيون.

أستطيع أن أدرج معظم هذه الكتابات فى سياق «الكتابة العابرة

للأنواع» أو «عبر النوعية» وعلى الأخص باستخدامها تقنيات السينما (والفيديو) بحرية وبراعة ومقدرة من لقطات مقربة أو مكبرة أو عريضة أو دائرية ومن تعاقب للمشاهد (والمسامع) على أسلوب كتابة السيناريو، ومن إضاءة مركزة أو تعتيم خفيف أو مطبق، دون نظر - بطبيعة الحال - إلى الحبكة التقليدية أو الشرح الاجتماعي والنفسي أو التوازن المفروض قديما من بين عناصر القص من حوار وتعليل ووصف وتحليل إلى آخر معطيات الحساسية القديمة.

إن الرصد الخارجي الدقيق لتفاصيل المشهد اليومي المبتذل العادي قد يحمل دلالة نفي الإنسان عن العالم أي استنكار الأشياء و«الموضوعات» بالمركز وتنحية الحياة الداخلية تماما عن مواقع الضوء.

وقد يحمل دلالة متناقضة إذا رأينا فيه استعارة أو مجازا حذف منه أحد طرفيه - بحيث يومئ هذا التحييد إلى نزوع النصوص الجديدة نحو إنكار هذه الآلية - وهو ما يطلقون عليه تقنية «تغييب الوعي».

إن اللارومانسية التامة في هذه الكتابات قد تشي بحنين مفقود إلى الرومانسية، ليس في كتاباتهم، مثلا كلمة «حب» كأنها كلمة ألغيت من المعجم الشعوري إلغاء تاما، والعلاقات بين رجل وامرأة - غالبا لا اسم لها ولا هوية - هي علاقات آلية، دون متعة ودون اشمئزاز، دون نشوة ودون إحساس بالذنب، مثل شرب كوب من الماء (ليس باردا ولا حارا بل في درجة حرارة الغرفة!)

مما ينقذ هذه الكتابات من هوة العدمية أو العبثية المطلقة إن فيها قدرة على السخرية - بالنفس الآخر - ومن الدعابة التي قد تكون سوداء وقد تكون غير جارحة.

هؤلاء كتاب جديرون لا بالترحيب فقط بل بالتقدير وبالدراسة المتأنية، فهم أصحاب مواهب ومقدرات لاشك فيها، وأصحاب رؤى وأساليب جديدة

● إدوار الخراط

نحو اختلاف نوعي في القصة القصيرة

إن حالة من الإحساس بحصار خانق، تجدها في كتاب «خيوط على دوائر» الذي صدر كمجموعة قصصية لستة شباب جدد، وشعور بقهر شمولي تسرده هذه الكتابة، يطرح (علاء البربري) هذا القهر بشكل بريء، إنه يصطنع سذاجة وبساطة لكي يؤكد المفارقة، كل تفاصيل

الحياة واقفة بالمرصاد لتعطيل أى فعل، حتى لو أراد أخذ (دش) فإن بالوعة المجارى تنسد بسرعة، فيكتفى بغسل الشعر، وتمرير يده المبللة على الوجه والرقبة والجزء العلوى من الصدر، ويواصل البربرى طرح مفردات القهر فى قصته (كراكيب) التى توحى بالوجود كله كما لو كان مجرد كراكيب، فيتحدث عن خوفه من أن يرفته رجل الأعمال على الرغم من أنه يسخره بإرساله إلى مشاويره القذرة، ابتداء من شراء قروش الحشيش إلى الاتفاق مع خادمات المناطق الزاقية، وتحصيل المديونيات من السوق، وينهى الكاتب القصة بأحلام اليقظة الخائبة، فيتخيل نفسه نائما فى المصيف، يأكل ويعوم ويلعب إنها حالة من الحصار والقيد، يحل فيها (أحمد فاروق) مشكلته عن طريق التخيل أيضا، فيتخيل فى بداية قصته (حكاية عن صديق) أن يأتى اليوم الذى يتعلم فيه الرقص، وأنه سيرافق فتاة شقراء جميلة من بلد لا يعرف العيب ولا الحرام، ويظل الكاتب فى قصته يرصد بشكل متواز القيود الأخلاقية من جهة، والاحتياجات الجسدية والحسية البسيطة التى يحتاجها جسده الشاب من جهة أخرى.

هناك معاناة شديدة تفضى إلى حالة من الاغتراب، يجسدها (هيثم الوردانى) بشكل مباشر، فى قصته (اختفاء الشخص) من خلال هذه القذارة التى تغطى المكان، والناس القليلون الكسالى فى محطة القطار، لا ينظر أحدهم فى وجه الآخر، وينتهى العمل بافتقاد حقيبته،

واختفاء البشر جميعا من المكان، وعدم القدرة على اللحاق بالقطار، والإحساس بالوحدة الشديدة وعودته إلى النقطة التى بدأ منها، وكأن شيئا لم يحدث أصلا.

تجسد هذه الأعمال مواقف عينية محسوسة بشدة، الأشياء يمكنك أن تضع يدك عليها، لا مكان للغيبى أو للميتافيزيقى، أو الخيالي التركيبي. ويصدر (وائل رجب) قصة له بمقولة بول فاليرى: (على الفنان الحديث أن يضيع ثلثى وقته فى محاولة أن يرى المرئى، وعليه ألا يرى اللامرئى).

السخرية الشديدة أداة انتقاد لكل ما هو مستتب على جميع المستويات، وعند وائل رجب قصة (الدود والديدان) وهى سيرة ذاتية فاضحة، لأنها تركز على عمليات الجسد الحيوية الحيوانية، بداية من ابتلاع الطعام، حتى خروجه من الجسد الذى هو اسطوانة دودية ملتهبة بالدبابيس الحارقة من الخارج، يجسد الكاتب هزلية الحياة بصورة كلية، ويحول التفاصيل الصغيرة إلي تناقضات مضحكة وعبثية، وها هى ذى أمه تضع الخضراوات فى الخلاط لتصنع له الطعام، فيتحول المخلوط إلى عجينة سميكة يمكنها أن تلصق أى كائن بشرى بكرسيه!

تشير هذه الأعمال إلى حس إنسانى جديد، يوحد بين البشر جميعا، ويؤثر فى معنى الهوية التى أخذت طابعا جديدا، وها هو ذا (علاء البربرى) فى بداية قصته (عبقرية) بعد أن شاهد فيلما انجليزيا فى برنامج (أوسكار) يقف على كرسى الطقم الجديد، ويقول بانجليزية

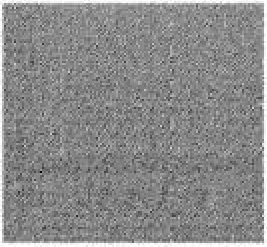
واضحة: (هذه هى حياتى)، كما تتكرر رموز بعينها تؤكد الدلالة نفسها، فالجيتار الكهربائى، الذى تعلو صرخاته من الكاسيت فى هذه القصة، نجده عند (نادية شمس) فى قصتها (Love Story) يتجاوب مع موسيقى الروك، حتى يهتز كل شئ: الزجاج والكتب والأوراق والجسد.

تدفع هذه الكتابات الذهن إلى الأشياء الصغيرة التفصيلية، كما لو كان الكاتب ينوى أن يبدأ الحياة والكتابة من جديد.! إن الأشياء فى قصة (سكك حديدية خطرة) التى كتبها هيثم الوردانى ووائل رجب معا تشعرك بالتفاصيل الجزئية، حيث نقطة مركز فى البطانية تتبع منها كل الخيوط، وقطارة ممتلئة باللبن لإرضاع القطة الصغيرة التى تموت، ونجوم تكون شكل مغرفة وهكذا.

وتشتمل القصص كلها على تفاصيل صغيرة شديدة الواقعية، محايدة دون أى تركيب سابق مما يوحى بطزاجتها وتفاعلها تفاعل التجاور وليس التداخل.

مثلما افترضت هذه المقالة فى بدايتها، فهذه الملامح التى رصدت، بشكل سريع ستظل تمثل - بشرط اجتماعها- ملمحا من ملامح الكتابة الجديدة التى تختلف جذريا عن طبيعة الكتابات السابقة التى قد تحتوى على بعض أو كل هذه الملامح ولكن بعد إدخالها فى منظومة رؤيوية تدفع بمتلقيها نحو الاستعارة الرؤيوية داخل التنويعات الحداثية التى لا نهاية لها . أما الكتابة اليوم فهى تخترق اليقين السابق وتفتح مجالا جديدا لتأكيد شهادة مختلفة نوعيا.

● أمجد ريان



التكوين

د. أحمد كمال أبو المجد

غالبت التردد أياما عديدة قبل أن أكتب السطور الأولى من هذا المقال، استجابة لدعوة كريمة من «الهلال».. ذلك أننى أحس بحرج شديد وأنا أتحدث عن نفسى .. إيمانا بأن لدينا جميعا من السنين والشجون العامة، ماهو أولى من حديث الفرد - أى فرد - عن نفسه .. وإحساسا بأن مواطن النقص والقصور التي لا يعرفها غير صاحبها، جديرة بأن ترده عن مزلق اصطناع القدوة لغيره وادعاء الفضل فى أمور هو أعلم الناس أنه ليس له فيها مزية ولا فضل .. ولكن الذى أخرجنى من هذا التردد، ورفع عن كاهلى ذلك الاحساس بالحرج .. أننى أجد فى الحديث عن الثقافة وروافدها وأعلامها متعة لا تعدلها متعة، كما أننى - فوق ذلك بل قبله أرد كثيرا من مشاكلنا السياسية والاقتصادية القائمة إلى أزمة الثقافة التى يعانى منها جيل الشباب المعاصر، والتى تفسر كثيرا من أزماتنا التى أعيتنا محاولات الخروج منها .. كما أن حديثى عن الثقافة ليس فى حقيقته حديثا عن ثقافة الكاتب وحده وإنما هو - فى كثير من عناصره حديث عن ثقافة جيل أنتمى إليه ويشاركنى أكثر أفراده فيما أنا بسبيل الحديث عنه.

إذا استراحت الأمة إلى الخرافة أو التفكير العشوائي، فلا أمل في النهضة

د . أحمد
كمال
أبو المجد



● **روافد مهمة للمعرفة**

نشأت كما نشأ أكثر أفراد جيلى فى أسرة تنتمى إلى ريف مصر، ولا تزال جذورها وكثير من أفرادها مقيمين في ذاك الريف، في قرية بني عدى (أو بني عديات) القريبة من منفلوط فى محافظة أسيوط .. وكان للأسرة توجه دينى ظاهر تمثل فى انتساب عدد غير

قليل من أصولها إلى الأزهر الشريف، دارسين فيه أو من علمائه وأساتذته .. وفوق ذلك ، فقد كان الوالد رحمه الله قاضيا ونائباً لرئيس المحكمة العليا الشرعية ، التى كانت - حينذاك - تمثل فى قضاء الأحوال الشخصية ماتمثله محكمة النقض فى القضاء المدنى ... واتصلت - في صباى - بهذا التوجه من خلال متابعة لقاءات الوالد رحمه الله مع جلة من علماء الأزهر ورجال القضاء الشرعي ، أذكر منهم الآن المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ عبد الرحمن حسن ، والشيخ حسنين مخلوف ، والشيخ محمد فرج السنهورى ، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ حمروش .. وكانت مجالسهم تجمع بين المناقشات فى أمور الفقه والشريعة ، وبين الأحاديث العامة والخفيفة ، وكثيرا ما كنت أدعى لاحضار كتاب من مكتبة الوالد رحمه الله وقراءة فقرات منه عليهم انتهى بهم الحديث إلى مراجعتها .. وإلى جانب هذا الالتفات المبكر للعلوم الاسلامية ، والاتصال بمراجعها ومؤلفاتها ، كان هناك اتصال - مبكر كذلك - باللغة وعلومها .. فقد ألزمنا الوالد أنا واخوتى وأخواتى لحفظ متن الأجرومية فى النحو ، وحفظ بردة المديح النبوى للبوصيرى .. كما كان يستدعينا - امام ضيوفه - ويسألنا إعراب عبارات نثرية أو شعرية معقدة ومركبة .. وكثيرا ما كان يطلب منى مراجعة كلمة معينة فى القاموس المحيط .. أو البحث عن أبيات شعر يراجع حفظه لها فى كتاب «الأغانى» وهكذا كان التراث الاسلامى ، والتراث اللغوى رافدين أساسيين تحددت بهما معالم «البنية الثقافية الأساسية» لى ولجيلى من الشباب .. وحين انتهى بى الأمر إلى الدراسة الثانوية ، وانتقل الوالد إلى رحمة الله اندفعت مع أبناء جيلى إلى التعرف النهم إلى ساحات أخرى من ساحات الثقافة .. وكان أكثرها - حينذاك - يدور حول كتب الفلسفة والأدب والتراجم .. فقرأ جيلنا كتب أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، وعبد الهادى أبو ريدة ، فضلا عن كتب طه حسين والعقاد والمازنى الذى كان اكتشاف الجهل بواحد منها سبة ومنقصة لا علاج لها إلا بالتدارك السريع ... وكان شارع الفجالة مزاراً متصلا لأبناء هذا الجيل ، كما كان سور الأزبكية مزارا آخر يجمع ألواناً وأشكالاً من الكتب القديمة والحديثة .. وحين بدأ عبد الرحمن بدوى يكتب مؤلفاته وتراجمه عن شوبنهور ونيتشه واشبنجلر تسابقنا إلى التهامها وتفاخرنا بالقدرة على فهمها واستيعابها رغم صعوبتها وتعقيدها بل كنت ممن زعم حينذاك أننى طلعت على رسالته فى «الزمان الوجودى» واننى فهمتها. والواقع أن الاطلالة على الحضارة الغربية وآدابها خلال هذه



المرحلة قد تمت عبر كتابات طه حسين والعقاد والحكيم – ومدرستهم .. وعلى رغم الفضل الكبير الذى ينبغى الاعتراف به لتلك المدرسة ، فإن أكثر أبناء جيلنا قد حصروا إطلالهم على الحضارة الغربية فى كتابات أولئك الرواد المصريين والعرب ، ولم يعن أكثرهم بدراسة تلك الحضارة من مظانها ومصادرها الأصلية .. ولم يكن ذلك أمراً تفرد به ذلك الجيل من المصريين .. ذلك أن العالم – حينذاك – لم يكن قد أزال حواجز الانتقال والاتصال التى أزالها فى أيامنا هذه – الثورة الكبرى التى تتابعت حلقاتها فى تلك الميادين .. وإنما كان الاتصال المباشرمقصوراً على فئة قليلة أتيحت لها فرصة السفر للدراسة والتحصيل فى ذلك البلد الأوربى أو ذاك .

ولابد أن أشير هنا إلى عناصر ثلاثة إضافية ساهمت فى تيسير اتصال جيلنا براوفد العلم والثقافة المختلفة .

العامل الأول : أن التليفزيون لم يكن قد اخترع بعد ، وكان الارسال الإذاعى محدودا فى ساعات بثه .. فكانت القراءة تكاد تكون وسيلة الاطلاع المعرفى الوحيدة فضلا عن اتخاذها لونا من ألوان الترويح والمتعة .

العامل الثانى : أن أسعار الكتب كانت فى متناول أكثر الراغبين فى الاطلاع ومتابعة الانتاج الثقافى .. حتى كان أكثر

الطلاب يشترون هذه الكتب كلها من «مصروفهم» اليومي الذي كان بالغ الضآلة .. ولذلك كون أكثر شباب تلك المرحلة «مكتبات» خاصة كانوا يتفاخرون بها كما تتفاخر الأسر ، اليوم باقتناء التحف والأثاث الفاخر ..

العامل الثالث : أن المجلات الثقافية كانت متعددة فإلى جانب مجلتي، والرسالة، والثقافة .. ظهرت خلال الخمسينات مجلات أدبية وسياسية عديدة وكانت مجلة «المختار» من ريدز دايجست ، نافذة ميسرة ومشوقة على الحضارة الغربية ، والثقافة الأمريكية بوجه خاص .

● **السفر لاستكمال الدراسة**

ومن المؤكد بعد ذلك أن سفري لاستكمال الدراسة العليا في القانون في فرنسا أولا ثم في انجلترا ، ثم في الولايات المتحدة عام ١٩٥٩ قد فتح لي أبواب أفق جديد للمعرفة .. لعل قيمته الحقيقية لا تكمن فيما تيسر لي - ولزملائي في هذه الأسفار والبعثات - من إتقان أصول البحث العلمي ، ولا فيما أتيح لنا من معرفة مضامين علمية جديدة في ميادين بحثنا ، كل في تخصصه وإنما تمثلت القيمة الحقيقية الكبرى لهذا الاتصال المباشر بالثقافة الغربية في أننا جميعا تعلمنا معنى جديدا للثقافة يتجاوز المحافظة على التراث ولا يتأبى على الاستفادة من خبرات الآخرين ، كما يدرك حقيقة الترابط والتكامل بين فروع المعرفة والثقافة المختلفة .. هناك في هذه الدول الغربية تفتحت أعيننا على جوانب من الثقافة لم تكن لنا بها في مصر عناية تذكر .. تعلمنا قيمة الفنون ، وأخذنا زيارة المتاحف ومتابعة العروض المسرحية مأخذ الجد ، كما تفتحت أعيننا على حقيقة الارتباط الوثيق بين حرية الكلمة وحصانة البحث العلمي وبين فرص التقدم الحقيقي للأمم والشعوب .. والذي لاشك فيه - مع ذلك ، أن توجهي للتخصص في القانون الدستوري ، وما أتاحه لي من اطلاع واسع على نظم الحكم والسياسة في أكثر بلاد العالم ، قد وضعني في تعامل يومي مستمر مع قضايا العدل والحرية وحقوق الانسان وعمق ادراكي للحقيقة الأولى من حقائق العلم الدستوري وهي أن «سيادة القانون» فوق إرادات الحكام والمحكومين هي ضمان العدل والأمن والاستقرار ، وأن غياب تلك السيادة يفتح أبوابا لا سبيل إلى غلقها من الفساد والظلم وتراجع الأداء الوطني الفردي والجماعي في جميع الميادين .

● **الاطلاع على ثقافات الشعوب**

ولا شك - بعد ذلك كله - في أن الاطلاع على هذه الجوانب من ثقافات شعوب أخرى .. قد فتح أمامي فرصاً



حقيقية للتناول النقدى لكثير من جوانب حياتنا ومن جوانب ميراثنا الثقافى الذى تلقينا عناصره كلها فى صبانا وشبابنا الأول تلقيا لا مكان فيه للتأمل النقدى أو للاستدراك والمراجعة .. وليس من شك كذلك فى أن استقرار عناصر البنية الأساسية الثقافة العربية والاسلامية التى نشأت معها وفى إطارها ، قد سمح لى أن أقف من بعض عناصرها موقف التعامل النقدى والاستعداد النفسى والعقلى لمراجعة بعض عناصر الثقافة الموروثة ، دون أن أتهم نفسى أو يتهمنى الآخرون - بسهولة - بأننى جاهل بتراثنا الثقافى ، أو رافض له ومتمرد عليه .. فقد نمت وتطورت عندى مسيرة هذا التعامل النقدى تحت ظلال انتماء مستقر وراسخ للثقافة العربية الاسلامية ، وإيمان بأن «منظومتها القيمية» كانت ولا تزال صالحة تماماً لتحقيق مهمتين كبيرتين متجاورتين : الأولى تحريك الأمة على طريق نهضة شاملة . والأخرى : الاسهام مع ثقافات أخرى معاصرة فى ترشيد حركة شعوب هذا العصر عن طريق تزكية «القيم الحافظة» لجوهر الخير والتواصل وتبادل العطاء ، وهى القيم التى أوشكت أن تهزها فى حياة الناس اليومية إفرازات التقدم المادى المصاحب للثورات العلمية وللتقدم الاقتصادى الذى توجهه وتتحكم فيه قيم المنافسة التى لا سقف لها فى مقام الاقتصاد الحر الخاضع لما يسمى «قوانين السوق».

وأعود - بعد ذلك كله - فأقول أن جيلنا ، شأن كل جيل ، لم يحدد لنفسه توجهاته الثقافية تحديداً انتقائيا بعيداً عن الواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى يحيط به ، أو منفصلا عن مكان أمته بين سائر الأمم، أو منعزلا عن مرحلة التطور العامة التى يمر بها التاريخ الانسانى .. وإذا كانت أعين جيلنا قد تفتحت على واقع أمة تفض عن كاهلها بقايا الاستعمار السياسى والاقتصادى ، وتحاول التمسك

بهويتها فى مواجهة محاولات تذويب الخصوصية الثقافية، كما تحاول التمسك باستقلالها فى مواجهة بعض صور الاستعمار الجديد فقد كان طبيعيا أن تتوجه ثقافة الجيل كله نحو توكيد الذات الثقافية للأمة : ورفع شعار الاستقلال الثقافى فى «مواجهة تيارات التغريب» ورفع شعار «الأصالة» فى مواجهة تيار الغلو والاسراف فى المناداة بالعصرنة والتجديد .. ومعنى هذا كله أن التوجه المحورى للثقافة قد كان توجهاً «محافظا» يهدف إلى تثبيت خصائص الأمة الثقافية .. ويصل فكره - فى المقام الأول - بالمصادر الأولى لتلك الثقافة ، سواء كانت تلك المصادر متصلة بالاعتقاد الدينى والأخلاقى أو كانت متصلة بالتراث الأدبى شعره ونثره .

● هزة كبرى

ولكن التطورات التى شهدها تاريخ الانسان منذ منتصف هذا القرن كان لابد لها أن تحدث «هزة كبرى» فى هذا التوجه .. فقد تتابعت - فى سرعة متزايدة - الثورات العلمية والصناعية وأخرجت للناس أدوات جديدة ذات كفاءة غير مسبوقة ، فى تقريب الناس بعضهم إلى بعض ، وفى نقل الأفكار والقيم وأنماط السلوك من أقصى الدنيا إلى أدناها .. وفى امتداد الأطماع والمصالح عبر الحدود التقليدية التى كانت كحاجز بين الشعوب ، وتبقى عليها معزولة داخل كياناتها السياسية والثقافية التى اعترف لها بها النظام الدولى والقانونى القائم آنذاك .. وبدأ - تدريجيا - انتقال «الرؤية الانسانية» بكل جوانبها من «المحلية» إلى «العالمية» .. وصار الجيل لا يقيم ثقافته وأدائه اليومى بوضعهما فى مقابل ثقافة وأداء الأجيال السابقة من أجيال أمته . وإنما صارت المقارنة معقودة دائما بين ثقافة الجيل الحاضر وأدائه وقدرته كلها وبين أداء الأجيال المعاصرة من أصحاب الثقافات المختلفة وأبناء الأمم الأخرى .. أى أن المقارنة والمواجهة لم تعودا تجريان على محور زمنى رأسى وإنما صارتا تعقدان عبر محور أفقى ومكانى .. واستجابة لهذا التطور العالمى الذى لا فكاك منه لأحد بدأ جيلنا يدرك أبعاد «الجمود» و«التخلف» اللذين أحاطا بأمتنا كما بدأ يدرك أبعاد الانطلاق والحركة ، والنهضة التى حققتها من حولنا شعوب أخرى .. وإذا كانت فرص التنقل والسفر والاتصال المباشر بمظاهر هذه النهضة وذلك الانطلاق قد تحققت لأفراد من جيلنا - أنا واحد منهم - أكثر مما تحققت لكثيرين ، فإن هؤلاء الأفراد كانوا - لذلك - أسبق إلى الانتباه للحاجة الكبرى إلى تكوين البنية الثقافية للأمة تكويناً جديداً يجرى فيه من جديد تقييم عناصر تلك الثقافة ، وفتح الأبواب لاكتساب عناصر



محمد إقبال



محمد عبده

جديدة تؤهل الأمة للانبعاث والنهضة وتمكنها من دخول ساحة المنافسة العالمية التى فرضتها الثورات العلمية فى ميدانى الانتقال والاتصال وما تقدمه - كل يوم - من وسائل اختزال المسافات وهدم الحواجز ، وتقريب الناس والثقافات .

ولقد كنت - ولا أزال - واحدا ممن استجابوا لدواعى هذه «الثورة الثقافية» .. التى تعتمد منهجا ذا شعبتين أو رافدين :

الرافد الأول : رافد المحافظة على الهوية الحضارية ، وتوثيق الصلة العقلية والنفسية بالاطار المرجعى للثقافة القومية .. إيماناً بأن هذا الاطار هو الذى يحمل «منظومة القيم» الأخلاقية للأمة ، وهى المنظومة التى تحمل خصائص الأمة وتحدد «بصمتها الثقافية» كما تمثل اسهام الأمة فى ترشيد الحضارة العالمية ..

الرافد الثانى : رافد «الانفتاح» أمام الجديد النافع من عناصر الثقافات الأخرى، إيماناً بأن الله تعالى قد وزع الحكمة بين الناس والشعوب ، وأنها فى منطق أمتنا ، وبعبارة الحديث الشريف «ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» وأنها لذلك تستحق أن تطلب «ولو فى الصين» .. وأن التعدد والتنوع فى الثقافات والأعراف وطرائق الحياة مدعاة للتنافس والتسابق إلى الخير .. وأن هذا



د. احمد كمال أبو المجد محاضراً فى واحدة من ندواته الفكرية

التسابق هو حكمة الله الكبرى فى خلق هذا التنوع بين الثقافات والشعوب ولذلك تجد آيات القرآن الكريم ، أكبر وأوثق إطار مرجعى لأمتنا العربية والإسلامية ، لا تكاد تذكر التنوع والتعدد إلا وتردفه بقوله تعالى : «فاستبقوا الخيرات» وعلى أساس من هذا المنهج توجهت - فى نهم شديد واحساس بأننا مع العالم كله فى معركة استباق الخيرات ، لاينال الفوز فيها إلا من أخذ بشروط النهضة ، وحاز أدواتها .. كما توجهت كذلك - إلى محاربة عناصر الجمود ودعاة الانغلاق .. وإلى حفز همم الذاهلين عن حركة الدنيا من حولهم المنكفئين على الماضى وحده .. والمنادين بالانقطاع عن مسيرة الناس وحركة التاريخ .. ومن خلال القراءة الغزيرة والاتصال المباشر بحركة الشعوب الأخرى وهى تمارس الخروج من المحلية إلى العالمية .. واتصال مباشر كذلك بمعاناة أمتنا وهى تحاول التحرر من أغلال الجمود وتثاقل الخطى وثقافة السكون والانحصار فى الماضى ..من خلال ذلك كله بدأت ، مع آخرين مسيرة جديدة ودعوة عالية النبرة إلى ضرورة «التحقق بشروط النهضة» وإلى الخروج بالأمة كلها من «المحلية إلى العالمية» دون انخلاع من هوية الأمة وثقافتها الخاصة ، التى تحمل - مثل غيرها - أسباب قوة ونهضة آن الأوان لتوظيفها وتسخيرها

لخدمة هذا الانطلاق المأمول كما تحمل عناصر «ضعف» ينبغي - بلا حرج - نبذها وتخليص مسيرة الأمة من آثارها المعوقة والمدمرة ..

وإذا جاز لي - دون خروج عن الإطار المحوري لهذه السطور - أن أشير إلى أهم عناصر هذا التوجه الثقافي الجديد فإنني أذكر محاور ثلاثة صارت عندي وعند كثيرين مثلي ، أهم معالم هذا التوجه الثقافي الجديد .

المحور الأول : محور الحرية التي هي بشهادة الواقع والتاريخ شرط النهضة ، وشرط كل إبداع إنساني ، والتي كانت ، ولا تزال إلى مدى كبير ، الفريضة الاسلامية الغائبة «عن حياتنا» والتي يحتاج الجيل بسبب هذا الغياب إلى أن يتعلمها وأن يربى على إحترامها ..

المحور الثاني : محور «العقل» الذي أنزله عن «عرشه» التفكير الغيبي في أمور الدنيا التي تحكمها القوانين والنواميس ذلك أنه إذا عطلت العقول ، واستراحت الأمة إلى «الخرافة» أو إلى التفكير العشوائي الذي لا يعترف بالحدود المنطقية ولا يكاد يقيم وزنا لقانون السببية .. فلن يكون هناك أمل في نهضة ، ولا فرصة في لحاق بالآخرين .

المحور الثالث : محور العمل ، الذي تكون به ، بعد الفكر، كل حركة ، والذي يتم من خلاله - كل تغيير . والعمل الذي ينبه إليه هذا التوجه الثقافي الجديد هو في المقام الأول عمل كثير ، وفي المقام الثاني عمل «مجود» ذو مستوى نوعي رفيع تعبر عنه ثقافتنا بحسن الأداء أو «اتقان العمل» أو «الاحسان في كل شيء».

المحور الرابع : محور الابداع .. بالاضافات المبتكرة لما هو قائم والتوجه المستمر لطلب الكمال الممكن ..

وبهذه التوجهات كلها كان لابد أن تضاف إلى الثقافات التراثية المحافظة ، عناصر جديدة متنوعة في مصادرها متعددة في مضامينها ، متوجهة إلى المستقبل .. وإذا كان بعض الأفراد قد أوتوا حظا خاصا بهم مكنهم من السبق إلى طلب هذه العناصر وحيازة الكثير منها .. فإن الجيل كله قد وضع أمام حقائق هذا العصر الجديد .. وصار مطالبا بتأهيل نفسه لمشاركة شعوب الدنيا هذا السباق الجديد كما أن مؤسسات المجتمع قد صارت مطالبة - قبل الأفراد - بريادة هذا التوجه الجديد ، وتمكين الجيل من ممارسة وحيازة شروطه وإذا كان هذا التوجه يضع على عواتقنا جميعاً، أفراداً ومؤسسات أعباء باهظة ، فإننا لا نملك إلا أن نقول .. «هذا أو الطوفان» ولنا أن نذكر أنفسنا بعبارات الشاعر المجدد الكبير محمد اقبال حين ذكرنا بأن النسور - وهي ملوك الطير - لا ترضى لنفسها بالتحليق عند السفوح وإنما هي لا ترى إلا محلقة هناك في الذرى ، وعند قمم

دفاعا عن «قراقوش»

فى مقاله المتميز المعنون بـ «الكتابة المصرية الساخرة» أمتعنا الأستاذ / إبراهيم فتحى بدراسة جادة واعية ، والتى جاءت ضمن ملف مجلتنا الغراء (الهلال) عن «الساخرون والضاحكون» والذى كان إضافة متفردة كما عودنا (الهلال) دائما .

لقد ورد فى هذا البحث حديثه عن الكتب التى كتبت عن (قراقوش) والذى يقول عنه د . أحمد شلبى فى كتابه «موسوعة الحضارة الإسلامية : ٥ / ١٦٩» عندما تحدث عن «رجال صلاح الدين» «ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وقد تحدثت الأساطير عن تعسفه واضطرابه ، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك» .

ويقال إن «قراقوش» تعنى الغراب (الأسود) باللغة التركية ، و«قراقوش» الذى كتب عنه ابن مماتى كتابه الشهير «الفاشوش فى حكم قراقوش» كان مهندسا شليما فى فن العمارة والبناء ، ونعرف من تاريخه أنه كان المسئول عن بناء قلعة صلاح الدين ، وكان جادا دقيقا فى عمله ، يضرب بيد من حديد على هؤلاء الذين يغشون فى مواد البناء ، أو الذين لا يلتزمون بالجدية فى عملهم ، ويبدو أن المقاولين الذين كان يوكل لهم العمل فى بناء القلعة هم أول من أطلق عليه الشائعات ، واتهموه بالتعسف والظلم ، وحبكوا حوله الأساطير ، والحقيقة غير ذلك فقد خدم الرجل الدولة الأيوبية بكل التفانى والإخلاص ، ويبدو أن شيئا ما كان بين الأسعد بن المهذب المعروف بابن مماتى (ت ٦٠٦هـ) والوزير (قراقوش) وهو الذى دفع الأول إلى كتابة كتابه الذى استشرى فى الوجدان الشعبى لدرجة أنه حول قراقوش إلى ملك أو سلطان من الظالمين المتجبرين .

ويجدر بالذكر أن ابن مماتى كان مسئولا عن ديوان المال أيام صلاح الدين ، ثم أتهم فى ذمته المالية فتقرر عزله ومصادرة أملاكه ، فهرب إلى حلب السورية .

هذه كلمة متواضعة جدا أردنا أن ننصف بها «قراقوش» البناء العبقرى الجاد فى عمله والذى ظلمناه .

وشكرا لكاتب المقال وشكرا للهلال الغراء .

● يسرى عبد الغنى

بين الضحك والكآبة !

أعجبت أشد الإعجاب بالجزء الخاص الذى أصدرته الهلال فى الشهر الماضى «الساخرون والضاحكون» ، وقد أعجبت بكل الموضوعات التى نشرها الهلال وتعليقا على مقال الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين «السخرية فى حياتنا من رخا إلى أحمد رجب» فقد أعجبتنى هذه العبارة الجميلة التى وردت فى المقال وهى «من السهل جدا أن يسرد الشخص منا ، لكن من الصعب الاختصار»!

نعم ما أسهل الهدم ، وما أصعب البناء .. يقول الكاتب الكبير محمد زكى عبد القادر رحمه الله «الضحك كالتأمين على الحياة ، وكلما كبر الإنسان ، كبر التأمين ، وأعتقد أن رصيدنا من الضحك قليل ، وأننا فى الطريق إلى الموت كآبة .

وإننى أتمنى ألا تحرمنا مجلتنا الحبيبة «الهلال» من هذه الجرعات الساخرة ، التى تعيد إلينا الابتسامة من جديد .

عاصم فريد البرقوقى -
الإسكندرية

الضاحك الباكى !

تعجبت كثيرا أن تنشر الهلال فى عدد ديسمبر ١٩٩٥ جزءا خاصا عن السخرية والضحك ، ولا تتضمن مقالات هذا الجزء ، مقالا عن الكاتب الكبير فكرى أباظة ، وهو من أعلام الصحافة فى مصر . وأحد أبرز الصحفيين بدار الهلال ، ورئيس مجلس إدارتها الأسبق ، فضلا عن أنه من أكثر الناس خفة ظل ، وسخرية فى كثير من كتاباته الضاحكة وهو صاحب كتاب «الضاحك الباكى» !

عاطف صابر - الاسماعيلية

الهلال

- لاشك أن الراحل الكبير فكرى أباظة أثرى حياتنا الأدبية بكتاباته الساخرة ، ونقداته اللاذعة للمجتمع المصرى ، الذى تميز بعادات يحار المرء فيها ، وكانت كتابات فكرى أباظة معبرة كل التعبير عن وجدان الشعب المصرى ، متضمنة هذه السخرية البديعة

ونحن ياعزيزى لا يمكن أبدا ان ننسى هذا الدور الكبير لشيخنا فكرى أباظة يرحمه الله ، فهو يعيش فى عقولنا ووجداننا ، ولكن كما قرأت فان الشخصيات الساخرة التى تناولها العدد اقتصرت على الأحياء من الساخرين وهم الأساتذة محمود السعدنى ، أحمد رجب ، أحمد بهجت ، محمد مستجاب .. أمد الله فى أعمارهم

ياحلوتي

اسق حبيبك من شفاهك سكرا
ودعيه ينشق من عبيرك عنبرا

فى وجنتيك الورد فى أكمامه
قد مسه طل الصباح فأزهرا

شاء الإله بأن تكونى فتنة
ويحار فيك الشعر مهما أبحرا

زعموا قصيدى فيك جلوة عاشق
لما رأوك خطرت قالوا : قصَّرا

تتنقلين فراشة فى خاطرى
أىُّ الدروب بها سلكت تعطَّرا

ليلى وصبحى فى هواك تنافسا
فالصبح وجهك والخيال له الكرى

ياحلوتى يا أمتى إن الهوى
قدر جرى ونعمت فيما قُدِّرا

محمود عبد العزيز عبد المجيد
كفر الشيخ

دور مهم للمجلات الفكاهية

كانت مصر زاخرة فى الجيل الماضى بالمجلات الفكاهية وكان رائدها الأول هو يعقوب صنوع الصحفي المصرى ، صاحب مجلة (أبو نظارة) وتلاه عبد الله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، صاحب (التنكيت والتبكيت) وبيرم التونسى الزجال المعروف صاحب (المسلة) وغيرهم . وكان آخر هذه المجلات هى مجلة (البعكوكة) لمنشئها محمود عزت المفتي ، وكانت أكثرها ذيوعا وانتشارا ولم يكن الهدف من هذه المجلات هو مجرد الإضحاك ، وإنما كان الهدف الرئيسى منها هو نقد أوضاع المجتمع السائدة فى ذلك العصر، وخصوصا عصر إسماعيل ، بقصد اصلاحها .. ويرجع السبب فى رواج هذه المجلات ، وإقبال الشعب المصرى

المصرى عليها ميله الطبيعى الى حب الفكاهة ، ليروح عن نفسه فى مجتمع طبقى يسوده الظلم ، ويجثم فوق صدره المحتل ، كما انه يحسن اصطياد القفشة ، ليحارب بها التصلب فى بعض العادات الاجتماعية بقصد تقويمها .

والآن تخلو الساحة الصحفية من المجلات الفكاهية ، التى ساهمت بسلاح السخرية والنقد اللاذع الذى عرفت به فى إصلاح المجتمع الذى طفحت - بكثرة - على سطحه فى هذه الأيام سلوكيات غريبة . كالاحتيال والنصب على أموال البسطاء والسذج من المواطنين ، تحت ستار مشروعات استثمار وهمية بحيث يتخفى البعض منهم بعباءة الدين ، وحتى يفيق هؤلاء الناس من سذاجتهم وغفلتهم . كما نشهد الآن الكثير من حوادث السلب والنهب والاغتصاب العلنى ، ورفع الأسعار بشكل مبالغ فيه ، وهى تصرفات لا يفلح فى علاجها إلا كشف أصحابها وتعريتهم تماما عن طريق الأسلوب الصريح والتبكيت العلنى الجرىء ، وهو ما تجيده صحافة الفكاهة .

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع - منوفية

الثمانون عشتها .. كيف ؟

مد لى الله فى سماحة عمرى ... أشكر الله .. بين عسرى ويسرى
الثمانون أوشكت فى ذراها ... تصطفى حكمة الحياة وتغرى
كلما جد فى الحياة جديد ... زخرت رؤيتى وضوعف برى
كل يوم يمر يعطى ادخارا ... لتجاريب ، قد أضيفت كسحر
كم دروس وعيتها فى حياتى ... وأضفت الكثير من سماحة فكر
الثمانون خلتها لمحات ... فى ضمير الزمان ومضة سحر
خلجات الإحساس نور وفيض ... عاشه المرء بين جهد وصبر
لا أرجى الحياة غير جهاد ... صادق الوعد ، يستتاب بأجر

علم النفس أن تعيش ازدهارا
ابتسم للحياة واجمع جناها
ليت شعرى ؛ متى يعيش انبهارا
كن حفيا بالجد فى كل فن
وبناء الإنسان مثل بناء الصرو
حسبى الله أن أكون ملما
عش كما عاشت النجوم انبهارا
كل فذ لابد ان يتبارى ..
دع صغار النفوس فى تية وهم
وخذ الأمر بالسواعد والجهـ
واحسم الرأى فى البلاء إذا ما
واحتفال الإنسان بالناس ذكرى
ودع الملك للإله يصرف

بين فال الزمان ، أو صبابة فجر
وأمنح الناس حكمة صنو در
كل فذ غدا نصيرا لفكر
وتنقل بالصدق فى سماحة يسر
ح ، فى ذمة ووعد وبر
باصول الحياة بين أمر وأمر
واسع للفضل إذ تفيض وتثرى
فى مدى فنه يحذق وأجر
واحتدم أنت فى احتمال وصبر
ـد ؛ وبذل الآراء نهضة فكر
حزب الأمر ، وانطلق غيث قطر
حيث كانوا ، والرأى بالرأى يغرى
ـه ، بما شاء فى اقتدار وجبر

عبد العزيز بيومى على
مدير سابق بالمدارس الثانوية

ابن تغرى بردى والنجوم الزاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وام علم التاريخ فى نشأته نشأة الأمة العربية فكان حديثا عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة لم تستقر الأماكن تحت أرجلها كما كان حديثا من ايامهم ومآثرهم حيث تشاحنوا على مواقع الحياة حيث الخصب ، وحين ظهر من بينهم الانجاد و الأمجاد .. وعندما استوت لهم مدن ، كان حديثهم عنها يمثل التاريخ الجامع لشئونهم الكثيرة وشاعت عصبية الوطن بعد ما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان يختصها المؤرخون بكتب خاصة ، ومن أقدم ما انتهى الينا من ذلك ، اعنى الحديث عن البلدان ، اخبار الحيرة لهشام

ابن محمد الكلبي ٢٠٤ هـ وقد أخذ مؤرخو كل اقليم منذ القرن الثالث فى جمع ما يتصل بتاريخ اقليمهم فكان من ذلك تاريخ مصر والاسكندرية للواقدى ٢٠٧ هـ واخبار مكة للأزرقى ابى الوليد محمد بن عبد الله ٢٢٣ هـ ، ثم فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ٢٥٧ هـ .

وما أن أهل القرن الرابع الهجرى حتى انضمت الينا هذه المدرسة التاريخية ، مدرسة اخرى تعنى بالحديث عن خطط البلاد ، وكان أول من ألف فى ذلك أبو عمر محمد بن يوسف الكندى (٣٥٠ هـ) . ومضت هاتان المدرستان التاريخيتان بالمدن تستعين بكثير من القرون اللاحقة وكان ممن كتبوا عن مصر فى الجانب التاريخى .

– ابن يونس الصدفى (٣٤٧ هـ) وله كتابان عن أهل مصر وعن الغرباء الواردين عليها

– أبو عمر الكندي ٣٥٠ هـ فضائل مصر المحروسة .

– ابن زولاق الدليل على تاريخ الصدفى . وغيرهم كثيرون .

وعن مدرسة الخطط بعد الكندى (٣٥٠ هـ)

– ابن زولاق ٣٨٧ هـ خطط مصر

– القضاعى (٤٥٤هـ) المختار فى ذكر الخطط والاثار .

– على مبارك (١٣١١ هـ) الخطط التوفيقية .

●●●

ابن تغرى بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفى دار كانت للأمير سنجك اليوسفى وفى حدود سنة ٨١٢ هـ كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

كان أبوه تغرى بردى مملوكا روميا جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق ، وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى احدى فرق المماليك السلطانية ، وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ونبه بشأن ابن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق إلى ان كان دخول تيمور لنك إلى الشام ، وانهزام فرج بن برقوق بجيوشه ، ورجوع تغرى بردى معه، ثم عاد تغرى بردى الى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار من دمشق ، غير انه مالبث ان اتهم بالخيانة العظمى ، فهرب الى التركمان وبقى هناك الى ان عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة ، وولاه نيابة دمشق للمرة الثالثة وبقى إلى ان وافته منيته سنة ٨١٤ هـ ، وحين ترك هذا الأب دنياه خلف من وراءه أبناء ستة ، كان أبو المحاسن أصغرهم كان فى الثانية من عمره ، نشأ أبو المحاسن يتيما ، فذاق اليتم مبكرا ، وتولى تربيته زوج اخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم الى ان مات ابن النديم سنة ٨١٩ هـ تولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين بن عبد الرحمن البلقينى فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم وحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ، ودرس النحو

والصرف والحديث ، وعلم التاريخ وأجاد الفروسية بكل ألوانها وفنونها ، ولقد جاء القرن ٩ الهجرى من أهم القرون التاريخية حتى أصبح ابى المحاسن من جملة مشهورى المؤرخين فى مصر .

ولأبى المحاسن بن تغرى بردى أكثر من ١٦ مؤلفا منها النجوم الزاهرة يقع فى ١٨ مجلدا ظهر المجلد الأول سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٦٩ المجلد الثامن عشر ويؤرخ لمصر منذ الفتح الإسلامى الى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة فى اخبار البلاد المجاورة وهو مرتب على السنين وفى اخر تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه .

رجب عبد الحكيم الخولى - حلوان

أناشيد حب



كابتسام النجوم فوق مياه
حلوة الموج عذبة رقراقه
كالنسيم العليل يطرح ليلا
ذكريات لدى الدجى مشتاقه
مثل ذاك الكافور مد غصونا
فوق نهر رمى به أوراقه
مثل عصفور عاد يوما لعش
عاد بالحب إنه الحب ساقه
عاد فى ليلة الرياح إليه
عاد للعش والزمان أعاقه
مثل شوق الطيور عند غروب
تبتغى عشها يرد فراقه
أنت ذاك الجمال والشوق كل
الشوق والنور إذ يكبُ اشتياقه
أنت زهر الرياض أنت نسيم
قد أتى والهوى على أراقه
أنت مثل العراق عند حياتى
أيبيع الحجاج يوما عراقه ؟

سامح النجار - فارسكور

عربى مذهول

حزم الأمر وأزمع
أن يرى للفجر نورا
ما له سارت خطاه
يرهب الإعصار دوما
وإذا قارب شطا
كاد لا يفقه شيئا
شارد الذهن نهارا
يبصر الماضى فظيعا
هل يجارى كل غاف
هل ينادى ياشبابى
أم يكن عبدا ذليلا
وإذا ما مات قهرا
هكذا قد راودته
قال يوما أين نحن

أن يرى الأشياء أروع
ويرى للصبح مطلع
نحو فلك لم يشرع
ومن الأمواج يجزع
أو إلى الصحراء أسرع
أهو للإلهام ودع
ليله عينان تدمع
ويرى الحاضر أفظع
وسوط الذل يخضع ؟
أشباب اليوم يسمع ؟؟
تابعا ؟ ، اذ كان يتبع
إلى الجنات يرجع ؟!
نفسه ، ما كان يمنع ؟
هل لنا فى العصر موضع ؟!

عبد الله حبورى – اليمن

إلى الأصدقاء

● الصديق أحمد كامل علي ـ جامعة القاهرة فرع الفيوم
«قصيدتك : لاتلمنى يازمانى» جيدة، ولكن بعض أبياتها مكسورة ، رجاء مواصلة الكتابة والاهتمام بالوزن.

● الصديق : علي منصور ـ الجزائر
نرحب بك صديقا لمجلة الهلال ، ونشكرك على كلماتك الرقيقة حول ماتضمنه من زاد فكرى لك ولأبناء العرب فى كل وطن عربى .

● الصديق : مصطفى عوض ـ مدينة نصر القاهرة
وصلت إلينا مساهمتك الشعرية «قررت الحياة» وعليك أن تقرأ جيداً ، وتحاول الكتابة مرات ومرات فلابد للشعر أن يكون موزونا ومقفى

ونشكر الأصدقاء :
إبراهيم مهدي «الإسكندرية» ـ بكري مصطفى «الكويت» – عدنان ثامر «سوريا» ـ حمدان حمد «السعودية» – سامي داود «المنصورة»
ونعد بنشر الإنتاج الجيد لأصدقائنا في الأعداد القادمة



ليست الكلمة الأخيرة

محمود أمين العالم

● عذرا لمجلة «الهلال» ولقرائها الأعزاء لمعارضتي لعنوان هذه الصفحة التى أملؤها بهذه الكلمة غير الأخيرة ! أعرف أن المقصود بالعنوان هو الكلمة الأخيرة في كل عدد من أعداد «الهلال» . ولكن .. ما أقسى اليقين المطلق النهائي الذي يوحي به هذا العنوان ! وما أكثر ما في حياتنا من يقول بأن كلمته هي الكلمة الأخيرة ، وهو يعني بها احتكار الرأى والحقيقة ، ورفض كل من يعارضه إلى حد التزييف أو الاغتيال الفكري بل والجسدي ! لست أقصد التعصب الديني فحسب، بل التعصب والتزييف عامة ، السياسي والسلطوي والفكري والاجتماعي والثقافي . ولست أقصد بكلامي هذا الدعوة إلى التوفيقية أو تعليق الحكم أو التوقف عن اتخاذ المواقف وتحديد الآراء ، بل هو دعوة إلى احترام الاختلاف والتنوع وتفهم الرأى الآخر وإتاحة المساحة الجديرة به ، دون التوقف عن الدفاع عما نراه حقا ، بالحوار المجتمعي والتدقيق الموضوعي والاختبار العلمي والعملي .

كل كلمة أخيرة فى النظريات العلمية أعقبتها دائما كلمة أخرى خالفتها أو أضافت إليها وكلمة أخيرة في الفكر الفلسفي والسياسي والاجتماعي والثقافي عامة ، واجهتها كلمة أخرى ناقضتها أو عدلتها وطورتها إلى ما هو أفضل .

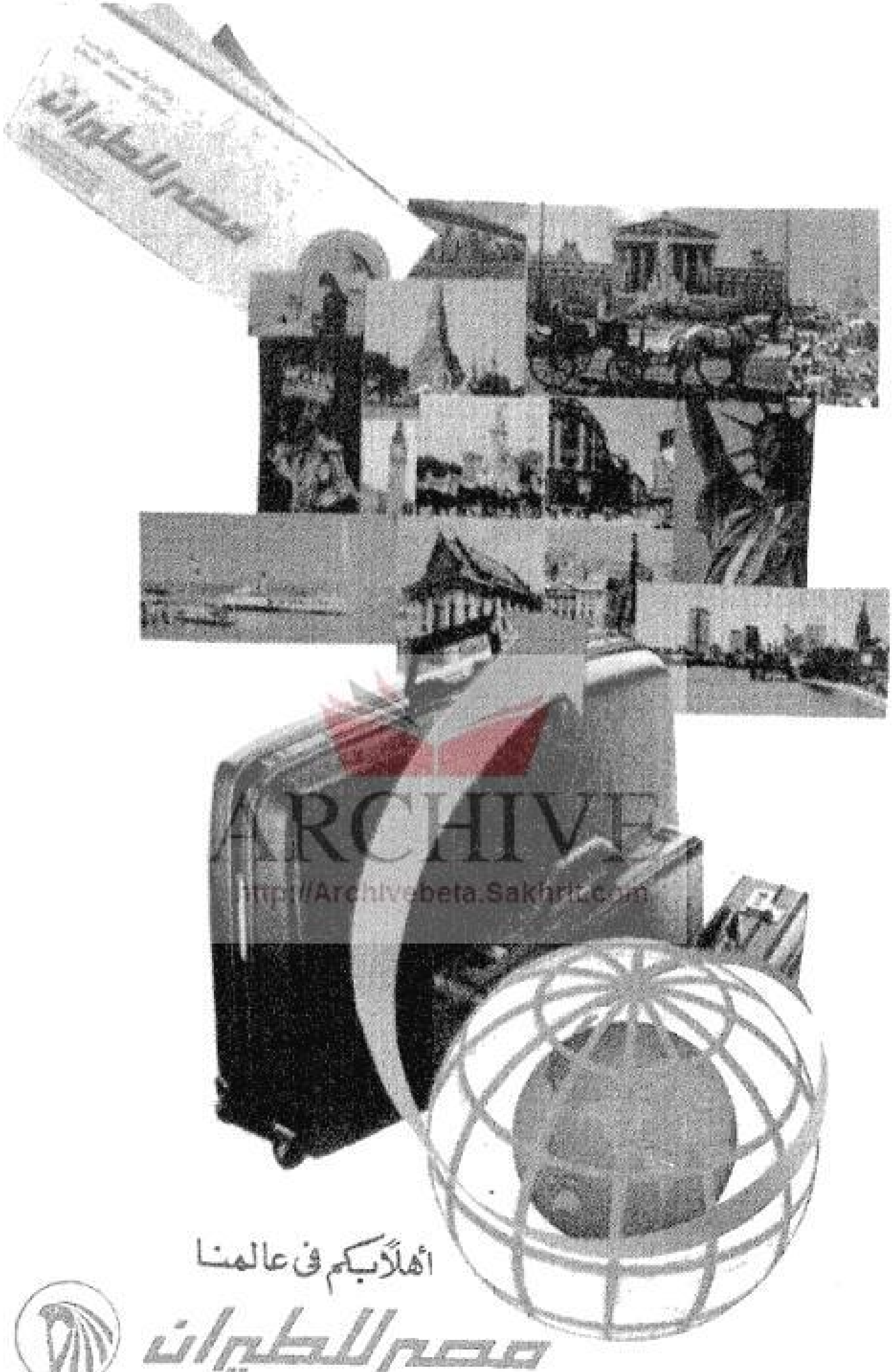
والذين زعموا ان النظام الرأسمالي العالمي هو الكلمة الأخيرة في التاريخ ، سرعان ما فضح الواقع ما فى هذا النظام من أزمات قاتلة وطبائع شرسة، وان الاشتراكية- رغم كل ما حدث لنموذجها السوفييتي -- لا تزال أفقا انسانيا ينبض بالامكان المتجدد . خلاصة الامر ، هو حاجتنا الى الوعى التاريخي بالحقيقة . فلكل شئ تاريخ . وكل تاريخ هو حركة وتفاعل وتغير . ووعى الانسان وارادته هما جزء فاعل فى التاريخ نفسه. هل قال عام ١٩٩٥ كلمته الأخيرة لنا ؟ أبداً... فلا تزال حروف كلمته تبحث عمن يكتبها في قلب عامنا الجديد ١٩٩٦ .

وهل صحيح ما يقال عن تفكك النظام العربى ولا سبيل إلى وحدته وتجدده؟

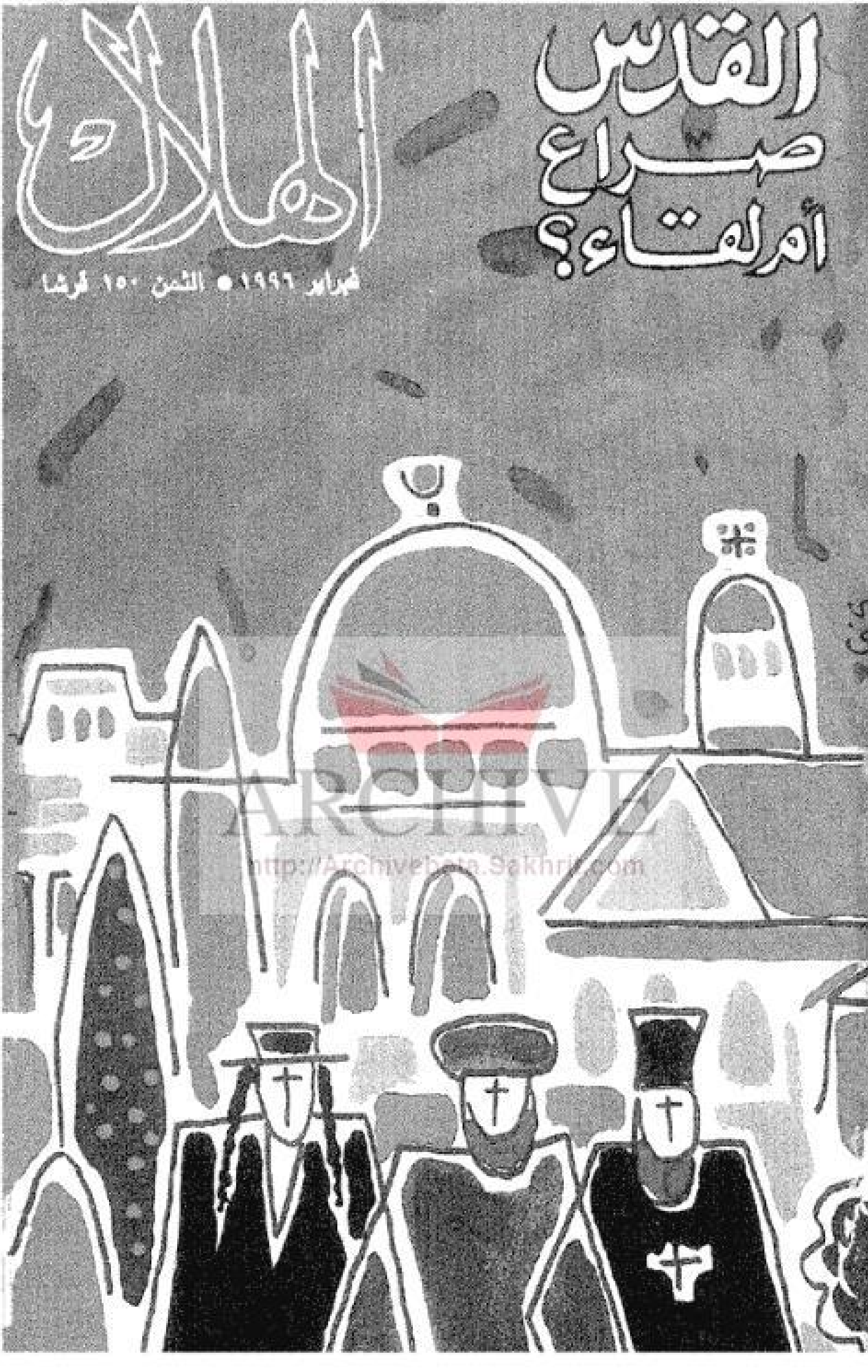
أبداً.... فلا تزال حوافز الوحدة وضروراتها أقوى من عوامل التفكك. وهل قال النظام العالمى الجديد كلمته الأخيرة؟ أبداً.... لا يزال الصراع العالمى محتدما لتحديد معالم نظام إنساني جديد.

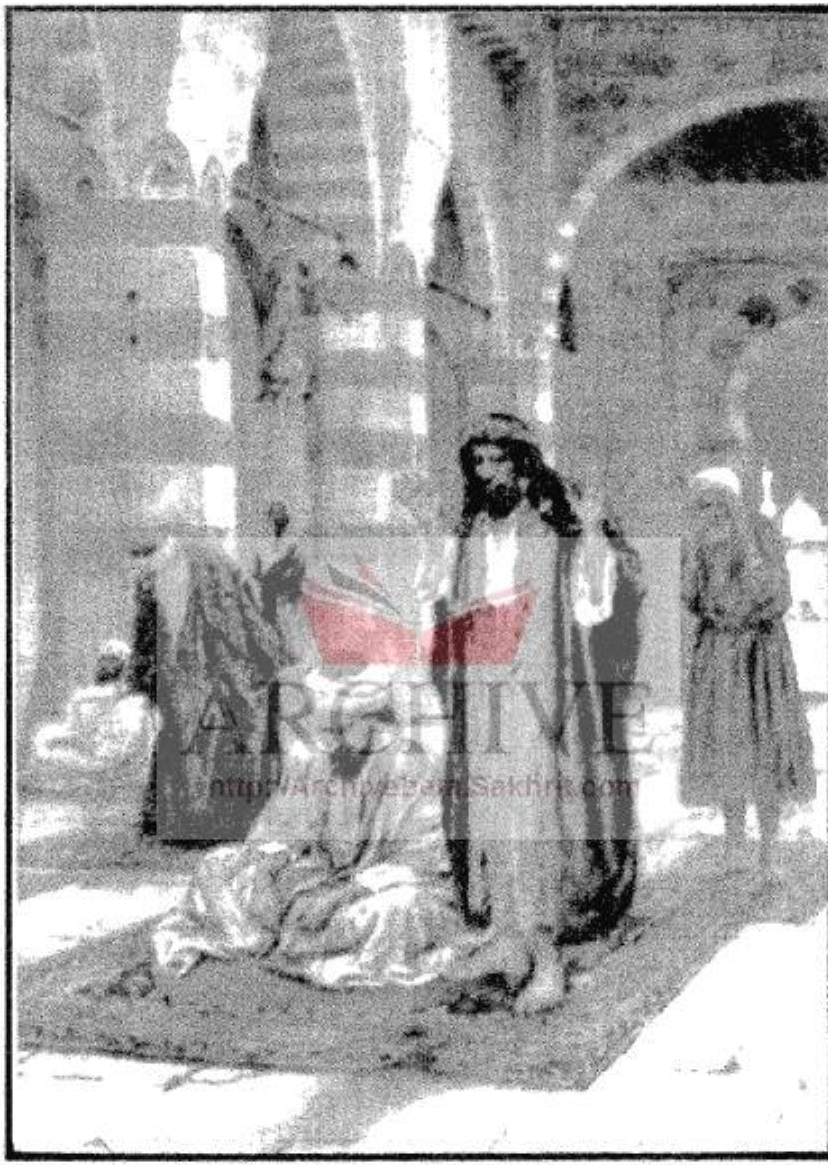
ولهذا فالسؤال الذى ينبغي أن نسأله ليس عن كلمتنا الأخيرة وإنما عن كلمتنا التى نستخلصها من دراسة الواقع، وحوار العقول ومصالح شعبنا، وأن نسعى لاختيارها وتحقيقها بالفكر والديمقراطية والانتاج والإبداع الجماعي في إطار حقائق عصرنا .

وأطيب الأمنيات لمصرنا ولأمتنا العربية وللعالم أجمع بعام جديد أكثر أمنا ومشروعية وتقدما .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران




الهلال
القدس
صراع
أم لقاء؟
فبراير ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشا



وقت الصلاة، للفنان باولينو بافيسى ● متحف داهش - نيويورك

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١,٧٥٠ دينار – المغرب ١٧ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



تصميم الفنان
حلمي التوني

فكر وثقافة

شعر وقصة

القدس

جزء خاص

فنـــون

التكـــوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

١٩٩٦ عام القدس

□ ظلت القدس زمنا طويلاً بوتقة تصهر كل الثقافات والحضارات فى سبيكة واحدة تتسم بالتسامح والمحبة والإخاء.. فالمدينة المقدسة لها مكانة خاصة عند أصحاب الأديان الثلاثة اليهود والنصارى والمسلمين تستقبلهم وتفتح لهم قلبها وهى تحت سيطرة أهلها من الفلسطينيين.

فهى قبلة المسلمين الأولى ومصدر وحى ورمز لقاء.. وهى ثالث الحرمين.. سرى إليها الرسول الكريم محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم).

وقدرها اليوم أن تكون المحك الرئيسى الذى يكشف مدى صدق دعاوى السلام، وحقيقة إمكانية تحقيق المصالحة التاريخية بين الثقافات والحضارات والأديان.

فالقدس هى المحطة الأخيرة للتسوية بين الفلسطينيين والاسرائيليين، فقضية كل من القدس والمستوطنات واللاجئين مؤجلة حتى نهاية الشوط فى منتصف عام ١٩٩٦، فى طريق لايمكن الوصول الى نهاية له إلا على أساس العدالة والحقوق التاريخية للشعب الفلسطينى.

لقد كان من أول القرارات التى اتخذتها السلطات الاسرائيلية بعد حرب يونيو ١٩٦٧ هو الاستيلاء على القدس، وتحويل سكان القدس العرب الى مقيمين أجانب فى بلادهم، ومن أيامها وهى تؤكد كل يوم اصرارها على تهويد القدس، وأخذت تعبث بالمدينة التى لكل حجر فيها تاريخ، ولكل درب فيها معنى.

تعرضت جغرافيتها للتبديل والتغيير والمسخ، وشهدت عملية واسعة للاستيطان الاسرائيلى، وصاحب ذلك عمليات تغيير ديمغرافى ومعمارى واسع، وتم قهر الفلسطينيين من المسلمين والمسيحيين وأثقلت كاهلهم الغرائب والقيود، واحاطت المدينة المستوطنات الاسرائيلية واتسعت المدينة لتصل الى حوالى ١٢٥٠ كيلومترا مربعا، وتم تدمير أجزاء منها مثل حارة المغاربة، وقام أحد المتطرفين باشعال الحريق فى المسجد الاقصى، وأخذت اسرائيل تصادر الأراضى داخل القدس وحولها، وقامت القدس الكبرى التى يقع ثلاثة أرباعها فى أراضى الضفة الغربية، وغطت حركة البناء تلال القدس ووديانها، وارتفع بدل التلال الخضراء الفنادق والمبانى التى تخفى الأسوار التاريخية القديمة والمعالم الاثرية للمدينة المقدسة.

واذا كان للقدس مكانة خاصة لدى اليهود، فلها أيضا مكانة أعظم فى التاريخ الإسلامى والتاريخ المسيحى، فهى مهد السيد المسيح عليه السلام، والحق العربى الفلسطينى فى القدس قائم على أسس من الحضارة والتاريخ.

ومع كل هذا، حصلت اسرائيل أخيرا على مساندة الكونجرس الأمريكى بقراره نقل السفارة الامريكية من تل أبيب الى القدس!

وتظل القدس خط الدفاع الأول فى الصراع من أجل حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، ويجب أن يتجمع عندها كل الجهود التى تتوق وتسعى للعدل، وهناك ترسانة من القرارات الدولية التى تؤكد حق الشعب الفلسطينى، وهناك أيضا لجنة أقامها المؤتمر الإسلامى برئاسة الملك الحسن الثانى، مهمتها الوحيدة الدفاع عن القدس، والمهمة العاجلة لها طرح تصور سياسى لمستقبل القدس.

حقا.. إن طريق السلام شاق وطويل، إلا أن تداعيات التسوية وآلياتها الجديدة أقوى من نوايا وتدبير حتى من بدأها.

اقرأ جزءا خاصا عن القدس ص ٧٠

المحرر

حياتنا بين المحاكاة والإبداع

بقلم : د. مصطفى سويف

□ المحاكاة والإبداع كطريقين إلى حفظ البقاء هما التوجهان الرئيسيان اللذان تتردد الحياة بينهما. لا فرق فى ذلك بين تجلياتها جميعا، البيولوجية والنفسية والاجتماعية. هذه واحدة من أهم مسلمات الوجود الحى، الإبداع لشق طريق جديد، والمحاكاة لمواصلة السير فيه. فعلى المستوى البيولوجى تجد أسلوب المحاكاة متمثلا فى البرمجة التى تنظمها عوامل الوراثة وتحملها نواة الخلية الحية لتحفظ للنوع استمراره عن طريق الاستنساخ، ونجد أن أسلوب الإبداع هو الطفرات التى تطرح فتوحات جديدة فى الخصائص البيولوجية للكائن، وفى قدراته على التكيف أو التوافق من أجل البقاء. وعلى المستوى النفسى هناك المحاكاة (على غرار النموذج)، محاكاة الفرد لنفسه فيتكرر من خلال ذلك نمط معين من أنماط الفعل، ومحاكاة الفرد لأفعال الغير فتنتشر بذلك سلوكيات بعينها بين أعداد متزايدة من الأفراد.

وهناك الإبداع (على غير مثال)، تتشكل من خلاله سلوكيات جديدة تطرح آفاقا جديدة للتوافق بين الفرد وسياقات حياته، وعلى المستوى الاجتماعى هناك الاقتداء بتوجيهات التلقين، والامتثال (بالتشكل) أمام محاولات التشكيل، وهناك فى مقابل ذلك أنواع الإبداع الاجتماعى التى تتبلور فيما يسمى بالتيارات أو الحركات الجديدة أو الثورات الاجتماعية الشاملة هذا ما تشهد به حواسنا، وتعيه عقولنا، وتوثقه علومنا الحديثة. وفى هذا الصدد تستوقفنا عدة أمور نستخلصها فيما يلى:

أولا: إن عمليتى المحاكاة والإبداع بجميع افصاحاتهما ضروريتان لبقاء الحياة.

ثانيا: إن عمليتى المحاكاة والإبداع تلتقيان فى نهاية المطاف فى خدمة عملية أكثر شمولا هى عملية تكيف الكائن الحى أو توافقه مع عوامل البيئة التى تحيط به. ولما كانت مكونات البيئة لاتكف عن التغير لأسباب لا دخل لرغبات الكائن الحى ولا لإرادته فى تنشيطها أو تعطيلها فقد أصبح حتما عليه تشغيل آليات المحاكاة والإبداع دائما لملاقاة متطلبات الحياة فى استقرارها وفى تغيراتها.

ثالثا: إن المحصلة المترتبة على ذلك تأتى محملة بدلالة واضحة ومحددة، مؤداها أن أى عرقلة جذرية لأى من عمليتى المحاكاة والإبداع من شأنها أن تصيب الحياة بقدر من التخريب قد يقضى عليها تماما.

رابعا: إن مايهمنا فى هذه الاستنتاجات، وفى المسلمة الأساسية القائمة وراءها بوجه خاص هو مايتعلق بالإنسان فى حياته كفرد وكمجتمع، وهذا ماسينصرف اليه حديثنا.

خامسا: ما نلاحظه من استقراء أحوالنا أن الغالبية منا يكونون على استعداد لأن يقبلوا هذا الكلام فى حدود البيولوجيا. ولكن عندما ننتقل بهذا الكلام لنوضح أنه ينطبق كذلك على سلوك أفراد البشر ينخفض حجم المتقبلين له انخفاضا ملحوظا، اذ يكتشف الآباء فى نفوسهم توجسا من إبداع الأبناء، والشىء نفسه يساور المربين أمام احتمالات ابداع التلاميذ، كما يقلق الرؤساء إزاء إبداع المرءوسين. فإذا تقدمنا بالقول نفسه لنعممه على مؤسسات المجتمع وعلى المجتمع فى جملته فإن حجم المتقبلين له (اقتناعا وارتضاء) يتضاءل بصورة خطيرة، فتصبح الكثرة الغالبة من أنصار المحاكاة (تحت شعارات ودعاوى لا آخر لها)، وتمسى فى الوقت نفسه من أشد المقاومين لمقتضيات الإبداع ضراوة على مستوى الفعل والفكر والوجدان. وانطلاقا من هذه النقطة الأخيرة (أى خامسا) سوف نكرس هذا المقال على وجه التحديد.

● التغير حقيقة مفروضة علينا ●

من حقائق الحياة التى لا حيلة لنا فيها أن مكونات البيئة لاتكف عن

حياتنا بين المحاكاة والإبداع

التغير لأسباب لا دخل لرغبة الكائن الحى ولا لإرادته فيها. ومن ثم كان عليه (لكى يتصل بقاؤه) أن يستمر فى تجديد مسعاه للتوافق معها، أى مع المكونات مدخلا فى حسابه ماطرأ عليه من تغيرات (وهو مانسميه الآن بالمستجدات). هنا يلزمنا أن ننظر عن كثب فى مفهوم التغير. ومن شأن هذا النظر أن يتيح لنا وضوح الرؤية وسلامة الحكم ومايترتب على الحكم من تفكير وتدبير، فى هذا الصدد ينبغى لنا أن نفرق بين أصناف متعددة من التغيرات. ويمكن اختزال هذه الأصناف فى نوعين رئيسيين: تغيرات محسوبة أى أننا نعرف توجهها الأساسى ومراحلها الكبرى (ويتحقق ذلك غالبا من كثرة ما ألفناها) وأخرى غير محسوبة (لأنها غالبا غير مألوفة).

وتزخر حياتنا بأمثلة لا حصر لها من التغيرات التى تنتمى الى كل من النوعين، فمن أهم الأمثلة على النوع الأول مايطرأ علينا وعلى أبنائنا من تغيرات فى مراحل العمر المختلفة (عضوية ونفسية ونفسية اجتماعية) ومايطرأ على مستوى نشاطنا يوميا خلال دورة الليل والنهار، ومايطرأ على الأجواء من تحولات فى ثنايا فصول السنة الأربعة .. الخ. أما الأمثلة على التغيرات غير المحسوبة فتضم الأحداث والتحولات التى تفاجئنا (الأحداث بوقوعها، والتحولات بمساراتها) من ذلك مثلا سقوط الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٩١، وزلزال اكتوبر سنة ١٩٩٢، ومنها كذلك ماشهدنا ونشهد من تحولات طرأت ولاتزال تطرأ على النظام الدولى، وتلك التى تتوالى على جوانب الحياة الاجتماعية فى مصر وخاصة خلال العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة.

وجدير بالذكر أن التداخل بين النوعين من التغيرات (المحسوبة وغير المحسوبة) أمر وارد، ولكننا لاندخل فى هذا المستوى من الحديث المفصل عن دقائق التغيرات المختلفة حتى لانزيد الصورة تعقيدا دون مبرر معقول، فما يهمنا فى المنظور الذى نقدمه هو أنه يقوم أمامنا باعتباره القاعدة العريضة التى يجب أن نوزع على أساسها جهودنا فى سبيل التوافق الذى ننشده سعيا إلى البقاء. فليس المفروض علينا هو التغير فحسب، ولكن المفروض هو أنواع من التغير. وفى محاولتنا التوافق

لابد وأن ندخل فى اعتبارنا تصنيف أنواع التغير هذه الى أنماط محسوبة وأخرى غير محسوبة، وأن نعطى لهذه الأنماط أوزانا أو درجات مختلفة على ماتتصور إنه مقياس يمتد بين كونها محسوبة وكونها غير محسوبة، وعلى هذا الأساس نتوجه فى تعاملنا معها، فكلما بدا التغير أمامنا محسوبا (أو مألوفا) اعتمدنا فى التعامل معه على آليات المحاكاة، وكلما بدا جديدا غير محسوب تحولنا الى استنهاض آليات الإبداع.

● الواقع والرؤية ●

والسؤال المطروح الآن هو هل نرى الواقع فعلا برؤية واقعية؟ هذا أحد الاسئلة الاستراتيجية التى يحسن بنا أن نثيرها من حين لآخر، وخاصة فى أوقات الأزمات الاجتماعية، والإجابة الأمينة عن هذا السؤال هى أن رؤيتنا للواقع يشوبها قصور شديد، ويمكن تلخيص هذا القصور فى عيبين رئيسيين أحدهما إننا نعجز فى معظم الاحيان عن إدراك التغير غير المحسوب (لأنه يتولد فى رحاب تغيرات محسوبة أو مألوفة) والعيب الثانى يتمثل فى أننا فى الأحيان القليلة التى نراه فيها فإننا ندركه على أنه مقطوع الصلة بما قبله، وبتعبير آخر يمكن القول بأننا أبعد مانكون عن التعامل مع التغير غير المحسوب، نحن نتعامل مع أحد بديلين: الاستمرار، فكل ماحولنا مستمر (على سبيل الثبات أو على سبيل التغير المحسوب)، وكل ما فى الأمر أن هناك لحظات أو نتوءات شاذة تطرأ على هذا الاستمرار (هكذا نرى وهكذا نقنع أنفسنا). والبديل الآخر هو الجدة التامة فهذه الظاهرة (أو هذه الأحداث) تفاجئنا وكأنها جاءت بلا مقدمات، أضرب مثلا لإصرارنا على التعامل مع مقولة الاستمرار بدءا من مرحلة ادراك المشكلة وانتهاء بمرحلة إصدار القرارات التى نتصور أنها ستحل المشكلة: تضخم مدينة القاهرة. فجميع القرارات التنفيذية التى تصدر بهدف الاسهام فى حل هذه المشكلة قرارات تغلب عليها النظرة الجزئية. وهو مايشير بكل وضوح الى أن الإدراك السائد هو أن هذه المشكلة مستمرة. أى أن التغير الذى تواجهنا به تغير مألوف، وكل ما فى الأمر أنه يزداد فى حجمه، كأن المسألة اضافة

حياتنا بين المحاكاة والإبداع

أجزاء فوق أجزاء. ومن ثم يكون التناول الذى نسميه التناول الجزئى، أو مانسميه أحيانا بالترقيع (وترقيع الثوب أن ترقعه فى مواضع) فهذا قرار لحل اختناقات المرور فى كذا وكذا من أحياء المدينة. وهذا قرار ثان للتخفيف من أزمة التليفونات فى هذا الحى أو ذاك، وقرار ثالث بإزالة العشوائيات من الجزء الفلانى، وقرار رابع بإنشاء مدينة سكنية جديدة على مقربة من القاهرة ثم قرار خامس وسادس. الخ.. ووراء هذه القرارات جميعا جذر ادراكى مشترك مؤداه أن الأمر فى حقيقته لايخرج عن كون شكاوى المواطن حول هذا الموضوع قد ازدادت عددا، كانت مائة شكوى فأصبحت ألفا أو مائة ألف. أما أن هذه الزيادة تخلقت معها جوانب جديدة للمشكلة وعلاقات جديدة بين هذه الجوانب بحيث أصبحنا (بمعنى ما) أمام مشكلة جديدة فى ابعادها الرئيسية وفى دلالاتها فهذا أمر غير وارد. وعلى ذلك فليس واردا أيضا ان ننظر الى هذه المشكلة على أنها تندرج تحت فئة التغيرات غير المحسوبة اى تلك التى تقضتينا مواجهتها اللجوء الى التفكير الابداعى للوصول الى حلول مبتكرة تكافىء ما فى المشكلة من تعقيدات غير مسبوقة. هذا مثال واضح الدلالة يعنى أن هناك انفصاما بين واقعنا وادراكنا هذا الواقع. وهو يكاد يتكرر (من حيث هيكله أو بنائه الأساسى) فيما يتعلق بجميع مضامين واقعنا الحى وما يثيره أمامنا من مشكلات. الواقع ليس جزئياته فحسب، لكنه الجزئيات منسوجة فى شبكة علاقات. وشبكة العلاقات هذه ليست ثابتة فى لحظة ولكنها متحولة وصائرة على الدوام من خلال عملية لاتتوقف ابداء وما لم ندرك شبكة العلاقات فى اطار التغير فلا قيمة لادراك الجزئيات هكذا مبعثرة من حولنا.

● مشكلات تنتظر الإبداع ●

سوف أكرس الجزء الباقى من هذا المقال لأعرض على القارىء نماذج لمشكلات تعترض مسيرة حياتنا الاجتماعية وستظل تعترضها وتصيبها فى حاضرها بما يشبه الشلل، وسوف تصيبها كذلك فى مستقبلها بالكثير من الخلل ما لم نصحح رؤيتنا إياها تصحيحا جذريا لنرى التغير ونتعامل معه كتغير لا كمجرد استمرار أو وجه

اخر للاستمرار، ومن ثم نصحح توجهنا في محاولات الحل التي نطرقها.

من بين مشكلاتنا الصارخة مشكلة تدهور العملية التعليمية تدهورا كاد يبلغ تمامه. ويتمثل ذلك في أداء الطلاب، والمعلمين، وفي أداء الأسرة للأدوار التي لابد لها من القيام بها مساندة لهذه العملية، وينسحب التدهور أيضا على الأدوات التعليمية وفي مقدمتها الكتاب، كما يمتد ليشمل المباني التي تحتوي هؤلاء جميعا. والجدير بالذكر أن هذا الوصف ومايطوي عليه أو يوحي به من أحكام يصدق على جميع مراحل التعليم لدينا بدءا من مرحلة الحضانة ورياض الأطفال الى مرحلة الجامعة والدراسات العليا الجامعية، وهناك أمثلة لا حصر لها على هذا التدهور المتكامل، ولكني اكتفي بذكر ما اعتبره لمحلت دالة، فجرائدنا تتحدث باسهاب عن الرسائل الجامعية المسروقة جزئيا أو كليا، وعن تستر بعض الاساتذة على أمرها وأمر سارقيها، أو اغماض العين عنهم، وكنا من قبل نعرف بأمر الرسائل التي تزيف فيها النتائج باسم البحث المعمل أو الميداني، وجرائدنا تتحدث كذلك عن رياض الأطفال والمدارس الابتدائية التي تدار لحساب تيارات سياسية لا علاقة لها بتوجهات المقررات التعليمية كما تضعها الدولة عن طريق خبرائها التربويين، بل وتعادي هذه التوجهات، وكلنا نعرف أن معظم المباني التعليمية لا تضم في رحابها المرافق التي لابد منها لكي يمارس الطلاب فيها مجموعة من النشاطات التربوية لابد منها لكي تكتمل مهمة المدرسة في تنشئة التلاميذ، ناهيك عن مئات المباني المدرسية التي تصدعت على أثر زلزال أكتوبر سنة ١٩٩٢ والتي لا نزال نقرأ عن تصدع المزيد منها بين الحين والحين، وكلنا نعرف بأمر الكتاب المدرسي الذي يجمع بين سوء الطباعة ورداءة الورق. ومساوىء التأليف، وهي عيوب تمتد لتلقي بظلالها على الكتاب الذي يقدم لطالب الجامعة، لكن هذا الكتاب الجامعي لايقتصر أمره عليها بل يضم كذلك مجموعة من العيوب ينفرد بها، أهونها تقديمه في صورة ملازم قد لاتكتمل لدى الطالب، وأسوأها أن تكون مادته مسروقة من مؤلفات زميل مصري أو أجنبي مما

يجعل أثر الكتاب على الطالب يتخطى مستوى تضاؤل الفائدة ليصل به إلى مرحلة الضرر الاخلاقى المحقق فاذا نظرنا الى الكتاب فى الجامعات على أنه رمز للخدمة المكتبية أثار هذا الرمز فى نفوسنا تداعيات حول هذه الخدمة نرى فيها نموذجا للكيفية التى تتخلق بها الكوارث الاكاديمية. ثم نأتى الى أداء أسرة التلميذ لخدمة المستقبل التعليمى لابنائها. فهل يذكر القراء ماطالعتنا الصحف به فى عدد من مواسم الامتحانات عن سلوكيات أهالى التلاميذ وهم يتحلقون حول اللجان التى يمتحن فيها أبناؤهم وكيف أنهم يحاولون مساعدة أبنائهم على الغش بطرق شتى يصل بها القبح الى مستوى تركيب مكبرات الصوت قريبا من لجان الامتحان وإذاعة الاجابات بواسطتها ليكتب التلاميذ مايملى عليهم من خلال هذه المكبرات. ومن أداء الأسرة الى أداء المعلمين ياقلبى لاتحزن، فقد أصيب مرفق التعليم بداء الدروس الخصوصية التى انتشرت فى جميع مراحله بما فى ذلك مرحلة التعليم الجامعى، سواء فى ذلك كليات القمة والسفح والقاع وفى التعليم الجامعى ادواء أخرى أصابت أداء أعضاء هيئة التدريس وأصابت صورتهم المترتبة على هذا الأداء فى نظر طلابهم بدءا من مستوى تمكن الكثرة منهم من الدراية بالعلم الذى يقدمونه (وهو ما تكشف عنه بحوثهم التى يتقدمون بها للترقى) الى مستوى سلوكياتهم ومضامين طموحاتهم التى يعرضونها عن قصد أو غير قصد أمام طلابهم. ثم نأتى إلى أداء الطلاب، وربما يذكر بعض القراء اننى كنت قد نشرت مقالا فى هذا الموضوع على صفحات هذه المجلة الوقورة، مجلة الهلال الغراء،، منذ حوالى سنتين (فى نوفمبر سنة ١٩٩٣) وذكرت فى هذا الصدد نسبا مئوية لأنواع بعينها من انحرافات الطلاب تصيب فى الصميم دورهم فى مسار العملية التعليمية، وكان من بين هذه الانحرافات الغش فى الامتحانات وإساءة السلوك فى قاعة الدرس بما يستدعى طردهم خارجها، والتطاول الخطير على اساتذتهم. وكانت المعدلات التى ذكرتها من واقع بحوث ميدانية رفيعة المستوى المنهجى أجريت سنة ١٩٨٧ تحت الرعاية الأدبية والمادية للمركز القومى

للبحوث الاجتماعية والجنائية. فهل يعرف القراء ماذا حدث بعد ذلك؟ أجرينا أنا وزملائى بحوثا ميدانية جديدة مماثلة سنة ١٩٩٢ لكى نتابع بعد خمس سنوات خط سير هذه الانحرافات بين تلاميذ المدارس الثانوية (البنين) وفيما يلى أقدم للقارىء بعض نتائجنا الموجزة والبليغة فى آن معا: معدل الغش كان ٤٢٪ فى سنة ٨٧، فأصبح ٥٢٪ فى بحث ٩٢، وسوء السلوك فى قاعة الدرس بدرجة تستتبع الطرد كان ٣٠٪ فصار ٣٧٪ والتطاول على المدرسين الى حد الاعتداء عليهم كان ١٣٪ فصار ٢٣٪ هذه لمحات من الانحرافات المؤذية مباشرة لأداء التلمذة الذى هو جزء لايتجزأ من العملية التعليمية كما تجرى فى مدارسنا الثانوية العامة، وقد توفر لدينا من المعلومات مايشير الى ان معدلات الانحرافات لمناظرة بين تلاميذ المدارس الثانوية الفنية (البنين) لاتقل عن نظائرها فى الثانوية العامة بل تزيد أحيانا. وخلاصة القول ان معدلات انحرافات التلاميذ المهدرة لجهود التعليم آخذة فى الزيادة.

هكذا تتجمع معالم الصورة المركبة لتدهور العملية التعليمية لدينا، لتبرز امامنا الاسهامات الخطيرة لكل مكون من مكوناتها البشرية والمادية. وغنى عن البيان ان كل ملمح من ملامح الصورة كما أوردتها ليس سوى اشارة شديدة الايجاز تقوم من ورائها اقدار من الحقائق اقل ماتوصف به انها فاجعة، ولايعنى ذلك إنكار ان محاولات كثيرة بذلت فى السنوات الاخيرة لتحسين هذه الصورة، وغنى عن البيان كذلك ان كلاما كثيرا يكتب وينشر علينا فى هذا الصدد، لكن هذا الكلام وتلك المحاولات فى واد والصورة نفسها فى واد، هنا فى هذا المقال مشهد واضح لنوع بعينه من المشكلات لن تجدى فى التغلب عليه اية حلول تقليدية. ولابد اذن من اعادة النظر فى رؤيتنا نفسها ابتغاء تصحيحها، ومن ثم يمكننا أن نصحح توجهنا الاساسى فى التفكير فى الحل لنسقط من حسابنا الاساليب التقليدية ونبدأ السير جادين فى الطريق الى الحلول الابداعية.

ومع ذلك فمشكلة التعليم كما قلت فى بداية هذا الجزء من الحديث ليست سوى مثال واحد لفئة بكاملها من

المشكلات التى تعترض مسيرة حياتنا الاجتماعية وستظل تعترضها وتشل إمكاناتها فى الحاضر والمستقبل لأنها تستعصى على الحلول التقليدية. فإذا أردنا أن نتذاكر معا أمثلة أخرى تقع تحت الفئة نفسها فلنذكر فى هذا الصدد مشكلة تضخم بعض المدن لدينا وفى مقدمتها مدينة القاهرة، وهو ما أشرت اليه فى بدء حديثى، ومشكلة تلوث البيئة من حولنا، ومشكلة تلوث مياه النيل بوجه خاص، ومشكلة تعرض المواطنين لآثار ثورة الاعلام والاتصالات وماينجم وماسينجم عن ذلك من تغيرات فى سلوكياتهم وطموحاتهم، ومسألة الهجرة الصريحة والمقنعة الى خارج الوطن.. إلخ. وغيرها . وغيرها .. مشكلات ستظل تسد أمامنا المنافذ الى الحياة الكريمة ما لم نتناولها بالحلول الابتكارية.

وأخيرا

أرجو ألا يساء فهم مقصدى من هذا الحديث، فهذه المشكلات التى أتيت على ذكرها، وتلك التى تحدثت عنها بقدر من التفصيل ليست من صنع حكومة بعينها، ولا من سوء أداء حاكم بشخصه، هذه مشكلات اسهمنا جميعنا فيها بأنصبة متفاوتة كل على قدر موقعه ومسئولياته وقد اسهمنا فيها نشوءا وتراكما وتعقدا، وجاء اسهامنا كأفراد وجماعات وأجيال. ومن ثم فلا معنى للخروج من هذا المقال بتساؤل أو اتهام حول المسئول عن هذا الوضع الذى لا نحسد عليه ولكن المعنى كل المعنى انما يكمن فى الكشف عن الجذر المشترك وراء جنبات هذه الصورة، وهو أن حلولنا فى معظم الأحوال حلول تقليدية، مع أن كثيرا من المشكلات التى نواجهها تكاد أن تكون جديدة كل الجدة، ثم انها تسرع الخطى نحو مزيد من التعقيد فى انسجتها واجنحتها. ولاسبيل الى اللحاق بها ما لم نتمكن من اتقان مهارات الابتكار، وهو الأمر الذى مازلنا نتعثر بدونه، وهذا بالضبط هو التحدى الذى قصدت ان ابرزه فى هذا المقال، ومن ثم يصبح السؤال الذى يلزمنا الخروج اليه فى هذا الموضع، هو: ولماذا لا نفكر ابداعيا؟ ماذا يعوقنا عن التفكير الابداعى؟ هذا هو ما أرجو أن أعالجه فى مقال تال.

أقوال معاصرة

● «المتوسط محيط الماضى، والأطلس محيط الحاضر والهادى محيط المستقبل!».

جيمس بيكر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «المقياس الحقيقى لوجود حياة ثقافية حقيقية هو مشاركة جمهور المتعلمين».

الدكتور شكرى عياد

● «الختان عملية غير إنسانية، أطالب باصدار قانون يجرمها!!».

الدكتور محمد فياض
أستاذ أمراض النساء والولادة

● «الثورة الديموقراطية الكونية لايمكن تجاهلها من جانب بعض قادة حركة عدم الانحياز».

ناراسيما راو
رئيس وزراء الهند

● «انتظر نهاية السينما متفائلا».

جان لوك جودار
المخرج ورائد الموجة الجديدة الفرنسية

● «كنت ، ومازلت، وسأظل مدمنا للمخدرات!!».

دييجو مارادونا
لاعب الكرة الأرجنتينى

● «التراث الوطنى لايعدو أن يكون مفهوما مجردا، إن لم يكن المال اللازم لحمايته متوافرا».

أبو بكر دياتى
مسئول عن الشئون الثقافية فى جمهورية مالى

● «في وسع الكلمات والعيون أن تكون مثيرة، دونما حاجة إلى تعرية الأجسام».

الممثلة الأمريكية ميج رايان

● «أستطيع أن أمثل دور كاميلا باركر عشيقة الأمير شارلز، لأننى استطيع بسهولة أن أجعل وجهى يبدو قبيحا».

الممثلة الإنجليزية جوان كولنز

● «الأضواء والفلاشات والألوان المنبعثة من التليفزيون تؤثر سلبا على الأطفال».

الدكتورة سالى ورد
أخصائية الطب النفسى بمدينة مانشستر



جيمس بيكر



د .شكرى عياد



مارادونا

هموم تعليمية

بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

□ تثقل صدرى هموم تعليمية عديدة، بعضها حديث والبعض الآخر قديم فى نظامنا التعليمى. وقد فكرت أخيرا أننى إذ أكتب عنها للقارىء وأسأله المشاركة فى التفكير فيها والبحث عن الحلول لها، فربما يخفف عنى هذا بعض ما أحسه من ضيق وهم بسبب هذه الأوضاع فى نظمنا التعليمية.

وسوف أقتصر فى هذا المقال على ثلاثة هموم حديثة مؤجلا الحديث عن الهموم الأخرى القديمة إلى مناسبة أخرى.

وأول هم أتحدث عنه هنا هو ماجرى فى امتحان الثانوية العامة هذا العام، والقضايا التى رفعها المئات من الطلبة أو أولياء أمورهم أمام مجلس الدولة طاعنين فى نتيجة امتحان الثانوية العامة الخاصة بهم. ومجلس الدولة عندما يبحث هذه القضايا فإنه لايتعرض لتقييم الإجابات المكتوبة على ورقة الإجابة وإنما ينحصر فحصه فى التأكد من صحة مجموع الدرجات فى كل سؤال وفى ورقة الإجابة كلها، ثم بحث ما إذا كان هناك سؤال أو جزء من سؤال لم يجر تصحيحه أصلا. والمسألة لاتقارن بماحدث فى سنوات ماضية من طعون أمام



مجلس الدولة كانت بالآحاد وقد جرى رفضها من المجلس فى معظم الحالات، أما هذا العام فقد قدرت بعض الصحف القومية حالات الطعن أمام مجلس الدولة بأكثر من ألف حالة، وقدرتها صحف أخرى بأربعة آلاف حالة، فى عموم القطر.

واللافت للنظر أن مجلس الدولة قد أنصف الطلاب فى معظم الحالات إذ تبين له أن جمع الدرجات فى حالات عديدة كان خاطئا وأن هناك أسئلة أو أجزاء من أسئلة لم يجر تصحيحها أصلا..! وكانت نتيجة أحكام مجلس الدولة أن نجح طلبة كانوا راسبين وفق إعلان الوزارة، وأن أضيفت درجات إلى مجموع درجات بعض الطلاب وصلت إلى عشرين درجة فى بعض الحالات، الأمر الذى يسمح لبعض هؤلاء الطلاب بالالتحاق بكليات لم يكن مجموعهم الذى أعلنته الوزارة يسمح به.

إن هذا الوضع المحزن يرقى إلى مستوى الفضيحة، وهو يهز ثقة مصر والوطن العربى فى الثانوية العامة المصرية التى بقيت سمعتها طوال السنين الماضية فوق مستوى الشبهات، ولابد أن يتحمل مسئول ما فى وزارة التعليم مسئولية هذا الذى جرى.

والسؤال المرتبط بهذا هو: كيف جرى هذا؟.

إشراف الجامعة على الامتحانات

فى الماضى كان هناك إشراف من الجامعة على امتحان الثانوية العامة، وكان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد وزير التعليم العالى السابق رئيسا للجنة امتحان الثانوية العامة سنين طويلة، ثم خلفه فى هذه المهمة الأستاذ الدكتور محمد النادى أستاذ الفيزياء النووية بجامعة القاهرة والعالم المصرى المرموق، لكن شيئا ما حدث فأعاد الإشراف على امتحان الثانوية العامة إلى أحد وكلاء الوزارة، وانقطعت صلة الجامعة بالموضوع. ولابد من أن نقول إنصافا ان أعداد المتقدمين إلى الامتحان هذا العام هو ضعف الأعداد التى كانت تتقدم فى الأعوام الماضية، ولكن لابد من الإشارة أيضا إلى أن نظام الثانوية العامة الجديد



كان له أثره على امتحان هذا العام، رغم أن هذا الامتحان هو وفق النظام القديم. وتفسير ذلك بسيط، إذ أصبح هناك لأول مرة امتحانان عامان في مايو، وامتحانان عامان فى أغسطس، وبالتالى كان لابد من استعجال إعلان النتائج حتى يستعد الراغبون فى دخول دور أغسطس ويجدون الوقت لذلك. ومن هنا جرى الاستعجال فى التصحيح والاستعجال فى المراجعة الأمر الذى ارتفع أحيانا إلى مستوى الإهمال. والدليل على هذا أن نتيجة الثانوية العامة هذا العام أعلنت فى النصف الأول من يوليو، بينما جرت العادة قبل ذلك على إعلانها فى أواخر شهر يوليو، بعد الاحتفال بذكرى الثورة فى ٢٣ يوليو.

كيف يمكن تدارك هذا الوضع حتى لايتكرر؟

محاسبة المسئولين

أعتقد أن من أوائل الضروريات محاسبة المسئولين بالوزارة عن امتحان الثانوية العامة، تماما كما فعلت الدولة عندما عزلت رئيس مصلحة السكك الحديدية بعد أحداث تصادم القطارات المتلاحقة فى الأشهر الأخيرة، فما جرى فى الثانوية العامة هذا العام لايقل خطورة عن حوادث القطارات. وربما يكون من المفيد إعادة بحث تكليف الجامعة بالإشراف على امتحان الثانوية العامة من جديد، أقول ربما وإن كنت لا أدرى هل تجاوزت الظروف هذا النوع من الحلول.

●●●

أما الهم الثانى فيتعلق بموضوع مناهج الرياضيات فى الثانوية العامة الجديدة. ولقد كتبت فى أعداد سابقة من «الهلال» عن كتابين صدرا فى الغرب حديثا يتعلقان بقضية تعليم الرياضيات والعلوم فى المرحلة قبل الجامعية كأحد العناصر الضرورية فى تحقيق تنمية اقتصادية ناجحة، أما الكتاب الأول فهو كتاب «رأسا برأس: اليابان وأوربا وأمريكا» لمؤلفه الكاتب الأمريكى ليستر ثرو، وفيه ينعى المؤلف كيف أن بلاده مهددة بالتخلف وراء اليابان وأوربا فى القرن الواحد والعشرين لأسباب عديدة شرحها من بينها تخلف تعليم الرياضيات والعلوم فى مراحل التعليم العام على الرغم من تفوق العديد من جامعات الولايات المتحدة، وإشارة المؤلف هنا إلى القصور فى أمريكا فى توفير الكوادر الوسطى فى عملية الإنتاج والمؤهلين تأهيلا جيدا بسبب ضعف إعداد التلاميذ فى مرحلة ماقبل الجامعة من ناحية الرياضيات والعلوم عموما.

أما الكتاب الثانى فقد صدر منذ نحو عام للكاتب الفرنسى ميشيل ألبير وعنوانه «رأسمالية ضد رأسمالية»، وفيه يقارن المؤلف بين الرأسمالية الأمريكية والرأسمالية الأوربية «الألمانية خصوصا» ويبرز كيف أن ألمانيا متفوقة على أمريكا فى مسألة تأهيل الكوادر

الوسطى تأهيلا جيدا من ناحية الرياضيات والعلوم، والمقصود بالكوادر الوسطى فى عملية الانتاج هؤلاء الذين يعملون كفنيين فى المصانع إثر حصولهم على الثانوية العامة أو مايعادلها ولايذهبون عادة إلى الجامعة.

● وضع شاذ!

والآن نعود إلى وضع الرياضيات فى الثانوية العامة المصرية الجديدة. هناك مقرران للرياضيات : الأول فى السنة الثانية الثانوية ويحتوى على أولويات أساسية فى الرياضيات مثل حساب اللوغاريتمات، وتعريف الدوال، وحساب المثلثات.... إلخ، والمقرر الثانى فى السنة الثالثة الثانوية وهو بالطبع أكثر تعقيدا.. ووجه الغرابة فى النظام الجديد أن الطالب يستطيع أن يختار المقرر الثانى «فى السنة الثالثة» دون أن يكون قد درس المقرر الأول فى السنة الثانية، مع أن الكثير مما يُدرس فى المقرر الأول لازم لفهم المقرر الثانى، ولا أدرى من الذى استطاع أن يقنع الوزارة بقبول هذا الوضع الشاذ؟!

ليس هذا فحسب بل إننى أزعم أن كل طالب فى كلية جامعية غير أدبية سواء أكانت كلية العلوم أو الزراعة أو الطب.. الخ فى حاجة إلى أن يكون قد درس المقرر الأول فى المرحلة الثانوية لأنه سيفيده كثيرا فى مقررات كثيرة يدرسها بالجامعة.

والأكثر من هذا أن درجة الرياضيات فى الثانوية العامة الجديدة قد هبطت من ١٢٠ فى النظام القديم إلى ٦٠ درجة الآن. وكل هذا لايدل على أن وزارة التعليم تعطى موضوع الرياضيات مايستحقه من عناية واهتمام. ولا أدرى لماذا هذا الموقف؟ هل بسبب الخوف من موضوع الدروس الخصوصية؟ إن كان هذا التخمين صحيحا فإننى أحيل المسئولين إلى أوائل الثانوية العامة هذا العام الذين أقروا فى التليفزيون جميعا وبدون استثناء أنهم كانوا يتعاطون الدروس الخصوصية طوال العام! فحل موضوع الدروس الخصوصية يحتاج إلى أسباب وقرائن ودواع أخرى للقضاء عليها.

ولقد حاولنا فى «جمعية الرياضيات المصرية» التى أنشئت منذ سنوات قليلة الإعداد لندوة لمناقشة هذا الموضوع، واتفقنا على دعوة بعض مدرسى وموجهى المرحلة الثانوية للاشتراك فى الندوة، واتفق على موعد الندوة ومكانها فى دار الضيافة بجامعة عين شمس ثم فوجئنا بطلب تأجيلها بناء على رغبة بعض المسئولين فى وزارة التعليم!

●●●

والهم الثالث التعليمى الذى أريد أن أتناوله هنا لا يتعلق بالتعليم العام وإنما يتعلق بالتعليم الجامعى وماحدث فى بعض الكليات فى جامعتى القاهرة وعين شمس من تدريس المقررات باللغات الأجنبية بدلا من اللغة العربية كما كان الحال طوال السنين منذ إنشاء هذه

الكليات. وأنا أشير إلى كليات التجارة فى جامعات عين شمس والقاهرة وحلوان التى افتتحت أقساما للتدريس باللغة الانجليزية أو الفرنسية، ويحصل من طلاب هذه المجموعات مصاريف باهظة للالتحاق بهذه الأقسام، بل يتنافس الطلاب وأولياء أمورهم على دخول هذه المجموعات وبذل الوساطات من أجل ذلك لأنهم يعتقدون أن هذا سوف يؤهل أبناءهم للعمل فى البنوك والسياحة.... إلخ.

● متاهة تعليمية جديدة

وجه الكارثة هنا أن العديد من طلابنا الجامعيين لايجيدون كتابة خطاب باللغة العربية، فإذا بنا ندخل بهم إلى متاهة محاولة إجادة لغة أجنبية دون أن يكونوا قد أجادوا لغتهم القومية.. وأين؟ فى كليات ظلت طوال عمرها تدرس باللغة العربية ككليات التجارة.

أفهم أن ندعم تدريس اللغات الأجنبية بالجامعة عن طريق زيادة ساعاتها، لكن هذا شىء آخر غير تدريس مقررات كلية التجارة باللغة الفرنسية أو الانجليزية، والنتيجة العملية التى سوف ننتهى إليها هى أننا سنخلق داخل الجامعة الواحدة والكلية الواحدة صنفين من الطلاب.. أبناء القادرين على دفع مصاريف هذه المقررات «وتصل إلى مئات الجنيهات» وأبناء غير القادرين الذين يدرسون باللغة العربية، أى أننا سادرون فى هذا الازدواج الذى جرى منذ الانفتاح، رغيف للأثرياء وآخر للفقراء، تعليم للأغنياء فى المدارس الخاصة وتعليم للفقراء فى المدارس المكتظة، لغات أجنبية للقادرين واللغة العربية لغير القادرين.... وهكذا.

● تعريب المقررات أولى

والغريب أنه بينما تثبت دراسات جامعة الأمم المتحدة فى طوكيو أن تعليم التكنولوجيا باللغة القومية هو أحد عناصر النجاح فى زرع التكنولوجيا فى مجتمع ما، وبينما يدرس الصينيون واليابانيون والروس والألمان والفرنسيون.... إلخ فى جامعاتهم بلغتهم القومية، نأتى نحن فى آخر الزمان ندرس المقررات فى كليات التجارة باللغات الأجنبية بدلا من أن ينصرف جهدنا إلى التركيز على تعريب المقررات فى كليات الطب وفى كلية العلوم «السنة الثالثة والرابعة التى لاتزال منذ كنت طالبا عام ١٩٤٠ إلى اليوم تدرس باللغة الانجليزية» فإذا بنا نجد عمداءنا يتسابقون فى إدخال هذه المقررات باللغة الأجنبية «لأنها توفر للكلية دخلا ماليا جيدا» ونجد الموضوع يزحف من كلية التجارة إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، حيث تحولت السفارات الأجنبية فى بلادنا إلى مورد للأساتذة الذين يفدون من لندن أو باريس لإفادتنا عن أفضل الطرق لتدريس هذه المواد بلغتهم لا بلغتنا.

وهكذا أصبحنا غرباء فى بلادنا، وعدنا من جديد إلى الغزو الأجنبى لجامعاتنا دون سبب واحد معقول.

فمتى يتدخل المسئولون فى التعليم لوضع حد لهذه المهزلة؟ □

الفدائى

شعر : بدر توفيق

باسم من :
كل هذى الحياة التى دمدمت في إهابك،
حين طوقت بالديناميت ذراعيك،
ساقيك ، خصرك ، صدرك ، ظهرك ،
وانفجرت بأعوامك العشرين،
فتلاشيت من هيئة البشر الفانين ،
وصعدت السماء كعاصفة من حمم اليقين ،
لترد الأيادى الي زرعها،
والغصون الي جذعها ،
والعيون الي دمعها .

●●

يالهذا السحر وهذا العطر !
لكأنك بركان ماء تفجر في الصخر ،
بعد سم الصبر وكى القهر،
أيها الزمزمىّ الذى شق صحراء نا ،
فروانا وهشم أغلالنا !
أى أم سقتك وأى أب سلحك ،
فغدوت السياق الأصيل ،
وازدهرت على أفق الروح قوسا من الزهر ،
وندى من رحيق الفجر،
وتجاوزت في سرعة الضوء أفكارنا ،
واشتعلت لتدفئنا وتطهر بالنار أعضاء نا ،
وتعيد اللون لأسمائنا ،
بينما نحن منكمشون ، ومرتعشون،
فى ضلوع العمر ،
ورقاب السنين !

القفز على الأشواك

بقلم: د. شكرى محمد عياد

زمن الغربة

□ظهرت فكرة «الاغتراب» في الانتاج الأدبي العربي ، على اختلاف فنونه وأفكاره ، بصورة واضحة منذ الستينيات . ولاشك أن سيطرة الفكر الوجودى على الثقافة العالمية بعد الحرب العالمية الثانية ، منافسا للاتجاه الماركسى ومتفاعلا معه أحيانا، كان لها بعض التأثير لدى عدد غير قليل من أدبائنا، ولكننا نخطىء إذا حسبنا الأمر مجرد «غزو ثقافى» أو مجاراة لبدعة سائدة . إنما تبدو لنا المسألة فى هذا الضوء الخادع عندما نعالجها بطريقة المقارنة الحرفية بين انتاجنا الأدبى والانتاج المعاصر له ، أو السابق عليه قليلا فى الأدب العالمى، وعندما يتدخل النقاد الأكاديميون - على وجه الخصوص - مسلحين ببعض المفاهيم المستمدة من الثقافة الغربية، ليطبقوها بحذافيرها على الأعمال التى يتوسمون فيها مشابهة لهذا الاتجاه أو ذاك ، والنتيجة - غالبا - هى الحكم بأن هذه الأعمال ليست إلا محاكاة - إن لم تكن سرقة - لعمل معين صدر فى الغرب ، ويصاحب هذا الحكم عادة حكم آخر بأن هذا الأديب المحاكى أو الناقل لم يحسن فهم العمل الأصلى . وكأننا يجب أن نفترض بداهة أننا لسنا إلا مقلدين أو ناقلين.

وإذا نظرنا إلى موضوع الغربة بالذات، وهو من الموضوعات التى أدخلها كثير من الباحثين تحت مفهـــوم «الاغتــــراب» الوجودى، وجدنا أن غربة المثقف العربى واقع يعيشه يوميا ، بل إنه قد يعيش معظم حياته «مغتربا» بالفعل ، أى بالمعنى المادى، دون اختيار منه ، ومن المشكوك فيه كثيرا أن يكون هناك بعض «المستغربين» الذين اندمجوا ، قلبا وقالبا ، فى الثقافة الغربية . إنما الواقع أن أقطارنا العربية شهدت فى النصف الثانى من هذا القرن تحولات مهمة أوقعت المثقف، دون قصد وأحيانا دون وعى ، فى مأزق الاغتراب ، لا شك أن منها ظاهرة الانتشار الثقافى التى أصبحت سمة من سمات العصر ، ومنها أيضا اتساع الفجوة – وقد يكون المثقف نفسه مسئولا عن ذلك الى حد ما – بين الطبقات المثقفة وعامة الشعب ، ولكن أهمها – كما يبدو – سيطرة الاتجاه القومى أو الوطنى على الفكر الرسمى ، وفرض الواحد أو الآخر على المثقفين بأساليب التجويع أحيانا والقمع السافر ، الذى يصل إلى حد التعذيب النفسى والبدنى أحيانا أخرى .

إن ناجى العبد الله، بطل رواية «مرايا النار» لحيدر حيدر (١٩٩٢ – ولعلها أحدث أعماله المنشورة) يحلم بالسفر ليتم دراسته فى السربون ، هذا الحلم الذى لم يكن يعنى لدى الأجيال السابقة أكثر من الشوق الغريزى إلى الترحال ورؤية العالم، إلى جانب رغبة حقيقية وجادة فى أخذ العلم من منابعه ، يبدو لدى والده المحافظ محفوفا بالخطر ، خطر فقدان هويته العربية الإسلامية . والشيخ له عذره ، فكثير من المثقفين أصبحوا يشاطرونه هذه النظرة – ألم يصف لنا يحيى حقى – فى عمل كان بدون شك أقوى أعماله تأثيرا فى الأجيال التالية ، أعنى «قنديل أم هاشم» كيف كاد الطبيب «إسماعيل» ينسلخ حقا من عقيدة قومه ، لولا أن زلزالا عاتيا – لا ندرى إن كان قد خسفه أرضا أو قذف به – عاليا – أعاده إلى «حظيرة الإيمان» بكل ما اختلطت به من خرافات ؟

ولكن «ناجى العبد الله» ، على كل حال، لا يذهب إلى السربون ، بل يجد نفسه – فجأة وحيدا وهاربا . إن حربا شرسة مجنونة حسمت الخلاف بينه وبين أبيه المتدين ، وحبيبته المتعلقة بمثل القومية والوطنية ، أما الحبيبة فقد اغتصبها الجنود ثم قتلوها وألقوا جثتها فى النهر ،

وأما الأب فقد قتل مع جميع أفراد أسرته حين هاجم السفاحون مسكنهم الآمن بالقنابل ، ولم ينج إلا ناجى (لعل اختيار الاسم ذو معنى) قذفه الانفجار إلى منور البيت فبقى فيه مختبئا مثل الفأر .

ياللسخرية ! لم يكن «الغرب» الذى ذهب إليه ناجى منارة علم أو حرية ، بل كان مدينة عربية أخرى ، مدينة صغيرة على شاطئ الأطلسى ، ومع ذلك فقد كان فيها «غريبا» أيضا ، بل كان فيها أشد اغترابا مما لو نزل ببلاد الأجانب ، فهذا المجتمع التقليدى الضيق ينظر بشك يقرب من الاتهام إلى كل من يأتيهم من الشرق «العربى» أيضا وخصوصا إذا كان مثل «ناجى» مجهول الهوية ، مجهول التاريخ ، مجهول الغرض ، وإن ادعى ، بين وقت وآخر ، أنه ينزل إلى العاصمة بحثا عن عمل ، لعل هذه النظرة العدائية نحو الغريب هى التى ساقته إلى أسرة مغتربة، قادمة من مدينة «مغتربة» أيضا - إلى جانب الحاجة المادية للأسرة ، فيشغل حجرة صغيرة فى مسكنها الصغير ، ومع أن الأجرة التى سيدفعها لابد أن تكون صغيرة كذلك ، فهى تسد جانبا من احتياجات هذه الأسرة التى تعيش على عمل الزوجة بماكينة الخياطة ، والمعونات التى يرسلها أخو الزوج المقيم فى أسبانيا .

● هاربة من موطنها!

وليست الأسرة التى نزل بها ناجى العبد الله شبيهة له فى الغربة فقط ، بل هى مثله هاربة أيضا ، هاربة من موطنها الأصلى «مليلية» تلك المدينة التى لا يزال الاسبان يتمسكون بالسيادة عليها مع أنها جزء من التراب المغربى ، فأهلها «مغتربون» ، جملة وتفصيلا ، بالنسبة لأسبانيا وللمغرب على حد سواء . أما السر فى هرب هذه الأسرة من موطنها ففضيحة عائلية ، فشقيق الزوج الأصغر - وكلاهما أيضا ابن عم للزوجة - قد افتض بكارة الزوجة وهى بنت خمس عشرة سنة، ممنيا إياها بالزواج ، ثم تركها وهاجر الى أسبانيا ، حيث أتم تعليمه وتزوج وأنجب (الصورة «الناجحة» للمغترب الذى يصبح مندمجا). ويظهر أن الحبيبة الصغيرة المعذورة أخذت تتسلى عن غياب حبيبها الغادر بمعرفة رجال آخرين ، وفى الوقت نفسه كان ثمة جنين آخر يعلن عن قدومه ،

فكان الحل الموفق السعيد أن يتزوجها ابن العم الآخر ، شقيق زوجها والذى كان يكبرها بعشرين سنة ، وأن يتركا موطنهما الأصلى إلى هذه المدينة الصغيرة ، وغبار الزمن كفيل بستر الفضيحة – المأساة .

هكذا قايضت الزوجة بأنوثتها الحارة «تضحية» الزوج الذى قبل أن يلغ فى طبق سبق أن تذوقه أخوه ، وجاءت ثمرة الحب الأول طفلة لم تكن تعرف عمها إلا على أنه أبوها ، إلى هنا لم تكن ثمة مشكلة كبيرة، مقايضة مقبولة ، وتغاض متبادل ، يمكن أن يحصنهما التناسى فالنسيان ليكون الناتج أسرة «سعيدة» أو على الأقل راضية أو مستسلمة ولكن الزوج يصاب فى حادث سيارة ، وينجو بنصفه الأعلى الذى لا يزال يجيد حساب الدخل والمنصرف ، أما نصفه الأسفل فقد أصبح مشلولا ، وزوجته عارمة الأنوثة ، عارمة الفتوة – لم يستطع أن يعارض فى قدوم «المستأجر» الغريب ، وود لو استطاع، ولكنه فقد سيطرته على البيت منذ أصبح قعيد كرسى متحرك ، أصبحت الصفقة خاسرة بالنسبة إلى الزوجة ، ولم يعد فى وضع يسمح له بها فعلا حين تضطره الظروف الى ذلك: ورقة التقاليد التى تسمح بقهر الزوجة مهما تكن الأحوال

ليست دميانة – زوجته – ليدى تشاترلى أخرى ، المسكن ضيق وكل شئ ظاهر ، لا يمكنه تجاهله ، بل أن خياله ليسبق الحقيقة ، فالحقيقة هى أن الغريب الطارئ كان يحلم بامرأة المدينة البعيدة ، الساحرة المشتهاة ، كما أن الزوجة الأسيرة كانت تحلم بالرجل الغامض ، القوى، الملئ بالأسرار ، ولكنهما حين التقيا كان الرجل الذى هرب من مذبحه ، واختبأ فى منور ، مثل فأر ، مسكونا باحساس العار ، وجنون الثأر ، ملتحفا بحياده الظاهرى ، وإن كان داخله يغلى ، وكان عليها أن تتصدى ، وتراوغ ، وتنسج حبائلها بصبر ، كالعنكبوت ، حتى تسلمه الصدفة المحضة إلى الموت اللذيذ فى كهف أنوثتها .

هذه هى القصة . وأنت لا يمكنك أن تقتل رواية، مما تكن عظيمة، بأحسن من تلخيص قصتها. سوف تتذكر ولاشك قصصنا كثيرة مشابهة لعلك تتذكر همفرى بوجارت فى كازابلانكا. ولكن ماذا يمكن أن يصنع كاتب بمثل هذه القصة وليس فى يده إلا ورقة وقلم ، أين هو من فتاكة همفرى بوجارت أو دلال ريتا هيوارث؟

الكاتب وحيد مع عمله هذا يعنى أيضا أنه السيد الوحيد لهذا العمل ، أنه يملك الفكرة ولايسمح لأحد بأن يشوشها عليه، ويملك أدواته فهو يوظفها لخدمة الفكرة. وهو بعد أن يعطيك النص يترك لك المسرح لتملأه أنت بنفسك بخيالك أليست هذه متعة لا تقل عن متعة المشاهدة؟.

وحيدر حيدر يعدك بهذه المتعة من أول أربعة أسطر:

«بداية، لنقل إنها حكاية غريبة، حدثت لرجل غريب فى مدينة غريبة ليست موجودة على الخريطة. أو هى حكاية مسلية لرجل يسافر وحيدا فى قطار، رجل يستعيد وقائع الزمن على شكل دوائر فى سهب فسيح ، كما طائر يعبر فضاء.».

سر هذه التسلية، أو أحد أسرارها، أن الكاتب ينقلك من السؤال الساذج ؛ وماذا بعد ؟ إلى سؤال آخر أكثر ذكاء كيف كان ذلك؟ فالرواية مقسمة إلى «أزمنة» لا إلى «فصول» «زمن الحكاية» ، «زمن الورد» ، «زمن العار» ، «زمن الهروب» ، «زمن الغيرة» .. وستعرف مجمل القصة من الزمن الأول، هذا الذى يدعى أنه ما كتب إلا ليسليك. ولكن السؤال كيف؟ سيظل يتكرر خارجا على إطار «المعرفة» ، معرفة الحدث، إلى إطار «الفهم».

بينما يفتنك الكاتب كلما لوح بقصة المرأة الغريبة والرجل الغريب فى البلد الغريب ، سيلقى فى ذهنك بذور أسئلة كثيرة تبحث لها عن جواب، إن لم تجده فى «زمن الحكاية» ، فقد تجده في زمن تال سيئول لك مثلا:

المرأة الغريبة فى المدينة الغريبة تلك التى تحلم بالغريب المعرى من الاسلاك والفخاخ والماضى الموحل ، والرجل الباحث في ارشيف الظلمة عن امرأة الزمان المشع.

إنها هنا ، تخفق كالطائر الخطاف فى سماء بلون البحار وصفائها . المرأة الملعونة، هدية الرجل الملعون فى زمن العواصف والاضطراب .في الزمن الراوئى (ص ص ١١– ١٢)

● إمرأة ملعونة

لعلك ، رغم هذه الفتنة الغامضة ، تتساءل : لماذا؟ أو كيف؟ لماذا كانت «امرأة الزمان المشع» التي تخفق كطائر الخطاف هذا (إن كنت لا تعرفه مثلى فتكفيك خطفة اسمه) فى سماء بلون البحار وصفائها، هى فى الوقت نفسه امرأة ملعونة؟.

سنقرأ ونقرأ، ونظل نتساءل ونتساءل ، ولن يجيبك الكاتب، بل سيضاعف من حيرتك، سيصفها مرة بأنها امرأة مريضة استوطنها فيروس لعين لايسمعه، ولكنك تخمن أنه فيروس الشبق الأنثوى. وسيصفها مرة أخرى بأنها قديسة. سيترك لك الفصل فى القضية، ولكنه سيضع بين يديك حيثيات الدفاع، فهو ليس كاتبا محايدا (أين هو الكاتب المحايد؟) ولكنه أيضا ليس متورطا ، إن كان له موقف فهو موقف الرثاء لقدر الانسان، الانسان مطلقا، والانسان فى هذا العصر بالذات ، وإنسان هذا العصر العربى بوجه أخص.

لست ادرى هل تألف الفن الحديث أو لا تألفه . هل تعلمت أن تفك شفرة الرواية الحديثة أو تريد أن تتعلمها. أوافقك على أنك يجب أن تقتنع أولا بضرورة هذه الشفرة لبعض الكتاب، أو لبعض الموضوعات على الأقل.

وحين يعرض عليك كاتب روائى قضية ملتبسة كهذه، يجد نفسه مضطرا لأن يستلهم الفن الحديث، أو يستخدم شفرة الرواية الجديدة. فإلى وقت غير بعيد ، لم تكن قضايا الوجود الانسانى ملتبسة كما هى اليوم. لقد تخلى كتاب الرواية أو معظمهم، منذ أوائل هذا القرن ، عن أسلوب «الراوى العليم بكل شئ» وهو أسلوب مستمد من كتاب التاريخ، أو كتاب التاريخ القدماء بالذات ، كتاب الحوليات وما يشبهها. أسلوب يفترض ضمنا أنه سمع الخبر من مصادر موثوقة ، ولذلك فإن الحادثة، بتسلسلها الزمنى ، هى التى تنظم عقد الرواية، والكاتب وراء الحادثة ، يتتبعها من شخص إلى شخص ومن مكان إلى مكان. حين ظهر هنرى جيمس علم الروائيين من بعده مسألة وجهة النظر. الحقائق نسبية، ولتكون قريبا من الحقيقة ما أمكن، عليك إن تقص قصتك من وجهة نظر إحدى الشخصيات ويجب أن تفترض فى قارئك الذكاء ، إلى الدرجة التى تمكنه من تمييز الصدق والكذب فيما تزعمه هذه الشخصية.

بعض الكتاب توسعوا فى هذا الأسلوب، فجعلوا يروون القصة الواحدة من وجهات نظر متعددة، كما فعل فتحى

غانم – مثلا فى الرجل الذى فقد ظله

○ تراجع الزمن

اختفت القصة أصبحت كالسقالات التى يرفع بواسطتها البناء، وحين يقوم البناء، لاتعود تراها. ومع اختفاء القصة تراجع الزمن أيضا، أصبح «زمنا روائيا» عبر عنه بعض كتاب الرواية الجديدة بأنه هو الزمن الذى يقضيه القارئ فى قراءة الرواية «لا أكثر ولا أقل».

ينبهك حيدر حيدر من أول الأمر إلى أنه لن يحكى لك الحكاية بترتيب زمنى مادمنا نريد أن نتسلى فلنكن كركاب قطار، ترد علينا الذكريات بلا ضابط ونحكيها بلا ترتيب مسبق، القطار فقط ضابط ايقاع، مثل الحياة نفسها تتعاقب عليه المحطات كما يتعاقب الليل والنهار.

ليس هذا فقط، فوجهة النظر لم يعد لها وجود. لم يعد الروائى يؤمن بحقيقة نسبية، وجود الحقيقة نفسه أمر مشكوك فيه وإذن فلتعرض الرواية نفسها دون هذا الزعم البالى، زعم البحث عن الحقيقة أو مشابهة الحقيقة. يذكرنى اختلاط وجهات النظر فى الرواية الجديدة وبصورة امرأة لبيكاسو، ترى منها البروفيل والوجه والصورة الجانبية والصورة الأمامية – متداخلين مختلطين.

حيدر حيدر فى هذه الرواية يقص بطريقة مشابهة فأنت لا تعرف من الذى يقص، أهو الراوى (المجهول)، أم الغريب، أم الزوجة، أم الزوج، أو بالاخرى كلما بدأت بواحد منهم فوجئت بثان ثم ثالث، وهكذا.

يجب أن تكون مستعدا لهذه الانتقالات، حتى فى الفقرة الواحدة وإذا سألت الكاتب ما الذى جعله يعمد إلى هذه الطريقة؟

فلعله يجيبك إن التضية الملتبسة لايمكن أن تعرض إلا بطريق الفن. ولا يمكن أن يعرض الفن إلا بطريقة ملتبسة.

ثم دعنا نتفق على أن نعفيه من سؤال أخير، قد يخطر ببالك أو ببالى، ما الذى جعله يضيف إلى الرواية هذا «الملحق»، كما سماه زمن التنوع ومرايا الظلمات؟ فهذا الملحق مقال سياسى، وأنا وأنت تعرف كيف، ولماذا، تكتب المقالات السياسية. □

كتاب الهلال
يقدم
اليهود
بقلم
جمال حمدان

يصدر
٥ فبراير ١٩٩٦

روايات الهلال
تقدم
حكايات المدينة في كفر عسكر
بقلم
أحمد الشيخ

تصدر
١٥ فبراير ١٩٩٦

السلطة والإخوان

بقلم: د. أحمد عبدالرحيم مصطفي

امتلأ التاريخ الإسلامى بالكثير من الحركات التى انتفضت على الأوضاع القائمة ، إما كرد فعل ضد ممارسات السلطة ، أو طمعا فى الاستيلاء على الحكم لصالح فئة معينة أو خدمة لنشر مذهب معين تصور أنصاره أنه هو الحق وأن غيره باطل، وبالتالى فمنذ الفترة الأولى من الحكم الإسلامى شهدت دار الإسلام كثيرا من الصراعات الدامية التى مزقتها شر ممزق وشغلتها عن تحقيق الآمال التى تعلق بها المسلمون ، وممن رفعوا لواء التمرد، على سبيل المثال لا الحصر ، الخوارج والقرامطة والشيعة والحشاشون، و«المهديون» - هذا بالاضافة الى الصراعات القبلية بين عرب الشمال العدنانيين والقحطانيين وغير ذلك ، وفى التاريخ الحديث ظهرت المهدية والسنوسية والوهابة وغير ذلك بالإضافة إلى أهم الحركات الحديثة والمعاصرة المعروفة باسم «الإخوان المسلمين» التى كانت رد فعل لتغلغل الأفكار والقيم الغربية بشتى اتجاهاتها فى البلدان الإسلامية بوجه عام وفى مصر بوجه خاص.



حسن البنا



مصطفى النحاس



عزيز المصرى

فقد تغلغلت القيم الغربية نتيجة للتدخل الاستعمارى الغربى ووجدت تجاوبا من جانب بعض المسلمين الذين انبهروا بالمنجزات الغربية فى المجالين المادى والفكرى ، فى الوقت الذى أثارت فيه رد فعل دفاعى لدى المتمسكين بدينهم باعتباره بؤرة الكيان الذاتى.

وقد ظهرت جماعة الإخوان المسلمين فى مصر فى أواخر العشرينيات من القرن الحالى كان مؤسسها «المرشد العام» الشيخ حسن البنا الذى وجه نشاطها حتى مقتله فى عام ١٩٤٨ . ولقد عرف البنا بتدينه ومقدرته الخطابية وجاذبيته الشخصية وذكائه . وقد بدأ نشاطه فى الاسماعيلية فى منطقة قناة السويس حيث وجدت جاليات أجنبية كثيرة كانت تعيش حياة رغدة فى الوقت الذى كان فيه المصريون الموجودون فى المنطقة من رقيقى الحال. ولاشك فى أن تعارض وضع المصريين مع وضع الجاليات الأجنبية كان له أثره فى توجيه أفكار المرشد العام الذى مالبث أن نقل قاعدة نشاطه إلى القاهرة وقام بافتتاح شعب لجماعته فى مختلف أنحاء مصر. وبعد أن تولى الحكم الملك فاروق تقرب منه البنا فى الوقت الذى تشكلت فيه التنظيمات الفاشية والنازية فى ألمانيا وايطاليا وبرز حزب مصر الفتاة فى مصر وهو الحزب الذى كان زعيمه أحمد حسين مناوئا لحزب الوفد أقوى الأحزاب المصرية وأكثرها جاذبية للشباب، وكان حزب مصر الفتاة هو الآخر متأثرا

بالاتجاهات النازية التى تأثر بها البنا الذى أنشأ فرق الجوالة التى كانت تدين له بالولاء والطاعة وتأخذ بمبدأ الزعيم والتابع فى الوقت الذى قامت فيه جماعة الاخوان المسلمين التى اتصفت بجمود زعامتها وتنظيم هيئاتها التنفيذية ووحداتها وإن تكن قد نجحت فى اجتذاب فئات اجتماعية مختلفة شملت المهنيين والطلاب والفلاحين بالإضافة الي البورجوازية الدنيا فى المدن

● دعوة للإصلاح الدينى

وكان نجاح الإخوان المسلمين فى اجتذاب جماهير الأحزاب التقليدية مرتبطا بدفاعها عن الإسلام فى الوقت الذى شهد انتعاش المشاعر الدينية وضيق قاعدة المثقفين وتعثر الممارسات الديمقراطية على النمط الغربى التى لم تحظ بنجاح كبير خاصة وقد جرى استيرادها من الغرب الذى اقترن لدى الجماهير بالتحلل وفساد الأخلاق ، فى الوقت الذى اعتبر فيه الغرب عدوا تقليديا للإسلام. يضاف إلى ذلك أن حركة الاخوان المسلمين كانت رد فعل عنيفا للفشل الايديولوجي الذى منى به قادة المثقفين وتعثر النظام الليبرالى فى المجالات السياسية والاجتماعية فى حين تبنت دعوة الاخوان اصلاحا دينيا سلفيا ولوحت للفقراء بقرب تحقيق العدالة والمساواة ولوحت للواعين سياسيا والوطنيين بأنها تسعى إلى تحقيق الاستقلال التام وتؤكد المبادىء العالية للإسلام الداعية إلى الإخاء المصحوب بالقيم الروحية خاصة أنها أعلنت أن غايتها القصوى هى إعادة بناء المجتمع فى اطار جامعة اسلامية عصرية تلعب دورها فى تحقيق سلام العالم وبناء الحضارة الإنسانية على أساس التناسق بين المادة والروح - وهكذا قدم الإخوان المسلمون أنفسهم باعتبارهم بديلا لحكم الساسة العلمانيين وبالتالى للنمط الغربى المستورد فيما يتعلق بالحكومة والمجتمع


على ماهر


محمود النقراشي

وهو النمط الذى رفضوه جملة وتفصيلا بما فى ذلك قيمه ونظمه ورغم ذلك لم توفر جماعة الإخوان المسلمين برنامجا محددا للمشاكل التى كانت تواجه المجتمع المصرى، بل إنها لم تسع إلى فهمها وكان تأكيدها على أن القرآن يوفر أساسا لقيام مدينة فاضلة اسلامية .

يقوم على العقيدة لا على الاثبات العقلى، فنجاحها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان راجعا الى عجز الحكومات المتعاقبة عن حل المشكلات السياسية والاجتماعية وبالتالى دفعت خيبة الأمل الى صفوف الجماعة اعدادا ضخمة من المصريين الذين رأوا أن مسئولية الانهيار الفاجع لآمالهم تقع على كاهل النظام القائم، يضاف الى هذا أن من أسباب نجاح الحركة جهود «علماء» الأزهر وتوقف نشاطهم عند حدود معينة من التفسيرات والشروح وبعدهم عن اهتمامات الجماهير فى الوقت الذى كانت تحلم فيه بضرورة الاصلاح الاجتماعى بعد ان تزعزعت القيم الموروثة بظهور فئة اغنياء الحرب الذين اقترن سلوكهم بالفساد والانتهازية وبالتالى رأى البعض ان الإخوان يمثلون ضرورة لملء الفراغ القائم بين القيادات السياسية الحاكمة والجماهير التى كانت تبحث عن قيادات تعبر عن تطلعاتها ومن ثم كان من السهل عليها أن تقع تحت تأثير حسن البنا الذى كان محور مناقشاته يدور حول فساد الحياة السياسية وضرورة الالتزام بأسس الإسلام وان مجتمعا يقوم على القرآن والسنة بإمكانه أن يضع حدا لأمراض المجتمع فى الوقت الذى لم يكن فيه الإخوان واعين حقيقة لما يجب عمله لبناء المجتمع الاسلامى. ولما لم تكن لديهم فكرة واضحة عن المشكلات المرتبطة بنمو مجتمع عصرى فقد كانوا على استعداد لاعتبار كل من يخالفهم عدوا للإسلام من الواجب القضاء عليه. ذلك أن عقيدتهم كانت قائمة على الإيمان أكثر منها على الفكر المنظم. ومن ثم فإنها انحصرت فى اطار حركة متعصبة تلهمها وتحركها النوازع الوطنية السلبية ويقويها الشعور بالبؤس الاجتماعى الذى كانت تشعر به غالبية الجماهير

● الاستيلاء على السلطة

ولكى يحقق البنا تصوره للدور الواجب على جماعته القيام به فقد تطلع لأن يلعب دورا مهما فى المجتمع المصرى

فإزاء اتساع نطاق حركته بصورة مذهلة حول دعوته بالتدريج من طور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى «دعوة سلفية صوفية سياسية رياضية علمية ثقافية اقتصادية اجتماعية، ولم يخف أن هدفه هو الاستيلاء على السلطة اللازمة لاقامة المجتمع المثالى دون أن يشير الى وسيلة تحقيق ذلك، ومن قوله إن الإخوان لايطلبون الحكم لأنفسهم ان وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بنهج اسلامى قرآنى .

فهم جنوده وأنصاره وإخوانه فإن لم يجدوا فالحكم فى منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من كل حكومة لاتنفذ أوامر الله» المخطط شكل تنظيمات الجوالة وبدأ تدريب مجموعات صغيرة ، يتكون كل منها من عشرة أعضاء وفى أوائل عام ١٩٤٣ تم تشكيل النظام المعروف بالجهاز السرى خاصة بعد أن اصطدمت جماعته بالسلطة بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ولعبت دورها فى الدفاع عن الحركة فى مواجهة البوليس والحكومة المصرية وكانت الجماعة قد سبق لها أن أفادت من تولى على ماهر رئاسة الوزارة فى اغسطس ١٩٣٩، خاصة انه كان يمقت حزب الوفد فى الوقت الذى ضمت فيه وزارته اشخاصا من أمثال صالح حرب رئيس جمعية الشبان المسلمين وعبدالرحمن عزام الذى سبق له ان تطوع لمحاربة الايطاليين بعد احتلالهم لليبيا قبل الحرب العالمية الأولى بالاضافة الى عزيز على المصرى الذى كان له نشاطه السابق فى الجمعيات القومية السرية العربية. ولما كان هذا الأخير قد تلقى تدريبه العسكرى على أيدى ضباط ألمان فإنه أسفر عن ميول المانية ولم يخف مقته للأحزاب البرلمانية والنظام الديمقراطى على النمط الغربى، وقبل أن يرأس على ماهر الوزارة كان قد عقد صلات بالاخوان الذين استقبلوه استقبالا حارا بعد عودته من لندن (مارس ١٩٣٩) بعد ان اشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى بحث شئون فلسطين وبطبيعة الحال كانت وزارة على ماهر ذى العلاقات الوطيدة بالسراى وبالألمان معادية للإنجليز الذين جاءوا بالوفد الى الحكم فى فبراير ١٩٤٢ وحينئذ أعلن البنا رغبته فى الترشيح لمجلس النواب باعتباره ممثلا للإخوان ولو أن رئيس الوزراء مصطفى النحاس اقنعه بالعدول عن ذلك فى مقابل تلبية بعض مطالبه ومنها

السماح للإخوان بعقد الاجتماعات واصدار المطبوعات وغير ذلك - وحينئذ كانت قد تشكلت فرق الجوالة التى قامت بحماية المؤتمرات الاخوانية واستقبال «المرشد العام» «حسن البنا» بعد عودته من احدى جولاته ومالبث الاخوان ان لجأوا الى تشكيل قوات مسلحة مستغلين الاضطرابات التى احتدمت نتيجة للموقف فى فلسطين التى وضح أن لليهود اطماعا فيها وقد تطوع بعض الاخوان لمواجهة هذا الخطر وانتهزوا الفرصة لجمع الأسلحة وتوسيع قاعدة قواتهم الناشئة كما اشتد نشاطهم ضد القوات البريطانية المتمركزة فى منطقة قناة السويس وغيرها وبخاصة بعد تعثر المفاوضات بين الحكومة المصرية والانجليز فى سبيل الجلاء كما برز نشاط الإخوان فى مجال التنظيمات الطلابية فى الجامعة حيث بدا انهم يسعون الى السيطرة عليها، كما قاموا ببعض التفجيرات ومحاولات اغتيال خصومهم.

● حـــل جماعـــة الإخوان ومطاردتهم!

وكانت اهم محاولاتهم الناجحة فى مجال الاغتيالات قتلهم لأحمد الخازندار الذى حكم بالسجن على اخوانى هاجم الجنود الانجليز فى نادى الاسكندرية - وكان قاتلا الخازندار من افراد التنظيم السرى وحكم عليهما بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة وردت الحكومة على ذلك بحل جماعة الإخوان وتدبير مقتل حسن البنا فى أواخر عام ١٩٤٨ ردا على قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى على يد أحد الإخوان ثم بدأت مطاردة الإخوان والزج بهم فى المعتقلات والسجون ولو أن الجماعة واصلت نشاطها واشركت الجماهير فى الكفاح المسلح ضد الانجليز وبخاصة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء العمل الفدائى ضد القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس وتدهور الموقف الداخلى فى البلاد بعد حريق القاهرة يناير ١٩٥٢ وبدا أن الموقف لابد أن يتمخض عن شىء مهم. وحينئذ بدأ نشاط بعض الفئات الساخطة التى تطلعت الى التغيير ، ومن هؤلاء ، تنظيم «الضباط الاحرار» الذين استولوا على السلطة في يوليو ١٩٥٢ ، وكان منهم بعض الإخوان المسلمين الذين وجدوا أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على الحكم وتطبيق برامجهم ، ولو أن

مجلس قيادة الثورة الذى كان يضم فئات وطنية لايجمعها هدف واحد لم يتح لهم فرصة لتحقيق احلامهم ، ثم مالبث أن اصطدم بهم بعد محاول أحد الاخوان اغتيال جمال عبد الناصر في عام ١٩٥٤ ، وقد فشلت هذه المحاولة التي استتبعت استعمال العنف مع الاخوان والتنكيل بهم بصورة لم يسبق لها مثيل ، وهرب من هرب لمتابعة أهداف الجماعة في الخارج ، ولم تلبث ان ظهرت قيادة جديدة تولاها سيد قطب الذى كان قد رحب بانقلاب ١٩٥٢ وأيده الى حين ثم انفصل عنه وتوصل فى أواخر الخمسينيات الى صياغة استراتيجية جديدة للحركة الإسلامية ببناء حزب انقلابى اسلامى تسنده صفوة عقائدية مقاتلة تعلن كفر

سيد قطب



النظام والمجتمع وشمول الجاهلية للعالم كله.

● سيد قطب وفكر جديد

طرح سيد قطب فكرة إعادة بناء الإسلام وتولى قيادة تنظيم للإخوان من الشباب الذين اختاروه قائدا لهم ونشر فكرة الحاكمية التى دمجت الدين بالسياسة وأعلنت شمول الجاهلية وضرورة بناء حزب انقلابى اسلامى بإمكانه ان يزيل الأنظمة والحكومات التي تقوم على حاكمية البشر للبشر وعلى عبودية الإنسان للإنسان بحيث تكون العبودية كلها لله ثم يلى ذلك نشر الدعوة الإسلامية بصورة شبيهة بما حدث فى الماضى حيث نجحت الحركة على يد الرسول والصحابه الأول، وقد عزا سيد قطب فشل «الضباط الأحرار» فى خدمة الهدف الإسلامى – فى رأيه – إلى انهم لم يقوموا بتوظيف التطهير والدكتاتورية لصالح البرنامج الأخلاقى الإسلامى بالتعاون مع الإخوان المسلمين وتبنى أفكارهم فاذا اريد للإسلام أن يعمل فلابد له أن يحكم وذلك بعد اعادة بنائه. وقاد

تنظيما اخوانيا من الشباب الذين تأثروا به وبأفكاره واختاروه قائدا لهم وارسل افكاره الى التنظيمات الاخوانية فى البلدان العربية. ودفع سيد قطب حياته فداء لأفكاره، ثم جرى التنكيل باتباعه الذين هاجروا الى الخارج وباشروا نشاطهم فى المنافى، وفى أعقاب وفاة عبدالناصر فى عام ١٩٧٠ تولى الحكم أنور السادات الذى شرع فى تعديل أسس نظام سلفه فخفف الضغط على الإخوان وتصدى لمواجهة التيارات اليسارية وتصفية بقايا النظام الناصرى فأخرج الاخوان من المعتقلات بشرط أن يتعهدوا بعدم اللجوء الى العنف فى مقابل السماح لهم بنشر دعوتهم فقبلوا بالتعددية الحزبية وخاضوا الانتخابات واعترفوا بشرعية الدستور المصرى وباتفاقه مع قواعد الإسلام ورغم مطالبة الاخوان بتطبيق الشريعة فورا تطبيقا كاملا فقد تنازلوا عن هدف اقامة الدولة الإسلامية كما تخلت الجماعة عن شعارات العدالة الاجتماعية التى سبق لها ان تبنتها وشارك سيد قطب فى صياغة افكارها فى الوقت الذى ازداد اندماجهم فى مجالات الاقتصاد والسياسة داخل النظام وقد ترتب على ذلك أن ابتعد الشباب الأكثر سخطا عن خط الاخوان واتجهوا الى التيارات الراديكالية وهاجموا الاخوان هجوما شديدا فى الوقت الذى حرص فيه الاخوان على التبرؤ من نشاطات الجماعات الراديكالية والتزموا بخطة اصلاح النظام والضغط عليه وتجنبوا الاصطدام بالمتشددين محملين الظروف مسئولية تطرفهم. وقتل السادات على أيدى مجموعة من المتطرفين الذين سعوا الى اسقاط النظام القائم ولكن سلطات الأمن تمكنت من افشال هذا المخطط . وجاء محمد حسنى مبارك الى الحكم وواصل مساعيه لاجهاض مخططات المتطرفين الذين حاولوا قتله فى العام الماضى وهو فى زيارة الى اديس آبابا ولاتزال المواجهة مستمرة بين المتطرفين والسلطات على مختلف الأصعدة، ونأمل الا يطول امد المواجهة التى كان لها أثرها فى المجالات الاقتصادية وغيرها، وان تخرج مصر منها فى أقرب وقت حتى تتفرغ للبناء وحل المشكلات التى تواجهها.●

هرولة فى اتجاهات شتى

بقلم : جميل مطر

يبدو أن الهرولة علامة من علامات نهاية القرن العشرين، فقد أصبحت سلوكاً متكرراً من سلوكيات الدول فى علاقاتها الخارجية، وسمة من سمات إنسان العصر.

في كل ركن من أركان العالم هرولة نحو شيء أو آخر. وفى بعض الأركان يهرول أناس نحو أشياء متعددة فى آن واحد. فى الشرق الأوسط مثلا يتعدد المهرولون ولكن تتعدد أيضا أهداف الهرولة. توجد أهداف لها خصوصية إقليمية عربية، مثل الهرولة فى اتجاهات وتنظيمات إقليمية جديدة وشراكات متنوعة وأفكار متضاربة. وتوجد أهداف نشترك فيها مع غيرنا من سكان هذا الكوكب، فبعضنا يهرول فى اتجاه ما يسمى بالعولمة أو الكونية، أى فى اتجاه الكوكبة. وبعضنا يهرول فى اتجاه معاكس لاتجاه الكوكبة. هذا البعض استصعب رحلة الكوكبة، أصابه قليل أو كثير من عواقب التحولات الهائلة الجارية من حوله. لاحظ الهرولة وراقب المهرولين، واستشعر غرابة أو اغترابا وإذا به فجأة يهرول فى اتجاه الخلف، أى فى اتجاه العودة إلى الأصول بحنين شديد إلى الماضى ورغبة عارمة فى العثور على خصوصية يسترد بها أنفاسه، وتسنده فلا يقع تحت أقدام المهرولين فى اندفاعهم المحموم نحو الكوكبة.

حول هذا الموضوع، موضوع الهرولة، فتح باب النقاش فى معظم الدول العربية، علما بأن الهرولات في الشرق الأوسط ليست كلها تنابذا وخصومات وسباقات، فهناك كما ذكرت من قبل هرولة نحو الكوكبة أو الكونية، وهرولة نحو خصوصيات متميزة أو متطرفة. ولايوجد على مستوى الدول - أى الحكومات - العربية من يتهم الدول الأخرى بأنها تهرول فى اتجاه الكوكبة، أو تهرول فى اتجاه الماضي. ولكن يوجد على مستوى الدول من يتهم الآخر بكثير من الدبلوماسية والرقة بأنه يهرول فى اتجاه كيان شرق أوسطى، أو فى اتجاه كيان بحر - متوسطى، وحتى الاتهام الرقيق بالهرولة فى اتجاه التطبيع، يزيده رقة التحفظ بأن الهرولة فى هذا الاتجاه لاتجوز إذا حدثت بشكل منفرد أو إذا حدثت قبل تحقيق مزيد من التقدم على أصعدة أخرى فى مسيرة السلام بين عرب بعينهم - وهم عرب الحرب - وبين إسرائيل.

لذلك ليس مهما أن يدور نقاش على مستوى الدول العربية حول موضوع الهرولة بشكل عام، أو الهرولة في حيزها الأضيق، أي في حيز العلاقات مع إسرائيل. فالهرولة في الإطارين ـ العام أي الكوكبي والخاص أي الشرق أوسطي ـ أمر واقع مهدت له ظروف خارجية وفرضته ضغوط دولية وإقليمية وداخلية وجماعات مصالح محلية. ولا أتصور أن رجال السياسة كانوا يتمتعون بكل حريتهم عندما تعاملوا مع مواقف معينة وثيقة الصلة بتطورات كونية أو إقليمية. وعلى كل حال ـ وفي ظل هيمنة التطورات ذات الصفة الكونية ـ لم يعد يوجد زعيم سياسي في دول الشمال أو في دول الجنوب يستطيع أن يزعم أنه يتخذ جميع قراراته ويضع جميع سياساته بحرية كاملة أو حتى شبه كاملة. ومع ذلك فقد يكون من الضروري أن تعود بعض مجالات الهرولة تطرح للنقاش على مستوى الدول العربية فتتفادى أن تدوس إحداها على قدم الأخرى أو تتسبب في إصابتها إصابة شديدة خلال هرولتها في اتجاه الكونية، أو في اتجاه إسرائيل، أو في اتجاه شراكة مع أمريكا أو شراكة على أمريكا.

ولكن النقاش الأهم هو هذا النقاش الدائر حالياً على مستويات أخرى غير مستوى الدول والحكومات، وأطراف هذا النقاش غير معنيين ـ كما يبدو ـ باتجاه أو بهدف الهرولة، بقدر ما هم معنيون بمعدلات الهرولة أياً كان اتجاهها. ثم هم أيضاً معنيون بحجم الفاقدين المادي والنفسي نتيجة الهرولة، ومعنيون بعواقب تخبط وتخابط المهرولين، وآثار السرعات المفاجئة أو الفائقة التي ينتقل بها المهرولون من حال إلى حال ومن درجة إلى درجة أخرى. وهناك أمثلة عن محاور النقاش الدائر.

لاينكر أحد أن الشغل الشاغل هذه الأيام لمعظم دول شمال أفريقيا هو اختيار المستوى أو الشكل الإقليمي الأنسب لتتقولب فيه سياساتها الخارجية. ويبدو أن مستويين أو شكلين معينين يحظيان بالرعاية الأوفر وبالأفضلية من جانب صانعي السياسة والقرار في هذه الدول، وإن اختلفت درجة الرعاية ونسبة التفضيل من دولة إلى أخرى. وعلى كل حال يبدو من النقاش الدائر أن حظوظ المتوسطية في معظم دول شمال أفريقيا أكبر من حظوظ الشرق أوسطية. ويبدو أيضا أن الاهتمام الذي تحظى به المتوسطية والشرق أوسطية وانشغال وزارات الخارجية بهما تسبب في أن هذه الدول المنتمية بكل الجغرافيا وبعض قديم التاريخ وحديثه إلى القارة، الافريقية صارت تهمل هذه القارة رغم أن هناك علاقات ومصالح استراتيجية وربما مصيرية تفرض على

أكثر هذه الدول ألاّ تهمل في تنمية علاقاتها الافريقية. ولكن يبدو أنه توجد اعتبارات أخرى غير الجغرافيا وبعض التاريخ تلعب دوراً خطيراً ومعاكساً للدور الذي يمكن أن تلعبه الجغرافيا ويلعبه التاريخ. لاحظنا مثلاً خلال تجارب الهرولة الحديثة في الشرق الأوسط أن من ملحقات الهرولة التوتر وأحيانا الغيرة. لذلك لا أستبعد أن تقلق دول وجماعات في أفريقيا السمراء وهي ترى دولا في شمال أفريقيا تدير لها ظهرها لتنعم وحدها بخيرات حقيقية أو متصورة وافدة من الشمال الأوربي للبحر المتوسط. ولاأستبعد أن تكون الهجرة من مناطق جنوب الصحراء إلى دول شمال أفريقيا هو رد الفعل المناسب من جانب هذه الدول والجماعات الأفريقية وإذا استمر هذا الإهمال من جانب العرب الأفارقة وإذا تأكد السمر الأفارقة من أن الفجوة الاقتصادية التي تفصل بين أفارقة الشمال وأفارقة الوسط والجنوب مستمرة في الاتساع . بمعنى آخر، تكون أوربا التي تسعى بالمتوسطية والشراكات العربية إلى إيقاف أو منع هجرة أهل شمال أفريقيا إليها قد تسببت بدون وعي في إطلاق شرارة هجرة إلى شمال أفريقيا من مناطق أخرى في القارة السمراء.

ولكني أتوقع تطورات أخرى ربما تكون أشد خطرا على سلام واستقرار الدول العربية الأفريقية. وأعتقد أن مسئولية وقوع هذا التطور أو ذاك تقع على المعدل الفائق في سرعة هرولة دول شمال أفريقيا في اتجاه أوربا، وفقدان هذه الدول لعنصر التوازن السياسي الدقيق ـ سواء كان التوازن الداخلي في كل قطر أو التوازن الإقليمي ضمن المجموعة المغاربية، أو التوازن القاري بين الشمال الأبيض والجنوب الأسمر ـ نتيجة اختلاف سرعات التبدل في السياسات، ونتيجة اللهفة الواضحة على اللحاق بالكونية عن طريق أوربا .

ضياع القيم

المثال الآخر على عواقب هرولة نهاية القرن العشرين هو التطورات في روسيا . نذكر أنه بعد أن فوجيء حكام وشعوب روسيا وأوربا الشرقية بسقوط الشيوعية حدث هرولة في اتجاه حرية واقتصاديات السوق. ولم يترو أولو الأمر. فهرولوا مع الفئات المهرولة، هدموا القديم ولم يبنوا الجديد فضاعت القيم. لم يضعوا أولويات فانتشر البؤس، ولم ينسقوا بين قواعد تحكم صراعات المهرولين فارتفعت معدلات الجريمة. هرولوا ولم يصلوا إلى ما هرولوا من أجله. لم يصلوا إلى اقتصاد السوق ولا إلى مستوى بيئة أفضل، ولا إلى استقرار سياسي واجتماعي، ولا إلى تجديد مكانة روسيا . ولكن كانت وراءهم آلة الإعلام الأمريكية الجبارة، والآلة السياسية الاقتصادية الألمانية البالغة

التأثير، كل منهما تحثهم على تسريع الهرولة، فالهدف في انتظارهم أقرب مما يتصورون.

وكلما لاحظت ازدياد معدل تدهور أمور روسيا ودول أخرى كثيرة من الدول المهرولة تذكرت الكاتب المعروف جيمس جولد سميث الذي يقول في أحدث كتاب له صادر تحت عنوان (المصيدة)، «لقد أقنعنا أنفسنا (يقصد الأمريكيين) أنه لايوجد في هذا العالم سوى نموذج اقتصادى واجتماعي واحد، وهو النموذج (الأمريكي). وخلال محاولتنا فرضه على العالم، صدرنا لكل ركن من أركان العالم أمراضنا وهي : الجريمة، المخدرات، الكحوليات، وانفراط الأسرة وأحياء الفقر المحيطة بالمدن وسوء استغلال البيئة». ثم يقول في مكان آخر من كتابه، «لقد أصبحت حرية التجارة العالمية مبدأ مقدسا من مبادىء النظرية الاقتصادية الحديثة. وهو مبدأ كفيل بأن يدمر الطريقة التي كان يتم بواسطتها توزيع فائض القيمة بين رأس المال والعمل. إن الانقسامات الاجتماعية التي تنتج عن هذا المبدأ وما تسبب فيه من تدمير سوف تكون أعمق من أي انقسامات تخيل ماركس أنها قد تقع في يوم من الأيام».

● هرولة روسيا !

في هذا الاتجاه تهرول روسيا، وتهرول دول أخرى كثيرة في عالم الجنوب، ومازال النقاش دائرا. يحتد أحيانا عندما يعود الشيوعيون إلى الحكم في بولنده. ويهدأ عندما تتناقض السياسة القطرية مع السياسة الكونية. مثال على ذلك حين تضع الولايات المتحدة قيوداً على الصين أو تضع شروطا على اليابان أو تجدد حصارها على دولة أو أخرى وتحرم عليها التجارة الدولية ثم يحتد عندما تشتعل الاضرابات والمظاهرات وتهتز قواعد الانسجام الاجتماعي في فرنسا. أو يحتد بشدة عندما تبدأ في الظهور نتائج الانتخابات البرلمانية في روسيا، وخصوصاعندما يعلق أحد الخبراء الأمريكيين عليها فيقول إن الولايات المتحدة لايجوز لها أن تقلق لأن البرلمان الروسي عديم القيمة والفعالية. يريد أن يقول إن الهرولة في اتجاه اقتصاد السوق ستستمر لأن الرئيس يلتسين وأنصاره باقون ومتمسكون بالهرولة وإن رفضها أغلبية الناخبين الروس. يقول ما معناه إن الديمقراطية غير مهمة إذا وقفت عائقا ضد مبدأ حرية التجارة واقتصاد السوق. ثم إننا نعرف ونراقب بكثير من الإشفاق كيف وصلت الهرولة في بعض دول الجنوب إلى حد مطالبة ذوى المصالح الخاصة من المهرولين بتطبيق هذا المبدأ على الثقافة. ويستند هؤلاء المهرولون إلى نيوت جنجريتش رئيس مجلس النواب الأمريكي أثناء دفاعه عن مشروعات الحزب الجمهوري لإصلاح العجز في الميزانية الأمريكية حين قال إن الثقافة يجب أن

تخضع لقانون العرض والطلب. فإذا كان الطلب على العنف شديداً فإنه يتحين على المنتج السينمائى أو التليفزيونى إنتاج أفلام عنف. يقول المهرولون فى اتجاه حرية السوق والداعون إلى تخلى الدولة عن معظم واجباتها إنه حتى إذا كان الطلب شديدا على كل ما هو ساقط فنيا وأدبيا فى الثقافة، فالدولة عليها أن تحترم قدسية قوى السوق، أى لا تتدخل . يقولون، لا سلطة فوق إرادة مستهلكين وإن كان مطلبهم الساقط ورغبتهم فى السقوط.

وأتصور أن الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر كانت فى جانب منها نوعا من الهرولة، لم تكن على كل حال عملا سياسيا عاديا أو سباقا بين مبادىء وبرامج. لم تكن اختيارا شعبيا لسلطة تشريعية أو تفويضا ديمقراطيا للمشاركة فى الحكم. أو على الأقل لم يقل معظم المحللين والمراقبين لعملية الانتخابات أنها كانت شيئاً من هذا. أجمعوا على أنها أعنف انتخابات شهدتها مصر، وأنها دارت بين أشخاص أكثرهم لايمثلون اتجاهات أو سياسات ولايعبرون عن جماعات منظمة للمصالح. كانت ـ ربما ـ تجسيداً أو شكلاً من أشكال الهرولة فى اتجاه هيمنة مبدأ الفردية المادية المتوحشة. كإحدى أهم القيم المتضمنة فى حملة الترويج لمنظومة القيم الكونية الجديدة.

وبمتابعة النقاش الدائر حاليا حول الهرولة وعواقبها يشعر المتابع بتعاطف مع إنسان نهاية هذا القرن. فالتحولات الحادثة فى كل قطاع من قطاعات الحياة هائلة، ومعدلات التغير هائلة، والسرعة فى تبديل سرعات التغيير هائلة، وضخامة عائد أو ناتج التغيير هائلة. ولكن الإنسان هو الإنسان، بمعنى أن الإنسان كان دائما متدرج التطور. هو صانع التغير أو التحول في كل العصور، ولكنه الصانع المتيقظ دائما لأن يكون التغير أو التحول متناسبا مع قدرته ـ كإنسان ـ على استيعاب هذا التغير أو التحول. وكان الصانع الحريص دائما على أن يصنع التغيير ولكن يصنع معه فى نفس الوقت آليات التحكم والتقييد بحيث لا يفلت منه التغيير أو يتجاوز حدوده أو يستقل عن إرادة الصانع. ولكنى أتصور هذا الصانع العظيم للتقدم والتطور يدخل القرن الحادى والعشرين فاقدا الآليات اللازمة للتحكم فى تداعيات ما صنع من تحولات وتغييرات . لقد صنع ماردا وانطلق المارد مستقلا عن إرادة الإنسان يصنع من تلقاء نفسه مردة آخرين، وانطلق هؤلاء المردة يصنعون تحولات هنا وتغيرات هناك، حتى طالت الخيوط وتشابكت ولم يعد الإنسان ـ وربما للمرة الأولى منذ قرون ـ ممسكاً بخط التطور والتقدم ولا بأى خط آخر. فإذا بهرولة فى كل ركن من أركان

الكوكب، وإذا بالإنسان العادى يقلق ويتوتر، وإذا بأنسجة إجتماعية وأخلاقية تتمزق، وإذا برجعيات ــ من كل لون ونوع ــ تنتعش وتنتشر، فالشيوعية تنتعش والفاشية تنتشر والعنصرية تزدهر والأصوليات تتعدد وتتقدم الصفوف.

أعتقد أنه لايوجد خلاف كبير داخل النقاش عن أسباب وطبيعة حال الهرولة الدولية السائدة، ولكن معظم الخلاف يتركز حول سرعة المهرولين. فالسباق بين البشر كنوع من المنافسة سلوك طبيعى وضرورى لتطور الإنسانية وتقدمها، ولاخلاف حول هذا الأمر. ولكن ما نراه يختلف عن هذا السلوك الطبيعى، أى يختلف عن المنافسة المعتدلة. فقد تصاعدت درجة المنافسة إلى حد النزاع أو الصراع، وتخللت هذه المنافسة درجات عليا من التوتر بين المتسابقين، ثم أدت المنافسة فى شكل الهرولة إلى خلق مسافات شاسعة بين السابقين واللاحقين، وتسببت هذه المسافات الشاسعة فى خلق توتر اجتماعى أو دولى، وأثارت نزعات عنف أو تصرفات عدمية أو انتحارية ومن ناحية أخرى أدت الهرولة على مستوى الكوكب إلى نهاية صناعات عملاقة قبل أو انها، وتضخم هائل فى البطالة وزلازل فى الهياكل الاقتصادية والمالية. نعيش مرحلة تتضخم فيها كل الفوائض، إ صار العالم يحصل على الأكثر من الأقل، وما بينهما من فائض يتراكم فى شكل مخيف. أنظر إلى ما يسمونه فائض البشر فمن أجله أو من أجل التخلص منه عقدت مؤتمرات للسكان. وعبأت المنظمات الدولية وعشرات الدول إمكانات وموارد هائلة لحض النساء على ألا يضفن إلى فائض البشر. لاحظ الفائض المتزايد بين فئة المديرين والمثقفين، وبين العاملين فى تخصصات متعددة. ثم لاحظ أن الفلاحين، باتوا بأى عدد وبأى دولة، فائضاً، وأن أرقام البطالة بين العمال الصناعيين وخريجى الجامعات قد تجاوزت كل الحدود أى أن طبقة العمال من ذوى الياقات الزرقاء أصبحت فائضاً بشرياً مقلقاً للاستقرار السياسى.

نوعية المهرولين

كل هذا وأكثر منه مما نراه على سطح العلاقات الدولية والعلاقات الاجتماعية الداخلية يحدث بسبب هرولة الدول والجماعات والأفراد، من هنا أتصور أن الواجب يدعونا إلى توعية المهرولين على كل الأصعدة وفى كل المسارات بأهمية تخفيض سرعات التغيير وتخفيف درجة حرارة كوكب محموم، وتهدئة توتر وقلق بلايين البشر، وصنع مواءمة وتناسق وربط ــ لاأقول بين الماضى والمستقبل ولكن على الأقل ــ بين آخر خطوات الحاضر وأول خطوات المستقبل. فنحن لا نرى الآن سوى صدع شديد ــ ويزداد اتساعاً ــ فى كل ما نفعله أو نستعمله أو نستهلكه فى أى لحظة . أكثرنا يعيش فى وقت واحد حياتين، وبينهما تناقض وتنافر شديدان.



بعد ست سنوات على سقوط حائط برلين :

ألمانيا الموحدة بين التاريخ والمستقبل

بقلم : د. محمود مرتضى

تتصدر ألمانيا الموحدة، منذ بداية ظهور توحيدها في الأفق في نهاية عام ١٩٨٩، وتحقق التوحيد الرسمي للألمانيتين في الثالث من أكتوبر عام ، قائمة الأولويات والانشغالات الأوربية. فألمانيا تشغل فى التاريخ الأوربى مكانة متميزة، قوية أو ضعيفة، مقسمة أو موحدة، وذلك يعود في المقام الأول لاعتبارات جغرافية وتاريخية وثقافية خاصة بالتشكل التاريخى للأمة الألمانية. فألمانيا التي تتوسط أوربا من الناحية الجغرافية، قد واجه تشكلها وتوحدها مشكلات ذات طبيعة خاصة، ارتهنت بالتكوين الاجتماعى لألمانيا. أما على الصعيد الثقافى، فإن مفهوم الشعب «فولك» ومفهوم الأمة، قد صاغهما الرومنطيقيون الألمان استنادا إلى تعريف الفيلسوف «فيختة» الذى يرتكز إلى محورية اللغة في تشكل الجماعة القومية، وإلى الأهمية الحاسمة للقوى الجماعية للأمة.

ولا شك أن هذه العناصر، تمثل ما يمكن أن نسميه بالاستمرارية التاريخية فى تاريخ ألمانيا، وهى تمثل الخلفية التاريخية العميقة فى الذاكرة الأوربية الجماعية التى تفسر تلك السلسلة الطويلة من الهواجس الأوربية إزاء الوحدة الألمانية. فارتكاز هذه الوحدة على المفهوم القومى المستند إلى اللغة طرح مخاوف مطالبة ألمانيا الموحدة لضم الأقاليم الأوربية التي تقيم فيها الجماعات الجرمانية بالذات فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا السابقة، والذين يقدر عددهم بأربعة ملايين ناطقين بالألمانية. فكان لابد لألمانيا المقبلة والمندفعة صوب الوحدة، أن تهدىء من روع جيرانها الأوربيين وأن تمنحهم ضمانات واتفاقيات تحافظ على الأوضاع التى قامت عقب الحرب العالمية الثانية، إذ وازنت ألمانيا بين القبول بهذه الأوضاع التى تمتزج فى حلوق الألمان بالمرارة، وبالتالى الامساك بالفرصة التى بدت تاريخية لتوحيد ألمانيا، وبين التشبث بإعادة النظر فى الأوضاع التى أسفرت عنها الحرب والهزيمة، وما يترتب على ذلك من احتمالات المقامرة بفقد هذه الفرصة المواتية لوحدتها. ومع ذلك ومنذ أن هبت رياح التغيير التى أطاحت بحائط برلين، فإن ثمة قلقا واسعا ينتاب أوربا الغربية والعالم كله، من الدور القادم لألمانيا الموحدة، التى سوف تفرض هيمنتها الاقتصادية خلال فترة قصيرة من الزمن، ليس على أوربا الشرقية وحدها، وإنما على أوربا الغربية أيضا، ذلك لأن ألمانيا بهيكلاتها التصنيعية الضخمة وقاعدتها المالية تشكل ثالث أكبر قوة اقتصادية فى العالم منذ السبعينات.

ألمانيا الموحدة

● سياسة ملء الفراغ

فبعد انهيار الاتحاد السوفييتى تعمل ألمانيا بجهد على أن تحل محله فى الجزء الشرقى من أوربا، وكانت خطواتها الأولى فى اتجاه كرواتيا وسلوفينيا، لتبدأ من هناك تحركها السياسى والاقتصادى والمالى فى اتجاه باقى البلدان الشرقية لتملأ الفراغ الذى نتج عن غياب الدور السوفييتى السابق. كما يلاحظ حرص قيادة بون على التمايز بقراراتها وانفرادها بمواقفها عن السياسات الغربية، وهو ما بدا واضحا فى مسألة تفكيك الاتحاد اليوجوسلافى، حيث سارعت إلى جر أوربا والولايات المتحدة إلى الاعتراف بكرواتيا كدولة مستقلة حالما اعلنت زغرب انفصالها، وما كان من تداعيات تلك الخطوة التى قادت إلى الكارثة التى لحقت بالمسلمين فى البوسنة والهرسك.

وتلك الاستراتيجية الألمانية الجديدة التى تحقق لها بالوسائل الاقتصادية ما عجز هتلر عن تحقيقه بالوسائل العسكرية إنما تستدعى من ألمانيا القيام بدور دولى

أكثر فعالية ليحمي ويساند تحركاتها الإقليمية، وهو ما تطلعت إليه ألمانيا وتحركت في اتجاهه بالفعل من خلال العمل على إزالة كل المعوقات القانونية التي فرضتها عليها ظروف تسويات اتفاقية «يالتا» والتحرر من عدم الفاعلية الدولية التي تم فرضها عليها في السابق.

كما أعلنت ألمانيا في هذا السياق وبوضوح عن رغبتها في الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن، وكان من الطبيعي أن تسعى ألمانيا أيضا للمشاركة في العمليات العسكرية التي تقوم بها الأمم المتحدة لتخلق بذلك لدى قواتها المسلحة عقيدة عسكرية جديدة ترتبط بشعارات حفظ السلام وترسيخ الديمقراطية وحماية الأقليات، وتستند من حيث الدافع والهدف على رغبة الألمان في الانتقال من حالة «التابع» إلى حالة «الشريك».

وإذا بحث الأوربيون في ذاكرتهم عمن هم الألمان، فإنهم على يقين أن الألمان يمتلكون مثل الشعوب الأخرى صفات، يمكن قراءتها من ماضيهم وتشير في الوقت ذاته إلى الطريقة التي يتعاملون بها مع المستقبل. وإذا كان الأوربيون يعترفون بأن للألمان فضائل بكل تأكيد، فإن ما يهمهم قبل كل شيء هو التعرف على الجوانب السلبية، التي قد تؤثر على تطور القارة الأوربية من جديد. ومن أبرز هذه الجوانب في الشخصية الألمانية هو ضعف الحساسية في مواجهة مشاكل الآخرين، والخوف والعدوانية، والعجرفة، وحب الذات، والشعور بعقدة النقص، والعاطفية، والعنصرية، هذه الصفات قد تتداخل مع بعضها أو توجد منفردة، ولكن ما يؤثر في السلوك السياسي بصورة خاصة، هو قلق الألمان تجاه المستقبل وميلهم إلى المبالغة التي تجعلهم يتجاوزون الحدود، ومن ثم يخطئون في الوصول إلى الحكم الصحيح. فقد اعتقد الألمان مثلا بأن انتصارهم على الفرنسيين في عام ١٨٧١، كان بسبب تفوقهم الأخلاقي والثقافي العميق، وليس كما هو معروف في الواقع، بسبب تقدمهم الجزئي وقتها في التكنولوجيا العسكرية.

○ ألمانيا بعد الهزيمة

ومع أن الكثير من الأوربيين يعتقدون بأن الألمان قد تغيروا كثيرا في ظل الظروف التي مرت بهم، فإن تاريخهم مازال حاضرا منذ بسمارك وحتى عام ١٩٤٥ ذلك التاريخ الذي أثر على تطور أوربا كلها، ففي زمن الرايخ الألماني، اندفعت ألمانيا كلها بشكل مرضي نحو تأكيد الذات ونحو النظام الاقتصادي المغلق، ونحو الثقافة الشوفينية. فهزيمة عام ١٩١٨، التي اعتبرها الألمان غير عادلة، لم تترك تأثيرا عليهم، وظل الموقف الألماني على ما هو عليه، وواصل الألمان إيمانهم بالرسالة التاريخية الخالدة لألمانيا. ولكن الأمر كان مختلفا في عام

١٩٤٥ ، فبعد الهزيمة التى ألحقت بألمانيا تغيرت أساليب التربية وتغير منهج كتابة التاريخ، ولم يعد الجيل الجديد يشعر بالمسئولية تجاه الأخطار التى ارتكبتها الأجيال السابقة، وبصورة ما ضعف الشعور بالخطر الألمانى.

وفى الحقيقة، فإن المخاوف المطروحة حاليا من الوحدة الألمانية لا تمتد إلى الفترة النازية وحدها، وإنما إلى الفترة كلها بعد بسمارك، مثيرة عدم الثقة. ويقول المتشككون إن الطريقة التى يسلكها الألمان فى السيطرة على المجموعة الأوربية، لا تدع مجالا للشك فى أن الألمان لم يتغيروا كثيرا.

وحول العلاقة بين تحقق الوحدة الألمانية وبين الشكوك الأوربية فيما يحتمل أن يقود إليه انفجار التطرف القومى الألمانى من تداعيات خطيرة على مجمل الوضعين القارى والدولى، يمكن القول إنه ومنذ أن طرح توحيد ألمانيا على جدول الأعمال الأوربى والعالمى، حتى بدا وكأن القارة الأوربية تعيش ذاكرتها التاريخية أكثر من الواقع المعاش، كما استعادت الذاكرة الأوربية شبح ألمانيا القوية الطموحة الباحثة عن «مجال حيوى»، وبدت الوقائع المرئية العيانية هزيلة التأثير مقارنة بما تحتفظ به الذاكرة.

ولعل ما ساعد على تنشيط الذاكرة الأوربية وانعاش ما تنطوى عليه من شكوك ومخاوف، تلك الحقائق ذات الأهمية الفائقة

ألمانيا الموحدة

التى رافقت عملية استعادة الوحدة الألمانية، واهمها ما يتمثل فى التزاوج الواضح بين السلعة والاستهلاك والفردية وبين الهوية القومية والجموح القومى بل وربما كانت القومية الألمانية هى السياق والقناع الذى تخفت فيه السلعة والاستهلاك والفردية، فالتطلع إلى مستوى الحياة والاستهلاك الألمانى الغربى من جانب الألمان الشرقيين، لم يكن ليتم دون تفجير المشاعر القومية. ذلك أن الحسابات الرأسمالية كان من شأنها أن تحول دون تحقيق هذا المشروع باهظ التكاليف وبهذه السرعة المجنونة، بغير بعث الأسطورة القومية. وما كان لخوف الألمان الغربيين على مستوى معيشتهم واستقرارهم وحرصهم على الحيلولة دون تزايد البطالة، أن يتلاشى أو يتهامش، لولا اندراج هذه العناصر فى إطار شحنة قومية عالية تبرز ذلك وتسوغه. والحقائق هنا واضحة، فألمانيا الغربية هى التى مولت الحملة الانتخابية التى تمت فى ألمانيا الشرقية قبل شهور من الدوى العظيم، وتحملت تكلفة الوحدة الألمانية اقتصاديا، والتى بلغت فى أكثر التقديرات تواضعا مئات إن لم تكن آلاف البلايين من الدولارات لتقريب مستويات المعيشة وفرص العمل وتحمل الأعباء النقدية نتيجة توحيد العملة.

وهكذا تبين ابعاد عملية المقايضة والتبادل بين الألمانيتين. فألمانيا الغربية، بسبب تفوقها المادي قامت بدفع ثمن الوحدة اقتصاديا، بينما قامت ألمانيا الشرقية بدفع ثمن الوحدة سياسيا، وفي الحالتين امتزج الاقتصادى بالسياسى، والتاريخى البعيد بالتاريخى الآنى بشكل فاق توقعات جميع المراقبين .

● النازية الجديدة

وإذا كانت الوحدة الألمانية التى تعكس جميع الأشكال والمظاهر والممارسات ماتقوم به من عملية تعميق للوعى القومى والهوية القومية والتى تعتبر أعمال العنف العنصرية وتنامى قوى النازية الجديدة فى كل أنحاء ألمانيا الموحدة ، أبرز هذه الأشكال والمظاهر والممارسات التى غدت احداثا يومية فى الحياة الاجتماعية الألمانية ، فإن هذه الوحدة الألمانية تنطوى فى ذات الوقت على دلالات مهمة ينبغى تأملها . أول هذه الدلالات، أن حقائق التاريخ تسفر من حقائق السياسة ، فالأولى راسخة ، بينما الثانية تبدو وكأنها عارضة رغم تداخلهما ، فتاريخ ألمانيا هو فى الحقيقة ليس سوى تاريخ أمة تبحث عن دولة . فالتقسيم القسرى الذى أعقب الحرب رغم استمراره أربعين عاما ، والذى كرس إرادة القوى المنتصرة فى الحرب ، لم يمكنه أن يؤثر فى حقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة ، أو بكلمات أخرى كان من المستحيل عليه أن ينال من النسيج القومى الذى تشكل فى معمل التاريخ . أما ثانى هذه الدلالات فهى أن القوة الاقتصادية التكنولوجية فى نهاية القرن العشرين تقوم بذات الدور التوحيدى الذى تكفلت به الجيوش والمعارك فى القرن التاسع عشر ، لإنجاز الوحدة وتحقيق الذات القومية .

ولكن .و بعد مضى خمس سنوات على الوحدة الألمانية يبدو من التحليل الموضوعى للوقائع أن المحاذير والمخاوف من انطلاق العملاق الألمانى من القمقم ، يلزمها على الأقل جيل أو أكثر لتصبح حقيقة ملموسة . فالواقع أثبت أن تحطيم حائط برلين الذى أقيم قبل خمسة عقود وكنتيجة للحرب الكونية الثانية ، ليس بكاف فى حد ذاته لتجاوز معوقات الاندماج بين شطرى ألمانيا . إذ يسود اعتقاد يكاد يكون عاما لدى السياسيين بضرورة العمل على سرعة اتخاذ خطوات مهمة وفعالة لتقليص الفجوة النفسية بين الجانبين الشرقى والغربى من ألمانيا ، وبأهمية المراجعة الجذرية للرؤية المسطحة التى اعتمدت فى عملية الدمج .

ولاريب أن مشكلة الوحدة الداخلية بين شطرى ألمانيا وأسس معالجتها ستكون المقياس لمدى فاعلية ألمانيا على

التكيف فى مرحلة مابعد الحرب الباردة إذ يرى بعض علماء الاجتماع أن النجاح فى معالجة هذه المشكلة مبكرا سيكون القاعدة الراسخة لنجاح ألمانيا فى مواجهة التحديات فى القرن المقبل الذى يصوره القادة الألمان على أنه «قرن العظمة الألمانية» فى التاريخ الحديث .

ويرى المحللون أن قدرة ألمانيا على التكيف وفهم ضرورة التغيير مبكرا فى المسار الاقتصادى هى مسألة ضرورية جدا لتحقيق النجاح المطلوب فى محاولة إنجاز الوحدة الأوربية وإنشاء فيدرالية واسعة لدول القارة يتم بموجبها احتواء دول الكتلة الشيوعية السابقة فى البناء الأمنى والاقتصادى للقارة الأوربية على اتساعها . ولاشك أن تحقيق تعاون أوثق ضمن الاتحاد الأوربي سيكون صعبا تحت أية ظروف من دون ذلك التغيير الاقتصادى الداخلى فى ألمانيا ، لاسيما فى ضوء مايرصده المراقبون الاقتصاديون من تراجع فى أداء الاقتصاد الألمانى خلال العقدين الأخيرين قياسا بخطوات النمو السابقة . إلى جانب تكلفة الوحدة الألمانية الباهظة ووطأة تداعياتها الفادحة على أداء الاقتصاد الألمانى .

ولكن إذا كان من المؤكد أنه ما من أحد يشعر بالقلق تجاه القيادة الألمانية الحالية ، فإن التساؤل يظل معلقاً حول الكيفية التى ستكون عليها الأمور خلال عشرة أو خمسة عشر أو عشرين عاماً، وحول الإمكانية العملية الواردة فى عودة مظاهر معينة من الماضى إلى الحياة ؟ إذ يشير الكثير من المراقبين إلى أن الزمن القريب سوف يولد الميل إلى طرح مفهوم «إحياء أوربا الوسطى» من جديد ، بحيث تقوم ألمانيا بدور الوسيط الذى يعمل على تحقيق التفاعل بين شرق وغرب هذه القارة العجوز ، بل ان هليموت كول يتحدث الآن بالفعل من شركائه فى الشرق والغرب

ألمانيا الموحدة

من ثم تظل الحقيقة الثابتة فى مواجهة كل المتغيرات أن الوحدة الألمانية التى تحققت فى الثالث من أكتوبر عام ١٩٩٠ قد أدخلت أوربا كلها فى مرحلة جديدة من تطورها، سوف تتسم بدور ألمانى بارز ، ليس فى أوربا وحدها وإنما فى العالم كله ، وهو دور سوف يؤثر بالتأكيد على مسار السياسة الدولية فى عالمنا المعاصر ، كما سوف يسهم فى صياغة مستقبل جديد لهذا العالم .

شرق وغرب

لى كوان يو والنموذج الآسيوى

بقلم: مصطفى نبيل



☐ يظل لى كوان يو رمزا مهما على مايؤديه الفكر والثقافة، فيما تحقق من إنجاز في سنغافورة، وهو أحد تجليات الفكر ومن إبداعات الثقافة.

فها هو ذا العمل الكبير يتحقق فى جزيرة صغيرة، يقطنها سكان شديدو البأس، في بلد لاتزيد علي أن تكون «الدولة المدينة» أو «الدولة الجزيرة»،

لايتجاوز عدد سكانها المليونين ونصف، ولاتملك مثل قطر أو الكويت ثروة نفطية كبيرة، ومع ذلك نافست دولا كبري، وبلادا ذات موارد واسعة..

وتمثل التجربة ورائدها، نموذجا واضحا ورمزا حيا، علي كيفية الوصول إلى الحداثة، وإنجاز تطور تكنولوجي ضخم، مع المحافظة على الثقافة المحلية والهوية الوطنية، فلم يأخذ «يو» الغرب كحزمة واحدة، يأخذ حضارته كلها أو يتركها كلها، وإنما يأخذ ما يناسبه، ويوظف الثقافة والهوية من أجل مزيد من التقدم والنمو، ومن أجل التميز والتفرد. فإذا كان يأخذ بقواعد السوق وبالنظام الليبرالي، فإن منابع تجربته تمتد إلى القيم الكونفوشيوسية وإلى النموذج الآسيوي.

ويؤكد «يو» أن هذه القيم هي سبب ماتحقق من إنجاز اقتصادي، بعد أن أعاد تشكيل المجتمع طبقا لرؤيته..

وقصة سنغافورة فى حقيقتها هى حكاية لى كوان يو...

الزعيم صاحب الرؤية الخاصة والإنجاز الكبير الذى حققته سنغافورة. والذى حول البلاد من بلد زراعى يعتمد على المطاط والغابات إلى بلد صناعى، ثم انتقل بها إلى آفاق بعيدة، ونقلها من الفقر إلى الغنى خلال جيل واحد، من سنة ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٩٠، وتضاعف الدخل مايزيد على خمس مرات، وسجل إجمالى الناتج القومى نموا وصل إلى ١٤٪ فى السبعينات، و٧٪ فى التسعينات، وارتفع مستوى معيشة شعب سنغافورة، والذى يقترب متوسط دخل الفرد فيه إلى ٢٠ ألف دولار، وهو دخل لايفوقه سوى مستوى معيشة اليابان فى آسيا، كما يزيد نصيب الفرد فى الإنتاج القومى فى سنغافورة عن نصيب الفرد فى بريطانيا، دولة الاستعمار القديم!

واستطاع لى كوان يو أن يقود التجربة الاقتصادية بنجاح كبير، وهو يمسك بالدفة منذ الكفاح من أجل الاستقلال الذى حققه عام ١٩٥٩ وحتى اليوم.

وسنغافورة خلية نحل، الكل فيها يعمل، ابتداء من الحرف اليدوية إلى تصنيع أجزاء الكمبيوتر، وتسيطر على أحد أهم الموانىء العالمية الذى يصل بحر الصين بالمحيط الهندى، وتملك ثالث أكبر معمل تكرير للنفط، وأهم مركز مالى وصناعى، وتعتبر مطارات سنغافورة أفضل مطارات وبها أفضل سوق حرة فى

العالم، والجزيرة تمثل بستانا كبيرا تختلط فيه المباني بالزهور، والجسور بالأشجار الخضراء، ويعجب الجميع بمدى نظافة البلدة.

وبعد أن تحقق هذا الإنجاز الكبير تخلى «يو» عن كل مناصبه، واكتفى بمركز شرفي، ويؤكد الجميع أنه مازال يمسك بكل الخيوط بين أنامله، وهو على مايبدو أحد سمات الزعامة في آسيا.

وأظن أن هناك جانبا يعنينا في تجربة لي كوان يو، وهو استخدام التراث والهوية كأدوات من أجل تحقيق التقدم، وليست عقبات أو صعوبات في طريقه.. وعندما نستعرض أفكاره تظهر أمامنا رؤية متميزة، تمس في كثير من جوانبها الجدل العام القائم اليوم في مصر والبلاد العربية.

دور الزعامة !

ولي كوان يو هو أحد بقايا قيادات التحرر الوطني في الخمسينات والستينات، ولد سنة ١٩٢٣، وكانت تربطه علاقة وطيدة مع عبدالناصر، وهو مثل نهرو خريج جامعة كمبردج، وهو صديق قديم للأمير سيهانوك، وبدأ حياته السياسية كمناضل ضد الاستعمار البريطاني، وعرف عنه من يومها أنه سياسي حاذق، ونافذ البصيرة، ومخطط أريب، زلق اللسان، ولاحق الفساد حتى قطع دابره من البلاد .

يقول عنه هنري كيسنجر: «إنه أحد الزعماء الذين تفوق قدراتهم إمكانات بلادهم فهو لايقل كفاءة إذا ظهر في زمن آخر ومكان آخر.. عن تشرشل أو ديزرائيلي أو جلادستون..»

وهو من دعاة الحرية منذ منتصف الخمسينات، فهو القائل: «إذا كنت تؤمن بالديمقراطية، فعليك أن تؤمن بها كاملة وبلا شروط، فالإنسان خلق حرا، له حق تشكيل التجمعات بحرية، وله حق التمتع بحرية التعبير، فالحرية لاتتجزأ..».

ويعود ويقول في عام ١٩٨٧.. «إنني أتهم عادة بالتدخل في حياة المواطنين الخاصة، حسنا.. إذا لم أفعل لما حققنا هذا الانجاز الاقتصادي، فإذا لم نتدخل لنمنع الضوضاء، فماذا يمكن أن يحدث لجارك، أو ماذا يحدث لو لم يمنع إلقاء الفضلات في الطريق، فلن تتجنب البلاد التلوث، ولن تصبح مدينتنا نظيفة، فنحن نسعى إلى ما هو صحيح وصالح..»

ويرفع شعار «الدولة قبل المجتمع، والمجتمع قبل الفرد....»، كما يدعو إلى الأخذ «بالإجماع بدلا من الجدل والفرقة».

ووضع نصب عينيه هدفا، أن يصبح شعبه له هوية مميزة يعتز بها، والذي يتكون من ٧٧٪ من السكان صينيين و١٥٪

ملايين و٦٪ هنود، وبذل جهده ليجمعهم على لغة واحدة، ففرض اللغة الماندية على الجميع، وجعل لغة التعليم هى اللغة الانجليزية، ويعبر عن هذه القضية بقوله: «إننى صينى بالقدر نفسه الذى يكون فيه الرئيس كيندى ايرلندى».. تأكيدا للهوية الواحدة، لبلد صغير يقع وسط عمالقة، بين الصين واليابان وأندونيسيا..

الغرب والشرق

ويأخذ عليه الغرب، أنه فرض الانضباط الاجتماعى عن طريق حكومة أبوية صارمة، وهو ليس ليبراليا بالقدر الكافى، وأنه رغم سيادة قوانين السوق فإنه لا يراعيها كما ينبغى، فالحكومة تسيطر - سواء ملكت أو لم تملك - على الحياة الاقتصادية، وبها قطاع حكومى كبير، وتملك بالكامل أو بنسبة كبيرة عددا من المؤسسات، وهى التى تقوم بضبط حركة السوق وتنظيم إيقاعه، ولايعنى ذلك وجود مركزية الاقتصاد، وتعفى الحكومة الشركات متعددة الجنسية من الضرائب والرسوم، وأصبحت الجزيرة مركزا للوكالات ومكانا لتوزيع التجارة العالمية، تنشط فيه الخدمات المالية والمصرفية، والمكان المفضل لشركات تجميع الكمبيوتر وغيره من الأجهزة الالكترونية، وظهر أن أهم عناصر الجذب هو مايتمتع به عمال سنغافورة من كفاءة وتفان فى العمل، ويكاد يختفى بها الفساد والمضاربة، والكثير من الأمراض الأخرى التى تعانى منها المراكز المالية الأخرى.

فمثلا المنشأة فى أمريكا هى مجموعة أسهم قابلة للبيع، أما المنشأة فى سنغافورة فهى أكبر من ذلك، فهى أحد ركائز المجتمع، وتقوم علاقة حميمة بينها وبين العاملين فيها.

ودأبت الصحافة الغربية على الهجوم على سنغافورة، بسبب الضوابط الموضوعة على حرية النشر والتعبير، رغم كل ما يقال عن الحرية وحقوق الإنسان، فمثلا لايسمح لمواطنى سنغافورة تركيب «الدش» أو استخدام «الكابل» لاستقبال المحطات الفضائية، وإذا رفض كتاب من السلطات، يوجد مكدسا عند المكتبات ولايقبل على شرائه أحد، فالمصلحة الجماعية تتغلب على المصلحة الفردية.

كما يؤخذ عليها أيضا هيمنة الزعيم «لى كوان يو» وحزبه، حزب العمل الشعبى، على البلاد منذ عام ١٩٥٩، وأن التعدد والحرية لم يصبحا بعد جزءا أصيلا من التجربة، ويتجاهلون أن «لى كوان يو» ليس له أى منصب رسمى، وأن سنغافورة نجحت بالفعل فى خلق توازن اجتماعى خاص بها، فيشارك المواطنون بإيجابية فى الحياة العامة، وتظل معدلات الإقبال على التصويت مرتفعة نسبيا، وهو

مجتمع أقرب إلى المساواة، فالتدرج فى الدخول أقوى مما هو عليه فى الغرب.

الآخر.. هو الشيطان!

ويبدو أن العقل الغربى لايتصور أن هناك طريقا غير طريقه، ولا أساليب سوى أساليبه، ولم تستطع الحضارة الغربية الانفتاح على غيرها من الحضارات، طوال تاريخها، وأظهرت دائما استعدادها للاستغناء على ماعند الآخر، وكان الغير عند الرومان هم البرابرة، وعند الفرنجة هم الشياطين، ولم يستطع العقل الأوربى فى القرنين التاسع عشر والعشرين أن يسبغ على سكان المستعمرات سوى وصف«الأهالى»!

وينظر الفكر الغربى إلى الفرد على أنه الأصل ، ولكن «النموذج الأسيوى» ينظر للفرد على أنه لم يوجد وحده، ويرى الفرد داخل الجماعة، وفى الغرب تقوم العلاقة بين القوى الاجتماعية على أساس حتمية الصراع، ولكنها فى سنغافورة والشرق بأسره تقوم على احتمال الوفاق، وإمكانية التوفيق بين الفرد والمجتمع قائمة، والتوفيق بين حرية الفرد وحرية الجماعة قائمة..

وقامت ضجة كبيرة فى الإعلام الغربى، عندما قامت سلطات سنغافورة بتوقيع العقوبة على صبى أمريكى قام بتشويه إحدى السيارات، ورفضت هذه السلطات التمييز فى تطبيق القانون.

الثقافة والمصير

ولنلق نظرة على آراء «لى كوان يو»، فأفكاره من ذلك النوع الذى يحرك العقل ويدعو للتأمل، وقد تحول إلى نجم فى الصحف والتليفزيون الأمريكى، يدلى بالأحاديث موجها النقد اللاذع لطريقة الحياة الأمريكية مع مقارنتها بالنموذج الأسيوى، ويحذر مما يراه خطرا على الشعب الأمريكى والعالم.

يقول فى حديث مع مجلة فورين أفيرز «مجلد ٧٣ عدد ٢».. «إن مايرفضه فى أمريكا هو العنف والجريمة والمخدرات، وانتشارها أحد نتائج المبالغة فى الحقوق الفردية، فالهدف الرئيسى فى الشرق هو إقامة مجتمع منظم يستطيع كل فرد ممارسة حريته، ولايمكن أن يمارس حريته إلا فى مجتمع يحكمه النظام والقانون، وضرب مثلا يبين الفرق بين الطريقة الأمريكية والطريقة الشرقية، فى معالجة بعض المشكلات، تواجه العالم مشكلة انتشار المخدرات، تواجه أمريكا هذه المشكلة بمساعدة الجهات فى البلاد المختلفة التى تكافح المخدرات، وتسعى إلى تجفيف المنابع ومنع زراعة المخدرات، ووصل بها الأمر إلى القبض على نورييجا رئيس جمهورية بنما وتقديمه للمحاكمة فى

مسجد السلطان بستفافوره



فلوريدا.

أما مقاومة انتشار المخدرات فى سنغافورة، فليس لدينا هذا الاختيار الأمريكى، وكل مانستطيع أن نعمله هو أن نسمح لرجال الأمن عندنا، بالتحليل للمشتبه فى أنهم تحت تأثير المخدر، وإذا ثبت تعاطى أحدهم المخدرات، يدخل فورا مصحة العلاج، ويعتبر مانقوم به عند الأمريكان مساس بالحرية الفردية واعتداء على حقوق الإنسان، ولايتفق مع القوالب المعروفة. أما القبض على رئيس دولة أجنبية ومحاكمته فهو لديهم أمر مألوف!!

ولم يظهر دليل واحد على أن الطريقة الأمريكية ستحل مشكلة المخدرات، وربما لايحل أيضا أسلوب سنغافورة المشكلة، ولكن على الأقل لقد بذلنا كل مانستطيع من أجل حلها.

ومن ناحية أخرى، لم يشغل الغرب طرق الحفاظ على القيم الرئيسية فى المجتمع، وأقام الغرب نظمه على أنه يمكن حل المشكلات بواسطة حكومة رشيدة، أما نحن فى الشرق فلا نعتقد أن ذلك كاف، ومسئولية الحفاظ على تلك القيم تقع على المجتمع.

والفارق الجوهرى بين المجتمعات الغربية والآسيوية يمكن تلخيصه فى رؤية كل منهما للمجتمع، فبينما رؤية الشرق أن الفرد جزء من الأسرة، والأسرة جزء من العائلة، والمجتمع هو مجموع هذه العائلات، ولاتملك الحكومة أن تقدم للفرد أفضل مما تستطيع أن تقدمه له العائلة، فتأتى الحكومة وتذهب، وتبقى القيم الراسخة فى وجدان الناس، أما لدى الغرب فالمسألة مقلوبة، تدعى الحكومة أنها سوف تحل كل المشكلات إذا حصلت على تفويض بذلك، وتذهب الإدارة وتأتى غيرها والمشكلات بلا حل.

ولابد أن يفرض النظام أولا فى أمريكا، ويختفى كل من العنف والجريمة والمخدرات، وهى الآفات التى تهدد المجتمع، فمثلا عندما يظهر العنف فى المدارس سيتراجع ويختفى بالضرورة التعليم، وتحتاج أمريكا ، لكى تحافظ على مستواها ، إلى التعليم وتدريب الأجيال المقبلة، ولكى يقوموا بذلك عليهم التوقف عن التمسك بالوصفة السحرية التى تقول.. إن كل المنجزات تتم وتأتى من أعلى.

وتستخدم العائلة فى سنغافورة كقوة محركة للحياة الاقتصادية، ونوظف طموح الفرد نحو عائلته من أجل تحقيق الخطة الاقتصادية، ودورنا يقوم على خلق قاعدة مدربة قادرة عن طريق نظام التعليم والتدريب، ويتحرك الدولاب الاقتصادى ويستطيع الشعب تحقيق أهدافه، وفى النهاية الشعب هو الذى يحقق الإنجاز أو الإخفاق، وتأتى الموروثات فتساعد الثقافة والمعتقدات الآسيوية على إعلاء قيمة العمل والولاء للأسرة والعمل على إسعادها،

ونظام القيم الكونفوشيوسى والنموذج الأسيوى يساعدنا، وهو مايختلف عن ثقافة التجربة والخطأ، ويلاحظ اشتراك دول شرق أسيا فى تقاليد النظام الصارم، واحترام المعلم، وهذا ساهم فى وضع الأساس الراسخ للوصول إلى تكنولوجيا جديدة متقدمة، وعلى تحقيق إنتاجية أفضل.

البنك الدولى والثقافة الأمريكية

ويرى «لى كوان يو» أن المؤسسات الدولية صبغت بالثقافة الأمريكية، والبنك الدولى يقوم بمهمة صعبة وغير منطقية، عندما يتجاهل العوامل الثقافية والحضارية فى الدول التى يتعامل معها، وهى التى تلعب دورا مهما فى المسألة الاقتصادية، كما أن نتائج عمل البنك الدولى فى حقيقتها هى جزء من المصالح الأمريكية . ويتعامل البنك الدولى على أساس أن كل البشر متساوون وهذا ليس صحيحا، وأن الشعوب فى الدول المختلفة هى نفس الشعوب ، وهذا أيضا غير صحيح، ومايقوم على خطأ يؤدى إلى نتائج غير صحيحة.

ولعل اليابان تقدم مجتمعا صناعيا يقوم على النموذج الأسيوى، فقد حافظت على العلاقات الإنسانية بين الأفراد، واستوعبت وطورت ، بلا حدود ، العلم والتكنولوجيا، ورغم مايحدثه العلم والتكنولوجيا من متغيرات، فى العقول وفى منظومة القيم مما سيغير نظام الحكومة بالقطع، ولكنه لن يأخذ مسار أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا، نعم تحولت سنغافورة من مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى، وزادت فى الوقت نفسه المعابد والكنائس.

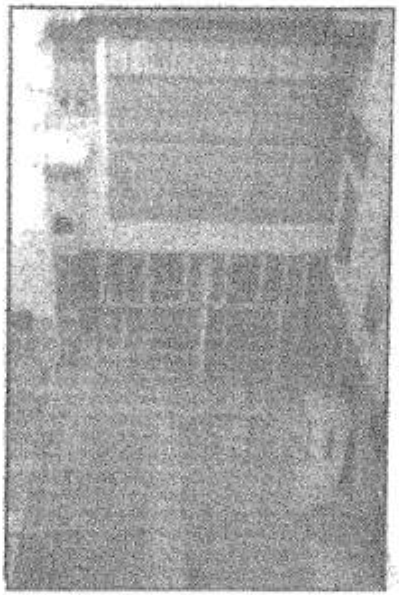
ويقى أن أقول: إن سنغافورة ، تلك المدينة ذات تكنولوجيا وتجارة وأعمال متقدمة ، هى جزء من الظاهرة الأسيوية التى تتمثل فى كوريا وتايوان وهونج كونج، وهذه الدول جميعا تحيط بالصين وتقع فى حوض المحيط الهادى، وبينها جميعا قسمات مشتركة، استثمرت فيها اليابان جزءا كبيرا من الفائض الرأسمالى لديها، وتشجيعها فكرة «الطريق الأسيوى الخاص».

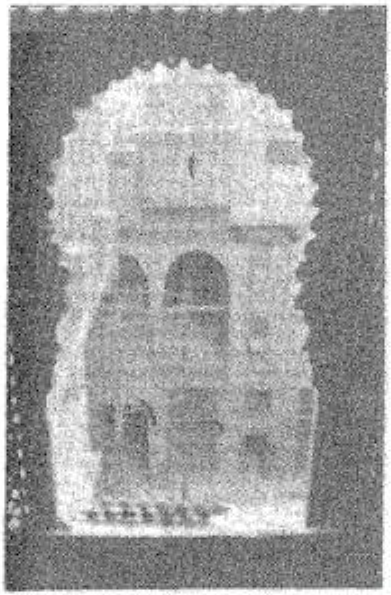
وتظل سنغافورة هى أقربهم إلى الولايات المتحدة وأهم شركائها التجاريين، ولها منفذ مستقبل إليها.

أى أن سنغافورة رمز لرفع مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج، ولى كوان يو رمز الأفكار والمبادىء القائمة وراء هذه النهضة، والتى تدور حول مسائل عديدة هى : من يستطيع أن ينتج أفضل؟.. ومن يستطيع أن يرفع مستويات المعيشة بمعدل أكبر؟... ومن يملك أفضل قوة عمل مدربة ومتعلمة؟..

وأخيرا... من ينظم بشكل أفضل؟.. .

ومن تساعده ثقافته على تحقيق هذه المبادىء فسيدخل بالفعل القرن الحادى والعشرين.





□ يبدأ ترميم مجمع الفنون الإسلامية على أحدث الأسس العلمية

بقلم : أحمد أبو كف

بيت السحيمي تخطيط ونموذج متكامل العناصر للمنزل الإسلامي، بفنائه المكشوف ومدخله المنكسر، فيه خصوصية تتمثل في غاية من المشربيات التي ترى الداخل ولايراها هو.

مجمع فنون إسلامية بمشربياته المتميزة، وقاعاته بالفساقي المرخمة والمزخرفة . فيه أيضا ملقف الهواء، نظام التكييف في العصر الإسلامي، لإدخال وتجديد الهواء.

يحتوي على شخشيخات، تنير الظلام، وتنظم التهوية أيضا تنظيما محكما، كما استخدم فيه بكثرة الشبابيك الجصية المعشقة بالزجاج الملون، والتي تكون زخارف نباتية وهندسية تبهج الأنظار.

خشب الخرط فيه غريب بوحداته الزخرفية، وأنواع مختلفة من الخشب الفاتح والداكن وعناصر كتابية بالنسخ والرقعة، تكتب بلون داكن، يبرز الإبداع الفنى للتشكيل الإسلامى، بالإضافة إلى دواليب حائطية وخزانات خشبية لحفظ محتويات المنزل. أيضا يتميز بيت السحيمى بوجود أماكن الكنز تحت البلاطة، يخفى فيها صاحب البيت مايريده من مال وأشياء ثمينة فى أكثر من مكان.

كان بالمنزل خزف إسلامى عثمانى نادر تم التحفظ عليه لحين انتهاء الترميم.

وكما يقول د. فهمى عبدالعليم رئيس قطاع الآثار الإسلامية، أن بيت السحيمى نموذج كامل متكامل فيه كل عناصر الفن الإسلامى، ويبدأ الترميم على أحدث الأسس العلمية.

هيئة الآثار تشرف على مشروعه الذى أوشك على الانتهاء ليبدأ الترميم على مراحل، ومسئول الصندوق العربى د. أسعد نديم يستعين بالخبراء المتميزين، وهو رجل مميز فى الحرف اليدوية والفنون الشعبية وأعمال الخشب الخرط والمشربيات، أما الأعمال الأخرى فيستعين فيها بالمتخصصين والمكاتب الاستشارية والخبراء، وهو عاشق للمنزل، وهو الذى كان وراء الصندوق العربى الكويتي لكى يتبرع بـ ٩٠٠ ألف دينار من أجل ترميم المنزل

أكبر وأهم أثر إسلامى

ومنزل السحيمى أكبر وأهم أثر إسلامى متكامل من العصر العثمانى .. وكان مزارا سياحيا، وتوقف بعد أن تدهور حاله.

والبيت له خصوصية أثرية وتاريخية مهمة، بالإضافة إلى أنه يمثل النموذج المتكامل الوحيد المتبقى لبيوت وقصور القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويقف شاهدا على تاريخ اجتماعى وثقافى، فهو يقدم مجموعة كبيرة من الحلول العبقرية التى توصل إليها الفنانون والحرفيون الإسلاميون، والتى كانت نتاج خبرات طويلة فى التصميم والممارسة العملية التى توارثتها الأجيال. لا يحتاج البيت إلى عمليات ترميم فحسب، وإنما يحتاج إلى دراسة توثيقية دقيقة لكل عناصر المبنى، بحيث يمكن بعد ذلك الرجوع إلى كل التفاصيل وإيجاد وثائق كاملة للمبنى فى وضعه الحالى، مع التوصيات الخاصة بالترميم وخطواته التنفيذية، فمع إحياء البيت من الناحية المعمارية والأثرية، يتم إحياء تقاليد توثيق عمليات الترميم، حتى يمكن الاستفادة منها كتجربة علمية تهدف إلى ترسيخ منهجية الترميم، وقد تم ذلك بالفعل.

ومنهج تنفيذ عملية الترميم كما يقول لى د . أسعد نديم، يأتى بالمحافظة على

العناصر الأثرية وعدم المساس بها أو استبدال أى شيء قديم إلا فى حالة الضرورة، وفى مثل هذه الحالات تستخدم نفس الخامات الأولية أو أقرب مايكون إليها، مع أفضل الحرفيين والفنانين التقليديين، والذين ينفذون كل منهم فى مجال إبداعه وتخصصه.. أى استبعاد «المقاول العمومى» فى مثل هذه الأعمال.

وبيت السحيمى يقع فى حارة الدرب الأصفر بحى الجمالية، وهو لايحمل اسم منشئه الحقيقى، وإنما اسم آخر من سكن البيت. والذى بناه فى العصر العثمانى اثنان، أحدهما بنى جزءه الجنوبى واسمه الشيخ عبدالوهاب الطبلاوى عام ١٦٤٨م، أما القسم الثانى فقد بناه الحاج إسماعيل شلبى، عام ١٧٠٣م، ثم فتح البيتان على بعضهما، وكان آخر من سكنه هو الشيخ محمد أمين السحيمى، شيخ رواق الأتراك بالجامع الأزهر عام ١٧٩٦م.

نموذج عثماني فريد

والمنزل نموذج للمبانى العثمانية الطراز، التي تتكون فى الغالب من ٣ طوابق على مساحة مستطيلة، مثل بيت الهراوى والست وسيلة، وزينب خاتون، ويتكون البيت من طابق السلاملك الذى يضم غرف استقبال الرجال، والثانى يعرف بالحرملك، ويشتمل على سكن العائلة وقاعات النساء، ويتوسط البيت صحن أو فناء، تطل عليه معظم القاعات والغرف بمشربيات من خشب الخرط بحيث ترى من فى الفناء ولا يرونها.. خاصة أيام الحفلات التي كانت تقام.

ويميز المنازل العثمانية بأنها لم يكن لها شبابيك وفتحات على الحارة، وان تصادف وجودها تكون على ارتفاع كبير بل تكون بحيث ترى من فى الحارة ولايراها هو، وغالبا ماتكون الفتحات بالطوابق العلوية من خلال مشربيات.

يشتمل المنزل العثمانى أيضا على مقعد صيفى يطل على فنائه، ويابين أحدهما رئيسى والآخر فرعى، كما يوجد خلف المنزل عادة حديقة كبيرة وتختبوش، وبأحد أركان الحديقة ساقية للمياه تزودها بما يحتاج إليه أهل البيت من المياه، ثم طاحونة للغلال والحبوب، ثم اسطبل، وغرفة سكن الحارس.

وتتميز الواجهات بأنها ثلاثة، إحداها رئيسية فى الناحية الجنوبية الغربية والأخريان فرعيتان فى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى.

وواجهة بيت السحيمى تشرف على حارة الدرب الأصفر، يتوسطها المدخل الرئيسي ومبنية بالحجر الجيرى والآجر ويؤدى المدخل إلى دركاة مربعة فرشت أرضيتها بالبلاط الحجارى، وتتصدرها مصاطب حجرية، غطيت بسقف من عروق

خشبية، ومطبقة بألواح من الخشب.

وفى الواجهتين الشمالية والغربية عدة أبواب تؤدى إلى ملحقات منزل إسماعيل شلبى، وغرفة ضريح الشيخ نصرالدين، ويؤدى باب آخر إلى حجرة صغيرة تستخدم كمخزن، والباب الثالث يؤدى إلى سلم حجرى يفضى إلى الطوابق العلوية، أما الرابع فيؤدى إلى السلاملك ببيت اسماعيل شلبى وإلى ملحقات أخرى بالمنزل، وهناك قاعة لتلاوة القرآن، ومطابخ وحمامات وغرف للخدم ثم قاعة طعام وأخرى للاستقبال، التى تتوسطها فسقية رخامية.

أرضيات المنزل أغلبها رخام، أو بلاط معصراني، أو بلاط حجاري..

والزخارف متنوعة، منها زخارف نباتية، وزخارف وأطباق نجمية، وحشوات مطعمة بالعاج، وتنتشر الخورنقات المزينة بزخرفة المفروكة والحشوات المجمعة كما تنتشر الأيوانات بالإضافة إلى أحجبة من خشب الخرط، وإزارات خشبية عليها كتابات مثل اسم المنشيء وتاريخ الإنشاء.

وأهم مايميز قاعة تلاوة القرآن دكك من خشب الخرط مخصصة للمقرئين.

كما أن المقعد الصيفي به مشربيات جميلة وخشب خرط، وبعضه معشق بالزجاج الملون، وإزار خشبى وجص عليه آية الكرسى.

وأهم ماتزود به المنازل العثمانية الحمامات، وهى مستطيلة الشكل، وينزل إليها بدرجات رخامية وفيها كراسى للراحة، وكل حمام مقسم إلى ٣ حجرات : ساخنة، ودافئة، وباردة، والأخيرتان أرضيتهما من البلاط الرخامى، وسقوفها قباب جصية بها فتحات يغطيها زجاج ملون.

وهناك بالمنزل خزانة كتب تلحق بالحرملك، وهى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل وكان الاهتمام بالتواليت أو كما يسمى كرسى راحة، ثم مخازن واسطبلات وحظائر وخزانات تحت البلاطة.

البيت مجمع للزخارف

والمنازل العثمانية، ومنها بيت السحيمى تعتبر مجمعا للزخارف والكتابات التى اتخذت أشكالا مختلفة، وقد استخدم فيها الفنان العناصر الهندسية ممثلة فى زخارف المفروكة، والأطباق النجمية والحشوات المجمعة، والزخرفة الزجزاجية والدالية، كما استخدم الفنان العناصر النباتية ممثلة فى القرنفل، وزهرة اللالة وأطباق الفاكهة وأشجار السرو، بالإضافة إلى نوعين عرفا فى العصر العثمانى وهما زخرفة الهاتاى، والرومى «الأرابيسك».

وكان للزخارف الكتابية دور بارز فى زخرفة أخشاب وحوائط المنزل وبعض

أسقفه.. مابين آيات قرآنية، ونصوص إنشائية، وأبيات شعرية، وخاصة أبيات من بردة البوصيري، وانحسر استخدام الفنان المسلم في استخدام نوعين من الخطوط، هما النسخ والرقعة، وكانا هما السائدان في العصر العثماني على النحو التالي:

فهناك نص أعلى مصراعي باب قاعة الاستقبال بالضلع الجنوبي للمنزل يقول:

«نصر من الله وفتح قريب، «وبشر المؤمنين يامحمد» و«كتب السعد على أبوابها» و«ادخلوها بسلام.. سنة ١١٤٢هـ.

وهناك نص على إزار المقعد الخشبي أسفل السقف يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم... إلى قوله تعالى وهو العلي العظيم». أنشأ هذا المكان المبارك من فيض الله وأنعامه، العبد الفقير الراجي عفو ربه ومغفرته، الشيخ الفاضل عبدالسلام الطبلاوي في عام ثمان وخمسين وألف».

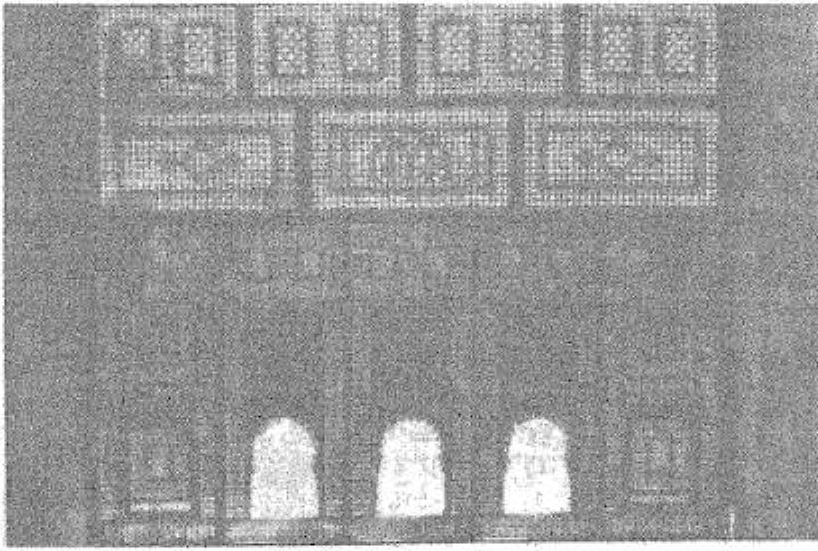
ونص آخر على الأزار الخشبي المحيط بجدران المقعد يحتوي على أبيات من بردة البوصيري، وهي سبع أبيات، ويلاحظ أنها غير مرتبة ومخالفة للقافية.

ونص أخر على الحرملك الخاص بزوجة منشيء بيت الطبلاوي، بالإيوان الشمالي الغربي، أسفل السقف مباشرة، وعلى أزار خشبي آيات قرآنية من سورة الفتح، وفي الضلع الجنوبي الشرقي للحرملك الخاص بزوجة الطبلاوي يوجد أسفل السقف ازار خشبي عليه آية الكرسي. أما الضلع الجنوبي الغربي أعلى المشربية فتوجد على نافذة من الجصيتين المعشق بالزجاج الملون كتابه نصها «وبشر المؤمنين، صدق الله العظيم»، كما يحيط بجدران الحرملك أيضا ازار خشبي كتبت عليه أبيات من بردة البوصيري والضلع الجنوبي الغربي للحرملك، نجد على نافذتيه الجصيتين أعلى المشربية كتابة تقول: «جدده محمد ابن شيخ الأتراك بالأزهر ١٣٢٥هـ».

وصف الجزء الثاني

أما الجزء الثاني من البيت الذي بناه اسماعيل شلبي، ففي قاعة السلاملك تجد أسفل السقف مباشرة أزاراً خشبيا عليه آية الكرسي. وفي الضلع الجنوبي الشرقي فتحة مستطيلة غشيت بحجاب من الخشب الخرط، يعلوها ازار خشبي عليه كتابة «نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين يامحمد». كما نجد آيات من سورة الفتح في الإيوان الشمالي الغربي للسلاملك، وخطوط في الضلعين الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي.

أما الدرقاعة الخاصة بالسلاملك فنجد كتابة تقول: «.... أنشأ هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى.... آمين».



وفى قاعة تلاوة القرآن كتابة على عتب رخامى عبارة عن ٤ أبيات شعرية نصها:

هذه روضة المحاسن فادخل
بسلام وفرحة وحبور
واغتنم فيها فرصة العمر هنا
بالحظ والأنس فى المساء والبكور
قاعة صانها المهيمن لطفا
عن رقيب وحاسد وكفور
فاخلع الهم عندها أرح
قاعة جاءك أنسها والسرور

ويتضمن الشطر الأخير من هذه الأبيات تاريخ الإنشاء وهو بحساب الجمل ١٢١٦هـ.

وكان فى الشخشيخة الخاصة بقاعة تلاوة القرآن تنور زجاجى عليه كتابة توضح اسم الصانع وهو «درويش مصطفى»، أزار سنة ١٥٧٢.. وهو تاريخ السنة القبطية المصرية.. وهذا التنور تم الاحتفاظ به لحين الانتهاء من الترميم. كما يوجد بقاعة الطعام فى هذا البيت بالناحية الجنوبية الشرقية بعض الكتابات، وفى الايوان الجنوبى الغربى وأسفل السقف مباشرة إزار خشبى عليه آيات قرآنية من سورة الفتح، وكذلك الشمالى الشرقى تكملة للسورة.. أما السدلة الجنوبية الشرقية للايوان الجنوبى الغربى فعليها ٦ أبيات شعرية تبدأ بالبيت الذى يقول:

إن الطعام يقوى شهوة النهم

والنفس كالطفل أن تهمله شب على
إلى البيت الأخير الذي يقول:
فرب مخمصة شر من التخم
ويحيط بقاعة الطعام ازار خشبي عليه أبيات من بردة البوصيري عددها ١٣ بيتا .. وتبدأ بالبيت الذي يقول:
أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
إلى أن يقول:
فإن أمارتي السوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم

بدء الترميم

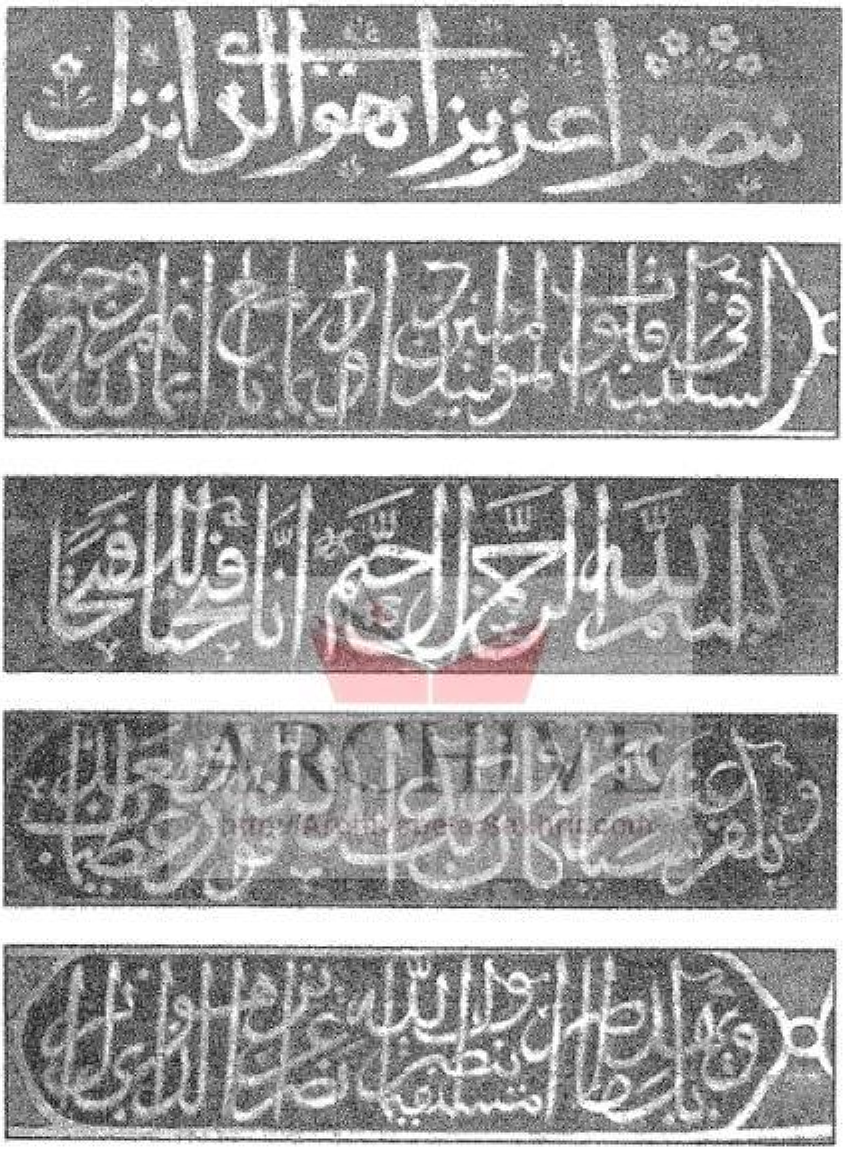
والترميم يبدأ الشهر القادم من حيث انتهت دراسات كثيرة وبحوث متعددة، وتقارير تفصيلية دقيقة ودراسات مستفيضة مزودة باللوحات والصور، ومسجلة على ديسكات الحاسب الآلي، بحيث يمكن توصيفها، وكما يقول د . أسعد نديم ان الدراسات تشمل دراسة تاريخية وأثرية، كما تشمل الرفع المساحي للأغراض الإنشائية، والرفع المعماري، ورفع التفاصيل والعناصر الزخرفية، والرفع المساحي لأساسات البيت، ودراسة شبكات المرافق العامة وعلاقتها بالمبنى الأثري، ودراسات عن الموقع وطبقات التربة ومناسيب المياه الأرضية، واختبارات مواد البناء الإنشائية والخامات الزخرفية، والأعمال الإنشائية، والظروف الجوية.

بالإضافة إلى أننا حفرنا ٢٨ حفرة، لاستكشاف نوع التربة ونوع الأساسات، وتقشير أجزاء البياض للتعرف على خامات البناء والحوائط والشروخ الأصلية.

ظل بيت السحيمي ضمن البيوت الأثرية الرائعة، التي تحتاج إلى اهتمام، وكانت الأموال هي المشكلة ، تقدم د . أسعد نديم خبير الفنون التقليدية بمشروع لترميمه عام ١٩٨٩ إلى الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي، وكان له صديق كويتي هو عبداللطيف الحمد زيارة لمصر، وقد زار الحمد في بيت السحيمي وأعجب به وتحمس لمشروع ترميمه، وصدر قرار من الصندوق العربي للإنماء، بمنحة قدرها ٩٠٠ ألف دينار كويتي لأعمال الترميم لبيت السحيمي الذي يربو عمره على ٢٥٠ عاما، ويبدأ التعاون مع المجلس الأعلى للآثار والصندوق العربي للإنماء، بحيث صار للبيت لجنة للإشراف على العمل تضم المتخصصين في المجلس الأعلى للآثار، ونائب محافظ القاهرة، ورئيس حي الجمالية، وكان لابد من إخلاء المنزل من شاغليه ومنع الزيارة، وحماية الأثر، وفصل المياه والصرف الصحي عنه.

السهل الممتنع

وكما يقول د. أسعد نديم: إن من عادة بناء البيوت والقصور في مصر العثمانية، أن يستخدم في بناء البيت كثير من



نماذج متعددة من التراث الإسلامى فى

الخطوط داخل بيت السحيمى

مختلف مواد البناء، مثل الأحجار والأجر ومونة التثبيت، فالأحجار الجيرية استعملت فى مداميك أفقية فى بناء الواجهات الخارجية للمنزل وكذلك بعض قاعات وغرف الطابق الأول.. ومونة التثبيت كانت من الجير والرمل والحمرة، بنسب معينة، كما استخدمت الأحجار كبلاطات لكثير من أرضيات المنزل وقاعاته وحجراته وايواناته، أما الآجر فقد استخدم فى بناء معظم غرف وقاعات وملحقات المنزل بالطابقين الثاني والثالث.

وكان للخشب دور بارز فى مواد البناء حيث استخدم فى معظم الأسقف، والأبواب والشبابيك والمشربيات والدكك، والخورنقات والأرفف ودرابزين السلالم، وكذلك الساقية والطاحونة والشخشيخات.

واستخدم الجص المعشق بالزجاج الملون بالنسبة لمنزل الطبلاوى فى عمل النوافذ فى قاعة الطعام، والحرملك، كذلك فى نوافذ الحرملك الخاص بمنزل اسماعيل شلبى، فى أماكن تعلو التختبوش بالضلع الشمالى الشرقى المطل على الفناء، وكذلك فى القبتين اللتين تسقفان كلا من الحجرة الساخنة والباردة فى الحمام، وأيضا سقف الحجرة الدافئة فى حمام منزل اسماعيل شلبى، كما استخدم الجص أيضا فى النوافذ التى تعلو قاعة الاستقبال بالناحية الشمالية الشرقية المطلة على الحديقة الخلفية، وكذلك نوافذ الحرملك.

أما الرخام فاستخدم كمادة بناء داخل بيت السحيمى فى أماكن كثيرة، مثل الأعمدة وأرضية الدرقاعات وغرف الحمام الثلاث، والعتب الذى يعلو مدخل قاعة تلاوة القرآن الكريم.

أما المعادن فقد اقتصر دورها على استعمالها كحجاب من السلك الرفيع لفتحات سقف الدرقاعة التى بقاعة الطعام، وكذلك فى عمل أحجبة من السلك للنوافذ بقاعة الاستقبال .

والقاشانى استخدم على شكل بلاطات مختلفة الزخارف والرسوم، وفى كسوة جدران قاعة الحرملك فى بيت اسماعيل شلبى.. كما استخدم الزجاج فى عمل الدلَق الزجاجية التى تعلق على نوافذ قاعة الطعام وكذلك فى نوافذ الجص المعشق.

وحول البياض والدهانات، فقد استخدم فى كسوة الجدران للغرف والقاعات وملحقات المنزل بلاط ذو لون أبيض، أما البلاط الأزرق فقد استخدم فى جدران الحرملك بالطابق الثانى.

البيت المرصود

ولأهمية بيت السحيمى وروعة فنونه أولته لجنة حفظ الآثار العربية رعايتها

وعنايتها، وأهتمت به وأجرت كثيرا من الترميمات على مدى المائة عام الأخيرة ومنذ عام ١٨٩٠م.

فبدأت عام ١٩٠٦ بعمل مقايسة بمبلغ ٦ جنيهات لتقوية سقف قاعته الكبيرة، بقضبان حديدية حتى تمنع الانحناء الحاصل فيه، وقد حدث وقتها نزاع بين اللجنة وساكن البيت في ذلك الوقت، والذى رفض عملية الترميم. .

وفى عام ١٩٣٠ قررت اللجنة اعتماد ٨ آلاف جنيه لشراء المنزل ومنقولاته وخاطبت في ذلك مصلحة التنظيم لتعديل التنظيم المار بالمنزل، بحيث تكون واجهته القبلية على خط التنظيم، ولقد فتح اعتمادا اضافيا عن طريق مجلس الوزراء وقتئذ لشراء المنزل وإصلاحه بمبلغ ٧ آلاف جنيه.

وفى عام ١٩٣٢ خصصت لجنة حفظ الآثار العربية مبلغ ٣٠٠ جنيه لترميم المنزل، و٢٠ جنيها لإصلاح الحديقتين، و٢٥ جنيها مصاريف صيانة سنوية، وقد نظفت جميع أخشاب المنزل، وسلمت الباب القديم للمنزل لدار الآثار العربية.

وفى عام ١٩٣٤ فرشت دار الآثار العربية المنزل بالأثاث التاريخى، وأجرت ترميمات بمبلغ وصل إلى ٥٠٠ جنيه، كما خصصت فى العام الذى يليه ٢٠٠ جنيه لتبليط الحديقة وطرقاتها والتخبيش، وإصلاح النجارة واستبدال شخشيخة إحدى القاعات.

وظل الترميم مستمرا فى أعوام ٣٦، و٤٠ و٤٥ ، حيث قررت إشغال جميع القاعات والغرف بالتحف فيما عدا ٥ قاعات لا تصلح لهذا الأمر، وفى عام ١٩٥٤ قررت وزارة الأوقاف استبقاء الأرض أمام المنزل فضاء.. أمام واجهة هذا البيت الأثرى.

لكن بعد هذا التاريخ شغل البيت الحارس وبعض السكان، وكان استخدام المياه والمجارى يؤثر على البيت، لكن تقرر أخيرا إجلاء من فى البيت لترميم المرحلة الأولى بين الصندوق العربى والمجلس الأعلى للآثار.

وكما يؤكد د. فهمى عبدالعليم رئيس قطاع الآثار الإسلامية، وسيد رشاد مدير عام الآثار الإسلامية فإن ترميم بيت السحيمى سيكون نموذجا علميا لما ينبغى أن يكون عليه الترميم، وهما يهيبان بالقادرين التبرع للصرف على بيوت إسلامية أخرى نادرة. فعمليات الترميم الكثيرة تقصر عنها جهود الدولة، وعلى القادرين أن يبادروا ويساهموا فى الإبقاء على هذه الآثار، بالتبرع لترميمها ■



هل حقا بنى داود مدينة القدس منذ ثلاثة آلاف عـــــام ؟!

بقلم : أحمد عثمان

أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن إقامة مهرجان ذى طابع عـالمى ، بعنوان «القـدس ٣٠٠٠» - الذى سيستمر أكثر من عام - قيل إنه يمثل الاحتفال بذكرى تأسيس مدينة القدس ، على يد الملك داود، كعاصمة لمملكة إسرائيل.

وبما أننا الآن في أول عام ١٩٩٦ بعد الميلاد، تكون المناسبة التي يحتفل بها الإسرائيليون قد تمت قبل ثلاثة آلاف عام في ١٠٠٥ قبل الميلاد . وهكذا حول الإسرائيليون حدثا رمزيا ذا طبيعة دينية إلي حقيقة واقعية، حددوا لها تاريخا.

ونحن نعرف أخبار النبي داود من الكتابات التي جاءت عنه في المصادر الدينية، مثل القرآن والتوراة والإنجيل . لكننا لا نعرف أي شيء عن الملك داود من مصادر التاريخ. فبالرغم من قيام رجال الآثار العالميين - والإسرائيليين كذلك - بالحفر في كل شبر من أرض فلسطين، فإن واحدا منهم لم يعثر ولو علي قطعة صغيرة من الفخار تشير إلي هذا الملك . كيف نعرف الوقت الذي عاش فيه داود، وأين كان مسكنه، والأهم من ذلك ما هو الدليل - بخلاف ما ذكره كتبة اليهود - علي أنه استولي علي مدينة القدس عام ١٠٠٥ قبل الميلاد، أو أنه قام ببناء أي جزء فيها. فالأدلة الأثرية - ليست فقط تجهل هذه الأحداث - ولكنها تختلف معها صراحة. وهكذا نري أن السلطات الإسرائيلية تريد أن تبيع الأسطورة علي أنها تاريخ ، ثم تطلب من العالم كله أن يصدق هذه الأسطورة.

وبحسب رواية العهد القديم، فإن الاعتقاد السائد هو أن الفترة التاريخية التي عاش فيها داود كانت عند بداية القرن العاشر قبل الميلاد ، فالدليل الوحيد الذي استند إليه رئيس وزراء إسرائيل الراحل، اسحق رابين للقيام بهذا الاحتفال، لم يرد في أي من مصادر التاريخ - ولا حتى في التوراة أو الإنجيل أو القرآن - وإنما ورد في سفرين من العهد القديم قام الكهنة بكتابتهما . فقد جاء في سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول - وهما رقم ١٠ و١١ من العهد القديم - أن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد حدودها بين النيل والفرات، وجعل القدس عاصمة لها.

أما الأدلة التاريخية التي تم العثور عليها حتى الآن، فهي تشير إلى أن داود العهد القديم، كان ملكا يرأس تحالف القبائل الإسرائيلية التي كانت تسكن في الهضاب الفلسطينية، وكانت معاركه الرئيسية في مواجهة الملوك الفلسطينيين القادمين من الساحل.

والقصة التي وردت في الإصحاح الخامس من صموئيل الثاني بخصوص استيلاء داود على مدينة القدس، تقول إن داود قام بالاستيلاء على مدينة القدس التي كانت محصنة :

«ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض ... وأخذ داود حصن صهيون «و هي مدينة داود» ، وعاش داود في الحصن وبنى تحصينات جديدة حوله «وارسل حيرام، ملك صور في لبنان، رسلا إلى داود وخشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتا» .

والمقصود بـ «الملك ورجاله» أن داود لم يعتمد على جيش قام بجمعه من بين قبائل بنى إسرائيل ، وإنما أخذ جيشه الخاص الذى يبلغ عدده حسب بعض الروايات ٤٠٠ رجل و٦٠٠ رجل حسب روايات أخرى. كما أن المقصود بـ «مدينة داود» هنا مدينة «القدس» والمفروض أن الملك بعد ذلك أقام خيمة للعبادة فى موضع قبة الصخرة، وضع فيها التابوت، كما يقال إن سليمان قد بنى حولها معبده بعد ذلك ولا يوجد أى دليل - فى المصادر الأخرى - على صحة هذه الواقعة .

ومع أن الرواية لا تعطى تفاصيل المعارك التى خاضها داود مع اليبوسيين الذين كانوا يعيشون فى مدينة القدس حتى يتمكن من الاستيلاء عليها، فإنها تشير إلى أن الطريقة التى استعملها الملك لدخول المدينة - التى كانت محصنة - اعتمدت على الخدعة إلى جانب القتال .

وبما أننا لم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود من أى مصدر تاريخى ولم ترد الإشارة إلى داود بنى إسرائيل - بالاسم أو بالكتابة - خارج الكتب الدينية، فقد كان من الطبيعى أن يحاول الأثريون فى العصر الحديث العثور على الأدلة التى تؤكد صحة هذا الجزء من القصة كما وردت عنه فى سفر صموئيل الثانى، من كتب العهد القديم. فالقصة تخبرنا بأن داود تمكن من الاستيلاء على مدينة القدس بعد معركة حربية، ثم قام ببناء استحكامات جديدة للمدينة . فإذا ماتم العثور على دليل أثرى يثبت إصابة أسوار القدس ببعض مظاهر الدمار، عند بداية القرن العاشر قبل الميلاد، وعلى إعادة بناء بعض الاستحكامات فى تلك الفترة، فلسوف يكون هذا كافيا لتصديق كل ما ورد فى هذه القصة بخصوص داود بنى إسرائيل . ولكن الذى حدث هو عكس ذلك تماما، فقد عجز الأثريون فى العثور على أية بقايا تدعم هذه الرواية.

● عمر يدخل القدس

تقع القدس على بعد ٥٦ كيلو مترا شرقى البحر المتوسط فوق هضبة جبلية ترتفع ٧٤٢ مترا عن سطح البحر، كانت مدينة صغيرة فى الأزمنة القديمة. أما المدينة القديمة الحالية، والتى تحيط بها الأسوار فلها سبع بوابات وتضم الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود، فقد بناها السلطان سليمان العثمانى فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . ثم اتسع القسم العربى خلال القرن العشرين شمال أسوار المدينة فى اتجاه رام الله بينما امتد القسم اليهودى إلى الغرب . وتبع العثمانيون النظام الذى استخدمه الرومان عندما قام الإمبراطور الرومانى هادريان بإعادة بناء القدس عام ١٣٥ بعد أن تم حرق المعبد وحرمان اليهود من دخولها . فقد بنى الرومان معبدا لجوبيتر مكان المعبد اليهودى الذى

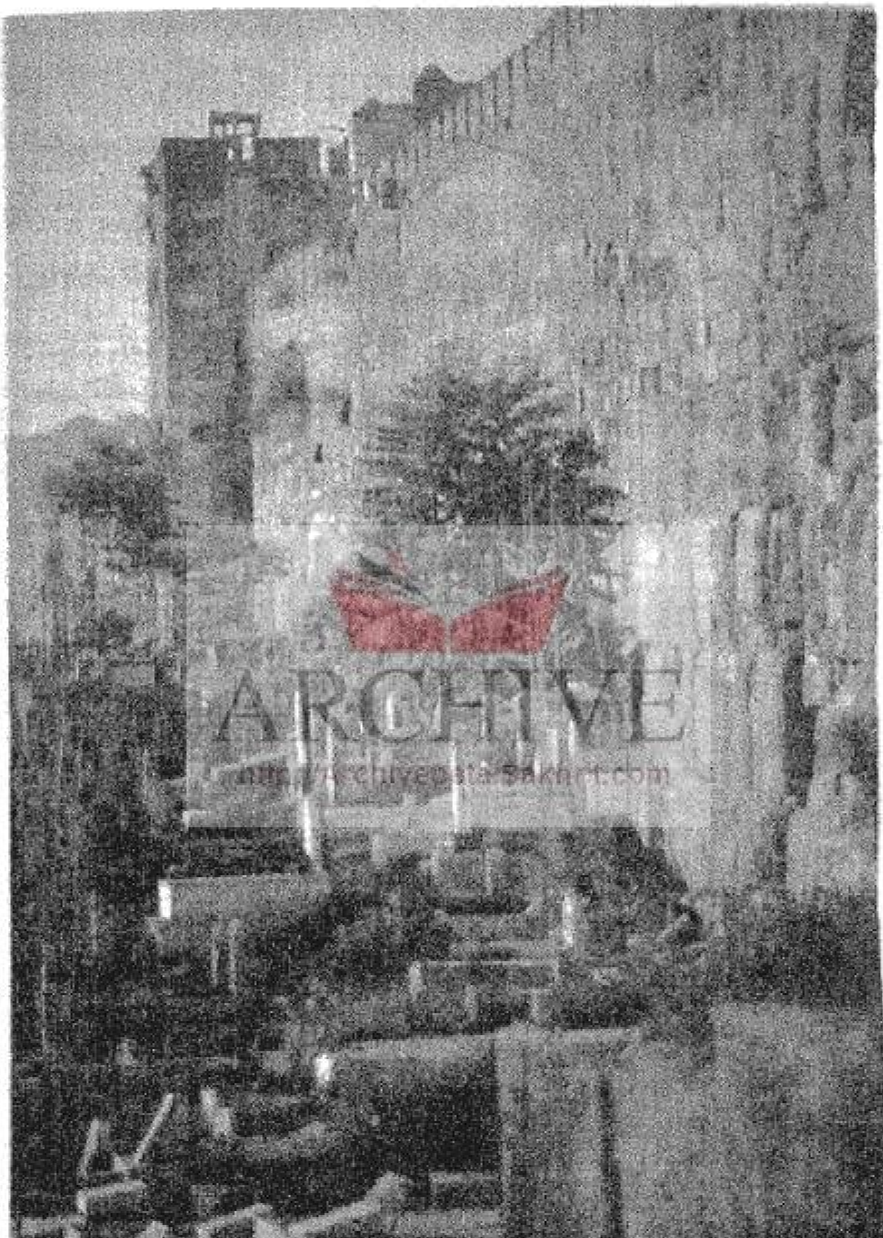
أحرقوه عام ٧٠ ميلادية، وفرضوا عقوبة الإعدام على أى يهودى يضبط داخل المدينة. ودخل عمر بن الخطاب مدينة القدس سلميا ، ولما وجد موقع صخرة المذبح مهجورا، فقد أقام عليه عمر مسجدا. وتقول كتابات اليهود إن عمر عرض عليهم أولا إعادة بناء المعبد فرفضوا حيث إنهم يعتقدون أن مسيحهم - الذى مازال منتظرا مجيئه - هو الذى سيقوم بإعادة بناء المعبد . وعندما أراد عبد الملك بن مروان أن يمنع أهل الشام من الذهاب إلى مكة للحج بعد أن صار ابن الزبير سيد مكة ، أقام الخليفة الأموى قبة فوق مسجد عمر، وبنى مسجدا آخر إلى الجنوب الغربي منه أطلق عليه اسم «المسجد الأقصى» .

أما المدينة التي كانت قائمة في زمن داود على شكل قلعة تحيط بها الأسوار - لا تتجاوز مساحتها ٤٤ ألف متر مربع أو حوالي عشرة أفدنة - تحتل الجزء الجنوبي الشرقي فقط من المدينة القديمة الحالية . وهى على شكل مستطيل أكثر أجزائه اتساعا لايتجاوز عرضه مائة متر، يحده من الشرق وادى كدرون ومن الغرب وادى حنوم ، الذى ينحنى شرقا جنوب المدينة ليلتقى مع وادى كدرون. أما الأرض المقدسة - وهى المسطح الذى تقام عليه الآن قبة الصخرة والمسجد الأقصى، والذى يقع على جزء أكثر ارتفاعا خلف مدينة الأزمنة القديمة - فقد كان يقع خارج أسوار القدس ولم تكن عليه أبنية في ذلك الزمان ، وإنما كانت الصخرة التى أقيمت فوقها القبة، تعتبر مذبحا لليبوسيين الذين سكنوا القدس في تلك الحقبة من الزمان .

وعين الماء التي يتحدث عنها سفر صموئيل هى عين العذراء - أو عين أم الدرج - الحالية ، والتى كانت تقع أسفل شمالي شرق المدينة كما تمكن الأثريون من العثور على البئر التي حفرها اليبوسيون للوصول إلى نبع الماء. وقد عثر الأثريون كذلك على أجزاء كبيرة من الأسوار واستحكامات القديمة، ولكنهم لم يجدوا ما يدل، لا على أثر تحطيم أى الاستحكامات، ولا لبناء استحكامات جديدة في عصر داود، خلال القرن العاشر قبل الميلاد. وإن كانوا قد عثروا على ما يثبت تجديد بعض الأسوار قبل ذلك بأربعة قرون. وبينما الاسم العربى للمدينة هو «القدس» أو «بيت المقدس» نسبة إلى أماكن العبادة التى أقيمت بها، فإن اليهود يسمونها «أورشاليم» أى «مدينة السلام»، فكلمة «أور» تعنى «مدينة» وكلمة «شليم» تعني «السلام».

وعلى ذلك فإن القصة التي وردت فى سفر صموئيل الثاني بدخول داود بنى إسرائيل إلى مدينة القدس عند بداية القرن العاشر ق. م وتحويله منطقة الصخرة المقدسة إلى مركز للعبادة لبنى إسرائيل، ليس لها أى دليل من المصادر

أسوار القدس التي أعاد بناءها صلاح الدين الايوبي عام ١١٩١م



التاريخية، وتكون مدينة القدس قد ظلت فى أيدى أصحابها الأصليين فى تلك الفترة من الزمان.

وتتفق القصة القرآنية مع قصة العهد القديم فى أن سليمان كان من «آل داود» كما «ورث سليمان داود» . ولكن القصة القرآنية تختلف اختلافا جوهريا عن قصة العهد القديم، فى أنها لا تذكر لنا أى شىء عن أن سليمان كانت له مملكة تمتد حدودها بين النيل والفرات ، ولا بأنه هو الذى قام ببناء معبد القدس . فنحن لا نجد فى القرآن ذكرا للقدس أو بيت المقدس أو المسجد الأقصى ، فى الروايات المتعلقة بسليمان أو بداود أبيه .

فكل الأدلة المتوافرة الآن تؤكد أن بنى إسرائيل لم يدخلوا مدينة أورشليم ولا هم قدسوا فى معبدها، وكان اليهود العائدون من بابل هم أول من فعل ذلك بعد سقوط الإمبراطورية البابلية على يد قورش الفارسى. وإنما أضيفت هذه المعلومات التى لا أصل لها من التاريخ إلى أسفار العهد القديم فيما بعد، لتعطى صفة شرعية لاستيلاء اليهود على القدس . فمن المعروف أن كتب التوراة الخمسة الأولى - المنسوبة إلى موسى - هى فقط التى تمت كتابتها خلال القرن السادس قبل الميلاد، أما باقى أسفار العهد القديم فهى لم تأخذ شكلها الحالى إلا بعد ذلك بثلاثة قرون فبينما كانت سياسة البابليين تقوم على تهديم أماكن العبادة للشعوب التى تخضع لهم، ونقل أصنام المعبد وأوعيته إلى بابل، جاءت سياسة قورش مخالفة لذلك تماما .

فهو قد أمر بإعادة بناء المعابد المهدمة فى أنحاء الإمبراطورية، وإعادة أصنامها وأوعيتها إليها.. على أن يتم الدعاء له عند أداء الطقوس الدينية فى كل هذه المعابد، وسمح لمن يريد العودة من الأقوام المسبية بالرجوع إلى أوطانها الأصلية .

ولما كان معبد اليبوسيين فى القدس من بين المعابد التى تقرر إعادة بنائها فقد أمر قورش واحدا من موظفيه «شيش بصر» ، وهو - كما هو واضح من اسمه - فارسى الأصل، بالذهاب إلى القدس للإشراف على بناء المعبد ، كما أصدر أوامره إلى المشرف على الخزانة بأن يسلمه أوعية المعبد لأخذها معه. وفى الوقت نفسه عاد بعض اليهود إلى مدنهم تحت قيادة رئيس لهم يسمى زروبابل، وحسب الأسماء الواردة للعائدين فى سفرى عزرا ونحميا فإنهم كانوا ينتمون إلى حوالى ١٧ موقعا مختلفا ، وليس منهم من ينتمى إلى مدينة القدس ذاتها. وفى القدس اقتصرت مهمة المندوب الفارسى شيش بصر على إعادة بناء المذبح فقط، فهو لم يهتم باستكمال بناء المعبد. وبالرغم من أن اليهود كانت لهم عدة مراكز للعبادة فى بعض الأماكن الجبلية التى تقع شمالى أورشليم، مثل «مذبح» و«شكيم» و«بيت

إيل» ، فإن مذبح الصخرة فى القدس - حتى قبل بناء المعبد حولها منذ مئات السنين - كان يعتبر أهم مكان للعبادة ليس فقط لكل الأقوام التى سكنت أرض كنعان ، وإنما كذلك للعمونيين الذين كانوا يسكنون شرقى نهر الأردن . وبمجرد إعادة بناء المذبح بدأت كل هذه الأقوام - بمن فيهم اليهود - زيارة القدس للعبادة .

لهذا فعندما قرر اليهود بقيادة زروبابل استكمال بناء الهيكل، أرادت الأقوام الأخرى المشاركة فى هذا العمل:

منع اليهود من بناء المعبد

وبالفعل نجح اعتراض الشعوب الفلسطينية فى منع اليهود من إكمال المعبد وحدهم، واستمر الأمر كذلك باقى أيام قورش وطوال أيام قمبيز خليفته، ولكنهم أعادوا المحاولة فى بداية حكم داريوس الذى تلاه، وفى هذه المرة كذلك قرر الوالى الفارسى لمنطقة عبر الفرات منعهم من الاستمرار فى البناء وأرسل يستشير الملك ماذا يجب عمله. وكان البلاط الملكى الفارسى يحتوى على عدد كبير من اليهود الذين نصحوا داريوس بالموافقة على قيام أهل يهودا ببناء المعبد حتى يقوموا بالدعاء له هناك. فوافق داريوس على قيام اليهود بإكمال بناء معبد القدس على أن تتحمل خزانة عبر الفرات كل التكاليف، بما فى ذلك تكاليف العبادة نفسها، حتى يؤكد الطبيعة العامة لهذا العمل. ويلاحظ أن ملوك الفرس لم يذكروا اسم «يهوه» إله يهودا عند التحدث عن معبد القدس، وإنما كانوا يسمونه «رب السماء» .

وأكمل اليهود بناء المعبد فى أيام داريوس الفارسى، ومع ذلك - ونظرا لأن المعبد قد تم بناؤه والإنفاق عليه من المال العام - فهو قد أصبح مزارا لكل الأقوام التى تسكن فى المنطقة وليس لليهود وحدهم. فكانت الخطوة التالية لليهود هى محاولة بناء أسوار حول المدينة حتى يتمكنوا من منع الآخرين من دخولها، كما أنهم كانوا يهدفون إلى إعادة بناء مدينة القدس نفسها وجلب اليهود لتسكينهم فيها ولكن الأقوام الأخرى اعترضت على هذا و رسلوا خطابا للملك .

وهكذا فشلت محاولة اليهود الأولى للاستيلاء على مدينة اليبوسيين ولكن هذا لم يمنعهم من إعادة الكرة . وكانت المحاولة الثانية أكثر نجاحا من الأولى حيث إنهم حاولوا التأثير على الملك الفارسى نفسه. فقد اختلف الملك احشويروش مع زوجته الملكة، فتركها وتزوج من فتاة يهودية اسمها أستير أصبحت هى الملكة الجديدة، وأحبها الملك حبا كبيرا وكان راغبا فى عمل كل ما يرضيها. وكان أول ماأرضاها وعملت فى

تحقيقه هو طرد هامان وزير أحشويروش الأول – والذى كان ينصح الملك بعدم السماح لليهود بالاستيلاء على القدس – وتعيين عمها مردخاى مكانه .

وأراد يهودي آخر ، هو نحميا خصى الملك الذى كان يعمل ساقيا له، الحصول على فرمان ملكى يصرح لليهود ببناء القدس فدخل على الملك، وكانت أستير الملكة تجلس بجانبه .

«فحملت الخمر وأعطيت الملك. ولم أكن قبل مكمدا أمامه. فقال لى الملك لماذا وجهك مكمد وأنت غير مريض . ماهذا إلا كآبة قلب. فخفت كثيرا جدا وقلت للملك ليحيى الملك إلى الأبد. كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النيران . فقال الملك ماذا طالب أنت ... قلت للملك إذا سر الملك وإذا أحسن عبدك أمامك ترسلنى إلى يهودا إلى مدينة قبور آبائى فأبنيها ، فقال لى الملك والملكة جالسة بجانبه إلى متى يكون سفرك ومتى ترجع . فحسن لدى الملك وأرسلنى فعينت له زمانا . وقلت للملك إن حسن عند الملك فلتعط لى رسائلي إلى ولاة عبر النهر لكى يجيزونى حتى أصل إلى يهوذا».

وهكذا استطاع نحميا اليهودى خصى الملك ، بتأثير من أستير اليهودية زوجة الملك ومردخاى اليهودى الوزير الأول للملك، أن يحصل على فرمان من إمبراطور فارس بتعيينه واليا على يهودا والسماح له ببناء مدينة القدس. وعبثا حاول سكان فلسطين منع نحميا من إكمال العمل، فهو كان قد حصل على أمر إمبراطورى فى هذه المرة . وبعد أن استكمل نحميا بناء أسوار القدس ، قام ببناء بيوتها، ثم أجبر قبائل يهودا على أن ترسل كل منها نسبة ١٠٪ من تعدادها ليسكنوا مدينة اليبوسيين فتصير لهم.

هذه هى القصة الحقيقية لاستيلاء كهنة اليهود على مدينة القدس التى كانت ملكا لليبوسيين حتى حطمها البابليون عن آخرها، فى القرن السادس قبل الميلاد وظلت خرابا أكثر من قرن من الزمان ، حتى حصل اليهود على تصريح من الفرس بإعادة بناء المعبد فاستولوا على المدينة كذلك. وعلى هذا فإن الاحتفال الذى تقوم به السلطات الإسرائيلية الآن، ما هو إلا محاولة جديدة لتدعيم فكرة الحق التاريخى لليهود فى مدينة القدس، عن طريق تحويل الأساطير القديمة إلى حقائق تاريخية. ■

القدس

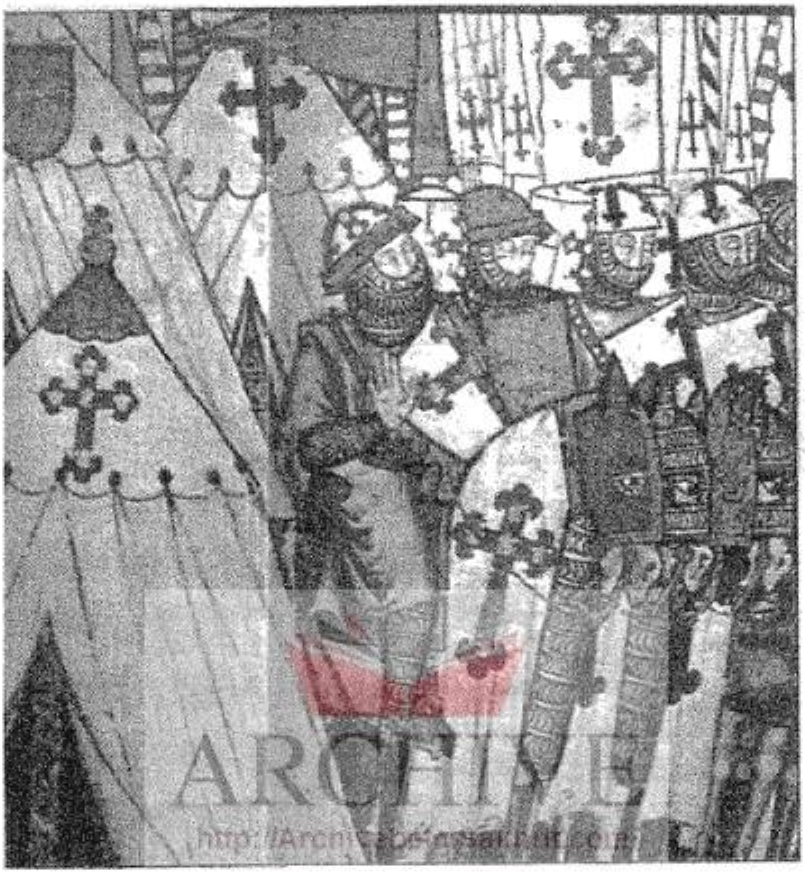
والحروب الصليبية

بقلم : د . قاسم عبده قاسم

ليست القدس مجرد مدينة مثل مئات المدن المنثورة فى أرجاء الأرض. والقدس ليست مجرد «حالة ديموجرافية»، أو «ظاهرة تاريخية»، أو «موقع جغرافى»، وإنما هى ذلك كله وما يتعدى ذلك كله. فالقدس رمز فى الصراع الذى بدأ منذ قرن أو أكثر، ببداية الدعوة الصهيونية، ولايزال مشتعلاً حتى الآن بين العرب والصهيونية. والقدس رمز للصراع الحضارى، صراع الوجود الذى يخوضه العرب، بدون نجاح كبير حتى الآن، ضد الصهيونية وظهيرها المساند فى أوربا وأمريكا.

فالقدس عروس العروبة ودرة الإسلام، ثالث الحرمين وأولى القبلتين، وهى قطعة حية من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية التى عاشت عطاء للعالم عمراً يزيد على ألف سنة .

القدس العربية فردت جناح الرحمة والتسامح لكل الذين عاشوا فى رحابها منذ تسلم عمر بن الخطاب مفاتيحها من البطريرك صفرو نيوس حتى داهمها الغزو الصليبى بأقدامه الغليظة مرة، ودهمها الغزو الصهيونى مرة أخرى. وبين المرتين مضى أكثر من ثمانية قرون ونصف، بيد أن هدفهما فى المرتين كان واحداً. كما أنهما قاما على نفس فكرة الأرض الموعودة وشعب الله المختار. وعلى الرغم



لوحة للجنود الصليبيين محفوظة فى المكتبة الوطنية بفلورنسا

مما قد يبدو هنا على أنه مفارقة، فالحقيقة التاريخية تؤكد أن العنصر التوراتى فى الأيديولوجية الصليبية والأيديولوجية الصهيونية كان واضحاً بالقدر الذى لايمكن إغفاله، كما أن هذه الحقيقة التاريخية ذاتها تؤكد أن القضاء على الكيان الحضارى للمنطقة العربية، بتراثها الإسلامى العربى وثرواتها، كان هدف الحركة الصليبية ولايزال هدفاً للحركة الصهيونية. والمثير أيضاً أنه فى الحالين جاءت الحشود العسكرية من أوربا تواكبها وتسير فى ركابها حشود المستوطنين يزرعون المستوطنات، وينشرون نار الحرب والتعصب والخراب.

وعلى الرغم من إغراءات موضوع العلاقة بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية فاننا سوف نقصر حديثنا عن الحروب الصليبية، وعن القدس فى خضم أحداث المواجهة بين المنطقة العربية والغرب الأوربى بشكل أكثر تحديداً.

ولنبدأ القصة من أولها...

بدأت أحداث الحركة الصليبية فى مدينة صغيرة بالجنوب الفرنسى فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م، أى منذ ألف سنة وشهور قليلة.

كان البابا الكاثوليكى إربان الثانى قد أعد خطبة احتفالية بمناسبة انتهاء أعمال مجمع كليرمون ويبدو أن البابا كان قد أعد العدة لهذا الاحتفال بشكل جيد، فقد تمكن الأساقفة والرهبان الفرنسيون من إقناع كبار الأمراء الإقطاعيين لسماع خطبة البابا وكانت الاستجابة مرضية إلى حد كبير، إذ اجتمع حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين، لسماع البابا فى حقل فسيح بين تلال أوفرينى خارج مدينة كليرمون. وقد جاءت خطبة البابا لتداعب أوتارا حساسة لدى جميع الحاضرين.

وعلى الرغم من أننا لانملك نصاً موثقاً لخطبة البابا إربان الثانى، فإن دراسة روايات المؤرخين من شهود العيان ومن المعاصرين للحملة الصليبية الأولى تجعلنا نرجح أن الخطبة تضمنت الدعوة إلى حملة «مقدسة» بأمر الرب، إلى فلسطين والقدس عاصمتها.

● رحلات الحج المسيحى

والحقيقة أن أهمية القدس بالنسبة للمسيحيين نمت نموا شبه عضوى مع تزايد أهمية الحج المسيحى إلى المدينة المقدسة وفلسطين منذ بداية الوجود التاريخى للمسيحية، فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية على المسيحيين، مثلما هو الحال فى الإسلام، فإن الجذب العاطفى نحو الأرض التى شهدت قصة المسيح ظل يشد المسيحيين على نحو متزايد مع مرور الزمن. ففى أيام المسيحية الأولى كانت رحلات الحج المسيحية إلى فلسطين نادرة لأن السلطات الرومانية الحاكمة كانت قد دمرت القدس فى حوادث سنة ٧٠م إلى أن أعاد الامبراطور هادريان بناءها وأقام بها معبداً للربة فينوس. وفى القرن الميلادى الثالث صار الكهف الذى شهد مولد المسيح معروفاً. ومع ذلك كانت حركة الحج المسيحية محدودة إلى القدس وفلسطين.

وبعد انتصار المسيحية بفضل الامبراطور قسطنطين الكبير فى بدايات القرن الرابع الميلادى زادت حركة الحج من أوربا إلى فلسطين، ثم جاءت هيلينا أم الامبراطور «القديسة هيلانة فيما بعد» إلى

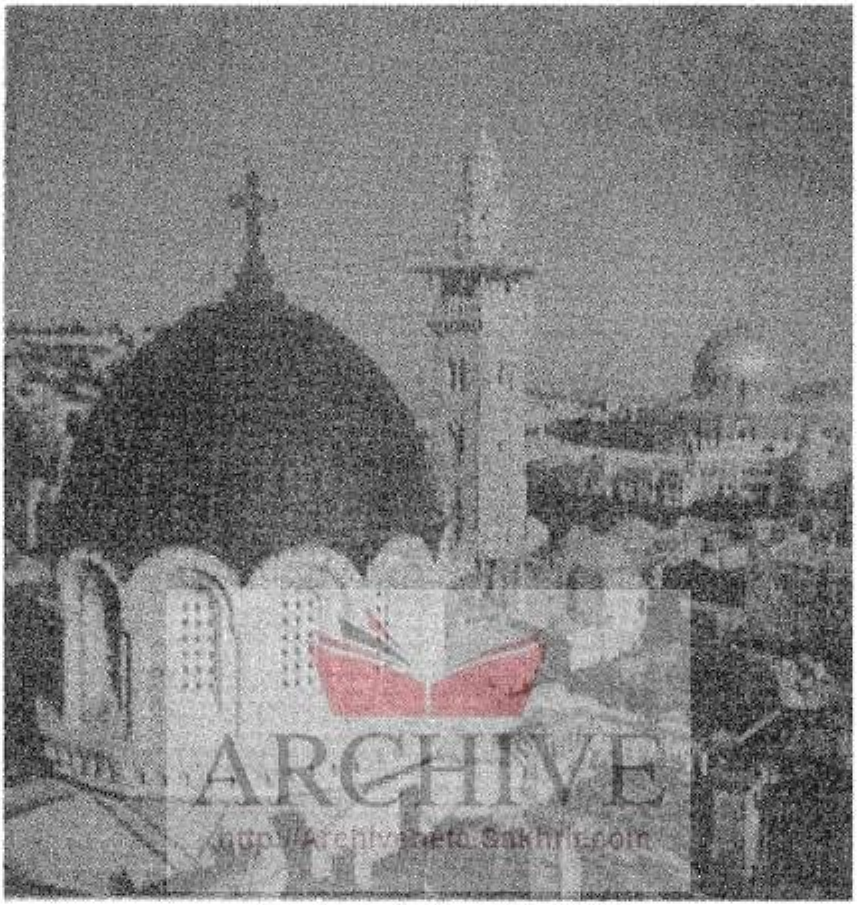
فلسطين حيث قيل إنها اكتشفت خشبة الصليب الأعظم وبنى ابنها الامبراطور كنيسة الضريح المقدس. ونتيجة لهذا زادت رحلات الحج من أوربا إلى فلسطين، واتخذت شكلا فردياً فى بداية الأمر وهكذا كان المسيحيون الذين زاروا القدس وفلسطين فى القرون المسيحية الأولى يريدون أن يقتفوا خطوات المسيح وحوارييه وخطوات الأنبياء على أرض فلسطين وكان الهدف استعادة أفضل الذكريات والقصص الواردة فى الكتاب المقدس. ولذلك كان بعض هؤلاء يحرصون على الأكل فى كهف أكل فيه المسيح مع حوارييه، كما كانوا يحرصون على الاستحمام فى مياه نهر الأردن التى تم فيها تعميد المسيح.

وتزايدت أعداد الحجاج القادمين من غرب أوربا، وقامت الأديرة ونُزُل الضيافة باستقبال هذه الأعداد المتزايدة، وبعد الفتح الإسلامى لفلسطين ظلت الأعداد المتزايدة من حجاج بيت المقدس تفد إلى فلسطين، إذ إن الحج إلى بيت الله الحرام من الفروض الإسلامية «لمن استطاع إليه سبيلاً»، ومن ثم تسامح الحكام المسلمون تجاه رحلات المسيحيين الأوربيين.

وزادت حركة الحج الأوربية إلى القدس وفلسطين أهمية حين ربطت الكنيسة الكاثوليكية بين الحج والتوبة، فقد رأت الكنيسة أنها غير قادرة على منع الحج المسيحى وحولته إلى أداة من أدوات التكفير عن الذنوب داخل نظام وضعته وأشرفت على تنفيذه. كان أهم ملامح هذا النظام أن تكون التوبة، أو العمل الذى يكفر به الفرد عن ذنبه مساويا لهذا الذنب، وتم وضع قوائم بالأعمال التى يكفر بها المذنبون عن خطاياهم، وكان الحج إلى أحد المزارات المقدسة لدى الكاثوليك واحداً من أهم هذه الأعمال التى تجلب الغفران. بيد أن فكرة الغفران لم تصبح فعالة حقاً سوى بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس. وكانت فكرة الرحلة إلى القدس تحتل مكانة خاصة، كما كانت لها قيمتها السامية بين رحلات الحج إلى المزارات المسيحية الأخرى.

● القدس وقصة المسيح

حقيقة أن القدس كانت ذات جاذبية طاغية بسبب ارتباطها بقصة المسيح وقصص العهد القديم، فضلاً عن طول الرحلة وصعوباتها، ولكن يبدو أن السعى إلى الكمال كان أهم حافز للقيام بهذه الرحلة، فقد ساد الاعتقاد بأن من يقوم بهذه الرحلة يكرس نفسه للرب من جديد، ليبدأ حياة جديدة لاتشوبها الذنوب والخطايا. وإذ أرست الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج إلى القدس هى طريق الخلاص تزايد إقبال الناس على



قبة الكنيسة تعانق قبة الصخرة فى القدس

المشاركة فيها. وكان القرن العاشر الميلادى بداية عصر الحج الكبير من أوربا إلى فلسطين، بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران من ناحية، واستقرار الأوضاع فى حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى؛ فضلاً عن قيام العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية، والامبراطورية البيزنطية، ومصر والشام، وما فرضته من ضرورات السلام والهدوء.

● أوربا والغزو!

وعلى الرغم من كل ما ذكرناه عن الحج، فإن الفكرة الصليبية كانت نتاجاً

لمجتمع يعانى من مشكلات النمو والتحول. وكان عجز أوربا عن إعالة أبنائها من أهم أسباب التوجه نحو الغزو والتوسع على حساب الآخر. وكان الآخر آنذاك هم العرب خاصة والمسلمين بشكل عام، ولم تكن هناك إيديولوجية مناسبة لتبرير الغزو والتوسع أفضل من الإيديولوجية التى تقوم على أساس الدين. وكانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هى أكثر العوامل حسماً فى ظهور الحركة الصليبية التى شغلت مساحة من الزمن زادت على قرنين من الزمان فى أدوارها النشطة، كما كان مداها الجغرافى شاسعاً امتد من الجزر البريطانية حتى أعالى الفرات، بيد أن هذا موضوع آخر.

ولنعد إلى القدس. لقد كانت الأفكار والتطورات التاريخية التى جرت على أوربا منذ اعتناقها المسيحية حتى ذلك اليوم من أيام نوفمبر سنة ١٠٩٥م تمهيداً للمشهد التاريخى المثير. فقد ذكر البابا أن هدف «الحرب المقدسة» التى يدعو إليها تحرير الأرض المقدسة من قبضة المسلمين، هذه الأرض التى قال الكتاب المقدس إنها تفيض باللبن والعسل، ووصفها البابا بأنها ميراث المسيح ووعد المشاركين فيها بالغفران لذنوبهم، كما لوح لهم بالمكاسب الدنيوية.

على أية حال سرعان ما تبلورت الاستجابة الحماسية لخطبة إربان فى نوعين من الجيوش: جيوش الفلاحين والعامة التى عرفت باسم «الحملات الشعبية»، وجيوش الأمراء. وبينما كان النبلاء يبحثون عن الموارد اللازمة لتجهيز جيوشهم تجمعت حركة شعبية ارتبطت باسم بطرس الناسك الذى جمع بين الفصاحة وقوة البيان من جهة، والمظهر المزرى من جهة أخرى. فقد كان ذلك الراهب الفصيح حافياً رث الثياب بينه وبين حماره شبه عجيب...

● فشل مزر

وبعد رحلة الألف ومائتى ميل باءت الحملات الشعبية الصليبية بفشل مزر جسد الحقيقة التاريخية القائلة بأن طلائع الصليبيين مرغت «المثال الصليبى» فى طين أطماعهم ووحشيتهم. فعلى طول الطريق كانت القرى المحترقة، والقتلى والجرحى دليلاً ناصعاً على أن «جيش الرب» مرّ من هنا.

ثم بدأت جيوش الأمراء رحيلها صوب القدس فى أواخر سنة ١٠٩٦م وقد تكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية وعلى أساس من الروابط الاقطاعية من ناحية ثانية ولسنا هنا بصدد تفاصيل تلك الحملة التى توصف عادة بأنها «الحملة الصليبية الأولى»، وإنما يكفى أن نشير إلى أن هذه

الحملة وصلت إلى «أرض العدو» بعد عدة تطورات كشفت عن أن العامل الدينى قد توارى خجلاً أمام العوامل السياسية والاقتصادية والنفسية التى حركت قادة جيوش الحملة الأولى. وكانت نزاعاتهم المسلحة مع الامبراطورية البيزنطية وخصوماتهم الداخلية من أهم أعراض هذه الحال.

لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسي فى المنطقة العربية. إذ كانت الكيانات السياسية العربية والسلجوقية كلها متورطة تماماً فى الحروب والمنازعات على مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، وعندما قدموا لم يكن لدى حكام المنطقة العربية سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه بعضهم البعض.

كانت تلك ظروفا مثالية للتقدم الصليبى، ووصل الجيش الصليبى إلى أنطاكية التى تقع على منحدر قريب من البحر المتوسط وعلى منحدر يؤدى إلى وادى نهر العاصى الخصيب. وفى الحادى والعشرين من اكتوبر سنة ١٠٩٧م فرض الصليبيون حصارهم على المدينة. ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها سوى عن طريق الخيانة فى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨م. واختلف الزعماء الصليبيون حول ملكية أنطاكية فكادت الحرب تنشب بينهم، وتجسد الإفلاس الإيديولوجى للحملة، وهدد العامة بإحراق المدينة. وهنا تذكر القادة القدس هدف رحلتهم... فتحركوا صوبها فى يناير سنة ١٠٩٩م.

كان الفصل الأخير فى الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذى فرضه الصليبيون على القدس على مدى خمسة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م ولم يكن هناك ما يلائم هذا الموقف سوى تلفيق بعض أخبار الرؤى والأحلام المقدسة.

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة المقدسة، وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام، وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة فى شوارع القدس عدة أيام.

فى هذا الجو الموحش الكئيب اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة لأداء صلاة الشكر ولاتزال أيديهم ملطخة بدماء الضحايا. وهكذا كان سقوط القدس إعلانا لزرع الكيان الصليبى تحت سماء المنطقة العربية وانتهى المشهد الأول فى قصة القدس والحروب الصليبية.

○ القدس .. درة التاج

أما المشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية فكان بعد ثمانية وثمانين عاماً كانت المدينة المقدسة أثناءها

أسيرة الفرنج الصليبيين الذين اتخذوها عاصمة لملكة بيت المقدس. وعلى الجانب الآخر لم يكن المسلمون ليتركوا القدس غنيمة باردة لأولئك الغرباء القادمين للغزو والاستيطان على أرض المنطقة العربية وإن تخفوا وراء شعار الصليب، رمز التضحية بالذات لخلاص الآخرين .

لقد كانت القدس ، ولا تزال ، درة التاج وواسطة العقد في حضارتنا العربية الإسلامية التي ضمت اليهود والنصارى، العرب في رحابها ، ومن ناحية أخرى لم يكن العرب ، مسلمين ونصارى ويهودا ، ليغضوا الطرف عن وجود الكيان الصليبي فوق الأرض العربية .

وعلى الرغم من تخاذل حكام المنطقة العربية في مواجهة الخطر الفرنجي الصليبي منذ البداية ، فإن المصادر التاريخية تحدثنا عن أن الحرب لم تتوقف ضد الفرنج. بيد أن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية وقصر النظر السياسي بحيث عجزوا عن وقف المد الصليبي إلى أقصى اتساعه في غضون خمسين سنة بعد نجاح الحملة الأولى.

ولكن الرأي العام داخل المنطقة العربية والعالم الإسلامي بدأ يضغط بكل قواه على الحكام. وبدأ يظهر في الأفق دليل على أن شيئا ما قد أخذ يتغير داخل المعسكر الإسلامي، وجاء هذا التغيير من جماهير المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبي من جهة، ومدى فشل وعجز حكامهم من جهة أخرى.

لقد كان الرأي العام يطلب محارباً يقود الأمة في نضالها ضد الفرنج الصليبيين، وفي ظل هذا البعث الإيديولوجي ظهر عماد الدين زنكي ليقود حركة الجهاد على محور الموصل - حلب، بعد فشل محور القاهرة - دمشق بسبب الضعف السياسي والتفكك الذي عانت منه مصر والشام تحت حكم الفاطميين والسلاجقة في تلك الفترة وما لبث عماد الدين زنكي أن صار أقوى مسلم في زمانه لأنه طوع مواهبه وقوته وسلطانه في خدمة المطلب الشعبي العام، أي الجهاد ضد الفرنج، ولم يلبث عماد الدين زنكي أن تغلب على النعرات الانعزالية ووحد شمال الشام وأعالي العراق والجزيرة، وبات الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية ضد الصليبيين.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤م حين تمكنت قوات زنكي من استعادة إمارة الرها من الصليبيين بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً فقط. وكان ذلك نذير شؤم للصليبيين والمغرب الأوربي لأن الرها كانت أول كيان صليبي تم زرعه في المنطقة العربية، وعلى الجانب الإسلامي برزت الجوانب الإيجابية العديدة

لاسترداد الرها، إذ خضع وادى الفرات كله للمسلمين، كما ضمن زنكى السيطرة على طرق المواصلات بين الشام والجزيرة والعراق.

وبعد عماد الدين زنكى، جاء ابنه وخليفته نور الدين محمود ليواصل سياسة أبيه فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، ولكن محور القاهرة - دمشق كان خارج نطاق سيطرته بشكل جعله عاملاً سلبياً فى حسابات القوة، ولم تلبث تداعيات الأحداث أن جعلت دمشق تتخلص من حاكمها الذى قبل نوعاً من التعايش السلمى مع الصليبيين، وترتمى بين ذراعى نور الدين.

هكذا تم توحيد الجبهة الشمالية، وبسبب تماسكها وهجمات المسلمين المستمرة فى الشمال ضد الصليبيين اتجه هؤلاء صوب الجنوب حيث كانت الظروف مواتية لتركهم. وكان هذا هو التمهيد الحقيقى للمشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية.

كانت مصر آنذاك، تحت الحكم الفاطمى، بمثابة «الرجل المريض» الراقد على ضفاف النيل، ينتظر الجميع وفاته لتقسيم تركته. إذ كانت الخلافة الفاطمية ظلاً باهتاً يحكى عن مجد غابر وقوة ذابلة بعد أن أنهكتها كوارث الطبيعة والحكام. وبسبب السعى نحو كرسى الحكم دون سواه توالى تغير الوزراء، أصحاب السلطة الحقيقية فى ظل الخلفاء الضعاف، فى إيقاع سريع من الفتن والقتل والمؤامرات وازداد منحنى التدهور فى قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى الصليبيين على مهاجمة أملاكها فى فلسطين، ثم مهاجمة مصر نفسها سنة ١١٦١م. وكان ذلك تعبيرا عن اختلال موازين القوة على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين.

وأخيراً، حانت فرصة التدخل الصليبى والوصول إلى القاهرة دونما معارك بسبب النزاع بين شاور وضرغام المتنافسين على كرسى الوزارة، فقد حث شاور خطاه نحو بلاط نور الدين محمود يستنجد به، على حين لجأ ضرغام إلى طلب نجدة «عمورى» الملك الصليبى. وخلال السنوات الست التى تلت قام الفرنج بغزو مصر خمس مرات.

● الانتصار على الصليبيين

وإذا كان الصليبيون قد طمعوا فى ضم مصر، أو تحييدها، ضمانا لكسر الجبهة العربية الإسلامية، فلا شك فى أن نور الدين محمود قد أدرك أن ضم مصر هو السبيل الوحيد لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين، ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والفرنج، واختار المصريون الوقوف إلى الجانب العربى الإسلامى بطبيعة الحال. ومن ثم اضطر

الصليبيون إلى الانسحاب وإن ظلت مصر سراباً يجذبهم نحوه بين الحين والحين.

استجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه جيشا يقوده أسد الدين شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى، بطل المشهد الثانى فى قصة القدس والحروب الصليبية.

ويشكل عهد صلاح الدين الأيوبى واحدة من تلك اللحظات النادرة والمثيرة فى تاريخ الإنسانية، إذ إن هذا القائد المسلم الفذ - بما تمتع به من أخلاق إسلامية مثالية وشجاعته الاخلاقية وإيمانه بحق أمته - نجح فى أداء دوره التاريخى الذى كان فى حقيقته استمراراً لدور عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود. وواجه صلاح الدين مشكلات عديدة فى بداية حكمه، بعد أن صار وزيراً لآخر الفاطميين، ثم حاكماً تابعاً لنور الدين محمود بعد موت الخليفة الفاطمى. ولكنه نجح فى المواجهة .

ثم ازدادت قامة صلاح الدين السياسية طولاً بعد وفاة نور الدين محمود، وزاد تعلق الناس بزعامته بعد أن نجح فى توحيد المنطقة العربية تحت رايته، وبدأ الاستعداد للمواجهة ضد الصليبيين، وجاءت الفرصة تسعى إلى صلاح الدين والمسلمين بعد هجوم «أرناط» حاكم الكرك الخبيث الأحمق على إحدى القوافل التجارية القادمة من الشام إلى مصر، وهكذا صارت الحرب حتمية.

وبدأ صلاح الدين يجمع جيوشه من جميع أنحاء المنطقة العربية. وعلى الجانب الآخر تجمع جيش صليبى ضخم وفى أول شهر يوليو ١١٨٧م عبر صلاح الدين نهر الأردن ثم عسكر فى اليوم التالى فى التلال الواقعة على بعد خمسة أميال من بحيرة طبرية. وعشية المعركة كان الصليبيون يعسكرون فوق الهضبة التى تعلو حطين مباشرة. وأمضى الصليبيون ليلة حالكة السواد، وأزعجتهم أصوات المسلمين وهم يكبرون. وعندما أشرق فجر يوم السبت الرابع من شهر يوليو كان الجيش الصليبى محاصرا بحيث لاتستطيع قطة أن تنفذ من هذا الحصار.

وسرعان ما بدأ الهجوم الإسلامى، وتساقط الفرسان الصليبيون. وعندما وصل الفرسان المسلمون المنتصرون إلى أعلى الهضبة، كان الفرسان الصليبيون يرقدون متهالكين حول ملكهم، لا يكادون يقدرون على رفع سيوفهم لكى يستسلموا لقوات صلاح الدين. وفى الخيمة السلطانية استقبل صلاح الدين أسراه وعلى رأسهم الملك الصليبى، ثم قام بقطع رأس الأمير الصليبى أرناط الذى اشتهر بحماقاته وعدم وفائه.

ما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، وفى أواخر جمـادى الثانية

٥٨٣ هـ سبتمبر ١١٨٧ هـ اتجه صلاح الدين صوب القدس، رمز النصر فى هذه المواجهة الطويلة المضنية. وفى ٢٠ سبتمبر عسكر الجيش الإسلامى أمام المدينة المقدسة، وبدأت القوات الإسلامية تهاجم الأسوار الشمالية والغربية للمدينة. ولكن حرارة الشمس والمقاومة العنيفة جعلت الهجوم الذى استمر خمسة أيام يسفر عن لا شيء. ونقل صلاح الدين الأيوبى معسكره، وظن الصليبيون أن الجيش الإسلامى قد رفع الحصار. ولكن صباح السادس والعشرين من سبتمبر أكد لهم أن أمانيهم قد ساقتهم بعيدا صوب الخيال. إذ كان جيش صلاح الدين قد عسكر من جديد فوق جبل الزيتون الذى يطل على المدينة.

● شروط صلاح الدين

وحين أدرك الصليبيون عبث المقاومة ذهب قائدهم بنفسه إلى معسكر صلاح الدين طالبا تسليم المدينة وليسأل صلاح الدين عن شروطه. وكانت شروط القائد المسلم كريمة تجسد أخلاقه المثالية، إذ تعين على الصليبيين أن يدفعوا فدية عن أنفسهم فى مدى أربعين يوما، وخرج البطريرك الصليبى ومعه كل الذهب والفضة والأموال التى كانت بالكنيسة ولم يدفع سوى فديته الشخصية وقدرها عشرة دنانير. ولا شك فى أن الجنود المسلمين الذين نهاهم قائدهم عن المساس بأى مدنى قد غاظهم منظر ذلك البطريرك وهو يخرج محملا بتلك الكنوز التى نهبها الصليبيون من المسلمين ومن المسيحيين الشرقيين.

لقد قارن المؤرخ الانجليزى ستيفان رنسمان بين هذا المشهد الإنسانى وبين مشهد الجريمة البشعة التى ارتكبها الصليبيون ضد المدنيين - رغم عهد الأمان - بعد أن استولوا على المدينة المقدسة قبل ثمان وثمانين سنة.

هكذا تحررت المدينة المقدسة وأقيمت صلاة الجمعة فيها بعد طوال غياب عن المسجد الأقصى، وبدأت الحياة العربية الإسلامية تنتعش من جديد فى المدينة العائدة وأنشأ صلاح الدين الأيوبى بعض المدارس فضلا عن المستشفى «البيمارستان» الذى أنشأه.

كان المشهد الثالث فى قصة القدس والحروب الصليبية مزيجاً من الأسى والعجب والإحباط. لقد أحدثت وفاة صلاح الدين فراغا سياسيا كبيراً فى المنطقة، إذ أن دولته تفككت وتوزعت بين خلفائه، ولم يواصل الأيوبيون سياسة المبادرة والهجوم التى سار عليها مؤسس دولتهم، وإنما كان موقفهم دفاعياً فى مجمله، وشهد عصر الأيوبيين تغيرا فى سياسة الصليبيين العسكرية، إذ بدأت دلتا نهر النيل تحل محل ضـــفاف نهر الأردن فى خطط الصليبيين، وتجســـدت هذه الرؤية فى الهجوم الذى شنته الحملة الصليبية

الخامسة على مصر من ناحية، وفى عرض السلطان الكامل التفاوض مع الصليبيين، من ناحية أخرى لقد عرض عليهم الانسحاب من دمياط مقابل حصولهم على بيت المقدس وبعض مناطق فلسطين. كان عرض ذلك السلطان على الفرنج غاية فى الكرم والسخاء والتخاذل والهوان، ومع ذلك رفض الصليبيون عرضه، لأنهم يريدون مصر والمنطقة العربية.

وهكذا أسفر المشهد الثالث عن حيرة القدس بين سلطان مسلم متخاذل يريد أن يسلمها للفرنج هرباً من مسئولياتها، وقادة صليبيين لا يريدونها، وعندما هاجم الجيش والبحرية المصرية الفرق الصليبية، اضطر الفرنج إلى أن يتخلوا عن أحلامهم فى حكم مصر وسط أوحال الدلتا.

وبقيت القدس على حيرتها...

ولكن الحيرة لم تدم طويلاً، فقد كان السلطان الكامل مصراً على إثبات كرمه أمام «الصديق» الصليبى، كان الامبراطور فردريك الثانى، الذى اشتهر بلقب «أعجوبة الدنيا»، قد تولى العرش سنة ١٢١٥م وقام بحملة صليبية، عرفت بالحملة السادسة، أخذ فيها بيت المقدس دون نقطة دماء واحدة، والطريف أنه قام بحملته الصليبية وهو تحت عقوبة الحرمان الكنسى التى وقعها البابا عليه.

كانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة التى تجنبت إراقة الدماء أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الجانبين، على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس وبيت لحم، وشريطا من الأرض يصل بين عكا والقدس، ويتبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفى مقابل ذلك يتعهد فردريك بمنع أية حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوربا وعادت القدس أسيرة من جديد، لقد تخلى عنها السلطان مقابل «راحة البال» من ناحية أوربا ولكى يتفرغ للقتال ضد أشقائه!!

أما العالم العربى الإسلامى، فقد رأى بحق أن الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبى كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبى عنيفا ضد السلطان.

وقد تمكن الملك الناصر داود الأيوبى حاكم الكرك من استعادة بيت المقدس من الصليبيين فى ديسمبر سنة ١٢٣٩م، ثم استولى عليها الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤م. وكانت تلك الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس وظلت بيد المسلمين حوالى سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوربى آخر وقبل أن يحتلها الصهاينة.

القدس

أسيرة صهيون .. تنتظر صلاح الدين

بقلم د. محمد عمارة

فى الألف الرابعة قبل الميلاد ، بنى الكنعانيون - أهل فلسطين - مدينة «يورو سالم» أو «يوروشالم» . ومن اسمها هذا جاءت تسميتها الغربية «Jerusalem» فى اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية والفرنسية والانجليزية وغيرها .. ومن هذا الاسم ، أيضا ، جاءت تسميتها فى «العهد القديم» بـ «أورشليم» ..

ولقد بدأ تاريخ العبرانيين الاتصال بهذه المدينة الكنعانية ، عندما استولى عليها داود، عليه السلام، فى القرن العاشر قبل الميلاد ، أى بعد نحو ثلاثة آلاف عام من تأسيسها على يد الكنعانيين ! .. ولم تدم هذه السيطرة العبرية على هذه المدينة لأكثر من أربعة قرون - (٤١٥ عاما) - .. أى إلى التاريخ الذى هدمها فيه البابليون ، الذين أزالوا «مملكة يهوذا» من الوجود سنة ٥٨٥ ق . م ، وبدأوا حقبة «السبى البابلى» للعبرانيين .



القدس بمبانيها القديمة وآثارها الشهيرة .. ظل الصراع للسيطرة على المدينة المقدسة وكان أشرسها ما شهدته أثناء الغارات الصليبية ..
القدس التى حررها صلاح الدين الأيوبى ، مازالت أسيرة تنتظر صلاح الدين الجديد !

وحتي بعد سماح الفرس لبعض العبرانيين بالعودة إلي أرض كنعان ، كانت عودة الذين عادوا منهم إليها ، عودة استيطان، بلا دولة ، وبلا سيادة علي مدينة «أورشليم» ..

لكن هذا «الوجود اليهودى » قد عاد وأثار حفيظة الدولة الرومانية، فدمروا هذه المدينة مرتين ، الأولى على يد الامبراطور «تيطوس» Titus (٣٩ - ٨١ م) فى سنة ٧٠ م .. والثانية على يد الامبراطور «حدريانوس» سنة ١٣٥ م، وذلك عندما محاها محوا تاما ، بل وغير اسمها الى «ايليا كابيتولينا» - أى إيليا العظمى - وهو الاسم الذى ظل علما عليها حتى الفتح الإسلامى لها (١٥ هـ ، ٦٣٦ م) فى خلافة الراشد الثانى الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق .هـ - ٢٣ هـ ، ٥٨٤ - ٦٤٤ م) .

وفى السنوات الاربعمائة . التى سيطر فيها العبرانيون على هذه المدينة ، احتكروا قداستها لمقدساتهم وحدهم ، دون غيرهم من الشعوب التى كانت تقطن أرض كنعان فى ذلك التاريخ ، وهى الشعوب التى بنت هذه المدينة قبل ثلاثة آلاف عام من دخول داود عليه السلام إليها .. وظلوا يمارسون هذا الاحتكار ، بل والاضطهاد ، مع النصرانية والنصارى ، منذ بعثة المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام .

وبعد تدين الدولة الرومانية بالنصرانية - (فى القرن الرابع الميلادى) - كانت قدسية هذه المدينة «ايليا» وقفا على النصارى ، الذين اضطهدوا اليهود ، وجعلوا أماكن «هيكلهم» - بعد هدمه - مجمعا للقمامة والقاذورات ، تجلب اليه من داخل المدينة وخارجها ! .. حتى لقد طلبوا من عمر بن الخطاب ، عند تسلمه للمدينة ، بعد فتحها، أن يضمن لهم « ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود » ! .

ذلك هو تاريخ هذه المدينة قبل الاسلام.

***

لكن فتح الإسلام والمسلمين لهذه المدينة - « يورو سالم - أورشليم - ايليا» كان بداية عصر جديد ..

فالإسلام والمسلمون هم الذين أعطوا لهذه المدينة القداسة والقدسية ، حتى فى اسمها الجديد ، فسميت بـ «بيت المقدس» و «القدس» منذ ذلك التاريخ .. ولأول مرة فى تاريخها الدينى ، تصبح قداستها عامة لجميع أمم الرسالات السماوية - اليهودية.. والنصرانية .. والإسلام - وليست حكرا لأبناء دين دون غيرهم من

ابناء الديانات الأخرى ..

فأماكن المقدسات اليهودية المهدومة منذ قرون ، والتي جعلها النصارى - فى العصر الروماني - « مجمعا للقمامة والقاذورات» ذهب اليها عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعد أن تسلم المدينة ، وعقد مع أهلها «العهد العمرى» الشهير ، « فوجد على الصخرة زبلا كثيرا ، مما طرحه الروم غيظا لبنى اسرائيل ، فبسط رداءه ، وجعل يكنس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل ، وتتبع المسلمون أماكن عبادة الانبياء السابقين واحدا واحدا ، ابتداء من ابراهيم الى آخر من دفن منهم فى فلسطين وبيت المقدس ، فأقاموا فيها المساجد ، وحافظوا على قدسيتها ، وطهروها تطهيرا» - (د. اسحاق موسى الحسينى « مكانة بيت المقدس فى الإسلام» كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية - ص ٥٧ ، ٥٨ - سنة ١٩٦٨ م).

● عمر يتسلم أمانة القدس

لقد أحل المسلمون هذه المدينة مكانا فريدا تميزت به من كل المدن التى فتحوها، وذلك عندما لم يتسلمها القائد الفاتح - وهو « أمين الأمة» أبو عبيدة بن الجراح (٤٠ ق هـ - ١٨ هـ، ٥٨٤ - ٦٣٩م) وكان تسليمها للخليفة عمر بن الخطاب ، الذى ركب من «المدينة المنورة» إليها ليتسلم امانتها، وليعقد بنفسه «العهد العمرى» مع بطريركها «صفر ونيوس» (١٧ هـ ، ٦٣٨م) .. ولتكون لها ، بهذه الخصوصية، مكانة « امانة الفاروق عمر» لدى أمة الإسلام ! .. وهو شرف لم تحظ به مدينة من المدن التى فتحها المسلمون ، عبر تاريخ الفتوحات .

ويتغير اسم هذه المدينة ، الى «القدس» و «بيت المقدس» ، رفع المسلمون عليها رايات القدسية والتقديس ، ويتحرج عمر بن الخطاب - عندما كان يجلس مع «صفر ونيوس» فى كنيسة القيامة - من أن يصلى فى الكنيسة ، رغم دعوة البطريرك ، كى لا تكون لمسلم شبهة حق فى أرض الكنيسة يقيم فيها مسجدا .. بهذا الموقف العمرى أضفى عمر بن الخطاب تقديس الاسلام لمقدسات النصارى .. ولم يكن عمر فى ذلك «مبتدعا» ، بل ولا حتى «مجتهدا» ، لأنه هو المؤمن بالعقيدة الإسلامية ، التى لا تكتمل اركانها إلا بالإيمان بسائر الرسل وجميع الرسالات وكل الكتب التى سبقت رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، على درب علاقة السماء بالإنسان (ذلك الكتاب

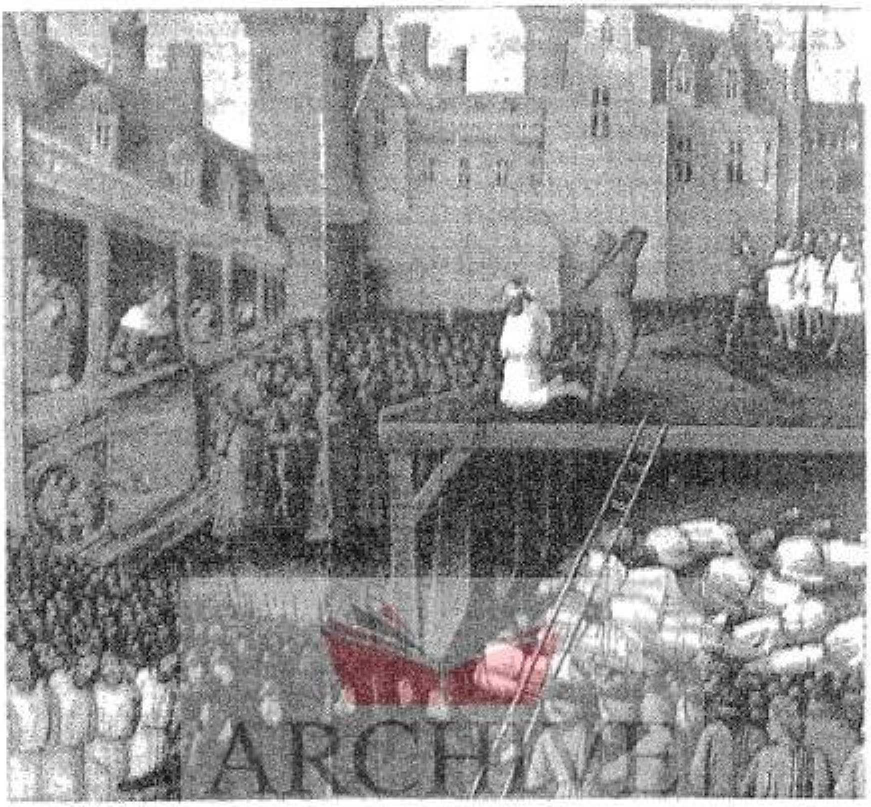
لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) البقرة ٢ - ٥ . (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) البقرة ٢٨٥ .. وهو - عمر - الذى يتعبد بالقرآن الكريم ، الذى عرض لمقدسات امم الرسالات السماوية جميعا ، فبدأ بالصوامع وانتهى بالمساجد (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) الحج - ٤٠ .

بهذا الموقف العمرى ، بدأت الحقبة الإسلامية فى تاريخ المدينة ، فغدت قداستها عامة لعامة ابناء رسالات السماء .. فكنيسة القيامة قدس خاص بالنصارى .. ومواطن المقدسات اليهودية ، أعاد اليها عمر والمسلمون الطهارة عندما رفعوا عنها القمامة والقاذورات .. وارتفعت فى المدينة عمائر المساجد الإسلامية .

صنع المسلمون ذلك ، لأنهم أمة الرسالة الخاتمة ، التى ورثت كل مواريث الانبياء والمرسلين ، فكانت رسالة رسولهم اللبنة التى تممت بناء دين الله الواحد ، وحملت امانة الحفاظ على سائر لبنات هذا البناء ، فأمة الشريعة التى اكملت الدين الإلهى الواحد ، هى الحاملة لأمانة الحفاظ على مقدسات سائر شرائع هذا الدين، لأنها وحدها التى تعترف بشرعية سائر شرائع هذه الاديان ..

★★★

والمسلمون صنعوا ذلك مع «القدس» تحديدا ، لأن قرآنهم الكريم قد جعل الرباط بين «القدس» وبين «الحرم المكى» - الذى هو قبلة الأمة الخاتمة - آية من آيات الله ، وليس مجرد رباط سياسى أو إدارى، يقيمه فاتحون وينقضه غزاة ! .. (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» الإسراء : ١ .. فكان الإسراء - إسراء الله بعبده ورسوله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى - وعروجه من الصخرة الى سدرة المنتهى ، الإعلان الإلهى عن ختم هذه الرحلة القدسية لخطوات الانبياء والرسل على طريق الله ، وعن حمل أمة الرسالة الخاتمة امانة الجهاد فى سبيل الحفاظ



ريتشارد قلب الأسد يحضر تنفيذ الاعدام في الحجاج المسلمين

على مقدسات كل الرسالات ، تلك التي تجسدها مدينة القدس قبل غيرها ، وأكثر من غيرها من المدن والبقاع ..

ولقد شهد التاريخ الإسلامي للقدس ، بأحرف من نور ، على وفاء الأمة الإسلامية بهذه الامانة ، التي ارادها الله، والتي رمزت اليها رحلة الاسراء ، والتي سلمها اياها عمر بن الخطاب .. فغدت القدس ، منذ ذلك التاريخ ، مشاعة القداسة ، مفتوحة الأبواب لكل ابناء رسالات السماء .. ازدهرت فيها ، إلى جانب المساجد الإسلامية ، كنائس

النصارى .. وأخذ اليهود يعودون الى سكناها ، بعد أن حرموا من ذلك فى العهد الرومانى ، الوثنى والنصرانى على حد سواء ! .. بل لقد تولت الأسر المسلمة المقدسية «نظارة الأوقاف » التى أوقفها النصارى على كنائسهم ، اختارهم النصارى لذلك ، فرعوا هذه المقدسات النصرانية على امتداد التاريخ الإسلامى .

وشاء الله أن تظل هذه «الامانة» من خصائص الأمة الاسلامية ، والدول الاسلامية دائما وأبدا ..

وشاء الله أن تظل هذه «الأمانة» من خصائص الأمة الإسلامية ، والدول الإسلامية دائما وأبدا .

فعندما جمع البابا الذهبى «إربان الثانى» (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) فرسان الاقطاع الأوربيين ـ الذين كانوا يتناحرون على الإمارات والجبايات ـ ليوجه طاقاتهم القتالية ضد العالم الإسلامى ، وفى سبيل احتلال القدس ـ وبعد أن ضمن تمويل الحملات الصليبية من قبل المدن التجارية الإيطالية ، مقابل استيلائها على طرق التجارة العالمية المارة بالوطن العربى؟!.

وخاطب البابا هؤلاء الفرسان ـ فى «كليرمونت» بجنوبى فرنسا سنة ١٠٩٥م ـ فقال لهم : « أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم ، ولكن ، تعالوا و حاربوا الكفار «المسلمين ؟!» ، يامن تنابذتم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا ، تقدموا إلى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا ؟! ، إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق..»؟!.

● اللصوص والمدينة المقدسة

فلما حدث واجتاح هؤلاء «اللصوص الذين صاروا جنودا» ! ، المدينة المقدسة سنة ١٠٩٩م ، ماذا صنعوا بها ؟! ، لقد صنعوا ما وصفه المؤرخ المسيحى «مكسيموس مونروند» فى كتابه «حرب الصليب» ، فقال ـ بلغته وعبارته ـ :

«انعقد ديوان المشورة العسكرية الصليبى ، فقرر أن يُمات ـ «يقتل» ـ كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة »!!

واستمرت المجزرة أسبوعا كاملا ، ومن هرب فى البيوت والأقبية ، قبضوا عليه وقذفوا به من أعلى البيوت والأبراج فى النار ؟! ، أما الذين احتموا بجامع عمر ابن الخطاب - الذى سبق وتحرج من مجرد الصلاة فى كنيسة القيامة !! - فلقد غدت دماؤهم سيلا «علا إلى حد الركب ، بل إلى حد لُجم الخيل» ـ كما يقول «مكسيموس» - ! ، وفى الرسالة التى بعثوا بها إلى البابا ، يبشرونه بما صنعوا، قالوا مفاخرين : «إذا أردت أن تعرف مايجرى لأعدائنا ، فثق أنه فى

معبد سليمان. كانت خيولنا تغوص إلى ركبها فى بحر دماء الشرقيين»؟!

وأبادوا المسلمين، وكذلك اليهود، وحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية، وانفردوا بالمدينة المقدسة، بعد أن حفظ المسلمون قداستها بين أبناء كل الديانات!

لكن ذاكرة الأمة لم تنس، للحظة واحدة، هذه المدينة المقدسة، بل لقد اتخذت منها ثقافة الأمة، والتى كان الشعر لسانها المعبر وإعلامها المفصح - الرمز لذلك الصراع الذى دام مع الغزوة الصليبية على امتداد قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ - ١٠٩٠ - ١٢٩١م).

وكانت الأمة تدرك أن فك أسر القدس، وتحرير الأقصى، واستعادة الأرض السليبة، لاسبيل إليها إلا بوحدة مصر مع المشرق العربى، لتطويق الكيانات الصليبية المغروسة قسرا فى قلب وطن الأمة، ولذلك كان التذكير بالقدس مصاحبا لكل خطوة تتحقق على طريق هذا التوحيد.

فعندما تدخل جيوش السلطان نور الدين الشهيد (٥١١ - ٥٦٩ هـ، ١١١٨ - ١١٧٤م) إلى مصر، بقيادة أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى - فتبدأ بذلك خطوات وحدة مصر بالمشرق العربى، نجد «العماد الكاتب»، وهو يهنىء أسد الدين شيركوه، مذكرا إياه بالمقصد الأسمى: القدس والمسجد الأقصى، فيقول لأسد الدين:

فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كثب.

فإذا توجه بالتهنئة إلى السلطان نور الدين، رأيناه يحدثه عن أن شروط تحرير القدس قد بدأت تجتمع - بوحدة مصر مع المشرق - فيقول:

أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
وأحطم جموعهم بالذابل الحطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما
فى عقد عز من الإسلام منتظم

فانتظام وحدة مصر والشام فى «عقد الإسلام» هو شرط التحرير للقدس الأسيرة والأقصى السليب!

ونفس «الفكر الاستراتيجى»، يعبر عنه «الشعر»! ، عندما يعلن الشاعر ابن عساكر بن الحسن هبة الله، أن لاعذر عن تأخير المعركة الفاصلة، طالما تحققت وحدة مصر والشام فى «عقد الإسلام»، فيوجه الحديث إلى السلطان نور الدين قائلا:

ولست تعذر فى ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد، فبادر فجأة النوب!

وعندما يستكمل صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ، ١١٣٧ - ١١٩٣م)

مقومات معركة التحرير ، ويحرز انتصاره على الصليبيين فى «غزة» ، نجد الشاعر ـ العماد الكاتب ـ يحدثه عن أن فتح القدس هو الباب لتحرير سائر البقاع التى احتلها الصليبيون ، فهى الرمز للصراع كله ، وهى البوابة لتعميم الانتصارات! يعبر العماد الكاتب عن هذه الاستراتيجية الإسلامية ، شعرا ، يتوجه به إلى صلاح الدين الأيوبى ، فيقول :

غزوا عقر دار المشركين «بغزة»
جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطرق
وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل
فمابعده باب من الشام مغلق!

هكذا كانت «القدس» : الرمز ، والمقصد ، والمفتاح ! ، ولاتزال !

وعبر «حطين» ، التى كانت ـ بلغتنا «المعركة المصيرية» ، المقررة «لوجود المنتصر» و «عدم المهزوم» ـ والتى تحدث عنها الأمير الفارس المؤرخ ـ الذى عاصرها ـ ابن شداد (٦١٢ ـ ٦٨٤ هـ، ١٢١٧ ـ ١٢٨٥م) فقال : «لقد علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس» ! . عبر «حطين» وصلت جيوش صلاح الدين إلى أسوار القدس ، فحررها فى ذكرى الاسراء والمعراج ـ ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ـ ليعيدها إلى «عقد الإسلام» الذى انتظمت فيه منذ أن أسرى الله برسوله ، صلى الله عليه وسلم ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك فيه وحوله ـ أرض فلسطين .!

وبعد تحرير صلاح الدين الأيوبى القدس ، لم يبق ـ كما قال الشاعر ـ «باب من الشام مغلق» ، فتحررت الكثير من المدن والقلاع والحصون التى سبق واستولى عليها الصليبيون .

وبهذا التحرير، عادت القدس ، كما كانت قبل الغزوة الصليبية : المدينة المقدسة ، والمشاعة قدسيتها ـ تحت السلطة الإسلامية ـ لسائر أبناء كل أمم رسالات السماء !

***

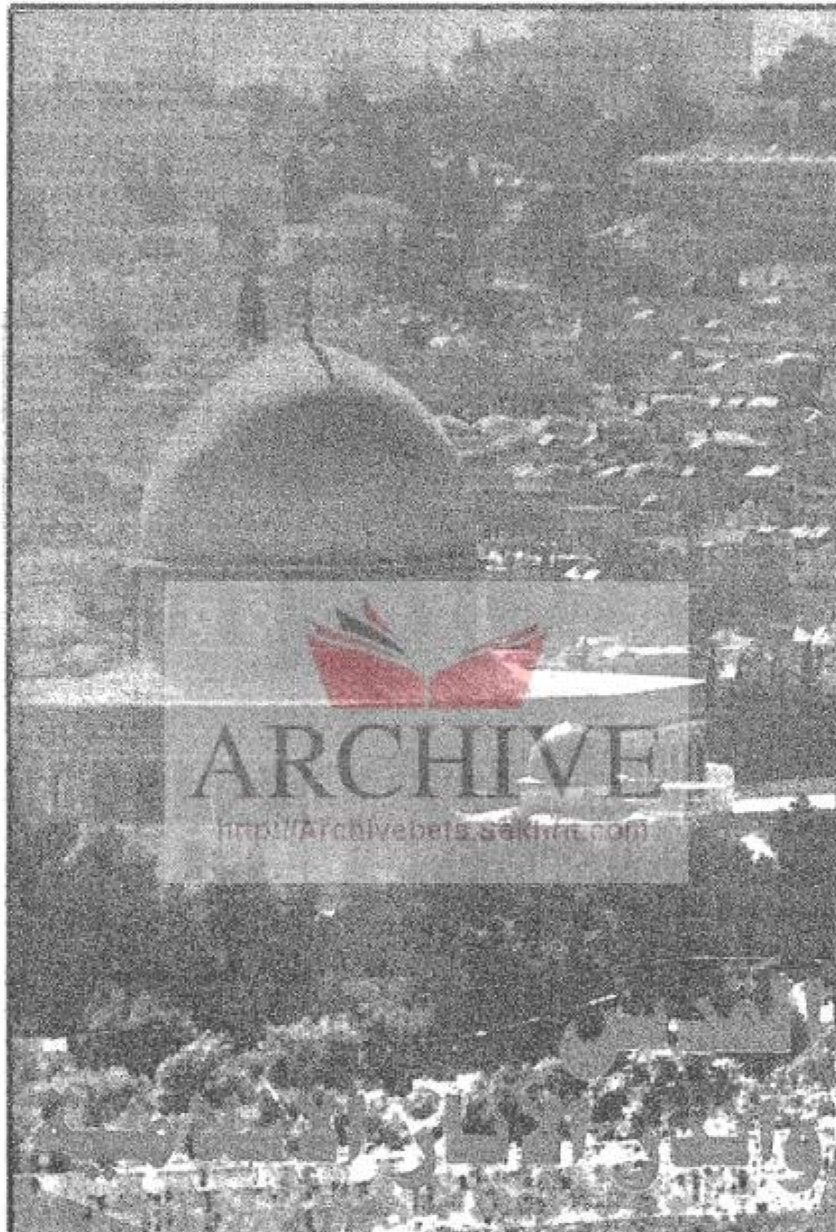
لكن القوى الغربية ، التى حركت ونظمت ومولت وقادت الغزوة الصليبية ، قد عادت ، فى مرحلة لاحقة ، وفى طور جديد ، لتحقيق ذات المقاصد : « انتزاع الأرض التى تدر سمنا وعسلا» !! فبدأت ، بعد سقوط غرناطة (٨٩٧ هـ، ١٤٩٢م) ، مرحلة تطويق العالم الإسلامى ، عبر اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح (٩٠٣هـ، ١٤٩٧م) ومحاربة الجيش المصرى على سواحل الهند (٩١٠ هـ، ١٥٠٤م) ، لتسلم إلى مرحلة ضرب قلب هذا العالم الإسلامى التى بدأت بحملة بونابرت على مصر (١٢١٣هـ، ١٧٩٨م) ، ولتؤسس منذ ذلك التاريخ ، «الشراكة» بين المشروع الغربى وبين



منمنة تصور حصار ترو من مقتنيات المكتبة الوطنية بباريس

المشروع الصهيوني ، فمن نداء نابليون ليهود العالم كي يتعاونوا معه لإقامة امبراطوريته الشرقية لقاء أن يعيد إليهم «ملك بني اسرائيل» ، إلى وعد بلفور (١٣٣٦ هـ ١٩١٧م) إلى إقامة اسرائيل (١٣٦٧هـ ١٩٤٨م) إلى اغتصاب كامل القدس (١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧م) ، والذى بدأت به مرحلة تهويد المدينة المقدسة ، واحتكارها دون الذين حملوا أمانة قداستها ، وعمموها لكل أبناء الديانات، لأكثر من أربعة عشر قرنا !

وإذا كانت ذاكرة الأمة ـ بواسطة ثقافتها ـ قد ظلت واعية بمكانة القدس فى هذا الصراع التاريخى المتعدد المراحل والحلقات ، مكانة «الرمز ، والمقصد ، والمفتاح» ، حتى جاء فحررها صلاح الدين الأيوبى ، فإن مهمة ثقافتنا ـ الوطنية ، والقومية ، والإسلامية المعاصرة ـ هى إبقاء ذاكرة الأمة على وعيها الكامل بمكانة هذا القدس الشريف ، وذلك حتى يطلع الفجر الجديد بالناصر : صلاح الدين الجديد ! ■



بقلم : د. محمد حمزة إسماعيل *

تعد القدس ثالث المدن العربية الاسلامية المقدسة بعد مكة والمدينة، فإليها أسرى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومن فوق صخرتها عرج به إلى الأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وبذلك بلغ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عند ربه مقاما لم يبلغه الخليل ولا الكليم عليهما السلام ، ولا وصل إليه ملك مقرب ولا نبى كريم .

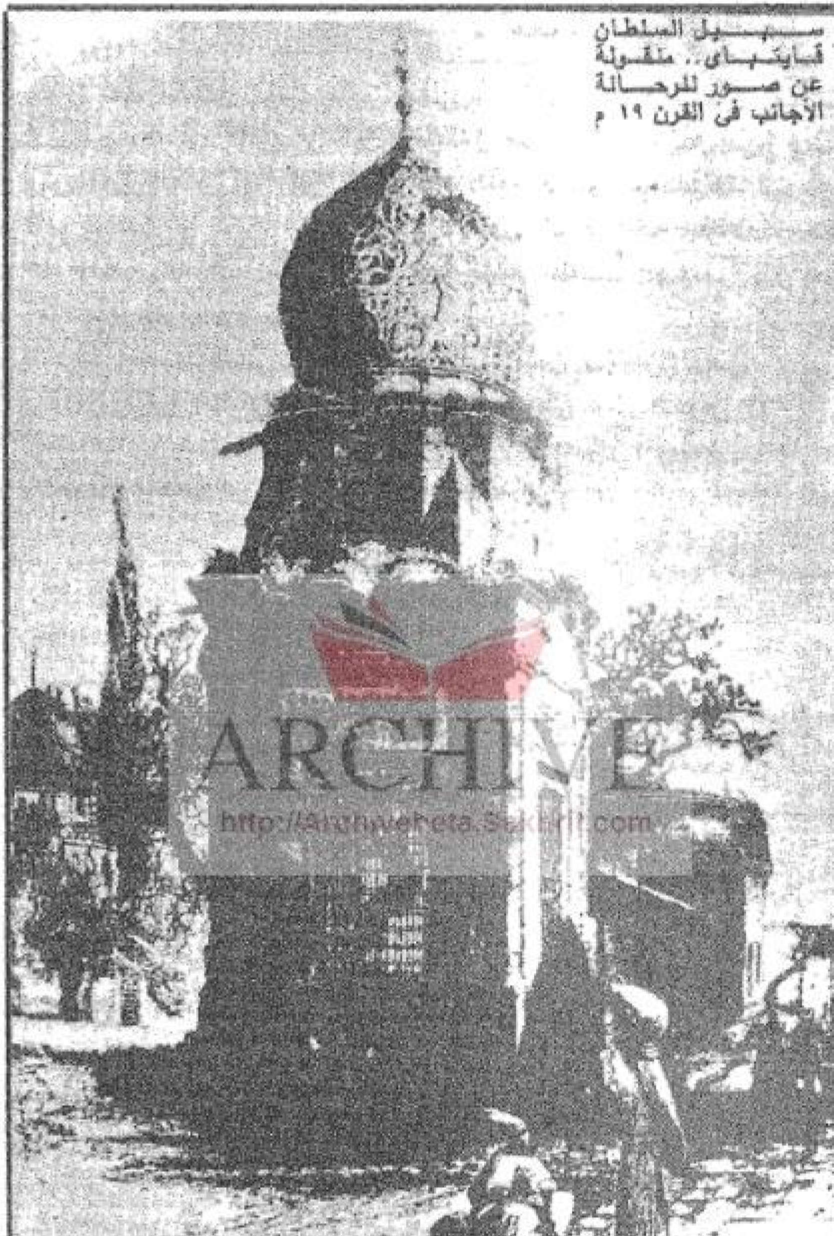
وقد اهتم الكثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء بحركة البناء والتعمير التى شهدتها هذه المدينة الخالدة على مدار العصور الاسلامية المتعاقبة ، بدءا بالعصر الأموى ومرورا بالعصور العباسى والفاطمى والأيوبى والمملوكى وانتهاء بالعصر العثمانى.

وتحتفظ القدس بمجموعة كبيرة من الآثار الاسلامية المعمارية المتنوعة والمتعددة دينية كانت أو جنائزية أو مدنية أو حربية .

وبذلك فمن الممكن دراسة هذه العمائر ومعرفة طرازها المحلى ومراحل تطوره ومدى ارتباطه بالطرز المجاورة له والقريبة منه ، سواء فى المدن الشامية المختلفة أو فى مدينة القاهرة .

كذلك فإن مشاهدات الرحالة المسلمين والأجانب الذين زاروا القدس ووصفوا آثارها المختلفة ، تعد من أهم المصادر التى تعتمد عليها الدراسات الحديثة المتعلقة بالعمارة الاسلامية من قبل العلماء والباحثين العرب والأجانب، كما أن الوثائق المختلفة وبخاصة وثائق الوقف وسجلات المحاكم الشرعية تعد مصدرا أصيلا صادقا ومعينا لاينضب سواء فى دراسة التطور العمرانى والطوبوغرافى للمدينة من جهة، أو فى دراسة العمائر المختلفة ومعرفة التغيرات التى طرأت عليها وإجراء الترميمات اللازمة ، حتى يمكن إعادتها إلى الحالة التى كانت عليها وقت إنشائها فى ضوء الوصف المعمارى والزخرفى المفصل والدقيق ، الذى يرد غالبا فى العديد من هذه الوثائق ، فضلا عن تزويدنا بالمصطلحات الفنية المتداولة بالقدس ، ولايتسع المجال لمثل هذا النوع من الدراسات التحليلية المتعمقة ولذلك سوف نكتفى بالإشارة إلى أشهر الآثار الاسلامية المعمارية الباقية بالقدس مع إبراز أهميتها .

* أستاذ مساعد العمارة والآثار الإسلامية كلية الآثار - جامعة القاهرة



سبيل السلطان قايتباى.. منقولة عن صور للرحالة الأجانب فى القرن ١٩ م

وبداية يمكن أن نحصر الآثار الاسلامية المعمارية الباقية بالقدس، والتى يربو عددها على مائتى أثر، فى عدة أنواع وهى :

١ - العمائر التذكارية : وتتمثل فى نموذج فريد فى العالم أجمع وهو قبة الصخرة المشرفة (٧٢هـ / ٦٩١م) .
(شكلا ١ - ٢) لوحة رقم ١

٢ - العمائر الدينية : وتتمثل فى العديد من المساجد والجوامع والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة والتكايا ، ويعد المسجد الأقصى أشهر هذه العمائر على الإطلاق ، وكذلك الخانقاه الصلاحية والمدرسة الصلاحية والمدرسة المعظمية من العصر الأيوبى، وكل من الرباط المنصورى والخانقاه الدوادارية ، والمدرسة السلامية والمدرسة الجاولية ، والمدرسة التنكزية، والخانقاه الفخرية، والمدرسة الملكية والمدرسة الفارسية ، والمدرسة الطشتمرية والزاوية الأدهمية ، والزاوية البسطامية والمدرسة الحنبلية والمدرسة الخاتونية من عصر المماليك البحرية وكل من المدرسة الكاملية والمدرسة الباسطية والمدرسة العثمانية والمدرسة الجوهرية والمدرسة المزهرية والمدرسة الأشرفية من عصر المماليك الجراكسة أو البرجية وكل من جامع المولوية ومسجد الشوربجى والزاوية النقشبندية وتكية خاصكى سلطان من العصر العثمانى .

٣ - العمائر الجنائزية: وتشمل الترب والمدافن والقباب ومن بينها تربة أمراء الدولة الاخشيدية (الربع الثالث من القرن ٤ هـ/ ١٠م) ، وتربة بركة خان بعد ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م والتربة الأوحدية ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م والتربة الكيلانية ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م وتربة تركان خاتون ٧٥٣هـ/١٣٥٢م وتربة الست طنشق المظفرية (أواخر ٨ هـ /١٤م) وقبة مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلى المتوفى ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م وغير ذلك

٤ - البيمارستانات (أى المستشفيات) مثل البيمارستان الصلاحى ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م .

٥ - الأسبلة :وهى نوع من الأبنية الخيرية التى أنشئت بغرض توفير المياه العذبة، الصالحة للشرب كل يوم، وعلى مدار العام كله كى ينتفع بها فى سقى الناس ، وقد أوقفت هذه الأبنية من قبل منشئيها سبيلا لله تعالى - أى بغير أجر - رغبة فى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وأملا فى ثواب الآخرة ، ولذلك عرفت هذه الأبنية واشتهرت باسم الأسبلة أو السقاية ، ويبلغ عدد الباقى منها حتى الآن نحو ٢٨ سبيلا من أشهرها على الإطلاق سبيل السلطان قايتباى فى ساحة الحرم فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢م من عصر الجراكسة وأسبلة السلطان سليمان القانونى الستة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م من العصر العثمانى .

٦ - الحمامات : ومنها حمام الشفا

سبيل بركة السلطان وهو أحد الأسبلة السليمانية الستة ويتبع فى تصحيحه طراز الجشمة



وحمام باب الاسباط أو حمام السيدة مريم، وحمام العين الذى يعد من أشهر حمامات القدس فى القرن الأخير وهو الحمام الوحيد الذى ظل يعمل حتى عام ١٩٨٢م .

٧ - الخانات : ومنها خان السلطان ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م ويعد من أشهر خانات القدس وقد وصفه مجير الدين الحنبلى بأنه خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى حيث يؤجر فى السنة بأربعمائة دينار وكانت تباع فيه أصناف البضائع ومنها خانات سوق القطانين ، وخان الزيت.

٨ - الأبواب : بالقدس أبواب عديدة لايزال الكثير منها باقيا فى موضعه حتى الآن، ومنها باب الناظر وباب العتم وباب حطه وباب المطهرة وباب الغوانمه وباب المغاربة وباب السلسة وباب الاسباط وباب الخليل (باب يافا) وباب النبى داود (باب صهيون) وغير ذلك .

٩ - الأسوار والقلاع : لاتزال بعض أسوار المدينة باقية حتى الآن فضلا عن بعض الأبراج والأبواب .

أما عن أشهر الآثار الاسلامية الباقية بالقدس فيمكن أن نلم بجانب منها :

● جوهرة القدس

١ - قبة الصخرة : تعد أقدم أثر إسلامى باق فى تاريخ العمارة الاسلامية عامة وفى القدس خاصة كما أنها من أبدع وأروع العمائر الباقية على وجه البسيطة بل إن البعض ذكر أنها من أجمل الآثار التى خلدها التاريخ ، وقد أمر بإنشائها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ورصد لبنائها خراج مصر لسبع سنين وتم بناؤها سنة ٧٢هـ / ٦٩١م . (شكلا ١ - ٢) لوحة ١ .

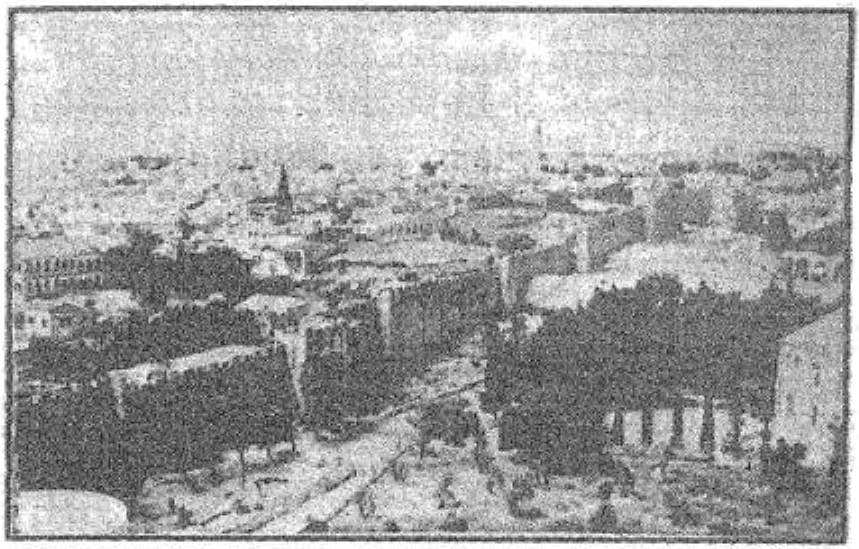
ولهذه القبة أهمية خاصة فى دراسة العمارة الاسلامية سواء من حيث تخطيطها الفريد من جهة أو من حيث عناصرها المعمارية والزخرفية من جهة أخرى وهذه القبة اعتبرها بعض المؤرخين جوهرة القدس الأولى .

٢ - المسجد الأقصى شكلا ٣-٤ : هو معهد الانبياء ومتعهد الأولياء وثانى البيت الحرام فى البناء وأول القبلتين حال الإبتداء على حد قول ابن فضل الله العمرى فى مسالك الابصار فى ممالك الامصار.

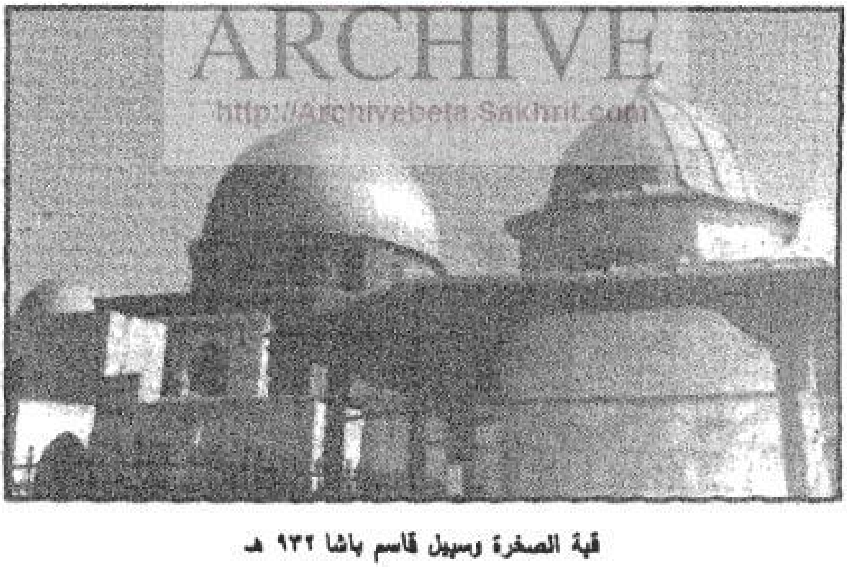
ولهذا المسجد أهمية عظمى فى دراسة العمارة الاسلامية وبخاصة تخطيط المساجد والجوامع (شكلا ٣-٤) إذ إن تخطيطه يمثل الصورة الثانية التى صممت على أساسها المساجد والجوامع الاسلامية.

وهذا المسجد اعتبره بعض المؤرخين جوهرة القدس الثانية (شكلا ٣ - ٤) .

٣ - المدرسة الأشرفية : عرفت هذه المدرسة أيضا بالمدرسة السلطانية أو المدرسة الأشرفية السلطانية نسبة الى السلطان الأشرف قايتباى (٨٧٢



مشهد لبلدة القدس القديمة عام ١٩٣٧م ويرى فى الساحة فى الوسط باب الساهرة



قبة الصخرة وسبيل قاسم باشا ٩٣٢ هـ

-٩٠١هـ) (١٤٦٢-١٤٩٥م) وقد اعتبر بعض المؤرخين هذه المدرسة الجوهرة الثالثة فى القدس بعد كل من الجوهرتين السابقتين قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

وترجع أهمية هذه المدرسة من الناحية المعمارية إلى أنها تمثل استمرارا وامتدادا لأسلوب الطراز المصرى على أرض شامية وهى القدس .

٤ - سبيل السلطان قايتباى : (لوحة ٢) يعد من أشهر أسبلة القدس وأجملها وهو يقع فى الساحة الكائنة بين باب السلسلة وباب القطانين وعلى بعض خمسين مترا من جدار الحرم الغربى بين درج صحن الصخرة الغربى الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفقيانى) ، وهو يقوم على مصطبة مكشوفة يوجد فى الزاوية الشمالية الغربية منها محراب .

٥ - الأسبلة السليمانية : (لوحة ٣) أمر بإنشائها السلطان العثمانى سليمان القانونى أو سليمان المعظم (٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) والذى كان قد أولى مشكلة المياه المزمنة فى القدس عناية كبيرة فأمر بإنشاء المنشآت المائية وإصلاح وصيانة القنوات والبرك والعيون ومن أشهرها عين سلوان وقناة السبيل وبركة السلطان وغير ذلك فضلا عن الأسبلة ويبلغ عدد الباقى منها ستة وهى سبيل بركة السلطان (لوحة ٣) وسبيل باب السلسلة وسبيل طريق الواد وسبيل باب الناظر وسبيل باب العتم وسبيل ستنا



باب الخليل من داخل بلدة القدس القديمة وهو احد أبواب مدينة القدس السبعة

مريم ، وقد أقيمت هذه السبل الستة كلها فى عام ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م ، وهى تعد من أشهر أسبلة القدس بعد سبيل السلطان قايتباى .

٦ - حائط البراق : ويعد هذا الحائط من بين أشهر الآثار الاسلامية الباقية بمدينة القدس ، وقد حظى بمكانة مقدسة ومنزلة رفيعة فى قلوب المسلمين إذ يروى أنه ربط بهذا الحائط البراق الذى عرج به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلا، ومن ثم فقد سمى بحائط البراق .

أما اليهود فيدعون أحقيتهم بهذا الحائط ويذكرون أنه هو حائط المبكى

التجديد في الإسلام

بقلم : د. على جمعة

❞ كلمة «التجديد» المتعلقة بالدين وردت فى حديث النبى – صلى الله عليه وسلم . فقد روى الطبرانى فى كتابه (المعجم الأوسط)، والحاكم فى كتابه (المستدرك) ، والبيهقى فى كتاب (معرفة السنن والآثار) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها» وهو حديث صحيح ، ولقد فسره العلماء بتفاسير كثيرة منها أن التجديد يعنى نقل الدين من جيل إلى جيل آخر، وذلك بتعلم العلم وتعليمه ، ومنها أن التجديد يعنى الاجتهاد فى الأمور الحادثة والإفتاء فى الوقائع المتجددة حتى يحافظ للشريعة على رونقها ، ويحافظ على المقاصد الكلية التى راعتها (حفظ النفس والعقل والدين والعرض والمال) .

ومنها إعادة الدين فى نفوس الناس جديدا قويا ، حيث جرت سنة الله فى خلقه أن تتحول العبادة عند التعود عليها والإلف بها إلى عادة فتفقد جل قضيتها ورونق بهائها فى نفوس عموم الناس ، ويحدث التناقض المشهور حيث ترى الإنسان العابد ليس متحققا بالأخلاق السامية التى كانت منتظرة منه ❝

★ أستاذ أصول الفقه جامعة الأزهر

ونرى فى أحاديث أخرى إشارة إلى تلك المعانى فأخرج الطبرانى عن عبدالله ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان فى قلوبكم» وروى أحمد بن حنبل عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «جددوا إيمانكم، قيل يارسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله».

وذهب كثير من العلماء والمفكرين المسلمين إلى أن المجدد ينبغى أن يتصف بصفات الاجتهاد وحقيقة الاجتهاد عندهم إدراك النص وإدراك الواقع والتمكن من إيقاع هذا على ذاك يقول عبد الرءوف المناوى فى كتابه «فيض القدير» فى وصف المجدد ان يكون مجتهدا قائما بالحجة ناصرا للسنة له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان وإشاراته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان».

ولقد رأينا أبا حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) يشير باسم كتابه الى هذا المعنى حيث سماه «إحياء علوم الدين» ورأينا السيوطى (ت ٩١١ هـ) يهتم بحصر من له اسهام فى التجديد عبر قرون الإسلام.

إلا أن الدعوة الى التجديد فى العصر الحديث والتى بدأت فى أواسط القرن التاسع عشر ارتبطت بمعان أوسع من هذا المعنى.

فنرى الدعوة الى تجديد العلوم الشرعية بصفة عامة تظهر فى كتابات رفاعة الطهطاوى فى كتابه «القول السديد فى التجديد والتقليد» الذى طبع بمصر سنة ١٢٨٧ هـ فى حياته وقبل وفاته بثلاث سنوات، ولقد ظهر هذا العنوان فى المقالات التى نشرها فى جريدة الروضة إلا انه نشر فى صورة كتاب تحت عنوان «القول السديد فى الاجتهاد والتقليد» وهو يعنى ان التجديد مرادف للاجتهاد فى فكر الطهطاوى، والذى كان يدعو فى كتبه إلى اعادة النظر فى طريقة التدريس وعرض المادة العلمية والاستفادة فى ادراك الواقع بتجارب الآخرين، وقام بالترجمة والتعريب كما هو معروف.

● التجديد فى القرن العشرين

ثم برزت دعوة التجديد بصورة منظمة فى أوائل القرن العشرين على يد مدرسى مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم وكان المراد بالتجديد عندهم

التجديد فى الإسلام

تجديد الأسلوب وطريقة العرض، فألف محمد الخضرى كتابه فى أصول الفقه وهو مجمل محاضراته التى بدأها من سنة ١٩٠٦ وطبع كتابه ١٩١١، وهو يعرض المادة العلمية لعلم أصول الفقه بطريقة جديدة خرجت عن طريقة الحواشى والتقارير التى شاعت فى القرون الأربعة السابقة عليه، وإن كان قد سبقه فى هذا المضمار سلطان محمد على من مدرسى دار العلوم بكتابه «خلاصة الأصول» والذى طبعه فى ١٩٠٦م.

ونرى محمد الخضرى ايضا يؤلف تاريخ التشريع ويؤلف فى التاريخ بطريقة مبتكرة تمثل اتجاها بدأ يشيع فى عصره، وتلاه جيل محمد بك ابراهيم ثم عبدالوهاب خلاف وأبوزهرة وعلى الخفيف، والذين مثلت كتبهم تجديدا فى الاسلوب والعرض مخالفا ومتطورا عن السابقين.

ومن ناحية المضمون حدث التجديد فى طريقة الاختيار وعدم التقيد بمذهب واحد سواء أكان ذلك فى العلوم الشرعية أو فى الحياة الأدبية.

وبعد ذلك أخذت دعوة التجديد معانى أخرى فنرى إقبال فى «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» وهو المحاضرات التى جمعت وخرجت فى كتاب بالانجليزية (Reconstruction of religion thought in Islam) نراه يتلمس طريقه بصوة غير واضحة مترددة بين الدعوة الى حركة اجتهاد لاعادة بناء الشريعة من جديد على ضوء الفكرة والخبرة فى العصر الحديث حيث تتفق مع روح الإسلام وبين الخشية من الانبهار بالحضارة الغربية والوقوع فى إسارها .

● **الدعوة إلى العصرانية**

ويسبقه فى الهند سيد أحمد خان بدعوة يمكن أن تسميها الدعوة الى العصرانية Modernism وهى وإن سماها بعضهم دعوة الى التجديد، فإننا نرى أن نعالجها فى إطار آخر غير اطار التجديد الذى يمتد عبر الزمان، والذى سار عليه الفكر الاسلامى عبر القرون ويعاصر اقبال مدرسة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا بمصر، وهى مدرسة اكثر انتاجا وأوضح فكرا، دعت إلى تفعيل التوحيد فى حياة الناس والى استمرار العطاء الفكرى

التجديد فى الإسلام

واعتبار الوحي والوجود معا مصدرين للمعرفة وهو منهج سديد يغض النظر عن الأخطاء الجزئية التى يمكن ان تصنف تحت عنوان «خطأ المجتهد» عند استعماله لمنهجه وهى تلك الجزئيات التى لاقت اعتراضات كثيرة ألهت الناس عن رونق المنهج وأهميته.

وقد رأينا بعد ذلك فى النصف الثانى من القرن العشرين دعاوى كثيرة للتجديد داخل المفكرين المسلمين نادت بتجديد أصول الفقه باعتباره ممثلا للفلسفة الاسلامية او باعتباره (الميثودولجى) الاسلامى (المنهج والأداة)، وهذه الدعوى من التجديد كانت على أنحاء شتى وقوبلت بدرجات متفاوتة من الرفض والقبول.

نراها عند مصطفى عبدالرازق تلميذ محمد عبده فى كتابه (التمهيد فى الفلسفة الاسلامية)، وعند تلميذه سامى النشار فى (مناهج التفكير عند المسلمين)، ثم عند تقى الدين النبهانى وعبدالله الغمارى، وهى اتجاهات لم تحدث حولها ضجة او رفض مطلق، وعند جمال عطية وطه جابر والشيخ الغزالى وأحمد حمد. وهى اتجاهات مازالت فى سوق الفكر تؤثر وتتأثر به وهناك من لاقى رفضا من المتخصصين كنصر أبوزيد وسعيد العشماوى وحسين أحمد أمين.

إن قضية التجديد فى رأيى لابد لها من ضوابط تتمثل فى نظرة معرفية (ابستمولوجية) للإطار الذى لابد ان تتم فيه. وهذه النظرة المعرفية لابد أن تأخذ بجانبى الوحى والوجود كمصادر للمعرفة البشرية، وتعتبر فى ادراكها للواقع الجانب المتغير فى حياة البشر حيث لم يعد الأمس معاشا فى اليوم بعد ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات وما استلزم من ذلك من سرعة الوقائع وتشابك العلاقات مما يحتاج معه إلى آليات اخرى غير تقليدية لإدراك الواقع وكيفية ايقاع النص عليه بما يمكن ان نسميه بطريقة (الطلب) وليس (الهرب) الذى يدفع الكثيرين الى إلغاء النص ولو بالتأويل او الغياب عن الواقع بالسطحية او اغفاله او العزلة عنه وطريقة الطلب هذه تمثل مفاهيم اساسية تنبثق فيها النظم عن الرؤى الكلية للإنسان والكون والحياة بعيدا عن فلسفة (ليس الا) الموغلة فى المادية.

السيرة الذاتية
والصدق مع النفس

بقلم :د. محمود الطناحى

● أثار الأديب صلاح عيسى سؤالا محدداً حول «السيرة الذاتية» ، وهو السؤال الذى لم يجب عليه أحد ، وتحدثنا فى العدد الماضى من الهلال عن مدى الصدق مع النفس من الذين يكتبون سيرهم الذاتية ، وهل يذكرون العيوب والنقائص بجانب ذكرهم للمحاسن والمآثر، واستعرضنا ألوان السير الذاتية وصور الاعترافات ومدى صدقها من زيفها.

وفى هذا المقال نتناول نماذج من كلام الناس وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم، ومدى حرصهم على الحديث عن جوانب الضعف والقوة فى شخصياتهم ●

ونترك باب الأجوبة المسكتة ، وباب الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ، ودلالة ذلك كلّه على صدق النفس ، وننظر ونتأمل فى كلام الناس عن نواتهم ، وصدقهم فى الإبانة عن دخائل نفوسهم وماانطوى عليه قلوبهم ، غير هيابين ولا وجلين ، ولو كان ذلك فى ظاهره مما يصادم العقيدة ، أو يخالف المذهب :

روى أن عبد الله بن الزبير قطع ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الجمعة جمعاً كثيرة ، فاستعظم الناسُ ذلك ، فقال : إنى لا أرغب عن ذكره ، ولكن له أهيْل سوء (تصغير أهل) إذا ذكرته أتلَعوا أعناقهم (أى مدوها ورفعوها) فأنا أحب أن أكبتهم» شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٢٧/٢٠ ، وروى أنه قال : والله ماتركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرا وأكثر منه .

ومن هذا الباب أيضا ماروى أن علويا قال لأبى العَيْناء : أتبغضنى وقد أمرت بالصلاة علىّ ؟ تقول : صلى الله على محمد وآله . قال أبو العيناء : إنى أقول : «الطيبين الأخيار» فتخرج أنت . ربيع الأبرار ٧١٧/١ .

وأبو العيناء هذا : اسمه محمد بن القاسم ، كان أديبا فصيحا ، من ظرفاء الدنيا ، ومن أسرع الناس جوابا ، اشتهر بنوادره ولطائفه ، وكان ذكيا جدا ، حسن الشعر ، مليح الكتابة والترسل ، خبيث اللسان فى سبِّ الناس والتعريض بهم ، نشأ بالبصرة

وتوفى بها سنة (٢٨٣) كف بصره بعد بلوغه أربعين سنة ، قال عنه الخليفة العباسي المتوكل : لولا أنه ضرير لنادمته ، فبلغه ذلك فقال : إن أعفاني من رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص ، فأنا أصلح للمنادمة ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٤٥/٤ ، والأعلام للزركلي ٢٢٦/٧ .

وروى عن الجاحظ أنه قال : كان رجل من أهل السواد ـ والسواد : ناحية بالعراق افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ، سميت بذلك لكثرة الزروع والنخيل والأشجار بها ، والعرب تسمى الخضرة سوادا ـ كان هذا الرجل يتشيع ، وكان ظريفا ، فقال ابن عم له : «بلغني أنك تبغض عليا عليه السلام (أى تدعو الناس إلى بغضه وكراهيته) والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض ولايسقيك!

قال : والحوض في يده يوم القيامة؟ قال : نعم ، قال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ قال : والله لاتركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة» معجم الأدباء لياقوت الحموى ص ٢١٠٨ (طبعة الدكتور إحسان عباس ، وهى طبعة عظيمة فاقت الطبعتين السابقتين : طبعة مرجليوث ، وطبعة فريد رفاعى).

ومن باب الصدق مع النفس أيضا قول دعبل بن على الخزاعى ، الشاعر المعروف ، المتوفى (٢٤٦ هـ) : «ما كانت لأحد قط عندى منة إلا تمنيت موته» الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ١٣٧/٢٠ ، ولاتستبشع هذا القول من ذلك الشاعر ، فهو رجل صادق يستثقل منن الناس عليه ، ويراها قيوداً على لسانه وعقله ، وكثير من الناس يستصحب هذا الشعور ، دون أن يصرح به ، بل إن بعض الناس يأنف من السؤال ويطوى نفسه على الحرمان مخافة المن والخذلان ، تقول الصوفية الكبيرة أمّ على امرأة أحمد بن خضرويه البلخى المتوفى (٢٤٠هـ) «فَوْتُ الحاجة أيسر من الذل فيها» كتاب ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٧٧ ، وقال شاعر :

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

الحيوان للجاحظ ١٣١/٣ ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٢٥٦ .

ويبقى أن تلاحظ أيها القارىء الكريم ـ رجوعاً إلى الخبر السابق ـ أن أبا الفرج الأصبهانى ودعبلاً الخزاعىّ كلاهما شيعىّ ، ولم تمنع هذه الجامعة بينهما أبا الفرج من ذكر ذلك الخبر الذى قد يسىء إلى صاحبه على نحو ما . وهذا من باب الصدق أيضا .

● الصراحة الكاشفة

وهذا أبو العباس المبرد المتوفى (٢٨٥ هـ) وهو أحد أئمة العربية ، كان معروفا بالبخل ، وكان هو يظهر ذلك للناس ولايكتمه ، يقول الوزير القفطى «وكان المبرد ممسكا بخيلا ، يقول : ما وزنت شيئا بالدرهم إلا ورجح الدرهم فى نفسى ، هذا مع السعة التى

كان فيها» إنباه الرواه على أنباه النحاه ٣/٢٤٩

السيرة الذاتية

وقصة المبرد هذه مع ما يشاكلها تعطيك دلالة أخرى: لأن الذي يتحدث عن نفسه بهذه الصراحة الكاشفة يصدق في كل مايلقيه عليك بعد ذلك، لأن الشخصية لاتتجزأ ، كما يقول الناس في هذه الأيام ، ومن هنا تثق في كل ماكتبه أبو العباس المبرد : في كتابه الكامل في الأدب والأخبار ، وكتابه المقتضب في النحو وكتابه في التعازي والمراثي.

ومع تظاهر كثير من الناس بالزهد في المال وعدم الحرص عليه ، نرى الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثوري المتوفى (١٦١ هـ) وهو إمام الحفاظ ، وأمير المؤمنين في الحديث، يقول : لأن أخلف عشرة آلاف درهم ، يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن أحتاج إلى الناس» ، وروى أنه سئل عن مسألة وهو يشتري شيئا ، فقال : «دعني فإن قلبي عند درهمي» ، وروى عنه أنه قال : «كان المال فيما مضى يكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن» ، ونظر إليه رجل ، وفي يده دنانير ، فقال : يا أبا عبد الله ، تمسك هذه الدنانير ؟ قال : اسكت ، فلولاها لتَمَنْدل بنا الملوك.

«كأنه يريد : اتخذونا مناديل يمسحون بها وجوههم وأيديهم» سير أعلام النبلاء ، للذهبي ٧/٢٤١ ، يقول سفيان الثوري هذا كله ، وهو سيد العلماء العاملين في زمانه، وهو القائل أيضا : «ماوضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له » .

وهذا الأحنف بن قيس ، العالم الكبير المتوفى (٧١ هـ) وهو أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل ، يقول : «كذبت مرة واحدة ، سألني عمر بن الخطاب عن ثوب: بكم أخذته؟ فاسقطت ثلثي الثمن» سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/٨٩ .

وكان للأحنف هذا ولد ، يقال له : بحر ، وبه كني ، وكان مضعوفا (أي قليل العقل خاملا) «فقيل له : لم لاتتأدب بأخلاق أبيك ؟ فقال : الكسل» وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٥٠٦ . وهذا من باب الصدق مع النفس أيضا .

وهذا رجل يحب الشهرة وبعد الصيت ، ولو ركب لهما الصعب فيروى عن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء ، المقرىء المحدث الحنبلي المتوفى (٤٧١ هـ) أنه قال : «هل ذكرني الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» في الثقات أو مع الكذابين ؟ قيل : ماذكرك أصلا . فقال : ليته ذكرني ولو مع الكذابين» سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/٣٨١ ، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، لشمس الدين السخاوي ص ٣٣.

على أنه ينبغي التنبه الدائم للفرق الدقيق بين صراحة هؤلاء الناس ، وصدقهم في الإبانة عن أنفسهم ، وبين كشف العيوب القادحة ، ونشر المساوىء الفاضحة ، التي تدخل في باب العورات ، وهو مانهينا عن الحديث عنه ، أو تتبعه واستقصائه ، كما ذكرت في صدر هذه الكلمة ، وضم إليه ذلك الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مالك ، وهو حديث

من اعترف على نفسه بالزنا ، وفي آخره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد» الموطأ (باب ماجاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا . من كتاب الحدود) ص ٨٢٥ .

★★★

ومن أحلى وأعذب صور الصدق مع النفس وإرسالها على سجيتها : قصة ذلك المحدث الجليل ابراهيم بن سعد بن ابراهيم عبد الرحمن بن عوف . أبو اسحاق القرشي الزهري العوفي المدني ، المتوفي (١٨٣ هـ) كان حافظا كبيرا ، وإماماً ثقة حجة ، يقول الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٧٢/٨ «وكان ممن يترخص في الغناء على عادة أهل المدينة ، وكأنه ليم في ذلك ، فانزعج على المحدثين ، وحلف أنه لايحدث حتى يغنى قبله » أي قبل التحديث .

وروى الخطيب البغدادي هذا الخبر ، برواية أخرى ، قال : «وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهري ، فسمعه يتغنى ، فقال : لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك ، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً . فقال : إذاً لا أفقد إلا شخصك ، عليّ وعليّ - يقصد الحلف بالطلاق - إن حدثت ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغني قبله .. وذكر أن هذه القصة بلغت الرشيد ، فاستدعاه ، ودعاله بعود فغناه :.

يا أم طلحـــــة إن البيـــن قـــد أفــدا

قل الثـــواء لئن كــــان الرحـــيل غدا

تاريخ بغداد ٨٤/٦ ، وهذا البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وروايته في ديوانه ص ٣٩١ ألم بزينب إن البين قد أفدا ، ومعنى «أفد» دنا وقرب موعده .

فهذا محدث فنان، ومما يشاكل هذا الباب مارواه الذهبي أيضا ، عن علي بن حرب الطائي المتوفى (٢٦٥ هـ) قال : سمعت أبي يقول : أحب أن تكون لي جارية في غُنج سفيان بن عيينة إذا حدث» سير أعلام النبلاء ٤٠٤/٨ (والغنج في المرأة : حسنها وتدللها وترققها في الكلام) .

ومثل هذه الأخبار ينبغي أن تفهم على حقيقتها ، وهي أن القوم الذين كانوا يروون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا يروونه بانبساط نفس ، وانشراح صدر (يعني في تعبيراتنا المصرية : يروونه بمزاج) أما الورع الكاذب ، والخشوع المصطنع فلا وجود له في عقيدتنا ولا في حضارتنا ، واقرأ إن شئت كتاباً واحدا في آداب وأعراف التحديث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كتاب «أدب الإملاء والاستملاء ، لأبي سعد السمعاني المتوفى (٥٦٢ هـ) وتأمل على سبيل المثال مايذكره عن وجوب نظافة المحدث وحسن ثيابه وتطيبه بالعطور حين يجلس لإملاء الحديث ، وماتقله عن علماء

الحديث من التعوذ من الثقل والثقلاء .

السيرة الذاتية

★★★

وهذه صورة من صور الصدق مع النفس ، تسجلها كتب التاريخ والأدب ، مع أن هذه الصور تجرى فى ذرائع الشر ومكروه الأخلاق ، لأن هذه الكتب وثائق تسجل واقع البشر ، فهى لاتنتقى من الأخبار مايرضى الناس فحسب ، وتحجب عنهم مايسوؤهم، إن كتبنا فى التاريخ وسائر المعارف شهود صدق وقضاة عدل:

فهذا «نُوَيْد بن زيد بن نَهْد» معمر جاهلي قديم ، وشعره من قديم الشعر العربي، تقول كتب التاريخ والأدب إنه جمع أولاده عند موته ، ثم قال لهم : «أوصيكم بالناس شرا ، لاتقبلوا لهم معذرة ، ولاتقيلوهم عثرة ، أوصيكم بالناس شرا ، طعناً وضربا ، وما احتجتم إليه فصونوه ، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم ، فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن ، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس» راجع أيها القارىء العزيز كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستاني ص ٢٦ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣١ ، وأمالي الشريف المرتضى ١/٢٣٦.

ومن وصايا الشر أيضا التى سجلتها الكتب : ماوصى به أبو النجم العجلى الراجز الشهير المتوفى (١٣٠ هـ) بناته الثلاث ، قال للأولى :

أوصيتُ من بَرَّة قلباً حرًا بالكلبِ خيراً والحَماة شرًا
لاتسأمِي ضرباً لها وجرًا حتي ترى حلوَ الحياةِ مرًا
وإن كستكِ ذهــــبا ودرًا والحىُّ عمِّيهم بشـــرٍّ طرًا

وقال للثانية :

سُبِّي الحَماةَ وابْهتي عليها وإنْ دَنَتْ فازدلفى إليها
وأوجِعى بالفِهر ركبتيها ومرفقيها واضربى جنبيها

يقال : بهته بهتاً : أخذه بغتة ، ولعلماء اللغة فى قول أبى النجم «ابهتي عليها» كلام كثير أنظره فى الصحاح للجوهرى والتنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح لإبن برى والتكملة والذيل والصلة للصاغانى ، وكلها معاجم لغوية .

الفِهْر ، بكسر وسكون الهاء : الحجر يملأ الكف .

وقال للثالثة :

أوصيـــــك يابنتي فإنى ذاهبُ أوصـــيك أن تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم الساغبُ لايرجـــع المسكين وهـــو خائب
ولاتنـــــــى أظفارك السّلاهبُ منهـــن فى وجـــه الحماة كاتب
والزوج إن الزوج بئس الصاحب

والأظافر السلاهب : الطويلة.

وروى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سمع هذا الشعر من أبى النجم ثم قال له : ماهكذا أوصى يعقوب ولده ! قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ، ولا بنى كولده ! راجع الكامل للمبرد ص ۹۹۸ ، والأغانى لأبى الفرج ١٠/١٥٦

هكذا وصى دويد بن زيد ، وأبو النجم ، وسبحان خالق الطباع ، ومصرف القلوب . وما أصدق كتبنا ومؤرخينا فى تسجيل الحياة بخيرها وشرها وحسنها وسيئها .

فيأيها القارىء الكريم ، أنار الله بصرك وبصيرتك ، إقرأ وتدبر ولاتعجل فترمى هذا الكلام بالوضع والانتحال ، فقد عرفنا فى زماننا هذا من يوصى أولاده بسوء الظن ، والاستيحاش من الناس ، والإمساك دونهم ، والحرص على المال بتزيين البخل، فلازلنا نسمع هذه الأمثال كل يوم : اللى معاه قرش يساوى قرش ــ اللى معاه قرش ابنه يزمّر ــ القرش الأبيض ينفع فى النهار الأسود ــ وأنا مالى ياعم هو أنا خلفته ونسيته ــ ويبقى ابنى على كتفى وأدوّر عليه ؟ ــ وبالله نفسى نفسى ــ وياروح ما بعدك روح ــ واللى يعوزه البيت يحرم على الجامع ــ وخالتى وخالتك واتفرقت الخالات، بل سمعنا أشد من ذلك كله فى تسويغ البخل والإعراض عن نجدة الناس والبر بهم ، والنظر إلى المصلحة الذاتية فقط ، وهو قولهم : «عيش ندل تموت مستور» فهى هى طبائع البشر فى كل زمان ومكان، وإن اختلف التعبير عنها.

أما وصية أبى النجم فى التشديد على الحماة والإغلاظ للزوج ، فمازلنا نسمع من هذا وذاك الشىء الكثير ، وأظن أنه لايغيب عنك : يا مأمنه للرجال يا مأمنه للميّه فى الغربال ، ولازلت أذكر ماكنت أسمعه من نساء حىّ الدرب الأحمر ــ وهو الحىّ الذى نشأت فيه ــ فتقول الأم لابنتها قبل انتقالها لبيت الزوجية : خلّى بالك من المرة القرشانة اللى اسمها أمه ، إديها على دماغها أول بأول كده ، متسكتلهاش أحسن تركبك» أو تقول لها عن زوجها : «إوعى منه ، ربنا يستر ، والله أنا خايفة ، دابأين عليه ابن أمه» .

أما التوصية بنتف ريش الزوجة حتى لايطير ، فلم يعد لها مكان الآن ، لأن الزوج أصبح لاريش له بعد اشتراك الزوجة معه فى الوظيفة ، ومساهمتها فى دخل البيت ومزاحمتها له فى اتخاذ القرار ، وربنا المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

★★★

ثم نعود إلى أخبار الصدق مع النفس : فمع حرص خلفاء المسلمين على أن يظهروا للناس وجه العفو والمسامحة ، فإن بعضهم كان صادقا مع نفسه كل الصدق حين أظهر الحزم والمخاشنة وسوء المعاملة ، فقد روى أن عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب قال للخليفة العباسي المنصور ــ وكان ابن أخيه ــ «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو ! قال :

لأن بني مروان ـ يعني الأمويين ـ لم تبل رممهم، وآل أبي طالب ـ يعني العلويين ـ لم

تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة - أي من عامة الناس - واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة» تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٧، وهو كلام عال نفيس، فاقرأه مرة أخرى.

أما حديث الشعر في الصدق مع النفس فهو كثير جدا، ومنه قول حارثة بن بدر الغداني التابعي الجليل المتوفي «٦٤ هـ»، وهو ما رواه أبو الفرج الأصبهاني، والشريف المرتضى، قالا: «اجتاز حارثة بن بدر الغداني بمجلس من مجالس قومه من بني تميم، ومعه كعب مولاه، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحبا بسيدنا، فلما ولي قال له كعب: ما سمعت كلاما قط أقر لعيني، ولا ألذ بسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم، فقال له حارثة: لكني لم أسمع كلاما قط أكره لنفسي وأبغض إليّ مما سمعته! قال: ولم؟ قال: ويحك ياكعب، إنما سودني قومي حين ذهب خيارهم وأماثلهم، فاحفظ عني هذا البيت:

خَلَتِ الديارُ فسُدتُ غيرَ مُسَوَّدِ ومن البلاء تَفَرُّدي بالسُّؤدَدِ

أرأيت موضوعية وصدقا ونقدا للذات أبرع من هذا؟ وما أحرى كثيرا من أصحاب المناصب الآن أن يتمثلوا بهذا البيت لو رزقوا الصدق مع أنفسهم.

وانظر الخبر في الأغاني - ملحق الجزء الثامن ص ٤٢٤، من طبعة دار الكتب المصرية، وأمالي الشريف المرتضى ٣٨٨/١، ثم إنظر شرح الحماسة لأبي علي المرزوقي ص ٨٠٧، ففيه كلام عن التوجيه النحوي للبيت، إن كنت تحب النحو، وأود لك أن تحبه.

وهذا البيت الحكيم الذي أنشده وتمثل به حارثة بن بدر، هو من قطعة أوردها أبو تمام في حماسته، ونسبها لرجل من خثعم، لم يذكر اسمه - راجع الموضع المذكور قريبا من شرح الحماسة للمرزوقي - ونسبه ياقوت الحموي، ضمن ستة أبيات، إلى عمرو بن النعمان البياضي. معجم البلدان ٧٠٣/١، في رسم «البقيع»، ونسبه الجاحظ إلى حارثة بن بدر، فجعله منشئه لا منشده، في الحيوان ٨٠/٣، والبيان والتبيين ٢١٩/٣، لكنه في ص ٣٣٦ من ذلك الجزء أنشده من غير نسبة .

وقد كثر تمثل أهل العلم بهذا البيت ، فيذكر ابن عبدربه في العقد الفريد ٢٩٠/٢ عن الهيثم بن عدي ، قال : لما انفرد سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناس عليه ، فأنشأ يقول : خلت الديار ... البيت . وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٢٠/٤ ، في ترجمة «أبي بكر محمد بن أحمد الـ حين الشاشي الفقيه الشافعي (٥٠٧هـ) أنه يوم جلس على كرسي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد – وكان قد سبقه إلى التدريس فيها فحول العلماء – وضع منديله على عينيه وبكى كثيرا ، وأنشد : خلت الديار .... البيت ، قال ابن خلكان : «وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه» .

وروى أن التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٦هـ) قال: لقد تكلمت ، ولو

وجدت بداً ما تكلمت ، وإن زماناً تكلمت فيه لزمان سوء» ثم أنشد البيت : خلت الديار ... عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٦٨/١ ، والخبر رواه أبو نعيم الأصبهانى هكذا : «وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء» حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٢٢٣/٤ .

★ ★ ★

وللشعراء وأهل الأدب كلام كثير ، فى فضيلة كتم السر وصونه وعدم إذاعته ، لكن بعض الناس يضيق صدره عن كتمان السر ، ويحس أنه يحمل هما ثقيلاً على صدره ، أو جبلا ضخما على ظهره ، فهو يريد أن يتخلص من عبئه ، فيدور به على الناس ، لايبالى أين يقع منهم ، وليس بالضرورة أن يكون إفشاؤه السر لغاية من إفساد أو سعاية ، ولكنها الثرثرة ليس غير ، وإراحة النفس من هم مغالبة الكتمان ومرافعة الحفظ ، وقد ترجم عن هذا شاعر، فى لحظة صدق عالية ، فيقول سحيم الفقعسى (لم أعرف تاريخه ، وانظر من اسمه سحيم من الشعراء فى خزانة الأدب للبغدادى ٢٦٦/١) ، يقول سحيم هذا :

ولا أكتم الأسرار لكنْ أُذيعها ... ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
وإنّ قليل العقل من بات ليله ... تقلبه الأسـرار جـنباً إلي جنبِ

وأنشد الأصمعى ، قال : أنشدنى أعرابى :

ولا أكتم الأسـرار لكن أبثها ... ولا أدع الأسـرار تقتلني غما
وإن سخيف الرأي من بات ليله ... حريبا بكتمان كأن به حـمى
وفي بثك الأسرار للقلب راحة ... وتكشف بالإفشاء عن قلبك الهما

وقال ثالث :

وأمنع جارتي من كل خير ... وأمشي بالنميمة بين صحبي

أنظر هذه الأشعار فى الحيوان للجاحظ ١٨٥/٥ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٤١/١ ، والكامل للمبرد ص ٨٨٤ ، وبهجة المجالس لابن عبدالبر ٤٦٠/١ وذكر الجاحظ أن ضيق الصدر بكتمان السر من أخلاق الصبيان والنساء ، ومن أخلاق الخصى أيضا – والخصى : هو المقطوع الخصية – قال فى الحيوان ١٣٥/١ «ويعرض للخصى سرعة الغضب والرضا ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء ، ويعرض له حب النميمة ، وضيق الصدر بما أودع من السر ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء» .

ومن رقيق شعر عزيز باشا أباظة قوله من قصيدته «همسة حائرة» :

يبيت يودع سمع الليل عاصفة ... ضاق النهار بها سرّاً وكتمانا

فأثبت للنهار أيضا ضيقاً بكتمان السر ، كالإنسان سواء بسواء .

وبعد : فهذه صور من الصدق مع النفس : سلوكاً وكلاماً منثوراً ومنظوما ، امتلأت بها كتبنا وآثارنا التى تعرض الحياة كلها بخيرها وشرها ، وبياضها وسوادها ، وتلك طبيعة الحضارات العظيمة .

وتحية إلى الأستاذ صلاح عيسى ، الذى فتح لنا هذا الباب من القول . □

أفلام سير المشاهير ولعبة السياسة

بقلم: مصطفى درويش

هوليوود جزء من حياتنا العقلية منذ سبعين سنة أو يزيد ، بما يعرض من أفلامها على الدوام ، وبوسائل الدعاية لتلك الأفلام عن طريق وسائط الأعلام الجماهيرية ، وما أكثرها في هذه الأيام ومن بين تلك الوسائل الترشيحات لجوائز الكرة الذهبية والاوسكار فما أن تبدأ السنة الجديدة، حتى يعلن اتحاد الصحافة الأجنبية في لوس انجلس ترشيحاته لجوائز تلك الكرة .

وعادة الفائز بها من الافلام ومبدعيها، يجرى ترشيحه بعد أسابيع لجائزة الاوسكار .

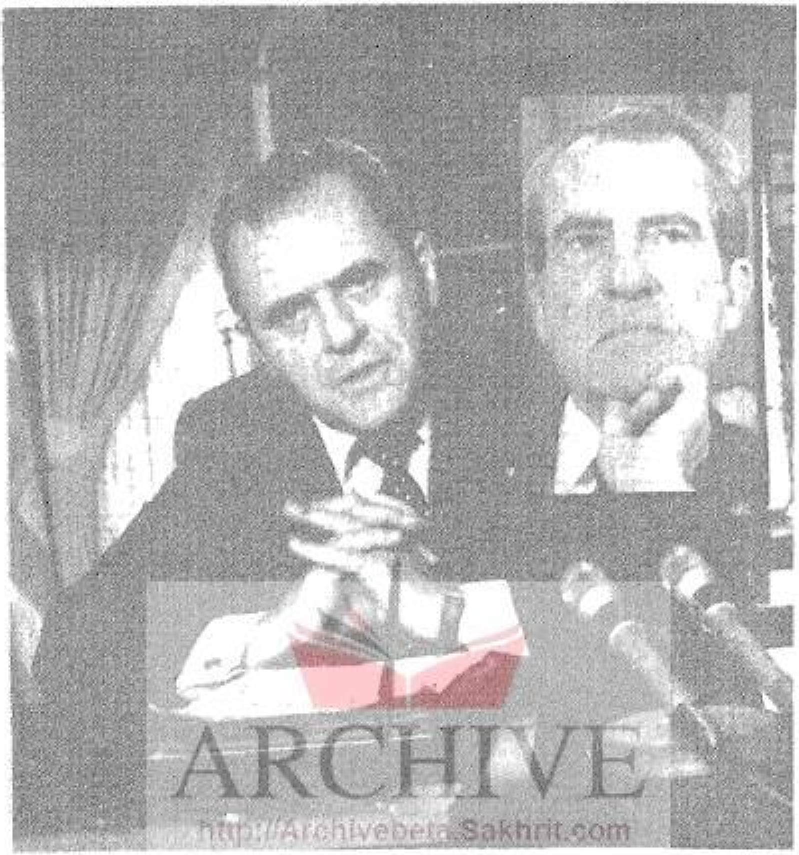
وغالبا ما يعلن فوزه بها هي الأخرى في حفل ساهر زاخر بعروض شيقة ، تسر الناظرين الى شاشات التليفزيون، وعددهم ألف مليون أو يزيد .

وأول ما يلفت النظر في ترشيحات ذلك الاتحاد التي جرى إعلانها على الملأ في الأيام الأولى من شهر يناير ، أن الافلام التي كان لها بعض حظ من الترشيحات عددها كبير ، وصل إلى واحد وثلاثين فيلما من بين ما جرى عرضه داخل الولايات المتحدة خلال السنة الماضية ، وهو لا يتجاوز المائة وثلاثة وخمسين فيلما .

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب إذا ما جنحت الى القول بأن الافلام المرشحة ، في طليعتها «العقل والاحساس» و«أبوللو ١٣» و«نيكسون» و«القلب الشجاع» .

● سر الاهتمام

فهذه الأفلام الأربعة تتقاسم ، فيما بينها ، ثلاثة عشر ترشيحا ، من بين اثنين وستين ، هي كل الترشيحات وذلك يعني فوزها ، رغم قلة عددها ، بنصيب الأسد من الترشيحات ، لا سيما إذا وضع في الاعتبار أن أغلب الجوائز المرشحة لها، هي جوائز أفضل فيلم وإخراج وسيناريو



● أنطونى هوبكنز فى دور نيكسون

وتمثيل رئيسى ، أى أهم الجوائز دون أدنى شك .

وإذا ما استثنينا «العقل والإحساس» المأخوذ من رواية بنفس الاسم للاديبة الإنجليزية «جين أوستن» فالافلام الثلاثة الأخري مستوحاة من سيرة كل من رائد الفضاء الامريكى «جيم لوفيل» والرئيس الامريكى الراحل «نيكسون» و «وليم والاس»ذلك البطل الاسطورى الذى قاد مقاومة الشعب الاسكتلندى للاحتلال الانجليزى ، قبل سبعة قرون من عمر الزمان .

وإذن فهى من ذلك النوع السينمائى المسمى بأفلام السيرة

وبالتالى ، فليس غريبا أن تحظى بذلك القدر الكبير من الاهتمام .

فمصنع الأحلام فى عاصمة السينما ، لايكف ،منذ البدايات ، عن تناول سير المشاهير فى العديد من الافلام .. كيلوباترة، قيصر ، نيرون ، ابراهام لينكولن، باستور ، توماس اديسون ، أميل زولا ، دريفوس فان جوخ ، تولوز لوتريك ، زاباتا ، لورانس العرب ، فرويد، تشرشل ، غاندى ، الملاكم جاك لاموتا، مالكولم اكس، وكينيدى ، وغيرهم كثير .

● التمجيد لمن ؟

حتى سير زعماء العصابات الاجرامية، من امثال آل كابون و «بجسي» الذى تحول بجزء من الصحراء القاحلة إلى مدينة عالمية للقمار تبهر الأبصار بالأنوار، اسمها لاس فيجاس ، حتى هذه السير اكتشف مصنع الأحلام إنها كنز لايفنى .

فكان أن عمل على ترجمتها ، أكثر من مرة إلي أفلام ، بعضها عرض لحياة هؤلاء الزعماء المجرمين ، على وجه انطوى على قدر غير قليل من الإشادة ، ولا أقول التمجيد.

أفلام سير المشاهير

وأعود إلى الأفلام الثلاثة لأقول إن العرض لسيرة «جيم لوفيل» فى فيلم «أبوللو ١٣» ، هو الآخر قصد به التمجيد، غير أنه ، فى هذه المرة، تمجيد لا لمغامرات مجرمين ، وإنما لبطولات رواد فضاء أمريكيين ، تعرضوا لمحنة كبرى فى الفضاء ، خرجوا منها منتصرين .

ويلاحظ أن «رون هوارد» مخرج الفيلم لم يختر من سيرة «لوفيل» سوي ستة أيام من حياته سنة ١٩٦٩ .تلك الأيام التى قضاها مع زميليه «فردهيز» و «جاك سوريجرت» فى مركبة الفضاء أبو للو ١٣ المنطلقة بهم فى الفضاء ، للنزول بها على سطح القمر.

● كارثة ونجاة

وفى البدء سار كل شيء فى المركبة على خير ما يرام ، إلى أن انفجر أحد خزانات الأوكسجين، مما افقد المركبة الطاقة والقدرة على مواصلة الرحلة صعوداً إلي القمر

فمنذ ذلك الانفجار والقرار الذى اتخذ بقطع الرحلة والعودة سريعا إلى الأرض ،


فارس يحارب من أجل
الحرية والاستقلال

والفيلم يدور وجودا و عدما حول صراع «لوفيل» مع زميليه من أجل البقاء إلى أن تكتب لهم ، بفضل رباطة الجأش وحسن التصرف ، النجاة فى نهاية سعيدة على طريقة هوليوود فى معظم الأفلام .

وقد تحمس الجمهوريون للفيلم ، ولم لا؟ وهو يمجد من شــأن بطولات هزت العالم . فى عصر كانوا فيه مع «نيكسون» سادة البيت الأبيض

● مفاتيح الشخصية

وهنا انتقل إلى فيلم «نيكسون» لأقول أن مـخـرجـه «أوليـفـر سـتـون» صـاحـب «مصرع كينيدى» وثلاثية فيتنام، أثر ألا يتناول فـيـه من سيرة الرئيس الامـريكى الراحل «ريشـارد مـيلهاوس نيكسـون» وهذا اسـمـه بالكامل ، إلا مـا كـان منهـا متصلا بفضيحة ووترجيت التى انتهت به فـاقـدا الرئاسـة ، مطرودا من البـيـت الأبيض، مطاردا بالخزى والعار .

فـالفـيلم يبـدأ بسـبـاكى ووترجـيت ، وينتهى بالرئيس مستقيلا .

وفيما بين هاتين الواقعتين يرتد الفيلم من حين لآخـر إلى وقــائع من مــاضـى «نيكسون» ، فى محاولة للعثور على مفاتيح لشخصيته الشديدة التعقيد ، بما يتجاذبها



ميل جيبسون .. مخرجاً وممثلاً

من طموح عنيد ، وعيوب مدمرة للذات.

ومن بين تلك المفاتيح ، بل لعله أهمها هاجس الموت المستبد به إلى حد دفعه إلى الاعـتـقـاد بانه مـا صـعـد إلى الرئاسـة إلا بفـضل مـوت شـقـيقـيه «آرثر» و «هـارولد» الأول وهو فى الســابعـة، والثــانى بمرض السل ، وهو فى الثالثة والعشرين، الأمر الذى اتاح لوالديه فـرصـة اسـتـثـمـار مدخراتهما الضئيلة وآمالهما فى تعليمه .

وقـريبـا من النهـاية بفـضل مـصـرع الشـقـيقين «جـون» و «روبرت» كـينيـدى ،

الامـــر الذى مـــهـــد له طريق الفـــوز برئاسة أغنى وأقوى دولة فى العالم

ولعله من المناسب هنا أن أذكـــر أن فيلم «ستون» عن «نيكسون» بدأ العمل فيه بعد أشهر من موت الرئيس الأسبق، وهو أمر غير مسبوق فى أفلام السير.

وأغلب الظن ان هذه العـــجلة ، إنما ترجع إلي أن معركة الرئاسة فى الولايات المتحدة على الابواب .

ومن الأكيد أن تذكير الشعب الامريكى بفضـيـحـة ووترجيت ، له دور فى تلويث سمـعـة الجمـهـوريين الذين يطمـعـون فى استرداد الرئاسة من الديموقراطيين.

● صرخة الحرية

والآن إلى آخر الأفلام الثلاثة «القلب الشـجـاع» ثانى فيلم يخرجـه «مـيل جيبسون» الممثل الاسترالى الشـهـير وبطولته تنعقد له في دور «وليم والاس» ، فارس الفرسان ، المتزعم لحركة مقاومة الاسكتلنديين . للاحتلال الانجليزى .

وبشـجـاعته التي أصبحت مضـرب الأمـثـال ، أسهم في حـماية استـقـلال اسكتلندا ، ولو إلى حين .

وقد راعى «جيبسون» ألا يتجمل ، لا هو، ولا اهل اسكتلندا الاصليون.

فنحن – المتفرجين – نراهم كما كانوا فى تلك الأزمنة الموغلة فى القدم يعيشون حيـاة أقرب إلي التـوحش ، يغلب عليـهـا تقـشـف في المسكن والملبس والمأكل ، لا يسمح لهم حتى برهافة النظافة ، فى ظل أوضـاع قاسـيـة ، لا فـسـحـة فـيـهـا حتى للاستحمام .

ومن حسنات سيناريو الفيلم أن مؤلفه. «راندال والاس» لم يقع فى كـــمـين النهاية السعيدة فالبطل لا تكتب له نجاة ، يؤسـر ويعـذب أمـام أعـيننا حتى الموت ، بشتى وسائل التعذيب . ولمدة عشر دقائق أو يزيد ، لعلها أطول مدة تعذيب لبطل على امتداد عمر فن السينما .

ولأن الفـيلم ملحـمى ، فـقـد اعـتنى مخرجه بتصوير معاركه ، وخاصة معركتى «ستيرلنج بويدج» و «فالكيرك» .

ويتميز القلب الشجاع بجوانب ايجابية اخرى، من بينها . إنه صرخة صادقة من أجل الحرية والاستـقـلال . ومن عجب أن تكون صرخة من أجل استقلال اسكتلندا ، يصفق لها الاسكتلنديون فى دور السينما، مهللين ، مكبرين، ويغضب منها الانجليز، حتى لو كانوا من كبار المفكرين والنقاد !!.

صناع القرن العشرين :
أهم شعار تربوى فى القرن العشرين

باولو فريرى

فيلسوف الأمل التربوى فى تحرير الإنسان

بقلم : د . حامد عمار

☐ هو من أعظم فلاسفة التربية - إن لم يكن أعظمهم - ممن أفرزهم العالم الثالث فى القرن العشرين، برازيلى المولد والنشأة، لم تقتصر أفكاره فى التأثير على موطنه، بل امتدت إلى القارة اللاتينية بأسرها، وإلى كثير من أقطار العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا، بل واحتضنها فريق من أئمة التربويين فى القارة الأمريكية فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. ومن المصادفات التى تستحق التنويه ما يقوم بينه وبين كاتب هذا المقال من تطابق فى تاريخ المولد، وهو عام ١٩٢١ . وقد نشأ فى بيئة فقيرة فى ميناء «رسيفى» على الساحل الشمالى الشرقى من البرازيل، وعانى مع أسرته مرارة الفقر، وبخاصة نتيجة لما تعرضت له من أعاصير الكساد الاقتصادى فى أوائل الثلاثينيات مما أدى إلى تدهور أوضاع الأسرة المعيشية، وإلى خبراته المباشرة لقسوة الحرمان والقهر وتداعياتها على النفس البشرية.



ومع ذلك كله ظل باولو فريرى فيلسوفا متفائلاً بقدرات الإنسان وطاقاته، ويمكنه إذا ما هيئت له الظروف الملائمة أن تنصح باطراد مقومات إنسانيته ، متحررا من قيود القهر والاستغلال، ومن ثم يغدو حراً معبراً عن ذاته، متجاوزاً لما أسماه «ثقافة الصمت» وهامشية العيش ومسلحاً بمصادر القوة من خلال إرادته ، ووعيه بمقاصده فى الفكر والفعل، وبعبارة أخرى إنه يؤمن بقدرة الإنسان على الخلاص من إشكالية الإنسان المفعول بظروف القهر لصالح الإنسان الفاعل فى تغييرها، مستهدفاً صناعة حاضره ومستقبله ويعتبر بذلك رفيق طريق لفرانتز فانون فى محاولة فك الأغلال عن المنبوذين والمقهورين فى هذا الكوكب.

ولم يكن فيلسوفنا فريرى من أصحاب الأبراج العاجية، لكنه ظل طوال حياته مناضلاً مشتبكا مع الواقع، تلتحم فى أفكاره وحدة الفكر والعمل. وفى توسة العمل مع الفكر ، يقول «إننا نصنع الطريق فى الأرض بالمشى فيها» وهو عنوان لكتاب باللغة الانجليزية يسجل حوارا بينه وبين مفكر أمريكى حول قضايا التعليم والتغيير الاجتماعى، يستحق الترجمة إلى اللغة العربية لما فيه من أفكار وخبرات فى الحياة ومعاناة للصعاب وجهد فكرى عملى حول التعليم ودوره فى التغيير الاجتماعى

باولو فريرى

● المعلم المناضل

ويكاد ينفرد صاحبنا بأنه من القلائل من فلاسفة التربية ممن تعرض للسجن والنفى من جراء آرائه، لأنه كان ملتزما بالعلاقة العضوية بين النظر والتطبيق، وما بينهما من علاقة جدلية تثرى وحدتهما تحريك الواقع .

وارتبط فريرى بعد تخرجه فى كلية الحقوق ودراساته فى الفلسفة وعلم النفس بتموجات الحركات السياسية فى البرازيل وبخاصة مع الحركة الديمقراطية الراديكالية، وما صاحبها من ضرورة التعليم الشعبى، حيث كان الأميون فى البرازيل محرومين من حق التصويت حتى أوائل الأربعينيات، لذلك اشتغل بقضية تعليم الكبار ومكافحة أميتهم الأبجدية والسياسية بما يشحذ وعيهم للنضال من أجل تحرير ذواتهم وتغيير أوضاعهم.. وقد ترسخ لديه أن النظام الديمقراطى لايقوم على مجرد البنى والمؤسسات وتنظيماتها الرأسية، وإنما ينبغى أن يعتمد على مشاركة أفقية للجماهير من خلال تعليم يشحذ الوعى بذوات المقهورين، ويكسبهم القدرة على الفعل والتأثير. وبذلك تشابكت أفكاره التربوية بالعمل السياسى واعتباره التعليم وجها آخر للسياسة، كما سنرى فيما بعد .

وأخذ فيلسوفنا مع مجموعة من العاملين معه في فتح مراكز لتعليم الأميين، واختار طريقة لذلك عرفت باسمه، تجعل من قراءة الكلمات والجمل مثاراً للوعي لواقع الأميين، وبما يقيد تفكيرهم وإرادتهم من السلبية وثقافة الصمت وما يتخللها من قدرية واسطورية. بيد أن هذه اليقظة التعليمية السياسية التي أخذت تشيع بين الفقراء والفلاحين. والتي أكسبتهم حبهم لمعلمهم - قد وضعته في القائمة السوداء لدى العسكريين وكبار ملاك الأراضي في البرازيل، خصوصا بعد أن أصبح مديراً للبرنامج الوطني لمكافحة الأمية في أوائل الستينيات.

ويأتي الانقلاب العسكري ليحكم قبضته على السلطة عام ١٩٦٤، فيوقف ذلك البرنامج، ويتعرض فيلسوفنا للسجن ٧٥ يوما بعد محاكمة استمرت ٨٣ ساعة. وتتهمه إحدى الصحف الحكومية إذ ذاك بأنه «ينشر أفكاراً غريبة في أرجاء البلاد، وأنه مخرب عالمي، وخائن للمسيح وللشعب البرازيلي، فضلا عن كونه جاهلا وأميا!!» وتلك سلسلة من تلفيق التهم نعرفها من أخزم، كما يقول المثل العربي. وفي السجن بدأ في تحرير واحد من أهم كتبه وعنوانه مترجما «التعليم كمنهج لممارسة الحرية»، والذي أتمه بعد أن خرج من السجن ونفي إلى شيلي وفي هذا الكتاب يبدأ فريري شرح ظروف المجتمع البرازيلي، وفي تنظيم أفكاره حول طرق التعليم التي تؤدي إلى تحرير الإنسان وتغيير أوضاعه، مناديا بضرورة صياغة نمط من الاشتراكية للمجتمع البرازيلي، وداعياً إلى الثورة في سبيل انجاز تلك الصياغة.

● بصماته العالمية

ويستمر فريري في نشاطه الفكري والعملي ونشر طريقته في التعليم السياسي للأميين، وفي الدعوة إلى وضع التعليم في جوهر السياسة، وإلى استهدافه تحرير طاقات الإنسان. واستمر متنقلا من شيلي إلى تنزانيا وزامبيا وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر ونيكارجوا، حيث حاضر وقدم مشورته فيما يتعلق بتطوير سياسات التعليم وطرائقه. كذلك امتد نشاطه إلى الجامعات الأمريكية والكندية، وإلى كثير من المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية في أوربا، وظل خلال كل هذا التجوال يناضل من أجل نشر أفكاره في تواضع جم، يطرحها للمناقشة والتجربة، ومردّ تواضعه - كما يقول «لأني إنسان غير مكتمل - لا لأني أريد الناس أن تحبني لتواضعي، وإن كنت في حاجة شديدة لمحبة الناس، وإنما لأنني منفتح، ومنفتح جدا، لكي أتعلم من تلامذتي . ولعل هذه من أهم الفضائل التي ينبغي علينا نحن

المربين أن ننميها، وإنى متأكد من أن الفضائل لا تأتينا كمنحة، أو أننا نصنعها بطريقة معرفية فحسب لكنها تنمو من خلال الممارسة. وعلينا أن نُكوِّن فى أنفسنا من خلال تلك الممارسة فضيلة التواضع».

● العودة إلى الوطن

واستمر فريرى مغترباً عن وطنه حوالى ستة عشر عاما حتى أوائل الثمانينيات حين انقشعت سحائب الحكم الدكتاتورى العسكرى من البرازيل، حيث تولى عند عودته منصب الأستاذية فى كلية التربية فى الجامعة الكاثوليكية فى سان باولو، ثم أستاذا فى كلية التربية فى جامعة كامبيناس الحكومية فى نفس المدينة.. وظل يعمل فى إطار التعليم الشعبى بالتعاون مع حزب العمـــال الاشتراكى الديمقراطى، وينتهى به المطاف الوظيفى إلى أن يعين مديراً عاماً للتعليم فى بلدية سان باولو عام ١٩٨٩، وبذلك يتولى منصبا تنفيذياً تتاح له فيه تطبيق أفكاره وطرائقه وتجربتها فى إطار حزب العمال الاشتراكى الذى كان السلطة الحاكمة فى تلك المنطقة. ثم يستقيل عام ١٩٩١ وقد بلغ السـبعين من عمـره، وتكرمه بلديته ليصبح «سفيرا شرفيا» لها، يكتب ويحاضر ويناظر ويتحاور فى أرجاء الجامعات والمؤسـسات التربـوية فى

باولو فريرى

أمريكا اللاتينية وأوربا والولايات المتحدة وكندا.

● الملامح العامة للفلســفة الفريرية

وإلى هنا يأتى مقالنا إلى نهاية أهم المعالم فى السيرة الذاتية لهذا الفيلسوف التربوى، والذى قال عنه أحد أساتذة التربية فى جامعة جنوب كارولينا فى الولايات المتحدة الأمريكية «علينا أن نقرأ فريرى فى عصر تلبسته تيارات ما بعد الحداثة وموت الذات «الذات الإنسانية»، ولهذا يعتبره كثير من النقاد الاجتماعيين أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين لما لكتاباته من معان فى إطار حقبتنا المعاصرة». ولعل ذلك سوف يتضح لنا عند محاولة التعرف على فلسفته بقدر ما تسمح به صحائف «الهلال»، وفيما أطلق عليها بعضهم تسمية الفلسفة الانسانية الديمقراطية الراديكالية، مما يوحى لنا فى اللحظة ذاتها بتوجهات المناضل الثائر تشى جيفارا فى كوبا، والزعيم السياسى الليندى فى شيلى. إنها فلسفة إنسانية لأن الإنسانية فى فلسفته منطلقة من ضرورة تحويل الإنسان من «كائن لغيره» إلى «كائن لنفسه»، ومن العمل على تخليص المقهورين من موات الصمت واسترداد

أصواتهم باعتباره الشرط الأساسى لتحرير إنسانيتهم.. وهى فلسفة ديمقراطية لأنها تعتمد على الحوار فى توعية المقهورين من خلال التعليم، وتشدد على ضرورة مشاركتهم فى صنع القرار وهى راديكالية لأنها تتعامل مع ظروف الظلم وغياب العدل الاجتماعى وأحوال الفقر السائدة فى البرازيل والعالم الثالث.. ومن ثم كان لابد من فعل ثورى، عدل فيه عن استخدام العنف فى السنوات الأخيرة والراديكالية فى قناعته هى القيام بفعل ينطلق من الواقع ليحركه ويغير بنيته الاجتماعية وهو يتبرم أحيانا من الفلاسفة «لأنهم استطاعوا تفسير العالم بطرق مختلفة، لكن الأهم من ذلك هو العمل على تغييره وهذا مما لم يقدم عليه كثير منهم».

ومهما يكن من تشخيص لفلسفته فى جوانبها المختلفة، فإنها كانت انطلاقا من تراب أمريكا اللاتينية ومناخاتها وتضاريسها الاجتماعية والسياسية، ومن وضع الغالبية العظمى ممن أسماهم بالمقهورين - ماديا ونفسيا - فى سياق مجتمع تحكمه أقلية قاهرة - ماديا ونفسيا - مما جعل لفلسفته صدى فى مختلف أرجاء العالم، حيث اتسع مفهوم القهر والمقهورين ليشمل تلك الفئات البشرية المهمشة فى الأقطار الصناعية، ومن بين تداعيات هذا الشمول تأثيره فى حركات مطالبة السود بحقوقهم المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا منذ أوائل الستينيات .

● منطلقات فلسفته التربوية

تنطلق الفلسفة التربوية لباولو فريرى من تصورات جوهرية عن الإنسان والكون والمعرفة والتاريخ. وإذا أردنا أن نمهد للتعرف على منظوره التربوى المتصل بسؤال حول «كيف يتعلم الناس أو كيف يعلمون أنفسهم؟» فإن ذلك يقتضى أن نتعرف على تصوره للسؤال حول «كيف يعرف الناس عالم الواقع؟»، ثم «كيف يمكن معرفة هذا الواقع؟» وأخيراً «كيف يحدد الناس تلك القيم الجديرة بالنشاط الإنسانى»، حتى نتبين منظوره التربوى فى عملية التعليم والتعلم والوعى الاجتماعى.

بيد أن كل هذه التصورات الجوهرية إنما تتفاعل مع بعضها فى فلسفته بطريقة جدلية من خلال تناقضاتها أو تكاملها، حيث أن نظرية الواقع الانطولوجى ونظرية المعرفة الايستمولوجية والنظرية الأخلاقية والقيمية إنما تمثل الظهير أو الخلفية لمنظوره التربوى من خلال علاقات تلك النظريات كلها واتساقها مع منطلقاته التربوية. ومن الضرورى هنا أن نؤكد فى معالجته الجدلية على صعوبة الفصل بين الذات والموضوع وبين الوعى الإنسانى

ومجال الوعي ومعطياته القائمة، أو بين التأثر والتأثير لكل من هذين الجانبين فى مجال القيم المنشودة وطرق التعليم والتعلم. وبالمنهج الجدلي يحدد فريرى ما هو واقعي من خلال التعرف على ما هو ليس بواقعي، وما هو إنساني بما هو لا إنساني، وما هو حقيقي بما هو كاذب أو مدرك بصورة مشوهة.

● النظرة إلى الوجود والواقع والمعـــرفة

إن المعطيات التى تقوم فى عالم الواقع والأشياء لا وجود لها خارج الإدراك الإنساني، ويتم اكتشافها من خلال ما يقوم به العقل الإنساني من بحث، وما يترتب على هذا الاكتشاف من توجه نحو العالم وتفاعل معه، تعكسه وتسميه وسائط التفكير/ اللغة فى وحدتها، إذ اللغة فى فلسفته هى الوجه الآخر للتفكير ومن خلال هذا الاكتشاف والتأمل يقوم الإنسان بإعطاء «تسميات للأشياء فى عاله وهى تسميات لإدراك ذاتى جماعي» ترمز للواقع المدرك، وليست صورة فوتوغرافية لذلك الواقع وبذلك تتشابك وتتوحد عملية الإدراك الذاتي مع الموضوعات الخارجية المدركة من خلال الإنسان العارف فى وجوده الجماعي.

وإدراك الواقع إنما هو «عملية»، وليس واقعة معطاة محددة ثابتة، وهو كذلك عملية اكتشاف مستمرة لاتنقطع للواقع، مرتبطة ومتغيرة بالبعد الزماني.. وهنا يلتقى فريرى مع فلاسفة اليونان فى مقولتهم بأنك لاتستحم فى نفس النهر مرتين. وهذا الإدراك مرتبط بالمكان أيضا فى علاقة الإنسان بهذا المكان وما به من موجودات وثقافات.

ومن ثم إذا كان الواقع وموجوداته ليس لها من حقيقة خارج وعى الإنسان ومدركاته، فإن الإنسان ذاته يعيش داخل هذا الواقع كما يتفاعل معه ويصارحه فى الوقت ذاته، متميزا بذلك عن سائر الكائنات الأخرى على أساس قدرته على التأمل والتفكير فيما يضطرب فيه من أوضاع مجتمعه. وهكذا يصبح البشر كائنات علائقية تاريخية جغرافية، ويصبح الواقع مترجما بلغة علاقات الزمكنة «الزمان والمكان»، حين يعبر الإنسان عن الأحداث فى علاقتها بين هنا وهناك، أو فى علاقتها قبل هذا وبعد ذاك، أو فى علاقتها بين الماضى والحاضر والمستقبل، والخلاصة أن إشكالية الواقع إنما تتمثل فى أن الإنسان يصنع تاريخه كما يصنعه تاريخه من خلال قدرته على التفكر والقصد.. وحين تتعاظم تلك القدرة يتجاوز الواقع الراهن ليخلق واقعا مغايرا. وبعبارة أخرى فإن الإنسان فى كينونته - صيرورته إنما هو مسيرة تمثل سببا ونتيجة للتاريخ والثقافة. وفى هذه الإنسان الإشكاليه يصبح فكر الإنسان المتحرر قادراً على أن يدفعه إلى أن يكون «أكثر مما هو» فى تفاعله مع الواقع المنغمس

فيه ومن هنا يكمن الأمل فى تحرير الإنسان لذاته وبنضاله.

وينشغل فريرى فى كتاباته كلها بتأكيد هذه الخاصية الإنسانية، كما سعى الوجوديون إلى تأكيد ذلك أيضاً، وهى الميزة للإنسان عن الحيوان الذى هو كائن منغلق فى نفسه تدفعه غرائزه، كما أنه كائن لغيره الذى يسخره، لا ينفصل عن نشاطه، ولا يستطيع التفكير فيما يعمله، وبذلك تنعدم قدرته على تغيير سلوكه أو نمط حياته، وليس له ثقافة أو تاريخ، وزمانه ووجوده ثابتان لا يتغيران والإنسان بعكس ذلك تماماً - كائن لنفسه لا لغيره، يفكر ويفكر فيما حوله، قادر على الفعل، وقابل لتحدى ظروفه التى تحيط به وتستثيره، وقاصد على أن يتخذ له هدفا وأن يلتزم به. ومن خلال ذلك كله يسعى الإنسان إلى تحقيق إنسانيته بدرجات متنامية من التحرير لواقعه الاجتماعى ولطاقاته وقدراته، ثم إن التعليم والتعلم من خلال الحوار هو من أهم القيم اللازمة لبلوغ تلك الصيرورة المتحررة فى تفاعل الإنسان ليصبح صانع حضارته وتاريخه كما سنوضح ذلك فيما بعد.

ويستدرك فريرى مشيرا إلى ما يعوق تحول الإنسان من الحالة المماثلة للحيوانية إلى حالة الصيرورة نحو انضاج مقوماته الإنسانية، وتبرز تلك العوائق فيما يتعرض له قطاع بشرى كبير من صنوف القهر المادى والنفسى والاغتراب، ومن أجل الوصول إلى التحرير - الذى هو عملية متصلة، وليست حالة ثابتة تجيىء ضرورة يقظة الوعى بذلك الواقع مقترنة بالسعى والعمل والجهد الإنسانى للتغيير، وبذلك فإن المعرفة فى نظره مرتبطة بالواقع المعاش، وهى عملية تاريخية متطورة كما أن الواقع والوجود عملية صيرورة اجتماعية متطورة. ومن أجل تحرير فئات المقهورين من ثقافة الصمت والاغتراب أعطى فريرى للمقهورين حق الثورة والعنف بمختلف الوسائل، رغم أنه عاد عن ذلك فى السنوات الأخيرة .

ويبرر استخدام العنف كرد فعل لعنف القاهرين، معتبراً أنهم هم البادئون باستخدام العنف، نظرا لتجريدهم المقهورين من مقومات إنسانيتهم، ومع ما يبدو من تناقض بين تركيزه على الحوار والتعليم الديمقراطى السياسى وبين استخدام العنف فى التحرير، فإنه يؤكد على ما يترسخ فى نفسية المقهورين من ازدواجية فى حالتهم النفسية تتأرجح بين تعايش مع حالة الاستئناس النفسى إذعاناً للقاهر، وبين غليان نفسى تمرداً عليه. وليس هناك من سبيل للخلاص من هذه الازدواجية المحبطة غير إثارة الوعى لدى المقهورين وتنظيمهم للعمل الديمقراطى السياسى . ■

وفى العدد القادم نتعرض لمواطن النقد لفلسفته وأرائه فى الكثير من الموضوعات

الكمبيوتر والترجمة

بقلم : محمد فتحى

يوجد مثل إنجليزي يقول Out of sight, out of mind، وإذا طلبت ترجمته من مترجم حصيف لبادرك على الفور بالمثل العربي المعروف «البعيد عن العين بعيد عن القلب» ، ولو كان أكثر حرفية لقال «البعيد عن العين بعيد عن الخاطر» ، ولفعل الأمر في الحَالتين بيسر ودون مجهود يذكر .

وفي المحاولات المبكرة لاستخدام الحاسب الآلي في الترجمة طلبت منه ترجمة نفس المثل الإنجليزي ، وبالطبع لم يكن في مقدوره إلا أن يترجمه «خارج عن البصر ، خارج عن العقل» ، ولما فكروا في جعل الكمبيوتر قادرا علي تشغيل مخه ، وطلبوا منه ترجمة نفس المثل ، استخدم منطقه الأعمي وترجم المثل ، إلي «أعمي وغبي» ، فالشق الأول Out of sight يعني أنه «ليس له نظر» وقد فكر الكمبيوتر وقرر أن معني ذلك أنه أعمي . والشق الثاني Out of mind يعني «ليس له عقل» ، وقد فكر الكمبيوتر وقرر أن معني ذلك أنه غبي ، وهكذا قرر في ثقة الآلة «التي تشغل مخها» أن المثل يعني «أعمي وغبي» .

وليت الأمر مع الترجمة الكمبيوترية يقف عند هذا الحد الباعث على الضحك ، فتخيل مثلا ماذا يمكن أن يحدث لرجل ارتكن على ترجمته لتعبير Under Secretary الذى يعنى «نائب وزير» فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والتى حولها المترجم المفكر الكمبيوترى الجهبذ إلى «السكرتير السافل» .. هكذا تبدو الصعوبات والمخاطر التى تحيط بالترجمة الكمبيوترية .

لكن اللغة العربية تتجاوز بخطوات واسعة هذه الأيام كثيرا من المشاكل التى وقفت حجر عثرة فى طريق التعامل مع الكمبيوتر ، وتقف على أبواب إنجازات يمكن أن تكون كبيرة فى مجال الترجمة ، والآفاق التى تفتحها المنجزات المعلوماتية الأخيرة أمام الحضارة البشرية .

إن الترجمة تعنى ببساطة نقل معانى نص من لغة إلى أخرى مع مراعاة دقة المعنى (المحتوى الدلالى) والأسلوب (مجمل الأجواء التى كتب فيها النص) . ولإتمام ذلك يجب فهم معنى النص الأصلى ثم التعبير عنه بلغة أخرى . وبدون فهم المعنى تهدر كل الجهود المبذولة

وفهم النص يعنى ان يتعرف الكمبيوتر ابتداء على الرموز المكتوبة (أى يفك الخط) ، ثم يتعرف على الوحدات المعجمية وهى الكلمات فى سياقاتها المختلفة ، فإذا أخذنا كلمة «ضرب» على سبيل المثال .. لوجدنا معانى مختلفة لها فى : ضرب محمد عليا ، ضربت دار سك النقود... ضرب من الخيال ، و ... ومن الضرورى هنا معرفة حقل النص أو مجال تخصصه لأن ذلك يسهم فى تحديد معانى ودلالات الكلمات ، فكلمة Plant كما أشرنا تعنى مصنعا فى مجال الصناعة ، بينما تعنى نباتا فى مجال الزراعة ، و .... ثم على الكمبيوتر ان يعرف التعبيرات الاصطلاحية من قبيل «رجع بخفى حنين» أو «صاحب اليد الطولى» و ....

هذا كما أن فهم النص يعنى التعرف على الوحدات النحوية فى كلمات الجملة : الفعل والفاعل والمفعول والمضاف والمضاف اليه والصفة والموصوف و ... وتحديد وظيفتها فى النص و ...

الشق الإيجابى فى الترجمة

وهذا هو الشق السلبى من عملية الترجمة أما الشق الإيجابى فهو إعادة إنتاج محتوى النص باللغة المطلوب الترجمة إليها ، ويتطلب ذلك معرفة بالمقابلات المعجمية والنحوية والبلاغية ، أى بقواعد الاملاء وأصول الكتابة ، وبالمقابلات الخاصة بمعانى الكلمات والاصطلاحات ، وبالقواعد النحوية والصرفية ، والقواعد الأسلوبية المختلفة فى اللغة الهدف المترجم إليها النص .

ولهذا فقد اتخذت محاولات الترجمة الكمبيوترية تسلسلا منطقيا يمضى بعد إدخال النص المراد ترجمته للكمبيوتر فى مراحل ثلاث :

أولا : التحليل

– بعد تنحية أسماء العلم والمصطلحات يقوم الكمبيوتر بتحليل صرفى للنص للتعرف على أجزاء الكلمات ومكوناتها .

– ثم يقوم الكمبيوتر بالتحليل النحوى لجمل النص ، فيحدد الفعل والفاعل والمفعول به و ... ، توطئة لما يشبه فهم الجمل فالنص بطريقة آلية .

ثانيا : نقل المعانى :

– البحث فى المعاجم الكمبيوترية وإيجاد المقابل للكلمات والمصطلحات التى تم تحليل النص اليها .

ثالثا : تكوين الجمل

– التوليف النحوى وتطبيق قواعد النحو فى اللغة الهدف (وضع المضاف بعد المضاف إليه ، والصفة بعد الموصوف ، و...)

– ثم التوليف الصرفى .

ولا بأس هنا من الوقوف مباشرة عند أن المصدر الأساسى للمشكلات ، فى عملية الترجمة ، هو كيفية التعامل مع تعقد اللغة ولبسها .. التصدى لمرونتها واتساع مفرداتها ، وتعدد معانيها ، وتباين استخداماتها ، مع غموضها وحذفها وتفشى مجازها وفائضها ، والكشف عن مضامين كنايتها وبنية جملها ونصوصها ومرادفاتها ، بل والاحساس بشحنة الانفعالات الكامنة وراء تعابيرها

● مشكلة التشكيل

ومن هنا لعل البداية المنطقية للحديث عن الترجمة من وإلى اللغة العربية تكون فى السمات الخاصة التى تتميز بها العربية وتؤثر على فهم المعنى .. ولعل السمة الأولى التى يجب الوقوف عندها هى مشكلة التشكيل . ان عناصر التشكيل تلعب فى الكتابة العربية دورا مهما ، وهو دور أكثر تنوعا وأوسع نطاقا مقارنة باللغات الأخرى وحتى يدرك القارىء ذلك لابأس من أخذ كلمة «الجزر» كمثال..

إن معنى الكلمة يعتمد على كيفية تشكيلها فمعنى . الجزر (النبات) غير معنى الجزر (المنتشرة فى البحر) غير معنى الجزر (الذى يتعرض له البحر بعد المد) .. وهكذا فان غياب التشكيل مشكلة بالغة فيما يخص تحديد المعنى . وإن كان القارىء العربي قد تعود أن يقرأ جملة مثل «عاش الرجل الأسود من أهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر» دون تشكيل ويفهمها بصورة صحيحة وذلك اعتمادا على خبرته ومعرفته اللغوية ، وعلى سياق ورود «الجزر» فى مواضعها الثلاثة .

ولأن الاختزال (غياب علامات التشكيل) عنصر متأصل فى صلب الكتابة العربية .. فإن فهم الكمبيوتر العربية آليا من المشكلات العويصة ذلك أن إسقاط التشكيل يؤدى إلى عدة قراءات محتملة ، ولايقتصر ذلك على المثال الذى ضربناه أو ماهو من قبيله، لأنه يسرى على كلمات بسيطة تبدو لأول وهلة خالية من اللبس فحتى «لن» و«أنتم» مثلا يمكن مع غياب التشكيل أن تلتبس ، فبجانب قراءتها الدارجة يمكن أن تكون صيغ فعل الأمر أو الجزم من «لان» و«انتمى».

اللبس المركب !

وتتفاعل حالات اللبس الناجمة عن غياب التشكيل مع حالات اللبس الأخرى كاللبس المعجمى .. كما فى كلمة «عين»

التي تجيء بمعنى البئر أو الجاسوس أو عين الإنسان أو ذات الشيء ، ناهيك عن معناها الرمزي : «عين الحياة» ، كما تتفاعل مع حالات اللبس التركيبي كما في اشباه جمل مثل مهندس الهرم العظيم، وسمك البحر الأحمر (باحتمال كون العظمة صفة للمهندس أو للهرم ، والأحمر صفة ..) ، ويؤدى كل ذلك إلى أنواع معقدة للغاية من اللبس المركب متعدد المستويات – Mul- tilevel Ambigity •

هذا كما أن هناك مشكلة الوصول إلى الحل الأمثل للتعامل مع الصيغ الصرفية الكثيرة للكلمة العربية بدلا من التعامل مع قاموس آلي يحوى كل التصريفات الممكنة من الكلمة العربية ، فكلمة «قرأ» مثلا يشتق منها :

قارئان ، قراء ، مقروء ، قارئات ، قرآن ، قراءة ، قارئية ، الخ ، على عكس مقابلها في الانجليزية (read) إذ لا يشتق منها ولا يتولد عنها إلا عدد محدود من الكلمات مثل : (readable - reader , reading) قارىء وقراءة ومقروء على التوالي ..

ومن يتمعن في المثال السابق يجد أن جذر الكلمة الانجليزية read ظل دون تغيير عند الاشتقاق ، بينما انصهر وتغير جذر الكلمة العربية (قرأ) بالاضافة إلى ماتعرض له من سوابق ولواحق .

وظاهرتا التشكيل ووفرة الصيغ الصرفية مثال للظواهر اللغوية التي تصعب كثيرا التعامل مع تعقد اللغة ولبسها .. التصدى لمرونتها واتساع مفرداتها وتعدد معانيها ، وتباين استخداماتها ، مع غموضها وحذفها وتفشي مجازها وفائضها ، و ...

ولعل هاتين الظاهرتين توضحان عقم نقل الحلول التي جرى التوصل اليها فيما يخص اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ، فقد رأينا وهن تعرض بنية الكلمة الإنجليزية لتغييرات جذرية مقارنة بالعربية ، ولعدم وجود التشكيل فيها ، وهكذا يتأكد أن تعريب الكمبيوتر عامة في إطار النظم المصممة للغة الإنجليزية عملية مستحيلة لصعوبة استيعاب اللغة العربية الاعقد في نطاق لغة أبسط كالانجليزية .

الترجمة العربية والتقنيات

ومن هنا فإن الترجمة العربية الآلية تستلزم تطوير تقنيات خاصة بها تراعى ماتتميز به الكلمة في العربية عنها في اللغات الأخرى ، وبالذات من حيث خضوعها للاشتقاق الصرفي أو التشكيل النحوى . واذا عدنا إلى جملة مثل «عاش الرجل الأسود من اهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر» فان فهم الكمبيوتر لهذه الجملة آليا أمر يحتاج إلى عناصر مرجعية كثيرة تتيح له درجة المعرفة التي تمكنه من إدراك ان الرجل لا يأكل الجزر وانما يخاف منه ، وأن الرجل يكون من أهل الجُزر وليس الجَزَر ... وذلك كله من الأمور

الأولية التى ينبغى حسمها قبل التفكير فى الشق الأيجابى من عملية الترجمة .

ولعلنا نكون قد وصلنا إلى تساؤل عن موقف التقنيات العربية من كل ذلك .

ان الكمبيوتر يستطيع الآن التعرف على الرموز أو الحروف العربية المكتوبة ، بالذات إذا أدخلت بالأساليب المعروفة مثل الطبع على لوحة المفاتيح أو عن طريق المميز الآلى للحروف OCR الذى يحول النصوص التى لم تكتب باستخدام لوحة المفاتيح إلى نصوص يستطيع الكمبيوتر التعامل معها وتعديلها كما لو كانت قد أدخلت عن طريق هذه اللوحة ، وليس كمجرد صور .

ومعروف أنه توجد أنظمة للتعامل مع الصرف العربى بصورة آلية ، وهى تستخدم استخداما ناجحا مطردا منذ ١٩٨٧ ، وتقوم فكرة المحلل الصرفى على تحليل كلمات اى نص وتفكيكها فيفصل جذعها عما يتصل به من السوابق (الادوات والحروف) واللواحق (الضمائر المتصلة وزوائد التصريف وعلامات الاعراب) وكمثال فان كلمة «متشاكسون» يحللها الكمبيوتر فيحدد جذر الكلمة «شكس» كما يحدد أنها مصوغة على وزن متفاعل وبزيادة «ون» دلالة الجمع والرفع، ويتم تخزين الكلمة بموجب الجذر والوزن الصرفى مضافا إليه «ون» وذلك على شكل مجموعة من المعادلات الرياضية ، وعند استدعاء «متشاكسون» من الكمبيوتر يأتى بالجذر «شكس» ويضيفه على وزن متفاعل ثم يضيف اليه الواو والنون .. وهو يفعل ذلك بالنسبة لآلاف الكلمات فى لمح البصر ، لأنه يقوم بعشرات الملايين من العمليات فى الثانية الواحدة .

وهكذا صار بإمكان الكمبيوتر بعد تحليل الكلمة صرفيا ليعرف ان كانت اسما أو فعلا أو صفة أو .. ويعرف ان كانت تشير إلى المفرد أو المثنى او الجمع، صار بإمكانه التعرف على الوحدات المعجمية ، أما التعبيرات الاصطلاحية التى كانت مشكلة لتعذر فهمها حتى مع معرفة معانى الكلمات مستقلة فقد حلت مع القواميس التى بدأت تشيع فى العربية والتى تخزن فى ذاكرة الكمبيوتر أكبر عدد منها مع إعطاء مقابلاتها .

هذا كما تمكن أخيرا برنامج كمبيوترى طورته إدارة البحوث التى يرأسها د . نبيل على من تقديم تشكيل كامل لأى نص عربى . ويرى القارىء فى زاوية من هذه العجالة صورة التشكيل الكامل لجملة «عاش الرجل الأسود من أهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر» المذكورة عاليه ، باستخدام هذا النظام ، الذى بات بمقدوره اليوم تشكيل النصوص العربية على نحو كامل ، بعد ان اجتاز الاختبار وشكل جملا بلغ عدد كلماتها الخمسين ..

الجملة المدخلة خالية من التشكيل

عاش الرجل الأسود من أهل الجزر يأكل الجزر ويخشى الجزر

الجملة المخرجة تامــة التشكيل

عَاشَ ٱلرَّجُلُ ٱلْأَسْوَدُ مِنْ أَهْلِ ٱلْجُزُرِ يَأْكُلُ ٱلْجَزَرَ وَيَخْشَى ٱلْجَزْرَ

خطوات مهمة

وتلك كلها مراحل لازمة قبل البحث في المعاجم الكمبيوترية وإيجاد المقابل للكلمات والمصطلحات التي تم تحليل النص إليها ، وقبل تكوين الجمل عن طريق التوليف النحوى وتطبيق قواعد النحو فى اللغة الهدف (وضع المضاف بعد المضاف إليه والصفة بعد الموصوف . و ..) والتوليف الصرفى (كتب + مضارع + فاعل + جمع مذكر = كاتبون).

وهو يشكل خطوات مهمة على طريق الترجمة من وإلى اللغة العربية .

لكن كما يرى د . نبيل على نفسه مازال «على العرب الكثير فى دفع جهود التنظير اللغوى ، وتحديث المعاجم وكشف النقاب عن بنيتها الداخلية ، و ... ، وأن هذه مهمة مازالت الأجهزة الرسمية المسئولة عن اللغة العربية ، مثل مجامع اللغة والجامعات ، بعيدة عنها تماما» .

هذا كما يبقى إنجاز مايخص علاقة اللغتين المترجم منها والمترجم إليها ، ذلك أن التباين بين اللغات مشكلة أساسية لنظم الترجمة الآلية ، فما تقوم به لغة على مستوى نظام النحو يمكن أن تقوم به لغة أخرى على مستوى المعجم ، و ... ونظرا للاختلاف فى نحو اللغتين العربية والانجليزية مثلا يتطلب الأمر صياغة رسمية دقيقة لقواعد «نحو النقل بينهما» .

ومجمل القول ، دون إثقال على القارىء غير المتخصص بالاغراق فى تفاصيل فنية ، انه تم تحقيق عدد من

الخطوات المهمة وتبقى خطوات أساسية كثيرة لكى تلحق العربية بما يجرى فى اللغات الأخرى . لكن ينبغى ألا يفوتنا هنا أن شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .. المعجم بالصرف ، والصرف بالنحو . و ... مقارنة بكثير من اللغات الأخرى ، يعمل لصالح التعامل الآلى معها مثلما حدث فى نظام الفهم الآلى للغة العربية وإجلاء اللبس الناتج عن غياب التشكيل ، حيث تعتمد مثل هذه النظم على مبدأ تضافر القرائن اللغوية على اختلاف مصادرها .

وتبقى إشارة إلى أنه يمكن تقدير أهمية الترجمة الكمبيوترية فيما يخص العرب إذا أدركنا ، على سبيل المثال لا الحصر ، أنها تمثل مصدر أمل لملاحقة التطور العلمى والتقنى والفكرى ، وبالذات إذا وعينا الهوة المعلوماتية التى تفصل العرب عن العالم المتقدم .. ويمكن ان نستشف حال الترجمة فى العالم العربى اليوم ، وهى اداة مهمة من أدوات عبور الهوة ، اذا عرفنا ان مصر أكثر الدول العربية سكانا ، تترجم كتابا واحدا مقابل الف وسبعمائة كتاب يترجمها اليابانيون ، الذين مازالوا يرون ضرورة للترجمة الآلية حتى يتابعوا مايجرى فى العالم (!!) علاوة على مصالحهم التجارية بالطبع - غير مكتفين بما لديهم من مؤسسات جبارة تقوم بذلك معتمدة على البشر .

والمعروف أن إسرائيل ترتبط بعلاقات وثيقة مع شركات عتاد الكمبيوتر وبرامجها، التى دخلت مرحلة جديدة أخيرا بعد ان وقعت مع شركة «انتها» عقدا قيمته ١,٦ مليار دولار ، وبعد أن أعلنت : شركة «موتورولا» الأمريكية عن عزمها على إنشاء مصنع لأشباه الموصلات فى إسرائيل بقيمة مليار دولار ، وهو مايتجاوز كثيرا الطاقة الاستيعابية للسوق الاسرائيلية ، ومن الجدير بالذكر هنا أن اسرائيل قد طورت نظما آلية متقدمة في معالجة النصوص لدعم بحوثها فى التراثين اليهودى والعبرى اعتمادا على تعدد الثقافات واللغات داخل المجتمع الإسرائيلى، لم تكتف بذلك فدخلت مجالات الترجمة الآلية بين اللغات العالمية واللغة العربية ، مستغلة الخبرات البشرية المتوافرة لديها ، والتشابه بين العربية والعبرية اللتين تنتميان إلى اللغات السامية ، وتعمل إسرائيل على تعميق تعاونها مع مؤسسات الوحدة الاوربية فى مجال الترجمة الآلية ، وهى لطبيعة التنوع اللغوى البالغ فى صفوفها بين أكثر المهتمين بهذا الموضوع وكل ذلك مما يتيح لها إدخال معالجاتها الخاصة باللغة على مستوى عتاد الكمبيوتر ذاته .

أيها الصامتون

شعر
سليم الرافعى

حبسنا هذى السطور طويلا   كل سطر يجر عبئاً ثقيلاً
إن فى الأحرف الرقاق جسوما   تتمادى إرادة وميولا
فهى تبكى طوراً .. وتضحك .. إنى   أسمع الصوت رنة أو عويلا
ياقبوراً بين السطور تؤدى   عمرها الثانى المديد فصولا
يارجالاً .. ويانساء .. لماذا   لا أراكم .. هل اختفيتم ذهولا ؟
أين تلك الأيدى تضم حبيباً   أين تلك القلوب تطوى ذهولا ؟
ياشفاها عضت شفاها وأوت   شعلة الحب بكرة وأصيلا
كل لون بين السطور تراوى   جسداً عارما وحرفا ضئيلا
عانقتنا أجسادكم فى القوافى   كل حرف قد صار عضواً بديلا
عجباً للزمان .. يبدو جواداً   عجباً للزمان يبدو بخيلا
لم يطق هذه الجسوم .. فماذا   كان يرجو من الجسوم جليلا ؟
سال منها نم وسالت دموع   إنها النهر : شاطئاً ووحولا
أيها الزارعون .. حباً .. ومجداً   بالقوافى صارعتم المستحيلا
ياسطور الآداب ملء حروف   ياحقولاً ترتلت ترتيلا
ياسطور الفنون .. غرد فيها   مطلع النور لا يريد أفولا
من شظايا (أبى فراس) أسيراً   كل سجن أضحى يغنى هديلا
من دموع (الخنساء) غيمة أخت   أنبتت فى ثرى يغنى الاخاء نخيلا
من (بنى عذرة) وفاء تعالى   فى السماوات ملهما أو رسولا
أيها الصامتون .. ماذا صنعتم   من سطور تتوجت إكليلا؟
أهى العاصفات .. لاتتوانى   أم جبال الأهرام عرضا وطولا؟
كل أطواركم غدت فى القوافى   مثلما ينشىء السحاب شكولا
ومضة بعد ومضة فى نضال   يتلاظى .. عواطف وعقولا

قصة قصيرة

عقم

بقلم :
أحمد عمر شاهين
بريشة :
سميحة حسنين



هل أتى عليك وقت لم تستطع أن تعبر فيه عما يدور برأسك من أفكار؟ وهل جربت أن يكون عقلك مشتعلا بضوء ألف مشعل من الآراء المختلفة تهدد حتى النوم واليقظة؟ وتتركك مستلقيا كالخرقة البالية لاتستطيع أن تنفثها ولا تستطيع أن تستفيد من ضوئها؟ وهل ساورتك الظنون بأنك على وشك الجنون؟ أو أن رأسك على وشك الانفجار؟ ليس من الصداع ولا من الضجة أو أي سبب عضوي، بل من الأفكار؟ وهل حاولت تقصي هذه الحالة لمعرفة أسبابها؟ سواء افلحت في الوصول الى السبب أو لم تفلح؟.

اذا حدث لك ذلك فأنت صاحب هذا النص – القصة.

ولنبدأ معه رحلة هذا العذاب.

زحفت الكتب فملأت كل أرجاء البيت. أرفف في كل مكان. على جدران الغرف، في المطبخ والحمام، فوق الأسرة وتحتها، فوق

قصة قصيرة

المناضد وعلى حواف النوافذ، فوق الكراسى والكنبات والدواليب - حتى أصبحت سجين هذه الكتب المزعجة. وبدأت أشعر بالاختناق، خاصة وأنا أعانى خوفا من الاماكن الضيقة، حتى وقعت الحادثة، فقررت بعدها أن أبيع كل هذه الكتب، وأن أنظف الشقة، وأخليها من كل ما بها من دواليب ومناضد وكراسى أيضا، بل وأزيل الحوائط التى تفصل بين الغرف، لتكون الشقة كلها غرفة واحدة واسعة رحبة خالية. قررت أن أنام على مرتبة على الأرض، وطبلية أمامى، وشماعة أدقها فى الحائط أعلق عليها ملابسى، ولاشىء غير ذلك. أريد مكانا متسعا، كرهت كل هذا الزحام، كل هذا الورق، كل هذا الأثاث، وكل هذه الثقافة. قد تتساءل ما الذى أدى الى كل هذا؟ وماهى القشة التى قسمت ظهر البعير؟.

سأقول لك:

عدت الى البيت فى الساعة الحادية عشرة ليلا، بعد معركة كلامية حامية دارت رحاها فى ساحة الأتيليه حيث يتجمع المثقفون فى العاصمة، أذناى مملوءتان بالطنين، ورأسى يكاد ينفجر من مدقات كلامية تدقه، آراء وآراء متناقضة، نظريات وفروض سجائر ومشروبات، كلام وكلام وكلام.

خلعت ملابسى واستلقيت على السرير، لتبدأ معركة جديدة تدور فى ذهنى وتبعد النوم عن عينى. برق لى الخاطر فجأة، كل ليلة أمر بمعركة العذاب هذه، تتركنى منهكا، دون نصيب من النوم والمتعة والراحة إلا القليل، ماذا يحدث لو بعت هذه الكتب مرة واحدة ؟ لن أنظر اليها لن أقلبها حتى لا أضعف أو أتراجع، أتصل بمكتبة تشترى الكتب ليحضر مندوبها يقلب فى الكتب كيف يشاء ويحدد السعر الذى يراه، لن أراجعه ولن أساومه، ولتكن هذه هى النهاية، نهاية هذا الورق الذى أحال حياتى الى جحيم طوال أربعين سنة دون عائد أو فائدة إلا العذاب

وقلة الراحة وتعب البال.

شعرت بالرضا عن النفس، وتقلبت في السرير، وجهي الى الحائط، عليه رفوف من الخشب تحمل موسوعات علمية: موسوعة الطيور، موسوعة الحيوان، موسوعة الثعابين، موسوعة النبات، موسوعة الزهور، موسوعة بهجة المعرفة.. الخ.. هذه الموسوعات اشتريتها من المعرض الدولي للكتاب على مدى سنوات طويلة، تصفحتها وقرأت مقتطفات منها، فانت تعلم ان الموسوعات لاتقرأ كلها وهي كوسائل المواصلات نستعين بها أحيانا للوصول الى موضوع معين، والموضوع الذي كان في ذهني هو الكتابة للأطفال، حول المخلوقات المختلفة التي تعايشنا في هذا العالم، بأسلوب قصصي تعليمي، لكن السنوات مرت دون أن أحقق شيئا في هذا المشروع، وأخذتني مشاغل الحياة وكتابات أخرى.. فتناسيت الامر وان كان يعيش كامنا في ذهني

قد لا تصدق ما حدث، لكني مضطر لقوله لأنه حدث.

بدأ الأمر بثعبان بأجنحة، انطلق من موسوعة الثعابين، مع اني متأكد من أنه ليس هناك ثعابين بأجنحة على كوكبنا الأرضي، لكن هذا ماحدث، ثعبان ضخم يطير والناس تهرب في كل مكان، وأنا المشلول الوحيد الذي يتجه الثعبان نحوه دون أن يستطيع حراكا. الأمر ليس حلما، ولا تحاول ان تفسره كحلم بالاستعانة بإسقاطات فرويد المختلفة حول الجنس ، ولا بالإسقاطات الدينية بأن الثعبان هو السبب في هبوط آدم من جنته.. الامر أخطر من ذلك. هذا ثعبان حقيقي، يطير بأجنحة، فاغرا فاه يريد ان ينهشني بنابه.

أغمضت عيني منتظرا النهاية، وحين لم يحدث شيء أعدت فتحهما، ولدهشتي رأيت حيوان الكنغر، يطير أيضا خارجا من موسوعة الحيوان، معترضا الثعبان وتدور بينهما معركة حامية وحولهما تطير آلاف

قصة قصيرة

الزهور والنباتات وحشرات الحيوانات المختلفة وكأن كل ما في الموسوعات قد اندلق خارجها بأجنحة عدا الطيور والحشرات، ولا أعرف لذلك سببا برغم وجود موسوعة الطيور والحشرات جنبا الى جنب مع الموسوعات الأخرى.

في احتدام المعركة، قفزت عن السرير، وقررت أن أنام في الغرفة الثانية على السرير الآخر، سرير احتياطي لأي ضيف طارىء. لم ألق نظرة ورائي، بل أقفلت الباب بالمفتاح ودلفت الى الغرفة الثانية، ملقيا نفسي على السرير وأنفاسي تتلاحق من الرعب.

رفوف الكتب حولي لا تحمل أي موسوعات او دوائر معارف، هنا كتب الأدب، الأعمال الإبداعية فقط، من الكلاسيكيات حتى الرواية الحديثة والجديدة، عرب وأجانب ولاضرورة للعد، في مساء اليوم التالي لن يكون هناك أحد منكم هنا، هكذا همست لنفسي. قلت سأنام على ظهري، فالسقف لايحمل كتبا، سأنام بهدوء دون ان يعكر صفو أفكاري شيء، وقبل ان أستسلم لهذه الفكرة، ارتسم على السقف أمام عيني مباشرة عطيل وهو يخنق ديدمونة، أغلقت عيني وفتحتهما، انقلب المشهد ورأيت راسكولينكوف الروسي يقتل المرابية العجوز، أغلقت عيني وبسملت وفتحتهما، شاهدت لبنى يقتل الفتاة ذات الشعر الناعم، كلما أغلقت عيني وفتحتهما يتغير المشهد كصندوق العجب، مجموعة من المسلحين تقتحم حانة لتقتل رجلا، قتلة «منجواي، «ايهاب» ذو الساق المقطوعة يطلق على حوته، مالوني بيكيت يحتضر أمامي، «جوزيف ك» يساق الى المحاكمة، ذبح، قتل، اشعال نيران، مطاردة، هروب، عصيان، تمرد، ثورة، حروب، مشاهد ومشاهد من العنف كأن كل أحداث الروايات خرجت منها لتعرض على السقف أمامي بشكل يبعث الذعر والخوف في قلب أشجع الرجال. لكن المصيبة الأكبر حين بدأت شظايا هذه المعارك تتساقط فوقي، هل أنام تحت السرير؟ لكن المسافة لا تسعني،

فالسرير بسحارة تكاد تقترب من الأرض، نهضت مسرعاً، مصمما على المبيت على كنبة في غرفة المكتبة، مكتبة مجازا فكل الغرف متشابهة، عدا ان ما اسميها مكتبة ليس فيها سرير، بل بضعة كراسي ومكتب وكنبة. أزحت الكتب عن الكنبة وألقيت بجسدي منهكا

المكتبة تضم القواميس ودواوين الشعر وكتب النقد والدراسات النظرية والمجلات الدورية، لا أعتقد أن هناك خوفا منها.

وحاولت أن أنام.

أتعرف مطر بلاد شمال الشمال الغزير المحمل بحبات البرد الكبيرة؟.

ما حدث من مطر فوقي أغزر منه، لكنه مطر بلا ماء.

زخات عنيفة من الحروف العربية واللاتينية، تنهمر على جسدي، تكاد تخترقه، وأقسى الضربات جاءت من حرف الألف العربي والأو والآي الانجليزيين وضعت يدي فوق رأسي أتقي هذا السيل الجارف. حين توقف بعد فترة من الزمن لا أدري طولها، تنفست الصعداء، لكن العاصفة لم تكن قد هبت بعد، وبالحلاوة الكلمات، آلاف وآلاف تضربني من كل جانب، حتى بدأت أتقافز على الكنبة كالقرد المصاب بالجرب أو كالكتكوت على صفيحة تحتها موقد مشتعل.. والذي باعوه للناس باسم الكتكوت التركي الراقص هربت، جريت كالمجنون، لم احاول ان ادخل إحدى الغرفتين.. فاستلقيت على «الكليم» الموضوع في صالة البيت، مفضلا تعب النوم على الأرض من عذاب الأعاصير في الأماكن الاخرى.

هنا على جانبي الصالة، رفوف تحمل كتب التراث، كتب رزينة ثقيلة مهيبة محترمة.

هنا سأنام بهدوء.

ولقد نمت.. لكن أتعرف ماذا كانت النتيجة؟.

سحبني الجيران بين الحياة والموت من تحت ثقل هذه الكتب التي انهارت فوقي من اليمين واليسار.. قتلتني الكتب.

رؤيــــة مسرحية

سلاسل وزهور

بقلم : فوزية مهران

■ زهرة اللوتس المتسامية التى سجلت على صفحات التاريخ.. وحفرت فوق أعمدة الحضارة ..

رمز التفتح والشوق إلى الاكتمال والمعرفة

لمسة الجمال الساحرة .. هل نتركها تشحب وتذبل

داخل الحجرات المعتمة والنفوس المغلقة ؟ ..

وهل أتى حين من الدهر نحيطها بالسلاسل والقيود ..

وندع جنازير الحديد تدمي براعمها وسيقانها ؟!

تبدأ مسرحية «الجنزير» للكاتب محمد سلماوى بمصادفة عبثية ساذجة.

سيدة جميلة ناضجة تعود إلى بيتها تصحب معها فتاة منقبة لتمد لها يد العون والمساعدة. أم مصرية عاصرت مشرق الثورة ومسيرة التحرر .. ورحلة الكبرياء والشموخ الوطنى . تنتمى إلى أصالة المصريين .. فضيلة الصمود وإرادة التحدى لديهم .. إلى جيل بناة السد العالى .

زوجها كبير المهندسين فى بناء السد .. وقيادة التطور والتقدم .. وحلم تحقيق المشروع القومى .

مازالت تحاول أن تقدم خدماتها للمجتمع - رغم تفشى الأنانية والسعار والغلاء - تجمع تبرعات لمرضى الجذام ، تواصل رحلة المعاناة لمواصلة مسيرة الأسرة بعد وفاة زوجها .

كيف يمكنها أن تطمئن لهذا الشبح





محمد سلماوى

لقطة من مسرحية الجنزير

الأسود وتقوده بنفسها إلى بيتها ثم تكتشف بعد ذلك أنه إرهابى متنكر .

هل الأمر مجرد ترتيب صدفة لاقتحامه عالم الأسرة الداخلى . أم أن المؤلف الذى عرف عن براعته فى الإعداد لكل شيء .. والتقاطه من الأحداث اليومية مادة أولية لمسرحياته - ربما أراد أن يقول أن الأخطار التى تترصدنا والأوبئة الاجتماعية التى تفشت بيننا نفذت إلينا من خلال عيوبنا .. من غفلتنا وتخاذلنا وترهل تفكيرنا .

نجد أنفسنا داخل أسرة مصرية صميمة يجرى عليها ما جرى للجميع . أسرة جامعة من الطبقة الوسطى المتفوقة .. لها ابن انحرف إلى الإدمان وابنة يانعة تحب وطنها وترتبط بأسباب المستقبل . وأخرى تزوجت وتحجبت وسافرت مع زوجها تصنع مستقبلا ماديا بعيدا عن الوطن .

الأم مازالت صامدة . وأبوها عجوز فاقد الحركة والبصر .. مثل المعابر والجسور القديمة يمد بين الماضى والحاضر ويستدعى المعانى والذكريات والصور .

المسرحية كلها لم تخرج من ردهة البيت الأنيقة الفسيحة .. وكأنها مساحة من قلب مصر .. وساحة لجسد الوطن ، يدور فوقه الصراع ، الصراع يدور لأسباب اجتماعية وسياسية وليس لطبيعة البشر أو صفات نفسية وشخصية .

لمسات الجمال محيطة بنا وأسباب الذوق والحضارة .. البيانو لم تعزف عليه الأم من زمن ، تحسب أن أصابعها قد تيبست .

حتى الأشخاص الذين نسمع عنهم ولاتراهم كانوا حاضرين وعلى اتصال دائم

رؤيـــة مسرحية

ونحن معهم حضور وشهود

بدى الانسجام والتفاهم واضحا بين الكاتب والمخرج جلال الشرقاوى طرحا مانعانى منه أمامنا ومن أجل المواجهة .

ماجدة الخطيب

وجدت نفسها فى دور الأم ، والدور يليق بها ويتصل بشحنتها الوجدانية والفنية . كانت تعيشه بكل تفاصيله وكل لحظة فيه فقط من فرط حماسها وإيمانها كانت تبدأ بذروة الانفعال وتظل تؤدى وعلى وتيرة واحدة ولاتتبع التدرج الموسيقى أو الدرامى ، حتى إن صوتها يخذلها أحيانا وتضيع بعض الحروف عند النطق بها .

كذلك الحركة التى رسمها لها المخرج جلال الشرقاوى .. خصوصا فى البداية ظلت تدور حول الشخصية المنقبة معظم الوقت حتى أصابتنا بالتشتت والدوار أم أن المخرج حاول أن يجسد لنا الدوامة التى تحيط بنا ، وإن كان من الأفضل ألا ترهقنا الحركة الخارجية كى نسعى للتفكير والتأمل ومحاولة الفهم والإدراك .

الميزة الحقيقية لمحمد سلماوى فى تصوير شخصية الإرهابى أنه لم يبالغ فى رسم الشخصية ، لم يجعله معتما .. غليظا أو قاسيا طوال الوقت .

اختار نموذجا بسيطا وشائعا .. فى الخامسة والعشرين ، لم يعرف أمه وتخلى عنه أبوه -كل ما أحاط به ضيعه .. لا أسرة ولا بيتا ولا تعليما أو حنانا ووجد من يمنيه بالجنة .. يجعل لحياته معنى وهدفاً .

تصبح له قضية يعيش من أجلها .. دور - لايعرفه تماما - لكنه يتبع الأوامر .

خالد النبوى

فى دور الارهابى الصغير كان مأخوذاً حقا .. يعيش فى دور البطولة والمجاهدة ورضا الأمير .. يسكره سماع صوت الوسيط بينه وبين الأمير .. كان وجهه معبرا للغاية وانفعالاته تتبدى واضحة جلية على صفحة وجهه .. ينتقل من القسوة إلى اللين .. من الجفاف إلى هزة المشاعر .. من حالة الشجن إلى الصوت الزاعق .. بسهولة ويسر وبطريقة طبيعية وتلقائية .. عندما كان يقضى حياء أمام جمال ورقة زهرة الأسرة المتفتحة ياسمين عندما يسمع صوتها .. تحرك كيانه كلماتها البسيطة الصادقة ..

فجأة يتذكر المهمة التى جاء من أجلها .. يبدو كمن ترك قياده لمن هم بالخارج ، من يفرضون عليه العداوة والبغضاء .. يشعر بهزة وانعدام الوزن .. يداهمه الخوف فجأة ويصرخ كى ينهى المناقشة .

ممثل ساطع جميل أمامه مستقبل مضىء فى السينما والمسرح .

فى المقابل نجد ابن الأسرة الجامعى يقع فى براثن الإدمان دون أن يذكر لنا المؤلف لِمَ . كأنه نفس النوع من القضاء فالضياع والانحلال والانغلاق والتعصب نبع مأساة واحدة .. تتبع شبابنا كالنداهة القديمة .. تبتلع أجمل أبنائها .

أحمد «وائل نور»

يفتقد الأب حقا .. لكن الأم صامدة .. الأم كأنها كتيبة الأمهات فى بر مصر كلها .. توفر له أسباب الدراسة والتقدم . تخلت عن حليها من أجل دعم مستقبل الأسرة .. السلاسلَ الذهبية والأساور.. قيود وأسر وتجميد للثروة والطاقة .. استثمارها فى بناء مستقبل الأبناء هو زينة الدنيا وجمالها .

أحمد يعانى من غياب آخر .. يبيعون له الوهم والنشوة الزائفة .. زينها له مصاصو الدماء والأموال وآكلو لحوم البشر .. من يريدون الثراء بأى ثمن .

أحمد ومحمد وضعهما محمد سلماوى وجها لوجه على المسرح .. لتزلزلنا المواجهة .. كان من المثير والعسير أن يظن المدمن أن الارهابى مجرد حلم .. كابوس .. أو هلوسة كأنما ينظر فى مرآة عاكسة .. فتظهر صورته له فى أوضاع مقلوبة وشائهة ويضحك من أثرها ، يحاول أن يضحك من نفسه ومن أوهامه .. وفى النهاية يتبين أنه وجهه .. ووجه أخيه .. وأنهما ضحية معا .

«وائل نور» هو مفجر الضحك فى المسرحية .. وقدم شخصية الفتى المدمن على صورة المهرج ولابد أنها رؤية المخرج أيضا ، أتقن دوره بأدائه وملابسه الغريبة والسلاسل حول رقبته وفى معصمه .

خفيف الظل حقا .. لكن الخطورة تنبع من أن شباب المتفرجين كانوا يضحكون معه .. تستهويهم طريقته وكلماته وميوعته .. بل إن بعض الصغار كانوا يضجون بالاعجاب والمرح وترتفع ضحكاتهم البريئة ، يجدونه مسليا وجميلا وقريبا إلى نفوسهم وإلى تمردهم ورغبتهم فى حرية الفوضى وقص شعورهم وارتدائهم أغرب الملابس .. ليس من العدل أن يتحول الفتى المدمن إلى فيلسوف الرواية والمعلق على الأحداث والشخصيات ومثير للبهجة والمرح .

رؤيــة مسرحية

ما أظن المؤلف قصد إلى هذا إنما أراد أن يؤكد أننا أمام مأساة واحدة .. شبابنا .. رصيدنا البشرى للمستقبل ينفرط عقده الآن، ويقع في غواية التطرف والإدمان الغياب والعجز والقهر والمرض .

كان من الضرورى تقديم الشخصية على نحو مختلف .. ومع براعة وائل نور .. يمكنه أن يضحكنا لكننا ندرك عمق المأساة والألم.

عزة بهاء

في دور الأخت ياسمين مثل زهرة اللوتس الندية .. الغريب أنها تتعامل مع الأخ المدمن والأمر يبدو عاديا تماما بينهم .. لم تشعرنا لحظة واحدة بأنها تدرك معنى سقطة أخيها.

الشخصية مرسومة ببراعة وعمق .. فهى الصورة النضرة المناظرة للأم .. تركت خطيبها لأنها لا تريد أن تتحول إلى مجرد عروس أو دمية تتمتع بزخرف الحياة .. والعيشة المترفة .. دون أن يكون لها أثر .. موقف أو عمل .

تتعاطف مع الفتى الارهابى في مثل عمرها ـ تجد أن لديه جرأة وإقداما ورغبة في تحقيق هدف ، ولكن للأسف بطريقة خاطئة ، ترفض منطقه وتتعاطف معه .. تنمو بذرة الإعجاب ، لتعيد تربيته من جديد .. تصوغه على عينها .. يكون الحوار بينهما .. بسيطا مباشرا صادقا وهى نفس الصفات التى يتميز بها الحوار عند محمد سلماوى وكانت المشاهد بينهما من أجل اللحظات وأكثرها دفئا وثراء .. وساهمت في التحول الذى حدث له .

لقد أشعرته الأسرة التى هاجمها وكان حربا عليها بآدميته .. بإنسانيته .. بالرغبة في الانتماء إليهم والالتصاق بهم وأذهبت عنه الوحشة والخوف والقلق .. أخذت الأسرة بيده .. طعم من طعامهم .. عاش بينهم .. أطعمه الجد بيده .. عاد طفلاً صغيراً .

عبدالمنعم مدبولى

والأب عبد المنعم مدبولى بصوته المميز وعمقه الإنسانى الجميل .. كان بمثابة النسمة المنعشة .. يطلب الاهتمام والتدليل «والأرز باللبن» ويتوهم أنه يتحدث مع حفيده يحكى له .. يسرد الذكريات «الموحية» .. يبدو واهنا وقويا في نفس الوقت .

تربى في حضن ثورة وطنية ـ ١٩١٩ ـ

عاش مرحلة بناء السد .. حلق بالانتصارات وعانق تضحيات وانكسارات .

ينبهنا طوال الوقت لضرورة ربط جذور الماضي بالحاضر .. خطورة «الحلقة المفقودة» في تتابع المد الوطني والشعبي ..

يضم سيرته الذاتية ويستدعي أحداثا وطنية .. وبطولات شاهقة ..

وفي النهاية .. عندما تكتشف الأسرة أنه مطلوب قتل أحد أفراد الأسرة كل حين ..

يقول عبدالمنعم مدبولي .. كأنما يترنم بأنشودة جميلة .. ويردد معزوفة لها أكبر الأثر .. أنه عندما أراد أن يفتدي الزعيم سعد زغلول قيل له ومن أنت .. وما تساوى حياتك حتى تكون بديلا عن سعد ؟

يسأل الفتى المهاجم أن يمنحه هذه الفرصة الآن .. وجعل حياته لها قيمة ومعنى فهو يضحي من أجل أسرته ومستقبل الحياة ذاتها .

وتهب الأم تعرض تضحيتها بنفسها .. حتى الشاب المدمن يطلب تطهرا وتوبة على خطيئته .. والفتاة ..

تهتز أعماق الفتى .. يكبر الأسرة تتبارى من أجل التضحية .. وهو منهم .. عاش معهم .. تدعوه الأم ـ ابنها ـ كان يرفض النداء في البداية ـ ليس ابنا لأحد ـ ثم عاد واستعذب ندائها .. والابن أخ له .. وياسمين مست قلبه .. والصوت في التليفون يدينه ويتهمه بالتردد .. والضعف والجبن ويتوعده يصل إلى لحظة الوعي ..

هو من أصل هذه الشجرة الطيبة .. من رحم هذه الأسرة الطيبة .. هو أهل للتضحية من أجلهم ومصيره مرتبط بهم .

تلك هي اللحظة الفاصلة والمهمة .. وكل ما جاء بعد ذلك إضعاف لتلك اللحظة التي حشد لها محمد سلماوى منذ البداية وأتقن الاعداد لها والتدرج بالحدث حتى بلوغها .. وأراد أن يغرس قيما حقيقية ومفاهيم جديدة من واقع التجربة وجسدها باتقان وجمال المخرج جلال الشرقاوى .

عاد المتطرف إلى الحضن الكبير .. إلى حضن الوطن

ولا يهم بعد ذلك من يتلقى الطلقة في صدره .. من يقتل .. وبرصاص من ..

اللوحة الأخيرة كانت زاعقة .. معركة بين المتطرفين والشرطة على قتل الفتى ..

لوحة مجسدة ولكن لا ضرورة لها فاللحظة الفائقة هي في تماسك الأسرة وبينها الفتى وليواجهوا بعد ذلك أى خطر ..

سوق الاستفتاءات

محمود قاسم

جاءني صوته عبر الطرف الآخر للهاتف :

ــ ما رأيك في أهم الكتب والشخصيات الثقافية والأحداث الفكرية التي تسم بها عام ١٩٩٥ ؟

السائل هو كاتب قصصي مشهور ، لم يستطع أن يتابع كل ماصدر في العام الماضي ، ولم يتمكن من قراءة الكثير منه حسبما جاء في حديثه الهاتفي ، ووجد نفسه أمام مجموعة من الاسئلة عن أحسن كتاب ، وأحسن كاتب ، وعن أهم الأحداث الثقافية ، وأسئلة أخرى تتكرر في صفحاتنا الثقافية والفنية دائما في آخر العام ، كنوع من تقويم حصاد الابداع والعطاء طوال سنة باعتبار أن الناس تحب أن يختار لها الآخرون مايتناسب مع أفضل التفضيل : الأحسن، الأفضل ، وربما الأسوأ.

وبعد عدة أيام امتلأت الصفحات بالاستفتاءات المنتظرة ، والتي بدت هذه المرة أكثر من كل المرات السابقة ، سواء في الصفحات المخصصة لها وأيضا في الاسماء التي تم الرجوع اليها ، وهي أسماء تنتمي الى أجيال ومدارس واتجاهات مختلفة ، وقامت أغلبها بالاجابة على السؤال في الحدود الآتية من خلال الأحسن : كتاب ، كاتب ، ديوان ، أهم حدث ، وفي السينما كان السؤال عن أحسن ، فيلم ، ممثل ، ممثلة ، مخرج ، فضلا عن اسئلة في أعداد أخرى عن التوقعات عن عام ١٩٩٦ .

وقد قامت هذه الاستفتاءات فقط في مجال الابداع الأدبي ، والسينمائي ، وتم تجاهل بقية الابداعات كالمسرح ، والفنون التشكيلية ، ولاشك أن ذلك الكم من الاختيارات يعكس الانتعاش الابداعي في مصر ، وأيضا انتعاش المتابعة النقدية في الصحف والمجلات ، ويعني رواج الأدب وفنونه بما يتناسب مع مانقرؤه ومايحدث في نهاية كل سنة ، وأن مارأيناه ليس

سوى مؤشر لمرآة مزدهرة صورتها تمام الازدهار .

لكن هل هذه حقيقة ؟

هل يعني ذلك الكم الهائل من الاستفتاءات الثقافية أن سوق القراءة ، الأدبية في انتعاش ، وأنه لدينا كل هذا الكم المتميز من الابداع «الأحسن» والأقلام «الأفضل» ، أم أن رواج هذه الظاهرة الموسمية ، يعكس حقيقة الأمور ؟

أحسن الكتاب .. بالتعيين

لنبدأ الحديث عن وجود ظاهرة مماثلة في الصحافة الثقافية العالمية ، وخاصة في أوربا ، فما أحرى أن يتم ذلك في بلاد توزع فيها الروايات والكتب الناجحة بالملايين ، وغالبا مايكون أجر بعض الكتاب الأكثر مبيعا يقارب العشر ملايين دولار من دخل الكتاب الواحد (راجع ماتحصل عليه ماري هيجنز كلارك وستيفن كنج مثلا عن كتبهما الأخيرة) ، فما أحرى بهذه الدول أن تتم فيها مثل هذه الاستفتاءات على مدار واسع ، ولكن الذي يحدث هو العكس ، فمع انتهاء العام تخلو الصفحات الثقافية من مثل هذه الأسئلة وتتفرغ لمتابعة الاصدارات الجديدة كالعادة .

لكن هذا لايمنع أن هذه الظاهرة موجودة بشكل آخر ، أكثر تنظيما . ويكاد يخلو من الاعتبارات الشخصية ، وذلك من خلال المؤسسات الثقافية المعتمدة ، التي تعلن عن جوائزها الأدبية الثانوية ، وتمنح لرواية أو لكتاب بعينه الجائزة وباعتبار أن الكتاب الذي يأخذ جائزة من تلك المؤسسة ليس له الحق قط أن يحصل على جائزة أخرى من أي مؤسسة ثقافية . من أجل اتاحة الفرصة أمام بقية الكتب أن تنال حظا من الجوائز . ولأن هذه الجوائز نوعية، تمنح في المؤسسة الواحدة لنوع معين من الكتب .

ومن هنا ، وبشكل غير مباشر يتم «تعيين» أحسن كتاب ، من قبل الاكاديميات الثقافية ، وهي غير حكومية ، ويتولى ذلك أعضاء مجلس ادارتها ، الذين يمثلون صفوة الكتاب ، فاذا كانت الجائزة للرواية فان اعضاء الاكاديمية التي تمنح الجائزة نفسها ، يكونون من الروائيين ، واذا كانت مخصصة للابداع السنوي ، فان الاعضاء يكونون من الأديبات النساء المؤمنات بالنسوية ، وهكذا .

وهذه الظاهرة تتم في شهري أكتوبر ونوفمبر ، وبالتالي ، فمع بداية العام الجديد ، يكون الناس قد عرفوا اسم الكتاب المناسب للقراءة ، وفي مواسم الأعياد قد يتم اهداء الكتاب الى الاصدقاء باعتباره الهدية المضمونة .

وهذه الكتب الفائزة ، وغيرها ، معروفة

من خلال اسم الناشر ، وعلى القارئ أن يذهب الى الناشر مباشرة لشرائه ، اذا لم يكن قد سبق الحصول عليه . وقد يسوقنا هذا الى سؤال حول استفتاءاتنا ، فاذا اتفق الكثيرون على أن كتابا ما هو الأحسن ، فكيف يتسنى للقارئ أن يحصل عليه ، ولدينا عجز واضح في سوق التوزيع ، يتضح في عدم وجود هذا الكتاب وغيره لدى المكتبات في المدن ، ولأن بعض المؤسسات التي تتولى توزيع الكتب تتعامل مع الكتاب باعتباره مطبوعة دورية حيث يتم توزيعه لمدة عشرة أيام ، ويتم سحبه من السوق أسوة بالمجلات ثم يطرح مرة أخرى ، وعلى القارئ أن يلحق بهذا الكتاب ، قبل أن تتم متابعته نقديا وصحفيا ، وذلك قبل أن يوضع في مجاهل المخازن ، أو يصبح أمانات لدى بعض المكتبات ، والتي غالبا مايكون أكثرها مشغولا في تلك الفترة بتوزيع الكتاب المدرسي .

مقاييس معقدة .. لتوزيع الكتب ونجاحها .

وهذه الطريقة التقليدية في توزيع الكتب ، تجعل القارئ يدوخ سبع دوخات .. عندما يود الحصول على كتاب قرأ في الصحف أنه جيد ، وأنه الأفضل ، وبالتالي ، فمع اعتبار أن كل هذه الاختيارات الاستفتائية سليمة فانه على القراء أن يبحثوا عن الروايات والكتب التي نشرت عام ١٩٩٥ ، واتفق انها الأحسن ، ولكن القارئ العادي غالبا ماسيواجه صعوبة في معرفة اسم الناشر وأيضا في معرفة مكان الكتاب .

وعلى سبيل المثال فقد ودت مجلة الهلال مع مطلع هذا العام ، أن تنشر على قرائها اسماء الروايات الأعلى توزيعا في سلسلة «روايات الهلال» خلال السنوات العشر الماضية ، وتم الرجوع الى قوائم التوزيع الموجودة لدى سجلات الدار ، أمكن التعرف على أسماء الكتب العربية التي نفدت من المخازن ، وأسماء الكتاب الذين تبيع رواياتهم بنسب أعلى عند الطرحة الأولى ، وهي فقط لمدة أيام قليلة ، في الأسواق .

وبدت هيئة التحرير أمام حرج شديد في أن تنشر هذه القائمة ، فهناك تباين في عدد النسخ المطبوعة لكل كاتب حسب توقع قبول أعماله لدى القراءة ، وبالتالي فلم يمكن قياس نفاد رواية بعينها تم نشرها عام ١٩٨٧ باعتبار أنها الأحسن . كما لا يمكن الأخذ بنسبة المبيعات في الطرحة الأولى لهذه الروايات ، باعتبار أن بعض الروايات قد تم الاقبال على شرائها من مخازن دار الهلال، ومن مكتباتها بعد موعد صدورها بأشهر ، حين أحس القراء بأهميتها من خلال المتابعات النقدية .

أما المثير فعلا ، فان هناك بعض

الروايات التى تم اختيارها كأحسن الاصدارات فى سنوات سابقة فى هذه الاستفتاءات قد تعثر مبيعاتها عن روايات أخرى لم ينتبه أحد اليها . وهنا بدت موازين القياس غير عادلة ، ولذا تراجعت ادارة تحرير الهلال عن نشر الروايات التى نفدت أو الروايات الأعلى مبيعا أو حتى الروايات الأقل توزيعا ، وذلك لصعوبة عملية القياس بين الجودة ، والمبيعات ، والمتابعات النقدية

ولقد جاءت هذه المحاولة مع بداية موسم الاستفتاءات ، فبدت كأنها تتوافق معها ، أو كأن احداهما تفسر الأخرى ، فحسب معلوماتنا فان بعض دور النشر التى تم اختيار كتب ما من منشوراتها كأحسن كتب لعام ١٩٩٥ تطبع عددا محدودا فى البداية من كتبها بشكل عام ، ١٠٠٠ نسخة فى الغالب ، وذلك كمختبر للتوزيع ، فاذا تم الاقبال على الكتاب قام الناشر بطبع كميات أخرى اضافية محدودة للاستيعاب فى الطرحة الثانية .

وهذا الأمر يفسر سؤال صديقى الكاتب فى الهاتف عن أهم كتب العام الماضى ، فهذا يكشف أن المثقفين أنفسهم لايقرأون ، ولايتابعون مايتم نشره، وأنه عند الاسئلة الحرجة ، ومن أجل أن يظهر على أحسن وجه ، فلابد أن يذكر أسماء كتب لم يقرأها باعتبارها الكتب الأفضل ، أو فى ظروف أحسن عليه أن يذكر كتب جاءته عن طريق الاهداء موجودة فى مكتبته ، لم يقرأها بدافع المجاملة .

المستفتون أكثر من عدد الكتب !

ولايعنى هذا أن هذه ظاهرة عامة وشاملة ، بل هى موجودة ، وغالبا ماتنوب وسط هذه الصفحات الكثيرة التى تابعت أحسن الاصدارات وأهم الظواهر ، وقد لاحظت اسم صديقى الأديب الذى لم يقرأ كثيرا عام ١٩٩٥ فى أكثر من مطبوعة ، قام فى بعضها بذكر نفس الكتاب باعتباره الأحسن ، وفى البعض الآخر ، قام بتغيير العناوين ليؤكد أنه من كثرة متابعاته وقراءاته وجد أكثر من عمل يستحق أن يكون الأحسن ، ولعله ألا يقع فى حرج عدم المجاملة ، وبذلك فرضت عليه الظروف والاسئلة المطروحة أن يعدد اختياراته ، دون أن يعلم أحد عن الحقيقة شيئا .

فى الأسبوع الأخير من هذا العام سوف تتكرر الظاهرة دون أى تغيير ، وسنسمع آراء نفس المستفتى لهم ، والمستفتى عليهم، وستظل هذه الظاهرة سنوات طويلة مادام ليست لدينا مؤسسات ثقافية تقوم بهذا العمل ، وتمنح جوائزها الأدبية التى يعتد بنتائجها ومادمنا نسير على نفس النهج فى التعامل مع الثقافة والابداع .



ص ١٧٢



ص ١٥٩

جوائز

إدوار الخراط وانتصار الحساسية الجديدة

□ للحياة الأدبية والثقافية العربية منطقها الخفى الذى يحفظ لها عقلها ويرد عنها وعن الأمة معها عوادى التردى والدمار ، فمهما كانت سطوة متوسطى الموهبة وقدرتهم على الاستئثار بالمنابر والجوائز واحتكار أضواء الذيوع الإعلامى ، وتهميش من هم أعمق منهم ثقافة وموهبة ، ومهما ارتفع الضجيج من حولهم ، وانتشر رذاذه فى كل موقع ، فإن عقل الحياة الثقافية سرعان ما يجد له منفذا يعبر به عن نفسه ، برغم نفوذ كل الذين يخمدون أنفاسه ويكتمون صوته ، ويبدو أن جائزة سلطان العويس الثقافية قد أصبحت مع دورتها الرابعة أحد منافذ هذا العقل الحر .

فبعد أن فاز بها كل من سليمان فياض وصنع الله ابراهيم فى القصة والرواية فى الدورة السابقة هاهى ذى تذهب هذا العام الى إدوار الخراط قبل ثلاثة شهور من عيده السبعين لتؤكد للواقع الثقافى أنه إذا أتيح لجماعة المثقفين العرب جائزة حرة ومستقلة عن نفوذ المؤسسة فإن باستطاعتهم أن يطرحوا

عبرها قيما ثقافية مغايرة لقيم تكريس السائد أو تدعيم المثقف فيقيني أن اللجنة التي منحت إدوار الخراط هذه الجائزة منحتها له لما قدمته أعماله من قيم أدبية وثقافية سعت إلى تأكيد استقلال المثقف وكرامة الثقافة وإلى الابتعاد عن التيار السائد، وإلى استشراف حساسية أدبية حديثة، والتأكيد على أهمية المغامرة التجريبية في رفد الثقافة العربية بالجديد وتشجيع الأعمال الأدبية التي تنتهج هذا الطريق الأدبي الطليعي، وبلورة قيمه في الكتابة الأدبية وصياغتها إبداعيا ونقديا على السواء.

هذا الجانب المهم في مسيرة إدوار الأدبية التي أكد فيها استقلال الكتابة هو الذي حظي بالجائزة صحيح أن إدوار الخراط ارتبط في مرحلة طويلة من حياته العملية بأحد مراكز السلطة الثقافية في مرحلة سابقة من تاريخ مصر - وهو يوسف السباعي قوميسار الثقافة في الستينات وشطر من السبعينات - إلا أن هذه الفترة كانت من أقل فترات حياته خصوبة وإنتاجا لم يكتب فيها إلا رواية واحدة هي (أضلاع الصحراء) ومجموعة قصصية واحدة هي (ساعات الكهرباء)، نال عنها جائزة الدولة التشجيعية في القصة وقتها. وإذا استثنينا الرواية والمجموعة التي كتبت أثناء فترة ارتباطه بالمؤسسة ونالت تقديرها سنجد أن مجموعته القصصية العلامة (حيطان عالية) قد كتبت قبل ارتباطه بمؤسسة السباعي الثقافية، كما أن جل أعماله القصصية والروائية المهمة من (رامة والتنين) و (الزمن الآخر) و (اختناقات العشق والصباح)، (وأمواج الليالي) و (محطة السكة الحديد) و (ترابها زعفران) و(يابنات اسكندرية)، (ومخلوقات الأشواق الطائرة) و(اختراقات الهوى والتهلكة) و (حريق الأخيلة) وغيرها قد كتبت بعد أن تحرر من ارتباطه بهذه المؤسسة.

ولا غرو، فإدوار من رواد هذه الحساسية الجديدة الأوائل، ومن أكثر كتابها حرصا على نقائها واستمرارها وتوطيد أركانها وتنقية ملامحها مما يعلق بها من شوائب تخليط



سليمان فياض



ادوار الخراط



سليمان فياض

واوشاب التدليس ، وأوضار التزييف والتمويه على حقيقتهما البارزة المتألقة الآن بعد صراع طويل مع مواضعات الحساسية القديمة التى تخثرت رؤاها وتميعت إنجازاتها بعد أن تجاوزها الواقع والفن على السواء . فقد كان إدوار الخراط على وعى بتخلق هذه الحساسية الأدبية الجديدة منذ أن بدأت أجنتها الأولى فى التشكل فى أواخر الأربعينات ، إذ تواقت هذا التخلق مع بداية اشتغاله بالكتابة ، وساهمت كتاباته منذ بواكيرها الأولى فى بلورة قسمات أدب هذه الحساسية الحداثية الجديدة إبتداء من مجموعته الأولى (حيطان عالية) .

وسعت عبر أعماله الجيدة الى توسيع أفق تلك الحساسية الأدبية الحديثة ، وتمكينها من استيعاب متغيرات الواقع الأدبى والحضارى على السواء ، وساهمت فى إندياح الحدود الفاصلة بين أشكال الكتابة المتعارف عليها فى محاولتها للإمساك بتفاصيل عالم يتميز بالتحول المستمر والسيولة الدائمة . وهى محاولة أسفرت عن خروج النص الأدبى على الحدود التى صيغت فى ظل الحساسية القديمة والتى فصلت بشكل حاسم بين مختلف الأجناس أو الأشكال الأدبية ومن هذا أخذت كلمة النص فى الشيوع عند تناول النقد لأعمال الحساسية الجديدة باعتبارها بديلا مقبولا للمصطلحات السابقة التى انحدرت من نظرية الأجناس أو الأشكال الأدبية القديمة .

وإذا كان من العسير علينا الإلمام بأهم إنجازات إدوار الخراط فى هذا المجال فى كلمة قصيرة كهذه ، غايتها تهنئته بالجائزة وافتتاح ما أرجو أن يكون عاما من الاحتفال بإنجاز الخراط الأدبى وتأمله ودرسه بمناسبة نيله لتلك الجائزة الثقافية المهمة ، ولبلوغه السبعين من عمره المديد معا ، فلا أقل من التوقف عند سمة واحدة من سمات إبداعه المتميز ، وهى تناوله للمكان وتجذير الذاكرة والشخصية فيه ، لأن ثمة علاقة واضحة بين تناول إدوار الخراط الفريد للثقافة المصرية التحتية فى تنويعاتها الإسكندرانية والقبطية معا وبين سرعة التغيير الحضارى الذى ينهش الواقع المصرى ويشوهه بصورة يوشك معها العالم أن ينفلت من بين يدى الكاتب بطريقة غير منطقية

تدفعه إلى التشبث بالمكان والاعتصام بالذاكرة . وكأنه يستخدم الكتابة باعتبارها طقسا أو تعزيما من التعازيم السحرية القادرة على استرداد المكان أو انتزاع عالم القيم الإنسانية القديمة من قبضة التشتت والضياع .

د . صبرى حافظ

التجريب والتجديد والاستفزاز



الشاعر عبد الوهاب البياتى

□ لم أكن أبه كثيراً بنبأ فوز هذا الروائى أو ذاك الشاعر بأى من الجوائز الادبية العربية المعروفة، على الأقل، فى أوساط المثقفين العرب ولم يكن هذا الموقف، مع ذلك ، تعبيراً عن الاستخفاف باحتفاليات القائمين على هذه الجوائز أو مستحقيها.

ولابد من الاعتراف، قبل أى شىء بأنى لم أكن اعرف اسماء هذه الجوائز المختلفة قبل عامين تقريبا، برغم أنى لم أنقطع تماما عن متابعة الفعاليات الثقافية العربية، متابعة غير وثيقة وغير حميمة أيضا حيث أعيش في نيويورك منذ ١٩٧٤ .

ولا أحسبنى مطالباً بتفسير هذا الفتور، الذي قد يبلغ أحيانا حد النفور فى الحيز الضيق الذى تحدده المناسبة وهى مناسبة سعيدة بالقطع. وحسبى أن أقول أن خيبات الأمل التى منيت بها مرات كثيرة فيما تنشره الصحف العربية، وأخص بالذكر الصحف التى تصدر فى لندن ، أو صحف الهجرة المفتعلة ، سواء كانت تلك الكتابات لأسماء لامعة أو لكتاب وشعراء جدد كانت من أسباب هذا النفور .

ورأيى المتواضع هو أن الصفحات الأدبية والثقافية فى معظمها تمثل بطبيعتها بيئة غير صحية فى الغالب لأية موهبة لا تستطيع التنفس وسط تلوث النفايات الأدبية .

ولكل هذه الأسباب ولعشرات من الأسباب الأخرى، لازلت أحرص على متابعة فعاليات الثقافة والفنون العربية، بقدر المستطاع، من بعيد . ولا أقصد بهذا البعد المسافة الفيزيقية

التي تفصلني عن موقع هذه الفعاليات بل أقصد تلك المسافة النفسية التى لا أستطيع الجزم، مع ذلك ، بمصدرها وهل هو ضجيج الأصوات المتشابهة ذات البعد الواحد، أم قطيعة اغتراب بدأ فى سن مبكرة مع بداية الوعي بالوجود .

ولكن يبدو لي الآن فقط، وقد مستني جوائز سلطان العويس هذا العام على نحو ما بطريقة غير مباشرة ، أن هذه الجوائز، برغم أى شيء آخر، تسد فراغا فشلت المؤسسات الثقافية الرسمية، على مستوى العالم العربى فى سده برغم وجود جوائز مماثلة وإن كانت متواضعة مثل جوائز الدولة التقديرية فى مصر وربما كان من أهم ميزات الجوائز غير الرسمية تحررها من القيود ومعايير التقييم البيروقراطية التى مابرحت تدهشنا بأسماء فائزين لا يعلم إلا الله مسوغات اختيارهم .

ولهذا لا يملك المرء إلا أن ينحنى احتراما للجنة التى لا أعرف اسم أى من أعضائها ، التى تمنح جائزة الشعر للشاعر العراقى الكبير عبد الوهاب البياتى، وجائزة الرواية للروائى والناقد المصرى الكبير ادوار الخراط، الذى يحلو لي أن اسميه مداعبا .. كاهن الحداثة .

ولأن عبد الوهاب البياتي تربطني به صداقة حميمة بلغت فى نهاية العام المنصرم اربعين عاما، ولأن صداقتى الحميمة بادوار الخراط تبلغ بالحساب الفلكي خمسة واربعين عاما وبالحساب الميتافيزيقى سنوات عمرينا ، شعرت بالامتنان والفرحة لفوز هذين الصديقين بالجائزة بالذات وكان لهذا الاختيار الصائب الفضل فى أن ادرك لأول مرة أهمية جائزة سلطان العويس التى عظمت بهذا الاختيار ، قيمتها المادية بما اكتسبته من قيمة أدبية .

ولا أستطيع فى هذا المجال أن أرسم صورة أو حتى

اسكتشا لادوار الخراط الذى أعرفه . فالصورة المحفورة فى ذهنى من العمق والثراء والتعقيد بحيث لا أجرؤ على اختزالها فالاختزال فى مثل هذه الحالة فى نظرى – انتهاك واعتداء على حرمة حدود الأصل ، وربما كان سبب هذا التردد هو أنى انتظر اليوم الذى أستطيع فيه أن أرسم هذا البورتريه فى زمان ومكان مختلفين ، وأيضا بخامة أخرى ومع ذلك استطيع أن أقول أن إدوار الخراط، وقد شارف عمره على السبعين ، لا يزال يفتق ينابيع الدهشة ، لا فى حذق وعطاء شيخ محنك، فحسب لكن أيضا فى نزق وتفجر عبقرية – شابة لا تهاب التجريب والتجديد والاستفزاز .

● أحمد مرسى

تليفزيون

اعلانات التليفزيون بين ثورة التطلعات وخراب البيوت!

□ لن تعرف أهمية الحديث عن إعلانات التليفزيون إلا إذا كنت أبا، أو مقيما بجوار إحدى المدارس الإبتدائية، فإن كنت أبا فاسأل جيبك يجبك أفضل منى، وإن كنت مقيما بجوار مدرسة ابتدائية فقف فى شرفة منزلك وستصلك صيحات الأطفال وهم يتراكضون متشابكى الأذرع ويغنون إعلانا عن (زيت الذرة الشهية) أو (بسكويت الكريمة المستخبية) ، ولن تسمع احدا يغنى (فى البحر سمكة) أو (ماما زمانها جاية).

لكن الحديث عن أهمية إعلانات التليفزيون سيتجاوز هذا المظهر السطحى الى نقطة أكثر أهمية تتعلق بعدم وجود أى معيار يحدد (أخلاقيات الإعلان) فى مصر ـ سواء أكان الإعلان الصحفى أو التليفزيونى ـ وسبب ذلك أن الإعلان حتى الآن فى مصر شأنه شأن أغلب المظاهر المرتبطة بالحاح السوق . لم ينشأ كصناعة مقننة تحمل مع ميلادها أخلاقيات وقواعد محددة بشكل أو بآخر وعلى رأى استاذنا أحمد بهاء



سهير الاتربي

الدين الذى وصف الانفتاح بـ (السداح مداح) . فجاءت جميع مظاهره سداحا مداحا، وربما كان الإعلان اكثر المظاهر سداحا ومداحا - إن جاز التعبير - فصناعة الإعلان التليفزيونى فى مصر حتى الآن صناعة عشوائية - ككل شىء آخر - تتنافس فيها مجموعة من الشركات المتناثرة لا يحكم عملها قانون ولا يتميز أى منها بأسلوب خاص. فأغلب شركات الانتاج الاعلانى حتى الآن تتعامل مع الاعلان بوصفه مجموعة فتيات شقراوات يتراقصن بغنج حاملات بعض عينات السلعة المعلن عنها، ويرقص خلفهن مجموعة من الصعايدة أو الفلاحين يقطرون بلاهة وغباء ولست أدعي لهذه السطور قدرتها على الالمام بكل مشكلات الاعلانات التليفزيونية وآثارها . ولكننى اسعى لإثارة عدة تساؤلات ثانيها فى الأهمية إنه حتى الآن لا يتعامل احد مع الاعلان التليفزيونى بالقدر الذى يستحقه من الاهتمام . وأنه يستطيع الى مدى كبير أن يفجر التناقضات فى مجتمع مليء بعوامل التفجر، وحتى لا يتهمنى احد بالتزمت أحب أن أذكر أن هذه النقطة بالذات أثارها عالم الاجتماع الامريكى البارز ولبورشرام فى حديثه عن الوظائف غير المرغوبة للاعلام ومن أبرزها تفجير ما اسماه بـ (ثورة التطلعات) Rise of Ex-pEctaions لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة اجتماعيا بعرض نماذج معيشية لا يمكن لافراد هذه الطبقات تحقيقها ابدا مما يفجر ثورة التطلعات التى تتحول مع زيادة العجز المادى الى ثورة احباطات تؤدى الى أضرار بالغة الخطورة على السلام الاجتماعى.

وهنا يمكن أن نتساءل ما الحكمة فى ان نعرض لمحدودى الدخل من غير مالكى (الدش) و (الديكودر) - إعلانات سيارة يبلغ ثمنها ٢٠٠ الف جنيه أو طقم سيراميك يفوق هذا السعر ، اذا كان جمهور هذه السيارة وذلك السيراميك لا (يستنظف) الفرجة على التليفزيون المصرى، فهل يمكن أن يمر عرض هذه

الاعلانات دون تفجير أية آثار اجتماعية.

ناهيك عن وجود جهاز رقابة يهتم بالمواصفة الصحية، ويراقب مدى عرى أفخاذ وسيقان فتيات الاعلان، لكنه لا يهتم بممارسة أية رقابة على المضامين الاعلانية التى تحمل تكريسا للثقافة الاستهلاكية وتشجيعا شعبيا للصناعات التافهة حتى يظن من يشاهد الاعلانات إننا شعب منتج للبسكويت والصابون ولا شيء آخر . ولن نتحدث عن مخاطر الغزو الثقافى وتفتيت القيم الاجتماعية لكيلا نتهم بالانغلاق وترديد كلام المثقفين (المجعلص) . وإذا لم ينجح كل هذا الكلام فى تحريك افكارك عن الاعلانات وآثارها فلم تقتنع به . وإذا لم تكن أبا أو مقيما جوار مدرسة ابتدائية، فعليك إن سرت فى اى شوارع القاهرة ذات ظهيرة، ووجدت رجلا يبدو عليه سمت الموظفين. متهدل الملابس، نابت الذقن . متصبب العرق، منكوش الشعر. يحرك شفتيه فى تمتمة خفيفة وربما عنيفة، فاقترب منه واسأله (مالك) وسيجيبك (يا بيه بتوع الاعلانات خربوا بيوتنا قول لهم يخففوا علينا شوية) .

عندها ستعرف علاقة الاعلانات بخراب البيوت.

● بلال فضل

الاعلانات الحقيقة والوهم

□ لعل أبلغ تعبير عن التليفزيون هو ذلك الذي قدمه مايكل نوفاك حيث يشير الي أنه «المشكل لجغرافية الروح» كاشفا عن دوره في تكوين بناء ومناخ نفسيين من التوقعات عما يمكن للفرد أن يحققه في واقعه الاجتماعي. وتشكل انظمة المعلومات التي يسعي التليفزيون الي توصيلها للجمهور أحد العناصر الاساسية المشكلة لهذا البناء.

مصدر مهم من مصادر هذه المعلومات هو الاعلانات سواء تلك التي تروج لسلع وخدمات بعينها أو التي تعبر عن مضمون

ثقافي مثل الاعلانات عن الافلام والمسرحيات والحفلات الموسيقية. الخ، أو التي تحمل في طياتها هدفا اجتماعيا اصلاحيا (تنظيم الاسرة - مكافحة الامية - مقاومة المخدرات - اساليب الادخار والاستثمار .. الخ).

جدير بالذكر أننا نواجه مشكلتين أساسيتين عند تصدينا لقضية تقويم الاعلان وتأثيره ، الاولي هي إننا لا نملك بيانات عن مدي مراعاة القائمين باعداده وتنفيذه للأسس الاجتماعية والنفسية لعملية الإعلان كما تكشف عنها الدراسات في هذا الموضوع وعناصره: مقدم الاعلان ونوعه وكيفية عرضه والمتلقي، المشكلة الثانية هي افتقادنا لرؤية واضحة عن مستوي وعي المسئولين عن هذا الجهاز بما تعكسه الاعلانات من قيم وسلوكيات لها أثرها البالغ في تشكيل وعي الجماهير.

لا يمنعنا هذا الطرح من أبداء بعض الملاحظات الإجمالية وسينصب اهتمامنا الأكبر علي إعلانات ترويج السلع لأنها الأكثر عددا والأطول زمنا، لاشك إننا نلمح هنا بعض الايجابيات مثل توظيف التكرار سعيا الي الالفة، واكساب الاعلان قدرا من الجاذبية من خلال استخدام خلفيات تتكامل فيها التنبيهات البصرية والسمعية، ويساهم في تحقيق ذلك شخصيات فنية أو ممثلو إعلانات وتقديم أفكار مثيرة ينطوي بعضها علي عنصري المفارقة والكوميديا ومن ثم تنشيط الدافع الي الشراء، والحرص علي توظيف المرأة والطفل بكثافة كمحاولة لتعميق الخطاب الجمالي، والتلقائي بالاضافة الي تقديم المعلومات الضرورية عن بعض السلع احيانا ويؤدي ما سبق في حالة نجاحه الي التركيز اساسا علي مخاطبة الوجدان وابعاد المتلقي عن اعمال الذهن علي نحو قد يؤدي الي الرفض المبدئي للسلعة.

ويبقي لنا تعليقان أخيران الاول هو أن الاعلانات ذات الطابع الثقافي موجهة في قطاع كبير منها للاسف لخدمة الذوق الهابط، المقصود اعلانات بعض الافلام والمسرحيات وبعض الاغاني وما تنطوي عليه من عنف واثارة واسفاف الثاني

مؤداه أن الاعلانات ذات التوجهات الاصلاحية هي الاكثر نفاذا وفاعلية خاصة اذا تمت مراعاة البعد عن أدوات تحمل شبهة الكوميديا لتعبر عن مضامين شديدة الجدية، والحرص على ابراز النتائج الإيجابية للسلوك المنصوح به - في قالب مبتكر - بدرجة اعلى من السعي الى استثارة الخوف من النتائج السلبية للسلوك المتضرر منه.

أخيرا وليس أخرا تحتاج منظومة الاعلانات الي تطوير علمي ابداعي في توجهاتها وأفكارها بما يخدم قيام مجتمع انتاجي له خصوصيته الثقافية اما كيفية تحقيق ذلك فذلك له مقام أخر.

● خالد عبدالمحسن بدر

مسرح

عندما يصبح صنـــدوق الأقنعـــة فارغـــاً

المسرحية : صندوق الاقنعة
إخراج : جمال منصور
مسرح الطليعة

التمثيل هو فن ارتداء الأقنعة، وهو أن تملك القدرة على إقناع الآخرين لفترة محدودة، أنك شخص آخر غير نفسك، وهو مبدأ صاغ نظرية فى المسرح والحياة معا. فمفهوم «الدور» هو مفهوم مركزى فى المسرح والعلوم الاجتماعية سواء بسواء.

وحول الدور والقناع فى حياة السيد خوان صاغ الكاتب الأسبانى خايمى ساليم مسرحية (صندوق الأقنعة)، وهو كاتب نتعرف عليه لأول مرة، مما يستوجب التقـدير للمترجم د. رضا غالب والمخرج جمال منصور الذى جعل من الشخصية وفن الممثل أساسا لصياغة رؤيته الاخراجية.

استخدم النص تقنية الحكاية داخل الحكاية، وهى تقنية شعبية شهيرة. فى المشرق والمغرب على السواء - تقسم فضاء النص إلى سرد وتشخيص وتعمق إحساس المتفرج بالقناع والتنكر من ناحية ، وبالزمن من ناحية أخرى. فالإنسان هنا هو الذى يتحكم فى تنظيم الأزمنة، والشخصية تقف أمامنا بعدما اكتسبت وعيا ومعرفة بالأدوار التى لعبتها فى حياتها، وتتبدى



المخرج جمال منصور

روية المخرج فى إبراز تلك الفكرة حينما جعل الممثل يسرد حكايته وسط دائرة ضوء تركز على وجهه. ، تعزله عن المكان المحيط به، وتضعه فى الزمن الحاضر، زمن السرد. بينما جعل لمشاهد التشخيص إضاءة ناعمة خافتة تبرز تفاصيل المكان بالكاد واضعة المتفرج فى موقع إدراك الأحداث بوصفها أحداثا ماضية.

لقد صنع المؤلف والمخرج حكاية تمثل الإطار الخارجى لثلاث حكايات هى ثلاث مراحل عمرية للسيد خوان. وقد اختار المؤلف لهذه الحكاية الإطار بعناية ففى حفل تنكرى فى منزل السيد خوان (أحمد حلاوة) يستقبل فيه الحفيد (علاء قوقة) فتاته التى يحبها. وحينما تدخل الفتاة (إيمان حمدى) وهى تنفخ فى بوق يتعرف عليها الجد على الفور، فتحاول أن تلبسه قناعا غير قناع العجوز، وعبثا يحاول أن يشرح لها انه عجوز بالفعل ولكنها تصر على أن يرتدى السترة الحمراء التى كان يرتديها حينما قابل مغنية الكازينو لأول مرة منذ سنوات طويلة وهنا تبدأ الحكاية الأولى، وفيها يفشل خوان فى علاقته لانه لم يقدر الدور الذى يلعبه صاحب الكازينو فى حياة المغنية، وتفشل المغنية فى علاقتها بخوان لانها لعبت دور المعشوقة وليس دور العاشقة .

وتؤكد الحكايتان الباقيتان على المعنى نفسه، فدائما لايرى خوان دور الآخر. والفتاة تختار دائما الدور الخاطىء.

ففى الحكايتين الأولى والثانية يبدو خوان معجبا بنفسه، وفخورا بقدراته ويصف نفسه (بكلمات محمد بهجت)، بأنه «ولد كوتشينة وقش» ولكنه ينهار تماما فى الحكاية الثالثة حينما يكتشف انه كان السبب فى ذبول فتاته وموتها، «فالإنسان مثل

اللهب لاتستطيع أن تملكه في يديك دون أن يحرقها أو ينطفئ»
وقد استخدم أحمد حلاوة تقنية التمثيل الشعبي حيث الكاريكاتير ولكنه لم يفقد تقنية التقمص في الوقت نفسه فنقل لنا رحلة خوان بين الجهل والمعرفة بين الغفلة والوعي، فجعل من الفعل الإنساني للشخصية وارادتها معيارا للحكم عليها، وبذلك جسد فلسفة المؤلف ورؤية المخرج من حيث أن الإنسان أسير حريته، اختياره، دوره الذي قرر أن يلعبه.

وقد لعب علاء قوقة أدوار الآخرين دائما، وهم يعرفون قرارهم ويرتدون أقنعتهم بثبات، ويعرفون مهمة القناع ووظيفته في علاقاتهم بالعالم. إنهم يمثلون دائما، ولذلك استخدم علاء قوقة تقنية التشخيص بنجاح أي تقنية التمثيل داخل الدور، فهو مالك المغنية ولكنه يمثل أمام خوان دور الجرسون المحايد، وهو الشاب العاشق للفتاة ولكنه يمثل امام خوان - في الحكاية الثالثة - دور الطبيب المعالج لذا أصاب علاء قوقة حينما استخدم مخزون التمثيل الشعبي في ادائه للدور.

والعرض المسرحي يحاور الفلسفة التي ترى أن (الحياة مسرح كبير) كما جاءت عند أفلاطون (محاورات فيليبوس، القوانين) وفي مسرح شكسبير (تاجر البندقية، ماكبث) حيث تصور الإنسان وكأنه دمية تحركها خيوط الآلهة أو ممثل ينفعل ساعة على المسرح ويمضي، وهي نفسها الفلسفة التي ترى ان المسرح محاكاة للحياة، فالاستعارة الحياة / المسرح تدمج الطرفين ليصبحا معنى واحدا، ولعلها الفلسفة التي جعلت من أفعال الإنسان على المسرح / الحياة مرهونة بإرادة القدر، أو إرادة المجتمع، وكل إرادة خارجية لا يقوى الإنسان على مواجهتها. وقد عارضت صندوق الأقنعة تلك الفلسفة حينما

جعلت المصير الإنسانى نتيجة منطقية لاختياره ووعيه، وقبلتها حينما أكدت على الزمن بوصفه العنصر الوحيد الذى لايستطيع الإنسان السيطرة عليه وان على خوان أن يترك الميدان لحفيده مع الفتاة نفسها ليلعبا مرة أخرى لعبة الأدوار فقد أصبح صندوق خوان للأقنعة فارغا

● حازم شحاته

صندوق الأقنعة رؤية أكثر شمولا

□ «صندوق الأقنعة» المسرحية التى يقدمها مسرح الطليعة حاليا، تعد تجربة جديرة بالتوقف فقد توافر لها مخرج كبير هو جمال منصور ومجموعة لامعة من الممثلين أحمد حلاوة وعلاء قوقة والوجه الجديد إيمان حمدى، فى نص لكاتب اسبانى جديد على المسرح المصرى هو «خايمى سالوم» ورغم ذلك فهناك شىء ماينقص اكتمال المتعة بهذا العرض. فالنص يحمل جوانب جمالية وتقنية من الصعب على المتفرج العادى استيعابها انه يلغى الزمان والمكان والحدث بالمفهوم غير التقليدى الذى طرحه برشت ومسرح العبث وغيرهما من المذاهب المسرحية التى ثارت على قواعد أرسطو والدراما الإغريقية. وهو ما عهدناه كثيرا فى فنون الأداء الشعبية خاصة الراوى بالربابة أو الناى. يصل بنا هذا العرض الى بعض علامات انتكاس مسرحنا المصرى الحالى ومنها سيطرة جماليات مسرح الطليعة الايطالى على وعينا الجمالى المسرحى بدرجة قاتلة كما قال المسرحى الانجليزى بيتر بروك فمثل هذا النص وغيره مما يعتمد على الشكل فى المكان والزمان وتعدد

الشخصيات رغم قلة الممثلين ، يحتاج الى مساحة حرة كمكان للعرض ومساحة أكثر حرية من الخيال تحقق له خصوصيته فى السينوغرافيا.

تخلف الترجمة فى واقعنا الثقافى عن مواكبة تيارات الإبداع العالمى فهذا النص الذى نتلقاه اليوم كتب وعرض ببرشلونة فى يناير ١٩٦٤.

أهمية الممثل المدرب الذى يعى الدور الأكاديمى لفن الممثل من خلال التدريب والإعداد لكل أدوات الممثل الأدائية بدءا من لياقة الجسم والصوت ونهاية بفهم النص والجوانب المؤسسة للدور أو الأدوار المؤداة.

التجاهل النقدى المتابع الذى يطرح فى الدوريات اليومية أو الأسبوعية فى حين يلهث فى متابعة العروض الاستهلاكية.

اختفاء الجمهور الذى يعد ظاهرة جديرة بالدراسة من اتجاهات متعددة قد يكون منها: ضعف الدعاية واختفاء القنوات التى تساعد على الاختيار سواء كانت اعلامية أو نقدية فأضحت مثل هذه العروض خدمة ثقافية لا تصل الى مستحقيها.

تشوه قيم التلقى المسرحى بعد أن سادت عروض الرقص والعرى لمن يستطيع دفع ثمن تذكرتها، فأضحى هذا الشكل من العروض هو الملح على الجمهور فمن قبل ذهب، ومن رفض ترك الأمر برمته، إذ لديه من متطلبات الحياة ما هو أهم، قانعا بما ينعم عليه به جهاز التليفزيون!

● سامية حبيب

الفن الجميل

عمر الفيومى واستلهام الروح المصرى



▢ لم يكف «عمر الفيومى» نفسه معاناة الهاربين إلى ظل «الآخر» .. بل تفاعل ببساطة وبلاغة المصريين عبر تاريخهم العريق السحيق ، مع روح مصر ومقومات استمرارها وبقائها .. «روح الحساب» والبساطة، والصفاء، والزهد أمام المغريات!!

روح الإثارة والإيماء والإيحاء» . معتمدا على موروثنا الميثولوجي العميق ، وذكائنا الفطرى الذى لا يضاهى فغاص - بكل سهولة ويسر - داخل ذاته «الفيومية التكوين» التى ألهمت الفن البيزنطى والمسيحى الكثير والكثير من حقائق التعبير الابداعي بوجوه الفيوم . التى رشحت واستخلصت الجوانب الخلاقة فى الذات الانسانية من الفن الرومانى - المادى السطحى - وحولته إلى رؤى شفيفة من خلال دهانات رقيقة على وجنات وبشرة وجوه الفيوم .. تعمق احساسنا بكل ما تعكسه هذه الوجوه من عذابات للروح .. وعيونها التى تفضح

آلام اللحظة .. بكل مرارتها ، وأوجاعها الدفينة ، حتى أضحت هذه الوجوه الفيومية فى مرحلتها الرومانية ، والبيزنطية ، والمعاصرة - عند جورج البهجورى ، وعمر الفيومى - مرجعا إنسانيا يؤرخ لعذابات الإنسان ، وخوفه حاضرا ومستقبلا ، وبوتقة تروى عطشنا الدائم للحرية والعدل والأمان .

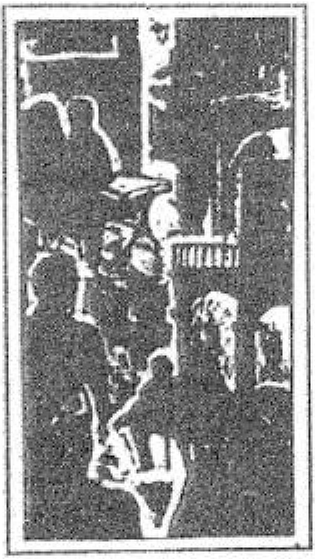
لقد وظف عمر الفيومى قدراته التصويرية المميزة .. ورؤاه الفاحصة .. وصوره المختزنة لوجوه المصريين من خلال جلوسه ومراقبة ومشاركة الآخرين على المقهى - آخر تجمعات المصريين الحميمة من أجل مقاومة برودة اللحظة ، وشبح الوحدة ، وبوار الأشياء - وكثف هذه الرؤى ، ومخزونات الأحلام . وبلورها فى هذه المجموعة التصويرية البديعة التى تكمل وتتواصل مع منظومات الإبداع المصريين الأصلاء ، قدماء ومحدثين .

د . مصطفى مهدى

تجليات عمـــر الفيومى

☐ فى قاعة كريم فرنسيس، تنقلك لوحات عمر الفيومى إلى عالم الميثولوجيا والأسطورة الشعبية والصورة الايقونية. ويستحضر عنوان العرض «حضرات مولانا» حلقات الذكر وليالى المولوية، ويؤكد على أثر الروحانيات على المصريين بشكل عام.

اختار عمر الفيومى شخصية مارجرجس، القديس المصرى، ليكون بطل معظم لوحاته، فهو نموذج البطل المنقذ والمهدى المنتظر وطريق الخلاص. فقد رآه الفنان معبرا عن هذا «الخلط الجميل لدى المصريين بين الأسطورة الفرعونية والقبطية والإسلامية، فتراه يختلط فى السيرة الشعبية مع شخصية النبى الخضر أو على بن أبى طالب... فهو المنقذ ونصير



من أعمال الفنان
عمر الفيومي

الضعفاء».

كما وجد فى صورة «النبى جرجس الطيب» الذى يصارع التنين تشابها واضحا وغريبا مع الأسطورة الفرعونية ، حين يقتل حورس عمه ست الشرير.

وإذا كانت صورة مار جرجس وهو يقاتل التنين، أو مرتديا زى المحارب، أو ممتطيا جواده، قد ألهمت كثيرا من الفنانين فى العالم «منذ روفائيلو وحتى يومنا» إلا أنها تتخذ طابعا خاصا لدى عمر الفيومى. حاول عمر الفيومى إدخالها فى علاقة جدلية مع الناس فى حياتهم اليومية، فى الشوارع المصرية القديمة. كما أنه لايتمادى فى حالته الإيقونية - وهو الذى درس فن الإيقونات والتصوير الجدارى فى صعيد مصر فى لينتجراد - بل يصوغ من مفردات الماضى رؤى معاصرة من حيث الشكل ومن حيث المضمون.

على مستوى الشكل، رأى عمر الفيومى أهمية تكسير المركز الواحد للوحة وخاصة فى اللوحات الجدارية الضخمة. فتجده يصور فى لوحة «طول ٢٫٧٥م وعرض ١٫٣٠م» مشاهد عديدة لرتادى القهوة فى حى شعبى، فهى تكثيف للحظات الحياة المتقاطعة المتداخلة التى لايمكن أن تراها من منظور واحد.

وحتى فى البورتريهات الثلاثة التى رسمها لنفس الشكل الإيقوني تجد الوجه فى كل لوحة وقد اتخذ زاوية ووضعاً مختلفاً، ويلعب اللونان الأحمر والأصفر دورين رئيسيين فى إعطاء حركة الضوء والظل وخلق التناغم و«الدراما البصرية».

وتنتقل ريشة الفنان من الأشكال الإيقونية الخالية من الحياة لتتطابق مع وجود البشر المنتظرين فى القهاوى، وبجانبهم مار جرجس يمتطى حصانه، وهم فى حالة من السلبية والاستسلام.

وعندئذ تستطيع فهم فلسفة الفنان وراء هذا التطابق، «فالناس فى حالة إيقونية، فى حالة من الوجوم والسلبية، هل هم منتظرون هذا البطل ، وهذا المهدى المنتظر؟ هل وجوده فيه خلاصهم؟ أم هل جاء وهم فى غفلة من أمرهم؟» كما يتساءل عمر الفيومى.

وتتجلى رؤية عمر الفيومى الحداثية فى التعبير عن المتناقضات، فتجد تفاصيل وجه رواد القهوة قد تلاشت تدريجيا لاعطاء هذا التعبير عن الوجوم والتخبط فى مقابلة مع دقة الخطوط فى الأشكال الإيقونية على أنه فى الحالتين يعطيك شعوراً بالشفافية والوجد. فهذا السكون وتلك السكينة التى تخيم على شخصيات القهوة تقع فى مفارقة مع حركة القديس مار جرجس ممتطيا جواده فى صورة ثورية. أهى رغبة الفنان فى احداث تغيير ما «؟». ثم تأتى ثنائية الاحباط/ الأمل، فإذا كان عالم القهوة هو عالم كئيب فى نظر الفنان إلا أنه يترك للمتلقى بريقا من الأمل. فتودعك عند خروجك من القاعة لوحة مار جرجس كأنها الرؤية والنور الذى يشق الظلام الحالك لتكون هى نقطة النهاية الباعثة على الأمل.

● دينا قابيل

التكوين

علاقتي بالنهر وبالقرية شكلت وجداني

د. عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ



ـ ألتفت إلى الوراء.. أحاول بنظرة سريعة أن أختزل تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها، فأستجلى خلاصة عمر كامل فى صفحات قليلة!. كان العلم هو القيمة الأساسية التى أثرت فى تكوينى منذ الطفولة المبكرة ووجهت خطاى. تعاقبت علىّ المراحل، كل منها تسلمنى إلى أخرى، وتعددت معها سبل العلم ومصادره وشيوخه، لكن تعلقى به لم يفتر قط! واستزدت منه حتى انتقلت من مقعد المتعلم إلى منصة المعلم، لكن يقينى لم يتغير بأن طريق العلم لا نهاية له وأن العالم يظل مرجوا مادام بقى له شعوره بالقصور وإدراكه لمشاق الطريق!. وقد وعى الإمام مالك بن أنس من وصية شيخه هرمز قوله: «ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول: لا أدرى، فإن العالم إذا أخطأ لا أدرى، أصيبت مقاتله».



د. بنت الشاطىء والسيدة امينة السعيد ود. طه حسين والعقاد في إحدى الندوات

أنا ربيبة شيوخ ولى نسب فى الشيوخ عريق.

فأبى عالم متصوف هو الشيخ القدوة محمد على عبدالرحمن، وأمى هى السيدة فريدة عبدالسلام منتصر حفيدة الشيخ إبراهيم الدمهوجى الذى كان شيخا للجامع الأزهر. سمانى أبى «عائشة» تفاؤلا باسم أم المؤمنين رضى لى الله عنها، واختار لى كنية «أم الخير»، ووهبنى للعلم منذ وضعتنى أمى فى المهد!.

بدأت أعى خطواتى على الدرب على شط النيل بمدينة دمياط. كان شاطىء النهر ملعب الطفولة وملتقى الرفاق، وكان كما علمت فيما بعد، شاهدا على مأساة أسرية سبقت مولدى إذ لقيت جدتى لأمى مصرعها غريقة فيه وتركت فى قلب ابنتها «أمى» ووالديها لوعة لم تنقض أبدا. وفى تلك المرحلة المبكرة، بدأت أيضا علاقتى بالريف المصرى لقد كنا ننتقل كل صيف من مدينة دمياط، حيث كان أبى شيخا بالمعهد الدينى، إلى قريته شبرابخوم من ريف المنوفية لنقضى إجازة الصيف.

ولا أشك فى أن علاقتى المبكرة بالنهر وبالقرية كانت ملمحا مهما فى تشكيل وجدانى وزادا نهلت منه فى مراحل متقدمة من العمر والخبرة عندما كتبت أعمالى المختلفة عن القرية والفلاح وبيئة الصيادين.

بداية الطريق

ببلوغى العام الخامس من عمرى، بدأ والدى الشيخ تلقينى المبادىء الأولية لعلوم العربية والإسلام، وفاء بنذره القديم، وكنت أصحبه إلى مكتبه فى جامع البحر حيث أعكف على حفظ مالقننى من دروس أثناء

انشغاله بالتدريس، أما فى عطلات الصيف فقد أتممت حفظ القرآن فى كتاب القرية.

عندما بلغت سن الالتحاق بالمدرسة الأولية، فوجئت برفض أبى التحاقى بها أسوة بزميلاتى، وكان رده حاسما: «ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الحديثة، وإنما يتعلمن فى بيوتهن». تدخل جد أمى عندئذ فى الأمر وظل يلح على والدى فى قبول التحاقى بالمدرسة حتى خضع أخيرا، ولكن بشروط، أهمها متابعة دروسى الدينية فى البيت، والانقطاع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة بمجرد أن أشارف سن البلوغ.

دخلت المدرسة، بعد طول عناء، وقد انتهت السنة الدراسية وهكذا جلست فى يومى الأول بالمدرسة أؤدى مع زميلاتى امتحان النقل للسنة الثانية بمدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدمياط. مرت بى الأيام سراعا، وأنا أجمع بين دراستى فى المنزل وتعليم المدرسة مع الحرص على تلافى أى تقصير فى دراستى المنزلية حتى لايتسبب ذلك فى حرمانى من المدرسة، وقد سهل لى ذلك أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد بعد ماتلقيته من علوم على يد الوالد وزملائه المشايخ.

وقد ظلت نفسى، وماكانت إلا طفلة، يتجاذبها حب العلم من ناحية والرغبة فى الانطلاق واللهو من ناحية أخرى، حتى قيض الله لى ماثبت قلبى على طريق العلم!.. فقد حدث أثناء دراستى بالفرقة الثالثة، أن دخل فصلنا مفتش ليمتحننا فيما نحفظ من القرآن الكريم، وحين بدا ضيقه بتعثر الزميلات اقترحت الناظرة السيدة «زينب الحناوى» أن يقرئنى شيئا مما أحفظ وقد أصغى الرجل إلى قراءتى فدعا لى ثم انصرف راضيا.

● ملاك من السماء

وفى تلك الليلة رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة ويعطينى مصحفا شريفا فى لفافة خضراء. أيقنت بعد ذلك الحلم، الرؤيا بمنطق والدى المتصوف، أيقنت أن حياتى كلها ستكون مرتبطة بالمصحف الشريف. ومنذ ذلك اليوم، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ والعلماء، بل صرت أحاول أن أسبق عمرى فى دراسة علوم العربية والإسلام.

أنهيت، على مضض من والدى، دراستى فى المدرسة الأولية ثم الراقية، وكدت استسلم لضرورة حجزى فى البيت، إذ كنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمرى، لولا أن ظفرت لى أمى، بعد بدء الدراسة بشهرين، بالإذن فى التعليم ممن لايملك والدى أن يعصى له أمرا، وهو إمامه فى التصوف وقدوته الشيخ «منصور هيكل الشرقاوى». واستقر بى الحال، بعد عناء، فى مدرسة المعلمات بطنطا، القسم الداخلى، حيث أنهيت امتحان السنة الثانية، إذ كان يسمح لمن أتممن التعليم بالمدرسة الراقية أن يلتحقن بالسنة الثانية معلمات مباشرة!

أظنه واجبا على أن أؤكد على أهمية الدور الذى قامت به أمى فى مؤازرتى فى

تلك المرحلة. لقد كدت غير مرة استسلم لراحة اليأس، فكانت تلك السيدة البسيطة العظيمة، رحمها الله، تأبى إلا أن تدفعنى دفعة تعبر بى من راحة اليأس إلى تعب المجاهدة لتحقيق آمالى!

حنان الأمومة ودفعة للأمام

هل كان حنان الأمومة هو الذى يدفعها إلى مساعدتى وهى ترانى أنوى وأنا أرقب انهيار آمالى؟ أم تراها كانت تستشف أننى ستكون واحدة من الجيل الذى يشهد محنة الحيرة بين القديم الذى عرفه والجديد الذى يبلوه لأول مرة. أم لعلها كانت مسوقة، مثلما كنت، بدافع لاإراد له لأن تدفعنى إلى الطريق الآخر الذى لم أكن حتى فكرت فيه!

من ذلك مثلا أنه عندما أوصدت مدرسة المنصورة للمعلمات بابها دونى، أدهشنى أن أمى لم تعد بى إلى دمياط ريثما تدبر أمرها، وإنما انطلقت تبيع سوارا ذهبيا كانت تتزين به وقطعت لنا تذكرتى سفر إلى القاهرة بحثا عن مكان لى بمدرسة المعلمات بحلوان!

أما عندما أصر والدى، فى عطلة ذلك الصيف، على ردى إلى طريقى الذى حدت عنه فقد كادت تعرض بيتنا للانهيار وهى تحاول الذود عن طموحى ! ورغم أننى رضخت لأوامر الوالد فقد رحت ألتمس منفذا أطمئنها به إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الفائت، لم يذهب عبثا.

ولم يكن من منفذ إلا أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات، حيث عكفت على تحصيلها، ثم تسللت من البيت، وأبى غائب عن المدينة فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا، وخرجت منه ـ وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل ـ أولى الناجحات فى القطر كله، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح!.

وفى ذلك الامتحان لاحت لى، لأول مرة، بداية ذلك الطريق الآخر الذى لم أكن قط تمثلته أو رنوت إليه، وهو طريق الجامعة!.

لقد أعجب الأساتذة الممتحنون بتلاوتى للسور القرآنية وإنشادى لأبيات من شعر الجاهلية وأخرى من صدر الإسلام وأخيرا قصائد من نظمى أنا. بعدها نصحونى بالعدول عن طريق شهادة المعلمات إلى طريق الجامعة! وبدا لى ذلك شططا فى التفكير، فما سمعت فى بيئتى عن الجامعة إلا كلمات مبهمة ترجمها بالزيغ والضلال، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر، ثم إن الدراسة بالجامعة تحتاج إلى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسية وهو ماليس لى به علم!

عودة إلى أول الطريق

قرر أبى، نزولا على نصيحة شيخه وزملائه، أن يتركنى أجرب مهنة التدريس، على أمل أن أزهد فيها واتركها باختيارى!

واخترت أنا أن أعمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة حتى ابتعد عن جو بيتنا المشحون بالضباب

والدخان، ومن ثم أستطيع أن أجد في تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى للمعلمات وهو نهاية الشوط للتعليم الأولى الذى بدأته.

وفى المنصورة توزع الوقت بين التدريس والتحصيل، أما ساعات الترويح فإننى أدين بفضل كبير لمكتبة «السروى» التى هيأت لى أن أقرأ فيها مجموعة كبيرة من الكتب الممنوعة فى بيتى! وهكذا قرأت، نظير قروش قليلة، بنظام الاستعارة، كل كتب المنفلوطى المؤلفة والمترجمة، وكل روايات تاريخ الإسلام لجرجى زيدان، وجمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز، وأيام الدكتور طه حسين، والإلياذة والأوديسة ترجمة البستانى، وألف ليلة وليلة.. وغيرها.

خاب أملى فى اجتياز امتحان القسم الإضافى لمدرسة المعلمات إذ إن اللوائح تغيرت فمنعت التقدم لذلك الامتحان من المنزل، عندئذ اصطحبنى صديق الوالد، الشيخ موسى قمر الأستاذ بدار العلوم آنذاك، محاولا التماس استثنائى من تلك اللائحة بسبب أولويتى في كفاءة المعلمات. لكن السيد مراقب تعليم البنات اعتذر، واقترح على أن أتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية! وبسرعة ملأت استمارة التقديم، ثم تم نقلى من المنصورة إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب بالقاهرة، قريبا من منزل الشيخ موسى قمر حيث سأقيم وأراجع الدروس المقررة على.

وهكذا وجدتنى، بدون تعمد منى، على بداية ذلك الطريق الذى لم أتصور نفسى أبدا سائرة فيه وهو طريق الجامعة!.



بنت الشاطىء أيام الصبا

● الوضع التعليمى يدعم الطبقية

ولم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته، يسير فى اتجاه مواز لايلتقى أبدا مع الطريق الموصل إلى الجامعة. وقد كان حريا بى، لولا صغر السن وضآلة الخبرة، أن ألاحظ أن ذلك الوضع الثنائى للتعليم يدعم الطبقية الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية! فالتعليم الأولى لعامة الشعب، أما التعليم الابتدائى الموصل للجامعة فهو وقف على الأغنياء والقادرين ماديا.

وكان التباين بين المناهج التى درستها من قبل وتلك التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية تباينا شديدا. فلم أكن



د. بنت الشاطيء مع ابنتيها

حتى تلك اللحظة تعلمت حرفا واحدا من لغة أجنبية! حتى أنني اضطررت لنقل اسمى مكتوبا باللغة الأوربية كما ينقل الرسم، كى استوفى بيانات استمارة طلب التقديم للشهادة الابتدائية، ولم أكن كذلك قد شاهدت أى جهاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء فى المدارس الحديثة.

أديت امتحان الشهادة الابتدائية فى ذلك العام، وكانت لى فى امتحان اللغة الانجليزية قصة لاتنسى! كنت أضع أملى كله فى موضوع الإنشاء، المعتمد على كتاب «السندباد البحرى» لكننى ما أن بدأت فى الكتابة حتى غابت عن ذاكرتى تماما كلمة «نسر» بالانجليزية، وهى كلمة أساسية فى الجمل المطلوب كتابتها. وبدا لى أن الله لايريد لى المضى فى ذلك الطريق، وفيما أنا ألقى قلمى فى يأس وقع بصرى على الكلمة المطلوبة محفورة على قلمى تحت صورة للنسر. وأقبلت على كتابة إجابتى وأنا موقنة أن الله معى.. على الطريق.

وفى العام التالى تقدمت إلى امتحان شهادة الكفاءة الثانوية، بعد أن استوعبت المناهج المقررة على السنوات الثلاث.

ومرت الامتحانات بسلام فيما عدا امتحان الطبيعة، سئلت عن خاصية الترمس «بضم التاء» فى حفظ الحرارة، وقد تصورت أن المقصود هو البقل المعروف فكانت اجابتى بالطبع فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان، لكن تلك الفكاهة كشفت لمراقب تعليم البنات عما أكابده من مشقة فأمر بنقلى من

وظيفة معلمة، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات بالجيزة.

وكانت سنواتي في كلية البنات حافلة بالتجارب والدروس! أما الدرس الأول فقد تطلب مني أن أغير من مظهري بعض الشيء كي أصبح أكثر اتساقا مع ذوق المدينة الكبيرة. وهكذا نزعت من شعري المشط البراق الذي كان يمسكه وارتديت بدلا من ثوبي المزخرف ثوبا قطنيا بسيطا كذلك تقرر أن أتناول طعامي في غير المواعيد المحددة للطالبات حتى يتم تدريبي على استعمال أدوات المائدة العصرية، وكان ذلك أول عهدي بها! وقد أدهشني أن علمت أن موظفات الكلية لايدفعن أي أجر لذلك الطعام الفاخر الذي يقدم في مطعم الكلية الأنيق. وللحق فقد كانت دهشتي تشوبها الحسرة، على أيام عدة عشتها على شطائر الفول والطعمية اشفاقا على نفسي وميزانيتي من ذلك الطعام الفاخر!

● علاقتي بالصحافة

وفي تلك المرحلة أيضا بدأت علاقتي المباشرة بالصحافة إذ كنت في طفولتي قد اتصلت بها بشكل غير مباشر. كنت عندئذ طفلة ملازمة لجدي الشيخ المقعد، وكان من مهامي اليومية أن أقرأ له الصحف ثم أكتب مايملي علي من رسائل يبعثها إلى الحكام وإلى الصحف في موضوع تعطل الميناء. وقد أفرحني أن أرى ماكتبته منشورا في الصحف فكنت أتفنن في تجويده قدر طاقتي.

عاودت، إذن، اتصالي بالصحافة، فأرسلت قصيدتي «في الحنين إلى دمياط» إلى مجلة «النهضة النسائية» التي نشرتها ثم أفسحت صدرها بعد ذلك لتلقي مقالاتي وقصائدي. وقد أغراني ذلك أن أرسل قصصي إلى الصحف اليومية وإلى مجلة «الهلال» التي كانت في ذلك الحين تنشر لأعلام من كتاب الجيل. وقد نشرت لي صحيفتا «البلاغ» و«كوكب الشرق» قصصا قصيرة أما مجلة «الهلال» فقد أعادت القصة مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان» وفي تلك الفترة، عندما بدأت النشر في الصحف اليومية، بدأت أيضا في التستر وراء اسم «بنت الشاطئ» خوفا من أن يحرم علي الوالد مكاتبة الصحف إذا علم بذلك.

وأذكر في هذا السياق ذلك الدرس الذي تعلمته، ولم أنسه أبدا، من علاقتي بمجلة «النهضة النسائية». لقد دعتني السيدة الحاجة «لبيبة أحمد» صاحبة المجلة لزيارتها في دار المجلة، وشجعتني حرارة استقبالها على تكرار الزيارة حاملة مقالاتي معي، ثم بدأت السيدة الجليلة تكلفني بكتابة مقالها الافتتاحي، وتطور الأمر حتى صرت أتولى عبء المجلة كله نظير أربعة جنيهات شهرية. لقد أرضى ذلك التكليف غروري بالاضافة إلى زيادة مواردي، لكنني كنت أزيف ذاتي مقابل ذلك! كان علي أن أتقمص شخصية سيدة في سن جدتي بالاضافة إلى اختلافها عني في الطبقة والبيئة والتجربة، واستطعت بمشقة بالغة أن أسترد ذاتي، وتعلمت أن أحرص عليها! وفيما كنت أمارس هواية الكتابة، وأحمل عبء عملي في كلية البنات وفي مجلة «النهضة النسائية» تابعت تحصيل المواد المقررة

على طلاب البكالوريا، وتقدمت للامتحان من المنزل واجتزته في صيف ١٩٣٤.

على أبواب الجامعة

لم أجرؤ على الالتحاق بالجامعة كطالبة منتظمة، فقد كان هذا أكثر مما يمكن لأبي أن يحتمله، ولم تكن الجامعة تعرف نظام الانتساب آنذاك. وفي الوقت ذاته كنت أتعرض لجوانب خارجية مضادة كانت تشدني بعيدا عن الجامعة، في بيتنا كان والدي قد نفد صبره، وهو لايكف عن الكلام في موضوع خطبتي لشاب من أبناء زملائه المشايخ.

وفي مجال عملي، كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتي إلى سكرتيرة لكلية البنات، ورفعت راتبي، أما في مجال الصحافة فقد نشرت لي جريدة الأهرام، مقالاتي عن الريف المصري في صفحتها الأولى، وزادت على ذلك أن رحبت بي عضوا في أسرة التحرير.

ورغم ذلك كله ظل قلبي معلقا بالجامعة! لم أدر وقتها ما الذي يشدني إليها، أنا التي لم أضق أبدا بطريقي الأول ولم أنفر منه أو أزهد فيه، وإنما على العكس كنت أزهو على غيري بما حصلته فيه! لقد حصلت علوم المدارس، لكن ما من واحدة من طالبات المدارس تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه، التي درستها في بيتنا!

ما الذي دفعني إذن للوقوف بباب الجامعة لا أبغي عنه حولا! أعرف الآن بعد أن أصبحت تلك الأيام ماضيا بعيدا، أعرف أنني ما قطعت ذلك الشوط الطويل على دربي، إلا لكي ألقاه!

أعرف أن تلك القوة، التي لاتقاوم التي دفعتني للخروج عن الطريق الذي خطه لي والدي، إنما كانت تدفعني إلى حيث ألقاه على طريقه فيتوحد بعدها بنا الطريق وتصبح قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر! إنه استاذي وشيخي، ثم زوجي ووالد أبنائي الأستاذ الشيخ أمين الخولي.

قبل أن نلتقي

مضى عام كامل على حصولي على البكالوريا، قبل أن أقدم أوراقي للدراسة بالجامعة. وقد هون على أن علمت أن تقدير نسبة الحضور اللازمة للنجاح يقررها الأساتذة وليس الإدارة.

وفي عامي الأول بها عجزت الجامعة أن تشدني إليها! وما كان حصاد ذلك العام إلا عزلة نفسية وفكرية عنها.

تمنهجها المحدث تقدمه تلقينا آليا لاينفذ إلى ماوراء ظاهر السمع، وعلومها تعرضها إلقاء وترديدا بدون قدرة على التأثير في الوجدان. وتفضل أساتذتي الأجلاء ومنهم الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حسن إبراهيم حسن بإعفائي من حضور محاضراتهم، تقديرا لظروفي. وما إن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثانية، حتى تصورت أنه لم يبق لكي أصفي حسابي مع هذه الجامعة إلا أن أتعرف على ماعند الأستاذ «أمين الخولي» من علم يتحداني طلاب قسم اللغة العربية أن أستغني عن كلمة واحدة منه!

وبدأت عامي الدراسي الثاني وأنا أشد ما أكون ضيقا بالجامعة ونفورا

منها، لقد استأنفت تلك الجامعة الدراسة بعد مصرع زميلنا الشهيد عبدالحكيم الجراحي برصاص الانجليز عند كوبرى عباس، وكأن شيئا لم يكن. ولقد فشلت الجامعة فى الدفاع حتى عن الدرجات العلمية التى تمنحها! وتفصيل ذلك أن البرلمان الوفدى استصدر قانونا يهبط بالحد الأدنى لنسبة النجاح من ٦٠٪ إلى ٥٠٪، على أن يسرى القانون بأثر رجعى، وهكذا انتقل عدد غير قليل من الطلبة الوفديين من ركن الراسبين إلى جماعة الناجحين!

أما على المستوى الشخصى فقد كنت أبدأ عامى الدراسى الثانى وأنا محررة ثابتة فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام التى طبعت لى مجموعة مقالاتى المنشورة بها بين دفتى كتاب عنوانه «الريف المصرى» وكان الكتاب مدخلا لنيلى الجائزة الأولى للمباراة الرسمية لوزارة على ماهر فى موضوع «إصلاح الريف والنهوض بالفلاح» ثم ترتب على ذلك الفوز اختيارى عضوا فى المؤتمر الزراعى الأول مع نخبة من أقطاب الزراعيين. وعن طريق الأهرام أيضا تمت دعوتى لأحاضر على منبر قاعة ايوارت التذكارية. وكان عنوان المحاضرة «واجبنا بعد المعاهدة» والمقصود بالطبع معاهدة ١٩٣٦. وكان من مستمعاتى فى تلك القاعة السيدة هدى شعراوى راعية النهضة النسوية فى مصر والتى امتدت علاقتى بها فمنحتنى شعورا بالأمومة الفكرية والأدبية والاجتماعية وفتحت لى مجال إلقاء المحاضرات على منبر «دار الاتحاد النسائى».

ودور الأهرام فى تكوينى لم ينحصر فى دفعى إلى بؤرة الحياة العامة، وإنما امتد إلى إثراء زادى الثقافى والإنسانى ومساعدتى فى توسيع تلك الدائرة المغلقة التى كنت أتصور أن العالم كله ينطوى تحت نطاقها! لقد جالست فى مكتب رئيس تحرير الأهرام أساتذة كبارا مثل العقاد وطه حسين وزاملت شخصيات ثرية لها أسماء لامعة فى عالم الصحافة مثل كامل الشناوى، على أمين، يضاف إلى ذلك أن عملى الصحفى هيأ لى أن أقرأ عددا كبيرا من الكتب فى المجالات المختلفة ثم أقوم بتقديمها للقراء.

ثم التقينا

وفى ذكرى يوم مولدى، فى السادس من نوفمبر ١٩٣٦، وأنا على تلك الحال من الاعتزاز بنفسى، كان ميلادا لى جديدا، هو لقائى بالأستاذ الإمام أمين الخولى!

لقد جلست أصغى إلى الأستاذ وهو يلقى علينا مبادىء منهجه، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول، فما أزعجنى غير دقات ساعة الجامعة معلنة عن سير الزمن!

وما أشك اللحظة أن ذلك اللقاء بالأستاذ أمين الخولى كان بمثابة الخطوة الأولى على الطريق الذى قطعت العمر أبحث عنه. فأما قديمى الذى جئت الجامعة به فقد جلاه منهج الأستاذ فمنحه روح الحياة ونبض العصر، وأما المعارف التى قدمها لى التعليم المحدث فقد انتقلت من تلك الزاوية المعطلة من ذهنى إلى مجال الوعى والإدراك بتأثير شعورى بالحاجة إلى روافد منها سخية تخصب وجودى الفكرى.

وانتهت المرحلة الجامعية الأولى وبدأت مرحلة الدراسات العليا، فلم يرض لى استاذى أن أبدأ فى دراسة النص القرآنى حتى أتزود بما يكفى من علم فى دراسة النصوص الأدبية، وهكذا حصلت على رسالة الماجستير عن أبى العلاء المعرى ثم الدكتوراه عن تحقيق لرسالة الغفران لأبى العلاء وكانت الرسالتان على الدكتور طه حسين.

ثم انتهى بى التخصص إلى دراسة النص القرآنى على منهج استاذى، وظل الأستاذ الإمام لمدة ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق، ويحمينى من عثرة الرأى ومزالق التأويل وسطحية النظر، ويأخذنى بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لايجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية، دون استيعاب لنظائرها وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة، وسياقها العام فى القرآن كله، ورحل عنى استاذى فى عام ١٩٦٦، تاركا لى، ولغيرى من الباحثين، منهجه المحكم ومنطقه الدقيق اهتدى بهما فى دراساتى القرآنية وفى إشرافى على دراسات طلابى بجامعات القاهرة وعين شمس والرياض والقرويين، وأيضا فى كتاباتى بجريدة الأهرام، التى امتدت رحلتى معها منذ عام ١٩٣٥، وحتى اليوم.

ومن أستاذى أمين الخولى تعلمت، فيما تعلمت، ألا أتعجل الوصول بأبحاثى إلى غايتها، ولايزال ملء مسمعى قوله لى: «نحن نعيش العمر كله طلاب علم، كادحين إلى مانستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه، وجهد طالب العلم لايقاس بمدى ماقطعه من أشواط، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الممتد إلى غير نهاية ولامدى».


بنت الشاطىء فى ربوع الريف الجميل

● مصر فى عام ١٩٠٠ ●

● ذكر الدكتور عاصم الدسوقى فى مقاله بعنوان: مصر فى عام ١٩٠٠ التغيرات التى حدثت فى مصر فى ذلك العام الذى كان فاصلا بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين ولنا على ذلك الملاحظات التالية:

أولا: ذكر الدكتور أن طوائف الحرف قد ألغيت كتنظيمات مهنية فى عام ١٨٩١ وأنشطرت الطائفة الى شريحتين: شريحة تضم أصحاب المشروعات (النقابات المهنية) والأخرى تضم العمال (النقابات العمالية) وكانت الشريحة الأولى تمثل بذرة طبقة أصحاب رءوس الأموال التى نمت فيما بعد والتحق بها المغامرون من الأجانب الذين وفدوا مع مناخ (الانفتاح) وكونوا شركات صناعية وتجارية وزراعية وبنوكا للتمويل وتجميع المدخرات.. الخ.

ونحن نتفق معه فى أن عام ١٨٩١ شهد إلغاء طوائف الحرف كتنظيمات مهنية بصدور قانون ضريبة الباطنطا الذى سمح بحرية العمل ومزاولة الحرف بمصر حين أباح «لكل شخص قاطن بالديار المصرية أن يمارس أى صنعة أو حرفة أو تجارة أو فن» بعد أن كان يشترط لمزاولة أى صنعة، أو حرفة موافقة الطائفة المختصة، فكان هذا القانون شهادة وفاة لنظام طوائف الحرف بعد أن فقد أهم مقومات وجوده.

أما وجه الاختلاف مع الدكتور عاصم الدسوقى فهى حول النتائج التى توصل إليها سيادته وهى كالتالى:

١ - انقسام الطائفة الى شريحتين اجتماعيتين هما أصحاب المشروعات (النقابات المهنية) وشريحة العمال (النقابات العمالية) وأن الشريحة الأولى (أصحاب العمل) أو حسب تعبير سيادته «أصحاب المشروعات» كانت تمثل بذرة طبقة رءوس الأموال التى نمت فيما بعد.

٢ - إن أصحاب العمل «أصحاب المشروعات» كونوا مايعرف باسم النقابات المهنية فيما بعد.

وبالنسبة للنتيجة الأولى وهى انقسام الطائفة الى شريحتين:

شريحة أصحاب المشروعات وشريحة العمال فنحن نتفق معه فى أن الطائفة انقسمت الى شريحتين ونختلف فى توصيف الشريحة الأولى، شريحة أصحاب العمل الذين اسماهم

الدكتور عاصم «أصحاب المشروعات» ذلك إنه لما كانت الطائفة تضم أصحاب العمل والعمال معا، فإنه بالغاء طوائف الحرف نتيجة صدور قانون الباطنطا فى سنة ١٨٩١ انفكت الرابطة بين أصحاب العمل والعمال وانقسمت الطائفة الى شريحتين اجتماعيتين هما: شريحة أصحاب العمل - لا أصحاب المشروعات - وشريحة العمال.

فهناك اختلاف كبير بين شريحة أصحاب العمل الذين خرجوا من منظومة طوائف الحرف والذين هم نتاج العصر الاقطاعي بكل قيمه وتقاليده، وشريحة أصحاب المشروعات «الرأسمالية» الذين هم نتاج المجتمع الرأسمالى بكل قيمه وتقاليده، هناك فرق بين صاحب الورشة وصاحب المصنع «المشروع» أو المساهم فى الشركات المساهمة.

ذلك أن الصناعة الوطنية الحديثة قد تأخر ظهورها فى مصر إلى قيام الحرب العالمية الأولى، فى الوقت الذى كانت فيه غالبية المصانع مملوكة للأجانب، ثم أخذت مشاركة المصريين فى الصناعة تزداد فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، بعد انشاء بنك مصر فى ١٩٢٠ والذى قام بإنشاء العديد من الصناعات المصرية وخاصة فى مجال الغزل والنسيج.

على أن هذه الصناعة الوطنية الحديثة لم تقم بالطبع على أيدى أصحاب الورش «أصحاب المشروعات» حسب قول الدكتور عاصم الدسوقى، ذلك أن الحرفيين بصفة عامة بمن فيهم أصحاب العمل والعمال كانوا قد تلقوا ضربات مؤلمة على يد سلطات الاحتلال البريطانى الذى أثقل كاهلهم بشتى أنواع الضرائب والقوانين الجائرة، الأمر الذى أدى إلى إفلاس الكثيرين منهم، وقد اعترف كرومر بنتيجة سياسته هذه فى تقريره لسنة ١٨٩٨ حين قال «من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التى كانت منذ ١٥ سنة يرى فرقا ضخما فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وصباغين وخيامين وصانعى أحذية، قد أصبحت مزدحمة بالمقاهى والدكاكين المليئة بالبضائع الاوروبية أما الصانع المصرى فقد تضاءل شأنه وانحطت كفاءته على مر الزمن وفسد لديه الذوق الفنى الذى طالما أخرج فى العصر القديم المعجزات فى الصناعة.

وهكذا لم تتح الفرصة لأصحاب العمل «الورش» بعد انفكاك نظام طوائف الحرف لتكوين الثروة التى تؤهلهم لان يكونوا أصحاب المشروعات،. وقد جاءت المبادرة فى هذا المجال من جانب كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين كان لديهم فرصة التراكم الرأسمالى من خلال ملكياتهم الزراعية الكبيرة، وهو ما أقر به الدكتور عاصم فى موضع لايبعد كثيرا عن مقولته السابقة حين قال إن طبقة أصحاب الاموال قد ضمت نسبة كبيرة من كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين بدأوا فى نقل جزء من ريع الأرض الى مجال الاستثمارات التجارية والصناعية.

أنت والعلال

– وبالنسبة للنتيجة الثانية، والتى ترتبت على الغاء طوائف الحرف – فى رأى الدكتور عاصم، وهى أن أصحاب العمل بعد تحلل نظام طوائف الحرف الذى اعتبرهم الدكتور عاصم الدسوقى «أصحاب المشاريع» قد كونوا ما يعرف بالنقابات المهنية. فنحن لانتفق مع ما انتهى اليه سيادته بهذا الخصوص ذلك أن النقابات المهنية لم تخرج من رحم طوائف الحرف، إنما هى نتاج التعليم العصرى الذى أدخله محمد على للبلاد وواصل مسيرته الخديو اسماعيل.

فالنقابات المهنية تعنى النقابات التى تضم بين جنباتها المثقفين والفنيين مثل نقابة المحامين، التى كانت أول نقابة مهنية تؤسس فى مصر حيث تأسست سنة ١٩١٢، ومثل نقابة الصحفيين ونقابة المهندسين ونقابة الأطباء.. إلخ، ومن العجيب أن الدكتور عاصم قد أشار الى طبيعة تكوين هذه النقابات المهنية فى موضع آخر من الدراسة بقوله : «كما بدت الطبقة الوسطى تتكون بفعل سياسة التعليم المدنى الحديث وتوظيف المتعلمين وأصبحت تضم المهنيين من المتعلمين وكبار الموظفين».

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن أصحاب المشاريع لايكونون النقابات المهنية التى تكون عادة ضد مصالحهم، وإنما يكونون مايعرف باسم جماعات المصالح وأوضح مثال على ذلك، تلك الجماعات الجديدة التى ظهرت فى مصر منذ النصف الثانى من السبعينيات وأوائل الثمانينات مع حركة الانفتاح الاقتصادى، مثل جمعية رجال الأعمال المصريين واللجنة الاقتصادية لرجال الأعمال بالاسكندرية واتحاد البنوك والمجلس المصرى الامريكى لرجال الأعمال وغرفة التجارة الأمريكية.

ثانيا: ذكر الدكتور عاصم الدسوقى أن من بين الصحف التى كانت موجودة فى مصر عام ١٩٠٠ صحيفة أبو نضارة.

والواقع أن صحيفة أبونضارة لصاحبها يعقوب صنوع اليهودى المصرى، والتى أنشأها سنة ١٨٧٧ كانت أول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر، انتقد فيها صاحبها «يعقوب صنوع» الخديو اسماعيل الذى كان يلقبه بشيخ الحارة، ولذا فقد نفاه اسماعيل خارج البلاد فغادر الاسكندرية فى ٢٢ يونية سنة ١٨٧٨ وقصد باريس التى استقر بها الى أن توفى سنة ١٩١٢.

وفى بارس واصل يعقوب صنوع اصدار جريدته باسماء مختلفة فهى أبو نضارة زرقاء وأبوصفارة والحاوى وأبوزمارة. واستمر يعقوب صنوع فى منفاه يهاجم الخديو اسماعيل

منتقدا أعماله، وكانت صحيفته التى يرسلها لمصر تلقى رواجا عظيما رغم مصادرة الحكومة لبعض أعدادها الأمر الذى اضطره الى تغيير اسم صحيفته أكثر من مرة.

خلاصة القول أن جريدة أبونضارة لم تكن من الصحف التى تصدر فى مصر سنة ١٩٠٠، وإن كانت ترسل لمصر باسماء مختلفة.

د. عبد الله عزباوى

صناع القرن العشرين

لى تعقيب على الموضوع الذى تفضلتم بنشره ضمن عدد يناير ١٩٩٦ - موضوع صناع القرن العشرين، مصر: سعد أم عبدالناصر.. فمع عظيم تقديرنا لرؤية كاتبه د. يونان لبيب رزق.. الا ان الكاتب تناول هذا الموضوع من زاوية واحدة هى رؤية مقارنة للزعماء السياسيين - وهى لاشك زاوية صغيرة محدودة لتغطية هذا الموضوع الذى نرى أن تتعدد الرؤى والزوايا التى تتناوله.. فلايمكن ان تغفل دور الفنون والاداب والفكر وروادها فى بناء وصناعة شخصية الإنسان المصرى والإنسان عموماً.

ففى مجال الاداب والعلوم الانسانية لا يمكن أن ننكر الدور الرئيسى لرواد ساهموا فى تكوين وارساء الشخصية المصرية ونذكر منهم الاستاذ عباس العقاد، الدكتور طه حسين، الاستاذ نجيب محفوظ، الاستاذ شفيق غربال، الاستاذ عبدالرحيم الرافعى، امير الشعراء أحمد شوقى، المثال محمود مختار، الفنان التشكيلى صلاح طاهر.

بل وفى مجال فنون الغناء والمسرح والتمثيل يجب ألا ننسى رواد هذه المجالات مثل: سيد درويش، الموسيقار محمد عبدالوهاب، أم كلثوم، عزيز عيد، جورج أبيض، الريحانى، يوسف وهبى.

لقد ذكرنا اسماء هؤلاء الرواد على سبيل المثال - طبعاً - لا الحصر.. والحق أننا يمكن أن نطلق على أى منهم رجل لكل العصور.

ومنعاً من الإطالة والإسهاب يمكننا القول انه كان يتحتم على مجلتكم العزيزة أن تتفضل وتساعدنا على القاء المزيد من الأضواء على كل هذه الزوايا - والزوايا الاخرى ليكون الموضوع أكثر شمولاً.. أرجو أن اكون قد أنصفت فى رؤيتى هذه المتواضعة، كما أرجو ان تكون فاتحة لباب يفضى الى دراسات اكثر واكثر فى اعدادكم القادمة.

محمد أمين محمد
أوسيم - جـيزة

الهـلال : الموضوعات التى تتناول نشرها بعنوان «صناع القرن العشرين» فى العالم كله وليس فى مصر وحدها.. وبالنسبة للشخصيات التى أشرت إليها فى رسالتك، فقد كتبنا عنها مراراً فى الهلال، ولم يحدث أن أغفلناها، وعلى سبيل المثال أفردنا لها أعدادا خاصة كما حدث بالنسبة لأحمد شوقى وطه حسين ونجيب محفوظ.

أنت والهلال

● كاتب من السودان ●

● هذه رسالة أولى منى لكم ، قارىء من السودان وفى الحقيقة لا أخفى عليكم عدم مداومتى على قراءة «الهلال» وذلك بسبب أن الأعداد الجديدة من المجلة لاتوجد بالسوق عندنا وفى بعض الحالات النادرة تصل الاعداد الجديدة الى المكتبات العامة ولكن بسعر يفوق السعر المكتوب على غلاف المجلة بأكثر من ستة أضعاف، ولكن ماحدث هو أن الاعداد الكبيرة من «الهلال» التى يفترشها الباعة أمام الساحات العامة والتى تعود لعشرات السنين للوراء أثارت دهشتى، الا أن هذه الدهشة زالت عندما وقع بصرى فجأة على عدد سبتمبر ١٩٩٢ م الذى وجدته مصادفة بالمكتبة العامة فى ميعاد صدوره وكان هذا العدد يحوى ندوة بمناسبة مئوية الهلال حينها ايقنت تماما ماذا يعنى أن تزدحم المكتبات الشعبية بمئات الاعداد القديمة جدا من مجلة الهلال والتى تمثل أجمل توثيق للثقافة العربية فى فترة حرجة من تاريخها وفى وقت كانت فيه كل الأمة العربية تعانى من الاستعمار بكل اشكاله القبيحة ، واعتذر لكم ان هذه الرسالة قد تأخرت كثيرا عن وقتها وذلك لاسباب خاصة بى، ثم اكتشفت ايضا ان المجلة تصدر ايضا سلسلة من الكتب الثقافية وسلسلة من الروايات العربية والمترجمة، ولا اخفى اعجابى بصمود المجلة طوال هذه الفترة مع قدرتها على ابداع أشكال مختلفة تصل عبرها للقارىء العربى بكل الاصرار رغما عن كل الظروف الصعبة التى يمر بها المثقف العربى والمواطن العربى بصورة تكاد تكون طبق الأصل فى أكثرية البلدان العربية. بعد كل هذه المقدمة اود ان أدلف مباشرة الى موضوعى، وهو تساؤلى عن امكانية نظر مجلتكم فى بعض كتاباتى الروائية ومحاولة نشرها عبر سلسلة «روايات الهلال» اذا وافقت تلك الكتابات الشروط الفنية والتقنية التى تتيح لها النشر.. وفى الحقيقة هذه هى المرة الأولى التى أحاول ان اعرض فيها على جهة ما محاولة نشر رواياتى مع ان لى ست روايات جاهزة للنشر أصغرها قصة تقع فى ثمانٍ وسبعين صفحة فولسكاب وبدأت الكتابة منذ عام ١٩٩٠ وحتى الآن لم أجد طريقة ماتتيح لى اختيار ما اكتب. وعندما اخترت «الهلال» فعلت هذا لأن الهلال مجلة شعبية اذا صح التعبير تستطيع أن تغامر بانتاج الأبناء الشباب وتستطيع ان تنتج الروايات الجديدة فى طبعات شعبية قليلة التكلفة.

الصادق إبراهيم محمد النيلى - القسم الجنوبى - أم درمان - السودان

• كوميديا علي باكثير •

• في عدد ديسمبر ١٩٩٥ من الهلال قرأت مقالا للأستاذ مهدي الحسيني بعنوان «الكوميديا المصرية من المغناطيس الى الزعيم» طاف فيه الكاتب حول معظم الأعمال المسرحية على امتداد مساحة زمنية تزيد على أربعين عاما لم يترك شاردة ولا واردة عن المسرح الساخر الا وتناولها بالحديث، بداية من نعمان عاشور وحتى بهجت قمر مرورا بتوفيق الحكيم والفريد فرج وسعد الدين وهبة ويوسف ادريس وعلى سالم وغيرهم، والسؤال الذي أوجهه للكاتب هو: اين أعمال الأستاذ على أحمد باكثير من بين هؤلاء فقد كتب حوالي ستين مسرحية تدور موضوعاتها حول محور واحد هو السخرية من بعض الأوضاع الاجتماعية والانظمة السياسية القائمة خلال عقدى الخمسينات والستينات وقد لاقت نجاحا عند عروض بعضها على المسرح مثل جلفدان هانم والدنيا فوضى والدكتور حازم وسر شهرزاد وسر الحاكم بأمر الله وحبل الغسيل وغيرها. فهل بعد كل ذلك يسقط الحديث عن مسرح باكثير.

دكتور محمد علي ريان
إدارة المطرية التعليمية - القاهرة

• انتحال القصائد •

• قرأت مانشر من قصيدتى «عربى مذهول» فى عدد يناير ١٩٩٦ م وقد نسبت القصيدة لعبد الله حبورى - اليمن وربما أن هذا اللبس حدث لأنه لم تصل البكم من القصيدة سوى صفحة واحدة والقصيدة تتكون أصلا من واحد وثلاثين بيتا. وقد كتبتها بصفحتين وأرسلتها اليكم كما هى. ومن عادتى أن أذيل اعمالى الشعرية بكلمات قليلة لاننى امنت أن «خير الكلام ما قل ودل» ومن عادتى ايضا أن اكتب اسمى على آخر القصيدة على أية حال هذه ليست أول مرة الهلال ان تنسب بعض الأعمال لغير أهلها فقد حدث ذلك مرارا ومن أشهرها إنها نسبت أبيات من شعر «ابن الجبل» لإحدى الشاعرات ولكنها سرعان ما أزالت اللبس.

درهم جباري - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

• نداء السحور •

نعتاد شيئا ما: هطولا ثابتا
على مسام الذاكرة
من ذلك السابح فى جدائل
يطبع كفيه بليل طازج يجف فى شمس الغد..
النهار لايعتاد ايقاع خطاه العابرة
يمشي ابتهالات تفض غيمة النوم
وددت لو أراه، كلما سريت حسى فى
خيالاتى..
تشظى فى ارتكاز الصمت مابين الجهات

كيف يسبح النداء فى رواقد الصيام ناشرا
أمواجه الخضراء فى حقل الأنام،
بينما لا استطيع ؟
نجمة له السطوع .. بينما نجمى ينوء بالظلام
الليل بيننا، يفرقنا اجتماع،
اذ يجمعنا فراق،
وانطلاق الحلم يتبعه انقطاع عندما يلج السنا!

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

● المهرجانات الدولية ●

الذين يتابعون المهرجانات الدولية للمسرح يرون مايدور فيها من منافسات ومساجلات حول مسألة الجوائز وقيمتها المادية ويكثر الكلام بين ممثلين وكتاب نصوص ومخرجين وتقنيين ونقاد ولقد أصبحت المهرجانات المسرحية مقترنة اساسا بقيمة الجوائز التى سوف يحصل عليها المخرج أو الممثل أو الفرقة أو البلد المشارك.

أقول هذا الكلام بعدما قرأت ما كتبه د. مجدي يوسف فى الهلال ديسمبر ١٩٩٥ تحت عنوان رسالة قرطاج مهرجان بلا جوائز وختم مقاله بهكذا انفض «المولد بلا حمص» المهرجانات الدولية للمسرح سيدى هى فرصة نادرة تتيح لنا أن نرى ولو من خلال عينات احيانا مايقدم على الساحة العربية والعالمية من مسرحيات والمهرجانات الثقافية بصفة عامة هى مكان اللقاء والحوار وابداء الرأى، والجوائز لاتعنى أى شىء. وإن دور المهرجانات المسرحية هو العمل على أن تتقارب الشعوب بدلا من التمزق العربى الذى نعيش فى ظله فلماذا نزيد تمزقنا بتمسكنا بالجوائز

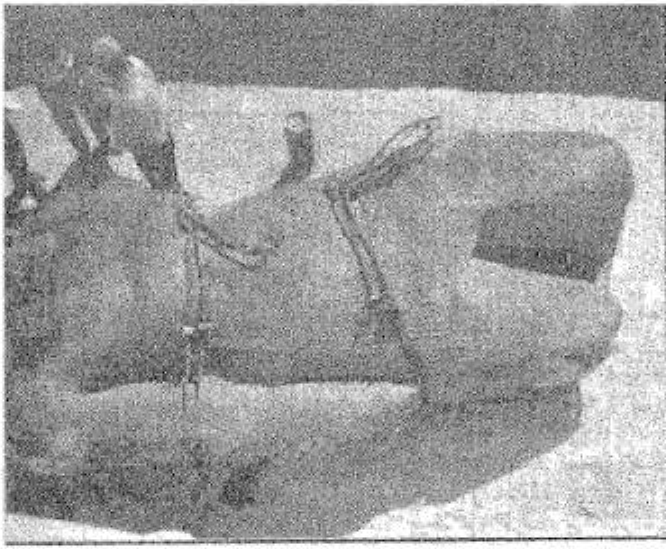
حبيب جميل الحلفاوي
٨٠١٠ منزل بوزلفة - الجمهورية التونسية

● كشف أثرى جديد ●

● تاريخ مصر القديم من أعماق البحر ●

● فى قاع مياه البحر الأبيض، المتاخمة لحصن قايتباى التاريخى على الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة فاروس العجيبة التى لهج بذكرها منذ قرون غابرة، هوميروس أبو الآداب فى الاوديسة ترقد الآلاف من كتل الأحجار الأثرية المثيرة من تماثيل لملوك وأرباب قدامى وبقايا مسلات وتماثيل لأبى الهول وأعمدة وتيجان وقواعد بل واعتاب هائلة من الجرانيت يعتقد أنها بقايا فنار اسكندرية القديم الذى قذفت الزلازل ببقاياه ، لاعماق اليم منذ القرن الرابع عشر. وللمرة الأولى فى تاريخ العمل الأثرى تحت الماء بالاسكندرية، تتمكن بعثة مصرية، فرنسية من المسح العلمى الأثرى تحت الاعماق وتصوير تلالا هائلة من الاحجار أسفل الماء تخلفت عن أعمال القاء مستمرة فى عصور مختلفة لابنية المدينة العظيمة التى ترجع للعصرين اليونانى - الرومانى.

ولتقوم البعثة فى النهاية باعمال الانتشال الفعلى فى خلال شهر اكتوبر الماضى لاربع وثلاثين قطعة أثرية تمثل في حد ذاتها متحفا بحريا صغيرا لاثار ملوك مصر القديمة الغارقة في اعماق الماء الواقع اسفل جزيرة فاروس ومن بين ما انتشل تمثال ضخم يعتقد انه لاحد ملوك البطالمة الاوائل وهو من الجرانيت الوردى يبلغ ارتفاعه ٤.٥ م ووزنه ١٣ طنا يحمل رقم ١٠٠١ ومجموعة من التماثيل لأبى



الهول أحدهم يحمل نقوشا ل رع – مس – سو (حوالي ١٣٠١ ق . م ١٢٣٥ ق . م) ويبلغ الطول ٤٥ر٢ م والوزن أربع أطنان ورأس تمثال لأبي الهول لبسماتيك من الحجر الكلسى يبلغ الوزن نصف طن وكذا بدن تمثال لبسماتيك من نفس المادة الطول ٢,٩٠م والوزن ٥ أطنان ورأس تمثال ضخم الارتفاع ٩٠ سم، الوزن ١,٥٤ طن كذلك تاج هائل لايزيس الارتفاع ١,٨٢ م والوزن ٥ أطنان كذلك تم انتشال جزء من مسلة لسيتي الأول (١٣١٢ ق.م – ١٣٠٠ ق.م) من الجرانيت الوردى يبلغ الارتفاع ٧٣ م والوزن ٢,٢٣ طن كذلك عثر على بقايا ثلاثة أجزاء من مسلة لرعمسيس الثانى من الحجر الرملى وتمثال لابى الهول لسنوسرت الثالث من الحجر الرملى الطول ١,٥٣ والوزن واحد ونصف طن غير انه من اهم ما انتشل كتلتين هائلتين مستطيلتين من الجرانيت لفتا النظر بهيئتهما من حيث خطوطها المعمارية التجريدية الرشيقة بالرغم من ضخامة الكتلتين والكتلة الأولى يبلغ طولها ٦,٤٨ م والوزن ٣٠,٣٦ طن والكتلة الثانية الطول ٥,١٨ م والوزن ٤٥,٤٧ طن ويعتقد الاثرى الفرنسي الدكتور جان – ايف امبرير طبقا لما قام به من مسح ودراسات تحت الماء بانهما من بقايا فنار اسكندرية القديم الذى تم انشاؤه فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٢ ق.م – ٢٤٦ ق.م) وكذا شذرة رخامية تحمل بقايا نقشا اغريقيا يبلغ ارتفاع الحرف ٤٠ سم وتمثل هذه التلال من الأحجار الراكدة تحت الماء مرجعا ذا خطر وطرافة لدراسة معمار المدينة القديم وتاريخها فى آن واحد الذى اختفى من فوق اليابسة خلال العديد من الاحداث الطبيعية والتاريخية التى ألمت بها ومن بينها سلسلة الزلازل التى اجتاحت المدينة خلال الفترة من نهاية القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الرابع عشر الميلادى.

ثانيا: تخريب معبد القيصريون ونهب محتوياته فى عام ٣٣٦م.

ثالثا: تخريب معبد السرابيوم فى نهاية القرن الرابع الميلادى.

رابعا: قيام حاكم الاسكندرية (قراجا) بالقاء مجموعة من الاعمدة والآثار من معبد السرابيوم القديم بمنطقة الميناء الشرقي وخاصة موقع الإنتشال لصد جحافل الصليبيين عن مصر ويشير العثور على تماثيل لأبى الهول ومسلات تحمل طغراء كل من سنوسرت الثالث (١٨٧٧ ق.م – ١٣٤٣ ق.م) وكل من سيتى الأول ورعمسيس الثاني وبسماتيك الى علاقة هذه الآثار بمعبد السرابيوم لوجود آثار لهؤلاء بهذا المعبد من بين آثارهم التى عثر عليها بانحاء المدينة المختلفة وقد تم نقل تلك القطع لاحواض الترميم الى منطقة كوم الدكة الاثرية ويعد هذا العمل الاثرى من أهم الاعمال التى اجريت فى انتشال الآثار من الاعماق منذ اخراج تمثال ايزيس – فاريا من تحت الماء منذ ماينيف عن ثلاثة عقود مضت ويمثل الاتجاه الى هذا المجال مصدرا جديدا من مصادر الدراسات الأثرية والتاريخية لدراسة تاريخ الاسكندرية القديمة بصفة خاصة والحضارة المصرية التى لاينضب معينها.

أحمد عبدالفتاح – مدير عام آثار غرب الدلتا

الكلمة الأخيرة

رمضان يحب السهر !

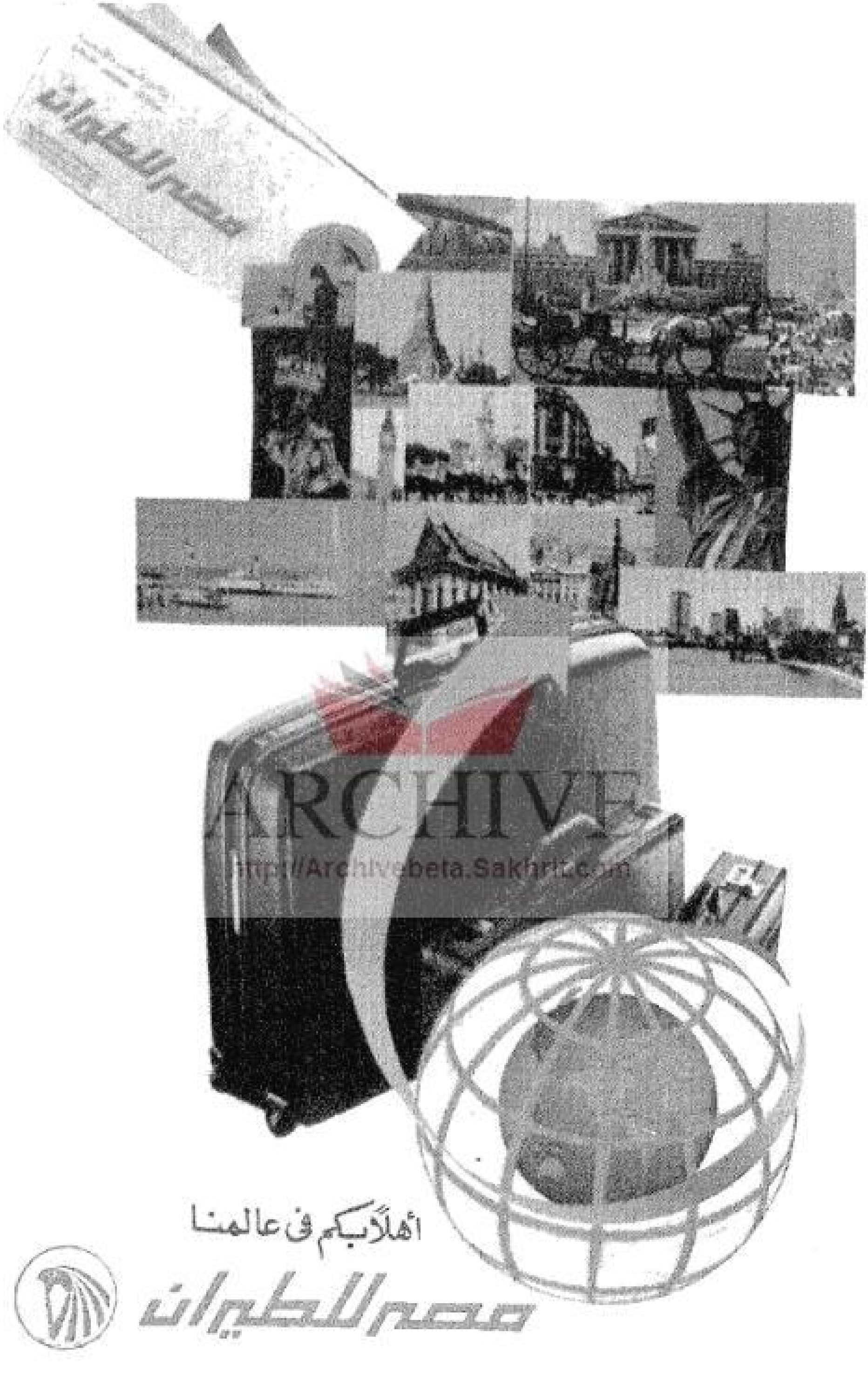


بقلم : صافى ناز كاظم

● لا أذكر بالتحديد متى سمعت هذا الكليشيه الذى دأب الناس علي ترديده في ابتسامة ونظرة حنين عميق : «رمضان يحب السهر». المهم أن أجهزة الإعلام فهمت هذه الجملة التقريرية بشكل أصبحت غرابته تزداد عاما وراء العام كلما هل هلال الشهر الكريم : شهر ليلة القدر التى أنزل الله سبحانه وتعالى فيها القرآن علي رسوله ونبيه محمد بن عبد الله .

فهذا «السهر» الذى يحبه شهر رمضان فعلا يفهمه العابدون الصالحون على انه «سهر» لصلاة القيام والتهجد وقراءة القرآن ، والتسبيح بعد السحور حتي صلاة الفجر ، أسوة بما كان يفعله رسولنا المقدى وتنفيذاً لوصاياه، فرمضان شهر عبادة ، بكل أشكال هذه العبادة من صيام عن الأكل والشرب والرذائل وكل أشكال الأذى . واذا كان نهار رمضان جهادا للنفس والشهوات ، فليله إعداد لهذا الجهاد النهارى ، على المستوى المادى من طعام وشراب وعلي المستوى الروحى والمعنوى من تركيز في فهم وقراءة القرآن وتطهير واستغفار وتوبة بالصلاة والخشوع في سكينة وهدوء.

لكننا عندما نتابع مناقشات أجهزة الإعلام في إعداد برامجها للشهر « الذى يحب السهر» ، نجد كلاما كثيرا حول المائدة والتسلية والترفيه. ألوان وأصناف للطعام حتى ليخيل اليك أنه شهر لاينشغل فيه بال الصائم إلا : بماذا يأكل. كأن ما يأكله طيلة العام «كوم» وما يأكله فى رمضان «كوم» آخر. واذا بشهر الزهد والتقشف يتحول الي شهر الشراهة والتخمة. بيد أن النفور الذى يتولد من هذا «العك» الطويل عن طعام ومائدة رمضان، يتضاءل تماما أمام التقزز الذى يحسه الإنسان أمام مفردات بند التسلية «الرمضانية» والترفيه الذى يستعدون له لشغل لياليه المباركة. لاتنظر الى المسلسلات «الدينية» فما هي إلا ورقة توت لا تكاد تخفي بقية العورات الجارحة التى تحاصرك منذ لحظة انطلاق مدفع الإفطار حتى مدفع السحور. فوازير ، فوازير، فوازير من كل حدب وصوب، من كل قنوات التليفزيون وكل محطات الاذاعة حتى ليحسبها السائح أو الزائر أو الغريب بين ظهرانينا ركنا أساسيا في فرائضنا ، أو هي من صميم فنوننا الاسلامية الضاربة في أعماق حضارة الخمسة عشر قرنا. لقد كان شهر رمضان في زمن مضى موسما ينتعش فيه قراء القرآن والمنشدون للتواشيح والابتهالات، غير أن ذلك زمان قد ولي فبفضل «الرؤية المعاصرة» التى ابتكرتها أجهزة الاعلام في تناولها لشهر رمضان أصبح الشهر الفضيل موسما للراقصين والراقصات والمتشخلعين والمتشخلعات والممثلين والممثلات ، الجادين منهم والبهلوانات فهم - فى الاستراحة من الفوازير - في البرامج تلو البرامج متحدثون ومتحدثات ومتفلسفون ومتفلسفات وهذا لايمنع أنهم ، أيضا ، مرحون ومرحات الى اقصى حد من ثقل الظل والسماجة في برامج للألعاب والمزاح والهزار تم اعدادها خصيصا لسهرات رمضان وفق مفهوم هذه الأجهزة الإعلامية لمدلول وتفسير مقولة : «رمضان يحب السهر» نجانا الله وإياكم منها وكل عام ونحن وأنتم بخير مادمنا أخذنا في الحسبان البعد كل البعد عن أجهزة اللهو ولغو الحديث والحمد لله رب العالمين.


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



الهلا

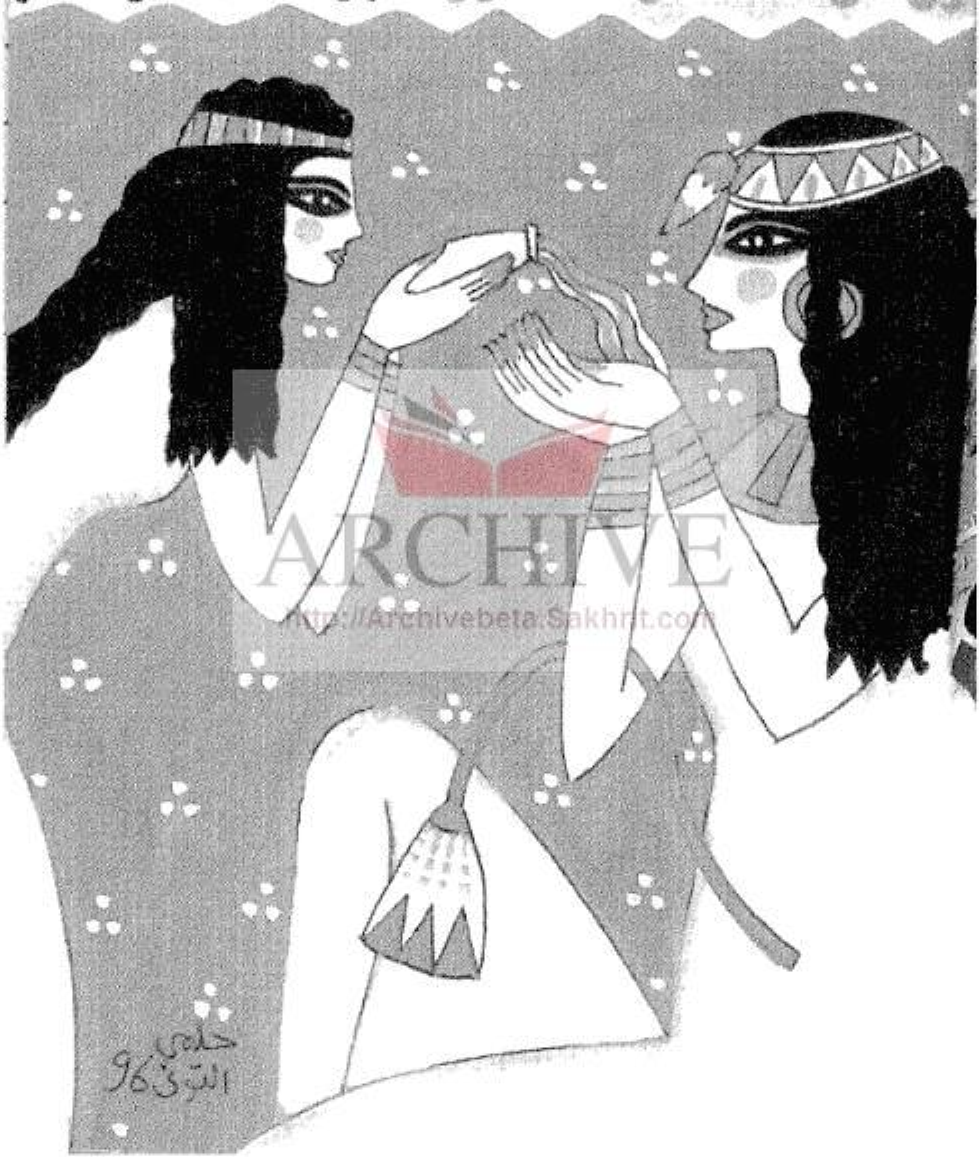
عشوائية الجوائز !

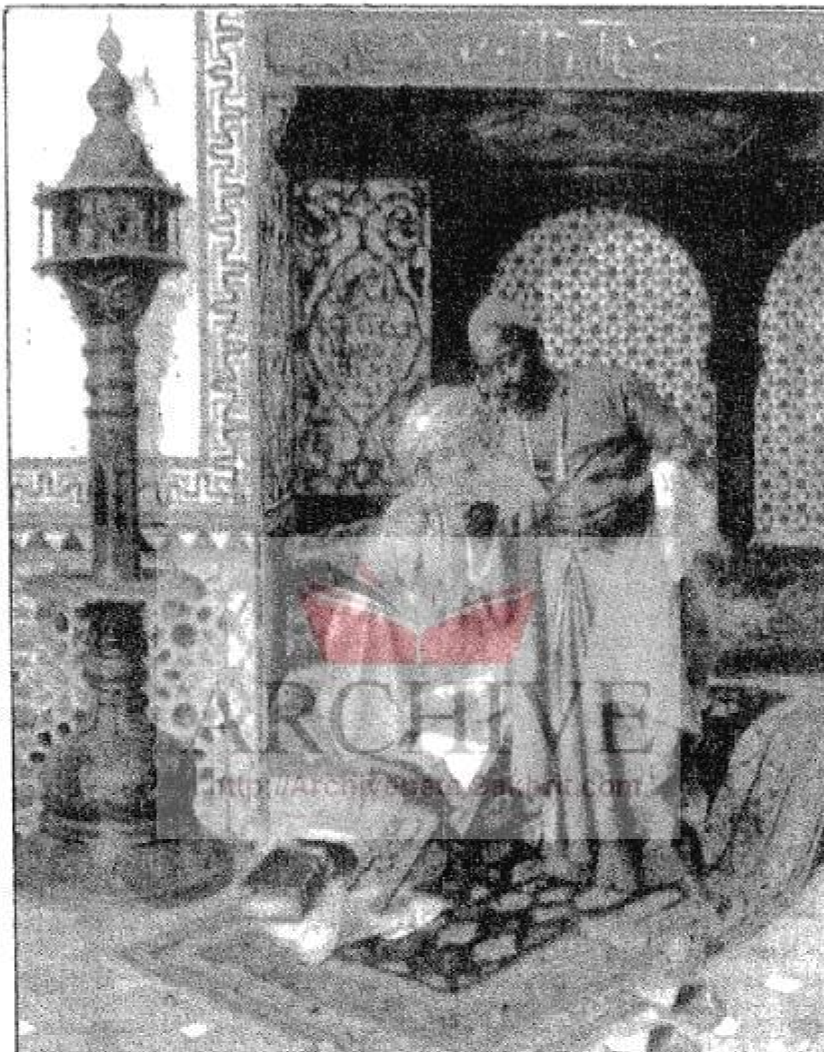
جزء خاص

لمصريون

ول من اكتشفوا العطور

مارس ١٩٩٦ ● الثمن ١٥٠ قر





لوحة «الرسالة»

للفنان رودوليف إرنست ـ القرن التاسع عشر

متحف داهش ـ نيويورك

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٧ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ١.٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٣٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٢ – الصفاة – الكويت – ت/ ٤٧٤١١٦٤13079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

فكر وثقافة

شعر وقصة

هذا العدد



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

عزيزى القارىء

عشوائية الجوائز !

● تعتبر الجوائز الأدبية والعلمية أداة مهمة لتقدير المواهب والاحتفاء بالأعمال الكبيرة، مما انتجته قريحة المفكرين والعلماء والأدباء. وتلعب هذه الجوائز دورا مهما فى الحياة الفكرية والعلمية. فالجوائز تقدير لجهد قائم، وتشجيع لجهد قادم

فقد كانت مصر أول بلد عربى عرف الجوائز الأدبية والعلمية ويكاد لا توجد شخصية أدبية أو علمية مهمة الا واحتضنها المجتمع وقدم لها كل صور التكريم والتقدير.

ولعبت الجوائز دورا مهما فى حياة أديبنا الكبير نجيب محفوظ، عندما حصل فى بداية حياته على جائزة الرواية من المجمع اللغوي، ثم توج أعماله التى غزلها بعبقريته بالحصول على جائزة نوبل. وفتح الأبواب واسعة ليتعرف العالم على الأدب العربي، وليس غريبا إعلانه عن جائزة يقدمها تحمل اسمه للمبدعين الشبان.

وترتفع قيمة الجائزة وتزداد كلما تبنتها مؤسسات راسخة تقوم على قواعد محددة، وبشروط ثابتة، تقوم كل خطوات تقديمها على أساس من الشفافية والوضوح.

وتبارى العديد من الافراد والمؤسسات فى مصر والبلاد العربية على تقديم الجوائز للبارزين كأداة مهمة فى اثراء الحياة الفكرية والعلمية وهو اتجاه ينبغى تشجيعه والاحتفاء به على أن تراعى القواعد والشروط التى تضمن وصول هذه الجوائز الى مستحقيها والا فقدت مغزاها وجاءت بنتائج سلبية..

وعلى أية حال .. فإن الذى حدث فى سراديب اللجان وفى جنح الظلام فى جوائز معرض الكتاب، يدعو الى الاستنكار، فلم يعرف الرأى العام ، القواعد التى منحت على أساسها الجوائز ، ولا الأسس التى تم على أساسها الاختيار.

وهل معقول أن يحصل سبعة من أعضاء اللجنة الاستشارية على جوائز؟ .. وأن يفوز أحد الكتب بالجائزة قبل أن يصدر ويخرج من المطبعة؟!

عزيزى القارىء

وهو أسلوب يفقد الجوائز معناها، ويقلل من قيمة الأعمال التى حصلت عليها بجدارة، ويفقد معرض الكتاب مصداقيته .

لقد حان الوقت لكى تنتهى هذه الاساليب العشوائية التي غابت فيها المعايير. فلم يعد لائقا أن تعطى الوزارة الجائزة لمعالى الوزير! بعد أن تعالت صيحات الاحتجاج عندما منح المجلس الاعلى للثقافة فى إحدى دوراته السابقة الجائزة لرئيس الحكومة السابق ورئيس مجلس الشعب .. وقد طالبنا أن تكون جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية من حق المبدعين لا من نصيب الموظفين . هذا بعد أن تحولت الكثير من الجوائز الى تقدير أصحاب الجاه وذوى الصوت المسموع!

ويقدم الهلال فى هذا العدد جزءا خاصا عن الجوائز الأدبية، يساهم فيه كبار الكتاب، على أمل أن يدرك الجميع دورها ومكانتها . ونلح فى مطلب قديم أن ترتفع قيمة جوائز الدولة لكى تتلاءم مع قدرها ، وأن تتلاءم مع الارتفاعات الكبيرة فى مستوى المعيشة.

وقد تقدمنا خلال الاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال باقتراح إقامة مؤسسة ثقافية تعطى جائزة ضخمة لأهم عمل فكرى كل عام وتوقف المشروع عندما أعلن وزير الثقافة تبنيه المشروع واعداده تشريعا لمنح جائزة كبيرة هى جائزة النيل ورفع قيمة جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية.

ونكرر .. إن المطلوب هو ثقافة عربية تخرج من القاهرة فهذا وحده الذى يصنع المكانة الحقيقية لمصر، وقد ارتفع اسم مصر مع ارتفاع اسماء شعرائها وكتابها وفنانيها، وهذه الاسماء العظيمة هى التى تتخطى حدود مصر الى كل أرجاء العالم.

والنهوض بالجوائز التى أصبحت أشبه بالمسابقات المدرسية، ورعاية الأقلام كبيرها وصغيرها هى خطوات على هذا الطريق.

المحــرر

الأدب والعلم والثقافة الثالثة

بقلم: د . أحمد مستجير

لم يكن تشارلس بيرسي سنو (١٩٠٥ - ١٩٨٠) يتصور أن محاضرته التي ألقاها بجامعة كيمبريدج في السابع من مايو ١٩٥٩ ستثير كل هذه الزوابع ،. وأن يكون لها كل هذا الصدي في العالم بأسره كان عنوان المحاضرة هو «الثقافتان والثورة العلمية»، وقد طبعت في كتاب صدرت منه ٣١ طبعة حتي عام ١٩٩٣ ، وترجم الي لغات عديدة (ليس بينها العربية!) والثقافتان اللتان يعنيهما سنو هما ثقافة المفكرين من الأدباء ، وثقافة العلماء . قال إنه قد وجد بين هؤلاء وهؤلاء شكوكا متبادلة ، مما قد يكون له أثر مدمر علي تطبيق التكنولوجيا وحل مشاكل العالم .

لكلمة «الثقافة» بعنوان المحاضرة معنيان ، كلاهما - كما يقول سنو - يصلح للموضوع . أولهما يقول ان الثقافة هي «التطوير الذهني ، تطوير العقل» . أما التعريف الثاني ، ويستخدمه الانثروبولوجيون ، فيقول ان الثقافة مجموعة من الأفراد تربطهم عادات مشتركة ، وافتراضات مشتركة ، وطريقة مشتركة في الحياة . العلماء من ناحية ، والمفكرون الأدباء من ناحية ، يمثلان بالفعل ثقافتين مختلفتين من وجهة النظر الانثروبولوجية هذه نحن أبناء زماننا ، ومكاننا ، وخبراتنا .

لم يكن سنو هو أول من أثار هذه القضية . ففي عام ١٨٨٢ ألقى أرنولد ماثيو محاضرة ريد في نفس المكان الذي ألقيت فيه محاضرة سنو . كان الموضوع هو «الادب والعلم» أكد ماثيو ان باب «الادب» لابد ان يشمل كل الكلاسيكيات القديمة ومنها كتاب «المبادىء» لاسحق

نيوتن وكتاب «أصل الأنواع» لتشارلس داروين . الأدب والعلم ليسا متباينين تماما ، كلاهما يستحق مكانه فى التعليم المتكامل غير انه قال ان التدريب فى العلوم الطبيعية قد ينتج حقا المتعلم الممتاز ، لكن لاغنى عن الادب «للمتعلم» لاسيما ادب العصور القديمة .

● من هو سنو ؟

كان سنو عالما ، مثلما كان أديبا كان يتحرك بين «الثقافتين» : قدم هنا وقدم هناك . بدأ حياته فى حقل العلم . حصل على الماچستير فى الكيمياء عام ١٩٢٨ ، وسجل لدرجة الدكتوراه بجامعة كيمبريدج فى اكتوبر ١٩٢٨ ، وبدأ بحثه فى معمل كافنديش الشهير على التحليل الطيفى . لكنه اضطر الى ان يترك حقل العلم عندما نشر بمجلة «نيتشر» هو وزميل له أنهما اكتشفا طريقة لانتاج ڤيتامين أ اصطناعيا ، وثبت خطؤها . اتجه الى مجال الادب ، فنشر عام ١٩٣٢ رواية بوليسية عنوانها «جريمة تحت الشراع» أعقبها فى سنة ١٩٣٤ بأخرى عنوانها «البحث» . وطد نفسه ككاتب جاد ، واصدر مابين ١٩٤٠ ، ١٩٧٠ أحد عشر مجلدا تحت عنوان « غرباء وأخوة» كان توزيعها واسعا وترجمت الى العديد من اللغات . حصل فى عقد الستينيات على عشرين درجة فخرية ، لكن يظل اسم سنو معروفا ومرتبطا بكتاب «الثقافتان» قبل أى شىء آخر .

من يحملون المستقبل في عظامهم

يقول سنو : دراستى علمية ومهنتى الكتابة كنت أتحرك بين مجموعتين – متقاربتين ذكاء ، من سلالة واحدة ، لاتختلفان كثيرا فى البيئة الاجتماعية ، لهما نفس الدخل تقريبا ، لكن الاتصال بينهما قد توقف أو يكاد – ليس بينهما مشترك الا القليل فى المناخ العقلى والاخلاقى والتكنولوچى . يرى سنو ان العلم هو الأمل الكبير لعالم أساءت الصفوة تدبيره وقادته الى الكساد الاقتصادى والى حافة حرب أخرى مدمرة صفوة ثقافتهم تقليدية صبغها وأثر فيها كثيرا : المفكرون الأدباء ، الصياغة لم تكن لهم ، لكن كلماتهم كانت تنساب فى عقول من يصنعون القرارات ، وثقافة الأدب ليست كثقافة العلم هى لاتصلح نفسها أوتوماتيكيا ، تغيرها بطىء بطىء، و ومن ثم ففترات ضلالها أطول وأطول . نمت لديه كراهية «للمفكرين من الأدباء» تمكنت منه طوال عمره . كان يكره من يضع ت . س . اليوت فى مكانة تعلو مكانه هـ . ج . ويلز . العلماء هم من يحملون المستقبل فى عظامهم ، هم من يهتمون – بطبيعتهم – بخير البشرية ومستقبلها : المحافظ منهم (ج.ج. طومسون) والليبرالى (آينشتين وبلاكيت)، المتدين منهم (أ . هـ . كومبتون) والمادى (برنال) ، الارستقراطى منهم (ده برولى وبرتراند راسل) والبروليتارى (فاراداى) ، الثرى منهم (فيكتور روتشيلد) والفقير النشأة (رذرفورد) . كلهم سيستجيبون نفس الاستجابة دون تفكير اذا عرضت عليهم مشاكل جنس البشر . هذا ماتعنيه الثقافة .

الادب والعلم والثقافة الثالثة

● أما الأدباء ..

أما كبار الأدباء ، فماذا فعلوا ؟ «ألم يتملق دستويفسكي بوبيدونوستيف الذى كان يرى ان الخطأ الوحيد فى نظام الرق هو عدم وجود مايكفى من العبيد ؟ ألم ينته عزرا باوند بأن اصبح مذيعا فى خدمة الفاشيست ؟ ، وفوكنر ألم يتبرع بتقديم أسباب عاطفية تبرر معاملة السود كنوع مختلف ؟ .. لقد ترك هؤلاء الكتاب شعورهم بالطبيعة المأساوية لحياة الفرد تعميهم عن رؤية مايحتاجه اخوتهم فى البشرية .. اتسم موقفهم بالانهزام ، بالانغماس فى الذات ، بالغرور - والثقافة العلمية تكاد تكون بريئة من مثل هذه الصفات» الروائى الكبير سنو قد اتخذ فى محاضرته هذا الموقف العدائى الصريح تجاه ثقافة الأدباء .

● هاردي ... من يكون ؟

إذا ماجلس رجال الأدب إلى بعضهم ورأوا أن ليس بينهم غريب - يقول سنو أشاروا إلى أنفسهم على أنهم «المثقفون» وكأن ليس ثمة غيرهم ! يتذكر سنو ماقاله جودفرى هارولد هاردى فى الثلاثينيات: «هل لاحظت كيف تستخدم كلمة (مثقف) الآن؟ يبدو لى أن ثمة تعريفا جديدا للثقافة لايضم بالتأكيد رذرفورد ولا إدنجتون ولا ديراك ولا أدريان ، ولا أنا! تعريف غريب، أليس كذلك؟» . رجعت إلى معجم الأعلام بقاموس المورد لأبحث تحت اسم هاردى، فلم أجد إلا توماس هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) الروائى الشاعر ، ولم يرد اسم ج. هـ . هاردى (١٨٧٧ - ١٩٤٧) استاذ الرياضيات بجامعة كيمبريدج وأحد كبار العلماء الانجليز، وهو عالم يعرفه كل دارسى علم وراثة العشائر بقانونه الشهير (قانون هاردى فاينبرج) الذى اكتشفه فى نفس العام (١٩٠٨) مع فاينبرج الألمانى

● بحر من سوء الفهم

المفكرون الأدباء فى ناحية، والعلماء فى أخرى ، وبينهما بحر من سوء الفهم يصل كثيرا إلى درجة العداء والكره - خصوصا بين الشباب. مواقفهم مختلفة تماما حتى أنهم لايجدون أى مساحة مشتركة للقاء حتى على مستوى العواطف. الأدباء لديهم انطباع راسخ بأن العلماء وقحاء متبجحون، متفائلون سطحيون، لايدركون وضع الانسان. يذكرون رد رذرفورد على من قال له يوما «يا أيها المحظوظ، أنت دائما تركب الموجة!» إذ ابتسم قائلا «والموجة من صنعى، أليس كذلك؟».

● النظرة الثانية

عاد سنو فى محاضرة أخرى فى نفس الموضوع ألقاها عام ١٩٦٣ بنظرة ثانية قال فيها إنه كان بطيئا فى ملاحظة تطوير لما قد يكون «ثقافة ثالثة» لكنه رأى أنه قد يكون سابقا لأدائه أن نتحدث عن ثقافة ثالثة موجودة بالفعل هى آتية لارى، لكنها لم تفصح عن نفسها بعد. ستجسر هذه الثقافة الهوة بين العلماء وبين المفكرين الأدباء . فى هذه الثقافة سيتم الاتصال بين الفريقين. على الثقافة الأدبية - إذا كان لها أن تقوم بدورها المطلوب - أن تتصل بالثقافة العلمية.

● الثقافة الثالثة

لكن العلماء الآن لايتصلون بالمفكرين الادباء . إنهم يتصلون مباشرة بالجمهور. مفكرو الثقافة الثالثة . العلماء ، يتجهون إلى تجنب الوسيط ، ويحاولون أن يعبروا عن أعمق أفكارهم بأسلوب يسهل على القارىء الذكى أن يستوعبه. هكذا رأى چون بروكمان فى كتابه «الثقافة الثالثة» (١٩٩٥) . ثمة كتب علم جادة قد ظهرت مؤخرا بيع منها أكثر من مليون نسخة (مثلا: تاريخ موجز للزمان: لمؤلفه بروفسور ستيفن هوكنج، ١٩٨٨). قال مفكرو «الدقة» القديمة إن هذه الكتب تشترى ولا تقرأ . لكن الواضح أن الكثيرين يشعرون بجوع فكرى حقيقى للأفكار الجديدة المهمة، ويحاولون أن يبذلوا الجهد لتثقيف أنفسهم . بدأ الناس، عامة الناس، يعجبون بمفكرى الثقافة الثالثة، ليس فقط لقدرتهم على الكتابة المبسطة ، وإنما أيضا لأن ماكان تقليديا يسمى «العلم» قد أصبح اليوم «ثقافة عامة» . يقول ستيوارت براند «الأخبار الحقة اليوم هى العلم. تصفح جريدة أو مجلة، الأخبار الاجتماعية هى هى كما كانت: قيل وقال، السياسة والاقتصاد هما نفس الدراما القديمة الحزينة، الأزياء نفس الوهم بالطزاجة، بل ويمكنك أن تتنبأ بالتكنولوجيا إذا عرفت العلم. الطبيعة البشرية لا تتغير كثيرا. لكن العلم يتغير، والتغير يتراكم. ويحول العالم تحولا لارجعة فيه». من بين أهم موضوعات العلم التى تأخذ مكان الصدارة الآن فى الجرائد والمجلات - كما يقول بروكمان: البيولوچيا الجزيئية، الذكاء الاصطناعى، نظرية الفوضى، الشبكات العصبية، كوننا الذى يتسع، الأوتار الفائقة، ، التنوع الحيوى ، النانوتكنولوجيا ، الجينوم البشرى ، النظم الخبيرة ، نظرية جايا ، الواقع الافتراضى ، وليس ثمة فى الثقافة الثالثة قائمة معتمدة بالافكار المقبولة . ان قوة الثقافة الثالثة تكمن بالتحديد فى انها تقبل اختلاف وجهات النظر حتى بالنسبة للافكار التى يصح ان تعتبر جادة .

دور المفكرين فى هذه الثقافة يتضمن عملية الاتصال . المفكرون هنا ليسوا مجرد اناس يعرفون ، انما هم ايضا ينقلون افكارهم الى الجمهور ويشكلون افكار جيلهم هم بأعمالهم وكتاباتهم يحلون الآن محل المفكر التقليدى فى اضاءة المعنى الاعمق لحياتنا ، وفى اعادة تعريف : من نحن ومن نكون. هم يقدمون صورا جديدة لكياننا ولعقولنا ولكوننا وكل وما نعرف فيه اننا نشهد اليوم ، كما يؤكد بروكمان ، تحرك الاضواء من جماعة مفكرى الأدب التقليديين الى جماعة جديدة ، مفكرى الثقافة الثالثة الجديدة ، وعن هذه الثقافة ستظهر فلسفة جديدة .

العلماء يقولون ان المفكرين التقليديين رجعيون بمعنى ما ، هم فى الاغلب يجهلون الكثير من انجازات عصرنا الذهنية الجوهرية . ثقافتهم غير تجريبية ترفض العلم . تستعمل رطانتها وتغسل غسيلها . أوضح مايميزها تعليقات على

الادب والعلم والثقافة الثالثة

تعليقات على تعليقات ، لولب من التعليقات يتضخم ويتضخم حتى أن يصل فى نهاية الأمر الى وضع يضيع فيه العالم الواقعى. ولا الى مثل هؤلاء يجب ان نسلم زمام قيادتنا .

ازدادت اذن حدة المواجهة بين «الثقافتين» - الادبية والعلمية - بظهور الثقافة الثالثة ، التى ستؤثر فى حياة كل فرد على ظهر الارض - الثقافة التى يمثلها الان علماء لديهم القدرة على نقل افكارهم الجديدة باسلوب بسيط يستوعبه كل قارىء ذكى ربما . من المفيد ان ننقل هنا مختصرا لآراء بعض كبار مفكرى هذه الثقافة الجديدة كما جاءت فى كتاب «الثقافة الثالثة» فالقضية لاشك تهمنا نحن ايضا .

● رأي ستيفن ج جولد
(من علماء التطور)

الثقافة الثالثة فكرة فى غاية الخصوبة يظن المثقفون الأدباء ان الساحة ساحتهم وحدهم ، فى حين ان الواقع يقول ان هناك جماعة من الكتاب مادتهم العلم ، فى رءوسهم كوكبة هائلة من الأفكار الساحرة التى يود الناس ان يقرأوا عنها ، للبعض منهم اسلوب مهذب يستطيعون به التعبير عن انفسهم بصورة طيبة جدا .

قال بيتر مدور - حامل جائزة نوبل وأحد كبار العلماء ذوى النزعة الانسانية - انه من الظلم ان يعتبر أهل الآداب العالم الذى لايعرف الكثير عن الفن والموسيقى شخصا غبيا متخلفا فى حين انهم لايرون ضرورة ان يعرفوا هم شيئا عن العلم حتى يعتبروا متعلمين كل مايلزم ان يعرفه الشخص المتعلم عندهم هو الفن والموسيقى والادب و لا علم !

هذا أمر غير سليم . لا ولاهو يعكس الواقع . صحيح اننا لن نجد نسبة عالية من الأمريكيين يفهمون العلم جيدا ، لكن الاهتمام بالعلم قوى جدا بين من يشترون الكتب - على الرغم من نسبتهم المحدودة

● رأى موراى جيل مان
(من علماء الفيزياء النظرية)

درج العلماء على وضع كتب تخاطب الجماهير المهتمة بالعلوم . ثم جاء حين من الدهر كاد فيه هذا النشاط ان يموت - فى امريكا على الأقل . انه لاتجاه صحى جدا مانشهده الآن . لقد بدأ العلماء الجادون مرة أخرى فى الكتابة عن أعمالهم ، ووجهوا خطابهم الى الجمهور ، احيانا من خلال وسيط صحافى . لقد كان هناك دائما بين كبار العلماء - وسيكون هناك دائما - من يستطيع الاتصال بنجاح بالغ بالجمهور دون وسيط .

هناك بكل اسف من أهل الآداب والانسانيات - ربما ايضا من رجال العلوم الاجتماعية - من يفخر بأنه لايعرف الا القليل عن العلوم والتكنولوچيا والرياضيات . لكن الظاهرة العكسية نادرة جدا . صحيح أنك قد تجد بين الفينة والفينة عالما يجهل شكسبير ، لكنك ابدا لن تجد عالما يفخر بأنه يجهل شكسبير.

● رأي دانييل دينيت (من الفلاسفة)

ان مايميز النجاحات الأخيرة لكتب العلم يرجع الى طبيعة التداخل بين العلوم فى الكثير من المحاولات العلمية الحديثة . يكتب الاساتذة الآن ليخاطبوا غيرهم فى الفروع الاخرى من العلم ، ويذا تكون لغتهم سهلة يتجنبون فيها رطانة تخصصهم . ان اسوأ مايمكن للمتخصص ان يفعله هو ان يستخف بمن يخاطبهم انه بذلك يهيبنهم. هناك فرق بين ان يكون فهم القارىء لك صعبا وبين ان يكون فهمه لك متعذرا .

● رأي ريتشارد دوكينز (من علماء التطور)

استولى رجال الأدب على أجهزة الاعلام الفكرية ، هكذا أرى . - وأرجو ألا يكون شيء من جنون الاضطهاد قد اصابني ! لا اقصد فقط كلمة «الفكرية» لقد قرأت مؤخرا مقالة كتبها ناقد ادبي عنوانها «النظرية : ماهي ؟» اتصدقون ؟ لقد اتضح ان «النظرية» هي «نظرية في النقد الادبي» لم تكن المقالة في مجلة من المجلات المتخصصة في النقد الادبي ، انما في مجلة عامة . لقد اختطفوا كلمة «نظرية» لتستخدم فى غرض ادبى محدود ضيق للغاية - كما لو لم يكن هناك لأينشتين نظريات ، كما لم يكن لداروين نظريات !

اننى احيى فكرة ان ينقل العلماء ، والمدرسيون بعامة افكارهم الاصيلة فى كتب يقرؤها الناس فى التخصصات الاخرى . لقد وضعت كتبي بلغة يمكن للقارىء الذكى ان يستوعبها وأود لو رأيت الكثيرين يفعلون نفس الشيء.

قال لى بيتر مدور ان هناك فروعا من العلم صعبة فعلا ، فروعا تحتاج الى عمل شاق حقا اذا اردت ان تعرضها على الجمهور بلغة سهلة ، وهناك ايضا فروع اخرى هى فى الاصل سهلة جدا ، فاذا اردت ان «تؤثر» فى الناس لجأت الى لغة اصعب مما يلزم ! وهناك مجالات «يغير» فيها الكتاب من الفيزيقا فيرغبون فى ان يعامل موضوعهم كما لو كان صعبا جدا ، حتى لو لم يكن كذلك ! والفيزياء صعبة حقا . ثمة صناعة كبيرة تعتمد على تبسيط افكارها العويصة حتى يفهمها الجمهور ، لكن هناك صناعة أخرى تأخذ الموضوعات السهلة وتكتبها بحيث تبدو صعبة - تغلف فى لغة مبهمة لا لغرض الا الابهام حتى تظهر معقدة عميقة !

● رأي ستيف جونز (من علماء الوراثة)

ان افضل طريقة لتقييم «الثقافة الثالثة» هى ان نسأل «هل كانت هناك يوما اكثر من ثقافة» ؟ هذا سؤال محورى . هل التعلم يقبل القسمة ؟ أم انه كل واحد ؟ من عام ١٥٥٠ وحتى عام ١٩٥٠ كانت الاجابة واضحة :

الثقافة هى الثقافة - على الرغم من أن أحدا بعد ميلتون ، لم يعد يستطيع ان يعرف كل شيء . ثم جاء سنو ليقترح تقسيما ، ربما كان غير حقيقى . اننى

الادب والعلم والثقافة الثالثة

غير مقتنع بأنه قد اسقط اربعمائة عام من الحضارة ، وان كان - ربما - قد حطم غرور قلة ممن كانوا يحيطون به من الادباء المتغطرسين متوسطي القيمة .

السؤال الآن ، مثلما كان ايام سنو ، هو عما اذا كانت هناك ثقافة يمكن لأى متعلم ان يتعلق بها . والاجابة انه اذا لم توجد ثمة ثقافة فمن الواجب حقا ان نوجدها . اذا لم يكن فى استطاعتك ان تتحدث بصورة عامة عن القضايا العلمية وغير العلمية ، فانت غير متحضر.

رأي بول ديفيز (ديفيز من علماء الفيزياء النظرية)

ها قد بدأ صوت العلماء يصل الى الناس يأسر عقولهم ، كما يأسر قلوبهم - هكذا تقول النجاحات الهائلة للكتب العلمية. هب رجال الآداب يدافعون فى حماس بالغ عن مملكتهم . اتخذ رد الفعل صورة ثرثرة هستيرية بالجرائد والدوريات، وفيض من الكتب يتهم العلماء بأنهم متعجرفون دجالون يبحثون عن مصالحهم الشخصية.

لم يحاول الا قلة قليلة من المفكرين الادباء بانجلترا ان يفهموا العلم ، الواضح انهم قد وجدوا انفسهم غير قادرين على فهم القضايا التى عرضت فى بعض الكتب العلمية الحديثة ، مثل كتاب ستيفن هوكنج (تاريخ موجز للزمان) يبدو ان جزءا من رد الفعل الهستيرى هذا يرجع الى شعور بالعجز أمام جهلهم يقول الواحد منهم «انا متعلم ، لكنى لم أفهم شيئا من هذا . هذا اذن هراء» لقد أهمل العلماء سنينا وسنينا لأن أحدا لم يكن يستمع اليهم ، ولقد بدأ الناس يستمعون اليهم . فبدأت المافيا الادبية تحاول ان تقمعهم !

رأي نيكولاس همفري (من علماء السيكولوجيا)

ثمة ذعر يجتاح اهل الفكر الانجليز لان الثقافة قد تجاوزتهم . لقد تعلموا فى المدارس لقد درسوا كلاسيكياتهم لقد درسوا الادب الانجليزى لقد رأوا فى العلماء شيئا كرجال الاساطير كل ما كان يجرى بمعامل الكيمياء والبيولوجيا لم يكن يحظى عندهم الا بالازدراء هم يتعاملون مع افلاطون وارسطو ويوليوس قيصر . تعود هؤلاء ان تكون لهم السيادة فى ثقافتنا وفجأة اصابهم الفزع . هم لايفهمون العلم ، ومن ثم كان دفاعهم هو القول ان الأمر لايهم لكنهم يحاربون معركة خاسرة من يسمع ماذا فى ايامنا هذه ؟ اية برامج يشاهدها الناس على شاشة التيلفزيون ؟ اية كتب يشتريها الناس اليوم ؟

رأي روجر شانك (من علماء الكمبيوتر)

انا عضو بمجلس تحرير الموسوعة البريطانية . كنا نناقش منذ سنة او سنتين قضية من سيشرف على الموسوعة فى المستقبل . قرر المجلس ، وكلهم من أهل الادب ، أن يسمح بدخول رجال الكمبيوتر - فالعلم يكمتر الآن ثم قال كليفتون فاديمان ان علينا ان نوطد

انفسنا على ان العقول التي ستتولى زمام الموسوعة في المستقبل ستكون اقل من عقولنا علماء صحت قائلا «كيف قررت انني اقل منك تعلما؟» رد بسرعة ليخرج من المأزق : «أوه ، أنا لا أعنيك انت !! انني اعرف انك عالم كمبيوتر استثنائي فذ «وانا لست عالما استثنائيا فذا ». ان الغريب في رجال الآداب هؤلاء هو مايرونه من أنك اذا لم تعرف الكلاسيكيات فانت غير متعلم بينما يرون في نفس الوقت ان الامر طبيعي اذا لم يعرفوا هم شيئا عن العلوم انا لا أعرف السبب في ان يكون هذا الامر طبيعيا !

لقد دفع بنا نحن العلماء خارج حلقة المفكرين لاسباب لاتهم ربما كان هذا السبب في ان يلجأ العلماء الى كتابة الكتب للجمهور : هم أكثر الناس بالمجتمع جدارة بالاهتمام وهم لايعتبرون من المفكرين !

لكن ربما كان رجال الأدب الآن مثلهم ايضا . انا لست متأكدا من ان هذا البلد يعشق المفكرين كثيرا !

● نحن والثقافة الثالثة

لم تقم بعد لدينا (ياللأسف !) معركة كهذه بين الثقافتين ! يبدو ان جبهة الثقافة العلمية تفتقر الى القوة الكافية مازال المفكرون الادباء يسيطرون على ادوات الاعلام ، ومازالوا هم وحدهم تقريبا من يوجه . قيل يوما ان محور معرض الكتاب هذا العام (١٩٩٦) سيكون العلم ، ثم خفتت الفكرة رويدا رويدا ، حتى ماتت وأهيل عليها التراب وتولت الثقافة (الاولى ؟) ترتيب كل شيء لم تظهر لدينا بعد ثقافة ثالثة واضحة عدد الكتب المؤلفة في هذا المجال محدود جدا ، وعدد الكتب المترجمة ايضا لايظهر العلم الا على استحياء بأجهزة الاعلام من صحافة واذاعة مسموعة ومرئية انتبهت هيئة الكتاب فاصدرت سلسلة «الألف كتاب الثانية» ونشرت بعض كتب الثقافة الثالثة – ومثلها فعلت ايضا بعض دور النشر الخاصة ، ان يكن باسهام متواضع . فطنت ايضا بعض المجلات الجادة الى أهمية تطعيم مادتها بما يتيسر من مقالات علمية (واذا ماجاءتها وضعتها في خجل في مكان لايزعج القارىء) وعندما قرر رئيس تحرير مجلتنا الغراء هذه (الهلال) ان يتضمن كل عدد مقالة على الاقل في العلوم ، لم يسعفه الا عدد قليل من رجال العلم المستقبل يطلب ان يأخذ العلم موقعه اللائق بين مايقرؤه الناس ويسمعونه ويشاهدونه ، ان يدرب الناس على الاهتمام بالعلم وقضاياه هذا أمر ضروري لبقائنا في عالم الغد.

ولان الثقافة الثالثة موجهة الى غير المتخصصين ، الى العقل العام ، فمن الممكن ان تطرح كل القضايا العلمية التي تناقش في الغرب– حيث يصنع العلم الآن لقد اصبح العالم قرية صغيرة ، الامر يتطلب حركة ترجمة نشطة لكتب هذه الثقافة الثالثة بالتحديد . ولقد تفسح وسائل الاعلام مساحة واسعة لعرض مثل هذه الكتب . ولنقد الترجمة ، ولنقد الافكار

تعطيل الإبداع

بقلم : د. مصطفى سويف

المشكلات مراتب. تتفاوت فيما بينها من حيث درجات التركيب، ومن حيث الاستعصاء على الحل. وقد وصلنا الآن إلى أعلى درجات الاستعصاء كما تبديه معظم مشكلاتنا الاجتماعية إذ أصبحت بمثابة تحديات مبتكرة وذلك لكثرة ما انطوت عليه من تغيرات فى هذا المجال أو ذاك من مجالات حياتنا الاجتماعية، ومن طول ما غفلنا عن إدراك هذه التغيرات والتعامل معها على حقيقتها. وكان المتوقع والحال كذلك ان نتناولها بما يكافئها من حلول مبتكرة، ولكننا بدلا من ذلك مضينا نتعامل مع عناصرها أو مقوماتها من زوايا النظر التى اعتدناها، وبالاساليب التقليدية التى ألفناها الى درجة التنميط، وهو ما يفسر عجزنا عن حلها أو احتوائها، وما يعنى فى الوقت نفسه أن محاولاتنا بمنهجها الراهن محكوم عليها بالفشل فى المستقبل.

ويعنى كذلك أن احتمالات التوفيق فى الحل رهن بانتهاج نهج مبتكر فى النظر الى هذه المشكلات يستدعى استنهاض مهارات عقلية وعملية جديدة للاعتماد عليها. ويصبح السؤال المطروح الآن هو : ولِمَ لا؟ ولِمَ لَمْ نفعل ذلك حتى الآن؟ ما الذى حال ويحول دون سلوكنا هذا المسلك؟ إذ لاريب أننا جميعا نريد أن يصبح الحال غير الحال. وفى سبيل التعبير عن مطلبنا هذا فنحن جميعا نتبرع بفيوض (ولا أقول بفيض واحد) من الشكاوى والانتقادات والاقتراحات. ومع ذلك فما كل ما نتمناه (بل ولا بعض ما نتمناه) ندركه.

لا يمكن ولا يجوز علميا أن نستنتج من استقراء حالنا هذه أننا عاطلون أصلا من القدرات العقلية الأساسية اللازمة للتفكير الابتكارى. ذلك أنه من المسلمات التى تقوم عليها معظم بحوث الابداع كما يقوم بها علماء النفس المعاصرون أن قدرات الابداع موجودة عندنا جميعا بدرجات وبأنماط (أى تنظيمات) متفاوتة، وكشأن كل المسلّمات العلمية فنحن نتعامل مع هذه المسلّمة على أنها صادقة مالم تتعارض معها أية نتيجة رئيسية من نتائج البحوث العملية أو الميدانية فى هذا المجال، وهذا لم يحدث فعلا حتى الآن ومعنى ذلك عند جميع علماء النفس فى العالم كله أن هذه المسلمة صادقة، ومعناه كذلك فى رأينا أن صدقها يجب تعميمه على شعبنا المصرى كما هو الحال بالنسبة لشعوب الأرض قاطبة. ولابد إذن من النظر فى مجموع الظروف التى تحيط بحياتنا الاجتماعية وتتخللها لكى نلقى الضوء على وقوفنا عاجزين عن الاتيان بحلول ابداعية، لان قدرات التفكير الابداعى يسرى عليها ما يسرى على استعداداتنا الفطرية جميعا من أنها لا تفصح عن نفسها إلا إذا توافرت من حولها شروط بعينها، وبقدر ما يصيب هذه الشروط من اضطراب أو ضمور تصاب القدرات فى إفصاحها عن نفسها بالاضطراب والضمور. فماذا فى ظروف حياتنا يعاكس أو يعوق خروج هذه القدرات عن حالة الكمون ؟ .

● معوقات الإبداع

يحسن بنا ان نبدأ بالتمييز بين نوعين من معوقات الابداع: الأول اجتماعى المنشأ، والثانى نفسى المنشأ. أى يصدر عن الظروف الخاصة بالفرد بدءا من رصيده الوراثى والمتغيرات الكيميائية العصبية الداخلة فى تكوينه وانتهاء بأحوال تربيته الخاصة وتاريخه الشخصى. ولا يجوز انكار التأثيرات المتبادلة التى لا تكف عن السريان بين النوعين، الا ان هذه التفاعلات لا تصل الى حد السماح بتجاهل التفرقة بينهما.. وفى مقامنا الراهن يعنينا النوع الاول، ولذلك سوف ينصرف حديثنا الى تفصيل النظر فى أمره ، اما النوع الثانى فله سياق آخر اولى به.

فاما عن العوائق الاجتماعية لانطلاق التفكير الابداعى لدينا فهى كثيرة ومتنوعة ومتداخلة ، وهى فى حدود رؤيتنا تنتظم فى أربعة أصناف على النحو التالى :

الصنف الاول مرتبط بما يشبه ان يكون خصائص للسياق الاجتماعى نفسه هذا السياق الذى تنتظم من خلاله حياتنا الاجتماعية . وليس هناك ما يدعو الى اعتبارها خصائص ثابتة كائنا فى كيانات ميتافيزيقية، لأنها فى حقيقتها خصائص اكتسبها السياق من خلال ظروف تاريخية معينة، ومن المتصور عقلا ان تكون قابلة للتغيير إذا ما توفرت من حولها ظروف

تعطيل الابداع

اجتماعية تاريخية أخرى. أما الصنف الثانى فيضم معوقات ناجمة عن الاسلوب الذى تنتهجه القيادات الاجتماعية فى أدائها أدوارها القيادية فى المجتمع. ويرتبط الصنف الثالث بأسلوب الجماعة فى التعايش بين شرائحها وتنظيماتها الاجتماعية المختلفة. وتأتى اخيرا الى الصنف الرابع من المعوقات وهى تقوم على خاصية جرى ترسيخها فى الأفراد بفعل عملية التنميط التى يجريها المجتمع علينا جميعا لتخليق ما يسمى اصطلاحا بالشخصية «المنوالية» أو النموذج الشائع للمواطن المصرى. هذه هى الأصناف الأربعة الرئيسية لعوائقنا اجتماعية المنشأ. ثم إن هذه الأصناف الأربعة تضم فيما بينها احد عشر عنصرا كلها ذات خطر فى تأثيرها كأغلال مكبلة لنا فى حسن استثمار قدراتنا على الابتكار والابداع. ورغم اقتناعى بأن هذا الأصناف المتخمة على هذه النحو بالأغلال تستحق ان أفرد لها مجلدا إن لم يكن مجلدات عدة مزودة بأنواع منوعة من بيانات التفصيل والتوثيق، فسوف أحاول ما وسعتنى قدرات التعبير الموجز والمكثف ان احشرها حشرا الى حديثين أو ثلاثة على أقصى تقدير، وحسبى من هذا الايجاز تبليغ الرسالة الى من يعنيهم الأمر، وهم نحن جميعا، كل قادر على إصلاح ما أفسده الدهر فى مجتمعنا .. وفى هذا السبيل سأكرس البقية الباقية من صفحات هذا المقال للتحدث عن الصنف الأول الذى يرتبط بما اسميناه الخصائص التاريخية لسياقنا الاجتماعى، ويضم هذا الصنف بداخله عنصرين هما : جمود السياقات الفرعية التى تدخل فى بناء السياق الاجتماعى الكبير، والعنصر او العامل الثانى هو ما نسميه الثقل غير الصحى لرموز الماضى.

● جمود السياقات الفرعية :

المعنى الأساسى لمفهوم الجمود كما نستخدمه فى هذا الموضع هو الاستعصاء على التعديل او التطويع الذى تتطلبه احيانا بعض مطالب الحياة وهى لاتفتأ تواجهنا بالجديد. ويستخدم علماء النفس هذا المصطلح بهذا المعنى فى بحوث الشخصية، ولهم فى هذا المضمار مقاييسهم التى يقيسون بها درجات جمود الشخصية طلبا للمزيد من الدقة فى بحوثهم. ويمكن الامتداد بالمصطلح من وصف الشخصية الى وصف السياقات الاجتماعية التى تحاول الشخصية ان تتوافق من خلالها مع مطالب الحياة. والسياقات الاجتماعية التى نعيش فى كنفها لا حصر لعددها ولا لتنوعها، فالأسرة ومحيط العمل والجيران والأصدقاء .. إلخ سياقات اجتماعية، وكذلك منظومات القيم والتقاليد والأعراف

والقوانين التى تحكم الحياة فى هذه التجمعات أو فى بعضها هى نفسها جزء من هذه السياقات. فهى الوجه المعنوى لها بينما أفراد البشر أنفسهم وأدوات معيشتهم هم وجهها المادى. ومعنى ذلك إذن ان كثيرا من السياقات الاجتماعية، بهذا المعنى المركب تقف امامنا فى كثير من الاحايين جامدة مستعصية على ما تبذل من محاولات للتعديل فيها. صحيح أن بعض هذه المحاولات تكون ضربا من العبث، ومن ثم فإن قدرة السياقات على الصمود فى مقاومتها تعتبر من الخصائص التى تضمن الاستقرار الصحى للحياة الاجتماعية، ولكن لا يجوز ان ننسى ونحن فى غمرة الدفاع عن الاستقرار ان هذا الاستقرار نفسه وسط بين رذيلتين أو عيبين تتعرض لهما معظم السياقات الاجتماعية عندنا وفى المجتمعات على حد سواء، الجمود من ناحية والميوعة أو السيولة من ناحية أخرى، والمؤسف ان ما يجرى لدينا يرجح كفة الجمود فى هذه السياقات بصورة لاتدع سبيلا الي الشك فى كونها اصبحت غلا شديد الوطأة على حاضر الفكر الابداعى ومستقبله ، ومن ثم فقد أضحت شديدة التهديد لا للفكر وحده"ولكن للبقاء نفسه، بقاء المصريين كمجتمع له تفرده، من خلال أسلوبه الخاص فى التوافق مع عالم يفرض التغير.

فى هذا الصدد نشرت مجلة «فصول» وهى إحدى المفاخر الثقافية لمصر الحديثة عددا خاصا فى خريف عام ١٩٩٢ كرسته لنشر شهادات عدد من كبار المفكرين والكتاب حول خبراتهم الشخصية ازاء محاولاتهم ممارسة حرية التفكير والتعبير الابداعيين ولعل اهم ما ورد فى هذه الشهادات من عناصر ذات دلالات لايمكن التقليل من شأنها بالنسبة لحديثنا الراهن النقاط الأربع التالية:

١ ـ مواجهة من يحاول الابداع بمجموعة غير محددة من التقاليد التعبيرية التى تقف بالمرصاد لمحاولاته فى هذا المجال او ذاك. فاذا لم يتقيد بها فهو ليس بكاتب ولا شاعر ولا مثقف، وقد يصل الامر بمعارضيه الى التشكيك فى ولاءاته الوطنية والقومية والدينية. وتعبر شهادة الشاعر محمد ابراهيم ابو سنة عن معاناة بالغة القسوة من سياقات اجتماعية جسدت هذه المواجهة.

٢ ـ ويشير الاستاذ حلمى سالم إلى ما يسميه «القمع المستتر الذى لا نلتفت اليه فى غمرة مقاومتنا لقمع السلطات المعلن : .... قمع النقاد الذين يريدون من الشاعر ان يكتب كما يتصورون هم الكتابة».

٣ ـ ويشير الكاتب نفسه فى موضع آخر من شهادته الى .. «نوع جديد من القمع هو قمع الذائقة السائدة، التى تريد ان تجبرك على ان تقدم لها ما اعتادت على تذوقه، وما يتسق مع تقاليدها فى

تعطيل الابداع

القهم والاساءة ... » .

٤ ـ ويشير الاستاذ سليمان فياض فى شهادته الى درجة من الشيوع لمكونات القمع تكاد تسد منافذ الحياة أمام الابداع سدا تاما. اذ يقول: «كل المطبوعات خاضعة للرقابات: رقابات الدين.. والاستعلامات .. بل ورقابات النقابات المحتجة ابدا على أية مواجهة فى الاعلام خاصة لأى نقد او طرح يمس حرمات الطوائف وأصحاب المهن.. بل ورقابات البيوت المصرية ذاتها على أى نقد او طرح لمشاكل الحياة الزوجية.. بل ورقابات المثقفين انفسهم على المثقفين ... » .

هذه عينة محدودة لأربعة مظاهر لخاصية الجمود التى تتصف بها السياقات الاجتماعية كما يعانى منها بعض كتابنا ومفكرينا .. ومع ذلك فهذا الذى اوردنا وما يزيد عليه أضعافا مضاعفة مما يمكن الرجوع اليه فى عدد «فصول» المشار اليه لايعدو ان يكون مشهدا محدودا لما يدور فى مجال واحد من مجالات اجتهادات الفكر المبدع وهو مجال كتابات المفكرين والأدباء. فى حين ان مجالات الحياة الاجتماعية التى تقتضى من الأفراد ان يبذلوا الجهود الابداعية او الابتكارية متعددة ومتنوعة بأشكال لا تقع تحت حصر . بدءا من مجالات اللعب المتاحة للأطفال. الى مجالات تربية النشء فى سائر المراحل العمرية، الى مجالات حياتنا العملية بمختلف اشكالها ومستوياتها الى مجالات البحث العلمى التى نطالب فيها زملاءنا من العلماء الشبان بالبحوث المبتكرة.. الخ. والحال فيها جميعا من حيث جمود السياقات لا تختلف فى جوهرها وان اختلفت فى طبيعة مكوناتها عن الحال فى مجال كتابات المفكرين والأدباء ، كل ما فى الامر ان طبيعة عمل المفكرين والأدباء تتيح لهم مهارات التعبير المكتوب عن دقائق معاناتهم، وهو ماحدا بنا الى الاستشهاد بشكاواهم، فى حين ان الغالبية من نظرائهم فى مجالات النشاط الأخرى يعانون مثلهم من جمود السياقات الاجتماعية التى تعنيهم دون ان يتقنوا مهارة الأنين المكتوب ، ومن ثم فهم يعانون ويتساقط معظمهم على الطريق فى صمت. ولكن حساب الخسائر كما يتحمله بلدنا فى نهاية المطاف لا علاقة له بالتعبير البليغ او بصمت القبور: الخسائر هى هى. انتقاص خطير من طاقة الابداع فى مجموع المواطنين.

● ثقل الماضي

يعتبر استلهام ذخائر الماضى والتلمذة على ما توحى به من دروس احد المصادر المهمة لاكتساب السياقات الاجتماعية مزيدا من الكفاءة فى أداء مهامها ، وفى مقدمة هذه المهام اشاعة مناخ الاستمرار

والاتصال بين عهد مضى وعهد آت . مع مزيد من التحصين ضد الوقوع فى اخطاء الماضى. ومن بين الذخائر التى يسعى الناس الى توظيفها على هذا النحو ذكريات الاحداث التى لها دلالات خاصة فى تاريخ الجماعة، وكذلك اعمال بعض الأسلاف وسيرهم الذاتية، ووصاياهم . هذه حقائق عامة تصدق علينا كمجتمع مصرى كما تصدق على سائر المجتمعات البشرية، وهى بذلك تمثل خطا أساسيا من انماط الحياة الانسانية . غير ان اسناد هذا الدور الى الذخائر معرّض هو الاخر للوقوع فى احدى سوأتين . الافراط أو التفريط، الافراط فى شد الحياة الى الماضى وكأن مكوناته كافية لان نعيش عليها جملة وتفصيلا فى حاضرنا وفى مستقبلنا القريب والبعيد جميعا .او التفريط الذى يهدر كل نفيس فى هذا الماضى ولا يرى فيه الا ما يهدد الحاضر.

اما السبيل الى الوقاية من مغبة التورط فى أىٍ من هاتين السوأتين فلا يكون الا باتباع نهج الحد الامثل، وهو ما يعنى الاعتراف بأهمية الماضى فى ترشيد الحاضر مع اليقظة الدائمة للحيلولة دون ان تصبح نفائس التاريخ اغلالاً تكبل الحاضر لان ظروف الحياة فى الحاضر لا يمكن ان تكون مماثلة الى حد التطابق مع ظروف الحياة فى الماضى، ومن ثم يكون خطأ جسيما أن نحاول القياس تفصيلا على نماذج نستمدها من الماضى فى محاولاتنا ايجاد حلول ناجحة لمشكلاتنا فى الحاضر. هذه قاعدة هامة تصدق بالنسبة لجميع مجالات الحياة التى نتوسم امكان الافادة من دروس ماضيها فى رشيد خطانا اذ نرتادها. سواء أكانت هذه المجالات تخص الفكر او الادب او التربية او السياسة ... إلخ .. ولا اجد فى هذا المقام ابلغ من نصيحة ابن خلدون التى يوجهها الى ناشئة الشعراء من كان منهم يسعى إلى التفوق والنبوغ فعليه ان يحفظ الكثير من اشعار الفحول السابقين . ثم عليه ان ينساها . بعبارة اخرى اقرب الى عباراتنا العصرية انما يكون التوظيف الامثل للتراث باستخلاص توجهاته العامة، واستيعابها لكى تعمل بهذه التوجهات العامة (لا التفصيلات) على ترشيد الحاضر .. وثمة نصوص بهذا المعنى لا آخر لها فى التراث المنشور عن كافة مجالات الحياة.

أما ما يحدث لدينا فشىء آخر، أبعد ما يكون عن هذا التوظيف الامثل، وأقرب ما يكون الى التورط والتوريط فى سوأة الافراط فى شد الحياة الى الماضى، وان كان هذا لا يمنع أن يكون التردى فى ورطة السوأة الاخرى واردا ايضا، لكن ورود السوأة الاخرى محدود نسبيا. ومن هنا ينصب القدر الاكبر من اهتمامنا فى المقام الراهن على أضرار السوأة الاولى. والامثلة على شيوع هذه السوأة بحيث صارت جزءا لا يتجزأ من مناخ حياتنا

تعطيل الابداع

الاجتماعية لا حصر لها. فالتغنى بفضائل الماضى يمثل مقطعا لا يفتأ يتردد فى أحاديثنا غير الرسمية والرسمية على حد سواء . ويأتى ذلك غالبا فى سياق التعبير عن عدم الرضا عن بعض جوانب الحاضر، فأما ان كثيرا من جوانب حاضرنا غير مرضية فهذا صحيح، وطبيعي ان يستتبع ذلك قدرا من الرفض لهذه الجوانب، ولكن ان يكون هذا الرفض دائما مصحوبا بالبكاء على اطلال الماضى فهذا هو ما تعترض عليه. لأسباب عدة: اولها ان البكاء على الماضى لا يعيد موانا. وثانيها انه ينطوى على خطأين احدهما الايحاء بان الماضى كان صوابا وخيرا كله، والأخر الايهام بأن الحاضر خطأ وشر كله، وكلا الادعاءين غير صحيح. وثالث الأسباب هو صرف اذهان المستمعين عن التوجه السليم بالتركيز على مشكلات الحاضر والتفكير الجاد فى كيفية صياغة الحلول المناسبة لها. ورابع الأسباب سبب ذو طبيعة تربوية، ذلك ان هذا التحسر يحمل فى طياته شبهة تشجيع الناشئة من حولنا على نوع من الكسل بل التبلد الذهنى لان مضمون رسالتنا اليهم من خلال هذه الحسرات يكون على الوجه الاتى: اذا ما واجهتكم مشكلة فما عليكم إلا التفتيش فى سجلات الماضى،وستجدون فيها الحل المنشود، وليس في الامكان ابد ع مما كان.

على ان التحسر على الماضى لا ينفرد فى الساحة بالدفع الى المغالاة فى ترجيح ثقل هذا الماضى، بل هناك عوامل أخرى شاعت فى حياتنا ولا يجوز اغفالها . هناك عامل يقوم على مساحة تمتد بين النفاق من ناحية والانتهازية بمعانيها المتعددة من ناحية أخرى، وهو يكشف عن نفسه من خلال مظاهر متعددة تعتمد فى حقيقة امرها على جذر واحد هو التماس المنفعة العملية من اسلوب ترجيح ثقل الماضى واضافة مزيد من الدعم لهذا الثقل، من هذه المظاهر ما نشهده هذه الايام من مسارعة لافتة للنظر الى تدبيج مقالات النعى والرثاء.. الخ حول مآثر فقيد فقدناه حديثا.. وفى معظم هذه الحالات يكون الفقيد انسانا فاضلا يستحق التكريم فعلا . ولكن ألم يكن هذا الانسان جديرا بمزيد من التكريم اثناء حياته، ومن المؤكد ان ذلك لو كان قد حدث لترتبت عليه خيرات تفوق كثيرا قيمة المراثى التى قلما تنطوى على دراسة جادة توثيقية عن أفضال الفقيد. والحصيلة النهائية لهذه المراثى فى واقع الامر اعلان ان هذا المتوفى اضاف لبنة جديدة الى الماضى الذى نحرص على المغالاة فى تقييمه وفى زيادة دعمه، هذا الى ان الامر

لا يخلو من اثارة بعض الشبهات حول طلب شيء من قبيل المنفعة الانانية من الاعلان عن الحزن والنحيب على هذا النحو الذي يعنيه ان يتم على مسمع من الاخرين.

ثم هناك مظهر آخر للتوجه نفسه. وقد يرى البعض اعتباره عاملا ثالثا، على اية حال هذا هو عامل الانتهازية السياسية، فعندما تقرر ان تدخل البلاد مرحلة التعددية الحزبية سارع البعض الى الاعلان عن تأليف احزاب يتزعمونها. ومع ان التجربة كلها تبدو مزيجا فريدا يجمع بصورة غير مسبوقة بين عناصر المأساة والملهاة، مع ذلك فاللافت للنظر ان تتجه اكثر من جماعة تأليف حزب يحاول ان يقتفي اثرا بعينه من آثار الماضي الذي يعود الى ما قبل سنة ١٩٥٢. وكأن دنيانا توقفت هناك عن الحركة، ثم اذا بها تتحرك الآن من حيث توقفت. والاكثر امعانا في اللامعقولية ان هذه المحاولة وجدت اقدارا من الاستجابة الايجابية بين المواطنين لا يمكن الاستهانة بها. هاهنا مثال يختلط فيه الاعتماد على الميل العام الى ما يشبه ان يكون تقديسا للماضي مع محاولة مقصودة لدعم هذا التقديس. ومن وراء هذا كله دافعية هي الانتهازية السياسية بعينها، وباستطاعتي ان اقدم للقارىء مزيدا من امثلة تحمل الدلالة نفسها، غير انى لم اقصد بهذا المقال ان اعرض حصرا شاملا لهذه الفئة من الامثلة، وحسبي ما عرضت فهو يبرز المعنى كما اريد: ان ثقل الماضي كما نتناوله يملأ علينا حياتنا بحيث يكتم انفاس قدرات الابداع لدينا.

● تلخيص وختام:

نقطة البداية في هذا المقال ان مشكلاتنا الاجتماعية آخذة في التراكم من حولنا، وقد عجزت الحلول التقليدية عن التغلب عليها. فلماذا نعجز عن معالجتها بالحلول الابداعية مع ان القدرات الاساسية اللازمة للتفكير الابداعي متوافرة لدينا شأننا في ذلك شأن شعوب الأرض قاطبة؟ من هذا المنطلق بدأنا نعرض لمعوقات التفكير الابداعي في حياتنا الاجتماعية. وقد أحصينا من هذه المعوقات احد عشر عاملا تقع تحت أربعة أصناف، ناقشنا صنفا واحدا من بينها يضم عاملين اثنين يتعلقان بخصائص السياق الاجتماعي. هما جمود السياقات الفرعية، والثقل غير الصحي للماضي، ونرجو ان يحالفنا التوفيق في مناقشة سائر المعوقات في مقال أو مقالين تاليين.

بقلم : د. شكرى محمد عياد

ملحمة الضياع

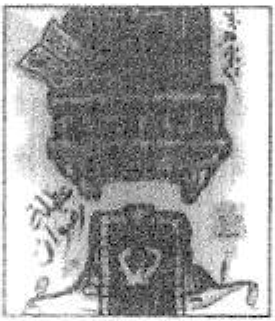
☐ فى سنة ١٩٢٢ نشرت فى باريس الطبعة الأولى من رواية إنجليزية عنوانها «يوليسيس» لكاتب أيرلندى اسمه جيمس جويس (احتاجت هذه الرواية الى أكثر من عشر سنين حتى يسمح بتداولها فى انجلترا وأمريكا) .

و«يوليسيس» هو الاسم اللاتينى للبطل الاسطورى اليونانى الذى يعرف باسم أوديسيوس ، وهو أحد أبطال ملحمة هوميروس الأكثر شهرة ، «الإلياذة» التى تصور حصار قبائل شبه الجزيرة اليونانية لمدينة «طروادة» أو «ايليوس» فى آسيا الصغرى . أما ملحمة هوميروس الثانية فقد انفرد أوديسيوس ببطولتها ، وهى تصور رحلته الطويلة عائدا إلى جزيرة «إيتاكا» التى كان ملكا عليها ، رحلة طويلة عانى فيها الأهوال ، حتى التقى بابنه «تليماخوس» ، الذى كان قد غادر موطنه باحثا عن أبيه ، واستطاع الأب والابن أن يقهرا الأعداء الذين احتلوا قصر الملك فى إيتاكا ، وراحوا يلاحقون الملكة حتى تقبل أحدهم زوجا .

أوديسية هوميروس إذن هى ملحمة الانتصار بعد الكفاح ، أو الراحة بعد العناء ، أو اللقاء بعد الضياع ، أو «الفرج بعد الشدة» كما عبر عدد من القصاص العرب فيما بعد ، ولعل أشهرهم المحسن التنوخى وله كتاب مطبوع بهذا العنوان . ونتذكر أيضا رحلات السندباد . ولا شك أن طرائق القصاص العرب - المتأدبين والشعبيين - اختلفت اختلافاً بعيداً عن طريقة الملحمة اليونانية ، ولكن الذى يجمع



عبده جبير



غلاف الرواية

بين هذه الأعمال القديمة علي اختلافها هو تصوير جانب مهم من البطولة الانسانية وهو الصبر على الشدائد ومغالبتها بقوة الإرادة والثقة بأن الخير لابد غالب فى النهاية . أما رواية جويس فهى أشبه أن تكون محاكاة عصرية ساخرة للملحمة القديمة ، هى مرحلة ضياع بلا هدى ، وتيه ليس له نهاية . ملحمة إنسان العصر الحديث فى صراعاته اليومية التافهة ، التى لا يقلل من تفاهتها تعلقه – أحيانا – بحلم غامض. بدلاً من أوديسيوس أو يوليسيس القديم نلتقى بليوبولد بلوم ، وهو مندوب إعلانات يهودى ، يتنقل بين أحياء «دبلن» ساعياً وراء رزقه ، بينما تعاوده من حين إلى حين ذكرى طفله الميت ، وعوضا عن «بنلوبى» زوجة أوديسيوس التى انتظرته صابرة وفية على مر السنين نلتقى بمغنية أوبرا فاشلة مترهلة جاهلة لا تتردد فى خيانة زوجها ، وإن كانت – مثله – تشعر بالأسى أحيانا على طفلهما الفقيد .

رحلة بلا هدف

إن كانت هذه الملحمة العصرية تقول شيئا فهو أن إنسان العصر الحديث ضائع فى رحلة بلا هدف ، أن المدينة التى تبتلعه ثم تلفظه كل يوم هى فى الحقيقة «أرض خراب» (من الموافقات الجديرة بالانتباه أن قصيدة اليوت المشهورة التى تحمل هذا العنوان ولدت فى نفس العام مع «يوليسيس» جيمس جويس) ، وإذا كان ثمة عزاء له فى هذا التيه فهو «الفن» ، مثل هذه الرواية أو هذه القصيدة ، أى أن الفن أصبح عليه أن يأكل نفسه ، ولذلك فإن «البطل» الحقيقى فى «يوليسيس» جويس ليس هو «يوليسيس» الجديد أو ليوبولد بلوم ، بل هو «الابن» ، أو

القفز على الأشواك

الشخصية التي تقابل الابن الباحث عن أبيه، وهو في الملحمة العصرية «ستيفن» الصورة الشخصية للمؤلف جويس نفسه، وقد سبق له أن قدمها في «صورة الفنان شاباً» (وكانت نسختها الأولى تحمل عنوان ستيفن بطلاً).

كلا العملين – رواية جويس وقصيدة إليوت – كان عملاً منجباً فالى أحدهما أو إليهما معا ينتمي عدد هائل من الأعمال الإبداعية المعاصرة (وقد نفضل وصفها بالحداثية)، بل إن عصرية العمل أو حداثيته يمكن أن تقاس بدرجة انتسابه إلى هذين العملين، وهنا قد تنبهنا فكرة: كم أن هذا العصر مجنون أو مختل! فبقدر ما يسجل العلم والتكنولوجيا أمجاداً لم يكن يحلم بها إنسان العصر القديم، نرى الفن عاكفاً على تسجيل رحلة الضياع في أرض التيه، لا صوت إنسان يؤنسه من قريب أو بعيد، لا واحة ظليلة تلوح له – ولو كانت سراباً – فتتجه نحوها خطاه، لم يعد يفتش حتى في داخله، فقد أصبح داخله خراباً يباباً مثل خارجه، لم يعد أمامه ليثبت قيمته – على الأقل عند نفسه – إلا أن يراقب حركة أحشائه ليصنع منها شيئاً يسميه فناء ويقذف به كاللعنة في أرض التيه، وربما مرت به حالات أشبه بحالات المرضى العصابيين حين يتمتمون بكلمات تشبه النبوءات.

هذا بالطبع تصوير غير دقيق، وغير شامل، للفن المعاصر، ولكنني أردت به أن أبرز بعض الجوانب التي تميز «ملحمة الضياع» المعاصرة عن تلك القديمة. وإلا فإن طموح الفنان المعاصر لأن يصوغ «ملحمة» – بكل ما يعنيه البناء الملحمي من شموخ العظمة – من مادة الحياة المعاصرة بكل ما فيها من إذلال لأقدس ما في الإنسان – لهو طموح يستثير الإعجاب، بقدر ما يستثير الإشفاق.

إن كنت قد قرأت «مدار السرطان» لهنري ملر، فسوف تدرجها – دون شك – ضمن هذا النوع الأدبي الذي أسميه ملحمة الضياع، وإذا كان قد نجح في إثارة اشمئزازك بأوصافه الفاضحة والقذرة فيجب أن تقرأ رحلته اليونانية «عملاق ماروسي» لتحلم معه بعالم مثالي، لابد أن وخز الألم لافتقاده هو الذي جعله يقذف بالبذاءات في وجه عالمنا القبيح.

وإن كنت قد قرأت «علي الطريق» لجاك كيرداك – ولو أنها لم تعد تهز أحداً الآن – فستعدها ملحمة أخرى من هذا الطراز، ولعلك تتذكر بين ثنايا أسفاره المتصلة، مع رفاقه في طول الولايات المتحدة وعرضها – شبه مطاردين، تلك الجملة التي استوقفتني: «نحن نبحث عن وجه الله»، وإن لم تكن قرأت واحداً من هذه الأعمال – وليس هذا ضرورياً! فلعلك سمعت عن شاعرنا العربي المطارد مظفر

ثواب . أو بلغك شئ من شعره كما بلغني القليل منه ، فهذا أيضا شاعر ملحمي على طريقته ، يصوغ بشعره مثالاً للجمال الخالد كما يصبه لعنات على زماننا العربي القبيح .

● رواية قد يضيق بها صدرك

دعني أحدثك الآن عن رواية هي أكمل نموذج عرفته في أدبنا المعاصر للحمة الضياع التي وصفتها لك . الرواية عنها «عطلة رضوان» (رامتان للنشر – الاسكندرية ١٩٩٥) . والكاتب عبده جبير . ستصدمك هذه الرواية مرات كثيرة ، وقد يضيق بها صدرك ، وقد تعجز عن اتمامها ولكنني أزعم أن لا شئ مما تكرهه فيها قد وضع اعتباطا . دعك من الباء والفاء (الباء معناها «باب» والفاء معناها «فصل» ومنتهيا بـ «أ هـ» مدعيا أن هذا تقليد متبع في الكتب العربية القديمة .

(قد أكون جاهلاً بما في الكتب العربية القديمة ، ولكني لا أعرف إلا «أ هـ» وهي اختصار «انتهى» يضعها الكاتب القديم – إذا توخى الدقة – في نهاية النص الذي ينقله عن كاتب آخر ، وهي من الإختصارات القليلة القديمة ، مثل «الخ» ومعناها – طبعا أنت تعرف – «إلى آخره») . فكل ما يريد الكاتب أن يوحي إليك به هو أن طريقته في الكتابة متجذرة في التراث ، وأنه يستوحي الجاحظ أو الأصفهاني أو ألف ليلة وليلة ، أكثر ما يستوحي هنري ملر . دعك أيضا من «ملاحظة» تسبق هذه وهما أول ما يطالعك من الكتاب، وهذه الملاحظة الأولى تشير إلى «النصوص والوثائق المثبتة في صلب العمل» وتعين عدداً من الكتاب العرب وغير العرب ، بدون نظام ، إلى جانب «القواميس والموسوعات وأبيات من الشعر القديم والأغاني التي كتبت من الذاكرة» . دعك من هذا كله ، فالتمسح بالتراث أصبح بدعة عند المبدعين ، كما أن «التناص» أصبح بدعة عند النقاد ، والبدع قصيرة العمر ، ولا قيمة لها في الميزان ، وغالبا ما يتجاوز القارئ عنها إذا لم يحاول الكاتب إبرازها بهذه الصورة . لا داعي أيضا لأن نكد أذهاننا بالبحث عن معنى كلمة «واو» التي يضعها الكاتب ، هكذا بين علامات تنصيص في صدر بعض الفاءات والباءات (الفصول والأبواب) . أهي اسم الحرف العربي الذي يكون وحده أداة العطف الرئيسية في بناء الجمل العربية ، فيكون وضعه بهذه الصورة رمزاً لأن الكلام متصل وإن كان ظاهره الانقطاع ، كما أن الحياة نفسها متصلة ، إلى درجة الاختلاط ، مهما حاولنا تجزئتها ؟ هذا التفسير – على كل حال – أخف على النفس من أن تكون تعريبا لكلمة التعجب الامريكية ، التي أصبحنا نسمعها أحياناً في بعض التمثيليات العربية أو المعربة

لنترك هذه الاضافات المصطنعة

القفز على الاشواك

ولننظر فى العمل نفسه «رضوان» فى عطلته (عرفنا ذلك من العنوان) يتمني أن يذهب إلى القاهرة ، إلى الأشياء الأصيلة فى القاهرة ، القلعة ، جامع السلطان حسن ، وأن يبتعد عن «هذه البلدة المكتظة بالزهور الصناعية» التي لا نلبث أن نعرف أنها بورسعيد .

بورسعيد ، التي صنعت يوماً ما ملحمة للشعوب العربية كلها حين استطاعت أن ترتجل ، فى أيام قليلة ، مقاومة شعبية مسلحة أثبتت لجنود الحملة المشتركة (الانجليزية ، الفرنسية ، الاسرائيلية) أن احتلال بلد حر قد يكون أشد صعوبة وأغلى ثمناً من غزوه. بورسعيد التي أصبحت اليوم «منطقة حرة» (ما أقسى ما تعانيه الكلمة حين تغادر عالم القتال والفداء وتدخل في عالم التجارة والتهريب !) . لم يعد أحد يذكر ١٩٥٦ ، ليس ثمة أثر واحد يذكر بها ، هناك اسواق ، هناك مدينة سياحية ، والناس يأتون من المدن الأخرى إلى بورسعيد ليتزودوا بما يمكنهم شراؤه من السلع المستوردة والمعفاة من الجمارك ، ويحتالون لاخفائها عند عبورهم بوابة المدينة وهناك أناس حرفتهم التهريب ، لا يهربون البضائع المستوردة فقط ، فبورسعيد أيضا بوابة سيناء من الجهة الأخري ، وأرض سيناء رحبة أمام تجار المخدرات .

الحلم بالعالم المثالى

«رضوان» مثقف ، يمكنك أن تقول إنه كاتب مبدع ، أو هكذا كان يمكن أن يكون، بحكم ندرة المثالية التي فيه . والتى جعلته يحلم بالقاهرة كعالم مثالى . ولكنه بحكم كسب القوت ، صحفى ، مراسل لإحدى صحف العاصمة . محبط لأن معظم ما يرسل الى صحيفته لا ينشر ، لعله بدأ هذه العطلة كي يراجع حساباته جميعها ، الماضي والحاضر والمستقبل ، ما أقسي هذا المزيج ! فرضوان بورسعيدى أصيل ، وبما أنه شاب ، وبما أن الرواية مكتوبة سنة ٩٥ ، أو قبلها بقليل ، فهو لا يذكر شيئا عن ملحمة بورسعيد أيام العدوان الثلاثى ، ولكن اشترك فى حرب ٧٣ المجيدة والهجوم على خط بارليف ، كما أن ذكريات طفولته الباكرة تعيده إلى أيام شركة القناة حين كان الموظفون الأجانب هم السادة المرفهون ، ورضوان مطلق ، حديث الطلاق (على وزن حديث الزواج) وقد جاء شقيق زوجته وأخذ «عفش البيت» ما عدا الكتب «طبعا» ومنضدة وسريرا سفريا صغيرا وبعض أدوات المطبخ . مازال فى إمكان رضوان أن يقلي بيضاً ويأكله في «البيت» وأن يمارس الجنس مع بعض جاراته على السرير السفرى ولكنه طوال هذه الرواية رحالة في جوانب بورسعيد ، وأيضا فى المدينة المرتجلة التى

خططها المهربون على حافة الصحراء والتي يمكن فكها وإزالتها من الوجود في بضع لحظات .

رحلة الضياع التي يقوم بها فنان مجهض وصحفي محبط ، في المدينة المصرية الأحداث تاريخاً والأكثر امتلاء بالمتناقضات رغم تاريخها القصير تقوده إلى أوكار الحشيش ومكاتب الصحف وقصور المهربين الكبار حيث يقوم بمغامرة بطولية لانقاذ إحدى «الفنانات» التي تعلقت به دون سبب واضح - ربما ، حسب التعبير المألوف ، كما يتعلق الغريق بقشة ، هي أيضا رحلة بلا هدف ، ملحمة ضياع مصرية في عالم تلبس فيه الأسطورة ثوب الحياة المعاصرة ، أساطير تمثل الخبث والبلاهة والاجرام تجتمع أحيانا - على نسب مختلفة - في بعض الشخصيات تتوزع أحيانا على بعضها الآخر ، كل ذلك دون أدنى مبالغة فملامح العصر الحديث لا تحتاج إلى مبالغات والبطولة أيضا تصور دون مبالغة في تلك اللغة المزيج من العامية والفصحى والتي لم يكن يصلح غيرها سواء تكلم الراوي أم ترك «بطله» يتكلم ، ومع ذلك فإن الفقرة الطويلة - نسبيا - التي تعود فيها مناظر الهجوم على خط بارليف إلى ذاكرة رضوان (ص ص ٥٢ - ٥٣) كفيلة - إلى جانب المغامرة شبه الرومنسية مع «الفنانة» الصغيرة اسما وسنا - أن تخفف شيئاً من قتامة الواقع الكريه - والمقزز أحيانا - الذي تغمسنا فيه الرواية، سأكتفي من ذلك الوصف بسطور قليلة :

«وجلس العساكر على حافة القناة يمصون القصب ، المشهد يتكرر كل يوم ، عشرة غريبة ، وعساكر اليهود شبه نعسانين على الجبهة الأخرى فوق حصون خط «بارليف» ، ثلاثة منهم ، ذكرى لا تنمحي ، يلبسون شورتات ملونة «نادر غالي» فكرينه ؟ كان صاحبي ، قال بص ياله ، بينهم بنت بالبكيني ، لم استطع تمييز البكيني من غيره ، وسحبونا من عملية مص القصب بهدوء ، وزحفنا إلى الخنادق ، ارتدينا ملابس الحرب . أحسست أن شيئا ما يحدث ... ... خمسة عساكر يهود وخلف الدشمة قذفت اتجاههم بالقنبلة الأولى ، وتقدمت ، لا أذكر سوى أنني أمطرت المكان بثلاث دفعات من الرصاص ، حصدت العساكر الخمسة ، انتقام ، أنتقم لنفسي وكل شئ لم يعرف أحد في العالم ماذا كان يجرى داخل العسكرى المصري . كل الإهانات ، أقصد لا أعرف ، ربما كان غضبا ضد كل شئ ...»

ولكن الكاتب لا يتركنا إلا بعد أن يوحي إلينا ، في نهاية رحلة الضياع ، بأن بطله قد جن .

الإسلام والتقدم

بقلم : د. محمد عمـــارة

●● ليس كل «تغير» «تقدما»..

فالتقدم – لغة – هو السير إلى الأمام.. لكن «الأمام» – الجديد – إذا لم يكن خيرا وأفضل من السابق – القديم – لا يستحق المعنى الاصطلاحى للتقدم، حتى وإن انطبق عليه معناه اللغوى؟!..

وإلا، فهل يعد «تقدما» السبق إلى الجديد فى وسائل الدمار؟! أو فى وسائل الترف التى تزيد من رخاوة الإنسان وتخنثه؟! والجديد والسبق فى سبل اللذة والشهوة غير المضبوطة بالأخلاقيات؟!..

إن الاتفاق على ضرورة التقدم.. والرغبة فى الترقى، ليست موضع خلاف.. لكن من الأهمية بمكان أن نحدد مضمون هذا «التقدم» الذى نريد.. فنتأكد هل يحق لنا «ارتقاء» حقيقيا؟ أم هو مجرد سبق وتغيير؟!.. ولنتبين معنى هذا «الارتقاء»، وهل تضبطه أخلاقيات الدين، فيحقق – بالتوازن – سعادة فى الدنيا، تؤهل لسعادة الآخرة، التى هى خير وأبقى؟.. أم أنه من نوع ذلك «الارتقاء إلى أسفل»؟!.. الذى ننخدع به عن الارتقاء الحقيقى فى كثير من الأحيان؟!.

إن قرآننا الكريم يعلمنا أن «التقدم» هو المقابل «للتأخر» «لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» (١) .. «ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين» (٢).. لكن «التأخر» فى مواقع النساء عند الصلاة بالمساجد أفضل لهن وللرجال من «التقدم»!.. ولقد كان «تقدم» و«سبق» بعض الصحابة – فى غزوة أحد – إلى



جـمـع الغنائم، هو الكارثة التى جلبت الهزيمة إلى المسلمين ؟!.. فليس كل تقدم خيرا.. وليس كل سبق ارتقاء، بالمعنى الحقيقى للتقدم والارتقاء.

كذلك يعلمنا القرآن الكريم أن للتقدم قوانينه وسننه.. وأن التخلف والتأخر ليس إلا ثمرة لغيبة هذه السنن والقوانين.. فليس التقدم أمانيّ وأحلاما للكسالى والقاعدين، حتى ولو حسنت منهم النوايا وصحت لديهم المعتقدات النظرية.. فحتى «الإيمان» الدينى، لا يكتمل إلا إذا جاء «العمل» ليجسد «التصديق»!.

وشواهد القرآن الكريم على هذه الحقيقة تتعدى اقتران «الإيمان» ب «العمل» فى آياته الكريمة الكثيرة – وهو ملحظ له دلالته الكبرى.. وإنما نرى هذه الشواهد أيضا، فى مثل قول الله، سبحانه وتعالى : «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا» (٣) فتحقيق الغايات فى السعادة والتقدم والارتقاء، وتغيير سلبيات الواقع ونواقصه لا يتأتى بمجرد الأمانى، حتى ولو كانت أمانى المؤمنين.. فبصرف النظر عن عقائد أصحاب الأمانى – مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين – فلابد لتحقيق الأمانى من الأخذ بالسنة وإعمال القوانين، والتعلق بالأسباب.. فهذا الكون الذى نعيش فيه قد أبدعه الله لغايات وحكم ، وأقام نظامه على القوانين والعلل والعلاقات والأسباب، التى لا تبديل لها ولا تحويل.. كان ذلك منذ بدء الخلق، وحتى يبدل، سبحانه وتعالى، هذه السنن والقوانين والأسباب، فيرث الأرض ومن عليها «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٤).. «فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن

تجد لسنة الله تحويلا» (٥).. «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٦) .. «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا» (٧)..

● المعجزات صنع إلهى

بل إنه حتى المعجزات، التي هي خوارق للسنن والقوانين المعتادة - أي خوارق للعادة - إنما هى صنع إلهى، يتفرد مسبب الأسباب، وخالق السنن، ومقنن القوانين، بإظهارها على يد رسله وأنبيائه ، لتأييدهم وإقامة الأدلة والإعلام على صدق دعوتهم .. وذلك وفق قوانين وسنن لهذه المعجزات ، لا يعلمها ولا يستطيع السيطرة عليها ولا التحكم فيها البشر العاديون ؟!.. فهناك خلف الأسباب العادية ، والقوانين الطبيعية ، القدرة المطلقة لخالق الأسباب والمسببات.. بهذه القدرة خلقها ، وأودعها تأثيرها «الذاتي - الذى هو مخلوق في ذات الوقت».. وبهذه القدرة يستطيع - عندما يشاء - أن يوقف فعل السبب المركب في الطبيعة، ليحل محله سببا آخر يصنع مُسَبباً جديدا ومغايرا؟!.

فلا شيء يتم بدون أسباب وقوانين وسنن تضبط علاقات الأسباب بالمسببات..

وما الحديث الشائع عن خلاف حقيقى بين حجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ - ١٠٥٨ - ١١١١م) وفيلسوف الإسلام ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) حول هذه القضية - قضية السببية - إلا وهم من الأوهام الفكرية الشائعة !.. فالخلاف بينهما شكلى، فى مصطلحات التعبير، ومناطق التركيز.. فابن رشد - الذى أكد على علاقة السببية، لم يقف بالمسببات عند أسبابها الذاتية والمباشرة، وإنما أكد على تأثير ودور «الفاعل من خارج» الأسباب المادية.. والذى هو الخالق لهذه الأسباب المادية ذاتها.. فقال : «ولا ينبغي أن يُشَك فى أن هذه الموجودات قد يفعل بعضها بعضا ومن بعض، وأنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفاعل، بل بفاعل من خارج، فعله شرط في فعلها، بل في وجودها، فضلا عن فعلها..». (٨).

وهو ذات المعنى الذى عبر عنه الغزالى بمصطلح «الاقتران» بين السبب والمسبب.. فخالقهما قادر على إيقاف عمل السبب فى المسبب، بخلق سبب جديد، أو بتغيير طبيعة المسبب كي لا يفعل فيه السبب القديم.. «إننا نسلم أن النار خلقت خلقة إذا لاقاها قطنتان متماثلتان احرقتهما ، ولن تفرق بينهما إذا تماثلتا من كل وجه . ولكنها ، مع هذا، تجوز أن يلقى شخص

فى النار فلا يحترق، إما بتغير صفة النار أو بتغير صفة الشخص». (٩).

فليس بين مفكرى الإسلام من أنكر السببية بإطلاق، ولا السنن والقوانين.. وليس بينهم من أنكر القدرة المطلقة لخالق الأسباب والمسببات على التغيير والتبديل.. وليس هناك منهم من أنكر ارتباط التقدم والتغيير والارتقاء بأسبابه وسننه وقوانينه.. مع اللجوء إلى الله، سبحانه وتعالى، بعد استفراغ الجهد فى الأخذ بالأسباب، ليعيننا على ما وراء هذه الأسباب!.

● معنى التقدم والاختلاف فيه

لكن الخلاف قد وقع – بين المذاهب والفلسفات – فى معنى التقدم.. وفى المناهج والسبل المحققة للارتقاء.. فأصحاب النزعة «الباطنية – الغنوصية»: يرون «التقدم .. والارتقاء» – الذى يسمونه «خلاصا» – يرونه فى المجاهدة الفردية .. الجوانية.. التى تعتمد على العرفان الذاتى، وتقوم على إدارة الظهر للمادة وعالمها، والجسد وحاجاته، والدنيا وما فيها.. وذلك وصولا إلى قمة التقدم والارتقاء – الخلاص – بالفناء فى المطلق والكلى والحق.. وهم فى سبيل ذلك يحطون من شأن الأسباب – ومنها «العقل» و«النقل» و«الحرية»، و«الإرادة» و«الاستطاعة»، و«القدرة» – رافضين الاعتراف بأية علاقة تلازم أو فعل أو تأثير بينها وبين النتائج والمسببات والثمرات.. وذلك اعتمادا على أن هذه النتائج والمسببات والثمرات إنما هى «هبات» و«فيض» و«إلهام»، لا أثر فيها للأسباب!.

وهذه النزعة «الباطنية – الغنوصية» هى ثمرة من ثمرات الفلسفة الإشراقية القديمة، التى ازدهرت فى مدارس فارس الفلسفية، ثم طبعت التشيع الفارسى بطابعها .. وتجلت، كذلك، فى التصوف الفلسفى – وبالتحديد لدى القائلين بوحدة الوجود، أو قصر الوجود الحقيقى على الله وحده.

وأصحاب هذه النزعة – التى هى على النقيض الكامل من النزعة المادية – تبعا لإنكارهم أى وجود حقيقى لما سوى الله، سبحانه وتعالى، ينكرون وجود سببية أو أسباب فى العالم أو الإنسان أو المجتمعات.. كما ينكرون أية علاقة للتقدم والارتقاء بعالم الماديات.. فالخلاص – التقدم – هو الارتقاء على درب الفناء الروحانى، وعلى حساب الدنيا وما فيها!.

● نظرة الباطنية للعالم

ونحن إذا تتبعنا قسمات نظرتهم إلى العالم والإنسان، فى ضوء علاقتها بالله، سبحانه وتعالى، سنجد الموقف المفضى إلى نفى الوجود – مطلقا – أو الوجود –

الحقيقى - ومن ثم السببية والأسباب وفعلها - عما سوى الله.

أ - فهم لا يعتدون بالعمل - كسبب فاعل ومثمر - بل يعرضون عنه.. وإذا مارسوه، فإنهم لايرون «علاقة الضرورة» بينه وبين ما يثمر من آثار وثمرات ومسببات.

ب - وهم جبريون، ينفون وجود الإرادة الإنسانية .. وعلى حد قول «النفرى» (٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م) - وهو من كبار فلاسفتهم - : فإن «المماليك - «أى فاقدى الحرية والإرادة» - فى الجنة. والأجراء - «أى ذوى الإرادة» - فى النار»؟! (١٠)

فالجبر هو طريق التقدم - الخلاص - والحرية هى طريق السقوط فى النار؟!.

جـ - وهم ينكرون الوجود الحقيقى لما سوى الله، سبحانه وتعالى، فيرى فريق منهم أن وجود ما سوى الله لايعدو وجود «الظل» و «الوهم».. بينما يراه آخرون عدما خالصا!.. ففناء «الخالق» فى «الحق» - عندهم - هو حقيقة التقدم والخلاص!..

د - ولذلك، فهم لايعتمدون على «الأغيار» - ومنها «المادة» والأسباب المودعة فيها والمخلوقة بها - ولا يثقون فيها، فهى وهم أو عدم محض!.

هـ - وينكرون أن تكون معرفة المصنوع سبيلا لمعرفة الصانع.. والتدبر فى «الخلق» طريقا للإيمان «بالخالق».. فلا وجود، فى الحقيقة - عندهم - للمصنوع ولا للخلق، حتى يكون النظر فيها والمعرفة لها سبيلا لمعرفة الخالق الصانع!.

و - وهم يعتبرون السلامة «هبة»، لا علاقة لها بالعمل والتكسب والأسباب.. وحتى العبادات - إذا مارسوها - على النحو الذى جاءت به الشريعة - فإنهم ينكرون أن يكون لها - فى السلامة والنجاة والخلاص والتقدم - فعل الأسباب للمسببات.

ز - وكذلك المعارف، يرونها «هبة» لا علاقة لها بالاكتساب والأسباب.

حـ - ويصرحون، فى مذهبهم، بنفى السببية - أى العدة - ويقولون بانعدام تأثيرها فى الارتقاء والتقدم إلى الغاية - التى يسمونها مقام «الوقفة».. وبعبارة «النفرى» : «وقال لى - «أى الله، سبحانه وتعالى» : كل أحد له عدة إلا الواقف، وكل ذى عدة مهزوم»؟! (١١).

ط - ذلك أن غاية أصحاب هذه النزعة «الباطنية - الغنوصية - العرفانية»، ليست تحقيق «خلافة الإنسان لله»، سبحانه وتعالى، فى عمارة العالم، بالكسب والأسباب، وإنما غايتهم - وتقدمهم - هو «فناء الإنسان فى الله»، وذلك عن طريق

«محو الأنا»، لا إثباتها، وهى غاية تتحقق بالهبة والفضل، وليس بالكسب والأسباب؟!.. وبعبارة «النفرى» – أيضا – عن هذه الغاية – بلوغ مقام «الوقفة»، التى يفنى فيها الإنسان عن «شهود السوى» أى يفنى عن شهود ما سوى الله : «وقال لى – «أى الله، سبحانه وتعالى» : الوقفة لاتتعلق بسبب، ولا يتعلق بها سبب» (١٢).

فهذا مذهب فى التقدم والارتقاء والخلاص.. لكن، بمفاهيم خاصة لهذه المصطلحات، تجعله مغايرا للتقدم الذى يعنيه الإسلام!..

● التقدم لدى العلمانيين

وعلى النقيض من هذه النزعة «الباطنية – الغنوصية» – ذات الأصول الفارسية – فى مذاهب التقدم – تأتى النزعة «المادية» – ذات الأصول «الأغريقية – الغربية» .

فمفهوم التقدم، لدى الماديين – وتجلياته فى الحضارة الغربية الوضعية العلمانية – يعنى : السيطرة على الطبيعة وقهرها من قبل الإنسان.. ذلك الإنسان الذى تصوره الماديون : «سيدا لهذا الكون»، لا حدود لحريته واختياره.. وهدف هذه السيطرة على الطبيعة والقهر لها، هو تحقيق الحد الأقصى من «القوة»، والحد الأقصى من «الوفرة المادية»، وذلك لإشباع الحدود القصوى من الحاجات واللذات والشهوات الدنيوية للإنسان – والتى رأوها غير متناهية؟!.. كل ذلك، بصرف النظر – بل وبرغم – أخلاقية أو لا أخلاقية السبل والوسائل المحققة لهذه الغايات .. بل وبرغم – وبصرف النظر – عن لا أخلاقية كثير من هذه المقاصد والغايات؟!.

وفى سبيل تحقيق هذا اللون من «التقدم» رأى أصحاب هذه النزعة المادية:

أ – أن مصدر المعرفة – المستحقة لوصف المعرفة والعلم والحقيقة – هو المادة، وعالم الشهادة.. أما ما عدا ذلك، من عالم الغيب، وما وراء المادة، فلا ترقى «معارفه» إلى أكثر من «الميتافيزيقا»، و«معارف» طفولة العقل البشرى، التى هى أدخل فى «الخرافات» منها فى حقائق المعارف والعلوم!.

ب – وأن سبل الإنسان إلى المعارف الحقة لا تعدو «التجارب المحسوسة بالحواس الخمس» و«براهين العقل الإنسانى» فى الاستدلال والاستنباط.. ولا مكان «للوحى .. والنقل .. والأدلة السمعية».. ولا «للوجدان» فى سبل المعرفة المعتمدة والمأمونة!.

جـ – وأن الصراع بين الأضداد هو قانون الحياة والأحياء – فى الأحياء الطبيعية – التى تخلقت ذاتيا، ونشأت فيها نسمة الحياة طبيعيا.. ثم ارتقت وتطورت بالانتخاب الطبيعى وعن طريق

الإســلام والتــقــدم

قـهـر الأقـوى للأضـعـف - لأن الأقـوى هو الأصلح للبقاء - ..

وكـما حـدث ويحـدث قيـام وعمل هذا «القانون» في الأحياء الطبيعية .. فلابد من قيامـه وعمله في الاجتمـاع البشري - بصـراع الطبـقـات المحـرك للتـاريخ .. والصراع بين «قوى الإنتاج» وبين «علاقات الإنتاج» - المحدد لخط سير تطور وتقدم النظم الاقتصادية والاجتماعية.. بل والأنساق الفكرية والثقافية والاعتقادية.. وعلى نفس المنوال تكون العـلاقـات بين الحضـارات والدول في العـالم.. حتمـية صراع الأضداد، ومشروعية البقاء للأقوى، لأن الأقـوى هو الأصلح.. فـهي «رسـالة»، وليست عدوا من شريعة الغاب؟!.

د - وبنفس الفلسفة تكون النظرة إلى «البيئة» - وهي «الطبيعة» - فهي مسخرة للإنسان - بمعنى السخرة - ليقهرها - لا بمعنى الرفق بها والارتفاق معها - فكل ما يحقق «القوة» و «الوفرة» - بالمعنى المادي للقوة والوفرة - هو من صميم «التـقدم» لدى أصحاب النزعة المادية، حتى ولو أخل بتوازن الإنسان - كفرد وكمجتمع - وحتى لو أخل بتوازن البيـئة التي يعيش فيـها الإنسان.

وحتى المعايير التي يضعها أصحاب هذه النزعة «المادية» على الممارسات، تقف عند الدنيا، وعند المصالح الدنيوية، وعند كفـاءة تحـقـيقها للوفرة المادية والحدود القصوى للذات الدنيوية، فقط لا غير، أو بالدرجة الأولى !..

هـ - وأمـا في النظرة للموروث . فإن التقدم - عند أصحاب هذه النزعة المادية - وخـاصـة لدى تيـار «الحـداثة» - إنما يعني الانقطاع التاريخي والقطيعة المعرفية مع الجذور الحـضارية.. فكل البناء المادي دائم التغيير والتقدم والترقي.. وكل البناء الفكري - حتى الأخلاق والقيم والدين - دائم التـغير والتطور أيضا .. فـفواصل ومحطات الانقطاع والقطيعة في الثقافة والمثل والمعايير هي القانون المطلق الدائم الإعمال!..

تلك هي أبرز معالم مفاهيم «التقدم» لدى أصـحـاب النزعـة المادية.. تلك التي جعلت من إنسانها - على نحو ما نراه في بعض التطبيقات الغربية - وكذلك المقلدة لها - :

- ذلك الإنسـان الذي يحـاكي - في القوة المادية - الأسد المفترس.
- والذي يريد العالم غابة الأقوى فيها هو الأصلح للبقاء الفكري والمادي .
- والذي يـأكل في سـبـعـة أمـعـاء - مصـداقا للحديث النبوي الشريف، الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»!
- والذي يعلم ظاهرا من الحـيـاة

الدنيا، عازلا علومه - بل ويتوك معلوماته - عن تغيير النفس وتزكيتها بالعلم النافع.

● والذى غدا عملاقا، لكنه يقف على ساق واحدة، هى ساق المادة.. والقوة المادية.. والوفرة المادية.. واللذات المادية الدنيوية!.. حتى لقد حقق أعلى مستويات الوفرة المادية فى العالم، وأيضا أعلى مستويات القلق والشك واللاادرية والقنوط - بل والانتحار الفردى والجماعى - فى هذا العالم أيضا!؟!.

وهكذا تفلس النزعة المادية فى تحقيق التوازن للإنسان فى هذه الحياة - وفى هذا التوازن جوهر السعادة الإنسانية - .. لقد أفلست قديما فى تحقيق السعادة «لقارون».. وهى تفلس اليوم فى تحقيقها للمجتمعات «القارونية» التى سادت فيها!.

كما أفلست النزعة «الباطنية الغنوصية» فى أن تمثل طريقا لتقدم أمة أو مجتمع، وإن نجحت فى شىء من ذلك بالنسبة لآحاد من الناس .. فلم تجاوز حدود «الاستثناء - الشاذ» الذى لا يجوز عليه القياس!..

● الرؤية الإسلامية للتقدم

● أما الرؤية الإسلامية للتقدم، والمذهب الإسلامى فى الارتقاء، فإن له مفاهيمه المتميزة، ومناهجه المتميزة أيضا.

ونحن إذا شئنا معيارا لهذا التقدم الإسلامى، وللمذهب الإسلامى فى الارتقاء، فليس كالوسطية الإسلامية معيارا يتميز به عن مفاهيمه المغايرة فى النزعة «الباطنية - الغنوصية - العرفانية».. وفى نقيضتها «النزعة المادية» أيضا.. فبالوسطية الإسلامية يكون التقدم إسلاميا، وذلك عندما يكون تحقيقا :

أ - للتوازن.. الذى هو الوسط.. أى العدل.. فى ذات الإنسان الفرد، وفى علاقاته بالآخر، وأيضا فى علاقاته بالبيئة والطبيعة والمحيط.

ب - وتحقيقا للتوازن الذى يجمع بين «الوحدة فى الإنسانية» بين البشرية جمعاء.. وبين «التعددية» فى الشعوب والقبائل والقوميات والحضارات، ليصبح العالم «منتدى حضارات : متميزة .. ومتفاعلة»، لا متصارعة، ولا منغلقة.. أو تابعة بعضها للبعض الآخر.

جـ - وتحقيقا للتوازن بين «وحدة الدين الإلهى» - أزلا وأبدا - فى أمهات عقائد الإيمان : بالألوهية الواحدة.. والإيمان بالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء.. وبالعمل الصالح.. مع التعددية فى الشرائع، ليكون السباق والاستباق على درب الاقتراب الأكثر من تحقيق مُثُل الاعتقاد الأصح بعقائد هذا الدين الإلهى الواحد.

د - وتحقيقا لتوازن مصادر المعرفة.. وسبل تحصيل هذه المعرفة.. بتكامل آيات كتابى الخالق، سبحانه وتعالى، آيات «كتاب الوحى - المقروء» وآيات «كتاب الكون - المنظور».. مع تكامل سبل الإنسان لتحصيل معارف هذه الآيات..

هداية : العقل، الذى إن استقل بمعارف عالم الشهادة، فلن يستقل بإدراك معارف عالم الغيب.. وهداية: النقل والوحى – بلاغا قرآنيا، وبيانا نبويا – التى تهدى الإنسان فيما وراء مدركات ملكاته النسبية، كمخلوق نسبى القدرات والملكات.. وهداية : الحواس الخمس، التى تدرك – بالتجربة .. الكثير من حقائق هذا الوجود.. وهداية : الوجدان – والنور القلبى – الذى هو لطيفة ربانية خلقها الله متعلقة بالقلب – جوهر الإنسان.

فبهذه المصادر للمعرفة .. وبهذه الوسائل للمعرفة .. تتكامل وتتوازن معارف الإنسان فى نموذج التقدم الإسلامى ، حيث تنتفى أحادية المعرفة – باطنية كانت أم مادية – عقلية كانت أم نقلية – نظرية ذهنية كانت أم تطبيقية يدوية – ..

هـ – وتحقيقا لتوازن حقوق كل من «التوحيد» لخالق كل شىء – أسبابا كانت أو مسببات – .. والتسليم بأسباب مادية ، قائمة فى الظواهر الكونية والبشرية والنفسية ، لها فعل وتأثير فى المسببات ..

فوجود هذه الأسباب المادية ، وفعلها فى المسببات حقيقة لاريب فيها .. والإيمان بأن هذه الأسباب الفاعلة هى أيضا مخلوقة للفاعل الأول والخالق الأوحد لكل موجود ، هى الأخرى حقيقة لاريب فيها .. فهذا الكون – المادى .. والبشرى – تحكمه «الأسباب – المخلوقة» لخالق كل ما فى الوجود ، أسبابا كانت أو مسببات ..

وهذه الوسطية «الجامعة بين «توحيد خالق كل شىء» وبين الاعتراف «بفعل الأسباب المودعة فى الطبيعة» هى التى عبر عنها – عن صدقها .. وعن صعوبة استيعابها من غير أهل الاختصاص – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [١٦٣ – ٢٥٥ هـ ، ٧٨٠ – ٨٦٩م] عندما قال :

«إن المصيب هو الذى يجمع : تحقيق التوحيد ، وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال : ومن زعم أن التوحيد لايصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع ، فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن من رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه» ؟ ! (١٣)

و – وتحقيقا لتوازن «سلطة الإنسان» فى عمارة الأرض – بما تقتضى من حرية وإرادة واستطاعة وقدرة واختيار ومسئولية وتكليف – وبين «سيادة الحاكمية الإلهية» فوق «سلطة الإنسان» لأنها «سلطة الإنسان» الخلقية لسيد الوجود وخالق كل موجود وراعى ومدبر كل أمر .. وليست سلطة الإنسان المغتصب للسيادة الإلهية فى هذا الوجود .. ومن ثم فإنها «سلطة» محكومة بآفاق «سيادة الحاكمية الإلهية» ،

المتمثلة فى الشريعة الإلهية التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهى للإنسان ! ..

وإذا كانت الكهانة الكنسية الغربية قد أفرطت عندما ألغت «سلطة الإنسان» ، بجعلها الدولة والعلم والإجتماع والسياسة وكل العمران البشرى دينا ثابتا مقدسا ، وسيادة حاكمية إلهية لا خلافة فيها ولا حاكمية للإنسان ، وذلك يوم ان ادعت أنها تحكم الدولة بالتفويض والحق الالهى..ثم جاءت العلمانية الغربية - كرد فعل لذلك - ففرطت ، عندما جعلت سلطة الإنسان فى الدنيا والدولة «سيادة وحاكمية» لامعقب عليها من نبأ الغيب وشريعة السماء وحقوق الله ، حتى لتقرر هذه العلمانية للإنسان - إذا هو اختار - أن يحل الحرام ويحرم الحلال الدينى .. فإن هذا الخلل فى التوازن ، لدى فريقى الإفراط والتفريط ، هو الذى برئت منه الوسطية الإسلامية فى علاقة «سيادة الحاكمية الإلهية» بـ «سلطة الأمة» فى الفكر الدستورى لدولة الاسلام ..

تلك بعض من معالم المذهب الاسلامى فى التقدم .. مذهب الوسطية الإسلامية ، المجسد للعدل والتوازن .. والمتميز عن إفراط «الباطنية - الغنوصية» وتفريط «المادية - الوضعية - العلمانية» ..

وصدق الله العظيم إذ يقول [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا](١٤) ..

وصدق رسوله الكريم إذ يقول : «الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » (١٥)

الحواشى :

(١) المدثر : ٣٧

(٢) الحجر : ٣٤

(٣) النساء : ١٢٣

(٤) الأحزاب : ٦٢

(٥) فاطر : ٤٣ .

(٦) الفتح :٢٣ .

(٧) الإسراء : ٧٧ .

(٨) [تهافت التهافت] ص ١٢٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

(٩) [تهافت الفلاسفة] ص ٦٧ ، ٦٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

(١٠) [المواقف والمخاطبات] - موقف الحجاب - تحقيق : آرثربرى . تقديم : د. عبد القادر محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(١١) المصدرالسابق -موقف الوقفة -

(١٢)المصدرالسابق- موقف الوقفة

(١٣) [كتاب الحيوان] جـ٢ ص ١٢٤، ١٣٥ . تحقيق : الاستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة .

(١٤) البقرة : ١٤٣ .

(١٥) رواه الإمام أحمد

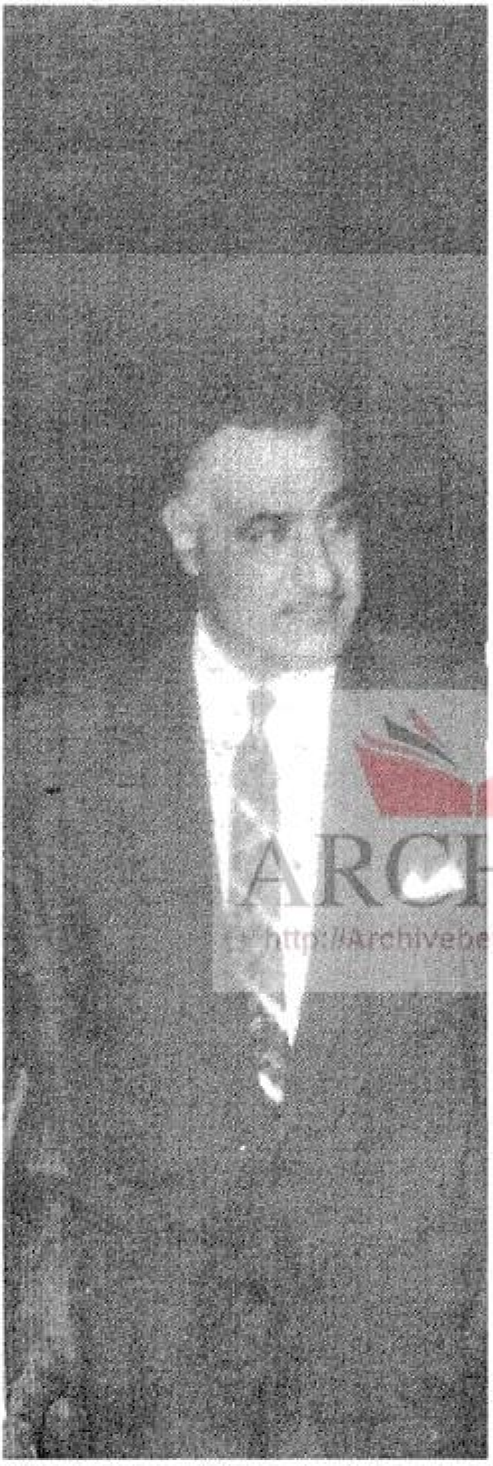
جمال عبد الناصر

مؤسس مصر المعاصرة

بقلم : د. عاصم الدسوقى

يرى هذا المقال رأيا آخر فى رجل القرن العشرين فى مصر، فعنده عبدالناصر هو مؤسس مصر الحديثة، ويجيب المقال عن السؤال الذى طرحه د. يونان لبيب رزق، هل سعد أم عبدالناصر هو رجل القرن العشرين.

■ كانت السياسة المصرية فى أواخر الأربعينيات تمر بمرحلة من الركود والدوران فى دائرة مفرغة من حيث تحديد علاقات مصر ببريطانيا وبدول الجوار وبالعالم الخارجى بشكل عام ، ومن حيث طبيعة السياسة الاقتصادية - الاجتماعية التى كانت قد تبلورت منذ مطلع القرن فى وجود طبقة من كبار ملاك الأراضى الزراعية وأصحاب رءوس الأموال التجارية والصناعية، والتى كان من طبيعتها الحفاظ على الوضع الطبقى القائم لصالح ، الأرستقراطية ، الحاكمة ، يسندها فى ذلك دستور عام ١٩٢٣ الذى كانت نصوصه جملة وتفصيلا لا تسمح إلا بحكم الصفوة المالكة .



ولقد ترتب على ذلك فى النهاية تهميش القوى الاجتماعية من الطبقة الوسطى وعامة المجتمع من العمال والفلاحين ، وما صاحب ذلك من محاولة قيادات هاتين الطبقتين التعبير عن مصالحهما بكل الوسائل ، واسماع اصواتهما الى صناع التشريع القانونى واصحاب القرار السياسى ، ولكن دون طائل بل على العكس ، كانت الحكومة تلاحق هذه القيادات وتضعها تحت رقابتها المتشددة ليل نهار . ومن ثم بقيت المشكلة الاجتماعية قائمة دون حلول جذرية إلا من بعض المسكنات فى اطار بعض السياسات الاصلاحية التى اضطرت اليها بعض الحكومات وخاصة حكومة الوفد تحت ضغط الازمة الاقتصادية .

اما من ناحية العلاقات السياسية مع بريطانيا فقد توقفت عند حدود معاهدة ١٩٣٦ التى لم يتم التوصل اليها الا بعد اثنى عشر عاما من المفاوضات الفاشلة (١٩٢٤ - ١٩٣٦) ، ولم تقدم بريطانيا على إبرام معاهدة إلا - كما هو معروف - بسبب تأزم الموقف الدولى بفعل سياسات النازية والفاشية فى اوربا وفى افريقيا ، وهى السياسات التى كانت تهدد كلا من النظم الرأسمالية والاشتراكية على السواء. ومنذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، والحكومة المصرية تحاول التوصل الى تعديل لنصوص المعاهدة (١٩٣٦) لصالحها دون جدوى حتى لقد اضطرت



صناع القرن العشرين

ان تعرض الأمر على مجلس الأمن (١٩٤٧) ولكن دون جدوى ايضا . ثم اقدمت على إلغاء المعاهدة في ١٩٥١ فاعتبر هذا إجراء غير قانوني يتعارض مع نصوص المعاهدة ، ومن ثم بدأت اعمال المقاومة غير الرسمية ، اى من خلال العمل الفدائي ، وهو وإن كان يتم بتأييد من السلطات الحاكمة ودعمها ، فإن القيام به في اطار المقاومة الشعبية وليس الرسمية يبين كيف كانت السلطة الحاكمة تنظر الى بريطانيا العظمى آنذاك .. هذا في الوقت الذى كانت مصر قد خرجت مع الدول العربية في عام ١٩٤٨ بهزيمة كبرى وعرف العام بعام النكبة ، وأقدمت على توقيع اتفاقية رودوس في العام التالي (١٩٤٩) كمدخل لتصفية آثار الحرب والبحث عن حل لمشكلة اللاجئين بتوطينهم في دول الجوار ، ولم يكن احد يتحدث عن قضية فلسطين .

أخطار في مواجهة النظام السياسي

ومن الجدير بالذكر ان بعض المؤرخين يبررون انصراف الحكومات المصرية آنذاك عن معالجة المشكلة الاقتصادية - الاجتماعية رغم خطرها على النظام السياسي ، بأنها كانت منشغلة بإيجاد تسوية للعلاقات السياسية مع بريطانيا في المقام الأول . فإذا علمنا ان التسوية السياسية مع بريطانيا كانت تستهدف استخلاص الحكم للارستقراطية الحاكمة دون منازع من المصالح الاجنبية ، وهي مصالح اقتصادية منافسة بطبيعتها ، أدركنا كيف كانت المشكلة الاجتماعية بعيدة عن بؤرة اهتمام الصفوة الحاكمة . ولانعنى من هذا العرض اغماط حق الاصوات العالية التي كانت ترتفع مطالبة بإقرار العدل الاجتماعي سواء في البرلمان او من خلال الصحافة ، فإن هذا أمر معروف ولكنه لم يكن ابدا ليتجاوز دائرة ابداء الرأى في اطار حرية القول وليس حرية الفعل ، وهي جوهر فلسفة الليبرالية الحاكمة .

عبدالناصر .. تاريخ جديد لمصر

هكذا كان الحال في أواخر الأربعينيات ومطلع الخمسينيات .. ثم حدث انفجار يولية ١٩٥٢ بقيادة جمال عبدالناصر الذى قدر له ان يصنع تاريخا جديدا لمصر المعاصرة بقلب الاوضاع القائمة كلها لصالح الطبقة الوسطى وعامة الفلاحين والعمال ، ويشق تيار واقعية جديدة انتقل بمقتضاه العمل السياسي

من قلاع الارستقراطيات وأبراجها الى حدود الحارة والقرية . ولقد قدمت الثورة نفسها للجماهير بقانون الإصلاح الزراعى الذى استهدف تجريد كبار ملاك الاراضى الزراعية من مصدر القوة في القرية ومن مصدر السلطة السياسية فى المدينة ، وذلك بتحديد مساحة الملكية الزراعية الفردية ، وتعديل علاقات الإنتاج لصالح المستأجر (سبتمبر ١٩٥٢) وايضا بإصدار تشريع جديد لصالح عمال الصناعة في ديسمبر من العام نفسه بمنع الفصل التعسفي من العمل مما ادى الى طمأنة العمال على مستقبلهم . كما تم انشاء ديوان الموظفين لإقرار مبدأ تكافؤ الفرص في تعيين المتعلمين فى الوظائف الحكومية العامة بعد ان كان الفوز بالوظائف يخضع للعلاقات القرابية أو علاقات التبعية بأى درجة من الدرجات بين مختلف المستويات . وكانت هذه التشريعات وحدها خلال الشهور الاولى من الثورة كفيلة بالكشف عن حقيقة البعد الاجتماعي لها من حيث أنها ثورة قامت لحماية الطبقة العاملة فى المدينة وفى الريف ، وتدعيم شرائح الطبقة الوسطى بعد طول تهميش . والحقيقة ان هذا البعد الاجتماعي يمثل العصب الحقيقي للثورة ، وهو فى تقديرى المحرك الاساسي لجمل السياسات الاقتصادية والتوجهات السياسية العامة لمصر الثورة خلال الخمسينيات والستينيات . وبمعنى آخر فإن هذا البعد يعتبر اللحن المميز فى معزوفة الثورة وأما بقية السياسات فإنها تعتبر من قبيل التنويعات على اللحن الاساسى . غير ان تحقيق البعد الاجتماعي للثورة لم يكن ليتم فى ظل هيمنة الوجود السياسى للقوى السياسية القائمة آنذاك ، وهي قوى قديمة وطبقية اختلفت مع الثورة منذ البداية حول طبيعة الاصلاح الزراعى . ومن هنا ألغيت الاحزاب السياسية فى يناير ١٩٥٣ بعد ان أوقع الضابط الاحرار قياداتها فى تناقضات داخلية تحت شعار «التطهير» وتم إلغاء النظام الملكى واعلنت الجمهورية. ثم حدث صراع على استقرار السلطة بين جمال عبدالناصر القائد الحقيقى لتنظيم الضباط الاحرار ومحمد نجيب الواجهة الرسمية للتنظيم ، انتهى لصالح جمال عبد الناصر.

الفارق بين جيل وآخر

ولابد من التأكيد هنا على ان اساس الصراع بين الاثنين يتمثل فى البعد الاجتماعى للثورة والذى لم يكن محمد نجيب قد استوعبه . وقد اصبح من المعروف الان ان محمد نجيب كان قد تم استيعابه داخل القوى السياسية القديمة ، وانه اخذ يتحدث بلسانها . ولعل ابلغ توصيف لحقيقة هذا الصراع ما قاله محمد نجيب نفسه فى كتابه « مصير مصر » من ان الصراع بينه وبين جمال عبد الناصر كان يتلخص فى ان ناصر

كان يريد ان يأكل الرغيف كله مرة واحدة، وأما هو - أي نجيب ، فكان يريد الاكتفاء بنصف الرغيف ثم يطالب بالباقي. وهذا في تقديري يمثل الفارق الاساسي بين جيل وآخر في العمل السياسي .. بين المناورة السياسية وبين الثورة . لقد كان منهج محمد نجيب في الفكر السياسي بهذا الشكل لا يختلف عن منهج القوى السياسية القديمة التي خاضت معارك خاسرة مع بريطانيا من اجل نصف رغيف ولم تحصل الا على الفتات . وكان طبيعيا ان تستقر السلطة في يد صانع الثورة جمال عبد الناصر والاطاحة بمن صنعته الثورة . ثم شرع جمال عبد الناصر بعد ذلك في ازالة الوجود البريطاني من مصر وانتهى الامر باتفاقية الجلاء في ١٩٥٤ وخروج آخر جندي بريطاني من مصر في ١٨ يونية ١٩٥٦ . وبعد ان انحسر النفوذ السياسي لبريطانيا في مصر بالجلاء ، أقدم عبد الناصر على تأميم قناة السويس في الشهر التالي للجلاء وذلك لتمويل مشروع السد العالي عصب مشروعات التنمية الاقتصادية الاجتماعية التي بدأت الثورة في القيام بها من خلال المجلس القومي للانتاج (١٩٥٥) . وتلا ذلك تأميم رأس المال الاجنبي لصالح نفس المشروعات وانشئت المؤسسة الاقتصادية العامة (١٩٥٧) . وكانت هاتان الخطوتان تؤكدان نية جمال عبد الناصر في ان تقوم الدولة بالدور الاقتصادي واستخدام آلياتها لتحقيق العدالة الاجتماعية . ولقد حاولت بعض عناصر القوى القديمة وقتذاك ان تتلاعب بهذا الاجراء و تفرغه من مضمونه الاجتماعي فاقنعت عبدالناصر بفكرة تمصير رأس المال الاجنبي وليس تأميمه . غير ان عبدالناصر سرعان ما ادرك ان التمصير لا يعدو ان يكون بابا خلفيا يدلف منه اصحاب رؤوس الاموال من المصريين للحلول محل الاجانب .. فكان التأميم . وفي اقل من اربع سنوات بعد خطوة تأميم رأس المال الاجنبي ، امتدت عباءة التأميم لتشمل وسائل الانتاج الكبرى والتجارة والخدمات التي يملكها اصحاب رؤوس الاموال المصريين (١٩٦١) ، وانشيء القطاع العام ليقود اقتصاد السوق والخدمات والانتاج ، والذي كان من شأنه تحقيق طموح عبد الناصر في النهوض بالعمال والفلاحين وسائر شرائح الطبقة الوسطى .. اذ سرعان ما اصبحت الدولة مسئولة عن تعيين خريجي الجامعات وحملة الدبلومات المتوسطة في سائر شركات ومؤسسات القطاع العام وكانت باكورة هذه السياسة تعيين نحو تسعة الاف خريج في يناير ١٩٦٢ كانت اعدادهم قد تراكمت منذ عام ١٩٥٦ . وقد ادى هذا الى تدعيم الطبقة الوسطى التي اصبح ولاؤها لاتردد فيه للثورة ومن ناحية اخرى حققت الثورة بهذا الاجراء سلاما اجتماعيا منشودا وحالت دون انحراف شباب الخريجين نحو تيارات مناوئة .



عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس ١٩٥٦

من الإصلاح الى الاشتراكية

وعند هذا الحد كان جمال عبد الناصر وحده دون زملائه من الضباط الأحرار، قد تطور فى فكره الاجتماعى من الاصلاح إلى الاشتراكية . ولعل هذا يفسر خروج بعض رفاقه من مسيرة العمل الثورى وهم اولئك الذين توقفت طموحاتهم عند حد إعلان الجمهورية وتحقيق الجلاء . وعلى هذا رأيناه يعتمد الاشتراكية منهجا فى ميثاق العمل الوطنى (١٩٦٢) : ثم أسهم اليسار المصرى فى ضبط مفهوم الاشتراكية لديه بعد الافراج عن عناصر هذا التيار فى ١٩٦٤ فى ظل تفاهم وتنسيق مع الاتحاد السوفييتى فى معركة البناء ، فنراه فى ١٩٦٥ يتحدث عن التطبيق العربى للاشتراكية بعد أن كان يتحدث عن الاشتراكية العربية .

ولم يكن من المعقول ان يناضل عبدالناصر من اجل قضية العدالة الاجتماعية ويكون حليفا للمعسكر الرأسمالى الغربى او حتى قريبا منه. ورغم ان الحليف الطبيعى فى هذه الحالة يكون المعسكر الاشتراكى الشرقى، فإن عبدالناصر المتدين كان يخشى من بعد الفلسفة المادية المقترنة بالتحول الشيوعى فى هذا المعسكر . ومن ناحية اخرى كان العصر «الخمسينيات والستينيات» هو عصر عنفوان الحرب الباردة ومحاولات الاستقطاب لصالح احد المعسكرين . ومن هنا اندفع عبد الناصر بكل قوته لتأسيس تجمع ثالث فى العالم الا وهو حركة الحياد الايجابى وعدم الانحياز فى باندونج



صناع القرن العشرين

١٩٥٥.. أى عدم الانحياز لصالح احد المعسكرين والوقوف الايجابى بجانب حركة التحرر الوطنى والتحرر الاجتماعى فى العالم . وكان قوام هذه الحركة الجديدة مستعمرات العالم الثالث التى حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية.

وبطبيعة الحال رأت الكتلة الشرقية فى هذه الحركة الجديدة حليفا طبيعيا ولو من باب التكتيك .. اما الدوائر الغربية فقد وصفت مبادىء هذه الحركة بأنها انتهازية ولا أخلاقية.

الوقوف الى جانب التحرر العربى

وهذا التطور فى الفكر السياسى لعبد عبد الناصر فرض عليه ان يقف الى جانب حركة التحرر فى دائرة العالم العربى أولاً من باب الأمن القومى للثورة المصرية . ومن المعروف أن لكل دولة حدودا لأمنها القومى تدافع عنها .. هكذا كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، والثورة الأمريكية (١٧٧٤) والثورة البلشفية ١٩١٧ .. إلخ

وهذا يفسر الدعمين المادى والادبى اللذين قدمهما عبد الناصر للثورة العربية التحررية فى الجزائر والمغرب وتونس والعراق واليمن وليبيا ، وكذا دعم حركة التحرر الاجتماعى والتحول الى الاشتراكية فى سائر المعمورة .

فى هذا السياق وليس فى غيره يجب ان نفهم ادارة عبد الناصر لحركة الوحدة العربية وللصراع مع اسرائيل باعتبارها عقبة فى سبيل الوحدة والى عبد الناصر ينسب فضل التعظيم من شأن المشكلة الفلسطينية والانتقال بها من مشكلة لاجئين تبحث الامم المتحدة عن وسيلة لإعاشتهم الى لن تكون قضية المصير العربى المشترك . ومن هنا احتضانه المقاومة الفلسطينية التى تمثلت فى حركة فتح كبرى المنظمات الفلسطينية . والاكثر من هذا تحديد علاقة مصر بدول العالم على اساس موقف هذه الدول من القضية

ولا شك ان صك شعار «حرية - اشتراكية - وحدة» بعد انفصال سوريا من الوحدة مع مصر (الجمهورية العربية المتحدة) يمثل نضجا ملحوظا عند عبد الناصر فى ترتيب خطوات حركة التحرر الوطنى والاجتماعى العربى . بل ان تحقيق الوحدة السياسية على اساس التنظيم الاشتراكى للاقتصاد يمثل اضافة فى نظرية القومية وذلك نظرا لان الفكر الماركسى يرى فى حركة القومية حركة البرجوازية من أجل السوق .

وهذا الطموح فى بناء القوة الذاتية للأمة العربية ورفع شعار «نفط العرب

للعرب، أوقع عبد الناصر فى الشرك الذى نصبه له خصومه التقليديون فى الغرب الاوربى الامريكى للايقاع به باعتباره عقبة فى سبيل السيطرة على المنطقة . وقد ساعدهم فى هذا بعض القوى العربية المعادية لحركة التقدم والتنمية العامة .. فكان العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ وعدوان يونية ١٩٦٧. وكان لابد من الهزيمة ... ولكن جمال عبد الناصر ابدا لم يتنازل عن طموحه ، وكان يسعى للسلام ولكن بشروطه ، ومن هنا شعار «السلام القائم على العدل» . واما السلام الذى كان الخصوم يقدمونه له فقد وصفه بأنه استسلام وليس سلاما .. ودائما ما كان يردد بالعامية البليغة قوله : اذا اعدائى مدحونى يبقى انا ماشى غلط .

ولكن ..

ماذا يقول خصوم عبد الناصر عن تجربته فى البناء والتنمية والتحرر الوطنى والوحدة العربية ؟!

لابد من التأكيد على ان خصوم عبد الناصر فى المقام الاول هم اعداء هذه التجربة التى نالت من مكانتهم الاجتماعية وامتيازاتهم السياسية . ويتلخص هجوم هؤلاء على عبد الناصر فى حياته وفى مماته على الاجراءات التى لجأت اليها الثورة فى تأمين مسيرتها من حيث ملاحقة العناصر المناوئة والمعارضة للثورة ومحاكمتهم وتوقيع العقوبات عليهم ، وعلى تبديد اموال البلاد فى الصرف على تأييد الثورات التحررية فى المحيط العربى ، والانفراد بالحكم واسقاط الديمقراطية من حساباته

غير ان هذا الهجوم ليس موضوعيا بحال من الاحوال ذلك ان اصحابه لا ينظرون للإجراء فى سياقه العام ويكتفون بظاهر الشيء دون مضمونه . فمن المعروف ان الثورة فى اى منطقة من مناطق العالم هى حدث استثنائى بطبيعته يستهدف تغيير واقع معين ، ولابد من اللجوء الى إجراءات استثنائية لتأمين الثورة من أعدائها فى الداخل وفى الخارج على السواء ، هكذا حدثت الاستثناءات فى كل ثورات العالم ، فى الثورة الفرنسية وفى ثورة المستعمرات الامريكية ، وفى ثورة البلاشفة الروس .. وكل قوة سياسية اعتلت الحكم فى بلدها أقدمت على اجراءات استثنائية لحماية نفسها من خصومها ، وقد حدث هذا فى أشد البلاد محافظة واكثرها ليبرالية . اما اذا قام جمال عبد الناصر بمثل هذه الاجراءات يصبح ما يقوم به عند خصومه عملا لا اخلاقيا . ولقد كان من الممكن ان تصبح ثورة يولية محور جبهة واحدة من العمل الوطنى لو ان كل القوى السياسية القائمة آنذاك تكاتفت معها خاصة ان هذه القوى كانت تستهدف فى حركتها تحقيق الجلاء ومحاصرة طغيان الملك . غير ان تلك القوى المعادية كانت تسعى لتستخلص لنفسها الحكم ورفضت ان تتكاتف مع قوة سياسية سبقتها فى تحقيق نفس الاهداف، ومن ثم دخلت فى صراع طويل مع عبد الناصر كان لا بد ان ينتهى بإجراءات استثنائية من حيث الاعتقالات

والسجن والمصادرة .. الخ .

واما بالنسبة لدعم ثورات التحرر الوطني فلا ينبغي ان توصف بأنها مجرد تبديد اموال ، لأن المسألة اكبر من ان تكون سوقا للبيع والشراء والمزايدة .. المسألة ببساطة تتعلق بتأمين الثورة لأن ثورة يولية في ١٩٥٢ قامت في محيط يعادي حركة التحرر الوطني والاستقلال من براثن القوى الاستعمارية ، وان تركها تنجح وتنمو يمثل تهديدا لمصالح القوى الاستعمارية الكبرى في المنطقة ، وبالتالي سعت هذه القوى اما لتحطيم الثورة ، واما حصر تأثيراتها بحيث لا تتجاوز حدود مصر ، وضرب الحصار عليها الى ان تموت . ومن هنا كانت محاولة عبد الناصر تأمين الثورة بتوسيع رقعة الثورات في المنطقة المحيطة حتى لا يحارب وحده معركة مصير الانسان العربي الجديد . ولم تكن ثورة يولية تنفرد بهذا النوع من التطورات .. فقد حدث هذا في فرنسا عندما قامت ثورتها وعملت النظم الملكية الاقطاعية المحيطة على تحطيمها ومنع امتداد تأثيراتها في القارة الاوربية ومن هنا كانت حروب الثورة التي اشعلت الروح القومية في اوربا ضد الامبراطوريات الحاكمة . وحدث هذا ايضا عندما اعلنت الجمهورية الامريكية الجديدة ان امريكا امتداد لأمنها ثم اصبح الامن القومي الامريكي منذ منتصف القرن العشرين فوق الكرة الارضية كلها . وحدث ايضا عندما عملت ثورة البلاشفة الروس على دعم الاحزاب الشيوعية في المناطق المحيطة لتوسيع مجال قوتها وتأثيرها .. ولم يقل احد من المؤرخين بخطأ هذه الاجراءات .. لكنه يحدث في مصر فقط من قبل خصوم واصحاب مشروعات تسعى للسلطة ولا شيء اكثر من هذا . ولو نجح احد هؤلاء الخصوم في الوصول للسلطة لعمل على تأمين سلطته ضد خصومه بكل الوسائل .

قول غير دقيق

واما القول بأن عبد الناصر انفرد بالحكم واسقط الديمقراطية من حساباته وحال دون تداول السلطة بعد أن كانت مصر قد حققت الديمقراطية والليبرالية في اطار دستور ١٩٢٣ ، فإنه قول غير دقيق ويسقط من حساباته الكثير . والحقيقة ان الديمقراطية منذ بدأت في بلاد اليونان (اثينا) كانت عبارة عن حكم اصحاب المصلحة الحقيقية .. واصحاب المصلحة الحقيقية هؤلاء يتغيرون من فترة لفترة حسب مقتضى تطور الظروف والاوضاع الاقتصادية والتي تنتج بطبيعتها قوى اجتماعية معينة تسعى للسلطة لتأمين مصالحها . وفي أكثر الاحوال تقدما تترك هذه القوى الجديدة الحاكمة هامشا من حرية التعبير للقوى الاخرى (القوى الثانوية) فيما يعرف بالجماعات الضاغطة وكل قوة من هذه القوى الثانوية الضاغطة حسب مهارتها في التوصل الى تمرير مصالحها عبر السلطة التشريعية القائمة .

وفي هذا الاطار كان دستور ١٩٢٣ في مصر يعبر عن اصحاب المصالح



الإصلاح الزراعى

الحقيقية كما حددهم أحمد لطفي السيد من كبار ملاك الاراضى الزراعية واصحاب رءوس الاموال ، وكان من الطبيعي ان يتمتع كل هؤلاء بالسلطات التشريعية والتنفيذية وكان من الطبيعي ايضا انه عندما تقوم ثورة ١٩٥٢ ضد اصحاب المصالح القديمة ولصالح الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين ، أن تصبح الديمقراطية لهذه القوى الجديدة فى السلطتين التشريعية والتنفيذية . وهذا ما يفسر مقولة عبد الناصر : الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب .

واما ما يقال من ان عبد الناصر ألغى التعددية السياسية التى كانت مصر تتميز بها قبل ١٩٥٢ وتداول السلطة فيما بينها .. فإنه وهم كبير وخطأ تاريخى ذلك ان الاحزاب السياسية قبل ١٩٥٢ والتى كانت تتداول السلطة فيما بينها ، كانت جميعها تعتبر حزبا سياسيا واحدا مختلف الاشكال لأنها جميعا بدرجة أو بأخرى احزاب ملاك الاراضى الزراعية واصحاب رءوس الاموال الصناعية والتجارية ، وكانت جميعها تحول دون وصول القوى السياسية المناوئة الى السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وعلى رأس هذه القوى : الاخوان المسلمون ، ومصر الفتاة ، وفصائل اليسار .. فأين تداول السلطة والحال كذلك .. وما معنى التعددية الحزبية المنشودة . ومن الطريف أن نذكر ان سعد زغلول باشا رفض ان يرشح عبد الرحمن فهمى الذى قاد العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ أثناء وجود سعد فى باريس ولندن



صناع القرن العشرين

.. رفض ان يرشحه في إحدى الدوائر الانتخابية في انتخابات ١٩٢٤ التي جاءت بالوفد الى الحكم لاول مرة لا لسبب سوى ما تردد عن عبد الرحمن فهمي من انه يطول من سيرة سعد زغلول في جلساته الخاصة ، وان مصطفى النحاس باشا رفض ان يرشح حسن البنا زعيم الاخوان المسلمين لنفسه في انتخابات عام ١٩٤٢ ، ومع ذلك فان سدنة النظام السياسي في مصر قبل ١٩٥٢ لم يجردوا سعد زغلول او مصطفى النحاس باشا من صفة الديمقراطية ، بل ان خصوم هذه الفترة لم يسقطوا الديمقراطية عن حكومات الوفد لأنهم يميزون بين ما هو استثنائي في الحركة وما هو أساسي .

وينبغي التأكيد هنا على ان صيغة الديمقراطية هذه قائمة في اعتى النظم الديمقراطية في الغرب الأوربي الأمريكي. فالحزبان الرئيسيان في الولايات المتحدة ، وهما الجمهوري والديمقراطي ، يتداولان وحدهما السلطة فيما بينهما ، والاثنان عبارة عن حزب واحد في السياسة الخارجية ولا يختلفان الا قليلا في الداخل من حيث الموقف من الطبقة الوسطى ، ويتحدان معا ضد القوى السياسية المناوئة هناك (راجع على سبيل المثال المكارثية في الخمسينيات).

فهل اختلف عبد الناصر في مسيرته الديمقراطية عن هذه الصيغة العالمية ؟! وهل كان مطلوبا منه في السنوات الأولى من الثورة التي يدعم فيها سلطاته ان يحتضن اعداءها بدعوى الديمقراطية ؟! .

ثورة بيضاء

اما نقاد عبد الناصر العلميون فانهم يضعون الاستثناءات المصاحبة للعمل الثوري في حجمها الطبيعي الملازم للثورات ، ويتخذون عليه عدم المضي بخطوات اسرع نحو الاشتراكية ، وانه كان يطبق الاشتراكية بالفنيين والسياسيين الذين تثقفوا وتعلموا في جامعات الغرب الرأسمالي او الجامعة المصرية قبل ١٩٥٢ حيث لم يكن هناك مجال الا لدراسة الاقتصاد الحر وفلسفاته، وانه اعتمد على الجهاز الاداري الرأسمالي القديم في ادارة دولة الاشتراكية ، وسمح لأصحاب الشركات المؤممة بادارتها بدلا من ان يطيح بهم .. لكن عبد الناصر كان يقول انه يسعى الى تصفية الطبقة الحاكمة وتجريدها من سلاحها الاقتصادي ولا يسعى الى تصفية الافراد انفسهم كبشر .. وكثيرا ما كان يفخر بأن الثورة نجحت دون إراقة دماء وانها بيضاء .

وبعد .. فإذا كان المؤرخون من العرب

ومن العجم يجمعون على ان محمد على باشا هو مؤسس مصر الحديثة، وهو الذى أدار اقتصاد الدولة باسلوب الاحتكار ، واغلق السوق المصرية امام المنتجات الاوربية ، وحقق بناء القوة الذاتية لمصر ، وسعى الى تحقيق امنها القومي بضم السودان وبلاد الشام .. فان عبد الناصر بكل ما اقامه من انجازات فى هذا المجال تجاوزت آفاق متطلبات عصر محمد على .. يعد بحق مؤسس مصر المعاصرة .

ويكفي التأكيد على القول فى هذا الخصوص ان الفلاح المصرى الذى قال له عبد الناصر : ارفع رأسك يا أخي فقد انقضى عهد الاقطاع ، لم يبرح ارضه تحت ضغط الظروف الاقتصادية ، وان العامل المصرى الذى أمن على مستقبله من فصل صاحب العمل له فى أى لحظة ولأى سبب لم يهجر وطنه بحثا عن لقمة العيش ، وان جميع المصريين فى زمن الهزيمة (١٩٦٧) كانوا يجدون قوت يومهم وعلاج مرضاهم والترويح عن انفسهم بالسعر المناسب مع الدخل المحدود ، وانهم لم يشعروا بالتضخم الاقتصادى ، وان المصريين جميعا كانوا يفخرون بوطنهم .. وطن العزة والكرامة .. وطنا خالصا لهم من أى نفوذ اجنبي بعد ان فرض عبد الناصر على الاستعمار ان يحمل عصاه على كتفه ويرحل .. وطن كل المصريين على اختلاف عقائدهم .. وطن السلام الاجتماعي .

ان عبد الناصر فى كل ما فعله كان نموذجا للفرد البطل الذى كانت حركته استجابة لمطالب القوى الاجتماعية التي قامت الثورة من أجلها .. عناصر الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين ومثقفيهم الذين دخلت قياداتهم قاعة الهيئة التشريعية والتنظيم السياسي ومجالس ادارة الشركات والمؤسسات للحفاظ على ما اكتسبوه .

وللأسف .. ان الظروف لم تسمح لعبدالناصر ان يكتب مذكراته السياسية التي من شأنها ان تساعد الباحث على التعرف بدرجة اكبر على مدى الوعي عنده وعلى حقيقة المشروعات التى كانت تدور فى ذهنه ، لأنه مات وهو يصنع التاريخ ، ومن ثم ترك الساحة مباحة لمن يحكم على وقائع دون دراستها فى السياق العام ، مع ان المنهج العلمي يعلمنا ان دراسة التاريخ تقوم على تفسير الوقائع وليس الحكم عليها ، وان تفسيرها يتطلب دراسة الظروف الموضوعية بحثا عن الاسباب والعلل وراء مجرى الوقائع ، والتحقق مما اذا كانت استجابة لواقع معين ام كانت قفزا على المكان والزمان .. ان البحث فى التاريخ يفرض على الباحث ان يتحرر من ارتباطاته السياسية المتغيرة .

ان جمال عبد الناصر لم يكن قائدا لثورة ١٩٥٢ فحسب ، بل كان زعيما للأمة العربية دون منازع ، ورائدا من رواد العالم الثالث ، وسياسيا بارزا فى عالم الحرب الباردة .

ولا يزال فى مماته كما كان فى حياته يؤرق الخصوم ويثير الجدل وهذا هو شأن الشخصيات التاريخية الكبيرة ●●

أقــوال معاصرة


ياسر عرفات


جيمس بيكر

● «المارك هو الهوية الوطنية الوحيدة في المانيا»

المسرحى الالمانى هاينز موللر

● «الدولة الفلسطينية غدت على مرمى الحجر»

ياسر عرفات

● «أنا شخص معدم يعيش فى كوخ بالتبت ولا يهوى الأشياء»»

الممثل الامريكى ريتشارد جيرى

● «لا أحد كان يستطيع أن يقول لستالين لا»

الموسيقار الروسى تيخون كرينيكوف

ورئيس اتحاد مؤلفي الموسيقي في الاتحاد السوفييتي سابقا

● «النجاح المستمر ، المتكرر ، مضر لروح الانسان»

المخرج الامريكى بول موريس

● «لم يكن بوسع أحد أن يتنبأ بأن الاتحاد السوفييتي سيلقي به في مزبلة التاريخ»

جيمس بيكر

وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «أفضل الجوع ، وتناول الطعام مع الشيطان ، حتي تتاح لي فرصة الاستمرار قائدا للاوركسترا» .

جورج زولتى

قائد اوركسترا شيكاغو سابقا

● «ثمة دواء جديد واعد للايدز وجميع المؤشرات تدعو للتفاؤل ، ومن الخطأ ألا نكون متفائلين»

ويليم بول

رئيس المكتب الاتحادى

لابحاث الإيدز فى الولايات المتحدة

● «إنني شديد الاعجاب باصرار الفلسطينيين علي تأدية واجبهم الانتخابي»

رايموند يرى

عضو البرلمن الاوربى

پاولو فريرى

أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين

بقلم : د . حامد عمار

□ تناولنا فى الجزء الأول سيرة پاولو فريرى الذى ولد فى البرازيل ، وعاش فقيرا ، ودوره فى محو أمية شعبه بعد أن وهب نفسه ليخدم ويناضل فى مجال التعليم ، حتى أصبح واحدا من القلائل من فلاسفة التربية، ونواصل فى هذا الجزء المحاور الأساسية لفلسفته فى التعليم .

التعليم هو الوجه الآخر للسياسة

فى ذلك السياق يتضح أول محور أساسى من محاور المنظور التربوى لفريرى، حيث يؤكد أن التعليم والسياسة نسيج واحد فى لحمته وسداته . ولا يتردد فى هذا التأكيد على أن النشاط التعليم عمل سياسى بالدرجة الأولى وذلك هو اللحن المميز لمجمل فلسفته من خلال تلك العلاقة الدينامية بين المعرفة والتعلم والسلطة . ويعزز ذلك بقوله (إن هناك وجها سياسياً للتعليم، كما أن هناك وجها تعليميا للسياسة، وترتبط آليات كل منهما وطرقه ورسائله بمدى الحرص إعادة انتاج الأوضاع القائمة أو العمل على تغييرها إذا ما توافق كل منهما على السعى إلى تحرير طاقات الإنسان . وبهذا التصور

باولو فريرى



للتعليم كعملية سياسية ، والسياسة كعملية تعليمية ، يقرر أنه ليس ثمة تعليم محايد ، وانما هناك تعليم من أجل القهر أو تعليم من أجل التحرير ، بيد أن أوضاع التعليم

السائدة انما تدعم جانب القهروتكوين ثقافة الصمت والإذعان لسلطة القاهر وإعادة إنتاج النمط الإنساني.. ولعلنا نتذكر في هذا السياق مقولة الطيب الصالح في روايته «موسم الهجرة إلى الشمال» حين يشير إلى أن أصحاب السلطة إنما يرسلوننا إلى المدارس لكي نقول لهم «نعم»، وأضيف من عندي أنهم يعلموننا أن نقول لهم «نعم» في كثير من المواقف.

والتعليم كسياسة للسلطة المهيمنة تتجلى وسائله في القهر السياسي في معظم ما تتضمنه عناصره ومكوناته وعملياته المفروضة من أصحاب تلك السلطة، هناك توجه سياسي – لا ديمقراطي – حتى فيما يتجسد في الفصل من العلاقة بين المدرس والتلميذ، وفي المناهج الدراسية، وفي أحادية الإجابة على الأسئلة بالحقائق الثابتة المطلقة، وفي عدم التقدير لأفكار التلاميذ وخبراتهم، وفي عمليات الامتحان ومناخه، وفي مستوى الأبنية المدرسية في مختلف أنواع المدارس مما يوحي باختلاف مواقع التلاميذ ومكاناتهم في المجتمع، وبين المدارس الخاصة والرسمية، وفي الإدارة البيروقراطية، وفي الكتب المدرسية المقررة، وفي نظام توزيع الطلاب على مختلف التخصصات، وفي القيمة التربوية المتدنية للفنون والرقص والموسيقى، وفي أساليب العقاب والثواب وفي مدى الانجاز أو الفشل، بل وفي اقتصار العملية التعليمية على التلقين والمعرفة المقدمة من المدرس دون اهتمام بعملية التعليم الذاتي، وفي إجهاض عمليات التفكير المبدع والخيال الحي وفي العلاقة بين نوع التعليم وفرص العمل، إلخ.

● انعكاس السياسة في المدرسة

ويرى فريري إن كل ما يتعرض له المتعلم في المدرسة من خبرات له أبعاد ونتائج سياسية تتدعم سنة بعد سنة طوال مراحل التعليم، مستهدفة ترسيخ ثقافة السلطة ومحققة للاتباع والتكيف مع المسلمات والقيم المعرفية والسلوكية التي تنشدها السلطة وفي مثل هذا التلقين السلبي المتعلم لن يتهيأ له أن يجد نفسه كإنسان فاعل يستطيع تجديد المعرفة أو تطوير الحياة في مجتمعه.

تلك هي بعض المفاصل التي تربط بين المضمون السياسي والتنظيم التعليمي، والتي تعكس في التعليم التقليدي العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في البنية المجتمعية خارج نطاق التعليم، وهي في المدرسة كما في المجتمع تقوم باختصار على مفهوم سيادة السلطة وفرض ثقافتها سواء من خلال المدرسة أو أجهزة الإعلام أو غيرها من وسائل التوجيه والدعوة والدعاية. وفي المدرسة تختبيء السلطة وجوباً أو جوازاً في مضمون ما يتعلمه الطالب وفي الطريقة التي يتعلم بها، فالمعلم كما يقول فريري هو مصدر المعرفة الوحيد، وكأنما التلاميذ ليست لديهم أية معرفة. وهو الذي يتكلم

والتلاميذ يستمعون وهو الذات الفاعلة والتلاميذ مفعول بهم ومن ثم فإن موقف التدريس في الفصل يمثل على هذا النحو موقف هيمنة السلطة السياسية في المجتمع، مما يتناقض مع ذاتية المتعلمين ومعارفهم وحقهم في المشاركة في عملية التعليم والتعلم.. وفي مقابل ذلك تنشد وظيفة التعليم التحريري العمل على اقتلاع ثقافة الصمت، وتمكين المتعلمين من أن يؤدوا دور الفاعل الواعي إلى جانب دور المتلقي الواعي في علاقة جدلية بين المرسل والمستقبل. ولا يعني هذا أن يفقد المعلم إنسانيته وحريته كصاحب خبرة ومعرفة أنضج من طلابه، لكنه في الوقت ذاته لا يحق له أن يجردهم من خبراتهم ومن إنسانيتهم ومن حقهم في المشاركة والتساؤل، ومن إدراك أن المعرفة قابلة للشك والتفنيد والمراجعة والتجديد.

● التوظيف الاجتماعي السياسي للتعليم

إن هذه الصلة العضوية بين السياسة والتعليم وما يتجسد في الموقف التعليمي من تعارض أو تناقض في المصالح بين المدرس «السلطة» والتلميذ «المذعن» تجد لها دعماً من أنصار المدرسة النقدية في التربية من أمثال أساتذة مدرسة فرانكفورت ومنهم هوركهايمر وادورنو وهبرماس وماركيوز، ومنهم بورديو وفوكو في فرنسا، وجيرو وماكلرن وارك فروم في الولايات المتحدة. وهذه الفرقة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس يتجهون في تحليلهم للتعليم من منظور كونه قوة سياسية في يد السلطة المهيمنة، ويدعون إلى تحرير الإنسان من خلال تعليم مغاير، ويرى معظمهم أن عملية التحرير إنما تتجسد في تعليم تصبح قراءة العالم فيه من خلال قراءة الكلمة المعبرة عن قدرة الإنسان على تنمية ثقافة المقاومة لا ثقافة الصمت.

بيد أن كلا من الليبراليين والماركسيين التقليديين، ينقدون آراء فريري من حيث إصراره على أن جوهر التعليم هو سياسة فيرى الفريق الأول أنه لا توجد حالة تعارض أو تناقض أو حالة قهر بين المعلم والتلميذ، وأن هناك فرقاً بين أسلوب السياسة الذي يمارس توجهاته وممارساته من خلال قوة السلطة وحقائقها، بينما تمارس توجهات التعليم من خلال قوة المعرفة وحقائقها، لكن ذلك من وجهة النظر الفريرية يعني تصور اجراءات التعليم ومناهجه ونظمه وممارساته منتزعة من سياقها الاجتماعي والتاريخي، ولهذا يلجأ الفريق الليبرالي عادة إلى الحديث عما ينبغي للتعليم أن يستهدفه ويحققه، متجاهلين علاقاته القائمة وتشابكاته الحادثة مع الأوضاع المجتمعية الراهنة، والواقع أنه لايمكن تغيير التعليم دون تغيير في تلك العلاقات والتفصيلات، ومن هنا يسود في النظريات التربوية الليبرالية التركيز على الفرد المطلق وعلى دور التعليم في نقل المعرفة والتراث الثقافي، وعلى عمليات التشكيل الاجتماعي للمتعلم، وأن مهمة أي تعليم سياسي في المدرسة إنما يقتصر على

الإلمام بحقائق المجتمع وأوضاعه من أجل أن يمارس الإنسان السياسة فيما بعد، أى بعد أن يترك المدرسة، وعلى حد قول فريرى يبيح هذا أنصار هذا الفريق مجرد الحديث عن الأوضاع السياسية فى العملية التعليمية، لكنهم لا يسمحون للطلاب أن يصنعوا السياسة أو يمارسوها داخل المدرسة، ومن الواضح أن هذا التوجه لايتفق مع منظور فيلسوفنا فى وحدة الفكر والعقل كأساس لتحرير الإنسان.

● التوظيف الاجتماعى من اتجاهين

والمحور الثانى المتميز فى منظور فريرى التعليمى هو دعوته إلى فهم التوظيف الاجتماعى للتعليم من بعدين أساسيين، أولهما تحليل النظام التعليمى انطلاقا من التركيب الطبقى للمجتمع وأيديولوجية القوى المسيطرة، وهذا ما يسود من توجه فى دراسات المدرسة النقدية للنظام التعليمى كما سلفت الاشارة، والذى يركز على توظيف السلطة المهيمنة له فى إعادة إنتاج نمط الشخصية المتكيفة مع مطالب البنية المجتمعية وقبول أوضاعها الراهنة، ومع أهمية هذا البعد فى التحليل فإن فريرى يرى كذلك ضرورة دراسة نظام التعليم وعملياته من منطلق الفقراء والفئات الاجتماعية المقهورة، أى من خلال ثقافة القهر والصمت، وقيمة التعرف والتحليل لواقع التعليم من هذين المنطلقين هو استكشاف إمكانية تطوير الناتج التعليمى ليكون إنسانيا، بما يجعل من مضمون التعليم وطرائقه وسيلة من وسائل خلق ثقافة أصيلة جديدة، وهذه الثقافة أو العمل الثقافى الجديد إنما يتولد من تلك العلاقة بين المعرفة والسلطة، ذلك أن القهر الذى يسلب المقهور إمكانية نموه الإنسانى - تفكيرا وفعلا - هو فى الوقت ذاته يسلب القاهر مقومات إنسانيته فى اعتدائه على إنسانية الذين يرزحون تحت استغلاله، ومن ثم لابد للثقافة الجديدة من الخلاص من الاتجاهات اللا إنسانية لدى القاهر والمقهور.

ولتوضيح ذلك نشير إلى أنه من الظواهر الاجتماعية المألوفة أن المغلوب مولع بتقليد الغالب حتى فى ممارسة اشكالية القاهر والمقهور، فكثيراً ما يتطلع المغلوب المقهور إلى قهر من دونه كلما اتيحت له الفرصة، كما يسعى جاهداً إلى الوصول إلى أى مواقع فى سلم الهيمنة. ومن ثم فإن طموحه لإمتلاك بعض مصادر القوة لكى يصبح قاهراً بدوره لا يؤدى إلى تحرره الإنسانى، وتظل ظاهرة القاهر والمقهور فى حلقة حلزونية تمسك بخناق التغيير الاجتماعى وتعطل تخفيف مظاهر هذه الاشكالية والقضاء عليها وتجاوزها. وعلى حد تعبير فريرى ليست مهمة المقهورين مقتصرة على التخلص مما يتعرضون له من قهر وأن يتحرروا من قاهريهم، بل عليهم أيضا أن يحرروا قاهريهم ويعيدوا إليهم إنسانيتهم فى مسيرة التغير المجتمعى.

وفى جميع الحالات فإن تربية المقهورين للتحرر تتطلب إيقاظ وعيهم

بمصادر ومضمون ما يرزحون تحت وطأته، والسعى إلى أن يكتسبوا من خلال تنمية التفكير النافذ لصور الزيف والأسطورة فى ثقافتهم ومن خلال تمكينهم من التنظيم الجماعى دفعاً لحركة الانجاز والتغيير.

● الخوف من الحرية

طبيعى أن تكون استثارة الوعى مهمة ضرورية للتحرر نظرا لما يشيع فى ثقافة الصمت من خشية ما يمكن أن يحمله التحول من مجهول المخاطر، أو من نتائج الخروج عن مألوف العلاقة التى انتظمت فى الاستجابة للقاهر. وفيما يضطرب به الصراع الكامن فى نفوسهم بين سلطة القاهر واستكانة المقهور. يتجلى ما عبر عنه عالم النفس «ايرك فروم» فى كتابه المشهور «الخوف من الحرية»، وقد ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب باسم «الهروب من الحرية». ولعل هذا الخوف من الحرية أو الهروب من تحمل مسئولياتها هو الذى سيطر على تعليمنا ليجعله اجترارا للثقافة المهيمنة أو سعيا للجمود السلفى، وما يرتبط بذلك من تجنب للمغامرة وحب الاستكشاف، أو محاولة البحث عن بدائل وأنماط جديدة مبدعة فى الفكر والفعل والثقافة والتعلم.

وفى إطار ذلك كله يرى فريرى أن التعليم من أجل تحرير وعى الإنسان وتنمية طاقاته - وبخاصة لدى الفئات المقهورة - ليتجاوز واقعه فى تناقضاته، هو السبيل إلى إنسانية الإنسان، وهو الأمل المرجى من التعليم ومن العمل الاجتماعى، إذ أن الإحساس باليأس وفقدان الأمل والخوف من الحرية، كما يؤكد فيلسوفنا، هو الذى يهيىء التربة الخصبة لنشوء الهيمنة الفاشية فى أى مجتمع من المجتمعات.

● الفلسفة وفساد الثنائيات

والمحور الثالث للفلسفة الفريرية هو اهتمامها بمنطلقات الفلسفة التربوية من الرؤية الفلسفية العامة المرتبطة بواقع الأوضاع فى كل البيئات التى تنتمى إلى العالم الثالث، حيث ترتكز عملية التعليم لدى فريرى على خصائص تلك البيئات من حيث شيوع القهر فيها، ووجود قطاعات كبيرة من البشر تعيش مهمشة فى ثقافة الصمت، وفى الوقت ذاته تعانى من استمرار اعتمادها على القوى الاستعمارية والمهيمنة فى عالم الشمال، وفى هذه الخصيصة الأخيرة يلتقى فريرى مع أصحاب نظرية التبعية بأبعادها المختلفة فى مسيرة الاقتصاد والاجتماع والثقافة فى العالم الثالث، والواقع أن نظرية التبعية هذه قد صاغها علماء الاقتصاد والاجتماع فى أمريكا اللاتينية، وشاعت كما شاعت أفكار فريرى فى أدبيات التنمية فى العالم الثالث، ويرون أن المطلوب فى جميع الحالات هو تنمية ذاتية منطلقة من اشكاليات وخصوصيات أقطار العالم الثالث، وتوليد ثقافة أصيلة مبدعة من الفكر والممارسة والوعى بقيم شعوب تلك الأقطار وحاجاتها، وهذا كله يقتضى علاقة جدلية بين الفكر والواقع، وبين النظر والممارسة فى حركة مستمرة، تقيم

وتصحح كلا من النظر والتطبيق، مستمدة أساسا من حركة تلك الشعوب وخبراتها التنموية.

وعلى امتداد كتاباته يؤكد أهمية التصور الفلسفي لقضايا التعليم من منظور حركة الإنسان وإرادته في المجتمع، ويردد وحدة التفكير والتدبير العملي، إذ أن الفكر دون علاقته بالعمل إنما يتحول إلى «عملية لفظية»، والعمل بدون فكر يتحول إلى «نشاط ساذج دون وعى»، وفى صدد تكوين ثقافة أصيلة يرى أن الاستيراد العشوائي والنقل السطحى لتكنولوجيا العالم الصناعي والذى يتجاهل مضمون ومستوى ثقافة الجماهير، وغالبيتهم المقهورة على اعتبار أنها معوقة للتقدم، سوف يؤدى إلى صور جديدة من القهر لا تختلف كثيرا عن الأساليب الأخرى التى تستخدمها بعض النظم فى الهيمنة وانتزاع إنسانيتهم كذلك يندد فى فلسفته التربوية بأولئك الذين يدعون بأن الإنسان المعاصر محتاج إلى القليل من التكنولوجيا والكثير من الأجواء الإنسانية.

وهو يجد أن التعارض فيما بين العلم والتكنولوجيا وبين المقومات الإنسانية إنما هو تعارض فاسد فى منطقه وواقعه، فالناس فى حاجة إلى التكنولوجيا، وهى على كل حال نتاج ثقافي، لكنها ليست محايدة، فقد تستخدم لخير البشرية، كما قد تستخدم فى إشاعة البؤس والفقر، وتجريد الإنسان من إنسانيته، والمطلوب هو الوعى الثقافى الأصيل للموازنة والتكامل بين التوظيف التكنولوجي وتحرير طاقات الناس حتى لايستمر التخلف، أو يزداد الاغتراب، وفى إطار هذه التوليفة المتوازنة الواعية، يرى فريرى القصور والتشوه فى قيام المؤسسات الديمقراطية وآلياتها المجسدة للبعد الرأسي، إذ أنها لا تمثل شرطا كافيا، تتجاهل البعد الأفقى والمتجسد فى ضرورة التعليم والوعى الثقافي القائم على إدراك الناس لعالمهم من خلال التفكير والتعبير والتأثير.

● الحياد تقية

ومن محاور فلسفة فريرى التربوية إنكاره لمفهوم الحياد فى المعرفة والتفكير، ذلك أنهما يرتبطان بتحديد المعرفة والتفكير مع من، وضد من ومن أجل تحقيق ماذا، والحيادية فى التعليم، إنما هى محاولة لإخفاء خيارات الإنسان، وتكتيك لفهم الحقائق منتزعة من سياقاتها التاريخية والاجتماعية لتبدو مجردة.

وفى كثير من الأحيان يرى البعض فى موقفه الحيادى ستاراً لإخفاء موقفه من السلطة المهيمنة وأوضاعها الراهنة وخوفا من ممارسة الحرية، ولا يعنى هذا أن يفرض الإنسان رأيه، وإنما عليه أن يدافع عنه ويلقى مايستطيع من أضواء مبصرة به موضوع البحث وذلك حق كل فرد فى التشارك مع آراء الآخرين، وليس هناك رأى فردى صحيح على إطلاقه، وإنما الصحيح هو رأى الجماعة المتمحص من حوارها الديمقراطى. وذلكم هو ماينبغى أن نرسخه فى عملية التعلم عن طريق أساليب وتقنيات المنهج الديمقراطى فى التعلم ومراجعة التعلم وإعادة التعلم، وهذا

هو ما عرف به فريرى من تأكيده على الأسلوب الحوارى فى التعليم والتعلم.

● الحوار وسيلة وهدفا

ننتقل أخيراً إلى الأسلوب التعليمى الذى اصطنعه فريرى لكى يكون أداة لتحرير الإنسان وليس لاستئناسه، ولتحقيق ثقافة أصيلة وليس لثقافة مشوهة، إذ كان يرى أن وسائل التعليم لا تقل أهمية عن مضمونه، وهو يعتبر أن وسيلة الحوار هى التى تيسر تحول المضمون الثابت المطلق فى التعليم التقليدى إلى مضمون متطور عبر الزمان والمكان، يحقق الفكر الناقد والمبدع فى نهج ديمقراطى يرسى قواعد العدل والحرية.

وأسلوب الحوار الذى ركز عليه مراراً وتكراراً فى كل موضع من كتاباته هو فى تقديره أداة التغيير وهدفا للديمقراطية، وهو فضلا عن كونه قناة المرور من حالة القهر إلى حالة التحرر، فإنه العلاقة الفارقة بين منهج الثورة الثقافية الإنسانية وبين الانقلاب العسكرى، ثم إنه سبيل التواصل بين القادة والجماهير، ومن ثم فإن الالتزام بالحوار فى عملية التعليم والتعلم شرط لازم لكى يتبلور المجتمع الديمقراطى الإنسانى، وتنحسر مقومات الثقافة الصامتة والخوف من الحرية.

والتعليم/ التدريس فى نظره لا يمكن اختزاله إلى طريقة ميكانيكية فى التعلم، فهو ليس كمية من المعلومات يختزنها الطالب، أو مجموعة من المهارات يكتسبها عن طريق ما تزوده به المدرسة، لكن الأسلوب الحوارى الفريرى يقوم على دعوة الطلاب إلى التفكير الناقد حول موضوعات الدراسة وإدراك صلتها بالمجتمع وقضاياه اليومية والعامة، بل هى كذلك دعوة إلى التفكير فى عملية التعلم ذاتها. وإذا كان على الطلاب أن يجيبوا عن الأسئلة، فإن عليهم أن يتساءلوا عن الأسئلة والإجابات. وجوهر أسلوب التعلم الحوارى هو نفى التلقين من السلطة، أو نفى سلطة التلقين، دون إعمال للفكر الناقد.

● الاسلوب البنكى فى التعليم

من خلال التواصل الحوارى يشعر الطالب بأنه يكتسب تعليماً يشارك فى صنعه، بدلاً من تعليم جاهز يقدم له غيره، كما يشعر بأنه ليس وعاء فارغاً تصب فيه الحقائق، أو اسفنجة تمتص مقولات المنهج المقرر، وهذا الأسلوب الحوارى هو النقيض لما أسماه فريرى بالاسلوب البنكى السائد فى تعليم المجتمعات المتخلفة والمقهورة.

ولعله من الضرورى أن نشير إلى هذا النقيض البنكى قبل أن نوضح الأسلوب الحوارى إن الأسلوب البنكى «المصرفى» الذى يريد فريرى أن يقضى عليه كأسلوب للتدريس، هو تشبيه منتزع من العمليات المصرفية التى يودع فيها إنسان مدخرات يختزنها فى المصرف ليسترجعها بعد ذلك نقوداً، وفى السياق التعليمى التقليدى يمثل المدرس المودع فى البنك «وبذلك هو صاحب سلطة لأن لديه رأس مال معرفياً»، والطالب هو الخزانة التى تودع فيها أمواله «على افتراض أنها خاوية لا يوجد بها

رأسمال معرفي» يقوم المدرس بشرح درسه واصدار تعليماته لما ينبغي أن يختزن، وعلى الطالب أن يجتهد في الاحتفاظ بتلك المعلومات والتعليمات ليعيدها سيرتها الأولى عند السؤال أو عند الامتحان.

وكلما تزاحمت المعلومات والتعليمات «المجزأة والمجردة، والتي لا صلة لها بمخزونه أو واقعه» قلت فرص الوعي والتدبر والترابط والتفكير النقدي أو الابتكاري حول ذلك الرصيد المتراكم الذي لم يستطع توظيفه أو استثماره بطريقة فعالة مثمرة، وبذلك تغدو أساليب التعليم التقليدي مؤدية إلى تعليم بنكي، بل وإلى أسوأ صور التعامل البنكي، هذا فضلا عما توحي به من تنمية الاتجاه نحو الاعتماد على السلطة «سلطة المعلم مالك المعرفة ومتخذ القرار» مما يرسخ عادة السلبية نحو المشاركة في حياة المدرسة ذاتها وفي المجتمع فيما بعد.

● قيمة الحوار الفريري

ويذكرنا الحوار الفريري بالحوار السقراطي، ويعتبره صاحبه سمة من خصائص الإنسان في التواصل من أجل المعرفة والتعلم والفعل، وينبغي أن يقوم على المحبة واحترام الآخر والثقة المتبادلة، فهو إلى جانب كونه أسلوباً ديمقراطيا فإنه قيمة أخلاقية، والتأكيد على الحوار منطلق من نظريته في المعرفة التي هي رؤية اجتماعية تعتمد على العلاقات بالآخرين والرؤية للعالم الذي يضطرب فيه مع الناس، وإذا كان أسلوب الحوار في التواصل نقيضاً للسلطوية، فإنه لايعني الفوضى في عملية التعليم التي لابد للمعلم من إعداد لبنية الحوار كنقطة انطلاق أولية يدور حولها اكتشاف المعرفة وأبعادها المختلفة. ومن ثم يصبح الإطار الحر للحوار وما يترتب عليه من نتائج هو السبيل إلى أن تتحول الحرية بدورها إلى سلطة جماعية تاريخية قابلة للتعديل من خلال حركة التاريخ والثقافة، ومهما تتعرض له عملية الحوار من مخاطرة في ضبط العملية التعليمية، إلا أنها مغامرة تستحق، ففي كل عمل ثقافي مبدع قدر ضروري من المغامرة.

كذلك يلاحظ فريري أن أسلوب الحوار يجد في التعليم التقليدي مقاومة من الطلاب الذين تعودوا على الأسلوب البنكي في التخزين والتلقين والإيداع، كما يواجه كذلك مقاومة من المعلمين نظرا لممارسة طويلة تحدد عملية التدريس بالإلقاء والمحاضرة، أي بطريقة «المونولوج» وليس الديالوج أو «التليلوج» في أداء مهمتهم التدريسية.

والحوار التربوي يبدأ من طرح للمشكلات المرتبطة بموضوع من موضوعات الدراسة، يقود المدرس فيه المناقشة، ويشجع تلاميذه على الأسئلة وعلى المشاركة فيما بينهم، في تفاعل ايجابي تعاوني ، يتقاطع فيه التواصل الرأسي مع المعلم بالتواصل الأفقي بين الطلاب أنفسهم. وبالقدر الذي يتحمل فيه المدرس عبء التوجيه والقيادة، بالقدر الذي يشجع التلاميذ على أن يربطوا ذلك بأفكارهم وتصوراتهم وبواقع المجتمع

ومشكلاته، أي أن الحوار هو المشاركة الايجابية من المتعلم والمعلم في صياغة المعرفة وإدراك علاقاتها وتداعياتها في فهم الواقع والوعي بأمكانات تغييره، وهكذا يقل عبء المحاضرة على المعلم ويزداد عبء المناقشة والكتابة والبحث على الطلاب، معبرين ومستكشفين لأبعاد المعلومات والحقائق العلمية والاجتماعية والاقتصادية، ومع الحوار ودورانه وتموجاته في العملية التعليمية تتولد القدرة النقدية، ويتم تشجيع التأمل الذاتي الواعي، والتبصر في كيف يتعلم المتعلم، وفي تقييم ما يتعلمه، وفي قيمة ما يتعلمه لفهم الواقع، والتعرف على مداخل العمل لتغييره، بدءا من واقع الفصل إلى المدرسة، إلى الحي فالمجتمع الأكبر.

وقد بدأ فريري طريقة الحوار وطرح المشكلات التي يواجهها الفلاحون في البرازيل عندما شرع في تضييق منهجه في محو أمية الكبار. وكان أسلوب الحوار الاجتماعي الذي يثير الوعي بأبعاد المشكلات هو منطلقه ومصدر عنايته في تعلم القراءة والكتابة، وكان يرى أنه من الممكن، بل ومن الأفيد تمكين الأميين من قراءة الواقع قبل معرفة رموز القراءة والكتابة اللغوية، وفي جميع الحالات فانه يدعو إلى الاهتمام بجعل التعليم سواء في المدرسة أو خارجها وسيلة للتفكير في الواقع والوعي بإشكالياته كشرط يؤدي بمضمونه إلى أن يكون ملتحما بالسياسة، وملتحما بمدركات الذات المتعلمة من أجل أن تسهم العملية التربوية المتصلة والتي لاسقف فيها في شحذ قدراته وصناعة تاريخه وثقافته، وفاعلا عامداً متعمدا لبلوغ ما ينشده من أهداف له ولغيره من البشر.

أما بعد :

وهكذا نجد في فلسفة فريري ذلك التوجه الإنساني والذي ينطلق من خلاله لمواجهة ثقافة الصمت لدى المقهورين ليمتد بنا إلى صياغة مجتمع ديمقراطي ذي ثقافة أصيلة، من خلال تواصله الحواري ومن خلال تعليم لايتصف بالحيادية وإنما يسعى إلى تحرير الإنسان ، كل إنسان، وكل الإنسان.

وبذلك نجد فيلسوفنا الذي كانت وستظل أفكاره ورؤاه التربوية زاداً وهداية لبعض التربويين في مصر ولكثير منهم في غيرها من أقطار العالم الثالث، يتشابكون معها وبها في تأصيل تعليم للتحرر، ويسعون بمنطلقاتها إلى نقد ما تضطرب به أدبيات التربية لديهم من فلسفات لم تستطع أن تتجاوز اللفظية أو المثالية أو الانبهار، فظلت على هامش واقعهم، ولم تنفذ إلى تحريك الفكر والعقل في نصوص مجتمعهم، واقتداء بمنهج فيلسوفنا قد نتفق مع فريري، وقد نختلف مع فريري، لكننا لانملك أن نتجاهل مقولات فريري ، لقد كتب عنه الكثيرون في العالم الصناعي، لكن صوته يظل خافتاً في أدبيات التربية المصرية، ولعل هذا الجهد المحدود في هذا المقال يغدو حافزاً لمزيد من البحث والتأمل فيما أسهم به هذا الفيلسوف التربوي الساطع وسط سماء العالم الثالث بغيومها، ليتوفر لنا من رؤيته التربوية، فهما أعمق، وجهداً أفعل، في تطوير مستقبل تعليمنا من أجل تعلم أفضل لصناعة مستقبلنا.

عرض نقدى لكتاب هيكل

القنـوات السـرية

بقلم : د . رءوف عباس

□ عكف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل على كتابة قصة الصراع الذى دارت رحاه على ساحات السياسة والحرب فى الشرق الأوسط فى النصف الثانى من هذا القرن ، وقدم للمكتبة العالمية على مدى ربع القرن الأخير عددا من الكتب المهمة التى استمدت أهميتها من قرب الكاتب من صناع الأحداث ، وذلك الكم الهائل من المعلومات الذى لم يتوافر لغيره من الكتاب وخاصة المعلومات المحلية ، أى الوثائق الخاصة بثورة يوليو عامة وعبد الناصر خاصة ، وهى وثائق مبعثرة بين أكثر من جهة من المؤسسات السيادية ، تحرص كل منها على إبقائها بعيدا عن متناول الباحثين ، ولا تكترث بالقانون الخاص بالوثائق التاريخية الذى يلزم تلك الجهات بإيداع مالديها من وثائق ذات قيمة تاريخية بدار الوثائق التاريخية القومية . وقد بذلت دار الوثائق التاريخية جهودا مضنية لاقناع تلك الجهات ،وعلى رأسها رئاسة الجمهورية، بإيداع ما لديها من وثائق بالدار دون جدوى . من هنا تحتل كتابات هيكل أهمية خاصة كمصدر للمعلومات التى يعجز الباحث فى التاريخ عن الوصول إليها .

ورغم أهمية ما كتبه هيكل إلا أن الباحثين فى التاريخ يتعاملون معه بحذر ، فالكاتب كان طرفا فى الأحداث التى كتب عنها ، وكانت له علاقات متفاوتة فى درجة القوة مع صناع تلك الأحداث ، ومن ثم انعكست هذه العلاقات على رؤيته للأحداث وعلى تحليله لها ، يلقى أضواء باهرة على بعضها ، ويترك البعض الآخر محاطا بالظلال ، ولا بأس فى ذلك على أى حال ، فالرجل لم يدع يوما الاشتغال



بالتاريخ ويؤكد دائما إنه يقدم شهادته عن الأحداث التى شارك فى بعضها واقترب من بعضها الآخر

وكتاب «القنوات السرية ، قصة مفاوضات السلام العربية - الاسرائيلية» آخر هذه السلسلة من الكتب التى قدمها هيكل للمكتبة العالمية ، وقد ظهرت الطبعة الانجليزية بلندن منذ أسابيع ، وعادة تظهر معها طبعات أخرى بمختلف اللغات الأوربية وغير الأوربية من بينها الطبعة العربية التى توشك على الصدور من دار الشروق فيما نعلم .

والطبعة الانجليزية من الكتاب تقع فى ٥٧٢ صفحة ، ويضم الكتاب عشرين فصلا ، كتبها هيكل بأسلوبه المتميز الذى يجذب القارىء ويثير فضوله . وقد حرص هيكل أن يشير فى مقدمة الكتاب الى عبارة وردت فى حديث دار بينه وبين عالم الطبيعة الشهير ألبرت اينشتاين فى بداية الخمسينات أشار فيها الأخير الى أن الصراع بين العرب واسرائيل صراع بين حقين ، وأن الأمر يحتاج الى تحقيق نوع من التوافق بين الحق اليهودى والحق الفلسطينى ، وبذلك حدد الكاتب التوجه العام لمن شاركوا فى فتح القنوات السرية او - بعبارة أدق - سعوا لفتحها ، وأغفل الكاتب منذ البداية عاملا مهما كان الحاضر الغائب فى الكتاب ، وهو حرص الصهيونية العالمية واسرائيل على تحييد مصر ، وإخراجها من دائرة الاهتمام بالقضية الفلسطينية بشتى السبل والسعى لإبرام سلام منفرد معها ، ليقينهم أن غياب الدور المصرى يجعل العرب عاجزين عن مواجهة الكيان الصهيونى ، مستسلمين له . لذلك أدمن الصهاينة طرق أبواب مصر منذ أيام الملك فاروق عشية حرب فلسطين طالبين فتح حوار ربما يمهد السبيل لاعتراف مصر باسرائيل ، وكان ذلك عشية قيام اسرائيل وتوقيع اتفاقية رودس عام ١٩٤٩ ، وانتعشت آمال الصهيونية عندما نجح الضباط الأحرار فى الاستيلاء على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فحاولوا مغازلة النظام الجديد

مطلقين عددا من بالونات الاختبار، مشجعين جهود الوساطة .

● ضمادة لجرح مزمن !

وحدد هيكل الغرض من الكتاب وهو تقديم قصة الجهود التي بذلها ملوك ورؤساء وسياسيين وعلماء للوساطة بين مصر واسرائيل ، مدفوعين بحبهم للسلام، أو بطموحهم الشخصى ، كما إنه يريد أن يبين للقراء أن اتفاق السلام الذى وقعه الفلسطينيون عام ١٩٩٣ كان مجرد «ضمادة» لجرح مزمن وليس علاجا شافيا ، وإن المسافة لازالت بعيدة بين أطراف الصراع والسلام .

ولما كان الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى ، فقد خصص الكاتب الفصول الخمس الأولى لالقاء الضوء على القضية الفلسطينية ، وأسماع الصهيونية فى فلسطين ، وموقف الأطراف الدولية التى ساعدت على إقامة الوطن القومى الصهيونى على أرض فلسطين ، ورد الفعل الفلسطينى والعربى ، حتى انتهى الأمر بما حدث عام ١٩٤٨ ، وقيام دولة اسرائيل، وما ترتب عليه من نتائج سلبية بالنسبة للشعب الفلسطينى وللأطراف العربية المعنية ، ورفض العرب الاعتراف باسرائيل أو اجراء أى حوار معها واعتبار ذلك نوع من «المحرمات» .

يلى هذه الفصول الخمسة عرض لجهود الوساطة ومحاولات فتح قنوات الاتصال بين العرب واسرائيل ، جاء على هامشه (أحيانا) تناول للصراع العربى الاسرائيلى (العدوان الثلاثى - حرب يوليو ١٩٦٧ - حرب أكتوبر ١٩٧٣) بشىء من التفصيل طغى على موضوع «القنوات السرية» وحوله الى الهامش فى كثير من الأحيان ، بل جعل هناك خلطا بينها وبين التحركات الدبلوماسية الأمريكية المتصلة بالشرق الأوسط عامة ، والصراع العربى الإسرائيلى خاصة ، واحتل الدور الفلسطينى منذ قيام حركة فتح حتى ابرام اتفاق «غزة - اريحا أولا» نصف الكتاب ، وأن سرد المؤلف من خلاله محاولات الاتصال بين الطرف الفلسطينى والطرف الاسرائيلى التى توجت بمباحثات أوسلو السرية . وهكذا تحتل قصة الصراع العربى - الاسرائيلى أكثر من نصف الكتاب ، وجاءت «القنوات السرية» على هامشه فأصبحت متابعتها أمرا صعبا ومحيرا للقارىء ، وخاصة أن هيكل روى القصة من خلال التسلسل الزمنى (ربما لأن الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى الذى لا تتوفر لديه معرفة بتفاصيل الصراع) ، فاختلط السرى بالعلنى ، والثنائى بالدولى ، وتشابكت الخيوط

وتعقدت وكادت تفلت «القنوات السرية» من بين يدى القارىء .

● السادات والسلام

وكان من الطبيعى أن تشهد فترة عبد الناصر نشاطا ملحوظا من جانب اسرائيل لفتح قنوات اتصال مع مصر ، وحسم أنور السادات الأمر وبادر بفتح قناة اتصال عريضة بتشجيع من شاوشيسكو رئيس رومانيا والحسن الثانى ملك المغرب، وبقية القصة أصبحت معروفة من خلال كتابات هيكل السابقة سواء كتابه عن السادات (خريف الغضب) أو كتابه عن (أكتوبر ١٩٧٣) ، وكذلك من خلال الأدبيات التى صدرت فى السنوات الأخيرة بالعديد من اللغات حول السلام المنفرد الذى أبرمته مصر مع اسرائيل ، فضلا عن تغطية المحللين السياسيين لعملية صنع السلام فى الشرق الأوسط من خلال الكتابات الغزيرة التى نشرت فى الدوريات بمستوياتها المختلفة أكاديمية واعلامية على حد سواء، لذلك لم يضف هيكل جديداً عند معالجته لهذا الجانب من الاتصالات التى كان القليل منها سريا ، والأغلب علنيا حظى بتغطية إعلامية غير مسبوقة .

ولذلك لا يتبقى من «القنوات السرية» الجديدة بالرصد إلا المحاولات التى تمت منذ قيام ثورة يوليو حتى رحيل جمال عبد الناصر وهذه أيضا غطاها هيكل فى كتبه الثلاثة عن «حرب الثلاثين عاما» وأشار لبعضها فى كتابه عن (أكتوبر ١٩٧٣) ، كما تناولتها أقلام العديد من الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن صراع الشرق الأوسط ، أو أزمة الشرق الأوسط ، أو الصراع العربى - الاسرائيلى أو ترجموا لعبد الناصر ، وكذلك الكتب التى صدرت عن أزمة السويس وحرب يونيو ١٩٦٧ ، ورغم ذلك جاء تجميع هذه «القنوات السرية» فى كتاب هيكل الجديد عملا تسجيليا مفيدا فى اطار رصد جهود البحث عن السلام فى الشرق الأوسط .

● خطورة التورط مع الغرب

وتبدأ قصة ثورة يوليو مع جهود الوساطة بسعى الولايات المتحدة الأمريكية الى اقامة «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» ضمن جهودها لاحاطة الاتحاد السوفييتى بأحزمة من الأحلاف الموالية للغرب ، وكان التصور الأمريكى أن تكون مصر مركز المنظمة الدفاعية الجديدة بما لها من وزن استراتيجى وسياسى فى المنطقة ، وكان مشروع الحلف فى مقدمة المسائل التى طرحت على صناع النظام

الجديد ، ورغم صغر سن اعضاء مجلس قيادة الثورة ، وخدمتهم السياسية المتواضعة ، إلا انهم كانوا يعون تماما خطورة التورط فى حلف مع الغرب بحكم روابط التبعية حول مصر ، لقد كانوا يسعون الى تحقيق الاستقلال الوطنى التام ، ويريدون تخليص البلاد من السيطرة الأجنبية ، ولذلك عقدوا العزم على مقاومة كل أشكال الهيمنة الأجنبية ، وفي مقدمتها الأحلاف .

ولما كانوا فى حاجة الى مساندة الولايات المتحدة في بداية الثورة لضمان تجنيد القوات البريطانية فى مصر (وخاصة فى الأيام الأولى للثورة) ، والى مساعدة أمريكا لمصر في مجال تحديث الجيش ، والتنمية الاقتصادية ، فقد اتبع مجلس قيادة الثورة خط المراوغة بالنسبة لموضوع «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» ، فالثورة لا تعلن الرفض الصريح ولا تلمح بالاستعداد للموافقة، ولكنها تطرح أمام الأمريكان الصعوبات التى تحول دون التوصل إلى قرار ، وفى طليعتها الوجود البريطانى فى مصر (قاعدة قناة السويس) والمسألة الفلسطينية، وفهم الأمريكان أن ازالة هذه العوائق من الطريق سوف يؤدى الى تسويق مشروع «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط» من خلال مصر ، فركزت الادارة الأمريكية جهودها على ضرورة حل مشكلة الوجود البريطاني في قاعدة قناه السويس فمارست ضغطا شديدا على بريطانيا أدى الى ابرام اتفاقيتى السودان عام ١٩٥٣ والجلاء عام ١٩٥٤ ، وشمر الأمريكان عن ساعد الجد وراحوا يبحثون عن حل لمشكلة فلسطين يرضى مصر واسرائيل .

غير أن المناخ لم يكن مواتيا للتوصل الى حل للمسألة الفلسطينية ، فالضباط الأحرار لهم تجربة مريرة فى حرب فلسطين ليس من السهل نسيانها أو تجاوزها ، كما أن عبد الناصر - على وجه الخصوص - لا يرى أن مصر تستطيع الوصول الى اتفاق يحقق المصالح العربية ، وهى على تلك الحال من الضعف ، وأن أى اتفاق يبرم فى هذا السياق سيخدم مصالح «العدو بالدرجة الأولى» وظل هذا موقفا ثابتا لعبد الناصر طوال حياته .

● الخلاف على حجم اسرائيل

ومن الغريب أن هذا الموقف المتشدد من جانب عبد الناصر تجاه الصلح مع اسرائيل ، لم يتضمن تحديد اطار سياسة بعيدة المدى بالنسبة للقضية الفلسطينية ، فرغم استبعاد الصلح ، ظل موقف عبد

الناصر من قضية الوجود الاسرائيلى مبهما . ففى كل التصريحات الصادرة عنه كانت الدعوة لتطبيق قرارات الأمم المتحدة وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وفق هذه القرارات هى المطلب الأساسى الذى يطرحه عبد الناصر ، مما يعنى ضمنا القبول بوجود اسرائيل من حيث المبدأ فى اطار مشروع التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، أى أن المشكلة اختزلت الى مسألة خلاف على حجم اسرائيل الذى تجاوز حدود قرار التقسيم، ولم يكن تحرير فلسطين من الوجود الاسرائيلى يوما ما هدفا من أهداف جمال عبد الناصر على غير ما كان يشاع، بل أن عبد الناصر أنكر (فى اجتماع مع تيتو ونهرو عام ١٩٥٧) أن مصر تسعى لالقاء اسرائيل فى البحر ، وأكد للزعيمين أن ذلك لم يرد يوما على لسان أى من المسئولين المصريين وليس من الأهداف السياسية المصرية . ويضيف هيكل إنه تم بحث هذا الأمر بحثا جديا فتبين أن هناك تصريحا صدر عام ١٩٤٩ من خلال مقابلة تمت بين عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية وأحد الصحفيين الأجانب عندما تناول الصحفى معه مسألة قيام اسرائيل فأبدى الأمين العام عدم استعداد العرب للاعتراف بالكيان الصهيونى ، وعندما سأله الصحفى عما يفعله اليهود فى هذه الحالة رد عبد الرحمن عزام: «يعودوا الى البحر كما جاءوا منه» . واهتمام عبد الناصر بتحرى الحقيقة وراء دعوى القاء اسرائيل فى البحر يبدو وكأنه محاولة للحصول على «شهادة ابراء ذمة» من تلك «التهمة» ويدل دلالة واضحة على أن شعار «تحرير فلسطين» كان للاستهلاك المحلى ، ولا يعنى تصفية اسرائيل أو منازعتها الحق فى الوجود ، ولعل ذلك يفسر الحاح اسرائيل وأصدقائها على التوصل الى اتفاق مع مصر يحول الاعتراف الضمنى بالوجود الى اعتراف قانونى صريح .

ولم يكن عبد الناصر على استعداد لتقديم هذا الاعتراف الا اذا جاء فى اطار تسوية تضمن للشعب الفلسطينى حقوقه التى نصت عليها قرارات الأمم المتحدة (عودة اللاجئين أو تعويضهم) ، وفى نطاق حدود قرار التقسيم ، وهو - بالطبع - ما لم يكن مقبولا من جانب اسرائيل التى ارادت اعترافا «بالأمر الواقع» دون التزام بحل قضية اللاجئين أو الالتزام بحدود التقسيم . ومن هنا كان الضغط المتواصل على مصر بالقوة فى ١٩٥٦ و١٩٦٧ لارغامها على الرضوخ للمطالب الاسرائيلية ، مع الاستمرار فى محاولة

فتح قنوات الاتصال للدخول فى حوار مباشر اذا فشل فى تحقيق الأهداف الاستراتيجية لاسرائيل بتوقيع اتفاق مع مصر فإن تسريب أخباره الى أجهزة الاعلام كفيل بسحب البساط من تحت أقدام عبد الناصر الذى ارتكزت زعامته فى العالم العربى على موقفه المتشدد من مسألة الاعتراف باسرائيل .

ولعل أهم مشروعات التسوية التى طرحت لحل النزاع العربى الاسرائيلى هو المشروع الأمريكى للتسوية الشاملة الذى حمل الاسم الكودى «ألفا ALPHA» ، واستغرق نحو عامين (١٩٥٣ - ١٩٥٥) ومن الغريب أن هيكل لم يعطه اهتماما كافيا، وظن أن المشروع كان ثمرة جهد مجموعة عمل من المخابرات المركزية الأمريكية والخارجية الامريكية ولكنه فى الحقيقة كان مشروعا وضعته الخارجية الامريكية وشاركت فى صياغته دول حلف الأطلنطى وخاصة بريطانيا وفرنسا، لأن المشروع كان حجر الزاوية لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط فى إطار مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط تستوعب فيه كل بلاد المنطقة بما فيها مصر وإسرائيل، ولذلك كان الحرص الأمريكى على اشراك حلف الأطلنطى فى التسوية مع تحميل بريطانيا وفرنسا قسطا كبيرا من الأعباء المالية المترتبة على التسوية والمتعلقة بمشروعات المياه وتعويضات اللاجئين والمساعدات الاقتصادية لمصر وغيرها من جيران إسرائيل وهو المشروع الذى لعب فيه روبرت أندرسون دور الوسيط فى المباحثات غير المباشرة بين مصر وإسرائيل، والتى أصر فيها عبدالناصر على انسحاب إسرائيل من النقب واعطائه للعرب لتحقيق اتصال أرضى بين مصر والمشرق العربى، وهو ما لم يكن باستطاعة إسرائيل قبوله فى إطار تسوية سلمية تفقدها نحو ثلثى الأراضى التى وضعت يدها عليها عام ١٩٤٨ وتحولها إلى مجرد (كانتون) صهيونى على المنطقة الساحلية، وحاول الأمريكان عبثا اقناع عبدالناصر بالبحث عن بديل لمطلب الاتصال الأرضى بين مصر والمشرق العربى، وأدى فشل المشروع إلى إسراع إسرائيل بالبحث عن سبيل فرض التسوية بالقوة من خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

على كل، كانت هذه هى القناة الوحيدة التى نشطت لفترة محدودة بين مصر وإسرائيل من خلال الوساطة الامريكية. أما ما عدا ذلك من القنوات التى ذكرها هيكل فى كتابه الجديد، فكانت مجرد

محاولات لفتح قنوات اتصال لقيت آذانا صماء من جانب عبدالناصر، أو محاولات من جانب إسرائيل والصهيونية العالمية لتوصيل رسائل لمصر. وساهم فى محاولات فتح قنوات الاتصال زعماء كبار مثل تيتو ونهرو وديجول الذين حاولوا اقناع عبدالناصر بضرورة فتح حوار مع إسرائيل، وعرضوا استعدادهم لذلك، وجاء ذلك بمبادرة فردية فى حالة ديجول (١٩٦٥ و١٩٦٧) ، أو بدافع محاولات الصهيونية العالمية تشجيع مصر على التحاور مع إسرائيل فى حالة تيتو ونهرو اللذان تحركا بتشجيع من ناحوم جولدمان زعيم المؤتمر اليهودى العالمى الذى كرر محاولاته الدوبة فى أعوام ١٩٥٧ و١٩٦١ و ١٩٦٥ دون جدوى. وتمثلت محاولات توصيل الرسائل الأسرائيلية إلى القيادة المصرية فى جهود كيرمت روزفلت رجل المخابرات المركزية الامريكية، وريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى، ولكن الحكومة الرومانية والرئيس شاوشسكو على وجه الخصوص كانوا انشط من لعب دورا فى نقل الرسائل الرسمية أو شبه الرسمية الاسرائيلية إلى مصر اعتبارا من عام ١٩٧٠ حتى تم الاتصال المباشر بين مصر وإسرائيل بعد زيارة السادات الشهيرة للقدس.

والكتاب فى جملته يقدم «ملفا» للصراع العربى - الإسرائيلى، أقل إثارة من الكتب الأخرى التى نشرها هيكل وخاصة ثلاثية «حرب الثلاثين عاما» فالميزة التى انفردت بها كتابات هيكل السابقة، وهى حصيلة المعلومات المهمة الكبيرة، وخاصة تلك المستقاة من أوراق عبدالناصر، لا تتوفر فى هذا الكتاب، ربما لأن الكثير من المعلومات المتعلقة بالاتصالات الخفية بين العرب وإسرائيل لم تعد سرا، ربما لأن قسطا كبيراً من التطورات التى عرضها هيكل فى هذا الكتاب وقع بين ١٩٧٩ و١٩٩٥ عندما كان هيكل بعيدا عن دوائر صنع القرار، مكتفيا بالمراقبة عن بعد، وتتبع ماينشر حول قضية الشرق الأوسط وأن كانت ميزة احتفاظه بدائرة علاقات وثيقة واسعة مع الكثير من اللاعبين الرئيسيين على مسرح السياسة فى المنطقة وسعت مجال الرؤية أمامه، وجعلته مراقبا من نوع فريد.

يبقي بعد هذا أن الكتاب يقدم شهادة من كاتب سياسي متميز سجل فيها ما شاهده وما سمعه، ولاشك أن موقفه وموقعه السياسي، ورؤيته الخاصة كانت وراء توزيع الاضاءة في الكتاب وتحديد مساحات الظلال، وإن كان ذلك يجعل لكتابات هيكل مذاقا خاصا متميزا.

جزء خاص

الجوائز الأدبية العربية السلطان والفنان

عشوائية الجوائز!

بقلم : د. عبد المنعم تليمة

■ العلاقة بين المال والفن من أقدم العلاقات في التاريخ البشرى ، ومن أكثرها تعقيدا ، ومن أقواها تصويرا لمراحل التطور الانسانى . المال وسيط يدار به الجزئى والعارض ، والفن تجسيد يشكل به الكلي والباقي . من هاهنا اعتد كل منهما بالآخر عمادا له وطلبة يسعى إليها. يروم العارض شيئا من تثبيت وبقاء فلا يجد سبيلا له الى ما يروم غير الفن، ويروم الباقى شيئا من أيد وقوة فلا يجد سبيلا له الى ما يروم غير المال ، ولهذا (الاعتماد المتبادل) تجلياته التى يعرفها مؤرخو الفن ، من هذه التجليات كثير من الصحة والسلامة . ومنها كثير من الاعتلال والسقامة ، والأمر بدهى ، فليس من عناصر الحياة كلها ما هو خير مطلق وما هو شر مطلق ، إنما العنصر الواحد بحسب توجيه البشر له وحسب ما يرونه من علاقات هذا العنصر بغيره من عناصر الحياة ووسائطها وانشطتها توازنا واختلالا .

فى البدء كان المال مشاعا . كان كل شىء ، مع الشح والندرة ، ملكا لكل أحد . كان الجائع يلتمس الطعام فى كل نبت ، وكان العطش يلتمس الرى فى كل نبع ، وكان التعب يلتمس الراحة في كل موضع. ثم كان ما كان من آمر الملكية الخاصة ، لقد احتكر القوى مصادر الأطعمة والأموال كما احتكر مواضع العيش والحياة . لقد صار القوى ، فى الجماعة ، قيادة . وفى البدء كان الفن مبثوثا فى كل الأشياء ، فى القدور والرماح والأقواس والأقراط والعقود والأساور .. الخ . كان جمال الشىء فى نفعه . ثم كان ما كان من نضج الظاهرة الفنية ، فاستقلت عن النفع اليومى الغليظ ، وقام على الفن أهل اختصاص ، هم الفنانون . اختص المبدع بالكلى ، بالأسرار والسرائر، بالمغازى المطلقة ، بالرؤيا المستشرفة ، بالرؤية الحكيمة . لقد صار المبدع ،



حفل توزيع إحدى الجوائز العربية

فى الجماعة، ريادة . ودخلت العلاقة القديمة فى تعقيد جديد : تروم القيادة زينة وأبهة لعيشها، ووجاهة وهيبة وصدارة فى جماعتها ، وقيما تثبت مواقعها ، وحشدا واستنفارا للصفوف خلف خطها ، وليس من سبيل إلى شيء من ذلك كله إلا بالفن ، من بعض زوايا نائله الجمة ، الفن سحر ، يتجلى فيه ما خفى ، ويتبدى مالا يرى ، إنه يعلم ويعلم ، يدعو ويحشد ، ينبىء ويتنبأ ، وتروم الريادة ، أول ما تروم ، مسالك لصوتها ، ومسارب لإبداعها ، ثم إنها تروم موضعا عزيزا ومكانة علية فى جماعتها . لاذ كل بصاحبه ، المال والفن ، القيادة والريادة ، القوة والابداع .

المال قوة

وجاءت على المجتمعات الانسانية أطوار وأزمان تبدت فيها الجماعات بطونا وعشائر وقبائل ، وتبدى فيها الأغنياء رؤساء مقدمين قادرين . فى هذه الجماعات أصبح المال قوة وأصبحت القوة (شرعية) فعلية ، بيد أن موضع الفن تقدم أيضا فصار عمل المبدع (شريعة) تاريخية. طلب الناس من الشرعية الحلم والشجاعة وطلبوا من الشريعة العلم والحكمة . أدارت الشرعية الحاضر الماثل، وأضاءت الشريعة الحياة بأسرها فسطعت لحظاتها الثلاث فى أبعادها : الماضى الغابر والحاضر الماثل والمستقبل الآتى . إن مدى المال أضيق وإن مدى الفن أوسع. غير أن جلجلة القوة وهمس الفن أوهما أن المال والقوة هيمنة وأن الفن والابداع تبعية. والأمر على غير هذا النحو ، إنما هى طبيعة الفن التى ساعدت على ذيوع مثل ذاك الوهم ، فالعمل الفنى خفيض الصوت، حمال أوجه ، وأقرب وجوهه الظاهرة السطحية الضعف ، بيد أن قوته الكامنة الهائلة لا يقع عليها غير الخبير البصير بماهية الفن ومهمته . وخذ المثل من أدبنا العربى : الظاهر السطحى فى علاقة

السلطان بالفنان هي علاقة ممدوح معط بمادح آخذ . ودارت حول هذه العلاقة الظاهرة معايير وقيم ترجت عليها الناس . من ذلك أن يغلو الشاعر في العبارة عن سخاء الممدوح وفي العبارة المضادة عن حرمانه هو . ومن ذلك أن يغلو الشاعر في الحديث عن قوة الممدوح وفي الحديث المضاد عن ضعفه هو . وانتشرت مثل تلك المعايير حتى تمكنت من بعض المتقدمين من الكتاب والبلغاء أنفسهم . نرى الخليل يقول : حرفة الأدب آفة الأدباء . ونرى غير الخليل من يقيد حظ الكاتب والشاعر بمقدار رضا السلطان وجوده ، فيقرن الكلام الفائق بالحظ الرائق . بل لقد نرى من أصحاب المعايير والقواعد من يرى اقتدار الشاعر في تمكنه من جعل ممدوحه في منزلة الحبيب وتمكنه من العبارة عن ذلك (المحبوب) بمعجم الحب المألوف من مثل : دنو و إعراض ومنع ونائل ووصل وهجر وتقريب وإبعاد ... الخ .لكننا نقرأ المديح من زوايا مختلفة عن هذه الزاوية القريبة الظاهرة . نرى فيه بابا واسعا للتعرف على ما كانت عليه الجماعة من مثل وأداءات وقيم وعلاقات ، وما كان عليه المجتمع من أنساق وأبنية ودرجات . وكان بعض العرب من الأقدمين يرى بعض ما نراه الآن . كان بعضهم يرى أن الشاعر عندما يصف عمله – مدعيا التواضع – بجهد المقل ، إنما كان يرى أن جهد المقل (غير قليل) في ساحة الفن والابداع . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب . أما القراءة الظاهرة فقد رأت في قول أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب

أن الشاعر يقطع بحقيقة دائمة وهي علو السيف في كل حين . ورأت تلك القراءة في قوله :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
نظم من الشعر أو نثر من الخطب

أن الشاعر يقرر أن انتصار المعتصم أوسع من أن تتسع للعبارة عنه أقوال الشعراء والخطباء . لكن الخبير بحيل الفن يرى غير ما رأته تلك القراءة يرى أن أبا تمام يقول إن السيف أصدق في هذه اللحظة الساخنة من الموقعة الحربية في هذا الزمان العارض الجزئي وليس في كل حين ، أما الحقيقة الكلية ، فلا موضع للسيف في ساحتها ، إنها – الحقيقة – مجال الفن وحده . أما المتنبي ، وهو المادح الجهير ، فإننا لسنا بحاجة إلى القول بأنه لم يمدح امرأ – على كثرة ممدوحيه – غير نفسه ، ولم يمدح نفسه إلا بإبداعه ، فالفن – لديه – يعلو ولا يعلى عليه .

كل شيء يهدده الفناء ، إلا الفن فإنه قرين البقاء . لقد فنيت أموال الأغنياء والأقوياء وبقيت قلائد الأدباء والشعراء .

لقد نصصنا على أن العلاقة بين المال والفن معقدة ، وعلى أنها تتخذ فى كل طور تاريخى صورة جديدة ، فما صورتها فى زمننا الحديث هذا ، وفى ثقافتنا العربية الراهنة هذه ؟ .

***

المجتمع الحديث معناه أن فئات وطبقات اجتماعية جديدة قد ظهرت وتحددت ، وأن قوى سياسية جديدة قد برزت وتميزت ، وأن اتجاهات ثقافية علمية وإبداعية قد تغايرت وتعددت . فى هذا المجتمع الحديث تغيب الشرعية الفعلية القديمة المطلقة فى نظام تتعدد قواه الاجتماعية والسياسية ، وفيه تنحل الشريعة الثقافية التاريخية التى كانت تنهض على الآحاد المبدعين فى براح تتعدد رؤاه . وكل هذا التمايز والتنوع والتعدد لا يستقيم أمره إلا أن تنهض به أنظمة تنهض بدورها على مؤسسات . فالمجتمع الحديث - إذن - هو مجتمع الأنظمة والمؤسسات : النظام السياسى ، النظام الاجتماعى ، النظام الاقتصادى ، النظام الثقافى . المؤسسة السياسية المؤسسة التعليمية ، المؤسسة العلمية ، المؤسسة الاعلامية المؤسسة القضائية المؤسسة العسكرية .. الخ . والقيادة فى هذا المجتمع الحديث للسياسة بمعناها الشامل ووعائها الواسع ، بيد أن هذا التنوع والتمايز والتعدد لا يستقيم أمره إلا أن تشارك فى النهوض به الأنشطة الأهلية العامة التى تتبدى فى زمننا الحديث هذا فى الجماعات والجمعيات والنقابات والاتحادات ... الخ . وفى طور مبكر من نشوء المجتمعات الحديثة ذاعت فكرة مدارها أن المجتمع الحديث إنما يتأسس على ثلاثة أنظمة ، النظام السياسى والنظام الاجتماعى والنظام الاقتصادى . غير أن هذه الفكرة قد تراجعت عندما تبدى أن هذه الأنظمة الثلاثة لها ماسك أو جامع هو القاعدة الثقافية الصلبة التي بدونها يفقد المجتمع تماسكه وتنتهى أبنيته وأنظمته إلى التصدع والتهدم . واستقر الحال اليوم ، بعد خبرات طويلة فى هذه الأزمنة الحديثة ، على أن سلامة النظام الثقافى هى المدخل الأول إلى سلامة كل أنظمة المجتمع . واستقر الحال كذلك على أن نهوض النظام الثقافى على المؤسسات هو الأساس المتين للعمل الثقافى المبدع المنتج واستقر الحال أخيرا على أن تنظيم الحيوات الابداعية والعلمية والتعليمية والاعلامية والفكرية لا يقل فى خطره وآثاره عن تنظيم

الحيوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . إن المجتمع الحديث يعتد اعتدادا بحرية المثقف وتفرده، ويعتقد فى ذات الوقت بأن العمل الإبداعى عمل فردى ، لكنه منذ أتمه صاحبه قد نزل الى سوق تخضع لآليات سائدة فى الانتاج والتوزيع . غير أن المنتج الابداعى - فكريا وعلميا وفنيا - كيس كغيره من المنتجات ، فقد تعمل الآليات السائدة على تقديم منتج ثقافى وحجب غيره ، وقد تعمل على توسيع دائرة الشيوع والنشر لعمل وعلى المحاصرة والمصادرة لعمل آخر وثمة أسباب لكل تلك المواقف أسباب سياسية وعرقية ودينية وايديولوجية ... الخ .

منح وجوائز الأثرياء

والذى يحمى المبدع وعمله فى المجتمعات الحديثة قيام الأنظمة الثقافية فيها على المؤسسات التى تدير المحاورة بأدبيات متفق عليها وتعمل بآليات مستقرة معلنة . ولو ضربنا المثل بشأن يسير كالمنح والجوائز التى يجعلها آحاد من الاثرياء للبارزين من المبدعين ، لوجدنا أن المانح يضع منحه وجوائزه فى مؤسسة يقوم عليها مدراء وخبراء وعلماء . ربما تحمل المؤسسة اسمه تكريما وتخليدا ، لكنه بشخصه تنقطع صلته بعملها وادارتها ، وفى هذا كرامته وكرامة الممنوح جميعا .

وقد أخذت مجتمعاتنا العربية تتلمس طريقها حثيثا الى الحداثة منذ أوائل القرن الماضى ، ولاتزال تتلمس الطريق الى يومنا هذا . أخذت البلاد العربية فى هذين القرنين الأخيرين - على تفاوت فى مستويات التطور - تخرج من العلاقات الكلاسيكية ذات الطابع العشائرى والقبلى، إلى العلاقات الحديثة ذات التعددية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية . وشرعت هذه المجتمعات العربية فى إقامة مؤسسات المجتمع الحديث ، بيد أن عثرات قوية لا تزال تعطل هذا الأمر . ومؤرخ العرب اليوم يرى فى معظم المجتمعات العربية هياكل مؤسسية جمة ، غير أنها لاتزال واهنة هشة . إن هذا الوضع يفضى إفضاء الى تيارات واتجاهات غائمة وإلى أنظمة وأبنية غائبة. واذا كانت الأنظمة الحاكمة فى المجتمعات العربية قد سعت سعيها - مع التعثر الذى أشرنا إليه - إلى إقامة المؤسسات السياسية والاقتصادية ، فإنها سعت سعيها فيما يتصل بالمؤسسات الثقافية خاصة فاحتكرت إدارتها احتكارا حازما بحيث صار المبدع الثقافى موظفا وبحيث صار العمل الثقافى موجها بغايات السلطات وأهدافها . وقررت بعض الحكومات العربية فى العقود الأخيرة - أن تضع خططا وميزانيات لرعاية المواهب وتشجيع الموهوبين بمنح التدريب والتفرغ

وبجوائز التفوق والامتياز فى حقول الثقافة المختلفة. ولاريب فى أن الجوائز الادبية التى أنشأتها حكومات مصر والسعودية والعراق والكويت محمودة فى أساسها لكن احتكار الادارات الحكومية لمنح هذه الجوائز يضع الأمر كله فى مواضع قلقة مقلقة لأنه يجعل حرية التعبير والتفكير والاجتهاد والتفسير والتأويل محكومة بالنظرة (الرسمية) ، وهى نظرة بيروقراطية محافظة . والمخرج أن يقوم على هذه الجوائز الحكومية دوائر محررة من أهل الحل والعقد والاختصاص فى كل حقل ثقافى ، وأن تشارك فى التحكم والتقويم والحكم مؤسسات التعليم الكبرى من جامعات وأكاديميات ومجامع ومراكز بحث ، وأن تشارك فى هذا الواجب أيضا منظمات المثقفين الديمقراطية من جمعيات اتحادات .. الخ .

وفى السنوات الأخيرة بدأ آحاد من الأثرياء العرب - بخاصة من دويلات الخليج وإماراته - يخصصون شيئا من أموالهم للمنح والجوائز فى بعض الحقول الثقافية وفى حقل الابداع الأدبى بالذات . وهذا أمر مطلوب ومرغوب ، بل هو محمود ومرجو، وإننا لنتمنى أن يشارك عامة الاثرياء فى مثل هذه الأعمال الجليلة ، فلقد ضجت الحياة العربية - ولاتزال - من إنفاق المال العربى فى وجوه غير كريمة إن النهوض الشامل لا تقوم به الحكومات وحدها فى هذا العصر الموكب ، وإنما يقوم بالجانب الأعظم منه نشاط الناس أنفسهم ، فإذا كان هذا النشاط لايجدى بغير مؤسسات ومنظمات أهلية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر ما يقوم به الآحاد من الأفراد القادرين . ولا ريب فى أن الجوائز التى جعلها آحاد من الأثرياء العرب للتفوق الثقافى والأدبى قد صاحبها منذ إنشائها نواقص ومعايب . من ذلك غموض شروط الترشيح ومعايير التقويم والتحكيم والحكم . ومن ذلك الصخب الاعلامى والضجيج الاحتفالى . ومن ذلك النزوع الى الاستقطاب الهادم لحوار راق بين الاتجاهات والمدارس المختلفة ... الخ. ويمكن أن نجعل كل ذلك على خط الاستقامة : أن نعصم المانح والممنوح من فرديتهما ، بضبط الشروط وإعلان المعايير ووضع الأمر فى مؤسسات يقوم بالعمل فيها وجوه الابداع والفكر والعلم فى بلادنا العربية كلها . من حق المانح أن تحمل الجائزة اسمه تقديما وتكريما ، أما طرائق القبول والفحص والتقويم والحكم فشأن مؤسسى عام . وإننا لنرجو أن يتجاوز المال العربى هذه الجوائز الفردية ، إلى آفاق أرحب وأوسع ، إلى المشاركة فى بناء بنية ثقافية أساسية تنتظم المعاهد التعليمية والعلمية والمراكز البحثية والمكتبات والمعامل العصرية ومحطات البث ودور النشر الكبرى .. الخ .□

جـزء خـاص

جوائز الأدب العربية : وجهان للعملة

عشوائية الجوائز!

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

■ منذ سنوات طويلة وأعين أدبائنا تتطلع بعين النهم والحرمان إلى جائزة نوبل، وهيئاتنا الثقافية ترشح لها تارة طه حسين، وتارة العقاد، وتارة توفيق الحكيم. كان مسعى مقضيا عليه بالفشل من قبل أن يبدأ: فإلى جانب الحقيقة الماثلة فى أن الأدب العربى - قبل ازدهار حركة ترجمته إلى اللغات الأجنبية فى العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن - لم يكن مطروحا على الساحة العالمية، لم يكن بين هؤلاء الثلاثة، على جلال قدرهم وأهمية الدور الذى لعبوه فى سياقنا المحلى، من يستحق الجائزة.

طه حسين ناقد أدبى وباحث اكاديمى ومؤرخ للأدب على العين والرأس، ولكن فى الأقطار الأوربية كثيرين مثله، وأفضل. العقاد - كما كتب عنه لويس عوض يوما - لا يقدم جديدا للقارىء الأوربى الذى استوعب نيتشه وشوبنهاور وكرلايل، وسلسلة عبقرياته التى تباع كالكعك الساخن فى الاقطار العربية والاسلامية من شأنها ان تقع من الأذن الغربية موقعا فاترا، بل عديم الأثر . إذ ماذا يهم القارىء الغربى فى ان يكون عمرو بن العاص عبقريا أو لا يكون؟ وتوفيق الحكيم - وهو أقرب الثلاثة الى الوفاء بمتطلبات الجائزة العالمية - يستمد أهميته من دوره التأسيسى فى خلق مسرحية عربية حديثة، أكثر مما يستمدها من أى قيمة باطنة لمسرحياته، باستثناء


عبد الوهاب البياتى


ادوار الخراط

مسرحيتين او ثلاث . هكذا اتخذ توالى الاحباطات ، والاشراف على اليأس من نيل الجائزة، شكل الانتقاص منها: فراح الكثيرون - ومنهم العقاد ذاته - يلحون على انها (وهم فى هذا محقون) ليست دائما معيارا للامتياز المطلق : فقد حصل عليها أدباء متوسطو الموهبة (من يقرأ اليوم كاتبا مسرحيا اسبانيا اسمه اشيجارى؟) بينما فاتت رجالا من طبقة هاردى وجويس وبروست. وذهب آخرون (وهم ايضا محقون الى حد ما) الى انها جائزة مصطبغة باعتبارات السياسة، ميالة الى اليهود، متجاهلة للعرب. واكد فريق ثالث (وهو ما لا نزاع على صحته) انها ، كأى اجتهاد بشرى معرضة للصواب والخطأ، ومحدودة بحدود اللجنة المشرفة عليها ثقافة وذوقا وخلفية ، كما انها محدودة بالقدر المترجم الى اللغات العالمية (الانجليزية ، الفرنسية ، الألمانية ، الاسبانية ، الايطالية ، اليونانية .. الخ..) من مختلف الثقافات.

هكذا اتخذ كثير منا من جائزة نوبل موقف الثعلب الذى قال عن العنب - حين عجز عن الوصول اليه - انه حصرم . ولكن الموقف تغير بين عشية وضحاها حين اعلن - فى اكتوبر ١٩٨٨ - عن فوز محفوظ بالجائزة . لم يكن احد يتوقع ذلك ، ولا محفوظ نفسه (كان رد فعله الاول - حين ابلغ بالنبأ - ان تساءل غير مصدق: من رشحنى لها؟) وعلى الفور تغير الموقف من الجائزة، وانعكست نغمة الحديث عنها انعكاس زوايا المثلث، وكرمت الدولة محفوظ على أعلى المستويات، وتحول الحنق على نوبل الى محبة غامرة - ظلت مكبوتة طويلا - وأسفر التظاهر ، على مدى سنوات، باحتقار الجائزة عن شوق عميق اليها ، ولم يشذ عن الاجماع سوى الراحل يوسف ادريس (وهو رجل ذو عبقرية كبيرة، وغرور "كبر) ولكن غضبه - أو قلنقل ، بتعبير اصرح، غيرته - ضاع فى غمرة صيحات الحماس، ولم يجد ردا من محفوظ الذى استوصى - كعادته دائما - بالحكمة والأدب، ورفض الدخول فى أى مجادلات صبيانية ، كان محررو الصفحات الأدبية فى صحفنا ومجلاتنا يتمنون لو انهم أفلحوا فى جر رجله اليها، ردا على ادريس.

● موقفنا من الجوائز

إنما سقت هذه المقدمة بين يدى حديثى عن جوائز الأدب العربية لكى أؤكد امرين: الاول ان موقفنا من جوائز البابطين، او العويس، او شومان، او سعاد الصباح او غيرها، لا يختلف من حيث النوع ـ وان اختلف من حيث الدرجة ـ عن موقفنا من نوبل، فنحن نرمقها بعين الحسرة والحرمان من ناحية (من لا يحب ان يدخل جيبه ثلاثون الف دولار؟ كلنا يريد ان يجدد ديكورات شقته ، او يستبدل بطراز سيارته طرازا احدث، او يريد تزويج ابنته، او عليه ان يسدد فواتير الاطباء او الدواء ، الخ).. ونحن من ناحية اخرى نتظاهر بالزهد فيها ، والترفع عن الجرى وراءها (قال المعرى ـ وهو رجل حكيم : والمرء ليس بزاهد فى غادة، لكنه يترقب الامكانا).. واذا كنا من اصحاب الالتزام الايديولوجى فليس بعيدا ان نندد بوصمة كل ماهو بترو ـ دولارى، يمينى محافظ ، قادم من البادية الجرداء وليس من بلاد الثلوج والمطر والديالكتيك. اما اذا كنا ذوى نزعة كلبية شاكة ساخرة ، فقد نتذكر قول خالد عزوز فى رواية محفوظ. «ثرثرة فوق النيل». «كل قلم يكتب عن الاشتراكية على حين تحلم اكثرية الكاتبين بالاقتناء والاثراء وليالى الانس فى المعمورة» لكن هذا كله قد اصبح تاريخا مضى ، ولا احد اليوم ـ باستثناء اثنين او ثلاثة ـ قد عاد يذكر الاشتراكية بعد ان انقلب عليها اهلها فى عقر دارها ، ومالوا الى مسرات الجاز والهامبورجر والكوكاكولا والايس كريم والجنس.

لكن حصول عدد من الأدباء والنقاد العرب ممن لاشك فى امتيازهم، البياتى، ادوار الخراط، مصطفى ناصف، محمد عبد المطلب، الخ .. على عدد من هذه الجوائز العربية قد قلب كفة الميزان مرة أخرى ، وأعادنا الى التفتيش فى ضمائرنا ، على امل ان نجد هناك راحة او مستقرا . ما القول الان وهذه الجوائز ـ او بعضها ـ قد صار يذهب لمن يستحق، وينأى ـ بدرجة غير منكورة ـ عن شبهات المجاملة او التحيز؟ هل نرحب بها من الآن فصاعدا ام نجعل ترحيبنا مشروطا بمن يحصل عليها فى السنوات القادمة (وهنا مجال ـ لا حد له تقريبا ـ لاختلافات الرأى والذوق والفكر) خشية ان تنزلق عن مجثمها العالى الراهن، او يدب اليها الضعف البشرى او الأهواء من هنا او هناك؟ سأحاول ـ فى سطور قليلة ـ ان ابسط موقفا من هذه الجوائز هو موقفى الشخصى الذى لا يلزم احدا غيرى، سأحاول ان ابين وجهى العملة، سلبا وايجابا، زاعما انى ـ الى حد لا بأس به ـ

منزه عن الغرض فى اضطلاعى بهذه المهمة ، فليس لدى ادنى امل فى الفوز باحدى هذه الجوائز اذ لست من ناحية فنانا مبدعا (لى مجموعة قصصية ارتمت فى احضان النسيان منذ صدورها فى ١٩٨٤) بحيث اطمح الى جائزة الشعر او القصة او المسرحية ولست من ناحية اخرى ناقدا مهما للأدب العربى (وهو المجال الذى تمنح فيه الجوائز عادة) بما يكفى لان اتطلع اليها، او لان يجعل افكار مانحى الجائزة تتجه الى . واذا كنت مترجما (وثمة جوائز للترجمة) فان عملى الاكبر فى هذا المجال ـ وهو ترجمتى لأغلب اعمال ت . س . اليوت شعرا ونقدا ومسرحا ـ لم يظهر بعد وقد لا يظهر الا بعد سنوات، ان كان فى الاجل فسحة، وقد لا يظهر قط اذا رحلت وخلفت اوراقا متراكمة فى غرفة متربة، ونسج العنكبوت خيوطه على شاهد قبرى . هاك إذن ما لهذه الجوائز وما عليها من وجهة نظر عازف عنها، آيس منها، لا ترمضه اشواق لاعجة ولا يجرى وراء كواذب الآمال وخطب البروق.

لنلاحظ ـ بادىء ذى بدء – ان الحياد الكامل مستحيل فى منح هذه الجوائز كما هو مستحيل فى اغلب جوانب الحياة. يمكن ان تكون اللجان المانحة للجوائز ـ وبعضها كذلك فعلا ـ مؤلفة من صفوة المفكرين والنقاد والأدباء ممن لا ترقى الى نزاهتهم شكوك، ويرتد الطرف عن شواهق إنجازهم الخاص وهو حسير، ومع ذلك يظلون مقيدين باعتبارات منها السياسى ومنها الاقتصادى، ومنها الاجتماعى. نحن جميعا نعيش فى سياق من العلاقات الشخصية والمواقف العامة، وعلينا جميعا ادوار نلعبها ، سواء كنا راضين عنها - فى قرارة انفسنا ـ او لم نكن . أمن الممكن ـ إنسانيا ونفسيا ـ (وهذا مجرد فرض) ان تُمنح جائزة كويتية لأديب عراقى مؤيد لنظام بلده ، مهما يكن من امتيازه الادبى، فى ظل الظروف الراهنة وذكريات الماضى القريب امن الممكن ان تُمنح (وهذا فرض آخر) لأديب يؤيد التطبيع الثقافى مع اسرائيل فى ظل رأى عام معاد لمثل هذا التطبيع بين المثقفين، مع استثناءات قليلة هنا او هناك؟ هذان مثلان اثنان لا غير ـ ويمكن ان نضاعف الأمثلة ـ للقيود ، محسوسة وغير محسوسة، التى تعتاق حركة الفكر حين يقف فى موقف الحكم او القاضى فى لحظة تاريخية بعينها.

لكن لا جدال فى ان هذه الجوائز العربية السخية ايجابية الأثر، جديرة بالحمد، من حيث إنها تومئ الى اعتراف ـ تأخر كثيرا ، بل اكثر مما ينبغى ـ بقيمة الفكر والإبداع


يوسف ادريس


سليمان فياض

فى حياة الأمم ، وضرورة مكافأة النابغين فى ظل سباق اجتماعى واقتصادى لا يرحم (حتى لو كان النابغ قنوعا زاهدا فقد لا تكون زوجته واولاده كذلك) . لا أريد ان ألوذ بالحجة التى تساق عادة فى معرض الثناء على هذه الجوائز: وهى ان منح المال للمفكرين والأدباء والعلماء خير من تبديده على مسارح اللهو، البرىء وغير البرىء . لا اقول بهذا لأنى اضن بكرامة الفكر وعزة المفكرين ان توضع فى ميزان واحد مع هذه الامور. انما اقول ان للجوائز ـ الى جانب قيمتها المعنوية – قيمة مادية للحاصل عليها لا تنكر : فقد تمكنه من القيام برحلة يستكمل فيها مادة بحث او رواية (انا شخصيا احلم ـ منذ سنوات ـ بالذهاب الى موقع قرطاجنة القديمة على الساحل التونسى لأنى ارجو ان اكتب يوما رواية عن هانيبال، تلك الشخصية الفاتنة) ، او تمكنه من اقتناء كتب ومراجع واسطوانات واشرطة وافلام فيديو يحتاج اليها، او حتى من استئجار شقة صغيرة مستقلة، يمارس فيها عمله فى هدوء بعيدا عن مشاكل الزوجة والأولاد والبيت والأصدقاء والعشيقات والأعداء. الجائزة ـ من هذه الناحية ـ نجدة من السماء ، تعين المرء على تكريس ذاته ـ او ما بقى منها ـ لخدمة ربة الفن وهى ربة غيور لا ترضى ان يستأثر احد دونها بالاهتمام، بل العبادة الكاملة.

لكن الجائزة من ناحية اخرى ـ وهذا هو الجانب السلبى ـ غل فى عنق صاحبها، وان يكن غلا من ذهب . انها تفرض ، بالضرورة قيودا ، على حركة الفنان، فكريا ونفسيا ووجدانيا، ان لم يكن ماديا ايضا. فهى مواصلة لنظام رعاة الفن فى ظل النظام الاقطاعى القديم، وفرض لقيد غير مرئى على حرية المبدع التى ينبغى ان تطمح الى ان تكون مطلقة ولو انها لن تكون كذلك قط. هب (مرة اخرى اعود الى الفروض) ان الحاصل على الجائزة أممى تروتسكى قديم ـ انظر فريدة النقاش عن انوار الخراط على صفحات

العدد الاخير من «أدب ونقد» ـ يتلقى جائزة ، على طبق من ذهب ، من احدى دول الامارات التى تسيل ارضها بترولا وعسلا ولبنا . كيف يكون موقف الثائر اليسارى القديم مهما دمث الزمن من طبعه أو عدل من آرائه ازاء مفارقة كهذى؟ هذا موقف لا يخلو من فكاهة ، ولكنه لا يخلو ايضا من لمسة مأسوية . وعلى كل منا ان يواجهه بالطريقة التى يمليها ضميره وحسه بالوقائع ، وظرفه التاريخى، وادراكه للعلاقة بين ماهو ثابت وما هو متغير.

سيظل الفنان والمفكر دائما يواجه مشكلة كسب عيشه، والانفاق على زوجته واولاده وربما غيرهم ايضا ، ومشكلة تحقيق التوازن بين انخراطه الضرورى فى غمار هذه الامور وانخراطه ـ الذى لا يقل عن ذلك ضرورة بالنسبة له ـ فى جهد الانعزال عنها ، والتنائى بجانبه عن كل ما يشتته عن التأمل والقراءة والكتابة. لاحل لهذه المشكلة (أم نقول الاشكالية كما يفعل معاصرونا الأكثر ولعا بالإغراب والمعاظلة؟) فهى متجددة دائما وابدا فى كل عصر، وان اتخذت اشكالا مختلفة . ليسأل كل منا ذاته (أعدك ان يكون هذا اخر فرض فى مقالى) : لو منحت الجائزة العربية السخية غدا ، فهل اقبلها ام ارفضها؟ اعتقد ان الاجابة الصحيحة هى: بل اقبلها مهما تكن لى من تحفظات ـ قليلة او كثيرة ـ على المناخ العام الذى تعيش الثقافة العربية، أو تذوى، فى ظله، وأوجه الشكر لمن منحونى اياها كما يجمل بالرجل / المرأة المهذب ان يفعل . ذلك ان لهذه الجوائز ـ ولاخص ما أسلفت ـ عدة مزايا: انها تكريس لقيمة الإبداع والمبدع؛ انها عون على مواجهة الحياة وصروفها، انها تكريم معنوى والأدباء «كالأطفال والنساء» ـ لا يكفون عن طلب المزيد من الحب والرعاية والحنان، انها نقض للفكرة القديمة (والصائبة ، وأسفاه ، فى كثير من الاحيان) انه لا كرامة لنبى فى وطنه وان زامر الحى لا يطرب؟ واخيرا ـ انها تكفكف من غلواء حلمنا المحموم بجائزة نوبل او جونكور او بولتزر او غير ذلك من الإغراءات البراقة التى يلوح بها الغرب امام اعيننا الظمأى كما يلوح الراكب لدابته ـ ومعذرة للتشبيه ـ بجزرة . ومن يدرى؟ قد ينعكس الوضع فيبيت الأديب الأوربى ـ والأوضاع الاقتصادية فى بلاده على ماهى عليه من أزمات وتدن ـ وهو يحلم بأن يستيقظ يوما فيجد نفسه حاصلا على جائزة البابطين او العويس!

جزء خاص

الجوائز الأدبية

عشوائية الجوائز

التقدير هم الكاتب الأصيل

بقلم : د. عبد اللطيف عبد الحليم - أبو همّام

لعل أفضل جائزة يتلقاها الكاتب أن يكون مقروءا ، وأن يؤثر فى أمته بوصول رسالته إليها ، وحسبه أن تصل إليه الجائزة من الدولة نائبة عن الأمة التى قدرته ، مقرونة هذه الجائزة بأوانها من التشجيع أو التقدير ، لا بعد فوات الأوان ، ويكون قد أحرزها من ليسوا نظراء الكاتب المجاز ، إذ تنعدم النصفة ، ويستوى من لايستحق بمن يستحق.

وشر ماقنصته راحتى قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

وأحيانا تصل الجائزة بعد إبانها ، فتكون كطوق النجاة يرمى بعد بلوغ البر كما قال برنارد شو.

والجوائز خير لمن تصل إليه وللجهة المانحة أيضا لأنها تدفع الكاتب فى طور التشجيع إلى الإتقان والحماسة وتدفعه فى طور التقدير إلى شىء - ولا نقول كل - من الرضا عن رحلته الطويلة ، خاصة فى النتاج الأدبى الذى يحتاج إلى مكث كثير لحصاد التقدير ، وليس كما هو الحال فى الفنون الأخرى سمعية وبصرية ، إذ يصادف نووها غالبا تقديرا وإعجابا من المشاهدين أو السامعين ، كما أنها خير للجهة المانحة ، حيث هى دلالة على حسن الرأى ، وأن التقدير للآخرين النابهين من الأمة ، إنما هو فى جوهره تقدير لتلك الجهة ، إذ هى مشاركة فى بعض الفضل الذى تسديه ، والذى تضعه فى موضعه الصحيح .



●جوائز عالمية

وقد قيل كلام كثير فى الجوائز محلية وعالمية ، وربما كان من أهم مايقال إنها كثيرا ماتجتاز المستحقين إلى غيرهم ، أو على الأقل تهمل بعض المستحقين لحساب البعض الآخر، وآية ذلك فى جائزة نوبل مثلا أنها تخطت أسماء كبيرة ، لأصحابها مكانة باذخة فى الآداب العالمية ، مثل توماس هاردى وأونامونو ونظرائهما ، بيد أنها فى هذا التخطى تثبت أمرا جليلا هو أن الجوائز ـ مهما عظمت ـ لا تضيف إلى الكاتب مكانة لم يبلغها قبل الجائزة ، وخاصة جائزة القراء التى تبقى بعد فوات هالة الحفلات ، والبريق الإعلامى ، وأنها لاتخلق أديبا إلا إذا كان مؤهلا بحكم ملكاته لبلوغ هذا الأوج ، ربما تحجب عنه بعض الخمول ـ إعلاميا ـ لكنه حجب موقوت ، بدليل أن كثيرين ممن أحرزوا نوبل ـ مثلا ـ لايضارعون فى الشهرة والذيوع بعض الأسماء التى لم تحرزها ، وليسوا مثلهم أيضا فى المكانة الأدبية ، كل هذا له دلالة، ودلالته القريبة أن مثل هذه الجوائز ليست المحك الوحيد لقيمة الأديب أو المفكر وأن القيمة المستمدة منها ربما تنصل ألوانها بعد حين ودلالته أيضا أن اللجان المانحة لايصادفها التوفيق أو النصفة فى بعض الحالات ، وخير ماتصنعه أنها تقدم غالبا الحسن ولاتضمن لك الأحسن، وأنها لجان فى النهاية بشرية يعتريها مايعترى البشر من نوازع وأميال ، وقد عرفنا أدباء أحرزوا نوبل بموازين غير موازين الاستحقاق المطلق ، وأنهم «متوسطون» ، وأن كثيرين من أدبائنا يفوقونهم ، ونجيب محفوظ ـ فى رأينا روائيا ـ أفضل من كثيرين استحقوها ، لكنها التقسيمات الإقليمية ، التى تدفع إقليما إلى دائرة الضوء ، وتحجب أقاليم أخرى !!

●وأخرى أسبانية !

وثمة جوائز أخرى ربما تضارع نوبل، وهى جوائز سخية بكل المقاييس أدبيا وماديا ، وبعضها ـ فى أسبانيا مثلا ـ يخول لحائزها أن يتفرغ تماما للأدب ، وأن تتركه حرفة الأدب بالمعنى الأوربى لهذه الكلمة ، إذ هى عندنا قرين الخصاصة والبؤس ، وحسبنا أن رجلا مثل أنطونيو جالا ـ وقد بلغ الستين هذا العام ـ يعيش من الجوائز ومن دخل كتبه عيشة أهل الفن المرئى ، ويعيش فى قصر اشتراه

طه حسين



توفيق الحكيم



صبح ملي،

من المغنى العالمي : خوليو إجلسياس ، وتطبع كتبه مسرحا ورواية ومقالات وشعرا بالمليون ولا نقول بالآلاف .

دلالة مثل هذه الظاهرة أن التقدير الأدبي مشفوع بالتقدير المادى ، وأن الأدب وظيفة اجتماعية ينبغي أن تنال لذويها المستحقين ، أرقى المنازل الاجتماعية فى الأمة ، ودلالتها أيضا أن القراء ـ قبل الجائزة ، وهم كثير فى الأمم الراقية ـ يخولون لكتابهم مثل هذه المكانة البانخة .

● .. فى مصر ..

وما قلناه عن الجوائز عموما يصلح قوله عن الجوائز فى مصر ، التى فطنت مبكرا ـ فى محيطها الإقليمى ـ إلي تقدير أدبائها ومفكريها ، فاستنت نظام الجوائز قبل الثورة وبعدها ، تمثل هذا «البعد» في جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية ، منذ سنة ١٩٥٨ وحتى الآن ولحسن الحظ أنه كانت لاتزال تعيش بيننا قمم شامخة من الأدباء والمفكرين ـ أدباء النهضة ومفكريها الكبار : طه حسين ، لطفى السيد ، العقاد ، الحكيم وإخوان هذا الطراز ، ومثل هؤلاء منحوا الجائزة كثيرا من قدرها ، ولسنا بذلك نغمط الآخرين حقوقهم ، وإننا من أنصار الماضى ولانرى الحاضر أو المستقبل ، بل نعنى أن أمثال هؤلاء ليسوا محل حجاج ، بل تكاد الآراء – مهما اشتطت ـ أن تتفق عليهم وعلى نظرائهم من أبناء الجيل الثانى ، حتى فى الجائزة التشجيعية ـ آنذاك ـ التى كانت تزهو بمستحقيها ، ولأنها كانت لاتزال قيمة أدبية ومادية .

لكن ثمة بعض الملاحظات التي لاتبطل قيمة الجوائز ولاتدفعنا إلى إلغائها ، لأنه شر بكل المقاييس ، بل تحفزنا إلى مزيد من الضبط والإتقان .

أولى هذه الملاحظات أن القيمة المالية غدت مضحكة ولاتظن أن التقدير الأدبى وحدة حسب الأديب ، فليس الأديب جمادا ، بل هو رجل مشتعل الخوالج ، يتبوأ مكانة المرء الراقى فى الأسرة الاجتماعية ، وبعض الجوائز التى يمنحها المجلس الأعلى للثقافة الآن أربعة أضعاف الجائزة التشجيعية ، ولاتجد أحيانا من يتقدم إليها ، زهادة فى القيمة المالية فى زمن سطا فيه التضخم ، وهبطت القيمة السعرية للعملة ، وليس هذا وحده ، بل إن الجائزة التشجيعية ـ وهذه هى الملاحظة الثانية ـ يتقدم لها من تجاوزوا طور التشجيع ، بعضهم خنق الستين بالفعل ، فأى تشجيع تنتظره اللجنة المانحة منه ، أو ينتظر هو من الجائزة الهزيلة هذه .

وثالثة هذه الملاحظات أن أعضاء المجلس المانحين للجائزة ليسوا جميعا من أهل الاختصاص ، فيما يتصل بالتقديرية، فثمة موظفون وأعضاء من الخارج ، ولذلك يكتفى

المرشحون عادة بترشيح مجالس الجامعة أو الهيئات التى رشحتهم، ومعهم بعض الحق فى هذا .

رابعة الملاحظات أن الجوائز الأدبية التقديرية يخالطها شىء من عدم التقدير الحقيقى ، نظرا لاتساع حقل العلوم الاجتماعية مثلا كاللغة والفقه ، والفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك ، وكله جائزة واحدة أو تتعدد أشخاصا لا مجالات ، ومثل هذا ظالم لذوى هذا الاختصاص .

الخامسة أن جوائز الدراسة الأدبية غلبت بعض الشىء على الإبداع ـ فى التقديرية ـ ربما شحب الإبداع بعض الشىء ، غير أن ثمة مبدعين ، يجب ، أن يؤخذوا فى الاعتبار ؛ أو على الأقل يقرن الإبداع بالدرس ، وفى هذا الصدد يقال أيضا إن بعض المبدعين وخاصة فى الشعر قد أحرزوا الجائزة التقديرية وليسوا بمستحقيها بحال ، بل ليسوا يستحقون التشجيعية ، لكنه سوء التقدير.

سادسة الملاحظات أن هيئات ترى اللجان أن تمثل فى إحراز الجوائز ، وهذا مطلب أشكل بالسياسة لا بالأدب ، وهو أمر يجعل الجائزة تتجه إلى الهيئة لا إلى المستحق ، وثمة أسماء كبيرة ـ إعلاميا أو وظيفيا ـ وصلت إليها التقديرية ، والأمة واجمة إزاء هذا التقدير الذى أفرغ الجائزة من حقيقتها ، ولانريد تسمية هذه الهيئة أو غيرها فهى معروفة بسيماها للمتتبع .

وداخل هذا الإطار تمنح الجائزة أحيانا لبعض رجال الدولة ، وثمة شبهة واضحة فى هذا التقدير ، بغض النظر عن أنهم يستحقونها أم لا ، ومن العجب أن تختلط الجوائز اختلاطا فاحشا ، حين يحرز أحدهم وهو وزير سابق – عليه رحمة الله ـ جائزة الدولة التقديرية فى الآداب وهو فقيه أولى به جائزة العلوم الاجتماعية إذا خولته معارفه فى هذا الصدد .

●جوائز تخرج عن إطارها

الملاحظة السابعة أن بعض الجوائز التشجيعية كالشعر ربما تخرج عن إطارها حين تتجه مثلا ـ وهو أمر نراه قريبا جدا ـ إلى أصحاب قصيدة النثر ، وهو اتجاه سنراه فى السنوات القادمة ، حيث تنشر كتابات هؤلاء على

العقاد



لطفى السيد



أنها دواوين ممهورة بكلمة : شعر فلان ، متمسحين بانعدام الأجناس الأدبية ، وأن كل كلام هو إنتاج أدبي ، وبقياسهم يغدو الكلام وهو إنتاج والقبول ـ عفوا - وهو إنتاج كذلك شيئا واحدا ، كما ننتظر أيضا أن تمنح هذه الجائزة للزجل ونحن نقترح للزجل جائزة خاصة باسمه بعيدة عن الشعر الفصيح ، لا تقليلا من قيمة الزجل ، بل وضعا للأشياء في نصابها الصحيح ، وربما كان مانقوله رجما بالغيب ـ وليته كذلك ـ وإن كان هذا «الليت» بعيدا !!

تخطت هذه الجوائز بعض المستحقين وستظل كذلك ، ركونا إلى الطبيعة الإنسانية ، وبعض هؤلاء خامرهم كثير من الأسى ، وهو عسير بالنسبة للأدباء والمفكرين ـ لكن عزاءهم ـ وهو عزيز غير مرتخص ـ أن شملهم القراء بمزيد من الاهتمام ، وأن كتبهم لاتزال طلبة القارىء المتلبث ، وأن التقدير شيء ، والشهرة شيء آخر ، وأن التقدير يجب أن يكون هم الكاتب الأصيل ، وربما تحاول اللجان أن تعوض مافاتها بعد الأوان ، فتمنح الجائزة لأسماء الراحلين ، وهو تقليد حسن لابأس به . أسوة بما حدث في مصر حاولت بعض الدول العربية أن تقدم جوائزها على مستوى قومي عربي ، فقامت جائزة الملك فيصل العالمية ، وجائزة العويس ، والبابطين ، ومحمد حسن فقي ، وهي تحذو في مجملها حذو الجوائز المصرية ، وإن كانت قيمتها المادية جيدة ، وكان لأدباء مصر ومفكريها سهم راجح في إحراز هذه الجوائز وهي ـ كما هو واضح ـ جوائز أهلية يقوم بها أهل اليسار ، والمقدرين للفكر نيابة عن الأمة العربية كلها ، ولانقول نيابة عن الدول ، لأن بعض هذه الدول لها جوائزها المرصودة كذلك كجائزة التقدم العلمي ، بالكويت ، وجائزة صدام وغيرهما من الجوائز .

وفضيلة هذه الجوائز أنها تمنح بعض الأمل ، في تقدير الفكر والأدب ، وأنها تسد بعض النقص في الجوائز الإقليمية أو الدولية ، وهو أمر يحمد بكل حال .

ربما نقترح ـ إذا جاز الاقتراح ـ أن تنهض مصر بدورها المنوط بها في المنطقة، فترفع قيمة جوائزها المادية أسوة بما حدث في السينما والمسرح ، وأن ترى أن الأدب أبو الفنون ، وأن الفكر أساس كل شيء حتى في السينما ، التي يحصد نجومها التقدير من جمهرة المشاهدين ، وهو نوع من القصد الطبيعي ، لأن الأدب والفكر في حاجة في مكث ، وليس بكثير أن نقدم لأديب ومفكر أفنيا حياتهما في خدمة الأمة مائة ألف جنيه جائزة تقديرية ، تزيد مع التضخم تباعا ، وأن تصل الجائزة التشجيعية إلى عشرة آلاف على الأقل ، وتقوم جائزة وسطى تصل خمسين ألف ، يطلق عليها ماشئنا من الأسماء ، نأيا عن مهزلة التشجيع بعد الستين ، وأن تظل الجائزة التقديرية أرفع الجوائز ، لا جائزة النيل أو غيرها من الجوائز ، لئلا نسيء إلى الماضي الجليل في رموزه : طه حسين والعقاد والحكيم وإخوان هذا الطراز .

جزء خاص

آلية الجوائز الأدبية
مسابقات .. أم تشجيع .. أم تكريم ؟

عشوائية الجوائز!

بقلم :محمود قاسم

يمكن تقسيم الجوائز الأدبية العالمية، وأيضا غير الأدبية ، إلي نوعين رئيسيين :

النوع الأول يتمثل فى تقدير الحاصل على جائزة من خلال مجموع أعماله، ومنحه مكافأة مادية بارزة تستحق هذا العطاء، جزاء ما قدمه للناس فى مجاله . وهذه الجوائز قليلة العدد فى العالم ، لكنها ذات شهرة، مثل جائزة نوبل، وجائزة سرفانتس فى أسبانيا، وجائزة الفرانكفونية التى تمنحها الأكاديمية الفرنسية ، وفى العالم العربى هناك جائزة الدولة التشجيعية فى مصر، وجائزة الملك فيصل فى المملكة العربية السعودية، وجائزة البابطين فى الكويت ، وجائزة سلطان العويس فى الامارات .

وكما أشرنا فإنها جوائز مرتبطة بأهمية الشخص الذى يحصل عليها، ورغم ارتفاع القيمة المالية لهذه الجوائز، فإنها لاتكتسب أهميتها إلا من خلال الأشخاص الذين حصلوا عليها، فليس صحيحا أن الجائزة هى التى تمنح الكاتب أهمية ، ولكن العكس صحيح ، فإذا قورنت جائزة نوبل بأسماء من طراز ويليام فوكنر، وبرناردشو، وطاغور ، وارنست هيمنجواى، وماركيز ، ونجيب محفوظ ، ونادين جورديمر فإن الجائزة تذكر بأسماء هؤلاء ، أما أغلب الأسماء الأخرى التى ذكرت فى قوائم الجائزة من الأدباء ، فإنها قد ساعدت فى وضع هذه الجائزة، رغم قيمتها ، فى

دائرة عدم الاهتمام، وهناك أدباء كثيرون طويت اسماؤهم مع التاريخ ، رغم حصولهم على هذه الجائزة ، مثل ياروسلاف سيفيرت ، وشيزلاف ميلوش، وايفنر جونسون ، وجريجوس سيفرس ، وغيرهم ، ونحن لا نقلل من أهمية هؤلاء الأدباء ، ولكنهم لايرقون إلى الأسماء الأخرى الحاصلة على نفس الجائزة .

أما النوع الثانى من الجوائز فهو أقرب إلى التشجيع ، أو بمعنى أصح . منح كتاب ما جائزة فورية، عقب صدوره بفترة قريبة ، كأنى يمنح كاتبا ما جائزة عن روايته المنشورة عام ١٩٩٥ باعتبارها أحسن رواية صدرت فى هذا العام. وليس هناك شرط أن تكون مثل هذه الجائزة مالية، وفى هذه الجوائز فإن الكاتب لا يتقدم إلى المؤسسات التى تمنح الجائزة بعمله، ولكن من المفروض أن تقوم هذه المؤسسات بمتابعة الحديث من الاصدارات، وتصفية الجيد منها، حتى يوم الاقتراع النهائى ، وأغلب الجوائز الأدبية فى العالم مثل جونكور، وبوليتزر ، وموندييللو ، وبووكر تنتمى إلى هذا النوع وفى العالم العربى هناك جائزة الدولة التشجيعية فى مصر. وجائزة الدولة التشجيعية فى الكويت وجائزة سعاد الصباح ، وغيرها . وهى جوائز تمنح للفائزين فى اطار مسابقات يتم الإعلان عنها مسبقا .

وبالنظر إلى الجوائز الغربية، ونظام المنح فى الجوائز العربية المثيلة، فإن الأمر يختلف بعض الشئ ، حيث أن الهيئات التى تمنح جائزتها فى العواصم العالمية، تحرص أن يتم ذلك والكتاب فى متناول الناس، بحيث يمكنهم شراءه عقب فوزه ، أما فى جائزة الدولة التشجيعية فى مصر، فعلى الكاتب أن يتقدم خلال ثلاث سنوات من اصداره الى المجلس الأعلى للثقافة ، وبعد تقديمه بعامين تقريبا تعلن الجوائز ، أى قد يكون قد مر على بعض الكتب خمس سنوات على اصداره ، حين يفاجأ الناس بأنه حصل على جائزة ، وفى هذه الحالة يكون قد نساه القراء تماما . حتى وإن كان عملا يستحق الاهتمام. وبالتالى يضعف تأثير هذه الجائزة بشكل ملحوظ.

أما جائزة سعاد الصباح، فقد توجهت إلى الابداع الجديد، وكان من شروطها أن يحصل عليها الشباب الأصغر سنا ، وكانت فلسفة الجائزة تقوم على منح هؤلاء الكتاب الجدد فرصا للنشر، بالإضافة إلى القيمة المالية للجائزة .

● التشجيع .. فلسفة الجوائز

وفى الوقت الذى لم تقترن فيه مثل هذه الجوائز فى أهميتها من خلال قيمتها المادية ، فى الغرب، فإن الجوائز العربية قد تنافست فيما بينها فى رفع القيمة المالية، بصرف النظر عن أهمية الكتاب، والكاتب ، مما أحدث اهتماما اعلاميا ملحوظا لهذه الجائزة، ودفع بالكتاب إلى الاشتراك فيها ، وقد انتشرت هذه الجوائز فى منطقة الخليج بشكل ملحوظ ، فمنحتها الدول والمؤسسات ونوادى الأدب ، وهذه فى حد

ذاتها ظاهرة طيبة، بصرف النظر عن قيمة الأعمال الفائزة ، باعتبارها تمجيداً للكاتب، وللنشاط الابداعي .

وقد قامت فلسفة الجوائز في العالم ، خاصة الأدبية ، على أساس تشجيع الابداع، وتقديره ، ولذا فإنها جوائز ابداعية ، تمنح في المقام الأول لكتاب الرواية، وأحيانا للشعراء ، وهناك جوائز لإبداع الطفل ، وذلك باعتبار أن الابداع هو الأصل والأساس ، وإن الدراسات الأدبية تجئ فيما بعد .

وبشكل عام، فإن الجوائز السنوية المتعلقة - بالإبداع هي بالطبع تهتم بهذا النشاط الإنساني ، وقد قامت جائزة نوبل على أساس تشجيع المبدعين ، ثم تحولت فيما بعد إلى جائزة لتقرير هذا الابداع. وانحصر الحاصلون عليها في مجال الرواية، والشعر ، وفي العقود الأخيرة، كانت تمنح بالتبادل بين شاعر ، وروائي ، لكنها منحت في بعض الأحيان لكتاب مسرح مثل يوجين أونيل، كما حصل عليها فلاسفة ورجال فكر برجسون ، وبرتراند راسل .

والأصل في الجوائز أنها غربية، مهما شئنا أن نقول ، فإذا كانت جوائز جونكور، ونوبل ، وبوليتزر قد نشأت مع بداية القرن، فإن أول جائزة عربية كبرى هي جائزة الدولة التقديرية والتشجيعية في مصر بعد أن توقفت جوائز المجمع اللغوي التي كانت تمنح للرواية في الاربعينات

وقد منحت لأول مرة عام ١٩٥٨، أي بعد أكثر من نصف قرن من انشاء الجوائز العالمية ، وتم انشاء جائزة الملك فيصل عام ١٩٧٩ في حين تحتفل بعض هذه الجوائز بعيدها الثمانيني

ولذا ، فلا أحد يمكن أن يتجاهل ، مهما كان القول ، أن الجوائز العربية قامت ، في حيثيات المنح ، على نفس الأسس ، وبصرف النظر عن فروع الجائزة، فجائزة الملك فيصل على سبيل المثال، تقوم بفحص الكاتب المرشح للحصول على الجائزة ، وتطلب كافة ابداعاته ، من خمس نسخ لكل واحدة ، مهما تاهت في الزمن ، وغالبا ما يقوم الكاتب التي ترشحه إحدى الهيئات الرسمية بجمع تراثه كي يحصل به على الجائزة، وفي اكاديمية ستكهولم غالبا ما يحدث هذا بالنسبة للكاتب المرشح ، علما بأن الترشيح في جائزة نوبل يختلف في نواميسه الداخلية عن جائزة الملك فيصل .

● جائزة للمبدعين ، وجائزة للمفكرين

وبالنظر إلى كل من جائزة الدولة التقديرية في مصر، وجائزة الملك فيصل ، فسوف تجد أن الأولى قد منحت في أغلب أحوالها إلى مبدعين . ثم إلى رجال فكر ،

أما المبدعون الذين حصلوا على جائزة الملك فيصل فهم قليلو العدد، بل يمكن أن نقول أنه لم يحصل عليها حتى عام ١٩٩٥ سوى مبدع واحد هو يحيى حقى الذى حصل عليها بالاشتراك مع باحث أدبى هو الدكتور يوسف خليف . وهكذا تكون الجائزة قد ذهبت إلى فئة لاتحصل عادة على جوائز أدبية ، ويرجع ذلك بالطبع الى أن هناك فرعاً يمكن الترشيح فيه، يحدد سنويا من قبل المؤسسة المانحة للجوائز .

أما جائزة الدولة التقديرية فى مصر ، فقد حصل عليها من المبدعين الدكتور طه حسين عام ١٩٥٨ وعباس العقاد عام ١٩٥٩ ، إذا اعتبرناه شاعراً وقصاصا فى بعض نشاطه، وتوفيق الحكيم عام ١٩٦٠ ، ويحيى حقى ١٩٦٧ . ونجيب محفوظ ١٩٦٨ ، ويوسف السباعى ١٩٧٣ ، وعبد الرحمن الشرقاوى ١٩٧٤ . وصلاح عبد الصبور ١٩٨١، وثروت اباظة ١٩٨٢ ، ويوسف جوهر ١٩٨٤ ، ومحمود بدوى ١٩٨٦ ، وسعد الدين وهبه ١٩٨٧ ، ويوسف عز الدين عيسى ١٩٨٧ ، وطاهر أبو فاشا ١٩٨٨، واحسان عبد القدوس ١٩٨٩ ، ويوسف ادريس ١٩٩٢ ، والفريد فرج ١٩٩٢ ، وفتحى غانم ١٩٩٥ وكما نرى فإن أغلبهم أما شاعر أو قصاص ، وهناك القليل جدا من كتاب المسرح .

أما من غير المبدعين فهناك أسماء مثل محمد أحمد خلف الله، وزكى نجيب محمود، ومهدى علام ، وسهير القلماوى ، وعبد العزيز الأهوانى . وعبد القادر القط ، وعز الدين إسماعيل ، ولويس عوض ، وجميعهم من أساتذة الجامعة ، وقد جمعوا بين الدراسة ، والبحث ، والنقد .

وحسب قوانين الجوائز فقد حصل عليها أغلب أصحابها وهم على قيد الحياة الا أنه فى بعض الأحيان تنبهت الدولة أن كاتبا ما يجب تكريمه عقب رحيله مباشرة، فقدمت الجائزة باسمه ، مثلما حدث مع احسان عبد القدوس ، ويوسف ادريس ، وعبد السلام هارون ، وعبد العزيز الأهوانى وغيرهم .

وهناك أسماء من الفائزين بجائزة الدولة التقديرية فى مصر قد حصلت فيما بعد على جائزة الملك فيصل فى الأدب مثل يحيى حقى، وعبد القادر القط ، وعبد السلام هارون ، وشكرى عياد .

وقد أخذ بعض رجال الصحافة على الجائزة قيمتها المالية، وخاصة فى السنوات الأخيرة . باعتبار أن قيمة الجائزة التى حصل عليها طه حسين أول من استلمها بلغت ٢٥٠ جنيهاً مصرياً . ثم ارتفعت مع بداية الثمانينات إلى ضعف هذا المبلغ والغريب فعلا أنه بينما ارتفعت قيمة الأشياء سنويا ، فإن القيمة المالية لهذه الجائزة ظلت ثابتة ، وقد ارتفعت فى السنوات الأخيرة إلى خمسة أضعاف قيمتها . ولكن

هذا لم يقلل أو يرفع من قيمتها قدر أن بعض الأشخاص الذين لايستحقونها قد حصلوا عليها في بعض السنوات ، منهم من لم يكتب في حياته كلمة أدبية واحدة ، ومنهم شاعر لا يرقى مستواه إلى أي اسم شاعر من الذين تجاهلتهم الجائزة، في نفس الوقت تم تجاهل اسماء عديدة حتى وافتهم المنية ، ومنهم احسان عبد القدوس ، ويوسف ادريس .

أي أن قيمة الجائزة المالية لم تقلل من أهميتها ، ولكن حصول اسماء بعينها، وقد ساعد ذلك أن تهتز صورتها لسنوات أمام الناس ، لكنها في بعض الأحيان كانت في أحسن حالاتها مثل عام ١٩٨٨ حين حصل عليها كل من لويس عوض ، وشكري عياد وطاهر أبو فاشا .

● جائزة عربية عالمية

ولا يمكن القول بأن جائزة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية قد خرجت من إبط جائزة الدولة في مصر ، وذلك لتنوع مجالات الحصول عليها ، وجوائز الدولة في مصر تنقسم إلى قسمين تمنحهما مؤسستان الأولى خاصة بالآداب، والفنون، والعلوم الاجتماعية ، تمنح من قبل المجلس الأعلى للثقافة ، أما جوائز العلوم فتمنحها اكاديمية البحث العلمي بينما جمعت جائزة الملك فيصل بين خمسة أفرع هي : الدراسات الإسلامية ، والأدب العربي ، وخدمة الإسلام والتي منحت أول مرة عام ١٩٧٩ ، ثم اضيفت جائزة الطب عام ١٩٨٢ ، وفي العام التالي خصصت جائزة خامسة للعلوم ، وبذلك يكون للجائزة خمسة أفرع ، منها ثلاثة أشبه بجائزة نوبل وهي الأدب والطب والعلوم وقد أعطت الاضافات الأخيرة للجائزة صفة العالمية ، بمعنى أن الحاصلين عليها ليسوا فقط من دول غير عربية، أو إسلامية، ولكنهم ادوا خدمات للبشرية في المجالات التي عملوا بها ، خاصة في الطب .

وتبعا للقيمة المالية ، وللشكل الحيادي، والسرية التي تتمتع بها حيثيات الترشيح، والمنح ، فإن الجائزة تبدو حيادية ، وقد أثارت الانتباه اليها في السنوات الأخيرة، وتمنح هذه الجائزة من قبل مؤسسة خيرية أسسها ابناء الملك فيصل وعلى رأسهم خالد الفيصل ، ففي عام ١٩٧٦ أعلن عن قيام مؤسسة الملك فيصل الخيرية ، وفي العام التالي أعلن الأمير خالد الفيصل أن مجلس أمناء المؤسسة سوف يخصص مبالغ مالية لانشاء جائزة تمنح سنويا في فروعها المشار إليها بداية من عام١٩٧٩.

وقد دفع نجاح هذه الجائزة وشعبيتها، مؤسسات أخرى ، من خلال أشخاص ،

أو دول الى الدخول فى هذا المضمار ، وتسابق بعض الاثرياء العرب نحو توجيه اموالهم لخدمة المال والابداع ، ومنهم على سبيل المثال الشاعر الكويتى وهو رجل أعمال أيضا ، عبد العزيز سعود البابطين إلى انشاء جائزة باسمه ، شهدت ميلادها فى بداية العقد الأخير من القرن العشرين ، أى فى عام ١٩٩٠ ، ومنحت لأول مرة فى مقرها بالقاهرة فى ١٧ مايو من نفس العام ، وقيمة هذه الجائزة فى أول مرة كانت ٤٣ ألف جنيه ، وضاعفها مانحها فى أول حفل لها لتصبح ٨٦ ألف جنيه ، وفى الحفل الثانى جعلها ١٧٢ ألف جنيه .

«وقد أقيمت هذه الجائزة فى مصر لأول مرة من خلال نشاط رابطة الأدب الحديث ، ثم استقلت وتكون لها مجلس أمناء يضم الدكتور يوسف خليف ، الدكتور محمد مصطفى هدارة ، الدكتور محمد زكى العشماوى ، الدكتور محمود على مكى ، الدكتور على الباز (من مصر) الدكتور سليمان الشطى وعبد العزيز السريع (من الكويت) ، وعلى عقلة عرسان (من سوريا) الدكتور إبراهيم عبدالله علوم «من البحرين» .

ولاشك أن اعلان أسماء مجلس الأمناء يضعف من الجائزة ويسبب حرجا لهم عند اعلان الجائزة ، أو قبل ذلك ، وبعده .

وتمزج هذه الجائزة بين التقدير لعطاء كاتب ، وبين التقدير لكتاب معين ، وهى جائزة تتعلق بالشعر فى المقام الأول . ففى مجال الابداع الشعرى تمنح لواحد من الشعراء الذين اسهموا بابداعهم فى إثراء حركة الشعر العربى من خلال عطائه الشعرى المتميز .

● شلال الجوائز .. يسيل

أما فى مجال النقد، فإن الجائزة تمنح لواحد من نقاد الشعر ودارسيه ، من الذين اسهموا بنقدهم ودراساتهم ، النظرية والتطبيقية ، حول الشعر العربى .

كما تمنح الجائزة لأفضل ديوان شعر صدر فى نفس العام ، وجائزة أخرى لأحسن أفضل قصيدة .

وفى نفس العام تم الإعلان عن جائزة سلطان العويس الثقافية .. والتى بدت كأنها تدخل فى المنافسة ليس فقط على المستوى الأدبى ، بل على مستوى القيمة المالية فحسب المنشور فى ٣١ يوليو ١٩٨٩ فإن قيمة الجائزة تبلغ ٢٠٠ ألف دولار أمريكى تمنح للمبدعين العرب فى الأجناس العربية المتعددة : القصة ، والرواية، والمسرحية ، والشعر ، والنقد والدراسات الأدبية ، والبحث العلمى والدراسات

الإنسانية والمستقبلية .

وتعتبر جائزة العويس ، التي تمنح كل عامين ، بمثابة جائزة تقديرية ، تمنح لمجموع أعمال الكاتب ، وليس لعمل صادر في نفس السنة ، وهي تمنح تحت رعاية اتحاد كتاب وادباء الامارات ، وحصل عليها عام ١٩٩٢ كل من الشاعر مهدى الجواهرى «العراق» عن الانجاز الثقافى والعلمى ، والشاعر العراقى سعدى يوسف عن الشعر والدكتور احسان عباس عن الدراسات الأدبية ، وكل من عبد الرحمن منيب ، والفريد فرج عن الرواية والمسرحية ود. فؤاد زكريا عن الدراسات الإنسانية ، فى عام ١٩٩٤ نالها من المبدعين كل سليمان من فياض وصنع الله ابراهيم فى الابداع ، وفاروق عبد القادر فى النقد. وفى عام ١٩٩٥ نالها ادوار الخراط ، ود. عواطف عبد الجليل ود. محمد الرميحى .

ومن الواضح أن هذا الكم من الجوائز الجديدة قد زاد بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ ، واراد العرب أن يؤكدوا أنهم أيضا يمنحون جوائز ، وأنهم ينتمون الى نفس العصر . وقد بدا كأن فوز الكاتب بهذه الجائزة قد شكل نوعا من الانفجار لكشف أهمية الثقافة والابداع فى المجتمعات الحديثة ، والغريب أن الجوائز الممنوحة من الأشخاص والمؤسسات غير الرسمية كانت أكثر من التى تمنحها الحكومات ، فقد اقتصرت هذه الجوائز الرسمية على ما حدث فى مصر، بينما اضطلع الامراء فى المملكة العربية السعودية بمنح العديد من الجوائز الأدبية ، ودخل هذا المجال رجال الأعمال فى الامارات ، والكويت ، وفى عام ١٩٩٥ ولدت أول جائزة رسمية فى المملكة المغربية تحمل اسم جلالة الملك الحسن، كما ولدت جوائز جديدة فى المدن العربية، من خلال منح جوائز للكتب والمؤلفين فى معارض الكتب التى تقام فى القاهرة وبيروت ، والكويت ، وغيرها من المدن .

● سوق الجوائز .

إذن فهذه الجوائز العربية، مثل الجوائز الأدبية العالمية، أما أنها تمنح من قبل مؤسسات رسمية حكومية ، أو أنها تمنح من قبل أشخاص لديهم قدرة مالية لمنحها سنويا ، وهم ، مهما كانت نواياهم يمثلون الدول التى تمنح هذه الجوائز ، كما أن هناك جوائز تمنحها مؤسسات ثقافية ، مثل النوادى الثقافية المنتشرة فى المدن السعودية على سبيل المثال .

وكما سبقت الاشارة ، فإن أغلب الجوائز العربية ، عدا جائزة الدولة التقديرية فى مصر، أقرب إلى المسابقات ، فعلى المؤسسة أن تعلن عن الموضوع الذى ستمنح

فيه الجائزة فى دورتها القادمة ، وعلى الكاتب أن يتقدم بنفسه ، أو من خلال مؤسسة ترشحه ، بأعماله ٥ نسخ من كل مؤلف وهو فى هذا الحال يعرف أنه داخل مسابقة . فاما أن يكسب أو أن يفوز زميل له ، وتحجب الجائزة لعدم توفر الشروط .

وهذه الآلية فى منح الجائزة تعطى الايحاء أن المؤسسات التى تمنحها ليست لديها مستشاروها العالمون ببواطن الأمور فى مجال المنح، فإذا كانت الجائزة تمنح فى مجال الشعر ، فمن المفروض أن المؤسسة المانحة لديها كل ما يتعلق بالشعر والشعراء ، مثل جائزة نوبل ، فنحن لم نسمع أن اكاديمية ستكهولم تطلب من مؤسسة ما مدها بمعلومات عن كاتب مرشح . وعليه، فإن آلية هذه الجوائز تتمثل فى أن اللجان ، وأغلب أعضائها من الذين نالوا أكثر من جائزة ، تفحص الأعمال المتقدمة أمامها ، وتختار الأنسب لموضوع المسابقة والجائزة .

وليس فى الوطن العربى كله جائزة واحدة لها نفس آلية الجوائز الأدبية الشهيرة فى فرنسا وايطاليا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، الذى يقوم فيها أعضاء التحكيم، بتصفية الأعمال الصادرة فى نفس السنة، واختيار الأحسن، مثلما يحدث فى اكاديمية جونكور ، وبوليتزر ، أى أنها جوائز تمنح لأعمال بين أيدى القراء . أما الجوائز العربية فتجمع بين التقدير ، والتسابق .

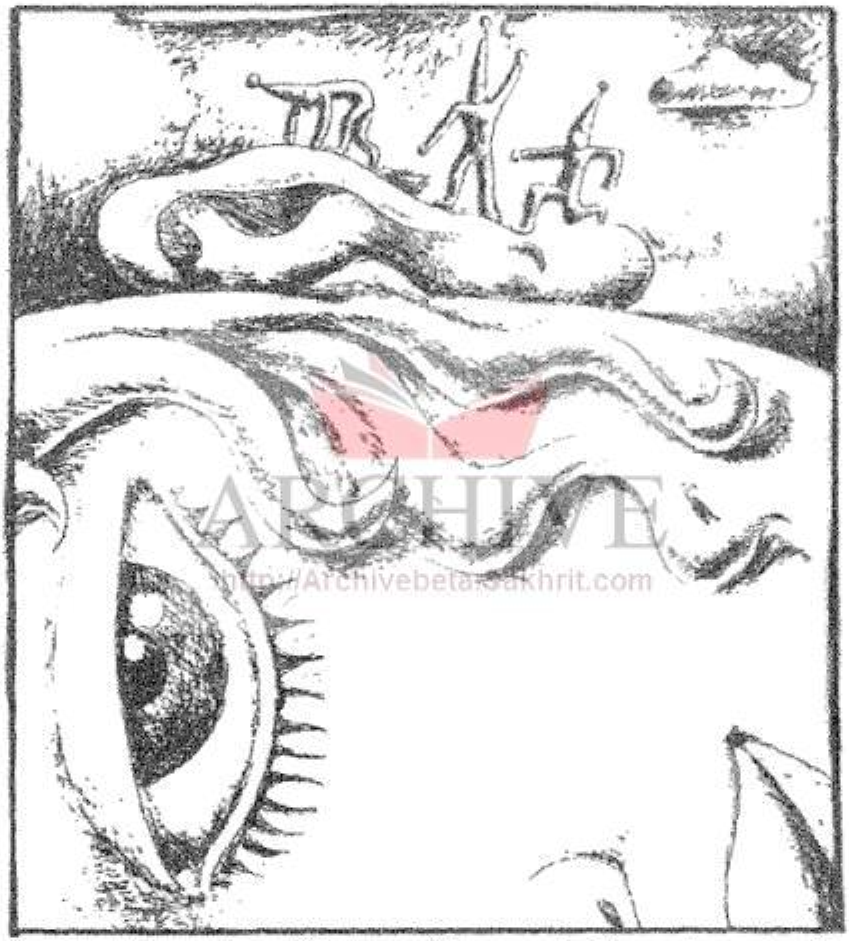
ولعل الجوائز التى تمنح سنويا الآن فى معرض الكتاب بالقاهرة أقرب إلى الشكل الامثل للجوائز العالمية ، والفكرة مأخوذة عن معرض فرانكفورت ، وسبق تطبيقها فى معرض بيروت ، قبل القاهرة .

● المحكمون يمتنعون

الملاحظ أن هناك ظاهرة تتعلق الآن بهذا الكم من الجوائز الأدبية العربية التى ولدت بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، ومن الواضح أن لذة الاحساس بالفوز أيا كانت قيمة الجائزة ، قد دفع جهات عديدة الى الدخول فى الحلبة ، باعتبار أن هناك لذتين ، لذة المنح ، ولذة الفوز ، يحس بها طرفان ، وعلى سبيل المثال فإن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر ، قد خصص جائزة منذ ثلاثة أعوام باسم نجيب محفوظ، تمنح لأفضل الروايات المنشورة ، وقيمتها المادية أكبر من جائزة الدولة التى تمنح عن نفس المجلس ، لكنها لم تحظ بأى متابعة اعلامية ، فالملاحظ أن الفائزين ببعضها ليسوا من الأسماء الكبيرة ، وإن الكتاب الجيدين أو اللامعين لم يرغبوا فى الأشتراك فيها كمتسابقين ، ولعل السبب بالغ الوضوح ، إذ أن أصحاب هذه الأسماء هم أنفسهم المحكمون فى هذه الجوائز

قصة قصيرة

رحلة فى مخ السيدة ن . ع



بقلم : محمد مستجاب ◉ بريشة : حلمى التونى

لفـفـنـا حـول الأذن اليمنى ولم يتسن لنا أن نجد براحا يتيح تلمس الطريق إلى المخ، أزلنا غـابة شـعـر قـصـيـر واسترحنا قليلا ثم بدأنا نجس الجدران، تخطينا وريداً وتحاشينا كثبان دهون وصعدنا ملليمترات حتى عثرنا على منطقة رخوة، اصطدم المشرط بنتوء عظمى فاضطررنا أن نعود أدراجنا حيث قضينا بقية الليلة خلف استدارة الأذن .

★★★

شمس الصباح كانت أدفأ مما توقعنا ، تسللنا شـمـالا فـوصلنا إلى مشارف الجبهة الخالية من أى مظاهر للحياة ، حاذرنا أن تسوخ أقدامنا فى غدد الدموع المنتشرة فى هذه البقعة، فقد سبق للبعثة التى طرقت المكان قبلنا أن توغلت فى هذا المربع فانفجرت - تحت أقـدامـهـا - شـلالات الدموع التى أفسدت على البعثة حاجياتها وخطتها، بعد برهة واجهتنا منطقة رخوة تغص بالشعيرات الدموية، تخطيناها فى حـرص، بـعـد الظهـر مباشرة استطعنا تحديد منطقة عملنا ، فمكثنا وقتا نحاول تطهيرها من الشرايين والأوردة ، وبات من المؤكد أننا نجحنا فى اخـتـيـار بـقـعـة البـدء المناسبة لفتح جمجمة السيدة «ن. ع».

أعددنا حصر أدواتنا وتـصـنـيـفـهـا ، ومكث المساعدون بعض الوقت ينظفون ما استخدم منها، وكان الجو رائقا وغـابـات الشـعـر تطن حولنا فى هدأة النسيم واسترخينا على مشارف حفرة قديمة فاحتسينا شاى المساء وألقينا نظرة أخيرة على الخطة.

أصيب أحد أفرادنا بلدغة إحدى حشرات فروة الرأس فجهزنا له مكانا مستورا وربطنا ذراعه ، وكان المساعدون قـد نـجـحـوا فى إزالة مساحة ضخمة من الجلد تـصـل إلـى ثـلاثـة سنتيمترات مربعة ، وبدأنا نكشف عن عظام الجدران الشـرقـيـة للجمجمة ، واستطعنا أن نصل إلى المفصل الذى يربط أعلى القـراعـة ببدايات الصدغ ، وبدأ يتلخلخ وبقـايا الدم المتخثر الناشف تهمى فوق رءوسنا ، اجتاحتنا هزة فرح ، فأخطر ماكان يخامرنا أن نفشل فى رفع سقف الرأس فنلجأ إلى تـهـشـيـمـه (وقـد اضطررنا أن نـهـشـم - فى مرة سابقة - سطح دماغ بنت «حماد» فأفسد الركـان المتـسـاقـط مشتملات الجمجمة وشوه كـثـيـرا مـن مـعـالـم محتوياتها ، وظللنا ندق طوال أصيل ذلك اليوم ، وفى آخر النهار انداحت

قصة قصيرة

العظام وبدا واضحا أن جمجمة السيدة «ن . ع» قد استسلمت تحت براعة مطارقنا ، وأننا في طريقنا لاقتحامها.

***

كان من الصعب أن نقضي الليلة في منطقة العمل، حيث كانت البقعة مكدسة بشرائح لحك الجلد المتغضنة وجذور الشعر الخشنة ، كما أن أحد مساعدينا سقط في حفرة بين عظمتين فالتوت قدمه وأصيبت ساقه بسحجات ، فاضطررنا أن نقيم مكانا تحت حلمة الأذن للمصابين ، ثم لم نلبث أن نمنا جميعا مجهدين .

***

في الصباح الباكر بدأت أسراب الصقور تحلق في الجو وأصواتها تشرخ السكون ، كان ظهورها في الافق يمنحنا قدرا هائلا من الاحساس بالنشاط والحياة والحماس والرغبة في انهاء مانقوم به ، خلعنا المثقاب من جدران الجمجمة في صعوبة وأعدنا تنظيفه وبدأنا نضغط به على المفصل ، طقطقت عظام الصدغ معلنة عن تخليها عن تماسكها بصلابة السقف، توغل المثقاب أكثر فبدأت المنطقة كلها ترتج والعظام تتهاوى منفصلة عن شدات القراءة ، وعندما ضغطنا إلى أسفل على المثقاب ارتفع سقف الرأس ، وبدا مخ السيدة «ن . ع» في اتساعه المذهل وقد ارتخت أغشيته وبدكنت ولا أثر – مطلقا – لأية محاولة سابقة لدخول المكان ، وشعرنا بالزهو فنادرا مانجد جمجمة سليمة لم تمتد اليها أيدي العابثين .

***

كانت جدران القطاع الامامي للمخ قد تقاصت إلى الداخل مما ينبيء عن احتمال التعرض لضغوط قديمة ، وبمجرد ازاحة الغطاء الغشائي انبعثت رائحة الرطوبة والعطن ، أدرنا الجمجمة يساراً كي تغمرها بضوء الصباح كانت محتويات القطاع غير مرتبة لكنها كانت واضحة التفاصيل، بعد العتبة مباشرة وجدنا تذكرتي سينما درجة ثالثة غير مبين عليهما التاريخ ، غير أن نوع الورق وطريقة الطباعة يوشيان بأن التذكرتين حديثتان نسبيا ، وبجوارهما جلدة كراسة لا تحوي أية أوراق ، ثم حبل ليف في نهايته (هلب) وعلبة كريم جافة ومسحوق تجميل منثور حول العلبة ، وجردل به مياه آسنة ، وبقايا

تصريح لدخول المنطقة الجمركية، ورقبة قلة، ومنديل حريرى متهرئ، مزخرفة أطرافه بحرف (م)، وعلبة سلامون فارغة ثم لفة من السولبفان تحوى مجموعة من الصور الفاضحة، وفى نهاية القطاع - فى الركن الغربى - مجموعة من الأوراق مربوطة بنصف ملاءة سرير، وعندما حاولنا اخراج الأوراق تبين لنا استحالة فحصها دون معالجتها وترميمها، وعلى جدران القطاع وجدنا بعض الصور المعلقة دون ما عناية ففى اطار رخيص ثبتت صورة لممثل مسرحى اشتهر فى العصر السادس بسلوكه المشبوه، وصورة أخرى للسيدة «ن . ع» مع بعض أصدقائها يحتسون البيرة فى ملهى ليلى، وصورة ثالثة لخطوط يدوى يوضح أن السيدة «ن . ع» فازت بجائزة متأخرة فى مؤتمر أدبى ثانوى فى اقليم الزقازيق، وصورة رابعة وقد وقفت صاحبة الجمجمة فيها مستندة على كتف حيوان ذى أذنين طويلتين انتشر بعد العصر الرابع .

لم يكن بهذا القطاع شىء آخر جديد بالتسجيل، وبدأنا نتحسس الجدران فبدت معالم باب فظللنا نعالجه بعض الوقت ثم وضح لنا أنه باب وهمى من تلك الأبواب طالما وجدناها داخل جدران جماجم النساء عموما . ولم يتسن لنا أن نعثر على مدخل يؤدى للغرفة التالية فاضطررنا أن نرفع الغشاء العلوى فتهتك وتساقط، ولما تسللنا للداخل واجهنا ظلام كثيف فأشعلنا لمبة جاز حيث كان من الصعب تحريك الجمجمة فى اتجاه الشمس، وأول ماعثرنا عليه كان كتابا لشاعر يبكى بين يدى زرقاء اليمامة، وسيارة مازالت خضراء نضرة، وعشرين قالبا من الطوب الأحمر، وتأملات فى السياسة لحكيم مشهور فى العصر رقم ٥، وصفارة كمسارى، وثلاثين متر استك، ورأس أرنب، وعلبة أدوية تستخدم للبواسير، وكورسيه وفردة جورب، وحافر حصان دون حدوة، وكيس مخدة، ونظارة طبية.

★★★

أهم غرفة - فى مخ السيدة «ن . ع» كانت الأخيرة، ومن المعالجات الأولى اتضح أن جدارها الغربى بال بشكل يهدد، وكان نشع البلازما قد تسرب أسفل الحوائط والجو خانق، ولم تكن لدينا القدرة على

قصة قصيرة

تأجيل فحص هذه الغرفة إلى الغد، كل التقارير تهتم بمثل هذه الغرفة، بل لابد من الاشارة بأن الغرفة البحرية فى نهاية مخ نساء القرن العشرين تعد فى حد ذاتها أهم مايشغل الباحثين والمهتمين بالمخيات (وقد أهملت إحدى البعثات الفحص الدقيق لمثل هذه الغرفة معتقدة أنه لا يوجد بها ما قد يثير الاهتمام أو ما يفيد الباحث، وبعد بذلك بأسابيع وقد جحش فى حفرة فإذا هى مليئة بالوطاويط الذهبية.

★★★

بنوع من التعامل الرقيق مع الجدران استطعنا أن نضع أيدينا على بروز فوهة مدخل عليه العلامات السحرية المعهودة : رسم القلب تخترقه حربة ، عالجنا الفوهة حتى أخرجنا الحجر الثمانى الاضلاع، ثم واجهتنا مجموعة من القضبان الحديدية فاضطررنا أن ننشرها مما عطلنا ، بعدها زحفنا إلى هذه الغرفة الصغيرة، تلك التى يعجز العقل عن استيعاب مابها منذ اللحظة الأولى ، أشعلنا أضواء وظللنا نزحف داخل الفوهة ، على اليمين وجدنا نسخة عطرية من رواية (أحزان نوح) لكاتب مقل من كتاب العصر رقم ٦، ثم لوحين من الأرنواز ، وفى الركن الأيسر كانت مجموعة من جثث الذكور المتوسطى السن منزوعة منها بعض الأجهزة ، وقد تناثرت حولها أغلفة فارغة لحبوب منع الحمل، وألبوم صور يحوى مجموعة من صور مشهورى العصرين ٦ و٧ ممهورة بتوقيعاتهم ، وملف أوراق يحوى :

– صورة خطاب لأحد وزراء الداخلية تصر فيه السيدة «ن ع» على توجيه الاتهام إلى ما يقوم به أحد المدرسين من نشر الآراء الهدامة فى المدرسة

قصاصة من قصة قصيرة توحى بأن صاحبة الجمجمة ليست لديها القدرة على فرش أرض الرجولة بما ينمى الرغبة والاشتهاء .

– نص حكم صادر من إحدى محاكم العاصمة فى جنحة مباشرة رفعتها المذكورة ضد مهندس زراعى أثار ضدها إشاعات بأنها تميل إلى ممارسة علاقات بشكل ينهى عنه الشرع.

– طعن فى الحكم وعريضة استئناف وتحقيق.

– قائمة بأسعار

ملبوسات داخلية.
– خطاب من سيدة مهاجرة تنعى على صاحبة الجمجمة تمسكها بالأخلاق والعرف فى زيارتهم الأخيرة.
– صورة بالأشعة لمؤخرة مجهولة .
– برنامج مطبوع عن مهرجان بمسرح «السامر».
– استمارة قماش من «عمر» أفندى الجيزة غير معتمدة.
– تقرير طبى عن احتمال وجود أمراض تناسلية مؤشر عليه بالتحويل إلى مستشفى «أم المصريين» .
– مجموعة أوراق تتضمن محاولات من صاحبة الجمجمة لكتابة مسرحية شعرية .
– اشتراك تليفون غير مسدد.
كما وجدنا أيضا مجموعة أخرى من أوراق غير مرتبة معظمها منزوع من مجلات تتحدث عن الثقافة والمسرح والزراعة والحضارة.
فى أرض الغرفة أيضا – وبجوار الجثث – وجدنا أجهزة لم نحدد وظيفتها ، وزمزمية وقمع سكر، وزجاجة بيرة محطمة، وأعضاء دون صاحب، وباذنجانة سوداء وحذاء حريمى ذا رقبة عالية ، وأوراق جافة «لكرنبه»، وقطعة خشب مكتوب عليها سطر لم نستطع أن نتبين منه سوى الصبر – و – مفتاح ، ولفة صغيرة فتحناها فوجدناها تحوى لسان كلب ، وثلاثة أبيات من الشعر العمودى ، وكتالوج ثلاجة ، وملف آخر لقضية أخرى ولفة قطن ، وشرائح بروجكتور

***

حاولنا ترتيب هذه الأشياء قبل أن يدهمنا الليل ، كان النشع المتسرب من قاع الجمجمة قد بدأ يضايقنا ويحد من حركتنا ، كما أن رائحة ما فى مخ السيدة «ن . ع» أثارت الصقور والغربان فبدت تحوم فى الجو وعلى ارتفاع منخفض ، وعندما بدأنا نضع علاماتنا على موجودات الغرفة – تمهيدا لتسجيلها بدأت أصوات الكلاب الضالة تصل الينا ، كان الوقت أصيلا ، وكان الجو خانقا وفى الركن الأيسر من هذه الغرفة كنا نحاول الاسراع بفتح صندوق أسود صغير.
وفى غبش المساء – وتحت ضغوط الوجل – والخوف من العقارب : استطعنا أن نكسر الصندوق فوجدنا بداخله جثة طفلة حديثة الولادة وبين يديها حكم من إحدى المحاكم يحدد لها خمسين جنيها كنفقة شهرية ■

المصريون يعطرون العالم

بقلم جانيت ديبون ايروت



وحملت الوصيفات أدوات التزين والتجميل الى حيث تذهب الملكة كليوباترا

ظهر العطر في مصر أولا ، مثلما نما الكبرياء لدى البشر ، بينما كانت بقية الشعوب لاتزال سابحة في بساطة الحياة الرعوية . قدم المصريون القفزة المميزة التي جاءت بها حضارة لم تتجاوزها حضارة أخرى . وتشهد الرسوم الموجودة فوق العديد من البنايات الفرعونية على تذوق ابناء هذه الحضارة للعطور والأطياب وادوات التجميل منذ بداية التاريخ قبل ٦٠٠٠ عام من ميلاد السيد المسيح من خلال باقات ورود جافة لنبات الزعتر التي تم العثور عليها في مقابر حلوان قريبا من القاهرة ترجع الى مطالع التاريخ حيث اكتشف الأثري فرنان ديبونو باقة صغيرة تعود الى تلك الحقبة.

لقد ظل مثل هذا الاستخدام المقدس طوال التاريخ الفرعوني ، وخاصة فى مقبرة توت عنخ آمون الشهيرة التى تعود الى الاسرة الثامنة عشرة حيث تم العثور على العديد من باقات الزهور الموضوعة على الجثمان ، ووجدت ايضا باقات صغيرة تضم قطعا من جذور نباتات عطرية كانت تستخدم بشكل اساسى فى التعطر ، مثل البخور فى اشكال حزمية أو اسطوانية . تم اكتشافها في مقابر كهنة العصر البطلمي بمعبد فيلة .

عصر اللوتس

فى الجنان المصرية تشكل الحدائق مكانة مهمة كما تبين الرسوم الجدارية الرائعة لمقابر طيبة ، قياسا الى المقابر الاخرى كما اشار ارباج مبكتارين فى كتاب «النقوش المصرية» ١٩٧ وبشكل خاص فى مقبرة نفرتيت ، طباخ امنوفيس الثاني حيث يمكن رؤية نساء جالسات فوق مقاعد صغيرة يمسكن بأناملهن زهورا ويتشممن عطور باقات اللوتس ، ويضعن الصنوبر المقعر فوق الرءوس ، وفى مقبرة اخرى تصور احدى اللوحات البالغة الجاذبية صورة امرأة مرموقة من الاسرة التاسعة عشرة ، هى زوجة او اخت للكاهن اوسرحت تضع على جبهتها زهرة اللوتس بلونيها الرمادى والاخضر على شريط يرتفع فوق باروكتها ولا يمكن للمرء ان يمل من شدة الاعجاب بهذا الفن البالغ الرقى لهؤلاء الفنانين القدامى.

اما فى مقبرة مينا بطيبة ، فيمكن ان تعجب بالرسم الجدارى البالغ الجاذبية والبساطة ، والذى يتسم بتلقائيته والذى يمثل من بين العديد من الشخصيات ، شابتين تقدمان الى ضيفة جالسة فوق مقعد منخفض : الاولى زهرة لوتس ، والثانية سوارا او اكليلا وتبدو المرأة كأنها تقول هل أنا جميلة ؟ «نحن نعرف انه فى اطار الاحتفالات فى العصر الفرعونى كان المدعوون يتنسمون الزهر دوما ، ويضعون فوق رءوسهم تيجانا من الاعشاب العطرية ، وهناك رسوم تمثل تصنيع العطور وطريقة استخلاص الروائح والتى تقدم الى الالهة كما كانت تستخدم فى تعطير الموتى فى مصر القديمة ، ومدينة الشمس ، حيث كان يتم احراق البخور مع مطلع النهار

والراتنجات فى وسط النهار ، وعند الغروب هناك مزيج من توابل عديدة يسمى «كوفى». وكانت الشعائر الدينية تستهلك كمية من العطور والاطياب ، وتمثلت المباخر الفرعونية فى ذراع من خشب بها المبخرة لقد ابتكر المبدعون الفراعنة نظاما متكاملا للحمامات التى استخدمها من بعدهم الاغريق والرومان ، والتى يتم فيها العناية بأمور الاستحمام والتزيين . وبعد نباتات ابو طيلون المقلدة يدلكون الاجساد بالزيوت العطرة كى يكسبوا لاجسادهم المرونة اللازمة ولتصبح قادرة على مقاومة تأثيرات الشمس . وكانت الاساسيات المستخدمة من مصادر متنوعة عديدة .

فى البداية كان الكهنة هم الاشخاص الوحيدين الذين يملكون اسرار هذا الفن ، وكانت التوابل تضم ايضا الزعتر البرى وزهور اللوز المر ، وايضا الصبر ، والعطر العربى ، وبشكل عام فقد كان يتم حفظها فى أوان أو أوعية فخارية أو من العقيق ، والزجاج والرخام ، أو فى علب مرصعة بالعاج مثل التى يتم فيها الاحتفاظ بالطيور والاسماك ، وفى متحف العطور بباريس يمكن ان تشد انتباهك آنية من المرمر ، ترجع الى الامبراطورية الجديدة للاسرة السابعة عشرة لقد كان إعداد المراهم امرا بالغ المهارة من متخصصين فى المتحف البريطانى ، احتفظ الاثرى ريميل بعطور لاتزال تفوح بأريجها بعد ثلاثة أو أربعة الاف عام ! ولكن هذه المنتجات الثمينة لايمكن ان تناسب الطبقات الفقيرة التى كانت تستخدم زيت الخروع الذى تواقر يوما فى مصر ، والذى استخدمته النساء فى النوبة

الزعتر البرى واللوز

هناك وجه جدارى يعود الى الاسرة التاسعة عشرة يمثل ملكة مصبوغة باللون الاصفر لون النساء والذى يعتبر سمة لهذه الحقبة مع تسريحة شعر عليها ويضع اكليل من الاعشاب العطرية .. فى تونس كانت النساء يضعن أيضا الجواهر فى أوانى العنبر الرومانى المعطر. وكانت رائحتها تنتشر مع حرارة الجسد . وقد استخدمته التونسيات على شكل نجوم وقلوب ومثلثات حسب تخيلاتهن وتجميع العنصر ، أو حسب



والكحل في عينيه السود .. جلاب الهوى

الطرز المشتراة من عند الجراهرجي ، كانت المصريات يغسلن الوجوه باللونين الابيض والاحمر ، كان اللون وحده يقاوم الزمن في العصر الفرعوني . هناك مسحوق اسود (الكحل) كان يصنع من الانتيمون (كبريتات الرصاص) الذي يلتصق بالاهداب بطرف قطعة من خشب العاج ، وهو يضاعف الجاذبية ويجعل العينين تظهران اكثر اتساعا ، هذا الاستخدام يعود الى ماقبل التاريخ في نفس القرى التي تعود الى العصر الحجري العصاري ، وجد فرنان ديبونو في إحدى الحفريات كبريتات الرصاص التي تم استحضارها من مناطق بعيدة ، ولقد تم تغليف هذه القطع بعناية في حقيبة صغيرة من جلد الحيوان، وقد وضعت الحقائب في جرة مصنوعة من الطوب اللبن.

وفي مصر ظلت الحناء عنصرا اساسيا لفترة طويلة كعامل مساعد لاظهار الزينة ، وهذا النبات يزرع على نطاق واسع في ايامنا مثلما كان في كل العصور ،

والحناء شجيرة صغيرة تنمو طوال العام فى الدغل والحدائق ، ولزهورها روائح بالغة النفاذ واوراقها مستخدمة فى استخلاص العجائن الحمراء ، وقد استخدمها الرومان فى صبغ الشعر ، أما بين الطبقات الشعبية فان المصريات قد استخدمنها فى صبغ الكفوف .. وبطون الاقدام ، والاظافر وخاصة فى حفظ الشعر ، وبشكل خاص فى ليلة الزفاف ، وكانت هذه بالتأكيد عادة تلوين الكفوف اغريقية الاصل .. والفجر فى الاظافر الوردية . وبلغ تذوق العطور فى عصر كليوباترا اقصى حالاته مما رفع من درجة الاستهلاك، وكان أحد اسلحتها للاغراء التى استخدمتها لأول مرة مع مارك انطونيو.

الموضات والاذواق تتطور

فى كل الاعياد تروج تجارة العطور اما العبيد فكانوا يضعون الباروكات على رءوس الزوار، وفى اثناء حفلات الاستقبال كانت مسابح اللوتس تزين الاعناق ، وأشرطة الزعفران ، وديكور الزهور المعلقة فى الاسقف او الموضوعة على الموائد التى تفوح عطورها من دخان المجمرة ، بدرجة لا تتجاهلها اى من الحواس الخمس ، فيعزف الموسيقيون اعذب الالحان . وهكذا تم استقبال اجسيلاس عند قدومة مصر ولكن العجرفة الاسبرطية التى لم يألفها هذا العالم رفضت كل هذه الرقة والعطور التى تعبر عن مجتمع راق فهل سيوقف هذا اكتشاف اناقة وسحر هذا العنصر عبر الاعاجيب صناعة الملابس المتعددة الثنايا واساليب قص الشعر التى نراها مثلا فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية .

لفتت حاسة ان تكون المرأة جميلة عبر العصور ، انظار علماء الاثار ، وبدت واضحة واضحة فيما تركته الامبراطورية المصرية الجديدة من آثار يمكن رؤيتها فى متحف تورينو مثل تلك المرأة التى تدهن الشفاه بأصبع روج .

فى موسوعة ضمت كلا من الشرق الاقصى والشرق الادنى ، لابد ان تلفت انظارنا تلك التسريحات والامشاط والاصبنة ، والقفازات المعطرة . مما يكشف حب الشرقيات للورود ، ففى كل عام ، وفى الربيع يقمن بأعمال التقطير فى المنازل فيما يمكن تسميته بالتقطير

العائلى ، اوراق الورد وبذور وردة البرتقال فى القرن التاسع عشر. وفى بيوت الاثرياء ، كان يتم رش ماء الورد فوق ايدى الزوار بعد العشاء هذا الملمح من العادات ذكره «لان» فى عام ١٨٣٥ فى كتابه اساليب الاستهلاك فى مصر المعاصرة . المنشور فى لندن فبداية من شهر مايو يقدم شباب الباعة الجائلين بالقاهرة عقود الياسمين لكل من يرغبن فى ان يصرن فاتنات .

وفى عصرنا يوليون الاول ، الذى اسس فى فرنسا صناعة العطور ، هناك ميراث بين الاجيال السابقة ساهم فى التقنيات المعاصرة ، ويسمح حتى ايامنا باعداد المنتجات الشديدة التعقيد فى تركيباتها .

ومازالت مصر الحديثة تحتفظ بعادات التعطر ، ولكن حتى ايامنا فانها مازالت تصدر الكثير من «اساسيات» عطر الياسمين الى فرنسا ، اما محلات خان الخليلى ، اشهر محلات القاهرة ، فانها معروفة بسياحها الذين يبحثون عن هذه القنينات من كل الاحجام المليئة بأساسيات العطور النادرة ، وتاجر العطور هو نفسه دائما على الطراز المصرى ، والمصريات يشترين دوما هذه الروائح الثمينة من أجل التعطر والوقاية من عين الحسود او يخلطنها بالبخور ، ولقد كان الرسول ﷺ يحب العطور ، ولم يتغير شىء فى هذا منذ قرون حتى فى الطرز والاذواق التى تطورت عبر العصور.

طرق التقطير التقليدية

فى مناخ ساخن وجاف ، مثلما فى مصر ، فان الزيوت والشحوم تلتصق بالاجساد والشعر وهى عادة مألوفة . مثلما اشار أ . لو كاس فى كتابه «اعداد الصناعات القديمة» .. المنشور فى لندن عام ١٩٢٦ حيث ذكر تطبيقات المصريين وهذا الاستخدام يؤكد استمرار استخدام العطور لمدة طويلة فى النوبة والسودان وايضا فى انحاء اخرى من افريقيا ، وهناك وصفات عديدة لاستخدام الزيت من الصنوبر كما ذكر شترابون ، اما الاكثر استخداما فى الطبقات الفقيرة فهى الشحوم الحيوانية ، واساسيات العطور التى اضيفت الى هذه الزيوت والدهانات تجعلها اكثر متعة ، وايضا تستخدم فى اخفاء قابليتها للتزنخ ، ولذا

فان العطور السائلة ، والعطور المذابة فى الكحول ، تأتى من اساسيات عديدة مستخلصة من الزهور والفاكهة والاخشاب والاوراق ، والجذور ، والنباتات الزهرية ، ولم يعرف هذا النوع من العطور الفواحة فى مصر القديمة ، لان انتاج الكحول لاذابة الاساسيات كان يتطلب معرفة معقدة هى معرفة اصول التقطير ، وبالتأكيد فان هذا النظام تم اكتشافه فيما بعد

وجدت اول اشارات من التقطير عند ارسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم عند «بلين» فى القرن الميلادى الاول وبعد التوصل الى الكحول وجد انه احسن وسيلة للامساك بالعطر او اطلاقه من الدهون والزيوت ، ولايزال يستخدم بنفس الطريقة حتى الان من اجل استخلاص فوحان الزهور ، حيث يتم وضع الاوراق فوق مرقد دهنى ، وتغمس فى زيت الزيتون او اللوز قبل تثبيت العطر بالكحول ثم يستخلص بالتقطير ، وبدون هذه المرحلة الاخيرة المعقدة فان رائحة الدهون تظل عالقة بالعطر وقد ظلت هذه الطريقة مستخدمة لدى الاغريق فى عصر تيوفراست حيث كانوا يستخدمون الزيت البالغ النقاء ، اما فى مصر وسوريا فكان هناك زيت الزيتون واللوز .

عصر الخلود

وبعد هذه العملية ، يمكن اضافة زيت الزنابق او جذور السوسن مما يضمن بخلا افضل للمصريين ، ففى عصر «بلين» كما أكد لوكاس . كان يتم نقع نباتات متنوعة فى الزيت ، وكانت تدرجاتها تتم حسب انواع خلاصة الزهور والراتنجات والاصماغ العربية والتى يتم الحصول عليها بالضغط على المزيج فى قطعة من النسيج حسب طريقة عصر العنب ولقد امتدح تيوفراست العطور المصرية وروى ان العطر كان يتم حفظه فى حوانيت مصر طوال ثمانى سنوات الى ان يصير عطرا زكيا .

اما بالنسبة لـ «بلين» فقد مثلت مصر دوما نموذجا متميزا كبعد لانتاج الدهائن وبصفة خاصة فى العصر الذى حكم فيه مندس بالدلتا وشرح ان الدهان المندسى هو أحد المكونات الشديدة التعقيد يتكون من زيت البلوط ، والخروع والصبر التى



الكحل كما يبدو على النقوش



حاملة قنينات الحناء



وعاء لحفظ
العطور وتخزينها



التزين بالخلخال .. بدأ عند اقدام المصريات ..

تضاف الى زيوت اللوز المر المستخلص والزيتون الاخضر والزبيب ، وبذور البلوط والاصماغ وصبار التربنتين الذى يؤكد على وظيفته فى العصر الفرعونى ، وعلى خشب زكى الرائحة فى تكوينات العطر، اما زيت البلوط فهو اكثر شيوعا الان فى مصر حيث كان يستجلب من شجرة مزهرة تلك الشجرة التى تم اكتشافها فى القرن التاسع عشر بواحة «الخارجة» .. وفى الدلتا كما جاء وفى تقرير لوكاس فان قربان البخور والعطور كان يمثل نموذجا مهما فى الرسوم الجدارية للمعابد والاثار ففى الاسرتين الخامسة والسادسة على سبيل المثال تم اكتشاف العطور المحترقة (البخور) بعد هذا الفصل من التاريخ الفرعونى بمثابة كنز ، يفوح منه عطر الخلود وهالات الزهور وملكات جمال الاسلاف ، وزوجات الفراعين ، وقد ظل هذا يثير فينا الاحلام لقرون طويلة ●

صلاة إلى الكلمة

شعر:
جليلة رضا

انطلقى من جوف الظلمة
يا جسد الفكرة يا كلمه
هيا .. هزى .. هزى قلمى
وانتفضى فى ثورة ألمى
يا أصبح عملاق يفرد أجنحة الفن المنهزمة
قولى شيئا .. شيئا يصعد .. يتواثب .. يعلو للقمة
يا جسد الفكرة .. يا كلمه !

أيتها الكلمة كم يحمل معناك شقاء وسعادة
شطآنك أرض وسماء وحروفك كفر وعباده
وإذا استعصيت على شفتى . لن يبلغ فنى أمجاده
انطلقى أيتها الكلمة .. انطلقى عزما وإراده ..
وخذى عمرى أجر نشيد عذرى أشهد ميلاده

كم صور أثرت فى ذهنى ، نقلتها الشفتان فقيرة ..
ولحون غردها قلبى .. فانسابت بكماء ضريره
وحروب فى داخل نفسى .. خرجت للعالم مقهوره
انطلقى أيتها الكلمة .. انطلقى أصلا .. لا صوره
وخذى عمرى أجر نشيد عذرى أحسن تعبيره ..

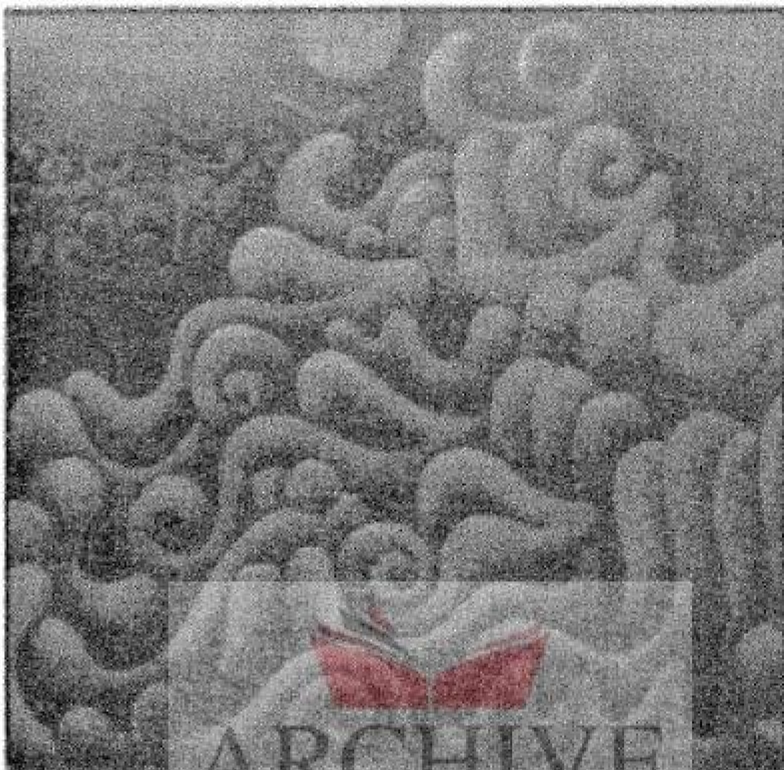
كم ليل تنساب الذكرى ، صورا وحقائق وظنونا
فتغوص الكلمة فى حلقى ، كمحيط يبتلع سفينا
ويموج فراغ فى قلبى . كالمسجد دون مصلينا



وعلى باب الكلمة أهتف : انطلقى شوقا وحنينا
وخذى عمرى أجر نشيد . يتلوه العالم مفتونا .

●●●

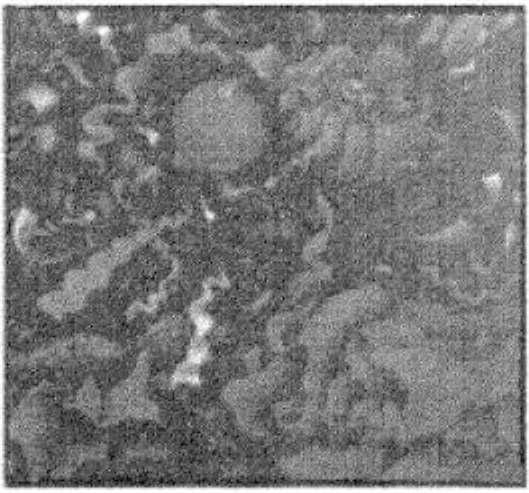
أيتها الكلمة صوغينى فنا يرتفع بدنياه
صوغى من إيمانى مرسى للهائم فى بحر أساه
لى أعماقى المحطومة ورداً أتنفس بشذاه
فالألم هو الفن الخالد .. هاتيه فكم أتمناه
وخذى عمرى أجر نشيد قدسى باركه الله.



تكوين حروفي

محمد حجي ودواوينه المرئية

بقلم : محمود بقشيش



عالم بتشظى



الفنان محمد حجى

منذ تزاملت معه فى كلية الفنون الجميلة ، فى أواخر الخمسينيات.. حتى الآن ، والفنان «محمد حجى» منشغل بفكرة رئيسية هى : إن «اللوحة» يجب ألا تكتفى بأصلٍ واحد ، يُحاط بهالة القداسة ، بل عليها أن تجد طريقاً تقتحم به جمهوراً واسعاً ، لا مبالياً ، بحكم التكوين ، وكان جمهوره الأول الذى قُدِّر له أن يتصل به هو شعب قريته «سندوب» (إحدى قرى محافظة الدقهلية) ، .. وكانت قريته تعيش بمنأى عن الجريدة اليومية ، ولم يلتحق أبناؤها ، قبل «حجى» ، بكلية من كليات الفن ، ولم يمارس أحدهم تَرَف متابعة ما تقدمه قاعات العرض من فنون . ولكى يصل إلى هذا الجمهور كان عليه أن يجد «وسيط الاتصال» ، واكتشفه فى حوائط قريته الطينية ، فأغرقها برسم موضوعات تَصوَّر أنها تهم الناس ، أو تحرضهم على «تغيير» واقعهم . وكانت الأدوات المناسبة لذلك النوع من الجدران هى الألوان الجيرية .

كان متأثراً في تلك الفترة من تاريخه، بأساليب بعض الرسامين الصحفيين ، وغير الصحفيين الذين لوّنت السياسة الحزبية أساليبهم الفنية مثل : «زهدي» و «حسن فؤاد» و «محمد حامد عويس» . غير أن اتصاله - كرسّام - بمعطيات البيئة المرئية ، وملاحظته لما يصنعه الضوء والظلال من أشكال مثيرة ، أمدّه بإدراك أنْ عليه أن يُتقن الأسلوب «الأكاديمي» قبل أن يفكر في التمرد عليه ، ويكتشف لنفسه الأسلوب الذي يناسبه ، مثلما فعل الفنانون الذين تأثر بهم في بداية الطريق

وأشهد بأنه كان أفضلنا في نقل الواقع ، وأسبقنا في التمرد عليه ، وأحرصنا على أن يتصل فنّه بالناس . وقد واتته فرصة عندما أتيح له أن يصبح رساماً في مجلة «المنصورة» واختار مجال التحقيق المرسوم . وكان يقوم بدور الرسّام ودور المعلق معا . كانت لوحات تحقيقاته تقترب من الطابع التوثيقي ، دون أن تغرق في حياده، بل كانت تشع رسومه بما تضمره من شحنات تعبيرية ، وآراء تنحاز إلى شرائح الفقراء والكادحين. بعدها انتقل بتحقيقاته الصحفية إلى مجلة أوسع انتشاراً هي مجلة «روز اليوسف» . وبدلاً من الاكتفاء بوصف مشكلات «سندوب» صارت رسومه وصفاً لمشكلات الوطن .

وانتقل بعد ذلك إلى العمل في «ليبيا» .. ثم العمل بالجامعة العربية . وفي الجامعة اختار وسيطاً تعبيرياً جديداً للاتصال بجمهور أكثر اتساعاً من حدود الوطن الواحد ، وكان هذا الوسيط هو : الكتاب . به انصرف عن «نثر» المشكلات اليومية إلى «شعر» الوجدان ، والفكر ، والتأمل ، واستلهم نصوص الدين ، والشعر ، والسياسة .

● علامات فاصلة

تكشف كتبه المرسومة أو «دواوينه المرئية» - كما أفضّل - عن تعدد ، متباين، في مصادر الإلهام ، وإن جمع هذا التعدد نبعٌ واحدٌ ، رئيسي ، هو النبع العربي الإسلامي ، غير مقطوع الصلة بإنجازات النموذج الأوربي في الفن ، استلهم في كتابه «شمال يمين» آثار السياسة الأمريكية في المنطقة العربية ، واستلهم في كتابه «رسوم من ليبيا» مفردات الحياة اليومية في المجتمع الليبي، واستلهم آيات من القرآن الكريم في كتابه «رسام يقرأ القرآن» ، واستلهم رباعيات «صلاح جاهين» في كتاب بعنوان : «رباعيات عامية مرسومة» وهناك مجموعة أخرى من الكتب تحت الطبع ، لم أطلع على أصولها ، منها:

«رسوم من تونس» و «ذكريات ريفية».

صاحب تعدد مصادر الإلهام ، تعدد فى أساليب التعبير الفنية : اتجه فى كتابه «رسوم من ليبيا» إلى أسلوب أقرب إلى تسجيل الواقع المرئى ، وفى كتابه «شمال يمين» كـان أسلوبه أميَل إلى المبـالغـة «الكاريكاتيرية» التى يبررها توجهه إلى النقد اللاذع . وفى كتابيه «رسام يقرأ القرآن» و «رباعيات عامية» يتجلى أسلوب هو مزيج من الرمزية والسريالية . ومن اليسير أن ندرك أنه يطبق فى رسومه المبدأ القائل : «لكل مقام مقال» ؛ فهو يختار بعناية ، الأسلوب الذى يراه مناسباً لمحتوى الموضوع الذى يتناوله . ويغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف النظرى مع وجهة النظر التى يتبناها ، فقد نجح فى تهيئتنا لتقبل مبالغاته التعبيرية ، منذ لقاء الوهلة الأولى بعنوان كتابه «شمال يمين» ذى الإيقاع الآلى الذى يضم السخرية . ونجحت مبالغاته اللاذعة ، والمتقنة ، فى تنفيرنا من السياسة الأمريكية فى بلدان العالم الثالث بشكل عام ، وفى المنطقة العربية بشكل خاص ، وجسدَّها غولاً بعشرات الأنياب والأظافر الفتاكة ، مدججاً بأدوات قمع لاحد لها ، مُزيناً بعشرات النجوم اللوامع . أما فى كتابه «رسوم من ليبيا» فإنه لم يكن فى حاجة إلى مبالغات الهجاء أو انحيازات التحريض أو الإغواء ، بل كان دافعه – على الأرجح – تأملياً . لهذا احتفل بالتقاط مفردات من الحياة اليومية وشىء من مظاهر البيئة الطبيعية ، وبعض وجوه أناس عاديين . وشكَّل من تلك المشاهد المتناثرة صورة رامزة إلى أبعاد سياسية واجتماعية لهذا الوطن . ولأنه لايريد أن نقف من المجتمع الليبى / العربى نفس الموقف من السياسة الأمريكية ، فقد اختار أسلوباً أقرب إلى الوصف الحيادى الذي لا يسمح باشتعال العواطف بل بالتأمل الهادىء ، والنقد الموضوعى . وسواء كان مضطراً فى هذين الكتابين إلى إشراك أو مصاحبة نصوص مكتوبة ، أم لم يكن مضطراً إلى ذلك ، فقد قدم فيهما لوحات أراها مكتفية بذاتها .

وكان من الممكن – فى ظنى – الاستغناء عن النصوص والتعليقات المكتوبة . وربما دفعه إلى تلك المصاحبة فكرته عن طبيعة القارىء العربى الذى يفضل التصريح على التلميح !

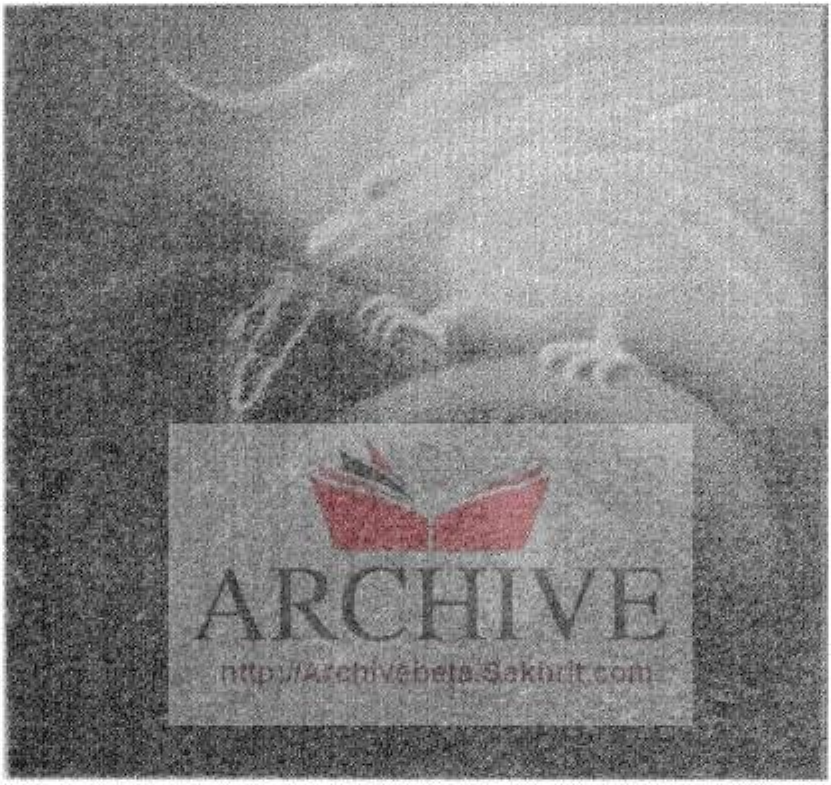
على الرغم من الاختلافات الأسلوبية بين رسوم دواوينه المرئية ، فإن فيها من القواسم المشتركة ما يدل على انتمائها إلى فنان بعينه ؛ فرسومه جميعاً – بواقعيتها ، ورمزيتها ، وسرياليتها –

محمد حجى .. ودواوينه المرئية



رؤية ميتافيزيقية

تتسم بالنبرة الجهيرة ، والحرص على توكيد الكتلة ، والميل إلى البناء، والاشتباك العنيف ، أحياناً ، بين عناصر التكوين ، ودرجات الغامق والفاتح ، كما في رسوم «شمال يمين» ، ولم أندهش عندما علمت بأن هذا الكتاب قد رفعته أيدى المتظاهرين فى أحد البلدان العربية وتتفق معظم رسومه – رغم اختلافاتها الاسلوبية – على استلهام ما يمكن وصفه ببنية المتاهة في الحكايات الشعبية ، حيث لا يوجد بطل



صـــراع

واحد يحتل بؤرة المشهد ، تدور من حوله مراكز قوى ثانوية ، بل تتشظى عناصر لوحاته أحياناً ، وتتكاثر ، وتتداخل فى اشتباكات محمومة ، وسواء تكاثرت العناصر لحد الاختناق كما فى لوحة : «كابوس» ، أو أُخلى المشهد لفتى وفتاة يسبحان بقارب ، ويتناجيان فى الليل ، فإن إيحاءً بحكاية يتسلل إلينا عبر مفارقة تدعو إلى الدهشة والتأمل : ففى لوحة «لقاء» - المشار إليها على سبيل المثال -

لا يضيء لهما القمر كما هو متوقع بل بخسفه ، ولا يكتفي بهذا الخسوف القمري، بل يُظهر عاشقيه في هيئة الدُمى الخشبية التي لاحول لها ، ويخلع على مجمل المشهد إيحاءً بجو مسرح العرائس، ومسرح العبث في ذات الوقت .

إن السمات الأسلوبية التي تسم أسلوب «حجي» لم تأت من فراغ ، فهي تُذكّر - دون أن تتشابه - بجو رسام المنمنمات العربية والإسلامية ، ويمكن أن نجد - في ذات الوقت - بعض آثار التكعيبية التركيبية في أسلوبه ، وبالذات آثار الفرنسي «فرنان ليجيه» والأسباني «بابلو بيكاسو» . وأزعم أن الأسلوب التكعيبي بحدته ، ومعماريته ، أقرب إلى وجدان «حجي» ؛ ففي عالمه الفني - كما تؤكد لنا لوحاته - لا أثر لدلال أنثوي كالذي نلتقي به في طراز الـ "ART NOUVEAU" أو الـ ART DECO على سبيل المثال !

ولأن «حجي» قد انصرف منذ تخرجه عن لوحة «الحامل» ، ولم يرض بمحدودية انتشارها ، واختار الصحافة قبل أن يتمسك أخيرا بفكرة «الديوان المرئي» .. فقد اختار لمسطحاته الورقية ما يناسبها من الخامات . وكانت تلك الخامات هي الأقلام الملونة . وعلى الرغم من أنها تدخل في إطار «الخامات الفقيرة» فقد استطاع بمهارته الفائقة ، وحساسيته، وثقافته ، أن يثريها ثراءً مبهراً . وأشهد بأنه لا يزال أفضل رسام تعامل مع هذه الخامات .

ولا شك أن تلك الشهادة التي أدلي بها تتناقض تناقضاً كلياً مع مؤرخي الفن - الهواه - ونقاده في مصر الذين لا يعرفونه ، ولم يصل اسمه ودوره إلى ذاكرتهم حتى الآن !

● رسام يقرأ القرآن

حاول «حجي» بهذا «الديوان المرئي» أن يفتح باباً ظل مغلقاً ، حتى الآن ، بقوة التعصب الديني أراد «حجي» أن ينبه إلى ضرورة استلهام الفنان العربي إرثه الديني ، وخصوصاً نصوص «القرآن الكريم» ، مثلما حدث مع الفنان الغربي الذي أتيح له قبل ، وبعد ، محاكم التفتيش أن يستلهم نصوص الكتاب المقدس ، عبر وسائط الفنون المرئية والفنون السمعية ، وهو الأمر الذي أتاح للحياة الفنية ، والثقافية ، والتعليمية أن تتقدم إلى آفاق بعيدة المدى . ما حدث ، ببساطة ، أن الفنان «محمد حجي» بعد رحلة طويلة مع الفن ، والثقافة ، والعمل السياسي .. قرأ القرآن الكريم ، فاهتز له وجدانه ، وريشته، واستلهم ثلاثاً وثلاثين آية منه ، وجسدها في لوحات رائعة ضمها كتابه . وقدم للكتاب المؤرخ والمترجم الكبير د «ثروت عكاشة» دراسة ضافية عن

تجليات الفن الاسلامي عبر تاريخه ، وناقش علاقة الدين بالفن ، وملابسات العداء من بعض مظاهره

وأنهى دراسته برأى في تجربة الفنان الإبداعيه قال : مامن شك في أن المصور حين يملى في تصاويره ، يملى عن عوامل مختلفة فيها تلك الانتفاضة التي تمتلىء بها جوانحه عند رؤية مشهد من المشاهد تقع عليه عيناه أو عند سماعه خبراً من الأخبار تختلج له مشاعره وتخفق عواطفه، أو عند إحساسه بما يضيق به أو يطرب له، او عند تلاوته لآية من آيات القرآن الكريم ، وهو ما احسب أنه قد أثار الخواطر في نفس الرسام محمد حجى وهو يقرأ القرآن واعتلج به وجدانه ، وحين اهتزت أحاسيسه بهذه القدسية صدرت عنه هذه اللوحات الرامزة الخفاقة المتقنة ، وكذا اهتزت لها مشاعر المشاهد و أحاسيسه ولاريب فى ان إجماع المشاهدين على عمل تصويرى مبدع هو إجماعهم على إكبار الفنان المبدع فقد جاءت لوحاته التى ينطوى عليها هذا الكتاب ناطقة بمشاعر وأحاسيس تعبر تعبيرا بليغا عن معان فياضة سامية» .

وبدلا من أن يذهب الكتاب إلى المطبعة، او إلى نقاد الفن لإبداء الرأى ذهب إلى إدارة البحوث بالأزهر . ولان هذه الإدارة لاعلاقة لها بالفن ، من قريب او بعيد ، فقد أصدرت أمرها بمصادرة الكتاب ، وهذا نص المصادرة . ولن أندهش من قارىء يضحك فى أسى ، بعد قراءة سببىْ المصادرة ، لأنهما بالفعل سببان يدفعان الى الضحك (ولكنه ضحك كالبكا)!

● نص القرار

ترى إدارة البحوث بالازهر أن الكتاب لا يصلح للنشر أو التداول لأمرين:

١ـ لعنوانه فالرسوم ليست قرآنا .

٢ـ كثير من الرسوم لا صلة لها بمعانى النصوص القرآنية المواجهة لها .

مدير عام البحوث

سعد السيد على

١٧/٧/١٩٨٤

وبذلك القرار الذى ينم عن جهل عميق بأسرار الفن تفقد المكتبة العربية واحداً من أهم كتب الإبداع الفنى . والواقع أن رسوم كتاب « رسام يقرأ القرآن» تستحق دراسة مطولة ،لامجال لها فى هذا السياق .

● رباعيات عامية مرسومة

هذا هو عنوان « الديوان المرئى» الذى يستعد لنشره ، وكان فى نيته أن يضم معه رباعيات الشاعر الكبير « صلاح جاهين » لولا أن مؤسسة الأهرام كان لها رأى آخر ، هو أن الرسوم سترفع سعر الكتاب ، لهذا رفضت مشروعه وقد

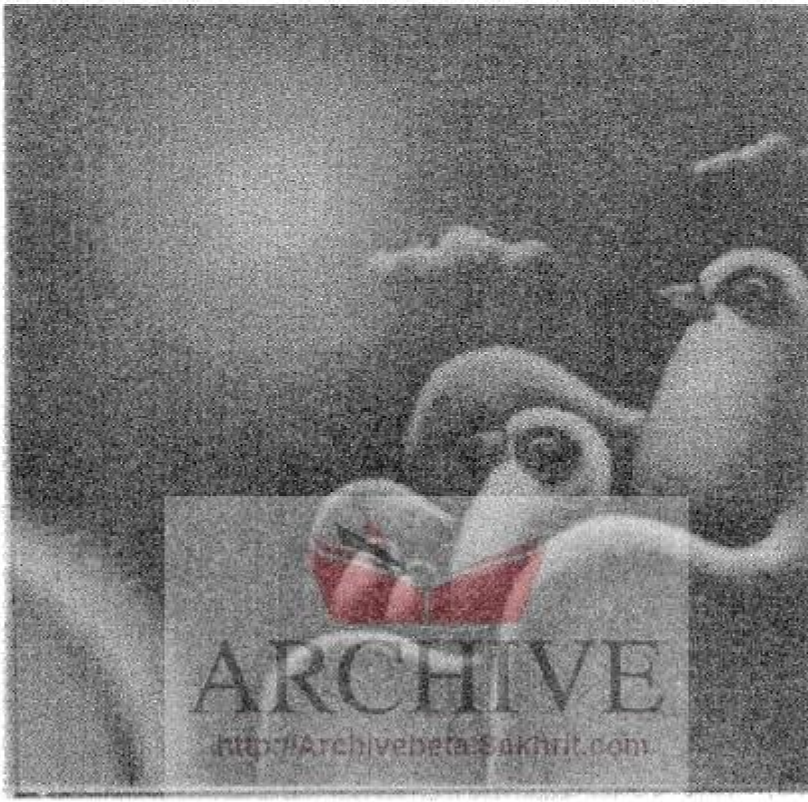
محمد حجى .. ودواوينه المرئية



تكوين

نصحتُهُ بأن ينشره مستقلاً عن أى نص مكتوب ؛ فاللوحات تكتفى بذاتها ، ولم تكن رسوماً توضيحية ترضى بظل النص الشعرى وكانت أشعار «جاهين» على عظمتها ، مجرد مثير تعبيرى وجمالى ، شأنها شأن المثيرات الجمالية فى الطبيعة

وتتسم رسوم «حجى» بطابع «درامى» حاد ، فى حين تتجلى رباعيات «جاهين» فى إطار يجمع بين الرشاقة المداعبة والحكمة . ولاشك أن مصاحبة نص مكتوب لشاعر كبير ، لنص مرئى لرسام



أمومة

كبير مثل «محمد حجى» كان سيثرى تجربة اللقاء بين القارئ/ المشاهد ، مرهف الحس ، وبين الكتاب .. لكن حكمة النظرة التجارية رأت غير ذلك .

وبمصادرة كتاب «رسام يقرأ القرآن» وبالاعتراض على « الرباعيات» أوقف «حجى» بنفسه ، قبل أن توقفه مؤسسة أخرى ، سلسلة رسومه عن قصص الانبياء ، وكان الخاسر الوحيد ، بغير شك، هو :نحن!

سينما الهند والصين وانتصار حرية التعبير

بقلم : مصطفى درويش

لو ألقينا نظرة طائرة على الخريطة السينمائية لقارتى إفريقيا وآسيا ، لاستبان لنا دون مشقة أن السينما المصرية تحتل مركز الصدارة فى إفريقيا، وذلك بحكم أمرين : القدم ، وكم الافلام .

أما آسيا فمركز الصدارة فيها تتنازعه أكثر من سينما ولا غرابة فى هذا فآسيا أكبر قارات الكرة الارضية مساحة ، واكثرها سكانا .

والشىء الذى لا شك فيه أن بلدين لا غير من بلاد تلك القارة الشاسعة ، وهما الهند والصين ، انما تشكلان بسكانهما البالغ عددهم حوالى الفين ومائتى مليون نسمة ، كتلة بشرية ضخمة لابد وان يكون لها، بحكم طبائع الامور، تأثير كبير على اقتصاديات السينما ومسارها عالميا .

فاستوديوهات السينما فى «بومباى» و «مدراس» و «كلكتا» انتجت خلال سنة ١٩٩٤ ، سبعمائة وخمسين فيلما ، وهو عدد يفوق بكثير عدد الأفلام التى انتجها مصنع الأحلام فى هوليوود ، عاصمة السينما .

وتجىء مدينة هونج كونج مباشرة بعد مصنع الأحلام ، فى عدد ما تنتج من أفلام

وهى مدينة لا يزيد عدد سكانها على ستة ملايين ، ولن يمر عام وبعض عام الا وتصبح جزءا لا يتجزأ من الصين .

ولولا مأساة الثورة الثقافية ، قبل ربع قرن من عمر الزمان ، وما أدت إليه من انحدار مروع فى الإنتاج السينمائى داخل الصين الشعبية كما وكيفا ، لولاها لاحتلت السينما الصينية المركز الثانى فى العالم ، ولربما المركز الأول الذى تحتله السينما الهندية الآن .

والأكيد ، على كل حال ، أنها هى والسينما الهندية فرسا رهان .

كلاهما يطمع فى احتلال المركز الأول، وكلاهما يسعى ، فى أغلب الظن ، إلى الهيمنة على أكبر سوق بشرى ، ألا وهو سوق آسيا ، وإن كان ليس أكثر الأسواق ثراء ، بل لعله اكثرها فقرا ، فيما لو استثنينا افريقيا السوداء .



وداعا محظيتى .. الفيلم الفائز بجائزة مهرجان كان الكبرى

والأمر العجاب ، انه رغم ذلك السوق الكبير ، وهو العنصر غير المتوافر بالنسبة للسينما المصرية ، فكلاهما يعانى مثلها من منافسة افلام مصنع الأحلام .

وآية ذلك الهبوط الحاد الذى طرأ على ايرادات الافلام المنتجة فى هونج كونج .

فلعدة اعوام كانت تلك الايرادات تفوق ما تحققه الافلام الامريكية من ايرادات داخل المدينة .

● الامريكيون قادمون

ولكن هذا التفوق اصبح الآن فى خبر كان وحتى الارض الأم فى الصين الشعبية، لم تنج هى الاخرى من تلك المنافسة التى بدأت ، قبل أعوام قليلة ، بفيلم امريكى ميلودرامى عفى عليه الزمان اسمه «قصة حب» ، ومع ذلك ، فالإقبال على مشاهدته من قبل الصينيين كان إقبالا فاق كل التوقعات .

فإذا ما انتقلنا الى الهند ، فسنجد ان

الفيلم الامريكى قد اخذ يقتطع شيئا فشيئا من نصيب صناعة السينما الهندية فى الارباح .

ولعل خير مثل على ذلك النجاح الكبير الذى حققه داخل الهند فيلم «حديقة الديناصورات» .

● المشروع الممنوع

وفوق هذا فكلاهما يعانى ، مثل السينما المصرية ، من موانع رقابية متعسفة ، لا تساير روح عصر ثورة المعلومات .

ومما يؤيد ذلك ويؤكده انها اصبحت لا تستطيع أن تحول بين مبدعى الافلام وبين حرية التعبير ، فى زمن تتيح فيه وسائل الاتصال الحديثة لأى فنان أن يسافر الى أى مكان ، وقتما يشاء ، ولأى صورة ثابتة أو متحركة ان تخترق اجواء الفضاء الى عقولنا وقلوبنا ، دون رقيب أو حسيب .

ولا ضرب مثلا على ذلك بفيلمين أحدهما صينى «وداعا محظيتى» والآخر هندى «الملكة قاطعة الطريق» .

كلاهما تعرض لأشد عقاب ، المنع من العرض العام وكلاهما فى معركته ضد ذلك العقاب ، خرج منتصرا بعد جذب وشد بين أصحابه ورأى عام عالمى يقف وراءهما مساندا ، وبين سلطات حائرة ، لا تزال اسيرة افكار جامدة ، لم تستطع بعد استيعاب المتغيرات .

● ربة القمار

وقصة أو بمعنى أصح محنة الفيلم الصينى بدأت قبل عدة اعوام فى هونج كونج ، عندما ارتأت «هومنج» أن تصبح منتجة سينمائية ، فاشترت حق ترجمة رواية «وداعا محظيتى» الى فيلم .

و «هومنج» هذه ، كانت ممثلة مشهورة، رائعة الجمال ، قبل أن تعتزل التمثيل ، وليس لها من العمر سوى ثلاثين عاما ، ومتزوجة من « دافيد تونج» رجل الاعمال الواسع الثراء ، وصاحب الجاه والنفوذ فى الصينات الثلاث «الصين الشعبية ، وهونج كونج وتايوان» .

ومن مآثره ، كما يقال ، أن شركته استثمرت بليونا ومائتى مليون دولار فى أعمال التشييد والبناء بـ «بوينج» المركز الاقتصادى الجديد الذى يرتفع صرحه قريبا من ميناء شنغهاى على أرض الصين الشعبية !!

ويعرف عن زوجته انها تحب ركوب المخاطر ، تجرى روح المقامرة فى دمائها، حتى انها نالت لقب «ربة المقامرين» .

ومن هنا اختيارها «شين كايجى» كى يقوم باخراج «وداعا محظيتى» .

فهو اختيار ينطوى على مخاطرة ، ما فى ذلك شك .

«فكايجى» والده «شين هواى كاى» ، ذلك المخرج البكينى الذى اتهمته الثورة

الثقافية بالعمل سرا لحساب الرجعية ، متمثلة فى الكومنتانج ، وحاكمته عن ذلك أمام الجماهير ، وكان من بين المشاركين فى المحاكمة «كايجى» الذى شجب اباه علنا .

الا انه ما ان انحسرت الثورة الثقافية، حتى ادرك جسامة فعلته النكراء ، فعمل على تصحيح مسار علاقته بأبيه ، فاعتذر له ، وفاز منه بالغفران .

● حسن الاختيار

وعلى كل ، فقد شاءت الاقدار لـ «وداعا محظيتى» الا يكون عملا سينمائيا عاديا .. لماذا ؟

لانه ما أن شاهده كشافة مهرجان «كان» حتى بادروا الى اختياره ، كى يشارك فى مضمار المنافسة على جوائز المهرجان .

ولقد صادفهم التوفيق فيما اختاروا عندما خرج من المضمار متوجا بجائزة «كان» الكبرى المسماة بالسعفة الذهبية ، مناصفة مع «البيانو» رائعة المخرجة النيوزيلاندية «جان كامبون» .

وطبعا فيلم تمثله «جونج لى » نجمة الصين الأولى ومعها عدد من كبار الممثلين، ويخرج من مهرجان «كان» متوجا بالسعفة الذهبية ، فيلم كهذا كان لابد أن تسبقه سمعته العطرة الى بلده الاصلى «الصين» وان ينتظره عشاق الفن الجميل متلهفين .

وبعد طول انتظار دام اربعة أشهر ، جاء اليوم الموعود فى العاصمة بكين .

● عرض أول وأخير

وأمام دار السينما المختارة خصيصا للحدث العظيم ، اخذ رتل من السيارات الكاديلاك يتهادى وسط حشد من فتيات ملتهبات حماسا ، يصرخن اعجابا . كلما وقفت احدى تلك السيارات الفارهة ، وهبط منها احد نجوم الفيلم مبتسما .

ولو كنت غريبا لا تعرف الاسرار ، لظننت أن ما يجرى أمام عينيك ، ليس الا طقوس عرض أول لفيلم يحتفى به لتميزه فى مهرجان عالمى كبير ، سرعان ما تتبعه عروض أخرى ، قد تستمر شهورا ، ولا أقول اعواما .

أما لو كنت عالما ببواطن الأمور ، وبالتالى محصنا من السقوط فى أسر تلك الأوهام ، فالفيلم فى واقع الامر محل اضطهاد ، لا احتفاء .

وعرضه الأول ليلة الافتتاح ، هو فى نفس الوقت عرضه الأخير .

فأعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى الحاكم ، قد شاهدوه ، قبل ذلك فى عرض خاص ، خرجوا منه عابسين ، تنطق وجوههم بالازدراء الشديد .

والفيلم اللعين الذى خرج منه حكام الصين عابسين ، تجرى احداثه فيما بين بداية عشرينيات ، ومنتصف سبعينيات القرن العشرين .

وبطلا تلك الاحداث «دوان» و «شين» مغنيا اوبرا ، يحكى الفيلم سيرتهما طوال

سينما

اعوام هذه العقود الستة ، بدءا من اعلان الجمهورية ، مرورا بالغزو الياباني للصين، والنظام الوطني بزعامة «شيانج كاى شيك» حتى يصل ببطليه ، وهما يعيشان تحت نير النظام الشيوعي . وبالذات فترة الثورة الثقافية التى قلبت كل الموازين .

والفيلم يعرض لمأساة «دوان» و «شين» من خلال عمل الاثنين فى اوبرا بكين .

فكلاهما على مر العصور يواجه ألوانا من المضايقات السياسية من قبل جميع الحكومات التى استولت على السلطة فى الصين .

غير أن أسوأ تلك المضايقات ، واكثرها بشاعة ، كان فى فترة حكم الشيوعيين ، وخاصة عندما هب على الصين اعصار الثورة الثقافية ، التى كانت بلاء على المثقفين .

● سر الغضب

واغلب الظن أن المشهد الأخير من الفيلم ، هو الذى أثار غضب اعضاء المكتب السياسى ، جنح بهم الى الحيلولة بينه وبين العرض العام .

واحداث ذلك المشهد تقع قريبا من نهاية عقد السبعينيات ، أى بعد انحسار الثورة الثقافية ، بالقبض على عصابة الاربعة ، وبدء تباشير الفجر الجديد .

وفيه يبين لنا أن «دوان» و «شين» قد نجيا من أهوال تلك الثورة الدموية الحمقاء فهاهما ، مرة أخرى ، فى ثياب أوبرا بكين، الزاهية الفضفاضة ، يمارسان الغناء فى «وداعا محظيتى» تلك الاوبرا التى جعلت منهما نجمين معبودين من الجماهير.

وللحظات ، نظن أن المخرج ، بإعادة بطلى فيلمه الى الاوبرا . انما اراد أن يقول إنه ، وقد انتهت الثورة الثقافية البغيضة ، فكل شىء عاد سيرته الأولى ، عاد جميلا مضيئا .

ولكن سرعان ما نفيق تحت وطأة الواقع الحزين .

«فشين» لا يزال معذبا بذكرى الماضى الاليم وحبه المستحيل لزميله «ديوان» .

وها هو ذا يأخذ سيف الاخير ، وبه يتخلص من حياته منتحرا .

يبقى أن أقول إن الشائعات كانت تقول ان قيادة الحزب الحاكم تريد تغيير تلك النهاية غير السعيدة الى نهاية سعيدة، حتى يمكن الترخيص بعرض الفيلم فى الصين وقد تحقق ذلك ، لا اعرف كيف ، وجرى عرض الفيلم بطول وعرض الصين .

والآن الى الفيلم الهندى «الملكة قاطعة الطريق» لأقول إنه هو الآخر ، قصته أو محنته لا تختلف عن قصة أو محنة «وداعا



بولان ديفى .. الملكة قاطعة الطريق

محظيتى» الا فى بعض التفاصيل .

«فشيخبار كابوره مخرجه قد استوحاه من سيناريو كتبته «ملا لاسين» ، نقلا عن مؤلف لها استلهمت احداثه من مذكرات كتبتها قاطعة الطريق «بولان ديفى» اثناء الاعوام التى مكثتها فى السجن ، تنفيذا لعقوبة صادر بها حكم من القضاء .

ومع ان السيناريو كان مشوبا باكثر من عيب ، فإن «كابوره» احس بما فى سيرة «بولان» من ابعاد درامية ، تصلح لإبداع فيلم يطرح قضايا جادة ، غير مألوفة فى سينما قوام اغلب افلامها الرقص والغناء .

والغريب فى الامر أنه لم يقرأ القصة القائم عليها السيناريو المعيب ، الا بعد ذلك بثلاثة أعوام ويفضل من ؟

قناة ٤ التليفزيونية فى بريطانيا التى ارسلت اليه القصة ، مرفقا بها السيناريو المعيب ، طالبة اليه أن يقرأهما ، وان يترجمهما فى فيلم ، فيما لو صادفا لديه هوى وقبولا .

● اختلاف الطبائع

ونظرا الى ما بين طبائع الجمهور المتلقى فى البلدين بريطانيا والهند من اختلاف كبير فإن اخراج الملكة قاطعة الطريق لم يكن بالامر اليسير .

فالقبلة فى السينما الهندية حرام ، فى حين انها فى السينما البريطانية حلال .

سينما

وكذلك الحال بالنسبة للعرى والاغتصاب ، فكلاهما ، على عكس السينما البريطانية ، من الممنوعات .

والعنف بدوره ممنوع ، فيما لو جنح المخرج الى تصويره فى الفيلم كما هو مكتوب فى مذكرات «بولان» .

فهى لانها لم ترتض الهوان الذى ذاقته فى قرية «بهماى» ، حيث اجبروها على خلع ملابسها والسير امام الملأ عارية، عزمت على الانتقام .

فماذا فعلت ؟

انقضت مع افراد عصابتها على تلك القرية الظالمة ، حيث ذبحت اربعة وعشرين رجلا من اعيان الهندوس ، المتحكمين فى رقاب الفقراء .

وفى ضوء كل هذه المحرمات والمحظورات كان على «كابور» ان يختار ،

إما ان يصنع فيلما منضبطا ، باهتا ، خاليا من أية شائبة ، قد تؤرق بال الرقباء ، وإما ان يبدع فيلما ، لا يقيم وزنا الا لشيء واحد ، ان يحكى سيرة «بولان» كما حكتها تلك المرأة الاسطورة ، وبالها من سيرة ، تبدأ بها صبية هندوسية فقيرة ليس لها من العمر سوى أحد عشر عاما .

ومع ذلك يجبرونها على الزواج من رجل عمره يعادل عمرها ثلاث مرات ، يوسعها ضربا ، يضاجعها مغتصبا

نصيرة الفقراء

ولانها لم تحب هذا النوع من الحياة ، فهى تهرب الى اسرتها التى تقبلها على مضض .

ولانها تعرضت ، بعد ذلك ، لضروب من الاهانة والازدراء والتغرير والتضليل لا تطاق ، فهي تتمرد وما أن تخرج من السجن حيث زج بها ظلما ، وحيث مارست معها الشرطة حقها فى الاغتصاب ، حتى تواجهها شدائد اخرى ، لم تجد الى احتمالها سبيلا .

كل هذا ينتهى بها منضوية تحت راية عصابة بزعامة قاطع طريق «فيكرام» ، ما لبث ان وقع حبه فى قلبها ، كما وقع حبها فى قلبه . وما اريد أن ألخص خير ما فى الفيلم ، وهو تصوير حياتهما السعيدة معا، وكيف انتهت تلك السعادة بموته مقتولا بالغدر والخديعة ، وتوليها رئاسة العصابة .

ولا ان ألخص كيف اصبحت ملكة اسمها يتردد على كل لسان ، يخشى بأسها الاغنياء ، ينشد افضالها الفقراء .

وكيف دبرت لها حكومة الولاية أكثر من مكيدة ، كان مآلها الخذلان .

فذلك شيء يطول .

كل ما اريد أن ألخصه هو انها قبل ثلاثة عشر عاما اختارت الاستسلام بشروطها ، امام حشد جماهيرى كبير .

وبعد عشرة اعوام افرجت عنها السلطات، المفاجأة الكبرى أن صاحبة تلك السيرة «بولان ديفى» عابت على الفيلم ، دون أن تراه ، تشويه حياتها بالتزييف والتحريف .

ولم تكتف برفع دعوى طالبة فيها التعويض ، بل ذهبت الى ابعد من ذلك ، طالبت بمنع عرضه مهددة ، متوعدة .

وكان ان استجابت الحكومة لتهديدها ووعيدها ، فأصدرت قرارا بمنع عرضه بطول وعرض الهند .

وبطبيعة الحال لقى المنع كل الاستحسان من قبل المتزمتين والمتعصبين، وخاصة غلاة الهندوس .

فالفيلم فيه من العرى والعنف والاغتصاب الشيء الكثير .

والأهم انه فاضح لعورات نظام اجتماعى طبقاته متحجرة ، على وجه لا يخول افرادها حق حرية الحركة فيما بينها، بدءا من الميلاد ، وحتى الممات .

● وفى الهند قضاء

ولحسن الحظ ان المنع لم يستمر طويلا، والفضل فى ذلك انما يرجع الى المحكمة العليا التى اصدرت امرا اوقفت بموجبه قرار المنع مؤقتا ، حتى تتيح لاتحاد الفيلم الهندى فرصة مشاهدته ، وامكان ترشيحه لجائزة أوسكار افضل فيلم اجنبى وفعلا وقع اختيار الاتحاد عليه ممثلا للسينما الهندية فى ترشيحات الأوسكار .

واخيرا ، فبعد عرضه خارج الهند بنجاح ، وبمناسبة انعقاد مهرجان نيودلهى السينمائى فى شهر يناير الماضى، رخصت الحكومة الهندية بعرضه كاملا ، إلا من بعض لقطات لا يؤثر حذفها على المضمون والسياق العام .

وهكذا كتب الانتصار «للملكة قاطعة الطريق» كما كتب من قبل «لوداعا محظيتى» فى الصين .

● عالم جديد

ودلالة ذلك ان الحلول الرقابية القديمة لم تعد تفى بمتطلبات الواقع الانسانى الجديد .

وان نبذ تلك الحلول العتيقة يعتبر من أهم سمات فترة نهاية القرن التى نمر بها الآن .

ومن هنا ، يتعين الا يغرب عن بالنا اننا نعيش فى عالم توثقت فيه العلاقات ، وتوسعت حتى عما كانت عليه قبل عشرة اعوام .

ومن شأن ذلك لزوم الاستظلال بتعددية فكرية تتسع لقيم ومثل مختلفة ، قد لا نرتاح لبعضها الى حين .

رؤية مسرحية

حفل مانيكان وشجاعة الخيال

بقلم : فوزية مهران

نحن فى شوق دائم لمحاولة التجديد على المسرح ، لإطلاق قوى الخيال والابتكار لبناء تصور جديد .. وبدء نسق آخر من التفكير .

بعض الأعمال الفنية تهدف إلى إثارة السؤال والدهشة .. تمعن فى الخيال ومع ذلك تظل لها أهمية واقعية .

(قيل ذلك عن مسرح العبث فى بدايته .. كثير من العروض تجعل الانسان يشعر أنه دخل الى مدينة غريبة ، لا يعرف لغة أهلها ، وتستبد به الحيرة والقلق ، تحيط به الأحلام والكوابيس ، وبعد فترة يدرك أنه جزء من نسيج الحلم والتصرفات غير المألوفة وتتيقظ لديه حاسة السخرية والمرح ويتمتع بحرية التصور والتعبير) .

أو لعلها مثل التمارين الهندسية التى يبدأ حل معضلتها بافتراض تصور ما يصل إلى نتائج مدهشة .

مثل فيلم «الطيور» لألفريد هيتشكوك، اعتمدت الاثارة فيه على سؤال ضمنى تظل تتسع دائرته فى الذهن أكثر وأكثر ، ماذا لو خرجت الطيور عن طبيعتها والعيش بسلام مع الناس ؟

ماذا لو انقضت عليه تهاجمه وتدميه وتتربص به ؟ تقلد بنى الإنسان وهو يبتكر آلات الحرب والدمار ويهاجم أخيه الانسان يحرق الأرض والصغار ومستقبل الحياة !

مسرحية « حفل مانيكان » تأليف برونو ياشفسكى ترجمة وإخراج د. هناء



عبد الفتاح تبدأ بإثارة سؤال طريف .. ماذا لو دبت الحياة فى المانيكان واستمعنا إليهم ، أحسسنا بهم ، ووجدناهم يعلقون علينا وينتقدون تصرفاتنا وسلوكنا ؟

يعيدون إلينا صورة أدائنا والأغراض الخفية التى تحكم حركتنا وعلاقتنا بالآخرين ؟ صورة لحقيقة ما يجرى بيننا ، الكلمات البراقة التى تبطن غير ما تعلن

والمناصب اللامعة والأطماع الشريرة والترهل والفساد .

ورغم طرافة السؤال وجموح الخيال وعبثية الموقف تتأكد واقعية القصد وترى صورة لمجتمعنا الحديث وكشفا للنقاب عن عمليات الخداع والتزييف .

• حفل خرافى !

نحن إذن فى قلب المجتمع العصرى ، فى بؤرة عالم الأزياء والأضواء ، فى قلب عملية متحضرة لصياغة الملبس والأناقة ووجاهة الصورة ، وقسوة وعريا فاضحا ، والتى يبدو فيها الإنسان متحضرا يرفل فى حلل أنيقة ومع ذلك يحوى تحتها وحشية حلقة السباق العام لحسن المظهر ورقى الذوق وتغليف الكيان ، ومزاد ارتفاع الأسعار لتبدو الشخصيات فى أجمل صورة وأزهى حضور .

الآن تختفى الملابس وخطوط الموضة ، ويهرجة الأزياء ، ويبدو هيكل المانيكان أسلاكه وقوائمه حسب مقاس الإنسان

حفل مانيكان

يقيمون حفلا خرافيا يهربون من قهر صاحب مؤسسة الأزياء وينعمون بالحرية ويتمثلون كل ما يجرى بين أيديهم ويسخرون من هذه المتناقضات .

تحكى المانيكان الأنثى – المرأة ذات الفراء – كيف تبعها انسان الى مكان الحفل ، وحاول أن يمسك بها ، وهربت منه بالكاد ، وإن كان تبعها فيما بعد ، ونكتشف فيه السيد عضو البرلمان ، الذى ينتظره الجميع ، ويعقدون عليه الآمال لتسهيل الصفقات وتطبق شهرته الآفاق لجاذبيته للنساء ويعطى وعودا للعمال .

ثم نراه هكذا فى زقاق ضيق يحتك « بأنثى مانيكان » يا للهوان ، يعدون له محاكمة وينكشف المستور .

يعرفه المانيكان الذى يرتدى من عليه ملابسه ويحدثهم عن تصرفاته وحديثه، مانيكان آخر يقول إنه حاول إكمال بعض أجزائه من كل مخازن المدينة ولم يجد فى النهاية غير ساق نسائية ، وتظل طوال الحفل تمتد فى خلاعة وهى ترتدى حذاء أحمر ، وشراب أسود شفاف مزين بشريط أحمر أعلاه .

كذلك يعطفون على مانيكان بلا أرجل، يأتون به على حامل ليحضر الحفل لمسات هنا وهناك ، لمسات انسانية ، من عالم المانيكان تثرى العرض وتبرز كيف يلين الحديد ، ويرق الجماد ، ويتجبر الانسان ويقسو على الضعفاء .

– تذكرت الفيلم الألمانى « كونشرتو لليد اليمنى » ١٩٨٦ ويتجلى فيه الخيال القصصى للمخرج المؤلف « ميشيل بارتليت » وقد استوحى الفكرة بالفعل من إحدى قصص « إدجار آلن بو » وفيها يجد أحد عمال النظافة فى حديقة عامة – مانيكان – ملقاة بإهمال وينقلها الى بيته ، وكأنه التقى بامرأة حقيقية ، يتحدث اليها وتؤنس وحدته ، يحبها ويتدفأ بوجودها ، وهذا يبدى مدى حاجة الانسان الى الحب والمشاركة ، ووحدته القاسية فى العالم الحديث .

وأكثر ما كان يحزنه فقد المانيكان للذراع اليمنى ، التى يجدها أحد الوجهاء، ويضعها مكان يده التى فقدها .

وكأنما سرت فيها الحياة ، صارت لديه عاشقة تدغدغ حواسه وكأنه أصبح رجلا وامرأة فى جسد واحد .

(المانيكان ، مثل الانسان فى حاجة الى الحب ولمسة الدفء) .

هذه التجربة المسرحية الجديدة كانت نتيجة لورشة عمل أقيمت بمركز الهناجر للفنون لتدريب مجموعة من شباب الفنانين الهواة أشرف عليها الفنان البولندى « يانوشى سنوفسكى » وقد تلقى الشباب بالفعل تدريبا فكريا وفنيا بحيث اجتمعوا فى هذا الحفل للمانيكان فى كشف عالم

الانسان الداخلى واستطاع المخرج هناء عبد الفتاح أن يقود حركتهم ويدير العرض فى تشكيلات جمالية وموسيقية ونجح فى أن يوصل إلينا رسالة النص ، كان الايقاع يخلق حالة وجدانية وشحنة موسيقية وأعتقد أن المؤلف يرمى لإحداث هذه الشحنة الانفعالية والفكرية فينا وكان اختيار المخرج للنص موحيا ووسط دائرة العمل الجماعى يتيقظ فينا هذا الحس الجماعى ، إذ أن المشكلة ليست فردية ، لكنها قضية عامة وحالة جماعية ، جماعة المؤدين ، والراقصين ، عملوا بوعى والتزام يقظ ، وتحمل المانيكان الممثل الذى قام بدور نائب البرلمان وذهب ليواجه حفل بشرى ، يقام لعقد الصفقات ويراق على جوانبه الشرف والكرامة وارتباط الأبوة والزواج ، تحمل قدرا كبيرا من إنجاح المهمة والمسرحية .

وظل محافظا على « تصلب » الحركة ودهشته من التصرفات الغريبة لشخصيات الحفل (محمد محمود - خالد صالح - موسى لنحراوى - هايدى عبد الغنى - ايمان سالم) جماعة العمل المسرحى حققت الوحدة الحركية واتساقها ، وجماعية الأداء وكان واضحا جهد التدريب (أمجد عابد - حمادة شوشة - شهيرة كمال - علاء عيد - محمد فوزى - عماد الراهب - سامى بكرى - عمرو القاضى - نضال أبو سليمان - محمد مصطفى) استطاعت المجموعة بالفعل أن تقتحم « عوالم جديدة وغير مألوفة » كما قالت د. هدى وصفى التى تتبنى هذه الورش الفنية ، وتقيمها من أجل الشباب والهواة ، دعائم أساسية لثقافة الفنان وتقدم الحركة المسرحية .

المخرج « هناء عبد الفتاح » يقدم خطوة جديدة فى كل مسرحية يقدمها ، وقاد فريق المانيكان بتدفق فى الحركة والايقاع .

وجعل بعض الشخصيات تدب فيها الحياة بالفعل وتتجسد الروح الانسانى .

وتلك الفتاة الصغيرة - المانيكان الطفلة - « من ثالوث بناته الجميلات » ترتدى ثيابا بيضاء ، كأنها الملاك الحارس وسط سواد المانيكان . أشبه بتلك الراقصة داخل علبة الموسيقى ، تمسك بيدها وردة وتومض بلمحة الأمل أن يرتد الإنسان الى جوهر انسانيته ويقيم حياة نبيلة جديرة أن يحياها .

ثمة مأخذ ، كان من الأفضل اختصار بعض فقرات من العرض لأنها حركات مكررة فى مجملها وقد أرهقتنا كثيرا ، وكادت تودى بالتناسق الجميل .

مازال الأمل قائما طالما تتاح الفرصة للشباب أن يتعلم .. يتدرب .. يعمل ويجرب ويقدم رؤيته بروح جديدة .

رسالة بغداد الثقافية

قراءة فى إبداعات عراقية معاصرة

«الرواية ـ القصة القصيرة»

بقلم : حسين عبدالعليم

☐ إنه الجراد ، رواية عراقية حديثة من تأليف : طه حامد الشبيب ، صدرت ١٩٩٥ ، وكان قد نشر عدة فصول منها بجريدة الجمهورية العراقية عام ١٩٩٣ ، وهي العمل الروائي الأول لكاتبها طبعها علي نفقة القراء ،بطريقة بيع بونات الشراء مقدما، نظرا للظروف الاقتصادية التي يمر بها العراق .

الأحداث الرئيسية فى الرواية مألوفة وعادية ـ فسالم يجدع أنف أحد الأثرياء بسبب : أن ذلك الثرى حاول أن ينال ليلى ذات الخمسة عشر ربيعا بمساعدة أمها ، رفضت البنت وأحرقت نفسها . بمال ونفوذ الثرى أودع سالم مصحا للأمراض العقلية ـ حيث من كثرة العلاج بالمهدئات والصدمات الكهربائية يصاب بتلكؤ غير معقد فى قدرات الذاكرة ، يهرب سالم من المصح ويختفى فى بستان الشمش ويتعرف إلى الراعية نورة ويرغب فى الزواج منها ـ غير أن زوج أمها يرفضه ويعيده الى المصح .

هذا فى الوقت الذى يمهد فيه الروائى الى أن نجاة شقيقة سالم هى مشروع داعرة يغادر سالم المصح نهائيا ويتعرف الى يعقوب القواد المتواضع الذى يدبر له زواجا من فتاة كانت قد حملت سفاحا من أحد الأثرياء بمساعدة القوادة الكبيرة أم رعد ، «هى نفسها نجاة شقيقة سالم بعد أن تطور عملها وتحققت» تفيق أم رعد برؤية الشقيق / الزوج المخدوع وتعترف بالحقيقة وتتم محاكمتها هى ويعقوب .

ورغم هذه العادية فى الأحداث

الرئيسية فقد جاءت الرواية تنبيء عن أن مبدعها روائى قدير وفنان موهوب يفضح ويدين الباطل والدعارة والمجتمع الفاسد ، وينتصر للمظلوم وللحق دونما زعيق ، ودونما تقريرية أو خطابية تقلل من قيمتها الجمالية والفنية .

عمل خلاق

ولم يقع طه حامد الشبيب فى ابتذالات جنسية رغم أن أحداث روايته تسمح بذلك بل وتدفع إليه ـ ورغم هذا لم يشعر قارئه اطلاقا بانتقاص ما ، وهو لم يتلكأ بأحداثه كثيرا داخل مصح الأمراض العقلية ويستعرض النزلاء ببلاهة كما يفعل الكثيرون .

اهتم الروائى ببناء شخصياته «بما فى ذلك الوصف الشكلى» وتنامى بالشخصيات وقام بالكشف التدريجى عنها «فى أحيان كثيرة من خلال الذاكرة» ـ كما تميزت أغلب الشخصيات بسلوك إنسانى ايجابى «سالم ـ رحاب ـ بهجت ـ أم نورة» .

وبالجملة ـ جاءت الرواية نابضة بالحياة ، منسجمة ، البناء ، لاتتملق القارىء أو تداهنه بل تهاجم قناعاته وتثير فيه الشجن لحدّ البكاء ـ الأمر الذى جعلها تحتل مكانا مرموقا ، فى مدارج الرواية العراقية الحديثة ، يخرج بها من إطار المحلية الى العالمية .

غير أن الرواية جاءت مجردة لاترتبط بزمان أو مكان محدد «إنسانية بشكل عام



بحيث يحار المرء فى تفسير ذلك على الرغم من فواح عبق العراق من بين السطور ـ واتضاح لهجة شعبه

عاصفة الصحراء

على أن الجراد الذى يهاجم الجنوب العراقى فيأتى على الاخضرار فيه ـ برغم كونه حقيقة تحدث فى الواقع موسميا ـ يمكن تفسيره والنظر اليه على أنه جحافل عاصفة الصحراء التى أجهضت العراق .

ولكن هذا التصور فيه شيء من تسطيح الرواية ـ ونظن أن الجراد معادل موضوعى لأى ظلم وأى قهر وأى فساد يستشرى فيجهض التقدم البشرى .

ظلال نائية ـ مجموعة قصصية

من تأليف : جمال نورى صدرت عن منشورات اتحاد الادباء فى العراق ١٩٩٤ جاءت قصص المجموعة عادية فى اللغة والتكنيك والفكرة المنتقاة للكتابة عنها وطريقة المعالجة ، بمعنى أن قصص المجموعة لاتعلق بذهن القارىء طويلا .

رسالة بغداد

تتكون المجموعة من ٩ قصص يتميز منها :

١ ــ قصة حريق ، وهى تتناول واقعة حرق حجرة فى منزل من وجهات نظر ثلاثة أشخاص .

الأم : الحجرة لديها هى عالم رغبات ، ابنها وأفراحه وحياته الخاصة وأصدقائه وكمونه بجوارها ، حرقتها زوجته ، فهدمت بناء نفسيا وعائليا مستقرا .

الزوجة : الحجرة لديها هى حجرة المكتبة التى تسرق زوجها منها لدرجة أنه لا يكاد يبادلها حديثا، تحرقها فى محاولة لاسترداده .

الزوج : احترقت بحرق الحجرة كل الكتب والعناكب والحشرات التى صاحبته لأكثر من عشرين عاما ، وهو يشفق على أمه وزوجته فكلتا هن وحيدتان ، ثم هو يخرج لاستنشاق الهواء ، فى تلميح لضرورة التغيير ولو كان قصرى .

٢ ــ قصة المرآة : وهى تحكى عن حلاق يجمع صور المجانين والدراويش ، ويلصقها على مرآته الكبيرة ، وهو يحفظ صورهم ويقصها على زبائنه .. تمتلىء المرآة ويبقى الحلاق يحلق فى بقعة صغيرة متبقية تكافح زحف الوجوه القذرة المجدورة ، يبحث عن مكان لوجه أخر العقلاء فى المدينة ــ فى اشارة هامسة لاختلال العقل الجمعى

٣ ــ قصة طرقات ناعمة : زوج عائد الى بيته بعد غيبة سنتين فى جبهة القتال يحمل شنطة صغيرة وعكازين ، مابين مطالعته للتغيرات فى أشكال الشوارع والبيوت ومابين تذكره لعشرات الخطابات التى أرسلها لزوجته وابنته وأمه وأبيه ولم يقم الصليب الأحمر بتوصيلها ــ أوجس أن كل مشاهد لقاء الأهل التى ابتكرها فى مخيلته ستتهشم أمام مفاجأة خبأها له الزمن . وكيف لا وقد التهمت نيران الحرب «الحرب العراقية الايرانية أو حرب الخليج» معظم الأحباب .

حسن النواب واستذكاراته القصصية :

بعنوان «ضماد ميدان لذاكرة جريحة صدرت ببغداد ١٩٩٥» .

قدم حسن النواب استذكاراته القصصية وحسن النواب شاعر يكتب القصيدة الجميلة التى تدخل القلب دونما استئذان .

وضمن النواب استذكاراته أبياتا من شعره تعتبر هى مانافيستو كتابته :

«أخرجت قبيل ثوان من دولاب فؤادى زى الكاكى فانبثقت ذاكرة الحرب .. أراها تتدفق مثل نوافير نبيذ أحمر .. وشممت دقائق رائحة العشب خليطا بالبارود راحت أيام المدنى ياجان» .

«أيتها الحرب .. تلك مدن دمرت واندثرت .. وجنود رحلوا .. من أجل خلود

شهوة الموت والنار في عينيك المظلمتين».

«أتعرفون لماذا تحبنا الحرب .. إننا طعامها الوحيد» .

«فهجوم الأمس المسلول أيقظ في ذاكرتي ليلة عاشوراء ودم الأكفان المسفوح ضياء .. لك أن تأتي تتطوح مكتئبا .. أو تبقى في دوامة حزنك تتلظى أبدا فأنا أعرف حد اللوعة حزن الشعراء الموهوبين .. وابكى من ويلات الحرب» .

بعد أن قضى الكاتب ثمان سنوات في الحرب العراقية ـ الإيرانية ـ عاد كمقاتل عراقي سائق دبابة في حرب الخليج ـ وقدم مادة قصصية عن ويلات الحرب اشتملت على شروط القصة الجيدة المتميزة بأنها مستمدة من الواقع المعاش والتي تموج بعنصر التشويق للقارئ ـ حكى عن دبابته العجوز التي ترفض السير ، وحكى عن رفاق الخنادق ولملم لقطات إنسانية عن الموت القابع في كل ركن .

ولأن المؤلف الشاعر رجل مثقف فقد فاضت استذكاراته برموز ثقافية أدبية عالمية .

«من الصعب أن تجد شخصا مثل جان فالجان مثلا ينقذك من خناق الموت الذي بدأ يلتف حول عنقك» وجان فالجان هو الرجل القوى الأسطوري في رواية البؤساء لفيكتور هوجو »

ولغة النثر عن حسن النواب لغة شعرية موحية : دخنت سيجارة ابتعتها من كراج الديوان ، دخنت بلذة إنسان انتصر على الموت ببراعة ، عرجت على نادي الأدباء وبكامل ملابسي العسكرية والوحل مازال عالقا على جلد الاسطوري بحب العراق ذلك الحب الذي لايعرف ثمنه الحقيقي سوى الجنود ، كانت بيوت البصرة تدخن معي أيضا ، ولكن دخانها كان أسود .

بعد رحلة انسحاب مجنونة محفوفة بالموت والحظ الحسن ـ يعود الكاتب الى وحدته ينال اجازة فيهبط الى بلدته .

ينهي الكاتب استذكاراته:

ياإلهي .. ماذا أفعل لو وجدت أن فاجعة أخرى تنتظرني .. من أين أجيء بصبر آخر الى صبري الذي أوشك على النفاذ .. بدأت اقترب من الزقاق الذي يقع بيتنا في مؤخرته .. خطوت وشهقات روحي تتصاعد مع كل بيت أراه مغلقا أمامي أخيرا وقفت أمام الباب المغلق لبيتنا قبل أن أطرقه وضعت في رأسي أشد الاحتمالات سوءا .. نعم أشدها وأكثرها قسوة وفجيعة وقررت مع نفسي الاستمرار بالحياة برغم كل شيء ..

أي اصرار وأي زحف للحياة على الموت المنثور في الطرقات إذن ؟

وابتعد حسن النواب عن مناقشة الحرب كقضية سياسية ـ وحتى لم يبد وجهة نظره فيها واكتفى بالمشاهد الفنية الإنسانية العامة .



العالم المجهول لأليفة رفعت

بقلم : د . عبد العزيز الدسوقى

وأخيرا أسدل الستار ورحلت أليفة رفعت إلى رحاب الله ، بعد أن عاشت حياة عاصفة ، امرأة وأديبة !!!

وأليفة رفعت – وهذا اسم الشهرة واسمها الحقيقى فاطمة عبد الله رفعت – من أحسن كاتبات القصة والرواية على امتداد الأرض العربية ، ولولا ظروف حياتها المركبة لغدت أشهر كاتبات القصة فى بلادنا ولكنها للأسف لم تأخذ حظها من الشهرة فى بلادنا . وقد عوضها الله عن ذلك فسطع نجمها فى الخارج بعد أن ترجمت قصصها إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية ، وطبعت فى طبعات متعددة ، واعتبرتها صحيفة «الجارديان» الانجليزية من أحسن الكاتبات العربيات .

عرفتُ أليفة رفعت فى عام ١٩٧٣ عندما أصدرنا مجلتى الثقافة الأسبوعية والشهرية وعملت رئيس تحرير لهما .. جاءتنى بقصة لأنشرها فى الثقافة الشهرية ، فنشرتها فى الثقافة الأسبوعية وكنا ننشر فيها للشباب فلم تتمرد – كما كان يفعل البعض – بل جاءت لى بقصة ثانية أدهشتنى وحيرتنى ، أدهشتنى بروعتها وصدقها ونفاذها إلى أدق المعانى الانسانية ، وحيرتنى لما فيها من اقتحام جرىء لأدق عوالم المرأة وتصوير علاقاتها الخاصة بالرجل .. وخشيت أن تسبب لنا المتاعب ، ولكنى توكلت على الله ونشرتها ، فحظيت باهتمام كبير وتردد صداها بين جميع الأوساط ، وجلبت لها شهرة واسعة ، والتزمت بها ، وكنت انشر لها باستمرار فى الثقافة الأسبوعية ، والثقافة الشهرية التى ظلت تنشر بها طوال عشرة أعوام .

وكنا نخصص – فى كل شهر – عددا خاصا من مجلة الثقافة الأسبوعية ، تنشر فيه ديوان شعر ، أو مجموعة قصصية أو كتابا فى النقد والدراسة الأدبية ..

ونشرت فى عدد من المجلة مجموعة قصصية صغيرة بعنوان «حواء تعود بآدم وقصص





أخرى» وتضم المجموعة ست قصص هي «حواء تعود بآدم» و«أبقى من الحب» و«البعث» و«وردتي القرمزية» و«الحلم» و«الفراش يحترق» ، وفي القصص تصوير رائع للحياة الاجتماعية والانسانية ، وتشريح جرىء لمشاعر المرأة وعواطفها المكبوتة في مجتمع محافظ . وعلى الرغم من تصويرها علاقة الحب بين الرجل والمرأة بكل صورها وألوانها ، فلم تكن تجنح إلى تصوير الشهوات وتجسيد النزوات . وعندما اشرفت على المركز القومي للأدب واصدرنا «كتاب المواهب» نشرت مجموعة قصصية أخرى بعنوان «من يكون الرجل» وكانت قد نضجت ، واستحصدت ملكاتها الفنية ، وتنوعت رؤاها الاجتماعية وضمت المجموعة اربع عشرة قصة بينها قصة «عالمي المجهول» وهي قصة عاتية مثيرة تصور علاقة جسدية بين امرأة وحيّة وتجسد اللحظات التي تصل فيها المرأة إلى مرحلة الارتواء الجسدي ، ولما كانت الأقصوصة مكتوبة بضمير المتكلم فقد ظن بعض الناس ان أليفة عشقت رجلا من الجان يجيء لنا في صورة حية جميلة .

وفي المجموعة قصص أخرى جميلة مثل «هذه ليلتي» و«صديقتي» و«تقولين من اين» و«حبيبي الذي كان» و«ضحكة سكرة» و« الحدوتة» و«من يكون الرجل» و «عناقيد العنب» و«الشرف » و«محصول القطن» و «قمر الحارة» و«في موسم الياسمين» و«رقم ١٢/٢١».

ونلاحظ التنوع في هذه المجموعة وتناول صور أخرى مما يدور في المجتمع ولكن يبقى

لها عالمها الأثير المتفرد عالم العلاقة بين الرجل والمرأة..

ولقد عرفت هذه المجموعة بكلمة مركزة على غلافها الاخير ألقيت فيها الضوء على أليفة رفعت كاتبة قصة : قلت فيها «اليفة رفعت كاتبة قصة متميزة ، فهى تجيد التعبير الفنى النافذ عن أشواق المرأة الفكرية والروحية ، ولها طاقة كبيرة على تصوير احاسيس المرأة المستكنة ، وعواطفها المتقلبة الفوارة ، وخصوصيتها الدقيقة .

ولها شغف برسم العوالم المجهولة ، وتصوير المشكلات الدقيقة للعلاقة بين الرجل والمرأة ثم هى تجيد تصوير الطبيعة المصرية ، وتحولها إلى لوحات نابضة بالحياة .

واذا كانت طبيعة حياتها وظروفها قد حجبتها فترة طويلة عن الحياة الأدبية فإنها تحاول الآن تعويض هذا الزمن الضائع بما تكتبه من روايات وأقاصيص ترجم بعضها إلى الانجليزية ونشر فى بعض المجلات والكتب الأجنبية . وهذه المجموعة الجديدة تمثل رؤيتها الفنية والفكرية .

كان هذا فى عام ١٩٧٦ من عشرين عاما ، ولكنها ظلت تكتب وتنشر بعد ذلك حتى غادرت دنيانا فى ٥ فبراير ١٩٩٦

● قصة عالمى المجهول

ولابد – قبل ان اضع القلم – من وقفة عند قصة «عالمى المجهول» لنرى القدرة الفائقة على تصوير هذا العالم الخيالى المجهول الذى يمثل القوى الخفية وعلاقتها بالبشر ، وهى تجربة اسطورية لاعلاقة لها بالواقع المادى اذ لايمكن – بالمقاييس العلمية ، والتجارب المادية– ان تقوم علاقة بين امرأة وحية ، حتى ولو تشكلت بإنسان وكانت من عالم الجان

ومن الغريب ان «اليفة رفعت» حولت هذه التجربة الأسطورية إلى واقع مادى ، حيث بطلة القصة تهيم بحب الحية وتنتظر نداءها وتستسلم لها ، وتتركها تفعل بجسدها ماتشاء. ولكن كيف تمكنت الكاتبة من إعطاء هذه الاقصوصة سياقا واقعيا وجسدته على أرض الواقع؟!! هنا تبدو المهارة الفنية ودقة الملاحظة والالمام بتراثنا الشعبى ومايموج فيه من خوارق غير مألوفة .

وتأمل معى تلك التجربة الأسطورية العاتية وكيف أخرجتها أليفة رفعت فى هذا السياق القصصى الجميل .. فى البداية مهدت الجو القصصى بتأمل فلسفى يعطى السياق مبررا قبل بداية القصة كتبت تقول «هناك الكثير من الأسرار فى الحياة ، والكثير من القوى غير المنظورة فى الكون ، وعوالم أخرى غير عوالمنا ، وروابط خفية واشعاعات تجذب المخلوقات فتؤثر على بعضها البعض ، وقد تتحد أو تتنافر ، وربما يأتى اليوم الذى يجد فيه العلم وسيلة لارتياد هذه العوالم ، مثلما يسافر إلى الكواكب الأخرى .. فمن يدرى»

وهذا كلام معقول ومنطقى ولاغبار عليه .. ولكنها بعد ذلك تفاجئنا بأنها عاشت فى بعض هذه العوالم او بمعنى ادق جعلت بطلة أقصوصتها تعيش فيها وتتحدث بضمير المتكلم «لكنى ارتدت عالما آخر من بين هذه العوالم ، وعشت فيه ، وارتبطت بمخلوقاته برباط الحب ، فكنت انتقل بين عالمنا الملموس وعالم خفي آخر بسرعة مذهلة ، واندمج فى العالمين فى نفس اليوم وكأنى أعيشه مرتين» وهذا تمهيد آخر محتمل فمادمنا قد صدقنا ان الكون يموج بالعوالم الأخرى الخفية التى لم نتعرف عليها حتى الآن ، فيمكن ان نقبل ان ترتاد بطلتها بعض هذه العوالم وتحب احدا من بين مخلوقاتها .. ثم تصف هذه العلاقة بقولها «حين كنت أعالج عالم حبى ، ويستحضرنى فاستسلم لنداثه لايلاحظ أحد ممن حولى مايحدث بى .. كل ما هنالك أنه كان يصيبنى مايشبه الاسترخاء وأروح فى شبه سبات»

وهنا يبدأ العجب يساور نفوسنا اذ كيف تستطيع امرأة من عالمنا معاشرة كائن من هذه العوالم على هذا النحو وتسلمه جسدها فى شبه عملية جنسية تصل بها الى درجة الاشباع العاطفى والارواء الجنسى ، ثم يصيبها بعد ذلك الاسترخاء ؟

ولكن فلنترك التعليل والتحليل الآن حتى نتعرف على بقية هذه العلاقة كيف تمارس هذه الحية عملها فى جسد المرأة وعلى أية صورة ؟! .

وقبل كل هذه الاشياء لابد ان نتعرف على الاطار العام للأقصوصة والبناء الفنى لها ..قسمت الكاتبة اقصوصتها إلى خمس فقرات متتابعة ، اعطت لكل فقرة رقما من الارقام..

الأدب والتقاليد

«أعمالى الأدبية تناولت العلاقات الا سانية داخل الاسرة بشيء من الجرأة لم يألفها القارىء» وربما تكلمت عن حقوق المرأة النفسانية والعاطفية والجسدية فى العلاقة الزوجية بشكل لم يتعوده الرجل الشرقى الذى يملك نظرة متخلفة جدا الى المرأة تصل الى حد الشعور بدونية المرأة كجنس وانسان عن الرجل، ولأنى امرأة فقد تناولت ادق مشاعر الانثى فى صراحة . وبشكل ادق اقول اننى أرى ان الابواب مغلقة على ازواج وزوجات فى علاقات غير متوافقة. ومن هنا تبدأ المشاكل فى الاسرة ».

أليفة رفعت

فى الفقرة الاولى بدأت القصة على هذا النحو «بدأ الحب حين صدر أمر النقل لزوجى بالعمل فى بلدة ريفية هادئة ولانشغاله بالعمل أنابنى عنه للسفر لهذه البلدة لاختيار المسكن المناسب حتى يحين موعد تسلمه لمنصبه الجديد».

وابرق لأحد مرؤسيه فى العمل لاستقبالى فى المحطة ومساعدتى فى مهمتى ..

ونعرف فى هذه الفقرة ايضا ان البطلة مر بها ليلة السفر صور حلم تراءى لها .. وراح يلح عليها وهى تركب القطار فى طريقها إلى البلدة التى ستعيش فيها مع زوجها واولادها .. صورة بيت صغير ابيض تحيط به حديقة ذات شجيرات تحمل زهورا صفراء يقع على حافة ترعة عريضة يسبح بها الاوز وتجتازها المراكب الشراعية العالية .. ووصل القطار إلى البلدة المنشودة ووجدت مرؤس زوجها فى انتظارها وسمته كامل .. وحملتهما سيارة راحت تجتاز السوق حتى وصلت إلى «ترعة المنصورية» أمر كامل السائق ان يتجه للعمارات السكنية التى اقامتها المحافظة لسكنى الموظفين وسرحت ببصرها إلى الشاطىء المقابل، وتهادت مركب كبيرة ذات شراع عريض خفاق وظهر من ورائها بيت ابيض له حديقة ذات اشجار زهورها صفراء يقبع وحيدا وسط الحقول المترامية . وأمرت السائق ان يتجه إلى هذا البيت فقفز «كامل» من مكانه فى رعب وصاح .. لا .. لا هذا البيت لايسكنه أحد «وصحت بإصرار وانا كالمنومة تسير فى حلم لابد لى من مشاهدة هذا المنزل .. قال حسنا لن يعجبك فهو قديم ويحتاج إلى اصلاح وامر السائق بالتوجه إليه راضخا لرغبتى»

الأدب النسائى

«أؤمن بأن المرأة هى الوحيدة القادرة على الكتابة عن العالم الداخلى للمرأة، وفى اوضاعها ومشاكلها فى المجتمع .

اننى مهتمة فى اعمالى بتناول العلاقات الانسانية داخل الاسرة بجرأة ، وعرضت الى ادق مشاعر المرأة فى صراحة وبشكل يفتح الابواب المغلقة ويبدد غيوم التقاليد البالية ، واتصور ان هذا هو دور الادب الصادق، خاصة الادب النسائى الذى يجب ان يسعى الى تصحيح اسس العلاقات الزوجية وترسيخ قيمة التوافق العقلى والعاطفى».

أليفة رفعت

وتنتهي الفقرة الاولى .. ثم تبدأ الفقرة الثانية ونلتقي بتمهيد آخر يتمثل في ظهور شخصية جديدة «انيسة» وهي امرأة قليلة بيضاء تحمل طفلا سمينا رث الثياب تسمرت أمام الباب ومنعتهما من الدخول في البيت ودفعها كامل بقسوة ونهرها صائحا في وجهها الا تدركين .. هذه زوجة المدير فهيا ابتعدي .. وابتعدت في انكسار وراحت تفترش التراب في استسلام صامت وسألت «كامل» عن هذه المرأة ، قال .. وهو يهز كتفيه - امرأة مجنونة غريبة عن البلد عطف عليها صاحب البيت وجعلها حارسة عليه حتى يتقدم للسكني به احد وايجاره زهيد لايتجاوز اربعة جنيهات ولكنه يحتاج إلى تجديدات وطلاء ثم ان الشائعات تثور حوله بانه مسكون «والاهالى هنا يؤمنون بظهور الجن والعفاريت» . وهنا تنتهي الفقرة الثانية بعد ان مهدت لنا الكاتبة بصورة عجيبة أخرى تتمثل في انيسة .. هل هي حقا امرأة مجنونة ؟ هل هي شيء آخر من هذه الكائنات العجيبة التي تظهر في هذا البيت المسكون بالاشباح والعفاريت ؟ .

وفي الفقرة الثالثة تتم اجراءات البيت بعد اصلاحه وطلائه وتأخذ المفاتيح ولكن تظهر لها انيسة مرة أخرى أمامها لتقول لها سأقيم انا هنا ولابد ان ترحلي انت منه ، وتدفعها بقسوة وتأخذ منها جميع المفاتيح التي معها حتى لاتعود إلى البيت مرة أخرى .. وجاء الزوج والاولاد ووصل الاثاث .. وانهمكت في ترتيب البيت ، ولكن انيسة كانت تحوم حول البيت في كل ليلة وتعرضت لزوجها وقالت له اعمل على ترحيل زوجتك وسأعيش انا معك في

الجنس والموت

«أحلم بحياة مثالية هادئة خالية من الهموم والمشكلات ، لذلك فانني اكتب عن الجنس والموت، وقد ظن البعض انهم يقللون من شأني يصفونني بانني كاتبة جنس لكنني اقول بصراحة ، نعم انا كاتبة جنس.. ليس بالمعنى السوقي الهادف للاثارة لكن من اجل التوعية وطرح المشكلات والحلول فضلا عن ان الحديث عن الجنس ليس عيبا فمن يستطيع ان ينكر ان له دورا كبيرا في حياتنا ، وأنا استوعبت هذا الدرس مبكرا، حيث عانيت حياة أسرية غير مستقرة دفعتني الى الاهتمام بالجنس في كتاباتي»

أليفة رفعت



البيت .. واتصل بالشرطة وطلب منهم القبض على هذه المجنونة وترحيلها إلى مستشفى المجانين وجاءت الشرطة وقبضت عليها فاستسلمت فى حزن رقيق يثير الشفقة .

ونظرت إلىّ وانا اقف باكية وقالت وقد اشارت إلى جدار البيت سأتركها لك .. صحت بغير وعي من ؟ من ياأنيسة ؟ قالت وهي تشير مرة أخرى لأسفل البيت هى !

وفى هذه الفقرة ايضا نلمح حيرتها وتفكيرها الطويل فيمن تكون هى .

***

وفى الفقرة الرابعة بعد كل هذا التمهيد المختلف الصور تظهر المفاجاة المذهلة تظهر الافعى بجمالها المثير الذى يخدر حواسها .. ويتم اللقاء بينهما ، وفى الفقرة الخامسة تصف الكاتبة تفاصيل العملية الجنسية بين بطلة قصتها وبين الحية تقول «وسمعت فحيحا يقترب ثم تحول إلى همس رقيق فى اذنى يهتف بى : أنا الحب يافاتنة قد أشرت لك ودللت على بيتى فى منامك .. وناديتك لملكتى حين كانت روحك تهوم فى آفاق الاحلام .. فتعالى ياحبيبتى الحلوة تعالى نجوب بحر اللذات اللازوردى .. تعالى اضاجعك كما ضاجعت على مر الأحقاب نساء جميلات .. تعالى اعبث بصدفتك واعتصر لؤلؤتك حتى اجلوها ليشع بهاؤها ، تعالى بغير وجل فلن يصل إلينا فى عالمنا الخفى مخلوق .. وهكذا بدأت هذه العلاقة المثيرة بالحية..

وتركتنا الكاتبة فى حيرة تمارس علاقتها بطريقة عجيبة مع هذا الكائن الذى لانعرف من هو ولا من اى العوالم جاء .

وتلخيص الاقصوصة على هذا النحو يخل ببنائها الفنى ولايعطى لها صورة كاملة ولابد من قراءتها كاملة لنرى كيف تصل الكاتبة إلى ذروة الابداع الفنى وهى ترسم مشاهد هذا الحب فى لوحات نابضة بالروعة والاثارة وأنقل هنا بعض سطور قليلة من هذه اللوحات :

«رحت منتشية مع الهمسات الموسيقية الناعمة . وشعرت بها رطبة ملساء ناعمة . برودتها تبعث فى الجسد هزة مؤلمة ، موجعة إلى حد الرعب المثير ، شعرت بها وهى تنزلق بين الاغطية ، ثم راح نابان صغيران كلؤلؤتين يدغدغان جسدى ، حتى اذا وصلا لساقى غرس لسانٌ اصفر ذهبى كعود اراك طرفه الشوكى بينهما .. وراح يمتص وينفث.. يمتص

سموم رغبتي ، وينفث رحيق نشوتي حتى تخدر كل جسدى ، فراح يهتز فى نبضات أليمة حادة الألم إلى درجة الامتاع ، امتاع حاد يصل للذة الاشباع» وتنهى الكاتبة هذه الاقصوصة نهاية مثيرة بعد ان عاشت بطلتها فى هذا العالم الخفى شهورا طويلة ، وبعد ان قتل زوجها ثعبانا قبيح المنظر يكاد يصل طوله إلى مترين «صرخت فى حزن وصحت فى زوجى فى غضب لم نقضت العهد وقتلته اى ذنب اقترفه ؟! .. وجاءتنى حبيبتى وعانقتنى مثلما لم يحدث من قبل .. وقالت هو الوداع نقضتم العهد وغدرتم بواحد من رعاياى فارحلا من هذا البيت فلا يعيش فيه غير الحب وفى الصباح حزمت متاعنا لننتقل إلى عمارات الموظفين .. ورحلنا عن البيت الذى تعلمت فيه الحب واستمتعت بمسرات نادرة ؟؟

★★★

قالت لى اليفة رفعت مرة : ما رايك فى اقصوصة «عالمى المجهول» :

وهربت من الاجابة قائلا هى فى حاجة إلى محلل نفسى ، لاناقد ادبى .. واحمر وجهها .. واهتز جسدها فى انفعال طاغ وانصرفت وقاطعتنى عدة شهور ..

ولا أزال عند رأيى وأنا أكتب هذه السطور بعد ان غادرت دنيانا إلى رحاب الله .

وقد أعود إلى إلقاء الضوء على عالم أليفة رفعت النفسى والاجتماعى ودراسة اعمالها الكثيرة .

ونكتفى بهذه السطور لتكون تحية الوداع ، يرحمها الله.

زوجة وراء القضبان

«فى عام ١٩٥٥ نشرت اول قصة لى فى مجلة «الرسالة الجديدة» وكانت بعنوان «زوجة وراء القضبان» والحقيقة ان العنوان كان يعبر من حيث لا أدرى عن حياتى فى ذلك الوقت. وقد فرحت بهذه القصة كمولود، لكن زوجى اجهض كل شىء» اذ رفض بشدة ان انشر اعمالى الأدبية أو أتعامل مع الوسط الأدبى . لانه كما كان يقول لى دائما المرأة ليس لها الا بيتها وأولادها . ولن اكون زوجا للست . وهددنى يومها بالطلاق ان عدت الى نشر اعمالى الأدبية».

أليفة رفعت

رافرق

شعر

أحمد سويلم

فى لحظتنا هذى يا أصحاب
بعض منا يشدو شعرا
بعض منا يرسم أحلاما خضرا
بعض منا ..
يشرب كأسا تشعله سكرا
نتحاور حول قصائدنا
إن كانت شعرا..
أو كانت نثرا ..!
فى لحظتنا ..
يحمل كل منا لصديقته نذرا
يلقف أنجمه فى قبضته ..
يعصرها قطرا ..
فى لحظتنا ..
نشجب .. أو نحتج صراخا
أو نشقى بالحكمة
أو نغفو قسرا ..
وعلى بعد خطوط خريطتنا
تسفح أكباد
تهوى أعناق ..
تتلوى أطفال
يتلهى السفاحون
يصلون على جثث القتلى كفرا..
فى لحظتنا ..
يذبح خطو الإنسان على سيف الحكمة
نتوهم عالمنا طهرا ..
ما أشبهنا بين شرايين خزائننا
ومسافات الموت نمهدها
سكينا كانت ..
أو طلقات رصاص
أو شعرا ...
ما أشبهنا..!



ص ١٥٩



ص ١٥٦

جلال السيد

كان جلال السيد يبعث التفاؤل في كل من حوله ، ويؤمن العمل الصادق لابد ان يؤتي ثماره، وان الجهد الصادق العمل بلا ضجيج لا يضيع ابدا ، ويفتش دائما على الايجابي في كل شخص ومع كل موقف..

وماهي ذي الحياة الثقافية المراوغة ، التي كثيرا ما تبطن غير ما تظهر ، إذ يطفى على السطح ـ أحيانا ـ المخادعون الذين يجيدون اللعب بالبيضة والحجر، تكشف جوهرها ويأخذ كل صاحب حق حقه.

وتتحقق نبوءة جلال ، وتتحرك المياه الآسنة، ويسودها الوجوم حزنا وأسى على غيابه ، وتقديرا ومحبة على أحد فرسانها، الذى لم يسع يوما الى الشهرة، ولم يحط نفسه بالصخب والضجيج، ولم تغره المناصب، ولم يحركه المال، والذى ينأى بنفسه عن التحيز، وإن كان تحيزه الوحيد للوطن وقضاياه وهمومه، فأعطاه عمله الدائم من اجل الكلمة الحرة سكينة خاصة، وبصيرة نافذة، وقامت بينه وبين كل من حوله معادلة صحيحة متوازنة، بعد ان عاش جيله الكثير من



جلال السيد

الأحـلام الضائعة، وتميزت معادلته بالتمييز الدقيق بين الثابت والمتغير، بين ماهو تاريخي وماهو آني.

وكثيرا ما قابلت جلال، وقد زادت حيرتي ، وتشتت فكرى من بعض الاحـداث والخطوب ، وتصـورت انه سـددت امـامنا المسالك، فاذا هو بهدوئه وحكمته ، يحل امامي بمهارة وحنكة الخيوط المتشابكة ، ويعيد المسائل الى أصولها.

هذا هو ما يمثله جلال في حياتنا ، الصديق الذي يجد فيه كل من يعرفه المرفأ الآمن ، والذى حظى بحب وتقدير كل من يعرفه، القلب الكبير، فكما احب وطنه واخلص له احب اسرته، فطلبات بناته واهتماماتهن تمثل جزءا مهما من حياته .

وكـثـيرا مـا تزاملنا مـعـا، عند تكوين لجنة دعم الثـورة بفلسطين وفي العديد من الرحلات الصحفية، وكان يمثل في كل كتاباته الصوت الصادق والضمير الحي ، بلا مزايدة او صخب، يدرك ضعف البشر، ويسعى الى التعامل مع الجانب الايجابي.

ألقينا معا محاضرة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بدعوة من اتحاد الطلبة، في سنة الضباب، فاستدعينا معا الى المدعى العام الاشتراكى.

ولم يـعـرف المرارة ، ولم تـغـيـره المتـاعب ، وتمسك بإيمانه

بثورة يوليو رغم ما عاناه كصاحب رأى حر ، قبض عليه ودخل السجن اكثر من مرة، وأدرك عواقب الاشتغال بالعمل العام فى بلادنا.

وجلال السيد عندما يقرأ التاريخ يتمثل احداثه، ويستخلص منها القوانين التى تحدد مسار الوطن، يرفض تراجع على باشا مبارك وانقلابه على الثورة العرابية، ويقدر عطاءه الكبير وانجازاته في العمران ، ومنارة تاريخ مصر الحديث هو عبدالله النديم الذى برز من قاع المجتمع ودافع عن الثورة العرابية، حتى آخر يوم فى حياته ، رغم التشريد والنفى.

فالتاريخ هو الذاكرة الحاضرة، يرى انه جزء من هذا التاريخ، يحارب معاركه، ولا يقبل فيها الهزيمة، فمن يتذكر لا يصرخ، لأنه يستعيد ويسترجع ، ويتأمل ويصغى ، ومعرفته لا تثقل القلب، وانما توقظ الضمير وتقوى العناد.

له ذاكرة لا تعرف النسيان ، ولا تقبل العزاء ، فمحو الذاكرة هو انقطاع الحضارة ونفى الانسان . وحاضر فى ذاكرته على الدوام ما جرى فى يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها موقعة الاسكندرية عام ١٨٨٢ .. و قبلها .. وقبلها.

ولا توجد مكتبة شخصية فى ثراء وتنوع مكتبة جلال السيد، وهى مكتبة الجميع يرجع اليها كل من اعياه البحث عن كتاب، ولا يغضب سوى من الذى لا يعيد الكتاب الذى استعاره.

له تجربة غنية فى الاشراف على المجلات الثقافية، كان سكرتيرا لتحرير مجلة الكاتب حتى اغلقها يوسف السباعى، ولم يتوان جلال السيد عنْ تقديم خلاصة تجربته لمجلة الهلال، حتى أطلقنا عليه لقب «الأب الروحى» ، كتب فيها العديد من المقالات القيمة.

وما يقوم به اليوم عدد من اصدقائه ومحبيه فى جمع كتاباته وتصنيفها مشروع يستحق الدعم والمساندة.

● مصطفى نبيل

استراتيجية للثقافة



فاروق حسنى

عقد وزير الثقافة لقاء موسعا مع حشد من المثقفين والأساتذة الجامعيين لبحث استراتيجية العمل «الثقافى» فى المرحلة الجديدة بعد التعديل الوزارى.

وأثيرت عدة قضايا ومشاكل مهمة لاشك. ولكن لم يتطرق أحد أو يخطر بباله أن يطرح قضية ربما كانت صاحبة الأولوية وتسبق كل القضايا

ولعلها الانعكاس الطبيعى والامتداد لما أعلنته الحكومة الجديدة من منح الأولوية فى سياساتها وبرامجها لمحدودى الدخل. وأن يكونوا محور العمل السياسى والاقتصادى منذ الآن. ولا يبقى مناص لوزارة الثقافة من أن تمنح محدودى المعرفة والثقافة نفس المكانة وأن يبدأ جهدها، وينصب عليهم وحتى تذوب الفوارق «الثقافية» بين الطبقات.

وهناك شبه اجماع بين كل المذاهب والمدارس على أن الدولة العصرية والنموذجية هى التى تتوزع فيها السلطة والثروة والمعرفة بين المواطنين جميعاً.. بالعدل، ويستوفى الكل نصيبهم، ولا يحرم أحد.

ويبدأ العمل لا شك من أشدهم حاجة وأقلهم معرفة.. وهم عندنا أغلبية ساحقة: هم الأميون!

وقضية الأمية عندنا قضية أساسية وجوهرية، ومزمنة واثيرت منذ برنامج الاصلاح فى الثورة العرابية، وهى بلاشك وصمة كبرى فى حياة مصر ومكانتها الثقافية والحضارية.

ولايمكن أن يتم برنامج إصلاح أو يستقر قبل أن تمحى وتستأصل ..

ووفق العلم والفقه الدستورى، فإن الضمانة الأولى والأخيرة للديمقراطية هى المواطن الواعى الذى يحرص على حقوقه «السياسية» ويحميها.

ويجمع علماء وخبراء التنمية، على أنها لا يمكن أن تنجح وتؤتى ثمارها إلا بالمشاركة الشعبية لأقصى حدودها، وأن تعتمد على عمال وفلاحين «عصريين» مهرة، يستوعبون أكبر قدر من «التكنولوجيا» المتقدمة والتى تتقدم كل يوم.

ولا يمكن أن تزدهر وتترعرع ثقافة وطنية انسانية تعكس أصالة الأمة وتتفتح على ثقافات وحضارات العالم، إذا ما كانت أغلبيتها الساحقة محرومة من القدرة على المشاركة أو على التذوق، ومستبعدة ترسف فى ظلام قاع عميق.

ويقول البعض إن الصراع القادم سوف يكون صراع حضارات وثقافات ولا يمكن أن يصمد فيه شعب تسوده «الأمية» رجالا ونساء وأطفالا !!

وقد لا تكون «الأمية» مسئولية وزارة الثقافة وحدها، ولابد لها من تعبئة عامة، تعلنها الدولة بكل مؤسساتها وأجهزتها، ولكن يقع على عاتق وزارة الثقافة أن تأخذ المبادرة وتطلق الشرارة وتتولى القيادة وتعد الخطط والمشاريع.

وتبدأ بتحويل قصور الثقافة فى كل أنحاء البلاد إلى قواعد للاستراتيجية الجديدة تتولى التطبيق والتنفيذ وتشرف عليه وتتابعه، وأن تعبىء وتجند أدباء الأقاليم، المغمورين فى الريف، والذين يطالبون ويلحون فى البحث عن دور وعن مكانة. ويكون عليهم أن ينتشروا فى القرى والكفور والنجوع. يضيئون أرواح وعقول مواطنيهم، ولاشك سوف يحققون أنفسهم، وسوف يكتشفون شعبهم بأعمق مما فعلوا، وسوف تتدفق مصادر الإلهام وينابيعه .. وسوف تدعمهم بلاشك الوزارة وتبارك خطاهم.

ولا تقتصر الدعوة على مثقفى الأقاليم، بل لابد وأن تشمل كل مثقف مهما كانت مكانته، وأن ينزل إلى الميدان، وأن يلتزم بفصل من فصول المكافحة أو بعدد من الأميين يمحو أميتهم، ويضيف بذلك إلى عدد قراء أدبه أو متذوقى فنه .. وقد يفجر مواهب كانت مدفونة ومنابع خلق وابداع كانت مبددة.

ووزارة الثقافة إحدى الوزارات القليلة عندنا التي لا تحذف الماضى القريب من سجلاتها وتندد به، ولا تجد حرجا فى الاعتراف بتراثه وانجازاته، ولهذا يمكن أن تبعث نظام القوافل

الثقافية الشاملة التي كانت تطوف المحافظات، بمدنها وقراها، في احتفالات ومهرجانات ثقافية، شعبية ، تترك آثارها وبصماتها على كل مكان تزوره ، وتحفز الجميع إلى التحرر من التخلف وظلام الأمية..

ونحن نحتاجها الآن بأشد من أي وقت آخر لأن الفجوة الثقافية الواسعة والفراغ والفقر «الثقافي» المدقع خارج مدينة القاهرة وربما الاسكندرية من أهم مصادر وفكر وفقه الإرهاب.

وإذا ما أعلنت وزارة الثقافة عام ١٩٩٦ عام القضاء على الأمية فإنها سوف تدخل التاريخ وتخلد فيه ويستحق الهدف كل جهد ينفق ويبذل !!

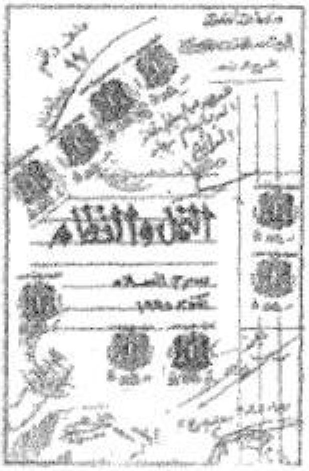
● محمد عودة

مسرح ضد النمل وضد النظام

المسرحية : النظام والنمل
تأليف : ميخائيل رومان
إخراج : زوسر مرزوق

في مسرحيته «غدا في الصيف الماضي» يحكي لنا «حمدي» بكلمات مثل طلقات الرصاص عن سيدة كانت معتقلة سياسيا ضمن مئات آخرين، وأصدرت السلطات قرارا بنقلهم إلى سجن آخر أكثر قسوة كنوع من العقاب.. يحكي حمدي كيف وقفت هذه السيدة ، فارعة الطول ، بارعة الجمال، وقفت وشقت ثوبها فبدت عارية تماما وصرخت : لن نغادر هذا المكان! وبالفعل ألغي القرار. هذا النموذج الثوري المتمرد الرافض يملأ وجدان ميخائيل رومان.

وفي مسرحية «النظام والنمل» التي تعرضها الآن فرقة المسرح الحديث على مسرح السلام، من اخراج زوسر مرزوق. في هذه المسرحية نرى «حمدي» مرة أخرى وهو يحكي عن عبدالرسول : ذلك العامل العملاق جسما



وروجـا، عندمـا تعطلت «الماكينة الكبيرة» تطوع وتدخل لإصلاحـهـا - ولم يكن هذا ضـمـن عـمله - وصرخ في زملائه العمال ان يرفـعـوه بالونـش ليصعد الى اعلى الماكينة الكبيرة ويصلح مابها من عطب.. ويصـعـد عـبدالرسول الى اعلى الماكينة وينزل في باطنها ويكتشف سر العطب، لكن فـجـأة يصل التـيـار الكهربائي وتدور الماكينة وتسحق عبدالرسول . تفرمه ولا يبقى منه اى اثر . «لم يعثروا على شيء منه!» هكذا يردد حمدى في حواره مع عبدالغفار . بطل «النمل والنظام» ونفـهم من الحوار ان كل من يقترب من الماكينة الكبيرة «لابد ان يكـون هذا جزاءه. اعتـقـد ان هذا النمـوذج البطولي بالذات هو اشارة الى ارنستو شي جيفارا، الثائر العظيم الذى اغتالته وكالة المخابرات الامريكية في اواخر الستينيات وهو يقود حرب العصابات في غابات بوليفيا. اغتالته لانه مد يده الى «الماكينة الكبيرة»!

المشـكلة في نـص «النظام والنمل» ان عبـدالغـفـار بطل المسـرحـيـة هو في جـانب منه «حـمـدى » .. الذى يصـادق رعـاة الاغنـام ويعـشـق الصـحـراء ويشـيـد بالسـمـو والبراءة ويصرخ بأنه يريد ان يرتقي بالانسان ليبقى جديرا بإنسـانيتـه، لكنه فى الجـانب الآخر هو المتسلط، الجبار، المهيمن، مكـمم الافواه، هو ممثل لكل قوى القمع الأبوى.

وفق المخرج في اختيار ابطال العرض، ويجب الإشادة بالدور الذى لعبـه هـادى الجـيـار، ان هـادى يتـمـيـز بأداء

جمال اسماعيل



راسخ يعى ابعاد الشخصية التى يمثلها «عبدالغفار» مقنع فى طـريقة كلامه وحـركاته وتجهمه. جمال اسماعيل - فى دور الوالد - له حضـور قوى وقبـول لدى الجمهور اما احمد صادق الذى لعب دور «حمدى» فان لـديه امكانيـات هائلة وسيكون له شـأن كـبيـر فى عـالم المسرح.

لعـبت الموسـيـقى والاضـاءة دورا مـهـمـا وكـانا عنصـرين مكملين اضفيا على العمـل جمـالا وتألقـا.

يبقى ان نـوجه التحيـة الى زوسـر مـرزوق - مخـرج العـرض وصاحـب الرؤيـة التشـكيلية - لاهتمامه بالبحث عن هذا النص غير المنشـور وتقـديمه على المسـرح فى عـرض جدير بالمشاهدة.

● شوقى فهيم

حنان سليمان



هادى الجبار



ميخائيل رومان ونمـله ونظـامه

ان اعمال ميخـائيل رومـان عامة - ومسرحـية النمل والنظام خاصة - تحمل عمقا فلسفيا قويا لا يمكن تجاهله حتى ان كان متشابكا مع البعدين السياسى والاجتماعى. والشخـوص المسرحية فى عالم ميخائيل رومان تتساءل بدأب حول معنى الوجود ذاته والهدف منه، كما تتساءل تساؤلات ميتافيزيقية، وتحاول ان تلقى الضوء على ذلك الجانب المعتم من علاقاتنا الانسانية وهواجسنا ووساوسنا وطموحاتنا المحبطة تمهيدا للحظة التمرد او الانفجار التى



ميخائيل رومان

تتكشف فيها الحقائق وينهار معها كل شيء. هكذا تتدفق حكاية «النمل والنظام» على انها تنقد السلطة واستغلال الانسان لأخيه الانسان، وتمتعض من تقلص المساحة الانسانية داخل البشر ، متحولين الى تروس صغيرة فى آلة عملاقة شرسة تتغذى على الجميع وربما تحولهم الى نمل بلا مشاعر ، بلا هدف. بلا عقل. مجرد حشرات تأكل الفتات تلقائيا ولاتكترث بالغد. لكن مع تطور الأحداث واقترابها من النهاية تتأكد صورة البطل «عبدالغفار» ليس باعتباره الخادم الأول لهذه الآلة ورموزها فحسب ، بل ايضا باعتباره فرعونا صغيرا يسخر الجميع لخدمته ويبحث عن الخلود لنفسه فيحفر قبور كل من حوله دون ان يتمكن من محو صورة موته الخاص من ذهنه. ولعل ميخائيل رومان بذلك قد ربط بين الفلسفى والحضارى والسياسى كأفضل ما يكون بل وأضاء ممرا سريا فى التاريخ يصل بين الحضارة الفرعونية بإنجازاتها الوفيرة ، وايديولوجيات الحكم الشمولى ، وذلك من خلال عين كاتب مسرحى منشغل بالهم الوجودى ، ينسج بناء الدرامية على منوال فيلسوف وجودى يبحث عن ذاته فى مرآة العالم ، لكنه لا يقوى على الفرار من قدر ما صنعه لنفسه وهو الانتهاء الى العدم.

ان هذا الكاتب العبقرى يقدم لنا مادة درامية غنية لم تنل حقها من العرض المسرحى حتى الآن، لكنها على الاقل لم تلق حتفها مثل مبدعها الذى اصبح خالدا بها فى الفن دون ان يدرى شيئا عن ذلك، ودون ان يعلم ان القسوة والعدمية هما مصدر بث الحياة فى اعماله حتى الآن ان «النمل والنظام» دليل حى على الحاجة الى الرجوع الى ربرتوار المسرح العربى واعادة اكتشافه بما يوفره من فرص ادائية واخراجية . ففى هذا العرض ـ وعلى الرغم من انعدام المتفرجين تقريبا وتحول القاعة المسرحية الى عرض خاص للنقاد ـ



عفاف حمدى

حقق هادى الجيار قمة الاداء التمثيلى التى يسعى اليها اى ممثل وتمكن من شخصية «عبدالغفار» فى ابداع وثقة وقسوة لا تضاهيها الا قسوة النص على بشر يبدو انهم يسعون ابل موتهم طيلة التاريخ فيستحقونه بجدارة. وقسوة الكاتب على حضارة كرست نفسها للبحث عن الخلود فخذلتها الحياة وانتهى بها الامر الى الموت وسط مقابر رائعة تستمتع وحدها بالوجود.

دربما يكون ميخائيل رومان قد انزلق رغما عنه فى تمجيد الموت وتخليده كحقيقة وحيدة مطلقة وراء «النمل والنظام» ، لكن مما لاشك فيه انه نحت بفنه شريانا جديدا للحياة ولحبها ، وارضا خصبة لفنانين يطمحون الى الجمال وإلى الابداع والاكتشاف، امثال هادى الجيار بتمثيله ورمسيس مرزوق باضاءته ومحمد الشيخ بألحانه وزوسر مرزوق برؤيته الجمالية المتكاملة.

● نورا أمين

تليفزيون

نصف ربيع الآخر .. دراما تتمرد على نفسها

مسلسل : نصف ربيع الآخر
سيناريو : محمد جلال عبدالقوى
إخراج : يحيى العلمى

جاء مسلسل «نصف ربيع الآخر» ليؤكد لنا أن فنانينا (كتابا ، ممثلين . مخرجين) مازالوا قادرين على صنع تلك الدراما التى يرغبها الناس وتثيرهم ويتفاعلون معها . دراما لا تقودها السياسة ، ولا يقودها ذلك الصراع الاجتماعى الفج .. دراما لا تنساق للأشكال التليفزيونية النمطية التى اعتاد «ماسبيرو» على تقديمها .

مؤلف المسلسل محمد جلال عبدالقوى ، لم يخش تقديم شخصية مثالية (ربيع الحسينى) .. شخصية مكتملة الجوانب الإنسانية : رجل ناجح فى عمله (أستاذ جامعى ومحام) ، وقائد أسرة سعيدة (زوج مخلص وأب مثالى) .. شجاعة عبدالقوى



يحيى الفخرانى

جعلته ينطلق فى تقديم هذه الشخصية دون خوف أو رهبة من السؤال التقليدى السخيف : .. وهل يوجد فى الواقع شخصية مثالية ؟! .

أعتقد أن من أسباب نجاح المسلسل أن مؤلفه أقنعنا بوجود مثل هذه الشخصية : ربيع الحسينى تنتفض ذاكرته لاستدعاء لحظات رومانسية فذة عاشها قبل أكثر من عشرين عاما .. لكنه لا يتيح الفرصة - دائما - لصاحبة هذه اللحظات الرومانسية (ناهد الوكيل) أن تفسد حياته المثالية .. وإن أتاح لها - أحيانا - أن تخترق حياته العائلية لتفجر توترات لم تعرفها العائلة الطيبة من قبل .

وما بين الذكريات وعشق مساعدة من كان يعشقها يوما ما .. وبين الحفاظ على شريكة حياته ، (أبلة سعاد) وأبنائهما ، أقام محمد جلال عبدالقوى صرحه الدرامى (نصف ربيع الآخر) .. ليس فقط من خلال هذا الصراع ، لكن مضيفا إليه العديد من المفردات الدرامية الساخنة والتى تمحورت حول الثنائية التقليدية (الحق / الظلم) ولكن بموديل جديد .. وجسدها من خلال مشاهد المحكمة ليجعل من ربيع الحسينى مدافعا عنا جميعا .. رافعا سيف الحق .. حتى ينجح فى إيداع «الفساد» فى سجن العدل .

وكما أدهشنا محمد جلال عبدالقوى بحواره السهل / الجديد .. أبهرنا المخرج يحيى العلمى (المتمكن) بإيقاع تليفزيونى يتناسب مع سخونة الأحداث .. خاصة وهو يلملم أطراف الحدوتة ويسعدنا فى مشاهد مبهجة باختيار ربيع الحسينى للموقف «الصح» .. ورهانه على أسرته .

أما يحيى الفخرانى .. فهذا ممثل «حكايته حكاية» .. نقل إلينا أفكار المؤلف بأحاسيس بكر ، وبوجه تعرف ملامحه ترجمة المقولات الدرامية إلى مشاعر تتسلل إلى عقولنا وقلوبنا بخفة ورشاقة .. والأهم أن الفخرانى خلق حالة تمثيل داخل الأستوديو .. فشاهدنا إلهام شاهين كما لم نشاهدها من قبل ، وتفوقت فادية عبدالغنى على دورها فى «المال والبنون» .

«نصف ربيع الآخر» .. دراما طازجة ، حلوة المعانى ، شديدة الإثارة .. أسعدتنا ونحن نتابعها .. وشاعريتها تخجلنا

من ذكر بعض الملاحظات .. فالتصفيق واجب لهذه النوعية من الأعمال التليفزيونية .

● **عمرو خفاجى**

لكن أين نصف ربيع الأول ؟؟



إلهام شاهين



فادية عبد الغنى

استراحت عيوننا المجهدة من الإعلانات المتعاقبة ، ومن رؤية وجوه نفس الممثلين فى سيل برامج المسابقات الرمضانية الإعلانية على جميع القنوات ، وكأن تجرع السمن بصريا وحصار وجوه الممثلين لنا أينما التفتنا ، هو الثمن الذى يجب أن يدفعه المشاهد المصرى المسالم لقاء الحصول على مسلسلاته الموسمية الناجحة . والحق نقول إن الجرعة الدرامية التليفزيونية رغم زيادتها عن المشار به طبيا لدرجة ربما تسبب أثرا عكسيا أو إدمانيا سيئا عند تناولها ، إلا أنها ترتفع عن المستوى الفكرى والفنى لجرعة بقية العام . وربما كان من الأفضل أن توزع هذه الجرعة على شهور السنة بدلا من تكديسها فى شهر واحد تكدسا مزدوجا بسبب الإعلانات المجيدة ، وأعتقد أنها فكرة أكثر منطقية من أن يلجأ التليفزيون لإعادة بعض المسلسلات الرمضانية مرة أخرى أثناء العام فى شكل سهرات حتى يلتفت إليها المشاهد الذى ربما كان متخما بالدراما فى رمضان فلم يشاهدها ، إلا أن التليفزيون بذلك يحرمه ويحرم غيره من السهرات الفيلمية الجميلة أو الجديدة . على أية حال فارتفاع مستوى الدراما يعطى المسألة مظهرا تنافسيا يجعل الفنانين يعطون أفضل ماعندهم لاسيما إذا لم يكونوا من أولئك المشغلين بتصوير برامج المسابقات فى ذات الوقت ، لذلك نستطيع أن نحصر أفضل الأعمال فى اثنين هما «لن أعيش فى جلباب أبى» و«نصف ربيع الآخر». نستطيع أن نقول بأن قدرا كبيرا من تفوق هذين المسلسلين يرجع إلى الممثلين ، أبطالهما ، بل إن تفوق «نصف ربيع الآخر» ، تحديدا يرجع القدر الأكبر منه إلى الفخرانى وفادية وإلهام الثلاثى ، الذى جاهد ورفع الحدوتة وكساها لحما ودما بل وأبعادا نفسية وعاطفية وكأنهم يكتبون بصريا وتمثيليا عملا مازالت أبجديته



يحيى العلمى

ناقصة . فالقصة العاطفية التى تحمل فى طياتها أبعادا سياسية تحتوى الحلم القومى فى الستينيات والنكسة وزمن الانفتاح وسرقة أحلام البسطاء والشرفاء انتهى بها الحال فى السيناريو إلى أن تكون مجرد قصة عاطفية تلاشت من عليها أولا بأول أية ملامح أشمل من العلاقة الثلاثية (رجل بين امرأتين) ، اللهم فى اللحظات التى تهب فيها ذكريات ربيع القديمة ، فلا يكون هناك بد من ذكر حالة الوطن فى ذاك الوقت، ويصبح علينا نحن أن نكمل المهمة ونتصور التشابه بين انفصال ناهد عن ربيع وفقدانها فى غياهب المال والتنازل عن القيم ، وبين انفصال الحلم القومى القديم والشعب عن حاضرنا فى الثمانينيات ، وبالتالى فقدان هذا الحلم أو تحوله إلى كابوس انفتاحى فاسد وطفيلى قاتل للشعب والبلد نفسها . نضج محمد جلال عبدالقوى فى صنع الملامح الخاصة لكتابته وهو أمر متوقع طبعا بعد «المال والبنون» . فنجد أبطاله - وربيع الحسينى تحديدا - لا يكف عن ذكر اسمه كاملا على الأقل فى نصف مشاهد كل حلقة ، كما تذكر اسمه زوجته وحبيبته وأبناؤه ، وربما أيضا يذكرون أسماءهم كوسيلة لتأكيد الشخصية وإكسابها طابعا معينا . ولا يفوتنا هنا أن المسلسل نفسه على اسم البطل ، مما يجعلنا نقول - بسبب بناء الدراما أيضا عند عبدالقوى - إن الدراما هنا هى دراما الشخصية وليست الأحداث . لذلك فمن الطبيعى أن تجئ النهاية بحدث إلهى - مثل طريقة الإنقاذ الإلهى القديمة - مطروح من الواقع، ألا وهو الزلزال ، فهكذا لا تصنع الشخوص حدثا ولا تبنى نسقها من الأفعال التى تحول طريق المسلسل أو نهايته ، بل هى تجد فرصة لتكشف عن المستوى - المشرق فى تكوينها مثلا - الذى من شأنه أن يريح المشاهد وينهى كل «المشاكل والزعل والزيول» . إننا لن نتزلق فى الحكم على عبدالقوى هذه المرة حكما موسميا تقليديا ، كأن يبلغ الكاتب عددا من الأعمال وقدرا من الشهرة ومن العمر ، فيجئ دوره لنشكره ولا نثقله بالنقد ، خاصة إذا كان معه يحيى العلمى والفخرانى فنأخذهم «شروة واحدة» أو نأخذه فى ركاب تفوقهما ، فعبدالقوى لديه إمكانيات متجددة أكثر من ذلك لو لم يستغرق فى إفتتانه بدراما الشخوص التى تكرر أسماءها فتغفل القيام بقدر من الأفعال تضعها فى سياق العمل الدرامى الذى يصنعها والذى

لا يمكنها أن تسرد مونولوجاتها وتأملاتها دونه ، فالأحداث التي يبدعها خيال المؤلف أبقى من تلك التي يلجأ إليها لختام حلقاته وإن كان الختام بالزلزال دالا قوميا ونفسيا كزلزال النفوس ، إلا أنه يختزل من مساحات الخيال ، مثلما اختزل عبدالقوى النصف الأول من ربيع (أي ماضيه المهني وكيانه الاجتماعي وقضاياه من أجل المطحونين) المحامي والرجل وقدم لنا بحثه عن نصفه الثاني المرأة فجاء الصراع الأنثوى عليه غير ذي حيثية لأننا لم نر هذا النصف منه الذي يصنع أرضية القصة ، وبالتالي جاء الهتاف بتاريخه في المشاهد وعلى لسانه ولسان غيره ضعيف المبرر ولم ينجح في القيام بمهمة «رسم» النصف الأول كاملا ، ولم ينجح في ذلك أيضا أن يكون زلزال التيقظ الذي يكشف عن فساد ناهد (النصف الثاني المتوقع لربيع) موافقا لنصف ربيع الآخر الهجري وهو اليوم الذي كان يمكن أن يزيد معناه عن المصادفة الرمزية المزدوجة : (التاريخ واسم البطل - زلزال الأرض والتيقظ) ..

● ن . أ

كاسيت

النقشبندي وتعطير الأثير

كل الشواهد الموسيقية عندنا تدل على أن النقشبندي هو تيثور التصوف الضارع، وعلى أنه صاحب شحنات الدعاء الموجه صوب سماوات الله بطلب «المدد» المستديم لكل عشاق النور الأسنى ولذوي الجناح المكسور كيما يبدل الله خوفهم أمنا، وعسرهم يسرا، وسيئاتهم حسنات.

وتكشف لنا امتداداته السماوية في الأداء عن حيازته لحنجرة ربانية فذةً وواسعة المدى فيما بين قراراتها والجوابات، هي باسم الله ما شاء الله أصلح ما تكون حناجر التغنى لحمل ضراعات التهجد أو رسائل الذاكرين المجذوبين وشكاوى المعذبين في الأرض.

والذي لاشك فيه أن السامعين إذ يسمعونه يربطون فورا بين «نقشبنديته» وبين هيامه النغمي بما انبثّ فيه من تجاور محمود لعرقين أصيلين، عرقٍ من خشية الله، والآخر من رجاء الخلاص وأمل «المدد» من رب العباد. ولهذا كله رشحته وترشحه



الشيخ النقشبندى

أذواق الأرواح وأشواق التعبّد أن يكون قاسما مشتركا أعظم فى إذاعاتنا الرمضانية كلها على نحو خاص، وصباحا أو مساء، ولتعطير الأثير فى أجوائنا بالتسابيح المنغومة.

إن لنا أن نبادر هنا فننظر فى لحنين من تسابيحه الباهرة فى انتاجيات سنة ١٩٨٧، لأنهما يستلهمان مأثوراتنا الشعبية فى مجالات الذكْر الصوفى بإيقاعياته المجذوبة والجاذبة، وبما يرفرف على السطح العلوى للأداء من لعلعات وجلجلات بترنم المنشدين السادرين فى غيبويات المواجد، وفى طلب الرِّجاوات من غياث المستغيثين. وبادىء البدء، سيدهش القراء أن لحنا منهما مشهورا ورائجا قد صاغ أنغامه – وكلماته أيضا!! – الموسيقار المرحوم أحمد فؤاد حسن صاحب الفرقة الماسية المعروفة، وأن اللحن الثانى الملحف فى طلب الرضا والمدد الالهى لمصر وشقيقاتها قد صاغ لحنه الموسيقار المتمكن، والمجذوب قطعا!!، حلمى أمين نقيب الموسيقيين الحالى من بعد ما صاغ له نظمه الشاعر المتبتل عبدالسلام أمين. إن ناى الصبابة هو الذى يفتتح اللحن الأول ويفسح الطريق لسماع نقرات من ايقاع حلقات الذكر، فتتلوها انطلاقة «نقشبندية» تتدفق بعزم ما فيها من صوفية الوجد الساخن لتنادى على رب العزة والجبروت «يا.... .... رب»، ومن ثم، تهرول جماعة الانشاد الكورالى – وقد مسها طائف من كهرباء الانجذاب – فتستمسك دائما بوحدة الايقاع المتواصل ومن عمق القرارات الخاشعة الضارعة فى توقيع لفظ الربوبية: «يارب، يارب، يارب..»، ولحظتها فورا يصعدُ أداء النقشبندىّ إلى سطح تركيبة الصياغة لينشد من الأعالي: «ياربُ كرمك علينا ... يارب نصرك معانا» ويظلّ سادراً . دائراً فى فلك هذا الإنشاد بكل ما وسعه الوجد، وجاءه المدد من فيوض العاطى الوهاب بكل ما لذ وطاب!!

وأما عند اللحن الثانى فهو فى تصوّرى التماس على «عرضحال» من النغم الصوفى يلتمس من رب السموات والأرضين أن يبدّل عُسْر كلّ الساحة العربية يسراً وتآزراً

وتوفيقاً ونصراً بحق كل هذه التضرعات النقشبندية:

رباه أرفع مـقـتك عنا واقـبلنا وتقـبل منا
فلوجـه وجُـودك أسلمنا وبفـضلك أحـسنّا الظن
وهرعنا نرجـو غـفـرانك
وفـقنا للعـمل الصـالح واعـصمنا من قـولٍ جـارح
وامنحنا القـدرة لنسـامح ونرد هوى النفس الجـامح
ونؤوب لظلك ، سـبـحـانك
حـقق غـيـاتنا المرجـوه واجـمـعنا فى أوثق عـروه
يَرْبطُنا دينٌ وأخـــوه وامنحنا العـزة والقـوة
لنصـدَّ ونسـحق من خـانك
نهـرع لك فى الليل الحـالك ندعـوك بعـزك وجـلالك
نصـراً لجنودك ورجـالك فـامنحـهم عـزك وأمـانك

سبـحـانك مـا أعظم شـأنك

.... إلخ

إن روعة الإيقاع هنا ستتمثل فى استلهام المأثور، وفى أنها تقوم بمكررات مجذوبة وجذّابة تستمر فتقول: «سبحانك، سبحانك، سبحانك» ، ومن مبتدأ المقطوعة إلى ختامها، والأكثر روعة، هو ثبوت التغيير فى ألوان المقامات وفى «تمبو» الإيقاع مع أىٍّ من مقتضيات المعنى والدلالات، سواء بالانفراد فى الأداء أو باستجابات الكورال والأقوم تفننا من هذا وذاك، هو لعلعات الإنشاد النقشبندى فى رونق من الترنم الصّادح ومن الأعالى فى سرده لضراعات «العرضحال» أمام بوابات السماء!! ... وماذا أقول بعد ؟؟

إلا أن حسبى أننى طالبت فى هذه السطور بحصة القاسم المشترك الأعظم للنقشبندى – تينور التصوف الضارع – وفى كل برامج التعبد النغمى لشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، ولأجل تعطير أجوائنا بالتسابيح الموسيقية.

● فرج العنترى

تعليم اليوم

هو قضية القرن ٢١

هل المشكلة نقص موارد تطويره ؟!

بقلم : محمد فتحى

عدة أعداد ومجلة «الهلال» تناقش قضية التعليم فى مصر، حتى أنها عدتها قضية عام ١٩٩٦ . والحقيقة أن الظروف العالمية والإقليمية والمحلية تجعل من التعليم فى مصر ليس قضية عام ١٩٩٦ وحده، بل قضية قضايا القرن الواحد والعشرين، ذلك أن تلميذ «نظام التعليم الذى نختاره اليوم» سيبدأ ممارسة عمله بعد حوالى عشرين سنة (٢٠١٥)، وسيواصل العمل حتى سن المعاش (حتى عام ٢٠٥٥ ، وربما أكثر) أى أننا لن ندخل القرن القادم دخولا حقيقيا واعيا إلا إذا توافر لنا نظام تعليمى يتناسب مع هذا القرن. فهل يمكن أن تتوافر لنا فرصة ديمقراطية لتحديث التعليم؟

إن اتاحة فرصة التعليم العصرى للجميع متيسرة، فى حدود الإمكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الإبداعى.

فى واحد من أرقى معاهد الفيزياء فى عالمنا جلست لجنة قبول الدارسين الجدد تفحص أوراق المتقدمين قبل المقابلة الشخصية لكل منهم، وتختار وفق الأوراق من ترشحهم للقبول ومن ترشحهم للرفض، وضمت الى قائمة المرفوضين كل الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء ، رغم أن المهمة الأولى للمعهد هى تخريج الكوادر التى ستطور علم الفيزياء!

ولم يكن ذلك بالأمر الغريب فالمعروف

أن عددا من معاهد الفيزياء الحديثة توصى طلابها أول يوم في الدراسة بأن ينسوا الفيزياء التى درسوها فى المدرسة، بل وهناك معاهد تفضل أن تريح نفسها من البداية وترفض قبول الطلاب الحاصلين على الدرجات النهائية فى الفيزياء التقليدية . وحجة القائمين عليها فى ذلك أنه من العسير على هؤلاء استيعاب عالم الفيزياء الحديثة استيعابا إبداعيا.

وهذا ليس ادعاء، فقد وقف بوانكاريه على باب النظرية النسبية دون أن يجرؤ على الولوج منه. لأنه لا يتفق مع المسلمات الفيزيائية التى كانت شائعة فى عصره، والتى كان قد استوعبها جيدا. بينما كان عدم تمكن هذه المسلمات من أنشتين بين أسباب اكتشافه ولم تكن هذه مشكلة بوانكاريه وحده، فقد رفضت جهات علمية محترمة جدا النسبية فى حينه، ولم يكن ذلك قدر النسبية وحدها، إذ أنه تكرر مع كل اكتشاف عظيم من الوراثة وحتى الخروج الى الفضاء . ولعل القارىء يسأل ما علاقة ذلك بالتعليم فى مصر؟ .

إن نموذج الحاصل على الدرجة النهائية ، المرفوض لعدم قدرته على الإبداع. هو النموذج الذى يحتفي به نظام التعليم المصرى ويتبناه من مراحله الأولى وحتى مراحله النهائية. ولعل العودة إلى عمل لجنة القبول فى معهد الفيزياء وما تدققه من أمور حتى تؤكد رفض أصحاب الدرجات النهائية او تغير وجهة نظرها المبدئية وتقبلهم، لعل هذه العودة تكشف لنا بعض عيوب التعليم المصرى.

أول ما تدققه لجنة القبول هو نظرة الطالب الى الفيزياء - والعلم بصفة عامة - هل هى معارف مقدسة منتهية، أو كيان حى فى تطور مستمر، وفي كل أنظمة التعليم الراقية لابد أن يصل للتلميذ بشكل من الاشكال حس التطور المستمر فى المعرفة، والثورات الكبرى التى حدثت فى إطار كل علم، بل والمخاض الصعب الذى صاحب هذه الثورات والمعارضة الشرسة لها التى بدت طويلا وكأنها على حق و ..

● التعليم والحب

والعامل الثانى الذى تدققه اللجنة هو علاقة الطالب بواقع الفيزياء وليس بكتبها، ذلك أنه ليس هناك قيمة إبداعية لتعليم لا يدخل فى جدل مع الواقع، ومع العواطف النابعة من العلاقة به . وليس هناك مثال لايضاح ذلك أقرب إلى وجدان المصريين من السبيل الذى اتبع فى هدم الساتر الترابى على ضفة قناة السويس فى حرب ١٩٧٣، إذ استفاد أحد الجنود المصريين من تجربة تعلمها قبل ذلك خلال عملية تجريف الصخور بالمياه (ذات الضغط العالى) أثناء بناء السد العالى، ومن الهم والخبرة تولدت فكرة الحل الابداعى الذى أصاب الكثيرين بالذهول.

فتدقيق العلاقة بواقع الفيزياء ينطوى على اختبار مدى حب الفيزياء، بل والهوس

بها، فلا يمكن أن يكون هناك ابداع دون حب. فالمصرى الذى أبدع طريقة إزالة السد الترابى كان مهموما بهذا المأزق. أى أنه كان يحب حبا حقيقيا ملك عليه نفسه.

ولا بأس من مثال آخر يكشف سحر الحب والهم الذى يخرج من العادى بالذهل ففى فجر اختراع الطيران كان هناك مأخذ يصيب هذا الاختراع الحضارى الفذ فى مقتل. هو أن الطائرة سرعان ما تهوى وتتحطم بمن فيها عندما يصيب أهون خلل، أيا من أجهزتها. ويومها كان واحد من الرواد المبتكرين لأجهزة الطيران يمضى مهموما بهذه المشكلة. فى طريقه لمشاهدة أحد استعراضات الإقلاع والتحليق والهبوط فيما يشبه ملعب كرة القدم (كان الطيران مازال مغامرة واستعراضا وفرجة) ومع كل القلق الذى يحسه على الطيارين والهم الذى ينوء به، طالعه وجه متفرج بعين واحدة (أعور). وللتو برقت فى ذهنه المحب المهموم الفكرة «العبقرية» لماذا لا تكون كل الأجهزة الحساسة فى الطائرة مزدوجة، كما هى الحال بالنسبة لعينى الإنسان بحيث يدخل الجهاز البديل فى العمل حال أن يصاب الجهاز الأساسى بالعطب. وكانت هذه هى الفكرة التى فتحت الباب لتحول الطيران من مغامرة غير محمودة العواقب، الى ثورة حضارية حقيقية، إذ جعلت منه عملية تتمتع بضمانات أمان لا تقل عما يتوافر لغيره من وسائل النقل.

وليعذر لى القارىء الإسهاب فى هذه النقطة لأنها تتصل بعيب أصاب نظام التعليم المصرى فى مقتل، هو ما يفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه فى نفس واحد، العالى بعد الثانوى، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأى سبب كان، الامر الذى يؤدى الى تعلق الجميع بأهداب «قطار التعليم الطوالى» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق، اين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية، ولم يصل العشرين بعد. فى ان يكتشف ميله الحقيقى، وعلى مهل وبالتجربة، وبصورة تجعله محبا مهموما و..

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحلة تعليمهم بل ان فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى، لانه ينظر لذلك فى إطار النضج العام للفرد، وتزيد فرص هؤلاء ان كانوا قد احتكوا خلال تجربة عملهم بالمجالات التى يسعون لإكمال دراستهم فيها. بل وتقدم لهم التسهيلات والإغراءات من

منطلق ضرورة الارتباط بالواقع الذى سبق الاشارة اليه. وحتى فيما يخص قطاع من يكملون تعليمهم دون توقف تنظم المعاهد العليا المعنية لهم دورات خاصة تعرفهم على طبيعة المجال الذى يريدون اختياره الى جوار الفترات التى تفتح فيها ابواب هذه المعاهد امام غير الدارسين للاحتكاك بالدراسة والاساتذة والدارسين حتى تجرى اختيارات الراغبين على اسس اكثر معرفة وواقعية.

ولعل الأخطر فى نظام التعليم المصرى أن الرغبة فى عدم فوات قطار التعليم الطوالى تؤدى الى سلسلة من التداعيات الشاذة، فمن التزاحم (المشروع بالطبع) الى قضاء غالبية الطلاب لسنوات التطلع والتكوين فى حالة من العطالة المقنعة، تحت وهم التعلم، والى أزمة فرص العمل بل وطبيعة العمل ذاته، لانه فى هذا الاطار يكون مرحلة مبتوتة الصلة تماما بما قبلها على احسن تقدير (ذلك ان للعطالة تأثيراً مدمراً يكتسبه الإنسان ويظل يتحكم بتوجهاته فيما بعد . مكرسا سلسلة هدر الامكانات) والى..

وقبل ان انتقل للحديث عن فرصة التعليم المصرى فى النهوض لا بأس من ان نعرج على مجموعة من المشاهد. الأول يخص بعض العوامل التى تدققها لجنة القبول للتأكد من قدرة الطالب على الابداع، وان كنا سنمر عليها سريعا لاعتبارات المساحة ولاننا سنفصل بعضها فيما بعد.

وأول هذه العوامل التحقق من موقف الطالب فيما يخص لغته الأصلية، وغيرها من اللغات الاجنبية، وموقف الطالب من الأدب والشعر - رغم ان المطلوب هو الالتحاق بمعهد الفيزياء - لما لهما من قدرة على تنمية القدرات الابداعية. فكل النظم التعليمية الراقية تحرص على ان يدرس كل الطلاب العلوم الإنسانية والأدب والشعر، ولكن ليس كل أدب وشعر، فكثير مما هو شائع لدينا فى هذا الباب مسجون فى قطعيات وقبليات وسلفيات، تقتل كل قدرة له على الحث الابداعي.

● اطفال يتفوقون على مربيهم

أما المشهد الثانى الذى نود ان نعرض له هنا فهو من الولايات المتحدة الأمريكية. فقبل ١٠ سنوات كان فى المدارس الأمريكية كمبيوتر واحد لكل ٢٥ تلميذا . لكن عدد الأجهزة صار فى عام ١٩٩٤ واحدا لكل ١٢ تلميذا (غير الأجهزة الخاصة الموجودة فى البيوت). ومع ذلك لم تنته مشكلة الأمريكيين مع عصر المعلومات ذلك ان التطور التقنى مستمر على نحو عاصف . ولم يعد المهم ان يجلس الطفل الى جهاز كمبيوتر بكل المناهل المعرفية التى تتيحها برامجه وهى جد هائلة، وإنما

الآفاق التى تتجاوز الامكانات الذاتية للجهاز وبرامجه. الآفاق التى يمكن ان يصله الكمبيوتر بها. وتفتح امامه بانوراما المعرفة الانسانية عن طريق الارتباط بشبكات الاتصال العالمية، التى تنتشر هذه الايام بسرعة البرق. وتعرف بـ «طرق المعلومات السريعة».

و ١٥٪ من التلاميذ الأمريكيين باتوا عن اتصال بشبكة «إنترنت» التى تطوى بين جوانحها كل الشبكات العالمية . ومن خلالها صار بامكانهم القيام بزيارة كاملة لمتحف اللوفر فى باريس والآرمتياج فى بطرسبرج ومحمود خليل فى القاهرة - وغيرهم طبعا - وهم جلوس فى منازلهم، والاتصال بالمكتبات الأوربية الكبيرة وبنوك المعلومات اليابانية والثرثرة مع الخبراء والنجوم و.. فى كافة المجالات وفى مختلف انحاء العالم المتمدين.

وهكذا لم يعد الشعار الشعبى فى المدارس الأمريكية هذه الأيام «دجاجة فى كل وعاء» ولا حتى «جهاز كمبيوتر على كل مكتب» بل «توصيل كل جهاز كمبيوتر بالشبكة العالمية» وليس هناك من يستطيع التنبؤ بما سيؤدى اليه تربية أطفال على هذا النحو . يتفوقون بما لايقاس على مربيهم : أهلهم ومدرسيهم و..

وليعذرنى القارىء على هذا المشهد الأمريكى الذى لا قبل لنا به، لأن عالم الغد هو عالم القرية الواحدة الذى سيتعامل فيه مواطننا المصرى تعاملا مباشرا مع هذا الطفل الامريكى وأمثاله من أطفال العالم المتقدم.

● ديمقراطية مناهل المعرفة

والمشهد الاخير يخص ديمقراطية التعليم. وهى ليست مسألة أخلاقية فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على إتاحة ذلك. ويكفى فى هذا الصدد الاشارة الى ان عملية اكتساب وتطوير المعرفة، التى صنعت التجربة اليابانية، تبدأ بالتعليم الالزامى فى المدارس التى تشرف عليها الدولة، وفى اطار تكافؤ تام للفرص تسقط الحواجز الاجتماعية، ويتيح امكانات التقدم امام الجميع. مما يؤدى الى الاستفادة من افضل العناصر البشرية دون تمييز ، ويستمر هذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الاخرى دون حواجز اجتماعية وذلك تطبيقا لما يشيع فى العلوم التربوية الحديثة من ان عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصدد ليس الا اعادة لانتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضارى.

بل ان الصيحات ترتفع فى الولايات المتحدة الامريكية محذرة من مخاطر مساهمة التطورات الاخيرة فى زيادة

الهوة بين الفقراء والاغنياء، لان الأسر القادرة هي التي تستطيع ان تؤمن لابنائها التعامل مع الشبكات الكمبيوترية، اما بتوفير الامكانات لهم في المنزل، واما بالحاقهم بمدارس غنية تيسر لهم ذلك.

● المدرسة والجامعة التليفزيونية

بعد هذه المقدمات تكون الأرضية قد مهدت لبيان كيف يمكن ان تكون اتاحة فرصة التعليم العصرى للجميع فى مصر متيسرة فى حدود الامكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن التفكير التقليدى وتحلينا ببعض السلوك الإبداعي.

إن الحل الذى نراه لتجاوز الوضع الحالى هو الاعتماد على التلفاز، صحيح ان الناس تعودوا على تحذيرات الدارسين من تأثيره الضار عليهم وعلى أولادهم وعلى وقتهم واستيعابهم . بل وعلى صحتهم وصحة سعادتهم الاسرية، ناهيك عن البساط الذى يسحبه من تحت اقدام ما يرقيهم من انشطة كالقراءة و ..

لكن هذه صورة مغلوطة تماما، لان التلفاز يمكن ان يكون اعظم وسيلة للتأثير على جميع جوانب الحياة، ولان دوره ينمو باطراد . وقد ادركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى ترقية مشاهديه والأخذ بيدهم.

فأغلب المدارس والجامعات التى تتداول الحديث عنها حاليا . «دقة قديم» بينما المدارس والجامعات الحديثة فى مدارس وجامعات تلفازية تذيع مناهجها على الهواء. وتوفر على الدارسين كثيرا، لانها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية باكثر الادوات ابهارا، وتجسد هذه الوسائل والمضامين على مدار اليوم. دون ان تكبد الطالب عناء الزحام فى المواصلات والشوارع والفصول والمدرجات، و ..

وكلنا يعرف كيف يتبارى الناس على الحاق اولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد، والتليفزيون لا يمكننا من جعل مصر كلها فصلا للمتفوقين فقط، ولا من القضاء على الدروس الخصوصية - الآفة التى تكاد تغتال العملية التعليمية برمتها لانها تجعل الكثير من المدرسين يتخلون عن واجباتهم الأصلية - فقط، وانما تساعدنا على اتاحة فرصة التعليم للجميع، وبالتالى اشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظام التعليم، هذا كما ان هذه المؤسسة التليفزيونية تساعدنا على ما يمكن ان نسميه التعليم العلاجى او التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوزه واقع تطور المعارف كثيرا. وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة، ذلك بالاضافة الى العمل على حث الابداع وحفزه ؟ .

إن الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى

المعرفي رغبة مشروعة وضرورية في عصرنا، وينبغي تلبيتها على اوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية، بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة، لذلك. تتمثل في المدارس والجامعات التليفزيونية الحرة التي تقبل أي راغب في الالتحاق بها بصرف النظر عن اعتبارات السن او تاريخ الحصول على شهادة ما او.. التي توفر خدماتها حتى نيل درجة الدكتوراه، برسوم رمزية ذلك ان تكلفة التعليم فيها لا تتجاوز ٢٠٪ من مثيلاتها في المؤسسات التعليمية العادية، وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب. لان الجزء الاكبر منها يذهب الى اعداد المقررات.

وجدير بالذكر ان الوقت الذي ينفقه طالب المؤسسات التعليمية التليفزيونية في الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذي يقضيه الطالب العادي في المواصلات وان جامعتها ارقى من الجامعة التقليدية . اذ يسهل نتيجة لمركزيتها ان تعكس على نحو اكبر اهم سمات التعليم الجامعي الابداعي مثل حث الميل الى البحث الذاتي والاعتماد على النفس، والارتباط بمشاكل الواقع الدارسون فيها يرتبطون بمجالات عمل مختلفة، كما أن ظروفها: من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة امكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار للالتزام بأرقى المستويات، ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعية عليها (تذاع مقرراتها) على الهواء هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الاساتذة اصحاب القدرات المتميزة ورفع عبء الاعمال التكرارية عن الأساتذة عامة، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الابداعية.

هذا كما يمكن جعل المؤسسة التعليمية التليفزيونية اداة ناجعة لاشاعة اللغة العربية بوصفها اداة تنظيم الوعي. لان عدم اجادة استخدام هذه الاداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالي على التفكير، وهذه قضية بالغة الاهمية، لان ما تتعرض له اللغة العربية يكاد يجرنا الى كارثة واسعة الاصداء لكن ذلك لا يعني عدم الاهتمام باجادة اللغات الاجنبية فقد صار من البلاهة، التي تنال كثيرا من المرء نفسه الاعتقاد في امكان تجاهل متابعة النتاج المعرفي العالمي، ويجدر بالذكر في هذا الصدد انه رغم اعتزاز البلدان المتقدمة بلغاتها وغيرتها عليها، فقد باتت هذه اللغات تعرف قواميس ضخمة للكلمات الاجنبية التي دخلتها، وجزء كبير منها ينتمي الى مجال العلوم الحديثة.

ومن المهم ان نذكر في هذا الصدد ان المؤسسة التعليمية التليفزيونية ستجعل المدرسة الراقية والجامعة الراقية تصل الى

المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد، بل والى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا). كما انها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضع لكثير من المدرسين وتقضى على شكاوى العجز في اعدادهم بفتح وكسر العين على حد سواء.

وقد انتشر التعليم التلفازى من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا الى الصين كما دفع ذلك التوجه عددا من البلدان النامية الى توظيف استثمارات هائلة في مجال الاتصالات فعلى سبيل المثال تسعى الهند الى ربط مناطقها الريفية بشبكة اتصالات هائلة تكرس لها حوالى ثمانية بلايين دولار، ادراكا منها للدفعة التى ستقدمها الشبكة الجديدة للتعليم والتقدم، وتحلم نيودلهى بان تربط بين ٥٧٦ الف قرية خلال ثلاث سنوات. فى اطار خطة تحديث تتجاوز كثيرا ما نطالب به. وتقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع .

● **الامكانات متيسرة**

بقيت اشارة الى ان الخبرات العالمية (والمحلية) الخاصة بمواد مثل هذه المؤسسات التعليمية وفيرة ومتاحة كما ان مقتنياتها التقنية لا تعز علينا . فالجامعة الحرة البريطانية مثلا، تعتمد وهى اعرق الجامعات الحرة على ٥٠٠ ساعة من ارسال الاذاعة ومثلها من ارسال التليفزيون طوال العام الدراسى الواحد.

والمسألة ليست غريبة علينا تماما فلدينا نواة البرامج التعليمية ولدينا نواة برامج الجامعة الحرة. ويمكن ان نقوم على تجميعها وتطويرها جميعا بحيث تؤدى الغرض الجديد الذى نضعه نصب اعيننا اى انه لا ينقصنا فى هذا الصدد الا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن، على نحو متواصل هذا كما ان لدينا ١٣٤ ساعة ارسال تليفزيونى يومي. ومثل هذه المؤسسة لا تحتاج الا الى ٨ ساعات يوميا.

ان ذلك كله يجعلنا ننظر الى انشاء مثل هذه المؤسسة التعليمية كقضية امن قومى من الدرجة الاولى، يجب ان تحظى بالأولوية الفورية المطلقة ولان القضية فى هذه المجالة ليست اصلاح نظام التعليم المصرى فقط، بل كيف يساعد هذا النظام على خلق العقل الناضج المتفتح القادر على رؤية مالا يعتقد فيه. وعلى الحوار والتطور واستيعاب ما يحيط به من حقائق ، وذلك بدلا من تعليم التلقين والحفظ والمحاضرات والاملاء والترديد الذى لا يربى فكرا، ويرسخ من صنع المتعصبين المرددين ذوى الافق المحدود الذين يخاصمون روح التغيير والابداع.

التكوين

نخبة أهم وأعظم

محمد عودة

دفع مبدئي

ليست هذه هى المرة الأولى التى يطلب إلىّ فيها أن أكتب شيئا عن حياتي و « تكوينى » وكنت أتخلص وأعتذر دائما ، وأتذرع بأن القصة لم تتم فصولا ، وأن الليالى لازالت «حبالى» وأن مصر بلد المفاجآت والمتناقضات كما قال هيرودوت ، وأنها «لا تؤتمن » كما كان يقول البريطانيون ، ولكن الطلب والحوار لم ينقطع وكان من أكثر الناس إلحاحا صديق قديم ورفيق طريق مخضرم كان يقول لى منفعلا :

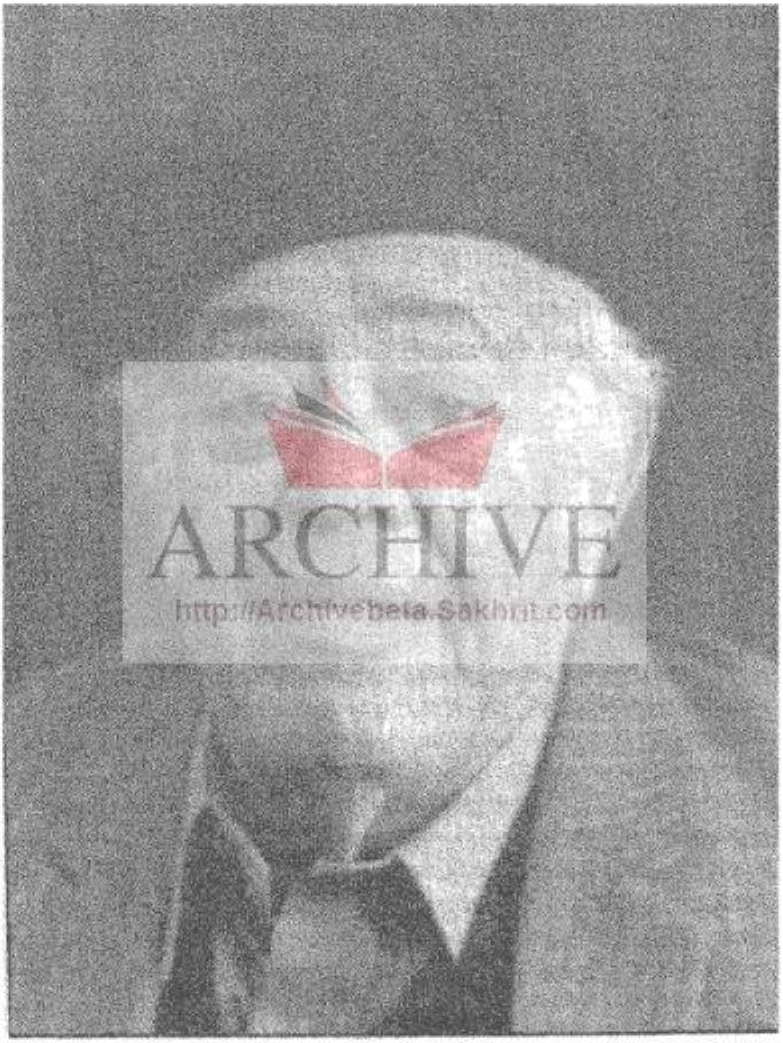
— « هذا التزام وواجب لا يمكن أن نتخلى عنه .. ولا نريد سيرة ذاتية أو الحياة الشخصية ، ولكن قصة حياة الجيل ، نحن أهم وأعظم جيل أنجبته مصر الحديثة ونواجه جيلا جاحدا ضائعا جاهلا يرفضنا ويريد أن ينكر علينا كل ما أنجزناه .. جيلنا هو الذى حسم كل القضايا الجوهرية التى ظلت معلقة ربما منذ بدأنا تاريخنا الحديث ، نحن الذين حسمنا القضية الوطنية وأجهزنا على الامبراطورية البريطانية ، وعلى الامبريالية الأوربية ، وأغرقناها فى خليج السويس .

ونحن الذين حسمنا القضية الاجتماعية وقوضنا دعائم الاستغلال وانتهينا إلى الاشتراكية أرقى صور الكفاية والعدالة ، وأقمنا أساسا صلبا لن يخترقه أحد مهما فعل

ونحن الذين حسمنا قضية الهوية ، وأننا طليعة وقيادة أمة عريقة ذات عقيدة وحضارة وتاريخ وتراث وأنها تحتل مكانا رئيسيا علي خريطة العصر والعالم ولها دور لابد أن تقوم به .

وكنت أقول له دائما :

جيل أنجبته مصر الحديثة..

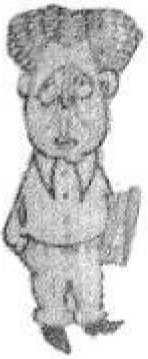


التكوين

وكان يرد :

– ومن الذى يمكن أن ينصف الذين فكروا ودبروا وخاطروا والذين قاتلوا واستشهدوا ، ثم المجهولين الذين لا يذكرهم أحد ، ثم الذين خانوا وارتدوا وانقلبوا على أعقابهم .. من الذى يفضحهم ، على الأقل نأخذ المبادرة ونبدأ.

وأرد ثانية : هذا أقوى مما أستطيعه ، ويعيد : هل تذكر حينما فرغت من قراءة رواية « الحرب والسلام » لتولستوى فى سجن أسيوط وقلت لى إن الأدب المصرى لن يعنى شيئا إذا لم يتمخض عن رواية مثل هذه وأنك تحلم بأن تحقق هذا الإنجاز. هل هناك وقت أصلح من الآن ؟!



● أنا شرقاوى ،

وكنت أستجيب الضغوط ثم أعدل .. وأجد المبررات واحدا بعد الآخر ، لم أستقر من أين أبدأ وكيف أبدأ ، لم أكن أريد أن أكتب قصة حياة تقليدية « أنا محمد عبد الفتاح متولى عودة من مواليد قرية جهينة مركز فاقوس شرقية ، وكان أبى الشيخ عبد الفتاح طالب علم بالأزهر، تزوج من أمى من أسرة طيبة وقد فضلته على من تقدموا لها ، لمكانة طالب العلم فى الأزهر فى الريف .

وقد تلقيت تعليمى فى كتاب القرية مع باقى الأطفال وحفظت جزء عم عن ظهر قلب ، وكذلك جدول الضرب ، وأجدت القراءة والكتابة على اللوح الاردواز !

وانتقلنا للحياة فى القاهرة لكى يواصل أبى دراسته ، ويحصل على الشهادة العالمية ، ويصبح « عالما » ولكي أستكمل دراستى فى إحدى مدارس العاصمة ، وليس فى مدرسة فاقوس الابتدائية التى درس بها معظم أقاربى وبلدياتى ، والتى أنشأها المدير محمود باشا يونس وافتتحها الجناب الخديوى .. وأنجبت كثيرا من أبناء المركز» .

لم أكن أريد أن أبدأ القصة على هذا النسق ، وقررت أن أبدأ منذ اليوم الأول التاريخى للالتحاق بالمدرسة التى وقع عليها الاختيار وهى مدرسة « خليل أغا » الابتدائية بحى الحسين الذى أقمنا فيه .

وقد بدأ الإعداد للمدرسة مبكرا قبل

حوالى أسبوعين ، وصحبت أبى الى محل « تيرنج » الشهير بميدان العتبة لانتقاء البدلة والحذاء ذى الرقبة ، وكانت أمى حريصة على أن أفتتح حياة المدرسة فى أتم هيئة وأحسن من أولاد مصر !

● اليوم الموعود

وفى اليوم الموعود ، صليت الفجر مع أبى فى مسجد الحسين ، وتناولنا الإفطار فى مطعم « الحلوجى » الشهير ، وروى لى القصة التى سمعتها بعدئذ كلما تكرر الأفطار فى المحل وهى أن صاحبه كان يعد كل يوم طبقا من الفول المدمس « المقشر » ويحمله بنفسه إلى « سعد باشا » ليفطر به ، وروى أيضا قصة « خليل أغا » منشىء المدرسة ، وأنه كان كبير الأغوات للوالدة باشا فى قصر الخديوى اسماعيل وأنه حقق مكانة ونفوذا لم يستمتع به أغا آخر ، وأنه كان مستشارا محل ثقة الخديوى ، وكان محبا للعلم والتعليم مثل مولاه .

وكنا قد وجدنا مسكنا فى عمارة فى الحى تملكها أسرة طيبة ومعروفة ومن أصحاب المطاعم الشعبية وأصبحنا فى وقت قصير أعضاء من أسرة كبيرة متآلفة من كل الجيران ، وكانوا يتبادلون الزيارات ، والخروج معا لزيارة الأولياء ويتهادون بأطباق الطعام المتميزة خاصة فى رمضان والأعياد ، وتوثقت العلاقات معنا خاصة ، وكان أبى مرجعا فى أمور الدين ، ثم بدأ مشروع خطبة قريب لنا وسيم وموظف حكومة لإحدى بنات « أصحاب البيت » بل وأعدت أمى مشروعا طويل المدى لزواجى من إحدى الحفيدات ، وكانت العلاقات بين أولاد وبنات السكان تماما مثل العلاقات مع الأهل !!

وعدلت عن هذه البداية ، لأنها سوف تكون أقرب إلى الحواديت وربما إلى « الحوليات » لا تعبر عن معنى أو مغزى .

● هدية من جلالة الملك

وقررت ذات مرة أن البداية المثلى هى يوم الحدث الكبير ، حينما اكتمل إحساسى بمكانتى المتميزة بين طلبة المدرسة ، وذلك بعد نقل المدرسة إلى شارع الملك فاروق ، وفى بناء فخم وعلى أحدث طراز ، وتقرر أن يفتتحه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فؤاد الأول ملك مصر ، وكانت صور متعددة قد علقت فى كل فصل ، وكل ركن فى المدرسة ، تبعث الهيبة والروع ، ووقع اختيار حضرة الناظر على شخصى لكى ألقى قصيدة الترحيب التى أعدها سيادته لتكون خاتمة الزيارة ، وبعد أن يتم الطواف بالمدرسة ، واستغرق الاستعداد والتدريب أسبوعين قبل الزيارة ، وكانت التكاليف باهظة علينا وأصرت أمى على أن أرتدى بدلة جديدة ، وذات بنطلون طويل لأول مرة بل وأن ألبس قميص حرير وكرافتة ، ولم يكن أبى مهتما أو متحمسا ولكنه استجاب وتولى أحد

التكوين

أقاربي تدريبي على ربط « الكرافتة » ، وتم كل شيء على مايرام ، وسر جلالة الملك سرورا كبيرا بالقصيدة ، وحمل إلى الناظر هدية ثمينة ، كانت طاقم أدوات مكتب ، كتب عليها بخط جميل ، هدية من جلالة الملك المعظم فؤاد الأول الى الطالب النجيب .... ، وحملت الهدية فخورا ، وكانت أمي تفيض سعادة ، ولكن بدا أبي غير مكترث ، ولم أكن قد اكتشفت بعد أنه وفدي ، ولا يحفل بجلالة الملك وهديته مثل أمي ، وقد خرجت أمي باقتراح أن لابد من شراء مكتب أستذكر دروسي عليه وأمامي الهدية ، وكنت أستعمل منضدة الطعام للاستذكار .

وجاء جيراننا القدامى من حي الحسين لتهنئتنا ، وكنا قد انتقلنا الى بيت على مشارف العباسية قريب من المدرسة ، ولكن العلاقات بين الجيران كانت مختلفة تماما ، كلهم في حالهم .. ولهذا لم تنقطع صلاتنا بجيراننا الأصليين !

ولم ألبث أن عدلت عن هذه البداية لأن ترحيبي بجلالة الملك المعظم ليس أصلح البدايات ، وقد اتهم بالنشأة الرجعية !!

وقررت أن تكون البداية مثيرة وأن تكون أول علاقة « عاطفية » وقد كبرت الحفيدة الصغيرة التي كنا نلعب معا ، والتي اختارتها أمي وأصبحت صبية جميلة كاملة الأوصاف ، ومن ناحيتي نجحت في الشهادة الابتدائية بتفوق كبير، وكنت من العشرة الأول على نطاق القطر ، والتحقت بالمدرسة السعيدية – إحدى المدارس المتميزة – وكانت أمي تلفت نظري بلباقة إليها ، وكانت سنوات الاهتمام بالجنس الآخر قد بدأت ، وكانت أمي لا تترك فرصة إلا وتعدد ميزاتها ، جميلة ، مؤدبة، متعلمة ، بنت ناس ، وكان كل شيء يمكن أن يسير كما تشتهي لولا أني بدأت أقرأ روايات المنفلوطي ، وتغيرت النظرة تماما ، وبدأت أحلم بحب جارف أتبادل فيه الرسائل الملتهبة ، وأجلس تحت ظلال الزيزفون وأخوض الصعاب والمعارك على الطريقة المنفلوطية ، ولاحظت أمي انصرافي وعدم اكتراثي ، وبدا أنها متألمة، ولم أكن أحتمل ذلك ، وفي النهاية أنقذ الموقف ابن أحد كبار التجار الذي خطبها وتزوجها ، وانقطعت عن المدرسة ، وحضرنا الفرح مع أمي وأبي !

● طفولة سعيدة

وعثرت مرة أخرى على البداية الأفضل أصلح ما تكون لروح العصر ، وأن تكون يوم استيقظ « الوعي الطبقي » وبدأ « طريق الآلام » .

وكانت طفولتي ومرحلة الدراسة الأولى سعيدة كل السعادة ، لم يتخللها أي



كثيراً ما أجلس على المكتب للقراءة لوقت طويل

إحساس بالنقص ، وتغير الأمر فى المدرسة السعيدية .. كان الطلبة فريقين أقلية متعالية ، متباعدة عن الأغلبية ، كانوا يرتدون ملابس أنيقة يغيرونها باستمرار ، ولم يكونوا يتناولون طعام الغذاء مع الباقين فى «اليمكخانة» ويتناولون سندويتشات أحضروها معهم ، وكان ينتظرهم لدى خروجهم صف طويل من السيارات الفاخرة .

ولم يكن ذلك يعنينى فى البداية ، وإن كان يثير بعض العجب ، ولكن حدث أن كان معنا فى الفصل ابن رئيس الوزراء ، فى ذلك الحين ، وكان محور اهتمام كل المدرسين ، وكان محدود الذكاء وسمينا مترهلا ولا يحفل بالدروس ، وذات يوم استفاض مدرس العربى فى الشرح وحينما انتهى اتجه إليه قائلا : فهمت يا عادل بك ؟ وكأنه الطالب الوحيد فى الفصل ، ولا أدرى لماذا صدمتنى الكلمة وفجرت الغيظ والكراهية كما لم أشعر من قبل ، وظللت باقى اليوم لا ألتفت أو أتابع الدروس .

وفى اليوم التالى أحسست بكراهية شديدة للمدرسة والتلاميذ والمدرسين ، وقررت كما لم أفعل قط من قبل ، أن لا أذهب للمدرسة ، ودخلت حديقة الحيوانات المجاورة ثم تكرر ذلك الأمر ولاحظه بعض المدرسين الذين كانوا يضعوننى فى قائمة الطلبة « النجباء » خاصة مدرس اللغة الانجليزية وكان انجليزيا ، ومدرس اللغة

التكوين

الفرنسية وكان فرنسيا أيضا ، وكنت مقبلا على اللغتين ، وكان المدرسان لا يميزان بين الطلبة !!

وذات يوم استدعاني الناظر ، وسألني ما الذي حدث لي ، ولماذا أتغيب عن المدرسة ، ثم طلب إليّ أن لا أعود إلا ومعي ولي أمري ، ولم أستطع أن أخبر ولي أمري « المقيقى » وذهبت إلى أحد أقاربي الطيبين وذهبنا معا للناظر ، ولم أستطع أن أروي الحقيقة لأن حضرة الناظر كان على رأس المتحيزين ، وكان يتردد على الفصل أكثر من أي فصل آخر، وطلبت أن أنتقل إلى فصل آخر لأنني لا أتوافق مع باقي الطلبة ، وقبل الناظر ، وكان الحل الوحيد ولكن كان « الوعي الطبقي » قد رسب وبدأ يسيطر على تفكيري ، خاصة وقد ساءت أحوالنا المالية، وكانت أمي تذكرني دائما ، بأن لم يعد لدينا ما نعتمد عليه سوى « أنا » أملها الغالي .. والوحيد .

أول درس في الثورة !

وذات يوم استدعاني مدرس التاريخ وطلب إليّ أن أعترف له بيني وبينه وكوالد لي عن سبب التغير والإهمال والكآبة التي تعتورني ، ورويت له كل ما حدث ، وانفجر في حماس وقال لي كل هؤلاء أولاد خونة ولصوص ، وسفاكي دماء وعملاء للاستعمار ، ولابد لك ولأمثالك أن يتعلموا وأن يتفوقوا وأن يخلصوا البلاد منهم ، وألقى عليّ درسا مفصلا في تاريخ رئيس الوزراء « الأسود » وفي السياسة المصرية عامة وطلب إلى أن أوفر قرشا كل يوم وأشتري جريدة حزب الوفد ، وكان أول درس في الثورة !

وعدت للدراسة بحماس ، وتفوقت في اللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، وفي التاريخ بالطبع ، واجتزت امتحان الكفاءة والبكالوريا القسم الأدبي ، وعزمت على أن ألتحق بكلية الآداب قسم التاريخ وأدرس تاريخ مصر وأساهم في تصحيح مساره .. كما تعلمت من أستاذ التاريخ الذي لم ينقطع عن تشجيعي وارشادي كيف أقرأ الجرائد !!

ولم ألبث أن عدلت عن هذه الزاوية لسبب آخر مختلف .

لا أريد أن أكتب سيرة ميلودرامية أو سيرة مسلية ، ولكن أريد أن أكتب سيرة حقيقية واقعية على طريقة تشارلز ديكنز أو إميل زولا .. كل ما حدث مهما كان مرا أو ثقيلا أو قاسيا ، وتعلمت من قراءة قصص حياة بعض الأقطاب والمشاهير خاصة في السياسة أو المال والأعمال ، أن يستبيحوا كل شيء للصعود، كل الذنوب ، والصغائر والكبائر، ثم يستأجرون كاتبا مرتزقا محترفا ، ينمق لهم تاريخ حياة

وقصة كفاح ، وقررت أن لا أفعل ذلك قط ، وقد قرأت ذات يوم قصة حياة الراقصة الأمريكية «ايزادورا دنكان» وظلت روايتها لقصة حياتها بصدق وصراحة وشجاعة مثلا أتمنى أن أحتذى به لو قدر لى أن أكتب .

● يوميات لن تتم !

وبدأت التجربة وأعددت كراسا وقررت أن أسجل فيه يومياتي كاملة لمدة شهر ، على سبيل التجربة .. ولكن بعد أسبوع واحد ، أدركت أنها مستحيلة ولو تحققت سوف أسبب ما لا احتمل من المشاكل والآلام وربما المآسى ، ولأشخاص أحبهم أو أكرههم ، وأن هناك أشياء لابد أن تدفن بعيدا أو تسدل عليها ستائر كثيفة !

وذات يوم جاءني صديق عزيز يحمل مخطوطا قال إنه سيرة ذاتية لأحد أصدقائنا المشتركين يريد أن يعرف رأيى فيها ، وأعجبت بجرأته وشجاعته ، ولكن نفرت وتقززت من فصول أخرى وتغيرت صورته إلى الأسوأ ، وقررت أن أؤجل الكتابة ، وألا ضرورة لأن يضع الانسان نفسه عاريا أمام الناس ، وبكل ألوانها الأبيض والرمادى والغامق والأسود حالك السواد .

وتذكرت ما قاله لى يوما صديق إن فى كل فرد أكثر من شخصية ، وقال فرويد هناك النفس العليا ، النفس الوسطى ، وهناك الثالثة الدنيا السفلى ولابد لمن يكتب سيرة ذاتية أن يكتب ثلاث سير منفصلة مستقلة ، والصراع الدامى العاتى فيما بين الثلاث .

وأخيرا ، لم أستطع إلا أن أستجيب لطلب رئيس تحرير الهلال ، وهو صديق لا يرفض له طلب ولما كان المطلوب هو قصة « التكوين » ، ومقوماته ، فقد رأيت أن أقف عند بعض المحطات ونقط التحول ، وبلا ضرورة لرواية ما لا يروى !!

● حوار حول المستقبل

وقد حصلت على البكالوريا القسم الأدبى ، وبتفوق ، كان يسمح لى بالالتحاق مجانا بالجامعة ، ولكن بدأ الحوار حول المستقبل واختيار الكلية التى ألتحق بها ، واتجهت كل ميولى الى كلية الآداب ، ولكن ظهر من أشار بواقعية شديدة أن لا لزوم للجامعة وأن هناك معهداً جديداً يستغرق عامين ويخرج معاونين صحة وأن من الأفضل الالتحاق به لأساهم فى مسئولية الأسرة التى يصعب أن تواصل تكاليف الجامعة ، ورفضت أمي بحسم وحرارة ، وكان مثلها الأعلى والذى تذكرنى به دائما ،هو ابن أخيها الأكبر ، والذى واصل التعليم بمشقة وجلد، وبعد أن فقد أبوه ثروته الطائلة وبدد كل شيء والذى كافح حتى أصبح سفيرا فى الخارجية ، واستعاد بعض الثروة ، وكفل حياة محترمة لأبيه وأمه وشقيقته ، بل وزوجة ابيه ، الارستقراطية التى تشبثت بطريق حياتها كاملة ومن بينها تبنى أسرة كاملة من

التكوين

الخدم السود الموروثين ، وأصرت أمى على كلية الحقوق التى يتخرج فيها الوزراء والسفراء .. وانحاز أبى الى نفس الرأى ، ولكن بسبب آخر ، فقد عاد الى القرية وانتخب شيخ بلد ، ثم استغرق فى منازعات عائلية حول الأرض ، التى جار عليها أقاربه خلال طلبه العلم فى الأزهر ، وكان فى حاجة الى محام « خاص » يستشيره ، ويساعده فى استردادها .

وحينما صرحت بأن رغبتى الحقيقية هى الآداب ودراسة التاريخ قال لى أحد من كاشفتهم بالسر إنى سوف أتخرج مدرس تاريخ ، فى مدرسة ابتدائية ثم فى دولة عربية ، وأجمع المال من الدروس الخصوصية وأعود القرية لأشترى أرض ومواشى كما فعل « فلان » .

وانكببت على الدراسة فى كلية الحقوق واكتشفت ميلى الى القانون العام ، أى الدستورى والادارى والدولى العام ، وكان أستاذ الدستورى مرحا صريحا يذكرنا دائما وعلانية أن مهمته هى أصعب المهام وأن علينا أن نساعده ونترفق به ولا ندقق فى الأسئلة ، وتعلمت منه أن الدستور ليس له جزاء ، وأن الدستور البريطانى دستور غير مكتوب ، ولكن لا أحد يجرؤ على المساس به .. لأن الوعى العام يحميه ، وأن الدستور الألمانى كان الدستور المثالى صياغة وفقها ولكن أطاح به هتلر بجرة قلم لأنه افتقد هذه الحماية ، وأن الدستور المصرى ولد « ناقص عمر » فكرا ونصوصا وأنه يتيم لم يجد بعد من يحميه!

وتعلمنا من أستاذ الإدارى ، والذى أصبح فيما بعد فقيها وسياسيا مرموقا ، قول نابليون « انه ليس هناك بلد يعتمد مصيره على الادارة مثل مصر ، وإذا ما تحققت ادارة حسنة تغلب الوادى على الصحراء ، وإذا ما كان العكس زحفت الصحراء » ، وأن مصر لاتزال تبحث عن إدارة !

وتعلمنا من أستاذ القانون الدولى ، وكان يدرس فى المدرج مادة أكاديمية نظرية بحتة وفى خارجه يعلمنا أن القانون الدولى السائد هو قانون الغابة ، وكانت سحب الحرب العالمية الثانية تتجمع وتنذر بصراع رهيب .

ولعل أكثر الأساتذة هيبة واحتراما ، واجتذابا للطلبة الذين كانوا يحرصون – مسلمين وأقباط – على محاضراته ، كان أستاذ الشريعة ، وتفسيره المستنير المبدع للدين والتشريع الإسلامى .

● تناقض !

وكان التناقض يتكشف ويتفاقم كل يوم بين ما ندرسه فى المدرجات وما يسود خارج أسوار الجامعة ، ولهذا كانت الجامعة تموج وتضطرم بكل التيارات



لقطات من مراحل الحياة فى الصبا الباكر

والمذاهب والأيديولوجيات ، وكان « البحث عن الذات » يستبد بكل أبناء « الجيل » وبلغ التناقض ذروة هزلية ذات يوم حينما أشيع أن أحد طلبة « الدفعة » سوف ينال رتبة الباشوية ، وتأكد الخبر بعد قليل فى الصحف .

وكان جلالة الملك فاروق قد تبنى مشروعا باسم « مشروع الحفاء » ليوفر حذاء لكل مواطن ، وكانت الغالبية العظمى لا تملك ذلك الترف وتسير بأقدام عارية .

وتشجيعا للمساهمة قرر جلالته أن يمنح رتبة الباشوية لمن يتبرع بخمسة آلاف جنيه فأكثر ، وتبرع طالب بهذا المبلغ وأصبح من حقه « الترقية » .

وكان طالبا مدللا ، يأتى كل صباح فى سيارة « رولز رويس » تصل به حتى باب الكلية ، ولا ينزل قبل أن يهبط السائق ويفتح له باب السيارة ، ويقفز كالغزال الرشيق ليلحق بالمحاضرة التى يأتى إليها دائماً بعد أن تبدأ . وكان موضع الزراية والاستخفاف وتندر الطلبة بأن خريج الحقوق يكافح عمره ليحصل على الباشوية، ولكن لأول مرة يحصل عليها قبل أن يبدأ ، ورأت الحكومة أن تخفف من الحرج ، واكتفى صاحب الجلالة بالإنعام عليه برتبة البكوية من الدرجة الأولى ، وأصبح اسمه يكتب فى كشف الطلبة مسبوقا بلقب « حضرة صاحب العزة»!!!

وفى البداية كانت كلية الآداب تجذبنى بقوة قاهرة وكنت أتسلل لأحضر محاضرات طه حسين فى الأدب ، وشفيق غربال فى التاريخ ، ولكن لم تحقق الكلية الوهم أو الحلم الذى كنت أتصوره ، ولذلك دلفت قدمي الى مكتبة الجامعة التى كانت مجاورة ، وسرعان ما أحسست أننى أجد نفسى فيها أكثر مما أجدها فى المدرج على الناحيتين !!

● عشقى للأدب المترجم

وذات يوم تعرفت على أحد أمناء

التكوين

المكتبة وكان عجوزا مرحا سمحا يشبه تماما أحد أقارب أمي الذين كنت أحبهم ، وكان يجلس على مكتبه خلف كوم من الكتب والورق والمحابر وبدا منشغلا بمراجعة أو ترجمة كتب ما وبسرعة نشأت ألفة بيننا ، وعرفت أنه يقوم بترجمة أعمال من الأدب الروسي الحديث بل وأنه نذر نفسه لهذا العمل ، وتفرغ له ، وكان يومئذ يترجم آباء وبنون لتورجنيف ، وقال إنه يترجم عن الانجليزية ويود لو كان يعرف الروسية وأنه يحذو حذو سيدة انجليزية اسمها كونستانس جارنيت ، بدأت حياتها كاتبة أدبية ثم اكتشفت أن أعظم خدمة يمكن أن تؤديها للأدب الإنجليزي هي أن تهب حياتها لترجمة كل ما تستطيع ترجمته من الأدب الروسي .. وكانت أول مرة أنفذ فيها إلى عالم ساحر زاخر عاصف مضطرم هو الأدب الروسي الحديث وبدأت صحبة فريدة معه وكان أول ما قرأت الجريمة والعقاب لدستوفسكي وقد اعتكفت اسبوعا في البيت بعد أن فرغت منها وحينما قرأت «البعث» لتولستوي قررت أن أنقذ فتاة جميلة صغيرة كانت تتردد على شقق الطلبة ولم تنجح التجربة وذات يوم أعطاني قصتين قصيرتين لتشيكوف لكي أترجمهما لأن ذلك أفضل للنفاذ إلى أعماق الكاتب وانتهيت إلى جوركي وعكفت على قراءته في نهم شديد .. ووضعت برنامجا لكي أقرأ «الحرب والسلام» لتولستوي «والأخوة كرامازوف» لدستوفيسكي في الإجازة الصيفية ، وسيطر الأدب الروسي على كل اهتمامي .. وكان الرجل سعيدا لإقبالي على قراءة ترجماته ثم مخطوطاته .

وذات يوم قابلت لديه استاذا في كلية الهندسة قال إنه تعلم اللغة الروسية لكي يقرأ الأخوة كرامازوف بعد ما قرأها باللغة الإنجليزية .. وبالطبع انتقلت بي قراءة الأدب الروسي وخاصة جوركي إلى البحث عن روسيا ، وعن الملحمة الطويلة المدى من القيصرية إلى الاشتراكية الثورية الماركسية وكانت قصة أخرى مضنية ، وكنت التقي أحيانا باستاذ انجليزي شاب داخلا أو خارجا من المكتبة، ونتناول أحيانا تحية عابرة وذات يوم جلسنا بالصدفة على نفس المنضدة في قاعة الاطلاع .. وكنت قد طلبت كتابا عن تشرشل وكان يبهر العالم يومئذ بخطبه البليغة «ليس لدي ما أقدمه لكم سوى الدم والعرق والدموع» وصموده في معركة الحياة والموت التي كانت تخوضها بريطانيا ويقدر ماكانت التشفي والشماتة

فى بريطانيا التى كانت أول من ألقى القنابل من الجو على الثوار فى العراق كان هناك إعجاب خفى بصمودها وزعامتها ونظر إلى الكتاب وسألنى «آه تقرأ عن تشرشل» وأجبته بالايجاب ، «وهل يعجبك تشرشل» ، نعم .. «باللأسف» واستغربت وصمت وقال فجأة «إنه أسوأ من هتلر ، » وزاد العجب ولم أرد .

واستمر قائلا «هل تريد أن تعرف حقيقة هذا الرجل»وأجبت بالإيجاب وقال «حسنا نلتقى هنا غدا والتقينا فى اليوم التالى» وأحضر لى كتاباً بعنوان «المحافظون» صدر عن نادى الكتاب اليسارى فى بريطانيا» .

وكان كتابا سلس اللغة والأسلوب ، مثيرا كل الإثارة قلب تفكيرى رأسا على عقب وأدركت أسباب الكره والحقد العميق والغريزى ضد الاحتلال والاستعمار البريطانى ..أزاح غشاوة كبيرة..

عرفت ما لم أكن أعرفه أو أتوقعه وأن الشعب البريطانى نفسه شعب مقهور مستنزف ربما بأشد من أى شعب من شعوب الامبراطورية وعرفت أن الامبراطورية مجرد ضيعة تملكها طبقة منعمة مترفة .. ويموت من أجلها الملايين من البريطانيين ، فى سلسلة حروب لاتنقطع كانت ذروتها الحرب العالمية الأولى ثم الثانية الأشد هولا .. بعد أقل من ربع قرن .

لم يكن هناك فرق بين المحافظين البريطانيين وبين سلاطين المماليك أو السلاطين العثمانين إلا فى الأقنعة والمكياج الحضارى الذى يتمعون به .

وكان هناك فصل خاص عن تشرشل أشد «الامبراليين» تعصبا ، وعن رأيه فى المصريين والسودانيين ، حينما كان مراسلا حربيا فى حروب المهدى !

وتشبثت بالعلاقة والصداقة الجديدة وطلبت منه المزيد من هذه الكتب، وكان سعيدا بأن يمدنى بها ، ويناقشنى حولها «هارولد لاسكى» «ايديولوجى» حزب العمال، «وجون سترانشى» المحافظ الذى تمرد وأصبح قطب الاشتراكية وأنورين بيفان زعيم الجناح اليسارى فى حزب العمال وبياتريس ديب» الزوجة الارستقراطية التى تزوجت مفكرا عماليا وأثروا الحركة العمالية والاشتراكية بكتب ودراسات أصبحت مراجع .

وتفتحت على «كهف على بابا» بكل ذخائره وجواهره ، وأصبحت أوسع أفقاً ، وأعمق فهما لما يدور فى الجامعة أو فى مصر ، أو فى العالم بل وفى أسرتنا الصغيرة !!

● اقتراح ●

أقترح عليكم أن تخصصوا عددا من الهلال فى مطلع كل فصل من فصول السنة، ففى الربيع تصدر عدد الربيع وفى الصيف عدد الصيف ثم عدد الخريف ثم عدد الشتاء وهكذا.. واذا كان قد فاتنا الشتاء وسيفوتنا الربيع أيضا فى هذا العام، فنرجو الا يفوتنا عدد الصيف ثم عدد الخريف .. ثم أرجو أن تصدروا اعدادا خاصة عن كبار المفكرين والأدباء والشعراء كما كانت «الهلال» تفعل فى الثلاثينات .. ولا يمكن أن ننسى نحن القراء المخضرمين عدد الهلال عن ابى نواس الذى صدر فى أواخر الثلاثينات..

أحمد عبد الغني عبد الصمد ـ اسيوط

تعليق :

ـ نشكركم اقتراحاتكم ونرجو ان تتاح لنا فرصة تنفيذ شيء منها إن شاء الله.

● اقتراح آخر ●

أرجو اعادة طبع اعداد الهلال الممتازة التى صدرت فى الستينات والسبعينات عن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم واحمد شوقى ونجيب محفوظ، فهذه الاعداد ذخائر ثقافية لا تقدر بثمن، ولا يعرف الجيل الجديد عنها شيئا برغم حاجته الى معرفتها

بثينة محمد عبدالراضى — المنصورة

تعليق :

ـ وهذا أيضا اقتراح يستحق الدراسة، ونشكر للقارئة الفاضلة مبادرتها بتقديمه.

● بين العقاد وشوقى

لمناسبة شهر مارس ـ وهو شهر الربيع ـ ما رأيكم فى النقد الذى وجهه المرحوم عباس محمود العقاد الى امير الشعر أحمد شوقى فى القصيدة التى مطلعها:

آذار أقبل قم بنا ياصاح

فى الربيع حديقة الأرواح

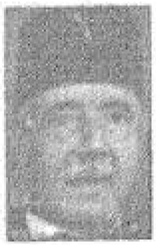
لقد قال العقاد: إن شعر شوقى فى هذه القصيدة اشبه بنداءات الباعة، فلا احساس فيه بالربيع، وإنما مجموعة تعبيرات مصقولة لا حياة فيها، وإن بيتا واحدا من شعر البحترى فى

الربيع يساوى جميع ما نظمه شوقى فى هذا الباب.
وذلك مثل قول البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

فما رأيكم فى ذلك؟!

عبدالبديع المرصفي - درب الجماميز - القاهرة



أحمد شوقى



العقاد

تعليق الهلال:

- النقاد القدماء فى القرن الثالث والرابع للهجرة وما يليهما هم الذين اكتشفوا جمال بيت البحترى فى الربيع، ولم يكن العقاد هو الذى اكتشف جمال هذا البيت، كما أنه لم يكن هو الذى كشف عبقرية ابن الرومى فقد عرف عبقريته القدماء.. وقد كان العقاد متحاملا على شوقى تحاملا شديدا جدا لأسباب لا يتسع المجال للكلام فيها هنا .. واذا اردت رأينا فإن لشوقى قصائد ليست لاحد من شعراء العربية أجمعين فى عذوبتها وجزالتها وجدتها ورونقها . وله أيضا قصائد عادية ، وأخرى أقل من العادية.

قصة قصيرة

• النوى •

ممتطيا حماره الابيض . يفتش فى دروب قريته.. يلملم نوى البلح يضمه فى خرج حماره .. يسير .. اندهشوا لفعلته .. رموه بالعته ، اطلقوا أطفالهم يقذفونه بالحجارة ..هرب منهم .. استقبلت قدماه طريقا آخر لقرية أخرى .. جمع ما استطاع من نوي.. مازال الخرج يطلب المزيد.. طرق أبواب القري.. جمع ما جمع من نوي.. ذهب الى السوق الكبير .. وقف أمام المشترين .. تعجبوا لطلبه .. اعطوه ما اراد.. حفنات من البلح .. شكرهم .. أكل .. وضع النوى بجوار رفاقه .. امتلأ الخرج عن آخره.. سأل عن النهر .. وصفوا مكانه .. فرحت روحه عند رؤيته .. أمسك بالفأس الصغيرة .. طفق يزيل الاشواك .. النجيل .. الغاب .. الحشائش من الجسر .. امسك بنواه اطلق عليها اسما من اسماء احبائه .. غرسها داخل ثقب صنعه بأظافره . ملأ الدلو الصغير من ماء النيل .. غمر النواه بالماء.. تركها ليزيح الاشواك .. الغاب .. الحشائش .. ليطلق الأسماء على النوى قبل الغرس .. لجلبتهم فطن .. تجمعوا حوله .. ساخت قدماه .. تقدم كبيرهم .. بحزم سأله : ماذا تفعل فى الأرض؟! ما

أنت والهلال

هى نواياك؟! أجاب بتلقائية : ازرع جسر النيل بالنوي، بتهكم رد : نوى .. ثم زعق فيه: انك تخفى سرا .. ستقر به .. من يحرضونك ؟! من يقفون ورائك؟ لم يصدق أذنيه .. احتارت نفسه تبحث له عن جواب.. لم يرد .. فلطمه .. فترنح .. فاختنق فهوى .. فارتجت جمجمته .. فاغمضت عيناه .. فاقتحمت رأسه صور غير مرتبة لأخيه .. الشهيد .. لزوجته الهاربة .. لفرن الخبز .. لبنيات الحمائم.. لشجرة الجميزة العتيقة .. لصندوق ابنه القادم من العراق .. فارت روحه .. فتبخرت .. فحلقت .. فاستقرت فوق جسر النيل فرأت النوى يشق الأرض بسيوفه الخضراء.. فأنشرحت .. فسرعان ما غامت لرؤية جثة حماره الطافية .. تدفعها الامواج بعيدا .. بعيدا..

د. ماهر منير كامل ـ المنصورة

● موعد بغير ملامة ●

أتت الينا مع الظلام … حسناء في طيب الكلام
ثيابها كالرياض حسنا … ووجهها البدر في التمام
نادت علينا بحسن صوت … كمثل أغرودة الحمام
حبيبتي طبت عند قلبي … ناشدتك الله في سلامي
موعد محبوبتي بعيد … طال وقوفي علي الطريق
اتيتني في ظلام قلبي … وقلت نال الهوي رفيقي
حبيبتي لا يقر قلبي … الي وساد الهوي الرقيق
فهل اذقت الفؤاد وصلا … ونال شيئا من الرحيق
هل أنت آل بكل قفر … ام أنت من خلب البروق
ناشدتك الله في جريح … صلي وكفي عن العقوق
فقد مشيت الطريق ليلا … وكنت أمشي الي الشروق
فأشرقي في مروج قلبي … حبا ، وفي ظلمة الشوق
موعد محبوبتي بعيد … كانت دروبي بلا صديق

سامح النجار ـ فارسكور

• اسماعيل سري الدهشان •

ولد الشاعر اسماعيل سرى الدهشان فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بمنية سنمود غربية حصل على الابتدائية الفرنسية سنة ١٩٠٥ وعمل بمصلحة البريد وازدهر شعره عندما كان فى الاسكندرية ولقب بشاعر الأمير عمر طوسون ثم نقل الى الصعيد ثم عاد الى بلدته بسمنود غربية واتصل بالوفد المصرى ونظم الشعر فى مديح سعد زغلول باشا .

فى سنة ١٩٢٥ نقل الى العمل بالقاهرة ونشر شعره فى صحف البلاغ والهلال والاهالى والمقطم والاهرام وسفيرو سميراميس واتصل بالشاعر احمد زكى أبو شادى وانضم الى جماعة ابوللو واستمر ينشر قصائده فى مجلة أبوللو ووفاه الاجل المحتوم فى ٦ / ٢ / ١٩٥٠ . ولقد نظم اكثر من ٣٢٢٨ بيتا من الشعر ولكن ديوانه المنشور يحتوي على ٥٠٠ بيت فقط وله قصيدة ليالى القريد دى موسيه فهى ملحمة طويلة تبلغ ابياتها فى الترجمة العربية اكثر من ٦٠٠ بيت وهى مقسمة الى أربع ليال وعن الهة الشعر

وقد قسم الشاعر المرحوم عامر محمد بحيرى ديوان الشاعر اسماعيل الدهشان الى ٦ أقسام هى : التصوف والوصف والشعر الاجتماعى والشعر الحكمة والفلسفة والمناسبات والغزل رحم الله الشاعرين بقدر ما اضافا للغة العربية .

رجب عبد الحكيم بيومي الخولي - القاهرة - خط حلوان - المعصرة

• وجهة نظر في الجنون •

عند خروجى للتجول فى المناطق الأثرية التى تعج بها القاهرة فاننى اتمشى بجوار الأثر رويدا رويدا .. سواء كان فرعونيا أو قبطيا أو اسلاميا .. وانظر بعين التأمل والتدقيق فى الاثر لعلى أخرج بفكرة أو عبرة من هذا الاثر ورغبة منى فى معرفة كل شيء عن تاريخ مصر وآثارها ، وفى مرة - بل فى مرات عديدة - كانت معى رفيقتي العزيزة آلة التصوير، وعندما اقف لالتقاط الصور للأثر أجد عيون العشرات من البشر تحملق فى وتكاد تنطق:

«ماذا يفعل هذا المجنون؟!» والبعض الاخر يحملق فى الأثر بحذر كأنه اول مرة يراه معتقدا أنه سينهار فوق رأسه، فيمر أمامه مسرعا بتوجس، والبعض الآخر يبحث عما انظر إليه فلا يتخيل اطلاقا اننى انظر الى الأثر!

وما يزيد لديهم الشعور اننى انسان غير طبيعى هو أننى «مصري» وفى كثير من الاحيان يعتقدون اننى أجنبي لانهم لم يعتادوا حركات الجنون هذه من المصريين وألفوها من الاجانب واننى لا ارى مجانين مثلى من المصريين الا من رحم ربي وهذه وجهة نظر العامة

أنت والمـلل

لنوع من أنواع الجنون ولا أعرف لماذا يستخدمون صفة الجنون على ما نفعله . ولقد قال أحدهم فعلا لاحد الصحفيين أن من لهم هذه الاهتمامات بالاثار مجانين أى أن ما أقوله ليس مجرد شعور مني بل هو حقيقة منهم .

أليس من الجنون ان نمتلك كنزاً ونمسك بقطعه ونرمى بها فى أعماق المحيط ونضحك من أعماق قلوبنا لاننا نطعم السمك!! هذا هو ما يحدث فى القاهرة الفاطمية حيث نسمح لناس لا يفقهون شيئا فى معنى الأصالة والتراث بان يسكنوا فى قلب الاثار ويحولوها الى (دكاكين) لبيع الاحذية وغيرها فى مكان كان يمشى فيه فى يوم من الأيام الأمراء والملوك!!

أليس من الجنون أن نرى شبابا يطيرون بالسيارات على الطرقات ونجد على زجاج السيارة الخلفى علم الولايات المتحدة الامريكية؟!

وأخيرا وليس آخرا هى وجهات نظر في معنى الجنون .. ولكن ألست تتفق معى أنه حان الوقت لنكون عقلاء؟!

خالد عبد الوهاب
كلية الاداب ـ جامعة عين شمس

جدي يرحمه الله

في كل صباح ومساء
كان الجد
يتلو في بدء الأوراد
«لا اقسم بهذا البلد
وأنت حل بهذا البلد»
ويرتل كل القرآن
أسأل عن معنى الآيات
فيتمتم بعض الكلمات
اتبعه للحقل
علمني:





أن افرق حد الجيران
لأفض عناق العيدان
وأرد ضلال الاثمار
أخبرني
عن زمن الفيضان
عن سفر الانهار
والريح تراقص اشجار
وسنابل كانت بالكف
فيحط حمام
علمني :
أن أدرك مافيما بين الأشياء
الوجه الواحد للقمر
وكسوف الشمس
وفصول تحكي الدوران
اتمدد في صحن الدار
اتذكر جدي
يرحمه الله
علمني كل الأشياء
وسؤالا .. لو كان أجاب
عن معنى بدء الأوراد
يتظاهر صخب بالقرية
وصياح كبير الخفراء
فجناب العمدة قد جاء
انتفض سريعا في الحال
والجد
يرحمه الله

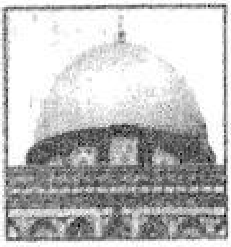
علاء العواني ـ طنطا ـ سيجر



• لن يموت الشعر •

أيها الشعر ستبقى ... شامخا رغم الصعاب
نجمة انت تصلي ... فوق سجاد السحاب
بلسم انت لداء ... العصر .. طب للعصاب
درع ريحان منيع ... ضد سيف الاكتئاب
من جنون الآلة الصماء ... انكار الخراب
من لظى الحاسوب نبكي ... تحت أغصان الغراب
أصبح العمر حسابا ... مثل آلات الحساب
يا عبيد المال والأرقام ... يا حزب الضباب
ضل مسعاكم فليس ... السعد في التبر المذاب
إن للأرواح جوعا ... مزلا مثل الحراب
إننا نبغي اتزانا ... سفرا بين الروابي
وشراعا في بحور ... الشعر في موج الرباب
لن يموت الشعر بل ... يبقى كعصفور الهضاب
كالبحار الزرق كالبدر ... كأمطار السحاب
كنجوم الليل كالأنهار ... صبت في العباب
ان للنفس شفاء ... بين أقمار كتاب

د. هيثم الحويج - دمشق



• يا قدس •

أهدى سلامى .. عبر أيامى .. وعبر الشواك .. والدرب المعنى .. والحنين
أهدى سلامى .. للتى زرعت بوجدانى المشاعر ثرة عبر السنين
يا قدس .. يا نبع السلام .. وموئل الوحى الأمين
اهدى سلامى .. لم أزل ظلا ببابك .. يحتويك القلب .. هل يوما ظلالك تحتويني؟
فلكم بعثت مع النسائم - فى الصباح - تحيتى . بالقلب، ليست بالكلام
ومع النجوم - بظلمة الليل المسجى - بالسلام
لا ..لم يعد بالقلب متسع لغير هواك .. من البداية للختام
لاهثا أعدو على درب الخروج
والنبض كالدرجات . أصعدها بآمال العروج
مدى بنانك ، كى يضىء الكون فى قلبى . وأسبح فى الأريج
بثى شعاعك عبر أحزان الليالى .. وانثرى فيها الزهور
لازال يجمعنا حنين هادر، وعبير أيام . تغرد فى الشعور
فالمسجد الاقصى صلاة.. فى محاريب الضمير
خيط من الأمل المذهب .. قد تلألأ . فوق هامات الشروق
فجر تمطى . فى القلوب . أثار (غزة) و (الخليل)
وأهل فى عينى (اريحا) بالبريق
قد قام يهفو للحياة .. يحن للزمن الجميل
يا قدس .. يا علم السلام على رءوس الصامدين
ومنارة تهدى سبيل العائدين
ردى سلامى .. عانقى شوقى المدوى .. ربما تتحقق الأحلام - ينتحر الأنين
مازال يحملنى إليك الشوق.. والدرب الحزين

محمد عبد الوهاب - جنيدي -
هوليوبوليس عزب - مصر الجديدة



الكلمة الأخيرة

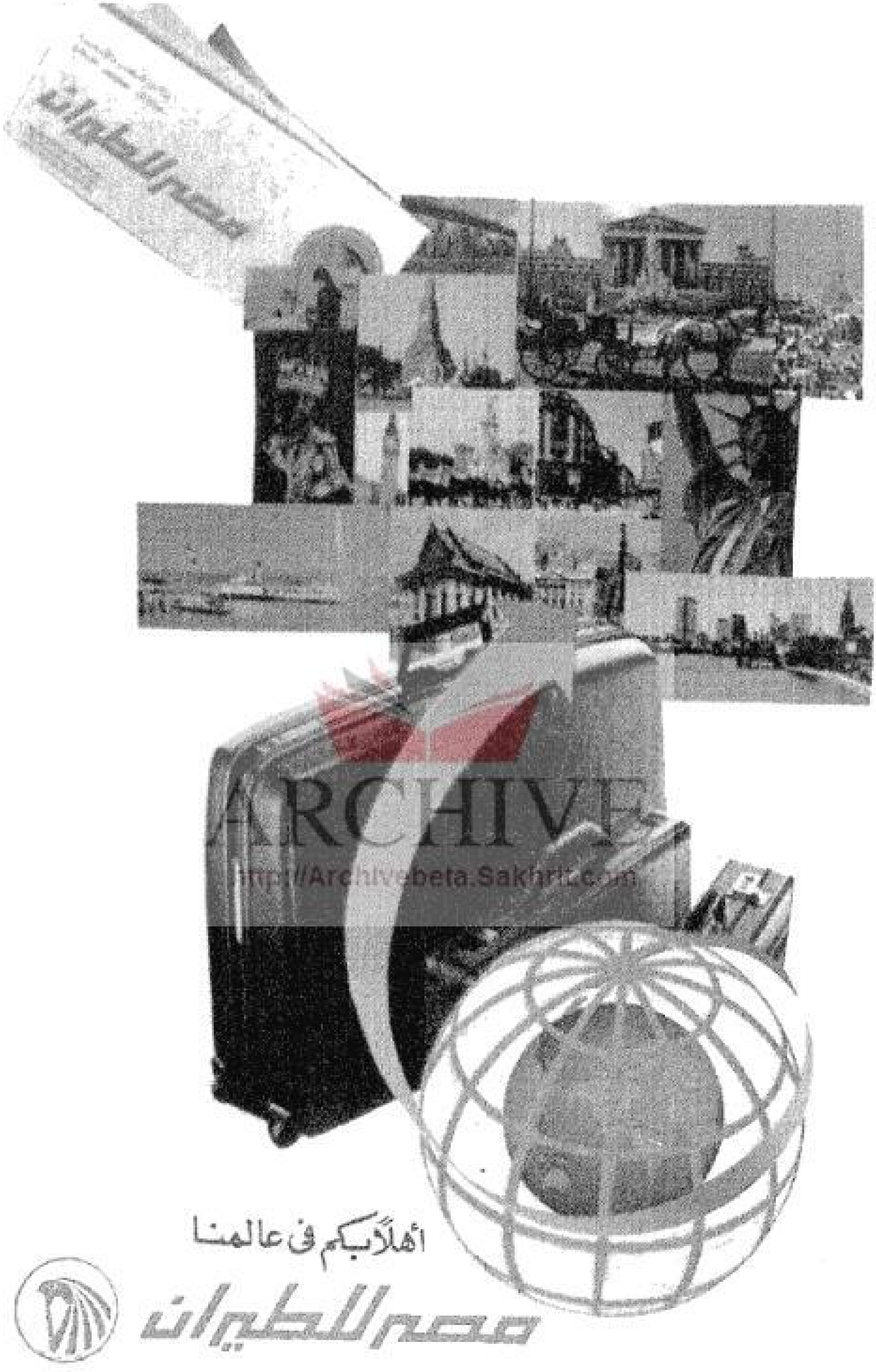
مائة عام على إنشاء المؤسسات العلمية فى مصر

بورتريه : د .رشدى سعيد

شهدت مصر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ميلاد عدد كبير من المؤسسات العلمية التي لعبت دورا كبيرا في نهضة مصر ، وجاء إنشاء هذه المؤسسات العلمية تتويجا لقرن كامل من الارهاصات العلمية التى بدأت بانشاء المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون وقد ظل هذا المجمع نشيطا بعد خروج الفرنسيين وعلى طول القرن على الرغم من اغلاقه خلال حكم عباس وحتى سنة ١٨٥٤ عندما أعيد تنظيمه بالاسكندرية وبدأ في نشر نتائج أبحاث المشتغلين بالعلوم من الأجانب المقيمين أو الذين كان يفدون إلى مصر مفتونين بآثارها أو وراء البحث عن الاستفادة من ثرواتها بعد أن انفتحت أمام الاستثمار الأجنبى ومن المصريين الذين كانوا قد عادوا من البعثات التى أوفدها محمد على واسماعيل إلي أوروبا لتلقى العلم والذين نبغ منهم على سبيل المثال لا الحصر على مبارك ومحمود صالح الفلكى وأحمد كمال وقد أسهم هؤلاء مساهمة فعالة فى البدء فى تأسيس الهيئات الخاصة بالبحث العلمي والتى جاء فى مقدمتها هيئة الآثار .

ويمكن اعتبار عقد التسعينات من القرن التاسع عشر هو ذروة هذه الارهاصات ففيه تم انشاء الكثير من الهيئات العلمية الحديثة البنيان والتي تسير على منهج العلم الصارم من حيث الدقة والموضوعية ، وتأتى فى مقدمة هذه الهيئات مصلحة المساحة التى أنشئت بغرض رفع الخرائط الطوبوغرافية لمصر وهيئة الأرصاد الجوية لرصد أحوال الجو وتسجيل وقياس درجات الحرارة والضغط الجوي والرطوبة والأمطار فى مختلف أرجاء مصر ومرصد حلوان لرصد الحركات الأرضية والزلازل وتركيب الأرض المصرية وطبيعتها وكذلك كمرصد فلكى ركب فيه واحد من أحسن المناظير فى العالم للاستفادة من جو حلوان فى ذلك الوقت فى رصد الكواكب والأفلاك، و هيئة المساحة الجيولوجية لمسح صحارى مصر ومعرفة طبيعة صخورها واستكشاف ثروتها المعدنية ، كما تم فى هذا العقد إعادة تنظيم القسم الخاص برصد فيضانات النيل لكى يشمل الدراسة العلمية المنظمة لنهر النيل حتى يمكن ضبطه والاستفادة من مياهه ولم تنقض سنوات علي هذا التنظيم الجديد حتى بدء فى انشاء خزان أسوان في سنة ١٩٠٢ وكان زمانه تحفة هندسية ومعمارية ، كما أعيد فى هذا العقد تنظيم هيئة الآثار فأصبح البحث عن الآثار محكوما بقواعد صارمة حتى يكون منظما وحافظا للآثار ونتائجه مسجلة تسجيلا دقيقا ، وقد شهد العقد بدء أول عمليات البحث العلمى المنظم والمسجل للآثار مما أدى إلى اكتشافات هائلة فتحت تاريخ مصر القديم ففى هذا العقد تم الكشف عن آثار الأسرتين الأولى والثانية من مصر القديمة بل وآثار ماقبلهما وحتى ذلك التاريخ كانت أقدم آثار الفراعنة المعروفة تنتمى إلى الأسرة الثالثة .

فهل نشهد فى السنوات العشر القادمة بعث الروح فى هذه المؤسسات العلمية ؟ ! .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



الهلال
أبريل ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشا
نداء
شكري
عياد
دفاع
حار عن
القاهرة
العباسية



جلسة للفنان إدون لونغ

متحف نيويورك

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمي التوني المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة
سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٠٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات
قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

«نداء» شكرى عياد

جزء خاص

فكر وثقافة

نداء شكرى عياد

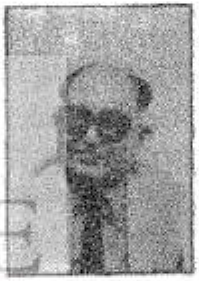
☐ تحتفى الهلال بالدكتور شكرى عياد الذى تعده واحدا من أبرز الكتاب والنقاد العرب المعاصرين.

وشكرى عياد رجل أدب عربى صميم، وهو من بلغاء هذا العصر، فأسلوبه من الأساليب المعدودة فى عصرنا مع أساليب د . طه حسين والعقاد والمازنى وإلى جانب كونه ناثرا، كتب القصة، والمقالة، إلى جانب كتاباته النقدية المتميزة، فله تجاربه فى الشعر، والتى نرجو أن نراها، لتضاف إلى سجله الحافل فى الثقافة العربية.

تفرغ للعمل النقدى، لأنه يرى أن العمل النقدى هو العمل الأساسى، لأنه مفكر من الدرجة الأولى، ومثقف ثقافته موسوعية، وثقافته الموسوعية هذه قادته إلى الفكر اليسارى فى شبابه كمفكر يسارى، ولكنه عدل عن اليسار، ولم يقترب من اليمين فى الوقت نفسه، وظل فى الوسط.. إنه يسار الوسط وأفكاره كونية، ليست متعلقة بالأرض فقط، لأنه درس الفلسفة أكثر من خريجى قسم الفلسفة، كما أنه ضليع فى الترجمة من الانجليزية إلى العربية بسبب إلمامه الكامل بأسرار اللغتين معا، ويعرف الفرنسية جيدا، ولذلك يحيط باللغة الغربية فرنسيا وانجليزيا، كما يحيط بالأدب العربى قديمه، حيث يستطيع أن يؤلف فى أدب العصر العباسى، كما يستطيع أن يؤلف فى أدب القرن العشرين، ولهذا ترجم كتبا من الانجليزية إلى العربية، ومعظم أعماله النقدية فيها صدى لقراءاته فى الآداب الأوربية والأمريكية، لأنه يطالع فى لغتها، ويسعد قراءه بكل جديد فى هذا المجال.

وهو ناقد أدب شامل، فيستطيع أن ينقد الشعر والقصة والمسرحية، كما ينقد الأعمال الفكرية بدرجة إجادة واحدة.

وهذا الرجل خيالى، كما أنه واقعى جدا، وساقته واقعيته

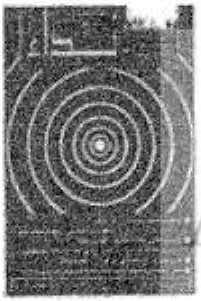


د . شكرى عياد

عزيزى القارىء

إلى أن يرحل إلى البلاد العربية، فيما يسمي الإعارة، وحقق شهرة كبيرة بين مثقفيها، فيما قدمه من فكر واقعي، أحدث ثورة فكرية بين المثقفين العرب فى تلك البلاد، ربما أكثر من بلده مصر!

وشكرى عياد رجل مبادىء يحب المثل العليا، وله مشروعاته الجليلة فى خدمة البيئة، والحرص على المثقف العربي، ومحاولة خلق مشروعات تعينه فى هذه الحياة، منها المكتبة التى أنشأها فى بيته بالمهندسين خدمة لأهل الحي، أو لمن يود، كما أصدر مجلة «نداء» في محاولة جادة لمحاربة الفساد من خلال الثقافة الحرة المستنيرة، مع أن الفساد داء قديم لا يمكن القضاء عليه. أو حتى تخفيفه فى مجلة مهما بلغ اتساعها، ولكنه بروحه الوثابة لا يهدأ من أجل انجاح هذه المجلة التى صدر منها عددها التجريبى، مع بداية معرض الكتاب هذا العام.



وتنعكس أستاذيته على كتاباته، فهو يتكلم أحيانا بلغة المعلم، وإن كانت أكثر كتاباته بلغة الأديب الذى يتواضع لقرائه، ويخاطب المثقف الواسع الثقافة، كما يخاطب المثقف العادى، وهذه هى لغته الصحفية التي يخاطب بها أوسع الجماهير.

فتحية إلى صاحب «القفز على الأشواك» الذى يقف موقفا فريدا فى بابه، وآثر الهلال على غيرها من المجلات ذات الورق المصقول .

إن هذا العنوان الذى اختاره لكتاباته في «الهلال» يكاد يمثل موقفه فى حياته الحافلة مع الأدب والفكر، وعلاقتهما بالحياة والناس والمجتمع.. إنه لم يمش قط إلا على الأشواك، ولم يجن من الكتابة والثقافة إلا أشواكا!!

.. تحية لـ «نداء» شكرى عياد، هذه المجلة التى بذل فيها جهدا كبيرا لكى ترى النور، وليثبت أنه برغم الصعوبات قادر على أن يحيي مشروعه الثقافي الكبير الذى يناضل من أجله.

□ المحــرر



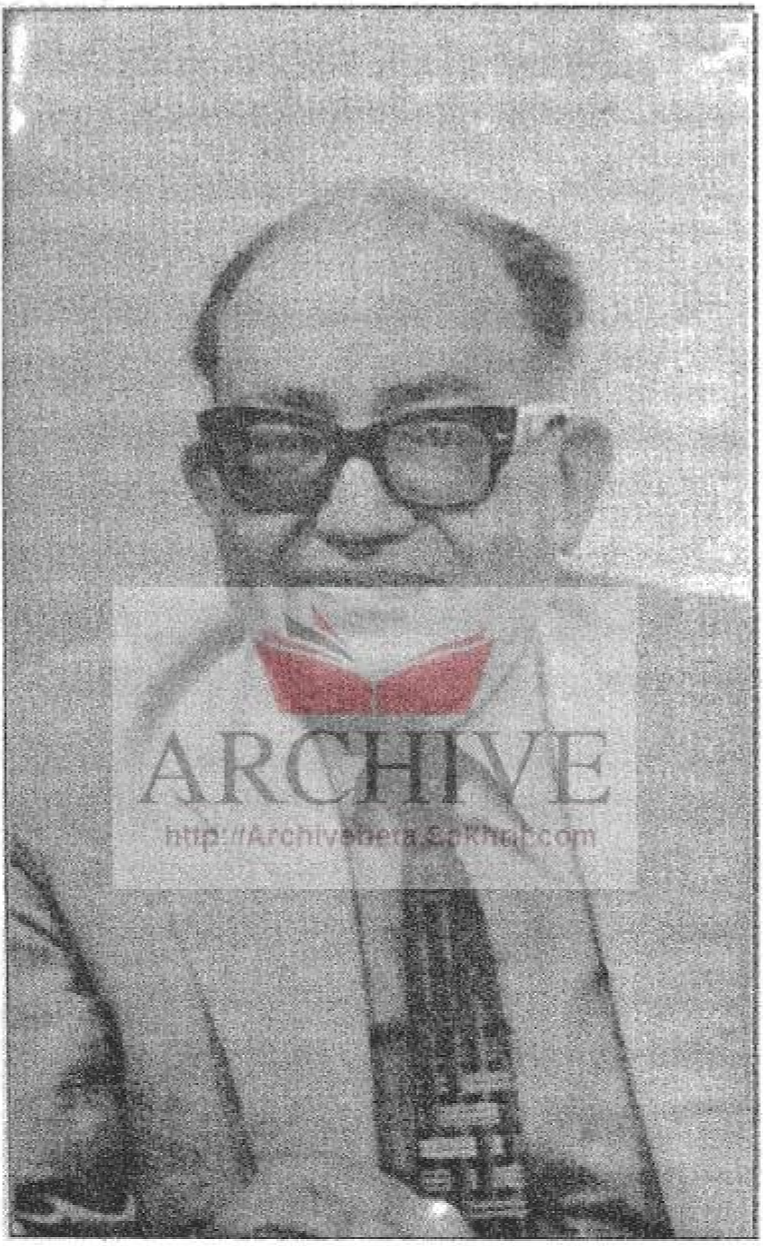
جزء خاص

شكري عياد
أستاذا ومفكرا وصديقا

بقلم: د. محمود فهمي حجازى

■ كان المناخ العام فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ عندما التحقت بكلية الآداب يسوده نوع من القلق والترقب. فى تلك الأيام حضرت محاضرات الدكتور عبدالفتاح شكرى عياد وكان مدرسا شابا واعدا، كان يمثل طرازا متميزا من الرجال، يحقق الصلة الوثيقة بالتراث العربى والطموح الشديد، إلى بحث لقاء الثقافات فى تاريخنا وإلى معرفة كل جديد فى الدراسات اللغوية والأدبية. رسالته لدرجة الماجستير (١٩٤٨) كانت فى دراسة جانب من النص القرآني، بحث وصف يوم الدين والحساب، أما رسالته للدكتوراه (١٩٥٣) فكتبها عن كتاب الشعر لأرسطو كما عرفه المسلمون وأثره فى أدب العربية. وكلتا الرسالتين كانتا بإشراف أمين الخولى، الذى أبعد عن جامعة القاهرة فى صيف (١٩٥٤). ساد فى الجامعة نوع من القلق، وفى الوقت نفسه كان الأمل فى أن تحقق الثورة أهداف الشعب يجعل الرغبة فى إعادة بناء مصر فى النسق العربى تتجاوز بعض الآلام وتفضى إلى قدر كبير من الترقب.

يتبع بعد...



إن الوعى الجديد الذى كان واضحا فى الحياة الثقافية المصرية فى تلك السنوات جعل لشكرى عياد مكانا متميزا. فهو من بيئة علمية تحترم التراث وتلتزم ببحثه بمنهج نقدى وتقبل على بحث صلات أدبنا بالآداب الأخرى وتدرس تراثنا الفكرى والنقدى فى نسق العلاقات المتبادلة مع ثقافات أخرى. وشكرى عياد له فى هذا كله مكانة واضحة. كانت الصلة بين تراث اليونان والتراث العربى موضوعا محببا إلى عقولنا. لم يكن الاهتمام بهذا الموضوع مقصورا على طه حسين وتلاميذه المباشرين، وإن كانت لهم فيه مشاركات واضحة، فقد كان عميدنا آنذاك الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة بعد نقله من كلية دار العلوم إلى كلية الآداب يدرس لنا بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، وكان قسم اللغة العربية وآدابها يهتم بالمقارنات فى كل مجال، كأن لقاء اللغات والثقافات أصبح مطمح الباحثين. ظل أستاذنا اللغوى الكبير خليل يحيى نامي - وهو من رواد دراسة العربية الجنوبية القديمة - يبحث بنية اللغة العربية بالمقارنة بلغات سامية أخرى. وفي هذا الإطار برز شكرى عياد ببحوثه التى أفادت من معرفة وثيقة بتراث اليونان النقدى وبحركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية والعربية ومشكلاتها اللغوية والمعرفية، وباشر هذا كله فى تاريخ فكرنا النقدي والبلاغى.

● مع طه حسين

كانت الحياة الثقافية تسودها شخصيات متميزة تتجاوز مكانتها دور العلم إلى فئات المجتمع. طه حسين يحاضرنا فى الأدب العربى القديم، وتلاميذ طه حسين الذين أصبحوا مدرسين أو أساتذة مساعدين أو أساتذة يحضرون مع الطلاب محاضرات أستاذهم وأستاذنا العلامة. وشكرى عياد واحد من أعضاء هيئة التدريس، كانت محاضرات طه حسين تجمع ثلاثة أجيال وتحقق صلة فكرية نادرة، تقوم على الأمل فى التقدم والثقة فى المستقبل. وفي تلك المحاضرات تكونت عدة ملامح أثرت فى جيلنا كله. وإذا كان شكرى عياد قد كتب عن كتاب الشعر لأرسطو فإن سهير القلماوى ومحمد صقر خفاجة اهتما بنصوص نقدية يونانية أخرى، وظلت مناقشتى مع شكرى عياد فى أثناء دراستى للأدب اليونانى القديم مع زملائى بقسم الامتياز على يد أستاذنا الراحل محمد صقر خفاجة خير مثال لوعى علمي راق، يتوازى مع اهتمام عميق بالأدب العربى فى تاريخه وعلاقاته الثقافية عند شوقى ضيف وطلابه من مصر وكل الدول العربية الأخرى.

إن شكري عياد ظل فى وعى جيلنا، يمثل الأستاذية الحقة، وفي مواقف كثيرة كان فكره يتجاوز الإطار التقليدى للأداء الجامعي الرتيب، أذكره فى دراستنا للنقد

الأدبى قد قسم الموضوع إلى محاور محددة، وكلف كل طالب من الطلاب الطموحين ببحث واحد منها، وظللت أعرض الموضوع الذى كلفت به عدة محاضرات وهو يناقش ويحاور والمشاركة من الزملاء محدودة، ثم أعرض طلاب آخرون عن هذه المغامرة، وعادت المحاضرات إلى نظام الاستماع المريح، وبعد ذلك بسنوات معدودة أدركت في جامعة أرلانجن وجامعة ميونيخ بألمانيا عظمة أستاذنا وتخلف نظام الاستماع المريح، وعلمت أن التجديد الذي حاوله شكرى عياد هو النسق العام لحلقات البحث فى الجامعات الألمانية، وذلك كله نابع من فكرة تتجاوز التلقين إلى التفكير وتتجاوز التلقي إلى الإبداع. وما أحوج جامعاتنا إلى تطبيق هذا النظام بشكل جاد.

● صورة البطل فى الأدب العربى

استمر عطاء شكري عياد لطلابه يتجدد مع مراحل دراساتهم ومع تقدم المعرفة، وكان إشرافه على عدد من الطلاب المصريين وغير المصريين مصدر فخر لهم، كانت علاقات النصوص موضوع دراسة، منها رسالة عدنان يوسف سكيك (١٩٧٠) عن الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن الكريم وانعكاس مثلها على صورة البطل فى الأدب العربى، واتصل اهتمام المشرف بالدراسة القرآنية فى رسالة منير أحمد قاضى (١٩٧١) عن الإنسان والشيطان فى القرآن الكريم. وهذه الدراسات ظلت موضع عناية شكرى عياد فى سياق الدرس الأدبى للنص القرآنى مع الإفادة من علوم التفسير والبلاغة، وهنا نجد شكرى عياد تلميذا حقيقيا لشيخه أمين الخولى الذي عرف بذكاء وشفافية كيف يكون التكامل بين البلاغة والتفسير من أجل فهم دقيق وتذوق حقيقى للبلاغة القرآنية.

وإذا كان أمين الخولى قد اهتم بأدب مصر الإسلامية فإنه بإشراف شكري عياد قدمت بعض الرسائل الجامعية عن مصر العربية، تناول محمد عبدالقادر عبدالناصر فى رسالته للماجستير (١٩٧٧) شعراء التورية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وكتب محمد صلاح عيد (١٩٨٠) عن المدائح النبوية فى الشعر العربى حتى البوصيرى، وقريب من هذا الموضوع رسالة عبدالخالق محمود عبدالخالق (١٩٧١) عن تائية ابن الفارض وشروحها فى العربية، وهذه الدراسات أصبحت سمة لجهود متصلة تناولت الأدب والحياة الثقافية فى مصر العربية.

واتضح الوعى بوحدة الثقافة العربية فى عدد من الرسائل الجامعية التى قدمها بإشراف شكرى عياد عدد من الدارسين ينتمون إلى أقطار عربية مختلفة، كتب منير بكر التكريتى عن الصحافة العراقية وأثرها فى تطور الأدب العراقى

الحديث (١٩٦٧)، وقدم عبدالرحيم أبوبكر محمد أحمد (١٩٧٣) رسالته عن الشعر الحديث في الحجاز (١٩١٦ ـ ١٩٤٨). وأشرف شكرى عياد على رسالة حسنى محمود حسين (١٩٧٢) عن شعر المقاومة الفلسطينية (١٩١٧ ـ ١٩٦٧). ودرس بابكر الأمين الدرديرى (١٩٧١) وصف الطبيعة فى الشعر السودانى الحديث، كتب محمد بدرالدين هاشم (١٩٧٠) عن الشاعر السودانى التيجانى يوسف بشير، وقدم اسماعيل عبدالكريم حسن (١٩٧٠) عن شعر محمد البزم، ونال أدب المهجر قدرا من الاهتمام فى رسائل جامعية، منها ماكتبه سمير بدران قطامى (١٩٦٩) عن إلياس فرحات حياته وشعره.

وفى هذا كله تتجاوز الرسائل الجامعية التى أعدت بإشراف شكرى عياد الأنواع الأدبية بحدودها التقليدية إلى الفكر فى مجالاته المتكاملة. من هذه الرسائل: الكواكبى مصلحا وأديبا، قدمتها نور ليلى عدنان (١٩٧٠). وهنا نجد الأدب والثقافة فى العصر الحديث فى نسق دراسات تناولت عددا من أقطار العربية فى المشرق والسودان ومصر والمهجر.

إن قضية لقاء الثقافات ظلت تتخذ فى الرسائل الجامعية بإشراف شكرى عياد عدة أشكال. هنا رسالة عن أدب الرحلات بوصفه صورة للقاء الثقافات ورؤية للآخر، كتب حسنى محمود حسين (١٩٦٩) بإشراف شكرى عياد عن أدب الرحلات عند أمين الريحانى وظلت قضية التأثير والتأثر فى إطار لقاء الثقافات مجالا لدراسات جامعية بإشرافه، من ذلك رسالة كمال ثابت قلته (١٩٧١) عن أثر الثقافة الفرنسية فى أدب طه حسين. وهذه القضية كانت دائما موضوعا أثيرا فى اهتماماته ومناقشاته العلمية والثقافية، دعمتها تلك الدراسات والإقامة والصلات مع ثقافات أوربية قديمة وحديثة، ومع خبرة عمل فى أمريكا اللاتينية.

● بين الأستاذ وطلابه

كان استيعاب البحث الأدبى لحركات التجديد فى الأدب العربى الحديث مجالا لعدد من الرسائل الجامعية، كتب بإشرافه أحمد إبراهيم الهوارى (١٩٧١) عن البطل المعاصر فى الرواية العربية فى مصر إلى سنة ١٩٥٢. وكأن الاهتمام بصورة البطل قد انتقل من الأستاذ إلى طلابه فى بحوثهم، وكتب أبوالفتوح محمد عبدالمؤمن (١٩٧٠) عن البطل فى مسرح الحكيم. أما أعلام الأدب الحديث فى مصر فقد كانوا موضع اهتمام عدد من الرسائل، منها رسالة إبراهيم حسين الفيومى (١٩٧٦) عن أحمد شوقى ناثرا. وكان الإطار النظرى موضع البحث، كتب محمد عبدالهادى محمود (١٩٧٢) عن نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة

الديوان، وفوق هذا كله فلابد من الإشارة إلى مجموعة من الرسائل تناولت النقد الأدبي العربي، كتب عبدالحكيم محمد راضي (١٩٧٠) عن فن الابتكار في النقد العربي، وقدم محمد على رزق الخفاجي (١٩٧٠) رسالته عن مفاهيم النقد والبلاغة عند الجاحظ من البيان والتبيين، وهكذا انتظمت في هذه الرسائل دراسات تناولت التجديد والاتجاهات والأصول النقدية.

القيم الثقافية التى تتأكد فى هذه الدراسات تتلخص فى ثلاث سمات، منها التأصيل الثقافي من خلال دراسة التراث العربي فى نسق لقاء الثقافات قديما وحديثا، ومنها تأكيد قيمة الانتماء الثقافى العربى فى إطار وحدة الثقافة ووجود ألوان محلية، وفيها قدر من الإيمان بالتجديد والدعوة إليه وحفز الدارسين إلي رصده.

ولكن قيمة الأستاذ المفكر تتجاوز العمل المنجز المدرك إلى الجانب المعنوى الذي يحقق استمرار العطاء عبر الأجيال.. وكان لأستاذى وصديقي شكرى عياد فضل كبير على فى نشر باكورة أعمالى باللغة العربية، كنت قد عدت من البعثة فى ألمانيا، حيث درست حتى الدكتوراه، إلي جامعة القاهرة لأحاضر بالعربية فى علم اللغة، كنت قد ألفت بالألمانية فى أثناء البعثة، وكان علىَّ فى مصر أن يتم التحول فى هدوء ودقة وثقة. فأخذت أكتب محاضراتي قبل إلقائها، وكان تدوينى لها يجعل الارتجال أمرا سهلا، كنت أقضى الأسبوع كله فى كتابة بضع صفحات على نحو ينظم المادة بدقة ويسهل الكلام عنها، وذات يوم أخذ منى أحد الطلاب هذه الصفحات التى كتبتها وأستأذننى فى أن يطبعها لى بالآلة الكاتبة، وأحضر لى منها أكثر من نسخة، ولم أدر ماذا أصنع بها، فقدمت نسخة منها لزميلي الكبير شكرى عياد. وبعد نحو ساعتين دق التليفون في منزلي، وقال لى سأنشر لك هذه الصفحات فى كتاب اخترت عنوانه من كلامك، وهو : اللغة العربية عبر القرون، فرحت كثيرا بذلك، ومع هذا فقد كنت أعتذر خوفا من المواجهة مع قراء لايعرفونني. وطلبت منه أن أفصل هذه الموضوعات، فشجعنى رافضا ذلك بأدب شديد، متمسكا بهذه الصيغة الموجزة. وهكذا عرف القراء العرب ـ بعد أسابيع عصيبة تلت نكسة ١٩٦٧ ـ كتابا صغيرا لشاب فى السابعة والعشرين يتناول اللغة العربية عبر القرون، نشر فى سلسلة المكتبة الثقافية التى كان يشرف عليها شكرى عياد، وحقق الكتاب توزيعا عاليا وكان سعره زهيدا جدا، واشتراه الطلاب وفرحوا به وأقبل عليه رجال الإعلام، وعرضوه فى عدد من البرامج واقتبسوا منه فى برامج كثيرة. وكأن طاقة القدر قد فتحت، ونسيت فى غمرة ذلك مكافأة

التأليف، فنبهنى الزميل الأستاذ إلى ضرورة التعاقد وسعدت بالحصول على خمسين جنيها كاملة.

● الثقافة .. الزاد المعنوى

في تلك السنوات التي أعقبت النكسة (١٩٦٧) وقبل العبور (١٩٧٣) كانت الثقافة تمثل الزاد المعنوى الكبير للمقاومة ولمعركة تحرير مصر. وتداخلت فى حياتي وفى صلتى بأساتذتى ومنهم شكرى عياد الاهتمامات الخاصة بالرؤية الوطنية العامة، كنت أجد رفاق العمر يخدمون في القوات المسلحة، ففرضت على نفسى أن أعمل في مجالي العلمى والثقافى وكأننى فى معركة، وكان شكرى عياد يشجعنى بإصرار نادر. نشر لى كتابى الثانى فى سلسلة المكتبة الثقافية أيضا، وهو علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة (١٩٧٠). وحقق الكتاب انتشارا كبيرا، فكان الكتابان على مايبدو لي - أول كتابين أنزلا علم اللغة إلى جماهير المثقفين فى مصر.

ولكن عطاء شكرى عياد لثقافتنا وللمثقفين كان قد اتخذ برئاسة تحريره لمجلة «المجلة» مسارا جديدا، إنها ظلت بحق سجل الثقافة العربية بجهود مثقفين أصلاء منهم يحيى حقى برؤيته الثقافية النادرة، كانت المجلات الثقافية فى وزارة ثروت عكاشة تشكل منظومة كاملة: المجلة، الفكر المعاصر، المسرح، الفنون الشعبية، الأدب. كان الكتاب يتعاونون ولم تكن هناك منافسة تجارية، إنها منافسة من أجل التفوق والإتقان وكان شكري عياد من رجال القمة في هذه المنظومة إلى جانب سهير القلماوى وزكى نجيب محمود وعبدالحميد يونس وعلي أدهم، وكان لهذه النخبة دور كبير فى تشجيع المثقفين الشبان، والعلماء الصاعدين والمبدعين الجادين. وشاركت فى الكتابة لهذه الدوريات، فى مجلة «المجلة»، تابعت الإنتاج اللغوى، ونشرت عددا من الدراسات، وأصبحت الكتابة العلمية للمثقفين عملا أحبه وأجد فيه سعادة وتحقيقا للذات، ولا أنسى هنا فضل من كان يفتح لي مجالات النشر ويجعلني ألتزم بمتابعة الجديد وبتقديم الرأى الأصيل والملاحظات الجادة.

عاش شكرى عياد - مد الله فى عمره - سنوات طوالا خارج العمل الرسمى، تارة كان متفرغا للبحث، لا يحاضر إلا أسابيع محدودة فى جامعات الجزائر فى عهد مابعد التحرير، وتارة أخرى ظل بجامعة الرياض يحاضر ويؤصل ويكون الأجيال، ولكنه استمر دائما يعطي طلابه فى ود نادر، ويناقش زملاءه ومريديه، مناقشة المثقف الواعى، ويحاول أن ينقل القيم الثقافية إلي جمهور القراء. يتجدد طموحه دائما وتتضح رؤيته الثقافية بخبرة السنين، وفى كل هذا يتأكد إصراره على أهمية الثقافة فى بناء الحياة.



جزء خاص

الدكتور شكرى عياد والمقال الأدبى

بقلم : اعتدال عثمان

الدكتور شكرى عياد قامة كبيرة فى حياتنا الفكرية والثقافية ولعل السمة الرئيسية التى تتميز بها مقالاته الأدبية تتمثل فى تنوع الموضوعات التى تناولها على امتداد ما يقرب من نصف قرن، غير أن الجانب الأهم - فى تصورى - هو تماس فن المقال الأدبى لديه وهموم القارىء العادى فى مختلف مجالات الحياة، بما يجعل الفكر والنقد، المرتكز على أساس معرفى عميق الجذور، متاحا لقاعدة واسعة من القراء، وبما يفضى الى خروج المثقف من دوائر التخصص الأكاديمى الى رحابة الواقع اليومى بمشاكله وقضاياه.

لقد بدأ الدكتور شكرى عياد الكتابة الصحفية والترجمة عام ١٩٤٧ فى مجلة «مسامرات الجيب» ونشر قصصه ومقالاته خلال الخمسينات فى «المصرى» و«روزاليوسف» و«صباح الخير». وفى أوائل الستينات حرر بابا نصف شهرى بعنوان «تجارب فى الأدب والنقد» فى «أخبار اليوم»، كما أسهم فى الصفحة الثقافية لجريدة «الجمهورية» خلال عامى ١٩٦٥ و ١٩٦٦.

وتعد سلسلة مقالاته، التى بدأها فى مجلة الهلال منذ عدد مارس ١٩٨٣، بعنوان «القفز على الأشواك» نموذجا لفن المقال الأدبى لديه وتتراوح موضوعاتها بين الاقتصاد والسياسة والقضايا الثقافية العامة والبحث العلمى وتطبيق الشريعة والقوانين وصياغة الحاضر الى غير ذلك من قضايا الفكر والحياة، بالاضافة الى عدد كبير من المقالات خصصها لمراجعة الابداع الروائى والقصصى والشعرى وكتب الفكر والدراسات الأدبية.

● القفز على الأشواك

أود هنا أن أتوقف عند دلالة اختيار الدكتور شكرى عياد لعنوان «القفز على الاشواك» لأنه لا يعبر - فى تصورى - عن مواقفه فحسب، بل إنه يصور نهج الكاتب فى فن المقال الأدبى.

لقد تناول فى مقالاته عددا كبيرا من القضايا الشائكة واتخذ فى معالجاتها منظورا يقوم على المسافة الضرورية الفاصلة، بين ما يروج أو يُرَوَّج تجاه قضية أو أخرى . والواصلة فى الوقت نفسه إلى جذور القضية ذاتها فى سياقها التاريخى المعين، إنها مسافة كافية لموضيء قدم تسير فوق أشواك الفكر والواقع وتعنى التزاما وطنيا فى الصميم، وموقفا إيجابيا مستقلا فى ان. من خلال ذلك الموقع المستقل يستقرىء الكاتب حكمة الأحداث التاريخية ويُقْدِم على فحص العلل الاجتماعية، بنظرة موضوعية رشيدة، تجمع بين التعمق فى فهم الأسباب وتحليلها بإلمام العالم وإحاطته وبسطها فى الوقت نفسه أمام القارىء العادى. وهو إذ يتوجه بفكره إلى الناس فإنه يطرق معهم أبواب الأمل ويحثهم على التفكير العقلانى المستنير فى قضايانا القديمة الجديدة من خلال خصوصيتنا الحضارية والثقافية، ولا يتخلى قط عن الأمل فى مجاوزاتها إلى مستقبل أفضل.

القفز على الأشواك يلمح أيضا إلى طريقة فى كتابة المقال الأدبى، تعتمد البدء بالعينى الملموس الذى يعترض الناس فى حياتهم اليومية، بطريقة يألفها أهلنا فى الريف والمدن، ثم يتطرق بعد ذلك إلى ما هو فلسفى يقوم على التجريد الفكرى، دون أن تفقد الفكرة عمقها أو تتأبى على الأذهان فى آن.

وإذا كان لى أن أصف أسلوب المقال الأدبى لدى الدكتور شكرى عياد فإننى أجده يجمع بين الرصانة والإحكام اللغوى ودقة العالم المتمرس فى التعبير عن موضوعه ووضوح الصحفى الأديب، فضلا عن ذلك الملمح الأهم الذى يتمثل فى مخاطبة القاريء كأنه صديق قديم يدعوه للمشاركة ويجذبه بأسلوب ساحر مميز، يستخدم الطرفة والدعابة والنكتة والمفارقة الساخرة كأنه يسامر القاريء وهو فى الحقيقة يحثه على التفكير.

فيما يلى سأعرض لمقالات نشرت فى «الهلال» تمثل - فى تصورى - نموذجا دالا على موقف الدكتور شكرى عياد الفكرى الحضارى فى سياقنا العربي الراهن، وموقفه من الغرب والشرق على نحو ما يظهر فى التجربة اليابانية، ثم تناوله النقدى للمناهج الأدبية الحديثة، خصوصا فى دراسة «ألف ليلة وليلة» ، وأخيرا أقدم مثالا لتحليل أحد الأعمال الروائية.

● الأزمة الحضارية ومجاوزتها

يحدد الدكتور شكرى عياد موقفه الفكرى فى مقال بعنوان «هذا الكلام عن العقل العربي»* يناقش فيه بعض منطلقات الفلسفة العربية الحديثة، ويرى أن المشكلة الأساسية التى تواجه الفكر الفلسفى، أصلها هو حاضرنا المشدود إلى الماضى من ناحية وإلى المستقبل من ناحية أخرى، أما الحاضر فلا يزال بينهما باهت الملامح. لكن الكاتب لا يرضى ببيان موقفه قبل أن يحدد - كدأبه دائما - ما يعنيه بالماضى والمستقبل، أو القديم والجديد، تحديدا واضحا وملموسا . إن الماضى - كما هو معروف - يعنى التراث، على الرغم من أن مدلول الكلمة يضيق عند أقوام ويتسع عند آخرين. والمستقبل يعنى عند معظم الناس، الحضارة الغربية الحديثة. ويرى الكاتب أن التيارات الرئيسية الثلاثة الداعية إلى التمسك بالتراث كله أو رفضه كله أو التخير منه، إنما تمثل موقفا «منفعلا» من التراث. أما الموقف الذى يتبناه فهو التحول من الانفعال إلى الفعل، ومن ثم نتحول من مستهلكين للتراث إلى منتجين له.

إن إعادة إنتاج التراث فى الحاضر تقتضى فهمه واستيعابه وتمثله بحيث «تصبح تجارب الماضى هى تجاربنا، لا كمستقبلين سلبيين لها.. بل كفاعلين إيجابيين، يستخدمون حصيلة هذه التجارب فى نشاطهم الحالى كما يستخدمون تجاربهم الخاصة».

يؤكد الكاتب هنا منظوره التاريخى، بمعنى أن فهم التراث مشروط بمحيطه الزمنى والمكانى من ناحية وبأدواتنا فى الفهم من ناحية أخرى، ويضيف قائلا «نحن نقبل التراث كله، ولا نثقل خطانا بشىء منه. نعجب بالمعتزلة، ونحترم أهل السنة، ونتواجد مع المتصوفة، ولكننا لا ننتمى إلى أى فريق منهم».

أما بالنسبة إلى مفهوم المستقبل لدى «معظم الناس»، أى الحضارة الغربية الحديثة، فإن الكاتب يكشف عن موقف نقدى تجاه الانبهار بكل جديد، يأتى من الغرب. صحيح أن «الجديد

* اعتمد هنا على كتاب جمع فيه المؤلف بعض مقالاته فى الهلال وصدر بعنوان «القلز على الأشواك - تطبيق الشريعة وصياغة الحاضر. انظر المقال ص ٥٧ - ٦٧ - منشورات أصدقاء الكتاب . ١٩٩١

بجذبنا لكننا لا نريد أن نذهب إليه أصفارا، ومن ثم ينبغى ألا نكتفى بما تقدمه الحضارة الغربية لنا وإنما نمتد نحن إليها بإرادتنا ونبحث فى خصائصها ومقوماتها ونحولها، كما حولنا تاريخنا الخاص من الانفعال إلى الفعل ومن الانبهار، فى هذه الحالة، إلى ملك شخصى لنا، يقوم على إرادة الاختيار.

يشخص الدكتور شكرى عياد الأزمة الحضارية، ولا ينسى أن يعقب ساخرا على ابتذال كلمة «أزمة» فى مجال الفكر والفن والكتابة «حتى أصبح بعض الناس يتحدثون عن أزمات الثقافة كما يتحدثون عن أزمات التموين».

لقد مهد الكاتب للأفكار الأساسية التى تمثل موقفه قبل أن يبادر إلى بيان طريق الخلاص من الأزمة ويحدد بعبارة واضحة وقاطعة ودالة هى : هنا والآن ويضيف قائلا «لا خلاص لنا إلا بأن نبدأ من الحاضر أن نعى الحاضر بعمق وأن نغيره بقوة «أما السبيل إلى الوعى والتغيير فإنه ينبنى على إعمال العقل وإطلاق الخيال والعمل المنظم الدوب، أو بعبارة مختصرة، الإبداع فى مختلف مجالات الحياة.»

● التجربة اليابانية

عادة ما تفضى مراجعة الدكتور شكرى عياد لكتاب ما إلى استدعاء قضية سبق ان عالجها فى مجال آخر أو فى مقالات سابقة لكى يزيد موقفه الفكرى إيضاحا. من خلال زوايا مختلفة، ترتبط هنا بمسألة الأمة الحضارية، منظورا إليها هذه المرة فى سياق العلاقة بين الغرب والشرق، وتحديدا فيما يخص الحلول التى ابتكرها اليابانيون لاقتحام العصر والتفوق الاقتصادى المذهل الذى حققوه بعد هزيمتهم فى الحرب.

فى مقال بعنوان «تجربة اليابان» (الهلال - مارس ١٩٩٥) يناقش الكاتب ترجمة الدكتور نصر حامد أبوزيد لأحد الكتب المهمة فى مجال التعريف ببدايات النهضة اليابانية فى العصر الحديث، خلال الفترة من ١٨٦٣ الى ١٩٢٣.

يتناول المقال تجربة اليابان بوصفها بلدا شرقيا نسخت بتطورها المستمر ما سبقها، ولا تزال تثير دهشة العالم. ويعقد الكاتب مقارنة لافتة بين ما وصلت إليه اليابان وواقعنا نحن خصوصا وأن مصر كانت قد أنجزت عملية تحديث هائلة خلال العقود الثلاثة الأولى من حكم محمد على. سبقت نهضة اليابان، بما يقرب من ستين عاما، حتى يقال إن اليابان أوفدت بعثة إلى مصر لتستفيد من تجربتها التحديثية الثانية فى عصر إسماعيل.

وإذا كان مترجم الكتاب يعود فى المقدمة إلى الأسباب التى أفضت إلى مأزق النهضة

العربية، قياسا على تفوق التجربة اليابانية، فإن الدكتور شكرى عياد يؤكد أن الصيغة المركبة الأصيلة التى أبدعها اليابانيون، وامتازوا بها عن سائر شعوب الأرض، مستمدة من تاريخهم الثقافى، وأننا لا نستطيع أن نأخذها عنهم، وإنما يجب أن نبحث عن أصالتنا نحن المختلفة، لأن تاريخنا الثقافى مختلف . إن المسلك الإيجابى الذى يطرحه الكاتب هنا ويؤكد عليه فى أكثر من موضع، يتمثل فى أن الخروج من الأزمة بهدف بناء ثقافتنا المعاصرة . لابد أن يتفق مع تراثنا من ناحية والأخذ بكل جديد نافع من الحضارة الغربية من ناحية أخرى . إن هذا المسلك هو الذى يكفل التوصل إلى الصيغة المركبة، المعبرة عن خصوصيتنا الحضارية.

● الليالي وقضية المرأة

فى جزء خاص من الهلال (إبريل ١٩٩٥) عن «ألف ليلة وليلة» يفتتح الدكتور شكرى ملف العدد بمقال شائق حول «الليالي وقضية المرأة».

لقد استوقفنى فى هذا المقال موقف الناقد الكبير تجاه الدراسات الأدبية التى تناولت هذا العمل وأول هذه الدراسات ـ بالطبع ـ الدراسة الرائدة للدكتورة سهير القلماوى التى يحتفى الكاتب بدورها وتأثيرها فى أجيال تالية خصوصا وأنها قد طرقت بابا من أبواب الدراسات الأدبية، كان الباحثون يحجمون عن طرقه، تأففا أو استنكافا للدخول فيه.

يضع الكاتب الدراسة الرائدة فى سياقها التاريخى والاجتماعى ويربطها بالحركة النسائية، التى كانت منذ نشأتها فى مصر وثيقة الصلة بالثورة الوطنية، ومن ثم كان طابعها اجتماعيا واضحا.

ولقد استمرت الليالى فى تفاعلها مع مختلف الاتجاهات الفكرية والأدبية وأصبحت محورا لكثير من الدراسات النقدية التى تعكس، بوضوح نموذجى، حالة هذه الدراسات بوجه عام.

لايعلن الكاتب فى مقاله أنه يقدم «نقد النقد» الذى تناول الليالى بالتحليل والدراسة، إن استخدام مثل هذا المصطلح قد يربك القارىء العادى. لكن الدكتور شكرى عياد يحيط بمنطلقات المناهج النقدية المستخدمة ويبسطها للقارىء بعد أن يكون قد جذب انتباهه بالاشارة إلى كيفية تناول الأثر الشعبى لموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة . فالليالى قدمت ولاتزال تقدم «أعمق معالجة لأهم موضوع شغل به الأدب الشفوى أو المكتوب منذ أبدعت البشرية أدبا».

وإذا كان الدكتور شكرى عياد يعد أحد أقطاب المنهج التاريخى فى مجال الدراسات الأدبية، فإنه لا يحجم عن انتقاد النظرة الضيقة التى تختزل ثراء الخيال

فى الليالي، كما تختزل التراكمات الثقافية بالغة الغور في تاريخ البشرية، إلى أصل بسبط يرتبط بالظروف السياسية والاجتماعية فى الإمبراطورية الساسانية أو الدولة العباسية أو العصر المملوكي في مصر.

إن ذلك العمل الموسوعي التجميعي الفريد - وفقا للنظرة التاريخية المتعمقة التى يؤثرها الناقد الكبير - يتألف من «طبقات ثقافية» متراتبة أو متداخلة، لا تعبر عن سياقها الزمانى والمكانى فحسب، بل إنها تكشف السمات الراسخة في الوعي البشري، على نحو ما نجد فى الجانب الأسطورى، فضلا عما تحفل به الليالي من اقتباسات شعرية ونوادر وأمثال وحكم وطرق فى القص، تمزج التجارب اليومية بالخوارق من كل نوع، بما يجعل الليالي أثرا أدبيا خالدا ونبعا لاينضب على امتداد تاريخ الأدب العربى والعالمى فى آن.

يتخذ الدكتور شكرى عياد موقفا نقديا ايضا من الاتجاه البنيوى الذى يحاول المتأثرون به النظر إلى الليالى بوصفها نصا أدبيا قائما على عدد كبير من التقابلات الثنائية، ومن بينها التقابل بين الرجل والمرأة . ولكن الناقد يرى أن هذه المحاولة نفسها قد أدت إلى غياب رؤية وحدة العمل الأساسية، لصالح إبراز قانون الثنائيات المتعارضة.

ويرى الناقد أن الاتجاه النقدى الذى يصدر عن الحركة النسائية المعاصرة . يعمل على إسقاط مشكلات النقد النسائى الغربى على «ألف ليلة وليلة» بهدف تصوير مغرض لوضع المرأة الشرقية، يتضافر والصورة المغرضة التى تلح عليها أجهزة الإعلام الغربى.

ينتقد الدكتور شكرى عياد منطلقات النقد النسوى الغربى لغياب البعد الاجتماعى وما يطلق عليه «الأصولية النسائية» معتمدا على التحليل اللغوى لأصول الكلمات. لكنه يكتشف أنه - وهو يفصل الحديث عن الدعوة المطالبة بتغيير لغات البشر، حتى لا تميز بين الذكر والأنثى - قد حذف ضمير النسوة - عن غير قصد - فكتب «هم» و «يعترضون» و «يقنعهم» ويعقب ساخرا «لعل دعوة الأصولية النسائية قد بدأت تؤتى ثمارها بالفعل».

لا أشك فى أن الدكتور شكرى عياد يستخدم السخرية هنا بهدف تنبيه الأذهان إلى موقف له أصيل، يأخذ بدواعى الدرس المتأنى لما يفد إلينا من نظريات ومناهج، قد يهرع البعض إلى التحمس لها وتبنيها، برغم انتزاعها من جذورها الفلسفية ومن سياقها الفكرى والاجتماعى فى الغرب، أو بغير إعمال الوعى النقدى الضرورى لتبين المرامى القريبة والبعيدة فى هذا المجال . وما قد يتناقض منها مع قضايانا الاجتماعية وهويتنا الثقافية. لكننى أحسب أن القطاع الأعرض من الكاتبات والباحثات المصريات يلتزمن بالبعد الوطنى فى أعمالهن . ويقدمن قضايا المجتمع والحياة من منظور، لا تنفصل فيه الهموم العامة عن رؤيتهن الخاصة. وليسمح لى الأستاذ الجليل وكذلك قارىء مجلة الهلال - وقد اثبت ضمير

النسوة في موضعه - أن أبدي اجتهادي في هذا الموضوع. إننا لا يمكن أن نغير قانون اللغة وإنما ما يمكن أن نغيره هو معايير القيمة التي تنسب إلى تاء التأنيث ونون النسوة، وغير ذلك مما يخص المرأة في مجال الثقافة والأدب والحياة بوجه عام. ولعل الموقف المتحضر الذي يتناول به الدكتور شكري عياد نفسه قضية المرأة في الليالي يقدم لنا مدخلا مهما لإعادة قراءة هذا الأثر الشعبي بالغ الثراء والدق، الذي يقبل تعدد القراءات وتعدد وجهات النظر.

يتمثل الموقف الحضاري لناقدنا الكبير في التأكيد على المكانة الرفيعة التي تحتلها المرأة في الليالي ، خصوصا في حكاية الجارية، تودد التي ناظرت علماء عصرها في مجلس الرشيد، وحكاية الأميرة نزهة الزمان بنت الملك عمر النعمان، وكانت عالمة حكيمة، والملكة مرجانة التي قادت الجيوش وقبضت على أمور مملكتها بيد من حديد، فضلا عن الملكة بدور التي نهضت بأعباء الملك في غياب زوجها بكفاءة تامة. وإذا كانت الليالي تحفل بحكايات العجائز والصبايا الساحرات فإن شهرزاد نفسها لم تكن ساحرة «ولكنها روت حكايات السحرة فأصبح لحكاياتها فعل السحر المغير للنفوس. وهكذا ولد الفن وولد معه الانسان المتحضر».

● مراجعة الابداع

تتميز مقالات الدكتور شكري عياد المخصصة في باب «القفز على الأشواك» لمراجعة الابداع الأدبي بتنوعها الكبير وتناولها لأعمال مختلف أجيال الكتاب ولاتجاهات روائية وقصصية وشعرية متباينة.

وإذا كانت هذه العجالة تضيق عن الإلمام بوفرة إسهام الناقد الكبير في هذا المجال، فإن إشارة موجزة لتحليله لعمل روائي صدر حديثا، وقوبل بحفاوة نقدية بالغة، ربما تقدم صورة لنهج المراجعات الأدبية في مقالات الدكتور شكري عياد.

يشير الناقد في عرضه لرواية «الحب في المنفى» لبهاء طاهر (الهلال - سبتمبر ١٩٩٥) إلى أسرار الصنعة الفنية المحكمة والخفية في آن، ويرجعها الى الطريقة التي ينسج بها الروائي عمله، وقدرته على جذب انتباه القارىء بما يدخله إلى عماله الروائي، ويبقيه يقظا مترقبا إلى أن يفرغ من القراءة.

ولا يقتصر إحكام الصنعة الفنية في هذه الرواية على التوزيع المتقن للأحداث ولا على دقة رسم الشخصيات فحسب بل يتجلى في عناصر العمل كله وأدق تفاصيله، وعلى الرغم من ان الرواية تتميز بالوضوح، واليسر فإنها تكشف في العمق عن رؤية ثاقبة ومركبة لواقعنا المصري والعربي والوضع الإنساني المعاصر بصورة عامة.

يلجأ الدكتور شكري عياد إلى التحليل الأسلوبي للفقرة الافتتاحية في الرواية ويوضح دلالتها بالنسبة إلى طريقة النسج من ناحية، بينما تشكل الفقرة نفسها من ناحية أخرى بؤرة

الزمن الدائرى الذى سيجد القارىء نفسه متحركا فيه مع الراوى والشخصيات الروائية هذه الدائرة نفسها تبدأ لينة وهينة لكنها ما تلبث أن تضيق ويتسارع إيقاع دورانها الجهنمى لتفضى إلى دائرة ثانية هى «الزمان ـ المكان» السياسى، ومركزها مدينة المنفى الأوروبية ، حيث يظهر التناقض بين ظاهر المدينة الهادىء المنظم وما تحفل به من أنواع الظلم الاقتصادى والعرقى وكل أنواع المؤامرات السياسية التى تتكشف للراوى وللقارىء معا على نحو متدرج.

ثم هناك دائرة ثالثة، يغوص فيها الراوى ، اشبه بالدوامة وهى دائرة «الزمن ـ الإنسان» . إذ يبدو للراوى أن الإنسان الفرد لن يجد ذاته أبدا، وأقصى ما يستطيعه هو أن يختلس من الزمان لحظات التواصل الإنسانى الحميم قبل النهاية المحتومة.

وإذا كان الناقد قد بدأ مقاله بتحليل أسلوبى فإنه يخلص فى النهاية الى تقييم العمل الروائى فى سياق اتجاهات الرواية المعاصرة. إن هاجس الكتابة لدى بهاء طاهر مستمد من واقع الحياة كما لاحظها وجربها.. ولكن مفهوم الواقع يتغير من عصر الى عصر. والرواية الواقعية التى قدمها بهاء طاهر تبدأ من الشعور بمشكلة حقيقية تؤثر فى مصير الإنسان الفرد وفى مصير الجنس البشرى فى أن واحد. ومن هذا المنطلق يرى الدكتور عياد أن الحب فى المنفى» قد استطاعت أن تقدم نموذجا لهذا اللون الجديد من الواقعية

استطيع أن أجمل بعض خصائص مقال المراجعة النقدية لدى الدكتور شكرى عياد التى تظهر فى حرصه على وضع العمل الأدبى فى سياقه التاريخى من ناحية والسياق الأدبى المصرى العربى والعالمى، المحيط بالكاتب أو الذى تأثر به من ناحية أخرى، أما تحليل العمل نفسه، فيجمع بين تعريف القارىء بالحدث الروائى وكيفية التعبير عنه . أى وسائل التقنية المستخدمة فى الصياغة الأدبية ومدى نجاح الكاتب أو إخفاقه فى تجسيد رؤيته. ثم يخلص فى النهاية الى بلورة القيمة الأدبية للعمل، بما يحقق شرط الفن، متمثلا فى العمق الإنسانى للرؤية ونوع الرسالة التى يحملها العمل الأدبى.

ولا ينفصل ذلك كله عن مهمة الكاتب الأساسية وهى الوصول الى القارىء بما يجعله يتفاعل مع العمل الأدبى ويؤثر فيه وجدانيا وعقليا.

وأخيرا فإن الدكتور شكرى عياد صاحب قلم نزيه، يقف بشموخ مفكر بنائى، بعزم لا يتزعزع، عن التفريط فى كرامة العلم والعلماء، تشغله مشاكل الواقع ويحلم من أجل المستقبل ويعمل على تحقيق الحلم بطاقة عطاء نادر ويواصل «نداء» العمل الحر المستنير، فيوجه دعوة إلى زملائه وأبنائه الكتاب للمشاركة فى تأسيس مجلة ثقافية مستقلة، صدر عددها التجريبى الأول منذ أسابيع قليلة.

أقـوال معاصرة



الشيخ الغزالى



اليزابيث تايلور



شيمون بيريز

●● لا يمكن أن تنجح الأمة الإسلامية بالغش فى عقائدها والاضطراب في مناهجها ان كنا نريد حقا نصرة أنفسنا وقضايانا في هذه الأيام

الشيخ الغزالى الداعية الاسلامى الكبير

●● «الافضل للمرء ان يفشل فى شيء يستمتع به، من ان ينجح في شيء يكرهه».

چورج بيرنز

الممثل الامريكى الذى احتفل بعيد ميلاده المئوى فى ٩٦/١/٢٠ ومات بعد خمسين يوما

●● «لم اقرأ جميع الكتب التى ألفتها»

الاديب برازيل ريوكى اينوى
الذى كتب ١٠٣٩ مؤلفا

●● «استطلاعات الرأي العام، تشبه نشرات الانواء الجوية، لا تستطيع ان تعتمد عليها لاكثر من يوم واحد»

شيمون بيريز
رئيس وزراء اسرائيل

●● «معظم النواب غير متحضرين وجهلاء وضيقوا الأفق، وهم بكل تاكيد غير مثقفين»

وزير الخارجية السابق «دوجلاس هيرد» عن نواب مجلس العموم البريطانى

●● «الجديد لا يأتي الا من التفسخ والتناقض والتضارب في الشخصية».

الشاعر اللبنانى صلاح ستيتيه

●● «يا الهي.. لن اتزوج ابدا بعد الآن».

النجمة اليزابيث تايلور بمناسبة طلاقها الثامن

●● «اكره كلمة قصة، لم اعد استطيع ان افهم لماذا تعطى هذه الاهمية لكتابة او قراءة قصص مخترعة»

القصاص ف. س. نايبول

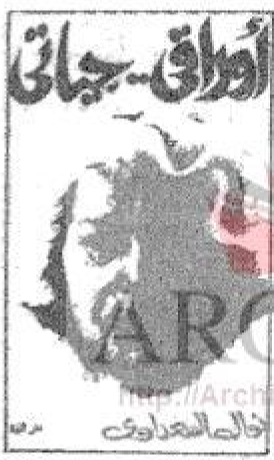
●● «أنا سعيدة لانني لم ارشح للأوسكار مع اى خنزير».

النجمة سوزان ساراندون
بمناسبة ترشيح فيلم بطل خنزير للأوسكار

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

« أوراقى .. حياتى »



□ هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا؟ .سؤال يبدو غريبا ومبهما ، كما يبدو أنه يهم الكتاب دون القراء . وإذا كانت فيه هذه الصفات الثلاث فهو بداية سيئة جدا لمقال . فلنبدأ بالصفة الثالثة . فهل صحيح أن «الكتابة» عمل خاص لبعض الناس الذين يسمون أنفسهم كتابا؟ . هل يوجد «كاتب» لا يحاول أن «يقرأ» ما فى ذهنه ، وما فى ذهنك أيضا ، قبل أن يحوله إلى رموز مقروءة على الورق ؟ وهل يوجد قارئ لا «يكتب» ما يقرؤه أو لا يعيد كتابته فى ذهنه ، قبل أن يستطيع القول إنه «قرأه» فعلاً ، ألا تراك تتوقف أحيانا أمام كلمة ، أو جملة ، ولا تستريح إلا بعد أن تضع لها مرادفا فى ذهنك ، وأحيانا عدة مرادفات محتملة ؟ صحيح أن الذين يتنقلون بين عملية القراءة وعملية الكتابة هم قلة من الناس ، ولكن الكتابة والقراءة لا تختلفان كثيرا عن الكلام والإنصات . من الناس من يميلون إلى الكلام ومنهم من يميلون إلى الإنصات . والغالب أن أحسن المتكلمين هم من يحسنون الانصات ، كذلك يمكن أن يقال إن أحسن الكتاب هم أحسن القراء ، والعكس أيضا صحيح .

الكتابة والقراءة ، إذن ، كلتاهما كمال بشرى . والسؤال : هل يمكننا أن نصنع شيئا بالكتابة يهم الكتاب ، الذين هم أيضا قراء ، كما يهم القراء الذين هم

أيضا كتاب ، ولكنه يظل سؤالا غريبا . فالناس يكتبون ويقرءون منذ أقدم العصور بل إن العصور التى سبقت القراءة والكتابة تسمى ببساطة : «عصور ما قبل التاريخ» ، عندما «لم يكن الانسان شيئا مذكورا» فهل سألوا أنفسهم هذا السؤال؟ وإذا كانوا قد سألوه وأجابوا عنه ، فلماذا نعيد طرحه الآن ؟

● أغراض الكاتب

لعل أقدم إجابة وأشهرها هي قولهم إن الكاتب يكتب لأحد غرضين : إما أن يفيد وإما أن يمتع . ومن قديم أيضا حاول بعضهم أن يجمع بين الإفادة والإمتاع ، فنظم أمبادوقليس فلسفته شعرا ، وكل الانبياء – من وصلت إلينا كتبهم – صاغوا تعاليمهم أمثالا وحكما ، وابن مالك نظم ألفية مقاصد النحو بها محوية ، غير أن هذه التجارب كانت – غالبا – فاشلة ، فأصبحت الكتابة للإمتاع هى القاعدة ، حتى حين يستأجر الكاتب لترويج فكرة ما ، وكانت منزلة الكتابة وحظوظ الكتاب تعلو وتنخفض تبعا لمزاج الجمهور الذى يحاولون أن يمتعوه ، أو حاجة الجهات التى تريد أن تستخدمهم . ولكنهم على كل حال كانوا أقل حظا من المغنين والرقاصين والمهرجين ، الذين أقبل عليهم الجمهور بحماسة أكبر ، ولذلك ضرب المثل بحرفة الأدب فى الفقر ، وشبه سواد عيشه بريش الغراب ، وضيق عيشه بشق القلم (وذلك طبعا قبل اختراع القلم الجاف) .

ولذلك يبدو السؤال غريبا : هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا ؟ فهذا ما صنعه الكتاب دائما ، ومازالوا يصنعونه . أساتذة الجامعات – مثلا – يؤلفون الكتب ليفيدوا تلاميذهم علماً ، وبعض هؤلاء الأساتذة يجنون من كتبهم رزقا حسنا ، ولكن بما أن الكتابة ارتبطت غالبا بالغرض الثانى وهو الإمتاع ، فإن هذه القلة لا يقاس عليها ، كما لا يقاس على القلة الأخرى ، التى تستطيع أن تنفذ إلى وسائل الاعلام الجماهيرية (ولاسيما) التليفزيون ، أو القلة الأخرى التى تحصل على الجوائز ، عن طريق ارضاء النقاد ، فالكتابة عند هاتين الفئتين وإن كانت – نظريا – كتابة فنية يقصد بها الامتاع فهى خاضعة لتوجيهات تفرض عليهم من الخارج . وتبقى الكثرة الغالبة ممن يكتبون ويقرءون يسألون أنفسهم : هل يمكننا بالكتابة أن نصنع شيئا ؟ وكثيرا ما يكون السؤال غصة فى حلوقهم ، تدعوهم إلى أن يشيحوا بوجوههم «وينصرفوا إلى مشاغل أخرى» ، حتى بتنا نخشى على فصيلة «الكاتبين القارئين» من الانقراض .

● الكتابة الفنية

إذن فهو سؤال غريب حقا ، بل أكثر من غريب . هو سؤال مؤلم .

وأما أنه سؤال مبهم أيضا ، فلأننا تركنا هذا «الشيء» الذى نتساءل عن إمكان صنعه بالكتابة ، تركناه دون تعريف

أو تخصيص . فإذا كانت «الكتابة» المقصودة بالسؤال خارجة عن نوع الكتابة العلمية التي يضطر التلاميذ إلى قراءتها بل وإلى استظهارها من أجل كسب القوت، وإذا كانت الكتابة القائمة بذاتها ، والتي تسميها احيانا الكتابة الفنية ، ونصفها أحيانا بأن الغرض منها هو المتعة الخالصة أو تذوق الجمال الأدبي قد أصبحت - أكثر من أي وقت مضى - غير قادرة على أن تقوم بذاتها ، فأي «شيء» بقي أمامنا حتى نصنعه بهذه الكتابة ؟

لعلي لم أحسن التعبير عن ورطة الكاتب المعاصر ، وهو القارىء المعاصر أيضا . ولكنني تجنبت صياغة أخرى للسؤال يمكن أن تبدو أكثر حيادا وموضوعية ، ولكنها يمكن أن تفهم بسهولة على أنها سؤال انكاري ، ما قيمة الكتابة في العصر الحاضر ؟

لا أشك في أن هذا السؤال قائم دائما كالشبح في ذهن كل كاتب قارىء في زمننا هذا ، وأننا إذ نمضي في الكتابة والقراءة إنما نفعل هذا وكأنه قدرنا الخاص الذي لايمكننا الفكاك منه ، ولكننا، في لحظات أكثر إشراقا ، ربما قلنا لأنفسنا إننا بالكتابة وليس بأي شيء غيرها ، يمكننا أن نصنع «شيئا» مهما جداً ، هذا الشيء هو أن نعرف أنفسنا ، إذ كان كثير من المفكرين ينذروننا بأننا نوشك أن نتلف كوكبنا الارضي بحماقتنا واسرافنا ، فما أحوجنا أن نرجع إلى الحكمة العتيقة التي كتبت على معهد الفن، والتي اتخذها شيخ الفلاسفة سقراط نبراسا لتعاليمه «اعرف نفسك» أليس هذا اصل التكليف ، امتياز الإنسان وبلاءه جنسا وأفرادا ، الأمانة التي اشفقت منها الأرض والجبال ، وحملها الإنسان ، ذلك الظلوم الجهول ؟

●صواعق تتهد منها الجبال

في هذا المنعطف الخطير من تاريخ الجنس البشري ، لا مفر للإنسان من أن يزيح طبقات الظلم والجهل التي تراكمت في داخله حتى يعرف من هو وما هو وأين يقف . هذه مهمة لايمكنه أن يقوم بها إلا فردا، ولا يمكنه أن يقوم بها إلا جني «يكتب» .

«يكتب» - أي كلمة مرعية إذا كنت تكتب (أي تقرأ) لتعرف نفسك ، فيجب أن تستعد لتلقي صواعق تتهد منها الجبال .

الكتابة المعاصرة أكثرها وأجلها صورة أو أخرى من الترجمة الذاتية، ولكن هذه الصور متفاوتة القيمة حسب قوة شعور الكاتب بفداحة مهمة الكتابة ، والكاتب بشر عادي لا يتنزل عليه وحي من السماء ، فليس في استطاعته - ولا في استطاعتك - أن تكون دائما مشدود الحواس ولا قادراً على الغوص إلى أعمق الأعماق. اللغة نفسها لا تساعد كما إلا على أقل القليل من ذلك . إذا وجدت الكاتب يشكو من استعصاء اللغة أو

خيانتها فلا تظن أنه يتكلم عن الصنعة، إنما هو يحاول أن يطهر اللغة من كل الشوائب التي تجعل مكاشفته إياك بالحقيقة الكامنة في أعماقه ، ومغامرته بعرضها على حواسك الظاهرة في كامل عريها وبراءتها ، أقل صدقا وأقل جرءا وهنا يكون غالبا في أحسن حالاته ، فمن هو الذي يجرؤ على أن يكون صادقا كل الصدق ؟

الكتابة - بهذا المعنى - معاناة حياة . «أوراقي .. حياتي» . كم هو موفق هذا العنوان الذي اختارته نوال السعداوي لأحدث كتبها ، وأهمها جميعا في تقديري. إنه يتجاوز كل تصنيف شكلي للسيرة الذاتية حتى يصبح مشاركة حقيقية في تجربة الحياة . وإذا كان في هذه التجربة الكثير الكثير مما يخص نوال السعداوي - إنسانة وكاتبة - فإن الجواهر المضيئة التي تلتقطها وهي سائرة في دروب الحياة توهمنا بأننا - حقا - نملك في أعماقنا كنوزاً لم نكن نعرفها . من الذي لايعرف نوال السعداوي كاتبة جريئة ومناضلة عنيدة في الدفاع عن حقوق المرأة ؟ من الذي لا يستطيع أن يقول ببساطة - ومهما يكن قليل الإلمام بالثقافة النفسية - إنها وهي الأنثى تطبعت بالكثير من الأخلاق التي تعودنا أن نربطها بالرجولة؟ إنها تتحدث عن حلم «الطيران» الذي لازمها منذ الطفولة ، والطيران - في التفسير الفرويدي - يعني بالنسبة للفتاة الحلم بأن تصير رجلا .

ربما كانت هذه سمة خاصة في تجربة نوال السعداوي النفسية ، ولكن من منا لم يقف أمام «وجوده» الخاص موقف التساؤل ، أو حتى الإنكار ؟ من منا لم يشعر أن ما يراد منه شيء ، وما يريده هو من نفسه شيء آخر ، من منا لم يشعر أنه تائه بين شخصية يرسمها له الناس ، وشخصية أخرى يبحث عنها داخل كيانه ولا يجدها ؟ من منا لم يشعر أن للأشياء حقائق لا تعبر عنها الأسماء ولا يعرف هو كيف يسميها ؟ ولكن ليس كلنا يملك الاصرار على المعرفة ، التي لاتكون إلا بالكتابة ، ومعاودة الكتابة مرة بعد مرة ، وتجرع مرارة الفشل مرة بعد مرة . قد تكون بداية الكتابة عند نوال السعداوي نابعة من شعور مبكر جدا بالفرق بينها وبين أخيها الذي يكبرها بعام واحد ، ولكنها ستمضي اشواطا كثيرة في محاولة اكتشاف الفروق بين الأشخاص والأشياء، لأنها لاتريد ، في النهاية، إلا أن تحدد حقيقتها هي وسط التيار المتدفق من الأشخاص والأشياء والأحداث ، ولن تجد طريقة للامساك بحياتها إلا من خلال أوراقها، منذ كانت طفلة تنتقل مع اسرتها من القرية إلى المدينة ، وتعيش تارة بين أهل أبيها من الفلاحين ، وتارة بين أهل أمها من الاتراك ، وتارة ثالثة بين أترابها من الفتيات في القسم الداخلي باحدى

المدارس الثانوية ، إلى أن دخلت الجامعة ومارست هواية الكتابة في بعض المجلات الصغيرة ، لتصبح آخر الأمر كاتبة مرموقة .

«كنت طفلة لا أعرف شيئا عن القرية أو المدينة، لا أعرف أنهما رغم الاختلاف في كل شيء يتفقان في شيء واحد ، شيء لا أعرفه بالضبط .. أحسه فوق جسدي قشعريرة . لقد ولدت انثى في عالم لا يريد إلا الذكور» .

«هذه الحقيقة كانت تسرى في جسدي مثل قشعريرة البرد أو ربما هي قشعريرة أخرى غامضة مثل الموت . كنت أمسك القلم وأكتب الحروف . اتركها تعبر عن نفسها دون فاصل بين الحرف والحقيقة . لكن الكلمات فوق الورق لم تكن أبدا هي الحقيقة . صراع لم يكن ينتهي بيني وبين الكلمات . بدل أن تكون الحروف أداة اتصال تصبح عازلة بيني وبين الاشياء» .

«أحيانا كنت اكسر القلم .أمزق الورقة. اتوقف تماما عن الكتابة . سرعان ما أعود إليها كما تعود الطفلة إلى حضن الأم . الكتابة في حياتي مثل حضن الأم . مثل الحب يحدث بلا سبب ، ومع ذلك لم أكف عن البحث عن السبب . لماذا أكتب ؟ لماذا قضيت عمري أكتب القصص والروايات ؟ ربما كنت أريد شيئا . أن أرسم للعالم من حولي صورتي الحقيقية ، تلك التي يطمسونها بصورة أخرى . أن اجعل الطفلة الصامتة في اعماقي تنطق» (ص٢٩) .

وقد كتبت نوال السعداوي كثيرا واستطاعت بالفعل أن تعطي صورة من نفسها غير تلك التي حاول مجتمعها أن يطمسها بصورة أو بأخرى ولأنها امتلكت جرأة البحث وجرأة الكشف أصبحت هذه الصورة التي أعطتها عن نفسها وعن بنات جنسها أصبحت معروفة ومقروءة على نطاق واسع في العالم العربي وخارجه . ولكن هل هذه الصورة التي أعطتها هي «صورتها الحقيقية؟» إن الباحث في أعماق نفسه لا يمكنه أن يكون مبرأ تماما من تأثير العالم المحيط به . ربما كان البحث عن الذات نوعاً من رد الفعل ، نوعا من الدفاع عن الذات ، وهنا يمكن أن تخرج «الحقيقة» مشوهة إلى حد ما . هل «الحقيقة» التي نبحث عنها في داخل نفوسنا تعني محاولة لإثبات الذات أم إننا يمكن أن نظل نحفر ونحفر حتى نصل إلى حقيقة أخرى مناقضة وهي إفناء الذات ؟ وإلى أين وصلت نوال السعداوي في بحثها ؟

● مركزية الذات

إن الصورة التي ينجح الكاتب في اعطائها عن نفسه قد تصبح أكبر عائق بينه وبين حقيقة نفسه ، لعل البداية هي دائما نوع من مركزية الذات – هذه المركزية هي بداية الوعي عند كل انسان– ولكن هذه المركزية يمكن أن تحول بينه

وبين الرؤية الصحيحة (والصحة دائما نسبية) لما حوله . وهنا يصبح انعكاس الاشياء على نفسه مضللا . يتوهم أنه مركز الكون ، وإذا تمكن من هذا الوهم فإنه لا يصبح مغتربا عن العالم فقط ، بل عن نفسه أيضا .. هذا هو الخطر العظيم الذى يتربص بكل كاتب ، ولا أحسب أن نوال السعداوى قد نجت منه تماما . إن المطابقة التى حققتها بين ذاتها وبين هموم المرأة فى وطننا قد أنستها - مثلا - أن للرجل هموما مشابهة . «الختان» مثلا يبدو للطفل الذكر - الذى يخفى عنه أهله حقيقة العملية - عدوانا مقصودا على ذكورته . إن القرابة الحميمة بين البنت وأمها لا تقابلها قرابة مماثلة بين الابن وأبيه . قد تكون محنة الإنسان فى هذه الدنيا واحدة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

يمكننى أن أذكر أمثلة كثيرة لطغيان «مركزية الذات» ، ومع ما يتبعها من المطابقة بين الكاتبة و«قضية المرأة» فى كتابات نوال السعداوى ، وفى هذه الأوراق على الخصوص ، إن هذه المركزية تحول فى أحيان كثيرة إلى انطباعية مسرفة إنها - مثلا - تجعل ارتجاج التاكسى حين يقع فى حفرة ناتجا عن خفقة قلبها (ص ١٢١) وهناك قدر كبير من المعلومات التاريخية الخاطئة التى يمكن أن يحصل عليها القارىء من كتاب نوال السعداوى لم يكن «للعليم» مثلا تلك القوة الشرائية الهائلة التى تصفها (ص٥٤) . وبقدر ما تبتعد نوال السعداوى عن واقع القارىء العربى (أو القارئة العربية) نراها تقترب عامرة من قرائها الأجانب حين تتحفهم بنبذ عن عيد الأضحى أو عن هجرة الرسول ، لأنها تعلم أن الكثير من الأجانب لايبحثون فى أدبنا عن قيمة فنية، بل عن قيمة إثنوغرافية .

ولكن القارىء (الغربى) يفتقر مثل هذه المبالغات ، لأن نوال السعدواى تكتب دائما بتلقائية مدهشة - أو هكذا يشعر ، رغم تاريخها الطويل فى ترويض اللغة . إن حركات راقصة البالية تبدو لك خفيفة رشيقة كطيران الفراشة. ولكن تلقائية نوال السعداوى فيها أيضا الشىء الكثير من مدرسة «ايزادورا دنكان» وفى اندفاعها هذا لايهمها أحيانا أن تعطى من نفسها صورة مناقضة لتلك الصورة التى نجحت فى تثبيتها فى اذهان الناس : إن هذه الصورة لا علاقة لها بالتصوف مثلا ، ولكننى لم أقرأ تعريفا للحب أكثر صوفية من قولها (ص ١٨١) :

«لم يكن الحب يرتبط بنوع الجنس . كان نوعا آخر من الاحتياج يرتبط بنوع الانسان ، أو الإله الذى كنت أبحث عنه فى طفولتى دون جدوى » .

وبهذه العبارة الجميلة أحب أن أختم مقالى .

البحث العلمى «الأكاديمى» فى مصر

هل له مستقبل ؟



د. فينيس كامل

بقلم : د . أحمد أبو زيد

□ التصريح الذى أدلت به السيدة وزيرة البحث العلمى للأهرام يوم ١٩٩٦/٢/٨ حول تصورها لمهمة البحث العلمى وخطط تطوير أداء ذلك القطاع العام ، فى ضوء سياسة الإصلاح الاقتصادى التى تتبعها الدولة فى الوقت الحالى ، خليق بأن يجد ما يستحقه من عناية ومناقشة ، خاصة وأن نظرة السيدة الوزيرة يبدو أنها تختلف اختلافاً جذرياً عن الفكر العام السائد فى الوقت الحالى عن أسلوب أداء البحوث وتمويلها بل ووظيفتها .

وحتى نضمن موضوعية مناقشة الآراء التى وردت فى تصريح سيادتها نورد هنا نص ذلك التصريح :

«تدرس وزارة البحث العلمى حاليا عدة خطط لتطوير أداء قطاع البحث العلمى بما يتلاءم مع خطة الإصلاح الاقتصادى . وصرحت الدكتورة فينيس كامل جودة وزيرة البحث العلمى بأن الهدف النهائى للتطوير أن يلعب البحث العلمى دوراً كقطاع تجارى - أو قطاع بيزنيس - يسعى للربح وإرباح الآخرين معه من خلال تحسين منتجاتهم ورفع كفاءة استغلالهم للموارد وحماية البيئة ، وأن يعمل من أجل تسويق منتج وليس من أجل درجات علمية . وأضافت أن النظم القانونية والإدارية التى تعمل المراكز البحثية المصرية وفقاً لها حاليا قد تعوق ذلك ، وأنه لا مانع من طرح مشاركة

القطاع الخاص فى ملكية المراكز والمعاهد البحثية المناقشة ، وإن كان يكتفى حاليا بأن يشارك القطاع الخاص فى الأعمال والأنشطة دون الملكية . وأكدت الوزيرة أنه سيتم العمل على تغيير كل النظم الحالية ، وسيتم البدء بمدينة مبارك للبحوث العلمية التى سيكون من حق المراكز البحثية والباحثين فيها عمل شركات لتسويق منتجاتهم وعمل تطبيقات تكنولوجية مع المستفيد منذ البداية ، ولن تتم الموافقة على أية بحوث إلا بعد توافر الطلب التطبيقى عليها ، أى سيسبق الطلب والأبحاث وليس العكس . والطلب سيأتى من القطاع الخاص أو العام ، وإن لم يأت فسيكون على الباحثين السعى لإيجاده ، وسيكون للعميد أو رئيس الجهة البحثية بالمدينة وضع الميزانية دون الرجوع لوزير المالية ، ومن حقه ترحيل الاعتمادات من سنة لأخرى وإنشاء شركات تابعة له والاشتراك فى تأسيس شركات وإبرام اتفاقيات وعقود مع الشركات والهيئات والمنظمات المحلية والأجنبية فى مجالات اختصاصاته وحق إنشاء وحدات للبحوث والتطوير وتنمية التطبيقات التكنولوجية بالتعاون مع جهات الإنتاج والخدمات ووضع نظم التوظيف والهياكل بها ، وتحديد جداول المرتبات وقواعد التعيين والترقى وسائر شئون التوظيف دون الالتزام بالتشريعات السارية وتدرس حاليا سبل تطبيق هذا التفكير الجديد على كل المراكز العلمية الوطنية كى تنطلق وتصبح أكثر انفتاحا مع مراكز الإنتاج والخدمات ، وتشير الوزيرة إلى أن هناك خطة ١٠٠٠ باحث فى المصانع ومواقع الإنتاج لدراسة كيفية الارتقاء والتحديث واسترجاع المواد الفاقدة وتحويلها إلى مصدر للربح والوفر وجودة المنتج والوصول بسعره إلى المستوى التنافسى ، وستستعين بالشراكة الأمريكية والأوربية فى ذلك ، وتقول الوزيرة إن إدخال مفاهيم السوق والاستثمار إلى قطاع البحث العلمى سيغير إلى حد كبير من طريقة التفكير فى قضية الإنفاق على البحث العلمى وربطها بنسبة محددة من الدخل القومى ، وذلك لأن تطالب الدولة برقم محدد ينفق على البحث العلمى ، ولكن ستطلب مبالغ حسبما يحددها الباحثون أنفسهم فى المراكز المختلفة مع الوفر والربحية المتوقعة من وراء الإنفاق على الأبحاث سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة . ولقد حرصت على أن أنقل الخبر أو التصريح بكامله وحرفيته حتى يرى القارىء ، الذى قد يكون فاته الاطلاع عليه من قبل أبعاد المشكلة التى يراد

عرضها ومناقشتها هنا .

● جوانب إيجابية

وليس هناك منذ البداية شك فى أهمية إفادة الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وبخاصة فى مجال الصناعة ، من نتائج البحث العلمى أو فى ضرورة استعانة هذه الأنشطة بالبحث العلمى كلما أمكن ذلك من أجل تحقيق أفضل النتائج . كذلك ليس ثمة شك فى أن تصريح السيدة الوزيرة فيه كثير من الجوانب الإيجابية التى تتعلق فى المحل الأول بالجوانب الإدارية ، مثل وضع نظم أكثر جدوى وفائدة تتعلق بالتوظيف وتحديد جداول المرتبات وقواعد التعيين والترقى وسائر شئون التوظيف دون الالتزام بالتشريعات السارية الآن كما جاء بالنص فى تصريحها ، وهى على أية حال أمور تضع فى صورتها الحالية كثيرا من العوائق أمام إجراء البحوث العلمية والإفادة منها ، والتغلب عليها سوف يكون خطوة مهمة نحو الانطلاق بالبحث العلمى فى طريقه الصحيح والسليم . وربما تكون كل الاقتراحات والخطط التى توضع الآن والتى تهدف إلى «تغيير كل النظم الحالية» أمورا متعلقة بمدينة مبارك للبحوث العلمية مما يجعل لهذه المدينة وضعا خاصا يميزها ، ولكن لا تلبث الوزيرة أن تقول إن هذا التفكير الجديد سوف يطبق على كل المراكز العلمية الوطنية . كى تنطلق وتصبح أكثر انفتاحا مع مراكز الانتاج والخدمات ، مما يعنى فى النهاية أن ثمة سياسة عامة يجرى الآن وضعها لصياغة أساليب وطرق إجراء البحوث العلمية والأهداف التى يجب تحقيقها من هذه البحوث ، وهذا هو بالضبط وبالتحديد المجال الذى يجب أن تدور حوله المناقشة والتحليل للوصول إلى أفضل السبل التى تكفل معالجة الأخطاء التى تشوب عملية البحث العلمى فى مصر وسد النقص والعيوب التى تعانى منها هذه العملية .

وقد نستطيع أن نلاحظ على هذا (التفكير الجديد) - كما جاء فى تصريح السيدة الوزيرة - الملاحظات التالية : مع الاعتراف هنا بأن معظم ما سنتناوله من أمور تدور أولا حول البحث العلمى الاجتماعى باعتباره مجال تخصصى، ومع العلم أيضا بأن أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجى تضم مجلسا مهما ضمن مجالسها العلمية يختص بالبحوث الاجتماعية أى أن ما سوف يثار هنا ليس بعيدا بشكل من الأشكال مع مجالات اهتمام الأكاديمية ، ويمكن أن تلخص هذه الملاحظات فيما يلى :

أولاً : أن ما جاء فى تصريح وزيرة

البحث العلمى يشير إلى تغير جذرى فى النظرة إلى فلسفة البحث العلمى ووضع البحوث (الأكاديمية) واعتبار هذه البحوث بحوثا خليقة بأن تحتل مرتبة تالية بالنسبة لبحوث السوق أو على الأصح البحوث التى تهدف إلى الربح والإرباح - حسب التعبير المستخدم بالفعل فى ذلك التصريح. ويتحقق صدق ذلك فيما تقوله الوزيرة من أن البحث العلمي سوف «يعمل من أجل تسويق منتج وليس من أجل درجات علمية» ، وهذه فلسفة جديدة بغير شك فى مصر على الأقل من شأنها إهدار أهمية وقيمة وكرامة البحث العلمى الأكاديمى الذى لا يهدف إلى التسويق وإنما يهدف لأهداف علمية خالصة قد يكون لها ناتج عملى يمكن تسويقه ولكنه لا يشغل بال الباحث العلمى الأكاديمى .

●القومسيونجية !

ثانيا : النظرة إلى البحث العلمى والباحثين العلميين على أنهم مصدر للدخل والربح وليس من منطلق النتائج العلمية ذاتها وفى ذاتها ، سوف يؤدى بالضرورة إلى تراجع أهمية ومكانة الباحثين الأكاديميين الجادين أمام الباحثين الذين يهدفون إلى تسويق منتجاتهم ، بل إن اعتناق هذه السياسة قد يؤدى هؤلاء الباحثين العمليين - تمييزا لهم عن الباحثين العلميين - إذ سيجعل منهم فئة تقوم بدور (القومسيونجية) الذين يتولون أولا بيع مقترحاتهم لإجراء بحوث معينة للشركات أو الهيئات التى تقوم بتمويل البحث ، ثم يعملون على تحقيق الربح لأنفسهم وللمؤسسة البحثية التى ينتمون إليها بالإضافة إلى تحقيق الربح للهيئة الممولة . يؤكد ذلك ما تقوله الوزيرة من أنه لن تتم الموافقة على أية بحوث إلا بعد توافر الطلب التطبيقى عليها وأن الطلب سيأتى من القطاع الخاص أو القطاع العام (وإن لم يأت فسيكون على الباحثين السعى لإيجاده) وهذه عبارة خطيرة لأنها تلخص كل نظرة السيدة الوزيرة إلى فلسفة البحث العلمى وأهميته ودوره ووظيفته فى المجتمع ، وإلى الباحثين العلميين ومكانتهم فى المجتمع ، فالباحث العلمى عليه أن يبحث بنفسه عن مشروع يجد من يقوم بتمويله لكى يحقق فى آخر الأمر ربما لنفسه وللمؤسسة البحثية والهيئة الممولة ، وهذا الربح لابد أن يكون ربحا ماديا فى آخر الأمر . وسوف يتفوق الباحث (العملى) أو القومسيونجى فى ذلك، بغير ، شك على الباحث (العلمى) الذى يتمسك بتقاليد العلم وبالقيم الأكاديمية ، ولكن ماذا يا ترى سيكون تقييم هذا الباحث (القومسيونجى) لنفسه

فى آخر الأمر ومفهوم الباحث القومسيونجى ليس غريبا على التفكير الأمريكى وإن كان جديدا- إلى حد ما على الأقل - على الحياة الأكاديمية المصرية ، فكثير من مراكز البحوث فى أمريكا بل وبعض الجامعات تعين فى وظائفها البحثية الأشخاص القادرين على جلب المشروعات البحثية مع التمويل الخاص بها ، ويظل هؤلاء الباحثون عاملين فى تلك المؤسسات ماداموا يؤدون هذه الوظيفة وإلا استغنت عنهم تلك المراكز أو الجامعات ، وبعض الأساتذة والعلماء المصريين العاملين فى أمريكا ظلوا يشغلون وظائف بحثية فى بعض تلك المراكز والجامعات ، لسنوات طويلة وفقاً لذلك الشرط ، وحين تقاعسوا أو فشلوا فى تحقيق الشرط تخلصت منهم تلك المؤسسات ، وعاد بعضهم إلى مصر أو التحق بوظائف فى الدول العربية .

ثالثاً : إسقاط حقوق البحث العلمى (وأنا استخدم كلمة حقوق هنا عمداً) فى أن يجد التمويل الكافى من الدولة بحيث تخصص نسبة معينة من الدخل القومى للإنفاق على البحوث العلمية فى مختلف المجالات ذلك أنه وفقا لهذا (الفكر الجديد) سوف تتولى الهيئات المستفيدة من نتائج البحوث تمويلها والإنفاق عليها . فإدخال مفاهيم السوق والاستثمار إلى قطاع البحث العلمى سيؤدى - كما تقول الوزيرة نفسها - إلى طريقة التفكير فى مسألة تمويل البحوث وربط مسألة الانفاق على البحث العلمى بنسبة محددة من الدخل القومى وإنما سيكون الطلب بقدر ما يحدده الباحثون أنفسهم وفى ضوء ما يتوقعونه من وفر أو (ربحية) من وراء ذلك الإنفاق . وإذا نحن لم نخطئ قراءة ما تقوله الوزيرة ولم نخطىء أيضا فهم المقصود فإننا نستطيع أن نقول إن البحوث العلمية - وبالذات البحوث الاجتماعية التى تهمنى هنا فى المحل الأول - التى لن تعود بعائد مادى أو ربح لا تستحق التمويل من الدولة . والمعروف أن العائد من البحوث الاجتماعية كثيرا مالا يكون ماديا وحتى لو تحقق مثل ذلك العائد فإنه يحتاج إلى وقت طويل وكثيرا مالا يكون العائد محسوسا ملموسا أو منظورا . ففكرة السوق والربح يبدو أنها تسيطر على هذا الاتجاه الجديد ، والوزيرة نفسها تستخدم كلمة (بيزنيس) حين تقول إن الهدف النهائى للتطوير هو أن يلعب البحث العلمى دوراً كقطاع تجارى أو قطاع بيزنيس يسعى للربح وإرباح الآخرين معه . ولقد سبق أن ذكرنا أنه ليس ثمة ضير فى أن تستعين الأنشطة

الاقتصادية المختلفة بخبرة العلماء وبحوثهم فى الارتقاء بتلك الأنشطة، ولكن أن نجعل الهدف من البحث العلمى هو السعى إلى الربح وأرباح الآخرين ، فهذا هو ما يستحق إعادة النظر فيه .

●مشكلة التمويل

والواقع أن مشكلة تمويل البحوث تعتبر من أهم المشكلات التى يجب الانتباه إليها بشدة . ولقد عقد فى أكتوبر الماضى (١٦ - ١٨ أكتوبر ١٩٩٥) مؤتمر عن (أخلاقيات البحث العلمى الاجتماعى) بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وهو مؤتمر جاد بكل المعايير ولكنه لم يلق ما يستحقه من دعاية وإعلام وإعلان كما هو شأن الكثير من الأعمال الجادة فى مصر . وقد شغلت مشكلة تمويل البحوث جانبا كبيرا من النقاش والجدال وبخاصة حين تطرق الأمر إلى التمويل من مصادر أجنبية والأهداف الحقيقية التى قد تختفى وراء هذا التمويل. ولكن الذى يهمنا هنا هو أن الذى يملك المال يملك اتخاذ القرار فى البحوث ويستطيع أن يوجهها بما يتلاءم مع صالحه الخاص . وتاريخ البحث العلمى فى المجال الاجتماعى ملىء بالأمثلة . وفى أمريكا ذاتها أمكن لشركات صناعة السجائر أن تجد من العلماء الباحثين من يقوم ببحوث ميدانية تبين خطأ القول بأضرار التدخين على الرغم مما تؤكده البحوث الطبية والإحصاءات عن العلاقة بين التدخين وبعض أنواع السرطان ، ولكن تمويل البحوث التى قام بها هؤلاء العلماء كان يهدف منذ البداية إلى تحقيق مصلحة تلك الشركات ، أى أنها كانت من البحوث التى تهدف إلى الربح والارباح ، ولسنا نزعم بطبيعة الحال أن كل البحوث التى تتلقى تمويلا من القطاع الخاص أو القطاع العام سوف تسير فى نفس هذا الطريق الخطر ولكن الاحتمال قائم ولو بنسبة ضئيلة . وصمام الأمان الوحيد المحقق هو أن تتولى الدولة ذاتها الانفاق على البحوث وخاصة التى يبدو أنها ليس لها عائد مادى ظاهر أو سريع أو مباشر ، والدول المتقدمة تفخر بنسبة ما تخصصه من دخلها القومى للبحوث . وقد تصل المبالغ المخصصة لذلك الى عشرات البلايين من الدولارات وإن كانت نسبة ما تحصل عليه البحوث الاجتماعية أقل بكثير مما تحصل عليه البحوث فى العلوم الطبيعية المختلفة ، وهو أمر مفهوم إذا أخذنا فى الاعتبار التكلفة العالية التى تحتاجها الأجهزة العلمية المعقدة .

رابعاً : قتل روح الابداع العلمى والتفكير الرائد الذى يهدف إلى ارتياد مجالات بحثية جديدة قد يبدو لأول وهلة

عدم أهميتها بالنسبة للإنسان ، الفرد والمجتمع ، بحيث يقنع العلماء والباحثون فى مختلف فروع المعرفة العلمية والإنسانية والثقافية بدراسة الموضوعات التى ترضى الهيئات الممولة ، أو الموضوعات التى تفرضها عليهم هذه الهيئات الممولة والتى ترمى فى آخر الأمر إلى تحقيق أهداف ومكاسب خاصة بتلك الهيئات ذاتها . وليس يخفى أن التقدم العلمى ، وبالتالى تقدم المجتمع ككل يرتبط بالقدرة على التفكير الإبداعى الذى قد يداخله - من الناحية الظاهرية على الأقل - شيء من الخيال الخلاق الذى يستند على أسس قوية من الفهم والتفكير المنطقى وسعة الأفق ، وهى ما قد يقضى عليها تماما التكالب على إجراء بحوث تستهدف الربح والإرباح وتحقيق أهداف جزئية قد تجذب إليها الأنظار وتثير الإعجاب ولكنها قد تكون فى آخر الأمر غير مؤثرة فى عملية التقدم العلمى والاجتماعى الحقيقى وعلى الأمد الطويل .

وهذا كله لا يعنى أبدا عدم التعاون بين البحث العلمى والقطاع الخاص أو القطاع العام أو الاستعانة بالبحث العلمى لتحقيق التقدم والارتقاء فى الصناعة أو غيرها من مجالات النشاط الاقتصادى ، ولكن الذى يعنيه هنا هو الإشارة إلى خطورة إعطاء الأولوية المطلقة - كما يبدو من تصريح السيدة الوزيرة - لتسخير البحث العلمى لخدمة أهداف تجارية أو لوضع العلم فى خدمة البيزنيس حسب التعبير الذى استخدمته ، وكذلك التنبيه إلى أن ولاء الباحثين فيما لو نفذت هذه السياسة سوف يكون فى آخر الأمر للهيئات الممولة التى تملك المال وليس للبحث الجاد الموضوعى الذى يهدف إلى التوصل إلى معرفة الحقيقة تاركاً مسألة التطبيق والإفادة منها للهيئات والمؤسسات والأجهزة التى تعنى بهذا الجانب

وصحيح أن الاهتمامات الخاصة ببعض الباحثين - وأنا أشير هنا مرة أخرى إلى مجال البحوث الاجتماعية بوجه خاص - قد تحملهم إلى دراسة موضوعات لا تهم سوى فئة قليلة من أعضاء المجتمع أو لا تظهر (فائدتها) و (جدواها) بطريق مباشر وإن كانت تساعد بغير شك على الوصول إلى فهم أدق وأعمق للمجتمع ويمكن للمشتغلين بأمور التخطيط الإفادة منها بعد ذلك على الرغم من أن ذلك قد لا يكون وارداً فى أذهان الباحثين ، فدراسة التنظيم القبلى أو الانتماء العائلى أو تفرعات القبيلة إلى عائلات فى المجتمع البدوى قد تبدو ولأول وهلة أنها دراسة (مترفة) وهى بكل تأكيد لن تحقق عائدا ماديا سريعا ، ولكن من المؤكد أن أى تخطيط سليم يهدف إلى زراعة الأراضى

الصحراوية وتوطين البدو أو نقل شرائح معينة من السكان من وادى النيل وتوطينهم فى المناطق الصحراوية المستصلحة لابد أن تأخذ فى الاعتبار ذلك التوزع القبلى الذى يرتبط بالضرورة بملكية الأرض أو الانتفاع بها ، وبغير ذلك لن تحقق مشروعات التنمية نجاحا ملحوظا فى تلك المناطق ، وهكذا ومثل هذه الدراسات التى تخرج عن نطاق البحوث التى تحقق الربح والارباح لن تجد لها فى الأغلب تمويلا على الوجه الصحيح إلا من الدولة مما يقتضى بالضرورة أن تحدد الدولة نسبة معينة من الدخل القومى لمثل هذه البحوث .

وليس من شك أيضا فى أن الكثيرين من الباحثين قد يغفلون الاهتمام بالأمور الحيوية أو الأزمات التى يمر بها المجتمع أو العالم ككل والتى تحتاج إلى دراسة وفهم عميقين من أجل العلاج ، والوسيلة الناجعة والناجحة والبعيدة عن الريب أن تتولى مراكز البحوث (الحكومية) دراسة مثل هذه الموضوعات وأن يتولى البحث العلماء المشهود لهم بالكفاءة والموضوعية والنزاهة والذين لا يضعون فى اعتبارهم أو لا يأخذون ضمن أولوياتهم مسألة الربح والإرباح وينظرون إلى البحث العلمى نظرة فيها احترام وإجلال وتقديس ولا يعتبرونه مجرد (بيزنيس) ، ولدينا كمثال رائع لذلك المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بمشروعاته البحثية القومية المهمة ، بل إن أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا التى تأتى تحت سيطرة ونفوذ ومسئولية السيدة وزيرة البحث العلمى نفسها لديها برامج بحثية مهمة وجادة تعلن عنها كل عام وتقوم بتمويلها من الدولة ، وهى بحوث ترتفع بمستواها ومستوى القائمين عليها عن فكرة البيزنيس ، وقد تكون هناك عوائق إدارية أو مالية تعوق سير عملية البحث العلمى فى الطريق الصحيح كل الوقت ، ولكن ليس العلاج هو (بيع) البحث العلمى ومراكز ومؤسسات البحث العلمى للقطاع الخاص كما يوحى بذلك تصريح السيدة الوزيرة . وما يصلح فى مجال الفندقة أو الشركات الخاسرة لا يصلح بالضرورة لعلاج مشكلات البحث العلمى ، فهو أجل وأعظم وأخطر من أن يقع فى أيدى التجار والشطار .

حول الجوائز الأدبية

مفارقة لاتخلو من فكاهة

بقلم: د. عبدالعظيم أنيس

قرأت باهتمام العدد الماضى من مجلة «الهلال» كعادتي كل شهر، وإن كنت قد بدأت بقراءة الجزء الخاص بالجوائز الأدبية العربية وعشوائيتها بمناسبة ماحدث فى معرض الكتاب الأخير، والمعارض التى سبقته عندما منحت جوائز المعرض لرئيس الحكومة السابق ورئيس مجلس الشعب، ولم يعرف الرأى العام القواعد والمعايير التى منحت على أساسها تلك الجوائز، حتى وصل الأمر فى الفوضى والعشوائية أن يحصل سبعة من أعضاء اللجنة الاستشارية لتنظيم المعرض الأخير على جوائز، وأن يفوز أحد الكتب بالجائزة قبل أن يصدر ويخرج من المطبعة!

ولقد تحدث د. ماهر شفيق فريد فى إحدى مقالات هذا الجزء الخاص بالجوائز عن بعض المفارقات التى لاتخلو من فكاهة، فذكرنى مقاله بواقعة تتعلق بالجوائز حدثت أمامى بطلها روائى عربى كبير «ليس مصريا» منذ عدة سنوات، ربما كانت ست أو سبع سنوات، وهى واقعة ينطبق عليها الوصف الذى استخدمه الدكتور ماهر، أعنى أنها مفارقة لاتخلو من فكاهة.

● لست ضد الجوائز!

وقبل أن أبدأ فى رواية الواقعة أود أن أقول ـ وأنا لا ناقة لى ولا جمل فى هذا الموضوع ـ أننى لست ضد هذه الجوائز من ناحية المبدأ، ولا ضد قبولها مادامت تتوافر فيها شروط معينة سوف أذكرها، إننى بالطبع أعلم أن أصحاب هذه الجوائز فى الخليج إنما يبحثون عن الوجاهة ورضاء حكامهم في غالب الأحوال بهذه الجوائز، ولكن إذا توافرت حقا لجان تحكيم تتصف بالنزاهة والموضوعية والمعرفة الحقة لهذا التخصص الذى يحكمون فيه فإننى لا أرى بأسا فى

عزيزى القارىء

عشوائية الجوائز !

● تعتبر الجوائز الأدبية والعلمية أداة مهمة لتقدير المواهب والاحتفاء بـ ... ة، مما ... قريحة المفكرين والعلماء والأدباء ... والعلمية فالجوائز تقدير لجهود ...

هذا العمل وفى قبول الجائزة من أى أديب أو ناقد يقع عليه الاختيار، بل إننى أتمنى على هؤلاء الأثرياء فى الخليج أن يقدموا تبرعات كبيرة إلى الجامعات العربية «المصرية وغير المصرية» التى كثيرا ما تعوزها المراجع العلمية العديدة بسبب نقص العملة الصعبة، فلو تصورنا مثلا أن ثريا من الخليج قد تبرع لإنشاء مكتبة علمية تكنولوجية فى جامعة القاهرة أو عين شمس على أحدث طراز من ناحية المراجع والشرائط والمجلات .... إلخ، فما الضرر فى أن نرحب بهذا التبرع وأن نضع لوحة على باب هذه المكتبة تذكر فضله. بالطبع هذا شيء مختلف عما حدث في جامعة الأزهر عندما أنشأ الشيخ صالح كامل كلية لما يسمى «الاقتصاد الإسلامى» سميت باسمه. فمثل هذا العمل الأخير ضار ولم يكن يليق بإدارة الأزهر التورط فيه.

وربما نسيت أن أذكر هنا أننى كثيرا ما كنت عضوا فى لجان جوائز عبدالحميد شومان «فى لجنة الرياضيات»، وهى جوائز مختلفة عن جوائز الخليج فى الأعمال الأدبية والنقد، فجوائز عبدالحميد شومان والتى يمنحها كل عام البنك العربى مخصصة للأكاديميين الشبان فى تخصصات علمية تسع محددة، مثل الرياضيات والطب، والهندسة، والزراعة، والفيزياء وفقه اللغة.....»..

ويشترط فيها ألا يزيد سن المتقدم لها عن أربعين عاما، وأن يكون بالفعل عاملا فى إحدى الجامعات أو مراكز البحوث العربية، وليس عاملا فى أمريكا أو كندا أو بريطانيا مثلا. ومع أن قيمة الجائزة هذه لاتقارن بقيمة جوائز الخليج، فإنها تحظى فى العالم

العربى باحترام خاص للنزاهة والموضوعية التى تتوافر فى أعضاء لجان التحكيم فى كل تخصص من هذه التخصصات.

والآن أنتقل إلى رواية الواقعة التى ذكرنى مقال الدكتور ماهر شفيق فريد بها والتى تعبر عن مفارقة لاتخلو من فكاهة!

والقصة أن هذا الروائى العربى الكبير اعتاد أن يدعى إلى معرض الكتاب المصرى كل عام، ونظرا لصداقتى القديمة له فإنه يتصل بى تليفونيا عند وصوله إلى القاهرة فأذهب إليه فى الفندق ونتفق على الموعد الذى سنذهب به إلي المعرض.

ومنذ ست سنوات أو سبع وصل الصديق إلي القاهرة، وكالعادة خابرني هاتفيا إثر وصوله واتفقنا على يوم معين يمر علىّ فى منزلى، وهو قريب من المعرض، لنذهب سويا لمشاهدة المعرض وشراء الكتب التى تروقنا أو تلفت نظرنا. وفى الطريق إلى المعرض بدأ يحدثنى عن حديث أعطاه منذ يومين لمندوب إحدى المجلات المصرية يهاجم فيه هذه الجوائز التى يخصصها أثرياء الخليج، ويقول فى الحديث إن هؤلاء الأثرياء يريدون أن يشتروا ضمائرنا وقيمنا بمالهم، وأنه من العار على الأديب العربى أن يقبل مثل هذا الجوائز. وقال لى: إن المجلة المصرية سوف تصدر غدا أو بعد غد وإنه يريد منى أن أقرأ حديثه هذا وأن أناقشه فيه.

● مبروك الجائزة!

وبدت على وجهى الدهشة من هذا الموقف الحاد وقلت له: إنك ربما كنت مغاليا فى موقفك هذا. أفهم أن تطالب بوجود لجان تحكيم نزيهة ومحترمة من جانب المثقفين العرب، وألا تقحم الاعتبارات السياسية الآنية قدر الإمكان فى أحكام هذه اللجان على الأعمال الفنية، لكن أن ترفض الجوائز من ناحية المبدأ فإننى أعتقد أنه موقف به مغالاة غير عقلانية.

وامتد النقاش بيننا بل وأحتد ونحن نوشك أن نصل إلي أبواب المعرض. واستمر النقاش ونحن فى داخله، حتى وصلنا إلي الجزء من المعرض المخصص لدار النشر التى تنشر رواياته، فإذا به أفاجأ بالسيدة المشرفة على هذا الجناح تقبل بلهفة واضحة على الروائى العربى الكبير وتقبله فى حده، وتقول له بصوت واضح «مبروك يا أستاذ.....» ثم همست فى أذنه بكلمات لم أسمعها.

وعندما سألته عن سبب هذه القبلة

والتهنئة بدا عليه الارتباك الشديد ولم يرد أن يقول لى شيئا، لكنى ألححت عليه وقلت له إنه ليس من المعقول أن تهنئك هذه السيدة ألا أهنئك أنا وأنت تعتبرنى صديق العمر، وأنا لا أستطيع أن أهنئك حتي أعرف السبب فى التهنئة.

وبعد تردد قال لى الصديق إن هذه السيدة قد أخبرته أنه حصل على جائزة سلطان العويس بالأمارات تقديرا لإحدى رواياته! ومقدار الجائزة مائة ألف دولار!

وبالطبع انتابتنى موجة طويلة من الضحك، وهو صامت لايدرى ماذا يقول. وقلت له معاكسا: إما أن تسرع إلي المجلة المصرية وتطلب رفع حديثك العنترى أو ترفض الجائزة، إن هذا هو الموقف الكريم الوحيد الذى يليق بك!

قال وهو حائر: كيف أمنع نشر الحديث والمجلة لابد أن تكون الآن فى المطبعة، وهي تصدر غدا أو بعد غد؟

قلت: إذن لامفر من رفض الجائزة إن هذا هو الموقف الوحيد الذى يليق بروائى تقدمى كبير مثلك، أو ربما يكون من الأنسب إذا كان الرفض صعبا الآن أن تعلن تبرعك بالمبلغ كله لجمعية من الجمعيات الخيرية كدار الأيتام، أو جمعية مشوهي الحرب..... إلخ، وإن كان هذا الاقتراح لايروقك فإننى أقترح عليك أن تتبرع بالمبلغ كله للحزب الذى تعطف على مبادئه فى بلدك!

وسكت برهة طالت حتى ظننت أنه لن يتكلم، فإذا به فجأة يقول لى: إنك لاشك تهزل عندما تقترح على مثل هذه الاقتراحات، وهل من المعقول أن يأتى مثل هذا المبلغ الكبير إلى بابى وأرفضه! إن لدى مشروعات كثيرة يمكن أن يساعدنى هذا المبلغ على تحقيقها.

قلت: وحديث المجلة؟ كيف تبرر موقفك هذا؟ وماذا سيقول الخليجيون وأصحاب الجائزة عندما يقرأونه.

ولم يرد.

والذي أعلمه أنه ذهب إلي الإمارات فى الموعد المحدد لاستلام الجائزة، وقد رأيت صورته فى الاحتفال الذي أقيم فى الإمارات بهذه المناسبة فى إحدى المجلات.

لكنه لم يعد يحضر إلى القاهرة كثيرا كما كان يفعل فى الماضى، وإذا حضر لم يعد يتصل بى هاتفيا كما كان يفعل من قبل.

وحزنت، لا لأنني فقدت صديقا كنت أعتز بصداقته، بل لأن هذا الاحترام الذى كنت أكنه له قد ضعف كثيرا بعد هذه الواقعة.

النوافذ المفتوحة :

مذكرات رسام فنان موهوب

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

لو عرضت من قبل للجزء الأول من هذه المذكرات مع الجزء الثانى الذى صدر فى هذه الأيام كانت متعتى أبلغ ، وهو رأى أحسب أن الكثيرين ممن قرأوا هذه المذكرات يشاركوننى فيه ، من جيلى بخاصة ، ممن عملوا فى السياسة ، وانتموا لليسار بمعنى أو بآخر ذلك أن الكاتب ألقى فى الجزء الأول ضوءا كاشفا على تربيته وجذوره ، وإن شئت على قطاع عريض من حياة الطبقة البرجوازية فى مصر ، دنيا أو عليا أو متوسطة ، وهو أمر يشد المؤرخ ، والباحث الاجتماعى ، ومن يفتش فى طيات الماضى ليعرف كيف كان يعيش الآخرون .

أما فى هذا الجزء ، فأنت تجد نفسك ، أو أحد صحبك ، أو رفاقك ،أو خصومك ، إذا كنت قد ارتبطت بحركة الوطن السياسية ، على امتداد هذا القرن ، بأى سبب ، وعلى أية حال الذين لم يرتبطوا بحركة الوطن لايقرءون. إنه وثيقة رسمها فنان موهوب ، واقعى ، يرسم بالصدق



لوحة تنبض بالحياة والحركة ، وتلتقى به عبرها - كما كان فى الجزء الأول - إنسانا عـاديا، ليس مـلاكـا خلق من نور ، ولا شيطانا صيغ من شر ، وإنما يتصارع فى أعماقه ، كما فى أعماق أى إنسان سوى ، الكثير من الرغبات والطموح ، الصراع بين القـيم المتناقـضـة ، بين الحـرية والأعراف، يخطىء ويتعثر ويخاف ويغامر، تراوده الخطيئة كثيرا ، يقاومها حينا ، ويذل معها أحيانا ، حتى لو اقتنع فى أعماقه أن ماحدث ما كان يجب أن يحدث.

عندمـا راودته فـاطمـة ، زوجـة ابن الرجل الذى أواه فى بور سعيد هاربا ، هم بها كما همت به ، ولكنه أمسك أخيرا، كماصنع يوسف مع زوجة عزيز مصر قبل ذلك بآلاف الأعوام ، وتحاشى طوال اقامته عندهم أن يلتقى بها منفردا ، ويرد محاولة المرأة المتكررة ، إنها لم تكن تنجب ، وكان زوجها يصر على أنها السبب ، وهى تعرف يقينا أنه الذى لاينجب ، وأنه يبحث بالتالى عن زوجة أخرى ، فانتهزت الفرصة لتعطيه ابنا ولو من صلب غيره ، ولن يعرف أحد أو يشك ، فهى لاتخرج من البيت ، وفيه جاءها الفرج مع هذا الضيف اللاجىء ، ترى كم من حالات شبيهة مرت بالإنسانية عبر تاريخها ؟

ومع ذلك فهناك مـغـفلون كـثـيـرون يتمسكون بسلاسل النسب ، ونقاء الدم ، ويرتفعون بها آلاف الأعوام !

● الصراحة العارية

يدرك الكاتب واعـيـا وفى ذكـاء ، أن الحب والجنس قوام الحياة ، وأنهما وجهان لعملة واحدة ، أبى الناس هذا أم اعترفوا به ، أنكروا دوره أو سلموا بحقيقته ، ويعرف أن مثل هذه القصص تشدهم إليها، ومتشوقون دائما لسماع هذه الأسرار ، لأن الحديث عنها أصلا غير وارد ، أو لايقع إلا همسا ، وهى حقيقة يعرفها بحكم دراسته وتجاربه ، ولذلك يوشى مذكراته بما وقع له منها ، أو لغيره أحيانا ، فى صراحة حينا ، وموارية أحيانا أخرى ، وهى ظاهرة تختفى عند معظم كتاب المذكرات والذكريات عندنا ، نادرا مـا يلمحون إلى هذا الجانب من حياتهم ، خوفا أو خجلا ، أو تصنعا لعفة لا مكان لها ، ولكن الدكتور شريف يرويها، متحيا الخجل جانبا حتى لو كان يعرف أنها «باطل باطل ، باطل فى حكم القيم والأخلاق والعقل وأشياء أخرى كثيرة» ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر، على نحو ما يقول الإنجيل !

وإلى من يحبون النميمة فى الصالونات ، والثرثرة عن الأمور الشخصية فى مقاهى أدعياء الشعر والأدب ، أورد الدكتور شريف حتاتة قصة زواجه بالدكتورة نوال السعداوى من الألف إلى الياء ، أورد خلاصتها ، وطبعا لن يقنعوا بها ، وإنما سوف يضيفون إليها من التوابل بقدر ما لكل واحد من خيال واتجاه .

إنه فى مغامراته العاطفية لايكتى ولايلمح ، وإنما يذكرها صراحة ، وحتى

يسمى الطرف الآخر أحيانا ، لايصطنع وقارا ولا عفة ، ولا يخشى من أقرب الناس إليه شيئا ، آخرون كثيرون مثله ، لهم المغامرات نفسها ، ولكنهم يرتدون مسوحا ساترة ، ويتظاهرون بغير ماهم عليه واقعا، جبنا أحياناً ، واكتسابا من وراء التظاهر أحيانا أخرى ، وهو لايقف بهذا الجانب عند القاهرة وحدها ، وإنما ساتر يقدم لنا الجانب المقابل له ، في باريس ، عالم النساء والقوادين ، صورة شبيهة بما كان يحدث في شارع عماد الدين (محمد فريد حاليا) في النصف الأول من هذا القرن .

● **في غمرة السياسة**

وعبر صفحات الكتاب تمر عليك أسماء عشرات الفنانين والكُتاب ، جمع بينهم النضال يوما من أجل وطن أفضل للجميع، بعضهم رحل ، وآخرون لايزالون يواصلون مسيرة الفن أو الكتابة ، منهم من ظل على العهد ، ومن تخلى عنه ، من باع تاريخه ، وقد تناثروا في معظمهم ، لم يحتويوا يلتقون ولايجتمعون ، ولم يعودوا قوة مؤثرة، تعبوا ، أو ملوا النضال ، أو تغشاهم الإحباط ، أو آثروا السلامة ، وهؤلاء في كل الأحوال أفضل من الذين خانوا .

كان الكاتب نزيل سجون ومعتقلات ، عرفها ، وخبرها ، وأمضى فيها خيرة سنى شبابه ، وأعطانا وصفا واقعيا ، دقيقا ومذهلا ، لما رآه فيها من تعذيب وامتهان لآدمية البشر ، وما تصنعه بنفوس الضعاف من نزلائها ، وأيضا ألوان التكاتف والتساند ، وحتى الإبداع ، لمن جمعهم هناك مبدأ نبيل وغاية شريفة ، السجناء في معتقل الصحراء هم الذين ابتكروا زراعتها ، ليأكلوا منها ، بدل أن يظلوا وراء الأسوار يجترون آلامهم ، وقد نجحت التجربة ، فعرفوا طعم الخضار والفواكه الطازجة ، وكانوا قبلها محرومين منها تماما .

ليت إدارة السجون عندنا تدرس التجربة ، وتعاودها فتحترم بشرية نزلائها، ولا تشوه داخلهم ، فيخرجوا من السجن عتاة مجرمين ، وإنما مواطنون صالحون ، يستشرفون غدا أفضل .

وفي مقابل هذه الصورة لسجون مصر ومعتقلاتها هناك صورة للسجن في باريس، وقد حل عليه ضيفا ، ورأى فيه التفرقة العنصرية بأجلى صورها ، حتى في السجون ، فقد كان في موطن شعار «حرية ، إخاء ، مساواة» سجن لغير الأوروبيين ، التقى فيه بعدد من الجزائريين، فقد كان هذا السجن مخصصا لكل العرب، ولكنه على أية حال «كان أفضل من السجون التى عرفتها في مصر ، من حيث الطعام ، وفراش النوم، ووجود مرحاض إفرنجي في الزنزانة ، وحوض لغسيل اليدين والوجه ، وإمكانية استعارة الكتب من مكتبة السجن ، ولكن ماعدا هذا كان النظام يخضع لقواعد أكثر صرامة ، وكان الإفلات منها صعباً ، مختلف أنواع

الإهانة ، والعقاب ، والتعذيب شائعة ، ولكن أغلبها في التأديب (وهو المكان المخصص للعقاب)».

كان رفيقه في سجن باريس جزائريا قوادا ، يتزعم الزنزانة ، وحياته تشبه تماما حياة الفتوات الذين كان يعرفهم شارع محمد علي ، وحي البغايا في «وش البركة» ، المتفرع من كلوت بك ، وحتى في بعض مسارح شارع عابدين ، قبل أن يصبح هذا كله في القاهرة تاريخا ، وإن ظل باقيا في باريس .

وهو لايقف في باريس عند السجن ، وإنما يقدم صورة ناطقة لحركة الحياة فيها ، فهو يهوى «السير ساعات في الشوارع والميادين والحدائق والغابات ، وعلى ضفاف السين ، مغرم باكتشاف الأحياء القديمة ، والحواري والأزقة والأحواش ، تحكي تاريخ المدينة ، أو تحتضن بيوت شعرائها ومفكريها وثوارها ، ارتاد مسارحها ، وشاهد أفلامها ، استمع إلى فرق الموسيقا والمغني في صالات ونوادي الحي اللاتيني ، والمقاصف والبارات المنزوية تحت الأرض» .

ويلقي أضواء على تحركات مصريين كثيرين لقيهم في باريس ، بعضهم يذكر اسمه فحسب ، وآخرون قدم انطباعه عنهم تفصيلا : كامل زهيري ، وعبد القادر التلمساني ، ومصطفى صفوان وآخرين ويقف طويلا عند ظاهرة اللقاء والاختلاف ، وطوفان الحياة المتدفق ، والمشكلات التي

تبتلع الناس في بلد كمصر يضطرب بالسكان ويموج بالحركة ، وتمضي الحياة فيه على اتساعها عجلة ، لاتبقى على شيء ولا على أحد في مكانه ، وقلما تتسع لعلاقة إنسانية الآن ، تتعمق ، وتزدهر وتثمر .

● الشيوعية في مصر

تسهم المذكرات في جلاء تاريخ الحركة الشيوعية في مصر ، وحين يكون الكاتب طرفا في القضية التي يعرض لها ، فلن يكون موضوعيا تماما ، مهما حاول أن يكون محايدا ، ومن هنا فإن المعلومات الواردة في هذه الذكريات تثير غيرها ، وتستثير بها أيضا ، عند من يبحث عما هو أقرب إلى الحقيقة ، لأن الحقيقة كاملة من الصعب الوصول إليها ، في عالم كان رجاله يتحركون خفية ، ويحملون وثائق مزورة بأسماء مختلفة ، ويعتمدون على الذاكرة أصلا ، و «الوثائق المسجلة نادرة ، ومبعثرة عند عدد من الأفراد ، والأرشيف الوحيد الذي يعتد به يوجد في يد السلطات البوليسية ، والاطلاع عليه غير متاح إلا بإذن خاص» .

وأضيف أنا ، أن تقارير المخابرات الأجنبية التي كانت تهتم بالواقع المصري في تلك الأيام ، ربما كانت أكثر دقة وحيادا وموضوعية .

وقفت الذكريات طويلا عند اليهود ودورهم فى بناء الحركات اليسارية فى مصر وفى تدميرها أيضا ، وكيف أنهم لم ينسوا يهوديتهم أبدا ، مهما كان إيمانهم بالفكر الشيوعى ، وهو يقدم تعليلا نفسيا لهذه الظاهرة معتمدا فيها على فرويد ، وهو عالم يهودى أيضا ، وتقدم أروع تحليل قرأته لشخصية هنرى كورييل ، وضعته فى مكانه الصحيح ، مناضلا على مستوى إنسانى . ولكن تعاطف مع الحركات التحريرية فى العالم ، وتعاون معها ، ومن بينها حركة التحرير الفلسطينية . غير أنى أوضح أن تعاونه هذا شريطة ألا يمس واقع اسرائيل ، أو على حسابها ، فهو يراها شيئا مقدسا ، لايقبل الحوار أبدا حول شرعية وجودها ، وهى نقطة مرّ بها الكاتب عجلا دون أن يقدم لها تفسيرا .

كذلك كان مرور الكاتب عجلا ، بحرب فلسطين ، ورأى اليساريين فيها بعامة ، وحركة «حدتو» بخاصة ، وفيما يتصل بدخول الجيوش العربية ، والذى أعرفه يقينا أن القيادة مررت على القواعد منشورا ، بعد الاتفاق على دخول الجيوش العربية فلسطين ، يهاجم بقوة هذا العمل ويدعو إلى شجبه ، والتنديد به جماهيريا ، ويراه من فعل البرجوازية العربية الساقطة لتدمير نواة الديمقراطية والتحرر فى فلسطين ، وكان رد فعله بين هذه القواعد قويا وسلبيا ، فقد رفضته كثرة تركت الحركة على أثره ، فلم يكن أى فرد لديه شىء من وعى وثقافة فى حاجة لمن يدله على أن الحركة الصهيونية نزعة عرقية دينية، تقوم على التعصب ، وأن ماتصنعه فى فلسطين اعتداء واغتصابا ، ولصالح القوى الاستعمارية العاتية المنسحبة من المنطقة .

ولم يعرض من قريب أو بعيد لتدفق المتطوعين على فلسطين قبل دخول هذه الجيوش ، واستيلائهم على صحراء النقب، وبير سبع ، ووصولهم إلى قريب من تل أبيب ، وكان من بين قوادهم كمال الدين حسين (عضو مجلس الثورة فيما بعد) ، وأحمد عبد العزيز ، واستشهد فى فلسطين فى ظروف غامضة ، فقد صرعه فيما قيل جندى حراسة مصرى لأنه لم يعرف كلمة السر ، وهى قصة تافهة ، لابد أن يكون المرء غبيا لكى يتقبلها ، وعلى أية حال فإن السر لم يكشف ، وآثرت كل البوادر فى تلك الأيام ، وبعدها ، وحتى يومنا، ألا تقول عن الأمر شيئا . هل صمت الدكتور شريف حتاته ، لأن أغلبية هؤلاء المتطوعين كانوا من الإخوان المسلمين ؟ عهدى به منصفا موضوعيا ، فماالذى جرى فيما يتصل بهذه النقطة بالذات .

هناك فقرة خاصة بالشيوعية أتمنى على بعضهم ، ممن ينتسبون إليها الآن عقيدة أو هواية ، أن يقف عندها طويلا ، وأن يراجع نفسه ، لأن العريدة الفكرية

غير المسئولة في قضايا النضال الوطني بالغة الضرر ، ولاتفهم من الآخرين إلاّ في ضوء أن صاحبها مدسوس مخرب ، أو عاشق شهرة مستهتر ، أو مرتش يعمل لحساب آخرين . لقد أدرك هنري كورييل مؤسس الحركة المصرية للتحرر الوطني (حدتو) ، وكان حول الثلاثين من عمره، دور الإسلام في حياة الشعب المصري ، فأسس قسما للأزهر (كان يشرف عليه أزهري مصري نوبي هو مبارك عبده فضل فيما أذكر) ، وبذل جهدا لإقامة علاقات مع على الإخوان المسلمين خارج المعتقلات وداخلها ، ولم يكن يرى هناك أن تناقضا بين الإسلام والاشتراكية ، وإنما رأى في الدعوة الإسلامية ، والأديان عموما ، مبادىء إنسانية تدعو للعدالة الاجتماعية ، ولذلك أنشأ مجموعة للأزهريين ، وكانت اجتماعات الخلايا ومدارس الكادر تتوقف إذا أراد أحدهم أن يؤدي الصلاة في مواعيدها .

كذلك وددت لو قرأت رأيه تحليلا أو تعليقا على ما دعا إليه السياسي المصري الذكي إسماعيل صدقي ، من دعوة الجيوش العربية إلى التوقف عن المشاركة الرسمية في القتال والاستعاضة عنها بحرب العصابات ، وهو رأي بدا لي يومها – والآن – وجيها ، وأن نتائجه الايجابية ستكون أفضل من قرع الطبول الجوفاء ، التي لاشيء وراءها غير الإعلام الفارغ ، وينقل منه الآن ما نشرته إحدى المجلات

النـــوافذ المفتوحة

الأسبوعية المصرية ، فيما تدعوه من أسرار المخابرات الاسرائيلية ، من أن هذه الدعوة لم تكن شخصية خالصة ، ولا ذات فائدة مصرية أو عربية ، وإنما دفعته إليها قوى صهيونية كانت ذات نفوذ في مصر ، وعلى صلة به . وهو كلام لايقبل على عواهنه ، فمذكرات الجواسيس ليست دائمة صادقة ، ولا كتبها أصحابها يستهدفون الحقيقة ، وإنما لغايات سياسية، تخدم أهداف قومهم ، في تلويث الرموز الوطنية في صفوف أعدائهم .

● قضايا الوحدة العربية

عرض الكاتب لقضية الوحدة العربية ، وما كان له أن يسقطها ، فقد كانت شاغل السياسيين والمثقفين مهما تباينت آراؤهم في طبيعتها ووسائل تحقيقها . تحدث تفصيلا عن الوحدة مع العراق ، وكيف أن عبد الكريم قاسم رئيس العراق بعد ثورته على النظام الملكي رأى أن تتم على أساس فيدرالي ، وسانده في رأيه الحزب الشيوعي العراقي ، لأن مثل هذا الاتحاد يضمن لكل من البلدين استقلاله ، على أن تكون هناك حكومة وبرلمان اتحادي .

وأصر عبد الناصر على الوحدة الاندماجية ، التي تضمن له السيطرة على

الخارجية والدفاع والأمن ، محاولا القفز فوق أسوار التدرج الطبيعي ، وقد فشلت المحاولة ، وأتاح هذا لعبد الكريم قاسم أن يذبح عشرات الألوف من العراقيين المؤمنين بالوحدة الكاملة ، دون أن تستطيع مصر أن تصنع من أجلهم شيئا، ولكني لست مع الكاتب في أن عبد الناصر كان يخشى خطر الحزب الشيوعي العراقي ، لدوره في الثورة العراقية ، ولمعارضته الوحدة الاندماجية ، لأن دور الشيوعيين في ثورة العراق لعام ١٩٥٨ كان محدودا ، وإنما كان الدور الأعظم للقوميين العرب بعامة ، ولحزب البعث العربي بخاصة ، فلم تكن الأحزاب الشيوعية يومها ، على امتداد العالم العربي كله ، تمثل خطرا ، على أية حكومة، لأسباب اجتماعية وسياسية وخارجية ، وحينما اصطدم الشيوعيون مع عبد الكريم قاسم ، سجنهم بكل بساطة كما سجل القوميين العرب قبلهم ، وقوة عبد الكريم بجوار سطوة عبد الناصر لاشيء!

ويبدو أن الدعوة إلى الوحدة الفيدرالية، دون الاندماجية ، لم تكن مخططا محليا من صنع الحزب الشيوعي العراقي ، وإنما جاءت توجيها من سلطة أعلى ، ولذلك يقرر الكاتب أن الحزب الشيوعي المصري اتخذ هذا الخط أيضا ، وحجته «تتعلق بضرورة مراعاة الأسلوب الديمقراطي في إتمام الوحدة بين الشعبين» ، وهو كلام جميل وبراق ، ولكن الواقع شيء مختلف ، ويقرر الكاتب في صراحة : رغم كل الحجج التي ساقها الشيوعيون المصريون لمقاومة الوحدة الاندماجية ، وجانب منها يقع في دائرة المنطق والواقع والتاريخ ، فإن بياناتهم يأخذ في الحسبان شيئا لم يذكره ، وهو أنهم ،كانوا يخشون من الوحدة الاندماجية ، لأنها ستسهل على عبد الناصر تطبيق النظام السياسي الواحد (الاتحاد القومي) في العراق ، ذلك النظام الذي سوف يحرمهم من تكوين حزب سياسي علني معترف به» ، وبداهة شن عبد الناصر حملة شرسة على الشيوعية والشيوعيين في كل مكان من العالم العربي.

● الانفصال والبرجوازية

لم يعرض الكاتب للوحدة المصرية السورية ، ولا أبدى رأيه فيها ، ولكنه تحدث عن الانفصال ، ورده إلى البورجوازية السورية التي لعبت الدور الأساسي فيه ، مستخدمة سخط التيارات السياسية المختلفة ، وأجزاء من الشعب ، على الأخطاء وأساليب القهر التي اتبعتها حكومة الضباط للسيطرة على الأوضاع في سوريا ، والتي كان مسئولا عنها مباشرة عبد الحكيم عامر .

وفي بعض ماقاله الكاتب عن أسباب فشل الوحدة حق ، ولكن من الحق أيضا أن وراء انهيارها كلية عجز عبد الناصر عن الدفاع عنها مع أول بادرة تمرد عليها، وكان انهيارها بداية انهيار عبد الناصر

نفسه ، زعامة وحكما ونفوذا عالميا وعربيا، وكانت هزيمة ١٩٦٧ نهاية مأساوية لهذه البداية .

كان على عبد الناصر أن يدافع عن وحدة الوطن الذى يرأسه ، فتلك هى المهمة الأولى لأى حكومة ، وكانت مصر وسوريا يومها دولة واحدة ، شرعة ودستورا ومشاعر جماهير ، والخارجون عليها قلة ، فى الجيش وفى الشارع ، ولكن عبد الناصر لم يكن واثقاً فيما يبدو من كفاءة قواد جيشه ، وحريصا على مكانته أولا وأخيرا ، وهكذا قضى حفنة من المغامرين على أول خطى الوحدة العظيمة فى عصرنا الحديث ، وبعدها بدأ كُتّاب التبرير، وهم الأغلبية الساحقة ، يعزفون على إيقاع الوحدة لاتصنع بالقوة ، مع أن كل حركات التوحيد فى العالم قديما وحديثا تمت بالسلاح : وحدة القطرين فى مصر الفرعونية ، توحيد الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول فيما عرف بحروب الردة، وفى العصر الحديث على يد عبد العزيز بن سعود ، وفى ألمانيا على يد بسمارك، وفى إيطاليا على يد جاريبالدى ، وفى الويات المتحدة على يد إبراهام لينكولن ، إنها بدهية تاريخية لا تحتاج إلى تقرير .

● **لوحات تتوالى**

وماذا عن الشكل ؟ وهو الذى يجعل هذه الذكريات أدباً ؟.

إن الكاتب فيها لايعتمد على السرد المتوالى ، تتعاقب فيه الحوادث تاريخيا ، وإنما تأتى فى شكل لوحات تتوالى ، كل لوحة تمثل وحدة ، فى صورة مقاربة للقصة القصيرة ، ليس من الضرورى أن تدور حول موضوع واحد ، أو تتحد زمانا أو مكانا أو تاريخا ، فقد تعرض لقضايا مختلفة ، غير مرتبة زمنيا ، وتكفل «تيار الوعى» بإعطائها وحدة مترابطة فنيا ، ولا أظن الكاتب درس هذه الوسيلة التقنية فى كتب النقد ، وإنما التقطها بحسه الفنان من قراءاته فى الآداب العالمية المختلفة ، عند كبار الكتاب الأوربيين والأمريكيين المعاصرين ، على غير وعى منه بها ، أو على نية مسبقة باستخدامها ، وهو ما ألح عليه دائما فيمايتصل بالكتاب الشادين فى عالم القصة والرواية ، أن يقرأوا كثيرا لكبار الكتاب ، لأن ذلك يعينهم على أن يدركوا البناء الفنى للقصة والرواية جيدا ، وسوف يفيدون مما قرأوا دون تقليد أو احتذاء ، وقد يطورون الوسيلة الفنية أو يضيفون إليها ، ويتقدمون بها إلى الأمام خطوات .

أتاح تيار الوعى للكاتب ، أن ينتقل فى سهولة بين الماضى والحاضر ، والمستقبل أحيانا ، يصحبك فى جولاته وحركة روحه فى باريس ، وفجأة تراك معه فى مصر ، يحدثك عن حب جاءه على غير موعد ، منذ

النوافذ المفتوحة

أكثر من أربعين عاما فى باريس ، وفجأة من غير تمهيد ، فى حديث منساب لاتدرك أنه غير وقعه ، يحدثك عن شيء آخر لاتتبين حقيقته إلا بعد سطور ، يحدثك عن حبه الآخر الذى استمر ، وعن ملامح التلاقى والتكامل ، ويفصل لك نقاط الاتفاق والاختلاف ، ويفلسف لك بوعي وعمق حركة التغيير التى تصيب الإنسان فى عواطفه ، وصراع الفن والسياسة فى أعماقه . فهو لا يقص الحدث ويمضى ، وإنما يحاول أن يفسره ، وأن يرده إلى أسبابه ، وقد توافق على تفسيره أو تختلف معه ، ولكن من الحق أنه يفعل ذلك عن بصيرة ومعرفة ، يفتقدها الكثيرون ممن حاولوا ذلك فى قصصهم أو رواياتهم أو مذكراتهم ، على تفاوت بينهم ، ربما لأن الآخرين يفسرون عن حدس ، تعليلا يمتاحونه من وجدانهم ، أو تجاربهم .

● رومانسية مكثفة

لايذكر الكاتب الأحداث سردا مملا ، أو تواريخ جافة ، وإنما يوشيها برومانسية مكثفة ، وحين يتفاعل مع الطبيعة بخاصة ، خضراء مورقة أو صحراء جافة ، أو شوارع ومبانى ، فى وصف جميل ودقيق ، يجعل منه ، فى جانب محدد ، مرجعا لكتابة طوبوغرافية ، بعض المدن عندنا ، ولقد قرأت كثيرا من مذكرات السجناء ، ولا أظن أن أحدا قدم لنا وصفا دقيقا لألوان التعذيب الجسمية والنفسية كما قدمتها لنا هذه المذكرات ، مما يدين عهدا بأكمله ، لا حكامه فحسب ، وإنما كل الذين عرفوا وصمتوا ، وكل المثقفين عرفوا على نحو أو بآخر. ماأتعس أن ينتمى المرء إلى هذا الجيل ، وهذه المرحلة شيء خافت يخفف من رهبة الإدانة :صمود هؤلاء الرجال ، إنه يوقظ فى أعماق أى يائس بليد أن الدنيا بخير ، وأن الإنسانية تتقدم، رغم كل أهوال السجون .

ليس من حق الناقد أن يرسم للمبدع كيف يكتب ، فالأسلوب هو الرجل كما يقول الناقد الفرنسي بوفون ، ولكنى على أية تمنيت أن تكون بداية المذكرات فقرة وردت فى صفحة ١٩٩ من المذكرات :

«أنا فى حاجة إلى أن أنطق ، أن أتحدث إلى الآخرين عما جرى ، أن أصرخ من الألم ، أن أقول لهم «أنا هنا» ألا أموت وأنا حى وأدفن ، وهذه الكلمات أو اليوميات أو السيرة الذاتية هى إحدى وسائلى» .

الحق معه ! ، لقد أعطى ورفاق له آخرون الكثير ، ضحوا وسجنوا ، وتحملوا ألوانا من العذاب ، من أجل مصر، ومع ذلك لا يذكرهم أحد ، لم يقدموا إلى الأجيال الصاعدة بوصفهم نماذج تحتذى، ليس من الضرورى أن تكون الوسيلة واحدة - فالوسائل تتغير مع الزمن ، وتطور حركة الحياة ، ومهم أن يعرف شبابنا أن هناك من لم تكن تعنيه الرفاهية المميتة ، أو المناصب الزائلة ، أو الألقاب

الزائفة ، وأن الحياة فى مصر على امتداد ماسبق من تاريخها ، عرفت ألوانا من البطولة والنضال ، وربطها بالوطن ولاء ثابت لا يتزعزع ، وأن مايرونه الآن من العدم المنفوخ ، والصخب الملوث ، ومايسمعونه عن الملايين المنهوبة والمهربة ، وعن الرشوة وتجار المخدرات ، وعن أناس لبسوا ثياب القادة بلا رأى ولا فكر ، يؤمرون فيطيعوا ، وتافهون سدوا الأفق فلم يتركوا لنظيف أو ذكى فرجة يطل منها ، ومثقفين خانوا الأمانة ، فأكلوا على كل الموائد ورقصوا على كل الأنغام ، ويساريين يؤجرون أقلامهم للرجعية بلا خجل ، وكتابا يعرضون أقلامهم للبيع لمن يدفع ثمنا أكثر ، كل ذلك عارض فى حياتنا ولن يكتب له الدوام .

أحيانا يستخدم الكاتب العامية فى لغة الحوار ، وأنا لا أحبها له ، لأنها مع تطور الزمن سوف تختفى ، وتبهت تماما قيمتها الجمالية ، فهى وسيلة مرحلية زمانا ومكانا ، لا بأس حين تكون ضرورية ، وتصبح لامعنى لها حين يمكن أن تحل مكانها كلمة فصيحة لاتخدش واقعية التعبير ، لامعنى لـ «كان أبض عليك» لأن استخدام «قبض» لايغير من واقع التعبير شيئا وإنما هو مفهوم الآن وهنا ، وبعد ألف عام فى أى مكان!

ثمة هفوات ندت عن الكاتب تحتاج إلى شىء من التصويب .

فى ص ٤٧ يذكر «الفيلا التى تحتلها سفارة الجزائر فى شارع حسن صبرى بالزمالك هى فى الأصل هبة للثورة الجزائرية بعد الاستقلال ، تنازل عن ملكيتها (الضمير يعود على هنرى كوريلى) سنة ١٩٥٤ لحكومة بن بلا ، وقام بالاجراءات صديقه المحامى المصرى اليهودى «شحاته هارون» ، والعبارة إن صحت تحتاج إلى إعادة تحرير ، ففى العام المذكور لم تكن هناك حكومة جزائرية أصلا ، وحتى حكومة المنفى كانت أولا برياسة عباس فرحات ، ثم يوسف بن حدة من بعده ، أما بن بلا فلم يتول رياسة الحكومة إلا عام ١٩٦٢ .

وأن حركة الانفصال السورى كانت عام ١٩٦١ وليس ١٩٦٠ كما ذكر ، ووصوله إلى موسيليا هاربا بكتبه مرة الاحد ٢ أكتوبر ١٩٥١ ، ومرة ١٩٥٠ ، وحمد الباس وليس حامد ، ونجع حمادى وليس نجا حمادى ، وأخطاء مطبعية أخرى ، بعضها مما يمكن أن يهتدى إليه القارىء وبعضها يصعب عليه ، وأخطاء أخرى نحوية بلا عدد .

وتبقى ملاحظة هامشية : لقب دكتور الوارد فى هذا المقال أنا الذى سبقت به اسم الكاتب ، وهذا حقه ، أما هو فلم يصف به نفسه فى المذكرات أبدا : تواضعا ، إشارة إلى أن كثيرين اغتصبوه ولايستحقونه ، إلى أنه لم يعد ذا معنى ؟ كل ذلك ممكن ، ومع ذلك لم أرد أن أتجاهل لقبه العلمى !.

وملاحظة أخرى فى الصميم ، وهو أن هذه المذكرات ، إلى جانب قيمتها الأدبية ، تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ مصر الحديث بعامة ، وعلى تاريخ نضال الشباب بخاصة ، والحركات اليسارية على نحو أخص !

فجر الفكر الاقتصادى المصرى: (١٩٢٠ - ١٩٤٥)

بقلم: د. جلال أمين

● يصعب أن نعثر على متخصصين مصريين فى علم الاقتصاد قبل العشرينيات من هذا القرن. نعم، لقد عرفت مصر كتابات فى مسائل اقتصادية كما عرفت تدريس علم الاقتصاد قبل ذلك الوقت، ولكن من كان يقوم بهذا أو ذاك لم يكن الناس يعتبرونهم، ولا كانوا هم يعتبرون أنفسهم «اقتصاديين» فى الأساس. ومن ثم فمن الممكن اتخاذ مطلع العشرينيات نقطة البداية لتتبع تطور الفكر الاقتصادى المصرى، وأن نعتبر أن ذلك الجيل من الاقتصاديين الذين كتبوا فى فترة مابين الحربين العالميتين هو الرعيل الأول من الاقتصاديين المصريين.

كان أغلب أفراد هذا الجيل الأول من الاقتصاديين من خريجى مدرسة الحقوق التى أسسها الخديو إسماعيل فى ١٨٦٧، أو مدرسة المعلمين العليا أو مدرسة التجارة العليا، ثم أرسلوا فى بعثات حكومية أو سافروا على نفقتهم الخاصة لإكمال دراستهم فى الخارج، وعلى الأخص فى فرنسا أو انجلترا، ثم عادوا إلى مصر ومعهم شهادات الدكتوراة فى الاقتصاد السياسى، واشتغلوا بعد ذلك إما بالتدريس فى الجامعة المصرية التى تأسست فى ١٩٠٨، أو فى أحد البنوك أو فى وزارة المالية. كان معظمهم قد تلقوا تعليما راقيا، سواء فى سنوات دراستهم الجامعية الأولى فى مصر أو فى دراستهم العليا فى الخارج، على يد اساتذة أكفاء وقرأوا النظرية الاقتصادية فى كتبها الأصلية الأساسية، وليس فى شكل شروح أو ملخصات. وعندما يتأمل أحدنا الآن ما انتجه هذا الرعيل الأول من الاقتصاديين

من كتابات في الاقتصاد لا يسعه إلا أن يتملكه الاعجاب اذا أخذ في الاعتبار أن هؤلاء الاقتصاديين قد بدأوا من فراغ يكاد أن يكون تاما (إذا استثنينا مقدمة ابن خلدون وكتابات الفقهاء المسلمين في المالية العامة).

● **شخصيات بارزة**

كان أبرز شخصيات هذا الجيل الدكاترة عبدالحكيم الرفاعي، وأحمد نظمي عبدالحميد، وراشد البراوي، وفهمي لهيطة وعبدالمنعم القيسوني والأستاذ وهيب مسيحة.

كانت كتاباتهم النظرية والتطبيقية على السواء، تعاني من قيود ومصاعب جمة، أما الكتابة النظرية، فإنهم لم يذهبوا فيها إلى أبعد من كتابة الكتب المدرسية، أي تلخيص وشرح النظرية الاقتصادية كما كانت تدرس في أوربا في ذلك الوقت، وكان يحد من قدرتهم على التجديد والابتكار فيها أنهم لم يتلقوا علم الاقتصاد في دراستهم الجامعية الأولى إلا كجزء ثانوي من هذه الدراسة، وأنهم عندما تعلموا النظرية الاقتصادية تعلموها بغير لغتهم، وهناك من يعتقد (بحق فيما أظن) أن الابتكار النظري في علم ما يكاد أن يكون مستحيلا أو محصورا في أضيق الحدود اذا لم يكن المرء يفكر في هذا العلم بلغته الأم، فضلا بالطبع عن المناخ الثقافي العام الذي نشأوا و تربوا فيه.

وأما في الموضوعات التطبيقية فكان يصادفهم مصاعب جمة في جانب «العرض» وجانب «الطلب» على السواء.

إني أقصد «بجانب العرض» ماكانت تعانيه الكتابة الاقتصادية من ندرة الموارد البشرية (الاقتصاديين) وندرة البيانات والمعلومات الاقتصادية إن عدد المصريين الذين كان من الممكن تسميتهم اقتصاديين في بداية هذه الفترة، أي في ١٩٢٠ لم يكن ليتجاوز عدد أصابع اليدين، وفي نهاية الفترة (١٩٤٥) لم يكن عددهم ليتجاوز الأربعين أو الخمسين على الأكثر، وكان معظمهم يشتغل في وظائف عملية وليس بالعمل الاكاديمي. وقد استمرت دراسة علم الاقتصاد في مصر حتى نهاية هذه الفترة التي نتكلم عنها، تشكل جزءا من دراسة أوسع هي دراسة القانون أو ادارة الأعمال، ولم يكن من الممكن للمرء أن يصبح اقتصاديا الا اذا تابع دراسته في خارج مصر. ولكن البعثات الحكومية كانت محدودة للغاية في تلك الفترة، ولم تكن دراسة الاقتصاد لتحظى على أي حال، بأولوية عالية، لا في نظر الدولة ولا في نظر الطلاب المصريين أنفسهم.

● ندرة المعلومات

ولكن حتى لو كانت هناك وفرة من الاقتصاديين المصريين في ذلك الوقت، فإنهم ماكانوا ليجدوا من البيانات الاقتصادية مايحفزهم الى الكثير من البحث والتدقيق، فجمع وتصنيف مايسمى الآن بالحسابات القومية، لم يكن قد أصبح بعد من الحاجات الملحة كما يعتبر الآن، بل إنه لم يصبح كذلك حتى في البلاد الصناعية، إلا بعد نشر كتاب كينز الشهير «النظرية العامة» في سنة ١٩٣٦، وبعد ان زاد الطلب على هذه البيانات استجابة لمتطلبات الحرب العالمية الثانية. والراجح ان هذه الحرب ايضا، وما اقترن بها في منطقتنا من إنشاء «مركز تموين الشرق الأوسط» الذي وجد لمواجهة متطلبات هذه الحرب. هو الذي حفز الى اتخاذ اولى الخطوات الجادة لجمع وتحليل الحسابات القومية في مصر.

كان أهم هذه الجهود هو ماقام به خلال السنتين الاخيرتين من سنوات الحرب باحث شاب هو محمود أنيس، الذي قام بدراسة رائدة نشرت بالانجليزية بعنوان «دراسة في الدخل القومي المصري» (تم نشرها كعدد خاص من مجلة مصر المعاصرة) وهي مجلة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع، في سنة (١٩٥٠) وكانت تمثل خطوة رائدة على طريق طويل من جمع وتحليل البيانات الاقتصادية الكلية في مصر، فقبل نشر هذه الدراسة لم يكن هناك الا أقل القليل من البيانات عن مكونات الدخل والانفاق القومي في مصر، ومكونات الاستهلاك والاستثمار. ناهيك بالطبع عن بيانات توزيع الدخل، بينما كان حجم الناتج القومي الاجمالي ومتوسط الدخل، ومايطرأ عليهما من تغير من سنة وأخرى مجالا لكل من يريد التخمين والتقدير الجزافي.

لايجوز أن نقلل من شأن ماكانت مصر قد أحرزته من تقدم في جمع البيانات الاحصائية التي تتمتع بدرجة معقولة من المصداقية، بالمقارنة بدول العالم الثالث الأخرى . كانت مصلحة الاحصاء والتعداد قد تكونت، كإحدى مصالح وزارة المالية منذ ١٩٠٥، وبدأت في نشر الكتاب الاحصائي السنوي منذ ١٩٠٩.

وكانت مصر قد أجرت أول تعداد للسكان في ١٨٨٢، وجمعت ونشرت بانتظام إحصاءات على درجة عالية من الدقة عن ملكية الأرض الزراعية وتوزيعها على مختلف المحاصيل منذ بداية هذا القرن، فضلا، بالطبع، عن كل مايتعلق بمحصول القطن، عرفت مصر ايضا اعداد حسابات منظمة عن مالية الدولة منذ بداية الاحتلال البريطاني في ١٨٨٢، كان الهدف الأساسي منها مواجهة مشكلة الدين الخارجي . ولكن كل هذا لم يكن كافيا القيام بدراسات عن مشاكل

النمو الاقتصادى لمصر بوجه عام، والأوسع نطاقا من مشاكل اى قطاع بعينه، الأمر الذى كان لابد له من جمع وتحليل مختلف البيانات الاقتصادية الكلية.

● الاحتلال وعلم الاقتصاد

ثم إنه فضلا عن ندرة الاقتصاديين المصريين والبيانات الاقتصادية اللازمة، كان هناك أيضا قصور فى الطلب على هذه الخدمات والبيانات. لقد استمر اتخاذ القرارات الاقتصادية الاساسية طوال هذه الفترة فى يد سلطات الاحتلال، التى لم تكن تعتبر تنمية مصر الاقتصادية، بالمعنى الذى نفهمه الآن، واحدا من أهدافها، بل كان الهدف هو «الادارة الاستعمارية الكفء» وهو شيء مختلف تماما عن التنمية الاقتصادية . ان افضل من يقوم بهذه «الادارة الاستعمارية الكفء» هم بالطبع السياسيون والخبراء البريطانيون المقيمون فى لندن، او الاداريون وخبراء الرى البريطانيون ايضا المقيمون فى مصر، دون حاجة تنكر الى اقتصاديين مصريين، كانت الاصلاحات الاساسية التى يحتاجها نظام الضرائب قد تحققت بالفعل فى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى، وانكمشت مهمة التنمية الاقتصادية حتى انحصرت فى رفع انتاجية الأرض الزراعية فى مصر، بل وانحصرت هذه فى زيادة الكفاءة فى انتاج وتمويل وتسويق محصول القطن، لم يكن هذا بالطبع ليرقى الى ماكان يتطلع اليها المصريون من رفع مستوى المعيشة للشعب المصرى ككل، وزيادة درجة التنوع فى الاقتصاد بتشجيع نمو الصناعة، وادخال اصلاحات أخرى على نظام الضرائب تتمثل فى شموله لمختلف مصادر الدخل التى لم تكن تخضع لأى ضريبة وتحقيق درجة أعلى من التصاعدية فى أسعار الضرائب ومن العدالة فى معاملة الأنواع المختلفة من الدخل، ولكن كان الشعور السائد وقتها بأن مثل هذه الاصلاحات لابد أن تنتظر حتى يتحقق الاستقلال السياسى الحقيقى، وبأنه طالما بقى الاحتلال البريطانى لايمكن اتخاذ أى اصلاح اقتصادى ذى شأن . كان المطلوب فى ذلك الوقت، او هكذا بدا الأمر، ليس مزيدا من الاقتصاديين بل من القانونيين والسياسيين الذين يستطيعون الدفاع عن القضية الوطنية فى المحافل والمؤتمرات الدولية وعلى موائد المفاوضات.، لم يكن غريبا اذن ان تكون اكثر الكليات الجامعية اغراء للنابغين من الطلاب فى ذلك الوقت، هى كلية الحقوق، وان عددا قليلا جدا من هؤلاء هم الذين شعروا برغبة قوية فى التخصص فى الاقتصاد.

● البحث عن عزاء فى التاريخ

فإذا نظرنا الآن الى فترة مابين الحربين كلها، فإنه سوف يبدو لنا طبيعيا للغاية ان يسيطر موضوعان على الانتاج

الفكرى للاقتصاديين المصريين فى تلك الفترة: الزراعة (وعلى الأخص القطن) والتاريخ الاقتصادى المصرى. أما الاهتمام بالزراعة فتفسره بطبيعة الحال غلبة هذا القطاع الكاسحة فى ذلك الوقت على اجمالى الناتج القومى واجمالى العمالة واجمالى الصادرات. وأما الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى المصرى فالارجح أن الدافع اليه كان عوامل نفسية فى الأساس. كان الشعور بالاحباط المتولد عن الخضوع للسيطرة الاجنبية يدفع الى محاولة احياء الماضى، كنوع من العزاء من ناحية، وبحثا عن دليل للعمل من أجل المستقبل من ناحية أخرى ترتب على ذلك ظهور بعض الدراسات الممتازة فى تاريخ مصر الاقتصادى كتبها مصريون، ونادرا ما كتب أفضل منها فى السنوات التالية للفترة التى نحن بصددها الآن، ومن الشيق أن نلاحظ ظاهرة مماثلة فى فروع أخرى من فروع المعرفة، إذ شهدت نفس الفترة دراسات ممتازة ورائدة فى التاريخ السياسى والفكرى لمصر والعرب والمسلمين من ابرزها دراسات العقاد وأحمد أمين وطه حسين وعبدالحميد العبادى ومحمد حسين هيكل عن التاريخ السياسى والفكرى للإسلام، وسلسلة عبدالرحمن الرافعى فى تاريخ مصر الحديث.

● طلعت حرب الاستثناء البارز

كان هناك استثناء بارزا من سيطرة هذين الموضوعين على اهتمامات الاقتصاديين المصريين، الزراعة والتاريخ الاقتصادى، هذا الاستثناء البارز هو كتابات طلعت حرب وانجازاته العملية على السواء، فها هو ذا رجل يتطلع الى المستقبل بدلا من الماضى، ويشغله تطور الصناعة المصرية بدلا من الزراعة، وعلى الرغم من أن طلعت حرب كان اقتصاديا عمليا وليس اكاديميا، فإن كتاباته وخطبه ومقالاته ومذكراته وتقاريره الاقتصادية تشكل علامة مهمة فى تطور الفكر الاقتصادى المصرى، تذكر بشدة بكتابات التجاريين فى أوربا إبان عصر النهضة كما تذكر بشدة أيضا بكتابات وانجازات الاقتصادى الالمانى فردريك ليست فى العقود الأولى من القرن الماضى كان كل منهما، طلعت حرب وفردريك ليست، يتغنى بمزايا الصناعة، ولا يرى اى مستقبل اقتصادى لبلده بغير التصنيع السريع، ويطالب بدور فعال من جانب الدولة لحماية الصناعات الناشئة.

● التبعية الفكرية

ومع ذلك، وعلى الرغم من دعوة طلعت حرب المستمرة، هو وغيره من الاقتصاديين المصريين الى الاستقلال

الاقتصادى، فقد عكست معظم الكتابات الاقتصادية المصرية فى هذه الفترة درجة عالية من التبعية الفكرية للخارج، بما فى ذلك تأثر طلعت حرب نفسه بدعوى الاستقلال الاقتصادى التى عرفتها اوربا فى المراحل الأولى لنهضتها الصناعية، ففى ظل ندرة، أو حتى انعدام الكتابات الاقتصادية العربية قبلهم كان على هؤلاء الرواد من الاقتصاديين المصريين ان يعتمدوا بشدة على الكتابات الاوربية (وبدرجة أقل بكثير على الكتابات الامريكية) فى النظرية الاقتصادية بل وفى دراسات الاوربيين للمشاكل الاقتصادية لمصر نفسها ولتاريخها الاقتصادى، وهكذا ظلت أفضل الكتب الصادرة عن نظام الرى والزراعة فى مصر هى تلك التى كتبها مهندسون بريطانيون وظل افضل كتاب فى تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر هو كتاب كراوشلى:

(Crovchley, A. : the Economic Development of Modern egypt, longman, london, 1939).

وذلك حتى نهاية هذه الفترة التى نتكلم عنها على الأقل.

● الانجاز الجليل :

ولكن، مع كل هذه الثغرات وأوجه القصور، كان لهذا الرعيل الأول من الاقتصاديين المصريين فضل واحد عظيم على الأقل، لازال الفكر الاقتصادى المصرى، وسوف يظل مدينا لهم به، وهو جهدهم الرائع فى تعريب المصطلحات والافكار الاقتصادية، إن معظم المصطلحات الاقتصادية العربية المستخدمة اليوم فى مصر، والتى انتشر كثير منها الى سائر البلاد العربية، هو من صنع هذا الجيل من الاقتصاديين سواء فى ذلك مصطلحات النظرية الاقتصادية الجزئية والكلية، أو التجارة الخارجية، أو النقود والبنوك، أو التأمين، أو تاريخ الفكر الاقتصادى.. إلخ . وبفضل ما كان يتمتع به ذلك الجيل من سيطرة كاملة على قواعد اللغة العربية ومعرفة حميمة بأفضل أمثلة الأدب العربى القديم، جاءت هذه المصطلحات الجديدة لتعبر عما يقابلها فى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية، بدقة ووضوح وجمال، وهى صفات ساعدها على سهولة وقبول هذه المصطلحات وانتشارها.

جاء الجيل التالى من الاقتصاديين المصريين (٤٥ - ١٩٧٠) ليستخدم هذا التراث الغنى من اللغة الاقتصادية الذى تركه الجيل الأول، وليصحح كثيرا من أوجه القصور التى عانى منها، وليتخلص من قيود التبعية التى كان الجيل السابق مكبلا بها. ولكن هذا الجيل التالى عانى بدوره من أوجه قصور ومن قيود من نوع جديد وهو موضوع مقالنا القادم.

رســالة
سنغافورة

مجــدى نصيــف

صناع القرن العشرين فى آســيا

سنغافورة بعد لى كوان يو

● الرجل الذي بني بلاده وحولها من العالم الثالث إلى إحدى دول العالم الغنية .

● الديموقراطية الغربية غير مناسبة فى رأيه للدول الأسيوية لأن لها قيماً أخرى .

قال زعيم سنغافورة «لي كوان يو» مرة إنه سيعود من القبر يوماً بعد وفاته ليقود البلاد . ولم يجرؤ كثيرون على تكذيب ما قال. فقد فعل لبلده الكثير لدرجة أن أهل سنغافورة يعتقدون أنه قادر علي أن يفعل اى شيء. وكيف لايصدقون وقد بني سنغافورة في ثلاثة عقود فقط تحولت من قرية- صغيرة- جزيرة يسكنها فقراء فى اكواخ من الصاج إلى البلد- المدينة الحالية بناطحات سحابها وتجارتها وأصبحت واحدة من نمور آسيا الصغيرة الأربع.أقام الزعيم «لي كوان يو» النظام الذى يريده فى أحد أركان آسيا الذى كانت تسوده الفوضى، وحوّل سنغافورة لتصبح واحدة من القوى الاقتصادية ليس فى آسيا وحدها بل في العالم أجمع. لذا يطلقون عليه في سنغافورة «الأب المؤسس» . لكنه فى الحقيقة يستحق أكثر من هذا الاسم بكثير.



لذا عندما دخل رئيس وزراء سنغافورة السابق «لى كوان يو» المستشفى وكنت آنذاك اقضى يومين بسنغافورة فى منتصف يناير ١٩٩٦، يشتكى من إنسداد الشريان التاجى، واجه أهل سنغافورة فجأة الحقيقة : إن كل انسان سيموت حتى ولو كان «لى كوان يو» فهو فى الثانية والسبعين وتبدو عليه علامات الموت. لم تصب أسواق سنغافورة بهزة كما قد يتوقع البعض وهذا ما يفضله «لى كوان يو» . لم تتأثر البورصة . ويفهم السنغافوريون أن زعيمهم قد اعد العدة

للخلافة . وهذا على عكس سوهارتو فى اندونيسيا ودنج زيابنج فى الصين . فهو عندما يترك الساحة سيكون الانتقال فى السلطة هادئاً ، وليس هناك حاجة إلي صراع دموى . كل شيء سار فى طريقه كما هو .لكن السنغافوريين يشعرون فى داخلهم إنهم بدون «لى كوان يو» يفقدون «البوصلة» التى توجه حياتهم . لقد كان يمسك كل السلطات بين يديه ولن يشعر السنغافوريون بهذا إلا بعد أن يفقدوه .

● إرث لى كوان يو

ولن تنظر سنغافورة وحدها إلى إرث «لى كوان يو» بل آسيا كلها . فهو صاحب وبطل فكرة ألا يتبع الآسيويون نماذج الديموقرطية الغربية لتتحقق لهم الرفاهية. ثلاثة عقود كاملة من النمو الاقتصادى العالى، جعل سنغافورة نموذجاً للتقدم المنتظم فى كل آسيا ، بما فى ذلك دول كبيرة مثل إندونيسيا والصين ، إذ تعتمدان على نصائح القيادة السنغافورية فى تنمية بلادهما .

واقترح على القيادة الصينية إبعاد وسائل الاعلام العالمية عن ميدان السلام السماوى وقت المذبحة ضد الطلبة .

وصفه المؤلف مايكل ليفر فى كتاب عنه بأنه «سوبر مان سياسى ، فى وقته» بينما قال لى كوان يو مرة أن وجود سنغافورة فى تلك الظروف التى فهمها تماماً هى انجازه الرئيسى . أما عبقريته الحقيقية فهى الوصول الى الحلفاء المضبوطين للحفاظ على سلامة سنغافورة.

● البداية

أصبح أول رئيس لوزراء سنغافورة عام ١٩٥٩ بعد أن انفصلت عن الاتحاد الماليزى . الذى لم يعش طويلاً بعد الاستقلال بسبب ذلك الانفصال . وطرد من الاتحاد الفيدرالى الماليزى بطبيعة الحال ، فبدأ تجربته . فتح أبواب سنغافورة لرؤس الأموال الأجنبية التى حولت الجزيرة السنغافورية إلى ما هى عليه الآن. و٨٠٪ من استثمارات سنغافورة الآن فى قاعدتها الصناعية . هكذا أصبح لى كوان يو خريج جامعة اكسفورد وبكل القيم الاسيوية والحفاظ عليها ، صديقاً لأى بلد فى الشرق أو الغرب يساعد بلده ويحقق جزءاً من أهدافها التى وضعها بنفسه .

ولسنغافورة جاران كبيران قويان : الصين بسكانها وقوتها العسكرية ،

واليابان بجبروتها الاقتصادى لذا تطلعت سنغافورة إلى الولايات المتحدة الامريكية كعامل توازن . كان لى كوان يو معادياً للامبريالية فى صباه وشبابه، لكنه دعا القوة الامبريالية الكبرى فى العالم، الولايات المتحدة الامريكية فى التسعينات إلى استخدام قواعد عسكرية فى سنغافورة . وكان فى نفس الوقت يحذر واشنطن حتى لا تستفز الدول الآسيوية بلعب دور «رجل البوليس» فى المنطقة . ويقدر كثير من السنغافوريين هذا «التوازن السياسى» الذى فرضه «لى كوان يو» وإن كان عديدون يصفونه بانه «لعب على الحبال» ويقول محللون سنغافوريون أن هذه السياسة «اكسبته احترام القوى الاقليمية والدولية على السواء»

● الجزيرة وسكانها

ويصل عدد سكان هذه الجزيرة الصغيرة إلى ثلاثة ملايين نسمة يعشون على جزيرة أعرض جزء فيها طوله ٤٥ كيلو متراً، ولولا أن «لى كوان يو» سيطر على حياة السنغافوريين لدرجة مذهلة لما استطاعوا أن يعيشوا على تلك الجزيرة لذا فالتجربة السنغافورية غير قابلة للتصدير خاصة إلى الدول الأكبر . فالممنوعات فى سنغافورة كثيرة وغراماتها كبيرة وشديدة ، ابتداء من إلقاء أى شىء فى الشارع إلى «التبول» إلى القيادة بسرعة ، وهناك اجهزة خاصة تركبها شركات التاكسيات تصدر أجراساً عندما يتعدى السائق السرعة المسموح بها . وحملات النظافة قاسية إلى درجة منع زراعة الأشجار التى تتخلص من أوراقها فى الخريف من الحدائق العامة . أما الرقابة فتشاهد كل فيديو يدخل البلاد وكل كاسيت . والنتيجة أن سنغافورة كلها بلد نظيف تماماً : من الزبالة والشحاذة والفقر والجريمة . فالجميع يعملون ، وليس هناك حاجة للشحاذة وارتكاب الجرائم .لذا يؤمن الشباب السنغافورى ان «بلاده قد شيدت منذ البداية على النجاح الاقتصادى ، لذا يتبع كل شىء هذه البداية» لكن بعد ثلاثة عقود من الحياة في مجتمع متزمت ، هناك « عدم راحة بين شباب عديدين» ويقول بعضهم «لسنا حيوانات اقتصادية. إننا بشر»

ويهاجم لى كوان يو فى الغرب دائماً كمستبد ودكتاتور. وعندما حكم على شاب أمريكى كتب على إحدى السيارات بـ ١٦

جلدة ، وجه اليه الرئيس الأمريكي بيل كلينتون نداءً بالعفو عن الشاب ، فخفّض الحكم من ١٦ إلى ١٢ جلدة ! ويصف «كوان يو» نفسه بأنه «براجماتي» ولأن اللغة الانجليزية هي لغة رجال الأعمال فقد أصبحت اللغة الانجليزية هي اللغة الأساسية للسكان الذين تبلغ نسبة الصينيين بينهم ٧٥٪ . وقام في نفس الوقت بحملة «تحدث الماندارين» وهي إحدى «اللغات» أو «اللهجات» الصينية ووسع العلاقات مع الصين ودفع مجملات «القيم الاسيوية» إلى أمام . وعندما بدأ عدد السياح ينخفض بشكل ملموس في الثمانينات ، شن لي كوان يو حملة كبيرة لحماية البقايا المعمارية المتخلفة عن عهد الاستعمار البريطاني . وحقيقة الأمر أن التكنو قراط من أكفأ العاملين في المنطقة . وبعض شركات الدولة مثل خطوط طيران سنغافورة تنافس الشركات الخاصة العالمية بل وتتفوق على بعضها . أما لي كوان يو نفسه ، فيقدم نموذجاً حياً لمواطنيه : فهو يعمل بجد ونشاط لساعات طويلة . وبعد كل هذه السنوات في السلطة ما زال يعيش بمنزله المتواضع الذي عاش فيه منذ كان رئيساً لوزراء سنغافورة لأول مرة وهو يكره المظاهر الكاذبة والبذات الفاخرة التي يرتديها رجال الأعمال وكبار موظفي الدولة عادة . وهو يسافر في شركات طيران رخيصة .

● لي كوان يو والديموقراطية

ومنذ بداية عمله السياسي ، وتجربته في سنغافورة ، وهو يقول أن «الديموقراطية الغربية لا تناسب الحضارات الآسيوية ، ذلك إنها لم تعرفها فالانسان لا يمكن الضغط عليه وطبخه ليعمل بالطريقة التي نطلبها منه » هذا رغم أنه يشكل المواطن السنغافوري كما يريد في كل المجالات الأخرى ومن رأى لي كوان يو أن ما بين ٥ إلى ٨٪ من السكان فقط هم الذين يستطيعون ممارسة «الحرية للجميع» وهي شكل الديموقراطية الذي يحبذه . «أما إذا طبقت هذه الديموقراطية ليمارسها كل سكان آسيا ، فستكون كارثة وفوضى» وحتى يمكن أن تسيطر القيادة السياسية في سنغافورة على الأوضاع ، فرضت عقوبات تتراوح بين الجلد على كل من يرسم أو يكتب شيئاً على الحائط ، إلى الإعدام لحيازة أي كمية من الهيروين.لكن

لعل أكثر الجهود عدوانية من جهة لى كوان يو ، هى تلك الموجهة للفقراء ، فهى تكاد تقترب من التجارب الغازية - الهتلرية . فقد قام بحملة أطلق عليها «تربية الذكاء» فى الثمانينات . كانت حكومة لى كوان يو قلقة على الأطفال المولودين فى طبقات فقيرة . فعرضت عليهم شققاً رخيصة إذا ما وافق الرجال الفقراء على تعقيم أنفسهم وشجعت المتعلمات على الزواج من رجال يناسبوهن ومن نفس المستوى التعليمى بتخفيض الضرائب المفروضة عليهن. وكان شعار لى كوان يو المفضل هو « صناعة الأطفال الموهوبين» وقال أن هذه الحملة «ضرورية لمنع التحلل الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع السنغافورى»! ثم خبت هذه الحملة في نهاية عمله كرئيس للوزراء .

كبير الوزراء

تنحى لى كوان يو عن منصبه بعامل السن عام ١٩٩٠. وخرج بقوله إن خليفته حر فى أن يخفف من شدة نظامه إذا ما أراد. وبالفعل قام رئيس الوزراء الجديد جوه شوك تونج بتخفيف «الممنوعات» فبدأ بالصحافة، والفيديو، وأنشأ وزارة للفن،وأفرج عن بعض السجناء السياسيين لكن سنغافورة ظلت فى شكلها العام ، هى سنغافورة لى كوان يو ، أو ظلت تشبهها كثيراً ، وخاصة فى الأساسيات . ظل لى كوان يو بعد أن تنحى رسمياً، «كبير الوزراء » فى حكومة جوه شوك تونج . فهو ما زال يلعب دوراً هاماً فى «حزب العمل الشعبى » الذى يسيطر على مقدرات سنغافورة. وهو الذى يتخذ القرارات فى السياسة الخارجية ، وفي أي مجال آخر يريد أن يفرض رأيه فيه . وبمعنى آخر مازال يتدخل فى كل شيء ، حتى نوع الأشجار الذى يزرع بسنغافورة!

إلى متى يستمر لى كوان يو هكذا ؟

وقبل مرضه كان هناك حديث عن خوضه لمعركة الرئاسة في سنغافورة التي تجرى انتخاباتها عام ١٩٩٨ . وهناك نكتة تقال سراً بطبيعة الحال ، فهو يري سنغافورة صغيرة علي أحلامه، لذا يحاول أن يخوض معركة انتخابات الرئاسة في الصين ! .

□

عالم جديد
عصر جديد
حضارة جديدة

بقلم :
مصطفى نبيل

□ كتاب جديد ، أو مفاجأة بكل المقاييس ، إنه تلخيص وتجميع لأعمال «ألفن توفلر» بين دفتي كتاب ، يضع أفكاره أمام قراء العربية ، وجاءت الترجمة مفاجأة أخرى في دقتها وسرعتها والجهد المبذول فيها ، والتي قام بها أحد المثقفين البارزين الاستاذ سعد زهران .

يرتدي المؤلف ثوب المبشر الذى ينادى بنظرية جديدة وعالم جديد وعصر جديد وحضارة جديدة ، عالم أكثر بهجة يتمتع فيه المرء بوقت فراغه ، ويعيش رفاهية أكبر ومشقة أقل .

خاصة والقرن الحادى والعشرون يفتح ذراعيه للقادمين ، ولم يبق من القرن العشرين سوى أربع سنوات ، والعد التنازلى يوشك أن يتم ، والتغيرات عاصفة من حولنا ، تبدو أسرع من البرق ، وأعجب من الخيال ، تفوق كل التوقعات ، لذا اقترن هذا العصر بـ «عدم اليقين» رغم أن التغير لايتوقف أبدا .

والتغيرات التى نشهدها تشمل العالم بأسره ، المراكز والأطراف ، عالم المتقدمين والمتخلفين معا، فهى نتيجة التطورات العلمية والتقنية التى لايقف تأثيرها عند حد ، والتى تبدو معالمها فى ثورة التكنولوجيا وثورة المعلومات .

● قوانين التغير

قدم «ألفن توفلر» نظرية متماسكة حول المستقبل ، بعقل نافذ وبصيرة ثاقبة ، يجيب عن الكثير من التساؤلات التى تظهر مغزى ما يجرى فى العالم ، يكشف عن قوانين التغير ، ويقدم طريقة للتعامل مع هذه القوانين اعتمادا على استقراء الواقع ومعرفة التاريخ ومن يتابع كتاباته يلحظ القدرة الفذة على قراءة المتغيرات والربط بينها ، واستخلاص نظرية تستحق التأمل والحوار ، وتميزه لايقتصر على أن لديه فقط ما يقول ، بل ويعرف كيف يقوله.

وعندما نشد رحالنا لبدء الرحلة المبهرة فى الألف سنة المقبلة نرى أن للفكر والفن مكانا بارزا فى نظرية توفلر ، وعلى المفكرين أن يستعدوا لما يمكن أن يكون أكثر الرحلات متعة وإثارة فالتغير المستمر ، يؤكد الحاجة الدائمة الى مراجعة أفكارنا ومفاهيمنا ، ونبدلها وفقا للخبرة والتجربة .

وهذا الكتاب يثير من الأسئلة بقدر ما يقدم من الاجابات ، ويصعب أن تعثر على إجابات حاسمة ، والاجابات التى يقدمها توفلر تحرض على المزيد من الأسئلة فتأثير التقدم العلمى والأقمار الصناعية والانترنت يصل الى كل مكان ، وألقت هذه المستحدثات بظلها على كل مظاهر الحياة، وفسرت كل مايقع فى العالم من أحداث بعد أن كان النصف الثانى من القرن العشرين من أعظم فترات التقدم العلمى والتكنولوجى ، وسيساعد استخلاص النتائج على هذه الإنجازات فى استقراء القرن المقبل «عصر المعلومات» أو «عصر مابعد الصناعة» الذى يدور محوره حول المعرفة ، تلك المعرفة التى تحقق السيطرة الاجتماعية وتوجه الإبداع والتغيير الاجتماعى ، بعد تحول القطاع الاقتصادى من إنتاج السلع إلى تقديم الخدمات وسيادة طبقة التقنيين والمهنيين بدلا من أصحاب الأموال والعمال والفلاحين !.

فاستخلاص المعارف من المعلومات هو محور نشاطات المستقبل ، وتعنى المعارف أن رأس المال «البشرى» حل محل رأس المال «النقدى» ، فسيتخلص الانسان المعارف من المعلومات ، ويعود للإنسان اعتباره بدلا من الآلة .

ويؤكد «توفلر» أن الأزمات المتلاحقة

التى تعيشها الولايات المتحدة ، ليست سوى مخاض يسبق ظهور نظام كونى جديد ، يواجه عدة أزمات لم يسبق لها مثيل بعد أن تفرد المجتمع الأمريكى طويلا بالقدرة على حل الأزمات أو التعايش معها ووصلت هذه الأزمات الى النظام الأسرى والصحى والتعليمى ، ولايعنى ذلك أن أمريكا فى طريقها الى الانهيار ، أو أن ذلك نهاية التاريخ ، فأزمات أمريكا ليست نتيجة إخفاقها ، وإنما نتيجة نجاحاتها المبكرة ، وليست أمريكا فى نهاية التاريخ، بل تعيش ماقبل التاريخ ، والصعوبة أن أدوات التحليل التى بين أيدينا لم تعد صالحة للتحليل ، وغدت مصطلحات مثل اليمين واليسار ، أو الليبرالى والمحافظ بلا معنى ، نجد البلاشفة الروس رجعيين والإصلاحيين الأمريكان راديكاليين ، والأخطر مانراه من انتقال السلطة السياسية من الكونجرس والبيت الأبيض والأحزاب السياسية الى أجهزة الاتصال والجماعات الأهلية التى تربطها شبكات إلكترونية واسعة !.

ويصعب فهم هذه الظواهر فى هذه المرحلة من التغيرات السريعة والآمال المحبطة والصراعات التى يتقابل فيها الأخوة ، من غير السعى لفهم متكامل

عالم جديد

للقرن الحادى والعشرين .

ويقدم «توفلر» إطارا ومنطقا لعملية التغيير ، يجعلنا نستطيع أن نقدم على خطوات عملية من أجل إحداث تغييرات أعظم تنتظرنا فى المستقبل ، وتجعلنا نتمكن من السيطرة عليها وتوجيهها ، بدلا من أن نكون من ضحاياها .

● صدمة المستقبل

أقول : جاء هذا الكتاب تلخيصا لأعماله السابقة ، ويتضمن رؤية متكاملة إكتملت على مراحل ، كانت البداية عندما قدم ألفن وهايدى توفلر نظريتهما فى كتاب «صدمة المستقبل» سنة ١٩٧٠ ، وفيه مفتاح لما يبدو كأنه عشوائية وفوضى ، ويربط الكثير من الشواهد التى تبدو متفرقة بتفسير ورؤية لمستقبل مثير .

وأتبعاه بكتاب آخر عام ١٩٨٠ بعنوان «الموجة الثالثة» ، يشرح فيه أن الثورة الزراعية صنعت «الموجة الأولى» فى تحول التاريخ ، أعقبها الثورة الصناعية التى بدأت منذ ٣٠٠ سنة ومعها «الموجة الثانية» وحان الوقت لتحرك «موجة ثالثة» وظهور حضارة جديدة .

وكانت إشارة البدء فى ظهور الموجة الثانية فى قوانين نيوتن وما استتبعها من استخدام الآلة وبناء المصانع ، وماصاحب

ذلك من ظهور أفكار مثل فكرة التقدم واحترام حقوق الإنسان ، والعقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، وضرورة انتخاب الأهالي لحكامهم بعد أن استقر في الوجدان العام أن القيادة ليست حقا مقدسا لأحد .

ونحن اليوم أمام ثلاث موجات ، وثلاث حضارات ، الأولى ورمزها الفأس أو الأرض ، والثانية ورمزها المصنع أو خط الإنتاج ، والثالثة ورمزها الكمبيوتر والطرق والممرات الإلكترونية ، ويوفر قطاع الموجة الأولى الموارد الزراعية والمعادن ، ويقدم قطاع الموجة الثانية العمل الرخيص والانتاج الكبير ، أما الموجة الثالثة فتسود فيها الطرق الجديدة الناتجة من المعرفة .

وعالم الغد عند «توفلر» ينتقل من النمطية الى التنوع ، وتجد اليوم في السوبر ماركت حوالي مائة ألف صنف ، ومن المركزية الى اللامركزية ، ومن العمل اليدوي الى العمل الفكري .

● أمريكا .. إلى أين ؟!

يستخلص «توفلر» مما يدور حوله نظرية متكاملة فعقب سقوط الشيوعية يعاد النظر في الليبرالية وقوانين السوق ، ويتحاور مع غيره حول الأزمة الراهنة وخاصة الذين قدموا معالجات للحالة الأمريكية الراهنة ، مثل بول كيندي وفوكاهاما .

يقول عن المجتمع الأمريكي .. «إننا نعيش مخاض حضارة جديدة ، ولم يوجد بعد في أمريكا القوة الجديدة التي تعبر عن «الموجة الثالثة» وعندما تتوافر سيكون لها الهيمنة وصاحبة المستقبل ، وعندها ستقوم أمريكا جديدة ، أمريكا مبهرة ، وتنهض من خرائب وأنقاض أواخر القرن العشرين ومازال الديمقراطيون يتحدثون عن إعادة تصنيع أمريكا ، وهذا يعني - حسب تحليل توفلر - عودة مستحيلة الى اقتصاد الموجة الثانية ، ومن ناحية أخرى تجاوب الجمهوريون مع مشاعر الحنين الى الماضي ، الحنين الى الحضارة والقيم القديمة ، كما لو كان من الممكن العودة الى القيم والمعايير الأخلاقية للخمسينيات، أي قبل ظهور شبكات التليفزيون والأقمار الصناعية والكمبيوتر المنزلي ، وبدون العودة الى الموجة الثانية ، أما الجناح المستند الى الدين في الحزب الجمهوري فيسعى الى العودة الى «الحقيقة الموروثة» ويلوم الجمهوريون الليبراليين على الانهيار الأخلاقي ، بدلا من البحث عن كيفية بناء أمريكا ديمقراطيا ، والدفع للوصول الى حضارة «الموجة الثالثة» ، وماتؤدي إليه من إقامة مجتمع عادل وفاضل .

عــالم جــديد

فتستطيع الموجة الثالثة أن تحمل أمريكا الى مستقبل أفضل، مستقبل أكثر لطفا وتهذيبا، وتعيش أمريكا اليوم آلام الوضع لحضارة جديدة لاتزال مؤسساتها لم تأخذ وضعها بعد.

فأمريكا هي البلد الذي يأتيه المستقبل قبل سواه، فإذا عانينا من إنهيار مؤسساتها القديمة، فإننا أيضا لابد أن ندرك أننا رواد حضارة جديدة، ولا يوجد بعد من يملك اليقين أو الحقيقة للإجابة عن سؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟. أو حتى الى أين يجب أن نذهب؟!

مستقبل أمريكا

ومن اللافت للنظر الطريقة التي تعامل بها المجتمع الأمريكي مع هذه الأفكار، فبعد تقديم «الفن وهايدي توفلر» أفكارهما، ونشر كتابهما الأول «صدمة المستقبل»، لم يقتصر المجتمع الأمريكي على مناقشة هذه الأفكار في الجامعات، ومراكز الأبحاث الأكاديمية، وإنما سرعان ماتكونت جمعيات لنشرها وكسب المؤيدين لها، وتحويلها الى برامج عمل وبرامج زمنية واستفاد رجال الأعمال والمنشآت الإقتصادية من هذه الأفكار أخذوا يعيدون هيكلة منشآتهم استعدادا للقرن القادم، وقام البيت الأبيض والكونجرس ووزارة الدفاع بعقد الندوات ودعوة أصحاب هذه الأفكار لمناقشتهم.

ونظم بعض أعضاء الكونجرس عام ١٩٧٥ مؤتمرا حول المستقبل، وأدى إلى إقامة «البيت البرلماني لاستشراف المستقبل»، اشترك في رئاسته فيما بعد آل جور نائب الرئيس الأمريكي، بل وناقش البعض هذه الأفكار بغلظة وسخرية مثل دونالد ريجان كبير موظفي البيت الأبيض في عهد رونالد ريجان، عندما دعا البيت الأبيض مجموعة صغيرة حول مائدة الطعام بالبيت الأبيض لمناقشة المستقبل بعيد المدى، وضمت الى جانب الرئيس نائبه وثلاثة من أهم مساعديه وفجأة قال دونالد ريجان بحدة هل تقنعوننا إننا بسبيلنا أن نفقد أعمالنا، ويحلق بعضنا شعر البعض الآخر، ونبيع الهامبورجر؟! وهل سنكف في النهاية على أن نكون دولة صناعية كبرى؟!».

وبعدها اشترك الكاتب في تنفيذ نموذج مستمد من الموجة الثالثة مع قيادة التدريب والعقيدة العسكرية في الجيش الأمريكي في أوائل الثمانينيات.

● مستقبل الأخلاق

وأهم سمات التغير في عصرنا كما يرى «توفلر» – تسارع – إيقاع الأحداث،

مما يؤثر حتى على قيمة الكتب، فما يكاد يمضى شهر حتى يظهر كتاب جديد ينسخ ما قبله، وأصبحت الحاجة ماسة إلى أن نفرق بوضوح بين سياسيين ينظرون إلى الوراء ويرغبون فى إستعادة ماض غير قادر على الاستمرار، وبين آخرين على استعداد لإحداث الانتقال إلى مجتمع الموجه الثالثه، ولا يقتصر تأثير الموجه الثالثة على التكنولوجيا والإقتصاد، بل تشمل على تهذيب الأخلاق والارتقاء بالثقافة، كما تؤثر على الأبنية السياسية والمؤسسات، فهى تتضمن تغييراً جوهريا فى كل ما يتعلق بشئون البشر. وكما قضت الثورة الصناعية على كثير من الأبنية السياسية التى سبقتها، أو جعلتها غير ذات موضوع، فإن الموجه الثالثة ستكون لها نتائج مشابهة ولن يقدر على البقاء وصياغة المستقبل سوى القوى السياسية التى تعترف بهذه الحقيقة التاريخية، أما أولئك الذين سيفشلون فستدور بهم دوامة التاريخ ويهبطون فى بالوعته !

فإذا استغرقت الموجة الثانية وصعود الحضارة الصناعية ثلاثمائة عام، فالموجة الثالثة تستغرق وقتا أقل، فالتاريخ اليوم أعظم تسارعاً، ولا تحتاج الموجة الثالثة أكثر من بضع عشرات من السنين، وكل من يقدر له أن يعيش على ظهر هذا الكوكب فى هذه اللحظة المتفجرة والمتألقة سيشعر بالصدمة فى حياة هذا الجيل .

فهذه الحضارة الجديدة لها رؤيتها المميزة للعالم، وطرقها الخاصة للتعامل مع المكان والزمان، ولها منطقها الخاص، ولها أيضا مبادئها الخاصة لسياسات المستقبل.

وربما كانت العقود المقبلة مليئة بالاضطرابات، بل وربما مظاهر العنف، إلا أن التغيرات التى نواجهها ليست عشوائية وإنما هى أجزاء يتشكل منها نمط يمكن التحقق منه، وهذه التغيرات تتراكم وتضيف باستمرار إلى التحول القائم، وهذا يؤكد أن مستقبلا عقلانيا أمر ممكن، وما تشهده اليوم ليس أكثر من ثورة عالمية وقفزة نوعية ضخمة إلى الأمام، فنحن الجيل الأخير فى حضارة قديمة، ونحن أيضا الجيل الأول فى حضارة جديدة بازغة . وهذا الفهم يظهر أن كثيراً من الأحداث التى تبدو بلا معنى تصبح مفهومة، وتبدأ فى الظهور والنمو أنماط ونماذج للتغيير، وتحرر البشائر الثورية إرادتنا وملكاتنا الذهنية.

● حكم الزمن

واليوم يصيب الدوار كل بلاد التكنولوجيا المتطورة، بسبب التصادم بين

عالم جديد

الموجه الثالثة الصاعدة واقتصاديات الموجه الثانية المنسحبة، وهذا هو المفتاح الذى يعطى سر الكثير من الصراعات الاجتماعية والسياسية الدائرة حولنا. وهذا هو التصادم الذى يولد أشكالاً من التوتر الاجتماعى والصراعات الخطرة، وظهور موجات سياسية جديدة تتعدى الحواجز والخطوط بين الطبقات والأجناس والأحزاب، وبين الرجال والنساء، وخلال هذا الصدام يصعب التمييز بين الأصدقاء والأعداء، وتنهار كل الاستقطابات والتحالفات القديمة. ويجب أن نمسك بزمام التغير فى أيدينا، وأن نميز بوضوح بين التغيرات التى يمكن أن تمد عمر الحضارة الصناعية القديمة، وتلك التى تسهل مجيىء الحضارة الجديدة .

● صراع الحضارات

يعتبر «توفلر» حرب الخليج هى أول حرب تقوم على منجزات الموجة الثالثة ، وبين ذلك فى كتاب له عنوانه «الحرب نقيض الحرب» والذى عرضته مجلة الهلال فى ثلاثة أعداد متتالية بداية من يناير ١٩٩٤ وقدمه د. أحمد مستجير .

يذكر «توفلر» أن المستقبل سيمكننا أن نصلح ما أفسده التلوث فى العصر الصناعى ، وأن نصنع تكنولوجيا نظيفة تساهم فى تقدم البشرية وسيمكن فى القرن القادم أن يساهم التنوع الثرى للحضارات والشعوب فى صنع المستقبل . قرن يمكن فيه أن نوقف نزيف الدم الذى تسببه الحروب فما يصنع السلام هو ما يقوم به السياسيون والعسكريون لخلق الظروف التى تمنع الحرب وتحد من إنتشارها ، وما نحتاجه هو ثورة موازية فى الطريقة التى نصنع بها السلام . فالصيغ الجديدة للحرب تتطلب صيغا جديدة لصناعة السلام ، وسيأتى اليوم الذى يحمل فيه الجندى الكمبيوتر بدلا من المدفع .

● الغرب والاسلام

ويرد «توفلر» على كل من هنتنجتون وبرنارد لويس أصحاب نظرية صراع الحضارات، اللذين يتوقعان نشوب الصراع بين الغرب والاسلام، ويؤكد.. الصراع يقع نتيجة التغيرات الكبيرة التى تحدثها الموجة الثالثة. فالموجة التاريخية حركة، وعند اصطدام موجة بأخرى تتولد تيارات قوية متلاطمة، .. فالصراع الأساسى الذى نواجهه ليس بين الاسلام والغرب أو بين الآخر والغرب، وليس لأن أمريكا تمر بحالة تدهور كما أعلن بول كنيدى، ولا لأن أمريكا تواجه نهاية

التاريخ، كما يرى فوكاياما، إنما هو انقسام العالم الى ثلاث حضارات ناتجة من ثلاث موجات .

وفى الماضى انتصر معاصرو الموجة الثانية على تقليدى الموجة الأولى، وبعدها شنت دول الموجة الثانية حروب التوسع الاستعماري، واخضعت دول الموجه الأولى والوحدات القبلية والعشائرية فى كل أرجاء آسيا وأفريقيا. إذن فالصراع القائم هو بين الذين يحاولون الإبقاء على الحضارة الصناعية، وأولئك الذين يحاولون إحلال حضارة جديدة مكانها. وهذا يساعد على فهم كثير من الظواهر، مثل اشتعال حركة القوميات، فالقومية هى أيديولوجية الدول الأمة، التى هى نتاج الثورة الصناعية. والصراع السياسى الدائر حولنا، ليس صراعاً بين الاغنياء والفقراء، ولا بين الجماعات العرقية المنتصرة وتلك المغلوبة، ولا حتى بين الرأسمالية والاشتراكية، إنما هو صراع بين هؤلاء الذين يحاولون أن يسندوا المجتمع الصناعي ويحافظوا على بقائه، وأولئك المستعدين لتجاوزه والتقدم الى الأمام، وهذا هو صراع الغد الأكبر .

ففى اقتصاديات الموجة الثالثة، كان امتلاك السلع والبضائع هو المقياس للثروة وانتاج السلع هو الشىء المركزى فى الاقتصاد، وعلى النقيض كانت الانشطة التى تتعامل مع الرموز والخدمات، توصف بأنها غير منتجة، وكان انتاج السيارات والراديوهات والتركتورات والتليفزيونات هى التى ينظر اليها باعتبارها نشاطا مهنيا تلحق به صفات مثل ، عملى ، واقعى صلب وعلى العكس كان انتاج المعارف وتبادلها يقلل من قدر صاحبها باعتباره ليس إلا مجرد «تحريك أوراق»، وترتب على ذلك أن الاشياء المحسوسة هى الأكثر أهمية، وأن الثروة القومية تتدفق من فائض تجارة السلع، وأن التعامل فى الخدمات لا أهمية له إلا بقدر ما يسهل التعامل فى البضائع ، وأن غالبية التعليم تبديد إلا إذا كان مهنيا، وأن الأبحاث العلمية جرى وراء خيال، وأن الفنون واللغات والعلوم البحتة والفلسفة والتاريخ لا حاجة اليها لتحقيق نجاح الأعمال، إن لم تكن ضارة بالفعل !

وهذه الأفكار لم تكن مقصورة على المثقفين المتعلقين بقيم الطبقة الوسطى، وإنما كان لهم نظائر فى العالم الشيوعى، فقد عانى المخططون الماركسيون فى محاولة ادماج الأنشطة الراقية فى مخططاتهم، وانتجت الواقعية الاشتراكية آلافا من صور «العمال السعداء»، وقد انتفخت عضلاتهم مع خلفية من التروس

والمداخن والقاطرات .

وبالفعل جاء وقت كان يمكن أن يكون في هذه المادية شيء من القبول، أما في أيامنا هذه ، وبعد أن أصبحت القيمة الحقيقية للمنتج تتركز في المعارف التي هي جزء من تكوينها ، فإن هذه المادية تصبح رجعية وبلهاء معاً .

ويمكن في الموجة الثانية باكراه العامل المتكدر على الانتاج ، وفي الموجة الثالثة فإن العامل المنشرح يمكن أن يكون أكثر إنتاجاً من اليوم وعلى إمتداد المستقبل كله سيكون تجسيد القيمة وتعظيمها متوقفا على المعرفة ، لا على العمالة الرخيصة ، وعلى الرموز لا على المواد الخام، وإن إعادة النظر في مصادر القيمة المضافة تترتب عليها نتائج مهمة وكثيرة، وتحطم الفرضيات التي قامت عليها الماركسية والسوق الحرة معاً . والمادة التي هي أصل الاثنين !

ومانشهده اليوم هو تجمع قوى لتغييرات الموجة الثالثة، تحول الانتاج يأتي من تحول رأس المال والنقود ذاتها، وهي كلها تشكل نظاما ثوريا جديداً لخلق الثروة على هذا الكوكب .

وأهم شكل للملكية اليوم أصبح هو الشكل غير الملموس، إنه المعرفة. وهذه

عالم جديد

المعرفة يمكن أن يستخدمها عدد كبير من الناس في نفس الوقت لخلق الثروة، ولانتاج المزيد من المعرفة أيضا إنها ليست كالمصانع والمزارع، فالمعرفة لا تستنفد. وإنتاج الموجة الثالثة. تجرى نسبة كبيرة منه في المنازل والمكاتب والسيارات والطائرات .

● بيت العائلة

وقبل الثورة الصناعية، كانت الأسرة كبيرة العدد، وكانت الحياة تدور حول البيت وفي البيت، وكان البيت مكانا للعديد من الأعمال، والمكان الذي يعالج فيه المرضى، ويربى فيه النشء . وكانت الأسرة الكبيرة هي النواة، ثم جاءت الموجة الثانية. فانتقل العمل إلى المصنع أو المكتب، وذهب المرضى الى المستشفيات والتلاميذ إلى المدارس، والزوجان الى السينما والمسنون الى دور الرعاية، ولم يبق في البيت إلا الأسرة الصغيرة، التي لم تعد تربطها أعمال يقوم بها اعضاؤها معا كوحدة ، وإنما هي روابط سيكولوجية هشة .

وتعود مع الموجة الثالثة للأسرة والبيت نفوذهما، وتعود العديد من الوظائف المفقودة التي يسترد بها البيت مركزه في المجتمع ، ويقدر اليوم عدد الأمريكيين الذين يقومون بجزء من عملهم في المنزل

بثلاثين مليونا. وهم الذين يستخدمون الكمبيوتر والفاكس. ويفضل البعض تعليم أولادهم في المنازل، وتوجد اليوم بالنسبة للمرضى الكثير من المهمات الطبية. مثل متابعة الحوامل وقياس ضغط الدم، التي كانت تتم قبلا في المستشفيات أو العيادات، وهاهي ذي تعود مرة أخرى الى البيت، وهذا معناه عودة الأسرة الكبيرة الى بيت العائلة ... .

ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس المتعلمين تعليما معقولا، والمسلحين بالأفق الواسع من المعارف الغزيرة ، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس الذين يتمتعون بهذا المستوى العالي من الوفرة ، لتوفير الوقت والطاقة لكي يعطوا من فكرهم وجهدهم للقضايا العامة، ولم يحدث من قبل أن وجد هذا العدد الكبير من الناس القادرين على الطواف حول العالم وتعليم أشياء كثيرة من الثقافات الأخرى، وفوق كل هذا لم يوجد من قبل أمام هذا العدد فرصة أن يجني الحصاد، إذا ضمن إحداث التغييرات الضرورية بالوسائل السلمية ..

هذا عما يتوقعه حول مستقبل الغرب، ولكن ماذا عن مستقبلنا، ماذا عن المستقبل العربي ؟ فمن المؤكد أنه لا يمكن تصور مستقبل مصر، ودخولها إلى القرن القادم إلا عبر بوابة الحاضر، أي دون محو الأمية ورفع مستوى التعليم والحفاظ على الخضرة وحماية البيئة .

وإذا لم تسرع الدولة النامية وتلحق بركب التقدم، فسيظل خطر تعرضها لفيض هائل من المعارف القادمة إليها من خارجها وتبقى في موقع المتلقي ...

وبما يحمله ذلك من مخاطر ..

كما يعني تحليل توفلر استمرار الصراعات في البلدان العربية، سواء صراع داخلي أو صراع فيما بينها، إنه صراع بين الموجات الثلاث فمازال في الدول العربية من يعيشون ويموتون في مجتمعات زراعية متخلفة ، ولا يوجد بلد عربي واحد يمكن وصفه بأنه بلد صناعي متقدم .

هذا إلى جانب قصور المجتمعات العربية عن تقديم تصورات أو مشروعات ملهمة نحو آفاق المستقبل. بعد أن شهدنا القصور في التعامل مع الواقع .

ولكن استمرار الحال من المحال .

وبعد ...

فإنه كتاب لابد أن يقرأ فهو منشط للعقل، دافع للتفكير والتأمل...

دائرة حوار

«التراث المستعار» وصدام الحضارات

بقلم : د. صلاح قنصوه

■ تزدحم الساحة الفكرية، سواء في عالمنا العربي أو خارجه بكثير من الاجتهادات التي تسعى إلى إعادة النظر فيما يسمى بالمركزية الغربية، والرغبة في نزع إسارها والخلاص من غوايتها. ولقد تلقت هذه الاجتهادات دعما مضاعفا من الخطاب الفلسفي «لما بعد الحداثة» في الغرب. وهو خطاب حباه الحظ بحليف قوى من الأحداث التي تلت تصفية الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الشيوعية الأوربية. وتشترك تيارات «مابعد الحداثة» جميعها في إعلان نهاية الزعم بوجود حقيقي لمركز واحد، او بنية أو تجانس، فهي حكايات كبرى فات أوانها، وفقدت وظيفتها. كما أنها استسلمت، على نقيض الحداثة، للتعبير عن نقض البناء والتفسخ، والانقسام. ولا بد أن تفضى تلك الاجتهادات إلى الحديث عن تعدد المراكز والصدام الجديد بين الحضارات أو الثقافات، وإعادة النظر في رسم خرائط تاريخية مخالفة لما أدى إليه الاعتقاد بأن الحضارة أو الثقافة الأوربية هي نفسها الحضارة الإنسانية العالمية، أو هي المركز الذي تدور من حوله التوابع، وتحيط به الأطراف .

ويفترض ذلك التصور المركزي أنه خط، او قضبان لقطار بدأت رحلته من التراث اليوناني، وألحقت به المسيحية.

ومن ثم يترتب على هذا أن ما يختلف عن الحضارة الغربية قد واصل مسيرته من خط مختلف، وتطور من جذور مباينة ضلت به الطريق الى أن يغدو حضارة عالمية مؤثرة .

ولذلك نجد من المفكرين الغربيين من يؤكد أن أصحاب الأصول الأخرى لأنواع التراث المختلفة عن تراث الغرب أصبحوا اليوم الطرف الخصيم للغرب، وذلك بعد أن انتهت الحرب الباردة بين الكتلة الغربية

الرأسمالية والكتلة الشرقية الشيوعية .

والآن حان للإسلام فى الشرق الاوسط كما يدعى هؤلاء أن يتخذ دوره عدواً للغرب.

والواقع أن جمهرة كبرى من مفكرينا يبتهجون بهذه النبوءة القصيرة النظر، ويسلمون بما ادعاه اصحاب النزعة المركزية الغربية من انتسابهم الى التراث المسيحى الهيليني، أو إن شئت اصطلاحا مطولا: «التراث اليهودى - المسيحى- الاغريقى - الرومانى» . وكأنه تراث غريب عنا، ومن نسل وثنى او منحرف أو مغتصب. ومن ثم علينا أن ننكفىء على أنفسنا لنحصنها، وننعم بثمرات تراثنا القديم الخاص .

ونحن لا نتفق مع التصور الغربى الخبيث الذى يصرف الأنظار الى عدو جديد تعبأ الجهود لمنازلته دفاعاً عن مصالح اصحاب الثروة والنفوذ فى الغرب الذين كسدت بضاعتهم بعد الحرب الباردة.

ولا نقتنع، فى نفس الوقت، بما يذهب اليه المنافحون عما يسمى بالأصالة او الهوية او الخصوصية، وهى شعارات حميدة مشروعة إلا إذا أريد بها شىء أخر وهو اشعال حرب اهلية بين من يطلق عليهم «الاسلاميون والعلمانيون»، وتعتيم على كشف المشكلات الحقيقية، وانصراف عن اقتراح حلول واضحة محددة لها يجرى حولها الحوار الحر .

وسنحاول فيما يلى أن نضع المشكلة على النحو الذى يؤذن بحلها، او نكشف على الأقل زيفها، ولعل ذلك يكون نافعا فى ألا نقع فريسة، عن رضا وحماس، لفكر يحث عليه ويظاهره أصحاب المصالح العابرة للقارات في الغرب نفسه .

● معالم حضارتنا

وليسمح لى القارىء الكريم أن أقدم بين يديه مسلسلا تاريخيا لأطوار الحضارة او الثقافة عساه يستخلص منه مايشاء، سواء ما يتصل بالصدام الحضارى أو ما يتعلق بحوار الحضارات ويخرج بالنتيجة او الموقف اللذين يرتضيهما .

ولا أزعم أن ما أقدمه جديد على القارىء إلا بقدر ما اجتهد فيه من ترتيب للوقائع واستخلاص النتائج .

فنحن على علم بأن ثقافتنا وحضارتنا فى مصر وفينيقيا وما بين النهرين قد سبقت حضارة اليونان. ولكن علينا أن نحدد المعالم الخاصة بثقافتنا القديمة، والسياق الحضارى الذى نشأت فيه، كما نصنع مثل ذلك فى الحلقات او المسارات الثقافية الأخرى التى أعقبتها .

بدأت الثورة الكبرى فى المجتمع الانسانى بالزراعة على ضفاف الانهار في الشرق الأدنى القديم، فكانت الخطوة الباكرة نحو الحضارة التى توسل بها

دائرة حوار

الانسان الى اعادة انتاج الطبيعة وحفزته الى المعرفة بمسار الحوادث والتنبؤ بمجرى الطبيعة خلال الزمان كما أدت الى وجود فائض للطعام صالح للحفظ والنقل والتبادل، مما أدى الى قيام نظم للمعايرة، والقياس، والعد ، وطرق التسجيل التي تفوق الذاكرة البشرية. ومن ثم نشأت الكتابة والرياضيات العملية. وتطلبت أعمال الزراعة فى الاراضى التى تغمرها مياه الفيضان كل عام ضبط مياه النهر مما استلزم إنشاء المصارف والجسور وتوزيع المياه على الاراضى الذى تطلب بدوره سلطة الدولة المركزية والتى أدت الى السلطة المركزية فى العقائد والأفكار التى اصبحت دينا. ولم يترك للفكر سوى أن يتناول المشكلات العملية التى دارت أساساً حول قهر الموت بالخلود وتحقيق العدالة. وحتى إذا ماتغيرت رؤية العالم الشاملة فإنها تصبح دينا جديدا. ومن ثم خرجت الأفكار والاجتهادات فى صورة حكمة عملية، وإذا ما دونت قنعت بالطقوس والشعائر، وقصص التأديب وعظات التهذيب. وأما أفكارهم عن الآلهة التى عادة ما تكون مساعدة لإله واحد رئيسى، فقد كانت خارجية بعيدة ليتسع نفوذها على كل شىء. ولذلك حاول المؤمنون أن يحظوا برضاها وعونها عن طريق إحلالها فى أوثان وتماثيل ليمكنهم من التعامل معها بسهولة، وعن كثب،عندما يستدرجها الى مسكنه أو معبده .

● حضارة الاغريق

أما اليونان، فقد اتيح لهم سياق حضارى آخر فقد كانت المهن والانشطة الرئيسية هى الرعي، والملاحة، والتجارة. وهى انشطة تمتاز بحرية التجوال والانتقال من مكان إلى آخر . وبالتالى تحث على التأمل ونقل المأثورات المختلفة عبر الأقاليم والأجيال . وأتاح هذا اللقاء مع الغير المختلف فى تصوراته عن العالم، نوعا من التسامح، أى القدرة على تقبل الخلاف، فلم ينغلقوا على أنفسهم او يروا فيمن يختلف عنهم كائنا ناقص العقل او الانسانية، بل يمكن أن تعقد معه صلات المقايضة والتبادل .

ويضاف الى ذلك أن تضاريس أراضيهم وغيبة الاستقرار عن انشطتهم حملتهم على الاستقلال السياسى لمدنهم الصغيرة. فالدولة هى المدينة. ومن ثم افتقدوا، وقد يكون ذلك لحسن الحظ، السلطة المركزية التى كانت تهيمن على الحضارة المصرية وربما كان الأهم من كل ذلك أن الديانة لديهم لم تكن مركزية كما كانت لدى المصريين، وبالتالى لم تكن الهتهم تحظى بما تحظى به الآلهة المصرية

من التقديس. وعلامة ذلك ان سقراط كان ينصح المسافرين الى مدن اخرى بأن يعبدوا آلهتها، ليس عن نفاق أو تقية، بطبيعة الحال، بل لأن الآلهة لديهم أشبه بالبشر في أخلاقهم وأفعالهم. فلم تكن بعيدة نائية عنهم بل أقرب الى الأولياء والقديسين اليوم مثلما يتشفع القاهرى أو المرتحل اليها بالسيدة زينب «خفيرة مصر» او يتقرب من يدخل طنطا من السيد البدوى.. الخ وقد ترجع مكانة آلهة الاغريق الى غياب السلطة المركزية التي تجسدت في فرعون وتجردت في رع أو آمون.

وهنا نتريث قليلا لنتبين أثر ذلك على ثقافتهم.

فهم يميزون في صلة الانسان بالواقع او العالم مستويات ثلاثة. الأول هو التجربة المباشرة وهى «الامبيريا»، وتقوم بدور الالتصاق بالواقع فتتخذ منه الخبرات والمنافع، دون سؤال عن المسبب في نجاحها أو ملاستها. والثاني التقنية اى «التخني»، وتعنى اتصال الانسان بالواقع عبر الادوات. والثالث، وهو المهم، والجديد في ثقافتهم، هو العلم والمعرفة اى «الابستمية»، وهو الانفصال عن الواقع لاجتياز مسافة بين الانسان وبينه ليعود اكثر استيعابا وفهما له، توطئة للسيطرة عليه في المدى البعيد وتقوم «الابستمية» على اكتشاف النظرية أى «الثيوريا» التي تعني النظر والتأمل. ومن هنا اضحت التفرقة واضحة متميزة بين صاحب النظر وصاحب العمل وخاصة ان العمل لديهم مقترن بالعبيد وهم كثرة عندهم.

وقد اتيح للاغريق، وهذا هو سر ما يقال عن معجزتهم النظرية التي جاءت على غير مثال، وهى الفلسفة والعلم، اتيح لهم ان يعملوا النظرية فيما أفادوه واغترفوه من معارف الشرق الادنى القديم، وخاصة مصر، التي لولا معارفها لما استطاعت الفلسفة أو العلم أن تقوم لهما قائمة. ولكن على نحو خاص لانهم لم يكونوا مجرد ناقلين بل صانعين مبتدرين لنشاط متميز جديد. فالمعارف المصرية كلها، كما قدمنا، لا تعنى بالنظرية. فعلى سبيل المثال كان المصرى في قياسه لمساحة الارض يستخدم احيانا حبلا ذا تسع عقد يمكنه من قياس قطعة ارض تتخذ شكل مربعات ثلاثة على اضلاع مثلث قائم الزاوية، كما نقول اليوم في علم الهندسة، ولكنه لم يحاول قط ان يتأمل او يبحث نظريا لماذا كان المربع القائم على وتر المثلث معادلا المجموع المربعين الآخرين وذلك بحسب تعبير الهندسة فيما بعد. اما فيثاغورس فقد استطاع بالنظرية ان يبرهن على ذلك ويفسره، ويجعل منه تعميما يصدق على غير ما بدأ به في قياس الارض. بل إن كلمة هندسة باليونانية «جيومتريا» تعنى

دائرة حوار

حرفيا قياس الارض مما يدل على اصلها المصرى التجريبى «الامبيريقى» رغم أنها ليست كذلك كعلم رياضى. ويمكن أن يقال الكثير فى أمثال ذلك. فالمعرفة «الثقافة» المصرية تنتمى اذن الى الامبيريا بينما تنتمى عند اليونان الى الفلسفة والعلم، أى الابستمية .

والفلسفة ، وهى التى تعنى حرفيا باليونانية «محبة الحكمة» تكشف لنا تسميتها جدة المشروع الثقافى الاغريقى فالحكمة لديهم كما هى لدينا ، تعنى القدرة على التعامل مع التجارب المنوعة، وحفظها فى الذاكرة ، والنصيحة باختيار احداها لحل مشكلة عملية. اما محبة الحكمة، فتعنى تقدير الحكمة أى القدرة على تجريد ما هو عام فى مختلف التفاصيل والجزئيات ، وتحديد ماهو سبب فى محصلة التجارب، على ألا يكون ذلك للانتفاع العملى المباشر لانها ليست وصفات مجربة تصلح لانسان دون آخر، بل هى تعميم وتجريد وتفسير.

تيسر لليونان إذن، بسبب ما أسلفنا، أن يخلصوا المعارف أو التجارب أو الخبرات المصرية وغيرها من جوانبها الكهنوتية، ومن صلاتها بالعمل المباشر، والنفع العاجل. كما أنها تركت آلهة اساطيرها المشغولة بشئونها الخاصة، وشقت طريقا موازيا آخر لتفسير العالم.

وكانت المشكلة الرئيسية لنشأة الفلسفة او العلم هى تفسير تعدد الأشياء وتغيرها . لذلك كان موضوعها فى بدايتها على يد «طاليس» وغيره من فلاسفة المادة الحية (الهيلوزيين) هو البحث عن اصل واحد فى مقابل التعدد، ويكون ثابتا فى مقابل التغير. لذلك كان الماء عن طاليس هو الاصل الثابت. ويبدو جليا استعارة الماء من ثقافة مصر والشرق الادنى التى تحدثت الاساطير عندهم عن الماء أصلا اول لكل العالم. غير أن «طاليس» ادخله فى اطار نظرى يمكن مناقشته مع غيره من الفلاسفة دون اهابة بسلطان عقيدة أو اسطورة معينة، فلم يذكر قط أن مابلغه كان إلهاما علويا، أو وحيا إلهيا .

غير أنه جعل للآلهة وظيفة تخالف وظائف آلهة «الاوليمب» فوضعها فى كل شىء حيث يقول «العالم مملوء بالالهة» فاستخدم مصطلح آلهة للتعبير عن القوى الباطنة المؤثرة ولكن القابلة فى نفس الوقت للتأمل والبحث بمعزل عن الاساطير

أما المرحلة الثانية من الفكر اليونانى فهى العصر الهيلينستى، الذى جاء بعد غزوات الاسكندرى لبلاد اليونان وغيرها وانصب طموحه فى اقامة «كوزموبوليتانية» أى «الدولة الكونية» التى تتحدث لغة واحدة هى اليونانية ولكن تضم عقائد وفلسفات

وأجناساً متزاوجة وكانت الاسكندرية فى مصر العاصمة الفعلية لهذه الحضارة الهيلينستية التى كانت مكانا صالحاً للتوفيق والامتزاج بين ثقافة الشرق الادنى، وفلسفة وعلوم اليونان من غير قيود. إذ لم تكن بالاسكندرية تقاليد راسخة قديمة، ولا مصالح خاصة مهيمنة، وكان بمقدور الناس من مختلف الاجناس والأديان الالتقاء بها. وقد دفع ذلك الى التسامح الفكرى الذى يعد التربة الخصبة للتمرد على القيم القديمة، وخلق القيم الجديدة التى من شأنها ان تشجع على البحث العلمى الحر. فظهر جالينوس وبطلميوس واقليدس وغيرهم ممن اقاموا اسس العلوم الفيزيائية والبيولوجية والرياضية والجغرافية .

غير أن الشلل اصاب هذه العلوم لأن الباعث عليها لم يكن بغية استخدامها لأن المجتمع لم يكن باحثا عن بديل لعضلات العبيد . فلم يكن ثمة حافز على التقدم وانحصر العلم فى نخبة معزولة .

وبذلك كان تراث اليونان الهيلينستى بذرة جيدة، ولكنها غرست فى ارض صلدة فى تلك الحضارة. ونتبين من ذلك أن تلك الثقافة بإطارها النظرى قد أخذت محتواها من ثقافة مصر والشرق الادنى .

● معالم الديانات الثلاث

اما الديانة اليهودية فلا شك انها نشأت فى مصر، واقتربت من كثير مما ألهم به اخناتون ولكنها بارتباطها بقبيلة بدوية، انكفأت على نفسها وامتنعت عن التبشير بها خارج بنى اسرائيل. ولا أعنى انها ليست ديانة سماوية. بل هى كذلك، ولكن اوحى بها الله فى اطار ثقافة مصرية اولا، وفى نطاق ثقافة بدوية ثانيا. كما انزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم فى اطار لغة قريش العربية. وفى نطاق الاشارة الى تفاصيل البيئة التى يعيشها الناس من حولهم، ليتيسر فهمه لكل عرب البادية والحضر .

وجاءت المسيحية استئنافا للعقيدة اليهودية، محررة اياها من اقتصارها على جنس معين. ولكنها ايضا ارتبطت بالثقافة «الهيلينستية» التى جمعت العقائد العريقة فى الشرق الأدنى وخاصة المصرية وكذلك الفلسفة «الرواقية». ويفسر هذا انتشارها بمصر بيسر وبساطة وترحيب.

وعندما ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية، وفتح المسلمون بلداناً ذات حضارات قديمة، بدأت مرحلة جديدة من الثقافة والحضارة العالمية.

فالاسلام للعالم كافة، ولأنه يحتوى داخله مافى سائر الاديان السابقة، ولكن على مستوى رفيع من التجريد والشمول ليكون ختاما لها، ومحققا لكل اشواق البشر فى الاتصال بالله، ونوال رحمته .

دائرة حوار

ولهذا امتاز الفاتحون المسلمون بالاحتفاء بثقافات البلدان المفتوحة وتخلقت بذلك حاضنة ثقافية عالمية جديدة وصلت العمل بالنظر، واتاحت التفاعل والتبادل بين انجازات الشرق الاقصى، وذلك لاول مرة، وانجازات الشرق الادنى ونتائج الفلسفات والعلوم اليونانية. واصبحت العربية اللغة العالمية والثقافية. وتعددت الحاجات والمطالب فى تلك الحضارة الشاسعة مما اوجب ترسيخ منهج تجريبى لا يفرق بين التأمل والممارسة.

● عندما تدهورت حضارة العرب

ولكن عندما تدهورت الحضارة العربية فى نهاية القرن العاشر بانقسام الامبراطورية الاسلامية على نفسها الى دويلات متناحرة كان المنهج التجريبى والبحث العقلي «الرشدي» وغيره من العلوم، قد انتقل منها الى الغرب كحاضنة ثقافية جديدة عندما بدأ الاقطاع فى الانحسار وتقدمت البورجوازية التجارية التى سعت الى فتح اسواق جديدة، وتشغيل عمال احرار. وقامت الدعوة بدها الى إعادة اكتشاف العالم والانسان بعيدا عن المحفوظ من الكتب والاسفار القديمة وصاحبت ذلك الدعوة الى اطلاق حرية المرور والعمل، ومن ثم البحث الحر وكرامة الفرد والديمقراطية.

واقترنت النهضة الاوربية بالدعوة الى العودة الى التراث الاغريقى بوصفه جذر ثقافتهم، وأروقة نسبهم. ولكن هل ينتسب الاوربيون الغربيون حقا بالدم الى الاغريق؟

وهل ينتسب المنادون بالعودة الى التراث العربي البدوى بالدم الى عرب الجزيرة ؟

اذن المسألة ليست عودة لتراث حقيقي، اى لمنجزات اسلاف فعليين بل هى دعوة شعار للتعبئة، واعلان الخصومة لأنواع اخرى من التراث.

● فى عصر النهضة

لم يكن شعار عصر النهضة الاوربية احتذاء عنصريا لاسلاف مزعومين، لأنها لم تكن عودة الى النصوص، بل استجابة مباشرة لما اتسمت به تلك التقاليد القديمة من قبول صريح للحياة، واختبار نقدى لكل المشكلات، وجسارة فكرية فى البحث، واستعداد للمضى الى الحد الذى يفرضه الحوار. ولم يكن ذلك ميسورا إلا بعد أن انجلى الحوار الموضوعى مع الشرق

العربي على ساحة مادية وفكرية جديدة، جرى فيها التبادل بين السلع والأفكار ، مما غير من علاقة الفئات الاجتماعية بعضها ببعض، ودفع البورجوازية الصاعدة الى أن تتخذ من العودة الى الآداب القديمة او النزعة الانسانية او الكلاسيكية ذريعة وقناعا يغلف تمردها على سلطات العصور الوسطى، وتوجه قيمها ووعيها الجديد الى حقوق الفرد، والسعي الى استخلاصها من فلول النظام الاقطاعي المتحالف مع الكنيسة .

ولذلك كانت الدعوة الى العودة لذلك التراث الذى اعيدت صياغته، نوعا من «التراث المستعار» اى التراث الذى لا يمثل تواصلا وامتدادا فعليا للماضي.

وكذلك الدعوة لدينا «تراث مستعار» لأنه منتقى ومرتب على نحو هادف معين. وكان من الممكن ان تكون الثقافة الغربية التى بدأت بعصر النهضة ثقافة عالمية نقبلها راضين مختارين، إلا أنها اقترنت بنشأة الدول القومية التى تحفزها القيم الرأسمالية القائمة على المنافسة والرغبة المحمومة فى الفتح والغزو، ومزاحمة بعضها للبعض الآخر على فتح اسواقنا وانتهاب مواردنا . بل انها عندما احتلت اقطارنا عطلت المصانع واغلقت الكثير من معاهد التعليم وقضت على بادرة الحياة النيابية. ويرجع كل ذلك الى طبيعة الحضارة الرأسمالية التى تعتمد المزاحمة الدموية مبدأ ومعياراً .

وقد أدى ذلك لدينا الى خلق شعور ممض بالتبعية نسعى بحمية مشبوبة للتخلص منها. ولكننا قد نتنكب الطريق إذا اختلطت علينا الامور عندما يستنجد فريق منا برفع شعار «التراث المستعار» الذى يحاول ان يدخل به الى حلبة المنافسة مع الغرب بسلعة لا يمكن للغرب ان ينتجها او ينافسنا فيها، ويتصور، من ثم، انه اصبح ندا، بل وقد ينتصر عليه ببركة تراثه المستعار الذى لايملكه الغرب، وينسى ان الغرب فى صعوده ونهضته قد اجاد هضم وتمثل الكثير جدا من أفضل جوانب تراثنا.

وعلى أية حال، ينبغى ان نفرق بين الثقافة التى شاركنا فيها منذ البداية، بل كنا نحن جذورها الاولى فى مصر والشرق الادنى القديم، ثم كان تراثنا العربى الاسلامى مفتوحا على مصراعيه لكل الثقافات دون تمييز، ينبغى أن نفرق بين تلك الثقافة فى مراحلها الأخيرة، وبين قدرتنا الحقيقية على المنافسة فى ميدانها الحضارى عن طريق الاضافة والعطاء، ومواصلة المسير بعد الشوط الأخير، وليس بالصدام الحضارى الذى لا نملك من اسلحته سوى الآمال النبيلة، واحلام اليقظة وصيحات الاستنكار □

خالد محمد خالد

التحدى والصمود

بقلم : د. حامد طاهر

رحل خالد محمد خالد ولم يرحل. رحل عن دنيانا بجسده ويقى فيها بروحه وفكره. أما روحه فستظل محلقة فى سمائنا مذكرة إيانا بقيمتين عظيمتين هما الحرية والديمقراطية. وأما فكره فسوف تكون له قصة، تتجدد مع كل قراءة لأحد كتبه، أو دراسة لبعض أفكاره.

خالد محمد خالد عالم أزهرى، تحققت فيه نبوءة الشيخ محمد عبده التى ذكرها بصدد المصلحين فى مصر، وأنهم سيكونون من أهل التعليم الدينى ، وخاصة إذا صلح حاله. والواقع أن الأزهر خلال القرن العشرين قد خرّج عدداً معدوداً من العقول النيرة التى كان لها فى تاريخ النهضة والاصلاح إثر كبير ودور واضح.

تخرج الشيخ خالد محمد خالد فى كلية الشريعة سنة ١٩٤٧ . وحياته نموذج للطالب الأزهرى المتميز فى دراسته، الريفى الملتزم بتقاليده، والقارىء النهم إلى المعرفة، المتطلع إلى اليقين فى صوره المتعددة. أمثال خالد محمد خالد لم يقنعوا بالثقافة الأزهرية زاداً فكريا وروحيا لأنفسهم وعقولهم. ولذلك خرجوا من إطار هذه الثقافة إلى مجالات أخرى كالسياسة، والصحافة. وهنا انفتح أمامهم بابٌ واسع دخلوا منه بلا تردد، والواضح أنهم لم يسيروا فيه إلى نهايته، لكنهم لم يعودوا منه أبدا .

لقد أحسن خالد محمد خالد صنعاً حين كتب فى أخريات أيامه مذكراته بعنوان «قصتى مع الحياة» ، وهو كتاب

* عميد كلية دار العلوم



خالد محمد خالد



محمد الغزالى

ضخم يقع فيما يقرب من خمسمائة صفحة، تحكى بلغة صادقة أهم المواقف والتحولات التى مر بها، وهو الأمر الذى يجعله قريباً من نفوسنا، حين نحاول فحص آرائه وأفكاره فى اطار عقلى خالص.

أحدث خالد محمد خالد بكتابه الأول «من هنا نبدأ» ، الذى صدر فى فبراير ١٩٥٠، حركة فكرية هائجة، كما حقق له شهرة واسعة، باعتباره أحد علماء الأزهر الذين يمثلون خروجاً عن تقاليده الراسخة. وكما حدث لطه حسين فى كتابه «الشعر الجاهلى»، وعلى عبدالرازق فى كتابه «الاسلام وأصول الحكم»

ثورة على الأوضاع المتردية!

وسوف أستعرض فى تلخيص شديد أهم أفكار هذا الكتاب المتمرد، الثائر على الأوضاع المتردية فى المجتمع آنذاك. فهو يهاجم رجال الدين الذين يكرسون الكهنوت، ويعملون على إبقاء أوضاع الجماهير المسكينة كما هى، بينما يتنعمون هم بكل الخيرات. إن الدين الحقيقى إنما نزل لإسعاد البشر، لا لإسكاتهم على قبول الشقاء الدنيوى، وعدم الخروج عليه، حتى إنه ليرى فى «الصدقة» نوعاً من الابقاء على حالة الفقر والغنى، بخلاف «الزكاة»

التى تحتوى على تكريم الفقير، لأنه لا يتلقاها مباشرة من الغنى ، وانما من الدولة. ويدفع خالد محمد خالد فى هذا الكتاب المقولة الشائعة بأن الروحانية ترتبط بالزهد، والحرمان، فلابد من ملء البطون لكى نتمتع بالروحانية وهو يشدد النكير على الكهانة ، أى وساطة رجال الدين بين الانسان وربه . ويعتبرها صديقة الظلام لأن الدين الحق تنوير وإيقاظ دائم للعقول . وهو يدعو لإصلاح سياسة المسجد ، وضرورة اعداد علماء الدين بصورة صحيحة ، ويرى أن الأزهر إذا لم يقم بهذه المهمة ، فمن الممكن أن تقوم بها كليات أخرى للدراسة الدينية تكون أكثر كفاءة منه. ويقارن بين إعداد الكناس للمبشرين وكيف أنه قوى ومتميز، وبين الإعداد المتهافت للدعاة المسلمين.

وهو يدعو إلى نشر الثقافة الدينية الضرورية بين جميع أفراد المجتمع. ويعتبر كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» نموذجاً للعمل الفقهى الجيد، لأنه كتاب جماعى ومعتمد.

ويركز خالد محمد خالد على دور خطبة الجمعة ومشهدها فى المصلين، لكنه يرى ضرورة أن تنحصر الخطبة فى عدد من المساجد الجامعة التى يخطب فيها أئمة متميزون تحصل بهم الفائدة ، بدلا من أن تتوزع خطبة الجمعة فى مساجد كثيرة يقوم عليها خطباء ضعاف، أو أنصاف مثقفين.

وبنفس اللهجة المتمردة والثائرة ضد رجال الدين والكهنوت يتحول إلى المجال السياسى. ويرى أن الحكومة التى لا تطعم شعبها لا تستحق الاحترام والبقاء، لأنه من الطبيعى إذا وجد فى المجتمع ثراء متغطرس وجد فيه بالمقابل فقر متذمر! ويتلخص الحل فى رأيه– فى ثلاثة أمور :

أولا أن نعمل لسلامنا الخاص أولاً وقبل كل شىء، ونوجه جهودنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا، ثم إذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لا نحتاج اليهما، فلا مانع من إسباغهما على الآخرين.

وثانيا: استقصاء كل عوامل القلق والرجعية والظلم الاجتماعى والكشف عنها، ومواجهتها فى شجاعة وصراحة وإزالتها من طريق المجتمع، وأخيراً تجديد الأوضاع الاقتصادية لا ترقيعها، وتنفيذ سياسة اشتراكية شاملة واضحة تعطى كل ذى حق حقه ، وتقضى على التفاوت البعيد، وتدك حاجز التمييز بين الطبقات.

أما العوائق الرئيسية فتتمثل فى التفاوت البعيد بين الطبقات، والملكيات الزراعية الكبرى، وعقود الإيجار الزراعية التى يمكن تسميتها بصكوك الموت . أما

بالنسبة للعامل والموظف الصغير فلابد من تطبيق العدالة الاجتماعية التى لا هى روسية ولاأمريكية أو أوربية ، وإنما هى فطرية إنسانية. ولكن لا سبيل إلى تحقيقها عملياً إلا بالاشتراكية.

إن من يقرأ كتاب «من هنا نبدأ» الذى صدر فى فبراير ١٩٥٠ يحس إحساساً قويا. أنه كان إرهاصاً بثورة يولية التى قامت سنة ١٩٥٢، وما تم بعدها من إجراءات تتمثل فى تحديد الملكية الزراعية، والتأميم، وحقوق العمال، والتقريب بين الطبقات، بل إنه نادى بتحديد النسل حتى يتوازى الدخل مع الإنتاج .

الدولة الدينية !

وقد كان من أهم وأخطر القضايا التى أثارت حول الكتاب عاصفة من النقد والهجوم قضية الدولة الدينية التى رفضها المؤلف معتمداً على عدد من التجارب الفاشلة فى هذا المجال وخاصة فى الغرب. لكنه عندما يستعرض الموضوع فى التاريخ الإسلامى، نجده يعلن رأيا قد لا يوافقه عليه كثير من الناس، وهو أن الإسلام لا يحتوى على طراز خاص من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه وفرائضه، بحيث إذا لم يقم يكون قد انهد منه ركن، وسقطت فريضته. بل كل حكومة تحقق الغرض من قيامها، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة يباركها الدين ويعترف بها .

ثم يسعى خالد محمد خالد بكل الوسائل لإثبات القول بفصل الدين الذى نزل لهداية البشر بمبادىء ثابتة عن الدولة التى تتطلب استخدام سياسة متغيرة مع الأحداث الجارية. وإذا كان اختصاص رجل الدولة حماية القانون وتنفيذه لصالح الأمة، ووسيلته لذلك الإكراه والعقاب بالنسبة لكل مواطن لا يحترم قانون دولته ويطيعه. واختصاص رجل الدين : العناية بالنفس الإنسانية كيما تظل فاضلة وثيقة الصلة ببارئها، ووسيلته الوعظ والإرشاد والاقناع. وهو يتساءل: هل يستطيع إذن رجل الدين أن يصير رجل دولة؟ أى يصبح من حقه استعمال الإكراه وإنزال العقاب؟ .

طبعاً هنا مقدمات قابلة للنقاش يبنى عليها خالد محمد خالد نتائج أكيدة . وهذا منطق مغلوط. فمن الذى سلم له بأن الإسلام يقر بما يسمى رجل الدين؟ ومن الذى حدد وظيفته بمجرد الوعظ والإرشاد؟ إنه يحصر رجل الدين فى الخطيب والواعظ، مع أن الإسلام يدعو كل فرد فيه إلى أن يتفقه فى دينه لكى يعمل به .

وأعمال الحياة بعد ذلك متاحة لكل من يجيد نوعاً خاصاً منها والعبرة هنا بالأهلية والكفاءة، وتحقيق المصلحة للمسلمين. ولن نسترسل هنا فى الرد على هذه الدعوى فقد تصدى لها العديد من العلماء والمفكرين ومن أبرزهم صديق المؤلف المرحوم الشيخ محمد الغزالى ، الذى نشر كتاباً يرد فيه على موضوع فصل الدين عن الدولة ، وأسماه «من هنا نعلم» وقد صرح خالد محمد خالد بأن هذا العمل من صديقه الحميم- على الرغم من صدق بواعثه- قد ترك فى نفسه بعض المرارة ، قائلاً عن هذا الموقف إنه «على الرغم من صداقتنا، فإنه حمّل قلمه وزر بعض العبارات النابية» .

لقد عاد خالد محمد خالد نفسه فراجع موقفه من موضوع الدولة الدينية ، ونشر فى يناير ١٩٨١ كتاباً بعنوان «الدولة فى الاسلام» حاكيا قصة كتاب «من هنا نبدأ» وشارحاً البواعث التى جعلته يتبنى الرأى الأول فيه، عارضاً بالطبع لموقفه الجديد من القضية . يقول بوضوح :«كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أن بناء دولة الاسلام واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول، » وايضا «الاسلام باعتباره خاتم الأديان وصفوة الشرائع لا يمكن ان يحقق ذاته إلا بإرساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم»

ثم أخذ يتحدث عن الشورى فى الإسلام كمبدأ من مبادىء الحكم ، وعن القرآن الكريم كدستور فى دولة الخلفاء الراشدين ، محدداً منهاج التعامل فى الدولة الاسلامية، وفلسفة الحرب الدفاعية فيها ، ويستعرض العهود والمواثيق التى أعطاها المسلمون لغيرهم ، والتى تعد نماذج رائعة للمعاهدات الدولية التى تحترم كرامة الإنسان ، وتحفظ حقوقه، وينتهى من ذلك إلى إعلان أن نعمق ايماننا بأن «الاسلام دين دولة، حق وقوة، ثقافة وحضارة، عبادة وسياسة» ثم يقدم النموذج العملى على هذا الجانب السياسى فى الإسلام بالخليفة الأموى العادل «عمر ابن عبدالعزيز»

ذلك خيط واحد من خيوط الأفكار التى يمتلىء بها عالم خالد محمد خالد، يتبين منه: الجرأة فى التعبير عن الرأى ، والصمود فى الدفاع عنه، والشجاعة فى تحدى الفكر السائد، ثم أهم من ذلك كله: الرجوع عن الرأى عندما يتبين صواب غيره ، وتلك ميزة لا يتحلى بها إلا قلة من كبار المفكرين والمصلحين .

الفكر والمادة في الإسلام

بقلم : د. محمد عمارة

□ في المسيرة الفلسفية للحضارة الغربية ، منذ الفيلسوف اليوناني Demokritos (ديموقريطس) (القرن الخامس ق.م) وحتى عصرنا الراهن . انقسمت فلسفتها وفلاسفتها إلى «مادية» و«مثالية» ، و«ماديين» و«مثاليين» .. وذلك بسبب الاختلاف حول علاقة «الفكر» بـ «المادة» ، وأيهما له الأولوية في الوجود والأهمية في التأثير ..

«فالمادية» ترى الفكر انعكاسا للمادة وأحد إفرازاتها .. ولذلك كان نفيها وإنكارها دور السماء - أي الدين والوحي - في عالم الأفكار ... وعلى النقيض من ذلك كان موقف «المثالية» ، التي جعلت الأولوية للفكر في الوجود ، ومن ثم أفردته بالتأثير ، منكرة دور «الواقع - المادة» في عالم الأفكار .. بل ومنكرة الوجود «الحقيقي» لهذا الواقع - كما عند بعض فلاسفتها ..

أما في الاطار الاسلامي ، ومنهجه وفكريته وحضارته ، فاننا لم نشهد أثرا لهذا الانقسام .. وليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفي من هذه الثنائية التي بلورت في الغرب تيارا «ماديا - ملحدا» وآخر «مثاليا - مؤمنا» على امتداد تاريخه الطويل .. ليست مصادفة أن يخلو تاريخنا الفلسفي من هذه الثنائية ومن انشقاقها .. لأن الوسطية الإسلامية الجامعة قد أقامت للتصور الإسلامي علاقة ورابطة بين «الفكر» و«المادة - الواقع» ، عصمته من تلك الثنائية وانشقاقها .

ونحن لو تأملنا في لحظات البدء التي شهدت نزول الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بآيات الكتاب المبين ، فاننا نستطيع أن نمسك بالأطراف الأولى للخيوط الأولى التي أقامت - بالوسطية

الفكر والمادة في الإسلام

الإسلامية الجامعة – تلك العلاقات الوثقى مابين «الفكر» و«الواقع» ..

● لقد جاء محمد ، صلى الله عليه وسلم، برسالته – (الفكر) – على «فترة من الرسل» ... أي أن «الواقع» – الانساني والاجتماعي – كان يتطلع إلى هذا «الفكر»، يطلبه ويتطلبه ...

● وكان أهل الذكر ، في تلك الفترة ، يعبرون عن افراز «الواقع» لعلامات استفهام بقيت دون أجوبة .. وعن شوق هذا «الواقع» إلى «فكر» جديد ... كانوا يعبرون عن هذه الحقيقة بعبارة تفصح عن انتظارهم «لنبي قد أظل زمانه» ؟!.. أو «أظل زمانه» ؟!..

● ونفر من خاصة أهل النظر ، في ذلك الزمان وذلك المكان –وهم الذين عرفوا بالحنفاء – قد ذهبوا يجتهدون في لملمة بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، بحثا عن أجوبة «الفكر» على أسئلة «الواقع» – وذلك بعد أن افتقدوا هذه الأجوبة – ... ولقد عرف تاريخ تلك الفترة سعي هذا النفر من الحنفاء على الدرب الذي يربط مابين «الواقع : الطالب» وبين «الفكر : المطلوب» .. عرف : زيد بن عمرو بن نفيل (١٧ق.هـ – ٦٠٦م) الذي رفض عبادة الأوثان ، وحرم الخمر على نفسه .. وحاور الأحبار والرهبان فلم يجد لديهم «الفكر : المطلوب» لـ «الواقع : الطالب» .. ثم مات وهو في طريق البحث عن الحقيقة .. فقال عنه الرسول ، صلى الله عليه وسلم : «إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده» .. وعرف الحنفاء كذلك : أبا ذر الغفاري (٣٢هـ – ٦٥٢ – ٦٥٣م) واحدا منهم ، آمن بالله الواحد وصلى له ، قبل بعثة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بثلاث سنوات !.. (١) .

● ثم نزل الوحي بالاسلام في ذلك التاريخ .. فكيف كانت العلاقة ؟.. وكيف أقامت الوسطية الإسلامية بين «الفكر» و«الواقع» علاقة جامعة ، نفت وتنفي تلك الثنائية الانشطارية التي عرفها الغرب في هذا الميدان ؟..

● العقيدة الخالدة

لقد كان «الواقع» يطلب ويتطلب «الفكر» ، ويفرز «علامات الاستفهام» .. لكنه لم يفرز «الفكر» ولم يعكس «الأجوبة» على علامات الأستفهام .. كان له دوره في استدعاء الفكر ، لكنه لم يبدعه كافراز أرضي واجتماعي له .. وإنما نزل الوحي من السماء بالعقيدة الخالدة – مصدقا بها الرسالات السابقة – ونزل بالشريعة التي



تجيب على علامات استفهام الواقع – بالفلسفات والكليات وتحديد المقاصد والحدود –وتفتح الباب للعقل – عندما يتفاعل مع الواقع – ليبدع ويطور ويحسن في التفاصيل والجزئيات والنظم والمؤسسات – الفروع المتعلقة بالمتغيرات..

«فالواقع» : يستدعي ويطرح علامات الاستفهام ، فيهيىء المناخ ومسرح الأحداث للفكر الجديد .. و«الفكر» –في أصوله – إلهي المصدر – وليس إفرازا اجتماعيا لهذا «الواقع» ... وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم لماذا نزل القرآن الكريم منجما ، على امتداد عمر سنوات البعثة الثلاثة والعشرين .. ونفهم العلاقة بين الآيات التي كان ينزل بها الوحي وبين «واقع» أسباب النزول لتلك الآيات ..

وإذا كان هذا هو حال «الأصول» و«مبادىء الشريعة» وفلسفتها وثوابتها وحدودها ومقاصدها .. وهي التي نزلت من السماء ، استجابة «للواقع» ، ودون أن يفرزها هذا الواقع أو يعكسها .. فإن «الفروع» من هذا الفكر – سواء على عهد البعثة – أو فيما تلا ذلك من سنوات – قد عرفت علاقات «بالواقع» أكثر من علاقات الاجابات على علامات الاستفهام .. فهذه «الفروع» والتفاصيل والجزئيات والسياسات الشرعية والأحكام المعللة بعلل غائية ، والتي تدور مع عللها وجودا وعدما، والتي ترتبط في الوجود والتغير بالأعراف المتغيرة والعادات المتبدلة – أي القطاع

الفكر والمادة في الإسلام

الكبير من فقه الفروع – فقه المعاملات – .. هذا القطاع من «الفكر» الإسلامي قد جاء ثمرة لتفاعل «الأصول – التي هي وضع إلهي –مع «الواقع» المعاش ، في بوتقة العقل المسلم .. فكانت له بالواقع علاقة أكبر وأكثر وأوثق من علاقة «فكر الأصول» بهذا «الواقع» .. هنا – في «الفروع» – نجد «للواقع» دورا في تحديد لون «الفكر» ، لانجده له في «الأصول» ، الخالصة للوضع الآلهي ... وفي ضوء هذه الحقيقة – المتعلقة «بالفروع» – نفهم معنى النسخ في الشرائع دون العقائد ، وفي آيات الأحكام دون شعائر العبادات ، وفي أحكام المتغيرات ، المرتبطة بالعلل والعادات والأعراف والمصالح المتغيرة ، دون ما يتعلق بالثوابت من الأحكام ... «فللواقع» دور وتأثير في «فكر» هذه «الفروع» ، جاء من تفاعله مع «الأصول» ، فكان له فيها مازاد ويزيد على مجرد «الاستدعاء» !.. لكنها تظل – «الفروع» بعيدة أن تكون ثمرة خالصة «للواقع» ، وإفرازا من إفرازاته ، لأنها – كما قلنا – ثمرة للتفاعل بينه وبين «الأصول» ، التي هي وحي الله ..

فتح باب الاجتهاد

ولقد جعل لهذه العملية استمراريتها ، بعد عصر الوحي والبعثة ، ما اقتضته الرسالة الخاتمة ، من الوقوف في أمر المتغيرات الدنيوية عند إجمال الفلسفات والمقاصد – على حين فصلت الرسالة في الثوابت الدينية وما تعلق بحقوق الله .. ففتحت بذلك الباب للاجتهاد الدائم والتجديد المستمر في فقه الفروع المتعلق بالمتغيرات ، على ضوء «الأصول» التي تتفاعل مع «الواقع» الجديد ، فتكون «الفروع» ثمرة فكرية جديدة لتفاعلهما الدائم دوام التطور ، كسنة من سنن الله في هذا الوجود .

هكذا تميزت علاقة «الفكر» «بالواقع» في تصور الإسلام ومنهجه .. فلا الفكر وحده ، ولا الواقع وحده ، هو المنفرد بالفعل والتأثير ... «فالأصول» والأركان والمبادئ والثوابت إلهية ، لم يفرزها «الواقع» ، رغم أنه استدعاها لتجيب على ما أفرز من علامات الاستفهام و«الفروع» وثيقة الصلة «بالأصول» و«بالواقع» ، جاءت ثمرة لتفاعلهما في بوتقة العقل الإنساني ، ولم ينفرد أي من «الأصول» أو «الواقع» بإفرازها ....فبين «الفكر» و«الواقع» ، في المتغيرات الدنيوية «حوار» و«تفاعل» و«خلق» و«إبداع» مواكب لتغيرات الواقع واجتهادات الفكر التي تبحث لمتغيراته عن

أحكامها المستنبطة من الأصول ، وعن قوانينها التى تحكم هذه الحركة الواقعية التى هى سنة من سنن الله فى هذا الوجود ..

★ ★ ★

ونحن إذا شئنا «شهادات» واقعية على أن هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى - والخاصة بالعلاقة بين «الفكر» و«الواقع» - قد عرفت طريقها فأبدعت إبداعها فى البناء الحضارى الإسلامى .. فإننا نستطيع أن نستأنس بشهادة عالم قديم - هو جابر بن حيان (٢٠٠هـ ٨١٥م) -وبشهادة فيلسوف حديث -هو جمال الدين الأفغانى ...

● فجابر بن حيان - وهو المبدع فى العلوم الطبيعية - يتحدث عن علاقة «الفكر» -«العلم» - «بالواقع» - «العمل» - فيرى ضرورة سبق العلم للتجربة والعمل .. ويرى - فى ذات الوقت -اكتمال العلم بواسطة التجربة والعمل .. على النحو الذى رأيناه فى سبق «الأصول» معالجة «الواقع» ،مع تفاعل «الفروع» «بالواقع» ، وتطورها بتطوره ... يقول جابر : «إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم ... فيكون فى التجربة كمال العلم ... إن كل صناعة لابد لها من سبوق العلم فى طلبها للعمل .. لأنه إنما هو إبراز مافى العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لاغير .... إن العلم سابق أول ، والعمل متأخر مستأنف... وكل من لم يسبق إلى العلم لم يمكنه إتيان العمل ....» (٢) ..

● أما جمال الدين الأفغانى ، فإنه يصور علاقة «الحوار» و«التبادل» ، فى التأثير والتأثر ، بين «الفكر» و«المادة» ، عندما يقول : « فكل شهود (أى ملاحظة - وفى الملاحظة فكر أولى) - يحدث فكرا ، وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر . دور يتسلسل ، لاينقطع الانفعال بين «الأعمال» و«الأفكار» مادامت الأرواح فى الأجساد ، وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول العمل وآخر العمل أول الفكر...» (٣) .

تلك هى علاقة «الفكر» بـ «الواقع» ، تميزت - بالوسطية الجامعة - فى المنهج الإسلامى عنها فى الحضارة الغربية فبرىء الموقف الإسلامى إزاءها من الثنائية والانشطار .

الهوامش :

١ -(صحيح مسلم) - بشرح النووي - جـ ١٦ ص٢٧ . طبعة محمود توفيق .القاهرة .

٢ - د. جلال محمد عبدالحميد موسي (منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية) ص ١٢٦ ، ١٢٧ .طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

٣- محمد باشا المخزومي (خاطرات جمال الدين الأفغاني) ص٣٢٢ طبعة بيروت سنة ١٩٣١ . □

انتهى عصر مرجريت دوراس

أيـــام العشـــق.. والسينـــما

بقلم : محمود قاسم

بوفاة الأديبة الفرنسية مرجريت دوراس، انتهي عصر كامل من التدفق الأدبي لدي واحدة من أبرز كاتبات اللغة الفرنسية طوال القرن العشرين .

روائية هي .. كما أنها مخرجة في المسرح ، والسينما ، وكاتبة سيناريو ، وكاتبة مقال ، نالت جائزة جونكور عام ١٩٨٤ عن رواية «العاشق» ولم تتوقف عن الكتابة حتي الاسبوع الأخير من حياتها .



ولدت مرجريت عام ١٩١٤ فى سايجون والجدير بالذكر أنه قبل نشر روايتها «العاشق» كانت سيرتها الذاتية معتمة وعليها هالة سوداء. ومن هذه الرواية نعرف أن أسرتها الصغيرة قد عاشت فى سايجون فترة طويلة قبل أن ترحل الى فرنسا . وقد غادرت مرجريت فيتنام عام ١٩٤٢ ، الى باريس وهى فى الثامنة عشرة .. وقد خصصت من هذه الفترة غالبية أجزاء الرواية . وفى باريس كانت تحمل مسودة روايتها الأولى «المتعجلون» التى نشرتها فى عام ١٩٤٣ . ورغم أن مدرسة الرواية الجديدة لم تكن قد اتضحت معالمها بعد فى هذه الرواية - بدأت بشكل واضح من خلال كلود سيمون عام ١٩٤٥ - فإن التجارب الأولى للكاتبة قد أشارت الى أنها سوف تقدم ، فيما بعد، شيئا مختلفا .

فى باريس درست الكاتبة القانون والعلوم السياسية واستمرت فى نشر رواياتها .. واذا كانت مرجريت دوراس قد نشرت روايتها الأولى عام ١٩٤٣ ، فإن أولى مسرحياتها قد نشرت فى عام ١٩٥٩ أما أول فيلم أخرجته فقد ظهر عام ١٩٦٦


مرجريت دوراس

تحت عنوان «الموسيقى».

ومن الصعب رصد عالم مرجريت دوراس فى مقال واحد، ولذا سنحاول التعرف على عالم الكاتبة من خلال النفاذ الى نقاط محددة فى هذا العالم الرحيب .. فأدب الكاتبة يدور حول قطبين يتلاقيان دون أن يتناقضا ويبدا هذا واضحا فى رواياتها خاصة الأولى منها ، وفى «خزان فوق المحيط الهندى» تتحدث عن أمها ، دون الاشارة اليها صراحة، مثلما فعلت في العاشق - المدرسة التى تخطى بها الزمن. وهى امرأة تتسم بالسذاجة والبساطة ، وتواجه الظروف الصعبة التى تحيطها ، وهى محصورة بين طموح أولادها الذين يريدون العودة الى فرنسا وبين اصدقائها الذين يدورون مثل بقرة الساقية بلا هدف محدد .

مثل هذه العلاقات هى هم الكاتبة فى أدبها بصفة عامة . واذا كانت قد أوجدت شكلا تقليديا لها فى رواياتها الأولى . فإنها فيما بعد تحدثت عن نفس العلاقات من خلال شكل تجريبى جديد . مثلما حولت رواية «خزان فوق المحيط الهادى» الى «العاشق» .

والجدير بالذكر أن الرواية الأولى التى بدا فيها التجريب واضحا هى «خيول تاركينا الصغيرة» .. وفى هذه الروايات اختفى الموضوع وانحسرت الشخصيات .. وضاقت الأماكن بشكل واضح ، مثلما حدث فى «هيروشيما حبى» حيث هناك امرأة فرنسية تحب رجلا يابانيا شهد فى طفولته ما حدث فى مدينة هيروشيما من فظائع عقب إلقاء القنبلة الذرية .

ومن أشهر رواياتها فى تلك الفترة «الساعة العاشرة والنصف من أمسية صيف» التي تتناول فيها علاقة مشابهة بين رجل وامرأتين . فهناك فى تلك العاصفة الشديدة اكتشف زوج خيانة امرأته فأطلق عليها الرصاص .. وهرب .

ويدءا من المرحلة التجريبية بدأت

الكاتبة فى تجريد شخصياتها من أسمائهم ، والأماكن التى يعيشون فيها . وهم أشخاص ليس لديهم أى شىء بطولى، إنهم يتبادلون الاشارات والكلام دون أن يصلوا الى أهداف محددة ولا يظهرون أفكارهم ولا مشاعرهم . ويجهلون أو يخفون الأخطار التى تحيق بهم : الانفراد والاعياء والجنون وادمان الخمر والجريمة . ولا يتم بينهم أى اتصال حقيقى ولا أى حوار، يبدون كأنهم يلاحقون مناجاة متوازية . ويتكلمون ليس للتعبير عن أنفسهم، من أجل استكشاف حيوات سرية تصبح ملموسة بفضل حالتهم ذات الوعى النصف ، وذلك رغم تفاهة كلماتهم الظاهرة .

والنساء فى هذه الأعمال التى ظهرت فى تلك السنوات يعشن فى عالم من اللامبالاة . ويعين عزلتهن ويقسن اتساع عالمهن الرتيب البارد ، إنهن دون هوية ، وتجربتهن هى الوصول الى هوية . مهما كان الثمن ، وهن يضعن أنفسهن فى استيداع كلما ينتظرن الاشارة بأن الشىء قد بدأ ..

ولأنه لا يمكن أن نفصل ابداع مرجريت دوراس الروائى عن المسرحى والسينمائى .. فعلينا أن نتناول عطاءها السينمائى خاصة انها هى التى قامت بإخراج كل كلماتها التى أبدعتها . فكتبت السيناريوهات كى يخرجها آخرون فى بادىء الأمر . مثلما فعل آلان رينيه وجول داسان .. ومن قراءة القائمة الكاملة لأعمال الكاتبة سوف نراها قد حولت احدى رواياتها الى فيلم . وفى فترة أخرى حولت فيلما من افلامها الى رواية ... أو الى مسرحية .. وهكذا تتحرك أضلاع هذا المثلث فى كل الاتجاهات بلا حدود أو ضابط ..

● الرجل هامشى

وفى هذه الأعمال تلعب المرأة الدور الرئيسى . أما الرجل فهو مخلوق ثانوى هامشى .

أما «الحافلة» فتدور أحداثها داخل مقصورة سيارة كبيرة لا يجلس فيها سوى السائق وامرأة داخل عالم مغلق . تتكلم المرأة والرجل يسمع . وتتصاعد حدة الموقف بين الاثنين من خلال ما يقال وما يسمع وكأنهما فى عالم سحرى . شخصيات داخل شخصيات . أو فيلم فى أعماق فيلم . ثم يدخل فيلم ثالث داخل الفيلمين . المرأة هنا هى احدى نساء مرجريت اللائى يجدن الحديث حول حكايات متناثرة سمعتها من هنا وهناك. امرأة بلا هوية محددة . تتحدث حول أشياء مجهولة الهوية لا رابط بينها .

وتبدو مرجريت مشغوفة بمثل هذا العالم الرائع الذى يخصها وحدها . ليست

فيه حدوتة بأى معنى . ولكنه مجموعة من الصور المتلاحقة حول أشياء غير مترابطة. المكان ثابت لكنه لا يصبح مكانا بالمرة والزمن مرن والشخصيات التي يتصورها المرء موجودة ، اذ بها تتلاشى أطيافا تنسحب من فوق بساط الواقع . ففى «السفينة ليل» نرى عالما يحده الحب من طرف ، والموت من طرف آخر . أشخاص يجتازون الرحلة فى سفينة ليل . لا أسماء لهم أو عوامل محددة . تحدد هويتها صور سريعة أو حوار عابر . أو تعليق مطول .

واذا كانت الكاتبة تميل الى استخدام لغة خاصة فى أدبها ، فإنها تحول كل كلمة الى صورة فى افلامها وتقول انها تمارس نوعا من القهر والضغط النفسى على مشاهدى أفلامها : «حدثنى شخص يوما أنه قد اتفق أن يعرض أفلامى على مسافة أربعين كيلو مترا من باريس . انها فكرة رائعة . فهكذا نرقب أن تعرض أفلامنا . فأنا أعرف أننى أوجه اعمالى لثلاثين ألف شخص . وأنا أعمل من أجلهم. ولن يحرمنى هذا من امتاع الآخرين . وعلى كل فلا يوجد جمهور شعبى فى فرنسا مثلما يحدث فى العالم بأسره . فكل سوف يفهم . من العمال وحتى المفكرين . لن يوجد طليعيون . لكن فقط أناس مخلصون لتجاربهم» .

هذا هو بعض عالم مرجريت دوراس .

ولم يكن للكاتبة أن تحصل قط بابداعها التجريبى على جائزة جونكور ، الا اذا كان أعضاء هذه الأكاديمية قد رأوا فى هذه الرواية عملا تقليديا أكثر من أعمالها الأخرى التي كتبتها فى السنوات العشرين التى سبقت هذه الرواية . وهذه حقيقة لا يمكن انكارها .. فنحن أمام موضوع محدد .. هو علاقة عاطفية عاشتها الكاتبة فى مقتبل حياتها . حين كانت تعيش مع أسرتها فى شرق آسيا ابان الاحتلال الفرنسى لفيتنام . وهى علاقة تخص جلد الكاتبة ومسامها فى المقام الأول .. نابعة من وجدانها الداخلى . تنخر فى ذاتها كى تكتبها .. وقد قامت وهى المرأة العجوز باجترار أحداث هذه العلاقة العابرة بتفاصيل بالغة الدقة . ولنقل انها ليست تجربة عابرة بقدر ما هى تجربة أولى .. وقد وظفت الكاتبة كل ما لديها من أجل هذه العلاقة حتى علاقاتها الأخرى بمن حولها . بأسرتها وأصدقائها . وزميلاتها فى المدرسة .. كل هذا تم توظيفه من أجل هذا العاشق . وهو عاشق كما سنرى رقيق الجلد والمسام .. هش المشاعر .. سلبى الاحساس .. يتعامل كثيرا مع النساء بحكم ثراء أبيه وليس بحكم فحولته.. وهو رجل بلا اسم مثل كل شخصيات الرواية . فتارة هو «العاشق» وتارة «هو» وثالثة «حبيبى» هو خيال يمكن

تجاوزه وعدم ملاحظته مثلما تقول الحبيبة بعد أن أصابتها الشيخوخة .

والمهم فى هذه العلاقة هو الشكل الذى صاغت به الكاتبة حدوتتها فالشكل الروائى غالبا تقليدى .. أو أصبح تقليديا بحكم تكراره فى العديد من الروايات المماثلة . ولكن الجديد فى هذا الشكل هو اللغة .. واصرار الكاتبة على استخدام مفردات خاصة ، وخاصة ما يسمى بالتكرار ..

ولأن هذه الاحداث ظلت مماثلة فى مخيلة الكاتبة كل هذه السنوات ، فقد أصبح من الصعب معرفة هل هى أحداث من الحاضر أو من الماضى . ولذا فقد اختلطت الأفعال الزمنية معا . المضارع يتداخل مع الحاضر . وامتزجت الأزمنة معا فى الفعل والحدث وأصبحت الكلمات الجامدة والأسماء طيعة للتحرك وسط هذه الأفعال، تنتقل حسب حركة وجدان الكاتبة من عام ١٩٨٤ ابان كتابتها الى السنوات الأولى من الثلاثينيات بل حتى ما هو أبعد من ذلك حيث اختلطت الاماكن أيضا .. فهى تتكلم عن حياتها فى باريس وتتصور كأنها لاتزال تتحدث عن سايجون أو شولن والعكس بالعكس .. وفى فقرة تحدثك عن مكان تنتقل منه الى مكان آخر له نفس الصلة الوجدانية دون أن تمهد الى ذلك ... فعقلها ينتقل بسرعة بين هذه الأشياء دون أن يستأذنها . ولذا فهى لا ترغب أن تقوم بنفس العملية من الاستئذان لقارئها ..

والاشياء الثابتة الوحيدة فى الانسان.. والأماكن .. فهى لا تخلط بين مشاعرها نحو الشر .. وهى غير متقلبة فى حالة التنقل . فهذه أمها لها دائما نفس السمات وهناك مشاعرها تكنها نحوها لا تتغير ، مهما تغير الزمن .

وإذا كانت الكاتبة قد انتقلت بسهولة بين الأزمنة فانها انتقلت بنفس الكيفية بين موجودها الخاص .. فهى تتكلم عن نفسها أحيانا بالضمير الحاضر المتمثل .. ثم تنتقل لتتكلم عن نفس الموجود بضمير الغائب وكأنها شخص غريب عنها تماما .. وكأنها كائن تتم ملاحظته تحت العين المجردة لمعرفة وادراك ما له .. أو ما عليه ..

● عاشق مرجريت دوراس

إذا كان هذا هو بعض من رأينا فى هذه الرواية ، فيهمنا أن نعرف ماذا كتبت الصحافة الأدبية بصفة خاصة عن «عاشق» مرجريت دوراس . يقول بيير بييار فى مجلة لوبوان - ١٩ نوفمبر ١٩٨٤ - إن مرجريت دوراس لم تحدثنا أبدا فى روايتها السابقة عن نفسها . ولا عن شيء منها . وانها اختارت أن تفعل ذلك وهى فى سن السبعين . فأخذت تتأمل الفتاة الصغيرة التى كانت تعيش عاطفة جافة فأرادت أن تمنحها كل شيء من

ذاتها . وهذا يكشف لنا بشكل جوهرى الدور الملعوب فى تكوين عواطفها ، وتأسيس ذاكرتها ، وتزيين عالمها فى الثمانى عشرة سنة التى سبقت وصولها الى باريس . هذه السنوات التى عاشتها فى الهند الصينية مع أمها مدرسة البيانو والتى قامت فيما بعد بشراء قطعة من الأرض فى كمبوديا من أجل زراعتها بالأرز . وقد تحدثت عن هذه التجربة فى رواية «خزان فوق المحيط الهادىء» . هذه الأم بالغة الحضور ، ومحبوبة للغاية . ولكنها ضد كل الأشياء التى يجب التمرد عليها وتمنع ابنتها من الكتابة .

ويقول جان بيير أميت فى لوبوان - ٢٤ سبتمبر ١٩٨٤ - «إن مرجريت دوراس لا تصنع الكتب . ولكنها تعيش فى الكتاب مثلما يعيش الانسان داخل شعائر دينه ، كل فقرة فى الرواية تحمل شحنة من التجربة . فهى تلميذة فى مدرسة الدراما . ونوع من الارتجاف المرن الذى نبحث عنه بلا جدوى فى الكتب الأخرى التى ظهرت فى الآونة الأخيرة . فهنا نحن أمام امرأة تحترق وتعانى وتعيش وتموت بين حرارة الذكرى وبرودة الطفولة الضائعة .

أما الروائى لوسيان بودار فهو من أصول صينية . ويقول حول هذه التجربة «الهند الصينية» التى انتميت اليها دائما وأجدها فى نفسى مثلما فعلت . فى هذا الوصف للسيارة السوداء للرجل الصينى فوق العبارة التى تعبر نهر الميكونج . وصفت كل هذا بعبارات محددة مليئة بالهذيان . وفى نفس الوقت فإنها لا تكشف عن شىء . والتزم النص بكل ما هو ممكن حدوثه . فلكل انسان الحق فى التخيل ، ولكن عليه أن يبرهن بشكل طبيعى عن الجو الذى عاشه فى آسيا » .

ويرى كلود روا فى مجلة لونوفيل أوبسرفاتور - ٣١ أغسطس ١٩٨٤ - أنه يجب ألا نحكى «العاشق» سوى أن نفعل مثلما تروى قصيدة شعر . لان هذه الرواية هى شطر من الحياة . هذه العقدة من السيرة الذاتية ، مثلما يكتب المؤلفون عادة ، قد تم تكوينها على غرار قصيدة . فهل هناك شخص يجرؤ على تلخيص قصيدة شعر . لن يبقى له سوى حفنة من دماء متناثرة ، وشظايا موضوع . الحب والصراع . والحب - المعركة للصغيرة مرجريت من أجل أمها هذه المجنونة بسايجون ، والأخ الأكبر المتشرد والأخ الأصغر الذى مات فى سن مبكرة ، والعاشق الملياردير الصينى ، والذى يمكن أن يقال انها تطلب أن ينتزعها من عالمها .

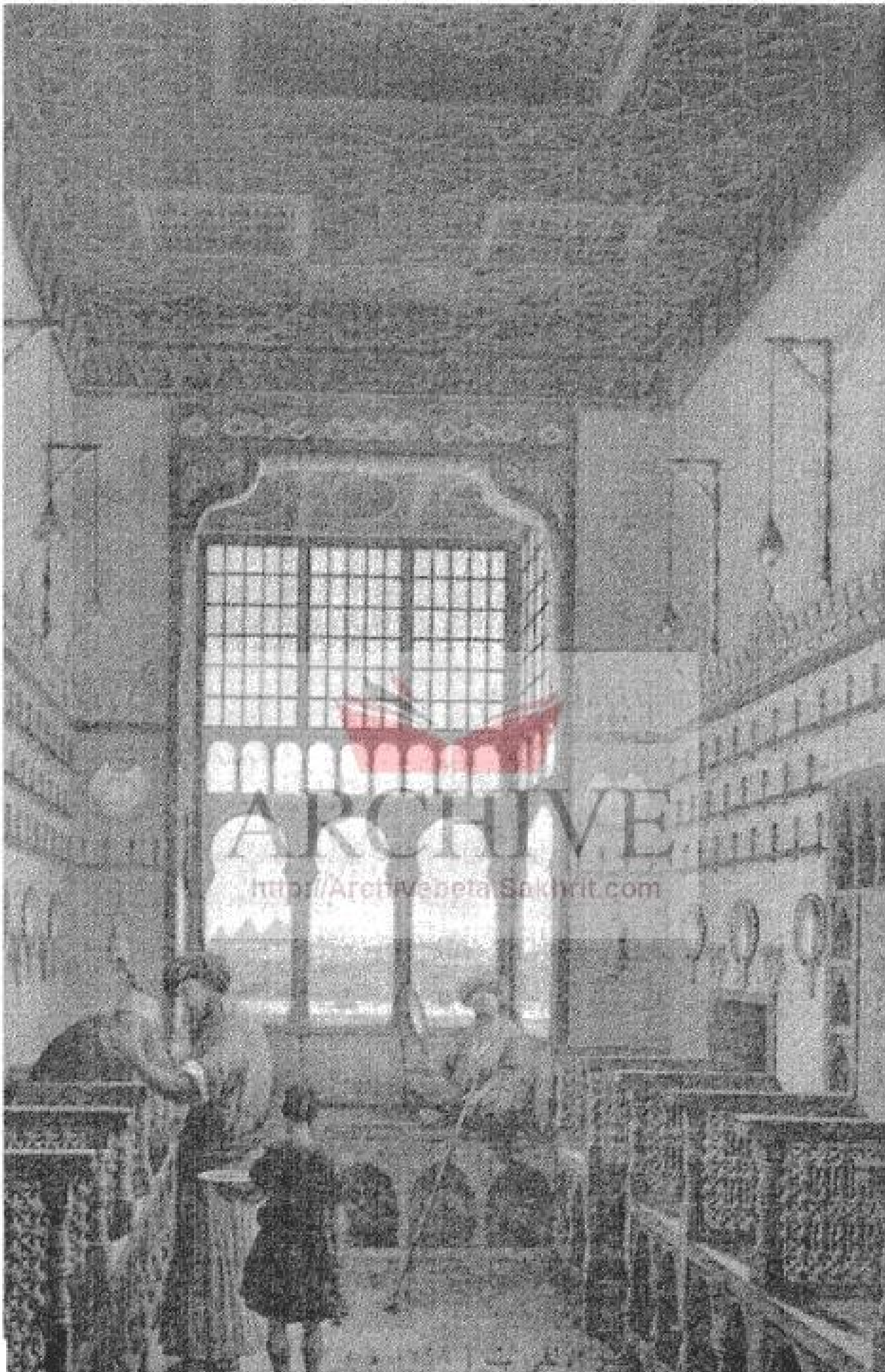
دفاع حار عن

القاهرة العثمانية

بقلم: د. أيمن فؤاد سيد ● عدسة: د. طارق سويلم*

□ إذا كانت مدينة القاهرة فى العصر الإسلامى، وسلائفها الفسطاط والعسكر والقطائع، قد حظيت بنصيب وافر من الدراسات المتخصصة التى تناولت نشأة المدينة الإسلامية وتطورها العمرانى ودراسة أهم معالمها الأثرية ونشأتها ذات الطابع الدينى والمدنى والاجتماعى، بفضل جهود علماء من أمثال: رافيس وستانلى لين بول وبول كازانوفا وكريزويل وعبد الرحمن زكى وسعاد ماهر وفريد شافعى وأحمد فكرى وعبد الرحمن عبد التواب، وغيرهم كثيرون، فإن دراسة تاريخ القاهرة فى العصر العثمانى وتطورها العمرانى يدين بالكثير إلى جهود العالم الفرنسى الأستاذ أندريه ريمون Andre Raymond الذى بدأ منذ أكثر من أربعين عاما فى دراسة تاريخ القاهرة ومنشآتها وعلمائها وتجارها وحرفييها ومشاكلها البلدية وتوزيع حماماتها وأسبلتها وثورات أهلها، وتطور عمارتها وتوزيع أحيائها؛ أحياء البرجوازية والارستقراطية فيها طوال هذا العصر الممتد من سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٧٩٨م.

★ دكتوراه من جامعة هارفارد والمحاضر بالجامعة الأمريكية



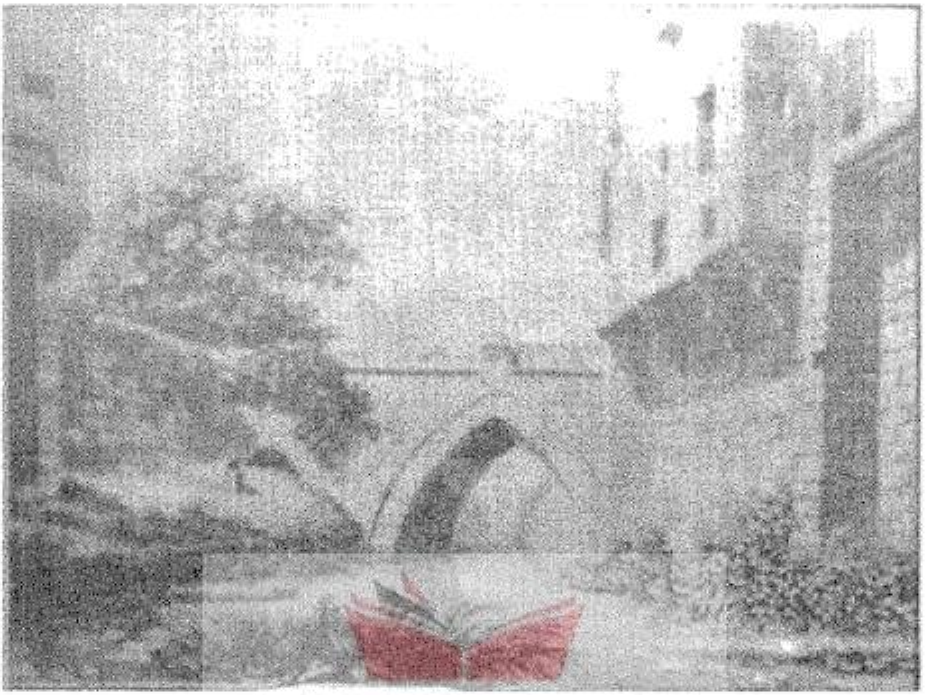
وقد استطاع اندريه ريمون من خلال بحثه وتنقيبه فى وثائق مصر العثمانية وحُجج الأوقاف وأرشيف المحكمة الشرعية والمحكمة الصالحية النجمية، ومصادر التاريخ المصرى العثمانى، بالإضافة إلى المعلومات الغنية للرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة وإلى المادة الضخمة التى وفرها لنا كتاب «وصف مصر» الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية وخريطة القاهرة التى رسمها العلماء والمهندسون المصاحبون للحملة، استطاع أن يقدم لنا مجموعة مهمة من الدراسات عن القاهرة العثمانية تعدت تسعة عشر مقالا وبحثا وأربعة كتب ضخمة.

ومراجعة هذه القائمة توضح لنا تنوع دراسات أندريه ريمون وثرائها، كما أنه لم يقف بها عند حدود مصر فقط بل قارن فيها بين بعض الظواهر المتكررة والمتماثلة بين القاهرة وبعض المدن العربية الكبرى الأخرى فى الامبراطورية العثمانية مثل حلب والموصل وتونس والجزائر ودمشق.

تعمق فى البحث

وتدل عناوين هذه البحوث والدراسات على تعمق اندريه ريمون فى البحث وتعرضه لموضوعات لم يسبقه إليها أحد، كما أن البحث فيها يتطلب طرقا مختلفة فى البحث والاعتماد على مصادر غير تقليدية، فنجده يتناول «السقائين فى القاهرة»، و «الحمامات العامة فى المدينة فى نهاية القرن الثامن عشر»، و «أسبلة القاهرة فى العصر العثمانى»، و «تحديد مواضع حمامات وأسبلة القاهرة» وتنقل مواضع «المدابغ» كمؤشر للنمو العمرانى للمدينة، و «تحديد الأحياء السكنية للارستقراطية القاهرية فى القرن الثامن عشر»، و «جغرافية حارات القاهرة فى القرن الثامن عشر»، و «سكان القاهرة منذ المقريزى وحتى وصف مصر»، و «الحركات الشعبية فى القاهرة فى القرن الثامن عشر»، و «العمارة والتطور العمرانى للقاهرة فى العصر العثمانى»، و «قائمة بأسماء الطوائف الحرفية فى القاهرة عام ١٨٠١»، و «شئون البلديات ومشاكل المرافق فى القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر».

وقد توج هذه الدراسات المهمة بثلاثة كتب تعد أهم ماكتب عن تاريخ القاهرة فى



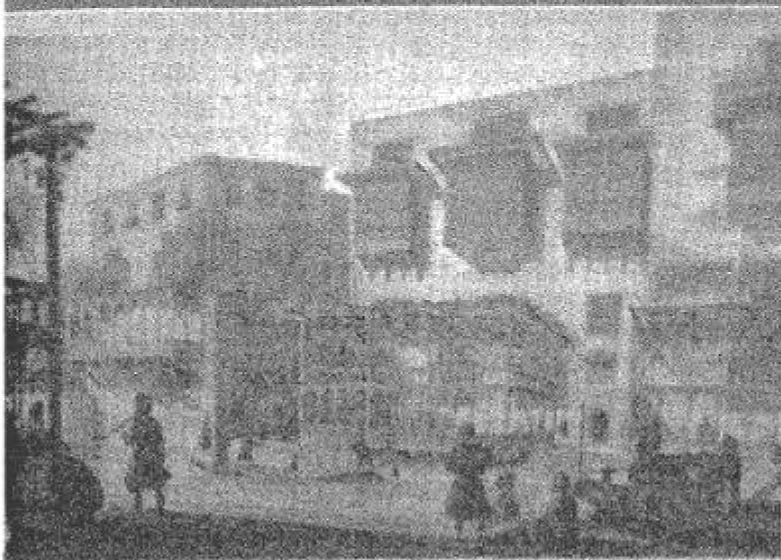
قنطرة «السبع» تمر من تحتها المياه وتربط القاهرة ببعضها

العصر العثماني، أولها رسالة الدكتوراه وكان موضوعها «الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر» (١٩٧٤)، ثم كتاب جامع عن «تاريخ مدينة القاهرة» (١٩٩٣)، ثم أحدث مؤلفاته وعنوانه «قاهرة الإنكشارية - ازدهار المدينة العثمانية في زمن عبد الرحمن كتخدا» مطبوعات الـ CXIRS في باريس عام ١٩٩٥.

محاضرة مهمة بالقاهرة

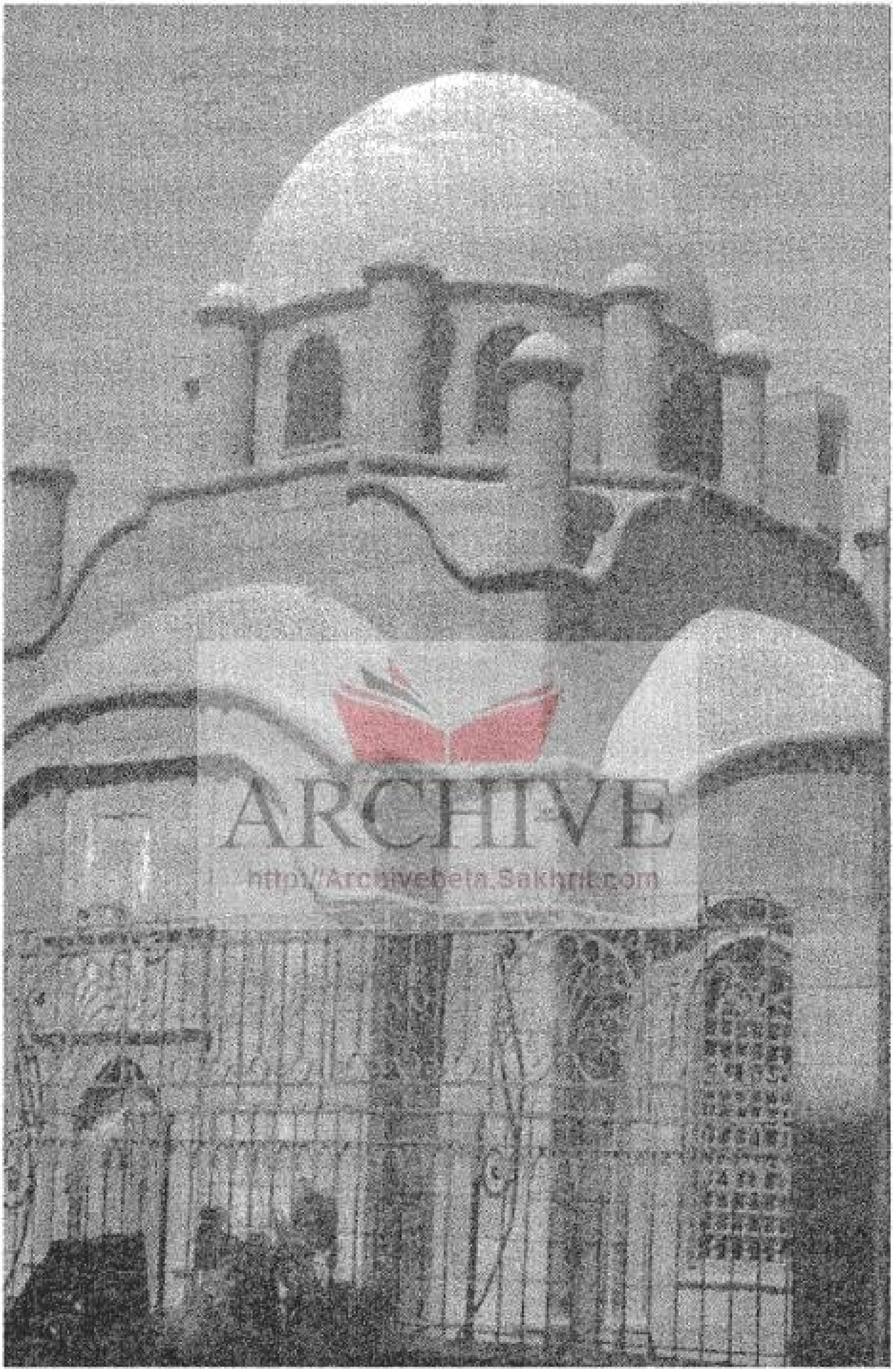
وبمناسبة صدور هذا الكتاب دعت مكتبة القاهرة الكبرى اندريه ريمون لإلقاء محاضرة يعرض فيها لهذا الكتاب وأهم النتائج التي توصل إليها.

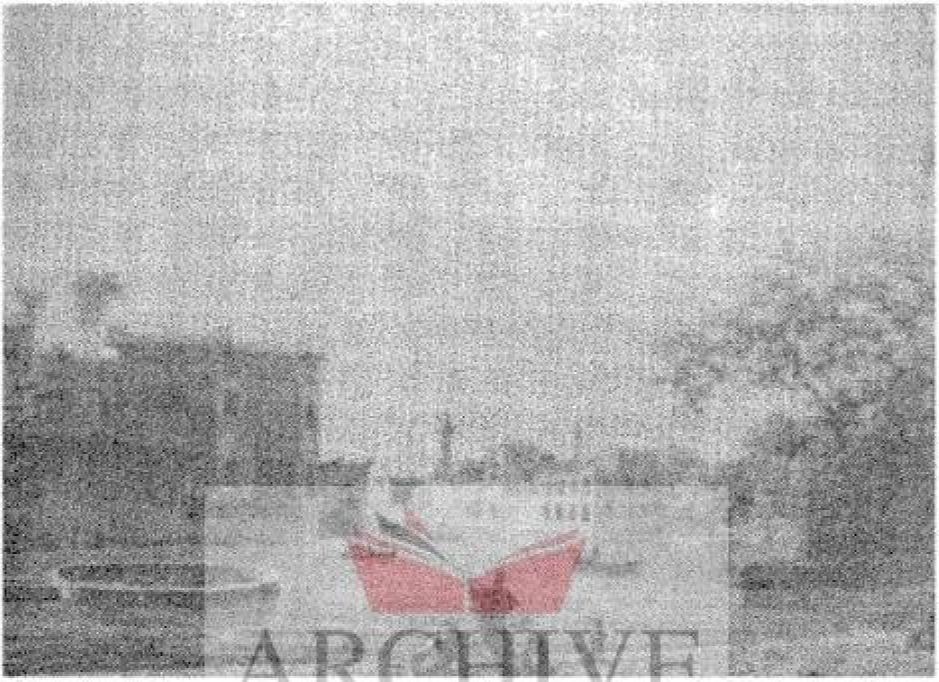
وينقسم الكتاب الذي يقع في ١٢٧ صفحة مزدانة بصور نادرة للقاهرة ومنشآتها في العصر العثماني بعضها مأخوذ عن لوحات رسمت في القرن



قصر قاسم بك والقاعة الرئيسية من الداخل







فيضان النيل فى منطقة بركة الفيل من لوحة تضمنها كتاب وصف مصر وعلى ضفة البركة الموسيقيون يغنون من أجل النهر

الماضى، وبعضها الآخر موجود فى أطلس كتاب «وصف مصر»، إلى ستة فصول ومدخل.

وقد عرض فى المدخل إلى المذبحة التى قادها والى مصر بكير باشا فى ١٥ نوفمبر ١٧٣٦ وكان مسرحها «مقعد» قصر محمد بك الدفتردار المطل على بركة الفيل بغرض التخلص من بعض الشخصيات، التى يعوق ما تتمتع به من سلطة واسعة، الحكومة العثمانية عن اتخاذ العديد من الاجراءات التى تتطلبها. وكان من بين ضحايا هذه المذبحة عثمان كتخدا القزدغلى رأس بيت القزدغلية والذى كان مهيمنا على صروف القاهرة طوال أكثر من عشرين سنة، وقد فتح اختفاء عثمان كتخدا الطريق أمام ظهور شخصيات

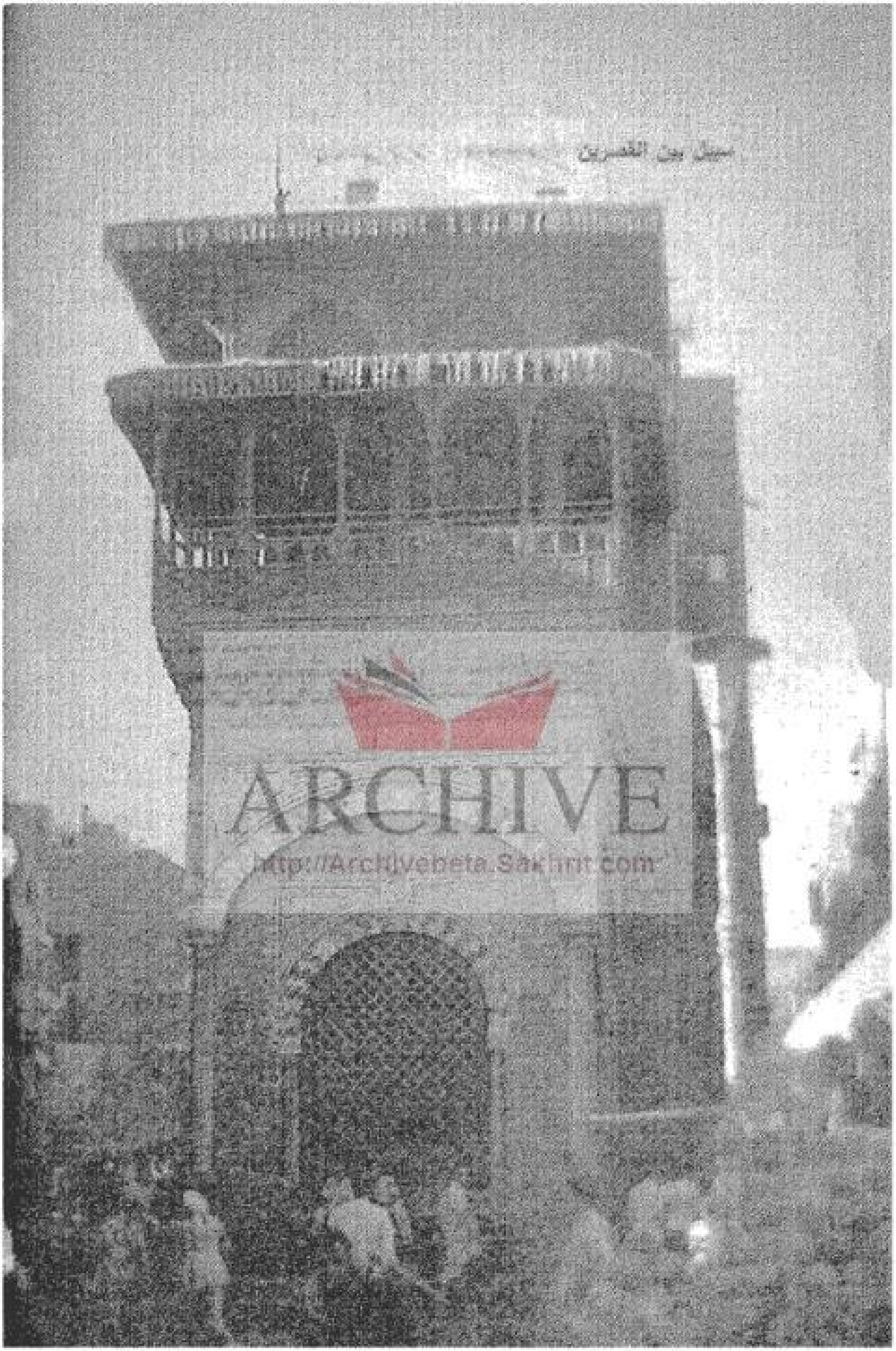
أخرى ورثت قيادة البيت القزدغلي ولعبت دورا مهما في تاريخ مصر والمدينة في القرن الثامن عشر خاصة بعد أن أصبح عبد الرحمن كتخدا هو الرجل الأول في مصر منذ سنة ١٧٢٩ وحتى نفيه سنة ١٧٦٥ على يد على بك الكبير.

كانت هذه الفترة ، التي امتدت نحو ربع القرن، عصر ازدهار لمصر والقاهرة على وجه الخصوص حيث لعب عبد الرحمن كتخدا دورا أساسيا في النشاط المعماري في القاهرة الذي كان المحرك الأول له والذي مازالت حتى اليوم آثاره الباقية شاهدة عليه، وكانت موضع دراسات متخصصة للعديد من الباحثين (راجع على سبيل المثال Raymond, A., "Les Constructions de L'Emir Abd al-Rahman Kathuda au Caire", An Isl. X, (1972), PP. 235 - - 251; Behreus - Abouseif, D., "The 'Abd al Rahman Kathudá style in 18th Century Cairo"; An. Isl. XXY, (1992), (PP. 117).

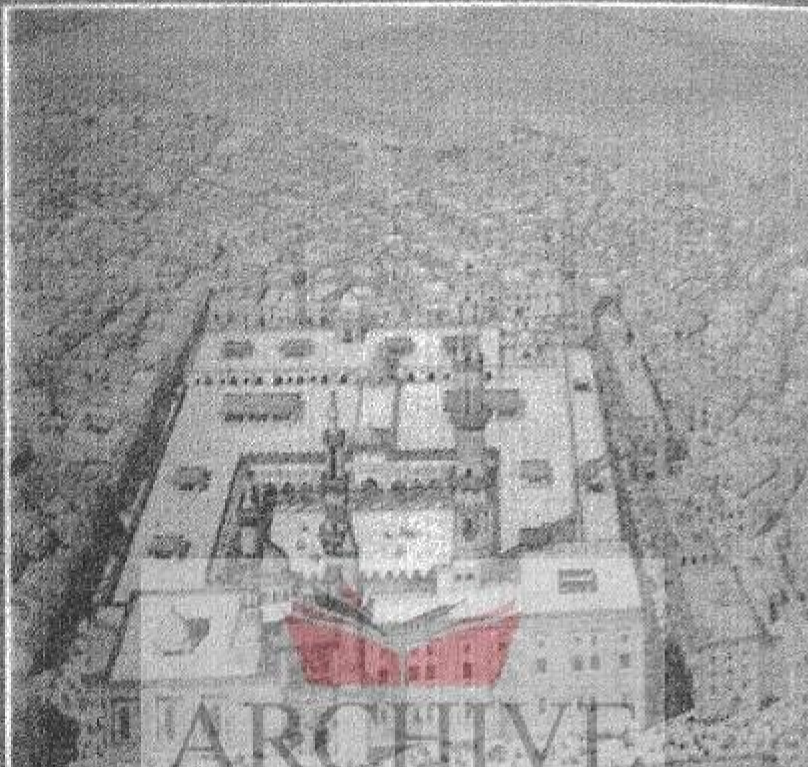
أنشطة القاهرة العثمانية

وفي الفصل الأول تناول التنظيم السياسي لمصر في هذه الفترة (٨-٣١)، وعرض في الفصل الثاني للسلك المهني لعبد الرحمن كتخدا (٣٢ - ٤٥) ثم أفرد الفصل الثالث للحديث عن مختلف أنشطة مدينة القاهرة وحرفييها وكبار تجارها (٤٦ - ٦٧). وتحدث في الفصل الرابع عن امتداد القاهرة واتساعها منذ نهاية العصر المملوكي وحتى القرن الثامن عشر الميلادي (٦٨ - ٩٣). وخصص الفصل الخامس للموضوع الرئيسي للكتاب وهو عمارة القاهرة في عصر عبد الرحمن كتخدا (٩٤ - ١١٩)، وجعل عنوان الفصل الأخير نهاية حقبة (١٢٠ - ١٢٢).

وفي الفصل الذي خصصه ريمون للحديث عن عمارة القاهرة في عصر عبد الرحمن كتخدا تناول الحديث عن العمارة في العصر العثماني عموما ثم أعمال عبد الرحمن كتخدا، وأثبت أنه في خلال الخمسين عاما الممتدة بين سنتي ١٧٢٦ و ١٧٧٥ بني في القاهرة ٢٦ مسجدا و٤١ سبيلا (تمثل أكثر من ثلثي المساجد والأسبلة التي خلفها العصر العثماني والتي تبلغ ٧٧ مسجدا و١١٨ سبيلا). ولا نستطيع أن ننكر أن هذا النشاط المعماري



سبيل بين القصرين



[illegible]

ترجع إلى عصر الازدهار الذي عرفته مصر والقاهرة في هذه الفترة وقد يتغير ما يتصف به كثير من المؤرخين الفترة العثمانية كلها بأنها كانت فترة ركود وتخلف، وأكثر هذه المنشآت تتركز تاريخيا مع الفترة التي تولى فيها عبد الرحمن كتخدا والممتدة من عام ١٧٣٩ و ١٧٦٥. فلقد شهدت القاهرة في هذه الفترة نشاط معماري غير مسبوق في العصر العثماني وربما طوال تاريخ المدينة كله: ١٩ مسجدا ومدرسة، ٦ زوايا وتكايا، ٢٩ سبيلا، بالإضافة إلى الترميمات والإضافات التي أدخلها على العديد من المنشآت التي ترجع إلى عصور سابقة مثل



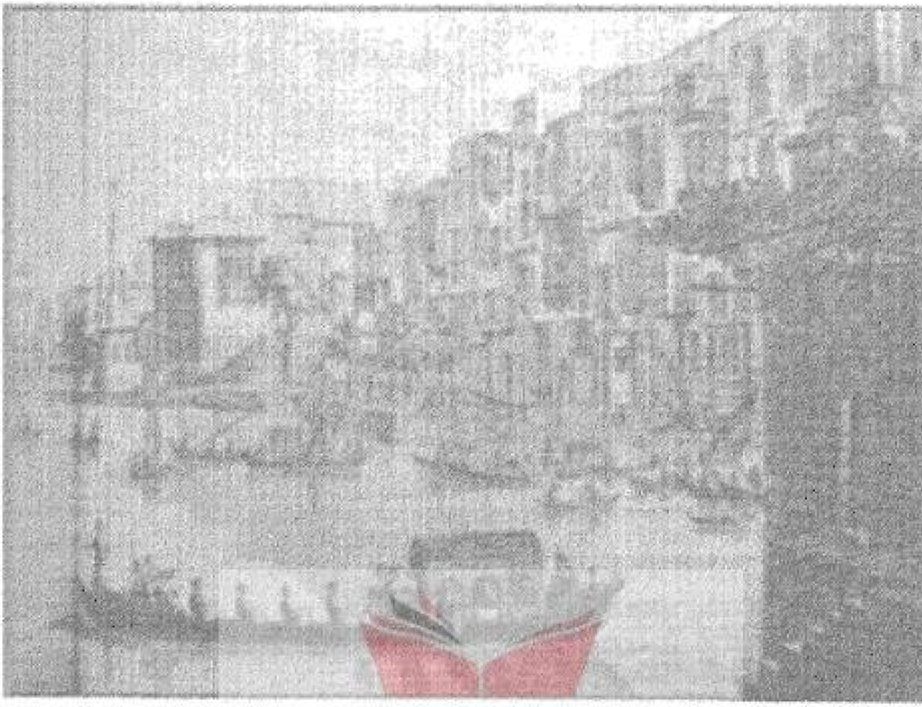
مراد بك



سبيل ابراهيم كتخدا

المشهد الحسينى وقبة ومارستان قلاوون والجامع الأزهر، ويذكر الجبرتى أن الأعمال التى نفذها فى الأزهر وحدها تكفيه لتخليد ذكراه.

وأهم منشآت عبد الرحمن كتخدا التى مازالت باقية فى القاهرة وتدل على الطراز الجديد الذى أدخله فى العمارة القاهرية سبيل بين القصرين المنشأ عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، جامع وسبيل وكتاب الشيخ مطهر فى نفس العام، الأعمال والإضافات الموجودة بالجامع الأزهر وترجع إلى عام ١٧٥٣م، جامع الشواذلية بالقرب من كوم الشيخ سلامة (١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م)، جامع وسبيل باب البرقية وهى إصلاحات وتجديدات أدخلها عبد الرحمن كتخدا عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤م على جامع الأمير مغلطاى الذى يرجع إلى عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م، سبيل وحوض الخطابة، جامع الكردى بالحسينية، تجديدات أقامها نحو

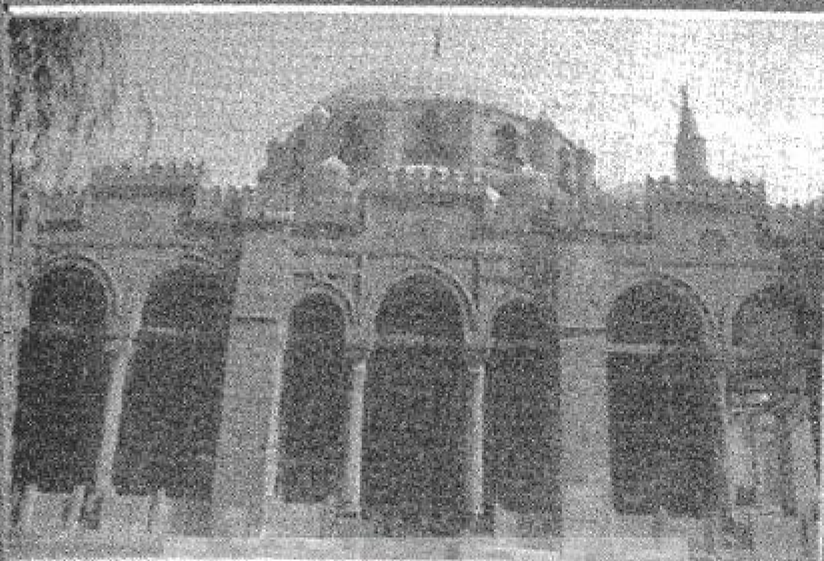


العمارة العثمانية على ضفاف النيل

عام ١٧٥٦ فى كل من مشهد السيدة رقية، ومشهد السيدة نفيسة، ومشهد السيدة سكينة، والمشهد الحسينى، وقبة الإمام الشافعي.

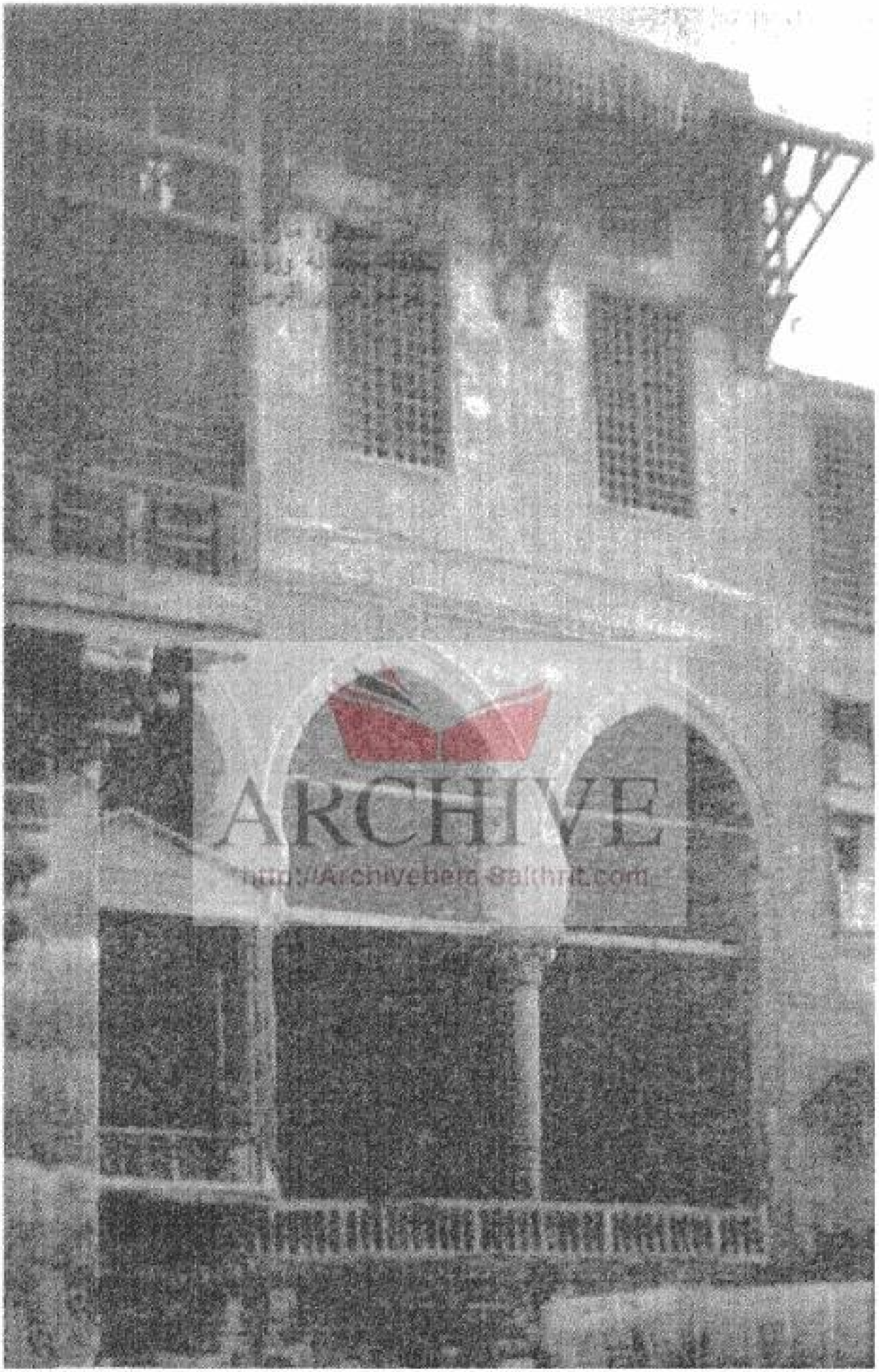
وهكذا فقد شهدت القاهرة سواء فى قلب المدينة الفاطمية أو خارج أسوارها الشمالية عند الحسينية أو قرب باب زويلة أو فى حى المشاهد أو فى الازبكية آثار أعمال عبد الرحمن كتخدا التى حفظت الكثير من آثار القاهرة الفاطمية والمملوكية وأضافت إليها أنماطا جديدة من العمارة غير مسبوقة خلدت اسم عبد الرحمن كتخدا كواحد من أكبر المشيدين الذين عرفتهم القاهرة على امتداد تاريخها الطويل.

وبفضل جهود اندريه ريمون ودراسته أمكننا أن نظهر صفحة مضيئة في تاريخ القاهرة العثمانية فى فترة كان يظن أنها لم تضف منشآت ذات قيمة إلى منشآتها الفاطمية والأيوبية والمملوكية السابقة.



مسجد [illegible] العمارة العثمانية





الرجل الذى أحب مصر

بقلم: د. السيد أمين شلبى

□ من بين أكثر الشخصيات الأوربية والإنجليزية خاصة، التي عاشت في مصر يقف چوزيف ماكفرسون (١٨٦٦ - ١٩٤٦) أو الذي سيعرف بالبمباشي ماكفرسون، من أكثرها غرابة وطرافة، وأكثرها حبا - علي طريقته الخاصة - لمصر وللمصريين، وارتباطا بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، ونفاذا لعاداتهم وتقاليدهم، وتصويرا لها وربما فاق في هذا، أو علي الأقل يكمل، إدوارد لين في كتابه «عادات وتقاليد المصريين المحدثين».

غلاف الكتاب



ولعل مما له دلالة على شخصية جوزيف ماكفرسون وتسجيله لحياته الطويلة في مصر وبين المصريين، ما كتبه عنه لورانس داريل من أنه «كان واحدا من أكثر الشخصيات تفردا وجاذبية التى كان من حظى أن ألتقى بها حيث تقابلت طرقنا فى القاهرة، وتشرفت بأن أتلقى ما قد يكون النسخة الإهدائية الأخيرة لكتابه «الموالد فى مصر»: The Moulids in Egypt والتى يقدم لنا نظرة رائعة عن الحياة السفلى فى مصر، والآن يأتى هذا العمل العظيم الذى يملأ الفجوة بين كتاب لين الضخم والجميل «المصريين المحدثين» وبين الحاضر، والواقع أنه رغم أن ثمة العديد من الكتب عن مصر تعتمد على التحليل السياسى وأيضا على ما يشاع، ولكن لا شىء مما صادفنى يحمل هذا الطابع الأصيل من المعرفة المباشرة مثلما يحمله هذا الكتاب.

والكتاب الذى يشير إليه داريل هو ذلك الذى تضمن خلاصة ٢٥ ألف رسالة بعث بها جوزيف ماكفرسون إلى عائلته من مصر منذ أن نزل بها عام ١٩٠١ حتى مات فيها عام ١٩٤٦، والتى شرع فى كتابتها منذ اليوم الأول لوصوله ظنا منه «أنه سيكون مصدر سرور للأهل فى الوطن أن أروى لهم تجولاتى وملاحظاتى وجو الحياة فى مصر.. وفضيلة هذه الرسائل فى الكتابة عن الشرق أنها تصف الناس والأشياء بشكل مباشر وليس من الكتب والمراجع أو المذكرات.

● بدء علاقته بمصر

ويروى ماكفرسون بدء علاقته وتطلعه إلى مصر بمرحلة دراسته فى أكسفورد، «حيث كانت أفكارى فى مكان آخر.. وحيث كان حلمى أن أعيش فى القاهرة وأن أرى وأتعلم عن الأماكن والناس واللغة فى بلدان البحر المتوسط ولكن بشكل خاص عن وادى النيل».

وقد كان فى الخامسة والثلاثين حين ماتت والدته، وترك موتها فراغا فى حياته «لقد ترك موت أمى ظلا أعمق وفراغا مخيفا.. ولم يعد شىء فى انجلترا يثير حماسى، ومن هنا عاودنى من جديد تطلعى القديم لشواطىء المتوسط ذات التاريخ الممتع، وهو التطلع الذى ظل مكبوتا خلال حياة أمى وحيث كانت تربطنى بالوطن».

وقد تصادف مع ذلك وصول وفد من الحكومة المصرية لاختيار عدد من متخرجى أكسفورد للعمل فى الإدارة المصرية، وقد وقع الاختيار على ماكفرسون حيث سافر إلى مصر عام ١٩٠١، فى هذا الوقت كان وضع مصر من أكثر الممتلكات البريطانية غموضا،

فهى لم تكن مستعمرة أو محمية، كما لم تكن جزءا من الامبراطورية، وإسميا كانت ولاية ذات حكم ذاتى ضمن الامبراطورية العثمانية لها رئيس دولة هو الخديو الذى يدين بالولاء للسلطان فى استانبول، ولها برلمانها الخاص وحكومتها وجيشها وإدارتها المدنية، ورغم هذا كان الحاكم الفعلى هو أفلين بارينج Evelyn Baring أو اللورد كرومر.

وصوله للإسكندرية

وحين وصل ماكفرسون إلى الاسكندرية فى أكتوبر عام ١٩٠١، اندفع يسجل انطباعاته الأولى إلى شقيقه الأكبر «أعتقد أنى سوف أحب المصريين لمزاجهم الطيب ونظرتهم النبيلة، ويبدو أنهم ينتمون إلى نوع أعلى من البشرية أكثر من الفرنسيين مثلا».

وقد التحق ماكفرسون بإدارة التعليم والذى ظل يعمل فيها من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩١٤، وحيث بدأ مدرسا فى مدرسة الخديو اسماعيل والتى وصفها بأنها «أتيون مصر»، وكانت مدرسة أبناء العائلات الثرية ، وشرع فى الحال فى تعلم اللغة العربية وإجادتها وأصبح فى إمكانه فى السنوات الأولى أن يتحدث بها كأى مصرى أو عربى، وعلى عكس ماسجلته شخصيات بريطانية تولت مناصب قيادية فى مصر عن المدرسين البريطانيين وغياب أى تعاملات لهم تقوم على الصداقة مع المصريين، وإسراعهم بمجرد انتهاء دروسهم، إلى الهرب بدراجاتهم إلى نادى الجزيرة حيث ينغمسون فى لعب الجولف أو التنس ومشاركة أصدقائهم البريطانيين شرب الويسكى والصودا أو الشاى، كان ماكفرسون استثناء من ذلك النمط فقد اندمج بحماس فى المجتمع المصرى مكتسبا قبوله وحب تلاميذه وأصدقائهم، وكان من بينهم أبناء الكولونيل أحمد عرابى.

اهتمامه باللغة والدين

وبحماس فتى ملحوظ بالنسبة لرجل فى منتصف الثلاثينيات بدا ماكفرسون مهتما بكل شىء: اللغة، الدين، العادات، وطرق حياة الفلاحين، «الذين لايقيمون حسابا للزمن»، وصمت الصحراء وأسرارها، وحيث لم تكن الصحراء بعيدة عن قلب المدينة فقد كان يجد بهجة فى أن يمتطى مهرة يطوف بها حول المقطم والتلال الجرداء التى تطل على القاهرة، ولم يرتح حتى وجد لنفسه بيتا فى الصحراء وشاليها صغيرا قرب المطرية، كما أبدى اهتماما خاصا بالشعائر الدينية، ولم يكن حضوره القداس مقصورا فقط

على الطائفة الكاثوليكية ولكن أيضا على الكنائس الشرقية، ومنذ عامه الأول كان ضيفا على حفلات الزواج الفخمة، للمسلمين والأرمن، واليونانيين والأقباط، وكان يسعده أن يكون هو بين مايقارب ٥٠٠ مدعو، الانجليزى الوحيد بينهم، كما كان أصدقاؤه المصريون يصطحبونه فى مناسبات دينية لم يكن يسمح فيها لغير المسلمين، وقد شملت علاقاته بالمصريين جميع طبقاتهم، ولم يكن يرتاح فقط إلى تلاميذه وعائلاتهم وأصدقائهم، بل كذلك فى المنزل المتواضع والمزدحم لخادمه حجازى وحيث كان «أشقاء حجازى وشقيقاته الصغار يتزاحمون على مثل الهررة الصغيرة المستأنسة».

كما كان موضع ترحيب فى بيوت الشخصيات المصرية البارزة، ومن بينهم كبير قضاة مصر الشيخ محمد بخيت الذى يصفه بأنه «واحد من أكثر الشخصيات المحترمة التى قابلتها فى حياتى.. إنه فقط.. يحب العمل، والصلاة، وتعليم أصدقائه، وأخوته فى الدين، ورغم عمله كقاض، فقد كان يعلم الصغار بلا مقابل على مدى ٦ أو ٧ ساعات يوميا، وكان يأكل قليلا ولكنه يحب أن يرى ضيوفه يأكلون كثيرا.. إنه واحد من أكثر المثقفين رغم أنه لايعرف لغة الأوربيين أو عاداتهم، وهو



الرجل الذي أحب مصر

دائما على استعداد أن ينفق ماله على الآخرين». كذلك كان من أصدقائه المفتي، الذى يسبق كبير القضاة في الدرجة، وتصف إحدى رسائل ماكفرسون زيارته للمفتى حيث نقل إليه سؤالا كان يحير خادمه حول ما إذا كانت رائحة سجائره تفطره فى رمضان، وجاءت إجابة المفتى مطابقة لما رد به ماكفرسون من أنه إذا كانت رائحة السجائر تفطره فلابد أن رائحة الطعام تفطره كذلك.

وفى عام ١٩٠٤، نقل ماكفرسون إلى مدرسة رأس التين بالاسكندرية، وبعد ذلك بثلاث سنوات إلى كلية الزراعة بالجيزة، وهو يحتفظ بخطابات من طلابه بالاسكندرية يقول أحدها «لا أستطيع أن أصف بالكلمات الأسف والحزن الذى سببه رحيلك، فقد بكيت



جون ماكلرسون وهو في شهره التاسع بين ذراعي مربيته اليونانية زينة بمدينة الاسكندرية عام ١٩٢٦



ماكلرسون في حديقة الأزبكية



جون ماكفرسون فى جلسة عائلية



شرفة فندق شبرد

بمرارة ويتذكر كل تلاميذك طيبتك ورقتك وقدرتك فى التدريس».

نمو الوطنية المصرية

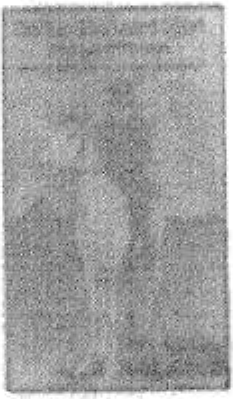
وتعكس خطابات ماكفرسون فى هذه الفترة نمو الوطنية المصرية والمشاعر المعادية للاحتلال البريطانى خاصة بعد حادث دنشواى الذى سجل وقائعه فى رسائله وما أثارته من مشاعر لدى المصريين «إن كل فرد قابلته كان منكسر القلب، وفى حلقه غصة، وكنت تلمس العصبية فى كل لغته وكل رد أو صوت، والحزن على كل وجه، ولكنه كان حزنا من نوع غريب، وكان من الواضح أنه حزن مقهور بفعل قوة متفوقة «ويسجل أن حادث دنشواى «جعل الفلاحين المصريين يسحبون ولاءهم الضمنى، واكتسبت الحركة الوطنية المناضلة تأييدا شعبيا».

المحارب السعيد

ومع الحرب العالمية الثانية، دخلت حياة ماكفرسون فى مصر طورا أكثر غرابة وطرافة، وقدمت له منافذ أكثر للتوغل فى حياة وقاع المجتمع المصرى بعاداته وتقاليده. وقد اكتسب ماكفرسون فى هذا الطور لقب المحارب السعيد The Happy Warrior

وذلك أنه فى هذه الأثناء كانت تركيا قد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا، وباعتبار أن مصر كانت من الناحية الفنية ولاية ضمن الامبراطورية العثمانية، فقد عمدت انجلترا إلى تنظيم هذا الوضع، وأعلنت مصر كمحمية رسمية بدلا من وضع الحماية المقنعة التى كان لها فى الثمانينيات من القرن، وكان مصدر التهديد الرئيسى لبريطانيا من مصر يأتى من القوات التركية فى فلسطين وسوريا والتى كان من المتوقع أن تتقدم عبر صحراء سيناء إلى قناة السويس، الأمر الذى دفع انجلترا إلى اتخاذ اجراءات سريعة لتقوية دفاعات القناة. وقد بدأت مساهمة ماكفرسون فى العمل الحربى بالتحاقه بوحدة احتياطية تطوعية شكلها أعضاء نادى الجزيرة الرياضى من البريطانيين وعرفت من قبيل السخرية «بقصر فرعون»، ورغم أن ماكفرسون كان يقترب من الخمسين من عمره فإن هذا المستوى من المشاركة لم يرضه على الإطلاق حتى تمكن فى يونيه ١٩١٥ من تسجيل نفسه كضابط فى الصليب الأحمر حيث شرع فى الحال فى مهمة بمستشفى ملحق بباخرة متجهة إلى أحد شواطىء البحر المتوسط وحيث كان الحلفاء يعدون لهجوم شامل، فى هذا الهجوم تعرض الطراد الذى ينقل ماكفرسون لقصف أصاب أفراده ومنهم ماكفرسون حيث ظلت ساقه معلقة لمدة ٤ شهور اختار

بعدها أن يكلف فى فيلق أنشىء حديثا للهجانة ونظر إليه كوحدة حيوية فى خطط القيادة البريطانية فى مصر، وكانت مهمة هذا الفيلق تزويد القوات المحاربة فى الصحراء بالمؤن وخاصة الماء والعودة بالجرحى وفى معسكر للتدريب على هذه المهمة فى عين شمس واجه ماكفرسون بداية صعبة حيث «بدت الحياة فى عين شمس مثيرة، بل وخطرة بالنزعة المتوحشة للكثير من الجمال، وفى كل يوم تقريبا كان واحد منا أو أكثر يرقد فى المستشفى من عضة جمل، وفى الليل كثيرا ما كان أحد الجمال ينطلق مثيرا للذعر ويظل المعسكر مستيقظا طوال الليل». وقد أوفد ماكفرسون إلى أعماق الصعيد لتجنيد جنود للهجانة من بين الأهالى هناك، وكان هذا الفيلق قد تطور عدده من ٣٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠ سائق كما تكون فيلق عمل مصرى لمساعدة القوات البريطانية المحاربة، ومع نهاية الحرب كان قد خدم فيه مليون ونصف مليون مصرى على فترات مختلفة، وكان هذا الإكراه للمصريين لمساعدة البريطانيين ضد الأتراك من الأسباب الأولى للهبة الوطنية المصرية بعد الحرب وبسبب الأساليب التى استخدمت فى تجنيد المصريين وكانت موضع نقد حاد من ماكفرسون «لهذا



الرجل الذي أحب مصر

الشر المخزى والطريقة المخجلة والفاسدة التى تم بها تجنيد المجندين، وكانت هذه الأساليب تقوم على مطالبة المديرين «حكام الأقاليم» لتوفير عدد من القوات فى وقت معين، فيأمر المديرون المأمير بأن يقدم كلا منهم نسبة معينة، ويحيل المأمير بدورهم هذا إلى العمد فى القرى التابعة لهم، ويستخدم العمد هذا الأمر لكى يتخلصوا من أعدائهم الشخصيين، ومن الذين يمكن أن يحلوا محلهم، وأزواج النساء الجميلات الذين يشتهونهن، وكل غير القادرين على دفع الفدية».

وقد تحقق خوف ماكفرسون من أثر الكراهية التى شاعت بين المصريين تجاه البريطانيين نتيجة لهذه الأساليب، فعبر مصر كلها انتشرت الأغانى التى

تعبر عن الكراهية للإنجليز:

ويل لنا يا انجلترا
يامن انتزعتم الحبوب
وسلبتم الماشية
وأخذتم الجمال
ولم تتركوا لنا إلا حياة جدباء
فبالله دعونا وشأننا.

● خطاب توديع

ورغم كل ما عاناه ماكفرسون خلال هذه الفترة، فإنها كانت من أكثر فتراته فى مصر، بما فيها من أخطار، حركة وخصوبة، وقد عكست رسالته الأخيرة من سيناء - التى أهداها إلى حصانه تموز - هذه الفترة، وكان خطابه بمثابة توديع لهذه الحياة واحتفالا بها: «خلال الشهور الأخيرة عشنا أنا وتموز أوقاتا سعيدة ورحلات مرحة فى سيناء، وكانت إدارة الحملات متعة مع تموز فقد كان يمشى برزانة فى مقدمة القافلة محددا لإيقاعها، ولكنه كان يحملنى إلى المؤخرة فى أسرع وقت إذا ما أطلقت الصفارة إيذانا بوقوع خطأ ما، ثم يحملنى إلى المقدمة مرة أخرى مثل شعلة من النار. وبشكل يجعل الأهالى يصيحون «وحياة النبى، هذا عفريت وليس حصانا».. وربما كانت الأسابيع الأخيرة فى حياة تموز التى عشناها فى العريش أسعدها كما كانت أمتع ما عرف سيده كذلك، ولم يحفل كلانا للحظة بالقنابل أو آلات الحرب الأخرى، والتى جعلت الحياة أحلى عشرات المرات، وجعلتها تبدو للمرء كمنحة مجيدة من الله وليست مجرد شىء رتيب».

وبتردد شديد، أنهى ماكفرسون مشاركته فى «معارك الصحراء» ودخلت حياته فى مصر مرحلة أكثر تنوعا وغرابة تلك التى أطلق عليها «الدوامة المثيرة Lurid Gulf»، فقد ظن رؤساؤه أنه يستحق حياة هادئة بسبب جروحه وضعفه الجسدى، ولكن الأيام سوف تثبت أن ماينتظره سيكون أكثر إجهادا وضغطا وفى القاهرة رقى إلى درجة «بمباشى» وتولى مسئولية السجن السياسى فى الجيزة والذى كان ينزل به أساسا الوطنيون المصريون والذين كون منهم ماكفرسون فريقا لكرة القدم، وبعد بضعة شهور عين قائما بأعمال «مأمور الضبط» وكان فى هذا تحت سلطة رسل باشا، وهى الوظيفة التى دخل بها إلى عالم الجريمة والمؤامرات السياسية وما تتطلبه من جهد دائم وضغوط نفسية لم تهيئه لها حياته الوظيفية من قبل، وتظهر رسائله عن هذه الفترة تعجبه كيف استطاع أن يتعامل معها إلا أن الجانب الإيجابى بالنسبة له وشغفه بالغوص فى المجتمع المصرى، أنها

جعلته يرى عن كثب العادات والتقاليد المصرية فى أغرب صورها مثل حفلات الذكر، وحفلات الزار التى استخدم سلطته كى يسمح له بمشاهدتها وحيث نرى تفاصيلها ومشاهدها مسجلة بالتفصيل فى رسائله.

● تسجيل لثورة ١٩١٩

ومن أبرز الأحداث المصرية التى عاشها وسجلها ماكفرسون فى مصر ثورة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول ورفاقه، ورد فعل الحكومة البريطانية، ورغم ارتباطه وحبه» لمصر وللمصريين، فقد كانت استجابة ماكفرسون لأمانى المصريين الوطنية نموذجا للأمبريالى الفيكتورى التقليدى، وبعد اعتزاله الخدمة نهائيا وقبل وفاته عام ١٩٤٦ كتب خطابا إلى صديق له فى انجلترا يفسر فيه هذا التناقض بين حبه للمصريين وبين موقفه من مطالبهم الوطنية: «إن أصدقائى المصريين كثيرا ما يسألوننى: كيف يتأتى أن تكون صديقا لنا، بل ومصريا تقريبا، ثم تتردد إزاء استكمالنا لاستقلالنا، وكنت أرد عليهم ذلك أنى أحبكم كثيرا وبشكل لايجعلنى أقدم لكم ما قد يضركم (١)». وتوضح خطاباته فى هذا الشأن أنه



الرجل الذي أحب مصر

كان يفسر موقفه هذا «بخوفه على الفلاحين المصريين»، ومن أن يعيد الإقطاعيين المصريين لنظام السخرة «بعد أن ارتفع بهم الحكم البريطانى إلى مكانهم تحت الشمس»، وهذا التصور الذى عبر عنه ماكفرسون كان يعكس الادعاء البريطانى والذى عبر عنه اللورد كرومر فى كتابه عن مصر واعتبر فيه أن أهم الإنجازات البريطانية فى مصر هو إلغاء نظام السخرة، والواقع أن بعض المؤرخين الغربيين يتقبلون هذا الادعاء، إلا أن البحث التاريخى الدقيق يظهر أن اختفاء نظام السخرة فى مصر كان نتيجة عملية عريضة من التحول والتطور السياسى والاجتماعى فى مصر.

عبد الله رزق الله

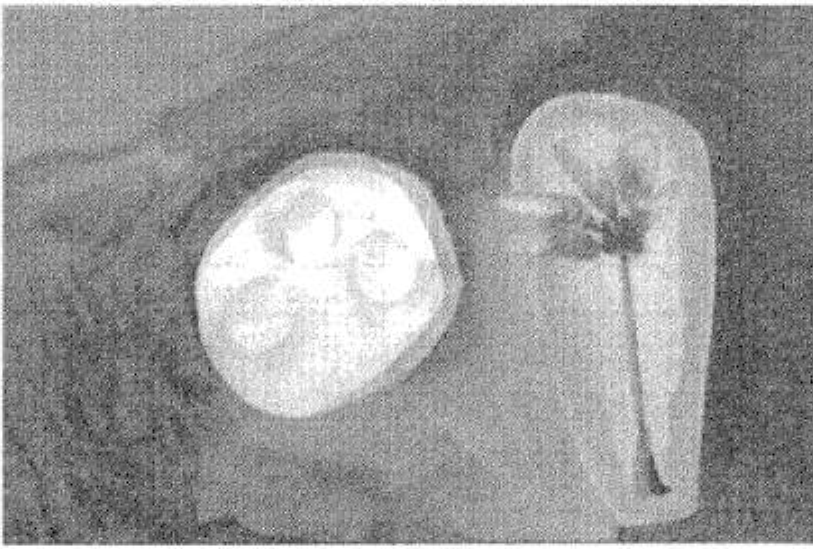
ثلاثية الفن والمرأة والإبداع

نجوى صالح

●● . إن الالتقاء بفنان .. أى فنان حقيقى ، ماهو إلا درب من المغامرة الحقيقية ، إذ تجد نفسك أمام جميع التناقضات اللامعقولة التى تحتضن إنساناً واحداً ..! . ●●

أنت تتعرف على هذا الفنان قبل أن تلقاه، من خلال أعماله التى مارس فيها انفعالاته وأفكاره.. وأسلوب تطبيقه الخاص المتفرد.. وقد ترفض أعماله برمتها.. أو ترفض بعضا منها.. وتتقبل الأخرى أو قد ترفض ثم تتقبل تلك الأعمال بعد هضمها وفهمها. إن العمل الفنى الحقيقى يتطلب من المتلقى أن تقوده رجلاه إليه، إنه مثل المغناطيس الذى من الصعب مقاومته فى داخلك، خاصة اذا كان الفنان قد خاطب شيئا ما فى نسيجك التاريخى، نسيج البشرية، إنها الموروثات اللا حسية التى نتوارثها، وتصدر نداءات خفية الى كل فنان، قد نطلق عليها الحنين، أو الشجن لأشياء معينة بعينها. لذلك حينما يسأل أحدنا الآخر، أنا لا أفهم ما تقدمه تلك اللوحة؟ إنه سؤال وجيه وبرىء فى آن واحد، والاجابة باختصار.. هل هى عالمك التاريخى أو خلافه الذى تنتمى اليه، وتخوض فيه فتهوى هذا العمل الى حد اقتنائه.. أم هى لغز ممجوج ومرفوض.

وبالتالى فإن الأعمال الفنية الجيدة هى التى تستدعى الفنان، وتحتاج الى معرفته والاقتراب منه، بعد أن أعطاك



من مجموعة مائيات نحتية **لعدلي رزق الله**

هذا الكم من المتعة الروحية، ومن التأمل في عالم كان مجهولا قبل لحظة التلقي، وأصبح فجأة جزءا يتناجى، ويهدهد، ويرتقي بذبذباتك الروحية الخالصة.

إن هذا ما حدث بعد إلتقائي «بعدلي رزق الله» ذلك الفنان الذي قرر أن يعيش من فنه فقط.

ان هذا الفنان تعبير صادق لما يعتلج في وجدان الفنان من متناقضات صارخة..أما عدلي فهو بالفعل الجلوس اليه مغامرة، لأن عدلي يكلم ويقسو علي عدلي، ويحب عدلي بعمق، ويجد فيه مركز الاشعاع الفني والكون كله، حتي انني طرحت عليه سؤالا سمعه بعد يومين ورد عليه!

«أنا الفنان لا الناقد ولا المؤرخ، أنا منحاز لمزاج فني خاص، يجعلني أعشق فنانين بعينهم، ويجعلني أسقط فنانين آخرين مزاجي «رمبرانت»، و«فان جوخ»، و«سيزان»، و«سيلفادور دالي»، لا يمثل شيئا بالنسبة لي. راغب عياد أحبه، يوسف كامل لا أحبه. محمود سعيد، الجزار، حامد عبدالله، رمسيس يونان، أحبهم أعشق بنات الحرانية

وأحب «كمال خليفة» وأدم حنين، وتحية حليم، وقد تكون هناك قامة مثل أحمد صبرى لاتعنينى فى شىء، رغم أننى لا أستطيع إلغاءه من التاريخ! فأنا أعشق بلا حدود ومنحاز، حاد الحب، عنيف الالغاء، وأعادى من يقول لغطا على زميل، أنا طيب وعفيف.

أنا لا شيطان، ولا ملاك.. ولكننى أؤمن بالعمل الدءوب، وبشكل حقيقى أود أن أكون من عائلة «مختار» و«الجزار»، وكمال خليفة، أعطى نموذج الاحترام، فى وقت يهاجم فيه الكل الكل، وغير مؤمن بالأضواء والشهرة.

اللوحة أنثى

وعن فلسفته فى لوحاته الفنية يقول

جنس اللوحة أنثى وليس ذكرا، ثم إن لوحاتى هى حياتى وأهم ما أملك.. أنا أغنى واحد بفنى ولدى ادمان مجنون بلوحاتى، فاللوحات تدعونى للحب، فليست علاقتى بها أننى مجرد خالق لها، ولكنها مزاجى الفنى، فهو انحياز فنى حاد.. ان تلك اللوحة الصغيرة ممتلئة فنا ورزقاً؟ والمعارض التى أقيمها تتيح لى أن أرى لوحاتى فى مساحة واسعة.. فهى ليست للمتفرج بقدر ماهى تأمل شخصى لى، ونهاية حلمى أن يعطينى الله سنوات أكثر حتى أستطيع تشييد مبنى متسعا للتأمل، وقد يتساءل البعض عن سر الجنس فى لوحاتى فأقول إن الجنس عندى هو قدس الأقداس، الخطاء ون هم الذين ستنعكس أعماقهم فى رؤيتهم لذلك.

إن الأنثى حينما يراها الآخر قد تختلف، اذا ضاقت الرؤية، فلن يرى الرائى أو المستلم.. الا مناطق الأنوثة، ولن يرى النور، الكتلة، الهواء، الصلابة، السيولة، التدفق، الحنان، والترديد، واللون ودراسته.

والأنوثة هى صلب الخلق، والأنثى هى الحياة.. ولكن فى اطار فنى متكامل.

وعلاقتى بلوحاتى علاقة طبيعية مثل «التمثيل».. فأنا أرسم ما يتدفق به داخلى، وأنا أرفض أن يلقى الرائى



بمشاعر دونية يملكها هو على جمال الانوثة فى لوحتى التى تتعمق فى الامومة والبراءة.

وهل رأى أحدكم حتى مراهقا مستثاراً أمام عارية «لانجر» أو حتى «روبنز» أو «رنوار» لايحدث هذا ياسادة في قاعات الفن.

ويضيف «عدلى رزق الله» اننى طيلة حياتى أقدس الأنوثة ودور الأم التى تعطى الحياة.. حتى أننى لم أتصور نفسي والدا لذكر ورزقت بابنتين جميلتين .. وحتى اللوحة أنثى.. وأضيف أن رد فعل الجينات الانثوية عندي هو لوحاته.

وحتى حينما نتطرق الى الحس الشعبى، نجد أن الشعب المصرى يعلم الجنس الراقى، فهو يجد الجنس فى الطبيعة، مثل الرمان طاب واستوى، آه ياليل ياقمر والمنجة طابت على الشجر.

سايس حصانك على القنا وتعالى.. تلقى الجنينة مخضرة وملانه.. أو طالعة من الحمام شبه الخوخة.. والبوسة فى الشفه ترد الدوخة.. استقيت هذا من الشعب المصرى.. فهو وجدان شعبى أعطانى اياه الحس الشعبى المتغلغل فينا..

الفن بين الحداثة والاصالة

أما اذا تحدثنا عن قضية الاصالة والحداثة فى الفن فلا يوجد شكل يرعى الحداثة.. هنا فى مصر.. بل فى اتجاهات معينة اتجاه يرعى الحداثة وآخر الأصالة، كلاهما يقترف جريمة فصل الشكل عن المضمون ووضع محتوى جديد داخل الشكل المستعار..

بالرغم أنهما أصحاب منهج واحد، وفكر واحد رغم ما يبدو على الاتجاهين من تعارض وتضاد.

الوافد والموروث أنا أضعهما فى سلة واحدة.. اللوحة الحقيقية لابد ان تكون جديدة غير مسبوقة، تاريخ الفن كله يصبح تراثا.. لابد من معرفته والقبض عليه، لابد أن يتسق تاريخ الفن داخل من يحاول انتاج لوحة جديدة.

ان الفن الغربى بدأ كرسالة عالمية.. أما الآخر الغربى فقد تحول الفنان الى محلى أمريكى، يدهن الجبل «دوكو»!

ان الفنان «بوبر» مثلا لا يحمل رسالة عالمية مهما حاول الآن البعض تقليد أعماله فى معارضنا، فقد طفح الكيل للنزوح الى الاغتراب. ان الاغتراب أو العبث الغربى ما هو الا «لوكس».. هناك تكدس المتاحف وهنا مازلنا نبنى المتحف الحديث.

وبالمقابل استخدام التراث والمفردات الشعبية مثل الكف والعين والايحاءات الشعبية ما هى الا نوع من الاجابة عن طقس طبيعى مثل المقارنة بين مبنى من الزجاج والمشربية.. إنها طريقة حياة.

لقد أمضى عدلى رزق الله عشر سنوات من حياته فى باريس، ولم يستفد شيئا جديدا من الدراسة الاكاديمية فى باريس أكثر مما استفاده فى مصر.. ولكن الذى أفاده فترة التأمل.. فقد يمضى يوما جالسا على مقهى يتفرس فى الوجوه حوله، ويوما آخر فى زيارة متحف أو مكتبة للاطلاع على كتب الفن.. أو الذهاب الى السينما اذ كان يقطن بجانب إحدى دور السينما.. وكان يذهب اليها لاتاحة مكان تتحرك فيه زوجته.. اذ أن المسكن مكون من حجرة واحدة ضيقة لا تسع اثنين.. إلا نياماً.

وباريس بالنسبة له مفتاح الاتساق الداخلى، لما نستطيع أن نطلق عليه تاريخ الفن الانسانى كله.. فالفن المصرى القديم.. والقبطى والاسلامى كان فى متناول اليد فى القاهرة، أما باريس فقد قدمت له ما يحتاجه لكى



مائيات عدلي رزق الله

يدرك ويعرف ماذا حدث بعد ما أعطينا البشرية الفن.

وأخذ يمارس الرسم وشجعه وجود حبه الوحيد الى جانبه، زوجته سهير...

قرار العودة

يقول عدلي رزق الله:

فى حياتى محطات فنية، فبعد أن أغدقت باريس على العطاء، قررت العودة الى القاهرة والاعتماد على فنى فقط.. وقد اتخذت القرار سنة ١٩٨٠، وعدت مع زوجتى وابنتى وقررت ألا أصبح أحد فنانى باريس.. ولكن أن اصبح فنانا أعيش وأموت فى بلدى، أعيش من فنى فقط.. بلا وظيفة،

وأصدرت عدة «فرمانات» لن أجلس على مقهى، وامتنعت عن التدخين، منعت على أصدقائى تقديم أى مشروب أو تناول الطعام خارج البيت، وفى تلك الفترة وفقت الى بيع خمس لوحات، وضعت ثمنها فى عدة مظاريف، وقلت لزوجتى «هذا هو دخلنا الشهرى» وخفضنا جميع مصروفاتنا الى الصفر!

مرت السنة الاولى بصعوبة شديدة، ثم أقل فى الثانية، وتوازنت فى الثالثة..

أما الرابعة فكانت الحياة قد أصبحت عادية.. وبدأت أواصل العمل بهمة ونشاط وأنتج بغزارة.. ولكن هل نجحت فى بيع لوحاتى بمصر؟ .

الوحدة والتفرغ

كيف أتفرغ لعشقى وفنى الذى أحبه دون اللجوء لبيع فنى؟ ان البيع شرط فى صلب مشروع الفن، منذ بداية احترافى الفن سألت نفسى أسئلة .. هل يشترى المصريون أعمالى؟ الاجابة: لا.. هل هناك من يعشق فني لدرجة الاقتناء وجاءت الاجابة: بنعم.. لكن ما هى نوعياتهم، ملامحهم؟ وكان فيهم: المهندس المعمارى الذى يحب الضوء وانكساره على خطوط العمارة.. أو الباحث فى جماليات الرياضة الحديثة.. وفلسفتها، ومن يحب الموسيقى وذلك المثقف الذى قرأ ورأى، وهكذا.. ووضعت تصورا ماديا لامكانياتهم، وقررت أن أضع ثمنا للوحتى، لا علاقة له بالسعر الذى قد وصلت اليه فى باريس، واخترت أقل الانواع قدرة شرائية وغنى فى التذوق.. الى درجة أننى قررت أحيانا تقسيط ثمن اللوحة على شهور طويلة.. وجعلتنى هذه التجربة الفريدة أتفرغ لفنى وأعيش تجربة التفرد والوحدة.

فضلا عن أننى أهتم بصداقاتى الحميمة.. وعلى الرغم من ذلك فاننى أعيش فى وحدة مطلقة، فالبعض يتصور أن الوحدة سقيمة، وأرى على العكس من ذلك.. فهى ضرورية ومهمة لمن يود أن ينتج فنا جميلا، ان الوحدة ومعايشة النفس شىء مهم جدا

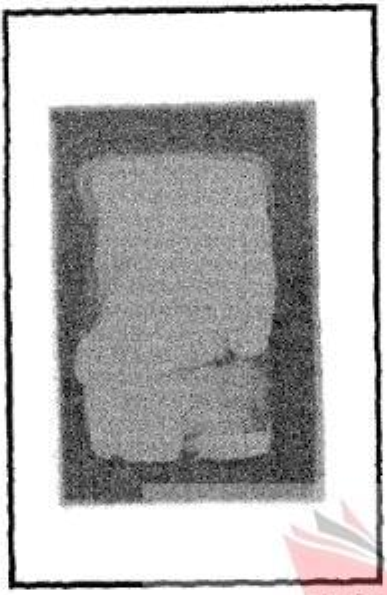
وضروري.. الوحدة حقيقة، لا يمكن إنكارها والا سقطنا فى بئر رومانسية ضحلة.. ومتعة خلق العمل الفنى نفسه تعد لحظة الالتقاء، الحب، الولادة، إنها ما تفرزه تلك الوحدة من عمل فنى جاد.. بعيدا عن اللغط والناس.

وأنا لا أملك إلا لوحاتى، لا أملك سلطة رسمية حتى أمنح وأمنع ولا أملك منصبا إعلاميا حتى أمنع مساحة عن أحد..

أنا لا أملك الا حضور عملى الفنى، والطبيعة تمنحنى أحيانا القبول .. ولكن القبول وحده لا يصنع الفنان، ولكن هبة الطبيعة عليه أن يحفظها من الزوال، بالعمل الدءوب اليومى والمستمر.. وهذه إحدى ثمار الوحدة.

وأنا لا أملك إلا لوحاتى، لا أملك سلطة رسمية حتى أصبح أمنح وأمنع ولا أملك منصبا إعلاميا حتى أمنع مساحة عن أحد..

أنا لا أملك الا حضور عملى الفنى، والطبيعة تمنحنى أحيانا القبول .. ولكن القبول وحده لا يصنع الفنان، ولكن لعبة الطبيعة عليه أن يحفظها من الزوال، بالعمل الدؤوب اليومى



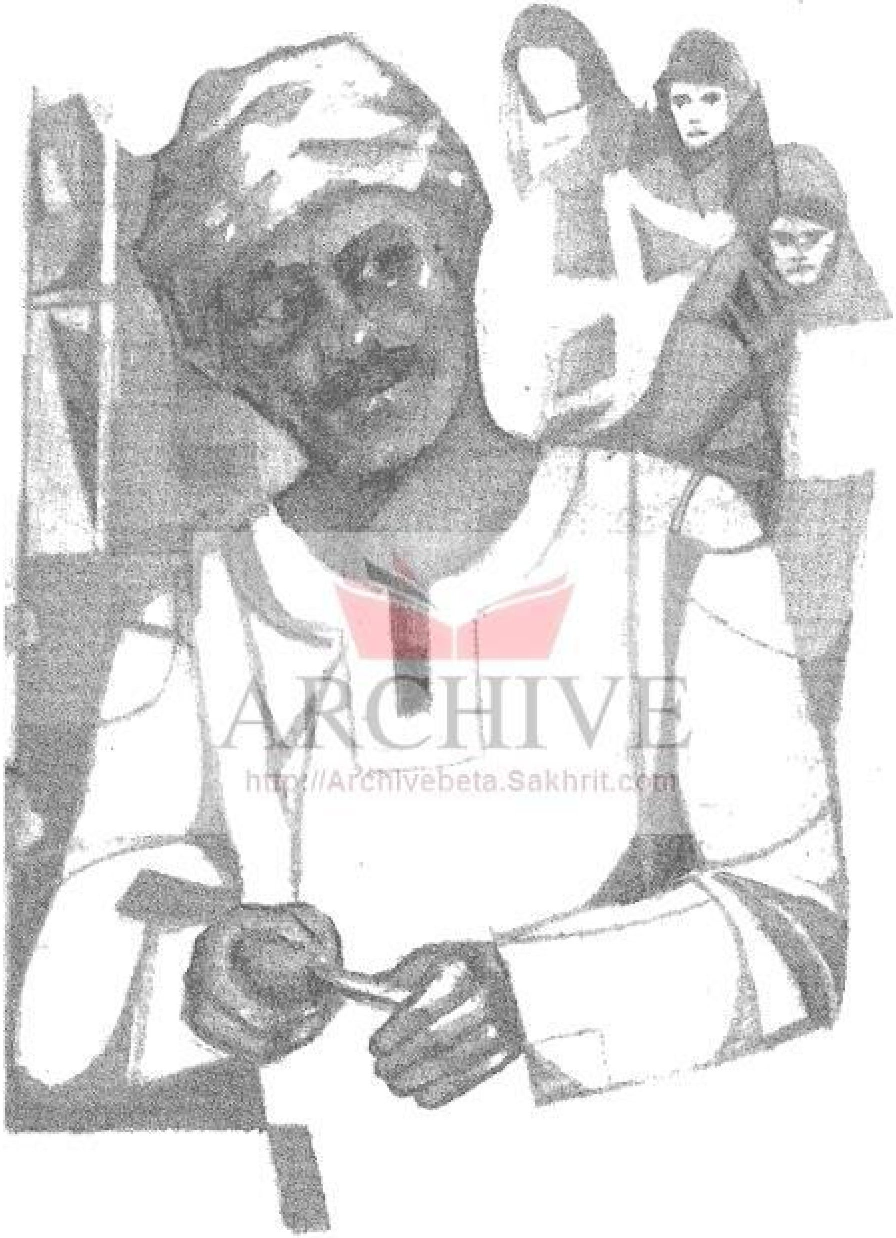
مائيات

والمستمر.. وهذه احدى ثمار الوحدة.

وودعت الفنان، وفي طريق العودة، وجدت ترنيمة نثرية قالها عدلي وترن في أذني وتقول قطعة منها، وهو يخاطب «المعرفة» الفنية.

هل أراك قبل أن يرتاح الجسد موتا؟

هل ستلامس أطرافي جسدك؟
هل ستضمينني يوما بين يديك.
هل ستعطيني الحياة / الموت؟
حينئذ ستكون الراحة الأبدية.



قصة قصيرة

عزف منفرد

بقلم : محمد البساطى

لـ سمعنا العربات بعد أن عبرنا الجسر وأشرفنا على البلدة . كانت أربعة لوريات تهدر وراءنا على الطريق الزراعى المجاور ، حين أصبحت على مرمى البصر رأيناها محملة بالجنود وخوذاتهم تلمع فى شمس الظهيرة ، تتقدمها عربة جيب مكشوفة وعلم الثورة المثبت بجانبها يخفق بشدة .

كنا على سكة جانبية عائدين من المقابر – كان محجوزا من أهل البلدة مات أمام دكانه – نحمل النعش الفارغ لنعيده إلى مكانه عند الجامع ، وكانت النسوة بملابسهن السوداء ينتظرن عودتنا على أول السكة بمدخل البلدة بعد أن منعهن الشيخ من مرافقتنا إلى المقابر، شيعننا أثناء الذهاب بالصراخ والعويل والآن يتجمعن فى ظل الأشجار دون صوت وقد هدهن التعب، وكن أيضا ينظرن إلى العربات القادمة .

يفصلنا النهر عن الطريق الزراعى ، نراهم خلال الأشجار الكثيفة على الضفة، كانوا قد سبقونا مقتربين من مدخل البلدة حيث موقف الأوتوبيس والمقهى ، ورأينا سيارة مصفحة تتبعهم على مهل، تسير وحدها دون ضجة، أشبه بلعب الأطفال التى يأتون بها من المدن، أدهشنا صغر حجمها ، وتخيلنا الجنود داخلها وكيف يقعدون ، يتوهج معدنها فى الشمس ويرسل

بريشة : سميحة حسنين

قصة قصيرة

بريقـــا، والمدفع على مقدمتها يدور نصف دورة من حين لآخر ثم يستقر مكانه، تجنح إلى جانب الطريق وتعود، تندفع إلى ما يقابلها من أشجار على الضفة تمرق بينها في خفة، تبدو لاهية لا شأن لها بالعربات التى سبقتها .

توقفنا عند النسوة ، همهن قليلا دون بكاء ، وضعنا النعش مائلا إلى جذع شجرة ورحنا ننظر إلى الجنود وقد اخفتتنا الأشجار . نزلوا من العربات التى توقفت على بعد من المقهى . عادة ما يكون الفدائيون داخلها فى مثل هذا الوقت . كانوا يتسللون من بلدتنا عن طريق البحيرة إلى معسكرات الإنجليز ، فى عودتهم يخفون قواربهم المطاطية وأسلحتهم فى أماكن متفرقة وسط الغيطان ويخلعون ملابسهم ويلبسون مثلنا ويختفون . يظهرون بعد أيام، يظلون بعد أيام ، يظلون معنا يومين أو ثلاثة ثم يعاودون التسلل إلى البحيرة . المرة الأولى التى رأيناهم بملابسهم المعتمة كدنا لانعرفهم ، لم نصدق أنهم الذين يذهبون ويأتون بيننا . كانت ليلة ممطرة ، كانوا مبللين يقطر منهم الماء ، هائدين بجريح لا يحتمل الذهاب بعيدا، دخلوا به بيتا اختاروه وسط البلدة، وجئناهم بطبيب أوقف النزيف وأخرج الرصاصة. بعدها كانوا يتركون لنا جرحاهم ويعودون بعد أيام ليأخذوهم . تهامسنا فى وقفتنا :

– أهى راية الثورة ؟

– هى .

– ومن أدراك ؟

– رأيتها من شهور فى الجرائد .

– ثلاثة ألوان ؟

– آه ثلاثة .

نزل ضابط من السيارة الجيب وبيده ميكروفون . وقف على بعد خطوتين من العربات التى تمركز الجند على جوانبها وسددوا بنادقهم فى اتجاه المقهى، أطلت رءوس من داخله ثم اختفت ، وريح خفيفة كانت تكنس الأوراق وعيدان القش المتناثرة فى المكان الخالى أمامه، والبعض من الأهالى يقفون بعيدا محتمين بجذوع الأشجار مثلنا وفوق أسطح البيوت .

رفع الضابط الميكروفون إلى فمه ، وتردد صوته فى الفضاء حولنا :

– أعرف أنكم فى الداخل ، لا أريد غير أسلحتكم .

تهامسنا : - «ومن وشى بهم» ؟
- وشى ؟ ألا تعرف الحكومة ؟
- وماذا فعلوا حتى يمسكوهم ؟
- لن يسمعوا كلامه ومعهم السلاح .
- سلاحهم فى الغيطان .
- معهم سلاح خفيف فى الداخل . يخفونه وراء النصبة .
- ومن أدراك ؟
- سترى .
اقتربت المصفحة ووقفت على مبعدة من العربات . زمجر محركها فى قوة ثم سكت . اندفع جنديان فى اتجاهين مختلفين على الطريق الزراعى ليوقفا السيارات القادمة من الناحيتين .
خرج كبير الفدائين . كنا ندعوه «أبو هاشم» يلبس جلبابا من الصوف الرمادى بكم واسع ، شمره كاشفا عن كم الفانلة الداخلية ، وقف أمام المقهى يقشر برتقالة بخنجرة . سمعنا النسوة تتهامس بجوارنا :
- وما أخرجه الآن؟
- لو بقى مكانه .
- لن يعرفوه فى الجلباب .
- والخنجر ؟
تمطى كلب هزيل كان راقدا جوار المقهى ، نفض نفسه وسار إلى حيث يقف أبو هاشم ، تطلع إليه وهز ذيله ، رمى إليه أبو هاشم بقطعة من القشر، تشممها الكلب ومضى مبتعدا
تردد صوت الضابط محلقا فى الفضاء .
- «رة أخرى أقول سلموا سلاحكم وينتهى الأمر» .
تناول أبو هاشم فصا من البرتقالة ، مضغه فى بطء ويصق الذر جانبا . التفت وراءه وقال شيئا لم نسمعه . تهامسنا :
- ماذا يفعل ؟
- الله أعلم .
هو . هو لم يتغير . كما عرفناه فى الأيام القليلة التى أمضاها معنا من حين لآخر . لابد أنها إحدى حيله وكان شغوفا بها . يبدو لا مباليا ثم يفاجئنا بما لا نتوقعه . ما من سهرة حضرها فى المقهى إلا وجلعنا نموت من الضحك . أخرج يوما علبة سجائر ومدها إلينا . قال أنها سجائر انجليزية، ترددنا قليلا . حين رأيناه يضع واحدة فى فمه أخذ كل منا واحدة . أشعلها لنا ، وبعد نفسين توالت الفرقعات بيننا ، وقفزنا شمالا ويمينا .
بعد أن انتهى من البرتقالة أخرج منديلا مسح به فمه وخنجره ، واستدار إلى الضابط قائلا :
- لا نتلقى أوامر من أحد .
لم يلتفت الضابط إليه . ظل فى وقفته

الصارمة محدقا إلى باب المقهى المفتوح على سعته ثم رفع الميروفون إلى فمه:

- سأعد حتى عشرة. إن لم تسلموا أسلحتكم . واحد . اثنان .. » .

كان يعد فى بطء ويده الخالية وراء ظهره . حين بلغ سبعة تقدم أبو هاشم خطوة صائحا :

- انتظر . سآتيك بها .

ودخل المقهى . توقف الضابط عن العد، وتراخت يده بالميكروفون كانت الشمس ساخنة ، والأهالى يتزاحمون هنا وهناك على السكك .

ومر ما يكفى من الوقت . بدأ الضابط كأنما تنبه فجأة إلى شئ ما . تلفت حوله ثم رفع الميروفون :

- الأهالى داخل المقهى يخرجون ..

ساد صمت ثقيل . لم يخرج أحد . تهامسنا :

- الباب الخلفى .

قصة قصيرة

- آه .. ومفتوح على أحواض القصب .

نظر الضابط إلى الجند وأعطى إشارة برأسه . انتشروا فى قوس متقدمين من المقهى، وهدر صوت محرك المصفحة وتقدمت فى بطء.

اقتحموا المقهى يسبقهم صياحهم ، ثم ارتدوا مسرعين ، داروا حولها . كانت أحواض القصب الثلاثة متجاورة لم تر الجنود وهم يجرون بامتدادها ، غير أننا سمعنا صياحهم ، ودوت طلقات الرصاص . صرخت النسوة بجوارنا وأخفين رءوسهن بين ركبهن . تقدم الضابط خطوتين وتوقف . كان يستطيع من مكانه أن يرى ما لا نراه . خيم الصمت فجأة ، وسمعنا همهمات تأتى من بعد . وضع الضابط الميكروفون داخل السيارة الجيب ووقف بجوارها .

رأيناهم قادمين ، وعندما اقتربوا لمحنا أبوهاشم يترنح بينهم ، كان وجهه داميا، ويداه مقيدتين وراءه بأوراق القصب ، دفعوا به إلى صندوق اللورى .

صعد الضابط إلى السيارة ورفع ذراعه ، تشكل طابور العربات وراءه . ساروا فى الطريق الجانبى حيث أحواض القصب ، أرادوا على ما يبدو تعقب الهاربين . كان الطريق متربا غير ممهد ، ارتفعت وراءهم سحابة كثيفة من الغبار . انتظرت المصفحة حتى ابتعدوا قليلا ثم تبعتهم .

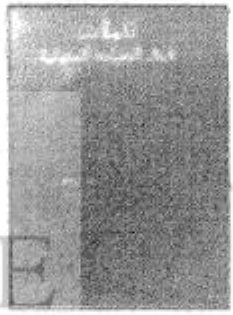
حملنا النعش الفارغ فيما بيننا ، وصعدنا الطريق إلى البلدة تتبعنا النسوة وقد عدن إلى عويلهن ■

مكتبة الهلال

تأملات في السياسة الدولية

بقلم: جميل مطر

دار المستقبل العربي



يقدم جميل مطر.. أحد أبرز الخبراء في القضايا العربية والدولية، كتابه «تأملات في السياسة الدولية»، يقول: قامت الحرب الباردة في أعوامها الأخيرة فسترت سوءات القطبين، وبالوفاق انهار القطب الأشد ضعفا، وبانهيار القطب الأشد ضعفا انكشف ضعف القطب الآخر، وبهذا عمت الفوضى واستحكمت الأزمة الاقتصادية العالمية، وتعقدت فرص قيام نظام دولي جديد..»

ويقول... «.... نعيش عصر القيم المتناقضة، متعهدو حقوق الإنسان تخصصوا في علاقة الإنسان بحكومته، وتجاهلوا علاقة الإنسان بالعالم، وأهملوا حقوق الدول والشعوب في مجتمع تتسلط فيه وتسود دولة فرضت نفسها على قيادته...».«... مازال الشرق الأوسط يمارس هوايته المفضلة، ولم يتوقف عن غواية الدول العظمى وتحريضها على التدخل في شئونه، وللشرق الأوسط جاذبية لاينكرها المؤرخون، فهو إقليم مبدع ومتقلب حضاريا، متنوع ومتناقض طائفيا وعرقيا، متميز أو متفرد جغرافيا واقتصاديا، ودائما متصارع سياسيا، كل ذلك يجعله جذابا للغير وجاذبا لتدخله»...

هذه بعض أفكار هذا الكتاب العام، وأحرص دائما على أن لايفوتني مايكتبه جميل مطر، فقلمه تميز بالاستقلال والنفاذ، وشجاعة الخوض في آفاق جديدة، وهو من القلة النادرة التي تتمتع بخبرة واسعة في القضايا العربية، ولديه القدرة على تقديم أفكار طازجة وتحليلات سياسية تقوم على قدمين المعرفة النظرية ومعايشة الواقع..

إنه من الكتاب النادرين الذي مازال يملك عقله، وليس مثل الكثيرين الذين لايستطيعون الفكاك من الأفكار الثابتة والمكررة أو الجمل المنحوتة، وغير أولئك الكتاب أسرى العمل الأكاديمي يغرقون

القارىء في مصطلحات، ويحرصون على ترتيب الكلام، ولا يعنيهم بنفس القدر المنطق في القضية التي يعالجونها.

اسم الكتاب: عريس لبنت السلطان
المؤلف: محفوظ عبدالرحمن



كعادته يروح الكاتب المسرحي محفوظ عبدالرحمن إلى التاريخ لانتقاء درره، وأحداثه الساخنة لصياغتها برؤيته الخاصة، ولمزج الواقع المعاش في هذا التاريخ، بمفهوم الكاتب ونظرته للحياة، وفي مسرحيته «عريس لبنت السلطان» يختار الكاتب عصر التتار، الذين تحاصر جنودهم مدينة عربية، لكن هؤلاء التتار غير موجودين تقريبا إلا على لسان «المنادي» الذي يبلغ الناس بوجودهم. ثم يعلن في لحظة أن الخطر قد زال.. وأن العدو الذي حاصر المدينة قد ترك أماكنه بلا تمهيد.

وهكذا فإن الكاتب جرد مسرحيته من أماكن حقيقية يعرفها التاريخ كما حول هذه المدينة إلى رمز يحدث فيها ماتشهده المدن، إبان المحن، وأيضا إبان الازدهار، ففي ساعة المحن يزين المنادي كلامه على النحو التالي: «يا أهل المدينة.. إليكم البيان الأخير.. أمر السلطان إلى الوزير إلى مدير عام الدعاية، إلى العبد الفقير، بشرى للجمع الغفير، رجالنا البواسل انقضوا على التتار، صالوا وجالوا، وأتوا بأسير فسبحانه القهار المجير، لقد لمحته نعم لمحت الأسير، في الحقيقة ليس هو بأسير، مديرية الدعاية التي أعمل بها تزوق الأشياء أحيانا، أنه رسول التتار إلى مولانا السلطان، ولكن لأن مدينتنا لم تأسر عدوا واحدا منذ سبعين عاما، فقد اعتبرناه أسيرا».

وعندما تزول الأزمة، فإن المنادي يتكلم بطريقة مختلفة تماما: «نظرا لأن الناس تعبوا تعبا شنيعا، فقد تقرر إقامة الأفراح سريعا، أليس هذا نقيض البيان السابق؟ أنا اليوم مصاب بحالة غباء»، واليوم تحتفل البلاد بذكرى الزواج الثالث للسلطان رمضان بن حماد. الجد السابع عشر للسلطان شعبان فارس الفرسان. إنها مناسبة سعيدة حقا، ولكن ما الذي ذكرهم بها؟ لقد مر عليها حوالي خمسة قرون... ولم يحتفل بها أحد من قبل... وبهذه المناسبة السعيدة يهدى الوزير إلى الجميع الهدايا العديدة.

مكتبة الهلال

نوادر المخطوطات بمكتبة بلدية الاسكندرية
إعداد: د. يوسف زيدان
الناشر: الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية



فى اكتشاف الوثائق القديمة محاولة لإعادة الحياة إلى العصور التى تمثلها، وتشهد مصر الآن حالة مكثفة لإعادة كتشاف وترميم مايتعرض للخطر من المخطوطات التى هى عيون التاريخ.

ومن هذا المفهوم أصدرت مكتبة المجلس البلدى المعروفة باسم مكتبة بلدية الاسكندرية هذا الكتاب الأنيق الذى يضم ٥٩ نموذجا لمخطوطات نادرة من تاريخنا، وذلك بهدف العناية بمخطوطات بلدية الاسكندرية تلك المجموعة القديمة العهد، النادرة، البديعة الغريبة، وقد تم الرجوع إلى هذه النماذج، وتقديمها مصورة، ويوجد أسفل كل منها تعليق موجز يتضمن التعريف بالمخطوطة ومؤلفها، وموضوعها، ونوع الخط الذى كتبت به هذه النسخة، وتاريخ نسخها، وعدد الأوراق، ورقم حفظها بسجلات المكتبة، محاولة إكساب كل منها قيمة حيوية، كأنها الكائن الحى الذى يتم تسجيل حياته فى بطاقة خاصة به.

وقد تم تأريخ هذه المخطوطات حسب التقويم الهجرى، مع وضع مايقابله بالتاريخ الميلادى من بين هذه المخطوطات : نسخة خطية بديعة من كتاب «سلوان المطاع فى عدوان الطباع» لابن ظفر الذى توفى عام ٥٦٨ هجرية، وهو نص أدبى فريد يقدم فيه المؤلف خلاصة حكمته وشيئا من نوادر السلاطين وأخبارهم، وذلك على لسان الطيور والحيوانات على غرار كتاب «كليلة ودمنة».

وإلى جوار نسخة نادرة من القرآن الكريم، نسخت عام ١٢٢٣ هجرية فإن هناك نسخة من الكتاب المقدس تضم نصوص العهد الجديد، الورقة الأولى منها مذهبة بالكامل، وقد كتبت المخطوطة بقلم النسخ، والنسخة مؤرخة حديثا بتاريخ ١٣٥٣ قبطيا أى مايعادل ١٠٤٧ هجرية.

وهناك أيضا المجلد الثانى من مخطوطة «الكشاف عن حقائق التنزيل» للزمخشرى أبو القاسم جارالله محمود ابن عمر الخوارزمى، المتوفى ٥٢٨ هجرية والنسخة نفيسة نقلها ناسخها المجهول من نسخة المؤلف فى القرن الثامن الهجرى تقديرا.

كما يضم الكتاب أيضا نسخة بديعة من قصيدة «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» للبوصيري، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد الدلاص، المتوفى عام ٦٩٤ هجرية، وتعرف هذه القصيدة باسم «البردة» ولا تدانيها في الشهرة من قصائد المديح النبوي غير قصيدة كعب ابن زهير: بانت سعاد..

ألف وجه للقمر
شعر: فاروق جويدة
الناشر: دار غريب



- ألف وجه للقمر ديوان جديد للشاعر فاروق جويدة، يمتعنا فيه بقصائده التي يكتبها بإحساسه المرهف الملئ بالألم أحيانا لكل ما يحيط بالإنسان العربي، والذي نرى في بعض أبيات قصائده مسحة من الحزن للتردي الذي يحياه إنساننا المعاصر وقليلا ما نرى التفاؤل الذي تميز به الشاعر العربي القديم، لكن جويدة يغوص بنا في الواقع المر الذي نحياه، ونلمح ذلك جليا في قصيدته «أغنيه للوطن» حيث يقول في بدايتها:

ماذا تبقى من ضياء الصبح
في عين الوطن
والشمس تجمع ضوءها المكسور
والصبح الطريد
رفات قديس يفتش عن كفن.

وحتى وهو يتحدث عن محبوبته، في قصيدة «مازلت أسبح في عيونك» تلمح للوهلة الأولى هذا الألم الدفين الذي يغلف روحه، ويملأ جوانحه فنراه ينشد قائلا:

العمر في عيني سرداب طويل
يمتد من فجر البراءة
والصباح البكر.. والوجه الجميل
يجتاز أزمنة التنطع
وانكسار الروح والامل العليل
عيناك في السرداب صبح جامح
مازال في ألم يكابر
سطوة الليل الطويل
مازلت أسبح في عيونك
رغم أن الموج إعصار
وصوت الريح وحش كاسر
وشراعنا المكسور
يبحث عن دليل

الحس القومي العربي عند فاروق جويدة عال، بل إنه أحيانا يصرخ معلنا رأيه، معبرا بالشعر، هذا الفن الجميل الذي يصل إلي المتلقي دفقة شعورية، تحرك كوامن نفسه.. وفاروق يعد واحدا من أبرز الشعراء المعاصرين في هذا المجال بل إنه من أبرز الشعراء المصريين الآن، الذي يبحثون عن كل ما هو مصري وعربي يتناوله بجرأة الشاعر العربي القديم وتلمح ذلك في مسرحيتي «دماء على أستار الكعبة» و «الخديو» ولو تمثلنا قصيدته التي

نددها في ديوانه الجديد ألف وجه للقمر» وفي بعنوان «رسالة إلى صلاح الدين» لرأيناه يكتب واقعنا العربي الإسلامي بكل جرأة الشاعر المتمكن من لغته وحسه العروبي الاسلامي.

يقول جويده:

سوف أحمي وجه ابني
بعدما صلبوا صلاح الدين
ياوطني على الجدران
في أي صدر
سوف يسكن قلب ابني
بعدما عزلوا صلاح الدين
من عين الصغار ..
توجوا ديان .
باللمهانة عندما تغدو
سيوف المجد
أوسمة بلا فرسان
باللمهانة عندما يغدو
صلاح الدين
خلف القدس مطرودا
بلا أهل .. بلاسكن
بلا وطن .. بلا سلطان
في كل شئ أنت يا وطني مهان
من علم الأسد الأبي
بأن ينكس رأسه
بهادن الجرذان!

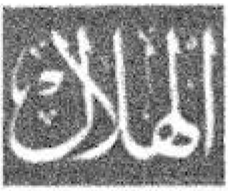
ضم الديوان اثنتي عشرة قصيدة، تضاف إلى رصيد الشاعر الذي يواصل رحلته الشعرية ، وليثبت دائما أن الشعر في مصر سوف يواصل مسيرته الإبداعية ، وليحقق لنا فاروق جويدة ما نتمناه من كل شعراء عصره، بأن يثبتوا أن الشعر في مصر باق أبدا ولن يموت كما ادعى ذات يوم أحد الشعراء العرب الكبار!.

تراث العبيد

المؤلف : مجهول



هذا كتاب قرأته حتى أخره ، رغم ما يتضمنه من سخف وركاكة ، يشغلني الهدف من وراء نشره ، فمؤلفه مجهول، رمز لاسمه بحرفي ع.ع. ولا أدري كيف لا يملك صاحب رأى شجاعة الاعلان عن رأيه ، فهل تراث العبيد منعه من ذكر



اسمه الحقيقي .!

الفكرة التي يتناولها الكتاب ، إن المشكلات التي يعاني منها المجتمع المصري ، تعود الى خلل خلقي أو هيكلي ، ناتج من تراثه الثقافي ، وهو تراث العبيد ، فقد حكم العبيد مصر ما يزيد على ١٢٠٠ سنة ، وإذا كان حكم العبيد قد انتهى فإن تراثه وقيمه توارثها عنهم الابناء ، جيل بعد جيل !.

ويعتبر ان ما هو اجتماعي ، يورث كالصفات الطبيعية ، وان نفسية العبيد تجرى في عروق المصريين !

وكثيراً ما يقارن بين النظام المملوكي في العصور الوسطى وبين النظام الحديث في الغرب، والأولى به المقارنة بين النظام المملوكي في مصر والنظام الإقطاعي في أوروبا .



الهـلال



جرجي زيدان

دور مجلة (المنـــــــار)

أيا كان موقف المثقف من مجلة المنار التى كان يصدرها محمد رشيد رضا، سواء كان هذا الموقف معبرا عن مناصرة أو مخالفة ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر تأثيرها واسع المدى على عدد غير قليل من مثقفى الوطن العربى طوال فترة تزيد عن ربع قرن .

كان قد سبقها الى الوجود أشهر مجلتين ثقافيتين ، الأولى ، مجلة المقتطف التى ظهرت عام ١٨٧٦ لمنشئيها يعقوب صروف، وفارس نمر، والثانية مجلة الهلال ، التى ظهرت عام ١٨٩٢ ، على يد جرجى زيدان. ويلاحظ القارىء أن المجلات الثلاث: المقتطف والهلال والمنار أنشأها غير مصريين ، قدموا من بلاد الشام ، كما كان يطلق على سوريا ولبنان ، استثمارا للحيوية الثقافية فى مصر فى ذلك الحين على الرغم من وقوعها فى براثن الاحتلال البريطانى ، بينما كان عرب المشرق يئنون تحت مظالم الحكم العثمانى ، وكان من مصلحة سلطات الاحتلال البريطانى أن تحتضن مصر مثقفى الشام فى تلك الفترة .



محمد رشيد رضا



يعقوب صروف

فى النهضة العربية الحديثة

بقلم: د. سعيد اسماعيل على

وإذا كـان كل من مـجلة المقـتطف والهلال، وخاصة الأولى، تحتضنان اتجاه (التـحـديث) وخـاصـة فى ثمرات العلوم الطبيعـية والرياضـية ، فـان مجلة المنار كانت عنايتها الكبرى تتركز فى (تحديث الفكر الدينى) متابعة لدعوة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وكانت المنار مجلة (فردية) أى يحمل مسئوليتها فرد واحد هو الشيخ محمد رشيد رضا، ولم تصدر عن مؤسسة ، حيث كانت ظروف الطباعة وتكاليفها على درجة من البساطة بحيث تسهل ذلك ، هذا فضلا عن الطابع الفردى الذى وسم كثيرا من الأعمال و المشروعات فى هذه الفترة .

وإذا كنا قد اعتدنا أن نسمع أو نقرأ لكثير من أصحاب الأعمال و المشروعات الثقافية ما يشير إلى أنهم فعلوا ما فعلوه ابتـغـاء (وجـه الله) ، دون أن يعكس هذا القول حقيقة الحال ، فإن القارىء لتقديم رشيد رضا للطبعة الثانية للمجلد الأول للمنار يستطيع أن يستشهد بالمسيرة الطويلة للرجل و المجلة ، على أن درجة

الصدق مرتفعة إلى حد كبير ، ويقول صاحبنا:

(إنني لم أنشيء المنار ابتغاء ثروة أنائلها، ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها ، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهى به الأقران ، وأبارى به أعلياء الشان ، بل لانه فرض من الفروض يرجى النفع من اقامته ، وتأثم الأمة كلها بتركه ، فلم أكن أبالى بشئ الا قول الحق والدعوة إلى الخير ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكنت أن أصبحت هذا بحسب علمى واجتهادى فسيان رضى الناس أم سخطوا، مدحوا أو ذموا ، قبلوا المنار أم رفضوا).

كان صدور العدد الأول ، يوم الثلاثاء ٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ الموافق ١٥ مارس ١٨٩٨م موسومة بأنها (جريدة علمية أدبية سياسية) . وكان صدورها أسبوعيا ، ذات صفحات ثمان كبيرة

وقد طبع من الأعداد الأولى ألف وخمسمائة نسخة ، أرسل المحرر أكثرها إلى من عرف أسماءهم فى مصر وسوريا، وكذا فى غيرهما من البلاد (وهو الأقل) ، فأعيد اليه أكثر ما أرسله إلى المصريين ، وما لبثت الحكومة العثمانية أن منعت ما يرسل إلى السوريين وسائر العثمانيين . ومن هنا فقد أنقص رشيد المطبوع إلى ألف نسخة ، ولكن مرت السنة وسنتان ، وما كاد المشتركون يزيدون على ثلث الألف إلا قليلا .

لكن هذا الاستقبال الفاتر لم يثن رشيد عن الاستمرار فى مشروعه ، يقول (ما كان انتقاص عملى منتقصا أملى ، ولا زهد الأمة فى المنار ، باعثا على جعله طعاما للنار ، ولا لفائف لبضائع التجار ، كما هى سنة أصحاب الصحف فى هذه الديار ، بل كنت أحرص عليه ، حاسبا أن الناس سيعودون إليه) .

كان ما يشجع رشيد على هذا الاستمرار ، ما كان يسمعه من بعض أهل الرأى والعلم بحركة الاجتماع البشرى والثقافة، من أن هذا «المنار» إنما يسد حاجة من حاجات المسلمين فى هذا العصر ، لا يستغنى عنه بيت من البيوت ، فان لم يفقهوا هذا اليوم، فسيفقهونه فى يوم من الأيام . واستشهد رشيد فى هذا برجلين من غير المسلمين ، أحدهما إنجليزى ، كان يقرأ له المنار ، رب السيف والقلم المعروف : محمود سامى البارودى، والآخر سورى من قرائه . قالا ان المسلمين سيبحثون عن هذا المنار ويعنون بإعادة طبعه بعد خمسين سنة . ولم يدر رشيد أكانا يظنان حين قالا كلمتهما ان المسلمين لا يستيقظون لطلب هذا الإصلاح

إلا بعد خمسين سنة، أم كانا يعنيان أن المنار لابد أن يكون قد بطل في هذه المدة بموت صاحبه أو عجزه ، فيبحث الناس عنه لأنهم في الغالب لا يعرفون قيمة الشيء إلا بفقده، ولا يعترفون بقدر العائل إلا من بعده .

لكن رشيد يعبر عن غبطته لأن الأجل الذي حدده صاحبانا المشار اليهما قد أصبح أقرب مما حدده رأيهما ، اذ أعاد رشيد طبع مجموعة السنة الأولى بعد عشر سنوات ، وأوشك أن يعيد طبع الثانية والثالثة أيضا حيث قلت نسخهما وغلا ثمنهما .

واذا كان المنار في السنة الاولى ذا ثماني صفحات كبيرة ، فانه عند اعادة طبعه أصبح بشكل المجلة ، حيث كان قد أصبح كذلك منذ السنة الثانية .

● تنبيه الأذهان

ويعترف رشيد بأن المنار في سنته الأولى يكثر من (الخطابيات) ، الا أنه يبرر ذلك بأنه كان أمرا مقصودا (لتنبيه الأذهان وإعدادها لما هو آت)، وكذلك عمد إلى الاكتفاء في أكثر المسائل (بالاجمال) وما كان ذلك إلا (لتتهيأ النفوس لطلب التفصيل) .

ولم يكتف رشيد بهذا التبرير لنهج المنار الأولى، بل ساق أمثلة من القرآن الكريم في انتهاج أسلوب الإجمال قبل التفصيل و«قرع الأذهان بالخطابات الصادعة»، فأكثر السور المكية، لاسيما المنزلة في أوائل البعثة «قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف، وتدع العقول إلى إطالة الفكر». لقد انذرت السور المكية أولئك المخاطبين، إذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وافكهم، ويأخذوا بتلك الأصوات المجملة، التي هي الحنيفية السمحة السهلة، وليست بالشيء الذي ينكره العقل أو يستثقله الطبع، وإنما ذلك لتقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد.

ويدعو رشيد القارىء الى مراجعة تلك السور العزيزة ، لاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة ، واذا وقعت الواقعة ، واذا الشمس كورت، واذا السماء انفطرت ، واذا السماء انشقت ، وإذا زلزلت الأرض زلزالها، والذاريات ذروا، والمرسلات عرفا، تلك السور التي كانت بنذرها، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها تفزعهم من سماع القرآن، حتى يفروا من الداعي صلى الله عليه وسلم من مكان إلى مكان «كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة»، ثم إذا

ما راجع القارئ السور المكية الطوال، فلن يجدها تخرج فى الأوامر والنواهى عن حد الإجمال، كقوله عز وجل «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا...» وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريمها وتحريم الطيبات من الرزق «قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون».

ان تأمل هذا يجعل القارئ يفهم هذا النهج الذى سارت عليه المنار فى أعدادها الأولى، وخاصة بالنسبة إلى المقالات الافتتاحية التى كان رشيد نفسه يكتبها. إن القارئ لها سيجد أنها زواجر منبهة، وبينات فى الإصلاح مجملة، ترشد المسلمين إلى النظر فى سوء حالهم، وتنذرهم الخطر المهدد فى استقبالهم وتذكرهم بما فقدوا من سيادة الدنيا وهداية الدين، وما أضاعوا من مجد آبائهم الأولين، وتزعجهم إلى استرداد ما فقدوا، وإيجاد ما لم يجدوا، بطريق الإجمال، فى أكثر الأقوال، وما جاء فى سائر السنين، فهو من قبيل التفصيل، أو إقامة البرهان والدليل، على تلك الدعوة الإجمالية، والمقالات الافتتاحية.

● أسلوب خطابى بحق

وها هو العدد الأول، ومن سطوره الأولى، تطالع أعيننا هذا النهج الخطابى الصارخ، فبعد أن حمد الله وتوكل عليه وأناب إليه، يعلن رشيد رضا أن هذا: «صوت صارخ بلسان عربى مبين، ونداء بالحق يقرع مع جمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين، ينادى من مكان قريب يسمعه الشرقى والغربى، ويطير به البخار فيتناوله التركى والفارسى. يقول: «أيها الشرقى المستغرق فى منامه، المبتهج بلذائذ أحلامه، حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتا زؤاما، تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض، غير الأرض، ودخل الإنسان فى طور آخر خضع به العالم الكبير».

ثم يجمل رشيد الأهداف التى من أجلها أصدر المنار، محددا مهمتها الثقافية فى حركة النهضة التى عادت إلى الاستيقاظ بعد صدمة الاحتلال البريطانى، والقارئ لهذه الأهداف يلحظ الحيطة والحذر، وخاصة الجانب السياسى، فالمجلة غرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين، وليس «الحط على الأمراء والسلاطين»، وهى تسعى إلى الترغيب فى تحصيل العلوم والفنون، وليس «الاعتراض على القضاة والقوانين» وهو يؤكد أن منهج

الاصلاح لديه، متابعا في ذلك نهج استاذه محمد عبده، يعتمد على الاصلاح الثقافي والتربوي بالدرجة الأولى، ولذلك فالمجلة تسعى إلى «إصلاح كتب العلم وطريقة التعليم». وهي في هذا لا تنوي الوقوف موقفا عدائيا من الحضارة الغربية بجملتها، فهي تستهدف «التنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة في الأعمال النافعة».

وهي تؤمن بأن «المسألة الاقتصادية» ركن أساسي في عملية النهوض الحضاري، ولذلك فهي تهدف إلى «طرق أبواب الكسب والاقتصاد».

ولأن عملية البناء تحتاج في البداية إلى عملية فحص نقدي وتطهير ثقافي لتراكمات عهود التخلف والضعف، كان لابد من «شرح الدخائل التي مازجت عقائد الأمة، والأخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد، والتأويلات الباطلة التي شبهت الحق بالباطل».

ولعل هذه القضية الأخيرة بالذات كان التأكيد عليها أكثر نظرا لما أدت إليه من مفاسد لا حصر لها «حتى صار الجبر توحيدا، وإنكار الأسباب إيمانا، وترك الأعمال المفيدة توكلا، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحادا وإيذاء المخالف في المذهب دينا، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا، والذلة والمهانة تواضعا، والخنوع للذل والاستبسال للضيم رضا وتسليما، والتقليد الأعمى لكل متقدم علما وإيقانا».

وإذا كان رشيد قد أشار إلى المسألة الاقتصادية إجمالا في البداية، فإنه يعود مرة أخرى ليؤكد على أهمية هذا الجانب بصفة خاصة ، إيمانا منه بأن الشركات المالية هي «مصدر العمران، وينبوع العرفان وأن عليها مدار تقدم أوربا في الفنون والصنائع، لا على الملوك والأمراء»، وذلك لأنها تملك القدرة على إنشاء المدارس والمكاتب والمعاهد، وتملك إمكانية تشييد المعامل والمصانع، وتسيير المراكب والبواخر، والأمثلة على هذا تحيط بنا في كل زمان وفي كل مكان.

وإظهارا لنهج «الاعتدال» أكد رشيد أن المجلة وهي تشخص العلل والأوجاع الاجتماعية، لن تقف عند حد العويل والبكاء، وإنما تسعى إلى وصف الدواء واقتراح الحلول، وفي الاعتبار «تأليف القلوب المتنافرة، ووصل العلائق المتقطعة، وجمع الكلمة المتفرقة ما استطاعت».

وإذا كانت الملل متباينة، والمذاهب متفرقة، فإن المنار تحاول «إقناع أرباب

النحل المتباينة، والمذاهب المختلفة، أن الله تعالى شرع الدين للتحاب والتواد، والبر والاحسان، وأن المعارضة والمناهضة، والمواثبة، تفضي إلى خراب الأوطان وتقضي على هدى الأديان»

● غزل للسلطة السياسية

وبطبيعة الحال، فإن ذلك لم يمنع رشيد من التصريح بأن هدف المجلة سيجعل محور جهودها متجها إلى التمسك بالدين والدعوة إليه على أساس أنه «أساس السعادة وأن الكفر فساد العمران». ويتطلب ذلك درء الشبهة الواردة على الشريعة الإسلامية ودحض مزاعم من قالوا: إنها حجاب كثيف وسد حائل بين الآخذين بها وبين المدنية الصحيحة «لجهلهم بما انطوت عليه من الحكم الرائقة والأحكام العادلة».

ويلفت النظر ذلك الغزل الواضح من المنار للسلطة السياسية وخاصة في دول الخلافة العثمانية، فهو يصف توجه المجلة بأنها «عثمانية المشرب حميدية اللهجة - نسبة إلى السلطان عبد الحميد - تحامى عن الدولة العلية بحق، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق».

ويبدو أن هذه اللهجة كانت لمجرد السعي إلى إيجاد حالة اطمئنان أولى تتيح للمجلة الظهور والانتشار، ذلك أن المتابع لمسيرة المجلة يستطيع أن يلمس أن رشيد لم يكن ممالئا ولا منافقا.

ولعل القضية الأولى التي عرضت لها المنار في أول أعدادها كانت برهانا صادقا على ما أعلنته من أهداف تسعى إليها.

أما القضية فهي تتعلق بمصطلح كثر الجدل والنقاش حوله في ذلك الزمن وهو «الطبيعة»، فنتيجة لما ذهب إليه بعض المفكرين الغربيين من أن الطبيعة ليس لها ما وراءها من قوة خالقة، وأن المخلوقات انما هي نتيجة توالد ذاتي، أصبح البعض يسمى هؤلاء «بالنتشريين» - نسبة إلى المعنى الإنجليزي لكلمة «طبيعة» Na- ture - واكتسبت الكلمة بذلك سمعة سيئة عند المتدينين، وسماهم البعض، بالدهريين»، ومن هنا كان تأليف جمال الدين الأفغاني رسالة في الرد عليهم.

وحتى لا تختلط المفاهيم وتضيع المعالم بين الحق والباطل، أخذ رشيد يشرح مفهوم الطبيعة، فهي في اللغة تعني الخلقة والفطرة، فخلق الله الأشياء وفطرها وطبعها بمعنى واحد، فإذا كان البعض قد تصور أن وصف عالم بأنه «طبيعي» يعني أنه ملحد، فإن رشيد يستنكر هذا، فالطبيعي هو المنسوب إلى الطبيعة ويستعمل في مقابله الصناعي، فيراد به

ما لا صنع للبشر فيه، ويطلق على العالم بالفنون الطبيعية وإن كان متدينا «ولا يطلق على الملحد من حيث أنه ملحد وإن نسب الأشياء إلى الطبيعة واعتقد أنها موجدة لها ومؤثرة فيها من دون الله تعالى، بل يطلقون على من هذا شأنه لفظ الكافر والدهري والمادي».

وأهمية هذا البيان تتضح لنا مما روى أن الشيخ محمد عبده ـ والبعض ينسب هذه الرواية إلى الشيخ المراغى ـ خشى من معارضة مشايخ الأزهر لإدخال علم «الطبيعة» فى مناهجه زعما بأن هذا العلم ينسب الخلق إلى الطبيعة ذاتها لا إلى الله عز وجل، ومن هنا فقد سمى هذا العلم: «علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى الأجسام»!!

ثم ينتقل رشيد إلى قضية تزعجنا فى الفترة الحالية ، ألا وهى قضية «التكفير» التى أصبحت سيفا يرهب به البعض مخالفيهم فى المذهب أو العقيدة، أو حتى الرأى، يقول رشيد إننا لا ينبغى أن «نطلقه على المخالفين لنا فى الدين من أصحاب الملل الأخرى لأنهم ليسوا كفارا بهذا المعنى «الإلحاد» بل نقول بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعا لأنه صار فى هذه الأيام من أقبح الشتائم وأجرح سهام الامتهان، وذلك مما تحظره علينا الشريعة باتفاق علماء الإسلام».

ذلك أن معنى الكفر فى أصل اللغة الستر والتغطية، وكانوا يسمون الليل كافرا لأنه يغطى بظلامه الأشياء، وأطلقوا لفظ الكافر على طلع النخل وأكمام النور «الزهور» لما ذكر، وعلى البحر لأن الشمس تغيب فيه بحسب الظاهر وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدروع يقولون له كافر الدروع، وقد سمى القرآن العظيم الزراع كفارا كما هو المشهور فى تفسير قوله تعالى «كمثل غيث أعجب الكفار نباته»، وأمثال هذا فى اللغة كثير ويظهر منه أن حقيقة الكفر تغطية المحسوس بالمحسوس، ثم أطلق على من لم يذعن للدين ومن لم يشكر النعمة تجوزا «وحيث قد اختلف الحال وتغير الاستعمال فلا ينبغى إطلاق اسم الكفر على صاحب دين يؤمن بالله». وإذا كان هذا صحيحا ـ وهو ما نؤمن به ـ فكيف الأمر بمن يكفرون الآن المشارك فى العقيدة إذا خالف الرأى والاجتهاد؟!. ❑

عجز الرجال

نغم سائد فى الأفلام

بقلم: مصطفى درويش

●● الأفلام المصرية التى أتيحت لها فرصة العرض فى أثناء أيام العيد الأخير، أربعة لا تزيد.

والأمر الأكيد، أنه ليس من بينها، أى فيلم من الافلام الخمسة التى شاركت بها السينما المصرية فى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.. فمثلا «إشارة مرور» فيلم «خيرى بشارة» الفائز بإحدى جوائز ذلك المهرجان، خرج خاسرا من مضمار الصراع من أجل الاستيلاء على بعض دور العرض فى أثناء العيد.

وكذلك الحال بالنسبة لـ «يا دنيا ياغرامى» الفيلم الذى اجمع النقاد على أنه أحسن الافلام المصرية المتنافسة على جوائز المهرجان ●●

وأعود الى افلام العيد الاربعة، فأقول ان اكثرها اثارة للاهتمام «النوم فى العسل» فيلم عادل إمام

اما اقلها شأنا ففيلم «الغجر» لراقصة مصر الأولى «فيفى عبده».

وفيما بين فيلمى «الامام» و«فيفى» يشغل المركز الثانى والثالث فيلما نور الشريف وأحمد زكى «الهروب الى القمة»، و«استاكوزا».

والحق ان فيلم «فيفى عبده» لا يستحق ان يشغل سوى المركز الاخير، وذلك رغم رقصها الذى لا يعلى عليه، ورغم المشاركة بنصيب من قبل كل من الناقدة وكاتبة السيناريو ماجدة خير

الله، ولاعب الكاراتيه «الشحات مبروك»، وشاعر العامية الكبير عبدالرحمن الابنودي.

والامر العجاب بالنسبة للافلام الثلاثة الاخرى، ان اثنين من بينها يدوران حول العجز الجنسى وجودا وعدما، وهما «النوم فى العسل» و«استاكوزا».

ففيلم عادل امام يبدأ بفرح فى فندق خمسة نجوم، يزف فيه عريس فى عز الشباب، حتى غرفة النوم، حيث يعجز عن اداء الواجب المطلوب منه فى ليلة الدخلة، فيغادر الفندق فى سيارته الابهة متجها الى شريط السكة الحديدية.

وما هى الا ثوان حتى نراه واقفا امام القطار، ساعيا الى الانتحار.

●● إنذار !

وما يكاد رئيس مباحث القاهرة «مجدى بك» أو مجدى باشا فى معظم الاحيان (عادل امام) يبدأ التحقيق فى حادث الانتحار، حتى يجيئه خبر مقتل ربة بيت بيدى زوجها الثائر لشرفه المهان، بسبب عجز مفاجىء الم به فى أعز ما يملك الرجال.

وعندما يغادر غرفة التحقيق يرى العجب العجاب.. حشدا غاضبا من رجال ونساء، يتبادل الشتائم بألسنة



عادل إمام «النوم في العسل»

حداد.

ويحاول، بحكم مهنته، ان يعرف سبب الشجار والبغضاء.. فيسأل، ويكرر السؤال، وما من مجيب.

ويواصل الضابط الباشا مشواره وسط خضم حوادث مشابهة، من بينها استنجاد صاحبة بيت يباع فيه الهوى ويشترى (مريم فخر الدين) بالشرطة لإنقاذها من غضب زبون، هائج كالثور.. لانه يعانى من عجز تام.

ومن مجموع هذه الحوادث استخلص الباشا الضابط ان رجال مصر يتهددهم وباء رهيب، مؤدى انتشاره - من القاهرة الى سائر انحاء مصر المحروسة - القضاء على فحولة الرجال، وبالتالى فناء جنس أحفاد

فيفى عبده .. «الفجر»



نور الشريف «الهروب الى القمة»



الفراعين.

وفى مواجهة هذا الهول الكبير الذى يهدد المصريين بالفناء، اخذ يدق ناقوس الخطر، محاولا، دون جدوى تنبيه المسئولين.

●● وداعة الحملان ●●

ولكن أحدا منهم لم يسانده، بالعكس وقفوا جميعا، بمجالسهم وأجهزتهم له بالمرصاد، حالوا بينه وبين بث اخبار الخطر وحقيقته الى الجماهير، وذلك فيما عدا مسئول اوحد، خرج عن هذا الاجماع البغيض.

انه وزير الداخلية (محمد الدفراوى) الذى نراه حاملا لواء الحقيقة بوداعة يحسده عليها الحملان.

غير انه، لسوء حظ المصريين، يقف وحيدا بلا حول ولا قوة، سوى قوة الايمان.

فها هو ذا وزير الصحة، يظهر على الشاشة الصغيرة، مكذبا الشائعات المغرضة، داعيا كل مصرى الى تلبية النداء، بأن يصرخ بملىء فيه «انا كويس، انا زى البمب، انا زى الحديد».

ولم يكن امام مدير مباحث القاهرة الهمام، فى مواجهة كذب اجهزة الاعلام سوى خيار الاستقالة، وقيادة العاجزين حتى مجلس الشعب، وهم يهتفون آه.. آه.. آه وهكذا بالآهات ينتهى فيلم عادل إمام.

●● سينما أم مسرح

وقد عرضت خلاصته موجزة، ولم أشأ ان اعرض شيئا من خصائصه الفنية التى تتصل بالسيناريو وكاتبه وحيد حامد، وبالاخراج والتصوير وصاحباه شريف عرفه ومحسن احمد، وبكل مفردات لغة السينما الاخرى.

فالنوم فى العسل لغته، رغم ظاهر الامور، اقرب الى المسرح، منها الى السينما.

انه عبارة عن مشاهد قائمة بذاتها، يغلب عليها الحوار والقفشات المبتذلة، ولو عمل على اقتطاع بعضها المؤلف القدير «عادل منير» لما جاء الفيلم مترهلاً، خاصة فى نصفه الاخير.

وعندى ان كاتب السيناريو انما يرمز بالعجز فى الفيلم الى حالة اكتئاب جماعى يعانى منها، فى رأيه، المصريون، تلازمها نوبات لا مبالاة، وفتور فى الشعور.

وهنا نتساءل.هل رفق صاحب السيناريو حين استسهل فاختار هذا

الرمز الضئيل النحيل لهذه المشكلة الكبيرة، الخطيرة؟

في اعتقادى ان التوفيق قد اخطأه الى حد بعيد. لا لأن الرمز ضئيل نحيل فحسب.. ولكن لانه احتاج الى تفصيل فيه من السخافة والسخرية بعقولنا الشيء الكثير!!.

●● حكمة القبلة !

و«استاكوزا» ومداره هو الآخر العجز، يبدأ بقبلة طويلة احتلت من مساحته خمسين ثانية أو يزيد.

وطولها هذا له حكمة تغياها عبدالحى اديب كاتب السيناريو الشهير، وتبنتها مخرجة الفيلم «ايناس الدغيدى».

فلولاها لما استشاطت «عصمت» أو (رغدة) غضباء، ولما نشب بينها وبين «عباس» أو «احمد زكى» شجار ادى الى فقدانه الفحولة، ولو الى حين

وحكاية هذه النهاية الفاجعة للشجار تبدأ بعصمت مستقلة سيارتها، متجهة بها الى القرية السياحية التى تمتلكها عمتها «زهيرة هانم» امرأة المال والاعمال فى منتجع

أحمد زكى ورغدة .. بعد أكل الاستاكوزا !



الغردقة، وتؤدى دورها النجمة الرائعة «أمينة رزق».

فاذا ما اصطدمت عيناها بعباس محتضنا «عديلة» أو الراقصة دينا، يطبع على شفتيها قبلة لاتنتهى فى الطريق العام، اوقفت سيارتها، وهى هائجة مائجة.

وماهى الا ثوان حتى كانا يتبادلان الشتائم والسباب.. ولانه تطاول عليها بأوصاف وكلمات بذيئة، لا يصح ان تقال فى حق بنات الاكابر، فقد عقدت العزم على الكيد له والانتقام.

●● الركلة المميتة

وجاءتها الفرصة سانحة، عندما اكتشفت انه مهندس ديكور فيلتها، داخل قرية عمتها الواسعة الثراء.

ففى اثناء مشادة ثانية بينها وبينه داخل تلك الفيلا، ركلته فى موضع حساس من جسمه ركله امرأة مسترجلة، تجيد لعبة الكاراتيه.. فكان فيها فصل الخطاب.

وطبعا تقوم بين الاثنين منازعات امام القضاء، هو يطالب بمبلغ كبير يعوضه عن اصابته بعاهة مستديمة، افقدته القدرة على معاشرة النساء، وهى تنفى كذبا مسئوليتها عن هذا الفقدان.

ولا يطول بينهما الخصام، فهو سرعان ما يتنازل عن دعواه بشقيها المدنى والجنائى بشرط ان تقبله زوجا لها فى الحلال، وهى، بعد امتناع لا يدوم طويلا، ترتضيه زوجا، رغم انه ليس اهلا لها.

●● خطأ جسيم!

ولا يفوتنى هنا ان اذكر كيف غاب عن ذهن صانعى الفيلم ان المتضرر من فعل جنائى، وان كان فى وسعه التنازل عن دعوى التعويض، فليس ذلك فى وسعه فيما يتصل بالدعوى الجنائية.

ما علينا، فها هما، عصمت وعباس يعيشان تحت سقف واحد، حياة محورها المقالب والاتهامات.

وبعد خصام يعقبه بين الحين والحين، وصال ودلال، ينتهى بهما الامر محبين سعيدين.. هو بكامل فحولته، بفضل الجمبرى والاستاكوزا، وهى بكامل انوثتها بفضل ترويض تحول بها من نمرة شرسة الى حواء سهلة الانقياد.

وواضح من هذا العرض الموجز ان الفيلم مستوحى من مسرحية «ترويض النمرة» لوليم شكسبير.

وكاتب السيناريو لا ينكر هذا، بل يؤكده فى الملصقات والعناوين.

والسؤال .. هل وفق فى ترجمة تلك الملهاه الى لغة السينما.

فى اعتقادى ان ترجمته لم يصادفها اى توفيق، لا لان ترجمة الملهاة امر عسير، وانما لانها جاءت فظة، غليظة، ليس فيها من روح شكسبير الا اقل القليل.

يبقى «الهروب الى القمة» حيث يتقمص «نور الشريف» شخصيتين، احداهما شخصية «هجامة» يقتات من السطو على ما فى خزائن الغير من خيرات.

والاخرى شخصية «حوت» واسع الثراء، جاءه المال والجاه من السطو على قوت الشعب، فهو اشبه بمصاص الدماء.

●● الأحياء والاموات !!

والفيلم يبدأ بنور هجامة اسمه «سيد» يعيش مع امه العليلة، بين اطلال منازل، تأبى ان تعيش فيها حتى الخنازير.

وبعد لقطات لاهثة، سرعان ما يتبين لنا انه كان مهندسا شريفا، يعيش من عرق جبينه، الى ان وجد نفسه دون مقدمات، عاطلا عن العمل.. ليس فى وسعه ان يوفر لأمه حتى الدواء.

ومن هنا اضطراره الى كسب العيش بالحرام.. ولانه ذو طبيعة خيرة، فهو يسعى على الدوام الى التوبة واتباع سبيل آخر غير سبيل الاجرام.

ولكن الشرطة متمثلة فى عميد عنيد، قدّ قلبه من حديد «همام» ويؤدى دوره «نبيل الحلفاوى»، تغلق فى وجهه جميع ابواب الخلاص، حتى ينتهى به الامر سائرا فى طريق الانتقام الاعمى من العميد «همام».

فاذا بنا نراه متهجما على شقته فى الظلام، شارعا فى اغتصاب زوجته «داليا»، وتؤدى دورها «الهام شاهين»، مطاردا من الزوج العميد الذى لاهدف له فى الحياة سوى الثأر لشرفه المهان.

وهنا تتدخل الاقدار، فالسيارة «الرميس» الهارب فيها «سيد» تنقلب بمن فيها، ثم تنفجر، فيموت كل ركابها فيما عداه.

شريف عرفه .. سينما أم مسرح



صاحب النوم فى العسل وحيد حامد



وتختلط الاوراق المثبتة لشخصية الركاب، على وجه يظن معه انه صاحب احدى الجثث المتفحمة، فيجرى حسابه فى عداد الاموات.

وبداية لا يصدق العميد «همام» خبر موت «سيد» محترقا.

ومع ذلك، تتوقف مطاردته له الى حين.

●● عصر الحيتان !!

أما كيف تحول «سيد» الهجامة، بعد ذلك، الى شخص أخر اسمه «وجدى احمد الزين» او بمعنى اصح، حوت مليونير، يصعد الى القمة، حتى يصبح قطبا من اقطاب المعارضة فى مجلس الشعب.. فهذا ما يحكيه سيناريو شيق من تأليف «محمد عامر» اراه متأثرا الى حد كبير برائعة الاديب الفرنسى «فيكتور هيجو» المسماة «البؤساء».

ولن اعرض تفاصيل صعود «سيد» من الحضيض الى مصاف الاسياد المتحكمين فى اقوات العباد.. فذلك شىء يطول.

كل ما أريد أن أعرضه، هو أن صعوده جاء بفضل امرأة لعوب «شهد» وتلعب دورها «عايدة رياض».

فقبل ان تقسو عليه الايام، فيصبح مجرما، كان يختلس معها القبلات على سلم المنزل، حيث كانا يقيمان..

وها هو ذا فى محنته، يلجأ اليها فى مسكنها الفاخر، حيث تعيش حياة لذيذة، قوامها فتنة الرجال.

فتؤويه رغم انها تعرف انه هارب من العدالة، مطارد من أجهزة الامن والامان.

ولأنه ميت فى نظر السلطات ترشحه، بعد تغيير ملامحه، لان يكون رجل اعمال، يحركه رئيسها المليونير الشرير، ويؤدى دوره «سعيد عبدالغنى».

وهو شرير لانه يريد ان يتحكم فى سوق شراء القمح، غذاء الشعب المصرى الرئيسى.

واخيرا.. يبقى لى ان اقول ان كل شىء من امر «الهروب الى القمة»، وهو من اخراج «عادل الاعصر»، غريب حقا..

فبناؤه الدرامى محكم على عكس افلام هذه الايام، وممثلوه احسنوا الاداء دون استثناء.

ولو جاء خاليا من بعض عيوب كان فى وسع صانعيه تجنبها، لاستمتعنا بفيلم يرقى الى مستوى السينما العالمية فى هذه الايام.

ومع ذلك، فالأكيد انه افضل افلام العيد.

قصيدتان

شـــعر :

د. حسين على محمد



١ - مملكة الصمت

له الآن مملكة الصمت منذ ليال
له دفقة القلب والنيل فيض الجمال
...
له سطرها المتألق عشقا
له نبضها المتجسد برقا
له سدة البوح
والجرح بعض احتمال
...
لماذا إذن كان يذوى وحيداً
بعيداً
وهاجسه : الطمى ، والبرتقال
وصفصافة تستحم على الشط
تمسح قلب المعنى
بعطر الظلال

٢ - الخوف

الحزن - الليلة - مجنون
أيقرر موتى
فوق الأعشاب المسكونة
ببلاغة صمتى ؟

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



ص ١٦٢



ص ١٦٨

المجالدة حتى الشهادة

سيد النساج

(١٩٣٦ - ١٩٩٦)

☐ قاعدة هذه الدنيا نواميس الحياة والموت. ان كل شىء الى فوت وان كل حى الى موت . لكن من الناس من لايموتون ذلك الموت الطبيعى الذى تعرفه الناس . انهم لايحيون الحياة المعهودة ولاينتهون الى الموت المعهود . انهم يحيون مرابطين مجالدين ويموتون شهداء . وهؤلاء لاينتهى أمرهم بالموت ، لأن من عملهم مايبقى شاهد صدق على حياة مباركة غنية ومن ذكرهم مايبقى سيرة ورسالة.

من هؤلاء الشهداء الباقين كان سيد حامد النساج الذى انتقل الى رحاب ربه يوم السبت الرابع والعشرين من فبراير الماضى وهو لم يستشهد فى واحدة من المعارك العابرة ولا فى ساحة ضيقة من ساحات القتال والنزال ، وانما استشهد فى اطول وأوسع الساحات ، ساحة حياة بأسرها . شهدت مواقعها كلها وعشت



د . سيد النساج

مجالدته الفذة كلها : كان قريبي ونسيبي ودرسنا ذات التخصص وتخرجنا في ذات القسم العلمي ، وعشنا – عشرات السنين في مبنى واحد . يخالط أهلي أهله وتخالط زوجي زوجه ويخالط ولدي أولاده . كنا في اليفاعة وصدر الشباب جماعة من أبناء الفقراء ، فرحين بطموح رفيع يطير بنا الى الآفاق الأرحب ، قلقين بطاقات تتفجر معذبين بملكات ومواهب تتغيا قهر الفقر والتخلف وبناء عالم انساني جديد نبيل . كان عيشنا عنتا ومشقة ، فكان بعضنا ينهزم مستسلما واهنا في يأس ، وكان بعضنا لايبالي فيميل الى عبث ولهو . لكن قلة منا كانت تنتصب في دأب وشجاعة للتجاوز والتخطي والتحقق . ومع ان النساج كان يحمل من الأعباء أكثر بكثير من أي منا ، فإنه كان من هذه القلة القليلة ، كان يجالد بقوة نفسية وروحية معجبة ، وكنا نراه في الملمات والمدلهمات يواجه في اصطبار هادىء ونبالة فريدة ، وفي الشهور الأخيرة مال الى شيء من تأمل وعلو رأى سن التقاعد يدنو ، ورأى البنين قد استووا شبابا ، فكأنه قد رأى أن المجالدة الطويلة قد تصير في غير ميدان فرحل راضيا مرضيا .

ان هذا مايعرفه الأقربون من النساج . بيد ان عامة القارئين وخاصة المثقفين يعرفون الرجل عالما ودارسا وناقدا ، وها هنا نجد البناء العلمي المتميز والعطاء النقدي المؤثر . انفرد سيد النساج ، منذ بدء حياته التعليمية والعلمية في الستينيات الباكرة بحقل علمي قائم برأسه ، عرف عنه وعرف به . لقد أقام حياته العلمية كلها على درس نوع ادبي واحد هو القصة القصيرة ولما كانت القصة القصيرة نوعا جديدا في كل الآداب العالمية وبخاصة في الأدب العربي فان درسها طلب جهودا استثنائية من هذا الدارس الجاد الراحل : صرف جهدا الى تأصيل القص في الأدب العربي الحديث وانتهى هذا الجهد الى تاريخ دقيق شامل للقصة المصرية القصيرة . وصرف جهدا الى عمل فهارس دقيقة ببليوجرافيات وصفية لكل النتاج المصري في هذا النوع الأدبي من بواكيره الأولى الى مراحله الأخيرة . وصرف جهدا الى متابعة الجديد من الانتاج القصصي ودرسه وتقويمه نقديا . ولقد صارت جهود النساج

فى هذا الباب أعمالا تقدرها الدوائر العلمية ويعتد بها العلم وينهض عليها تاريخ الادب .

● د . عبد المنعم تليمة

هذا هو فؤاد دوارة .. !


فؤاد دوارة

□ ٢١ فبراير ١٩٨٠ ، مدينة الكويت الزاهرة ، تتألق وتزهو بأول يوم للمسرح العربى يقام فى العاصمة المتطلعة . ندوة كبرى تقام لمناقشة شئون المسرح العربى وشجونه ، يشارك فيها مندوبون من أرجاء الوطن العربى كافة . عهد إلى بتنظيم الندوة وادارة جلساتها ، عن يمين وفد الجمهورية العراقية وعن يسار وفد المغرب ، وبجواره وفد مصر ، وأبرز أعضائه فؤاد دوارة.

طلب رئيس وفد العراق الكلمة . كان شابا قليل الصلة بموضوع الندوة ، بدا من غطرسته انه قوميسير حزب البعث العراقى ، قال صاحب الغطرسة ، إن كتابا صدر من أيام عن المسرح العربى ، كان نصيب العراق منه بضع صفحات ، كان يقصد كتابى : «المسرح فى الوطن العربى». تجاهلت منطقه الأعرج الذى يقيس القيمة بعدد الصفحات ، ومضيت أدير الجلسات .

حين جاء دور التوصيات قال صاحب الغطرسة : انه يطالب بتوصية تدين اتفاقية كامب ديفيد . اعترضت أنا ، لأن الندوة ثقافية وليست سياسية ، أصر بغطرسته على محاولة انتزاع التوصية من الندوة . تكهرب الجو وأصبح كل شىء ممكنا : شجار ، تبادل اتهامات ، أو إلغاء الندوة أصلا . هنا انبرى

فؤاد دوارة قائلا فى غضب كظيم وهدوء ظاهر : لا مانع لدينا من إدانة اتفاقية كامب ديفيد ، شريطة ان تتلوها مباشرة توصية أخرى بإدانة الفظائع التى ارتكبها حزب البعث العراقى فى حق المثقفين عامة ، ورجال المسرح خاصة ، لقد أعدم من أعدم وشرد من شرد ، وهرب البعض ، وسجل البعض الآخر ، وألقى بفريق من المثقفين فى نهر دجلة ليموتوا غرقا ، فما رأى السيد مندوب العراق ؟

لم يتزحزح صاحب الغطرسة . وأيد الوفد المغربى موقف وفد مصر وساند الرأى القائل بأن السياسة ليس لها مكان فى ندوة كهذه ، وواصل المتغطرس غطرسته ، فقلت له : ان لم يسحب اقتراحه ، فلن تكون للندوة توصيات على الاطلاق ، ألجىء القوميسير الى الصمت المهزوم ومضت الندوة فى أعمالها .

هذا هو فؤاد دوارة ، صاحب الموقف الشجاع ، والرأى السديد ، والتصميم الذى لا يحيد ، رحمه الله وأرضاه ، وأعطاه فوق ما أدى ، ذلك بأن للمحسنين الحسنى وزيادة .

● على الراعى

مسرح

الساحرة .. بعيدا عن الواقع

الساحرة : تأليف يسرى الجندى
اخراج : محسن حلمى
المسرح القومى
بطولة : سميحة ايوب - أشرف عبد الغفور
محمود مسعود



لقطة من مسرحية «الساحرة»

□ يسعى مسرح الدولة جاهدا في ايجاد توليفة ترفع من نسبة الارتياد التي انخفضت بدرجة ملحوظة ومحبطة لكل القائمين عليه.. وفي ضوء متابعة اكثر من عرض على مسارح الدولة خلال اكثر من موسم مسرحي نلاحظ توليفة تجمع بين الرقصة والغنوة مع النص الجاد بالاضافة الى الكوميديا والفكاهة، ولكن الواقع أثبت أن تلك التوليفة لم تؤت ثمارها. فمعظم عروض مسارح الدولة قائمة على الدعوات المجانية. وكم تعاطفت مع أبطال العرض المسرحي «الساحرة» وهم يؤدون أدوارهم بكل التفاني أمام هذا الجمهور الهزيل وهذه المقاعد الخالية.

في شباب ونضارة وقفت الفنانة سميحة أيوب على خشبة المسرح القومي تؤدي دور العرافة والعارفة ببواطن الأمور ذات البصيرة النافذة المنتصرة لأصحاب الحي، في نص يمزج بين زمنين ومكانين ولغتين (فصحى وعامية) وأشياء أخرى.

نص يرفض استلاب الأرض من أصحابها ويرفض خضوع أهل الحي للطغاة.. ولم يؤد المزج الذي قام عليه العرض إلا إلى تشتيت المتفرج.

فبينما تنهي الفنانة سميحة ايوب جملتها بأداء مسرحي ينتظر التصفيق نلمح المغني الكفيف (فاروق الشرنوبي) ومعه جوقته . ونلمح صراعا خفيا بين الممثل الشاب الذي يقوده (رضا ادريس) وبين الحلواني (اسامة عباس) لم نفهمه . ولم

أشرف عبد الغفور



نفهم التشويش على أغنيات المغنى من خلال الانفعالات المبالغ فيها والتى تشغل الجمهور عن الغناء وتضحك على رضا ادريس .. واذا تحدثنا عن الكوميديا فكان أداء المستبد الطاغى (سامى مغاورى) هو مصدرها .

لم أصدق منذ البداية جنون نجم (محمود مسعود) والذى تأكد من سياق العرض انه كان يدعى الجنون .. وجاء اختيار الفنان اشرف عبدالغفور لدور الصحصاح غير مناسب . فالصحصاح شاب متمرد ثائر وهو مالم يتناسب مع عمر وتاريخ عبدالغفور .

وأخيرا اتساءل ماهى رسالة العروض المقدمة على مسرح الدولة؟ هل هى تسديد خانة ام لديهم ما يقولونه؟

أعترف ان العرض لم يقترب من الواقع برغم الاسقاطات المباشرة له

● بثينة كامل

أزمة دراما «الساحرة»



سميحه أيوب

الوسط ... ١٩٩٦

□ تلعب الحارة الدور المحورى فى مسرحية «الساحرة» من خلال وجودها فى زمنين مختلفين، الاول تاريخى قديم يدور مع نشأة الحارة على يد ابنيا «على الصحصاح» والزمن الثانى هو الوقت الراهن حيث يعيش «آدم الحلوانى» وارث وقف الحارة عن جدوده منذ أيام «محمد على» منتظرا رجوع حقه الذى استولت عليه هيئة الأوقاف ظلما .

فى الزمنين يتكرر التاريخ بكل مفرداته وآلياته حيث يقع الظلم من السلطة الحاكمة على أهل الحارة من البسطاء .

ففى الحارة الأولى تتعدد مستويات الظلم بدءا من شيخ الحارة (سعيد الصالح) والحجاج رجل الشرطة (مخلص البحيرى) ومجموعة التجار وحتى الأميرة (سناء سليمان) ابنة السلطان وزوجها (سامى مغاورى) فالجميع يريدون قمع الحارة وحبس بطلها على الصحصاح (اشرف عبد الغفور) ورفاقه وعلى رأسهم نجم (محمود مسعود) ، وكذا السيدة المباركة جليلة التى حبست نفسها فى منزلها بعدا عن الظلم



محمود مسعود

والطغيان الذى تشهده الحارة.

ينعى فى الحارة الثانية آدم الحلوانى (اسامة عباس) ظلم الزمن وفقدان ابنه الذى استشهد فى حرب ١٩٦٧ . فلا يبقى امامه لاسترداد حقه إلا كتابة الشكاوى لكبار المسئولين لكن حقه لا يعود بل تطالبه الضرائب والأوقاف بإخلاء سكنه من «حوش قرافة» عائلته لانه لم يعد ملكه بل ملك الحكومة.

إن الحق الضائع قديما وحديثا للمواطن البسيط بفعل قوى السلطة تفشل فكرة الحل الجماعى على مستوى المعالجة الدرامية والتى يسعى إليها البطلان «الصحصاح» و «الحلوانى».

فمحاولة الأول جمع أهل الحارة ورفاقه من الفتيان والخروج بهم الى الصحراء للتدريب على حمل السلاح من أجل مهاجمة السلطة الغاشمة فى الحارة تفشل لعدم إيمان أهل الحارة بفكرة انتصارهم على رجال شيخ الحارة ورجال السلطان وتظل دعوة الصحصاح مجرد امل!

وكذا يفشل «آدم الحلوانى» فى دفع رفاقه من أهل المقابر الى مساندة موقفه والشهادة معه أمام المسئولين حول ملكيته للمقبرة، فهم قد شغلهم اللهو والغناء ، وتعاطى المخدرات التى حولتهم إلى أشخاص سلبيين لا رأى لهم.

إن المعالجة الدرامية تدين سلبية واستسلام المجموع أى الشعب منذ قديم الزمان وحتى الآن وتعد كل ما تحصل عليه السلطة من مكاسب بسبب ضعف الجماعة وتخاذلها .

لكن المعالجة الدرامية التى قدمها يسرى الجندى قد «أخفت» الكثير من المعانى التى استخلصناها الآن فى هذه القراءة النقدية وذلك لاعتماد المسرحية على توازى خطى الماضى (اى الحارة القديمة بأهلها وشخصياتها) والحاضر (اى الحارة المعاصرة).

هذا التوازى جاء بتوالى المشاهد من القديم الى الحديث والعكس مما جعل تكوين خط واحد للزمنين أمرا عسيرا على المتفرج الذى اختلط عليه الأمر أيهما الحاضر وأيهما الماضى

ومما زاد الأمر إرباكا ان «خط الماضى» وحكاية الحارة

وبطلها «على الصحصاح» استخدم فيه المؤلف تكنيك المونتاج فى الانتقال بين الأحداث منذ كان شابا ثائرا، ثم طفلا صغيرا يتيما علمه الظلم التمرد والثورة ثم احتضان الساحرة الطيبة له حتى شبُ وكبر . ثم حكاية جليلة التى تحولت لرمز مبهم يندفع الجميع لحل شفرته لكنهم يفشلون ، ثم التوحد بين جليلة والساحرة فى النهاية بما تحول الى فزورة مستعصية على الحل . ففى الوقت الذى كانت فيه الساحرة (سميحة ايوب) شخصية إيجابية تناصر أهل الحارة ضد الظلم وتدفعهم الى مؤازرة على الصحصاح ورفاقه ضد السلطة ، فإن جليلة شخصية غامضة جلست وراء جدران منزلها لا تجيب على أحد.

إن هذا الارتباك الدرامى أفقد المتفرج الكثير من متعته رغم اجتهاد المخرج محسن حلمى فى إضفاء جماليات فى المنظر المسرحي بالاضاءة وتقديم رقصات تعبيرية.

وربما كانت من أهم جماليات هذا العرض كلمات الشاعر الموهوب جمال بخيت التى تغنى بها فاروق الشرنوبى فى دور المطرب الصعلوك . فقد مست بشفافيتها . أوتار الحزن، والملابس التى صممتها سعاد العجاتى كانت مساعدا لايستهان به على حل أزمة الدراما فى الفصل بين الماضى والحاضر.

● سامية حبيب

شعر

كتابة محمد صالح الذكية

الديوان : صيد الفراشات
الشاعر : محمد صالح
الناشر : هيئة الكتاب

يفجر الشاعر الحياة تفجيرا ، لاتهتز عريته وحدها برائحة الحياة ، بل الحوذى نفسه يطير ، والمهرة تتطوح ، والنسوة خليط مترجرج من الثياب والأجساد والعصائب والأنوثة الفائحة «ص٢٧» .

إنها الحياة المتفجرة بعبقها ، ينزوى الآباء قليلا فيواصل الأبناء رحلتها «ص٣٥»

وعلى الشاعر الذى يحمل هذا العشق أن يدين القهر بكل

أشكاله ، قهر الجسد في قصائد «الحادث ص٣٠» و «الجثث ص ٤٨» و «السراب ص٦٥» . قهر الأحباش الراكعين تحت موكب السلطة الباطشة «ص٣٤» قهر الأطفال من خلال التدابير الصارمة «ص ٣٦» قهر الفكر والفن والتقليديين اللذين سيطرا على الحياة وزيفاها طوال العهود الفائتة «تياترو ص ٤٠» إنه القهر الذى يصل الى حد الذبح فى قصيدة «الأضحية ص ٥٤» :

وحتى بعدما أجهزوا عليَّ
ظل دمي حبيس جسدي
وعبثاً حاولوا
أن يلطخوا أكفهم
ويحتفلوا .

وهناك قهر لحلم الإنسان بالتواصل مع الاخرين ، فتتحول العلاقة بينهم الى مجموعة أوراق أو قصاصات صغيرة لا معنى لها ، ولكنها تظل تتراكم يوما بعد يوم «قصيدة الأوراق ص ٦٢» .

قهر بسبب استمرار التشوه بمثله هؤلاء المخنثون الذين لاتنطفىء شهواتهم «ص٦٨» قهر العلاقات الجامدة غير الإنسانية فى قصائد : «الموتى ص ٧٠» و «هكذا ص٨٠» و«المرأة ص٨١» وهو القهر الذى يدفع ببطل القصيدة الى الشروع فى قتل نفسه ، أو تمنى الشروع فى قتل نفسه «ص٧٥» .

المعنيان السابقان يحددان ثنائية أساسية فى الكتاب الحياة والموت ، يتعرض لهما الشاعر بشكل مباشر فى قصائد أخرى فتتناقض الحياة والموت : القطعان والذبائح ، الأنوثة وغبار الليل ، الطيور الفارعة البيضاء وسقوطها مقتولة ، الحب والجفوة فى قصائد «الكهل ص ١٦» و«صباح ص ١٨» و «السحب ص ١٩» و «انتظار ص ٢١» وهكذا ..

ولا يكتفى الشاعر بهذا التضاد ، بل هو يصنع التعدد

الدلالي في كل رموزه ، مع حس رومانسي شفيف يتغلغل في التجربة يتضح في هذه اللمحات والمعاني التي تلوح وتخبو كأجنحة الفراشات ، كان على الشاعر أن يصطادها على مدى أربع سنوات .

ـ ٢ ـ

تدفع هذه القصائد بتجربة الشاعر ، وبتجربة جيله نحو تخوم جديدة وتنفض عن كاهلها المنطق الشعري الذي يستخلص شعريته من التركيب اللغوي الى قصيدة النثر التي تتقاطع مباشرة مع الوجود ، يطرح نص محمد صالح قضية «جماليات وجود» التي بشر بها ميشيل فوكو ، في نص يبتعد نسبيا عن المجاز اللغوي مقتربا من سطح الحياة ، هذا السطح الذي ظلمته التجارب السابقة واتهمته بالبساطة ، وعدته غير قادر على إثراء الحياة ، مما دفع بالشعراء الى تعمد الغياب في متاهات المطلقات .

يقترب الشاعر من ممارسة الحياة ، يتحسس الأهة المعلقة في حلقه بالفعل . إن أصغر التفاصيل المتعلقة بالأحداث اليومية أو المتعلقة بالجسد .. وبالحس الشخصي ستجد مكانا مرموقا في هذه التجربة المهمة ، فتحية للشاعر ، وتحية لهذه الكتابة الذكية المليئة بالملاحظات الرهيفة ، التي تجبر القارىء على متابعتها بدقة . إنها كتابة صعبة على غير مايبدو للوهلة الأولى، لأنها تجعل المتلقي يحتشد ، ولايمر على المعنى مرورا سريعا اجماليا ، بل يتأمل بدقة هذه الشذرات الحادة البارقة

● أمجد ريان

البحث عن السعادة

□ ديوان محمد صالح الجديد «صيد الفراشات» ديوان جدير بالقراءة والتأمل .. فهو ربما كان واحدا من أهم الدواوين والكتابات الشعرية التي صدرت في مصر في السنوات الأخيرة:

من أين جاء الخاطر المر
إنه منذ ما يعي

ينتهي حيث بدأ
وانه لن يعثر عليها أبدا .

ليست هناك فراشات في الديوان ولا حتى في القصيدة التي تحمل هذا العنوان ، الفراشات هنا أحلام وبحث دائم عن اللحظات الهارية والجمال المغادر ، وحنين دائم للخلود والتجدد والميلاد والابداع .. كتابة تبحث دوما عن سعادة مفقودة.

لكن لمحمد صالح هذا الحضور الجميل في شعره وهذا المذاق الخاص الذي نفتقده الآن كثيرا في الشعر وفي الحياة شعره جميل وبسيط وعميق ، وقصائده شديدة الكثافة والتركيز وهو شعر ذاكرة وإدراك وخيال .. وأيضا شعر حياة يومية بكل مافيها من جمال وكآبة .

تبدأ قصائد كثيرة في الديوان بالفعل كان «كان لي جد .. كان الخلاء فيما يلي بيته مباشرة .. كانت المدينة التي يحلم بها طول الوقت .. كان قد فعل كل شيء .. كان هناك دائما مايخفونه عنا .. الخ» .

يطل محمد صالح على الماضي ويفتشه ويتأمله ، يحاول أن يستعيد أجمل مافيه لكنه يجد دوما الوهم والسراب بين يديه وأنه «ينتهي حيث بدأ وأنه لن يعثر عليها أبدا» .

هناك هذه العين الراصدة لأدق التفاصيل ولأرهف الحركات والسكنات .. ومحمد صالح مولع بالخفي وبالأسرار غير المعلنة ، ومولع بالجروح المخبوءة جروح الجسم وجروح الروح ، وبالتفاصيل الصغيرة ، بجثث الموتى في «الزلزال» وحليهم وأمتعتهم ، والمدن الجديدة وانشغالات سكانها ، سكان البيوت الجدد واهتمامهم الخاص بهوائيات أجهزة التليفزيون أكثر من انشغالهم بعلاقاتهم الحميمة .

في القصيدة نفور من عالم المدن ليلا ونهارا ، وحنين خاص لعالم القرية بنهاره وليله .

وفي باقي قصائد الديوان وأقسامه مراوحات دائمة بين

غلاف الديوان



عوالم الذات الوحيدة ، خاصة فى المدن والصحراوات والبوادي «حيث كل هذه الصفرة» ، فى حالات سفرها خارج الوطن وحالات وجودها بداخله حيث البشر بلا عناوين والعناوين بلا بشر والشوارع بلا ضفاف والوطن بعيد والحنين جارف والعزلة قاتلة .

شعر محمد صالح فى هذا الديوان ليس شعرا جميلا وبسيطا وعميقا فقط .. بل هو شعر صادق أيضا .. وربما كان هذا هو سر جماله وبساطته وعمقه .

● د.شاكر عبد الحميد

فن تشكيلى

المعنى فى بطن التونى



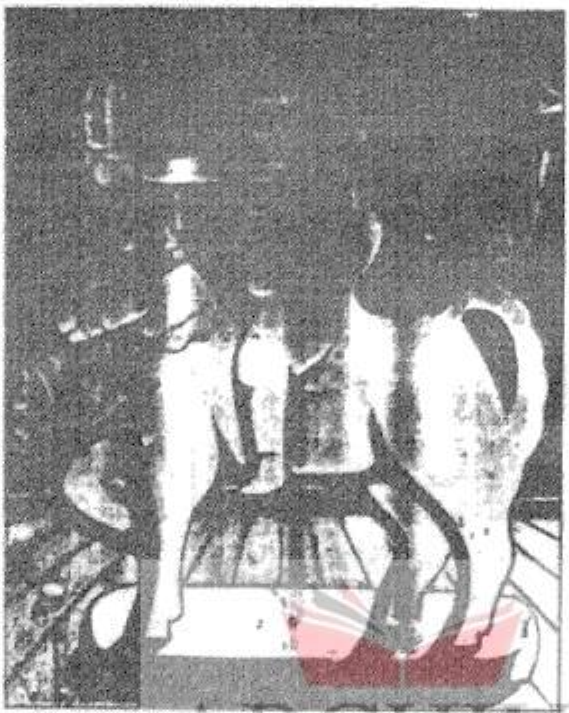
□ رسخ فى يقيننا منذ الازل ان معانى القصائد فى بطون الشعراء، حينما يستغلق علينا فهم رموز قصائدهم ونمنى انفسنا بان تفصح عن مكنوناتها بمرور الزمن أو ربما يفصح الشاعر ذاته بقصده .. لكن هل نسمح للفنان التشكيلى ان يعاملنا كالشعراء .. وهل لغة الفن التشكيلى هى لغة الشعر .. وهل نطالب الفنان بمذكرة ايضاحية للمعانى التى تتضمنها لوحاته اى نطالبه بما لا نطالب به الشاعر.

ام ان هناك رموزا فى اللغة وأخرى فى الفن .. هناك لبس .. نراه ونحسه حينما ندخل الى عالم الفنان حلمى التونى فى معرضه المقام حاليا بمجمع الفنون بالزمالك..

من اين هذا اللبس!!

الغلاف المرسوم والصورة المعلقة

الفنان حلمى التونى معروف لنا أكثر من خلال أغلفة الكتب وروايات الهلال وكتب الاطفال ، وغيرها . استطاع من خلال مشواره الفنى ان يؤكد اسمه فى هذا العالم الجميل ويكون مع الفنان محيى اللباد علامتين بارزتين فى هذا المجال ، مجال الكتب .. ولكن ربما هذا لم يكن كافيا لاحساس الفنان بالرضا



الحصان الحلاوة .. للفنان حلمى التونى

من ذاته فاخذ يبحث فى عوالم اخرى ليعبر عن ذاته باستقلالية .. ولم يعد يرضيه كفنان ان يكون مصاحبا لنص مبدع آخر فأدخل نفسه فى عالم صناعة اللوحات مقتفيا اثر محاولات مبدعين اخرين تنقلوا من بين عالم الكتاب وعالم اللوحة.. ونذكر منهم جورج البهجورى و ايهاب شاكر و جمال كامل وآخرين . لم يرض كما رضى الراحل حسن فؤاد مثلا ان تكون المجلة أو الجريدة أو الكتاب هم واجهته التى يطل منها على العالم ..

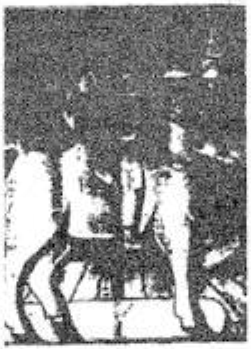
دخل الفنان حلمى التونى عالم الصور وهو يحمل بداخله

كما كبيرا من معطيات الكتابة التي تعامل معها كثيرا وأثرت فيه بشكل واضح حتى أن لوحاته تبدو كنصوص للقراءة، فهو ينسق سطح اللوحة وكانها صفحة سوف يضع عليها خطوطه والوانه وشخوصه ، وحيواناته ، وزهوره في تناسق يغرى بالقراءة ومحاولات التفسير والتأويل وايجاد علاقات في عالم المعاني لتلك الرموز التي ازدحمت بها اللوحات ...

لوحة من لوحات المعرض ... عروسة المولد البيضاء تركب حصانا تمسك السيف بيدها اليمنى . على أرضية، تتجه خطوطها الى داخل اللوحة لتوهم بالمنظور و الخلفية مقسمة الى مناطق متباينة الأحياء ملقى عليها رموز العصفور والسمكة والوردة ينزل خط من السمكة ليلتحم بوردة . العصفور يقف وحيدا يهم بالانطلاق ليتناقض مع «الحصان الحلاوة» المسكين الذى لا يقدر على الحركة ، الحصان مرسوم ببساطة في جزء منه وبركاكة في جزء منه ، عينا العروس في منتصف اللوحة تنظر الينا في استعطاف خلفية العروس فيها لون تركوازى قوى يقفز الى مقدمة اللوحة يكسر الاحساس بالمنظور على الارضية بيضة قد تفقس أو قد لا تفقس ابدا . هاقد وصفت لك اللوحة كما هي رأى العين .. تعال معى نفسر كل هذه العلاقات أو نربطها ببعضها محاولين ايجاد تفسيرات لتجاور كل هذه الرموز .. انها محاولة ستبوء حتما بالفشل ..

لان المعنى في بطن الشاعر والرسام .... سيقول الفنان اننا اهملنا رؤية الرموز الاخرى التي يراها مهمة كالعقد الذى يطوق رقبة العروس فهو أيضا عبارة عن قلادة لسمكة - والسيف فهو من لوازم الفرسان وليس عروسة المولد .. اذا ..

ألا يكفيك ايها المتلقى ان ترى كل هذه الرموز ولا تسأل؟ عليك فقط ان تستمتع بصريا بما تراه .. حقا ان عالم المعانى



الهلال ابريل ١٩٩١

عالم شائك لما لا نقنع باللغة التشكيلية .. هل من الممكن ان نرى المعرض رؤية تشكيلية خالصة ؟ .. ممكن ولكن هذا بحث آخر اعتقد ان الفنان اهمله كثيرا وهو يحاول السباحة في بحر المعاني.

● محمد عبلة



حلمي التوني .. «برضك» متشابه وممتع

□ في معرضه الأخير بمجمع الفنون ، ما زال حلمي التوني يرسم موتيفات شعبية ،كدأبه منذ حوالي ١٥ عاماً ، وما زال كذلك ، كالعهد به ممتعاً ومشبعاً بصرياً . في دراسته التاريخية لحلمي التوني (إبداع - أكتوبر ٩٢) ميز فاروق بسيوني ثلاث مراحل في إبداع الفنان : الأولى أسماها ذات حس ميتافيزيقي ونرى أن الحلم يغلب عليها ، والثانية والثالثة مرحلتا موتيفات شعبية ، لا تختلفان في رأينا إلا في تقنية التلوين ، بين مساحات اللون الصريح والتنقيط ذي الطابع التأثيري .

في معرضه الأخير ، ما زال حلمي التوني في المرحلة الثانية ، تحمل لوحاته موتيفات قليلة وواضحة ، تنتظم في كلاسيكية حول عنصر محوري في وسط اللوحة ، وعادة مالاتخرج الموتيفات عن الفتاة (ست الحسن ، عروس المولد) والحصان (مجاز الفارس والجنس) والطفل (الذي قد يلبس طربوشاً ليصير رجلاً مدللاً كالطفل) والسمكة (رمز النساء) والعصفور (رمز السماء بكل دلالاتها الروحية ، منذ حورس إلى هدهد سليمان) .

ما زال حلمي التوني يلون لوحاته بألوان صريحة وحشية (نسبة لتيار الفوفيزم) تحتل مساحات كبيرة متصلة من اللوحة وعادة ما تشكل الخلفية أكبر مساحة لونية ، تتناقض مع ألوان الموتيفات الموجودة في مستويات المقدمة . وما زال التوني يستخدم ألوانا مبهجة غير مزعجة ، تجمع لوحات معرضه في سلاسل : مجموعة خضراء ، مجموعة زرقاء إلخ . على أن

معرضه يتبع فى ترتيب لوحاته منطق العنصر المحورى فى مقدمة اللوحة : فنجد مجموعة السمكة ، مجموعة الحصان ، مجموعة الفتاة ، إلخ . مع ملاحظة أن الموتيفات واحدة تقريباً فى اللوحات ، إنما تتراتب حسب أحجامها وشغلها لمركز اللوحة .

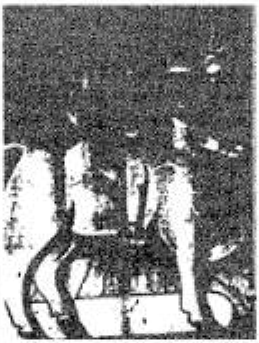
لايمكننا أن ننكر الملمح التجارى فى إبداع حلمي التونى . فألوانه المبهجة تذكرنا بالألوان المودرن التى تشكل موضة الآن، كذلك المساحات التى يفردها للون متصل ، تماماً كما أن اللون ومساحته معلمان تجاريان أساسيان فى فن مصطفى الرزاز ومحيي الدين حسين . لذلك تبدو الموتيفات الشعبية عند التونى امتداداً للرواج للفن الشعبى (ذى التصنيع المودرن) فى الجاليريهات التى تبيع الأثاث والحلى والتحف . وهذا ما يعيبه منتقدو التونى ، بالإضافة إلى رفضهم لتكرار موتيفاته وعالمه .

ومع ذلك ، لا يسعنا إلا الانبهار والابتهاج بأعمال التونى السابقة والأخيرة ، لأنه دائما ما يخلق علاقات بصرية جديدة بين موتيفاته ولأن سهولته يعوضها إشباع العين باللون والمجاز فرموز حلمي التونى تلمس فى النفس نماذج أصيلة ، مثل صورة الفتاة المحبوبة ست الحسن ، أو الفتاة موضع الرغبة الجامحة التى تتحقق مجازياً بركوب الحصان أوالتفاؤل بالخير - السمك الذى نأكله منذ شم نسيم القراعنة .

كما أن تجديد التونى فى العلاقات بين الموتيفات الشعبية ما زال يبدو لنا نضراً ، فالفتاة لا تركب الحصان فى الرسم الشعبى ، بل هى تنظر للفارس ، أما عند التونى ، تتحقق الرغبة فى اعتلاء الرجل، ويتحول العصفور لدى التونى من شاهد للسماء ، إلى شاهد على العشق . كذلك يرسم التونى أحيانا إطاراً للوحة لينقل الفن الشعبى للشاغل الحديث بالكتابة عن الكتابة أو بالرسم عن الرسم .

مازال التونى يكرر نفسه ، لكنه مازال يمتعنا لأنه يكرر لحظات دهشة ، تتجدد فى كل مرة ، إزاء عالم لا يتجدد .

● وليد الخشاب



ثقافتي والبحث

التكوين (٢)



كان تعرفي على الأستاذ الإلجليزى بمكتبة الجامعة نافذة للاطلاع على الاتجاهات الاشتراكية واليسارية الانجليزية .

وذات يوم وبعد أن توثقت العلاقات بيننا دعاني لتناول الشاى فى منزله، وكان يسكن فى المعادى، وكانت المرة الأولى ، فى حياتى ، التى أدعى فيها إلى منزل أحد الأساتذة ، ولدعوة تصورت أنها سوف لا تتعدى «فنجان شاى» وقابلتنى زوجته وكانت أرمنية جميلة تعرف التركية والعربية واحتفت بى كما لم يسبق أن احتفى بى أحد، ودهشت لأن البيت كان مصريا شرقيا فى أثاثه وترتيبه..أول بيت من نوعه أدخله. وجاءت بمائدة الشاى، والتى كانت حافلة بأطعمة خفيفة.. سندويتشات وجاتوه.. واقبلت عليها بشهية زائدة وانتقلنا بعدئذ إلى غرفة المكتب، وكانت غرفة واسعة كلها أرفف مكتظة بالكتب كان نصفها عن الأدب الانجليزى.. ويضم الجناح الآخر الموسوعات وكتب السياسة والاقتصاد والتاريخ.. وشد انتباهى جناح كبير كتب عليه مصر، ووقفت أمامه لأرى أكبر مجموعة من

عن تكوين مصر.. محمد عودة


محمد عودة فى شبابه


.. مع رئيس جمهورية الهند

الكتب عن مصر، منذ العصر الفرعوني حتى العصر الحديث.. وأبديت دهشتي واعجابي.

وقال مبتسما «هل تتصور أن مصر كانت وتظل جزءا لا يتجزأ من تاريخنا العائلي منذ الجد الكبير»

● مهمة حضارية!

ويدأ رواية القصة التى يمكن أن تبدأ بها مرحلة متقدمة من «التكوين» قال إن جده الكبير كان ضابطا فى اسطول الأميرال سيمور الذى دمر الاسكندرية. وأنه كان أركان الحرب اللورد تشارلز بريسفورد القائد الثاني للأسطول وأنه كان عضوا ثانيا فى رئاسة إدارة المحاكم العسكرية التى رأسها اللورد والتى كانت تعقد فى الميدان العام وتصدر الأحكام بالاعدام وتنفذها على الفور على أعمدة النور أو على جذوع الأشجار.. وكان الاثنان مؤمنين أنهما يقومان بمهمة حضارية، وأنهم يخمدون عصيان

مجموعة متمردين مغامرين يضطهدون شعبا شرقيا مستعبدا، ويحجبون عنه الحضارة والعدالة.

وبعد نهاية الحرب انتابت اللورد بريسفورد ومساعده أزمة ضمير. وصمما على أن يستقصيا الحقيقة ويعرفا كل ما حدث، وما فعلاه.. واكتشفا الخدمة التى وقعا فيها والجريمة التى اشتركا فى ارتكابها.. وكتب اللورد تشارلز بريسفورد كتابا يعترف فيه بالذنب، وكتب جده سلسلة مقالات يومئذ نشرتها «التايمز» وقال المفيد.. لا أظن أن هناك أزمة وخزت ضمير بريطانيا خلال القرن الماضى، وضمير الصفوة الحاكمة التى لا ضمير لها، مثل الأزمة المصرية والقضاء على عرابى باشا. وقد تألفت لجنة كان يتزعمها ويلفريد بلنت واللورد راندولف تشرشل «الأب».. وغوردون باشا حاكم السودان السابق، والسير وليام جريجورى رئيس تحرير التايمز ، وأقامت الدنيا وأقعدتها لانقاذ حياة الثوار العرابيين وكفالة محاكمة عادلة لهم، وأوفدت محامين بريطانيين لذلك. واستطاعت انقاذ القادة من الاعدام واستبداله بالنفى».

وقال لى «حينما حصلت على المنصب فى مصر بعد تخرجى من اكسفورد، قال لى أبى ربما تستطيع أن تكفر عما فعله الرجل الكبير».

وأخذت استعرض الكتب معه ، قال لى هذا كتاب بلنت «التاريخ السرى للاحتلال البريطانى». وأن بلنت كان ارستقراطيا بريطانيا جاء مصر للسياحة والشمس والآثار ولكن طالبا أزهريا تعرف عليه .. وجنده للثورة العرابية ، وكان بلنت من أشرف من أنجبت بريطانيا، كان البريطانى الوحيد الذى عاش تاريخ مصر كله.. وكان صديقا حميما لعرابى ثم لمصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول .

وقدم كتابا آخر.. هذا كتاب ماكنزى والاس كان عضوا فى لجنة اللورد دوفرين التى وضعت التقرير المشهور الذى وضع أساس الحكم البريطانى فى مصر ، ولكنه تمرد واشتغل بالصحافة وعمل مراسلا للتايمز فى مصر، ووضع كتابا ندد فيه بالاحتلال. وأنه لو كانت بريطانيا تريد حقا صالح مصر فان عليها أن تبعد كرومر وأن تعيد عرابى من منفاه ليستكمل ثورته.

وقدم كتابا آخر ، وقال هذا ربما واحد من أهم الكتب عن مصر ، وكان عنوانه «دمار مصر» بقلم «تيودور روتشتين» وقال هذا الذى روى القصة كاملة ، وفضح

سلسلة الأكاذيب التي سبقت الاحتلال، والذي حطم اسطورة كرومر . «منقذ مصر»

● الأجنبي الذي سجن مع عرابي

وظللنا نتصفح حشدا من الكتب عن مصر بالانجليزية والفرنسية .

وأخرج كتابا بالفرنسية بعنوان عرابي باشا بقلم «جون نينيه» وقال لي :

«هذا هو الأجنبي الوحيد الذي سجن مع عرابي وكان سويسريا جاء إلى مصر ليتاجر في القطن .. وانضم إلى الحركة الوطنية المصرية وأصبح مستشارا مقربا من عرابي ، وظل معه حتى اللحظة الأخيرة .. وبعد الهزيمة والإفراج عنه ، نذر حياته للدفاع عن الثورة . وعن قادتها في أوروبا» .

وأخذت قائمة طويلة بأسماء تلك الكتب التي عرفتها لأول مرة . وكنت لا أزال في دهشة أن أعرف كل ذلك من أستاذ انجليزي وبالصدفة . وخلال عودتي أحسست في قطار المعادي أن كل شئ قد تغير، وأنني سوف أخيب أمل أمي في أن أكون سفيرا أو وزيرا .. وكان ذلك أمرا ثقيلا مريرا .

انهمكت في قراءة الكتب التي كنت أقترضها منه .. وأهملت كتب القانون .. وأصبحت أكثر حماسا في البحث عن «الذات» وذات يوم دعاني لتناول العشاء عنده .. وقال إنني سوف أقابل بعض الشخصيات الطريفة .

وكنت أحس أنني تناولت من الطعام أكثر مما يجب خلال دعوة الشاي ولهذا قررت أن أتناول شيئا قبل أن أذهب حتى لا أتعثر في استعمال أدوات المائدة أو لا تنفتح الشهية واسعة . ولكن ما إن ذهبت حتى تلقتني ربة البيت بحفاوة وقالت «لقد أعددت لك بعض الأطباق الأرمنية ، أنا أحب الضيوف الذين يحبون طعامي .. أنا طاهية ماهرة أيضا» وندمت على ما فعلت ..

وكان الضيوف شخصيات فريدة.. وجدت استاذا مصريا ، عاش أكثر من عشرين عاما في بريطانيا ، ووصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبله إذ كان استاذا للأدب الانجليزي في جامعات بريطانيا وكان «مقعدا» يتحرك على كرسي. ويتناول طعامه وشرابه بمساعدة زوجته الانجليزية ولكنه كان ذا جاذبية طاغية إذا ما تكلم .

وكان الثاني طالب بعثة مصري كان يدرس في كمبريدج ، وقرر العودة إلى مصر قبل أن يكمل دراسته حينما بدأت القوات الألمانية الزحف على مصر وجاء ليساهم في صد العدوان الفاشي – النازي عن وطنه ، وعاقبته إدارة البعثات

لرجوعه بدون إذن ! وكان الثالث صحفيا بريطانيا جاء من الجبهة .. وكان حانقا على القيادة البريطانية ، معجبا بروميل وأسر لنا بخبر أن القيادة البريطانية «العاجزة» تفكر في إغراق الدلتا ، وتضع الخطط على هذا الأساس إذا لم تستطع أن توقف الزحف في الصحراء!!.

وكانت الليلة ممتعة وطالت السهرة وعدت مع الأستاذ المصرى وزوجته... وخلال العودة سألته لماذا لا يعمل فى قسم الأدب الانجليزى فى مصر مادام قد قام بذلك فى بريطانيا ، وقال لى «أنا لا أريد ولا أظنهم يرحبون، وهم يعرفونني جيدا، ويعرفون آرائي».. ثم قال «لا تظن أنهم جميعا مثل مضيفنا ، هذا نموذج نادر، ولا أظنه محبوبا بينهم، لولا كفاءته وأنه يستطيع أن يحتل هذا المركز فى أى جامعة.. وطبعا لابد أن نعرف ان معظمهم يؤدون مهام أخرى غير التدريس، وأنهم جزء لا يتجزأ من السياسة البريطانية.. ولهذا اخترت التدريس في معهد الصحافة ربما نحتاج إلى أقلام تكتب فى الصحف أكثر من حاجتنا إلى أدباء» يجيدون شكسبير».

وقال لى أيضا «إننى اشتغل الآن بكتابة رواية عن مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى الآن، وأنا من الذين يثقون ان هذه الحرب سوف تتمخض عن ثورة أكبر من التى اجهضت وأريد أن أكتبها بالعامية حتى يقرأها كل مصرى أو تقرأ له.. ولكننى كما ترى لا أستطيع التجوال ، ما رأيك أن تساعدنى فى ذلك وأن نعمل معا». وبغير أن أدرك ماذا يريد أو ماذا يعنى وافقت ومرة أخرى تذكرت أمى ولكن أحسست أننى سوف أعوضها عما فقدته.. بطريقة أخرى أفضل!!

● كل الطرق .. إلى الاشتراكية

وتطورت العلاقات وازدهرت وأصبحت في فترة قصيرة جدا، وثيقة حميمة، وبدا كأننا نعرف بعضنا من زمن بعيد، وبلباقة ورقة شديدة جعل منها صداقة «متكافئة» ورفع الكلفة لينادى كل منا الآخر باسمه الأول.

وبدأ العمل المشترك بيننا بداية مبشرة، وقدم لى كتابا مختصرا، بالانجليزية نشره فى بريطانيا لإحدى دور النشر الكبرى هناك وبعنوان « مقدمة فى تاريخ الشعب المصرى» وقال لى إن لديه مشروعا طموحا هو كتابة تاريخ الشعب المصرى ومن وجهة نظر الشعب نفسه، وفى رأيه أنه لم يعتد على تاريخ شعب أو يشوه مثلما حدث للمصريين وأن كل المؤرخين، مصريين وأجانب ، يكتبونه



مع زملاء مصريين في زيارة لقرية هندية

على أنه تاريخ الملوك والحكام منذ الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى حتى محمد على مؤسس الأسرة الحالية، وقد آن الأوان لأن يكتب تاريخ الشعب بكل طبقاته وفئاته، الفلاحين والعمال والموظفين والمفكرين والمهندسين.. كل الذين صنعوا التاريخ بالفعل، ليزهوا به الحكام ويتفاخروا، ولم يكن هناك مشروع أفضل يمكن أن أشارك فيه بحماس.

ولم نلبث بعد قليل ان اختلفنا واشتد الخلاف حول «الفراعنة»، هل كانوا طغاة مستبدين نصبوا أنفسهم آلهة وأقاموا أول وأقسى مجتمع طبقي في التاريخ وأسسوا أول دولة مركزية بيروقراطية قهرية وغرسوها عميقة وصاغوا بها كيان مصر حتى الآن، وهل سخروا الشعب طوال ألفي عام لبناء معابد ومقابر وعواصم ولنحت تماثيل ومسلات لتمجيدهم وتعظيمهم، وفاجأتني الرؤية، ولم أكن مستعدا لمواجهتها، ولم يكن المامى

بالتاريخ الفرعوني، يؤهلني لمناقشة مستفيضة، ولكن كان أول ما لجأت إليه في الرد هو «مقبرة توت عنخ آمون» وأنه كان فرعونا صغيرا ولكن اكتشاف مقبرته بهر العالم كله، ورفع مكانة مصر وذكرها، بل ودعم القضية الوطنية المصرية في محافل العالم.. وطلبت تأجيل المناقشة حتى اتزود بالحقائق، وأن نشرك صديقنا الانجليزي في الأمر!

ووافق على التأجيل، ولكن بعد أن تعلمت منه آداب الاختلاف، مهما كان حادا .. وبدأنا العمل في الرواية التي كان يريد أن يكتبها بعنوان قصة «الثورتين» أي ثورة ١٩١٩ التي اشترك فيها وكان عضوا بارزا في تنظيماتها «المسلحة» والثورة القادمة التي كان متأكدا لا يخالجه شك أنها قادمة، وكان علىّ أن أغوص وأتغلغل لكي أكتشف أشخاصها وبراعمها واحتمالاتها وأن نقوم بدراستها والتبشير بها معا.

وكان العمل والنقاش والخلاف معه متعة مثيرة تنتهي دائما بقراءة في الشعر أو تبادل النكات، وكان يتمتع بحاسة فكاهة ومرح فريدة.. وكنا كثيرا ما نستغرق في ذلك حتى ساعات طويلة من الليل، ولهذا كنت أضطر للمبيت لديه.. وكان يسكن فيللا أنيقة في شارع الهرم، ولديهم غرفة مستقلة ذات سلم خاص إلى الباب. وذات يوم سألني لماذا لا أحمل متاعي - إذا كان هناك - وأقيم معهم، ورحبت زوجته بالاقتراح وأيدته، وقبلته بكل سرور وانتقلت من الشقة الصغيرة المتواضعة في حي بين السرايات، وهو اسم على غير مسمى، وكنت اتقاسمها مع زميل بلدياتي «مستقيم» ومنقطع للمذاكرة والعبادة من الكلية إلى البيت إلى الجامع، ولكنه يصر على صداقتنا ومودتنا وقيم «الشراقوة» وكان يحتمل ما لا يحتمل، وكانت الشقة كثيرا ما تزدحم بل وتكتظ بالوافدين بلا مأوى أو الهاربين من البوليس السياسي وأحيانا تستخدم مستودعا للمنشورات والمطبوعات المحرمة.. ورأيت أن أحصل على إجازة وأن يجد الهدوء والأمان لكي يستذكر وكانت السنة النهائية بالنسبة لكلينا واستمتعت بالحياة في غرفة وثيرة ذات حمام خاص بالماء الساخن، وتطل على حديقة، ومحاطة بفيللات وحدائق مماثلة، وبطريقة الحياة الانجليزية الخالصة التي كان يعيشها واستمتعت بالافطار البريطاني.. الكورن فليك والأومليت بالسجق، أو الكبدة، والمارميليد والتوست والشاي «ايرل جراي» وقال لي أن الافطار البريطاني وجبة شبه مقدسة، وانها سر

صمود البريطانيين فى هذه الحرب وطوال تاريخهم . وأصبحنا شبه أسرة متوافقة منسجمة، هو وزوجته، وسكرتيره وسائقه ومدير أعماله فى شخص واحد ثم «الكلب» وكان مخيفا فى منظره وأليفا فى مخبره، ولكنه كان عضوا كاملا وعلى قدم المساواة مع الجميع ويحظى بالتدليل المفرط.

ولم يمض طويلا، حتى افتقدت بحرقة التسكع والسهر فى مقاهى الحسين، ورائحة الطعمية ودخان الكباب فى مطاعم بين السرايات والنقاش الساخن الصاخب فى شقق وغرف وأسطح منازل الزملاء، واتفقنا على تغيير الإقامة الدائمة، بقضاء «الويك اند» لديهم واللقاء فى الجامعة!

وكانت الفجوة قد اتسعت بينى وبين كلية الحقوق وتحولت إلى ما يشبه الانفصام وقلما كنت أتردد عليها ، وإن كنت حرصت على حضور محاضرات أستاذين فقط كانا مختلفين، وكان معظم الباقين إما تقليديين يبعثون الملل، ويشرحون النصوص، أو يمينيين متطرفين أحدهم وصف الشعب المصرى ذات يوم بأنه شعب أحمر لأنه يريد مقاومة الاحتلال بالكفاح المسلح، والآخر كان ملكيا متعصبا، ظل يفاخر بذلك ويجاهر به.. حتى بعد نهاية النظام.

وكنت قد انتهيت عن يقين ان ما تدرسه ليس القانون أو أصول العدالة، ولكن شرائع وقوانين ونظم يفرضها المستعمرون والمستبدون والمستغلون لحماية سلطاتهم ومصالحهم – على حساب الأغلبية العظمى ، وان مهمتنا هى فضحها واقتلاعها من الجذور.. وكان هذا يعنى البحث عن البديل والسير عبر أشق طريق يسلكه الإنسان.

وانضممت والتحقت وانتسبت وتسللت إلى كل التنظيمات والتيارات يمينا ويسارا. للاختيار المباشر، وتجادلت وتحاورت وتصادمت مع القادة والقواعد وانسحبت واستقلت واعتزلت ، ثم حاولت من جديد.

وفى نهاية المطاف لم أجد بدا من الاعتراف أننى لم أجد نفسى فى أى منها .. وبنفس القدر خرجت موقنا أن أحدا منها لا يملك «السر» أو يستطيع التغيير ولابد من انتظار «الخلاص» من طريق مجهول.

ولم يعن ذلك فقدان الثقة ولكن الخروج بإيمان خاص و«تكوين» مختلف.

انتهيت إلى الإيمان واستعدت اليقين ورجعت إلى ما نشأت عليه.

وكان الدين متأصلا عميق الجذور، غرسته أمى التى كانت توقظنى بحنان شديد لأصلى الفجر معهم، والتى كانت

تطلب إليّ أن أؤمها في الصلاة في غياب أبي والتي كانت تصطحبني إلى الدرس الأسبوعي الذي كان يلقيه شيخ جليل من أولياء الله الصالحين على سيدات الحي في احدى زوايا الحسين، والذي كان يبشرها دائما بأن الله سوف يبارك لها فيّ وأنني سوف أغدو ذا شأن.

وكان بيتنا لا يخلو أبدا من المشايخ الذين يذاكرون مع أبي. ويصلون جماعة ويرتلون القرآن والأوراد.. ويشيعون البركة والخير كما كان يقول، ورغم ذلك شككت وألحدت ووقفت على السور مع «القنوطين» كما يسمون ثم قررت التعرف على كل الأديان بلا استثناء وهيىء لي لبعض الوقت أنني انتهيت إلى «البوذية». ولكن لم ألبث أن رجعت إلى ما نشأت عليه، بعد إعادة اكتشافه واعتناقه بالعقل والالهام.

استوليت على مكتبة أبي، وأضفت إليها الفقهاء القدامى والمحدثين والمستشرقين أيضا، حتى أشرق نور الحقيقة. وأمنت أن الاسلام يمجد الإنسان، وان الله اختاره خليفته على الأرض، وأمر الملائكة أن يسجدوا له.

وفي ظل الإسلام كل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

والإسلام دين خلاق متطور، لا اجتهاد فيه في العبادات ولكن الاجتهاد متصل في المعاملات وان الناس أعلم بشئون دنياهم.

ولم يحل ذلك دون اقتناعي واعتناقي «للصراع الطبقي» وأن التاريخ هو صراع دائم متصل بين طبقات ظالمة وطبقات مظلومة مقهورة ، وأن الاقطاعيين خلعوا الرأسماليين وأقاموا عالمهم، وأن الفلاحين والعمال سوف يخلعون هؤلاء بدورهم ويضعون نهاية للحرب ، وتقوم المدينة الفاضلة .. حيث يسود العدل والرخاء ويصبح الانسان رفيقا وأخا للانسان .

ونهلت بغزارة من تراث ماركس وانجلز ولينين وستالين ثم من ماوتسي تونج، وهوشي منه وقد نضج وعيي باليسار أول ما نضج على الاشتراكية البريطانية . بفضل صديقي الانجليزي، ولذا رسبت عميقة وطيدة، أن الديموقراطية هي الوجه الآخر للاشتراكية ولا تقوم إحداهما بغير الأخرى أو على حساب الأخرى ، وأن هذه مهمة عسيرة بل هي المعادلة الصعبة التي يعتمد على حلها كل النجاح وبهذا . التكوين تبلورت لديّ رؤية «مصر الاشتراكية» وأن ذلك مصيرها. سوف تكون اشتراكية خاصة متميزة تعكس كل عبقريتها وتراثها الروحي والحضاري وتحل كل مشكلاتها حلولا جذرية مصيرية.



محمد عودة مع الرئيس نكروما (غانا)

وانضمت دعامة أخرى إلى دعامات «التكوين» بعد حرب فلسطين ..

وفي ظل الهزيمة والاحباط رأيت الخريطة العربية ، وتبدى لي العملاق المثخن بالجراح ، وأنه سوف يقف يوما على قدميه كما حدث للصين، وأنه لابد سوف يزلزل العالم مثلها .. لديه كل المقومات الروحية والمادية ليضمد جراحه ، ويسترد كل قوته وهيبته .. سوف تنتزع الجيوش العربية التي دفعت كل الثمن السلطة من الحكومات الخائنة العاجزة .. وسوف يقوم جيش عربي مختلط من أربعين فرقة ينطلق شمالا وشرقا وغربا وجنوبا .. كما فعل تشيانج كاى شيك «ثم ماوتسي تونج وتقوم قوة عظمى ..

ولم يكترث من حاولت اقناعهم يومئذ ولكن ظللت متحمسا مصرا على هذا الخيال .

وكان زميلي «ويلدياتي» وصديقي



مع رجاء نعمة أديبة لبنانية وتيفاسيبال ديبلوماسية هندية. وسهير فهمى محررة ثقـــافـيــــة بالاهرام الفــرنسى

الذى يشاطرنى المعيشة لايفتأ يذكرنى أن هذه هى السنة النهائية وأن علىّ أن أدع كل شىء واتفرغ الاشـهـر البـاقـيـة المذاكرة.

وكنت قد نسيت ذلك تماما وبدا أمراً بعيدا ، ان لم يكن غير ذى قيمة - فى ظل «التكوين» الجـديد ، ولكن لم ييـأس صاحبى وأصبحت قضية دائمة بيننا ، ومضى يعدد مزايا الحصول على «ورقة» الاعتراف من المجتمع وهى الليسانس ، وأن ذلك ضرورى للمناضل والمواطن على السواء . وبدأت أقتنع شيئا فشيئا وانفض الغـبـار عن الكتب المهـملة ، وأعـاود الحضور.

وكـان نموذج «المحـتـرف الثـورى» ، يجتذبنى ويغرينى ، وهو الرجل الحديدى وطليعة الحزب الحديدى، والذى يعيش ويموت من أجل الثـورة وفى أى لحظة، وذات يوم فاجأنى احدهم قائلا هل يمكن أن تقضى على «عـدو طبـقى» إذا لحقت بذلك؟ وأفقت على السؤال واكتشفت ان كمية الحديد والعنف «الثورى» لدى لا تؤهلنى .. فضلا عن أن النماذج «المحلية» التى رأيتها لم تكن مشجعة .. ورأيت أن المحاماة هى أقصى ما أصبحت اتطلع إليه والدفاع عن الحقوق المغتصبة أو المهدرة.

وذات يوم طلبنى الاستاذ وقال لى إننا مدعوان لتناول الشاى مع الدكتور طه حسين وبالطبع تصورت أننى سوف أصحبه كمجرد مرافق ، ولكنه فاجأنى بانى مدعو بالاسم .

ولم أكن اعرف الدكتور طه حسين وان كنت قد واظبت على حضور محاضراته فى الجامعة وخارج الجامعة وقرأت بالطبع كل كتبه ودراساته ومقالاته وباعجاب شديد ، خاصة وقد بدأ ينحاز بوضوح

وشجاعة إلى «المعذبين فى الأرض» .

وذات يوم ، قبل عام ، كان يلقى محاضرة في الجامعة الأمريكية ، ووجهت إليه سؤالا بعد المحاضرة . وفى فترة الحوار وأجاب عليه إجابة مستفيضة واعتبره أهم سؤال وجه إليه ولكن اختتم الاجابة الساحرة كالعادة نهاية لاذعة أثارت ضحك كل الحضور .

وخلال الانصراف جاءنى رسول يقول ان الدكتور يريد أن يراك ، وفرحت فرحا غامرا ، وذهبت وصافحنى مبتسما وقال : هل انت غاضب .

وقلت : أنا سعيد وفخور أن أصافحك واقابلك.

واقترب قليلا وقال لى بصوت منخفض

- «هل أنت شيوعى؟ »

وقلت له بصوت مسموع:

- لا أنا اشتراكى ديموقراطى يسارى وتأكيدا، قلتها بالفرنسية .

- وضحك وسألنى عن اسمى وأحوالى - وطمأنته . وقال لى مودعاً :

- خذ بالك من نفسك . وانتهى كل شىء .

وذهبت مع الاستاذ إلى بيت الدكتور طه حسين .. وكانت أقرب إلى الذهاب إلى «مزار» مهيب ، وبهشت كل الدهشة حينما ذكرنى بالاشتباك الذى دار بيننا أمام الحاضرين ، وكانوا نخبة رفيعة من المصريين والأجانب واستبقانا الدكتور بعد انصراف الباقين .. ودارت مناقشات من نوع أخر بعد أن ارتفعت الرهبة وروى له «الاستاذ» اننى فى السنة النهائية وأننى لا ألقى اهتماما بالمذاكرة أو الليسانس. وقال الدكتور :

- لا .. تنتهى من الحقوق ثم نرى ربما تسنح لك فرصة للسفر إلى فرنسا مثلا لتتعرف إلى الاشتراكية على أرضها ..

وخرجت وانتظر الاستاذ بعض الوقت ولحق بى وقال - هذا رجل مكشوف عنه الحجاب يرى الناس من الداخل قبل الخارج .

وفى اليوم التالى جاءنى رسول يخبرنى أن الدكتور طه قد رتب لى منحة دراسية لكى انفرغ للمذاكرة والحصول على الليسانس .. وغمرنى هذا العطف وشعرت بعرفان عميق بالجميل .. وظل معى طوال حياتى وشعرت اننى مكلف تكليفا لا يرد ولابد أن أوفيه هو الحصول على الليسانس .

وحدث ذلك وكان ترتيبى بين العشرة الأواخر ولم أفكر فى السفر إلى الخارج وقررت أن أعمل بالمحاماة . سوف أعود إلى البلد وأمارس المهنة هناك وكتبت خطابا إلى الدكتور طه اخبره بما انتهيت إليه وسافرت إلى فاقوس ❑

القوة الاقتصادية : متى نحققها ؟

● أكد الرئيس حسنى مبارك أن التحدى الكبير هو بناء القوة الاقتصادية القادرة على ان تصل بمصر الى القرن القادم .. إن جميع الجهود الوطنية لمؤسسات الدولة التنفيذية والمحلية ، وجميع سلطاتها تتكامل من أجل تحقيق مستوى أفضل لأبناء الشعب .

هذا ، والقوة الاقتصادية ، اصطلاح غامض . ويعنى – فى رأينا – الثروة والرخاء والرفاهية لكل أفراد المجتمع باختلاف مستوياتهم الاقتصادية ، وهذا يعنى أن الأغنياء سوف يزدادون ثراء تدريجيا ، وان الفقراء سوف يزدادون – بالتوازى مع الاغنياء – فى الدخل وفى مستويات المعيشة .

ونحن نرحب برفع هذا الشعار اليوم ، وكنا نتمنى ان نرفعه مبكرا فى السبعينيات من هذا القرن والسؤال هنا هو : القوة الاقتصادية لمن ؟ للشعب أم للحكومة ؟ ولقد أجاب سيادته على هذا السؤال قائلا إنها للشعب ، والواقع ان مايمتلكه الشعب من ثروة هو ملك للبلد كله . وتتوارثه وتنميه الأجيال المتعاقبة ، ومن الطبيعى ان تحظى الحكومة بقسط لا بأس به من هذه الثروة عن طريق الضرائب ، مما يمول مختلف خدماتها للشعب . علما بأن حكومتى الولايات المتحدة واليابان (ومعروف انهما أكبر دولتين فى عالم اليوم) كل دخلهما من الضرائب وحدها ولاشىء غيرها .

وكاتب هذا السطور يؤمن بأن شركات الاستثمار الجديدة - سواء كانت مصرية أم أجنبية – من حقها التمتع بمختلف التسهيلات والامتيازات التى تقدمها لها الحكومة لكى تحقق رسالتها على الوجه الأكمل .. فلنقدم لها الأرض مجانا أو بأسعار رمزية ، ولنقدم لها القروض التى تدعم نشاطها . ولنقدم لها كل ما تطلب من خدمات ممكنة ، ولكننى فقط أنبه الى المحاذير الآتية :

أولا : لا ينبغى اعطاء المستثمرين الجدد تخفيضات جمركية خاصة بهم . فعندما أعطينا هذه التخفيضات فى الاسمنت المستورد لبناء منشآتهم : استوردوا الأسمنت بكميات مضاعفة ، وباعوها فى السوق المحلى بأسعار منافسة للأسمنت المصرى وحققوا بذلك أرباحا طائلة طفيلية . التخفيضات الجمركية – إذا لزم الأمر ينبغى أن تكون عامة لكل المستوردين ، وليست خاصة بفريق دون بفريق .

ثانيا : لاينبغى اعطاؤهم - عند بدء النشاط - اعفاءات لمدة محددة . فهم يستفيدون من هذه الاعفاءات وفى نهايتها يصفون مؤسساتهم تصفية «دفترية» ثم ينشئونها من جديد باسم جديد ، لكى تحظى بمدة اعفاء جديدة ، وهكذا . انها أسهل طريقة للتهرب الضرائبى ، وحتى لو أردنا اغراءهم بخفض فى ضريبة ما فينبغى أن يسرى هذا الخفض على كل المولين ، حتى لايمتازوا باستمرار على غيرهم من المولين.

والتاريخ يقول لنا ان الوالى المستنير محمد على الكبير ، أصدر صيحة عالية بالانفتاح على الغرب ، بعد ان كانت مصر فى عزلة تامة عن العالم لقرون كثيرة . ولكننا لم نستفد من هذه الصيحة كثيرا فلم يستمر هذا الانفتاح طويلا ، وانطفأت شعلته سريعا ، وذلك لأسباب عدة أهمها :

١ - جهل الحكام من خلفائه. ٢ - التدخل الأجنبى فى شئوننا . ٣ - مارافق هذا التدخل من صيحات رجعية عالية ، كارهة للغرب مطالبة بالعودة الى القديم ، وهى صيحة لا تزال قائمة حتى اليوم .

والتاريخ يقول لنا أيضا إنه فى نفس القرن الماضى ، وفى أقصى شرق العالم أصدر امبراطور اليابان المستنير «مايجى» عام ١٨٦٨ صيحة كبرى بالانفتاح على الغرب بعد أن كانت اليابان فى عزلة تامة عن العالم لقرون كثيرة ، وذلك بسبب الخوف من الأجانب وكراهيتهم ، وخشية أن يصنعوا باليابان ماصنعوا بجارتهم الصين ، وأعلن الامبراطور هدفه بوضوح ، وهو انشاء دولة قوية اقتصاديا وحربيا ولم يأت عام ١٨٨٠ الا وقد حقق هدفه ، فأصبحت اليابان - فى هذا الزمن المبكر - قوة اقتصادية وحربية تنازع الدول الكبرى فى النفوذ بالشرق الأقصى ، وحاربت وهزمت امبراطوريتين كبيرتين هما الصين وروسيا ، وحديثا رغم هزيمتها فى الحرب العالمية الماضية عام ١٩٤٥ ، ورغم أنها أصبحت محتلة بالقواعد الأمريكية حتي يومنا هذا ، فقد استمر انفتاحها على الغرب ، حتى أصبح الشعب اليابانى قوة اقتصادية عظمى ، وأكثر دول العالم اليوم ثراء .

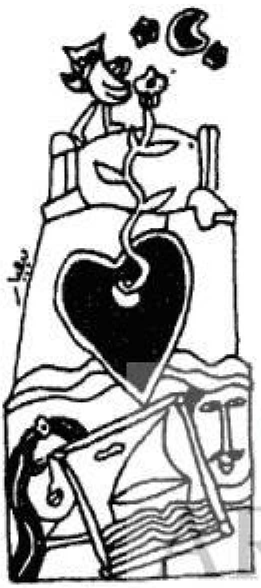
مهندس : أمين محمود العقاد - ٥ ش نعيم بالزقازيق

• تصحيح صورة •

● فى هلال يناير ١٩٩٦ نشرت صورة للشيخ محمد عبده بصفحة ٧١ كتب تحتها «الشيخ محمد عبده فى أسوان عام ١٩٠٠» والحقيقة ان هذه الصورة للشيخ محمد عبده حينما زار السودان ، كما هو واضح من الصورة حيث يستقبله بحفاوة علماء السودان ، بينما ظهر عن يساره الحاكم العام للسودان فى ذلك الوقت ، ويخيل الى ان هذه الصورة رأيتها بعدد الهلال الخاص بالشيخ محمد عبده قبل ذلك .

مصطفى محمود مصطفى - كفر ربيع ، منوفية

تواصل



لمن أحببت أرسلت القصيدا
ورحت مغردا أرجو المزيدا
نسجت قصائدى ثوبا شفيفا
ولكن الحبيب مضى بعيدا
اسافر خلفه فى كل يوم
وأسأل عنه قلبي والبريدا
جواباتى تمزقها الليالى
واشرعتى رجاء لن يعودا
معذبتى وفى ألقلب اشتياق
جفاؤك ردنى طفلا وليدا
واضحت أغنياتى دون لحن
يعيد وميض عمرى والوجودا
ألا من يحمل الأعباء عني ؟
وقد جبت الدنا بحرا وبيدا
أنا أوتار عود قد تلظى
وذاق الهجر سما والصدودا

محمد محمد أسد - حلب - سوريا

منزل العقاد

● صدمت حين زيارتى للقاهرة الحبيبة اذ علمت ان منزل الاستاذ الكبير المرحوم عباس العقاد سيهدم ويبنى مالكوه مكانه برجا سكنيا ، فلماذا لايحول منزل العقاد بمصر الجديدة الى متحف كما حولت وزارة الثقافة منزل طه حسين ومنزل احمد شوقى ومازالت مكتبة العقاد محجوزة لمصلحة الضرائب وقد رتعت فيها الفئران .

هاني محمد علي اللوباني - عمان - الاردن

● **تعليق :**

- منزل طه حسين كان ملكا له ، وكذلك منزل شوقى كان يملكه شوقى ، اما

العقاد فكان يسكن بالايجار فى منزله بمصر الجديدة ، وهذه هى المشكلة لأن أصحاب هذا المنزل القديم الذى كان يسكنه العقاد يقولون انه أيل للسقوط ويريدون هدمه ، ويمكن بناء جناح فى البرج الذى يريدون تشييده باسم العقاد ، كما يمكن ان تأمر الحكومة بالافراج عما تبقى من مكتبة العقاد التى نظن ان الكثير قد ضاع منها .. وللعقاد ضريح كبير فى بلدته اسوان ، وله شارع اسمه «شارع عباس العقاد» فى مدينة نصر الملاصقة لمصر الجديدة ، وهو من اضخم وأطول شوارع القاهرة الكبرى

● برامج تليفزيون رمضان ●

● قابلت «كلام من دهب» وكسبت جنيه دهب من طارق علام وبدون كلام ذهبت لسيارة الأحلام ، أجرتها ٣ أيام ثم ذهبت الى داكار لكى أرى «الحفار» فوجدته غرقان بدون هوان وانا عائد وجدت «رابعة» قد عادت وعندما وصلت الى مصر قررت انى «لن اعيش فى جلباب ابى» لكن شبح الحفار يطاردنى فذهبت الى «بوابة الحلوانى» فوجدت «نصف ربيع الثانى» ثم وجدته قد نادانى وهو يصرخ ويقول «مين اللى مايحبش فاطمة» قلت له تعالى معايا على «الملاحات» نشوف الصبر ونسيب اللى غرق غرق واللى مات مات قالى ليه هو الحفار والابطال لم يعلموك الصبر وصرف الأموال عمال على بطال ، قلت له على رأيك وعدت إلى البيت قلت لهم «دستور يا اسيادنا» ودخلت «نمت فى العسل» وحلمت انى «هربت الى القمة» وقمت على ريحه البالوظة لقيتهم عاملين «استاكوزا» اكلت زى «الفجر» ونسيت الدنيا ودخلت نمت فى العسل تانى .

ملحوظة : الكلمات التى بين الأقواس هى اسماء بعض البرامج التليفزيونية.

احمد حمدي هويدي ـ المنوفية – اشمون – ش التأمينات

● التكوين ●

● أود ان أعلن اعجابى الشديد بالسير الذاتية التى تنشر بالهلال تحت عنوان «التكوين» .

حسن منتصر – فارسكور

• رقصات على ايقاع الصمت •

– ١ –
تلك القصائد ..
... منك ؟
لا بل انت منها !
– ٢ –
يرهقني ..
.. أن أكتب !
يرهقني ..
.. أن أمسك بالقلم
.. ولا أكتب !
.. يرهقني .. ألا أكتب
– ٣ –
قد أكتب يوما
شعرا معقولا
تصدق فيه قوانين المنطق
والتاريخ وعلم النفس
لكن من ذا – لو أكتب ..
.. هذا الشعر المعقول
سيكتبني ؟
– ٤ –
من لي بحديث
أتلوه على رأس الشيب
تصبح بكرا ؟
– ٥ –
أحلم
ان تبدأ باسمي ..
.. لغة بكر
لم يقربها انس
– من قبل – ولا جان!
– ٦ –
من يملك من ؟
البحر ام الاشرعة ؟
الأمواج ام الريح ؟
الفنان ام الفن ؟
من يملك من ؟
–٧–
النهر الرابض
في حضن اللوحة
ليس يفيض
آه ما أظمأ فرشاتى !

هشام محمود زاهر–الزقازيق

• الفنان التونى •

● تحية خاصة إلى الفنان حلمى التونى على الرسوم الجميلة التى صدرت عن أغلفة الهلال فالتونى يرسم ويلون ويزخرف بروح مصرية ، وهو ما جعله قريبا من النفس .

حبيب جميل الحلفاوي – ٨٠١٠ منزل أبو زلفة – تونس

● ملاحظـات ●

● في مقاله القيم ، «الادب والعلم والثقافة الثالثة» في هلال مارس ١٩٩٦ كتب الدكتور أحمد مستجير – وهو من علمائنا الادبية الرفيعة والخبرة العميقة بعلم العروض ـ أن كتاب العالم والروائي البريطاني تشارلز بيرس سنو «الثقافتان والثورة العلمية» لم ينقل الى العربية . والواقع ان لهذه المحاضرة ترجمة كاملة صدرت في العراق تحت عنوان «الثقافتان الادبية والعلمية ونظرة ثانية» للدكتور صالح جواد الكاظم في سلسلة «الموسوعة الصغيرة» العدد ١٢٠ من منشورات دار الجاحظ للنشر ببغداد (١٩٨٢) ولدى نسخة منها كما ان الدكتور رمسيس عوض قد كتب عن محاضرة سنو هذه في كتابه المسمى .. «س . ب . سنو والثورة العلمية» .. الصادر عن المصرية العامة للكتاب في ١٩٨٠ ، وكتب عنه د . زكي نجيب محمود في بعض مقالاته التي جمعتها دار الشروق في طبعة قشيبة ، وقبل ذلك كله كتب د . مرسى سعد الدين عن سنو على صفحات مجلة المجلة في الستينيات

كذلك يتحدث الدكتور مستجير عن الناقد والشاعر الفيكتوري أرنولد ماثيو كما يسميه ، وصواب اسمه هو ماثيو أرنولد .

د . ماهر شفيق فريد – استاذ مساعد الادب الانجليزي

● قضية القدس ●

● ان الاهتمام الذي توليه مجلة الهلال لقضية القدس تستحق عليه كل التقدير ، فانتم بذلك تساهمون بفاعلية وموضوعية في تنوير الرأي العام باهمية هذه القضية ، التي هي محور العمل العربي والاسلامي في اطار الجامعة العربية وفي منظمة المؤتمر الاسلامي .

عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الاسلامية للتربية والعلوم ـ الرباط ـ المغرب

• موسوعة عربية فى المهجر •

● المهجر يعج بالكفاءات العربية العالية فى شتى ميادين المعرفة ويشعر معظم حملة هذه الكفاءات بالانتماء الثقافى والقومى والدينى الى الوطن الأم . وتبدو هجرة تلك العقول التى كانت ولاتزال جارية بوتائر عالية ، لاسيما لدى اشتداد الأزمات والكوارث ، حقيقة واقعة يتعذر وقفها او تأخيرها ، فقد يتسنى فى حالة أضعف الايمان ، تحويلها الى ظاهرة مفيدة للعالم العربى والاسلامى بوجه عام . من خلال حشد تلك الطاقات المشتتة لانشاء مؤسسة موسوعية تحاول ان تحقق كلا او بعضا من الغايات والاغراض المذكورة فى المادة المرفقة .

فقد قام عدد من المنظمات العربية العاملة فى الولايات المتحدة (ومنها النادى العربى فى الأمم المتحدة ، ولجنة العلاقات الأمريكية - العربية ، والمجلس الأمريكى - العربى الذى يضم عددا من المنظمات العربية العاملة فى أمريكا ، ومجلة «الحوار» التى تصدر فى واشنطن ، وجريدة «المنصة» التى تصدر فى نيوجرسى) بطرح مشروع لانشاء مؤسسة موسوعية دائمة تعمل على اعداد موسوعة عربية جامعة وتحقق أهدافا متعددة ومتكاملة ومتفاعلة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - اعداد الموسوعة : التى تقدم للمتعلم والمثقف والباحث خلاصات العلوم والمعارف البشرية ، بتركيز على الأهم والاحالة الى المراجع لتحصيل المهم . كما انها تتوخى البحث العلمى الموضوعى والاستقصاء الأكاديمى ، وتشدد على عرض مختلف وجهات النظر فى القضايا الخلافية المستحكمة .

٢- اعادة كتابة التاريخ العربى الاسلامى . الذى كتبه ، فى العصر الحديث المستشرقون الأجانب ، من جهة ، أو المؤرخون العرب أو المسلمون من جهة أخرى ، وغالبا ماكانت هذه الكتابات متأثرة بحالة الأنا والآخر ، مما يؤدى الى عدم معالجة الأحداث التاريخية وتحليلها على نحو موضوعى نقدى .

٣ - ستشكل هذه المؤسسة بوادر نهضة ديمقراطية ، قد تمتد خيوطها الى العالم العربى على المدى البعيد لزرع بذرة حضارية قد تؤتى ثمارها بعد عقود أو اجيال أو أكثر ، تيمنا بحركة الموسوعيين فى فرنسا والرابطة القلمية فى المهجر.

٤- تمثل مؤسسة الموسوعة منبرا تتفاعل فى رحابه الآراء والنظريات بحرية وديمقراطية وتصب عطاءاتها فى صفحات الموسوعة ، وفى مطبوعاتها الأخرى ، لتعطى للقارىء العربى مثالا حيا لميزات اختلاف وجهات النظر ومحصلاتها .

٥- تقدم الموسوعة نماذج واقعية لطرائق البحث العلمى الموضوعى القائم على تقصى الحقائق وتمحيصها ونقدها ، وعرض الآراء والنظريات بإخلاص وحيدة ، مما يتيح للنشء العربى القادم أقصى قدر من الحرية فى التفكير والابداع .

٦ - تغني المكتبة العربية وتسد حاجة ماسة الى مصنف جامع بالعربية يضم جوانب المعرفة البشرية .

٧ - تثرى اللغة العربية وتطوعها لمواجهة مختلف العلوم الحديثة ، مما يؤدى الى تحديثها وتطويرها مع المحافظة على قواعدها ومفرداتها الأصلية .

٨ - تؤدى الى اغناء الفكر العربي من خلال ترجمة معظم العلوم والمعارف الحديثة مما قد يسفر عن حركة فكرية خلاقة على غرار ماحدث بعد القرن الثاني للهجرة في أعقاب حركة الترجمة الى اللغة العربية التي أثرت الحضارة العربية الاسلامية . .

٩ - سيشكل العلماء والمثقفون العرب الذين ينتمون الى مؤسسة الموسوعة نقاط اتصال مستمرة بين مؤسساتهم العلمية ، والمؤسسات العلمية فى الوطن الأم . مما يؤدى الى تبادل الخبرات والمعارف الهادفة الى اغناء الفكر العربي من جهة ، وتزويد الأوساط الثقافية في هذا البلد بفكرة صحيحة عن العالم العربي والثقافة العربية الاسلامية وتطورها ، من جهة أخرى .

١٠ - قد تشكل هذه المؤسسة الثقافية حركة فكرية ، وبالتالي سياسية قد تتمكن من منافسة اللوبي الاسرائيلي في التأثير على توجيه سياسة الادارة الأمريكية ، أو الادارات الأخرى فى البلدان الغربية لمعالجة القضايا العربية بعدالة أكبر

١١- تعمل على تعزيز الانتماء الثقافي والاجتماعي والفكرى للمغتربين العرب ، بوجه عام والعلماء والمثقفين العرب بوجه خاص ، بواسطة تنشيط دور اللغة العربية ونشرها والتعريف بالتراث العربي الاسلامي بأسلوب موضوعي نقدى ، واستمرار الصلات بين المثقفين فى هذا المهجر والوطن الأم .

أما وسائل تحقيق هذه الاهداف الطموحة فقد عرضت فى ورقة العمل المعدة لهذا الغرض بما فيها خطة العمل والتنظيم والتمويل ، فضلا عما تمخضت عنه الاجتماعات والحوارات التي جرت فى أروقة النادى العربي فى الأمم المتحدة ، والمنظمات العربية الامريكية العاملة فى منطقة نيويورك / نيوجيرسى ، وما أسفر عنه الحوار الذى جرى اخيرا في مركز الحوار العربي الأمريكي (فيرجينيا) وخلاصة الاراء والمداخلات التي وصلت من عدد من المثقفين العرب والمنظمات الثقافية العربية والاجنبية ، في شتى أرجاء العالم (ولاسيما أوربا والعالم العربي) في أعقاب نشر بعض المقالات والبحوث التي تتعلق بالموسوعة في صحف عربية توزع على نطاق عالمي .

وتسعى تلك المنظمات الى استقصاء آراء ومداخلات المثقفين العرب والأجانب بوجه عام ، فضلا عن المنظمات العربية والاجنبية - بشأن هذا المشروع وتنتظر طلبهم ورقة العمل ومرفقاتها بما فيها خطة العمل ووسائل التمويل - بغرض دراستها وارسال تعليقاتهم بشأنها ، تمهيدا لضمهم الى الهيئة التأسيسية للموسوعة بناء على رغبتهم .

وللحصول على ورقة العمل أو أية معلومات اضافية عن مشروع الموسوعة ، يرجى الاتصال بالعنوان التالي :

ALA AL - ARAJI علاء الأعرجي
7100 BLVD . East, Cuttenberg N.J. 07093.USA
TEL / Fax(201)869-5157

الكلمة الأخيرة



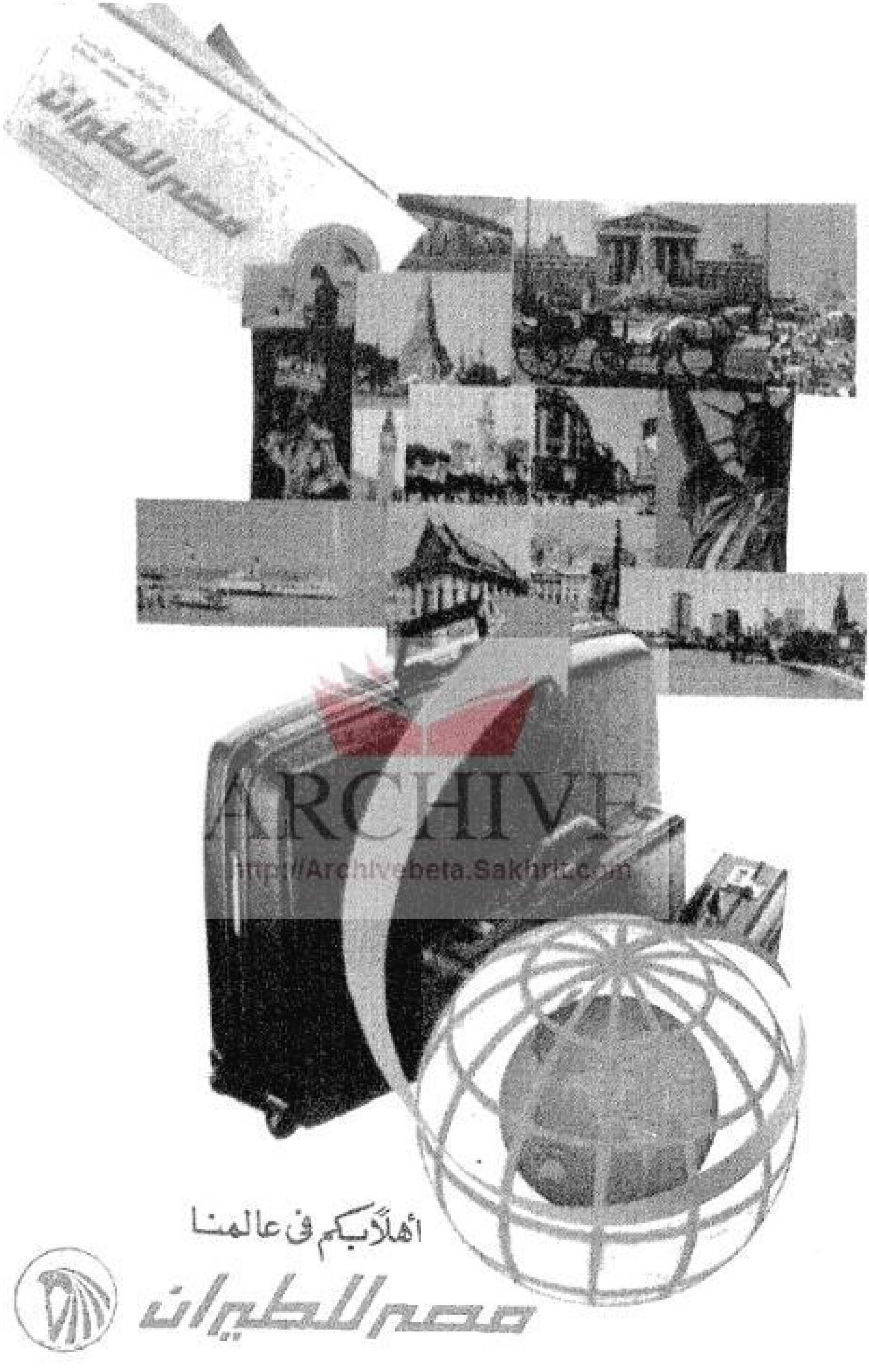
ما المسئول عنها بأعلم من السائل

بقلم : د . محمود الطناحى

■ ابنتي طالبة بقسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب ، وأنا أعلّم العربية فى كلية مناظرة، فكان حقا على أن أكون فى عون ابنتى فيما يشكل عليها مما تدرس من علوم العربية، ويشق على المدرس كثيرا أن يمارس عمله مع أبنائه ، لكنى أغالب هذا الشعور استجابة لعاطفة الأبوة ، لكنى أيضا أقف عاجزا أمام كثير مما تدرسه ابنتي ، وبخاصة ما يتصل بعلوم النقد الأدبى والبلاغة والأدب المقارن وتحليل النصوص ، فكثير مما يقدم من هذه العلوم للطلبة الآن كلام عجيب حقا ، وليس له من العربية إلا الحروف والأفعال والأسماء ، مصبوبا ذلك كله فى نظام نحوى صحيح فى جملته ،لكنك اذا أردت أن تخرج منه بمعان أو دلالات ذات معنى أعجزك ذلك ، فهو كلام «تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته» كما وصف ابن دقيق العيد كلام ابن سبعين الصوفى ، وأحيانا لا تعقل مفرداته ، ولذلك يعجزنى - على كثرة ما قرأت وحفظت - أن أجيب ابنتي على ما تسأل ، وكثيرا ما أجيبها : «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ثم أصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد لجأت إلى زملائى الذين يعرفون لغة القوم ، من أصحاب الألسنية والبنيوية والتفكيكية ، ليدلونى على أمثل طريقة لتفهم ابنتي ذلك الكلام ، فقالوا : لا سبيل أمامها الا ان تحفظ ذلك الكلام بحروفه لتضعه كما هو فى ورقة الإجابة . وهذا رأى خطير جدا، لأن معناه أن يتحول الطالب إلى ببغاء يردد دون أن يفهم ، ومعناه أيضا أن يفقد الطالب القدرة على أن يؤدى بألفاظ من عنده كلام أستاذه ، وهو ما ترفضه نظريات التربية القديمة والحديثة . وقد حاولت أنا فعلا أن أجد كلمات مرادفة لهذا الذى تقرؤه ابنتي من كلام أساتذتها ، فلم أرجع بشىء ذى بال ، وكنت حريا أن أنكر شيئا من هذا الذى تعانيه ابنتي وأعانيه معها ، ولكنى لا أريد أن أحمل «الهلال» وزر هذا الكلام والرد عليه ، لكنه فى الجملة كلام يدور حول التناص والتماهى والتفكيك والتفجير اللغوى ، والإشكالية - إشكالية أى شىء ، مع تلك البدعة الغريبة : بدعة «الأسطورة والأساطير» فى الأدب العربى ، فكل معانى الشعر الجاهلى وصوره وأخيلته مردودة إلى الأسطورة ومحمولة عليها ومفسرة بها .

وإن تعجب فعجب أن بعض الذين يكتبون هذا الكلام الغامض المعمى هم ممن نشأوا بالأزهر وتخرجوا فى دار العلوم ، والأصل فى من يتخرج فى هذين المعهدين أن يكون عربى الوجه واليد واللسان ، ولكن هكذا كان ، وربك يفعل ما يشاء .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



لمسات

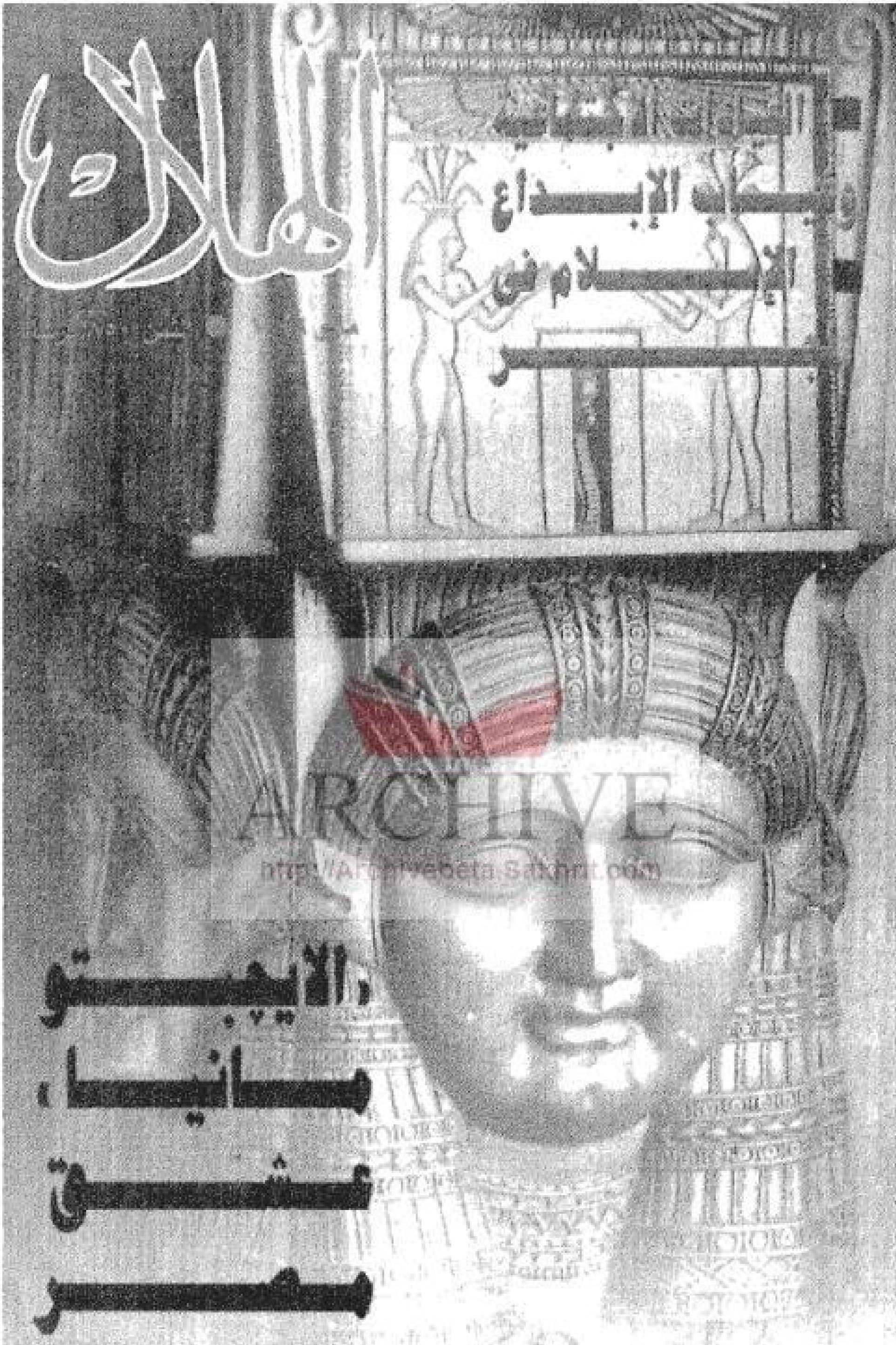
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

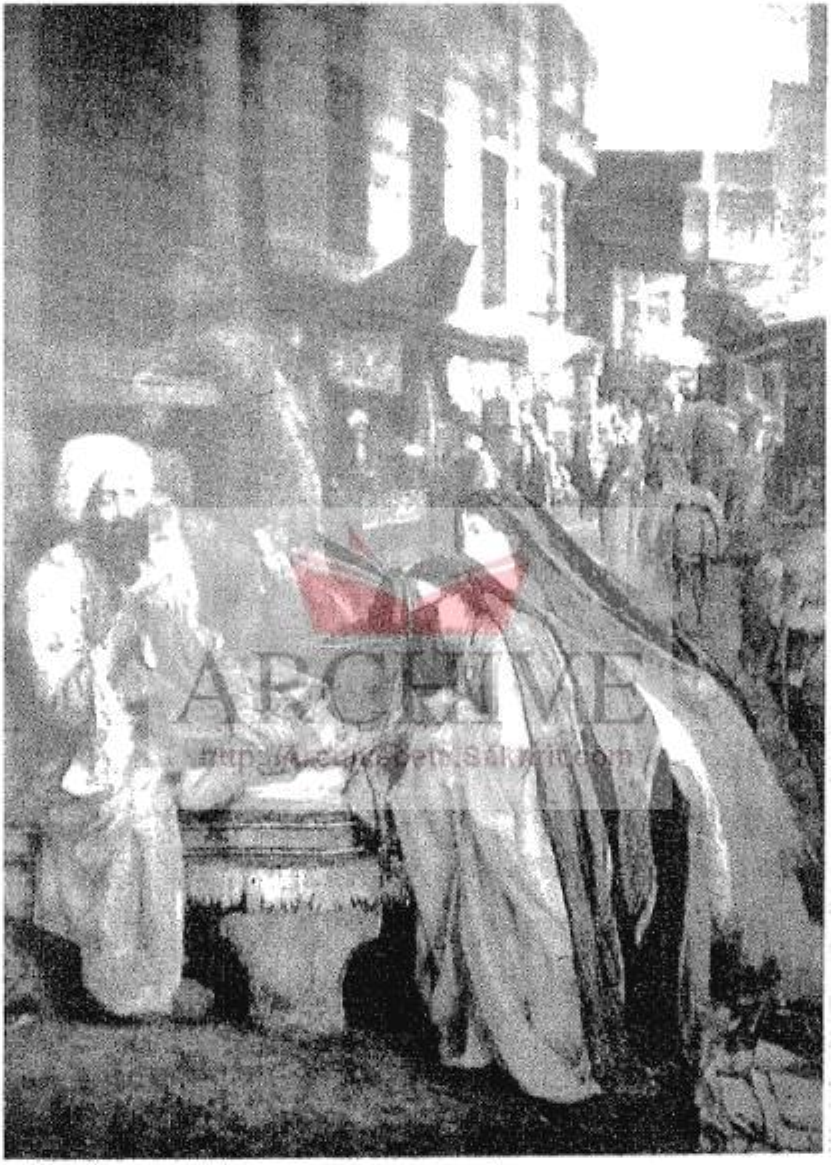
من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ، ومُلك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠، ١٢ شارع ١٢ المنطقة الصناعية بالعباسية - [illegible]
[illegible] - 2596630


الهلال
الإبداع
الإيجبتو
مانيا
عشق
مصر


السوق للفنان فرانسوا بارى - متحف واشنطن

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . الكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمي التوني المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ٧ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 4741116413079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد

فكر وثقافة

دائرة حوار



الغلاف
تصميم الفنان
حلمى التونى

عزيزى القارىء

انهيار أحلام الشرق الأوسط

قبل ألف سنة قال الشاعر أبو عبادة البحترى يصف «الربيع» فى شهر نيسان «أبريل» :
أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ولكن الربيع الذى كان يجىء إلى البلاد العربية مختالا ضاحكا من فرط شعوره بحسنه وخفة ظله ، لم يعد يجىء إلا منكمشا عابسا ، لايريد أن يضحك ، ولا يستطيع أن يختال ، وليست له قدرة على الكلام ، فإن الحوادث الجسام أصابته بالصمم ، ورمت طيوره بالصمت وغدرانه بالجفاف !

لقد طوى التاريخ صفحة الأمة العربية التى كان الربيع يأتى إليها فى ألوانه وأصباغه وطيوبه ، يهز أعطافه خيلاء ويوشك أن يحرك شفتيه فيتكلم ويقول : أنتم سادة الدنيا أيها العرب ، أو يقول : السلام عليكم يا ملوك الأرض !

عزيزى القارىء :

ربما يكون الهجوم الوحشى التدميرى الذى شنته اسرائيل على لبنان منتهكة به كل ماقيل عن «شرق أوسط جديد» يسوده السلام والتعاون الاقتصادى قد انتهى عند نشر هذه السطور ، ولكن آثاره ودلالاته العميقة المؤلمة لن تنتهى بسهولة ، فإن أصداء هذا العدوان الغاشم ستبقى أمدا طويلا ، فى المنطقة والعالم ملقية بظلالها الكئيبة على مصير مايسمى بعملية السلام !

إن متغيرات جديدة قد طرحت نفسها بقوة فى غمرة العدوان على عملية السلام ، فالولايات المتحدة الأمريكية اتخذت موقفا منحازا لإسرائيل ، مبررة ماحدث منها بأعمال المقاومة الارهابية التى تقوم بها قوات «حزب الله» المرابطة فى الجنوب ، مع أن اسرائيل هى البادئة بالعدوان ، فهى التى اجتاحت الأراضى اللبنانية واحتلتها فى سنة ١٩٨٢ ، وهى التى أجبرت آلاف اللبنانيين على الرحيل من ديارهم شمالا ، وهى التى لازالت تتمسك حتى يومنا هذا بضرورة الاحتفاظ بالشريط الحدودى فى جنوبى لبنان كأحد ثوابت أمنها القومى الذى ترفعه فوق رأسها راية مخضبة بدماء العرب الذين سلبتهم أمنهم ، واغتصبت أرضهم !

فالسؤال الذى يطرح نفسه الآن : هل مازال الأمن القومى لإسرائيل محتاجا الى المزيد من الأراضى والمياه العربية ؟ أم أن «الدولة العبرية» قد تغيرت نظرتها لمسألة «الأمن» من سياسة الاحتلال والتوسع على حساب العرب الى اقامة سلام «ذى طابع اقتصادى وثقافى» مع جيرانها هؤلاء المستضعفين فى النظام العالمى الجديد !!

عزيزى القارىء

ولما كانت العبرة فى السياسة بالأدلة المادية ، فإن رئيس الحكومة الإسرائيلية «شيمون بيريز» قد اعتبر نفسه ـ منذ سنوات ست هى عمر كتابه «شرق أوسط جديد» ـ فيلسوف السلام والتعاون الاقتصادى ، ثم عاد بين عشية وضحاها ليفعل مالم يفعله سلفه «رابين» لقد تكلم وتحرك وتنفس كجنرال اسرائيلى ، مؤمن حتى النخاع بحتمية الرد العسكرى الباطش على أعمال المقاومة التى يقوم بها «حزب الله» دفاعا عن حقوق الشعب اللبنانى المشروعة ، فى العيش على كامل أرضه ممارسا سيادته عليها دون تجزئة ؟

وفى ظل اتفاقيات لا يعلم حقيقتها الا الإسرائيليون أنفسهم ، تشكل محور عسكرى جديد فى المنطقة : اسرائيل مع تركيا ، واسرائيل مع أمريكا .. بينما الدول العربية ـ باستثناء مصر وسوريا ـ لاتحرك ساكنا ردا على العدوان !

إلا أن النظر الى الأمور بشمولية أكبر ، يجعلنا نقول إن الأمة العربية فى حاجة الى اعادة النظر فى كيفية علاج «المسيرة السلمية» برمتها ، فسوريا ولبنان اللتان لازالتا فى مرحلة صعبة من المفاوضات مع اسرائيل محتاجتان الى مزيد من الدعم السياسى والاستراتيجى لموقفهما ، وإذا كانت مصر هى الدولة العربية الوحيدة التى تضطلع بتلك المسئولية القومية الآن ، فإن الموقف قد صار يحتم على جميع شعوب الأمة العربية اتخاذ اجراءات أشمل تضمن عدم وقوع عدوان جديد من اسرائيل على أى أراض عربية وليس لبنان فحسب كما أن على العرب علاج الخلل الحادث فى صفهم باتمام المصالحة العربية بين دول الخليج وشعب العراق الذى يئن تحت الحصار منذ ستة أعوام ، مع انتفاء جميع أسباب هذا الحصار حاليا !

عزيزى القارىء ..

لقد أتى الربيع هذا العام بما لايسر ، وبما لم يكن فى الحسبان ، ومع أن الربيع هو فصل ازدهار الطبيعة وفصل النسيم العليل ، فإنه قد أتى هذا العام ملبدا بغيوم الحرب والعدوان الإسرائيلى وعودة أجواء المحاور العسكرية الى المنطقة ، وجاء نسيمه يحمل رائحة دم أطفال الجنوب اللبنانى وشهداء حزب الله ، فمطلوب من العرب جميعا أن يصنعوا لأنفسهم ربيعا جديدا حقيقيا ، يحمل نسيمه رائحة السلام العادل ، وتزدهر فيه زهور الرخاء والاستقرار وأحلام الشرق الأوسط ، الجديد ، أو الشرق الأوسط المزعوم !

«المحـرر»

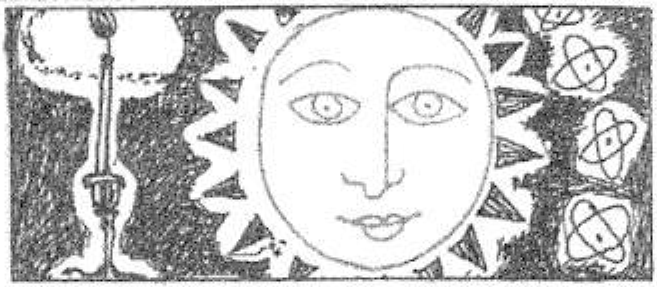
الإبداع وقياداتنا الاجتماعية

بقلم : د . مصطفى سويف

المقدمة الأولى لهذا الحديث أننا فى أشد الحاجة إلى تنشيط مايسمى بالتفكير الإبداعى ، أى التفكير الذى يؤدى إلى حلول مبتكرة لمشكلاتنا الاجتماعية التى لم يعد يجدى فى حلها أى قدر من التفكير التقليدى ، والمقدمة الثانية أنه رغم إلحاح هذه الحاجة وجدية التهديد «لحاضرنا ومستقبلنا» الناجم عن تعطيل الاستجابة لها فإن العوائق الاجتماعية التى تغل انطلاق هذا التفكير «الإبداعى» فى حياتنا كثيرة ومتنوعة ، بل وتزداد تفشيا واستشراء .

وقد حاولنا حصر هذه العوائق فوجدناها تنتظم فى أربع فئات على النحو التالى:

عوائق ترجع إلى صفات اكتسبها سياق حياتنا الاجتماعية من خلال خبرات الدفع والتدافع التى حاقت بنا وانزلقنا إليها ، وأخرى تتحمل مسئوليتها قياداتنا الاجتماعية بما تؤديه من أدوار فى جميع مجالات حياتنا السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية .. الخ ، وثالثة ترتبط بالأسلوب الذى تنتهجه شرائح المجتمع لدينا ومنظوماته فى تعايشها ومايجرى بين بعضها البعض من تفاعل ، والفئة الرابعة تحوى بعض خصائص النموذج الشائع للشخصية فى مجتمعنا . وقد سبق لنا أن تحدثنا فى أمر السياق الذى نحيا فى كنفه وأوضحنا كيف انتهى به الحال إلى أن أصبح عالماً من السدود والقيود يوشك أن يغلق جميع منافذ التهوية أمام كل مظنة إبداع فى العلم أو فى الأدب أو فى الفن أو فى الصحافة أو فى شئون الحياة السياسية أو الاجتماعية .. الخ ، مستعينا على ذلك بكل مافى الجعبة من أغلال مادية ومعنوية ، وقد آن الأوان فى حديثنا الراهن لأن ننظر فى أمر الفئة الثانية من عوائق الإبداع لدينا .



قياداتنا الاجتماعية

من أهم وجوه التفرقة بين نظرة الباحثين القدامى والعلماء المعاصرين إلى موضوع القيادة أن القدماء كانوا ينظرون إلى القيادة بافتراض كونها صفة أو خصلة من خصال شخصية القائد ، فهو قائد لأن هذه الخصلة متوافرة فيه . أما الدارسون المحدثون فيرون أن القيادة مجموعة من «الأدوار» الاجتماعية يقوم الشخص بها فى حياة الجماعة التى ينتمى إليها . ويقصدون بمصطلح «الدور» الإشارة إلى مجموعة المهام التى يؤديها الفرد أو يُتوقع منه أن يؤديها بمقتضى شغله مكانة معينة أو منصبا بعينه فى جماعته أو مجتمعه . فالشخص الذى يشغل مكانة الأب فى الأسرة يقوم بالفعل ويُتوقع منه أن يقوم بأداء عدد من المهام تكوّن فى مجموعها الدور الاجتماعى للأبوة .

وكذلك الحال بالنسبة لمن يشغل مكانة الأستاذ فى معاهد العلم ، ومن يشغل مكانة الصديق .. الخ ، وعلى هذا النحو يقرر الباحثون أن القيادة دور أو أدوار .

وفى هذا السياق نجد كذلك أن العلماء الاجتماعيين المحدثين عندما يستخدمون مصطلح القيادة أو القائد لايقصدون الإشارة إلى أى فئة بعينها من القادة ، كزعماء الأحزاب أو القادة العسكريين أو الحكام السياسيين .. الخ ، ولكنهم يشيرون إلى الجذر الكامن وراء هذه الأنواع جميعا ، وهو يتمثل فى مجموعة المهام التى تمكن مؤديها من التحكم «بالمعنى العام حسناً كان أو سيئاً» أى إحداث أقدار متفاوتة من التغيير والتعديل فى نظام حياة الجماعة ، وفى تنظيم أفعالها ، فكل من له هذه الصلاحية أو الصلاحيات يعتبر قائما بدور ، أو أدوار قيادية ، صغرت الجماعة «لتصبح فى حجم الأسرة أو ثلة الأصدقاء» أو كبرت «لتشمل المجتمع العريض بأسره» . هذه هى القيادات الاجتماعية كمصطلح فى العلوم الاجتماعية ، وبهذا المعنى نستخدمها فى مقالنا الراهن.

وتقوم القيادة دائما بعدة أدوار لا بدور واحد . وأشد تصنيفات هذه الأدوار بساطة تقسيمها إلى صنفين : تندرج تحت أحدهما مجموعة الأدوار التى يتناول

القائد بها العمل الذى تتصدى له الجماعة ، كأن تكون بصدد مشروع بناء مصنع ، أو شق قناة .. الخ ، ويضم الثانى جملة الأدوار التى يتناول القائد بها جميع العلاقات الإنسانية التى تتشابك داخل الجماعة ومايطرأ على هذه العلاقات من تغيرات بالتأزم أو الاحتقان أو التفجر .. الخ أثناء سير العمل فى المشروع ، وتشير جميع البحوث الميدانية فى المجال إلى أن كلا الصنفين لازم لزوما لاشك فيه لإنجاح حياة الجماعة . وتشير كذلك إلى أن أحد مقاييس كفاءة القائد يتمثل فى درجة تمكّنه من التوفيق بين مقتضيات الصنفين من الأدوار معاً .

القيادة والإبداع

ونعود الآن إلى سؤالنا الرئيسى الذى من أجله نبسط هذا الحديث .

ماذا عن تأثير الأدوار التى يقوم بها قادتنا على ما يمكن أن يكون قائما من إمكانات إبداعية عند الأفراد الواقعين فى دائرة فاعليتهم ؟ والإجابة الأمينة هى : هناك ما نرجوه ، ولكن هناك مانجده ، والفرق بينهما شاسع ، فما نرجوه على ضوء المقدمات التى فرغنا للتو من عرضها يتلخص فيما يأتى : من ألزم الأمور للقائد أن يتقن أداء الصنفين الكبيرين من أدواره القيادية ، «الصنف المتجه إلى العمل ، والاخر المتجه إلى العلاقات الإنسانية» بحيث يستطيع الاقتراب ما أمكن من استحداث الحد الأمثل من الانسجام بينهما .

ويتجلى هذا الحد الأمثل فى أن تنتظم العلاقات الإنسانية بالصورة التى تتيح للعمل أفضل انطلاق ممكن ، وفى الوقت نفسه أن ينتظم سير العمل بالصورة التى تعود على العلاقات الإنسانية التى تكتنفه بأفضل عائد ممكن . فإذا تأملنا هذه الصيغة بالقدر المناسب من أعمال الفكر وجدنا أنها تسلمنا بالضرورة إلى الصيغة التالية : إن أعلى مستويات الكفاءة القيادية تتجلى فى تمكن القائد من تنظيم شروط العمل ونمط العلاقات الإنسانية بين العاملين من حوله بحيث ينطلق العمل بصورة إبداعية كلما دعت الضرورة . وهذا بالضبط هو مانرجوه .

أما الذى نجده فشىء آخر تمليه أساساً عناصر معاكسة شديدة الذاتية فى نفوس قياداتنا «ولايعنى ذلك أنهم يكونون على وعى بها فى معظم الأحيان» ، ومن ثم فإنها تتجه بمناخ العمل «فى مجالاته المختلفة» إلى وأد أجنّة الإبداع فى أرحام حامليها ، وفى هذا الصدد نستطيع أن نحدد أربعة عوامل على النحو الآتى :

عامل نسميه «المحورية/ الهامشية» ، وآخر نسميه «الأمية القيادية» ، وثالث يكرس الخلط بين مفهومى القيادة والرئاسة ، والرابع نصفه بأنه قصور شديد فى النضج اللازم لشخصية من يتولى القيادة . وفى البقية الباقية من المقال نتناول كلا من هذه العوامل بالقدر المناسب من التفصيل .

المحورية/ الهامشية

تقسيم أي مجال من مجالات النشاط الإنساني باعتبار أنه يضم موضوعات تتوزع فيما بينها على هيئة دوائر متفاوتة الاتساع حول مركز واحد أو مشترك بحيث ترمز هذه الدوائر في تواليها إلى تدرج في الأوزان النسبية للموضوعات منسوبة إلى مانراه على أنه الموضوع الأساسي مسألة لا غبار عليها بوجه عام ، ولكن هذا التقسيم شيء وتقسيم المجال إلى محوري وهامشي شيء آخر . وأوضح الفروق بين التقسيمين أن الأول يشير صراحة إلى التدرج في أهمية الموضوعات الموزعة على المسافة بين المركز والمحيط بينما يطمس التقسيم الثاني أية فروق بين كل ماهو قائم خارج المركز ، ويواجهنا بمقولتين اثنتين هما : المحوري «ويعني المهم» والهامشي «ويعني غير المهم أو التافه» ، وهو أمر تترتب عليه نتائج بالغة السوء من الناحية العملية ، ناهيك من كونها تنطوي على قدر كبير من التعارض مع مقتضيات النشاطات الحية اجتماعية كانت أو نفسية أو حتى بيولوجية .

ومع ذلك فهذا بالضبط هو ما تفعله قياداتنا في معظم مجالات حياتنا الاجتماعية، فبمجرد أن يتولى الشخص منصبا قياديا نجده يخطو في السبيل إلى تقسيم مجال فاعليته القيادية إلى ماهو محوري وماهو هامشي . ويصحب هذه الحركة في جزئياتها مزيد من الاستئثار بحق اتخاذ القرار فيما يتعلق بما هو محوري . ولما كان الإطار الأساسي للتنظيم الإداري في الدولة المصرية ينحو إلى تغليب المركزية على اللامركزية فقد أصبح في استطاعة كل قيادة رسمية لدينا «صغر شأنها أو كبر» أن تعمل تقسيم المحورية / الهامشية في مجال اختصاصها بالسرعة التي تراها وبالإحكام «أو التعنت» الذي ترتضيه . والشيء نفسه يصدق على القيادات الاجتماعية غير الرسمية لأن مجتمعنا لايزال «لأسباب تكمن في مستوى تقدمه أو تخلفه الحضاري» يكرّس أنواعاً من مركزية السلطة لاحصر لها في منظوماته الفرعية . فإذا نظرنا إلى هذه الحقائق مجتمعة لكي نستخلص مغزاها بالنسبة لموضوعنا الرئيسي في هذا المقال فالنتيجة التي تفرض نفسها علينا هي أن إمكانات الإبداع لدى الغالبية العظمى «مادمنا نعمل جميعا في مجالات تحكمها قيادات رسمية أو غير رسمية ومادامت القيادات لايمكن إلا أن تكون أقلية عددية» من مواطنينا تظل محكوما عليها بألا تنشط إلا في نطاق «الهامش» أو «التافه» . وحتى لو كانت القيادات ذاتها تتميز بإمكانات إبداعية رفيعة المستوى «وهو أمر يندر أن يشهد واقعنا بصحته» فسيظل هناك الحجم الهائل للإمكانات المهدرة نتيجة لتهميش الجميع «أي للحكم عليهم بألا ينشطوا خارج الهامشي» . وفي هذا الموضع يجدر بنا أن نتذكر أن من أهم شروط الانطلاق الإبداعي لأي نشاط أن يكون مدفوعا عند

صاحبه بدافعية شديدة . كذلك يجدر بنا أن نذكر أن أحد مصادر تنشيط الدافعية عند الفرد المتوجه إلى الإبداع شعوره واقتناعه بالأهمية الشديدة للعمل الذى يقوم به ومن ثم يكون تحريكه لكوامن الإبداع . فإذا اجتمعت من حوله الشواهد تشهد له أناء الليل وأطراف النهار بأن هذا العمل هامشى أى تافه ، وأن المجال المحيط بهذا العمل هامشي كذلك فلن تقوم لدوافع الإبداع لديه قائمة . هذه هى البصمة الأولى من بصمات قياداتنا الاجتماعية على إمكانات الإبداع فى نفوس مواطنينا

الأمية القيادية

المقصود بالأمية القيادية فى سياقنا الراهن الإشارة إلى جهل معظم قياداتنا بالشروط اللازمة لانطلاق طاقة الإبداع حيثما دعت الضرورة ، ونخص بالذكر فى هذا الصدد شرطين ، هما : توافر مواصفات بعينها فى الأشخاص المعهود إليهم بالعمل ، وتنظيم علاقات العمل فيما بينهم حسب صياغات بعينها ، وأنا لا أشير هنا إلى الصفات التى يُختار على أساسها الأشخاص الذين يتولون مسئوليات مكاتب القيادات ، ولا إلى من يعينون نوابا أو مساعدين لهذه القيادة أو تلك ، فهؤلاء لهم قصة أو قصص أخرى ، ولا أشير كذلك إلى صفات فى العاملين الذين يملأون مكاتب الدولة للقيام بأعمال نمطية لاسبيل إلى تجاهلها . ولكنى أتناول الأمر من جانب يمس واحدة من أهم صلاحيات القيادة وخاصة فى عالم القيادات الرسمية ، وهى صلاحية تشكيل لجان ليتدارس الأعضاء فيها مشكلة ما ، ولكى يفكروا معاً فى اقتراح أفضل الحلول الكفيلة بالتغلب عليها ، ويشيع بين مواطنينا فى هذا الصدد قول مؤداه أن هذا الإجراء هو الطريق إلى قتل المشكلات كمداً لا بحثاً ، وهو قول يبدو متشائما ، ومع ذلك فنحن نعلم أنه وليد خبرة صادقة إلى حد كبير رغم مرارة هذا الاعتراف . والسؤال الواجب هو : لماذا تفشل معظم هذه اللجان فى الوفاء بما يعقد عليها من آمال ؟ والإجابة الصريحة هي : تفشل هذه اللجان لأسباب متعددة ، فى مقدمتها مواصفات الأعضاء ، ونمط انتظام شبكة العلاقات الجامعة بينهم . فالأمر الذى ينبغى للقيادات التى تأمر بتشكيل اللجان أن تعرفه وتعترف به «على مستوى التصور والإجراء» أن بعض الأشخاص يصلحون والبعض لايصلحون أن يكونوا أعضاء فى لجان . ولايعنى ذلك أن الذين لايصلحون هم أشخاص سيئون ، فهذا غير صحيح ، إذ قد يكونون جادين مستقيمين ، وقد يكونون على علم بالكثير من عناصر المشكلة التى يتصدون لحلها ، وقد يكونون ذوى أقدمية بأى صورة من الصور فى مجال التصدى للمشكلة ، ولكن هذه الأمور جميعا لاتكفى لضمان سلامة القرار بأن

يصبحوا أعضاء في هذه اللجنة أو تلك . ذلك أن عضوية شخص في فريق عمل ما تتطلب بصورة جوهرية توافر صفات معينة فيه منها الاستعداد للتعاون ، والقدرة على رؤية الموضوع من وجهة نظر الآخر ، والقدرة على تأجيل التعبير عن وجهة نظره الخاصة تأجيلا مؤقتا ، وتركيز الانتباه والاهتمام على نقاط الالتقاء أكثر من التركيز على نقاط الافتراق ، والمرونة الذهنية والوجدانية التي تيسر على صاحبها تعديل وجهة نظره ، والاستعداد لمكافأة الآخر في الوقت المناسب وبالقدر المناسب .. الخ ، وهي جميعا خصال من شأنها أن تيسر سلاسة التفاعل بين أعضاء الجماعة. صحيح أنها لاتكفي وحدها لترشيح الشخص للعضوية ، إذ لابد من أن يتوافر لديه قدر من المعرفة الفنية بالمشكلة المطروحة ، ولكنها ضرورية وبدونها لا يقوم عمل جماعي ، بل نجدنا إزاء مايمكن تسميته عملا تزاحميا ، يتزاحم فيه عدد من الأفراد بحناجرهم قبل عقولهم ، ويتراكم من جراء تزاحمهم حفنة من هشيم أفكار يختلط فيها التافه بالقيّم والسطحي بالعميق .

أما عن شبكة العلاقات بين الأعضاء فأفضل النماذج لتيسير إبداع الجماعة ما أتاح الحد الأمثل لكثافة التخاطب أو التواصل بين الأعضاء جميعا ، وهو ما يقتضي أن تعمل قيادة الجماعة بأعلى درجات اليقظة حتى تحتفظ لتيار التواصل باستمرار تدفقه دون تعطيل ، وأن تعمل كذلك بأعلى درجات الحياد حتى تتبلور توجهات التيار في كل خطوة من خطواته حسب المقتضيات الموضوعية لعناصره وسياقاته ، على أن تحتفظ هذه القيادة في الوقت نفسه بحس التوجه إلى الهدف وتواصل الاحتكام إليه والعمل بمقتضاه دون أن تتجاوز حد أدنى من التدخل الذي يلزم لصيانة التيار من التوهان أو التشتت .

فإذا تركنا حديث النماذج لننظر فيما يشهد به واقعنا وجدنا أن الحديث في وادٍ والقيادات في وادٍ آخر ، فالأعضاء يُختارون لأية اعتبارات إلا هذه الفئة من المؤهلات الشخصية والوجدانية والعقلية التي أشرنا إليها ، ولايبدو في الأفق أبدا أي تنبه إلى هذا الموضوع ، وشبكة العلاقات الإنسانية التي تُنسج بينهم تتراوح في تنظيمها غالبا بين نمطين ، أحدهما نمط الفوضى التي تترتب على العفوية ولا تؤدي إلا إلى التخبط والتعثر من حين لآخر ، والنمط الثاني يسميه أهل الاختصاص بالنمط الإشعاعي ، فالقائد يحتل المركز وكل خيط من خيوط التواصل يبدأ من القائد ليصل مباشرة إلى هذا الفرد أو ذاك ، ويكون هو المسار المشروع للتواصل ذهابا وإيابا بين

طرفيه . وعلى هذا النحو يتبلور الموقف فيما يشبه رقصة التنورة ، ويدور المحور وتدور كل الخيوط حوله ، ومعه ، وبإيقاعه ، تلك هى البصمة الثانية لقياداتنا فى مجال الإبداع .

البصمتان الثالثة والرابعة

ثم نأتى إلى هاتين البصمتين ، وتنطوى إحداهما على الخلط بين القيادة والرئاسة، وتفصح الثانية عن قصور فى النضج الاجتماعى لدى الأغلبية من قادتنا . وقد جمعت بين البصمتين فى فقرة واحدة لما يقوم بينهما فى الواقع من تشابك أو تداخل ودعم متبادل .

القيادة شىء والرئاسة شىء آخر ، والخلط بينهما إنما تجيزه الغفلة أحيانا والاستسهال أحيانا أخرى ، ثم تدعمه نوازع الضعف البشرى وفى مقدمتها الصلف أو الغرور ، وكلاهما يخفى وراءه ضعفا شديدا للثقة بالنفس ، والمقصود بسلوك الرئاسة فى سياقنا الراهن الاقتصار فى محاولات تشغيل الآخرين على استخدام أسلوب واحد هو إصدار الأوامر إليهم بتنفيذ أعمال بعينها ، وغالبا ماتكون الأوامر مقتضبة فلا تكشف عن التصور الذى يحمله الرئيس فى ذهنه بشأن مقتضيات ميدان العمل ولاتفصح عن الخطة التى يحاول أن يهتدى بهديها وهو يصدر أوامره وتوجيهاته ، ويشيع بين مواطنينا تسمية هذا الأسلوب «بالمريسة» . وأسوأ مافى هذه المريسة أنها تخرب ينابيع التفكير الابتكارى فى أعمق أعماقها ، لأنها تدفع متلقيها قسراً إلى المران أو الاعتياد على الفعل الذى لايصحبه تصور أو تخطيط ، أى تدفعهم دفعاً إلى الفعل الآلى «كأنما هم أمساخ بشرية لما يعرف بالروبوت» فى حين أن المهمة الأساسية للتنشئة فى عالم الإنسان عموما وللتنشئة على طريق الإبداع بوجه خاص هى تدريب النشء على التخلى عن كثير من مصادر الآلية فى السلوك «وهى المصادر التى تتجمع تحت اسم الأفعال المنعكسة ، أو العادات ، أو الدوافع القاهرة العمياء .. الخ» والاتجاه المتزايد نحو الفعل الإرادى الذى تستوجبه الحساسية الموضوعية «أى الإدراك المرهف» للمشكلات المتجددة فى أى موقف من مواقف الحياة العامة أو الخاصة ، وتلك هى الخطوة الأولى نحو الإبداع .

والأمر الذى لاجدال فيه أن أسلوب «المريسة» هذا يقدم الكثير من المغريات للقائمين عليه ، وأول هذه المغريات الاستسهال ، فممارسته أيسر كثيراً «على المدى القصير بوجه خاص» من أداء أدوار القيادة ، ثم إنه بمجرد البدء فى ممارسته

لايلبث أن يقدم الممارس إغراء أعمق ، وخاصة بالنسبة لأصحاب النفوس الهشة . وأفضل وصف لهؤلاء فى سياقنا الراهن أنهم يعانون من ضمور الوجدان ، ومن ثم يكونون عاجزين عن العطاء ، مع أن مطلب العطاء شرط ضمنى من شروط كفاءة القيادة ، وخاصة فى إطار الدور أو الأدوار المطلوبة بالنسبة للتناول السليم للعلاقات الإنسانية كما يعيشها الأفراد العاملون مع القيادة . ويدور هذا العطاء بجميع أشكاله ودرجاته داخل مفهوم الرعاية ، رعاية احتياجات هؤلاء الأفراد التى تؤثر فى أدائهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بدءاً من احتياجهم إلى التشجيع بين حين وآخر ، وإلى المكافأة بمضامينها المعنوية والمادية ، وإلى أنواع بعينها من الاعتراف.. الخ .

ومن أبلغ الحكم فى هذا الصدد قول القائل : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته». وهكذا تفضى «المريسة» إلى الاستسهال ، والاستسهال إلى طمأنة أصحاب النفوس الهشة وذلك بإعفائهم من واجب العطاء ، وبذلك يبقى قصور النضج لديهم مستوراً ، ومع هذا الستر يزداد التشبث بالمريسة ، وهلم جرا .

وبعد

هكذا تكتمل جولتنا فى هذا المقال بين مانرجوه من قياداتنا الاجتماعية فى حق الإبداع ، ومانجدهم فاعلين ، والفرق شاسع بين الطرفين . فما نرجوه تمليه الأدوار التى تضمن وتعنى فى نهاية الأمر كفاءة القيادة فى إطلاق العنان لقوى التفكير الإبداعى فى نفوس العاملين فى أى مجال ، أما الذى نجده فأربع بصمات تضعها القيادات فإذا هى أغلال تغل إمكانات هذه النفوس .

هذه البصمات هى : «المحورية/الهامشية» ، و«الأمية القيادية» ، والخلط بين القيادة والرئاسة ، وقصور النضج الاجتماعى الذى نشهده فى كثير من القادة ، والنتيجة النهائية أننا إذا أردنا حساب الرصيد الختامى لقياداتنا فى حق الإبداع «على المستوى المجتمعى» فالرصيد بالسلب لا بالإيجاب ، ولاجدال فى أنها نتيجة قاتمة ، ولكن قتامتها ترجع إلى واقعيتها . وعندما يتوافر لدينا من الشجاعة مايعيننا على الاعتراف بصحتها، من الاستبصار ما يمكننا من التفكير الجاد فى كيفية مواجهتها ، عندئذ نستطيع القول بأننا بدأنا الخطوة الأولى على الطريق نحو مانرجوه .

حدود حرية التعبير

بقلم : د . نصار عبد الله

□رغم أن العالم الغربى المتقدم ذاته كثيرا ما ينتهك الحقوق الأساسية للإنسان ، وكثيرا ما يغض النظر عن مثل هذه الانتهاكات خاصة حينما تكون صادرة من حكوماته أو مؤسساته أو أفراده ، ضد أفراد ينتمون إلى العالم الأقل تقدما ، رغم ذلك فإن هذا العالم المتقدم كان دائما ولايزال مشغولاً بمتابعة ومراقبة موقف الحريات الأساسية (وفى مقدمتها حرية الاعتقاد والتعبير) ومدى تحققها أو بالأحرى مدى انتهاكها فى المجتمعات الأقل تقدما.

وهو اهتمام يتجلى فى تصريحات مسئولية التى يعبرون فيها بين الحين والحين عن قلقهم أو أسفهم لما يجرى فى هذا البلد أو ذاك من بلدان العالم الثالث، كما يتجلى كذلك بصورة أكبر فى تقارير مراسلى الصحف وأعضاء منظمات حقوق الانسان التى دأبت على تسجيل مدى ما تتعرض له الحريات فى تلك المجتمعات من قمع أو انتهاك ، ثم هو يتجلى بعد ذلك فى الدراسات الأكاديمية التى يقوم بها باحثون متخصصون ينتمون إلى جامعات غربية حين يتخذون من قضية الحرية فى أحد بلاد العالم الثالث موضوعا لدراستهم، والكتاب الذى بين أيدينا مثال لذلك فهو فى الأصل أطروحة تقدمت بها الباحثة السويدية «مارينا ستاغ» للحصول على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٩٣ من قسم اللغة العربية بمعهد اللغات الشرقية جامعة استوكهلم ثم قامت بنشره باللغة الانجليزية بعنوان رئيسى هو «حدود حرية التعبير» The limits of freedom of speech ، يعقبه عنوان فرعى هو «الأدب النثرى وكتاب النثر فى مصر فى ظل ناصر والسادات» Prose Literature and prose writers in Egypt, under Nasser and Sadat ، وعن هذه الطبعة الانجليزية قام المترجم القدير الاستاذ طلعت الشايب بتقديم هذه الطبعة الصادرة باللغة العربية عن دار شرقيات حيث بذل جهدا كبيرا فى



رد كل الاسماء والعناوين والاقتباسات والتضمينات إلى أصولها العربية ، كما كتبت الترجمة بلغة عربية نقية.

دراسة أكثر تحديدا

والواقع أن العنوان الرئيسى «حدود حرية التعبير» يفشى منذ اللحظة الأولى أو ينم على الأقل عن اهتمام الباحثة بقضية الحرية فى جانب مهم من جوانبها ألا وهو حرية التعبير ، فى بلد من بلدان العالم الثالث شديد الأهمية بالنسبة للعالم الغربى ألا وهو مصر ، ورغم أننى لا أعلم على وجه التحديد طبيعة الدراسات التى يهتم بها قسم اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية بجامعة استوكهلم إلا فإننى قياسا على ما أعرفه عن اهتمامات معاهد اللغات بوجه عام ، فإن ما يتعلق بدراسة الحريات الأساسية يخرج فى المعتاد عن دائرة اهتماماتنا التقليدية ، ولا يتناولها الباحثون فيها إلا بالقدر الذى تتصل به بمشكلة أو أخرى من مشكلات اهتمامهم الرئيسى الذى هو اللغة وآدابها ، تاركين مشكلة حدود حرية التعبير وغيرها من جوانب الحرية للمشتغلين بالعلوم السياسية أو الاجتماع أو فى بعض الحالات للمشتغلين بالقانون ، ويبدو أن الباحثة قد فطنت إلى أن دراستها فى ظل العنوان الرئيسى - فضلا عن اتساع مجالها عن الحد المقبول به أكاديميا - فهى تخرج بها عن مجال تخصصها كمشتغلة باللغة العربية وآدابها ، ومن ثم فقد أضافت إلى العنوان الرئيسى ذلك العنوان الفرعى الذى أشرنا إليه منذ قليل وأعنى به «الأدب النثرى وكتاب النثر فى مصر فى ظل ناصر والسادات» .. وهو ما يجعل من دراستها أكثر تحديداً من ناحية وأقرب صلة إلى الأدب (وإن ظلت مع ذلك واقعة خارج نطاق الدراسات الأدبية) من ناحية أخرى ، بل إن الباحثة لتمعن فى التحديد عندما تنتقل إلى صلب دراستها على ضوء لا يتسق مع العنوان الفرعى ذاته حين تقتصر على القصة والرواية وكأن القصة والرواية هى كل فروع الأدب النثرى ، وكأن تجربة كتاب القصة والرواية هى تجارب كل كتاب النثر ..

لاحظ أن عنوانها الفرعى هو الأدب النثرى و «كتاب النثر» بدون تخصيص .. وهو ما كان جديراً بأن يدخل فى ميدان دراستها .. كتاب المقال بكل أنواعه .. بل وسائر أصحاب المؤلفات النثرية .. فهم كتاب نثر طالما أنهم لم يكتبوا كتاباتهم نظماً .. ومع هذا فإن عدم الإتساق بين عنوان الدراسة وصلبها ليس هو الخطأ

حــدود حــرية التعبير

المنهجي الوحيد الذي وقعت فيه الباحثة .. حيث وقعت في خطأ أكثر فداحة عندما اقتصرت على دراسة القصة والرواية كميدان لدراسة مشكلة حدود حرية التعبير

فالقصة والرواية كلاهما ليسا أبرز مجالات الابداع التي يتجلى فيها الصدام بين المبدع وبين السلطة الخارجية وبوجه خاص السلطة السياسية ، وليسا كلاهما بالتالي هما المناسبة التي يشعر الكاتب إزاءها أكثر من غيرها أنه قد تم تضيق الخناق عليه في الكتابة أو النشر أو أنه سوف يتعين عليه أن يدفع ثمن كتابته أو يتحمل تبعاتها سجنا أو تشريدا أو اضطهادا ..

السجن لمعارضة النظام

صحيح أنه في عصر عبد الناصر وفي عصر السادات قد دخل السجن عدد كبير من كتاب القصة والرواية قدمت لنا الباحثة قوائم بأسمائهم وتواريخ دخولهم السجون والمعتقلات .. وصحيح أن بعضهم قد فصلوا من وظائفهم أو نقلوا إلى وظائف أخرى .. وصحيح أن بعضهم قد اضطر إلى النشر خارج مصر .. أو الفرار بنفسه لا بأعماله فحسب إلى خارج البلاد .. لكن هذا كله - باعتراف الباحثة - ذاتها - لم يحدث بمناسبة كتابتهم للقصة أو الرواية ، بل بمناسبة كونهم معارضين للنظام السياسي أو أعضاء في منظمات سرية أو علنية ترى السلطة السياسية أنها تمثل تهديدا لها .. ولعل الكاتب الوحيد الذي تزعم الكاتبة أنه قد اعتقل بمناسبة رواية هو الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي الذي تذكر في ص ٦٣ أنه قد اعتقل بسبب رواية الأرض .. ورغم أنها تذكر هذه المعلومة كواقعة مؤكدة ..فإنها تعود في ص ٧٥ في الهامش لكي تتراجع عنها (انظر هامش ٥ ص ٧٣) ..

والواقع أن هذه الملاحظة وغيرها تدفعنا إلى الشك في أن اهتمام الباحثة الحقيقي هو اهتمام بحرية التعبير الأدبي متمثلا في القصة والرواية في مصر ، وأنه في الحقيقة اهتمام بالحريات الأساسية والسياسي منها بوجه خاص ، وهو كما أسلفنا جزء من اهتمام الغربي المتقدم بما يجري في هذه البقعة أو تلك من بقاع العالم الأقل تقدما .. خاصة حينما تكون هذه البقعة هي مصر .

ومع هذا يظل هذا الكتاب مرجعا شديد الأهمية بما اشتمل عليه من معلومات وإحصاءات موثقة عن تاريخ الواقع السياسي والثقافي المصري ، خاصة في فصليه الثاني والثالث اللذين يدوران حول «الحكم العسكري وحرية الكلمة» و«الأدب والنشر تحت مظلة الدولة» .. وهو ما يجعله جديرا بالقراءة من قبل كل مهتم لا بالثقافة أو الأدب بل من جانب كل مهموم بالحرية أيا ما كانت دوافعه إلى هذا الاهتمام .

أقوال معاصرة

- «لن أتراجع عن روح الاجتهاد والتجديد فى الفكر الاسلامى»

الامام الاكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى

- «منذ أن خرجت من السجن لم يحدث أبدا للمدعى عليها أن دخلت غرفة نومى ، وأنا يقظ»

رئيس جنوب افريقيا

- «ليس البقر هو المصاب بالجنون وإنما البشر!

ستيفن دوريل
وزير الصحة البريطانى

- «قصائد المتنبى أكثر حداثة من كل ما يكتب اليوم»

الشاعر السودانى مصطفى سند

- «الحياة محكومة بالصدفة»

المخرج البولندى كريستوف كيسلوفسكى

- «لحسن حظ الصحفيين ان الساسة فى بعض الاحيان - أكثر منا غباء»

الصحفى الانجليزى مايكل ايليوت

- «إعادة إحياء الاتحاد السوفييتى أمر مستحيل»

رئيس وزراء اوكرانيا يفين مارشوك

- «تعلمت السفر مع الطيور والغيوم ، ومع الشمس وانا جالس على سطح بيت جدى»

الشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى

- «غدا ستوجد ارستقراطية تستعمل الانترنت ، اما العمال فسيكتفون بمشاهدة التلفزيون»

الاديب الايطالى امبرتو اكو

- «التنوع يولد الإبداع»

مايكيل آيزنر
رئيس شركة ديزنى


الإمام الأكبر
شيخ الأزهر


نيلسون مانديلا


عبدالوهاب البياتى

القفز على الأشـــواك

بقلم : د . شكرى محمد عياد

ملحمة صحراوية

كلمة «ملحمة» كلمة فخمة، واثقة من نفسها ، لا تهرب إلى هذه التسمية المبهمة الجديدة «نص» التى لا تلتزم بشىء . إذا وصف الناقد عملاً ما بأنه «ملحمة» فهو يضمه إلى عائلة الأعمال الكبرى فى الآداب القديمة : الإلياذة ، الأوديسة ، الإنيادة، وقد يكون لهذه الأعمال الثلاثة التى يقوم عليها الأدب الكلاسيكى الأوربى نسب إلى ملحمة «جلجامش» البابلية أو إلى قصة الملاح الغريق المصرية القديمة.

ويكاد يكون من المجمع عليه لدى النقاد أن كل عمل من هذه الأعمال هو المرجع والأصل لكل مانشأ بعده من أعمال مسرحية أو قصصية أو غنائية فى لغته، كما أنه المحك لصفاء اللغة ونقائها وجلالها وجمالها . وعندما نشأت الآداب الأوربية الحديثة وجد مؤرخوها من الضرورى أن يبحثوا لها عن ملاحم قومية تمثل الجد الأعلى فنسجوا حول شخصية «أورلاندو» ، وهو مزيج من الواقع التاريخى والخيال الجمعى مثل عنترة عندنا، عدداً من الملاحم الفرنسية والايطالية ، وفعل الأسبان مثل ذلك ببطلهم «السيد» ولكن الآداب الأوربية الحديثة تطورت بعيداً عن قصص البطولات والخوارق، وصنفت نماذجها الفنية واللغوية الأساسية فى الشعر المسرحى ، وفى ذلك الفن النثرى الأكثر تواضعاً ، والأقرب إلى الحياة اليومية ، فن الرواية .

على أن النقد الحديث ربما وصف عملاً معاصراً بأنه عمل «ملحمى» أى شبيه بالملحمة، وأحيانا يقول إنه «ذو أبعاد ملحمية» دون أن يجرؤ على إدخاله فى جنس الملاحم، فمن المسلم به تقريباً أن عصرنا بعيد عن عصر البطولات، عصر الملاحم، والأدباء وغير الأدباء يلذ لهم أن يفكروا فى عصرنا هذا على أنه عصر النهايات، لا على أنه عصر البدايات، وأن أحسن ما يمكنهم أن يصنعوه باللغة هو أن يفككوها، لا أن يبنوها، وأن أحسن ما يحققونه بأنبهم هو أن ينتشر اليوم بكل وسائل الانتشار، ولا يهمهم أن يعيش إلى



الجيل القادم، أو حتى إلى السنة القادمة ولعلهم محقون فهم يرون كبارهم ـ أعنى كبار السن منهم- يطويهم النسيان إذا غفلوا عن تنبيه الناس إلى وجودهم كل حين- بل كل يوم إن استطاعوا - وهم أحياء .

ومع ذلك فعصرنا هذا مريض بالثقافة لا أظننا كنا نسمع أو نقرأ كلمة «ثقافة» بمثل هذه الكثرة . فهل هو مرض من أمراض الحساسية ، بمعنى أن القليل من الثقافة ، مثلا ، يمكن أن يجعلنا نعطس؟ المهم على كل حال أن الأدب المريض بالثقافة ينقب عن الأساطير في كتب الأنثروبولوجيا ، يستلهمها في شعره ونثره، كما أن النقاد يبحثون في الشعر الحديث والنثر الحديث عن أساطير قديمة متنكرة . وهذا يجعلنا نتساءل : هل هو حنين إلى البراءة الأولى ؟ هل هي جرعة مضادة لما يحاوله العلم في أحدث طموحاته من الكشف عن نشأة الكون ونشأة الحياة، أم إنها - على العكس - محاولة موازية لأن هدفها أيضا هو الكشف عن أعماق الذات، بكل ما فيها من تعقيدات؟.

إن صح ذلك فإن أدباء العالم الثالث - أى العالم الأقرب إلى الفطرة - يكونون فى وضع أفضل من أدباء العالم المتقدم لإنتاج أدب قادر على اكتشاف الأصول الأولى لما يعانيه إنسان اليوم من مشكلات لا حصر لها ، أى لإنتاج أدب أكثر تقدما!

فبديهى أننا ، فى أى جزء من العالم، لا يمكننا - وقد عرفنا نعمة الثقافة أو لحقتنا لعنتها - سيان - أن نكتب بعقلية شاعر مثل هوميروس يقص مغامرات الآلهة كما يقص مغامرات الأبطال (مع اسقاط سائر البشر من الحساب) . نحن نتمتع بعقلية مزدوجة ، جانب منها علمى والجانب الآخر خرافي . نعيش العلم والسحر معا، ونمارسهما معا . ومع أن إخواننا فى العالم المتقدم سبقونا ببضع مئات من السنين ، فالظاهر أنهم أصبحوا يبحثون عن هذا المزيج ، لأن احتمالات العلم أصبحت مرعبة بقدر ما هى جذابة ، وإذا كانوا قد اخترعوا قصص الخيال العلمى ليصلوا بهذا الشعور المتناقض إلى نوع من التوازن ، فإنهم سيكونون أكثر سعادة ، فيما يبدو، لو استطعنا أن نقدم لهم صورا جديدة من الملاحم التى يتواشج فيها الواقع والأساطير ، والمسألة - من جهتنا - ليست مسألة شطارة ، أو رغبة فى الضحك على ذقونهم، بل أن نكون كما نحن فى الحقيقة، أن نتغلب على تمزقنا أن نكتب كما نشعر فى أعمق أعماقنا .

اقتباسات لم تعد تدهش القارئ

إبراهيم الكونى مثقف صحراوى مشغول بمحنة الإنسان . ولأنه يعيش فى

العصر فإنسان العصر هو موضوعه ، ولأنه قادم من أعماق الصحراء الكبرى حيث كل شيء كما تركته الطبيعة منذ عشرة آلاف سنة فهو يملك تلك الرؤية الفريدة التي تضع كل أحداث التاريخ وكل ما نسميه «ثقافة» على مستوى زمني واحد . النصوص التي يضعها على رؤوس الفصول في ملحمته «المجوس» تشمل أساطير الطوارق (التي لا عمر لها) ونصوص العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم واقتباسات من جيمس فريزر ولفي شتراوس واريك فروم ومن النفري ومن الرحالة العرب والروس . لم يعد القارىء يدهش لمثل هذه الاقتباسات فالكاتب لا يكتب إلا بعد أن يقرأ الشيء الكثير ليخرج من حيرته أمام لغز الوجود وعندما يعوزه الجواب المقنع تراه ينقض كل ما قرأه ، ولعله لا يستبقي منه إلا أشياء صغيرة كأعواد القش التي يبني منها القارىء عشه («التناص» الذي يحدثك عنه بعض النقاد شيء آخر اصطنعوه هم ليحيروك !) . وبعد أن ساح «الكوني» ما ساح بين ثقافات أهل الأرض وجد حكمة الحياة كلها في الصحراء . دنيانا هي هذه الصحراء التي بلا حدود ، حيث نجاور الضباب والذئاب والأفاعي ، كما نجاور الماعز والغزلان والودان (يصفه الكاتب كنوع صغير من فصيلة البقر، يسكن الجبال، جمعه كمفرده، ولم أجده في القاموس المحيط).

هذه الصحراء التي بلا حدود ، حيث يشوينا جبار النهار بسياط اللهب، وتؤنسنا عناقيد النجوم بالليل، ويكون الماء أثمن من الذهب، والحلم أصدق من الحقيقة هذه الصحراء هي الوطن الروحي للإنسان . يقتبس الكاتب هذه الفقرة من إريك فروم (فصل «الميعاد» من القسم الأول):

«هذا حدث في كل الديانات ، مؤسسوها قادوا الإنسان إلى الصحراء .. بعيداً عن مصر . ولكن جاء قادة آخرون وعادوا فجروه إلى الوراء نحو مصر جديدة، برغم أنهم أطلقوا على الأخيرة أرض الميعاد.»

اسطورة «واو» وفلسفتها

وأن تكون «مصر» هي القطب الآخر التنين، شيء لا يغضبك إن كنت مصريا، ولا سيما أن الصحراء على مرمى بصرك . أما إن كنت صحراويا فإن «مصر»، الأرض الموعودة أو الفردوس المفقود - سيان - هي دائما في داخلك . كلاكما - إن كنت مصرياً أو كنت صحراويا - مغترب في عالمك : إما أنك خارج من جنتك المفقودة تنشد الحقيقة وتتعذب بها ، وإما أنك في صحرائك يقتلك الظمأ ويصور لك الخيال جنة وارفة الظلال تجري من تحتها أنهار اللبن والعسل . فأنت معذب على كل حال ، لأن الجنة والحياة الأرضية ، كالمثال والواقع ، نقيضان لا يجتمعان . ماذا يبقى للإنسان إلا أن يعيش طبقاً للناموس ، ناموس الحياة والأحياء ويا لها من سعادة هزيلة! لعل هذه الفلسفة الكامنة وراء أسطورة «واو» عند الطوارق :

«واحات واو في الصحراء ثلاث : واو

الكبيرة (الجنة التى طرد منها أبونا آدم نتيجة لإغراء أمنا حواء) ، وواو الناموس، وواو حريرة . وأما الأخيرة واحة مفقودة . لا يعثر عليها إلا التائهون الذين فقدوا الأمل فى النجاة . تسقى العطشان والضائع ولا تنقذ إلا من أشرف على الموت،ويجمع أولئك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والعطايا والبهجة أنهم لم يروا فى الأحلام مدينة تفوقها جمالاً أو ثراءً . لم يدخلها أنس إلا وخرج منها محملا بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت . ولكنهم نبهوا أيضاً إلى عدم جدوى البحث عنها فما إن يخرج الضيف من أسوارها حتى تختفى . ويتوارث أهل الصحراء رواية تقول إن البحث عنها يجرى منذ آلاف السنين .» رأس الفصل السابع من القسم الأول .

هذه الأسطورة الموغلة فى القدم لاتزال أسطورة طازجة، حية يعيشها أبناء الصحراء، ولا يزال الكاتب الصحراوى (الحديث) قادراً على أن ينسج منها ملحمة لإنسان كل العصور، وهو ذلك الإنسان الذى يبحث عنه كل واحد منا فى أعماقه: الإنسان الذى يعذبه شعور موجع بالفقد، ودون أن تمهله أحداث حياته حتى يتبين حقيقة هذا الشعور يجد نفسه منغمساً فى صراعات لا تنتهى، ضد قوى حقيقية أو موهومة، يأمل من خلال ذلك أن يعوض ما فقده، ولكن لاسبيل إلى ذلك، فكل نعمة تتحقق لاتلبث أن يبتلعها تيار الزمن الجارف.

الزعيم والدرويش

لعلك واجد هذا المعنى فى كل ملحمة قديمة أو حديثة . ولكنه فى هذه الملحمة الصحراوية المعاصرة واضح ، يكاد يكون مكشوفا ، ثم هو ينتظمها من أولها إلى آخرها . هناك شخصيتان تظهران فى الفصول الأولى ، ويعرف كلاهما من سر صاحبه مالا يعرف الآخرون ، ويراقبان ما يجرى طوال القصة ، ولكنهما قلما يتدخلان للتأثير فى سير الأحداث : شخصية الزعيم وشخصية الدرويش . هاتان الشخصيتان هما اللتان تبقيان حتى الفصل الأخير ، ومعهما تلك الشخصية الثالثة التى لابد منها حتى تستأنف الحياة مسيرتها بعد أن يحل الدمار بكل شىء وكل إنسان : حواء الجديدة .

من غيرهما الزعيم والدرويش يملك القدرة على الفهم والصبر ، أو على الرفض والتخلى؟

أما الزعيم فقد أمضى معظم حياته مهاجراً هاجر مع أهله صغيرا حين دفع بهم الجدب نحو الشمال ، ثم هاجر كبيراً حين غلبه على زعامة القبيلة أفاق جعل من نفسه شيخ طريقة ، ثم هاجر مرة ثالثة حين خرجت القبيلة على زعامته طمعاً فى ذهب السلطان . «وكلما عاد إلى الماضى وحاول أن يسترجع ذكرى الهجرة استولى عليه انطباع البهجة والفرح . انطباع مستمد من يقين غامض ومدهش يقول له الآن ، بلغة العقل والنضج، إن «واوه التى يفنى الصحراوى عمره بحثاً عنها ، هى

بين يديه، في هذه الدنيا الصحراوية التي لا يذكر لها ، في طفولته ، أولاً من آخر ، بل ولا يذكر أنه وقف على بدايتها أو نهايتها حتى الآن بعد ما قضى عشرات السنين من الطواف». (ج ٢ ص ١١).

وأما الدرويش فمغترب بين الناس، مات أبواه صغيراً فربته سبية زنجية . يقول الناس إنه من نسل أحد المرابطين ، أما هو فلا يأبه بهذا النسب بل إنه لايهتم بأصله البشري فالأصل الذي يعرفه هو أن جده فقد في الصحراء رضيعا فحنت عليه ذئبة وأرضعته، ومكث في قبيلة الذئاب إلى أن أدرك وتعلق قلبه بفتاة حسناء ، فترك عيشة البراءة بين إخوته الذئاب وانغمس في دنيا البشر . الدرويش إذن نصف بشري نصف ذئبي ، وهو لا يشك أن النصف الذئبي هو النصف الأفضل ، وأن جدته التي حزنت لفراق جده ستبعث إليه يوماً من يستعيده إلى حمى القبيلة الذئبية أما الذي يخشاه أشد خشية فهو أن تجتذبه فتاة أو امرأة من الإنس فيكرر خطيئة جده (التي هي خطيئة أبينا آدم) . وحين يشعر أنه كاد يتورط ،يقدم على فعل فظيع ، فيسرق مدية العرافة ويجب نفسه . وتسهر عليه الذئاب وهو ينزف إلى أن تلتقطه قافلة من التجار فيحملوه إلى دار الزعيم الذي لا يدهشه أمره ، فالزعيم نفسه صبا إلى النساء في شبابه ، مثل كل فرسان الصحراء ، ولكنه صدم في حبه الأول ، وتزوج فتاة موافقة طيعة ، ثم لم يلبث أن سئم عادة الأزواج ، ورأى أن الشيخوخة تبعد الرجال قسرا عن أحضان النساء ، فاختار أن يصدف عنهن طواعية وأن يعيش منذ رجولته أعزب أبتر .

في هذا الفصل الأخير من الملحمة يلتقي الزعيم بالدرويش كما يلتقي بالعراف المجوسي (الوثني) الذي قدم من الأدغال وراء أميرة حسناء اختارها إلهه لتكون ضحيته القادمة . ولكن العراف عشق الأميرة فضنَّ بها على الإله ، ولم يقدر أن يظهر لها بوجهه المجدور البشع ، حتى إذا أصبحت رفاتاً وعظاما حمل جمجمتها من قبرها وانصرف بها وقد جن . العرافون يألفون العظام والجماجم لأنهم يزيفون الحقيقة ، هم دائما رسل شر ، لا خير وراءهم . ولكن روحاً قلقة تظل تطوف حول هذا المشهد الأخير : امرأة شابة خرجت من بين الأطلال، علمتها أمها منذ الطفولة أن عمل المرأة هو أن تقتنص الرجل لتحصل منه على الولد . تقبض على يد الدرويش : ستندثر القبلية إن لم تتزوج !... هل تظنني أجري وراء الرجال حبا في الرجال ؟ هل تظن أن امرأة واحدة يمكن أن تعشق رجلاً لو لم يخف السر ، الذرية في صلبه .

وحين يأتي الثلاثة في المشهد الأخير لا يكون أمام الزعيم خيار. لقد صدف عن النساء بإرادته شاباً وكهلاً، أما الآن فهذا هو الواجب الوحيد الذي يمكنه أن يقوم به نحو القبيلة ... يمكنه ...؟ لندع الله . يقول له الدرويش : ألم ينجب سيدنا ابراهيم ابنه اسحق في آخر العمر؟ هو ذا ينطلق مهاجراً من جديد، وراءه الفناء ، وأمامه «خلاء كالفناء»، حكمته الصبر والقبول،

وفى رحلته هذه المرة ، مع متاعه القليل وقرب الماء المحيى ، امرأة لا غاية لها من الحياة إلا استمرار الحياة . أما الدرويش فقد اختفى ، اختار قبيلة الذئاب .

هكذا يمكننا أن نقرأ الملحمة من آخرها ، أو أن نقلبها على باطنها حتى تتبين لنا الخيوط التى تمتد من أولها إلى آخرها ، وهى خيوط ميتافيزيقية لحمتها الأسطورة الساذجة - أسطورة الواوات الثلاث - وسداها ثقافة عصرية مركبة من الأنثروبولوجيا والفلسفة الوجودية والتصوف ، فكأنها أمثولة عن قدر الإنسان تقدم بعض العزاء وبعض الأمل إلى النفوس التى تستطيع أن تتحلى بحكمة التواضع ، أى أنها تتجاوز الحدود العادية للملاحم التى تصور أشخاصاً ذوى قوة خارقة منغمسين فى سلسلة من الانتصارات والهزائم . هذه المادة الملحمية التى يمتزج فيها التاريخ بالخرافة هى الوجه الظاهر لملحمة «المجوس» يدعمها صراع عاطفى بين غريمين يتنافسان على حب امرأة ، وإن كان لكل واحد من هؤلاء الثلاثة غريم فى داخله يرفض ذلك الحب ويقاومه .

العشق حيلة الطبيعة لبقاء النوع

كيف يرتبط هذا كله بالأسطورة؟

عندما ننظر إلى هذه الصراعات كلها من منظور الزعيم نجد فيها جميعا خروجا عن «الناموس» ذلك الناموس الذى أخلص له منذ وعى، ناموس «القبول» الذى عبر عنه، حين بلغ قمة النضج، بأن «واو» التى يفنى الصحراوى عمره بحثا عنها فى هذه الدنيا الصحراوية التى بين يديه، ومع ذلك فهو لا يعرف لها أولاً من آخر.

«أنى» الذى اغتصب السهل من أهله وأقام «واواً» على أرضه وجعل من نفسه سلطاناً عليها ، خرج على ناموس الصحراء الذى آمن بأن «واو» الأرضية موجودة ومفقودة فى الوقت نفسه ، وأنها - على نحو مبهم - صلة بين الأرض والسماء . ولكن «واو» الأرضية ما كادت تقوم حتى تألبت عليها قوى الصحراء الظاهرة والخفية وسوتها بالأرض. «أوداى» خرج على ناموس الصحراء مرتين : مرة حين جعل مسكنه فى الجبل بين أهل الخفاء، ومرة حين عشق أميرة حلمها أن تكون معشوقة لجميع الرجال . و«أوخا» غريمه فى حب الأميرة خالف الناموس مرتين أيضا : مرة حيث جعل «النبالة» قناعاً لكبريائه التى تأبى عليه أن يبارز فتى من الاتباع، ومرة حين جعل محبوبته صنماً يعبد، لا بشراً من لحم ودم . أما «تينيرى» فهل ثمة جريمة أفظع من جريمتها؟ هل يكون لامرأة - ولو كانت أميرة باهرة الحسن - أن تستعبد جميع الرجال؟

فناموس الصحراء بسيط كل البساطة: إن العشق ليس إلا حيلة الطبيعة لبقاء النوع .

وكل هؤلاء الذين خرجوا على الناموس هلكوا وأهلكوا . وكلهم أسهم بجنونه فى صنع ملحمة الإنسان ومأساته .

ماذا بعد
القرن العشرين..؟

قرن القوميات والأيدلوجيات

القرن الحادى والعشرون

أممية واحدة أم أمميات متعددة ؟

بقلم : جميل مطر

□تعددت أوصاف القرن العشرين . وتزيد الأوصاف كلما اقتربت نهايته. القرن العشرون . فى أحد هذه الأوصاف . قرن أمريكى بنفس القدر الذى كان القرن التاسع عشر قرنا أوربيا . ففى القرن العشرين انتصرت الولايات المتحدة أو قادت النصر فى ثلاث حروب عالمية، الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة. وفى هذا القرن احتكرت الولايات المتحدة او كادت تحتكر إدارة الثورة التكنولوجية، وهيمنت بإنتاجها العلمى والثقافى على الاقتصاد العالمى حتى انها فى منتصف القرن كانت تنتج وحدها حوالى ثلثى الناتج السلعى والقومى العالمى، وفى مرحلة أخرى أنتجت أكثر من ثلاثة ارباع الإنتاج الإعلامى العالمى. ثم انه القرن الذى تسلمت فيه الولايات المتحدة من اوربا الغربية مسئولية بعث ورعاية الحضارة المسيحية الغربية. وفى أوصاف أخرى كان القرن العشرون قرن تصفية الاستعمار التقليدى، وقرن التغريب الواسع و«التحديث» الشامل ، وقرن انتشار مفهوم ومؤسسة «الدولة» .

وهو القرن الذي شهد اعتلاء الرأسمالية قمة التطور الاقتصادي والاجتماعي العالمي، وبداية تحللها او تحولها الى شيء او أشياء أخرى. كما انه القرن الذي انفرطت فيه آخر الامبراطوريات. وكما كان القرن العشرون قرن الانفجار السكاني الهائل فقد كان ايضا اشد قرون التاريخ دموية وعنفا اذ نشبت فيه العن حروب البشرية وشهد ابشع صور القتل الجماعي. ومع ذلك ، أو بسبب ذلك، فقد كان قرن ارساء ترسانة قواعد جديدة في القانون الدولي وحقوق الإنسان ومنظمات ومؤسسات دولية لتحقيق السلام بين الدول، والتخفيف من آثار الحروب.

ومما يجعل هذه الفترة، اى السنوات الاخيرة من القرن العشرين ، فترة مثيرة وقلقة ، الشعور بأننا على مشارف قرن جديد، بل ألفية جديدة . وفي الواقع، وبرؤية موضوعية مجردة، لا يمثل هذا التصور الذاتي الصنع اى إضافة ولا يؤثر فى حقيقة ان الفضاء التاريخي لا يعبأ بسنوات وقرون تمنحها ارقاماً وأوصافا ونضع لها نهايات وبدايات. ولكن التاريخ لن يكون حقيقة موضوعية مجردة، ولن يكون مجرد انعكاس لتصور ذاتي الصنع، فالتاريخ حصاد «حقيقة» ومدركات فى آن واحد. وحين نقول ان السنوات القليلة القادمة سنوات مثيرة وقلقة ، فذلك لأن الأرقام والنهايات والبدايات التى صنعناها استقلت عن إرادات صانعيها وتمارس ضغوطا وايحاءات على هذا القطاع من البشر الواعى بوجودها والمنشغل بفلسفتها وقواعد حركتها وتطورها.

ثم اننا بدون هذه الأرقام «والتواريخ» لن نستطيع مقارنة أحوالنا كبشر وأمم ودول عبر الزمن، أو الاجابة عن السؤال الأهم بين مختلف أسئلة الفكر الانسانى، وهو هل نحن أفضل حالا أم أسوأ؟. فإذا كنا أفضل حالا يصبح واجبنا ان نحمى هذه الظروف والأوضاع التى جعلتنا أفضل، وإذا كنا أسوأ فلنعمل على التخلص منها بتغييرها او بتغيير أنفسنا إذا كنا عاجزين عن التأقلم معها.

بين الأممية والقومية

أعود إلى أوصاف القرن العشرين . إذ بينها وصف يثير اهتماما كبيرا ولابد أن نجعله يثير اهتمام غير المهتمين. فالقرن العشرون كان قرن الصراع بين ظاهرتين متناقضتين ، هما الأممية والقومية.. ولهذا الوصف - كما لغيره من الأوصاف - منظرون. يطرح هؤلاء ما يفهم منه أن الصراع بين الأممية والقومية فى القرن العشرين كان جزءاً لا ينفصل عن ظاهرة أوسع بدأت فى القرن التاسع عشر وأطلق عليها العصر الأيديولوجى، أى عصر الصراعات الأيديولوجية. إذ كانت الأممية

ماذا بعد القرن العشرين ؟

ممثلة فى ظاهرة الاستعمار الأوربى الذى حاول فرض النسق الغربى للقيم والممارسات والدين على العالم بأسره. أما القومية فكانت ـ فى شكل من أشكالها المبكرة جدا مجسدة فى الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار ، واتخذت تعبيرات متنوعة من بينها مثلا الثورات الدينية، وهو ما حدث فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى حيث لم توجد مقومات قوية أو تراث متين لدولة أو لوطن ، ولكن ، وبسبب تعدد الدول الاستعمارية الأوربية، حملت هذه الأممية الجديدة فى داخلها بذورا قومية. بمعنى آخر كانت عالمية أو «كونية» فى مواجهة غير الأوربيين ، وقومية أو قطرية فى داخلها، وهو الأمر الذى عجل بانهيارها فى القرن العشرين. وعلى الجانب الآخر لم تكن كل ردود الفعل للأممية الاستعمارية محدودة جغرافيا أو ثقافيا، إذ إن الخلافة العثمانية وهى نفسها تنظيم أممى أو شبه عالمى، كانت تقف عقبة فى طريق «الكونية» الاستعمارية الأوربية. وتعاملت معها أوربا بأساليب جدير بنا أن نعود لدراستها.

أممية القرن العشرين

أما أممية القرن العشرين فكانت موزعة بين أمميتين، أممية شيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتى وأممية غربية بقيادة أوربية فى بدايات القرن ثم بقيادة أمريكية. وبطبيعة الحال برزت ـ ثم استمرت ـ المعارضة الأمميتين. برزت واستمرت مقاومة حركات التحرر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية للأممية الاستعمارية التقليدية طوال النصف الأول من القرن وقليل من نصفه الثانى. وتعاظم شأن الحركات الدينية والوطنية العلمانية. ففى المنطقة العربية مثلا برزت قيادات قومية اشتقت مبادئها من تقاليد الفكر الأوربى، وتعددت الحركات القبلية والطائفية المتخفية فى شكل حركات دينية . وفى الصين استعار التيار القومى مبادىء ـ بل استعار الجسم الكامل ـ للأممية الشيوعية مختلطة بإقليمية قومية فى ثورة شاملة ضد الأممية الاستعمارية الأوربية. أما فى أوربا ذاتها فقد نشأت الفاشية كإعلان تمرد على الأمميتين: أممية الشيوعية وأممية الليبرالية الأوربية ـ الأمريكية.

واجتمعت الأمميتان الشيوعية والليبرالية على القوميتين الألمانية والايطالية بهدف القضاء على خطرهما . وبنفس المنطق كان الهدف الرئيسى للفاشية الأوربية الجديدة القضاء المبرم على الشيوعية والليبرالية باعتبارهما

يمثلان خطرا مباشرا على الشخصية القومية أو الكيان الوطني للشعوب. واجتمعت النازية والفاشية الايطالية على مبدأ منع ذوبان الأمم العرقية في مؤسسات أو كيانات «عالمية» تحت اسم الأممية الشيوعية او الاشتراكية الديمقراطية او أي مسمى اخر من المسميات التي اختارتها الدول الاوروبية خلال النصف الأول من القرن.

وليس خافياً أن الصراع بين الأمميتين الشيوعية والليبرالية من ناحية والقوميات الأوربية خلال النصف الاول من القرن العشرين منتهيا بالحرب العالمية الثانية وهزيمة القوميات، كان له أثر كبير على مجرى الصراع الآخر بين الأممية الليبرالية الاستعمارية وحركات التحرر في افريقيا واسيا. وليس خافيا ايضا ان انحسار القومية في اوربا بعد الحرب العالمية الثانية كان له فضل على اشتعال الصراع بين الأممية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتي والأممية الليبرالية بقيادة الولايات المتحدة . وبدأ تسجيل صفحة جديدة بالغة الأهمية في سجل التاريخ، فهي الصفحة التي حدثت خلالها نقلة نوعية ومفاجئة في السياسة الدولية، وفي شكل وحجم هذا الكوكب، وهي الصفحة التي ستؤثر فيما بعدها ربما أكثر مما أثرت معظم صفحات هذا السجل.

عالم الجنوب

فقد حدثت جملة تطورات مهمة ما كان يمكن ان تحدث لولا صراع الأمميتين، أو على الأقل ما كان يمكن أن تحدث بهذا الوقع وهذا العمق. تبدأ بما يعنينا مباشرة ، إذ دفع الصراع الأممي الى مقدمة الاهتمامات العالمية بقضايا الاستقلال والتحرر في العالم الثالث . أي عالم الجنوب. ولم تكن كل مناطق الجنوب العالمي ذات أهمية كبيرة أو متساوية أو عاجلة بالنسبة لأهداف الأمميتين. كانت هذه المناطق مهمة بقدر الدور الذي يمكن ان تلعبه في القضاء على الاستعمار التقليدي كأممية منحسرة ومنهزمة . وكانت كذلك مهمة بقدر حيازتها لموارد طبيعية حيوية للصراع بين الأمميتين . وبحكم مواقعها على طرق ومنافذ ومضايق التجارة وحركة الأساطيل العسكرية، وبحجم نفوذها الاقليمي المستخدم في مقاومة هذه الأممية او تلك أو الأمميتين معاً. ولاشك أن ظاهرة كالقومية العربية اعتمدت في مرحلة ازدهارها ومدها العالمي على حالة الصراع الناشبة بين الأمميتين، وعلى المواجهة ضدهما في آن واحد. كذلك يعود فضل كبير لشيوع ظاهرة «الدولة غير القومية» او «الدولة بغير أمة» على هذا الصراع وحاجة النخبة التي قادت الاستقلال للتصدي للأمميتين خشية على الاستقلال الوليد. ففي كل افريقيا وفي كثير من أجزاء العالم العربي نشأت

ماذا بعد

القرن العشرين ؟

«دول بغير أمة» . أنشأتها الأممية الاستعمارية الراحلة . ولولا الصراع الأممي الذى تصاعد بعد الحرب العالمية الثانية لما امكن لهذه الدول «الناقصة الأمة» ان تستمر وتقوى وتتعدد الى حد تسمية القرن العشرين باسمها . فهو قرن «الدولة» . وكان المأمول فيه ان تفعل هذه «الدولة» ما فعلته فرنسا والولايات المتحدة ، اى تنشأ اولا ثم تنشيء امة، ومع ذلك فلا اعتقد انه من السهل الحكم على هذه الظاهرة فى هذه المرحلة المبكرة، ولكنى اعتقد ان بدايات القرن الحادى والعشرين ستحكم بثقة اكبر مما إذا كانت هذه الدول التى بدأت بدون أمة نجحت فى خلق أمة، ام انها بقيت لسبب او لآخر مجرد هيكل ومؤسسات ولم تتشكل بين قبائلها أو جماعاتها أو طوائفها او شعوبها هوية «قطرية» او وطنية أو قومية جامعة وموحدة. اقول ان الحكم عليها سيصدر فى بدايات القرن الحادى والعشرين وذلك لان الكونية او الكوكبة كأممية جديدة دفعت هذه الدول الحديثة النشأة نحو مأزق حين طرحت عددا من المبادىء والشروط لا تتناسب بالضرورة مع درجة نضوج الدولة الناشئة فى عالم الجنوب، طرحت مثلا نمطا معينا من الليبرالية والديمقراطية والتعددية السياسية ، ونمطا من اقتصاد السوق وعالمية المال وأولوية المعلومات كمصادر للثروة .. تطرح ولاءات جديدة ومفهوم «المواطن الكونى» او المواطنة الكوكبية فى مواجهة المواطن القطرى ومواطنة الدولة، وتطرح تحديات ثقافة غازية مهيمنة، هى الثقافة الغربية. هذه الثقافة مطروحة الآن باعتبارها ثقافة الأممية الجديدة . أى ثقافة الأممية المنتصرة . بمعنى آخر دخلت الثقافات الاخرى غير الأممية نطاق حصار ثقافى متعدد الأسلحة الهجومية ذات الكفاءة غير المسبوقة فى تاريخ صراع الثقافات والحضارات. يتصدر هذه الأسلحة الهجومية التقدم الهائل فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات مما يجعل مهمة الحصار والاختراق أسهل وأخطر كثيرا من كل المحاولات السابقة التى تمت عبر قرون . ولعل ما نشهده هذه السنوات الأخيرة فى كثير من أقاليم العالم من انفراط مجتمعات، وتفتت دول ، وتصعيد فى العنف الداخلى وصحوة الهويات الأولية، لعلها كلها صدى لوقع الصدمة التى يتسبب فيها الحصار ثم الاختراق العنيف من ثقافة الأممية الجديدة. وأتصور أن مؤسسات سياسية واجتماعية كثيرة

فى العالم لن تصمد امام هذا الاكتساح الأممى الجديد، ولكن أتصور أيضاً أن فى خضم هذه الصدام الحضارى، وقبل إعلان النصر أو الهزيمة للأممية الكونية الجديدة ستكون قد سقطت ضحايا كثيرة بسبب تصعيد خطير فى سلوكيات العنف، وستكون قد نشأت مؤسسات وتكتلات جديدة كمحاولات لن تتوقف عن التصدى لهذه الأممية الجديدة، ولحماية الثقافات او الحضارات الاقليمية وكذلك الثقافات والحضارات العالمية غير الطامحة لأن تسود على الأقل فى الأجل المنظور، مثل حضارة الإسلام والحضارة «المسيحية غير الغربية».

الوحدة الأوربية

حدث أيضا - فى خضم الصراع بين الأمميتين الشيوعية والليبرالية - ان بدأ تنفيذ مشروع الوحدة الأوربية ولكن على مراحل وقد لوحظ منذ البداية ان خطوات تنفيذ المشروع انسجمت مع درجات الصراع بين الأمميتين ، بدأت بالتكتل الاقتصادى محدود الهدف ومحدود العضوية عندما كانت أوربا غير مستعدة لأى مواجهة مع الأممية الشيوعية. ثم تطورت المراحل وكانت آخرها وأهمها تجسيداً واقعياً ودليلاً حياً على أن أوربا الغربية تاكدت أن الصراع الأممى قد وصل إلى نهايته ، وأن دورها حان لتحدد بكل دقة ووضوح موقفها من الأممية الأمريكية. والجدير بالذكر ان بعض المفكرين ومنظرى علوم السياسة يطرحون رأيا، وله أنصار . يفيد ان وراء «الاتحاد الاوربى» فكرة أممية. ووراء هذه الفكرة الأممية المانيا الجديدة، ووراء ألمانيا الجديدة شيء كان ايضاً فى ألمانيا القديمة. سهل جدا أن نرفض هذا الرأى باتهامه بأنه متأثر «بنوازع نازية «جديدة» واذا قيل فى الرد على هذا الرأى ان القومية النازية هى التى قامت بدور أساسى فى مناهضة الأمميتين الشيوعية والليبرالية قبل ان تهزم وانه من المنطقى ألا تتحول من قومية متطرفة إلى أممية متطرفة، يأتى رد على الرد يقول بأن القومية الألمانية لن تكرر الخطأ الذى ارتكبته فى المرة الأولى وهو دخولها مواجهة مع أممية «ليبرالية اوربية» قوية تسندها حضارة متقدمة وعصرية، بينما كان يجب ان تقوم المانيا النازية بخلع بريطانيا من موقع الزعامة وتحل محلها فى قيادة هذه الأممية، وتدخل بهذه الأممية الصراع الحتمى ضد الشيوعية. ولا يستبعد أنصار هذا الرأى ان تكون الوحدة الاوربية خطوة تشجعها المانيا نحو هدف انتزاع زمام القيادة فى الاممية الليبرالية الغربية من الولايات المتحدة واستعادته لاوربا بقيادة المانيا.

تظل الصورة ناقصة اذا لم يكن لآسيا مكان فيها . يقول المناصرون للاممية الرأسمالية الجديدة المسماة بالكونية

ماذا بعد
القرن العشرين ؟

الجديدة، سواء المناصرون عن فهم واقتناع او عن مزايدة او عن التزام بالتبشير، ان آسيا الجديدة جزء لا ينفصل عن هذه الكونية. فالكونية الجديدة ترتدى رداء التكنولوجيا والاقتصاد. وبالتالى فالمقوم العالمى فيها فنى وليس سياسى او اقتصادى . يقولون ايضا ان آسيا تنفض عن نفسها وبسرعة ثقافتها وكثيرا من قيمها وتقاليدها . ويقدمون احصائيات تشير الى زيادة فى حوادث الطلاق، وانحسار الأسرة الممتدة، وزيادة فى الجرائم، واقبال على المأكولات السريعة الجاهزة والمشروبات الغازية. والخطورة فى هذا المنطق انه يؤكد على ان الأممية الليبرالية تمثل حضارة مختلفة وان الصراع ثقافى حضارى فى الأساس وليس اقتصاديا كما يزعم انصار الأممية ويراهن الكثيرون فى بعض مجتمعات الغرب وخصوصا الولايات المتحدة على ان القرن الحادى والعشرين سوف يشهد استيعاب آسيا فى الأممية الجديدة، لأنها لن تقوى على التصدى طويلا لهذه الأممية فى وقت تقوم فيه آليات اقتصاد السوق بأقصى ما تستطيع لمحو أى مقاومة سياسية كانت أم حضارية.

آسيا والأممية

ولكنى اعتقد ان الأمر أشد صعوبة مما يحاول الأمريكيون تصويره. ففى آسيا مقاومة شديدة للأممية الليبرالية والاقتصادية والسياسيّة الغربية. هناك فى اسيا لا يفصلون بين مختلف جوانب هذه الأممية . يعرف الاسيويون ويتلقنون ان هذه الأممية المسماة بالكونية هى حقيدة أممية القرن التاسع عشر الاستعمارية والتى اشعلت نيران حروب الأفيون والبوكسرز واستعمرت الفلبين وكل جنوب آسيا وحرقت فيتنام تحت شعار نشر رسالة الحضارة الغربية. ولقد لاحظت بنفسى فى آسيا أن أشياء وقيما تنحسر تحت ضغط الاستهلاكية كنمط ومبدأ من مبادىء اقتصاديات السوق، ولكنى لاحظت أيضاً ان الاسيويين - قادة ومفكرين - يطرحون ولأول مرة ان حضارتهم حضارة عالمية، وليست حضارة اقليمية كما اعتقدوا هم انفسهم فى وقت أو آخر . أو كما فرض الغرب عليهم ان يعتقدوا . يقولون الآن ان القيم التى يتمسكون بها أفضل

من القيم التى تبشر بها الأممية الليبرالية فى صيغتها الأمريكية ويقولون: انهم يجدون انفسهم اقرب ولو قليلا الى الصيغة الاوربية منهم الى الصيغة الامريكية، ولهذا فهم متفائلون بامكانية التعامل مع الفهم الاوربى لمستقبل العلاقات بين الحضارات السائدة ومتشائمون من الطرح الامريكى. يقولون ان المستقبل يعود لينهض مع الشمس من الشرق كما فعل مرات كثيرة من قبل. ويلمحون فى سخرية انه فى كل هذه المرات الكثيرة كان ايضا يغرب فى الغرب. وبعد كل غروب وانحسار فى الغرب يعود فيشرق من الشرق. ففى اسيا الان يصنع المستقبل حيث الشعوب فى غالبيتها شبان وشابات، اى انها فى غالبيتها فى سن الانتاج والخلق والابداع، وكذلك دولها، وكذلك انساق القيم التى اثبتت قدرتها على التطور والتأقلم مع الحداثة فى كل مراحلها وصورها.

معالم القرن الجديد

صعب ان نتصور تفاصيل القرن الجديد. ولكن غير صعب ان نتصور ملامح مطلعه. ومن خلال كوى ضيقة تتسع باستمرار قد نتمكن من ان نتفق على صورة لبدايات القرن الحادى والعشرين، تبدو فيها الأممية الكونية الصاعدة مشتبكة بشراسة مع ثلاث قوى «دولية» مناهضة اولها صحوات دينية او حضارية متمردة. ثانيها تشنجات وانفعالات فردية وطائفية وعرقية. ثالثها امميات وليدة او ناشئة ولكن واعدة مثل الأممية الأوربية. والأممية الاسيوية، والأممية الإسلامية. ومن خلال كوى ضيقة اخرى تتسع أحيانا وتضيق فى معظم الأحيان، قد نستطيع ان نتفق على موقع الوطن العربى فى هذه الصورة التى تخيلناها لبدايات القرن الحادى والعشرين.

تقول تجارب التطور السياسي أن المجتمعات الانسانية - ومنها المجتمع الدولي - تميل عادة الي النظام وليس الي الفوضي. معني ذلك ان التيار الثالث هو التيار الاكثر ترجيحا بين التيارات الثلاثة لقيادة المواجهة ضد هيمنة الأممية الكونية بقيادة أمريكية، اى ان امميات وليدة وواعدة ستحاول فرض نفسها على الساحة الدولية. وكلها اذا لاحظنا مشروعات او تطلعات اممية تنطلق من قواعد اقليمية، وإحداها - وهي الأممية الثالثة - تنطلق من منطقتنا، وازدهرت بالفعل فروعها في أقاصي جنوب آسيا مثل اندونيسيا وماليزيا.

صناع القرن العشرين

فرانكلين ديلانو روزفلت

١٨٨٢ ـ ١٩٤٥

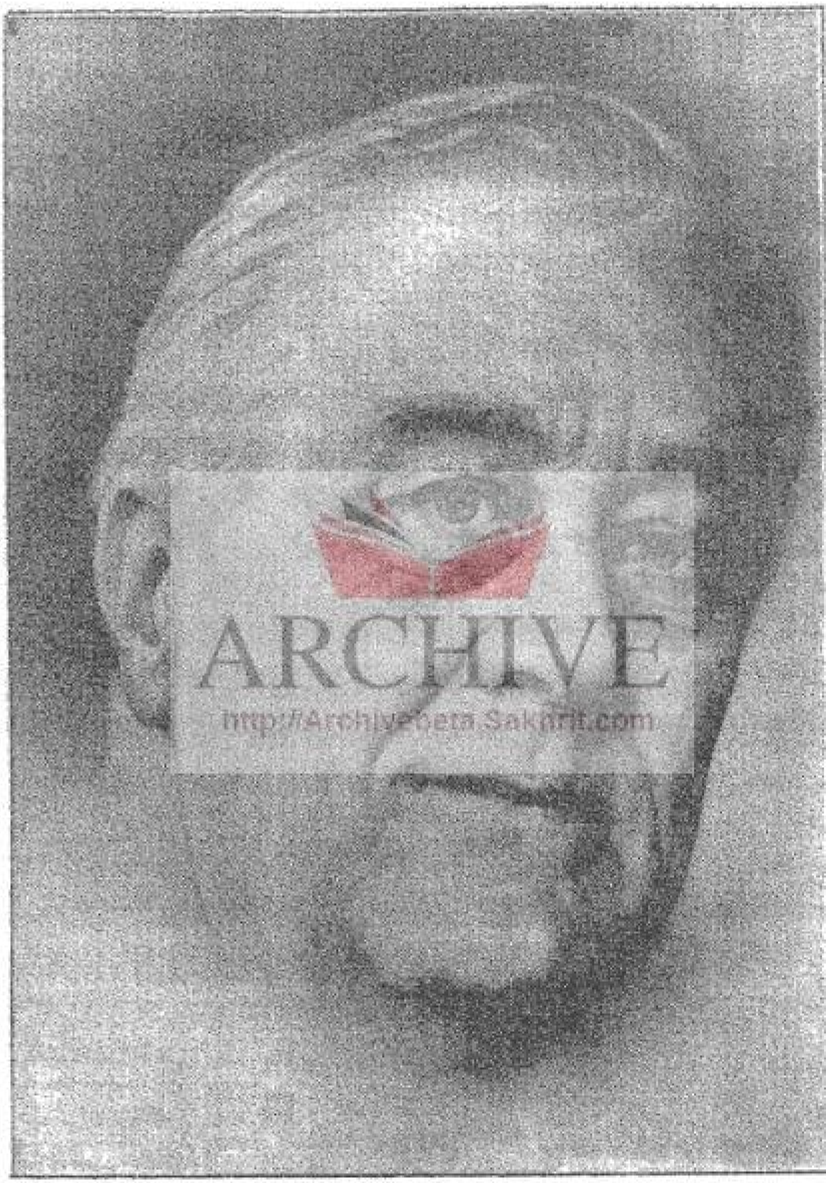
بقلم : د. رشدى سعيد

□ يعتبر فرانكلين ديلانو روزفلت الذى كان رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فيما بين سنة ١٩٣٢ وسنة ١٩٤٥ من أهم صناع القرن العشرين فقد تولى قيادة هذه الدولة الكبرى وهى فى أسوأ حال ، بعد سنوات من أزمة مالية خانقة أمسكت بها فى أواخر عشرينيات القرن وتركها بعد أن أخرجها من هذه الأزمة ونقلها لتصبح أقوى دولة فى العالم أجمع ، وفى خلال فترة حكمه دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية فى صف الحلفاء ، واستطاعت بفضل قيادته أن تضمن لهم النصر الساحق وذلك بتعبئة إمكاناتها للمجهود الحربى بتحويل مصانعها من السلم إلى الحرب وبتعبئة علمائها للسبق فى أبحاث الذرة والفضاء .

● **أزمة الثلاثينيات**

وتبدو هذه الانجازات صغيرة أمام دوره البارز فى إدخال أفكار جديدة أخرجت النظام الرأسمالى من ورطته التى وقع فيها بعد الأزمة المالية الهائلة التى ألمت بالولايات المتحدة والعالم الرأسمالى كله منذ عام ١٩٢٩ وفى الاسهامات الجديدة التى أدخلها على الفكر الرأسمالى وكانت هذه الأزمة كغير سابقاتها طويلة ومدمرة كما أنها مست معظم الأمريكيين بل وامتد أثرها على العالم كله .. وفيها شل الاقتصاد ، وأفلس

فرانكلين روزفلت



صناع القرن العشرين

ما لا يقل عن ١٣٠٠ بنك فى سنة ١٩٢٩ وحدها ، وأكثر من ٥٠٠٠ بنك فى السنوات الثلاث التالية . وراحت مدخرات معظم الناس فلم تكن البنوك حتى ذلك الوقت تحت الرقابة الحكومية كما لم تكن ودائعها مؤمنا عليها - وبإفلاس البنوك توقف الإقراض والائتمان وتعطلت المصانع والمتاجر والأعمال وزاد عدد العاطلين حتى أربى على ثلث القوة العاملة ، ومما زاد فى شدة الأزمة هذه المرة أنها جاءت بعد ميكنة الزراعة وانتشار الصناعة فى أول القرن وانتقال الكثير من السكان الى المدن مما أفقدهم ما كان أجدادهم وآباؤهم يعتمدون عليه عند حلول الضائقة من فائض الزراعة الذى كانوا يدخرونه لمثل هذه الأوقات .

وبالاضافة الى الآلام التى سببتها الأزمة للملايين من الناس الذين خرجوا هائمين بحثا عن الطعام فقد هزت الأزمة النظام الرأسمالى من أساسه وأعطت مصداقية كبيرة للنظام الشيوعى الذى كان قد نجح فى تثبيت أقدامه فى روسيا منذ أقل من اثنى عشر عاما من حلول الأزمة والذى ما فتىء يبشر بفساد النظام الرأسمالى وحتمية سقوطه لعدم قدرته على توفير الحياة الكريمة للناس ، وبالفعل فقد ارتفعت شعبية الأحزاب الشيوعية فى معظم بلاد أوربا والتى نجحت فى الإمساك بقيادة الحركات والنقابات العمالية مما كان نذيرا للرأسماليين بالخطر الذى بدا وكأنه سيطيح بهم فقاموا بتشجيع الحركات الفاشية المتطرفة لمحاربة الشيوعيين الذين اتهموا بأنهم كاليهود عملاء لدول أجنبية ولا ولاء لهم لأوطانهم وأنهم سبب فساد الحال ، وبالفعل قام بنيتو موسولينى (١٨٨٣ - ١٩٤٥) زعيم حركة مناهضة الشيوعية فى ايطاليا بالاستيلاء على السلطة فى سنة ١٩٢٢ ونصب نفسه دكتاتورا فى سنة ١٩٢٥ بعد أن أخمد الحركات العمالية واغتال عددا من قيادات أحزاب اليسار ، وتلاه فى سنة ١٩٣٣ أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) الذى أصبح مستشارا للريخ الألمانى ثم دكتاتورا مطلق السلطة بعد أن حل الريشستاج وأنهى على الشيوعيين وطارد أحزاب اليسار ، وفى أعقاب هذين النجاحين تتابع سقوط الكثير من الدول فى قبضة الفاشيين : أسبانيا والمجر واليونان، وقد دفعت أوربا ثمنا باهظا للخلاص من هذه النظم البوليسية التى أوصلها انفراد حكامها بالقرار إلى كوارث هائلة .

● **العقد الجديد**

وكان من الممكن أن يكون رد الفعل فى أمريكا مماثلا لأوربا فقد انتشرت فيها أيضا الحركات الفاشية لولا قيادة روزفلت

الذى ما إن تولى الحكم حتى جمع حوله خيرة أساتذة الاقتصاد والأعمال للعمل على إيجاد الحلول السريعة للأزمة ثم لتطوير النظام الرأسمالى نفسه حتى يكون قادرا للوقوف أمام التحديات التى تجابهه - وبالفعل وفى أقل من مائة يوم على توليه السلطة استطاع روزفلت أن يقنع الكونجرس الأمريكى بالموافقة على عشرات القوانين ضمن ما أسماه بالعقد الجديد (New Deal) لتنشيط الاقتصاد والقيام بمشروعات عامة كان من أثرها خلق الوظائف وانشاء شبكات الطرق والكبارى وتوسيع الموانىء ومد خطوط السكك الحديدية والكهرباء مما جعل الولايات المتحدة واحدة من أحسن دول العالم فى بنيتها الأساسية . وكذلك لإعادة ترتيب الاقتصاد حتى يمكن إعادة فتح البنوك وتنظيم سوق المال حتى لا تكون هناك امكانية لنهبها مرة أخرى عن طريق المضاربة فقام بضمان ودائع الافراد فى البنوك بحدود المائة ألف دولار للفرد ، على أن تقوم الحكومة من جانبها بالرقابة على حساباتها والتأكد من توظيف أموالها فيما هو مجد .

وكان أكبر إسهامات روزفلت فى حل أزمة النظام الرأسمالى وأكثرها ثورية توظيفه الحكومة فى القيام بالنشاط الاقتصادى وكذلك فى محاولاته لإعادة توزيع الدخل القومى حتى يصل إلى أكبر عدد من الناس وفى إنشاء الشبكة الاجتماعية لحماية العاطلين وكبار السن ، وكان مشروع وادى تنسى والذى عرف باسم إدارته (Tennessee Valley Authority) أول تجربة تقوم بها الحكومة الأمريكية فى الانتاج والتخطيط الاجتماعى فقد استهدف المشروع ضبط مياه النهر وتوليد الكهرباء وبناء الخزانات وانتاج السماد وإعادة تشجير المنطقة وإقامة المنتجعات السياحية . كما إشتمل المشروع على معمل للأبحاث العلمية هو معمل أوله ردج الذى اشتهر بعد ذلك كأهم معمل ساهم فى بناء القنبلة الذرية خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى ميدان العمل الاجتماعى اعترف روزفلت بنقابات العمال وبحقها فى الاضراب والتفاوض الجماعى مع أصحاب العمل كما قام بإنشاء التأمين الاجتماعى لكبار السن ، وأظهر هو وامرأته «إليانور» عطفا على مطالب الأقليات وعلى الأخص السود منهم فمهد الطريق لإنصافهم وهو الأمر الذى لم يحدث إلا بعد وفاته بأكثر من عشرين عاما .

وقد أدى مجمل هذه السياسات إلى إنعاش الاقتصاد فقد أدى تدخل الحكومة سواء ببناء البنية الأساسية أو بإقامة المشروعات الاقتصادية إلى إعادة توزيع الدخل ، فأصبح عند الناس فائض يستطيعون انفاقه لشراء ما ينتجون وإلى

صناع القرن العشرين

إعطاء النظام الرأسمالي صورة انسانية جعلت له مصداقية وبديلا للنظام الشيوعي الذي كانت جاذبيته لعامة الناس في سنى الثلاثينيات كاسحة .

وقد جلبت هذه السياسات الغضب على روزفلت من الكثير من رجال الأعمال ومن بنى طبقته الارستقراطية التي انحدر منها والذين لم يكونوا ليذكروا اسمه أو اسم امرأته إليانور إلا بالاحتقار ، وقد نالت امرأته بالذات أكبر الغضب لنشاطها المكثف بين العمال والسود وفقراء الناس ولعملها الدائب لإصدار القوانين المنصفة لهم .. وعلى الرغم من ذلك فقد نال روزفلت حب عامة الناس والكثير من المفكرين والمثقفين وأعطوه ثقتهم وانتخبوه رئيسا للولايات المتحدة لأربع مرات (١٩٣٢ - ١٩٣٦ - ١٩٤٠ - ١٩٤٤) وهي المرة الأولى والأخيرة في تاريخ الولايات المتحدة التي حدث فيها ذلك ، وكانت معظم نتائج الانتخابات كاسحة ففي ثلاث منها لم يستطع منافسه أن ينال أكثر من ثلة ولايتين من الثماني وأربعين ولاية ، التي كانت تشكل الولايات المتحدة حينئذ

● الحرب العالمية الثانية

دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية على مرحلتين ، المرحلة الأولى عندما قامت بإمداد الحلفاء بالأسلحة والعتاد عندما كانوا في أضعف حالاتهم عن طريق قانون الإعارة والتأجير (Lend - Lease) الذي استطاع روزفلت أن يمرره في الكونجرس الذي لم يكن الكثير من أعضائه رغبة في الدخول مباشرة في الحرب ، فقد كانت ذكريات الحرب العالمية الأولى ماثلة ، كما كان هناك عطف كبير على ألمانيا بين رجال الأعمال وذوى المكانة في الولايات المتحدة لدورها المهم في صد خطر الشيوعية وايقاف الزحف الروسي .

أما روزفلت فكان يشعر بأن مصالح الولايات المتحدة مرتبطة بانجلترا ليس فقط لصلة القربى ووحدة اللغة ، بل لإيمانه بقضية الديمقراطية التي كان يعتقد أنها يمكن أن تثبت بانتصار الحلفاء هذا فضلا عن اعتقاده بحتمية الدخول في الحرب التي أصبحت عالمية .. وقد اتاح له هجوم اليابان على بيرل هاربور في ديسمبر ١٩٤١ الفرصة لإعلان الحرب على اليابان ودول المحور .. وكانت اليابان قد قامت في ذلك اليوم بهجوم جوى دون انذار على الأسطول الأمريكي الرابض في هذا الميناء فدمرته عن آخره .

وبعد دخوله الحرب أراد روزفلت أن يعطى معنى لها وتبريرا للتضحيات الكبيرة

لشعوب العالم فيها فأصر على أن يعلن الحلفاء ميثاقا يعلنون فيه نواياهم بعد الانتصار وشكل العالم الذي سيقيمونه ، وقد عرف هذا الميثاق باعلان الاطلنطى (Atlantic Charter) وقد وقع عليه بعد ضغط ونستون تشرشل فى اجتماع القمة بالدار البيضاء فى سنة ١٩٤٣ - وفيه تعهد الحلفاء بإقامة عالم جديد يسود فيه السلام والعدالة والمساواة بين الأمم وفيه ظهرت فكرة انشاء منظمة الأمم المتحدة التي كان يؤمل أن تكون جهازا لحل النزاعات دون اللجوء إلى القوة ولنشر مبادئ العدالة وتثبيت حقوق الانسان والمساواة بين البشر وعدم التمييز بينهم بسبب اللون أو العنصر أو الجنس أو العقيدة

● قائد عظيم

ولم يعش روزفلت لكى يرى نهاية الحرب أو نشأة منظمة الأمم المتحدة ، فقد مات فى أبريل سنة ١٩٤٥ قبل شهور من نهاية الحرب - وبوفاته فقدت هذه القضايا الرفيعة نصيرا كبيرا ، وتبخر الكثير منها باشتعال الحرب الباردة بين القوتين العظميين اللتين خرجتا منتصرتين من الحرب ، وكان أمل روزفلت أن يمد جسور التعاون بينهما على الرغم من الضغط الشديد الذى كان يتعرض له بسبب عمله الدائب لمد هذه الجسور فقد كان الكثير من ساسة الولايات المتحدة ينصحونه بالابتعاد عن الاتحاد السوفييتى الذى كانوا يكرهونه ولا يثقون فى نياته .. وقد استطاع هؤلاء الساسة الضغط على روزفلت قبل ترشيحه للرئاسة للمرة الرابعة لإسقاط هنرى والاس ، نائبه فى فترة رئاسته الثالثة من الترشيح كنائب للرئيس، والذى كان متهما بأن له علاقات طيبة مع الاتحاد السوفييتى ، وترشيح هارى ترومان اليمينى والذى أمسك بالقيادة بعد وفاته ..

كان روزفلت قائدا بارعا استطاع فى جو معاكس أن يغير مسار أمريكا وأن يجعلها تقبل بطريقة ديمقراطية ما درجت على ألا تطيق سماعه وانقذ بذلك النظام الديمقراطى والرأسمالى من أزمة كان من الممكن أن تطيح به. وتبدو عظمة هذا القائد كبيرة إذا ما قورنت بالفشل الذريع الذى منى به قائد آخر مثل جورباتشوف الذى تولى قيادة النظام الشيوعى وهو فى أزمة مماثلة فلم يستطع عمل شىء وراح منه النظام كله !

الفكـــر الاقتصادى المصرى فى ظل عبد الناصر

بقلم : د. جلال أمين

□تناولت فى مقال سابق (الهلال - ابريل١٩٩٦) أهم السمات التى تميز بها الجيل الأول من الاقتصاديين المصريين (١٩٢٠ - ١٩٤٥) ، والعبء الثقيل الذى تحمله ذلك الجيل ، حيث كان يكتب فى ظل الاحتلال ، والخدمات الجليلة التى أداها مع ذلك ، خاصة إنشاء لغة اقتصادية عريقة . وأتناول الآن الجيل الثانى من الاقتصاديين المصريين (٤٥ - ١٩٧٠) الذين عاشوا وكتبوا فى الأساس فى فترة الحكم الناصرى . وهو جيل رغم أنه كان بدوره يحمل عبئه الخاص به ، جدير بأن يعتبر ، من نواحى كثيرة ، جيلا حسن الحظ ، إذ لم تكن هذه الفترة فقط واحدة من أفضل الفترات خلال هذا القرن من حيث أداء مصر الاقتصادى ، بل كانت من أفضلها أيضا من حيث معدل التقدم الذى حققه الانتاج الفكرى للاقتصاديين المصريين ، والذى حققته مهنة الاقتصاد بوجه عام .





د. اسماعيل صبرى عبدالله



د. ابراهيم حلمى عبدالرحمن

كليتى هناك أولا ، النمو السريع فى عدد الخريجين المتلقين تعليما اقتصاديا ، فإلى جانب خريجى كليتى الحقوق والتجارة من الجامعة المصرية العتيدة (التى تغير اسمها إلي جامعة فؤاد الأول ثم إلى جامعة القاهرة) الذين بلغوا فى تلك الفترة عدة مئات كل عام أضيف خريجو جامعة الاسكندرية (التى أنشئت فى ١٩٤٢) ثم عين شمس (١٩٥٠) ثم أسيوط (١٩٥٨) ثم خريجو جامعة الأزهر التى تم تحديثها فى أوائل الستينات على نحو يسمح بتدريس المواد العصرية ومنها الاقتصاد وفى ١٩٦٠ تم افتتاح أول كلية متخصصة فى الاقتصاد وهى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

ثانيا : حدث فى تلك الفترة التوسع الهائل فى البعثات الحكومية لخريجى الجامعات لمتابعة دراستهم العليا بالخارج ذلك أن تبنى الحكومة فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ لهدف التنمية الاقتصادية السريعة والتصنيع وسياسة التخطيط المركزى ، واتباعها لسياسة عدم الانحياز فيما بين منتصف الخمسينات ومنتصف الستينات ،

حفز الحكومة إلى إرسال أعداد كبيرة من الخريجين بما فى ذلك دارسى الاقتصاد إلى جامعات الغرب والشرق ، اعتقاداً منها بأن من شأن ذلك أن يحقق توازنا صحياً بين أيديولوجيتى المعسكرين . كانت مدة البعثة للكثيرين من هؤلاء الطلاب طويلة نسبيا ، قد تمتد إلى خمس سنوات أو أكثر ، وكان موضوع الدراسة لأغلبهم قد حدد تحديدا دقيقاً من جانب الهيئة الحكومية التى أوفدتهم أملا فى أن يلبى ذلك حاجات محددة للدولة ، وهى سياسة تذكر ببعثات محمد على قبل ذلك بأكثر من قرن من الزمان.

ثالثا : بدأ تطبيق سياسة طموحة أيضا وحازقة فيما يتعلق بجمع الاحصاءات والمعلومات فأنشئت هيئة جديدة وقوية وواسعة الاختصاص لجمع وتحليل البيانات الاحصائية سميت الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء، وعهدت إدارتها إلى مديرين مستنيرين وبالغى الحيوية والطموح من ضباط الجيش استطاع الجهاز فى عهدهم تقديم خدمات جليلة فى ميدان الإحصاء والبحث الاقتصادى .

هكذا تم التغلب إلى حد كبير على العقبتين اللتين قيدا البحث الاقتصادى فى الفترة السابقة (٢٠ -١٩٤٥) ، إذا لم تعد هناك ندرة فى الاقتصاديين المتدربين



لبيب شقير

تدريبا جيدا ، ولا نفس الدرجة من الندرة فى البيانات الاحصائية.

كذلك لم يعد الطلب شحيحا على خدمات الاقتصاديين أو على الاحصاءات . فإلى جانب وزارتى المالية والتجارة القديمتين والجامعات الآخذة فى التوسع ، أنشئت وزارة مستقلة للاقتصاد ، وأخرى للصناعة، ولجنة حديثة باسم لجنة التخطيط القومى تحولت فيما بعد إلى وزارة التخطيط ، وفى أوائل الستينات أنشىء المعهد القومى للتخطيط ، الذى أنشأه وأصبح أول مدير له أستاذ نابغ في الفلك ، تصادف أنه كان أيضا هاويا للاقتصاد والتخطيط ، ويشارك قادة ثورة ١٩٥٢ فى طموحاتهم فى التنمية والتقدم (د . إبراهيم حلمى عبد الرحمن) .

ثروة من الاحصاءات

فإذا تأمل المرء الآن النتائج التى أثمرتها تلك الجهود ، فإنه لا يسعه ، حتى ولو كان من أشد أنصار مبدأ عدم تدخل

الدولة فى الاقتصاد ، إلا أن يشعر بالتقدير العميق لما أداه الدور الواسع للدولة فى تلك الفترة فى ميدان البحث الاقتصادى وتوفير المعلومات الاقتصادية لقد أصبحت فى متناول اليد ثروة من الاحصاءات عن مختلف جوانب الاقتصاد والمجتمع المصرى ، بفضل جهاز التعبئة والإحصاء في الأساس ، كما أعدت ونشرت لجنة التخطيط القومى والمعهد القومى للتخطيط محاضرات ومذكرات وبحوثا عن مختلف قضايا التنمية وأساليب التخطيط الفنية ، ودعى عدد من كبار الاقتصاديين ذوى المكانة العالية ، للمجيء إلى مصر لالقاء المحاضرات أو إعداد الدراسات عن مختلف مشكلات الاقتصاد المصرى أو المشكلات النظرية العامة لقضايا التنمية الاقتصادية ، كما نشطت حركة للترجمة فى مختلف فروع المعرفة بما فيها الاقتصاد والتخطيط تشجعها وتنفق عليها الدولة. هكذا جاء إلى مصر «جوتفريد هابرلر» و«إجنار نيركسه» بدعوة من البنك الأهلى المصرى في السنوات الأولى التالية لثورة ١٩٥٢ لإلقاء محاضرات عامة عن مشكلات التنمية الاقتصادية ، أصبحت فيما بعد أساساً لبعض من أشهر أعمالهما .

بل حتى خلال الفترة التي اتخذت فيها أكثر الاجراءات ثورية، وبدأ فيها تطبيق ، ماسمى وقتها بالاشتراكية العربية ، لم تجد السلطة غضاضة فى دعوة بعض الاقتصاديين الأجانب من غير الاشتراكيين ولكن من ذوى السمعة العالية فى فرع تخصصهم ، للقدوم بل والاقامة في مصر لفترات متفاوتة . هكذا جاء إلى مصر الاقتصادى السويدى الشهير «بنت هانسن» فى مطلع الستينات وخصص له مكتب في معهد التخطيط القومى حيث كان يلتقى بالاقتصاديين المصريين ويلقى المحاضرات ويعقد ندوات البحث مما أسفر في النهاية عن ظهور كتابه القيم عن الاقتصاد المصرى (بالتعاون مع جرجس مرزوق) فى ١٩٦٥. خلال نفس الفترة جاء إلى مصر الاقتصادى البريطانى باتريك أوبراين الذى أصبح فيما بعد ولايزال أحد أبرز أساتذة التاريخ الاقتصادى فى جامعة أكسفورد ليكتب كتابه القيم أيضا عن تحول النظام الاقتصادى المصرى إلى الاشتراكية وهو كتاب لا يزال يعتبر حتى الآن من افضل ما كتب فى موضوعه كما كان هذا التحول فى النظام الاقتصادى المصرى هو ما أدى بالدكتور حسين خلاف إلى كتابة مؤلف قيم أخر فى التاريخ الاقتصادى المصرى الحديث .

العصر الذهبى

بالاضافة إلى الزيادة الملحوظة فى حجم الكتابات المتعلقة بالمشكلات

الفكر الاقتصادى المصرى



محمد زكى
شافعى

التطبيقية الخاصة بالاقتصاد المصرى ، وارتفاع مستواها ، خلال عقدى الخمسينات والستينات ، يمكن أن يعتبر هذان العقدان أيضا العصر الذهبى لتأليف الكتب المدرسية TEXT BOOKS فى مختلف فروع علم الاقتصاد . لقد شهدت هذه الفترة ظهور كتب سعيد النجار فى نظرية الثمن ، وزكى شافعى فى النقود والبنوك . وزكريا نصر فى النظرية الاقتصادية الكلية والتاريخ الاقتصادى العام ، ولبيب شقير فى التجارة الدولية والتكامل الاقتصادى العربى ، وحسين خلاف فى المالية العامة .. الخ .

لقد قدمت كل هذه الكتب وغيرها عروضا بالغة التميز للمبادىء المستقرة فى النظرية الاقتصادية والمالية العامة ، كتبت بدقة وتأن وصبر وبلغة عربية صحيحة وبأسلوب جميل خال من أى لغو كان الجيل السابق من الاقتصاديين (جيل فترة ما بين الحربين) قد قام بصنع اللبنات اللازمة للبناء ، فإذا بهذا الجيل التالى يستخدمها فى إقامة أبنية ثابتة وخلابة كان هذا الجيل الذى كتب في الخمسينات والستينات قد نشأ وتعلم فى ظروف أكثر استقرارا بكثير من الجيل الذى تلاه (جيل السبعينات والثمانينات) وقضى فى الدراسة بالخارج فترات أطول بكثير فلما عاد أفراده إلى مصر بعد حصولهم على درجة الدكتوراه ، أعطوا مرتبات بالجامعة تسمح لهم بمعيشة محترمة ولائقة لا يضطرون معها للتنقل من مكان لآخر لكسب الرزق ، كما ظلوا يتمتعون بمركز أدبى رفيع ، كأساتذة بالجامعة يحفزهم على بذل ما كانوا يبذلونه من جهد وهى كلها أمور فقد منها الكثير بعد ذلك الوقت. لم يكونوا فى عجلة من أمرهم وهم يكتبون وينشرون نتاج عملهم وما كانوا يتعرضون لنفس الإغراء الذى خضع له خلفاؤهم من الاقتصاديين لكسب المزيد من المال وتكوين الثروات. لم يكن ذلك الجيل ، جيل الخمسينات والستينات بالضرورة مصنوعا من معدن أنفس من الجيل التالى عليه، إنه فقط لم يتلق ضربات بنفس القسوة التى ضرب بها من تلاهم.

ازدهار الحياة الثقافية

إن هذه المزايا التى تمتع بهـا ذلك الجيل من الاقتصاديين تمتع بها أيضا نفس الجـيل من الروائيين والمسرحـيين والشـعـراء والفنانين من مـخـتلف الأنواع ففى خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، شهدت مصر ازدهارا ملحـوظا فى الحـياة الثـقافـيـة والفنية يقارب ، إن لم يفق ما شهدته من ازدهار فى العقد التالى للحرب العالمية الأولى كـانت هذه الفـتـرة (٤٥ - ١٩٦٠) هى الفترة التي شهدت نشر أفضل أعمال نجيب محفوظ ويوسف ادريس وما يعتبره كثير من النقاد بعضا من أفضل ما أنتجه المسرح المصري وأرباب التلحين الموسيقي والفنون التشكيلية في هذا القرن.

وتفسير ذلك في رأيي اجتماع عدة ظروف في نفس الوقت: حركة وطنية قوية خلقت شعورا بالتفاؤل بالمستقبل، ودرجة عـالـيـة من الاسـتـقـرار السـيـاسـي ومن التفاعل الصحي مع الثقافات الأجنبية مع توفر مستوي واحد من التعليم والثقافة لهـذا الجـيل من الاقـتـصـاديين والكتـاب والفنانين بوجـه عـام. إن كـثـيـرا من هذه الظروف قـد جـري فـقـدها تدريجـيـا، وبدرجات متفاوتة خلال السبعينات، لكن حتي قبل قدوم السبعينات كانت السحب قـد بدأت تتـجـمع منذرة بمناخ مـخـتلف تماما، حتي ان بوادر هذا التغير قد بدأت تصـبـح شـديدة الوضـوح في السنوات التالية لهزيمة ١٩٦٧.

تدخل الدولة فى الاقتصاد

كانت هذه الفـتـرة تدور في الأساس حـول زيادة ثقل يد الدولة فى الحـيـاة الاجتماعية والثقافية. كانت البوادر الأولي قد بدأت في الظهور في وقت مبكر، حينما بدأ الخلاف بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب يظهر للعيان في ١٩٥٤، ولكن الأمر لم يصـبـح ثقـيل الوطـأة إلا مع انتـصـاف الستينات حينما اقترن تزايد الصعوبات الاقتصادية مع تزايدالضغوط الخارجية، ثم مع هجوم ١٩٦٧ المشئوم وكلها ظروف أدت إلي تزايد ضـغط الدولة علي نفـوس الناس بما في ذلك، بـل وعـلـي الأخص المثقفون .

انعكس هذا بالطبع علي الاقتصاديين المصريين فى صور مختلفة. فمع ازدياد تدخل الدولة في الاقتصـاد بعد منتصف الخمسينات زاد إلحاح الدولة علي المثقفين بما في ذلك أساتذة الجامعات، بأن يقوموا بالتـعـبـيـر والترويج للأيديولوجـيـة التى تتـبـناها الحكومـة. ولكن من حـيـث أن

الفكر الاقتصادى المصرى



د. فؤاد مرسي

الحكومة في البداية لم تكن هي نفسها تعرف بوضوح نوع هذه الأيديولوجية، فإن التوجيهات الصادرة من الحكومة كثيرا ما كانت تتعرض للتغير المفاجئ وكثيرا ما كانت تصدر متضاربة، وقد سمح بعض الاقتصاديين لأنفسهم للأسف بمن فيهم بعض الأكاديميين، بأن يستدرجوا إلي هذا المنحدر، وبأن يولوا وجوههم إلي أية وجهة تحددها لهم السلطات. هكذا بدأ الترويج للنظام التعاوني في منتصف الخمسينات، تلاه الترويج لأسلوب التخطيط الاقتصادي في أواخر الخمسينات، ثم للاشتراكية العربية ابتداء من ١٩٦١، ممزوجة ببعض ملامح الماركسية في أعقاب ١٩٦٤.

كان لإصرار الحكومة في ذلك الوقت علي ان تكون أيديولوجيتها هي المسيطرة علي التعليم الجامعي، أثر سيء علي البحث الاقتصادي والكتابات الاقتصادية من أكثر من ناحية. فبينما أسرع بعض الاقتصاديين الأكثر استعدادا للخضوع لرغبة السلطات إلي كتابة ما تريد السلطة أن تقرأه بدأ الاحباط يخيم علي من كان منهم أكثر استقلالا في الرأي، خاصة وهم يرون قلة حظ من اختار التفرغ للبحث غير المنحاز، وقد فضل بعض هذا الفريق الأخير أن يترك الجامعة برمتها ويبحث عن عمل خارج البلاد. هناك بالطبع من الاقتصاديين الأكفاء من كان يشارك الحكومة التزامها بالاشتراكية وإيمانها بالتخطيط المركزي، ولكن حتي في داخل هذا الفريق الأخير وجد من رأي أن الخطابة السياسية أو تقوية العلاقات بأصحاب النفوذ هي طريق أسرع للصعود السياسي أو المادي من البحث الأكاديمي المتأني، ومن ثم خضع بعضهم لإغراء ترك العمل العلمي والاشتغال بالسياسة.

لعبة السياسة الدولية

من المؤسف أيضا وبوجه خاص، أن الحكومة منذ أواخر الخمسينات، بدأت تصر علي تقييد التعبير عن أي مذهب من المذاهب الاشتراكية غير المذهب الذي اختارته. وكان سبب ذلك، في رأيي، ليس ضيق الأفق بقدر ما كانت الحكومة تعتبره من متطلبات لعبة السياسة الدولية والرغبة في إرضاء أو تحييد إحدي القوتين

العظمــيين . لكن أيا كــان ســبب هذه الظاهرة فــإن آثرها على البــحث الاقتصادي كان سيئا فقد أدى حذف الحكومة من أن يتحـول الاقتـصـاديون الماركسيون فى مصر إلى الترويج لأهداف السياسة السوفيتية أو ربما مجرد رغبة الحكومة فى أن تظهر نفسها أمام الولايات المتحدة بمظهر من يقاوم النفوذ السوفيتى ويضع حـدا لانتـشـاره إلى أن وضــعت الحكومة فى الســجن كل الماركــسـيين المصـريين الذين لهم أى أثر على الاطلاق فى الرأى العام، وتلك لعدة سنوات (٥٩ – ١٩٦٤) وقد شمل ذلك بعضا من اكثر الاقتصاديين المصريين نبوغا وحيويه وعلما كان على رأس هؤلاء اسماعيل صبرى عبدالله وفؤاد مرسى وفوزى منصور الذين كانوا وقت اعتقالهم فى ١٩٥٩ أساتذة فى الجامعة ولكن لم يسمح لهم بعد خروجهم أن يعودوا إليـها خوفا من أن يؤثروا فى الطلبة تأثيرا غير مرغوب فيه ومن عاد منهم إلى الجامعة بعد لأى وبسبب ظروف استثنائية كفوزى منصور سرعان ماوجد المناخ العلمى والسياسى فى الجامعة محبطا لدرجة أدت به إلى الهجرة لبضع سنوات خارج البلاد.

ومع ذلك فـثـمـة خـدمـة جليلة أداها النظام الناصـرى للفكر الماركـسى دون قـصـد منه إذ أنه عندما بدأ اعتـقـال الماركسيين فى عام ١٩٥٩ ، استطاع أحد الاقتـصـاديين المصـريين النابغين الهرب بمعـجـزة إلى فـرنسـا ومنهـا إلى غـرب أفريقيا حيث استطاع أن ينتج إنتاجا مثمرا للغاية وأن يحدث تطويرا متميزا للفكر الاقتصادى الماركسى .

إنى أقصد بالطبع سمير أمين الذى كـان ولا يزال غزير الانتاج بالفرنسـيـة وكـانت أعـمـاله تتـرجم فى الحـال إلى الانجليـزية منذ أواخر الستينات ، ولكن قراء العربية لم تكن تصلهم إلا ترجمات سيئة لأعماله ، ومع ذلك ظلت تهرب وتباع سرا فى مصر باعتبارها من الممنوعات حتى قرب نهاية السبعينات عندما أراد سمير أمين أن يكتب نقدا لسياسة عبد الناصر الاقتصادية فى الستينات اضطر إلى استخدام اسم مستعار هو «حسن رياض» ولكنه حتى بعد وفاة عبد الناصر لم يستطع العودة إلى مصر ، فقد احتاج ذلك إلى وفاة السادات أيضا ، ومن ثم ظل تأثير سمير أمين فى الكتابات الاقتصادية المصرية محدودا بحدود دائرة ضيقة للغاية .

غول التكنولوجيا والفكر الاجتماعى

بقلم: عبدالرحمن شاكر

استطارت، وسوف تستطير أحاديث كثيرة جدا عن ثورة التكنولوجيا والمعلومات والاتصالات وما إلى ذلك، وآثار تلك الثورة على المجتمع الإنسانى فى مجموعه وفى آحاده من أفراد وطبقات وأمم ودول، وكتل سياسية.. الخ مع تسليم من جانب معظم تلك الأحاديث على تنوعها واختلافها بأن العالم قد أصبح أو فى طريقه أن يصبح قرية واحدة، كل مايدور فى مختلف أجزائه يتردد صداه ويؤثر على الآخرين بطريقة أو بأخرى، وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال انقسام العالم إلى معسكرين منذ أكثر من عشر سنوات بانهيار المعسكر الاشتراكى وتفكك دولته الكبرى التى كانت تعرف باسم الاتحاد السوفييتى، لأسباب ليست بعيدة عن الثورة التكنولوجية، وأهمها أن تلك الثورة قد شقت طريقها فى الغرب الرأسمالى أسرع منها بكثير فى مجتمعات الاشتراكية وأنه كان عليه أن يخضع لشروط هذا الغرب فى اقتصاد السوق وحرية التجارة لكى يتاح له أن يلحق بما أنجزته تلك الثورة فى جميع ميادين الانتاج والتسليح.. إلخ.

وإذا كان انهيار المعسكر الاشتراكى وتفكك الاتحاد السوفييتى قد ترتب عليه انهيار مماثل فى مكانة الفكر الاشتراكى وخاصة نظريته الأساسية المعروفة باسم الماركسية أو الماركسية - اللينينة عند قدامى الشيوعيين، واختفاء أدبياتها التقليدية من التداول، فإن أدبيات جديدة قد بدأت فى الظهور تقارب فى لغتها إن لم يكن فى أفكارها تلك الأدبيات المنبوذة التى اشتهر بها المعسكر الاشتراكى السابق، ولكنها هذه المرة فى الغرب الرأسمالى ذاته، بل فى قلعته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وليست تلك الأدبيات على الهامش، مثل منشورات الحزب الشيوعى الأمريكى قديما بل على صفحات صحف ومجلات أمريكية ذائعة الصيت فى أرجاء العالم منها مجلة «نيوزويك» التى نشرت بتاريخ ٢٦ فبراير من هذا العام موضوعا وضعت له عنوانا على غلاف المجلة هو «الرأسماليون القتلة

فى أمريكا» (!!) وعلى صفحات الموضوع فى داخل المجلة كان العنوان هو «رجال الضرب» بقلم «آلان سلو آن» وكتب فى مقدمته يقول: «لقد كان من المعتاد أن يعتبر من العار فصل العمال بالجملة، ولكن «وول ستريت» قد أصبح يحب ذلك، ولكن عمليات الفصل قد احنقت صدور الجماهير وأثارت رد فعل غاضب عنيف، فهل هناك طريق أفضل؟» ثم يبدأ موضوعه بقوله: «هناك شيء مختلف فى الجو هذه الأيام فيما يتعلق بوظائف الناس. نعم. لقد كانت هناك حالات فصل جماعية منذ وجدت الأعمال، كان لدينا دائما رؤساء وإداريون جشعون عديمو الاحساس ولكنهم كانوا قلة معزولة، دون ان نذكر حملة الاسهم الجياع أو العمال القلقين، ولكن أخيرا، تجمعت تلك الريب (جمع ريبة) المعتادة بطريقة تشكل شيئا جديدا كريها، يمكن أن تسميه «الرأسمالية الفاجرة» أو الرأسمالية «معنى عينك» (بالتعبير العامى الذى استخدم الكاتب عبارة تقاربه). أنت تفقد عملك، فترتفع أسهم مستخدميك السابقين فى البورصة، ويحصل رئيس مجلس الادارة على علاوة ضخمة! هناك «حاجة غلط» (مرة أخرى نلجأ للتعبير العامى) واضحة تماما، حيث تستمر الأسهم فى الارتفاع فى «وول ستريت» بينما يغص الشارع الرئيسى (وول ستريت هو اسم شارع البورصة) بأجساد العمال الذين فصلتهم الشركات الكبرى مثل «ايه. تى. أند. تى» و«تشيز منهاتن» و«سكوت بيبر» (أوسكوت للورق)، فيما مضى كان فصلك العمال بالجملة يعتبر وصمة عار، كان معناه أنك مضطرب فى عملك، واليوم، فإنه كلما زاد فصل العمال، زاد حب وول ستريت لهذا العمل، وارتفعت أسعار أسهمه فى البورصة، لذلك ليس عجبا أن الخبثاء فى اتحاد «ايه . تى. آند. تى» يرجفون بأن رئيس مجلس ادارتها «روبرت ألن» سوف يفصل قريبا كل العاملين ماعداه هو(!) وأن «ايه . تى. أند. تى» سوف تظل تعمل بواسطة «ألن» واثنين من المقربين فحسب!! ليست هذه هى الكيفية المفروض أن يعمل بها العالم، أليس كذلك؟!

● الياقات البيضاء

ثم يمضى الكاتب فى مقاله قائلا: منذ خمسة وعشرين عاما كان فصل الناس فى «أمريكا الشركات» موضع نظر حسب الحالة، فلم يكن يخل باعتبار أحد رجال الأعمال أن يفعل ذلك من أجل بناء مصانع جديدة، ولكنك الآن تفصل العاملين - خصوصا من ذوى الياقات البيضاء - من أجل أن تزيد معدل توزيع الأرباح كان كثير من ذوى الياقات البيضاء يدركون أن بعض حالات الفصل القليلة فى الماضى انما تعنى انهم لايستطيعون الاعتماد على البقاء عند أمثال شركة «آى. بى. إم» إلى الأبد. ولكن شيئا لم يحل محل صاحب العمل الذى يشبه الأب الكبير الطيب، مما يلقى الرعب فى نفوسنا، انك تستطيع عمليا أن تشتم رائحة الخوف والغضب فى «أمريكا الياقات البيضاء»، لأنه لايبدو أن أحدا يعنيه الأمر فى «أرض رؤساء

مجالس الإدارة».

ثم يمضي الكاتب بعد ذلك إلى حد الحديث عن حالته هو شخصيا فيقول: أين سوف أجد عملا آخر إذا ما تم «توفيرى» ويستطرد كالمحاور نفسه: «كف عن النواح، فاحصاءات البطالة لم تزد إلا قليلا بالرغم من حالات الفصل الكثيرة بين ذوى الياقات البيضاء، هل تدمر رئيستى فى العمل حياتى لكى تزيد سنتا آخر فى أرباح اختياراتها من الأسهم؟ هنيئا لك، فأنت تخدم الخير الأعظم بأن يعصف بك ماعمده الاقتصادى «جوزيف شمبيتر» باسم «رياح التدمير الخلاقة»! وفيما عدا «الكرات الطائشة» مثل الاقتصادى الرئيسي فى مورجان ستانلى (الذى حذر منذ سنوات من حدوث رد فعل سياسى عنيف) أو رئيس «التكنولوجيا المتحدة» (الذى قدم مؤخرا برنامجا بارعا لمساعدة عمال «التكنولوجيا المتحدة» على اعادة تعليم أنفسهم ليصلحوا لشغل وظائفهم المقبلة، فإن وول ستريت وكبار رجال الأعمال على اتفاق تام على أن «الرأسمالية الفاجرة (عينى عينك!) تجعل أمريكا أعظم شأنا!

ويقول الكاتب بعد ذلك «انه ربما كان هذا هو أوان رد الفعل الغاضب العنيف» فقد أصبحت متاعب ذوى الياقات البيضاء موضوعا ساخنا فى حملات انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٦.. من ذلك أن «بوب دول» (أقوى مرشح للحزب الجمهورى) يقوم بجلبة معادية لرجال الأعمال (حسب تعبير «آل دنلوب» أقوى المتحدثين باسم عتاة رجال الأعمال من شركة سكوت للورق» كما أن وسائل الاعلام الكبرى من أول «نيويورك تايمس» الى «وول ستريت جورنال» ترجع النجاح القوى ليات بوكانان فى الانتخابات التمهيدية فى ولاية إيوا إلى هجومه على رجال الأعمال!

ولكن الكاتب لا ينكر العوامل الاقتصادية التى تؤدى الى عمليات طرد العاملين سواء من ذوى الياقات البيضاء (الموظفين المتعلمين) أو الياقات الزرقاء (العمال العاديين) فيقول: «ليس من الانصاف أن نلقى باللوم على المؤسسات الكبرى او وول ستريت فى كل حالة فصل فى أمريكا فالعالم يتغير، ولايهم مدى ضخامة الشركة او ثرائها، فعليها أن تلائم نفسها (أى مع أوضاع العالم المتغيرة) أو تموت. ويضيف بين قوسين، انه «حتى نيوزويك التى يعمل بها ويكتب هذا المقال لم تكن معصومة من عملية الغاء بعض الوظائف وتوفير شاغليها!» ولكنه يقول بعد ذلك: «ان وول ستريت (يقصد البورصة) والمؤسسات الكبرى قد زادت المشكلة السيئة سوءا، بسبب الجشع! فبدلا من ترك قوائم الأجور لديهم تستقر، او مساعدة الموظفين على اعداد انفسهم لوظائف أخرى، أضاع كثير من رؤساء مجالس الادارة وقتا ثمينا، فقد تركوا قوائم الأجور تتضخم، وبعدها - لكى يوازنوا أمورهم - فإنهم يقدمون موظفيهم كضحايا بشرية لـ «مامون» MAMMON إله وول ستريت مؤملين بذلك أن ترتفع أسعار أسهمهم. وحينما

يحدث هذا الارتفاع فهو يبدو وكأن وول ستريت يبصق على جثث الضحايا!! ثم يحصل رئيس مجلس الادارة على علاوة!!

ويتساءل الكاتب بعد ذلك مباشرة بقوله: «كم من رؤساء مجالس ادارة الشركات الكبرى التى انقصت عدد العاملين بها، ضحوا ببعض مرتباتهم او امتيازاتهم لكى يخلقوا نوعا من الشعور بالتعاطف الاجتماعي؟ هل اعترفوا علنا لأولئك الذين طردوهم؟ هل تحملوا أية مسئولية شخصية عن الأخطاء التى ساعدت على ايجاد المشاكل التى يعملون على حلها الآن بطرد العاملين؟ لا سبيل الى ذلك فليس أحد من هؤلاء «ماكو» (يقصد ليس أحد منهم بالشخصية التى تتصف بالرجولة الحقة ويقظة الضمير!) ويحسن فى هذا الموضع أن نشير إلى أن الكاتب قد رصع موضوعه بأثنتى عشرة صورة لبعض رؤساء مجالس ادارة الشركات الكبرى ووضع تحت (أو فوق) صورة كل منهم عدد من طردهم من العاملين وهم بعشرات الألوف والمرتب الضخم الذى يتقاضاه هو ويبلغ أحيانا عدة ملايين سنويا!

● غول التكنولوجيا

ولكن الكاتب بعد ذلك يعود إلى مراجعة نفسه ونسبة عمليات التوفير واسعة النطاق بين العاملين إلى أسبابها الموضوعية فى عصر الثورة التكنولوجية فيقول:

«وبالطبع فلا يهم مدى مايتمتع به رئيس مجلس الادارة من حساسية وكياسة، فهناك تيارات لن تستطيع أن تسبح ضدها وخذ مثالا البنوك، فبفضل الصناديق المشتركة فى سوق المال، والبنوك القومية، وماكينات الصرافة والحاسبات الالكترونية فائقة الذكاء، فإن كثيرا من البنوك، وفروعها، وألوف الوظائف البنكية سوف تختفى خلال السنوات القليلة المقبلة، لقد كان من المعتاد أن تصبح التسهيلات الالكترونية مستخدمين عظماء مدى الحياة أيضا، كانت احتكارات منظمة مسموح لها بأن تتجاوز التكاليف لعملائها، ولكن المنظمات قد شرعت تمكن الشركات من غزو مجال بعضها البعض، والنتيجة ان هذه التسهيلات قد شرعت تتحد، وعن قريب سوف تفتك بالعاملين من أجل خفض التكاليف.

«انظر.. إنك لن تستطيع أن توقف التقدم فى الحاسبات الالكترونية والاتصالات، والمواصلات، إنها تحول الأسواق القومية إلى أسواق عالمية، إن الشركات الأجنبية التى لاتستطيع أنت أن تنطق اسمها قد تستولى على عملائك وتقتلك، ان الأخطاء تظهر بسرعة ودورات الانتاج قد أصبحت أقصر من ذى قبل.

انظر إلى «أى. تى. ام» و«ديجيتال اكويبمنت» اللتين كانتا أكبر صانعى أجهزة الكمبيوتر فى العالم، كيف أوشكتا أن تضيفا لفظة «المضطربة» الى اسميهما بين يـــوم وليلـة (ويبـــدو الأن انهما تتعافيان) إن شركة باذخة مثل «موتورولا» قد تتعرض لانهيار قيمة اسهمها اذا

نقصت ارباحها شعرة أو شعرتين! حقا إن أحد الأسباب التى تجعل رؤساء الشركات أحط وأكثر جشعا من ذى قبل هو ماحدث فى الثمانينات: فلم تكن هناك شركة واحدة بمنجاة من المغيرين اذا انخفضت أسعار اسهمها، فإذا لم تطرح العبء عن كاهل الخاسرين لديك وتفصل العمال «الزائدين» فإن غولا داهما سوف يشترى شركتك ويطرد الجميع!

ثم يقول الكاتب ذاكرا نفسه والفئة التى ينتمى اليها مرة أخرى:

«ومع ذلك، فحينما كانت عمليات الطرد جزءا تقليديا من حياة ذوى الياقات الزرقاء، فإن التسعينيات هى المرة الأولى التى تشهد ذبح العاملين من ذوى الياقات البيضاء بالجملة، وهذا مما يساعد على فهم سر الجلبة، ففى النهاية فإن كل ذوى الشأن، من الساسة وأمثالنا من نخبة رجال الأعمال نعيش فى عالم ذوى الياقات البيضاء، وعلى أية حال يمكنك ان ترى الأسباب التى جعلت شركة «جنرال موتورز» تفصل ٧٤ ألف عامل فى عام ١٩٩١ وشركة «سيرز» تفصل ٥٠ ألفا بعد عامين، من ذلك. لقد كانتا كلتاهما فى وضع يائس وكان وجودهما مهددا بالزوال، مما جعل رئيس كل من الشركتين يقدم على مافعل!!»

ثم يعرض الكاتب بعد ذلك لكثير من تفاصيل حالات الاندماج والانقسام فى الشركات واقتران كل عملية من هذا النوع بالتخلص من اعداد كبيرة من العاملين ويذكر بعض عمليات التعويض التى قام بها عدد من رؤساء الشركات لاعادة تعليم موظفيها الذين تم أو سيتم الاستغناء عنهم وعن وظائفهم الحالية، وبعد ذلك يلحق بالموضوع دفاعا عن سياسته الفصل بالجملة التى تتبعها الشركات الكبرى، على لسان «ألبرت دينلاب» السابق الإشارة اليه ورئيس شركة سكوت للورق، وسبق له فصل ١١ ألف عامل، وملخص هذا الدفاع ان الشركات سوف تموت اذا لم تفصل تلك الاعداد الزائدة من العاملين، وان ارتفاع قيمة اسهم الشركات معناه زيادة نصيب حملة الاسهم من الأرباح وبالتالى زيادة قدرتهم على الادخار وإعادة الاستثمار فى مشروعات جديدة تعود بالفائدة على الاقتصاد القومى وتهيىء فرص عمل جديدة للمتعطلين.

لقد أصبحت البطالة المتزايدة هى المشكلة الكبرى التى تثيرها ثورة التكنولوجيا فى مختلف أرجاء العالم حيث لم تعد الآلة تحل محل العمل اليدوى فحسب، بل محل العمل الذهنى أيضا، الذى أصبح من مسلمات العصر التكنولوجى أيضا انه قد صار هو الأكثر

اهمية فى العمليات الانتاجية المعاصرة والتى تزداد تطورا كل يوم، وبالتالى اعتمادا على الآلة دون الإنسان، وآخر الأخبار فى هذا الباب أن اليابان قد نجحت فى الاعتماد على الانسان الآلى فى أعمال البناء!

ولقد عقد اجتماع أخير فى أوربا لبحث مشكلة البطالة المتفاقمة، فى العالم الصناعى، بل التكنولوجى المتقدم، ولكنه لم يسفر عن شيء ذى بال، وعاد الباحثون والمفكرون ينظرون من جديد فى جعبة الترسانة المهجورة ترسانة الفكر الاشتراكى.

ولقد أذكر فى هذا الصدد مقالا قصيرا كتبته الزميلة الصحفية ليلى حافظ على صفحات الاهرام بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٩٦ بعنوان مثير هو: «المد الشيوعى فى الغرب والشرق: حقيقة ام خداع نظر؟ ذكرت فيه عودة الكثير من احزاب اليسار الجديد الى الحكم فى شرق اوربا، واحتمال عودتها فى روسيا بعد الانتخابات الرئاسية المتوقعة فى يونيو المقبل، وذلك بسبب فشل التطبيق الرأسمالى فيها بأشد من فشل الاشتراكية، وخاصة بتزايد أعداد المتعطلين فى ظلها، كما أوردت ما قاله، ريتشارد وولف أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة ماسوشتش من أن هناك رغبة عارمة بين الامريكيين لمعرفة المزيد عن الماركسية بعد انهيار النظم الشيوعية ولاشك ان «صاحبنا» كاتب المقال المشار اليه على صفحات نيوزويك وهو أحد هؤلاء الباحثين عن حل لمشكلة البطالة فى العصر التكنولوجى قد يكون من بين من وصفتهم كاتبة الأهرام بقولها: «الذين يقرأون ماركس اليوم فى الولايات المتحدة أو روسيا يبحثون عن حلول لمشاكل بلادهم ولايبحثون عن قلب النظام فى هذا المجتمع.. وأن هؤلاء يسعون الى ايجاد طريق وسط يتحقق من خلاله العدل الاجتماعى مع الاحتفاظ بالانجازات الاقتصادية!»

وأعتقد أن تحول الأسواق القومية الى سوق عالمية واحدة كما تقدم فى مقال نيوزويك لن يسمح لمجتمع بمفرده مهما كان ضخما أن يواجه غول التكنولوجيا الزاحفة وخطرها على أرزاق البشر، بل لابد من أن يعمل الفكر الاجتماعى مستفيدا من جميع التجارب للعثور على «الطريق الوسط» على مستوى العالم، الذى تحول أو يوشك أن يتحول الى قرية واحدة!

■



د . عصمت سيف الدولة



مذكرات قرية

رحيل الدكتور عصمت سيف الدولة

شيخ جبل البداري

بقلم: مصطفى نبيل

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة أن يكتب سيرته الذاتية فآثر كتابة السيرة الذاتية لقريته «الهمامية»، فلقد توحد مع أهلها، وكان على أكثر أحداثها شاهدا، فهو ابن القرية التى تسربت حكاياتها إلى مسامه.

ومن يقرأ «مذكرات قرية» يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول فى مقدمة كتابه : «تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لى منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، إلا أنى لا أريد، فقد

تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لايمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع إلى

البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا على الخلود، إنها ذات الغريزة التى تولد فى الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية، يحب أولاده أكثر من ذاته حتى ولو كانوا مارقين؟!» .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية على صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعدادا كبيرا بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة على ما أقول: الصورة التى رسمها للمرأة الصعيدية والتى قدمها بقوله: «تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل، الزوج، وهى بعد التى قدمت حجر الأساس الاقتصادى لبيت الزوجية الذى تديره، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل، ولزوجها فضل العمل، فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا، ولا زوجها، وإنما تدير مملكتها فى بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على اسئلة الرجل الزوج، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة فى القرية لا «تحب» ولا «تعشق» زوجها، تلك وأمثالها أوصاف أدنى بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين، أدنى وصف الى حقيقتها إنها وحدة مصير. لا بل وحدة وجود. فهما لايلتقيان منفردين إلا نادرا، وإن تحادثا فلا يهزران، ولايتلامسان غزلا، ولايتغازلان حديثا، ولايعرفان عادة القبل على الشفاه، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب، ولايفقدان فى كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولاتنادى المرأة زوجها باسمه ولايناديها باسمها إلا اذا كانا منفردين، وإن تجادلا فصيغة النداء تدل على مدى الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له «ياخوى» فهى متفقة، وإن نادته «ياولد عمى» فهى تتودد.. وإن قالت له «ياولد الناس» فهى غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف إنها إن غضبت فسيشقى، ستظل اسئلة فى بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شىء ولا تخسر هى شيئا.

ولايعنى هذا أن المرأة فى القرية لاتعرف الحب.. بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء، كل ما فى الأمر إنها أحبت حتى الوله وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا

بعينه».

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحى الحياة فى الهمامية.

● وصية في كتاب

وما بين نشر الجزء الأول فى كتاب الهلال فى أغسطس ١٩٩٥، وبين نشر الجزء الثانى الذى سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجعه، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته وهى خلاصة حكاية قريته التى تقدم نموذجا لكل قرى مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى، وتؤكد تجربة قرية «الهمامية» على المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعا يعودون إلى أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطانى وأحيانا أخرى للإقطاع الذى انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الى حد فرار شباب القرية الى الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية فإن المقاومة الذكية التى قادها الشيخ عباس نجحت فى حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربى البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ فى استرداد أرض الجزيرة، وبقى الصراع مع الطبيعة، الفيضان والجفاف ورمال الجبل، وفى مواجهة الفقر والظلم. وتقدم تجربة «الهمامية» التى نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع.

● النبع الصافى

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل فى نبعين لعبا أهم الأدوار فى حياته، أحدهما الصعيد والثانى تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة على تكوينه، الصلابة التى لاتعرف المساومة، الشجاعة فى التمسك بالحق كالقابض على جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة على أن الوجه البحرى يستقبل الموجات الوافدة على مصر. ويأتى من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلهما تتشكل البوتقة المتوازنة التى تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس فى كتابه مصر ورسالتها .. «لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التى تركن إليه ، وما من شىء تراه فى مصر إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد.

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته

ورفعوا رأسه فى كل ميدان.

أما النبع الثانى الذى استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التى أثرت فى جيل بكامله، يتمثل فيه أصل من أصول فكره فى الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطنى ضد الاحتلال البريطانى.، وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة الأجانب.

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة فى الثلث الأول من هذا القرن، أى أنه عاش طفولة فى فترة غنية بالتحولات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت - بالضرورة - إلى الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعى كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب القاهرة الاستعمارية، وتولدت شخصية المفكر الذى يبحث عن أجوبة فى مواجهة اسئلة شديدة التعقيد..

وأعرف بعض تجاربه الأولى فقد كان ضمن التنظيم السرى للحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب فى السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية، والتمسك الشديد بالمبادىء والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية، وهم أصحاب شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» والذى يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا، وعمل الكاتب بعد تخرجه فى كلية الحقوق فى مكتب أحد أقطاب الحزب الوطنى وهو مكتب زكى على باشا والذى تشرب منه أنه مهنة المحاماة هى مهنة «إغاثة الملهوف والوقوف إلى جانب المظلوم».

وانتهى بكاتبنا الحال إلى أن أصبح محاميا فى معظم القضايا السياسية والوطنية، يصول ويجول فى ساحات المحاكم مدافعا عن حق جميع القوى السياسية فى التعبير عن نفسها، وحقها فى تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسى الذى يردده.. «إنه يتبرع ولكنه لايتطوع» كما قدم خبرته السياسية الى كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما فى د. عصمت سيف الدولة ثباته على مبدئه، باع نفسه لأمته ولم يتحول عن ذلك قط، وظل يجاهد على الدرب حتى لقى ربه.

● مع الشباب

وما أحوجنا إلى تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذى قاتلوا الانجليز فى القناة عام ١٩٥١. بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو

من القلائل الذين يقفون الى جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته على صنع المستقبل، ولايرى كما هو شائع إنه لايوجد أفضل من أيام شبابه. يقول.. «الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا اليها اكثرهم شعورا بافتقادها أولئك الذين لايكفون عن إدانة الشباب، إنها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتيال إنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم فى شباب غيرهم بأن يعظوه لعله يسلك ما كانوا هم سالكيه لو كانوا شبابا».

وباليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذى بدأ حكمه بسجنه وانتهى حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين بتهمة تشكيل تنظيم عربى فى مصر، وفى آخر عهده أودع السجن فى اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلا فى الزنزانة رقم ١٦ فى ملحق ليمان طره.

● الثورة العربية

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الى الثورة العربية. فمن الطبيعى أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب إلى الفكرة العربية.

كان مكتبه فى وسط القاهرة ملتقى العرب ، لا يكاد يصل زائر عربى إلى القاهرة إلا ويسرع الى مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية.

وكان الدكتور عصمت من النوع الذى تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا للإعجاب، كان فى مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم، ويستعمل أسلوب الاقناع الهادىء.

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة، مع الاستفادة من تجارب الماضى، لذا اهتم بكبريات القضايا التى كانت تشد اهتمام الانسان العربى، ومن هنا كان تفهمه وتفتحه على التيارات الفكرية المختلفة فى كل انحاء العالم.

وبعيدا عن أى انغلاق فى اطار الوطنية الضيقة، يبحث دائما على وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية.. ولايكتفى بالعواطف والمشاعر المشتركة، ولايركن التراث الثقافى المشترك وحده، ومن كلماته المأثورة «أن قابيل قتل هابيل» رغم الأخوة التى بينهما، فلا يكفى مجرد الانتماء، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك .

اشترك فى كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومى، أو فى زمن التراجع والضعف، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق

مشروع النهضة العربية، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة، التى لها دور حيوى فى حياة العرب، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم.

وأجمل أيام حياته هى تلك الأيام التى كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية، وبعدها وضع اهتمامه فى دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع فى قلب القضية العربية يقول فى كتابه الاعتراف المستحيل .. «لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم أفئدة الناس، فيجزعون وتثير الاضطراب فى عقولهم فلا يعقلون وتعمى أبصارهم فلا يبصرون حتى مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة، إن المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية.. إن مسئولية هذا الميلاد التاريخى لاتقع على الثورة الفلسطينية وحدها، وإن كانت تتحمل قدرا من المسئولية، أما باقى المسئولية فيقع على أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنــهم تحت عنوان القوى القومية».

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب، وعندما أتجول فى العواصم العربية، التقى بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت أدهش لشعبيته فى البلاد العربية التى تزيد كثيرا عن شعبيته فى مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذى تأثر بأفكاره أجاب على الفور إنــه. د. عصمت سيف الدولة، وقد نشر الحديث فى حينها فى مجلة المصور.

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة، وتوزعت كتاباته فى موضوعات شتى وفى كتب متعددة، كان آخرها «مذكرات قرية»، ويتميز الكثير من كتبه، «الشباب العربى» ، «وما العمل» «والنظام النيابى»، «ومشكلة الديمقراطية» «والطريق إلي الوحدة العربية» «وبيان طارق» والطريق الى الاشتراكية العربية الذى أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية ، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم فى إحياء الشعور بحق الشعب العربى فى أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة.

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، فى مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق إلى الحرية، ولايعرف أحد إنه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا، ولا تقتصر كتبه على القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرت وحريق روما.

وبعد.. نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يرى أحلامه تبعد، وآماله لاتتحقق؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا. كمن زرع الشجرة وسوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل الكلمات؟!

الوسطية الإسلامية

بقلم: د. محمد عمارة



□ فى الوسطية الاسلامية تتمثل السمة والقسمة التى تعد، بحق، أخص ما يختص به المنهج الاسلامى، عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات .. بها انطبعت الحضارة الاسلامية فى كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات.. حتى لنستطيع أن نقول أن هذه الوسطية، بالنسبة للمنهج الاسلامى - وحضارته - هى عدسته اللامة لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضا !..

وهى قد بلغت وتبلغ هذا المقام لأنها، بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل، إنما تمثل الفطرة الانسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الانسانية فى بساطتها، وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التى فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد ، سبحانه وتعالى ، لها أن تكون صبغة أمة الاسلام، وأخص خصوصيات منهج هذا الدين.. فقال : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)..(١)... إنها . الحق ، بين باطلين .. والعدل، بين ظلمين .. والاعتدال، بين تطرفين.. والموقف العادل الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو – افراطا أو تفريطا – لأن الغلو، الذى يتنكب الوسطية، هو انحياز من الغلاة الى أحد قطبى الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتى الميزان . يفتقر إلى توسط الوسطية الاسلامية الجامعة!..

والوسطية الاسلامية الجامعة، ليست ما يحسبه العامة، من المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات والقضايا المشكلة.. لأنها هى الموقف الأصعب، الذى لا ينحاز الانحياز السهل الى أحد القطبين وفقط.. فهى بريئة من المعانى «السوقية» التى شاعت عن دلالات مصطلحها بين العوام ..

وهى ، كذلك ، ليست «الوسطية الأرسطية»، كما يحسب كثير من المثقفين ودارسى الفلسفة الغربية وطلابها، لأن الوسطية الأرسطية، التي رأى بها أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين .. هى فى العرف الأرسطى أشبه ما تكون، فى توسطها، «بالنقطة الرياضية» التى تفصلها عن القطبين – الرذيلتين – مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية .. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشئ آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما ... وليست هكذا الوسطية فى منهج الاسلام..

إنها، فى التصور الاسلامى : موقف ثالث ، حقا .. وموقف جديد ، حقا .. ولكن توسطه بين النقيضين المتقابلين لايعنى أنه منبت الصلة بسماتهما وقسماتهما

ومكوناتهما .. إنه مخالف لهما ليس فى كل شئ، وإنما خلافه لهما منحصر فى رفضه الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها .. منحصر فى رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى الا قطبا واحدا !..

منحصر فى رفضه الانحياز المغالى، وغلو الانحياز! .. ولذلك، فإنها، كموقف ثالث، وجديد إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها فى أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه - كنسق غير متنافر ولا ملفق - من السمات والقسمات والمكونات الموجودة فى القطبين النقيضين كليهما .. وهى لذلك : وسطية «جامعة»، تتميز، فى التصور الاسلامى، والمنهج الاسلامى عن تلك التى قال بها حكيم اليونان .

الثورة على الاعتدال

إن «العدل» والوسطية هى العدل بين ظلمين - لايعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما .. كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز الى إحدى الكفتين .. وإنما يعتدل بالوسطية التى تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين - كفتى الميزان .ولهذا كان قول الرسول، صلى الله عليه وسلم : «الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا» (٢) ..

والعدل هنا، وبهذا المعنى، هو أبعد ما يكون عن «الاعتدال»، عندما يراد به الاستسلام للواقع اذا كان جائرا .. بل إن الوسط - العدل - فى المفهوم الاسلامى - هو «الثورة» على «الاعتدال»، بهذا المفهوم!..

و «الكرم» - وهو وسط ليس غريبا تماما عن القطبين النقيضين : «الشح» و «الاسراف» .. وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف - الكرم - الجديد .. إنه جامع «للتدبير» و «للبذل والعطاء» ..

وكذلك «الشجاعة»، نجدها مغايرة لكل من «الجبن» و «التهور»، لا على النحو التام فى المغامرة، وإنما على النحو الذى رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما «الحذر» و «الاقدام»، ليكون الموقف الوسط الجديد ..

وفى ضوء هذا المضمون الاسلامى

لمصطلح «الوسطية» – وهو المضمون الذى ميزها بوصف : «الجامعة» – نقرأ كل الآيات القرآنية التى أشارت الى هذه الخصيصة من خصائص المنهج الاسلامى والدين الاسلامى وصفات الأمة الوسط .. أمة الاسلام .. (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (٣).. (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) (٤) .. (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محصورا) (٥) .. (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٦) .. أى الاعتدال ، الرافض لغلو الافراط والتفريط .. فلا الرهبانية المسيحية والنسك الأعجمى، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف..

وفى ضوء هذا المضمون نقرأ، أيضا، أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم : «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» (٧) .. «إن دين الله ، عز وجل ، يسر» (٨).. «إنكم أمة أريد بكم اليسر ، وإن خير دينكم أيسره» (٩) .. «إن الله ، عز وجل ، لم يبعثنى معنفا، ولكن بعثنى معلما ميسرا» (١٠) .. «وعن عائشة ، رضى الله عنها: ماخير رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بين أمرين فى الاسلام الا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فان كان إثما كان أبعد الناس منه ...»(١١) فهذا الإثم الذى كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم، أبعد الناس عنه هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين، لأنه الظلم والباطل والتطرف، المنحاز بعيدا عن العدل والحق واليسر والاعتدال – وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين» (١٢)..

هكذا نجد «الوسطية الجامعة» هى صبغة الله .. وإرادته لأمة الاسلام .. والفطرة الاسلامية المطهرة من العوارض والآفات... وعدسة رؤية المنهج الاسلامى لكل شئ ، أصولا كانت أو فروعا ...

★ ★ ★

واذا نحن شئنا معرفة الامتياز العظيم الذى تمثله «الوسطية الجامعة» وتحققه للمنهج الاسلامى.. والشمول الذى تبلغه تأثيراتها ، عندما تراعى ، وتوضع فى

الممارسة والتطبيق، فاننا نستطيع ذلك عندما ندرك كيف مثلت هذه الوسطية، وتمثل، بالنسبة لحضارة الاسلامية، طوق النجاة من تمزق وانشطارية وثنائية «المتقابلات المتناقضة»، على النحو الذى حدث فى حضارات أخرى .. وفى الحضارة الغربية على وجه التحديد..

فبهذه الوسطية الجامعة لم تعرف «الفكرية الاسلامية» – عندما التزمت بها – ذلك التناقض الذى لم يجد له حلا، بين الروح والجسد .. الدنيا والآخرة .. الدين والدولة .. الذات والموضوع .. الفرد والمجموع ... الفكر والواقع .. المادية والمثالية .. المقاصد والوسائل .. الثابت والمتغير .. القديم والجديد .. العقل والنقل.. الحق والقوة .. الاجتهاد والتقليد .. الدين والعلم .. ... إلى آخر الثنائيات – إن كان لها آخر ؟! – التى عندما افتقد منهج النظر إليها قسمة «الوسطية الجامعة» – حدث الانقسام الحاد والشهير فى فلسفة الحضارة الغربية الى «ماديين» و «مثاليين» و «مادية» ومثالية»، منذ جاهليتها اليونانية وحتى نهضتها الحديثة ..

لقد مثلت هذه «الوسطية الجامعة»، لفكريتنا الاسلامية – عند الذين التزموها – طوق النجاة من هذه الثنائية وتمزقها .. وشمل فعلها هذا كل ميادين النظر التى شهدت ظواهرها استقطاب الاقطار المتقابلة والمتناقضة ..

وتلك حقيقة من الحقائق التى يتميز بها منهج الاسلام.

الهوامش:

(١) البقرة : ١٤٣.

(٢) رواه الامام أحمد.

(٣) الفرقان : ٦٧.

(٤) الاسراء: ٢٦.

(٥) الاسراء : ٢٩.

(٦) البقرة : ١٨٥.

(٧) رواه الامام أحمد .

(٨) رواه البخارى والنسائى والامام أحمد.

(٩) رواه الامام أحمد.

(١٠) رواه مسلم والامام أحمد

(١١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والامام مالك والامام أحمد .

شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية

بقلم : سليمان فياض

شيخ الإسلام لقب من ألقاب التشريف ، ظهر ، لأول مرة ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى .

وكان هذا اللقب مقصورا على العلماء والمتصوفة ، شأنه معهما شأن ألقاب ، يبدأ جزؤها الأول بكلمة «شيخ» مثل شيخ الدين ، وشيخ الفتيا . وكان لقب «شيخ الإسلام» أوسعها استعمالا .

وفى القرن الخامس الهجرى لقب رأس فقهاء الدين الشافعية بلقب شيخ الإسلام ، وحمل هذا اللقب فى خراسان الفقيه «اسماعيل بن عبد الرحمن» ، لأنه قد تمثلت فيه ، فى نظر أتباعه ، خير صفات هذا اللقب .

وفى هذا العهد نفسه ، لقب الصوفى : «ابو اسماعيل الانصارى» بهذا اللقب من أتباعه .

وفى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، حمل هذا اللقب الفقيه المفسر «فخر الدين الرازى»

وفى القرون التالية ، حمل هذا اللقب صوفى هو : «صفى الدين الأردبيلى» ومتكلم هو : «التفتازانى» .

ولم يطلق لقب «شيخ الإسلام» فى مصر والشام إلا فى أوائل العهد المملوكى وكلقب تشريف للفقهاء ، وبخاصة اولئك الفقهاء المفتون ، الذين اكسبتهم فتاواهم شهرة ، أو اعترافا من جمهور الفقهاء بالفضل فى الفقه .

وحين اختلف الفقهاء فى مصر والشام حول فتاوى «ابن تيمية» كانوا بين مانح له لقب «شيخ الاسلام» ومنكر عليه استحقاقه لهذا اللقب ، الذى يخلعه عليه انصاره ، الى درجة اتهام الانصار لهؤلاء



المتكرين بالكفر . وهناك رسالة للفقيه «محمد بن ابى بكر الشافعى» وهو من أنصار ابن تيمية . تفتى بكفر من ينكر على ابن تيمية هذا اللقب وتحمل هذه الرسالة عنوان «الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» .

وفى القرن العشرين ، يصور المجددون فى الإسلام الفقيه ابن تيمية ومعه «ابن القيم الجوزية» فى صور امامين من أئمة الدين ، جديرين حقا بأن يلقبا بلقب شيخ الإسلام .

قصة لقب شيخ الإسلام

وفى الواقع، فإن لقب «شيخ الإسلام» أصبح منذ بداية القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى لقبا يستطيع أى مفت من فقهاء الإسلام ، له بعض النفوذ ، بين الفقهاء والناس والحكام ، ان يتلقب به، وبخاصة هؤلاء الفقهاء الذين يفصلون فى فتاواهم ، فى المسائل الخلافية ، بين الفقهاء ويبتون فى الأمور التى تتعلق بالصالح العام . ويستوى فى ذلك أن يكون هؤلاء الفقهاء من أهل السنة ، أو من الشيعة ، ماداموا من أهل النفوذ.

لكن لقب «شيخ الإسلام» كانت له قصة تطور ، أخرى فى فارس ، غير تلك التى كانت له فى مصر ، والشام ، وتركيا، وروسيا . فقد اصبح لقب شيخ الإسلام فى فارس سلطة قضائية . يحمله كل من يرأس ، فى أى قرية ذات شأن ، محكمة دينية مؤلفة من الملا والمجتهدين .

وفى العهد الصفوى بفارس كان شيخ الإسلام يعنى من قبل صدر الصدور . أى من قبل رئيس الوزراء .

ولم يبلغ لقب شيخ الإسلام أوجه فى المجد ، والسلطة ، مثلما بلغه فى تركيا العثمانية ، ومصر المحروسة ، وهو ما سوف نركز عليه فى مقالين لمجلة الهلال .

اللقب فى تركيا

فى تركيا العثمانية كان لقب شيخ

شيوخ الإسلام

الاسلام يطلق على مفتى الآستانة بعد أن اكتسب هذا المنصب ، بمرور الزمن ، أهمية سياسية ودينية فى دولة سلاطين آل عثمان ، اهمية لم يكن لها نظير فى أى دولة إسلامية أخرى ، حتى فى مصر المحروسة .

وفى القرون الأولى من حكم الدولة العثمانية ، كان نفوذ مشايخ الصوفية يفوق كثيرا نفوذ العلماء ، الى أن أعاد السلطان «محمد الأول» تنظيم الدولة ، تنظيما اعطى مزيدا من النفوذ لأهل السنة .

عندئذ قام صراع عنيف بين النفوذ الجديد والمتزايد لأهل السنة والنفوذ المتوارث للمتصوفة من الشيعة خاصة . وانتهى هذا الصراع بين المتصوفة من الشيعة ، والفقهاء من السنة ، بغلبة أهل السنة للشيعة ، وأهل الفقه للمتصوفة . حدث ذلك فى عهد السلطان العثمانى «سليم الأول» المؤسس الاكبر والحقيقى للامبراطورية العثمانية .

معظم الفقهاء درسوا فى مصر

وجدير بالذكر هنا ، ان معظم الفقهاء القدامى فى البلاد العثمانية ، وكلهم من أهل السنة أو الشيعة . قد درسوا العلم فى مصر أو فى فارس على شيوخ من العرب السنيين أو من الفرس الشيعيين . وكانت الغلبة فى الدولة العثمانية لفقهاء السنة ، على فقهاء الشيعة ، والمتصوفين الشيعيين ، بعد أن امتد نفوذ الدولة العثمانية الى الشام ، ومصر ، بفتوح «سليم الأول» .

وجدير بالذكر ايضا أن بعض من تولوا الافتاء فى الآستانة : كانوا من الأجانب . مثل «فخر الدين العجمى» الذى تولى الافتاء بها بين عامى ١٤٣٠ و ١٤٦٠ ميلادية ، ومثل «علاء الدين العربى» .

وتزعم روايات تاريخية أن أول مفت تولى منصب الافتاء فى الدولة العثمانية وتلقب بلقب «شيخ الاسلام» و«مفتى الانام» هو الشيخ «اده بالى حما عثمان» ، ويرجع عهد تعيينه فى هذا المنصب الى عهد مبكر يرجع الى أيام السلطان «مراد الثانى» ، بل وعقدت له الرياسة على جميع المفتين الآخرين فى الدولة العثمانية .

وتزعم هذه الروايات أن السلطان محمد الثانى قد خلع بعد فتحه للقسطنطينية ، لقب «شيخ الاسلام» بصورة رسمية ، على مفتى القصبة الجديدة : «خضر بك على» وأسند اليه فى الوقت نفسه الرياسة على قاضيى العسكر العثمانى .

دوحة المشايخ وترجمة لمائة شيخ

وهناك كتاب يحمل عنوان «دوحة المشايخ» لرفعت افندى ، ترجم فيه لمائة

شيخ وثمانية من شيوخ الاسلام فى الدولة العثمانية الى عام ١٨٧١ ميلادية ، وجاء من بعده كتاب «علمية سالنامه سى» .

وردت به تراجم لمائة واربعة وعشرين شيخا من شيوخ الاسلام العثمانيين آخرهم هو «مصطفى خيرى افندى» الذى ظل فى هذا المنصب الى عام ١٩١٦ ميلادية .

وقد بدأ «رفعت افندى» تراجمه لشيوخ الاسلام العثمانيين بالمفتى «محمد شمس الدين الفنارى» (ت ١٤٣٠) كمفت لاستانبول لكن نفوذ مفتى الاسلام العظيم لم يبدأ فى الظهور ، كشيخ للاسلام ، الا على أيام السلطان «سليم الأول» وكان هذا المفتى المشهور هو «زمبللى على جمال افندى » الذى تولى منصب الافتاء بين عامى ١٥٠١ و ١٥٢٥ ميلادية . ومع ذلك كان لقاضيا العسكر السبق عليه ، لأنهما كان يجلسان دونه فى الديوان السلطانى وكان بوسعه أن يصل الى هذه الدرجة ، لو قبل مع منصبه كمفتى ، أن يتولى منصب قاضيى العسكر مجتمعين . لكنه رفض أن يقبل من السلطان سليم الأول ما عرضه عليه

ومن المرجح أن منصب مفتى استانبول لم يكتسب نفوذا وسلطانا على جميع علماء وقضاة الدولة العثمانية دون منازعة ، الا فى عهد السلطان سليمان القانونى ، اعظم سلاطين بنى عثمان وكان المفتى الأول الذى وصل الى هذه الدرجة هو : «جوى زاده محيى الدين افندى » فى القرن السادس عشر الميلادى، وكان هذا المفتى فى الوقت نفسه هو أول شيخ للإسلام يصرفه سلطان عن منصبه سنة ١٥٤١ ميلادية .

ارتفاع شأن مفتى استانبول

وفى البداية كان ارتفاع شأن مفتى استانبول ، يتوقف على شخصه بين الفقهاء . ولا تفرضه ارادة السلطان السامية ، وهو الذى يتخذ من تلقاء نفسه لقب شيخ الاسلام فيصبح فى المجتمع العثمانى شبيها بالخليفة العباسى . فى بلاط سلاطين المماليك ، قبل أن يفتح الترك مصر ..

وفى عهد العثمانيين وحدهم ، ونتيجة لفتوحاتهم فى الدولة البيزنطية بتركيا وأوربا الشرقية ، صار تنظيم علماء الدولة العثمانية ، تحت رياسة شيخ منهم من رجال الدين ، متأثرا بطبقات رجال الدين المسيحيين فى بيزنطية ، وأوربا مع استمرار البقية من السنة الصوفية القديمة التى كانت جارية فى أوائل الدولة العثمانية وهى سنة كانت تفرض ان يقوم الى جانب السلطة الزمنية . سلطة دينية ليس لها سلطان قضائى ولا زمنى . سلطة يمكن ان تسمى سلطة ضمير الناس . ولم يكن هناك قط فى الدولة العثمانية سلطة لشيخ الاسلام تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية مثلما هو الحال فى الدولة الرومانية الغربية بالفاتيكان .

شيوخ الإسلام

الفصل بين السلطة الدينية والزمنية

وكان لهذا الفصل بين السلطتين أثره في بقاء وثبات منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في عهد الصوفية ، ثم في عهد الفقهاء منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي ، وبالرغم من أن السلطان العثماني كان من سلطته أن يصرف صاحب لقب «شيخ الاسلام» عن منصبه ، وهي سلطة كان السلاطين العثمانيون يلجأون إليها كثيرا لأسباب سياسية ، مثل حرمان السلطان العثماني «عثمان الثاني» لمفتي الاسلام وشيخه من منصبه ومن جميع امتيازاته الادبية والدينية والمادية ، لأنه رفض أن يصدر له فتوى تحلل له قتل أخيه ، ومثل قتل السلطان : مراد الرابع للمفتي «أخي زاده حسين» عام ١٦٣٢ ميلادية ، دون اعتبار لجلال منصبه ، لتآمره مع الجيش ضده . ومثل قتل المفتي «عبد الرحيم افندي» شيخ الإسلام لأنه عمل وسعى لخلع السلطان «ابراهيم الأول» وعزله ، وقد أدى مقتل هذا المفتي إلى خلع هذا السلطان ، فقد كان هناك إذن حد حاسم وفاصل بين السلطتين الزمنية والدينية في الدولة العثمانية . ولا يسمح هذا الحد للسلطة الدينية بتجاوز وضعها في الدولة .

أبو السعود مفتيا لثلاثين عاما

وآخر المفتين من شيوخ الاسلام في الدولة العثمانية الذي استطاع أن يبقى في منصبه مدة ثلاثين عاما متصلة بلا انقطاع هو «أبو السعود» ، وكل من جاء بعده ، لم تدم ولايته لمنصب الافتاء ومشيخة الاسلام سوى فترات قصيرة ، تتراوح في المتوسط بين ثلاث سنوات وأربع سنوات . وكان من الممكن دائما ، أن يتولى شخص واحد منصب الافتاء والمشيخة أكثر من مرة ، يعزل مرة، ويولى مرة ، ليعزل مرة أخرى .

وفي كل من حالتي التولية والعزل ، كان السبب متصلا بمؤامرات السياسة في الدولة العثمانية ، التي يديرها الصدور العظام (رؤساء الوزارات) والضباط الانكشاريون ، وحريم السلطان ، بل والفقهاء انفسهم ممن يسعون إلى بلوغ منصب المفتي ، ولقب شيخ الاسلام . بل والمفتون انفسهم حين يتآمرون ضد السلطان ، أو يتحدون إرادته وحين يتآمرون ضد الصدور العظام ، أو يسعون للتحكم في مناصب الدولة الكبيرة الأخرى.

ولكن ، والحق يقال . كان أغلب هؤلاء المفتين من شيوخ الاسلام في الدولة العثمانية من أهل الاستقامة ، والاستقلال

الديني عن السلطات الزمنية ، ولو أن استقلالهم من الوجهة السياسية ، عن السلطة الزمنية ، كان في معظمه وهما من الأوهام .

ومن الطبيعي أن يكون المفتون جميعا منذ القرن السادس عشر الميلادى ، منتمين ، مثل سائر الفقهاء . إلى أسر مسلمة ، على حين كان كبار رجال الدولة ، وكبار ضباط الجيش ، ينتمون كثيرا إلى أسر غير اسلامية .

وغالبا ، فلم يكن أحد من المفتين يصل إلى درجة المشيخة الاسلامية بتوليه لمنصب مفتى العاصمة ، إلا بعد أن يتقلب فى مناصب القضاء العليا ، وبخاصة قضاء عسكر . وقد خلق هذا الاختيار السلطاني غيرة طائفية بين العلماء وشيخهم ، ظهرت بسببها فتن كثيرة .

ولم يكن لقب شيخ الاسلام يمنح للمفتى ، أو يحق له حمله ، إلا إذا قبل فعلا منصب المفتى . وكان هذا اللقب يزول عنه بزوال ذلك المنصب من تحت يده .

منزلة شيخ الاسلام

وفي المحافل الرسمية العثمانية ، كان يتجلى جلال منصب شيخ الاسلام فى الدولة العثمانية . فهو فى نظر قانون المراسم «أبو حنيفة» فى زمانه ، ولا يجوز لأحد أن يتقدم عليه سوى الصدر الأعظم .

ومنذ القرن الثامن عشر الميلادى (الثاني عشر الهجرى) لم يكن يفرض على المفتى (شيخ الاسلام) أن يزور أحداً سوى السلطان ، والصدر الأعظم ، وفى هذه الزيارة كانت تتبع مراسم دقيقة ، للرجل الثالث فى الدولة . وصاحب السلطة الدينية ، الخاضعة للسلطة الزمنية ، وهى مراسم كانت ترعى اداء الحقوق الأدبية والاجتماعية لشيخ الاسلام .

ومثلما كان لشيخ الاسلام (المفتى) حقوق فى المراسم ، كانت عليه واجبات فى المحافل الدينية ، مثل دفن سلطان ، ومبايعة سلطان جديد ، وارتقائه لعرش السلطنة ، وعلى وجه يشبه إلى حد بعيد ، منصب نظيره في الدول المسيحية .

وفوق حصول مفتى استانبول على لقب شيخ الاسلام ، كانت له ألقاب أخرى، تذكر فى مخاطبته وعند تقديمه أو اعلان قدومه مثل : «مفتى الأنام» «أعلم العلماء» «وبحر علوم شتى» و«أساس الفضلاء» «أفضل الفضلاء» و«مسند نشين فتوى» مسند الفتوى الركين، بل و«صدر الصدور».

وإلى عهد المفتى شيخ الاسلام «ملا خسرو» (ت١٤٨٠) كان ملبس شيخ الاسلام يتصف دائماً بالبساطة يضع عمامته فوق تاج الأمام الأعظم ، لكن هذا الملبس من بعده صار قفطانا ابيض موشى بالفراء وعمامة مزينة بشريط من القصب .

شيوخ الإسلام

وظيفة شيخ الاسلام

وكانت الوظيفة الاسلامية لشيخ الاسلام مقصورة في البداية على سلطانه في اصدار الفتاوى ، ثم اسندت هذه المهمة إلى أمين الفتوى. وكانت الفتاوى الكبرى، مقصورة على شيخ الإسلام في المسائل السياسية أو الأمور التى تتعلق بالصالح العام. لما لها من شأن خطير، مثل فتوى شيخ الإسلام «جمالى» فى الحرب التى أعلنت على مصر عام ١٥١٦ ميلادية، والفتوى التى أصدرها شيخ الإسلام «أبو السعود» بخصوص الحرب على البندقية عام ١٧٥٠ ميلادية، أو بإباحة شرب القهوة التى كان الفقهاء يعارضون شربها باعتبارها بدعة، والفتوى التى أصدرها شيخ الإسلام «عبدالله افندى» بشأن جواز إقامة مطبعة والفتوى التى أصدرها «أسعد أفندى» بشرعية النظام الاقتصادى الجديد الذى سنّه السلطان سليم الثالث .

وهكذا نرى انه بالرغم من انفصال السلطتين الدينية والزمنية فى الدولة العثمانية. فقد كانت السلطة الزمنية العثمانية بحاجة إلى فتاوى السلطة الدينية بشرعية قوانينها المختلفة. ولقد جرى العرف العثمانى على أن يستشار شيخ الإسلام فى جميع المسائل السياسية ذات الشأن وكان شيوخ الإسلام المفتون فى معظم الأحوال محمودى الأثر فى المسائل العامة، ويقاسون فى كثير من الأحيان من عسف السلطان نتيجة لتدخلهم الشخصى فيما لاتريده منهم السلطة الزمنية، أو لرفضهم الفتوى بما يريده السلطان .

وأحد الأسباب فى تدهور الدولة العثمانية يرجع إلى روح الرجعية التى يتسم بها نظام مشيخة الإسلام. مثل افتاء وسعى شيخ للإسلام بهدم أول وآخر المراصد العثمانية فى استانبول بعد انشائه بثلاثة أعوام، وهو المرصد الذى أنشأه ورأس عمله المهندس العربى وأبو التكنولوجيا العربية «تقى الدين بن معروف الشهير بابن الراصد» . لأنه تصادف ان الجيوش العثمانية المحاصرة لمدينة فيينا. قد فكت حصارها للمدينة حين هزمتها جيوش بولنده التى اقبلت لنجده فيينا المحاصرة.

تمدن المفتين

ومع ذلك فالمفتون من شيوخ الإسلام العثمانيين، كانوا أقل رجعية من معظم رجال الدين فى الدولة العثمانية. فلقد أفلحوا مثلا فى معارضة الفقهاء الذين أرادوا حمل جميع النصارى على الدخول فى الإسلام قهرا وغصبا .

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين، لم يعد لشيخ الإسلام في الدولة العثمانية ما كان له من شأن سياسي ، غير أنه كان يلجأ إلى سلطة هذا المنصب الدينية. حين تدعوه السياسة إلى ذلك، مثلما حدث عند خلع السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٩ ، وإعلان الجهاد سنة ١٩١٤ ، وثورة الوطنيين في انقرة سنة ١٩٢٠ .

والفتوى باعلان الجهاد (١٩١٤) لم تكن مقصورة على تركيا فحسب بل كانت موجهة أيضا إلى العالم الإسلامي بأسره، داعية لفكرة الجامعة الإسلامية التي تنطوي عليها مشيخة الإسلام العثمانية، وقد نمت هذه الفكرة داخل الدولة العثمانية وتوابعها في غضون القرن التاسع عشر، وكان هذا النمو متصلا بالنظريات الجديدة في الخلافة الإسلامية.

وأول من عبر عما لشيخ الإسلام من أهمية كبرى في نظر العالم الإسلامي بأسره وأهمية تناظر ما لبابا روما من أهمية هم الكتاب الاوربيون مثل الرحالة «ريكو» في القرن السادس عشر. و«فولني» القرن الثامن عشر. ولكن باعتباره الممثل الروحي لسلطة الخليفة في نظر العالم الإسلامي جميعا .

وقبل عام ١٩١٤ كانت فتوى المفتي منذ الدولة العباسية، موجهة، من الناحية الشرعية، الى كل مسلم يريد أن يتبعها ان شاء .. ولم يحدث ان بذلت محاولة ترمي إلى الاستفادة السياسية من السلطة الروحية العالمية لشيخ الإسلام . إلا في سنة ١٩١٤ ميلادية .

ولأن المفتي العثماني كان رأس طبقة العلماء في الدولة العثمانية ، فقد كان له الحق في ترشيح الأشخاص لمراتب القضاء الست العليا، ولم يكن هو يتولى القضاء إلا نادرا .

المصلحة الإدارية للمشيخة الإسلامية

وحين أخذت الإدارة في الدولة العثمانية بالأساليب الحديثة للإدارة أنشأت بالتدريج مصلحة ادارية على رأسها شيخ الإسلام.. يساعده عدد من الأشخاص في أداء واجباته، من بينهم الكتخدا أو الكبايا الذي يمثل المفتي، والتلخيصجي الذي ينوب عنه في الحكومة والمكتوبجي أو كاتب السر العام، وأمين الفتوى الذي يعد الفتاوى التي يطلبها الناس ويتولى اصدارها. وقد احكمت روابط هذا النظام الإداري في المصلحة الإدارية للمشيخة ، وصار المقر الرسمي لشيخ الإسلام في المكان الذي كان مخصصا من قبل لأغا الانكشارية اثر إلغاء هذا المنصب.

وكانت المصلحة الإدارية للمشيخة الإسلامية العثمانية ، تتولى إدارة

شيوخ الإسلام

وتصريف أمور جميع الهيئات التي قوامها الدين. عدا إدارة الأوقاف . وبذلك صار شأن شيخ الإسلام، شأن سائر رؤساء المصالح العثمانية التي انشئت في القرن التاسع عشر ، وغدا شيخ الاسلام وزيرا في الوزارة . يبقى فيها في منصبه ببقاء الوزارة في الحكم ، ويرحل برحيلها وان كان له حق السبق على سائر الوزراء بعد رئيس الوزراء ، ويختاره السلطان للوزراء الجديدة . مثلما يختار رئيس الوزراء على حين كان رئيس الوزراء هو الذي يختار الوزراء الآخرين وكان شيخ الاسلام مثل رئيس الوزراء يتقلد منصبه بحضرة السلطان .

ولأن الدولة العثمانية كانت تسبغ الطابع الدنيوي والزمني تدريجيا على نظام الادارة فيها . فقد كان نفوذ شيخ الاسلام يضمحل كلما تزايد هذا النمو ، بل إن شيخ الإسلام قد حرم الكثير من سلطانه على شئون السياسة الداخلية عندما انشىء مجلس الشورى العثماني عام ١٩٣٨ ، وعندما انشئت المحاكم المدنية والجنائية الجديدة التي يشرف عليها وزير العدل . وقد بلغ هذا الحد من سلطة شيخ الاسلام ذروته المحتومة عام ١٩١٩ ، عندما نقلت حكومة حزب تركيا الفتاة تبعية المحاكم الشرعية كلها الى وزارة العدل ، ونقلت تبعية المدارس كلها الى وزارة المعارف ، تمشيا مع القانون العام الحديث ، فصارت المشيخة الاسلامية تتولى الأمور الدينية فحسب .

وفي مواجهة هذا الحد من سلطة المشيخة الاسلامية انشئت إدارة في المشيخة سنة ١٩١٧ تدعى دار الحكمة الاسلامية ، وظيفتها هي الدعوة الى الدين.

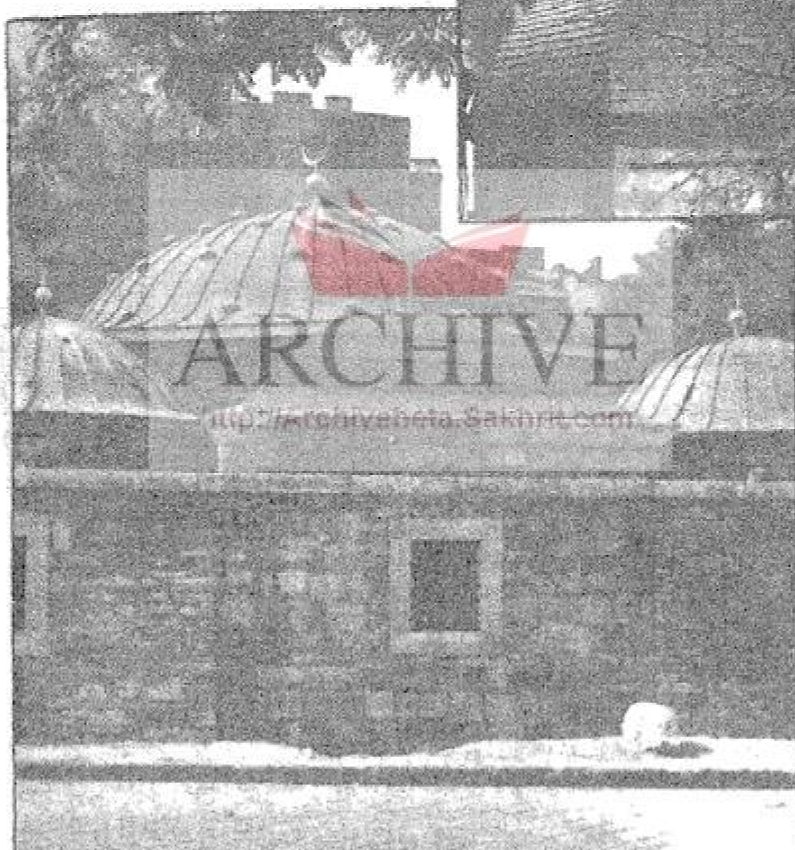
وأوفى وصف لمنصب شيخ الاسلام ، حتى عام ١٩١٦ ميلادية ، نجده في كتاب «علميه سالنامه سيء» بصفحاته التي جاوزت الستمائة صفحة فقد كانت المشيخة العثمانية في عهد شيخها «مصطفى خيري افندي» ذات ادارات عديدة تتبعها ، من أهمها : فتوى خانه ، ومجلس تدقيقات شرعية (محاكم نقض شرعية) ، وإدارة الاشراف على شئون المدارس ، وادارة تتولى شئون الفرق الصوفية «مجلس مشايخ» وادارة لبيت المال (أموال أيتام) وأقسام ادارية أخرى للمحفوظات وللمكاتبات وللحسابات ، يشرف عليها وزير (مستشار) . وديوان شيخ الاسلام ، ويضم هذه الديوان المحاكم الشرعية الكبرى التابعة لقاضي العسكر ، وقاضي استانبول ، ولجنة لتعيين القضاة ، وعدد كبير آخر من اللجان ، ترجع مشيخة الاسلام إلى رأيها في الأمور المختلفة ☐

المسلمون والإسلام

في «المجر»

بقلم: «روبرت كازمير ميناس»





●● المسلمون فى المجر.. تاريخ طويل. مفعم بالأحداث. يحتشد بالصراع. من أجل كل شىء طيب، وضد كل شىء خبيث.. لكن على مدى الثمانية قرون الماضية وحتى الآن، والإسلام فى المجر كالملاكم العنيد.. يتلقى الضربات.. لكنه يستجمع قواه، وينهض من جديد.. تاريخ حافل بكل ماهو جليل ورائع، ويستحق الإجلال ●●

□ *فى القرن الثانى عشر الميلادى كان الإسلام فى بلاد «المجر»، التى كانت وقتئذ تشمل عدة دويلات من التى انقسمت على نفسها.. كان المسلمون يتولون المناصب المرموقة، ويشغلون الوظائف الرفيعة.. ذلك لأنهم ساهموا فى حرب أعداء تلك البلاد حينئذ «غيزا الثانى» (١١٤١ ـ ١١٦٢) وأخلصوا فى خدمتهم، فوطدوا نفوذ الملك فى أنحاء البلاد، وكانوا رسله ونوابه وحكامه على الأقاليم..!*

ويروى المؤرخ الرحالة «أبوحميد الغرناطى» الأندلسى، وهو الوحيد من المثقفين المسلمين الذين أتيح لهم أن يزوروا المسلمين فى «المجر» عام ١١٥٠ ـ أو نحو ذلك، وقد استضافه الملك «غيزا الثانى» ووضع بين يديه من المعلومات مايتيح له أن يسجل حياة المسلمين، والطرق المتشعبة التى يسلكونها ليعيشوا فى المستوى اللائق، الذى يكفل لهم العزة، والكرامة، والنظافة التى يفرضها الدين الإسلامى على معتنقيه، وكان احترام الملك الضيف كبيرا، حينما علم أنه يشتغل بصناعة كتابة الكتب، والتأليف، وتسجيل حياة المجتمعات التى يعيش فيها، وكان عهد الملك بالمسلمين أنهم من التجار فقط..!

الخوارزميون والمغاربة

يقول «أبوحميد الغرناطى» إنه وجد المسلمين هناك ينتسبون إلى مجموعتين، الأولى هى مجموعة «الخوارزميين»، وهم

---

* مستشرق مجري حاصل علي ماجستير في الأدب العربي

يتكلمون اللغة الفارسية ويستوطنون «حوض كارباث» وعددهم بضعة آلاف.. «تعمدوا» تحت ضغط السلطات المتوالية، لكن بقى أكثرهم على إسلامه سرا، واستوطن بعضهم عند تقاطع الخطوط أو نواصى الطرق، لأنهم كانوا يشتغلون بالتجارة، ونقل «الملح» وتخزينه، وبيعه بالجملة، والقطاعى، وكانت التجارة فى هذه السلعة من الحرف الخطيرة فى العصور الوسطى فى «أوربا».. كالتجارة فى الذهب، والتوابل، وبعضهم كان يعمل على زوارق تعمل فى نهر الدانوب، لنقل البضائع خدمة للتجار أيضا..

أما المجموعة الثانية، وقد أطلق عليها المؤلف «الغرناطى» اسم المغاربة ذلك لأنه رأى فى ملامحهم، وفى أساليب معيشتهم، ولهجتهم مايجعله ينسبهم فى حذر شديد إلى افريقيا شمالها وجنوبها أو الأندلس..

ورغم ذلك فإن بعض العلماء يقولون أن المؤلف انخدع فى المجموعة الثانية فنسبهم إلى «المغاربة» مع أنهم قدموا من «آسيا الوسطى» وهم الذين كانوا يحملون لقب «البجاناكيون»، ويعتبرهم البعض من قبائل «الالان» الذين عاشوا وسط المجر، وشكلوا الشعب الأسيوى الذى تجول فى شمال افريقيا خلال تنقل القبائل الكبير بين القرنين «الخامس والعاشر»، وقد يكون من أجل ذلك أطلق عليهم المؤلف «المغاربة».. وهذه المجموعة بقيت على دينها فى بسالة، وصراحة، وقامت بخدمة الملك، وناصرته فى غزواته، وأقاموا صلواتهم فى عشرة آلاف قرية علنا.. والعلماء يقولون أن «الغرناطى» دفعه الحماس للمسلمين إلى المبالغة.. فلم تكن «مملكة المجر» وقتها تجمع كل هذه القرى فى القرن الثانى عشر حينما زارها المؤلف.

وعلى أى حال فالعدد كان كثيرا إلى الحد الذى دفع «بالملك غيزا الثانى» إلى دفع بعض الفرق منهم إلى «روسيا» لتنظيم بعض الصفوف التى من المسلمين الأتراك، وكانوا يسكنون حول مدينة «كييف» لجذبهم إلى «المجر» حتى يكونوا أعضاء فى الجيش الخاص بالملك، ليهزم به «البيزنطيين»، وكانت الفضيلة التى حمدها «الغرناطى» لهذا الملك هو أنه لم يرغم المسلمين على التنصر كملوك كثيرين فعلوا ذلك قبله وبعده.

أسماء مسيحية للمسلمين

وذكر الجغرافى العربى ياقوت الحموى فى كتابه المشهور «معجم البلدان».. أنه التقى بمسلمين «مجريين» فى «حلب» حوالى عام ١٢٢٠م، وحدثوه أنهم جاءوا من بلد الهنغاريين.. حيث يعيش بعض المسلمين فى ثلاثين قرية، ويمكن أن يكون هذا الكلام منطبقا على المسلمين الذين كانوا يخدمون الملك، ويعيشون فى جنوب «المجر» فى كتلة واحدة.

فى القرن الثالث عشر ازداد عدد

المسلمين فى «حوض كارابات»، وذلك من واقع أوراق الدولة المجرية .

ونظرا للرخاء الذى تمتع به أبناء الإسلام فى المجر في القرن الثانى عشر على يد الملك «غيزا الثانى» تكاثر عددهم، وقويت شوكتهم فى القرن الثالث عشر.. مما أقلق «البابا هونوريوس» فاندفع يكتب إلى زوجة الملك المجرى عام ـ ١٢٢١ ـ محذرا إياها من إعطاء المسلمين مناصب مهمة فى قيادة البلاد، واستمع الملك إلى نصائح زوجته، وبدأ يضيق على المسلمين، فحرم عليهم تولية مناصب رئيس الخزانة، و«سك النقود» و«ضابط الملح»، و«ضابط الجمرك» و«نبيل الدولة»، وذلك حتى عام ـ ١٢٤١ ـ ورغم كل هذه المضايقات كانت تصل بعض العائلات المهاجرة من «إسبانيا» أو من الشرق هاربين من وجه المغول الذين توغلوا فى الشرق الأوسط..!

الانحسار الإسلامى عن المجر

وتجمع الهاربون من وجه المغول.. عند «حوض كارابات»، وكان معظمهم من المسلمين الأتراك، وأطلقت دولة «المجر» عليهم اسم «القون» وعاشوا يتكاثرون إلى أن عرف عنهم أنهم يقاتلون بشراسة، ويخلصون فى وظائفهم مما جعل الملك «لاسلو الرابع» يعتمد عليهم، ويدفع بهم إلى مناصب قيادية، وتزوج المسلمون من مجريات دون معارضة الدولة، ولتدهور الأوضاع الاقتصادية باع بعض المسيحيين أبناءهم، وبناتهم رغم الحظر العنيف وكان ذلك حوالى عام «١٢٧٢ ـ ١٢٩٠».

ومن القرن الرابع عشر لم يلعب هؤلاء «القون» المسلمون أى دور فى حياة البلاد، وانخفض عدد المسلمين، والمتعاطفين معهم.. ولم يبق فى «المجر» منهم سوى التجار أو العابرين من بلد إلى آخر.. ذلك لأن الدولة بدأت تضيق عليهم.. وهى فترة انحسار من الفترات التى تعرض لها الإسلام فى «المجر».

الأتراك قادمون

وفى وسط القرن الخامس عشر.. ظهرت على خريطة العالم الامبراطورية العثمانية، وهددت الحدود الجنوبية «لمملكة المجر»، وما كاد القرن «السادس عشر» يبدأ حتى احتلت الدولة العثمانية ثلث مساحة «المجر» بما فيه العاصمة «بودا» قبل أن تنضم إليها كلمة «بست» وتصبح بودابست، وتضاعف عدد المسلمين، فى المجالات السياسية، والاقتصادية والاجتماعية وفى المجال الثقافى، وسيطرت الثقافة الإسلامية.

أحكمت الدولة العثمانية قبضتها على ثلثى «المجر»، وأجبرت الثلث الباقى على دفع ضرائب باهظة، وفى عام ١٥٤١ ـ استتب الأمن، واستسلمت «المجر» من أقصاها إلى أقصاها.

وكان طبيعيا أن يهرب الملك، والذين

يشايعونه إلى المنطقة الشمالية الغربية، لكى يقيم مع قليل من النبلاء هناك الذين فروا تاركين خلفهم قصورهم وحوانيتهم ومزارعهم وبساتينهم.

وأقام الحكم التركى حكومة من المسلمين الذين استوطنوا، والذين كانوا يقيمون وعينوا سناجق، وولاة من المثقفين، وصنعوا حياة جديدة قوامها الصناع، والتجار، وكثير من العبيد الذين وفدوا مع الحكام، شكلوا جيشا للاحتلال من حراس الحصون القديمة، وأبناء شعوب البلدان المغزوة، وهم من «الأتراك» و«الترتر» و«الفرس» و«العرب» و«السلاف» و«البوسنيين» و«الألبان» و«البلغار» و«المقدونيين» و«الصربيين».... إلخ!

وصلى المسلمون الذين بلغوا ٤٠٪ من السكان فى مساجد المدن الكبيرة مثل «استرغوم» و«شيغراد» و«نوغراد»، ولم تعش الأسر المسلمة فى القرى، لأن سكانها القدامى لم يهجروها، وسبب مهم آخر هو أن الأتراك حرصوا على أن يبقى سكان القرى لكى يزرعوا الأرض، ويدفعوا الضرائب!

الباشا.. السنجق

وفى عام ١٥٤١ أعلن سليمان باشا من مقره فى العاصمة «بودا» للتجار أن عليهم أن يبقوا فى حوانيتهم التى سوف تكون لهم ولأولادهم، ولن يضار منهم أحد، ويسمح للرعايا بأن يتملكوا بيوتهم على أن يكون للدولة «أى للسلطان» أن يملك أصلا الأرض، والبساتين والحوانيت، وأن يستأجروها من الدولة، وذلك لغير المسلمين وهو نفس مافعله ملوك المسيحية مع مسلمى الأندلس بعد الاحتلال..!

ولمقتضيات إدارية رآها الأتراك، قسمت المجر المحتلة إلى ولايتين.. ولاية «بودا» وولاية «تيمشقار» بالإضافة إلى «بكلربكن» وحصل حاكم «بودا» على لقب باشا.. ثم رقى إلى درجة وزير عام ١٦٢٣، وقسمت الولايتان إلى ٢٨ سنجقية، واختير السناجقة من الذين ينتسبون إلى ديوان «البكلربك» دائما، وأديرت الشئون المالية بواسطة الدفترخانة التى كان يرأسها «الدفتردار».. ولما كانت «بودا» على اتصالات بأوربا النصرانية، حرص الباب العالى على أن يعين لها رجالا من ذوى الخبرة لشغل المناصب الرئيسية، وكان القادة من أصحاب الرتب العسكرية يتنافسون عليها، وقد توالى على رئاسة «بودا» ٩٩ رئيسا خلال ١٤٥ عاما، وكان أشهرهم الوزير «سكولو مصطفى باشا» وقد شيد الكثير من المساجد فى العاصمة، والمدارس، والخانات، والحمامات، وأصبحت فى عهده «بودا» مدينة إسلامية متميزة.

الأتراك يذهبون

وملاحظة مهمة يبرزها القرن السابع عشر.. هي أن السنجقيات أصبحت في أيدي الدولة العثمانية الذين تضاعف عددهم، وتعلقوا بالوظائف ذات النفوذ، وتمركز المسلمون في العواصم.. وانتهز أصحاب المذهب «البروتستنتي» الفرصة وراحوا ينشرون مذهبهم في غيبة الكاثوليك الذين هربوا مع الملك.. وكان ذلك لسماحة العثمانيين مع المسيحيين الذين بقوا في «المجر» العثماني.

ودخل الفن التركي شعرا، وموسيقى وغناء المجتمع المجري، واقتحمت ستمائة كلمة تركية اللغة «المجرية» وبقيت بقاياها حتى الآن، وفي نهاية هذا القرن السابع عشر استعان الملك المنفي بالنمسا التي حشدت جيوشها في تعبئة قومية، ودينية، وأطلقتها نحو «المجر» لتحريرها من الأتراك، ورغم المقاومة التي كانت شرسة وضارية، فإن الأتراك هزموا بعد مقاومة خرج فيها «باشا» «بودا» بنفسه وهو في السبعين من عمره، واستشهد، وسيفه في يده، والحق أن الحرب كانت حربا ثأرية، فدمرت النمسا المباني والمساجد والمدارس، والمستودعات والمستشفيات وهرب المسلمون إلى «البلقان»، والذين عجزوا عن الهرب تنصروا واندمجوا في المجتمع المسيحي، وهكذا تجد الآن عائلات مسيحية تحمل ألقابا مسلمة أو تركية..!

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بدأ المسلمون الذين بقوا يتسللون من المجر هربا من المضايقات وحينما احتلت المملكة النمساوية المجرية المشتركة «البوسنة والهرسك» عام ١٨٧٨ ـ ألحقتها بأثويتها ١٩٠٩، حمل المسلمون الذين كانوا يستوطنونها الجنسية النمساوية المجرية.

وخلال السنوات الدموية للحرب العالمية الأولى التي نشبت بسبب ملك البوسنة.. استن البرلمان المجري مساواة المسلمين، والإسلام بالأديان الأخرى، عام ١٩١٦.

تبعثرت المجر

وبعد أربع سنوات فقط، تبعثر القطر المجري، انضم بعضه إلى «تشيكوسلوفاكيا» وإلى «رومانيا» وإلى «يوغسلافيا» وبقي الوسط مملكة المجر بلا مسلمين وكان ذلك في عام ١٩٢٠.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وذهبت لتفتح «المجر» أمام الكثيرين من رجالات العرب المسلمين الذين وفدوا للدراسة في الجامعات المختلفة، وفي أول التسعينيات بدأ بناء جامع «بودابست» للمسلمين والقادمين، وفي شباط ١٩٩٦ صلى جنود من مسلمي أمريكا في جامع تركي قديم اسمه مسجد «يعقوب علي حسان» في مدينة «بيتش» التي تضم حوالي ألفي مسلم هم بقايا المسلمين المجريين.. ومن أجلهم ظل المؤذن في جامع يعقوب ينادي.. الله أكبر...!!

دائرة حـوار

فى منهج القراءة

بقلم : د. مجدى يوسف

" فى قراءة النصوص نهجان أحدهما يقتصر على اقتفاء أثر الأفكار فى انتقالها وترحالها من ثقافة إلى أخرى ، ومن مجتمع إلى آخر ، ومن سياق محدد إلى سياق مختلف ، دون أن يتساءل عن أسباب الأخذ بهذه الفكرة أو تلك ، على هذا النحو أو ذاك فى سياق ثقافى مجتمعى مختلف عن ذلك الذى نشأت فيه ، وكأن الأفكار روح هائمة فوق كل الثقافات والمجتمعات بغض النظر عن أسباب نشوئها وتحولاتها عبر الزمان والمكان، فهى تظل - حسب هذا النهج - تدور فى عالم الأفكار السرمدية . أما المنهج المغاير لهذا التوجه ، فهو الذى ينظر إلى الفكرة ليس فقط فى إطار علاقتها بالأنساق الفكرية والنظم القيمية فى ثقافة اجتماعية محددة ، وإنما يتساءل بالمثل عن الأسباب التى دعت إلى ظهور الفكرة أو تبنيها فى هذا السياق أو ذاك على هذا النحو أو ذاك . "

في نقد «الجدل السالب»

*بقلم: د. مجدي يوسف

ـۓ هذه الأيام عن «مدرسة ... قدموا من عرض لأفكارها النقدية» بالقلة ... «السالبة» أو ما

بقلم: د. عبدالوهاب المسيري

اليهود وعقلية التذاكر

أدورنو وهوركهايمر

وهنا لا يلبث القارئ المحص أن يتبين أن الإجابة الشافية على هذا التساؤل الأخير لا يمكن أن تكون في ثنايا الفكرة موضوع البحث ، ولا في علاقتها بسواها من الأنساق الفكرية ، وإنما في موقفها من العلاقات بين الناس في مجتمع محدد كما يتمثل - هذا الموقف - في معارضتها أو مآزرتها لمختلف التيارات الثقافية المسودة أو السائدة في ذلك المجتمع ، وهو ما يترتب عليه أن اختلاف الموقع والمصلحة التي يمثلها صاحب الفكرة في علاقة اجتماعية معينة يمكن أن يفضي ، بل غالبا ما يفضي إلى تغير في أفكار الشخص «ذاته» ، وهو الأمر الذي يصعب إن لم يستحل تفسيره من داخل خطابه الفكري وحده ، مما يطرح مسألة الهوية على بساط البحث المتسائل : فكيف يمكن أن يكون الشخص هو الشخص «نفسه» في مراحل مختلفة - بل قد تكون جد مختلفة - من حياته ؟ وهل يجوز لباحث

جاد يريد لبحثه أن يحظى ببعض المصداقية إن هو لجأ لأى نص لمؤلف أو مفكر أيا كانت توجهاته دون تعيين المرحلة التاريخية التى مر بها صاحب النص فى سياق مجتمعى ثقافى معين ؟ وإلا فكيف له أن يقف على الأسباب التى حدت بصاحب الخطاب الفكرى أن يتخذ موقفا من سائر الخطابات الفكرية المعاصرة له أو السابقة عليه أو أن يبدل من موقفه هذا فى مراحل أخرى من حياته .

أين السياق التاريخي ؟

أردت بهذه المقدمة المنهجية أن أضع الإطار الذي أحاول أن أفهم من خلاله «منهج» الدكتور عبد الوهاب لانتاج مدرسة فرانكفورت . وإذا كان من الواضح أن الدكتور المسيرى أبعد ما يكون عن المنهج الأخير الذى أشرت إليه (الثقافى المجتمعى) فى أسباب نشوء وتبدل الظواهر الفكرية ، فهو فى مقاله الأخير بدائرة الحوار (مجلة الهلال ، عدد يناير ١٩٩٦) الذى يحاول أن يناقش فيه ما سبق أن نشرته في مجلة «الهلال» (عدد سبتمبر ١٩٩٥ ص ٩٧ - ١٠١) حول مدرسة فرانكفورت تحت عنوان : «فى نقد الجدل السالب» ، ليس قادرا على تجاوز قصور التهويمات اللاتاريخية للأفكار . إذ هو يحاول أن يرد على نقدى لمدرسة فرانكفورت من خلال سرد تبريرها الأيديولوجى لمواقفها الفكرية دون أن ينتبه إلى السياق التاريخي المجتمعي المحدد لهذه المواقف الفكرية ، وهو وجود أقطاب هذه المدرسة فى المهجر الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وفى أعقابها مباشرة . ثم عودة «أدورنو» و«هوركهايمر» بعد ذلك فى الخمسينات إلى جامعة فرانكفورت بألمانيا الاتحادية (الغربية) بعد اندحار النازى الذى كان قد تسبب فى لجوئهما إلى المهجر الأمريكي .

فإذا كان أقطاب هذه المدرسة قد عرفوا بتمركسهم فى العشرينات ومقتبل الثلاثينات ، فقد كان دافعهم إلى ذلك هو معارضة النازية المتطلعة إلى الحكم آنذاك بالانضمام إلى قوى اليسار فى ألمانيا ، أما وقد نجحت النازية فى الوصول إلى السلطة فى ألمانيا ، واضطر أقطاب هذه المدرسة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، فقد اختلف الأمر جد الاختلاف . إذ لم يصبح تعاونهما وثيقا وحسب مع «اللجنةاليهودية» في نيويورك ، وهى التى صدر عنها كتاب «الشخصية التسلطية» The Authoritariaran Personality عام ١٩٥٠ الذى أشرف على تحريره «هوركهايمر» ، وشارك فيه «أدورنو» بنصيب وافر من صفحاته ، وإنما لم يستنكف ثلاثة من الأعضاء البارزين فى

«معهد الأبحاث الاجتماعية» Institut Fuer Sozialforschung الذى كان يديره «هوركهايمر» منذ عام ١٩٢٤ فى المهجر الأمريكى (بجامعة كولومبيا فى نيويورك) ، وهم «هربرت ماركوزه» Herbert Marcuse، و «فرانتس نويمان» ، و«أوتو كيرخهايمر» Otto Kuchheimer، من التعاون مع أول جهاز للمخابرات أنشئ في الولايات المتحدة ، هو «مكتب الخدمات الاستراتيجية» Office of Services Stra Xegic، واختصاره OSS، وذلك فى قسم البحوث والتحليلات به منذ عام ١٩٤٢ الذي دخلت فيه أمريكا بكل ثقلها فى الحرب العالمية الثانية . وقد امتد هذا التعاون حتى عام ١٩٤٧، وفي بعض الحالات ، شأن «هربرت ماركوزة» و«أوتو كيرخهايمر» ، إلى ما بعد ذلك التاريخ بسنوات عدة ، كما تقرر دراستان موثقتان نشرتا بالانجليزية - نبهني إليهما الصديق الأستاذ السيد يسن - الأولى تحمل عنوان : «من المعارضة السياسية إلى الاحتواء الفكرى : مدرسة فرانكفورت فى الحكومة الأمريكية منذ عام ١٩٤٢ وحتى ١٩٤٩» وصاحب هذه الدراسة جيدة التوثيق هو المؤرخ الألمانى «ألفونس زولنر» Alfons Soellner حيث كانت قد نشرت فى الأصل بالألمانية عام ١٩٨٧ كفصل من كتاب يحمل عنوان : «ألمانيا بعد هتلر» Deutschland nach Hitler (ص ١٣٦ - ص١٥٠) . أما الدراسة الثانية التي تؤكد على ما جاء فى هذه الدراسة من حقائق تاريخية ، وإن فاقتها توثيقا وتفصيلا، فهى للباحث الأمريكى «بارى م . كاتس» Barry M. Katz ، الذى يشى اسم عائلته بأصول جرمانية ، وهو ينتسب إلى هيئة التدريس بجامعة «ستانفورد» المعروفة ، فعنوانها : «نقد الأسلحة : مدرسة فرانكفورت تنخرط فى الحرب» وهى تقع من ص ٤٣٩ إلى ص ٤٧٨ من مجلة التاريخ الحديث Modern History Journal الصادرة عن جامعة شيكاغو فى سبتمبر ١٩٨٧ .

هدف سياسى

بطبيعة الحال كان تعاون الثلاثة : «نويمان» و «كيرخهايمر» ، و«ماركوزه» مع مكتب الخدمات الاستراتيجية بعلم ومباركة «هوركهايمر» ، مدير معهد الأبحاث الاجتماعية الذى ينتسبون إليه ، فلم يحدث أن فقد أحدهم وظيفته فى المعهد بسبب تعاونه مع الـ OSS ، سلف الـ CIA. لم يكن هدف نويمان وزملائه المتعاونين معه فى هذا الجهاز السرى مجرد الكسب المادى . إنما كان هدفهم هو التأثير على قرارات الحكومة الأمريكية وسياساتها بإزاء تحطيم النازية فى ألمانيا ، وإقامة نظام ديمقراطى جديد فى شطرها الغربى بعد انتصار الحلفاء .

الخيارات المطروحة

وبالفعل كانت مهمة كبار منظرى معهد

دائرة حــوار

الأبحاث الاجتماعية فى مكتب الخدمات الاستراتيجية منصبة على تحليل كل ما ورد إليهم من تقارير الصحافة الأوروبية آنذاك ، والاستماع إلى إذاعة الرايخ الثالث ، وبرقيات بعثات الـ OSS فى لندن ، ولشبونة ، والجزائر ، واستوكهولم ، وبرن ، وتقارير واستجواب سجناء الحرب، بل والرجوع إلى بعض المؤلفات المنشورة فى مكتبة الكونجرس ، وذلك لتقديم تصور «دقيق» لردود الأفعال الممكنة لخيارات السياسة الأمريكية فى كافة مجالات الحياة فى ألمانيا ، ابتداء من أثر الدك بالقنابل علي الروح المعنوية لعامة الشعب الألمانى ، حتى تبدل مودات أزياء النساء الألمانيات (دراسة «كاتس» ص ٤٤٧) .

كان هدف أعضاء معهد الأبحاث الاجتماعية إذن هو التأثير علي مستقبل ألمانيا بعد الحرب من خلال تأثيرهم على قرارات الحكومة الأمريكية وسياساتها بإزاء ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأخيرة وبعدها . وكان طبيعيا أن يصابوا مع مرور الوقت «بخيبة أمل» ، إذ كانت الحكومة الأمريكية لا تصغى فى معظم الأحيان لنصحهم ، بل تمضي فى قراراتها ابتداء من تصوراتها البراجماتية وليس استنادا إلى تحليلاتهم الهيجلية .

على أية حال ، ألا يثور هنا السؤال : كيف يتفق هذا الموقف المنخرط تماما فى الحياة السياسية وصراعاتها من جانب معهد الأبحاث الاجتماعية مع ما عبر عنه أقطابه من رفض للانخراط فى هذه العلاقات الاجتماعية مع ما عبر عنه أقطابه من رفض للانخراط فى هذه العلاقات الاجتماعية نفسها التى يغمرها التشيؤ السلعى الرأسمالى ؟ (انظر مقالنا : فى نقد الجدل السالب ، الهلال عدد سبتمبر ١٩٩٥ ، خاصة ص ٩٨ - ١٠٠).

من الواضح أن الإجابة علي هذا السؤال لا تكون بترديد الخطاب الأيديولوجي لأقطاب مدرسة فرانكفورت ، وإنما فى كشف اللثام عن علاقة هذا الخطاب بمختلف الخطابات الثقافية في ألمانيا وفى المهجر باعتبارها علاقة تفصح عن صراع اجتماعى فى شكل عراك ثقافى .

ثوب الماركسية المزيف

من الواضح إذن أن تمنطق أقطاب مدرسة فرانكفورت بعباءة الماركسية كان لأسباب محض انتهازية هدفها إجهاض تيارات النقد الاجتماعى الجذرى بـ «إعلائها» إلى أغوار النقد الفكرى المتعالى على الواقع المجتمعي ، ولكن فى إطار هذه «السياسة» التمويهية نفسها كانت توزع

الأدوار بين أقطاب المدرسة . فـ «هوركهايمر» كان يبدأ كل محاضرة له فى جامعة فرانكفورت بعد عودته من المهجر الأمريكى بقوله «أنا يهودى» . كان ذلك فى ألمانيا الاتحادية التى ينص دستورها بعد اندحار النازى ونهاية الحرب العالمية الأخيرة على تجريم معاداة السامية ، والمقصود بها معاداة اليهود ، فلم كان يصر على أن يعرف نفسه على هذا النحو بينما كان المفروض أن يؤدى نص الدستور الألمانى الاتحادى إلى اندماجه فى المجتمع الجديد بدلا من أن يذكر نفسه والآخرين باختلافه عنهم أما «أدورنو» ، النجم المدلل فى الحياة الفكرية الألمانية خلال الستينات ، فقد كان على عكس ما ذهب إليه زميله «هوركهايمر» حريصا على ألا يكشف توجهاته الحقيقية أمام الآخرين ، وإن لم تختلف فى جوهرها عن توجهات رفيق عمره .

هذه هى المراجع العربية

بقيت مسألة أخيرة رأيت أن أنهى بها مقالى : فقد تساءل الدكتور المسيرى متحاذقا فى بداية مقاله المنشور بعدد يناير ١٩٩٦ من مجلة الهلال عن تلك الكتابات التى أشرت إلى أنها أكثرت من الاهتمام بمدرسة فرانكفورت باللغة العربية فى الآونة الأخيرة «حتى يقرأها معنا» (كذا !) . وأنا أسوق إليه عددا منها لافتا للأنظار فى الأعوام القليلة الماضية :

* د . عبد الغفار مكاوى : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٩٩٣ .
* د . رمضان بسطاويسى : علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت - أدورنو نموذجا ، القاهرة ، ١٩٩٣ . وللمؤلف نفسه مقال طويل (نفس الموضوع) فى مجلة «ألف» ، عدد ربيع ١٩٩٠ ، صص ١١٠-١٣٢ .
* بول لوران أسون : مدرسة فرانكفورت ، ترجمة د . سعاد حرب ، بيروت ، ١٩٩٠ .
* علاء طاهر : مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماس منشورات مركز الإنماء القومى ، بيروت (بدون تاريخ - غالبا نهاية الثمانينات) .
* كما أن رسالة للدكتوراه قدمها الباحث زكى عبد المجيد ابراهيم ونوقشت منذ شهور قليلة (فى نهاية عام ١٩٩٥) بكلية الآداب جامعة عين شمس عنوانها : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - دراسة تحليلية لتقدير كفاءة النظرية فى فهم واقع العالم الثالث ، مع محاولة التطبيق على المجتمع المصرى .

فهل يريد الدكتور أن نحيله إلى المزيد من الأدبيات باللغة العربية فى هذا الموضوع ؟ .

حقيقة قصة المكارى والمالطى!

قبائل سيناء تقتل بالمر فى صحراء التيه..!

بقلم: سلمان أبو ستة

أتتذكرون قصة المكارى الذى اختلف مع المالطى الثمل على أجرة دابته؟ لقد أدى الشجار بينهما الى قيام الأهالى والأجانب، كل يتشيع لطائفته، بهياج كبير، أدى الى مذبحة الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢. وهذا أدى بدوره إلى تدخل الإنجليز لحماية الأجانب فى مصر، «فاضطروا» إلى قصف الاسكندرية بالمدافع، ثم احتلالها، ثم إخضاع الثورة العرابية، وإحلال النظام والأمن لصالح الخديو محمد توفيق.

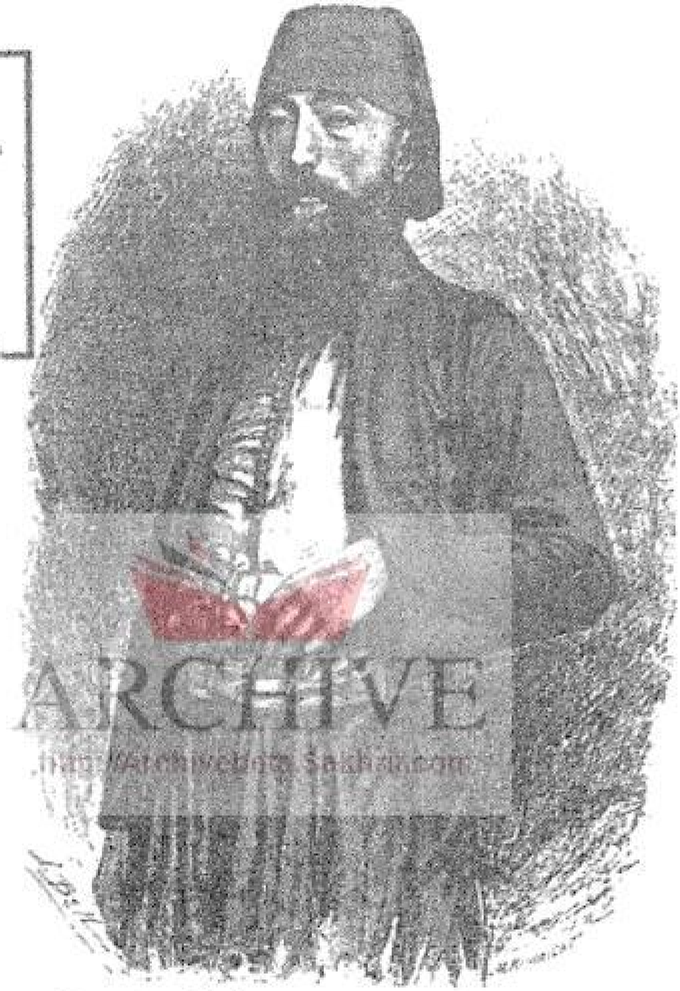
هذه هى الرواية الرسمية لتبرير استعانة توفيق بالانجليز لحمايته من سخط العامة، والقضاء على ثورة عرابى، بهذا بدأت حقبة امتدت ٧٤ عاما، احتلت فيها بريطانيا مصر وسائر المشرق العربى. وأورثته الويلات والحروب.

هل يعقل ان يكون كل هذا الدمار، الذى حل بالأمة العربية فى المشرق على يد بريطانيا، وليد حادثة عرضية بين مواطن مصرى صاحب حمار، ومالطى من رعايا الإمبراطورية من الدرجة الثالثة؟ بالطبع لا.. هذا شىء لا يستسيغه العقل. كتاب صغير فتح لى طاقة أنارت هذا الغموض.

صحتي مايو ١٩٩٦



غلاف الكتاب



إدوارد هنرى بالمر

أستاذ اللغة العربية فى كامبردج المعروف باسم :

عبد الله امترى أو الشيخ عبد الله ..مرتديا الزى التركى

قبل أسابيع كنت أبحث فى احدى مكتبات لندن القديمة، قرب المتحف البريطانى ، فوجدت كتابا اسمه «حياة واعمال إدوارد هنرى بالمر» صادر عام ١٨٨٣. كنت قد قرأت عن بالمر هذا ، فقد كان مستشرقا يتقن العربية والفارسية والأوردية، وصل فى أعلى مراحله العلمية الى مرتبة استاذ اللغة العربية فى كامبردج . وفى عام ١٨٦٨ ـ ١٨٦٩، عام افتتاح قناة السويس، قام برحلة الى سيناء ، مثل غيره من الرحالة الغربيين الذين كانوا يبحثون عن الاثار التوراتية، ويتتبعون مسرى بنى اسرائيل فى صحراء التيه، نشر بالمر كتابا عن رحلته هذه عام ١٨٧١ باسم «صحراء الخروج» وكسب من ذلك سمعة علمية، بالاضافة الى سمعة مبالغ فيها، عن معرفته قبائل سيناء، وصداقاته القوية مع شيوخهم ونفوذه الواسع بينهم، هذا ما نستشفه من آراء محبيه ، لكننا لم نسمع رأى شيوخ القبائل انفسهم، واغلب الظن انهم يرون فيه رحالة، يسعى فى القفار، وقد يكسبون منه بتأجير جمل أو دليل.

مرت عشر سنوات على رحلة بالمر الى سيناء، قضاها فى الكتابة والترجمة والصحافة لم نسمع عنه شيئا هاما فى تلك الحقبة، الى ان ظهرت حركة عرابى، أو ما اسماه العامة «بهوجة عرابى» عام ١٨٨١ ـ ١٨٨٢.

كانت بريطانيا ترى فى مصر لقمة سائغة.. وتريد فصلها عن الدولة العثمانية، وتأسيس حكومة عربية مستقلة تحت لوائها، وتريد السيطرة على قناة السويس، وإنشاء قاعدة بريطانية لها فى الشرق، ورأت فى ثورة عرابى فرصة للتدخل السافر بحجة حماية الخديو .

هذا ما كان يشغل بال الادميرالية البريطانية فى لندن، فأرسلت الكابتن جيل الى بالمر لزيارته فى بيته فى يونيه ١٨٨٢ سأله جيل عن معلوماته عن عرب سيناء وما صفاتهم واتجاهاتهم ، وكيف يمكن كسب ودهم، اجابه بالمر بما يعرفه، وأكد ضرورة ان يزورهم شخص يثقون به ويفاوضهم ويتحدث اليهم وجها لوجه.

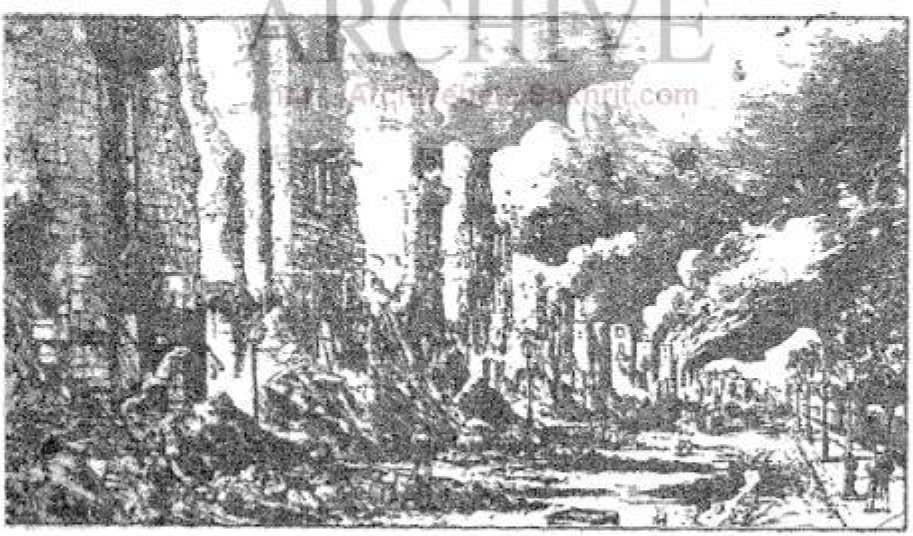
● تدخل بريطاني سافر!

فى ٣ يونيو ١٨٨٢ ، أى قبل المذبحة، اعلن الادميرال سيمور، قائد الاسطول الانجليزى الراسى امام الاسكندرية، غضبه من تحصين المصريين لطوابى الاسكندرية ، مما يعتبر عملا عدائيا ضد الانجليز، وهو امر فيه من الصفاقة قدر ما فيه من التحدى لمشاعر الشعب، إذ كيف يجوز لادميرال دولة اجنبية ان يملى على دولة ان تحصن او لا تحصن نفسها . أوعز قنصلا فرنسا وانجلترا لرعاياهما بالرحيل . فدب الهلع فى النفوس وثارت المشاعر، وبعد ذلك بأسبوع فى ١١ يونيو تشاجر المالطى مع المصرى، واشتبك الاهالى مع الاجانب ونجمت عن ذلك

مذبحة شنيعة هلك فيها كثير من الاهالى والاجانب.

بعد يومين من زيارة الكابتن جيل الاولى الى بالمر، عاد محملا هذه المرة بخطة محددة، قال له إن الوقت قد حان الآن، لكى تعزل قبائل سيناء عن حركة عرابى، وألا يصلها لهيب «التعصب الاسلامى» - وهو تعبير حديث قديم استعمله الانجليز منذ زمن - وان من الضرورى حماية القناة من اى ضرر، فى اليوم التالى، تناول بالمر إفطاره مع قائد الادميرالية وضباطه الكبار. شرحوا له المطلوب منه: منع القبائل من الانضمام الى ثورة عرابى، وزودوه بالتعليمات والمال. عليه اولا ان يتجول بين قبائل سيناء واحدة واحدة، ليعرف مدى ولائهم للثورة، ثم عليه ثانيا ان يحاول عزل هذه القبائل عن القضية المصرية، برشوة المشايخ، لكى يلجئوا الى الهدوء والسكينة، وإن امكن انضمامهم للحرب فى صف الانجليز، وثالثا عليه ان يأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية ضفة القناة الشرقية، أو إصلاحها إذا ما دمرها عرابى، كما ان عليه شراء وتأجير اكبر

تدمير الاسكندرية على يد الاسطول الانجليزى .. كتب مراسل التايمز :
«ليس فى مقدورى وصف الدمار فى الميدان الكبير وسط كتلة من الدخان والحدائق وكل لحظة يسقط بيت كأنه قنبلة عظيمة»



عدد من الجمال.

وعليه ان يتسلم تعليمات جديدة من الادميرال سيمور الراسي امام الاسكندرية . ومن اجل الحفاظ على السرية، عليه ان يرسل كل تقاريره الى لندن على شكل رسائل الى زوجته، ولم تعط له أية تعليمات مكتوبة.

أبحر بالمر من لندن الى ايطاليا ومنها الى الاسكندرية التي وصلها في ٥ يوليو، وقابل الادميرال سيمور وأعطاه اسلحة وتعليمات جديدة، واخبره انه سيقصف الاسكندرية في موعد اتفق عليه، وانه سيرسل له تلغرافا خاصا بذلك، لكي ينسق معه محاولة تهدئة القبائل وعزلها عن عرابي.

● بالمر .. في لباس عربي !

وصل بالمر الى يافا، وهناك اشترى ملابس عربية وزادا وزوادة ، واستأجر طباخا يهوديا اسمه «بخور حسون» ، وسلح نفسه بطبنجات وبنادق، واتخذ لنفسه اسم «عبدالله افندي» التاجر العربي، الذي عاد ليزور اصدقاءه التياها بعد غياب ١٠ سنوات محملا بالهدايا وحمل في جيبه رسالة من الخديو محمد توفيق موجهة الى موظفي الدولة في بورسعيد والقنال: حامل هذا شخص نضع فيه ثقة خاصة، وعلى كل من يقرأ هذا أن يعامله باحترام ويجيب على كل اسئلته دون تردد او تحفظ ، حيث انه ارسل من قبلنا، وعليكم إطاعة اوامره.

ارسل بالمر رسالة تسبقه إلي غزة ، لتصل إلي بعض شيوخ سيناء ، الذين عرفهم من قبل ، ليقابلوه في غزة .

كتب بالمر حوادث رحلته في مفكرته التي وصلت إلينا بعد مماته . يقول: «سيكون هناك احتلال لمصر ، ومهمتي في هذه الرحلة ان اسبر غور العرب وعندما يأتي الوقت، سيكون لدى القوات والسفن الحربية لتدعمني» لا يملك المرء إلا ان يتأمل في سذاجة هذا الرجل الذي يعتقد انه يستطيع ان يشعل الثورات ويخمدها بقوة إقناعه وذهبه.

كتب في ١١ يوليه: وصلتني برقية من غزة أن الشيخ سليمان من قبيلة التياها الذي أرسلت في طلبه غير موجود، وهو يبعد مسافة خمسة ايام عن غزة . من ارسل هذه البرقية؟ لم يذكر بالمر ذلك، ولكن عثر بين أوراقه فيما بعد على برقية من جاسوس يهودي اسمه جوزيف أمزالك.

في نفس اليوم ، قصف الادميرال الاسكندرية قصفا شديدا، تعدى بكثير، تحصينات الطوابي ودمر احياء كثيرة ، ونزل سيمور بجنوده لاحتلال الاسكندرية في ١٣ يوليو، بعد ان حل بها الدمار وانتشرت بها الحرائق.

هل كانت هذه خطة موضوعة ؟ نعم . لقد اخبر الادميرال سيمور بالمر عند زيارته له في الاسكندرية انه سيقصفها

فى ١١ يوليه . عندما وصل بالمر الى غزة فى ١٥ يوليه، كان ينتظر اخبار القصف لكى يبدأ مهمته فى سيناء . كتب فى مفكرته : «غزة ١٥ يولية : قضيت يومين انتظر هنا. وصلتنى سرا اخبار قصف الاسكندرية المتوقع، لا احد يعلم بذلك حتى الآن.. سأتوجه الآن الى السويس»

أما فى غزة. فقد تجاوب ابناؤها مع إخوانهم شعب مصر، وآزروا ثورة عرابى، التى وصلت اصداؤها اليهم عبر سيناء وعمت فى بلاد الشام مظاهر التأييد للحركة الوطنية، خصوصا نتيجة التوعية التى قام بها الائمة الازهريون الذين درسوا فى مصر.

استأجر بالمر عددا من الجمال والمرافقين، وانطلق من غزة الى البواطى (جنوب رفح) ، ثم الى منتصف صحراء التيه. قابله أسافل الناس الذين يسعون الى الكسب السريع، وتظاهروا بالاستجابة الى دعوته، التى يقول فيها إن عرابى خطر عليكم، فلا تأبهوا بدعوته الى «محاربة الكفار» . فإذا ما استجاب له بعضهم ، عرض عليهم مالا لكى يقوموا ضد عرابى، وللدفاع عن القناة، لكن الاغلبية لم يصدقوه، أو يأمنوا جانبه.

كتب بالمر فى مفكرته : «لقد رأيت اليوم الكثير من عرب الترابين الذى يشكون فى من انا؟ وماذا اريد؟ قال لهم تابعى انى ضابط سورى فى طريقه الى مصر، وانا بالطبع ارتدى ملابس مسلم من المدينة.

لكنى عرفت عنهم اكثر مما عرفوا عنى. إننى اعرف الآن كيف اصل الى اى شيخ فى الصحراء (!)، وقد تمكنت الآن من قبيلة التياها، اكثر القبائل ميلا للحرب واقواها (!) وهم مستعدون ان يعملوا اى شىء من أجلى . وعندما اعود، سيكون باستطاعتى جمع ٤٠,٠٠٠ مقاتل (!).

هذه الكلمات تدل على سذاجة بالمر. إن جمع ٤٠ ألف مقاتل معناه ان تدين لك بالولاء المطلق قبائل بكاملها يصل تعدادها الى ٢٥٠,٠٠٠ نسمة . ولايوجد هذا العدد فى سيناء وفسلطين والاردن كلها. وقد قدر العلامة القس جوسن بأن عدد الهجانة المحاربين فى سيناء هم كالآتى: التياها ٧٥٠ ، اللحيوات ٧٢٠، الحويطات ٩٢٠، الترابين المسابلة ٦٥٠، العيايدة ٦٠٠، المجموع ٣,٦٤٠ . أين هذا من ٤٠,٠٠٠ مقاتل؟ ثم إن ذلك يحتاج إلى اقناع اكبر المشايخ واهمهم الى صفه اولا، ومن ثم يتبعهم صغارهم، ولا توجد فى مفكرته اسماء هؤلاء . ولابد انه وقع فريسة لدهاء بعض الجمالة والادلة.. والواقع ان اهم القبائل كانت تناصر عرابى، فالترابين كانوا على صلة باخوانهم فى مصر الذين انخرطوا فى صفوف عرابى، والحويطات كانوا يناصرونه بتأثير شيخهم المصرى سلامة ابن شديد..

تجنب بالمر طريق الجنود المصريين ،

وابتعد عن قلعة نخل التي كانت تتلقى اوامرها من عرابي . وصل الى المغارة في ١٩ يوليه، وانقطعت الاخبار عنه بعد قصف الاسكندرية . ويقول يومها «اخبرني العرب ان الجيش المصري في حالة ثورة وهذا معناه ان قواتنا احتلت البلاد الآن كما افهمني الاميرال سيمور انه سيحدث» . كتب في ٢٠ يوليه : «الشيخ الذي يأمر كل العرب بعدم مهاجمة قوافل الحج المصري، وهو اخ الشيخ سليمان ، اقسم لي انه سيحمي القناة ضد عرابي لو انني اخرجت ثلاثة شيوخ من السجن . وهذا ما انوي عمله بواسطة سفيرنا في القسطنطينية، لقد جاءني الشيخ مصلح بن عامر، اشعر الآن بأمان وسط التياها .

وكم أتمنى لو استطيع الابراق الى الاميرال سيمور لاعطيه الاخبار، ولكن لابد من الانتظار» .

تقدم بالمر بحذر حتى لا يكتشفه الجنود المصريون . ووصل اخيراً، بعد رحلة استغرقت اسبوعين قطع فيها صحراء سيناء الى عيون موسى في ليلة ٣١ يوليه، ومعه خادمه بخور، وخبيره الشيخ مطير ابو صفيح وستة من التياها . وعاد هؤلاء الى ديارهم بينما استقل بالمر قاربا اوصله الى باخرة بريطانية في خليج السويس فجر يوم ١ اغسطس ١٨٨٢ .

بعد حمام ساخن وطعام جيد.. اعطى بالمر تقريره للضباط بحضور الكابتن جيل الذي وصل من لندن عن طريق بورسعيد واعطيت له الاوامر ليعود الى الصحراء مرة اخرى ليقطع خطوط التلغراف التركي، وليؤلب قبائل سيناء على عرابي .

لكنهم قبل ذلك رتبوا حملة عسكرية صغيرة، قوامها ٣ مدافع و ٥٠٠ جندي، لاحتلال السويس، فاحتلها الانجليز «بدون مقاومة، واخذنا من المحافظ ٥٠,٠٠٠ جنيه كانت بحوزته» هكذا يقول.. وعين بعد ذلك بالمر ترجمانا عاما لقوات الاميرال في السويس..

لقد اقنع تقرير بالمر القادة الانجليز، واعتقدوا ان بإمكانهم شراء ٤٠,٠٠٠ مقاتل بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه انجليز . وتم الاتفاق على ان يذهب مع بالمر ضابطان هما: الكابتن جيل، واللفتنانت تشارنجتون لتنفيذ المهمة . ارسلت الباخرة برقية الى الادميرالية في اول اغسطس: «وصل بالمر من غزة. كل شيء جيد . يدعون الى الجهاد في غزة. رأى جنود اتراك هناك، البدو هادئون، توجد جمال كافية ولكن لا يوجد مكان لجمعها قبل احتلال السويس» .

نعود الى بالمر.. في ١١ اغسطس ١٨٨٢ انطلق بالمر في مهمته ، عائداً من السويس الى صحراء سيناء مزوداً بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه، ومصطحبا معه الكابتن جيل، واللفتنانت تشارنجتون، وطباخه اليهودي، بخور حسون، ومترجم سوري، خليل عتيق، وخبيره ومعتمده من العربان «مطير ابو صفيح» من الصفايحة اللحيوات وتسعة جماله، وما أن اوغلوا في وادي سدر، حتى انقض عليهم جماعة من الترابين والحويطات واوثقوا رباط الانجليز والقوا بهم من شاهق الجبل الى بطن الوادي، وافرغوا فيهم الرصاص، وفر مطير بالنقود وهكذا فشلت مهمة بالمر على

يد عرب سيناء الذين اعتقد خاطئا انه يستطيع تأليبهم ضد ثورة عرابي.

بعد ان استتب الامر للانجليز فى مصر ارسلوا الى سيناء بعثة بقيادة الكولونيل تشارلس وارن، جمعت رفات بالمر ورفاقه ودفنت فى كنيسة القديس بولس بلندن، واعتقل الجناة وحوكموا فى طنطا وحكم على خمسة بالقتل، وعلى سبعة بالسجن، وقد وجد بين اوراق بالمر تقرير مترجم عن مذبحة الاسكندرية، التى لم يشهدها وان كان على علم مسبق بها، يقول ان غالبية القتلى من الاهالى. كيف وصل له هذا التقرير ومن ارسله؟

يذكر نعوم شقير رواية اهل سيناء عن الحادث بعد ذلك بسنوات، فيقول ان مدخل سليمان شيخ العليقات كان احد الجمالة، وقد طلب بالمر من «عودة الزميلي» ان يصحبه فى سفرته الى سيناء فأبى لان «البر مهزوز»، وقد جاء بعض البدو من مصر، ومنهم رسل الشيخ سلامة بن شديد، واخبروهم ان عسكر المسلمين فى مصر ذبحوا الانجليز وغنموا مالهم، اما حسن بن مرشد التربانى احد الجناة فقال:

اخذنى الانجليز الى العباسية وحبسونى فى خيمة، وفى الليل سمعت الحراس يقولون: مسكين، باق من عمره ليلة، وفى غفلة من الحراس، فررت والقيد فى رجلى وحطمته فى المقطم، وانطلقت الى سيناء وعبرت الترعة سباحة، وعشت متخفيا، الى أن كف البحث عنى

هكذا كان مصير بالمر. جاء بعده جواسيس، ومستشرقون كثيرون لخدمة الامبراطورية لعل اشهرهم لورنس العرب، الذى نجح فى مهمته ولم يلق مصير بالمر، والذى دفن ايضا فى كنيسة القديس بولس.

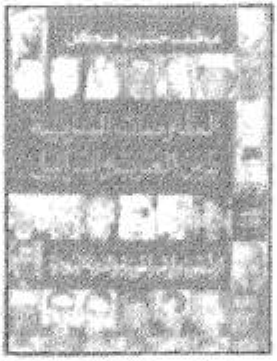
لكن قصف الاسكندرية واحتلالها المدبر قد بدأ عصرا من المآسى، قطع وصال الشرق العربى، وجلب له الويلات..

خلال هذه العصر، تتناثر شواهد المجرمين فى حق هذه الامة، امثال كتشنر، كرومر، لورنس، اللنبى، سايكس بيكو، تشرتشل، بن جوريون.

فى هذا العصر المظلم، خلق اول حد دولى فى التاريخ بين البلاد العربية، هو الحد الدولى بين فلسطين ومصر عام ١٩٠٦ وخرجت حملة عسكرية بريطانية من مصر، لاحتلال فلسطين عام ١٩١٧ سخر فيها ١٥٠ الف عامل لمد خطوط السكة الحديد وانابيب مياة النيل الى غزة، وعقد اتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦ لتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، واعلن وعد بلفور، وعد من لايملك لمن لا يستحق، الذى فتح باب فلسطين للصهاينة، واجهضت الثورة العرابية واصبحت مصر سلطنة مستقلة عام ١٩١٤

وانتهى هذا العصر البريطانى المظلم بفشل العدوان الثلاثى على السويس عام ١٩٥٦، لكن اثاره لازالت باقية، وجروحه لاتزال دامية، وهذا كله ثمن رهيب لحادث مدبر بدأ بشجار عادى بين مصرى ومالطى. □

هل خدع نابليون أهل مصر المحروسة ؟!



الكتاب



الرافعى

بقلم : حلمى النمنم

●● فى الجزء الأول من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» تحدث الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى الفصل الخاص بنابليون عما أسماه ورقة بونابرت الإسلامية، وكان نابليون قد زعم عند هبوطه الإسكندرية غازيا أنه صديق ومحب للمسلمين والإسلام، وقال هيكل «إن ورقة نابليون الإسلامية كانت حيلة سهلة لخداع المصريين سواء فى ذلك العامة أو العلماء من مشايخ الأزهر وأضاف قائلا «ولابد من الاعتراف - لسوء الحظ - أن الخدعة جازت على المصريين فى ذلك الوقت بمن فيهم العامة والعلماء وربما يغفر لهم جميعا أن ضيقهم بجور الحكام المماليك جعلهم على استعداد لحلف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا للخلاص من أولئك الذين استبدوا بأقدارهم وأرزاقهم وعجزوا فى نفس الوقت عن حماية ديار الاسلام وديارهم» واختتم الاستاذ هيكل رأيه قائلا «ولقد جاء الشيطان إليهم يلبس عمامة، وصدقوه لأنهم كانوا يريدون تصديقه، ولأنه لم يكن فى مقدورهم ألا يصدقوه» ●●

والحقيقة أنه على كثرة ما كتب عن حملة نابليون بونابرت على مصر والشام فلم يكتب أقسى - على المصريين العامة والعلماء - مما كتبه الأستاذ هيكل فى كتابه الأخير..


هيكل


نابليون

حاول نابليون أن يتودد للمصريين منذ نزوله الإسكندرية، فقد أعد منشورا باللغة العربية وهو لايزال على ظهر سفينته فى عرض البحر المتوسط، وطبع منه أربعة آلاف نسخة، وأطلق عدداً من أسرى المالطيين، كان قد أحضرهم معه لتوزيع المنشور على الأهالى، ووصلت نسخ منه إلى القاهرة، بدأ نابليون المنشور قائلا «بسم الله الرحمن الرحيم، لاإله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه..(...) إننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم .. (...) إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام .(...) الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك أن المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره» - اعتمدنا نص المنشور من الجبرتى.

بينما كان المنشور يوزع فى الإسكندرية كان أهل الثغر يدافعون عن مدينتهم ، يقول الجبرتى «دخلت الافرنج البلد - يقصد الإسكندرية - وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون» ، وحين تقدم الفرنسيون فى طريقهم نحو القاهرة وصل المنشور إلى العاصمة، وذكر الجبرتى أن من بين الذين وزعوا المنشور «مغاربة وفيهم جواسيس» ووصفهم قائلا «وهم على شكلهم من كفار مالطة» وهذه الصفة ربما تعكس مشاعره، واستعد أهل القاهرة لمقاومة الغزاة - يقول الجبرتى - «وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم .. وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الآخر ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل غير ذلك .» ، وكلنا نعرف موقف السيد عمر مكرم نقيب الأشراف

حين صعد إلى القلعة وحمل منها بيرقا كان يسمى - عند العامة - البيرق النبوي، وسار إلى بولاق وحوله كما يقول الجبرتي «ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون» ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد «كان العقلاء بين الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الأصوات والصراخ والنباح ».

مراد .. فقط

ومن خلال «نقولا الترك» نعلم أن الوحيد الذى صدق للوهلة الأولى بعض ما جاء فى المنشور هو مراد بك، ولأنه كان على علاقة سيئة بالدولة العثمانية فقد اقتنع للوهلة الأولى أن نابليون صديق الخليفة العثمانى وأنه جاء إلى مصر بالاتفاق معه لضرب المماليك، فعندما وصلته رسالة السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية، بما جرى، اجتمع الأمراء المماليك والعلماء لبحث الأمر، وحضر الاجتماع الوزير العثمانى باكير باشا الذى التفت إليه مراد قائلا «إن هؤلاء الفرنساوية ما دخلوا على هذه الديار إلا بإذن الدولة العثمانية، ولابد الوزير عنده علم بتلك النية» فرد عليه باكير باشا «لايمكن أن دولة بنى عثمان تسمح بدخول الفرنساوية على البلاد الاسلامية» وانتهى الأمر عند هذا الحد، وسار الاجتماع لبحث كيفية التصدى للجيش الفرنسى.

ثم تطورت الأحداث وهزم المماليك وهرب مراد بك إلى الصعيد واندفع إبراهيم بك إلى الشرق فى اتجاه بلبيس ثم غزة، وتركوا المصريين وحدهم - علماء وأهالي - فلم يكن أمام العلماء بديل عن التعامل مع نابليون ولعل هذا ما دعا عبدالرحمن الرافعي إلى القول « .. فلم يكن من الأهالى إلا أن قابلوا هذا المنشور بالاذعان، لا اقتناعا به ولكن نزولا على حكم القوة».

لقد رصد الجبرتى لنا عدداً من الشائعات التى انتشرت بين سكان القاهرة فى تلك الفترة، ورددوها على نطاق واسع وهى تعكس مشاعرهم الحقيقية. فعقب هزيمة مراد بك - يقول الجبرتي - «شاع فى الناس أن الافرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء..» ورغم أن الشائعة لم تكن صحيحة فإنها تعبر عن التوجس الشديد من هؤلاء القادمين ، ثم دخل نابليون القاهرة وبدأ ما عرف بعد ذلك بالاصلاحات، فقد قام جنوده بإزالة بوابات الحارات والشوارع، وعلى الفور سرت شائعة تقول «إن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم فى صلاة الجمعة».

ولما تشكل الديوان وضم عددا من العلماء أراد نابليون فى أحد الاجتماعات

أن يقلدهم الشعار الفرنسي «الجوكار» بتعبير الجبرتي ويدأ بالشيخ الشرقاوى الذى استاء من هذا الأمر «رمى به إلى الأرض» وحين أراد نابليون طمأنتهم رد عليه العلماء «قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين..» والتعبير دال فى ألفاظه على أنه عدوهم الدينى، أو على الأقل ليس نابليون بالمتعاطف مع المسلمين.. وكان موقف العوام مشابها لموقف العلماء «.. أنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدين إذ هو نكره وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر.»

وكانت هناك عمليات مقاومة للوجود الفرنسي فى القاهرة، ويذكر الجبرتي الذين راحوا ضحية هذه العمليات ويقول عن الشيخ الشبراوى - مثلا - «قتل بالقلعة شهيدا بيد الفرنسيس» وعن الشاب الشيخ يوسف المصيلى «وقتل مع من قتل شهيدا بالقلعة» وإطلاق صفة الشهيد لها دلالتها، وكان الجبرتي يصف من يقتل بيد المماليك قبل ذلك بأنه «مات مظلوما» ولايمنحه صفة الشهيد.. والمعروف أن صفة الاستشهاد تمنح لمن يقاتل فى المقام الأول دفاعا عن عقيدته ووطنه.

أما «نقولا الترك» وكان متعاطفا مع الحملة فإنه يتحسر على سوء استقبال أهل مصر لجيش الحملة يقول «وكان الفرنساوية مؤانستهم غريبة وطول أناتهم عجيبة. وكانوا أحسن سلوكا من ساير الجنوس (الاجناس) واشهروا (اشتهروا) بالأمن وطولة البال وطيبة النفوس، ونشروا العدل وحسن الأحكام. وقد احتووا الشرايع الحقيقية على التمام، ومع كل ذلك قلوب المسلمين غير آمنة والأحقاد فى ضمايرهم كامنة ويشتهون له المهالك والوقوع فى أضيق المسالك».

عدو الدين

لقد كان نابليون فى نظر المصريين عدوا للإسلام فى المقام الأول ويريد القضاء عليه، وهذا ما جعل ج. كريستوفر هيرولد يقول عن محاولات نابليون التقرب إلى المصريين «.. كان الاسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة» ويضيف قائلا «فى وسع بونابرت أن يعلن فى اليوم ثلاث مرات أنه ليس مسيحيا، وأن جنوده ليسوا مسيحيين، وأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس، وأنهم يحترمون الإسلام، وكل هذا حق فى كثير أو قليل. ولكن الفرق بين المسيحيين والربوبيين وعباد الهة العقل أو الكائن الأعظم والخيريين الطبيعيين، والملحدين، واليهود. هذا الفرق كان فى نظر المسلمين طفيفا لايعتد به . فكلهم غير مسلمين». راجع بونابرت فى مصر .

أما الجبرتي فقد فند فى كتابه مظهر التقديس منشور نابليون الأول لينتهى إلى أن الفرنسيين كفار ملاحدة وليسوا مسلمين ولا مسيحيين ولا يهود .

وجاءت الأيام بما يدعم ويؤكد شكوك المصريين فى نابليون، فقد أقدم على إعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية لتعاونه مع مراد بك، واشتدت المناوشات الفردية بين المصريين وجنود الحملة، الأمر الذى اضطر العلماء - أعضاء الديوان - أن يوجهوا بياناً إلى عامة الشعب جاء فيه

عن نابليون «رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة» ولم يعبأ الأهالى بهذا النداء حتى قامت انتفاضة القاهرة أو ما عرف بثورة القاهرة الأولى ثم أعقبتها ثورة القاهرة الثانية واقتحام الجنود الأزهر بخيولهم ثم اغتيال كليبر قائد الحملة بعد نابليون.

الرابطة الأولى

كان المصريون يعانون من المماليك، فقد كان أمراء المماليك نموذجاً للفساد والظلم والاستبداد، خاصة عشية وصول الحملة مصر.. وكان الأهالى يدفعون ثمن تنافس وصراع الأمراء خاصة بعد إجهاض مشروع على بك الكبير للاستقلال وتمنى أهل مصر كثيرا الخلاص من هذا الظلم، وكان الفرنسيون حين الاستعداد للحملة على علم بكل ذلك من خلال جواسيسهم وقناصلهم الذين يجوبون مصر.. وفيما يبدو تصور الفرنسيون أن المصريين سيرون فى «نابليون» المخلص والمنقذ الذى طالما انتظروه .. قال تاليران وزير خارجية فرنسا فى تقريره عن مشروع الحملة «إن المصريين يكرهون حكامهم المماليك (...) وإذا أعطاهم المماليك سلاحاً بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية فإنهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك أنفسهم، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى» وقد كان ذلك تصورا غاية فى السذاجة، لأن المماليك يظلمون الأهالى، لكن الرابطة الأساسية بين الحاكم والمحكوم لم تكن العدل ولا الحرية وإنما كانت رابطة الدين والعقيدة ثم تأتى بعد ذلك معايير أخرى مثل أن يكون الحاكم عاقلا.. رشيدا وغير ذلك. وحين هزم المماليك أمام نابليون وفر مراد فإن بعض مماليكه وقعوا أسرى، وكان أعضاء الديوان - علماء الأزهر - هم الذين تشفعوا لدى نابليون فى أسرى المماليك وطالبوا بالإفراج عنهم، واستجاب لهم... وما كان من هؤلاء المماليك إلا أن توجهوا إلى الجامع الأزهر وأقاموا به «يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ويتكففون المارة وفى ذلك عبرة للمعتبرين» والقول للجبرتى، ويلخص «هيرولد» هذه العلاقة قائلا «.. أما المماليك والعثمانيون فمسلمون.. صحيح أنهم قد يعتصرون أرزاقهم ويستنزفون أملاكهم، ولكنهم أخوة لهم» ، وكما قال د. لويس عوض بحق «رفض المصريين للمماليك لم يكن يستتبع قبولهم للفرنسيين ..» فلم يكن المصريون - حينئذ - على استعداد للتحالف مع الشيطان، أيا كانت الدوافع والأسباب، فقد كان الشيطان عدوهم الأول.

لقد كشفت الحملة عن ضعف المماليك عسكريا وعجزهم الشديد أمام «كفار الفرنسيس» ولكن المصريين ركزوا جهدهم فى مقاومة الغزاة وإخراجهم وأجلوا حسابهم مع المماليك إلى ما بعد ذلك. وهو ما سيتحقق فى الأعوام من ١٨٠١ تاريخ خروج الحملة وحتى ١٨٠٥ حين اختاروا بكامل إرادتهم محمد على واليا عليهم.

وتطوى صفحة من التاريخ.



على مر العصور

بقلم : مصطفى درويش

■ تختلف حضارة مصر فى عصر الفراعين عما عداها من الحضارات المعاصرة لها فى أنها أقدمها عهدا وأطولها عمرا وأكثرها تأثيرا . ولأنها انفردت بكل تلك الخصائص ، فالكشف عن ذخائرها لم يكن أمراً يسيرا ..



الاهرامات ، أو خيالات مصر ، كما رسمها الفنان هيوبرت روبرت عام ١٧٦٠

فحتى مجىء الجنرال نابليون بونابرت مع جنده وفريق من العلماء الى أرض مصر ، غزاة طامعين ، وذلك قبل قرنين من عمر الزمان ، كان التاريخ المصرى فى عصر الفراعين من الألغاز والمعميات التى تتحطم عليها كل محاولة للفهم ، مهما بلغ ذكاء وعلم أصحاب المحاولات .

وظل الحال هكذا ، إلى أن اشرقت اللحظة فى حضرة رجل اسمه «جان فرانسوا شامبليون » ، عاش فى فرنسا حياة لم يطل أمدها بدأت سنة ١٧٩٠ ، وانتهت سنه ١٨٣٢ . فى اثنائها اطلع على رسوم مجلدات «وصف مصر أهم أثر خلّفه العلماء المصاحبون لحملة الغازى بونابرت وجنده رسل استعمار فرنسى يريد أن يشارك فى اقتسام تركة الامبراطورية العثمانية التى كانت تعانى من مرض عضال ولقد كان من بين الرسوم رسم

لحجر أسود ، اشتهر، فيما بعد بحجر رشيد، عليه نقوش ، هي في حقيقة الأمر كتابات لرسوم صادر من بطليموس الخامس في ثلاث لغات .

أما كيف أشرقت تلك اللحظة . فذلك عندما أوحى الى «شامبليون » أن يقارن بين كلمات تلك اللغات الثلاث المتجاورة . فاذا باللغة الهيروغليفية ينفك لغزها ، واذا أم الحضارات ، تعاد الحياة الى تاريخها الطويل ، المجيد .

ولأن هذا البعث لتاريخ حضارة انفردت من بين الحضارات القديمة ، في الحرص على أن تخلف وراءها بالكتابة سجلا كاملا لحياتها، صانته أرض مصر الطيبة من التلف أو الضياع ، قد جاء في تاريخ مقارب لتاريخ نشر مجلدات وصف مصر كاملة ، وتزيين ميدان الكونكورد في قلب باريس بمسلة الأقصر ، الأمر الذي جعل منه واحدا من أجمل الميادين .

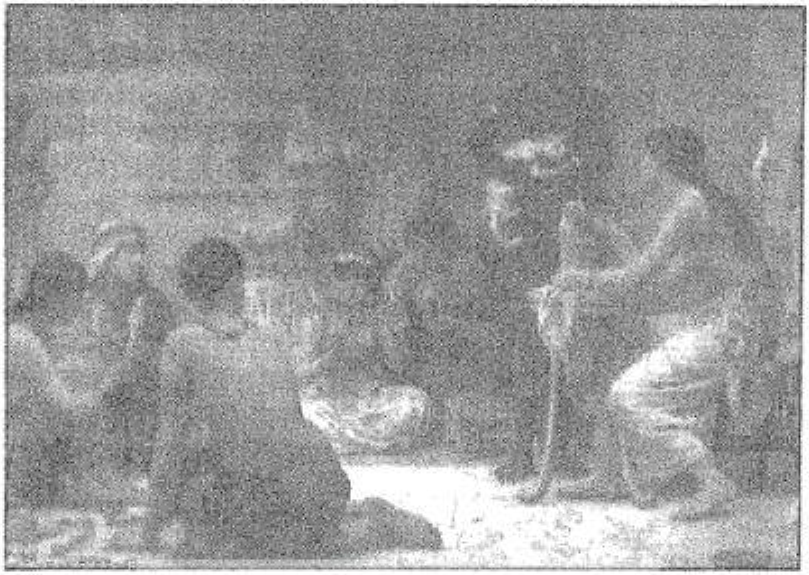
فكل ذلك قد زاد من الاهتمام بكل ماهو متصل ولو من بعيد ، بحضارة الفراعين.

هذا ، وقد مد التيار الفني الذي ظهر أول ما ظهر في عصر الاغريق ، ثم اشتد عوده في عصر الرومان وهو ما يعرف في أيامنا هذه بعشق مصر ايجيبتومانيا مد ذلك الاهتمام بحضارة قدماء المصريين يزاد لا ينقص على مر السنين . وانما يزداد وعلى كل فالأعمال الفنية التي تدخل في باب عشق مصر هي تلك الاعمال المتأثرة بالفن المصري القديم باشكاله المتنوعة المميزة تماما عن غيرها من أشكال فنون الحضارات الأخرى. .

وأشهر تلك الاشكال ما في ذلك شك . المسلات والأهرامات ، وتماثيل أبي الهول في شكل كائن رابض برأس انسان مغطى على الطريقة الفرعونية ، وجسم حيوان .

دوار وانبهار

وعشق مصر وإن كانت ارهاصاته ترجع الى عصر الحضارة الاغريقية ،



لوحة «البضائع وصانعاتها» للفنان أدوريج لوج رسمها عام ١٨٧٨



نموذج شامخ لمعبد مصرى . المعبد هنا هو «وندرة» تصميم النموذج عام ١٨٠٦



جرة فرعونية برأس إنسان منحوتة عام ٩٠٠ قبل الميلاد

فإنه بلغ القمة فى عصر الرومان أثر احتلالهم مصر فى القرن السابق على الميلاد .

فما أن لمست أقدامهم أرض مصر حتى أصابهم دوار وليد الانبهار فاخذوا ينقلون المسلات ، ويشيدون فى روما الأهرامات .

ورغم الاضطهاد ، فى البدايات ، أخذوا يقيمون المعابد لأيزيس ربة قدماء المصريين وشيئا فشيئا أخذت عبادتها فى الإنتشار . ومن أهم آثار تلك الفترة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ، الأهرامات المتزينة بها قبور الرومان، واحدها لايزال موجودا فى مقبرة الفاتيكان . وآخر ، ألا وهو هرم «كايوس شستيوس» ولايزال قائما على مشارف روما القديمة ، مثيرا دهشة المسافرين القادمين من «اوستيا» بشكله الغريب الدخيل على المكان.

ونفس الدهشة ، تثيرها المسلات المنتصبة فى اهم ميادين روما .

والامر العجاب أن عددها في روما يفوق عدد المسلات فى معبد الكرنك .

وهى تحمل أسماء بعض من أرفع الفراعين شأنا ، اذكر من بينهم تحتمس الثالث ، سيتى الاول ورمسيس الثاني

أسطورة حب

ويعرف عن أغسطس إنه أول قيصر أمر بنقل اثنتين من تلك المسلات .

وكان ذلك إثر انتصاره فى معركة أكتيوم على انطونيو وكليوباترة ، وذلك الانتصار الذى انتهى بهما الى الانتحار .

وكما هو معروف ، فقد جعلت منها تلك النهاية الفاجعة أسطورة من أساطير الحب الذى تفنى فيه النفوس .

منها اغترف الفنانون التصاوير والتماثيل والمسرحيات والأفلام .

ويكفي هنا أن نستحضر على شاشة الذاكرة مسرحية انطونيو

وكليوباترة للشاعر وليم شكسبير ، وفيلمي كليوباترة لسيسيل دى ميل وجوزيف مانكيفتش

ومن غرائب إبداعات عشق مصر ، إبان عصر الرومان تماثيل انطونيوس .

ولتلك التماثيل قصة أغرب من الخيال ، بطلها الامبراطور « هادريان الذي يعتبر بحق واحداً من أكثر أباطرة روما ولعا بمصر ، واهتماما بالعبادات الشرقية ، لاسيما ما كان منها متصلا بعبادة ايزيس .

فقد دفعه ولعه هذا إلى زيارة مصر مرتين الاولى سنة ١١٧ ، والثانية سنة ١٢٩ – ١٣٠ بعد الميلاد .

هيام وانتحار

وفي أثناء الزيارة الاخيرة ، وقع حادث أليم لانطونيوس الشاب الوسيم الذي كان هادريان يهيم به اشد هيام وذلك عندما ألقى بنفسه في النيل قبل الوصول الى طيبة بقليل.

فتخليدا لذكراه أسس الامبراطور الحزين في نفس مكان الانتحار ، مدينة اسماها انطونيوبوليس

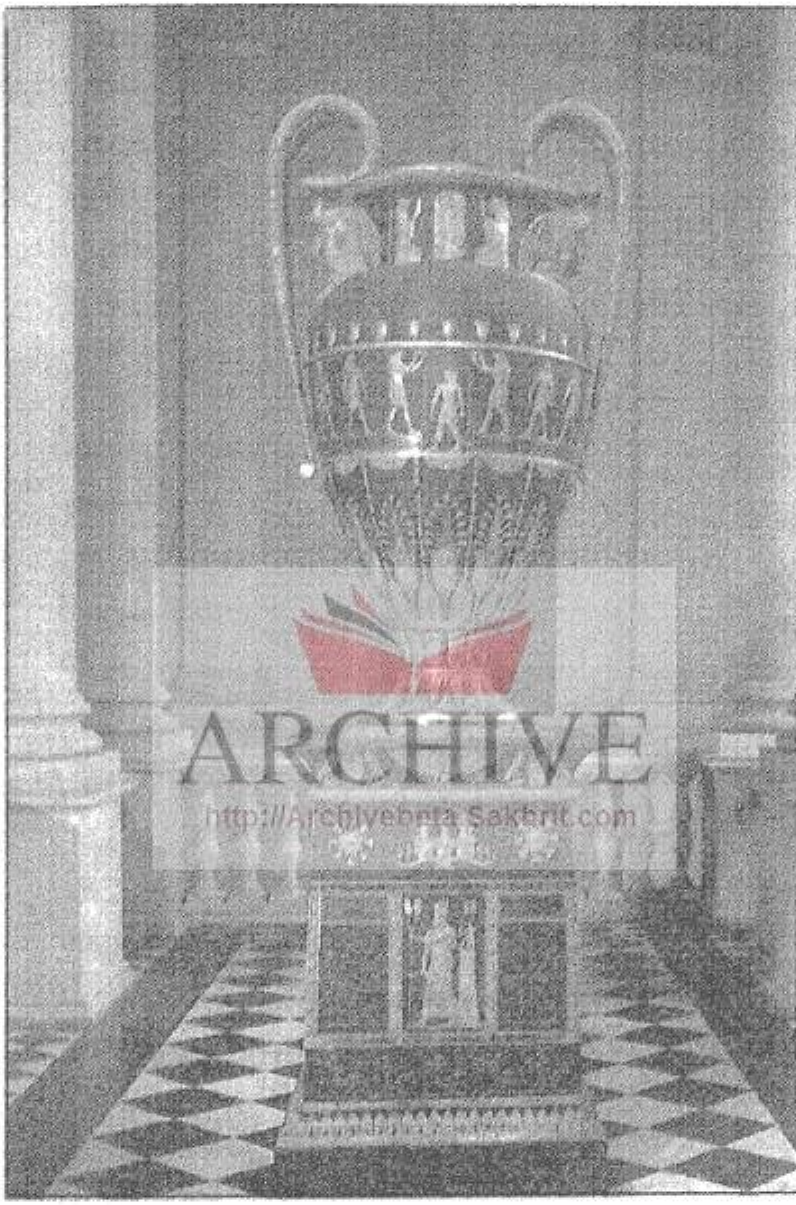
أما في روما فقد أمر باعتناق المعتقد المصرى القائل بان الموتى غرقا لايفنون ، وانما يرتفعون الى مصاف الارباب .

ولأن انطونيوس أصبح بموجب هذا المعتقد ربا فقد نحتت له تماثيل مستلهمة الاسلوب الفرعوني ، تصوره على الطريقة المصرية ، مؤلها ، اشبه بأوزوريس وبعض هذه التماثيل عثر عليه في فيلا هادريان بتيفولي ، قريبا من روما .

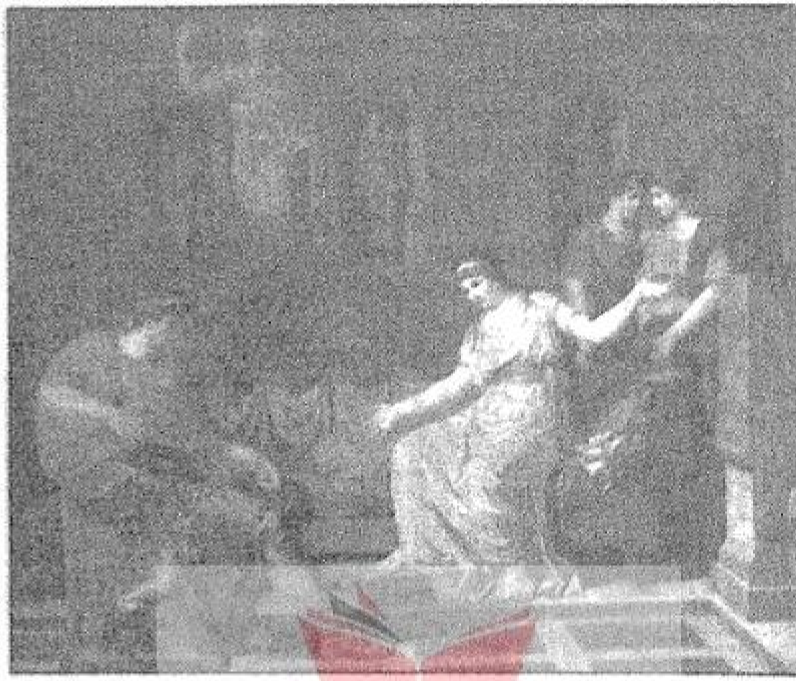
عشق دائم

واللازم هنا القول بان عشق مصر ليس ظاهرة متقطعة ، تتوهج حيناً مع حدث كبير متصل بمصر كعودة الحملة الفرنسية الى فرنسا مدحورة تجر أذيال الخيبة ، أو افتتاح قناة السويس في عهد الخديو أسماعيل أو اكتشاف مقبرة الفرعون الصغير «توت عنخ أمون » ثم سرعان ماتنطفىء حينا من الدهر طويل

لا إنه عشق من ذلك النوع المتوهج



آنية ضخمة منقوش عليها رسوم مصرية ترجع لعام ١٨٠٦



كليوباترا وأوكتافيا كما رسمها لويس كوفييه عام ١٧٨٨ م

دائما فهو على اختلاف العصور شاب لا يهرم ابدا يتكيف مع المتغيرات ، مما نرى تأثيره واضحا فى المعمار ، فى الأثاث ، فى الديكور ، فى الحلى وفى غير ذلك من اشياء الحياة .

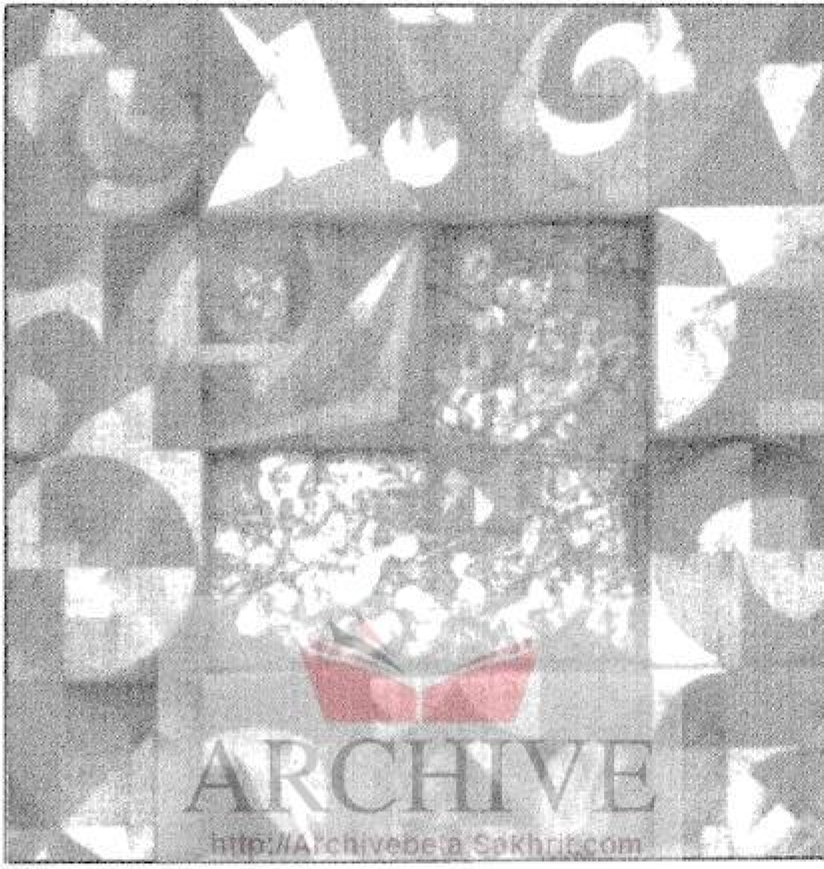
باختصار عشق مصر له حياة خاصة تغذيها الأساطير ، الرموز ، الدلالات ، والأحلام الموروثة الكامنة فى الأعماق .

ومما هو جدير بالذكر إنه لا توجد حضارة أخرى تحمل مثل ذلك القدر الهائل من الرسائل والايحاءات فلا الصين واليابان والهند ولا حضارة بابل وأشور ، وعلى مستوى آخر ، لاحضارة الأغريق وروما ولا أساليب الفن القوطى ، وعصر النهضة فى أوربا بوسعها أن تنهض الى مستوى سحر حضارة قدماء المصريين ، وتأثيرها الشامل ، المتواصل ، على مرّ آلاف السنين .

قال الطبيب..!!

شعر:
أحمد السيد عوضين

عز الطبيب.. وعز بعد شفائى   لما مضيت.. معذبا بدوائى
من ذا أبث له الشكاية واثقا   من أن بين يديه بعض عطائى
أو أن طبا قد أتاه.. بحكمة   فيها الشفاء - وبلسم - لعنائى
هل ذاك حلم لن أراه بواقع   أم أن ثمة ماينير رجائى؟
قال الطبيب: لذاك أمر واقع   بل إنه حق.. ولست أرائى
ماتبتغى؟ قل لى أجبك مصارحا   ومحققا حتى المحال النائى
قلت: الفؤاد معذب فى نبضه   فى خفقه - فرحا - بكل نداء
ما إن يرى طيف الجميلة مقبلا   حتى يثور مرددا: حسنائى
متناسيا أن الشباب وقد مضى   لم يبق إلا أوهن الأصداء
لكن فؤادى - ياطبيب - معذب   هو مايزال بثورة رعناء
إن قلت: حسبك يافؤاد قد مضى   زمن الشباب موليا بجفاء
قال الفؤاد: لذاك حق قلته   لكنه الحق المثير شقائى
عند الطبيب علاجه وشفاؤه   يهدى الفؤاد شبابه بسخاء
يهديه من نبع الفتوة رشفة   فيها الحياة فيرتوى برواء
ماذا تقول - معالجى وطبيبى   هل يهتدى طب لبعض شفائى؟
ماتشتكى إلا خيالا جامحا   وتصورا يرقى عن الأشياء
فلتمض فى وهم بعيد مؤلم   ماضر ماتلقى من الحسناء
تنأى الجميلة لاتحقق مبتغى   يبغى الفؤاد معذبا برجاء
إن العذاب هو الشفاء محققا   ومن السموم الناقعات دوائى
هل بعد «شوقى» تلتقى بمعالج؟   لهو «الحكيم» أميركم شعرائى
فلتمض شاعرنا دواما مؤلما   ذاك الدواء إذا أردت عزائى
إن العذاب مع الحبيب لنعمة   ينكى الشعور مع ابتغاء لقاء
ويثور حس فى هواه معبرا   عما يلاقى من ضنى وشقاء
إن قال: آه» أو تغنى مؤلما   أو قال: ليلى يامثير عنائى
فالقول شدو ولايزال محببا   ومرددا لحنا يثير رضائى
يشفى المريض وقد تردد شعره   عذبا، رقيقا، مطربا بغناء
ويعود يدعو أن إلى عذابيا   منك الحياة، رفيك كل رجائى



عبد الرحمن النشار

درة فن إسلامى تخرج من الكمون إلى السطوع

بقلم : صافى ناز كاظم

الهلال مايو ١٩٩٦



علاقة هندسية عضوية

●● أنا البحر فى أحشائه الدر كامن.. هذا جزء من بيت شعر قاله شاعر النيل حافظ ابراهيم يصف اللغة العربية، ودائما أردد هذا الجزء مع تعديل: أنا مصر فى أحشائها الدر كامن. هذا التعديل له وجهان: مديح لمصر وتألم بنفس الوقت لأن أعظم المبدعين فى مصر نجدهم فى طى كتمان وسائلنا الإعلامية. فبقع الضوء الإعلامى لدينا تحب أن تصل، فى غالب الأحيان، إلى



عبد الرحمن النشار

صورة شخصية للفنان

السهل، والسهل من المبدعين هم هؤلاء الذين يعرفون كيف تكون لديهم علاقات عامة جيدة. والنتيجة أن ما يظنه البعض أقطاب الفن والشعر والأدب، ليسوا فى الحقيقة سوى الجزء الصغير الواضح من بين طيات سحب الإهمال وضباب الجهل وغشاوة الكسل أو التعصب، التى تخفى الكثير والهام من كنوز مصر الإبداعية والثقافية، سواء منها المنتمية إلى أجيال ماضية أو المعاصرة التى تسعى بين أيدينا حية ترزق ●●

وحين تبتسم الصدفة وتسفر عن وجه من هؤلاء المبدعين الكامنين ونكتشف أننا عشنا معه تحت سماء مدينة واحدة ومرحلة واحدة، ومع ذلك لم نعرفه، ينتابنا مع فرحة الكشف واللقاء لسعات من الخزى وتأنيب الضمير. وهذا ما حدث لى بالضبط وأنا أدلف متجولة بين قاعات أخناتون فى مجمع الفنون بالزمالك أتأمل لوحات الفنان عبد الرحمن النشار - المولود فى ٢٣ أكتوبر ١٩٣٢ - وأتعرف لأول مرة على عالمه الفنى الثرى الخصب والباهر.

★★★

المعرض استمر منذ يوم افتتاحه ٢٨ فبراير حتى ١٨ مارس الماضيين. وسبب ذهابى مكالمة هاتفية من صديقتى الكاتبة زينب صادق التى قالت لى بطريقتها المختصرة

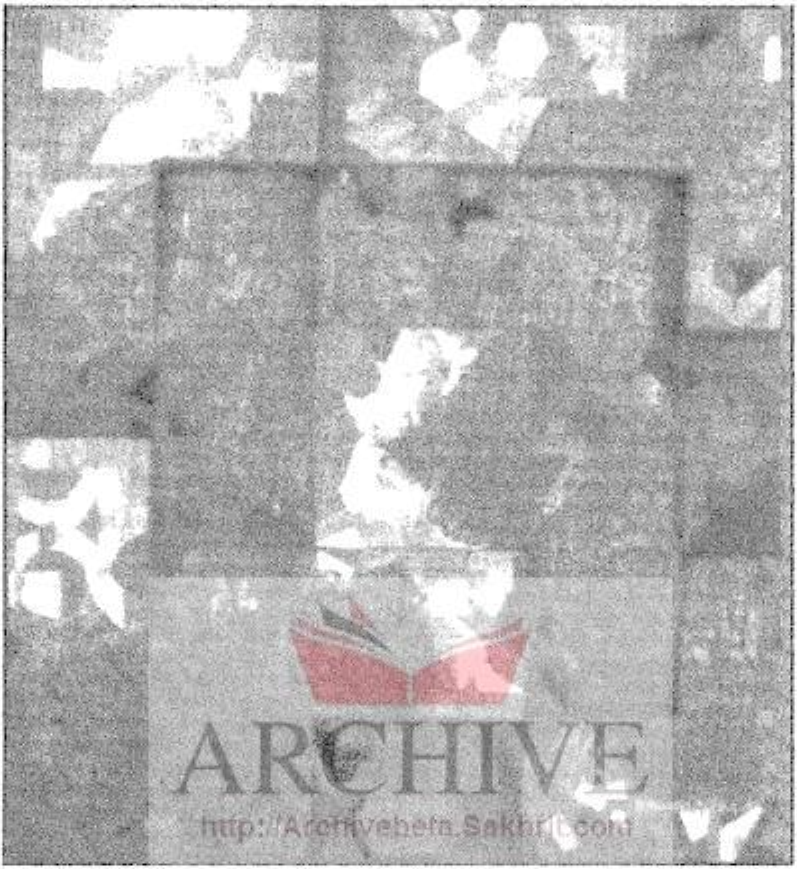
الحاسمة الخالية من التهليل: «هناك معرض مهم للفنان عبد الرحمن النشار، وسوف يعجبك. سنلتقى عنده غدا إن شاء الله» لم تلحظ زينب ان اسم النشار لم يدق جرسا فى أذني، ولم يهمها أن تعطيني الحيثيات التى على أساسها قررت وحددت أن المعرض سيعجبني، لكن كان لابد أن ألبى لأن زينب صادق لا تلقى الكلام على عواهنه، ثم هى تعرفنى جيدا وتعرف أننى يمكن أن آكل رأسها لو خاب أملى، لذلك هى لا تغامر بتوريط نفسها فى دعوة مثل هذه من دون تأكد كامل بأنها تأخذنى إلى مرتع فنى ترتاح فيه نفسى المتعبة.

وأنا ألتقى بزينب لنخطو سويا نحو معرض النشار لم يكن بوسعي أن أتكهن بشئ فنظرة الجدية على وجه زينب، التى قاربت أن تصل حد الجهامة لم تستطع أن تعطينى سوى مؤشرات بأهمية ما نحن بصدده.

★★★

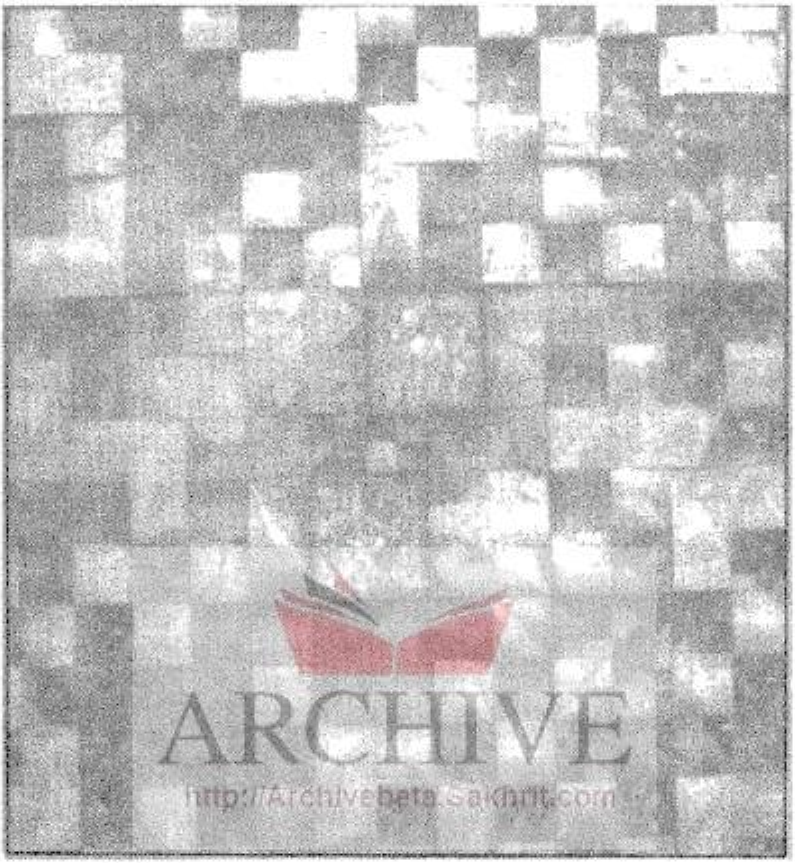
قاعات أخناتون، قاعات مريحة تعطى الأعمال حقها كاملا. من الوهلة الأولى شعرت بوهج يحوطنى: جديد وأليف، مبتكر وموغل فى العراقة. نظرت إلى زينب متهللة الوجه فابتسمت وجلست ملامحها مرتاحة وتبادلنا الطمأنة: «شكرا يازينب!»، «الحمد لله جات سليمة ياصافى!». وتركت اللوحات تخاطبنى عبر مفرداتها الخاصة التى لا تكون الكلمات وأحرفها جزءا منها، رصدت فى نفسى الإحساس بالطرب، وتملكتنى حالة جياشة بالرضاء والإنتماء والتواصل. وأخيرا يعود الفن التجريدى إلى موطنه الأصلى: «الرؤية الإسلامية». خاض الفنان الرائد منير كنعان معركة التنقيب وها هو ذا الطريق يعبد ويجده الفنان النشار ساحة عليها يتألق كفنان مسلم معاصر يعيد فى عفوية متناهية توظيف وحدات الفن الإسلامي الشائعة ليقول هو والوحدات والفن: أنا حضارة ١٥ قرنا، أمتد واستمر محتضنة كل الحضارات ضمن إطارى.

سبعون لوحة موزعة بين القاعات تلخص مشوار النشار من بداياته فى الستينات، مع التشخيص وبعض «الخطابة» - «إفريقيا البيضاء» ١٩٦٥، «الحرب والسلام» ١٩٦٦ - حتى مجموعة التسعينات التى تمثل قفزته العبقرية التى أخرجته من المحابس كلها مرفرفا فوق كل التجارب التى سعت لاستخراج فن إسلامى ومعاصر ليستقر على



علاقة هندسية عضوية

صياغته الفريدة لا يتماثل فيها مع أحد ولا يماثله أحد. تكوينات خشبية منحوتة ومتداخلة التركيب بين هابط وبارز ومستطيل ومربع، يعطى نهائية مربعة تبدو شبيهة بالوحدة الزخرفية الإسلامية التقليدية المطعمة بالصدف أو الخشب، لكن مع هذا الحرص على تثبيت التشابه هناك الفرار الواضح من قيد التقليد والتكرار والتنميط.. تعتنى النقوش «النشارية» بالألوان التى لها فى الوجدان الإسلامى تداعيات تتجمع من «المنمنمات» الفارسية والمغولية والتركية غير أنها لا تستدعى الوجوه التراثية لتلك المنمنمات فالنقوش



ملحمة الكون

حرة تختار المناسب من المفردات الفرعونية والأشورية والسومرية مطعمة بخامات من الجلد والذهب والمرايا. وتتراوح أحجام اللوحات بين ٥٠ × ٥٠سم متصاعدة إلى ٨٠ × ٨٠سم و ٩٠ × ٩٠سم ومتر × متر حتى تصل إلى حجم جداريتين رائعتين ٢٢٥ × ٢٢٥سم ويقتصر التعريف بكل لوحة بين : «ملحمة» و «منظومة» و «منظومة سحرية» و «علاقة عضوية هندسية».

* * *

عبد الرحمن النشار

ثورة الفهم لهذه اللوحات، هى ثورة الفهم للتجريد، تبدأ بمواجهة بصرية مع اللوحة وحين تنجح فى إقامة علاقة شعورية بها تختزن فى الوجدان حتى يصعّدها إلى إدراك عقلى، وهى ثورة مختلفة عن ثورة المجسدات والمجسمات والتشخيص. ويتدرب العقل الإسلامى على هذا الاستقبال التجريدى الذى يقوده إلى فهم المطلق وإدراك اللامتناهى والإيمان بالله سبحانه وتعالى إيمانا متخلصا من التصور والتحديد مهتديا بالتعريف القرآنى «ليس كمثله شىء».

ونستطيع أن نستكمل فهمنا لعودة الفنان عبد الرحمن النشار بالفن التجريدى من المتاهات المتغربة إلى موطنه الأصلى: «الرؤية الإسلامية» من خلال كلماته التى تقول تحت عنوان «الضوء، التجريد، نور باطنى واستشراق للمطلق من الأصالة إلى التحديث» ما يلى: «تقترن هندسة الضوء فى بناء الأعمال الفنية لدى فنان الشرق، بإحساس المؤمن بالرهبة والورع والهدوء فى أن واحد لتكتسب مضمونا روحيا ... النور إشراق استبطانى غير ملموس، إدراك قلبى لتعاقب الحضور بصورة تبعث على الخشوع والتأمل، تسبيح بحمد الله غير المنظور يستوعب الحياة والإنسان والكون والوجود، إنه نور فطرى منبعث من القلب. وفى الفن، ينتشر مسار النور الذى يضفى بريقه فى تنوع رحب لا نهائى وتتلاشى بؤر التمركز من خلال سطوح تخطف الضوء وتعكسه فى إشراق باطنى وتلألؤ روحانى. ضوئيات تنبثق من أغوار الأشياء، تتخطى مصادر التأثيرات الضوئية العارضة متحررة من المظاهر المادية للمفهوم الفزيائى للضوء إلى نور هو : روح البصيرة. المطلق واللانهائى، إيمان عميق وهدف تصبو إليه وتتحرك نحوه الحياة ليتوارى العرضى والعابر والحظى ويتأكد الثابت واليقينى والخالد. إنه استشعار لما هو فوق الحسى... المجرد فى الفن منطق جمالى ومنطلق تعبيرى يتحدد وفق استجابات لمطالب روحية... موروث الثقافة بأبعاد جذورها المحلية والتراثية، علاقة موصولة الحلقات فى تواصل التاريخ وتأكيد الهوية وتأصيل الإبداع. فالتراث باعتباره ماضى الحاضر وطبيعة سريانه فى شرايين حياة الفرد، عامل مهم فى جعل الفن يتخطى هوة العدم ... ورب سائل يقول :

إلى أين يتجه الطريق ؟... وأجيب إنني فنان عابد له. أتجه بالوانى من الخطوط والألوان فى داب وتبجيل، أصلى له، وبالصبر والمثابرة وبالمجاهدة والرجا.. وايمانى بالخالق الواحد الأحد، أن أنطلق من حيث انتهيت....»

عبدالرحمن النشار

● مواليد القاهرة ١٩٣٢

● أستاذ التصوير ورئيس قسم التعبير الفنى بكلية التربية الفنية، جامعة حلوان. ووكيل الكلية للدراسات العليا سابقا.

● دبلوم كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٥٦، دبلوم المعهد العالى للتربية الفنية ١٩٥٧، منحة التفرغ من وزارة الثقافة ٦٨ - ١٩٦٩، دبلوم أكاديمية الفنون الجميلة بودابست ١٩٧٠، دكتوراه الفلسفة فى التربية الفنية تخصص تصوير - جامعة حلوان ١٩٧٨.

● عضو جماعة المحور.

● الأمين العام لنقابة الفنون التشكيلية سابقا.

● أقام العديد من المعارض بداية من عام ١٩٦٠ بمتحف الفن الحديث بالقاهرة، وتوالت بعدها معارضه فى أتيليه الإسكندرية ١٩٦١، متحف الفن الحديث بالقاهرة ١٩٦٣، قاعة أخناتون ١٩٦٥، أتيليه القاهرة ١٩٦٧، قاعة الإتحاد الإشتراكى بودابست ١٩٧٠، قاعة أخناتون ١٩٧١، أتيليه القاهرة ١٩٧٥، واشنطن العاصمة ١٩٧٦، المركز الثقافى الألمانى بالقاهرة ١٩٨٠، قاعة أخناتون ١٩٨٧، ومعرضه هذا الأخير بقاعة أخناتون ١٩٩٦. هذا مع مشاركات أخرى فى معارض جماعية بين أعوام ١٩٨١ - ١٩٩٤.

● وقد حصل على العديد من الجوائز أهمها: جائزة التصوير الأولى - صالون القاهرة ١٩٦٨ عن لوحة مأساة القدس، وجائزة الدولة التشجيعية في التصوير ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٠. ثم جائزة التصوير الأولى بينالى القاهرة الدولى الرابع ١٩٩٤.

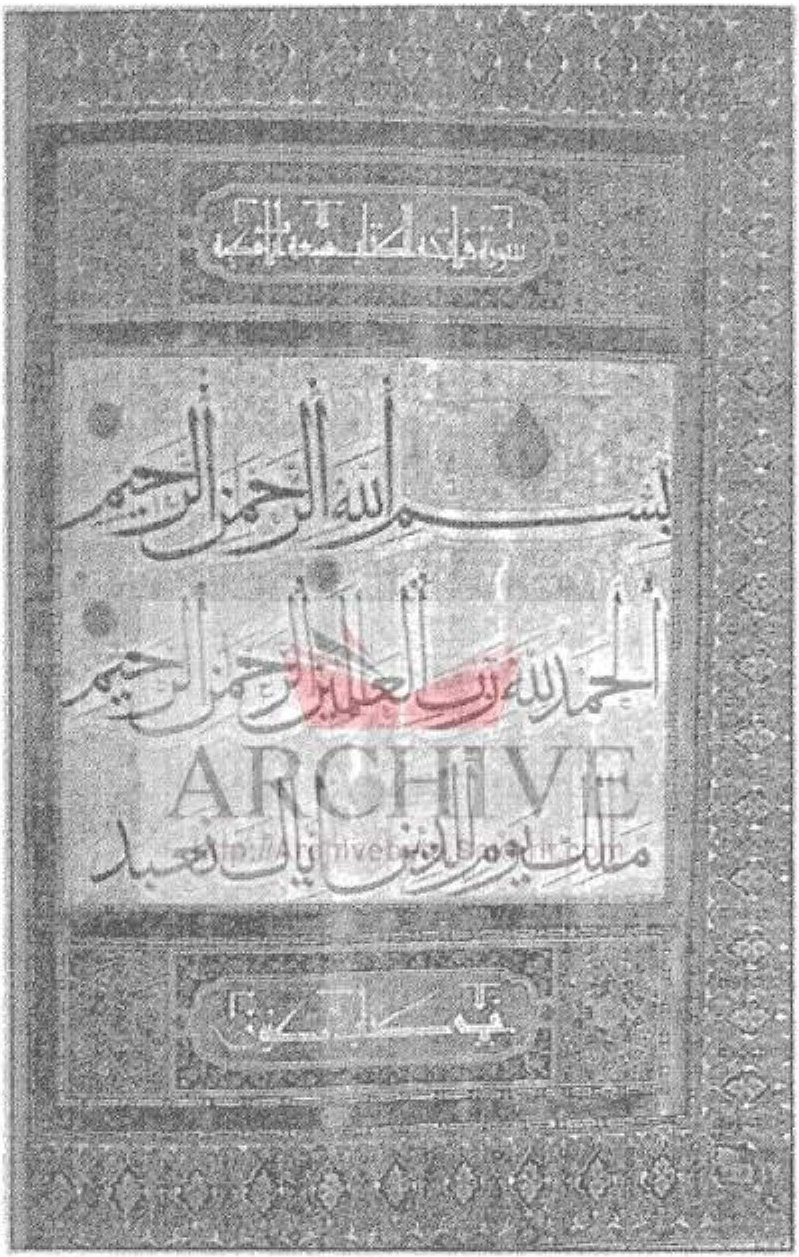
هل حان الوقت لجمع المخطوطات العربية من كل أنحاء العالم ؟!

بقلم : د. أيمن فؤاد سيد

●● المخطوطات العربية هى السجل الحافل للإنتاج الفكرى والأدبى والعلمى للأمة الإسلامية على امتداد أربعة عشر قرناً . وما وصل إلينا منها يعد نزراً قليلا مما أنتجه علماء المسلمين فى كل مجالات المعرفة، والذى نتعرف عليه من خلال فهارس مخطوطات المكتبات المعروفة والجهود الضخمة لعلماء من أمثال كارل بروكلمان وفؤاد سزجين ومؤسسات مثل معهد المخطوطات العربية ومؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ●●

يبلغ حجم المخطوطات العربية فى مكتبات العالم تبعا لتقدير العلماء المختصين نحو ثلاثة ملايين مخطوط ، بينها النسخ المكررة وغير ذات القيمة والحديثة . أما المخطوطات المعتبرة بين هذا الكم فتصل إلى نحو نصف مليون مخطوط .

وتبلغ المخطوطات العربية والشرقية فى مصر نحو ١٢٥ ألف مخطوط وهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد مجموعة مخطوطات تركيا . أما مجموعة دار الكتب فتبلغ نحو ستين ألف مخطوط تعد من أقيم وأنفس المجموعات العالمية بتنوع موضوعاتها وبخطوطها المنسوبة وقيمتها العلمية والمادية، وبوفرة عدد ضخم من المصاحف الشريفة والربعات وبعضها على الرق يرجع أقدمها إلى عام ٧٧هـ وهو مصحف منسوب إلى الإمام الحسن البصرى (ضمن مجموعة طلعت برقم ٥٠ مصاحف)، بالإضافة إلى مجموعة نادرة



فاتحة الكتاب بخط كوفى مشرقى مزخرف تمت كتابته عام ٧٧٠ هـ

من المصاحف المملوكية التى أوقفها سلاطين المماليك على مدارسهم التى أنشأوها فى القاهرة والتى نقلت إلى الدار فى نهاية القرن الماضى، وكذلك مجموعة نادرة من المخطوطات الفارسية المزينة بالصور «المنمنمات» وبماء الذهب وبالألوان البديعة .

مخطوطات دار الكتب المصرية

وتمتلك دار الكتب المصرية واحدة من أكمل وأندر مجموعات المخطوطات الشرقية فى العالم ، وتتوزع هذه المجموعة على الرصيد العام للدار وعلى عدد من المكتبات الملحقة. وتوجد فهارس غير كاملة تعرف بهذا الرصيد العام ولكنها لاتغطى كل مقتنيات الدار وبالتالى لاتقدم فكرة واضحة عن هذه المقتنيات وخاصة فى حالة البحث باسم المؤلف .

ومن هذا المنطلق كان أول ما تم التفكير فيه فى «مشروع تطوير دار الكتب» الذى بدأته فى مايو ١٩٩٢ ، هو بناء نظام معلومات للمخطوطات العربية والإسلامية وإعداد قاعدة بيانات كاملة تعرف بهذا الرصيد المهم ، قمت بتحديد عناصرها والبيانات اللازمة للباحثين الذين سيستخدمونها، وذلك بالتعاون مع مشروع التراث الحضارى بمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار برئاسة مجلس الوزراء فى مصر والذى قام متخصصون فيه فى علم الحاسبات والبرامج بإعداد وبناء البرنامج المناسب لهذه المتطلبات .

وستوفر هذه القاعدة التى تعد الأولى من نوعها عند اكتمالها تعريفاً كاملا بمخطوطات دار الكتب وأوصافها المادية وتحقيقا لعناوينها، وستضع لأول مرة تحت أيدى الباحثين بيانات ببليوجرافية كاملة عن مؤلفى هذه الكتب وعما نشر منها سواء فى طبعات علمية محققة أو نشرات تجارية، وهى خدمة علمية ستوفر جهداً ووقتاً كبيراً للباحثين .

وعند إتمام هذه القاعدة سيتمكن المستفيدون منها من استرجاع بيانات عن مخطوطات دار الكتب عن طريق :

- العنوان أو العناوين البديلة أو العناوين التى اشتهر بها الكتاب مع الإحالة إلى الشروح والذيول الخاصة بالكتاب أو اختصاراته، أو عن طريق استدعاء كلمة واحدة فى عنوان الكتاب .
- اسم المؤلف أو كنيته أو لقبه أو نسبته أو كلمة فى اسم المؤلف . ومعرفة قائمة بمؤلفات المؤلف المطلوب والموجودة فى القاعدة .
- الفن أو الموضوع وتفريعاته.
- تاريخ النسخ .
- أسماء النساخ .
- المصاحف الشريفة .
- الإجازات العلمية .
- أسماء المحققين أو الناشرين للمخطوطات الموجودة فى القاعدة وسبق نشرها .

وحتى تخرج القاعدة بأسلوب علمى

دقيق فإن ذلك تطلب توفر فريق من الباحثين يتولون البحث في المصادر والمراجع لتحقيق عناوين المخطوطات وأسماء مؤلفيها وتوثيقها ، وملء نماذج البيانات التي أعدت بعناية فائقة تمهيداً لإدخالها على الحاسب الآلي ثم مراجعتها وتدقيقها مما يعطي للقاعدة قدراً كبيراً من الجودة والتميز .

وحتى نتمكن من تقديم حصر علمي دقيق لمقتنيات دار الكتب من المخطوطات الشرقية فإنه تتم مراجعة بيانات المخطوط من خلال :

١ - سجلات التزويد وتحديد تاريخ إضافة المخطوط لرصيد الدار إن عرف .

٢ - الفهارس المطبوعة لرصيد الدار أو المكتبات الملحقة .

٣ - مطابقة ذلك على الرف .

وعند إتمام هذا العمل ستكون لدينا أول بيانات كاملة ودقيقة لمخطوطات دار الكتب عن طريق معرفة :

١ - عدد العناوين .

٢ - عدد النسخ (أرقام الحفظ) .

٣ - عدد المجلدات .

٤ - المجاميع ومحتوياتها .

وفي سبيل تنفيذ المشروع تم تجهيز غرفتين، واحدة لإعداد النماذج وواحدة لإدخال بيانات النماذج على الحاسب الآلي وجهزت بالمعدات والنظم والإجراءات التي تكفل سهولة ودقة سير العمل . كما تم تدريب العاملين بدار الكتب لتنمية قدراتهم في إعداد نماذج البيانات كما سيتم تدريبهم على تشغيل هذا النظام المتطور .

وفي خلال عام وحتى ١١ أغسطس ١٩٩٣ وهو تاريخ تشميع مخزن المخطوطات لأسباب أمنية ، تم إنجاز الآتي :

١ - فيما يخص الرصيد العام :

- تم إدخال بيانات ٢٧,٠٠٠ رقم حفظ روجع منها مراجعة نهائية على الرفوف ٣٥٠٠ ، ويحتاج الباقي ، وهو ٢٣,٥٠٠ رقم حفظ أن يراجع مراجعة نهائية على الرفوف .

٢ - فيما يخص رصيد المكتبات الملحقة :

- تم إدخال بيانات عدد أرقام الحفظ الآتية وكلها مراجعة نهائية على الرفوف .

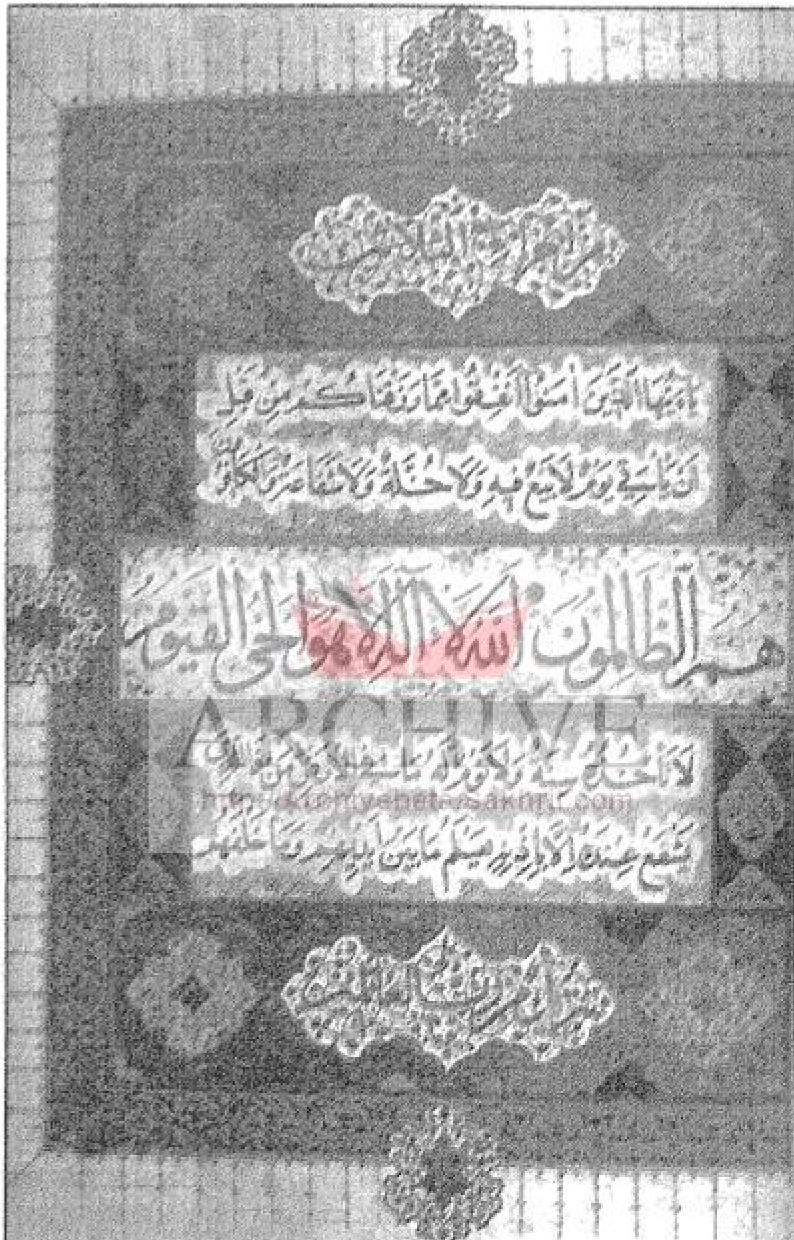
- المكتبة التيمورية ٨٦٩٥ رقم حفظ .

- مكتبة طلعت ١٣٥٧ رقم حفظ .

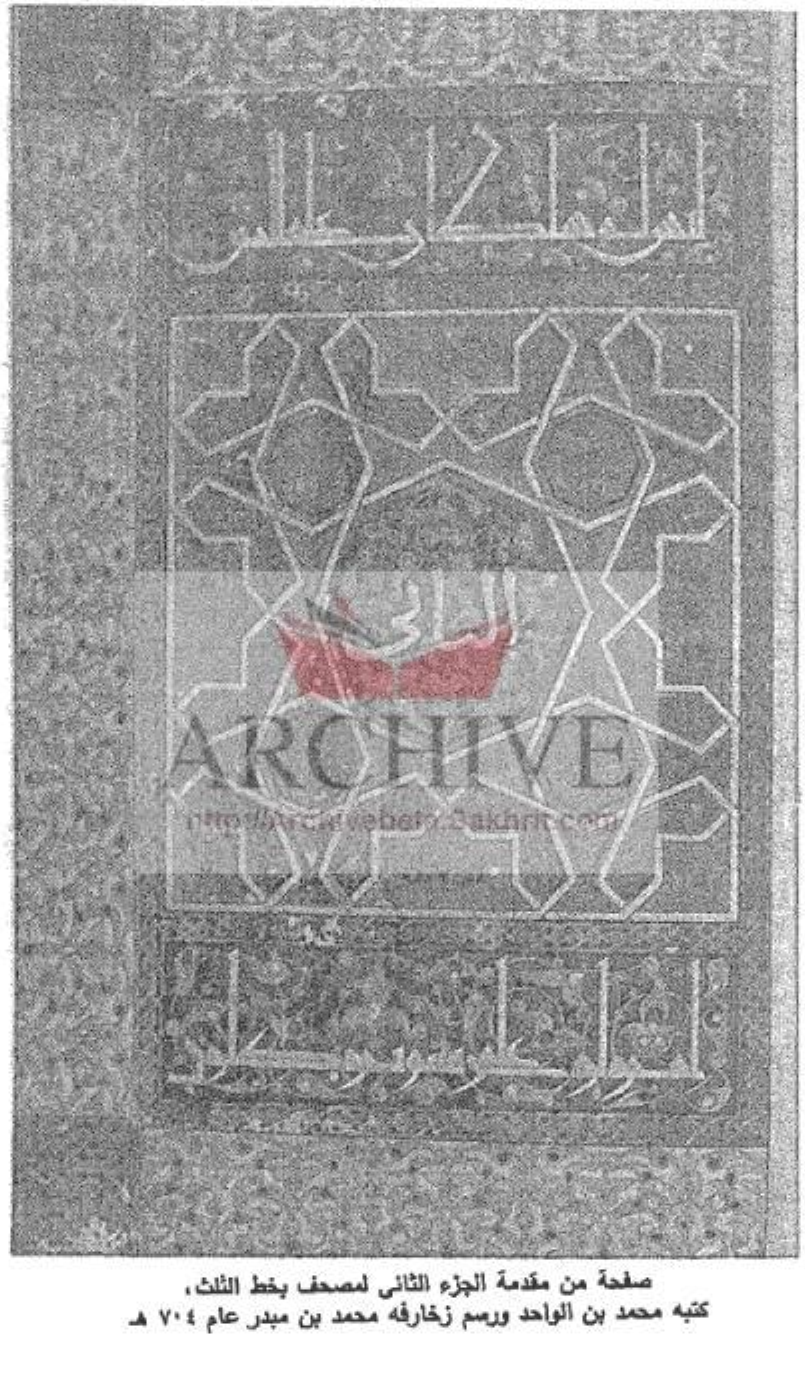
- مكتبة حليم ٤٥ رقم حفظ.

- المكتبة الزكية ٩ أرقام حفظ.

يكون المجموع الإجمالي لعدد أرقام الحفظ الموجودة في قاعدة البيانات ٢٧,١٠٦ رقم حفظ تم مراجعة ١٣,٦٠٦ رقم حفظ من بينها ، ويبقى للمراجعة ٢٣,٥٠٠ رقم حفظ بالإضافة إلى بقية الرصيد الذي لم يدخل القاعدة والذي يحتاج إلى إعداد النماذج الخاصة به ثم مراجعتها على السجلات والرف ثم إدخالها في القاعدة .



صفحة من مصحف مكتوبة بخط النسخ مع سطر بالثلث
كتبه زين العابدين بن محمد الشيرازى عام ٨٨٨ هـ



صفحة من مقدمة الجزء الثاني لمصحف بخط الثلث،
كتبه محمد بن الواحد ورسم زخارفه محمد بن مبدر عام ٧٠٤ هـ



صفحة من مصحف بالخط النسخي بعنوان الآية وعددها
بخط الثلث المذهب كتبه على بن البواب ، ببغداد عام ٣٩١هـ

قواعد الوصف المطبقة

تشتمل القواعد المطبقة فى توصيف المخطوطات الموجودة فى القاعدة على :

١ - تحقيق عنوان الكتاب من: «الفهرست» لابن النديم و «كشف الظنون» لحاجى خليفة و«ذيله» لإسماعيل باشا البغدادى.

٢ - تحقيق أسماء المؤلفين لتشتمل على اللقب والكنية والاسم والنسبة وتاريخى الميلاد والوفاة مع الإحالة على كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلى وكتاب «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة وكتاب «تاريخ الأدب العربى» لكارل بروكلمان وكتاب «تاريخ التراث العربى» لفؤاد سزجين فيما يخص المؤلفين الذين عاشوا قبل عام ١٤٣٠هـ .

٣ - فاتحة المخطوط وخاتمته.

٤ - الوصف المادى للمخطوط وبيان نوع الورق ونوع الخط وما به من آثار رطوبة أو أرضة وعدد الأوراق ، وإذا كان بالمخطوط أية صور ومنمنمات .

٥ - ذكر ما على صفحة غلاف المخطوط من الإجازات والتملكات والسماعات والوقفيات، وما جاء فى نهايته (Colophone) محدداً لاسم الناسخ وتاريخ النسخ.

٦ - تحديد ما إذا كان المخطوط أصلى أو مصورا أو منسوخا عن نسخة موثقة أو بخط المؤلف أو قرىء على المؤلف .. إلخ.

نواتج المشروع وإتاحتها

عند استكمال بناء القاعدة ستوفر فى قاعة المخطوطات لاستخدام المترددين وفى الأماكن التى يجب أن توجد فيها (مكاتب المسئولين - قاعات أخرى) ، كما يمكن للمشتركين الدخول على القاعدة فى نهايات طرفية تحدد طريقة استخدامها والاشتراك فيها ، كما يمكن بيع المنتج النهائى CD-ROM للمكتبات والأفراد الذين يريدون صورة من قاعدة البيانات.

علما بأنه عند إتمام هذا العمل العلمى الكبير ستتحقق لأول مرة أول قاعدة بيانات آلية للمخطوطات العربية فى مصر تضم بيانات أكثر من ٥٠٠٠٠ عنوان و ٧٠٠٠ مؤلف محققة ومراجعة ، ويمكن الإضافة إليها فيما بعد فيما يخص بيانات بقية المخطوطات الموجودة فى مكتبات مصر والتى تقدر بنحو ٦٠٠٠٠ مخطوط (الأزهر - بلدية الإسكندرية - جامعة القاهرة - المعهد الدينى بدمياط - الجامع الأحمدى بطنطا - دمنهور - مكتبة البلدية بالمنصورة - مكتبة البلدية بشبين الكوم - مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج وغيرها كثير) . كما يمكن من خلالها بعد ذلك الوصول إلى «الفهرس الشامل للمخطوطات العربية فى العالم» من خلال إضافة بيانات وأوصاف المخطوطات الأخرى الموجودة فى المكتبات العالمية وهو هدف يجب أن نسعى إليه .

ممنوع من السفر

قصة قصيرة

بقلم : شوقى عبد الحميد   بريشة : سميحة حسنين

(سألوا القمر : كيف تضىء وأنت صخرة صماء ، وكتلة من ضباب ؟! فلم تحرهم جواب)

ثمة شباك غير مرئية قد حوطتنى ، فلا فكاك ، انغرست نظراتها فى عينى فانخلعت روابط قلبى وراح يرتجف كطير ذبيح ، تيبست عضلاتى وتسمرت حركاتى

على الرغم من عشقى للجمال فى كل أنثى ، إلا أن ما انغرس فى القلب ليس بعشق ، إنه ارتباط، جاذبية أقوى من أن تقاوم ، شىء ما يذيبنى ويحلل كيانى ، شىء ثقيل الوقع قوى التأثير ينصب فى نفسى وفى جسمى ، يسرى بطيئا دوارا فى العروق



فيزيح خدرا قد ران عليها مددا قد طالت بطول العمر، إن ما يحدث لا يمكن أن يكون ابن اللحظة ، لقد نبت فى سحيق الأيام ، ربما قبل أن أولد، توقفت حركة الزمن أمام إشعاع أنثوى متسلط، رغم الملامح الدقيقة البريئة فى وجهها، فى استدارته ونضارته ضوء القمر المفروش على أرض الشوارع الطينية فى قريتنا، فى سواد شعرها، سمرة النيل المتدفق فى مساقى



ممنوع من السفر



الفيطان بعد التشقق واللهفة، فى هدوء ملامحها صمت أبو الهول فى وقاره الأبدى، لا يبدو على وجهها أى أثر للمساحيق، ضوء طبيعى فى عينيها يشع حميمة متدفقة لتربط وجودى بوجودها، ارتعشت شفتها السفلى فى لاارادية بعد دهر من العناق والتلاقى، تصاعدت فى وجودى أمواج التوق الصخابة، فكرت فى انتزاع وردة من أمامها أقدمها اليها بدلا من جواز السفر، وجدتنى أفكر فى أن تكون ملهمة لقصتى الجديدة، من اسمها ورسمها تتفجر ينابيع الحب وتتفتح أزهار الحياة، لابد أن يكون اسمها فواحا بالنغم مثلما رسمها ضاغط بالمستعذب من الألم.

تجسد لها فى نومها، رأته رأى العين، نبض الوجود بشرى، شاب مكتمل الوسامة، ينضح جسده بفورة الشباب، أطال النظر فى عينيها فامتد حديث دون حديث، ابتسم لها، وجدت نفسها منجذبة اليه، استسلمت فى خضوع أنثوى طفولى بين ذراعيه راح يداعب خصلات شعرها المنسابة على كتفيها، سرى دفء متناغم وخدر فى عروقها، همس بالكلمة التى طالما تمنت سماعها، شعرت بذوبان وجودها، احتوتها الدنيا بذراعيه، تنبهت الى كثير الأحلام فى يقظتها، لم تستطع أن تفتح عينيها على آخرها، فقد كان النور يغمر الحجرة، أخبرتها أمها أن الضوء قد غمر الكون.

همسة حانية خدشت طرف وعى: الباسبور همست بأعذب موسيقى دغدغت وجوده.. تنبهت أن المسافة بين يدى وبينها قد امتدت عشرات الأميال.

وما أن لامست جوازى حتى خيلت وجودى قد انسحب اليها، لم أشأ أن أمزق تلك الخيوط اللامرئية، أيكون القدر قد ساقها تجربة عملية ؟! ربما.. إلا أن بحثا عن دليل جديد يمكن أن يفيد فى كلمتى

بـالمؤتمـر، لـم يـكـن بالحسبان، إلا أن الحب دائمـا قـدر يصـيب الانسان على غير توقع ، تلك حالة أعيشها وزاد جديد أحمله كآخر ما أحمل من أشيائي الى المؤتمر ، انبثاق الجذور في أرضها الطبيعية ، « الحب كطاقة فاعلة في الأدب العربي » موضوع كلمتي في المؤتمر ، وهل هناك طاقة أكبر من تلك التي تحركني الآن .

(سألوا الشمس : كيف تبعثين الدفء في الشتاء وأنت قطعة من لهيب خلف السحاب ؟ فلم تحرهم جواب)

لابد أن الجالس الى جوارها قد لاحظ شيئا أو قرأ شيئا على صفحة وجهي ، اكتشفت تحديقه في وعلامات التساؤل ترتسم على وجهه ، منقار صقر حاد المخالب تتأهب للانقضاض على فرخ حمام أخضر يتعثر في خطوه ، محركات الطائرات في الخارج تمزق سكون الهواء وتحرك كوامن الشجن والوله ، رغم ما قد أصبح يربطني بالأرض ، ليتني أستطيع اصطحابها معي فأستطيع التغلب على الجاذبية الأرضية ، حتى لو لم تكن هناك طائرات ، فلنذهب سيرا على الأقدام ، بل سعيا ، كم تكون المسافة قريبة ان نحن أخذناها جريا ، ظل ابتسامة خجول تترقرق على ثغرها تزيد اشتعال الوهج في الجوانح، تنبهت أن مسار يدي ليس باتجاهها ، داريت خجلا وأسرعت بالجواز نحوها .

لم يكن شريف إلا مجرد زميل جديد على القسم ، وكان عليها أن تحيطه ببعض جوانب العمل التي عليه أن يتولاها نيابة عنها بعد أن ارتقت درجة جديدة في سلمها ، شعرت أنه كان يطيل النظر في عينيها ، عيناه كانتا تقولان ما حاولت مقاومته ، في البداية قاومت ذلك الذي يساورها نحو ما تقوله عيناه ، وعندما استراحت لذلك الإحساس ، ابتسمت أعماقها دون أن تشعره بشيء ، شعرت في ذلك اليوم أنها كانت لاتزال تعيش الحلم ، وراحت تعقد المقارنات بين الشخصين حتى تطابقا .

راحت تقلب صفحات الباسبور بأناملها الرقيقة وكأنها تقلب صفحات وجودي ، تتوقف عند الاسم، تمنيت أن أقول أن هذا اسمي ، وهذا عنواني وأني ذاهب الى مؤتمر ..... تداعب أصابعها الرقيقة أزرار الكمبيوتر أمامها ، تستطلع الشاشة أمامها بجوار مجموعة الورود

ممنوع من السفر

الطبيعية الفواحة ، تقرأ شيئا عليه ، تعاود النظر فى الجواز ، من جديد تضغط على أزرار الكمبيوتر ، من جديد تنظر الى الشاشة ، تغير ما طرأ على وجهها ، تستدعي الجالس الى جوارها ، قلق كدبيب النمل يداعب أطراف وجودى يضغط أزرار الكمبيوتر القابع أمامها ، يطالع الشاشة ، يهمس اليها ببعض الكلمات ، تتجه إليّ من جديد ، تبدلت المعاني في النظرات ، غراب ينعق على رأس شجرة ، فتهرع أمي لتحوط على أفراخها الخضر ،



اكتسى وجهها الملائكى مسحة قلق مشوب بالحزن الشفيف ، شعرت بترددها قبل أن تهمس : أسبق أن كانت لك قضية ما ؟

اندلع البرق فى سماء شتوى عاصف على ليل القرية ، أى نوع من القضايا تعنى ؟!

– قضية .. لم يسبق لى حتى دخول قسم البوليس .. إلا .. لاستخراج البطاقة واستخراج جواز السفر.

– ألك نشاط محظور؟

– ولا حتى غير محظور .. ليس لى نشاط إلا عملى.

– إذن .. لماذا ..

– ما الحكاية ؟

أهناك شيء؟

– أنا آسفة .. أنت ممنوع من السفر .

ربما أكثر من مائة طائرة كانت قد بدأت ادارة محركاتها دفعة واحدة ، صخب المحركات يطن فى تجاويف عقلى ويرعش أفكارى ، لم أتبين على وجه الدقة ماذا قالت، أسترجع كلماتها : ماذا ، ماذا قلت ؟

– أنت ممنوع من السفر.

خوف مطمور تحت ركام الأيام ينفجر من القلب فتهب أدخنة تعمى النظر ، شع الدفء فى جحر الحية فهبت مشرعة ذنبها في كل ما ينبض ، فتصاعدت مرارة الصبار على ثدى أمي يوم أرادت لى الفطام فنضح صدا وحنينا ، تناقضت كل الأسماء مع مدلولاتها ،

لم يعــــد أي حُسْنٍ في الحسن ، ولا شيء عدل في فـعل عــادل ، تفككت أوصال الجسد وانحلت روابطه ، أصــرت الروح على الهروب بعيدا غير عابئة بتشبثاتي ، اندفع قطار العمر وطفح رشح الأيام .

– لابد أن هناك خطأ ما .

لست موقنا إن كنت قد قلت ذاك أم أن صوتي المتحـاش يومـا عن الخروج قد مارس معي لعبته ، عدلت من وضع الشاشة تجاهي مشيرة الى الاسم عليه .

– نعم .. هو اسمي ، نصـر عـادل حـسن ، مصري الجنسية ، منوفي الميلاد ولكن لابد أن شيئًا ما خطأ ، ربما تشابه في الأسمـاء ، لم يسبق لي أن اتهمت في أي قضية ، وليست لي أي قـضـيـة منظورة في المحاكم ، لم يسبق لي الاشتـراك في أي مظاهرة ، أيكون أحد الوشـاة قد زج باسمي في شيء ؟!

لم يكن الحصول على مـوافـقـة الجـريدة بالاشتـراك في المؤتمر بالشيء الهين ، معركة شرسة تلك التي خرجت منها بالموافقة ، قدمت أوراقي وشفعت سوابق أعمـالي ، بحث وسـهـر وتعب ، فـقـط أحـبـبـت عملي، عشقت الصحافة ، رضيتها لي زوجة وأسرة، آمنت أن الحب عطاء ، والعمل بالحب أفضل عطاء ، آمنت أن الحب يصنع المعجزات ، رأيت الحب طريق الإجـادة ، ولما كان الآخرون يؤدون الواجب ، أيقنت أن هناك اختلافا ، لم أسع لاثبات أحـقـيـتي ، ولم تكن الموافقة مفاجأة لي ، رغم أنهـا كـانت مـفـاجـأة للآخـرين . لكن .. لماذا ممنوع من السفر ؟

رغم أني كنت مقتنعا بما كانت تقوم من أجله مظاهرات الطلبـة ، إلا أنـي لـم أكـن أرى أن المظاهرات هي الطريقة المثلى ، ورغم بعض الانتـقـادات التي كنت أضمنها بعض كتاباتي بالجـريدة ، إلا أنني لم أكن أصل الى درجـة الخطر ، كـان الصـالح هدفي ، فلماذا ممنوع من السفر ؟!

طلبت مني الانتظار لعـرض الأمـر على المسئولين .

ولم تكن تدري أنه يتسرب الى وجودها بهذه النعومة القاسية ، حاولت أن تتهرب من أحاسيسها فكانت تستبين أنه ينغمس الى قاع وجودها ، آلمها أنهـا لم تعـد تتنفس إلا برئتـيـه ولا تشـعـر إلا بوجـوده ، فـأصـبح حضوره ضاغطا وغيابه قـاهرا ، إلا أنهـا لم تستـسلم لفكرة البـدء بالبـوح ، عليهـا فقط أن

ممنوع من السفر

تمنحه الفرصة ، أن تضيء الشمعة وتدعه يخطو ، وعندها لن تمانع ولن تقاوم ، فقط عليه أن يبدأ .

(سألوا الأرض : كيف تنبت عليك الزهور والخضرة . وأنت حبلى باللهيب تحت التراب ؟ فلم تحرهم جواب)

الأمر لا يمكن إلا أن يكون مجرد تشابه في الأسماء ، ولكن ما الوسيلة لإثبات ذلك الآن، الآن فقط ، إنها أول مرة أحلق فيها في الأعالي ، لم يسبق لي ركوب طائرة من أي نوع ، الانفتاح على العالم الخارجي ، الاحتكاك بالآخرين عرض وجهة نظري في أحب الموضوعات الى نفسي كيف يمكن أن ينهار الحلم في اللحظة الأخيرة



إقلاع الطائرة لم يعد بيني وبينه إلا لحظات .. لماذا يا أبي اخترت لي هذا الاسم ؟ الآن فقط أشعر أنه لم يكن اسما بقدر ما كان إثما .. سامحك الله يا أبي ، أي نصر كنت تعنيه والهزيمة والانسحاق يزعزعان كياني .

– كان يحب ركوب التيار .

قالت أمي وقد اعتصرتها المرارة .

– كان كل شيء يسمى كذلك عندما أتيت، شارع النصر ، ميدان النصر ، بحيرة النصر ، شركة النصر .. وكان يطمح في الكثير ، كان ينظر الى أعلى من قامته، ولم يكن يفكر إلا في ذاته، وكم كان يعتصرني الألم وأنت تصرخ من الجوع بعد أن أرغمني على وضع الصبار على ثديي عندما أراد فطامك ولم تتجاوز بعد الشهور ، فلم يكن يريد لثديي أن يترهل .

لم أقل لأمي أني أعلم ذلك يا أمي وأشعر بثقله الضاغط على أنفاسي ، يوم أن فكر في ملاعبتي، لم يجعل من نفسه حمارا أمتطيه مثلما يفعل الآباء، بل تخيلني أنا الحمار وهم بامتطائي بلحمه المترهل ، يومها صرخت يا أمي ، خفت أن يقتلني ثقله ، ورغم ذلك أحببته ، ألم يكن أبي ، إلا تلك

اللطمة على وجهي – مازلت أشعر بوقعها – يوم أن بكيت ليأخذني في سفره الى القاهرة ، كنت أريد أن أركب القطار ، كنت أريد أن أرى القاهرة .

طنين المحركات يحطم رأسي ، عشرات الطائرات تحلق فوق البناية .

قبل ذلك لم تكن تحب النوم، بل كانت تتهرب منه ، لا تبحث عنه إلا إن بحث عنها ، كثيرا ما كانت تستيقظ مفزوعة أو متألمة أو باكية ، وكم فزعت أمها كي توقظها من نومها بعد أن يكون صوت صراخها أو بكائها قد جاوز الحجرة ، إلا أن الأمر اختلف ، أصبح النوم موعد اللقاء ، موعد الأمل الذي طالما انتظرته، استلقت على سريرها باحثة عنه ، وكم تحولت أحلامها حقيقة حتى أصبحت تنتظر في الحقيقة ما قد رأته في المنام ، تداخلت عندها العوالم حتى لم تعد تميز أيهما الذي يحدث ، الحلم أم الحقيقة .. سألتها أمها يوما عما إذا كانت تسير وهي نائمة ، أم نائمة وهي تسير ؟ انخلع قلبها لرنين التليفون المفاجيء ، انتشلها من ذلك القرار الفارقة فيه ، ترددت في رفع السماعة لم تسارع أمها في التقاط التليفون كما اعتادت ، ترددت أصداء أنات التليفون ، أمها لا ترد ، في خدر لاإرادي رفعت سماعة التليفون ، لم تنطق بكلمة ، سمعت صوته على الجانب الآخر، لم تصدق أنه هو،



اعتذر لاضطراره الاتصال ، ولكن الأمر عاجل ، أخبرها أن اعتذارا لابد أن يقدمه لها لعدم تمكنه من الحضور الى العمل صباح الغد ، تحتم عليه الذهاب لإنهاء بعض اجراءات السفر لمرافقة زوجته ، لا تذكر أنها نطقت شيئا ، ولم تتبين أحقيقة وضعت السماعة في مكانها أم لا ؟.

أصوات محركات الطائرات تتزايد في مظاهرة صاخبة والوقت يمر بطيئا .. بطيئا ..

أجهدت نفسها في الوقوف على الحد الفاصل بين الحقيقة والحلم .. أكان حلما ما حدث أم أنها حقيقة ، كل ما تذكره أنها هذه المرة لم تبك ولم تصرخ ، فقط شعرت أن دمعتين تدحرجتا الى أسفل حتى لامستا شفتها العليا وأن لهما مذاق الملح .

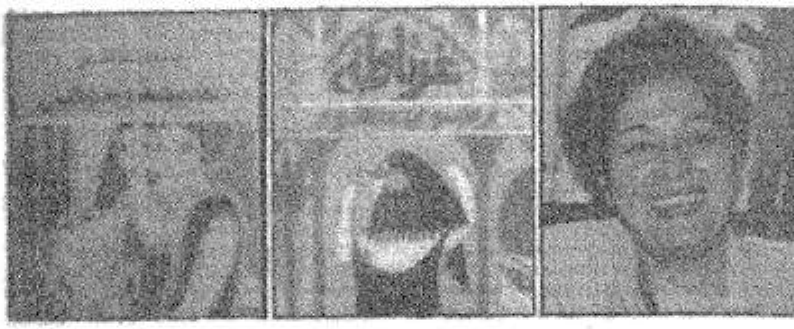
ثلاثية غرناطة

تأليف الدكتورة رضوى عاشور

عرض وتعليق: د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

ثمة خيط رفيع بين التاريخ history وبين القصة story ولو أن التاريخ يقوم على حقائق ثابتة لابد للكاتب أن يلتزم بسياقها دون أن يسرح الخيال بعيدا باستثناء ما يعمد اليه من إعادة تركيب الأحداث وتحريك الأشخاص واستبطان تفكيرهم ودوافعهم. والمؤرخ لابد له من الالتزام بمنهج صارم يفرض عليه ألا يقحم نفسه كطرف فى العرض إلا بمقدار ما يكفى لاسترجاع ما سبق حدوثه دون إمعان فى الخيال ، وقد يختلف مؤرخ عن آخر حسب نوعية المادة التاريخية التى يستقيها من مظانها الفعلية ومدى تمرسه فى علم التاريخ وقدرته على استرجاع الأحداث وقت حدوثها .

وثمة صلة بين الأدب والتاريخ بحسب أسلوب المؤرخ الذى نستشف من كتابته مدى ثقافته وتمرسه فى الكتابة – فهناك من يملك ناصية اللغة والكتابة بأسلوب شيق يختلف عن ذلك النوع من السرد الذى يبعث على الملل . وفى مصر الحديثة اكتسب بعض المؤرخين شهرتهم نتيجة لدقتهم العملية وأساليبهم الجذابة – ومن هؤلاء محمد شفيق غربال وطه حسين ومحمد حسين هيكل واضرابهم ممن اختلفوا عمن عمدوا إلى حشد الأحداث وكأنهم يرصون أحجارا غير متناسقة دون إطار فنى – هذا فى الوقت الذى لمع فيه كتاب آخرون فى كتابة القصص التاريخية التى هى أحيانا أكثر جاذبية من التاريخ التقليدى – ومن هؤلاء كاتبنا الكبير نجيب



رضوى عاشور

محفوظ الذى أولع بالتاريخ منذ شبابه المبكر فألف «كفاح طيبة» و«رادوبيس» وغير ذلك ثم مالبث أن دلف إلى القصص الطويلة التى اختلط فيها خياله بأحداث حقيقية ولعل من أبرز أعماله الثلاثية التى تناولت بعض قطاعات المجتمع المصرى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ التى كانت من أبرز معالم تاريخ مصر المعاصر . أما توفيق الحكيم وقد كتب قصة «عودة الروح» التى بدا فيها حسه الوطنى واستلهامه لمصر القديمة التى كانت قد غطت عليها التبعية الطويلة للحكم الأجنبى الذى تغيرت خلاله دياناتها ولذاتها أكثر من مرة ـ وقد عبر عن ذلك بتتبعه للثوابت فى تاريخ مصر عبر العصور برغم التغيرات التى طرأت عليها بحيث بقيت للبلاد استمرارية تراثها الشعبى وبعض عاداتها وأفكارها القديمة التى كانت تحفظ ملامح شخصيتها وتتجلى فى انتفاضاتها ضد الحكم الأجنبى ، وهكذا بدأت تبرز فى مصر القصص التاريخية التى تختلف عن النماذج الفولكلورية التقليدية التى نمت فى الفكر المصرى عبر العصور غرناطة وبقصص الحكيم ومحفوظ بدأت مصر إسهامها فى القص التاريخى الذى يضاهى مايقابله فى الآداب الغربية التى برز فيها كتاب كبار من أمثال ليوتولستوى فى روسيا وتشارلز ديكنز وغيرهما فى إنجلترا ـ وهكذا

● حضارة الإسلام في الأندلس

قد اتحفتنا الدكتورة رضوى عاشور مؤخرا بثلاثيتها التى استوحت فيها الفترة التاريخية التى تلت سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ فى أيدى الأسبان الذين لايزالون يعتبرون ذلك «استردادا» بعد القضاء على الحكم الإسلامى الذى استمر لعدة قرون أسهم خلالها المسلمون فى صنع الحضارة التى مالبث أن أثارت لأوروبا بعض بدايات نهضتها الحديثة ، وقد عانى المسلمون فى أعقاب سقوط غرناطة ضغوطاً كثيرة

انتهت بطردهم أو تغيير دينهم وذلك نتيجة للإجراءات العنيفة التي اتبعها المتنصرون الذين مالبثوا أن عمدوا إلى التخلص من كل ماهو عربي ـ إسلامي بأساليب غير حضارية ، وقد رجعت الدكتورة رضوى إلى بعض المؤلفات العربية والإنجليزية والفرنسية التي تتناول الفترة الزمنية التي شكلت إطارا للأحداث التي روتها مما أضفى على ثلاثيتها طلاوة ناتجة عن خلط التاريخ بالأحداث التي ترويها قصتها في تسلسل مزجت فيه ما حدث بخيالها الروائي ونفسها الطويل بحيث ترابطت الأحداث وتسلسلت في أسلوب جذاب وحبكة فنية رائعة .

ولقد أثرى التزام المؤلفة بالإطار التاريخي عرضها وجعله ينبض بالحياة وخاصة فيما يتعلق بالعناء الذي لحق بالمسلمين بعد سقوط غرناطة ، ورغم ذلك فقد كان الملكان الكاثوليكيان (فرديناند وإيزابلا) لايمانعان في البداية في بقاء المسلمين في أراضيهم ومواصلتهم العمل في المدن وذلك حرصا منهما على الإبقاء على شبكات الري والأسواق وغير ذلك ومن ثم فإن العهد الجديد قد تعهد بعدم المساس بالمنشآت الدينية الإسلامية والمؤسسات الاقتصادية التي تتولى الإنفاق عليها ، كما بقي الأذان للصلاة في غرناطة في الوقت الذي تعهد فيه «الملكان الكاثوليكيان» بوجوب تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين وأمرا بتخفيف الضرائب وإبداء الاحترام الشديد للحقوق الشخصية وحرمة المنازل واحترام الملكية الخاصة والمحافظة على الإدارة المحلية في الوقت الذي جرى فيه التنبيه على المسيحيين بعدم دخول المساجد دون إذن ، وكل ذلك في مقابل احترام المسلمين للسلطة الجديدة واعترافهم بسلطة الملكية الكاثوليكية ، ورغم ذلك فمالبث التاج أن شجع الهجرة إلى شمالي إفريقيا في الوقت الذي جرى فيه عرض الديانة الكاثوليكية على المسلمين، وكان هذا التحول في السياسة الأسبانية الرسمية راجعا إلى تعصب بعض رجال السلطة المسيحية وحصول المسلمين على حلفاء أقوياء في الدولة العثمانية التي مالبثت أن برزت باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية التي استولت على الشام ومصر وشرقي أوروبا ووصلت إلى شمالي أفريقيا وأنزلت أسطولا مرهوب الجانب في البحر المتوسط الذي احتل فيه البحارة المسلمون مواقع مهمة تهدد الملاحة الأسبانية ، وكان البحارة المسلمون الذين اعترفوا بتبعيتهم للدولة العثمانية التي رعت نشاطهم قد أخذوا ينقلون المهاجرين المسلمين من الأندلس بعد أن ألمهم خروجهم من بلادهم ومن ثم تحولهم إلي الجهاد وبخاصة بعد ظهور قيادة محنكة لهم تمثلت في الأخوة برباروسا الذين قام أشهرهم خير الدين بحملات موفقة على الشواطىء الأسبانية التي دب في سكانها الرعب ، وبمرور الزمن فرض على من تبقى من المسلمين في غرناطة أن يسلموا أسلحتهم وحظر عليهم الاتصال بإخوتهم المقيمين على الجانب الآخر من الحدود .

● قهر المسلمين فى أسبانيا!

ولقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إمعان التاج فى تنصير المسلمين مما أدى إلى «ستياء من تبقى منهم ورفعهم لواء الثورة منذ البداية فى عامى ١٤٩٩ و١٥٠٢ ثم بعد ذلك ، وعرض التاج على الجماعة الإسلامية أن على كل من يرغبون فى مبارحة أسبانيا أن يسلموا أبناءهم الذين تقل أعمارهم عن ١٤ سنة والبنات اللاتى تقل أعمارهن عن ١٢ سنة .

وعلى حين أن غالبية المسلمين اضطروا إلى التخلى عن ديانتهم بسبب صعوبة الحياة فى شمال أفريقيا فإن الغرناطيين طلبوا مساعدة إخوتهم فى الدين فى الشرق وبخاصة من جانب الدولة العثمانية خاصة وأنه على أثر سقوط غرناطة حرم استعمال الحمام العام والاحتفال بالزواج والختان والمحافظة سرا على تناول الطعام على الطريقة الإسلامية ، كما حرم ارتداء الملابس التى لا يرتديها المسيحيون القدامى، وفى عام ١٥١٤ صدر أمر يقضى بأن يجرى زواج المسلمين على الطريقة المسيحية وأن يتجنبوا تسخين الحمامات فى أيام الجمعة وأن يفتحوا أبواب بيوتهم فى أيام معينة وأن يقصوا شعورهم على الطريقة المسيحية وأن تكف نساؤهم عن ارتداء الحجاب وأن يكفوا هم عن الاحتفال بالأعياد وحفلات الزواج على الطريقة الإسلامية ، وحولت المساجد إلى كنائس وأرغم المسلمون الذين تنصروا على حضور الصلوات المسيحية ، وفى عام ١٥٢٥ صدر أمر قضى بأن يطرد من أسبانيا كل المسلمين باستثناء العبيد ، وكان من أسباب هذه الاجراءات المتشددة الخوف من أن ينضم بقايا المسلمين إلى أعداء التاج و «قراصنة» شمال أفريقيا والعثمانيين بالاضافة إلى البروتستانت وأن تقوم جميع هذه الأطراف بتهديد أسبانيا داخليا وخارجيا ، وكان على رأس قائمة الأخطاء الاجتماعية التى اتهم بها المسلمون ملابسهم ولغتهم خاصة أن نساء من تحولوا إلى المسيحية وسكان الأرياف ظللن ، لأسباب اجتماعية واقتصادية يرتدين ملابس المسلمين فى الوقت الذى كان فيه المسلمون السابقون قد فقدوا القدرة على التحدث باللغة العربية وأصبحوا عاجزين عن نطق لهجة قشتالة على الوجه الصحيح وكان أغلبهم لايزالون متمسكين بالعادات الغذائية الإسلامية فلا يأكلون لحم الخنزير ولايشربون النبيذ ، وفى النهاية أصدر فيليب الثالث فى عام ١٦٠٩ أمره بطرد بقايا المسلمين وأشرف مندوبو التاج على هجرة حوالى ٢٧٥,٠٠٠ من بقايا المسلمين من مجموع أعدادهم التى بلغت ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وقبل ذلك صدر فى عام ١٥٦٧ قانون يستهدف التخلص النهائى من الاختلافات القائمة بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد ، ونص هذا القانون على إنهاء التكلم باللغة العربية وقراءتها خلال ثلاث سنوات وإلغاء كل العقود المكتوبة بالعربية وفحص الكتب المكتوبة بها للتأكد من عدم احتوائها على مايمس العقيدة المسيحية ،

وحرم القانون الطلاق والزواج الرسمي وتوقيع العقاب على من لا يلبون ذلك الأمر.

● ثورة المسلمين

وإزاء كل ذلك قام بقايا المسلمين في غرناطة في عام ١٥٦٨ بالثورة ضد ما اعتبروه حملة جديدة تستهدف فرض التماثل الثقافي ، وأعلن الثوار بدء عصر جديد تسوده الفضيلة في ظل الإسلام ثم طلبوا من مسلمي حي البايسين في غرناطة أن يرفعوا لواء الثورة ضد ظالميهم، وتسربت أنباء الثورة إلى منطقة البشارات حيث انضم سكان الجبال إلى صفوف الثوار ، ورغم قلة أهمية ثورة بقايا المسلمين من الناحية العسكرية فإن عنفها كان يدل على الهوة الثقافية التي كانت تفصل بين الشعبين ، وفي إبان الثورة أعدم رجال الدين المسيحيون المنتمون إلى أسر كانت مسلمة ودمرت الكنائس وأبدى الثوار عدم احترامهم للمسيحية الكاثوليكية وقتل الأسرى الذين بيع بعضهم في أسواق النخاسة ، ورد رجال الدين المسيحيون بتنفيذ حكم الإعدام في الرهائن المسلمين واستولوا على أملاك من تحولوا إلى المسيحية ، ولم تستمر ثورة البايسين فترة طويلة خاصة وأن أسبانيا قد أصبحت بعد طرد المسلمين في طليعة الدول الأوروبية من الوجهة العسكرية بحيث لم تجد صعوبة في سحق الثورة خاصة أن نسيج المجتمع الإسلامي كان قد تمزق نتيجة الضغوط التي تعرض لها من تبقى من المسلمين الذين انهارت معنوياتهم بالتدريج بحيث لم يبق لهم سوى أمل واحد في الخلاص من أوضاعهم السيئة ـ فقد ابتهجوا حين وصلتهم أخبار تحطم الأسطول الأسباني الذي أعد لغزو بريطانيا البروتستانتية. وتبرز المؤلفة بأسلوب واقعي مدى ظلم الإنسان للإنسان، وتذكر على لسان حاج مسلم إلى القدس أن بها نصارى من أهل البلاد ويتساءل عن السبب في فرض التنصير على المسلمين ، وفي موضع آخر تستعرض المؤلفة بعض نشاطات محاكم التفتيش ذات السمعة السيئة وتروى اتهام «سليمة» بالسحر ومصادقة الشياطين واضطرار المسلمين أن يخبئوا كتبهم في أماكن سرية حتى لاتكون مثار اتهام لمن تضبط معه . وروت أن المحققين حاولوا إثبات ارتداد سليمة وأنها رغم التعميد الذي فرض عليها ، كما فرض على من لم يبارح أسبانيا من المسلمين ، كانت لاتزال تدين بالإسلام وتعترف بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بحيث كانت عقوبتها الموت حرقا . وتصور المؤلفة مدى سرور مسلمي الأندلس حين وصلتهم أنباء تحطيم «الأرمادا» الأسبانية التي أعدت لغزو بريطانيا ولو أن ذلك كان ناتجا عن بسالة الإنجليز والدفاع عن بلادهم في الوقت الذي هبت فيه ريح صرصر عاتية لعبت دورها في ارتداد قوات الغزو الأسبانية . وصورت المؤلفة مدى تعلق بقية مسلمي غرناطة بالأمل في أن يساعدهم الأتراك والفرنسيون في تشكيل حلف ضد أعدائهم المشتركين في الوقت الذي نشبت فيه الثورة في

البشارات وأخذ المسلمون يجمعون مايستطيعون من المال والسلاح ويرسلونه سرا إلى الثوار وداعبهم الأمل في قيام حلف مشترك يضم الأتراك (١) والفرنسيين والإنجليز وغيرهم من البروتستانت ضد أسبانيا .

● تطابق مع السياق التاريخي

وبين هذا وذاك تعرض المؤلفة لتفاصيل بعض الأحداث المهمة بشكل يكاد يتطابق مع السياق التاريخي ومن ذلك تصويرها لدى سرور مسلمي الأندلس حيث وصلتهم أنباء هزيمة الأرمادا .

كما أن واقعيتها جعلتها تمعن في وصف شوارع ومعالم مدينة غرناطة القديمة وكأنها زارتها وتجولت في أحيائها، وكذلك الحال بالنسبة إلى العادات والتقاليد السائدة في المدينة حتى بعد سقوطها في أيدي الأعداء ، أضف إلى ذلك عرضها لمعاناة المسلمين تحت الحكم المسيحي وألوان المظالم التي حلت بهم إلى أن أرغموا على الهجرة أو تغيير دينهم وعاداتهم .

وفي مواضع تصور المؤلفة مأساة من بقوا في أسبانيا مضطرين في ظل الإجراءات المشددة التي اتخذتها حكومة المتنصرين ، وخضوع بقايا المسلمين للتشتت والرقابة والتفرقة العنصرية وتظاهرهم بما لايؤمنون به وإخفاء هويتهم بحيث أصبحت لهم شخصية مزدوجة وقد بدا ذلك في سلوك مريمة التي اضطرت إلى البقاء . والتخلي عن كل ماهو عزيز لديها وشأنها في ذلك شأن من تعرضوا لظروف مشابهة سواء أكانوا من أبناء فلسطين أو من البوسنيين والشيشان وقبلهم الهنود الحمر الذي أبيدوا على أيدي الغزاة الأجانب الذين وفدوا إلى بلادهم بعد كشف الأمريكتين ، فهل يعني هذا أن التاريخ يعيد نفسه وأن الويل للمغلوب ؟ وتتساءل المؤلفة عن العلاقة بين وجه المسيح الشاحب والرأس المائل بتاج الشوك وما كان يتحمله بقايا المسلمين من عذاب وعن الرابطة التي تربط الجسد العاري النحيل لمسيح تبكيه أمه **بالأسياد وملاك الأرض والضرائب والمكوس والملل وديوان التحقيق ؟ وهل معنى ذلك أن رسالات الأديان قد غطت عليها الشهوات والأحقاد والأنانية ؟ إن الأمل الذي يتراءي لنا بعد مطالعة ثلاثية الدكتورة رضوي هو بزوغ عصر جديد تخفف فيها الشعوب من أحقادها وتضغط علي أطماعها وتتعاون مع غيرها في سبيل إسعاد الإنسان أينما يكون - فهل هذا ببعيد ؟!**

---

(١) عثرت على وثيقة بريطانية تحتوى على خطاب من الملكة اليزابيث إلى السلطان العثمانى تطلب منه أن يساعدها فى مواجهة القوات الأسبانية التى تصدت لغزو بريطانيا وأشارت إلى أن الأتراك موحدون شأنهم شأن الإنجليز وأن هؤلاء أقرب إلى الله من كاثوليك أسبانيا ، ولم يتمخض هذا العرض عن شىء بسبب مشاغل الدولة العثمانية وبعد المسافة بينها وبين إنجلترا .

الهلال

فى العدد القادم

قراءة فى كف مصر والعالم
فى القرن الحادى والعشرين

عدد خاص يصدره الهلال
يشارك فى تحريره نخبة من كبار المفكرين والكتاب

- مصر فى القرن الحادى والعشرين — د . رشدى سعيد
- جدول أعمال القرن الحادى والعشرين
  التعليم والحرية والتطوير العلمى — د . محمد عبد الفتاح القصاص
- الكيانات الضعيفة لا مكان لها فى القرن القادم
  د . اسماعيل صبرى عبد الله
- البصمة الوراثية والمستقبل — د . أحمد مستجير
- علم الإنسان فى عالم متغير — د . أحمد أبو زيد
- العالم فى القرن القادم ثورة ونظام — د . عبد المنعم تليمه

فى العدد القادم

التكوين : يكتبه الدكتور يحيى الجمل حول رحلته مع الثقافة منذ بداياته الأولى



عـــالـم
يشـــــار
كمـــال

قضية الهوية .. فى تركيا

بقلم : محمود قاسم

رغم ان المقاعد الوزارية قد تم توزيعها فى تركيا فى الأسابيع الأخيرة، فإنك بمجرد نظرة واحدة لنشرة الأخبار فى أى قناة تركية يمكنك أن تفهم أن المنافسات السياسية على أشدها.

وقد بدا ذلك واضحا فى النشاط المكثف الذى يقوم به أبناء كل القوى السياسية

ووسط هذا الفيضان من التغيير، والمنافسة، كان لابد من طرح السؤال التالى: وماذا عن دور الأدب فى هذا العالم؟ وهل صحيح أن أدباء تركيا يتفرجون على التغييرات دون إبداء أى رأى فى هذا الشأن..؟

بدت إجابة هذه الأسئلة وغيرها مبهمة، فرغم ان لدينا أقساما لتدريس اللغة التركية وآدابها فى الجامعات المصرية، ورغم وجود عدد كبير من الطلاب الأتراك يدرسون فى العديد من جامعاتنا، فإن كل هذا الوجود يبدو كأنه يمثل حائط انفصال أكثر منه أداة للاتصال.

وفى الأسابيع الأخيرة دخلت تركيا فى

دائرة أخرى من دوائر الاهتمام، عقب زيارة الرئيس سليمان ديميريل، والحديث عن أزمة المياه القادمة، ثم هناك حديث عن تحالفات جديدة، مما يدفع المرء أكثر للحديث عن نموذج من أدباء ذلك البلد؟

فجأة، اكتشفنا ان ما يكتب عن الأدباء الأتراك المعاصرين في بلد مثل فرنسا، وأيضا ما ترجم من هذا الأدب إلى لغات أوربا، يعادل أضعاف ما ينشر عن الإبداع التركي باللغة العربية . بل اننا في مصر لم نقترب كثيرا، من أدب عزيز نسيم، ويشار كمال، وآخرين..

ففي الأشهر الأخيرة، تسلطت الأضواء على يشار كمال، بمناسبة الحديث عن نمو الهوية الكردية في شمال العراق، وجنوب تركيا، ومحاولة خلق دولة مستقلة للأكراد. وذلك باعتبار انه كاتب كردي يحمل الجنسية التركية، وأكدت الصحافة الأدبية الفرنسية ان يشار كمال من المنادين بانفصال المنطقة الكردية عن تركيا، منذ أن نشر روايته الأولى «محمد الهزيل» عام ١٩٥٦. ثم بعد أن تم حبسه لعدة أشهر عقب ان نشر مقالا في مجلة «ديرشبيجل» الألمانية ناصر فيها الحركة الانفصالية التركية.

ففي العام الماضي ، وقف يشار كمال في ساحة محكمة أمن الدولة بأنقرة، وقال أمام القاضي : «أنا لا أقبل سوى محاكمات الشعب . الشعب والوطن. وليس المحاكمات الاستثنائية»، وسرعان ما سأله القاضي : هل تسير على منوال اميل زولا؟

فرد يشار كمال : لا طبعا . لقد عاش زولا في نهاية القرن التاسع عشر. أما أنا فأدافع عن الحرية، في نهاية القرن العشرين.

وكان القاضي، بالطبع يقصد دفاع زولا عن الضابط دريفوس، ليس باعتباره متهما بريئا قدر أن يمثل هوية قومية جعلت من الاتهامات تلقى عليه ظلما.

● أسطورة الآخرين

لا شك ان ما حدث قد أحدث الكثير من ردود الفعل المحلية، خاصة لدى الانفصاليين الاكراد وراح هؤلاء يرددون عبارات الكاتب في المحكمة باعتبارها من الأقاويل المقدسة. فقد حاول يشار كمال الا يخسر قراءه الأتراك الذين اعتبروه واحداً منهم، يعبر عن معاناتهم، ويعيش بينهم دون أن تتنامى لديه، في الظاهر، مسألة الحس القومي الكردي الذي تعاظم في السنوات الأخيرة.

ولذا فان يشار كمال سرعان ما أعلن انه قصد بموقفه انه يحمل على الحكومات التركية المتعاقبة مواقفها ضد أبناء الشعب من الأتراك والأكراد معا. «سبعون عاما من القهر، والقهر الحكومي ضد الشعبين

عالم يشار كمال

التـركي والكردي». ثم أضـاف : «لقـد أصبحت الجمهورية التركية نظاما لايطاق بالمرة».

يشار كمال هو أحد أدباء تركيا المعاصرين الذين لم تتم ترجمتهم جيداً في اللغة العربية، رغم ان بعض أعماله مترجمة لدى دور النشر اللبنانية. فإنها لم تصل إلى القارىء في مصر. وهو مولود عام ١٩٢٢ في منطقة «سيليسي» الكردية، حيث تسود زراعة القطن، وحيث يسيطر الاقطاعيون على مقدرات الحياة اليومية للفلاحين.

وحسب مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» فإن يشار «واسمه الحقيقي هو كمال صادق جو كشيلي، قد فقد عينه اليمنى، وهو في الثالثة من عمره على يد خاله في عيد الأضحى. وكان في الرابعة من عمره عندما مات أبوه بأزمة قلبية أثناء صلاته في المسجد. فعرف اليتم وتعلم البكاء والألم في سن مبكرة.

وتقع الأرض التي ولد فيها الكاتب بين مرتفعات طاروس والبحر المتوسط، وإلى هذه المنطقة وفدت قوميات عديدة من التركمان والمغول والقوقاز، وينتمي كمال إلى قبيلة كردية بها الأغنياء والفقراء والمحاربون، والخارجون على القانون، وقد أحس الكاتب الذي عاش طفولته بين هذا العالم ان قلبه بمثابة مسرح مأساوي تهب عليه رياح التاريخ والعرقية، والمذابح. وقد رأى أحد أعمامه يموت على أيدي رجال الشرطة وقتل العم الآخر في احدى المعارك. ودخل الكثير من أبناء الأسرة السجن، ويقول انه شاهد كيف يموت الرجال في كبرياء. وكيف ينسج الآخرون اسطورة يتردد صداها من بيت لآخر.

وشاهد الصغير المطربين يأتون لغناء أناشيد البطولة في داره، ومن هؤلاء تعلم كيف يكون الشعر جميلا، فبدأ يقرأ الياذة هوميروس. وتعلم الغناء مثل المطربين، فاستمع إليه الآخرون، واستعذبوا صوته، وكلماته، وصار شاعراً وهو في الثامنة من عمره. خاصة بعد ان اكتشف سحر الحروف الهجائية.

كان يشار يعمل في المساء في مصنع لحلج الأقطان. وفي النهار يقرأ الروايات، وتوقف عند رواية «الفشيل» للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه، وذلك من خلال ابن الكاتب الذي جاء إلى القرية الصغيرة التي يسكن فيها يشار، وأقام مصنعا للحلج. وقد عرف من شارل دوديه ان أباه كان مغرما بالحكايات الشرقية.

أما التجربة المهمة في حياة الكاتب فهي رحيله لأول مرة عن قريته، ووصوله إلى ساحل البحر المتوسط، فقد بهره منظر البحر، وقرر ألا يبتعد عنه، فظل يصادق الصيادين الذين أوحوا له بالكثير

من القصص: «كم أنا في حاجة لمعرفتهم من أجل الكتابة».

● أرضي .. كانت مسرحا لطروادة

وفي حياة يشار محطات بعينها غيرت حياته، منها قراءته لرواية «دون كيشوت». فهي العمل الأساسي الذي دفعه لكتابة الرواية: «في تلك الآونة، وفي نفس الوقت الذي كنت أجمع فيه أعمال وأساطير عن مرتفعات طاروس، كنت أقرأ كل مايقع بين يدي من أعمال هوميروس، والأدب الاغريقي، وكتابات ناظم حكمت. وأعجبت كثيراً بـ«معطف جوجول» .. الذي ظل بالنسبة لي أحد النماذج الأدبية التي يحتذى بها. وأعجبني أسلوب بلزاك وتولستوي، ودستويفسكي، وخليلي ستندال. ولم أتوقف عن القراءة والكتابة».

في هذا الايقاع من الحياة، مارس يشار العديد من المهن الصغيرة. وكلما توقف عن العمل لجأ إلى التأليف. حتى آلته الكاتبة لم يكن يبخل بكتابة خطابات الفلاحين عليها. وراح يجمع القصص الشعبية الشفهية من هؤلاء الفلاحين، ويعيد صياغاتها. وفي عام ١٩٥٦ نشر روايته الأولى «محمد الهزيل». والتي كشفت عن مواجهة بين الاغا (رئيس القرية)، وبين طفل صغير يرفض أن يعيش محني الرأس. وأهم ما في الرواية هو المنطقة التي تدور فيها الأحداث، انها منطقته التي عاش فيها، التي تفوح منها رائحة النعناع، ويأتي إليها صائدو الغزلان، «كم أنا فخور بأرضي التي كانت مسرحا لحرب طروادة. ولا ننسى ان أبناء قريتي قد ساعدوا سكان طروادة بجيادهم. ولا ننسى أننا في ظل الحكم الاشوري كنا ندفع فدية قدرها ٣٦٠ حصانا أصيلا كل عام».

وقد سببت له الرواية الأولى الكثير من المتاعب، فتم القبض عليه، وإيداعه السجن، وضاعت الرواية بين أروقة السلطات الرسمية. وعقب الافراج عنه، التحق بالعمل في الصحافة. وبدأت أحواله في التحسن فتزوج ابنة الطبيب الخاص السلطان عبدالحميد. وترجمت روايته «محمد الهزيل» إلى العديد من اللغات. ولكنها ظلت ممنوعة في تركيا حتى تغير النظام الحاكم فيها من الحزب الحاكم إلى التعددية. فانضم إلى حزب العمال: «السلطة والرقيب لا يتوقفان قط عن ضرب المفكرين ولذا فان تركيا لم تبلغ أبداً الديمقراطية الحقيقية».

وليشار كمال مجموعة من الروايات المهمة، منها «الركيزة» و«العشب لا يموت». و«سليمان الوحيد»، و«الطين»، و«قتل في سوق الحدادين». أما آخر رواية ترجمت له في الشهر الماضي إلى اللغة الفرنسية

فتحمل عنوان «طريق الدم».

محمد على بطل روايته الأولى أقرب فى صفاته، ورحلته إلى الكاتب نفسه، فقد ذهب إلى المدرسة وهو صبى لكنه لم يتوقف عن العمل من أجل كسب العيش لإطعام أسرته لكن المدرسة التى التحق بها تسيطر عليها مجموعة فاشية. ويهاجم الكاتب الديكتاتورية بكل أشكالها فى هذه الرواية.

جريمة قتل فى سوق الحدادين

وقد تجددت العلاقة بين الفلاحين الفقراء والسادة المستبدين فى روايته «قتل فى سوق الحدادين». وتدور الرواية فى إطار تاريخى، فى زمن انهيار الدولة العثمانية، وقيام نظام جديد على أنقاض الامبراطورية الزائلة. وفى هذه الاجواء تدور صراعات بين عائلتين من العائلات الكبرى. الأولى عائلة «الاكيولو» والثانية «عائلة السارى أوغلى» حيث يكره سادة هاتين العائلتين بعضهم البعض بشدة. ولذا فان الدماء هى لغة التفاهم الوحيدة بين الطرفين.

ولا أحد يعرف سبب هذا الصراع، ولا كيف نشأ، لكن كل ما يعرفونه انه لا أحد يطيق الآخر، مهما كان الثمن، ولذا فان الخصومة التى ولدت من حنايا الزمن، سوف تتنامى مع مرور الأيام، حتى يوم القيامة وتزداد حوادث الثأر يوما وراء يوم.

ويجد الفلاحون أنفسهم أداة القتل، فهم الذين عليهم إطاعة أوامر السادة، فيقومون بالثأر نيابة عنهم. وعليهم المغامرة من أجل راحة هؤلاء الاغاوات. وليس لأحد من الفلاحين أن يرفض ما يأمره به درويش أوغلى على سبيل المثال. فلماذا لايكون القتل أمراً سهلا طالما انك لا تفعل ذلك بنفسك. ولذا فان الأمر يبدو ثقيلا على هؤلاء الفلاحين الأبرياء: ملاذا لايقوم الاغا بقتله بنفسه. الشعب يرهق بعضه بعضا بعبء الانتقام يدرب الشباب الصاعد ليصبحوا قتلة فى سبيل السادة والبكوات. ولا شىء يحدث إلا من أجل هذا. اذهب واقتل بيديك يا مصطفى بك إذا كانت لديك الشجاعة أن تفعل هذا».

حتى المثقفون من هؤلاء السادة، عليهم الا يخرجوا عن النواميس التقليدية. ورغم ان درويش بك يحاول التمرد على هذه القوانين، فإنه يكتشف أنه لو فعل ذلك فسيخسر مكاسبه، ويحاول اقناع نفسه أنه بدون هذا القانون الظالم لن تسير الحياة، فعلى السيد أن يظل سيداً كى يستمر نفوذه، وعلى الفلاحين أن يطيعوا الأمر، ويلوثوا أياديهم بالدماء نيابة عن الكبار.

وفى هذه الرواية يدين الكاتب النظام

الاقطاعي، ثم الرأسمالية الوريثة له، فقد سيطر أبناؤه على الفلاحين، وعندما مر الزمن، أخذوهم معهم إلى أماكن جديدة، فاقتلعوهم من جذورهم من أجل تعبيد الطرق، فعلموهم قيادة الجرارات بدلا من حرث الأرض، وردموا البحيرات لإقامة المباني الجديدة، ولذا سرعان ما اختفت مجموعات الفراشات، والطيور الريفية، دلالة على الجدب الذى نما بتصاعد الأبنية العالية.

ويقول الكاتب، كما جاء فى الترجمة التى قام بها جاسم العيشى- عن جريدة لوموند ٤ أكتوبر ١٩٨١ : «الأغنياء الجدد هم المستفيدون من هذه الظاهرة الواسعة فى التدمير، والمعاصرة. هؤلاء الأغنياء هم غالبا من منشأ متواضع استطاعوا نتيجة التلاعب بالبشر والنقود أن يمتلكوا الأراضى وأصبحوا مستغلين، أكثر جشعا من الاقطاعيين القدامى الذين صاروا يتقاسمون السلطة معهم، من الآن فصاعداً هؤلاء السادة الجدد كانوا لا يبالون بالتقاليد القديمة، ولا يقيم نمط الحياة التى صارت تتلاشى شيئا فشيئا.

***

أما روايته «طريق الدم» فتدور أيضا فى نفس المنطقة الكردية . التى جعلها يشار كمال ديكوراً لكل أعماله. وفى نفس المراحل التاريخية. ونحن هنا أمام عائلة كردية ممزقة كان عليها أن تأوى إلى المرتفعات الجبلية فى شكوروفا عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

لقد مات الأب إسماعيل على يدى سلمان، أحد المتشردين، ويخاف ابنه الصغير مصطفى من أن يجيء دوره فى الموت. لأننا فى بلاد الثأر. التى يمكن لأى شخص أن يدفع برأسه من أجل انقاذ شرفه. أو أن يعيش فى العار والمهانة. ويجد مصطفى نفسه مطارداً من أشباح المجتمع، فعليه الانتقام يوما من هذا القاتل، بل عليه أن يصير مثل هؤلاء القتلة.

وتمتلىء الرواية بأحداث القتل، ويرى الكاتب ان كثرة الدماء تجعل القلوب الشفافة جافة، ولكن مصطفى يلجأ إلى مكان خيالى مليء بالطيور الصداحة، والفراشات، والغزلان، والجياد البرية.. انها نفس الكائنات التى حلم بها الكاتب وهو طفل.

ورغم ان يشار كمال قد عبر عن العنف الذى يتنامى فى هذه الأرض، فان مسألة نمو التيارات الانفصالية قد كشفت عن هوية الأرض، والناس الذين يعيشون هناك من خلال النماذج الأدبية التى صنعها الكاتب، ورغم انه لم يكن أبداً من دعاة الانفصال، أو تكوين قوميات صغيرة ذوات دولة، فان هذا لايمنع أن أبناء سيليسى، والأكراد بشكل عام يرون فيه داعيا انفصاليا، سواء شاء أم ابى .

مؤتمر اسكندرية الدولى للمسرح

أين العرب
فى مؤتمر المسرح بالإسكندرية ؟ !

بقلم: مهدى الحسينى

رأس مصر، المتطلع دوما نحو الشمال، يبغى لو استعاد مكانه الفذ على جبين الوطن، رافعا علما وفنارا، علم المعرفة، وفنار الثقافة والابداع والحضارة.

هذا الثغر.. الجميل رغم الأنواء والبلايا يود لو حافظ على اتساع بسمته وحلاوتها.. على انه مازال باسما. ولو أحتفظ باشراقة ولمعة جبينه رغم أثقال السحب، ويود لو ظل واثقا بنفسه وبمستقبله.. لانه موضع ثقتنا ومتنفسنا.

ظلال رمادية عتمت على محياه الفاتن من عشوائيات وفوضى وكبارى وانفاق، دمرت حدائق وذبحت اشجار وهدمت قصور عريقة وملت القمامة وعريت الاتربة وطمست البحيرة وتلوث البحر وضاع مذاق الطعام المختلفة، واختفى المستوطنون الضيوف اليونانيين والارمن والطليان والمالطيون والترك والصقالبة. لقد تريف الثغر وبهتت لهجة المدينة المستقرية المحببة وكانت تسم بميسمها كل ساكنيها.

هذا الثغر العميق العريق الساحر له مكان فى القلب وفى العين، إلا ان مرتبته الراقية مغروسة فى عقل الامة. أليس هو وطن المكتبة القديمة وتلك التى نحن فى شوق اليها؟

أليس هو وطن العلماء والفلاسفة؟ أليس هو وطن سلامة حجازى وسيد درويش وابراهيم فوزى وبيرم التونسى ومحمود سعيد وسيف وادهم وانلى ومحمود موسى.. ونخبة من رموز النهضة الابداعية والعلمية المصرية

الحديثة، أليس هو رأس مصر الذى ينظر ابدا نحو الشمال؟

سحابة حزن على وجه البشر

فى كل زيارة لى للثغر الجميل احس سحابة من الحزن والفقد تعلق بخواطرى، ألمظها على وجه البشر، رءوس مطرقة وعيون يشوبها الأسى ثمة قيود خفية تعوق التحقق، وأماد للطموح، وحدود للفخر، الاسكندرية الرائعة لم تعد الاسكندرية الأروع!! فمن هذا الذى هزم المدينة العريقة؟ أى جيش سباها وفى اى موقعة؟ ومتى؟ ومن هذا الشرير الذى بث فى صفوف اهلها خيبة الأمل؟

ومتى يدق القدم ويستقيم القوام وترتفع الذراع وتختال الكتف ويشرئب العنق ويسمق الرأس ويحتد البصر؟ هناك أمل ألا وهو الوعى الناشب الجديد.

معذرة تلك خواطرى داهمتنى رغم سعادتى - اثناء مشاركتى باحثا ومداخلا فى مؤتمر الاسكندرية الدولى الأول لقضايا المسرح العربى الذى نظمه قسم المسرح بكلية الآداب جامعة الاسكندرية فى الفترة من ٢٧ مارس - يوم المسرح العالمى - حتى ٣١ مارس سنة ١٩٩٦، وقد انتظم ٦ محاور الاول عن أعلام المسرح العربى والثانى عن الاصالة والحداثة والثالث حول مناهج تدريس المسرح فى المعاهد والجامعات العربية والخامس حول قضايا المسرح فى الوطن العربى، والخامس عن الجمهور فى المسرح العربى، والسادس حول المسرح وقضايا المسرح العربى.

● شهادات الفنانين

صاحبت جلسات المؤتمر عروض مسرحية وفنية مسائية قدمها قطاع الفنون الشعبية وقسم المسرح بآداب الاسكندرية ، فضلا عن شهادات لفنانين بارزين هم:

احمد زكى المخرج المسرحى المعروف، حسين جمعه المخرج ومصمم الديكور، ومحمود الحدينى الممثل القدير، وشريف أباظة الكاتب واقدم رواد المسرح السكندرى ، وعلى الجندى مصمم الاستعراض المسرحى البارز. هذا وقد شارك بالحوار - من الصالة - عدد من كتاب وفنانى الاسكندرية اذكر منهم الكاتب انور جعفر والكاتب عبد اللطيف دربالة ونخبة من طلاب قسم المسرح وشباب الفن بالاسكندرية ، أما الفريد فرج فكان الضيف الأهم الذى اتصل بالمؤتمر فى يومه الأخير.

وتتضمن المحاور الستة ٦ موضوعات

لكل محور، أي ان المستهدف كان ٣٦ موضوعا، تكاد تغطي (كل شيء) عن المسرح، وهذا امر شبه مستحيل، لذا كان الاتساع في رقعة البحوث المطلوبة لم يجد استجابة من الباحثين - رغم ان بالمؤتمر ابحاثا ممتازة - فثمة بين الشطط والبحران.. وبين الحلم، فالحلم ممكن التحقيق، ولو كان المؤتمر قد ركز على موضوع واحد وانجز مناقشته بعمق لكان افضل لو كان قد اختار موضوعا مثل: استلهام التراث الشعبي في المسرح، او قضية هوية المسرح العربي، او العلاقة بين الابداع الذاتي والقومي وبين التأثير الاجنبي في مسرحنا، او غير ذلك من الموضوعات المحددة الواضحة، وهي غنية بالمحاور - لتمكن المؤتمر من انجاز نتائج محددة وواضحة ايضا، ولتمكن من خلق اسئلة جديدة.. وهكذا..

● مؤتمر تمهيدي

غير انه من الايجابي أن نعتبر هذا المؤتمر (الاول) مؤتمرا تمهيديا قد نجح في طرح جدول اعمال لحركتنا المسرحية، او جدول هموم واهتمامات، فأثار حول نقاطه نقاشا اولياً، وتحسسا ميدانيا، وتراوحت بحوثه بين الاقل من العادي ثم العادي.. فالممتاز، وتنوعت بين الاكاديمية المفرطة، وبين الاجتهاد الثقافي أو ما يشبه المقال، وكان أهم ميزاته تلك المداخلات الحية القصيرة من الباحثين والجمهور المهتم سواء إذ اكسبت طابعه الاكاديمي طابعا شعبيا منفتحا وراقيا وحميما وديمقراطيا، لا بأس .. فبعد طول تأخر عن البدء وانقطاع عن اللقاء الاحتفالي الجماعي ، يصح أن ننتظر الانضباط المنهجي في المؤتمر الثاني المزمع عقده في العام القادم في نفس الميعاد والمكان، حول قضايا المرأة العربية والفن المسرحي تحت رعاية السيدة سوزان مبارك.. فنرجو من اساتذة علم (مناهج البحث) ان يساهموا في ضبط محاور المؤتمر المتخصصة واطاره العام والمحدد بدقة اكثر.

وكما لفت نظري غياب (الاخوة العرب) عن المؤتمر (العربي) فإن غياب قطاع المسرح يلفت النظر أيضا، بل وغياب تمثيل رسمي لمسرح الثقافة الجماهيرية، ومسرح قطاع الشباب ، والمسرح المدرسي والجامعي والعمالي، ومسرح القطاع الخاص الذي تزدحم الاسكندرية بعروضه كل صيف، هذه امور يجب تداركها في المؤتمر والمؤتمرات القادمة دون التنازل - بالطبع - عن الملامح

الثلاثة الرئيسية للمؤتمر من حيث إنه: علمي وسكندري وعربي، هنا يتخذ المؤتمر طابعا شاملا.

● إطار فضفاض وتمويل ضعيف

قام المؤتمر بدعوة عدد من المفكرين والكتاب والفنانين والتليفزيونيين والصحفيين، لم يحضر منهم احد (!!).

وعلى رئاسة المؤتمر تدارس اسباب هذا الغياب فضلا عن غياب الاخوة العرب ووجوه الحركة المسرحية المصرية، وهى اسباب أظنها تتعلق بهذا الاطار الفضفاض الطموح لخطة المؤتمر فضلا عن ضعف التمويل ثم ضعف الدعاية التمهيدية. إن الاتصال الجيد والترتيب المبكر هما العنصران الحاسمان فى نجاح اى مؤتمر علمي إذا ما توافرت الامكانيات المادية والمالية.

ويدهشني احجام محافظة الاسكندرية عن التمويل . وتلك المساهمة الضئيلة من صندوق التنمية بخمسة آلاف جنيه فقط لا غير، فى حين يمول الصندوق فرقة مسرحية (شبابية) ضعيفة بعشرات الألوف !! ومعنى هذا ان جامعة الاسكندرية تحملت وحدها اغلب مصروفات المؤتمر من ميزانيتها المتواضعة فى حين ان المؤتمر يمس عمل وزارات التعليم العالى والثقافة والحكم المحلى والسياحة والشباب وجامعة الدول العربية، ولا يهم جامعة الاسكندرية وحدها بل يهم كل المؤسسات الثقافية والعلمية والابداعية الرسمية وغير الرسمية فى مصر والبلاد العربية.

كانت لابحاث ومداخلات الاساتذة والدكاترة. ابو الحسن سلام، واحمد حسن صقر. وابراهيم عنانى، وايناس ابو النصر، وجمال صادق وسحر عبد العزيز سالم، وسيد اسماعيل على، وعبد العزيز حمودة وليلى عبد المنعم، اصداء طيبة الغاية داخل المؤتمر، واتضح ذلك فيما اثارته من مناقشات عميقة وتساؤلات جوهرية. غير انه لن يتسع لى المجال لمناقشتها هنا، حيث ان اغلب البحوث لم تطبع لقصر ذات اليد.

خلاصة القول ان هذا المؤتمر بالرغم من سلبياته التى فرضت عليه إلا انه نجح فى ان يضع الاسكندرية على خريطة مصر الثقافية، كما وضع مثقفيها طرفا فى الحوار الثقافى الوطني والحضارى، ونأمل فى مؤتمرات قادمة ـ مسرحية وغير مسرحية ، أن تعيد للاسكندرية ومثقفيها وفنانيها مكانتها فى الحياة الثقافية العربية والمتوسطية.

مكتبة الهلال



الكتاب: تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر

المؤلف: فريد دي يونج

المترجم: عبد الحميد فهمي الجمال

الناشر: سلسلة تاريخ المصريين

تاريخ الطرق الصوفية الذي ألفه فريد دي يونج أو فريد عبد الرحمن دي يونج، وهو مستشرق هولندي اعتنق الدين الاسلامي، وقام بتأليفه في الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٣.. وقد تناول المؤلف في هذه الدراسة، فيما تناول، ظهور السلطة المركزية على الطرق الصوفية والمؤسسات المرتبطة بها بعد الحملة الفرنسية على مصر.

كما تعرض للبكرية وزعمائها ونقابة الاشراف، وأرباب السجاجيد، والطرق الصوفية، واختفاء الصفة الرسمية على سلطة البكرى، وسياسة محمد علي، والأضرحة والطرق القائمة على التكية، ثم التكايا والزوايا.

كذلك تناول عالم الطرق الصوفية وطبيعة ادارتها وأعمالها، والعلاقة بين ادارة الطرق الصوفية والحكومة، والموالد والطرق الصوفية، والأضرحة القاهرية والمشرفين عليها وتحدث أيضا عن دور الطرق الصوفية في الثورة العرابية..

وتناول الكتاب الذي يقع في ٣٤٠ صفحة من القطع المتوسط، الطرق التي ليس لها وضع رسمي، مثل النقشبندية والخالدية والشاذلية والخلوتية والتيجانية.. وتعرض أيضا للتنظيمات الداخلية والحق بالدراسة عددا مهما من الملاحق ولوائح الطرق الصوفية.



الكتاب: أحمد حجازي.. الشاعر المعاصر

المؤلف: د. مصطفى ناصف

الناشر: الهيئة المصرية للكتاب

«حاولت أن أتصور الشاعر ناقدا باحثا بطريقته الخاصة في طرق تفهمنا، تصورته يعاني الأزمة اللغوية العقلية التي في أزمتنا جميعا» بهذا الكلام من خلال مقدمة كتاب الشاعر المعاصر للناقد الكبير د. مصطفى ناصف نستطيع أن نعرف أين يأخذنا الكتاب الجميل الذي أخذ قصائد أحمد عبد المعطي حجازي تكأة للاشتباك والحديث عن اغتراب الشاعر الحديث، وعن هموم الشعر وأزمته مع النقاد.. ويقول د. مصطفى ناصف الذي ينحاز للشعر أكثر من انحيازه للنقاد: «ولكن الناس يظنون أن الشعر يغني للمجتمع. الشعر في كثير من الأحيان يغني لنفسه، قل في ذلك ما تشاء. فالمجتمع ليس صديقا للشعر، الشعر صديق للنفي والعزلة، وفقد الصحاب».

وفي خاتمة الكتاب يقول د. ناصف: لا أحب الاجابة الجازمة، فالشعر بؤرة هشة يتجاذبها غالبا طرفان. ليست الأطراف المتضادة شيئا يستحى منه

الانسان دائما ، فالقارىء محتاج إلى التخفف من الحدة والصرامة ولكن القارىء الودود يحمل المسئولية على كتفه ولا يفرط فيها ، ولذلك تحسب القراءة الودودة حساب مالم تقله القصيدة» .



الكتاب : جغرافية التوراة فى جزيرة الفراعنة

المؤلف: أحمد عيد

الناشر: مركز المحروسة

يفجر كتاب جغرافية التوراة أكثر من اشكالية تاريخية وجغرافية وسياسية ، لعل أخطرها احدى فرضيات أحمد عيد مؤلف الكتاب القائلة بأن جزيرة العرب كانت جزءا لا يتجزأ من مصر الفرعونية القديمة وأن الأماكن التى دارت أحداث التوراة فيها هى بالتحديد جنوب الجزيرة العربية، ورغم تأكيد المؤلف فى أكثر من موضع فى الكتاب على تلك الفرضيات فالدكتور أحمد الصاوى الذى كتب المقدمة يرى – لأسباب لا نعرفها – ان ثمة فرضيات تؤكد عروبة الفراعنة ، فهل كان الفراعنة عربا ، أم العرب كانوا فراعنة ؟ وقد استند الباحث فى هذه المغامرة الفكرية على العديد من المراجع والمصادر العلمية المهمة فى علوم شتى ومن بينها التاريخ والآثار واللغويات والجغرافيا المصرية حيث انتقى من بين هذه المراجع ما يدعم فرضيته القائلة بأن جزيرة العرب كانت جزءا لا يتجزأ من مصر الفرعونية القديمة وأن الأماكن التى دارت أحداث التوراة فيها هى بالتحديد جنوب الجزيرة العربية .

ورغم غرابة هذه الفرضيات فإن غزارة ما يستند اليه الباحث من استشهادات تدعمها، تؤكد أن هذا البحث سيثير نقاشا خصبا .



الكتاب: موسوعة الشروق

الناشر: دار الشروق

فى طبعة أنيقة صدر الجزء الأول من موسوعة الشروق التى ساهم فى تحريرها واصدارها أكثر من أربعين علما من صفوة المهتمين بشئون الثقافة ، كأول موسوعة عربية مؤلفة وشاملة لمجالات العلم والمعرفة ، وتقدم الموسوعة – كما يقول الناشر – أحدث المواد التى يجد فيها القارىء العربى ذاته واهتماماته وقضاياه .. والتى تصل به أولا بأول إلى آخر ما انجزه العلم الحديث من نظريات واكتشافات وتقنيات .

وتقوم فلسفة الموسوعة ونهجها على أساس الموضوع وليس الحرف (الذى هو عادة الأساس فى الموسوعات) فالموضوع هو ما تهتم به أساسا فى اختيارها وانتقائها للمواد التى تقدمها ، والتى تراعى فيها اهتمامات القارىء العربى واحتياجاته أولا .. وفى النهاية يتم ترتيب مواد كل مجلد ترتيبا الفبائيا من الألف إلى الياء ، مما يجعل كل مجلد موسوعة منفردة قائمة بذاتها .

وتشمل الموسوعة فى مجلدها الأول والذى يقع فى ٣٢٤ صفحة من القطع الكبير على مجالات العلم والمعرفة التالية : أدب ولغة وبلاغة – اسلاميات وأديان – تاريخ وعلوم سياسية ودولية واستراتيجية – جغرافيا وجيولوجيا وبيئة –

فلسفة ومنطق وعلم نفس ـ اجتماع وانثروبولوجيا وقانون ـ تربية وتعليم ورياضة ـ فنون جميلة وعمارة ومتاحف ـ اعلام ومعلومات ومستقبليات ـ تخطيط وتنمية وادارة واقتصاد ـ رياضيات وفيزياء وكيمياء ـ علوم هندسية وتكنولوجيا وعلوم الحاسب.



الكتاب: الوثنية والإسلام

المؤلف: ك. مادهو باندكار

ترجمة: وتعليق أحمد فؤاد بلبع

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

هذا الكتاب يعالج الصراع بين الوثنية والإسلام في غرب افريقيا، وهي المنطقة التي تقع على تخوم العالم العربي، ومؤلف الكتاب مؤرخ ودبلوماسي هندي، نشر كتابه الأول بالعربية وعنوانه آسيا والسيطرة الغربية.

واسم الكتاب الأصلي الهلال والحية، وهو يستعرض منشأ الحضارة الإفريقية، وعلاقتها بكل من الحضارة المصرية القديمة والحضارة الهندية. ويعرض الكشوف الجغرافية الأوربية لهذه المناطق التي كانت معروفة للعرب والمسلمين، وكيف استخدم مقاومة تجارة الرقيق من أجل السيطرة الاستعمارية، وأخيرا كيف انتشر الإسلام في القرن التاسع عشر على أيدي المجاهدين من أمثال محمد الكامني وعثمان دان فوديو والحاج عمر، وعلى أيدي المتصوفة مثل الحركة السنوسية.

ومصادر الكتاب الرئيسية عربية وإسلامية قديمة، ويؤكد أن العقبة الرئيسية في انتشار الإسلام، إن انتشار الإسلام في المناطق الإسلامية لم يخدم مصالحها.

فالإسلام يحرم استرقاق المسلمين، أما العائق الثاني أمام انتشار الإسلام على نطاق واسع فكان استخراج الذهب، وكما يدعي منساموس سلطان مالي أن سلاطين مالي أحجموا عن نشر الإسلام في المناطق الغنية بالذهب رغم أنه كان في استطاعتهم ذلك، لأن خبرتهم علمتهم أنهم عندما يغزون منطقة للوثنيين، ويرتفع فيها صوت الآذان، ينخفض انتاج الذهب. يقول الكاتب.

«واجهت الدول الإسلامية مشكلة عويصة، فلو أنها عزمت على المضي قدما في نشر الإسلام لتوقفت تجارتها وتقوض إطارها الاجتماعي بأسره، وعلى الجانب الآخر فإن دينها يفرض عليها تبليغ الإسلام، ولم تحل هذه المشكلة إلا في القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارة شمال افريقيا وأدينت تجارة الرقيق عبر المحيط، عندئذ حاول المجاهدون في كل مكان الدعوة إلى الإسلام».

وقد بذل المترجم أحمد فؤاد بلبع جهدا فائقا، ليس فقط في ترجمة الكتاب من الانجليزية إلى لغة عربية سلسة وجميلة، بل أيضا مابذله من جهد في إعادة النصوص العربية إلى مراجعها الأصلية، فقد استعان بها صاحب الكتاب من مراجع أجنبية فرنسية أو انجليزية، ووقع عليه عبء العودة إلى المراجع العربية، وكتابة نصوص عربية سليمة.

والغريب أن هذا الموضوع كان يجب أن يهتم به وتتقدم الدراسات حوله جامعة الأزهر أو معهد الدراسات الإفريقية.

وعلى أية حال، فهذا جهد طيب ينتظر من



يواصل الطريق.

الكتاب: بحثا عن عالم أفضل

المؤلف: كارل بوبر

ترجمة: د. أحمد مستجير

الناشر: الهيئة العامة للكتاب الألف كتاب الثاني.

«إن البحث عن عالم أفضل مهمة لاتكتمل أبدا، ولكنها أبدا ليست بحثا، ويرسم هذا الكتاب الكثير من النواحي المعروفة وغير المعروفة في فكر كارل بوبر، ويتناول المحاورات في المشكلات السياسية وتاريخ الفلسفة، وبدايات التأمل العلمي لدى الإغريق، كما يتعرض الكتاب لكبار رموز التنوير أمثال فولتير وكانت، كما يتناول العلاقة بين العلم والفن، ودور العلم في الحضارة المعاصرة، ودور النقد الذاتي في الفنون.

ورغم أن المؤلف ولد في فيينا في ٢٨ يوليو ١٩٠٢، وهاجر إلى بريطانيا واستقر فيها حتى وفاته في ١٧ ديسمبر ١٩٩٤، فإن كتابه مازال يحتاج لمن يطلع عليه فهو من أكبر الفلاسفة الساعين إلى حرية الإنسان، وواحد من أكبر نقاد الأيديولوجيات الشمولية بما فيها الماركسية.

تقول مقدمة الكتاب: «كل مايحيا يبحث عن عالم أفضل.. لنا أن نفترض أن التطوير الأكبر - تبعا للإنتخاب الطبيعي لداروين - سيكون من نصيب الأنشطة في حل المشكلات، الباحث والمبدع، مكتشف العوالم الجديدة والصور الجديدة من الحياة.

لكن، ألم نحطم بيئتنا بعلومنا الطبيعية هذه؟ كلا، لقد ارتكبنا أخطاء هائلة، وكل الكائنات الحية ترتكب أخطاء. من المستحيل حقا أن نتنبأ بكل النتائج غير المقصودة لأفعالنا. والعلم هنا هو أملنا الكبير: إن منهجه هو إصلاح الخطأ..

وبالرغم من كل شيء، وبالرغم من إخفاقاتنا الكثيرة، فنحن نحيا في نظام اجتماعي أفضل، لأمة معدة للإستجابة للتقويم، وأكثر عدلا من أي نظام في التاريخ المسجل، ومازالت التحسينات مطلوبة بإلحاح كبير ويعني طبعا الديمقراطيات الغربية»، وأود أن أذكر شيئين نجحنا في تحسينهما، إختفاء الفقر الذي كان منتشرا، والثاني هو إصلاح القانون الجنائي، وإلا نتخذ الخطوة المشكوك في أمرها كثيرا، بأن نحاول بالعنف القضاء على هذه الأشياء، فنحيل بعض الأبرياء إلى ضحايا..

ونفضل نظاما يضمن الحماية القانونية الكاملة حتى للمجرمين الأشرار، فلا يعاقبون في حالة الشك، ونحن نفضل هذا النظام عن آخر لايجد فيه حتى الأبرياء الحماية القانونية، فيعاقبون حتى عندما تكون براءتهم أمرا لايقبل الجدل. ولعل ذلك أحد تعاليم سقراط..«أن تظلم وتقاسي، خير من أن تظلم».

حقا.. إنه كتاب شديد الأهمية، يسد ثغرة في الثقافة العربية التي تفصل بلا مبرر بين العلم والفلسفة.

ولابد من أن نشيد أولا بالدكتور أحمد مستجير، فلا أتصور أن يستطيع القيام بهذه الترجمة وبهذه الكفاءة أكثر من الدكتور مستجير فهو من العلماء القلائل عضو المجمع اللغوي، وصاحب الرسالة التي يعمل دائما من أجل تحقيقها. وهي إشاعة الثقافة العلمية في مصر.

ونشيد أخيرا بالألف كتاب الثانية التي تقدم كتبا تقرأ ونحتاج إليها، وليس كتبا من أجل الاحتفاظ بها في المخازن.

من
الهلال
إلى
الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر


ممدوح عبد العظيم

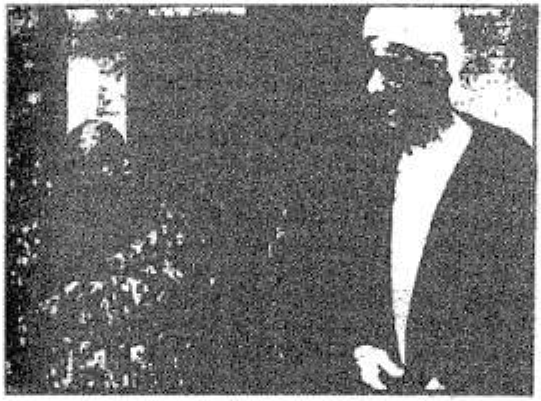

عزة الحسينى

تليفزيون
خالتى صفية والدير والتليفزيون

- خالتى صفية والدير
- قصة : بهاء طاهر
- سيناريو : يسر السيوى
- اخراج : اسماعيل عبد الحافظ

لعل رواية «خالتى صفية والدير» هى إحدى الروايات القليلة التى تعالج قضية علاقة المصريين المسلمين بالمصريين النصارى فى أدبنا الحديث ، وقد اختار المبدع الكبير بهاء طاهر زاوية للنظر فى هذه العلاقة تبدو وكأنها الزاوية المقابلة والنقيض لتلك الزاوية التى أطل منها المبدع الراحل عبد الحكيم قاسم فى روايته القصيرة «المهدى» .. ولكنهما فى النظرة المتأنية نظرتان متكاملتان ، وشهادتا صدق من كاتبين موهوبين ينتميان الى جيل الزهو والانكسار !

تبدو قرية عبد الحكيم قاسم فى دلتا مصر ضائقة بالآخر المختلف دينيا حتى ولو كان فردا واحدا وسط قطيع أعماه الجهل



مشهد من المسلسل

والتعصب ، وتذهب عذابات التصوف السمة الأساسية للتدين المصرى ، التى أهداها المصريون إلى التراث الروحى العالمى ، كما أهدوا الرهبنة والأديرة فى العصر القبطى من قبل ، تذهب كل هذه العذابات سدى ، وصرخة فى الريح ، وكأنها نذير مبكر لآلام وفظائع قادمة أكثر بشاعة ! والشائع المألوف يحكى عن أن أهل الدلتا أكثر تسامحاً وقبولا للآخر ، وانفتاحاً على الاختلاف الإنسانى ، ولكن من قال إن الفن الحقيقى يعيد إنتاج المألوف والشائع! واختار بهاء طاهر أن يطل من نافذة التماسك الاجتماعى والقيم المتكاملة بين الدير وقريته فى أقصى صعيد مصر ، والشائع أيضا أن هناك أرضا خصبة للتعصب والانغلاق ، ولكن موهبة الكاتب نفذت إلى ما يشد خيوط الجماعة الانسانية ويشكل نسيجها الواحد رغم التعدد ، ولا نستطيع بالطبع - أن نلخص هنا الخطوط الرئيسية لتلك الرواية الجميلة التى استحضرت لنا بقدرة رائعة البساطة بضع سنوات من سنوات الحلم الزاهى ، لنرى ما كان فيها من ثقوب .. فالنبل يجاور القسوة ، والتسامح يسير جنبا إلى جنب مع غلظة القلب ، والبراءة

يحوطها الانتقام ، والقهر يغلف الجميع ... ولعل اختيار قطاع الانتاج بالتليفزيون هذه الرواية الجميلة والمهمة لتقديمها كمسلسل تصل رسالته إلى ملايين المشاهدين ، أمر يذكر فيشكر - كما يقال - فالرواية مناسبة تماما لزمن الفتنة الذى نعيشه، والتى ساهم التليفزيون - غير مشكور - فى تكملة صنعه ومده كأخطبوط يحيط بالجميع - ويبدو التليفزيون بإذاعته لمسلسل «صفية والدير» فى هذا التوقيت بالذات ، وكأنه يعتذر عمليا عما ارتكبه من مسلسلات تعيد انتاج التخلف ، لعل أبرزها مسلسل «من الذى لا يحب فاطمة» وهو مسلسل ينطبق عليه القول بأن الله يعاقب الشعوب المختلفة ليس بالقهر السياسى والاجتماعى فقط ، ولكن أيضا بالفن الردىء !

وأنا أعلم عن تجربة طويلة مع التليفزيون وكواليسه ، أن القائمين على أمره لا يخططون لإيصال رسائل إعلامية جيدة وبناءة ، ولا لإرسال رسائل إعلامية رديئة متخلفة ، ولكن الأمور تمضى بـ «التساهيل» والمبادرات الفردية ، والاعتماد الكامل على الأمر الواقع .. وقد اتيح لمسلسل «خالتى صفية والدير» مجموعة من أجود العناصر الفنية فى السيناريو والتمثيل والديكور والتصوير والاخراج .. لكن الفارق بين العالم الجميل والنبيل الذى تخلقه قراءة الرواية ، وبين تجسيد هذا العالم فى عمل فنى مرئى ، فارق كبير ومؤيس ولا يستطيع واحد مثلى أن يمنع وجدانه وعقله من المقارنة بين شخصية صفية وحربى والقنصل فى العمل الروائى ، وبين نفس الشخصيات كما تجسدت من خلال الفنانين بوسى وممدوح عبد العليم وعمر الحريرى .. ولقد بذل الفنانون الثلاثة أقصى ما يملكون من جهد ، ولكن هذا الجهد الكبير والمشكور يظل - فى تقديرى - خارج السياق .. وليس الذنب ذنب هؤلاء الممثلين الجيدين ، كما أنه ليس

بوسى



ذنب المخرج اللامع إسماعيل عبد الحافظ ، والذى يملك رصيدا كبيرا من الأعمال الفنية التليفزيونية المتميزة . ولكن ذنب الفوضى والارتجال اللذين أحكما قبضتيهما على حياتنا الفنية ..

● سيد خميس

خالتى صفية فى التليفزيون



☐ يبدو أن المظهر الواقعى لرواية «خالتى صفية والدير» كان أحد الأسباب التى جُرت عليها ما جرى لها على أيدى صانعى المسلسل التليفزيونى الذى حمل نفس العنوان ، وعرض على شاشة القناة الأولى فى الشهر الماضى (ابريل ١٩٩٦) . فما كتبه بهاء طاهر لكى يخلق به الإيهام الفنى بإمكانية وجود الشخصيات ، وما صاغه من وسائل وأساليب قصصية لكى يكسب سرد أحداث الرواية صدقا فنيا ، أخذه صانعو المسلسل مأخذا مباشرا وقرأوا الرواية باعتبارها تسجيلا لوقائع فعلية تنقل ما حدث فى الواقع المعاش وتحكيه .

وهكذا ، ظنت معدة السيناريو أن تحويل الرواية إلى عمل تليفزيونى يقتضيها نقل هذه الوقائع الفعلية من سطور مكتوبة إلى صور متحركة ، وعندما أعطت نفسها الحق فى الإضافة والتعديل لما جاء فى الرواية أتت تلك التعديلات والإضافات لكى تدعم هذه الوقائعية وتتزيد فى الإخبار . وعلى الطريق نفسه سار مخرج المسلسل ، الذى صب عمله على تصوير البيئة المكانية التى تتحرك على أرضها الأحداث وجعل همه نقل كلام الشخصيات ، بصورة توثيقية تلتصق التصاقا بالمفردات الوقائعية . ولكى تزداد عملية الإخبار وضوحا وضعت الشخصيات ومجالها


اسماعيل عبد الحافظ


بهاء طاهر

الحركى تحت ضوء ساطع تختفى منه الظلال ، مهما اختلف الوقت أو تغير المكان أو تباينت الحالة النفسية ، فظهرت مكونات الصورة دائما مستوية مفرودة متماثلة القيمة ، وكأنما القصد منها هو مجرد تسجيل وجودها ، وليس التعبير عن معنى وجودها ، ولا الإيماء إلى علاقاتها المداولية مع سائر الصورة التى تكون المسلسل .

وعلى الطريق نفسه أتت اختيارات الممثلين لأدوارهم ، وخاصة الدورين الرئيسين لشخصيتى صفية وحربى (دعك من دور أمونة فهو زائد من كل الوجوه) . فلم تكن يوسى أبدا هى خالتى صفية ، ولا كان ممدوح عبد العليم أبدا هو حربى ولم تكن هيئتهما الجسدية ، ولا طريقتهما فى الإداء، تجعل منهما صفية المرأة المثال وحربى الفارس الفارع ، بكل ما يلفهما من ظلال أسطورية ، مهما سلمنا بمبدأ فرض «النجوم» على المسلسل فأصبح وجودهما إعمالا لمبدأ تسجيل الشخصية ، وليس تجسيدا لهويتها وكينونتها القصصية .

وبالرغم مما أعطاه المسلسل لنفسه من حق التعديل والإضافة ، فإن تحويل الرواية إلى صور وقائعية لا يجعلنا نتوهم أنه يتبنى نهجا واقعيا فى تناوله ، بالمعنى الفنى للواقعية ، وإنما هو تناول وقائعى يتم فى إطار المواضعات والتقاليد التى سادت تمثيليات التليفزيون واستقرت فى مسلسلاته . وهى مواضعات وتقاليد (فنية وذهنية) نمطت تصور المعالجات التليفزيونية للواقع ولطرق تمثيله ، وثبتت طرزا من أساليب الأداء الحركى والكلامى ، وابتدعت لهجات ملفقة تنبو عن الحال الجارى فى الواقع ، وخاصة فى المجالات التى تبعد عن دائرة الطبقة الوسطى المدينية ، كما هو حال عالم «خالتى صفية والدير» .

وربما كان النسج على منوال هذه المواضعات سابقة

التجهيز ، هو المؤثر الأول الذى سوغ لصانعى المسلسل هذا التناول الوقائعى لرواية «خالتى صفية والدير» ، وماجر إليه من تسطيح وتشويه ، فاستسهال الدرب المطروق فى الفن يعطل الخيال ويغلظ الحساسية ، وإذا اجتمعت مع كل هذا غشاوة الوعي عشيت الرؤية وتبددت القدرة على اللمح والنفاذ . وبهذا سقط من معالجة المسلسل للرواية الكثير من أبعاد النص القصصى ، وضاع منها رهافته وعمق تبصره.

إن الرواية تنظم وحداتها القصصية بمهارة لكى تشيد أسطورتها الخاصة . وهى ، وإن توسلت بمادة من الواقع ، تؤسس عالما من التهاويل والظلال بوصفه العالم الحقيقى الكامن تحت قشرة الواقع الخارجية . وهى ، عندما تستخدم وسيلة الراوى المشارك فى الأحداث ، فإنما تستخدمه كوسيلة فنية ماهرة تتعدد بواسطتها زوايا المنظور وفقا لأطوار نمو الراوى وتطور وعيه ، وهى ، عندما تنسج خيوطها إلى أن تتجمع فى مخيلتنا الصورة الأسطورية لكل من شخصيتى صفية وحربى ، فإنها تفصل ذلك من خلال حضورهما المهيمن على النص ، سواء بظهورهما المباشر أو فى غيابهما المستتر خلف سطح النص، ولم تورد الرواية تمايز كل من صفية وحربى وندرة صفاتهما الجسدية والمعنوية دون قصد ، ولم تصف ملامح الجلال البادى عليهما دون سبب ، ولم تجعل أمارات الجذب تشع فيهما دون داع ، وفي الوقت الذى كانت الشواهد تفضى إلى اجتماع هذين المثالين ، تأكد استحالة اجتماع كل هذا الجمال في هذا المجتمع الواقع تحت وطأة أعراف وتقاليد خانقة ، ولم يكن تزيدا ذلك الشجن الشفيف الذى يسرى فى الرواية حزنا على الضلال البشرى والمجال الموءود والحب المرتد على نفسه ، وذلك المصير الفاجع الذى كان لا محيد عنه . ولذا كان الثأر تكئة وتعبيرا مقلوبا عن المحبة ، وفى الوقت نفسه مظهرا من مظاهر وطأة التقاليد

سيد عبد الكريم



عمر الحريرى



والأعراف الاجتماعية الرازحة .

وعندما نخسر - نحن المشاهدين - مثل هذه الأبعاد الموجودة فى النص المكتوب ، فإن المسلسل يعوضها بوضعنا فى إطار القوالب والمسكوكات الجاهزة المريحة ، ولا يشغل فكرنا بالتعمق لتبصر الواقع ومعاينته عن قرب وتبين فرادة التجربة ، ولا يقلق وعينا - الفردى ولا الجماعى - طالما أن قوام المعروض علينا هو صراع البطلة لتنفيذ إرادتها فى مواجهة بطل منكسر مغلوب على أمره منذ البداية . كما كسبنا - فوق البيعة - مجموعة من المواعظ ترسخ السائد من قيم وأفكار . وهنا مكمن الغرض من مثل هذه المسلسلات ، التى يجب ألا تؤخذ باستهانة لما لها من أثر فى تشكيل وصياغة وعى جماهيرى منمط .

● **عبد الحميد حواس**

مسرح

حمام شعبى

● المسرحية : حمام شعبى
● تأليف : محمد الفيل
● اخراج : اميل شوقى
● المسرح : الطليعة

□ إذا كنت من هواة التصنيف ، تصنيف المسرحيات ، أقول لك إن مسرحية «حمام شعبى» هى مسرحية كوميدية هادفة ... هادفة إلى ماذا ؟ أقول لك هدفها الضحك .. وفى الكلمة التى قدم بها المخرج للمسرحية يقول إنه لا يتمنى للمتفرج أكثر من قضاء «سهرة ممتعة وحمام دافىء تغسل به همومك اليومية لتستقبل صدمات الحياة بصدر رحب» .

محمد الفيل ، مؤلف المسرحية ، اختار مكانا يغرى أى كاتب مسرحى لكى ينسج دراما تمور أحداثها وتتحرك شخصياتها ، وسط البخار والبخور ، ما بين الدهاليز

المعتمة والمغطس ، وسط شخصيات تحترف تنظيف الجسد وتدليكه وتكييسه إن «الحمام الشعبى» كلمة تحمل معها الكثير من الخيال المختلط بالشبق وسحر الماضى (لاحظ أن الحمام الشعبى يكاد يختفى الآن من القاهرة) .

لكن طموح المؤلف لم يكن بمقدار ما يحمله هذا المكان العبقرى من إمكانيات تقديم دراما محكمة ، فنراه يكتفى بتقديم مجموعة من «الصيّع» (ومفردها «صايع») الذين يتخذون من الحمام مكانا لممارسة كسلهم ومتعهم الصغيرة من شرب الشاى وأكل الفول وتدخين المعسل وخلافه ، والضحك على أنفسهم قبل كل شيء ، والتلصص، أحيانا، لرؤية اجساد المستحمات .

لكنك ، والحق يقال ، لا تستطيع أن تكره هذه النماذج من بسطاء الناس ، بل إنك تحبهم وتضحك معهم وعليهم طوال المسرحية . إنهم « فقراء لكن ظرفاء » وإن كانت هناك «شرور» صغيرة يرتكبونها فإنها مغتفرة لكونهم أبناء المجتمع الذى نشأوا فيه . وهم فى النهاية أفضل من «الباشا» الذى يأتى ذات يوم ويساوم صاحبة الحمام «البلانة» لكى تصنع له ثقبا سريا يتلصص منه على اجساد المستحمات لكى يختار أجملهن .. وبعده مباشرة تأتى زوجته - زوجة الباشا - لكى تساوم صاحبة الحمام على نفس الشيء ، لكى تتلصص على أجساد الرجال المستحمين وتختار من بينهم عشيقا تشتريه بفلوسها .

وهكذا تأخذ المسرحية طابع الحدوته الشعبية فيختار الباشا الفتاة الجميلة «حميدة» (عزة الحسينى) ابنة صاحبة الحمام ، وتختار زوجة الباشا (تحية حافظ) الشاب الوسيم المسطول دائما «متولى» ، (سيد خاطر) خطيب حميدة !! كلاهما - الفتاة والفتى - يجد نفسه فجأة أمام الاختيار الصعب أن يبيع جسده مقابل عشرات الآلاف من

الجنيهات وحياة ملؤها النعيم والترف الذى يقترب من الأساطير .. أو يصون كرامته ويبقى على ولائه للحب والفقر.

وفى مشهد مكثف فى نهاية المسرحية نرى الفتاة والفتى فى المغطس وسط ضباب البخار والعطور الشرقية ، فى حوار يعتمد على إيماءات الجسد .. إنهما يؤديان المشهد الختامي مغلفا بضباب البخار ، وسط إضاءة خافتة .. لنخرج نحن المتفرجون بإجابة ضبابية : هل قبلا الصفقة أم لا ؟ المسألة يلفها الغموض .

الاكتشاف الرائع ، احدى إيجابيات هذه المسرحية هو الممثل زايد فؤاد الذى لعب دور «الصول أبو كف» .. إنه طاقة كوميدية هائلة ومتفردة – لا أدرى لماذا لا يتنبه إليه المخرجون سواء فى التليفزيون أو المسرح أو السينما – إنه ممثل كوميدى أكثر قبولا لدى الجمهور من كوميديين «كبار» يستمدون سلطتهم فى الاضحاك من ماضيهم الغابر وأسمائهم الكبيرة .

ووسط شلة الصبيع هناك شخصية «حسونة أبو العيون» (لعبه رشدى الشامى) وهى شخصية ضرير يسترزق من قراءة بعض السور على المقابر، كما أنه يغنى ويعزف على العود.. كان يمكن للمسرحية ان تستفيد كثيرا من هذه الشخصية الثرية ليربط الاحداث ويغنى لنا بعض الاشعار التى كتبها الشاعر ابراهيم عبد الفتاح.. لقد ضيع المخرج والمؤلف هذه الفرصة الثمينة.

استطاع فنان الديكور محيى فهمى أن يحول قاعة مسرح الطليعة إلى حمام شعبى بكل مفرداته وايحاءاته. واستطاع المخرج إميل شوقى أن يفى بوعده فيقدم للمتفرج «سهرة ممتعة وحمام دافىء تغسل به همومك اليومية لتستقبل صدمات الحياة بصدر رحب» . ولم لا!!

شوقى فهيم

الطليعة يغرق فى الحمام

❑ قام مهندس الديكور محيى فهمى بإنشاء «حمام شعبى» داخل قاعة صلاح عبدالصبور لكى نشاهد مجموعة من الممثلين «الظرفاء» يحكون لنا نص محمد الفيل الذى يعتبر امتدادا لمسرحه الطقسى الذى بدأ بمسرحية «دقة زار» على المسرح نفسه منذ عشر سنوات.

تدور مسرحية «حمام شعبى» حول امرأة فى الخمسين من عمرها تمتلك حماما شعبيا بأحد الاحياء متزوجة من رجل ضعيف الشخصية ولها منه فتاة جميلة تحب ابن خالتها «ابن البلد» منذ الصغر.. ويبدأ الصراع الدرامى فى العرض عندما يدخل «الباشا» وزوجته الحمام.. فيحب الباشا الفتاة الصغيرة وتعشق زوجته ابن البلد.. ويغدقون على الجميع ويحاولون شراء كل شىء بالمال.. ولكن مع الوقت يكتشف الفتى والفتاة الخديعة ويحاولان الفرار.. وهكذا ينتهى النص!

تناول إميل شوقى مخرج العرض المسرحية بشكل وصفى ولم يضف اليها غير بعض الرقصات فى محاولة منه لتقليد مسرح القطاع الخاص.. مما أفقد العرض شكله الواقعى الساحر الذى يميز مسرح «الفيل» .. و «رصص» المخرج الممثلين على خشبة المسرح معظم الوقت مما أعاق حركتهم غير مبال بصغر خشبة المسرح..

وجاءت الرؤية الموسيقية «لايف» بعيدة كل البعد عن جو النص الشعبى.. حيث تم استخدام أدوات ايقاعية أوربية كانت مصدر ازعاج دائم، أما الاضاءة فكانت تقليدية فى أغلب الاحيان ولا تلائم «جو» الحمام الشعبى باستثناء مشهد الفتاة والباشا أما مهندس الديكور فهو الوحيد الذى نجح فى فهم روح النص.. كذلك عزة الحسينى التى قدمت

تحية حافظ





أداء ممتعا بإحساس فنانة موهوبة أما الفنانة فتحية طنطاوى قامت بأداء شخصية صاحبة الحمام بسهولة ويسر ولكنها لم تقدم اضافة لشخصياتها السابقة والممثل سيد خاطر تناول شخصية ابن البلد بشكل كاريكاتيرى بلا روح .. أما الفنانان حسين الديب وزايد فؤاد فقد جاء أداؤهما مبتذلا وغير لائق بممثلى مسرح الطليعة .. بل ظهر واضحا الانتماء لمسرح القطاع الخاص الذى يغلب عليه التهريج واستفزاز المشاهدين ..

ولكن أفلت بعض الممثلين ذوى الخبرة الفنية من هذا الفخ الذى «أعده المخرج» !

● مصطفى النحاس

❐ ❐ ❐

صرح شامخ هوى

رحيل الدكتور حسين مؤنس

بقلم : الدكتور محمود على مكى

كان رحمه الله أمة وحده !

كان هذا هو مايدور بخاطرى وأنا ألقى عليه نظرة الوداع الأخيرة ، وهو مسجى على فراشه . لم تكن تعلو وجهه تلك الصفرة والشحوب اللذان تتشح بهما وجوه الموتى بل كان وجهه ناضرا موردا كالعهد به وهو فى عالم الأحياء .. وكانت تعلو شفتيه ابتسامة ، وكأنها تعبير عن الرضا والراحة بعد حياة قضاها طولا وعرضا وأدى خلالها رسالته فأحسن الأداء .

فى لحظات تواردت على مخيلتى ذكريات علاقة حميمة اتصلت بيننا على مدى مايقرب من نصف قرن . كانت المشاهد والصور تتزاحم فى فكرى كأنها شريط سينمائى اسيىء تقطيع فصوله ، فاختلطت فيه صور قريبة العهد لايتجاوز عمرها أياما بصور أخرى ترجع الى سنوات طويلة مضت ، ولكنها كانت جميعا قريبة الى النفس محببة الى القلب.

كانت صلتى المباشرة به ترجع الى منتصف الأربعينيات حينما جلست اليه مجلس التلميذ فى محاضرات التاريخ الاسلامى . وكانت مادة التاريخ مقسومة بينه وبين الدكتور حسن ابراهيم حسن ، فقد كان الدكتور حسن ابراهيم يدرس لنا تاريخ الدولة العباسية ، وكان مؤنس يحاضرنا فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكانت هذه المادة مشتركة بين طلبة قسم التاريخ وقسم اللغة العربية الذى كنت أنتمى إليه .

● بين الصحافة والتاريخ

كثيرا ماكان يراودنى وأنا استمع الى محاضراته سؤال لم أهتد الى جوابه إلا بعد زمن لا أتذكر مدى طوله . فقد كنت أقرأ وأنا مازلت فى المرحلة الثانوية فى أقصى الصعيد لكاتب يدعى حسين مؤنس ينشر مقالاته فى مجلة «الاثنين» الأسبوعية التى كانت تصدرها دار الهلال كان كاتبا رشيق العبارة يتناول بالنقد بعض جوانب حياتنا وعيوب مجتمعنا فى فكاهة رقيقة وسخرية غير جارحة ، وكنت أتابع تلك المقالات فى شغف اذ كانت أشبه بما كان القدماء يدعونه «السهل الممتنع» من بساطة تشد اليها القارىء وخفة ظل تستحوذ على اهتمامه .

أيكون هذا الكاتب الصحفى هو نفسه





ذلك الأستاذ المتخصص الذي يحمل طلابه على الحوار والمناقشة ثم لايبخل عليهم بعد نهاية المحاضرة بجهد أو وقت لكي يوجههم ويجيب عن أسئلتهم رفيقا بهم حانيا عليهم ؟ أم أنهما شخصان مختلفان جمع بينهما تماثل الأسماء ؟ ومضى وقت غير قليل قبل أن أعرف أن الاسمين لشخص واحد ، وكان ذلك أول مظهر أكتشفه من مظاهر تنوع الثقافة وتعدد الاهتمامات في شخصية حسين مؤنس .

وكان المظهر الثاني هو ماتبين لي في أثناء العطلة الصيفية لنفس السنة الدراسية التي كان حسين مؤنس يلقي علينا فيها محاضراته حول مصر الاسلامية ، وكنت أقضي هذه العطلة في بلدي «قنا» في جوف الصعيد ، وكانت في دارنا مكتبة ثمينة كانت تشتمل على عدد كبير من الكتب الأدبية والتاريخية مما كان يعني بجمعه أخي الأكبر رحمه الله ، وبين هذه الكتب اذا بي أعثر على مجلد ضخم مطبوع على ما أذكر في سنة ١٩٣٤ وهو بعنوان «الشرق الإسلامي في العصر الحديث» من تأليف حسين مؤنس، وعرفت أن هذا الكتاب كان رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الماجستير ، ولعله كان أول كتبه في ميدان الدراسات التاريخية ، وبعد شهور اذا بي ألتقي في مكتبة جامعة القاهرة بكتاب آخر هو «فتح العرب للمغرب» لمؤنس أيضا . وهو رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، وتاريخ نشره هو عام ١٩٤٧ ، ثم بدراسة أخرى منشورة له في حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة في سنة ١٩٤٨ ، وكانت باللغة الفرنسية وموضوعها «سقوط الخلافة الأموية في قرطبة» فكان عجبي

يزداد من هذا الاستاذ الجامعي الذي يدرس تاريخ مصر الاسلامية ويكتب في تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الحديث وينتقل بعد ذلك الى تاريخ المغرب في بداية حياته الإسلامية، ثم يثب الى الأندلس فيتحدث عن حقبة مضطربة من تاريخها العربي، وهو في ذلك يراوح في الكتابة بين العربية والفرنسية، ويضيف الى كل ذلك كتابات يصعب تصنيفها، فهي بين المقال الاجتماعي واللوحة القصصية والفكاهة الساخرة.

● الأندلس: هواه الأول:

ومضت على ذلك سنوات تخرجت خلالها في كلية الآداب، ثم أوفدت في سنة ١٩٥٠ في البعثة الأولى التي اختارها الدكتور طه حسين أثناء توليه لوزارة المعارف للدراسة في اسبانيا، وذلك بمناسبة افتتاح المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد وهناك علمت أن فكرة إنشاء هذا المعهد - وهو المؤسسة العلمية الوحيدة لنا في الخارج - ترددت في ذهن رائد ثقافتنا العظيم منذ سنة ١٩٣٨ حينما أصدر كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ولكن الفكرة لم تتجسم في هيئة مشروع مكتمل إلا بفضل مذكرة كتبها حسين مؤنس في أوائل الأربعينيات، وذلك بعد زيارة كان قد قام بها الى اسبانيا في صيف سنة ١٩٤٠، وكانت الحرب الأهلية الاسبانية قد وضعت أوزارها قبل ذلك بشهور والخراب يعم أنحاء البلاد ولكن مؤنس كان يرى ببعد نظره أن من مصلحة بلادنا توثيق علاقتنا بهذا القطر الذي عاش أسلافنا العرب في رحابه نحوا من عشرة قرون. على أن أول مدير لذلك المعهد الذي افتتحه طه حسين سنة ١٩٥٠ كان أستاذنا الفاضل محمد عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة. وبعد سنتين قامت ثورة يوليه ١٩٥٢ فأتى الينا مدير جديد هو على سامي النشار الذي ولي إدارة المعهد سنة واحدة، ثم اذا بحسين مؤنس يأتي الى مدريد في السنة التالية فيتولى ادارة المعهد سنة أخرى (بين ١٩٥٤ و ١٩٥٥). ومع قصر هذه المدة فقد كانت خيرا وبركة على المعهد وعلى العاملين فيه من أمثالنا من الطلبة الذين كانوا يعدون رسائلهم لنيل الدكتوراه فقد كان مؤنس خير عون لنا على المضى في عملنا وجازيناه خيرا بخير، فعاوناه على استكمال مكتبة المعهد حتى أصبحت من أغنى المكتبات العربية في أسبانيا، وعلى تحرير العدد الثاني من مجلة المعهد التي لم تلبث أن عدت من المجلات الأكاديمية في أوروبا بقسميها العربي والأوروبي، وكان مؤنس بحسه الذي ورثه عن عمله في الصحافة قد أرسى لها من التقاليد ما أصبح ضوابط متبعة فيما بعد سواء في اخراجها وتبويبها أو في محتوى مادتها العلمية التي حرص على أن تكون في أرفع مستوى، ومن هنا خف الى الاشتراك في تحريرها عدد من كبار المستشرقين الاسبان والاوروبيين. ولم ير مؤنس بأسا في ان يفسح صفحات المجلة لنا وكنا لانزال نعد رسائلنا الجامعية، ففي هذا العدد الثاني نشرت أول بحث لي حول «التشيع في الأندلس» بالاضافة الى الاشتراك في باب نقد الكتب.

لم يطل مقام حسين مؤنس في اسبانيا، فهو لم يتجاوز سنة واحدة، ولكن ما أنجزه خلال هذا الزمن اليسير جعله دائم التطلع الى اكمال ما بدأه هناك .. وقد صور حنينه الى هذه البلاد قوله

فى مقدمة كتابه «رحلة الأندلس»
«منذ ذلك الحين – يعنى زيارته الأولى لاسبانيا سنة ١٩٤٠ – لم يخرج الأندلس من خاطرى أبدا : اذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه ، واذا كنت بعيدا عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه».

● فى مصر : مشروع الألـــف كتــاب :

فى سنة ١٩٥٥ يعود مؤنس الى مصر فتعهد اليه وزارة التربية بما كان يسمى ادارة الثقافة ، وكانت ادارة كبيرة تتبعها ادارات مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي والعلاقات الثقافية الخارجية ، وما كان أيسر على حسين مؤنس وأدعى الى راحته أن يظل فى هذا المنصب الكبير موظفا مرموقا مثل غيره من الموظفين فى انتظار الترقية الى وكيل وزارة .. غير انه كان طرازا آخر من العاملين فى الدولة : كانت راحته فى تعبه وجهده هو أشبه بالمتنبي الذى يقول انه جواد اضر بجسمه طول الجمام «أى الراحة» فهو يحلم دائما بعمل كبير يعود بالخير على مجتمعه ووطنه .. ومن هنا انبثق من فكرة مشروع «الألف كتاب» فقد كان يرى أن الأمة – أى أمة – لاتنهض إلا بالثقافة وان الثقافة حق للجميع واذا كان استاذه طه حسين قد أعلن من قبل فى مقولة مشهورة أن التعليم مثل الماء والهواء وان من حق كل فرد ان ينال قسطه من التعليم فإن مؤنس كان يرى أن الثقافة ايضا حق لكل مواطن وأن واجب الدولة هو أن توفر لكل فرد حظا من التثقف تيسره له وتجعله فى متناول يده بأيسر مئونة .

وهكذا شرع مؤنس فى اعداد هذا المشروع الضخم : أن ينشر ألف كتاب فى السنة اى بمعدل نحو ثلاثة كتب فى اليوم الواحد ، على ان تتناول هذه الكتب – مابين مؤلف ومترجم – كل مايعين على بناء المصرى الجديد بان يواكب حضارة القرن العشرين .. وتحولت ادارة الثقافة فى ظل المشروع الكبير الى خلية نحل : الموظفون فيها يعملون ليل نهار ، ومعهم عاملون من خارج الإدارة .. بعضهم عاكفون على اعداد قوائم بالكتب المختارة وعلى تكاليف المؤلفين والمترجمين .. وآخرون للتعاقد مع دور النشر أو المطابع مع إلزام أصحابها بأن تكون الكتب فى متناول الجميع بقروش معدودة ، وبعد شهور قليلة أتت هذه الجهود أكلها . فإذا بالشارع المصرى يمتلىء بهذه الكتب فى طبعات رخيصة تسد حاجة الجمهور الى المعرفة بكل ألوانها وإذا بهذا العمل الجليل الذى أطلق مؤنس شرارته الأولى يصبح معلما من أهم المعالم المضيئة فى مصر فى أواخر الخمسينيات .

وكنت بعد أن أنهيت دراستى فى مدريد لنيل درجة الدكتوراة واحدا من معاونى مؤنس فى اعداد هذا المشروع ، غير أنه رأى بعد ذلك أن من الخير لمعهدنا فى مدريد أن أعود إليه لكى أواصل المسيرة التى بدأها هناك ، فانتقلت الى اسبانيا وكيلا للمعهد قائما بعمل المدير ، فقد كانت درجتى الوظيفية – بالاضافة الى صغر السن – لاتسمح بأن أتولى هذا المنصب وكان علىّ أن أواصل هناك العمل فى ضوء الخطة التى كان قد رسمها مؤنس أثناء ادارته الأولى للمعهد .

ظل حسين مؤنس فى ادارة الثقافة ثلاث سنوات حقق خلالها من المشروعات – ولم نذكر إلا واحدا منها – مالم يتحقق فى هذه الادارة من قبل على مدى سنوات طوال على انه كان لايزال مرتبطا

بالأندلس وبمعهد مدريد يرى فيه – الى جانب رسالته العلمية الأكاديمية – مركزا يربط بين العالم العربي والعالم المنبثق من اسبانيا أي بلاد أمريكا اللاتينية الناطقة بالاسبانية . ومن هنا كانت رحلته الطويلة التي كلفته بها مصلحة الاستعلامات في أول سنة ١٩٥٧ لزيارة هذه البلاد وإنشاء عدد من المراكز الثقافية فيها ، وكانت جولة جاب فيها تلك القارة الهائلة الاتساع من المكسيك الى شيلي مرورا بالاكوادور وبيرو وبوجوتا ، وفي كل من عواصم هذه البلاد أنشأ مع زعماء الجالية العربية بها مركزا أو معهدا ثقافيا يكون على صلة بمعهدنا في مدريد .

● الأندلس من جديد :

لعل حسين مؤنس كان يشعر بالرضا بعد انجازه الكبير في ادارة الثقافة غير ان أداءه المتميز في هذه الادارة لم ينسه أرض الأندلس التي ارتبط بها منذ زيارته الأولى في سنة ١٩٤٠ ، وهكذا عاوده الحنين الى هواه الأول ، وكأنه ينشد مع شاعرنا القديم :

نقل فؤادك حيث شئت مع الهوى
ما الحب الا للحبيب الأول

ومن هنا لم يتردد في العودة الى مدريد ليكون مديرا من جديد لمعهدنا هناك في سنة ١٩٥٨ وفي هذا المنصب ظل حتى بلوغه سن التقاعد في سنة ١٩٦٩ وظللت معه وكيلا للمعهد حتى سنة ١٩٦٥ ولعل هذه السنوات الاثنتي عشرة كانت أكثر عهود تلك المؤسسة المصرية ازدهارا وعطاء وأكثر مراحل عمر مؤنس خصوبة وانتاجا في الوقت نفسه .

كنا نعمل في المعهد صباحا ومساء لا ننقطع عنه إلا نحو ساعتين في وسط النهار كانت المجلة معرضا لما حفلت به من أبحاث علمية اشترك في كتابتها مصريون وعرب واوربيون حول الحضارة الأندلسية بمختلف جوانبها .مطبوعات المعهد بالعربية والاسبانية تكاثرت وازداد الطلب عليها . لم يكن أسبوع يخلو من محاضرة يلقيها أحدنا في مدينة اسبانية حول موضوع متعلق بالأندلس أو الثقافة العربية الاسلامية القديمة أو الحديثة في مدينة كبيرة او صغيرة أو من ندوة نشترك فيها ، وقد اقتضى ذلك منا جولات لاتنقطع في أنحاء شبه الجزيرة ، العلماء المستشرقون الاسبان وغيرهم من الأدباء والأساتذة الجامعيين يترددون بغير انقطاع على المعهد محاضرين او مشتركين في أبحاثنا ، وبالتعاون معهم نظمنا مايعرف باسم الجلسات الأندلسية التي كان يعقد لها مؤتمر سنوى يقاوم كل عام في احدى العواصم الاسبانية وأصبح ذلك تقليدا مستمرا . الاهتمام بالثقافة العربية والاسلامية يتزايد متمثلا في اقبال عدد كبير من الطلبة على دروس اللغة العربية التي ينظمها المعهد وفي تردد الجمهور على مايلقى فيه من محاضرات او ينظم من ندوات او حلقات دراسية ، ولم يكن ذلك يمنعنا من نشر كتب ومقالات في مجلات العالم العربي وصحفه ، وكنا نعمل ايضا على تعريف جمهورنا العربي بالأدب الاسباني عن طريق الترجمة أو الدراسة .

خلال هذه السنوات أصدر حسين مؤنس عددا لايكاد يحصى من الكتب والمقالات بين تأليف وترجمة وتحقيق نصوص وكانت دائرة عمله الواسعة بطبيعتها تزداد اتساعا فهو – الى جانب تخصصه في الدراسات الاندلسية – يكتب في تاريخ الاسلام في الشرق والغرب ، وترد عليه كتب بالعربية

وبمختلف اللغات الأوروبية فيكتب عنها عارضا وناقدا ، ويوافي صحيفة الأهرام أو غيرها بمقالات ذات طابع أدبي يعرض فيها الجديد من النتاج الأدبي الاسباني والأوروبي ، ولهذا فقد كان اسمه مألوفا في العالم العربي من الكويت الى المغرب الأقصى وخارج هذا العالم في العواصم الأوربية والأمريكية .

كنا نتخذ من حسين مؤنس قدوة في التنوع والخصوبة والانفتاح على كل ألوان الثقافة . وكنت أعجب من قدرة هذا الرجل على العمل وصبره عليه ، ومن طاقته العجيبة على الاشتغال في أكثر من موضوع في وقت واحد ، وما أكثر ماكنت أدخل عليه مكتبه فأراه – مع تصريفه لأعمال المعهد الادارية – وقد بسط أمامه أوراقا منها مايكتبه تحقيقا لنص تراثي قديم ، ثم لايلبث ان يترك ذلك الى ترجمة كتاب أو مقال ، وينتقل الى تحرير مقال أدبي ، وهو أثناء ذلك لايكف عن القراءة والتعليق على مايقرز ، ثم يستأنف العمل في هذا أو ذاك من الموضوعات التي يشتغل بها بغير ان يضيق ذرعا بهذا التنقل ، وكأن كل شيء يجاهز في ذهنه لايحتاج منه الى أدنى توقف .

وهو مع كل ذلك يحب الحياة ويقبل عليها ويحسن المتعة بها ، فلا يحرم نفسه من شيء منها : يستجيد الطعام فيحب أطيبه ، ويرتاح النزهة في أوقات فراغه وان كانت قليلة ، وهو مألف للناس لايغلق بابه دون أحد ، واذا تحدث فعلى حديثه طلاوة ساحرة وعباراته لاتخلو أبدا من فكاهة محببة أو نادرة مستطرفة.

● سنوات الكويت :

بعد بلوغ مؤنس سن التقاعد كان عليه أن يعود الى مصر ، ولكنه لم يستقر فيها الا زمنا قصيرا . اذ لم تلبث جامعة الكويت ان دعته ليلحق فيها بقسم التاريخ وفي البلد العربي الشقيق قضى ثماني سنوات يباشر العمل خلالها استاذا للتاريخ الاسلامي بمختلف فروعه وقد استأنف هناك ألوان نشاطه فنشر فيها بعض كتبه واعاد نشر ماسبق له تأليفه ، وفي مجلات الكويت العلمية والسيارة كانت أبحاثه ومقالاته لاتكاد تنقطع ، ولم ينس اشتغاله المستمر بالصحافه ، فكان له عمود يومي في صحيفة «القبس» بعنوان «كلمة طيبة» وكان يسجل فيها مايعن له من خواطر حول مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية والفكرية ولم يحل كل هذا النشاط بينه وبين العكوف على تحرير جديد للسيرة النبوية في عدة مجلدات باللغة الانجليزية ، وهو مشروع طموح كان قد بدأ العمل فيه في مدريد ثم واصله بعد ذلك بعد عودته الى مصر الا انه لم يقدر له ان يخرجه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى .

● عودة الطير المهاجر: (الهلال)

بعد أكثر من عشرين سنة في هجرة متصلة كان على حسين مؤنس ان يقضي السنوات الأخيرة من حياته في مصر ، ففي أواخر السبعينيات قرر العودة من الكويت ، فانتظم في جامعة القاهرة استاذا متفرغا في قسم التاريخ ، وهو القسم الذي بدأت حياته العلمية فيه وفي الوقت نفسه عاوده الحنين الى الصحافة التي جمع بينها وبين عمله الأكاديمي منذ مطلع حياته ، وكان من الاتفاق السعيد ان تكون عودته الصحفية ايضا الى دار «الهلال» التي بدأ عمله في احدى مجلاتها وهي «الاثنين» منذ أوائل الأربعينيات فقد اختارته الدار العريقة

رئيسا لتحرير مجلة «الهلال» الشهرية التي ظلت منذ انشائها في سنة ١٨٩٢ من أبرز معالم نهضتنا الثقافية والذى تولى رئاسة تحريرها بين ١٩٧٧ ، ١٩٨١

وقد استمرت صلتي بمؤنس لم تنقطع خلال تلك السنوات . وكنت قد قضيت في مصر اربع سنوات بعد عودتي من اسبانيا ثم دعاني المعهد المكسيكى استاذا زائرا في سنة ١٩٦٩ ، و هناك قضيت سنتين دعتني بعدهما جامعة الكويت استاذا بها فرافقت استاذى حسين مؤنس هناك في نفس الجامعة على مدى ست سنوات عدت بعدها الى مصر في آخر سنة ١٩٧٨ .

وفي «الهلال» تجدد لقاؤنا ، وكان حياتي قد ارتبطت بحياته في الغربة وفي الوطن ، فقد طلب الىّ أن أعاونه في تحرير المجلة ، فكنت أكتب فيها بابا شبه ثابت بعنوان «من ديوان العرب» وهو يقوم على الاجابة عن أسئلة يبعث بها القراء الى المجلة يستفسرون فيها عن بيت شعر مجهول القائل أو عن قصة مثل مشهور أو خبر لاتعرف تفاصيله ، وكانت تجربة طريفة سعدت فيها بلقاء قراء «الهلال» كما كنت أكتب في الهلال ما اتسع له الوقت من بعض الأبحاث أو المترجمات .

أما افتتاحيات مؤنس لأعداد المجلة ، وماكان ينشره فيها من مقالات أو تحقيقات فانها تعد قطعا ادبية رائعة وكان بحكم سعة ثقافته وتنوعها يعالج فيها موضوعات بالغة الطرافة والتباين من تعليقات سياسية الى اجتماعية او فنية كانت مثل المقالات التى بدأ بها العمل في مجلة «الاثنين» غير انها بعد تلك الخبرة الطويلة في الحياة والزاد العلمي والثقافي الذى حصله على مدى السنوات السابقة – كانت أعمق غورا وأغزر فوائد وأكثر تألقا ونضارة .

ثم واصل مؤنس بعد ذلك الكتابة الصحفية في مجلة «أكتوبر» فكانت مقالاته الاسبوعية في هذه المجلة من أروع ما ازدانت به هذه المجلة وكان يقدم فيها أحيانا صفحات من تاريخنا وتراثنا وأحيانا اخري تعليقات نقدية لما يراه في مجتمعنا المعاصر او معالجة لبعض قضايا الساعة .

ولم يمنعه ذلك العمل الدوب من استئناف جهوده البحثية ، وكان قد انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ، وشاء حظى ان انتخب معه في نفس الجلسة فتزاملنا ايضا في هذه المؤسسة العتيدة ، وكان نشاطه في المجمع كالعهد به : يشارك في عدد من لجانه مقررا أو عضوا ، كما يساهم في مؤتمره السنوى بأبحاث أو محاضرات نالت دائما اعجاب الجميع ولم ينقطع عن جلسات المجمع الا بعد ان اقعده المرض قبل وفاته بنحو سنتين بعد ان جاوز الثمانين من العمر

● انتاج لا مثيل له في غزارته وجودته :

لو أن المرء تأمل ماخلفه قلم حسين مؤنس من كتب ودراسات لما تمالك نفسه من العجب : كيف ينتمي كل هذا النتاج الى قلم واحد ، وهو كثير على جبل من الباحثين ؟

في ميدان الكتابة التاريخية يكفى أن تنظر الى مؤلفه الجامع «فجر الأندلس» الذى يقع في نحو ٧٥٠ صفحة ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس خلال نصف قرن فحسب فهو من الدقة والعمق والاستقصاء بحيث لامزيد ، وكتابه عن «الجغرافيين في الأندلس» ويقع في مثل هذا العدد من الصفحات يعد أكبر بحث

في هذا الموضوع الذي يجمع فيه بين المعارف الجغرافية والتاريخية . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن كتابه عن «التاريخ والمؤرخين» وعن «الحضارة» المنشور في الكويت ، وعن «مصر ورسالتها» وهذان الكتابان الأخيران خلاصة لتجارب مؤنس وقراءاته في التاريخ العام ، فهما دراسة تنتميان الى مايمكن ان يسمى بفلسفة التاريخ ، فهما اشبه بمقدمة ابن خلدون في شمول الاحاطة بمسيرة الانسانية وعمق النظرة الى بواطن الأمور ومغزاها العميق لا الى التاريخ في ظاهر أحداثه .

وفي كتابيه «صور من البطولة» وسيرة نور الدين محمود» دروس على القارىء المصري والعربي ان يستوعبها حتى يؤمن برسالة أمته في قافلة الحضارة الانسانية . هذا ولم نتحدث عن مقالاته وابحاثه التاريخية حول الأندلس والشرق العربي والاسلامي ، ولو جمعت هذه المقالات لألفت عددا كبيرا من المجلدات الضخمة

وفي ميدان تحقيق التراث يكفي ان نشير الى عمله في اخراج كتاب «الحلة السيراء» لابن الأبار البلنسي و «رياض النفوس» للفقيه ابي بكر المالكي القيرواني، و«اسنى المتاجر» للونشريسي ، وهو كتاب حول أوضاع المسلمين الموريسكيين الذين خضعوا لدولة اسبانيا المسيحية و«ضوابط دار السكة» للحكيم ابي الحسن علي بن يوسف ، وهو كتاب يعالج موضوعا اقتصاديا بحتا

وفي ميدان الترجمة علينا أن ننوه بترجمته لدراسة المستشرق الاسباني غرسية غومس عن «الشعر الاندلسي» ولكتاب جونثالث بالنثيا عن «تاريخ الفكر الاندلسي» وهو أشبه بموسوعة ضخمة حول الثقافة الاندلسية والحقيقة ان في اطلاق اسم الترجمة على هذا الكتاب ظلما لحسين مؤنس ، ففيه من الاضافات والنصوص الكاشفة مايجعل مؤنسا مشاركا في تأليفه

هذا عن الترجمة العلمية ، وأما الترجمة الادبية فلحسين مؤنس مشاركة قيمة فيها . فقد ترجم عن الاسبانية مسرحية للوركا هي «الزفاف الدامي» ولعميد المسرح الأسباني في عصره الذهبي لوبي دي بيجا مسرحية «فونتي او بيخونا» او «ثورة فلاحين» وهما من أجمل نصوص الأدب الاسباني القديم والحديث ، وله ترجمة أخرى عن الانجليزية لمسرحية جون شتاينبك «ثم غاب القمر» .

وفي ميدان الابداع الأدبي نجد له أيضا انتاجا متميزا اذكر منه «حكايات خير ستان» وهي مجموعة من القصص الرمزية و «أهلا وسهلا» وهي رواية طويلة ذات مغزى سياسي واجتماعي و«الطريق الأبيض» وهي مسرحية بالاضافة الى مجموعات من القصص القصيرة لعل أبقاها في أذهان القراء قصته المشهورة التي تتجلى فيها قدرته الساخرة «ادارة عموم الزير» حول البيروقراطية المصرية وكان من ذيوع هذه القصة ان ذهبت «ادارة عموم الزير» مثلا سائرا بين الناس

* * *

وبعد فإن انتاج حسين مؤنس في سائر الميادين يتعذر استقصاؤه ، وهو يحتاج في تنوعه ودلالاته وجودته الفائقة يتطلب أكثر من دراسة . وإنما ألمحنا الى عدد قليل منه على سبيل التمثيل لا الاحصاء .

رحم الله هذا القلم الذي لم يخلد الى راحة والذي كان غذاء روحيا وعقليا ممتعا لجمهور عريض من القراء على مدى أكثر من نصف قرن !

رحم الله حسين مؤنس وتغمده برضوانه وأجمل فيه عزاء اسرته وعزاءنا وعزاء دار الهلال التي انتمى الى اسرتها خلال شطر كبير من حياته رحم الله حسين مؤنس ، فقد كان أمة وحده ! ..

التكوين

قطع رأس

اشتغلت بالمحاماة ثلاث سنوات «طويلة» في الريف والمدينة، تمنيت أن أحذفها تماما من سجل حياتي وأفلحت بعد عناء كبير أن أدفع بها إلي أعمق أغوار السرداب المظلم المعتم حيث يختزن الإنسان كل مرارات الفشل وعذابات وسقطات وسوءات حياته عامة والذي يحكم العلاقه لأنها كثيرا ما تتسرب وتتسلل وتثير الماضي بأوجاعه وآلامه» !

ولم يكن ذلك ما توقعته حين قررت العودة إلى «الجذور» «والبدء من حيث نشأت. وفى أول الأمر فرحت أمي وسعدت ونسيت أحلام السفارة والوزارة ويكفيها «أنى سوف أقيم معها، وكذلك كان أبى، والذى أصبح «مزهوا» لأن فى البيت «استاذ» ويقرع الناس الباب فى الصباح أو المساء لاستشارة قانونية أو حضور تحقيق أو التوكيل فى قضية.. طبعا بلا أتعاب، وقبل كل شيء دراسة قضاياه ومشاكل شيخ البلد !

وكنت واثقا أنى سوف أقدم نموذجا جديدا يبطل كل الصور والدعاوى التقليدية لمحامي الأرياف والذى يقبل كل قضية رابحة أو خاسرة والذى لا يعنيه سوى الاتعاب والذى يستبسل فى إقامة العلاقات وكسب ثقة أصحاب الاملاك وذوى النفوذ .. وقضاياهم «الدسمة» !

سوف أكون «محامي» من لا محامى له ومن أغتصبت حقوقه الخاصة أو العامة !

كانت رومانسية «ثورية» وأحلاماً .. بلا

الأفندي .. وهموم الريف من قصته .. محمد عودة


محمد عودة

أوهام »..!

وكنت قد قرأت قصة رسبت فى نفسى من الزعيم الفيتنامي «هوتشي منه» الذى كان يؤمن مثل الزعماء الآسيويين «أن الفلاحين عماد الثورة» ، ووضع استراتيجية شعارها أن «كل قرية قلعة» وأن يتحول الريف إلى سلسلة من قواعد المقاومة يغرق فيها الفرنسيين .

وذات يوم أرسل أحد «الكوادر» إلى قرية بعيدة ولكن ذات أهمية استراتيجية، لتجنيد أهلها، وما لبث أن عاد ليخبر الزعيم أنها قرية ملعونة لا يرجى منها خير وأن أهلها مدمنو أفيون ولا انتماء لهم أو جدوى من العمل بينهم .

واستمع إليه الزعيم وأعفاه من المهمة وكلف بها «رفيقا» آخر، ولما أحتج قال له «نحن نقوم بالثورة لنرد لهؤلاء الناس إنسانيتهم وإذا يئسنا من قرية فلا مناص من أن نيأس من الجميع» وخجل وطلب أن يمنح فرصة أخرى وأصبحت القرية من أشهر «قلاع» المقاومة.

كانت قريتنا بالطبع شيئا آخر ، ولكن تمثلت : وعظة دائما.

لن أرى الريف من كرسى وكيل النيابة الأمن ، كما فعل توفيق الحكيم ولن أراه من شرفة الاقطاعى النبيل كما فعل محمود تيمور ، ولكن من «الميدان» كواحد من أهله لم تعد مهمة المثقف «الفلاح» أن يشخص أو يفسر أو يندب ولكن أن يغير، وتضمنت الأحلام أن أكتب رواية عن «الفلاح» كرواية انجبتاريو سيطون الايطالى أو مثل رواية «الأم» التى كتبها جوركى عن العمال والتى أصبحت تعويذة

«العمال» وتحول من يقرأها من مستغل إلى مناضل.

ولم يكتب عن الفلاح سوى رواية واحدة كتبها أديب فرنسي في القرن التاسع عشر في عصر إسماعيل بعنوان «أحمد .. الفلاح» لادمون أبوا. ولم يعن بها أحد لهذا السبب، وظل مكان الفلاح شاغرا تماما في الأدب المصرى .

وقد تغير الفلاح والريف، بل تتابعت التغيرات ، ونشهد الآن تغييّرا جوهريا جذريا، وكنا قد أتفقنا أنا والأستاذ أن رياح الثورة الاجتماعية نفذت إلى الريف وأن الثورة القادمة لن يتبع الفلاحون فيها الباشوات والبكوات ، ولكن قد يتعبهم هؤلاء.. وأنه لابد وأن تنتشر «الكوادر» في الريف !!

وكانت استراتيجية الثورة القادمة محور مناقشات طويلة استنفدت منا ليالى وأياماً ولم نستقر على رأى : هل تتم بضربة قاصمة وبالاستيلاء على القاهرة : واقتحام قصر عابدين واعتقال الملك والأسرة المالكة ونفيها من مصر كما حدث في «سان بطر سبورج» وعلى الطريقة الروسية، أم تتم بالزحف الطويل المضنى، وحرب الشعب من جبال نبان حتى بكنج وشنفهاى على الطريقة الصينية أم أنها - وكان هذا هو الرأى الذى نميل إليه سوف تكون تطويرا وتنويعا جديدا ، لثورة ١٩١٩ سوف تأخذ الطريق «المصرى» إلى الحرية، والذى ابتدعه المصريون عام ١٩١٩ .

كان يكفى أن نبدأ الحديث عن تلك الثورة حتى تتملكه نشوة عارمة ويستغرق في حلم، وتتتابع ذكريات وأحداث وأشخاص ، تستنفذ كل الوقت ، لا تنتهى.

«كان يقول لم يكتب بعد تاريخ هذه الثورة وان يكتبها مؤرخ عادى كانت ثورة فريدة في كل تاريخ الثورات، لم يديرها أو يخطط لها أحد.. وقام بها كل الشعب من الأمراء حتى المعدمين كل الطبقات والفئات انتفاضات عارمة بطول البلاد وعرضها كل المدن والقرى والنجوع..»

«اختمرت أربعين عاما في عقل وقلب ووجدان الأمة، ثم انفجرت كمنارة لكل الثورات المجهضة والتى فشلت زورا وبهتانا !!

وكان يقول «هل تعرف أن هذه الثورة تدرس في التاريخ الامبراطورى» البريطانى كاحدى الصدمات والسقطات الكبرى وأشدها وقعا بعد الحرب العالمية

الأولى كان هناك إجماع لم يشذ عنه أحد أن المصـــريين ينتظرون اليـــوم الذى ينضمون فيه إلى الامبراطورية البريطانية شكلا وفعلا، وكتب «كرومر» آخر ما كتب مذكرة طويلة يؤكد فيها ذلك ويختم بها حياته» !

وكان يقول «هذه الثورة ، هى التى كسرت حاجز الخوف أن لم يكن الرعب لدى الشعوب المستعمرة وليس صدفة أن الثورة المصرية بدأت فى مارس وبعد شهر واحد (فى أبريل) اشتعلت الثورة الهندية وبعد شهر آخر فى «مايو» امتدت ألسنة اللهب إلى الصين.. وتداعت الأعمدة التى تقوم عليها الامبراطورية ولم تستقم حتى انهارت وغربت الشمس !

كانت الأحاديث تتابع والذكريات تتدفق . وكانت ذروتها قصته ومغامرته الكبرى شخصياً .

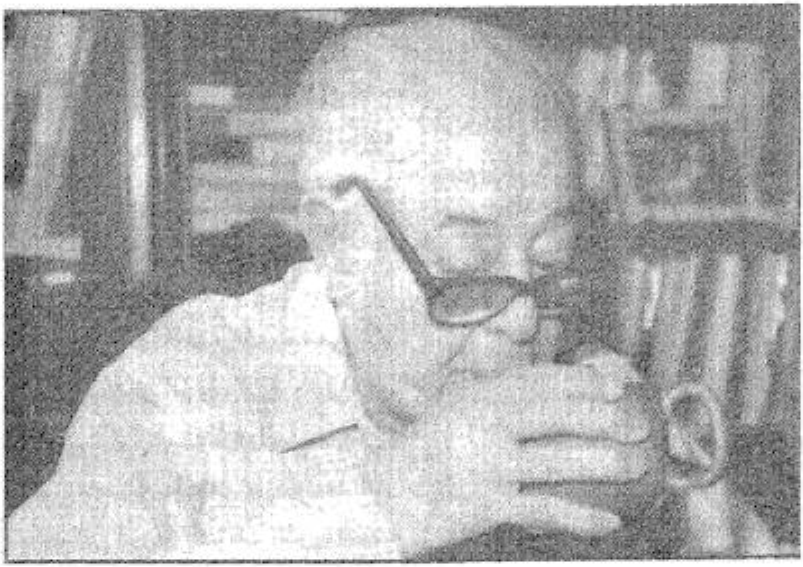
«كنا خليه ثلاثية ، وكانت مهمتنا هى تصـفـيـة ثلاثة من أشـرس الموظفين البريطانيين وأشدهم دموية. وقررنا تأكيدا لمبادئنا . أن نرسل لكل منهم حيثيات وأسباب الحكم بتصفيته وأعطينا لكل منهم أسبوعين لكى يستقيلوا، ويرحلوا عن بلد لا حق لهم فى البقاء فيه، وعن شعب

التكــــــوين

أرتكبوا فى حقه كل الفظائع، وتأكدنا من وصول الخطابات اليهم، كنا على علاقة مع «السفرجى» الذى يعمل لدى أحدهم بواسطة أحد الزملاء النوبيين.. وبالطبع هزأوا وسخروا ، وعرفنا بعدئذ بأنه فى الليلة المحددة للإنذار أقاموا حفلة صاخبة .. لاشك أمعانا فى الهزء والزراية ..

وفى اليوم التالى وفى الموعد بالضبط تمت تصفية ثلاثتهم ، يحدث فزعا ودويا فى الإدارة البريطانية واستماتوا فى البحث عن «الارهابيين» ولم يصلوا إلى شىء.. !!

« هل تعرف معالى وزير الصحة الذى زارنا اليوم وجاء متخفياً فى سيارته الصغيرة.. هذا تربى وتعلم فى بريطانيا منذ صغره حتى تخرج طبيبا، وانضم إلى حزب العمال البريطانى خلال دراسته، وأصبح من أبرز شبابه، وأقام صلات وثيقة حميمة مع الزعماء والقادة، والنواب فى مجلس العموم والكتاب والمعلقين فى صحف الحزب ، وحينما قامت الثورة، فى مصر جند الحزب وسخره لتأييد الثورة وذهب إلى باريس وتطوع فى سكرتارية



سعد باشا وتفانى فى العمل الوطنى، وأصبح سفير سعد باشا الخاص لدى حزب العمال البريطانى وهكذا المناقشات بلا نهاية. وأخيرا تغلب الرأى بأن الثورة القادمة سوف تكون اضافة خلاقة للتراث، وسوف تشتعل بنفس الطريق المصرى فى يوم واحد غير منتظر، وتعم كل المدن والقرى، وتفرز زعامتها وقيادتها بل ومفكريها ومثقفيها بأعمق وأفضل مما حدث سنة ١٩١٩، وفى هذه المرة لن يستطيع البريطانيون أن يجهضوها وسوف يكون هناك العمال والفلاحون ، والكوادر الثورية العلمية وسوف يبدأ التاريخ ».

وهكذا رحلت ..

وبغير حاجة إلى رواية التفاصيل كانت التجربة مع الواقع مختلفة «ومريرة» وكان الريف من شرفة ڤيلا الأستاذ، وفى الكتب وعبر التجارب فى بلاد بعيدة مختلفا عما يحدث..

كانت المهمة الأولى كسب العيش.. وكان هذا يعنى استغراق الوقت بين المحكمة والمركز والمستشفى الأميرى وتفتيش الزراعة ، وهندسة الرى وبنك التسليف.. وقلم المحضرين وإدارة الخبراء ومكاتب الخبراء الاستشاريين ، وكان

الطقم الحاكم فى المركز يبدأ من العمدة ومشايخ البلد حتى المأمور وسعادة وكيل النيابة وحكيمباشي المستشفى الأميرى . وباشمهندس الرى، ومفتش الزراعة.. ومدير بنك التسليف .. إلخ وكان هناك طاقم سفلى «لا يقل أهمية هو كاتب الجلسة ووكيل المكتب وحضرة الصول النوبتجى ، والباشمحضره .

وكانت أول مراتب النجاح ، فى كسب العيش، هو توثيق العلاقات مع الاعيان ثم مع الحكام.. وكانت مهمة «مستحيلة» تعثرت فيها وربما استنكفت أن أمضى فيها.

وكانت المشاكل والمصائر تحسم وتتقرر فى الليل على موائد أصحاب النفوذ، وكان البندر يقفر ويوحش بعد غروب الشمس ولا تجد هناك بديلا سوى السهر فى بيوت وقصور هؤلاء .

كان القطار الأخير يصل فى الثامنة والنصف مساء وكان معظمهم ينتظره من أجل جريدة المقطم، وأهم ما فيها هو أسعار القطن، وبعد أن يشترى كل منهم نسخته ليقرأها أو يقرأها له أحد، يتحرك الركب ويلحق به طاقم الحكام . ويبدأ ليل آخر تمد فيه الموائد بأطيب الطعام وأفخر

التكــــــوين

الشراب وعلى رأسها «السكوتش» وتطرح كل المشاكل ويحل معظمها لمصلحة الجميع ما عدا بالطبع «الفلاحين» .

وكانت ليالى الأسبوع وسهراته توزع بالعدل بين «الأعيان» وكانت رؤية الطاقم الحاكم مختلفة تماما بالليل عنها وهم على مكاتبهم فى النهار يمارسون السلطات، فأدركت وتأكدت أن القانون الذى درسناه لا صلة له بالممارسة التى تتم فى الواقع.

مأساة الفلاح

وربما كان الاكتشاف الآخر والأشد وطأة هو مواجهة المسخ الذى يفعله القهر بشخصية الفلاح ، ورؤية الفلاح المنافق الذى يجيد استرضاء الملاك والحكام والفلاح المشاغب «المرازى» الذى يتقن التلاعب باللوائح والقوانين بأبرع مما يستطيع المحامى، والفلاح «المأجور» والذى يسخره المالك لفرض سيطرته وارهابه على فلاحيه، وكان لكل واحد من الاعيان «عصابة» أو «منصر» يشيع الرعب والخوف وتبقى الأغلبية بلا حول ولا طول. وذات يوم ذهبت لأزور أطول الفلاحين عمرا فى القرية والذى كان قد تجاوز

التسعين ، وكان على فراش الموت، وتحدث عن شبابه.. أيام الخديو . وفجأة ارتسمت في عينيه نظرات رعب وفزع مروع لم أنسها أبدا وظلت شبحا مؤرقا لي لزمن طويل !!

المؤامرات

وانتشر وباء الكوليرا ذات يوم وفي المنطقة القريبة من المعسكرات البريطانية وأعلنت حالة الحصار ، ولم يخالجني شك بأنها جريمة «بريطانية» متعمدة، وكنت قد قرأت تحقيقا صحفيا عن مجاعة البنغال في الهند خلال الحرب العالمية الثانية والتي راح ضحيتها ثلاثة ملايين هندي ، في أكثر ولايات الهند مقاومة للبريطانيين ، وكيف أنها كانت من تدبير حاكم الولاية البريطاني ردا على الشعار الذي رفعته الحركة الوطنية الهندية بالجلاء فورا عن الهند ليدافع الهنود عن وطنهم وليس عن الأمبراطورية !

ثم أكد ذلك رواية أرسلها لي «الاستاذ» بعث بها إليه المؤلف وكان روائيا بريطانيا اسمه «جيرالد هنلي» كانت بعنوان «القنصل عند غروب الشمس» وتقدم رؤية لسنوات الاحتضار في حياة الامبراطورية وفي فصل من فصولها يقدم الحاكم العام خبرته للشاب الجديد الذي يتسلم منصبه في ولاية أفريقية قائلا حينما تعوزك كل الوسائل ولا يبقى أمامك مخرج: أشعل حريقا كبيرا أو أنشر وباء أو افتعل مذبحة، أي حدث مروع يذهلهم ويشل إرادتهم »!

ويهيىء لي أن عليّ أن أساهم وأضرب مثلا ، وكان أفراد الطاقم الحاكم يتحدثون عن الوباء وكأنه في بلد آخر بعيد وليس في قلب المديرية.. وأبديت رغبتي لطبيب شاب يعمل في الميدان ولكنه قال لي بمرارة «ماذا يمكن أن تفعل .. سوى أن يصيبك المرض، كل شيء هناك فوضى ولا تصدق شيئا في بلاغات الحكومة أو بياناتها .

وأول أمس ماتت أنشط الممرضات ولم نستطع إنقاذها».

ولم يكد ينحسر وباء الكوليرا.. حتى انفجر وباء الملاريا.. وامتد حتى قريتنا. وكان لابد من عيادة المرضى وزيارة بيوتهم من الداخل، وكانت صورا مرعبة، لم أتصورها أنا الذي أعيش بينهم.

وكان لي قريب صغير توسمت فيه الأمل وكان أول الذين قررت أن أتعهد بتكوينه وتعليمه، وحينما اشتدت عليه

الحمى، لجأت إلى حكيمباشى المركز وبعد إلحاح شديد اصطحبته إلى القرية فى محاولة لإنقاذه، ولكن الوقت كان متأخرا، وظللت إلى جواره ومعى أمه «خالتى» حتى لفظ أنفاسه فى هدوء، وكانت صورة أخرى لم تمح

ولم ألبث أن سقطت صريع الملاريا وكانت مرضا لا يعجز المريض فحسب بل ويسخر به أشد السخرية، وكلما هيىء لى أننى شفيت وأستعد للخروج تعاودنى النوبة بأشد مما كانت وأتصور «النهاية» وسط الوباء ولم أحقق شيئا بعد!!

وعثرت وسط هذا الشقاء والظلام المتفاقم على واحة وارفة اكتشفتها صدفة كما حدث لى مرات كثيرة.

الاكتشاف

التقيت فى إحدى السهرات فى بيت أحد الأعيان، بضيف من غير الطاقم المحلى، كنت أراه لأول مرة، وأدهشنى أنه يدخن «البايب» فى هدوء، ويبدو عليه أنه من أهل القاهرة أو الاسكندرية. وبعد أن تمت قراءة أسعار القطن ، أخذ يناقش التغيرات المتوقعات فى الأسعار بدراية واسعة وعرفت أنه يشغل منصبا مهما، فى تفتيش الزراعة فى المديرية وحينما بدأت

التكــــــوين

السهرة سمعت ابن المضيف وكان طبيبا درس لبعض الوقت فى بريطانيا يقول له:

ـ الخواجة «بنايوتى» لايعترف بالأيرلندى ويقول ويسكى يعنى سكوتش وضحك الأثنان ، وتناول الضيف قدرا لا بأس به من الأسكوتش واشتركنا فى نقاش حول أنواع الويسكى الاسكتلندى والأيرلندى والأمريكى. وقبل أن يستأذن للرحلة إلى الزقازيق أعطانى الكارت وأنه يرحب بى إذا ماجئت.

وكنت أستثقل ظل هذه المدينة ولا أذهب إليها إلا مضطرا، وكانت تتميز بقبح خاص تفوق به قبح كل مدن المديرية. إن لم تكن مدن المملكة، ولكن ذات يوم ذهبت لاستيفاء سندات وأوراق قضية «مهمة» كانت أول مرة أتقاضى فيها أتعابا مجزية «وكان كسبها ضروريا»..

وذهبت إلى دار المديرية.. وصعدت كل الأدوار، وتنقلت بين كل المكاتب والغرف وحولنى رؤساء الأقلام كل منهم للآخر، ورفضت عروض الوسطاء فى الرنهات ممن «يشهلون» المشكلات وحينما وصلت إلى حافة اليأس تذكرت مدخن البايب

وسألت عنه ودخلت عليه مكتبه بلا استئذان وكان يجمع أوراقه للإنصراف ولكنه رحب بى بحرارة وشرحت له المشكلة وسلمته ما معى من مستندات وراجعها وقال:

ـ بسيطة أتركها لى ثلاثة أيام.

وتنفست الصعداء وشكرته شكرا عميقا وتأهبت للإنصراف، فقال لى:

ـ هل أنت عائد إلى فاقوس.

ـ نعم.

ـ هل معك سيارة.

ـ لا، سوف أخذ قطار الساعة الرابعة.

ـ أمامك ساعتين.. وربما أكثر.. هذا القطار قلما يصل فى مواعيده.

ـ الحياة انتظار.

ـ إذن تتناول الغداء معى.. أنا «شرقاوى» من هنا.

ـ لاداعى مرة أخرى تكون مستعدا.. سوف أحضر ثانية.

ولم يترك لى فرصة للإختيار وأمسك سماعة التليفون وتحدث بالإنجليزية إلى زوجته قائلا:

ـ معى ضيف على الغداء هل تستطيعين إطعامنا. وبدا أن الرد كان إيجابيا، وقال لى سوف نأكل وجبة مصرية صميمة، عندنا مولد فى القرية، وكل أسرة تتطوع كل يوم بصينية كبيرة.. والدور علينا اليوم..

وهيأت نفسى لمقابلة انجليزية أو أيرلندية تعيش فى هذه البلدة القبيحة وتعاطفت معها مقدما، وكنت قد اكتسبت خبرة فى معاملة الزوجات البريطانيات!!

وقطعنا مسافة طويلة بالسيارة حتى وصلنا إلى قرية بعيدة عن المدينة وتتابعت المفاجآت.

قابلتنا فلاحة جذابة ممشوقة القوام ترتدى زيا ريفيا أنيقا وتبدو خارجة على التو من متحف مختار ورحبت بى بلهجة الشراقوة «تعطيش الجيم» وتصورت للحظة أنها قد تكون شقيقته ولكنه حسم الشك حينما قال:

ـ السيدة حرمنا.

وكان البيت مفاجأة ثانية، كان مبنيا «بالطوف» الذي يبنى به الفلاحون بيوتهم، وكأنه صورة معدلة من عمارة «حسن فتحى» ويشعر الداخل إليه بكل ماتادى به حسن فتحى أى بمصريته وأصالته وراحة جسده وروحه وأنه عش آدمى وليس علبة كبريت مثل شقق العمارات الحديثة.

وبعث كل الحلم الذى وضعناه أنا والأستاذ وحسن فتحي، وكان قد انضم إلينا وأصبح من الزمرة ..

ورغم كل خلافاتنا .. اتفقنا على صورة ريف المستقبل، وسوف تصبح مصر واحة خضراء زاهية ممتدة من الاسكندرية إلى أسوان تزخر بمزارع جماعية وتعاونية وفردية، وبقرى تعكس أصالة مصر وحضارتها وتراثها المعمارى، وهي قرى بناها الفلاحون بأنفسهم ولأنفسهم ولكي تزدهر منها حياتهم وعلاقاتهم.

ودخلت زوجته بصينية وعليها زجاجة وأكواب وقال:

ـ هذا هو الويسكى الأيرلندى الذى يرفض «بنايوتى» الاعتراف به ـ البقالون اليونانيون عندنا يفرضون الذوق وطريقة الحياة.

وبالطبع عرفت أنه خريج أيرلنده ودرس الزراعة هناك وتخصص فى التعاون الزراعي وعاد متشبعا بالتجربة الأيرلندية.

وعرفت أنه تزوج قريبته وتولى تكوينها من جديد. وعلمها الانجليزية وصحبها إلى أيرلنده.. وهى لاترتدى الزى الأوروبى إلا حينما تسافر إلى القاهرة لترى ابنها

التكوين

الذى يدرس فى الجامعة . ويرفض أن يرى أمه فلاحة!!

وتناولنا غداء ريفيا صميما .. «فتة باللحمة المسلوقة» وطواجن، وبلح الشرقية المشهور.

وقال: ننتقل لتناول القهوة فى المكتب.. ولأول مرة أرى غرفة مكتب وبها كتب وجاءت زوجته بالقهوة وقال لي:

ـ أول مرة سوف تشرب القهوة الأيرلندية ويعتز بها الأيرلنديون خاصة، وهى تصنع من البن والويسكى والقشدة.

ورأيت صورة كبيرة معلقة على الحائط لبعض الطلاب المصريين بلباس الجامعة الايرلندية ويتوسطهم أستاذ مهيب الطلعة وقلت له:

ـ من هذا اللورد المهاب الواقف

وضحك طويلا وقال:

ـ سوف يغضب كثيرا لهذا الوصف هذا باشا مصرى صميم، من أسرة كبيرة عريقة، وشقيقه هو الطبيب الخاص للملك وزوجة شقيقه هى الوصيفة الأولى للملكة.

ـ الارستقراطيون يتشابهون عادة

وضحك مرة ثانية. وقال:

ـ هذا باشا وطنى شعبى ينتمى عقلا وقلبا وجسدا «قالها بالإنجليزية» لأرض مصر وفلاحيها ونذر حياته لذلك .

وذهب إلى المكتبة وتناول كتابا وقال:

ـ هذا من أجمل الكتب وأهمها فى المكتبة المصرية وإن لم يترجم إلى العربية.

كتبه الباشا بعنوان «مصرى فى أيرلندة».

وواصل كلامه قائلا:

ـ هذا الكتاب أثار كل الاهتمامات لدى صدوره هناك وكتبت مقدمته أشهر أديبة وناقدة أيرلندية «سوزان مينشيل» وقالت هذا أحسن كتاب أجنبى عن أيرلندا وشعبها وأحسن كتاب قدم فيه أجنبى شعبه وبلاده للأيرلنديين.

وواصل كلامه قائلا :

والأيرلنديون معتزون أشد الاعتزاز بكل ماهو أيرلندى ولاينافسهم فى ذلك إلا المصريون ويجمعهم أيضا الكراهية العميقة للبريطانيين وان كانت معركتهم ضدهم تمتد لأربعة قرون!

وجلست أتصفح الكتاب وقد أهداه المؤلف إلى الجيل الجديد الناهض فى مصر، وكان محوره التعاون الزراعى والصناعى فى أيرلنده وبريطانيا ومايمكن أن تستفيده مصر وتستوعبه من التجربتين كان الكتاب يتناول قصة حياته والنتائج التى انتهى إليها والدور الرئيسى الذى يمكن أن يلعبه التعاون فى بناء مصر الحديثة.

وقال لى المضيف إنه يمكن أن يقرضنى الكتاب لأقرأه ثم نعقد جلسة لمناقشته واستمر قائلا:

ـ الزراعة التعاونية والزراعة الجماعية أيرلندية الأصل، وقد سبقت الكولكوز والسوفكوز السوفييتى، وأغلب الظن أنها كانت المرجع الأول عند لينين، والباشا هو الأب الروحى للفكرة فى مصر وراعيها الأول بل ويرى فيها طريق الخلاص الوحيد، ولكن قيام تعاون زراعى أو صناعى حقيقى مستحيل فى ظل النظام القائم.. لابد من أن تسبقه تغيرات جذرية وسادة الأرض عندنا لايمكن أن يسمحوا بذلك.

وأحسست لأول مرة أننى أستطيع أن أتحدث بصراحة مع أحد، وأن أجدد أحلامى وآرائى فى الريف، والتى كان الصدأ قد نفذ إليها وبحت له بالسر وأننى بدأت فى وضع خريطة ودراسة طبقية، للقرية وتوزيع الأرض والثروة عامة. فى المديرية ولكن لم أستطع أن أستكمل البحث.

وقام وأخرج ملفا من المكتبة وبسط عدة خرائط قائلا: هذه قد تفيدك، وقد حاولت المشروع نفسه منذ عامين ووصلت لهذه النتائج.. وبدأ الشرح.

التكــــوين

ـ هذه المنطقـة وهي من أخـصب أراضي المديرية منحها البريطانيون بعد الاحتلال للذين سهلوا احتلالهم ولابد أنك تعرف «القصة» ، ولاتزال ملكا مطلقا لهم ولا أحد يجرؤ على التدخل أو الاقتراب ولازالوا تحت الحماية البريطانية ويفخرون بذلك وفي كل سنة وفي موسم الصيد يزورهم السفير البريطاني ومن قبله المندوب السامي، وتقام الحفلات والمهرجانات وبعد العيد السنوي.

وهذه المنطقة تفاتيش الخاصة الملكية وتفاتيش الأميرات وهي مناطق مغلقة وشبه مقدسة ويستباح فيها كل شيء.

وهذه مساحة كبيرة كانت الحكومة قد أصلحتها لكي تباع لصغار الفلاحين ولكن استولى عليها صدقي باشا ووزعها على النقابات الاجتماعية والصعاليك الذين حولهم إلى بكوات وأعيان ليقيم عليهم حكمه ويضرب بهم الوفد ، وبالمناسبة التقينا عند أحدهم ولعلك تذكر كيف كان يتحدث بحماس عن الوطنية والديمقراطية ثم عن الدين وهذه ملكيات صغيرة وأحيانا ضئيلة ولايملك الفلاحون الصغار والمتوسطون أكثر من خمس أراضي المديرية.. والباقي مجرد فائض سكان وعمال تراحيل.. وليس هناك إحصاءات دقيقة.. وربما يتجاوز عددهم ثلث سكان المديرية.

وأعاد الملف وطلبت أن أقترضه وقال سوف أعد لك نسخة منه.. ثم سكت بعض الوقت وقال:

«لايمكن تحقيق شيء في الريف قبل قطع رأس الأفعى في القاهرة وهدم الهرم من قمته».

واسترعت اهتمامي الكلمات، ورسبت.. وكان الوقت يمر سريعا ولابد أن ألحق آخر قطار «الساعة الثامنة» وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى والسفر إلى القاهرة للتعرف إلى الباشا.. وقال وهو يودعني:

«حقيقة أخيرة يجب أن تعرفها عنه... أيضا، كان «دون جوان» مشهور وقد أحبته حبا جارفا ابنة رئيس وزراء أيرلندة، وبارك أبوها العلاقة وأن تتزوجه ولكنه في نهاية الأمر اعتذر لأنه قرر أن لايتزوج سوى مصرية.. وتحولت العلاقة إلى صداقة حميمة. وهي تأتي كثيرا لتمضي الشتاء في مصر».

وكتبت خطابا طويلا إلى الأستاذ في مصر رويت كل ماحدث والاكتشاف الباهر الذي سوف نهيىء له مكانا لائقا على صفحات الرواية وربما فصلا كاملا بعنوان «قطع رأس الأفعى وهدم الهرم من قمته... في القاهرة» .

• العقاد وعبدالرحمن بدوى •

على هامش المعركة التى دارت على صفحات بعض الجرائد المصرية حول الحديث الذى أدلى به الدكتور عبدالرحمن بدوى عن العقاد مفكرا وأديبا ، أريد أن أقول : إن تلاميذ العقاد كثيرون ، وهم يغارون عليه غيرة شديدة ، ويحاولون منع أى نقد لفكره وأدبه ، ولكن العقاد – فى الحقيقة – ليس معصوما من الزلل فى الرأى ، وقد هاجمه الكثيرون فى أثناء حياته ، ولا يمنع رحيله عن الدنيا من نقده ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، وبيان حجمه الحقيقى ، سواء كان حجمه كبيرا أو متوسطا أو أقل من ذلك ..

وأرى أن تلاميذ العقاد قد هاجموا الدكتور عبدالرحمن بدوى بشدة ، وربما بشراسة ، كأنه هجم على شىء مقدس ، ولا قداسة لأحد من حملة الأقلام قديما ولا حديثا ، ثم إن عبدالرحمن بدوى – فى رأيى –أعمق علما من العقاد وإن لم يكن فى شهرة العقاد ولا فى قوة تأثيره !..

محمد عبدالرءوف شندى – الإسكندرية

• محدود الدخل •

مـن ذلـك «المحـدود فـى الـدخـل» ؟! ... يـا أولـيـاء الأمـر ، يـا أهـلـى ؟!
تسـعـون جـزءاً .. منه .. وأسـفـى .·. قـد صـرن .. يـاويـلـى ! بـلا حـول
والعـشـر .. منـه .. اليـوم ينـذرنـى .·. بـالقـرب مـن صـرمـى ، ومـن ركـلـى
هـل يـا تـرى : أحـيـا .. عـلـى أمـل .·. أو أنـنـى أقـضـى ، عـلـى مـطـل ؟!
مـن ذلـك المحـدود فـى الـدخـل ؟! .·. عـرفـه لـى ، وارحـم وجـى خـيـلـى !
كـل الـذى أدريـه .. مـن نـفـسـى .·. أنـى .. (وظـيـفـيـا) ، أخـو شـغـل
قـالـوا : (مـديـر) .. عنـد مـقـدمـه .·. أو إن تـولـى .. أمـر ، يـمـلـى !
لـكـنـنـى .. فـى الحـق ،، مـن أمـرى .·. فى غـيـبـة مـن عـارفـى فـضـلـى
لا أسـتـطـيـع الـعـيـش ! يـعـرفـنـى .·. بـيـتـى ، ومـا ألـقـاه مـن ويـلـى !

أخـرج سـويعـاتى .. لدى عـمـلى .·. مـن دورة الأحـــزان ، والخـــبـل
وأدخل .. مـعى .. فى غـيـر مـا جلد .·. دنـيـا .. بـلا طـعـم ، ولا شـكـل
لاتنتهـــــى .. إلا .. بمعجـــــزة .·. من نظرة .. تحـتى .. بلا جـهـل !

رمضان أبو غالية – مدير التعليم بإدارة قويسنا

• شهر أيار والشهور الأخرى •

لماذا لاتكتبون أسماء الشهور الأثنى عشر بالطريقة التى اتبعها العرب من قديم ، فبدلا من شهر مايو الذى نحن فيه الآن ، تكتبون شهر «أيار» .. وتكتبون حزيران بدلا من يونيو ، وتموز بدلا من يوليو ، وآب بدلا من أغسطس ، وهكذا بقية الشهور ، ولا بأس من كتابة ، أسماء الشهور الأفرنجية بجانب هذه الشهور ، وبجانب شهورنا القمرية التقليدية؟!

حسان على قطامش – عمان – الأردن

•أقصوصة

• أيام ..•

بياضها تحول إلى اصفرار ، بصمة إصبعه بجوار الأشخاص، الحواف متآكلة بفعل الزمن .. بيد مرتعشة يقرب الصورة إلى نظره الكليل بالكاد يتعرف إلى نفسه .. ترجع الذاكرة به عشرات السنين إلى الوراء .

اليوم يوم التخرج .. يقف بثقة وامتزاز ممسكا بيديه أطراف روبه الأسود مبتسما يلبس بدلة جديدة لأول مرة .. هى تقف أمامه .. إنها حبه الوحيد .. سيحاول عبور الحاجز بينهما .. أربع سنوات يحبها فى صمت اكتسب اليوم ميزة جديدة بشهادته العلمية .. ينظر إلى شعرها .. ثوبها الأزرق .. سيصارحها اليوم بحبه .. ينتظر بجوار باب سيارتها .. فى الأتوبيس المزدحم يعاهد نفسه على محادثتها غدا فى منزلها .

تمر الأيام ... يزداد إصراراً .. تمر السنون .. يزداد إحجاماً .

أصبحت جدة وهو لم يتزوج بعد !!

مدحت يوسفى – سمالوط

• خيول المساء •

لقد بكيت انكسار دار ... مضت إلى ليلة البعاد
وقد تركت المساء خلفى ... موسدا فى دجى الرقاد
يا أيهذى الربا سلام ... ماذا لدى ليلة الوهاد ؟
وقد أتينا ... أنا وأهلى ... نرنو إلى ليلة الحصاد
جئنا على أغنيات شوق ... تزيد نارا على الفؤاد
وفى مروج الغروب طارت ... حكاية من هوى البلاد
لقد أفاد الفؤاد قول ... وفى فؤادى المساء بادى
وفى المسا لم تعد عهود ... مع السرور أغتدت تنادى
ناديتها .. فاستقاد منى ... وسرت فى ظلمة السواد
فياعهود الهوى أعيدى ... بعض الهوى للفتى الجواد
لقد ذكرت الحديث لكن ، ... من كان مثلى بلا بلاد
أنا الذى فارقت عهودى ... إلى زمان من الحداد
وفى الحداد الحديث يسعى ... ببعض ذكرى عن الوداد
وفى اعتقادى بأن دربى ... يسير نحو الدجى الجماد
لقد مشينا أنا وأهلى ... فى هجرة فى ذرى الرماد
تذروا بنور الغرام لكن ... على دروب الألى العباد
تذروا ... وفى أغنيات حب ... نمشى إلى ليلة الحصاد ..
وقد مشيت الدروب أشدو ... وفى غنائى رواء صادى
تحيطنى ظلمة ومالى ... مع المصابيح بعض زادى
وقد مضى الشعر دون عود ... بل بيع فى ليلة السداد
يعودنى من عهود أهلى ... قصائد الحب والجهاد
يعودنى فى الدموع شىء ... يعودنى والمساء حادى
وللخيول ارتياد درب ... مكلل بالجنان بادى
وللخيول السماء تزهو ... وفى السما قد بدا اتقادى

لقد نويت الرجوع لكن	أفي بلادي ثوى فؤادي ؟
لقد مشينا أنا وأهلي	فهل لنا رجعة البعاد

سامح النجار - فارسكور

• خالد محمد خالد •

الأستاذ خالد محمد خالد أحد أعلام الفكر الإسلامي في مصر والعالم العربي وصاحب ٤٠ مؤلفا في القضايا الإسلامية .. تخرج الأستاذ في كلية أصول الدين في منتصف الأربعينيات وعمل في حقل الدعوة الإسلامية مايزيد على نصف قرن ضد الاستعمار الانجليزي والفكري الذي يملأ سماء الأمة العربية ، ونشر الأستاذ خالد كمية ضخمة من المقالات في مجلات الدوحة والأمة والأزهر ومنبر الإسلام ، ومن مؤلفاته الموعد لله ، الدولة في الأسلام ، بين يدي عمر ، وجاء أبوبكر ، من هنا نبدأ ، محمد رسول الله ، محمد والمسيح معا على الطريق ، ورجال حول الرسول مجلد ضخم ترجمة لأكثر من ٦٥ صحابيا يقع في ٩٠٠ صفحة ، قصتي مع الحياة في ٥٠٠ صفحة والوصايا العشر .

ورأيه في الإلحاد والإيمان حق .

يقول : في رأيي أن الإلحاد موقف فكري ، بيد انه يتسم بالاحباط والضلال . ومادام موقفا فكريا حيث يعجز عقل الانسان الملحد عن إدراك وجود الله فان طريقة التفاهم معه ينبغي أن يكون الحوار والمناقشة انه منذ تبين الرشد من الغي صار الإكراه على الأيمان أمرا غير مرغوب فيه . يقول الله سبحانه وتعالى «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» .

وتحدث عن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، رجل تستحي منه الملائكة اشترى بئر دومة وكانت ملك يهودي يتحكم عن طريقها في المسلمين ويبيعهم الماء بثمن باهظ فاشتراها بأربعة وعشرين ألف درهم ووهبها للمسلمين .

اشترى بـ ٢٥ ألف درهم مكانا بجوار مسجد الرسول ليقوم بتوسعة المسجد .

ويتحدث عن حرية الكلمة . ان كل قيم حياتنا الانسانية إنما كشفها الفكر وجلاها وعليه وحده تبعة حفظها والتبشير بها وإعداد مكانها الأثير في المستقبل . وليس من حق عرف أو سلطة أو قانون أن يزعموا لأنفسهم غيرة على هذه القيم أصدق من غيرة الفكر الأمين . ويتحدث للشباب : عايش الحياة بفرح وخذها بقوة هذه نصيحتي . ويتحدث في ذكرى كربلاء : لقد قتل الحسين و٧٢ من أحفاد الحسن والحسين ، هكذا وقف الحسين

وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفا رائعاً ببطولاتهم وتضحياتهم ، لقد رفضوا الباطل وأختاروا الحق ثم رفضوا الصمت وآثروا المقاومة .

رحم الله الكاتب الكبير خالد محمد خالد بقدر ما كشف عن الجوانب المشرقة فى الشخصيات الإسلامية .

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى – المعصرة

• سراب المال •

لله يادنياى ما أقساك ... كم أنت جافية لمن يهواك
لم أجعل الدولار يوما غايتى ... ووهمت أنى حائز لرضاك
لكن أصحابى تهيم قلوبهم ... بالمال مما قد حوته يداك
قولى لمن جعل الثراء وشاحه ... ولمن يروم بقاءه ببقاك
إن الحياة وإن سررنا لحظة ... فيها فغايتها تحسر باك

درهم جبارى – سان فرانسسكو – كاليفورنيا – الولايات المتحدة

• بحار النوى •

طوتك بحار النوى ... وعادتك ريح الهوى
ونار الغرام بها ... فؤادى برغمى هوى
وأصبحت فى لجة ... تروق لغاو غوى
تبصر فما عاد لى ... رجاء إذا ما انطوى
ومثلك يغرى اللظى ... ويذكى لهيب الجوى
شريداً .. بروحى أهتدى ... وحيداً .. بقلبى ثوى
وأنت الذى خانني ... وما صانني فارعوى
وإن زارنى ضاحكاً ... فضحكة ذئب عوى
وما أنا إلا كمن ... بكاها بسقط اللوى
سعيت بزمارتى ... لعرش عليه استوى
وبمت عنوانه ... أصارع كل القوى
وغنيت أغنيتى ... بحسبك .. صدرى انكوى

وقـلـت اصـطـبـر ، إنـمـا ... لـكـل أمـرىء مـا نـوى
وأهـمـلـت شـعـرى فـمـا ... تـرعـرع حـتـى ذوى
وضـيـعـت فـيـك الـرضـا ... فـغـاب أسـى وانـزوى
وعـدت حـزيـن الـخـطـا ... غـريـبـاً .. بـلا مـحـتـوى
تـمـنـيـت أن أرتـوى ... ومـن فـى هـواه ارتـوى

أحمد عبداللطيف حسب الله – مدير الاتصال السياسى
بمديرية التربية والتعليم – دمنهور

• السرقات الأدبية •

قال الدكتور حسين فوزى فى ندوة ألقاها بمعهد الموسيقى : إن الغناء العربى لم يتطور منذ سنوات بعيده وبالتالى فقد أصبح كأى شيء أثرى لذلك فإننى أطالب بوضعه فى المتاحف مع خوذات سلاطين المماليك وعباءات الأخشيديين والطولونيين فقيل له : ألهذا السبب رفضت منح أم كلثوم الجائزة التقديرية فى الموسيقى والغناء ؟ قال : نعم فإن هذه الجائزة تمنح للمبدعين فقط وأم كلثوم لم تكتب كلمة واحدة ولم تضع لحنا واحدا وإنما هى تلقى ما يكتب وما يلحن لها كما أنها لاتعرف شيئا عن الغناء الأوبرالى فكيف أمنحها جائزة .. وقد ردت مجلة الهلال على ما صرح به الدكتور حسين فوزى وذلك فى مقال قالت فيه : لقد أخطأ الدكتور حسين فوزى فى كل ما قاله عن أم كلثوم وعن الغناء العربى . إن صوت أم كلثوم قد أسهم إسهاما جوهريا فى خلق أسلوب التلحين العربى الحديث المتطور وتحديد مساره وتوسيع آفاقه . لقد أتاح صوتها للموسيقيين أن يجوبوا بين الافاق الباهرة مالم يكونوا يحلمون به ولا كانوا يستطيعون الوصول إليه لولا هذا الصوت الرخيم الذى حملهم إلى تلك الافاق ، ولنا عوده يا دكتور حسين .

محمد أمين عيسوى – الاسماعيلية

تعليق :

– أنت ياعزيزى القارىء تتحدث عن الدكتور حسين فوزى كأنه مازال حيا ، وتزعم أنه قال هذا الكلام فى ندوة بمعهد الموسيقى وهذا غير صحيح ، والحقيقة أنه تحدث عن أم كلثوم فى لجنة الفنون بالمجلس الأعلى للثقافة منذ ثلاثين عاما ، والكلام الذى نسبتموه إليه هنا هو كلام مأخوذ من مقالات الأستاذ كمال النجمى ، وكان يجب أن تذكروا أنكم اقتبستموه ، لكيلا يكون فى كتابتكم شبهة السرقة الأدبية ، لأنك نقلت الكلام حرفياً ..

• باقة شعر •

إلى آل مستجاب

من كل روض قد جمعت زهوره ... فوق السطور نثرتها بتفانى
حتى جعلت حروفها فى زفة ... عبق العبير وخضرة البستان
من مستجاب فارس فى فنه ... كان الحديث لمستجاب ثانى
در تناثر في حروف كتابة ... بهر العيون برقة الألوان
مرت بك الأيام فى أحوالها ... يوم بعيد ثم يوم دانى
سلب البيان قلوبنا وعقولنا ... ثم انتبهنا للحديث الهانى
ترمى نبالك فى المداد بصنعه ... فإذا المداد على السطور أغانى
جرح الأحبة فى السطور دواؤه ... والطب عندى دقة البنيان
أعلو بفنى فى سماء مشرق ... النجم يرقبنى بقلب حانى
بالحب أملى للسطور صبابتى ... وأصب فى بحر الهوى أحزانى
القلب يصعد للسماء بفرحة ... لما قرأت حديثك النورانى
للسطر أرنو والرضا فى خاطرى ... والحب فجر ثورة البركان
متعت عينى فى المكان بنظرة ... فيها شرود العاشق الولهان
حتى بدا ما كنت أقرأ واضحاً ... والنور غطى بالرضا أركانى
تهفو عيونى للعلا فى سطره ... ترماه روحى مثلما يرعانى
رقص البيان على غناء حديثه ... واهتز من فرط الشذى إيوانى
من لى بسواك إذا الضلالة أينعت ... أو ضل أهل الحق فى عنوانى

فتحى عثمان - القاهرة

• مع أصدقائنا •

● محمود عبدالعال محمود – سوهاج :

نهنئكم بحصولكم على المركز السابع فى مسابقة «الزجل» لعام ١٩٩٥ ونرجو المعذرة لأن الزجل العامى ليس من المواد المطلوبة فى «الهلال» لأنه يوزع على نطاق الأقطار العربية ، وهى لاتفهم إلا اللغة القومية ، أى اللغة العربية ، ونرجو أن تتنبهوا إلى أن «الزجل» لايصح تسميته شعرا ، كما لايصح تسمية الزجال شاعرا ، ولا تسمية الشاعر زجالا ، ولكن الخلط بينهما هو من اختلاط الأمور فى الزمن الأخير .

● عاطف إسماعيل أبوشادى – سفط – منوف :

– شعركم حسن ، وإن لم يتسع له هذا العدد ، ونرجو الكتابة على وجه واحد من كل ورقة .

أحمد سامح على :

– بحثكم حول التفسير القرآنى والمفسرين ، يدل على اهتمامكم بهذا اللون من البحوث الدينية ، ومن عادتنا فيما يتعلق بالمسائل الدينية أن نقتصر على استكتاب رجال الدين أو من إليهم من المهتمين بها ، فمعذرة ، خصوصا أنكم لم تبينوا عنوانكم ، ولا دراساتكم أو مساهماتكم فى هذه الأمور .

● ونشكر ونعتذر للسادة الشعراء ، نظرا لضيق مجال النشر فى هذا الشهر ، ونرجو أن تتواصل رسائلهم إلينا ، ونخص بالذكر الأساتذة د. حسنية عبدالحكيم ، وصلاح السيد السيد ، وأسماء محمود ، ومحمود المصلحى، وأحمد محمد عبدالهادى ، وطارق محمود مراد، وعبدالخالق عبدالتواب السيد ، وعلاء العوانى ، ومحمود عبدالعزيز عبدالمجيد .

● كما نعتذر إلى السادة كتاب البحوث والقصص ، الأساتذة :

محمد عباس على (وقد نسى أن يكتب اسمه على قصته وكتبه على ظرف الرسالة فقط) وخالد عبدالوهاب ، ومحمود فرغلى على موسى (ونرجو أن يكتب على وجه واحد من الورق) وسامح حسن إبراهيم النجار ، وياهر سرى ، وعاصم فريد البرقوقى وحمدى خضرى وفا ، وماهر منير كامل .

الكلمة الأخيرة

كان ياما كان



بقلم : لطيفة الزيات

الشيء الوحيد الأكيد هو التغير نتغير لحظيا ويوميا ، نتغير دوما ونستوعب في سهولة فائقة متغيراتنا ، حتى تلك التى تقوم فى معظم الأحوال على التناقض ونصبح ونحن نطعن فى العمر تصالح المتناقضات . أين أنا منها الآن بنت الحادية عشرة من عمرها ، وهل كانت أم أتوهمها ؟!

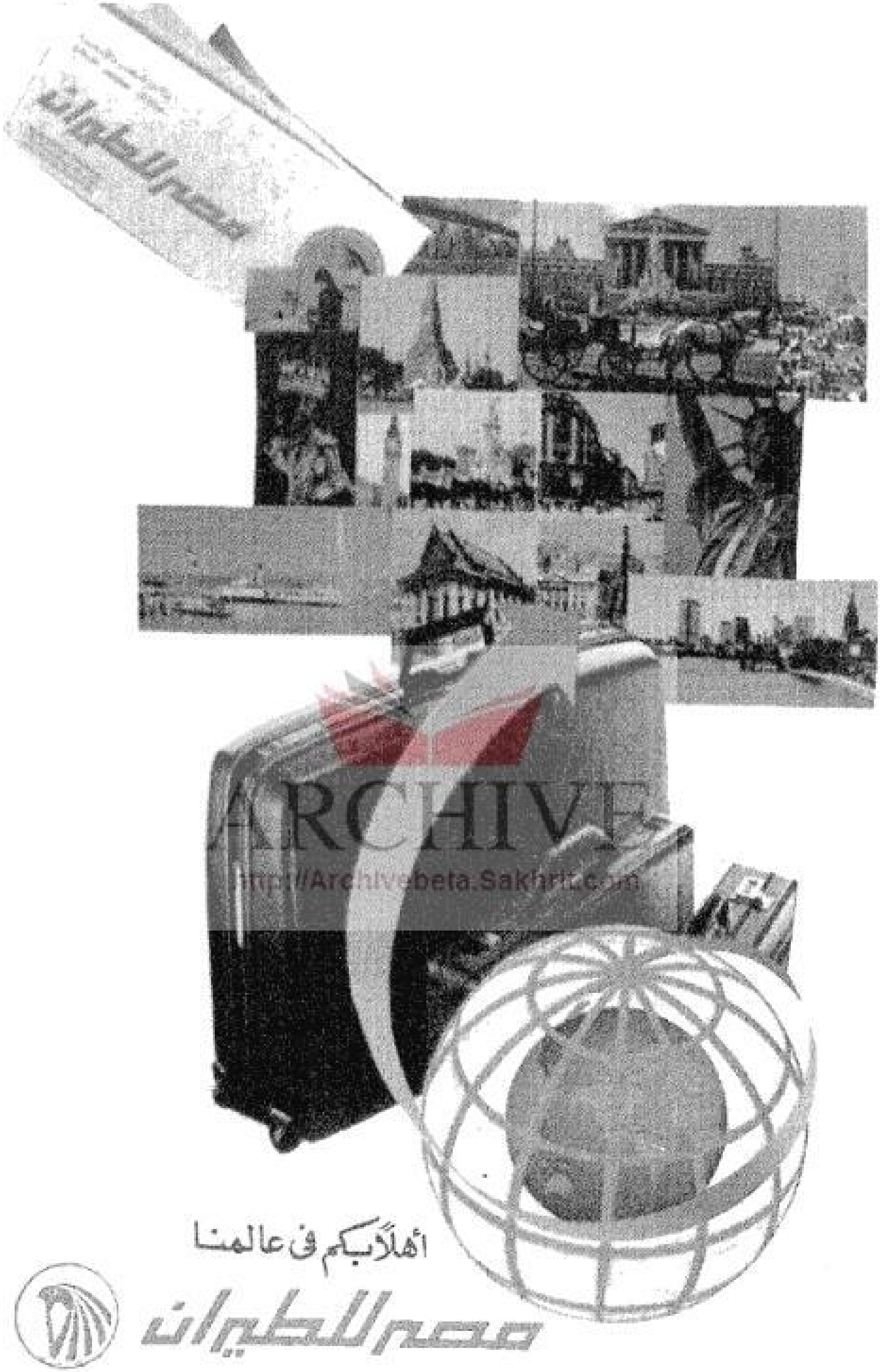
هل كانت حقا أم أنا أتخيلها ، وإن كانت أين ومتى ضاعت ، وهل ضاعت حقا أم مازالت تكمن فى مكان ما عميق في أعماقي لا تبرز إلا فى وقت الشدة ، تمدني ببعض مما أنا فى احتياج إليه لتجاوز الشدة : الاندفاع قدما دون لفتة إلى الوراء ؟ الاقتناع الذى لايتزعزع بصحة الموقف والقرار ، القسوة تمارس على الآخرين كما تمارس على الذات ، حدة كحدة السيف تبتر حيث يتطلب الأمر البتر ؟ .

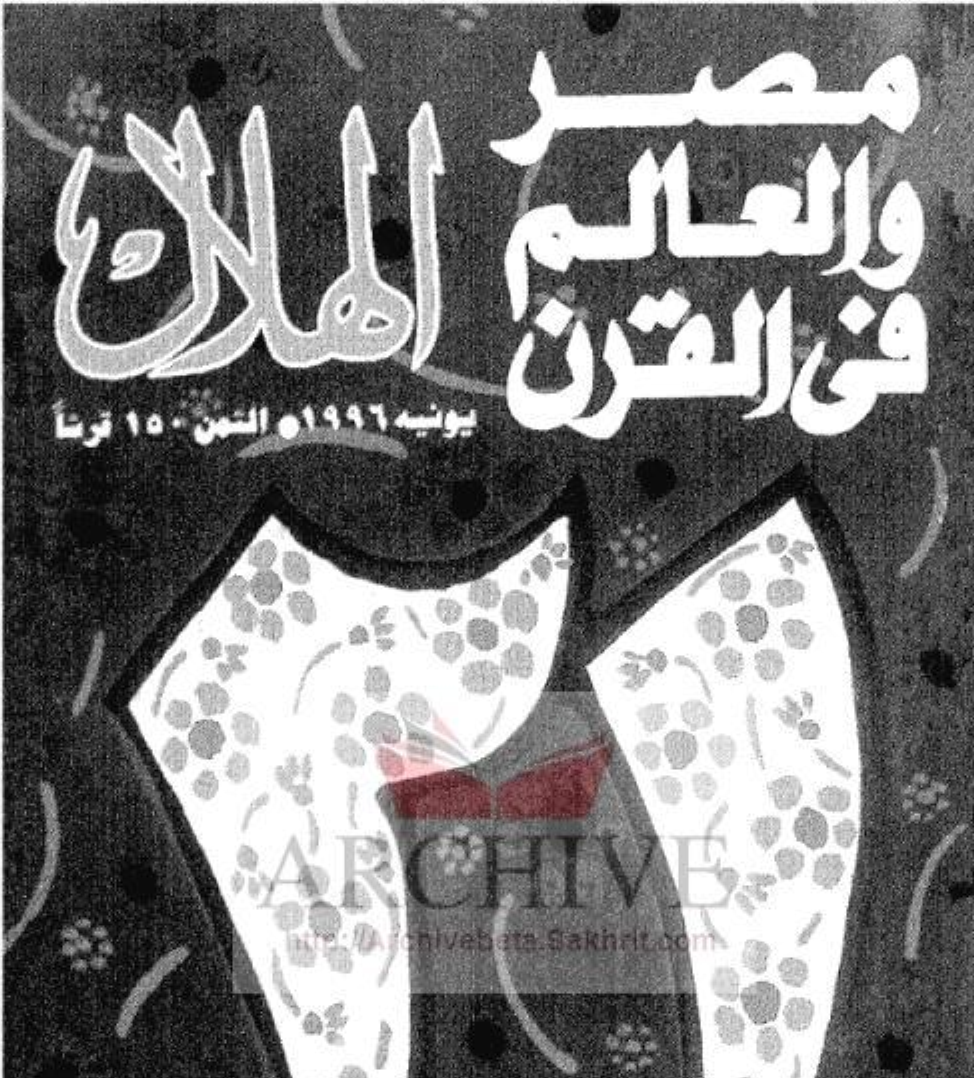
البنت في الحادية عشرة التى كانت أو لم تكن أبدا لاتقر سوى بحقيقتها وتسدل دونها وحقائق الآخرين ألف ستار وستار ، لاتتدرج فى الصورة بحال ألاف الرماديات التى تجمع فيما بينهما وتفصل فيما بينهما ، الأبيض أبيض والأسود أسود وهكذا اعتقدت البنت التى كانت ولا أكاد أتعرف عليها فى نفسي الآن .

أنا فى الحادية عشرة من عمرى أضج بالحيوية ، تتقافز داخلى ، تفيض عنى فى دوائر تتسع الدائرة بعد الأخرى . حيويتى تزعج أبى فلا يعرف كيف يتقى الضربة التالية حيويتى تهدد أبى لأنى فتاة على وشك البلوغ . صخبى يزعج أبى وصورتى تناقض الصورة المتخيلة بالنسبة إليه عن الفتاة المثالية ، صورة الفتاة الرهينة الرقيقة الهشة كقطعة ثمينة من البورسلين .

مالا تستطيع أمي تجاوزه أصلاً هو اندفاعاتي العاطفية التى تحاول مخلصة ودائبة ولا تنجح سوى قليل فى تلجيمها تمسك أمى بالأزميل ، تحاول خبطة بعد خبطة أن تعيد تشكيلى .

أمضى كما العاصفة أحب حبا لاتعتريه هواجس ولا شكوك ولا خوف مما مضى ولا مما هو آت ، وأكره بلا شباك تتصيد كرهى تحيله واهناً وهى تنزع عنه أسبابه ومسبباته . أندفع وأزميل أمى لايكف يصيب مرة ويخيب ألفا وأنا أحتضن أبي وهو في فراش الموت بكل اندفاعتى ، بكل كيانى وحسى ، وأزميل أمى يصيب وأبى يذكرنى بضمة الدب الصغير لأمه ، ظل الدب الصغير يضم أمه أقرب إلى القلب فأقرب . ضمة بعد ضمة حتى ماتت نتيجة لضمته .. وأبوخ أنا ، أبوخ ، أبوخ مع حكاية أبى . وأكبر وأتغير وأتبدل ويتباعد المسار بينى وبين أبى والدب الذى قتل أمه ، وأحسب أنى نسيت ولا أنسى أبدا ، أخاف يرفضنى الآخر وأنا فى قمة عطائى أخاف يسقطنى من حالق لأستوي ألملم أشلائي ... ولا أكف كالعاصفة أندفع ألملم جراحى التى لم تكن قد تجمعت بعد وأنا فى الحادية عشرة .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران


الهلال
مصر والعالم فى القرن
يونيه ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشاً



شمس الزهور للفنان جاك دولهاوس
نموذج للفن التشكيلي لبدايات القرن القادم

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الرابع بعد المائة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص.ب: ٦١ – العتبة – الرقم البريدي: ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت: ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس: 92703 Hilal un فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩



الغلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

فكر وثقافة

مصر والعالم فى القرن ٢١

جزء خاص

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال

عزيزى القارىء

ممنوع دخول القرن الواحد والعشرين

لا يمل الإنسان الحديث عن المجهول ، ولا يفتأ يتفكر فيما هو مقبل من الأيام .. خوفًا وطمعًا !

فهل نحن ممن يخافون ؟ أم ممن يطمعون ؟!. أم ترانا فقدنا حتى القدرة على الخوف والطمع ؟!

.. وإذا كان هذا العدد مخصصاً للحديث عن القرن الواحد والعشرين وهمومه وتحدياته ، فإن هذا لا يحول أنظارنا عن قضية أساسية وهى : كيف نواجه خاتمة القرن العشرين ؟ وما موقعنا الحقيقى من هذا الحديث الدائر فى سائر أنحاء العالم عن القرن القادم الذى لا ندرى عنه شيئًا ؟!..

هل نواجه القرن الواحد والعشرين ومازال الفكر العربى المستنير غائبًا مفسحًا الطريق لألوان شتى من أفكار القرون الأولى ؟!..

هل ننتظر الانتصار النهائى للرجعية التى احتكرت الحديث باسم الإسلام دون وجه حق ؟ هل ننتظر عودة محاكم التفتيش والحكم الإرهابى وعصور الظلام الماضية ؟!..

أخشى أن نستقبل القرن المنتظر وكتبنا وقصائدنا وآراؤنا ، بل وتراثنا فى يد من لا يفهم ولا يرحم !..

وإذا كان العرب فى سبيلهم للقضاء على الإرهاب المسلح ، فما مشروعهم الفكرى المضاد الذى سيواجه الفكر الإرهابى المظلم ليزيحه من الساحة ؟

لابد من أن نقر بأن مشروعنا الحضارى العربى المتكامل قد غاب عن الساحة ، وأننا نخبط خبط عشواء ، وتظن كل فرقة منا أنها تمثل الاتجاه السليم .. والمهم أن الفئات التى تزعم أن لديها مشروعا حضارياً متكاملاً ، هى فئات بعيدة كل البعد عن الفكر الصحيح ، ومنها من يتسم بعدائية شديدة تجاه كل فكر جديد ..

إن الأساس فى نهضتنا العربية المرجوة هو إحياء الفكر العربى والحضارة العربية التى تقطعت بها السبل فى مرحلة تاريخية ضبابية الملامح !

ولإحياء كل هذا لابد من (إحياء اللغة العربية) والاهتمام بآدابها والتمسك بأصالتها — فى غير تعنت وتضييق — لأن تلك اللغة هى المادة الأولى التى لابد من أن تصاغ بها نهضتنا، وقد ضاعت اللغة حتى على ألسنة المتخصصين فيها من خريجى الأزهر ودار العلوم وكليات الآداب ..

ولإقامة مشروع عربى حضارى مشترك ، لابد من التوفيق بين جهود المفكرين العرب فى مختلف الأنحاء من الأمة العربية — ونعنى هنا المفكرين الأصلاء فكراً وعلماً ولغة ونية ، المفكرين الذين يملكون أبجدية واقعية يصاغ من خلالها المشروع العربى الحضارى الذى لم ير النور حتى الآن !..

أما الحديث عن كيان الأمة العربية نفسه ، وهيئتها التى يجب أن تكون قبل القرن القادم فهو أمر متعدد الوجوه .. هناك أمور واجبة التحقيق قبل الدخول فى الحديث - أصلا - عن القرن الواحد والعشرين !..

هناك وجه قومى للأمر ، حيث تجرى المفاوضات التى يسمونها « عملية السلام » بينما الذى تحقق - بالفعل - ليس إلا لقطات أنيقة نقلتها تليفزيونات العالم ، واحتفالات ضخمة توقع فيها اتفاقات ينمحى جوهرها بمجرد أن يجف حبر أقلام الموقعين عليها !!

هل السلام هو ضرب الحصار على الضفة والقطاع وإبادة الفلسطينيين من خلال « التجويع » ؟ وهل الدولة الفلسطينية المرجوة ستقف عند هذه الكانتونات الميكروسكوبية التى تسمى « أراضى الحكم الذاتى » والتى تسيطر عليها قوات « جيش الدفاع الإسرائيلى » سيطرة كاملة ؟!

هل السلام هو ابتلاع القدس ، وهضم حق العرب - المسلمين والمسيحيين - فى أراضيها المقدسة ؟!

هل السلام هو إبادة المقاومة اللبنانية الضعيفة ، وضرب مخيمات الفلسطينيين فى لبنان، وحصار ميناء بيروت وتحطيم ضواحيها التى يسكنها فقراء اللبنانيين ؟!

هل السلام هو (مذبحة قانا) ؟ أم السلام هو (عناقيد الغضب) ؟

وهل صار (كلينتون) - الوسيط الأمين - لا يكتب إلا بالعبرية ولا يتحدث إلا بمصالح إسرائيل ؟

وهل ماتت اتفاقات « الدفاع العربى المشترك » و« التكامل العربى الاقتصادى » .. وصار العرب لا يتكاملون إلا مع الأجانب ، ويهرولون بفرح وترحاب إذا كان هؤلاء الأجانب يحملون الجنسية الإسرائيلية ؟!

عزيزى القارىء

نحن فى حاجة ماسة إلى إحياء حقيقى لكل تلك المعانى الغائبة ، وتجسيد أحلام الشعراء الذين يئسوا من تغيّر الأحوال إلى الأفضل ، ويئسوا من دخول القرن الحادى والعشرين الذى يعلّق الأقوياء المتقدمون على بابه لافتة تقول : ممنوع دخول الضعفاء المتخلفين ؟!

إن الباقى من القرن العشرين أربع سنوات فقط ، وقد ضاعت الفرصة علينا نحن العرب والمسلمين ، وسنلاقى القرن الواحد والعشرين لقاء الغرباء الذين لا يعرف بعضهم بعضا ، لأنه قادم من الزمان الجديد ونحن راجعون إلى الزمان القديم !

ولابد من أيام عربية جديدة نقابل بها الوافد الجديد ، وإلا عاش « الفتى العربى » غريب الوجه واليد واللسان فى القرن القادم ، واضطر أن يعيش فى الكهف ثلاثمائة سنين كما فعل أهل الكهف فى سالف الدهور !..

« المحرر »

التصحر فى أرض الإبداع

بقلم : د. مصطفى سويف

□ رفض الإبداع هو الذى قتل فرج فوده وحاول قتل نجيب محفوظ وأقام دعاوى الحسبة

تحالفت عوامل متعددة على تعطيل قدرات الإبداع لدينا أحصيتها فوجدتها أحد عشر عاملا ، تنتظم فى أربع فئات : فى مقدمتها فئة تندرج تحت خصائص السياق الاجتماعى الذى نحيا فى إطاره ، تليها فئة الآثار المترتبة على أساليب قياداتنا فى أدائها أدوارها القيادية ، ثم فئة الأساليب الشائعة فيما يقع بين قطاعات مجتمعنا أو تنظيماته المختلفة بعضها البعض من خلافات وصراعات ، وأخيرا فئة رابعة تضم بعض ماجرى غرسه فى مواطنينا من خصال تحمل بصمة المجتمع وتدعم تبعية الأفراد لقواليه المعتمدة . وقد ألححت من قبل فى ثنايا الحديث عن الفئتين الأولى والثانية من هذه العوامل على القول بأنها بطبيعتها متغيرات تاريخية ، بما يعنى أنها عوامل تولدت نتيجة لتوالى أو لتراكم عدد من الشروط أو الظروف الاجتماعية التاريخية التى مر ويمر بها مجتمعنا (سياسية واقتصادية وعمرانية ... إلخ) .



نجيب محفوظ



فرج فوده

مما يعني أنها لاتحمل في ذاتها طابع القدر المحتوم وأنها بذلك تكون قابلة للتعديل والتغيير بالقدر الذي نستطيع أن نُدخل به الإرادة الاجتماعية الواعية ضمن مفردات حساباتنا في العمل العام. ولاأزال ألحُّ بالتذكرة بهذه المعاني نفسها ، وقد حان الوقت لكي أتحدث في المقال الراهن عن عوامل التعطيل الواقعة في الفئة الثالثة

● التعامل في المجتمع :

التنوع والتغاير ومايفرضانه من مزيد من التعاون والتكامل هو الأصل فى الحياة الاجتماعية . فلم يعرف علماء الاجتماع ولا علماء الحضارات مجتمعا واحدا بطول الإنسانية وعرضها يمكن أن يوصف بالتجانس التام بين وحداته أيًا كانت الوحدات التى نعتبرها أساسية فى وصفه، والراجح أن هذه الحقيقة ترتبط ارتباط العلة والمعلول فى أن معاً بحقيقة أعمق منها هى تقسيم العمل الاجتماعى الذى هو الدعامة الكبرى لحياتنا الإنسانية

ومن ثم فليس بدعا أن يكون نسيج مجتمعنا منطويا على تقسيمات عديدة متنوعة تنظمها محاور مختلفة المعانى والدلالات . وليس بدعاً أن تتداخل مصالح هذه التقسيمات أو التنظيمات من حين لأخر أثناء مسيرة الحياة الاجتماعية وأن يكون هذا التداخل مؤذنا بالتعارض أحيانا وبالتكامل أحيانا أخرى . ومن ثم يكون من المعقول والمشروع أن تقع بعض الصراعات فيما بين بعضها البعض حيث تتعارض المصالح ، وأن تقوم إلى جانب

التصحر في أرض الإبداع

ذلك أنماط من التعاون والتساند حيث تتفق المصالح أو تتكامل . فإذا ابتعدنا قليلا عن الدقائق التفصيلية لننظر نظرة إحاطة شاملة إلى كيان المجتمع في مجمله فلابد عقلا أن نتوقع حصيلة نهائية مرجحة لكفة التعاون والتكامل وكل مايتعلق بهما من تداعيات في مقابل كفة التعارض والتصارع ، ولو كان العكس هو الصحيح لتفكك المجتمع وانتهى أمره .

أما والمجتمع لايزال قائما فلابد وأن تكون كفة التعاون هي الراجحة .

ومع ذلك فأي مواطن يحمل قدرا معقولا من الفطنة يعرف أنه لايجوز أن تؤخذ الأمور بظواهرها . وأي دارس لظاهرات الحياة الاجتماعية حتى ولو كان حظه من الدرس متواضعا يعرف أن الاستنتاج الذي توصلنا إليه للتو لايخرج عن أن يكون استنتاجا يحكمه منطق شكلي خالص ، يعجز أحيانا عن أن يستوعب ظواهر الحياة الاجتماعية بما تنطوي عليه من خصائص وماتمليه من تفاعلات . ومعنى ذلك أن المشهد الذي أستنتجنا من ملاحظته رجحان كفة عناصر التعاون في مقابل عوامل التصارع قد يكون في الوقت نفسه منطويا على أقدار من التوتر ومن عناصر أخرى توشك أن تقلب موازين الأمور بصورة لم تكن متوقعة في نطاق أساليب حساباتنا المعتادة . ولكي نحسن مواجهة هذا الاحتمال ينبغي أن نمعن النظر حتى ننفذ إلى ماتحت السطح فنكشف عن طبيعة الأساليب التي يسود استخدامها على سبيل إدارة دفة الخلافات والصراعات بين قطاعات مجتمعنا أو منظوماته على اختلاف توجهاتها وأوزانها . وفي مسعانا هذا سوف نقتصر على النظر في أمر مجموعة التفاعلات ذات الصلة بموضوعنا الرئيسي وهو تعطيل قدرات التفكير والعمل الإبداعي . وقد سعيت على هذا النحو إلى هذه الغاية ، فتبينت وجود أربعة عوامل تدار على أساسها عجلة التفاعلات بين وحدات المجتمع ، وهي جميعا معاكسة للإبداع لا من حيث طبيعتها ، وهذا هو اللافت للنظر ، ولكن من حيث النهج الذي توظف به . وهذا ما سأكرس له الفقرات التالية من هذا المقال.

● بين التنافس والتناحر :

أورد ابن منظور أن التنافس من المنافسة أي الرغبة في الشيء والانفراد به. وأورد كذلك تدافع القوم أي دفع بعضهم بعضا ، ثم أورد أيضا تناحر القوم على الشي وانتحروا وتشاحوا عليه

فكاد بعضهم ينحر بعض ، وتناحروا فى القتال. فإذا عدنا إلى موضوعنا فهذا هو العامل الأول، طبيعته التنافس ، ولكنه بالصيغة التى يتم بها توظيفة كصيغة للتفاعل بين قطاعات مجتمعنا مايكاد يبدأ حتى يتم تصعيده إلى تدافع فتناحر ، ومن ثم ينقلب الأثر المرجو إلى النقيض؛ فالأصل فى التنافس هو التنشيط إلى أهداف مرغوبة ، وقد ابتهج علماء التربية عندما إكتشفوا أن أسلوباً بعينه يمزج بين التعاون والتنافس يعتبر من أفضل الطرق لحفز الناشئة إلى مزيد من الارتقاء بإنجازاتهم المقترنة بالدراسة أو بالترويح على حد سواء . ولكن فى مجتمعنا بصورته الحالية انفلت الأمر فلم نعد نعرف التنافس وأصبحنا نألف التناحر ، ومن ثم صار إطلاق هذه الطاقة مؤديا إلى كل ما من شأنه التثبيط والقمع والوأد أحيانا .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، بدأت على استحياء (مع بدايات القرن العشرين) .

فقد سمعنا منذ بواكير شبابنا عن تنافس وصل إلى حد التدافع بين طوائف مهنية أو بين قطاعات داخل بعض الطوائف المهنية ، مثل خريجى دار العلوم وخريجى أقسام اللغة العربية بكلية أو بكليات الآداب من المشتغلين بالتدريس فى وزارة التربية والتعليم (وكانت وزارة المعارف العمومية وقتئذ) ، وسمعنا عن صراعات خفية بين خريجى مدرسة المعلمين العليا وخريجى الجامعات ، وكذلك عن صراعات بين خريجى الجامعات المؤهلين تربويا وغير المؤهلين تربويا ، كل ذلك فى إطار العمل فى وزارة التربية والتعليم ، وسمعنا كذلك عن صراعات بين المطربشين والمعممين من العاملين فى دواوين الحكومة على اختلافها ، وقبيل انتصاف القرن بدأت تعلو نغمة الصراع التدافعى بين الجنسين ، الرجال والنساء . الجدير بالذكر أن الأصوات المتطايرة عن هذه الصراعات كانت تصل إلى أذهاننا باعتبارها مجرد شوائب لاتحجب ولاتشوه بأية حال الكم الهائل من الأصوات الذى كان ينهمر علينا من تدافع الأحزاب السياسية . وعبرنا منتصف القرن ، فإذا الساحة يتم إخلاؤها من أصوات الأحزاب، ولكن بقى فيها شىء من ضجيج الفرق والطوائف المهنية وسرعان ما أقحمت عليه نغمة جديدة: العسكريون فى مقابل المدنيين ، ثم لم تلبث الأمور أن جرى عليها تصعيد جديد ، ووضعت لاستيعابها صيغة جديدة تختزل الأمر كله إلى طرفين اثنين لا ثالث لهما ، أحدهما نفى تام للآخر ، ومن ثم استحال التدافع إلى تناحر بين الطرف ونقيضه ، وهكذا جاءت هذه الصيغة بمثابة الآلية التى تم عن طريقها نقل صراع التدافع إلى مستوى جديد ، صراع التناحر ، وقد أفاد منها الحكم الاستبدادى الذى صنفت المواطنين حينئذ على أساس شعار «من لم يكن معنا فهو علينا» . فلما تكفلت أحداث التاريخ

التصحر في أرض الإبداع

(كمتغير خارجي لم يكن محسوبا أصلا في اللعبة) بتفريغ الشعار من مضمونه السياسي اللحظي ومن سدنة هذا المضمون ، سارعت قوى أخرى إلى الاستحواذ على الشعار نفسه وملأوه بمضمون يناسبهم هو المضمون الديني أو مايرون أنه ديني ، وهذا مانشهده الآن ، ولم يكن ممكنا أن تتلاشى الصيغة الأساسية التي بُني عليها الشعار تلاشيا مفاجئا ، لأنها صيغة مغرية لأعداد لايستهان بها من المغامرين .

ولكن بغض النظر من المستوى التفصيلي لأحداث التاريخ ماذا عن سؤالنا الرئيسي : ماذا يعنى هذا الطراز من الصراع بين فصائل المجتمع من حيث إطلاق أو قمع طاقات الإبداع في المواطنين ؟ الوقائع التاريخية المحددة هي التي تتولى الإجابة : قتل فرج فودة ، ومحاولة قتل نجيب محفوظ ، ومسلسل الملاحقات القضائية بدعاوى الحسبة .

ماذا تعنى هذه الإجابات المجسَّمة ؟ تعنى الرفض المطلق للإبداع .

● التهديد والتخويف

التهديد مقدمة لتوقيع الأذى ، وفي مضمون الحكمة الشعبية أنه (أي التهديد) كثيرا مايكون أقسى على النفس من الأذى الأصلي ، «وقوع البلا ولا انتظاره» . ويتفق هذا المضمون مع كثير من توجهات الفكر التربوي الحديث . وأسوأ مايترتب على التهديد (أي استثارة توقع العقاب) عند من سيوقَّع عليه العقاب ارتفاع مستوى القلق المبطَّن بالخوف ، وكلما ازدادت المجاهيل المرتبطة بالتهديد (متى يقع ، وبأي صورة ، وبأي درجة من القسوة ، وفي أي سياق ، بوساطة من .. الخ) ازداد ارتفاع القلق المستثار إزاءه ، وازداد استدعاؤه لأسوأ أنواع الخوف ، وهو الخوف المصحوب بالشلل عن القيام بأي فعل (إذ من المعلوم لدى دارسي العلوم النفسية الحديثة أن هناك أنواعا متعددة من الخوف تؤدي إلى اندفاع الخائف إلى إتيان أفعال متباينة ، فهناك خوف يدفع إلى الهرب ، وخوف يدفع إلى مهاجمة مصدر الخوف ..الخ) ، ويعرف أهل الاختصاص أن الخوف الذي يرسب في النفس الشلل عن الفعل إذ طال العهد به تحول إلى اكتئاب بالغ القسوة على صاحبه ، وهو الاكتئاب الذي يعرِّفه المنظِّرون الإكلينيكيون بأنه عجز مكتسب ، وبذلك يتحول الشلل الذي أشرنا إليه من حالة عابرة (رهن بموقف التهديد) إلى حالة باقية دائمة ، ثم لايلبث أن يمتد

ليشمل جميع إمكانات السلوك لدى الشخص (لا الفعل الحركى وحده) ، أى يشمل الفكر والوجدان والحركة جميعا . هكذا يكون خط سير الآثار النفسية المترتبة على استخدام التهديد ذى المجاهيل المتعددة .

فماذا يعنينا من أمر هذا التهديد ؟ يعنينا أنه أصبح فى العقود الأخيرة أداة من بين الأدوات المكرسة لإدارة عجلة الصراع بين قطاعات المجتمع عندنا .

ومع مضى السنين يزداد التمادى فى الاعتماد عليه . وإلى القارىء عدد من الأمثلة . يبدو لكل ذى عينين أن قتل الدكتور فرج فودة ، ومحاولة قتل الأستاذ نجيب محفوظ ، والاعتداء على الأستاذ مكرم محمد أحمد .. إلخ .. هذه جميعا لم تكن مجرد وقائع عدوان قُصد بها الأشخاص الثلاثة بأعيانهم فحسب بهدف التخلص منهم وبذلك ينتهى الأمر ، ولكنها جاءت منطوية كذلك على رسائل تهديد لكل من تسول له نفسه أن يحذو حذوهم . وماقدّم من دفوع وشهادات فى ساحات المحاكم يشهد بمعانى التهديد هذه التى نشير إليها . فإذا انتقلنا من هذا المستوى من الأمثلة إلى مستوى آخر لأمثلة تحمل المعنى نفسه فأمامنا المطاردات القضائية باسم دعاوى الحسبة . هذه كذلك بكل مايدور فى فلكها من مرافعات وشهادات تلقى فى ساحات القضاء ، ومقالات وتصريحات تنشر فى الصحف تشهد بما تنطوى عليه من رسائل تهديد غير مباشرة إلى فئة بجملتها من المواطنين .

وهناك أمثلة أخرى أقل فجاجة من الأمثلة التى أوردناها فى المستويين المذكورين ، ولكنها ليست أقل إفصاحا عن المعنى نفسه . ننتقى فى هذا المستوى الثالث مثالا أو اثنين . منذ بضع سنوات كانت مجلة «فصول» تخطط لإصدار عدد يقدم شهادات تتناول خبرات بعض الأساتذة الكُتّاب فيما يتعلق بحرية الرأى ، ومن ثم فقد قامت رئاسة التحرير بإرسال خطابات إلى عدد كبير من الكتاب تدعوهم فيها إلى تقديم اسهاماتهم . وإذا بواحد من الأساتذة الجامعيين الأفاضل يرفع عريضة إلى السيد رئيس الجمهورية مرفقا بها صورة لى للخطاب المشار إليه يستعديه أن يتدخل فى الأمر بصورة ما لمنع هذا التدبير من الوصول إلى مبتغاه (لأن هذا عمل شيوعى) . هذا مثال . ومثال آخر : فقد حدث عقب وفاة المغفور له الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى ١٣ مارس سنة ١٩٨٠ أن نشر عدد من تلاميذه ومريديه وأصدقائه نعيا فى جريدة الأهرام مذيَّلاً بتوقيعاتهم . وإذا بكاتب من السادة الصحافيين ذى اسم معروف ينشر بعد ذلك بأيام قليلة دعوة فى صحيفة أخرى يوجه الخطاب فيها إلى سلطات الدولة يستعديها على أصحاب هذه التوقيعات ومن ارتبط بهم على أساس أن هؤلاء شيوعيون وهاهم يتجمعون

التمصر في أرض الإبداع

بمناسبة ما ويقدمون أسماءهم بأنفسهم . وهناك أمثلة أخرى من هذا الطراز ، طراز استعداء السلطة على الفصيل الآخر . والعنصر الذى يجعل هذه الأمثلة وماشابهها تنتظم فى باب أسلوب التهديد والتخويف بأوصافه التى حددناها هو تعدد المجاهيل حول الأذى الذى ينذر به مرسل التهديد إلى متلقيه ، وتوجيه التهديد إلى أشخاص ليسوا مقصودين بذواتهم بقدر ما هم مقصودون لأنهم يرمزون إلى فصيل كبير (نسبيا) فى المجتمع . هذا بغض النظر عن مدى الصدق أو الكذب فيما يخلق مرسل التهديد على متلقيه من صفات .

○ النفى خارج الحدود

لأمر مالم يقدر لهذا الأسلوب ، أسلوب النفى خارج الحدود أن يُستخدم على نطاق واسع ، ولكنه استخدم على أية حال وأشهر مثال على استخدام ماعمد إليه المغفور له الأستاذ عباس العقاد كممثل لجبهة الشعراء العموديين فى الصراع ضد الرواد الأوائل لجبهة شعراء التفعيلة فقد كان رحمه الله وهو على رأس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية إذا تلقى عملا من شعر شعراء التفعيلة بغرض التحكيم لنيل جائزة أو ما إلى ذلك يحوّله بمذكرة أو بتأشيرة إلى لجنة النثر . وهكذا ينفى صاحب العمل والجبهة والقيم التى يمثلها حدود دولة الشعر كما يحددها سدنة هذه الدولة فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات . وجدير بالذكر أن أسلوب النفى هذا لم يكن موجها ضد صلاح عبد الصبور بشخصه أو ضد أى شاعر آخر بعينه من شعراء التوجه الجديد ولكنه كان موجهًا أساساً ضد ممثلى التوجُّه فى مجموعهم وهذا مايجعله أسلوبا بين أساليب إدارة الصراعات فيما بين فصائل المجتمع . أما مايجعله شديد الأذى فى وقعه على النفوس الساعية إلى الإبداع فهو تعارضه الجذرى مع دافع من أهم الدوافع المحركة لطاقة الإبداع وهو مانسميه الدافع إلى الحصول على الاعتراف ، اعتراف الآخر بالمبدع.

وهى علاقة شديدة التعقيد إذ تنطوى أساساً على مستويين ، أحدهما سطحى ويتمثل فى تسليم الآخر بقيمة الناتج الإبداعى الذى يقدمه لك المبدع ، والمستوى الثانى شديد العمق واسع الشمول يتمثل فى اعتراف الآخر ضمناً بالقضية القائمة وراء هذا الناتج الإبداعى وهى القضية التى زلزلت إيمان المبدع

أصلا بالصيغة التقليدية التى كانت سائدة فى المجال الفلانى . فإذا أتيت أنت ونفيت الناتج الإبداعى (ومن ثم نفيت كل مايمثله) إلى خارج حدود المجال الذى يستمد منه هويته أصلا فقد أهدرت كل حياة هذا المبدع والجبهة التى يمثلها وكل المعانى والقيم التى وقف المبدع حياته على تجسيدها ، وهو مايؤدى حتما إلى أنواع من الأذى بالغة السوء.

تأثير الأنداد

تشير الدراسات العلمية المدققة فى مجال الإبداع إلى أهمية الأنداد فى تنشيط العمليات الإبداعية عند المبتكرين أو المخترعين أو المبدعين عموما . وهذا ما تعود فتؤكده مجموعة من الدراسات شديدة الحداثة ، نذكر منها عددا من النتائج المهمة التى انتهى إليها فى سنة ١٩٩٥ عالمان جليلان هما كيث سايمونتون أستاذ علم النفس فى جامعة كاليفورنيا دافيز (بالولايات المتحدة الأمريكية) ، وكيفين دنبار أستاذ مساعد علم النفس فى جامعة ماكجيل بكندا . استعان الأول فى دراسته بالرجوع إلى سير حياة أعداد كبيرة من العلماء والفنانين والفلاسفة ، وأجرى الثانى بحوثه علي مجموعة من علماء الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا اختارهم من بين العاملين فى أربعة معامل رفيعة المستوى للبيولوجيا الجزيئية ، ومن أبسط الأمثلة علي صحة نتائج هذين العالمين مانجده يحدث من تفاعلات بين ثلاثة أو أربعة من العلماء الشبان يعملون معاً فى معمل أو قسم أو معهد واحد ، وهم يقتسمون العمل فى مشكلة بحثية مركبة ، يلتقون من حين لآخر بشكل رسمى أو غير رسمى فيتبادلون الأحاديث التى تتناول بعض مايعرض لهم من مسائل تنطوى على صعوبات بعينها ، يتطاير الحديث بينهم وبه أفكار متناثرة ، وإذا بإحدى هذه الأفكار تصلح مقدمة أولى لتسلسل فكرى معين ، ثم إذا بخاطر ثانى يصلح مقدمة ثانية ، ثم إذا بالتقاء المقدمتين فى عقل زميل ثالث يولّد لديه توقّعاً أو تنبؤا إذا أمكن البرهنة على صحته تخلّق ناتجا إبداعيا ، وهكذا .

ولننظر على ضوء هذا الحديث فى الواقع الاجتماعى النفسى الذى يعايشه شبابنا الذين يُفترض فيهم أن يكونوا واعدين ، فى مراكز البحوث وفى كليات ومعاهد الجامعات .

ولنتجه بنظرتنا مباشرة إلى أضيق الدوائر حول هؤلاء الشبان ، هم فى مجموعهم باعتبارهم مؤثرين ومتأثرين بما يدور بينهم من تخاطب أو تواصل على جميع المستويات . فماذا نجد الآن ، فى الفترة التاريخية الراهنة ؟ نجد تخاطبا وتواصلا لا علاقة له بالبحث العلمى ولا بالفكر الجاد ، وهو فى الوقت نفسه شديد التدنى فى معناه ومبناه .

قد نستثنى من هذا الحكم أو من تعميم هذا الإقرار قلة من الشبان

التصحر فى أرض الإبداع

لايزيدون على الآحاد فى هذه الجامعة أو تلك ، أو فى أحد مراكز البحوث . فما الذى تجده فى حالة هؤلاء ؟ نجد أنهم قد فطنوا فى وقت ما إلى أن كثرة مخالطة الزملاء هى الطريق إلى الضياع ، ولهذا الضياع معان وتوجهات شتى . ومن ثم فهم ينأون بأنفسهم عن هذه المخالطة .

وهكذا يصبح سياق الأنداد لدينا عاملا يضاف إلى العوامل الثلاثة السابقة ليتكاتف الأربعة معاً كعوامل اجتماعية معاكسة لإمكانات الإبداع .

وأخطر مافى هذه العوامل أنها تنصبُ علينا من بيئتنا الاجتماعية ، فهى واسعة الانتشار ، وأنها تصيب إمكانات النشاط الإبداعى نفسها ، أى تصيب الجذور .

فكأننا أصبحنا نعانى من توجه مجتمعى شامل نحو نوع من التصحر يصيب تربة الإبداع فى نفوس مواطنينا .

أما بعد ـ فقد يرى بعض القراء فى هذا العامل الأخير مايجعله ناشزاً بعض الشىء عن أن ينضم مع العوامل الثلاثة تحت فئة واحدة هى التى أسميناها أساليب إدارة الصراع أو مقتضيات الاختلاف بين قطاعات المجتمع لدينا .

ولكن ما أقنعنى بضمّه إليها كون هذا التأثير يرد علينا من البيئة الاجتماعية فى إطار التفاعل الاجتماعى ويكون ذا أثر معاكس لنشاط قدرات الإبداع .

● وأخيراً ..

أردت بهذا المقال أن ألقى الضوء على أربعة عوامل اجتماعية تسهم إسهاما له خطره فى تعطيل إمكانات الإبداع فى نفوس مواطنينا ، وتندرج هذه العوامل الأربعة تحت فئة واحدة هى فئة إدارة عجلة الصراع بين قطاعات المجتمع أو تقسيماته المختلفة ، هذه العوامل هى : التنافس الذى يتطور إلى تناحر ، والتهديد أو التخويف ، والنفى خارج حدود أرض الهوية ، ونوع التأثير الذى ينصب على الفرد من الأنداد . ويبدو واضحا أنها جميعا عوامل معاكسة لا لتنشيط استعدادات الإبداع فى نفوس المواطنين فحسب بل ومعاكسة لمجرد الإبقاء على هذه الاستعدادات فى حالة الكمون الأصلية ، ومن ثم فقد بدا لنا أن هذا الوجه من تفاعلاتنا الاجتماعية يمضى بنا نحو حالة من التصحر التام فى التربة التى هى معدّة أصلا للإبداع فى نفوس مواطنينا . □

القفـــز عـــلى الأشـــواك

(٢)

بقلـم :
د. شكرى محمد عياد

الجنة الضائعة والجنة الأرضية

«المجـوس» لإبراهيم الكونى، مـثل كل الملاحم التى نعرفـهـا، تعتـمد فى أحداثها الكبـرى على أصل تاريخى لعب به خـيـال الرواة أجيالا متعاقبة حتى اختلط فيه الواقع بالأسطورة . أما الواقع التاريخى فـهو توغل دولة المرابطين أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر داخل القارة الافريقية، متقدمين بحذاء الساحل (دولة السنغال أخذت اسمها، فى أغلب الظن، من قـبـيلة «صنهـاجـة» البربرية - ذات الأصول العربية كـمـا يقول بعض المؤرخين) ، ومـتـوغلين فى الصـحـراء ومـغيرين على أحراش أفريقـيا الوسطى . وعلى آثار الغزاة ، الذين يمكن ان يندفـعـوا فى اول امرهم طوعا لعاطفة دينية ولكنهم لا يلبثون الا قليلا حتى يصبح الغزو حرفتهم طلبـا للغنائم من الكنوز والسـبى، على آثار هؤلاء يأتى التجـار الذين يسـوقون قـوافلهم عبر الصحراء بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. ويجمعون فى أيديهم النصيب الاكبر من ثروات الجهات الأربع، شأن الوسطاء فى كل زمان ومكان.

القفز على الأشواك

وأما التاريخ الأسطورى فيقول ان المرابطين بعد ان نشروا الدعوة فى الأدغال بين قبائل الزنوج وجعلوا من «تينبكتو» عاصمة الصحراء وما تبعها من اجزاء القارة التى شملتها الفتوحات، نصبوا «ختامان» الحكيم سلطانا عليها قبل ان يعبروا غربا الى بلاد ما وراء البحار، وأقام ختامان الحكيم اول نظام اسلامى فى قارة من الزنوج الذين يتبعون السحرة ويعبدون الاصنام (المجوس كما تصفهم الملحمة) ، فمنع السجود للإله «أمناى» وطوقه بسياج من الحجارة ودعا الناس لأداء صلاة الاستسقاء فى المساجد وطلب الماء من إله السماء. ووضع القوانين وسن الأعراف بين القبائل وضمن لزعيمهم منع تجارة الرقيق مقابل استمرارهم فى تزويد السلطنة بما تحتاجه من التبر، عصب التجارة وأساس ازدهار المدن . (ج ١ ص ٧٣ - ص ٧٥).

وبرغم انشغاله ببناء «تينبكتو» لتكون عاصمة الذهب وبغداد القارة السوداء حرص على ألا تنقطع صلته بالصحراء ، فكان يقضى فصل الربيع فى المواسم المطرة من كل عام فى البرية، ووضع قانونا لنبلاء «تينبكتو» يقضى بأن يرسلوا اولادهم الى الصحراء بمجرد ان يبلغوا السادسة من العمر، وهناك يعيشون مع الرعاة، أولئك المهاجرين الابديين الحكماء. فيتعلمون منهم الرماية وركوب المهارى كما يتعلمون حب الحقيقة وحب الحقيقة عند حكماء الصحراء يعنى حب الحرية، فمن آثر الاقامة على الترحال اصبح عبدا للمكان، وساوم على الحقيقة فى سبيل البقاء.

● بداية أحداث الملحمة الصحراوية

ورث ختامان اثنا عشر سلطانا ساروا على سنته، وكانت قاعدتهم فى وراثة الملك ان يتولاه ابن الأخت، الى ان كان آخرهم «همه» ولم يكن له ابن أخت، وكان فيه ميل الى العزلة، وحنين الى عيشة الصحراء، فنزل عن الملك لابن أخيه أورغ وفى عهد هذا الملك تبدأ احداث الملحمة الصحراوية، وتجرى فى مكان ناء من أطراف مملكته، فهو يحكم فى وادى آير على حافة الأدغال . وأحداث الملحمة تجرى فى وادى آزجر الذى يشرف عليه جبل شاهق الارتفاع، جبل ايدينان. والرعاة الذين يعيشون عيشة التجوال فى وادى آزجر يعتقدون ان الجن يسكنون الجبل، وأن بين الفريقين عهدا حافظوا عليه منذ القدم، وهو ان يكون الذهب .

مثل الجبل، خاصا بالجن، فمن نقض الميثاق من أهل أزجر وتعامل بالذهب او تزين به استحق اللعنة. وكل من جاور ايدينان وتعامل بالذهب او اقتنى شيئا منه حلت عليه اللعنة كذلك. هذا ما جربه أهل أزجر حين نزل بأرضهم رجل زعم انه من علماء الدين. وانه سائح لإصلاح حال العباد، وتطهير الدين من البدع والفساد، ولم يمضى وقت طويل حتى اشتدت شوكته، وتبعه شباب القبيلة، وجعل يغير على قبائل الكفار ويرجع بالغنائم والسبايا. وهو ما بدأ تعاليمه بنهى الناس عنه . ولكن تاجرا ماكرا اراد الايقاع فأهدى اليه صندوقا مليئا بالتبر. قيل ان الشيخ كان يعرف ما فيه، وقيل عكس ذلك، ولكن الذى حدث بعد ذلك جعل قبائل أزجر اشد تمسكا بعهدهم مع الجن، فقد هزم جيش الشيخ شر هزيمة، وقال الناس ان الجن كانت تحارب مع أعدائه.

أما السلطان اورغ فكان له شأن اخر جلب عليه غضب الله والجن معا. فقد دعاه حرصه على الذهب الى مهادنة قبائل الزنج، ولا سيما حين حلت بالصحراء فترة جفاف طالت سنين، وضعفت بسببها حركة التجارة. وما لبث السلطان ان نزل على حكم السحرة واعاد عبادة أمناى. ولكن الجفاف لم يرم ، فقال الكهان ان



إبراهيم الكونى

أمناى مازال غاضبا لما حل به من إهمال فى الدهور الماضية، وانه لن يرضى حتى يضحى له بعذراء . وقدمت له عذراء قذفت فى الهاوية التى امامه. ولكنه ظل على عناده . واخيرا بعث السلطان بكبير عرافى المدينة الى زعيمهم الروحى فى الأدغال ليعود بالنبأ اليقين. وكان هذا النبأ الذى أفضى به العراف الى السلطان ان امناى منذ اليوم لن يرضى بغير سلالة النبلاء. خاف السلطان على وحيدته «تينيرى» التى رزقها بعد يأس، فبعث الى أخيه لأبيه «أناى» وكان تاجرا يتنقل بين مدن الصحراء ، وتوسل اليه بحرمة الدم كى يهرب بالأميرة الى أرض بعيدة عن سلطان أمناى وعرافى أمناى. وكانت هذه الأرض هى أزجر، حيث لا يزال الناس ثابتين على إيمانهم . لم يرتدوا الى دين المجوس.

● البطل الملحمى

ان ينزل «أناى» بابنة أخيه ومن معهما

القفز علي الأشواك

من الأتباع والعبيد فى جوار أهل «آزجر» بإذن شيوخهم وزعيمهم «آده» أمر غير مستغرب في ناموس الصحراء . ألا يمنعوهم من ماء البئر، مع ان فتيان القبيلة الاشداء يخوضون حربا «عنيدة» مستمرة كي يمنعوا رياح «القبلي» الضارية ان تطمها ، أمر غير مستغرب كذلك. ولكن هل يقنع «أناي» بهذا الجوار؟

«أناي» بطل ملحمي، ولكن «المجوس» ملحمة حديثة، وإذا كان ابطال الملاحم القديمة ذوى صفات ثابتة لأنهم مفردات فى معجم اسطورى محدد المعانى، «أخيل الشجاع» ، «أوديسيوس ذو الحيل» «عنترة ابو الفوارس» ، الخ. فإن البطل الملحمى الحديث لا يحمل صفات محددة، فالأفعال والظروف هى التى تحدد كيف تكون شخصيته، انه فى مغامرة مستمرة لاكتشاف ذاته، وراوى الملحمة يحوّلنا الى مكتشفين ايضا. يصدق هذا على «أناي» كما يصدق على سائر ابطال الملحمة، فهم لا يخرجون من قاموس معين. ولكنهم يؤلفون - معا - لغة جديدة وغريبة. علينا ان نتفهم طريقة الراوى وأسلوبه حتى نكتشف هذه اللغة ولانتوه بين مفرداتها. انه يبدو مشغولا بالاحداث اكثر من الاشخاص، ولذلك فإن تفسير حدث ما يدعوه الى رواية حدث اخر ، وهكذا تتسلسل الفصول، كل فصل منها يفسر الفصل السابق (كما فى حكايات كليلة ودمنة او الف ليلة وليلة) ، ولكننا نتبين كلما مضينا فى القراءة ان الأحداث، مهما تكن لافتة او مشوقة، لا تروى لذاتها، بل لتكشف عن نفوس أبطالها ، عما يجرى داخل هذه النفوس، التى تتحرك بين قدر مرسوم لها منذ البدء، وان كانت تجهله، ومحاولات عنيفة وعنيدة لتحقيق شيء اخر، يتبين فى النهاية انه هو ذلك القدر بعينه.

يشغلنا الراوى بتينيرى الساحرة قبل ان نعرف شيئا عن عمها، ولكننا لا نلبث ان نتبين ان العم «أناي» هو القوة الكبرى المحركة للأحداث (بذلك المعنى الغامض والمأساوى). فالقصة تبدأ فى ذلك المعسكر الذى نصبته الجماعة الطارئة فى جانب صغير من الوادى عند سفح الجبل، وتتقدم مع البناء الذى اخذ يرتفع حتى اصبح مدينة عامرة فى قلب الصحراء، امتدت اسوارها حتى احاطت بالبئر، بعد ان قاست القبيلة ما قاست حتى تدفع عنها عدوان القبلي، وتنتهى القصة بسقوط المدينة، والقبيلة معها، امام الاعداء الثلاثة الذين اجتمعوا على حربها من الانس والحيوان والجن: بنى آوى، قبيلة الزنج

التي تنتسب الى هذا الطوطم. وقد حاربهم اهل الوادى وظفروا بهم على عهد شيخ الطريقة، ومعهم قبيلة من ذلك الحيوان الذى ينتسبون اليه. وثالثهم الجن الذين غاظهم نقض اهل الوادى ميثاقهم معهم، وعلى مدى الرواية - الملحمة التى جاوزت صفحاتها السبعمائة وطوال هذا الزمن بين قيام مدينته وسقوطها تتمثل لنا شخصية أنى بتفصيل اكبر فاكبر، نموذجا مكبرا، اكثر حياة وأكثر تعقيدا. من شيخ الطريقة الذى يقول عنه أحد مريديه القدامى (ج ٢ ص ٨٨): «خلافى مع الشيخ الاكبر ليس فى تعاليمه ولكنه فى نفسه الامارة بالسوء ان المصلح والحاكم لا يجتمعان فى قلب واحد. لأن كفة الحكم أرجح وأقوى. امام المصلح الحقيقى طريق واحد. المغارة. الصحراء. العزلة فإذا انقاد للوسواس مرة وخرج من صحرائه الى الناس، فإنه يضيع لان الشيطان سيستولى على المبادرة ويتولى الامر.» (ج ٢ ص ٨٨).

بينما تكون المدينة فى طور البناء، يستضيف اناى كبير تجار الصحراء، الحاج البكاى، ويريه الحدادين العاكفين على صياغة المعدن المحرم. لا يجهل اناى، ولا هو ولا احد من حاشيته، ان اهل الصحراء الوسطى يحرمون التعامل بالذهب، وينسبون هذا التحريم الى كتاب لهم مفقود، يزعمون انه يرجع الى ألاف السنين، وأن شذرات منه فقط توجد على جدران الكهوف منقوشة بحروف «التيفناغ» . ولكن أنى يعرف ايضا ان سر قيام المدن وازدهارها فى قلب الصحراء انما هو الذهب. ايمان التجار لا يطابق ايمان الرعاة، وقد استطاع ان يخفى هذا السر عن جيرانه البسطاء، فلم يعرفوه الا قرب النهاية، وبعد ان نجح فى استقطاب معظمهم داخل اسوار مدينته. ولكن خداعه ظهر لهم من اول الامر حين زعم لشيوخهم انه لن يحتل من واديهم الا بقدر ما يفرش جلد جاموسة. وماهو الا ان اعطوا كلمتهم حتى اخذ صناعه يقطعون جلد الجاموسة سيورا دقيقة ويصلون بعضها ببعض حتى تصبح باتساع سور المدينة.

قال اهل السهل، عندما رأوا المدينة ترتفع سورا وقصورا وتحتضن دروبا واسواقا (ولكن بلا مآذن ولا أهلة ، إنه يريدها «تينبكتو الصغرى» وقال بعض الشيوخ انه ارتد الى دين المجوس مثل اخيه. أما أنى نفسه فيقول للزعيم «أده»: «لا تسىء بى الظن. ولا تعتقد انى من أولئك الذين يجرءون على انتهاز الفرصة واستغلال موقف السلطان. ليس لانه اخى ولكن لقناعتى بان النبل انفس نيشان على

القفز علي الأشواك

صدر الصحراوي، اذا فقده فقد جرد نفسه من السلاح. هذه القناعة هي التي جعلتني اقبل تحدي زعماء الأدغال وأهرب بالفتاة الى آزجر، والله وحده هو الذي كافأني على الزهد ورتب لي كل ماحققته فيما بعد من نجاح في تنفيذ الخطة القديمة. شعر اورغ بالخطر وادرك انه وضع رقبته في يد المجوس الي الابد عندما قبل شروطهم في مد الواحة بالتبر . بعث لي بالقوافل المحملة بما يكفي لتشييد الحلم ونقل (واو) من رحابها السماوية الى الأرض، في صحراء آزجر، وكان ينوي ان يلتحق بنا ايضا لولا الخدم الذين دسوا له السم في الطعام تنفيذا لمكيدة زعيم بامبارا» (ج ١ ص ٣٤٧).

الصحراويون جميعا يحلمون بواو. بعد ان طرد الجد الاعلى «مندم» من «واو الكبيرة» نتيجة لعصيانه بقي نسله يهيمون في الصحراء ولكنهم يؤمنون أيضا بأن هناك واو الصغرى، واحه في الصحراء لا تظهر الا للهائم المشرف على الهلاك. من دخلها لم يمكنه الحديث عنها،. ومن بحث عنها لم يجدها. السلطان آني اذن رجل حالم. بل هو اخطر الحالمين، لانه يحاول ان يجعل من الحلم حقيقة يجيبه الزعيم:

«اعترف لك الان اني لم اشك لحظة، عندما رأيتك اول يوم، انك من الباحثين عن واو. ولو اعطيت اذنا صاغية لهذا الهاجس لما تغيرت طبيعة السهل ولكن هل ندري ما الذي ضللني؟ لم اظن يوما ان البحث عن واو يمكن ان يكون جماعيا. تعودنا في الماضي ان نلتقي في الصحاري بالمهاجرين المعتزلين وتوارثنا عن اهلنا ان العزلة قدر الباحث عن واو. ولم يخطر ببالي ان ارى نجعا كاملا يهيم في القارة بحثا عن الوطن المفقود».

ثم:

«هل يعرف جناب السلطان لماذا يرفض الانسان ان يقاد الى الجنة بالسلاسل ؟ لان الجنة تكف عن ان تكون جنة بمجرد ان يجبر المخلوق على الاهاب اليها مسلسلا في القيود». (ج ١ ص ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٦).

سلطة المرأة

وروى خدم القصر لابنة اخيه انه حين أولم وليمته الكبرى لشيوخ آزجر بعد ان تم بناء المدينة، وعلم انهم عاتبون لأنه لم يزوجها لانبل فرسانهم «اوخا» راح يسامرهم برواية احكام قال انها مقتبسة من أنهي. وقصص شائقة عن سلطة المرأة الأثرية وجاهها القديم حتى قال: «هل يعلم الوجهاء الافاضل لماذا يرونني بدون زوجة؟

هل يدرى النبلاء لماذا لم اركن الى هذا المخلوق المقدس؟ لأنى اعرف سرا لا يعرفه كل البلهاء الذين يجازفون بالاقدام على هذه الخطوة. اعرف ان الواجب يقضى على الرجل الذى قرر ان يربط مصيره بامرأة ان يسخر لها وجوده، ان يحوم حولها كما تحوم الفراشة حول النار، لان المخلوقة، الالهية، ستعاقبه بأشر جزاء اذا لم يفعل ذلك . سيشقى، ولن يجد للحياة طعما ولا معنى. ضحكت نيريرى حين سمعت هذه الرواية، واعجبها رأيه فى «المخلوق الغامض» المرأة، ام تينيرى نفسها؟ وعرفت لماذا يتحاشى ان يفصح عن آرائه فى حضورها . عرفت ان التزامه بدستور الحياء العائلى ليس السبب الوحيد (ج ٢ ص ٢٨٠).

فهل تراها شعرت، ولو شعورا غامضا، بأن عمها كان اول عشاقها، وان رحلاته الدائمة فى التجارة، وانشغاله المستمر فى بناء «واو» الأرضية ، لم يكن الا فرارا من ذلك الحب المحرم، الذى جعله يحرم على نفسه حب اى امرأة غيرها؟

اى سر آخر يخفيه ذلك المثالى المتنكر فى ثياب سلطان؟

لقد انتهت سيرة حياته بخاتمة لم يكن يتوقعها احد.

عندما هجم الجيش الثلاثى على المدينة والسهل خرج عليهم بسيفه الذهبى وقتل منهم خلقا كثيرا. لم يفلح فى اصطياده انسى ولا جنى ولا وحش. اخيرا صاح كبير عرافى تينبكتو الذى جاء فى أثره ليطلب منه تسليم الاميرة: لا تحاولوا . انه محصن لا تعمل فيه السيوف ولا النبال. لا حيلة فيه الا خنقه بالحبال. ولكنه استمر يمزق الحبال بسيفه، فهاجمه العراف والتحما بالايدى حتى تمكن العراف من رقبة السلطان.

عثر الرجلان الباقيان من القبيلة ، الدرويش والزعيم ، على جثته بين القتلى. كان يعلق سلسلة على صدره ، فيها مفتاح ذهبى. وكثيرا ما نسج اهل الصحراء القصص حول ذلك المفتاح ، والصندوق الذى يخفيه السلطان فى قبو القصر. لم يعثر الدرويش على المفتاح مع الجثة، فاستبد به الفضول. ولم يكن الزعيم ليسىء به الظن، فليس احدهما بأقل من الآخر تشاؤما من المعدن البراق ولكن الفضول نزعة خبيثة لا يسلم منها الدراويش ولا الحكماء. ذهبا الى قبو القصر، وبعد ان عثرا على الصندوق وافلحا فى كسر القفل وقفا مذهولين امام الصندوق المفتوح.

لم يكن فيه الا .. كفن.!

الفكر الاقتصادى المصرى فى عصر الانفتاح

بقلم : د. جلال أمين

كان العامل الذى أثر فى الكتابات الاقتصادية المصرية خلال الفترة (٧٠ – ١٩٩٥) تأثيرا مباشرا أو غير مباشر ، أكثر من أى عامل آخر ، هو فى رأيى هزيمة ١٩٦٧ . فجيل الاقتصاديين المصريين الذى أتكلم عنه فى هذا المقال هو جيل ماسمى بالنكسة، وحرب أكتوبر وسياسات الانفتاح الاقتصادى ، وتدفق أموال النفط والتضخم ، وتراكم الديون الخارجية ، واتفاقيات فض الاشتباك و«السلام»، وما يسمى «بالتصحيح الهيكلى»، وأخيرا جيل الدعوة إلى مايسمى «بالشرق أوسطية» . إن معظم هذه الأحداث ما كان ليحدث على الأرجح لو لم تحدث حرب ١٩٦٧ ، ولولا هزيمتنا فيها.

لقد أدت هزيمة ١٩٦٧ الى إضعاف الدولة المصرية الى درجة جعلتها تفقد جزءا كبيرا من قدرتها على القيام بأى مهام جديدة أو اتخاذ إجراءات «ثورية» من أى نوع ، واضطرتها الى التخفيف من قبضتها على عقول الناس ومن تقييدها لحرية التعبير . كما أدى الضعف الشديد الذى لحق بثقة الناس فى السلطة ، وانتشار الشعور بخيبة الأمل فى قدرتها على تحقيق ما قدمته من وعود ، إلى ضعضعة الأيديولوجية التى كانت تتبناها الدولة ، إذ بدا للناس فجأة أن هناك أشياء أخطر بكثير من الاشتراكية والتخطيط وإعادة توزيع الدخل ، وبدا وكأن هذه الأشياء قد فقدت فجأة كثيرا مما كان يعلق عليها من أهمية .

انشغل الاقتصاديون المصريون لفترة من الوقت ، فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، بتقدير الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الحرب ، أو بمشاكل تعبئة الموارد اللازمة

لدعم المجهود الحربى وحرب الاستنزاف ، ولكن سرعان ما تحول الاهتمام الى السياسة الاقتصادية الجديدة التى دشنها السادات فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة . إن جزءا كبيرا من طاقة وجهد الاقتصاديين المصريين خلال العقدين التاليين وجه إما إلى الدفاع عن سياسات الانفتاح الاقتصادى أو إلى انتقادها ، واستمر ذلك حتى بعد بدء سياسة «التصحيح الهيكلى» فى منتصف الثمانينات ، وإن كان التركيز منذ ذلك الوقت قد أصبح على موضوعات مثل إلغاء أو تخفيض الدعم أو الابقاء عليه ، وبيع القطاع العام ونقده أو الدفاع عنه .



د. رمزى زكى



د. حازم الببلاوى



د. جودة عبد الخالق

أدى اندلاع هذه المناقشات الى اشتراك الاقتصاديين المصريين فى النقاش المعروض على الرأى العام بدرجة أكبر بكثير مما كان عليه الحال قبل ذلك ، إذ لم يحدث شىء من نفس النوع قبل تدشين سياسة الانفتاح . فخلال فترة ما بين الحربين العالميتين فى العشرينات والثلاثينات ، وكذلك فى الأربعينات لم يكن هذا النقاش العام بين الاقتصاديين واردا بسبب ندرة الاقتصاديين من ناحية والاستقرار الكبير الذى تمتعت به السياسة الاقتصادية فى ذلك الوقت من ناحية أخرى . وأما خلال الحقبة «الاشتراكية» فى الخمسينات والستينات فإن السياسة الاقتصادية لم تكن تعرض على الناس لمناقشتها بل كان يجرى إملاؤها عليهم . أما الآن ، أى ابتداء من أوائل السبعينات ، فعلى الرغم من أن المناقشات العامة لم يكن لها أى تأثير يذكر على القرارات التى تتخذها الحكومة (تماما كما كان الحال قبل ذلك) فإن زيادة درجة حرية التعبير بعد ١٩٧٠ ، والتحول المفاجىء فى السياسة الاقتصادية بعد

١٩٧٣ ، جعلا فتح باب النقاش بين مؤيدى ومعارضى هذه السياسة أمرا شبه حتمى.

● مؤتمرات الاقتصاديين

كان من بين الآثار الناتجة عن ذلك ، هو ظهور هذا التقليد الجميل ، ابتداء من ١٩٧٥ ، والذى يرجع الفضل الأول فى إنشائه للدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، لعقد مؤتمر سنوى للاقتصاديين المصريين وهو ما أخذت تنظمه كل عام الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، ومازال مستمرا حتى الآن ، وإن كان قد أصابه ضعف شديد ، بالمقارنة بما كان عليه فى السنوات الأولى لأسباب لاتختلف كثيرا عن أسباب الضعف الذى لحق بمختلف منابر وقنوات التعبير عن الرأى العام فى السنوات العشر الأخيرة . ولكن هذا المؤتمر كان طوال السنوات العشر الأولى على الأقل ، مجالا مهما لاعداد ومناقشة تحليلات جيدة ومدعمة تدعيما قويا بالاحصاءات والبيانات الحديثة ، لمختلف جوانب الاقتصاد المصرى .

وهنا يجب أن نلاحظ فارقا مهما بين الانتاج الفكرى الاقتصادى لهذه المرحلة وبينه فى المرحلتين السابقتين اللتين تناولتهما فى مقالين سابقين (الهلال ، عددا ابريل ومايو ١٩٩٦) فلأول مرة منذ بدأت الكتابات الاقتصادية فى مصر ، أصبح الاقتصاديون المصريون هم المصدر الرئيسى للتحليل الاقتصادى لمشاكل بلدهم ، فمنذ أوائل السبعينات بدأت تظهر مؤلفات مهمة بالعربية وغير العربية ، كتبها اقتصاديون مصريون ، عن الاقتصاد المصرى ، وأصبحت الاشارة الى كتابات الاقتصاديين المصريين ، التى ترد فى مؤلفات يضعها غير المصريين ، أمرا متكررا ومألوفا بينما أصبح من المألوف أيضا ظهور مؤلفات عن الاقتصاد المصرى بجهد مشترك بين اقتصاديين أجانب ومصريين. كذلك انتشرت دعوة الاقتصاديين المصريين للمساهمة فى المؤتمرات الدولية ومنشورات الأمم المتحدة ، وزاد عدد الاقتصاديين المصريين الذين يشغلون مناصب مرموقة فى مختلف منظمات الأمم المتحدة .

فى هذه الحقبة إذن (٧٠ - ١٩٩٥) لم تعد العلاقة فى اتجاه واحد : يكتب الاقتصاديون الأجانب عن الاقتصاد المصرى أو غيره فيتلقى منهم الاقتصاديون المصريون مايكتبونه ويلخصونه أو يعلقون عليه ، بل أصبح للاقتصاديين المصريين إنتاجهم المبتكر فى التحليل الاقتصادى لمشاكل بلدهم ، بل أصبحوا هم المصدر الأساسى لهذا التحليل .

يؤيد ذلك أنه لايكاد المرء يجد عملا

واحدا كتبه اقتصادى مصرى عن الاقتصاد المصرى ونشر فى أوربا أو أمريكا خلال الحقبة الأولى (٢٠ - ١٩٤٥) والكتابات الاقتصادية القليلة التى كتبها مصريون بلغة أجنبية فى تلك الحقبة ، ثم نشرها كأعداد خاصة من مجلة «مصر المعاصرة» ، التى تصدرها الجمعية المصرية للاقتصاد (مثال ذلك بحث د. محمد أنيس عن الدخل القومى المصرى) . وفى الفترة التالية (٤٥ - ١٩٧٠) ، ظل عدد الكتب المنشورة بالخارج لاقتصاديين مصريين قليلا وكانت أساسا تتضمن رسائل هؤلاء للدكتوراه المقدمة لجامعات أوربية أو أمريكية . أما فى الفترة الحالية (٧٠ - ١٩٩٥) فلم يعد الأمر كذلك ، بل أصبحت مؤلفات الاقتصاديين المصريين عن مشاكل بلدهم تطلب ابتداء من ناشرين أجانب ويرحب هؤلاء بنشرها ، سواء بالتعاون مع مؤلفين غير مصريين أو باستقلال .

ولكن بينما أفاد الاقتصاديون المصريون من زيادة حرية التعبير فى أعقاب ١٩٧٠ ، وأفادت مهنة الاقتصاد من زيادة عدد المتلقين تعليما اقتصاديا فى الجامعات المصرية ، بسبب مابذل من جهود السنوات السابقة على ١٩٧٠ وبعدها ، عانى هذا الجيل من الاقتصاديين من آثار تطورات أخرى يكاد يكون لها جميعا علاقة بهزيمة ١٩٦٧ .

● تدهور الروح المعنوية !

كان هناك أولا التدهور العام فى الروح المعنوية بسبب الهزيمة ، وفقدان ذلك الحماس الذى كان سائدا قبل ١٩٦٧ وكان وراء جزء لا يستهان به من الكتابات الاقتصادية فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . من ناحية أخرى ، أدى تراجع دور الدولة فى الاقتصاد الى أن عانى الاقتصاديون العاملون فى الهيئات الحكومية المختلفة من تراجع الطلب على خدماتهم وانخفاض أهميتهم وتأثيرهم . وعلى سبيل المثال ، وجد عشرات من الاقتصاديين المشتغلين فى وزارة التخطيط ومعهد التخطيط القومى ، والمؤهلين تأهيلا جيدا ، وجدوا أنفسهم فجأة وكأن لا أحد فى حاجة إليهم بسبب انخفاض أهمية عملية التخطيط برمتها ، ذلك أن وضع الخطط الخمسية كان قد تم هجرانه منذ منتصف الستينات وحل محله التخطيط سنة بسنة ، وحتى عندما عاد الاعلان عن وضع خطط خمسية من جديد فإن عملية التخطيط كانت قد أصبحت عملا أقل جدية بكثير مما كانت فى الستينات بسبب سحب الدولة ليدها تدريجيا من التدخل فى الاقتصاد .

أما أساتذة الجامعات فقد تعرضوا لنوع آخر من الإحباط نتج عن شعور عام باللامبالاة من جانب الطلبة ، إما بسبب الهزيمة العسكرية نفسها وما تعرض له

الوطن من محن نتيجة لها ، أو بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية بوجه عام ، وازدياد صعوبات الحياة ، بما في ذلك صعوبة الحصول على وظائف مجزية بعد التخرج ، وهي كلها أمور غير منبتة الصلة بالهزيمة العسكرية ، يضاف الى ذلك أن الحكومة وجدت نفسها مضطرة للعودة الى سياسة قبول الأعداد الكبيرة في الجامعات ، كجزء من محاولاتها لإرضاء الرأى العام الذى سيطر عليه السخط والتبرم في أعقاب ١٩٦٧ ، ثم جاء بعد ذلك بقليل عصر التضخم الجامح في أعقاب زيادة أسعار النفط في ١٩٧٤/٧٣ فإذا بأساتذة الجامعات يجدون أنفسهم، مثل غيرهم ، مضطرين للبحث عن طرق لزيادة دخولهم ولو على حساب واجباتهم العادية في الجامعة . هكذا نجد أنه ، بينما ظهر بعض الانتاج العلمي الجيد في تلك الفترة ، بل وبكمية أكبر مما كان عليه الحال في الستينات والخمسينات ، فإن الصورة الاجمالية كانت صورة تدهور عام في مستوى البحث والكتابة الاقتصادية .

● البحث العلمي ورخاوة الدولة

كثيرا ما يقال إن كل هذا إنما يرجع الى تدهور عام في الأخلاقيات ، ارتبط بارتفاع معدل التضخم واتباع سياسة الانفتاح الاقتصادي ، والظهور المفاجيء لفرص جديدة لزيادة الثروات بصرف النظر عن حجم الجهد المبذول ، وارتفاع معدل الحراك الاجتماعي المرتبط بهذا كله.

وعلى الرغم من أن هذا التفسير يتضمن بلا شك جزءا من الحقيقة ، فإن جزءا آخر من التفسير الحقيقي لهذا التدهور العام في مستوى البحث العلمي والكتابة الاقتصادية يرجع الى «رخاوة» الدولة وهي ظاهرة كان لها من الآثار السيئة على العمل العلمي والأكاديمي مالايقل عن أثر اليد الثقيلة للدولة الذى ساد في الستينات ذلك أن كل هذه التغيرات السلبية التي طرأت على الجامعات المصرية في السبعينات ، والتي أشرت إليها حالا ، كانت تجرى تحت سمع الدولة وبصرها ، وكأن لا أحد يملك القدرة أو لديه الرغبة في أن يضع حدا لها ، بينما أخذت الدولة منذ السبعينات تمنح أعلى جوائزها العلمية شأنا وأكثرها خطا من اهتمام الناس لاقتصاديين (وغيرهم من الكتاب) ممن يعرف زملاؤهم وتلاميذهم أنهم لم يساهموا مساهمة تذكر في تقدم المعرفة ، ولكنهم من ذوى الحظوة السياسية ، أو تصادف أن كانوا يحتلون، وقت منح الجائزة ، أو قبلها بوقت قصير ، مناصب وزارية أو سياسية مهمة . فكأن الدولة وهي تمنح الجائزة العلمية لاقتصادى لايستحقها تسحب الجائزة في الحقيقة من اقتصاديين آخرين كانوا قد حصلوا عليها باستحقاق منذ بضع سنوات .

● حلول سيطرت محل أخرى

ومع مرور الزمن على تدشين سياسة الانفتاح الاقتصادى وازديادها رسوخا، زادت رخاوة الدولة وضعفها، ليس فقط فيما يتعلق بالسياسات الداخلية ، بل وأيضا فى مواجهة المؤثرات الخارجية ، وكان لذلك بدوره آثاره المهمة على الاقتصاد بوجه عام وكذلك على الكتابات الاقتصادية . كان نظام البعثات الحكومية قد أصابه الضعف الشديد منذ حرب ١٩٦٧ ، وتحول تمويل البعثات الدراسية فى الخارج ، شيئا فشيئا، من الحكومة المصرية إلى الحكومات أو المؤسسات الاجنبية . ظهرت أيضا فرص جديدة ومجزية لتمويل البحوث الاقتصادية التى يقوم بها اقتصاديون مصريون ، بدأت تقدمها مؤسسات أجنبية ومكاتب الاستشارات الاجنبية داخل مصر . كان من الآثار المهمة لهذه التطورات ذلك الاثر الحتمى لطبيعة الهيئة المانحة للتمويل على نوع واتجاه البحوث الممولة . فالباحثون المصريون الذين بدأوا يحصلون على تمويل لبحوثهم من مؤسسات أجنبية أو دولية أصبحوا يبحثون فى موضوعات لم يختاروها هم ولا اختارتها لها دولتهم ، بل اختارتها لهم تلك المؤسسات الاجنبية صاحبة المال ، وكان لابد أن يترتب على



د. هبة حندوسة



د. محمود عبد الفضيل

ذلك فقدان الباحث لاستقلاله ، ليس فقط فى تحديد الموضوع الذى يقوم ببحثه وحتى فى تحديد الاتجاه العام الذى يسلكه بل وفى النتائج التى يصل إليها ، إذ إنه ليس من الصعب عادة أن يخمن المرء أى نوع من النتائج تحب الهيئة الأجنبية أو الدولية الممولة أن يصل إليه الباحث فى النهاية . وهكذا فان تحرر الباحث من تدخل الدولة وسيطرتها لم يكن يعنى فى الحقيقة استرداد الباحث لحريته واستقلاله ، بل كان يعنى فى كثير من الأحوال خضوعه لنوع آخر من السيطرة ، ليس بالضرورة أقل ضرراً ، وهو سيطرة المؤسسة الاجنبية أو الدولية، وإذا بالحياد المزعوم للبحث الاقتصادى لا يزيد عن أن يكون حيادا ظاهريا وموهوما .

● أثر الهجرة

عندما حل عصر الهجرة على نطاق واسع ابتداء من منتصف السبعينات ، سافر عدد كبير من الاقتصاديين الاكاديميين المصريين إلى بلاد الخليج ، ليس هربا من النظام السياسى ، كما كان

الحال فى كثير من حالات الهجرة فى الستينات، بل هربا من التدهور الاقتصادى الذى بدا وكأنه قدر محتوم لو بقى المرء فى مصر فى مواجهة التضخم الجامح. وقد كان أثر هذه الموجة التالية من الهجرة على الكتابات الاقتصادية المصرية أسوأ من أثر الموجة السابقة (موجة الهجرة فى الستينات) ليس فقط لأنها شملت عدداً أكبر من الاقتصاديين المصريين، ولكن بسبب طبيعة الاعمال التى كان معظم هؤلاء المهاجرين يؤدونها فى بلاد الخليج . فالمهاجرون الأوائل من الاقتصاديين والفنيين المصريين، كان معظمهم يترك مصر ليعمل فى منظمات الأمم المتحدة أو فى دول لا يظهر فيها هذا الانفصام الواضح بين مايحصل عليه المهاجرون من مرتبات ومايقومون به من جهد. ولم يكن الحال كذلك فى معظم دول الخليج ، حيث كانت المرتبات أعلى بكثير من القيمة الحقيقية للجهد المبذول، الأمر الذى كان يعنى أن المهاجر المصرى لدى عودته الى بلاده كان لابد أن يعانى من الآثار السلبية لقضاء فترة فى الخارج حصل فيها على أجر أعلى بكثير مما يبرره جهده، عاد بعدها لبلاده ليواجه الظاهرة العكسية ، بالضبط حيث يحصل على دخل أقل بكثير من قيمة الجهد الذى يبذله .

⊙وأخيراً

لا أريد أن أختم هذا الاستعراض لتطور الكتابة الاقتصادية فى مصر خلال القرن الحالى بهذه النغمة المتشائمة، فالحقيقة أن الدرس الذى يستخلصه المرء من هذا الاستعراض لا يدعو الى كل هذا التشاؤم. نعم، لقد حمل كل جيل من الأجيال المتعاقبة من الاقتصاديين المصريين عبئا ثقيلا، وليس هناك دليل على أن العبء كان يقل ثقله مع مرور الزمن. لقد تحمل جيل مابين الحربين (١٩٢٠-١٩٤٠) عبء الدراسة والكتابة فى ظل الاحتلال ، على الرغم من حصول مصر اسميا على استقلالها فى مطلع تلك الفترة. وكان على الجيل التالى من الاقتصاديين (٤٥-١٩٧٠) أن يدفع ثمنا فرضه نفس الاشخاص الذين قاموا بتحرير الوطن من الاحتلال والنفوذ الاجنبى، وهو الثمن المتمثل فى اليد الثقيلة للدولة على المجتمع والفكر، على الرغم من المزايا التى حققها الاقتصاد القومى والمجتمع من هذا التدخل الصارم من جانب الدولة . فلما قل هذا العبء وقل تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية منذ أوائل السبعينات دفع الجيل التالى من الاقتصاديين (٧٠-١٩٩٥) تكاليف هذا التراجع نفسه من جانب الدولة، أو مايمكن أن يسمى بتكاليف «الدولة الرخوة» .

كل هذا صحيح ولكن كل هذا لا يعنى أن الكتابات الاقتصادية والفكر الاقتصادى المصرى لم يحققا أى تقدم خلال هذه الفترة الطويلة التى شغلت ثلاثة أرباع القرن أو أن التقدم الذى أحرزاه كان هينا، فمصر اليوم لديها عدد كبير من الاقتصاديين الاكفاء، أكبر بكثير مما كان لديها فى ١٩٢٠ ، وعدد اكبر بكثير من الخريجين الذين تلقوا دراسات اقتصادية، وتنتج كمية أكبر بكثير من الاحصاءات الجيدة والتى يمكن التعويل عليها، ومن الكتب والدراسات والدوريات الاقتصادية من مختلف الأنواع لكل هذا علينا أن نشعر بالامتنان لكل هذه الاجيال الثلاث المتعاقبة من الاقتصاديين المصريين رغم كل ما شاب عملهم من أوجه القصور، وسواء منهم من كتب مؤلفات فى التاريخ الاقتصادى أو كتبا دراسية فى النظرية الاقتصادية وسواء كانوا من المؤمنين بنظام الحرية الاقتصادية أو النظام التعاونى او النظام الاشتراكى. إن معظم هؤلاء أدى خدمة جليلة لمهنة الاقتصاد وللفكر الاقتصادى والكتابة الاقتصادية فى مصر، وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا بالطبع نمو حجم المعرفة الاقتصادية ولكننا لسنا واثقين بنفس الدرجة مما إذا كان هذا النمو فى حجم المعرفة الاقتصادية قد صاحبته زيادة حظ هذه الكتابات الاقتصادية من الموضوعية وأنها أصبحت أكثر «علمية» وحيادا وأقل تحيزا. فكما أن كل عبء يزول كان يحل محله عبء جديد ، فإن كل «تحيز» قديم كان يحل محله تحيز جديد.

إن التحيز «الوطنى» الذي كان يطبع كتابات الجيل الاول جيل مابين الحربين، حل محله التحيز «الاشتراكى» فى الستينات ، ثم حل محل ذلك، التحيز لنظام السوق والحرية الاقتصادية منذ السبعينات. لعلنا قد أصبحنا أكثر مهارة مع مرور الزمن فى إخفاء تحيزاتنا وأهوائنا أو لعلنا قد أصبحنا أقل قدرة على إدراك هذه التحيزات أصلا، ولكننا ما زلنا على الارجح، متحيزين كما كنا دائما ، وربما بنفس الدرجة . ربما كان هذا هو المصير المحتوم لكل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، فى مصر كما فى غيرها، ومن ثم فقد لايشكل هذا سببا للقلق. إنما قد يكون السبب المشروع للقلق، للاقتصاديين المصريين على الأقل، هو أن هذه التحيزات والأهواء تميل مع الزمن الى أن تفقد طابعها الوطنى، فما كان تحيزا مصريا خالصا قد حلت محله شيئا فشيئا تحيزات وأهواء خارجية تفرضها مؤثرات ومصالح أجنبية عنا ..

مصر والعالم فى القرن ٢١

مستقبل العالم وصراع الثقافات

بقلم : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى

●● كان هذا الكتاب فى الأصل محاضرات ألقيت فى مايو ١٩٩٣ فى جامعة وسلونسن بالولايات المتحدة الأمريكية. ومؤلفه بروفيسور برنارد لويس من الشخصيات التى لمعت فى مجال الاستشراق لمدة تقرب من نصف قرن وقضى قسطا منها يقوم بالتأليف والتدريس بجامعة لندن قبل انتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. وقد ركز اهتمامه على الشرق الأوسط الإسلامى ،وبخاصة العصر العثمانى والتاريخ المعاصر للعالم العربى. ومحاضراته الثلاث التى جرى نشرها فى أكسفورد فى عام ١٩٩٥ إرتبطت بالاحتفالات الغربية التى تمت بمناسبة مرور خمسة قرون على الأحداث المهمة التى جرت فى عام ١٤٩٢ الذى شهد سقوط ما تبقى من الحكم الإسلامى فى غرناطة ، واكتشاف كولمبس لأمريكا ، وطرد اليهود من أسبانيا والبرتغال وتشتتهم فى شتى أنحاء العالم. وقد سعى بروفيسور لويس إلى إيضاح مدى ارتباط أحداث نهاية القرن الخامس عشر بعضها ببعض ، وبذلك وضع التطورات الثلاثة: الفتح والطرد والكشوف فى إطار أوسع يرتكز على التداخل الدولى للأديان ، أو ربما تداخل تاريخ القارات ●●

وفى نفس الوقت بدأ توسع أوربا ، ففى الغرب بدأت زحزحة السيطرة الإسلامية التى استمرت عدة قرون، وفى الشرق استطاع الروس بعد كفاح طويل أن يقضوا على ما اعتبره مؤرخوهم نيرا تتريا. وفى شرقى أوربا وغربيها نقل المسيحيون الصراع إلى عقر دار العدو. ففى الشرق تعقب الروس التتار فى عقر دارهم ، وسيطروا على وسط وشمالى آسيا. وفى الغرب قام الأسبان والبرتغاليون، ثم الشعوب البحرية الأخرى بتعقب المسلمين إلى داخل أوربا وآسيا ، واستعمروا أمريكا بعد أن تم اكتشافها، وقد أفاد المؤلف من المادة التى جمعها وأفاد منها أثناء إعداده لمحاضرة ألقاها فى واشنطون وجامعة تل أبيب وفى مكتبة نيويورك العامة وفى جنوة واستانبول - وكل ذلك فى عام ١٩٩٢.

وفى التاريخ الحديث تطلع كل من المسلمين والمسيحيين للسيطرة العالمية. وقد اختلف الصراع بين أوربا والإسلام كثيرا عن مواجهتهما لكل من الهند والصين

اللتين لم تعرف أوربا عنهما كثيرا. فلم تتعد كل من الصين والهند كونهما اسمين يقترنان بما يأتي منهما من سلع، أما فيما يتعلق بالإسلام فكان الوضع مختلفا تماما فقد كان الطرفان يعرف كل منهما الآخر. وهناك اختلاف آخر إذ إن اصطلاح الصين والهند كان يتصل بمكان في حين أن الإسلام دين. وربما كانت حضارات الصين وشرقي آسيا وأمريكا قبل كولمبس متقدمة جدا، ولكنها كانت إقليمية بالضرورة وذلك باستثناء العمليات الطبيعية الخاصة بالتوسع والنفوذ في البلدان المجاورة مباشرة، وبالتالي كانت حضارتا الهند والصين تقتصران على مكان واحد، بل وربما ثقافة واحدة وجنس واحد، بعكس الإسلام الذي كان من حيث المبدأ عالميا في معتقداته ونظرته إلى نفسه وطموحاته، فالمسلم كان يعتقد أنه قد خص بالكشف النهائي فاعتبر نفسه منوطا بنقل رسالة الله إلى بقية البشر بالجهاد. وفي هذا يختلف الإسلام كثيرا عن بقية حضارات آسيا وافريقيا والأمريكتين. ولكنه يشبه المسيحية التي كانت منذ بداية عهدها تشغلهم فكرة تميزها ورسالتها.

وحتى نهاية العصور الوسطى كان المسلمون قد قطعوا شوطا أبعد من المسيحيين في تحقيق طموحاتهم. فرغم أهداف المسيحية العالمية بقيت في الأساس أوربية، بل إن حروبها المقدسة والصليبية استهدفت الدفاع عن أراض مسيحية أو استرجاعها. والاستثناء



الوحيد هو الحبشة البعيدة والتي كادت تكون غير معروفة ولم يكن لها تأثير كبير على تصور المسيحيين لواجبهم ورسالتهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأقليات المسيحية في جنوب غرب آسيا الواقعة تحت حكم المسلمين. فالمسيحية كانت ديانة جزء صغير نسبيا من العالم، كان سكانه من جنس واحد وثقافة واحدة تقتصر على عدد قليل من المجموعات المتداخلة جنسيا. أما الحضارة الإسلامية فكانت على العكس من ذلك.. فقد كانت الحضارة الأولى التي يمكن اعتبارها عالمية بمعنى أنها كانت تشمل شعوبا من أجناس مختلفة وثقافات مختلفة في ثلاث قارات مختلفة.. وكانت الحضارة الأوربية التي ازدهرت فترة طويلة، في أسبانيا وشمالي إيطاليا وفي الاستبس الروسية وشبه جزيرة البلقان أسيوية وأفريقية شملت أجناسا بيضاء وسوداء وسمراء وصفراء، وكانت من الناحية الجغرافية تمتد من جنوبي أوربا إلى قلب أفريقيا وآسيا عبر حدود الهند والصين.

ومنذ ظهور الإسلام في القرن السابع

الميلادى ووصول أنصاره إلى عالم البحر المتوسط كان جارا لدار المسيحية ومنافسا لها وأحيانا عدوا لها، فى حين كانت البوذية قد فقدت حماستها التبشيرية وأصبحت ديانة إقليمية فى جنوبى وجنوب شرقى آسيا - وكانت الديانتان المسيحية والإسلامية تعتبر كل منهما الأخرى منافسا لها - ولمدة ألف سنة تعرضت أوربا للرعب والتهديد الإسلاميين - فالفتوح الإسلامية الأولى تمت إلى حد كبير على حساب المسيحية - فقد كانت كل من سوريا وفلسطين ومصر وشمالى أفريقيا بلدانا مسيحية حتى ضمها المسلمون فى نهاية الأمر. وقد مر الزحف الإسلامى إلى داخل أوربا ليس فقط بمرحلة واحدة بل بثلاث مراحل. وقد استمرت الموجة الأولى منذ أوائل القرن الثامن وضمت أسبانيا والبرتغال وجنوبى إيطاليا وأجزاء من فرنسا، ولم تنته حتى عام ١٤٩٢ حين سقطت غرناطة. أما الموجة الثانية فقد تغلغلت فى شرقى أوربا حين سيطر المغول على روسيا ومعظم شرقى أوربا وتحولوا إلى الإسلام وأخضعوا إمارة المسكوف وغيرها من الإمارات الروسية لسيطرة المسلمين وهى السيطرة التى انتهت بعد نضال مرير نتيجة لعملية الاسترجاع المسيحية وتقهقر التتار الذين أسلموا من روسيا. وأما الموجة الثالثة فقد جاءت على أيدى السلاجقة والعثمانيين الذين توسعوا على حساب الدولة البيزنطية وعبروا أوربا وأسسوا امبراطورية قوية بعد أن استولوا على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ثم حاصروا فيينا مرتين، فى حين تابع «قراصنة» شمالى أفريقيا جهادهم البحرى حتى الجزر البريطانية بل وأيسلنده. ثم حدث التحول المضاد بعد الحصار الثانى لفيينا إلى أن تراجع المد العثمانى. وفى تلك الأثناء بذل الدارسون الأوربيون المسيحيون جهودا كبيرة لفهم الحضارة المعادية للرد عليها وحماية رعاياها ولو أن عددا قليلا هم الذين اعتنقوا ديانة الغزاة.

● بين الاتفاق والاختلاف

وانقسم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب - وهذه الأخيرة شملت البلدان المسيحية: بيزنطية ثم أوربية ، وقد فهم الطرفان بعضهما البعض جيدا أكثر مما فهموا الحضارات الأخرى البعيدة فى آسيا وما قبل كولمبس. وكان لدى المسلمين والمسيحيين ميراث عظيم مشترك استقى من نفس المصادر فلسفة الإغريق وعلومهم وقانون روما وحكومتها . والتوحيد اليهودى بالإضافة إلى ثقافات الشرق الأوسط فى العصور القديمة. وكل هذا كان يمكن أن يكون صعبا إن لم يكن مستحيلا بين المسلمين والمسيحيين من ناحية وبين حضارات الهند والصين من ناحية أخرى ، حقيقة أن الطرفين اعتبر كل منهما الآخر « كافراً » ، ورغم ذلك فقد كانا متشابهين - فكل منهما كان يدعى أن لديه حقائق شاملة ونهائية ، بمعنى أن عليهما أن ينشرا كلمة الله الأخيرة بين من تبقى من

العالم وأنهم سيكافئون بالجنة وببعض المكاسب في هذا العالم ، وأن من يخالفونهم سيعانون فى هذا العالم والعالم الآخر . وقد اختلف الطرفان فى تصور السماوات ولكنهما كانا يتفقان فيما يتعلق بالجحيم . وكل ذلك لم يكن له معنى بالنسبة إلى الهنود والبوذيين والكنفوشيين.

وكانت الحضارة الأوربية أدنى مستوى من الحضارة الإسلامية التى ازدهرت ماديا وكانت تشبه الحضارة الغربية من حيث تضلعها فى العلوم والفلسفة . كما وجدت اختلافات من حيث أن مساحة أوربا الوسيطة كانت محدودة فى الوقت الذى كان مدى تسامحها ضيقا بالنسبة إلى الديانات الأخرى ومذاهبها هى ، فى حين أن الحضارة الإسلامية كانت متنوعة التركيب وتعددية فى طابعها فى الوقت الذى كان فيه المسلمون أكثر تسامحا مع الأديان السماوية الأخرى التى أفسحوا لها مجالا فى المجتمع . فقد كان المسلمون على استعداد للتعايش مع معتنقى الديانات الأخرى الذين كانوا فى مقابل قبولهم لبعض القيود يستطيعون أن يتمتعوا بالممارسة الحرة لدياناتهم وبحرية إدارتهم لشئونهم .

وفى أوائل العصور الحديثة بدا اختلاف موازين القوى بين دار الإسلام وغيرها . فقد نجح الاسترجاع فى أيبيريا وروسيا ولو أنه فشل فى الشرق الأدنى نتيجة لظهور الترك الذين سيطروا على الأناضول الذى كان فى السابق يونانيا ومسيحيا وما لبث الترك أن شنوا الهجوم الثالث على أوربا .. ورغم ذلك فما لبث الأوربيون أن انتصروا نتيجة لتقدم أسلحتهم وتكنولوجيتهم وقوة اقتصادهم .

وكان قد جرى اختراع البارود في الشرق الأقصى رغم أنه لم يستعمل كسلاح ثم انتقل إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوربا حيث جرى استغلاله فى التوصل إلى أسلحة نارية قلبت ميزان القوى فى صالح الغرب الذى أحرز التفوق فى البحر . فقد بنيت أساطيل أوربا الغربية لكى تستعمل في المحيط الأطلنطى ، ومن ثم فقد كانت أكبر وأقوى من سفن المسلمين التى جرى استعمالها في البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .. كما امتد تفوق الغرب إلى مجالات الإنتاج الاقتصادى وعرف الطباعة التى انتقلت إليه من الشرق. فقد وفد مهاجر يهودى أسبانى إلى الدولة العثمانية وسمح له بأن يطبع بشرط ألا يستعمل الحروف العربية ثم اشتغلت الأقليات المسيحية بالطباعة وكان استعمال المدافع والمطابع من مظاهر الاختلافات المتزايدة بين الشرق والغرب . ومن أسباب تخلف العالم الإسلامى فى هذا المضمار أن مجتمع العبيد (المماليك) الحربي كان غير مستعد لذلك وفى نفس الوقت كانت المجتمعات الإسلامية أكثر عرضة لتعدد الزوجات والتسرى .

● طرد اليهود ..

كان اليهود مكروهين لأنهم رغم تنصر بعضهم لم يقبلوا التفسير المسيحى العهد

القديم .. فقد ظل اليهود على الرغم من اعتناقهم المسيحية متمسكين بعقيدتهم القـــديمة ســـرا ونقلوها إلى أبنائهم وأحفادهم الذين عُمِّدوا وجرى تعليمهم باعتبارهم مسيحيين . وذهب تفسير آخر إلى أن الوجود المستمر لليهود كان يؤثر فيمن قبلوا التعميد تحت ضغط وبالتالي كانوا يتهمون بأن لديهم ميلا للارتداد . وبعد سقوط غرناطة واكتمال اتحاد ممالك أسبانيا سياسيا وعسكريا دون أن تتحد دينيا لوجود عدد كبير من اليهود وعدد أكبر من المسلمين تحول الاسبان في البداية إلى اليهود الأكثر تهديدا للتعاليم المسيحية والأضعف بالنسبة إلى السلطة المسيحية .. وهكذا تم طردهم خاصة أنهم لم يكن لهم قادة ولم يعاملوا باحترام باعتبار الطرد أسلم وأسهل ويمثل تجربة لطرد المسلمين . وبعد الطرد هاجر اليهود إلى الدويلات الإيطالية وهولندا وانجلترا بل عبر بعضهم الأطلنطي إلى المستعمرات الجديدة في أمريكا ، كما هاجرت أعداد كبيرة إلى بلاد المسلمين التابعة للدولة العثمانية في أوربا وآسيا ثم في أفريقيا .

● الكشوف الجغرافية

منذ القرن الثاني عشر وجد في أوربا الغربية اتجاه يذهب إلى ضرورة تتبع المسلمين عبر جبل طارق وتردد صدى هذا الاتجاه لدى المسكوفيين الذين بعد أن تحرروا من سادتهم التتار تتبعوهم بعد هزيمتهم إلى داخل بلاد التتار . وقد ذهب فاسكو داجاما البرتغالي بعد وصوله الى الهند بعد سنوات من إبحار كولمبس إلى أنه جاء ليبحث عن المسيحيين والبهار .. ومن ناحية أخرى كان هذا التوجه يمثل حركة استراتيجية في حرب دينية لها أبعاد عالمية وخطة تجارية تستهدف التخلص من الوسطاء والتوجه رأسا الى المنتج ، وكان هذا الصراع قد بدأ قبل الإسلام والمسيحية .. وبعد أن تحول خلفاء روما الى المسيحية واعتنقت الامبراطورية الشرقية الإسلام أضاف ذلك بعدا دينيا ، وبالتالي بعدا عسكريا واستراتيجيا ، للصراع القديم .

وأثناء تقدم المسلمين في آسيا وافريقيا لم تعترضهم قوة عسكرية عظمى أو أي عدو ديني يعتد به ، وفي أوربا وجدوا الاثنين ، وبالتالي فليس من الغريب أن يكون الجهاد من الوجهتين النظرية والعملية يتصل في المحل الأول بالصراع ضد المسيحية في مختلف مسارحها الأوربية . وقد أدى قرب المسافات إلى ظهور أمراض تستلزم تشخيصات وأدوية جديدة . وهذه الأمراض كان يمكن أن تكون اجتماعية أو طبية مثل ضغوط العبودية التي أضيفت إلى العديد من مؤسسات العبودية في العالمين القديم والحديث . فالرق في التاريخ الحديث هو رق استعماري ولكن أوربا هي أول من قرر تحرير العبيد في داخلها ثم في مستعمراتها - إلى أن جعلت التكنولوجيا العبودية أمرا لا لزوم له .

ولهذا فإن اكتشاف أمريكا كان نقطة تحول في تاريخ البشرية ، إذ أكد انتصار

أوربا على أعدائها وانفتاح مناجم الذهب والفضة التى مولت تجارة أوربا وحروبها ومخترعاتها ، فالحقول والمزارع الأمريكية أمدت أوربا بموارد وسلع جديدة ومكنت الأوربيين ، للمرة الأولى ، من الاتجار مع المسلمين وغيرهم باعتبارهم أنداداً إن لم يكونوا متفوقين عليهم ، كما أدت الاحتكاكات بأرض وشعوب غير مألوفة لم يعرفها التاريخ ولا الكتب السماوية إلى تحطيم الأطر الذهنية وتحرير عقل الإنسان وروحه ، وهناك تساؤل مهم لماذا تطلع الأوربيون إلى هذا التوسع والتنصير والاستعمار وإقامة عالم مركزه أوربا وللإجابة على ذلك نذكر أنه حدثت فى هذا القرن تغيرات مهمة فى تشخيص الحضارة الأوربية . فقد انسحبت روسيا من أوربا ، وبعد الحرب العالمية الثانية أرغمت مناطق واسعة فى شرق أوربا على أن تقوم بنفس الشيء . وبعد أن أنهكت أوربا نتيجة لحربين عالميتين وانهارت الإمبراطوريات استسلمت أوربا لأمريكا التى قامت فيها حضارة جديدة . ولقد أصبح من المعتاد أن توصف هذه الحضارة الأكبر التى مصدرها أوربا وقائدتها أمريكا بأنها هى « الغرب » . والآن بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة يحتمل أن تبرز أوربا جديدة وأكبر .

فقد برزت مؤخرا فكرة تعدد الثقافات ومعناها أن الطابع المتمركز على أوربا فيما يتعلق بالتعليم والثقافة لابد أن يسدل عليه الستار ويفسح المجال لتعدد الحضارات الذى يتمشى مع تقاليد أوربا والغرب - فالغرب هو أول من درس الحضارات الأجنبية المخالفة وفك طلاسم الكتابات المندثرة وأسهم فى التعرف عليها وفهمها فى حد ذاتها ، وعلى أى حال فإن الحضارة الأوربية ليست أوربية خالصة بحكم أنها تأثرت بالحضارات السابقة التى ازدهرت فى مصر والهلال الخصيب ، كما أن فهم الآخرين أسهم فى فهم الغربيين لأنفسهم ، وفى السابق اتهم الغرب بالعدوان والسيطرة والاستغلال والاستعباد والقتل والاغتصاب ، ولهذا فإن من شأن النظرة الجديدة أن تسير قدما فى طريق اعتبار الحضارة العالمية ملكا للجميع ، إذ أسهمت فى بنائها أجيال متعاقبة من مختلف الشعوب والأجناس .

وفى أواسط القرن العشرين أصبح العالم الجديد الذى بدأ تاريخه فى عام ١٤٩٢ هو قائد الحضارة الغربية وأهم المدافعين عنها فى مواجهة الأعداء الداخليين والخارجيين الذين سعوا إلى تدميرها . ورغم النقد الذى تتعرض له الحضارة الغربية وزعامتها فحتى الآن لا يوجد منافس قوى لها أو بديل عنها . فهل معنى ذلك أن البشرية مقدمة على عصر جديد تهيمن عليه حضارة جديدة تقوم على تراث البشرية السابق وما أضافه الغرب إلى هذا التراث الذى لا ينفرد الغرب بتشكيله ، فرغم الابتكارات المذهلة التى صدرت عن الغرب فإنها قد أفادت من إنجازات الغير التى سبق تشكلها فى العالم القديم .

قراءة فى كف مصر فى ثلاثينيات القرن المقبل

بقلم : د. رشدى سعيد

(١)

□ عندما طلبت منى الهلال أن أكتب عن مصر فى القرن الواحد والعشرين ترددت كثيرا ، فلى فى مجال الكتابة عن المستقبليات تجربة لم تكن ناجحة - فمنذ ثلاثين عاما وفى أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧ كتبت أربع مقالات متتالية بجريدة الأهرام عن تصورى عما سيكون عليه حال مصر والعالم فى آخر القرن العشرين - وفيها تنبأت بأن الحرب الباردة ستكون قد انتهت قبل نهاية القرن بمصالحة توفيقية بين النظامين المتصارعين ، واللذين وصفتهما بأنهما بنات حضارة واحدة بحيث يأخذ كل منهما الشىء الطيب من الآخر لكى ينطلقا لبناء عالم يسوده السلم والعدل الاجتماعى والديمقراطية - أما فى مصر فقد تصورت أن سكانها الذين سيبلغ عددهم الستين مليونا عند نهاية القرن ، سيرتفع متوسط دخل الفرد فيها حتى يصل إلى قرابة الأربعة آلاف دولار فى السنة ، وقد بنيت هذا التصور على افتراض أن مصر ستستمر تنمو بنسبة ٧ ٪ فى السنة حتى آخر القرن وهى نسبة لم تكن بعيدة عن تلك التى حققتها مصر بالفعل فى الستينيات .



المياه وتلوثها أهم المشاكل التي قد تواجه مصر في ثلاثينيات القرن المقبل

وكما هو واضح فإن تنبؤاتي قد خابت – فالحرب الباردة لم تنته على الوجه الذى تصورته بل انتهت بانتصار طرف على طرف ، ولم ينتج عن هذا الانتصار إلا عالم يسوده القلق ، انتشرت فيه الكثير من الحركات اللاعقلانية ، وتهمشت فيه جماعات بأسرها ، بل ودول بكاملها ، وتراجعت فيه الديمقراطية بسبب بروز قوى جديدة أصبحت هى الحاكمة والمؤثرة فى الأحداث ومصائر الناس كالشركات عابرة الدول وأجهزة الإعلام ، وهى قوى لايعرف الناس عنها الكثير فقراراتها سرية وملاكها غير مسئولين أمام أحد ، وفى مصر خابت أيضا تنبؤاتي – صحيح أن عدد السكان أربى على الستين مليونا ولكن دخل الفرد لم يصل إلا إلى سدس ما كنت قد تصورت أن سيكون .

الكتابة عن المستقبليات لذلك هى أمر من الصعوبة بمكان ، فالتاريخ لايسير فى خط مستقيم بحيث يمكن إسقاط معاملات فترة على فترة تالية ، واتجاهاته لايحكمها المنطق أو الصالح العام بل فى الأغلب تحكمها المصالح الآنية للنخب الحاكمة والتى تتفاوت فى حكمتها من بلد إلى آخر ومن وقت إلى آخر – ويزيد الأمر صعوبة أننا نعيش عصرا ينبض بالحركة ويتميز بسهولة الاتصال وكثرة الاختراعات مما يجعل تصور شكل المستقبل صعبا . وما يكتبه توفلر وأمثاله عن المستقبل الوردى الذى ستأتى به «الموجة الثالثة» لعالم

«مابعد الصناعة والمعلوماتى» هو وجهة نظر تكاد تكون من باب الخيال العلمى، . لحقيقة الواقعة هى أن حضارة الموجة الثالثة على الرغم من أنها فتحت آفاقا جديدة لاستمتاع عدد محدود من الناس بالمعلومة والاتصال الفورى بأمثالهم على اتساع العالم ولتعاظم القدرة الانتاجية إلا أنها قللت الحاجة إلى الأيدى العاملة مما زاد من عدد المتعطلين وخاصة بين المتعلمين ومهرة العمال وزادت الفروق الطبقية داخل الدولة الواحدة وبين الدول أيضا - ولذا فإن الألم والقلق الذين حملتهما هذه الموجة يفوقان بكثير ما جاءت به حتى اليوم - فقضية الاستفادة من ثورة المعلومات على مستوى البشر عامة تحتاج أولا إلى تغيير أساسى فى النظام السياسى والاجتماعى للعالم وهو أمر غير باد فى الأفق حتى الآن .

(٢)

وقد سبب لى إخفاقى فى تنبؤاتى التى تصورتها وأنا فى منتصف سنوات العمر أن أتردد فى الدخول فى تجربة أخرى، إلا أنى قررت الاستجابة لدعوة «الهلال» وأن أكتب هذا المقال عن تصورى لحال مصر فى نهاية الثلث الأول من القرن الواحد والعشرين، أكتبه وقد خط الشيب شعرى وأنا فى آخر سنى العمر محاولا أن أبين ماذا سيكون عليه شكل مصر لو أنها استمرت على نفس النهج الذى تسير عليه اليوم حتى يتبين للنخب قدر العمل الذى ينتظرها لكى يتركوا بلادهم وهى أحسن حالا عما تسلموها

وسيعيش فى أرض مصر فى ثلاثينيات القرن الواحد والعشرين مابين المائة والمائة وعشرين مليونا من البشر، سيبنى الكثير منهم مسكنه على أرض وادى النيل الزراعية التى ستصبح نصف مساحتها على الأقل غابة من الأسمنت ومشغولة بالمبانى والطرق ومختلف المنشآت ، وسينتقل إلى المدن جزء كبير من سكان الريف وستصبح القاهرة الكبرى عاصمة يسكنها ثلاثون مليونا من البشر - يعيش الجزء الأكبر منهم مكدسين فى مناطق عشوائية على أطراف المدينة وفى مساكن ليست بها دورات مياه أو صرف صحى - أقول ذلك من واقع أن أحدا لم يقم حتى اليوم باقتراح طريق يمكن أن يعطى الفقراء مسكنا معقولا وبسعر يمكن أن يتحملوه - وسيزداد الضغط السكانى على الكثير من الأحياء القائمة وسينحدر حالها من حيث الخدمات والمواصلات والضوضاء والتلوث وسيحدث لها ماحدث لحى شبرا خلال النصف

الثانى من القرن العشرين وسيهجرها القادرون إلى خارج المدن لبناء واحات لسكناهم بعيدا عن الازدحام والضوضاء .

وستجابه الزراعة فى وادى النيل مصاعب كبيرة وسيهجر العمل فيها الكثيرون لصعوبة العمل فيها وقلة العائد منها كما ستجابه الزراعة فى الصحراء صعوبات أكبر وسيكتشف الكثيرون أنها كانت مغامرة خاسرة بعد أن يهبط منسوب الماء الجوفى وتزيد ملوحة الآبار - وسيزداد اعتماد مصر على العالم الخارجى لتزويدها بالقمح ومختلف المواد الغذائية .

ويتناقص المساحات المزروعة فى وادى النيل فلن يجابه المصريون نقصا فى كمية المياه اللازمة لاستخدامهم المنزلى أو فى الصناعة فسيعوض الماء الذى سيوفرونه فى الزراعة حاجتهم المتزايدة فى الأغراض الأخرى - وأغلب الظن أن مياه النيل ستصلهم دون مشاكل تذكر مع دول أعالى النيل التى ستظل على الأغلب فى حال لن يسمح لها باستغلال أكبر لمياه النيل أو تحدى حق مصر فى مياه النيل على أن أكبر المشاكل التى قد تواجه مصر فى توفير المياه فى ثلاثينيات القرن القادم قد تكون فى انسداد جزء كبير من بحيرة ناصر حول الشلال الثانى عند منطقة وادى حلفا بالطمى الذى يحمله النهر ويرسبه هناك وما يتبع ذلك من خسارة فى كمية المياه التى تصلها نتيجة البخر والتسرب - وقد وصل ارتفاع الطمى فى هذه المنطقة فى سنة ١٩٩٢ (وهى آخر سنة أتيح لى فيها الاطلاع) إلى أكثر من ثلاثين مترا . وهذه مسألة ستشغل المصريين بدءا من أولى سنوات القرن الحادى والعشرين .

كما سيواجه المصريون أيضا مشكلة تلوث المياه والتى أتوقع أنها ستصل إلى درجات غير مقبولة مع تزايد الصرف الصحى من عديد من المدن على طول نهر النيل والتى - ستتصرف مياه معظمها فيه .

وفى أوائل سنى القرن الواحد والعشرين ستكون عملية خصخصة مصانع القطاع العام والبنوك قد انتهت بانتقال ملكيتها إلى نخبة منتقاة من المصريين بالاشتراك مع الشركات العابرة للدول والمتعددة الجنسيات - وسيتم إغلاق بعض المصانع التى لن يكون فى استطاعة ملاكها الجدد إدخالها فى السوق العالمى كما سيتم تطوير المصانع الأخرى حتى تصبح قادرة على المنافسة وإيجاد مكان لمنتجاتها فى السوق العالمية . وسيكون إغلاق المصانع أو تطويرها سببا

للاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين فيها وعلى كل المستويات مما سيسبب آلاما كثيرة وأغلب الظن أن الحكومة ستضطر فى نهاية الأمر إلى منحهم تعويض بطالة .

وبدخول مصر منظمة التجارة العالمية فى أوائل القرن الواحد والعشرين فإن الكثير من مصانع القطاع الخاص والتى تعيش اليوم على حساب الحماية الجمركية كمصانع النسيج والسيارات ستغلق أبوابها أو ستضطر للدخول فى شراكة مع رأس المال الأجنبى

وإذا استمر الحال على ماهو عليه للثلاثين سنة القادمة فإن الفروق بين دخول الناس ستزيد وسيتم تكريس انشطار المجتمع إلى شطرين فى طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستنهمش تماما ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات وفى ثلاثينيات القرن القادم ستكون الأجيال الجديدة من أبناء كلا الطرفين قد شبت وتثبتت قواعدها وزاد انفصالها عن بعضها البعض واختلفت طموحات وطريقة عيش ولغة كل منهما - وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن محاطة بأسوار وذات حرس خاص وعام وسترسل ها الى مدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها - وستترك النخبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لا مناص أن يكون مصيرها مزيدا من الانحدار - وسيزداد اهتمام النخبة بتعليم أبنائها اللغات الأجنبية وفنون الإدارة والعلاقات العامة لإعدادهم لإدارة الشركات وبيوت المال والتجارة التى يملكونها ولتمكينهم من الحوار مع شركائهم من مسئولى الشركات متعددة الجنسيات والذين سيكونون مسئولين عن تطوير العمل ونقل التكنولوجيا ولذا فلن يكون البحث العلمى أو الهندسة من بين الاهتمامات الأولى للنخبة .

وسيحتاج الحفاظ على مثل هذه التركيبة الاجتماعية إلى استخدام القهر وقبول العيش فى ظل قوانين استثنائية وتحت حكم الطوارىء وإطلاق يد أجهزة الأمن لإخماد أى تذمر يمكن أن تقوم به الأكثرية الغاطسة ومنع أى تجمع لهم أو القيام بأى مظهر من مظاهر التعبير عن آلامها أو آمالها ، وفى مثل هذا الجو فلابد لنا أن نتصور أن استخدام أجهزة الأمان الالكترونى واستئجار الحرس الخاص وبناء الأسوار سيتزايد .

وأغلب الظن أن الاقبال على الهجرة إلى خارج البلاد سيستمر إن لم يزد عما

هو عليه الآن . وستكون أغلب الفرص فى البلاد العربية التى ستظل وحتى ثلاثينيات القرن القادم فى رفاهية نسبية لتوقع ازدياد الطلب على نفطها وكذلك فى أوربا التى ستعانى فى ذلك الوقت من قلة اليد العاملة فيها نظرا لندرة المواليد وازدياد عدد شيوخها ، وتقدر المجموعة الأوربية أنها ستكون فى حاجة إلى حوالى ٧ ملايين عامل فى ذلك التاريخ تنوى تهجيرهم إلى أوربا من بلاد العالم الثالث وعلى الأخص من بلاد جنوب البحر الأبيض المتوسط ، وستكون معظم العمالة المطلوبة هى لأداء الخدمات الدنيا وستكون بعقود محدودة المدة يستجلب فيها العمال دون أن يصطحبوا عائلاتهم حتى يمكن إعادتهم إلى بلادهم بعد انتهاء مدة عقودهم ، وهذه السياسة الجديدة هى نفس السياسة التى تتبعها سويسرا فى الوقت الحاضر وهى بغرض تفادى مشكلات مواطنة المهاجرين لبلادهم الجديدة والتى كثيرا ما تأتى مع وصول أعداد كبيرة من بلاد العالم الثالث..

(٣)

رسمت هذه الصورة لحال مصر فى ثلاثينيات القرن الواحد والعشرين على فرض أن ما يحدث اليوم فى مصر سيتم إسقاطه حتى هذه السنوات وهو أمر غير محقق وأرجو أن تخيب تنبؤاتى هذه كما خابت فى المرة السابقة . على أن الشيء الأكيد هو أن استمرار الحال على ما هو عليه سيؤدى إلى مستقبل لا أظن أن النخبة ذاتها تحب أن تراه ، وغرضى من المقال هو تنبيهها إلى الشقاء الذى سيجلبونه على بلادهم وعلى أنفسهم قبل أي شئ آخر إن لم يفيقوا للأمر .

ولمصر من الميزات الخاصة ما يمكنها من أن تجد لنفسها مكانا بارزا فى هذا العالم الجديد الذى نراه يبزغ اليوم فلديها الموقع والتاريخ والجو المعتدل والبشر فهى فى موقع حاكم بين القارات الثلاث وهى وسط بين طوكيو ونيويورك يمكن أن يجعلها شريانا للنقل ووسيطا لانتقال المال وهى ذات تاريخ عريق فى آثاره وتراثه وهى ذات جو معتدل طول العام مما يمكن أن يخرج المحاصيل وقت مالا تستطيع غيرها أن تخرجه ولديها امتداد مكانى هائل ومصادر هائلة للطاقة ويسكنها بشر ذوو تراث فى احترام العمل والنظام والسماحة والحياة المدنية .

وبلاد بكل هذه الامكانيات لايجوز لها إلا أن تكون بلادا كبيرة ومؤثرة !

جدول أعمال
القرن الحادى والعشرين

التعليم والحرية والتطوير العلمى

بقلم : د. محمد عبدالفتاح القصاص

يبدأ كل حديث عن القرن الحادى والعشرين بموضوع السكان وزيادة أعدادهم بمعدلات بالغة ، وزيادة معدلات استهلاكهم للموارد والسلع والخدمات . وتمثل مصر النموذج الشامل لهذه القضايا التى ينبغى أن تدخل مصر إلى القرن الحادى والعشرين وقد وجدت لها الحل الحاسم، ووجدت الوسائل الناجعة لتطبيق ذلك . ونحن فى السنوات الخاتمة للقرن العشرين ومازلنا نبحث عن الطريق إلى هذا الحل ، وتظل قضية السكان واحدة من المهام الرئيسية التى يحتاج اقتحامها إلى فكر وإيمان وعزيمة عمل ، لأنها مهمة متعددة العناصر . زيادة عدد السكان تحتاج إلى عمل على مستوى الأسرة وقرار هو مسئولية الأب والأم يتصل بعدد الأطفال . قرار ينبنى على اقتناع عميق بالمسئولية تجاه الأسرة والمسئولية تجاه الوطن . وترشيد معدلات استهلاك الموارد يتضمن إجراءات على مستوى الأسرة تتصل بالاستهلاك من ماء الصنبور والكهرباء والطعام ، وتتصل بالاستجابة لما صاحب مناخ الانفتاح من معروضات الأسواق ومحلات الطعام السريع واعلانات وسائل الإعلام جميعا ، وهى استجابة تحتاج إلى التدبر والحساب الدقيق لأولويات إنفاق الدخل وتزكية هذا الدخل مما قد يشوب نقاءه ، وتحتاج إلى مقاومة خلقية لنوازع الربح السهل والدخل الميسر الممتزج بالشبهات .



قضية السكان إحدى المهام الرئيسية التى يحتاج اقتحامها إلى فكر وعمل ..

القرن الحادى والعشرون يأتى بمنجزات فى العلم والتكنولوجيا لايجوز لأحد أن يتخلف عنها معرفة وتطبيقا ، ومن تخلف فإنما يضع نفسه خارج اطار العصر . هنا تبرز أهمية التعليم ، والحديث عن التعليم كمشروع قومي واحد من السبل الراشدة . على أن هذا التعليم مسئولية مجموعة من المؤسسات الوطنية تنتظم المدرسة والجامعة ووسائل الاعلام جميعا ، والمراكز الثقافية فى المكتبات والمتاحف والمعارض ، والهيئات الجماهيرية (النوادى – مراكز الشباب – الأحزاب السياسية – النقابات العمالية والمهنية – الجمعيات الأهلية – الخ) ، وتشمل الأسرة باعتبارها المؤسسة التعليمية الأولى وباعتبار مسئوليتها عن تنظيم تلقى أفراد الأسرة تدفقات وسائل الإعلام جميعا .

لاتستكمل الأمة النجاح فى مجال التعليم بمفهومه الشامل والمتكامل إلا فى اطار سياسة وطنية تحدد المسئوليات والأهداف لكل عنصر ولكل أداة ، وتنفى الأفكار والأقوال المطلقة التى أدت دورها بنجاح فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولكن استمرارها وأتصالها قد يعطل المسيرة إلى القرن الحادى والعشرين . ان القول بأن التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن ، قول حسن فى اطاره الاجتماعى التاريخى ، ولكنه يحتاج اليوم إلى تدقيق ، فبعض التعليم حق

المواطن كالماء والهواء وليس كل التعليم كذلك . التعليم الذى يفتح البصيرة إلى ما يحوط بالانسان ، والذى يمكن الانسان من الإفادة من مصادر المعرفة وتعليم الذات ، والذى يبين للفرد حقوقه وواجباته، شطر من التعليم يمثل حق المواطن على المجتمع ، وهو شطر التعليم الأساسى الذى تمثله المدرسة . ولكن التعليم الذى يهيىء الفرد لأداء وظيفته كعضو عامل فى المجتمع ، والذى يؤهل الفرد للمهن النافعة التى تحتاج إليها الأمة فى سعيها للتنمية الشاملة والمتواصلة ، شطر من التعليم يمثل حق المجتمع على المواطن ، أى أن يكون من حق الوطن أن يخطط مسارات هذا التعليم ويضبط مدخلاته ومخرجاته بحيث يحصل على الثروة البشرية التى يحتاج إليها . هذا شطر التعليم العالى الذى يتمثل فى الجامعات والمعاهد العليا . التعليم الأساسى المدرسى حق للمواطن ، أى تتولى الحكومة الإنفاق عليه وتفتح فصوله للتلاميذ جميعا بالمجان ، أما التعليم العالى فهو حق الوطن وتفتح فصوله حسب خطة وطنية وتكون المجانية حسب الأولويات والقواعد التى ترسمها الخطة الوطنية ، مجانية مقيدة وليست مطلقة

● تغيير مفهوم العملية التعليمية

لايستكمل النجاح فى التعليم فى القرن الحادى والعشرين إلا بتغيير مفهوم العملية التعليمية من مفهوم التلقين الذى ساد فى القرن العشرين وما قبله إلى مفهوم التعلم الذاتى وأن التعليم عملية مستمرة ومتصلة «من المهد إلى اللحد» . مفهوم التعلم المستمر يجب أن يتصل فى مراحل التعليم جميعا . فى المدرسة وما قبلها يتدرب الأطفال كيف يلمسون المعرفة بأصابعهم بفحص النبات والزهرة والفراشة والحيوان ، ويتدربون على الاطلاع والإفادة من المكتبة ، ويتدربون على الخروج إلى البيئات الطبيعية فى السواحل والصحارى والحقول . أى يلزم أن تمتد المدرسة إلى خارج حدود فصولها وأسوارها ، بأن تصل إلى المتاحف والمكتبات والمحطات الحقلية حيث تقام معسكرات دراسية . مفهوم التعليم المستمر جزء جوهرى فى تطوير التعليم الجامعى ، فتبدأ مراحله الأولى بتدريب الشباب على الدخول إلى عصر المعلومات، لأن مجتمعات القرن الحادى والعشرين توصف بأنها مجتمعات المعلوماتية . قبل أن يشرع طالب الجامعة فى برنامج

التأهل لمهنة الطب أو الهندسة أو الزراعة أو العلوم أو الحقوق أو التجارة والاقتصاد وغيرها من مسارات التعليم العالى، ينبغى أن يتفرغ فى مرحلة اعدادية ليتدرب على التعامل مع مراكز المعلومات ومصادر المعرفة وعلى الإفادة منها . يشمل هذا اتقان إحدى اللغات الأجنبية والتدرب على استخدام الحاسب الآلى والإفادة من امكاناته ، وعلى الإفادة من مراكز توثيق المعارف (المكتبة فى القرن الحادى والعشرين - مكتبة اليوم خزانة كتب) ، وعلى القدرة على كتابة التقارير العلمية وتدقيق عناصرها ثم تأتى المراحل التالية فى سنوات التعليم الجامعى لتبنى قدرة الطالب على الإفادة من مصادر المعرفة وعلى التعلم الذاتى ، وهى القدرة التى تدعم خطاه فيما بعد التخرج فى الجامعة.

تستكمل عناصر التعليم فى مراحله جميعا بعنصر التربية الاجتماعية والتربية الوطنية . والتربية معارف وممارسات . وعلى المدرسة وعلى الجامعة ان تجعل فى برامج عملها فسحة للتربية بالمعارف (دروس) وبالممارسة (الأنشطة الثقافية والاجتماعية) هذا العنصر يهدف إلى استكمال البناء السوى للانسان بحيث يصبح عضوا نافعا المجتمع ومنسجما مع افراد المجتمع ومع مرامى المجتمع ، ويصبح قادرا على المساهمات التعاونية والمشاركات الإيجابية فى خطى المجتمع ومسيرته نحو تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية .

القصد من تطوير التعليم فى مفهومه الشامل وأدواته ومؤسساته جميعا ، هو ان يكون التعليم وسيلة تنمية الثروة البشرية ، وهى أهم عناصر الثروة الوطنية. لايمكن أن تتصل خطى مصر إلى القرن الحادى والعشرين بمنظومة تعليمية تفرز مخرجات أقرب إلى الأعباء الاجتماعية ، أى مخرجات ينشغل المجتمع - الحكومة والأفراد - بالبحث عن وظائف لهؤلاء الخريجين . انما تستهدف سياسة التعليم الوطنية للقرن القادم أن تفرز منظومة التعليم مخرجات أقرب إلى الثروات الوطنية والامكانات الاجتماعية . لننظر إلى اليابان ، ثروتها الرئيسية هى البشر ، صاغتهم المنظومة التعليمية إلى عناصر الثروة والنماء . وكان التعليم هو مدخل دول النمور الأسيوية إلى حلبة النجاح الاقتصادى .

● الحرية والديمقراطية

ويثنى كل حديث عن القرن الحادى

التعليم والحرية

والعشرين بموضوع الحرية والديمقراطية وهذه مفاهيم كان لها فى القرن العشرين وما قبله موضع الحلى الحضارية ، وتفرع منها وتشعب مؤسسات سياسية كالأحزاب والبرلمانات وممارسات الاستفتاء والانتخابات وغير ذلك . وهذا كله حسن ومطلوب . ولكن القرن القادم يحتاج إلى مفاهيم جديدة تعتمد على أسس مشاركة الناس فى إدارة دولاب المجتمع ، ذلك لأن المسئولية فى القرن القادم لايمكن أن تنهض بها الحكومة وحدها على نحو ما شهدناه فى غضون القرن العشرين . ليس هذا حديث عن القطاع العام والقطاع الخاص ، ولكنه حديث عن إدارة شئون الأمة الاقتصادية والاجتماعية وقد عقدت الأمم المتحدة فى يونيو ١٩٩٢ مؤتمرا عن التنمية والبيئة شهده حشد من رؤساء الدول وزعماء العالم (قمة الأرض – البرازيل – ١٩٩٢)، وقد خلص هذا المؤتمر الحافل إلى فكرة «جدول عمل للقرن الحادى والعشرين» وركز الاهتمام بفكرة «التنمية المتواصلة» ، أى تنمية الموارد والانتاج بما يكفى الحاجات الأساسية والمشروعة للحاضر دون أن يقلل من امكانات هذه الموارد لإتاحة الحاجات الأساسية والمشروعة لأجيال الابناء والأحفاد . هذه الفكرة التى تنطوى على مسئولية أخلاقية رفيعة وتحتاج إلى سلوك منضبط للجميع ، لايمكن أن تتحقق إلا بإسهام الناس طوعا، ومشاركتهم فى تحمل المسئولية مشاركة جادة ، وتخليهم عن نوازع الاستزادة الطامعة والاستكثار المفرط . ليتحقق هذا ينبغى أن يجد الناس أنفسهم فى موقع المشاركة الفاعلة فى إدارة شئون المجتمع جميعا .

يؤذن للكاتب أن يوضح الأمر فيقول : لعل موجز مشكلة التنمية والاقتصاد فى مصر – ليست فى سيطرة القطاع العام أو سيطرة القطاع الخاص – انما فى الميزان البالغ الاختلال بين الانتاج والاستهلاك ، فجملة الانتاج الوطنى تعادل أقل من ٧٠٠دولار للفرد فى السنة وجملة الانفاق تعادل أكثر من ١٢٠٠دولار للفرد فى السنة . والحكومة التى تقوم وحدها بالمسئولية تعمل على إحداث التوازن بموارد المعونات الأجنبية والقروض وغيرها، وهى وسائل لن تتصل فى القرن الحادى والعشرين من هنا نقول أن مشاركة الناس بما يزيد من معدلات الانتاج بالعمل الجاد والجهد الإضافى ، وبما يقلل الأستهلاك والإنفاق بالترشيد

والاجتزاء والتعفف هى السبيل إلى الفلاح ان مشاركة الناس هى ديمقراطية القرن الحادى والعشرين ، وينبغى أن تتطور النظم والأساليب والأدوات السياسية بما يحقق هذا النمط من الديمقراطية ، أى ديمقراطية الأداء الجماعى الرشيد .

لقد خصص «جدول عمل القرن الحادى والعشرين» حوالى ثلث فصوله الأربعين ليفصل أدوار القطاعات الجماهيرية (المرأة - الشباب - العمال - العلماء - المهنيون - الأطفال - الخ) والمؤسسات والهيئات والجمعيات التى تنتظم هذه القطاعات وتقدر على حشد طاقاتها للاسهام الإيجابى فى مسئوليات التنمية المتواصلة ، يقتضى كل هذا نظر جديد إلى مفاهيم المؤسسات السياسية وعملها ، ومفاهيم التربية الاجتماعية والمسئولية التى تقع على الفرد وعليه أن يتحملها ، وحقه فى المشاركة فى إدارة شئون مجتمعه وله أن يمارسه . هذا هو العدل الاجتماعى ، وهذا هو السبيل إلى الفلاح فى القرن القادم

● التجمعات الإقليمية

الحديث عن القرن القادم يتصل بفكرة إن العالم وحدة واحدة ، حتى ليقال بأنها «قرية كوكبية» ، أو انها سفينة فضاء واحدة تسبح فى فضاء الكون الشاسع .

برزت فى القرن العشرين فكرة التجمعات الأقليمية ، ذلك لأن ظواهر التنمية وما يتصل بها من الموارد الطبيعية المتاحة ومن حيز الأسواق ومؤسسات التجارة وغيرها ذهبت بفكرة الاقتصاد فى حيز الوطن وأبرزت فكرة الأقاليم والمجموعات الاقتصادية ، ونموذجها الحالى هو المجموعة الأوربية التى تطورت من تنظيم اقتصادى إقليمى إلى تنظيم سياسى إقليمى . كذلك مجموعة أمريكا الشمالية وغيرها . وقد بذلت المساعى لبناء وحدة اقتصادية إقليمية عربية ، وبناء وحدات إقليمية إفريقية ، ولاتزال الفكرة تلقى القبول وتقابل الصعوبات . ولكن القرن الحادى والعشرين الذى مهدت له اتفاقية الجات (١٩٩٤) وانشاء منظمة التجارة العالمية (١٩٩٥) سيكون قرن العولمة .

الحديث الذى يجرى فى مصر اليوم عن «التصدير» ، ويحتل الاهتمام به أعلى درجات الأولوية السياسية حتى ليشرف على شئونه مجلس على أرفع المستويات ، هو تمهيد لدخول مصر إلى قرن العولمة ، أى أن يكون لمصر حصة فى تجارة العالم، وأن يكون لما تنتجه موقع قدم فى أسواق العالم . أمضت مصر النصف الثانى من

القرن العشرين تتلمس مكانها فى الحيز الإقليمى العربى أو الحيز الإقليمى الافريقى . وصادفها فى ذلك السعى نجاح محدود لايصل إلى آفاق طموحها وهى الآن تتأهب للقرن الحادى والعشرين ، ومن ثم أصبح على الجهد الوطنى أن يترسم آفاق الاقتصاد العالمى فى سعيه ، وهو جهد يحتاج إلى تطوير المفاهيم الدارجة والمتصلة بالانتاج الزراعى والصناعى بما فى ذلك صناعة الخدمات . كان من الممكن فى القرن العشرين ان تختار الأمة سياسة الاكتفاء على الذات ، فتغلق ثغورها بالحواجز الجمركية ، وتدير أسواقها بضبط الأسعار على أساس على أساس الضوابط الاجتماعية وصرف النظر عن الضوابط الاقتصادية ، وتجعل السوق المحلى على قواعد من الدعم الحكومى ، إلى غير ذلك من التدابير . ولكن القرن القادم لن يأذن بتلك الحلول الميسرة والذاتية ، وهى حلول أخذت مصر منها القسط الأوفى ، وقد مضى زمانها .

الدخول إلى السوق العالمية دخول الشريك الند ، يحتاج إلى توجهات جديدة. والسوق العالمية أصبحت مفتوحة لتجارة السلع وتجارة الخدمات ، وهى سوق بغير حدود ، ورسوخ القدم فيها يحتاج إلى ترسم «الميزات التنافسية» وتتدارس مصر الآن مسائل المشاركة مع السوق الأوربية ومع السوق الأمريكية ومع السوق الشرق أوسطية ، وهى جميعا مسائل كالخطوات التمهيدية التى تتمرس الأدوات المصرية من خلالها وتتهيأ للدخول كشريك فى السوق العالمية . فى كل هذه الخطوات تبقى الميزات التنافسية عناصر النجاح الرئيسية . لتحقيق هذه الميزات فى قطاعات انتاج السلع (الزراعة والصناعة) وانتاج الخدمات (السياحة والبنوك وبورصات التجارة وبيوت الخبرة ومؤسسات الاستشفاء وغيرها) يلزم إيجاد إطار فكرى لرسم سياسات وخطط لشئون الاقتصاد تحقق لمصر انتاج سلع بقدر يفيض على الاستهلاك المحلى ، وبنوعية تحقق الميزة النسبية ، وبتوقيت يزيد من الميزة النسبية ، وبأسعار تحقق الميزة التنافسية ، وهى أسعار لاتحتمى بالدعم الحكومى . وأن يدار دولاب الاقتصاد والتجارة على نحو يحقق الأهداف الوطنية فى وجه تنافس بالغ الضراوة .

يؤذن للكاتب ان يوضح المقصود بإدارة دولاب الانتاج والتجارة فى وجه تنافس إقليمى وعالمى ، بأن يضرب المثال

ببعض التحولات التى تجريها إسرائيل فى قطاع الانتاج الزراعى . بقى الانتاج الزراعى فى إسرائيل من ١٩٥٠ الى ١٩٩٠يعتمد على تصدير حاصلات زراعية تقليدية ذات ميزات نسبية من ناحيتى النوع والموسم (التوقيت) مثل البرتقال والطماطم والخضراوات والأزهار . وهى جميعا حاصلات تستطيع دول المنطقة الممتدة على الساحل الجنوبى لحوض البحر المتوسط ان تنتجها بالنوع والكم والتوقيت المتميز . فى وجه هذا التحدى تتحول الزراعة الإسرائيلية الى انتاج محاصيل كثيفة المحتوى العلمى والتكنولوجى وهى البذور المحسنة بتطبيقات علوم الهندسة الوراثية، وهو تحول توظف فيه إسرائيل الميزات النسبية المتاحة لها . ودول المنطقة سوق رائجة لتجارة البذور المحسنة للمحاصيل البستانية وغيرها .

النجاح فى المساعى الوطنية التى يتوجه إليها الاقتصاد المصرى يعتمد فى الدرجة الأولى على التعانق الحميم بين الانتاج والتطوير العلمى والتكنولوجى وتطبيقات البحوث العلمية فى انتاج السلع والخدمات أى ان يتحول البحث العلمى إلى عنصر من عناصر الانتاج وركيزة من ركائز إدارة الانتاج وإدارة الاقتصاد لاتزال مصر تتحسس طريقها إلى تحقيق هذا التعانق الحميم بين الانتاج الوطنى والعلم الوطنى ، ولدى مصر امكانات علمية عظيمة القدر والقدرة ولكنها عاطلة عن أداء دورها الناجع فى دعم الاقتصاد الوطنى . والدخول إلى القرن الحادى والعشرين يحتم استكمال هذا المسعى وتحقيق هذا الوصل الوثيق ، وبدون هذا فالسبيل إلى النجاح عسيرة جدا ، بل مستحيلة ان الاعتماد على العلم المستورد والخبرة المجلوبة والتكنولوجيا المستعارة لايتيح للاقتصاد الوطنى القدرة على المنافسة فى السوق العالمية ، ولايتيح للاقتصاد الوطنى جنى الحصة العادلة من الانتاج انظر إلى دول البترول وهى فى جملتها تعتمد فى الإنتاج والتسويق على تكنولوجيا مستعارة ، وانظر إلى حصتها من دخول البترول بالمقارنة للحصة التى تحصل عليها الشركات والمؤسسات العالمية المالكة لعلوم الانتاج وتكنولوجياته

ونحن فى مصر قد طورنا قدراتنا العلمية والتكنولوجية فى مجال صناعات البترول ، وبهذا التطوير استطعنا ان نمزج بين الامكانات التكنولوجية المجلوبة والامكانات والقدرات الوطنية ، وهو أمر اتاح لمصر حصة سخية من ثرواتها البترولية . كذلك طورنا قدراتنا فى مجال العلوم الزراعية مما أتاح لمصر المحافظة على الميزات النسبية للأقطان المصرية ، وهو جهد

مصرى خالص لا فضل فيه لعون خارجي. بقى أن نطور سائر الامكانات العلمية والتكنولوجية ومع إعطاء الأولوية للمجالات التى تحددها السياسة الاقتصادية الوطنية كمجالات التنافس فى الحلبة العالمية . بهذا نستطيع أن ندخل إلى القرن الحادى والعشرين بخطى واثقة .

● قضايا البيئة

الشطر الآخر الذى يتصل بفكرة أن العالم وحدة واحدة ، هو مجموعة من القضايا البيئية ذات المدى الجغرافى الواسع الذى يمتد عبر القارات جميعا (مثل تدهور الأراضى المنتجة والتصحر وتدهور غابات المناطق الحارة وفقد العديد من الأنواع النباتية والحيوانية) ، أو ذات علاقة بالنظم والنواميس الرئيسية التى تحكم أحوال الكرة الأرضية (مثل خطر تغير المناخ نتيجة تزايد ملوثات الهواء وتدهور الأوزون فى طبقات الجو العليا) ، لهذه القضايا آثار خطرة على صحة الكرة الأرضية ومحيطها الحيوى ، وهى بدورها خطر على صحة الناس وحياتهم وقدرتهم على انتاج الطعام وعلى استمرار الحياة

بعض هذه القضايا ذات الاتساع الجغرافى تنشأ عن سوء إدارة الموارد الطبيعية والنظم البيئية التى يعتمد عليها الإنسان فى الانتاج . أى أنها ذات نشأة محلية وأثر ضررها الرئيسى يقع على الفاعلين ، وعلاج هذه القضايا يبدأ فى موقع النشأة . من هنا نلحظ أن علاج التصحر يبدأ من البرامج الوطنية لمكافحة التصحر ، وعلاج تدهور الغابات يبدأ من البرامج والمشروعات الوطنية لترشيد قطع الغابات وبرامج التشجير لتعويض ما تدهور . ولكن الجهود الوطنية فى حاجة إلى الدعم المالى والتقنى فى اطار برامج عالمية . من هنا أوصى مؤتمر قمة الأرض بوضع اتفاقية دولية لمكافحة التصحر (تم وضعها والتوقيع عليها فى ١٩٩٤) . وكذلك وضع المؤتمر منهجا عالميا لعلاج تدهور الغابات ، وأقر اتفاقية دولية لصون التنوع الإحيائى (حماية البيئات الطبيعية والكائنات الحية والموارد الوراثية المهددة بالتدهور أو الانقراض) .

أما قضايا البيئة ذات العلاقة بالنظم والنواميس الحاكمة لأحوال الحياة على كوكب الأرض فذات طابع خاص . آثارها على مدى الكوكب جميعا تستوى مواقع التسبب أى مناطق اصدار الملوثات التى تهدد المناخ وتدمر طبقة الأوزون والمواقع البريئة من هذا الفعل الضار ، وهى من باب الفتن التى لاتصيب الظالمين خاصة إنما يعم أثرها على الكوكب جميعه . علاج هذه القضايا يستلزم الجهد المشترك للأقطار جميعا : الأبرياء وغير الأبرياء أى أن إدارة هذه القضايا وعلاج

أضرارها يقتضى جهدا عالميا يشارك فيه الناس جميعا بالعزم والإقبال . وقد وضعت الأمم المتحدة معاهدة دولية بشأن التغيرات المناخية (١٩٩٢) ومعاهدة دولية بشأن حماية الأوزون (١٩٨٥) ولهما بروتوكولات ملحقة تم التصديق عليها فى سنوات تالية . والمأمول ان تكون هذه الصكوك الدولية مواثيق للعمل المشترك ، ووضع هذه المعاهدات اعتراف من دول العالم بعالمية القضايا البيئية الرئيسية.

الإسهام فى الواجبات التى تقضى بهذه المواثيق الدولية وبرامجها التنفيذية من معالم الجهد الوطنى فى القرن الواحد والعشرين . الدول الموقعة والمصدقة على هذه المجموعة من الاتفاقيات الدولية بشأن قضايا البيئة العالمية ، ملتزمة بضوابط للسلوك (خفض معدلات اخراج الملوثات التى تسبب تغير المناخ والتى تعمل على تدهور الأوزون فى طبقات الجو العليا) وتتصل هذه الضوابط بإدارة المراكز الصناعية ومحطات انتاج الطاقة والقوى المحركة وشبكات النقل والمواصلات وغير ذلك . هذا مجال للمشاركة فى إدارة مجموعة من القضايا العالمية المتصلة ببيئة كوكب الأرض ، وفى مسئولية الحفاظ على صحة المحيط الحيوى ، وفى الشعور بوحدة الجنس البشرى ، وهذه أمور تتصل فيها نوازع البقاء وضوابط الأخلاق .

● قضية الإنسان

يختتم كل حديث عن القرن الحادى والعشرين كما بدأ بقضية الإنسان . الإنسان هو صاحب المسئولية وحامل الأمانة على طول الزمان الماضى والمستقبل . حمل الأمانة فى فجر حياته . وحمل الأمانة عندما أمر الله سيدنا نوح أن يبنى الفلك ليكون وعاء لإنقاذ الحياة عندما يدهم الفيضان الأرض ومن عليها . أمره أن يحمل معه أهله (الجنس البشرى) وأزواجا من الكائنات الأخرى (صور الحياة المختلفة) ، وليكون نوح قائد الفلك وحامل الأمانة والمسئول عن بقاء الحياة حتى يأذن الله للماء أن يغيض وتعود الحياة لتعمر الأرض . وحالنا اليوم على هذا النمط السرمد . الفلك هو سفينة الفضاء الواحدة التى تحمل الحياة فى سائر صورها ، والإنسان هو نوح المسئول وحامل الأمانة . حمل الأمانة هو الواجب الذى نهض به الإنسان منذ كان ، ويظل يحملها إلى آخر الزمان . التقصير والقصور مدخل إلى الهلاك ، والعمل الدائب والجاد هو السبيل إلى استمرار الحياة . هذا هو واجب الفرد كل فرد ، والجماعة كل جماعة ، والبشر جميعا . بالتعاضد المخلص والتكاتف الحميم يمكن أن يتصل تاريخ البشرية إلى مستقبل الزمان .

مصر والعالم فى القرن ٢١

التعليم

على مشارف القرن الحادى والعشرين

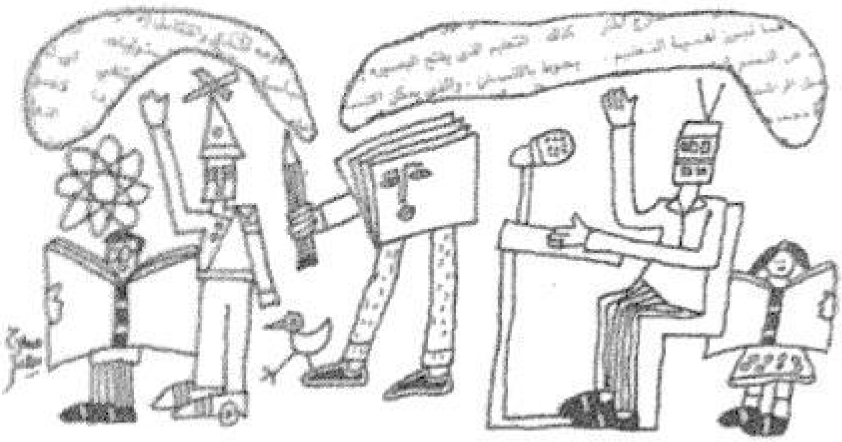
بقلم : د. سعيد اسماعيل على

«أنتم تربون أولادكم لزمان غير زمانكم ... »

في هذه العبارة البسيطة ، تلخص الحكمة العربية المعروفة ، حركة ضخمة بدأت تهز أركان التعليم في معظم أنحاء العالم منذ عقود قد تقل عن أصابع اليد ...

وهي في الوقت نفسه تلخص الفلسفة التي يقوم عليها التعليم «كعملية» ، وهي بهذا الاعتبار ترسم التوجه الذي لابد من أن يتجه إليه التعليم «كنظام».

إننا إذا افترضنا أن أبا سيلحق ابنه بالتعليم في أكتوبر ١٩٩٦ في روضة أطفال ، وهو لم يزل بعد في سن الرابعة علي وجه التقريب ، فسوف يظل هذا الابن متلقيا لبرامج تعليمية متعددة مختلفة طيلة مراحل مقدارها علي وجه التقريب كما يلي من السنوات : ٢ روضة + ٥ ابتدائي + ٣ اعدادي + ٣ ثانوي + ٤ تعليم عالي = ١٧ عاما كحد أدني ،قد تزيد بحكم احتمالات الرسوب واختلاف مدة الدراسة بالجامعة ببعض التخصصات ، أي أن الابن/ الابنة ، سيتخرج ليصبح عضوا مؤهلا للمشاركة العملية في الحياة عام ٢٠١٣ ، ويكون عمره واحدا وعشرين عاما ، سن الرشد والاستقلال القانوني.



وإذا كان التعليم ، بعبارة بسيطة يستهدف تزويد الفرد بالمهارات والكفايات والقيم والمعارف التي تمكنه من حسن التعامل مع نفسه ومع الآخرين ، في ظل بنية مجتمعية محلية وإقليمية وعالمية لها مواصفاتها ومحدداتها ، فإن هذا يعني أن تكون لدينا صورة متغيرة لمثل هذه المهارات والكفايات والقيم والمعارف التي تتوافق مع هذه البنية المجتمعية ، على مستوياتها المختلفة طوال سبعة عشر عاما.

هذا فضلا عن أن نفس الفرد ونفس البنية المجتمعية لن يقفا عند هذا الحد الزمني ، فالتغير مستمر ، والتطور حادث، ومعدلاته تتزايد تزايدا أصبح يتجاوز ، في بعض الأحوال توقعاتنا ، بل أكاد أقول ، وأحلامنا .

التعليم إذن ، بطبيعته ، عملية مستقبلية .

لكن هذا لاينبغي أن ينسينا الوجه الآخر للعملة .

فالتعليم ، كذلك ، عملية «ماضوية» ، فهل نناقض أنفسنا هنا؟

كلا .

إن ماتقصده هنا أن المعلم في مختلف مستويات التعليم ومراحله ، من الحضانة إلى الجامعة ، عندما يقف ليعلم ، فهو دائما «ينقل» إلى الأجيال الجديدة ما تم التوصل إليه من معارف ومعلومات من قبل، ذلك لأن المعرفة ، كما هو معروف ، «تراكمية» ، نبدأ من حيث انتهى الآخرون، فلابد من أن يعرف الطلاب هذا الذى انتهى إليه السابقون ، وهو ما يمكن أن نسميه «بالتراث المعرفي» للبشرية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفرد ، في بدء حياته ، إذ تتمحور أفكاره واتجاهاته وسلوكياته حول ذاته ، يسعى التعليم إلى اكسابه الطابع الاجتماعي ، ومن أهم

السبل إلى ذلك ، أن يعرف لغة الجماعة التى هو عضو بها ، وعاداتها وتقاليدها ونظمها ومعارفها .

فالتعليم لو اقتصر على مجرد نقل ماسبق إلى الأجيال الجديدة ، فسوف يجيء كل جيل نسخة مطابقة ، أو على الأقل ، بقدر مشابه للجيل السابق ، فينتفى التطور ويستحيل التقدم . ومن سنن البناء الاجتماعى أن الجماعة التى لاتخطو إلى الأمام خطوة ، لاتكون فقط قد جمدت وإنما تكون قد تأخرت خطوة ، لأن الآخرين ، يخطون خطوة ، بل خطوات ، فتتسع الهوة ويزيد التخلف .

● **مشقة التعليم**

وهكذا نقوم فى التعليم بالعمليتين معا: نقل واستيعاب لماسبق الوصول إليه من معارف ، ثم إعداد وتهيئة لما سوف يجيء من أيام ... ، وتلك هى مشقة التعليم .

وهى ، أيضا ، المنزلق الذى تقع فيه بعض الأمم والشعوب .

إنها «مشقة» لأنها تقتضى البصر الواعى بمقدار ونوع مايجب نقله للأبناء من «التراث المعرفى» كما أنها تقتضى دقة التحسب لما نكون بحاجة إليه فى مستقبل الأيام .

وهى منزلق ، عندما تقع الأمة فى أسر الماضى فيقودها ويستدمجها ، بدلا من أن تستدمجه هى فى ذاتها ، فيصبح التعليم عملية اجترار وتقوم أجهزة التعليم بما يقوم به مجتمع «النمل» من التخزين دون تجديد ، وتغيب وظيفة التعليم الأساسية التى تجعل من أجهزته تقوم بما يقوم مجتمع «النحل» من انتقاء مما هو كائن ليخرج للناس عسلاً شهيا فيه شفاء للناس!!

والحديث عن التعليم فى القرن الحادى والعشرين لابد من أن يتسم بالتواضع ، فلا نزعم أننا نتحدث عن هذا القرن كله ، فلو رجع كل منا بذاكرته إلى عشر سنوات مضت ، وحاول فحص ما كان ينتظرنا بعد عشر سنوات ، فسوف يجد أن كل ما حدث ، أو معظمه ، لم يكن ليخطر ببال كثيرين ، فما بالنا بعشرات سنين قادمة ، ومعدل التغير نفسه ، فى تغير غير مسبوق.

إن حديثنا إذن عن المستقبل ، إنما هو حديث عن سنوات محدودة قادمة ،لاتزيد على أصابع اليد إلا بمقدار محدود .

ثم ، أى تعليم نتحدث عنه ؟ الجامعى؟ أم العام؟

وفى داخل المرحلة ، هل نتحدث عن محتوى التعليم ؟ وأجهزته التكنولوجية ؟ أم طرائق تعليمه ؟ أم معلمه ؟ أم تقويمه ؟ أم تنظيمه وادارته ؟ أم عن الفكر التربوى؟، وهكذا أنه محيط واسع متلاطم الأمواج ، ومن ثم فلابد ـ فى مثل هذا الحيز الضيق ـ أن يجيء الحديث عن التعليم ، من حيث الفلسفة والهدف ، من

حيث التوجه العام

ولما كانت احتمالات المستقبل كذلك لا حصر لها ، فسوف نختار قضية واحدة لبسط الرأى حولها لقارئنا ، ألا وهى تلك التى تتعلق بمجتمع «المعلوماتية» فى عالم الغد:

لقد أصبحت المعلومات فى حالة سيولة وتدفق فاقت كل التوقعات ، وذلك نتيجة الزيادة المذهلة فى معدلات سرعة التغير ، ويكفى لكى نتأكد من هذه الحقيقة أن نتكر أن الإنسان قد أمضى من عمره خمسين ألف سنة حتى توصل إلى اختراع «العجلة» Wheel ، أما توصل الإنسان إلى إدارة هذه العجلة بالبخار فقد تطلب منه زمنا مقداره خمسة آلاف سنة .

وكانت سرعة انتقال الإنسان لاتتجاوز بضعة كيلو مترات فى الساعة ، فإذا بها تصبح عشرات عندما اخترع القاطرة البخارية ، ثم إذا بها تصل إلى أكثر من ألف كيلو متر فى الساعة بالطائرات بعد مائتى عام ، ثم تصل إلى سبعين ألف كيلو متر/ الساعة بالصواريخ.

ولقد ساعد على هذا التدفق المذهل للمعلومات ، التحولات الأساسية التالية فى تكنولوجيا المعلومات .

١ ـ التحول من الاعتماد على الأنظمة الالكترونية التقليدية إلى الأنظمة المعتمدة على المعالجات الدقيقة.

٢ ـ التحول من الاعتماد على الحاسبات المركزية الكبيرة إلى المنظومات المعتمدة على الشبكات .

٣ ـ التحول من البرمجيات المرتكزة على منتج واحد إلى البرمجيات المفتوحة التى تنتج حسب مواصفات عالمية.

٤ ـ الاتجاه إلى الوسائط المتعددة للبيانات التى تشمل النصوص والصوت والصورة والفيديو .

٥ ـ ظهور مبدأ الشراكة بين المنتج والمستخدم فى ظل أنظمة الحاسبات المفتوحة .

٦ ـ ظهور نظم التفاعل مع المستخدم المعتمدة على الرسومات.

٧ ـ التحول من التطبيقات المنفصلة إلى التطبيقات المتكاملة والبرمجيات الخاصة بها .

٨ ـ ظهور نظم تطوير البرمجيات المتكاملة والتى تعتمد على نظم هندسة البرمجيات المتكاملة المرتكزة على الحاسبات .

إن مثل هذه التحولات الجذرية ، لابد لها من أن تكون ذات أثر فاعل فى مستقبل التعليم ، وهذا مايمكن بيانه فيما يلى :

● التقليد الموروث

فلقد ورث تعليمنا من التراث والتقاليد العربية مايعرف باسم (الحفظ والاستظهار) بالنسبة للطالب ، و(التلقين) بالنسبة للمعلم . فالطالب يجد أن مهمته

فى أن يحفظ ما يلقنه إياه المعلم ، أو ما يقرأه هو من صفحات كتب مقررة ، والمطلوب منه بعد ذلك فى الامتحان ، أن يستظهر ما حفظ ، وتكون درجة نجاحه بقدر دقته فى الحفظ والاستظهار .

لقد كان ذلك تقليدا عما ورثناه ، عبر قرون طويلة.

ذلك أن عرب الجزيرة لم تشع بينهم القراءة والكتابة ، ولا كانت لهم آثار واضحة يسجلون عليها أيامهم وأشعارهم وحوادثهم ، لكنهم اعتمدوا على (الذاكرة)، فهم يحفظون وينقلون ما يحفظون إلى أبنائهم ، وهؤلاء أيضا يقومون بنفس الدور فيحفظون وينقلون إلى أبنائهم ، وهكذا وكل ما انقل إلينا من أشعار الجاهلية وأخبارها وحكاياتها ، كان بهذه الوسيلة .

وهكذا دربت الذاكرة القومية لتصبح على درجة من القوة لا مثيل لها ، وأصبح الإنسان مميزا فى العرف العربى بمقدار ما يحفظ ، فإذا كان من صور التقدير الاجتماعى ، ما يملكه الإنسان من (مال)، فقد أضيف إليه كذلك ، ما يحفظه من أشعار وأخبار .

وعندما جاء الإسلام واستند إلى كتاب الله عز وجل ،القرآن الكريم ، اتجه المسلمون الأوائل إلى حفظه ، حيث لم يكن الذين يعرفون القراءة والكتابة يتجاوزون عشرات تزيد على أصابع اليد الواحدة فى بعض التقديرات . وأضيف إلى ذلك أن المسلمين وجدوا أنفسهم أمام نص لايجوز التبديل فيه بأي حال من الأحوال إن فشلت الذاكرة فى استظهار ولو حرف منه ، ولا جاز أن يستعيض الإنسان - أيضا عندما لاتسعفه ذاكرته - بأن يقول ما معناه ، بل لابد من أن يكون النص كاملا ، وبحروفه ، فأصبح التعليم متمحورا حول القرآن الكريم وحفظه ، فالقرآن هو مصدر التعليم الأول .

وهكذا رأينا كتبا تؤلف للتأريخ (للحفاظ) الذين أصبحوا يحتلون مكانة مرموقة فى التاريخ الثقافي والتربوى ، وأصبح اسمهم مرادفا ، على وجه التقريب ، للفظة (العلماء) .

وعندما اتسعت دائرة التعليم الإسلامى لتشمل العديد من العلوم الأخرى لم يفرق المسلمون بين كتاب مقدس حفظه واجب وبين كتب أخرى كتبها بشر ، ليس مطلوبا حفظها ، لكن حدث مايسميه علماء النفس (انتقال أثر التدريب) ، فإذا بكثيرين يتعاملون مع كتب التاريخ والجغرافيا وغيرهما بنفس المنطق وبنفس الطريقة ، أى يحفظونها !!

وإذا كان (الحافظ) قد تراخى كثيرا فى العقود الأخيرة ، فإن طريقة التعليم القائمة علي التلقين ظلت ، ومازالت مستمرة .

والآن ، بعد هذه التحولات فى

تكنولوجيا المعلومات ، هل يظل الطالب مكرسا جهده في حفظ المعلومات بعد جمعها في ذاكرته .

لقد أصبحت هناك أجهزة متوافرة بين يديه ، مهمتها (تخزين) المعلومات ، ويستطيع هو أن يستدعي منها مايريد في لحظات ، وهي تستطيع أن تحفظ الملايين مما كانت ذاكرته تعجز عنه . وإذا كان الجهد الأكبر للطالب في تعليمنا يتجه إلى الحفظ والاستظهار ، فماذا نراه فاعلا في عصر المعلوماتية عندما يقوم (الكومبيوتر) عنه بذلك؟

هنا تبرز مهام ووظائف أخرى ، ظلت سنين طويلة تشكل حلما يداعب أخيلة المشتغلين بالتعليم على وجه العموم ومفكري التربية على وجه الخصوص ، فها قد جاء زمن تحقيق الأحلام .

كان التربويون يحلمون بطالب لايقف موقفا سلبيا في عمليتي التعلم والتعليم وكأنه مجرد جهاز استقبال ، ليس عليه إلا أن يعكس بالضبط ما يرسل إليه ويبث وإنما يقف الطالب من هذه المعرفة موقفا نقديا ، فلا يسلم بمايقال له ويقرأ وإنما يعقبه بهذا السؤال الثري الخطير هل هذا صحيح؟ .

كان التربويون يحلمون بطالب يوازن بين ما يتلقاه من معلومات ويقارن ويربط ويستنبط وينشر ويحلل ، إلى غير هذا وذاك من عمليات عقلية ، هي لحمة التعليم الفعال وسداه ، وهي لحمة التربية البانية وسداها .

كان الطالب أمام الكثير من المعلومات التي تطالبه باختزانها ، ينظر إلى هذه العمليات العقلية المشار إليها ، على أنها ترف تربوي لايقوى عليه ، فضلا عن أنه لايملك الوقت اللازم له .

● الشيطان الكبير!

الآن ، خلا الميدان من «عفاريت الحفظ» عندما هلت «ملائكة» التعقيل والفهم والوعي .لكن هذا سوف يستمر حلما إن لم تتغير وظيفة الامتحانات ، فهي شيطان التعليم الذي غوى كل الأطراف فاستجابت له تسير وراءه حيث يكون ، فجهود المعلم ، وكتب الدراسة ، وطرق التعليم ، بل ووسائل وأجهزة الاعلام، وإدارة التعليم ، وجميع الآباء والأمهات على وجه التقريب ، إن لم يكن بالإرادة فبالعدوى ، عين كل هؤلاء ناظرة إلى هذا الشيطان الكبير .

كان مطلبه الأساسي : (التسميع).

ها هي تباشير المستقبل تشير له بأن هذه لم تعد مهمة الطلاب .

وهكذا أصبح حتما أن تعود الامتحانات إلى مهمتها التربوية الأصلية ، إنها أداة للتقويم والإصلاح والتطوير ، تكشف عن صور الخلل والعيوب فتعيد النظر باستمرار في منظومة التعليم من حيث الأهداف ،

والمحتوى ، وطرائق التعليم .

ومن هنا تسعى الامتحانات ، في وضعها المنتظر ، إلى الكشف عن مهارات عقلية تتبدى في الربط والتحليل والمقارنة والتعليل والاستنباط والنقد .

كان الكتاب المدرسي ، مثلا ، يجيء بموضوع عنوانه : (أسباب قيام الحملة الفرنسية) ، فلا يكون أمام واضعي أسئلة الامتحان إلا أن تدخل أداة استفهام على العنوان ليصبح : ما أسباب قيام الحملة الفرنسية على مصر ؟ ظاهره يوحي بأنه يسأل عن (التعليل) ، وبذلك يدعي أنه يقيس مهارة عقلية ، لكن الحقيقة غير ذلك، فما على الطالب إلا أن يحفظ ما بالكتاب من أسباب .

إن الطالب ـ مثلا ـ إذا درس أن نهر النيل يجيء من الجنوب إلى الشمال ، وكان له دوره في نشأة الحضارة المصرية القديمة فهل يمكن أن نسأل هذا الطالب : ترى، ماذا كان يمكن أن يكون عليه الحال لو أن نهر النيل سار من الشمال إلى الجنوب ؟!

إن كثيرين قد لايستوعبون هذا ، ولكن المقصود هو تنشيط (خيال) الطالب، (فالتخييل) ، المحكوم بظروف الواقع واحتمالات المستقبل ، مهارة أساسية تعزز قدرات الابتكار والإبداع .

وفي ظل النظام الحالي للامتحانات ، كان ظهور مثل هذا التساؤل يمكن أن يثير ثورة الرأي العام لأنه محكوم بفلسفة للامتحانات تبني صناديق معرفة ولاتبني معامل تفريخ للمهارات العقلية .

وإذا كانت تكنولوجيا المعلومات ستقوم عن المعلم بتوفير المعرفة ، فإن هذا لايعني أن دوره لم يصبح مهما ، كلا ، إنه عندئذ يمكن أن يتفرغ لمهمته الحقيقية :أن يكون مُسهلا لسبل المعرفة لا أن يقدمها (المعرفة) ، أنه يوجه ولا يأمر ، أنه يشيع دفء العمل التربوي وعلاقاته الانسانية ، إنه يدير الحوار وينظم المناقشات ، ويوزع الأدوار على الطلاب وفقا لما تكشف عنه المواقف من قدرات ومهارات كل منهم ، إنه يشجع على النقد والفحص .

هذا هو المعلم (المربي) ، أما تكنولوجيا المعلومات فقد تكون معلما ، لكنها لاتستطيع أن تكون مربية .

ولن تصبح المدرسة وحدها هي وسيط المعرفة والتربية ، بل ستصبح مؤسسات وأجهزة أخرى كثيرة ومتعددة أجهزة تربية وتعليم ، مما يحفل به المجتمع وخاصة المجتمع الذي يعيش عصر المعلوماتية ، تصبح معظم ، إن لم تكن كل ، مؤسسات المجتمع ونظمه ، معلمة مربية بغير فصول وقاعات درس وكتب مقررة وامتحانات .

خذ مثالا بسيطا مما أصبح قائما الآن منذ سنوات معدودة من مظاهر المجتمع المتقدم ، مترو الأنفاق ، مظهر

يشير إلى حسن استغلال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ، وقارن بين سلوكيات الناس فى التعامل معه ، وسلوكياتهم فى التعامل مع (الأتوبيس و(القطار) التقليدى، ستجد النظام فى مقابل الفوضى ، ستجد التخطيط فى مقابل التسيب ، ستجد النظافة فى مقابل القذارة، ستجد التعامل الرشيد مع (الوقت) فى مقابل اهدار قيمة الوقت ، فضلا عما فرضه مترو الانفاق من أجهزة ونظم تطلبت كما ونوعا من المعارف والمهارات لاتقارن بما يتصل بالأتوبيس والقطار التقليدى .

وقس على هذا ، أشياء كثيرة الآن .

فما بالك بما يحمله المستقبل من احتمالات تطور وتقدم تقنى ؟

والغريب أن هذه التطورات المختلفة تؤكد لنا على حقيقة مبهمة ، تضاءل الحديث عنها فى الفترة الأخيرة تحت ضربات اتجاه (الخصخصة) و (العوّلة) ، فكثيرون أصبحوا يتنادون بانتهاء عصر الأيديولوجيا ، وبإعلان (السوق) ملكا ، بل وامبراطورا لمجتمع اليوم والغد .

ونحن نؤكد أن ماقيل عن انتهاء عصر الأيديولوجيا لاينبغى أن ينفى جانبا آخر هو ضررة أن يكون هناك إطار عام للأمة يضبط حركة مؤسسات المجتمع وأجهزتها ، فإذا كانت الصحف والإذاعة والتليفزيون ودور العبادة والنوادى والمصانع والشركات ستدخل شريكة للمدرسة والجامعة فى مهمة التربية والتعليم ، فماذا يمكن أن يحدث لأبناء الأمة إذا تعارضت أو تناقضت توجهات هذه المؤسسات فى ظل منطق عام يرفع شعار الخصخصة؟!

إننا نعى جيدا بأنه لم يعد هناك مكان لأمة فى المستقبل تقع أسيرة هيمنة مذهب شمولى ، ولكننا ، فى الوقت نفسه ، نعى حقيقة بشرية تشير إلى أهمية التناغم والتآزر والتكامل بين عناصر الشخصية الفردية ، وهى الحقيقة نفسها التى تصدق على الشخصية القومية ، شخصية تكون لها قسماتها الذاتية ، وهويتها الخاصة ، غير مصابة بالفصام أو التميع !!

☐

مصر والعالم فى القرن ٢١

التكامل العربى شرط الدخول الى القرن الحادى والعشرين

بقلم : د. اسماعيل صبرى عبدالله

• الكيانات الضعيفة لا مكان لها في القرن القادم

■ الحديث عن المستقبل ليس سهلا كما يتصوره الكثيرون، وبالتالى يجب تفسير بعض الأساطير .. فالقرن والسنة والتاريخ، كل هذه أمور وضعها الإنسان لقياس الزمن.

وأحيانا يتحدث الناس عن القرن المقبل، كما لو كنا فى مسرحية من عدة فصول، وفى نهاية القرن يتغير المنظر، ثم يأتى ممثلون جدد، وترتفع الستارة عن فصل جديد.

والواقع ليس هذا تماما، فقد شغل الناس، من قبل ، بسنة ٢٠٠٠ وما سوف يحدث ، ونظمت مؤتمرات، وكتبت أوراق، وبالرغم من وجود بعض الحقائق العلمية التى نحس بأنها ستحدث فى المستقبل القريب، فإننى أعتبر من يتنبأ بما سوف يحدث فى أواخر القرن الحادى والعشرين يعد نوعا من الرجم بالغيب!

والمنهج العلمى هو الذى يستطيع ان يكتشف بعض الحقائق التى تحدث - مثلا - فى الخمس والعشرين سنة القادمة، لكن بعد ذلك لا احد يستطيع أن يستنتج ما سوف يحدث مستقبلا.



وفي ضوء هذه المقدمة سوف أبدأ في إلقاء الضوء على الوضع الدولي، والذي سيشهد تطورات مهمة أبرزها - في تقديري - الاتجاه في أن تحل آسيا محل أوربا، القارة الأساسية الآن في العالم. فاليابان والصين والهند وهي كتل بشرية ضخمة ولديها امكانيات التطوير مما أغرى جزءا من الولايات المتحدة بالرغبة الشديدة في عمل ارتباط تجاري مع هذه الدول، خاصة وأن هذه الدول الأسيوية دخلت مجال التكنولوجيا المتقدمة فضلا عن ان التركيبة السكانية لغرب الولايات المتحدة تضم عناصر آسيوية كثيرة جدا.

وبالتالي فسوف يترتب على ذلك تراجع أهمية حوض الأطلسي لحساب حوض الباسفيك، ولما كان البحر المتوسط جزءا من حوض الأطلسي فسوف تهمش منطقة الشرق الأوسط ومن بينها الدول العربية، وتقل أهميتها الدولية.

والاقتصاد يدار حاليا على مستوى فوق الدول القومية ، أي على مستوى الشركات المتعددة الجنسيات ، وعادة ما يكون للشركة أكثر من ١٢٠ فرعا تنتشر في أنحاء العالم تغلق فرعا هنا ، وتفتح فرعا في مكان آخر، ولا تهتم بالاوضاع الداخلية لأي بلد من بلدان العالم، وتلك الشركات تجمع المدخرات .. من دول العالم كله لاستخدامها في مشروعاتها العملاقة وتختار كوادرها من هذه الدول، ويتم الاختيار على اساس الكفاءة والخبرة

العالية، وليس لديها ارتباط بجنسيات معينة.

وهذه الشركات هى المسيطرة حاليا على الأسواق العالمية، والمنافسات بينها تؤدى الى الدمج، أو انتزاع احتكار التجارة والسيطرة عليها.

وأصحاب هذه الشركات لهم نظرة عالمية، ولا تتطابق، بالضرورة مع سياسة هذه الحكومة أو تلك لأنهم دائما يستخدمون اكثر من حكومة.

وهناك أمثلة عديدة على ما يحدث الآن فى مجال التجارة والاقتصاد والاتجاه الى الدول الآسيوية المتقدمة تكنولوجيا.

فلقد أرغم رجال الأعمال الأمريكيون الإدارة الامريكية على استئناف العلاقات الدبلوماسية مع فيتنام ، على الرغم من ان مشكلة الأسرى المفقودين لم تحل حتى الآن، ومنطقهم فى ذلك ان الشعب الفيتنامى متعلم ونشط مثل بقية شعوب آسيا كلها، وينفتح على العالم الآن.

وبالتالى فإن المصالح الخاصة بالتجارة الضخمة، أصبحت أقوى من ضوابط البيت الابيض، أو وزارة الخارجية الامريكية!

وأصحاب الشركات العالمية الكبرى يتكالبون على الهند، وتجىء بعد الصين من حيث حجم الاستثمارات الاجنبية، لأنها ناجحة اقتصاديا، وبالرغم من أن الهند بلد فقير، فإن نمو المعدلات استمر بنسبة تصل الى ٦ر٥٪ سنويا، كما ان لديها قاعدة علمية تكنولوجية متقدمة جدا، ولديها عمالة مؤهلة رخصية الأجر، وهى بالقطع سوق احتكارية كبيرة، مما شجع شركة مرسيدس - على سبيل المثال - لإقامة مصنع بها . ففى نهاية القرن سيكون لدى الهند ٥٠٠ مليون هندى من الطبقة الوسطى، تتطلع فئة منهم لامتلاك سيارة، وبالتالى فإن الدول الصغيرة، لاتهم أصحاب هذه الشركات الكبرى، لأن لديها سياسة استراتيجية طويلة الأجل، وحينما تدخل شركة مرسيدس الى الهند وهى بهذه الكثافة السكانية، وليس هناك جمارك داخلية، ولا حواجز فسوف تبيع على الأقل مليون سيارة داخل الهند.

وتجىء أهمية دولة مثل الهند فى القاعدة العلمية والتكنولوجية التى تمتلكها فلديها علماء فى مستوى عالمى، تمكنوا من عمل مفاعلات نووية، هم الذين صنعوها بعد حصولهم على مكوناتها من الخارج، كما صنعوا القمر الصناعى الهندى، وفى مجال المعلومات والكمبيوتر ركزوا على البرامج الخاصة بتشغيل المصانع الكبرى لانها عملية عقلية بحتة وتم ذلك من خلال علماء الرياضيات الهنود، وامكن تصدير البرامج للولايات المتحدة ، كما ان البرامج المستخدمة فى انجلترا تحصل عليها من الهند.

ولابد ان وراء هذا التقدم سرا قد لا يغيب عنا فالهند بها كل عناصر التخلف، وفيها كل الأديان فى العالم، وتضم أقليات

عرقية تصل الى ١٢٠ اقلية، والذى يجعلها تتعايش مع بعضها البعض الديمقراطية البرلمانية، والتكوين الفيدرالى فليست كل الصناعات والمصالح الحيوية مركزة فى العاصمة نيودلهى، بل تنتشر فى ولايات كثيرة، وكل ولاية لها مشكلاتها وانتخاباتها واحزابها.

● الاقتصاد قوة عظمى!

معنى هذا ان هناك قوة اقتصادية كبرى، تتجاوز الدول والحدود، هى التى تتعامل معها. وبدأت الوفود الرسمية تضم رجال الأعمال. وأصبح الحكام يساهمون بشكل واضح فى دعم القطاع الخاص، وفى هذا المجال فإن الثراء على مستوى العالم يزيد والأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقرا، ويستتبع ذلك اختفاء دول من على خريطة العالم، وهذه ليست فروضا خيالية. فأين هى تلك الدول الآن. الصومال - ليبيريا على سبيل المثال.

وأغنياء العالم ينظرون الى العالم الثالث على انه مخزون للبطالة والفقر، ويعتبرون ان مليارا ومائة مليون شخص هم تقريبا تعداد العالم الثالث لا يستحقون الحياة لأنهم عاجزون عن انتاج الخبز (لقمة عيشهم)، وأن تقدم البشرية قد بنى على مبدأ البقاء للأصلح.

وتجرنا هذه القضية الى الوهم الذى نعيش فيه .. ان مصر غنية بالموارد الطبيعية. وللأسف الشديد فإن هذه المعادن ليست بالجودة التى نتحدث عنها. سواء المنجنيز او الفوسفات خاصة فوسفات ابو طرطور. فالأسمدة منتشرة فى العالم كله واسعارها تتراجع، والمنتجات المعدنية تمر بنفس الظروف، كما تناقصت اسعار البترول فى الآونة الاخيرة بشكل واضح وملحوظ.

ولذلك اقول بأن مصر ليست دولة غنية ولا العرب اغنياء. والوهم الخاص بالبترول انتهى ولن يتكرر ما حدث فى السبعينيات. وما يحدث فى السوق البترولية يبين ان البترول اصبح سلعة عادية، وذلك نتيجة تغيرات كبيرة فى الاقتصاد الغربى ووجود البدائل للمواد البترولية وامكانية تصنيعها من مواد صناعية اجود من المواد الطبيعية.

وافريقيا السوداء تمر بنفس المشكلة، وكان الامل فى تقدم وازدهار نيجيريا. ولكن الخلل السياسى الموجود بها، وعدم استقرارها، جعل المستثمرين من الغرب يسقطونها من حسابهم، وتتبقى جنوب افريقيا. ولا ندرى كيف تستقر الأوضاع السياسية فيها، لأنها تمتلك قاعدة صناعية جيدة.

اما ما عدا ذلك فى افريقيا، فلا ينظر اليه المستثمرون الاوربيون.

وأذكر انه فى عام ١٩٨٤ حضرت اجتماعا بصفتى الشخصية للجنة التخطيط والتنمية للأمم المتحدة ووقتها قال ممثل صندوق النقد الدولى: «ان افريقيا كفت عن ان تكون حالة تنمية، هى - فقط

ـ فى حالة احسان »، والدول الصغيرة المتفرقة، حينما يتزايد الخلاف وتتفاقم المشكلات فيما بينها، فسوف تشتد ازمتها وتترك للاقتتال والتناحر وضياع ثرواتها، وفى المقابل يشعر الغرب بالسعادة لكل ما يحدث لهؤلاء الناس الذين لا أهمية لهم وقد استغنى عنهم العالم بأسره!

وهؤلاء يسمونهم. سكان لا يحتاج اليهم الاقتصاد العالمى وليس لهم مكان فى الحياة، وينبغى موتهم، وبالطبع لن يتم ذلك من خلال حرب او قنبلة ذرية تهز العالم، بل من الأحسن ان يتقاتلوا فيما بينهم، يقتلون بعضهم البعض ومن الأفضل الا يتدخل احد لوقف نزيف الاقتتال، والدليل على ذلك هذه المحاولة التى حدثت فى الصومال. وفشلت بالرغم من تدخل امريكا، ورد الفعل الامريكى برفضهم ان يموت اى جندى امريكى من اجل هؤلاء السود الذين لا يستحقون الحياة، وعليهم ان يقتتلوا كما يريدون. فليست لهم ايه أهمية، لان أهمية الصومال، كانت فى المواجهة بين الشرق والغرب حول باب المندب. والآن ليس هناك شرق ولا غرب، ولا اعتبارات للأمن فى اى دولة صغيرة ليس لها وزن يذكر عالميا، من الممكن ان تنتهى وتهمش، وبالتالى تشتد ازماتها الداخلية، ويشتد فيها العنف، ويبدأ بها الإرهاب، وتنتهى الى حرب أهلية، وهذا ما حدث فى لبنان، ولولا ظروف إقليمية وخارجية عديدة لكانت لبنان قد تقسمت، وربما كان الخلاف على التقسيم بين الدول التى كانت تتربص بلبنان هو السبب الذى حماها من هذا التقسيم، بل قل التمزيق!

● التكامل العربى

إن ما ذكرته يؤكد لنا كمصريين وعرب ان مستقبلنا فى العالم رهن بنجاحنا فى التكامل العربى. وبالتالى علينا ان نتباحث ونتفاهم باسم سوق تضم ٢٥٠ مليون عربى، وبدون تكامل اقتصادى عربى. فلا مستقبل لأى دولة عربية، ابتداء من مصر، وهى الدولة الكبرى، ولابد من مواجهة الحقائق ومعرفة العبء الملقى علينا لمواجهة التحدى.

ولابد من وقفة شجاعة، فالتحدى عندنا نحن، ويبدأ من توقف التنمية، والتخلف فى التصنيع، وهذه امور، سوف ندفع ثمنها فى نهاية الامر، فيما لو استمر الحال على ماهو عليه.

وهناك تقارير تؤكد انه فى القرن الواحد والعشرين سوف تختفى الدول التى يقل عدد سكانها عن ١٠٠ مليون نسمة ومنها كما نرى الان (الصومال ـ بوروندى ـ رواندا ـ ليبيريا ـ سيراليون ـ تشاد).

وإذا كان مستقبل العرب متوقفا على التكامل الاقتصادى، فنحن نطالب بهذا التكامل كضرورة تنمية، فلدينا الثقافة المشتركة. واللغة الواحدة التى تسهل عملية التكامل، على عكس ما نجده فى الاتحاد الاوربى، فلديه خمس لغات رسمية

ولابد ان تنشر جميع التقارير بهذه اللغات الخمس، ولنا ان نتصور عبء الترجمة ، والميزانيات التي ترصد لطباعتها واعداد كميات كبيرة من الورق لذلك .

اماعندنا في الوطن العربي ، فيمكنك ان تسير من البحرين الى الدار البيضاء رغم اختلاف اللهجات ، وتتفاهم بسهولة، فاللغة المكتوبة واحدة، والأفلام السينمائية،خصوصا المصرية، جعلت من عادل امام بطلا قوميا، وهذا بلاشك سند كبير لعملية التكامل.

ايضا التكامل الاقتصادي العربي ينبغي ان يكون سهلا، فنتعاون على انشاء مشروعات جديدة تحقق ما نسميه التنمية التكاملية بهدف رفع مستوى المعيشة في المنطقة العربية كلها، لأنه لابد لكل دولة تدخل ضمن هذا التكامل ان تحقق عائدا، أكثر مما كانت تحققه قبل التكامل، لأن الهدف من هذا التكامل الاقتصادي . انه يتم بناء على مصلحة . وليس سيطرة دولة على بقية الدول الأخرى الداخلة ضمن التكامل، وكلنا لنا مصلحة، لأن العائد عن هذا المجهود المشترك، سوف يعم علينا جميعا بدءا من الصومال وموريتانيا وكل البلاد العربية الفقيرة.

إن وجودنا واستمرارنا مرتهن بالتكامل الاقتصادي العربي. وهذه ضرورة حياة او موت بالنسبة لمجموع الشعب العربي، الغنى والفقير على حد سواء . وإذا لم نفعل هذا، فعلى سبيل المثال سوف ينتهي البترول في عدد من الدول العربية البترولية، وتتحول المدن الخليجية البترولية الى مدن اشباح.. فكل اهل تلك المدن لديهم أموالهم في الخارج فكيف يعيشون في هذه المدن الاسمنتية . بعد ان ينضب البترول.

ولابد ان تصبح كل المشروعات الكبرى مشروعات عربية مشتركة . وليس بالضرورة ان تشترك الدول العربية كلها في كل مشروع يقام، فيمكن ان يضم المشروع ثلاث او اربع دول تشارك فيه. وليس المطلوب أن تنفذ الدولة او القطاع العام هذه المشروعات المشتركة، فأملى كبير جدا في القطاع الخاص العربي الذى لو أعطى الفرصة كاملة فسوف يعظم الربح، ويعمل على مواصلة نجاح مشروعاته.

اما اذا أدخلت الحكومات في هذه المشروعات فسوف تدخل في مسائل شخصية ، وتعمل على تعيين المحاسيب والاقرباء، وإذا تغيرت هذه الحكومات فسوف تتوقف هذه المشروعات.

ومن هنا فان القطاع الخاص العربي مسئول ، وعليه جانب كبير جدا من عملية التكامل الفعلية، وهو نشيط يعمل بكل قوته وطاقته بلا تدخل سياسي. فالتدخل السياسي في مثل هذه المشروعات الكبرى ليس له منطق، اما تدخل رجل الاعمال فله منطق، لأنه محكوم في النهاية باعتبار أساسي هو زيادة الربح.

وإذا اتفق العرب على خطة طموحه للاستثمار تهدف للنهضة الشاملة بالوطن العربى فسوف تسترد الحضارة العربية قدرتها على انتاج المعرفة، واذا اصبحنا منتجين للفكر وللمعرفة وللتكنولوجيا . فبالتالى سوف نستطيع ان نتعامل فى ظروف منافسة القوة فيها متكافئة، لكن اذا استمر اعتمادنا على تكنولوجيا مستوردة كاملة، فلن نفعل شيئا على الاطلاق.

ومن دواعى التكامل الاقتصادى العربى ضرورة بناء قاعدة علمية وتكنولوجية ، واقتصاد اى دولة عربية على حده لا يحتمل ذلك بالكامل، لكن لو تم ذلك المشروع على مستوى الدول العربية، فسوف يكون ذلك ممكنا، وبالتالى سوف يعود علماؤنا العرب الذين يعملون فى الخارج مثلما حدث فى الصين ، حيث اتى اليها علماؤها الذين كانوا يعملون فى وحدات نووية فى العالم .. عادوا الى الصين وصنعوا القنبلة النووية.

ولو ان العرب فتحوا اسواقهم، واصبح لهم هذا المستقبل وهذا الطريق . فسوف نستطيع فى مدة قصيرة نسبيا بناء قاعدة علمية وتكنولوجية . خاصة اذا علمنا ان أسوأ أنواع التبعية ، هى التبعية فى المعرفة، لأن الذى يحكم على الشىء بالجودة من عدمها، هو شخص اخر غيرك وليس لدينا فى البلاد العربية شركة صناعية كبرى بها وحدة خاصة بالتكنولوجيا . تبحث عن كيفية عمل الالات الموجودة لديها ، او امكانية التطوير بها، عن اى اكتشاف حديث من الممكن اضافته للبرامج الموجودة لديها او لابد من تغيير النظام الحالى الى النظام الحديث.

ومأساة مصر ان لديها مهندسين متعطلين عن العمل، والعقبة الاساسية فى تصنيع اى دولة فى العالم الثالث، هى ندرة المهندسين ، ومعنى وجود مهندسين لاتجد لهم عملا فهو دليل قاطع اننا لا نصنع!

وحينما اترك هذا الكم الكبير من المتعلمين بلا عمل ، فاننى ابدد الاستثمار الذى انفق فى تعليمهم، وبالتالى لابد من ايجاد عمل لهؤلاء المتعلمين ، والمجموعة الوحيدة التى جلبت لنا عائدا، هى تلك التى ذهبت للعمل فى دول الخليج وتحول سنويا ما قيمته ستة مليارات دولار.

● التعليم أفضل استثمار

وبالتالى فان ما انفق على التعليم فى ايام عبدالناصر حقق عائدا كبيرا تشهد به ارقام التحويلات ، وفى رأيى ان احسن استثمار ، هو الاستثمار فى الانسان .. فى تعليمه وصحته وقدرته الانتاجية ، وخصوصا فى مصر.

ان الصناعة هى مستقبلنا الان، على عكس الزراعة ،مع تزايد السكان، وتضاؤل المساحات المزروعة، فنحن نأكل الأرض التى نزرعها ، ونحولها الى مساكن اسمنتية، وليس ذلك فى المدن فقط، ولكن

ايضا فى القرى، ولو كانت هناك سياسة لاسكان الناس فى الصحراء ، ووجود خطط حقيقية للتعمير، لكنا قد حافظنا على الأرض الزراعية.

فالأرض الزراعية فى مصر تضيق وتقل مساحتها عاما وراء الاخر، ونرهقها، بالأسمدة والمبيدات وبالتالى فإن جودتها تتراجع وانتاجيتها تتراجع، وتلوث مياه النيل، وهو المصدر الوحيد للشرب عندنا، وبالتالى نرتكب عملية انتحار جماعى لكل ما يحدث حاليا.

فليس هناك تصنيع بالمفهوم الواسع ، والزراعة امكانياتها تقل، والأرض الزراعية تتدهور والمياه تفسدها وهذه هي مشاكل مصر الحقيقة، وليست الخصخصة ولا المصمصة!

والمستقبل من هذا المنطلق مظلم ، وأصبح الجهد المطلوب منا فى مصر مضروبا فى (أس ١٠) فى التصنيع وفى التعليم وفى الانتاج وفى التدريب وفى البحث العلمى، وكل هذا فى اطار تعاون مع اكبر عدد ممكن من الدول العربية فى توجه نحو سوق واحدة، وهذا لن يصدر بقرار، بل يتم من خلال اجراءات ومراحل عديدة.

ان الثورة العلمية والتكنولوجية تتطور بسرعة مذهلة ولابد من ملاحقتها.

● فى مجال الاتصالات ووجود شبكات المعلومات العالمية مثل الانترنيت وغيرها وبالتالى لابد من اعادة التفكير فى كل ما يحدث فى هذا المجال، فلم يعد هناك شيء ممنوع واخر غير ممنوع.

● التقدم فى مجال الهندسة الوراثية . وهو مجال جديد، وتشتد المنافسة فيه الآن ونحن ننظر اليه بحذر ، لكن لابد من دخول هذا المجال، وينبغي ان نركز على ما نحتاج اليه فى هذا المجال.

● مشروع الطاقة الشمسية لابد من الاهتمام به وللاسف الشديد فان هذا المشروع لا يأخذ اهتماما كافيا، لان الدول التى لديها اولويات بحث، لا تضع الطاقة الشمسية فى المقدمة، نظرا لان الدول التى تنتج البترول . تحارب المشروع، كما ان دول الغرب ليست لديها حاجة ماسة للطاقة الشمسية بسبب ظروف الطقس وانعدام ظهور الشمس لفترات طويلة على مدى السنة. والشمس هي كنزنا الوحيد الذى لن ينضب على مر العصور، ولو نفذنا هذا المشروع الضخم، فسوف نستطيع تحلية مياه البحر، واستخدامها فى الزراعة، وفضلا عن بقية الاستخدامات الاخرى للطاقة الشمسية .

إن المستقبل أمامنا، ولدينا الفرصة الكاملة لكى ننطلق من أجل تحقيق انطلاقة كبرى، نعتمد فيها على احدث نظريات البحث العلمى ، والتطور الهائل فى مجال جمع البيانات والنماذج الرياضية التى تحل من خلال استخدام الكمبيوتر، ومصر لديها العلماء والأجهزة الحديثة التى تحقق ما تهدف إليه من تطور وازدهار.

مستقبل الاسلام السياسى فى العالم العربى

بقلم: هانى عبدالمنعم خلاف

■ عرف تاريخ الدول والممالك العربية والإسلامية طوال مايزيد علي الألف وأربعمائة عام الماضية مراحل عديدة من الصحوة والانبعاث والتجديد يعقبها مراحل من الخمول والضعف والسكون. وقد اتخذت معظم حركات الصحوة مضامين دينية وفكرية وتربوية في معظم الأحوال، ولم تتجاوز هذه الحركات حدودها إلي حيث مناطق التغيير السياسي الشامل إلا في حالات الجهاد الديني المختلط بالوطنية ضد قوي الاستعمار الأجنبي والنفوذ الخارجي عموما في بعض حالات المقاومة الفكرية والعملية لبعض حالات الاستبداد السياسي من جانب الحكام والولاة.

وتعتبر حركة التغيير الاسلامى التى تشهدها الآن عدة مواقع فى دول عربية وإسلامية حركة من نوع جديد ليس لها فى سوابق الخبرة التاريخية نظير مطابق حيث انها لاتستهدف فقط ايقاظ الوعى الدينى وتنشيط الفكر والاجتهاد واعادة تربية المسلمين وانما تغيير الاوضاع والنظم السياسية والدستورية التى يقوم عليها البناء الراهن للدول العربية والإسلامية بدعوى استعادة او احياء نظام الخلافة الاسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من النظم والقوانين القائمة حاليا فى هذه البلدان.

وقد بلغت تطورات هذه الدعوى وتحركات أصحابها فى عدة بلدان عربية مرحلة تفرض على كل باحث وكل مواطن

وزير مفوضى بالخارجيه المصريه



مسئولية اكتشاف مواقع الأقدام واستطلاع احتمالات التطور فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد .

والبحث الرئيسى المطروح هنا يمكن ان ينصرف إلى سؤالين :

الاول : هل لهذه الحركات الاسلامية مستقبل فى الساحة السياسية العربية ؟ أم أن مصيرها الخفوت والتوقف ثم الانزواء ؟ وهل هناك سيناريو ثالث للتطورات المحتملة ؟

والثانى : إذا كان لهذه الحركة السياسية نصيب من التمكن والذيوع فأى شكل من أشكال المستقبل يمكن أن ينتظر الشعوب والبلدان العربية فى حياتها الوطنية وفى علاقاتها الخارجية ؟

وقبل الشروع فى الإجابة عن هذين التساؤلين يلزم تقديم عدة ملاحظات ضرورية عند التعامل مع مختلف التحليلات والنتائج .

الملاحظة الأولى : إن محاولة رصد المستقبل وقياس الاحتمالات فى حد ذاتها ليست من الأمور المخالفة للنصوص أو

التقاليد الإسلامية ، ولا هي مصادرة على إحدى الخصائص التي انفردت بها الذات الإلهية في «علم الغيب» و«تسيير الكون» و«تحديد المصائر» وإنما هي نوع من الإعمال الأمين لدعوة الله - تبارك وتعالى - إلى عمل الحسابات الواجبة للغد ورصد القوى وتدبير الأمور . قال تعالى في قرآنه الحكيم : «ولتنظر نفس ما قدمت لغد» . وقال تعالى : «.. فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا» . وهي آيات في المبنى والمعنى واضحة الدلالة في الدعوة الى استحضار المستقبل وتمثله في الوعي والسعي وإجراء ما يلزم له من عدة وتحصين وتدبير .

والملاحظة الثانية : إن عملية تحليل التطورات الراهنة ومحاولة رصد احتمالاتها المستقبلية يمكن أن تتم من خلال منهجية علمية محايدة دون أن تقترن بمواقف أو تفصيلات لهذا السيناريو أو ذاك . وكلما كان الباحث محايدا في معالجته لهذا الموضوع جاءت تحليلاته والنتائج التي ينتهي اليها أكثر دقة وشمولا في توصيف الحال ورصد المآل .

والملاحظة الثالثة : إن الحركات الإسلامية في عالمنا العربي المعاصر وبرغم مرجعيتها الرئيسية الواحدة في القرآن والسنة - لا تنهج نهجا موحدا في عموم الاقطار العربية . بل إن لكل قطر عربي ملابساته وظروفه الخاصة التي تؤثر في تشكيل أولويات التغيير المطلوب فيه ، وفي تشكيل مناهج التحرك الإسلامي وأساليبه ومراحله . ومن المؤكد أن الاختلافات بين نظم الحكم القائمة في البلدان العربية والاختلافات الملحوظة في مناهجها السياسية ونصيبها من النجاح والإخفاق في خططها التنموية الى جانب تباين الظروف والمشكلات الموضوعية الأخرى فيما بينها ، واختلافات الاوضاع الاجتماعية والتركيب السكاني ودرجات التطور الاقتصادي والثقافي .. بالاضافة الى تباين نوعية العلاقات والتوجهات الخارجية لكل منها .. كل ذلك من شأنه تحجيم أية استنتاجات عامة وتقييد أية محاولة للخلوص بتوقعات متطابقة بالنسبة لعموم البلدان العربية .

وقد يحتاج الأمر الى دراسات قطرية أكثر تفصيلا لرصد وفحص الابعاد الخاصة بكل قطر حتى تكون احتمالات المستقبل بالنسبة لكل قطر اكثر دقة ومع ذلك قد يمكن القول في تعميم لا يخلو من بعض المفارقات والاستثناءات - وباستقراء واقع واتجاهات تطور الحركة الإسلامية عموما في عدد من الدول العربية وانعكاسات هذا التطور على مواقف مختلف الاطراف الاخرى الداخلية والعربية والدولية .. أن هناك ثلاثة سيناريوهات لمستقبل هذه الحركة الإسلامية في البلدان العربية .

الأول : وهو سيناريو التراجع والانزواء التدريجي .

الثاني : وفيه يتقدم مشروع التغيير الإسلامى نحو التمكن والذيوع .

الثالث : وفيه تستمر عناصر الجذب والطرد الراهنة حول التغيير وعدم التغيير دون نتائج حاسمة لأي من الاتجاهين .

● **سيناريو التراجع والانزواء التدريجي :**

فى تقدير البعض ان هناك بعض العوامل التى تجعل مصير الحركات الإسلامية السياسية الراهنة مشابها لمصير غيرها مما سبقها من حركات التجديد والصحوة فى التاريخ الإسلامى.

فالبعض يرى ان مثل هذه الحركات التغييرية ظاهرة استثنائية أو طفرة عارضة فى نسق التاريخ الاجتماعى العرب والمسلمين تبرز دائما عند استفحال الأزمات فيلوذ الإنسان بالتدين ويلجأ الى تجريب مالم يجرب فى حياته القريبة ويتمسك متشددا بكل ما يناقض أسباب أزمته القائمة ثم لا يلبث المجتمع أن يعود سيرته الأولى بعد زوال الأزمة أو حين تتشكل له بمقتضى تطور الأشياء - أزمة جديدة بفعل واقعه الجديد . ويبدو ان - أصحاب هذا الاحتمال يقيمون توقعاتهم على أساس تماثل حركات التغيير الإسلامى الراهنة مع حركات التجديد الفكرى والاصلاح الدينى التى سبقت فى التاريخ العربى الإسلامى وهو تماثل غير دقيق وغير صحيح .

وهناك آخرون من اصحاب هذا التوقع يرون أن الحركة الراهنة مآلها الى انزواء ليس فقط على اساس حكم الطبائع وميل الناس فى الغالب الى التوسط والوسطية ، وانما ايضا بسبب ما يمكن ان تواجهه تلك الحركة من أعطال ومشكلات بعضها ذاتى يتعلق بمدى التجانس والتناسق الذاتى والائتلاف بين قواها الفكرية وقياداتها السياسية وبعضها الآخر يعود الى موجات التصدى والرفض التى يمكن أن تواجهها تلك الحركات من جانب اصحاب الثقافات والمصالح الأخرى المغايرة التى قد ترى فى هذه الحركات خطرا زاحفا يهدد قيمها وحضارتها وانجازاتها ومصالحها فيضطر هؤلاء الى مقاومة نمو الحركة واجهاضها أو على الأقل احتوائها وشغلها بكل اساليب التصدى والاحتواء والتشتيت المعروفة وغير المعروفة . ويرصد البعض فى هذا الاطار بعض التنظيرات والتأصيلات القانونية والسياسية والفكرية التى بدأ إعدادها فى بعض محافل التنظيم الدولى والترويج لها داخل اطارات العلاقات الثنائية والجماعية مما يقدم توصيفا أو تكييفا لظاهرة المد السياسى الإسلامى الحادثة الآن فى بعض البلدان العربية على انها تهديد للشرعية الدولية ومخالفة للقوانين والمبادىء المتفق عليها بشأن (الترابط والتضامن الكونى) و(الاعلان العالمى لحقوق الإنسان) وخاصة عندما يتعلق الأمر بتطبيق النظريات

والبرامج الإسلامية بشأن (علاقة دار الإسلام بدار الحرب) و(الموقف من البضائع الأجنبية فى الأسواق الإسلامية) و(تطبيق حدود الشريعة الإسلامية على الاجانب) و(انعكاسات تحريم الربا على أنشطة وأموال البنوك الأجنبية فى العالم الإسلامى) و(احتمالات تأثر ودائع المسلمين فى البنوك ومؤسسات التمويل الغربية) .

هذا السيناريو التراجعى والانزوائى يفترض فى طياته حدوث عدد من العناصر الجديدة أو التحركات المضادة التى تضاف الى الموقف الراهن .

(أ) نجاح النظم القائمة حاليا فى البلدان العربية فى تجاوز المشكلات المعيشية الاقتصادية منها والسياسية والانطلاق بشكل براماتيكى على طريق الوفرة والحرية والعدالة الاجتماعية والتصحيح الدينى والشرعية المستنيرة وبطريقة يقتنع بها ويلمسها الجمهور العريض فى تلك البلدان مما يجعل مبررات التغيير السياسى غير ذات جاذبية ولا مضمون حقيقى .

(ب) حدوث اعطال وانقسامات داخل صفوف هذه الحركات مما يؤدى الى تشتيت جهدها واجهاض مساعيها وربما تآكلها ذاتيا بفعل التصفيات وصراعات الأشخاص والجماعات .

(ج) حدوث مواجهات ساخنة بين نظم الحكم القائمة فى البلدان العربية حاليا من جهة، وبعض الدول والقوى الإسلامية فى العالم العربى من جهة أخرى مما يمكن ان يزيل عن هذه الحكومات العربية بعض النعوت والاتهامات التى تشيع فى أدبيات ومنشورات الحركات الإسلامية المعارضة لها وهو ناقد يجمد أو يؤجل نوعية الصراع السياسى الداخلى الحالى أو لعله يتيح فرصة لمصالحات توفيقية وتاريخية بين أصحاب التيار الإسلامى وأصحاب التيار الوطنى .

● سيناريو التقدم الحركى وتفعيل الحضور السياسي :

هذا السيناريو يعرض حركة التغيير السياسى الإسلامى وقد زاد تمكنها ونفوذها بزيادة انصارها ومؤيديها فى عموم الشرائح الاجتماعية والمهنية وخاصة بين ذوى المراكز المؤثرة فى الجهاز الحكومى ومؤسسات التشريع والقضاء والأمن الوطنى، وزادت اطروحاتها الدعائية ومنشوراتها نضجا وتجانسا ذاتيا باستكمال المجاهيل الكثيرة الناقصة فى برنامجها السياسى من أجل التغيير .

وفى هذا السيناريو ايضا قد تجرى بعض الاتصالات التمهيدية والسرية بين قيادات هذه الحركات الإسلامية ومراكز التأثير القوية فى النظام الدولى وبلدان الجوار الاقليمى بحيث تطمئن كل الأطراف المعنية على نصيبها من مصالح التغيير ومصالح الأمن والامان خلال هذا التغيير .

ومثل هذا السيناريو يفترض لتحققه

استفحال مشكلات الحياة اليومية وبلوغها مرحلة التعجيز والاحراج للحكومات القائمة كما يفترض ايضا لتحققه ان تصل حالة عدم الاستقرار ٣ الامنى فى البلاد مرحلة عالية يحدث فيها مساس واضح ومنظم بالمصالح الأجنبية وأمن الرعايا الاجانب مما قد يدعو الجهات الخارجية الى إعادة التفكير ومراجعة موقفها من اطراف الصراعات الداخلية فى البلدان الإسلامية .

كذلك يفترض هذا السيناريو ان يؤدى نجاح القوى الإسلامية فى إحداث التغيير المطلوب فى موقع ما الى تنشيط للقوى المماثلة لها فى مواقع عربية أخرى كما يمكن أن تؤدى عمليات الاستفزاز واتجاهات التمييز العنصرى والدينى الراهنة فى أوربا وأمريكا ضد المسلمين والعرب إلى تسريع التفاعلات الداخلية بالبلدان العربية المعنية لصالح الاتجاهات الإسلامية المتشددة التى يمكن لها استغلال تلك الاستفزازات والصمت الرسمى إزاءها من جانب النظم الحاكمة فى المزايدة على هذه النظم الوطنية واحراجها على مستوى الشارع السياسى.

السيناريو الثالث : التغيير ولكن من خلال المؤسسات القائمة :

وهذا السيناريو هو الاقرب الى التحقق خلال السنوات المتبقية من القرن الراهن . وفيه تستمر عناصر التغيير الإسلامى فى محاولتها التى تستهدف احراج النظم القائمة داخليا وخارجيا ومحاولاتها اثبات عجز هذه النظم عن القضاء كليا على بؤر وجماعات ودعاوى التغيير فى الوقت الذى تستمر فيه اجهزة الحكم فى البلدان العربية فى إحكام قبضتها الامنية على الشارع السياسى ، وتعزيز عمليات التنسيق الأمنى والسياسى فيما بينها على المستوى العربى ومع الاطراف الاجنبية .

وفى هذا السيناريو يمكن ان يشهد العالم العربى بعض التغييرات النوعية فى بعض السياسات والمواقف والممارسات السياسية للنظم العربية الحالية وربما يجعلها اقرب الى تحقيق بعض جوانب التغيير المنشود ولكن عن طريق المؤسسات القائمة بالفعل . وهنا قد تظهر مثلا بعض النغمات الدينية الجديدة فى برامج الإعلام الداخلى والمواقف السياسية الخارجية الداعمة لقضايا الإسلام والمسلمين ، وتطوير بعض سياسات وبرامج التعليم وتنقية بعض الممارسات الإدارية والتنفيذية من بعض ما يخالف التقاليد الإسلامية ، الى جانب بعض التوجهات الجديدة فى السياسات الاقتصادية والانمائية بهدف استرضاء الطبقات الشعبية والفئات المحرومة والمتضررة .

كما قد يشهد هذا السيناريو فى اطار اهداف التوازن والاحتواء امكانية ظهور أو إظهار قوى جديدة على المسرح السياسى مما تتسم توجهاتها بنبرة مستنيرة

ومتوازنة في التدين والوطنية .

● المستقبل في ظل التغيير الإسلامي :

اهتمت الحركات السياسية الإسلامية المعاصرة فى ادبياتها ومنشوراتها المبشرة بالتغيير فى العالم العربى بالتركيز على عدد من اولويات التغيير التى يقع معظمها فى دائرة الوضاع والنظم والسياسات الداخلية . فنراها مثلا تركز على مسألة احلال الشريعة الإسلامية محل الدساتير والقوانين المدنية والجنائية القائمة ، وتركز فى مواضع اخرى على التغيير فى سياسات التعليم والإعلام والتنمية الاقتصادية والنظم المصرفية المالية ومعايير التوزيع والعدالة الاجتماعية واسلوب الشورى وشروط الولاية والإمامة.

رغم ان البدائل المطروحة حتى فى هذه الشئون والنظم الداخلية لاتزال غير واضحة وغير دقيقة فيما يتعلق بآليات التغيير وأدواته ومراحله وكوادره الا فإن المجال الاكثر غيابا والأبعد عن الوضوح أو التوضيح هو مجال العلاقات الخارجية للدول فى ظل الشعار الإسلامى .

هناك مجاهيل كثيرة بالنسبة لمستقبل السياسات الخارجية والارتباطات الدولية للدول العربية حين يحدث فيها التغيير الإسلامى .

● ما الموقف مثلا من المعاهدات والالتزامات القانونية السابق ابرامها مع الأطراف الخارجية ؟ وهل يختلف الموقف بالنسبة للارتباطات السابقة مع الدول والمنظمات الإسلامية عن الموقف للارتباطات مع الدول والمنظمات غير الإسلامية ؟

● ما الموقف بصفة خاصة - من ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟

● ما الموقف من افكار ومبادىء التعاون الدولى بما فى ذلك المعونات الاجنبية ؟

● الى اى مدى يمكن ان تختلف الخطوط والمواقف السياسية والدبلوماسية ازاء ابراز القضايا الدولية المطروحة ؟

● ماهو شكل وحدود وآفاق العلاقات التى يمكن ان تنشأ مع الاقليات الإسلامية الموجودة فى بلدان غير إسلامية ؟

● ما الموقف ازاء الشركات والبنوك والاستثمارات والجاليات الاجنبية الموجودة داخل البلاد ؟

● الى اى مدى يمكن ان تتداخل أو تتعارض شعارات (التضامن الإسلامى) و(التضامن العربى) و(التعاون الدولى) وفى حالة التعارض أى الشعارات يحظى بأولوية الرعاية ؟

● كيف يمكن المواءمة بين معيارى (الاخوة الإسلامية) و(المصلحة الوطنية) ؟

● ما الموقف من مبادىء حرية التجارة وحرية انتقال الاشخاص والسفر وحرية تدفق المعلومات وانسياب الرسائل الإعلامية ؟ علما بأن هناك ارتباطات دولية ومعاهدات ابرمت فى كل من هذه الموضوعات وقد انضمت معظم البلدان العربية اليها .

وحين نسوق هذه التساؤلات - وهناك غيرها الكثير - انما ننطلق من خلفيات افرزتها تجارب دول عديدة رفعت الشعار الإسلامي - وبعضها رفعه عن طريق التغيير الثورى الا انها ما لبثت ان أدارت سياساتها الخارجية وعلاقاتها مع الاطراف الدولية بنفس المنطلقات ونفس المناهج التى تتبعها باقى الدول الأخرى .

وفى دراسة نشرتها دورية السياسة الدولية التى تصدر عن مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بمؤسسة الاهرام فى القاهرة تحت عنوان (السلوك التصويتى للدول الإسلامية فى الامم المتحدة) جاء (انه بعكس ما تصوره البعض وفقا لمفهوم «الأممية الإسلامية» أو «الاخوة الإسلامية» من امكان اعتماد الدول الإسلامية لتكييف خاص لمبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية «لم يحدث ان ارتبطت مواقف العواصم الإسلامية مما يحدث مثلا داخل بعضها الآخر من تشديد القبضة على الجماعات الإسلامية أو بتصفية قياداتها - ولا تأييد التحولا الإسلامية التى حدثت داخل بعض الدول ، حيث اعتبرت هذه الأمور من صميم الشئون الداخلية التى لا يجوز للبلدان الإسلامية الأخرى ان تبدى بخصوصها رأيا أو مطلبا) .

والملاحظ ايضا ان مواقف واتجاهات وأحجام العلاقات الدولية للبلدان التى ترفع الشعار الإسلامي حاليا لا يتحدد طبقا لمواقف الدول الأخرى من قضايا الإسلام والمسلمين، فإيران الإسلامية مثلا لا تتردد فى تعزيز علاقاتها مع روسيا مهما كان الموقف الروسى مخالفا لمصالح المسلمين وحقوقهم فى البوسنة والهرسك والشيشان هذا فضلا عما أثير من أنباء حول صفقات السلاح التى حصلت عليها ايران من إسرائيل خلال الحرب الايرانية العراقية . والسعودية مثلا - تضطرها ظروفها الى تقبل وجود قواعد عسكرية امريكية على اراضيها التى تضم الاماكن الإسلامية المقدسة وتقبل فى نفس الوقت اقامة علاقات دبلوماسية مع موسكو .

وعلى العموم فليس هناك ما يدل على احتمال انتهاج الدول الإسلامية لمبادىء مغايرة لمبدأ سيادة المصلحة الوطنية والاعتبارات الاستراتيجية الخالصة كمعيار لإدارة العلاقات الخارجية طالما ظلت موازين القوى الدولية على ماهى عليه الآن داخل العالم الإسلامى وفى العالم على اتساعه .

مصر والعالم فى القرن ٢١

مستقبل إسرائيل
مأساة الوطن المستحيل

بقلم : مصطفى الحسينى

■ صفة الوطن أن يكون تاما ونهائيا لمواطنيه. تاما تعنى أن لا تعتقد جماعة معتبرة من المواطنين أن شيئا من أرضه يقع خارج حدوده السياسية المعترف بها. ونهائيا تعنى أن لا جماعة معتبرة من المواطنين تتطلع إلى غيره وطنا لها.

مثال هذا مصر للمصريين وفرنسا للفرنسيين وبريطانيا للبريطانيين على تعدد أعراقهم، وهكذا.

مصر للمصريين وطن تام ونهائى، فلا أحد من المصريين - فضلا عن جماعة معتبرة منهم - تعتبر الوطن منقوصا، حتى دعاة وحدة وادى النيل وأنصارها، فلم يدخل فكرهم يوما أن مصر لاتتم إلا بالسودان ، وإن جاز القول أنهم اعتقدوا أنها «تزداد تماما». وإن كان الأرجح أن صياغتهم لتلك الدعوة ومعتقدها ألبست المصلحة ثوب وحدة الوطن والتراب، بحكم أن المصالح ثابتة وغلابة ولامتناهية ومصكوكة فى التراب معجونة بمياه النيل.

وحتى دعاة القومية العربية وأنصارها، لم يدر بخلدهم أن مصر وطن ناقص أو منقوص يكون امتداد التراب العربى يقع خارج حدوده، إنما ربما قد رأوا فى الجامع العربى حافظا للهوية، أو مبررا لدور مصر فى «مجال حيوى» لاغنى

عنه، أو تعويضا عن ما يعرفون أن عليهم بذله نودا عن بيئة تربطهم بها وشائج تاريخية ودينية وثقافية عميقة، وفى سبيل تحقيق قدر مطلوب من وحدة القياس مع شعوبها، أو صياغة أرقى للمصلحة المشتركة تنتزه بها عن عارض الغرض.

وهذا هو معنى أن مصر «وطن تام» للمصريين.

أما معنى نهائيته فنيسر أمره، فلاجماعة معتبرة من المصريين تتطلع إلى وطن آخر بديل للوطن ، فمن يهاجرون يعودون، ومن يهاجرون هجرة نهائية أفراد من الجماعات كلها، لكنهم ليسوا جماعة بعينها ولا من جماعة بذاتها.

ولقد استغرق المثال المصرى على تمام الوطن ونهائيته ما استغرق من سطور هذا المقال، رغم أن هذا المثال ليس موضوعا له، إنما لأنه هو المثال القريب الحميم لتوضيح فكرة قد تتبدى غير واضحة.

- ٦ -

أما الموضوع فهو إسرائيل:

هل هى وطن لمن تقول دعواها وعقيدتها أنهم مواطنوها ؟

هل يمكن أن تصبح وطنا لهم ؟

هل يمكن أن تبقى كذلك أن هى أصبحت ؟

ما يبرر طرح هذه الأسئلة وعلى هذا النحو أن الحركة الصهيونية، وعاء العقيدة التى قامت عليها الدولة قد انتحلت صفة «حركة التحرر الوطنى» . وبهذا الانتحال وصفت هدفها بأنه «اعادة إقامة الدولة اليهودية فى وطن اليهود» أو «فى أرض الميعاد» أو فى «أرض إسرائيل» على تنوع الصياغات دون اختلاف الدلالات وعلى ما يجمع بين هذه الصياغات من إبقاء «تراب الوطن» محاطا بالغموض ، فتحديده غيبى وحدوده مغيبة.

أى أن إسرائيل تزعم أنها «وطن اليهود» أو أنها تريد أن تكون كذلك، أو فى نهاية المطاف ستكون. ولايرضى عقيدتها أن تكون «وطنا لليهود» بما يعنيه هذا الوصف الأخير من أن تكون إسرائيل وطنا لليهود ولغيرهم، وفى الوقت ذاته أن تكون لليهود أوطان أخرى غير إسرائيل.

أنظر الجدل الدائر حول الحفاظ على «يهودية الدولة» وهو الجدل الذى يدور بين «الحمائم» السياسيين الذين يعارضون ضم الأراضى المحتلة «محافظة على يهودية الدولة» من طغيان محتوم لأعداد غير اليهود، وبين «الصقور» السياسيين الذين يدعون إلى التوسع أو «استكمال التراب الوطنى» وطرد السكان غير اليهود، وأيضا «محافظة على يهودية الدولة».

أنظر أيضا فى علاقة «الدولة» اليهودية و«الحركة» الصهيونية باليهود الذين لم يصعدوا «يهاجروا» إلى إسرائيل، تراها علاقة تعيير وصل إلى واحد من حدين لئيمين، بن جوريون يدعو إلى «التسامح» مع هؤلاء و«الصبر» حيالهم. بينما مناحيم بيجين يعيرهم بنقص يعيب «يهوديتهم»

وهى فى الحالين علاقة ابتزاز، فعليهم أن يفعلوا ما تأمرهم به إسرائيل أو الحركة الصهيونية وأن يدفعوا ما تطلبه منهم ممتثلين صاغرين

- ٢ -

إسرائيل إذن - تزعم أنها «وطن اليهود»

وعلينا أن ننظر فى هذا الأمر وأن نرى إلى ما له من أوجه.

وطن اليهود فى عقيدة الدولة الصهيونية تعنى أنها وطن اليهود جميعا، ولذلك يقول إعلان قيامها أنها «سوف تفتح أبواب الوطن على مصراعيه أمام كل يهودى» وأنه «سوف تفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين».

ولقد أوفت إسرائيل بما وعدت، ولكن أغلبية اليهود لم يذهبوا، لم يهاجروا إليها، لم «يصعدوا» إلى «أرض الميعاد» فمازال اثنان على الأقل من كل ثلاثة يهود يعيشون «خارج الوطن» ولا ينوون «العودة» إليه، لكن إسرائيل تعتبرهم «منفيين» ، أى أنها تعتبرهم «مواطنين» وتعتبر نفسها «وطنا» لهم بالمآل .

أى أنه بهذا الوجه من أوجه هذا الأمر، فإن «إسرائيل قد أصبحت «وطنا» يعيش أغلبية «مواطنيه» خارج حدوده، حاملين جنسيات أخرى، منقسمين فى «مواطنات» أخرى، ولاينوون «العودة» إلى ذلك الوطن. وأقصى ما يقول بعضهم صادرا عن «ورع صهيونى» أن إسرائيل هى «وطنهم الروحى» ، أو أقصى ما يقول بعضهم صادرا عن «خوف يهودى» أن إسرائيل هى «وطن الملجأ الأخير». يقصدون «الملجأ الأخير» أن تحققت أسوأ مخاوفهم، واندفع - مرة أخرى - إلى العلن والعمل ما هو مستكن فى الحضارة المسيحية الأوروبية من عداء لليهود يتسمى «العداء للسامية».

إسرائيل إذن ، وعلى خلاف دعاواها جميعا، ليست وطنا - لاتحقيقيا ولا موهوما، لا راهنا ولا مأمولا، لأغلبية ساحقة من مواطنيها المفترضين.

فلننظر إذن فى مواطنيها المقيمين، واحد على الأقل من كل عشرة منهم يعيش - نهائيا - «خارج البلاد، وإن كان يحتفظ بجنسيتها وما إلى ذلك من سمات، والمقصود هنا هم المواطنون اليهود. ويقول بعض مفكريهم أن من أبرز خواص «الشعب الإسرائيلى» ، أى هؤلاء اليهود المقيمون فى الدولة، والتى لايصارح أحد نفسه بها، أن «عقدة الحصار» تستحكم بهم، فالدولة انشئت محاصرة، ولذلك ما أن يجد واحدهم فرصة للفرار حتى يهرب متظاهرا بنية العودة حتى لايواجه نفسه بالتخلى عن اسطورة الانتماء إلى «أرض الميعاد»، وهى الاسطورة التى تشكل قوام وجدانه.

حتى أن بعض الساخرين المتشائمين من هؤلاء يقولون أن «السلام» مع العرب،

وانتهاء الحصار يهدد الدولة بهجران سكانها أو معظمهم، ففي ظل الحصار غادرها الأكفاء والأذكياء ما لم يكونوا متعصبين.. وما لم يكون عظما من عظام المؤسسة الصهيونية، وما أن يحل السلام حتى يجد الأقل كفاءة وذكاء فرصتهم فى الفرار أيضا، حيث يمكن أن تكون فرصهم أفضل فى مجتمعات أقل تقدما، خصوصا من تعود أصولهم إلى تلك المجتمعات.

إلى هؤلاء تعرف الدولة اليهودية ضربا من المواطنة لم تعرفه دولة لامن قبل ولا من بعد، هؤلاء هم «المواطنون العابرون» الذين هاجروا إلى الدولة لكى لا يستقروا فيها. وانما لانها «معبر» ضرورى إلى بلد آخر. أحدث الأمثلة لهؤلاء «المواطنين العابرين» هم اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل من بلدان الاتحاد السوفييتى السابق فى السنوات الأخيرة . ذهبوا إلى إسرائيل لأنهم يريدون أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة ويستقروا فيها، لكن تلك الأخيرة - خدمة المشروع الصهيونى، حجبت عنهم سمات الدخول إلى أراضيها فذهبوا إلى إسرائيل معلقين الآمال على «العلاقة الخاصة» التى تيسر لمواطنى الدولة اليهودية الدخول إلى أرض الأحلام.

هل يمكن القول أن إسرائيل «وطن نهائى» لهؤلاء وأولئك؟ لمن هاجروا منها ولمن ذهبوا إليها «عابرين»؟

وليست هذه وتلك هى منتهى مفارقات «الوطن» اليهودى، فالمفارقة الكبرى هى حالة المواطنين الإسرائيليين من غير اليهود، أى الفلسطينيين، واحد من كل خمسة مواطنين إسرائيليين من هناك . والمفارقة أن هؤلاء هم الجماعة الوحيدة المعتبرة من بين السكان التى يستقر اليقين بأنهم يعتبرون ذلك البلد «وطنا نهائيا لهم» وأن لم تكن الدولة دولتهم، بل وإن كانوا - فى نهاية التحليل - أعداء لتلك الدولة.

هذا بصفة عامة هو مدى «نهائية» إسرائيل كوطن لسكانها، اليهود وغير اليهود، وهذه هى حدود هذه النهائية.

- ٣ -

أما «تمام» الوطن، فهو المسألة الكبرى فى إسرائيل، فهى موضوع انقسام «الشعب» كما أنها باقية مصدرا للنزاع والصراع مع العرب، حتى ولو تحقق السلام، ويعد أن يتحقق السلام.

منذ أن بدأ الاستيطان اليهودى المنظم فى فلسطين مطلع هذا القرن، أو ما أسمته الحركة الصهيونية «استعمار فلسطين» والخلاف ناشب فى صفوف الحركة الصهيونية حول «حدود الوطن اليهودى» أى حول التعريف الجغرافى لأرض الميعاد. فى الأساس، أى فى الأسطورة لم يختلفوا كثيرا . فلم يقل أحد أو طرف أنها ليست من النيل إلى الفرات، حسب ما أصر المتطرفون، إنما كان

النزاع حول ما هو «مثال» وما هو «ممكن». كان خلافا بين «التبشيريين» وبين «السياسيين» إذا شئت . لذلك عندما اقترحت بريطانيا، عظمى الدول فى ذلك الزمان، فى الثلاثينات خطة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، دعا ديفيد بن جوريون، إلى قبول الخطة، بينما رفضتها الأغلبية فى المؤتمر الصهيونى العشرين، لكن بن جوريون استطاع أن يحصل على ترخيص له بالتفاوض حول الخطة البريطانية ، وكانت أقوى حججه التى اتاحت له الحصول على ذلك الترخيص بالتفاوض أنه رأى «امكانية نقل السكان العرب، برضاهم أو بالقوة ، ومن ثم توسيع الاستيطان اليهودى».

وتكرر الخلاف نفسه وبالأبعاد ذاتها حيال قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين فى ١٩٤٧، وعندئذ كسب «السياسيون» الجولة من «التبشيريين» لأن بن جوريون أصدر أوامره إلى قوات الهاجاناه والبالماخ بتوسيع حدود الدولة وراء ما قررته الأمم المتحدة.

لكن الحدود لم تكن أبدا نهائية ومازالت كذلك.

اقرأ برنامج الليكود للانتخابات الاسرائيلية التى ستكون قد جرت عندما يصدر هذا المقال : «حق شعب إسرائيل فى الحياة من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.. حق أبدى لايمكن زعزعته» و«إن هضبة الجولان هى جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل».

ويجوز القول أن هذه الدعاوى هى الأقرب تمثيلا للتفكير السائد فى إسرائيل ، فبرنامج التحالف العمالى - المعتدل - يأخذ منها بطرف غير قليل. فما سيجرى بحثه فى مفاوضات «الوضع النهائى» مع الفلسطينيين هو «الحدود الفاصلة» بين إسرائيل وبين هؤلاء» أما الحدود الأمنية للدولة فهى نهر الأردن، وما يمكن أن تقدمه إسرائيل مقابل السلام مع سوريا هو «انسحاب في الجولان» وليس من الجولان.

الوطن - إذن - فى نظر الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية لم يتم بعد. وفى اعتبار العقيدة الصهيونية فإن هذا الوطن لا يتم إلا وفق الاشارات الأسطورية التوراتية.

- ٤ -

قد يتبين ذات يوم أن مأساة الصهيونية هى فى تلك العلاقة الجدلية بين صفتى الوطن اللازمتين ليكون وطنا، أن يقتنع مواطنوه بتمامه ونهائيته .

والمصدر الممكن والمحتمل لمأساوية تلك العلاقة أن الوطن اليهودى الذى أرادته الصهيونية فى فلسطين لن يكون وطنا نهائيا لغالبية سكانه من اليهود إلا عندما يتحقق تمامه.

ومقتضى تحقق هذا التمام أن يتفق الصهاينة فيما بينهم على تطبيق جغرافى لأرض الميعاد. ومقتضى العقيدة

الصهيونية فى هذا الشأن أن تتطابق رؤى «التبشيريين» من الصهاينة مع رؤية السياسيين منهم، فإذا استطرد المناخ الروحى السائد فى إسرائيل الآن، سيكون على «السياسيين» أن يحققوا «للتبشيريين» رؤاهم، وهو ما نرى مقدماته فى وجل السياسيين، متشردين ومعتدلين، أمام حركة الاستيطان اليهودى فى أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة.

لكننا نرى هذا المقتضى ذاته فى عمق أبعد غوراً أو أشد خطرا فى حرص الدولة اليهودية على استبقاء سلاحها النووى حتى «بعد أن يتحقق السلام» وهو حرص عبر عنه «الحمائم» الحاكمون الآن بأوضح مما عبر عنه «الصقور» المعارضون، ومهما كانت الذريعة التى تقول أن إسرائيل تحتاج سلاحها النووى «كملجأ أخير» أى إن أصبح وجودها كدولة معرضا للخطر، فإن أحدا فى هذه الأمور لايفصح عن حقيقة أغراضه، أما الفرض الأولى بالاشتباه فهو أن مزاوجة بين الاستيطان وبين السلاح النووى تعبر عن خطة ابتزاز عسكرى ترمى إلى «إتمام» الوطن حسب الرؤية التبشيرية الصهيونية.

حتى هنا قد تكون هذه مأساة العرب فى المستقبل، مأساتهم حيال الدولة اليهودية التى يسعون الآن إلى إقامة سلام معها وفق شروطها.

لكن ما يرشح المستقبل لأن يكون مأساة الصهيونية أو المأساة التى تجلبها الصهيونية على اليهود، هو مفارقة أنه إلى جوار إسرائيل، وممتدا فى داخلها، وكامنا تحت سطحها وطن آخر يتوازى معها ويتناقض، وهو وطن يعى مواطنوه أنه لم يحقق تمامه بعد، لكنه فى كل الأحوال وطنهم النهائي الذين لم يتطلعوا يوما ولن يتطلعوا يوما إلى سواه.

موضع المأساة أن الوطن اليهودى لا يتم إلا على حساب الوطن الفلسطينى بإلغائه، وأن الوطن الفلسطينى لا يتم إلا على حساب الوطن اليهودى وبإلغائه.

وقد تبدو هذه وكأنها مأساة الاستحالة، مستحيل يقابل مستحيلا وينازعه

وهي مأساة لايحلها إلا جدل التاريخ وتجربته القاسية. إنما سيظل كون إسرائيل وطنا «غير نهائي» لمواطنيها المقيمين والمفترضين - الذين تصفهم بالمنفيين، خميرة حية لعدم استقرارها.

لكن الأخطر هو اقتناع اسرائيل - مواطنين ومؤسسات والدولة ذاتها - بأنها «وطن لم يتحقق له التمام بعد» فسيبقى هذا الاقتناع مصدرا لعدم الاستقرار في المنطقة كلها، رغم أي اتفاقات للسلام وأيا كانت شروطها.

مستقبل الفلسفة فى القرن الواحد والعشرين

بقلم : د . صلاح قنصوه

■ يحيط بالفلسفة في وطننا العربي الكثير من سوء الظن، كما يكتنفها قدر أكبر من الغموض والالتباس. ومن ثم تتباين المواقف منها.

- ومن أبرز تلك المواقف وأشدها انتشارا موقف الاستنكار والإزدراء. فالهجوم أفضل من الدفاع، ونفض اليد من الوقوع في حبائلها المعقدة، واعتذار هين يسير يأمن لصاحبه الانصراف عن الدعوة إلى المشاركة فيما تدعو إليه من حوار.

- وموقف آخر لا يقل عن سابقه فى سوء طويته، هو إضفاء هالة من التوقير والاجلال لبعض مسكوكاتها الإصطلاحية المترجمة حديثا إلى العربية. ويستخدمها البعض من مسطحى الفكر كنوع من «السيم» أو الرطانة التى يحسبون أنها تطيل من قاماتهم القصيرة، وتعيرهم هوية زائفة بالانتماء إلي ما يشبه «النحلة السرية» المضنون بها على غير أهلها وخاصتها من المترددين على المقاهى والمنتديات، والمسوّدين لصفحات النشرات غير الدورية.



وهناك موقف من بعض من تلقى بعض دروسها فى مصر أو الخارج، وهو موقف قلة من الأكاديميين الذين رشحتهم فى الدخول فى هذا السلك الممتاز قدرتهم على الحفظ والصم والاستظهار. ولم يشغلهم، لضيق ذات الموهبة لديهم، ولهفتهم على الشهرة ولفت الأنظار، استيعاب وظيفة الفلسفة. بل شغلتهم ذواتهم المنتفخة التى انتهزت حالة الجهل العام، وغياب القضية القومية المشتركة لدى جماهير البسطاء، انتهزت ذلك لكى تثير صخبا وضجة عالية حول قضية زائفة، هى دق طبول الحرب على الفكر العالمى، وإعلان الحاجة إلى فلسفة مصرية أو عربية. والعجيب فى الأمر أننا لم نتلق منهم حتى اليوم موقفا فلسفيا محددا، وكأن موقفهم هو مجرد الإعلان عن حاجتنا إلى فلسفة خاصة!

وهذا هو اجتهادهم الوحيد الذى يشبه قول المهزوم «ارفعوه من فوقى لأقتله»! بينما الأولى فقط بهؤلاء أن يصنعوا فلسفة إن كان ذلك فى وسعهم.

فلم يطالب الفرنسيون قبل «ديكارت» بأن يصنعوا فلسفة فرنسية، كما لم يصنع الانجليز ذلك قبل «بيكون»، أو الألمان قبل «ليبنتس»، أو الهولنديون قبل «سبينوزا» إلخ.

فما نسميه فلسفة فرنسية هى ما قدمه الفرنسيون من فلسفة، والفلسفة البريطانية هى ما قدمها الفلاسفة البريطانيون وهكذا. وليس ثمة من يمنعنا من التفلسف، كما أننا لا ننتظر من جهة ما أن تؤذن بالبدء فى عمل الفلسفة.

«والهوية» ليست مطلبا بقدر ما هى وصف لما نقدمه وما نضيفه، وليست إعلانا لمن يأنس فى نفسه القدرة على دخول

مزايدة أو مناقصة فى حلبة سجال عدته الميكروفونات ومداد المطابع.

– وعلى الطرف المقابل نجد موقفا متطفلا على بعض الآراء المجتزأة أو الاصطلاحات المجازية لدى بعض الفلاسفة الغربيين. فيفرح بها البعض ويعلكها ويلوكها. ومن أبرز هذه المصطلحات الرنانة موت أو نهاية الفلسفة، وما يجرى مجراها مثل موت أو نهاية الفن، والايديولوجيا، والتاريخ وغيرها من نظم الثقافة الإنسانية ومجالاتها.

– أما الموقف الخامس والأخير من الفلسفة فهو موقف مجتهد لا تشوبه مظنة سوء، ولا تقوم مشكلته فى دوافع صاحبه أو ما يقدح فى تمكنه من اللغة العربية أو الأجنبية التى ينقل عنها. بل تنشأ مشكلته من أن الفلسفة عبر خمسة وعشرين قرنا قد استحدثت استخداما بعينه لألفاظ معينة من اللغة المعتادة التى ظل لها معناها اللغوى المختلف عن الفلسفى. ولذلك نجد باحثين على مستوى رفيع، خارج مجال الفلسفة، يخلطون فى دلالات تلك المصطلحات لأنهم يركنون إلى الدلالة المعجمية التى تختلف كثيرا أو قليلا عن الدلالة الفلسفية.

ولعل حالنا يختلف عن باحثى الغرب الذين اتيح لهم القدرة على التمييز منذ باكورة تعليمهم بين الدلالتين لأسباب تاريخية تربوية معلومة. ومن أهم هذه الأسباب تواصل التراكم المعرفى لديهم وهو ما نفتقده بعد أن توقف الإبداع الفلسفى العربى منذ «ابن رشد»، وانتقل الإنتاج الفكرى إلى حاضنة جديدة لا تكتب بالعربية، فانقطع الحوار الخلاق.

٢ – ما الفلسفة ؟

وعلى أية حال، فأمر الفلسفة أيسر من هذا كله. فهى ليست «علما» يقف على قدم المساواة مع سائر العلوم كالفيزياء والكيمياء أو علم النفس وعلم الاجتماع، لأنها لا تسلك منهج العلم الموضوعى الذى يتخذ «الفروض» سبيلا إلى تحقيق نتائجه بين من يستخدمون أدواته ليبلغوا اتفاقا حول ما كانوا يختلفون فيه. وليست «تخصصا» يعالج موضوعات بعينها دون غيرها، ولا يقربه إلا من أتقن وسائله وتقنياته.

غير أننا ينبغى أن نعترف بأن الفلسفة حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت تعنى ذلك قبل الغلبة النهائية لتقسيم الأعمال والتخصصات، وتحديد مجالات المعرفة ومناطق نفوذها. فقد كان العلم قبل تخصصه فى أحضان الفلسفة، وكانت الفلسفة فى ظلال الدين، وكان الدين قرينا لنظم السلطة والرقابة والوصاية القديمة.

كما ينبغى لنا أيضا الاقرار بأنها رغم استقلالها اليوم ليست معزولة عن كل هذه الأمور، بل هى موثوقة الصلة بها، ولكن دون تبعية أو هيمنة لأن لها شأنا آخر.

الفلسفة نظرة شاملة تحيط بكل جوانب الفاعلية الإنسانية فكرا وسلوكا. وإذا كان فى وسع العلوم أن تقول شيئا فى جميع موضوعات المعرفة، فإنها تقف عند تخصصاتها لا تعدها، وكل عند موضوع معين. ولابد أن نكون فى حاجة إلى من يضم شتات هذه الموضوعات جميعا فى وحدة أو فى موضوع واحد، يتخطى، به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات، ويسد الفجوات. فالعالم، أو الوجود، أو الحياة أو الواقع بكل جوانبهما، والإنسان بكل ضروب نشاطه، لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم من العلوم. كذلك البحث فى أصول تلك العلوم من افتراضات سابقة وأسس منهجية يسلم بها الباحث العلمى وقد لا يصرح بها فى عمله ، ليست من شأن العلوم ، فضلا عن الاستباق الى ما يمكن أن تفضى اليه نتائج العلوم فى المستقبل بالنسبة للإنسان وعالمه .

وتمكننا الفلسفة بذلك مهما تتقدم العلوم والمعارف . ومهما تتدخل التكنولوجيا فى كل شئون الإنسان، سيظل لها مهمتها الخاصة ، ومسائلها ووسائلها المستقلة . ولا يعنى هذا أن تقتصر على التحليل ، أو تنصب نفسها أساسا مطلقا لكل العلوم . كما أنها ليست علما من بين علوم ينافسها عندما يعرض السلعة نفسها من خلف واجهة أخرى . ولا نحسبها كذلك وعاء لشتات من المعرفة المتنوعة قد لا يخلف تخصص العلوم فيه شيئا . أو حزمة من المعارف ما يلبث أن ينفرط عقدها إلى مجموعة من العلوم المتخصصة. فهى إذن ليست أساسا للعلوم، أو بديلا، أو منافسا، كما أنها ليست وصيفة للعلوم تسقط قضاياها وتتعقبها بالتحليل. بل فى موقف إنسانى من العالم، ومن العصر والمجتمع يستوعب كل جوانب الإنسان.

وكل مشكلة تصلح أن تكون مادة للفلسفة ولكن على شريطة أن تدرس فى كليتها، وعلى أساس مكانها من نسق متكامل فى ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الإنسانية. والفلسفة فى كل هذا تجعل الناس على وعى بمسئولياتهم الأساسية وآثارها المترتبة عليها.

وتصوغ الفلسفة آراءها تلك فى «افتراضات واسعة» قد تصدر عن التأمل أو الحدس أو الاستدلال، ولكنها تتأسس على التجريد والشمول. غير أنها

افتراضات لا تقبل التحقق المباشر فهى ليست فروضا علمية وربما اتخذ منها ، أى الافتراضات، فروض تقبل التحقق على امتداد طويل من الزمان، وعلى رقعة فسيحة من العلوم. فهنا تنضم الفروض إلى العلم وتنسحب من الفلسفة التى لا تستنفد مهمتها التى يبقى لها إطارها الموجه المستوعب.

خلاصة القول إن الفلسفة أمر نزاوله جميعا عندما نعمد إلى إصدار أحكام عامة لا تنتسب إلى علم بعينه أو تخصص محدد. ولكنها تظل فلسفة رجل الشارع أو أحكام ما يسمى بالحس المشترك Common Sense ، ولا ترقى إلى مستوى التداول والدرس والنقد إلا إذا اتسقت أحكامنا العامة فيما بينها، أى خلت من التناقض، وتناسقت أو تساوقت معاً فى منظومة موحدة، أى إذا ألفت نسقا System. وليس من قبيل المصادفة أن المذهب الفلسفى ترجمة لكلمة نسق باللغات الأجنبية.

أما مصطلحاتها المأثورة وتصنيفاتها وفروعها، فهى من نتاج الممارسة المتراكمة لهذا المنحى الإنسانى فى تناول المشكلات التى صقلها الحوار بين المذاهب المختلفة.

وبعبارة موجزة، الفلسفة نوع أصيل من النقد: أولا بمعنى رفع الوعى إلى مستوى الواقع المعيش، وثانياً بمعنى كشف الامكانيات، وتعيين الحدود لهذا الوعى الإنسانى.

٣ - سؤال العصر الفلسفى

ويفضى ذلك إلى أن الفلسفات فى كل عصر تطرح سؤالا رئيسيا أو مؤسسا (أو «إشكالية» بالمعنى الاصطلاحى لها) يختلف عن سؤال العصر السابق. والواقع الجديد للعصر هو الذى يثير هذا السؤال من خلال ساحته الثقافية التى تبرز على سطحها منظومة رائدة.

- نشأت الفلسفة اليونانية فى ظل الأسطورة، المنظومة الرائدة آنذاك، وكان السؤال الرئيسى لها كيف نفسر التعدد والتغير فى الأشياء لنردها إلى الوحدة والثبات. فعندها نشأت الفلسفة بوصفها علما للوجود.

- ثم كانت العصور الوسطى التى كان الدين منظومتها الرائدة فكان سؤالها الرئيسى كيف نوفق بين العلم «الفلسفة أو الحكمة» وبين الدين.

- أما فى عصر النهضة، عصر إعادة اكتشاف العالم، وقد أضحى العلم مثل الدين حفظا وشرحا على المتون، طرحت الفلسفة الحديثة السؤال الجديد: ما المنهج الذى يؤدى إلى تأسيس العلم بالعالم لغزوه وفتحه.

والمنهج هو ممارسة قدرات الإنسان بمعزل عن المحفوظ والمنقول . وتفرقت المذاهب الحديثة تنويعا على لحن السؤال الرئيسي.

– أما في الفلسفة المعاصرة أي بعد هيجل، فقد طرحت العلوم الإنسانية أو الاجتماعية بعض ثمارها، وأصبح الاهتمام بمشكلات المجتمع في ظل المفارقة اللعينة التي صنعتها الرأسمالية. فقد قامت الرأسمالية أصلا على المشروع الفردي الحر، إلا أن المنافسة الدموية التي أصبحت وسيلتها الأساسية سرعان ما أسلمت إلى ضياع الفرد وحقوقه وكبريائه. ولذلك كانت العلوم الاجتماعية، المنظومة الرائدة للفلسفة المعاصرة التي أصبح سؤالها المؤسس عن الواقع الإنساني وليس العالم الطبيعي: كيف نتمرد عليه وإلى أي مسار في المستقبل نقود إليه الإنسان.

وأود أن ألفت نظر القارىء الكريم إلى أن التحقيب السابق للفلسفة: هو مادرجنا عليه كتقليد متبع في درس تاريخ الفلسفة. إلا أنه لايبدو دقيقا في تسمية الفلسفة المعاصرة التي تعني على الفور الفلسفة الراهنة أو الحالية، ولكنها ليست كذلك، لأن فلسفة الحقبة الراهنة التي تشي بملامح فلسفة القرن الواحد والعشرين لم تعد مسألتها الجوهرية هي نفسها مسألة الفلسفة المعاصرة.

ويتبين في حديثنا السابق عن معنى الفلسفة أنه يتحقق في الفلسفات جميعا بدرجات متفاوتة بدءاً من اليونانية وانتهاء بما أسميناها بالمعاصرة «مثل الماركسية والبرجماتية والوجودية». ويكشف ما قدمناه عن المذهبية أو النسقية عن افتراض معلن أو مضمر في الفلسفة هو ما يمكن تسميته «بالمعقولية» التي يفترضها المفكر أو الباحث أو حتى رجل الشارع فيما يتعلق بفكره وسلوكه. وهي التي تقوم بدورها حينما تجمع ماتشتت أو تفرق من معطيات أو وقائع أو آراء في منظومة واحدة، تؤدي بتلك المتفرقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع إلى أن تتخذ مواقعها ومنازلها في هذه المنظومة، دون أن تخلف أية متبقيات خارجها. فهذا وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى التعميم والتجريد والانتظام.

غير أن الفلسفة المرشحة للقرن الواحد والعشرين تنكر هذه «المعقولية» أو الشمولية أو الكلية. وتنكر معها ما نسميه «بالعقل» الذي تصورناه من قبل حاسة أو أداة أو جهازا. فهو على أفضل الوجوه، إطار مهيمن للتواصل والتداول الإنساني، ولكنه أكثر عمومية وتجريدا، أو فراغا من

المحتوى المادى المعين لكى يكون قابلا للتطبيق على كل مجال من مجالات التواصل والتبادل.

ولأنه لا يتطور أو يتغير إلا عبر حقب زمنية طويلة جدا رسخ الوهم بأن العقل واحد ثابت أزلى. ولقد عاون على هذا الوهم طبيعة اللغة التى تحول العلاقات والأفعال إلى كيانات وأشياء «فالعقل» هو الذى يتبوأ قمة أطر الاتصال بين البشر بوصفه القواعد أو القيود الملزمة لعضوية الإنسان المقبولة لمجتمعه، وإلا عدّ بدونها مجنونا أو أقرب إلى الحيوان.

ثم ما يلبث هذا الإطار الإنسانى المصطنع أن يصبح إطارا فعليا للعالم أو الواقع الموضوعى. فالإنسان فى كل العصور والثقافات، لا يعترف بما فى هذا العالم أو الواقع من شئون مختلفة، ولا يحكم على صدقها أو بطلانها إلا بقدر ما تحتل هذه الشئون موقعا محددا فى نطاق هذا الشكل أو الإطار. ويعتاد الإنسان فى كل الأزمان والثقافات على التسليم بعالم مصنوع على صورته المختارة أو المفروضة عليه فى ذلك الزمن أو تلك الثقافة. فالأشياء تحدث فى خضم أو سديم ثم يتناولها الإنسان المشروط بالزمان والمكان والمصلحة وغيرها، فيعيد تصنيفها وترتيبها وفقا لخانات وأوليات ليست أصلا فى الأشياء، ولكنها تنتمى إلى عالم الإنسان المصنوع المتغير. وعندما يتم له هذا التنضيد ينسى أنه من صنيعه ويعتقد بيقين أنه من خصال الأشياء نفسها، ويمضى إلى ترجمة العالم أو الواقع إلى لغته .

وربما أبيح لنا القول بأن هذا التصور للثقافة الإنسانية، بمعناها الذى يقابل الطبيعة، يعنى فى نهاية الأمر أنها مجموعة من الاستعارات أو المجاز. بل إن اللغة بكل علاماتها أو دوالها لا تؤدى إلى مدلولات محددة . وقد صبت الفلسفات السابقة اهتماماتها على المدلول الذى اعتقدت أنه على علاقة شفافة بالدال. ولكن الفلسفة الجديدة تتريث عند الدال وتقف عنده. فثمة «إخلاف» differonce مستمر ينكص فيه المدلول عن وعده بالوجود، ويرجىء بلوغنا إياه كما يقول «ديريدا» فيلسوف التفكيك.

وأغلب الظن أن ما نعنيه بفلسفة القرن الحادى والعشرين هى التى نشاهد بعض قسماتها اليوم فيما يقترن بما يسمى «بما بعد الحداثة»، أو «ما بعد البنيوية»، ويغلب عليها التواضع الشديد بإنكارها للمهمة السابقة للفلسفة وهى تشييد صروح النسقات أو المذاهب التى توثق بين مجالات الفكر والسلوك فى كلية شاملة.

فهي ترى في الكليات والشموليات حكايات أو حـواديت recits كبرى كما يقول «ليوتار». وبذلك تكشف عن الأوهام التي عاشها الفكر الإنساني وهو يرسم أطراً محددة، ومحاور رئيسية، ومراكز، وأولويات، وتراتبات هرمية. وتحطمت بذلك النظرة الأوليبية «أو اللاهوتية» التي تعرف كل شيء وحقيقة كل شيء.

وهي تستبعد الثنائية الفلسفية التقليدية للذات والموضوع. بل إن الذات تفتتت وانقسمت لديها.

كان لابد للحظة التاريخية لاستشراف القرن الواحد والعشرين التي نحياها اليوم أن تؤدي ساحتها الثقافية إلى تفاعلات محتدمة تبرز على سطحها منظومة رائدة تثير اشكالية الفلسفة الجديدة.

فالوضع العالمي الراهن الذي تمثل منه أمريكا وأوربا أتون محركه وآلته يقدم بين أيدينا حادثات تثير الحيرة وتعصف بما استقرت عليه المذاهب والنظريات من تحليل وتفسير. ولا ريب أنها لحظة متفردة ليس بوسعنا أن نسلكها في نسق تفسيري قائم، أو نجعلها حادثاً مطرداً في مسار تاريخي معلوم. ومن هنا تنشأ الحاجة إلى إعادة النظر في مسلماتنا جميعا. ومن ثم ينبغي علينا أن نطرح الأسئلة السائجة التي تبرأ من أية إجابات سابقة جاهزة.

ومن هنا كانت المنظومة الرائدة التي أثارت إشكالية الفلسفة الجديدة منظومتين هما اللغة والفن. فاللغة هي الرداء التحتي لكل ما يصطنع الإنسان من أوهام. والأدب والفن هو الكاشف عن هذه الأوهام من ثنايا ما يسمي بما بعد الحداثة. وبذلك أصبح الموضوع أو بالأحرى المجال الأثير لدى الفلاسفة الجدد هو «النص». وبدلا من أن يكون الموضوع أو المجال الفلسفي: العالم أو الله، أو الإنسان كما ألفنا في الدرس الفلسفي، أصبح عمل الفيلسوف الجديد أشد تواضعا، أصبحت الفلسفة الجديدة نوعا مستحدثا من النقد أو التحليل الثقافي الذي يستمد مادته من علوم وتجارب مختلفة متعددة ليجردها ويرفعها إلى تعميمات يمكن أن تصدق على مجالات مغايرة لما بدأ منها.

وفقد الفيلسوف الجديد الحماس للدعوة لأي شيء، لأنه يعلم مسبقا أن الصوت والصمت سواء. فهو شريك في تيار ما بعد الحداثة التي تعد استسلاما لاكتشافها أن المبدأ الوحيد الذي لا يعوق التقدم،هو : «كله ماشي» onything goes على حد تعبير «بول فايرابند».

ولكن، هل نستطيع الزعم بأن الفلسفة يمكن أن تواصل تقدمها على هذا النحو؟

أكبر الظن أنه زعم يحدق به الشك من كل جانب.

العالم فى القرن القادم

ثورة ونظام

بقلم : د. عبد المنعم تليمة

☐ عاشت البشرية الآلاف العشرة الأخيرة على الزراعة ، وعاشت القرون الخمسة الأخيرة على الصناعة ، وتعيش الآن مابعد الصناعة . بدأت الزراعة فى بلد واحد من بلاد أحواض الأنهار الكبرى ، ثم انتقلت ـ ولاتزال ـ إلى غيره من البلاد عبر آلاف السنين ، وبدأت الصناعة فى إقليم واحد ، غرب أوربا ، ثم انتقلت ـ ولاتزال ـ إلى غيره من البلاد والأقاليم عبر عشرات أو مئات السنين . أما ما بعد الصناعة فعملية تاريخية عظمى ، تجرى فى العالم كله فى آن واحد ، هو الآن ، هذا الزمان الذى نعيشه وتعيشه الأجيال القادمة حتى تبدأ عملية تاريخية عظمى أخرى تكون الرابعة فى التاريخ الإنسانى كله .

وبدهى أن البشرية لن تستغنى عن الزراعة والصناعة ، لكن الفيصل الذى يحدد كل انتقالة تاريخية أساسية هو الجديد الذى يأخذ فى الهيمنة وقيادة الحياة على هذا الكوكب الأرضى . ولاشىء يفنى من عمل الإنسان، فكل مرحلة تحمل فى أحشائها ما يتواصل من المراحل التى سبقتها . ومعنى الثورة أن النشاط الجديد يتقدم ليصير هو النشاط المهيمن فى المرحلة الجديدة ، حاكماً

العملية البشرية بكل تجلياتها التاريخية والاجتماعية والفلسفية والابداعية . ويدهى كذلك أن كل انتقالة كبرى يمهد لنشوء قاعدتها ويواكب هذا النشوء تغير عميق في المفهومات والتصورات والعلاقات والمؤسسات ، نظام جديد . ونحن هنا إزاء العملية التاريخية العظمى الثالثة في التاريخ البشرى ، نجتهد في رصد قاعدتها التي تتكون لتصير أساس عمل البشر وعيشهم ، كما نجتهد في رصد نظامها الذى يتشكل ليصير أساس إدارة البشر لحياتهم على هذا الكوكب .

● أولاً : في القاعدة

كانت الثورة الأولى «الزراعة» محلية في بلد واحد ثم تصير خبراتها ونتائجها ملكاً للبشرية بعد مئات أو آلاف السنين . أما الثورة الثانية «الصناعية» فقد جرت إقليمية في جزء من العالم ـ غرب أوربا ـ ثم لحق بها من لحق من أجزاء العالم الأخرى ، فصارت خبراتها ونتائجها ملكاً للبشرية بعد عقود أو مئات من السنين . وأما الثورة الثالثة فتجرى عالمية في وقت واحد، زماننا هذا ، ويشهد نتائجها المبكرة القادرون على المشاركة في صنع هذه النتائج ، كما يشهدها في نفس الوقت العاجزون عن هذه المشاركة . فمن هذه النتائج ـ في هذا الطور المبكر والخطوات الأولى ـ الطيب والخبيث ، الطيب للقادرين والخبيث للعاجزين . ثم يأتى حين من الدهر ـ قريب في ميزان التاريخ ـ تتخذ كل الشعوب مواقعها وأدوارها في المشاركة ليتخذ كل نصيبه من طيبات هذا التقدم ، هاهنا تصير هذه الثورة عالمية إنسانية ، وهاهنا يكون مغزى نظامها العالمي الجديد وتكون حقيقته التي لاتزال تتشكل . هذا النظام الذى تتشكل قواعده الثقافية وأسسه الفلسفية والقانونية ومؤسساته الدولية ، هو المهاد والمواكبة والنتيجة للثورة الثالثة ، ثورة مابعد الصناعة ، ثورة العلم وتطبيقاته والاتصالات والمعلومات .

ودواعى تراجع النشاط الصناعى في زماننا هذا هى بذاتها ـ بداهة ـ دواعى تقدم نشاط العلم وتطبيقاته والاتصال وتدفق معلوماته ليصير هو النشاط الحاكم لحياة الانسان في هذا الزمان ومايليه من أزمان، إلى أن تأتى انتقالة كبرى أخرى من انتقالات تاريخ الإنسان ، ولم يكن أمر الثورة الصناعية التى تأفل الآن ، أمر آلات وماكينات ، إنما كان عملية عميقة زلزلت أسس الحياة البشرية على كوكب الأرض زلزالاً . لقد فتحت هذه العملية طرقاً ومسالك إلى جديد في الكشوف العلمية والخبرات التكنولوجية ومذاهب التفكير والأبنية الفلسفية والإبداع وطرائق التشكيل الجمالى وأجراءات البحث والتحليل والتقويم . وقصدت إلى تنظيم المجتمع المدنى ، بضبط آليات الحكم والفصل بين السلطات وتنظيم التمثيل النيابى . ثم وسعت من مفهوم

إدارة هذا المجتمع بصياغة العلاقات والحقوق والواجبات والحريات قانونياً ودستورياً وبإقرار دور للمؤسسات التعليمية والاعلامية والعلمية .

● تخريب البيئة !

بيد أن هذه الثورة الصناعية التى فتحت كل هذه الفتوح وأضافت مايبقى فى ضمير الإنسانية وتاريخها من خوالد الكشوف والابتكارات والإبداعات ، نقول إن هذه الثورة ذاتها قد وصلت بآثار نشاطها الصناعى - خاصة فى العقود الأخيرة - إلى حدود بعيدة فى تخريب البيئة الطبيعية والبيئة الانسانية جميعاً ، بحيث صار عيش الإنسان فى الطبيعة وتعايش الإنسان مع الإنسان محالاً . إن النشاط الصناعى باستهلاكه للموارد الطبيعية واعتماده على الطاقة الحفرية «الفحم، البترول ... الخ» ، قد دمر قطعة عظيمة من أرض هذا الكوكب ولوث ماءه وهواءه وأجواءه . لقد اختفت ملايين الأفدنة من الأراضى الزراعية مصدر الغذاء الضرورى للإنسان ، وخربت مساحات شاسعة من الغابات مصدر التنفس الصحى الضرورى لبقائه . وزاد النشاط الصناعى من نسبة ثانى أكسيد الكربون فأخذت درجة حرارة سطح الأرض ترتفع وأخذ التصحر ينتشر وأخذ مستوى المحيطات والبحار يعلو . أما أثر النشاط الصناعى فى تلويث الماء والهواء فإنه يشوه الأجنة فى الأرحام ويذبل الزروع ويضمر الضروع ويسمم المآكل والمشارب ، فتصير حياة البشر إلى بوار وهلاك عظيمين. وربما ذكرنا هنا من الآثار المدمرة للنشاط الصناعى ما أصاب طبقة الأوزون ، وهى درع واقية تضبط أشعة الشمس وتنظم وصولها إلى الأرض حسب حاجة ماعليها ومن عليها . وقد أصاب النشاط الصناعى هذه الطبقة بثقب يهدد وظيفتها بعطب بين . ولقد اتسع هذا الثقب بمقدار سدس ما كان عليه فى ثلاث سنوات فحسب ، كان سنة ١٩٨٩ بقدر مساحة الولايات المتحدة فصار سنة ١٩٩٢ بقدر مساحة قارة أمريكا الشمالية كلها ، ويتسع الثقب كلما تمادى النشاط الصناعى بما هو عليه من طبيعة مادة يستهلكها وطاقة يستخدمها ، واتساع هذا الثقب يعطل طبقة الأوزون فيتغير مناخ الأرض ويختل نظامها البيئى وتنتهى الحياة عليها .

● تلويث البيئة البشرية !

أما تلويث النشاط الصناعى للبيئة البشرية فكان أشد جسامة وأبلغ تدميراً من تلويثه للبيئة الطبيعية . فلقد نهض هذا النشاط الصناعى على أساليب وأسس فى عمليات الانتاج والتوزيع والتسويق ، أصلتها رؤية للعالم ومنتج ثقافى ، وقد صاغت كل ذلك أبنية ومذاهب فكرية جهيرة . اعتمد هذا التلويث التناقض بين البشر ومصالحهم اعتماداً وأذكاه إذكاء،

فالح على التنافس بين الأفراد حتى ثارت المطامع والمطامح الذاتية وملأت الآفاق فلم ير الفرد سواها إلى أن صار مغترباً عما حوله وعمن حوله . ووسع الهوة بين الطبقات فتناحرت وتفجرت الحروب الأهلية ، وغلا في التمييز بين الشعوب والأعراق والأديان والثقافات فعمت الحروب بين الشعوب والأقوام والأمم. وأثمرت هذه الأوضاع ثمرتها السامة فكانت ظاهرة الاستعمار ، الذي سيطر على أسواق الشعوب عنوة وانتهب ثرواتها غصباً إلى أن صار إلى نزح عقولها وإزاحة ثقافاتها وتراثاتها .

بيد أن للكون والحياة نواميس حاكمة مصححة ضابطة ، إذا ما جنحت النسب والعلاقات بين الأشياء والأحياء إلى الاختلال ، أعادت التوازن وأقامت الميزان وانفتحت ـ في العقود الأخيرة ـ آفاق جديدة غير مسبوقة في التاريخ البشري كله : صارت المصالحة بين البشر والطبيعة ، بالكف عن استنزاف عناصرها والكف عن تخريبها بالمواد والطاقات المدمرة ، ضرورة فتح الوعي بها أفق الجهاد الأصغر . وصارت المصالحة التاريخية الكبرى بين البشر والبشر ، بتأسيس نظام ذي أسس عالمية لإدارة الحياة على هذا الكوكب ، ضرورة فتح الوعي بها أفق الجهاد الأكبر ، وصار اقتران أسس عالمية هذا النظام الجديد بطوابع إنسانية عادلة ، ضرورة فتح الوعي بها أفق الجهاد الأعظم .

تبدى الخطر فصحا الوعي فانفتح الأفق . تبدى أن كوكب الأرض متناه ، يمكن أن يزول ويفنى ، إذا ظلت علاقة البشرية تخريبية تدميرية . تبدى أن الحياة البشرية على هذا الكوكب قد انتهت إلى مأزق خطير وشر مستطير ، إذ انتهب النشاط الصناعي عناصر الطبيعة وانتهك توازنها . وبات على الانسان أن يصالح الطبيعة وأن يتقي جوابها بالنقمة والثأر . قال حكيم عالم من زماننا : أعينوا الطبيعة تصح وظائفها فيكم ، وتعاونوا معها تصح حياتكم فيها . تنبه البشر إلى أن هذا البلاء العظيم شأن بشري عام ، يتجاوز كل الحدود الجغرافية والسياسية والاقليمية ، وليس بوسع بلد واحد دفعه ، وليس بوسع قوة واحدة النهوض بما تتطلبه مواجهته من أموال وخبرات فنية وعلمية هائلة . وكان هذا التنبه أولياً غامضاً أول أمره ، وأخذ يتعاظم في العقود الأربعة الأخيرة ، ثم أخذ يتوازى ويتزامن مع ثلاثة أمور : أولها أن العلم أخذ يسعى إلى اكتشاف مواد وطاقات بديلة . تبدت ، من جهة المواد والخامات ، إمكانات لامتناهية لهندسة الكائنات وخلق أشكال وسلالات جديدة من الحيوانات والنباتات . وبان أن هذه المواد والخامات

المصنعة لها من الخصائص الفريدة مايجعلها أرفع كفاءة وأدق فى تلبية الحاجات والوظائف من الخامات الطبيعية، ومعلوم أن البشرية تواجه الان وغداً خطراً فى نقص الموارد المائية وخطراً فى نقص الموارد الغذائية مع تعاظم أعداد السكان . ويواجه العلم الخطرين جميعاً بتوفير إمكانية تحلية مياه البحار وتوزيعها، وبتوفير امكانية استنباط السلالات النباتية والحيوانية الجديدة اللازمة لغذاء البشر . وتبدت ، من جهة الطاقات ، فداحة البلاء الذى نجم عن استخدام مصادر الطاقة الحفرية «الخشب، الفحم ، البترول .. الخ» ، وإلى جانب أن هذه الطاقة الحفرية ملوثة مخربة ، فإنها محدودة متناهية إلى نضوب . وكان الإنسان منذ فجر تاريخه يرنو إلى أعلى ، حيث المصدر الأول للطاقة ، الشمس ، فاتجه علم اليوم إلى استلهام هذا المصدر الأعلى، ويجرى العمل لخلق شمس مصغرة لهذا الكوكب الأرضى ، تصدر عنها الطاقة النظيفة اللامتناهية . وثانيها أن العلم وتطبيقاته أخذ يمهد السبيل إلى العلاقة الصحية المنشودة بين الإنسان وبيئته وكوكبه الأرضى والكون الذى يعيش فيه . وفى هذا الاتجاه صارت المعارف العلمية أساس تكنولوجيا جديدة يسيطر عليها الإنسان بعد إذ كانت التكنولوجيا الصناعية تسيطر عليه . وأبرز وجوه هذه التكنولوجيا الجديدة استثمار المعارف العلمية بالفضاء لتأسيس صناعات فضائية كونية تراقب الحياة على كوكب الأرض وتخدمها وتيسر عيش البشر على هذا الكوكب . وفى هذا الصدد صيغت مشروعات وبرامج وعقدت اتفاقات . من هذا كله «مشروع كوكب الأرض» وغايته تأسيس منصتين فى الفضاء تعينان على معرفة حقائق الحياة على الأرض وسبل حل مشكلاتها . وتنامت الصناعة الكونية ، فأسست منظومات وأجهزة كونية تحيط بثروات الأرض والطرائق المثلى لاستثمارها ، وأبدعت أقماراً صناعية ترصد الحياة على الأرض بدقة عالية ، ثم هى بصدد تأسيس مطار كونى فى الفضاء يخدم كل هذه المهام . وثالثها أن العلم وتطبيقاته قد خلقا ثورة عظمى فى الاتصالات وتدفق المعلومات وإمكانية تخزين هذه المعلومات واسترجاعها . ولهذه الثورة موقعها الفريد وأثرها البعيد فى عالم اليوم والغد وفى تأسيس النظام الجديد . إنما يهمنا الآن وجه هذه الثورة المتصل بما نحن بصدده ، تصحيح علاقة البشر ببيئتهم . ساعدت هذه الثورة على الدرس الدقيق لكل مصادر الأخطار البيئية ، وتأسست على نتائجها وحقائقها منظومات وشبكات رصد مطرد ومراقبة دائمة عالية الكفاءة ، وثمة اتجاه لإنشاء منظومة فضائية دولية عامة تنهض بالرصد وتعين على الاحاطة والتخطيط . وتوجد اليوم ـ فى الدول

المتقدمة ـ آلاف المكاتب والإدارات والمعامل والمؤسسات تستعين في عملها ـ حتى اليومي ـ بمعارف ومعلومات تستقبلها من شبكات وأجهزة ومنظومات كونية .

ما سلف كان عن القاعدة العلمية التكنولوجية للثورة الثالثة ، ومايأتي عن البنية الثقافية والمؤسسية لهذه الثورة ، وهي بنية تتكون بوتيرة سريعة مطردة . في الثقافة العالمية الجديدة تتضح المفهومات والتصورات، وفي النظام العالمي الجديد تتحدد الصياغات القانونية والسياسية وتقوم المنظمات والمؤسسات . هذا ماتقف عنده الآن .

● ثانيا : في النظام

الأصل المكين للثقافة العالمية الجديدة : الوحدة . وحدة تنتظم البشري والطبيعي . جدل الأضداد قائم بيد أن مسعاه إلى الوحدة، فلا تناقض بغير وحدة . والصراع قائم بيد أن حسمه بالمحاورة يجعل العنف شذوذاً ونشازاً مؤقتاً . الوحدة التي تنهض على طرفين يريد كل منهما محو الآخر عمادها المواجهة ، والوحدة التي تنهض على أطراف تتعدد بلا نهاية عمادها المحاورة . الوحدة في الفهم الجديد تحل التعدد اللامحدود محل الثنائية المقفولة ، وهي ـ الوحدة الجديدة ـ ليست حاصل جمع بين عناصرها وأطرافها ، وإنما هي محصلة تفاعل بين هذه العناصر والأطراف . الثنائية تتراجع والتعدد يتقدم . الوحدة في هذا الفهم الجديدة سند وجامع للتعدد ، والتعدد غنى وثراء لها ، إن التأسيس على التعدد المفتوح يوفر أوسع الآفاق لإعمال الخيال والعقل والتفسير والتأويل والبحث ، فينفتح السبيل للنسبي واللاحتمي ويتحرر الكشف ويتوهج الإبداع ، وهذا يعني أن التأسيس على التعدد المفتوح يسد الأفق أمام المطلق والقطعي واليقيني والحتمي . لكل ماقلناه هنا أسانيد مما توصل إليه العلم في العقود الأخيرة : وضع العلماء خريطة لقدرات «الدماغ» في الإنسان ، وتمكنوا من وصف طاقاته وملكاته وإمكاناته في جمع المعلومات وتخزينها واستخدامها والعبارة عنها ، وكشفوا عن تآزر عمليات المناطق الدماغية في تكوين «العقل» ، وقضت هذه الكشوف على «حتمية» أن التقدم في العمر يفضي ضرورة إلى شيخوخة الدماغ ووهن العقل ، وفتح تحديد الأسس النفسية والكيميائية والبيولوجية لعمل الدماغ أوسع الآفاق أمام الإنسان ليتعرف بلا حدود وليعي وحدة الحياة بلا قيود ، ومن جهة ثانية ، سعى العلماء إلى إضاءة عوالم المورثة ، الجينة Gene ، في المادة الحية ، حيث يتبدى الكثير من حقائق الحياة يتضمنها حمض الخلايا النووي D.N.A . ومن

جهة ثالثة ، اعتمد العلماء على قاعدتي الكم والنسبية في المادة الجامدة ، وهما القاعدتان اللتان منحتا الفكر البشري تصوراً جديداً عن تكوين الكون وآليات عمله ومسالك مساراته .

● **وحدة المعرفة**

وأقوى تجل للوعي بوحدة الحياة ما أخذ يستقر وهو الوعي بوحدة المعرفة.

إن التقدم غير المسبوق في العلم وتطبيقاته وماهد لهذا التقدم من فكر وما صاحبه من نظر فلسفي جديد، كل ذلك ينص على أن إمكان أن «يتعرف» البشر على عالمهم بآليات واحدة بات حقيقة ، وينص على أن إمكان أن يتلقى البشر «التعزيف» بعالمهم بجميع امكاناتهم وكل حواسهم وطاقاتهم العاطفية والذهنية بات حقيقة . ولا ريب في أن وحدة المعرفة تدفع دفعا إلى النظر ـ نقداً وتقويماً ـ فيما درجنا عليه من تصنيف للفنون والعلوم . فقد درج الدارسون على تقسيم ثنائي يميز بين العلم والفن . ثمة سبيل واحد ، لديهم، أمام البشر إلى «معرفة» عالمهم ، وثمة سبيلان إلى «التعامل» مع هذا العالم، سبيل العلم وسبيل الفن أداة كل منهما إلى الحقيقة مخصوصة ، كما تتبدى الحقيقة في كل منهما بصورة خاصة . لكن هذه الثنائية قد تقوضت بأساس جديد ، يرى أن الإدارك والإحساس لايعملان متمايزين منفصلين ويستحيل الفصل بين عمل الإدراك وحده وعمل الإحساس وحده ، ومن ثمة يستحيل التمييز بين ثمرة كل منهما . من هاهنا لا مجال للفصل بين المعرفة العلمية والصلة الجمالية ، ولامجال ـ إذن ـ للتناقض بين العلم والفن . كذلك نجد في الأسس التقليدية المتواترة أن النشاط العلمي ينقسم إلى طائفتين عظميين من العلوم . الطائفة الأولى ، هي مجموعة العلوم الانسانية ، ومدارها الانسان فرداً وجماعة ومجتمعاً ، ومفردات حقولها النفس والاجتماع والفلسفة والفن والقانون والسياسة والتاريخ والاقتصاد .. الخ.

ومحاور البحث في هذه الطائفة جملة من التصورات تعتد بذاتية الخبرة وخصوصيتها وتفردها ومايقترن بذلك من حرية اختيار وصياغة ملموسة حسية أما الطائفة الثانية فهي مجموعة العلوم الطبيعية ، ومدارها الطبيعة ساكنة ومتحركة وحية ، ومفردات حقولها الاحياء والكيمياء والفيزياء ... الخ . ومحاور البحث في هذه الطائفة جملة من التصورات تعتد بموضوعية الخبرة «التجربة» وعموميتها ومايقترن بذلك من حتمية وصياغة مجردة رمزية . وكان لهذه الثنائية سندها الفلسفي في المتواتر التقليدي ، جعل هذا السند العالم عالمين ، أحدهما عالم خارجي «طبيعي» جامد ساكن ، والآخر داخلي «إنساني» موار بالرؤى والمشاعر والتصورات . ثم فصل ذلك السند بين العالمين فصلا حاداً ، فإذا

أراد الانسان «فهماً» لعالمه الخارجي ، فإن عليه أن يتوجه إلى أمر قد تم خلقه وإنجازه منذ البدء ، فهو سكون وجمود ، وإن عليه فى توجهه هذا أن يتخلى عن عالمه الداخلى الموار المتحرك ، ليوفر لفهمه أكبر قدر من «الموضوعية» . من هنا كانت الحتمية فى العالم الطبيعي وكانت الحرية فى العالم الإنسانى . بيد أن الأساس الجديد الناهض قد قوض تلك الثنائية تقويضاً ، فأعاد «توحيد» العالم ودفع فى إدراك الانسان لعالمه أى فصل بين ماهو ذاتى وماهو موضوعى ، وبين ماهو اختيار وماهو إجبار ، وبين ماهو عام وماهو خاص ، وبين ماهو حسى وماهو مجرد ..الخ ، ولابد من وقفة هنا نطلب فيها التنبه اليقظ والالتفات القوى : ذلك أن وحدة المعرفة تتم الآن فى ظل انتقالة بالغة الخطر والأهمية فى التاريخ الانسانى كله. وبيان ذلك أن البشرية تنتقل من طور الكتابة إلى طور الصورة . وليس معنى هذه العبارة زوال الكتابة ، إنما معناها زوال استقلالها . لقد ظلت الكتابة ، آلاف السنين ، أداة تدوين وتوثيق وحفظ وتوصيل ، لكنها صارت اليوم أضيق من أن تتسع لانهمار المعلومات والمعارف وتراكمها ، وأعجز من «تسجيل» تعقد الابداعات العلمية والفكرية والفنية وشمولها ، وأبطأ من تلبية حاجات هذه المعلومات والابداعات .

فإذا وقفنا عند الأصول القانونية والسياسية والمؤسسية للنظام العالمى الجديد رأيناها تتأسس بقوة على «الوحدة» التى وصفناها . يعرف التاريخ تلك الأشواق الانسانية الرفيعة إلى سلطة بشرية تقيم الميزان وتحقق العدل على الأرض، تلك الأشواق التى يقع عليها الراصد فى الصياغات العتيقة أسطورية وملحمية ودينية ، وفى أحلام الطوباويين من أصحاب المدن الفاضلة ، وفى نضالات المعذبين والمجاهدين ، وفى أعمال الراسخين من أهل النظر والعمل ، وفى إبداعات الفنانين .. الخ ، ويجد هذا الراصد خاتمة تلك الصياغات فى مشروع السلام الدائم الذى وضعه الفيلسوف الألمانى كانط منذ قرنين . أما فى زماننا فإن تلك الأشواق تتخذ تدريجياً صيغتها القانونية وقواعدها السياسية ونظمها المؤسسية : فى البدء كان الأمر دعوة فكرية حرة . عندما تجمعت الغيوم القاتمة قبيل الحرب الثانية ، سئل برتراند راسل «ما العمل أيها الحكيم الجليل؟» فرد بإيجاز وحسم : حكومة عالمية . وعندما صار البشر فى قلب الأتون الجهنمى لتلك الحرب ، سئل أرنولد توينبى «ما العمل أيها الحكيم الجليل؟» فرد بإيجاز وحسم : سلطة عالمية . لكن العالم انقسم بحدة بعد الحرب «تقسيم يالطا» إلى معسكرين متواجهين . وبعد أربعة عقود تماماً أعلن «مالطا ١٩٨٩» انتهاء الحرب الباردة ، وكان معنى ذلك انتهاء عالم القطبين

وابتداء عالم الأقطاب المتعددة . وقبل هذا الاعلان بعقد بدأت مؤتمرات القمة الدورية التى تضم السبعة الكبار «الولايات المتحدة . ألمانيا . إنجلترا . فرنسا . كندا . إيطاليا . اليابان» كان هؤلاء السبعة يمثلون واحداً من القطبين القديمين ، وبتفكك الاتحاد السوفييتى طلبت روسيا الانضمام إلى السبعة ، فصاروا ثمانية . إن المؤتمرات الدورية لقمة الثمانية حكومة، بلا صيغ رسمية ، تدير العالم . إنها حكومة الأقوياء الأغنياء الذين تراكمت لديهم الوفرة والقوة والثراء إبان الثورة الصناعية ، ويجتهد الفكر الاستراتيجى فى توسيع عضوية هذه الحكومة ، بالوقوع على صيغ تتيح مشاركة قوى وأقاليم جديدة : بتوسيع عضوية مجلس الأمن «التفكير فى ضم : ألمانيا واليابان ومصر والهند والبرازيل للعضوية الدائمة» ، بتعديل أسس العمل فى الأمم المتحدة ، وربما بإقامة وبناء تنظيمى عالمى جديد بديل .. الخ ، والمبدأ لدى أصحاب هذا الفكر الاستراتيجى أن شرط قيام حكومة عالمية لها صلاحيات سيادية هو اتفاق جميع الأطراف والأقطاب والقوى والأمم على أسس متوازنة مرتضاة لعمل هذه الحكومة ، ولقد وضع بعض أصحاب الفكر المسئول مشروعات لمثل ذلك الاتفاق ، تحدد المبادىء التى تجعل هذه الحكومة العالمية تكتسب الشرعية القانونية والسياسية ، لكن الذى صار واقعاً أن منظمات ومؤسسات قوية للحكم العالمى قد قامت واستقرت وتولت صلاحيات سيادية مهمة.

● ثورة العلم

نستطيع القول بعد ما سلف إن ثورة تعم العالم جميعه فى وقت واحد ، هى الثورة الثالثة فى تاريخ البشرية الطويل ، ثورة مابعد الصناعة ، ثورة العلم وتطبيقاته والتوصيل والاتصال وشموله والمعلومات وتدفقها . يملك أسباب هذه الثورة ويقودها ويوجهها تلك المراكز المتقدمة التى حققت أشواطاً إبان الثورة الصناعية ولايملك من هذه الأسباب والقيادة شيئاً تلك البلاد التى تخلفت إبان الثورة الصناعية فعجزت عن المشاركة فى الثورة الثالثة ، لكنها لاتستطيع الافلات ـ سلباً ـ من آثارها ونتائجها . ويجنى القادرون ثمرات مشاركتهم قوة وتقدماً ويجنى العاجزون ثمرات تخلفهم ضعفاً وتخلفاً ، ويظل هذا الشرط التاريخى قائماً حتى ينهض القادرون بمسئوليتهم فتضيف هذه الثورة الثالثة إلى عالميتها إنسانيتها، وحتى يتم العاجزون بناء مؤسساتهم العصرية وإدارة حياتهم إدارة عقلانية ديمقراطية راشدة فيمكنهم المشاركة وجنى الثمرات إيجاباً . إن الأسس العامة لهذه الثورة الراهنة صارت حقائق لايمكن المراء حولها ، وصارت هذه الحقائق تشير منذ الآن إلى الوجهة البشرية المستقبلية ، فى

ضرورة صبغ هذه العملية التاريخية الكبرى بالطوابع الانسانية التى تؤكد وحدة الحياة البشرية وحق كل البشر فى العيش المنتج المبدع الكريم . أولى هذه الحقائق أن العلم وتطبيقاته أصبح قوة إنتاجية ، وأن «المعلومة» أصبحت أهم «سلعة» . كان الأقوى والأغنى من يمتلك المواد الطبيعية الخام اللازمة للصناعة ، فأصبح الأقوى من يمتلك مصادر المعرفة وأصبح الأغنى من يمتلك أنفعها وأدقها . ونشأ موقف فريد : لم يعد الفيصل اليوم وغداً حجم امتلاك هذه الأمة أو تلك لمصادر الثروات الطبيعية ، وإنما صار الفيصل كيفية استثمار أعز الثروات ، الثروة البشرية ، وطرائق إعدادها للمشاركة فى إبداع العلم وإتقان تطبيقه. مصادر القوة والغنى لكل أمة اليوم مشروطة بأن تدير هذه الأمة حياتها إدارة عصرية ديمقراطية تؤهل طاقاتها البشرية للمشاركة والإبداع والتفوق والعيش الخصب المنتج . والحقيقة الثانية التى أخذت تستقر أساساً من أسس هذه الثورة الثالثة أن تطبيقات العلم جعلت الاتصال بين أركان العالم دقيقا محكماً حتى لقد صارت هذه الأركان أحياء ودروباً فى قرية صغيرة هى هذا الكوكب الذى يحيا عليه البشر ، والحقيقة الثالثة قاعدة فكرية مهدت للحقيقتين السابقتين ورافقتهما ونتجت عنهما فى آن واحد . هذه الحقيقة هى أن وحدة الحياة البشرية أصل أعم من كل تناقض . ها هنا ينشأ موقف فريد آخر ذو آفاق مستقبلية رحيبة : حوار الثقافات والحضارات والقوميات ، وثمرة لهذا نضج اتجاه قوى إلى التفتيش عن المشترك الثقافى الانسانى ، وهنا ننص على أن هذا التفتيش لايعنى مواراة خصائص الثقافات المحلية والاقليمية وإهمال حقائقها ، بل إنه ليعنى ـ أصالة ـ إزدهار هذه الثقافات بسبيل تجادلها وتآثرها مع كل الثقافات . إن مايشترك فيه البشر أوسع وأعمق مما هم فيه مختلفون، وإن الوصول إلى المشترك بينهم إنما يتم بمعرفة وجوه التمايز والاختلاف ، ولهذا فإن النزوع إلى بيان المشترك الثقافى الانسانى يعتمد أول مايعتمد على المحاورة العظمى بين الثقافات التى أنجزها البشر أنفسهم .

عملية تاريخية عظمى : ثورة شاملة تغير الحياة على كوكب الأرض ، يتأسس لها نظام عالمى جديد لإدارة الحياة على هذا الكوكب . وجوهر هذا النظام نفى القطبية ، واحدية وثنائية ، لأنه إنما ينهض على مشاركة عالمية عريضة . وأية أمة ساعية إلى المشاركة محكومة بقدرتها على اكتشاف قواها وطاقاتها الكامنة وتوجيهها إلى الإبداع والابتكار فى ظلال من الحريات والديمقراطية العصرية .

مصر والعالم فى القرن ٢١

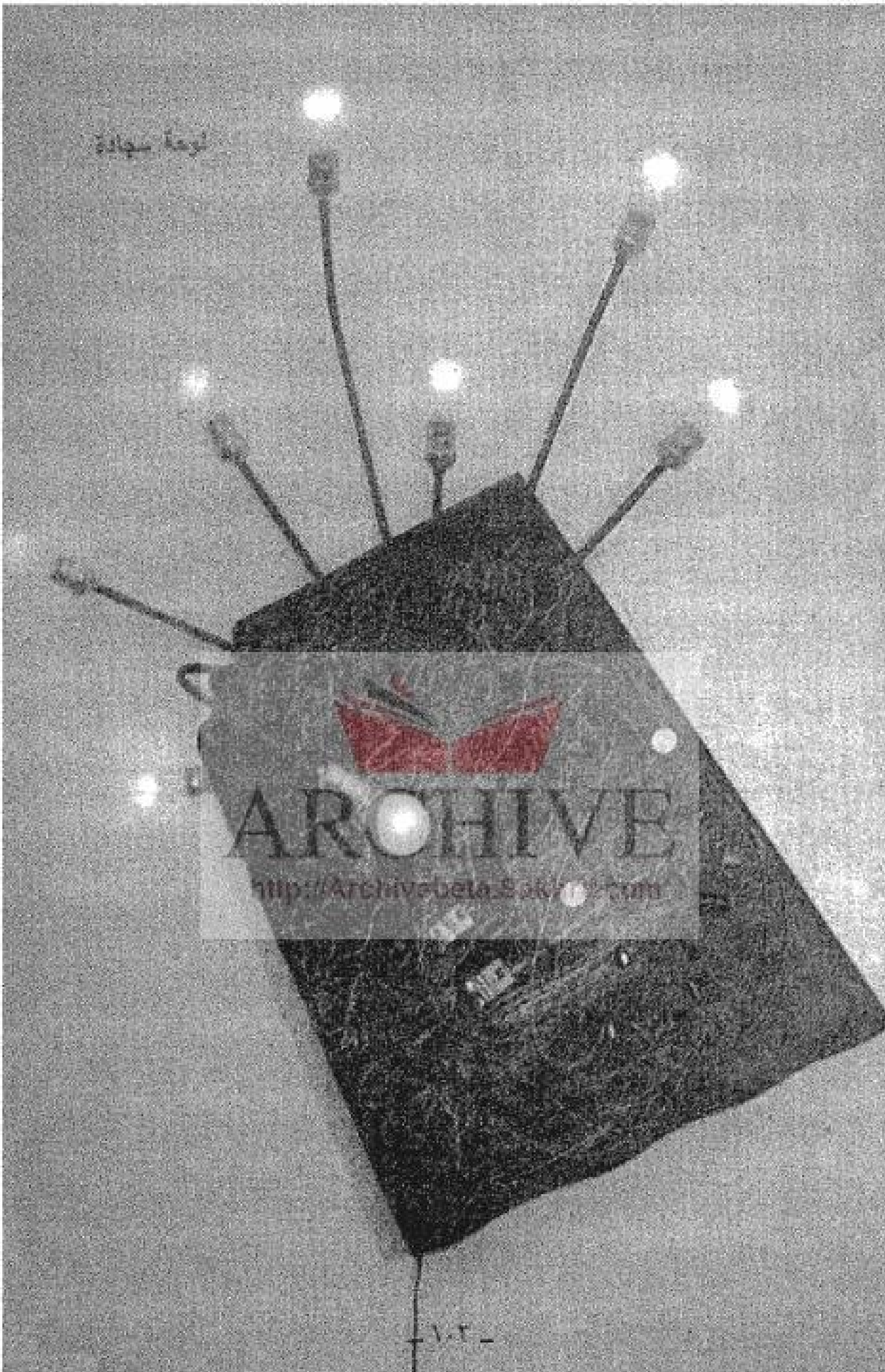
الفن التشكيلى فى القرن الواحد والعشرين

بقلم : د. صبرى منصور

يصعب على المرء أن يتكهن بما ستكون عليه حال الفنون التشكيلية في القرن القادم ، وخاصة عندما يقترب من نهاياته . أما بداياته فإنها ستأتى بلاشك استكمالا للاتجاهات الفنية الموجودة على ساحة الإبداع الفنى اليوم .

إن سرعة التطور في شتي مجالات الحياة الإنسانية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ، والتى شهدناها خلال السنوات القليلة السابقة وما أدت إليه من انهيار كثير من الثوابت الراسخة . تلك السرعة قد تضاعفت قوتها كنتيجة لثورة الاتصالات، وسهولة تدفق المعلومات ، وتوافر المزيد من الوقت والراحة لدي الإنسان ، فإذا أضفنا إلي ذلك اتجاه المجتمع الإنساني العالمي إلي إعطاء قدر أكبر من الحرية للفرد في التفكير والتعبير مهما بلغ مقدار ما في أفكاره من جرأة ، فإن ذلك يعطى مؤشرا للإمكانيات المتاحة لفنان القرن القادم للكشف عن آفاق جديدة غير معروفة لنا اليوم .

لوحة سجادة



● فن القرن العشرين

ولقد انتهى القرن العشرون بمحصلة هائلة من الأفكار والرؤى الفنية ، فتعددت فيه المدارس والاتجاهات بسرعة فائقة ، وبعد أن كان أى اتجاه يظل سائدا لعديد من السنين فقد رأينا اتجاهات تتوالد من بعضها خلال سنوات قليلة ، ومنذ عصر النهضة الذى استقرت ملامح فنه حتى القرن السادس عشر ، ظهر فن الباروك والروكوكو ثم الكلاسيكية الجديدة خلال القرن الثامن عشر ، ثم تبعتها المدرسة الرومانسية فالواقعية ، وجاءت ثورة الفن الحديث مع مطالع القرن العشرين وقد فجرتها المدرسة التأثيرية التى تولدت منها مجموعة اتجاهات كالرمزية والتعبيرية والوحشية ، وتوالت الاتجاهات التكعيبية والسيريالية والتجريدية ، وبعدها ظهر على ساحة الإبداع الفن الشعبى وفن الخداع البصرى وفن الحدث والواقعية الجديدة .

ويبدو أن هذا القرن كان قرن تجارب ومغامرات تشكيلية ، أو قرنا سعد فيه الفنان التشكيلى بحريته بعدما انطلق من أسر الأنظمة الدينية والسياسية التى كانت تكبل خياله بالقيود المنوعة، وتحصر إبداعه داخل أطر محددة ، فحلق فى سماء الخيال بحرية قادته إلى ارتياد مناطق مجهولة من عالم الإبداع ، معلنا عن حساسية فنية كانت مقهورة ومطموسة، كما جسد إبداعه قدرة الإنسان الفذة واللانهائية على التصور والتخيل والتركيب والإنشاء .

التجريدية وما بعدها

ولم تسفر تلك الاتجاهات الفنية التى تعاقبت خلال النصف الثانى من القرن العشرين عن ميلاد اتجاه قوى سائد ، ولقد بدا لفترة من الزمن أن الاتجاة التجريدى هو المرحلة النهائية ، أو هو محطة الوصول الأخيرة التى يبلغها أى فنان - وعلى الأقل سادت هذه النظرة هنا فى مصر - وذلك على اعتبار أن التجريد يمثل الشكل المصفى والقائم على علاقات تشكيلية خالصة ، وبالغ التجريديون فى تجاربهم التى تفرغ الشكل من أى محتوى حتى وصل الأمر إلى تقديم أعمال غريبة ، مثل ذلك الفنان الذى قدم لوحته خالية من أى رسم ، فهى عبارة عن قماش اللوحة يتوسطه ثقب ، معتمدا على ما يمكن أن يخلقه هذا الثقب من ظل أسود يتناقض مع فراغ قماش اللوحة الأبيض وما يثيره ذلك من أفكار لدى المشاهد . وواصل التجريديون تجاربهم المثيرة معتمدين على البدع والأفكار الجديدة الجريئة ، ووجد

هذا الاتجــاة صــدى واسع النطاق فى العــالم ، وبدا أنـه هو الفن العــالمي الذى اكتسح فى طريقه كل الاتجاهات الفنية الأخرى ، وزاد من انتشـاره مـا يبدو من سهولة أداء العمل الفنى التجريدى ، فهو لا يســتـدعى خـبـرة كـبـيـرة أو حـرفـة متمكنة، إنما يعتمد عـلـى الفكـرة الفنية ذاتها فهى كـل مقوماته . ومن هنا تكاثر اتبــاع التــجـريد ممن لايملكون الموهبـة الفنيــة الحقيقية أو يملـكون أية رسالة أو يريـــدون التـعـبـيـر عن أية مـعـان ، فاختلط فيهم الحابل بالنابل ، فأى تلطيخ أو تشويه للسطح إنما هو فن تجريدى يتم اتهامك بالجـهل لو وقـفـت أمـامـه حـائرا متسائلا .

• لكن الإنسان القادر دائما على التفوق على ذاته ، ويملك عقله وخياله مقدرة فائقة فى تخليق الأشكال وتوليد الأفكار الجديدة سرعان ما نبذ التجريد ، وعاد إلى الواقع فى اتجـاه فنى جديد كان غاية فى دقة الالتزام بالشكل الطبيعى بطريقة تفوق آلة التصوير فى التقاط أدق التفاصيل وهو ما أطلق عليه (اتجاة ما فوق الواقعية) وكان ذلك رد فعل مقابلا لما وصل إليه التجريد من إهمــال تام للتـعــامل مع الواقع وعناصره.

● آخر اتجاهات القرن العشرين

ولقــد ســمـح التنوع الهــائل فى الاتجــاهات الفنيــة - خــلال السنوات الماضية - للفنان أن يختار من بينها ما يلائمه فى التعبير عن شخصيته ، كما أتاح له الحـرية فى المزج فـيـمـا بين الاتجاهات وتخليق أشكال خاصة لاتنتمى بوضوح إلى اتجاه بعينه ، فهو قد يجمع فى عمل واحد ما بين الواقعية والسيريالية، أو الرمـزية والتـجـريدية ، أو عناصـر من الفنون القديمة والبدائية وقد صاغها فى قـالب حـديث . وكل هذا المزج والتـوليف يعتمد فى النهاية على شخصية الفنان وقدرته على الانتخاب والاختيار .

وهكذا أصبح كل فنان يسـعى نحـو استحداث صياغات جديدة مبتكرة لا تلتزم بأسلوب محدد المعالم ، وفى الوقت ذاته ذابت الفوارق بين أنواع الفنون التشكيلية، فـأصبح من الممكن تجسـيـد عـمل فنى بواسطة التصوير النحتى مثلا ، أو النحت التصويرى الذى لا هو نحت صرف ولا هو تصـويـر خــالص ، وإنما هو شكل تم تخليطه وتوليفه من عناصر الفنين ، كما برز على سـاحـة الإبداع أيضـا الشكل المجسم أو العمل الفنى المركب الذى يتألف من عناصر عديدة مثل الأشكال المستديرة



قطعة من الأرض



ذات الحجم مع عناصر مرسومة وملونة ، وإضاءة مسلطة بطريقة معينة . تلك الحدود المستقرة التي تلاشت بين أشكال الفنون ، وتلك العلاقات المميزة للاتجاهات الفنية المعروفة التي اختلطت وتزاوجت ، كل ذلك قدم للفنان التشكيلي في أواخر القرن العشرين نموذجا فريدا غير مسبوق للامكانيات الفنية الواسعة التي سوف يترك لموهبته الحرية والقدرة على الاختيار والتجريب دون قيود .

● فن التكنولوچيا المعاصرة

لاجدال في أن الفنان التشكيلي هو دائما مرآة لعصره ، فهو في إبداعه إنما يعكس روح زمانه وملامح مجتمعه ، ولقد كان للثورة التكنولوجية والصناعية التي عمت العالم الغربي والأمريكي تأثير واضح على ابداع الفنانين ، سواء أكان ذلك من ناحية الموضوعات التي تناولوها وألقت الضوء على سمات العلاقات الإنسانية في المجتمع الصناعي ، أو من ناحية الخامة الفنية أو الوسيط الذي يجسد به الفنان ابداعه ، ولقد ساهمت التكنولوچيا المعاصرة في تخليق مواد جديدة لم يعرفها الفنان من قبل كالخامات البلاستيكية أو المعادن الجديدة وغيرها ، ولقد أقبل الفنان على استعمال تلك الخامات ليس فقط لسهولة تطويعها لأفكاره وإنما لأنه رآها أكثر تمشيا وانسجاما مع الحياة المعاصرة.

كما كان اكتشاف أجهزة الڤيديو والكومبيوتر وأشعة الليزر داعيا لاستفادة الفنان المعاصر من امكانياتها الكبيرة في إبداع تختلط فيه أنواع الفنون التشكيلية مع الفنون التعبيرية مؤلفة لشكل جديد يمكن إضافته لأنواع التعبير الفني .

وأصبح مألوفا اليوم في قاعات عرض الفنون الأوربية والامريكية أن تشاهد معرضا فلا تجد فيه عملا فنيا مألوفا كلوحة أو تمثال ، وإنما تجد مكانا مظلما تلمح فيه أضواء وتسمع أصوات وتتحرك من حواليك أشكال من كل الاتجاهات لتعيش حالة من الإثارة والمتعة الجديدة على حواسك البصرية والسمعية في آن واحد .

وتجسد الأعمال الفنية للفنان الأمريكي المعاصر «جاك دولهاوسن» نموذجا فريدا لأشكال الفنون المستحدثة في أمريكا، والتي ترتبط ارتباطا مباشرا بملامح المجتمع التكنولوجي المعاصر، وعلى الرغم من أن لوحاته يتم تعليقها على الحائط كأية لوحة تقليدية، فإن سطحها يمتلىء بمجموعة من الأسلاك والوصلات

والدوائر الكهربائية، وحين يقترب منها المشاهد على مسافة معينه محسوبة فإن اللوحة تبدأ في العمل، فتضيء اللمبات وأجزاء من السطح وتقوم بدورة تشغيل كهربائية منتظمة أو غير ثابتة كما يمكن أن يصاحب الضوء بعض الأصوات التى تصدر عن احتكاك بعض الأجزاء، وعلى خلفية اللوحة ومن وراء الأسلاك تجد خطوطا وألوانا قام برسمها الفنان معبرا عن موضوع معين ، أو لكى يوحى به كما فى لوحته التى أطلق عليها «فراشة» أو لوحته المسماه «سجادة» إن هذا الشكل الجديد للعمل التشكيلى لايفتقد لمقومات العمل الفنى الجاد، فهو يحمل نفس القيم الفنية التى ستظل دائما وراء نجاح كل عمل فنى ، وكل ما هناك أنه حدثت تغيرات فى الوسائط المستخدمة بما يتلاءم مع روح العصر ويتمشى مع نوعية الحياة الحديثة.

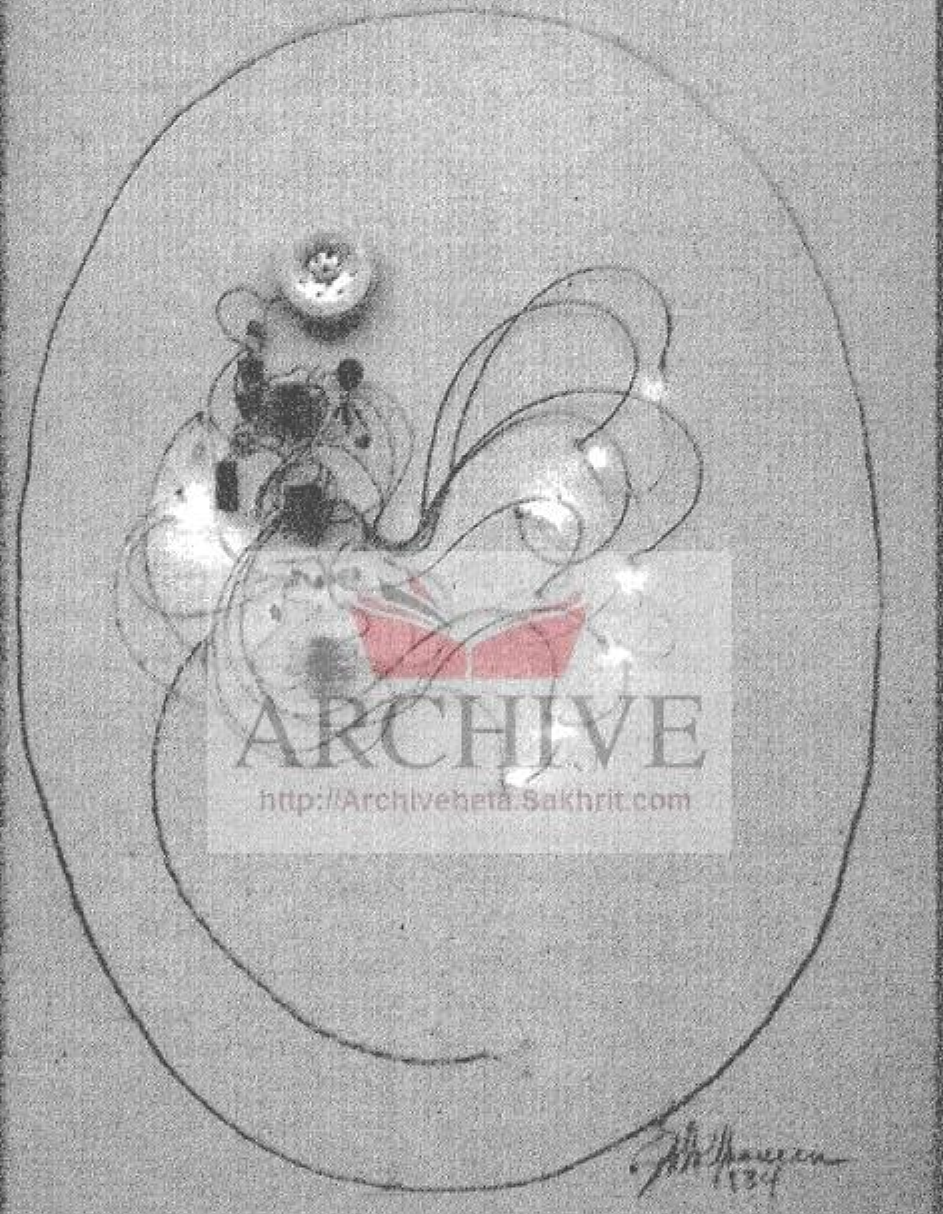
● الفن في مصر خلال القرن القادم

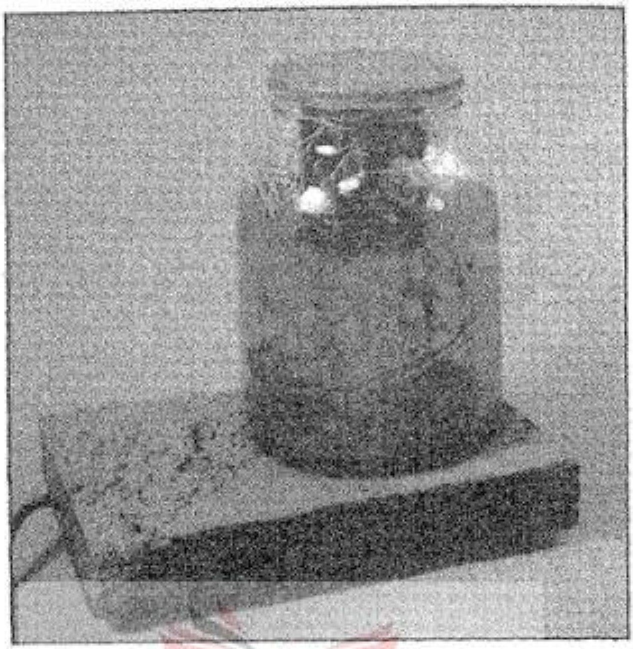
وفى بلدنا الذى لم يزد عمر الحركة الفنية التشكيلية الحديثة فيه على مائة عام فقط فإنه لم تتبلور فيها بعد رؤية خاصة واضحة نظرا للظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية التى يمر بها المجتمع المصرى، فهو مازال فى حالة إعادة بناء حضارى لكل مقوماته لكي يكون مجتمعا صحيحا سليما يتمتع بما تملكه المجتمعات الأخرى التى سبقتنا فى طريق التقدم الحضارى، فهو فى حالة تتأرجح ما بين الصعود تارة والهبوط تارة أخرى، فلقد فاجأته الحياة الحديثة منذ أوائل القرن وكان يعيش فى ظلمات القرون الوسطى ، فاختل توازنه الثقافى وخاصة فى ظل التقدم الكبير للمجتمعات الأوربية والأمريكية وقوة تأثرها الثقافى بفضل وسائل الاعلام والاتصال السريعة، ولقد بدت فى مصر خلال منتصف القرن العشرين ملامح تطور سريع و أخذ بأسلوب الحياة الحديثة فى جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكن الخطوات التى اتخذت فى سبيل التطوير والتحديث لم تستمر طويلا، وها نحن أولا منذ السبعينيات نعيش حالة من النكوص الحضارى ساهمت فى حدوثه عوامل كثيرة ومعقدة نأمل أن يستطيع مجتمعنا تخطيها وتجاوزها .

وكما ذكرنا فإن الفن هو مرآة صادقة لأحوال المجتمع ، وصورة حية تجسد ما يعيشه من أحداث وما يعانيه من تناقضات، وهكذا فإن الفن التشكيلى فى مصر يعكس لنا خلال قرن من الزمان نموذجا لعدم الاستقرار الثقافى واختلاطا فى المفاهيم ربما يمتد أثره إلى بدايات القرن القادم.

وعلى الرغم من ظهور مواهب فنية

فراشة





أحلام
ليالى
الصيف

اثبتت قدرتها على الإبداع الفني الأصيل كمحمود مختار وجمال السجيني في النحت ومحمود سعيد وعبد الهادي الجزار وحامد ندا في التصوير ، وغيرهم قليلون، فإن الحركة الفنية مازالت في مفترق الطرق، ولم تخلق لنفسها تيارا قويا يستطيع أن يفرض نفسه ويؤكدها على ساحة الإبداع الفني العالمي، فلقد تأرجحت تلك الحركة الناشئة بين مخزون ثقافي وتراث فني ممتد عبر تاريخها القديم ، وبين اغراء تقليد الاتجاهات الاجنبية والتيارات الفنية الغربية رغبة في مجاراة الحديث والانتماء إلى اشكال العصر، ولكى تتوازن تلك الحركة وتصبح قادرة على ابداع فن تشكيلي له قيمة حقيقية وأصيلة يضاف إلى رصيد الإبداع الإنساني فإنها تحتاج إلى توازن ثقافي وثقة في النفس ، وقدرة على الاختيار والانتخاب بما يكفل لها استقلالية النظرة وتفردها . وذلك بالطبع لن يحدث لخلية واحدة من خلايا الكيان الثقافي ، وانما هو توجه عام يتبناه المجتمع وتكون له آثاره على جميع انواع الفنون ووسائل التعبير المختلفة.

شعر :

عبد الكريم دندى - دمشق

أغنية في عيدها

أنا فى بحر عينيك ارتحلتُ   أطوّف حول سرك ما حييت

يدافعنى إلى شطيك شوق   ويقعدنى عن الإبحار نعت.

إذا غاض العطاء مع التدانى   فأى محبة صارت رفضت

أهامسك الكلام حديث وجد   وبى فرح الطفولة مذ نويت

ألوذ اليك من تعبى ويأسى   لأقتبس الهناءة ما أقمت

يحيرنى دلالك حين أدنو   ويتملنى هتافك ان نأيت

عرفتك دوحة فيحاء تعطى   وحسبى من عطائك ما جمعت

أطامن هاجسى شعراً وأسلو   على هضبات صدرك إن قلقت

يراودنى الحنين على التلاشى   ويصلبنى الى الابداع صوت

حسوت سلافة الفرح المصفى   فماد بى السبيل وما ارتويت

أعاين وجهك القدسى وهجا   يطهر كل مأزرة صنعت

تمور بخاطرى الدنيا نشيدا   يترجم فرحتى فيما حظيت

أذيع قصيدتى وامد صوتى   والتمس السعادة حيث شئت

أقـــوال معـاصـرة



د . سيد طنطاوى



ياسر عرفات



محمود درويش

● «ختان الإناث عادة وليست عبادة»

فضيلة شيخ الازهر الدكتور سيد طنطاوى

● «الجميع يرتكبون أخطاء»

الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات

● «باق فى حيفا»

وصية الأديب الفلسطينى

أميل حبيبى

● «إذا كنا نلعب» مع اسرائيل «فشروط اللعب لسان بلسان ، لاطائرة ضد طائر»

الشاعر محمود درويش فى وداع محمود درويش

● «حرية الصحافة تتعرض لامتهان خطير»

فيديريكو مايور

مدير عام منظمة اليونيسكو

● «اذا توقفت عن الكتابة مت»

جابرئيل جارسيا ماركيز

الأديب الكولومبى الفائز بجائزة نوبل

● «الديمقراطية ليست شيئا يوضع فى الدولاب ، ويقفل عليه إلى الأبد»

كرس باتن – آخر حاكم بريطانى لهونج كونج

● «بلا صداقة ، نحن أموات»

الممثل الأمريكى الأسود

مورجان فريمان

● «السجن الحقيقي هو تلك الاكاذيب التي تم صبها فى أذاننا كقرع الطبول طوال جيل»

كين سارو – ويوا

الكاتب النيجرى الذى أعدم شنقاً

● «التهديد الذى نشكله ليس للكرة الأرضية وإنما لجنسنا البشرى»

جيمس لفلوك

العالم فى الجغرافيا الطبيعية

مصر والعالم فى القرن ٢١

السينما

قفزة إلى الأمام

الأمر العجاب أن ما حدث قبل مائة عام يتكرر هذه الأيام ، والإنسانية على مشارف القرن الأول من الألفية الثالثة بعد الميلاد .



عام ٢٠٠٠

بقلم :

مصطفى درويش

ففى فجر تاريخ السينما ، والقرن التاسع عشر لم يبق منه سوى خمسة أعوام ، أفسح بعدها الطريق للقرن العشرين ، تحركت الصورة على شاشة بيضاء معلقة على حائط بالصالون الهندى فى مقهى باريسى مطل على شارع كابوشين .



وكان تحركها أمام نفر قليل من المشاهدين لا يزيد عن ثلاثة وثلاثين ، بعضه جلس مذهولا مما يرى ، وبعضه الآخر حاول الفرار ما أن بدأ القطار يدخل محطة سيوتا فى أحد الافلام العشرة المعروضة ، وكلها بلا استثناء ، كانت غير روائية ، من ذلك النوع الذى عرف فيما بعد بالفيلم التسجيلى ، وكانت مكونة من لقطة واحدة ، مدتها لا تزيد عن بضع ثوان .

والغريب من أمر ذلك العرض ، وغيره من العروض التالية ، أن أحدا ممن شاهدوها لم يرد على باله ، أن تحرك الصورة ، إنما يؤذن بميلاد لغة مبتكرة ، وفن جديد سيكون لهما أثر كبير فى مستقبل قريب .

فالشىء الذى لاشك فيه ، إنه فيما عدا نفر قليل ، لم يسأل أحد نفسه ، على امتداد اثنى عشر عاما ، عما يمكن ان يكون لتحرك الصورة من التأثير فى مسار جميع الفنون بلا استثناء .

ولو كان ذلك النفر المعاصر لتحرك الصورة قد اجهد نفسه قليلا بالبحث والتفكير والتعمق فى ظاهرة التحرك هذه ، لكان من الممكن أن يتنبأ بأنها ستذهب بالفنون – وكانت ستة فى ذاك الحين – مذاهب لم تخطر لأحد على بال .

● مولد فن

ولربما كان تنبأ بميلاد فن جديد ، ذلك الفن الذى أطلق عليه الناقد الايطالى «ريشيوتو كانودو» الفن السابع .

وكان ذلك فى العام السابع من القرن العشرين ومع ذلك الاعتراف المتأخر بالسينما فنا سابعا ، أخذ ذلك الفن الوليد يتقدم رويدا ، رويدا ، حتى حقق من الرقى شيئا كثيرا !

فما أن انتهت الحرب العالمية الأولى ، حتى كانت عروض الأفلام قد انتقلت من الأسواق والمعارض والساحات الى دور أشبه بالقصور .

وحتى كانت أفلام مصنع الأحلام فى هوليوود ، قد غزت العالم ، مكتسحة أمامها إنتاج بلاد كان لها فى صناعة السينما شأن كبير . وما لبثت الأطياف فى الأفلام أن تعلمت النطق والعزف والإنشاد .

فراحت تتكلم كأحسن ما يكون الكلام، وتعزف وتنشد كأحسن ما يكون العزف والانشاد .

وما لبثت أن تلونت الأفلام .



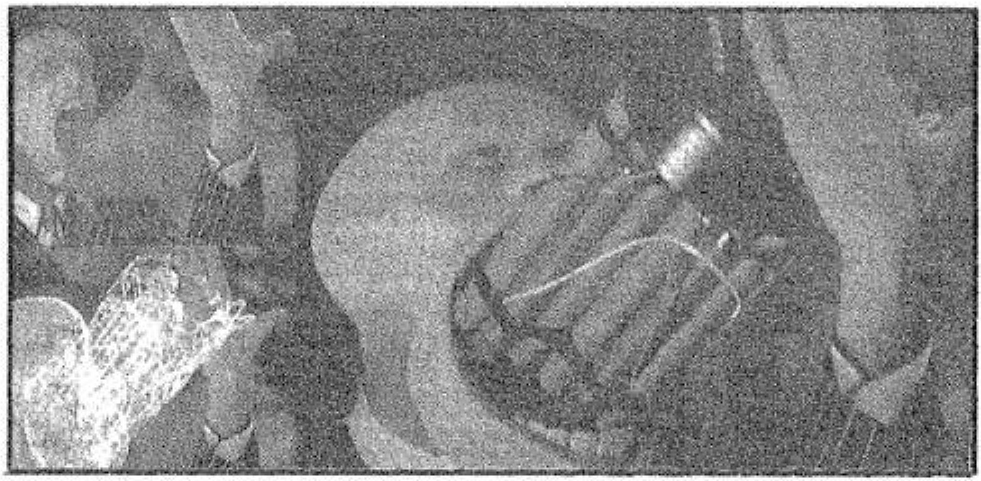
الرحلة إلى القمر

وما لبثت أن تسللت الى البيوت ، بفضل التليفزيون ، فالفيديو ، فالهوائيات.

● التاريخ يعيد نفسه

ومرة أخرى ، هاهو ذا القرن الذى شهد تحول السينما الى فن جماهيرى ولغة عالمية ، يقترب هو الآخر من نهايته ، ليس بينه وبين القرن الواحد والعشرين سوى خمسة أعوام .

ومرة أخرى ، كأن التاريخ يعيد نفسه، يثور التساؤل عن أشياء كثيرة ، من بينها مستقبل الصورة المتحركة ، وما عسى أن تكون الاتجاهات التى ستدفع اليها ،



السينما الآن

بحكم دخول الإنسانية عصر السرعة فى المواصلات ، والإنسان الآلى ، والحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) ، حيث يمكن تعبئة المعلومات بملايين الملايين ، ثم استرجاع ماهو مطلوب منها فى عشر معشار الثانية ، بل وربما فى زمن أقل من ذلك بكثير ، ونقلها بواسطة الأقمار الصناعية الى أى مكان يشاؤه الإنسان .

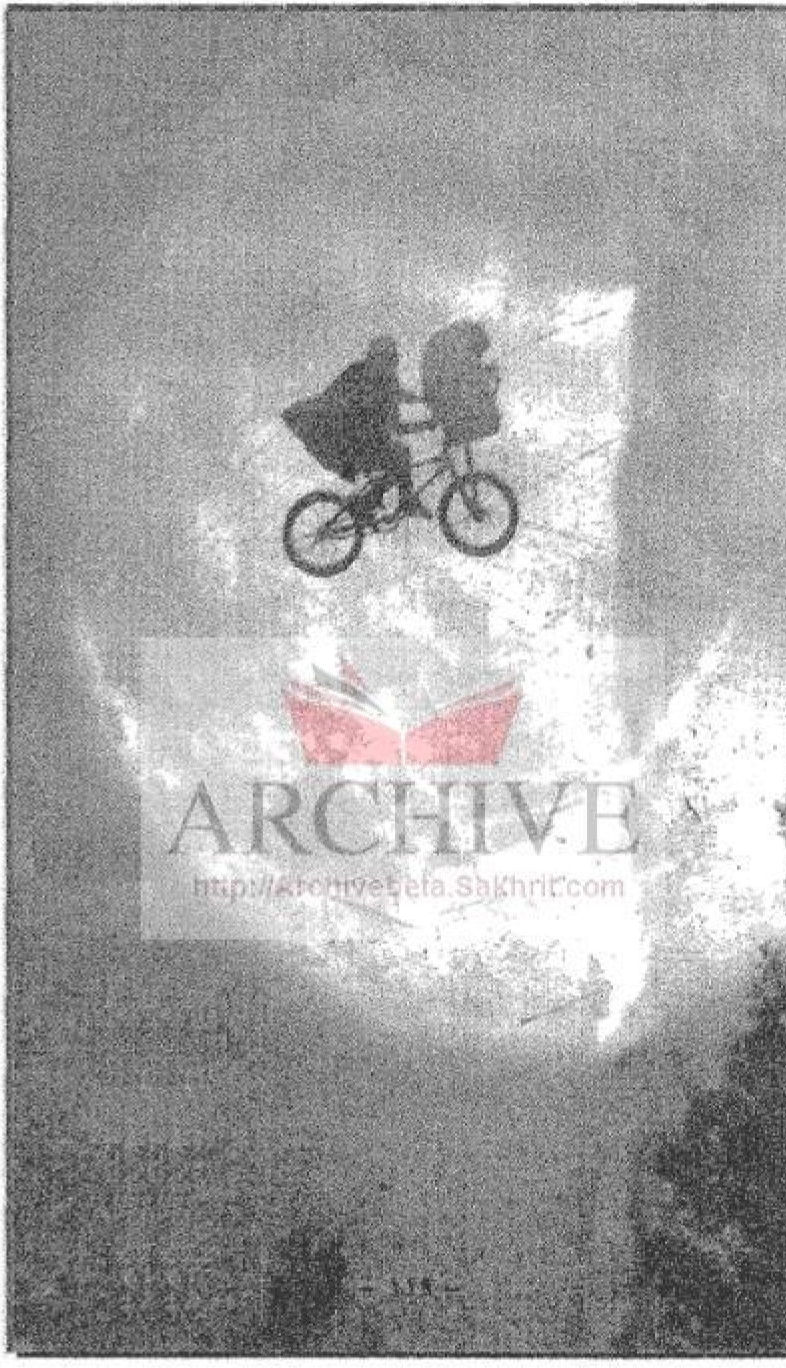
ومرة أخرى هذا التساؤل ، لا يلقى اهتماما إلا من قبل نفر قليل .

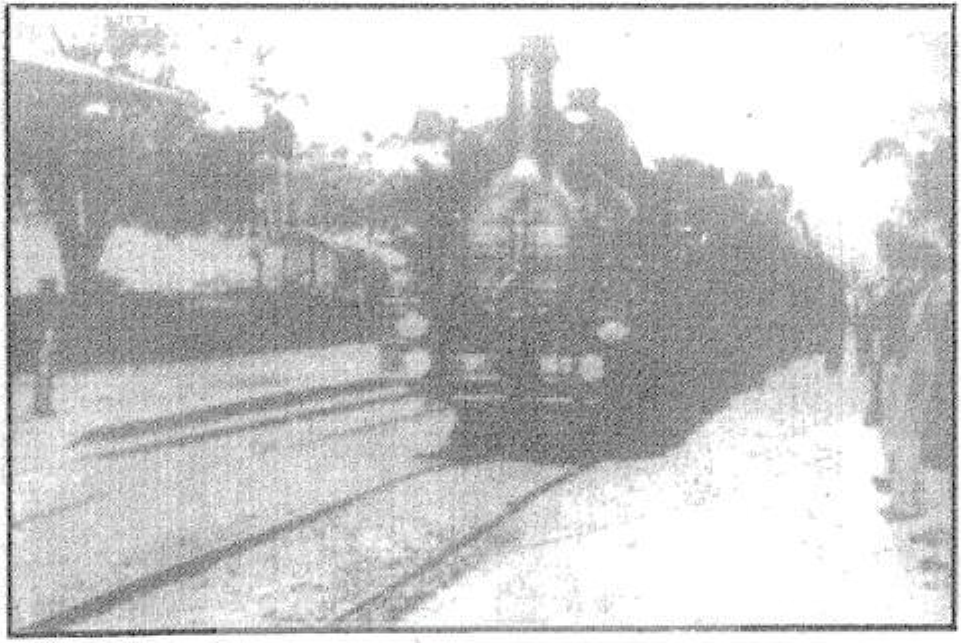
● تنبؤ وتفاؤل

وربما كان من اصطناع الدقة والحذر، الا نتنبأ هنا فى مصر بشيء متصل بفن السينما ومستقبله ، حتى بعد خمسة أعوام، وذلك لاننا لا نملك الأدوات التى تبيح لنا هذا التنبؤ ، خاصة وأن السينما عندنا متعثرة ، لم تواكب ، لسوء الحظ ، القفزات الكبرى فى علم وفن صناعة الأطياف ، وما أكثرها ، فى زماننا الحافل بجلائل الاختراعات .

ورغم ذلك ، وفى محاولة تطلع الى مستقبل فن السينما ، بعد خمسة أعوام ؛ أرانى مستبشرا خيرا .

فالرقابة على فن السينما ، تحت تأثير «الانترنت» واختراعات أخرى نرى تباشيرها منذ الآن ، ستصبح عديمة





قطار يدخل المحطة قبل ١٠٠ عام

الجدوى ، مثلها في ذلك مثل سور الصين العظيم ، تحت تأثير القنابل الذرية والصواريخ العابرة للقارات .

والأكيد أن التحرر من نير الرقابة ، مؤداه بحكم اللزوم ، انتصار حرية التعبير عن معاناة الإنسان المعاصر بواقعية ، آفاقها بدون حدود وشطآن .

● بيوت المستقبل

والأكيد .. الأكيد أن بيوتنا ستتحول .. بفضل الانترنت وما شابهه من اختراعات، الى مراكز إلكترونية كاملة ، شاملة للترفيه والتعليم .

وهكذا ، سيكون فى وسعنا ، ونحن ندخل القرن الأول من الالفية الثالثة ، أن نرى على شاشات كبيرة فى بيوتنا من الأفلام مانشاء ، وقتما نشاء .

وهذا لا يعنى أن دور العرض فى سبيلها الى الانقراض كالديناصورات .

فكما حدث للعروض من ارتقاء فى الربع الأول من القرن العشرين ، ستشيد دور سينما مجهزة بشاشات عريضة تعرض عليها الأفلام بطريقة الايماكس أو



سينما الخيال العلمى الآن

الاوبنماكس (أى الصورة فى اقصى مداها) .

● عرض واحد يكفى

وأغلب الظن أن عرضها سيجرى بوسيلة الارسال ، عن طريق الأقمار

وشىء كهذا ، يعنى توفير المبالغ الطائلة التى تنفق عادة على عمال العرض فى دور السينما ، وعلى طبع نسخ الأفلام، وعددها بالمئات ، إن لم يكن بالآلاف ، كما هو الحال مع معظم أفلام مصنع الأحلام.

إذ يكفى أن تعرض نسخة واحدة فى مدينة ، لتكن لوس انجلس أو لندن أو باريس ، ثم يجرى إرسال معلومات تلك النسخة الى قمر صناعى ، يكون همزة الوصل بين الفيلم ، وبين شاشات العرض أينما كانت ، كل ذلك فى وقت واحد ، وبوضوح رؤية غير مشوب بأى عيب .

وختاما ، فلا يبقى لى الا أن أقول أن الفن السابع ، مقبل مع بداية القرن القادم على تحولات مذهلة ، ليس فى وسعنا أن نتنبأ بتأثيرها إلا فى أقل القليل .

أما الكثير ، فأغلب الظن ، إنه قد يفاجئنا ، وعلى غير انتظار .

قصة :

لحظة بكاء

بقلم :
حسين عيد

بريشة
سميحة حسنين



(١)

شبينا على أطراف أصابع أقدامنا إلى أقصى ما نستطيع ، أنا وأخي وأختي التي تكبرنا بعامين ، معلقين صدرنا هناك ، على درابزين الطابق الثالث ، كحيوانات صغيرة مذعورة ، مدفوعين بفعل تحذيرات الأم المشددة ، التي تمنعنا من النزول ، تصلنا إلى بير السلم ، يدهشنا ما يجري بأسفل .. ميزنا أولا صوت أمنا جهيرا قويا كما تعودنا ، غطى عليه زمجرة صوت خشن لم نفهمها ، وسرعان ما صفعاتنا

صرختها حين استغاثت :
- الحقونى يا خلق !
سقطت قلوبنا هشة فى أقدامنا ، وحين ضاع صوت الأم وسط الصخب، فجعتنا وحدتنا ، فانهمرت دموعنا مدرارا، وارتفعت نهنهاتنا رفيعة ممطوطة ، تقطعها شهقات مفاجئة ..
لم نهدأ إلا حين رأينا أمنا بعيوننا ، وهى تصعد فى حضن أخى الأكبر ، برفقة بعض جيراننا ، فمسحنا دموعنا بأصابعنا الصغيرة ، وأشرقنا !

(٢)

إلتف الجمع حول الأم فى صالة شقتنا القبلية . كانت تتصدر الكنبة الطويلة الممتدة الى يمين الباب مباشرة ، فى فراغ بين نهايتها والحائط المقابل ، انحشرنا ، نتابع ما يجرى صامتين . رأينا وجهها الأسمر محتقنا ومعالم الغضب ظاهرة عليه . إلى يمينها جلس أخونا الأكبر بجسمه العريض وإلى جواره زوجته ، وعلى الجانب الآخر جلست أختنا الكبرى وابنها البكر ، وبدت فى أماكن أخرى وجوه مألوفة لبعض الجيران .
إنجذبت عيناى إلى أزرار بذلة أخينا الصفراء اللامعة . كنت أحب أن أطفىء لمعتها بأصابعى ، ثم أبعثها وامضة من جديد حين أحكها بقماشة نظيفة . سمعته يقول ، بعد أن هدأت الأصوات :
- لم نزلت إليه ؟!
كان الحديث يدور حول العم الذى يسكن بدروم البيت . ومضى فى



خيالى بجسده الضخم ووجهه المدور وأنفه الأفطس . بدا باشا فى وجوهنا ، كما ألفناه .
دارت نظرات الأم بين الحاضرين . أيقنا أنها تبحث عنا . إنكمشنا فى وقفتنا . إستقرت علينا وجلة حانية . قالت :
- إشترى الحاج الأرض وبنى البيت وتركه يسكن مجانا ..
هفت رائحة مسك . هلت صورة الأب بالجبة والكاكولا والعمامة البيضاء . رأينا الأم تنكس عينيها .. « هل كانت تخفى أحزانها ؟!»
واجهت الجمع بجسارة :
- العيب كبر بعد موته . كان لازم أقول له يدفع إيجار ..
تدخلت جارتنا ، الست أم سامى ، ساكنة الشقة البحرية بالدور الثانى :
- كان ابنك ..

قاطعتها الأم ، وهى تهز رأسها :

– انه جبار .. كاد يقتلنى ، لولا وصول ابنى بالصدفة ..

تذكرنا صرخة الأم . تخيلت جسم العم عملاقا ، ينتفخ ، يتضخم ، يتمدد ، حتى يسد مدخل الباب ، يجثم على الأم يكاد يكتم أنفاسها ..

نهضت الست أم سامى :

– أظنه سوء تفاهم وسينتهى .. حسدكم الناس !

إستأذنت ، فوقف بقية الجيران . تحركوا نحو الباب ، يرافقهم صوت الأم بنبرات هادئة حزينة :

– رجل جبار .. جبار!

غاضت عيناى بالدموع . فكرت أن أندفع إليه ، اتحداه . أهاجمه ، كما تحدى سندباد وحش البحار ،



فتنظر إلى الأم بإكبار !

(٣)

وسط نهار اليوم التالى ، كنت أنا وأخى تحت سرير أمنا النحاسي المرتفع ، أحكى له مغامرات السندباد وأسرح معه بخيالى إلى بلاد بعيدة ، حين سمعنا طرقا مرتفعا على باب الشقة ، وصوت الباب يفتح ، ثم صيحة أختنا سريعة جزعة :

– عسكرى يا أماه !!

قفزنا الى باب غرفتنا الموارب . تابعنا أمنا تجفف يديها فى فوطة حمراء ، متوجهة الى العسكرى الذى سد فتحة المدخل ، ردد سؤاله خشنا مرتفعا :

– إنت الست انصاف !؟

هبت رياح خوف مباغتة ، وبانت نذر مهددة ..

أومأت الأم برأسها ، فتدافعت كلمات الرجل :

– أنت مطلوبة فى القسم ، لأنك تعديتى على أحد من السكان ..

ضربت الأم صدرها جزت على أسنانها تلفتت حولها حائرة . أمسك بنا رعب أعمى ، شعرت بأخى يلتصق بى..

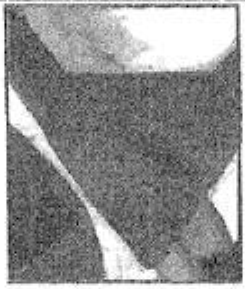
تناولت طرحتها السوداء من فوق الكنبة ، لفت أطرافها على رأسها وكتفيها ، وكمن تحدث نفسها :

– أكثر من عشر سنوات لم يسمع أحد لنا صوتا إلا بالمعروف ..

سلطت عينيها علينا :

– إياكم أن تفتحوا الباب ، حتى أعود !

أغلقت الباب وراءها أنصتنا إلى وقع خطواتها



وهى تتبع الشرطى أسقط فى يدنا . صرنا محاصرين فى جب عميق كفئران ، والعدو يترصد خطانا فى الخارج !

(٤)

عادت أمنا من قسم الشرطة بصحبة أختنا الكبري . خلعت طرحتها السوداء وطبقتها عدة طبقات رأينا وجهها عابسا ، وقد تدلت بعض حبات عرق على جبهتها سمعنا صوتها خافتا :

- إتهمونى إنى تعديت على شقة ساكن بالدور الأول فى غيابه ، وكسرت زجاج شراعة الباب ..

رأتنا ننظر إليها باشفاق واجمين . تنبهت قالت بصوت غريب : - إطمئنوا ، لم يحدث لى أى شىء .

نظرت الى ثلاثتنا ، وأشارت إلي حجرتها :

- إدخلوا . العبوا هناك ..

جرجرنا أنفسنا بصعوبة ، كنا واثقين أنها تحاول أن تخفف عنا وكنا نعرف أنها لم تخلع الملابس السوداء منذ وفاة الأب ، لكنها المرة الأولى التى نراها بهذا الحزن ..

أغلقنا الباب . قال أخى :

- نتصارع ؟!

أشحت عنه .

وانصرفت أراقب شبحى الأم وأختنا الكبرى من وراء زجاج باب الحجرة المغبش وهما تتهامسان سمعت صوت نشيج قريب . إلتفت ، رأيت أختنا تبكي وتمسح دمعاتها على خديها . رفعت إلى عينيها . تساءلت :

- لم يؤذ أمنا ؟! عرفنا من تقصد ، ولم نعرف بما نجيب ..

فجأة جلجل صوت الأخ الأكبر هادرا :

- أيظن أنه لا يوجد رجال وراء المرحوم ؟!

لعله وصل الآن ، ثائرا مما حدث ، لأننا سمعنا أمنا تقول :

- أقعد يا ابنى استعذ بالله

- بالأمس حاول قتلك، واليوم لفق محضر تعد ..

- أقعد يا ابنى .. ربنا كبير .

باخ اللعب . رأينا شبح الأخ ، من وراء الزجاج ، يلتصق بهما ، فتتشكل سحابة داكنة ، تمتد وتتسع ، لتبتلع كل الأشياء حولنا ، حتى تمتنع الرؤية !

(٥)

كيف مرت تلك الأيام ؟!

كيف انقضت ؟!

أمنا دجاجة وادعة أمام وحش كاسر ، وكنا كتاكيت مشاكسة، أخذتنا تحت جناحيها وحذرتنا ، وألحت فى تحذيرنا مرارا وتكرارا ، بالابتعاد عن طريق العم وأولاده ، وعدم الانصياع الى إغراء اصطحابهم الى أى مكان مهما قرب أو بعد . ونتيجة لذلك لم يعد مسموحا لنا بالنزول الى الحارة أو اللعب مع أولاد الجيران . ولم تتوان الأم فى فرض رقابة مشددة علينا ، بدءا من نظراتها ، إذا ما بدر من أى منا تصرف لا يرضيها . وكنا نعى أنها تخفى وراء تلك النظرات عقابا قاسيا لمن تسول له نفسه أن يتهاون فى الطاعة أو يتمرد !

هكذا انزوينا فى شقتنا ، وندرت زيارات أمى التى كانت تقوم بها سابقا للجيران وبالتالى قلت زياراتهم لنا ، فأصبح إغلاق باب شقتنا هو القاعدة ، بعد أن ظل مفتوحا ، طوال اليوم لسنوات طويلة ، خلال حياة الأب . وتدريجيا ، أصبحنا محاصرين بين جدران غرفة الأم ، وصار ملعبنا مستطيلا ضيقا من الأرض تحت سريرها النحاسى العالى ، خاصة عند مجىء زائر ، فاذا الأم تلاحقنا بعينيها ، فنجر أذيالنا إلى حجرتها، حتى لا نتابع أحاديث الكبار !

حتى جاء يوم ، سيظل معلقا فى ذاكرتنا بعد ذلك ، لسنوات طويلة، ولن يتيسر لنا أن ننساه .. كنا كما تعودنا فى تلك الأيام ، تحت السرير نلهو، تاركين الأم مع أختنا الكبيرة تتحدثان ، حين سمعنا صوتا أجشا يتردد ، خيل إلينا أنه يأتى من أغوار بعيدة . نسينا لهونا . تسللنا فرادى كفئران مذعورة . توقفنا على باب الحجرة المفتوح . إشرأبت رؤسنا فغرت أفواهنا . رأينا أمنا الكبيرة أنصتنا لصوتها مختنقا تنفلت منه بصعوبة كلمات مبطئة متحشرجة :

- سأبحث .. عن .. سكن .. بعيد !

إنخرطت تنشج ، فاهتز جسمها بعنف . كانت تحرص أن يظل نشيجها مكتوما فى صدرها ، حتى لا يصل إلينا صوت انتحابها .. مذهولين كنا ، غير قادرين على تصديق ما نرى ..

للمرة الأولى ، كانت تبكى !!



مصر والعالم في القرن ٢١

رؤية مسرحية

مفتاح المسرح

بقلم : فوزية مهران

□ هل يتصدع الفن المسرحى في القرن القادم ؟!

إن مجرد خروجنا من بيوتنا لمشاهدة المسرح والالتقاء بجموع من الناس هو رغبة فى المعرفة أكثر وفى احتضان تجارب الآخرين والاستمتاع بمشاعر إنسانية والمشاركة - وهى لذلك عملية تحرر كاملة

هل يمكن الحياة بلا مسرح ؟!

فى عالم تزلزله الانقسامات والفتن والحروب .. تلهبه ضربات الطبيعة واختلاف درجات الحرارة أو تصاعدها وتفجر البيئة ..

تروعه الانتفاضات والهبات الغريبة ، وتوحش عمليات القتل والإبادة .

تبهره الاكتشافات العلمية وترهقه ألعاب الكومبيوتر وفساد شبكات الانترنت وأمراض العصر .

عالم تديره تغيرات هائلة في القيم والأخلاق والسلوك

مفارقات في الايقاع وتفاوت مستوى المعيشة وتنوع أسباب الموت

مسرح حى على مسرح الحياة وفى أرض الواقع ملىء بالمتناقضات وألوان الصراع أعتى من الأساطير القديمة وقصص الغابرين - والمسرح كيف يكون ؟

هل يتصدع الفن المسرحي في القرن القادم في عالم مليء بالثقوب والاختراقات ينهار وهو يعاني من الإسفاف والهبوط أم يستمر في المقاومة وقد تدوي على خشبته صيحة فلاحنا الفصيح من جديد.

هل يندثر المسرح أم يزدهر في العشرينات الأولي من القرن الجديد ..؟ يظل أبا للفنون ومركز الثقل والجاذبية

أم ينتقل الى مواقع أخرى تبعا لتقنيات جديدة ؟

ترى هل يذوى الفن المسرحى ويفنى تماما فى الفن السينمائى ويشاهد المتفرج تصويرا للعرض المسرحى القديم أو الحديث ، وقد لاتكتفى السينما بتسجيل المسرحية وأداء الممثلين بل تقدم إخراجا سينمائيا لها وتنطلق بامكانياتها الساحرة لتصوير الأماكن الحقيقية التي يجرى فيها المشهد أو الحدث . ويمكن أن تعد إضاءة خاصة بها وتختار أثناء العرض ألوانا من الضوء والانعكاسات .. وتتدخل فى السرد بلقطات سريعة متتالية .. أو تلعب لعبتها الكبرى فتغير البطلة أو الممثل - طريقة «السيبستار» العودة بالممثلة الراحلة والتى مازال الناس يذكرون طريقتها فى الأداء أو الإغراء وذلك من خلال تغذية جهاز كومبيوتر بمئات الصور السينمائية للنجمة .

المسرح يمكن أن يتخلى عن كل شيء إلا الممثل ولكن هل يمكن أن نتصور مسرحا بلا جمهور ؟

المسرح يتوجه الى جمهور .. جماعة .. كيان هائل من البشر تسرى بينهم مشاعر وأفكار .. وتثار اسئلة وتعلو أحلام وينبثق من بينهم تيار للوعى وتوحدهم لحظة إنسانية واحدة .

فهل يتوجه المسرح فى المستقبل الى فرد .. أو أفراد متفرقين .. معزولين فى غرف مغلقة .. معتمة أو شاحبة الضوء .. والقبلة فيها جهاز كمبيوتر أو شاشة الانترنيت .

وهل يعزل العمل المسرحى عن غايته وتصدعه حدة المفارقة أن يكون ساحة للابداع ومكانا للتأمل والاهتمام ، ومقام بهجة ومعاناة وملتقى للمشاركة والاقتراب والدفء الإنسانى فإذا به شيء عرضى يمكنه أن يأتى أو يتلاشى بمجرد لمس زر صغير ولايقوم بعمله أو مهمته .

لقد جاءت مسرحية «الشقيقات الثلاث» لتشيكوف قبل الثورة الروسية «جاءت مثل نبوءة ثورية» ..

جاءت معبرة عن الحركة الداخلية لأبطالها وعمق معاناتهم ومشاعرهم .. جاءت برقيتها ولغتها الشاعرية مثل عاصفة تدعو إلى التغيير وتطلع الناس الى حياة جديدة والرغبة فى التخلص من الركود والترهل الاجتماعى والسياسى والملل واللامبالاة وتحقير العمل .

المسرحية تنتقل من المعاناة الذاتية الى آلام أمة بأسرها ومأساة الإنسانية . الشعور بالعجز والترهل وأناس يعيشون

بلا دور أو هدف ودون أن يعرفوا لماذا يعانون على هذا النحو .

يقول أحد الشخصيات ،هل بإمكاننا أن نبدأ حياتنا من جديد ونحن علي وعي بما نريد أن نحققه ؟

لنفرض أن في إمكان الواحد منا أن يستخدم حياته الماضية كمسودة لحياة أخري جديدة ونحاول أن نعيد النظر في أسلوب حياتنا ..

وبعد مئات السنين ستقوم حياة جديدة .. ويجب أن نعمل ونعاني اليوم حتي يتسني لهذه الحياة أن تقوم ..»

وتسرى نغمة منعشة - الشقيقات الثلاث مازلن وحيدات يعانين .. ولكن «يجب العمل وأن نبدأ من جديد» ..

أليست مسرحية ونبوءة حقا .. لمجتمعات كثيرة فى العالم الآن . ولواقع العصر الحديث ..

نحلم بالحب .. بالعمل .. بمجاوزة إحساس العجز والهوان إلى آفاق الحرية والوسع ومعانقة الحياة .

هل يتوقف هذا النوع من المسرحيات .. الذى يوقظ الهمة ويثرى الضمير والوجدان ويدفع بنا المساندة والاقتراب والعمل الخلاق .

لقد فوجئت ذات ليلة فى نهاية السبعينات بأن تذاع مسرحية الشقيقات الثلاث نقلا عن التليفزيون الفرنسى وقد أعدها الكاتب المسرحى «أداموف» .

التليفزيون وتطوير الفكر

أحسست بالفعل بجدوى التليفزيون وأهميته فى إثراء تجاربنا ومعرفتنا وتطوير فكرنا ونحن نجلس داخل بيوتنا .

لكن لو قدر لنا أن نعيش الى مطلع القرن الواحد والعشرين .. وامتلاك مثل هذه الشبكة السحرية - الانترنيت - وهو ضرب من المستحيل - العصر القادم لأصحاب الأموال والأرقام الخيالية - ولكنه فرض مجازى يمكنني عقد دراسة مقارنة لذات المسرحية في أماكن عدة ... وهى فرصة للباحثين والدارسين ومن يتابعون تراث الإبداع المسرحى .. وهذه من أهم نتائج هذه الاختراعات الحديثة .

هل تظل نبوءة .. وتحدث فعلها على أرضها .. وتبشر بعهد جديد .. أم تنوح على التمزق الذى حدث .. وشق جسد الأوطان والاقتتال تصبح مجرد بكائية

محزنة داخل الحجرات وبين الجدران وتؤجج الوحدة والانعزال والضيق ؟

ويتوقف أثر «فعلها» المسرحي الجميل وتصاعد لحن الأمل ، رغم المعاناة .. علينا دائما أن نبدأ من جديد .

وثمة خطورة محدقة أكبر وأشد .. شبكة الانترنيت العصرية المتقدمة .. يمكن أن تتحول الى أداة شر ودائرة سوء . لقد قررت حكومة اليابان أن تتدخل لمكافحة الجرائم التى يرتكبها المشتركون فى خدمة هذه الشبكة - وتكليف وحدة من الشرطة بتعقب الذين يرسلون الصور الفاضحة والعبارات المبتذلة .

بل وفكروا .. كأكبر دولة منتجة للكومبيوتر - فى إرسال فرقة بوليسية للتدريب بمنظمة الانتربول .

وهكذا تتحول وسيلة اتصال عصرية لاتؤدى الغرض منها وتصبح أداة انزواء واعتزال بل وتنقلب الى شبكة للجريمة وملهاة فى أيدى العابثين ومحترفى الفساد.

والأمر يسير الى منحنى خطير .. فمن الذى سيمنع ويصرح .. ما القوة التى ستراقب وهل توضع رقابة أم وصاية .. وهل يصل البوليس الى داخل الحجرات؟

وهل تتولى كل دولة هذه المسألة أم أن هناك تنظيما عاليا «وأبا روحيا» أو «أخا كبيرا» يهيمن على الرؤى والعقول وداخل الأجهزة وجدران البيوت .

ليس عبثا ماقاله بطل مسرحية «ضحايا الواجب» لبوجين يونسكو: «المسرحيات التى كتبت من عصر الأغريق القدماء وحتى العصر الحديث ليست أكثر من إثارة ومسرحيات بوليسية .

كلها عبارة عن تحقيق يفضى إلى نتائج طيبة - أو لغز يتم حله فى المشهد الأخير!!

ويستمر البطل فى صيحته : «حتى الكلاسيكيات ليست أكثر من مسرحيات متقنة «الحبكة» والقص فيها على الطريقة البوليسية أيضا .

أيونسكو وبيكيت وأداموف وغيرهم أحدثوا ثورة على المسرح بالفعل . وابتعدوا عن منطق أرسطو وعناصر الدراما التقليدية من الحبكة والشفقة والتطهير .

قدموا رؤية جديدة وتحليلا جديدا .. وحسب تقدم العلوم والمنطق الرياضى الحديث أعادوا اكتشاف منظومة الدراما بعيدا عن منطق السببية والواقعية أو

الواقعية الاشتراكية .

وعن طريق الحلم يمكن اكتشاف الحقيقة فى اليقظة .. وعن طريق السخرية ومزج الضحك بالمأساة يمكننا الوصول الى نسق جديد من التصور .. وكشف قوى التناقض .

يحكى لنا أداموف أنه رأى مشهدا صغيرا - «ألقى إليه بوهج الحقيقة الدرامية فى الأشياء العادية من حياة كل يوم» .

رأى شحاذا ضريرا يعبر الطريق بمفرده وفتاتين جميلتين تمران من أمامه تغنيان بأغنية قديمة .

يقول أدركت مدى عزلة الإنسان - وحدته - فقدان التواصل بين الناس . ذلك النوع من التفكير النقدى الحديث .. كان كفيلا بتحريك مشاعر إيجابية وإيقاظ الروح ودفعنا للحوار .. للاقتراب والمشاعر المشتركة .

والمفروض فى الآلات الحديثة أن تسهم فى راحة الإنسان وتسهيل سبل العيش وإطلاق المزيد من قدراته الإبداعية والإنسانية .

ولكن هى نفس الآلات التى تباعد بينهم وتمزقهم وتجعلهم جزر موحشة متفرقة ومتباعدة - ومنطوية على ذاتها - والكل يدع الآلة تنتشى له وتدفع عنه .. وتوصل إليه الطلبات والصور المرئية وأسباب الوحدة والاكتئاب .

المسرح سيستمر

أعتقد أن الفن المسرحى سيقاوم وسيعمل من يحبون المسرح على بقائه وتطويره .. ونشر رسالته .

ربما بعض الحكماء والأطباء يعالجون أمراض القرن الجديد من الاكتئاب والبلاهة وفقد القدرة على الاتصال .. بمشاهدة المسرح الحى .. ليعودوا الى دائرة الإنسانية .

قد يتجه المسرح الجديد الى التاريخ .. ليس بقصد الغوص داخل أحداثه .. ولكن من أجل تحريك مجرى التاريخ الحديث . وإلهام الناس على الفعل والحركة وإيجاد صيغة حقيقية للتحول والتغيير .

من أجل أن نكشف عن مناطق القوة والدعم للتقدم وعلى مستوى إنسانى ويلهم حركتنا فى اللحظة التاريخية الآنية .

الأمل معقود على الشباب .. القدرة على التصور والتجريب حتى على مادة كلاسيكية .

فى السنوات الأخـيـرة من القـرن العشـرين قـدم المخرج العـربى «جـواد الأسدى» مع فـريق مسـرحى من شبـاب المسرح .. رؤية جديدة لمسرحية «هاملت» وسماها شباك أوفيليا .

ومن خلال تلك النافذة شاهدنا الخيانة والجريمة – كنا جميعا هناك من الشهود والحضور .

تمت المأساة تحت أعيننا ..

الأمل مـعـقـود على مـثل هذه الفـرق المسـرحيـة المدربة ويصبح المسرح بيتـها وعائلتها ومنبر فكرها .

من يدرى ربما شب من بينهم فـتى عـربى وقـدم لنا «شـبـاك بيـروت» حيث شـاهدنا المذبحـة التى جرت والجـريمة المدبرة للبنان.

المستقبل مرهون بقوة شباب المسرح

وإذا كنا شاهدنا فى منتصف القرن العشـرين صـيـحـة الشبـاب المسـرحى الغاضب وشعار زعيمهم «انظر خلفك فى غضب» .

فـأظن أن العـالم فى بدايات القـرن الحادى والعشرين سيشهد حركة مسرحية شابة تتخذ لها شعارا دالا «انظر الى الأمام فى أمل» .

مـجـمـوعات ودوائر مسرحيـة تقاوم بطريق الفن والابداع – ويقدمون عملهم – فى أى مساحة خالية – مقهى – ساحة فضاء – جراج – جرن فى القرية – قاعة عرض لوحات تشكيلية .

قـد يغـيـروا ويطوروا فى التـقنيـات المسرحيـة – فى الأداء والحـركة وإيجاد النص أو استلهامه واستكماله على مراحل وفترات ..

و لكنهم يتمـسكون بقـيـمـة العـمل المسـرحى كـضـرورة حـياة وأداة نضـال وتحرر ووسيلة اتصال بين الناس .

هذه المجـمـوعات المسـرحيـة المثقـفـة الواعـيـة قد تشارك فى تأليف جمـاعى وتنطلق من فكرة – من حـادثة – من موقف معين وقد نصل الى مسرح المخرج المؤلف

وقـد شـاهدنا بداية شـروق هذا الأمل الجديد فى ومضات وأظنها تكتمل حلقاتها وتستقوى فى العصر القادم .

تبرق ذاكرتى لفـتـيـة قـدمـوا عـمـلا جماعيا فى عيد بورسعيد القومى – منذ أكثر من عشر سنوات –

فرقة من الباحثين والشعراء والمغنيين والمؤدين .. بحثوا عن تاريخ «الفرما» ذلك الموقع الفريد على البحر وفكرة شق القناة...

كانوا يقدمون أشخاصا حقيقيين .. وأفرادا بسطاء تبدت بطولتهم ساعة المعارك والمحن .

وهكذا انطلقوا من فكرة .. ومن قلب المدينة المناضلة وتاريخها ..

وجاءوا بأصحاب البطولة .. تركوهم يتحدثون بأنفسهم على المسرح ويسردون ماحدث بطريقتهم - استمعنا الى بطل منهم «محمد مهران» كافح الانجليز اثناء العدوان وأرادوا أن يمثلوا به لجسارته وشجاعته .. «فقأوا عينيه - وهو يعمل مديرا للمتحف الوطني ببورسعيد الآن - يقف فى جلال ويحكى .. وكل ليلة يصل إلى أسلوب أفضل للسرد .

ويتفاعل معه جمهور الحاضرين . والناس بحر متلاطم من المشاعر الوطنية ونبض البطولة والفداء .

كذلك السيدة زوجته .. كانت ممرضته، وقفت على المسرح .. تحكى كيف سألتها زميلة لها - لماذا الاهتمام ؟ هل تشفق عليه ..

وتجيبها ببساطة : بل هو الحب والاحترام - لأنه بطل ضحى بنور عينيه دفاعا عنا ..

ويعلق - أنه حمدا لله أن بقى له نعمة السمع ..

فاستمع الى أجمل كلمات الحب والتقدير - وكان أن تزوجها .

وكل ليلة يتقدم السرد الدرامى ويتعمق وينفذ الى نفوس الناس .

(ترى هل سجلت الثقافة الجماهيرية هذه التجربة الرائدة - وماذا جرى للفريق؟) .

وكانت لنا تجربة فى النصف الأخير من الستينات ..

أخرج «عبد العزيز مخيون» مسرحية الصفقة لتوفيق الحكيم - فى قريته بأبى حمص بالبحيرة .

الممثلون من الفلاحين والأطفال فى القرية يحفظون عن ظهر قلب حوار توفيق الحكيم السلس الجميل - ويؤدونه مع ذويهم أثناء التدريب . كانت ليلة مجيدة ومحملة بالوعد .

تعطل الميكروفون المعلق على شجرة فى الجرن - ولأن الممثلين من الفلاحين كانت الشحنة لديهم أقوى من أن يمكنهم التوقف أو الانتظار .

انطلقوا فى ارتجال مؤثر مسترسل أضفى الكثير من العمق والقوة فى بناء المسرحية .

ثم موقفهم من النهاية ورفضهم النهاية التى وضعها توفيق الحكيم – وهذا الحل القدرى الذى يقع فجأة فيحافظ على فتاة القرية .

وثورتهم لكرامتهم فى أنهم يجب أن يعرفوا كيف يحافظون على ابنتهم وهى خطيبة المجند الذى يحارب من أجلهم . لايعرفون كيف ولكن لابد أن يفكروا ويجدوا طريقة (لقد أخبرنى نجيب محفوظ بمدى تأثر توفيق الحكيم بهذه التجربة عندما كتبت عنها فى حينها . مدى شروده وتفكيره الى درجة تصاعد الدموع الى عينيه) .

كلها ومضات وتجارب ومؤشرات لمستقبل حركة المسرح فى بلادنا فى القرن الجديد .

وأملنا فى الشباب وخصوصا تلك التجربة الهائلة التى أقدم عليها د. حسين عبد القادر وإشرافه على مسرح الغد وفرقه الشابة والورشة الفنية التى تدربوا فيها ثم انطلاقهم فى حركة قوية .. ستأتى ثمارها فى المستقبل .

وهم هناك فى كل مكان – يستعدون ويجربون .. ويدرسون يبحثون عن بريسكا لدى توفيق الحكيم .. وعن معجزة أهل الكهف فى الأشعار .. هل هى شهيدة .. قديسة .. أم مجرد إمرأة أحبت . يبحثون عن «شرف العائلة» .

وداخل العنبر وعن إيزيس وأوزوريس والحكايات الشعبية ويسبحون فى الواقع والأحلام والتاريخ إذ لايمكن العيش بدون مسرح .

أداة تحرر ومعرفة .. وتجربة تصوغ الإنسان من جديد . مازال الهدف لديهم (أنه يجب العمل دائما من أجل ترقية وجدان الناس وإثراء روحهم وتجربتهم .. ودعوتهم للتفكير .. للعمل .. للمشاركة وحسن الأداء والعمل) .

مفتاح المسرح لم يفقد بعد .. يجده كل من يحب ذلك العالم المليء بالبهجة والمعاناة ، كل من يريد النفاذ الي جوهر الإنسانية والرغبة في العيش النبيل وتبادل الخبرة والمعرفة مع الآخرين .. والعمل علي توحد الثقافات وإقامة العدل والسلام للجميع .

وهو مفتاح العالم الجديد .

مصر والعالم فى القرن

٢١

آخر الاكتشافات

فى نهاية القرن العشرين

عقل عاطفى .. فى المخ

بقلم : ليلى الجبالى

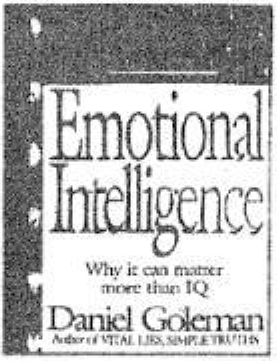
☐ مَنْ لى بانسانٍ ليْسَ عبداً لعاطفته فى مُهجة قلبى وعينى سأحفظهُ وفى أعمق أعماقى .. مثلك أنت !

« هاملت لصديقه هوراتيو »

لا جدال أن القرن العشرين الذى أشرف على نهايته، وكأنه فى سباق « ماراثون العلم » ، ليسلم شعلته النارية إلى القرن الحادى والعشرين .. هو قرن احتشد منذ بدايته بثورات علمية بدأت بثورة الفيزياء، وصولا الى ثورة الكومبيوتر. ثم ثورة البيولوجيا الجزيئية بشقيها الوراثى والعصبى، ثم بدأت ثورة جديدة أخيرة، هى ثورة « المعلومات » التى سوف تستمر لتصبح فى القرن القادم شريان الحياة فى كل مجال .. وبالعلم استطاع الانسان أن يقفز من قرن إلى قرن قفزة هائلة فى حياته العقلية، وبفضل « المخ » نراه يخطو خطوة خطيرة فى استكشاف المجهول فى دهاليز وأسرار هذا « المخ » ذاته، المعجزة الآلهية التى تدير مملكة الانسان الذهنية والعاطفية .

● العـــواطف تلعب دورا مهمــــا فى شـــفاء المرضى ..

● هــــذا القرن .. قرن القلق وعصــــر مرضى الاكتئاب ..



غلاف الكتاب



دانيال جولمان

وقبل أن ندخل فى موضوع آخـــر الاكتشافات العلمية فى « المخ »، اليكم هذه القصة : « حكت لى صديقة قصة انفصالها عن زوجها، وكيف وقع فى حب امرأة أخرى تصغرها فى السن، وفجأة أعلن أنه سيغادر المنزل ويذهب ليعيش مع المرأة الأخرى، وبعد هذا الانفصـال، عاشت صديقتى عدة شهور من المشاحنات مع زوجها حول الشقة، والأموال، ورعاية الأولاد . لكنها - على حد قولها - بدأت تشعر بالاستقلال مع مرور الوقت، وتتمتع بالسعادة لأنها باتت تملك قرارها بيدها، وحين قالت : « وأنا حاليـــا لم أعد أفكر فيه على الإطـــلاق، إغرورقت عيناها بالدموع » .

يقول « دانيال جولمان » مؤلف كتاب « الذكاء العاطفى » بعد روايته هذه القصة : « كان من السهل أن تمر هذه اللحظة دون ملاحظة، لكنها تدل بمفهوم علماء «المخ والأعصاب» على أن هذه السيدة تشعر بالحزن، رغم ما تحمله كلماتها من مضمون عكسى، فالمعانى التى عبرت عنها تتقطر من كلمات مطبوعة على صفحة فى « الدماغ »، بعضها جاء من فعل (العقل العاطفى)، وبعضها من (العقل المنطقى) ويمعنى واقعى جدا، أن لكل إنسان عقلين، (عقل يفكر) و (عقل يشعر)، ولكل من العقلين سُبل مختلفة اختلافا أساسيا المعرفة المتداخلة التى تبنى حياتنا الذهنية، فالعقل المنطقى هو طريق الفهم

والإدراك .. وهو الأكثر أهمية فى تفكير الإنسان وقدرته على التدبّر والفعل. وإلى جانب هذا العقل هناك نظام آخر « للمُخ »، لمعرفة الدوافع التى غالبا ما تكون دوافع غير منطقية. هذا النظام يسميه علماء المخ والجهاز العصبى (العقل العاطفى)، وقد أثبتت آخر الأبحاث العلمية أن هذا (العقل العاطفى)، يسيطر على سلوكنا بقدر كثافة مشاعرنا

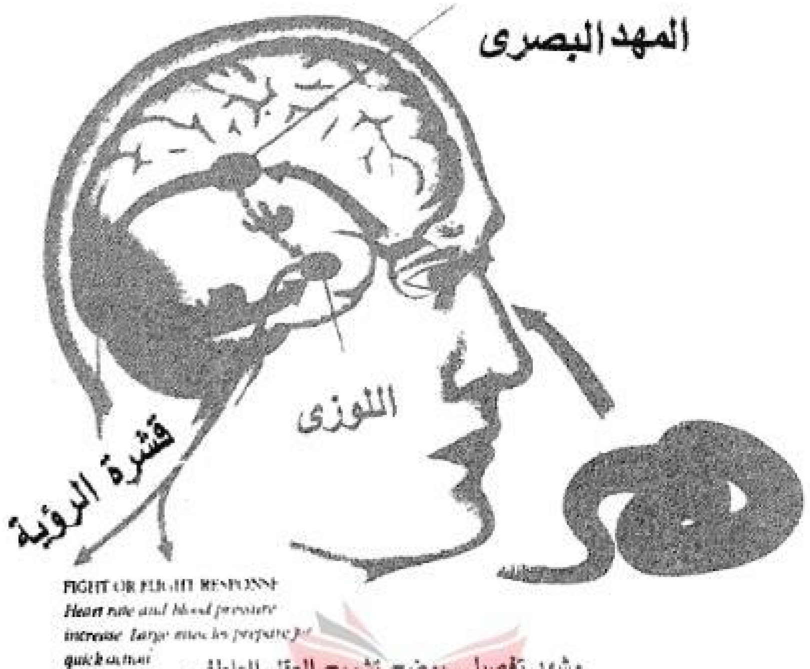
هذان العقلان (العاطفى والمنطقى) يعملان معا فى هارمونية وثيقة تتداخل معرفتهما، ليقودا حياتنا فى توازن معقول، فالعاطفة تغذى عمليات (العقل المنطقى) وتمده بالمعلومات، ويقوم (العقل المنطقى) بتنقية مُدخلات العواطف، وقد يعترض عليها أحيانا، والعقلان (المنطقى والعاطفى) كيانان شبه مستقلين، يعكس كل منهما عملية متميزة لكنها متداخلة فى دورة من دورات المُخ الكهربية، فالمشاعر ضرورية للفكر، والفكر ضرورى للشعور، ولكن .. اذا تكثفت العواطف وتخطت قمة التوازن بينها وبين العقل المنطقى، عندئذ يتحكم (العقل العاطفى)، وتصبح له الهيمنة الكاملة واليد العليا مكتسحا (العقل المنطقى) ومنتصرا عليه .

فما معنى هذا ..؟ وما الذى يحدث فى « المخ » ..؟ وما هى آخر الاكتشافات العلمية الجديدة فى هذا المجال ..؟

يقدم لنا « دانيال جولمان » الحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد فى مجال سلوكيات « المخ » الإجابات على هذه الأسئلة فى كتابه المهم « الذكاء العاطفى The Emotional Intelli- gence » ، الذى صدر فى الولايات المتحدة فى أكتوبر عام ١٩٩٥، وكان من أهم عشرة كتب صدرت فى أمريكا، ناقش «جولمان» فيه قضية علمية جديدة تماما تطرح موضوعات مختلفة من بينها : دور العاطفة فى حياة الإنسان، وتشريح التحول العاطفى، وطبيعة الذكاء العاطفى، وجذور الوجدان، وتغير الطبع بالتدريب العاطفى لأن الطبع ليس قدرا ثابتا، والأمية العاطفية والضريبة التى يدفعها الأمى عاطفيا، وغيرها من الموضوعات التى لم يسبق بحثها علميا وعلاقتها بوظائف خلايا « المخ » .

● عقلان .. لا عقل واحد

أحسب أن القارئ، سوف يندهش من هذه المعلومة التى تؤكدها الأبحاث العلمية الجديدة من أن لكل إنسان منا عقلين لا عقلا واحدا لكن حصيلة الحقائق العلمية المهمة التى توافرت لدى العلماء اليوم حول دنيا « المخ » العاطفية تؤكد ذلك، فقد أهملت الأبحاث العلمية على مدى سنين مجال العواطف، وتركتها أرضا مجهولة لم يكتشفها أحد بالعلم السيكولوجى، وها هو ذا العلم على مشارف القرن الحادى والعشرين يجيب أخيرا على تلك الأسئلة الملحة والمحيرة عن النفس الإنسانية، فيما يخص أكثر الجوانب غير المنطقية (بالمخ)،



مشهد تفصيلى يوضح تشريح العقل العاطفى

بعد أن رسم العلماء خريطة دقيقة لعواطف الإنسان، واستطاعت آخر الاكتشافات العلمية أن تجعل من هذه الخريطة تحديا للبيولوجيين الذين ظلوا مقتنعين برؤية ضيقة للذكاء، مرتكزة على مفهوم أن مُعامل الذكاء (I Q) هو من المعطيات الوراثية لا يمكن تغييره بالخبرة الحياتية .. وأن الملكات الفطرية التى يتمتع بها إنسانٌ ما هى إلا قَدَرٌ ثابت فى الحياة .

لكن « دانيال جولمان » ينفى هذا تماما، ويقدم بالدليل العلمي ما يثبت أن لكل إنسان عقلين (عقل يفكر) و (عقل يشعر) أو (عقل منطقى)، و (عقل عاطفى) .. وأن هناك ذكاء عاطفيا يبدأ منذ سنوات الطفولة الأولى، هو حجر الأساس الذى يشكل شخصية الإنسان طوال حياته، أما التكنولوجيات بالغة التطور فقد ساعدت بدورها على تصوير المخ، ومن ثم استطاع العلماء تفسير الكيفية التى تعمل بها خلايا المخ المعقدة عندما نفكر، وعندما نشعر، وعندما نتخيل أو نحلم، هذا الوضوح غير المسبوق حول الدور الحاكم (للعقل العاطفى) فى سلوكيات الإنسان أصبح اليوم فى بؤرة الدراسة.

● اكتشاف هزّ الدوائر العلمية

وكبداية نمسك بطرف الخيط، فنرجع

إلى أول اكتشاف علمى اقتحم أبواب عواطفنا المغلقة داخل « المخ » ، ليفتح الطريق أمام علماء المخ والجهاز العصبى لاكتشاف ذلك المجهول الذى أصبح معروفا اليوم علميا (بالعقل العاطفى)، كان ذلك عندما وقع فى يد (د. روبرت أدار – Robert Adar) فى عام ١٩٧٤، خريطة بيولوجية منقحة للجسم فى معمل بكلية طب جامعة روتشستر، اكتشف فيها أن جهاز المناعة يمكن أن يتعلم بالخبرة الحياتية مثل « المخ » . أحدث هذا الاكتشاف هزة علمية هائلة فى الأوساط العلمية، ذلك لأن الحقيقة التى كانت مستقرة قبل هذا الاكتشاف هى، أن المخ والجهاز العصبى المركزى هما فقط اللذان يمكن أن يستجيبا للخبرة الحياتية بتغير سلوكهما، لكن اكتشاف « روبرت أدار » أكد علميا أن هناك عددا من المسارات لا حصر لها، يتصل الجهاز العصبى المركزى من خلالها بجهاز المناعة فى ممرات بيولوجية تربط كلا من (العقل والعواطف والجسد) ثلاثتها معا برباط لا ينفصل .

تُرى ! هل يعرف الكثيرون منا أن جهاز المناعة فى أجسامنا هو عقل الجسد؟ ثمة حقيقة علمية يؤكدها عالم الجهاز العصبى « فرانسيسكو ڤاليرا » الأستاذ بمعهد البوليتكنيك بباريس، تقول، أن الجسد يشعر بما ينتمى إليه وما لا ينتمى، ذلك لأن خلايا المناعة تجرى مع الدورة الدموية عبر الجسم كله، وخلال رحلتها هذه تتصل بخلايا الجسم الأخرى، فالخلايا التى تتعرف عليها تتركها وتمضى فى مسيرتها، أما اذا لم تتعرف عليها هاجمتها بما يترتب عليه إما حمايتنا من الڤيروسات والبكتريا والسرطان، أو اذا أخطأت فى التعرف على بعض خلايا الجسم، أصابتنا بعض الأمراض مثل أمراض الحساسية وغيرها من الأمراض.

وكان الأطباء البشريون، واخصائيو التشريح، والبيولوچيون، يعتقدون من قبل أن (المخ والجهاز المناعى) كيانان منفصلان لا يستطيع كل منهما التأثير فى عمليات الكيان الآخر، غير أن اكتشاف «روبرت أدار» أجبرهم جميعا على تغيير نظرتهم العلمية، والنظر من جديد إلى تلك الروابط بين الجهاز العصبى المركزى، وجهاز المناعة. وليس أدل على الاعتراف بتلك الروابط، ذلك العلم الجديد المعترف به اليوم فى الأوساط الطبية واسمه علم (السيكوعصبى المناعى) (Psychoneuroimmunology) أو (P N I)، وهو أخطر ما توصل إليه العلم فى بحوث « المخ » التى تجرى فى الفترة الأخيرة، وكما نرى من اسمه، كيف يعترف الطب اليوم بهذه الروابط بين (النفس، وجهاز الغدد الصماء العصبى، وجهاز المناعة).

ومن أهم الأبحاث الجديدة أيضا ما قامت به مجموعة كبيرة من الباحثين اكتشفت من خلالها أن الناقلات الكيماوية فى كل من (المخ) و (الجهاز المناعى) هى أكثر الناقلات كثافة فى المناطق العصبية التى تقوم بتنظيم العواطف، وكان أقوى دليل على وجود مسار طبيعى مباشر يسمح للعواطف بالتأثير على الجهاز

المناعي ، النتيجة التي توصل إليها « ديفيد فلتون David Felton » - أحد زملاء « روبرت آدار »، بعد أن لاحظ تأثير الانفعالات القوى على الجهاز العصبي اللاإرادي الذي ينظم كل العمليات الحيوية، من كمية الأنسولين التي تُفرز لحفظ مستويات ضغط الدم، إلى نقاط الالتقاء التي يتخاطب فيها الجهاز العصبي اللاارادي مباشرة مع الغدد الليمفاوية، والفاجات، وخلايا جهاز المناعة .. أي .. اكتشاف الاتصال المؤكد بين الأعصاب وخلايا المناعة .

● سيد المخ الحاكم ..!

ومن خلال دراسات الميكروسكوب الإلكتروني، اكتشف العلماء، تشابكا عصبيا بين نهايات أعصاب الجهاز اللاارادي (الذاتي)، وخلايا جهاز المناعة، تعمل كنقاط اتصال طبيعية تسمح لخلايا الجهاز العصبي بإرسال ناقلات الأعصاب Neuro Transmitters ، لتنظيم الخلايا المناعية، وقد اعتبر هذا الاكتشاف إكتشافا ثوريا ، بحق إذ لم يعد هناك أي مجال للشك من أن خلايا المناعة في جسم الإنسان، ما هي إلا أهداف للرسائل القادمة من الأعصاب، ولكي يثبت - ديفيد فلتون - مدى أهمية نهايات الأعصاب في أداء جهاز المناعة، قام بخطوة متقدمة أخرى، أجرى تجارب على الحيوانات أزال فيها بعض الأعصاب والعقد الليمفاوية والطحال حيث يتم تخزين وصنع الخلايا، ثم أحضر فيروسات استخدمها في اختبار كفاءة جهاز المناعة، فإذا به يكتشف نقصا هائلا في الاستجابة المناعية للفيروس فيما أثبت أن جهاز المناعة بدون نهايات الأعصاب Neuro Endings لا يستجيب كما ينبغي لتحدي الفيروس أو البكتريا المهاجمة، أي أن الجهاز العصبي لا يتصل فقط بجهاز المناعة في الجسم، بل هو ضروري وأساسي لكي يقوم هذا الجهاز المناعي بأدائه السليم، وأثبتت الأبحاث أيضا أن هناك طريقا رئيسيا يربط العواطف بجهاز المناعة عبر تأثير الهرمونات التي تُفرز عندما يتعرض الإنسان للضغط العصبي وهي هرمونات (الأدرينالين والكورتيزول والبرولاكتين، والأنورفين، والمورفينات الجسمية Natural Opiates Beta ، والإنكافالين)، ولأن العلاقات بين العواطف الإنسانية وجهاز المناعة في الجسم علاقات مركبة، فقد تبين أن إفراز هذه الهرمونات داخل الجسم يؤدي إلى كبح وظائف خلايا المناعة فتضعف مقاومتنا للأمراض، واكتشف العلماء أيضا الكيفية التي يرتبط بها (المخ وجهاز القلب الوعائي Cardo Vascular) بجهاز المناعة بما لا يدع مجالا للشك في وجود هذه الروابط كحقيقة علمية مؤكدة .

هكذا نرى أن انفعالاتها هي السيد الحاكم في حياتنا وقد نضرب مثلا بانفعال الخوف في حالة إصابتنا بمرض ما . فعندما تكون مرضى يحتل الخوف تفكيرنا وتتحول - كما يبين دانيال جولمان - من القوة إلى الضعف عاطفيا، لأن صحتنا الذهنية كانت ترتكز على وهم أنها

دائما صحة ذهنية منيعة . لكن المرض وخاصة الخطير منه ينسف هذا الوهم، وفجأة نشعر بضعفنا، وأننا بلا حول ولاقوة . والواقع أن الأطباء - للأسف - يتجاهلون تأثير العواطف على المريض، ولايدركون أن عدم الاهتمام بكل الدلائل التى تؤكد أن حالة الانسان العاطفية تلعب فى معظم الأحيان دورا مهما فى مسيرة شفائه .

والحديث عن العقل العاطفى فى المخ، يشير الينا للوقوف عند تعريف «جولمان» له : إنه . «الشعور .. وما لهذا الشعور من تفكير متميز، وأنه الحالات السيكولوچية والبيولوچية، وهو مجموعة النزعات الانسانية الفاعلة، فضلا عن مئات الانفعالات الأخرى التى لها امتزاجاتها، واختلافاتها، وكمونها .. بالاضافة إلى كثير من المشاعر الرقيقة التى لانجد لوصفها أى كلمات .» . والعواطف هى التى تقود أفعال البشر وسلوكياتهم .

فاذا تأملنا انفعال الغضب مثلا نجد أن الدم يندفع إلى الأيدى مما يسهل لها القبض - مثلا - على سلاح وارتكاب جريمة قتل، أو الاعتداء بالضرب على خصم . ومع انفعال الغضب تزداد ضربات القلب وتتولد دفقة من الهرمونات مثل الأدرينالين تؤدى إلى انبعاث طاقة قوية تساعد على القيام بأفعال عنيفة . فاذا انتقلنا إلى انفعال الخوف، نجد أن الدم يندفع إلى عضلات التركيب العظمى مثل الساقين ليسهل لهما الهروب . وينسحب الدم من الوجه فيصبح لونه أبيض شاحباً، وتقوم دوائر المخ الكهربية فى مراكز المخ العاطفية بإثارة فيض هائل من الهرمونات تجعل الجسم فى حالة استنفار عام .

(أهـــو الحب .. ؟
أم تمرير الچينات ؟!)

سوف نتأمل معا بعض القصص ومغزاها بصيغة «العقل العاطفى» فهذه مثلا قصة آخر اللحظات فى حياة «جارى ومارى چين» الزوجان اللذان كانا يكرسان حياتهما كاملة لابنتهما «أندريا» البالغة من العمر أحد عشر عاما . كانت الأسرة تستقل قطارا من مدينة بايو بولاية لويزيانا ومعهما «أندريا» المصابة «بالشلل الدماغى» تجلس على مقعدها المتحرك . وفجأة مر القطار على جسر متهاو، فانقلب فى النهر . كان أول مافعله الأبوان، بذل كل جهودهما وهما فى غمرة الكارثة، لانقاذ ابنتهما، بينما كانت مياه النهر تندفع داخل عربة القطار . وبشكل أو آخر استطاعا دفع أندريا من خلال نافذة ليتلقفها رجال الانقاذ .. بعدها غاصا الأبوان فى قاع النهر مع عربة القطار واختفيا إلى الأبد .. » .

هذه القصة ترمز لمعنى التضحية . فقد ضحيا جارى ومارى چين بحياتهما من أجل إنقاذ ابنتهما . ومثل هذه النماذج

من تضحيات الآباء – لاشك– قد تكررت بعدد لاحصر له في تاريخ الانسانية . وهنا نجد ثمة منظورين مختلفين لمثل هذه التضحيات. فمن منظور البيولوجيين التطوريين، هي دوافع عاطفية تخدم نجاح عملية التكاثر البشرى،وذلك من خلال تمرير چينات الفرد إلى الأجيال المتعاقبة، لكنها من منظور الوالدين اللذين اتخذا قرارا يائساً فى لحظة أزمة، ليست سوى تضحية لامعنى لها سوى «الحب» .

فقد اكدت الأبحاث العلمية الأخيرة أن العواطف بكل ما تندرج تحتها من فئات أساسية وهى : (الغضب، والحزن، والخوف، والمتعة، والحب، والدهشة، والاشمئزاز، والخجل)، هى التى تحرك قدراتنا الذهنية الخامدة، ومن ثم تحدد أفعالنا فى الحياة . وبهذا المعنى يكون «الذكاء العاطفى» هو الذكاء الحاكم، أى القدرة التى تؤثر تأثيرا عميقا على إمكانياتنا إيجاباً وسلباً وهذه الكفاءة العاطفية تبدأ منذ «المهد» كما انتهى إلى ذلك (د . بيرى برازلتون Berry Prazil-ton) أستاذ طب الأطفال فى جامعة هارفارد، بعد إجراء اختبارات على عدد كبير من الأطفال، أثبت فيها أن ماهية نظرة الطفل الأولى للحياة تتكون فى «المخ» من عناصر الذكاء العاطفى التى تشكل كيانه الانسانى نفسيا وسلوكيا مدى الحياة . ويؤكد «برازلتون» أن نجاح الأسرة أو المدرسة فى تنشئة أطفال يشبون أشخاصا ناجحين فى الحياة، لايتوقف على حصيلة ما يتلقونه من معلومات أو بقدرتهم الفائقة على القراءة والاطلاع . إنما يتوقف على المعايير العاطفية والاجتماعية التى تترسخ فى المخ منذ المهد ، أما الأطفال الذين يفتقرون الى الذكاء العاطفى لأنهم لم يتدربوا عليه منذ طفولتهم هم أولئك الفاشلون فى دراستهم، الذين ينتقلون من مرحلة عمرية إلى أخرى وفى صحبتهم الفشل والعقد النفسية – ذلك لأن كل ما كان يحدث بين آبائهم من تغيرات سلبية فى سلوكهما معا ومع أطفالهم يغرس فى «المخ» محتوى عاطفى يتحول مع التراكم إلى تكوين وقدرات ورؤية للحياة تستمر معهم طوال العمر .

ولأن المخ فى الدماغ ينمو فى السنوات الثلاث أو الاربع الاولى من حياة الطفل فيصل حجمه الى ثلثى حجمه الكامل فى تلك الفترة .. لذا تصبح المفاتيح العاطفية الاساسية لتدريب المخ فى هذه الفترة من العمر مهمة للغاية.

ولنضرب مثلا بقصة أخرى يحكيها : دانيال جولمان ...

... مارتن طفل فى الثانية من عمره .. تتركه امه فى دار الحضانة نهارا اثناء عملها مع غيره من الاطفال فى مثل سنه. أراد مارتن ان يلعب مع طفلة صغيرة زميلته فى الحضانة كانت تجلس بالقرب

منه . اخذ يداعبها برفق، لكن الطفلة بدأت تبكي. اقترب مارتن منها اكثر محاولا تهدئتها فأمسك بيدها واخذ يطبطب عليها، لكنها استمرت تصرخ وتبتعد عنه. وفجأة اخذ مارتن يضربها على يدها، وكلما زاد بكاؤها، تحول الطفل الصغير الى وحش، فظل يضربها بقسوة ضربا متصلا وهو يصرخ (إخرسى .. إخرسى)

إن تحليل علماء المخ والجهاز العصبى لهذا السلوك القاسى من الطفل الصغير جدا «مارتن» قد حدث لانه لم يتدرب على الذكاء العاطفى فى اسرته، بل ما فعله مع الطفلة المسكينة، هو نفس ما يلقاه من والديه من سوء المعاملة والعقاب الجسمانى هذا السلوك منذ الطفولة الاولى مرآة لما تدرب عليه «مارتن» فى اسرته .. فهو لم يتعلم الدوافع الاخلاقية التى تمحو الانفعال المتسم بالقسوة المفرطة.

ثمن الحياة العصرية

أليس هذا القرن العشرون الذى يشرف على غلق ابوابه على سنواته المائة المنصرمة هو بحق قرن القلق ..؟!

ألم يحمل فى طيات سنواته مرضا اصبح وباء كاسحا فى جميع أنحاء العالم؟ هو مرض الاكتئاب ..؟ هذا المرض اللعين له علاقة وثيقة (بالعقل العاطفى). لقد انتشر الاكتئاب مع انتشار الوسائل العصرية .

عاشت أجيال هذا القرن جيلا بعد جيل مخاطر كثيرة ومعاناة، تزايدت مع التقدم العلمى والتكنولوجى وتزايد معها الشعور الكاسح باليأس وافتقاد الامل فى المستقبل. حروب مدمّرة هنا وهناك، وقيم انسانية تغرق فى بحور الدم، وذاتية المصالح تحتل مواقع المصلحة العامة والانتماء للانسانية والحب. وعلى الرغم من افتراض ارتفاع نسبة مرض الاكتئاب مع التقدم فى سنوات العمر، فإن الظاهرة المعاصرة هى انتشار مرض الاكتئاب بين صغار السن ، وفقا لأبحاث « د. ديفيد كوبفر David Copfer » استاذ السيكولوجى فى كلية طب جامعة بيتسبرج -Pittsburg - التى اثبتت ان الضغوط العاطفية فى السن المبكر يمكن ان تؤثر على نمو الجهاز العصبى الذى يؤدى الى الاكتئاب.

وتشير الاحصاءات العلمية الى ان نسبة مرض الاكتئاب كان (١٪) بين الامريكيين الذين ولدوا عام (١٩٠٥)، اما الذين ولدوا منذ عام ١٩٥٥، ارتفعت نسبة مرض الاكتئاب بينهم الى (٦٪) عندما بلغوا سن الرابعة والعشرين. والذين ولدوا فى الفترة ما بين عام ١٩٤٥ و ١٩٥٤، كان احتمال تعرضهم لحالات الاكتئاب قبل بلوغهم سن الرابعة والثلاثين تزيد (عشر مرات) عن اولئك الذين ولدوا بين عام ١٩٠٥ و ١٩١٤ .. وثبت ان بداية الاحداث التى تؤدى الى الاكتئاب فى كل جيل من هذه الاجيال قد حدثت فى سن مبكرة

جدا. وفي دراسة شاملة على اكثر من (٣٩,٠٠٠ شخص)، ظهر نفس الاستعداد في بورتريكو وكندا، وايطاليا، والمانيا، وفرنسا، وتايوان، ولبنان، ونيوزيلاند.

وتقول هذه الدراسة ان نسبة مرض الاكتئاب في بيروت ارتفعت ارتفاعا هائلا مع الاحداث السياسية، حيث وصلت الذروة خلال الحرب الأهلية اللبنانية .

ماذا ..؟ مع الوداع ... !

هكذا نرى كيف تغيرت النظرة الى الطبيعة الانسانية بفضل العلم وقدرات المخ المذهلة على اكتشاف اسراره ذاته بمخ العلماء . تغيرت النظرة من تجاهل قوة العواطف في تحديد مسار حياتنا والتركيز فقط طوال السنوات الممتدة على العقل وحده . لكن العلم يثبت اليوم من خلال ابحاثه حقيقة ومركز واهمية العواطف الانسانية، ليصل الى جذور الوجدان، واسباب الاختلافات السيكولوجية بين البشر فالى جانب علم الوراثة الحديث الذي يشكل ثورة علمية خطيرة كشفت عن العوامل الوراثية لكثير من الأمراض الوراثية التي تمتد جذورها الى مئات الاسلاف.. يبرز اليوم على ساحة التقدم العلمي المذهل المتجه نحو ابواب القرن الحادي والعشرين، اكبر مشروع علمي في تاريخ البشر، وهو مشروع الطاقم الوراثي البشري المعروف باسم الجينوم البشري – genome – (تشترك فيه كل من امريكا، وانجلترا، والمانيا، وفرنسا، وايطاليا، وروسيا، والدانمرك، واليابان.) هذا المشروع سوف يمكن الانسان من فك شفرة اسرار وجوده، ويحدد امكانياتنا كأفراد من النوع البشري – Homo Sapiens – مختلفين عن غيرنا من الكائنات الحية الاخرى. كما سيلعب اخطر دور في تشخيص امراض الانسان والسيطرة عليها . ومن خلاله سوف يصل الطب الى مرض الهوس الاكتئابي وغيره من الامراض الوراثية الخطيرة كلما عثر العلماء في هذا (الطاقم الوراثي) على الجين الخاص به . كما سيؤثر ايضا على معظم علوم البيولوجيا في القرن القادم، ويكثف تحليل القضايا الاجتماعية والاخلاقية لعلم وراثة الانسان.

والي جانب هذا التقدم المذهل في الاكتشافات العلمية الحديثة التي سوف يتسلمها القرن الحادي والعشرون، هذه النظرة الجديدة الى قدرات مخ الانسان –المعجزة الالهية– الذي يحتوي عقلا عاطفيا يؤكد أن مشاعرنا تشكل كل صغيرة وكبيرة في رسم واتخاذ قراراتنا بصورة اكبر بكثير مما يتخذه عقلنا وحده. من هنا ندرك كيف ذهب العلماء بعيدا عن الحقيقة قبل هذه الاكتشافات العلمية الأخيرة ، حين أكدوا فقط على قيمة وأهمية العقل المجرد بمقياس معامل الذكاء (IQ) في حياة الانسان وكأنه قدر ثابت لا يتغير، في حين ان الثابت الوحيد في هذه الحياة هو التغير. وها هو ذا العلم يثبت اخيرا ان الذكاء العقلي وحده لا يعني شيئا اذا غاب الذكاء العاطفي او إن شئنا الدقة نقول «العقل العاطفي» ..

كتاب الجيب الكومبيوتر

القراءة .. والليزر

بقلم : محمود قاسم

نحن نعيش فى عصر الترانزستور .

ويعنى هذا أن الناس صارت تميل إلى استخدام الصور المصغرة من الآليات ، والمخترعات الحديثة ، فلا شك إن استخدامها أسهل وأسرع ، وأكثر راحة .

وما ينطبق على شكل الكتاب فى التاريخ البشرى ، ينطبق أيضا على اختراع ضخم مثل الراديو أو التليفزيون ، ففيما قبل كانت أجهزة المذياع بالغة الضخامة ، تشغل حيزا أشبه بالدولاب فى البيوت ، والآن فان مسجلا صغيرا يعمل بوحدات الترانزستور يمكن ان يقوم بوظائف هذا المذياع الدولاب ، وبشكل اكثر كفاءة ، فهو يمكن أن ينام فى احضانك ، ويسامرك طيلة الليل ، يغنى لك ويحاورك ويسمعك أخبار السياسة والعلم والزعماء دون أن يصيبه الملل .

وفيما قبل كان الكتاب معقد الشكل ، مكتوبا فوق ورق متناثر ، وبقايا كائنات بشرية . ثم جاءت الطباعة لتقدم الكتاب، في صورته الحديثة وجاء القرن العشرون ليكون أهم سماته هو كتاب الجيب الذي يمكن للمرء قراءته فى أى مكان يريد، بالاضافة إلى سهولة حمله، والتعامل معه، مما وسع من دائرة علاقة الناس بالقراءة.

وفى السنوات الاخيرة ، ومع التطور التقنى الحاد فى كل انحاء العالم ، حاول التقنيون ادخال اشكال جديدة على الكتاب، وفى النصف الأول من الثمانينات ظهر ما يسمى «بالكتاب الكاسيت» . ووضع الناشرون أيديهم على قلوبهم . فكل ما اتسم به هذا النوع الجديد من الكتب

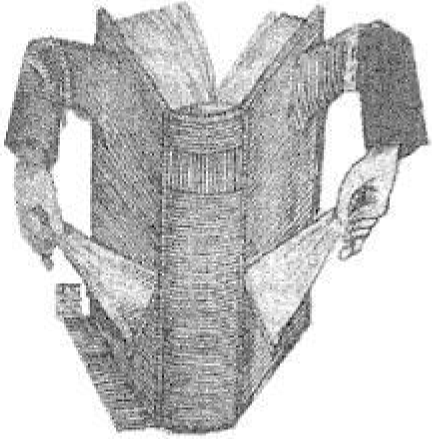
يهدد صناعة الكتاب ، فمن قبل كان يمكن للقارىء أن يطالع ما يكتبه المؤلف من كلمات مسطورة فوق صفحات الكتاب ، أما الكاسيت فهو يمكنه أن ينقل هذه الكلمات المسطورة إلى مسموعة وبصوت الكاتب نفسه . وفى الكثير من الاحيان يمكن أن يكون بصوت ممثلة سينمائية ذات صوت جذاب من طراز كاترين دينيف ، وممثل متميز الصوت مثل الان ديلون

وقد فتحت «الهلال» هذا الملف في عدد مارس ١٩٨٤ بمناسبة قيام بعض شركات الكاسيت الفرنسية بطباعة عدد كبير من الكتب الكاسيت، من تأليف الروائية مرجريت دوراس ، بعضها بصوتها، والبعض الآخر بصوت كاترين دينيف وصوفيا لورين ويبدو أن التجربة قد لاقت نجاحا مؤقتا ، تصور الكثيرون على أثره إنها سوف تعيش طويلا ، فتكررت على أيدى أدباء مشهورين مثل سيمون دو بوفوار قبل وفاتها ، وفرانسواز ساجان ، ولوسيان بودار ، وآخرين .

غلبت سلفستر ستالوني

بل إن نجاح هذه التجربة قد ولّد ظاهرة جديدة بالغة الغرابة ، فقد اكتشفت ممثلات السينما أن التأليف عملية سهلة للغاية ، فكتبن روايات سجلتها على شرائط كاسيت ، ثم في كتب ، وانتقلت هذه الظاهرة إلى مصر فقدمت بعض المؤسسات تجارب عابرة لأدباء كبار ، وكان توفيق الحكيم من أشد المتحمسين لها . وقرأ بصوته بعض أعماله الشهيرة.

ولكن ، ما لبثت التجربة أن تعثرت ، وبدت أشبه بكل تقليعة تظهر فجأة ، ثم



تختفى مثلما ظهرت، وفى زمن ازدهار الفيديو ، حاولت مؤسسات أخرى الاستفادة من هذا النجاح ، فظهر «الكتاب الفيديو كاسيت» ، وقيل أن الناس تعشق الصورة ويمكنها أن ترى مؤلفها وهو يروى لها وقائع رواية بنفسه، ولكن عمر هذه التجربة كان أقصر مما يتصور ، بل من الكتاب الكاسيت .

وادرك المهتمون ان عملية القراءة الطبيعية العادية أمر بالغ التعقيد ، وانها ذات خصوصية معينة، لايمكن تطويرها بواسطة التقنيات ، وليس لها بديل أيا كانت جانبية هذا البديل . ولنعطى لذلك مثالا قريبا ، فمنذ شهرين نشرت روايات الهلال رواية بوليسية تحت عنوان «قنبلة فى نيويورك» لمارى هيجنز كلارك وهى عمل تقليدى للغاية قياسا إلى كمية الاثارة الذى يتمتع به أى فيلم من أفلام الحركة المعروفة الان فى أسواق السينما والفيديو ومع هذا فان كمية مبيعات هذه الرواية فى

طبعتها الامريكية قد تجاوز العشرة ملايين. أي ما يعادل مشاهدي فيلم ضخم من أفلام سلفستر ستالوني، أو كيفن كوستنر. وقد اخترنا هذا المثال للاشارة كيف أن عملية القراءة بالغة التعقيد . ولم تجد من يفسر استمرارها في مجابهة كل وسائل المنافسة ، ورغم محاولات التقنيين لتطوير القراءة ، أو لتغييرها كسلوك والاستفادة من الجولات التي كسبتها الوسائل المنافسة .

ومن الواضح أن عملية القراءة بشكلها التقليدي جداً هي آخر ما وصل إليه الانسان في شكل العلاقة مع الكلمة الساحرة ، سواء كلمة إبداعية ، أو بحثية أو نقدية . وإن ما حدث فقط هو ظهور المنافسة من وسائل أخري . كأن تقول ان الانسان بشكله الحالي هو أفضل ما وصلت إليه نظريات النشوء والارتقاء لملايين السنين القادمة إلا إذا قام علماء الهندسة الوراثية بالاسراع بتوليد الانسان السوبر قبل الموعد المحدد له بوقت طويل .

وفي الأعوام الأخيرة ظهرت اسطوانات الليزر ، أو اسطوانات C.D.Rom الليزر التي أمكن للخبراء أن يجمعوا فيها عشرات الألوف من الصفحات، وعدد كبير من الكتب والمراجع. وظهر أمل جديد لدى التقنيين أن يصنعوا البديل المؤكد للكتاب المقروء . فعن طريق الكومبيوتر يمكنك أن تحتفظ بمكتبة ضخمة من الكلمات والصور ، يمكن الرجوع إليها بأسهل طريقة ممكنة، وكل ما على الباحث عن كتاب، أو حتى سطر ، أو كلمة بعينها في أحد الكتب ، أن يدوس على زر ما ، وبواسطة برمجته ، يظهر ما يوده على الشاشة

● ميلاد غريزة الكومبيوتر

وسرعان ما هلل المناصرون للرأي القائل بأن هذه الاسطوانات، وشاشات الكومبيوتر سوف تغير شكل المستقبل إن لم يكن ذلك قد حدث فعلا، وأن الصورة التقليدية المعروفة الآن للكتب والمكتبات سوف تذهب بدون رجعة ، وقد فتحت الهلال هذا الموضوع في عدد سبتمبر ١٩٩٥ من خلال رؤية جان فافيه الرئيس الحالي للمكتبة الوطنية بباريس . ولاشك أن هناك تجارة رابحة الآن في صناعة هذه الاسطوانات ، وجدت طريقها إلى المؤسسات المعلوماتية العربية ، فراحت تتنافس في حفظ كل المعلومات وتسويقها على المستوى الشعبي ، واعتبار أن المستقبل سيكون إلى جانب هذه الاسطوانات، وما ستشهده من تطور في السنوات القادمة القريبة أو البعيدة، باعتبار أن الكومبيوتر سيدخل البيوت كلها أسوة بأجهزة التليفزيون ، فقبل ربع قرن فقط ، لم تكن كل البيوت المصرية تعرف التليفزيون ، والآن ينتشر في أكثر الغرف ، وفي اماكن لم يكن أحد يتخيل أن يدخل اليها وبالصورة الملونة .

إذن ، فسوف تضير اسطوانات C.D سلعة شعبية في أقرب وقت ممكن ، بل وستصير بالغة البدائية قياسا إلى التطور المذهل الذي يحدث يوميا في أنواع الاجهزة وكفاءتها ، ثم في أساليب حفظ المعلومات وطرائق تسويقها ، والرجوع إليها. وقد شهدت شبكة الانترنيت طفرات

مجنونة فى نقل هذه التجمعات اللانهائية من المعارف للمشتركين فيها وأيضا لغير المشاركين

ولو تابعت الشغف المجنون لدى هواة الاتصال بالكومبيوتر ، وعدد الساعات التى يمكن أن يجلسها محترف أو هاو أمام الجهاز ، ومدى الجاذبية التي يحدثها هذا الجهاز فى الانسان الذى يتعامل معها لاستطعت أن تتعرف على غريزة جديدة تولدت لدى البشر موازية لغريزة القراءة ولتوهمت منذ اللحظة الأولى أنها أقوى فى سطوتها على صاحبها من القراءة على مدمن الكتب والاطلاع ففى مفرداتها أجواء إثارة ، ولغة الصورة والصوت وعالم التخيل .

لكن السؤال هو هل هذه الغريزة الجديدة ستؤثر على القراءة ؟

تكمن الاجابة من خلال تعبير الغريزة الموازية .. الذى ذكرناه أنفا فنحن لم نقل غريزة بديلة أى أن الجلوس أمام شاشة الكومبيوتر لساعات والتعامل مع البرامج والمعرفة أيا كان اسم هذه الظاهرة الجديدة التي لم نعرف أن أحدا قد قام بتسميتها . هذا الجلوس لن يلغى لدى الناس عملية القراءة التقليدية ، خاصة الابداعية منها سواء لنفس الشخص الذى عرف لذة التعامل مع معلومات الكومبيوتر، وشبكاته ، أو الذى لم يدخل بعد إلى هذا العالم .

فمثل هذا الكم اللا متناهى من المعلومات الموجود فى الاسطوانات ، وسهولة الحصول عليه ، أشياء لا تعنى أبداً أنه يمكن أن تحل مكان القراءة التقليدية فقراءة قصيدة أو الاستمتاع بمفرداتها وأجوائها قد يكون له معنى مختلف ومجسد على الاسطوانة، ويمكن الاستفادة بكل التجارب السابقة أن تقوم ممثلة من طراز رغدة بقراءة قصيدة قصيرة قرضتها أو كتبها شاعر اخر. وقد يصاحب الإلقاء موسيقى ، وخلفية معينة من المشاهد لكن كل هذا لن يغنى عن القراءة العادية .. واليكم الاسباب :

● الكتاب الكومبيوتر

روعة الكلمة هنا أنها نسبية لكل أمرىء وتعكس قدرته الخاصة على تخيلها وهذا أمر قديم سبق نقاشه ، و الانسان يرفض دائما أن يجعل الآخرين يتخيلون الكلمة نيابة عنه . وهو بالغ الانانية فى هذا الشأن لذا فكما فشلت تجربة «الكتاب الكاسيت» ، و«الكتاب الفيديو كاسيت» فيما يتعلق بالابداع . فان الأمر مآله إلى اسطوانة C.D الكتاب الابداعى ، خاصة ما يتعلق بالرواية أو الشعر . باعتبار أن الكلمة المكتوبة هى أساس العمل ، وهى وحدة التخيل الأولى لدى الكاتب والقارىء معا

وأبسط دليل على هذا ما حدث منذ فترة قريبة فى عالم الموسيقى ، فقد تصور المهتمون بالموسيقى أن ظاهرة «الفيديو كليب» سوف تبقى طويلا فى عالم الغناء وهلل المتحمسون لها كثيراً وتكالبوا عليها وجذبت كبار مخرجي السينما ، خاصة في مصر، ثم سرعان ما بدأت تفقد رونقها المنتظر ويكفى ان تجلس أمام محطة موسيقية من المحطات الكثيرة فى القنوات الفضائية لتشاهد مجموعات

الاغاني التي تم تصويرها بهذه الطريقة ويعد خمس اغنيات فقط ، تحسس رأسك ، وحاول أن تقيس درجات التصدع والتقبل إذا كانت هناك اجهزة لرصد ذلك وسوف تكتشف أنك لن تستطيع أن تواصل السماع ، ولا الرؤية . وسرعان ما سوف توجه انظارك إلى محطة أخرى تبدو تقليدية فى شكل الأغنية المبثوثة ، حتى ولو كان ذلك من مطربين معاصرين ، مثل التون جون ، أو مايكل جاكسون وآخرين.

من المؤكد أن عمر هذه الاسطوانات سيكون طويلا أكثر مما ينبغى بالنسبة للكتب المعلوماتية والبحثية وسوف يستفيد البشر كثيرا منها وسيتم اختصار الازمنة القادمة ويكون ابن القرن الواحد والعشرين أسعد حظا منا جميعا فى هذا الشأن وستتعادل تجربته المعرفية عشرات الاضعاف مع قرينه من أبناء القرن العشرين لكن من المؤكد أن عمر هذه الاسطوانات فيما يتعلق بالكتب الابداعية سيكون بالغ القصر ، ربما أقصر مما نتصور ، صحيح انه قد يطول عن عمر الكتاب الكاسيت بواقع أن أجهزة الكومبيوتر تطور نفسها بسرعة مجنونة بينما الاجهزة الجديدة لن تتوافر بسهولة لدى كل الناس .

أمام هذا الأمر فان التقنيين لن يقفوا، بالتأكيد ، عاجزين واعتقد إنهم سيصنعون كتبا مختلفة فكما ظهر فى الفترة الأخيرة المترجم الفورى الذى يضم آلاف الكلمات ، بلغات عديدة ، هذا المترجم الذى يتطور بسرعة هائلة فسوف يظهر «الكومبيوتر الكتاب» أو فلنقل بتخيل وتعبير أصح «كتاب الجيب الكومبيوتر» وهو بكل بساطة أشبه بالمترجم الكومبيوتر الذى نعرفه الآن لكنه سيجمع شكل الكتاب، بمعنى أن المرء يمكنه فتحه إلى نصفين مثلما يفتح الكتاب . وعن طريق ازرار خاصة يمكنه قراءة الرواية أو ديوان الشعر . وسيكون شكل الكتاب هنا مناسب للابداع أكثر من الكتب المعلوماتية وسوف يكون بسيطا للغاية ، بلا موسيقى أو صور فى الخلفية شكل الصور المتعارف عليها إلى جوار القصائد أو فى بعض الروايات

وسوف يجمع هذا الكتاب بين كل الميزات العادية للقراءة الكلاسيكية ، وبين الكتاب فى شكله المتطور . وهذا النوع من المؤلفات لايمكن قراءته بواسطة استرجاع صفحة معينة ، ولكنه يقرأ بالتسلسل العادى ، وستكون هناك شبكة انترنيت متطورة ، تنقل للقارىء ، مباشرة أحدث الاصدارات فيقرؤها بلغاتها الأصلية ، وسرعان ما سيشهد ، هذا الشكل تطوراً مجنوناً ، حيث يمكن لأى قارىء فى العالم أن يقرأ اى رواية جديدة بمجرد صدورها من المطابع (سيتغير شكل المطابع بالتالى عن الصورة التي نعرفها حاليا) اى أن القارىء العربى يمكنه أن يقرأ الآن أحدث رواية صدرت فى هلسنكى أو طوكيو ، باعتبار أن هذا الكتاب الكومبيوتر يضم في داخله مترجما فوريا .

لن يظهر هذا النوع من الكتب المتطور جدا قبل خمسة عشر عاما وهو ليس من ضرب الخيال بل انه بعد عدد من السنوات إذا قام شخص ما بتصفح هذا العدد ، فسوف يتهم كاتبه بسقم الخيال ، باعتبار أن ما سيتحقق قد يفوق كل تخيل.



اسم الكتاب: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام
المؤلف: د. أحمد إسماعيل النعيمي
الناشر: سينا للنشر

إذا كان مارجليوث وطه حسين حاولا أن يدخلا هذا العالم الثرى من خلال اللغة والتاريخ والتشكيك فى بعض نماذج الشعر الجاهلى فإن د. أحمد إسماعيل النعيمى يؤسس من خلال كتابه القيم «الأسطورة فى الشعر العربى قبل الإسلام» لقراءة عبر الأسطورة والفكر والمعتقدات الدينية، والتى تركت أثراً كبيراً فيما بعد على الاسلام ذاته..

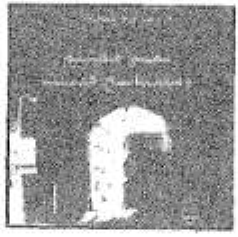
والأسطورة بوصفها انتاجاً للعقل الجمعى الانسانى، ورموزا احتفظت بها الذاكرة آلاف السنين، تمتلك الحضور الدائم وتمثل جانبا مهما من جوانبه النفسية والعاطفية، فمن خلالها تطور العقل البشرى فى اتجاه اكتشاف الظواهر الطبيعية وتحليل ماهيتها

وقد استعان النعيمى فى كتابه (الذى يقع فى ٣٦٨ صفحة من القطع المتوسط) بمنهج الدراسة التحليلية بغرض الكشف عن الصلة بين النتاج الشعرى والأمور الشعائرية والطقوس البدائية التى تشكل جوهر الأسطورة ولبها.

واعتمد أيضاً على مناهج أخرى مثل المنهج النفسى لبيان مدي تأثر هذا النوع من النتاج الفنى بنفسية (مبدعه) وما صلته بالجامعة المنتمى إليها، والمنهج التاريخى لتحديد الظاهرة المدروسة، وبيان مؤثرات هذا العصر، والمنهج الفنى الكفيل بتتبع القصيدة وقدرتها على النقل، واتجاهات قصصية لها أثر أيضا فى التغلغل وراء الصور الفنية لايجاد الربط بين الشكل والمحتوى الأسطورى.

كل هذه المناهج استند الباحث عليها للخروج بدراسته الموزعة على خمسة فصول رئيسية ومسبوقة بتمهيد ومودعة نتائجها فى خاتمة تلاها ثبت بالمصادر والمراجع المعتمدة.

مكتبة الهلال



اسم الكتاب : نفق معتم ومصابيح قليلة
المؤلف : فاروق عبدالقادر
الناشر : المركز المصرى العربى

«مــــــن أوراق التسعينات» هى الجملة التمهيدية التى وضعها الناقد الكبير قبل عنوان كتابه الجديد «نفق معتم ومصابيح قليلة» الذى يواصل من خلاله مشروعه النقدى بعد «أوراق الرماد والجمر» و«أوراق الرفض والقبول».

فى أوراق التسعينات يصحبنا الناقد فى رحلة طويلة شاقة يقف عند أهم ملامح الابداع المصرى والعربى، فيعرض ويناقش الأعمال الاخيرة لعبدالرحمن منيف ولطيفة الزيات وبهاء طاهر وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى وحيدر ويوسف الشارونى وفتحى غانم ومحمد شكرى وأمين معلوف ونبيل سليمان وسواهم من القصاصين والروائيين.

وفى المسرح يعرض ويناقش أعمالا لسعد الله ونوس والفريد فرج وسواهما.

ويحتفى فاروق عبدالقادر أيضا بالكُتّاب الجدد الذين يقدمون أعمالهم الأولى ، فيفرد لهما قسما خاصاً فى كتابه (الذى يقع فى ٥٢٨ صفحة من القطع المتوسط) كما يكتب فى وداع جمال حمدان ويحيى حقى وعبدالله غيث وجابرا إبراهيم جابرا .. ولاتقف نظرته عند المبدعين فقط بل تشمل النقاد أيضا فيناقش دراسات على الراعى وشكرى عياد ومحمود أمين العالم وجورج طرابيشى.، ويناقش أعمالا يراها مهمة ودالة على المشهد الثقافى العربى الراهن لأحمد بهاء الدين وطارق البشرى ومحمد عودة وعلاء الديب وخالد محيى الدين وانجى أفلاطون.

أما القسم الذى أسماه «مواجهات» فيضم أهم المعارك التى خاضها خلال تلك السنوات من عقد التسعينات الذى يراه - حقا - نفقا معتما ومصابيح قليلة.

أما السيرة الذاتية الثقافية التى قدم نفسه فيها وقدم الكتاب الجميل بها فهى عبارة عن منظومة صادقة تعبر عن وجه فاروق عبدالقادر المضىء.

مكتبة الهلال



اسم الكتاب : سجل الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين
المشرف: أ. د. محمد عبدالغنى سعودى
الناشر : المجلس الأعلى للثقافة

فى عام ١٩٧٦ أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمناسبة العيد المئوى (البلاتينى) للجمعية الجغرافية الطبعة الأولى من سجل الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين، ثم تولت لجنة الجغرافيا فى المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٨٤ اصدار الطبعة الثانية..

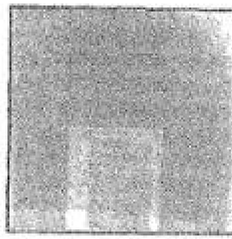
أما الطبعة الثالثة فقد صدرت عن لجنة الجغرافيا فى المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً.. لتصنيف الجديد والحديث من الانتاج العلمى للجغرافيين المصريين، وكانت الطبعة الأولى من هذا السجل قد حصرت ببليوجرافيا بالانتاج العلمى المنشور بالاضافة إلى الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراة حتى عام ١٩٧٤.

أما الثانية التى نشرت عام ١٩٨٤ فقد حوت عدداً يصل إلى ألف وخمسمائة وثمانية وثمانين عنوانا من الإنتاج العلمى للجغرافيين المصريين باللغات العربية والانجليزية والفرنسية وذلك بزيادة نحو ٤٦٪ عن الانتاج الذى سبق نشره.

وجاءت الطبعة الثالثة التى أعدها الأساتذة الدكاترة السعيد إبراهيم البدوى وفاروق عبدالجواد شويقة ومحمد محمد زهرة وأشرف عليها الاستاذ الدكتور محمد عبدالغنى سعودى لتشمل عدد ألفين وثمانين وأربعمائة من العناوين أى بزيادة قدرها ١٥٦٪ على الطبعة الثانية و٣٤٠٪ عن الطبعة الأولى.

وقد شملت الطبعة الجديدة عدة كشافات، وضعت فى نهاية السجل، كى يستعان بها فى سرعة الوصول إلى البطاقات الببليوجرافية فى أى مجال يراد الكشف عنه صدر الكتاب فى ٣٦٤ صفحة من القطع المتوسط .

مكتبة الهلال



المواعظ والاعتبار
فى ذكر الخطط والآثار
لتقى الدين المقريزى
حققه : د. أيمن فؤاد السيد
نشر : مؤسسة الفرقان
للتراث الإسلامى

صدور هذا الكتاب حدث ثقافى مهم ، فها هى ذى مسودة كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١م . بخط يده تطبع وترى النور ، وتخرج المخطوطة الى القراء المحفوظة فى مكتبة متحف طوب قابى سراى باسطنبول تحت رقم ١٤٧٢ .

ويقوم د. أيمن فؤاد السيد بتحقيقها ، وتنشرها مؤسسة هدفها نشر المخطوطات المهمة ، وتدفع الى القيم من التراث الى سياق حضارة اليوم الإنسانية الشاملة .

وهذا الكتاب واحد من أهم المصادر فى تاريخ مصر وجغرافيتها، ويقدم هذا النص فرصة تصويب أخطاء طبعة بولاق التى صدرت عام ١٢٧٠ هـ ، ١٨٥٣م ، ويوفر لنا هذا الكتاب القيم قائمة تفصيلية وأوصافا دقيقة للقصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات والدور والحمامات والخانات والأسواق والوكالات التى وجدت فى عاصمة مصر خلال تسعة قرون .

يقول محقق الكتاب د. أيمن فؤاد السيد .. «فى أثناء عملى وجدت مصورا لمخطوطة الخطط ، وعندما درست هذه المخطوطة وجدت الضبط الصحيح والتصويب الكامل لكل الأخطاء التى تسربت إلى طبعة بولاق وهى بخط المقريزى نفسه ....» وهذه المسودة تفيدنا فى التعرف على أسلوب القدماء فى التأليف ، فإذا كنا نملك عددا من المؤلفات بخطوط مؤلفيها ولكن نادرا ما وصلت الينا مسودات أعمالهم »

وكتاب الخطط غنى من التعريف فهو يقدم مدن مصر وأقاليمها المختلفة باعتبارها عاصمة العالم الإسلامى وبؤرته الثقافية والسياسية ، ويقدم كل مايتصل بالقاهرة مسقط رأسه ، فلم يترك أثرا إلا وصفه ويحكى تاريخ بنائه وماصادفه من تغييرات ، ولم يكتف باستنطاق الحجر بل تناول أيضا البشر ، وروى سير حياة الأمراء والكبراء وساكنى الحارات والخانات والتكايا .

ويذكر الكاتب الفرنسي كاتيرمير .. «لاتوجد مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة «الخطط» من حيث الاكتمال كما هو الحال مع القاهرة ».

إميل حبيبي

مفارقة الأديب السياسي

بقلم : ابراهيم فتحى



إميل حبيبى

يرتبط اسم إميل حبيبى الكاتب الفلسطينى الذى يحمل الجنسية الاسرائيلية بالمفارقة . فأدبه الفنى العميق غائر الجذور فى التراث الشعبى العربى ، معاد للصهيونية ولكن تصريحاته السياسية تنحنى أمام قهر الواقع وتحاول التكيف مع الاختلال فى ميزان القوى بين الشعب الفلسطينى واسرائيل ، انه كاتب قد حصل على جائزة القدس وهى أرفع وسام أدبى من الدائرة الثقافية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى يناير ١٩٩٠ ثم حصل على جائزة اسرائيل العليا فى الأدب من وزارة الثقافة الاسرائيلية فى مايو ١٩٩٢ .

وقد رحل فى ٢ مايو ١٩٩٦ وفى قمة بقايا تصريحاته المتفائلة عن مستقبل التفاهم بين الفلسطينيين ودولة اسرائيل وعن مزايا الواقعية السياسية، على حين كان الاجتياح الاسرائيلى لجنوب لبنان وتهجير نصف مليون لبنانى من أراضيهم وبيوتهم فى عنفوانه كما كان الفلسطينيون فى غزة والضفة الغربية يعانون من وطأة حصار التجويع والاذلال.

ويبدو ان إميل حبيبى المنظّر السياسى كائن هش لا مكان له فى تيارات الفكر العميقة، انه ينتهج طريقا مرصوفا بشعارات من قبيل احن الرأس للعاصفة دعها تمر. ليس أمامنا الا الخيار بين الحل الردىء والحل الأردأ، دعوا الفلسطينيين وشأنهم ليحلوا مشاكلهم مع الاسرائيليين

ومن المفارقات المرة أن إميل حبيبى

الأديب ظل يوجه سهام السخرية الى صدر هذا المنحى فى الفكر والسلوك ويصيبه فى مقتل. فالسياسة التى تترقرق فى الاعمال الأدبية لإميل حبيبى تسير فى اتجاه معاكس للسياسة المعلنة على لسانه فحينما تكون «السياسة» ملامح لشخصيات حية، ودوافع للفعل أو للاحجام عن الفعل، وإخلاصا لمسار الواقع المعاش فانها يمكن أن تتناقض مع السياسة المجردة فى ذهن الكاتب. وهناك حالة معروفة فى الأدب العالمى هى حالة بلزاك الذى كان يدافع باعتباره سياسيا عن «الملكية الشرعية» وطبقة كبار الملاك بينما كانت رواياته تفضح تعفن ما يؤيده فى مقالاته.

ولنأخذ عملا من أروع أعمال إميل حبيبى هو «الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل». و«المتشائل» صفة عائلية وهى نحت كلمتين هما المتشائم والمتفائل، وتنطبق على فصيلة كاملة من البشر، وعلى مذهب كامل فى السلوك، فإذا أصابه مكروه فى يومه يحمد الله على أن الأكره منه لم يقع.

وإذا مزقت العاصفة ابنا وعاد بلا رأس ولا أحشاء وهو فى شهر عرسه فإن الأم المتشائلة تصيح، «مليح إن صار هكذا، وما صار غير شكل» فأى شكل بعد هذا الشكل يمكن ان يكون أسوأ منه؟ ولكن فلسفة «التشاؤل» فى الصراع العربى الاسرائيلى تعتبر أن هناك دائما ما هو أسوأ . فالسوء بلا قرار، وبعض الشر أهون من بعض.

وينطبق ذلك فى المحل الأول على الذين بقوا فى فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨ وكان إميل حبيبى من أبرزهم . لقد ولد فى حيفا عام ١٩٢١ ومات فى حيفا، وأوصى أن ينقش على شاهد قبره «باق فى حيفا» ولكن ما الذى بقى فى حيفا من حيفا؟ وتحفل روايتا إميل حبيبى «إخطية» و«خرافية سرايا بنت الغول» بذكر تهويد حيفا واشباح الماضى الهائمة فى حياتها وذكريات الماضى الفلسطينى الجميلة والحنين الى حيفا فى حيفا. وكان وضع «الاقلية العربية» فى اسرائيل ينطبق عليه كما جاء على لسان المحامى العربى فى رواية «إخطية» بيت الشعر القديم.

القاه فى اليم مكتوفا وقال له

إياك إياك أن تبتل بالماء.

فمذابح العرب على أيدى الصهاينة أصبح اسمها حرب التحرير، وتضع الرواية على لسان القاضى الاسرائيلى قوله: لم يتهمنا متهم قبلكم باننا ألقينا بعرب حيفا فى بحر عكا وهم مكتوفون بل تركنا أيديهم طليقة . فمن غرق منهم فلأنه لا يحسن السباحة. ولايحق لكم أن تلومونا على ذلك .. ويمن القاضى على العرب بان النازية لم تدع اليهود يهربون (وهو كاذب فى ذلك) بينما الصهاينة تركوا العرب يهربون من بلادهم احيانا . وتعلن فى الرواية وزارة العدلية الاسرائيلية ردا على اتهامات منظمة العفو الدولية، ان المعتقلين الفلسطينيين هم الذين يعذبون أنفسهم بأنفسهم ويكسرون أرجلهم . ويفقأون عيونهم بأيديهم لكى يشوهوا سمعة الاحتلال الاسرائيلى الرحيم فى العالمين.

وفى «سرايا بنت الغول» يدوى صوت المذيع الاسـرائيلى أن دوى المدافع الاسرائيلية وأنات الجرحى العربية اجتمعت فى أذنيه سيمفونية رائعة».

● تناقضات حادة!

وتحفل أعمال إميل حبيبى الأدبية بلوحات متعددة الألوان لما عاناه الفلسطينيون داخل اسرائيل، ولنضالهم ضد القهر والحرمان من كل الحقوق وتسرى فى هذه اللوحات روح ساخرة تصور التناقضات الحادة فى هذه الأوضاع الفاجعة . إن الذين ألقاهم الاسرائيليون فى اليم مكتوفى الايدى كان عليهم النضال لكسب ابسط الحقوق الأدبية . لقد أصبحوا فى هذا الفرع المحلى من الجحيم مواطنين - رغم انوفهم مع الدولة الصهيونية مواطنين من الدرجة الثانية محرومين من كل شىء» مجبرين على التعامل مع مؤسساتها. وذاقت الاقلية العربية المضطهدة ويلات الحكم العسكرى المباشر، وملاحقات تحديد الاقامة والتنقل والتشريد والأعتقال.

وكان الحزب الشيوعى الاسرائيلى الذى يتبنى الخط السوفييتى ولا يعتنق الصهيونية . ويؤيد التقسيم بين دولتين يهودية وفلسطينية ويرفض التوسع الاسرائيلى «سيدين عدوان ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ويؤيد الحقوق العربية» ملاذا للكثيرين من أفراد الاقلية العربية ومن المعروف أن إميل حبيبى كان من أبرز مؤسسى هذا الحزب ذى الاغلبية العربية (راكاح).. وظل إميل حبيبى أسيرا فى قفص الخط السوفييتى زمنا طويلا . ولن نقف عند ماركسية إميل حبيبى قبل نكبة ١٩٤٨ ، فقد كان عضوا فى عصبة التحرر الوطنى الفلسطينية وهى حركة نضال قومى يسارية عريضة لا تضم الا العرب وحدهم تأسست فى ربيع عام ١٩٤٣ ثم تبلورت فى حزب شيوعى فلسطينى، وكان محررا فى جريدة «الاتحاد» ثم رئيسا لتحريرها بعد النكبة. كما أصدر فى عام ١٩٤٦ مجلة المهماز الاسبوعية التى لم تعش طويلا.

ويبدو أن (راكاح) كان التنظيم الوحيد المتاح امام العرب للدفاع عن الحد الأدنى من الحقوق وتقديم المطالب الحيوية اليومية التى كانت مهددة والاحتجاج على كل ضروب القهر وانشاء اشكال للتنظيم النضالى وخلق صحافة ودور نشر عملت على حماية اللغة العربية والثقافة القومية من المحو والانقراض وعلى تعميق الوعى القومى.

وقد أسهم إميل حبيبى فى كل جوانب ذلك النشاط . وأصبح نائبا عن الحزب فى الكنيست الاسرائيلى طوال عشرين عاما .

وتدل كتابات إميل حبيبى على أنه كان وثيق الصلة بالحركة العمالية الفلسطينية فى مدينة حيفا، واشتغل هو نفسه فى مهن عمالية قبل أن يتفرغ للكتابة والنضال السياسى. فلم تكن يساريته كتبية تقوم على استظهار النصوص ، بل كانت قبل أن يضرب بها عرض الحائط بعد إطاحة بريسترويكا جورباتشوف بمسلمات الخط السوفييتى، طريقة فى الحياة والعمل وسط

عشيرته وتتجلى فى كتاباته الأدبية على وجه الخصوص قبل أن يمشى فى درب الآلام وحيدا لا يصحبه إنس ولا جن فالسياسة في كتاباته الأدبية ترديد لأصداء «جامعاتى» لمكسيم جوركى «نحترق لنضىء السبيل» ، وهو يروى اسطورة «الشاب دانكو» ، حينما ضلت العشيرة فى شعاب غابة كثيفة، الاشجار متشابكة ـ الأغصان تحجب الشمس عن العيون ظلام دامس ورطوبة شاملة تطفىء كل شعلة.

● حديث عن جمع الشمل

وقد وقع الاختيار على دانكو أو إميل حبيبى لكى يقود العشيرة الواقعة فى اسر الظلام فمد يده الى صدره واستله من حنايا ضلوعه مشعلا وهاجا يضىء السبيل الضائع ثم سقط صريعا فحين اشتد الظلام فى يونيه ١٩٦٧ . يكتب إميل حبيبى سداسية الايام الستة، ست قصص قصيرة تتحدث عن جمع الشمل بعد أن سقطت فلسطين كلها بين مخالب اسرائيل ويلتقى الاغراب بأصحابهم وأحبابهم والسيف على رقابهم جميعا . فالعلاقة بين ابناء فلسطين موصولة وثيقة الذين داخل الصدفة الاسرائيلية منذ زمن بعيد والذين احاطت بهم الصدفة بعد ١٩٦٧ وتطول القامات فى اللقاء وتصبح الرءوس فوق الضربات. ان الانطواء وانحناء الظهر هو قطع الصلة بالتاريخ بالماضى . فالماضى ليس زمنا ان الماضى هو جميع الاهل والاصدقاء هو النحن والهوية، وإعادة الروابط بالماضى تنتشل الناس من حاضرها وتبشر بالرجوع واستعادة الكنوز واستعادة الوطن وعودة النائى الغريب الى أهله. ولن نجد أثرا للخط السوفييتى عن طبقة عاملة اسرائيلية تقدمية تتحالف سلميا مع طبقة عاملة عربية ضد اليمين الاسرائيلى والعربى فى رسائل الفتيات المقدسيات الثلاث (فى قصة الحب فى قلبى) اللواتى اعتقلن بتهمة تهريب السلاح أو التستر على تهريبه وما ثار حول اعتقالهن وتعذيبهن وحشرهن مع نسوة سقاطات وعن اطفاء السجائر المشتعلة فى أجسامهن البضة. وتقطر رسالة «فيروز» وهى إحداهن بتدفق الحياة وتطاير رذاذها رغم القضبان. فكل مكان فى حيفا تقدس بدماء المذبوحين ويظل يتقدس.

وإذا انتقلنا الى رائعة إميل حبيبى «الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل» وجدنا محاكاة ساخرة لرواية «كانديد» لفولتير . وهى بدورها سخرية من فلسفة التفاؤل عند «لايبنتس» الذى يعتبر عالمنا أفضل العوالم الممكنة وكل شىء فيه على أفضل حال.

وتسخر الرواية من انتهازية سعيد، وتكيفه مع أوامر الغزاة فهو يجيب زوجته عن اسئلتها قائلا إن الثوريين هم ناس يكفرون بالنعمة . نعمة الغالب على المغلوب بالحياة، ويكفرون بالله لأنهم يدعون القدرة

على تغيير المكتوب، وهو يعلن إنه مخلص للدولة الاسرائيلية ولأمنها ولقوانينها ماهو معلن منها وما سوف يعلن، ولكنه يتلقى الكمات والضربات والركل بالاحذية داخل السجن ويجد نفسه متربعا وحيدا على رأس خازوق بلا رأس فى كابوس يحط على صدره ليلة بعد ليلة بلا انقطاع . خازوق فى كابوس . وماذا سيحل به لو ظهر إنه ليس بكابوس بل خازوق واقع؟ وهل هناك فى رأى إميل حبيبى طريق بديل للخازوق، خازوق المهادنة والتكيف والاستسلام؟

يقول حبيبى فى الرواية إن الذى لا يريد أن يقعد على الخازوق يجب عليه أن ينزل الى الشارع.

والشارع يملؤه الناس الذين يحتل الحلم الفلسطينى وجدانهم وخيالهم ففى «إخطية» او الخطيئة وهى رواية أصدرها عام ١٩٨٥ . يشير الاسم الغريب الى ما أشاعه الاعداء عن خطيئة من تجيء أنثى بعد تعاقب الإناث من نفس البطن وتستدعى خطيئة الوأد وخطيئة من لا تلد الا البنت بعد البنت ولا تنجب نسلا من رجال، وقد تكون غرابة الاسم ناشئة من الاختلاط الكبير فى اسماء مدن فلسطين وقراها وشوارعها بين عربية وعبرية. وسرايا (١٩٩١) قبل إخطية. فتاة أحبها البطل فى صباه ثم شغلته همومه عنها فأهملها حتى عادت وظهرت له فى شيخوخته. كأنها الفتاة التى اختطفها الغول وتبناها واسكنها قصره فى أعالى الجبل. وذهب ابن عمها يبحث عنها فى البرارى وكانت مشهورة بجدائل شعرها الطويلة فظل يناديها سرايا يابنت الغول. دلى لى شعرك لأطول . وقد كان وكل من إخطية وسرايا . شخصيات متعددة فى إهاب مفرد، وهما مصنوعتان من مادة الحلم الفلسطينى الذى يظل يراود الأعين والقلوب مهماتكن الأهوال.

● عدوان اسرائيلي علي العرب

وفى الحقيقة إن الادب الرائع لإميل حبيبى يتجاوز العثرات السياسية. ولن نجد له كتابات أدبية بعد مواقفه الاخيرة التى يصفها البعض بالاستسلام . وهل يمكن القول أن أهل فلسطين أو أهل يافا ادرى بشعابها حينما تكون القضية الفلسطينية قضية كل شعب عربى وبعد ان سال الدم العربى مدرارا من الطعنات الاسرائيلية فالدور الاسرائيلى فى المنطقة عدوان على كل البلاد العربية وليس شأنا فلسطينيا فحسب. ودون تبرير لتصريحاته السياسية الأخيرة فان إميل حبيبى كاتب عظيم ينتمى الى الادب العربى، ويضيف اليه الكثير، وتتألق رؤيته فى أعماله معبرة عن الحاجات الجمالية للشعب الفلسطينى وتراثه فى ارتباطهما بالمحيط العربى الاشمل.

الهلال يوليه ١٩٩٦



ص ١٦٢



ص ١٦٩

ندوة

تبعية أكاديمية

حققت جامعة القاهرة كشفا علميا بارزا يستحق الذكر والفخر.

واستطاعت كتيبة من الباحثين والباحثات فى مركز الدراسات الأسيوية التابع لكلية الاقتصاد والسياسة ان تزيح الستار عن السر الذى يثير العالم ويبهره كل يوم وهو التفوق الآسيوى الخارق فى تحقيق الديمقراطية والتنمية معا.

وخلال ستة عشر بحثا مفصلا أثبت هؤلاء ان الفضل الأول والأخير فى المعجزات يعود الى حكيم صينى عاش منذ اكثر من الفى عام هو «كونفوشيوس» وأن روحه وتعاليمه هى التى تقف وراء معجزة اليابان الرأسمالية الليبرالية ووراء معجزات النمور الصغيرة بما فيها «ماليزيا المسلمة»! بل وتقف ايضا بنفس القدر وراء ما حققته الصين وفيتنام الاشتراكية، وذلك انها روح موضوعية قدسية لا تفرق بين الآسيويين مهما كانت اللغة أو الجنسية أو العقيدة.

وطوال ثلاثة ايام من العرض والجدل والنقاش المحتدم لم يأت ذكر لأى ثورة أو انتفاضة أو حركة تحرير أو حرب عادلة او

عدوانية. ولم يرد اسم آسيوى واحد لزعيم أو قائد أو حكيم أخر لم يرد قط اسم صـــن يات صن ، أو ماوتسى تونج او شواين لاى خلال مناقشة الديمقراطية والتنمية فى الصين ولم يذكر هوشى منه أو جياب أو فان فام دونج او حرب الثلاثين عاما.

ولم يعترف بالطبع بأى فضيلة لكيم ايل سونج فى كوريا الشمالية لان الديمقراطية والتنمية اختصرت على الجنوب.

ولم تستثن الهند إلا قليلا، وجاء ذكر غاندى ونهرو على عجل، واستبعدت انديرا لأنها اجهضت التنمية والديمقراطية بتأميم البنوك وإلغاء معاشات المهراجات الذين لايحتاجونها، ولأنها اعلنت الطوارىء ضد معارضة يمينية زحفت نحو العاصمة ودعت الجيش والبوليس الى العصيان المدنى!

ولم يعترض او ينتقد احد من الاساتذة المعقبين فيما عدا كاتب معروف شهد احدى الجلسات ولم يلق اعتراضه اى اهتمام .

وقد انشئت كلية الاقتصاد والسياسة لتكوين كوادر مصرية وطنية تقدميه ولتمد الدبلوماسية والاقتصاد بفكر وتطبيق خلاق ومعاصر .. ويبعث الاسى والأسف ان تنتهى الى هذه الرجعية والتبعية الفكرية وتنقل نقلا حرفيا عن الغرب.. وعن اسوأ ما فيه.

● د. محمد متولى حسين

مسرح

نيات طيبة ونتائج هزيلة

■ شاهدت فى مسرح الجمهورية عرض «المقابلة الأخيرة» من تأليف وإخراج وليد عونى، حاول العرض أن يقدم رؤية فنية تشكيلية بوسائل المسرح الراقص لتاريخ حياة فنانتنا الكبيرة تحية حليم، فهل نجح ؟

لا شك أن النيّات طيبة جدا، ولكن واقع العرض هزيل للغاية، فهو فى نفس الوقت الذى يحاول فيه أن يقدم لنا لغة



وليد عونى

جسدية حسية متحررة إذا به يعوق ما أراد بتلك الزحمة التى شغل بها فضاء الخشبة بلا مبرر، والحركات شبه الآلية للراقصين بما لا يجعل لها دلالة إيقاعية أو تشكيلية بالنسبة للعرض الذى أراد أن يكون مركبا . وقد تتراوح هذه الآلية بين الميكانيكية فى استيحاء « المسرح الراقص » الألمانى، ومحاولة تقديم اسكتش راقص للتراث النوبى الذى أحبته تحية حليم بصورة خاصة، ولكن ذلك كله يظل تلفيقا يعوزه بشكل واضح تصور فنى متماسك تستشف منه وجهة نظر العرض .

فلو كان هذا التصور واضحا لدى مؤلف العرض ومخرجه، لكان الأداء مختلفا بشكل جذرى . ولكن غياب هذا التصور الواضح هو الذى أدى الى تعويق العرض لما أراد أن يقدمه : رحلة التحرر والاكتشاف الحسى المتوهج لدى فنانة تشكيلية يذكرنا زواجها من أستاذها الراحل حامد عبد الله برواية « عشيق الليدى تشيترلى » لـ « د. هـ . لورنس » حينما يصحبها ابن الفقراء بجزيرة المنيل إلى ثراء حياة البسطاء المنتجين فى تربة مصر العريضة .

يعوق العرض هذه الرحلة الاستكشافية الحسية بتلك المجموعات الزائدة من الراقصين الذين يذكروننا بتضخم العاملين فى الجهاز الحكومى. فكيف نشاهد عملية التحرر الحسى لفنانة تشكيلية وسط هذه الزحمة العشوائية للراقصين والراقصات ؟!

وما هو مبرر ازدحام الخشبة بكل ذلك الكم من الديكورات ؟!

لو أن الرؤية الفنية للعرض كانت متماسكة واضحة لاقتصد فى الديكورات وفى أعداد الراقصين والراقصات ولعمقت الدلالة الاشارية لإيقاع كل حركة مؤداة فى علاقتها بسائر أدوات السينوغرافيا، ولكان الايقاع الراقص بالضرورة أكثر تكثيفا وتعبيرا عن الدراسة المتأنية الدقيقة لما يريد أن يقول بلغته الخاصة، ولكنها ربما كانت مأساة خواء العروض التى

أصبحت - للأسف - تجد مشجعين لها فى المسرح العربى الراهن، ولعل أعمال محمد إدريس الأخيرة فى تونس مثال واضح على ذلك .

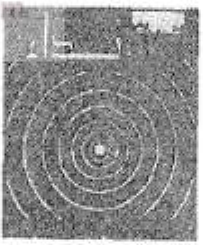
مأساة غياب النص المسرحى الحقيقى وغلبة الارتجالات التلفيقية باسم التجريب الحر، وهو ما أرى أنه على العكس تماما من حرية التجريب لأن هذه الأخيرة تقدم بديلا نقديا، ومن ثم متجاوزا لتقنيات المسرح العربى، ورؤاه التقليدية .

أما هذا الذى شاهدناه فلا يرقى إلى أكثر من تمارين ضعيفة لتلامذة مبتدئين فى أحد المعاهد المسرحية .. خسارة .

● د. مجدى يوسف

مجلات

«المجلات الصغيرة»



غلاف النداء

ظاهرة لافتة للنظر فى خضم حياتنا الثقافية النشيطة - لعل الثقافة هى الشىء الوحيد الذى يدعو للأمل ، إلى حد ما على الأقل ، فى قلب واقع اجتماعى وسياسى ، قومى ووطنى تستشرى فيه مظاهر التردى والهوان - هى ظاهرة عودة ما أسميه «المجلات الصغيرة» إلى الصدور بتواتر ملحوظ .

ليست هذه الظاهرة جديدة ، ولعلنى اعتبرها من البذور المخصبة أو الآليات الحافزة على الحركة والحيوية ، دليلى على هذا مجلات طليعية كان لها - ومازال - أثرها الفعال فى تطور وتجديد رؤانا وأساليبنا الأدبية والفكرية ، مثل «التطور» (أنور كامل) فى آخر الثلاثينيات وأول الاربعينيات، و«المجلة الجديدة» (رمسيس يونان) فى الأربعينيات المبكرة .

ولعله من الطريف - والمفيد - أن أحصى ، بقدر ما تسعفنى الذاكرة ويدعمنى الأرشيف الشخصى ، هذه المجلات الصغيرة منذ آخر الاربعينيات : «البشير» (بهيج نصار ، محمود أمين العالم ، بدر الديب) .

ولعله لم يصدر منها إلا عددان من ٢ إلى ٩ أكتوبر ١٩٤٨، فإذا كنت مخطئا فاننى أدعو كل من لديه خبر يقين إلى تصحيحى ، ثم أجد فترة انقطاع تدعو للتفكير منذ «فصول»

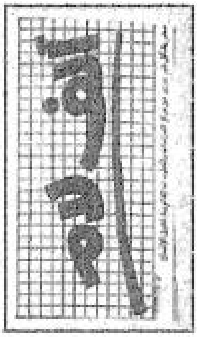


د. شكرى عياد

(فتحى غانم) فى ١٩٤٨ أيضا حتى انحسار «فترة الازدهار» الثقافى تحت الوصاية الأبوية الناصرية ووقوع كارثة ١٩٦٧ ، حيث صدرت أقوى وأفعل هذه المجلات الصغيرة ، حتى الآن ، فى تقديرى وهى ، كما لايخفى ، «جاليرى ٦٨» (ابراهيم منصور ، أحمد مرسى ، ادوار الخراط ، جميل عطية وكوكبة أخرى لامعة ومتغيرة) ٨ أعداد ، من ابريل / مايو ١٩٦٨ إلى فبراير ١٩٧١ وقبلها «الثقافة الجديدة» (محمد الجندى) عدد واحد فى١٩٧٦ ، «إضاءة ٧٧» (جماعة إضاءة ٧٧ - حلمى سالم ، ماجد يوسف ، حسن طلب ، جمال القصاص وآخرون) ١٤ عددا من يوليو ١٩٧٧ إلى نوفمبر ١٩٨٨ ، «كتابات» (رفعت سلام وآخرون) ٩ أعداد من مايو ١٩٧٩ إلى نوفمبر ١٩٨٤ ، «الفكر المعاصر» (عبد السلام رضوان) عددان من مايو ١٩٧٩ إلى العدد الثانى (غير المؤرخ)، «الكراسة الثقافية» (أمجد ريان) عددان من يونيو ١٩٧٩ إلى مارس ١٩٨٠ ، «الثقافة الوطنية» (محمد الجندى ؟) عددان من يناير ١٩٨٠ إلى يناير ١٩٨١ ، «خطوة» (سيد بحراوى واسماعيل العادلى ويحيى الطاهر عبدالله ويوسف ابورية) ٧ أعداد من ديسمبر ١٩٨٠ الى يونيو ١٩٨٥ ، «مصرية» (عبد العزيز جمال وآخرون) ٩ أعداد، عددها الأول غير مؤرخ - ٧٩ أو٨٠ - إلى أكتوبر ١٩٨٠ ، «النديم» (محمد ابراهيم مبروك وآخرون) ٤ أعداد من يونيو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٥ ، «أدب الغد» (خالد الجويلى وآخرون) عددان من ابريل ٨٣ إلى فبراير ١٩٨٤ .

بعد هذا التواتر فى فترة ماسمى بـ «ثورة الماستر» حينما حجبت أى قمعت مجلات الدولة الناصرية (الطليعة ، الفكر ، القصة ، الشعر ، الكاتب وغيرها) صدر من «الكتابة السوداء» عدد وحيد لا أظن أنه سوف يثنى (أحمد طه وجماعة أصوات: عبدالمنعم رمضان ، عبد المقصود عبد الكريم ، محمد عيد ابراهيم) فى سبتمبر ١٩٨٨ .

حتى نأتى إلى الموجة الأخيرة : «الكتابة الأخرى » (هشام قشطة) ١٣ عدداً حتى الآن من مايو ١٩٩١ حتى فبراير ١٩٩٦، «الأربعائيون» (عبد العظيم ناجى ، ناصر فرغلى وآخرون) ٤ أعداد - حتى الآن - من يناير ٩٢ إلى شتاء ١٩٩٤ ، «الجراد»



(أحمد طه وآخرون ، ثم جرجس شكرى وآخرون) صدر منها حتى الآن ٣ أعداد من مارس ١٩٩٤ إلى يناير ١٩٩٦ ، وأخيرا الأعداد الواحدة حتى الآن من «زرقاء اليمامة» و «ألف لام» و«النداء»

أترك للقارىء وللباحثين مهمة استخلاص دلالة هذا الإحصاء الذى إن أعوزته الدقة الكاملة أو الشمول الكامل فلعله يحفز إلى الاستكمال والتصحيح ، والأهم، إلى التفكير ومحاولة تفهم الآليات الثقافية (اجتماعية «وفردية» على السواء) التى حكمت أو أسهمت فى تكون هذه الظاهرة.

وفى تقديرى أن «ثورة الماستر» و«جاليرى ٦٨» كان لها ما يبررها بل ما يحتم صدورها، حين ظل القمع الساداتى وما تلاه وصاحبه من استشراء الانفتاح وعقابيلة وانحسار «الثقافة الرسمية» عاجزة كلها عن كبح الحيوية الثقافية الشعبية أو تجفيف «نبع الإبداع الذى لا يغيض» فى هذا البلد، أما المجلات الثلاث الأخيرة الصدور فعلى ترحيبى بتعدد منابر النشر بل ومطالبتى بأن تزداد وأن تتحرر تماما من قيود قوانين من شأنها أن تكبل الإبداع وأن تعوق تدفقه المنشود والمكبوت معاً، إلا أنها حتى الان، فيما يبدو، لا تأتى بجديد حقاً، وما تنشره كان من الممكن ببساطة أن تتضمنه المنابر أو «المجلات الكبيرة» التى تصدر تحت مظلة الدولة، ومع ذلك فلها حضورها وفعاليتها وقدر من الحرية نتمنى أن يتسع باطراد، مثل فصول (جابر عصفور) و «ابداع» (أحمد عبد المعطى حجازى) و«القاهرة» (غالى شكرى) و«أخبار الأدب» الاسبوعية (جمال الغيطانى) و«الهلال» العريقة، و«الثقافة الجديدة» (هيئة قصور الثقافة)، فضلا عن «روز اليوسف» و «صباح الخير» .

وعلى الهامش: أليس من المحزن قليلا أن تظهر هذه المجلات (وخاصة «النداء» بما وراءها من قامات أدبية وفنية شامخة) فى ثوب يذكرنا بصحف العشرينيات الفقيرة العارية من أى جمال فنى فى الإخراج، على الرغم من قوة مادتها، وعلى اختلاف «ممكن» فى تقييمها؟

● إدوار الخراط

صيغ قديمة وواقع متغير

ينبغي الاشارة: أن اصدار مجلة جديدة تعنى بالهم الثقافى، لابد لها من أن تحدد منذ البدء خياراتها ورؤاها، واسئلتها التى سوف تطرحها على مجمل تغير الواقع، وكيف ستجيب عبر منهجها النقدى، وانتمائها للابداع الجيد، وثقافتها الجديدة والتى تسعى من خلالها اكتشاف الواقع، وموقفها من الحرية وفعل الحرية باعتبارها نهاية الامر المطلب الاسمى لكل ثقافة حرة.

علينا ان نؤكد ان مجتمعنا العربى «بالذات المصرى» مفتوح على احتمالات كثيرة، ويعيش ثقافة ازمة تدفع به الى الهامش بعد ان كان المركز. حدثت هذه الازمة نتيجة تراكم تاريخى تختلط فيه البداية بالنهاية، وتبرز من الماضى قيم السلفية، وتعيش هذه الثقافة ثنائيات لا حل لها يبدو فى القريب، ويسيطر ذلك الاعلام المغيب للوعى ليثبت الواقع ويعيد انتاج ما انتج سلفا، وبالتالى تعيش الثقافة العربية فى الواقع الراهن أزمة تاريخية.

اصدار مجلة جديدة يعنى مساهمة فى بلورة الحوارات، واعادة صياغة لغة الكتابة واعلان القطيعة تماما (بدون اى التباس) مع مجمل الثقافات القديمة التى تعيش خواءها.

اصدار مجلة جديدة يعنى المساهمة فى كشف تيارات الابداع المختلفة (شعرا ونثرا ونقدا وفكرا) وتمهيد الارض وتكوين الذوق العام لاستقبال هذه الكتابة حتى تكتسب شرعية الوجود وتحقيق السعى نحو المعرفة والعدل والحرية.

اذن مجلة جديدة تعنى (الانتماء للابداع وللتجارب الجديدة والاشتباك مع هموم الثقافة المستنيرة) واقامة الحوار مع اهم تيارات الحداثة عند الآخر، ومعرفته).

يحضرنى فى هذا السياق مجلات «الكاتب المصرى» التى صدرت فى اربعينيات هذا القرن وكيف اقامت جسرا مع مذاهب الفكر الفاعلة فى الثقافة الاوربية، وايضا مجلة «المجلة»

تحت رئاسة راعيها الكاتب الكبير، «يحيى حقى»، حتى مجلة «الرسالة» وكذلك مجلة «الثقافة» القديمتين قدمتا انجازهما فى اطار الرؤى الرومانسية التى كانت سائدة.

ومجلة «مواقف» التى اصدرتها جماعة «شعر» وكيف بلورت اسئلة الشعر الحديث واحتفت بالرؤى الناهضة التى تواجه النص السائد والمكرس، ثم كانت فى الثقافة المصرية مجلة «جاليرى ٦٨» التى لم يكن لها إلا ان تصدر فى هذا الوقت بالتحديد من منتصف الستينيات لتواجه هزيمة مروعة، وشعارات سياسية فارغة تفارق مأساة الواقع، وتواجه كتابة خاوية تدور فى خوائها القديم، واستطاعت هذه المجلة ان تقدم عبر سعيها الكتابى الكثير من المواهب والكثير من تيارات الحداثة التى مهدت الطريق لميلاد كتابات اخرى بديلة، وايضا لا يمكننا ان نغفل الدور الفاعل لمجلة «الآداب» البيروتية فى عز نهضتها فى الخمسينيات والستينيات .

اذن... ما الذى يجعل اصدارات بعينها، وحين صدورها تبدو خارج زمن الكتابة؟

رأينا الواقع المصرى يزدحم بالاصدارات (جرائد ومجلات، ونشرات، وعلى كل لون) بعضها يرى «أن الثقافة الوطنية تجربة انسانية متفردة يستحيل نقلها خارج بيئتها الاصلية» ...

«زرقاء اليمامة» . ورأينا مجلة تطرح تصورا قديما عن العقل والفكر عبر مواد تجاوزها الزمن وحركة التاريخ مثل «النداء» وجريدة ثقافية هى «ألف لام» يبدو ان احلام من شاركوا فى اصدارها كانت اكبر من امكانات الواقع والتنفيذ والمشاركة الضمنية. ومجلة تأخذ فى اعتبارها وهمها الاساسى اكتشاف المواهب الجديدة بين نجوع مصر مغفلة ان لا مواهب حقيقية بدون تقديم ثقافة مستنيرة «أخبار الادب». ومجلة ترى انجاز الابداع المصرى على طول تاريخه فى كل اشكاله الجذرية لايتلاءم مع غضب جيل مغاير «حدى فى رفضه للآباء».

الذين لم يورثوه سوى الانهيارات وضياع اليقين.. «الجراد».

وتظل «الكتابة الاخرى» رغم قصيدة النثر التى تنشرها وباستثناء قليلة تمتلك مغامراتها الحقيقية طامحة للتعبير عن حساسية جديدة بالفعل.

ما البديل؟

تختلط الرؤى بشكل محزن، ولفقر الواقع تغيب الصيغ التى تعبر عن المسار الحقيقى لمجمل فنوننا الجديدة.

ينبغى ان اؤكد ان البديل يصاغ ويتشكل ربما فى سؤال ما لينتزع من المجهول وسائط تعبيره تلك التى تحمل على صفحاتها النقد والنص وفعل الحرية «لا تنطلق من فراغ بل من تراكم التجربة الانسانية عامة، والعربية خاصة».

حتى نستطيع ان نطلق عليها جديدة، وان نصفها فى كل الاحوال بأن لها رؤية، وبأنها تختط لها طريقا جديدا.

● سعيد الكفراوى

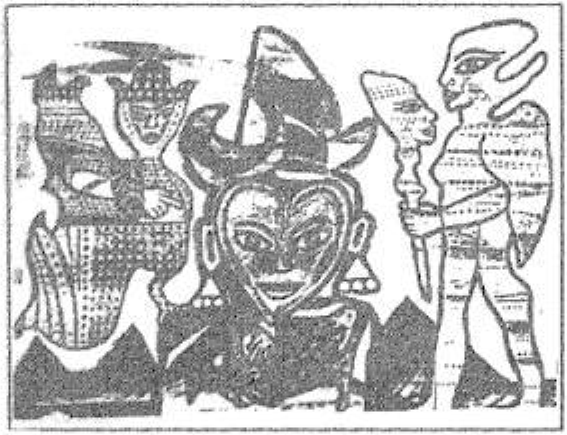
فن تشكيلى

خيالات فنجان القهوة

قارئة الفنجان تنظر فى فنجانها وتحكى حكايات حدثت، لتؤكد لنا أنها صادقة. ثم تحكى حكايات على وشك الحدوث لنحتاط، ثم حكايات عن المستقبل لنستبشر خيرا، هذا ماتراه قارئة الفنجان بعد أن ترتب الرموز التى صنعتها الصدفة، ونوع البن وطريقة إعداده.

أما إذا نظر فنان تشكيلى فى فنجان القهوة فماذا سيرى؟ وماذا سيختار مما رأى ليعيد تقديمه لنا على اللوحة؟

هذا مايمكن أن نراه الآن فى معرض الفنان داوستاشى،





عصمت داوستاشى

الذى يقدم لنا خيالات فنجان القهوة فى معرض، ويؤكد أنها خيالات وليست حكايات، وهذا تأكيد على الجدية التشكيلية فى تناول الموضوع.

والذى يبدأ فى تأمل فنجان القهوة والتجول داخل القنوات البيضاء المشقوقة بين كتل البن، واقتناص الأشكال والرموز واختزانها، ثم إعادة صياغتها بالحذف وبالاضافة والابداع، حتى يتم تقديمها فى لوحة هى مقطع ذو إطار من مساحة بلا حدود، وقد اقتصرت المجموعة التى تنتمى إلى رسوم الفنجان فى هذا المعرض على أربع لوحات فقط، ربما حالة (الجاليرى الخاص) هى التى فرضت تقديم هذه النماذج القليلة من حيث الكم على مسمى المعرض (خيالات فنجان القهوة) لكنها كانت كافية للتعبير عن بداية هذه التجربة المرئية فى هذه اللوحات، والمتابع لحركة الفن التشكيلى المصرى يلاحظ أن موضوع رسوم فنجان القهوة كان مصدرا لالهام كثير من التشكيليين، حامد ندا ومحمد عبله وعاصم شرف.. وآخرين، وليس مصادفة أن ينتمى هؤلاء الفنانون فى أعمالهم المرسومة إلى المدرسة

التعبيرية المصرية، ولكن كل منهم تناوله بشكل مختلف عن الآخر، ثم أصبح هذا البحث البصرى علامة مميزة فى مسيرته الفنية. داوستاشى من هؤلاء الفنانين الذين ينتمون للمدرسة التعبيرية المصرية وعلامة مميزة فيها، من حيث التصنيف العام لأعماله المرسومة، لكن تميزه الشخصى يتجلى فى العالم الذى ينهل منه ويعبر عنه ويقدمه، وهذا يتضح فى المجموعتين الملونتين بالمعرض، فمشاهد هذه الأعمال مشاهد للوحة موضوع معشق بالرموز، لوحة محكمة البناء داخل إطارها، تشعر أنها مستمدة من طلسم سحرى، أو من تميمة لمنع الحسد، أو لارسال هاتف أو لجلب محبوب، لوحات سحر وتصوف. ترتبط اللوحة بمسماها، الذى لاينفصل ولا يقسر ولا يضلل عن المشاهدة، بل المسمى جزء مكمل للعمل التشكيلى، سواء قرأت العنوان قبل المشاهدة أو بعدها ، تبقى اللوحة كائن سحرى (حجاب) يعبر عن عالم داوستاشى الداخلى الشديد الخصوصية.

هذا المعرض هو الاربعون بعد أكثر من ثلاثين عاما من إثراء الحياة التشكيلية المصرية، عمل فيها منتميا لعالم التشكيل الشمولى المعاصر متجاوزا فترة الانقطاع الشرقى عن التطور الأكاديمى للفن، وفى الوقت نفسه متجاوزا سهولة الفن التلقائى الساذج، مستهلما الرسوم الجدارية على واجهات منازل البسطاء، ورموز الوشم وطلاسم السحر، وتشكيلات الخط العربى، وأسلوب التكوين المتماسك على الجداريات الفرعونية، والعشق الصوفى لوحدة الوجود. والمشاهد المتخصص لأعمال داوستاشى يلاحظ المنهج اللاسريالى فى أعماله، حيث يسيطر على اللوحة بناء محكم، كان الاستثناء له فى هذا المعرض لوحة (الفارس فى الاتجاه الخطأ) حيث تم رسمه فى اللوحة عن عمد.

فى المكان الخطأ، أما باقى التكوينات فتسيطر عليها المفاهيم الحيوية، الراغبة فى تغيير الردىء، والمنتظرة فى صوفية وحب لاقامة علاقات جمالية أكثر توحدا وتكيفا مع العالم الباطنى للمتناقضات.

● مصطفى المسلمانى

«داوستاشى يلوذ بروح مصر فى صومعته بالعجمى»

لم تقرأ البخت .. أو ترجم بالغيب .. لكنك تكشف الطالع .. وتستشرف المستقبل .. وترثى الحاضر .. فى فنجانك القاتم .. والساحر ، الذى وسع مصر قلباً وتاريخا وحضارة .. فنجانك الذى حوى قهرها ، ومرها ، وصبرها الأبدى الصامت.

فنجانك المقلوب يا إنسان .. كقفة الودع .. ومخلة الساحر .. وصندوق الدنيا .. تمد فيه عينيك ويديك ، وقلبك الدامى .. ليخرج من جدرانه المساء والصماء .. أهرامنا القانية المنكسرة والحزينة ، وكودية الزار الحاشرة ، المتهدلة الثدى .. الغانية .. المستكينة .. وثعبانك المرقط .. ونسرك المقهور والمهضوم .. وديكك الحلق المحتبس بصرخة الموت .. وذقون شيوخك الآسيويين المتحدرين من فوق جدران المعابد .. ورمسيس العظيم يعلقهم كالعرجون من شعورهم .. والحاهم تنفض التراب العالق فى نعاله !! وطائر النصر ، والشوق يقف فوقها .. مغردا، ومنتصرا للنور والتنوير والحرية .. وفتاتك البكر !! بسوادها الحُر فى لوحة «القلب البسيط يرفض كل هذا التعقيد» تقاوم البغاء .. والعُقاب .. والعنقاء .. والثعبان .. ورأس الكبش الغبى!. كل ذلك الخضم .. فى أنساقك البليغة البسيطة .. الموحية والمعبرة.. المحملة بالروح الصوفى المصرى ، وعلى مقربة من لوحة القلب وعلى جدران « قاعة سلامة بالمهندسين» تقبــع لوحة « الكف وجه الحقيقة » حيث تؤكد ثانية – يا شيخ الطريقة – انك تلمس اللب ، وتسحب من الجب .. رأس وكف وهلال ونجمة بيضاء ، فوق عيون لا تعكس أرضا.. أو ناسا ..

أو سماء !! ومحيط أشكالك الخضراء مكبلة بخيوطها السوداء.. على أرضية قائظة وأسهم متعارضة متنافرة .. مُضرجة حمـــراء !! ويجمع كل ذلك ، شفاه وجوهك البيضـــاء ..« لون الموت ورائحته » !!

عالمك ساحر بديع .. خليق بفنان مصر .. وروح مصر - الهندسة والبناء والضوء المشع من داخل الأشكال واللون الصافي الصريح - تلك الروح المتصلة دائما وأبداً منذ نقوش «الاوستراكا » في البدارى ونقاده وعمره الى جدران وخبايل طيبة وتل العمارنة .. ومقابر النوبيين وواحاتهم الغارقة خلف السد ، التى شددنا الرحال اليها ونحن في ميعة الصبا .. وعبث بروحها وفنها شذاذ الآفاق ..!!

إلا أنت يا عصمت !! فقد قنصت روح الحقيقة والبقاء الأبدى ، ومزجته بنقاء وبلاغة قبط مصر وأضفت لها من رحيق النور والصفاء لدى أهل مصر المسلمين .. وسعة وحيوية وبصيرة البحر المتوسط .. يا مصرى .. يا سكندرى، وليس ذلك بغريب عليك - وهذا حق أصيل لك غير منقوص - فقد كشفت وأزلت الغبار عن وجه حقيقى لمصر في زمن اجتهد الجميع أن يلمسوا ذلك الوجه ، وتلك الروح - بقصد أو بدون والأمر يستوى - واستنفرت طاقتك الإبداعية والروحية للقيام بدور .. قام به يوماً ما درويش للموسيقى ، وحقى وسعد الخادم ويونس للثقافة الشعبية الوطنية ، وإدريس وحمدان لإحياء الجذور المصرية .. وتواصلت بكل الرفق والحب والسماحة البليغة الممتنعة - على الكثيرين - وتجاوزت عوالم الصدق عند الجزار وسعيد العدوى وحامد ندا وراغب عياد وغيرهم الى ما هو أرحب وأشمل وأعمق .. فهنيئاً لك حريتك .. ومعتزلك .. وصومعتك العامرة بالعجمى .

● د. مصطفى مهدى

التكوين

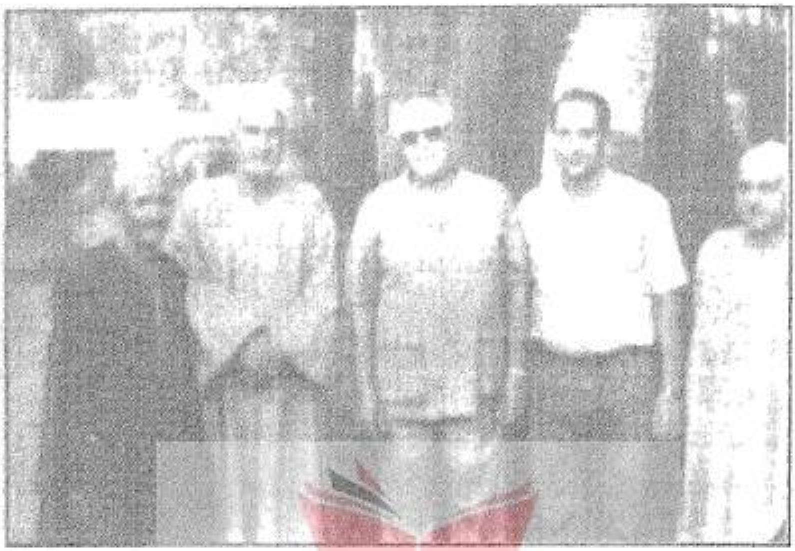
لنكمل الفلسفة

كانت البداية في قرية صغيرة من قرى الدلتا غير بعيدة من فرع النيل المسمى بفرع رشيد . ولا يذكر صاحبنا متى بدأ يقرأ «الأهرام» فقد كان ذلك في وقت مبكر جدا على مايبدو . وكان «كتاب» القرية قريبا من دارهم وكان صاحب الكتاب من عائلتهم أيضا ، وكان في نفس الوقت إمام مسجد القرية وكان شخصية مهيبة الجانب لايخلو من قسوة . وفي كتاب «سيدنا مصطفى» بدأ يتعلم القراءة والكتابة وبدأ يحفظ القرآن . ويبدو أنه لم ينل قسطا كبيرا من قسوة سيدنا لأنه كان حريصا على حفظ ما يطلب منه حفظه وأداء ما يطلب منه أداؤه .



د. يحيى الجمل

ولكن إقامته في كتاب القرية لم تستمر لأنه سافر مع أخيه الى عاصمة الدلتا «طنطا» حيث التحق بمدرسة لتحفيظ القرآن يديرها شيخ مهيب ، ينتمي بأصوله إلى قرية مجاورة . وكانت مدرسة هذا الشيخ ذات شهرة واسعة في قسوتها من ناحية وإجادتها من ناحية أخرى ومتابعتها للصبية متابعة تجعلهم لايلتفتون لغير واجباتهم وقراءتهم واكتشف فتانا في نفسه مبكرا حبه للأدب وشغفه بقراءة كتبه ، وساعد على إنضاج ذلك ماكان يسمعه من حوار هادىء أحيانا ومحتدم أحيانا بين أقاربه الكبار الذين كانوا يدرسون في طنطا إما في المدرسة الثانوية - وفي مقدمتهم أخوه الكبير - أو في الجامع الأحمدي ، وهم الكثرة من بني عمومته وآخرين من أهل القرية الذين يدرسون في طنطا والذين كان يطلق عليهم آنذاك وصف «المجاورين» كان فتانا يسمع تلك الحوارات ويصغي لها إصغاء واعيا . وكانت الحوارات تدور حول المعركة بين الرافعي والعقاد أو حول مدرسة طه حسين وكان اسم «الرسالة» وأحمد حسن الزيات وكتاب الرسالة تتردد في تلك الحوارات والفتى ينصت الى ذلك كله ويحاول أن يستوعب بعضا منه .



صورة مع أولاد العم فى القرية (كفر حجازى - منوفية)

وفى طنطا بدأ يتردد على مكتبة البلدية وبدأ يقرأ كثيرا من الكتب إلا أنه مازال يذكر حتى يومنا هذا بعد أكثر من خمسين عاما كتابا من بين تلك الكتب لم يبرح ذاكراته هو كتاب «المآسى التاريخية الكبرى» لمؤلفه حسن الشريف ، وكان الكتاب يدور حول أحداث الثورة الفرنسية وما حدث فيها من فظائع وما ارتكب باسمها من جرائم وما سال بسببها من دماء .. ومازال الفتى يذكر كيف قرأ ذلك الكتاب بنهم وكيف أنتهى من قراءته فى أيام معدودات ، وكان فى تلك المكتبة قسم للآثار الفرعونية كان الفتى يتردد عليه ويعجب بهؤلاء الأجداد العظام فى غير وعى ولا إدراك واضح . وعلى أى حال فإن المكتبة كانت تعنى أساسا بالنسبة له الإطلاع والقراءة ، أما التماثيل فكان يراها عرضا فى غير إبطاء ولا تدقيق .

وفى حوارات أقاربه الكبار كان اسم دريني خشبة أيضا يتردد وقال قائل إن

التكــوين

ذلك الكاتب الكبير كان له ابن شقيقة وكان دريني خشبة يريد لابن شقيقته تكوينا أدبيا فدفعه دفعا الى حفظ كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع وسمع أخوه ذلك وأراد من الفتى أن يحفظ كليلة ودمنة أيضا فى وقت لم يكن فيه قد انتهى من حفظ القرآن فى مدرسة الشيخ عبد الحميد قشطه . وأغراه أخوه بأن يعطيه قرشا عن كل صفحة يحفظها من كليلة ودمنة» وكان القرش آنذاك «يساوى ثروة ضخمة»، بدأ فتانا فى حفظ بعض الصفحات ولكنه لم يستطع أن يسير فى الشوط حتى نهايته .

وكان قد حفظ ستة وعشرين جزءا من القرآن ولم يبق له إلا أربعة أجزاء فقط عندما أرادت الأقدار أن تغير طريقه وأن ترسم له اتجاها آخر ..

كانت مدرسة تحفيظ القرآن التى يتردد عليها من المدارس المعدودة فى عاصمة الدلتا ولكن صاحبها كان بالغ القسوة وقال نال الصبى من تلك القسوة ذات مرة نيلا شديدا دون ذنب جناه فى تقديره وإن كان ذنبه لا يغتفر فى نظر الشيخ . ضبطه الشيخ وهو يضع رواية «الزير سالم أبو ليلة الهلالى» فى غلاف المصحف وهو يقرأ فيها ويطربه الشعر فيهز رأسه ويعلو صوته قليلا ويلاحظ الشيخ من أمره ما يلاحظ ، ثم يصحبه فى عنف وقسوة الى حيث «الفلكة» لكى يلقى جزاء لم يكن يحلم به .

وأصر على ألا يذهب إلى ذلك المكان بعد اليوم .

وجاء أبوه ولم تجد معه كل المحاولات نفعا . إنه لن يستمر فى ذلك الطريق ولماذا لايذهب الى المدارس الابتدائية كما فعل بعض أقاربه ممن هم فى مثل سنه .

وقد كان ..

وكان العام الدراسى يوشك أن ينتصف ولم يكن هناك من حل إلا أن يدخل «مدرسة أهلية» وكانت المدارس الخاصة فى ذلك الوقت ينظر إليها على أنها فى درجة أقل من المدارس الأميرية على عكس ماهو حادث الآن . وكانت مصروفات المدارس فيها أقل من مصروفات المدارس الأميرية .

ودخل الصبى السنة الأولى فى مدرسة ولى العهد الابتدائية فى طنطا ولكنه بعد ذلك دخل السنة الثانية فى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، واجتاز امتحان القبول بتفوق وحصل على المجانية التى كانت تتجدد كلما كان ترتيبه الأول على زملائه .

ولما دخل أخوه الجامعة ولم يكن هناك آنذاك غير جامعة فؤاد الأول فى القاهرة انتقل معه الى القاهرة .. ودخل أخوه كلية

الحقوق ودخل هو السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة شبرا الأميرية .

وكـــان من أوائل الناجـــحين في الابتدائية وحصل على مجانية التفوق أيضا عند دخوله مدرسة شبرا الثانوية .

وفي مدرسة شبرا الثانوية بدأ تكوينه الحقيقي يأخذ أبعاده . وكانت السنوات الخمس التي قضاها في تلك المدرسة هي البوتقة الحقيقية التي انضجت شخصيته والتي حددت الى مدى بعيد مسار حياته .

ولعله يحسن به قبل أن يستطرد في الحديث عن «شبرا الثانوية» أن يتحدث عن أسرته التي نشأ فيها والتي كان لها من غير شك أثر كبير في تكوينه النفسي .

أسرتي

كان الثاني بين إخوته. وكان أبوه رجلا طيبا مسالما يفيض حنانا وكانت أمه سيدة ذات شخصية قوية وشكيمة . كان الأب هو مـصـدر الحنان وكـانت الأم مـصـدر الضبط والربط على عكس ما يشيع في مثل هذه العائلات البسيطة ذات الجذور الريفية والتي تنتمي الى الطبقة المتوسطة.

وكانت أمه هي وحيدة أمها . وكانت شديدة التعلق بها على نحو غير عادي . وكانت جدته تلك على قدر من اليسر وكانت تنتمي الى عائلة كبيرة في قرية على الناحية الأخرى من فرع رشيد ، وقد رغبت تلك الجدة الى ابنتها أن تحتضن هي ذلك الصبي الذي رزقت به ولم تمانع الأم وانتقل الصبي وهو لم يبلغ العامين الى دار جدته ، ولم يكن لتلك الجدة من شاغل يشغلها غير ذلك الطفل فأغدقت عليه من حنانها وساعدها ما حباها به الله من ثروة على أن تبالغ في تدليله وتلبية طلباته . ولم تكن تلك الطلبات ، على أي حال تتجاوز مايطلبه صبي صغير مدلل ، وقضى الصبي مع جدته سنوات ثلاثا لم يكن يعرف فيها غير أنها أمه . فلما انتقلت تلك الجدة الى جوار ربها اعتصره حزن عميق وأحس أنه فقد أمه وفقد ينبوع الحنان الذي كان يتدفق ليملأ طفولته دفئا وحبا فلما فقدها وفقد معها ذلك كله أحس كأنه سقط من حالق .

ولم يعوضه عن حنان تلك الجدة وحبها شيء قط فقد كانت أمه عندما انتقل ليعيش معها غريبة عليه وكانت الى جوار ذلك مشغولة بالابن الأول وبابنة أخرى رزقتها والصبي يعيش في كنف جدته .. انتقل الى حيث وجد شركاء له ينازعونه في اهتمام تلك الأم الثكلى التي حزنت على أمها حزنا ليس بعده حزن وظلت تجتر هذا الحزن سنوات طوالا الى أن كبر أبناؤها وصاروا رجالا وسيدات وهي لا تفتأ تذكر أمها ، بل وتبكي عندما تذكرها، ومما لاينساه صاحبنا قط ما كانت تقوله أمه من أنها تجد راحة نفسية عندما تذهب لتزور قبر أمها وأنها ما

التكـــوين

كانت تجد مثل تلك الراحة فى دار أبيها حيث زوجات الأب والعديد من الإخوة غير الأشقاء. وفى داخل الأسرة الصغيرة فقد كان الفتى يلاحظ كثرة «النقار» بين أمه وأبيه وكان يحس احساسا مبهما بأن حياتهما ليس فيها كثير من الوفاق وإن كان فيها كثير من الإحساس بالمسئولية نحو الأبناء .

وقد تأثر الفتى بذلك كله تأثرا نفسيا شديدا جعله أقرب الى الانطواء وأقرب الى الحزن وأقرب الى سوء الظن بالحياة والأحياء .

وكان يحس أن أمه تعطى أخاه الكبير من حنانها وعطفها واهتمامها أكثر بكثير مما تعطيه له إن كانت تعطيه شيئا من ذلك كله فيما كان يحس به ولعل ذلك مما دفعه الى محاولة إثبات نفسه فى الدراسة والتفوق فيها ومما دفعه الى القراءة وتوسعة آفاقه .

ومنذ صغره وهو يحس بنوع من المسئولية نحو إخوته ونحو عائلته ونحو ذاته . فى شهور الصيف التى كان يقضيها مع الأسرة فى القرية كان يذهب الى الحقل ، وكان والده يكلفه ببعض الحسابات مع المستأجرين أو مع المزارعين وكان يقبل على ذلك راضيا سعيدا شاعرا بقدر من الأهمية .

جدته والقرية وكتاب القرية ومدرسة تحفيظ القرآن فى طنطا وأخوه وأصدقاء أخيه وحواراتهم ومناقشاتهم وحنان أبيه وشدة أمه هذه هى المكونات النفسية لصاحبنا الذى ننتقل معه الآن إلى مدرسة شبرا الثانوية .

فى ثانوية شبرا

وهنا دخل فى طور جديد من حياته .

فى شبرا الثانوية بدأ يجمع مع الاهتمام بالأدب الاهتمام بالسياسة وشارك فى أول مظاهرات فى حياته وانضم الى شباب الحزب الوطنى (كان ذلك قبل الثورة - الحزب الوطنى الذى كان يرأسه حافظ رمضان ودخله فتحى رضوان ليبث فيه روحا جديدة) وعقد صداقات مازال بعضها مصاحبا له حتى الآن .

فى مدرسة شبرا الثانوية كان عوده الأدبى قد اشتد نوعا ما ، وبدأت قراءاته تتنوع ولم تنته تلك المرحلة إلا وكان قد كتب أول مقال له فى صحيفة «المصرى» بعنوان «جمهورنا وفن الخلود» وكان المقال عن استقبال الجمهور المصرى لفيلم «هاملت» وكان ذلك عام ١٩٤٨ . وفى التوجيهية - وهى سنة اختتام الدراسة الثانوية - اجتاز امتحان مسابقة اللغة العربية وكان من أوائل الناجحين وحصل لأول مرة فى حياته على مكافأة مالية


صورة لزفاف ابنته مع الأسرة


مع الحفيد

قدرها عشرون جنيها بالتمام والكمال وكانت هذه الجنيهات العشرون آنذاك - منذ نصف قرن - تساوي في قوتها الشرائية بضع مئات من الجنيهات .

وكان في السنة الثالثة الثانوية عندما رأس الجمعية الثقافية في المدرسة وكانت الجمعيات الثقافية في المدارس الثانوية آنذاك خلية من خلايا النشاط الطلابي الخصب تقيم الندوات وترتب المسابقات وتصدر المجلات المدرسية وغير ذلك من الأنشطة الثقافية ، وقد انتخبه الطلبة رئيسا للجمعية التي كانت رئاستها قبل ذلك وقفا على طلاب القسم الأدبي من السنة الخامسة .

وفي مدرسة شبرا الثانوية أيضا بدأ اهتمامه بالحياة العامة عندما اتصلت أسبابه بأسباب بعض شباب الحزب الوطني وبدأ يتردد على اجتماعات ذلك الحزب وعرف حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعي وعبد العزيز الصوفاني وفتحي رضوان وعلى منصور وعرفه هؤلاء جميعا فقد كان من الشباب المتحدث القادر على الخطابة والإبانة الممتلىء حماسا ورغبة في العمل العام . ومازال بعض رفقاء هذه المرحلة من مراحل العمر يتواصلون ويتوادون ويتزاورون ويلتقون

التكــوين

فى بعض الأفـراح وفى غيـر قليل من المآتم لعل آخرها جنازة المرحوم الدكتور عصمت سيف الدولة الذى كان من أبرز أمثلة تلك الفترة والذى تواصلت معه العلاقة بعد ذلك - بين مد وجزر رغم الأرضية القوية الواحدة المشتركة ، والذى ودعه صاحبنا من أسابيع ولم يكن يتصور أن وداعه سيهزه على النحو الذى هزه أو أنه كان سينتحب كما انتحب وهو يحس أن جزءا غاليا وعزيزا من جدار الحياة قد انهار .

وانتهت الدراسة الثانوية وقد وضع رجله فى عالم السياسة ووضع رجله فى عالم الأدب .

وكذلك فإن قلبه قد نبض فى تلك الفترة بحب عذرى صامت ما أظن أن فتيان هذه الأيام يعرفون أو يقرون شيئا مثله .

كانت الفتاة تسكن فى الشارع الذى يؤدى الى مدرسة شبرا الثانوية وأظن أن أسمه كان شارع طوسون وكانت كل صباح تتجه الى شارع شبرا لتنتظر أو أوتوبيس المدرسة وكان يراها كل يوم تقريبا وهو ذاهب الى المدرسة وهى ذاهبة تنتظر الأوتوبيس وقد اشغلت قلبه وذهنه جميعا .

تجربة فى الأدب وتجربة فى السياسة وتجربة فى الحب خاضها صاحبنا جميعا وهو فى المدرسة الثانوية قبل أن ينتقل الى الجامعة ليدخل كلية الحقوق .

القانون حرفتى !

ولم يكن اختياره لكلية الحقوق محل تردد طويل .. كانت المقارنة القائمة فى ذهنه بين قسم الفلسفة فى كلية الآداب وكلية الحقوق وانتهى بينه وبين نفسه الى مقولة طيبة وعاقلة أيضا ، قال «لتكن الفلسفة هوايتى وليكن القانون حرفتى» ومازالت هذه المقولة صحيحة حتى الآن . إنه ليقرأ الفلسفة ويقرأ الأدب ، وإن مكتبته الخاصة فى منزله لتمتلىء بكتب الأدب والفلسفة أما كتب القانون فمكانها مكتبة العمل وحتى فى مكتبة العمل فإن كتب الفلسفة والأدب تزاحم كتب القانون .

وإنه ليذكر نقاشا بينه وبين المرحوم الأستاذ الكبير توفيق الحكيم وقد كان شديد الإعجاب به وقد قرأ كل ما كتبه الحكيم وإن كان قد تأثر تأثرا خاصا ببعض رواياته وكتبه وفى مقدمتها كتاب «زهرة العمر» الذى هو عبارة عن مجموعة من الرسائل الرائعة التى يصف فيها الحكيم معاناته فى تكوين نفسه فى باريس وكيف ذهب لدراسة القانون ثم ابتعد عنها وغرق فى الأدب والفن حتى أذنيه إنه ليذكر أنه قال للحكيم لقد حسمت الصراع لمصلحة الفن والأدب وكان ذلك إثراء وإغناء للأدب أما أنا فلم أستطع أن أحسم هذا الصراع ومازلت

أعيش فيه . وبعد حوار طويل قال له الحكيم إن المنطق هو الذى يغلب على تكوين ذهنك ورغم وجود بذرة الأدب والفن فى أعماقك إلا أن تلافيف العقلانية تحيط بك ومن هنا كان اختيارك للقانون وسيرك فيه بل وتحقيقك فيه شوطا ليس بالقصير ولو كان الفن والأدب هما الغالبين عليك لحسمت الصراع فى وقت مبكر كما حسمته أنا ثم أليس من الجميل أن يكون هناك بين القانونيين أدباء ؟!

على أى حال انتهى من دراسته الثانوية ودخل الجامعة واختار كلية الحقوق وأحب الدراسة فيها ووجد فيها متعة عقلية لا حدود لها ، ولكنه مع ذلك كان يعيش بهواه فى مكتبة الجامعة المركزية التى هى فى الأساس مكتبة كلية الآداب وكان كثير التردد عليها كثير القراءة فيها .

وفى تلك الفترة بدأ يتردد على مجلس العقاد يوم الجمعة من كل أسبوع .

وكان المرحوم الدكتور نظمى لوقا هو أحد أساتذته فى مدرسة شبرا الثانوية ، ونظمى لوقا وزوجته كانا من أقرب المقربين للعقاد ، وأخذه استاذه الى عب العقاد لما آنس فيه الإقبال على الأدب وعلى الفلسفة ولما عرف أنه قد قرأ أغلب ما كتبه العقاد وأنه تابع - رغم حداثة عمره - المعارك الأدبية التى خاضها العقاد أو تلك التى نشأت بين تلاميذ العقاد آنذاك وفى مقدمتهم سيد قطب وتلاميذ الرافعى وفى مقدمتهم سعيد العريان ، وكانت مجلة الرسالة هى النافذة والمائدة التى اطلع فيها على ذلك كله .

وأصبح من رواد جلسة العقاد الدائمين وأحبه الاستاذ الكبير والتفت إليه وإن لم يكن يعجبه فيه أنه كان من شباب الحزب الوطنى ذلك أن شباب الحزب الوطنى كانوا ينظرون الى سعد زغلول نظرة لاترضى الاستاذ العقاد ، ولم يكن العقاد مقتنعا بمصطفى كامل ، ولكنه كان شديد الاعتزاز بخليفته محمد فريد .

وفى جلسة العقاد عرف الكثيرين ، عرف الكثيرين من الاساتذة الكبار أمثال عثمان أمين وزكى نجيب محمود وعلى أدهم وعرف من الأجيال التالية انيس منصور ولبيب شقير وعبد الفتاح الريدى وعز الدين اسماعيل وغير هؤلاء . وهؤلاء كثيرون وكانت تلك الجلسة الأسبوعية أشبه بمائدة غنية حافلة بأطايب الفكر. ولاشك أن ما كان يستمع إليه من حوارات ومناقشات كان له أثر كبير فى تكوينه العقلى .

ومازال يذكر حتى يومنا هذا ذلك الحوار الذى جرى بين الاستاذ العقاد والصفوة من تلاميذه فى جلسة كانت تبدأ بعد انتهاء الجلسة الأولى حيث كان يبقى البعض فى الشقة المقابلة التى كان يقيم فيها عمر العقاد ابن شقيقه وقد يتناولون شيئا خفيفا من الطعام ثم تعود جلسة العقاد للالتئام من جديد بعدد أقل كثيرا

التكـوين

من العدد الذى يؤم الصالون فى الصباح وقبل صلاة الجمعة التى لم يكن أغلب رواد الندوة من الحريصين عليها . مازال صاحبنا يذكر ذلك الحوار الذى جرى فى أعقاب منح العقاد جائزة الدولة التقديرية فى الأدب . وكان طه حسين هو أول من حصل عليها فى العام السابق مباشرة . ولما تحدث العقاد فى الاحتفال بدأ كلمته بعبارة «دولة الحكم تكرم دولة العلم» أو ما يشبه هذا المعنى ولم يتطرق فى كلمته - كما فعل طه حسين وأطنب - إلى شكر جمال عبد الناصر ولما سئل العقاد عن ذلك أعرض عن الإجابة فلما ألح عليه بعض تلاميذه واطمأن هو قال :

إذا كان لابد من شكر فإنه كان على عبد الناصر أن يشكرنى وليس العكس . وعجبنا جميعا لهذا الجواب وأصابنا نوع من الوجوم وعدم الفهم وتطلعنا الى الاستاذ فى تساؤل عما يقصد فقال : بعد ألف عام ماذا يبقى من العقاد وماذا يبقى من عبد الناصر ؟ يبقى العقاد كاملا ويبقى من عبد الناصر أنه أعطى العقاد جائزة الدولة التقديرية . إلى هذا المدى كان اعتداده بنفسه يفوق الخيال .

وبدأ يتردد على الندوات واللقاءات الأدبية الى جوار حرصه على المشاركة مع شباب الحزب الوطنى - حزب فتحى رضوان قبل الثورة - وفى لقاءات ذلك الحزب توثقت علاقاته مع مجموعة من الشباب كانت حياتهم جميعا ترتبط ببعض ارتباطا وثيقا فيه نوع من الصوفية والغيبية ومازال حتى يومه هذا يعيش بعض هذه العلاقات . واحد منهم الى جوار الصداقة أصبح أخا له فى النسب والأخر شريكه فى العمل يلتقى به كل يوم فإن لم يلتق به يوما أحس كأن شيئا ينقصه. والآخرون يلتقون عادة عندما يودعون راحلا من الجيل القديم التفوا جميعا وهم يودعون فتحى رضوان والتفت غالبيتهم وهم يودعون عصمت سيف الدولة الذى رحل فجأة ودون سابق إنذار .

وكان إلى جوار الندوات الأدبية ولقاءات الحزب الوطنى السياسية حريصا على متابعة محاضراته فى كلية الحقوق بغير قليل من الجدية والاهتمام .

كان يجد فى محاضرات القانون متعة عقلية وكان يحرص على متابعة الاساتذة المحاضرين بسمعه وبصره ولم يكن يلجأ إلى كتابة المحاضرات من أفواه الاساتذة كما كان يفعل البعض من الملتزمين من الطلاب والذين كانوا عادة فى الامتحانات يتقدمون غيرهم من الطلاب ورغم أنه كان فى المقدمة دائما إلا أنه لم يكن دائما من الطلاب العشرة الأوائل رغم أن ترتيبه عند دخول الكلية كان الثالث بين المتقدمين من أوائل التوجيهية كان أول المتقدمين الى الكلية هو وصديقه يحيى



والدى عبد العزيز عبد الفتاح الجمل
الذى ساعد كثيرا فى تكوينى



استاذ بكلية الحقوق فى الشباب

الغطريفى الذى وصل الى منصب نائب رئيس مجلس الدولة منذ سنين وكانت الثانية اسمها ماجدة ولا يدرى ماذا صار من أمرها إلا أنها على اى حال لا وجود لها فى عالم القانون على قدر ما يعرف .

أساتذتى الكبار

وتتلمذ على يد ذلك الجيل من الاساتذة العظام فى كلية الحقوق الذين ذهبت غالبيتهم العظمى الى جوار ربها ولم يبق منهم إلا القليل القليل . وممن شغف بهم الطالب وأحبهم وإنه ليكتفى بذكر من ذهب الى جوار ربه استاذه حسين خلاف، واستاذه عبد الوهاب خلاف، ولا صلة قربى بين الاثنين رغم وحدة اللقب . كان الأول استاذا للاقتصاد والمالية العامة وكان واسع الاطلاع جم التواضع محبا للأدب وقد ارتبط صاحبنا حتى آخر أيام حياته رغم أنه كان قد ترك الجامعة وشغل عدة مناصب منها منصب الوزارة ومنصب السفارة ولكن صلته به استمرت مع ذلك حتى آخر حياته .

وان صاحبنا ليذكر أنه وقد صار هو بدوره وزيرا فى منتصف السبعينيات أيام الرئيس السادات أنه قابل استاذه وحاول أن يقبل يده إلا أن استاذه حال بينه وبين ذلك بقوة وعنف جعلته ينزل على رغبته.

أما الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله- فقد كان استاذا للشريعة الإسلامية وقد درس صاحبنا عليه أصول الفقه فى السنة الرابعة ومازال رغم مرور السنين الطوال

التكـــوين

يذكر جرس صوته القوى وبعض عباراته القوية الجريئة الساخرة وانتقاداته المرة للأوضـــاع انذاك وأرائه الجـريئـة بالغـة التحرر والاستنارة .

مـازال صـاحـبنا يذكـر مـاقـاله الشيخ خـلاف فى المدرج ذات يوم وهو يتـسـاءل عن ماهية الربا المحرم شرعا ، قال رحمه الله :

من كان يقرض من ولماذا ؟ .

ومن الأن يقرض من ولماذا ؟ .

فى الماضى كان الغنى يقرض الفقير لكى يجد قوت يومه أو لباس عيـاله أو ليسد حاجة من حاجاته الضرورية وإذا اقتضى المقرض من المقـترض فى هذه الصور وأمثالها فائدة على ما أقرضه من مال فذلك هو الربا المحرم شرعا وصاحبه فى النار خالدا فيها .

فإذا نظرنا لما يحدث الآن- والكلام له رحمه الله- وجدنا الأمر مختلفا تماما .

إن الفقير يقرض الغنى .

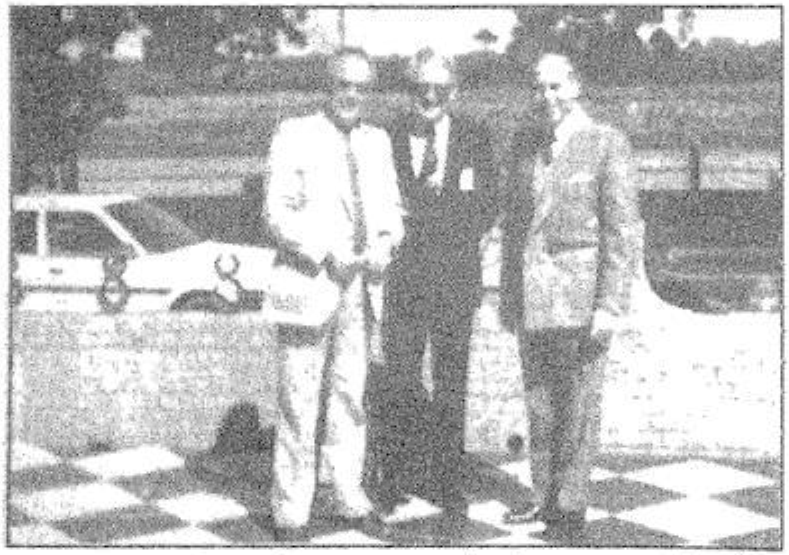
واشـــــرأبت أعناقنا فى تطلع واستفسار: كيف يقرض الفقير الغنى ؟

وقال الشيخ الجليل: نعم يقرض الفقير الغنى . عبد الوهاب خلاف وعلى الخفيف والقللى ووديع فـرج - وكلهم كـانوا من اسـاتذة كلية الحقـوق آنذاك فى نهـاية الأربعينيات- يضعون مرتباتهم فى البنك . والبنك يجـمع هذه الأموال والودائع من الفـقراء والمتوسطين لكى يقـرض عبـود باشا لكى يقيم مصنعا ضخما للأسمنت فى السويس . (وكـان المثل واقعيا فعلا آنذاك) ولكى يحقق من وراء إقامة المصنع الألوف والملايين من الأرباح. فهل إذا جاء البنك وأخـذ من عـبـود فـائدة على هذا القرض الذى سيوظفه فى الانتاج ويحقق من ورائه طائل الأرباح كان ذلك هو الربا المحرم .. لا وألف لا ، ثم أردف فـضيلته يرحمه الله أعوذ بالله من العقول العفنة ، ولم نكن ندرى ماذا يقصد آنذاك .

وغـيـر حـسين خـلاف وعـبـد الوهاب خـلاف كـان هناك الكثـيـر من الاسـاتذة الأفـاضـل الذين ذهبـوا الى الدار الآخـرة بعد أن أدوا رسـالتـهم كـأحسن مـايكون الأداء ويبقى من هذا الجيل اثنان أو ثلاثة مد الله فى عـمـرهم ومـتـعـهم بالصـحـة وجعلنا أوفياء لهم فى زمن قل فيه الوفاء .

وفى السنة الرابعـة وهو فى كليـة الحقوق كانت جماعات الفدائيين قد بدأت نشـاطهـا فى منطقـة قناة السويس التى كانت محتلة بالقوات البريطانية . وكانت للحـزب الوطنى مـجـمـوعـة من هذه المجـمـوعـات التى تعـمل هناك ولم يكن صاحبنا بعيدا عن هذه المجموعة وإن لم يتح له أن يشارك مشاركة فعلية ذلك أن حـريق القـاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ دهم الجـــمـــيـع وأدى الى اضطراب كل الحسابات.

وفى ذلك اليوم كـان فى الكلية وكـان محـاضرهم هو المرحوم الدكتور أمين بدر



مع أديب الجادر ود. محمد فائق أعضاء مجلس المنظمة العربية لحقوق الإنسان

استاذ القانون التجارى وكان عبقريا فى مادته وطنيا فى مشاعره بالغ الاعتداد بنفسه وبعمله الاكاديمى . وألقى الدكتور بدر كلمة وألقى هو أيضا كلمة فى طلاب السنة الرابعة ثم تفرق الجميع ومازال يذكر أنه هو وصديقه فتحى حسين خرجا من الجامعة واتجها الى شبرا سيرا على الأقدام ، وأنهما شاهدا آثار الحريق والتدمير الذى حدث وهما فى طريقهما عرجا على مكتب على منصور المحامى ومن قادة شباب الحزب الوطنى ليعرفوا منه الأخبار وليعرفوا منه أيضا ماذا يجب على الشباب الوطنى أن يفعله فى تلك الظروف ثم واصل هو وفتحى مسيرتهما إلى شبرا .

وأقيلت وزارة الوفد وأعلن الأحكام العرفية التى أظنها لم ترفع إلا لماما ، منذ يومها وحتى الآن .

وانطفأت حركة المقاومة وانتظم صاحبنا فى دراسته مع زملائه . وكان آخر العام .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت نتيجة الليسانس وكان من الناجحين المتقدمين .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مات عميد الكلية المرحوم حامد فهمى.

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قامت الثورة.

وانتهت بذلك سنوات التكوين ، وبدأت بعد ذلك ثمار التكوين .

● تزوير التــــــراث ●

نشرت بعض الصحف تصريحا لرئيس جامعة الأزهر الدكتور أحمد عمر هاشم ، أعلن فيه إنشاء مركز للدراسات الإسلامية وتنقية التراث بجامعة الأزهر .. وأوضح الدكتور هاشم أن المركز سيتولى إزالة كل دخيل ومدسوس أو ضعيف من داخل كتب التراث فى العلوم الدينية والإنسانية .

وهذا خبر خطير ومفزع من الناحية العلمية .

فالحقيقة أنه بالنسبة للتراث الإنسانى بكل فروعه ، ومن ضمنها فرع الدين، فإن هناك إجماعا عالميا بين دارسى التراث وهو عدم العبث به وتركه كما هو بنصه المخطوط الذى وصل إلينا .

وكل ما يفعله المحققون هو إضافة تعليقاتهم فى الهوامش (أو الحواشى) ويطبع الكتاب التراثى كاملا غير منقوص كما ورد فى مخطوطاته .

علما بأن المحققين يختلفون فيما بينهم فى تحقيق النص الواحد ، وذلك لاختلاف الرؤى والاجتهادات .

ان التراث مثل الآثار تماما لاينبغى العبث به ، ولايصح تزويره وإنى أخشى إذا أخذنا بهذا المبدأ أن يقوم البعض بكشط رسوم المعبودات الفرعونية من على جدران المعابد الأثرية ، واستبعاد عشرات أو مئات من كتب التراث العربى .

فتحى حافظ أحمد الحديدى
(دارس للتراث)

● اقتراحــــــات ●

تسعدنى فى مطلع كل شهر قراءة باب التكوين، واقترح كتابة – فى أحد أركان الصفحة – الأعمال الكاملة التى انتجها ضيف الباب كل شهر .

كما أتساءل عن عدم سخاء المجلة فى اصدار الأعداد التذكارية للمجلة وخاصة العدد المئوى (الذى صدر بمناسبة مرور مائة عام على المجلة) والذى لم أجده فى معرض الكتاب للسنة الرابعة .

وهل بالإمكان أن تعطينى مجلتنا الحبيبة نبذة مختصرة عن الكاتبة الأمريكية هيلين كيلير .

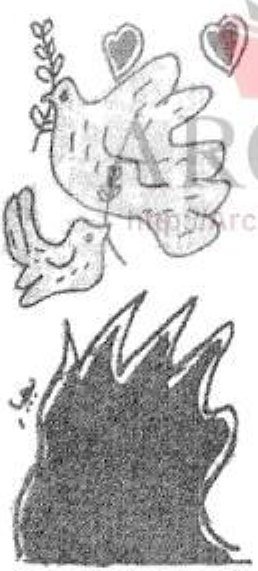
عاطف عبدالجواد على – مدرس لغة انجليزية
مدرسة الباسل الاعدادية – الفيوم

● تعليق :

– هيلين كيلير ، كتبت عنها مجلة الهلال غير مرة ، وتستطيع الرجوع إلى تلك الكتابات ، أما الأعداد التذكارية فتحكمها مناسباتها ، وقد نفد العدد المئوى وربما أعدنا طبعه ، والأمور مرهونة بأوقاتها ..

● السـلام الحائر ●

سلام : طيور
تجرد زيتوننا من غصون محبته
وترفرف فى النار خضراء قبل حلول الظلام !
طيور : غناء
يرصع راية أعلامنا بمسامير أقدامه فى ضلوع
تضاء بصوت هنا
وهناك الصدى، والسكون ببحر ينام !
غناء : نداء
من الخالدين لأهل الفناء ، يغيب ويأتى
يرطب أوجاعه باحتمالين
ينصب خيمته فى المهب ، ويفتح للريح باب الكلام !
نداء : رجوع
إلى أول الوقت قبل الوقوف على آخر الموت
قبل التحلل فى وتر الفوت
قبل التفرق فى منخل الصمت بين السما والرغام !



عبدالرحيم الماسخ – سوهاج

أنت والهلال

• عـودة واعتـذار •

عدت ياشعر ليس لى منـــك بد .:. عـودة الإلف لـلأليـفين حـمـد

لا تلمنى إذا تمــــردت يوما .:. ياصديقى ، فليس ذلك جحـد

إننى طائـــر الحنين أغنى .:. مـوطناً واهناً بعينيه وجد

لطخت وجهـــه المنير بذل .:. ألجمت ثغره الذى كان يشدو

الملايين من بنيـه تعـانى .:. ولدفع العناء لاتستعد

أكتفت فى شعار : «نحن فداك .:. نحن درع يقيك بل نحن جند»

أين من يزعمـون زورا هواه .:. هل لمن تعشقون ياقوم ود ؟!

فالعشيق الجميل أضحى أسيرا .:. حطموا قيده له استردوا

هل تقاسمينى الجـراح ؟ أفدنى .:. أيها الشعر ، هل لنا منك رفد ؟

ياندیمی ويارفيـق شـبابى .:. أنت للعدل سيفه أنت عضد

إن للنـار فى قوافيك وقــد .:. فى قلوب الطغاة كالشهب تغدو

كن سهاماً وطهر الأرض منهم .:. لا حيـاة لمن بنا يستبد

درهم جبارى - سان فرانسيسكو - كاليفورنيا

• مارقة فى ضيق المسافة •

وكنت لمحتها تمرق فى المسافة الضيقة من فتحة باب الخارج حتى تلج باب غرفة الضيوف ، وهو فى أثر خطوتها المتعجلة ، توقف على عتبة الباب ، نظر وغمز لى بعينه وحاجب عينه الأيمن ثم دلف وأوصد عليهما الباب .

- شفت !!

قالت محدقة فى وجهى كأنها تسبر أغوارى ، وأخذت تصف بنبرات مملوءة بالوله المفتعل والحنين الكاذب ، الفرق بين بنات هذه الأيام والبنات على أيامها .

- وهل كنا نتصور أن نزور شباناً فى بيوتهم !!

عباراتها كانت تميل إلى الاختصار ، وتذوب مقاطعها فى وقدة

أنفاسها الملتهبة ، يبدو جسدها كأنما مستسلما تحت وطأة خمول مختمر بالرغبات الحارة ، ولوهلة تسيل الأمور فى مجرى جنونى هادر ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يتغير مجرى الريح ... وكأن الريح هى التى اقتلعتنى من جوف المقعد المريح، جرفتنى متوجها للباب مباشرة ، النور يوشوش أسفل عقب الباب ومن ثقب المفتاح ، وفى غمرة اضطرابى ، طرقته طرقتين سريعتين وفتحته عن آخره .... من أول نظرة وقعت فى عينيها ، واتصلت عيوننا فى نظرة واحدة طويلة ساهمة مرعبة ، والجالس بجوار البنت ملتصقاً بها ، لم تتح له المفاجأة تبديل وضعه .... ومرت أزمان ، قبل أن تنكفىء بوجهها فوق ساعدها المفرود على ركبتيها ، وتغرق فى النشيج الحار .

عصام الدين الزهيرى

● الشاعر الأشقر .. محمد الأسمر ●

لم يكن الشاعر محمد الأسمر أسمر اللون كما يوحى بذلك اسمه بل كان أشقر البشرة ولما سئل فى ذلك قال : ان علماء البلاغة يطلقون على هذا النوع من التسمية المغايرة لواقع الحال بالتلميح، أما إذا انعكست الآية ويسمى صاحب اللون الأسمر بالأبيض فإن هذا يصبح نوعا من التهكم والسخرية منه .. والجدير بالذكر أن لقب الأسمر ينتشر بكثرة فى المغرب والشام .. ومن المصادفات التى وقعت فى حياه الشاعر محمد الأسمر انه ولد يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٠ وتوفى فى نفس يوم مولده سنه ١٩٥٦ .. ولد محمد الأسمر فى دمياط وبها تلقى تعليمه الابتدائى وتأثر فى نشأته الأولى بشعراء الربابة وهم يرددون قصة «أبوزيد الهلالى» ثم التحق بمعهد دمياط الابتدائى وحفظ الكثير من قصائد الشعر فصقلت موهبته ولما بلغ العشرين التحق بمدرسة القضاء وظل بها ثلاث سنوات ثم الغيت هذه المدرسة فالتحق بالأزهر، واثناء دراسته به عمل مصححا بجريدة «السياسة» التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ، وفى سنة ١٩٣٠ تخرج فى الأزهر وحصل على شهادة العالمية وعين بمكتبة الأزهر حيث أتيح له أن ينهل من أمهات الكتب العربية ودواوين الشعر القديمة والمعاصرة ثم أسندت إليه مراجعة الكتب الجديدة وإبداء الرأى فيها من الناحية الدينية والاجتماعية قبل التصريح بنشرها كما اختير عضوا بلجنة نصوص الأغانى بالاذاعة ثم عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .. قضى الأسمر الشطر الأكبر من حياته بالمجتمع القاهرى الذى عبر عنه

بعمق ونفاذ بصيرة فتناول فى أشعاره كل ماله صلة باهتمامات الناس ليصوغه فى قالب شعرى رصين فكان إذا حل بمنتدى شعرى شعر الحاضرون وكأن زهرة نضرة قد نبتت لتوها فى أفق المنتدى .. كان للأسمر فضل كبير على كثير من شعراء عصره خاصة من كان منهم فى أول عهده بنظم الشعر فيأخذ بيدهم ويقوم شعرهم ويمهد لهم السبيل لنشر أشعارهم فى بابه الذى كان يحرره بجريدة الزمان بعنوان «ركن الأدب» .

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

● توصيات مؤتمر المجتمع اللغوى للدورة الثانية والستين ●

١ - يوصى مؤتمر المجمع وزراء التعليم فى الأقطار العربية بتعريب التعليم الجامعى واتخاذ الخطة الكفيلة لتحقيق ذلك .

٢ - يوصى المؤتمر بأن تعنى الدولة بإنشاء هيئة عامة للترجمة لنقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى اللغة العربية .

٣- يوصى المؤتمر بضرورة الاهتمام الفائق باللغة العربية من حيث مادتها ومناهجها وأساليب تقديمها وأوقاتها المخصصة لها مع الاهتمام بإعداد المعلم القائم عليها ورعايته .

٤ - يوصى المؤتمر الحكومات العربية بضرورة الإسراع باستصدار تشريع يحظر كتابة اللافتات الأجنبية بحروف عربية .

٥ - يوصى المؤتمر بتدريس اللغة العربية فى جميع الكليات الجامعية والمعاهد العليا وأن تكون مادة أساسية .

٦ - يوصى المؤتمر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بالتزام اللغة العربية الصحيحة .

٧ - يوصى المؤتمر وزارات الإعلام فى الأقطار العربية بإعداد العاملين بها إعدادا لغويا صحيحا .

٨ - يوصى المؤتمر باستعمال الأعلام الجغرافية العربية الأصيلة ، وضبطها

والنطق بها نطقا صحيحا فى الدوائر التعليمية والإعلامية ، مع العناية بتحقيق ذلك على الخرائط المعدة له .

٩ – يوصى المؤتمر رجال الدولة وجميع المسئولين فى البلدان العربية أن يلتزموا اللغة العربية الصحيحة فى جميع خطبهم وبياناتهم .

١٠ – تبلغ هذه التوصيات إلى جميع وزراء التعليم والإعلام والثقافة فى مصر والأقطار العربية للأخذ بها وتنفيذها .

● لكن بشــــر ●

تذوبين بين الشذا والزهر ★ تضيعين بين السنا والقمر
وما بين ظنى ، وآه التمنى ★ تعودين فى ذبذبات الوتر
فيقتلنى فيك سحر العيون ★ ويبعثنى دلها .. والصور
رأيتك أنثى .. على القلب هلت ★ بطهر الملائك ..لكن بشر
شفاهك يختال فيها الكريز ★ وعبر الثنايا .. شعاع عبر
تزغرد فى وجنتيك الورود ★ وزرقة بحر .. بطرف فتر
فلا زلت أحيا .. بذكرى لقاء ★ تشكل عبر عبير القدر
فحرنا .. وصرنا كأنا فراش ★ تحترق بالوجد .. لم يصطبر
نرفرف فوق اللهيب حيارى ★ كطيف بدا لحظة .. واستتر
أفقنا وكنا .. مع الحلم ذنبا ★ مع الشوق نخطر .. أنى خطر
مشينا كأنا .. على الغيم سرن ★ تبسم فى ناظرينا السهر
رحلنا .. وفى القلب حل اشتياق ★ ليجمعنا .. فى الليالى الأخر

محمد عبدالوهاب جنيدى

● هى والضــــياء ●

عانق الضوء جسمها ولهانا ★ وطواها بساعديه حنانا
لف أعطافها وقبل منها ★ كل ما كان سافراً ومصانا
واحتوى صدرها يهدهد بالأنفاس ★ نهدا مفزعاً حيرانا

أنت والهلال

وهفا ضاحكاً إلى القمر الوضاء	يرنــــو ولا يريم مــــكانا
سال تبراً يموج فى وجنتيهـــا	وغدا فوق شــــعرها ألوانا
تارة فضة وطوراً نضــــاراً	وأصيلاً مذهبـــــاً نشوانا
خلتها والضياء يســـبح منها	فى نعيم زبرجـــــداً فتانا
ومرايا من مرمر ضـــج فيها	راقص الضوء فاستحالت جمانا

محمود عبدالعزيز عبدالمجيد - كفر الشيخ / ش دار البلدية

تنويه

نشرت فى العدد الماضى صورة للدكتور فؤاد مرسى على سبيل الخطأ فى موضوع «تطور الفكر الاقتصادى المصرى صفحة ٤٦ وننشر الصورة الصحيحة.



فؤاد مرسى

● أمين الخـــــولى ●

بدأ حياته الأدبية والفكرية بعد تخرجه مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى عقب تخرجه فيها سنة ١٩٢٠ ورئيساً لتحرير مجلة القضاء الشرعى ثم استقبل فى أوربا مرحلة جديدة من تكوينه الثقافى وبعد ان رسخت جذوره فى البيئة العربية والإسلامية واستوعب علوم العربية والإسلام رواية ودراية وعاد إلى مصر فاستأنف التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى إلى أن أغلقت فانتقل إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة حيث أسس فيها مدرسة جديدة أصلت بمناهج البحث ورسخت تقاليده واستشرف تلاميذه فيها إلى آفاق عالمية رحبة فكانوا هم أيضا نمطا فريدا متميزا من الجامعيين كما شغل منصب المستشار الفنى لدار الكتب المصرية والمدير العام للثقافة بوزارة التربية والتعليم مع عضويته بجامعة القاهرة ومجمع اللغة العربية وأمانته لمدرسة الأمناء ورياسة تحرير مجلتها الأدب لعشر سنين ومن أعماله الخالدة (مناهج تجديد – فن القول – فى الأدب المصرى – مالك بن الأنس – المجددون فى الاسلام – من هدى القرآن –رسالة الأزهر فى القرن العشرين – صلة الاسلام بالمسيحية)

وما حقق من كتاب المغنى فى العدل والتوحيد وانساب الأشلاف للبلاذرى وما قدم من بحوث أدبية إلى المؤتمرات الدولية وانتقل إلى رحاب الله يوم الأربعاء ٩ / ٣ / ١٩٦٦ وله من المؤلفات ٧٠ كتابا ودفن فى بلدته شوشاى – مركز أشمون بمحافظة المنوفية .

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى – القاهرة

□□□



أبى يغزو وأمى تحدث

بقلم : د. محمود الطناحى

هذا مثل شائع من أمثال العرب ، وأصله فيما ذكر ابن الأعرابي : أن رجلا قدم من غزوة ، فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر ، فجعلت امرأته تقول : قتل من القوم كذا ، وأسر كذا ، وجرح كذا ، والرجل صامت لا يتكلم ، فقال ابنها متعجبا : « أبي يغزو وأمي تحدث » هكذا رواه المفضل بن سلمة ، والميداني ، ورواه الزمخشري « وأمي تُحبر » والتحبير : التزيين ، ثم قال : يُضرب لمن يفتخر ببلاء غيره .

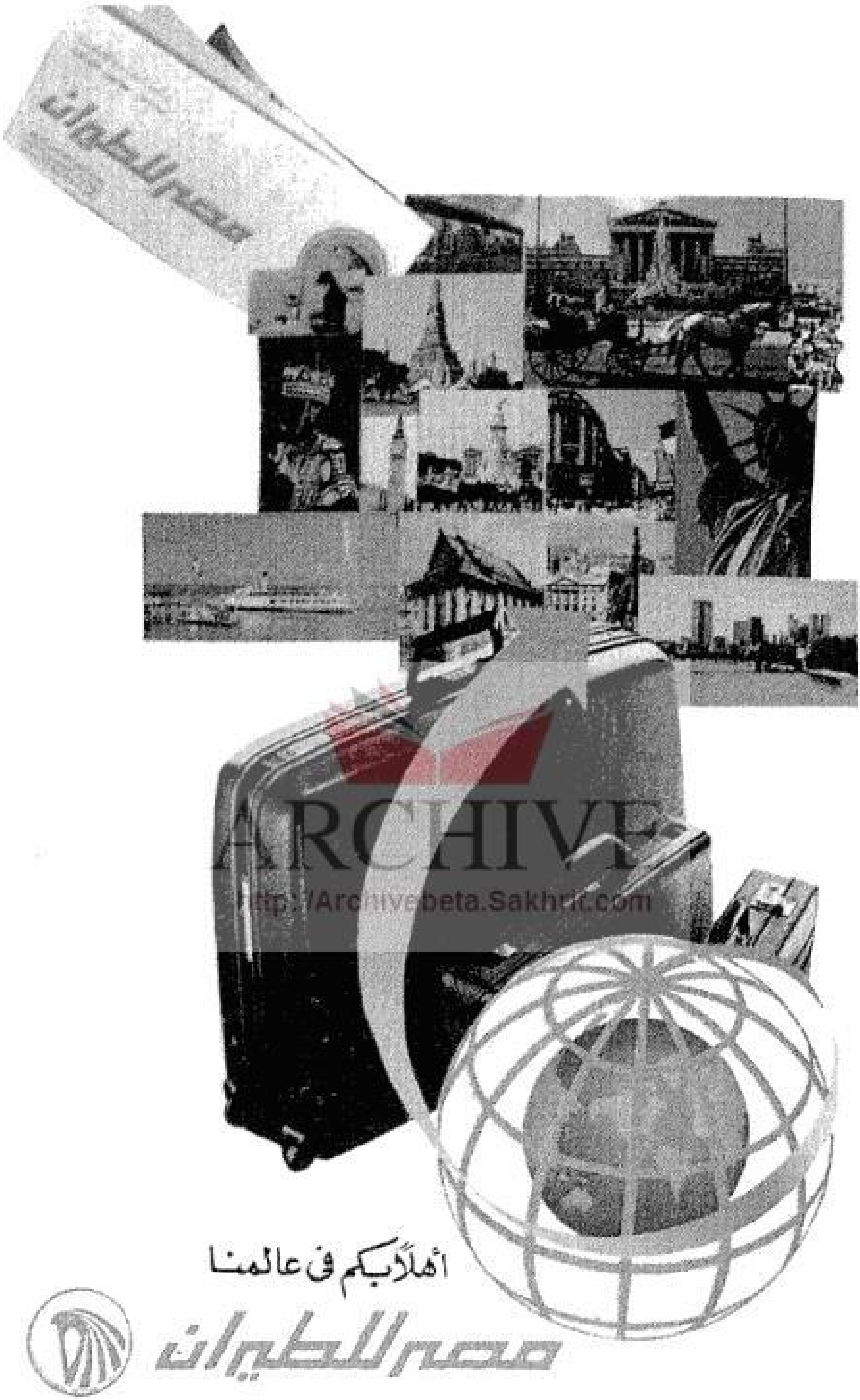
وأنت ترى أيها القارىء الكريم وأنا أرى معك تصديق هذا المثل كل يوم فيمن يتحدثون كثيرا على ألسنة غيرهم ، ويحملونهم ما لم يحملوا ، ويقولونهم ما لم يقولوا ، وكثيرا ما يضيفون الى ذلك كلاما آخر عن أنفسهم هم ، معتدلين أو مبالغين.

وقد ذكرت هذا حين قرأت عقب وفاة شيخ المجمعيين الدكتور ابراهيم بيومي مدكور كلمة بالأهرام لأحد أساتذة الجامعة ، نعى فيها الدكتور مدكورا ، ذاكرا بعض مآثره وآثاره ليخلص بسرعة الى الحديث عن نفسه هو وتلاميذه هو ، ثم رآها فرصة ليضع كتفه بجوار كتفه ، وهامته إلى هامته ، فيذكر خلافه معه فى الرأى والقضايا الفلسفية الكبرى .

وذكرت هذا المثل أيضا يوم حصل فارس الرواية العربية نجيب محفوظ ، على جائزة نوبل العالمية ، وانطلقت أقلام المُنظّرين والمتفلسفة ، تحال وتفسر ، وتستنطق الأديب الكبير بما لم يقله ، بل إن بعضهم ألبسه « برنيطة » فرد فنه الروائي الى فلان الانجليزي ، أو فلان الفرنسي ، والرجل ساكت لا ينطق ، مجامل لا ينفي ، وكأنه يقول في نفسه « لا والله ليس الطريق هنالك ! » . على أن أديبا من هؤلاء الأدباء أعطى لنفسه خصوصية عجيبة بنجيب محفوظ ، فهو لايزال يشعرنا بأنه الأقرب والأحظى عند الأستاذ ، وأنه مستودع سره ، ومستراح ضميره ، ويقول مرة : أبي نجيب ، ومرة : عمي نجيب ، ثم يتمادى فيرد أدبه الى أدبه ، ويقرن فنه بفنه ، ويابُعْدَ ما بينهما !

ويذكر تلاميذ الأستاذ العقاد وجلساؤه أن ذلك الكتاب الذى كتبه هذا الأديب الشهير والصحفي الكبير عن « صالون العقاد » فيه تزيد غير قليل على العقاد ، وأن قدرا كبيرا من المكتوب إنما هو عن الكاتب لا عن العقاد ، هكذا قالوا والعهدة عليهم ، فإنى لم أجالس العقاد رحمه الله، وقد فاتني بذلك خيرٌ كثير .

على أن هذا كله يذكرنا بمثل عربي آخر ، هو قولهم : « سَيْرَيْنِ في خُرْزَة » والسير معروف وهو من الجلد يُصنع منه النعال ، ويُضرب هذا لمن يجمع حاجتَين في حاجة واحدة ، وما أصدق العرب فى أمثالها وحِكَمها !


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



أدبيات

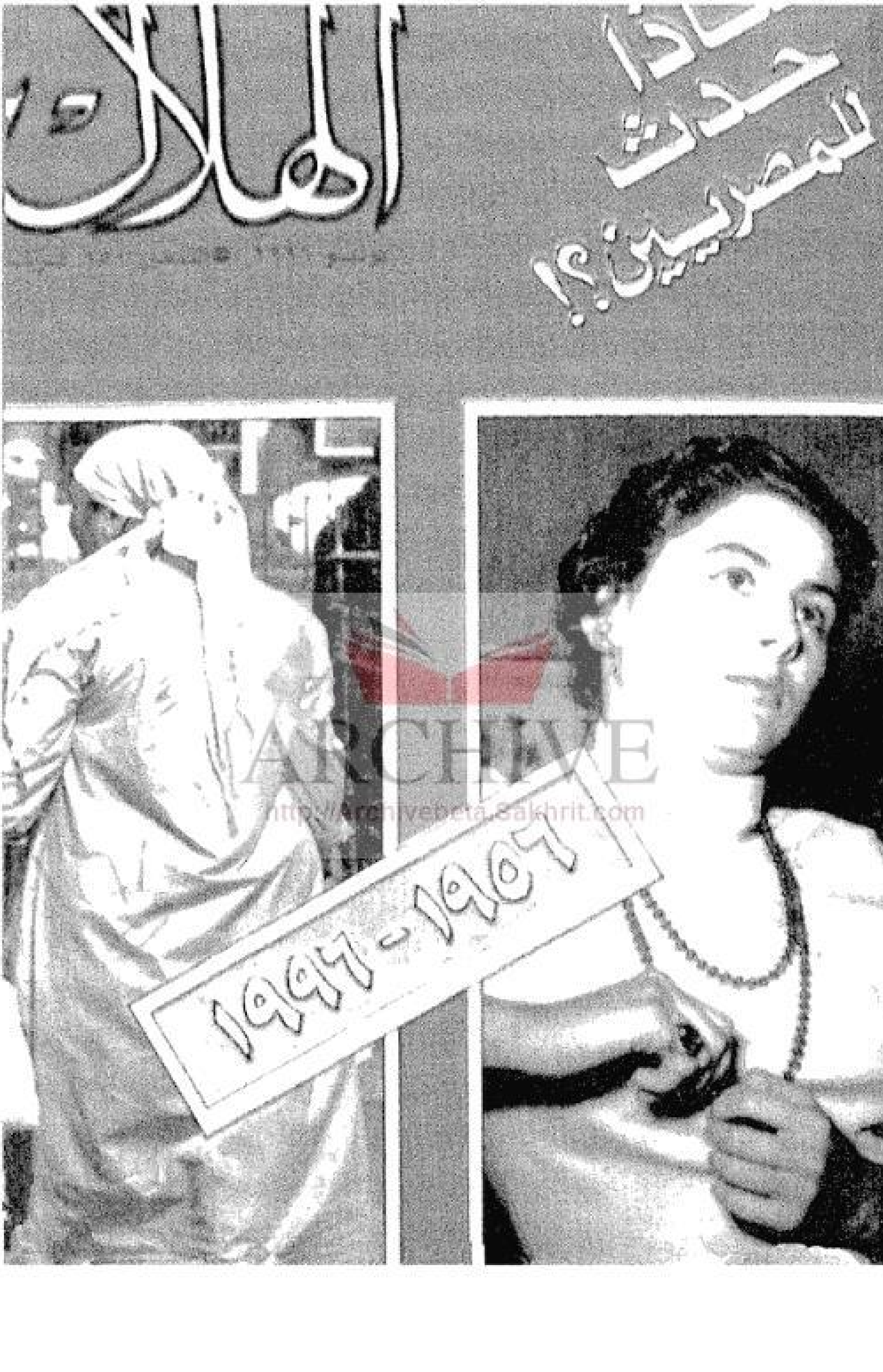
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب، وقصة، ودراسة، وسير، وبحوث، وفكر، ونقد، وشعر، وبلاغة، وعلوم، وتراث، ولغات، وقضايا، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياسة ... إلخ.

صدر من هذه السلسلة:

- الإنسان الباهت.	طيبة أحمد الإبراهيم
- الحياة مرة أخرى.	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسي.	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب.	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١.	د. محمد رجب البيومى
- أم كلثوم.	مجدى سلامة
- المرأة العاملة.	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفي.	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى).	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ.	مجدى سلامة
- انقراض رجل.	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة.	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب.	مجدى سلامة
- الشخصية السوية.	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية.	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد.	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة.	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات.	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ.	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى.	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات.	د. نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢.	د. محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة.	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول.	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة.	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية، وملك بنى أمية.	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم.	طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠، ١٢ شارع ١٢ المنطقة الصناعية بالعباسية - المكتبات ١٠، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى - روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت: [illegible] - فاكس 2072596650


الهلال
حدث
للمصريين ؟!
١٩٥٦ - ١٩٩٦



« الأم الغجرية » للفنان مارتينسكو – متحف الفنون – يوغسلافيا

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ - تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٠٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



تصميم الفنان
حلمي التوني

فكر وثقافة

شعر وقصة

حاخامات الليكود ومسيحهم الزائف..!

بدأ الصيف منذ أيام بداية حارة .. شديدة الحرارة، كأنه يعلن عن مجيئه الذى لايتأخر أبدا .. ولكن الحرارة الشديدة التى شعرت بها شعوب العالم لفحت وجوه العرب ، بشكل خاص كما لم تفعل فى شعب من الشعوب !

.. ولعل السر فى هذا كان اشتعال النار فى الأرض المحتلة ، بأيدى المتعصبين الصهيونيين أصحاب الأساطير والتلفيقات التاريخية والدينية التى تنسب الى «التوراة» وتتحول على أرض الواقع الى مجازر ومذابح !

لقد أوصل هؤلاء المتعصبون فتاهم المدلل ومسيحهم الزائف «المخلّص» الى سدة الحكم فى إسرائيل عن طريق «صناديق الاقتراع» لقد وصل «بنيامين نتانياهو» الى مقعد «رئيس مجلس الوزراء» ومن خلفه «تكتل الليكود» المتعصب المتحالف مع متطرفى اسرائيل وحاخاماتها . ومع نائب عربى فلسطينى دخل الكنيست فى قائمة الليكود !

لقد تشكلت فى اسرائيل حكومة «الجنرالات والحاخامات»، وانتصرت «التوراتية الدموية» على «التوراتية السلمية» .. بانتصار «نتانياهو والليكود» على «بيريز والعمل» .. والمقارنة هنا مجرد مجاز لغوى ، إلا أن بينهما فرقا.

وهتف المتعصبون في اسرائيل ، والذين دلت صناديق الاقتراع على أن عددهم حوالى «٥١٪» من سكان اسرائيل ـ فى شوارع القدس وتل أبيب وبئر سبع : «لقد قامت اليوم دولة اسرائيل!!» .

أى أن مجىء «بنيامين نتانياهو» أو «بيبى» كما يحبون أن يدللوه هو قيام وبعث جديد لدولة اسرائيل وعقيدتها السياسية الصهيونية التوراتية !

عزيزى القارىء :

لم يكن اليمينيون والقوميون والحاخامات فقط هم سلالم «بيبى» الى الحكم بل كان المتطرفون على الجانب الآخر أيضا ، من «حماس» وغيرها وبما مارسوه من تفجيرات قبيل الانتخابات ، حافزا كبيرا للإسرائيلى اليمينى لكى يتمسك بيمينيته ونظريته و«مخلّصه» ! فكان التطرف الدينى ـ على الجانبين ـ عنصرا أساسيا للغاية فى توصيل تلك «الصفوة المتطرفة» الى الحكم هناك !

إن أعمال «حماس» قبيل الانتخابات قد أدت إلى النتيجة نفسها التى أدت إليها أعمال الليكود ، فالرجعية فى الجانبين وقفت فى خندق واحد، وحصلت على نتيجة واحدة ! مع أن «حماس» ضد الليكود ، والليكود ضد حماس !

لقد اختار الشعب الإسرائيلي من يحكمه في «حرية انتخابية» من هؤلاء الذين جعلوا «الأمن الإسرائيلي» صنمهم المعبود ، واتخذوه رباً من دون ربهم الذي جعلهم شعبه المختار !!

وأظهرت النتائج ماوصل اليه المجتمع الإسرائيلي من انقسام حاد شقُّه بالفعل «نصفين» : الأول مع إسرائيل الباطشة المتوسعة التي تقتل أطفال العرب، والآخر كان يريد القفز ـ عبر نظرية بيريز ـ الى منطقة تعاون اقتصادي لا تلجأ الي السلاح وتؤمن بمبدأ «الأرض مقابل السلام» مع أن اليهود اغتصبوا الجانب الأكبر من هذه الأرض !

إن اللاّءات الثلاث التي ألقاها «بيبي» في وجه العرب ـ دون مبالاة ـ هي جزء من الصلاة التوراتية الجديدة التي كان بيريز يحاول التستر عليها ولو إلى حين !

عزيزي القارىء :

لقد قتل الإسرائيليون ـ بما وصلوا اليه من الهوس ـ محاولات السلام مرتين ، الأولى بقتل جنرالهم رابين والثانية باسقاط «حمامتهم» بيريز ومايمثله عموما في الحياة السياسية الاسرائيلية ، مع أن بيريز في التحليل النهائي صهيوني وشارب دماء ، والسؤال الذي يطرح نفسه حاليا هو : هل هناك فارق حقا بين «إيجال عامير» قاتل رابين وبين «نتانياهو» قاتل بيريز ؟ «أي قاتله سياسيا» ؟!

وإذا كانت قمة القاهرة التي انعقدت في الحادي والعشرين من الشهر الماضي قد بعثت الحرارة في عزائم الأمة العربية التي امتلأت برودة في المرحلة الأخيرة ، وخدرها مايسمى «بالنظام الشرق أوسطي» ودفعها الى «الهرولة» و«العجز الاستراتيجي» فإنها لم تطفيء النار في فلسطين لأن هذا هو المسار الحقيقي عند المستوطن الاسرائيلي ! هذا المستوطن الذي ملأوا عقله بوهم أن فلسطين أرض بلا شعب، تبحث عن شعب بلا أرض ! .. ولا يملأ تلك الأرض إلا شذاذ الآفاق الذين قذفت بهم سفن الاستعمار الى فلسطين ليصنعوا منها أرضهم الموعودة عنوة واغتصابا !

... وفي النهاية نعترف بأننا كنا نظن أنه لايمكن للعرب الاجتماع ولا الاجماع في المرحلة الحالية ، ولكن اجتماعهم وإجماعهم في مصر، فتحا باب الأمل لما هو أكثر من ذلك وأبعد أثرا. ولعل عشق «الهرولة» لا يغلب العاشقين، ولعل الطبع لايغلبه التطبع ، ولا التطبيع ، فالعدو في مواجهتنا ، والبحر من ورائنا ، وليس لنا ـ والله ـ إلا الصبر والمناجزة ، كما قال طارق بن زياد قبل ألف ومائتي سنة وهو يحرق السفن لكيلا يفكر في الاستسلام للأعداء ولكيلا لايطمع الأعداء في استسلامه !

«المحرر»

البصمة الوراثية وفك طلاسم الجريمة

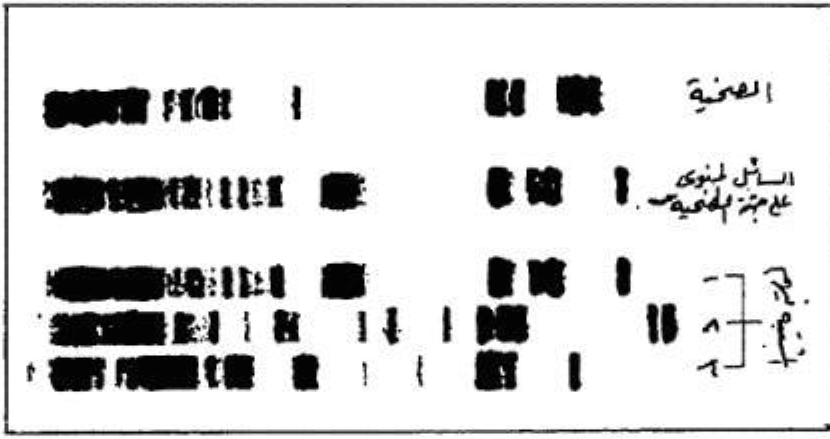
بقلم : د. أحمد مستجير

تذهلنا الأرقام «الفلكية» كثيرا ، وهى أرقام هائلة رهيبة لاتصدق . الضوء يتحرك بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية ، يقطع المسافة ما بين القاهرة والإسكندرية ويعود ستمائة مرة فى ثانية واحدة . بكوننا مائة مليون مجرة ، بكل منها فى المتوسط مائة بليون نجم . وبمجرتنا نحن - درب التبانة - ٤٠٠ بليون نجم. وتذهلنا الأرقام «الخلوية» أيضا تدعونا إلى التأمل العميق . إن وزن الدنا بالخلية البشرية - الدنا: المادة الوراثية التى تشكل كياننا وصفاتنا - لايزيد على ستة من مليون مليون من الجرام ، ينشأ كل فرد منا من خلية واحدة (زيجوت) تأتى عن اندماج حيوان منوى ببويضة ، ثم يتضاعف دناها فى خلايا الجسم التى يبلغ عددها نحو ٦٠ ألف مليون خلية .

فإذا جمعنا دنا كل الزيجوتات التى شكلت المادة الوراثية الأساسية للستة بلايين إنسان الذين يعمرون وجه الأرض اليوم، فإن وزنه لن يزيد عن ٣٦ ملليجراما - ٠,٠٣٦ من جرام واحد . هذا القدر الضئيل من الدنا هو نحن كلنا - لسنا سواه !

هو الذى يشكل كل حياة البشر ، منه نكون : القصير منا والطويل ، السمين منا والنحيل ، القبيح منا والجميل ، الظريف منا والثقيل ، السليم منا والعليل، الحقير منا والنبيل - كل هذه العبقريات، كل هذا الخيال . كل هذا الفكر ، كل هذه الآداب والفنون والعلوم ، كل هذا الشعر !

لكل منا دناه الذى يختلف عن كل دنا سواه ، لم يوجد لك فى الدنا مثيل . لا يوجد ولن يوجد . لكل بصمته الوراثية !



تبين هذه الصورة خمس بصمات وراثية .. الواضح ان بصمة المشتبه فيه رسم (١) تطابق تماما بصمة السائل المنوى

ليندا مان

قرية ناربره قرية انجليزية صغيرة تبعد ستة أميال جنوب غرب مدينة ليستر ، بها كانت تقطن ليندا مان . صبية تبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، شعرها أسود وعيناها سوداوان ، طيبة مهذبة ، ممتلئة بالحياة ، تحب كل ما يحبه الشباب : الموسيقى والملابس والماكياج . كان الجو غاية فى البرودة يوم الاثنين ٢١ نوفمبر ١٩٨٣ ، عندما خرجت فى المساء لتزور صديقة لها . لم تعد الصبية إلى منزلها حتى الواحدة والنصف صباحا ، فأبلغ أهلها البوليس ، وفى السابعة والثلث من صباح اليوم التالى عثر على جثتها : باردة متخشبة ، بعد أن اغتصبت وخنقت . لم يترك الجانى أى أثر سوى السائل المنوى على الجثة ، من هذا السائل عرفت فصيلة دمه – كانت فصيلة لايحملها إلا نحو ١٠٪ من رجال انجلترا .

قرية الرعب

انتشر الخبر ، وسرى الذعر فى القرية، أطلقت الصحافة اسم «قرية الرعب» على ناربره ، فى خلال اسبوعين كان فريق التحقيق قد حقق فى مئات البلاغات ، طلبت والدة ليندا على صفحات الجرائد : «هذا الرجل يجب أن يعاقب . أرجو ممن يعرفه أن يفكر طويلا قبل ان يتستر عليه ، لم نعد نستطيع الحياة». وعلى أوائل يناير كان البوليس يطلب يائسا من كل من يعرف شيئا أن يتصل به، بحلول شهر فبراير كانوا قد استجوبوا ثلاثة آلاف شخص – كل شباب القرية تقريبا ، وفى يوم ٢ فبراير دفنت ليندا فى مقبرة لاتبعد سوى خطوات قليلة عن

المكان الذى لقيت فيه حتفها ، قام المخبرون بتصوير فيلم للجنازة يظهر فيه كل من شارك ، وعلى شاهد القبر كتب :

ليندا روزمارى مان

توفيت يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٣ فى عمر الخامسة عشرة .

لم نتمكن من أن نقول لك وداعا ، لكنك معنا دائما .

لجأت والدتها إلى وسيطة تحضير أرواح قالت «إنه رجل ضخم قوى البنية»

● أليك جيفريز

على مبعدة بضعة أميال من ناربره كان ثمة عالم شاب بجامعة ليستر ، يبلغ من العمر ٣٤ عاما يقوم بأبحاث مثيرة ، كان اسمه أليك جيفريز ، كان على وشك ان يقع على اكتشاف سيذهل الجميع، لاسيما أهالى ناربره .

كان هذا الرجل فيلسوفا من نوعا ما ، قال إن الكثيرين ترعبهم التضمينات الأخلاقية للهندسة الوراثية دون أن يعرفوا ماهية هذا العلم ، الهندسة الوراثية ليست باكثر من لعبة ، إن تكن ذات امكانيات لاتحد · سنصنع بها أدوية جديدة، سنحسن بها انتاج المحاصيل وحيوانات المزرعة . سنقضى بها على الكثير من الأمراض . قال إن العلماء كانوا هم أول من نبه الى احتمالات الخطورة فى تجارب الهندسه الوراثية، ثم اثبتت الخبرة ضآلة هذه الاحتمالات . فمن يتخيل ان يستعمل العلماء البشر كحيوانات تجارب ؟ وحتى لو حاولوا ، فهل ستتركهم حكوماتهم؟ إن ما يخفيه حقا هو احتمال أن يقوم الناس باختيار صفات ابنائهم بنفس الطريقة التى يختارون بها العربة أو الثلاجة . لكن المجتمع لن يسمح بأن يتدخل العلم فى الطبيعة الى هذا المدى .

كان كل العاملين مع جيفريز – طلابا ومعاونين وزملاء – يجلون أسلوبه فى البحث والإدارة ، الرجل متحمس دائما شخصيته تلهم الجميع بالأفكار .

● التهيهة الوراثية

نعرف أن المادة الوراثية (الدنا) للكائنات الحية (من البكتريا حتى الإنسان) تتشكل فى صورة لولب مزدوج مع جديلتين كل مؤلفة من سلسلة طويلة مؤلفة من تتابع من أربع قواعد كيماوية (أو حروف) هى الأدنين (أ) والثايمين (ث) والسيتوزين (س) . والجوانين (ج) تتابع متفرد يصل طوله فى الإنسان مثلا إلى نحو ثلاثة آلاف مليون حرف ، يقسم عادة إلى عدد من الكروموزومات (انظر مقالا لهذا الكاتب بعدد يناير ١٩٩٦ من مجلة «الهلال»). على الكرومزومات تقع الجينات (المورثات) تتألف الجينات التى تشفر للصفات من مقاطع من هذا اللولب يتراوح طولها عادة ما بين المئات وعشرات الآلاف من القواعد ، لا تعمل كل الجينات بكل الخلايا ، إنما يعمل بها فقط ما يهمها من الجينات .

بدأ أليك جيفريز تجاربه بتفحص

التباين بين الجينات غير الضارة التى تشفر لبروتينات طبيعية . كان يحاول ان يتعقب الجينات فى تحركها عبر الأجيال من الأبناء الى الآباء إلى الجدود ، وكان يأمل أن يعزل مناطق من الدنا تختلف اختلافا واضحا بين العائلات حتى يمكن ان تستخدم كواسمات .

كان الجين الذى يهمه جينا يصنع الميوجلوبين – وهذا بروتين قريب من الهيموجلوبين ينقل الاكسجين فى أنسجة العضلات . كان العمل يحتاج الى كمية كبيرة من نسيج غنى جدا بالميوجلوبين – كأنسجة الحوت أو الفقمة ، فهذه الحيوانات تحتاج إلى قدر كبير من الميوجلوبين يزود عضلاتها بالأكسجين أثناء الغطس الطويل . تمكن العلماء من تحديد هوية جين الميوجلوبين فى الفقمة ، واستخدموا البيانات فى الوصول إلى النظير البشرى للجين ، وهنا بدأت المفاجآت تظهر .

وجد العلماء – مطويا داخل الجين البشرى – مقطعا من الدنا مكررا مرات ومرات ، يتكون لب هذا المقطع من خمسة عشر زوجا من القواعد ، ويشبه كثيرا تتابعات دناوية عثر عليها الوراثيون بالكروموزومات الأخرى وتتكرر مئات المرات . أدرك جيفريز إن مادتنا الوراثية تقع على تتابعات دناوية عديمة القيمة وتكررها ، مثلما يتلعثم الشخص منا فى كلمة ، فيكرر المقطع الأول منها مرات ومرات قبل أن ينطق بها . هذه المكررات الدناوية إذن هى تهتهة فى الكلام الوراثى.

فى يوم ١٥ سبتمبر ١٩٨٤ أجرى جيفريز تجربة استخدم فيها مكررة الخمسة عشر زوجا من القواعد كمسبر ، بعد ان علمها بالاشعاع ، ليرى إن كان يستطيع ان يرصد التتابعات المكررة عبر الطاقم الوراثى ، إذا ما وضعت هذه المكررات المشعة على فيلم فوتوغرافى ظهرت فى صورة خطوط غامقة ، عندما نظر الى أول فيلم ، خطرت بذهنه على الفور فكرة البصمة الوراثية – لتكون النظير العصرى لبصمة الاصبع ، تلك التى تمكن بها الفونس بيرتيون عام ١٩٠٢ من القبض على الجانى فى جريمة قتل رهيبة وقعت فى باريس . كانت التتابعات المكررة التى حدد جيفريز هويتها تختلف فى الطول (من ١٦ إلى ٦٠ قاعدة) ، لكنها جميعا كانت تحمل بداخلها مكررة الخمس عشرة قاعدة الأساسية .

تتلخص طريقة العمل فى استخلاص جزيئات الدنا النقية من عينة من خلايا الدم. ثم تقطيعها بانزيم معين من انزيمات التحديد – وهذه هى «مقصات» المهندس الوراثى يمكنه بهـا أن يقطع الدنا فى أماكن بذاتها ، أماكن يحددها تتابع معين من القواعد كان انزيم التحديد الذى استخدمه يقطع الدنا عند أى زوج من القواعد تحده قاعدتا ج، أ من ناحية و ث، س من الناحية الأخرى، يشغِّل الانزيم

الدنا اذن إلى قطع صغيرة، اللهم إلا شظية واحدة طويلة - تلك المكونة من التتابعات المكررة (التهتهة) فهي لا تحمل أي زوج من القواعد تحده ج أ ، ث س . تحفظ إذن هذه الشظية كاملة لاتقطع . الحصيلة اذن قطع مختلفة من الدنا طويلة تحمل التتابعات المكررة المميزة لصاحب الدم - يتوقف طول كل شظية منها على عدد المكررات التي تحملها والذي يميز الفرد . تفصل شظايا الدنا بعد ذلك الى شرائط مختلفة الطول والموقع عن طريق التفريد الكهربي ثم يضاف اليها مسابر دنا مشعة صممت خصيصا لتلتحم بتتابعات المكررات لتبين صورة متفردة · هي البصمة الوراثية .

***

في يوم ١٩ نوفمبر ١٩٨٤ ظهر بجريدة «ميركوري» عمود عنوانه «قصص لتنشيط الذاكرة» عرض به مجددا ملخص لمقتل ليندا في يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٣ ، وقصة عن المليونيرة ثريا خاشوقجي التي طلبت من المحكمة ان تسجن زوجها السابق - وكان الناس لاشك يذكرون قضيتها ! ثم مضت الجريدة يوما بعد يوم تنشر مقالات تلخص العمل الهائل الذي يقوم به المحققون في قضية ليندا ، لتنتهي بمناشدة الناس أن يساعدوا جهات التحقيق .

***

وعند مرور عام على مقتل ليندا عثر أحد العمال على صليب صغير ، ربطت به زهرة حمراء في المكان الذي قتلت فيه الصبية .

البصمة الوراثية

من أولى التجارب التي قام بها أليك جيفريز لاستخدام البصمة الوراثية ، دراسة في عائلة يختبر بها ما إذا كان نظام توريث البصمة بالبساطة التي يتوقعها . ولقد اتضح له بجلاء أن نصف الشرائط والخطوط على فيلم الأشعة السينية يجئ من الأم والنصف الآخر من الأب ، كانت أنماط الشرائط بطريقة بسيطة ، وكان هذا شيئا مثيرا للغاية .

ثم حاول أن يعرف ثبات نظام الشرائط في نفس الفرد إذا اختلف النسيج ، أخذ عينات من نفس الفرد : من الدم ومن السائل المنوي فاتضح ان البصمة الوراثية ثابتة بغض النظر عن نوع النسيج الذي أخذت منه العينة ، جرب أيضا حساسية النظام لحجم العينة، وظهر أنه حساس بما فيه الكفاية : نقطة دم تكفي ، قطرة صغيرة من السائل المنوي فيها الكفاية ثم جرب التأكد من النتائج على عينات قديمة ، ونجح الاختبار ، جرب الطريقة على كائنات مختلفة - حيوانات وأسماك - فثبت أيضا نجاحها ثم انه حسن الطريقة فرفع درجة وضوح صورة الأشعة السينية وهنا قام جيفريز باعداد بحثه للنشر .

لكنه لم يتحدث عن اكتشافه إلا في



وجه كارين برايس كما شكله ريتشارد نيف بالصلصال مستخدماً عظام جمجمتها

نوفمبر ١٩٨٤ – بعد عام من مقتل ليندا ، وكان ذلك في مؤتمرين عقدا في لندن . سجل الرجل براءة اختراعه . وظهر بحثه في مارس ١٩٨٥ ، وقال فيه أن احتمال ان تتشابه بصمتان لفردين تكاد تكون صفرا – أو ان اردت الدقة فالاحتمال هو واحد من مليون مليون مليون . إن عدد الناس على الأرض يبلغ نحو ستة آلاف مليون، لذا فمن المستحيل ان نجد شخصين لهما نفس البصمة الوراثية (اللهم إلا كل توأمين متطابقين) لم يظهر ولن يظهر على الأرض شخص يحمل بصمتك الوراثية .

بعد نشر البحث مباشرة استدعى جيفريز ليجرب طريقته في حل قضية صبي يعيش في افريقيا ادعى ان أمه تحيا في بريطانيا وقال موظفو الهجرة انها عمته . اثبت جيفريز صحة دعوى الصبي .

***

اهتم الصحفيون بجيفريز ، قالوا ان طريقته يمكن ان تحل الكثير من المشاكل بمسلسل «دالاس» التليفزيوني !

حصل جيفريز على الاستاذية بسبب كشفه، وانهالت عليه الميداليات والجوائز، واختير عضوا بالجمعية الملكية ، ثم صرح بأنه يأمل ان يعرف بطريقته في مجال الطب الشرعي . نشر هذا التصريح في الجريدة المحلية بناربره بعد سنتين من اغتيال ليندا . في الفقرة الأخيرة قال «إن التقنية تعني اختراقا لمجالات جديدة ، من بينها تحديد هوية المجرمين من عينة صغيرة من الدم يعثر عليها في موقع

الجريمة»

دون آشويرث

مرت سنتان على وفاة ليندا ، وفى اليوم التالي عشر مرة أخرى على صليب فى نفس مكان اغتيالها ، فى يوم الخميس ٣١ يوليو ١٩٨٦ اختفت دون اشويرث . كان عمرها خمسة عشر عاما ، جميلة مهذبة ذات شعر بني وعينين زرقاوين لامعتين تلائمان شخصيتها التى تضج بالحياة ، خرجت ولم تعد حتى التاسعة والنصف مساء ليبلغ والدها البوليس . عثر فى يوم السبت على جثتها عارية على مقربة من المكان الذى قتلت فيه ليندا وكانت عليها بقايا السائل المنوى للمغتصب. ضربت الفتاة بعنف قبل ان تقتل ، ويبدو ان الجانى قد اغتصبوا بعد موتها

اصدر كاهن الكنيسة نداء للقاتل ان يسلم نفسه «لقد ارتكبت جريمة شنعاء ، وعليك ان تسلم نفسك وتطلب عفو والدى دون وعفو المجتمع كله. عليك ان تسلم نفسك وترضى ضميرك ، لأنك ستقابل خالقك قريبا لتبرر أمامه هذا الجرم الفظيع الذى ارتكبته » وكتبت الجريدة المحلية «أصبح من المؤكد الآن ان ثمة فى مجتمعنا شخصا مريضا جدا أو شريرا جداً .. مريضا أو شريرا – ليغتصب صبيتين مراهقتين – كمثل ابنتك أو ابنة جارك .. يبدو ان الصبية دون قد جرحت مغتصبها ، إذا كنت تعرف رجلا ظهر به جرح أو كدمة بعد يوم الجمعة ، فمن واجبك ان تبلغ البوليس على الفور» ثم ظهر اعلان عن جائزة قدرها ١٥٠٠٠ جنيه (رفعت فيما بعد إلى عشرين الفا) لمن يقدم بيانات تؤدى الى اعتقال القاتل .

ريتشارد بكلاند

فى الخامسة من صباح الجمعة ٧ أغسطس ، وبعد تحريات طويلة اقتحم البوليس منزل ريتشارد بكلاند ، بواب مستشفى القرية ، واعتقلوه كانت الشبهات قد حامت حوله طويلا بعد ان ابلغ أحد اصدقائه أنه قد عرف بمقتل دون آشوبرث قبل أن يذيع البوليس الخبر اعترف بكلاند بأنه قد قتل دون بعد ان اغتصبها ، ثم وصف للمحقق بالتفصيل كيف تم ذلك لكنه انكر تماما مقتل ليندا مان .. قرر المحقق ان يجرب تقنية جيفريز الجديدة ، فأرسل عينة من دم بكلاند وعينة من السائل المنوى الذى عثر عليه بجثة ليندا ، وأخرى من السائل بجثة دون ارسلها إلى رجل الوراثة الشاب بجامعة ليستر ، على أمل ان يثبت الاختبار ان بكلاند قد ارتكب الجريمتين بعد ذاك بأسبوع وصلته مكالمة تليفونية من جيفريز

– لدى خبر طيب ، وآخر سيئ ،

– علىّ أولا بالسيئ ..

– بكلاند لم يقتل ليندا ، وهو أيضا لم يقتل دون اشويرث !

- مستحيل ! مستحيل ! أليس ثمة

مجال لخطأ ؟

– كلا إذا كانت العينات التى ارسلتها صحيحة !

– الخبر الطيب اذن ..

– عليك ان تبحث عن رجل واحد .. قاتل الفتاتين شخص واحد .

افرج عن ريتشارد بكلاند – أول برئ في التاريخ تنقذه البصمة الوراثية !

غير ان البوليس لم يقتنع ، ومضى يبحث عن أدلة أخرى ضد بكلاند . إن عمل البوليس ليس علما ، إنه نوع من الفن، والفنان لايتنازل عن رأيه بسبب مثل هذا الهراء العلمي! وكما قال المحقق «إن مهمتنا هي ان نجمع من الشواهد ما يكفي لإدانة هذا المجرم ، ولن تهمنا هذه البصمة الوراثية ! » ثم وصلت رسالة من مجهول تقول «ابحثوا عن خباز يدعى كولين بيتشفورك» .

وبدأت المطاردة من جديد

قال رجال البوليس انهم سيبدأون شيئا لم يسبق له مثيل – سيختبرون دم كل شاب يعيش بالقرية وبالقريتين المجاورتين ، كثافة الحيوانات المنوية بالسائل المنوى على الجثتين تؤكد ان القاتل شاب : «على كل شاب من القرى الثلاث يقع عمره ما بين ١٧ و ٣٤ عاما ان يقدم عينة من دمه ولعابه حتى يرفع اسمه من قائمة المشتبه فيهم» . كان على فريق التحقيق ان يثق فى كفاءة البصمة الوراثية . جهزت فرق كل من خمسة اطباء لأخذ عينات الدم ، أرسل خطاب الى كل شاب إذا ما جاء الشاب ومعه الخطاب قابله ضابط ليتأكد من شخصيته ويأخذ أقواله ، ثم تؤخذ منه عينة الدم واللعاب ليستبعد على الفور إذا ثبت أن مجموعة دمه تخالف مجموعة دم القاتل وعلى نهاية يناير كان عدد من قدم العينات نحو الف شخص وعلى شهر مايو بلغ العدد ٣٦٥٢ شابا. عملية «إدماء» لم تحدث قبلا فى التاريخ، نقلت على الهواء فى تليفزيونات استراليا والولايات المتحدة وفرنسا وهولندا والسويد.

وفى عصر يوم ١ أغسطس– بعد مرور عام على مقتل دون اشويرث – كان ثمة عدد من الأصدقاء يتسامرون فى حانة ، عندما جاء ذكر كولين بيتشفورك قال أحدهم بعد أن رشف جرعة من كأسه وملأت الابتسامة وجهه:

– لقد قمت مقام كولين فى الاختبار!

– أى اختبار؟ تقصد فى تحقيق جريمة القتل؟

– نعم.

– غريب هذا الأمر لقد طلب منى كولين نفس الشئ وعرض على مائتى جنيه ولكننى رفضت! قال لى انه لايثق فى البوليس انه حقا شخص عجيب.

سمعت صاحبة الحانة هذا الحديث ولم تستطع ابدا ان تقصيه عن ذهنها لكنها مكثت ستة اسابيع قبل ان تخطر البوليس بما سمعت، يتأكد البوليس من ان توقيع

بيتشفورك على استمارة عينة الدم مزيف، فيقبض على الصديق ليحكي كل شئ.

وفي يوم السبت ١٩ سبتمبر كان ستة من افراد وحدة البوليس في انتظار بيتشفورك قرب منزله حتى يعود وعندما عاد طرقوا باب منزله في السادسة الا ربعاً مساء، وقبضوا عليه.

اعترف الرجل بأنه قتل الفتاتين، أخذت عينة من دمه وارسلت الى معمل جيفريز ليؤكد ان البصمة الوراثية للدم تطابق بصمة السائل المنوى على الجثتين وفي ٢٢ يناير ١٩٨٨ صدر حكم عليه بالسجن مدى الحياة.

كارين برايس

اذا ما كان الدنا قديما جدا فهل يصلح لبصمة جيفريز الوراثية؟ ان واحدة على الأقل من القواعد الأربع التي تشكل الدنا (هي الثايمين) تتأكسد مع الزمن، واذا تأكسدت انهارت جديلة الدنا وتهشمت وطريقة جيفريز تعتمد على شظايا طويلة فهل من سبيل آخر؟

في ٧ ديسمبر ١٩٨٩ كان بعض العمال يحفرون بالحديقة الخلفية لأحد المنازل بمدينة كارديف عندما عثروا على سجادة قديمة ملفوفة، وربطت بسلك بداخلها وجدوا حقيبة بلاستيكية سوداء تحمل هيكلا عظميا، كانت يد الضحية موثوقتين خلف الظهر، كان الهيكل العظمى لفتاة مجهولة عمرها ١٦ عاما، الواضح انها قد خنقت ثم دفنت من أعوام طويلة.

لم يستطع البوليس البدء في اجراءات التحقيق قبل التعرف على شخصية القتيلة. عهد البوليس الى ريتشارد نيف بمهمة اعادة تشكيل صورة الوجه بالصلصال باستخدام عظام الجمجمة، فتمكن من تجسيم ملامح الوجه متتبعا تضاريس الجمجمة يحدد بها العضلات واحدة واحدة . نشرت الصورة على أوسع نطاق فتعرف عليها شخصان من سكان المنطقة. الفتاة هي كارين برايس، ولقد اختفت منذ شهر يوليو ١٩٨١ لكن هذا لم يكن كافيا لدى البوليس لتأكيد هويتها .

هل من الممكن ان يستخلص الدنا من عظام دفنت ثمانية أعوام؟ نعم العظام تحمل دنا لكنه لاشك قد تهشم الآن، ثم ان دنا بكتريا التربة سيلوث دنا العظام.

على ان اريكا هاجابرج، عالمة البيولوجيا الجزيئية بجامعة أكسفورد تمكنت بعد طحن بعض من العظام من تجميع عينة من ٠,٥ - ١ ميكرو جرام من الدنا، ثم اتضح ان ٩٩٪ منها من دنا البكتريا، كانت تقنية جديدة اسمها «تفاعل البوليميريز المتسلسل» قد اكتشفت، وبها استطاعت ان تضاعف الدنا البشري الى كميات وفيرة تكفي التحليل. ولما كان الدنا قد اصابه كثير من التحلل فقد وجدت اريكا انه من الممكن ان تستخدم مكررات اخرى قصيرة توجد ايضا بكثرة في الطاقم الوراثي البشري - مكررات من اثنتين فقط من القواعد مثلا أس أس أس.. وتمكنت اريكا

وجيفريز من العثور على عدد من هذه المكررات واتضح أن عدد هذه المكررات يختلف ما بين الأفراد ، كما ان كلا من هذه التتابعات تطوقه نفس الحدود بغض النظر عن عدد المكررات داخلها – الأمر الذى يمكن من إنتاج ملايين النسخ فى المعمل من اى تتابع متكرر.

لجأت هاجلبرج الى والدى كارين واخذت عينات من دمهما، وسلمتها الى جيفريز الذى تمكن من ان يؤكد ان الهيكل العظمى يخص كارين (باحتمال قدرة ٩٩.٩٪).

بدأ البوليس اذن فى استجواب معارفها فانهار احدهم – اريس على – وارشد عن القاتل . وكان عامل بناء اسمه الان تشارلتون، قتلها عندما رفضت ان تقف عارية امامه ليصورها . بعد محاكمة استمرت خمسة اسابيع حكم عليه فى ٢٦ فبراير ١٩٩١ بالسجن مدى الحياة.

ملاك الموت

ولقد استخدم تصنيف الدنا بهذه الطريقة الجديدة لتحديد الهوية فى حل لغز أكثر فظاعة . كان ثمة طبيب المانى اسمه يوسف مينجله ، عرف أثناء الحرب العالمية الثانية باسم« ملاك الموت» على الرغم من أنه كان يشبه كلارك جيبل ، وكان وصمة عار حتى بين زملائه من مجرمى الحرب النازيين ، كان قد تسبب فى قتل الالاف بمعسكر الاعتقال بأوشفيتز ، وأجرى تجارب طبية بالغة البشاعة على السجناء هرب مينجله عام ١٩٤٥ بعد نهاية الحرب إلى مكان مجهول بأمريكا الجنوبية ، ثم أذيع انه قد مات غريقا ودفن فى مدينة امبو بالبرازيل .

أخرجت الجثة وفحصت . كان هيكله العظمى – وأسنانه – تتوافق تماما مع ماهو معروف عنه لكن الرجل كان مخادعا طول عمره فماذا يمنع أن تكون ثمة خدعة؟

استدعى جيفريز ، فتمكن بمعاونة هاجلبرج من استخلاص قدر ضئيل من الدنا من عظام دفنت قبل ست سنوات ، ثم كان المطلوب قطرة من دم ابنه رولف . رفض الابن التعاون . لكنه وافق بعد أن هدد بنبش قبور جثث كل عائلة مينجله لفحص دناها . أوضح جيفريز أن الهيكل العظمى بالفعل ليوسف مينجله (بدرجة تأكيد بلغت ٩٩,٨٪) فأغلق ملف «ملاك الموت» .

صورة وجهك تجرى فى دمك

لو أن المشروع العالمى للطاقم الوراثى البشرى تمكن من بلوغ هدفه وفك الشفرة الوراثية الكاملة للإنسان – وهو ماقد يتحقق فى ظرف خمسة عشر عاما – فربما كان لنا ان نتوقع أن نرسم صورة كاملة لوجه «القاتل» من دنا نستخلصه من قطرة دم تركها فى موقع الجريمة أو بصقة بصقها هناك أو شعرة منه سقطت ولنا أن نتخيل ما سيصيبه من ذعر إذ يجد صورته على صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون بعد أيام من ارتكاب جريمته !

تخليد عالم رغم أنفه

حكاية جودفرى هارولد هاردى

بقلم : د . عبد العظيم أنيس

الأدب والعلم والثقافة الثالثة

بقلم : د . أحمد مستجير

فى المقال المهم للدكتور أحمد مستجير فى عدد مارس الماضى من الهلال بعنوان «الأدب والعلم والثقافة الثالثة» يشير إلى كتاب الكاتب البريطانى «تشارلس بيرسى سنو» (الثقافتان والثورة العلمية) الذى كان استطرادا لمحاضرة ألقاها فى جامعة كمبردج عام ١٩٥٩ .

والثقافتان اللتان يعنيهما سنو فى محاضرته أو كتابه الذى طبع منه أكثر من ثلاثين طبعة حتى عام ١٩٩٣ هما ثقافة الأدباء وثقافة العلماء ، وبين أصحابهما من الشكوك المتبادلة بل الازدراء المتبادل ما يهدد مستقبل مشاكل وهذا العالم ومستقبل التكنولوجيا فى رأى سنو .

وكمثال على هذا الجفاء المتبادل يقول سنو : إن رجال الادب إذا ما جلسوا إلي بعضهم البعض أشاروا إلى أنفسهم باعتبارهم «المثقفين» وكأنه ليس ثمة غيرهم. ويتذكر سنو في كتابه ما قاله له العالم الرياضي (الاستاذ بجامعة كمبردج في الثلاثينيات) جودفري هارولد هاردي «هل لاحظت كيف تستخدم كلمة مثقفين الآن ؟ يبدو لي أن ثمة تعريفا جديدا للثقافة لا يضم بالتأكيد رزفورد ولا إدنجتون ولا ديراك ولا أدريان ولا أنا. تعريف غريب ، أليس كذلك ؟» .

ويدلل الدكتور مستجير على هذه الحقيقة قائلا : إنه رجع إلى معجم الأعلام بقاموس المورد ليبحث تحت اسم «هاردي» فلم يجد إلاّ توماس هاردي الروائي والشاعر الانجليزي الكبير ، أما جودفري هارولد هاردي (١٨٧٧ - ١٩٤٧) أستاذ الرياضيات بجامعة كمبردج وأحد كبار العلماء الانجليز الذي يعرفه باحثو علم الوراثة بقانونه المشهور (قانون هاردي فاينبرج) فلا يرد له ذكر في معجم اعلام المورد .

وقد أضيف إلى كلام الدكتور مستجير أنني بحثت تحت اسم «هاردي» في دائرة المعارف الامريكية Lexicon فلم أجد أي ذكر للعالم الرياضي هاردي وإنما وجدت الروائي الشاعر فقط .

من هو جودفري هارولد هاردي إذن الذي ظلمته القواميس والمعاجم ودوائر المعارف فلم يرد له ذكر فيها ؟ وهل كان حقا يستحق أن يرد ذكره في هذه المعاجم ؟

هاردي رياضي نابه دون شك شغل كرسي الرياضيات في جامعة كمبردج الذي شغله نيوتن من قبل والمفارقة أن هاردي لو كان قد عرف بأن ما سوف يخلد اسمه في دنيا العلم هو قانون الوراثة «قانون هاردي فاينبرج» ، وليس أبحاثه في سائر فروع الرياضيات البحتة الاخرى ، لكان قد استاء من هذا بشدة فهو يعمل في فروع الرياضيات البحتة بقناعة أن الرياضة البحتة «لا تضر ولا تنفع» وكراهية تشبه كراهية التحريم لفروع الرياضة التطبيقية التي أدت إلى اختراع أدوات الدمار على البشرية . وكان هاردي يفخر بموقفه هذا ولا يخفيه ، وقد عبر عنه في كتابه الشهير «اعتذار رياضي» An Appolgy in of aM-athematician. الذي كتب مقدمته في طبعته الثانية عام ١٩٦٧ الكاتب البريطاني سنو صاحب كتاب «الثقافتان» ، وصديق هاردي رغم فارق السن بينهما وهذا الكتاب (اعتذار رياضي) نموذج فريد لرياضي كبير يفكر فيه «بصوت عال» ويتأمل فيه حياته التي قضاها كلها باحثا

فى دنيا الرياضيات البحتة .

ولم يستقبل الكتاب عندما صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٠ بالحفاوة التى يستحقها عالم كبير مثل هاردى ، خصوصا من علماء الرياضيات المشتغلين بالتطبيقات والمعروفين باسم علماء الرياضة التطبيقية . وليس هذا غريبا فهاردى كان دائما يفخر ببعده عن تطبيق الرياضيات وإخلاصه للرياضيات البحتة «التى لا تضر ولا تنفع» كما اعتاد أن يقول ، وهو القائل فى كتابه (اعتذار رياضى) : «إن وضع المشتغل بالرياضيات التطبيقية هو من بعض النواحى أدعى إلى الرثاء» .

وكان مصدر موقف هاردى هذا أنه كان راديكاليا معاديا للحرب ، وإن لم يكن مشتغلا بالسياسة اليومية ، وقد أدى موقفه هذا إلى العديد من المضايقات له فى جامعة كمبردج ، وزادت المرارة فى نفسه بعد فصل برتراند رسل من الجامعة (وكان هو أيضا معاديا للحرب عام ١٩١٦، وعندما انتهت الحرب ترك هاردى كلية ترينتى بجامعة كمبردج التى كان أستاذا بها وذهب إلى «نيو كوليج» فى جامعة أكسفورد . فالحياة فى كمبردج لم تكن مريحة له بسبب مواقفه الراديكالية ، وظل فى اكسفورد إلى أن مات هوبسون أستاذ كرسى الرياضة البحتة فى جامعة كمبردج عام ١٩٣١ ، فعاد هاردى إلى كمبردج وشغل الكرسى الذى كان يشغله هوبسون، وفى هذا العام كان أول لقاء له بالكاتب البريطانى سنو على مائدة الغداء بالجامعة .

والحقيقة أننا مدينون لكل من سنو والرياضى البريطانى تتشمارش (أحد مساعدى هاردى) بالقليل الذى نعرفه عن حياة هاردى ، فأولهما كتب مقدمة كتابه (اعتذار رياضى) عام ١٩٦٧ كما كتب عن هاردى فى أحد كتبه (كتاب السبت) والثانى كتب الرثاء الذى قرأ فى حفل تأبين هاردى عند وفاته عام ١٩٤٧ ، وقدم فيه بعض لمحات من حياته .

كتب سنو فى كتابه (كتاب السبت) يشرح انطباعه عن هاردى بعد أول لقاء لهما : «إن ذكاءه كان واضحا ومتوهجا ومركزا وواضحا بحيث يبدو أى شخص آخر بجانبه سوقيا بعض الشىء ومشوشا . ولم يتكلم أحد معه مدة خمس دقائق إلا وشعر أنه أمام شخص ولد عبقريا أيا كان تعريف تلك العبقرية .. كان آنذاك فى

أوائل الخمسينيات من عمره ، وكان شعره أبيض بالفعل فوق جلد حرقته الشمس بحيث يبدو وكأنه نوع من اللون البرونزى الخاص بالهنود الحمر ، مع عظام عالية للخد وأنف رفيع .. وكانت كمبردج مدينة شوارعها مملوءة بالوجوه المتميزة غير العادية . لكن هاردى كان طرازا وحده»

قانون هاردى

وكان هاردى من النوع الذى يحب بشدة ويكره بشدة . فإلى جانب ولعه الجم بفروع الرياضيات البحتة المختلفة كان هاردى أيضا شديد الولع بلعبة (الكريكيت) وجمع حب هذه اللعبة بينه وبين سنو . ولم يكن هاردى مجرد لاعب عادى بل كان لاعبا ماهرا يقود فريقه ، والغريب أن هذا الولع الشديد بلعبة الكريكيت هو الذى أدى به - كما سنشرح فيما بعد - إلى أن يحل إحدى مسائل الرياضة التطبيقية الخاصة بعلم الوراثة لأول وآخر مرة فى حياته ، وهذه المسألة التى سميت بعد ذلك «قانون هاردى فاينبرج» وهى التى خلدت اسمه فى علم الوراثة رغم أنفه !

أما كراهيته للبحث فى فروع الرياضيات التطبيقية فقد كانت بسبب اقتناعه فى شبابه بأن الرياضيات التطبيقية تستخدم اكتشافاتها فى الإساءة إلى البشرية ودمارها ، وهو القائل فى شبابه : «يقال عن علم أنه مفيد إذا ساعد على تأكيد التوزيع غير العادل للثروة بين الناس ، أو بشكل أكثر مباشرة ساعد على دمار الحياة البشرية» .

وواضح من هذه الفقرة أنه لم يكن ضد الحروب فحسب ، وإنما كان متعاطفا مع الفقراء كذلك وكان يقول أيضا : «لم أفعل شيئا مفيدا فى حياتى . فكل اكتشافاتى الرياضية لا تفرق قيد أنملة فى راحة الناس فى هذا العالم» لكنه حاول أن يصحح هذه الفكرة عنه فى كتابه (اعتذار رياضى) عندما قال «إن هذه السمعة عن آرائه غير دقيقة وقال أيضا إن أقواله القديمة هذه هى «انفجار خطابى رغم أننى كنت معذورا فى تعبيرى هذا» .

ومع ذلك ففى هذا الكتاب نفسه يقول هاردى عن علم الرياضيات البحتة «إنه العلم الوحيد البعيد عن نشاطات الانسان المعتادة ، ولا يبقى طيبا ونظيفا» !

بقى أن نشير إلى مسألتين : الأولى الدور الذى لعبه فى اكتشاف قانون «هاردى فاينبرج» فى علم الوراثة ، وهو دور مناقض لكل آرائه عن تطبيق الرياضيات وكراهيته له ، والثانية هى علاقته بالرياضى العبقرى الهندى رامونجان الذى مات بالسل فى سن الثانية والثلاثين والذى احتفلت اليونسكو عام ١٩٨٧ بمرور مائة عام على مولده .

فبفضل هاردى أمكن لرامونجان الذى لم يكن قد حصل على تعليم جامعى قط أن يحضر إلى إنجلترا وأن يلتحق كباحث بكلية ترينتى فى جامعة كمبردج وأن ينشر العديد من الابحاث الرياضية المشتركة مع هاردى ، ثم أن يصبح عضوا فى الجمعية الملكية البريطانية قبل وفاته فى الثانية والثلاثين !

نبدأ أولا بالمسألة الاولى . والقصة تبدأ بقانون مندل فى الوراثة الذى اكتشفه من خلال تجاربه الحقلية على ثمار «البازلاء» . وظلت هذه النتائج الحقلية محل جدل شديد بين المؤيدين والمتشككين، ومما شجع تيار المتشككين أنه كان ينقص هذه النتائج الحقلية تفسير نظرى لها وفى عام ١٩٠٨ أعطى العالم البريطانى بونيت Punnet محاضرة فى الجمعية الطبية الملكية البريطانية بعنوان «المداية فى علاقتها بالمرض» وعبر فى هذه المحاضرة عن العديد من الأسئلة التى ظلت دون حل من الناحية النظرية عن علاقة التشوهات التى يمكن أن يرثها الأبناء من آبائهم أو أجدادهم .

وكان بونيت أستاذا فى جامعة كمبردج ، وزميلا لهاردى فى لعبة الكريكيت، وعندما عاد من لندن بعد إسلقاء محاضرته ذهب إلى هاردى وعرض عليه اسئلته كمسألة رياضية وليست كمسألة وراثة ، لأنه يعرف عداء هاردى لموضوع تطبيق الرياضيات وقال هاردى . إنها مسألة بسيطة فى علم الاحتمال وأعطاه الاجابة عن اسئلته التى عرفت فيما بعد بقانون «هاردى فاينبرج» ، والاسم الثانى هنا لعالم ألمانى اكتشف نفس القانون مستقلا عن هاردى ، ولذا سمي القانون فى علم الوراثة باسميهما معا «هاردى وفاينبرج» .

ولقد نشر هاردى بحثا عن هذا الموضوع وذاك القانون فى المجلة الامريكية «العلم» Science عام ١٩٠٨ ، وطبعا ظهر بعد ذلك وحتى اليوم السؤال التالى لماذا نشر هاردى هذا البحث فى أمريكا بينما كانت كل المجلات العلمية البريطانية على استعداد لنشر أبحاثه بها؟

ليست هناك حتى اليوم إجابة حاسمة عن هذا السؤال . لكن هناك احتمالين أحدهما لابد أن يكون الاجابة الصحيحة . فالاحتمال الأول هو أن الرياضيات فى هذا البحث كانت من القلة بحيث لم يجد هاردى أن البحث جدير باسمه فى مجلة

رياضية علمية بريطانية . أما الاحتمال الآخر فهو أن هاردى قد قدر أن نشر البحث فى مجلة أمريكية بعيدة لن يلفت نظر الرياضيين البريطانيين الذين كانوا يفخر هاردى أمامهم باستمرار بأنه يجرى بحوثه فى علم «غير مفيد» ، أى الرياضيات البحتة ، وأنه يكره الرياضيات التطبيقية . وكما قلنا فإن من المفارقات الغريبة أن بحثه الوحيد هذا «المفيد» فى الرياضيات التطبيقية هو الذى خلد اسمه فى علم الوراثة وليست أبحاثه العديدة فى الرياضيات البحتة .

والمسألة الثانية هى صلته بقصة الرياضى العبقرى الهندى رامونجان ، وحتى اليوم لا يوجد تفسير كامل ونهائى مقبول لظاهرة رامونجان هذه . فالواقع أنه لم يحصل إلا على شهادة الثانوية العامة ولم يدخل الجامعة قط ، ومع ذلك فقد اكتشف عدة قوانين رياضية مهمة فى فروع نظرية الاعداد ونظرية الدوال ، حتى ولو لم يقدم برهانا صحيحا عليها . وكان رامونجان يعمل مجرد كاتب فى شركة هندية ، وكان يضيع كل وقته فى قراءة الرياضيات واكتشاف القوانين المعقدة وقد قيل فى تفسير اكتشافه لبعض قوانين نظرية الاعداد أنه كان على علم بأعمال ماكمهون وبعض الرياضيين الانجليز الحسابية ، وأنه بذكائه الخارق استطاع أن يخمن القوانين العامة بعد معرفته بالحالات الخاصة . ولكن حتى لو كان هذا صحيحا فلن نجد تفسيرا معقولا لاكتشافاته الأخرى فى نظرية الدوال التى لم تكن هناك حسابات لها ، وعندما بدأ الحديث فى الهند عن ظاهرة رامونجان هذه كتب بعض الانجليز العاملين بالهند إلى أساتذة رياضيات انجليز فى بريطانيا يطلبون منهم إلقاء نظرة على نتائج رامونجـان هـذه لمعرفة إن كانت جادة أم لا . ولم يهتم هؤلاء الاساتذة لطول خبرتهم بأدعياء الرياضيات المزيفين .

شخص واحد أبدى اهتمامه بموضوع رامونجان ، هو هاردى فى كمبردج ، فقد تسلم خطابا من الشاب رامونجان يرجوه أن يطلع على هذه القوانين الرياضية التى اكتشفها (وأوردها فى خطابه) وأن يساعده إن اقتنع أنه أمام باحث جدير بالمساعدة . والمهم أن القوانين التى أوردها رامونجان فى خطابه بلا برهان . لكن هل هى قوانين صحيحة ؟

فى مقدمة كتاب هاردى (اعتذار رياضى) يحكى سنو رد فعل هاردى على خطاب رامونجان ذاك . فالانطباع الأول السريع كان الملل والضيق لكثرة هذا النوع من الخطابات من أدعياء الرياضيات الذين يؤكدون أنهم حلوا مسألة تربيع الدائرة وتثليث الزاوية واكتشاف برهان لنظرية

فرمان الاخيرة ... الخ . أما انطباعه الثانى فهو أن بعض النتائج الواردة فى الخطاب جديرة بالتحقيق .

ويقول هاردى لسنو : إنه اتصل تليفونيا بمساعده ليتلوود وطلب منه أن يحضر عنده للعشاء لإلقاء نظرة معاً على قوانين هذا الخطاب . وعندما بدأ العمل بعد العشاء استطاعا برهنة القانون الأول فى خمس دقائق . ثم برهنة القانون الثانى فى خمس دقائق أخرى . أما القانون الثالث فقد استغرق منهما نصف ساعة فى الوصول إلى برهان له . وقد ثبت أن كل هذه القوانين صحيحة .

وفى اليوم التالى استطاع هاردى أن يدبر لرامونجان منحة فى جامعة كمبردج وأرسل يستدعيه من الهند ، وهو الشاب الفقير المغمور فى إحدى ولايات الهند والذى لم يغادر قريته قط .

وعندما وصل رامونجان إلى كمبرج بدأت مرحلة فذة جديدة من التعاون بينه وبين هاردى أثمرت العشرات من الابحاث فى نظريات الاعداد (والدوال) وأصبح رامونجان بفضل تزكية هاردى عضوا فى الجمعية الملكية البريطانية ، وهو شرف لا يمنح إلا للقلائل .

لكن رامونجان مرض بالسل وهو فى ريعان شبابه ، وأدى به الى دخول المستشفيات فى بريطانيا العديد من المرات فى وقت لم يكن فيه علاج حقيقى لمرض السل ، وأدى هذا به الى حالة من الاكتئاب الى درجة أنه حاول مرة أن ينتحر بإلقاء نفسه أمام مترو الانفاق فى لندن . وانتهى الامر به إلى عودته إلى الهند وموته هناك .

وقد حزن عليه هاردى حزنا شديدا ، وحتى اليوم لا تزال بعض أعمال رامونجان دون برهان ولا يزال بعض الرياضيين البريطانيين يحاولون العثور على برهان لها !


بي. نظير بوتو


جيمس بيكر


جارسيا ماركيز

● «فلنلقي بكتبنا في البحر ، فالواقع قد تجاوزنا »
جبرئيل جارسيا ماركيز
الكاتب الكولومبي الفائز بنوبل

● «الديموقراطية لعبة أرقام ، والارقام ليست معنا»
اتال بيهارى فاجبايى
رئيس وزراء الهند السابق

● «نعاني من توجه مجتمعي شامل نحو نوع من التصحر يصيب تربة الابداع في نفوس مواطنينا »
الدكتور مصطفى سويف

● «الفرانكفيون يمجدون اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية ، لأنها تضمن لهم العيش باسم الأدب»
الروائى الجزائرى رشيد بوجدره

● «لا أعرف قطرا آخر فى العالم يدمر سكانه مقومات حياتهم مثلما نفعل نحن فى مصر بالأراضى الزراعية ومياه النيل »
الدكتورة ماجدة عامر
بالمركز القومي للبحوث

● « ارتكبت ما يكفى من أخطاء »
سارة فيرجسون
دوقة يورك

● «كشفت الانتخابات أن جراح الانقسامات العميقة داخل المجتمع الاسرائيلى التى فضحها اغتيال رابين لم تندمل بعد»
جيمس بيكر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «تسعون فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى لم يقرأوا ماركس ولا انجلز ولا لينين !! »
فلاديمير سيماجور
أحد زعماء الحزب الشيوعى الروسى

● «لعلنا ندرك أن التطرف الدينى أصبح مرادفا للارهاب»
بى نظير بوتو رئيسة وزراء باكستان

● «أحد لا يعرف ماهية الذكاء ،الجينات لا تستطيع تحديدها، كل ما تستطيعه هو تحديد ماهية البناء»
ادوارد بونشينيللى
عالم الجينات الوراثية الايطالى

بقلم: د. شكرى محمد عياد

العشق فى الصحراء «٢»

التضاد هو ناموس العشق فى الصحراء ، كما أنه ناموس الطبيعة الصحراوية ذاتها : الشمس ، جلاد النهار المرعب ، والقمر، أنيس الليالى الصحراوية البهيجة. الظمأ الذى يقتل، والماء الذى يحيى . الأصوات التى تأتى من لا مكان ، كأنها عزيف الجن أحيانا ، وكأنها طيور الفردوس أحيانا أخرى، والسكون العميق الذى ينصت إليه الحكماء المسنون.

كذلك التضاد بين العشق عند الرجل والعشق عند المرأة. العشق عند الرجل نوع من الغزو . لا يعد الرجل فارساً إن لم يعشق . والعشق عند المرأة نوع من الاستعباد، يحول ذلك المخلوق النافر الذى يبحث دائما عن أرض جديدة وسماء جديدة ، إلى عبد للمكان ، عبد للبيت. تأمل هذه الكلمة العربية العجيبة : السّبى . الرجل يسبى ما شاء من النساء فى المعارك ، ولكن امرأة واحدة تسبيه بعينيها وجيدها ، أو بدلها وحديثها ، أو بما شئت من مفاتنها . هكذا تمضى مراسم العشق فى الصحراء ، وتظل الحرب جذعة ، وكأنها قانون من قوانين الطبيعة «إلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار» . وكما تتبدى قوانين الطبيعة فى وضوحها وقوتها بعيدا عن صنعة الإنسان تتبدى عواطف الأحياء .


إبراهيم الكوني

بدو الصحراء الكبرى – كما يصورهم إبراهيم الكوني في ملحمته «المجوس» ، لا يختلفون عن الأعراب . تبقى الحرب الخفية بين الرجل والمرأة ما بقيت الحياة ، وحين يختل الناموس يصبح العشق مدمراً، مثل كارثة طبيعية . والأمر ما يحدث الخلل غالباً عند الرجل دون المرأة ربما كان ذلك لأنه الجانب الأكثر تعرضاً للتمزق بين طبيعته ، الشاردة وانجذابه إلى جوار حبيبة معينة . فلم تجنّ ليلى بقيس كما جنّ قيس بليلى ، وفي ملحمة الكوني ايضاً لا نجد امرأة واحدة تجن أو تهلك بسبب العشق ، ولكننا نجد رجلين يهلكان لأنهما خرجا على ناموس العشق الصحراوي : لم يأخذا المعشوقة بقانون الغزو فأسلما رقبتيهما للقيد . أما المعشوقة فقد انتحرت ، مثل كليوباترا ، حين هلك الحبيبان ، فأصبحت بلا رجل ، بعد أن أبعدتهما بسحرها عن المرأتين اللتين أوشكتا أن تستحوذا عليهما .

تقول «تامغارت» ، أم «أوداد» ، شاكية همها للعرافة الزنجية :

«أعجزني . يقول إن السهل عش الشياطين ، والشياطين في رأسه ، تعاويذ الفقيه المرحوم أضاعها رغم أني على يقين أنه أتلفها عمدا . سمعت نصيحة الحكيمات واردت أن أقيده بالحبل الوحيد الذي يمكن أن يشد رجلاً إلى الأرض : المرأة ! زوجته بنت «أمّا» . صبية شهية ولا ينقصها شيء ، إذا تغاضينا عن الخبرة . تركته يفلت قبل أن يكمل الأيام السبعة ، وتحجج بالابل ومكث في تانرارت شهرين. هل سمعت في الصحراء كلها رجلاً يهجر مخدع العروس قبل إتمام الأسبوع ويهرب إلى الجبال ؟»
(ج ١ ص ١٥ – ١٦)

ولكن العروس نفسها تقول للدرويش : «أنا الآن لا أنتظر المعشوق . لقد أخذت ما أريد» وحين يسألها ، شبه مستهزئ : «ماذا أخذت بالله؟» ، تبدي دهشتها لسذاجته : «ماذا يمكن أن تأخذ المرأة من الرجل ؟» إنه الولد .

ففي الحرب السجال بين الرجل والمرأة، يمكن أن تكتفي المرأة بأقل الأشياء – أم لعله أعظم الأشياء ؟ – أن تعيد امتلاكه في صورة الابن ، وهذا معناه أن تستمر الحياة .

هكذا تبدو معظم النساء في هذه الملحمة الصحراوية واقعيات جدا ، ومحافظات جدا . حتى بعد أن يعرف كل من في النجع والمدينة أن الأميرة «تينيري»

القفز على الاشواك

تحب أوداد ، تقول الزوجة المهجورة للدرويش . «ليس بيني وبينها عداوة» ! (ج ٢ ص ١٦٩) أتراها تشعر في داخلها بنوع من الفخر لأن المرأة التي أخذت منها زوجها كانت أميرة رائعة الحسن ؟

ليست الزوجة المهجورة «تافاوت» هي وحدها التي تبدو إنسانة عملية ، مالكة لأمر نفسها . مثلها ، أو أقوى منها ، «تميما» التي أقسمت لأترابها أنها ستتزوج «أوخا» ، ولن يكون من نصيب بنت الأغراب (ج ١ ، ص ٢٨٢) تسأل الدرويش ببرود تام - بل بدلال ! - عن أحوال أوخا الذي اشتد به المرض وأشرف على الهلاك من حب تينيري . ليس هذا كرماً من الزوجة المقدورة أو العاشقة المقهورة ، الدرويش ، الذي يطري حسنهما، يخاف أشد الخوف من جنس المرأة ، تتمثل له المرأة الجميلة في صورة أفعى ، الأفعى التي أخرجت الجد «مندم» من البستان ، ولا يرى لأوخا شفاء إلا بأن يقطع أمله في جنس المرأة . ولكن الدرويش خارج على الناموس . يقول أخماد صديق أوخا : «لا شفاء بعيدا عن المحبوب . لا خلاص في البعد عن المعشوق . هذا شرع الصحراء .» . «ماذا سينفعه الشفاء إذا كان سيفقد المعشوق؟

بل ما نفع حياة لا يشقى فيها الرجل بحثا عن امرأة ؟ ما جدوى الصحراء بدون عشق ؟» (ج ٢ ص ١٧٨).

الرجل قدر المرأة

إذا كان «التفرغ» هو ناموس العشق عند الرجل الصحراوي فإن المرأة الصحراوية ند له وزيادة ، خصوصاً إذا كانت بارعة الحسن ، وكانت قد تربت في قصر ، على يدي زنجية حكيمة . هكذا تعلمت تينيري من مربيتها «آيا» أن «الرجل قدر المرأة . ولا يمكن أن تكون للمرأة غاية في الحياة سواه . وكل النساء اللائي بحثن عن شيء آخر ، هدف آخر، سر آخر ، ضيعن حياتهن وضعن . الله لم يخلق في الكون شيئاً بلا معنى . وعندما خلق المرأة مخلوقاً جميلاً قدّر للرجل أن يقطف هذه الثمار . والثمار تذبل وتندثر في الفناء إذا لم تقطف في موسم الحصاد. المرأة الذكية هي التي تهيىء نفسها للقطاف . المرأة الحقيقية هي التي تتزين وتتجمل لتكون أبهى وأشهى، انسجاماً مع شريعة الكون وامتثالا لارادة الآلهة » .

شريعة الكون ... ؟ الناموس ... ؟ ولكن هل تمضت شريعة الكون أن الرجل والمرأة إذا أوغلا في العشق دمرًا نفسيهما؟ المشكلة هنا هي أن المرأة «الحقيقية» ، في المنظور الأسطوري ،

الملحمى ، ومن ثم فى المنظور الصحراوى، خلقت للرجل «ولا يمكن أن تكون لها غاية فى الحياة سواه : إيزيس ، عشتار ، أفروديت ، يستوى أن تكون المرأة زوجة وفية أو تكون مغناجاً معشاقاً . أما الرجل فلم تهيئه الطبيعة ، أو شريعة الكون ، ليكون خالصاً للمرأة ، حتى لو استكثر من النساء . وقد تغتفر له المرأة أن تكون معها امرأة أخرى ، ولكنها لا تغتفر ، لأنها لا تفهم ، أن يكون معها هدف آخر . إن كان يقاتل (أو يقامر فى البورصة) فعذره الوحيد أنه يفعل ذلك من أجلها ، أما هو فيبحث دائما عن أعذار . (إن لم يكن يخرج للقتال أو يسافر للتجارة فهو يجلس يومياً فى المقهى لأنه يقابل هناك أناساً مهمين) .

الطبيعة إذن ضد الطبيعة . تصادم الأضداء جزء من شريعة الكون والذين تحابيهم الطبيعة أكثر هم الذين يدفعون الثمن الأكبر . من هذه المادة تصنع الحياة ملاحمها ومآسيها .

«تينيرى» أميرة صحراوية ، خلاسية ، وحيدة أبيها سليل المرابطين وأمها الحبشية . حبتها الطبيعة حسناً باهراً وذكاء لماحاً وذاكرة واعية كان أول درس تعلمته من مربيتها أن المرأة خلقت للرجل. ولكنها لم تلبث أن تعلمت درساً ثانياً أليق بجمالها وطموحها . علمتها آيا أن المرأة خلقت لكل الرجال ، أو بالأحرى أن الرجال هم الذين خلقوا ليكونوا ملكا للمرأة . المرأة الذكية ، التى تطيع الله فى شريعة الكون ، هى الساعية للاستيلاء على أكبر قدر من الرجال . وهى لا تفعل ذلك انقياداً للشهوة أو سعيا وراء الذكور ، ولكن هذا ضرورى لتتقى مزاج الرجال المتقلب . المرأة التى تريد أن تحمى نفسها يجب ألا تثق بالرجل أبداً . عليها أن تحبه، تداعبه، تحنو عليه كطفل كبير ، ولكن عليها أن تعلم أنها ستخسر الرهان فى اللحظة التى تمنحه فيها الثقة . الثقة جوهرة نفيسة لا ينبغى وضعها فى يد الطفل حتى لو كان يدعى أنه رجل ، والمرأة لن تعرف أبداً لماذا يروق لهؤلاء الأطفال الاشقياء (الذين نسميهم رجالاً) أن يخونوا الثقة ، لأنهم يجهلون السبب هم أنفسهم . وأغلب الظن أن هذا يحدث استجابة للنداء المجهول الذى يدعوهم للتحرر من القيد سعيا وراء تلك الواحة المفقودة التى يسمونها «واو» . «واو» فى رأى آيا ، ليست إلا وليدة العقل الطفولى . كل رجال الصحراء أطفال كبار ، أطفال أشقياء ، تتوقف آيا عن تمسيد شعر صغيرتها وشد خصلاته وتحدق فيها بعينين حمراوين مخيفتين وتكمل الدرس : بالرأس والفخذ تستطيع المرأة أن تربى الطفل الشقى ، الرجل المغامر ، بهذا الفخ تمنعه من المجازفة والغدر» (ج ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨) .

القفز على الاشواك

كـــان «أوداد» أول من راهـا من أهل النجع . رأى مـوكبـهـا من مـربض فـوق الجبل . هنا يقترب من الآلهة . يروق له أن يراقب الناس فى حضيضهم. كل ما يبدو فخماً مهيبا فى السهل يبدو له ، وهو فى عليائه ، قميئا مثيراً للضحك . عندما هبط إلى السفح كانت هى قد نزلت من هودجها وأخذت تمشى لتحرر ساقيـهـا بعد أن حبستا طوال الرحلة . أدهشـهـا عجزها عن المشى فـضـحكت بصـوت مـسـمـوع ، كانت دهشتها أكبر عندما سمعت صوتاً كـأنه أت من المجـهـول : «لأول مـرة أرى حسناء تضحك لنفسها» .

خرج من مخبئه خلف صخرة ، ودار بينهـمـا حـوار ذكي . لم تسـارع بسـتـر وجـهها الجميل ، ولا الضفيرة الكبيرة الســوداء التى اســتلقت لحظات على صدرها النافر .

حسناء غـريبـة مـهاجـرة ، وفـتـى ترك منتجع القبيلة وأثر سكنى الجبال . قالت له حين تجرأ ودعاها لتكون ضيـفـتـه على القمـة : «أنت كـالطفل . لم أقـابل أطفـالا مـثلك ...» ، أجـابهـا : «أن أكـون طفـلاً أفـضل من أن أكون رجلا فـخـمـاً يسكن السهل . أهل السهول رجال ولكنهم عبيد . أيهما أحسن . عبد أم طفل؟» سألها وهو يضحك ، فأجابته وهى تحكم لف الخمار حـول وجـهـهـا : «كل الرجـال أطفـال . كل الناس عبيد . (ج ١ ص ١٢ - ١٣)

ولكن اللقـاء الثـانى شـد القلبين بوثاق ليس منه فكاك . سكن القـــبلى - ريح السموم التى تهب من الجنوب ، واستراح أوخا وشباب القبيلة من عنائهم المتواصل فى ازاحـة الرمــال عن فـوهة البـئـر ، واستبشر بقراءة فاتحته على الأميرة الحسناء . كان «الميعاد» - حفل السمر الصحراوى - وقت اكتمال البدر - موعد لقاء للجميع واحتفال للجميع ، خصوصاً تينيرى وجماعتها ، الذين ارتفعت أحجار مـدينتهم عند طرف السـهل . أوداد أيضا نزل من الجبل - أبتقدير منه أم بلعبة من القدر سوف يفسد ما كان يحلم به أوخا على أنه حق له ، قـرره زعـيم القـبـيلة وسلطان المدينة : أليس هو أنبل نبـلاء النجع ، كـمـا أنها بنت سلطان وعـمـهـا سلطان هذه المدينة الجديدة ، فقرانهما يضم شرفاً إلى شرف ويضمن السلام بين القدامى والطارئين ؟

أعراف القبائل

تلك أحكام الشيوخ وأعراف القبائل . ولكن سلطان العشق يجىء من أعلى ، ولا يخضع لقوانين السهل . فحين هبط أوداد من الجـبل وتربع على بعـد خطوات من الحلقة ، منتشيا بالغناء وروائح النساء ، استطاع أن يكتشف وسط الحلقة وجـهـاً فى ضوء البدر . «وجه يعرفه قبل أن يولد ولم يره منذ أول لقاء» (ج ١ ص ١٢٣) .

فى حـضنهـا كـان يرقـد أمـزاد (آلة وترية عند أهل الصحراء) . على نغمة

الفريد «احترق القلب وشم الشياط . ترنح وسمع في الجنات طائر الفردوس» .

طائر الفردوس علّم أوداد الغناء ، ولو أن أحداً لم يره قط ، ولا أوداد نفسه رآه ، ولكنه سمعه في صباه حين كان يأوى إلى كهف هارباً من حر الصحراء . ثم راح يتتبعه حتى تعلم صعود الجبال . سأل أمه عن طائره الخفي فلم تعطه جوابا شافيا ، ولكنها سألته أن يغني كما تعلم من طائره الخفي . حين غنى سمعت غناء ينير ظلمات الليل ويبعث الحياة في الجماد ويعيد الصحراء من رحلتها في العدم . بنت عمه «تافاوت» حين سمعت غناءه أبت أن تتزوج غيره ، ولكنه حين تزوجها فقد صوته فعلم أن طائر الفردوس هرب من صدره ، فرجع وراءه إلى الجبال . في ليلة الميعاد حين تملكه الوجد انطلق صوته بالغناء على نغمات أمزاد فشق صوته السموات وأصغت له الجنيات ، ولم يلحظ القطرات النقية الندية التي صعدت إلى عيني الأميرة .

لم يمض إلا قليل حتى بعثت إلى الدرويش :

– قيل لي إنك الوحيد في السهل الذي يقدر أن يطول الودان الجبلي ، طائر الفردوس !

رأى في عينيها الوميض الغامض الذي لا يخفى على الدراويش .

– السهل يعرف أنك في عصمة أوخا . الفاتحة في الشرع تربط بقيد من حديد .

– ثمة ما هو أقوى من الحديد . من غير الدرويش يعرف ذلك ؟

– سأبلغه الرسالة .

الدرويش لا يذيع الأسرار . ولكن متى خفي الحب ؟ عرف النجع كله كما عرف سكان المدينة أن تينيري عاشقة لأوداد وإن كانت مخطوبة لأوخا . كان عليها أن تختار، وقد اعتذر عمها لوجهاء الحي بوعد قطعه على نفسه لأبيها سلطان تينبكتو قبل أن يأتي إلى جوارهم ، وقد أصبح ذلك العهد مقدساً بعد أن قتل والدها بأيدي الخونة . فما يجوز أن يرضى الأحياء على حساب الأموات . ولكن حرية الاختيار بدت لها قيداً أشد من كل قيد . لقد عشقت في أوخا نبله وكبرياءه والتزامه برسوم الصحراء كما عشقت في أوداد قلبه وتعلقه بالغناء والجبال كان في مقدور أوخا أن يحسم الأمر لو دعا أوداد للمبارزة ، ولكن شرف النبالة يأبى عليه أن يبارز ابن الاتباع . بعث إليه صديقه أخماد فشاء حظهما العاثر أن ينقذه أوداد من الموت عطشا، فأصبح مديناً له بحياته. لم يبق ثمة مخرج إلا ما اقترحه الإمام ، وهو أن يتفق الغريمان على رهان : إذا صعد أوداد الجبل حتى القمة فقد استحق حب الأميرة ، وإن عجز عن ذلك فقد وجب عليه أن يتخلى عنها لأوخا . أفضى أخماد بذلك الاقتراح لأوداد فقبل الرهان .

تقول الأساطير إن جبل إيدينان مأوى الجن . وإذا كانوا قد سمحوا لأوداد أن يقيم معهم في الجبل لسرٍّ غير معروف

القفز على الأشواك

فليس من المعقول أن يسمحوا له بالصعود حتى القمة .

ولكنه صعد !

وسرت البشارة فى النجع والمدينة . ورقصت الأميرة وزغردت . لأول مرة يسمعها السهل تزغرد . أما أوخا فقد اقتضاه واجب النبالة أن يرتب «ميعادا» للاحتفال بصعود الجنى إلى بلاد الجن حضرت الأميرة الحفل وانفرد بها أوخا فى حوار بعيد - فى الظاهر - عن الشأن الذى يخصهما . اتهمها بأنها وقومها فى المدينة أفسدوا على أهل الصحراء حياتهم منذ أخذوا يتعاملون بالذهب وحولوا الصحراء الوسطى إلى سوق لمساومات التجار . دافعت عن التجارة فاتهمها بالكفر ، وانفجر بما كان يكتمه · «أنا أفهم الآن لماذا تركتنى معلقا طوال هذه السنوات . فهمت الآن سر ترددك القاتل . أنت لا تحبين أحدا لأنك تريدين أن تحبى كل الرجال . أنت لن تفهمى سر المحبة ، سر التبادل الإلهى ، لأنك تريدين أن تستولى على كل الرجال، هذه روح التجار ، وهيهات أن يفهم المحبة من عامل العشق بنهم التجارة» .

صعد أوداد ، ولكنه لم ينزل . كان الدرويش يعرف ذلك منذ البداية ، ولذلك حذره من قبول الرهان . أما الذى يبدو غريبا فى الملحمة كلها - ولعل الكاتب رآه ضروريا ليستكمل البعد المأساوى للملحمة - فهو النهاية التى اختارها أوخا لنفسه . إذا كان أوداد شخصية أسطورية ، يمكن أن يختفى فى قمة جبل ، فإن أوخا نموذج لإنسان الصحراء الطبيعى . لذلك لا نفهم لماذا يأمر صديقه أخماد أن يقتله خنقا ، ولا كيف يوافقه أخماد على ذلك ، وهو الذى خانته يداه فلم يستطع أن يتم المهمة، وترك أوخا لمصيره بين الحياة والموت ، فلم يكن منه إلا أن ألقى بنفسه فى البئر . كل ذلك يبدو أشد غرابة بعد الكلمات المهينة التى ألقاها أوخا فى وجه تينيرى . فهل هى كبرياؤه التى دعته ألا يعترف بهزيمته فى الحب ، هل أراد أن يعاقب نفسه لأنه انتظر سنوات كلمة من امرأة أعطاها قلبه ، ولم تستطع أن تعطيه قلبها ؟

نهاية تينيرى تبدو أكثر إقناعاً . فهى نتيجة طبيعية لتعاليم «أيا» ، ولروح التجار التى رماها بها أوخا . لقد علمت بنهايته الفاجعة حين جاءها الدرويش بقطعة من قناعه ملوثة بالدم . هالتها فظاعة الأمر ورقدت محمومة ، ولكنها لم تلبث أن تعزت بانتصار أوداد وأخذت تحلم بلقائه . ثم سمعت الجوارى والخدم يتهامسون بأنه لن يعود . وقال لها الدرويش بلغته الغامضة: «من رأى جنا لم يعد إلى حظيرة البشر» .

انسلت من القصر بليل . وفى الصباح انتشلها الرعاة من البئر ، وجدوها طافية، منفوخة ، جاحظة العينين . ☐

عباقرة يهود

فى كل زمان ومكان !

بقلم : د . عبد الوهاب محمد المسيرى

أسعدنى الحظ بأن قابلت أحد العالمين ببواطن الأمور والمستشارين الأساسيين لأحد الحكام العرب . وبينما كنا نحتسى القهوة فى حديقة منزله الجميلة تجاذبنا أطراف الحديث فى شئون الثقافة والفكر . وقد أدهشنى الرجل بثقافته وعلمه وادراكه المركب لكثير من أمور الدنيا والدين . ثم تطرق الحديث إلى ماضيه السياسى فذكر أن من أحد إنجازاته أنه لم يسب اليهود قط ولم يشهر بهم . فهنأته على موقفه الانسانى المشرف هذا ، وعلى رفضه العنصرية والتعريف العنصرى للآخر ومحاولة أن تنسب للآخر كل الشرور (كما يفعل من يتداولون بروتوكولات حكماء صهيون ، ومثل هذه الكتب العنصرية المشبوهة) . ولكننى اكتشفت ، مع الأسف ، أن موقفه هذا لا ينبع من الإيمان بالمساواة الكاملة بين كل البشر (أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقليات - فهم لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وإنما من الخوف من اليهود . ولذا بدلا من أن ينسب صاحبنا كل الشرور لهم ، نجده ينسب لهم القوة الخرافية والعبقرية الفذة والهيمنة الكاملة على العالم الغربى ويتحدث عن التميز اليهودى فى كل زمان ومكان .



وغنى عن القول أن مثل هذا الموقف نصرى فإن من ينسب التميز لليهود لا ختلف بتاتا عمن ينسب لهم الشرور ، لنطق الكامن واحد : اذ يصنف اليهودى ى كلتا الحالتين على أنه ليس بإنسان مادى ، وإنما انسان يوجد خارج حدود لانسانية ، فاليهودى إذن ليس بإنسان ، هذا هو جوهر العنصرية .

والجانب الآخر لهذه الاشكالية أن سانع القرار الذى يقع ضحية لمثل هذا لرأى سيمتلىء قلبه خوفا وهلعا من ليهود وسيخسر الحرب قبل دخول المعركة سيفقد المقدرة على رؤية الواقع بقدر من لاتزان ، أى أنه يصبح غير قادر على سنع القرار . وبالفعل فى نهاية الحديث خبرنى مضيفى انه من الضرورى لتصالح مع اليهود قبل فوات الأوان . نحاولت ان يكون ردى لبقا بقدر الامكان فبينت له أننا والحمد لله لسنا فى حالة حرب مع كل اليهود ، وإنما مع اسرائيل، وأنه حتى لو تصالحنا مع اليهود ، أى اسرائيل ، فالأجدر بنا أن نعرف قوتهم الحقيقية ، مداها وحدودها ، وقد بينت لمضيفى ان الحديث عن تميز اليهود وبروزهم هو حديث صهيونى معادٍ للسامية فى ذات الوقت حاولت أن أبين له بعض جوانب القضية ، وهذا ما سنفعله فى هذا المقال .

يتواتر فى الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود موضوع «بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتميزهم» فى كثير فى مجالات النشاط والمعرفة الانسانيتين بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم إلى عدد السكان فى المجتمعات التى يعيشون فى كنفها ، وجاء فى المعاجم العربية «تميز الشىء» بمعنى «بدا فضله وانفصل عن

غيره» .

و«برز بروزاً» بمعنى «فاق الآخرين فى فضل أو علم» . و«برز الشيء» معناها «أظهره وبينه» وهو بروز يدل على التميز والعبقرية عند الصهاينة ، ويدل على الشر المتأصل فى الطبيعة اليهودية عند أعداء اليهود . والدارس لتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية سيجد قرائن على كل من البروز الإيجابى والتميز فى الخير والإبداع ، والبروز المشين والتميز فى الشر والهدم والإجرام . أما عن البروز الايجابى، فهناك من الأدلة عليه الكثير، مثل كثرة عدد العباقرة والمهنيين بين أعضاء الجماعات اليهودية ونسبة التعليم المرتفعة بينهم ، وارتفاع دخولهم . أما البروز المشين ، فهناك أيضا مؤشرات كثيرة عليه ، مثل : اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا عبر العصور الوسطى فى الغرب بل واحتكار هذه المهنة فى بعض المناطق ، واشتغالهم بتجارة الرقيق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر ، اشتغل اليهود بتقطير الخمور والاتجار فيها ، وتهريب البضائع والرقيق الأبيض ، وبكثير من الأعمال الطفيلية غير المنتجة .

البروز المشين !

ويلاحظ أن المؤشر على بروز اليهود الإيجابى قد يعد مؤشراً على بروزهم المشين ، فالثراء (وهو عادة مؤشر على حركية الانسان وذكائه) ، يعتبر من منظور آخر دليلا على عدم الانتماء وعلى الرغبة فى الثروة وفى مراكمتها دون أى تحفظات أخلاقية . كما أن التميز الوظيفى لليهود هو أيضا من علامات البروز الايجابى والمشين ، بل إن الجيتو ذاته كان علامة من علامات البروز إذ كان اليهود يسعون للحصول على إذن بإقامته والاقامة فيه ليتمتعوا داخله بالمزايا الممنوحة للجماعة اليهودية والمقصورة عليهم وليعزلهم عن بقية السكان مما ييسر عليهم إدارة مؤسساتهم الدينية والقضائية والتربوية الخاصة . ولكن الجيتو أصبح بالتدريج هو المكان الذى يتعين عليهم البقاء فيه ، وهكذا تحول من ميزة إلى قيد .

ويذهب كثير من الدارسين إلى أن بروز بعض أعضاء الجماعات اليهودية من أهم الأسباب التى تجلب عليهم عداء أعضاء الاغلبية من غير اليهود ، وهو تعميم متعسف ، فقد كان البروز يؤدى أحياناً الى مثل هذه النتائج ، كما حدث فى ألمانيا النازية . ولكن ، فى اسبانيا الاسلامية أو أمريكا العلمانية ، لم يؤد البروز والتميز إلى أى عنف أو تمييز ضد أعضاء الجماعة اليهودية . أما فى بولندا ، خصوصاً فى أوكرانيا التى ضمت من منظور التطورات التاريخية اللاحقة أهم

الجماعات اليهودية عبر التاريخ ، فإن بروزهم قد أدى دون شك الى استجلاب السخط عليهم لا بسبب البروز في حد ذاته وإنما بسبب طبيعته ، إذ إن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا قريبين من الطبقة الحاكمة عملاء لها ، في إطار الاقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، وبذا أصبحوا عنصراً استيطانياً تجاريا ممثلين للأرستقراطية البولندية في وسط فلاحي ، وعنصراً يهودياً ينوب عن عنصر كاثوليكي في وسط أرثوذكسي أوكراني ، يتحدثون اليديشية أو البولندية في وسط يتحدث الاوكرانية ، أثرياء في وسط الفقراء والمعدمين . وقد تحول أعضاء الجماعة اليهودية إلى أداة يمسك بها النبلاء في وارسو يعتصرون بها الفلاحين. وحينما يكون البروز على المستويات الطبقية والدينية والثقافية ، فإن الانفجار الشعبي يكون ساحقاً ماحقاً – وهذا ما حدث مع انتفاضة شميلنكي .

وقد يتشابك التميز المشين مع التميز الإيجابي ، فمع نهاية القرن التاسع عشر كان يهود البلاد الغربية قد حققوا صعوداً طبقياً ومكانة اجتماعية عالية مما يعني تميزاً يهودياً إيجابياً . ثم وصل يهود اليديشية ، وكانوا متخلفين فقراء ، تتفشى بينهم الأمراض الاجتماعية المختلفة كما تفشى التعصب الديني ، مما كان يعني تميزاً يهودياً مشيناً . وحدث تشابك بين الجماعتين أدى إلى إحساس المجموعة الأولى بالحرج ثم إلى فزعها ، ومن هنا فقد كان من أهداف الصهيونية أن تبقى ليهود الغرب تميزهم الإيجابي ، وأن تريحهم من يهود اليديشية بتميزهم المشين عن طريق توطينهم في فلسطين .

ويحاول الصهاينة تفسير بروز وتميز بعض أعضاء الجماعات اليهودية على أساس طبيعة اليهود والخصوصية اليهودية والجوهر اليهودي والعبقرية اليهودية وهو منطق خطر للغاية لأنه إن فُسِّر البروز والتميز اليهودي الايجابي على أساس الطبيعة اليهودية ، فإنه لابد من تفسير البروز والتميز المشين على نفس الأساس أيضاً . وهذا ما لا يحجم عنه أعداء اليهود بل وبعض الصهاينة (خصوصا العماليين) .

ويلاحظ أن اليهودي الذي يحقق اندماجا في مجتمعه ويسلك سلوك الآخرين لا يرصد أحد سلوكه باعتباره سلوكا عادياً . ولكن حينما ينخرط بعض أعضاء الجماعات اليهودية في نشاطات مشينة أو متطرفة كأن يصبحوا أعضاء في جماعات ثورية أو ماسونية أو يحققوا قدراً عالياً من الثراء ، فإن أعداء اليهود عندئذ يرصدون ذلك بعناية فائقة ولا يرصدون سلوك اليهود العاديين أو سلوك العباقرة

من أعضاء الجماعات اليهودية ، وحينما يحقق البعض الآخر من أعضاء الجماعات اليهودية بروزا ايجابيا فإن الصهاينة يؤكدون ذلك ويستبعدون كلا من اليهود العاديين وهؤلاء الذين حققوا بروزا مشيناً

وربما لو أخضعت ظاهرة بروز اليهود وتميزهم للدراسة الاحصائية المتأنية لاكتشفنا أن بروز اليهود في الخير والشر إنما هو خاضع لآليات اجتماعية ليسوا مسئولين عنها ، وأن نسبة المتطرفين بينهم، في الخير والشر ، قد لا تختلف كثيراً عن النسبة السائدة في المجتمع ، أو عن النسبة السائدة بين أعضاء الاقليات على وجه العموم في أي مجتمع .

ومما يضخم من عدد اليهود المتميزين أن دارسي الجماعات اليهودية ينظرون إليهم كما لو كانوا يشكلون كلا واحدا . ومن هذا المنظور فإن يهود اليمن والولايات المتحدة والصين واثيوبيا وجنوب أفريقيا وجنوب أمريكا ، كلهم يهود في نهاية الأمر . ومن هنا ، فإن البحث عن البارزين فيهم داخل أي جماعة يتم دون أي دراسة إحصائية تبين العلاقة بين نسبة هؤلاء البارزين الى المعدل السائد في كل مجتمع . كما يتجاهل الدارسون أن تركز اليهود في قطاعات وعلوم بعينها يؤدي إلى كثرة البارزين فيها (مهنة الطب والعلوم الطبيعة وعالم التجارة والموسيقى وعلم الاجتماع) . ولكن هذا يعني أيضا غيابهم عن قطاعات وعلوم أخرى كثيرة أو ندرتهم فيها . كما أنهم يتجاهلون اللحظة التاريخية ، فبروز اليهود في مجتمع ما في لحظة تاريخية معينة لا يعني بالضرورة بروزهم الدائم في كل زمان ومكان .

ويتبنى أعداء اليهود منهجاً مماثلا ، فهم يركزون على اليهود الذين حققوا بروزا مشيناً في بعض المجتمعات ، وكأن جميع اليهود يكونون كلا واحدا ولا يقارنون نسبة اليهود الذين حققوا مثل هذا البروز قياساً إلى المعدل الإحصائي السائد في المجتمع، كما أنهم يهملون أخيراً اليهود الذين حققوا بروزا ايجابيا .

● أسباب تميز اليهود

ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية يحققون البروز والتميز داخل الحضارة التي يعيشون في كنفها وبسبب عناصر موجودة داخلها لا على الرغم منها . وتعود معدلات إبداعهم لا إلى التراث اليهودي وإنما إلى العناصر الحضارية والاجتماعية التي تكون محيطهم الحضاري والاجتماعي .

ويمكننا أن نحاول رصد أسباب بروز وتميز أعضاء الجماعات اليهودية ، مقسمين الأسباب إلى قسمين - أسباب عامة تسري على أعضاء معظم الأقليات في العالم ، وأخرى مقصورة على اليهود

فى الحضارة الغربية الحديثة ، ولنبدأ بالأسباب العامة :

١ - يتسم أعضاء الأقليات فى جميع المجتمعات بشىء من البروز نظراً لاختلافهم فى بعض النواحى أو فى كثير منها عن أعضاء المجتمع .

٢ - يتميز أعضاء الأقليات فى المجتمعات التقليدية ، بل وأحياناً فى المجتمعات الحديثة ، تميزاً وظيفياً إذ يضطلعون بوظائف دون غيرها .

٣ - يسكن أعضاء الأقليات فى المجتمعات التقليدية فى أماكن مقصورة عليهم مما يساعد على هذا البروز ، وقد قطن أعضاء الجماعات اليهودية فى الجيتو .

٤ - تتسم المجتمعات الغربية بأنها مجتمعات لا تضم أقليات كثيرة ، وذلك على عكس المجتمعات الشرقية الفسيفسائية ، ولذا فإن أقلية تكاد تكون وحيدة مثل الأقلية اليهودية تحقق بروزاً غير عادى .

٥ - لا شك فى أن من يوجد فى المدينة يحقق بروزاً لا يحققه عادة من يكون فى الريف . وقد تركزت الغالبية الساحقة ليهود العالم الغربى فى العصر الحديث فى المدن .

٦ - ولا شك أيضاً فى أن ارتباط أعضاء احدى الأقليات بالطبقات الحاكمة يساهم فى زيادة بروزهم ، وقد ارتبط اعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الوسيط فى الغرب بالطبقات الحاكمة .

٧ - أعضاء الأقليات دائما واقعون تحت ضغط نفسى يدفعهم الى اثبات تفوقهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين ، ولذا فهم يجهدون فى أن يساهموا فى الابداع الحضارى بدرجة تزيد على المعدل السائد فى المجتمع . ولذا يلاحظ فى معظم الأحيان ان نسبة المتعلمين والمخترعين (فى قطاعات معينة) من بين اعضاء الأقليات مرتفعة نوعا (ويلاحظ نفس الشىء بالنسبة للإجرام والانحراف) .

٨ - عضو الأقلية عادة ما تكون لديه عقلية نقدية فى رؤيته للمجتمع ، وبسبب عدم احساسه الكامل بالأمن والاستقرار ، وهو ينظر لمنظومة المجتمع الدينية والقيمية نظرة شك . وهذه النظرة النقدية الحادة تخلق تربة خصبة للابداع التفكيكى ، إن لم يكن التركيبى أيضا .

٩ - عضو الأقلية يتسم بروح الريادة وبالحركية ، مما يجعله سباقاً فى الخير والشر .

أما بروز اعضاء الجماعات اليهودية وتميزهم داخل الحضارة الغربية على وجه التحديد فيمكن تفسير كثير من جوانبه من خلال مركب من الأسباب والنماذج التفسيرية المترابطة :

١ - يلاحظ ارتباط تميز اعضاء الجماعات اليهودية بتصاعد معدلات العلمنة في المجتمع . وليس من قبيل الصدفة أن أول عبقرى يهودى حقق تميزاً لا داخل سياقه اليهودى وإنما داخل سياق الحضارة الغربية ككل هو إسبينوزا ، فيلسوف الحلولية والكمونية . ويمكن القول ان العباقرة اليهود فى الغرب الحديث يحققون التميز والبروز لا بمقدار تعبيرهم عن يهوديتهم وإنما بمقدار تخليهم عنها ، ولعل أصدق شاهد على هذا هو إسبينوزا نفسه الذى حقق بروزه وتميزه بمقدار ابتعاده عن اليهودية، ثم تبعه ماركس وفرويد وأينشتاين وكلهم يهود ملحدون ، أى يهود غير يهود ، تبرأوا من يهوديتهم .

ويمكن القول إن الجماعات اليهودية فى أوربا كانت تعد عند اندلاع الثورة الفرنسية ، أكثر قطاعات المجتمع تخلفاً وهامشية . إلا أنه ، مع انتصاف القرن ، أصبح معظم يهود العالم الغربى من أكثر القطاعات علمانية وحداثة. وقد تبعهم وبسرعة يهود اليديشية من شرق أوربا سواء من بقى منهم داخل الاتحاد السوفييتى أو من هاجر منهم إلى الولايات المتحدة .

٢ - ويلاحظ أن علمنة النخب اليهودية المثقفة (قيادات اليهود الثقافية) تمت بسرعة فائقة وبشكل كامل وجذرى ، كما تم علمنة الجماهير اليهودية بشكل كامل وقاس وفجائى ومخطط من قبل الدول المطلقة المختلفة (الدولة الفرنسية أو النمساوية أو الروسية) . واستمرت هذه العملية حتى بعد أن حكمت هذه الدول نظم ليبرالية أو ثورية . وقد أدى هذا الى انقطاع واضح بين انتمائهم الدينى وتراثهم من ناحية ، ووجودهم فى العصر الحديث من الناحية الأخرى .

ولذا فإنهم لم يحتفظوا بقيمهم الدينية التقليدية إلى جانب الرؤية العلمانية التى اكتسبوها. ويلاحظ كذلك أنهم لم يحتفظوا بأى رواسب دينية من خلال الرموز العلمانية ذات الأصول المسيحية ، إذ أنهم لا يشتركون أصلاً فى هذه الرموز باعتبارهم يهوداً. كما أن غالبية الجماعات اليهودية فى غرب أوربا وجميع يهود الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية ، عناصر مهاجرة ، وبالتالى فهم عناصر حركية متحررة من القيم والمطلقات تبحث عن الحراك الاجتماعى .

وقد أدى كل هذا إلى علمنة اليهود بشكل حاد وبمعدل يفوق معدلات العلمنة بين معظم قطاعات المجتمع الأخرى . ولذا أصبح الانسان اليهودى فى الغرب هو الانسان الحديث بشكل نماذجى متبلور ، لا انتماء له ولا جذور ، ولا يشعر بحرمة أى شىء وينزع القداسة عن الانسان

والعالم ومن ثم أصبحوا من أكثر العناصر مقدرة على التحرك فى المجتمع العلمانى الحديث ، وأصبح لديهم من الكفاءات اللازمة للتعامل مع المجتمع العلمانى الجديد أكثر مما لدى بقية أعضاء هذا المجتمع من المسيحيين أو حتى من العلمانيين ذوى الجذور المسيحية. فاستطاعوا أن يحققوا بروزا وصعودا بدرجة تفوق ما يحققه أقرانهم من القطاعات البشرية الأخرى فى المجتمع ، ولكنه صعود من يستطيع أن يسبح مع التيار بكل قوة ، لا أن يسبح ضده فيعوقه ويصده .

وقد لاحظ أحد وزراء داخلية روسيا القيصرية وجود اليهود بأعداد كبيرة فى الحركات الثورية فبين له أحد الحاخامات أن الشباب اليهودى كان بعيداً كل البعد عن الحركات الثورية والفوضوية حينما كان يتلقى تعليماً دينياً تقليدياً ، وأن هذه الظاهرة لم تظهر إلا بعد أن انخرطوا فى المدارس العلمانية التى أسسها القياصرة.

٣ - ويمكن أن نضيف إلى هذا أن اليهود كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة فى المجتمع الغربى لعدة قرون ، فأصبحت سمات الجماعة الوظيفية من سماتهم الأساسية . ويوجد اعضاء هذه الجماعات داخل المجتمع وخارجه فى وقت واحد ، فهم على هامشه لا يخضعون لقوانينه ، ولكن عليهم التعامل معه ، لذا كان عليهم أن يفهموا هذه القوانين ، فإن علاقاتهم بالمجتمع علاقات موضوعية غير حميمة ، فهم ينظرون إلى المجتمع بطريقة تحليلية تفكيكية تعاقدية نقدية ، وخصوصاً أنهم من القرب بحيث يمكنهم فهم آلياته ، كما أنهم من البعد بما فيه الكفاية ، الأمر الذى يمكنهم من الاحتفاظ بالمسافة النقدية واعضاء الجماعات الوظيفية هم من أولى القطاعات فى المجتمع التى يتم علمنتها وتجريدها من القداسة ، وسبغها بالصبغة الموضوعية . وبالتالى ، فإن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة هم أول من يحمل الفكر العلمانى النفعى الدنيوى وينشره ويذيعه .

٤ - ويقال إن النزعة المشيحانية عند اليهود ، والتى أخذت شكلاً علمانياً عند المثقفين اليهود الغربيين، تساهم فى إضعاف الأواصر التى تربط بين اليهودى وبين المعطيات التاريخية والاجتماعية ، مما يجعله أكثر رفضاً للمجتمعات التى يوجد فيها ، وأعمق فى نقده لها ، وأكثر موضوعية . ويلاحظ أن المثقفين اليهود من أكثر العناصر تطرفا فى الحركات الثورية والفوضوية والعدمية (تروتسكى - روزا لوكسمبورج - الخ) .

٥ - ويمكننا هنا أن نحاول تقديم فرضية تلقى بعض الضوء على بروز

المثقفين اليهود في الحضارة العلمانية وهذه الفرضية تستخدم نموذج الحلولية (وتصاعد معدلاتها داخل النسق الدينى اليهودى وداخل الحضارة الغربية) لتفسير هذا التميز . وقد أشرنا فى موضع آخر (**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد ، أكتوبر ١٩٩٦**) الى التماثل البنيوى شبه الكامل بين وحدة الوجود الروحية (لا موجود إلا الله) ووحدة الوجود المادية (لا موجود إلا المادة) . وهنا، فإننا نذهب الى ان بروز المثقفين اليهود فى الحضارة الغربية بدأ حينما بدأت هذه الحضارة فى تبنى أنساق فكرية حلولية (البروتستانتية - النزعة الانسانية الهيومانية - النزعة العقلانية المادية) فهؤلاء المثقفون اليهود، بخلفيتهم الحلولية ، وبإنكارهم امكانية تجاوز المادة كانوا مهيأين بشكل كامل لامتلاك ناصية الخطاب الحضارى العلمانى ، ومن ثم تحقيق البروز من خلاله. ولعل الأهمية المركزية لاسبينوزا تتضح من خلال هذا النموذج التحليلى فهو اول مثقف يهودى حقق بروزا واضحا فى العصر الحديث ، ويعود هذا الى انه ربط بين النسقين الحلوليين الروحى والمادى، وعادل بين الإلهي والطبيعى ، ولذا فقد علمن الحلولية تماما وجعلها تصب فى الانساق المادية والعلمية .

اليهود ومراكز صنع القرار

٤ - يلاحظ ايضا تركز اليهود فى حقل الاعلام ، خصوصا فى الصحافة والاذاعة، مما جعلهم فى موقع يمكنهم من تسليط الاضواء على الأنشطة التى يقومون بها وإعطائها من الاهمية ما تستحق وربما اكثر مما تستحق كما ان اليهود الجدد متمركزون فى المدن ، وهى مراكز صنع القرار فى كل أنحاء العالم ، كما أنهم بانتقالهم الى الضواحى لم يبعدوا كثيرا عن هذه المراكز إذ ان معظم اعضاء النخبة فى الولايات المتحدة يوجدون فى هذه الضواحى . ويمكن ان نضيف ايضا ان ارتفاع دخل المواطن الامريكى اليهودى بالنسبة الى المعدل القومى ، كما ان تمركزهم فى بعض المهن البارزة، مثل الطب والجامعات والمراكز العلمية قد زاد من بروزهم .

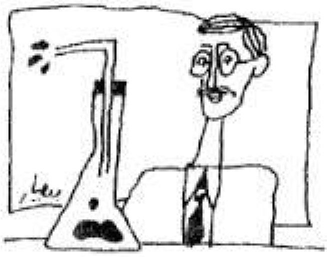
٧ - ويجب التأكيد - كما أسلفنا على ان بروز المثقفين اليهود فى الولايات المتحدة على سبيل المثال ، لا يعود الى انهم يهود، بل الى انهم امريكيون يوجدون داخل الحضارة الغربية ، وهى الحضارة المهيمنة على معظم المصادر الطبيعية فى

العالم ، والتى نجحت فى تأسيس بنيتها التحتية ، وبالتالى يمكن لأى شخص ينتمى اليها ان يحقق كل إمكانياته الفكرية والابداعية .

كما أن الحضارة الغربية ، بسبب هيمنتها على معظم ارجاء العالم ، تنسب لنفسها صفة العالمية وتسلط عليها الأضواء . والمفكرون البارزون من اعضاء الجماعات اليهودية يتمتعون بهذه المزايا ، ولعل ظاهرة العرب من أصل مصرى أو لبنانى أو فلسطينى وغيرهم (فاروق الباز – ادوارد سعيد) ممن يحققون بروزا فى الحضارة الغربية تلقى بعض الضوء على نفس الظاهرة بين اعضاء الجماعات اليهودية . فلو قدر لهؤلاء البقاء فى بلادهم لربما اجهضت امكاناتهم بسبب الحدود المادية ، ولعله حتى لو تحققت امكاناتهم لما وصفت بالعالمية ولما سلط عليها الأضواء.

هذه هى بعض العناصر التي تصلح فى مجملها لتفسير معظم جوانب هذه الظاهرة. ومع هذا يجب ألا نسقط فى الاختزالين والواحدية ولا نعطى أى قدرة تفسيرية للمكون اليهودى فى تميز العباقرة (والمنحرفين) من اعضاء الجماعات اليهودية . وكل ما نفعله هنا هو أننا ننكر على مثل هذا المكون أى أولوية أو مركزية تفسيرية . فالمكون اليهودى لا يفسر تميز اليهود وبروزهم ولكنه يساهم ولا شك فى تفسير حدته ودرجته ونسبته .

ويمكننا أن نقول إن آليات المجتمع العلمانى التى أدت إلى بروز اليهود هى ذات الآليات التى قد تؤدى إلى اختفائهم وانصهارهم ، فالمجتمع العلمانى يزداد ترشيداً وتطبيعاً ويتطلب من كافة أعضائه أن يعيدوا صياغة ذاتهم حتى تزداد كفاءتهم فى الأداء العام ، مما يعنى ضرورة التخلص من كل الخصوصيات والنتوءات فإنسان عصر الاستنارة والعقل المادى إنسان عالمى لا يتمتع بأى خصوصية ، كما أن عملية الدمج فى المجتمع العلمانى لا تتم من خلال الدمج بين هويات دينية وإثنية مختلفة وإنما تتم من خلال نزع جميع الهويات أو إخفائها أو تهميشها حتى يكتسب الجميع هوية علمانية عامة تزيد من كفاءتهم فى الأداء . وبما أن أعضاء الجماعات اليهودية ليسوا استثناء للقاعدة ، فنحن نتنبأ بأن يتزايد اندماجهم وانصهارهم فى الغرب إلى أن يختفى بروزهم ويصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الآلة ذات الكفاءة الكبرى . والله أعلم .



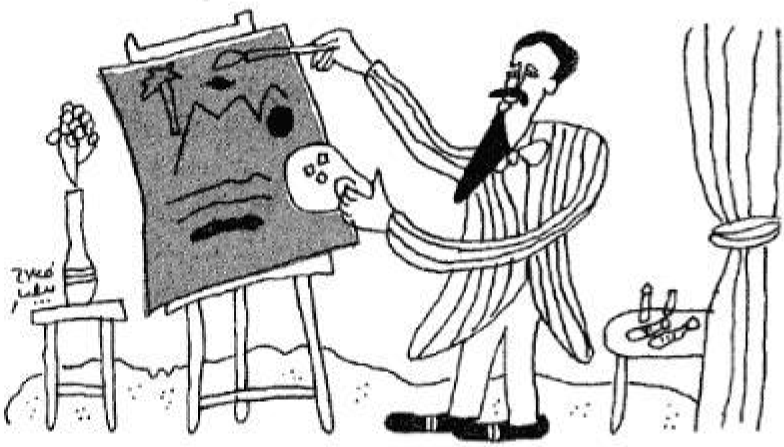
الإبداع .. ونهاية الشوط

بقلم : د. مصطفى سويف

يتحدث علماء النفس عن أنواع أو فئات مختلفة من خصال الشخصية ، فهناك خصال تكاد تنفرد بتحديدها الجينات أو العوامل الأولية للوراثة ، من هذا القبيل مستوى التوازن الوجدانى المتحقق لدى كل منا ، أي المستوى الذى نحن عليه من حيث استقرار حالتنا الوجدانية أو تأرجح هذه الحالة بين الانفعالات المختلفة دون مبررات واضحة فى محيطنا . وهناك خصال تشغل موقعا وسطا بين فعل المحددات الوراثية والمحددات البيئية ، من هذا القبيل الميل إلى الانطواء وغلبة الحياء الاجتماعى والتأمل الذاتى ، فى مقابل تفضيل الانبساط والاندفاع والجرأة الاجتماعية .

وهناك خصال يغلب فى أمرها أثر المحددات البيئية الاجتماعية ، وهذه تتفاوت فيما بينها من حيث ثباتها واستمرار تأثيرها فى تشكيل سلوكنا ، فمنها ما يدوم بقاؤه فينا مقترنا بدوام صفات وقيم بعينها فى نمط الحياة الاجتماعية التى نحياها ، ومنها ما لا يتجاوز عمره بقاء موقف واحد من عشرات المواقف الاجتماعية التى نجتازها فى حياتنا اليومية المعتادة .

وتعنينا فى هذا المقال مفردات الفئة الثالثة من هذه الخصال ، فئة الصفات التى ترسبها فى نفوسنا بيئتنا الاجتماعية، وخاصة الأقرب منها إلى الدوام معنا ما دمنا نعيش فى هـذا المجتمع ومادمنا نتفاعل من خلال



منظوماته المعممة للفكر والفعل والانفعال . وجدير بالذكر أن هذه الفئة من الخصال تستثير اهتمام البعض من كتابنا ومفكرينا ذوى البصيرة النافذة ، نذكر من بين هؤلاء الأستاذ الجليل الدكتور حامد عمار الذى تحدث فى وقت من الأوقات عن صفة «الفهلوة» باعتبارها من أبرز مفردات هذه المجموعة من الصفات . ونذكر كذلك حديث الأستاذ الدكتور حسين أحمد أمين عما يمكن أن نسميه تهرؤ حدود منظومات الفكر والقول لدى الكثيرين منا (تحت بطاقة «ياسيدى ما تدقش») . والواقع أننا نستطيع أن نرصد من هذه الزاوية صفات أخرى كثيرة رسخت فى النفوس كترسيبات بفعل حياتنا الاجتماعية الراهنة، من ذلك مثلا الخوف أو الخنوع الممتزج بالتربص (يقال فلان راقد فى الدرة) ، والشراسة بمعنى سرعة الغضب مع عنف التعبير ، والامتثال مع التبرم وصفات أخرى من هذا النوع كثيرة . وقد اتجه بى التفكير فى محنة الابداع لدينا إلى الاهتمام بواحدة من هذه الخصال التى رسبتها حياتنا الاجتماعية فى نفوس مواطنينا على مر العقود الأخيرة ، وبذلك وصلت من خلالهم (كأفراد) بين مجموع الطاقات المعاكسة لكل ما يمت إلى الفعل الإبداعى بصلة . وهكذا أصبح النمط السائد لحياتنا الاجتماعية يتجه نحو إحكام الحصار حول جنوة الإبداع فينا . بدءا من خصائص السياق الاجتماعى ، إلى ممارسات قياداتنا الاجتماعية ، إلى أسلوب التناحر (بدلا من التنافس) الذى انزلقت قطاعات المجتمع إلى تغليبه فى حسم ما يجرى من تفاعل فيما بينها ، وها نحن نصل فى نهاية الأمر إلى تحميل نفوس المواطنين (كأفراد) صفات من

شأنها أن تقوض مقدما ما يمكن أن يكون مقدرا لها من احتمالات الابداع ، وأنا أشير هنا إلى خصلة بعينها أطلق عليها مؤقتا اسم «نهاية الشوط» .

● نهاية الشوط

تشير هذه التسمية إلى خصيصة أصبحت من بين الصفات السائدة لدى نسبة كبيرة من مواطنينا ، لا فرق في ذلك بين ذكور وإناث، ولا بين متعلمين وأنصاف متعلمين وأميين ، ولا بين مراهقين وشباب وكهول ، وتبدو هذه الصفة في نوع الاستجابة التي تصدر عن الشخص عندما يواجه مشكلة تتطلب حلا ، إذ يبدو من تحليل البنية الأساسية لهذه الاستجابة أنها تحمل كل خصائص المنظومة السلوكية المغلقة ، تماما مثل استجابتي لدافع العطش إذ أتجه مباشرة إلى زجاجة المياه فأشرب وينتهي الأمر ، واستجابتي لدافع الجوع إذ اتجه مباشرة إلى خزانة الطعام فأتناول بعض ما فيها وينتهي الأمر. وهكذا الحال في عدد لا بأس به من الاستجابات التي نواجه بها كثيرا من مطالب الحياة . والمتأمل في هذه الاستجابات وما كان على شاكلتها يجد بينها مقاما مشتركا هو التصميم الأساسي لبنيتها . وربما كان أفضل نموذج مادي لتمثيل هذه البنية تمثيلا مجسما هو خط سير المقذوفات بأبسط أشكال تحقيقه ، حيث تحمل نقطة البدء في طياتها تحديدا كافيا لنقطة الانتهاء (أين ومتى وكيف) . وفي عالم السلوك توصف الاستجابة من هذا النوع بأنها منظومة سلوكية مغلقة . والقضية التي نعالجها في هذا المقال ذات شقين : الأول أن هذا الطراز من الاستجابات شاع حتى أصبح الطراز الغالب على سلوكياتنا في معظم مواقف الحياة الاجتماعية ، وأعني بصورة خاصة تلك المواقف التي تواجهنا بمشكلات نريد لها حلا . والشق الثاني : بيان أن هذا الطراز مضاد بطبيعته لمقتضيات السلوك الإبداعي في جميع جبهات هذا السلوك وعلى جميع مستوياته.

● مظاهر لنهاية الشوط

من أهم الحقائق التي نواجه بها كلما فكرنا في أمر عشرات المشروعات (العمرانية أو الاقتصادية أو السياسية) التي تقام من حولنا ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، خطيرة أم تافهة ... إلخ ، إنه يندر أن يتضمن الواحد منا في تصميم إنشائه إعداد آليات المتابعة ، أو يتضمن تحديدا مسبقا لإجراءات التقويم الدوري الذي يستهدف التدخل من حين لآخر بإجراءات الصيانة أو بإجراءات من شأنها زيادة المواءمة بين مقومات المشروع من ناحية وظروف تشغيله من ناحية أخرى وما قد تمليه هذه الظروف في المستقبل من تعديلات أو تحسينات متوالية . هذه حقيقة لا يكاد يوجد بيننا من لم يشهدها في العديد من مجالات حياته ، ولا يكاد

يوجد بيننا من لم يعلق عليها بمعنى ما من معانى الاحتجاج . ومع ذلك فالنمط لا يفتأ يتكرر . والحقيقة النفسية المسئولة مسئولية مباشرة عن هذا النمط أن من يضع تصميم المشروع أصلا يضعه لينتهى منه ، وبذلك يجسم فى موقعه (أيا كان هذا الموقع) خصيصة «نهاية الشوط» . ولما كانت هذه الخصيصة قد شاعت بيننا وكأنها جزء لا يتجزأ من كياننا فلا أحد يطالب مصممى المشروعات بغير حصيلة هذا التنميط ، لأن أحدا لا يرى فى ذلك أى معنى من معانى التقصير . هذا مثال. ولننتقل إلى مثال آخر . لعلنا لازلنا نذكر الأحاديث الملتهبة والمتلاحقة التى توالت فى الصحف وفى أجهزة الإعلام المرئى والمسموع خلال النصف الثانى من الثمانينيات حول موضوع المخدرات ، وذلك بمناسبة عودة الهيروين إلى الظهور ضمن مضبوطات الإدارة العامة لمكافحة المخدرات منذ سنة ١٩٨٣ ، وكان قد اختفى تقريبا من قوائم المضبوطات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وفى مواجهة هذه المشكلة اندفع الجميع إلى كتابة المقالات ، وعقد الندوات ، والإدلاء بالفتاوى والتصريحات ، والإعلان عن تأسيس مراكز بحثية تعنى بدراسة تعاطى المخدرات ..... إلخ . وفي شهر يوليه سنة ١٩٨٩ صدر القانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩ يحدد الصورة القانونية التى قررت الدولة أن تواجه بها هذه المشكلة .

وبصدور القانون انقشع غبار المعركة ، وتغير اتجاه منحنى الاهتمام الملتهب فبعد أن كان صاعدا بنشاط أصابه الفتور ثم إذا به يتجه إلى الهبوط فالركود فالانقطاع. وانتهى بذلك أو كاد فصل من الفصول التى تصور جانبا مهما من جوانب أسلوبنا فى التصدى لمشكلاتنا الاجتماعية . ويستحق هذا المثال تعليقات كثيرة لأنه زاخر بالدروس والعبر حول حجم الجدية والموضوعية التى نواجه بها هذه المشكلات ، وحول حقيقة أدواتنا التى نوظفها فى هذه المواجهة ومن بين هذه الأدوات الإدعاء والانتهازية والمزايدات الجوفاء .. إلخ . ولكنى أنحى هذه الأمور كلها جانبا لأن المقام لا يلائمها ، وألتزم بالتعليق على النقطة الفذة التى يستدعيها المقام : فمعظم ما قيل وما كتب كان يفضح بتوجه أساسى واحد مؤداه «نريد أن نصل إلى نهاية الشوط» ، فأنا أكتب وأتكلم ... إلخ لأقدم وصفة للوصول من أقصر طريق إلى نهاية الشوط ، الذى هو القضاء التام على المشكلة بمجرد استخدام هذه الوصفة . وفى هذا الصدد فقد تجلت حبكة القصة فى الاقتراحات التى أوصت بها بعض الوصفات من إعدام التاجر والمتعاطى ، أو جمع المتعاطين والقائهم فى معازل فى الصحراء حتى ينتهى أمرهم بعيدا عن أنظار المواطنين الصالحين وأسماعهم . وحتى الذين لم

يختاروا هذه الحبكة اتجه معظمهم بصورة أو بأخرى إلى السير فى مجرى نهاية الشوط . وفى هذا السياق جاءهم صدور القانون المشار إليه وكأنه إعلان للكافة ببلوغ النهاية المنشودة . جدير بالملاحظة هنا أن هذه النهاية لا تعنى بأى حال نهاية مشكلة المخدرات نفسها فى مصر ، ولكنها تعنى نهاية الاهتمام بها عند من يتقنون فن إظهار الاهتمام . وليكن ما يكون من أمر الموضوع الذى اتخذناه مشجبا نعلق عليه تمثيلية الغيرة على الصالح العام .

وهناك مظاهر أخرى كثيرة للخصيصة ذاتها (نهاية الشوط) ، ولكن المقال لا يتسع لتفصيل القول فيها ، لذلك أعرض لبعضها إجمالا . خذ حياتنا الجامعية مثلا، لم يعد من المستهجن فيها أن يتوقف من بلغ منصب الاستاذية عن أن ينتج بحثا أكاديميا واحدا طوال بقائه فى هذه الاستاذية ، حتى لقد كاد هذا المشهد يصبح القاعدة بينما الاستثناء ما خالف ذلك ، لماذا هذا التوقف ؟ لأن من حصل على الأستاذية بلغ نهاية الشوط . مثال آخر : أنظر فى الأسلوب الذى يقدم به كثير من السادة الكتاب اخبار الإبداعات (العلمية والتكنولوجية بوجه خاص) فى صحافتنا وفى أجهزة الإعلام بوجه عام لكى يستنهضوا همم الشباب فهم يستخدمون أسلوب نهاية الشوط ، بحيث يبدو الإنجاز الذى يقدمونه وكأنه لحظى ، ظهر هكذا مكتملا أول ما ظهر ، لم يسبقه مجهود ، ولم يتحول ولم يتطور من خلال مجهود ، ولا ينتظر له أن يتغير ويتعدل من خلال جهود أخرى تالية . مثال ثالث يبدو لدى الغالبية من رفاق الفكر والقلم إصرار عن أن يكون ما يقولونه فى أى موضوع يتصدون له هو الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع ، ويبدو أن هذا التوجه يستحوذ عليهم منذ أن يبدأوا التفكير فيه ومن ثم فهم يتورطون فى صياغة آرائهم بأسلوب إطلاقى مما يضاعف من متاعبهم التى يلقونها إذا ما فكروا فى إعادة النظر لإدخال قدر أو أقدار من التغيير فيما يرتأون . ومثال رابع توحى معظم التعليقات التى تصدر عمن يرتضون إنجازا معينا أو يعجبون به وبما ينطوى عليه من اجتهاد بأن «الزمان لن يجود بمثل هذا الشخص الذى قدم هذا الإنجاز» وهم بذلك يسهمون فى دعم الفلسفة القائلة بإغلاق باب الاجتهاد . جدير بالذكر أن هذه الفلسفة واسعة الذيوع فى عقولنا ونفوسنا أكثر مما نتصور . فهى لا تشيع لدينا فيما يمس أمور ديننا فحسب ولكنها تشيع كذلك فيما يمس كثيرا من أمور دنيانا ، كالسياسة والاجتماع والتربية بل وفى أمور الفن والأدب أحيانا . الأمر المهم فى هذه الأمثلة جميعا (وعشرات أخرى على شاكلتها) أنها تقوم بمثابة إفصاحات لهذه الخصيصة التى أصبحت متمكنة منا ، خصيصة «نهاية الشوط» .

تشير جميع الدراسات العلمية الواقعية التى أجراها الباحثون المصريون وأجراها أندادهم فى الخارج على السلوك الإبداعي وعوامل الإبداع إلى أن خصلة «نهاية الشوط» بالصورة التى أوضحناها معاكسة تماما لخصائص هذا السلوك وشروط تنشيط عوامله المختلفة . خذ مثلا مجموعة الخصائص الجوهرية الثلاث الآتية مما يتسم به هذا السلوك (أيا كان مجال تشغيله) : أنه يتميز بما نسميه التحمل الفائق للغموض ، ويتقدم فى خطاه عن طريق الامتحانات المتعددة للمردود ، ولا يعترف بنقطة نهاية ولكن بنقاط نهايات مرحلية . ومعنى ذلك أن الحقيقة الأولى فى مسيرة هذا السلوك هى إدراك أن هناك غموضا فى مجال المشكلة التى تواجهنا والاعتراف بهذا الغموض ومعايشته مددا (قد تطول وقد تقصر) ونحن نتخذ من هذا الغموض طاقة الدفع النوعى إلى مواصلة الجهد (للاستكشاف أو الابتكار .. إلخ) . فانظر كيف تتعارض نقطة الانطلاق هذه مع نقطة البدء فى حالة «نهاية الشوط» ، واستعن فى نظرك بأحد الأمثلة التى ذكرناها فى الفقرة السابقة ، فستجد أن نقطة البدء فى هذه الأمثلة جميعا لا توحى بإدراك غموض ما فى مجال المشكلة ، وحتى فى حالة إدراكه فهو لا يستتبع الاعتراف عند صاحبه ومن ثم لا تتبعه الوقفة الصحية التى لا تلبث أن تصبح معايشة للحيرة يتخللها كثير من المد والجزر فى تشغيل كل ما أوتينا من خبرات وقدرات على التفكير لعلنا نكتشف الطريق إلى التغلب على هذا الغموض

فإذا تركنا هذه الحقيقة الأولى عن إدراك الغموض والاعتراف به وتحمله فالحقيقة الثانية هى التقدم نحو الحل (المبتكر) عن طريق الامتحانات المتعددة للمردود ، وهو ما يعنى إعادة النظر مرات ومرات فى كثير من الخطوات التى يخطوها المفكر فى طريقه إلى الحل . هل أتيحت لك من قبل فرصة مشاهدة أحد الفنانين التشكيليين ، فى مجال التصوير مثلا ، وهو منخرط فعلا فى تصوير إحدى لوحاته ؟ من أهم عناصر هذا المشهد عملية امتحان المردود التى نشير إليها ، وتكشف هذه العملية عن نفسها فى حركات الاقتراب من اللوحة والابتعاد عنها ، لمسة أو بضع لمسات بالفرشاة ثم يبتعد قليلا ، ليعود ويقترب من اللوحة فيضع لمسة أو بضع لمسات أخرى ثم يبتعد قليلا .. وهكذا . وهو في أثناء ذلك لا يتحول ببصره عن اللوحة

هذا تجسيم واضح المعنى لحركة النظر وإعادة النظر فيما يترتب على كل خطوة يخطوها ومع كل نظر وإعادة نظر يصدر عن هذا المصور حكم تقويمي يملى الخطوة التالية . هذا مثال لما يحدث فى مسيرة عملية ، أيا كان مجال نشاطها ، وغنى عن البيان أن الحركة المرئية هنا تمليها طبيعة

مجال الإبداع (التصوير) ، ومن ثم فالأمر الطبيعي أن تختفي هذه الحركة في كثير من مجالات الإبداع الأخرى ، ولكن لتحل محلها حركة ذهنية معادلة لها في وظيفتها . فانظر ، هل تستقيم هذه الحقيقة ومقتضيات نهاية الشوط ؟

نهاية الشوط لا تعرف الطريق إلى المردود أصلا ، لأنها تكرس أسلوب طلقة القذيفة وينتهي الأمر بالنسبة لها .

ثم هناك الحقيقة الثالثة ، ومؤداها أن طريق السلوك الإبداعي لا يعترف بنقطة نهاية ، ولكن يرصد نقاط إنجاز مرحلية ، تبدو بعضها للنظرة العابرة وكأنها نقاط انتهاء ولكن الحقيقة غير ذلك ، فكل إنجاز عندما يتابعه الفكر المبدع يجد أنه لا يلبث عند التشغيل أن يكشف عن آثار معاكسة (أو عن قصور ما) ، عندئذ يثير مزيدا من التفكير في إدخال قدر من التغيير على سبيل التحسين ثم يتابع آثار هذا التحسين فإذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التعديل إلى الأفضل ... وهكذا . وتاريخ صناعة الدواء خير شاهد على صحة هذا المنظور.

في هذا السياق يأتي تاريخ الهيروين كنموذج بالغ الدلالة لمن أراد أن يتعلم ، فقد أمكن تخليقه معمليا سنة ١٨٧٤ ، وقدمته شركة باير للأدوية سنة ١٨٩٨ باعتباره الدواء الذي يشفي تماما من إدمان الأفيون والمورفين ، ولكن تبين فيما بعد ما أوضح أن الآثار الجانبية للهيروين بالغة السوء ، ومن أهمها أنه هو نفسه محدث للإدمان بدرجة أقسى وأسوأ مما يحدثه الأفيون والمورفين .

والقصص من هذا القبيل لا تنتهي ، وذلك بفضل رسوخ أساليب الفكر الإبداعي في النفوس واحترام ما يترتب عليها من اعتبار أي إنجاز إنما هو إنجاز مرحلي ولا يعني نهاية الشوط . وما نقوله عن هذه النقطة ودورها في تاريخ صناعة الدواء يصدق كذلك بالنسبة للنقطتين السابقتين ، مسألة التقدم نحو الحل من طريق الامتحانات المتعددة للمردود ومسألة تحمل الغموض ، فقد كان لهذين العنصرين بالائتلاف مع عنصر مرحلية الإنجاز أدوار بالغة الأهمية وستظل لها هذه الأدوار في تقدم صناعة الدواء لأن هذه العناصر جزء لا يتجزأ من أرجاع العقول البشرية وهي توظف نفسها في معترك الرقي بصناعة الدواء . ومع ذلك فإنا لم أذكر صناعة الدواء إلا على سبيل المثال ، ومن ثم فما قلته بشأن إعمال عناصر التفكير الإبداعي في سياقها يصدق على سياقات جميع الصناعات الأخرى ، بل ويصدق على جميع مجالات العمل الإنساني بما في ذلك مجالات العمل الاجتماعي الاقتصادي أو السياسي أو الإصلاحي ، لأنها تحتاج دائما وأبدا إلى تنشيط الفكر الإبداعي

لدى كل من يتصدى للإسهام فى تشغيلها . فأين كل هذه الحقائق من خصلة نهاية الشوط ؟

ومع ذلك فأنا لم أتكلم فى هذا الحديث إلا عن التعارض بين هذه الخصلة من ناحية وثلاثة عناصر فحسب من عناصر الفكر الإبداعى فى مسيرته نحو حل ما يعرض له من مشكلات ، وقد توخيت فى هذا الحديث أن أبتعد بالصورة ما أمكن عن التعقيد حتى أضمن لها قدرا معقولا من يسر التلقى والاستيعاب . ومع أننى لن أعود الآن إلى تعقيدها فقد رأيت (من باب الأمانة) أن أشير قبل الختام إلى أن عناصر الفكر الإبداعى وشروط تنشيطه التى تتعارض ومقتضيات الاستسلام لخصلة نهاية الشوط أكثر بكثير مما ذكرت، لكننى أرجو أن يكون فيما ذكرت الكفاية .

أما بعد فقد كرست هذا المقال للحديث عن خصلة من خصال الشخصية التى ترسبت فى نفوسنا بفعل بيئتنا الاجتماعية بما تحمله من خصائص غير صحية فى المرحلة التاريخية الراهنة ، وأطلقت على هذه الخصلة اسم «نهاية الشوط» . وقد حرصت على أن أحدد فى صدر المقال معالم هذه الخصلة ، وذكرت عددا من الأمثلة على إفصاحاتها . وفى النصف الثانى من المقال أوضحت كيف أنها تتعارض تماما مع طبيعة الفكر الإبداعى ومقتضياته .

وبهذا المقال تكتمل الصورة أمامنا جميعا ، أحد عشر عاملا اجتمعت علينا لتقيم معا معالم محنة الإبداع فى بلدنا ، عاملان باسم السياق الاجتماعى لحياتنا ، وأربعة عوامل باسم الآثار التى تصيبنا بها قياداتنا الاجتماعية إذ تؤدى أدوارها القيادية ، وأربعة عوامل أخرى هى أساليب التدافع والتناحر التى تعتمدها قطاعات مجتمعنا فى إدارة عجلة التفاعلات فيما بينها ، وأخيرا عامل نهاية الشوط ، إسهام الفرد ليضع بصمته على هذه المحنة .

وأنا أعلم أن الصورة فى جملتها كئيبة، ولكنى أعلم كذلك أن الصورة الكئيبة لا تثير بالضرورة ردود أفعال اكتئابية ، فالمسألة يحسمها فى نهاية الأمر ما نفعل بهذه الصورة ، المعالجة التى نعالج بها هذا الكم من البيانات أو المعلومات . فقد نكسبها من المعانى ما يغذى اليأس فى نفوسنا ، وقد نرى فيها ما يجعل مفرداتها إشارات تحفزنا إلى قدر من الاستبصار يدفعنا إلى العمل الجاد على إزالة التعويق والقضاء على دعائمه .

ولولا أننى آمل فى شئ من هذا القبيل لما أقدمت على عرض هذه الصورة .

المصريون

الشخصية التاريخية

☐ عرفت مصر السلطة المركزية المستندة إلى القوة الغاشمة المستمدة من حق إلهى أسطورى منذ ٣٢ قرنا قبل الميلاد - على أرجح الأقوال - وبذلك تكون مصر أقدم بلاد الدنيا قاطبة فى التوصل إلى هذا الشكل التنظيمى المتميز للجماعة البشرية. وجاء قيام هذه السلطة المركزية نتاجا للظروف البيئية فى بلد عماد حياته الزراعة التى تقوم على الرى النهرى من مصدر واحد هو النيل، ومن ثم كان قيام السلطة المركزية ضرورة أملتها ظروف البيئة لتنظيم الاستفادة من مياه الرى، استمرارا للعمران. وكان لابد أن تعقد لواءها لأقوى الحكام وأكثرهم بطشا حيث لعبت طبيعة مصر السهلة المنبسطة دورا فعالا فى تمكين مثل ذلك الحاكم القوى من بسط سلطانه على الآخرين. واستكان الناس لهذه السلطة المركزية ولرموزها طالما كانت توفر لهم الحماية وتيسر لهم العيش، وراحت النخبة الحاكمة تدعم مكانتها من خلال ما نسجته حول نفسها من أساطير استقرت فى وجدان الناس، أضفت عليها من صفة القداسة، وجعلت حقها فى السلطة مستمدا من الآلهة مستندا إلى رعاية السماء، وبذلك اقترنت طاعة الحاكم بطاعة الآلهة والعكس بالعكس. وإن كان ذلك لا يعنى أن الناس تحملوا عنت السلطة دون حدود، فقد كان هناك دائما حد أقصى لاحتمالهم، إذا تجاوزته السلطة انفجروا ثائرين انفجار البركان الذى يكتسح فى طريقه كل شىء حتى الحرمات المقدسة طالما كانت تتعلق بالحكام الغاشمين على نحو ما سنرى.

والسلطة

بقلم : د. رءوف عباس

ومع تعاقب العصور طوال تاريخ مصر القديم ظل للسلطة المركزية نفس الطابع القدسي الذى صاغه الضمير الجمعي للمصريين عبر مئات القرون، والذى يجعل السلطة مركزة في يد «الفرعون» صاحب الحق الإلهي لا ينازعه فيها أحد، ولا يعلو صوت على صوته، فها هو ذا الفرعون «اختوى» من ملوك أهناسيا (الاسرتان التاسعة والعاشرة من الدولة القديمة) يحذر ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام ويحشد خلفه أتباعا كثيرون وينصحه بقوله: «اطرده، اقتله، امح ذكراه هو وأتباعه الذين يحبونه»، ويوصيه بأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم «فما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء.. وما أعظم وأقوى الذين يكون له نبلاء كثيرون»، ومن الطريف أن ينصح الملك ولده بأن يعاقب الناس بالضرب والاعتقال عندما يخطئون، وألا يقتل أحدا إلا إذا ثار عليه.

كان الناس - إذن - من وجهة نظر السلطة مجرد أدوات إنتاج يفلحون الأرض لتتدفق خيراتها على الخزانة العامة، ويقومون بالعصا وفقدان الحرية إذا تقاعسوا أو قصروا في أداء واجباتهم، أو ارتكبوا يوما ما تعده النخبة الحاكمة جرما يستحق العقاب. وبذلك لم يكن أمام الناس من سبيل لدفع الظلم عن أنفسهم سوى الشكوى «تماما كما فعل الفلاح الفصيح في مصر القديمة»، وأن يستعينوا بعدالة السماء على جور أهل الأرض شأن سائر المستضعفين.

● النخبة واستخدام القوة !

وعندما دخل العرب مصر لم يتغير الإطار العام للسلطة من حيث تمركزها في يد نخبة تستند إلى القوة، وكانت هذه المرة قوة الفتح، ولم يتغير مفهوم استناد السلطة إلى مصدر إلهي، فالأرض أرض الله والملك ملك الله يورثه من يشاء من عباده المتقين، بل تحولت الفكرة إلى

تفويض إلهى صريح على يد العثمانيين فيما بعد تأثرا بالتفويض الإلهى عند البيزنطيين، وكان الحكم لا يخلو من طابع الاستغلال، وإذا كان عمر بن الخطاب قد لام عمرو بن العاص على عدم تركه ما يكفي من لبن لأبناء البقرة والاسراف فى استنزاف حليبها اشارة إلى الاشتطاط فى جباية الخراج، فإن أحدا من الخلفاء التعاقبين لم يلق بالا إلى ما يلحق المحكومين من أذى من جراء عسف الولاة فتعاقبت ثورات المصريين نحو القرنين من الزمان ضد الحكم الإسلامى حتى أخمدت بالعنف المبالغ فيه فى عهد الخليفة المأمون.

وهكذا ظلت السلطة المركزية النخبوية فى مصر تسيطر على مواردها الاقتصادية، فالأرض أداة الإنتاج فى المجتمع الزراعى ملك للدولة. يسيطر عليها الجالس على أريكة الحكم سواء كان عاملا لخليفة أو خليفة أو سلطانا مملوكيا أو عثمانيا. ولا مجال لمشاركة الناس فى السلطة إلا فى أدنى درجات سلم البيروقراطية، أما الدرجات الأعلى فاحتفظت بها النخبة الحاكمة وموقع الجماهير هو موقع الشغالة فى مملكة النحل، يكدون ويكدحون لإنتاج الفائض الذى يتدفق على جيوب حكامهم وخزانة الدوله يوم لم يكن هناك حدود تفصل بين تلك الجيوب والخزانة العامة. ويتوقع الناس فى المقابل أن توفر لهم السلطة الأمن وتقيم العدل وتحقق الرخاء، ولا يطمعين فيما هو أبعد من ذلك، وهم ينصرفون إلى أداء واجباتهم طالما كان ثمة حد أدنى من ذلك الثالوت متوافرا. وقلما يشقون عصا الطاعة على السلطة إلا إذا ضاقت بهم سبل العيش، وعز القوت وغاب الأمن، أما اختلال ميزان العدل، فكانـوا - دائما - أكثر صبرا عليه.

لم تكن السلطة فى مصر سلطة شعبية، وإنما كانت أوتقراطية أساسا تتركز فى يد الحاكم الفرد فرعونا كان أم خليفة أم سلطانا أم ملكا، تعاونه نخبة متميزة اجتماعيا اختصت بالثراء (الجاه) والنفوذ، عانت الجماهير من بطشها وعسفها واستبدادها، وترك ذلك كله أثره فى الأدب الشعبى وفى كثير من العادات الاجتماعيه النابعة من التمايز الاجتماعى والمعبرة عن التراتب الهرمى «الهيراركى» للمجتمع المصرى، مثل ترجل الفلاح عن دابته إذا مر بمجلس أحد الأعيان أو حتى انتزاعه نعليه والسير حافيا إذا مر أمام

أحد هؤلاء، أو ما كان شائعا قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ من تقبيل الفلاح ليد صاحب الأرض «السيد» حتى لو كان صبيا غض الاهاب.

واستخدم الوعاظ آيات قرآنية بعينها لتأكيد هذا التمايز والحض على طاعة أولي الأمر، والتسليم بالتفاوت في الثروات على أساس ان الله وحده مقسم الأرزاق، وازدراء الثروة والتنفير منها على أساس أن الفقير أقرب الناس إلى الله . مما يدفع الفقير إلى الرضا بوضعه الاجتماعي وعدم التطلع إلى ما بيد الغني، والقبول بالتمايز الاجتماعي «لكل صغير كبير ولكل رئيس مرؤوس» و«اللي مالوش كبير يشترى له كبير» و«لا أنت أمير وأنا أمير مين يسوق الحمير» إلى غير ذلك من أمثال شعبية تعبر عن القبول والرضا بالتمايز الاجتماعي بل وعده أمرا طبيعيا .

• الخضوع والاستكانة !

كما تعبر الأمثال الشعبية عن الخضوع التام للسلطة والاستكانة لها كقولهم «اللي يتجوز أمي أقوله يا عمي»، أو «أرقص للقرد فى زمانه» أو «بلد بتعبد تور، حش وارمى له» أو «طاطى رأسك ما بين الروس أحسن الماشى عليك يدوس». وتعبر عن الرضا بالواقع واليأس من امكانية تغييره مثل «ان طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشا» فهناك استحالة أن يكون لأبناء الفلاحين شأن كأبناء الاكابر، ومثل : «مهما الفلاح اترقى تبان فيه الدقة». ولا يقف الأمر عند الاستسلام للواقع الاجتماعى بل يمتد الأمر إلى تأييد السلطة المطلقة والثراء الواسع مثل «الاعتبار للمال مش للرجال» أو «أصلك فلوسك وجنسك لبوسك» أو «إذا شفت الفقير جرى يبقى بيقضى حاجة للغنى» و «طلب الغنى شقفة كسر الفقير زيره». فالفقير يعمل مخلصا لخدمة السلطة ويتفانى فى ذلك ثم ينال جزاء سنمار «اخر خدمة الغز علقة»، وان كان يستخف بذوى السلطان ويرى فيهم الفساد وخراب الذمم: « حاميها حراميها» و«إرشوا تشفوا» «ويفتى على الا[illegible] ة ويبلع المراء».

وهكذا يفيض الأدب الشعبي بالتعبير عن معاناة الجماهير من بطش السلطة وما تركه فى ضمير المصرى من آثار نفسية سلبية مازالت آثارها ماثلة فى مجتمعنا إلى اليوم كاللامبالاة: «أردب ماهو لك ما تحضر كيله، تتغبر دقنك وما ينوبك غير شيله»، وفقدان روح المغامرة وايثار السلامة: «امشى سنة ولا تخطى قناه»،

وفقدان الأمل فى إقامة العدل بغض النظر عن المكانة الاجتماعية «اللي ماتجريش فى العالي»، إلى غير ذلك من أمثال شعبية عبرت عن معاناة المصرى الطويلة من استبداد السلطة والظلم الاجتماعى حتى شاع عند بعض الدارسين عزوف المصرى عن الصراع وإيثاره السلامة وصبره على الظلم حتى أنه يتحمل من المظالم ما تنوء به كواهل البشر، وقلما يثور على واقعه التعس، التماسا لعون من السماء يرفع عنه الضيم «اصبر على جار السوء لايرحل . تيجى له غارة» و«بابخت من بات مظلوم ما بتش ظالم» إلى غير ذلك من أمثال تدل على الخنوع والاستسلام والرضا بالواقع على علاته، وعدم الطموح إلى تغييره.

ورغم أن تحمل المصريين للظلم وصبرهم عليه حقيقة تاريخية لا مراء فيها، فإن ذلك الصبر لم يكن أبدا بغير حدود، فهناك حدود للطاقة على التحمل تنفد عندما يتحول الأمل فى الخلاص من الواقع التعس إلى سراب، عندئذ لا يبقى فى قوس صبر المصرى منزع للسهام، فيهب الشعب عن بكرة أبيه هبات تلقائية تتخذ طابع العنف، وتلحق الدمار برموز الظلم والاستبداد.

★★★

وقراءة تاريخ مصر منذ أقدم العصور تزودنا بالأدلة الناصعة على انتفاض الشعب المصرى عندما يتبدد أمله فى الخلاص من واقعه الأليم، وعندما يفتقد أسباب العيش، وعدم قبوله الضيم، وتنكيله بالمستبدين والظالمين على الصعيدين السياسى والاجتماعى.

ولعل أحداث الثورة الاجتماعية التى شهدتها مصر أواخر أيام الأسرة السادسة فى عهد الدولة القديمة (عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد) خير دليل على عدم استكانة المصريين للظلم، وانفجار غضبهم، «فانقلبت البلاد إلى عصابات، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم، وأضرب الناس عن دفع الضرائب، وهجموا على مخازن الحكومة ونهبوها، واعتدوا على مقابر الملوك الآلهة فنهبوا ما فيها، وبعثروا أشلاءهم وصب الشعب انتقامه على الأغنياء، فنهبوا القصور وأحرقوها... وصب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء، فصاروا يقذفون بهم الجدران... حتى رجال الأمن أصبحوا فى مقدمة الناهبين».. وهكذا ثار الفلاح الصابر المطبع عندما بلغ الظلم مداه، وبلغ

التناقض الاجتماعي حد الأزمة، فلم يفرق بين معبد لإله، أو ديوان للحكومة، أو مخزن للدولة، أو حتى مدفن لفرعون مقدس.

وتاريخ مصر الإسلامية حافل بالانتفاضات الشعبية التي لم تخل من العنف والدمار، والتي وجهت ضد مظالم السلطة، وبلغ عددها ثلاث انتفاضات كبيرة في الدلتا والصعيد على مدى نحو ربع القرن في مطلع القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وبلغت ذروتها زمن الأزمات الاقتصادية والمجاعات على طول العهد الإسلامي، ولم تقل عنفا ودمارا عما شهدناه في العصر الفرعوني.

تفكك الروابط

كل تلك القرائن التاريخية تقوم دليلا على عدم قبول المصريين الضيم ورفضهم للذل والمهانة، واستهجانهم للظلم وتحفزهم لمواجهته عندما ينفد صبرهم. وتلك القرائن تدحض الربط بين نمط الإنتاج الاقتصادي والسلوك الجمعي للشعب، مثل الربط بين البيئة الزراعية والمسالمة والخنوع. غير أن ذلك لا يعني أن المصريين ميالون بطبعهم للعنف وسفك الدماء فالعنف في سلوكهم استثناء تدفعهم إليه ظروف معينة أفرزها الواقع التاريخي.

وفي عهد محمد على الذي شهد بناء الدولة الحديثة ضربت الدولة بإجراءات التحديث الكثير من المؤسسات الاجتماعية التقليدية، فأضعفت طوائف الحرف دون أن تقوم بتصفيتها، ودخلت طرفا في مجتمع القرية الذي كان مغلقا على نفسه من قبل، ففككت روابطه وحركت شبابه من الأرض إلى الخدمة في الجيش الحديث، أو العمل في المصانع الجديدة، وأصبح المصريون مسئولين أمام السلطة عن أعمالهم وسلوكهم كأفراد بعد أن كانوا يتعاملون مع السلطة في العصر العثماني كجماعات من خلال الطائفة أو القرية . غير أن السلطة لم تعن بتوعيتهم لما تريد، أو تعبئتهم معنويا لتحقيقه، فهم ينتزعون من الأرض للخدمة العسكرية بدعوى الجهاد ومن ثم عرف الجيش بـ «الجهادية»، دون أن يفهموا طبيعة هذا الجهاد ومدى ضرورته وجدوى تلك الحروب التي يخوضونها، تعاملت معهم الدولة كأدوات تخدم أغراضها المختلفة ولم تتعامل معهم كبشر، ومن هنا كانت مواقف الجماهير السلبية من نظام محمد علي - رغم خطورة مشروعه الحضاري السياسي - ومن هنا كانت مقاومتهم السلبية للسلطة .

وترجع تلك المقاومة السلبية إلى غياب

الوعي السياسي، وافتقاد القدرة على التنظيم، بقدر ما ترجع الى غياب القيادة الشعبية القادرة على تحريك الجماهير، بعد أن صفى محمد على القيادات الشعبية التقليدية التى أتقنت أساليب الحشد الجماهيرى والتى كان لها فضل تنصيبه واليا على مصر .

واتخذت المقاومة السلبية اشكالا مختلفة، كالإهمال المتعمد فى تنفيذ التعليمات الخاصة بزراعة الأرض، وترك الارض تعانى البوار، طالما كان عائد الإنتاج ذهب - فى معظمه - إلى الدولة، أو حتى الفرار من القرى تخلصا من التزاماتهم الانتاجية والمالية، وكذلك الهرب من المصانع التى جندوا للعمل بها قسرا، حتى اضطرت الحكومة الى الزام شيوخ القرى بكفالة عمال المصانع، والزمتهم باحضارهم فى حالة الهرب من المصنع. وتعمدت تأخير دفع أجورهم شهورا حتى تربطهم بالمصانع، فلا يفرون منها على أمل استخلاص مستحقاتهم المالية .

ورغم أن الجيش الحديث والخدمة فيه، كان أول انصهار للمصريين فى بوتقة المواطنة، وأول مصدر لنمو الشعور بالانتماء الوطنى، ومبعث إحساس الجندى المصرى بقدراته وكفاءته، ورغم بسالة الجيش المصرى الحديث فى المعارك التى خاضها فى المشرق العربى كله، فإن بقاء الجنود فى الخدمة العسكرية دون تحديد لمدة زمنية معينة، حتى كان البعض يقضون سنوات عمرهم كلها شاكين السلاح، جعل الفلاح المصرى يحاول التهرب من الجندية باتلاف بعض اعضائه والحاق العاهات بنفسه حتى يصبح غير لائق للخدمة العسكرية، وإزاء انتشار هذه الظاهرة، اضطر محمد على الى تشكيل فرقة عسكرية للقيام بالأعمال المعاونة للمجهود الحربى من أصحاب العاهات، حتى يؤكد للناس ألا سبيل للتخلص من الخدمة العسكرية فيكفون عن إلحاق العاهات بانفسهم تهربا من الخدمة العسكرية.

• انتفاضات تلقائية

غير أن المقاومة السلبية لم تستمر طويلا، وخاصة أن الدولة لاحقت الفلاحين بمطالبها المالية إلى حد عجزهم عن سدادها، ولم تترك لهم من عائد عملهم إلا مايقل عن الوفاء بحاجاتهم الأساسية، فهبت انتفاضات فلاحية تلقائية، شهدت مصر عددا منها فى عصر محمد على، اتخذت طابع العنف، مثل انتفاضة الصعيد عام ١٨١٢ التى واجهتها السلطة

بإحراق القرى الثائرة وذبح سكانها، وانتفاضة فلاحى المنوفية عام ١٨٢٣ التى أخمدت بنفس الطريقة .

وشهد الصعيد عدة انتفاضات فى عشرينات القرن التاسع عشر، بلغت احداها حد التمرد على السلطة، وطرد موظفى الحكومة من الإقليم، وإقامة نوع من السلطة الشعبية فى قنا والمنطقة من حولها، واضطرت الدولة الى استخدام الجيش لقمعها، فدار قتال حقيقى بينه وبين ما يقرب من أربعين ألف فلاح بقيادة شخص عرف باسم «أحمد المهدى»، ولم يهدأ الإقليم إلا بعد تصفية الانتفاضة الشعبية وسقوط مئات القتلى من الفلاحين، وفرار الناجين منهم إلى الصحراء ليعودوا الى التمرد على السلطة من جديد عندما نشبت انتفاضة أخرى من إسنا الى أسوان، وامتدت الى جرجا، واستفحل أمرها حتى كلفت الحكومة الجيش بقمعها، ولكن القوات التى توجهت الى المنطقة الثائرة كانت - هذه المرة - من الفلاحين المجندين، فانضم الجنود بأسلحتهم الى الثائرين واضطرت الحكومة لتجريد قوات جديدة تركية (عام ١٨٢٤)، واستمرت المعارك بين الطرفين نحو ستة أسابيع انتهت بهزيمة الفلاحين والتنكيل بهم .

ولم تخمد نيران الثورة فى الصعيد، فحدثت هبات محدودة فى مناطق كثيرة كانت تواجه دائما بالقمع وإحراق القرى الثائرة، كما حدثت هبات مختلفة فى بعض مناطق الوجه البحرى كالشرقية ومنطقة البرارى شمال الدلتا، وكان ضيق الحال، وثقل عبء الضرائب، والتجنيد العسكرى، والعمل الجبرى (السخرة)، وعسف السلطة واستبدادها، من بين العوامل التى حركت جماهير الفلاحين ضد الحكومة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

• قانون للطوارىء عام ١٨٤٩

وأمام تكرار الانتفاضات الشعبية فى مواجهة مظالم السلطة أصدر عباس الأول (عام ١٨٤٩)، قانونا يشبه «قوانين الطوارىء» قضى بضرب الحصار حول القرى الثائرة، والحكم على من يتزعم التمرد بالسجن المؤبد، والحكم على المشاركين فيه بالسجن ثلاث سنوات، مع مضاعفة العقوبة فى حالة استخدام «المتمردين» للأسلحة النارية .

ورغم قسوة ذلك القانون، وبشاعة أساليب القمع التى اتبعتها السلطة فى مواجهة الفلاحين الثائرين، شهد عصر إسماعيل عددا من الانتفاضات، كانت

أخطرها انتفاضة جرجا (عام ١٨٦٥) بزعامة رجل يدعى «أحمد الطيب» استطاع أن يحشد وراءه جماهير الفلاحين فى مواجهة شرسة مع قوات الجيش التى ألحق الفلاحون بها الهزيمة، واضطرت الحكومة الى تجريد قوات عسكرية كبيرة بقيادة أحد كبار الضباط، استخدمت المدافع لمواجهة الفلاحين الثائرين واستطاعت تصفية انتفاضتهم وقتل الآلاف منهم، ومن بينهم زعيم الثائرين .

ومع اشتداد الأزمة المالية، وزيادة الضرائب، وتشدد الجباة فى تحصيلها، مع وقوع القحط الذى تطور الى مجاعة، تعددت انتفاضات الفلاحين طوال سبعينات القرن الماضى فى طول البلاد وعرضها فرغم بطش الحكومة بالمشاركين فى تلك الانتفاضات، كان واقع الجماهير التعس يحركها للدفاع عن حقها فى الحياة فى مواجهة سلطة غاشمة تحرم جماهير المنتجين ثمرة كدهم، لتنعم به الطبقة الحاكمة من كبار الملاك التى لم تتحمل من أعباء الضرائب إلا النذر اليسير، بينما وقع على عاتق الفلاحين وحدهم تمويل الخزانة العامة ومواجهة مطالب الدول الأجنبية صاحبة الديون .

ولم يقتصر العنف الثورى على جماهير الفلاحين وحدهم، بل امتد ليشمل ضباط الجيش (من أبناء الفلاحن) الذين ضاقوا ذرعا بالتمييز فى المعاملة داخل الجيش بينهم وبين الضباط الشراكسة، واعترض فريق منهم على قرار صدر بتسريحهم، فكانت المظاهرة الشهرة التى نظموها احتجاجا على التدخل الأجنبى فى شئون البلاد والظلم الاجتماعى معا (فبراير ١٨٧٩)، والتى أجبرت الحكومة على الرجوع عن قرارها .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يشق فيها العسكر عصا الطاعة على «ولى النعم» منذ عهد محمد على، وبدأ الضباط المصريون يلعبون دورا سياسيا فعالا منذ ذلك الحين، حتى انتقلت إليهم قيادة العمل السياسى فكانت ثورة ١٨٨١ - ١٨٨٢ التى عرفت بالثورة العرابية .

ولا عجب - إذن - أن نجد الجماهير الفلاحية المصرية تتحمس لهذه الثورة وتؤيدها، فقد رأت الجماهير فى شخص أحمد عرابى - زعيم الثورة - «المخلص» الذى جاء ليرفع عن كواهلهم الظلم الاجتماعى الذى عانوا منه سنين طويلة، فانقضوا على رموز الظلم الاجتماعى (كبار الملاك) وهاجموا أراضيهم، وطالبوا

بتوزيع الأرض على الفلاحين، ولم يبخلوا على الثورة بالدعم المادى، بل أقبلوا على التطوع فى صفوف الجيش دفاعا عن الوطن ضد التدخل الأجنبى .

* * *

وهكذا كان صبر المصريين على مظالم السلطة له حدود كان تجاوزها يقود الى الثورة والتضحية بالنفس بأسلوب انتحارى فريد، ورغم غياب الوعى السياسى - بالمفهوم الحديث - عندهم، فإن وعيهم الغريزى بتفاقم الظلم والاستبداد جعل حركاتهم فى مواجهته تتسم بالعنف والقوة وإن افتقرت دائما الى التنظيم الجيد، وبعد الاحتلال البريطانى ارتبطت مقاومة استبداد السلطة بالنضال الوطنى ضد الوجود البريطانى فى مصر، كما ارتبطت بعد ثورة ١٩١٩ - بالنكسات التى عانى منها مشروع الاستقلال الوطنى والقصور فى السياسات التى مارستها الحكومات التى تعاقبت على السلطة قبل ثورة ١٩٥٢.

وقد ظلت مقاومة الفلاحين لتحديات السلطة تتخذ شكل الهبات التلقائية غير المنظمة التى يتم القضاء عليها بالقوة الغاشمة، وانزال أشد العقوبات بالمشاركين فيها دون اهتمام بحل المشكلات التى قادت الى تلك الهبات، وظل الفلاحون يفتقرون الى القيادات السياسية الواعية وإلى الخبرة بالنضال الجماعي والتنظيم، فضلا عن غياب الوعى الطبقى بينهم، وعلى النقيض من ذلك كانت مقاومة العمال لاستبداد السلطة وللظلم الاجتماعى أكثر تنظيما : تتخذ شكل الاضرابات وحركات الاحتجاج واحتلال المصانع، وأدى تلاحم الطلبة مع العمال فى مناسبات سياسية كثيرة إلى إضفاء طابع التنظيم على حركات الاحتجاج الموجهة ضد السلطة فنظمت الاضرابات وشكلت الجمعيات العلنية والسرية، وساهمت فى ذلك بعض الأحزاب السياسية والجماعات الأيديولوجية.

ولم تقف السلطة مكتوفة الأيدى فى مواجهة حركات الاحتجاج الجماهيرى ففرضت الأحكام العرفية لفترات طويلة، ولجأت الى القوانين الاستثنائية والى سلاح القمع والاغتيال والسجن الى غير ذلك من وسائل واجهت بها السلطة مقاومة الجماهير لاستبدادها .

ماذا حدث للمصريين؟

جزء خاص

متغيرات فى الشخصية المصرية

بقلم : فاروق خورشيد

☐ يرصد الدارسون ، وخاصة رجال الاجتماع منهم، كما يرصد المبدعون وخاصة القصاصين والروائيين والمسرحيين منهم، بعض الظواهر الفاعلة والمؤثرة التى احدثت تغييرات واضحة فى شخصية الإنسان المصرى، وهو موضع رصد ودراسة الاولين، وهدف التعبير الأدبى عند الآخرين. وليست المسألة عند الاولين والآخرين مجرد رغبة أو هواية تدفعهم إلى تجسيم ماليس موجودا، أو ادعاء ماهو وهم وخيال.. وإنما المسألة عندهم حقيقة واضحة تحتاج إلى الدرس، وتحتاج إلى الفهم ليصدق البحث ويصدق التعبير الفنى.

وتخرج المسألة من حدود الدارسين والمبدعين لتستحوذ على اهتمام المجتمع كله بمؤسساته المختلفة، سواء كانت مؤسسات ادارية او اعلامية أو تربوية أو تشريعية عندما تتحول هذه الظواهر الى انحرافات كاملة تتمثل فى انحرافات تؤدى الى تدمير الذات كانتشار واستفحال ظاهرة تعاطى المخدرات التى تستهدف الانسان نفسه او فى انحراف يؤدى الى تدمير المجتمع كانتشار ظاهرة الجمعيات الارهابية المسلحة التى تستهدف القضاء على المجتمع نفسه ونظامه ومؤسساته وافراده المحافظين على تماسكه واستمرار مسيرته الحضارية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا معا باستهداف مؤسسات السياحة والاقتصاد، ورموز الفكر والسياسة، وابناء الشعب العاديين بالعدوان المسلح العشوائى.



الشارع المصري أصبح كرنفالا يسمى بالمحافظة على التقليد (الحجاب) والسفور

وتصبح كل هذه الظواهر قضايا عامة حين تؤثر في السلوك اليومي للانسان المصري ، في علاقته بأسرته وعمله والاخرين، في المنزل والمدرسة وموقع العمل، والشارع نفسه ـ فتسود الفلظة، وتنتشر الرشوة، وتظهر طبقة الوسطاء، كما يسود معنى الغش والتدليس وضياع الحقوق، والاهمال الجسيم، والتردي في الخلق واللفظ والقيمة. مما يؤثر لا على السلوك وحسب وانما على طريقة التعامل وتغير من قوالب اللغة، ومعنى الالفاظ. وهي كلها ظواهر جديدة، وغريبة وفعالة بنفسها ومدلة بوجودها في كل الاوساط والمستويات الاجتماعية على السواء.

ـ نخرج من التعميم الى التخصيص بعض الشيء فنرصد بعض الظواهر الفعلية والمعروفة والمحيرة. من هذه الظواهر كثرة الحجاب الغالبة في دوائر الحكومة ومصالحها ومدارسها، بل كثرة وانتشار الحجاب في الشارع المصري ككل، ونرصد في مقابله، كثرة الجرائم الخلقية القائمة اساسا على الجنس، والمحطة فعلا للقيم، كجرائم الأولاد ضد الآباء، وجرائم الزوجات ضد الازواج والأبناء معا ، ثم انتشار المخدرات في كل الأوساط وبلا تفرقة، ثم انتشار ظاهرة الرشوة والاهمال بطريقة لافتة وظاهرة ابتداء من جرائم سرقة البنوك الى جرائم سرقة الافراد، الى جرائم سرقه القيم في الرشوة والعمولة، و (تسليك) الأمور .. والغش في الامتحانات، وتضخم مشكلة الدروس الخصوصية على كل مستويات التعليم رغم كل جهود وزارة التعليم وقراراتها الحاسمة. وانتشار الغش التجاري والاستهتار ـ بحياة المواطنين وصحتهم في السلع المعروضة والمتاحة لهم دون أدنى احساس بالمسئولية الجماعية أو بالمسئولية الفردية في التعامل مع القيم الاجتماعية، او القيم الدينية نفسها .. مما يشي رغم سيادة النبرة الدينية السائدة بوجود نوع من النفاق وعدم المصداقية في الفهم والتطبيق.. ومن هذه المظاهر تصور أصحاب التطرف الاسلامي أنه يتعارض مع الانتماء الوطني ـ أو الانتماء المصري بمعنى أدق ـ فمصر بلد الجاهلية منذ وجودها الفرعوني القديم، وحتى تركيبتها الاسلامية القبطية المعاصرة، وحتى نزوعها الى الأخذ بكل اساليب التقدم الثقافي والعلمي والفكري والفلسفي والادبي ـ وكأن الحضارة والعراقة جريمة، وكأن الابداع فكرا وعلما وصناعة ووجودا حرام، وكأن الالتزام بالقيم والمعاني، خطيئة.. فأصبحت رموزها الحضارية مستهدفة ، وأصبحت رموزها التاريخية مستهدفة وأصبحت رموزها الفكرية مستهدفة..

ثم حفلت التعاملات الاجتماعية بظاهرة (الحشرية) ، فكل واحد من حقه ان يحشر نفسه في شئون الآخرين، وفي عقول الاخرين ، وفي حقيقة ايمان

الاخـــرين.. وأدى هذا الى الاعــتـــداء الاجرامي السافر، ثم تحول الى دعاوى تجريم الرأى ودعاوى الحسبة التى ادخلت الكتب والمسرحيات والمفكرين والباحثين الى دوامات قانونية لا اخر لها. وهذه الحشرية اضافت الى حكاية التكفير حكاية أخرى هى حكاية التفريق بين الأزواج. والحشرية او الفضول داء مصرى قديم ولكنه لم يصل ابدا الى هذا المدى الذى وصل اليه، فالناس (زمان) كانوا يتحشرون للصلح واصلاح ذات البين بين الازواج، والحرص على البيوت واستقرارها اما هدم البيوت ، فهذه حشرية جديدة تماما..

- بعد هذا الرصد الذى يقوم على الاختيار لا الحصر، نحب أن نسأل، على أى مرحلة بصدد ان نقيم مسألة التغييرات.. أو بمعنى اخر منذ متى بدأنا نحس بعنف هذه التغيرات وسرعتها؟ ذلك أن كل المجتمعات مرضة دائمة للتطور والتغيير طبقا لنموها الاجتماعى والثقافى، وخضوعها لظروفها السياسية والاقتصادية. ولكن هذه التغيرات تتم عادة فى بطء وتحدث اثارها على مهل، بحيث لا يمكن رصد اثارها الا بعد مضى مدة من الزمن كافية لإحداث التغييرات البارزة. والذى لاشك فيه ان الاستعمار العثماني احدث فى حياة مصر أكبر تحول جذرى، اذ توقفت كل معالم النهضة والحياة، وبدأ الانحدار السريع بخروج كل أصحاب

ماذا حدث للمصريين ؟

الاقلام والحرف، والمهارات، والغاء الدور الفعال لمصر فى المنطقة، ذلك الدور الذى صاحب الوجود المملوكي منذ الايوبيين وحتى الغزو العثماني. واختفت النهضة العلمية والثقافية والتأليف الجديدة فى التاريخ والفقه والأدب واللغة كما اختفت العمائر والزخارف التى ملأت القاهرة وغير القاهرة ، كما اختفت الصناعات المزدهرة فى كل فنون الصناعة من النسيج والخشب والجلود، وابداعات الخط العربي والزخارف الاسلامية المملوكية الباهرة. والتغير كان الى وراء، والتحول كان نحو الهمود، بدأ الركود يدب فى كل شيء ويدخل الى وجود الانسان المصرى نفسه الذى طحنه الجباة والانكشارية والولاة حتى اضعفت دوره التاريخى الدائم والمتجدد تماما - وانتشرت المخدرات وكثرت نكت الحشاشين والمساطيل، وخمد صوت الغناء والموسيقى، بينما ازدهرت قصور الاتراك المالكين الاغراب الجدد، وسادت اللغة التركية، وكثرت الجوارى، وغدت مصر اقطاعيات لحفنة من الاتراك الاغراب ، وغدا المصرى عبدا فى بلاده، غريبا فى أرضه وحياته. الا ان أحدا لم يرصد هذه التغييرات فى عصرها، ولا فى عصور

تالية لها، وانتظرت كثيرا حتى بدأ الدارسون يرصدونها ويدرسونها، ويدركون عمق ما احدثته من آثار عميقة فى شخصية الانسان المصرى.

الغزو والشخصية المصرية

الذى لاشك فيه أيضا ان الغزو الفرنسى لمصر احدث أثره فى الشخصية المصرية وخاصة فى شخصية المثقف المصرى الذى كان طليعة دائما فى التأثير فى المعنى الحضارى والسلوكى للانسان - الا ان اثر الحملة الفرنسية لا يظهر بوضوح الا بعد تولى محمد على، آخر الروس العثمانية التركية الالبانية الغربية والاجنبية التى حكمت مع اسرتها مصر.. ولكن هذه التركيبة العثمانية الجديدة كانت لها طموحاتها وغزواتها على الخلافة العثمانية والتبعية لها، وهذا التناقض فى الرغبة بالاستعانة بالمصريين، وبين تأصل الاستعلاء التركى عليهم، احدث اثره الذى لاشك فيه فى طريقة التعامل، وفى حدود التعامل ، وفى معنى التعامل فظل المصرى فى ضوء هذا مواطنا من الدرجة الثانية، لا يملك ، ولا يحكم، وانما يعمل ويجتهد، ويعلو بمهارته وامكانياته من درجة السائمة التى ارادها له الحكم العثمانى الى درجة العامل الفعال التى ارادها له محمد على، والتى أيقظها فيه اصطدامه بمعطيات الحملة الفرنسية العلمية والثقافية والفنية.. ثم التقاؤه بأنواع الثقافات المستوردة التى فتح لها محمد على وأسرته الباب لتبنى لهم البلاد.. ولسنا نعنى هنا الأطباء والمهندسين والصيادلة ورجال القانون، والاساتذة المدرسين فى مدرسة رفاعة الطهطاوى، وانما نحن نعنى فئات اخرى فتحت لها اسرة محمد على الباب على مصراعيه لتدخل مصر، مهاجرة، ومستقرة.. نعنى طبقات البنائين والنقاشين، والكنترجية او الحذائيين، والطهاة من أصحاب المطاعم، والقهوجية من أصحاب المقاهى او البورصات ، والميكانيكية، والسباكين والنجارين والأوسترجية، والطباعين، والسمكرية، والحدادين وأصحاب الحرف الصغيرة، وروس الاموال الصغيرة الذين انتشروا من الاسكندرية إلى أعماق الصعيد ، يتحركون حيث يوجد الربح ، يوظفون فيه روس أموالهم الصغيرة ويدخلون صناعات اللحوم والمشروبات والفندقة حتى وصلوا الى اعماق القرى عند كل محطة سكة حديد، وحيث دخلوا الى دنيا الحلاقة والترزية، وتجارات يستوردونها من بلادهم الأم.. هؤلاء جميعا دخلوا بثقافات شعوبهم المالطية والقبرصية واليونانية والايطالية والانجليزية والفرنسية والالمانية والعبرية - انها شعوب أوربا تهاجر إلى مصر بكل ثقافاتها وصناعاتها وإمكانياتها ، وتهاجر بكل رغبتها فى الحياة، فتمتزج بالمصريين من الثغور الى اعماق الصعيد - وكانوا جميعا يحملون وجودا ثقافيا جديدا



جيل الشباب بين التقاليد القديمة وال[illegible]

ومغايرا - وحين فتحت هذه الاسرة الباب، امام الهجرات الشامية واللبنانية والمغربية الهاربة من العسف العثماني في بلادها، اكتملت المكونات الجديدة للروافد الثقافية التي تصب بكل ثراء في اعماق الوجود المصري كما قلت من الثغور وحتى قرى الصعيد.

ينبغي ان نلتفت الى هذه الظاهرة الثقافية الجديدة والي مدى تاثيرها في الانسان المصري - ففي الوقت الذي أصبح للطبقة الحاكمة منذ عصر اسماعيل ابداعها الفني المستورد من ناحية، والعثمانلي التقاليد من ناحية اخرى.. كانت هناك طبقة من المتمصرين تحاول ان تكون وسطا بين هذه الطبقة وقيمتها الثقافية وبين المصريين الذين بدأوا يستيقظون على هذه المعطيات الثقافية الوافدة

بينما كانت الثقافة المصرية تحاول أن ترتبط بهذه الثقافة الوافدة وتحاول ان تتعامل معها، على مستوى الحياة، وعلى مستوى الثقافة وعلى مستوى السلوك معا، وهذا هو الذي أحدث نهضة حقيقية في اللغة العامية المصرية، إذ كانت هي لغة التخاطب الحقيقي مع أفراد الشعب المستهدف من كل مشروعات السلطة، ومن كل المشروعات الاستثمارية التي يقودها صغار المستثمرين الوافدين، وهي أيضا المستهدف من كل مشروعات المستثمرين الكبار، واكبرهم هو القوى الطامعة في مصر حينئذ الفرنسيون والانجليز وبعض القوى المستترة غير الواضحة كالألمان والروس القياصرة المنطلقون من ارساليات لبنان وجبال الارز.

استغلال سيىء للعامية

وشهدت اللغة العامية أعلى مراحل ثرائها اللغوى اللفظي والابداعي معا - فكل القوى تحاول أن تستغلها كقوة ضاغطة للوصول إلى المستهلك المصري، وإلى العقلية المصرية - وحملت جميع الثقافات لغاتها المستعملة في الحياة والسلوك، إلى اللغة العامية، وامتزجت مع العامية المصرية عاميات الطليانة والجريج والأروام والأرمن والقبارصة من أصحابها الكادحين في صلب الحياة المصرية، لتكون عامية مزيجة يستطيع هؤلاء أن يتعاملوا بها مع المصريين، ويستطيع المصريون أن يتعاملوا بها معهم - وبعدت اللغة العربية الفصحى تماما عن هذه المعركة، فلم يكن لها وجود، إلا إلى جوار التركية والفرنسية لغات الدولة الرسمية. وإذا كانت اللغة خلق من قائلها لتعبر عنه، فهي أيضا خلق في قائلها تغير منهج تفكيره وتكون رؤيته الحياتية، وتلعب دورا مهما في توجيه سلوكه، وستجد هذا المزيج اللغوى واضحا في مسرحيات يعقوب صنوع، وفي اعمال غيره من أوائل رواد المسرح المصري الذين قاموا بالنسبة للعامية المصرية بدورين مهمين : الأول هو مزج العامية القاهرية بعاميات الصعيد وفلاحي بحرى، وعاميات أصحاب الحرف المختلفة، وعاميات البدو، باللكنات العامية

المستعملة على ألسنة الأتراك والروم والطليان والفرنسيين والقبارصة ، وعاميات الشعوب العربية التى لها جاليات كبيرة فى مصر كالشوام والسودانيين والمغاربة والاعراب ومزج هذا كله بالكلمات التى استسلمتها استساغتها من لغات هذا الخليط الغريب من الجنسيات الوافدة والمقيمة . ونجحت صحافة العصر كما نجح مسرح العصر فى أن يخلقا معا عامية متميزة ، تملك القدرة على التعبير الصادق ، وتلقى القبول والفهم لا عند المتلقى المصرى وحسب ، وإنما والعربى كذلك ، ومنذ ذلك الحين وحتى سنوات قلائل..

وتربعت العامية المصرية على عرش المسرح والغناء والسينما ودخلت قلوب العرب أجمعين ، وأصبحت شيئا مميزا عندهم ، يساعد على تكوين الحس الجمعى المشترك ، والتعبير الجمعى المشترك.. الدور الثانى الذى قام به رواد المسرح المصرى يعقوب صنوع وأبو خليل القبانى ومحمد عثمان جلال وفرح أنطون وجورج أبيض وعكاشة والنقاش وغيرهم هو أنهم نقلوا الكوميديات والتراجيديات العالمية إلى العامية المصرية حين ترجموها إلى الواقع المصرى حين قدموها ممصرة ، وغيروا فيها لتلائم الذوق المصرى ، وأخضعوها لهذه العامية الثرية التى اتسعت لها ، ووفت بكل احتياجاتها الدرامية .

وحين قدم يعقوب صنوع مسرحيات موليير الفرنسى وجولدونى الايطالى وشريدان الأيرلندى ، وحين قدم القبانى وعثمان جلال مسرحيات راسين وكرونى وشكسبير وغيرهم إلى المسرح المصرى ، وحين عنى جورج أبيض وعكاشة بتقديم هذه الروائع إلى المسرح المصرى ممثلة ومغناة ومحولة إلى أوبريتات مغناة وملحنة بأصوات منيرة المهدية والشيخ سلامة حجازى ، دخلت كوجود درامى فى صلب التفكير المصرى، وفى صلب الحس الفنى الوليد – وكونت للعامية قدرة ثقافية واسعة ، كما كونت لطبقة المتلقين العاديين للمسرح ، وهم الطبقة المتوسطة الصاعدة من عمق المجتمع المصرى إلى سطح التأثير فى مقدرات حياته وتوجيهها ، خلفية ثقافية أصيلة وعميقة أحدثت لاشك تغييرا جذريا فى قيمه ، وأهدافه ، ورؤاه للعلاقات الاجتماعية السائدة فى عصره ومجتمعه .

هناك دور ثالث إلى جانب هذين الدورين المهمين ، هو ارتباط هذه الحركة كلها بموروث الأدب العامى من حصيلة جهاد الفنانين الشعبيين فى التغير المتاح، وعبر بعض الألوان البدائية غير المتطورة ، والقريبة جدا من التلقائية كفن الشاعر الشعبى والحكواتية والمنشدين والموالدية ، وفن الغوازى والطبية ، وفنون المحبظين والمخايليين وأصحاب الأراجوز والحواة والقرادتية وأصحاب صندوق الدنيا ،

والأدباتية – وأصحاب القافية الأشمعني وبه، ورواة النكات وحكايات الحشاشين، وجحا وأبو النواس، وحفظة السير، وحكايات ألف ليلة – وأصحاب الموال، والرواة على الدف والمزمار، وأصحاب المعارضات الشعرية والفكرية واللفظية .. وهي كلها فنون كانت سائدة في هذه الفترة، وتحكمت في عبقرية العامية، وعطائها الفني . وقدم الجميع أعمالهم مرتبطين ارتباطا حقيقيا بهذه الفنون المعايشة لهم، والتي كانت تستأثر باهتمام الجماهير في عصرهم . وقد ذكر المستشرقون من أدواردلين إلى علماء الحملة الفرنسية الذين رصدوا الحياة المصرية، والنشاط الثقافي والحرفي والفني في مصر – مدى تغلغل هذه الألوان المصرية الشعبية في حياة المصريين – وكيف مارسوها في أماكن مخصوصة لها، أو في الشارع والحارة، والسامر، والحوش، والمقهى . وهذا الرصد أكد الوجود الفعلي لهذه الفنون في الوجود الشعبي وكان طبيعيا أن يلجأ يعقوب صنوع والقباني وسلامة حجازى ومن بعدهم الكسار والريحاني إلى هذه الفنون، يؤكد بها الفنان وجوده في الشارع المصرى – ومن هنا ارتبطت هذه البدايات منذ عصر محمد علي بالموروث الثقافي الشعبي إما في الأداء والعرض المسرحي الشعبي، وإما في الاقتباس والاستلهام للتراث الشعبي الإسلامي والعربي ككل – والارتباط أولا في إشراك أصحاب الثقافة الإسلامية في هذه الحركة منذ بداياتها، أي من رفاعة الطهطاوي وعبدالله النديم إلى من تابعهم من رواد الكلمة والفكر، ولكنه ارتبط أكثر بما يمكن أن نسميهم الإسلاميين الشعبيين – ونعني بهم الجماعات الصوفية وأذكارهم، وموالدهم – كما نعني بهم أصحاب المدائح النبوية والتواشيح، الذين اشتهر أمرهم، وكان لهم وجود احتفالي في رمضان والأعياد والمناسبات داخل الدور، وفي المساجد، وفي الاحتفالات الدينية المختلفة .. ولعلنا نقصد (الصييطة) من قارئي القرآن الكريم – حيث بدأت قراءة القرآن الكريم تتبلور في مدارس واتجاهات، تعتمد على القدرة على التحكم في النغمات الموسيقية المعروفة حينها، والقدرة على مزج هذا بأداء المعنى قدر الإمكان، والقدرة أيضا على ربط المتلقي بالحس الديني المتبتل والزاخر، والحس النفسي الحافل والمتكامل لخلق أداء وجداني، معبر، وموقد، ورواع، في آن واحد – ومن هنا ظهر فنانون من أصل أزهرى ليقودوا حركة الغناء، وحركة الاداء ثم حركة الألحان بعد ذلك، ورغم سيادة النغم التركي وسيطرته على الأعمال الفنية والاستعراضية المقدمة، على هذه المسارح، إلا أن فن الإنشاد الديني المتأثر تماما بالعطاء الموسيقي للقرآن الكريم من ناحية، والأوزان الشعرية العربية التقليدية من ناحية أخرى

الملتزمة بعمود الشعر الخليلي من ناحية ، وغير الملتزمة بهذا العمود والمرتبط بالمهارات الوزنية واللحنية المختلفة التى ظهــــرت فى الموال والموشح والدويت والمواليا والكان كان من ناحية أخرى - وتخصص بالذات فنا الموال والموشح فى تأثير ظاهر على هذه الحركة النغمية واللحنية التى صاحبت هذا العطاء الفنى مضمونا وشكلا ومعنى .

كثير من هذه الألحان كانت بالعربية الفصحى ، ودخلت فى أدائها ، وعطائها داخل العمل الشعبى الجمعى الفنى ، فربط هذا بين العامية ، والفصحى المسيطرة وبين العربية الوافدة بقوانينها والتزاماتها اللحنية والوزنية والثقافة المقدسة .

والذى لاشك فيه أيضا أن الاستعمار البريطانى قد قام بدور رئيسى ومهم فى المتغيرات التى طرأت على الشخصية المصرية .

حرصت الصحافة المصرية على الاهتمام بسلوك المصريين والرغبة فى الرقى بهم وقدم فكرى اباظة بابه الشهير « مناظر مؤذية » ينقد فيه المجتمع بشدة



المصور : ١٨/١٢/١٩٥٩

ماذا حدث للمصريين؟

جزء خاص

ثلاثة أجيال من النساء المصريات

بقلم: د. جلال أمين

عندما طلبت منى مجلة الهلال، أن أستعرض جانبا من جوانب التطور الذى طرأ على حياة المصريين، عبر فترة طويلة نسبيا من الزمن، خطر لى أن أتناول التطور الذى طرأ على مركز المرأة، بشرط ألا أقول إلا مارأيته بعينى، وخبرته خبرة شخصية ومباشرة، ومن ثم بدا لى أن أنسب طريقة لتناول الموضوع هى أن أقارن بين حال أمى، كما عرفته عندما كنت طفلا صغيرا، وبين حال ابنتى بعد أن تزوجت وأصبح لها طفل صغير. ولكنى ألزمت نفسى، باستبعاد كل ماهو غريب واستثنائى وأن أقتصر على ما أعتقد أنه عام وشائع، ومن ثم فلن أقول عن أمى إلا ما أعتقد أنه كان مشتركا بينها وبين معظم نساء جيلها، ولن أقول عن ابنتى إلا ما أرى أنه يمثل الاتجاه الشائع الآن فيمن كن فى مثل سنها ومثل طبقتها الاجتماعية.



... الأزياء وخاصة في ملابس النساء ما بين التقليد والنقاب

عندما أقارن بين حال أمي منذ نحو خمسين عاما، وبين حال ابنتي الآن يستولي علي العجب من أكثر من وجه: العجب من الفرق الشاسع بين الحالين والعجب من الذين لايريدون الاعتراف بما حققته المرأة المصرية من تحرر وتقدم عقلي ونفسي. إني أنظر إلى ابنتي فأجد أن لها وظيفة تشغلها من الصباح الباكر حتى الرابعة بعد الظهر، وهي وظيفة ليست روتينية بل تتطلب ابتكارا ومبادرة، وهي تنشغل بعد ذلك (وقبل ذلك) بطفلها الصغير وبأمور بيتها وحاجات زوجها، وهي تحضر في نفس الوقت لشهادة عليا بالجامعة تتطلب منها حضور محاضرتين مسائيتين كل أسبوع، وقيادة سيارة في بعض من أشد شوارع القاهرة ازدحاما، عدا الاستذكار والاستعداد للامتحان وكتابة البحوث. ومع ذلك فهي أكثر حرصا مائة مرة، مما كانت أمي، على مظهرها وهندامها، وتختار ملابسها وتصفف شعرها بعناية أكبر، وتبذل جهدا أكبر بكثير، مما كانت تبذله أمي، في تجميل بيتها واختيار أثاثه.. الخ.

ما الذي كانت تصنعه أمي إذن؟ لا وظيفة ولا دراسة ولا اهتمام بهندام أو ملابس، ولا بتجميل البيت، ولا قيادة سيارة بل ولا خروج من البيت الا لماما، ولا فيديو ولا تليفزيون، بل ولا أذكر أني رأيتها تدير أسطوانة على فوتوغراف أو تنصت الى الراديو، وذهاب نادر جدا الى السينما او المسرح، وقراءة نادرة جدا ايضا لاتكاد تزيد على نظرة سريعة الى الأبواب الخفيفة في بعض الصحف، ولاتفنن في اختيار اللعب، او الكتب لأولادها، كما تفعل ابنتي الآن، اذ لم يكن الاعتقاد شائعا وقتها بأهمية هذه أو تلك، كما أنها لم يكن لديها الوقت ولا صفاء البال للتفكير في ذلك، لم يكن لديها الوقت؟ لماذا؟ ما الذي كانت تصنعه إذن، ان لم تكن تفعل اى شيء من هذه الأشياء؟

هل كان المطبخ وطهى الطعام هو كل ما يشغل حياتها؟ نعم، او يكاد، وكم يبدو الأمر الآن مدعاة للرثاء، كان وقت أمي ينفق في المطبخ، على الرغم من انه كان مكانا صغيرا ضيقا ليس فيه أي وسيلة من وسائل الراحة او مظهر من مظاهر الجمال، سيىء التهوية، شديد الحرارة،

خاصة مع ايقاد موقد البريموس فى الصيف، (بعكس مطابخ جيل ابنتي من النساء، على الرغم من انهن لاينفقن فيه عشر الوقت الذى كانت تقضيه أمى فيه). كانت أمى ذاهبة أو آتية من المطبخ، يتصبب عرقها، وهى تجهز الطعام لابن بعد آخر من ابنائها الذى يصلون من مدارسهم او جامعتهم على فترات؛ فلا يقبل احد منهم الانتظار ولو ربع ساعة حتى يأتى أخوه، ويطالب كل منهم بحقه فى الأكل بمجرد وصوله والا مات جوعا، فيثور عطفها وتحضر له الطعام على المائدة بعد تسخينه، فيقبل عليه حضرته دون أن يكلف خاطره مبادلتها الحديث، بل ويسمح لنفسه أن ينتقد هذا الصنف من الطعام او ذاك، ثم يذهب لينام، او ينطلق «للمذاكرة» مع أصحابه.

● المرأة والمطر

كانت أمى كثيرا ماتردد ضاحكة «إنما نطعمكم لوجه الله، لانريد منكم جزاء

«ديفليه لأحدث الموضات التى تظهر سنويا



ولاشكورا، ولم تكن فى الواقع تشعر، الا نادرا، بأية غرابة فى الأمر برمته، كما أن أبى مع كل تحرره الفكرى واتساع افقه (فقد كان أديبا مرموقا)، لم يكن هو بدوره يرى أية غرابة فى الأمر، لقد كتب مرة فى كتاب (حياتى)، الذى أودعه سيرته الذاتية، وهو يصف شعوره وخواطره لدى رؤيته أوربا لأول مرة، أن الفضل الاكبر فى تقدم الأمم الاوربية يعود إلى أمرين رقى مركز المرأة والمطر «فالمرأة هى التى تربى الأمة وهى التى تعود ابناءها النظام والأخلاق، والمطر هو الذى يهيىء الطبيعة ويصوغها صياغة جميلة، حتى لو قلت ان مقياس رقى الامم التى شاهدتها هو درجة المرأة فى الرقى وانهيار الأمطار فى أوقات مختلفة لم أكن بعيدا عن الصواب».

ولنضرب الصفح عن المطر، فهو بلا شك محل جدل، ولكن لاشك ان ملاحظته عن المرأة تنطوى على جزء كبير من الحقيقة، ومع ذلك فلا يبدو أن أبى قد بذل جهدا كبيرا للارتقاء بمركز المرأة فى بيته هو، أو لعل الأدق ان اقول انه ربما اكتشف فى وقت مبكر من الزواج، انه مهما بذل من جهد فانه لن يستطيع ان يغير كثيرا من مركز المرأة، فى بيته هو أو خارجه، اذا كانت التربية التى تلقتها أمى والظروف التى ترعرعت فيها، تكاد تحتم أن يكون مركز المرأة على ذلك النحو.

● نظرة غريبة إلى الرجل

كانت أمى تمثل جيلا كاملا من النساء المصريات اللاتى تربين وترعرعن على نظرة غريبة حقا إلى الرجال، تدور على اعتبارهم فى الأساس مصدر أمنهم الاقتصادى، ولكنه مصدر غير موثوق به ومعرض للتقلب والتحول فى اية لحظة، ومن ثم فإن عليهم التدرب على فن الابقاء عليه، واتقان هذا الفن، والا تعرضن لمصير لايحسدن عليه. انى لا أبالغ بالقول بان العلاقة بين الزوجين كانت بناء على ذلك، اقرب الى العلاقات السياسية التى تحكمها فنون الحرب والدبلوماسية والملاوعة والمراوغة منها الى العلاقات العاطفية. ولن يبدو هذا غريبا متى تأملنا حال المرأة المصرية فى ذلك الوقت، فقد كانت المرأة المصرية محرومة، فى أغلب الأحوال من أى مصدر يؤهلها لكسب العيش بطريقة مستقلة عن الزوج، ولم تكن

تحظى فى أغلب الأحوال، بأى تعليم على الاطلاق يمكنهـــا، ولو نظريا، من هذا الكسب. كانت التبعية الاقتصادية للرجل، هى إذن وبلا شك الأصل فى هذا المركـز السيئ، ليس فقط بمعنى الاعتماد الفعلى على الرجل، بل وأيضا عدم القدرة على تحقيق اى نوع من الاستقلال الاقتصادى عنه، حتى لو أرادت.

تلقت أمى منذ صغرها، كما تلقت الآلاف المؤلفة من النساء المصريات من جيلها الدرس الخالد فى أن الزوجة «يجب ان تقص جناحى زوجها لكيلا يطير». وأن أفضل طريقة لاتمام هذا القص هو كثرة الانجاب، وكانت النتيجة ان أبى، الذى كان يخطط أن يكون له ولدان، انتهى بأن يكون لديه ثمانية بفضل تلك النصيحة الخالدة التى تلقتها أمى منذ نعومة أظافرها، وفى رأيى أن هذه التبعية الاقتصادية وماترتب عليها استمرت تلقى بظلها القائم على العلاقة بين أبى وأمى طوال حياتهما معا. لم تكن بالطبع علاقة خالية من المودة او العاطفة، ولكن كانت هذه تاتى على فترات متقطعة ومتباعدة كفترات اشراق الشمس فى سماء ملبدة بالغيوم.

كانت المرأة، أيام أمى، اذا امتدحت الرجل، أشادت فى الأساس بأنه «لايترك شيئا يحتاجه البيت الا قام بتلبيته»، وافضل الرجال كان هو «سخى اليد» واسوأهم هو من ينفق أمواله «خارج البيت»، على الكيف او القمار أو النساء. وكانت تغتفر له أشياء كثيرة، مما لا تغتفر له الآن، اذا كان ينفق بسخاء على أهل بيته.

***

أين نحن الآن من هذا كله؟ لقد نجحت المرأة المصرية الى درجة بعيدة جدا فى كسر هذه التبعية الاقتصادية، فخرجت للعمل وكسب القوت والتعليم، وصارت فى أحوال كثيرة جدا ندا للرجل، وزميلته فى المصالح الحكومية والشركات والجامعات..

ومع ارتفاع معدل التضخم وازدياد أعباء الحياة أخذ الرجل يبحث عن المرأة التى تستطيع أن تتحمل معه هذه الأعباء، فأصبح يفضل المرأة العاملة وادى ذلك بالضرورة الى اكتفائهما بعدد أقل من الأولاد، وببيت أصغر، مما أدى بالتالى إلى أعباء منزلية أخف ومطبخ أصغر وطهى أقل، واذا بوظيفة المرأة الأساسية

تنقلب رأسا على عقب، وتتحول العلاقة القائمة على المعارك الحربية والسياسية الى علاقة تتطلب العاطفة فى الأساس، وكثيرا ماتتوافر لها هذه العاطفة. لم يعد أهم مايعيب الرجل فى نظر المرأة هو «جيبه» كما كانت تقول أمى نقلا عن أمها، وانما أشياء أخرى لايسيطر عليها الاقتصاد لحسن الحظ

ليس من الغريب إذن، ذلك التطور الكبير الذى طرأ على الأغانى العاطفية التى كانت تحرك قلب أبى وأمى وتلك التى يمكن أن تحرك قلب ابنتى .

فالمرء يعجب من كمية دموع العين التى ذرفها المغنون، واحدا بعد آخر، حزنا على بعد الحبيب. ومن كمية ساعات الليل التى لم تر فيها العيون النوم، شوقا اليه، بالمقارنة بما يشيع فى أغانى اليوم من فرح وابتهاج بالحياة وتفاؤل برضا الحبيب. كان الحزن الذى يخيم على أغانى الحب طوال النصف الأول من القرن، واليأس التام من ملاقاة الحبيب، ولهيب الشوق الذى لايمكن اطفاؤه.. الخ. كلها تعكس انفصالا حديديا بين الجنسين، أو زواجا لم يكن لأحد الطرفين اليد العليا فى اتمامه. لا الرجل رأى العروس قبل أن يتزوج بها، ولا هى رأته أو كلمته قبل أن تزف اليه، وكان أبى وأمى وهما يستمعان الى أغانى أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالمطلب القديمة، المملوءة حزنا وشجنا وربما كانا يبكيان مع المغنين الحب الذى لم يتمتعا به قط

***

● المنزلة بين المنزلتين

خطر لى أن أختبر صحة هذا التفسير الاقتصادى لمركز المرأة فى مصر، بأن أنظر فى حالة اختىّ، كيف كان حالهما، من حيث التبعية الاقتصادية للزوج، بالمقارنة بأمى وابنتى، وكيف كان حالهما من حيث العلاقة العاطفية بينهما وبين زوجيهما؟ وجدت الاجابة تؤيد صحة ماذهبت اليه، ذلك أنى وجدت ان اختى تقعان فى المنزلة بين المنزلتين، فى كلا الأمرين: لقد خطتا بضع خطوات الى الأمام، بالمقارنة بأمى، من حيث الاستقلال الاقتصادى عن الزوج، كما أن علاقتهما الزوجية كانت، فيما يبدو لى، أكثر هناء. لم تعمل ايهما فى وظيفة قط، ولم تكسب قوتها بعملها قط، ولكن التعليم الذى


شبابنا أيضا منهم من يلبس ملابس غريبة :

حظيت به كل منهما كان يسمح لها دائما، ولو نظريا، بأن تكسب قوتها لو ارادت بعكس الحال مع أمي، كما أن فرص العمل المتاحة للمرأة في عصرهما، وفي مثل طبقتهما، كانت أكبر بكثير مما كانت متاحة لجيل أمي، وان كانت أقل بكثير مما هو متاح الآن لجيل ابنتي.

نتبين من ذلك كله أننا يجب ألا ننخدع كثيرا بالحجاب الذي ترتديه المرأة المصرية بكثرة في أيامنا هذه. فنظن أنه يقترن برجوع المرأة المصرية الى الوراء. فالحقيقة غير ذلك تماما. لقد حققت المرأة المصرية في الخمسين عاما الماضية درجة تستحق الاعجاب حقا من الاستقلال الاقتصادي ومن التفتح العقلي ومن الثقة بالنفس ومن الجرأة على التعبير عن نفسها ومشاعرها الحقيقية وكما أن الحجاب ليس هو الدليل على الفضيلة، بل الفضيلة توجد معه أو بغيره، فإنه ايضا ليس عنوانا للتخلف العقلي، كما يذهب البعض للأسف. بل التخلف العقلي او التفتح العقلي يوجدان او ينعدمان بالحجاب او بدونه، وانما يعبر انتشار الحجاب عن شيء اخر تماما ليس هنا مجال الخوض فيه.

***

● ثمن الحرية

هل نستخلص من ذلك أن المرأة المصرية قد حققت تقدما مستمرا وبدون انقطاع طوال الخمسين عاما الماضية؟ ياليت الأمر كان كذلك حقيقة، فالحياة لاتعرف هذا التقدم في كل شيء في نفس الوقت، وإنما لابد أن نتوقع أن يكون التقدم في أمر من الأمور تأخرا في أمر أو أمور أخرى. كان جيل أمي يتمتع رغم كل شيء باستقرار غريب واطمئنان إلى أن المستقبل سيكون، على الارجح، مثلما كان عليه الماضي، صحيح ان المرأة كانت مهددة دائما بأن يقلب لها الزوج ظهر المجن ولكن فرص حدوث ذلك كانت، فيما يظهر، أقل بكثير مما هو قائم الآن، وكان الرجل بدوره، في جيل أبي، أكثر استقرارا وأكثر اطمئنانا الى المستقبل منه الآن، فانعكس ذلك في درجة أكبر من الطمأنينة للأسرة بأكملها. كان الاستقرار والاطمئنان للمستقبل ناشئين عن قلة الفرص المتاحة. قلة الفرص المتاحة للرجل والمرأة على السواء: فرص الكسب والثراء

وفرص السفر، او الهجرة، وفرص المغامرة بوجه عام. ومع قلة فرص واحتمالات التغيير ساد الاطمئنان إلى أن الحياة سوف تسير على الأرجح كما كانت، وكان هذا مصدرا للاطمئنان النفسي لم يعد متوافرا الآن. وانعكس هذا بدوره في شعور الاولاد بالاطمئنان الى المستقبل بعكس مانراه اليوم من قلق لايبدو انه قابل للعلاج، ولهاث وسباق وتنافس لاتبدو لها نهاية.

قد يكون هذا التطور السلبي الذى طرأ على المرأة (والرجل والاولاد جميعا) في الحياة الحديثة ليس إلا الوجه الآخر لنفس العملة: استقلال اقتصادى أكبر، وفرص أكبر لتحقيق الذات، وحياة عاطفية اكثر ارضاء في مقابل قلق أكبر وخوف أكبر من المستقبل وتلهف أكثر على مايمكن وما لا يمكن تحقيقه، انه على الارجح ليس الا ثمن الحرية.

واحدة من أم ما قدمه فكرى أباظة حول المناظر المؤذية



المصور: ٢٣/١٠/١٩٥٩

ماذا حدث للمصريين؟

جزء خاص

بين الأمس واليوم

بقلم : الفريد فرج

يظن الشباب عادة أن اليوم أفضل من الأمس ، فى حين يؤكد الشيوخ العكس ويصرون على أن أمس كان أفضل من اليوم !

ولكن لكل قاعدة استثناء ، وربما يتعاظم الاستثناء فيلقى ظلال الشكوك حول القاعدة ...

ومن قبيل ذلك ما نراه فى شباب اليوم من نزوع الى الهجرة فى الماضى والتماس العدل والطمأنينة والرخاء فى الظن بامكان تكرار عصور سالفة !

ومن قبيل ذلك أيضا ما سأحدثكم به عن الماضى والحاضر حديثا موضوعيا لا يميل ناحية أو يستحسن وقتا ويستقبح وقتا آخر .

منذ نصف قرن كان تعداد المصريين عشرين مليون مواطن ، وهو ثلث الرقم الحالي . وكان يسكن القاهرة مليونان من المواطنين . انظر الى صورة القاهرة فى أفلام السينما التي جرى تصويرها فى الاربعينيات .. مواصلات سهلة ، والركاب جالسون على المقاعد في الأتوبيس ، والسيارات فى الشوارع قليلة .. والأشجار كثيرة .

عدد الأشجار والمساحات الخضراء بالنسبة لعدد السكان تضاءل اليوم بشكل يهدد الصحة العامة ويشوه الجمال الذى

الأبراج العالية والعشوائيات يتعانقان فى منظر
فريد بالقاهرة .. هل هى سمة المصريين الآن ؟!



عرفت به القاهرة . وزحمة المرور والضوضاء وعادم السيارات واختناقات الشوارع يصيب الناس بأمراض الصدر والقلب والاعصاب والأمراض النفسية ويكسب عامة الناس ميلا للخشونة في التعامل مع الآخرين ، يصل في حده الاقصى إلى العنف الدموي ..

ومن جهة أخرى كانت نسبة التعليم إلى عدد السكان بالأمس أقل منها اليوم، وكانت نسبة المتعلمين أقل ، وكان متوسط الدخل للفرد وللأمة أقل من متوسط الدخل اليوم - برغم تضاعف الشكايات اليوم من الغلاء ومن التضخم ومن تدنى الأجور.

نسبة الفقر أكبر

كانت مظاهر الفقر بالأمس أكثر مما هي اليوم ، وتتمثل في انتشار الشحاذين في الشوارع والمقاهي والمواصلات العامة وعلى أبواب المساجد والمصالح الحكومية والشركات .. وتتمثل أيضا في آلاف الباعة الجائلين في الشوارع والمواصلات العامة والحدائق يبيعون السلع التافهة الاسعار مثل الامشاط وعلب الكبريت واللب والسميط والترمس وما إلى ذلك ... فضلا عن انتشار وكثرة ماسحي الأحذية .

وهؤلاء كانت تطاردهم الشرطة خاصة في الأحياء الراقية ، وهم بالاجمال حصيلة هجرة متسربة من الريف .. وأصولهم في الريف أشد فقرا وعوزا حيث كان يعيش أربعة عشر مليون معدم لا يملكون شيئا ويتعيشون من العمالة الموسمية المتقطعة - راجع فيلم الحرام ليوسف إدريس بطولة فاتن حمامة وعبد الله غيث واخراج بركات .

في المدن كان الأجانب المقيمون يحتلون الوظائف المهمة ، وهم أغلى وأمهر الحرفيين ، كان اليونانيون والايطاليون من أكبر الجاليات حجما ، وكان الاوربيون عامة هم غالبية هذه الجاليات - وكانوا أطباء ومحامين ومهندسين ومدرسين للغات ورجال أعمال وأصحاب شركات مالية وشركات تصدير واستيراد وموظفين في الشركات الأجنبية الكثيرة والبنوك .. فضلا عن العمالة الماهرة في مجال الميكانيكا والطباعة والبناء ..

كان متوسط الدخل في الجاليات



الاجنبية أعلى بكثير من متوسط الدخل للمصريين ، وكانت نسبة البطالة بين الاجانب تكاد تكون لا شئ ، بينما تتضاعف نسبة البطالة بين المصريين فى الريف والمدينة .

كانت السياحة بالأمس أوروبية أمريكية واليوم تزاحمها بأعداد متزايدة السياحة العربية ، وكانت المقاهى التقليدية أكثر انتشاراً بالأمس منها اليوم ، وكان فى شارع فؤاد - ٢٦ يوليو الآن ثلاثة مقاهٍ كبرى أغلقت أبوابها وتحولت الى دكاكين ..

و أين اليوم المقاهى التاريخية ذات الشهرة مثل قهوة متاتيا التى كان يجتمع فيها المثقفون من الثوار العرابيين ، أو قهوة الفيشاوى التى ضمرت بسبب «همة» التخطيط لحى خان الخليلى وفقدت زبائنها من كبار الأدباء والفنانين ، وكان من زبائنها بالأمس كامل الشناوى وأحمد رامى وبيرم التونسى وحمدى غيث ولطفى الخولى ومحمد عودة وصلاح عبد الصبور ومحمد الفيتورى وأحمد عبد المعطى حجازى وصلاح چاهين وكاتب هذه السطور .

يقولون : ان المادية تتفشى اليوم والأخلاق تنتكس ، والفلوس أصبحت كل شئ ، والاستغلال أصبح القاعدة فى التعامل بين الناس ..

الطبيب يستغل مرضاه والتاجر يستغل زبائنه ، والمدرس يستغل تلاميذه - أضف إلى ذلك أن الناشر يستغل المبدع والمنتج يستغل الفنان ..

وقد كان الموظف اكثر شعورا بذاته واعتدادا بشخصيته من موظف اليوم ، ولذلك كانت الاعمال أكثر انتظاما والتعامل مع الجمهور أفضل مما هو اليوم .

ولا تصدق من يقول لك : إن ذلك يرجع إلى قلة عدد الناس الذين كان الموظف يقوم بخدمتهم - فإن عدد الموظفين تضاعف اليوم باكثر من وتيرة تزايد السكان.. الموظفون اليوم أكثر والخدمات أقل فى المستوى ..

وهذا يرجع فى ظنى إلى نظام المرتبات الحالى - اليوم الحوافز اكبر من المرتب والمكافآت التشجيعية أكبر من

الحوافز ، وكلها في يد رئيس العمل .. المرتب مضمون ، ولكن رئيس العمل يستطيع الحرمان من الحوافز والمكافآت والتقرير السنوى الذى يضعه رئيس العمل له أثر حاسم فى ترقية الموظف وعلاواته ومكافآته .

استرضاء رئيس العمل

هذا النظام الذى لم نعرفه بالأمس جعل الموظف أسبق إلى استرضاء رئيس العمل قبل السعى إلى إرضاء الجمهور أو غيره - وانتشرت بذلك فى الوظائف والأعمال آفة الطاعة «العمياء» - وهى عمياء لأنها طاعة «بعيون مغمضة» .. و«بغض النظر» حتى عن المصلحة العامة والرأى السليم أو راحة المواطنين أو حسن سير العمل .

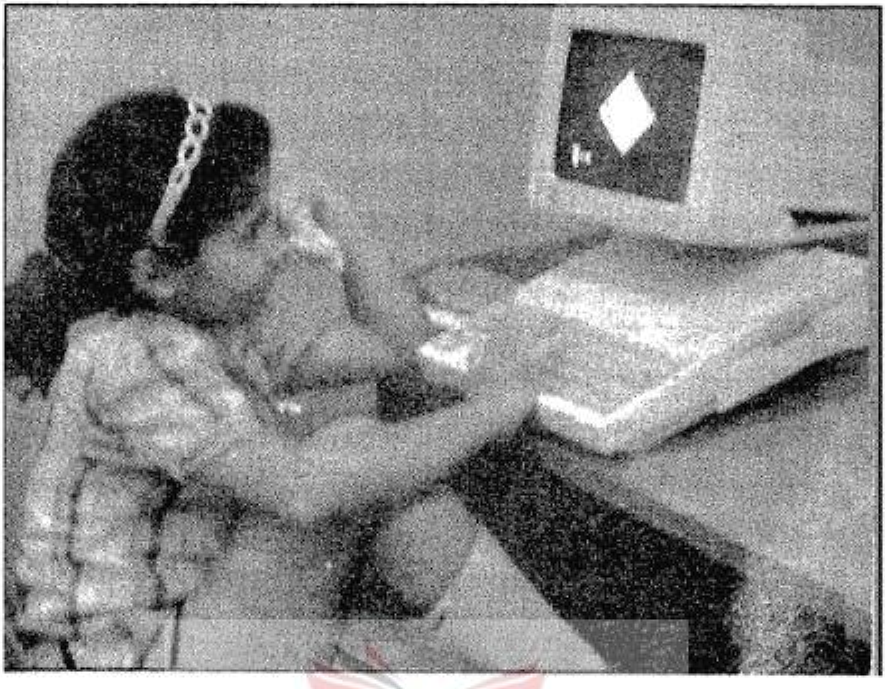
وقد انتشر هذا «العمى» بالخوف ، وبالأخذ بالأحوط ، ثم بالاعتياد وبالعدوى تحت وطأة الغلاء حتى تدهور الأداء وانتشر النفاق والملق والمسايرة و«وضع الحمار مطرح ما يريد صاحبه» وهو غالبا رئيس العمل ..

وقد تغير الفن مع الأخلاق - فلم يعد الفن يلتزم بنصرة الفضيلة والبراءة والوفاء كما كان بالأمس ، بل اجترأ بدعوى الواقعية وبادعاءات أخرى باطلة .. اجترأ على الفضيلة والبراءة والوفاء .. وأمعن فى تصوير قوة الشر إزاء الخير ، والاستهانة بالحب وبالوفاء . وبدعوى الواقعية وأن «الحياة كده» يكرر الفن صور التدهور الخلقى ...

ويتحدث الناس اليوم كثيرا عن «المتغيرات» تبريرا لأخطائهم أو الانحراف فى سلوكياتهم . ولكنهم ينسون أن كلمة المتغيرات استخلصها أهل الفكر من كلمة وفكرة الثوابت - فهى كالاستثناء بالنسبة للقاعدة ، ولا تعبر عن الواقع وحدها وإنما تعبر عن الواقع فى اقترانها اللازم بالثوابت ..

يعنى لا توجد فى الدنيا متغيرات دون ثوابت .. فالاستناد إلى المتغيرات من دون الثوابت هو استناد معوج وغير واقعى ، ومضلل .

وفى دنيا المرأة تضاعفت نسبة التعليم والتوظيف أضعافا ، وتقدمت قضية المرأة كثيرا - فقد كانت بالأمس نسبة



جيل الكمبيوتر يتفوق على نفس برغم كل التناقضات التي نعيشها الآن !

التعليم والوظائف التي تشغلها المرأة ضئيلة جدا ، فما أبعد اليوم عن الأمس في هذا المجال .

تزايد الفوارق الطبقية

الفوارق الطبقية اليوم بين الأغنياء والفقراء تتعاظم بسرعة وتمثل خطرا اجتماعيا محتملا لابد من أن يتداركه المجتمع - ولكن نسبة من يعيشون تحت وطأة الفقر اليوم من المعدمين والذين يحصلون على أجور متدنية أقل بكثير مما كانوا بالأمس - بالأمس كان الفقراء أشد فقرا ، ولكن فقراء اليوم يشعرون بالحرمان ربما اكثر من أسلافهم لأن احتياجات الإنسان صارت اكثر وطلباته أوسع ..

ربما كان الفقير بالأمس يشعر بالحرمان لأنه لا يجد سقفا يعيش تحته ، ولكنه اليوم يشعر بالحرمان إذا لم يكن التليفزيون فى بيته ولم يكن أولاده بالمدارس وهكذا .

الفن كان زمان أفضل لأن الانتاج

المسرحي والسينمائي كان محدودا وكانت بمصر إذاعة واحدة – كـان الريحـانى وأم كلثوم وعبد الوهاب يملأون حياتنا سعادة، وكان الاذاعيون محمد فتحى ومحمد محمود شعبان وحافظ عبد الوهاب يضيئون امسياتنا بأعذب البرامج ..

ولكن التليفزيون الآن ثمانى قنوات والإذاعة عشر إذاعات والمسرح والسينما وغيرها تطلب المزيد من الانتاج ، والانتاج يسلق على عجل ومن غير اتقان ، ولذلك يمر فى القنوات على عجل الى غياهب النسيان

هذا حال وبالأمس حال ..

فـأيهـمـا أفـضـل ؟ أقـول لك الحـقـيـقـة إن لكل عـمـر جـمـاله ومـتـعـتـه، ولك عـصـر مـبـاهجـه ومـشـاكله .. والذكى والأريب هو الذى لا يبـالى بالأمس واليـوم ويتطلع إلى الغد – فكمـا يقـول صلاح جاهين : «بكره أحسن من النهـاردة» .. فـربـمـا ، وهذا مناط الأمل .



المصور ١٩٥٩/٧/١٧

مـاذاحدث للمصريين؟

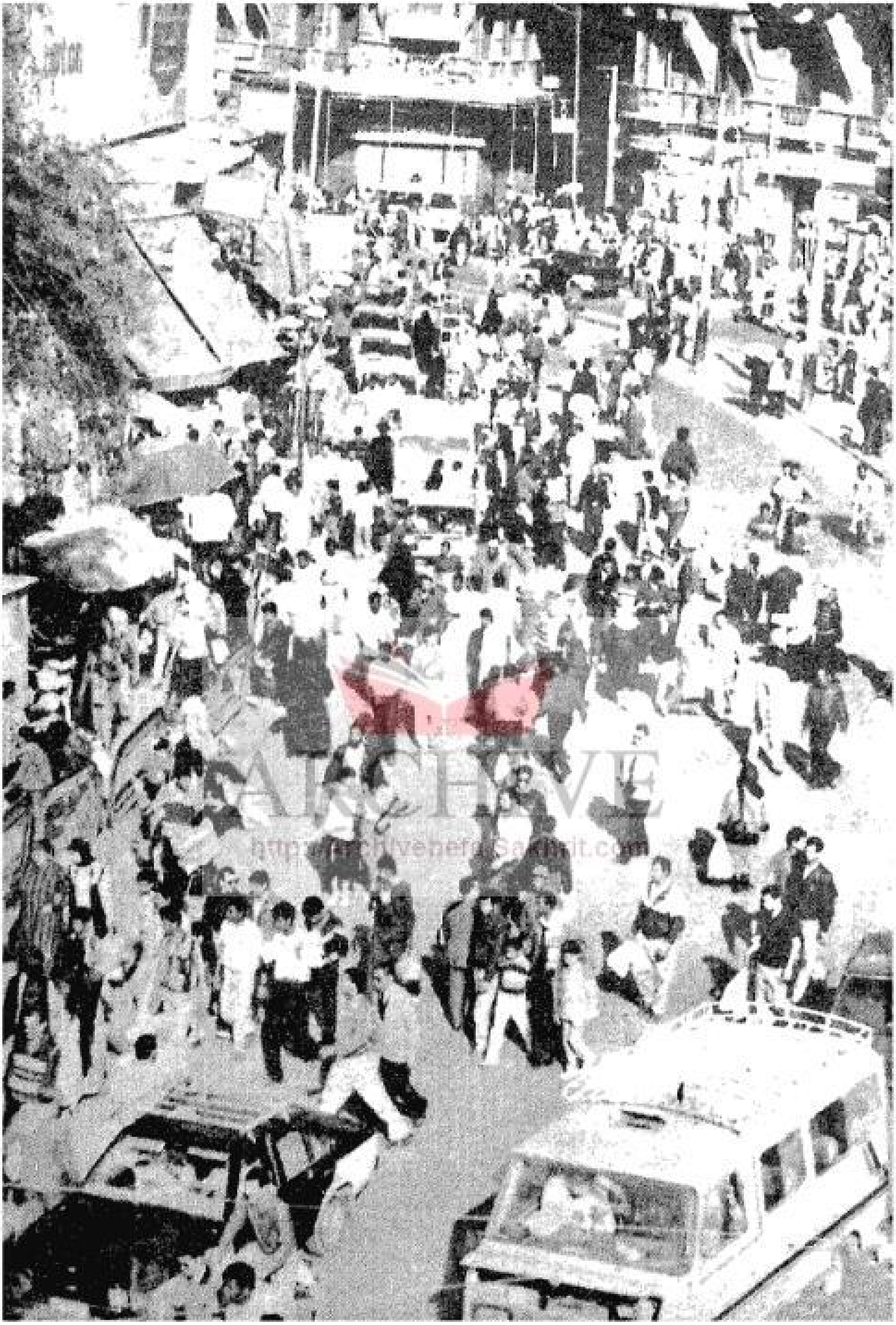
جزء خاص

نحن المصريون المحدثون

بقلم : مصطفى الحسينى

نحن الذين «خـرمنا التـعريفـة» ، ونحن الذين «دهنا الهـوا دوكو» ، ونحن أيضا هم من يشار إليهم بالبنان «المصريين أهمه» ومنا يخرج من وقت لآخر «فهد» ينقذ طفلا من الغرق أو يرد عدوانا عن امرأة ، ونحن أيضا وأيضا أصحاب الهتاف المنغم : «بص شوف فلان بيعمل إيه» .

نحن – المصريين المحدثين– ، معجبون بأنفسنا دون مبرر أو سبب ، فغنى عن القول أنه لا عبقرية هناك فى «خرم التعريفة» وأن الهواء لا يدهن «دوكو» أو غيره رغم أنه أصبح مشبعا بالسخام» وأن المصريين الذين يشار اليهم بالبنان» يمثلهم عادة لاعب كرة أصاب هدفا ، ورغم أن الجمهور الذى يتباهى بنفسه على هذا النحـو ، وعلى حـساب اللاعب ، يعرف أن «الإنجـاز الكروى» المصرى ، إن كان هناك ما يستحق هذه التسمية هو إنجاز ضعيف ، وأن الشهامة والمروءة هى من عموم الأخلاق فلا تستحق الذكر فضلا عن الاشادة ، وأن الذى يطلب الينا أن «نبص لنشوفه بيعمل إيه» هو فى الغالب أيضا لاعب كرة سدد ضربة جزاء .



ونحن - المصريين المحدثين - الذين قدمنا لأمريكا بعض أبنائنا ليكونوا كبار علمائها، وقد أصبحوا كذلك بحكم أنهم مصريون وليس لأى سبب آخر ، بل ولم يكن لأمريكا أن تغزو الفضاء دون عالم منا ، ورغم أن هذا لا يفسر أمورا كثيرة منها أن روسيا والصين والهند وبريطانيا وفرنسا والأرجنتين .. و .... و .... بل واسرائيل قد دخلت إلى عالم الفضاء بمركبات من صنعها أطلقتها صواريخ من تصميمها وانتاجها ، رغم أن العلماء المصريين لم يساعدوا هذه البلدان .

ورغم أننا أصحاب كل هذا الفضل فى التقدم العلمى فى الولايات المتحدة لم نطلق سفينة فضاء ، ورغم أننا نسخر كل يوم ، أو يجرى تحريضنا على السخرية بمحاولتنا السابقة لانتاج صاروخ ، بل وليست هناك سفينة بحار من تصميمنا .

نحن - المصريين المحدثين - أحفاد بناة الاهرام ، ونحن الذين منحنا العالم سر الحرف ، ونحن الذين أيقظنا البشرية على قيمة الضمير .

هل نكتفى بالتباهى ؟!

لكن ماذا نفعل اليوم ؟ هل نكتفى بالتباهى بما ينتمى الى علم الآثار أكبر من انتمائها إلى علم التاريخ ؟ صحيح أن الفراعنة هم الذين بنوا الأهرام ، وصحيح أنهم الفراعنة وليس نحن - المصريين المحدثين - ينازعون الفينيقيين والآشوريين جدارة اختراع الكتابة ، وصحيح أن الفراعنة هم أول من أقاموا الضمير رقيبا من أنفسهم على أنفسهم ، إنما ماذا نفعل نحن - المصريين المحدثين - لنكون جديرين بالانتساب الى هؤلاء الأجداد؟ أليس التاريخ اتصالا واستمرارا ، أم أننا نحن - المصريين المحدثين - جعلناه علم انقطاع ؟!

هل نذكر أنفسنا نحن - المصريين المحدثين - بمثال مؤلم ؟

اليهود يقولون إنهم «شعب الله المختار» ، وإن الله منحهم أرضا يلتقون فيها بعد طول شتات هى التى أسموها «أرض الميعاد» وهذا الذى يقوله اليهود أكثر إيغالا فيما الاسطورة من تاريخ الفراعنة فيما قبل التاريخ .

لكن اليهود صدقوا الاسطورة وحولوا تحقيقها إلى مشروع أشهروه فوق رؤوسنا وأصبحنا نحن - المصريين المحدثين - من بعض ضحاياه .

نحن - المصريين المحدثين - «قلنا هنبنى وادى احنا بنينا السد العالى» صحيح . إنما بعد ذلك ماذا فعلنا ؟

نحن - المصريين المحدثين - أهدرنا ما اكتسبنا من خبرة فى بناء السد العالى، وهى خبرة كان من شأنها من

ناحية أن تحقق بعضا من جدارتنا بالانتساب الى بناة الأهرام ، ومن ناحية أخرى أن تكفينا سؤال اللئيم أو الكريم ، لا فرق ، فالسؤال هو السؤال ..

نحن - المصريين المحدثين - بدأنا .. بعد أن قلنا «هتبنى وادى احنا بنينا السد العالى» نتباهى الآن بـ «انجاز حضارى كبير» .. هو مترو الانفاق ومن الخداع للنفس أن نقول إننا أنجزناه بمساعدة الخبرة الفرنسية فالصحيح أن الخبرة الفرنسية استخدمت عناصر مصرية فى أعمال ثانوية ، حتى تصميم تذكرة الركوب فرنسى .

***

نحن - المصريين المحدثين - كيف وصلنا الى هنا ؟ من الذين فعل بنا ذلك ؟ أو كيف فعلنا هذا بأنفسنا ؟

إذا كنا لم نسأل أنفسنا هذا السؤال حتى الآن ، فعلينا أن نفعل الآن وفوراً ، لأن حالتنا - وربما لا نعرف - خطيرة ، علينا أن نسأل ونجد الجواب قبل فوات الأوان ، قبل أن تصبح حالتنا ميئوسا منها ، ونحن فى اعجابنا بأنفسنا سادرون وغارقون .

وعندما نسأل أنفسنا فعلينا أيضا أن نتحوط ونحصن أنفسنا ضد أجوبة بعينها، تلك التى تقول إنها «قلة بخت» وتلك التى تتحدث عن الطيبة ، وتلك التى تدغدغنا بالحديث عن خوف الآخرين منا إن نحن استيقظنا ونهضنا ، أو بلغة المثقفين والمؤرخين . تلك الأجوبة التى ترجع سوء أحوالنا وتدهورها إلى المؤامرة الخارجية .

وعلى ذكر المؤرخين ، لابد أن هناك أسبابا «تاريخية» لما نحن فيه ، وهذا اجتهاد فى تقصى هذه الأسباب .

عندما نتأمل ما نتعلمه عن تاريخنا الحديث ، ألا يلفت النظر أن أبرز «أبطال» هذا التاريخ هم الذين حكمونا فقادنا بعضهم الى هزائم متنوعة ومتفاوتة ، وإن كانت فادحة؟

يختار مؤرخونا لبداية تاريخنا الحديث نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، أى الحملة الفرنسية ومصر محمد على ، ومن هذه البداية يبدأ تحديد الأبطال : محمد على مؤسس مصر الحديثة ، الخديو اسماعيل الذين أراد أن «يجعل مصر قطعة من أوربا» أحمد عرابى الضابط الفلاح صاحب وقفة العزة أمام توفيق ابن الخديو اسماعيل وخليفته فى الحكم ، سعد زغلول الذى حقق لمصر الاستقلال عن بريطانيا ، جمال عبد الناصر الذى حقق الجلاء وأمم قناة السويس وبنى السد العالى ، وأخيراً أنور السادات «بطل السلام» .

غنى عن القول وتكرارا أن كلا من



هؤلاء ، أبطال تاريخنا الحديث ، قد انجز ما انجز ، إنما الغنى أيضا عن القول ، وتكرارا أيضا ، أن كلا منهم قد انتهى مسعاه الى هزيمة فادحة .

أين هى مصر الحديثة ؟!

إذا كان محمد على مؤسس مصر الحديثة ، فأين هى مصر الحديثة ؟ بعد ما يقرب من قرنين من بداية حكم محمد على مازالت بلدنا فى قائمة البلدان الفقيرة اقتصاديا المتخلفة علميا وصناعيا وتكنولوجيا ، بل وزراعيا والتى تسمى تأدبا بلدانا نامية ، ولقد انتهى مسعى محمد على نهاية لم نتأملها ، فالهزيمة العسكرية ، أعقبها مباشرة انهيار ما كان قد شرع فى إقامته من صناعات ، لأنها كانت مرتبطة بالجيش ، بل أنه فى عهد اثنين من خلفائه انهارت أيضا مؤسسات التعليم لأنها بدورها كانت مرتبطة بالمشروع العسكرى .

هذا كله يقوله لنا من علمونا تاريخنا الحديث . إنما هل قمنا نحن – كشعب – نحن – المصريين المحدثين – بتقصى أسباب ذلك عدا عن هذا المجمل الذى لا يساعدنا كثيرا فى تفسير ما حدث ، وفى تفسير لماذا كانت محاولة محمد على بناء دولة حديثة اسبق من المحاولة اليابانية ، وهل نستطيع الآن أن نقارن أنفسنا باليابان ، أو لم تتعرض اليابان إلى «مؤامرات» خارجية مثل التى تعرضت لها تجربة محمد على بل وأقسى وأشد ؟

وبالطبع ليس هذا إنكارا لما حققته دولة محمد على ، لكنها مراجعة لرؤيتنا لتاريخنا فى تلك المرحلة .

أيهما أجدى علينا : أن نرد كل شىء الى «المؤامرة» الخارجية الشريرة ونستغرق فى الاعجاب بأنفسنا ، أم أن نستقصى الاسباب حتى نستطيع أن نستأنف السعى الى الهدف ؟

ليس هنا مجال الاستطراد ، بل وليس هذا الكاتب مؤهلا له ، فهو ليس مؤرخا ، إنه مجرد قارئ متواضع للتاريخ .

نحن – المصريين المحدثين – نكتفى بالتفسيرات التى تريحنا لأننا نحب الاعجاب بأنفسنا ، ونسلم أنفسنا الى التاريخ باعتباره «علاجا نفسيا» وليس لكونه تفسير الماضى ومرشدا الى المستقبل .

نحن – المصريين المحدثين – نفسر سكوتنا على تدهور أحوالنا واضطراد هذا التدهور وسكوتنا على ما يلحق بنا من ظلم وضيم ، بأننا «شعب صبور» ولكننا فى نهاية «الصبر الطويل» نغضب فنغير كل شئ ونعيد كل شئ إلى نصابه .

ونحن – المصريين المحدثين – نتعمد الكذب على أنفسنا عندما نقول هذا القول، فكيف لأناس لا يصبر واحدهم على الوقوف فى طابور لشراء سلعة أو ركوب حافلة ، إنما يتزاحم ويتدافع ، أن يكونوا صبورين ؟ ولم يقل لنا الذين يحذرون من غضبتنا ، متى غضبنا فى تاريخنا الحديث ؟

نحن – المصريين المحدثين – إن أردنا لأنفسنا ولمستقبلنا صلاحا علينا أن نبدأ بالكف عن الاعجاب بأنفسنا ، وبالكف عن التعلق والتباهى بتخيلنا لأنفسنا ، وعلينا أن نتخلى عن هذا التعلق الغريب بماض سحيق – زمن الفراعنة – ونجعله بديلا للحاضر وللمستقبل معا .

وعلينا أن نلاحظ ما يجرى من حولنا أن الأمم القوية والغنية والمتقدمة لا تتحدث عن نفسها لأن الآخرين يتحدثون عنها .

وبالمناسبة : هل لنا أن نعرف ونعترف بأن الذين يتحدثون عن الحضارة الفرعونية لا يتحدثون عنا . نحن – المصريين المحدثين – ؟

جزء خاص

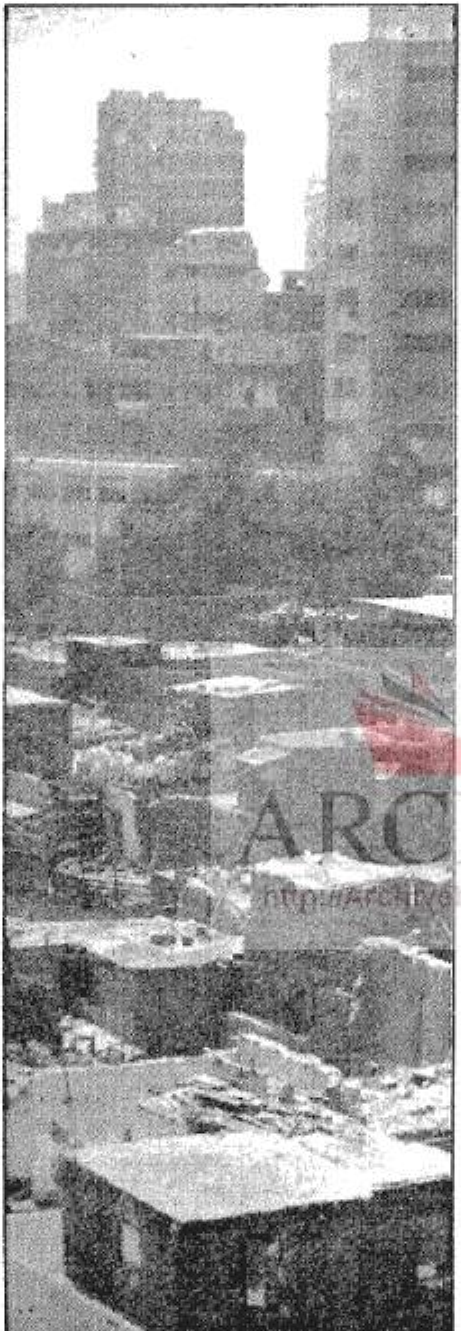
بانوراما التغيرات الاجتماعية فى مصر الحديثة

بقلم : على فهمى

مُفْتَتَح

لعل من المتداول الشائع ، أن المجتمع المصرى قد شهد تغيرات فارقة خطيرة منذ مطالع القرن التاسع عشر . ومن الشائع ـ أيضاً ـ أن هذه التغيرات العميقة قد حدثت نتيجة للاحتكاك الحضارى بالغرب من خلال الحملة الفرنسية على مصر « 1798-1801 » ، وأن سياسات التحديث التى تبنَّاها العاهل «محمد على» قد أسهمت فى بلورة وفى دفع التغيرات التى كانت ارهاصاتها قد بدأت من قبل . بيد أن ثمة معطيات حديثة تشير إلى أن مصر قد شهدت بعض المحاولات التحديثية المبتسرة ، وكذلك بعض الانفتاح على الغرب ، وذلك منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، تشهد بذلك بعض الوثائق المعتمدة وكتابات «أمثال» «الزبيدى» وبيتر جرانَ مؤخراً .

وأيا كانت العوامل المباشرة والفاعلة فى تحديث وتطوير المجتمع المصرى ، فإن واقعاً مغايراً للماضى قد حدث فى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية فى مصر .





ومنذ بدايات التحديث ، تتوافر وثائق رصينة وكتابات عديدة لها قيمتها ، بحيث ينجم عن هذا أمران : أولهما : أن تناول موضوع التغيرات الاجتماعية في مصر الحديثة يغدو أسهل على ضوء تراكم المادة المعرفية المتاحة ، وثانيهما : أن كثرة الكتابات والوثائق تحتاج إلى فرز دقيق، حتى يمكن للباحث أن يصل إلى قناعات علمية موضوعية ذات بال ، ولعل هذا يصعب من مهمة الباحث من ناحية أخرى.

وعلى ضوء ما سلف ، يغدو صعبا تغطية جميع الجوانب والجزئيات عن الموضوع المعنى في دراسة محدودة الحجم، ومع هذا ، فإننا نزعم أن نتناول - بايجاز غير مخل - أهم جوانب التغيرات الأساسية التي لحقت بالمجتمع المصري خلال قرنين أو يكاد ، وذلك في سلسلة محدودة العدد من الدراسات .

ولسوف نكتفي بتناول عدد محدود من أبرز الموضوعات التي نراها أكثر أهمية ، وذلك في السياق التالي : الأسرة - الأبنية المجتمعية والثقافية وبخاصة طرائق الحياة اليومية والقيم والعادات والتقاليد - الأطر التعليمية - الأطر الثقافية - الأطر السياسية والدستورية والقانونية»

ونحن نحترز بأن الموضوعات التي سنتناولها وفقاً للسياق المقترح ، وهي موضوعات متداخلة وبالغة التشابك ، بحيث يصعب الفرز والتحديد إلا لأغراض معرفية وتوضيحية بحتة.

حول التغيرات الأساسية التي لحقت بالأسرة المصرية

ينقسم السكان في مصر المعاصرة إلى سكان ريف وحضر ، بالاضافة إلى جيوب سكانية محدودة من البدو في المناطق شبه الصحراوية والصحراوية . بَيْدَ أن صورة التركيب السكاني كانت جد مختلفة في الربع الأول من القرن الثامن عشر ، حيث كان البدو يمثلون قطاعا سكانيا كبير الحجم ، ويعيشون في تخوم الوادي والدلتا بل والقاهرة ذاتها . وتشير إلى هذه الظاهرة الديموغرافية بعض الدراسات الميدانية التي قام بها علماء الحملة الفرنسية . غير أن هذه الصورة الديموغرافية سرعان ماطرأت عليها تحولات عميقة ، وذلك بعد إنفاذ سياسات توطين البدو التي تبنّاها ونفذها بدقة «محمد علي» ، بحيث تقلص الحجم السكاني للبدو وإلى حد بعيد ، وتوطن معظمهم بالريف المصري بخاصة وفي أحوال أقل بالحضر .

كما نلمح - هنا - إلى أن سياسات التوطين هذه ، قد عادت على المجتمع المصري بعامة باستقرار أمني إذ انحسرت هجمات البداة المعتادة على القرى وعلى المدن ، وأسهم جانب كبير منهم في العمليات الانتاجية وبخاصة في الزراعة ، وتوحدوا مع النسيج السكاني العام .

ونشير - أيضا - إلى سياسات الطب الوقائي واكتشاف العديد من العلوم الطبية للوقاية من الأمراض وبخاصة أمراض الأطفال ، قد أدت إلى انخفاض ملموس في نسب وفيات الأطفال التي

كانت بالغة الارتفاع . وأسهم هذا بالاضافة إلى التحسن المطرد فى نوعية الحياة ـ برغم العديد من الأزمات الاقتصادية ـ أسهم كل هذا فى ارتفاع مستوى الأعمار المتوقعة عند الميلاد . ولربما كان هذا أحد أسباب الأزمة التى تتمثل فى الزيادة المطردة فى عدد سكان مصر . «من مليونين ونصف فى بدايات عهد «محمد على» إلى نحو ستين مليونا فى الوقت الراهن» . وبعد أن كان المجتمع المصرى يعانى من شحة ملحوظة فى السكان ، أضحى يعانى من ارتفاع سكانى ملحوظ .

وتجدر الإشارة إلى أن مما فاقم المشكلة السكانية فى مصر المعاصرة ، أن الهجرة الداخلية من الريف إلى الحضر وإن كانت تحدث فى الماضى ، إلا أنها حدثت وتحدث على نطاق واسع منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ لأسباب اقتصادية واجتماعية كثيرة ، أهمها البحث عن فرص عمل أفضل ونوعية أحسن من الحياة من جانب سكان الريف الذين طالما أهملت الحكومات المتعاقبة شأنه على حساب شأن الحضر . ومن بين المشاكل المترتبة على موجات الهجرة الريفية المتتابعة بروز وتعقد مشاكل عديدة تتمثل فى البطالة والأزمات الاسكانية وأزمة المواصلات ونحو ذلك .

بالاضافة إلى امتزاج عشوائى أيضا للقيم الحضرية والريفية ، مما ينجم عنه مشاكل عديدة تتعلق بالتكيف الاجتماعى وبالتحضر وبالتريث وبالتنشئة ، كما سنعرض له فيما بعد .

وقد يكون من المفيد مجرد الاشارة إلى هذه الهجرة التى حدثت من الخارج «وبخاصة من دول حوض البحر المتوسط» ، إلى مصر خلال القرن التاسع عشر ، وترتب عليها إخلال خطير فى ميدان التقاضى ، نتيجة إحداث نظام الامتيازات الأجنبية والقانون والقضاء والمختلط ، والتى انتهت عام ١٩٤٩ بانقاذ معاهدة «مونترو» لعام ١٩٣٧ .

كما نرصد فى العقود الأخيرة هجرة واسعة النطاق من الأيدى العاملة المصرية إلى الأقطار العربية الخليجية بخاصة وهى هجرة مؤقتة بالضرورة ، نتجت عنها تغيرات كثيرة على الساحة الاقتصادية ولربما أسهمت فى تشويه للانفتاح الاقتصادى ، كما أسهمت فى حدوث خلل خطير فى التدرج الاجتماعى/ الاقتصادى السائد ، ونعتقد أنها أسهمت ـ على نحو ما ـ فى تسييد قيم دينية متشددة وافدة إلى المجتمع المصرى الذى عرف بالتسامح الدينى على مر التاريخ .

ـ ونلمح أيضا إلى تلك الهجرة الدائمة لنحو ثلث مليون مصرى إلى الشمال المتقدم صناعيا ، وما يصاحب هذا من تغيرات كثيرة ، أبرزها وجود جاليات مصرية (قبطية) فى الغالب فى أقطار المهجر الغربى ، وتزايد امتداد نفوذ الكنيسة القبطية المصرية العتيدة فى هذه الأقطار .

الأسرة النووية

ولعل أبرز التغيرات التى لحقت بميدان الأسرة المصرية ، أن تكون بروز نمط مايسمى بالأسرة النووية القليلة الحجم

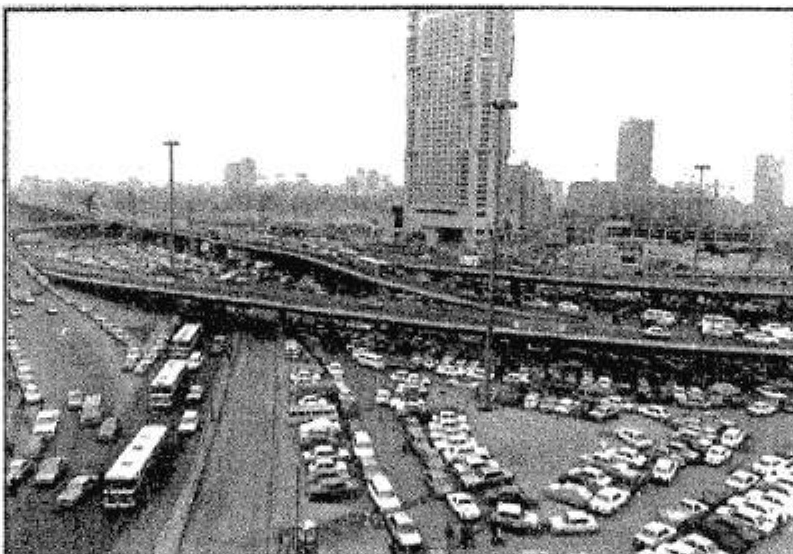
(زوج أب وزوجة/ أم وأولادهما) ، على حساب مايسمى بالأسرة الممتدة الكبيرة الحجم ، وكانت أى الأسرة الممتدة النمط التقليدى السائد باطلاق . بَيْدَ أننا نحترز فنقرر أن الأسرة النووية في مصر المعاصرة ليست ذات ملامح دقيقة بعد ، بحيث يمكن أن نطبق عليها الأدبيات السوسيولوجية الغربية . فهى أسرة نووية فى ظاهر الأمر أو بمعنى أوضح هى أسرة نووية من حيث الوحدة المعيشية فقط ، وتظل هذه الأسرة النووية مرتبطة بوشائج قوية بالأسرة الممتدة للطرفين وإن لم تتحدد المعيشة . ومع هذا فلا تزال الأسرة الممتدة أكثر سيادة فى الريف المصرى وبخاصة فى الصعيد.

ـ وفى ميدان العلاقات بين الزوجين ، نستطيع رصد تحسن مطرد وإن كان بطيئا لصالح المرأة على المستويين الحقوقى والواقعى . فالمرأة المصرية ـ حتى فى الريف ـ أضحت تتمتع بقدر من المساواة مع الرجل ، ولقد انعكس هذا ، على التشريعات المتعلقة بالأسرة المصرية منذ عام ١٩٢١ وحتى عام ١٩٨٥ ، وبالطبع فإن هذه التشريعات المعدلة لم تحقق مساواة حقوقية كاملة بين المرأة والرجل ، وفى تقديرنا أن عدم تحقق هذا ليس ناجماً عن عقبات فقهية قانونية بقدر ماهو ناجم عن استقراء دقيق لواقع العلاقات الحياتية . فالأسرة المصرية لاتزال ذكورية الطابع وإن كانت نحو ربع الأسر المصرية تعولها نساء ، وحتى فى ظل الهـ[illegible]ـة المصرية الواسعة إلى الخليج «وهى هجرة ذكورية فى الغالب» ، يزيد ـ بالطبع ـ دور المرأة داخل الأسرة ، ولكن بدون إخلال خطير بدور الرجل الغائب .

كما لحقت تغيرات كثيرة بميدان تنشئة الأطفال وبخاصة فى الحضر المصرى ، إذ خفى ـ بالتدريج ـ نمط التنشئة القهرية التى كانت سائدة فى الماضى القريب ، مما خفَّف ـ فى رأينا ـ من أزمات التجايل المعروفة ، ونزعم أن هذا النمط الذى يتسم بشىء من الحوار غدا أكثر انتشارا عن ذى قبل . غير أن من الضرورى الإشارة إلى أن أنماط التنشئة الاجتماعية والنفسية والثقافية للأطفال ، تتأثر بأنماط التنشئة المجتمعية الأخرى فى المدارس والجامعات والإدارة والسياسة ، وهذه الأنماط السائدة فى مصر لاتزال أنماطا بطريركية تقليدية .

كما نشير إلى انحسار ـ فى الدرجة ـ فى الممارسات الطقوسية التى كانت تنتهجها الأسرة المصرية فى الماضى ، من حيث اللجوء إلى السحر والشعوذة ، فيما يتعلق بقضاء حاجات أفراد الأسرة. غير أننا نرصد ـ فى الآونة الأخيرة ـ بعض التراجع فى هذا الانحسار ، نتيجة لاضطراب القيم ولسيادة أنماط متخلفة من الفكر الغيبى ، برغم اتساع نطاق التعليم ومجانيته منذ عقود عديدة .

بصفة عامة ، فإن إشكالية اضطراب القيم وتخلخل بعض القِيم وبزوغ قيم أخرى، من الأمور الجديرة بالتناول على استقلال ، غاية مافى الأمر فإن الإشارة تكفى هنا ـ فى محاولة عجلى للرصد دون الإحاطة .



شبكة كبيرة من الكباري انتشرت الآن داخل القاهرة . وترى أعدادا هائلة من السيارات

مناظر مؤذية



■ منظر الرجال الذين يتحمسون في المناقشة لآرائهم أو وظائفهم في مجلس سيدات لا يهمهن الحديث الجاد المكرر ..

■ منظر الذين يتحمسون لأولادهم الصغار بمجالسة الكبار ، يسمعون الغث والسمين والخبيث والطيب .

■ منظر الذي يرى اثنين منزوين في ركن يتهامسان في كلام خاص بهما ، فيجلس معهما ويفسد عليهما الاجتماع والكلام و « الشغل » ...

■ منظر الذي يقبل « المزاح » على اطلاقه ، فاذا انقلب « جدا » أن واشتكى وبكى ...

المصور ١٩٥٩/١١/٢٧

زينب خاتون

الكنز والبيت ؟!

إطلالة على أثر مملوكى متكامل

بقلم : أحمد أبو كف

● كيف تم ترميم البيت خلال ٤ سنوات بعمالة وتمويل مصرى ١٠٠ ٪ ؟

● الحرملك والسلاملك .. والدروب والمسالك الموصلة إليهما داخل البيت

●● افتتح في الشهر الماضى منزل زينب خاتون بعد ترميمه فى إطار خطة الترميم بقطاع الآثار الاسلامية والقبطية بالمجلس الأعلى للآثار والبيت على بعد خطوات من منزل عبدالرحمن الهراوى، الذى قضى فيه الرئيس الفرنسى جاك شيراك أمسية رقيقة، وأشرف على ترميمه مهندس فرنسى ، لكن العمال والحرفيين والأثريين، وحتى صرف الأموال كلها مصرية مائة فى المائة . أما منزل زينب خاتون فجاء ترميمه مصرى مائة فى المائة .. لكنه جاء منزلا رائعا، بصمات الفنيين والمرممين والعمال المصريين واضحة وذات تراث تاريخى طويل فى مثل هذه الأعمال ●●



منظر من البهو الداخلي لمنزل زينب خاتون

زينب خاتون .. الكنز والبيت

المنزل خلف الجامع الأزهر من الناحية الجنوبية، وهو مواجه لبيت الهراوى، وهو أساسا مبنى على الطراز المملوكى، المشهور بالفخامة والرخام والقيشانى الملون والأخشاب الثمينة، والارضيات، بالإضافة إلى الشبابيك الجصية الملونة والمعشقة بالزجاج.

وآخر من ملك هذا البيت هى زينب خاتون، كما هو ثابت من وثيقة مؤرخة عام ١٨٣٦م. والوثيقة تقول: إنها أوقفت البيت على روحها وأعمال الخير، ولا يباع ولايشترى بعد حياة عينها. كما كان آخر شاغلى البيت فى عام ١٩٩٠، قبل ترميمه، جمعية للإصلاح الاجتماعى، جرى إخراجها بالقوة الجبرية، كما أن هناك كثير ممن ادعى ملكية البيت من نهازى الفرص، لكن لم يكن لديهم ما يثبت ذلك!

والبيت اعتبرته لجنة حفظ الآثار العربية أثرا، وبالطبع فالآثار لا تورث، ولا تملك.

والناظر إليه من الخارج، يجهل أنه مبنى بالحجر الجيرى الأحمر. لكن الترميم الذى حدث التزم بالأصول. وكان أكثر المتفائلين يقولون إنهم لو استطاعوا من خلال عمليات الترميم أن يحتفظوا بالأصول ولو بنسبة ٧٠٪، فإن ذلك يكون إنجازا كبيرا، لأن البيت كان مهدما ومتهرئا بالفعل. لكن ما حدث فيه من ترميم أرجعه إلى حالته الأولى بنسبة ٩٠٪ أو أكثر وقد كان هذا تحديا واجه المجلس الأعلى للآثار، كما يقول د. فهمى عبدالعلم رئيس قطاع الآثار الإسلامية والقبطية فى المجلس الأعلى للآثار.

ويجاور المنزل بيت الست وسيلة وهو فى حاجة إلى ترميم أيضا، وأمامه حديقة خضراء زرعت بعد هدم بيوت قديمة. وعلى يمين البيت نجد مسجد العينى، وهو مسجل أثر، وصاحبه بدر الدين العينى صاحب الأرض التى بنى عليها قصر العينى القديم، وقد تم ترميمه، لكن المقاول الذى تولى ترميمه، غير فيه أشياء كثيرة ولم يحتفظ بالقديم. وفى الشارع الذى فيه باب الأزهر الشريف وهو «باب المزينين»، ينفتح على طريق عرضى، هو شارع الشيخ محمد عبده، فى هذا الشارع، وقبل أن تصل إلى بيت زينب خاتون تمر على مجموعة معمارية رائعة، لكنها مهدمة، وهى وكالة وحوض وسبيل السلطان المملوكى الاشرف أبو النصر قايتباى، وهى تحتاج إلى قرار جرىء لنزع الإشغالات فيها وترميمها.

زينب فى أوراق التاريخ، هى المصونة زينب ابنة عبدالله البيضا، معتوقة محمد بك الألفى، الذى سمى باسمه شارع الألفى الحالى، وكان على رأسه من عند حديقة الازبكية قصر محمد بك الألفى، الذى هدم وبنى على أرضه فندق شبرد الذى احترق.

وهى زوجة الشريف حمزة الخربوطلى، أحد كبار التجار، من رجالات الدولة فى العصر العثمانى. وقد توفى دون أن ينجب أولادا، فشاركها أخوه الشريف يكبر الخربوطلى ميراث أخيه حسب الشريعة الإسلامية. وقد سميت «المصونة» فى

زينب خاتون .. الكنز والبيت

الوثيقة التى تثبت ملكية زينب للبيت لأنها كانت تنتمى إلى الطبقة الحاكمة.

المالك الأصلى للبيت، أو التى بنته فهى خوند شقرا من دولة المماليك البرجية، وهى ابنة الناصر حسن بن قلاوون. وماتت خوند شقرا، كما يقول المؤرخ تقى الدين المقريزى فى «خططه» عام ١٣٨٩م. وكما يقول المؤرخ السخاوى، إن الذى ملك البيت بعد خوند شقرا هو الأمير مثقال السودوى الظاهرى، رئيس السقاة - أى الذى يشرب الماء قبل السلطان - فى عصر السلطان الظاهر جقمق، فى عام ١٤٦٤م. وظل الامير مثقال فى هذا البيت حتى عام ١٤٨٤م، وتركه بعد أن غضب عليه السلطان قايتباى ، ونفاه من مصر إلى الكرك فى الشام، وصادر أملاكه، ومنها هذا المنزل. ومما يستند اليه المحققون حول ملكية مثقال للمنزل، وجود «رنك» أى شارة الساقى، وهو عبارة عن كأس ماء محفور على مدخل القاعة الرئيسية فى البيت حتى الآن. وقد ظل مثقال منفيا فى الكرك حتى مات عام ١٤٩٠، كما جاء فى السخاوى. وتملك البيت بعده فى العصر العثمانى «القرن ١٨» واحد من التجار واسمه الحاج عبدالعزيز، الذى أدخل عليه كثيرا من التعديلات وغير فى معماره. وبعدها فى عام ١٨٣٦ تملكه الشريف حمزة الخربوطلى، الذى ورثه لزوجته زينب خاتون بعد وفاته.

* * *

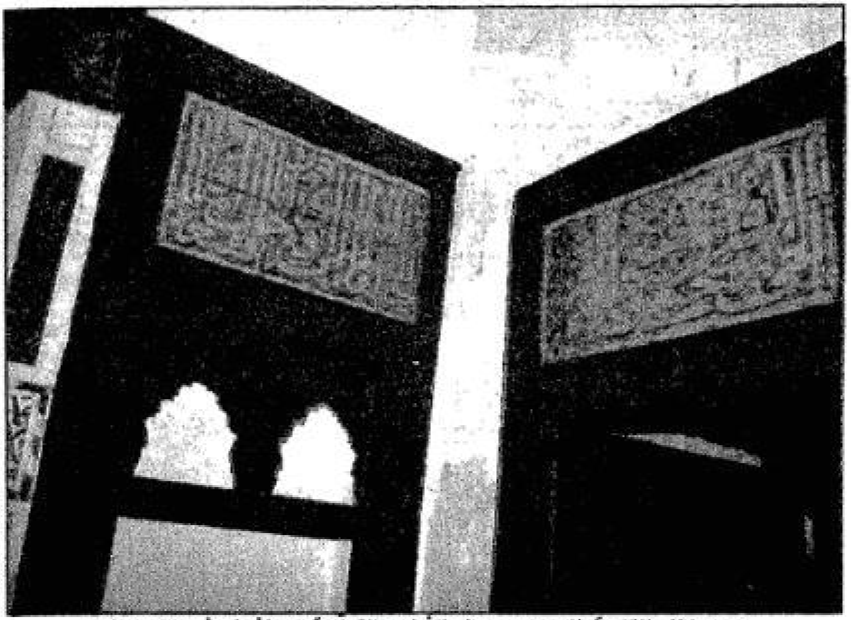
وقد بدأ الاهتمام بالبيت منذ قيام لجنة حفظ الآثار العربية، حيث أجرت به الكثير من الترميمات فيما بين عامى ١٨٨٢ و١٩٥٢. ولعل أهمها ما تم إنجازه عام ١٩٠٥، حيث جرى تقوية جدران القاعة الكبرى من الجهة الشرقية، واستحدث سلم يوصل إلى القاعة الكبرى من الجهة الشرقية للصحن. كما تم تنظيف وترميم أعمال الأخشاب. وكذلك تم تغطية الحمام الملحق بالقاعة الكبرى.

وفى عام ١٩٣٢ قامت اللجنة بعمل مدخل يؤدى من الصحن إلى القاعة الكبرى مباشرة عن طريق سلم أضيف عام ١٩٢٧. وفى عام ١٩٣٥ تم ترميم المقعد الصيفى بالكامل، وكذلك بلاط الصحن. ثم فى عام ١٩٥٣ تم بياض الواجهة الغربية للاثر بالكامل، وفى نفس الوقت استأجرت وزارة الشئون الاجتماعية المنزل، واستغلته كمشغل لتعليم الفتيات فن التطريز والحياكة. وظل على هذا الحال حتى أواخر عام ١٩٨١، حيث حدثت له تصدعات خطيرة وتشققات طولية وعرضية. فأخلى البيت من شاغليه على وجه السرعة، وقامت هيئة الآثار بصلبه، وبدأت فى ترميمه عام ١٩٩٠ حتى انتهى الترميم فى أواخر العام الماضى ١٩٩٥.

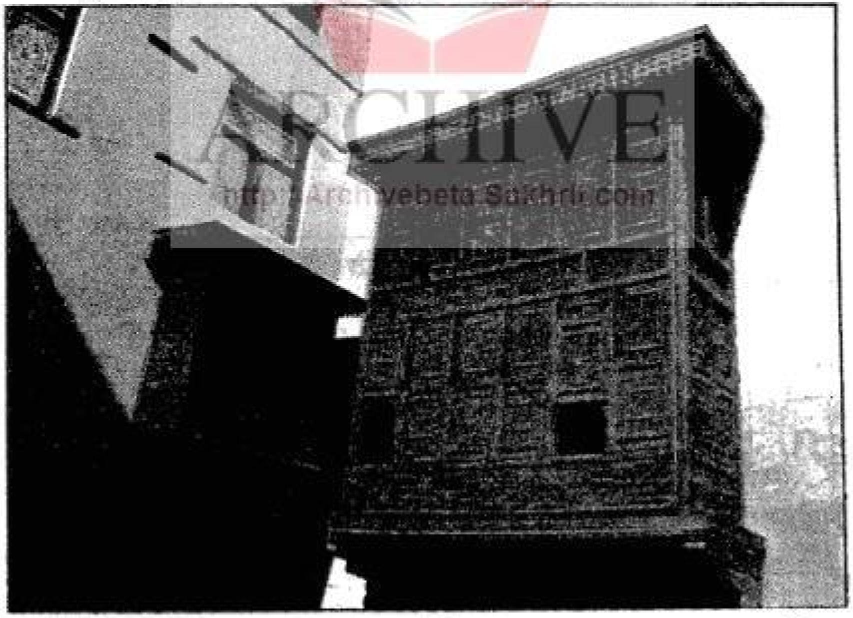
* * *

والآن البيت يتكون من طابق أرضى، يتوسطه صحن مكشوف، ثم طابقين علويين.

الطابق الارضى عبارة عن واجهة رئيسية من الناحية الجنوبية، بها مدخل



من داخل القاعة الكبرى، حيث الآيات القرآنية تصافحك فى كل مكان، والخورنقات والأبواب من الحشو والمشربيات المنفتحة على الصحن





رئيسي منخفض مثل منازل العصور الوسطى، يؤدي عبر ممر منكسر إلى داخل الصحن. وعلى يمينه الطاحونة الخاصة بالمنزل . والصحن مربع، في ضلعه الشرقي باب يؤدي إلى المندرة الخاصة بالرجال «الحرملك» ، ويجاورها الطرف الشمالي من نفس الضلع حيث باب يوصلها إلى السلم المؤدي إلى الطابق الأول، حيث القاعة الرئيسية الكبرى. وفي ضلعه الغربي باب يوصل – عبر سلم صاعد – إلى قاعة صغرى بملحقاتها. وفي ضلعه الشمالي بابان صغيران يؤديان لحجرتين تستخدمان لخزين البيت ومتعلقاته. وفي ضلعه الجنوبي سلم صاعد إلى المقعد الصيفي.

والطابق العلوي الأول يشمل مقعداً صيفياً مستطيلاً يشرف على صحن البيت ببائكة خشبية ذات عقدين ، يتوسطهما عمود رخامي، وبه عدة دواليب، أو «خورنقات» ذات دلف خشبية لحفظ حاجيات الساكن، وفي ضلعه الشرقي باب يفضي إلى خزانة على أحد جدرانها شريط كتابي يتوسطه «رنك» الساقي، وهو الشارة الرسمية لوظيفة الساقي في العصر المملوكي.

أما القاعة الكبرى في هذا الطابق فهي مستطيلة الشكل، يغطيها سقف خشبي مزين بمربعات ومستطيلات من الزخارف النباتية العثمانية الطراز، وتتكون من تفريعات وأوراق وزهريات بها ورود. تتوسطها «دورقاعة» فرشت أرضيتها برخام ملون جميل. وفي الناحية الشمالية إيوانان بأرضية كل منهما بلاطات من الحجر المصراني المستطيل، وإلى الشمال منها عدة دواليب حائط ذات دلف خشبية. وفي الجنوب يوجد الايوان القبلي المقرنص، والذي كان «كسلسبيل» لترطيب الجو الحار . أما بالضلع الشرقي من الدورقاعة فتوجد السدلة الشرقية وعلى يسارها باب يؤدي إلى سلم يؤدي إلى صحن المنزل مباشرة.

وتشرف القاعة الكبرى على الصحن بمشربية من خشب الخرط الميموني الدقيق، والتي تضم اشكالا هندسية، فضلا عن الكتابات القرآنية.

والقاعة الصغرى يؤدي إليها باب الضلع البحري من القاعة الكبرى، وهي كالقاعة الكبرى تماما من حيث التشكيل المعماري، تحتوي على دورقاعه وسطى وإيوانين صغيرين ، وتشرف على صحن البيت بمشربيات من الخرط، تعلوها قواعد من الجص المعشق بالزجاج الملون في عناصر نباتية هندسية وأشكال زهريات، فضلا عن كتابات عربية أهمها «البسملة» . كما أن بالضلع الشمالي باباً يوصل إلى حمام خاص.

ونأتي إلى الطابق العلوي الثاني، فهو عبارة عن قاعة صغيرة، وغرفة ذات مستويين ملحق بها دورة مياه ومطبخ وممر يربط بينها جميعا. ويشرف هذا الطابق على الصحن بشباك من الخرط الميموني المنفذ به شكل زهرية، وكذلك شباك آخر جصي معشق بالزجاج الملون بشكل زهرية، تخرج منه فروع نباتية

وأشكال زهرية غاية فى الرقة والابداع. ويعلو هذا سطح المنزل الذى يضم الشخشيختين اللتين تتوسطان دور قاعة القاعة الصغرى والكبرى.

* * *

المعروف أن الترميم المعمارى والترميم الدقيق استغرقا حوالى ٤ سنوات . وقد تم على مرحلتين، كما يقول د. فهمى عبدالعليم. بدأنا بالأساسات والتربة نفسها. حفرنا تحت الاساسات لتدعيمها، وهذا هو سبب العثور على الزلعة التى تحتوى كنزا مهماً، والذى عرف باسم كنز زينب خاتون. والكنز، وتخبئته فى الجدران عادة فى المبانى الاسلامية، بدأت فى المساجد . وكان الهدف من وضع الكنز داخل الأساسات، للصرف على المسجد إذا ما تهدم وأصابه البلى. وقد انسحبت هذه العادة على بيوت الموسرين، بمعنى أن الكنز لا يخص شخص زينب خاتون، وإنما يخص صاحب البيت الأول، والذى بناه قبل أن تئول ملكيته إلى زينب، يدل على ذلك أن الكنز مجموعة عملات ذهبية من عصر المماليك وهو العصر التأسيسى لبناء البيت.

وفى الترميم حين بدأ كان الهدف الرئيسى الحفاظ على كل العناصر القديمة، وترميم الأخشاب القديمة، والاخشاب منتشرة فى شكل مشربيات واسقف خشبية وكوابيل.

وقد رممنا العناصر الخشبية ونظفناها، لم نفك عناصر خوفا من التلف، وقد جرى صلبها ليمكن ترميمها ورممت الجدران والزخارف، واحتفظ بها كما هى لأنها من الناحية الأثرية قيمتها رفيعة جدا.

واستخدمنا فى عمليات الترميم أجهزة ضغط الهواء، وحبات الرمل للتنظيف. كما جرت أعمال التنظيف الكيميائى باستخدام محلول الكحول المخفف بالماء. وكذلك استخدمنا هيدروكسيد الأمونيوم المخفف لازالة الطبقة السوداء المتراكمة على الخشب عبر العصور. أيضا تمت أعمال العزل من العوامل الجوية للأخشاب، باستخدام البالوريد المخفف.

وحقنا بمادة الأكليرك المناطق الخشبية التى تعانى من التشققات، ونشارة الخشب الناعمة والغراء الابيض، بالاضافة إلى نسبة أوكسيد بنى اللون للترميم. واستخدمنا فى العناصر الزخرفية النباتية المفقودة بين الوحدات عناصر مشابهة ودقيقة، وبالنسبة للقيشانى استكملت العناصر الناقصة من نفس الخامة فى الوزرات الداخلية. كما نظفنا بلاط القيشانى ميكانيكيا وكيماويا.

أما بالنسبة للاضاءة، فقد تم تعديل شبكة الكهرباء، وعمل اضاءة جديدة لابراز العناصر الفنية.

* * *

وقد زاره المهندس الفرنسى برنار موريه الذى أشرف على ترميم بيت عبدالرحمن الهراوى، واعترف بأن ما تم فى بيت زينب خاتون يفوق ما تم فى بيت الهراوى. وبيت زينب خاتون بعد افتتاحه رسميا سيكون مزاراً سياحيا، ومتحفا يمثل طراز المنازل المملوكية الطراز.

السينما
بين السقوط و الصعود

بقلم : مصطفى درويش

فيفى عبده لها الآن شأن كبير فى دنيا الأفلام، وآية ذلك انفرادها دون نجومنا جميعا بامتياز قلّ أن يجود به الزمان هو أن يكون لها فيلمان «الصاغة» و «الغجر» يعرضان فى آن واحد.. ومتى؟ فى موسم الأعياد.

ومن سخرية الأقدار أن الوحيد من بين نجوم مصنع الاحلام فى هوليوود الذى استطاع أن ينال هذا الشرف العظيم، كان الممثل الاسود «مورجان فريمان».

فهو الآخر له فيلمان «سبعة» و «الخلاص من شوشانك» احتلا شاشات دور السينما عندنا فى آن معا.

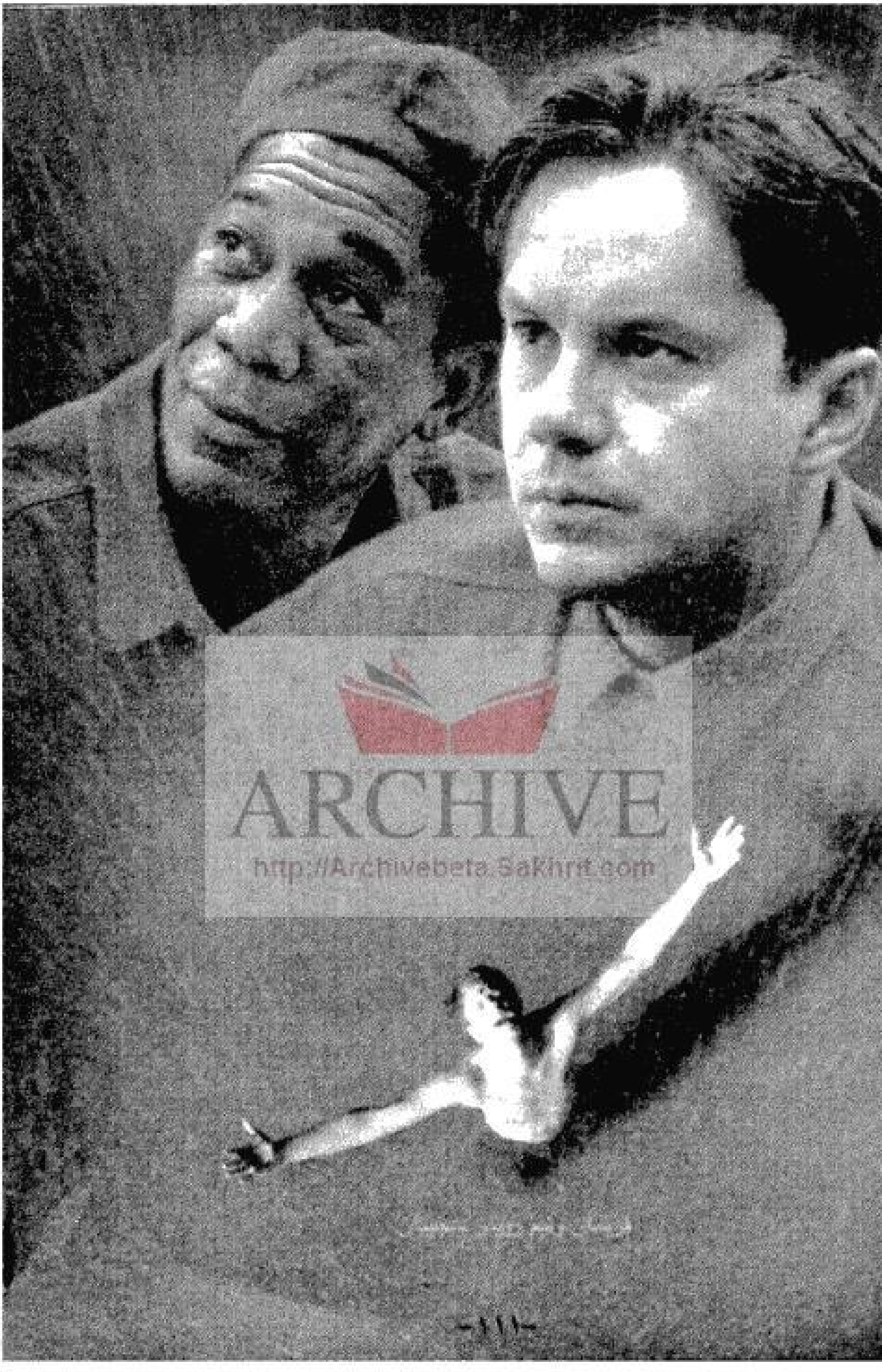
ورغم ما بينهما، أى «فيفى» و «فريمان» من اختلاف كبير، فثمة أمر ثان يشتركان فيه، ألا وهو احتلال مركز الصدارة.

فهى، بلا أدنى شك، راقصة مصر الأولى. وهو كما قالت «بولين كيل» عميدة نقاد السينما الامريكية، أحسن ممثل أمريكى الآن.

وفيما عدا ذلك، لايتفق الاثنان فى شئ كبر أم صغر.

ففيفى لا تحسن اختيار موضوعات أفلامها، كما لا ترتضى أن يزاحمها فى بطولتها احد، مهما كان حظه من الشهرة و المجد.

فى حين أن «فريمان» على العكس من ذلك تماما، يولى موضوعات أفلامه



اهتماما كبيرا، لايأنف أن يؤدى دورا صغيرا، متى كان الفيلم عظيما، أو ان يتقاسم معه البطولة ممثل، حتى لو كان ناشئا، فى بداية الطريق لايزال.

وخير مثال على ذلك، فيلما فيفى «الصاغة» و «الفجر» ، وفيلما فريمان «سبعة» و «الخلاص من شوشانك».

ولنبدأ بفيلمى راقصة مصر الأولى.

أول ما يلاحظ على الموضوع فى كلا الفيلمين، هو انحدار المستوى الى حد الاسفاف والابتذال.

● ست الحسن والجمال

ففيفى فى «الصاغة» بنت بلد رائعة الجمال «فتحية» يهيم بها صائغ ماهر «عبده» ويؤدى دوره كابتن الكورة «جمال عبد الحميد»، ويريدها زوجة يعيش معها فى الحلال.

ولكن فتحية لسوء حظه، فتاة لعوب، طموح ترنو الى الجاه والمال.

ووسيلتها فى الصعود والارتقاء لحظها الفتان فكل أعيان الصاغة، وعلى رأسهم «أدهم بك» أو الحوت كبير التجار (كمال الشناوى)، يسيل لعابهم عليها، كلما رأوها تتمخطر فى دلال.

ولأن «فتحية» أو «توحة» ذباحة للرجال، فهى لاتستسلم بسهولة للاغراء، وعلى من يريد الاستمتاع بجسمها الريان، أن يتزوجها عملا بأحكام الشريعة الغراء.

وبفضل إصرارها على الحلال، تصبح زوجة للحوت الذى ينتقل بها الى قصر بمسبح، بدلا من الشقة الحقيرة بحى الحسين شهيد كربلاء، حيث كانت تقيم مع أمها القنوعة «وداد حمدى» وخالها الرقيع «فؤاد خليل» وهو خال يحلو لها أن تناديه أو تدلعه بياخالى يا خلخالى، وتنويعات سوقية أخرى.

● صاحبة العصمة

وبعد ثلاثة أشهر فى النعيم المقيم، تضبط زوجها الحوت متلبسا باحتضان إحدى النساء.

فتثور لكرامتها، وتعود مطلقة، مطرودة مع أمها وخالها خلخالها الى حياة الفقر والذل والهوان.

وهنا يظهر تاجر آخر كبير «محمد رضا» ليعوضها خيرا بالزواج، وبالاستسلام التام لشروط فرضتها عليه بلهيب أنوثتها، من بينها ان يكتب لها نصف ثروته، وأن تشاركه فى ادارة المحل، مع الاحتفاظ بحقها فى أن تقول له «روح وأنت طالق» !!

كل هذا، وعبده «الكابتن جمال» يطاردها بمعسول كلام، بعضه غرام وهيام، وبعضه الآخر تحذير من عواقب عبادة الذهب الرنان.

ولن أحكي تفاصيل صراعها مع الحوت من أجل السيطرة على الصاغة، وتحولها الى حية رقطاء.

فذلك شئ يطول، لو حكيته لا نتقلت بالقارئ من تفاصيل سخيفة إلى تفاصيل أكثر سخفا، فيبدو أن كاتب السيناريو واسمه «محسن الجلاد» لا يهتم بتقديم الأحداث بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه.

ولايرسم الشخصيات، كما تعيش في الواقع، بعيدا عن شطحات الخيال.

● هاوية الابتذال

ونظرا الى أن الفيلم قاتم، جميع شخصياته، عدا عبده «الكابتن جمال» نهايتها فاجعة، فقد اسند المخرج «أحمد السبعاوي» دور الخال الخلخال إلى «فؤاد خليل»، أملا بذلك أن يخفف تهريجه وقع فواجع الفيلم، كما يحدث في مآسي شكسبير.

فاذا بذلك التهريج، على عكس الأمر مع الشاعر الانجليزي الكبير، يتحول

السينما بين السقوط و الصعود

بالفيلم الى مزيج من التخليط الشديد الابتذال.

● عشوائية الأفكار

ونفس ذلك التخليط المقيت نراه أضعافا مضاعفة في «الغجر» حيث تلعب «فيفي» دور غجرية حسناء آخر ما نطقت به في الفيلم، وعيناها تنهمر منهما الدموع، كان تساؤلا في ثلاث كلمات «ليه يا مسعد».

و «مسعد» هذا، يؤدي دوره «الشحات مبروك»، ليس الا حبيب قلبها، ونور حياتها، شبت معه في أحضان أبيه الضبع، زعيم الغجر «حمدي غيث».

ومنذ أن كانت فتاة صغيرة، وهو فتى الأحلام وعتابها له في تلك الكلمات، إنما يرجع الى إنه افسد عليها ليلة العمر، ليل زفافها إليه، في فرح، ولا كل الأفراح والليالي الملاح.

فها هي ذي، قبل أن تداهم الشرطة الفرح، وقبل العتاب، وسط المدعوين، وكلهم من الغجر، اهلا وأحبابا مرتدية



كمال الشناوى ومحمد رضا
زوجا فيفى



فيفى عبده مع الكابتن جمال عبد الحميد



وداد حمدى وفؤاد خليل
الخال الخلخال



براد بيت نجم صاعد واعد

ثوب زفاف ناصع البياض، لعله من صنع «چورچيو أرماني» أو غيره من كبار صانعي الازياء.

وتحت قدميها تنحر الذبائح، حتى تسيل الدماء وأمامها حشد كبير من العازفين والمنشدين والراقصات. ومن حين إلى آخر لاتستطيع مقاومة الاغراء، فتهب واقفة، مشاركة في الرقص والغناء.

وقبل الدخلة بثوان، وصدى الزغاريد يتردد في الآذان يتقدم رجل حاملا بين ذراعيه جثة زوجته «فاتن» (حنان شوقي)، موجها تهمة قتلها الى العريس الذي لايكذب الاتهام.

وفي هذه اللحظة بالذات تداهم المكان الشرطة الساهرة على حماية الأمن والأمان، فتلقى القبض على العريس، وينقلب الفرح إلى هرج ومرج، تتحول فيه الزغاريد الى صراخ وعويل.

وأمام مقدم الشرطة تنوح «بدارة» (فيفي) بصوتها المبحوح «ليه يا مسعد».

غير أن الضابط يسرع بطمأنتها، عندما يذكرها بوعد قطعه على نفسه في لقاء معها، ومسعد هاربا من السجن، بانه فيما لو نجحت في اقناعه بتسليم نفسه، فسيعمل من أجل الافراج عنه خلال أيام.

السينما بين السقوط والصعود

أما لماذا زج بمسعد في السجن، ولماذا هرب، ولماذا قتل «فاتن» ؟ فهذا ما يحكيه الفيلم بتفصيل ممل اختلط فيه الحابل بالنابل، بحيث أصبحنا، نحن المتفرجين، والفيلم يقترب من الختام، في حال من البلبلة، قل أن يكون له مثيل.

● استهتار ولا مبالاة

والأمر العجاب بالنسبة للغجر، مشاركة جمع من ألمع فنانينا في صنعه، الشاعر «عبد الرحمن الأبنودي» بأغانيه، «رمسيس مرزوق» بتصاويره، «حمدى غيث» بتمثيله، ومجبي اسماعيل بتهاويله.

ورغم ذلك، ورغم ان السيناريو من تاليف «ماجدة خير الله» ، وهي من هي، في مجال نقد الأفلام، فقد جاء الفيلم مهلهلا، بلا روح، وكأن مخرجه المسئول عنه «ابراهيم عفيفي» أراد أن ينتهي في اسرع وقت من أداء واجب ثقيل.

فلا اهتمام من جانبه بعد انتهاء التصوير، بالتوليف فما أكثر المشاهد

المترهلة، وما أقل المشاهد المحكمة البناء.

والآن الى فيلمى «فريمان».

● الخطايا المميتة

وابدأ «بسبعة»، والمقصود بهذا الرقم الخطايا كما أوردها الأديب دانتى اليجييرى «فى الجحيم»، وهى الشراهة، الجشع، الكسل، العجرفة، الشهوة، الحسد، والغضب.

أما لماذا يدور الفيلم حول هذه الخطايا، فهذا ما يحكيه «اندرو كيفين ووكر» فى سيناريو، أحداثه تدور حول مخبرين أحدهما «ويليم سومرست شرطى فى خريف العمر، لم يبق بينه وبين التقاعد سوى سبعة أيام ويؤدى دوره «فريمان».

والآخر «دافيد ميلز» شرطى فى مقتبل العمر، فى سبيله الى شغل وظيفة «سومرست» الشرطى المتقاعد، ويؤدى دوره «براد بيت» النجم الصاعد الواعد.

وكلاهما فى الفيلم شرطى مستقيم، فى زمن وغد، الغلبة فيه للشر والالتواء.

«فسومرست» لم يستعمل مسدسه منذ ثلاثين سنة أو يزيد.

و «ميلز» لم يستعمله الا مرة واحدة، ويأمل ألا يستعمله ابدا.

● عبث الأقدار

وكان «سومرست» تواقا الى ترك الخدمة بارادته وأن تنساب أيامه الاخيرة هادئة كغدير ماء.

غير ان الاقدار الدامية شاءت تعكير صفو هذه الأيام بجرائم غير مسبوقة، يرتكبها قاتل عشوائى، يتمتع بقسط وافر من الذكاء والدهاء.

ولانه أى «سومرست» مخبر مجرب ومثقف عكس زملائه فى العمل، فقد استطاع، منذ الجريمة الاولى، التى ارتكبها القاتل أن يتوصل الى قرائن تكشف عن طبيعة شخصية المجرم ودوافعه.

ومع تصاعد الأحداث بجرائم قتل أخرى، كل واحدة منها عقاب للقتيل لالتصاق إحدى الخطايا السبعة به ينجح «سومرست» ، ومعه «ميلز» المخبر الشاب فى الكشف عن شخصية المجرم «جون دو» ويلعب دوره «كيفن سبيسى» الفائز بأوسكار أفضل ممثل مساعد ١٩٩٦ بل وكادا يلقيا القبض عليه، لولا يقظته التى ساعدته على الفرار.

وتستمر المطاردة عنيفة حتى نهاية الفيلم الفاجعة، وهى نهاية مفاجئة لاترد على بال.

● سر النجاح

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب اذا ما

جنحت الى القول بان «سبعة» من أروع أفلام التشويق بعض مشاهده تفوق «صمت الحملان» فى جودة الإخراج والأداء.

ولا غرابة فى هذا، فمخرجه «دافيد فينشر» عاشق لفن السينما، منذ أن كان صغيرا، و«فريمان» يتصف اداؤه بالطبيعة والاتزان.

وقد سبق ترشيحه لاوسكار أفضل ممثل رئيسى عن أدائه المذهل لدور سجين مخضرم فى «الخلاص من شوشانك».

● تهذيب وإصلاح

ويعرف عن «شوشانك» إنه سجن رهيب فى الولايات المتحدة، من دخله مفقود، عليه السلام . وقصة الأحداث الفاجعة التى نراها تتصاعد داخل ذلك السجن بدءا من ١٩٤٦، وحتى ١٩٦٧، مأخوذة عن عمل ادبى للروائى الامريكى «ستيفن كنج» المتخصص فيما يسمى «بأدب الرعب».

ومع ذلك فالقصة المستوحى منها الفيلم، واسمها «ريتا هيوارث والخلاص من شوشانك» منبتة الصلة بذلك النوع من الأدب.

السينما
بين السقوط والصعود

ولقد كان السيناريو المبنى على تلك القصة، وهى من القصص القصير، مرشحا للاوسكار.

والحق ، إنه آية من آيات البيان السينمائى المحكم، دون زيادة أو نقصان.

والأكيد أن الفضل فى ذلك إنما يرجع الى «فرانك دارا بونت» الذى كتب السيناريو وترجمه الى لغة سينمائية غاية فى البلاغة.

والغريب أن الفيلم أول عمل سينمائى يخرجه «دارا بونت» وفيما عدا لقطات قليلة فى البداية، ولقطات ربما أقل فى النهاية، ولقطات أخرى فى الثلث الأخير من الفيلم، من بينها لقطتا عودة الى الماضى، وهى فى مجموعها لاتحتل من وقت العرض سوى دقائق معدودات، فى فيلم يطول عرضه الى ساعتين واثنتين وعشرين دقيقة بالتمام، فيما عدا ذلك، فجميع الأحداث تقع داخل السجن، حيث يسود العنف والرعب والاستبداد والفساد

السينما
بين السقوط و الصعود

وحيث يتحول الانقياء من النزلاء الى مجرمين أشداء، لايرجى منهم خير، ولا يؤمل لهم خلاص.

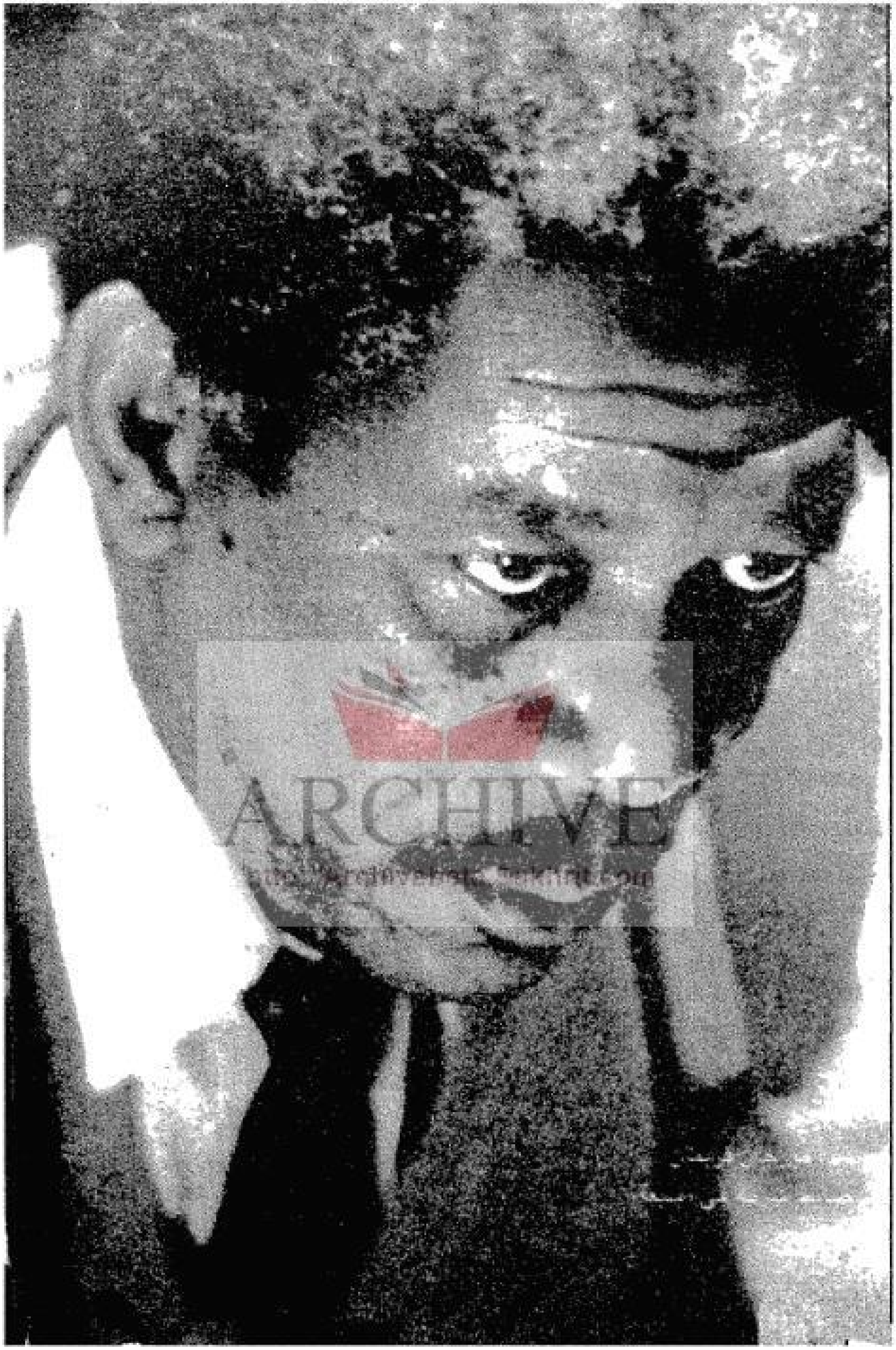
والبطولة داخل السجن يتقاسمها «فريمان» و «تيم روبنز» . الاول فى دور «رد» نزيل السجن المخضرم، العارف بالخفايا والأسرار، والمحقق لطلبات السجناء.

والثانى فى دور «آندى» النزيل الجديد المثقف، المتهم بقتل زوجته وعشيقها، فى لحظة غضب للشرف المهان ورغم إنه من تلك التهمة براء، فقد حكم القضاء بسجنه أربعين عاما.

وها هو ذا . وسط طغمة من الاشرار، مساجين وسجانين على حد سواء، يستهلون حياته معهم بالاغتصاب، وعلى مر الاعوام، يذيقونه ألوانا أخرى من العذاب.

أما كيف صمد لكل هذا، ثم أفلح بعد عشرين عاما فى الهروب من الجحيم، فذلك ما تحكيه تفاصيل فيلم رسالته ألا نيأس أبدا . أن نعيش بالامل والعمل من اجل تحقيقه، وأن نؤهل أنفسنا لا للاخذ، وإنما للعطاء ، فلولا تسلح «آندى» بهذه الفضائل، ولولا استعانته بالمكر والكتمان، لما كتب له فى نهاية الأمر أن ينجو منتصرا على الاشرار، وعلى رأسهم مدير السجن الذى تحاصره جرائمه، فيجد ألا سبيل أمامه سوى الانتحار.

يبقى لى أن أقول انه باستثناء لقطة سريعة أو لقطتين للزوجة القتيلة، وباستثناء ملصقات ثلاثة «لريتا هيوارث» و «مارلين مونرو» و «راكيل ولش»، وباستثناء لقطات لهيوارث فى فيلم «جيلدا» أثناء عرضه على السجناء ، فالفيلم خال من النساء. تحكى أحداثه بصوت «رد» الشاهد الوحيد على كل ما جرى «لآندى» وهو صوت هادئ رزين، لأنه صوت «مورجان فريمان».






قصيدة الروض وبيت الندى ..

كرمة ابن هانئ

بقلم : إبراهيم داوود

صاحب الكرمة غنى عن التعريف ، إنه أمير الشعراء أحمد شوقى الذى قدم نفسه فى مقدمة الشوقيات سنة ١٩٠٠ بقوله «أنا عربى ، تركى ، يونانى ، جركسى . أصول أربعة فى فرع مجتمعة ، تكفله لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل ، ومازال لمصر الكنف المأمول ، والنائل الجزل على أنها بلادى وهى منشأى ومهادى ، ومقبرة أجدادى» .

وقد اختلفت الآراء حول مولد شوقى ، إلا أنه ولد - على الأرجح - عام ١٨٦٨ فى بيت من بيوت الترف والثراء .

فى الرابعة من عمره دخل كتاب الشيخ صالح فى حى الحنفى بالقاهرة ثم أدخل فى مدرسة المبتديان الابتدائية ثم المدرسة الخديوية التجهيزية «الثانوية» التى أتم دراسته فيها وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، حيث كان ترتيبه الثانى بين زملائه ، ومنح المجانية مكافأة له على نبوغه وتفوقه ورغم صغر سنه التحق بمدرسة الحقوق بعد اتمام الدراسة الثانوية ودرس شوقى لمدة سنتين. وكان أن رأت الحكومة انشاء قسم للترجمة بمدرسة الحقوق لتخريج المترجمين الأكفاء. فدخل شوقى هذا القسم وتخرج منه عام ١٨٨٧ وعينه الخديو توفيق فى وظيفة بالقصر ، ثم رأى أن يرسله إلى فرنسا ليكمل ثقافته ، واختار دراسة الحقوق التى كان يرى أنها تكاد تكون من الأدب. قضى شوقى عامين فى «مونبيليه» إلى أن نال إجازة الحقوق فى نهاية السنة الثالثة سنة ١٨٩٣ وظل بعدها ستة شهور يتردد على مسارح باريس وينهل من منابع الثقافة والفنون.

وعندما عاد شوقى إلى مصر ـ بعد انهاء الدراسة ـ عمل فى قسم الترجمة بالقصر ، ولكن عندما توفى الخديو توفيق، وخلفه الخديو عباس ، لم يحفل الخديو الجديد بالشاعر كثيراً فى أول الأمر ، لأنه كان يحتاج إلى رجل سياسة لا إلى شاعر، ثم مالبث أن قربه إليه وصار شوقى رئيسا لقسم الترجمة ومشدودا إلى الخديو والقصر حتى لقب بشاعر الأمير .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وأعلنت انجلترا حمايتها على مصر ، خلعت الخديو عباس ، ومنعته من دخول البلاد إذ كان فى زيارة لتركيا، ونصبت السلطان حسين كامل بدلا منه.

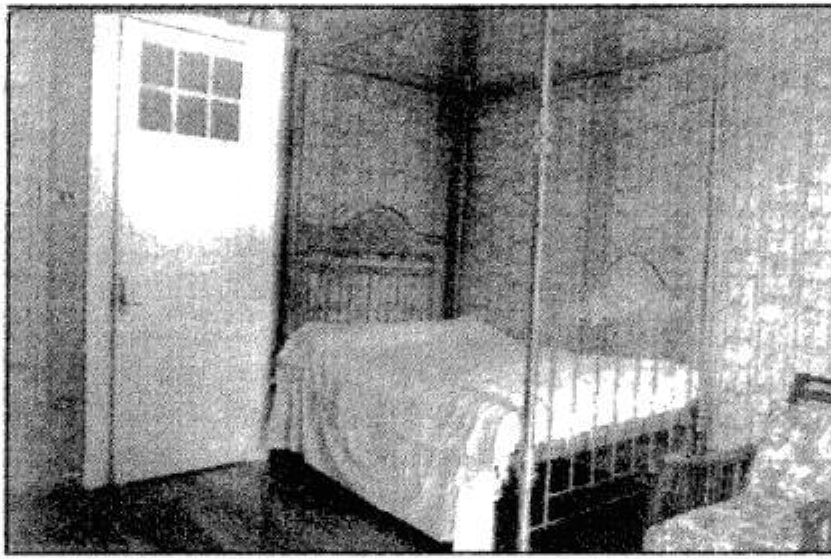
وكان من نصيب شوقى فى هذا التغيير أن نفاه الانجليز فاختار أسبانيا، وأقام فى برشلونة هو وأسرته وظل فى الأندلس خمس سنوات ، اطلع خلالها على آثار الحضارة العربية ، وحين خمدت نيران الحرب عاد شوقى سنة ١٩٢٠ وخرجت الجموع لاستقباله .

ولم ترق لشوقى الاقامة فى منزله القديم بالمطرية والذى كان يطلق عليه أيضا «كرمة بن هانىء» ، من حبه لأبى نواس ، وراح يبحث عن مكان آخر .

ويتحدث حسين أحمد شوقى فى كتابه «أبى شوقى» مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ : «أخذنا نفكر فى المكان الذى نبنى فيه كرمة ابن هانىء الجديدة ، أين يكون؟ شرعنا نعرض الضواحى المرغوب فيها إذ ذاك ، فكرنا فى الزمالك ، ثم عدلنا عنها لأنها منخفضة .

مصر الجديدة؟ هى فعلاً مكان هادىء وصحى ، ولكنه بعيد على الرغم من مواصلاته الحسنة ، قصر النوبارة؟

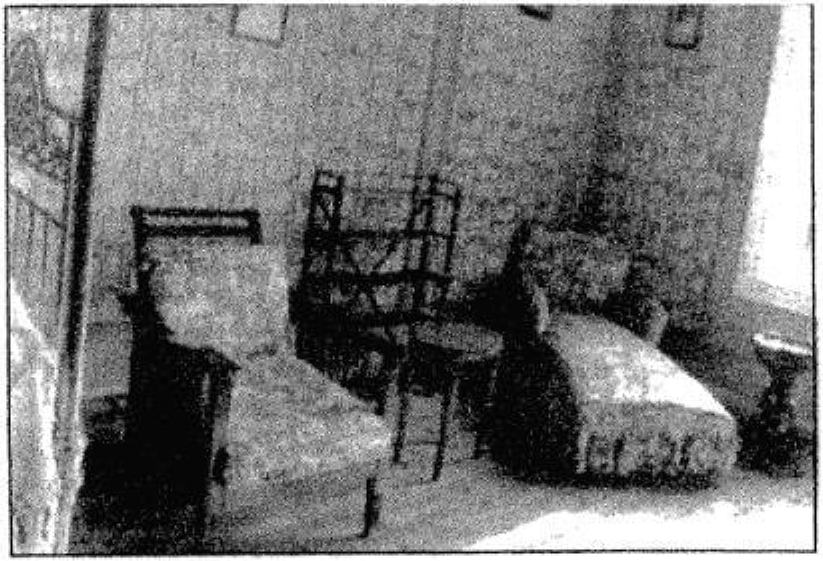
هو مكان وجيه ولكنه مزدحم بالمبانى، وأخيرا اخترنا الجيزة مع أنها كانت فى ذلك الوقت قليلة العمران ، اخترناها



سرير نحاسى فى غرفه نوم شوقى



مكتب شوقى



شزلونج فى غرفة نوم شوقى



السيدة خديجة حفيدة شوقى

لقربها من المدينة من جهة ، ولأنها تطل على النيل المبارك من جهة أخرى . إذ كان أبى دائما يحب أن يكون بالقرب منه ، لذلك كانت له فيه «ذهبية» قبل الحرب ، أى وقت ما كنا نقطن المطرية . كما كان يردد هذا البيت ، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين عن تحبيذ السكنى بالقرب من النيل :

إذا كنت فى مصر ولم تكن ساكنا
على نيلها الجارى فما أنت فى مصرا

كذلك اخترنا الجيزة لقربها من الأهرام ، التى كان أبى مغرما بها أيضا ، إذ كان يحملنا على الذهاب إليها كل يوم جمعة تقريبا» .

وعاش شوقى فى هذه الدار «كرمة ابن



صورة نادرة لأمير الشعراء مع الزعيم سعد زغلول ومحمد عبد الوهاب

ابن هانىء» بقية سنوات حياته التى اتسمت بالخصوبة والنضج وحفلت بالمجد والشهرة إلى أن توفى فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، تاركا ميراثا من الشعر العربى الخالد بالإضافة إلى هذا البيت الجميل والذى تحول إلى متحف فى ١٧ يونيو ١٩٧٧ ، وتم ترميمه وافتتاحه فى ١٩٩٦ ، كأول متحف وطنى يتم افتتاحه بعد التطوير.

والزائر لمتحف شوقى يستقبله فى حديقة الدار تمثال كبير للشاعر كان قد أبدعه المثال الراحل جمال السجينى وكان قد وضع فى مكانه احتفالا بمرور خمسين عاما على وفاة صاحب الدار لينضم إلى تمثالين آخرين من معروضات المتحف.

ويستطيع زائر الكرمة أن يرى مجموعة كبيرة من المخطوطات بخط يد الشاعر ، تحتوى على مسودات لبعض شعره ونثره وكذلك مجموعة من الصور الفوتوغرافية النادرة للشاعر وزوجته وأولاده وأحفاده ووالده وجده ، كما يستطيع المشاهد أن يتعرف فى بعض الصور على بعض الشخصيات السياسية والفنية الكبيرة مثل سعد زغلول ومحمد عبد الوهاب.

وتضم مكتبة شوقى كتبا فى شتى المجالات. كما تحوى الكرمة الأثاث الذى عايش أمير الشعراء كحجرة نومه وحجرة مكتبه وحجرة نوم زوجته ، وحجرات الاستقبال وجناح الاستضافة وقد أفرد المتحف حجرة للأوسمة والنياشين التى حصل عليها الشاعر وملابس التشريفة الخاصة به ، وكذلك بعض الهدايا والوثائق التى قدمت إليه بمناسبة تتويجه أميرا للشعراء ، كما يضم المتحف عددا من اللوحات الزيتية من مقتنيات شوقى ، وكذلك مجموعة من لوحات الفنانة خديجة رياض «حفيدته» التى أهديت إلى المتحف بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة شوقى .

هذه الدار ـ كما تقول مديرة المتحف ـ التى كانت تذخر فى حياة صاحبها بألوان الفن والآداب وتعج بعيون الأدب والشعر والموسيقى وعظماء السياسة والمجتمع والتى قال فيها الشاعر عبد الحليم المصرى:

في كرمة الملك التى خلتها
كأنها بعض معانى ابن هانى
قصيدة الروض وبيت الندى
وحكمة الحسن وحسن المعان

هذه الدار حين كانت فى المطرية كان أحمد شوقى شاعر الأمير، وعندما انتقلت إلى الجيزة أصبح صاحبها أمير الشعراء، وبعد أن رحل عنها أميرها أصبحت متحفا، واليوم تعود من جديد صرحاً ثقافياً عظيما ومركزا للنقد والابداع .



السخان

قصة : أهداف سويف

الهلال يوليو ١٩٩٦

ساد السكون الشقة. لايقطعه سوى فحيح مستمر يطلقه السخان. هذا السخان الذى لا يلبث من حين لآخر أن يزمجر مشتعلا، ثم يخبو بعد لحظات فيعود إلى فحيحه الرتيب. لم يعتد صلاح هذا الصوت بعد ، فمنذ شهرين فقط لم يكن يستطيع الاستحمام إلا بإيقاد الوابور - وكان إيقاد الوابور من اختصاص فاتن.

يستيقظ من نوم القيلولة في العصر ويطرق باب حجرة أمه، فيأتيه صوتها الخافت:

«اتفضل يابنى»

يدخل الغرفة المعتمة ليجدها جالسة فى فراشها على السرير النحاسي الكبير، رأسها معصوب بمنديل أبيض، تنسدل منه على كتفها اليمنى ضفيرة من شعر مازال على سواد لونه.

«اقعد يابنى».

على يمين السرير، وبجوار النافذة، كرسيان أسيوطى، يجلس صلاح فى أحدهما.

«كيف حالك اليوم ياأمي؟

دائماً ما تتنهد قبل أن تجيب:

«الحمد لله .. حنقول إيه؟» ثم تعود تسأل:

«إزى الحال فى الجامعة؟»

فيجيبها: «الحمد لله .. ماشى».

تمضى بعض الدقائق فى سكون ثم تنادى بصوتها الواهن:

«فاتن.. إعملى شاى لاخوكي».

تحضر فاتن الشاى فى أكواب صغيرة مذهبة الحواف على صينية مطلية بالفضة، منقوشة عليها صورة بيت الله الحرام. وتقدم لأمها ولأخيها. ثم تضع الصينية على الكومودينو وتلتفت إلى صلاح قائلة:

«أسخن لك الميه؟»

يومىء برأسه، ويسمحها بعد ذلك فى إجراءات إيقاد الوابور. تملأ الصفيحة الكبيرة وتقيمها على النار. تتفقدها عدة مرات . ثم تأتيه فى النهاية، قائلة فى رقة:

«حمامك جاهز» وتولى مسرعة.

دائما ما تتحدث برقة ودائماً ما تولى مسرعة.

بعد التطهر والاغتسال مما يخلفه اليوم من أتربة وعرق، ومما يتركه النوم من شوائب مستترة، يرتدى صلاح جلباباً أبيض نظيفاً، وطاقية بيضاء، ويصلى صلاة المغرب . يخرج إلى الشرفة، ويتربع على الكنبة الاستامبولى، فيقرأ القرآن، أو يسبح باسماء الله الحسنى حتى يسمع أذان العشاء.

الآن، هو يدفع حبات المسبحة بين أصابعه، وشفتاه تتمتمان بأسماء الله فى آلية ذاهلة: «الرحمن .. الرحيم.. الملك.. القدوس.. السلام.. المؤمن.. » اختل نظامه

المعتاد، فلم يشرب الشاى مع أمه - غابت عن المنزل تعزى صديقة توفى زوجها. وقد ذهب هو إلى الجنازة فى اليوم السابق، ولكن أمه لاتكتفى، فستذهب إلى الليالى الثلاث، ثم إلى الخمسان، فالأربعين، فالذكرى السنوية. وبالرغم من تدهور صحتها عقب موت والده منذ شهور أربعة، إلا أنها مازالت توفى بواجباتها الاجتماعية - وإن كان فى إيفائها بالواجبات المتعلقة بالموت نوع من النهم. لم يشرب الشاى مع أمه - لكن نظامه المعتاد اختل فى أمر أهم، فهو لم يؤد صلاة المغرب، بل هو فى الحقيقة لم يؤد أياً من صلوات اليوم.

رفع صلاح عينيه، فمن مجلسه وعبر باب غرفته المفتوح، ماراً بالصالة الضيقة بما تحويه من مائدة سفرة وثمانية كراسى، يستطيع أن يرى باب الحمام، فيتبين من خلال زجاج الشراعة العالية أن الحمام مملوء بالبخار، كما يتناهى إلى سمعه فحيح السخان. حول صلاح عينيه وحاول التركيز فى تسبيحاته: «يارب.. أستغفرك وأتوب إليك.. يارحمن..» إنه يعد بين أقرانه قدوة، والشيخ حافظ، شيخ الجامع، كثيراً ما يقولها، يقول إنه قدوة يجدر أن يقتدى به غيره من الشباب.. زهرة نادرة يخشى عليها فى مثل هذا الزمن الفاسد - «فلننظر إليه كيف يقضى يومه: ينهض من فراشه مع أذان الفجر ليتوضأ (وحتى وقت قريب بالماء البارد) ويصلى الفجر، ثم يجلس إلى مكتبه ليجهز لمحاضرات اليوم حتى يحين موعد صلاة الصبح فيؤديها ويصلى ركعتين إضافيتين عليها، تختار، ما سيلبسه خلال يومه، لديه ثلاثة بنطلونات رمادية، وستة قمصان بيضاء، وستة أزواج من الجوارب الرمادية، وزوج حذاء واحد من الجلد الأسود. وفى الشتاء يرتدى بلوفر رماديا مفتوح الرقبة. ولديه كذلك حلة كحلية، ورابطة عنق، أزرق فى أحمر داكن، من أجل المناسبات المهمة - كجنازة الأمس مثلاً.

توقف بصره على الصوان القديم، تحتفظ فاتن بملابسه نظيفة، مكوية، مرتبة.. ولازر واحدا ناقص فيها.. وحذاؤه لامع دائماً.. مع أنه لم يرها أبداً تقوم بهذا العمل. فقط كلما نظر وجد ملابسه كلها مرتبة فى الدولاب. وقد سمع أمه تقول فى أكثر من مناسبة:

«يابخت من سيتزوجها.. البنت تسوى ثقلها دهب..»

شعر بوخزة ألم فى صدره، فخفض بصره بسرعة إلى مسبحته

«ياجبار.. يارحيم.. أحمدك على كل شىء.. أحمدك على كل شىء».

عاد بذهنه إلى تفاصيل نظام حياته اليومى. بعد ارتداء ملابسه يخرج من غرفته ليجد إفطاره جاهزاً على المائدة بالصالة، يسمى ويجلس إلى الطعام: فول مدمس بالزيت والليمون، وخبز بلدى، وعسل، ثم الشاى الثقيل. تكون فاتن قد خرجت لتلحق بأتوبيس المدرسة - باب غرفتها مفتوح - أمامها طريق طويل - بعد الأكل يغسل يديه ويتمضمض، ثم يجمع كتبه، ويذهب إلى حجرة أمه، ليجدها جالسة فى فراشها فى هدوء. عندما كان أبوه حيا. كان يتناول افطاره معه، ثم يقبل يده، ويخرج فى

طريقه إلى الجامعة، أما الآن فيذهب إلى أمه ليلقى عليها السلام:

«تركتك بخير يا أمي»

«فى أمان الله يابنى»

بحرص يهبط درجات السلم الحلزونية المتآكلة، يغض من بصره حتى لاتقع عيناه على جارة من الجارات، ثم يخرج إلى وهج الشمس، وإلى تراب الطريق.. يحث الخطى حتى ناصية الشارع ليقف في انتظار الأتوبيس. يصل الأتوبيس فيهجم عليه الجمع المزدحم؛ كل يحاول أن يجد موطئا لقدمه على السلم الذى ينوء بثقل ما يحمله من أجساد . هو شاب وقوى وغالباً ينجح فى التعلق بالأتوبيس، وقد ينفذ – أحياناً – إلى داخله.

الجو فى الداخل خانق، والحرارة لاتحتمل. قدم جارك تدهس قدمك، كوعه فى بطنك، يفاجئك شذى امرأة قريبة، بل تجد شعرها يداعب أنفك، وجسدها ملتصق بجسدك، ساعدك يحتك فى جانب نهدها، أو مؤخرتها تتقهقر لتندفس فى مقدمتك. وهو يغض بصره دائماً، ويجاهد ليحتفظ بجسده محايداً قدر الإمكان. وعندما يصل إلى الجامعة يحارب حتى يصل إلى باب الأتوبيس، مختنقا بالتوتر، مردداً «أعوذ بالله. أعوذ بالله» لم يحدث أبدا أن تشاجر معه أحد فى الأتوبيس . كثيرا ما يرتفع صوت امرأة غاضبة وهى تصيح فى رجل يقف خلفها:

«يا خويا ما تلم نفسك وتبعد إيديك..» أو «أتأخر شوية لو سمحت..احنا برضه زى أخواتك..» فى حين يغمغم الرجل.

«نعمل إيه بس؟ الله يلعن أبو الزحام..»

ويتطلع بقية الركاب فى انتظار بادرة عراك يشاركون فيه، فيبدد الملل، وينفس عن التوتر. هذه الأتوبيسات هى الجحيم بعينه، والمصائب التى تحدث فيها.. فليكن الله فى عون المرأة إذا كانت حساسة أو خجولة، فستمتد إليها عشرات الأيدى.. الحمد لله أن هناك أتوبيس مدرسة لفاتن، فقد منعها من ركوب الأتوبيسات العامة، وحين سألته. «ليه» ؟ أجابها ببساطة:

«لأنى أعرف ما يدور فيها، ولا أرضاه لأختى».

وتقبلت إجابته كما اعتادت تقبل كل ما يقول وكل ما يفعل – برضا وبدون نقاش. تساءل بينه وبين نفسه طيب ولما تروح الجامعة؟ ساعتها لن يكون هناك أتوبيس مدرسة.

رمق صلاح الزجاج فى أعلى باب الحمام.. لايزال مضاء، والسخان مستمر فى الفحيح. لابد أنها تغسل شعرها الآن، ترفع ذراعيها، تترك الشعر المرغى بالصابون مكوما فوق رأسها، تضع قدمها على كرسى الحمام الخشبى، وتنحنى – لو أنه سحب كرسيا – غاص قلبه إلى قدميه.

«أستغفر الله.. استغفر الله.. أستغفرك وأستعيذ بك .. أعوذ بالله.. أعوذ بالله..»

تشبث بالسبحة وحاول جاهداً أن يركز فكره على أسماء الله الحسنى:

«السميع .. البصير .. الحكم .. العدل..»

كان يجلس في هذه الشرفة منذ شهرين، يجلس مثل جلسته هذه تماما، يسبح بعد صلاة المغرب. كان ذلك يوم بدأ السخان في العمل ، فقد اشتراه أبوه – رحمه الله – وتم تركيبه بعد وفاته بشهرين . انتهى هو من حمامه، وحين دخلت فاتن تستحم، سعيدة بالجهاز الجديد، سمع أمه تناديه. وفي غرفتها – بعد أن أغلق الباب كما طلبت – كانت جالسة في الفراش كعادتها مؤخراً والشال الصوفي حول كتفيها – قالت له :

"كنت اليوم في بيت خالتك»

سألها متأدباً:

وكيف حالها؟

«بخير والحمد لله .. كلهم بخير» وتوقفت.. ثم أردفت:

«وكلمتني في موضوع..»

«خير؟»

«ابن خالتك عصام – اتخرج زي مانت عارف من كلية طب الأسنان وبيفكر يفتح عيادة، وإن شاء الله ربنا يكتب له النجاح، وزي ما بتقول أختي: مين يستحق يشاركه النجاح أكثر من بنت خالته فاتن؟»

«فاتن؟»

«إيه رأيك؟»

أخذ بالمفاجأة

«بس دي .. دي طفلة !!»

«عندها ١٦ سنة وفي ثانية ثانوي. ممكن نعمل خطوبة على الساكت، بدون أي مساس بالمرحوم ، وعلى ما هي تنتهي من المدرسة السنة الجاية يكون عصام فتح عيادته وجهز نفسه وأصبح مستعداً للزواج»

«يا أمي ده كلام مش معقول.. فاتن؟.. فاتن بنت نبيهة وشاطرة! وكان والدي دائماً يقول إنها لابد تدخل الجامعة. ضروري تكمل تعليمها»

«هو إيه التعليم ده كله يابني؟ البنت مصيرها للزواج والأطفال»

«أطلبوا العلم ولو في الصين – وتربية الأولاد مش بسيطة – هل تحدثت معها في هذا الموضوع ؟»

«فاتن؟ لا طبعاً . أنا قلت أكلمك إنت الأول.»

«طيب بلاش تكلميها – دي لسه صغيرة – خليها تفكر في دروسها ومذاكرتها – الجواز لسه بدري عليه».

تنهدت الأم وقالت :

«إللي تشوفه يابني. وأهي رخرة ما بتطقهوش. حتى وهم عيال كانوا دايما يتشاكلوا»

استعاد تلك المحادثة وهو جالس على الكنبة وفحيح السخان الجديد يملأ الشقة. كان متأكداً من أنه على صواب، فأخته صغيرة جداً على التفكير فى الزواج - بالطبع الزواج حماية للمرأة - وهى أيضا يتيمة - لكنه موجود - وفاتن فتاة طيبة ولايمكن تقع فى الخطأ، وهو موجود، موجود لرعايتها وحمايتها وتوجيهها.

عندما سمع صوت باب الحمام يفتح رفع نظره، كان الضوء خلفها. توقفت لحظة فى فتحة الباب يحوطها البخار المتماوج، فكان جسدها ظلا داكنا، لايميز فيه وجها، أما ما نفذ إلى صلاح فكان سهام الضوء تتخلل قميص نومها القطنى الخفيف. لحظة، شعر فيها ببخار الماء الساخن ينطلق من الحمام، يلتف حوله، يلعقه، يلذع عينيه، ويلهب رأسه. وتعالى فى الشارع صوت هرج ومرج فاستدار يستطلع الأمر ودارت فاتن حول مائدة الطعام فأتت بسرعة إلى حجرته ثم إلى الشرفة واتكأت على السور لترى ما يحدث. كان أناس كثيرون يجرون عبر الشارع وهم يصيحون «حرامى! حرامى!» وأناس آخرون لم يشاركوا فى الجرى وقفوا على أعتاب محلاتهم أو على الرصيف يشاركون بالصياح. كانت بشرتها مغسولة موردة، ورائحة الصابون لاتزال عالقة بها، وشعرها المبلل النظيف ملتصقا برقبتها، تتساقط منه قطرات الماء، فتجرى على صدرها إلى أن تتوارى فى فتحة قميص النوم. وكانت حافية القدمين. استدارت إليه تسأله:

«شفت الحرامى؟»

كانت تواجهه بعينين واسعتين صافيتين لونهما عسلى مرقط بالذهب، وفمها منفرج قليلاً وهى تنتظر جوابه. وأعادت السؤال:

«شفت الحرامى»

أشاح بنظره بعيداً إلى الشارع:

«لا، لم أر شيئا» أجابها وهو ينصت إلى صوت قلبه يرتطم بجدران صدره - إلى عقله يرتطم بجدران رأسه - إلى جسده - سألته باهتمام.

«ماذا يفعلون به إذا أمسكوه؟» فأجاب عابسا:

«يضربونه علقة محترمة ثم يأخذونه إلى القسم»

«حرام أن يضربوه.. ألا يكفى أن يأخذوه إلى القسم»

«هو حرامى ولابد أن يعاقب. هناك قوانين والناس المفروض لا تتعداها والسرقة ضد الشرع والقانون» وسمع صوته يزداد حدة.

«طيب وافرض إنه فقير ومحتاج؟» التف شعرها المبتل حول رقبتها، ورأى - وهى تميل إلى الأمام - قطرات الماء تنزلق على رقبتها لتختفى فى الظلال بين نهديها. قالت:

«مفروض يعرفوا الأول ماذا سرق؟ يمكن سرق أكلا لأنه جائع» ود لو يمد يده ليلتقط قطرة من الماء على طرف إصبعه، ود أن ينحنى ليلتقط قطرة على طرف لسانه، قطرة واحدة بمنتهى الرفق. فلن يلمسها، يريد الماء. الماء فقط، ابتلع ريقه،

وتحركت يده على سور سرفه، وانزاح مرفقه.. لا هلس دراعها وهي متكئة بجانبه، ثم تراجع:

«لافرق. لقد خالف القانون ولابد من عقابه».

سكتت. فقد سمعت في صوته نبرة السلطة، وهو أدرى بما يقول. هو أخوها الكبير وفي السنة النهائية في كلية الحقوق، وفي المستقبل سوف يكون محامياً عظيماً أو نائباً عاماً.

هدأت الضوضاء بابتعاد المطاردة عبر الأزقة والشوارع، واستمر وقوف الناس في حالة من الترقب لا يريدون العودة إلى بيوتهم. تنهدت فاتن ثم انتصبت تبتعد عن سور الشرفة وهي تهمس:

«يارب ما يمسكوهوش» واستدارت عائدة إلى الداخل.

وقف صلاح ساهماً متصلباً يتكىء على السور لفترة طويلة. حاميها حراميها: قصة قديمة قدم الدهر. فاتن. كل خصلة لامعة من شعرها المبلل.. كل سنة بارقة في ثغرها المنفرج.. كل قطرة ماء متساقطة.. ببطء أولاً.. ثم مسرعة على بشرتها الحية الموردة، كلها كلها تضيء وتومض في مخيلته.

تململ صلاح في جلسته المتربعة على الكنبة. فرد ساقيه ومدهما ثم ثناهما تحته. كفى وليقلع عن هذا! وإذا لم يستطع التركيز في حبات مسبحته، فليصرف ذهنه إلى حياته اليومية الطبيعية، إلى الإنجازات المطلوبة منه، إلى أيامه في الجامعة. فهو طالب مجتهد، تعلقت نفسه بدراسة القانون حين رأى فيه محاولة الإنسان أن يمثل نظما أخلاقية مستمدة من إرادة الله سبحانه وتعالى، درسه فوجده منظما ودقيقا وفيه إجابة لكل سؤال. وصل إلى السنة النهائية بكليته، ولديه اليوم طموح أن يعين في هيئة التدريس. اعتاد الاجتهاد وكان يقضي وقته بين قاعات المحاضرة والمكتبة. لم يجلس على الكافيتريا ولم يتسكع في الممرات مثل باقي الطلبة. لم يتقرب يوماً للفتيات، إذا حدثته إحداهن كان يجيبها بأدب، ولكنه لم يصادقهن ولم يعرفهن، ولا يجد عنده الرغبة أن يفعل، يبدون في نظره خاليات من النضارة، كالقميص بعد أن يلبسه يوما كاملا فيتهدل وتظهر على ياقته والأساور آثار العرق والتراب. فتيات في الشارع، في الجامعة، في العراء، شعرهن مشعث، ملابسهن صارخة، أقدامهن متربة في صنادل مفتوحة، أصواتهن عالية، وسلوكهن رافع للكلفة. لم تنجح إحداهن أبداً في إغرائه بمخالفة شرع الله والتحديق فيها أو اشتهائها، ومنذ بلوغه لم يرفع بصره في امرأة من غير محارمه، خالاته وعماته وأمه وأخته. أخته فاتن. كان يراها مختلفة عن كل الفتيات، وجهها بريء في استدارته الطفولية، صوتها حي رقيق، تبرق بالنظافة، تشع منها رائحة الصابون وهي تقوم بأعمال المنزل أو تجلس إلى مكتبها لأداء واجبات المدرسة. لاهزار ولا مناقشة – طاعة فقط واحترام وحب. أما هو فقد خالف أمر الله الصريح، «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم

وخالاتكم..» ولو أن الشيخ حافظ اطلع على خبيئة نفسه وهو يؤم أصدقاءه فى صلاة الجمعة لطرده من المسجد، ولكان له كل الحق، ألا يحمل فى قلبه من الدناسة والفحش ما يغضب الله عليه؟ عليه غضب الله. عليه غضب الله حتى يغير ما بنفسه.

رأى نفسه يتلكع فى الصالة حتى تمر فاتن ليحتك بها «بعفوية»، وترددت فى ذهنه كلمات أمه:

«أنت رجلنا الآن وليس لنا غيرك، حاميها حراميها.. تلمس أصابعه يدها وهى تناوله كوب الشاى.. أصبح مثل ركاب الأتوبيس المتلصصين. أمه الراقدة على سريرها النحاسى الكبير بضفيرتها المحتشمة مدلاة على كتفها - كيف يفوتها ما يختلج فى الحجرة؟ ألم تر ألسنة اللهيب تنهش رأسه؟ وفاتن.. ألم تشعر بشىء هى الأخرى؟ أما أنها تشعر وتخفى؟ النساء.. النساء.. من الصعب فهمهن، فهن ناقصات عقل ودين. هل يمكن أن يحس هو بكل هذا، وهى لاتحس بشىء؟ ربما تحس فاتن بمثل مشاعره ولكنها تخفى أمرها.. ولكنها تبدو بريئة.. تبدو مفتوحة وصريحة.. ووجهها.. عيناها عينا طفلة.. مشدوهة، محبة، مطمئنة. لا، ليس عندها أسرار تكتمها أو أفكار تؤرقها أو مشاعر تخجل من التصريح بها - ولكن من يدرى؟ من أين له أن يجزم؟ كيف يمكنه - فى النهاية - أن يعرف مايدور برأسها؟ يعرفه معرفة اليقين.

ليلة أمس - عقب الجنازة - أقنعه نفر من أصدقائه المشيعين أن يخرج معهم:

«فلنخرج لنروح عن أنفسنا وننسى أمور الموت والنكد».

قصدوا إلى وسط المدينة، وساروا وسط الزحام، فى شارع سليمان باشا ، متأبطين أذرع بعضهم البعض، يحدقون فى السائرات. جلسوا فى شباك الإكسلسيور وطلبوا الشاى وأخذوا يتحدثون بأصوات عالية .. عن الكلية ، والدراسة والأساتذة.. ولكن أكثر كلامهم كان عن البنات. يتحدثون عن بنات الناس، ويعلقون عن النساء المارات فى الشارع: هذه رفيعة كعصا المقشة لكن انظروا إلى عينيها ينضحان شهوة، وتلك بشرتها بيضاء مهلبية يا قشطة، وأخرى ردفاها كالمطاط، أستك توماتيكى منه فيه - ووجد تفكيره رغماً عنه منصرفاً إلى فاتن مع كل تعليق: يقارنها بالنسوة المارات أمامه، مستحضراً إياها فى مخيلته بكل تفصيل.. ليست فى مثل بياض تلك المرأة - كلا فبشرتها خمرية اللون، وعندما تسير لا تتمايل كهذه، وعودها.. تنورتها دائماً فضفاضة فلا يستطيع تخيل حركة الـ - يغلق بسرعة أبواب تفكيره وتتشبث أصابعه مرة أخرى بحبات المسبحة.

هتف مسعد، أقل الصحاب قرباً إلى نفسه:

«لنذهب عند سوسن. عندها بنت جديدة.. تفاحة.. صغيرة ومنظرها لاتبتل فى فمها فولة، لكنها شاطرة تمام. عفريتة!»

تمتم صلاح وهو يمسك بمسبحته «أستغفر الله العظيم» فصاح مسعد :

«قوم ياصلاح .. كف عن هذه التمتمة وقوم معانا».

«تفكرون فى ارتكاب الفاحشة وفى معصية الله؟» فضحك مسعد:

«تقدم يارجل، أهى مرة، جرب وشوف. أليس الزواج نصف الدين؟ وكيف إذن تتزوج بدون تدريب؟» تدخل صديق آخر.

«دعه فى حاله يامسعد. صلاح ليس مثلنا.. إنه من أحباب الله».

«ماذا؟ أليس لجسده عليه سلطان؟ ثم إنهم يقولون إن أحباب الله هؤلاء فى حقيقتهم معلمين، يعلموك ويعلموني ما لايخطر على البال».

«أنا ماشى» قالها صلاح وقام يهرول فى الطريق. لم يحدث أن تجرأ أحد يوماً واقترح عليه مثل هذا. الآن يشعرون بأمره، يشتمون ما به، ظهرت عليه الدناسة وها هو ربه يرسل له تحذيرا، يقول سبحانه:

«أراك ياعبدى، وسوف يراك الآخرون».

أسرع وأسرع فى زحام الطريق والمسبحة فى جيبه تجرى بين أصابعه:

« – من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس – يارب سترك يارب – أعوذ بك – أعوذ بك – أعوذ بك من شر ما خلقت –»

وصل إلى المنزل وصعد درجات السلم ببطء خافضاً بصره، عضلات ساقيه – عضلات فخذيه تؤلمه، ذراعاه وقفاه وأسنانه تؤلمه، جاء نفسه صعبا مجروحا. ما الفائدة؟ ما فائدة غض البصر وعدم التطلع إلى الجارات وأنت ترفع بصرك إلى أختك؟ ولكنه حلال.. حلال أن ترفع بصرك إلى أختك. وحلال أن ترغب فيها؟ أن تشتهيها؟ أن تحاول لمسها بجسدك القذر لتلوث طهارتها؟ وكيف لى أن أعرف أنها طاهرة؟ بواطن الأشياء ليست كظاهرها، فهذا وجهى لايزال صارماً نظيفاً، ونظرة عينى مستقيمة وبريئة. من يدرك ما يقبع فى قلبى؟ فكيف لى إذن أن أتأكد من أى شىء؟

دلف فى صمت إلى الشقة. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. الظلام يسود المكان والضوء الوحيد يأتى خافتا من المصباح السهارى بالصالة. قصد حجرته وبدأ فى خلع ملابسه. لم يؤد بعد صلاة العشاء. عبر الصالة فى طريقه إلى الحمام ليتوضأ، ولم يكن، فى الحقيقة، قد فعل ما ينقض الوضوء، لكنه شعر بوجوب التطهر بعد كلام الشباب الفاضح على المقهى. دار حول مائدة الطعام فتوقف أمام باب أخته. كان الباب مواربا فلم تعتد فاتن إغلاقه فى أى وقت. لم تكن لديها أسرار. لمس الباب، فاستجاب صامتا وانزاح مفتوحاً. خطا إلى الداخل. الشيش مفتوح على مصراعيه، ونور النيون من الشارع يضىء الحجرة.

فى أقصى ركن من الحجرة كان سريرها، وهى نائمة عليه، متكورة فى دفء تحت الملاءة البيضاء. الملاءة القطنية تخفيها بأكملها عدا رأسها. شعرها منثور، وعيناها مغلقتان. انحنى عليها.. ترى هل تستيقظ؟ رائحة الصابون تنبعث من جسدها سمع همس أنفاسها يتردد خفيفاً على الوسادة. مد يده بحذر. تقلبت فى

الفراش فاستلقت على ظهرها ليواجهه الجسد ذو الوجه النائم سهلا متاحا تحت الملاءة البيضاء. تراجع خطوة وعيناه معلقتان بتضاريسها، ثم استدار وترك الحجرة. جر نفسه جراً ليدور حول المائدة ويعود إلى حجرته. نسي الوضوء ونسي الصلاة وألقى بنفسه على فراشه فراح في سبات منهك عميق.

استيقظ على أذان الفجر وقد انتابه شعور غريب بأن شيئاً رهيباً قد حدث. راودته ذكرى شاحبة لحلم يرفع فيه غطاء ويلمس نهداً. رأى فاتن تضمه إليه تحت الملاءة القطنية البيضاء وتداعبه حيث يتوق لأن يداعب، ولكنه عندما همس باسمها سخرت منه قائلة «اسمي سوسن. ألا تعرفني؟»

أخذ يطمئن نفسه، ويؤكد لها «ليس إلا حلماً.. مجرد حلم»، ثم تذكر: الصلاة. لقد ارتمى على فراشه دون أن يؤدي صلاة العشاء. لأول مرة منذ بلغ وحقت عليه الصلاة يفوته فرض من فروض الله، وها هي ذي صلاة عشاء الأمس قد فاتته إلى الأبد.. إلى الأبد، إلى الأبد، فاتته إلى الأبد. دفن صلاح وجهه بين راحتيه وأجهش بالبكاء دنس، قذر، بليد، منافق:

«وصلت إلى الحضيض، إلى الحضيض وصلت. وليس لي من منج سواك».

لم يعرف كيف مر به اليوم. خرج من البيت، ومشى في الطريق، وحضر المحاضرات ولكنه كان غائب الذهن، لايدرك شيئاً مما يدور حوله.. لم يصغ إلى الأساتذة، ولم يكتب شيئا في كراساته.. فاتته جميع صلوات اليوم. فما الفائدة من أدائها؟ بل هو الكفر بعينه أن تصلي وأنت بهذا الدنس. يجب أن يجد حلا. يجب أن يجد حلا كي يستطيع الصلاة.

جلس على الكنبة وبيده المسبحة. جلس يذكر الله، ثم انفتحت أمامه طاقة رأى فيها حقيقة واحدة: إنه وفاتن أخته وحدهما الآن بالشقة. أمه لن تعود قبل مضي ساعة أخرى. كان صوت السخان قد خمد.. لابد أن فاتن تجفف نفسها الآن. تمر بالمنشفة على أجزاء جسمها جزءا جزءا. تنثني لتصل إلى كاحلها، أو ترفع ساقها حتى – إذا استمر على هذا المنوال فمصيره المحقق هو الخسران.. خسران دراسته ومستقبله.. خسران الدنيا والآخرة فيكون من الخاسرين.

فتح باب الحمام فسكب ضوءا وبخارا إلى الصالة، ثم مدت فاتن يدها وأطفأت النور ودارت حول مائدة السفرة ودخلت حجرتها. من المؤكد أنها لا ترتدي شيئا تحت قميص النوم هذا. ولماذا تخرج دائماً من الحمام حافية القدمين؟ هل هو اختبار؟ هل يختبره ربه؟ عادت من حجرتها بشعرها ملفوفاً ببشكير وعبرت الصالة إلى حجرته:

«أنا حاعمل شاي. تحب أعمل لك معايا؟»

«لا»

وقفت لحظة مأخوذة باقتضاب إجابته. ثم غادرت الحجرة في هدوء. وصل إلى سمعه صوت حركاتها في المطبخ، ثم رآها تعبر الصالة: في يدها اليمنى كوب من الشاي، وفي اليسرى ساندويتش. دخلت حجرتها دافعة الباب وراءها.

«الرحمن، الرحيم ، العليم، البصير...» لن يعود ـ ه قبل ساعه . ليذهب إلى المطبخ ويجهز لنفسه شيئا يأكله. نهض من على الكنبة فعدل من جلبابه، ثم دفع قدميه في خفه. سار إلى الصالة ومنها إلى المطبخ، ثم عاد أدراجه، ولف حول المائدة، فوصل إلى باب أخته، ووقف ينتظر. سمع حفيف أوراق. ألا ترتدى شيئاً بالمرة تحت قميص نومها هذا؟ دفع الباب ودخل. كانت جالسة فى مكتبها، مولية ظهرها له، فاستدارت. سار إليها ببطء. ثم وضع يده على رقبتها العارية. ابتسمت له ، وشعر بساقيه ترتعدان، نظر إلى المكتب أمامها، فرأى عليه مجلة مصورة. الصور تحكى قصة ما، والشخصيات تخرج من فمها فقاقيع تتزاحم فيها الحروف اللاتينية. فى إحدى الصور رجل يمسك بذراع امرأة، وهى تجاهد وتشد لتتخلص منه.

«ما هذا؟»

استدارت إلى المجلة»

«هذا؟ هذا فرنسى. مدموزيل سناء بتقول إن أحسن طريقة لتعلم اللغة هى قراءة المجلات والقصص. أنا خدت دى النهاردة من مكتبة الفصل»

الفتاة فى الصورة ، تحاول انتزاع ذراعها. وقد فصل الرسام خطوط نهديها بوضوح تام تحت البلوفر. شدد قبضته على رقبتها.

«وما رأيك فيها؟»

«تعجبنى.. مسلية وبتخلى اللغة حبة أكثر». ضحكت متطلعة إلى وجهه وقالت «أحسن من حل تمارين القواعد المملة».

قال «إنت مش فاهمة إن دى مجلات مخلة بالأداب؟ وإنها بتعلم الكفر والفسق؟» ثم علا صوته: «ولك عين وتقولى لى إنها عاجباكى؟»

يده تقبض على أعلى ذراعها فتؤلمها، ويلمس ظاهر أصابعه جانب ثديها، فيسرى فى يده وخز وتنميل:

«أهذا ما نرسلك إلى المدرسة لتتعلميه؟ لتتعلمى قلة الأدب؟ سأذهب إلى المدرسة غداً لأعرف ما تهدف إليه ست سناء هذه »

«صلاح .. أنت لم تفهم..»

هوت الصفعة على خدها الأيمن. دار رأسها وانزلق عنه البشكير فانساب شعرها المبتل حول رقبتها.

«إخرسى . أنا الذى أقول لك متى تتكلمين. حضرتك دايرة على حل شعرك، لا أحد يراقبك ليدرك ما وصلت إليه. كل هذا انتهى الآن. سامعة؟ ممكن تخدعى الجميع، إلا أنا. إلا أنا» تحدق فيه فاتن وعيناها متسعتان ، جافتان، فيهزها صائحاً:

«لماذا تبحلقين فى هكذا؟ أول مرة تشوفينى ، أم لأنك عرفت أنى شايفك كويس؟ عاملة نفسك بريئة ومش فاهمة حاجة، دلوقتى نشوف البراءة دى حتصفصف على إيه»

تنساب نقاط الماء على يده من شعرها المبتل. يترك ذراعها ويحرك يده عبر نهدها إلى فتحة قميص نومها وهي جالسة في مكانها بلا حراك. يدور المفتاح في قفل الباب وتخطو الأم إلى الداخل متشحة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها:

«فيه إيه ياصلاح؟ من أول السلم تحت وأنا سامعه صوتك»

يترك صلاح أخته ويستدير إلى والدته. يمر بيديه على عينيه:

«تعالى إلى حجرتك يا أمي -» يرتعش صوته :

«عندي ما أقوله لك »

يتبع صلاح أمه إلى حجرتها ويغلق الباب خلفهما .

في غرفتها تنحنى فاتن على المكتب، فتضع وجهها على المجلة المصورة، وتشبك ذراعيها حولها، تحتضن جسدها المرتجف.

«تذكرين موضوع عصام الذى كلمتنى عنه ؟ هو لسه عايزها؟»

«أيوه يابني بس هي»

«فلنزوجها له »

«بس هي.. طب وتعليمها؟ مش إنت قلت ..»

«اتعلمت كفاية . زيادة عن كده مش حيفيدها حاجة. أنا ضبطتها اليوم بتقرأ مجلة مشبوهة، وإذا راحت الجامعة حتفسد زى كل البنات هناك، أنا مش عايز أشوف أختي داهنة ضوافرها أحمر وبرتقالي، وصوتها عالي، وعينها فاجرة».

«طب .. نستنى كمان سنة لما تاخد الثانوية -»

«إذا كانت مش حتروح الجامعة إيه لزوم الثانوية؟ هي حتشتغل؟ لا كل ما عجلنا بالزواج كان أحسن» وهدأ صوته وهو يكمل :

«وإذا كانت نفسها تدرس تبقى تدرس في البيت، بعدين.»

«بس ياصلاح فاتن لسة مافيش على بالها..»

«البنت عدت ١٦ سنة، ودى السن اللى حددها القانون للزواج، ولابد فيه أسباب قوية وراء هذا التحديد، هو ابن خالتي مش عايزها؟»

«طبعاً يتمناها»

«إذن انتهينا! الزواج حماية. نعجل به، وتقدر تعيش مع خالتها لحد ما يفرش لها شقة. أنا فكرت في الموضوع كويس، ومتأكد أن ده الصح.»

«خلاص يابني.. اللى تشوفه.. إحنا لنا مين غيرك؟»

«حتكلمي خالتي بكره؟»

«حاضر. دى حتفرح فرحة. وعصام حيطير -»

«ربنا يتمم بخير يا أمي.»

«آمين يارب العالمين.. إن شاء الله !»

خرج من حجرة أمه، وخطى بثقة إلى الحمام، حيث أدار صنبور الماء البارد.

رسالة المغرب

من : مصطفى نبيل

الواقعية والحداثة

في ندوة الرواية

كانت الزيارة الأولى للدار البيضاء فى المغرب عام ١٩٦٧، يومها كانت مدينة متعبة تنطق بالبؤس. ثراء وفخامة وقصور تطل على شاطىء المحيط، وفقر وتمرد فى مدن الصفيح العشوائية التى تحيط بالمدينة وتكاد تخنقها.

أما هذه المرة فهى مدينة باسمة، أزيلت من حولها مدن الصفيح، وظهرت فى حلة جميلة، تحتفى بزوارها، شوارعها نظيفة، العمارة المميزة تحيطك. المساحات الخضراء فى كل مكان، ويسير فتيان المدينة وفتياتها فى ثقة واعتداد وأمل.

وأصبحت تضم أجمل وأحدث مساجد العالم . الذى سوى فوق ماء المحيط فى عمل معمارى فذ، ينبىء بالحفاظ على تقاليد العمارة الاسلامية، عندما امتزج فيه المقدس بالفن الجميل، ويؤكد نجاح المغرب فى الحفاظ وتطوير الصناعات اليدوية، واحتضانها كل ماهو قيم وجميل فى تراثها.

المناسبة التى وصلت المدينة لحضورها هى لقاء مميز للروائيين المصريين والروائيين المغاربة . يتبادل فيه الروائيون الهموم والخبرات، ويسمع كل طرف الطرف الآخر، فهو مخصص لمناقشة الرواية المصرية والمغربية.

وصاحب هذه الفكرة الجميلة ومحركها هو الناقد والروائي د. محمد براده الرئيس السابق لاتحاد كتاب المغرب، والذى تبناها اتحاد كتاب المغرب والمجلس الأعلى للثقافة. وهى أحد الأفكار البسيطة . ولكنها نافذة وعظيمة التأثير، والتى يمكن تشبيهها بالعمل على اقامة شبكة طرق سريعة بين أرجاء البلدان العربية، أو مثل اقامة البنية التحتية للحوار وتبادل الخبرات بين المبدعين العرب، الذين يمثلون عقل الامة وخيالها . فرحلة الالف ميل تبدأ بخطوة، فاليوم لقاء مصرى مغربى، وغدا مصرى سورى، وبعد غد مؤتمر أو ندوة تضم الروائيين العرب، يتوازى مع ندوات حول الابداعات المختلفة : المسرح والشعر والفنون التشكيلية والسينما وغيرها خاصة وقد جاءت دعوة اتحاد الكتاب المغاربة وهى مبادرة أهلية خالصة فى تمثيل الكُتّاب. وبعيدة عن شبهة التدخلات السياسية التى كثيرا ما تحول دون اللقاء لأسباب بعيدة عن الابداع وأهله، وساهم فى الاعداد لهذه الندوة - هذه المرة - المجلس الأعلى للثقافة فى مصر، وكان الاولى أن يتولاها اتحاد الكُتّاب فى مصر، الذى يتراجع دوره كمحرك لقضايا الكتاب وكمسئول عن العلاقات بين الكُتّاب فى كل الاقطار العربية!

ودور أخر ننتظر ان تقوم به جامعة الدول العربية، التى كثيرا ما أعلنت اتجاهها نحو أن تكون اطارا للنشاطات الأهلية الى جانب كونها اطارا للعلاقات الرسمية، فتتبنى وتشجع مثل هذه المبادرات التى تفوق فى الأهمية نشاطاتها السياسية. ونحن نتذكر فى الخمسينات الدور الرائد للادارة الثقافية فى الجامعة العربية التى تولاها على التوالى د. طه حسين فالكاتب أحمد أمين. ولازالت المكتبة العربية تزخر بعدد من الكتب الثقافية المهمة التى ساهمت فى الترابط الثقافى والفكرى بين العرب.

خاصة بعد حالة التدهور والعزلة التى نلاحظها . فعندما تتجول فى مكتبات العواصم العربية المختلفة تلحظ غياب الكتاب الصادر عن دور النشر المصرية، وكان هناك ترتيبا خاصا يهدف الى تقطيع اوصال العلاقات الثقافية بين الاقطار العربية، رغم ان معالجة هذه المسائل التى تبدو بسيطة هو المدخل الصحيح لعلاج القضايا الكبيرة فأصل النهر المتدفق قطرات المطر!

فمثلا حل مشكلة توافر الكتاب العربى فى كل الاقطار العربية، ومن بينها الكتاب المغربى فى مصر والكتاب المصرى فى المغرب ، يمكن القيام به، إذا اخذنا بتجارب الآخرين، فالكتاب الذى يصدر باللغة الانجليزية . يطبع فى وقت واحد فى بريطانيا والولايات المتحدة والهند وبعض الدول الاخرى المتحدثة باللغة الانجليزية بعد ان أصبح ميسورا نقل الاعداد الفنى للكتاب من مكان لآخر. فماذا يمنع اتفاق عدد من دور النشر والتوزيع فى عدد من العواصم العربية على النشر المشترك، وبذلك يمكن تجنب ارتفاع اسعار نقل الكتاب وتجاوز القيود

البيروقراطية التى تحول دون انتقال الكتاب الى كل من يقرأ العربية فضلا عن ان هذا الاتفاق مربح اقتصاديا وهو الوسيلة الصحيحة لعلاج السطو على الكتب بدون إذن صاحبها.

● لقاء الإبداع والنقد

أرجو ألا أكون بعدت عن لقاء المغرب ، بعد أن خيمت على اللقاء مشكلة عدم توافر العديد من الروايات المصرية في المغرب ، وعدم توافر الروايات المغربية فى القاهرة ، بعد ما حققته الرواية المغربية من مكانة ، فلابد لهذا البلد الجميل الذى يتمتع بعبق خاص ، بلد الأساطير والسحر والتصوف ، بلد التخوم التى عاشت صراعاً تاريخياً طويلاً ، يخرج الفن من شرارة التصادم والتفاعل بين الشرق والغرب .

وليس غريبا أن يحصل بعض الكتاب المغاربة على الجوائز العالمية ، فقد حصل الطاهر بن جلون على جائزة جونكور عن روايته «ليلة القدر» .

وحان الوقت لكي نقترب من يوميات الندوة ووقائعها ، ونقدم بعض ملامحها .. تحدث د جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة قائلا .. «الرواية هى نبرة العصر ، تتناول المركب والمتناقض فى صياغة اللحظة كطريق للمستقبل ، ومنذ خطواتها الأولى فى رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٤ ، تتابعت الأعمال والمدارس وخاصم نجيب محفوظ الكاتب عباس العقاد عندما استخف بالرواية قائلا «إنها قنطار خشب ودرهم حلاوة ، حتى احتلت مكانتها كديوان للعرب» ، وأكد .. «أن الحوار الذى تشهده الندوة هو حوار الأنداد ، يكتسب خلاله المتحاورون من تجربة بعضهم بعضا ، فمعالجة الواقع هو نقطة البداية التى تفتح دروب المستقبل ، فالرواية هى فن الحدس بما هو آت من الأيام» .

وجاءت كلمة فتحى غانم تعبيراً صادقاً عن أزمة حادة تزداد خلالها الحاجة إلى التسامح مع كل الأفكار ، وتتطلب الشفافية ، فالأزمة السياسية التى نعيشها لها ردود فعل متباينة ، وأخرجت مدارس أدبية متعددة» .. «يعلن كاتب الرواية ، أنا هنا ، وسط الأزمة ، يتصور أنه يخاطب بلده ، ويجد نفسه امام العالم كله ، فإما الإستسلام لنماذج مفروضة كالسلع المعروضة في «السوبر ماركت» ، أو يرتد إلى ذاته ، ووجود الروائي سوف يعرى ويفضح ما يجرى من خلال أزمات كثيرة متلاحقة ، ومع هموم غلابة أثرت على حياتنا وعلى ما نكتبه ، فنحن نواجه فترة مماثلة لتلك المرحلة التى سقطت فيها الأندلس» .

ويضيف د. محمد براده .. «كانت بصمات الرواد الأوائل من الكتاب المصريين واضحة على الكتاب المغاربة ، والتى ظهرت فى كتابات الطاهر بن جلون وعبدالكريم غلاب. ويأتى هذا اللقاء في اطار الصداقة ونقطة البدء قراءة متبادلة ينجزها مبدعون ونقاد من مصر والمغرب ، منطلقنا خلاله طرح الأسئلة والعمل على الإجابة عنها ، وهو لقاء عفوى لايخلو من طموح بين أدب المركز وأدب المحيط، نسعى خلاله إلى إسقاط التمييز لكي لا تكون هناك مفاضلة ،

فمعظم الروايات انعكاس صادق للمجتمع .

وهذا اللقاء بداية النظر فى الرواية العربية ، والغاية منه استنطاق المسكوت عنه ، وكشف المجهول فى التجربة الروائية ، ومعالجة موضوع الصراع بين الرواية واللغة ، وبين الرواية والتحيز العقائدى ، خاصة عندما تعالج العلاقة بين السلطة والشعب ، وعندما تعبر عن حوار المواطنين وأفكارهم ، فالروائيون هم الرواد فى تجديد قيم المجتمع ، وإعادة صياغة العلاقات داخله» .

وبدأ الحوار ، وأخذت أتابع ما يجرى ..

وكان الاحتفاء شديداً بالرواية المصرية ، ولكل روائى قادم من القاهرة قراءه ، ويتمتع بمكانة بأسلوب لايجده فى بلده ، واحتفى بحرارة بكل من «صخب البحيرة» لمحمد البساطى و«عطلة رضوان» لعبده جبير ، و«قط وفأر فى قطار» لفتحى غانم (روايات الهلال) ، و«البلدة الأخرى» لإبراهيم عبدالمجيد .. و«وكالة عطيه» لخيرى شلبى ، و«طعم الحريق» لمحمود الوردانى (روايات الهلال) ، و«الحب فى المنفى» لبهاء طاهر (روايات الهلال) ، و«رسائل المصائر والبصائر» لجمال الغيطانى (روايات الهلال) ، و«وصف البلبل» لسلوى بكر ، و«حريق الأخيله» لأنوار الخراط .

وقام بتقديم هذه الأعمال والتعليق عليها نقاد مغاربة متخصصون .

أما الوفد المصرى ، فقد قدم د. صلاح فضل رواية «زمن الأخطاء» لمحمد شكرى وقدم بهاء طاهر «محاولة عيش» لمحمد زفزاف وقدم إدوار الخراط «طريق السحاب» لاحمد المدينى وقدم أبوالمعاطى أبوالنجا «شروخ فى المرايا» لعبدالكريم غلاب ، وقدمت د. فاطمة موسى «أوراق» لعبد الله العروى و«مجنون الحكم» لسالم حبيش ، وقدمت هالة البدرى «سلستينا» ليوسف فاضل ، وقدم إبراهيم عبدالمجيد «باب تازه» لعبدالقادر الشاوى ، وقدم حسين حمود «زمن الشاوية» لبو شعيب حليفى ، وقدم محمود الوردانى «شجرة الخلاطة» لميلودى شغموم .

وشهدت جلسات الندوة الخمس مناقشات حية ، وتوق إلى بوح كل بتجربته وهمومه ، والمصاعب التى تواجه إبداعه ، ورغبة فى معرفة كل روائى لتجربة مثيله ، ومن المناقشات ذات الدلالة ، ما اشار إليه سالم حبيش «من وجود علاقات غير متوازنة بين مصر والمغرب ، فالرسائل الجامعية مثلا التى قدمت حول أعمال الروائيين المصريين ، سنجد أنها كثيرة ومهمة ولا يقابل ذلك جهد مماثل فى المحافل العلمية فى مصر» وترددت فى أروقة الندوة ، أن الأوراق التى قدمها المغاربة ، كانت دراسات نقدية تخضع لقواعد النقد وأصوله ، أما تلك التى قدمها الكُتّاب المصريون فكانت لاتعدو عن انطباعات قدم معظمها روائيون وليسوا نقاداً مما دفع ميلودى شغموم أن يتساءل .. إلى أى حد يصلح الروائى كناقد ؟

أما الأسئلة التى طرحت ولم تصل إلى اجابة شافية ، فهى خاصة باستخدام اللهجة العامية وما تضعه من عقبات أمام انتشار العمل فى جميع الأقطار العربية ، وضربت أمثلة لمعانى بعض الكلمات .. العامية التى تحمل معنى يختلف بل ويتناقض من قطر عربى أخر ،

وأيضا استلهام الموروث الشعبي في العمل الروائي ، وهو إذا كان مفهوماً دلالته في بيئة إلا أنه لايدرك خارجها ، ويبقى ضرورة أن يحمل النص القدرة على الوصول إلى القارىء ، ولايجوز هنا الكلام عن لغة أو مرجعية خاصة ، إذا كانت ستحول دون وصول العمل للقارىء..

وظهرت من جديد المقارنة بين الرواية والشعر ، وأكد الروائيون أن الرواية هي ديوان العرب ، وأنه بدأ تحول كثير من الشعراء إلى كتابة الرواية باعتبارها إطاراً أشمل لدراما العصر الصاخبة . وعكست مناقشات الندوة توتر العلاقة بين الابداع والنقد .

وأكثر المناقشات إثارة قامت بين صفوف الوفد المصري ، ودارت مناقشات طويلة بين كل من بهاء طاهر وإدوار الخراط حول الحداثة والواقعية ..

ويهاجم بهاء طاهر الحداثة وما تنتجه من شذوذ ، ويستشهد بعنوان رواية الروائي الراحل يحيى الطاهر عبدالله .. «مازالت الأشياء القديمة قادرة على إثارة الدهشة» تأييداً للشخصية الواقعية في مواجهة الشخصية الحداثية ، ولايوجد أمامها سوى معيار مدى إقبال القراء ، ثم قدرة العمل على الاستمرار مع الزمن ، فكل رواية رحلة واستكشاف ، ونموذج التواصل بين الكاتب والقارىء يقدمه نجيب محفوظ ونزار قباني ، وهناك طرف أصيل لايجوز تجاهله عند المساجلة بين الواقعية والحداثة هو القارىء .

أما ادوار الخراط فيقول : عملت الحداثة على خلق نوع روائي جديد ، مرن وشديد الطواعية ، يفلت من حدود الزمان والمكان ، فبعد سنة الكارثة عام ١٩٦٧ ، كانت الرواية في حالة حصار ، وتفاقمت أزمة العلاقة بين الابداع والنقد ، والتي وصلت إلى حد الكارثة عندما حدث التداخل بين ماهو أخلاقي وماهو نقدي ، ومن معالم الحداثة شيوع جو خاص يسيطر عليه القهر والملاحقة والالتباس ، وظهور الكوابيس في الأحلام ثم التفكيك المقصود ، والسعي للتحرر من القيود .

وعند اللحظات الأخيرة من الندوة اختفت القسمات ، وتعامل الجميع في تفاهم وانسجام مؤكدين أن التنوع يساعد على الاكتمال ، فإذا كان يغلب على الرواية المغربية التأثر بالحداثة ، فالواقعية هي الغالبة على الرواية المصرية ، ولعل انتشار الثقافة الفرنسية والاسبانية هو السبب ، أو التفاعل مع الغرب سواء من خلال الصراع أو الوفاق .

شــعر :

سليم الرافعى

عشقت الصحارى

نسيتك يا طفل فى داخلى　　تطل على .. ولا أشعر
لأنى من دهشة لم أفق　　لتلك الخدود التى تزهر
وتلك الشفاه على نهرها　　يشعشع خمرتها الكوثر
لأنى أصارع نهداً .. بدا　　من الروع قنبلة تبهر
وأشرب قداً ولا أرتوى　　من القد فى كأسه يخطر
ومازلت أخشى العيون التى　　تهد المفاصل أو تعمر
ويشعلنى الوعد من نظرة　　فيحترق الوعد أو يمطر
.. فهل أنت يا طفل من غابة　　مجنحة بالرؤى تزخر ؟
من الروعة البكر أشباحها　　تهاويل عاصفة تبحر
وهل يذبل الورد في روضه　　وفى الخد مستقبل أحمر ؟
وهل ينحنى عاشق مارد　　إذا شاب شب .. فلا يكبر ؟
نسيتك ياطفل مستلقيا　　على النهد .. والنهد مستنفر
فكم قبلة عشت .. كم ليلة　　سهرت.. وقد سطع المرمر ؟
.. لأنك تجهل كل الهوى　　وكل الهوى .. كله مسكر
تجوع وتعرى .. سلام على　　جمال يروع أو يأسر
ولو لم تكن قبلة .. لم تكن　　جنان تحيط بها الأنهر
عشقت الصحارى على عريها　　تؤثثها فى الهوى «عبقر»
. لأنك يا طفل من رعشة　　يعانقك الفلك الأكبر

نونة الشعنونة

بين «الفن» و«الفج» !

بقلم : صافى ناز كاظم .



سلوى بكر

● منذ شهور قليلة استطعت أن أجمع معظم أعمال سلوى بكر لأقرأها باهتمام بعد أن أعجبنى مذاق فنها فى قصتها «إيقاعات متعاكسة» حين نشرها فى جريدة الحياة اللندنية . أنجزت فى أيام قليلة قراءة روايتها «وصف البلبل» ومجموعاتها القصصية «أرانب» و«زينات فى جنازة الرئيس» و«إيقاعات متعاكسة» و«مقام عطية» ولا تزال تنقصنى قراءة «العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء» و«عجين الفلاحة» و«عن الأرواح التى سرقت تدريجياً» .

أول سمة فى أدب سلوى بكر أنه يجذبك إلى القراءة ويشدك إلى المواصلة مع الصفحات . وهذه سمة أصبحت نادرة ولذلك يجدر التنويه عنها كلما ابتسمت لنا الأيام وصادفناها فى كتابة من الكتابات.

حين لا يكون بطلها إنسانا محبطا، «بمناسبة الإنكشارية»، أو متوترا، «أرانب» أو وحيدا، «درب التبانة» ، أو حالما لا يسأم التحليق خارج أسوار عجزه، «نونة الشعنونة»، فهو يمكن أن يكون حيوانا أليفا تقتحمه تصورات سلوى بكر لتعطيه هو الآخر حقه فى سرد معاناته من زاوية منطقه المحتمل، «ماجرى لبوسى» .

تتناول أبطالها بحب وبحنو بالغ وركيزتها فى هذا التناول هى : السخرية والفكاهة والمفارقة، واللغة فى يدها طيعة ، عربية ناصعة تترجم كل مصطلح أجنبى إلى مرادفه العربى، وتنساب معها بتدفق سهل ومحكم ، لها طعم طازج وحضور ذكى وزكى .

***

حين أريد أن ألخص وصفى لسلوى بكر أقول عنها : «كاتبة متينة» فى مواجهة موجة عاتية من كتابات الهشاشة والضحالة والكساح و ... لاننسى التشنج والتعصلج حول التافه والمفتعل. «متانة» سلوى بكر كأديبة فنانة تضعها بندية كتفا إلى كتف مع كتاب مثل يوسف إدريس ونجيب محفوظ مع الاحتفاظ بحقها فى أن تتقدمهما بفرص السنوات التى لا تزال أمامها مفتوحة للانطلاق والتطور .

أديبة مصرية مائة فى المائة .

أديبة عربية مائة فى المائة .

أديبة إنسانية مائة فى المائة .

تبلغ سلوى بكر أوج فنها بمواقعها الثلاثة : مصرية، عربية، إنسانية - فى «أرانب» ، «بمناسبة الإنكشارية» ، «ما جرى لبوسى» و«نونة الشعنونة» . هى أعمال لا تبرح الذاكرة بل تظل جزءاً من التجارب الشخصية التى تنتمى إليك وتنتمى إليها . أسترجعها فيرتسم على وجهى الابتسام الذى يكون مصدره تلك القدرة الباهرة فى فن سلوى بكر، قدرة استنبات الضحك من حقول الأوجاع وهى ضحكة تعطى للضحك قيمة فكرية وللألم ظلا خفيفا ، بما يمكن أن نسميها فنية «تحويم الألم» ، وهى فنية تألقت فى رواية الأديب الراحل محمد عفيفى فائقة الجمال «ترانيم فى ظل تمارا»، وهى كذلك فنية تنطلق منها سناء البيسى فى عموم قصصها القصيرة التى تحلق عليها «هو وهى» . وهنا لا أتردد فى الربط بين الشخصية الأدبية لسلوى بكر وسناء البيسى، فهما متشابهتان فى الزوايا واللقطات ولملمة الجزئيات الدقيقة لملمة شاعرية وواقعية ، رقيقة وخشنة وعذبة ومالحة فى توازن لا يسقطك فى جزع

نونة الشعنونة

الوعى. ولا يهدهدك لتفلت من مسئولية الوعى. هذا التشابه بين الكاتبتين لم يلغ تفردهما أو استقلالهما: كل واحدة فى مكانها المرموق على ساحة الكتابة العربية المعاصرة ، وأعنى الساحة برجالها ونسائها - بعيداً عن السعى المقوت الذى يجتهد فيه أصحابه الآن ومنذ فترة لتقسيم أرفف المكتبات إلى كتب «ذكورية» وأخرى «أنثوية» والعياذ بالله من تلك الحملة المشبوهة .

***

إذا كان لنا أن نختار قصة واحدة من أعمال سلوى بكر ، نموذجاً يعكس خصائصها الأدبية ، تكون «نونة الشعنونة» هى ذلك النموذج من مجموعتها «زينات فى جنازة الرئيس» . قصيرة لا تكاد تصل إلى سبع صفحات من القطع الصغير . تبدأ فنعرف أن «نونة» قد هربت من بيت مخدومها الضابط . لا يزيد عمرها على ثلاث عشرة سنة ولا يكاد يتذكر أحد ملامحها حتى أن زوجة الضابط تتسا ل : وهل كانت لها ملامح؟ وإن أكدت أنها كانت شعنونة جدا وغريبة الأطوار ، «حتى نونة نفسها لم تكن تعرف ملامحها جيداً أكثر مما نعرف أن لابن الضابط شعراً أسود جميلاً كشعر أمه وأنفا ضخما يشابه أنف أبيه، ماعدا أن أنف الأخير تتناثر عليه نقاط سوداء صغيرة لحظتها مراراً كلما انفعل فزمه وضمه وهو يهتف ، بصوت ميت ومخنوق من الضحك ، لصاحبه الذى يلاعبه الشطرنج : كش ملك» - ص ٢٩ - ٣٠ .

وإذا كانت البنت «نونة» لم تكن مشغولة بمسألة شكلها فإنه لا يمكن إنكار رغبتها الخفية فى أن تكون حلوة وزينة، ومثلها الأعلى فى الحلاوة لم يكن يتمثل فى بهرجة زوجة مخدومها الضابط بل فيما تتخيله لشكل المعلمة التى تسمعها من شباك المطبخ تطلب من تلميذاتها فى المدرسة المجاورة أن يرددن وراءها : «أبطلا ظبى وساقا نعامة». وكانت «أيطلا» تحير «نونة» جداً فعندما تأخذ فى ترديدها مع البنات وتستمع لوقع صوتها الحاد المنفرد برسم «أيطلا ظبى» تتوقف قليلا عن دعك الصحن الذى تغسله فى الحوض، أو عن تحريك الطبيخ فى وعائه على الموقد، ثم تريح ساقها اليمنى على اليسرى قليلا ، وتأخذ فى مص إبهامها بتلذذ وهى تفكر فى حقيقة أيطلا هذا، سائلة نفسها : هل هو برسيم أو حلاوة حمصية أو حمار حصاوى؟!» ص ٣٠، ٣١.

«أيطلا ظبى» فى بؤرة الاهتمام

«نونة» هى فى الحقيقة «نعيمة نعومة» كما كانت أمها تدللها قبل أن تنتقل لتخدم فى بيت الضابط وهى فى العاشرة . لكن زوجة الضابط التى اختارت لها اسم «نونة» أضافت إليه «الشعنونة» لأنها لم

تكن تفهم الارتباط الوثيق الذى أصبح يربط «نونة» بما تسمعه من كلمات وجمل وأغانٍ تطير إليها من شباك المدرسة المجاور، ويدخل إليها عبر شباك المطبخ ليستولى عليها بقية النهار حتى أحلامها بالليل . فهى تسمع كلمة «إنسان العين» فتحاول أن تشب إلى المرآة ، حتى توجعها قدماها ، تبحث عن هذا الإنسان فى عينيها ومقلتيها متصورة له رأساً وذراعين وقدمين . وهى تحملق فى تقلية البصل تبحث عن «كبريتيت الأيدروچين» الذى سمعتهم يقولون إنه فى البصل . ثم هى تسارع بتصحيح ابن الضابط حين يسأله المدرس الخصوصى عن الجذر التربيعى للخمسة والعشرين فيجيبه أربعة فتصيح هى منفعلة كما تصيح المعلمة : «خمسة يامغفل». وتكاد صينية الشاى تسقط منها والولد يهرول لضربها والمدرس يضحك والأم تصفعها . لكن «أيطلا» تظل هى بؤرة اهتمام «نونة» . «وتتدافع الصور فى مخيلتها بحثا عن الحقيقة وعندما تعييها الأسئلة وتكتشف أن سرسوب الماء قد انساب فى الحوض كثيراً ، أو أن الطبيخ غلى بما يكفى ، تعاود عملها ، بينما يفجر الغيظ والحيرة قوة هائلة فى جسدها فتأخذ فى دعك الصحون وفركها حتى تبدو لامعة براقة ، أو تعيد رص الملاعق والشوكات فى مواضعها على نحو أكثر انتظاما بينما تنغم الكلمات : ساقا .. سا ..قا .. نعاماتن» وهى تنظر من الشباك المسيج أمامها بأسياخ حديدية ، يبدو من خلالها مبنى المدرسة المقابل. والسماء الزرقاء المفتوحة ، تظلله ، تتصاعد إليها أصوات البنات فى صوت متحد قوى ، فتشعر بأنها على وشك الجنون ، وتصيح بأعلى ما تملك حنجرتها من قوة معهن:

– وإرخاء سرحان وتقريب تتفل .

وكانت تتوق لمعرفة أسرار أشياء أخرى كثيرة ، تسمع بها من هذه الدنيا السحرية المخبوءة عنها وراء الشباك ، مثلما تتوق لمعرفة حقيقة «أيطلا» ، تلك الدنيا التى تغزوها من مدرسة البنات بين الحين والحين فتجعلها تحفظ عن ظهر قلب كلاما غريبا لا تفهمه جعلها تتمنى أن تجد من يبرد نار قلبها ويشرح لها معانيه . والحقيقة أنها حاولت معرفة معنى هذا الكلام، فسألت حسنين بائع الخبز عن «أيطلا» فغمز لها بعينه ورفع حاجبه بخبث .. مما جعلها تشتمه وتلعن أباه وسافل سافلين جدوده، لكنها خافت إعادة الكرّة مع فتيح البقال بعد ذلك وقررت سؤال ابن الضابط لولا ماحدث يوم الجذر التربيعى..» ص ٣١.

المدرسة .. الحلم

وتكون المدرسة بمثابة النداهة التى تسرق لب «نونة» فلا ترضى بسببها موقعا لها بديلا عن مطبخ مخدومها الضابط رغم

نونة الشعنونة

شوقها لأمها وأخواتها، لذلك حين يأتى أبوها ويغريها بالحلق الذهب ليأخذها لتتزوج وتحل أختها محلها «باتت الليلة على فراشها، فى المطبخ، دون أن يغفل لها جفن ، تحدق بالسقف المظلم ، وتنظر حينا صوب الشباك ، حيث يقف مبنى المدرسة شامخاً خلفه ، وتبدو فوقه قطعة سماوية صافية ترقص فيها النجمات . كانت روحها تدق الهم وتطحنه لأنها لا تريد العودة للبلد مرة أخرى، ولا ترغب فى العيش وسط الوساخة والبراغيث والناموس، مثلما لا ترغب فى الزواج لتصبح – كأخواتها – مزروعة فى الغلب . وانسابت الدموع لبلتها من عينيها بحوراً وهى ساهرة حتى طلع الفجر ورأت بعينيها لون السماء الأبيض وحديد الشباك الأسود لكنها عندما ناداتها السيدة لتنهض وتذهب إلى السوق لابتياع الخبز كان النعاس قد غلبها وراحت تحلم بالمدرسة والبنات وابن الضابط الذى كانت تصفعه – فى حلمها – صفعات قوية ، لأنه لا يعرف الجذر التربيعى للخمسة والعشرين ، كما رأت أيطلا، وكان شيئا جميلاً جداً ، لم تعرف أكان إنسيا أم جنيا. فقد بدا ذا لون أبيض بياض ندف القطن ، له جناحان بألوان قوس قزح الجميلة ، تعلقت بهما نونة فطار أيطلا بها بعيداً بعيداً ، عن المطبخ والبلد والناس حتى صارت فى السماء ورأت النجمات الذهبيات عن قرب، بل وكادت أن تلامسها...» ص ٢٤.

***

وتنتهى القصة باختفاء «نونة» التى كانت قد أضمرت الهرب من واقعها مأخوذة نحو حلمها ولا ندرى إلى أين وتدور عجلة الحياة الروتينية وتحل أختها الصغرى محلها فى المطبخ .

***

حين نتأمل هذه القصة البديعة قد نرى فيها أبعاداً لمشكلة «الطفل العامل» وحقه فى التعلم ومكانه فى المدرسة ... الخ ، وهى أبعاد مستها سلوى بكر مساً فنياً رقيقاً مرهفا غاية فى الرهافة، تجردت فيه «نونة» من ملامحها الخارجية، التى غابت، لتمثل بذاتها التوق الفطرى للمعرفة الذى يولد النبض والجيشان والهيام ويكاد يختلط بأحوال العشق ، لمست الكلمات أذنها فسحرتها طلاسمها وألغازها وشغلتها لترتفع عن واقعها البليد وتحلق مع ما أثارته من خيالات ورؤى . هذا الاصطياد للحالة الشعرية الكامنة فى الظمأ للعلم والتعلم هو الإنجاز الفنى الهائل الذى أحرزته سلوى بكر وحققته بأسلوب السهل الممتنع . والذى شاهد المعالجة التليفزيونية لهذه القصة – التى بثها التلفزيون فى سهرته يوم ١٥ مارس الماضى – ثم يعود ليقرأ النص الأدبى

للقصة لابد أن تدهشه الهوة بين ما شاهده وما قرأه . إنها الهوة الفاصلة بين «الفج» و«الفن» . بين النزعة الخطابية الدعائية وبين وهج الرؤية الشعرية .

كاتبة السيناريو لميس جابر والمخرجة إنعام محمد على سلكتا في معالجتهما التليفزيونية مع «نونة الشعنونة» مسلكا ضد طبيعتها وخارج نسيجها الحريرى الدقيق فلم تتحمل وطأتهما الثقيلة، فتسطحت وتشرزت واختلت نسبها وانهار إيقاعها وأصبحت نموذجا مثاليا للسهرة المملة حسنة النوايا، بعد أن جفت فيها الفكاهة وغابت عنها لمسات الظرف والطلاقة وهى أشياء يعج بها النص الأدبى لقصة «نونة الشعنونة» والتى أعتبرها من عيون الأعمال القصصية فى أدبنا العربى المعاصر.

ولقد كان التشويه الرئيسى الذى قامت به كاتبة السيناريو هو حذفها لبيت الشعر الشهير للشاعر إمرىء القيس فى وصف الفرس : «أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل» ، وإبداله بآخر سقيم لتأخذ كلمة «زنابق» وظيفة كلمة «أيطلا» التى حيرت «نونة» وألهب إيقاعها ورنينها خيالاتها .

فـ «أيطلا» – ومفردها أيطل وتعنى الخاصرة أى وسط الظبى – غامضة وبعيدة عن التداول العام بشكل مطلوب وكاف ليسوغ تساؤل «نونة» عن معناها ويسوغ جهل من تسألهم عن مدلولها ، فهى كلمة وظيفتها ألا تفهم، بينما لا يكون من المنطقى أبداً أن تجهل فتاة ريفية معنى «زنابق» هى ومن تسألهم فى محيطها فالكلمة شائعة فى البيوت وفى السوق عند محلات الزهور .

وما فعلته كاتبة السيناريو لميس جابر بـ «أيطلا» دلالة كافية لنعرف أنها لم تلتقط أى شعاع منير من كل مصابيح الإضاءة التى تألقت فى النص الأدبى لسلوى بكر ، فخيمت القتامة والرخامة على السهرة التليفزيونية التى تفضلت هى والمخرجة إنعام محمد على بتقديمها للأسف الشديد تحت عنوان «نونة الشعنونة» .

وإذا كان الشىء بنقيضه يذكر فيمكننى هنا الإشارة إلى السهرة التليفزيونية الممتعة التى أذيعت فى ٥ مايو تحت عنوان «جاهز وتفصيل» وأعد معالجتها التليفزيونية سمير الجمل وأخرجها وجيه الشناوى وقام ببطولتها سهير المرشدى وأبو بكر عزت وعائشة الكيلانى واحسان القلعاوى. وهى مأخوذة عن قصة سناء البيسى «فساتين زفاف» .

شاعر

عاف سكون النار

بقلم: د. عبد اللطيف عبد الحليم



الشاعر الحسانى
حسن عبد الله

تعرض الشاعر الحسانى حسن عبد الله محنة عاصفة ، إذ حكم عليه بالسجن لمدة خمس وعشرين سنة ، منذ ثلاث سنوات تقريبا ، بتهمة إحراز المخدرات !

وكانت هذه مفاجأة لمن يعرف الشاعر عن كثب ، وللوسط الأدبى والثقافى فى عمومه ، حيث كان من المتوقع أن يصدر هذا الشاعر إبداعاته الشعرية فى دواوين تتلاحق ،وهو من المكثرين ، أو يصدر مجموعة مقالاته ودراساته ، أو يصدر كتبه المختلفة فى التراث ، فإذا هذا الإبداع كله يحال بينه وبين النور، وبدلا من شمس متوهجة ، تحتبس هذه الشمس وراء غيوم الأسوار وبرودتها للأسف الشديد !

والحساني شاعر من ذوي المطامح البعيدة ، يمارس الحياة بأعصاب عارية ، توخزها صدمات القلق والحيرة ، فتضيق عنها تجاليد اللحم والدم ، ومثل هذه النفوس تعيش خيالا أو وهما ، يفلت أحيانا من ضرورات الواقع المعيش ، فتصرعها عذاباتها ، حين لاتنهض الأجنحة بالجسد الأرضي ، أو تحلق فتذيب أشعة شمس الواقع لُحمة هذه الأجنحة .

جماع هذه الشخصية التمرد على الأسن الراكد وطموح جامح لايثنيه اعتياق ، ونفس تستشعر العظمة برغم عواصف الحياة حولها ، ورقة يغلفها سور حصين من الاعتداد بالنفس والكبرياء الباذخة ، وكأنها الماء يسري في أعراق الأرض تكتنفه الصخور والجبال ، وكأن صاحبها يخشى - إذا بدت - أن يتهم بالضعف ، وماهو بالضعف ، وحزن ممض وأسى ملح يحتجنهما الترفع عن الظهور .

تلك صورة من قريب جدا للشاعر المجدد الحساني حسن عبد الله ، رسمتها له لأول مرة لقيته فيها بدار العقاد في سنة ١٩٦١ ، وتتضح قسمات الصورة مع امتداد الزمن ، ومع اقترابنا الذي زادته الأيام توشجا حميما .

في صاحبنا ملامح من أحزان هاملت الأبدية ، وطموحات المتنبي ، وأوهام دون كيخوتي ، كل ذلك في مسحة واحدة ، وإن كانت إرادته تغلب لواعج الحيرة والتردد عند هاملت ، وتعقله يساور سذاجات فارس لامنشا ، وظل المتنبي يرفده بمدد هائل من تلك الطموحات ، فأسفرت عن نهاية حزينة ، لا أظنه صاحبها ، وستظل هذه الأحزان تغلف القلوب التي عرفت هذا الشاعر وقدرته إنسانا قبل أن يكون شاعرا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد !!

هذا شاعر لم يأخذ حقه في الحياة الأدبية من الشهرة والذيوع ، حين رقي المنابر من ليسوا بأهلها ، وهو رجل مفرد التجربة الشعرية ، شديد الخصوصية ، بعيد عن المجاني والمبذول مماهو شائع بكثرة هذه الأيام .

ولد في الكرنك في ١٩٣٨/٨/١٥ ، وتخرج في دار العلوم من الرعيل الأول الذي التحق بالدار بعد الثانوية العامة ، وتخرج فيها سنة ١٩٥٩ ، وعمل قليلا بالتدريس وتمرد عليه ، ثم التحق بهيئة السينما في لجنة القراءة ، وانتدب طويلا للعمل في وزارة الثقافة وبخاصة مجلة المجلة أيام يحيى حقي وشكري عياد وعبد القادر القط ، وقبل ذلك كله اتصل بالعقاد مواظبا على حضور ندواته ، وقد أخرج ديوانه الأول متأخرا بعض الشيء بعنوان «عفت سكون النار» سنة ١٩٧٢ ، وحصل به على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر ، ثم أحرز درجة الماجستير من معهد الدراسات العربية العالية في ١٩٧٢ عن رسالته «فلسفة الجمال عند العقاد ، وعلاقتها بآرائه في النقد»

وسجل للدكتوراه في دار العلوم ولم يكمل الطريق ، وخلال هذه الرحلة أصدر تحقيقه لكتاب «الكافى فى العروض والقوافى» للتبريزى ١٩٦٩ ، وطبع مرارا ، ثم «العيون الغامزة على خبايا الرامزة» للدمامينى ١٩٧٣ ، و «شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن قيم الجوزية ١٩٧٥ ، وراجع وقدم بعض كتب العقاد الصادرة بعد رحيله ، وله عشرات المقالات المترجمة والمؤلفة المنشورة فى الدوريات المصرية والعربية ، لو جمعت لأتمت عشرة كتب ضخمة على الأقل ، كما أن له كما ضخما من القصائد لم تجمع بعد فى ديوان ، وهو حتى هذه اللحظة لايزال ينظم القصائد ، التى تنشر أحيانا ، ويطوى بعضها ، مما يؤلف أكثر من ثلاثة دواوين .

● من غلاة الدعاة للشعر الحر !

ديوانه «عفت سكون النار» صدره صاحبه بهذه العبارة المتحدية «من الكلام الموزون المقفى» ، ويدهش مؤرخ الأدب وناقده حين يعلم أن الحسانى كان من غلاة الدعاة إلى الشعر الحر ، وقد صحب فورته الأولى ووهجه الساطع ، لكنه ماعتم أن فاء إلى الشعر الموزون المقفى ، بعد دراسة وبحث أسلماه إلى فساد حيثياته الأولى فى الإيمان بالشعر الحر ، ولم تكن هذه العودة المخلصة إلى الشعر الموزون المقفى من صدمات القلق والحيرة ، أو لمجرد التغيير ، بل جاءت هذه العودة بعد دراسة متأنية، ومقدمات دقيقة أفضت إلى تلك الحقيقة التى ضمنها مقدمته المطولة لديوانه، وخلاصتها : أن للشكل فعلا فى المضمون ، وأن هذا الفعل جدير بالدرس بالنسبة للإطار القديم المحافظ على الوزن والقافية ، والإطار الجديد الذى تحرر من التزام النسق السابق فى الوزن والقافية ، وقد انتهى صاحبنا إلى أن الشكل الحر يؤدى بالناظم إلى أن يصير عبداً للمصادفات التى يصنعها التداعى ، الذى يجر إلى كثير من الغموض والركاكة والتقليد ، وأن العكس هو الصحيح بالنسبة للشكل القديم ، إذ أن الناظم هنا يقدم على القول عالما بالشوط الذى سيقطعه ، ومن ثم تكون مجاهداته فى أن يبلغ الغاية غير ما لاهث ولا مكدود .

وقد التزم الحسانى بهذه الفكرة فيما نظمه ، إذ أطرح الشكل الحر ، واختار الشكل القديم بمجاهداته ، بل إنه ركب من البحور عصيها ومن القوافى حزونها ، واستطاع بطاقاته الفنية الفارهة ، وأدواته المكتملة أن يقيم بناء تميز بالفخامة والسلامة ، لكنك فى النهاية لاتملك إلا الإعجاب بتلك القدرة التى تتحرك رهن الضرورات ، بل إنها تحيل هذه الضرورات نفسها إلى لعب جميل حر ، يخفى تلك المجاهدات التى يبذلها الشاعر ، يكسر ألفة البحور الشائعة ، ويركب البحور الأليفة ، فيصب فيها كلاما تشعر أنه جديد فى هذا البحر المألوف ، لأنه يستقطر الكلام

استقطارا يحيله إلى مواده الأولى ، لأن صاحبنا دخل عالم الشعر مزوداً بكل ما التهمه من ذخائر التراث العربى فى نماذجه العليا ، ثم بما استوعبه من التراث الأوربى من خلال معرفته الوثيقة باللغة الإنجليزية .

● شعر فخم الإحساس

شعر الحسانى عبد الله يشعرك أنك أمام حصن منيع أو معبد من المعابد القديمة التى تأخذ رائيها بالمهابة والجلال ، ولسنا منه أمام روضة أريضة تعجب رائيها برشاقتها وأناقتها ، نحن من الحصن أمام جمال الفطرة ، وجمال السلامة والصحة والمهابة الجليلة ، والروعة الفخيمة ، كما يشعر رائى المحيطات المتوثبة ، ومن الثانية أمام جمال التنسيق ورشاقة المناظر ، وقد انعكس ذلك فى شعره ، إذ هو فخم الإحساس والتصور قصى عن التنسيق والزخارف ، ولذلك يرى ، شعره ، وهو يسيطر على إحساسه وأدواته من ذلك الكلام الذى يقوم على الوهم فى تراسل الحواس أو تضاربها ، ولايقوم على خيال صحيح يطير بجناحين من الحقيقة .

شاعرنا متعدد التجارب فى هذا الديوان ، وإن كان يجمع هذا التعدد وحدة واحدة تنحصر فى التعبير الجميل عن شعوره الصادق ، وما ينعكس فى صقال نفسه المرهفة من تجارب الحياة ، وتبرز قضية الحب بروزا معجبا ، لاتشعر معه بأن الكلام قيل من قبل ، بل تشعر أن التجربة تجربة رجل يعتز بفنه وشخصه ، ولايذل ولايتطرى كما هو الشأن فى كثير من العشاق :

تريديننى دمعا تحدر مرغما
أمامك من وجد وفرط تدلل
إذن فاهنئى بالدامعين صبابة
سواى ، فإنى قلت للعين أجمل
وياجبل الأحزان سوف تريحنى
من الحزن صحراء بلا عذب منهل

وينشد الصدق لا المجاملة المبذولة ممن يحب :

أريد من العشق روحا
تسلم إن أحد مد منا يده
وأنت تريدينه ياطموحا
تولى وياهمة قاعده
تحيات عرف عراها البلى
مراسم خاوية جامده
فإن تبذلى فابذلى غاليا
ففى أضلعى مضغة ناقده

غير أن لدى الشاعر تجربة غريبة ، لعلها مفردة فى الشعر العربى كله ، وهى تجربة رثائه لأبيه ، إنه خرج على المألوف الحزين فى رثاء الآباء ، حتى بالنسبة

لشاعر كأبي العلاء الذى اجتوى الدنيا ، وقال «هذا جناه أبى علىّ» فقد رثى أباه رثاء اللوعة واللهفة ، لكن صاحبنا الحسانى كان له موقف مخالف مع أبيه الذى كان صارما شديد الصرامة ، جبارا عتيا ، لم يلتفت إلى ولده، وربما كان فى هذا الموقف مايفسر كثيرا من لواعج الحسانى وحزنه فى حياته ، وإن لم يصل إلى درجة الكنود والنكران ، ففى الشاعر رقة شديدة وإن كانت وراء سور منيع ، يخاطب أباه آسيا :

أبى عفــوا ، أنـا لم أبك عــفوا
لأنك كـــنت جبـــارا عتيـــا
ســـــهوت سها جبينك فى أساه
فما انتبهـــت ســنوه إلى سنيا
مضيت ولم تطــــف يوما بسمعى
على طـــــول احتيـاجى : يابنيا
زمــان سل مـــن عينيك عطـــفا
ومـــن شفتيك كــنت به حــريا
زمـــان نال منـــك ونـــال منى
فــلم تكــن الودود ولا الحــفيا

إلى أن يقول فى ألم رفيع :

أبى جــهم الوجــود ، فإن تمادت
جــهامته ، فــلن أحيـــا شــقيا
ولســت بقـــائل إن قـلت يـوما
وداعـــا يازمان : جـــنى عـــليا
كــلانا ســيد جبنا ، وجــبينا
يســـاق لفعـله عبـــدا عـــميا
فإن يــك فى طوايا الغيب لقيــا
فكن غــير الذى قــد كــنت حيا

كلام رغم قسوته ومرارته شعر صادق لاذع ، يتسلل إلى النفس تسلل الكلام الجميل ناسين هذه المرارة وتلك القسوة ، ونعتقد أن الشاعر لو وجد فى حياته مثل هذا العطف الذى افتقده لهدهد كثيرا من لواعجه ، وأسلست له وسيلة يهادن بها الدنيا، ولكن ربما كان هذا الإسلاس لو تم يحرمنا من مثل التجربة أو التجارب المفردة ، إذ نحن نعتقد أن كل شاعر أصيل هو عالم وحده ، وإن تشابهت عنوانات التجارب ، والتأملات نسيج واضح فى هذا الديوان ، وفى شعر كل شاعر ذى نسب

بالشعر الصحيح في كل التراث الإنساني ، وصاحبنا ينتسب إلى مدرسة الديوان نسبا صحيحا ، غير مزغول ، إذ هو يفصح عن هذا النسب في تجاربه وأدائه ، وإن تشابه مع أبناء هذه المدرسة ، إلا أنه النسب الذى يكون بين أبناء الأسرة الواحدة ولايلغى الملامح والشيات الخاصة ، وإذا كان ورثة هذه المدرسة لكل واحد منهم كفل به فإن الحسانى أقرب إلى تجارب العقاد في دقة النظر ، ودقة الأداء أيضا ، وإن لم تكن له رحابة رؤية العقاد الشعرية وضخامتها ، وربما تمكن الحسانى أن يريق على تأملاته شيئا من الرونق الذى يقصيه عن جفاف الذهن وبرودته في كثير من الأحيان، وتأملاته ليس من الضرورى أن يفرد لها قصيدة أو قصائد تحمل عنوان التأملات ، بل إننا نراها واضحة حتى في تجاربه الغزلية ، لأن الشاعر كثير المراقبة لمشاعره ، شديد المراجعة ، ولذا يخرج كلامه متشحا بهذه المراجعات الساخنة البعيدة عن جليد الذهن.

كما أن له مشاركات في قضايا الوطن والساعة ، ولكنها الإسهامات الشعرية البعيدة عن تناول المقالة والصحافة لأنه يريق عليها من وهج نفسه مايجعلها تجربة خاصة به ، أو من خلال رؤيته الذاتية ، وبذا يخت هذه التجارب عنده من وحى الساعة، لتظل شعرا يقرأ بعد فوات المناسبة المباشرة ، ومثال ذلك قصائده عن القدس ، والعروبة والنكسة وغير ذلك من التجارب التى يظن أنها بعيدة عن ذاته لكنه يخلع عليها من وهج نفسه ما يجعلها أشبه بالتجارب الذاتية وهذا هو المأمول من شاعر يشعر ويُشعر ، يقول من وحي الوافر :

وكـم قـــالوا تحررنا فردت
جبــالهـم تشكى والسهول
فيــا حـرية كسلى تـوارى
أذانا لــن يطيـح بـه كسـول
تبـرأت الرجـــولة من رجال
قصــــارى دفعهم قال وقيل
إلام تجـــور الأبـــواق مـالم
يجـــز إلا غـبى أو عـــميل
لئـــن لـــم ينف طبلهم نفاة
لنافيـة مكــارمنا الطـــبول

وشعر الحسانى تدرك أن وراءه قدرة باذخة ، مقتدرة على صب خواطره ومشاعره في نسق دقيق ، أعانه عليه حرصه الفائق على التزود بزاد وفير من المحصول اللغوى ، وقدرة فذة على ركوب البحور الخليلية حتى ولو كانت عصية ،

فإذا هي طوع يمينه ، وإذا هي تفكر مع الشاعر حيث ينتفي الفضول أو الحشو المرذول، ومع هذه الأوزان فإن الشاعر يستخدم كل وسائل الإثارة والإيحاء الشعري وبخاصة الصورة المكتملة الدقيقة القائمة على رؤية العلاقات الصحيحة لا المضطربة والتي تشيع لدى جمهرة كبيرة من شعراء الشعر الحر ، كما بريء من وصمة الغموض ، حيث إن الذهن المالك تجربته يستطيع التعبير عنها بأيسر سبيل .

ونعتقد أن الحساني لو أتيح له من الظروف المواتية أن ينظم وينقد ، وهو ناقد خطير مع الثلة القليلة الباقية من شعراء الشكل الموزون المقفى والصابرة كذلك والمحتسبة ، والبعيدة عن الأضواء ، لو أتيح كل هذا لتغيرت خريطة تاريخ الأدب تغيرا ضخما ، ولاستمع الناس إلى أصوات متعددة وأصيلة تؤكد صدارة الشعر الموزون المقفى ، وحرصها على القواعد مع نفحات التجديد المبنى على نظام ، بدلا من هذا الاستخذاء الضارب أطنابه الآن ، والذى جر إلى كثير من التزييف والغموض والتقليد والركاكة والتسيب ، وكلها بعيدة عن الفن الصحيح فن العربية الأول (الشعر) .

● ناقد مبدع

وكان الحساني – ومآأقسى هذا الفعل الماضى على النفس – ناقدا مسموع الصوت ، شاكى السلاح دائما ، لايرهب أن يقول للمخطيء أخطأت ، وللمصيب أصبت ، وكان له من ثقافته المتراحبة مايؤهله لمكان الصدارة ناقدا وشاعرا ، بيد أن الظروف القاسية حجبت عنا هذا الصوت الهادر فاحتجنته فخسر الأدب والنقد الصحيح رجلا يمكن أن يقوم بما تقوم به قافلة ، وكنا معا نحاول ما استطعنا أن نؤكد للناس أن الشعر الموزون المقفى هو الشعر الذى ينتسب إلى هذه الأمة ، ونجاهد ما أمكن بالإبداع الشعرى والنقدى أن نرسخ هذا الذوق لدى هذا الجيل المنكوب بضياع فنه ، وكنت أنا وهو مع رفاقنا مع تلاميذ مدرسة الديوان وغيرهم نقف فى وجه الريح الظالمة ، ويبدو أنه قدرى أنا أن أظل مع استعلاء السن الآن أقوم بهذا الدور مع ثقله وفداحته :

إذا ثقل الشباب ولى زميل
فيا بؤس المشيب المستبد

لكن يبدو أن بصيصا يتسرب فى الحوالك ، بعد شيوع قصيدة النثر ، والتسيب المرذول ، والأحكام العجلى التى لا لجام لها والتى ترى جاهلية الشعراء الأحرار ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها ، مثل هذا كفيل أن يعيد الناس إلى فنهم الأصيل ، وأن يبحثوا عن النظام والقاعدة وسط هذه الفوضى ، ويومئذ يستعيد الشعر الموزون المقفى وجهه ، ويستعيد شاعرنا الحسانى حسن عبد الله – رد الله غربته – وجهه الأصيل ، وليس ذلك ببعيد .

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



ص ١٦٨



ص ١٦٢

المؤتمر الاول للمتاحف والترميم
أبحاث هامة وإعداد ضعيف

□ على هامش اجتماعات منظمة «الايكوم» - المنظمة العربية للآثار - أقيم بالقاهرة الشهر الماضى المؤتمر الاول للمتاحف والترميم، حضر هذا المؤتمر ممثلون لـ ١٧ دولة.

بدأت فكرة هذا المؤتمر فى اجتماع مماثل لممثلى البلدان العربية في مجال الآثار والترميم اوائل يوليو ١٩٩٥ بالنرويج وتم اختيار القاهرة مركزا لهذا المؤتمر الذى سيعقد سنويا برئاسة د. عبدالحليم نور الدين أمين المجلس الأعلى للآثار.

اكد نور الدين فى الافتتاح ان منظمة الايكوم تهدف الى وضع سياسة عربية موحدة فى مختلف المجالات بالتنسيق الكامل مع المجلس الدولى لاعمال المتاحف والترميم ، وقال ان هذا المؤتمر هو الاول - دون شك - نحو صيانة موحدة للآثار، ودعا كل المختصين بأمر المتاحف والترميم بطرح تجاربهم وافكارهم على مائدة المناقشات.

كان «سارج جوش» رئيس المجلس الدولى للمتاحف هو ابرز المشاركين وكذلك اليزابيث دى بورت امين المجلس



د. عبدالحليم
نور الدين

الدولى لأعمال الترميم.

أجاب د. نور الدين عن سبب تقدم الدول الأوربية فى مجال الترميم رغم ندرة كم الآثار لديهم، وقال إن وضع الأثر فى الخارج مختلف، فهناك الاتجار فى الآثار مسموح بعكس المنطقة العربية، ومع تداول الأثر بين أيدى الخبراء والمشترين هناك. فإنه يتعرض لبعض التلف مما يدفع المختصين بعملية الترميم الى الحرص على صيانة هذه الآثار بشكل دورى.

ولكن من الواضح فى المؤتمر هو نقص المهتمين والمسئولين وربما يرجع ذلك الى عدم الاعداد المناسب للمؤتمر.. وعلى هامش اعماله نوقشت الدراسات والمشروعات المختلفة الجنسية حول اعمال الترميم فى مصر.

اهم هذه الدراسات قدمها المجلس الثقافى الايطالى وكانت خاصة بتطوير وتحسين منطقة «الأمراء» الأثرية بالبر الغربى للنيل فى مواجهة مدينة أسوان.

وسيبدا العمل فى هذا المشروع - على حد تصريح الأثرى عابدين صيام، خلال هذا العام.

ونوقشت أيضا دراسة حول ترميم وتحديث ٢٧٦ متحفا على مستوى الجمهورية، سيتم الانتهاء منها عام ٢٠٠١ وتتكلف ٢٣٦ مليون جنيه.

أيضا الدراسة التى قدمها د. أيريكو دريكو - خبير اليونسكو البريطانى والمشرف على ترميم بعض الآثار وهى خاصة بترميم منزل عبدالرحمن كتخدا وثلاثة ابراج بالقلعة ومنزل زينب خاتون.

هذا بالاضافة الى الدراسة التى قدمت من قبل صندوق التراث العالمى بالولايات المتحدة الامريكية والمصحوبه بتقديم منحة قدرها ٤٠ ألف دولار لترميم حوض قايتباى بالأزهر. بعد اختياره ضمن اهم مائة اثر مهددة فى العالم.

اما الجديد فى التصريحات التى انتهت اليها الندوة هو تصريح د. عبدالحليم نور الدين بانه سيتم توقيع برتوكول تعاون بين مصر وتركيا فى مجال ترميم الآثار، بالاضافة الى اتفاق مع اليابان فى المجال نفسه.

● **عمر طاهر**

مجلات



زكى طليمات
أشرف على تحرير
مجلة (الميدان)
سنة ١٩٤٨



خمس مجلات أخرى

أود أن أضيف إلى مجموعة «المجلات الصغيرة» التى أوردها ادوار الخراط ، فى مقال سابق «من الهلال إلى الهلال» خمس مجلات أخرى صدرت فى نفس التاريخ الذى حدده من أواخر الأربعينات ، ويبدو أنه تجاهلها عن عمد ، لأن منها ما كان ذائع الصيت ، تأكيدا لمفهومه الخاص للكتابة الطليعية ، وتكريساً للرؤى الجديدة للأساليب الأدبية والفكرية ، التى يعمل ادوار الخراط بأدبه ونقده ، على تحقيقها وانتشارها ، ويجد جذورها أو تخلقاتها الأولى فى المجلات التى ذكرها فقط .

وليس هكذا يكتب تاريخ الثقافة المصرية ، ولا هكذا تكون شهادة الشهود ، خاصة أن الاتجاهات الأخرى التى عبرت عنها هذه المجلات ، وقام ادوار الخراط بنفيها - سواء بقصد أو بدون قصد - هى الاتجاهات الواقعية التى ربطت الأدب بالمجتمع والعصر ، ورفعت شعار الأدب فى سبيل الحياة، وكانت بمثابة نقلة كبيرة فى مجال الإبداع العربى فى مصر ، بالقياس إلى الاتجاهات الرومانسية السابقة التى ثارت عليها .

أما حصر التجارب الطليعية فى مصدر واحد ، وتجريدها من المؤثرات الأخرى المحيطة ، فلا يعدو أن يكون تضييقا

لظاهرة رحبة بالضرورة ، متعددة البدايات والاختلاجات ، انساق وتداخل فى تشكيلها مصادر شتى ، تتجاوز هذه النظرة الأحادية التى تتعامل مع الإبداع بعيداً عن سياقه التاريخى وعن إطاره وتربته الصحيحة .

ومع هذا فليست هذه المجلات الخمس بالاضافة إلى ما ذكره الخراط ، كل ما صدر فى هذا التاريخ ، لأنى لم أعتمد فيها إلا على مكتبتى الخاصة ، وهى مكتبة محدودة وغير مرتبة، وكان ينبغى الاعتماد على دار الكتب القومية ، بغرض تكامل دورياتها وعدم ضياع شىء منها !.

لهذا فلا حل لمعرفة هذه المجلات معرفة دقيقة شاملة إلا بالجهود العلمية المتخصصة ، وأعنى بالعلمية هنا الموضوعية التى لا تخضع للهوى ، إنقاذا لتاريخنا الثقافى المتقطع ، الملىء بالغلط وتأصيلا لعطائه المضطرد ، الذى لم يتوقف قط فى تجاربه المتنوعة ، وارتياداته المتصلة .

وفيما يلى عناوين المجلات وفق الترتيب التاريخى مع تعليق قصير يعرف بها وبأسماء بعض كتابها :

١ - «الميزان» مجلة شهرية صدرت فى القاهرة سنة ١٩٤٨ وتحولت بعد ذلك إلى اسبوعية ، واستمرت حتى ١٩٥٢ ، صاحبها جلال الدين سليمان وأشرف على تحريرها زكى طليمات حين كان يشغل عمادة المعهد العالى لفن التمثيل ، وشارك فى تحريرها من خريجى قسم النقد والبحوث فى هذا المعهد : أنور فتح الله وعبدالمنعم إبراهيم ومحمد حسن الكاشف ويوسف ممتاز وكانت رسالة المجلة الفن والأدب الرفيع.

أما كتاب العدد فمنهم : زكريا الحجاوى ، محمد فهمى عبداللطيف ، يوسف الحطاب ، صالح جودت ، أحمد رامى ،



عبدالرحمن الشرقاوى كان مديراً لتحرير مجلة (الغد) مايو ١٩٥٣



نعمان عاشور أحد كتاب مجلة (الأديب المصرى) عام ١٩٤٨



عبدالمنعم صادق.

- «الأديب المصري» ، صدرت في يناير ١٩٥٠ ، وتوقفت في يونيه من السنة نفسها قدمت خلالها ستة أعداد ، رأس تحريرها الناقد محمد مفيد الشوباشي ، معبرة عن الأدب الواقعي الملتزم ، وكان من كتابها لويس عوض ونعمان عاشور .

- «الغد» ، مجلة شهرية للأدب والفن والثقافة ، صدر عددها الأول في مايو ١٩٥٢ و، عددها الأخير (الرابع والخامس) في أغسطس - سبتمبر ١٩٥٣ ، رأس تحريرها حسن فؤاد ومديرها عبدالرحمن الشرقاوي ، وهي في تقديري - من ناحية القيمة والتأثير - أهم المجلات في عقد الخمسينات ، وأكثرها وعيا برسالتها الوطنية ، وهي تستحق أن تفرد لها دراسة نقدية مستقلة ، وقد شارك في الكتابة فيها لطفي الخولي ، صلاح حافظ ، فتحي غانم ، أحمد بهاء الدين ، يوسف ادريس ، عبدالعظيم أنيس ، محمد أنيس ، شكري عياد ، بدر الديب .

وقد بذلت محاولات لإعادة إصدارها أكثر من مرة ، ولكنها لم تكن في مستوى الإصدار الأول .

- «الأدب» لجماعة الأمناء ، صدرت في ابريل ١٩٥٦ ، واستمرت حتى مارس ١٩٦٦ برئاسة تحرير صاحبها أمين الخولي . وبعد وفاته حاول تلاميذه استئناف مسيرتها وأصدروا في ابريل - مايو ١٩٦٦ عددا مزدوجا تذكاريا .

ويمكن تلخيص رسالتها في الأخذ بالمناهج العلمية والارتباط بالحياة ، والتجديد ، والتقدم الحضاري .

- «الشهر» ، صدرت في ١٩٥٨ وتوقفت في ١٩٦١ ورأس تحريرها سعد الدين وهبه ، وشارك في الكتابة فيها عدد كبير من الكتاب والنقاد والشعراء اللامعين في مصر والوطن العربي.

● **نبيل فرج**



أمين الخولي صاحب مجلة (الأدب) عام ١٩٥٦



سعد الدين وهبه رأس تحرير مجلة (الشهر) عام ١٩٥٨

مســرح

السـت هدى
تأليف :
أحمد شوقى
إخراج :
سمير العصفورى

الست هدى بين الأمس واليوم

يثير أمير الشعراء أحمد شوقى الكثير من التساؤلات اليوم عند من يقرأ مسرحيتيه الأخيرتين «الست هدى .. البخيلة» فهو قد طرق فيهما مجالاً جديداً عما سبق له من مسرحيات كانت مادتها الأولى تاريخية تتناول فترات صاخبة من التاريخ المصرى والعربى مثل (قمبيز - مصرع كيلوباترا - أميرة الأندلس - مجنون ليلى) .

لكنه فى هاتين المسرحيتين يختار مادة من الواقع الاجتماعى فى حى مصرى صميم (حى السيدة زينب) فيقدم نقداً اجتماعياً لاذعاً لمظاهر سلبية فى لغة شعرية رقيقة بسيطة وفى ظنى أنه لولا خوفه على إمارة الشعر وعرشها لقدم هاتين المسرحيتين بلغة نثرية تقترب اكثر من واقع الحدث الدرامى .

وقد جاء اختيار المخرج الكبير سمير العصفورى لمسرحية (الست هدى) لتقدم فى المسرح القومى فى مناسبة إحياء (كرمة ابن هانىء) ، اختياراً ذكيا ذلك أن المسرحية تحمل نقداً اجتماعيا لأحد أهم مشكلات المجتمع المصرى قديماً وحديثا وهى وضع المرأة وعلاقتها بالرجل ودور الأعراف الاجتماعية فى تحديد صورة وماهية هذا الوضع .

فيختار شوقى أهم هذه الأوضاع وهى زواج المرأة ، ذلك الأمر الذى تتدخل فيه الأسرة ممثلة فى سلطة الأب ثم التقاليد وغيرها بينما المرأة مهما بلغ بها الأمر من استقلال مادى أو سن أو مركز اجتماعى أو غيرها لا تستطيع المعارضة وإبداء حقها فى الرفض . فى الجانب الآخر تقدم المسرحية نقداً أشد وأقسى للرجال المتنطعين المتكالبين على الزواج من سيدة عجوز لا لشىء إلا طمعا فى الراحة والرفاهية فى ظل ثروتها الوافرة.

فتقدم المسرحية نماذج لرجال اجتمعوا على اللامبالاة

والكسل والطمع منهم الضابط ، الموظف ، الأديب ، المقاول ، الشيخ الفقيه ، لكن الست هدى تكيل لهم وتبعدهم عن استغلال ثروتها ، وتكيل للأخير منهم مفاجاة لم تكن فى حسابه وهى وقف أملاكها لآل البيت وأعمال البر والتقوى بعد وفاتها .

وقد اتخذ العصفورى فى إخراجه للمسرحية اسلوب «الجروتسك» الذى يعتمد على المبالغة فى التشويه والمسخ من أجل الفضح والتعرية ، فى تعامله مع كل الشخصيات ، حتى الملائكة فى عالم الموتى لم تسلم من السخرية .

كما لجأ المخرج فى رؤيته المعاصرة إلى تقديم وتأخير فى الفصول ليحقق رؤيته الساخرة فى أوج صورها . فجاء بالنصف الأول من الفصل الأخير ليكون المشهد الافتتاحى فبدأ بأهل الحى المنافقين للست هدى فى حياتها ثم لزوجها العاشر الوارث لها بعد وفاتها ، فهم تارة باكون مولولون ، وتارة أخرى ضاحكون مهنئون . ثم امتدت السخرية من الأزواج من خلال تقديمهم بصورة هزلية ساخرة فى خلفية المسرح أثناء حديث الست هدى لصديقتها زينب عنهم ، فمنهم الموظف المتسلق على حبال الرؤساء والكبراء والضابط المقامر والأديب العريان المتفاخر عن فراغ ، الشيخ المتمسك بمظاهر الدين من حبس المرأة فى المنزل ومنعها حتى النظر عبر النافذة فى حين هو يعيش عالة على مالها وبيتها ، وحتى آخرهم المحامى السكير الذى يهمل عمله حتى يفلس تماماً ويغلق مكتبه .

وقد أضفت هذه الرؤية الساخرة حيوية على العرض المسرحى شاركت فيها الموسيقى التى وضعها الفنان على سعد واستعراضات حسن عفيفى ، كما قامت الأغنيات على المعارضة الشعرية كما فى أغنية عبد الوهاب الشهيرة (فى الليل لما خلى) شعر شوقى ، فقدم مدحت صالح أغنية (عمرى ما شفت الليل خلى) للشاعر جمال بخيت ، كصورة من صور إعادة النظر فى الكثير من الثوابت الفنية والقوالب التى تعودنا



سمير العصفورى



منى قطان

عليها وقد سناها ، دون التقليل من قيمة هذه الثوابت فى حدود عصرها

وقد أكملت مجموعة التمثيل هذه الرؤية الجريئة فقدمت عايدة عبد العزيز أحلى أدوارها فى السنوات الماضية ، وعادت منى قطان إلى المسرح ، وكان الممثلون أحمد حلاوة وأحمد عقل وعادل خلف وسمير عامر ورضا الجمال فى أجمل حالاتهم الفنية التى لا يحسن تفصيلها سوى العصفورى ، فى حين احتدمت المنافسة بين الشباب إيهاب صبحى ورضا إدريس ورشدى الشامى وسوزان عبد الستار .

● سامية حبيب

فن تشكيلى

أفكار وملاحظات حول معرض (المنمنمات)

□ استلهام المسمى الفنى التاريخى لايعنى بالضرورة عادة بعث روح الفنون السابقة لجسد العمل الفنى المعاصر جاور لوحة الفنان الذى اجتمعت على إنتاجه الفنى الآراء بأن ذا إبداع ، مع فنان يبدأ الطريق حديثاً أن هناك شيئا ما جمع بينهما ، ولا يسأل فيها الفنان عمن يجاوره ، ولا يزيد ن قدره أو ينقص منه وخاصة إذا لم تكن تجمع بينهم فكرة سابقة على المعرض أو جماعة ذات اتجاه فنى . الحجم فى العمل التشكيلى ليس هو المساحة المتاحة ، بل الحجم دائما حمل غرضا وهو مقصود به تقديم حالة ، تتحد عضويا مع موضوع الإبداع . هذه مجرد أفكار عامة تنطبق على الكثير من المعارض الجماعية والتى يرجع مستوى العرض فيها إلى الاختيارات الفنية لصاحب فكرة المعرض وتقديره لأسماء بعينها فى تحقيقها لفكرته وتحقيق رغبات رواد معارضه .



معرض منمنمات فى قاعة كريم فرنسيس تتلخص فكرته فى تجميع أعمال تصغيرية أو صغيرة لمجموعة من الفنانين يجمع بينهم الحجم الصغير ، وسأقوم بعرض بعض الملاحظات عن الأعمال التى تحمل أهمية خاصة فى هذا المعرض ، وتجنب الحديث عن أعمال أخرى لا يعنى تجاهلها ، أو التقليل من شأن مبدعيها ، بل هى أعمال عرف بها فنانوها وتم رؤية ما يماثلها فى أحجام أكبر لهم من قبل . أول ما يلفت الانتباه عند الدخول لصالة العرض بورتريه (لعبد الهادى الجزار) قد لا ينتمى هذا البورتريه لفن المنمنمات من حيث التصنيف والحجم ، لكن طريقة بناء الزخارف (تكوين الخلفية) هى حل تشكيلى مستلهم من الأسلوب التسطيحى للمخطوطات الشرقية القديمة ، أما الحل التشكيلى الذى قدمه الجزار فهو يتطابق تماما مع نفس الأسلوب الذى اتبعه الفنان المعاصر (فرناندو بوتيرا) رغم التأكيد على أن بوتيرا لم ير هذا البورتريه للجزار لكنه مجرد تطابق فى طريقة الحل التشكيلى عند الفنانين ، رغم الفاصل الزمنى والبعد المكانى (لصالح الجزار) يحتوى المعرض على مجموعة من الأعمال تؤكد على فكرة الرسم التصغيرى ، نبدأها باستعراض لوحتى نبيل تاج المرسومة فى ١٩٩٠ على حجم ٤×٤ سم . واللتان تمثلان نموذجا لرسم المنمنمات حيث قام الفنان بتنفيذها بكل دقة التصغير ، بالأسلوب الأكاديمى مستخدما الألوان المائية، والتى لو نفذت على مساحة أكبر ربما فقدت طابعها الحميم . ثم نأتى لأعمال الفنان شريف عبد البديع الذى غاب عن معارض القاهرة منذ فترة والتى عرف فيها سابقا كنحات طليعى متميز ، مازال تأثير إبداعاته واضحا على بعض أقرانه من نحاتى جيله ، وهو يقدم فى هذا المعرض تصويرا تحت مسمى (عرس) حالات من الحنين الشرقى ، مقدمة ببهجة نفتقدها الآن ، سواء على مستوى التكوين أو الموضوع أو اللون ، مرسومة على قطع من الخشب غير المشذبة الاضلاع ، فأعطت المتمنمة حالة من العفوية والجمال فى تقديمها . ثم أعمال عاصم شرف التى أتت هى

الأخرى علامة مميزة فى المعرض ، رغم أنها مقاطع مرسومة بنفس أسلوبه المعروف ، لكن الحجم جاء متسقا بشكل قوى مع روح الرسم ، كملتها حالة الإطارات القديمة وأضفت عليها روح زمنية ، ربما تعود إلى زمن ازدهار المنمنمات . ثم احتوى المعرض على بعض الأعمال التجريدية ، التى تشابهت فيما بينها ، كان كل ما يفرق بينها أسماء رساميها وقد تمايز الفنان إبراهيم الحداد فى وسط هذه الأعمال التجريدية . ومن الهام ذكر أعمال الفنانة غادة عامر ، التي يتم عرضها للمرة الأولى فى القاهرة ، تقدم تطريزا على القماش ، لكن حالة التطريز لم يتم تقديمها كمنتج استعمالى ، بل كمنتج فني يختلف فى تشكيله وتقديمه عن منتجات التطريز المتعارف عليها سابقا ، وننتظر رؤية معرض لها فى القاهرة حتى نستطيع استبيان هذه الفكرة المرتبطة بقضايا الإبداع الحديث . المعرض فى مجمله انعكاس تصغيرى لحركة التشكيل المعاصر فى مصر.



● مصطفى خليل

كريم فرنسيس .. مؤسسة فنية

☐ النجم الحقيقى فى معرض المنمنمات الذى أقيم فى قاعة كريم فرنسيس فى بداية شهر يونيو هو كريم فرنسيس نفسه . لقد صار مؤسسة ، قادرة من ناحية على اجتذاب واقتناء أعمال فنانين كبار ، ومن ناحية أخرى ، قادرة على تجميع وتقديم عدد من الفنانين الشبان المجددين ، تجمع بينهم حساسية فنية جديدة نسبيا ، متأثرة بتقنيات وأجواء غربية . قد نتفق أو نختلف على هذا الذوق ، لكن لا خلاف على أن كريم فرنسيس بات يلعب دورا مهما فى حياتنا الفنية ، ليس فقط كمسوق للأعمال ولكن كمدافع عن ذوق فنى معين وكمشجع لمواهب



الشباب . فى تقديرى أن كريم فرنسيس فى الفن التشكيلى يوازى الناشر حسنى سليمان ودار شرقيات فى ميدان الأدب . كلاهما مهم لأنه يقدم جديدا وبالتالى لايحظى كلاهما بالتأييد والتكريس الكامل من جانب القراء والمشاهدين أو النقاد .

الجميل فى معرض المنمنمات بقاعة كريم فرنسيس هو أنه قدم بانوراما حديثة لهذا الفن منذ ثلاثينات وأربعينات القرن وحتى الآن . كما أنه يسمح باستعادة جوانب من روح فنانين نعرفهم حتى من منمنماتهم وبمقارنة انجاز الأقدمين بتجارب المحدثين . كما أنه يفاجئنا بجوانب أو بفنانين نتساءل للأسف ، ما أجملها من لفتة أن تصافحك أعمال «نحميا سعد» أول ما تدخل القاعة وأن تكتشف أن نحميا كان قادرا على انتاج أعمال هندسية شديدة الدقة تعتمد على اتحاد الخطوط المستقيمة والأقواس وبعضها أعمال حفر تقدم فتيات نوبيات فرعونيات هندسيات منمنمات معا .

كذلك «صبحى جرجس» ، حتى فى تماثيله المنمنمة يقدم بشرا «مفروكين» كإنسان العصر الحديث ، ذا أعضاء مشوشة النسب ، كوعينا الممزق بوجودنا وأجسادنا . أما «محمد ناجى» فى البورتريه الذى يقدمه لسيدة مجتمع ، لم يزل كما كان : فنان صالونات «شيك» بالأساس ، بينما يفاجئك عبد الهادى الجزار برسم بالقلم لملك ورماتى ، مع موتيفتين صغيرتين فى الخلفية تذكرنا بحيوانات بيكاسو المركبة . العجيب أنك لاتتعرف هنا على الجزار السوريالى الشعبى أو الدعائى الناصرى ، بل ترى فنانا يتسلى .

بين الشباب ، تفاجأ بأن «إبراهيم الحداد» قد تخلى عن رسومه الأليجورية التشخيصية على الخشب والقماش ورسم على الورق وصنع كولاج بالخيش فى تشكيلات تجريدية مبنية على توازن شرائط ألوان مائلة كأنها قوس قزح تبزغ منه شمس ، وتفاجأ بتماثيل «حازم المستكاوى» المنمنمة وهى تواصل تقاليد رودان ثم بيكاسو النحتية ، فتجد حيوانات حجرية بدائية مطموسة الملامح وجذع امرأة بلا رأس ولا

أطراف ، عظيمة الأرداف ، رائعة الجمال ، روعة يبرزها اختيار المثال لجزء من الجسد ، ويدهشك أنه يقدم منمنما ما قدمه السابقون في أوروبا بأحجام صرحية .

أما «عمر الفيومى» فيواصل تقديم لوحات سياحية لمقاهى القاهرة القديمة بألوان فسفورية ، على الموضة ، لكن الجديد فيها أن الشخصيات كثيرا ما تكون مطموسة الملامح، وهذا الطمس عنصر مشترك بين كثير من فنانى المعرض ، يذكرنا باغتراب الإنسان منذ الثورة الصناعية ، إلى سقوط الإيديولوجيات ، مرورا بالثورة التكنولوجية .

معرض المنمنمات عند كريم فرنسيس ثرى وممتع وغريب كلما دق العمل ، كلما استحبت الإفاضة فى الحديث عنه .

● وليد الخشاب

سينما

يا دنيا يا غرامى وكل هموم الواقع



ليس غريباً أن يحصد فيلم «يادنيا يا غرامي» ثماني جوائز في المهرجان القومي للسينما الروائية في الشهر الماضي .. لأنه جاء ليعبر عن حساسية جديدة في السينما المصرية التى تعانى منذ سنوات من أزمة تهدد مستقبلها «يا دنيا يا غرامي» ، مخرج (مجدى أحمد على) وسيناريست جديد (محمد حلمى هلال) ومونتير جديد (أحمد دواد) وسينما جديدة .. لاتجيب على أسئلة ولا تستجدى المتفرج وأنما تشير إلي مناطق الشجن والبهجة في الشخصية المصرية .

اختار مجدى أحمد لفيلمه الأول «يا دنيا يا غرامي» «الطابع العاطفى» وأصر عليه في معالجته السينمائية ، من ناحية بناء المشهد السينمائي أو تتابعه إلي مشهد آخر دون الوقع في ميلودرامية فجة أو تسطيح ممجوج ثم تكوين المشاهد بحيث يعكس مضمونها جميعا أحوال شخصيات الفيلم

وعلاقاتها وحرص السيناريست محمد حلمى هلال علي إنهاء المشهد بسخرية أو نكتة أو طرفة تنهي هذا الحزن الذى يخلفه فلا يتحول إلى حس مأسوي ضد منطق الفيلم بأكمله وحدة المشهد لا اللقطة أولا ثم تضافر مجموعة عناصره السينمائية كي تؤكد هذا الطابع العاطفى في عمق الحياة اليومية لشخصياته ، الأداء : طبيعة المشاعر وعفوية الأحاسيس مع التنوع والتقارب بين الممثلات بشكل خاص وذلك في اتساق تام مع الشخصية الدرامية خاصة إذا كان الفيلم يعالج العلاقة الحميمة لشخصيات ثلاث يسكن نفس المنزل . «الديكور» للفنان التشكيلى عادل السيوى في تجربته الأولى للسينما .

وحضوره دون تعمد الظهور بل اشارات مفصحة فقط . حركة الكاميرا «التصوير للمجيد محسن نصر» المقتصدة والتى تقترب أو تبتعد عن الموضوع «الدقيق غالبا» والموسيقى اعتمد ياسر عبدالرحمن على تيمة واحدة مع تنوعاتها ، كما كان للموسيقى دور مهم فى الربط بين كثير من التفاصيل الدرامية واستخراج دلالة المشاهد ، وإن عملت الموسيقى أحيانا على مكونات الصورة الأخرى .

هل امتلأت الشاشة بلوحة جدارية عن كل هموم الواقع ، ففاضت وانسكب الزائد دراميا عن المجال «السينمائى» ؟! بطة وصديقاتها والارتباط ، المثقف الذى يفقد طريقه إلى أين يذهب فيفر إلى المطلق أو المجرد أو - حتى - إلى المتاهة ، والآخر المرتبط بجماعات الامية يحسب أنه يملك الاجابة وهو مخطىء فيطرح السؤال . إصرار الدراما على استكمال اطراف وتفاصيل الشخصيات الاساسية «بطة - ليلى علوى - لها أم وأب قعيد وصديقتيها - الهام شاهين وهالة صدقى - كل منهن تتحرك فى دوائر متكاملة ، العمل ، المنزل ، العلاقة بالجيران والشارع ، وحكاية ماجدة الخطيب والاصرار على استكمالها حتى النهاية .. الخ» .


مجدى أحمد على


محمد حلمى هلال

فيض من اللحظات التى تحتاج إلى تكثيف أكثر وتركيز يخلصها من الزائد والتليفزيونى المكرر المطول .

غير أن تلك القوة التى تنبع من لحظات القهر والفقر وتشابك الوعى الزائف معه فى قراءة خاطئة تميل نحو استخدام القوة فى مواجهة الأصدقاء والأخوة التى تعيشها كل الشخصيات على تفاوت حظها وتنوع أشكال القهر الواقع عليها لابد أن تصيبنا جميعا بحالة من الدهشة الشديدة إذ كيف تنبع لحظات التشبث بالحياة ، والاصرار عليها من ذلك الانبهار الذى يحاول أن يلتف حول كل الشخصيات ، إن معرفة الكاتب والمخرج العميقة لشخصياتهما الفقيرة وعدم الوقوف عند سطحها والتأنى عند العمق منها كى يزيلا العارض المؤقت حتى وهى تتعامل «دراما الفيلم» مع اليومى والزائل والمحدد ، وهى معرفة أصيلة لازمة لهذا النوع من السينما التى تعزف لحن الحياة الأسر الشجى . إن تيمة الفيلم الأساسية التى تتوزع بين المقابلة «الشخصيات النسائية الأربع» أو الساقط مع «الشخصيات الرجالية وتتفاوت حظها من التحقيق» إنما تستحثنا - كمشاهدين - للاقتراب من فهم تلك القوة التى تكمن بداخل هؤلاء النساء فى مواجهة القهر اليومى الواقع على الجميع دون تهويل وانتقائية الرؤية التى تتهم الرجال - عموما - فى تجلياتها السطحية بأصل الداء وذلك لأن الفيلم يقترب حميميا من تلك الشخصيات التى لا يتعاطف معها «شقيق بطة ، وحس المثقف مثلا» فالكل واقع تحت ترس الواقع وتناقضاته القاهرة .

هناك مفارقة أخيرة لابد من الاشارة إليها فى هذا الفيلم وهى خاصة بالإيقاع العام الذى أراد له المخرج مع المونتير أحمد داود «فى أول تجربة روائية طويلة» أن يكون متسارعا يمسك بتلابيب الشظايا المتناثرة لجزئيات السيناريو الذى لا يعتمد كما أشرنا ع . ـوضوع يبنى بطريقة متصاعدة وينفك


ليلى علوى

بل يحاول أن ينثر دراميـة بتفـاصـيل وتنويعات ومـقـابلات وتناقضات تتسع أفقيا وتتصاعد حلزونيا فى النهاية مفصحة عن المغزى والمرام لكنها فى الختام تعكس حياة يومية وتتحد معها، وبقدر نجاح الإيقاع السريع فى ذلك - بشكل عام - بقدر ما أخل هذا الإيقاع - أحيانا - فى فهم قانون الحياة اليومية ولحظات التمهل التى لابد منها للتأمل خاصة أن هذا الإيقاع قد تناقض أحيانا مع حركة الصورة « مكوناتها وحركة الشخصيات داخلها ومضمونها » .

بقى الإشادة بذلك الميلاد الجديد للممثلة الكبيرة «ماجدة الخطيب» فهى فى تقديرى كشخصية درامية مكتوبة بخيال وطاقة شعرية تفوق كل الشخصيات الأخرى وهى كممثلة استطاعت بأدائها الواعى أن توزع بطريقة دقيقة مشاعرها الخاصة ما بين خلجات وجهها وحركتها بل بالتفاتة وجهها وطريقة نطقها للحوار ومشاعر فياضة بالحب والتردد والتوجس، وربما نضيف هنا أن توزيع المخرج للقطاتها ما بين اللقطات العامة والقطع على اللقطات القريبة - والقريبة جدا - قد أتاح لها مسافة تعبيرية كبيرة لابد من الإشادة بها .

«مجدى محمد على» مخرج موهوب تمرس فى العملية السينمائية كمساعد مخرج لمدة تزيد على عشر سنوات ولا نكاد نحس - على مستوى الحرفة السينمائية وفهم أبجديات السينما - مع يا دنيا يا غرامى إنه أول تجاربه فى الإخراج السينمائى ولولا ضيق المجال لأشرنا تفصيلا إلى ذلك الحس العفوى - الذى يلف كثيرا من المشاهد السينمائية داخل فيلمه.

ذلك الحس العفوى الذى ساعد على إبراز الطابع العاطفى للفيلم بأكمله .. هذا مخرج يمكننا أن ننتظر منه الكثير فى أفلامه القادمة .

● محسن ويفى ●

هالة صدقى





حصاد المهرجان القومى الثانى للسينما

عد أفلامك يا جحا !

محمود قاسم

قال لى عبد الرحمن بعفوية شديدة :

– ياريت يعملوا مهرجان السنة الجاية فى سينما «وهبى» ..

وعبد الرحمن هذا ، الذى يعمل ساعيا فى دار الهلال، يقترب من الأربعين ويحب الكرة وأسرته والحياة. وقد كان فيما قبل يعشق السينما التى يشاهد أفلامها فى دارى عرض الحلمية أو وهبى بالقلعة. وهو مثل ملايين المواطنين البسطاء لم يقترب من دار الأوبرا الفخمة، التى تم فيها افتتاح وختام مهرجان الأفلام الروائية والتسجيلية، كما لم يتحمس كثيراً للاقتراب من دور العرض المخصصة لأفلام المهرجان، وذلك لعدة أسباب.

أولها بالطبع أنه لايحمل بطاقة دخول دائمة للمهرجان . وثانيها أن أغلب الأفلام المعروضة موجودة من حوله فى دور العرض الأخرى ، وبعضها انتهى عرضه والبعض الثالث لايستحق بالمرة أن يوضع ضمن قائمة أفلام مهرجان ، ثم هناك سبب قد يكون ثانويا ، أنه قد يحس بالاغتراب، اذا انحشر وسط هؤلاء الأفندية أصحاب الأفلام الذين يتوافدون على حفلات المهرجان .

عبد الرحمن أحد الذين لايستطيعون دفع خمسة عشر جنيها ثمنا لتذكرة فيلم فى أى دار عرض من التى قامت المؤسسات الاستثمارية ، أو حتى وزارة الثقافة ، بتجديدها ، أو إنشائها فى السنوات الأخيرة ، وذلك باعتبار أن الفرجة على فيلم واحد لشخص واحد تتكلف بالمواصلات ، وساندوتش سريع مبلغا لايقدر عليه ضمن أساليبه فى البحث عن الترفيه والبهجة . ومن هنا جاءت رغبته الشديدة فى أن يفكر المسئولون عن المهرجان، اذا كانت السينما من ضمن مسئولياتهم، أن يقوموا بإصلاح وترميم دور العرض فى حيه، وما أكثر مثل هذه الدور التى تنتظر الاصلاح ، بدلا من ، أو بالاضافة إلى ذلك الحفل ، الذى شاهده أبناء الحى على الشاشات باسم السينما الذى بدا لهم أنه قد تكلف الكثير .. قياسا إلى ماهم محرومون منه .

لم أشأ أن أقول لزميلى هذا أن يبدو أنه لا أحد من أصحاب المهرجان الآن يقرأ ماكتب عن دوراته السابقة، واذا قرأه تصور أن كاتب المقال موتور ، وحاقد ، ولعله مأجور ، والدليل على هذا أن الهلال فتحت هذه الصفحات من قبل ومجلات أخرى كثيرة ، والمهرجان مقام قدما ، ويتطور فى وقائع حفلات الافتتاح والختام، ومستويات أفلامه تنحدر عاما وراء آخر، وميزانياته تعلو ، ومكافآته تزداد . ويزداد الانتقاد من حوله ، حتى من قبل أعضاء ورئاسة لجنتى التحكيم . ولكن من الواضح أن التصفيق المصطنع فى الصالة ، وتلك الاضواء المبهرة ، تجعل البعض يتصورونها طواحين دون كيشوت.

بداية جديدة .. بعد ثلاث دورات

المهرجان لماذا .. ؟ بل لماذا يقام أى مهرجان ..؟

هو فى البداية انتقاء لفن جميل ، أغلبه جديد ، وتقديمه الى الناس للاستمتاع ، وتكريم هذا الفن الجميل بمنحه جوائز الغرض منها إعلامى ، لكن الهدف الاساسى هو المشاهدة . وفى مصر هناك مهرجانات لتكريم السينما المصرية ، قديمة ، وراسخة ، وتقوم بهذا

الدور سنويا منذ أكثر من ربع قرن ، مثل مهرجان جمعية الفيلم ، والمركز الكاثوليكي. وذلك بالنسبة للأفلام المصرية التي تم عرضها خلال عام منصرم ناهيك عن المهرجانات الدولية في القاهرة والاسكندرية . ولكننا نقصد مهرجان تكريم وتحية السينما المصرية وعلى سبيل المثال ، فان الاحتفال الذي يقام في شهر مارس كل عام بجمعية الفيلم يقوم على أساس توزيع استمارة اختيار على الاعضاء ، وعلى نقاد متخصصين ، وتتم تصفيته مرتين على التوالي لانتقاء سبعة أفلام، تعرض على اعضاء الجمعية (قرابة ستمائة شخص) ، وتقوم لجنة تحكيم من السينمائيين بانتقاء الفائزين في كل الفروع . وتوزع في حفل يحضره أبناء المهنة والجمهور في صالة بسيطة تحتاج بدورها في الفترة الأخيرة الى تجديد .

إذن، فمهرجان الأفلام الروائية والتسجيلية له بديل قائم فعلا ، منذ سنوات ، وهو لم يأت بجديد ، ولن نقول أنه يسحب البساط من مهرجان جمعية الفيلم ، لأن هذا الأخير يقام بشكل منتظم ، وناجح ، وله مراسيمه التي لم يحرج عنها ، بعكس مهرجان وزارة الثقافة الذي اقيم لثلاث سنوات للافلام

عد افلامك يا جحا

الروائية ، ثم أعلن في العام الماضي انه المهرجان القومي الأول للسينما المصرية ، يقام من أجل الأفلام الروائية والتسجيلية، وهذه الأخيرة تمر بأسوأ حالاتها ، كما بدا في كلمة نبيهه لطفي رئيس لجنة تحكيم الأفلام التسجيلية أمام الحاضرين في حفل توزيع الجوائز .

أي أن المهرجان لايزال يبحث عن هوية اسم ، وهوية نشاط ، فبعد ثلاث سنوات من اقامته توقف ليغير ويضيف السينما التسجيلية ضمن أنشطته . وهو شيء محمود أن يتم الاهتمام بالأفلام القصيرة على المستوى القومي . لكننا نعتقد أن جمهور الأفلام الروائية في مصر يختلف تماما عن جمهور المهتمين بالأفلام التسجيلية ، وقد عرفنا أن مجموع الزمن الذي عرضت فيه أفلام هذا العام قصير للغاية .

وزارة الثقافة عندما تقرر اقامة مهرجان للأفلام حتى وان كان له بديل، فلابد أن يكون ذا شكل مغاير، وكلمة شكل هنا في مكانها تماما . فكل ما رأيناه من ابهار بعكس مصاريف عالية تنم على سرف فن اعتراف الجميع أنه في أسوأ حالاته، وأن كل هذا التكريم

المتكرر طوال خمسة أعوام لم يمنعه من الانهيـــار الســـريع . وكل هذه الاستعراضات الاحتفالية لم تمسح دمعة الحزن من فوق وجه السينما . كما لم تنجح في نزع لباس الحداد الذي تكاد تلبسه . والكل يحتفل بها . بل إن السؤال الذي نبع من الباطن . ورددده البعض علنا دون مواربة .

– هل من المعـــقـــول أن تتم هذه الاحتفاليات لكائن يحتضر . دون أن تمتد يد المساعدة الحقيقية لمساعدته في النهوض ..؟"

مهرجان .. نهاية الميزانية

حسب قوانين الدولة . فان لكل وزارة ميزانية تتجدد مع بداية شهر يوليو من كل عام . وعلى كل المؤسسات أن تصرف ميزانيتها حتى آخر يونيه حسبما تقضي لوائح الانشطة . ولذا تحـــرص كل المؤســسات على الانتهاء من صرف الميزانية . وعدم توريد مليم واحد للسنة المالية الجديدة حتى لايتم تقليل الاعتماد . وباعـتـبـار وزارة الثقافة واحدة من الوزارات الكبرى . فانه يجب أن تسير على نفس المنوال . ومن الواضح أن هناك مخزونا كبيرا من الميزانية يجب رصده لنهاية هذه السنة المالية من أجل هذا المهرجان . بالطبع ليس أمامنا الرقم الحقيقي لمصروفات المهرجانات . لكن كل هذه الجوائز الانتاجية التي وصلت الى ٢٢٥ ألف جنيه لثلاثة منتجين . بالاضافة الى ٨٢ ألف جنيه للجوائز الاخرى . ومبالغ أخرى خصصت للافلام التسجيلية . ومع ذلك يبقى هذا المهرجان هو الوحيد في العالم كله من المهرجانات المحلية التي يقوم بتوزيع جوائز مالية على أهل السينما .

وأمام شكل المطبوعات الفخم . وضخامة العروض في حفلتي الافتتاح والختام . لابد أن يتراءى للمرء مدى ضخامة ميزانية المهرجان . وقد يحاول المرء أن يبحث عن شيء جديد يتميز به . فاذا بنا أمام نفس الشكل التقليدي لكل المهرجانات المحلية . يأتي السينمائيون . وأصحاب الفيلم للمناقشة حول الفيلم ويكررون ماسبق ترديده في مهرجانات أخرى . باعتبار أن هناك خمسة أفلام منها عرضت في مهرجان القاهرة السينمائي الأخير وعقدت حولها ندوات ضخمة . ثم هناك بقية الافلام التي نوقشت في مهرجان جمعية الفيلم .

وكانت الطامة الكبرى أن النظام الذي عُمل به هذا العام قد أعطى لافلام تافهة بلا قيمة تذكر مكانة واهمية . وجاء أصحابها للمناقشة . بل دفع الأمر أحد

الممثلين الى اعتبار أن الفيلم الذى اشترك فيه قد قارب أعمال مخرجين كبار فى السينما العالمية . طبعا من حقه . ألم يجد من يعطى فيلمه التافه فرصة العرض فى مهرجان قومى .

الشيء الوحيد الجديد الذى اتبعه المهرجان ، هو اعتبار أن سنة الانتاج ، وخروج الفيلم من المعمل بمثابة جواز سفر الاشتراك فى المسابقة ، والتصفية ، اذا كانت هناك تصفية ، وذلك عكس ماهو متبع ، فالمؤرخون للسينما المصرية يتعاملون مع الفيلم باعتبار أن مولده هو تاريخ عرضه الجماهيرى . وبالتالى فإن المهرجان يضع سنة جديدة ستجعل تاريخ السينما يتغير تماما ، وسيقوم تاريخ جديد هلامى يرتبط بوجود الفيلم فى المعامل ، والمخازن ، وليس أمام الناس الذين تصنع لهم الأفلام .

تناقض النتائج

كشفت نتائج المهرجانات التى أعلنها رئيسى لجنة التحكيم أن صناع السينما فى واد ، وأن المسؤلين عن مهرجانات السينما فى واد آخر . فحصول فيلمين فقط على كل هذه الجوائز يؤكد مدى افتقار السينما للتميز فى كافة عناصرها ،

عد افلامك يا حجا

صحيح أن فوز الأعمال الأولى لاثنين من المخرجين الجدد بهذه الجوائز ، يعكس موهبة هذا الجيل الجديد لكنه يعكس أيضا أى مستقبل ينتظرهم .

فعلى طريقة « عد غنمك ياجحا » فإن التميز هنا كان قليلا جدا . ووسط سبعة عشر فيلما دخلت المسابقة لم يكن هناك فى كل العناصر السينمائية سوى فيلمين فقط ، ولعل فى هذا اشارة خطر لا ينتبه إليها صناع المهرجانات ، لاتغنيهم أبدا تلك الأمور بدليل أنه طالما تم ترديدها دون أى مبادرة للوقوف أمام هذا الخطر ، والمشاركة فى ايقافه .

ولقد كان رئيسا لجنتى التحكيم من الشجاعة ، ما أحرج المسئولين عن المهرجان والسينما وعلى طريقة « الجنازة حارة » فإن كل هذا الاحتفال المهيب ، والميزانيات الضخمة بدت أشبه بعروس عجوز ترتدى فى ليلة فرحها ثوبا بالغ الفخامة ، فتثير السخرية ، أو الرثاء والتساؤل ، أكثر مما تثير الاعجاب ، بينما هى تتمايل وتتبختر، لعله نوع من الاحتضار الأخير .

كما كشفت هذه النتائج أيضا عن



يا دنيا يا غرامى فاز بجوائز ثمانية

تضارب لجان التحكيم المحلية عن اللجان العالمية لنفس الأفلام ففى العام الماضى تم منح جائزة الانتاج كأحسن فيلم « قليل من الحب كثير من العنف » وهو الذى لم يحظ بأى تقدير من لجنة تحكيم مهرجان القاهرة عام ١٩٩٤ ، واليوم تم تجاهل فيلم « اشارة مرور » تماما ، إلا من الجائزة الثالثة للانتاج ، وهو الفائز بجائزة كبرى فى مهرجان القاهرة عام ١٩٩٥ ، بينما تم منح « يادنيا يا غرامى » ثمان جوائز فى مهرجان وزارة الثقافة ، وهو الذى تم استبعاده تماما فى مهرجان القاهرة الأخير ..

ولاشك أن هذا يجعل المرء يتساءل عن المعايير الحقيقية لمنح وحجب جوائز، المفروض إننا أمام فيلمين تنافسا معا فى مسابقتين ، ولم تحدث أى اضافات أو حذف لأى منهما ، والغريب أنه فى احد المهرجانين تم منح أحدهما جوائز كبرى، وتم تجاهل نفس الفيلم تماما فى المهرجان الآخر . وهنا يبقى السؤال : ما المعيار ، حتى وأن كان كل أعضاء لجنتى التحكيم من الموثوق فى نزاهتهم ؟!

التكوين



نشرف الآن على نهاية هذه الصفحات والمحطات من رحلة أو سفر «التكوين» كما سماه رئيس التحرير، ولابد لهذا أن تكون مزدحمة ومقتضبة!!

وقد حاولت جاهدا أن أكتشف الاسباب والدوافع والملابسات التى حملتنى ذات يوم على أن أقطع الاقامة والعمل فى الريف وأن أعود «فاشلا» إلى القاهرة.

ولم استطع أن استخرج الاسباب من المغارة الداخلية .. ويبدو أنها تاهت وسط كثرة ما تراكم.

★ ★ ★

انتشر وباء الملاريا مرة أخرى ولم يكن قد انتهى على هجمته الأولى وقت طويل.

وتغير موقفي هذه المرة وأصبح كل همي أن اتحصن حتى لا تنفذ إلى العدوى وكنت أقيس الحرارة كل يوم وإذا شعرت بصداع انتابني الفزع .

وتذرعت بأن لا معنى لأن أضيف واحدا إلى عدد المصابين وبأنني لابد أن أعيش حتى اشهد الثورة القادمة ، بل وأن اشارك فيها وأنها سوف تقضي على كل الأوبئة، وهكذا لم أقم بزيارة أحد أو مواساة أحد أو حمل الدواء إلى أحد ، ولم أذهب لتفتيش الصحة في المديرية أشكو قلة الاطباء والدواء ، ولم أرسل برقية حادة إلى وزير الصحة في القاهرة أندد فيها بالاهمال والتعثر في المقاومة .

وحينما زادت وطأة الوباء انتقلت الى قرية بعيدة أمنة لدى بعض الاقارب ولم يخالجني شك بل تأكد لدى هذه المرة أن الاحتلال وراء كل شئ ، كان حاكم البنغال الذي قتل ثلاثة ملايين جوعا في الهند قد أصبح وزير الدولة المقيم في الشرق الأوسط ، أي الرجل الأول في المنطقة ، وقرأت أن الوباء انتشر في العراق واقترن ذلك بانهيار المعاهدة البريطانية العراقية بعد انتفاضة عارمة وأدركت أنه يمارس حرب الأوبئة ، لأبعد مدى .

وحينما ناقشت طبيبا في المقاومة حول نظريتي ، قال أنه لا يستطيع ان يقطع ولكن لن يكون جناب الوزير البريطاني في حاجة إلى جهد خاص ، وطالما نزرع هذه المساحة من الأرز وبهذه الطرق الفطرية فلابد وأن يكون هناك بعوض ، وطالما كان موجودا فلا مناص من الملاريا ، وطالما توالت حكومة النقراشي أو صدقي فلا علاج هناك !

واهتزت علاقات الثقة والاحترام المتبادل بيني وبين نفسي ولم تلبث أن ساءت كثيرا ولم أحفل في معظم الأيام بحلاقة ذقني لأني لم أرد أن أواجه نفسي في المرآة وربما كان ذلك وراء التفكير في الهرب الكبير الى القاهرة .

وعززه ودعمه بلا شك سبب آخر .

تلقيت خطابا داكنا من «الاستاذ» وكنت انتظر خطاباته بلهفة واعتمد عليها كثيرا في الصمود ، ولكن بدا لي أنه لا يشع هذه المرة الثقة أو التفاؤل الذي تعودته وأن الشعلة بدأت تخبو .

قال أن زوجته تلح عليه في السفر في أجازة إلى بريطانيا ، وأن الحنين يستبد بها إلى أمها المريضة والتي تخشى أن لا تراها وأنها تريد أن تسرح وتمرح في حقول خضراء زاهية في مقاطعة «سسكس» بلدها والتي خاب أملها في أن تعوضها في مصر ..

وقال أنه لا يود السفر ، ويبحث عن ممرضة تحل محلها خلال الشهرين اللذين

سوف تتغيب فيهما .. وكنت أدرك أن ذلك مستحيل ، وأن لا أحد سواها يستطيع أن يقوم على خدمته وبدا لى أن ثمة شيئاً آخر فى الأمر .. ولكن لم أشا أن أصدق الظنون وأن علاقتهما تتعثر لأن ذلك أسوأ ما يمكن أن يحدث !!

وكان تفاؤله قد بلغ الذروة بعد مؤتمر «يالتا» بين ستالين وروزفلت وتشرشل ، لرسم خريطة العالم بعد الحرب ، وكان يقول إن التاريخ صراع طبقات بالطبع ، ولكن يحسمه الأشخاص أحيانا وأن أفضل مؤشرات الأمل هو الانسجام بين روزفلت وستالين ، والنفور التام بينه وبين تشرشل ، وأن ذلك سوف يعنى تطعيم النظام فى روسيا بجرعة كبيرة من الديمقراطية ، وتطعيمه فى أمريكا بجرعة مماثلة من التحولات الاجتماعية وسوف يتمخض التفاعل عن متغيرات وتطبيقات إيجابية عالمية .

سوف يخلصان العالم من «الديناصورات» الباقية مثل تشرشل وديجول وفرانكو سالازار وغيرهم وسوف ينظفان العالم من القمامة الباقية من الفاشية والنازية والعسكرية اليابانية ولحسن الحظ ان روزفلت يمقت تشيانج كاي شيك ، ويتعاطف مع «ماو» واذا ما قامت الصين الاشتراكية القومية واذا ما تحررت الهند بقيادة غاندى ونهرو وقامت الديمقراطية الاجتماعية العلمانية ، ثم اذا ما استكملت دورة التاريخ بالثورة فى مصر ، فسوف تسترد الشعوب العريقة ذاتها وتتفتح مئات الأزهار فى القارات المستعبدة !

وحينما توقف روزفلت فى الاسماعيلية والتقى بالملك فاروق ، ثم فى جدة والتقى بالملك عبد العزيز ، تفاءل وقال أن روزفلت يدرك لابد أن العرب طرف رئيسى فى بناء صرح العالم الجديد ولم يحجب اليهود عنه الرؤية وسوف يقوم عالم جديد مجيد ، وسوف ينزاح الكابوس الذى جثم على الانسانية خمسة قرون وأجهض تطورها باسم الحضارة الأوروبية .

أشرس رأسمالية

وحينما مات روزفلت فجأة حزن حزنا عميقا وظل صامتا يومين كاملين ، وقال هذا هو أول أمريكى كبح جماح الرأسمالية الأمريكية واستأنسها .. وهذه أشرس رأسمالية فى التاريخ أسوأ بكثير من البريطانيين ، وأنها تتربص بالعالم منذ نهاية القرن الماضى حين أعلنت ان القرن القادم لابد وأن يكون امريكيا وكذلك كل القرون التالية .

وقد استرد الثقة والتفاؤل حينما وقع ما لم يكن متوقعا واكتسح العمال البريطانيون الانتخابات واسقطوا «تشرشل» بطل النصر وفى أوج مجده وتهلل طرباً وبشرا وقال هذه ثورة سوف تكفرُ عن كل ذنوب وآثام الامبراطورية أخيرا اكتشفت الطبقة الوسطى خديعة الامبراطورية وانضمت الي العمال وسوف تقوم أوروبا «اشتراكية» وسوف يمتد

آثارها إلى كل أطراف الأرض .

وبدأت ثقته تهتز بشدة حينما ألقت الولايات المتحدة القنبلة الذرية على اليابان، وقال هذا ليس حسما للحرب لأن الحرب انتهت فعلا ولكنه استعراض قوة، واعلان وانذار لشعوب العالم بمقدم السيد الجديد وأنه يملك القدرة على البقاء والفناء للجميع!

ونوى الأمل والتفاؤل حينما بدأت الحرب الباردة مبكرة ، ثم حينما تأخرت وتعثرت الثورة فى مصر .

ولم يكن يغفر لحكومة العمال أنها اعتمدت الملك فاروق طرفا فى تسوية القضية المصرية واسقطت الوفد واليسار .. ويقول منفعلا ، لقد خانوا العالم مرتين بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد هذه الحرب

وكان يثقل عليه ويفيض مرارة أن أحمد ماهر قد سقط برصاصة شاب وطنى وان النقراشى فتح الكوبرى ليتساقط الطلبة فى الماء ، وكانوا قادته فى ثورة ١٩١٩ وأنهما مهدا الطريق لحكومة الفاشستى السفاح صدقى باشا !!

انتكس العالم وانتكست مصر وزوجته تريد السفر وربما .. ان تتركه

لابد أن اكون بجانبه وأن أقف معه !!

ربما كان ذلك هو السبب ولكن عثرت مع التنقيب عن سبب ثالث لعله كان الحاسم وقصته طويلة نختزلها فى هذه الوقائع .

كان الشبراوى عبد العال عاملا من عمال التراحيل ، وهم الفائض البشرى الذى يرسف منذ قرون فى قاع المجتمع الريفى ، وهم يعملون ثلاثة أشهر كل عام فى تطهير الترع والمصارف أو صد الفيضانات الطاغية ويتضورون باقى العام جوعا وبطالة ولا يكترث لهم أحد .

كان لقب عامل تراحيل استمرارا عصريا للرق والعبودية والسخرة وكل ما تنافس الاحتلال والحكومات الوطنية فى الفخر بالغائه ولكن بقى على حاله .

وابتسم الحظ الذى لا يبتسم أبدا لأحد منهم وورث الشبراوى نصف قيراط عن قريب له مات بلا وريث ، وهداه تفكيره السليم أن يبيعه ويقدم ثمنه للريس «مغاورى» رئيس فرقة الرش بالمركز والحقه بوظيفة عامل بأجر شهرى وكان ذلك انتقالا من الجحيم الى الجنة ، ولهذا تفانى الشبراوى فى عمله ، وكسب ثقة الريس ، وأصبح نائبه فى غيابه وكان

يتغيب كثيرا فى أعمال أخرى «مريبة» ، كما كان يجمع له الاتاوات من كل العمال الآخرين ، بذلك استطاع الشبراوى أن يشترى بسكليت ثم أن يتزوج ثم أن ينجب طفلا ، ولكن لأن الدهر قلب والسعادة لا تدوم ، فقد نشب خلاف مع الريس ، وتفاقم ، وفى نوبة غضب وسخط فصله من العمل وعين عاملا بدلا منه وكان هناك طابور طويل ينتظر .

واستمات الشبراوى فى العودة وقبل التراب تحت اقدام «الريس» ولكن بلا

جدوى وتوالت المصائب ، وباع البسكليت ثم اختفت زوجته ومعها الطفل ولم يعثر لهما على أثر .

ولم يستطع العودة الى الجحيم القديم، ولذا امتهن عملا آخر. وهو ارتياد الأسواق الريفية والقيام ببعض الاعمال الصغيرة هنا وهناك وبما يكفي للقوت الضروري الذي يسد الرمق!

وذات يوم رجع من السوق وقد اشترى رغيفا وبعض «الجبن القريش» ورأى حقلا تتمايل فيه السيقان الخضراء، محملة بقرون الفول الشهية وسال لعابه ولما لم ير أحدا في الحقل دخل الى حافتة وجمع بعض القرون ولم يكد يملأ منديلا صغيرا حتى ظهر فلاح فجأة وأمسك به وصاح «حرامي» وانهال عليه ضربا .. وجاء فلاح آخر مسرعا وبغير ان يعرف شيئا شارك الأول في الضرب ، ولم يلبث ان جاء ناظر الزراعة الذي كان يطوف بالارض وقام بنصيبه من التأديب وامر بحبل لكي يكتفوه ويحملوه «إلى الدايرة» وأرسل الى النقطة وحضر الشاويش على الحصان وتداول الجميع التنكيل «بالحرامي» والذي لم يكن يعرف لسوء حظه ان هذه ارض الخاصة «الملكية» .

● أصحاب الأمر والنهي

صادف وفي هذه اللحظة ان كنا عائدين من الزقازيق أنا وأحد الزملاء وتوقفنا على الصراخ ونزلنا من السيارة نستفسر ويبدو ان «الشبراوي» اعتقد اننا من اصحاب الأمر والنهي فقد قفز الى عنقي وصاح «خلصوني لوجه الله سوف يقتلونى من أجل حبة فول» وحاولنا التدخل ، وحل الأمر بالحسنى ، ولكن ناظر الزراعة أصر على الذهاب الى النقطة لأن هذه ليست أول مرة ، وان الفلاحين «اولاد الكلب» سوف يتخذونها عادة .

وذهبنا الى النقطة وقلنا للضابط اننا محامون ، وان الأمر لايحتاج الى محضر وقضية وان المتهم استوفى عقابه وأكثر بكثير، وأسر الضابط الينا بأنه يؤيد ذلك ولكن ناظر الزراعة رجل مجرم ويشيع الرعب والارهاب ويتصرف وكأنه الحكومة، ويخشى الضابط ان يتهمه بالتراخي والتواطؤ في حراسة ارض الخاصة ، وقال على كل حال سوف اضعه في الحجز حماية له ، وفي الصباح «يفرجها ربنا» .

واعطيت الشبراوي بعض النقود وطمأنته أني سوف اقف معه . وفي الطريق عائدا .. فكرت هذه هي القضية التي جئت من أجلها وهذا هو الموكل الذي ابحث عنه منذ عاهدت نفسي أن أكون محامي من لا محامي له سوف أزيل كل الصدأ والإحباط واسترجع كل الثقة وسوف اضرب مثلا .

وبعد شهر ونصف ظل الشبراوي ملقى في حجز النقطة ولم يعرض على النيابة ولكن اخطرنا بموعد الجلسة .

وبدأت اعداد الدفاع «التاريخى»
سوف يكون سياسيا ويدوى فى أرجاء المحكمة بل فى كل محاكم المديرية وقد يصل الى صحف المعارضة . سوف يكون دفاعا عن كل «المهانين والمحقرين» وكانت هذه مسودته.

«سيدى القاضى» : الشبراوى عبد العال مواطن مصرى يملك بنص الدستور كل الحقوق التى لك والنيابة والزملاء ولكل من فى قاعة المحكمة او خارجها . وأول هذه الحقوق وأقدسها حق الحياة، أى حقه فى ان يأكل ويشرب وينام تحت سقف ، وحقه فى ان يتعلم ويعمل وفى ان يستوفى نصيبه من السلطة والثروة والمعرفة وكل خيرات بلاده .

واذا ماحرم مواطن من هذه الحقوق فان التبعة لاتقع عليه ولكن بالطبع على الذين اغتصبوا هذه الحقوق .

واذا ما تضور مواطن من الجوع ولم يجد ما ينقذ به حياته سوى ان يستولى على حفنة فول من حقل مواطن آخر فانه لن يكون معتديا او مجرما ان الشبراوى ضحية . ياسيدى القاضى وليس متهما .. وهو ضحيتنا جميعا . ضحية النظام الذى يخلق ملايين منهم وليس لهم من ينصفهم سوى القضاء العادل.

سيدى القاضى

ان عقاب هذا المتهم بعد كل العذاب والعناء الذى قاساه لن يحل مشكلة ولن يحقق امنا ولعله سوف يضيف مواطنا غاضبا ساخطا واذا ما تضخم عدد هؤلاء فقد يأتى يوم يقتحمون فيه الارض ويعلنون ان من حقهم أن يبقوا لان الناس شركاء فى الماء والنار والكلا كما يقضى الدين الحنيف .

ولم اشك ان القاضى سوف يفاجأ ويبهت وسوف يصغى المحامون فى اعجاب وسوف يستمع الحضور وكأن على رؤوسهم الطير.. ولن يملك بعدها سوى الحكم ببراءة المتهم .. وقد يصفق الجميع ويهتفون بحياة العدالة.

وامضيت ليالى طويلة اراجع الصيغة واضيف واحذف .

وذات ليلة تسلل صوت داخلى ينبه الى حقائق قد تؤدى الى نهاية مختلفة غير سعيدة .

كانت هستيريا العداء للشيوعية تتصاعد كل يوم وقيل ان جلالة الملك يرى الشيوعيين تحت سريره وأنه أقال رئيس الوزراء لان الشيوعيين استولوا على الجامعة ويتسربون الى الجيش وأنه نفض التراب عن «عدو الشعب» صدقى باشا . واستخرجه من سلة مهملات التاريخ ليقضى على الوباء ويستأصله قبل ان يستفحل ، وكان الباشا عند حسن الظن فقد اعتقل فى يوم وليلة مائتين من صفوة المثقفين والكتاب والادباء والصحفيين بتهمة الشيوعية واستصدر قانونا نقله عن القانون الايطالى «الفاشى»

لتجريم الشيوعية وكان الباشا يتخذ ايطاليا الفاشية وزعيمها موسوليني نموذجه وظل على اعجابه حتى بعد انهيار النظام واعدام الدوتشي.

ونصحنى الصوت الداخلي ان مهمة المحامي الأول والأخيرة هي تبرئة موكله وليس التنديد بالنظام او تحرير المجتمع وأن دفاعا مثل الذى اعددته قد يؤدى ليس فقط الى إدانة المتهم ولكن الى اعتقال المحامي وبذريعة تسرب الشيوعية الى الريف .. وحتى عمال التراحيل !!

والتزاما بذلك بدأت البحث عن دفاع يؤدى الى الافراج عن الشبراوى .

وقادنى البحث والتفكير الى دفاع براجماتي مختلف ..

«سيدى القاضى» لقد نال هذا المتهم التعيس جزاؤه وبما يكفى لأن لايعود قط الى ارتكاب مافعله .. وانى لأتصور ان جلالة الملك المعظم حفظه الله وهو صاحب الحق والدعوى - لو عرف بما حدث فلن يتردد فى العفو عنه بل وفى توفير العمل والرزق له .

لقد نذر جلالته حفظه الله حياته وحكمه لرعاية الفقراء ولتحقيق مطالب العمال والفلاحين ولتوفير حياة انسانية كريمة لكل مواطن .

ولم يترك جلالته حفظه الله فرصة إلا وأكد فيها على وزرائه ، والمسئولين فى الدولة ان المواطن الفقير والمحتاج صاحب الاولوية فى كل قرار .

ولا اشك لحظة ياسيدى القاضى ان تبرئة ساحة هذا المواطن التعيس تحقق امنية غالية لصاحب الجلالة سوف يذكرها بالفخر ويأن القضاء فى عهده يحقق الرحمة والعدل معا .

واستغرقت الايام والليالى الباقية على موعد الجلسة فى عذاب وعناء الاختيار حتى لحظة دخولى قاعة المحكمة.

وما ان دخلت ونظرت الى وجه القاضي حتى تجمد كل شيء فى نفسى كان متجهما غليظا من سلالة تركية شركسية تزدرى «الفلاحين» ولا ادرى كيف تتالت صور رياض باشا ورفقى باشا وشريف باشا ويكن باشا وكل الذين خانوا مصر وفاضت نفسى بغضا وكراهية وحينما نودى على القضية وقفت وسألنى بجفاء !

- من حضرتك

- الدفاع

- دفاع هذه سرقة وتلبس

- المتهم حق الدفاع على اى حال

- تفضل

ووجدت نفسى بغير اختيار اقول سيدى القاضى .

هذا المتهم لقى اكثر بكثير من جزائه عقابا على استيلائه على حفنة فول يسد بها رمقه وحتى لايموت جوعا ، ومن حظه ان كانت ارض جلالة الملك ولو قدر لجلالته حفظه الله ان يعرف ان مواطنا جائعا مد يده الى حفنة فول من مزارعه لما تردد فى العفو عنه بل إنه سوف .

ولم يتركنى أكمل وقاطعنى بجفاء

أشد.

- هذه جنحة سرقة يا استاذ والمتهم متلبس ونحن محكمة نطبق القانون ويمكن لحضرتك ان تقدم إلتماس عفو من جلالة الملك بعد الحكم ونحلق به ستة اشهر مع الشغل والنفاذ

ونادى الحاجب على القضية التالية ووقع الحكم على كالصاعقة وجلست مبهوتا وتطلعت حولى التمس نظرة عطف أو رثاء من الزملاء ولكن كانت الوجوه جامدة والعيون باردة وتشع كراهية وزراية للمحامي الغريب وذهبت الى المتهم وكان آخر ما استطيعه ان اعطيته كل مامعي ولم يكن كثيرا وقال لي

- ستة اشهر ياأستاذ .. حرام عليهم ورد الشاويش الذي يحرسه .

- حرمت عليك عيشتك حتاكل وتشرب وتدفى ببطانية .. احسن ما تسرق فول وتنام على الترعة !

- وخرجت من المحكمة اشعر بالهزيمة واشد منها بالخزى والمهانة لو كنت اخترت الدفاع الاول لكانت النتيجة أفضل، على الأقل كنت احتفظت بالكرامة واحترام النفس!

ولا ادرى كيف طفا الى السطح فجأة نفس الشعور الذى استبد بى ذات يوم ضد المدرسة السعيدية .

لن ادخل محكمة بعد اليوم ولن احترف هذه المهنة التى لم اخلق لها.

وقفزت الى ذهنى مقولة «لابد من قطع رأس الأفعى فى القاهرة»!!

نحن لانحتاج الى حزب جديدى يستغرق سنوات ليضرم ثورة شعبية ولكن الى تنظيم فدائى يقطع رأس الأفعى ويهدم قمة الهرم وسوف ينفرط الحلف الاقطاعى الاحتكارى المحلى والاجنبى الذى يلتف حوله والذى يستنزف مصر ويقهرها .

هذا هو العمل البطولى الذى يحطم حاجز الخوف وسوف يفجر الانتفاضات فى كل مكان والتى تتحول الى ثورة شاملة وتذكرت بالطبع درسا ناقشناه باستفاضة ذات يوم الثوار الروس اغتالوا القيصر فى ابرع واشجع عملية فدائية فى القرن التاسع عشر ولكن توالد القياصرة ولم يتغير شئ بالارهاب الفردى ولكن رددت على نفسى ان لكل بلد طريقه الخاص الى الحرية .. وهذا هو الطريق المصرى الخاص .

استقرت الفكرة لابد من العودة الى القاهرة «لقطع رأس الافعى».

ولعل هذا كان السبب الحاسم فى أننى وجدت نفسى فى العاصمة وذهبت الى الاستاذ وفوجئت أنه سافر الى لندن منذ اسبوع وادركت ان شيئا ما قد حدث ثم وجدت نفسى فى وحدة وغربة وفى مدينة كبرى وكأنى لم اعرفها من قبل .. واثقل من ذاك وأهم ان لم يعد مناص من تأجيل الاستراتيجية الجديدة ، لن اناقشها مع أحد او أئتمن عليها أحد سوف يتأجل قطع رأس الأفعى شهرين حتى يعود !!

أنت والهلال

● عدد الصيف ●

كان عدد الصيف من «الهلال» في الاربعينات والخمسينات من أجمل الأعداد التى تصدرها هذه المجلة العريقة ، وكان يكتب فيها مقالات خفيفة ظريفة عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى وأحمد أمين ، والدكتور أحمد زكى وأمثالهم من كبار كتاب ذلك العهد ، فلماذا لاتفكرون فى إحياء فكرة عدد الصيف ، وقد مضى شهر تموز «يوليو» ولكن بقى شهر «آب» أغسطس أى أن الوقت مازال متسعا ، نرجو ألا تنسوا أن للصيف قراءة خاصة وشكراً لكم !

عبد الواحد الشريف حسن ـ عمان ـ الأردن

● الشعر والقصة ●

لاحظت ـ وربما لاحظ كثيرون غيرى ـ أن باب «أنت والهلال» يهتم بنشر الشعر أكثر مما يهتم بنشر القصة والأقصوصة بالرغم من أن قراء القصة أكثر من قراء الشعر !

نعيم سعد عصران ـ جدة ـ السعودية

● تعليق ●

ـ عندما تتوافر لدينا القصص القصيرة الجيدة نبادر الى نشرها ، ولكن هذا النوع من القصص قليل ، بل نادر ، مع العلم بأن الشعر هو ثلاثة أرباع مايصل الينا من الرسائل ولايتاح لنا أن ننشر إلا القليل منه !

● حادثة دنشواى ●

لم أسمع كلمة واحدة من وسائل إعلامنا فى ذكرى حادثة دنشواى الدامية التى مرت فى شهر يونيو «حزيران» الماضى ، والكلمة الوحيدة سمعتها من إذاعة لندن ، إلا أن المذيعة نطقت اسم بلدة دنشواى محرفا بعض الشيء فقد نطقته بكسر حرف الواو علي وزن بعض الكلمات الانجليزية !

حسين عبد الصمد ـ الاسكندرية

● تصحيح آية ●

قرأت مقالة الدكتور أيمن فؤاد سيد والموسومة بـ «هل حان الوقت لجمع المخطوطات العربية من كل أنحاء العالم؟» والمنشورة بمجلة «الهلال» عدد مايو ١٩٩٦ وقد لفت نظرى الصورة المنشورة بالصفحة ١٢٢ وقد كتب تحت الصورة «صفحة من مصحف مكتوبة بخط النسخ مع سطر بالثلث كتبه زين العابدين بن محمد الشيرازي عام ٨٨٨هـ» . والذى لفت نظرى هو وجود خطأ فى الآية حيث كتبت هكذا : «الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده» إلى آخر الآية. وصحة الآية كما هو معروف : «الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولانوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده ..» الى آخر الآية رقم ٢٥٥ من البقرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمود المختار الشنقيطى ـ المدينة المنورة ـ السعودية

● سير فى حدائق الصبر ●



الطيب ذا ، عبد الله ، هداه ، حباه الطيب فطاب
الطيب طاب وقلبى كان لدى أيام الحب مصاب
الطيب طاب وقلبى ظل يعانى فى ليل الأوصاب
الطيب كان بليل الحب يسائلنى والليل سراب
الطيب ذا رجل مسكين يمشى فى درب الأطياب
رجل بالباب علي الأعتاب يسائل ماحال الأحباب
رجل كالقلب العاشق يحمل فى ليل ، رجل وغياب

سامح النجار ـ فارسكور

● أدب القضاء ●

أتذكر أن الهلال فى فترة من فتراته كان ينشر بشكل منتظم سلسلة من المقالات بعنوان : «من أشهر القضايا التاريخية» وكان يقدمها للقراء المحامى القدير الأستاذ حسن الجداوى . ومن أشهر القضايا التى قرأتها فى هذه السلسلة «محاكمة الماريشال ناى» أحد الماريشالات الفرنسيين الكبار . وكان الأستاذ الجداوى يحرص على تلخيص

مرافعات المحامين الذين يصولون ويجولون فى ساحات المحاكم أمام منصات القضاء لإثبات براءة موكليهم . فيفرغون أهم مافى جعبتهم من فصاحة وبلاغة ، وأساليب المناورة، ليقطعوا خط الرجعة على غرائمهم من المحامين الآخرين، حتى لايجدوا مناصا من التسليم ببراءة موكليهم ، فكانت هذه المحاكمات التى تهتم بها المجتمعات عادة فرصة أمام المحامين الكبار ، لإظهار براعتهم ، وقدرتهم علي كسب القضايا للفت الأنظار إليهم، لإحراز الشهرة وبعد الصيت .. حبذا لو اهتم الهلال بنشر مثل هذه المقالات من القضايا التاريخية الكبرى ليستمتع القراء بما فى أدب القضاء من شغف ولذة .

مصطفى محمود مصطفى . كفر ربيع ــ منوفية

• تأملات فى فراش المرض •

شتان بين رقادك المعتاد ورقادك المصفود بالأصفاد
هذا سعيرك .. فى الحياة .. وليته يغنيك يوم تقابل الأضداد
وهو المذل ، وليس ثم مذلة تعلو مذلته ، على الآباد
واللوم .. فى الآلام - أكبر زلة فلقد تزورك ، دونما استعداد
ولربما كنت الفريسة ، رقتها تبدى الملام، وكنت فى الإيعاد
ومن الذى يدرى - وأنت حقيقة مخفية ، عن أعين الأشهاد؟
بل عن عيونك أنت ، بعد بصيرة كلت أمام لثام الموت والميلاد؟
هى حكمة الخلاق .. جلت حكمة !! تحيا .. بعجز - دونها - منقاد
فإذا سمعت من (ابن آدم) منطقا عن عائث .. فى الجسم .. بالإفساد
فارحم - رعاك الله - نقطة ضعفه واعذره ، عن نفث.. له ، صعاد
واحذر مقالتك المقيتة ، عند ذا واصمت ، إذا ما ضقت عن إسعاد

رمضان أبو غالية . مدير التعليم الثانوى ــ قويسنا التعليمية

• انكسار •

حين أخذت أنفاسه تضيق شيئا فشيئا .. حين استحالت الألوان جميعها الى لون واحد أسود .. أصر أن ينتزع ذلك اللعين الرابض بأعماقه أخذ ينقب عنه فى قلبه ..

أخرج قلبه الطفل ووضعه أمامه .. فتشه ركنا ركنا ، أزال عنه ترابا كثيفا وعصر دماه قطرة قطرة، لكنه لم يستطع إمساكه فأعاد قلبه الى صدره .. غاص داخل تلافيف عقله .. حاكم أفكاره محاكمة عسكرية وحاول شنق كل ذكرياته الحزينة ، لكن حزنه كان يزداد اشتعالا .. لحظتها أدرك أنه يحاول إمساك الهواء بأصابعه . لحظتها أدرك أن حزنه كائن هلامي يختلط بأنفاسه ويحتل جميع مسامه .. لابد أن حزنه الآن ـ أينما كان ـ يتمطى ويخرج له لسانه في شماتة .. أحس أن راحته في البكاء .. تمنى لو ينفجر باكيا بصوت عال .. أخذ يستمطر دموعه بتوسل ولكن حتى دموعه أبت .

إيهاب رضوان سعد الدسوقي ـ المنصورة

• أمـــي •



بحار حنانك انتثرت
على صدري وأحزاني
فأغرق موجها حزني
وأطرب صوتها أذني
وأضحى الرمل في شطي
أزاهيرا لأحلامي
تعيد بناء مدرستي
الى نفسي وذاكرتي
وصوت صباحك الحاني
يذكرني ويوقظني
الى الأقلام والكتب
الى الآمال والتعب
حنانك موجة سكرى
تضم لجين شطآني
فيبحر مركبي ليلا
ليبحث عن شذا الأمل
ويغرق في ندى القبل
ودمعك بحر أشواق
من الرحمن مصدره
يباركني ويرعاني
يلم شتات أفناني

د. هيثم الحويج العمر ـ دمشق ـ سوريا



● من سفر الى سفر ●

أريحيني علي صدر البحار
فإنني تعب
أريحيني على الشطآن
ياعمرا من الأسفار والأحلام والرغبة
أريحيني إلى أن تشرق الشمس الشتائية
أراك الآن تنطلقين نحو دماء هذا البحر
تفترشين رمل الجرح
تنسلين نحو حدائق المرجان
تمتلكين الحب والرهبة
أريحيني ..
فإني عدت من رحلات موجتنا
قتيل الفكر والشعر
دعي كفيك ترتاحان فوق الشعر
تمتدان صوب جبيني المعروق
ترتخيان عند الجفن
تنصهران وقت بكاء بسمتنا
أريحيني
أمن حزن الى حزن ..؟
ومن سفر إلى سفر ..؟
ومن بحر إلى بئر .. ؟
أريحيني ...
دعي شفتيك تستمعان،
تبتسمان،
دعي عينيك تكتشفان آلامي،
فإني هاهنا وحدي،
بلا صوت يحركني،
بلا موت يهامسني ،
بلا سؤل يعيد إلى أوهامي

أحمد فضل شبلول ـ جامعة الملك سعود ـ الرياض

● السرقات الأدبية ●

● تقديرا واعتزازا أسطر إليك هذه الكلمات تعبيرا عن سعادتى بما جاء بمجلة الهلال عدد مايو ١٩٩٦ فى باب «أنت والهلال» حيث رسالة أحد قراء الاسماعيلية عن الدكتور المرحوم حسين فوزى وأم كلثوم وكانت تحت عنوان «السرقات الأدبية» وجاء التعليق ليؤكد القارىء - أى قارىء الهلال - أن الصحافة والصحفيين لايزالون بخير وذاكرة قوية وثقافة واسعة ، ولايزال الصحفى القارئ للأدب والعلوم .. وشتى ألوان المعرفة فلا تدخل عليه سرقة أدبية مثل هذه .

نبيل سيف - روز اليوسف

● أين دور المجمع من لغتنا المعاصرة ●

● منذ عام ١٩٣٤ ومنذ نشأة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، اتخذ القائمون عليه وضع خطة هادفة لإرساء قواعد الفصحى وتأصيل العامية ، وكان نتاج هذه الخطة مجلة المجمع التى بزغ نجمها الأول سنة ١٩٣٤ م - بمجلة «مجمع اللغة العربية» وقد احتوى هذا العدد على العديد من الدراسات اللغوية الأصيلة ، وتوالى دور المجمع شيئا فشيئا فى إصدار مجلته وانتقاء أعضائه من أبرز الكفاءات العلمية ، ولاينكر أحد دور المجمع فى تجديد وتفهيم اللغة بأسلوب سهل التناول ، قريب المأخذ ، فأصبحت اللغة ذات التعقيدات ، والتى تعسرت على كثير ، سهلة وموردها قريب .

ذلك بفضل مجمع اللغة العربية فى الماضى القريب ، والآن ونحن على أعتاب قرن ميلادى جديد يحق للغة الضاد ، لغة كتاب الله «القرآن» أن تخدم بصورة أشمل وأدق ، فنحن إلى الآن لم نر من المجمع إلا مجموعة إصدارات قليلة قياسا بتاريخ نشأته ، فمثلا نعرف الستة عشر معجما التى أصدرها المجمع ، ومنها المعجم الكبير - والوسيط والوجيز - هل يعرف أحدكم أن الجزء الأول المتضمن لحرفها (الألف أ) غاب تحضيره أكثر من ربع قرن ، وأن بين إصدار الأول والثانى والثالث سنوات كثيرة فالثانى صدر فى أوائل الثمانينيات ، والثالث صدر ١٩٩٤ م وإلى الآن لم تصدر بقية الاجزاء ، بما نصف هذا الإجراء ، أنقول قلة علماء أم قلة لغة ، كلاهما معروف بالوفرة حتى الغلبة ، ومن المفروض كنا نقرأ الآن الحرف العاشر من الابجدية ، ولكننا فى الرابع ولم نكمل ، كذلك المعجم الوسيط الذى سرقه كثير من أصحاب دور النشر والمطابع فى مصر وبيروت دون إذن والمجمع مكتوف الأيدى دون حراك ، فالوسيط أصبح سلعة سهلة العرض ، سهلة الطبع والنشر وحتى لايصاب أحد بأذى نجد من يطبعه دون ذكر اسم أو عنوان الناشر

وهذه فجيعة ولاشك ، كما أن لغتنا المعاصرة تزداد يوما بعد يوم بدخول المصطلحات ، الخاصة بالاقتصاد والكمبيوتر والعمارة والفنون ، وبعض اللهجات وهذا ولا شك يحتاج إلى إعادة نظر من قبل المجمع اللغوى لتفهيم القاعدة العريضة حقيقة وفصاحة هذه الكلمات ، وماذا عن التراث الذى يقوم بنشره ؟ نشر المجمع معجم «الجيم» فى أربعة أجزاء ١٩٧٥م ، الأفعال ٤ أجزاء ، والتكملة والذيل والصلة ستة أجزاء ، ديوان الأدب ١٩٧٥ م - ١٩٧٩ م ولم أر شيئا يتعلق بكتب التراث أو منه من إصدار المجمع بعد هذه الكتب ، ألا تكفى هذه المدة الطويلة لإصدار كتب تراثية لغوية أو تاريخية أو نحوية أو أدبية محققة تحقيقا علميا ، يليق بها ، ويليق بالمجمع بصفته الوصى اللغوى علينا فى مصر. كم كنت أود أن يكون للمجمع دور أكبر من هذا ، فأعلم أن المؤتمر يقام كل عام ولكن أين محاضر الجلسات والتقارير والبحوث ، ألا يستحق الجمهور المثقف الشغوف بلغة الضاد أن يعرف مادار فى هذا المؤتمر ، وإن كان به من التأصيل العلمى ، الذى يستثقله البعض إلا أن الكثيرين يحبون فهم هذه المحاضر والجلسات والأبحاث بصفتهم التدريسية، أو بصفتهم الإسلامية التى تفرض عليهم بنحو من الرجاء حب لغة القرآن وفهمها .

وأنا أمتلك بعض هذه المحاضر ولكن من أوائل السبعينيات، ونحن فى نهاية التسعينيات، لم نر هذه الجلسات والمحاضر، هل سيتعرض المجمع لخوض تجربة قد تبوء بالفشل مثلا!! كلا ، فسيكللها النجاح لأن وقع هذه الأشياء من المجمع سيسهم فى تصحيح لغتنا المعاصرة المختلطة بالشارد والوارد من الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية، والأرمنية ، ونظن عادة أنها لغة عامية سوقية وهناك من يظن أن المجمع ليس لدوره فائدة!! لعدم وجوده على الساحة بصفة مباشرة، أو من خلال وسائل الإعلام المرئية أو المسموعة وليس للمجمع دور فى صحافتنا أو المراجعة أو التحقيق أو التأليف، أو الأدب، أو الشعر،،، لماذا ينعدم دور المجمع عن أداء دوره الحقيقى فى هذا المجتمع، لماذا لا تزاد معاجمه إلى ستين معجما لغويا بدلا من سته عشر معجما، لماذا لا يصدر معجما إنجليزيا عربيا، والعكس يخلصنا من المعاجم المختلفة والمحتوية على الكثير من التباعدات اللغوية، والفجوة البائنة بين الإنجليزية والعربية ، معجما يتناول الكلمة ومعناها ثم إدخال الأصل فى جملة والمعنى فى جملة، ثم سرد المرادف لها فى عموم اللغة حتى يستعين مطالعه بما ورد وفيه دون عناء فالمجامع اللغوية العربية الأخرى لها إصدارات تراثية وحديثة بصورة مستمرة، ومثال ذلك المجمع العلمى العربى - مجمع اللغة العربية بدمشق

– الذى قام بإصدار تاريخ ابن عساكر كاملا لأول مرة الا من أجزاء فى أواخره، وهذا ولاشك عمل علمى خالد، وقيامه بإصدار العديد من كتب التراث بصفة دورية لا انقطاع فى تسلسلها، والمجمع العلمى العراقى يقوم بإصدار العديد من كتب التراث المهمة، والتى لم يسبق نشرها، وفى غير العرب المجامع اللغوية تقوم بنفس الشئ من الإصدارات، والتحقيقات المتتابعة دون انقطاع.

أود ألاَّ يفهم كلامي هذا هجوما على المجمع وعلمائه ولكن أردت أن أنبه، أن دور المجمع أصبح كالمعدوم من الوجود اللغوى، ونعلم جيدا ان الإعلام أصبح له أداؤه السريع فى إكساب المجتمع لغة ثالثة غير الفصحى والعامية ذات الدلالات الفصيحة لغة سوقية يغلب عليها الابتذال عادة، دون استئذان أو حياء.

قد يسأل بعض الأخوة إن هذه القضية لا تستحق النقاش لمعرفتنا بها، أرد عليهم أن هذا إنذار خطر عما سيحدث بلغتنا وجمالها فمصر كما هو معروف أقرب الدول استخداما للغة فصيحة بها بعض العامية، لا عامية لها بعض الفصحى . وكان هذا فى وقت قريب أما الآن فالوضع مختلف تماما ، ولا نريد أن تختلط لغتنا بما هو غريب عنها، ولا ان نخلط العربى بالافرنجي : الانجليزى أو الفرنسى .. لا نريد هذا الخلط ونحن على أعتاب قرن جديد أود أن يكون للمجمع دور أكثر من هذا يحمينا من السقوط إلى هاوية بلا هوية ! ويلملم اللغة ويرجع فى نفوسنا قواعد وعناصر التأصيل اللغوى ، وأن يظهر دور حقيقى للمجمع كما كان لسابق عهده بنا ويكون هناك دور فى المجمع لخدمة لغتنا المعاصرة حتى لا نسقط إبان تغريبة لغوية!!

طلال السعيد السيد المنقى – مطوبس – عزبة عمرو

● مع أصدقائنا ●

ونشكر للأساتذة : طارق محمود مراد وثروت غيث ،ونعتذر اليه لأننا لاننشر الزجل العامى ، وهذه سياسة الهلال من أكثر من مائة سنة، ، وعاطف اسماعيل أبو شادى ، وعصام زيادة ،ونرجو أن يهتم بلغته نحوا وصرفا وأسلوبا ، وحتى الخط والإملاء، ومحمود المصلى وصلاح السيد ،ولعله لايعرف أننا لانعيد نشر قصائد بعد نشرها فى دواوين، وأحمد عبد اللطيف حسب الله ، والآنسة مروة البصيلى بالصف الأول الإعدادى بالسويس ،وليس النشر هو المهم الآن يا آنسة مروة، والآنسة منال أحمد حماد محمد بالسنة الثالثة الإعدادية ،والكتابة تكون على وجه واحد من الورقة، ويحيى السيد النجار ،المقال طويل وموضوعه لاجديد فيه، ومحمود فرغلى على موسى وعاصم فريد البرقوقى .



الكلمة الأخيرة

ما بقى من العقـــــاد !

بقلم : د . الطاهر أحمد مكى

كان العقاد مفكرا موسوعيا : مفكرا ، وفيلسوفا ، ومؤرخا ، وأديبا وناقدا ، وأبدع فى مجال الشعر والقصة والرواية ، على تفاوت فى الحجم ، وتساو فى الجودة، وخاض صراعا فكريا عنيفا مع معارضيه ، ولم يسقط سيفه حتى آخر يوم من حياته ، ولم يهزم ولا مرة واحدة ، وكلها جوانب تناولها الدارسون فى احتفاليته التى أقامها المجلس الأعلى للثقافة ، بعضهم تجلى ، وآخرون كانوا دون ما تعرضوا له، أو على الأقل لم يعطوا ما تناولوه حقه من النظر والتأمل والدرس ، أو كانوا غير متخصصين فيما تناولوه !

قامت حياة العقاد على الإيمان بأقانيم أربعة : الحرية والديمقراطية والاستقلال والإيمان بالصفوة .

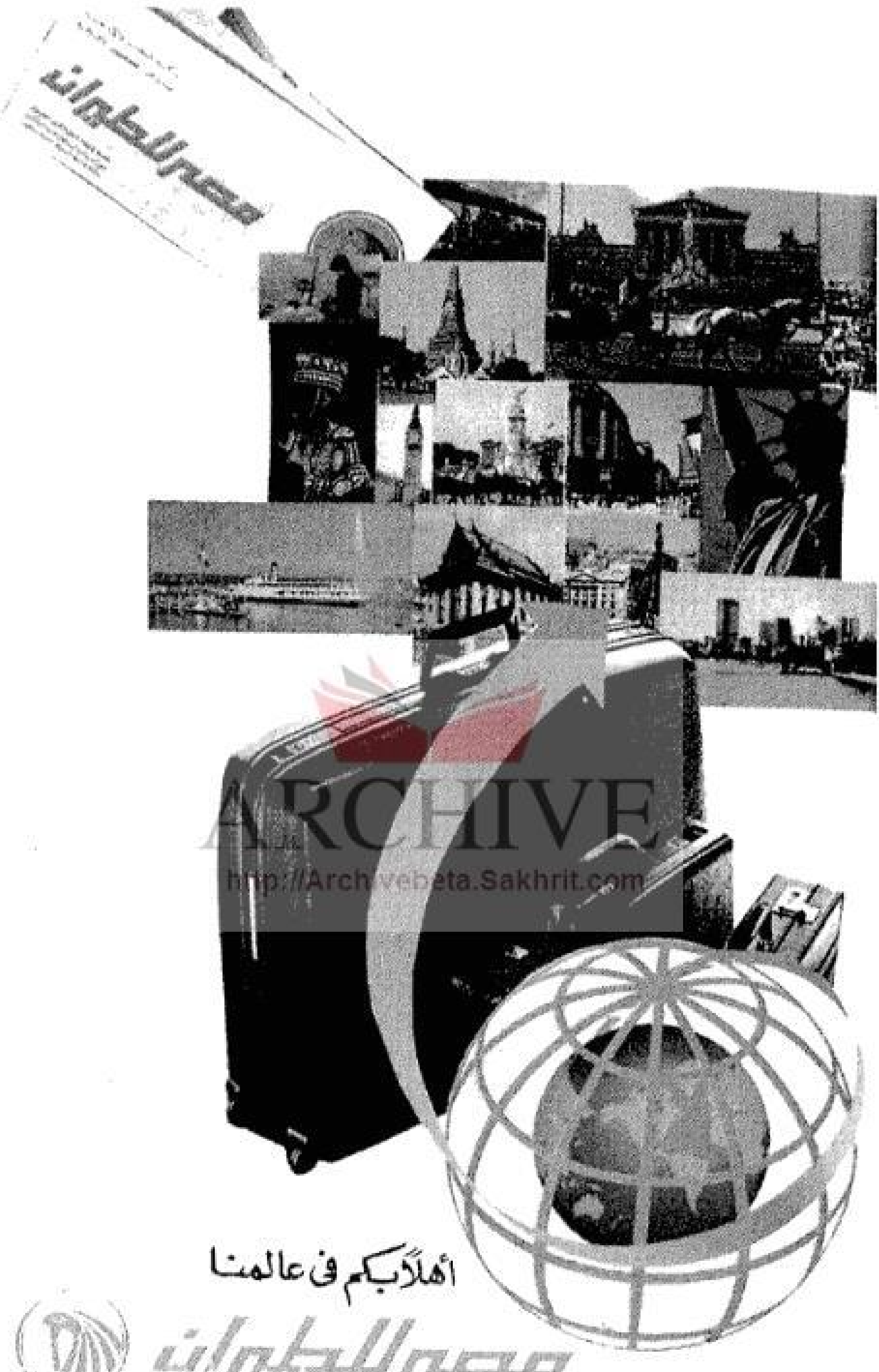
آمن بحرية الفكر ، وذهب بآرائه إلى أبعد مدى يؤمن به ، لم يقم وزنا لرأى العامة ولا لغضب السلطة ، لم يبحث عن الشهرة بين الجماهير ، ولا عن تملق الحاكمين ، وليس فى كل ما كتب على امتداد كل تاريخه ، كلمة واحدة لا يؤمن بها .

وآمن بالديمقراطية مذهبا فى الحياة ، أعطى نفسه الحق فى أن يقول ، وأن يدعو، كل ما يؤمن به ، وأعطى الحق نفسه لخصومه أيضا ، وقارعهم بالحجة والبرهان ، ولم يستعد عليهم السلطة أبدا . وكره الطغيان وقاومه ، فى أى شكل جاء ، وظل طوال عمره خصما لدودا للدكتاتورية فى أى شكل تخفت ، فحارب النازية والفاشية ، رغم أن الرأى العام يومها كان إلى جوارهما عملا بقاعدة «عدو عدوى صديقى» وكان خصما لدودا للشيوعية والرأسمالية على السواء ، وكان كاتب الوفد الأول ثم خرج عليه وهو فى أوج شعبيته ، حين رأى فى فعاله ما يناقض الديمقراطية ، كان المبدأ نفسه وراء حملته على الإخوان المسلمين.

وتفرد بين مفكرى عصره جميعا ، دون استثناء ، فى أنه كان سيد نفسه وقلمه وفكره لا سلطان لأحد عليه مهما علا ، ليس موظفا فيهدد فى لقمة عيشه ، ولا صاحب طموحات صغيرة فيحنى من أجلها رأسه ، وعاش حياته كلها يمثل كبرياء الفنان والمفكر بأجلى معانيها ، ولم يكن فى أية ساعة من ساعات عمره يملك مليونا ولا ضيعة ولا عمارة ولا شركة ، ولا رزقا جاريا ، موفورا ومأمونا وإنما يعيش من قلمه يوما بيوم

وكان يؤمن ، دون مواربة ، أن الصفوة المفكرة المثقفة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمات ، وراء تقدم الإنسانية ، فشغل قلمه بجلاء صفحات حياتها ، ليجعل منها معالم السائرين فى درب الحياة ، والطامحين إلى المجد ، فكانت دراساته عن : العبقريات ، ومحمد على جناح ، ومحمد عبده ، وغاندى ، وآخرين .

غاب جلاء هذه المعانى وإبرازها فى الاحتفالية ، ربما ليس بيننا ، أقصد الذين حضروا والذين حاضروا ، من يستطيع أن يشمخ بأنفه ويقول : أنا صنوه فى هذا المجال ، وربما لأن هذه المعانى ، وهى طريقنا إلى النهضة الحقة ، الحديث عنها لا يرضى من ينافق ويخشى ، ونحن حريصون على ألا نمس فى أرزاقنا ووظائفنا وطموحاتنا ، وهى كثيرة وصغيرة ، فلم نرد أن نذكر الجيل الصاعد بها ، مع أنها أروع ما أنجز العقاد فى حياته ، وأعظم ما بقى من تراثه بعد رحيله !


مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

الهلال

أغسطس ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشاً

... وعادت الجوائز إلى مستحقيها!







«ذات الشعر الأحمر» للفنان العالمى تولوز لوتريك ١٨٨٩م

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

الإدارة القاهرة - ٦٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ -
تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٣٠٠٠ ليرة - الأردن ١٢٠٠ فلس - الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات - تونس ١,٧٥٠ دينار - المغرب ١٥ درهماً - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار - إيطاليا ٤٠٠٠ ليرة - المملكة المتحدة ٢,٥ جك

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت - ت/ 13079 ٤٧٤١١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

في هذا العدد



تصميم :
حلمي التوني

فكر وثقافة

وعادت الجوائز إلى مستحقيها

جزء خاص

فنــــــون

قصة وشعر

التكـــوين

الأبواب الثابتة

من الهـــــلال إلى الهـــــلال

عزيزى القارىء

الإرهاب يلعب بسلاح المصادرة

■■ فى هذا الصيف الذى لفحنا بحرارته المرتفعة ، وجوه المتقلب ، فوجئنا بموجة جديدة من الإرهاب الفكرى تجتاحنا على غير انتظار ..

فبعد أن خسر الإرهاب سلاحه الذى استخدمه فى أثناء موجة صعوده الأولى ، وهو الاغتيال والتصفية ، وبعد أن أغلقت المحاكم أبوابها أمام دعاوى «الحسبة» والتكفير والفصل بين الأزواج ، لجأ الإرهاب الفكرى إلى سلاح جديد قديم ، هو «المصادرة» .

سلاح جديد ، لأنه لم يستخدم منذ عهد بعيد ضد الأقلام العاقلة والكتّاب المجدّين ، وقديم لأنه سبق استخدامه عدة مرات ضد الكثيرين من الرواد ، فهو ليس بدعة يختص بها الإرهابيون الجدد .

ومن العجيب أن يشرف على هذه العملية «الوحشية» هيئات دينية لها مكانتها فى نفوس المسلمين وغير المسلمين كذلك ، فتسبح اللجان العليا لتلك الهيئات فى تيار الإرهاب الفكرى الذى لا يقل خطورة عن الإرهاب المسلح ، بل هما توأمان ، يستمد هذا من هذا ، ولا وجود لأحدهما دون وجود الآخر ..

عزيزى القارىء ..

مصادرة الكتاب هو اغتياله .. اغتيال أفكاره وسطوره ورسالته وشخصيته ، وحجر مسبق على الرأى ، ومن عجب أن هؤلاء الذين يكفّرون كاتباً أو يصادرون كتابه لا يلتفتون الكتب التى تغرق الأسواق ، والتى تروج لكل ما هو هدام ، سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر .

إذا نزلت إلى مكتبات مصر وأرصفتها وجدت أكواماً هائلة من المطبوعات تتناول موضوعات بعينها ، تكاد لا تتغير : فضائح المشاهير ، الجنس ، السحر والجان ، الأبراج والحظ ، وكتب تعليم الرسائل الغرامية ، وما إلى ذلك مما يفرغ حياتنا الثقافية من مضمونها .. ولكن الهيئات التى «تقترف» المصادرة لا تمارس تلك الهواية إلا ضد الكتب التى تحمل روحاً جديدة أو تقدم رسالة غائبة لقرائها ، أو تتخطى حاجزاً فكرياً صعباً حرم البعض ، دون وجه حق ، أن يتخطاه الباحثون عن نور الحقيقة فى غبش الظلام !..

إننا لا نكتب ضد المصادرة متضامنين مع كتاب بعينه ، بقدر ما نكتب متضامنين مع الفكر الحر عموماً ، ومع حرية الإبداع ، ونكتب منبهين هؤلاء الذين يشجبون الإرهاب ويحاربونه بأنواعه ثم يروجون له بشتى الطرق فى نفس الوقت ، ويجعلونه سيفاً مصلتاً على رءوس المفكرين والمبدعين !..

عزيزى القارىء ..

إن مصادرة الكتب الهادفة ، والحجر على حرية الفكر المستنير ، يفسح الطريق للفكر

المظلم ، والإرهاب المستتر بالدين ، ويفتح الطريق أمام الكتب التافهة التى كادت تستأثر بعقول الناس !..

ثم إن مبدأ مصادرة الكتب فى حد ذاته يتنافى مع كل الأسس التى تقوم عليها «الدول المدنية» التى تحترم دستورها وقوانينها نصاً ، وروحاً ، فهى تتنافى مع مبدأ «الحرية» التى يكفلها الدستور لكل مواطن ، ومع مبدأ حقوق الإنسان ، وتتنافى مع عظمة الإسلام وتسامحه ورحابة أفقه !..

وما الفرق بين أن نغتال كاتباً وبين أن نصادر كتابه ونحرم أفكاره وسطوره ورسالته ـ ولاسيما إذا كانت ذات قيمة ـ من الوصول إلى الناس بشكل طبيعى ؟!.. إننا نكون بذلك قد قتلناه حياً ، فهى جريمة اغتيال مع سبق الإصرار والترصد لا لبس فيها ، ولا تحتاج لبرهان!

وبحكم الدستور ، لا نجد بنداً صريحاً يجعل من أى جهة أو هيئة مدنية أو دينية فى مصر أو خارجها حارساً ورقيباً على الإبداع ، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك ، ويؤكد أن هيئات رسمية وغير رسمية تصبت نفسها رقيباً على الانتاج الأدبى والنقدى عموماً ، وخصوصاً ما اتصل منه بنواحى التجديد الفكرى وتحريك المياه الآسنة فى حياتنا العقلية !..

عزيزى القارىء ..

ماذا يتبقى من المجتمع المدنى إذا تم السيطرة على توجهاته الفكرية بشكل لا يسمح له بإحراز أى تقدم على الساحة العقلية ؟!.. وماذا يبقى منه إذا جعلناه ملعباً فسيحاً ممهداً لكل أفكار التطرف والرجعية التى تمارس القتل بالسلاح فى الميدان والقتل بالمصادرة والحسبة فى المحاكم وفى الجهات المدنية ؟!..

وأى سؤال سخيف أجوف لا تمل ترديده أبداً ولا ترى فى المطبوعات العربية غيره : «ماذا نفعل كى ندخل القرن الواحد والعشرين من المدخل الصحيح ؟» ..

فإذا كنا نمارس المصادرة الفكرية ونعيش فى ظلام أفكار تنتمى للقرون الوسطى فبأى حق نقفز فوق تلك الحقيقة المؤلمة إلى القرن الواحد والعشرين ؟!

إن الدول المتحضرة التى تعيش حياة ثقافية صحيّة وناضجة ليعجز أفرادها عن فهم ما يحدث فى مجتمعنا الشرقى من جرائم مباشرة وغير مباشرة ضد ثقافتنا وضد حضارتنا .. ويعجز عن فهم ما يحدث للكاتب فى مصر أو فى غيرها من البلاد إذا هو خرج عن نواميس المتطرفين ودخل إلى جناح العقلاء !

عزيزى القارىء ..

إن مقاومة تلك الموجة الهوجاء ليس مسئولية الدولة فقط بل مسئولية الشعب كذلك ، هذا الشعب الذى عليه عبء المقاومة ، وعبء الاختيار بين ماض مظلم ومستقبل رحيب متقدم .. فهى معركة لا تقل أهمية أو ضراوة عن معاركنا التاريخية الكبرى .. وهؤلاء المتطرفون لا يقلون خطورة عن عدو تاريخى مشهور كالتتار !..

المحرر

تطورات «الإنسان» فى عالم متغير

بقلم : د أحمد أبو زيد

□ ليس ثمة شك فى أن القرن الحادى والعشرين الذى يبدأ بعد أقل من خمس سنوات سوف يحمل بين طياته كثيرا من التغيرات التى تؤثر تأثيراً مباشرا وعميقا فى حياة البشر ، ولذا كان من الخير - إن لم يكن من الضرورى والمحتم - أن يعد الناس أنفسهم لهذه التغيرات الهائلة المحتملة بالتخطيط الذى يستند على تصورهم لتلك التغيرات ، وما يتوقعون من مفاجآت وأوضاع جديدة تفرض علي الناس علاقات وأفكاراً وقيما وأنماطا للسلوك قد تختلف اختلافا جوهريا عن كل ما عرفته الإنسانية حتى الآن . فنهاية القرن الحالى وبداية القرن الجديد تمثل (انكسارا) حادا - لو استعرنا التعبير الذى يستخدمه ميشيل فوكده - فى سير التاريخ والحضارة ويكون بمثابة نقطة انطلاق فى طريق جديد . وقد يكون من الصعب على الإنسان أن ينتزع نفسه انتزاعاً من الأوضاع الحالية التى عاصرها وانفعل بها وتفاعل معها وأصبحت تؤلف جزءا من كيانه ، وأن ينظر إلى مستقبل جديد تماما ومختلف عما تعود عليه . كذلك قد يكون من الصعب عليه أن يتصور قيام عالم جديد ومغاير تماما للعالم الذى يعيش فيه بكل أوضاعه وظروفه وتنظيماته التى تبدو له راسخة وثابتة .

وليس هذا دليلا على التخلف بقدر ما هو دفاع عن الذات ، وعن الكيان والرغبة فى البقاء والاستمرار على الرغم من إدراكه - أو ربما عدم إدراكه - بأن الزمن يتقدم ويتغير فى حركة دائمة لا تعرف الركود أو السكون . ولابد من أن تطرأ تغيرات هائلة على مختلف العلوم الطبيعية والانسانية نتيجة لقيام مشكلات جديدة وظهور آفاق رحبة وفسيحة ومجالات متنوعة للبحث تتطلب ايقاعاً وتطبيق مناهج وأساليب جديدة فى الدراسة تتفق مع تلك المشكلات دون أن يعنى ذلك نبذ كل الاساليب والوسائل والمناهج القديمة تماما وإنما إدخال تعديلات عليها تتناسب مع ما يستجد من أوضاع وإذا كانت كل هذه التغيرات التى سوف تحدث فى مختلف مجالات العلم والمعرفة وأنماط السلوك والتفكير تؤثر بالضرورة فى حياة الانسان والمجتمعات والثقافات التى يعيش فيها ؟ فإن السؤال الذى لابد من أن يواجه علماء الأنثربولوچيا هو ما مستقبل الأنثربولوچيا باعتبارها هى العلم الذى يدرس الإنسان أو باعتبارها هي (علم الانسان) كما تدل الترجمة الحرفية لذلك الاسم ، وهل تستطيع أن تعدل من أساليبها ومناهجها بل ومن مجالها نفسه حتى تتلاءم مع الأوضاع الجديدة التي يتوقعون هم أنفسهم حدوثها فى العالم بأسره خلال القرن الحادى والعشرين ؟

على الرغم من كل التغيرات التى يتوقع حدوثها فإن مستقبل الأنثربولوچيا أو علم الإنسان لابد أن يكون استمراراً بشكل ما لماضى ذلك العلم وحاضره، فمستقبل علم الانسان لا يمكن أن يقوم من فراغ وإنما هو يستمد مستقبله من تاريخه الطويل الراسخ مع ادخال التعديلات التى يستطيع أن يتكيف بمساعدتها مع الأوضاع الجديدة المتوقعة ، وهى أوضاع مخالفة تماما لتلك التى تسود فى المجتمعات التى كان يعمل فيها الأنثربولوچيون خلال القرنين الماضيين فقد كان الأنثربولوچيون ولا يزالون يهتمون بدراسة ما يعرف اصطلاحا بالمجتمعات البدائية والمجتمعات الأشد تخلفا والمجتمعات التقليدية وبالذات الجماعات المحلية الأكثر انعزالاً عن العالم الخارجى والتى تحتفظ بسمات ثقافية مميزة . بينما عالم القرن الحادى والعشرين سوف يكون عالما تسقط فيه الحواجز بين الشعوب والثقافات ، وتتضاءل فيه المسافات الفيزيقية والاجتماعية والثقافية على السواء ، ويسوده نظام عالمى وثقافة موحدة إلى حد كبير وإن لم يمنع ذلك من استمرار الثقافات الفرعية بعد تأثيرها بالتيارات

الفكرية الغالبة والاستعارة منها بما يتفق مع مميزاتها الخاصة وما لا يتعارض مع قيمها الأصيلة الراسخة . وعلى أى حال ، فإن مستقبل الأنثربولوجيا يرتبط ارتباطا وثيقا بما سيكون عليه إنسان القرن الحادى والعشرين والأوضاع التى تحيط به وسلوكياته والقيم التى تحكم هذه السلوكيات وكذلك العلاقات الجديدة التى سوف تقوم بين مختلف المجتمعات والثقافات .

ولابد من أن يدخل فى أى محاولة لتصور مستقبل أى علم من العلوم قدر من الخيال ونسبة معينة من التمنى والرجاء والأمل فى تحقيق نموذج مثالى لذلك العلم؛ وهو فى الأغلب نموذج موجود ولكنه كامن فى عقول المشتغلين بذلك العلم ، ولكنها تمنيات وتخيلات وآمال ترتكز على أسس واقعية مستمدة من تاريخ ذلك العلم ووصفه الحالى ، وما حققه من إنجازات وما صادفته من عقبات ، مع الأخذ فى الاعتبار أن التغيرات التى تطرأ على العلم ليست متوقفة على إرادة المشتغلين به وحدهم أو على رغباتهم ، لأن تطور العلم مسألة مرتبطة بأمور وأحداث كثيرة ومعقدة وتخرج عن إرادة الانسان الفرد بحيث لا يكون أمامه فى الأغلب سوى هامش ضئيل من الحرية . ومع ذلك فإن الاتساع والتنوع فى مجال علم الانسان التى يتناول الجوانب الفيزيقية والبيولوجية والاجتماعية والثقافية فى حياة الانسان سوف تتيح لذلك العلم والمشتغلين به مجالات واسعة من الإفادة من الظروف الجديدة بل والاستعانة أيضا بالتغيرات التى تطرأ على مجالات العلوم الأخرى التى تتصل من قريب أو بعيد بالأنثربولوجيا ، مثل التطورات الجديدة فى علم البيولوجيا والاتصالات والمعلومات والعلوم الاجتماعية والانسانية الأخرى .

* * *

كانت نشأة الأنثربولوجيا فى القرن التاسع عشر مرتبطة - بل ونتاجا أيضا للأوضاع السائدة فى أوربا فى ذلك القرن، والقرن التاسع عشر هو عصر التفكير التطورى فى كل العلوم والدراسات الانسانية نتيجة التطورات والتغيرات الهائلة التى حدثت فى واقع الحياة الاقتصادية وازدهار الثورة الصناعية بكل ما ترتب عليها من قيام طبقات جديدة وما أدى إليه ذلك من صراع طبقى سافر ، وتزامن ذلك مع تغير النظرة إلى شعوب وثقافات العالم نتيجة للكشوف الجغرافية وحركات الاستعمار والاتصال بشعوب ومجتمعات مع درجات مختلفة من التقدم الحضارى وتصنيف هذه الشعوب إلى

متوحشة ومتبربرة ومتمدينة حسب درجة البعد أو القرب من النموذج الأوربى حينذاك . وكان لابد من أن يصطبغ تفكير داروين نفسه بهذا البناء الفكرى السائد وأن يكتب عن أصل الأنواع وظهور الجنس البشرى وعلاقته بالكائنات الأدنى منه . ولذا فإن داروين نفسه كان نتاج عصره بقدر ما كان مؤثـــراً فى ذلك العصر ، ولو كـــان داروين عاش فى عصر آخر فربما كان نظر إلى الانسان من زاوية أخرى ، غير زاوية التطور والبحث عن الأصول البشرية . وكما كتب داروين عن أصل الأنواع كتب معاصروه عن أصل اللغة وأصل الدين وأصل القانون وأصل العائلة وما إلى ذلك. وهى كلها كتابـات وأفكار ونظريات تؤلف جانبـــا كبيـــرا من التراث الأنثربولوجى .

كان علماء القرن التاسع عشر يستمدون معلوماتهم عن تلك الشعوب والثقافات الأخرى من كتابات الرحالة والمبشرين ورجال الإدارة فى المستعمرات، ولذا كانت نظرتهم نظرة واسعة شاملة تحاول الإحاطة بكل جوانب الحياة فى تلك الشعوب على الاهتمام بالعادات والتقاليد والمعتقدات والأساطير والحياة الجنسية وأقاموا نظرياتهم على أساس المعلومات الكثيرة التى توافرت لهم من هذه المصادر، ثم أشفعوا ذلك بالكتابات الكلاسيكية عن الحضارات والأديان والثقافات القديمة ، ولذا جاءت نظرتهم وآراؤهم عامة تصدق على الانسان وثقافاته ونظمه فى كل زمان ومكان ، وتعالج المسائل التى يتعرضون لها من مدخل إنسانى يخاطب الانسان من زاوية تفكيره ومشاعره ووجداناته وإن كانت هذه المعالجات والدراسات تنقصها الدقة وتعانى من كثير من الثغرات والفجوات التى حاولوا أن يملئوها عن طريق الظن والتخمين ، وإن كانت تعانى أيضا من موقف الاستعلاء .. استعلاء الغرب الأوربى المتقدم على تلك الشعوب التى كانوا يصفونها بأنها بدائية . وكانت هذه الظروف والأوضاع التاريخية التى نشأت فيها الأنثربولوجيات هى السبب الرئيسى فى ارتباط (علم الإنسان) بالإنسان (البدائى) فى المحل الأول وبالمجتمعات والثقافات (البدائية) . وهى صفة لا تزال تلازم الأنثربولوجيا على الرغم من أنه لم تعد هناك مجتمعات (بدائية) بعد انتشار مظاهر الحضارة والمدنية إلى أبعد الجماعات القبلية وأكثرها انعزالاً وسـط الغابات ومنـاطق السافانا فى أفريقيا على سبيل المثال .

ثم حدث انكسار هائل فى هذا الاتجاه

التطورى مع بدايات القرن العشرين ، وتمثل هذا الانكسار فى مظهرين أساسيين .

● بحوث ميدانية

المظهـــــر الأول : هو اتجـــــاه الانثربولوجيا إلى الأخذ بمناهج وأساليب ووسائل العلوم الطبيعية التى تعتمد فى أساسها على التجريب . ولما كان من الصعب إجراء تجارب على البشر وثقافاتهم ونظمهم الاجتماعية كان المقابل المنطقى المشروع لإجراء التجارب المعملية هو القيام بالبحوث الميدانية التى يقوم بها الأنثربولوجيون فى مجتمعات (بدائية) أيضا صغيرة الحجم وقليلة السكان حتى يمكن إخضاعها للملاحظة المباشرة مع قضاء فترات زمنية طويلة تكفى للتعرف على دقائق وتفاصيل الحياة فى تلك المجتمعات بكل نظمها وملامح ثقافتها وكانت نتيجة هذه البحوث الميدانية أن توفرت لدى علماء الانسان الآن آلاف الدراسات التى تشمل مئات الجماعات القبلية والمناطق المتخلفة فى المجتمعات الأكثر تقدما فى كل أنحاء العالم . والهدف الواضح من كل هذا العدد الهائل من البحوث هو الوصول إلى فهم دقيق لذلك «الكائن العجيب الذى هو الانسان» فى كل زمان ومكان ، لأن علماء الأنثربولوجيا ينظرون إلى دراسة هذه الجماعات البسيطة على أنها هى الخطوة الأولى الأساسية والضرورية لفهم المجتمع الإنسانى فى عمومه ، وأنها مقدمة لتفسير الكثير من أنماط السلوك السائدة فى المجتمع الغربى نفسه . وإذا كان كبلنج يقول (إن ما نتعلمه من الرجل الأصفر أو الأسود سوف يساعدنا كثيرا فى فهم الرجل الأبيض) فإن استاذا من أكبر اساتذة الأنثربولوجيا وهو إيفانز بريتشارد الذى قام بالتدريس فى وقت مبكر بالجامعة المصرية يقول (إن ما نعرفه عن مجتمع معين بالذات قد يفيد فى التعرف على مجتمع آخر ، وبالتالى على كل المجتمعات الأخرى ، سواء فى ذلك المجتمعات التاريخية أو المجتمعات المعاصرة ، وأن الأنثربولوجيا (علم الانسان) تتيح لنا أن نرى الجنس البشرى ككل . ذلك أننا حين نعتاد على الطريقة التى ننظر بها إلى الثقافات والمجتمعات الإنسانية ، نستطيع أن ننتقل بسهولة من الجزئى إلى العام ثم بالعكس . كما أنه عن طريق فهم الثقافات والمجتمعات الأخرى يمكن للمرء أن يرى ثقافته هو ومجتمعه هو من كل الزوايا ، وأن يفهمها فهما أفضل . فالأنثربولوجيا تساعدنا على الوصول إلى فهم أفضل وأعمق للانسان

فى كل زمان ومكان)

® التخطيط للتنمية

المظهر الثانى : لهذا الانكسار نشأ حين تغيرت الظروف والأوضاع التى لازمت البحوث الأنثربولوجية وذلك نتيجة لاستقلال الشعوب (البدائية) من ناحية فى النصف الثانى من هذا القرن وازدياد الاحتكاك الثقافى بين هذه الشعوب والحضارة الغربية وغيرها من الحضارات القديمة العريقة ، وما تلا ذلك من تنفيذ الكثير من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وظهور عدد من الأنثربولوچيين الوطنيين فى أفريقيا وغيرها من المناطق التى كانت تؤلف المستعمرات الأوربية . وترتب على ذلك كله الاتجاه نحو دراسة المجتمعات والثقافات (البدائية) من زاوية جديدة ومن منظور جديد وبأهداف جديدة فى التخطيط للتنمية وتحقيق التقدم بدلا من مجرد رصد الظواهر المتعلقة بالنظم والانساق وبخاصة الغادة الغريبة التى تداعب خيال الرجل الأوربى . وانتقل هذا الاتجاه لدراسة المجتمعات والثقافات الوطنية والقومية إلى الأنثربولوچيين الغربيين فأخذوا يدرسون مجتمعاتهم المحلية هم أنفسهم مستخدمين المناهج والأساليب والطرائق المستخدمة فى البحث الأنثربولوچى التقليدى . وكان هذا تغيرا فى المجال فرضته نفس الظروف السياسية والاقتصادية الجديدة التى سيطرت على الربع الأخير بالذات من هذا القرن ، وأغلب الظن أنه سوف يستمر بل ويزداد وضوحا ورسوخا فى القرن الحادى والعشرين .

ورغم ازدهار وتقدم البحوث الأنثربولوجية الميدانية ، فإن هذا الازدهار له جانبه السلبى الذى تعانى منه الأنثربولوچيا لأنه يكاد يحرم (علم الانسان) من إنسانيته ، إن صح التعبير .. فالدراسات الميدانية دراسات جزئية لا تتعدى حدود الجماعات المحلية التى أجريت فيها ، ولم تعد تتمتع بتلك النظرة الواسعة الشاملة التى كانت تتمتع بها دراسات القرن التاسع عشر رغم ما يعيبها من عيوب منهجية . ثم إن البحوث الميدانية وبخاصة التى تتبع المدخل البنائى الوظيفى وتهتم بدراسة النظم التى تؤلف البناء الاجتماعى على مستوى مجرد يسقط الفرد من اعتباره تماما . وقد أخذ الأنثربولوچيون البنائيون الوظيفيوّن هذا الاتجاه بعد أن تقبلوا بدون مناقشة أو اعتراض القاعدة الدوركايمية الشهيرة عن ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية كما تدرس (الأشياء) ، على ما يحدث فى العلوم الطبيعية . وزاد الأمر سوءاً حين

بالغ بعض الأنثربولوجيين فى اضفاء الطابع العملى على بحوثهم بالاستعانة بالاحصاءات والأساليب الكمية التى تترجم البشر إلى مجرد أرقام صماء وأغفلوا بذلك أهمية تحليل (الظواهر) الانسانية على أنها أفعال وعلاقات (انسانية) فى المحل الأول ولا تخضع للقياس الكلى وإنما تحتاج إلى الفهم العميق . وبذلك أهدروا أهم جانب فى علم الانسان كما كان يفهمه علماء القرن التاسع عشر .

* * *

هذا الوضع يثير الأسى ويدعو إلى الأحباط فى نفوس الكثيرين من علماء الأنثربولوچيا الذين يتطلعون إلى تغييره مع بداية القرن الحادى والعشرين بكل ما يحمله من مظاهر وأساليب ووسائل التغيير فمستقبل الأنثربولوجيا رهن بالقدرة على تجاوز تلك القيود التى كبل بها الأنثربولوچيون أنفسهم حين قصروا جهودهم على دراسة الإنسان فى المجتمعات المحلية المحدودة المحددة والمنعزلة فى الأغلب ولم يتطلعوا إلى ما هو أبعد من حدود ذلك المجتمع المحلى الصغير وأغفلوا البعد (الانسانى) فى دراساتهم وتحليلاتهم .

هذا معناه أن عالم الأنثربولوچيا فى القرن الحادى والعشرين لابد أن يكون باحثا (إنسانيا) مثقفا بقدر ما هو عالم متخصص فى أحد فروع الأنثربولوچيا ، أى أنه لابد أن يكون على درجة عالية من الثقافة الواسعة العريضة المتنوعة التى تساعد على فهم الطبيعة الانسانية وليس فقط تفسير الظواهر أو النظم ، بل يعمل على فهم العمليات الذهنية التى تكمن وراء هذه الظواهر . ولكى يتحقق ذلك فإن شباب العلماء الذين سوف يحتلون الأماكن المرموقة فى هذا العلم يتحتم عليهم أن يتداركوا أنفسهم الآن بتوسيع مداركهم ونظرتهم فى مجالات العلوم الأخرى التى سوف تصب فى آخر الأمر فى علم الانسان وأن يفيدوا من نتائج هذه العلوم . وسوف يساعد على تحقيق ذلك نفس التطورات التى تحدث الآن فى العالم فى تلك العلوم والتى سوف تبلغ ذروة إنجازاتها فى القرن الوشيك على الوصول، وبخاصة التطورات الهائلة السريعة فى مجال المعلومات وسهولة الحصول عليها من مختلف أنحاء العالم بغير جهد يذكر فالسمة التى سوف تغلب على القرن الحادى والعشرين هى أنه عصر المعلومات، سواء من حيث الكم أم من حيث سرعة وسهولة التداول أم من حيث تنوع المصادر أم من حيث القدرة على استخدامها وتصنيفها وتحليلها

بالأجهزة الإلكترونية المتقدمة والمعقدة ، وهذا سوف يسهل بغير شك إجراء المقارنات بين الثقافات المختلفة المتباعدة والمتباينة لإبراز أوجه الشبه أو الاختلاف بينها وتعرف الأسس المشتركة التي قد تكون بين الانماط الثقافية المختلفة والإفادة من ذلك في التقريب بين هذه الثقافات المتباعدة . ففي عصر التنوير الذي يوصف به القرن الثامن عشر كانت تسود فكرة وحدة الطبيعة البشرية والعقل البشري ، وقد اختفت هذه النزعة تحت وطأة الاتجاهات التطورية التي سادت في القرن التاسع عشر والتي كانت تعمل على تصنيف البشر وترسيخ الفوارق بينهم ، ثم عجزت البحوث الميدانية التي ميزت القرن العشرين عن أن يتجاوز الحدود الضيقة التي فرضها الأنثربولوجيون على أنفسهم حين التزموا التزاما حرفيا بالمنهج العلمي التجريبي المتبع في العلوم الطبيعية وهذه نقائص سوف تعمل أنثربولوجيا ... القرن الحادي والعشرين على التغلب عليها من خلال إعادة تقييم رسالتها والرجوع إلى النظرة العامة الشاملة التي تأخذ في الاعتبار الإنسان من حيث كونه إنسانا ودراسة الثقافة الإنسانية في عمومها وشمولها .

ولن يعني ذلك رفض البحوث الميدانية الجزئية ، فهي خاصة من أهم الخصائص المميزة للأنثربولوجيا وأحد المعالم الأساسية التي يتمسك بها علم الانسان والمشتغلون به . وكل ما يعنيه ذلك هو أن الباحث الأنثربولوجي في بحوثه الميدانية سوف يجريها بنفس الدقة ونفس التعمق ونفس الالتزام بالمنهج والاساليب الانثربولوجية التقليدية ولكنه في الوقت ذاته يضع نظره على المجتمع الانساني بأسره ويدرك أن دراسته الميدانية هي حجر واحد في بناء شامل وشامخ يشارك فيه أنثربولوجيو العالم كله وأنه سوف يكون طيلة الوقت على صلة بالبحوث الأخرى المشابهة في كل أنحاء العالم إذا أراد ذلك ولابد أن يتجه ذلك الاتجاه حتى لا يتخلف عن سير الأنثربولوجيا في ذلك العالم ، وأن يعرض نتائج بحثه الجزئي في ضوء الجهود الأخرى المماثلة والتي تتيح له شبكة المعلومات التعرف عليها .

• الثقافة العالمية

بل الأكثر من ذلك ، فالأغلب أن يقوم نوع من التنسيق بين أعداد كبيرة من علماء الانثربولوجيا على مستوى العالم ومن كل المجتمعات ومختلف الثقافات لدراسة موضوعات معينة بالذات دراسة مركزة باستخدام أساليب البحث

الأنثربولوجى للوصول إلى تعميمات ترتكز على معلومات مؤكدة يقينية . أى أن الاتجاه نحو دراسة الثقافات العالمية واتباع النظرة الشاملة الكلية إلى المجتمع والثقافة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر سوف تعود مرة أخرى ولكن على أسس علمية سليمة . وسوف يساعد على ذلك الاتجاه ما يدور الآن من مناقشات حول النظام العالمى الجديد وإمكان قيام ثقافة عالمية موحدة يحب البعض أن يسميها بالثقافة الكونية أو أحيانا الثقافة الكوكبية ، وهى تسميات مهما يكن من فجاجتها وعدم دقتها إلا أنها تكشف عن النظرة العامة الشاملة التى تسيطر الآن على الأذهان ، والميل إلى تحقيق نوع من التقارب - وليس التوحيد بين تلك الثقافات بقدر الإمكان ، وإن يتعارض ذلك مع وجود فوارق أصيلة بين ما سوف يعتبر حينذاك بالثقافات الفرعية داخل هذه الثقافة العالمية الجديدة. والواقع أن قيام مثل هذه الثقافة العالمية كانت تراود أحلام عدد من كبار علماء القرن التاسع عشر أنفسهم . وربما كان أفضل مثال لذلك هو عالم الاجتماع والأنثربولوجى الأمريكى وليام جريهام سمنر صاحب كتاب «الأساليب الشعبية» الذى كان يحلم بإقامة ما يسميه (علم المجتمع) وليس علم الاجتماع يعتمد على ما يسميه أيضا بالتاريخ الكونى للثقافة حيث يمكن فيه أن يصل إلى المبادىء الذهنية والأسس العقلية التى يشترك فيها كل البشر على الرغم من الاختلافات الظاهرية التى تميز ثقافاتهم بعضهم عن بعض . فكأن أنثربولوجيا المستقبل التى سوف تصطبغ بالطابع الغالب على القرن الحادى والعشرين سوف تعنى بتوكيد وابراز وحدة الجنس البشرى والطبيعة البشرية ووحدة المبادىء التى تقوم عليها النظم والانساق المختلفة - رغم تباينها الظاهرى الناشىء عن عوامل أخرى خارجية . بل أن هذا التباين وتلك الفوارق الظاهرية سوف تدعو إلى احياء الاهتمام بدراسة الموضوع القديم الذى شغل حيزا كبيرا من اهتمام الأنثربولوجيين فترات طويلة من القرنين التاسع عشر والعشرين وهو الاختلافات العرقية والسلالية ، سواء من حيث الثقافة حيث الخصائص الفيزيقية والبيولوجية والفسيولوجية وأسبابها مع الإفادة من الاكتشافات المتلاحقة فى ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية ، وذلك فضلا عن مجالات البحث الجديدة التى لابد للأنثربولوجيين من ارتيادها والتى سوف تظهر كنتيجة مباشرة للتقدم الهائل فى العلوم الطبيعية

وعلوم الفلك وما يتطلبها من اكتشافات فى مجال الطب وبرامج ارتياد الفضاء وأعماق المحيطات وغيرها ؛ وهى كلها علوم تؤثر فى آخر الأمر فى الانسان والمجتمع والثقافة ، وهى الموضوعات التى يدور حولها مجال علم الانسان . وسوف يؤدى ذلك بالضرورة إلى اختفاء الحواجز التى كانت تفصل بين مجال الانثربولوچيا ومجالات هذه العلوم بحيث يهتم الأنثربولوچيون بالضرورة بدراسة المساحات المشتركة بينها جميعا من وجهة النظر الاجتماعية والثقافية ، بل ودراسة موضوعات كان الانثربولوچيون فى كثير من البلاد ، وبخاصة المجتمعات التقليدية يحاذرون من الاقتراب منها مثل السلوك الجنسى وأبعاده البيولوچية والفسيولوچية والفيزيقية والاجتماعية والثقافية على السواء .

والمهم من هذا كله هو أنه سيكون هناك فى القرن الحادى والعشرين نوع من العودة إلى النظرة العامة الشاملة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر فى مجال علم الانسان ، ولكن على أسس أخرى أكثر صلابة وعمقا وفهما ولن تعتبر هذه نكسة أو امتدادا إلى الوراء ، وإنما هى قفزة واسعة نحو فهم الطبيعة الانسانية فى ذاتها على أسس علمية ومنهجية سليمة ، ودراسة الجوانب والمبادىء العقلية والنواحى الوجدانية والعاطفية التى تؤثر فى السلوك الاجتماعى . وقد بدأنا نسمع بالفعل فى السنوات الاخيرة عن انثربولوچيا العواطف ، وأنثربولوچيا النظرة إلى الكون؛ وأنثربولوچيا الجسم وما إلى ذلك ، وكلها دراسات تعتمد ليس فقط على الملاحظة وتسجيل الملاحظات والمقابلات وإنما أيضا على الفهم وتعرف وجهات نظر الناس أنفسهم وتخطى الحواجز النفسية والاجتماعية والأيديولوچية بل والدينية التى كانت تمنع من الاقتراب من ميادين معينة

والغريب فى الأمر أن كل هذه الميادين التى ظلت مغلقة أمام الباحثين خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين ، كانت مفتوحة ومباحة تماما أمام علماء الانسان فى القرن التاسع عشر . ويبدو أن الدورة سوف تكتمل فى القرن الحادى والعشرين، وأن المسألة لن تخرج عن أن تكون مسألة «عود على بدء» ولكن بأساليب ومناهج أكثر دقة .

* * *

هذا فيما يتعلق بعلم الانسان بوجه عام ، ولكن ماذا عن الأنثربولوچيا أو علم الانسان في مصر القرن الجديد الذى يتقدم نحونا بخطى حثيثة ؟ هذا موضوع صعب وشائك نرجو أن نفرد له مقالا آخر .

عـالم الخـفـاء

بقلم : د. شكرى محمد عياد

عالم «المجوس» لإبراهيم الكونى هو عالم الميثولوجيا، عالم تسرى الحياة فى جميع عناصره من حيوان ونبات وجماد، وتدخل هذه العناصر كلها فى علاقات متشابكة ، توحى بأنها جميعاً جزء من «عائلة» واحدة ، يمكننا أن نسميها الكون. والعائلة الواحدة قد يبغى بعضها على بعض وهذا مايحدث فى الملاحم . ولكن الصراع الملحمى فى «المجوس» هو أساساً صراع بين الغائب والظاهر ، يمكننا أن نقول : بين الروح والمادة . فالطريقة الوحيدة للتعامل مع عالم الغائب هى أن نقيم بيننا وبينه رابطة ما: أن نحاول التفاهم معه بلغته الغيبية ، أحيانا بلغة السحر وأحيانا بلغة الدين وأحيانا بلغة الفن. على أن ثمة لغة مشتركة : الذهب !.



أى سحر فى بريق هذا المعدن الذى لاينطفىء أبدا ! سحر يفتن حتى الجن ، أما تجار الإنس فيمكنهم أن يرتكبوا كل إثم من غش وسرقة وقتل ليحصلوا على أكبر نصيب من هذا المعدن النفيس ، الذين تخلوا عن الذهب طواعية واختياراً هم فقط أولئك الصحراويون الرعاة ، المهاجرون أبداً ، الذين يعرفون أن قطرة ماء قد تساوى كل كنوز الأرض . الذين يجمعون الذهب هم التجار ، والذين يبحثون عنه فى الجبال والأدغال هم السحرة والعرافون .

ولكن القوة التى يحسب لها الجميع ألف حساب هى الرياح الجنوبية (القبلى) التى يمكنها أن تطمر الآبار وتغير معالم الصحراء . ويزعم العرافون أن القبلى غضب على أهل الصحراء قبل آلاف السنين فجفف أنهارها وملأها بالرمال . وقد نحت القبلى تمثالا فى فج بين أعلى جبلين شمال «تينبكتو» عاصمة الصحراء الكبرى ، رأسه معمم بقناع حجرى موشى بطبقة من الحصى يغطى العينين وينسدل حتى الأنف المكابر المنصوب إلى أعلى، نحو السماوا . يتربع على قاعدة صخرية متحركة ، ء ما يهدأ القبلى يولى التمثال وجهه نـ ر المدينة ، فإذا ثار استدار نحو الشمـ ، حيث ينفتح الفج عن هاوية ليس لها قرار . سماه العرافون «أمناى» ، وعرفوه للناس بأنه إله القبلى ، وأنه إذا جاع وأراد القرابين لم يهدأ حتى يلقوا أمامه ، فى الهاوية ، بأجمل عذراء .



ابراهيم الكونى

كان هذا شأن سكان الأدغال وأهل الصحراء الكبرى منذ أمد غير معلوم ، حتى غزا المرابطون الصحراء وطهروا العاصمة تينبكتو من عبادة الأصنام ، وبنوا حول التمثال الرهيب سوراً حجريا

القفز على الأشواك

حتى ينساه الناس ، ولكن العرافين الذين بارت تجارتهم ظلوا يذكرون الناس به كلما ثار القبلي ، ويمارسون سحرهم في الخفاء، إلى أن ضعفت شوكة المرابطين ، وطمعت فيهم قبائل الزنوج ، فتعاظم نفوذهم لدى السلطان ، وأصبح المكتوم من أمر الكفار (المجوس) معلوماً ، وتوارى الأتقياء والصلحاء ، واشتهر أهل تينبكتو و«آير» كلها بأنهم يتعاطون السحر .

أما وادي «أزجر» حيث تدور معظم أحداث الملحمة ، فقد استوطنته قبائل من الرعاة ، وربما اضطرهم الجفاف الطويل إلى الهجرة ، فيرحلون إلى «الحمادة» في الشمال ، ولكنهم غالباً قانعون بواديهم ، حيث يقيمون في حمى جبل «إيدينان» الذي يقيهم - بعض الشيء - من شراسة القبلي ، ويتعايشون في تفاهم وتراض مع سكانه من الجن .

تروي ملحمة «المجوس» أسطورة لأهل أزجر عن إيدينان وقرينه الجنوبي الذي تخلف عنه وبقي يقاوم القبلي وحيداً تقول الأسطورة إن القرينين انفصلا عن السلسلة الأم هرباً من الريح واتفقا أن يتولى «إيدينان» استطلاع الصحراء،توجه شمالاً متوجاً بأعظم صرح شهدته الصحراء على رأس جبل «ولم يكد يقطع السهل حتى اعترضه ملك الجن وقال له : نحن أيضا قررنا أن نستقر في أرض ونبني لشتاتنا وطنا ، أنهكنا التسكع في الفلوات وعانينا من اضطهاد الإنس الرجيم . جاء إلى الصحراء البكر الأعراب والمغامرون واللصوص . انتهكوها ونهبوا كنوزنا ، ولم نجد في القارة الصحراوية كلها سكنا أنسب ولا آمن من هذا الصرح العظيم الذي يقف على رأسك ، فهل تبيعنا نفسك مقابل أن نكفل لك الحماية من القبلي والرملة ؟» .

وبعد أن تمت الصفقة ، جاء دور الإنس . سكان الوادي فسلط الجن أسراب النمل على من يحاولون صعود الجبل من رجال الإنس ، وأطاشوا سهام الصيادين الذين حاولوا اقتناص حيوانات الجبل ثم قرروا أن يستردوا الكنوز التي سلبها منهم المغامرون .

وقرروا أن يتبعوا سبيل رجال الدين المزيفين الذين يبتزون أموال البسطاء بدعوى تعليمهم أصول الدين وإعادتهم إلى الصراط المستقيم ، فبعثوا واحدا منهم ادعى أنه من أتباع الطريقة «التيجانية» وراح يعظ أهل السهل قائلا إن الذهب والله لايجتمعان في قلب العبد . فردد أهل السهل هذه الحكمة ، ثم شاعت في الصحراء ، حتى أن النسوة أخذن يتخلصن من حليهن الذهبية بدفنها في الرمل . ومع أن اختفاء الشيخ التيجاني فجأة أثار شكوك البعض ورأوا في دعوته الإصلاحية حيلة أخرى من حيل الجن ،

لاسترداد الكنوز التي كانت في الأصل ملكاً لهم ، فقد اتفق الفريقان ، فريق المؤمنين وفريق المتشككين ، على تحريم الذهب باعتباره معدن الجن ، ولا يعادي الجن إلا من سلم روحه لهم (ج١ص٥١-٥٦) .

● نصائح العجائز

هكذا ظل الأمن مستتبا بين سكان السهل وأهل الخفاء ، إلا من حوادث فردية طفيفة كحادثة العجوز «راتا» التي كان الصحراويون يؤرخون بها فيقولون : عام اختطف الجن العجوز راتا» . كانت راتا تغري حفيدها كل ليلة كي يبيت بجانبها خوفاً من زيارة الجن لها وذات ليلة حكت له قصتها ، حتى يعرف «مايحدث للمعاندين الذين يخالفون نصائح الأمهات والجدات» ، طالما نصحتها العجائز ألا تتسكع في الرماد القديم الذي تتركه النجوع المهاجرة ، ولكنها فعلت ذلك ، وخالفت نصائحهن وحين رأت في الرماد حلقة معدنية في حجم القرط أعجبتها فأخذتها وهي تظنها من النحاس، وربطتها في طرف خمارها ، ونسيتها أياماً ، فرآها راع وسألها إياها ليرسن بكره ، ثم سافر إلى الشمال حيث بشر رجال الاستطلاع بأن ثمة وديانا خضراء خلقتها سحب عابرة . لم تر الراعي بعد ذلك ولا بكره ، قبل إن الراعي مات من الظمأ قبل أن يصل الي الوديان الخضراء ، وإن البكر تاه فالتقطه قطاع الطرق ونحروه ولكن قبل أن تسمع بما جرى للراعي زارتها بعيد الغروب امرأة ملتحفة بالسواد ، حسناء فرعاء وطفاء ، لم تر لجمالها نظيراً في الصحراء ، قالت لها الزائرة : «أنت رفست ولدي وأخذت حاجتي» . أنكرت راتا أنها فعلت شيئاً من ذلك ، فقالت لها الزائرة : «ألم تأخذي حلقة الذهب من الرماد القديم ؟ ألم تتسكعي في الأرض المهجورة وتتمرغي في التراب؟» هناك تذكرت راتا ماجرى، تذكرت ايضا تحذير العجائز من اللعب في رماد النجوع المهاجرة لأنه المنزل المفضل لقبائل الجن حين تتعب من الترحال . حاولت أن تدافع عن نفسها بأنها لم تر أثراً لولد ، ولم تأخذ إلا حلقة من نحاس ، فقالت لها الزائرة بغضب : أنتم لاتبصرون، عيونكم كبيرة ولكن كلكم عميان . لم ترى الولد ولكنك رأيت الحلقة. تقولين إنه نحاس ولكنه لماع وأخاذ وإلا لما امتدت يدك إليه .. أنتم دهاة لأنكم لاترون إلا الأشياء التي تريدون رؤيتها» ثم أكملت بنغمة أخرى : «الذهب حجابنا - حصننا كتابنا ، أنتم تحتمون بالقرآن وتعاويذ السحرة ونحن نحتمي ببريق سيد المعادن، نعميكم بالبريق لنتقي شركم. أعيدي حجاب الولد.» .

وعدت راتا أن تعيد الحلقة حالما يرجع الراعي . وحين انصرفت الزائرة رأت لها ذيل أفعى مرضت راتا ولزمت الفراش أياماً كثيرة ، وعندما علمت بهلاك الراعي

ذهبت إلى العرافة ، فقالت لها إن أهل الخفاء نبلاء رحماء ولكنهم لايغفرون الحنث بالوعد ، كانوا يزورونها بعد ذلك لم يضربوها أو يعذبوها ولكنها كانت تفزع وترقد مريضة بالحمى بعد كل زيارة جاءها زوج الحسناء مرة فى صورة آدمى مقطوع الرأس ومرة فى صورة مارد رأسه فى السماء . هكذا روت الجدة قصتها للحفيد وهو بين النوم واليقظة .

وفى الصباح كانت الجدة قد اختفت ، غابت خمسة أيام وأهل النجع يبحثون عنها بلا جدوى . وفى اليوم الخامس جاءت بها قافلة محمولة على ظهر جمل ، وماتت بعد أيام . (ج٢ص ١٥-٢٣)

حكمة الأجداد

حفظ أهل الصحراء حكمة الأجداد: «أن تقطع يدك خير من أن تمتد إلى الكنوز» وسلموا بأن الأرض ليست ملكا لهم وحدهم ، وأن بئراً فى الصحراء أثمن للراعى من كنز . ولذلك كان اكتشاف الدرويش أن المدينة التى بناها المهاجرون من تينبكتو ، عند سفح إيديتان ، تتعامل بالذهب ، بادرة شؤم . لم يكن للدرويش شأن بمعدن الجن والتجار كان يتعامل مع كائنات أخرى . يرتزق ببيع الحطب ، ويتصدق ببعضه على من هم أفقر منه .

وكان يقطع الأعواد الجافة من شجر الطلح ، الأعواد الجافة فقط ، لأنه يشفق على الشجر الحى ، ويقول عنه إنه أولاده ، كما يقول إن الذئاب عشيرته ، لأن جده أرضعته ذئبة ، وتروى الملحمة كيف حنت عليه الذئاب وهو جريح ، وحرسته طول الليل ، إلى أن مرت قافلة فحملوه إلى النجع .

رفيقه «أوداد» أيضاً يأنس بحيوانات الجبل ، ولاسيما الودان ونعرف فى الفصول الأخيرة من الملحمة أن أمه كانت عقيما ، إلى أن تمثل لها الودان المقدس وعرض عليها أن يهبها الولد . بشرط أن تهبه له فيما بعد ، قبلت الشرط وجاء الولد . وحين كبر أوداد وتعود الخروج من السهل إلى الجبل قالت له «لتعرف أصلك» لاهى صرحت ولا هو أدرك ، ولكن الحكمة لم تفته حين أمسكه الودان الجد بقرنية وهو يوشك أن يهوى من فوق الجبل.

مزيج عجيب من المعتقدات العتيقة والإيمان العميق ، يجمع بينهما شعور غامر بوحدة الكون ، فتشيع في جوانب الرواية -رغم إطارها الملحمي - نفحة صوفية ويأتي سقوط النجع والمدينة معا أمام الجيش المثلث من الهمج والوحش والجن ، أشبه بإشارة أو نبوءة ، مثل الإشارات الكثيرة المنبثة فى هذه الرواية - الملحمة - الأمثولة .

أقوال معاصرة


نجيب محفوظ


ادوارد سعيد


هنرى كيسنجر

● « لم أتعلق بشىء إلا بعملى الأدبى » .

الأديب نجيب محفوظ

● « شعرى يشكل الرئة الحقيقية التى أتنفس منها ، دونه كون إنسانا معدوم الوزن » .

الشاعر العراقى مظفر النواب

● « ما يقلق هو ظهور جيل شاب فى العالم العربى يتصف بالأمية ، ولا تحفزه أمثلة قيادية » .

المفكر الفلسطيني د. إدوارد سعيد

● « النظرة التاريخية واعتبار النسبية ضروران للتخلص من حالة الإحباط وأيديولوجية التنظير للهزيمة والسقوط » .

المفكر المغربى د. محمد عابد الجابرى

● « الفنان لا يكون شاهد عصره ، إلا فى وجود حرية التعبير » .

الممثل نور الشريف

● « القول بجنون المبدع فكرة شائعة ، يغلب عليها السوقية والابتذال » .

الأديب المصري إدوار الخراط

● « يجب الا نسمح بأى توقف مرحلى فى عملية السلام »

يفجنى بريماكوف

وزير خارجية روسيا

● « أيا كان الوضع القانونى الرسمى للوجود الفلسطينى، فإن مختلف دول العالم ستعامله كما لو كان وجودا مستقلا ذا سيادة » .

هنرى كيسنجر

وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● « من العسير التعليم بأن العالم قد تغير ، وبأن الفضائل القديمة لم تعد فضائل » .

المؤلف الأمريكى لستر ثارو

صاحب كتاب الصراع على القمة

ماذا طرأ على

شباب مصر؟!

الشباب يحتاجون إلى الاحترام لا الإنكار

بقلم : د . يحيى الرخاوى

لابد من التنبيه ابتداء على أن أغلب الذين يتكلمون عن الشباب - مثل حالتى الآن - ليسوا شبابا والخوف كل الخوف أن يتكلموا إما عن شبابهم هم، أو عن تصوراتهم عن الشباب، وليس عن هؤلاء الشباب اللحم الحى الذى يسير حولنا، ويثيرنا، ويحملنا مسئولية ما آل إليه وهو يحاول ما استطاع أن يستمر بأى صورة كانت .

ثم إن كل ما يمكن أن يرصد فى مسألة الشباب إجابة عن «ماذا جد عليهم ؟» ومن هم، وكيف هم، له أكثر من وجه، بمعنى أنه من الخطأ تصنيف الظواهر التى نرصدها حول تحولات الشباب بلغة أحادية اللون (أبيض، أسود، أحمر..إلخ) ، أو استقطابية الأبعاد : بمعنى أن المسألة ليست مظاهر سلبية فى مقابل مظاهر إيجابية ، أو سيئا مقابل حسن ، أو جماعات مقابل منحلين، أو غربيين مقابل سلفيين ، إلى آخر هذا التصنيف السريع بل إن النظر وراء كل ظاهرة سواء كانت سيئة أم حسنة فى الظاهر قد يظهر لنا بعدا أعمق يهدينا إلى حكم أشمل وأصدق .

وكذلك فإن حل المشاكل واختبار الفروض على الورق. دون الواقع ، هو أخطأ ما يمكن أن نعالج به أمور الشباب، فالمسألة ينبغى أن تتناول حيثما هم، كما هم، بما هم، إلى ما يمكن ويتطور، وليس بالضرورة إلى ما نرى ونجزم .



نعود إلى السؤال المطروح : ماذا طرأ على شباب مصر أخيرا؟

سؤال صعب إذا شئنا أن نكون عند حسن ظن السائل ، إذ من يعرف ؟ ومن يجرؤ أن يجزم ؟ ومن يخطىء فيعمم ؟

وفى محاولتى للإجابة عن هذا السؤال أبدأ بإعلان بعض تحفظاتى ، وتحديد بعض مصادرى على الوجه التالى :

أكتب كلامى هذا باعتباره نتاج وجودى بين الناس ، ومنهم شباب هذه الأيام ، مضروبا فى تكوينى العلمى والأكاديمى الذى أصبح بعض ذاتى ، فأعرض رؤيتى فى شكل فروض تسير بنا فى اتجاه يمكن أن يلقى بعض الضوء على ما يجرى ، وما قد يصير.. وإذا طرحنا جانبا ما يمكن أن نرجع إليه من نتائج الأبحاث ذات الأعداد المؤلفة «بالألف» والتى عادة ما تعتمد على صيغة أسئلة يجاب عنها بالإيجاب أو النفى أو غير ذلك، باعتبار أنها مجرد مصدر واحد ما زالت مصداقيته مقولة بالتشكيك لا بسبب عدم الدقة أو عدم الكفاية ، وإنما بسبب صيغة المنهج المحدودة الدلالة ، إذا طرحنا هذا المصدر جانبا - على الأقل فيما يخص هذا المقال- فمن أين أستلهم الفروض لأعرض رؤيتى

إننى أرى أن الانطباع بالممارسة الصحيحة ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار وخاصة من كبار السن الذين أتيحت لهم فرصة مواكبة أجيال مختلفة ، وأعنى بالممارسة الصحيحة تلك العلاقة العميقة الممتدة مع الشباب فى ظروف مختلفة كالتى تتاح للمدرس الحقيقى ، والطبيب الحكيم ، والمدرب الصديق .. والوالدين اليقظين .. الخ، على أن ثمة مصادر أخرى لا يمكن إغفالها رغم أنها تهمل فى العادة، وذلك مثل إبداعات الشباب أو الإبداعات التى تحكى عن الشباب ومثل مزاج التلقى عند الشباب ، أى النظر فيما يختاره الشباب ليملأ به وعيه ، أو يستجلب به بهجته ، أو يخدر به انتباهه ، أو يقتل به وقته ، أو يحيى به وقته ، أو يحقق به لذته ، أو يهرب فيه من ألمه ، أو يلهى به نفسه ، أو يبرر به حياته ، وهذا - كما ترى - يشمل عالما بل عوالم زاخرة من النشاطات والممارسات المتعددة المشارب والأشكال، بحيث يكاد يشمل كل شىء من أول الأغنية التافهة حتى الالتزام بالصلاة بالمسجد أو الانتماء إلى الجماعات أو شمة الهيروين .

لكل هذا فإننى أعلن ابتداء أننى أكتب من واقع ما تجمع لدي - فنّ - تلقائيا من خلال الممارسة الإكلينيكية من ناحية ، وبالذات من خلال العلاج الجمعى ، وإلى درجة أقل من خلال دورى كأب وكأستاذ ، ثم نظراتى فى المصادر السالفة الذكر مع استثناء المصدر المعلوماتى الكمى المجرد .

وانطلاقا من ذلك أقول

إن الشباب فى مصر يمر بأزمة

خطيرة خطيرة ، حتى أقول إنها تكاد تبدو لى أحيانا أنها أخطر ما عرف فى التاريخ «تصور مدى فزعى !!! »

وعلى هذا الأســاس، سوف أعـرض بعض المظاهر ، دون أن أصنفها ابتداء : إلى سلبيات وإيجابيات ، لأننى سـوف أمـارس لعـبـة تسـمى « ..نعم.. ولكن» ، بمعنى أن الواحد منا قد يذكر مقولة أو يطرح أطروحة أو يبدى رأيا، لكنه سرعان ما يردفه بما يخففه أو يناقضه أو حتى ينفيه ، وهى لعبة لها وجه سلبى حين تكون وظيفتها تأكيد الميوعة والتخلى عن مسئولية التحديد ، ومثال ذلك : نعم أنا مخطىء فى حق فلان ، ولكن هو الذى بدأ وهو يستأهل أكثر من ذلك «فقد نفى بهذا الاستدراك ما جاء فى الجملة الأولى» كما أن لها وجها إيجابيا : حين تكون طريقة فى التعبير الدال على الرؤية الأشمل واحتمال الخطأ مثل : نعم نحن - المسلمين هم الذين سوف يدخلون الجنة فحسب ، ولكن الله أرحم وأعدل من كل ما نتصور ونعرف، وهكذا .

وبما أنه لا يمكن التعميم ، فسـوف أقدم دائما تمييزا كميا يحدد رؤيتى بقدر الاستطاعة ، «تمييزا مثل : بعض ، كل ، أغلب قلة من ... ، إلخ» ، وسأضعه بين قوسين فى بداية كل فقرة ، وإليكم رؤيتى :

١- «أغلب» الشباب المصرى اليوم لا يتقن شيئا ، ولا يتعمق فى شىء، لغته مترهلة تقريبية ، ومعلوماته حرفية سطحية، وعلاقاته سريعة مجهضة «الأمثلة: أغلب طلبة الجامعة وخريجيها وصغار هيئات تدريسها وجمهرة غالبة من الموظفين بلا وظيفة : فى الحكومة والقطاع العام » .

إنجازات الشباب

ولكن ..

إذا أتيحت لهؤلاء الشباب الفرصة فى ظل منظومة محكمة ، ومتابعة ملاحقة ، فإننا نفاجأ أنه أنجز وتعمق وأتقن ، وأضاف «الأمثلة : شبابنا فى الخارج ، وبعض قفزات إنجازات الداخل فى مجال السياحة أو التجارة وليس فى مجال البحث العلمى أو فدادين الاستصلاح الخمسة(!!) للأسف»

٢- «أغلب الشباب المصرى تنازل عن حقه فى الحلم، وفى الخيال، وفى الأمل، بحيث أصبحت قياساته آنية، ومطالبه عاجلة ، وحكمه فورى .

ولكن ..

إذا ضاق به الواقع فإنه قد يندفع إلى خيال أسطورى جامح ، وبعضهم يروض هذا الخيال فيحقق به واقعا أقوى من الخيال ، مثل شطحات الهجرة الناجحة ، وإنجازات الإبداع الواعدة والمتزايدة .

٣- «أغلب» الشباب المصرى يفتقر إلى الإبداع ، فهو إما نسخة مكررة من

صورة سلفية (وليس من إبداع السلف الصالح) . وإما أراجوز نشيط يقلد المستورد من الخواجات بلا إضافة ولا تمييز .

ولكن ..

يبدو لي في كثير من الأحيان أن هذا جمود مرحلي يعلن الشاب من خلاله موقفا احتجاجيا . وفي نفس الوقت ينذر بانقضاض خطير ، وقد يتم هذا الانقضاض باختراق التقاليد فالإنطلاق الإبداعي، كما قد يتجه إلى عكس ذلك حسب الفرص المتاحة .

٤ - (أغلب) الشباب المصري شاخ قبل أوانه ، ولبس عمامة الجد الصارم ، فنحن نرى الآن القيم الأخلاقية (التقليدية عادة) والدينية (الشكلية عادة) تتجه من تحت إلى فوق ، من الأبناء إلى الوالدين، وليس العكس كما كان مألوفا ، فالابن هو الذي ينبه والده إلى الحفاظ على الصلاة في المسجد كل الأوقات ، والبنت تنصح ، وأحيانا تفرض على أمها لبس الحجاب ، ولا اعتراض على ذلك من حيث المبدأ ، لكن مايصاحب هذا الموقف الوعظي ، والإرشادي ، يكون عادة اتباعا حرفيا لظاهر وطقوس الدين دون إكمال الحوار مع الله ، أو مع النص أو مع الآخر ، فيصبح الشاب عجوزا يصدر أحكاما ، وليس مستكشفا يطور موقفا .



ولكن ..

الشباب والفضيلة

هذا الموقف الأخلاقي (السطحي) الكهل، يعلن في داخله حاجة الشباب الى الفضيلة، والرغبة في الالتزام، صحيح أن ما أتيح له من ممارسات ومفاهيم حول الفضيلة كان مختزلا وظاهريا، ولكن مجرد الاهتمام بما يجب وما لايجب هو إعلان ضمني بأن الشاب يحاول أن يأخذ المسائل جدا لا هزلا، وأنه حريص على الحصول على منظومة ما من القيم، وأنه لم يجد «تشكيلة» كافية في سوق القيم المعروض عليه، فاكتفى بالجاهز الواضح مهما كان سطحيا أو مختزلا.

٥ - (كثير من) الشباب المصرى انفصل عن كل ماهو مصرى، وكل ماهو عربى، وكل ما هو أصيل، وكل ماهو تراث، ويمثل ذلك هذه الفئة من الشباب التى تربت فى المدارس الخوجاتى (تعمدت استعمال كلمة خواجاتى دون اللفظ العربى «الأجنبية»، ومنها إلى الجامعة الأمريكية أو الخارج، فالبنوك وشركات الاستثمار وما أشبه.

ولكن ..

بعض هذا الفريق بعد ان ينجح ويستقر يجد نفسه - إذا لم يهاجر - فى أرضه، والبلد يواصل المسير بفضل انفصاله وبالرغم منه فيتحرك فيه ما يجعله يؤلف ثلة، فجماعة، ففريقا، فناديا، فأرضا، فمصلحة مشتركة، فوعيا مستقبليا، فوطنا جديدا.

٦ - (كثير من) الشباب المصرى تبلد إحساسه، فلم يعد يشارك لا فى الرأى ولا فى الرؤية، بل لم يعد يتعاطف لا مع مشاكل وعواطف الأسرة، ولا مع الناس: لا ناسه (مواطنيه) ولا الناس عامة.

ولكن ..

هذه المسألة بالذات لاتخص الشباب فحسب، والنظام مسئول عن مثل ذلك، فالمشاركة بالرأى لا تصبح عادة متنامية إلا إذا أثبتت فاعليتها، والمشاركة بالعواطف فقط هى نوع من الطفلية الخائبة إن لم يصاحبها رأى متولد من مصداقيتها، ومن ثم دافع الى التغيير، وما دام لا هذا ولا ذاك هو فى أفق المتاح حاليا، فإن الشباب لايشارك، وهو سوف يشارك حين يجد نفسه فى مجتمع يضع المشاركة فى موقعها الحقيقى، كجزء لايتجزأ من صنع القرار.

٧ - (أغلب) الشباب المصرى ساخط يلقى اللوم، بحق وبغير وجه حق، لدرجة تشعر معها وكأنه يتصيد الأخطاء لا يلاحظها، أو حتى يرصدها، وهو يلعن كل شىء وكل أحد (من باب الأخذ بالأحوط)، ولا يعطى بديلا.

ولكن ..

أليس هذا هو مـابقى له من إعـلان

لموقفه ورفضه ، ثم إن هذا السخط المتواصل ، رغم سلبياته الأكيدة ، هو رؤية حادة ، قد تخفي جوانب جيدة لاينبغي أن يتعامل معها بنفس نوع السخط والإنكار ، ثم إنه من ناحية أخرى نوع من الصراخ بأنه : ما لم تنصلح الأصول حقيقة وفعلا ، فإن الإصلاحات الفرعية والثانوية والظاهرية هي تسكين لايجوز عليه ولا فائدة منه .

٨ - (فريق من) الشباب يريد أن يثور، وأن يعترض ، وأن تتحدد هويته ، فيندفع بحماسه الفائق الى مثاليات رافضة ، تحت عناوين وشعارات قيم مقدسة (مصنمة) ثابتة ، ثم يجد نفسه جاهزا للفعل بعد أن يئس من كل سبيل أخر .. فيعصبون عينيه بعد أن جمدوا فكره ، ويسلمونه السلاح ، ويعدونه بالجنة، وهات ياقتل وياتخريب ويا إرهاب .

ولكن ..

هل وجد الشباب سبيلا آخر للثورة والاعتراض وتحديد الهوية ، سبيلا حقيقيا فيه من الاحترام والمشاركة والإبداع ما يحقق له نتائج اندفاعته ، ومشروعية رفضه في إطار واقع حقيقي ، ثم ترك كل هذا وراح يختار ذلك الطريق الآخر المدمر والمخرب ؟

وعلى الجانب الآخر

٩ - (كثرة من) الشباب المصري قرر أن يستقل عن الدولة وعن التبعية ، فراح يمزق (أو يركن) شهاداته ويتعلم الحرف ، وراح يغلق المذياع بل والتليفزيون ويسمع الكاسيت ، (حتى لو أسميناه نحن هابطا) والقادر منهم راح يرفض تعليم الدولة ويلتحق بالمدارس الأجنبية والجامعة الأمريكية وما يماثلها إن وجد (مثل بعض المعاهد والكليات التكنولوجية الخاصة الجديدة) ، وكل هذا يقول إن الشباب أزاح ، أو يزيح الوصاية ، ويبحث عن البديل .

● اللغة الجديدة !

ولكن ..

هذا الاستقلال هو استقلال عشوائي ، وكل فرقة مستقلة ، تصنع لها جزيرة خاصة ، بل تكاد تؤلف لها لغة خاصة ، وشفرة خاصة . وهوية خاصة ، ولعل ما نسمعه عن اللغة الجديدة (مبة مية ، إلى هوه ، دماغ .. إلخ) ، ونبكي من خلاله ، أو نتباكى ، على اللغة المهذبة ، واللغة الدمثة ، وأحيانا اللغة العربية ، لعل في كل ذلك مايؤكد ما ذهبت إليه مما أسميته الجزر المستقلة ، وبالتالي فلن يكون هذا الاستقلال إيجابيا إلا إذا تجمعت هذه الجزر في مجرى النهر الواحد ، أو حتى داخل البحيرة الواحدة .

١٠ - (بعض) الشباب اندفعوا إلى محاولات الإبداع بصدق واعد ، ورغم قلة فرص النشر وقلة فرص النقد ، فإن

الجـهـود الذاتيـة ، والمسودات المتاحـة ، وبعض جـهـود قـصـور الثقافة وما أشبه تشهد جميعا أنها موجة حقيقية من المحاولات الجادة والعميقة ، وحتى المحاولات التى يقال إنها تافهة ومشوهة ، (مثل الحال فى الأغنية الكاسيت ومطربى الصحراء والعشوائيات .. إلخ) هى محاولات إبداعية بحق ، تترامى فى إزعاج هنا وهناك ، ولكنها تعلن رفض السكون والاستسلام ، ورفض القديم والوصاية ، بل إن إبداع الشباب امتد إلى مجال الكمبيوتر فبرز منهم فريق أتقن إبداعات البرامج الجديدة ، وفريق آخر أبدع سرقة البرامج الجاهزة والمشفرة ، ورغم أنه إبداع يبدو غير مشروع ، إلا أنه وفى الدول النامية ، وبالنسبة لهدف هذا المقال هو إبداع فعلا يتجاوز البعد الأخلاقى والقانونى .

ولكن ..

إن الافتقار إلى الإتقان ، والإيقاع الهادئ والمثابرة ، والحوار والنقد جنبا الى جنب مع كثرة الهجوم دون تمييز بالإضافة الى الاستهانة ، والسخرية ، والتذكير بالماضى ، والقياس بالراسخ والمألوف ، كل هذا قد يجعل هذه الجزر تزداد استقلالا دون النظر إلى القوارب المحيطة ، أو النهر الجارى ، أو حتى البحيرة الخاصة .

١١ - (قلة أخرى من الشباب يتقنون التقليد ، تراهم وهم ينسخون بعض النشاطات كما سبق ذكره بشأن «سرقة» برامج الكمبيوتر كما تراهم يؤلفون الفرق التى تغنى بلغات مختلفة وتصل درجة التقليد أنك تفاجأ بنفس الشاب (الشباب) المغنى الذى كدت تحسبه «خواجا» وهو يغنى مرة بالفرنسية ومرة بالانجليزية ، تجده وقد قلبها كارم محمود ، ويا حلو ناديلى ، وقيد قناديلى ، بنفس الإتقان والحبكة ، وإتقان التقليد هذا ليس بالضرورة تنازلا عن الهوية ، فنهضة اليابان (فبقية شرق آسيا) كلها مبنية على إتقان التقليد ، ثم إضافة شديدة التواضع ولكنها شديدة الدلالة ، فهذا التقليد - بإضافة أو بدون - هو ظاهرة جدت عند شبابنا ، وهو ظاهرة واعدة مهمة .

ولكن ..

يبدو أن هذا التقليد لايمكن الاكتفاء به أو الاطمئنان إليه مالم يتميز المقلد - فى النهاية - عن الأصل ، ثم إن التقليد اذا أصبح هو نهاية المطاف فإنه يمكن أن يقوم بما يشبه انتزاع الجذور ، بدلا من التطعيم بفرع فاكهة جديد ، فهذا النوع من الإنجاز الماهر قد يصبح مبررا للتخلى عن الأصل ، وكافيا للاستمرار نسخة مكررة بلا إضافة ، فهى ميتة لامحالة .

١٢ - (كثرة مناسبة من) الشباب الذين يسافرون ، خاصة إلى البلاد العربية، إما بما يسمونه «طرزان» (أى

مغامر يحط حيث يصل به الترحال) ، وإما بعقود متواضعة وظالمة ، قد أظهروا قدرة هائلة على التحمل في سبيل لقمة العيش ، فرضوا بأصعب الفرص ، وعاشوا في أدنى مستوى ، وتحملوا أقسى المعاملة ليرجعوا ، لعلهم يبدأون من جديد ، يبدأون بما يمكن أن تستمر معه حياتهم ، وبذا يثبتون – رغم كل شيء – حبهم للحياة وقدرتهم على الاستمرار تحت كل الظروف .

ولكن ..

هذا التحمل فوق طاقة البشر سمح لمن تحملوهم من أصحاب المال والأعمال في الغربة أن يسيئوا التأويل ، وأن يتمادوا في الإهانة ، وأن يغرقوا في التهديد والتحقير ، بدرجة يضطر معها هؤلاء الشباب أن يبلعوا كل شيء حتى الشعور بالكرامة ويعودوا يوجهون عدوانهم واحتجاجهم ، ليس على من أهانهم ، وحقرهم ، ولكن على بلدهم وذويهم ، وهم بذلك يفقدون كل شيء رغم كل شيء ، ثم يجدون أنفسهم إما مشلولين معتمدين على ماجمعوا لا أكثر أو متسولين يشحذون مالم يجمعوا ، هذا غير الاحتمالات الأخرى الأخطر مثل الانضمام إلى الجماعات ، أو المافيا ، أو الانسحاب تماما بالمرض أو المخدر أو الموت .

١٣ – (عدد متوسط من الشباب تعلم المثابرة من خلال تكرار المحاولات ، وتغيير المهن حسب الحاجة ، وكذلك التنقل بين بلدان العالم من أدنى الأردن الى أقصى نيوزيلاندا مارا بالخليج وإيطاليا والنمسا وغيره ، وهم بذلك، يثبتون أن حبهم للحياة، ومقاومتهم للاستسلام ، قد سمحا لهم بوفرة الحركة والتنويع ، وأيضا بالوقوف بعد الوقوع مرة ومرات .

ولكن ..

● قوة طاردة

صاحبت – في أغلب الأحوال – هذا النشاط المتنوع ، وهذه الحركة المتدفقة درجة كبيرة من التشتت والانفصال، وكم غائر من الاحتجاج واللوم موجه إلى من اضطروهم لمثل هذا ، وبدلا من أن تكون الحركة ثروة حياتية متفجرة ، أصبحت قوة طاردة ملاحقة ، فأصبح ما تحقق من خلالها – في كثير من الأحيان – أقرب الى حركة النيازك المنفصلة منها إلى الدوران بعيدا ولكن منجذبا إلى الكوكب الأم .

وبعد :

فإن أخشى ما أخشاه أن تصل هذه المقالة بالقارىء إلى ربكة غير مفيدة ، فكل ماهو سلبى قد يحمل مبررات تفسره ، وقد يحتوى إيجابيات يمكن أن تعدل مساره وتطوره الى غير ما بدأ به .

وكل ماهو إيجابى معرض لتغيير اتجاهه ، وتحطيم إنجازاته .

هذا فضلا عما يمكن أن يشعر به القارىء من احتمال ميوعة موقف الكاتب وتلاعبه .

ليكن :

إلا أننى أدعو القارىء أن يفترض اجتهادى ، وأن يشاركنى المحاولة ، وأن ينتبه إلى أن هذا الموقف هو ضرورة تقتضيها الحال الخطيرة التي وصل إليها شبابنا ، والتي لا يحلها أن نتهمهم كلهم إما بالإرهاب أو بالانحلال ، إما بالتفاهة أو بالتعصب ، إما بالعناد أو بالاعتمادية ، إن الأمر خطير ، وشجب السلبيات وتعدادها لايكفى .

كذلك فإن رصد ملامح الثورة الشبابية دون الانتباه إلى صعوبة الظروف المحيطة، وخطورة الانحرافات المحتملة نتيجة للافتقار إلى الحذر ، أو التسليم إلى خدر الحلم أو وهم الحرية ، كل هذا خليق بأن يهدر كل إيجابية محتملة الرصد واعدة بالخير .

المطلوب من كل مخلص ألا يكتفى بالسخط والشجب والحكم الفوقى .

المطلوب من كل وعى صادق ألا يتوقف عند احترام المحاولات المتناثرة هنا وهناك ، فيكتفى بالتصفيق لما يشبه الثورة مما لا يكتمل ، ولا يستمر .

إن المسألة تحتاج الى صبر محب للحياة ، وفهم لنفوس هؤلاء الناس الأصغر، فهم يسبقه ويواكبه قدر هائل من الاحترام لا التفويت ، ولا الإنكار ، جنبا الى جنب مع ما ينبغى من الحذر ، ويدعم هذا وذاك التقدير العميق للأمر من المرّ الذى رماهم على المر الذى هم فيه .

كما تحتاج المسألة الى تعهد كل محاولة ، وتنمية كل إيجابية ، وتأمين كل استمرار .

لم تعد تكفى لهجة : كنا .. وأنتم ، أين أيامنا ، أين أيام زمان .. ماهذا الذى تسمعون ، ماهذا الذى تفعلون ... الخ

لم يعد يكفى هذا المقال ومثله ، فهم لن يقرأوه، وإذا قرأه بعضهم فسوف يبتسم، والآخر - الأطيب منهم - سوف يشفق على كاتبه .

لم تعد تكفى إدارة حوارات بلا حوار، ومحاولة الإقناع بما لسنا نحن مقتنعين به

المسألة صعبة ، والجهد لازم ، والحل ممكن .

ليس قريبا ، لكنه ممكن .

طبعا !!!!!!

وإلا فلماذا ، وكيف ، تستمر الحياة ؟

الفكاهة الدينية

الفكاهة ليست حراما

بقلم: صلاح الدين عبدالله

«أشتهى أن أرتكب كل معصية فى الدنيا حتى إذا لم يبق من عمرى إلا عام تمنيت أن يمسخنى الله كلبا لأعض الحجاج».

أبونواس

بين الدين والفكاهة مماسة خفيفة لكنها تكاد تبلغ أعمق الأعماق، لأن الدين يعلن دائما عن ملكيته للحقيقة المطلقة ويعمل من أجل المثل الأعلى كوسيلة وحيدة لتصحيح الواقع، فحتى حين يتعامل الدين مع الواقع فإنما يتعامل معه بنظرة تتعالى عن أغلاط الواقع لتصل به إلى أحسن مايمكن الوصول إليه، وهو فى عملية التصحيح هذه يلامس الفكاهة من جانب لأن الفكاهة أيضا تحتكم إلى فكرة النموذج، بمعنى أنها تحاول الكشف عن إنحرافات الواقع، على أن هذا الكشف إن هو إلا باب من أبوابها فلها أبواب أخرى، منها سرعة البديهة ومنها المفاجاة التى تقلب الموازين عند المتلقى على نحو ماقيل لامرأة (أيهما أحب إليك الحب أم التمر... فقالت: التمر - ما أحببته قط) ومنها القلب والعكس على نحو ماقيل لرجل (ما المروءة؟... قال: ترك اللذة... قيل له: فما اللذة؟... قال: ترك المروءة).

غير أن هذه المماسة - الخفيفة العميقة - لاتعنى أنهما يركنان إلى مصالحة وديعة لأن علاقة الفكاهة بالنموذج لاتستهدف تصحيح الواقع بل تكتفى بمجرد فضح مساوئه، وليس هناك مايمنع أن يكون الواقع نفسه نموذجا أعلى بالنسبة للفكاهة، تقيس عليه المفردات المنحرفة فمرحلة الصدام بين الفكاهة والواقع أو بين الفكاهة والمفردات المنحرفة لصالح الواقع هى المرحلة الوحيدة، أما بالنسبة للدين فإن هذه المرحلة هى المرحلة الأولى

إذ سرعان ما تترتب عليها مرحلة أخرى هى مرحلة طرح البديل. غير أن هذا الاختلاف لم يمنع الدين من الفكاهة أحيانا لأنها من حاجات النفس البشرية وهذا مثل ماجاء فى القرآن الكريم فهو أحيانا يصف حالة موجودة أو ممكنة يرتبط التفكه فيها بالحسرة (لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون) (١) .. وإذا كان القرآن ها هنا يتحدث عن حالة مفترضة فإنه فى موضع آخر يذكر لنا قصة واقعية بالفعل هى قصة أصحاب الجنة الذين بخلوا بالصدقة فهلكت جنتهم. غير أنه فى موضع آخر يستعين بالصورة الحركية ليؤكد معنى دينيا معينا، هذه الصورة البصرية لاتكاد تغيب عن الذاكرة، فهو يشبه الذين يشركون بالله تعالى معلقين آمالهم على آلهة أخرى بمن يريد أن يدخر الماء فى يده (والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال)(٢)، فإذا ما انتقلنا إلى الفكاهة السنية، أعنى الفكاهة المنسوبة إلى النبى فإننا نستطيع أن نصفها بأنها تدل على خفة الظل، تتماشى مع ماتقتضيه الطبيعة البشرية مع توازن واعتدال، فلا هى إلى العبوس المنفر ولا هى إلى الاسترسال الذى يجلب الاستخفاف بها فأدق وصف لهذه الفكاهة أنها تخرج من أنحاء الواقع دون أن تطمع فى إعادة تشكيله على نحو ربما يبدو أكثر صخبا إلا أنه لايفيد صاحب الدعوة لأن أوضح مزية للفكاهات التى تشوه الواقع لصالح الخيال أنها ـ وإن كانت تثير ضحكا عنيفا ـ فإنها ـ على المدى البعيد ـ تفقد صاحبها مصداقيته، لهذا ركز الرسول على اللغة بوصفها أداة رئيسة من أدوات التعبير وسبيله فى الاعتماد على اللغة ـ أن يسلط الأضواء على دلالة لفظ واحد دون بقية الألفاظ حتى إذا ما انصرفت النفس إليه كان موضع الفكاهة أنها تجد فيما بعد ألفاظا تساويه فى الدلالة، ومن ذلك ماروى من أن رسول الله قال لامرأة: إن فى عين زوجك بياضا فهرولت المرأة فزعة ولحقت بزوجها وقالت له يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن فى عينيك بياضا.. فقال لها: نعم وسوادا أيضا»(٣).. ومن ذلك ماروى من (أن امرأة جاءت إلى الرسول وقالت له يارسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة فقال: لاتدخل الجنة عجوز. فبكت المرأة.. فقال لها: أما قرأت قول الله تعالى: «إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا»(٤).. أى أنها حين تدخل الجنة سوف يزول عنها الشيب والكبر.

● توسيع دلالة اللفظ

وتوسيع دلالة اللفظ جزء من الفكاهة النبوية من ذلك مايروى (من أن النبى لقى صحابيا فى السوق فأمسكه من خلف وقال من يشترى العبد؟... فقال له الصحابى:

---

١ ـ سورة الواقعة من ٦٥ : ٦

٢ ـ سورة الرعد آية ١٤

٣ ـ شهاب الدين الأبشيهى «المستطرف فى كل فن مستظرف» طبع دار إحياء التراث العربى الجزء الثانى ص ٢٦٣ ومابعدها.

٤ ـ المرجع السابق

أتراني كاسدا يارسول الله) فهو يستعمل معنى العبودية لله تعالى. وهذا الأسلوب هو الذى استعمله عمر بن الخطاب حين قال لجارية:(خالقى هو خالق الخير وخالقك هو خالق الشر، فلما بكت قال: لا بأس عليك فإن الله هو خالق الخير والشر)(٥) .

غير أن الحياة هى الحياة وللنفس الإنسانية مطالبها التى ربما أفضى بها الطموح إلى الجموح ، وحينما يتسع المجتمع وتتكثف المدنية لابد أن يرق الإيمان وتحدث المواجهة بين النفس والواقع بحيث تتوصل النفس إلى أغراضها مدمرة ما عسى أن يقف فى طريقها من دواعى التحفظ سواء أكانت من إفراز الدين أم كانت من نتائج العرف، وإذا كان هذا المقياس ينطبق ــ ولو إلى حد ما ــ على العلوم والمعارف والصناعة والتجارة فإنه أشد انطباقا على الفكاهة التى لاتكاد تصدر إلا عن تموجات انفعالية صاخبة قلما تتقيد بالضوابط.

فليس من المبالغة فى شىء أن نقرر أن الفكاهة قد شملت كل مجالات التفكير الإسلامى بما فى ذلك المجال الدينى، فمن منابع الفكاهة الدينية تصور العلاقة بين الذات الإلهية والأذهان القاصرة فإن هذه الأذهان لم تستطع أن تستوعب هذا التنزيه فأبت إلا أن تضعها فى قالب دنيوى، من هذا ماروى (من أن قاصا كان يدعو ويقول اللهم أهلك أبا حسان الدقاق فإنه فعل السوء بالمسلمين ومنزله أول باب فى الدرب على يسارك)(٦) ــ ومن ذلك (أن مجنونا رفع رأسه إلى السماء وجعل يتمتم بشىء فقيل له، بم كنت تدعو؟ قال: ما أدراكم بمخاطبة الملوك؟ كنت أقول له بدلا من أن تخلق عشرة وتجوعهم كنت تخلق ثلاثة وتطعمهم) (٧) وكان لجفاء الأعراب فى علاقتهم بالله تعالى تأثير فى صياغة الفكاهات الدينية، فقد حكى أن (عجوزا خرجت إلى الحج فبينما هى فى الطريق بلغها أن دارها قد انهدمت فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: يارب تأمرنا بعمارة بيتك وتخرب أنت بيوتنا)(٨)

ومنه حديث الأعرابية التى لما خرجت إلى الحج نفد زادها فقالت اللهم إنى خرجت من بيتى إلى بيتك فلا بيتى ولا بيتك(٩)

غير أن قضية الإيمان كانت مصدرا للفكاهة من جهات عدة فإذا كنا نلحظ فى الأمثلة السابقة نوعا من الغفلة والعشوائية يتسم بهما أبطال هذه القصص فإنه هناك

---

٥ ــ المرجع السابق.
٦ ــ أبوحيان التوحيدى البصائر والذخائر تحقيق د/ وداد القاضى، طبع دار صادر بيروت الجزء الثالث ص ٦٥ .
٧ ــ المرجع السابق جزء ٤
٨ ــ محمد سيد كيلانى المستطرف طبع مكتبة الحلبى، وهو غير المستطرف الذى أشرنا إليه قبل ذلك.
٩ ــ المرجع السابق.

أمثلة أخرى ـ هى أكثر حبكا وأدق صياغة ـ تكشف عن ذلك الطابع المتزندق الذى يتسم به أصحابها، فمن المعروف أنه قد شاع نوع من الارتباط بين رقة الدين وخفة الظل لاسيما فى العصر العباسى الأول، إلى حد أن قال الشاعر (١٠):

تزندق معلنا ليقول قوم — إذا ذكروه زنديق ظريف
فقد بقى التزندق فيه وسما — وما قيل الظريف ولا اللطيف

فلم يعد مستغربا أن نجد قصيدة لأبى نواس يتوجه فيها بذهنه إلى الرمز الميتافيزيقى المقابل (إبليس) مهددا إياه بالتقوى بغية التوصل إلى نقيضها .. إذا لم يجد حرجا فى أن ينسب إلى الغيب ـ عن طريق الخيال الشعرى ـ ماهو من نسيج المصادفة:

لما جفانى الحبيب وامتنعت — عنى الرسالات منه والخبر
واشتد شوقى، وكاد يقتلنى — ذكر حبيبى، والهم والفكر
دعوت إبليس، ثم قلت له — فى خلوة والدموع تنهمر
أما ترى كيف قد بليت وقد — أقرح جفنى البكاء والسهر
إن أنت لم تلق لى المودة فى — صدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلت شعرا، ولاسمعت غنا — ولا جرى فى مفاصلى السكر
ولا أزال القرآن... أدرسه — أروح فى درسه وابتكر
وألزم الصوم، والصلاة لا — أزال، دهرى، بالخير أأتمر
فما مضت بعد ذاك ثالثة — حتى أتانى الحبيب يعتذر (١١)

فما من حبيبين فى الدنيا إلا وهما يتأرجحان بين الخصومة والصلح إلا أن طرافة أبى نواس أبت إلا أن تضفى مظهرا غيبيا على الموقف وكان لموقف الناس من العبادات بين مستمسك بها ومفرط فيها أثر آخر فى صياغة الفكاهة الدينية، وقد تراوحت مستويات الناس ارتفاعا واتضاعا فى التعامل مع قضية الحرام والحلال وفى ممارسة الشعائر ومن هذا قول أبى نواس:

دع المساجد للعباد تسكنها — وطف بنا حول خمار ليسقينا
فالله ما قال: ويل للألى سكروا — وإنما قال: ويل للمصلينا (١٢)

لكنه سرعان ما يصرح بموقفه بعيدا عن المغالطات

فإن قالوا حرام قل حرام — ولكن اللذائذ فى الحرام (١٣)

---

١٠ ـ أحمد أمين – ضحى الإسلام طبع مكتبة النهضة المصرية الجزء الأول.
١١ ـ ديوان أبى نواس طبع دار صعب بيروت قسم الغزليات والغلمانيات ص ٧٤ ـ ٧٥ .
١٢ ـ المرجع السابق.
١٣ ـ المرجع السابق.

وعلى مستوى أكثر تعقيدا يحاول ابن الرومي أن يستنتج أن الخمر حلال

أحل العراقي النبيذ وشربه ... وقال حرامان: المدامة والسكر
وقال الحجازي الشرابان واحد ... فحلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازر الوزر(١٤)

فقد لخص ابن الرومي القضية في القياس الآتي: «كل نبيذ حلال وكل خمر نبيذ إذن كل خمر حلال».

وعلى مستوى أقل يسخر الوعي العام من أولئك الذين يتمسكون ببعض شكليات الدين دون أن يحوز طهارة الجوهر من ذلك أن رجلا استقدم امرأة للفحش بها ثم لم يلبث أن قال لها: «غطي وجهك يا امرأة فإن الوجه عورة».. وما حكاه الأبشيهي والتوحيدي من أن جارية في سوق النخاسين قالت والله لا أعود إلى مولاي أبدا... فسئلت عن ذلك فقالت: إنه يأتيني قائما ويصلي قاعدا ويشتمني بإعراب ويلحن في القرآن ويصوم الاثنين والخميس ويفطر في رمضان ويصلي الضحى ويترك الفجر(١٥).

ويدخل في هذا جهل الناس بالعبادات الذي ربما يتعدونه إلى الجهل بالقرآن نفسه، فقد روى أن عتاب بن ورقاء، أحضرت إليه امرأة من الخوارج فقال لها: يا عدوة الله ما أخرجك؟ أما سمعت قول الله تعالى: «كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول»(١٦) قالت: «أخرجني حسن علمك بكتاب الله» وهذا الكلام من شعر عمر بن أبي ربيعة!».

وأطرف من هذا مايحكي من أنه [أحضر رجل ولده إلي القاضي فقال : يامولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولايصلي فأنكر ولده ذلك . فقال أبوه ياسيدي أفتكون صلاة بغير قراءة ، فقال الولد إني أقرأ القرآن ، فقال له القاضي اقرأ حتى أسمع فقال :

علق القلب الربابا ... بعدما شابت وشابا
إن دين الله حق ... لا أري فيه ارتيابا

فقال أبوه إنه لم يتعلم هذا إلا البارح سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه فقال القاضي : وأنا الآخر أحفظ آية منها :

فارحمي مضني كئيبا ... قد رأي الهجر عذابا

ثم قال القاضي : قاتلكم الله يعلم أحد القرآن ولا يعمل به (١٧)

---

١٤ ـ راجع ديوان ابن الرومي.
١٥ ـ البصائر الجزء الأول والمستطرف الجزء الثاني.
١٦ ـ الجزء الأول من البصائر.
١٧ ـ المستطرف ص ٢٦٩ .

ويدخل في هذا الغلط في القرآن لا عن جهل تام بل عن سهو أو تعمد . شأن القاريء الذى كان يقرأ : « ألم . غلبت الترك في أدني الأرض » فقيل له : إنما هي « الروم » فقال : كلهم أعداؤنا . وخرج أبو الفرج الصوفي علي قوم يتجادلون في النسب إلي اللغة هل هو لغوي بفتح اللام أو لغوي بضمها فقال لهم الأمر لايستحق الخلاف فهي لغوي بفتح اللام أما سمعتم قول الله لموسى : [إنك لغوي مبين] (١٨)

ونحن نجد ان الفكاهة لم تتحرج من أن تدخل فى أشد المجالات الدينية تحفظا . من هذا ركب أحد علماء الحديث مع نصراني فى سفينة، فصب النصراني لنفسه كأسا من الخمر ثم صب للعالم كأسا فتناولها فشربها، فقال له النصراني: أما تعلم أن الخمر حرام؟ قال: بلى... قال: فلم شربتها؟ قال: ومن أدراك أنها خمر؟ قال النصراني: لقد اشتراها غلامي اليهودى وحلف لي أنها خمر. فقال له عالم الحديث مستنكرا، أنحن الذين نشك فى سفيان بن عيينه وغيره من كبار العلماء نصدق غلاما يهوديا؟؟ يا هذا والله ماشربتها إلا لضعف الإسناد(١٩)

ومن هذا أن رجلا قيل له ألا تحدث بحديث حسن؟ قال: بلى، عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خلتان من كانتا فيه دخل الجنة، قيل له: هذا حديث حسن فما هما؟ قال: نسي نافع واحدة ونسيت أنا الأخرى. بل إن الجدية الصارمة التى اتسم بها علم الكلام لم تمنع من دخول الفكاهة إلى دوائره.

الفكاهة فى أوساط العامة

وكان للقضايا التى أثارها المتكلمون تأثير فكاهى فى أوساط العامة ومن ذلك أنه لما اشتهرت محنة خلق القرآن عبر العامة عن رفضهم لهذه الفكرة تعبير العامة فى كل زمان ومكان، أعنى بالنادرة التى تلخص وعى الجموع فقد روى أن رجلا سمع قارئا قبيح الصوت فقال: هذا هو القرآن الذى يقال عنه إنه مخلوق(٢٠)، وإذا كان العامة هم صناع السخرية فى كل زمان ومكان فقد لقى هؤلاء العامة من يسخر منهم ويضع على ألسنتهم أقوالا بالغة الفكاهة من ذلك ماروى عن أن معلما كان يقول: يوسف يجوز فيه التذكير والتأنيث والدليل على هذا قول الله تعالى: «يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك»،(٢١) ولطالما اتهم العامة بأنهم مخلطون فى أمور الدين، يخلطون الحابل بالنابل... فقد ذكروا أن رجلا منهم رفع إلى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم أنه يتزندق، فسأله الوالى عن مذهب الرجل فقال: «إنه مرجىء قدرى إباضى رافضى، يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل على بن العاص» فقال له الوالى: «ما

---

١٨ ـ آخر الجزء الثانى من البصائر.

١٩ ـ المستطرف تصنيف سيد كيلانى.

٢٠ ـ أحمد أمين ضحى الإسلام الجزء الثالث.

٢١ ـ أبوحيان التوحيدى مثالب الوزيرين.

أدرى على أى شيء أحسدك على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب» [٢٢] وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين. وقال لهم: «كم تطنبون في على ومعاوية وفلان وفلان!!» فقال له الرجل: «فما تقول أنت في على؟» قال: «أليس هو أبا فاطمة؟» قال: «ومن هي فاطمة؟» قال: «بنت عائشة أخت معاوية!!» قال: «فما كانت قصة على؟» قال: «قتل في غزوة حنين» [٢٣]

وكان موقف الناس من رجال الدين ـ الذين يتأرجحون بين التسيب والتقعر ـ بابا من أوسع أبواب الفكاهة الدينية فما يدل على التقعر أن رجلا قال لفقيه: «إن الكلب قد بال على الحائط، فقال الفقيه: يهدم ويبنى سبع مرات. فلما قال له الرجل. إنه الحائط الذى بينى وبينك.. قال الفقيه: قليل من الماء يطهره. ومما يدل على ما روى من أن تاجرا مر على مدينة حمص فسمع مؤذنها يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمدا رسول الله فلما حلف أن يشكوه إلى الإمام وجد الإمام يصلى وقد نحى رجله اليسرى التى تلطخت بالأقذار فأسرع إلى المحتسب ليشكوه إليه فإذا المحتسب فى المسجد يبيع للناس خمرا وفى حجره مصحف يحلف لهم عليه أن هذه الخمر صرف وليس فيها ماء فأسرع إلى القاضى ليشكوهم جميعا إليه فلما لم يجد أحدا دفع الباب فإذا القاضى رهين الفاحشة، فلما ثارت ثائرته وأقسم أن يخرج من البلد سأله القاضى مستنكرا ما الذى أنكرته؟ أما عن المؤذن فإن مؤذن المسجد كان قد مرض فاستأجرنا بدلا منه مؤذنا يهوديا فهو يقول ما يعتقد وما نعتقد، وأما عن الإمام فإنه أسرع إلى الصلاة فلما تلطخت قدمه أخرجها من الصلاة وسيغسلها بعد ذلك.. وأما عن المحتسب فإن لهذا المسجد وقفا يدر عنبا لا يصلح للأكل فعصرناه خمرا وأنفقنا من دخله على المسجد والمصالح وأما أنا فقد أتيت بكنز لهذا الغلام اليتيم وقيل لى إنه بلغ ويريد أن يسترد هذا الكنز فأردت أن أمتحنه» [٢٤] وهذه القصة المفعمة بالافتعال تدل على توجه العامة حيال كثير من رجال الدين.

وآخر باب نحب أن نذكره من أبواب الفكاهة هو ذلك المتعلق بالتنبؤ والمتنبئين وذلك أن التنبؤ الذى كان يمثل خطرا فى أوائل الدعوة الإسلامية على نحو مانراه عند طليحة ابن خويلد الأسدى والأسود العنسى ومسيلمة الكذاب قد فقد هذه الخاصية تماما بحيث أصبح فى عهد ازدهار الدولة الإسلامية وقوتها مجرد مظهر طريف من مظاهر التمدن وضخامة التجمع البشرى فلم يعد يزيد كثيرا عن شأن الحواة والمهرجين لهذا كان خلاص المتنبئين ـ من السجن أو الإعدام ـ مرهونا بما فى بديهتهم من سرعة وما فى ظلهم من خفة ومن ذلك أن المأمون أحضروا إليه رجلا يقول: أنا أحمد النبى. فقال يا

٢٢ ـ جرجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى طبع دار الهلال الجزء الخامس ص ٥٧

٢٣ ـ المرجع السابق.

٢٤ ـ الأبشيهى المستطرف.

هذا لعلك ظلمت في شيء، قال: نعم، أخذت ضيعتي، فردها عليه. ثم قال له: ما كنت تقول؟ قال الرجل. كنت أقول أنا أحمد النبي فهل تذمه أنت؟ وأحضرت امرأة إلى المتوكل وهي تدعي النبوة فسألها: أتؤمنين بنبوة محمد قالت: نعم. قال: فإنه يقول لا نبي بعدي، قالت: فهل قال لا نبية بعدي؟ فضحك وأطلقها واجتمع قوم إلى رجل يدعي النبوة فقيل له: ما معجزتك؟ قال من كانت عنده زوجة حسناء أو ابنة مليحة فليأتني بها وأنا أحبلها ولو كانت عقيما، فقال له رجل، ليس عندنا نساء ولكن عندي عنزة فإن رأيت أن تصنع بها ذلك الصنيع فهم الرجل بالقيام وقال: إني أمضي إلى جبريل فأخبره أن هؤلاء القوم يحتاجون تيسا لا نبيا، فضحكوا وأطلقوه[٢٥]... وتشبه هذه القصة قصة رجل عرض نفس المعجزة على المتوكل فقال المتوكل لوزيره: أعطه زوجتك وسوف نرى فقال الوزير: أما أنا فقد آمنت أنه نبي الله وإنما يعطيه زوجته من لايؤمن به. وهكذا نرى أن التنبؤ كان مصدرا من مصادر الفكاهة وموضعا من مواضع إثراء الأدب أكثر من كونه ظاهرة خطيرة في تاريخ الفكر الإسلامي وعلى هامش هذه الفكاهات جميعا تأتي فكاهة التراشق بالآيات القرآنية ذلك التراشق الذي لايدل على رقة دين بقدر مايدل على سرعة بديهة.. من ذلك أن رجلا لقي امرأة قبيحة فتلا: «وإذا الوحوش حشرت»[٢٦]، فقرأت في على الفور: «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه»[٢٧].

وبعد فتلك هي الخطوط العريضة لمنابع الفكاهة الدينية في الفكر الإسلامي لم نأت على جميعها بل اكتفينا بالإشارة إلى أبرزها.

وفي نهاية ذلك الحديث نسجل ملاحظتين إحداهما:

انه قد شاع بين السذج أن الضحك والفكاهة من دلائل السطحية كما أن التجهم والعبوس من آيات العمق والفطنة وما هذا من الحق في شيء لأن الفكاهة هي الباب الخلفي لوعي المجتمع ذلك الباب تتسرب منه نفثات الصدور وكوامن النفوس ويحسبك أن تحلل فكاهة عصر من العصور حتى ترى بوضوح إلى أين يتجه مؤشر الوعي ونضرب لذلك مثلا بما في الحضارة الأوربية من طوائف تعتبر الدين مكونا من مكونات التراث الحضاري شأنه شأن الفنون والآداب فهو من هذه الناحية مساو للجنسية من حيث إنها لاتعارض التوجه الأيديولوجي ومن هذا تلك النادرة التي تقول إن أوربيا سأل آخر ما دينك؟؟ فقال: أنا ملحد. فسأله الأول بدوره ملحد بروتستانتي أم ملحد كاثوليكي؟؟

والملاحظة الثانية:

هي أن استهداف الفكاهة بعض مظاهر الدين لايدل على رغبتها في تقويض دعائمه بل ينبع من خصيصة تكمن فيها هي أنها المرآة التي يتلألأ عليها الخيال المتعبد في محراب الفردية لهذا فهو يموج ويصخب حيال كل ماله قواعد سواء في ذلك شئون السياسة أم مقررات العلوم، والدليل على ذلك أنها تقبل من الانحياز للفكرة وضدها بمقدار ما لهذه الفكرة وضدها من أنصار.

٢٥ ـ آدم ميتز – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة أبي ريده ـ الجزء الثاني.

٢٦ ـ سورة التكوير.

٢٧ ـ سورة يس.

أسياد وخدم ..

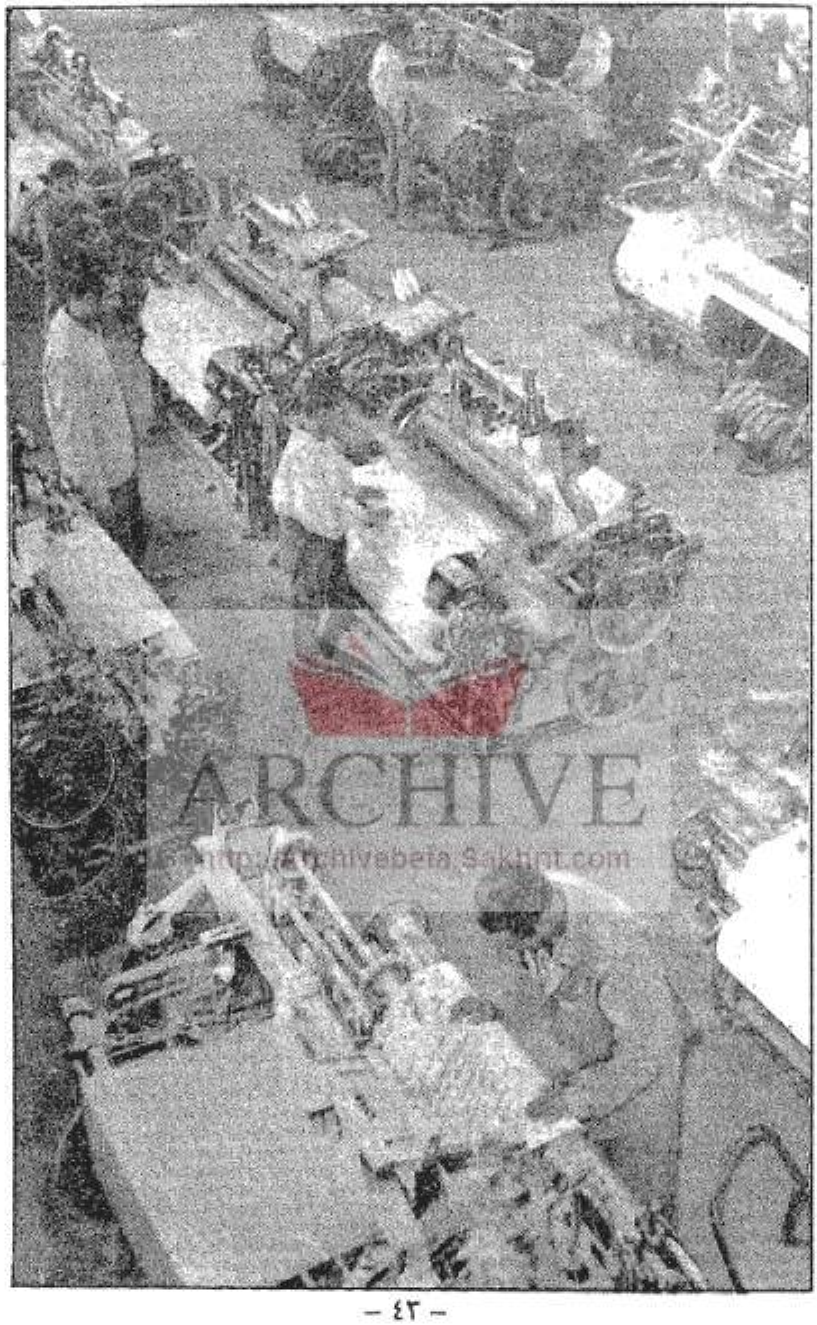
صفحة من تطور مصر الاجتماعى فى نصف قرن

بقلم : د. جلال أمين

☐ ليس هناك مؤشر على التقدم الاقتصادى . فيما أظن ، أفضل من قيمة العمل الإنسانى : كلما زاد التقدم الاقتصادى ارتفعت قيمة العمل بالمقارنة بقيمة السلع ، والعكس بالعكس .

فإذا وجدت أن العمل الإنسانى فى بلد ما، يكفى للحصول عليه أن تقدم للعامل الحد الأدنى من القوت والملبس والمسكن ، فأنت فى بلد أقرب إلى نظام العبودية أو السخرة، إذ هكذا يعامل العبد: لايعطيه سيده أجرا بل يعطيه ما يسد رمقه . ولكن إذا وجدت بلدا لاتستطيع الحصول فيه على العامل إلا إذا وفرت له سيارة أو سيارتين لاستخدامه الشخصى ، فأنت بصدد بلد «متقدم اقتصاديا» .

وقد مرت مصر خلال نصف القرن الماضى (أي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية) بتقلبات عميقة فيما يتعلق بقيمة العمل ، بعضها بسبب حكمة أو حمق السياسة الاقتصادية المتبعة ، وبعضها لأسباب خارجية لا دخل للسياسة الاقتصادية فيها ، ولكن التقدم لم يكن بأي حال من الأحوال مطردا ، بل كان التطور أشبه بالدورات : تحسن يعقبه تدهور ، ارتفاع فى قيمة العمل



(بالنسبة لقيمة السلع) يعقبه تدهور، ثم تتكرر الدورة من جديد .

والمدهش (إذ أنى لا أجد له تفسيرا مقبولا) ، أن نقاط التحول ، نحو الأفضل أو الأسوأ ، كانت دائما تحدث فى منتصف العقد، فهناك بداية للتدهور (فى قيمة العمل) فى منتصف الاربعينات مع انتهاء الحرب العالمية، ثم بداية للتحسن فى منتصف الخمسينات ، مع حدوث أزمة السويس ، ثم بداية للتدهور من جديد فى منتصف الستينات ، وعلى الأخص ابتداء من هزيمة ١٩٦٧ ، ثم بداية للتحسن من جديد فى منتصف السبعينات ، مع اشتداد تيار الهجرة إلى بلاد الخليج، ثم بداية تدهور آخر فى منتصف الثمانينات مع الانخفاض الحاد فى أسعار البترول وتطبيق سياسات ما يسمى «بالاصلاح الاقتصادى» (فهل نحن مقبلون الآن، فى منتصف التسعينات على فترة تحسن جديدة وارتفاع فى قيمة العمل ؟ كم يتمنى المرء ذلك) والقصة تحتمل بعض التفصيل، فهى فى رأيى قصة شيقة للغاية.

★★★

فى مطلع الخمسينات زار مصر اقتصادى سويدى كبير اسمه راجنار نيركسه لبعطى بضع محاضرات بدعوة من البنك الأهلى المصرى ، وكانت إحدى هذه المحاضرات عن مشاكل تكوين رأس المال فى البلاد المتخلفة، صارت فيما بعد أساسا لكتاب شهير يحمل هذا الاسم، والذى يهمنا الآن أنه فى هذه المحاضرة تكلم عن البطالة المقنعة وذكر أن أعلى تقدير للبطالة المقنعة أطلع عليه ، فى أى بلد من بلاد العالم الثالث المكتظة بالسكان، هو ذلك الخاص بمصر ، حيث قدرت البطالة المقنعة فى القطاع الزراعى بمصر بما لا يقل عن ٥٠٪ من سكان الريف، بمعنى أن كان من الممكن سحب نصف سكان الريف من الزراعة وتحويلهم إلى أعمال أخرى دون أن يتأثر الانتاج الزراعى .

كان معنى ذلك بالطبع انخفاض شنيع فى مستوى المعيشة ، مادام يعنى (بلغة الاقتصاديين) أن الإنتاجية الحديثة للعامل الزراعى تساوى الصفر أو قريبة منه ، ومادام الأمر كذلك فلابد أن نسبة كبيرة من سكان الريف كانت على استعداد للذهاب للعمل فى المدينة مهما كان الأجر المعروض عليها متدنيا ، طالما أنه يكفى لسد الرمق ولمواجهة سائر الحاجات الضرورية للبقاء على قيد الحياة.

كان أجر العامل بالغ الانخفاض

بالفعل ، إذا ما قورن بقيمة السلع ، سواء فى الريف أو المدينة، وكان السبب الأساسى فى ذلك نحو خمسين عاما من الازدياد السريع فى السكان لا تصاحبه زيادة بنفس النسبة فى الأرض الزراعية ، مع تراخى جهود التصنيع أو على الأقل عدم كفايتها لاستيعاب هذا الفائض من السكان .

بناء السد العالي

بدأ الأمر يتغير فى منتصف الخمسينات ، مع تغير السياسة الاقتصادية تغيرا ملحوظا فى أعقاب أزمة السويس، ففى السنوات العشر التالية (٥٦ - ١٩٦٦) بذلت جهود مكثفة للغاية فى التصنيع وفى استصلاح الأراضى الزراعية بمعدل أعلى بكثير مما كان يجرى فى العقود السابقة وتمت المرحلة الأولى من مراحل بناء السد العالى وجاء الاصلاح الزراعى وأدى كل هذا إلى زيادة الطلب على العمل بالنسبة للمعروض منه مما رفع الأجر الحقيقى بدرجة ملحوظة ، فى الريف والحضر ، ومن ثم خفت بشدة حدة البطالة المقنعة فى الريف ، وارتفعت قيمة العمل بالنسبة للسلع فى الريف والحضر على السواء .

لم تكن نكسة ١٩٦٧ نكسة حربية فقط بل كانت نكسة اقتصادية كذلك ، وأصاب العمل المصرى، فى السنوات العشر التالية (أو حتى منتصف السبعينات) تدهور شديد فى قيمته الحقيقية بالنسبة لأسعار السلع، نتيجة ما أصاب الاقتصاد المصرى بصفة عامة من ركود . فقد انخفض معدل الاستثمار بشدة فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ (وبسببها) ، ومن ثم تراخى الطلب على العمل فى الزراعة والصناعة ، سواء فى استصلاح الأراضى أو فى التصنيع مما رفع من معدلات البطالة وخفض من الأجر الحقيقى للعمل .

ثم جاءت نحو عشر سنوات من «الهجرة إلى النفط» ، امتصت جزءا كبيرا من العمالة الزائدة ، الماهرة وغير الماهرة وشبه الماهرة على السواء، ووجدت كثير من الأسر نفسها تتلقى دخلا غير معهود، من عائليها العاملين بدول النفط ، مما حسن من قوة أفرادها التفاوضية وهم يعرضون أنفسهم للعمل داخل مصر ، كما سمح للآلاف المؤلفة من العمال الذين لم يهاجروا بالمطالبة بأجور أعلى بسبب ندرة العمالة الناتجة عن الهجرة .

أما السنوات العشر التالية (٨٥ - ١٩٩٥) فنحن نعرفها جيدا بسبب قرب عهدنا بها ، بل مازلنا نعيش فى ظلها ، إذ أدى الانخفاض الشديد فى سعر البترول ، خاصة ابتداء من ١٩٨٦ ، وتراخى معدل

الهجرة إلى النفط ، مع تراخي معدلات الاستثمار بسبب انخفاض سعر البترول من ناحية وتطبيق السياسات المعروفة باسم «سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي» إلى حدوث «انكماش» اقتصادى ملحوظ بما يعنيه بالضرورة من ارتفاع معدلات البطالة، ومن ثم انخفاض قيمة العمل بالنسبة لقيمة السلع .

***

هذه التقلبات الاقتصادية «الموضوعية»، والتى يمكن التعبير عنها بالأرقام ، صحبها بطبيعة الحال تقلبات فى نمط الحياة فى مصر يكاد يستحيل التعبير عن كثير منها رقميا ، ولكنها تركت انطباعات قوية فى نفوس من شهدها وعاشها يوما بيوم ، وقد كنت واحدا من هؤلاء ، فأنا أذكر جيدا كيف كان حال العمل الإنسانى سيئا فى الأربعينات ومطلع الخمسينات ، وقدر المهانة التى كان يتعرض لها، كما أذكر جيدا كم وجدت الحال أفضل بكثير فى منتصف الستينات، عندما رجعت من دراستى بالخارج وبدأت التدريس فى الجامعة . ثم أذكر ما حدث من تدهور فى قيمة العمل (وفى نمط الحياة بوجه عام) فى السنوات العشر التالية لهزيمة ١٩٦٧ ، ولكنى أذكر أيضا الانتعاش الذى أصاب القوة العاملة بين منتصف السبعينات ومنتصف الثمانينات، وصعوبة الحصول على خدمات مختلف الحرفيين فى ذلك الوقت . ولكن مع ما حدث من انتكاس ملحوظ ابتداء من منتصف الثمانينات بدأنا نلاحظ بعض الظواهر التى تتعلق بسلوك شرائح واسعة من القوة العاملة ، وتذكرنا بكل أسف بحالها قبل ثورة ١٩٥٢ .

أرقام اقتصادية ميتة

كان من الطبيعى أن تنعكس هذه التقلبات فى أحوال «خدم المنازل» ، هذه الشريحة من العمال التى تنطوى تحت ما يسميه الاقتصاديون «بالعمالة الرثة» لما تنطوى عليه من انخفاض فى الدخل والانتاجية ، وما تتسم به من قلة تنظيم وعجز عن الدفاع عن حقوقها . فمن الطبيعى أن يقترن التحسن فى حالة الطبقة العاملة بصفة عامة بارتفاع فى أجور خدم المنازل وتحسن أحوالهم بوجه عام ، وأن يصيبهم التدهور ، اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا ، مع تدهور الحالة الاقتصادية العامة للطبقة العاملة . وعندما عدت بذاكرتى لتتبع ما حدث «لخدم المنازل» كما عرفتهم شخصيا مما كان يدور فى بيتنا ، وأنا طفل ثم شاب ثم بعد أن تقدم بى العمر ، وجدت تطابقا مبهرا بين هذه الخبرة الشخصية البحتة . وبين ما أعرفه من

تقلبات الاقتصاد المصرى خلال نصف القرن الماضى ، ولكن هذه الخبرة الشخصية تتميز عن الأرقام الاقتصادية الميتة بأنها هى الحياة نفسها، بلحمها ودمها ، مما قد يستحق أن أرويه للقارئ ببعض التفصيل.

★★★

كان أبى وأمى ، خلال الاربعينات وأوائل الخمسينات إذا أرادا خادما أو خادمة أرسلا إلى قريب لهما فى الريف فيرسل لهما ما يطلبانه فى مثل لمح البصر فما أكثر سكان الريف المصرى فى ذلك الوقت الذين كانوا على استعداد لارسال أولادهم أو بناتهم للعمل فى المدينة ولو بغير مقابل الا سد الرمق وكساء الجسد ، إن ما أذكرهم من خدم هذه الفترة كانوا من الاناث ، لايزيد عمر بعضهن عن العاشرة . كن «أغلب من الغلب» ، إذا استخدمت تعبير أمى فى وصفهن لا يكفى وصف «الأمية» للدلالة على مدى جهلهن . فهن لدى قدومهن إلى المدينة لايعرفن شيئا بالمرة عن كنه هذه المدينة إذ لم يكن الريف المصرى وقتها يكاد يعرف شيئا عن أى من كماليات المدن ، كانت السيارة إذا اخترقت طريقا فى الريف خرج الناس من بيوتهم ليتأملوها وصفق الأولاد والبنات إعجابا ، وكان منظر رجل (ناهيك عن امرأة) يرتدى بنطلونا يشبه منظر مخلوق أت من عالم آخر لم يكن التليفزيون بالطبع قد عرف لا فى الريف ولا فى المدينة ، بل كان الراديو نفسه شيئا نادرا للغاية لايكاد يوجد إلا فى دار العمدة . نظرت خادمتنا الصغيرة مرة إلى الراديو الكبير الموضوع على رف عال معلق على الحائط بارتفاع محسوب حتى لايعبث به الأولاد وسمعت الكلام المنطلق من المذيع فصرخت بالمذيع : «اخرج يا مجنون !» ، إذ ظنت أنه مختبئ داخل الراديو ، وكان منظر هذه الخادمات الصغيرات فى الطريق العام ، وبعضهن يحملن أطفال مخدومهن ، مدهشا حقا ، إذ لم يكن المرء ليدرى إذا رآهم من منهم يحمل من ؟ .

كان الثمانون فى المائة القاطنون فى الريف يعيشون حياة لم تتغير كثيرا عما كانت فى عهد الفراعنة ، سواء فى مستوى المعيشة أو فى نوع ما يستهلكونه من سلع أو فى أساليب الإنتاج المتبعة فى الزراعة كان الفراعنة يعتمدون على السخرة ، ولكن هكذا كان النظام المطبق على خدم المنازل فى الاربعينات ، أو يكاد فكثيرا ما كان يحدث ألا يعطى الخادم أو الخادمة أى أجر نقدى على الاطلاق ، إذ يكفى والديهما أن يجدا لابنهما أو بنتهما من يأويهما ويعولونهما وقد عجزا عن ذلك.

وإذا هرب الخادم من الخدمة وعاد إلى أهله كان من أسهل الأمور استعادته رغما عنه .. والخادمة تقيم إقامة دائمة في منزل مخدومها ، لا لساعات محددة ، كما هو النظام الغالب الآن ، وخلال هذه الاقامة الدائمة يمكن أن يطلب منها أى شئ فليس هناك وظيفة معينة أو أعمال محدودة ينتظر منها أن تقوم بها كما هى الحال الآن . فمن الممكن أن ينادى المخدوم أو أولاده على الخادم لتأتى من أقصى أركان البيت، فيطلب منه أن يأتى له بكوب من الماء مثلا، الماء لايبعد عنه خطوتين ، وكل مازاد عن سد الرمق فهو كرم وأريحية من صاحب البيت ، أذكر أن أبى كان يعطى الخادمة فى أواخر الاربعينات (أو بالأحرى يعطى أباها إذا جاء لزيارتها مرة كل ستة أشهر أو كل عام) أجرا شهريا لايتجاوز العشرين قرشا ، وهذا المبلغ لايدل على شئ لقارئ اليوم إلا إذا نسبناه إلى قيمة أخرى ، حتى تمكن المقارنة بين الماضى والحاضر ، فإذا نسبنا هذا الأجر الشهرى إلى مرتب المخدوم نفسه، الذى كان نحو مائة جنيه فى الشهر فى ذلك الوقت ، تكون النسبة بين أجر الخادم والمخدوم نحو ١ : ٥٠٠ (واحد إلى خمسمائة) .

★★★

عندما عدت من دراستى بالخارج فى منتصف الستينات كان الوضع قد تغير تغيرا كثيرا فعندما احتجنا إلى خادمة لتساعد زوجتى فى خدمة البيت ورعاية ابنتى الصغيرة ، كانت الخادمة الآن ، ليست طفلة صغيرة ، يريد أبواها التخلص من عبء اطعامها ، بل الخادمة الآن (فى منتصف الستينات) امرأة متزوجة ، يعمل زوجها فى مصنع لدبغ الجلود ، أو أخرى يعمل زوجها فى الخدمة بأحد المطاعم ، أو ثالثة متزوجة من مكوجى .. الخ ، لم تعد القرية إذن هى المصدر الوحيد (بل ولا الاساس) لتوريد خدم المنازل فى المدينة ، بل أصبحت المدينة نفسها قادرة على انتاجهم ، وهذا يعكس أمرين على الأقل : الأول ما ترتب على الاصلاح الزراعى من ارتفاع فى قدرة الأسر الريفية على اطعام أولادها ، والثانى الارتفاع الكبير فى نسبة الطبقة العاملة فى المدينة إلى مجموع سكان المدينة نفسها ، بسبب التصنيع ونمو انتاج مختلف أنواع الخدمات والتضخم السريع فى الجهاز الحكومى ترتب على ذلك أن الخادمة كانت تأتى لتعمل بضع ساعات ثم تعود إلى زوجها وأولادها ، وترتب على ذلك بدوره تغير فى نوع العلاقة من أساسها بين الخادم والمخدوم ، فقد انقضت إلى الأبد

علاقة السخرة ، وحلت محلها علاقة أجرية: أجر محدد مقابل عمل محدد .

كان مرتبي في منتصف الستينات ، عندما بدأت التدريس بالجامعة نحو أربعين جنيها في الشهر ، كنا نعطي منه نحو جنيهين للخادمة ، أي أن النسبة بين أجر الخادم وأجر المخدوم قد ارتفعت فيما بين منتصف الاربعينات ومنتصف الستينات من ١ : ٥٠٠ إلى ١ : ٢٠ (واحد إلى عشرين)، أي تضاعفت النسبة نحو ٢٥ مرة .

ندرة العمالة

بين منتصف الستينات وأواخر السبعينات حدث ذلك التطور المهم الذي أشرت إليه ، قلب حالة العمالة المصرية رأسا على عقب : من وفرة إلى مايشبه الندرة في العمل ، وكان السبب ، كما قلت، هو الهجرة على نطاق واسع إلى بلاد النفط ، كان لابد أن ينعكس هذا على الخدمة المنزلية أيضا كان الناس وقتها يتكلمون عن صعوبة الحصول على الأيدي العاملة في الريف ، وكيف ارتفعت أجور العمال الزراعيين ارتفاعا مذهلا ، بسبب امتصاص دول النفط لمئات الألوف منهم ، خاصة العراق التي احتاجتهم للحلول محل الجنود العراقيين الذين كانوا يحاربون الايرانيين ، بالاضافة إلى دول الخليج الأخرى وليبيا الذين استقدموا العمال المصريين للمشاركة في أعمال التشييد والتعمير التي كانت تجري على قدم وساق في أعقاب الارتفاع الكبير في ايرادات النفط في ٧٤/٧٣ ثم مرة أخرى في ١٩٨٠/٧٩ .

وفي المدن المصرية كان الناس يتكلمون عن صعوبة الحصول على خدمات الحرفيين من كل نوع ، وكيف أنهم أصبحوا يطالبون بأجور كثيرا ما كان افراد الطبقة المتوسطة عاجزين عن دفعها أذكر وقتها أن أخا لي استدعى سباكا ليقوم بعمل بسيط لايستغرق منه أكثر من نصف ساعة عمل، فطلب السباك من أخي أربعين جنيها ، وهو مبلغ كان يمثل أكثر من عشر مرتب أجري الشهري ، وهو مدير محترم لأحد مصانع القطاع العام. فلما أبدى أخي انزعاجه الشديد أجابه السباك بتعالٍ : « لابأس من الانتظار ولكن عليك أن تبدأ في الادخار لهذا الأمر من اليوم!».

في أواخر السبعينات عدت إلى مصر بعد سفر طويل إلى الخارج ، وأصبح مرتبي بعد عودتي أكثر مما كان عندما بدأت العمل في الجامعة في منتصف الستينات بنحو ١٥ مرة ، ومع ذلك فإني وجدت إننا ، إذ احتجنا لخادمة جديدة ،

عليّ أن أدفع لها الآن (أى فى أواخر السبعينات) نسبة من مرتبى أكبر مما كنت أدفع فى الستينات .

(فقد ارتفعت هذه النسبة من نحو ١: ٢٠ فى ١٩٦٥ إلى نحو ١ : ١٥ فى ١٩٧٩) كان هذا يعنى بالضرورة تحسنا ملحوظا فى مستوى معيشة هذه الشريحة الاجتماعية لم يكن يعنى فقط تضييقاً للفجوة بين الخادم والمخدوم ، بل وأيضا ارتفاعا ملحوظا فى نسبة دخول هذه الشريحة الاجتماعية إلى أسعار بعض السلع المعمرة التى لم يكن هؤلاء يحلمون باقتنائها منذ عشرة أعوام ، فخادمتنا فى مطلع الثمانينات كان باستطاعتها شراء ثلاجة ايديال بالتقسيط ، وبعد قليل أضافت التليفزيون ثم الغسالة الكهربائية ، وكلها أشياء كانت بالنسبة لأسرتى أنا ، منذ خمسين عاما ، أما غير موجودة أصلا (كالتليفزيون) أو كانت تعتبر من الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها (كالثلاجة والغسالة الكهربائيتين) .

لم تكن خادمتنا فى ذلك الوقت آتية لتوها من الريف ، كما كان الحال الشائع فى الاربعينات وأوائل الخمسينات ، ولا كان زوجها عاملا فى مصنع ، كما كان الحال مع خادمتنا فى الستينات ، بل كانت الزوجة الأولى لرجل هجرها ليتزوج من امرأة مطلقة ، وترك معها طفلين صغيرين، وكان يعمل سائقا لاحدى سيارات الميكروباص التى استثمر فيها ماله أحد العائدين من بلاد النفط . لقد أصبح مثل هذا أمرا شائعا فى الثمانينات: هجرة وطلاق ، وزواج أخرى ، وميكروباصات لا نهاية لها يقودها بسرعة جنونية رجال عادوا من الخليج ويستعجلون الربح لكى يقوموا بتسديد أقساط السيارة ، فضلا عن أقساط الثلاجات والتليفزيونات والغسالات .. الخ.

لم يكن شئ من هذا مألوفا فى الاربعينات والخمسينات : كان الانقسام الطبقى انقساما حديديا ، يكاد يستحيل عبوره، ولكن كان الرضا بالنصيب شائعا : لاتطلع إلى سلع جديدة ، ولا إلى زواج جديد ، ولا يكاد يعرف شئ اسمه الشراء بالتقسيط ، فيما يتعلق بالسلع عالية القيمة. كل شئ الآن يبدو ممكنا ، وسهلاً ومتوافراً ، وإن كان هناك ثمن خفى يدفع من أعصاب الناس وطمأنينتهم ورضاهم عما هم فيه .

ولكن حتى هذا لم يدم طويلا ، فمنذ منتصف الثمانينات بدأت النكسة الاقتصادية ، أصبح ما كان يبدو ممكنا وسهلا ، أكثر صعوبة بكثير ، فلم يعد خريج الجامعة مطمئنا إلى سهولة الهجرة

وتكوين نفسه» والزواج وتأثيث بيت الزوجية ، كما كان الحال فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات ، لم تعد المصانع الجديدة تستوعب مثل هذا القدر من الباحثين عن عمل ، كما كان الحال فى الستينات ، إذ أصبحت الآلة أكثر ربحية مع توفر العملة الأجنبية ، وتغير انماط السلع ومع انتشار البطالة بدأت قيمة العمل بالنسبة للسلع تتخذ اتجاها نزوليا بشكل ملحوظ ، وأصبحت سلعة بعد أخرى من السلع المعمرة تبتعد أكثر فأكثر عن متناول اليد . مازالت خادمتنا التى بدأت العمل عندنا منذ ١٧ عاما ، تعمل لدينا بنفس الاخلاص وبأجر أكبر وإن كانت نسبة أجرها إلى أجرى قد مالت إلى الانخفاض بشكل ملحوظ ، وهى حريصة مع ذلك على أن تستمر فى العمل لدينا ، ليس فقط بسبب طول المدة التى قضتها معنا، لكن بسبب ما تسمعه عن صعوبة الأحوال من صديقاتها وأزواجهن المتبطلين عن العمل .

عودة المتسولين !

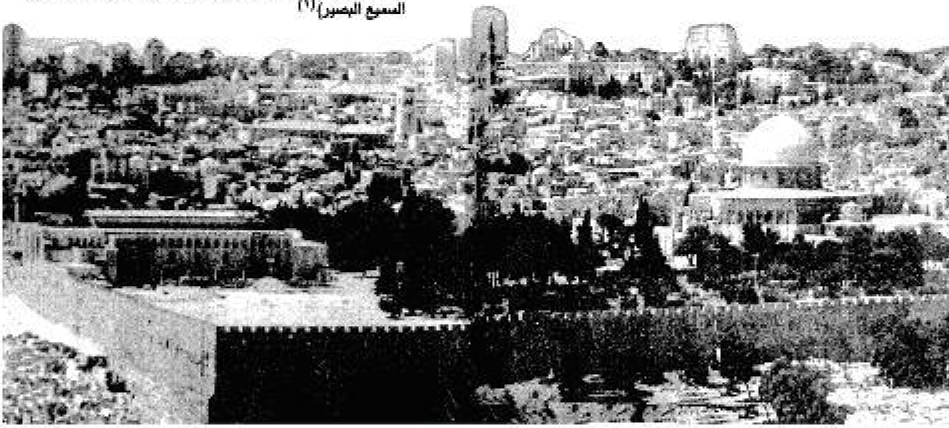
أفظع ما فى الأمر أننى ، بين حين وآخر ، أصادف بعض الظواهر التى أصبحت تعيد إلىّ ذكرى الاربعينات ومطلع الخمسينات ليس أسوأ هذه الظواهر عودة المتسولين بكثرة إلى الشوارع ، والتضاعف السريع فى عدد من يبيعون على قارعة الطريق كميات تافهة من سلع أكثر تفاهة ، هم شباب قويو البنية رغم ما يبدو عليهم من مظاهر سوء التغذية . الأسوأ من هذا ما يبدو من عودة الانقسام الحديدى بين طبقات المجتمع ، وانتشار روح اليأس من إمكانية العبور من طبقة لأخرى ، والمذلة التى أصبحت تطبع سلوك عدد متزايد من أفراد الطبقة الدنيا إزاء الطبقات العليا كان كل من يبدو عليه أى درجة من اليسر فى الأربعينات يخاطبه أفراد الطبقة الدنيا بلقب (بيه) ، ونادرا ما يكون الرجل كذلك فى الحقيقة ، وإنما كان اللقب مجرد طريقة لتمييز طبقة اجتماعية عن أخرى . ثم كادت هذه العادة أن تزول تماما فى الخمسينات والستينات ، ليس لمجرد اصدار الثورة لقانون بإلغاء الألقاب، وإنما لما أحدثه التحول الاقتصادى فى هذين العقدين من كسر الحاجز الحديدى بين الطبقات ، أما الآن فنحن جميعا نسمع فى كل خطوة من ينادينا «يا باشا» دون أن نكون بالطبع كذلك ، كل ما فى الأمر أنه مع عودة ذلك الانقسام الحديدى بين الناس ، أدى التضخم فى أسعار كل شئ، إلا سعر العمل الانسانى ، إلى أن تحول «البيه» القديم ، إلى «باشا» ، دون أى وجه حق .

التنازل عن الأرض المغتصبة هدنة ؟.. أم سلام ؟

بقلم : د . محمد عمارة

☐ رغم كثرة مشكلات الأمة الإسلامية، وتعدد مآسيها - في هذه المرحلة التي تعيشها - فإن لمأساة فلسطين خطرا خاصا ومكانا متميزا.

فالرباط بين المسجد الأقصى والبقعة التي باركها الله من حوله وبين الحرم الشريف والقبلة التي تجمع الأمة وتهفو إليها قلوب المؤمنين، ليس مجرد رباط جغرافي أو تاريخي أو حضاري أو قومي.. وإنما هو «دين» نتعبد الله به.. ثم هو، أيضا، دنيا ومصالح إسلامية معتبرة، تجسدت في التاريخ والجغرافيا والحضارة على مر تاريخ الإسلام.. ففي القلب من فلسطين تقوم أولى القبلتين، وثالث الحرمين - الذي لاتشد الرحال إلا إليه وإلى المسجد الحرام، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والقرآن الكريم شاهد على أن الرباط بين هذه البقعة من أرض الإسلام وبين قبلة المسلمين هو «آية» من آيات الله، سبحانه وتعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، انه هو السميع البصير}(1)



● وفي التاريخ الإسلامي.. كانت كل المدن والبلاد المفتوحة، يتسلمها القادة الفاتحون، الذين يعقدون معاهدات الفتح والصلح والأمان مع أهل تلك المدن والبلاد.. إلا القدس، فلقد طلب أهلها - عند فتحها سنة ١٥ هـ - ٦٣٦م - أن يعقد معاهدة صلحها، ويتسلم أمانتها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رغم أن قائد فتحها كان أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح؟!.. فهي «أمانة الفاروق» لدى الأمة الإسلامية..!

● وعلى مر تاريخ الإسلام كانت القدس وفلسطين محك الصراعات والتحديات التي غطت قرونا عدة من هذا التاريخ.. وعلى أرضها كان المد والجزر بين الإسلام وأعدائه.. من «هرقل» والبيزنطيين.. إلى الصليبيين وأمراء الاقطاع الأوربيين.. إلى «هولاكو» والتتر.. وحتى الحلف «الصليبي - الصهيوني» في العصر الحديث.

والصراع المعاصر والحالي بين أمتنا وبين الكيان الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين، ليس خاصا بأهل فلسطين.. فهذا الكيان إنما يمثل قاعدة للمشروع الاستعماري الغربي، نشأ بروتستانتيا غربيا، مستندا إلى أسطورة بروتستانتية تزعم أن عودة السيد المسيح، عليه السلام، ليحكم الأرض ألف عام، قد اقترب أوانها، ولابد لحدوثها من جمع اليهود في فلسطين وإقامة دولتهم، وشن حرب إبادة ضد العرب والمسلمين.. ولقد صادف تبلور هذه الأسطورة البروتستانتية قيام الغرب بغزوته الاستعمارية الحديثة على ديار الإسلام، وبحثه عن أقلية دينية تمثل بالنسبة له موطيء القدم، والشريك الأصغر في المشروع الاستعماري. فروجت الأسطورة في الأوساط «الصهيونية الغربية» - الباحثة عن وطن يحميها من الاضطهاد الغربي - فقام هذا الحلف «الصليبي - الصهيوني» ضد العرب والمسلمين على أرض فلسطين.. ليمثل الطور المعاصر لذلك الصراع التاريخي الذي دار بين الإسلام وبين أعدائه على هذه الأرض التي باركها الله.

● موقف من الصهيونية المتحالفة مع الغرب

فالموقف الإسلامي من إسرائيل ليس موقفا من «اليهودية الدين».. فاليهودية دين من الديانات التي جاء الإسلام مصدقا لها، ومصححا لما حرف من عقائدها، ومهيمنا - هيمنة الرسالة الخاتمة - عليها.. ومتعايشا مع المتدينين بها.. وإنما موقف الإسلام من هذه «الدولة» هو موقفه من الصهيونية التي تحالفت مع الغرب الاستعماري ضد نهضة الإسلام ويقظة أمته، وأقامت في أرضه المقدسة قاعدة استعمارية استيطانية تقتلع المسلمين من

ديارهم، وتحترف العدوان المنظم لاجهاض النهضة والتقدم فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. مستغلين في ذلك أساطير توراتية حول وعد إلهى لبنى إسرائيل بأرض ما بين النيل والفرات.

وللإسلام من هذه القضية - قضية اغتصاب الأرض والإخراج من الديار - موقف حسمه القرآن الكريم عندما قال: «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»[2] .. فلا موالاة ولا سلم بين المسلمين وبين من يخرجونهم من ديارهم ويظاهرون على إخراجهم من الديار - وخاصة إذا كانت هذه الديار «أمانة الفاروق عمر بن الخطاب» التى أودعها لدى الأمة التي جعل الله سنام دينها الجهاد؟!.. وكانت الأقصى وما بارك الله حوله فى القدس وفلسطين.

وهذا الموقف الإسلامي، من هذه القضية، يتأكد ويزداد وضوحا وحسما، عندما نعلم أن المسلمين الأوائل، بقيادة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يحاربوا مشركي قريش لمجرد شركهم ورفضهم التدين بالإسلام، فالحرب للإكراه على الدين مرفوضة إسلاميا، وهي لاتثمر «إيمانا» وتصديقا قلبيا يقينيا، وإنما تثمر «نفاقا» بدينه الإسلام.. وإنما حارب المسلمون المشركين لأنهم اعتدوا على المؤمنين، وفتنوهم عن دينهم، ولأنهم أخرجوهم من ديارهم.. والذين يتأملون آيات القرآن التى جاء فيها «الإذن» بالقتال، بعد الهجرة، و«التحريض» على هذا القتال، يرون كيف كان «الإخراج من الديار» فى مقدمة أسباب الإذن بالقتال والتحريض عليه «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»[3] «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل» [4] «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل» [5] «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك» [6].. «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها» [7] «ألا تقاتلون قوما نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» [8].

● المشركون والعداء للمسلمين

فمشروعيه الجهاد، ووجوب القتال، ليس لمجرد المغايرة فى الاعتقاد - شركا

أو يهودية - وإنما للإخراج من الديار.

وإذا كان المشركون قد كانوا أشد الناس عداوة للمسلمين.. فلقد شاركهم في ذلك اليهود «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (٩).

وإذا كان مشركو قريش قد أضافوا إلى إخراجهم المؤمنين من ديارهم وأموالهم محاولتهم أن «يثبتوا» رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أي أن يحبسوه، أو يثخنوه بالجراح.. فهذا ما تجاوزت فيه دولة إسرائيل الحدود مع العرب والمسلمين، على امتداد ما يقرب من نصف قرن حتى الآن؟!.

وإذا كان مشركو قريش قد أضافوا إلى إخراج المسلمين من ديارهم، «فتنتهم» في الدين، فإن إسرائيل تعلن على الملا أن دورها في «الشراكة الغربية» لم ينته بسقوط الشيوعية ونظمها وحكوماتها، وإنما دورها القائم والقادم في محاربة اليقظة الإسلامية - لحساب الغرب - دور كبير، ولا يمكن للغرب أن يستغني عنه.. ورئيس دولتها هو القائل «إن إسرائيل تصدت في الماضي لخطر الشيوعية والاتحاد السوفييتي. وإن لإسرائيل دورا في المستقبل، بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وهو التصدي لخطر الأصولية الإسلامية على نطاق منطقة الشرق الأوسط كلها (١٠). إن العالم يجهل الخطر الاكبر الذي يهدده، وهو الأصولية الإسلامية.» (١١)

★★★

إذن، فاغتصاب الأرض، والإخراج من الديار، وقتل المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، وإجهاض كل محاولاتهم للتقدم والقوة والنهوض، هي جوهر أسباب الصراع مع دولة إسرائيل - كقاعدة لمشروع الهيمنة الغربية .. وأداة للإذلال الاستعماري للمسلمين.. وامتداد سرطاني للحضارة العلمانية، في قلب الأمة الإسلامية، وعلى الأرض المقدسة التي بارك الله فيها ! - .. ومن ثم فإن الموقف الإسلامي من هذه الدولة - ومن الذين يظاهرونها - هو الجهاد، فرض عين على كل مسلم ومسلمة، حتى تحرير الأرض، وفك أسر المقدسات.

وقبل هذا التحرير، لا «صلح» ولا «سلام».. وأقصى ما يجوز لمسلم هنا هو «الهدنة» عند الاستضعاف، وحتى يزول هذا الاستضعاف، فيكون الجهاد للتحرير.. ذلك أن «الصلح» إذا عنى «السلم الدائم» كان تكريسا لاغتصاب الأرض والإخراج من الديار، والفتنة في الدين.

أما إذا كان المراد «بالصلح» «الهدنة» التي تفرضها توازنات القوى، وضرورات السياسة والحرب، وملابسات الصراع، داخليا ودوليا .. فذلك جائز إسلاميا، شريطة أن تقدر الضرورة بقدرها، وأن يتفق عليها أولو الأمر - أي كل أهل الذكر

والشوكة فى الأمة.. وليس فقط الحكومات - وخاصة منها المقيدة بقيود التبعية لأعداء الأمة.. يتفقون على ذلك بالاجماع أو بالأغلبية.. وبشرط السعى الجاد والحثيث لتسخير الامكانات اللازمة لتجاوز عوامل هذه الضرورات وأسبابها.

لقد هادن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مشركى قريش هدنة موقوتة بعشرة أعوام «يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا».. وسمى المؤرخون هذه «الهدنة»: «صلح الحديبية».. لكنها لم تكن «سلاما دائما» مع الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى الدين.. ولقد كرس المسلمون جهدهم يومئذ فى نشر الإسلام وتقوية الدعوة والدولة، حتى جاء يوم الفتح المبين!.

وفى «الهدنة» ترد «الترتيبات» التى يجب ألا تكون عوامل لتكريس الواقع الظالم.. إذ لابد من دفع الواقع والملابسات نحو إزالة الضرورات التى فرضت مهادنة المغتصب للأرض، حتى يأذن الله بالجهاد الذى نسترد به الحق السليب.

فلا سلم ولا موالاة لمغتصبى أرض الاسلام «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» (١٢).

هذا هو موقفنا من قضية الإسلام فى فلسطين - وهى قضية فلسطين الإسلامية .. التى تحدث عنها رواد الصحوة الإسلامية فقالوا: «إن فلسطين وطن لكل مسلم، باعتبارها من أرض الإسلام، وباعتبارها مهد الأنبياء، وباعتبارها مقر المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله. فلسطين دين للمسلمين لا تهدأ ثائرتهم حتى استعادة حقهم فيه (١٣).

الحواشى:

(١) الإسراء: ١.
(٢) الممتحنة: ٩.
(٣) الحج: ٣٩، ٤٠.
(٤) البقرة: ١٩٠، ١٩١.
(٥) البقرة: ٢١٧.
(٦) الأنفال: ٣٠.
(٧) الإسراء: ٧٦.
(٨) التوبة: ١٣، ١٤.
(٩) المائدة: ٨٢.
(١٠) محمد سيد أحمد - صحيفة «الأهالى» - القاهرية - فى ٨/٤/١٩٩٢م.
(١١) من خطابه فى البرلمان البولندى بتاريخ ٢٩/٥/١٩٩٢م.
(١٢) آل عمران: ١١٨
(١٣) «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» - رسالة المؤتمر الخامس - ص ١٨٤. طبعة دار الشهاب. القاهرة.

قراءة فى :
أبعاد الشخصية المصرية

بقلم : مصطفى نبيل

تابع قراء الهلال باهتمام بالغ، ما نشر حول «الشخصية المصرية» فى العدد السابق، ويرجع هذا الاهتمام إلى أن الموضوع يمس وترا حساسا عند القراء، ويتناول حياتهم اليومية، وما يطالعون من آراء تعالج نجاحاتهم ومعاناتهم واحباطاتهم.

وفى هذا النوع من الدراسات، يتلفت الكُتّاب حولهم، ويتلمسون طوق النجاة، يبحثون عن الثوابت مع حركة التغيير السريعة والمتلاحقة ، والتى تحدد ملامح شخصيتهم، وينقبون عن سماتها المميزة، يتأملون تاريخهم، يدعون للتمسك بعناصر القوة، وتجنب مواضع الضعف.

لذا لم يكن غريبا أن يتراوح اهتمام القراء بين الرضا والغضب، وجاء الغضب مما تصوروه أحكاماً قاسية على الشخصية المصرية.



سعد زغلول   سلامة موسى   جمال حمدان

□ سعد زغلول ... «ليس لحر الشمائل إلا أن يرحل عن مصر» !

□ سلامة موسى ... «إن مصر مصادفة سيئة لكل مصري» !

□ جمال حمدان .. «الطغيان مشكلة «الشخصية المصرية»

فيرى د. رؤوف عباس. أن المصريين «أكثر صبرا على اختلال ميزان العدل..» كما أنه .. «شاع عند بعض الدارسين عزوف المصرى عن الصراع، وإيثاره السلامة، وصبره على الظلم حتى أنه يتحمل من المظالم ما تنوء به كواهل البشر».

ويرى مصطفى الحسينى فى مقاله «نحن المصريون المحدثون» أننا «معجبون بأنفسنا دون مبرر أو سبب» ... نفسر سكوتنا على تدهور أحوالنا.. وسكوتنا على ما يلحق بنا من ظلم وضيم، بأننا شعب صبور، ولكننا فى نهاية «الصبر الطويل» نغضب فنغير كل شيء»، ونعيد كل شيء إلى نصابه... نتعمد الكذب على أنفسنا، فكيف لإناس - لا يصبر واحد منهم على الوقوف فى طابور لشراء سلعة أو ركوب حافلة، وإنما يتزاحم ويتدافع- أن يكونوا صبورين.. ولم يقل لنا الذين يحذرون من غضبتنا، متى غضبنا فى تاريخنا الحديث؟!

ويرى أن كل أبطال مصر فى تاريخها الحديث لحقتهم الهزيمة من محمد على إلى عرابى وسعد زغلول وحتى جمال عبد الناصر'..»

ويعلق بعض القراء.. «هل خلت الشخصية المصرية من كل الفضائل؟ وهل يجوز هذا التعميم. فكثير من الأحكام عن «الشخصية المصرية» لا تعدو ان تكون أحكاماً انطباعية، ويشكك بعض الكُتَّاب أصلا فى علم دراسة «الشخصية القومية» باعتباره علما مستحدثا لم يثبت أقدامه بعد، وهو يعتبر فرعاً جديداً للأنثروبولوجيا والذى يعنى دراسة وتحليل وتفسير المقومات الرئيسية التى تميز شعبا من الشعوب، ويبحث سلوك الأفراد والجماعات فى ضوء ما يرونه مباحا أو محرما، صوابا أم خطأ، وهذه الدراسة تقتصر بطبيعتها على مرحلة تاريخية بعينها، وفى إطار نظام اجتماعى بذاته . وإلا فستسقط هذه الأبحاث فى خطأ جوهرى، وهى اعتبار حالة بعينها ولتكن حالة جزر وانحسار وتدهور، حالة دائمة، يرصدونها، ويستخرجون منها أحكاماً عامة. ولا يمكن إنكار الفارق بين صفات «الشخصية القومية» فى عصور الازدهار عنها فى عصور التدهور، ومن الظلم رصد معالم الشخصية فى مراحل التدهور ثم تعميمها، كما أن «الشخصية القومية» يمكن أن تكون وليدة الأوضاع الجغرافية والتاريخية، أى وليدة مكان وزمان بعينه، وهى نتاج أوضاع سياسية واجتماعية، فإذا كانت الجغرافيا والتاريخ أكثر ثباتا، فالظروف السياسية والاجتماعية فى حالة تغير دائم. فالقهر والفقر ينحرون فى «الشخصية القومية»، كما أن الحرية

والوفرة يظهران الجوانب الايجابية فى الشخصية القومية.

لذلك فهناك مراحل تاريخية تتسم فيها الشخصية القومية بالسماحة، وفى مراحل أخرى تتسم بالتعصب والعنف.

ويعتبر بعض الذين يتناولون «الشخصية القومية» الأمراض الاجتماعية مجرد مشاكل عقلية، يمكن علاجها بالشرح والتفسير، وكأنه لا دخل للظروف الاجتماعية فى قيامها، ويتصورون أنه إذا صلحت العقول، استقامت الأمور. رغم أن العقل هو نتاج اجتماعى ومن صنع المجتمع والثقافة والقيم السائدة، ولا يكفى التبشير حتى تتغير الأحوال، وإنما يتغير المجتمع بتطوير وتحديث النظم المتبعة، وأى سلبيات فى «الشخصية القومية» تعود إلى خلل فى النظام الاجتماعى وغياب الحراك الاجتماعى، وعدم قيام مؤسسات حقيقية ومستقلة به.

وتتوزع الكثير من الكتابات التى تتناول «الشخصية المصرية» فى العصور الوسطى، والتى تأتى على لسان عدد من المؤرخين والرحالة، وهناك كتاب عنوانه «فضائل مصر».

وسنطل هنا على بعض الكتابات الحديثة عن «الشخصية المصرية»، لعلها تلقى الضوء على ظاهرة الكتابات التى تنتقد بألسنة حداد «الشخصية المصرية».

ومن المفارقات الدالة، أن معظم الكتابات الحديثة التى تتناول «الشخصية المصرية»، يكتبها أولئك المهتمون بشئون وطنهم والساعون إلى تقدمه، مما يعنى أن هذه الكتابات تهدف لدفع الناس إلى العمل، والتخلص من الكوابح التى تعرقلهم، وأحيانا تهدف هذه الكتابات إلى إحداث صدمة للقارىء من خلال نقد الذات اللاذع، أو فلنقل إنها صورة من الانتقام من الذات، عندما تكره الشعوب ذاتها فى مراحل الجزر والانكسار، ويتساءل لسان حال هذه الكتابات، هل المصريون متقاعسون ومقصرون؟... وهل هم شعب متواكل يعتمد على غيره؟.. وهل القصور طبع فيهم..؟، والكاتب يعبر عن حالة غضب لأوضاع متردية، وسد الفجوة بين الواقع والأمل، وإذا كان هذا الشعور يؤدى عند البعض للفخر الكاذب بالماضى والمبالغة فى أمجاد الماضى، فهو يؤدى عند البعض الآخر إلى النيل من أنفسهم، والحط من أقدارهم، والسخرية من ماضيهم!

● دعوة للرحيل

وها نحن أمام ما كتبه سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ فى مذكراته، فإذا جمعنا ما يقول سعد فى هذه المذكرات عن مصر و«الشخصية المصرية»، فسنحصل على عمل مثير له أكثر من دلالة، ويؤكد ما

ذهبنا إليه. فهذه أقوال ابن ورمز الوطنية المصرية، الفلاح المصرى بين الباشوات.

نجده يذكر في يومياته بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٦ - أي أثناء الحرب العالمية الأولى - أنه أبلغ أصحابه بأن .. الحرب إذا انتهت بانتصار أحد الفريقين المتحاربين، فليس لهذه البلاد نصيب في الاستقلال، وليس لحر التماثل إلا أن يرحل عنها، وإلا يصبح غريبا فيها، ذليلا مهيض الجناح».

ويقول في كراسة ٢٨.. «ما أتعس حظ مصر إن وجدت وزيرا صالحا، فلا تجد أميراً حسن القصد، طيب القلب، وإذا وجدت أميرا بهذه الصفات، منيت بوزير يتقلب على الأهواء ويسير مع الأعداء، ولا يكون همه إلا حفظ مركزه ونوال الحظوة عند الأقوياء».

ويقول في الكراسة التاسعة والتى كتبها في نهاية عام ١٩٠٨ (أي قبل حوالى عشر سنوات من قيام الثورة).. «إن البلاد تقدمت فكريا، ولكنها تأخرت أدبيا، فمعلومات بعض الأفراد فيها أكثر من قبل، ولكن الفضائل أقل، فقد كان يوجد من قبل رجال يدافعون عن الحق للحق، ويأبون أن يأتوا شيئا من المحرمات، ولو كان في الإباء خطر على أنفسهم وأموالهم..» .. «وإذا قارنت بين هؤلاء الرجال، الذين كانت حياتهم معلقة على كلمة من فم الحاكم، وبين رجالنا، حتى الذين أحيطت مناصبهم بقوى الضمانات، لا بالنسبة لأموالهم وأنفسهم فقط، بل بالنسبة لمساندتهم، لرأيت الفرق شاسعا، والبون بعيداً، وحكمت بأن البلاد في تأخر أدبي».

ويقول عن الفلاحين .. «أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة، ولا تثور لهم ثائرة إلا إذا مست الجهة الضعيفة فيهم، وهي الجهة الاقتصادية، فهم منصرفون عن كل عمل عام إلا إذا وسوس لهم وسواس في صدورهم بالدين وأحكامه».

«وذوو الوجاهة والنفوذ يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الاشتغال بها من السلطة والنفوذ من العامة، فإذا آنسوا من الاشتغال ومباشرة ما يبتغون من سلطة وجاه، انصرفوا عنها وتبرأوا منها».

«والموظفون لم يبحثوا عن الوظائف ولا الترقي فيها لكي يفيدوا الأمة بأعمالهم فيها ويستفيدوا منها ببسطة في المال وفي الحياة.. وقليل منهم من يعرض مصلحته الخاصة في حق ينصره أو باطل يخذله، وترى الواحد منهم وهو خال من الوظيفة يشخص العلة ويصف الدواء» وينتقد على العاملين أعمالهم، ويقبح كل عمل مخالف للعدل أو الذمة، حتى يخيل لسامعه أنه إذا تولى الأحكام انصلحت الأحوال، وصارت على أحسن نظام، فإذا دخل فيها،



انعكست الآية، وصار ذلك الحر فى القول رقيقا فى العمل، وذلك المستقل فى الفكر، آلة صماء يحركها الرئيس كيف شاء... حتى إذا تغير رئيسه عليه، ورأى المستقبل مظلما فى عينيه عدل إلى حالته الأولى، وأخذ يسخط على الزمان والمكان وانتظم فى سلك الأحرار (١).

ويقول زعيم الثورة عن التجار.. «لا يشتغلون بالأمور العمومية إلا على مقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة، ثم لا يهمهم - بعد ذلك - شكل الحكومة ، إن كانت مقيدة أو مطلقة..».

وعن العمال والصناع والفعلة.. «أنهم لا يهتمون إلا بأعمالهم وقبض أجورهم ولا يتحركون لعمل عام إلا إذا حركته عوامل الدين، أو رأوا فى الثورة ما يسهل عليهم السلب والنهب.. وبالجملة فليس فى جميع هذه الطبقات قوة الاعتماد على النفس التى هى منبع الحياة فيه، ثم فهى دائما تسعى بالحاجة إلى الغير للاستعانة به، ولا تحس من نفسها القدرة على الوصول إلى الغاية .. لأنها مكثت فى الذل والاستعباد أجيالاً عديدة، فإنها تبحث دائما عن سندها لدى الحاكم، فإذا لم تجد منه ندا لها ضعفت، وإن وجدته تقوت، وسلمت لهم الأيام».

ووصل بسعد الحال إلى القول .. «إن مصر لا يمكن أن تعيش مستقلة، فإن حصلت على الاستقلال، فإنها لن تلبث حتى نضيعه»!!

فهل سعد صاحب هذه الأقوال.. هو نفسه قائد الثورة الذى عرف شعبه، ونجح فى قيادته فى أول ثورة للتحرر الوطنى؟. فكلمات سعد - على الأرجح - تعبر عن حالة ضيق، ولحظة اكتئاب، ورفض لما يدور حوله، ورغبة فى أن يتغير إلى الأفضل.

● مأساة جغرافية

وها هو ذا كاتب وأحد الشخصيات العامة الكاتب سلامة موسى يرى فى الأربعينيات أن مصر «مأساة جغرافية»، ويدعى.. «إن مصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى، من حيث أنها مأساة جغرافية، إذ تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأفريقيا، ثم فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر لها الدفاع، ولهذا وقعت فى أسر الغزو المتكرر..».

ويتعامل سلامة موسى هنا مع الحتم الجغرافى الذى لا يفسر الماضى وحده بل يمتد أيضا إلى المستقبل، متجاهلا إرادة الإنسان وما يمكن أن يقوم به البشر، ولا يقف ويقدم تفسيرا لما حققته مصر الفرعونية، أو ما أنجزته مصر المملوكية عندما صدت الغزو المغولى واندحرت عند حدودها الموجة الصليبية.

وكتب د. جمال حمدان أهم عمل تناول «شخصية مصر»، وقدم عملا علميا وعقلانيا جميلا ويرى.. «أن الطغيان والقهر السياسي هما أس وجذر مشكلة الشخصية المصرية، ومصدر سلبياتها وعيوبها وأمراضها.. وبالديمقراطية تسير مصر في طريق الشفاء من هذه الأمراض والسلبيات ..».

والعلاقة ظاهرة، بين مجهوده العلمي الكبير وبين الحالة العامة، ويصرح في مقدمة كتابه.. «في هذا الوقت - بعد هزيمة ٥ يونيو - الذي تتردى فيه مصر إلى منزلق تاريخي مهلك قومياً، ويتقلص حجمها ووزنها النسبي وينحسر ظلها، تجد مصر نفسها بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى إعادة النظر والتفكير في كيانها ووجودها ومصيرها بأسره.. من هي ؟.. وما هي ؟.. وماذا تفعل بنفسها؟.. ثم.. ماذا بحق السماء يفعل بها ؟..

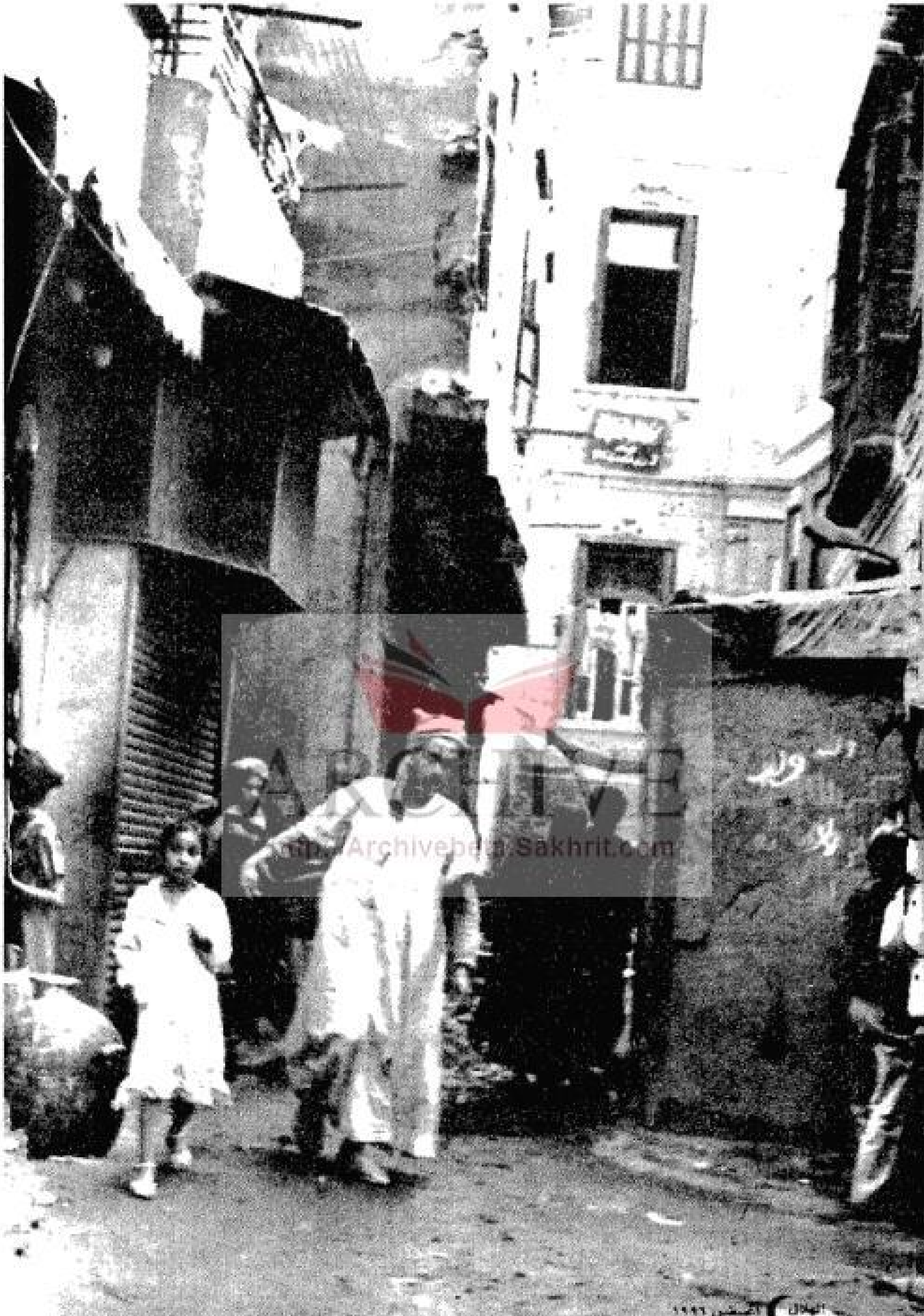
وجاء كتابه رداً حاسماً على محاولات طمس الشخصية المصرية والنيل منها، ويؤكد.. «إن ابن مصر البار الغيور على أمه الكبرى.. هو وحده الذي لصالحها ينقدها بقوة وقسوة».

ويرى أنه إذا كانت هناك ثنائيات فهو التضاد الذي يؤدي إلى الاتساق والتجانس، وهو السمة الرئيسية للشخصية المصرية، فبين الموضع جغرافيا وبشريا والموقع المحيط بمصر جغرافيا وبشريا هناك ثنائية، تصل إلى التجانس، وهكذا بقية الثنائيات، بين الصحراء والوادي، بين الرمل والطين، بين البر والبحر، بين الماء والسلطة، بين السلطة والشعب، بين القرية والمدينة، ويتحقق التجانس بين المكان والزمان، بين الجغرافيا والتاريخ، بين الثبات والتغير، بين العزلة والاتصال.. التدرج والتوسط هو قانونها، التوسط كتعبير جغرافي، والاعتدال كتعبير بشري، وهذا التدرج والتوسط والاعتدال، هو الذي يشكل عبقرية مصر، مصر المكان والزمان.

ويرى أن العقلية المصرية عقلية برية وليست بحرية مما أضعف دورها التجاري.. وخيم على مصر دائما طغيان السلطة، والمأساة عنده ليس في ضبط النيل وإنما ضبط الحكم، والآفة الكبرى هي خضوع الشعب للطغيان.

صحيح هناك دائما مقاومة، ولكنها ليست مقاومة متصلة، ولم تحقق ثورة شعبية.

وإذا تأملنا ماكتبه جمال حمدان، وجدناه لا يختلف كثيرا عما قاله سعد زغلول أو سلامة موسى، كل من منظوره والفترة التاريخية التي عبر عنها.



ولا يسمح الحيز باستكمال الرحلة، والحديث عن شخصية الفهلوى التى كتب عنها د. حامد عمار فى كتابه «فى بناء البشر» وهو نمط شائع، والشخصية التى تتصور المساواة فهما خاطئا. والشخصية الفردية التى تعمل تحت شعار.. «أنا وبعدى الطوفان»، أو أبحاث الدكتور سيد عويس فى كتبه المتعددة التى تتناول تواصل التراث الثقافى المصرى من أيام الفراعنة وحتى اليوم، وبصفة خاصة فى مجال المعتقدات الشعبية المتمثلة فى الطرق الصوفية.

ويوم قامت الدنيا ولم تقعد عندما كتب أحمد بهاء الدين «النظافة ليست من فضائل المصريين»! وكان ذلك انعكاساً لرغبة حادة فى إثارة الحمية لدى القراء حتى يحرصوا على النظافة.

● الجذور

وصدر أخيرا كتاب مهم للدكتور محمود عودة، بعنوان.. «التكيف والمقاومة.. الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية»، ويتناول هذا الكتاب المهم السمات العامة للشخصية المصرية فى استمراريتها وتحولها، فى اتصالها وانقطاعها، فى ايجابياتها وسلبياتها.

وهو دراسة اجتماعية تهدف، كما ظهر فى تصوير الكتاب، على لسان الكواكبى.. «ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس، ويرفعون الالتباس، ويفكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون..».

ويؤكد الكاتب د. عودة.. «إن الوعى العام بمشكلات «الشخصية المصرية»، أو سلوكيات الشارع المصرى أو أخلاق المصريين وطباعهم، أو انهيار القيم وطغيان الجوانب السلبية، وفقد الذات الذى يعكس أزمة اجتماعية تنعكس على الشخصية.... وهذه الأزمة لم تعد مجرد مشكلة على المستوى الفردى أو الشخصى، وإنما أصبحت أزمة عامة تنعكس على جوانب الحياة اليومية..».

ويبوح بهدفه من تأليف الكتاب.. «لا أستطيع أن أنكر أن ثمة هدفا شخصيا وذاتيا يكمن وراء هذا العمل، وهو الأمل فى تجاوز الأزمة الذاتية، من خلال الكشف عن أزمة الذات العامة».

إنه كتاب اقتحم الموضوع، وأخضعه للبحث والدراسة والتحليل، واستعرض أعمال معظم من تناولوا الشخصية المصرية، وقدم قراءة للعديد من الأحكام التى تميل إلى العمومية والانطباعية، وأكد أنه لا يمكن لنصف أن يعيد ذلك إلى سمات ذاتية يتصف بها المصريون.

فالمصرى ضد المصرى..

ينتقد، يهاجم، فى مجالسه وأحاديثه ومنتدياته وتصانيفه، فإذا كان المصرى هو المتكلم، وإذا كان هو الفاعل، فمن يقصد؟!

إن ذلك لا يعدو أن يكون حالة تململ لكى يتخلص المجتمع من أمراضه.

القيم فى مصر إلى أين ؟

بقلم : على فهمى

لعل تناول موضوع القيم بالدراسة ، يكون من أكثر موضوعات العلم الاجتماعى تشابكاً وتعقيداً . فإذا تعلق الأمر بمجتمع قديم ومستمر كالمجتمع المصرى، تغدو الدراسة أكثر صعوبة . وإذا كانت الفترة الزمنية التى تجرى فيها وعنها الدراسة تتسم بالتغيرات المتلاحقة بل والمتناقضة فى بعض الأحيان ، فإن الأمر يضحى بالغ الصعوبة وتعتوره مزالق كثيرة لها خطورتها.

وإذ يكون ذلك؛ فإن إيراد مجموعة دقيقة من الاحترازات المنهجية والموضوعية فى صدر الدراسة ، يبدو مفيدا وضروريا فى آن واحد.

ولنحاول إجمال هذه الاحترازات فى جزئيات محددة على الوجه التالى :

● لا توجد بحوث إمبريقية رصينة حتى الآن حول هذا الموضوع على الرغم من الأهمية البالغة التى يكتسيها . ونحن نرجع هذا إلى عدة أمور :

أ - صعوبة هذا الميدان البحثى وتعقده.

ب - عدم كفاءة وعدم ملاءمة الأدوات المنهجية البحثية السائدة حالياً .

جـ - قلة كفاءة ودربة ودراية غالبية الباحثين ، وبخاصة فى مجال الأطر التفسيرية لمثل هذا الموضوع ، لغلبة بعض المعرفة التقنية دون المعرفة الموسوعية اللازمة .

د - الكسل العقلى وعدم الرغبة فى المجازفة من جانب المراكز البحثية ، لطرق مثل هذه الموضوعات الشائكة .

● على الرغم من أن ثمة دراسات نظرية أو تأملية، تناولت هذا الموضوع بقدر من العمومية، فإنه لا يمكن الاستناد إلى النتائج إلا فى حدود صياغة بعض

الفرضيات العامة ذات العلاقة .

● إن القيم في أي مجتمع كبير وقديم مثل مجتمعنا المصري تتصل اتصالاً وثيقاً بالثقافة العامة وبالثقافات الفرعية التي تختلف وتتباين إقليميا وطبقيا ، مما يزيد أمر الدراسة صعوبة .

● ان ثورة الاتصال والمواصلات ، قد زادت من تعقيدات موضوع القيم، حيث يتم تداخل متعدد الأبعاد بين قيم قارة من ناحية وقيم وافدة من ناحية أخرى.

● ان موضوع القيم يتصل بالمعتقدات الدينية (ذات الطابع الأخلاقي بخاصة) ، وبالرغم مما تتمتع به هذه المعتقدات من ثبات كبير ، فان الفهم الشعبوى (في السياق الواقعي) لهذه المعتقدات يتغير وفقا لمعطيات كثيرة . وفي المثال المصري، نزعم أن الهجرة العشوائية الكثيفة للمصريين إلى الأقطار العربية النفطية والتي لها بعض الثقافات الفرعية المختلفة والتي لها فهمها الشعبي أيضا المتعلق بالمعتقدات الدينية ، نزعم أن هذه الهجرة أسهمت في زحزحة بعض القيم وحلول قيم أخرى قد تكون مغايرة محلها .

● إننا نفترض أن مايصطلح عليه المجتمع من قيم إيجابية وأخرى سلبية، تتجاور - جنباً إلى جنب - في المجتمع المعنى . غاية مافي الأمر أنه في عصور الازدهار تسود القيم الايجابية وتترسخ، والعكس صحيح في عصور الانحطاط تسود القيم السلبية وتتجذر .

● حول ماهية القيم

القيمة - في اللغة - من قوم (السلعة تقويما)؛ وأهل «مكة» يستعملون استقام (السلعة) في نفس المعنى . وقد تكون القيمة مادية أو اقتصادية أو جمالية أو أخلاقية أو قانونية أو سياسية أو ثقافية وغير ذلك.

وقد نقنع - كتعريف إجرائي - بأن «القيمة هي حكم عقلي أو انفعالي على أشياء مادية أو معنوية ، يوجه اختياراتنا بين بدائل السلوك في المواقف المختلفة». وفي أدبيات العصور الوسطى، نجد العديد من الأحكام التي تتصف بالعمومية عن شعوب بأكملها في منطقتنا العربية، وعلى الرغم من التعميمات المجازفة ، فقد جرت هذه الأحكام مجرى الأمثال . فيحدثنا «المقريزي» في « المواعظ والاعتبار» عما كان يتداوله العرب في ذلك : (قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك)، كما يذكر «المقريزي» أيضاً أن من بين الصفات التي تغلب على أخلاق المصريين (الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة والسعي إلى السلطان، ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه).

ولاشك في أن مثل هذه التعميمات لا تكتسي الدقة العلمية ويغلب عليها الانطباع المتسرع إن لم يكن الميل والهوى.

ومع هذا كله ؛ فإننا نجازف بطرح سؤال محوري : حول مدى استمرارية مثل هذه القيم (إذا تجاوزنا وقبلناها على

علاتها ومع كل التحفظات اللازمة) ، على الرغم مما اعترى ويعترى المجتمع من تغيرات عميقة وتحولات شاملة؟

حدود الدراسة

وواضح أن الاحاطة فى تناول موضوع القيم بمصر، أمر بالغ الصعوبة إن لم يكن من قبيل المحال. وعلى هذا ، فلسوف نركز على قيم محدودة بعينها ومما يبرر اختيارنا لهذه القيم تحديدا ، أنها قد طرأت عليها تغيرات فارقة وفى وقت قصير نسبيا بحيث تحولت من طرف إلى طرف نقيض، بعد أن كان قد وقر فى الأذهان وحتى فى معظم الأدبيات ، أنها قيم قارة ومتجذرة. ولذلك كله، سنكتفى بدراسة الجزئيات التالية

أ - قيمة الاستقرار والترحال.

ب - بعض القيم الجمالية .

جـ - الوداعة والعنف .

د - المال الحلال والمال الحرام أو الحل والحرمة (فيما يتعلق بالكسب).

وبالطبع سوف يكون التناول فى إيجاز لضرورات المساحة، مع إيراد بعض الأمثلة التوضيحية .

أولا - حول الاستقرار والترحال (الهجرة) .

كان من السائد والمتداول المتعارف عليه بين كل المعنيين والمهتمين بأمور المجتمع المصرى؛ أن الشعب المصرى يميل على نحو واضح إلى الاستقرار المكانى حتى بمعناه الضيق (كقرية أو منطقة محددة مثلاً) . ولعل مما رسخ هذا الاعتقاد السائد حول هذه الجزئية ، أن هجرات كثيفة من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين قد حدثت فى القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين صوب الأمريكتين . وحتى صوب دول نائية فى أمريكا الجنوبية مثل الاكوادور . بينما لم يهاجر المصريون خلال هذه الفترة الزمنية ذاتها سوى أفراد قلائل فى حكم الندرة ، وكاستثناء يؤكد القاعدة العامة بعدم ميل المصرى إلى الهجرة . غير أن ظاهرة الميل إلى الاستقرار هذه، كانت تشذ عنها بعض الهجرات الكثيفة من جانب المصريين نتيجة ظروف المجاعات والأوبئة فى العصور الوسطى ، وكانت تتم الهجرة عادة - صوب الشام وبرقة (على نحو ما يذكر المؤرخ «عبداللطيف البغدادى») . ومنذ نحو ثلاثة عقود والهجرة المصرية الكثيفة (وهى هجرة مؤقتة فى الغالب) صوب الأقطار العربية النفطية ، تتم فى موجات متلاحقة تدعو إلى الدهشة . ومن الطبيعى أن نقارن ما يحدث حاليا بما ذكره «البغدادى» من قبل ومن ثم ، فأن قيمة «الاستقرار» تتحول فى ظل الظروف الاقتصادية الصعبة إلى قيمة أخرى هى على النقيض منها تماماً .

ثانياً : حول القيم والرؤى الجمالية :

تتداعى بعض الصور الذهنية عن الماضى (غير البعيد) ، لدى المخضرمين منا وبخاصة من القاهريين الأقحاح عن أمور عديدة كانت تحدث فى الماضى . فعلى سبيل المثال ، كان ثمة انضباط وتدقيق فى طوابير التلاميذ الصباحية بكل

المدارس والمعاهد التعليمية فيما يتعلق بالنظافة وحسن الهندام (قص الشعر وقص الأظافر وتلميع الأحذية ووجود مناديل نظيفة ونحو ذلك) . وعلى سبيل المثال أيضا ، يتذكر المخضرمون (وحتى الأجيال الشابة تقارن عندما تشاهد الأفلام السينمائة القديمة)، أن الشوارع بل وحتى الحوارى والأزقة كانت تكنس وترش يوميا وبانتظام ، وأن الشجر كان يكسو أفاريز الطرقات، وأن مساحات الخضرة بالقاهرة وضواحيها كانت واضحة وكافية ومتسعة . وعلى سبيل المثال لمرة ثالثة: فإن مربع وسط المدينة كان مليئا بمقاه وبمشارب وبمطاعم أنيقة نظيفة ، ولم تكن أرصفة وسط المدينة قد غمرها ألوف الباعة الجائلين والمرفيين . وعلى سبيل المثال أيضا ، كانت ثمة محال عديدة لبيع الكتب والصحف والمجلات العربية والأجنبية ، ومن أسف أن معظم هذه المكتبات قد تحولت إلى محال لبيع الأحذية تحديداً؛ وأيضاً كان مربع وسط المدينة مليئاً بمحال بيع الزهور ، التى تحول معظمها أيضا إلى بيع الأحذية . يضاف إلى ذلك ، الفجاجة البادية على العمارة بالقاهرة بخاصة وعدم الملاءمة مع المناخ والبيئة . فما الذى حدث ؟ نزعم أن انتكاسة فى التذوق الجمالى قد حدثت على نطاق واسع ، لدرجة أن القاهرة - فى تقديرنا - قد اعتراها تريف كامل أو يكاد . ونعتقد أن الرياح المصاحبة للمهاجرين العائدين من بوادى النفط قد أسهمت فى إفقار الوعى الجمالى ، بالإضافة إلى صعوبات قاسية تتعلق بالظروف الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن التكدس السكانى الفادح.

ثالثاً : حول الوداعة والميل إلى العنف:

ولعل من الأحكام القيمية التى كانت تتسم بدرجة كبيرة من الثبات : أن المصريين - بعامة - يشتهرون بنوع من الدماثة والوداعة ، وأنهم - نادرا - ما ينجرون إلى ارتكاب العنف . حتى أن كتابات الرحالة إلى مصر ، كانت تزخر ببعض السخرية إزاء ملاحظاتهم عن أن معظم الخلافات التى قد نشبت بين المصريين هى من قبيل المشاحنات الكلامية ، بدون لجوء إلى العنف البدنى. وكانت أيضا من بين هذه الملاحظات : أن المصريين (حتى من عابرى السبيل) كانوا كثيراً ما يتدخلون لفض المشاحنات الكلامية وتطييب خاطر المتخاصمين. وواقع الأمر - حاليا - أن الميل إلى اللجوء إلى العنف البدنى ، بل وأيضا استخدم السلاح ، يكاد يكون ظاهرة واضحة لاتخطئها الملاحظات المتبصرة وحتى تلك العابرة . فما الذى حدث هنا أيضا؟ نزعم أن عدة عوامل تضافرت على إفراز هذا الميل إلى العنف ، نراها

● فى السياق التالى

أ - كثرة تعرض «مصر» للحروب خلال العقود القلائل الماضية . ونعتقد أن خبرة وضع مئات الألوف من الشباب لسنوات عديدة تحت السلاح وفى ظروف الاعداد للمعركة (أثناء حرب الاستنزاف)،

لكفيل بأن يغير من الانماط السلوكية التى تغلب عليها الوداعة والرقة إلى تلك التى يغلب عليها العنف والخشونة .

ب - الضغوط الاقتصادية البالغة الشدة ، والتى تعرضت لها أجيال الشباب - بخاصة - منذ إنفاذ سياسات الانفتاح الاستهلاكى عام ١٩٧٤، وما صاحبها وترتب عليها من تضخم وارتفاع مطرد فى أسعار السلع والخدمات الضرورية . فضلا عن ضراوة التطلعات الاستهلاكية ، بالإضافة إلى أزمات الاسكان والبطالة ونحو ذلك .

جـ - التأثيرات الجانبية لبعض البرامج التليفزيونية وبخاصة الأمريكية منها، والتى تمتلىء بمناظر العنف، على الأطفال والمراهقين بالأخص .

د - الشعور العام بتراخ حقيقى أو متوهم فى إنفاذ القوانين، والبطء فى إجراءات المحاكمات والتقاضى.

هـ - الهجرة الريفية إلى المناطق الحضرية ، مع ما تؤدى إليه من تسييد للقيم الريفية وتتسم بعض هذه القيم بميل إلى استخدام العنف البدنى . ونزعم - هنا أيضا - أن الهجرة العائدة إلى مصر بعد خبرة العمل بالأقطار النفطية ، أدت إلى تسييد بعض أنماط البداوة ومن بينها الميل إلى العنف فى حسم النزاعات .

و - انتشار إدمان المخدرات المخلقة بخاصة بين الشباب.

رابعاً : حول الحل والحرمة فى كسب العيش:

كان من المعروف المتداول عن الثقافة السائدة بين غالبية المصريين لعقود قلائل خلت، الاعتقاد الكاسح والمترسخ بأن المال الحرام لا بركة فيه ، بل إنه يزيح البركة حتى عن المال الحلال إذا خالطه، وأنه يجلب الكثير من الكوارث والمصائب الفردية والعائلية على من يكتسب من هذا المال الحرام أو المشبوه . ولم تكن هذه عقيدة الطبقات المتوسطة فحسب، بل كانت تسود حتى فى الطبقات الفقيرة التى تعانى من شظف العيش . وكانت غالبية المصريين يتطيرون حتى من مواطن الشبهة فيما يتعلق بالكسب . ألم تر إلى عزوف الكثيرين عن فوائد البنوك ؟ (حتى بعد صدور وذيوع فتاوى من علماء مسلمين بحل هذه الفوائد) . وكان العديد من المهنيين والحرفيين وصغار التجار، يخشون الإهمال فى أعمالهم أو شبهة تجاوز هامش الربح المتعارف عليه ، خشية الوقوع فى الحرمة.

هذه مجرد أمثلة قليلة توضح ما كان سائداً لدى غالبية المصريين حول هذه الجزئية . لنحاول أن نتلمس ملامح الصورة الراهنة . فنجدها على العكس تماماً من الصورة التقليدية التى كانت سائدة . فالقانون القيمى الذى أضحت له الغلبة : (أكبر ربح ممكن بأقل جهد ممكن) . وتصدرت الغايات على الساحة بغض النظر عن الوسيلة . وغدا المال هو القيمة ذات الوزن الأعلى لدى كل معادلة أو معاملة : سواء عند اختيار العمل أو عند الاختيار للزواج وللنسب . وأصبح السؤال القيمى السائد : ماذا تكسب؟ بدلا

من مـاذا تعـمل؟. وغلبت حـالة أن «تملك» على حـالة أن «تكون» !. وارتفـعت نسب المخالفات القانونية ذات الطابع المالى والاقتصادى ، وارتفعت نسب ارتكاب جرائم الفساد الوظيفي والرشوة والتربح . واعتور الفساد عدداً كبيراً من الميادين كانت بمنأى دائما عنه ، مثل المغالاة فى أسعار الكتب الجامعية وسرقة المؤلفات العلمية والتدليس للحصول على درجة أو ترقية علمية، ونحو ذلك من كثير يعرفه المتصلون بالحياة الجامعية الراهنة فى مصر. ومن خلال الملاحظات المتبصرة أضحى التزمت الأخلاقى تجاه بعض الأمور التقليدية المهمة مثل العرض ، ينم عن قصر نظر وعدم مرونة . واستشرت جرائم النصب والاحتيال وإصدار شيكات بدون رصيد ، وفاحت فضائح شركات توظيف الأموال (الإسلامية؟) . حتى أن بعض وكالات إلحاق العمالة بالخارج ووكالات التسفير والحصول على تأشيرات الدخول ونحو ذلك ، أضحت محل شبهات عديدة . وغدا من الشائع أن يتاجر بعض المتنفذين فى الكثير من السلع عند الشحة؛ حتى تأشيرات الحج!.

ولقد كان حكم شهير لمحكمة القيم فى قضية مهمة عام ١٩٨٣ دامغاً ونذيراً: (إن الفساد يكاد يفتك بقلب الأمة).

والأخطر من هذا كله ، أننا نرصد تسامحاً اجتماعياً متزايداً ، تجاه هذه المخالفات ؛ مما ينذر بعواقب بالغة الخطورة . ففى تقديرنا أن مناخ التسامح الاجتماعي هذا يشجع على استشراء وتمكن هذه السلوكيات الفاسدة ويؤدى إلى ترسيخ للقيم السلبية كافة . ونحن نميل إلى تفسير مناخ التسامح بسببين :

أ - تنامى ظواهر الفساد .

ب - استشراء اليأس من العلاج.

ونفترض أن عدة عوامل قد لعب الدور الأكثر خطورة ، فى تنامى القيم السلبية (الحرام) المتعلقة بكسب العيش . فالضنك المعيشى من ناحية ، والطموح الاستهلاكى اللامحدود من جهة ثانية ، والتشبه بالقيم الاقتصادية ذات الطابع الريعى والتى صاحبت الطفرة النفطية والنموذج الاقتصادى الكومبرادورى المتمثل فى تجارة الوسطاء والسمسرة السائدة فى اقطار النفط من جهة ثالثة وأخيرة، كل هذا أفرز وكرس قيم (الحرام) فيما يتعلق بكسب العيش فى صفوف أعداد متزايدة من المصريين . وقد يضاف إلى هذا كله ، الانفتاح غير المسبوق ، على المجتمعات الغربية المتقدمة صناعيا ، والانبهار بمظاهر وبشكليات الرفاه المادى هناك ، بدون محاولة لفهم آليات التراكم الرأسمالى بهذه البلدان.

ولعل أخطر مافى هذه الجزئية تحديداً - أننا نميل إلى اعتبار كل الظروف والقيم المصاحبة لها، من بين أخطر عوائق الاستثمار الفعال ،ومن ثم التنمية الجادة .

مصر عربية في القرن القادم

بقلم : د. محمد نعمان هاشم(*)



★ نائب رئيس مجلس ابحاث التعليم العالي

لم تعد نوت ـ كما كانت فى نظر المصرى القديم ذلك الجسد الرقيق المنحنى فى حب وحنان يحتضن الأرض والبشر ، وعلى قدها تتحرك الشمس والأفلاك .

كما لم يعد حابى المترع بالخير يجرى ويفيض فى غضب معطاء ، نحبه ونعبده ونخشاه ، يوحد كل المصريين ، وما أن تنطلق الصرخة «حيك يابحرى» حتى تنشق الأرض عن مئات المصريين كباراً وصغاراً يدعمون الجسور ويتصدون للفيضان ، يحمون البيوت ويسعلون بالخير سعادة مندمجة بالخوف ، خليط عجيب من الفرح والحذر صنع فى نفس الوقت مشروعية لهرمية السلطة وحدد واجباتها بدقة وقوة .

إذا اختل نظام الرى وعلاقة البشر بالفيضان فهذا يعنى أن ريشة ماعت قد اختلت فى يد الفرعون أو الملك . هكذا قال الفلاح الفصيح منذ آلاف السنين ، لقد صنعت هذه العلاقة ديمقراطيتها الخاصة وقد قامت على مزج الكل فى واحد ، إنها ديمقراطية القلب الجماعى فى مواجهة ديمقراطية العقل الجماعى الإغريقية المثبت.

منذ بنى المصريون السد العالى وأرقفوا العلاقة الأزلية مع الفيضان فقدت الكثير من هياكلهم الإجتماعية مبررها ، أصبحنا نتساءل عن العمدة وشيخ الخفراء وشيخ الناحية على الرغم من أنهم لبثوا عقودا فى آليات الدولة الحديثة - كما تسللت إلى قاموسنا اليومى عبارات تلوث المياه وزحف الصحراء.

• حمرة الحياة

لقد فقد الوادى معزوفته الملحمية ، إن الصحراء لم تتوقف عن الزحف صوب الوادى ولكن الفيضان كان يربت على الزحف بيديه السحريتين فيرسب الطمى على حبيبات الرمال ، يحوّل صفار الموت إلى حمرة الحياة فتكتسب تخوم الوادى تربة جيدة خفيفة تلمع بابتسامة المياه وعلى هذه اللمعة يلقى الفلاح بالبذور .

نحن الذين تعلمنا علوم الزراعة الحديثة كنا ننظر بتعالٍ ونندهش لكسل وجهل هذا الفلاح الذى لا يزرع الأشجار لصد رياح ورمال الخماسين عن أرضه ، بل يبتسم ويتفاءل بهذه الرياح ورثة التاريخ ذوى الأيادى الخشنة ، لأنهم كانوا على ثقة فى عباءة الفيضان وهى تفرش الأرض ، نعم تفرش الأرض ، من قال فى لغة من اللغات أن المياه تفرش الأرض ؟ لقد قلناها نحن المصريين لأن المياه كانت مياها وطميا .

فى الربيع تأتى الرمال ، وفى نهاية الصيف يأتى الطمى ، يتمازج الوادى

والصحراء فى غزل أزلى يتحول إلى رصيد للموت اذا عجزت شرايين النيل عن دفع المياه إلى الأطراف ، لذلك انسحب الوادى من غرب مرسى مطروح إلى هذا الشريط الضيق ، وجف الخير فى سهل الطينة وانحسر . واليوم تطرق آذاننا كلمة لها صرير معدنى هى التصحُّر ، فهل اختلت ريشة ماعت ؟

كتب جمال حمدان إن السد العالى وضع المسمار الأخير فى نعش الفرعونية والتى هى منظومة كاملة من العلاقات الاجتماعية والانتاجية ، هرمية أنتجت نظامها السياسى الخاص ، وبما كان ظالما على نحو من الأنحاء ولكنه لا يفرق المصريين ولا يشرذمهم بل يصون وحدته على أرضهم .

منذ دخلت رمال الصحراء من الغرب إلى الوادى بلا مقاومة وفرضت التصحر - دخلت أخلاق وقيم صحراوية من الشرق مع رياح النفط ، فعرف المصريون - أو نفر منهم - الطريق الى السلاح لقتل بعضهم بعضا ، وأصبحنا فى حاجة ماسة الى ديمقراطية تعددية تعتمد على العقل الجماعى ، لقد أصبح الخلاص فى الاغريقية .

إن جوهر المعزوفة الفرعونية قام على متغيرين أساسيين ، أن هناك نهرا يفيض يقوم بغسل نفسه من أدران العام ويُلقى بكل هذا دفعة واحدة الى البحر - لذلك لم يكن المصريون فى حاجة الى رصد معدلات التلوث والتحذير منه ، وكان طبيعيا واقتصاديا أيضا أن تبنى المصانع على النيل وتلقى فيه بمخلفاتها - فهذا النهر جسد متجدد يقيم أعراسه أربعين يوما كل عام فيعود نهرا شابا عفيا نظيفا وقد توقفت الأعراس ولم يتوقف صب المخلفات وكان هذا العرس السنوى يتوج تمازج الوادى بنواتج الصحراء.

• تراجع أفرع النيل

غير أن المتغير الأخطر كان انتهاء العصر المطير الثانى فى ثنايا القرن السابع الميلادى . كانت بداية العصر المطير الثانى هى البداية الملحمية لنشأة الوادى وخط شريان النهر رقيقا حتى تحول إلى هذا الجسد القادر الفتى ، وبانتهاء العصر المطير الثانى تراجعت أفرع النهر الخمسة حتى صارا فرعين فقط وانحسرت الأفرع الثلاثة الجافة وديان ونماء.

لقد أوقفت المتغيرات الطبيعية للكون متغيرا مهما منذ القرن السابع الميلادى وأوقفت أيادينا الفيضان ومن غير المستحب أن نطرق الآن بأيدينا على مائدة الجدل حول جدوى السد العالى ، لسنا فى حاجة إلى ذلك ، إن ما يهمنا اليوم هو

المستقبل الذى يلعب عامل تلوث المياه فيه الأثر الأقل والأسهل فعلى المصانع أن تستدير وتلقى مخلفاتها بعيدا فى نظم أخرى للصرف والمعالجة .

غير أن الخطر الحقيقى هو خطر التصحر الذى يهدد التخوم إذا تآكلت أطراف الوادى بهذا المعدل المتسارع قد لا نجد فى نهاية القرن الواحد والعشرين واديا زراعيا فى صعيد مصر .

لم تعد صيغة القرية المصرية فرعونية المفاهيم والمشاعر مناسبة لهذا العصر فهى قرية منتبهة للنهر فى حين أننا فى حاجة لقرية ملتفتة للصحراء قادرة على استيعاب ثقافتها .

● العقل فى مكان القلب

ويبدو أن الذين بنوا السد العالى لم يدركوا ذلك ففاتت فرصة تاريخية لتوطين التنمية فى صحراوات مصر ، إن كل ما فعلته مصر منذ القرن السابع الميلادى أنها لملمت عباءتها الخضراء حول جسدها النهرى الجميل عاما بعد عام فى إنطواء غريب على قلبها الجماعى وغيبت العقل ، لقد كان المصرى القديم يعتقد أن العقل فى مكان القلب .

وإذا كان جمال حمدان قد قال إن محمد على هو آخر العثمانيين فقد قال أيضا إن جمال عبدالناصر هو أول المماليك الجدد ، ولن نتوغل خلف المقارنة ولكن بحيرة السد العالى فى خطر .

إن القوى المملوكية تحاصر هذه البحيرة ولا يتصور عاقل أن شواطيء خزان المياه (البحيرة) يمكن أن تكون موضعا لنشاط إقتصادى وتعميرى واسع يلوث المياه ويدهور نوعيتها ، يعتمد على مفاهيم الكسب السريع مقدما البرهان على أن عصر المماليك موغل فى جشعه وجهله.

لقد رصدت محطات وزارة الري عند أسوان خلف السد العالى ثمانية مؤشرات علي التلوث فى مياه النيل لدى خروجها من انفاق السد وترصد نفس المحطات ثمانية عشر مؤشرا للتلوث على أفرع النهر فى الدلتا ، ترى عندما يتحول النشاط على ضفاف البحيرة إلى دلتا جديدة ، ماذا يكون عليه حال مياه الدلتا القديمة ؟! إنه خطر جديد يحمله القرن القادم ضمن ملف أسراره .

هذه بعض ملامح مصر وقد أضحت اغريقية فى القرن الحادى والعشرين ، ذلك أن صراع المماليك كان اغريقى النزعة وأبطال طروادة كانوا بشرا صنعوا تاريخا بأيديهم.

غير أن هذه العجالة النهرية المتفاقمة واحدة فقط من المخاطر البيئية المحدقة بمصر فى القرن القادم .

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



فؤاد زكريا

عاشق الجمال والحقيقة

«قيمة باقية .. وجائزة بعد الأوان»

بقلم :

د . نصار عبدالله

حين أعلنت جوائز الدولة التقديرية لهذا العام، وحين كان الدكتور فؤاد زكريا واحدا من الفائزين بها، كان الخاطر الذي قفز إلي ذهني علي الفور وأعتقد أنه قفز كذلك إلي أذهان الكثيرين ممن عرفوا الدكتور فؤاد زكريا أو تابعوا إنجازاته خلال الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية، كان هذا الخاطر هو أن الجائزة «التقديرية» قد تقاعست طويلا عن «تقدير» نفسها، وأنها تأخرت جدا في تكريم نفسها بالدكتور فؤاد زكريا، وأنها كان يتعين عليها أن تسعي جاهدة للحصول علي هذا الشرف منذ ربع قرن علي الأقل... فمنذ ربع قرن وفي مطلع السبعينات كانت انجازات الدكتور فؤاد

تتفوق كيفيا إن لم يكن كميا أيضا على الجازات الكثيرين ممن حصلوا عليها قبل ذلك أو بعد ذلك...

منذ ربع قرن على وجه التحديد عام ١٩٧١ كانت قد انتهت فترة رئاسة الدكتور فؤاد زكريا لتحرير مجلة الفكر المعاصر والتي تولاها عام ١٩٦٨ خلفا للدكتور زكي نجيب محمود، وخلال هذه الفترة استطاع الدكتور فؤاد بحسه النقدي المرهف الدقيق ان يلتفت إلى الكثير من الأقلام الجادة الواعدة في ذلك الوقت، والتي أصبح لها بعد ذلك شأن كبير في عالم الفلسفة والثقافة بوجه عام، بعد ان أفسح لها صفحات «الفكر المعاصر» في حفاوة بالغة رغم أن بعضها كان ينشر للمرة الأولى... كما استطاعت مجلة «الفكر المعاصر» خلال تلك الفترة أن تقدم الفلسفة إلى المثقف العادي وإلى المتخصص في الوقت نفسه، وأن تربط ربطا وثيقا بين قضايا الفلسفة وقضايا الحياة، وأن تقدم البرهان القاطع على أن الفلسفة ليست ترفا فكريا إنما هي ضرورة من ضرورات الحياة..

ومنذ ربع قرن كان الدكتور فؤاد زكريا قد قدم إلى المكتبة العربية مجموعة مهمة من المؤلفات والبحوث والدراسات، وكان في الوقت نفسه قد قدم لها مجموعة أخرى من الأعمال المترجمة منها ماينتمي الى التراث الانساني الخالد ومنها ماينتمي الى الانجازات الفكرية المتميزة المعاصرة في مجالات شتى.

كان في مطلع الستينات قد قدم كتابين من أهم ماشهدته المكتبة الفلسفية، ومن أكثر المؤلفات في مجالهما عمقا وأصالة، ونعني بهما «نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان» ثم كتابه عن «اسبينوزا» الذي نشره عام ١٩٦٢ ثم حصل به على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٥».

مؤلفات موسيقية!

وكان قبل ذلك في الفترة من ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠، قد قدّم إلى المكتبة العربية ثلاثة مؤلفات عن الموسيقى ـ أجل عن الموسيقى ـ فالواقع أن فؤاد زكريا ثالث ثلاثة من الأعلام الأفذاذ الذين كانت أسماؤهم حتى ذلك التاريخ قد اقترنت بالموسيقى رغم أنهم من خارج الوسط الموسيقي، أما العالمان الآخران فقد كانا على مصطفى مشرفه، ثم حسين فوزي.

وفي تلك الحقبة ـ أعني حقبة الستينات

ومطلع السبعينات ـ كان الدكتور فؤاد زكريا قد بدأ يهتم اهتماما خاصا بفلسفة العلوم وهو الاهتمام الذى تمخض فيما بعد عن عدد من الدراسات والمؤلفات من أهمها كتاب «التفكير العلمي» الذى أعادت مكتبة الأسرة أخيرا طبعه فى طبعة شعبية.

كان الدكتور فؤاد زكريا قد بدأ يهتم فى تلك الحقبة بفلسفة العلوم باعتبارها من أهم ميادين الفلسفة المعاصرة وباعتبارها «مستقبل الفلسفة» فيما يرى البعض أو أنها هى لا سواها «الفلسفة ذاتها» فيما يرى البعض الآخر، وقد تمخض هذا الاهتمام عن ترجمته لمرجعين مهمين فى هذا الميدان هما كتاب بول موى «المنطق وفلسفة العلوم» الذى كان ولايزال من أهم المداخل الى فلسفة العلم ثم كتاب «ريشنباخ» «نشأة الفلسفة العلمية» الذى يعد بدوره، كما يعد مؤلفه ريشنباخ أحد العلامات البارزة فى ميدانه.

ويقودنا الحديث عن الترجمة فى سجل الدكتور فؤاد زكريا إلى ترجمات أخرى مهمة ينتمى أغلبها إلى الحقبة ذاتها، حقبة الستينات ومطلع السبعينات، فقد قدم الى المكتبة العربية فى منتصف الستينات، وعلى وجه التحديد عام ١٩٦٥ ترجمته الرائعة لواحد من أهم الأعمال فى تراث الانسانية بأكمله ونعنى به محاورة الجمهورية لأفلاطون حيث قد قدم للمحاورة بدراسة متعمقة مستفيضة تعد فى حد ذاتها بحثا مهما فى ميدان الفلسفة السياسية. وقد اعتمد الدكتور فؤاد زكريا فى ترجمته للجمهورية على عدد من الترجمات الموثق بها باللغتين الانجليزية والفرنسية فكان جهده فى الحقيقة أقرب مايكون الى دور دور القائم بالتحقيق لا إلى القائم بالترجمة فحسب، واستطاع بذلك ان يتفادى كثيرا من العيوب والمآخذ التى وقع فيها الأستاذ حنا خباز عندما قدم ترجمته الجمهورية لأفلاطون فى مطلع القرن أو التى وقع فيها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد عندما قدم ترجمته لبعض أعمال أرسطو مكتفيا بالترجمة الفرنسية التى قام بها بارتلمى سانتهيلير.

وفى نفس الحقبة ذاتها وفى المجال نفسه ـ مجال الترجمة ـ قدم الدكتور فؤاد زكريا ترجمته لمحاضرات أرنولد توينبى بعد أن قدم لها عام ١٩٦٦ بمقدمة تعد بدورها بحثا فى ميدان فلسفة التاريخ ، كما قدم فؤاد زكريا فى الحقبة ذاتها ترجمته لكتاب هنترميد «الفلسفة: أنواعها ومشكلاتها» ثم

لكتاب ستو لنيتز «النقد الفنى» مواصلا بترجمته لهذا الكتاب اهتمامه بالجمال الذى تجلى فى مؤلفاته عن الموسيقى سالفة الذكر والذى تجلى كذلك فى واحد من أعماله الهامة الصادرة فى نفس الحقبة ، ونعنى بها ترجمته لكتاب أرنولد هوزر «الفن والمجتمع عبر التاريخ» (١٩٦٧)..

***

هذه هى أهم انجازات الدكتور فؤاد زكريا حتى مطلع السبعينات فإذا أضفنا إليها ما كان يكتبه من مقالات فى الصحف والدوريات المتخصصة وغير المتخصصة وكل من هذه المقالات لا يخلو من نظرة متعمقة ومن قدرة لا مثيل لها على الارتفاع بوعى القارىء والكشف له فى مجال المقال عما لم يكن يخطر له على بال، إذا أضفنا ذلك الى الانجازات حتى دون أن ندخل فى حسابنا ماقام به داخل الجامعة من جهد تنويرى ولما اشرف عليه من رسائل وماشارك فيه من مناقشات، فإن المحصلة النهائية كانت كافية تماما بل واكثر من كافية فيما نزعم لحصوله على جائزة الدولة التقديرية فى مطلع السبعينات قبل أن يرحل الى الكويت ويعمل فى جامعتها ويشرف من هناك على سلسلة عالم المعرفة التى قدمت الى القارىء العربى مكتبة متكاملة فى شتى المجالات.

ولم يتوقف عطاء الدكتور فؤاد زكريا سواء خلال إقامته فى الكويت أو بعد عودته منها، لم يتوقف على مستوى الابداع والترجمة والمشاركة النشطة فى قضايا الوطن وهمومه، فلماذا تأخرت عنه الجائزة ربع قرن من الزمان، أو فلنتساءل ولنقل لماذا تأخرت عنه عشرين عاما أو حتى عشرة أعوام على أسوأ الفروض؟؟

***

إذا نظرنا الي المشتغلين بالفلسفة في بلادنا لأمكن لنا بسهولة ان نميز بين فئتين: أولئك الذين يعيشون الفلسفة وأولئك الذين يتعيشون بها، والفئة الأخيرة هي الأعلي صوتا والأكثر ضجيجا، وأصحابها هم الأقدر للأسف علي انتزاع التكريم من مستحقيه الحقيقيين في معظم الأحوال.

أما الذين يعيشون الفلسفة، أولئك الذين لايعيشونها فحسب ولكنها هي لا تعيش إلا بهم وإلا من خلالهم.

أولئك حسبهم أنهم قيمة باقية - في حد ذاتها - حتى وإن جاءهم التكريم بعد الأوان.

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



يليق بها التكريم فهى أستاذة جيل من المبدعات، وأجيال من الدارسين والباحثين، والمهمومين بقضايا الوطن.

لطيفة الزيات

ملهمة الأجيال من الكتاب والمثقفين

بقلم:

د. رضوى عاشور

ولدت لطيفة الزيات في دمياط عام ١٩٢٣ وتشكل وجدانها في مناخ مصر ما بين الحربين، والسماء تصفو وتتعاقب عليها الغيوم (آمال عريضة أطلقتها ثورة ١٩١٩ واحباطات متتالية طوقت الآمال)، كانت الصبية تتطلع وتحدق ومع كل لحظة تتعلم فاذا ما التحقت بالجامعة انطلق صوتها مشاركا في العمل الوطني الديمقراطي فكانت واحدة من ثلاثة أشخاص قادوا اللجنة الوطنية العليا للطلبة والعمال وهي اللجنة التي أسهمت إسهاما أساسيا في كفاح الشعب المصري ضد الاحتلال الانجليزي والقصر عام ١٩٤٦.

والطريق بين الفتاة التي وقفت تحت العلم المصري تعتلي المنبر خطيبة والسيدة الجليلة التي تكرمها الدولة بجائزتها التقديرية في الآداب طريق طويل قطعته لطيفة الزيات على ما فيه من مشقة متسلحة بشجاعة وأمانة وعقل فطن، تساورها الشكوك في ألف شيء ولكن الشكوك أبدا لا تمس ذلك اليقين بأن مصر يليق بها التحرر والنهوض.

كافحت من أجل مصر كفاحا كلفها سنوات في السجن، واجتهدت كباحثة وأستاذة جامعية وناقدة، وأنتجت نصوصا يعزز إبداع الموهبة فيها جسارة وقدرة على مواجهة الذات وكرم يمنح من مكنونات النفس ما يضيء ويغني الآخرين.

وتواصل لطيفة الزيات فعلها في المتعدد من الجبهات: معلمة وكاتبة ورئيسا للجنة الدفاع عن الثقافة القومية وحضورا ملهما لأجيال من الكتاب والمثقفين، ولأن عطاءها يتجاوز دائرة الأدب الى دوائر أخرى تبقى جائزة الدولة التقديرية في الآداب التي حصلت عليها لطيفة الزيات تقديرا جزئيا لبعض انجازها، أما مجمل الانجاز فتقدير مسطور في عقل ووجدان من تابعوا مسيرتها من زملائها وتلاميذها سواء من تعلموا مباشرة على يديها أو تطلعوا اليها دون أن يتيح لهم الالتقاء بها.



د. لطيفة الزيات

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



سعيد عاشور

الأستاذ الجائزة

بقلم :

د. قاسم عبده قاسم

حطت جائزة الدولة التقديرية هذا العام على كتف الاستاذ الذى اختارته لنفسها . وبدا لكثيرين أن الجائزة قد سعدت بهذا الاختيار.

ولاشك فى أن الاستاذ الدكتور سعيد عاشور يستحق الجائزة منذ فترة مضت ، بيد أن الذين يعرفون الاستاذ يعرفون أيضا أنه هو نفسه «جائزة» لعلم التاريخ ، ولتلاميذه ولكل من عرفوه ، انسانا واستاذا، باحثا ومعلما ، زميلا ورائدا ..

وتاريخ حياة الدكتور سعيد عاشور ، الذى بدأ ذات يوم من صيف سنة ١٩٢٢ م فى أحد أحياء القاهرة ، تاريخ علمى حافل وطويل كان لابد من ان يتوج بالجائزة . ولاغرو فقد كان ابوه استاذا بدار العلوم ، فنشأ فى بيت يقدر العلم ويسعى اليه ، وتجسدت هذه النشأة فى تفوقه المستمر طوال سنوات الدراسة ، وفى كلية الآداب تخرج سعيد عاشور سنة ١٩٤٤ م . وكان من المتفوقين ، فواصل دراسته العليا تحت

اشراف المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى حصل على الدكتوراه في الأدب من قسم التاريخ سنة ١٩٥٥ م وبذلك بدأت مسيرة الاستاذ الجامعي.

لم تقتصر جهود الدكتور سعيد عاشور الجامعية على جامعة القاهرة، وإنما قام بالتدريس في عدد من الجامعات العربية على اتساع الوطن العربي، فقد حاضر في الرياض والجزائر ولبنان والكويت، كما ساهم في مطلع شبابه في انشاء جامعة بغداد بصحبة استاذه، وفرع جامعة القاهرة بالخرطوم.

ورب قائل بأن الكثيرين من العلماء المصريين يشاركون الدكتور سعيد عاشور مثل هذه الجهود التعليمية والجامعية، ولكن المؤكد أن عددا قليلا من العلماء هم الذين يمكن ان نقارنهم بالاستاذ في مجال الانجاز العلمي. وهنا يصح ان نتوقف مليا أمام مسيرته العلمية لنتعرف على حجم البحوث والدراسات التي قام بها الدكتور سعيد عاشور شخصيا من ناحية، او التي أنجزها بطريق غير مباشر من خلال رسائل الماجستير والدكتوراه التي اشرف عليها من ناحية أخرى.

رائد التاريخ الاجتماعي

وعلى الرغم من ان بحوث الاستاذ ودراساته تعد بالعشرات، فان هذا التفوق الكمي كان موازيا لتفوق آخر نوعي في مجال الدراسات التاريخية فقد كان رائدا من رواد دراسات التاريخ الاجتماعي، وكان كتابه الفذ الذي يحمل عنوان «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» نسيجا مبتكرا في مجال دراسات التاريخ الاجتماعي لم ينسج على منوال سابق، وكان ذلك الكتاب الرائع فاتحة اتجاه جديد في الدراسات التاريخية تأخر كثيرا في العالم العربي على الرغم من تقدمه الهائل في أدبيات البحث التاريخي في أوربا منذ القرن التاسع عشر.

لقد كتب الدكتور عاشور هذا الكتاب في وقت سادت فيه كتب الوقائع والأحداث التي نسبت ظلما الى التاريخ السياسي، وكان المؤرخون قانعين بأصداء مدرسة ليوبولد فون رانكه العارية من القدرة على التخيل والتجديد، والذين حبسوا أنفسهم داخل قضبان الوهم الذي تجسده رؤيتهم للتاريخ باعتباره «إعادة تصوير ماحدث في الماضي بالضبط». ومن ثم كانت الكتابات التاريخية في أغلبها إعادة تصوير مبتسرة للماضي الذي تصوروه قاصرا على أحداث السياسة ووقائع الحروب وسير السلاطين والأمراء والملوك.. وكانت معظم الكتابات جافة محايدة أشبه ماتكون بالهيكل العظمي الذي لايمكن أن يدل على الملامح والقسمات، ناهيك عن الروح والعاطفة.

ولذلك فإن القيمة الحقيقية لما قام به الدكتور سعيد عاشور تتمثل في انه فتح الباب واسعا على مصراعيه لدراسة المجتمع،

طبقاته واتجاهاته ، عاداته وتقاليده ، ملابسه وطعامه ، آدابه وفنونه ، أخلاقه وجرائم الشائنين من أبنائه ، وأفراحه وأحزانه .. وما الى ذلك من اللقطات الحية الساخنة التي تحمل الصور التي صورتها فصول الكتاب.

ولم يقنع الاستاذ بذلك ، وانما وجه تلاميذه فى دراسات الماجستير والدكتوراه هذه الوجهة فأرسى بذلك أساس مدرسة زاهرة فى مجال دراسة التاريخ الاجتماعى فى مصر والعالم العربي ، وساهم بنفسه بعدد كبير من البحوث والدراسات التي ساهمت فى دفع هذا الفرع من فروع الدراسات التاريخية الى الأمام . فقد اشرف على مايزيد على خمس وأربعين رسالة للماجستير والدكتوراه ، كانت موضوعات حوالى ٧٠٪ منها متعلقة بدراسة الجوانب المختلفة من التاريخ الاجتماعي . وبفضل هذه الدراسات أصبحت لدينا معرفة أوسع بالجوانب الاجتماعية فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية من ناحية ، كما أن عددا من تلاميذ الدكتور عاشور واصلوا الاهتمام بدراسات التاريخ الاجتماعي وتطويرها من ناحية أخرى .

واذا كانت الدراسات الخاصة بالحروب الصليبية من وجهة النظر العربية قد قطعت شوطا ملحوظا فى مجال الدراسات التاريخية فى الوطن العربي ، فان دور الاستاذ فى هذا المجال يبقى ويستمر بفضل ريادته ، مع اساتذة آخرين ، سواء من حيث كتاباته ودراساته التى قام بها بنفسه ، أو الرسائل التى انجزها تلاميذه تحت اشرافه .

الصليبيون والاستعمار

فالحركة الصليبية ظاهرة تاريخية فريدة ، وكانت سببا فى تغيرات تاريخية حاسمة وخطيرة ، سواء بالنسبة للغرب الأوروبى الكاثوليكى الذى شن هذه السلسلة من الحروب تحت راية الصليب لأغراض استعمارية واستيطانية لا علاقة لها بالصليب او بالنسبة للعالم العربى الاسلامى الذى تعين عليه أن يحشد قواه وموارده المادية والثقافية والنفسية على مدى مايزيد على قرنين من الزمان ليدافع عن وجوده الحضارى والانسانى وانتهى الصراع بطرد الفرنج المستوطنين من الأرض العربية فى فلسطين وبلاد الشام حقا ولكن كان على الحضارة العربية الاسلامية ان تدفع الثمن من روحها الابداعية وقوتها الابتكارية .

وقبل ان تبدأ الحركة الصليبية بدأت الكتابة عنها فى الغرب الأوروبى، ولم تتوقف حتى هذه اللحظة ، وبسبب التدهور الثقافى الذى عانى منه العالم العربى الاسلامى واحساسه بالدونية تجاه أوربا ، حدثت المفارقة

المذهلة عندما تبنى المؤرخون وجهة النظر الأوربية فى الحروب الصليبية على نحو ماتكشف عنه كتابات عدد كبير من المؤرخين العرب ، وكان الدكتور محمد مصطفى زيادة وتلميذه الدكتور سعيد عاشور فضل التنبيه الى ضرورة وجود رؤية عربية اسلامية لتاريخ حركة الفرنج المشهورة باسم الحركة الصليبية ، ولست أنسى كيف لفت نظرى أن استاذى الدكتور سعيد عاشور فى كتابه «الحركة الصليبية» قد ربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية وأنا ما أزال طالبا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، والواقع ان هذا الربط الواعى بين الحركتين لايزال موضع اهتمام كثير من الدارسين فى العالم العربى الاسلامى ، والدوائر الغربية والاسرائيلية حتى الآن .

ولقد تبلور الآن موقف عربى اسلامى يجسد رؤيتنا للحروب الصليبية ولايجب ان ننسى فى غمار الفرحة بما تحقق ، واللهفة لتحقيق المزيد ، ان ننسى ان الاستاذ كان له فضل الريادة ، كما ان دراساته لم تتوقف حتى الآن فى هذا المجال .

ولأن التاريخ أو فكرة التاريخ ، شأنها شأن الفلسفة والفن ، تعبير عن رؤية الجماعة لذاتها ولدورها فى الكون وعلاقاتها بالجماعات الأخرى ، فإن الوعى التاريخى لأية أمة مؤشر دال وحقيقى على مدى تقدمها الحضارى ، وإشاعة الوعى التاريخى ونشره مهمة أولى وجوهرية من مهام المؤرخين والعلماء الحقيقيين ، وعلى العكس من ذلك تماما يهتم الأعداء بتشويه تاريخ الأمة وتخريب وعيها التاريخى ، كما يسعون فى حقد الى النيل من انجازات الأمة ورموزها التاريخية ، ومن دواعى الغبطة والفخر ان استاذنا قد كرس جهاده العلمى لاشاعة الوعي التاريخى من خلال منجزاته في نشر كتب التراث التاريخي العربى الاسلامي من ناحية ، وتوجيه تلاميذه من ناحية أخرى.

لذلك لم يكن غريبا ان يختاره العرب رئيسا لاتحاد المؤرخين العرب ، وكان هذا الاختيار تجسيدا للاعتراف العربى بمكانة الاستاذ .

بقيت جوانب انسانية رائعة وجميلة فى شخصية الاستاذ ، وكان نصيبى منها كبيرا باعتبارى واحدا من تلاميذه . لم يكن مجرد استاذ مثل مئات الاساتذة ولكنه كان عطوفا محبا فى علاقاته بتلاميذه ، وكانت حرارة العاطفة عنده تذيب جمود العلاقة الأكاديمية الهيراركية التى تميز الكثيرين من اساتذة الجامعات ولايزال هو العالم بدون غطرسة ، المتواضع فى كبرياء ، العطوف فى مهابة ، المهاب فى حنان .. أليس هو «الجائزة» ؟

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



عائشة راتب

السيدة المهمات الصعبة

بقلم :

فوزية مهران

كأنما تعد نفسها لمهمة فائقة منذ البداية . تفتحت على عالم القراءة والمعرفة - أدركت عائشة راتب «مبكراً» أن الناس من حولها تعانى من الفساد والفقر والقهر.

وأن عليها دورا يجب أن تؤديه وقد عشقت قيم الحرية والعدل - وعانقت حلم التقدم والتغيير . اكتشفت أن «التفوق» قوة وأسلوب حياة يجب التمسك به .

لذا تفوقت فى دراستها وحصلت عام ١٩٤٩ على ليسانس الحقوق بامتياز .

واجهت التحدي الأول فى حياتها - اعترض مجلس الكلية علي تعيينها معيدة بقسم القانون الدولي ..

ازدادت اصرارا وتصميما وأحدثت ضجة هائلة وسط الجامعة والرأى العام والصحافة .

- ما يمنع مادامت متفوقة إلى هذا الحد ؟ كان هو السؤال ..

(كنا نتابع قضيتها فى مرحلتنا الثانوية .. تجلت أمامنا بطلة حقيقية فى قلب الصراع - ألهمت الكثيرين حركة المواجهة وسبل الاقناع - تحول المعارضون لحقوق المرأة إلى معجبين .. بل ومؤيدين.)

فى نفس الوقت رفعت قضية أمام مجلس الدولة لرفضه تعيينها بحجة أن ذلك «مخالف للسياسة العليا للدولة» !

ورغم تعيينها فى الكلية استمرت فى الدعوى لاثبات حق المرأة - وإن رأت المحكمة أن الأمر متروك «للسلطة التقديرية للدولة» .

مفارقة - بعد أقل من خمسين عاما منحتها الدولة جائزتها التقديرية وربما صممت فى ذلك الوقت أن تكون ضمن هذه السلطة التقديرية العليا أو باعثا لتطورها .

حصلت على درجة الدكتوراه من السوربون فى القانون الدولى ١٩٥٥ وتدرجت فى التدريس وكانت أول سيدة يسند إليها رئاسة القسم .

وزيرة مناضلة

سعد الجميع باختيارها وزيرة للشئون الاجتماعية ١٩٧١ وناضلت من أجل حماية الأسرة واستقرارها وأكدت مسئولية المجتمع تجاه الابناء وحمايتهم من التشرد والضياع .

وتبدى مفهوم جديد للعمل الاجتماعى - فحقيقة النضال كان من أجل معيشة أفضل .

تقدمت بمشروع تجنيد خريجات الجامعة للخدمة الاجتماعية (تحت عنوان: جيش البنات - وضحت أهمية هذا الارتباط بجذور المجتمع والتعرف على المشاكل ومحاولة إيجاد الحلول - وبذلك تؤكد حيوية دور المرأة فى البناء) لكن تم تفريغ المشروع القومى .

أضيفت إليها وزارة التأمينات ووضعت خبرتها القانونية وحسها الاجتماعى لتشمل مظلة التأمينات جموع العاملين - وكانت صاحبة فكرة أن يتولى بنك ناصر صرف نفقة للمطلقة حتى لاتنال منها المذلة والمهانة وطول الاجراءات .

هى أول سفيرة لمصر فى الدانمرك ١٩٧٩ - وألمانيا الاتحادية ١٩٨١ وهى الوجه المشرق لتمثيل حضارة مصر - تؤمن بالديمقراطية وتحاول تعميقها فى الممارسة السياسية - وهكذا أصبحت قوة تحرر وطاقة للمشاركة فى الحوار والتفاهم الدولى .

عادت أستاذة القانون الدولى تمارس رسالتها الجامعية وتنوير عقول الشباب .

صاحبت الملوك والرؤساء .

تدرج أسلوب التفوق لديها إلى الابداع والاتقان ولم تتخل يوما عن تلك اللمسة الشعبية والإنسانية وروح الشهامة والجسارة.

«عائشة راتب» رمز ومعنى .. له وقع خاص يعرفها الناس - أكبر من كل المناصب والألقاب .

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



يونان لبيب رزق ودوره الهام للمؤرخ

بقلم :

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

حصل الدكتور يونان لبيب رزق علي جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الإجتماعية، وقد تم ذلك نتيجة سلسلة متصلة من النشاطات العلمية والإجتماعية : فهو دؤوب علي العمل متعدد النشاطات التي محورها التاريخ الحديث بوجه عام والتاريخ المصري الحديث بوجه خاص .

فلقد ألقى أضواء على بعض الجوانب التاريخية ورشحته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية للكتابة عن قضية طابا ثم اشترك فى المشاورات التى أدت إلى تسوية هذه المشكلة بما يتمشى مع مصلحة مصر مما نشتم منه أهمية الدور الذى يلعبه المؤرخون فى تتبع أصول المشاكل السياسية المعاصرة وهكذا قام الدكتور يونان بعدة جولات استطاع فيها أن يحصل على وثائق مهمة تؤيد حق مصر فى أرضها وهو ما تقرر فى النهاية وأدى إلى محافظة مصر على حقوقها . كما أن له اجتهادات فيما يتعلق بمشكلة حلايب التى نرجو أن تحسم لمصلحة مصر والسودان معا .

يضاف إلى ذلك أن الدكتور يونان قد أشرف على عدد من الدراسات الخاصة بالتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ومعهد الدراسات العربية. ولقد بدت مقدرته التنظيمية حين انفرد بالاشراف على سنمار التاريخ الحديث بكلية البنات بالجامعة مستعينا فى ذلك ببعض الكفاءات من داخل الجامعات المصرية وخارجها . كما أشرف على سلسلة «مصر النهضة» التى نشرت مجموعة من الدراسات التى تناولت جوانب من تاريخ مصر الحديث . ولم يقتصر نشاطه على المجالات الأكاديمية وحدها ، إذ أصبح له نشاط فى بعض الصحف والمجلات ، عامدا الى تبسيط الدراسات التاريخية وجعلها فى تناول القارىء العادى دون أن يتعدى نطاق الدراسات العلمية الجادة .

وهكذا فإن تكريم الدكتور يونان بمنحه جائزة الدولة التقديرية إنما هو تتويج للجهود التى بذلها فى حقل التاريخ الحديث ، فله منا خالص التهنئة ونرجو أن يواصل جهوده فى المجالات العلمية والقومية .

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



مصطفى محمود

مارس الكتابة حرفة وهواية

بقلم :

د . الطاهر أحمد مكى

دخل عالم الأدب مبكرا مع مجموعة من نوابغ كلية الطب في الأربعينيات ، يوسف إدريس وصلاح حافظ، وآخرين . ومنذ تخرجه عام ١٩٥٢ لم يمارس الطب عملا، ولم يتوقف عن الكتابة حرفة وهواية.

أعرفه علي غير لقاء منذ ذلك الزمن الباكر ، فقد تميزت قصصه يومها بمذاق خاص، وكنا فى ميعة صبانا نبحث عن الجديد في التعبير وفي السياسة، ويشدنا إلي جانب تظاهرات المطالبة بالجلاء والاستقلال والدستور والسودان، مشكلة الوطن يكون للجميع، ويتساوى فيه الناس حقوقا وواجبات!.

ومن غير معرفة، وبإدراك عفوى بأسلوب

كتاب اليسار فى تلك الفترة وبعدها، لكثرة ما قرأت لهم، وأعجبت بهم، حسبته واحدا منهم، ولم يبعد بى ظنى عن الحقيقة..

لم أشهد الفترة المتألقة من كتاباته روائيا وقصاصا، فقد كنت بعيدا عن أرض الوطن، فلما عدت عام ١٩٧٤ أحسست أن شيئا ما تغير فى فكره، وفى حياته، فقد بدأ ينحرف عن الواقعية ويميل إلى الرمزية، وأخذ يشغل نفسه بالكتابة فى روزاليوسف أو صباح الخير، بما أراه لونا من إثبات الذات وإبراء الذمة، مقابل راتب هو فى حاجة إليه، إذ كان يضطلع بحل مشكلات القراء الغرامية، وهى فى معظمها توهمات مرضى استبد بهم هوس الحرمان، وأطلق الكبت الجنسى العنان لأخيلتهم، فهم يصطنعون المشكلات، ويتخيلونها، ويطلبون لها حلا.

غيبة حرية الفكر

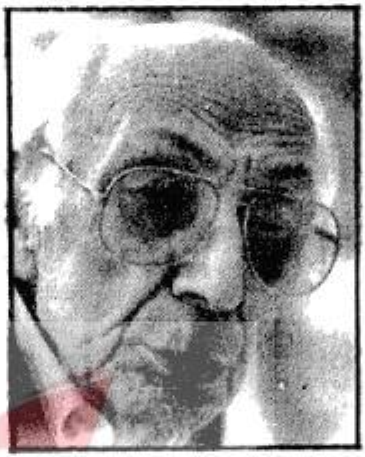
وكان تفسير هذا الاتجاه عندى، أن وراءه الرقابة الخانقة، وغيبة حرية الفكر، وعدم قدرة الكاتب على أن يقول رأيه فى الجاد من مشكلات الحياة حوله دون ضغط أو اكراه، فلم يبق أمامه إلا أن يفتى فى قضايا العاشقين.

وجاءت مرحلة الانتقال إلى الكتابة الدينية، وكان فى هذه نمطا فريدا، أضاف إليها فيما أذاع منها مصورا، ذخيرته العلمية، ومعرفته الطبية بدقائق الجهاز الانسانى، وأسرار علم الأحياء، موضحا بالصور، فأبهر عامة المسلمين الطيبين، وإن كان للمثقفين منهم موقف آخر، فهم يرون أن المفكر الكبير يستعين على إبراز قدرة الله - مثلا - فى مفهومها الإسلامى، بمواد علمية كلها من صنع واكتشاف علماء غير مسلمين، لم يدر بخاطرهم للحظة واحدة وهم يصنعونها أو يصورونها أو يخترعونها بعض مادار فى فكر الكاتب المصرى.

ويحمد له فى هذه الفترة من اتجاهه الدينى سلامة موقفه السياسى، فقد اختار أن يبصر بالمخاطر فى غير خوف، وأن ينبه إلى المحاذر فى فطنة، وأن يدعو إلى اليقظة لأن العدو غدار، وأن يكون صوتا عاليا يذكرنا بالأخطار التى تهدد مستقبلنا القريب والبعيد.

تتفق معه أو تختلف، فهو أحد المعالم الهادية فى هذا العصر الذى نعيشه، وأبرز المخلصين من المهتمين بمشكلات أمتهم، وحسبه بهذا إنسانا عظيما يستحق هذه الجائزة الجليلة.

وعـادت الجوائـز إلـى مستحقيها!



بركات

قصة حب

بقلم
رببع شتا

الأكيد أن قصة هنرى بركات مع أطياف السينما، قصة حب كبير، بدأ قبل سبعين عاما أو يزيد وبركات غلام ليس له من العمر سوى عشرة أعوام، هوايته المثلى أن يشاهد كل يوم أحد أطياف «ويليم هارت»، «توم ميكس» و«دوجلاس فيربانكس» و«رودلف فالينتينو» تتحرك على شاشة بيضاء فى سينما صيفى، تحت كوبرى فى أول شارع جزيرة بدران.

وتمر الأيام أعواما بعد أعوام، ولا يتغير ولع بركات بالسينما،

وإنما الذي يتغير مكان مشاهدته للأفلام .

إذ انتقل من شبرا الي العتبة ، حيث سينما أوليمبيا ، والى عابدين حيث سينما إيديال .

ومع انتشار دور السينما ، وارتقاء مستوى الأفلام ، ازداد هيام الفتى بركات بالأطياف .

وهنا شاءت له الأقدار، بعد تخرجه فى كلية الحقوق ، ألا يكون محاميا ، وإنما صانع للأطياف ، عندما قرر أخوه انتاج فيلم «عنتر أفندى» وكلفه بمتابعة سير العمل أثناء التصوير .

فما أن دخل الأستديو، حتى مسه سحر مابور فيه من أحداث ، قوامها امتزاج الواقع بالخيال ، وحتى اكتشف تحت تأثير هذا السحر أن مستقبله ليس فى الترافع أمام المحاكم وإنما فى صناعة الأفلام.

وكما حدث مع «صلاح أبو سيف» و«كمال الشيخ» ، بدأ بركات مشوار الإبداع بالتوليف وبالذات توليف فيلم «انتصار الشباب» للمخرج أحمد بدر خان (١٩٤٠) ولم تمض سوى شهور على توليف ذلك الفيلم حتى صعد الى مستوى الإخراج بأن عمل مخرجا مساعدا لأحمد جلال فى فيلم «الزوج الخامس» (١٩٤١) ، ثم مخرجا لفيلمه الأول «الشريد» (١٩٤١) عن قصة لانطون تشيخوف الكاتب الروسي الشهير .

ومنذ التاريخ الأخير ، لم ينقطع «بركات» عن الإخراج سواء على أرض مصر أو على أرض لبنان .

ولو ألقينا نظرة طائرة على أفلامه لتبين لنا على وجه اليقين ، أنه واحد من أفضل المخرجين فى تحريك الممثلات ، وآية ذلك أداء «فاتن حمامة» نجمته المفضلة فى أفلام كثيرة من إبداعه ، أذكر من بينها ، «دعاء الكروان» عن قصة «لطه حسين» (١٩٥٩) و «الباب المفتوح» عن قصة للطيفة الزيات (١٩٦٣) و«الحرام» عن قصة ليوسف ادريس (١٩٦٤).

وفيلم «الحرام» يعرض لمأساة عمال التراحيل فى الريف ، من خلال ماحدث لعاملة حملت فى الحرام ، فاجهضت نفسها ، مخافة العار ، ولكن الموت يجيئها فى نهاية فاجعة ، وأهل القرية الظالمة يطاردونها بلا رحمة .

وقد عرض الحرام فى مهرجان كان ، حيث لقى من استحسان الجمهور والنقاد الشيء الكثير .

وفى الختام ، فلو أن «بركات» لم يخرج سوى «الحرام» ، لكفاه ذلك فخرا .

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



تحية حليم

فنانة تحمل السر!

بقلم :

محمد عودة

أتجنب كثيرا الكتابة عن الفنون التشكيلية رغم إهتمامى ومتابعتى، لأننى لست مختصا، ولتفشى النرجسية الحادة بين فنانيها، أكثر مما عليه الحال فى أهل الفنون الأخرى. ثم لأننى لا أفهم ولا أعترف بالكثير مما يقدم وربما يرتكب باسم هذه الفنون الآن.

ويختلف الأمر بالنسبة إلى «تحية حليم» .. تمنيت دائماً وترددت وتهيبت دائماً أن اكتب عنها ولازلت وفى كل مرة حاولت تأكد لى أنها تفوق قدراتى.

وبدا لي أن «مصر» تصطفي عادة من أبنائها وبناتها من تودعهم أسرارها وتهبهم قدرات خاصة وتحملهم رسالات رفيعة وفي طليعتهم لاشك تحية حليم ..

ورسالة الفنان عندنا ثقيلة مضاعفة .

رسالة تأكيد الهوية

نحن نقع حضاريا وثقافيا في «قلب» ثلاث قارات عتيدة بدأت منها وازدهرت وتصارعت وتعايشت فيها أهم حضارات الانسانية سواء القديمة أو الوسيطة أو الحديثة ولا تزال المواجهة .. والمواسة مضطرمة .. وعلى أشدها.

ولقدر ما يقع على الفنان عندنا رسالة تأكيد هويتنا وذاتنا وأن يكتشفهما ويجددهما ويثريهما كل يوم ، بقدر ما يتحتم عليه أن يتفتح على كل ما تدفعه فنون القارات الثلاث التي ننتمي اليها والتي تربط فيما بينها والتي نقيم الجسر الذي تلتقي عليه وبكل ما يعنيه ذلك وأن نتخذ الشعار «الثقافي» العام . أن تفتح كل النوافذ ليدخل كل هواء نقي ينعشنا ولكن لا يقتلعنا وفق قول مشهور لغاندي.

وتقدم تحية حليم أرفع نموذج للفنانة المسئولة .

وقد عرفتها في «ميعة الصبا» . حينما كانت فتاة «بورجوازية» جذابة مهذبة تمارس الرسم والموسيقى هواية كباقي الفتيات «الراقيات».

وعرفتها حين فاجأت الجميع واختارت بالهامها الخاص، بوهيميا مفلسا «عبقريا» ليكون فتى أحلامها ثم زوجها واستاذها .

وعرفتها حين تفجر إبداعها وتدفق حارا جارفا مبهرا كما لم يتصور أحد، وبعدما صعدت إلى الذروة وأضافت «اسطورة» معاصرة وقد ابتدعت لنفسي طريقة في رؤية أعمالها ومعارضها وكنت أرى لوحة واحدة كل يوم أقضي كل الوقت أمامها خاشعا ناسكا متبتلا يرتوى من نبع روحي متدفق ، يغمر بالروعة والثقة والسكينة وأعود في الغد لنبع آخر!

وحينما ينتهي الطواف أجلس للكتابة وأكتشف حينئذ مدى القصور والعجز وانتظر حتى أجمع ماكتبه النقاد والثقاة لأتعلم ، ولكن لاألبث أن أجد الهوة تظل واسعة والفجوة شاسعة.

هذا فن يعيشه

الانسان بروحه وقلبه ووجدانه ولا يكتب عنه .

وكثيرا ما ذهبت اليها في برجها الصغير للطواف «بالمعلقات» على الجدران ومشاهدة الفيلم التسجيلي الشامل عن أعمالها وكان ذلك أفضل ما يجدد الثقة واليقين وأن لنا ماضيا ولنا مستقبلا أفضل. هذه ليست لوحات ولكن صلوات وعبادات قديمة ومعاصرة تتلوها هذه الفنانة الرقيقة المتواضعة والتي تختزن أثمن تراث شعبها وتعيش قضايا عصرها . «العاصف» ولا ينضب قط معين إبداعها.

وذات يوم تقابلنا صدفة في وارسو وداعتني لافتتاح معرضها . وكان يرافقني كاتب بولندى «منشق» مهتز الثقة والإيمان بكل شيء . وخلال الطريق سألني ساخرا عن قصة قال أنها شائعة في روسيا ، وانتقلت إلى بولندة وتقول ان المريشال «جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي أمضى سهرة في نادٍ ليلي في القاهرة وبعد أن شهد عرضا مثيرا لإحدى الراقصات الشهيرات قال لمن حوله «هؤلاء الناس لا يمكن أن يستسلموا وأمر باعطائكم كل الأسلحة المتقدمة التي كان الروس مترددين في تقديمها»

وقلت له اني لا استطيع أن أنفي أو أؤكد هذه القصة، ولكن أتمنى أن تكون صحيحة .. وان يكون في تاريخنا المعاصر «سالومي» أخرى .

وحينما انتهينا من مشاهدة المعرض طلب إليّ بلهفة أن أقدمه للفنانة ، وحينما صافحها بدا لي أن وجهه أضاء وغمرها بالاعجاب والمديح ثم قال لي في طريق العودة «استطيع على طريقة جريتشكو أن أقول إذا كانت مثل هذه السيدة المنطوية تبدع مثل هذا الفن فانكم لا شك لن تنهزموا أنا أدركت الآن سر صمود مصر ولماذا توصف دائما بالخالدة» .

وقلت له ولكنك لم تر لوحة الحرب ولوحة ٥ يونيو ولوحة هذه الأرض ولوحة عبد الناصر يسلم السد العالي ولم تر لوحة «الانسان» ولوحة الجوع . ولوحة «حنان» ولوحة المصباح ولوحة«الفرح النوبي» وفئات أخرى بعضها في أشهر متاحف العالم.

كان ساهما صامتا .. وبدا لي أن شعاعا من الإيمان بثته تحية حليم في روحه القلقة الحائرة .

وعادت الجوائز إلى مستحقيها!



الدكتور بدوي طبانة تأخرت الجائزة كثيراً!

بقلم :

د. على عشرى زايد

جاءته الجائزة متأخرة عن موعدها كثيرا ، حيث سبقه الي الحصول عليها من بعد في مرتبة تلاميذه ممن لايقاس عطاؤهم العلمي بعطائه ، ولا تطاول جهودهم الثقافية جهوده.

فبعد أسابيع قليلة يكمل الدكتور طبانة الثانية والثمانين من عمره المديد - حيث ولد في ١٩١٤/٩/٨ - وقد نذر هذا العمر للعلم والفكر ، وإذا كان من الصعب في مثل هذا الحيز متابعة جهوده العلمية والثقافية فإننا نستطيع أن نقول بإيجاز شديد إن هذه الجهود قد توزعت علي ثلاثة مجالات أساسية ، هي : التعليم ، والتأليف العلمي ،

والمشاركة في النشاط الثقافي العام لا في مصر وحدها بل علي امتداد رقعة الوطن العربي .

في مجال التعليم تتلمذ عليه الآلاف من الدارسين في مصر والعراق وليبيا والمملكة العربية السعودية حيث قام بالتدريس في مختلف جامعات هذه البلاد ، فضلا عن الأعداد الوفيرة من الطلاب الذين كانوا يفدون من شتى أرجاء العالم الإسلامي للدراسة في دار العلوم ، كما أشرف على عشرات الرسائل للماجستير والدكتوراه التى أصبح أصحابها أعلاما بارزة فى حياتنا الثقافية ، ومازال الدارسون يتتلمذون عليه فى كليته «دار العلوم» .

أما في مجال المشاركة فى الحياة الثقافية العامة فقد شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والمنتديات الثقافية في الوطن العربى على امتداده ، وهو بعد ذلك كله عضو بارز فى مجمع اللغة العربية في القاهرة ، يشارك بهمته المعروفة في نشاطاته المختلفة وأعمال لجانه المتعددة .

فإذا جئنا إلى المجال الأكثر أهمية من مجالات نشاطه وهو مجال التأليف والبحث العلمى والأدبى وجدناه قد بدأ النشر منذ أكثر من نصف قرن ، حيث كان ينشر في مجلة «أبولو» التى أصدرها أحمد زكى أبو شادى فى مطالع الثلاثينات كما نشر فى مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» فى عهدهما الزاهر ، ولازال يواصل النشر في مختلف الدوريات العلمية على إمتداد الوطن العربى. أما في مجال الكتب والمؤلفات فللدكتور طبانة نتاج غزير يشارف الثلاثين كتابا ومؤلفا مابين مطبوع ومعد للطبع، وقد تنوعت هذه المؤلفات وغطت الكثير من الحقول النقدية والأدبية والفكرية ، حيث كتب فى النقد النظرى والتطبيقى، وفى تاريخ النقد والنقاد ، وفى البلاغة العربية وتاريخها، وفي التراجم الأدبية والنقدية ، وفي الفكر الاسلامى ، كما قام بتحقيق عدد من كنوز التراث .

ومن الطبيعى أن يستحوذ المجال النقدى والبلاغى على الشطر الأعظم من اهتمام أستاذنا الدكتور طبانة بحكم تخصصه الأساسى، وقد نشر فى هذا المجال عددا وفيرا من الكتب من أهمها ذلك السفر الضخم الذى يحمل عنوان «معجم البلاغة العربية» ويدور حول تحديد مفهوم المصطلحات البلاغية وفنون البلاغة وأدواتها ، ثم كتابا «البيان العربى» و «علم البيان» اللذان

يهتمان بالفكرة البلاغية تاريخا وتنظيرا . وفى مجال التراجم الأدبية كتب مجموعة من الدراسات عن أدباء قدامى ومعاصرين . منها كتابه عن «الصاحب بن عباد» وكتابه عن «معروف الرصافى» وكتابه الرائد عن «أدب المرأة العراقية» الذى ترجم فيه لمجموعة من الأديبات العراقيات ، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ حوالى نصف قرن فى الوقت الذى كان بعض من ترجم لهن من الشواعر - أمثال نازك الملائكة ولميعة عباس عمارة - يخطون خطواتهن الأولى على درب الشعر ، وقد أصبحن بعد ذلك ملء السمع والبصر ، ثم دراسته عن الشاعر «أحمد محرم» وكتابه «من أعلام الشعر السعودى الحديث» .. وغيرها . وله إلى جانب ذلك مجموعة من الدراسات التطبيقية الأدبية والنقدية منها «معلقات العرب» و«السرقات الأدبية» ، وآخر ما صدر له من مؤلفات كتابه «سوانح وآراء فى الأدب والأدباء» الذى صدر فى العام الماضى ويضم مجموعة من الدراسات والتراجم الأدبية والنقدية ، منها : نظرية الشعر عند العقاد ، وبواكير حركة التجديد فى الشعر الحديث ، ومستقبل الشعر العربى ، وقضية الشعر الشعبى ، وأدب الرجل وأدب المرأة ... الخ، ومن التراجم التى يضمها الكتاب دراسات عن الإمام على بن أبى طالب ، وابن زيدون ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأحمد تيمور، وعباس العقاد ، وطه حسين ، وأمين الخولى .

أما فى مجال الفكر الإسلامى فقد كتب دراسة بعنوان «مقدمة فى التصوف الاسلامى» درس فيها شخصية الغزالى وفلسفته فى الإحياء ، وله كتاب قيد الطبع بعنوان «خواطر إسلامية» فى القرآن والعقيدة والفكر الاسلامى .

وفى مجال التحقيق له كتابا «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير و «الفلك الدائر على المثل السائر» لابن أبى الحديد، وله قيد الطبع القسم المصرى من «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصفهانى .

وبعد ..

فهذه إطلالة عجلى على بعض عطاء الدكتور بدوى طبانة الغزير فى شتى مجالات العلم والفكر والثقافة ، ولعله اتضح لنا من مجرد استعراض عناوين هذا العطاء مدى ثرائه وغزارته ، ومدى تنوعه .

الفن الجميل والثقافة المصرية

بقلم : د. صبرى منصور

يؤرخ عادة لبداية ولوج المصريين عالم إبداع الفنون الجميلة فى عصرنا الحديث بعام ١٩٠٨ ، وهو العام الذى أنشئت فيه مدرسة الفنون الجميلة ، وكانت إرهاصات اليقظة المصرية الحديثة قد بدأت قبل ذلك بعدة سنوات ، حين مهّد المثقفون والمفكرون بكتاباتهم ومقالاتهم لصحوة قومية للشعب المصرى الذى كان فى غفوة حضارية امتدت قرونا طويلة فبينما كانت بلاد شواطىء أخرى من البحر الأبيض تعج بحركة علمية وفنية دفعتها للتقدم فى كل مجالات النشاط الإنسانى ، وفى الوقت الذى كان هناك الناس فيه يكتشفون ، ويخترعون ، ويبدعون ، ويدفعون الحياة الإنسانية خطوات واسعة نحو آفاق جديدة وعصر جديد ، فإن المصريين كانوا بفضل الجهل المخيم على عقولهم يهيمون فى عالم الغيب ، مستسلمين لأقدارهم ، وقد انطفأت فيهم القدرة على الفعل لتغيير وجه حياتهم .




طه حسين


زكي نجيب محمود

وينذهل المرء حين يقرأ سطور المؤرخين، يصفون فيها حال الشعب المصرى قبل حوالى مائتى عام فقط ، حين جاء الفرنسيون إلى مصر فوجدوا فيها شعباً غافلاً يعيش خارج دائرة التاريخ ، وهو ليس غافلاً فقط عما يدور فى بلاد العالم وما يحدث فيها من تطور ، و إنما هو لايدرى عن أحوال نفسه ذاتها شيئاً . وهو يجهل العوامل الطبيعية والبيئية من حوله ، ويفسر الظواهر تفسيرات بدائية ساذجة ، وهو يمتلك كنوزاً حضارية لاتقدر بثمن ، لكنه ينظر إليها باستهانة وعدم اكتراث ، ويدعوها بالأصنام والمساخيط ، تلك الكنوز التى أصبحت طوال قرن من الزمان نهباً مشاعاً لهؤلاء الذين استطاعوا تقدير قيمتها النادرة كإنجاز حضارى وفنى فريد .

● الصحوة

لكن حركة التاريخ الدافعة دائماً للأمام ، رغم كل الصعاب والعقبات ـ قد فعلت فعلها ، وآن الأوان للمصريين أن يفيقوا بعد طول سبات ، وعلى مهل وبخطوات استغرقت أجيالاً من المحبين لبلدهم ، الراغبين فى إنهاضها لكى تلحق بركب الآدميين على طريق التقدم . فظهر جيل من الرواد اقتحموا ميادين العلم والمعرفة ، كما ظهر آخيراً جيل رائد من الفنانين المصريين يطرقون لأول مرة ميادين الإبداع ، وذلك منذ خمدت جذوة الإبداع الفنى فى نهاية أيام أجدادنا الأقدمين .

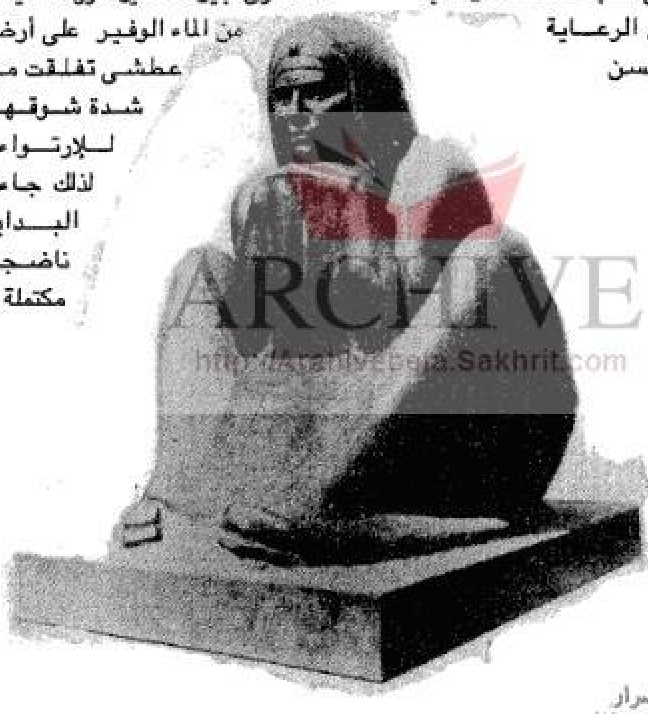
ولاشك فى أن الموروث الحضارى قد ظلّ قابعاً فى أعماق المصريين منتظراً لحظة الإيقاظ وساعة البعث . لهذا لم يكن غريباً أن يأتى إبداع جيل الرواد الأوائل شامخاً مكتملاً يحمل فى طيّاته كل صفات الإنتاج الفنى الأصيل ، مؤكداً فى الوقت نفسه على رهافة الحس الفنى لدى الإنسان المصرى ومقدرته على أن يدلى بدلوه فى مجال نشاط إنسانى يحتاج إلى موهبة نادرة ، وتكوين دقيق وتواصل فنى قريب . فرائد النحت المصرى الحديث محمود مختار (١٨٩١ ـ ١٩٣٤) الذى كان أول مصرى يلتقط الإزميل من آخر مثال فرعونى ، قد جاء من قرية مغمورة من قرى وسط الدلتا حيث كان صبياً يلهو

بالطين على ضفاف ترعتها ، ليبدع فناً كان في مرحلته الأولى لايقل عن نظرائه من فناني الغرب المجيدين ، ولايكتفي - وهو يبدأ من فراغ فني - بهذا التفوق ، وإنما يتخطى جودة التقليد والإتقان القائم على أسس أكاديمية أوربية ليخلق نموذجاً فنياً رائعاً وصل به ما انقطع من عظمة النحت المصرى القديم في قدرته على التلخيص والإيجاز والإيحاء ، فكانت أعماله «نهضة مصر» و «الخماسين» وتمثالا سعد زغلول نماذج واضحة على مايختزنه المصرى فى أعماقه من مقدرة فنية لاتنتظر لكي تتجسد أعمال حية نابضة سوى الرعاية والتقدير وحسن التوجيه.

ولم يكن المصور محمود سعيد (١٨٩٧ - ١٩٦٤) - الذى يعد الأب الروحى للتصوير المصرى الحديث - بأقل من زميله محمود مختار قيمة وتفرداً ، فذلك الفنان الذى اجتهد في تعليم نفسه مع انشغاله بالعمل القانونى في فترة طويلة من حياته، قد استطاع رغم مهارته وقدرته الأكاديمية القائمة على الأسلوب الأوربى أن يبلور أسلوباً فنياً فريداً ، شديد الخصوصية والعمق ، تربطه بوجدان البلاد وروحها وتراثها وشائج لاتخفى على أحد .

● بداية مكتملة

لقد أشرق جيل الفنانين الرواد كفيض من الماء الوفير على أرض عطشى تفلقت من شدة شوقها للإرتواء ، لذلك جاءت البداية ناضجة مكتملة ،

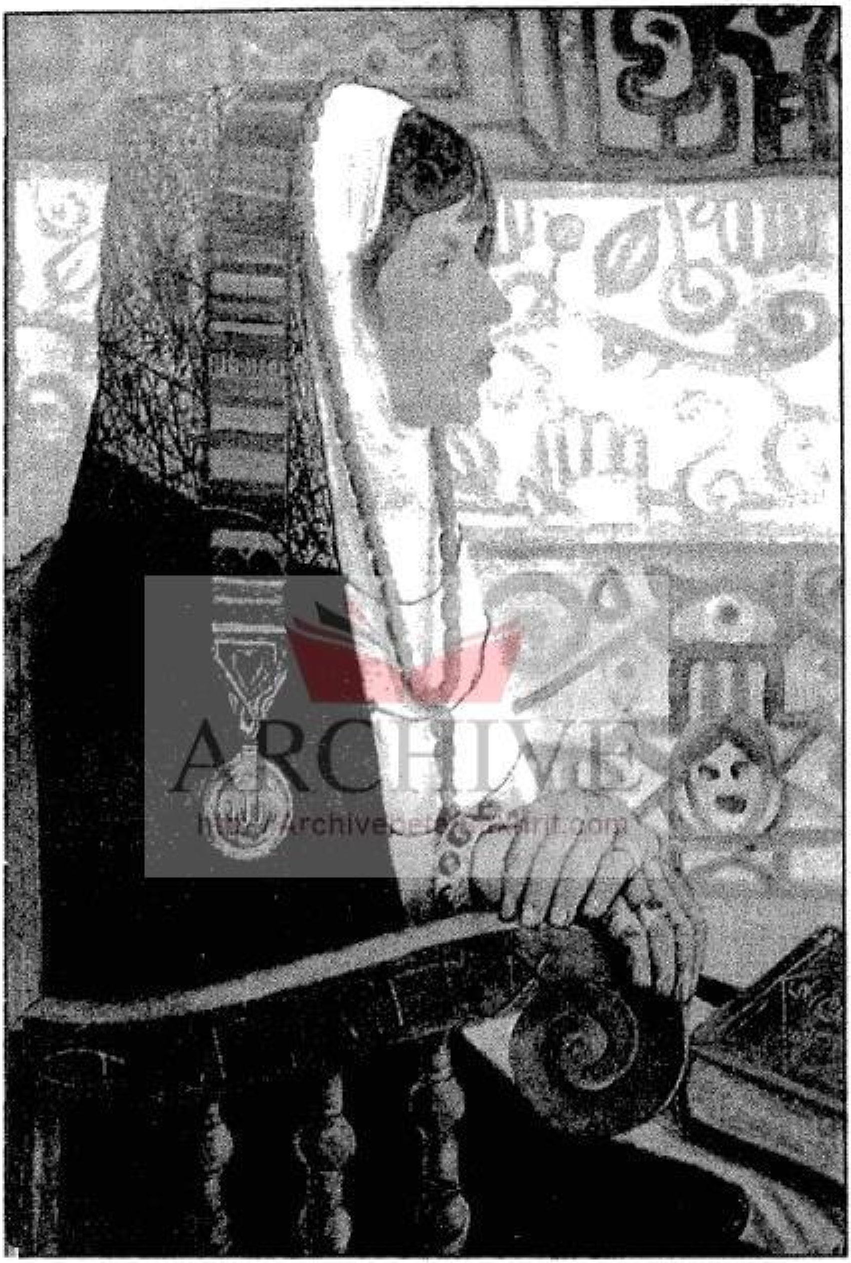


كاتمة الأسرار
للفنان محمود مختار



زهور للفنان صبرى راغب

تأمل للفنان عبد الهادى الجزار





العقاد



ثروت عكاشة

وتواصلت أعمال محمد ناجي وراغب عياد ويوسف كامل كل بطريقته الخاصة مع أعمال القطبين المحمودين مختار وسعيد ليكوّنوا جميعاً أجمل افتتاحية لمسيرة الفن الحديث على أرض مصر .

واتسعت دائرة الفنانين المبدعين تباعاً، وتعددت الاتجاهات والأساليب الفنية ، وطوال عقود متتالية ماجت الساحة الإبداعية بالافكار والرؤى ، واجتهد الجميع ـ كل وفق امكانياته وحدود موهبته ـ في وضع إجابة على تلك الإشكالية التي فرضت نفسها على الحياة الثقافية المصرية الحديثة منذ نشأتها ، وهي مسألة الهوية القومية والذاتية الثقافية ، أو ما اصطلح على تسميته بمشكلة الأصالة والمعاصرة في الفن والفكر والأدب ، وكان طبيعياً أن تمثل هذه الإشكالية أهمية خاصة ، لبلد ذات تاريخ عريق كبلادنا ، لايستساغ لها أن تمضي في ركاب الآخرين ممن سبقونا على الدرب ، فنكون بذلك نسخاً مشوهة من إبداعهم ، فمصر التي تتعدد انتماءاتها بين فرعونية وقبطية وإسلامية ، والتي تتمتع بموقع فريد في قلب العالم ، وتمتد علاقاتها بدول البحر الأبيض الأوربية من ناحية ، والدول العربية من ناحية ثانية ، والدول الأفريقية من ناحية ثالثة ، كان على مبدعيها أن يجدوا الطابع الذي يليق بكل تلك الامكانيات ويدل على تلك الانتماءات نحو تجسيد الطابع المصري .

البحث عن الذات !

وبينما تعثرت الاجتهادات في ميادين فنية أخرى لم يكن لمصر فيها اسهامات قديمة يرتكن عليها في عملية التحديث ، أو تمثل قاعدة للإنطلاق ، إذ لم تسفر محاولات التحديث عن إجابات واضحة لمسألة الهوية في مجالات المسرح والسينما والموسيقي والأدب والعمارة ، واحتاج الأمر إلى عدة أجيال لكي تظهر أول أشكال فنية في تلك المجالات تجمع بين الحداثة والطابع المحلي أو الهوية المصرية الحقيقية ، وباستثناء موسيقى سيد درويش لانستطيع أن نعثر على موسيقى مصرية تعبر بعمق عن وجدان الشعب ، والمسرح مازال يبحث عن ذاته الضائعة ، والسينما لم تجد سوى محاولة

إيقاع مصرى لشادى عبد السلام ، أما الأدب الذى كان له تواصل قريب من خلال استمرارية الأدب العربي ، ومع ذلك فلم تكتمل الرواية المصرية إلاّ على يدى نجيب محفوظ ، ولم تجد القصة القصيرة طابعها المصرى إلا فى كتابات يوسف إدريس ، وظل الشعر يدور فى فلك الشعر العربى الكلاسيكى مبنى ومعنى إلى أن ظهر جيل صلاح عبد الصبور. وفى مجال العمارة كانت هناك تجربة حسن فتحى وكذلك تجربة رمسيس ويصا ، ولم يتشكل حتى اليوم تيار واضح ضد الفوضى المعمارية السائدة .

أما فى مجال الفنون التشكيلية فإن تاريخ مصر الفنى كان منبعاً خصباً لجيل الرواد ومن تلاهم ، فاستطاعوا بمهارة وذكاء أن يعتمدوا عليه وينهلوا منه ، وأن يمزجوه بما استقوه من عناصر حداثية من فنون الغرب ، لهذا نزعم أن تجربة الفن المصرى الحديث كانت سباقة فى مضمار البحث عن هوية مصرية ، وجاءت أكثر نضجاً من تجارب الفنون الأخرى ، ووضع جيل الرواد لبنات قوية لبناء مازال ينمو ويكتمل خلال الأجيال اللاحقة وحتى اليوم، لتتضح معالم فن مصرى حديث قلباً وقالباً ، يعبر عن روح البلاد ووجدانها العام ، ويكون رسولها للثقافات الانسانية الأخرى . .

ولقد استطاع الفن المصرى الحديث أن يواكب حركة التجديد والإحياء ، وأن يكون جزءاً حميماً من نسيج الثقافة المصرية فى نهضتها الحديثة ، وخلية من أنشط خلاياها الفاعلة والمؤثرة ، حين شهدت مصر خلال الأربعينات والخمسينات نشاطاً فنياً محموماً أشعلته عدة جماعات فنية تعاقب تكوينها ، واستطاعت بدأب وإصرار أصحابها توجيه الرؤى وإيقاظ الحماس الفكرى ، فمن لاينكر جماعة الفن والحرية (١٩٤٠) ورائدها رمسيس يونان ، وجماعة الفن المعاصر (١٩٤٦) ، بريادة حسين يوسف أمين، وجماعة الفن الحديث ومجموعة حامد سعيد (١٩٤٦). وكان أغلب أعضاء هذه الجماعات إلى جانب كونهم فنانين مبدعين فهم أيضاً من أصحاب الأفكار والنظريات ، وقد تميزوا بالثقافة الموسوعية، وبالاطلاع العميق والقريب بكل مايحدث فى العالم المتمدين من صياغات واتجاهات جديدة فى عالم الفن والفكر ، وذلك بالاضافة إلى امتلاكهم ناصية التعبير عن آرائهم ، ومن خلال مقالاتهم ومعارضهم أضفوا على الفنان التشكيلى سمت المفكر لا الصانع ، مؤكدين بذلك أن هذا الفن ليس كما يراه العامة مجرد تهويمات وشطحات جوفاء ، وإنما هو عمل يرتكز على قواعد فكرية وأسس نظرية ، وله من القيمة الثقافية مايضارع بقية مجالات الإبداع الفنى والفكرى الأخرى .

● الدائرة المغلقة

ورغم كل هذا النشاط وتلك الفاعلية ، فإن حركة الفن التشكيلى ظلت محصورة فى دائرة الفنانين أنفسهم ، ودائرة أقل من المثقفين ، وتلك الدائرة يتضاءل حجمها



بورتريه للفنانة تحية حليم



بورتريه للفنان يوسف كامل

الفن الجميل والثقافة المصرية

يمثل لأصحابها جزءاً هامشياً من تكوينهم الثقافي ، وهم لايعنون باستكشاف خفاياه . وإنما يقتصرون على معرفة سطحية تضر بصاحبها أكثر مما تنفع ، والغريب في الأمر أن الفن المصري الحديث قد بدأ بتشجيع من المفكرين والكتاب في أوائل هذا القرن ، فكانت كتابات المفكر الديني الإصلاحي محمد عبده ، واسهامات المازني وهيكل والعقاد دلائل واضحة على احتضان هؤلاء للفن وتقديرهم لقيمته وأثره ، وهل هناك أبلغ من وصف طه حسين ـ المحروم من نعمة البصر ـ لمحمود مختار بالنابغة؟



المازني



لويس عوض

وينتهي الأمر بنا اليوم إلى عدم التفات المثقفين المعاصرين لأهمية الفن ، ومايقدمه من إضافة للثقافة القومية ، وفيما عدا لويس عوض وزكي نجيب محمود لن تستطيع أن تتبين بين كبار مثقفينا ، من أولى الفن حق قدره ، وأخذه مأخذ الجدّ ، ولقد انعكس ذلك الوضع على مجال النقد الفني التشكيلي الذي أعرض عنه الكتاب ، فلم يجد الفنانون مفراً من أن يتولوا مسئوليته رغم كونهم فنانين مبدعين قبل أن يكونوا كتاباً محترفين .

وإذا كان الفنانون يعانون من إهمال وتهميش لدورهم الثقافي ضمن قافلة الثقافة المصرية المعاصرة ، وإغفال العاملين في المجالات الثقافية الأخرى لإبداعهم ، فحدث ولا حرج عن انعدام دائرة الجمهور العادي الذي من أجله يبدع الفنانون ابداعهم . فالنسيج الثقافي الذي يشكل وعي المواطن العادي لايشتمل على أقل القليل من الثقافة التشكيلية ، وتلك المشكلة معقدة أسهمت في تشابك خيوطها عوامل عديدة لعل أهمها التعليم المصري الذي لم يفلح نظامه في تكوين أرضية ثقافية لدى المتعلمين ، فهم يعانون من أمية ثقافية ليس في مجال الفنون التشكيلية فحسب ، وإنما في شتى المجالات الابداعية الأخرى ، فلقد أضحى التعليم في مصر منذ سنوات طويلة مجرد وسيلة للحصول على رخصة تؤهل صاحبها للدخول في دنيا العمل والوظيفة.

● تراجع العمل الثقافي

وبعد اضمحلال الطبقة الأرستقراطية في مصر ، والتي كانت ترعى الفنون

بحكم ثقافتها الرفيعة ، والتي كانت الداعية والبادئة بتعليم الفنون الجميلة للمصريين حين أنشأ الأمير يوسف كمال من ماله الخاص مدرسة الفنون الجميلة ، وأوقف لها من إيراد أملاكه مايساعدها على الاستمرار فى أداء رسالتها ، ومع التدنى المستمر للمستوى الثقافى والتعليمى للمواطن المصرى ، وظهور طبقات جديدة تتمتع بالثراء لكنها لا تولى الثقافة الجادة أىّ اعتبار أو تقدير ، فإن الدور الأساسى فى رعاية الفنون والفنانين قد آل إلى الدولة وجهازها الحكومى والإدارى ، فهى المسئولة عن توفير الامكانيات لتحديث البلاد والسعى بها قدماً فى طريق التطور واستكمال النهضة الحديثة التى بدأت منذ حوالى مائة عام ، كما أنها أصبحت المسئولة عن رعاية الموهوبين من أبناء الوطن وتشجيعهم وحثهم على الإبداع الفنى الجاد ، وخلق الفرص وفتح القنوات بينهم وبين مجتمعهم المنفصل عنهم ، مع تقديم أعمالهم للعالم فى أكمل صورة ممكنة ، ومع ذلك فلم تكن هناك غير تلك الجهود الصادقة الذى بذلها ثروت عكاشة حين تولى أمر الثقافة فى الستينات مدفوعاً بعمق ثقافته وحسن تقديره للعمل الثقافى مما كان له أثره الايجابى الواضح على حيوية وازدهار مجالات الإبداع الفنى المختلفة ، وظهر أثر ذلك واضحاً على الفنون التشكيلية فكانت أعوام الستينات أعواماً خصبة صاخبة بالحركة متدفقة بالعطاء ، وللأسف فإن تلك الجهود لم تجد من يواصلها ويدفعها خطوات أبعد للأمام ، بل تراجع العمل الثقافى ضمن تراجعات فكرية أخرى ، وخيّم على الحياة الثقافية مناخ كئيب . أذكته تيارات سلفية تريد أن تعود بمصر إلى ظلام القرون الوسطى، وانعكس هذا الوضع على ساحة الفنون التشكيلية التى تعيش منذ أواخر السبعينات حالة من التقوقع والانحسار واختلاط القيم ، وانكفأ الفنانون على أنفسهم كل يسعى نحو خلاصه ، واكتفى المسئولون بأنشطة مظهرية لا فائدة حقيقية ترجى من ورائها .

وهكذا أضحى الفنان التشكيلى الجاد محروماً من رعاية الجميع ، فالجمهور العادى لا وجود له ، كما ينعدم الأمل فى وجوده خلال فترة زمنية قريبة ، كما أن المثقفين عنه غافلون ، والدولة فى النهاية لاتقوم بواجبها نحوه كما يجب ـ ومع كل هذه المحبطات التى تعايشها حركة الفن التشكيلى فى مصر ، ومع عدم الرعاية من الجميع فإنها سوف تنمو وتنتشر ، فلقد انفتحت طاقة الإبداع عند المصريين ولاسبيل إلى إغلاقها ، وكل مافى الأمر أن عملية البناء والتطور سوف تستغرق زمناً أطول كان بيدنا اختصاره لو خلصت النيات وصدقت العزائم .

هل المتاحف المصرية للاجانب وحدهم ؟ !

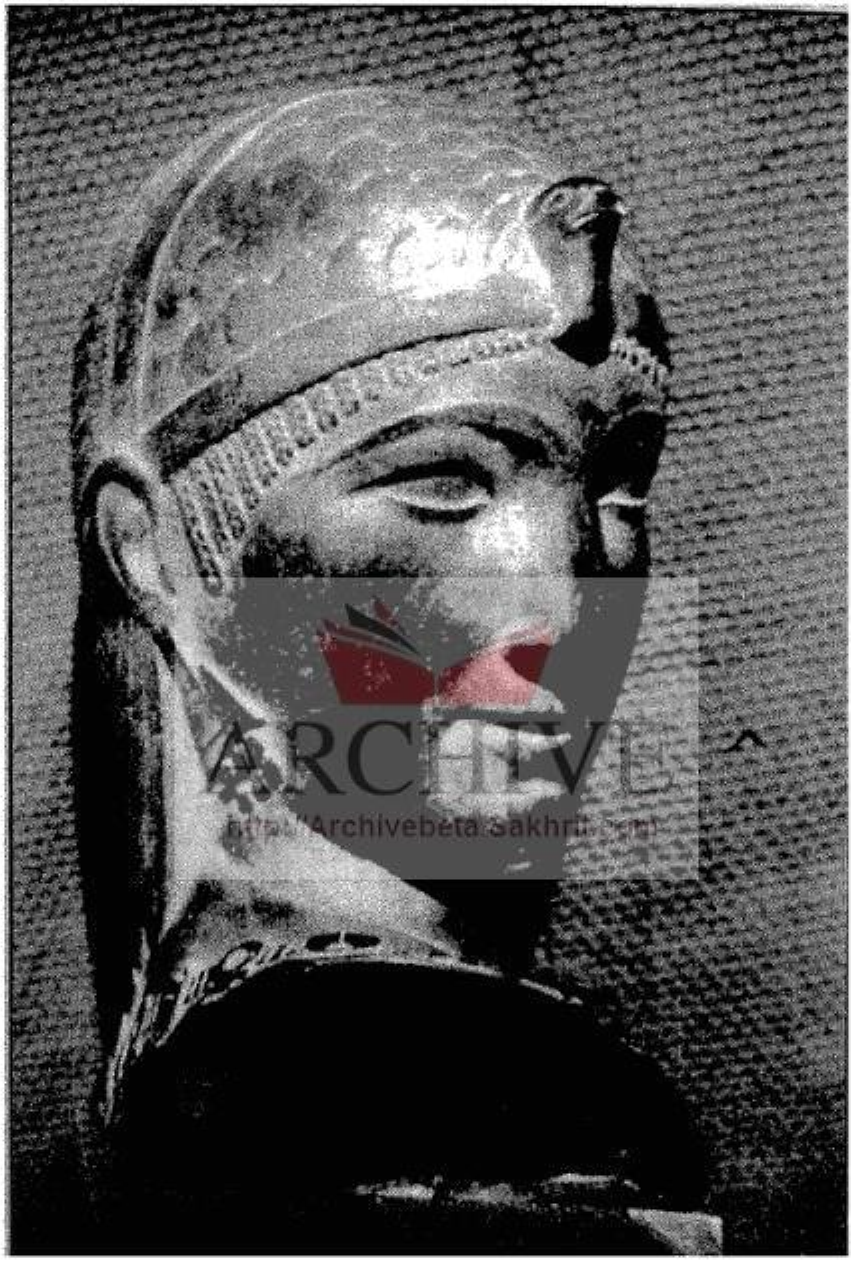
بقلم : ابراهيـــــم داود



من مقتنيات المتحف المصرى

تضم مصر عددا كبيرا من المتاحف التي تقف موقف الحارس الأمين علي تراثنا الثقافي وهويتنا الحضارية ، وتتعدد هذه المتاحف وتتنوع فيما بين متاحف الفن الحديث ومحمد محمود خليل ومحمود مختار ومحمد ناجي والمتحف الزراعي والمتحف الاسلامي والمتحف القبطى والمتحف اليوناني الروماني ، هذا بخلاف المتاحف التاريخية مثل قصر محمد علي ومتحف جاير اندرسون (بيت الكرتيلية) ومتحف قصر الجوهرة ومتحف المركبات الملكية والمتحف الحربي ومتحف المجوهرات الملكية والمتحف البحرى ومتحف رشيد .

رأس عروس النيل – برونز – متحف مختار



إلا أن درتنا الفريدة وأعظم متاحف الدنيا قاطبة هو ذلك المتحف الذي يتوسط الصخب في ميدان التحرير بالقاهرة «المتحف المصري» الذي يضم حوالي ١٢٠ ألف قطعة أثرية لا تقدر بثمن، والذي يحج إليه الملايين سنويا من كل بقاع الأرض، وقد بلغ متوسط زائريه في يوم واحد هذا العام (١٩٩٦) خمسة آلاف زائر.

ويرجع الفضل في إنشاء المتحف المصري إلى عالم المصريات الفرنسي الشهير «أوجيست ماريبت» (١٨٢١ - ١٨٨١) الذي أقام متحفا للآثار المصرية القديمة لأول مرة عام ١٨٥٧ في بولاق مستغلا بعض المباني القديمة الخاصة بشركة الملاحة آنذاك..

ويبدو أن ماريبت «الفرنساوي» كان أكثر إحساسا بالمسئولية تجاه ثروات مصر من حكام مصر أنفسهم - في ذلك الوقت طبعا - فقد ذكر «جيمس بيكي» في موسوعته «الآثار المصرية» أن ماريبت قد نجح في حمل حكام البلاد المستهترين على اتخاذ الخطوات الأولى لإقامة هذا المتحف. أما عن نظرة هؤلاء الحكام إلى آثار مصر بكل ما تحمله من معان فيقول: «إن المسرفين الشائنين من أمثال سعيد وإسماعيل اللذين كانا غارقين في الديون ويتطلعان إلى كنوز ماريبت الثمينة باعتبارها رهائن يمكنهما التفاوض على حسابها عند التقدم إلى البيوت المالية الأوربية لعقد القروض».

وقد قام الخديو اسماعيل بافتتاح المتحف المصري عام ١٨٦٣ وفي عام ١٨٧٨ تعرض المتحف وكنوزه للغرق على أثر فيضان للنيل و وبالرغم من ذلك فقد مضت سنوات عديدة حتى تم نقل المتحف من مكانه ببولاق إلى الجيزة. ثم جاء «جاستون ما سبيرو» مديرا لمصلحة الآثار المصرية فأشرف على نقل المتحف إلى مبناه الحالي عام ١٩٠٢. ومن الجدير بالذكر أن إدارة مصلحة الآثار المصرية ظلت مقصورة على الأجانب - الفرنسيين تحديدا - حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

كنوز مصر الفرعونية

والمتحف المصري بميدان التحرير يتكون من طابقين يحويان آثار مصر الفرعونية بمختلف عصورها «أكثر من ٣ آلاف سنة».

ومن أهم القطع الأثرية التي يضمها الطابق الأرضي بالمتحف نذكر على سبيل المثال فقط: لوحة نارمر موحد مصر «الأسرة الأولى ٣٢٠٠ ق.م».. وتمثال زوسر «الأسرة الثالثة، ٢٨٠٠ ق.م».

والتمثال الفريد للملك خفرع «الأسرة الرابعة ٢٦٠٠ ق.م» والذي يعتبره الفنانون والأثريون معجزة في فن النحت إذ انه نحت من حجر «الديوريت الأخضر» بدقة متناهية وذوق رفيع.. كما يشمل الطابق الأرضي أيضا آثارا وتماثيل لملوك عديدين مثل حتشبسوت وتحتمس الثالث وأخناتون «الأسرة ١٨، ١٦٠٠ ق.م».

أما الطابق العلوي فيضم نفائس عديدة يكفينا منها ذكر كنوز توت عنخ آمون بمقاصيره الذهبية وعرشه وقناعه الشهير وتابوته الذهبي (١١٠ كيلو جرامات من الذهب) وكذلك صالة

المومياوات (أغلقت عام ١٩٨٠ وأعيد افتتاحها منذ شهور قليلة) وتضم رفات أعظم ملوك مصر مثل أحمس وتحتمس الثالث ورمسيس الثانى وغيرهم ..

وبالرغم من القيمة الكبيرة والتى يصعب التعبير عنها لهذا المتحف والذى تصفه المراجع الأجنبية «بالمخزن» فإنه لا يزوره – للأسف الشديد – سوى الأجانب تقريبا ، بسبب عدم اهتمام الادارة المصرية – الممثلة فى المجلس الأعلى للآثار – ووزارة الثقافة – بالدعاية بين «المصريين» لزيارة المتحف «المصرى» وبصرف النظر عن بعض الزيارات «العشوائية» التى تنظمها المدارس لتلاميذها ، فإننا نجد أن التلاميذ ومن معهم لا يجدون من يهتم بهم ويرشدهم داخل أروقة المتحف ، فلا يبقى أمامهم سوى «البحلقة البلهاء» فى وجوه السائحين وأجسادهم الذين تسخر لهم كل الامكانيات لمعرفة التفاصيل .

● زيارة المتحف لمن ؟

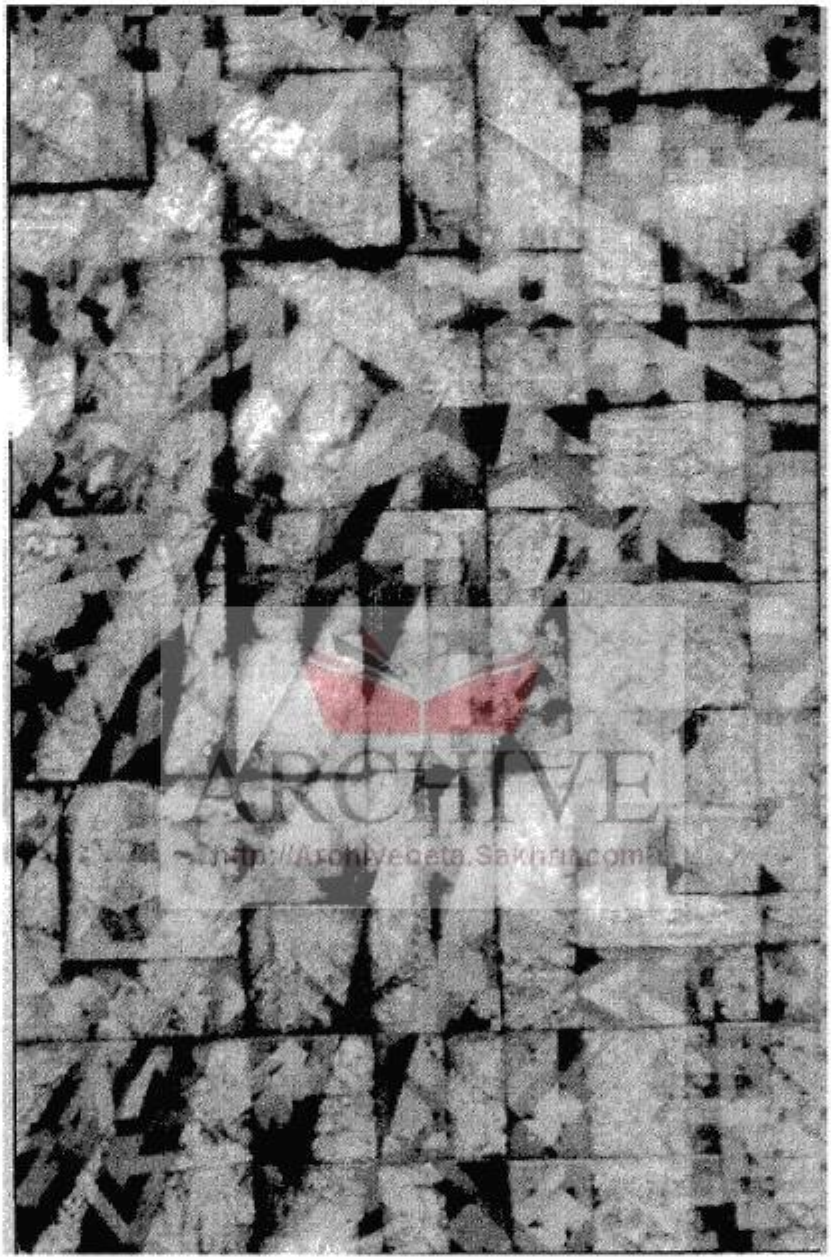
وكنا نتمنى أن يتعاون المجلس الأعلى للآثار مع وزارة الثقافة ووزارة الاعلام فى الترويج لتنظيم زيارات «متحضرة» لجميع فئات الشعب (وليس لتلاميذ المدارس الابتدائية فقط) مع توفير عدد كاف من المرشدين لهؤلاء مع الأخذ فى الاعتبار أن اللوحات الارشادية المعلقة على القطع الأثرية غير كافية وموجزة ومبتسرة .. ونتمنى أيضا – طالما قرروا نقله – أن تهتم وزارة الثقافة بطريقة العرض ، ففى المتحف (أو المخزن الحالى) توضع القطعة التى لا تقدر بثمن فى فاترينات لا يتجاوز سعر الواحدة عشرة جنيهات ..

وكأن المتحف مفتوح للموظفين الذين يعملون ، لأنه يفتح مع مجىء الموظفين إلى العمل ويغلق مع انصرافهم من العمل ! ، هذا بالإضافة إلى غياب الأمن الكافى ، فالبوليس فى المتحف وظيفته حراسة الزوار والحفاظ عليهم .. ولكنهم لا علاقة لهم بالحفاظ على الأثر الذى «يسند» عليه الجمهور ويتحسسه دون خوف من أى رقيب !

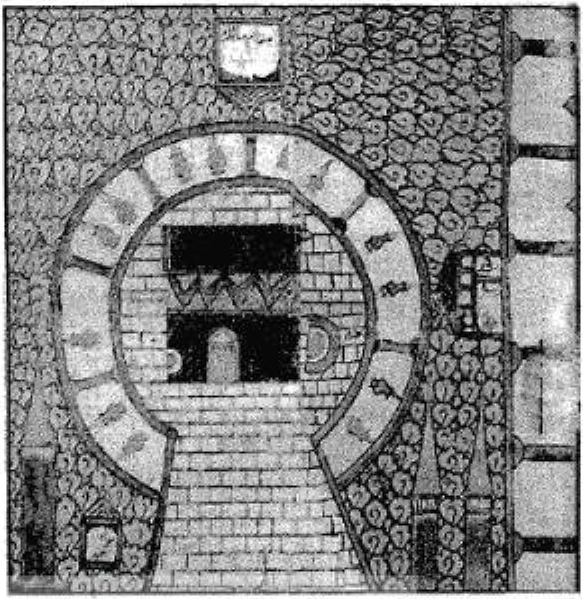
هذا عن المتحف المصرى فى ميدان التحرير .. والذى لا تختلف بقية المتاحف المصرية التى لا يرتادها مصريون » .

«مرقص سميكة باشا» هو الذى تبنى فكرة إنشاء «المتحف القبطى» وقد تقدم للحكومة المصرية سنة ١٨٩٥ بطلب ضم الكنائس والآثار القبطية «للجنة حفظ الآثار العربية» وعلى ذلك انشىء «المتحف القبطى» فى بدايته فى غرفتين بالكنيسة المعلقة بمصر القديمة ، وبعد توسيعه افتتح رسميا سنة ١٩١٠ ، وقد ظل كذلك الى عام ١٩٣٦ عندما طلب الملك فؤاد ضمه الى متاحف الدولة لصيانته ورعايته .

وقد كانت بداية «المتحف الاسلامى» (الذى يقع فى باب الخلق ولا يعرف كثيرون مكانه !) .. فى الايوان الشرقى لجامع الحاكم ، ثم أقيم متحف صغير فى صحن الجامع لهذا الغرض عام ١٨٩٥ وسمى «دار الآثار العربية » وفى عام ١٩٠٢ نقل المتحف إلى مبناه الحالى وأصبح اسمه «متحف الفن الاسلامى» منذ ١٩٥٢ .



من مقتنيات متحف الفن الحديث بالقاهرة



تصوير للكعبة
على قيشاني
متحف الفن
الاسلامى



مشكاة من الزجاج
متحف الفن
الاسلامى

وتم إنشاء عدد من المتاحف مثل المتحف الجيولوجي سنة ١٩٠١ ومتحف الفن الحديث الذى افتتحه الملك فؤاد سنة ١٩٣١ ومتحف السكة الحديد الذى يعتبر أول متحف من نوعه فى الشرق، ويضم مقتنيات تمثل فى تدرجها تطور النقل البرى .

أعمال فنية رائعة

ثم تأتى متاحف الفنون الجميلة ليتصدرها متحف محمد محمود خليل الجميل والذى أفتتح عام ١٩٩٥ ، وكان صاحبه رئيس مجلس الشيوخ قد أوصى بذلك وهو يضم أعمالا فنية رائعة وخالدة لأعظم مصورى العالم من مختلف المدارس الفنية ، هذا بالاضافة إلى التحفة الاساسية والتى تتمثل فى المبنى البديع .. ولم تنفذ وصية صاحب البيت واللوحات كما هى .. ففى المتاحف التى من هذا النوع يقصد صاحب الوصية أن توضع اللوحات فى مكانها الأصلى ويعيش الزائر فى البيت كما كان يعيش صاحبه .. ولكن ما حدث مع محمد محمود خليل رغم الدقة والجهد الكبير الذى بذل ليخرج بهذا الشكل المتحضر فإن استبعاد لوحات واستبدال أماكنها يعد خرقا للوصية التى تركها محمد محمود خليل. وتظل رهبة الجمهور العادى هى الحاجز الرئيسى فى دخول القصر والاستمتاع بمحتوياته، ولم يقتصر خرق الوصية على محمد محمود خليل فقط فقد سبق الاعتداء على الأمير محمد على الذى أوصى صاحبه بتحويل قصره فى المنيل الى متحف للشعب ، لكن وزارة الثقافة والارشاد القومى قامت فى أوائل الستينات باقتطاع الجزء الاكبر من حديقة القصر وحولتها الى فندق فى اطار ما عرف بسياسة الفندقة ولازال هذا العنوان قائما .

ولقد هدم المتحف الجيولوجى بشارع الشيخ ريحان ليمر من تحته مترو الانفاق.

وتم نقل محتوياته النادرة الى جراجات النقل العام بأثر النبى

أما متحف المثال العظيم محمود مختار والذى يقع فى مواجهة دار الاوبرا فى شارع التحرير .. فقد يختفى فى الأسابيع القادمة من أجل عيون مترو الانفاق !

هناك فكرة سائدة تتردد دون وعى حول تكدس متاحفنا بالقطع الأثرية والاحتياج الى تقليل عدد القطع المعروضة وهذه الفكرة يرددها كثيرون دون وعى أو دراسة لحالة متاحفنا . وقد ظهرت هذه الفكرة بشكل أساسى فى الفترة التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧ عندما اقتضت ظروف تأمين القطع الأثرية تكويمها فى أرضيات دواليب العرض واحاطتها بالقش والقطن لحمايتها من أى غارات محتملة وكذلك جمع دواليب العرض الى جوار الحائط ، الامر الذى أعطى انطباعا بتكدس الحرب وبقيت مقولة تكدس المتاحف تتردد دون وعى .

إننا لانحتاج الى تخزين مزيد من الآثار أو تقليل كم المعروض بقدر ما نحتاج الى لافتات شرح سليمة وعلمية والى نظام تأمين سليم للمتاحف ضد السرقة وضد الحريق وضد التلوث البيئى الذى يهدد الآثار والى نظام اضاءة ملائم.



مرعى للفنان الفرنسي ترويون كونستان – مقتنيات متحف محمد محمود خليل

وانشاء متاحف جديدة شيء عظيم ولكن يجب ألا يأتي على حساب المتاحف القديمة ، وتجربة متحف محمد محمود خليل وحرمه تشهد على أن أسلوب التفكير هو أسلوب مسئولين ، فقد تم تخزين جزء مهم من الأعمال لحساب مفاهيم التنسيق والشكل .

أن المتاحف الأثرية هي من اختصاص الأثريين بالدرجة الأولى ولا يمكن التعامل مع محتوياتها باعتبارها مجرد أعمال فن تشكيلي قديم !

ولن نحصر بقية المتاحف الأخرى الكثيرة الآن ولكن علينا أن نسأل سؤالا : اذا كان ايراد متحف اللوفر في فرنسا يعادل ضعفي ايراد قناة السويس – كما قال لي د . أحمد نوار رئيس قطاع المتاحف ورئيس المركز القومي للفنون التشكيلية – في الوقت الذي نمتلك آثارا ولوحات تتجاوز خمسين «لوفره» .. فمن المسئول عن هذا التخبط ؟!.

حكاية الولد مصطفى

قصة قصيرة

بقلم:

حسين عبد العليم

[illegible]



قصة قصيرة

مستخدما أصبعيه السبابة والابهام، يحلق شعره لاتس وينظر للفتيات بوله، الواد مصطفى يفتح الزر الأعلى من قميصه كي تظهر السلسلة الفضية التي يلبسها فى رقبته.

كل هذا - وأكثر منه يعرفه الحاج عيد صاحب القرن، بس إذا ماكانش عجان بريمو؟!! كان من الممكن ان يقول له: ورينا عرض كتافك ، آآه من الصوجة ، ويرضو الواد طوع فى الكلام، نعم وحاضر وخلاص يامعلم ، الشيطان بيغوينى وحقك علىّ.

عمره ماتبجح، وعمره ما علاّ صوته، حتى عندما يلومه زملاؤه يحادثهم برفق وعيناه تلتمعان وتنظران الى نقطة غير محددة فى السماء : السيمادى عشق فى الدم.. من غير سيما انا ما اعرفش اعيش.. يوووه.

* * *

ببطء - حرك الحاج عيد الملعقة الألومنيوم بشكل دائرى فى الكوب ، قال لكامل: اتفضل الشاى.

رشف كامل رشفة ، تنحنح الحاج عيد:

لامؤاخذه يا ابو مصطفى.. الحال ده ميتفعش.. هم تلات اربع تيام يشتغلهم المحروس ابنك.. صحيح بيشتغل عجان ميه ميه ويخدم على القرن كله.. لكن بعد كده بيخلا بيا.. فص ملح ويدوب. ع السيماعدل.

كان كامل يهزّ رأسه فى أسى.

* * *

يسير من زنين حتى مزلقان ناهيا، يركب الميكروباس إلى ابو العلا، يهبط أمام سينما على بابا ، يشترى سندوتشين سمين وعلبه كليوباترا - ثم يدخل.

- قلت ايه يا عم كامل .

- أنا حطيت صوابعى العشرة فى الشق. ياحج عيد.

ـ الواد فى السن دى عايز شديه.. وانا باقولك لمصلحته.. مصطفى زى ابنى برضه.

ـ طبعا ياحج طبعا.. الغريبة انه مؤدب.. عمره ماعمل حاجه وحشه.. نفسه هادى.. حتى مالوش اصحاب.

اخد ابراهيم القهوجى يتلكأ أثناء ماكان يأخذ الصينية الألومنيوم وعليها اكواب الشاى الفارغة ، ثم:

ـ بصراحة ياحج عيد

السيما مقدور عليها.. لامؤاخذه ياعم كامل.. ابنك كان ممكن يعمل زى باقى العيال.. يأخذ برشام ويشيل مطوى ويسرق.. والحج عيد برضك معذور.. داخل عليه عيد رمضان ومحتاج صنيعيه.

ـ يابنى انا فاهم.. بس مصطفى مش عايش هنا.. داعايش هناك.. ساعات باقول لنفسى الواد ده بيشتغل علشان يخدم على دخول السيما.

غادرهما ابراهيم وهو يصيح: خليها على جناب الله، كانت رأساهما تتقاربان وقد تشكلت ملامحهما بالتآمر.

* * *

دق الحاج عيد على باب الحجره، صفق محمود مناديا : كا اامل.. يا ابو مصطفى. أجابهم صوت كامل من الداخل: يا مرحب ياحج.. اتفضلوا، دخلا، جلسا على الكنبه.

ـ المحروس لسه مجاش.

ـ زمانه جى.. على وصول ياحج.

مسحا حوائط الحجرة بأعينهما، كانت صور عمرو دياب ويسرا وميرفت امين تتجاور مع صور سعاد حسنى ورشدى اباظه ومحمود ياسين ـ بعد نزعهما من مجلات الكواكب والموعد ودقها بالمسامير فى الحائط، فوق السرير مباشرة كانت صورتان كبيرتان لاميتاب باتشان وسلفستر ستالونى.

ـ شفت جنان الواد ياحج..

ـ ياشيخ.. دى حاجة مسخره.

ـ دا ابن الكلب شال صورة المرحومة امه وعلق بدال منها كلام فاضى.

أشعل كامل وابور الجاز وبدأ فى إعداد الشاى، كان مصطفى قد وصل الى أواخر شارع همفرس واتجه يسارا فى شارع النزهة.

وضع الحاج عيد كوبه على المنضدة الكالحه ووراءه وضع محمود كوبه وهما يقولان:

دايم...

ـ يدوم عزك ياحج.

وصل مصطفى الى منتصف شارع أمينه حموده واضعا يديه فى جيوب بنطلونه والسيجارة فى فمه يصفر لحنا لأحد اغانى ايهاب توفيق.

كان الحاج عيد يمسك عصا، ومحمود يمسك رجل كرسى قديم وكامل يمسك خرطوم.

دق مصطفى باب الحجرة فأجاب أبوه ـ خش.

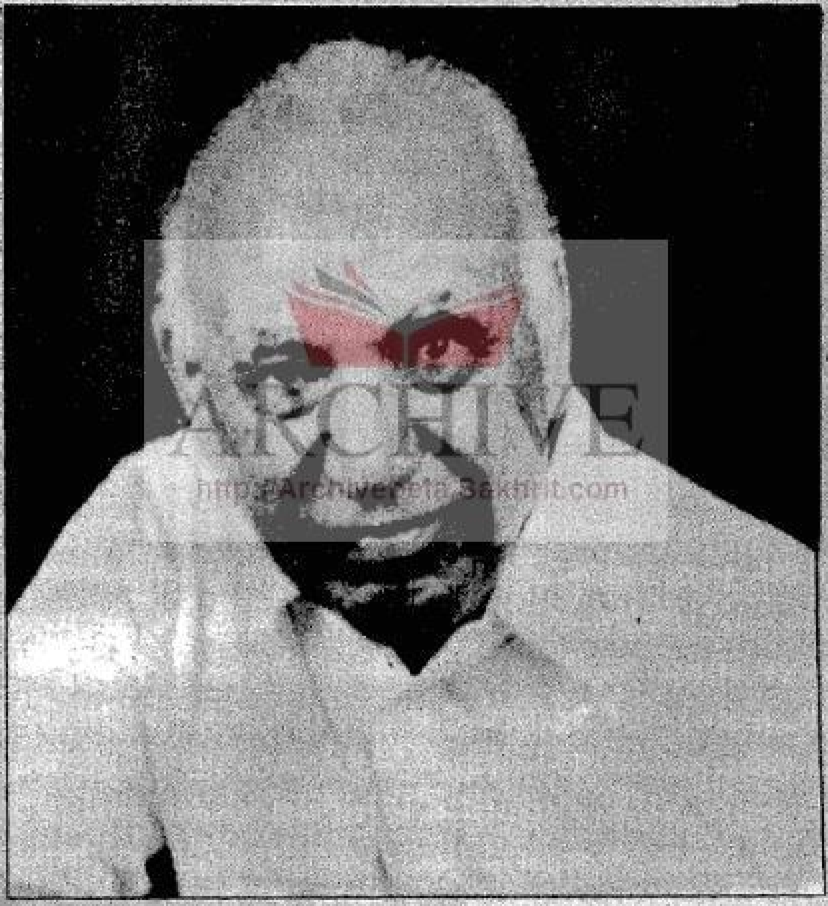
ودخل.

بولاق الدكرور
١٩٩٦/٤

مصر أم الدنيا

في سينما أبوسيف

بقلم :مصطفى درويش



❑ انفرد صلاح أبو سيف ، دون غيره من صانعي الأطياف عندنا برسالة دكتوراه تناولت سيرته السينمائية بالعرض والتحليل والتأصيل.. ولأن صاحبها الناقد التونسي «خميس خياطي» أنفق في استكشاف تلك السيرة وكتابتها سنين ، فقد حصل ، بفضل ذلك ، على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون الجديدة ، قبل ستة عشر عاما .

وحتى الآن ، وفقا لما هو متوافر لدى من معلومات ، لم تنشر تلك الرسالة كاملة ، لا باللغة الفرنسية التي كتبت بها أصلا ، ولا بأية لغة أخرى ، بما في ذلك لغة الضاد .


الزوجة الثانية


شباب امرأة

كل ما نشر منها حتى يومنا هذا ، لا يعدو ان يكون موجزا لا يشفي الغليل ، مرة بلغة الأصل الفرنسي ، وذلك بفضل دار سندباد (١٩٩٠).

ومرة أخرى مترجما إلى العربية ، بجهد من صندوق التنمية الثقافية ، وذلك بمناسبة اختيار المخرج الراحل ضمن الفنانين المكرمين .

وقد شغف «أبو سيف» برسالة «خياطي» ، وما لبث أن شغف بموجزها ، حتى أنه أهدانيه ، أملا أن أعرض له بالكتابة في الهلال التي كان لا يبخل عليها بقلمه بين الحين والحين .

وهانذا أحقق ذلك الأمل ، ولكن بعد فوات الأوان .

التميز والتجلى

من بين ما جاء فى تلك الرسالة ، وعنوانها إذا ما ترجم حرفيا «صلاح أبو سيف وسينماه» . إن أفلام المخرج الراحل تشكل من ناحيتى الموضوعات والصور وحدة وحيدة نوعها فى تاريخ السينما المصرية .

وإن الخط العام الذى تبناه أبو سيف ، قائم على اضافة بعد اجتماعى إلى تلك السينما ، متأثرا فى ذلك بفيلم «العزيمة» الذى شارك فى ابداعه مع مخرجه كمال سليم .

ومن استقراء أفلام أبو سيف وبالذات تلك التى ابدعها فى أثناء مرحلتين جاءت ذكراهما فى الرسالة تحت عنوانى «الخيانة المستحيلة» و «التمرد حتى الموت» استخلص صاحب الرسالة أن سينما «أبو سيف» ، إنما تتميز بأمرين ، أحدهما وحدة المكان ، والآخر وحدة المعالجة الدرامية .

انبعاث الشرارة

فثلاثة أرباع أفلام تلك السينما ، إنما تجرى احداثها فى القاهرة .

بل وفى وسعنا أن نزعم دون مغالاة ، أنه فى الإمكان تسجيل التاريخ الاجتماعى للعاصمة المصرية أو على الاقل ، لبعض أحيائها من خلال أعمال «أبو سيف» فحتى بين أفلامه غير الروائية، ثمة عمل لم يكتمل ، أراد به أن يثبت أن الحياة القاهرية عبارة عن سيمفونية ، تتناغم فيها مختلف الأصوات (صيحات الباعة الجائلين ، الضوضاء العادية ، أغانى المؤذنين) والفراغ الذى تتحرك فيه شخصيات أفلامه الروائية

الفتوة



حمام الملاطيلى





الطريق المسدود



بداية ونهاية

ليس إلا فراغا قاهريا .

الحمام الشعبى فى «لك يوم يا ظالم»، حى الزمالك فى «الاسطى حسن» ، حيا القلعة والعباسية فى «شباب امرأة» ، أحياء القاهرة الأخرى فى كل من «بداية ونهاية» و «حمام الملاطيلى» ، «سوق الخضار فى «الفتوة» .

العلم والايمان

وأى من افلام «أبو سيف» لايخلو من إشارة ما إلى الإسلام دين أغلب القاهريين.

وفيما عدا «شباب امرأة» حيث احدى الشخصيات امرأة أرمنية ، و«حمام الملاطيلى» حيث يلعب أحد الممثلين دور رجل اجنبى ، فجميع شخصيات افلامه ، رغم ما بينها من اختلاف شديد فى الامزجة والطباع والاستعداد ، لا تدين إلا بالإسلام ، ومن بين نماذجها شخصية «بيومى» فى «الأسطى حسن» و «امام» بصلواته التى لاتنقطع فى «شباب امرأة» والإخوان «أبو دوما» بمعتقداتهما فى «الفتوة» والأم و«حسين» باشاراتهما المتكررة الى الدين فى «بداية ونهاية» و«أحمد» بالصلة الحميمة التى بينه وبين القاهرة الإسلامية فى «حمام الملاطيلى».

المدينة البدينة

والقاهرة التى تتحرك فيها تلك الشخصيات هى المدينة البدينة المستأثرة باسم مصر فى وصف القاهرة ، مصر أم الدنيا ، وفى بيان أسباب هذا الاستئثار ، قال عالم الجغرافيا «جمال حمدان» فى دراسته عن «شخصية مصر »:

منطقة القاهرة .. عنق الزجاجة ، عنق مصر ، وهى من الناحية الهندسية البحتة مركز الثقل الطبيعى . ومن الناحية الميكانيكية نقطة الارتكاز التى يستقطب

حولها ذراعا القوة والمقاومة من شمال وجنوب ، ومن الناحية الحيوية نقطة التبلور، ومن الناحية الوظيفية ضابط الايقاع بين كفتي مصر .

إنها تبدو كما قال الشاعر «ريلكه» ، كما لو كانت موقعا من اختيار الآلهة.

هذا من حيث الشكل ، ولكن المضمون لايقل عن شكل الاقليم أثرا في التوجيه نحو المركزية .

فقد لا يكون موقع القاهرة متوسطا من حيث المسافة المطلقة بين الشمال والجنوب ، لكنه متوسط تماما من حيث وزن المعمور الفعال ، فالصعيد أضعاف الدلتا طولا ، لكن الدلتا ضعف مساحته ، بينما يتقارب الاثنان سكانا بدرجة أو أخرى .

وإلى جانب هذا فإن نمط الكثافة وتوزيع السكان في مصر يجعل من القاهرة قمة طبيعية، تتويجا لزحف سكاني صاعد منظم ، يبدأ من أقصى شمال الدلتا وأقصى جنوب الصعيد على السواء.

وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا إن تاريخ مصر ليس إلا تاريخ العاصمة أو يكاد .

مآسي الانتقال

ومع هيمنة القاهرة هذه ، وما صاحبها من ظواهر اجتماعية مشوشة ، من بينها البؤس البائس ، ومحاولة الخلاص منه بكل الوسائل سواء أكانت مشروعة أو ممنوعة تتعرض العلاقات الإنسانية لتشوهات ، تتسبب عنها مآس في أغلب الأحوال .

وعلى رأس التشوهات الخلل الناجم عن محاولة الانتقال من وسط اجتماعي أدنى إلى وسط آخر ارفع مقاما .

وسينما «أبو سيف» فيما عدا بضعة أفلام تعد على أصابع اليد الواحدة ، تتمحور حول ذلك الخلل وعواقبه






معتزة صلاح عبد الصبور

من القبح ومن الشراسة التى تجعل للانتظار وللأمل معنى أكثر حدة ، وهو ما يتأكد خلال التباين الواضح بين الجماليات الإخراجية للعرض (فى الإضاءة والديكور وحركة الممثلين والإيقاع الحالم العام للعرض) وبين الحيز المكانى الذى يجرى فيه وما له من مدلول اجتماعى يؤثر على الحالة العامة كما يؤثر على حالة المسرح نفسه ، إن الرؤية الإخراجية المرهفة والمتناسبة تماما مع شاعرية حلم عبد الصبور وجمال نصه الشعرى ، تجعل عيوننا تتفسل من قبح العالم الخارجى ، تجعلنا نتواصل مع شاعرية هذا الأب (صلاح عبد الصبور) الذى تتشبث ابنته معنا بالطموح النبيل لتطهير العالم ، فهكذا ندرك موقعنا الآن من تلك الأميرة التى مازالت تنتظر، والتى تحثنا بدورها على الانتظار بما يحقق الأمل.

• نورا أمين

شعر

اللهم لا شماتة !!

يشكو أصحاب حركة الشعر الحر ونقاده من الفوضى والتسيب السائدين فى الساحة الآن، ويتهمون أصحاب الحداثة، وما يسمى بقصيدة النثر بتهم بشعة ، ويرد لهم الفريق الأخير التهمة بأسوأ منها، وكلما دخلت أمة لعنت أختها !!

وقد أفردت مجلة «إبداع» ملفا كاملا، كان بلاغ قول بعضهم فيه عن قصيدة النثر : إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل !!، واحتشد الملف بمقالات مهاجمة من الشعراء والنقاد



أحمد عبد المعطى حجازى

المناصرين للشعر الحر ، مثل كلمات عبد المعطي حجازى وعبد القادر القط وكمال نشأت وعلى عشرى في مارس ١٩٩٦ كما أفردت مجلة «المنتدى» بالإمارات ملفا كاملا أيضا لهذه القضية بأقلام . نزار قباني ومحمود درويش وبلند الحيدرى ، وحجازى ، ودنقل وجبرا إبراهيم ، وزكريا تامر وآخرين ، نعتوا الحداثة بأفظع النعوت، ورأوها ميلادا خارج الرحم، ورأوا فيها تفاهة وركاكة ، وتكرارا متشابها ، ونلمح أن درويش يطعن حركة الشعر الحر من بدايتها ، مع أنه أحد سدنتها ، ورآها لاتئول إلى نظام أو قاعدة بعد خمسين سنة ويرى الحداثيون في سابقيهم - من هذه الأسماء وغيرها - جمودا ورجعية وجاهلية وحضرات القراء حائرون ، منصرفون عن الشعر والنقد المصاحب للحركة، لأنهم أحصف ولأن النقد غامض غموض ما يقرأونه من شعر ، ومن ثم فقدوا حماستهم وإيمانهم.

شكوى شعراء الشعر الحر ونقاده في موضعها الصحيح ، لولا أنها متأخرة عن أدائها بخمسين سنة، ولأن أصحابها يدافعون عن وجودهم الذى تعرض لنكران غير متوقعيه ، وكانوا يتصورون مباركة الجيل اللاحق لهم، ومبايعته بإمامتهم، وأعاد التاريخ نفسه، حين كانوا يهاجمون أصحاب الكلام الموزون المقفى هجوما ظالما، والقياس مع الفارق ، فهم يشربون من الكأس نفسها !!

لانعتقد أن الشكوى - مع صحتها - مفضية إلى شيء لإفلات الزمام ولن يقبض عليه من أفلتوه، تراخيا وعجزا ،

ورضا بالواقع المستخذى والفن نظام ، والنقد مراجعة، ولا نظام ولا مراجعة فى الشعر الحر ولا فى نقده، وإلا ما كان هذا هو الحال ، لقد غدا النثر شعرا ، تنشره الصحف والمجلات ويتقدم نووه لجوائز الدولة ومسابقاتها، وغدا لدينا الآن قصيدة نثر بالفصحى والعامية ، وأصبحت الموسيقى لا وجود لها، أو عدت نشازا !!


محمود درويش


بلند الحيدرى

المسألة أخطر من الشكوى ، فالخذلان يسيطر بغاشيته على النفوس، والخشية من الاتهام بالتخلف قاعدة مطردة ، والتسيب الإبداعي والنقدي ديدن الناس الآن، والعجز عن البيان قمة البيان ، والغموض المرذول هو الوضوح الجيد، واللهم لاشماتة في شعراء الشعر الحر ونقاده ، وهم سبب الشكاية وأصحابها، لاشماتة - وإن كانت في محلها - لأن الأمر متعلق بشعر هذه الأمة، ولسانها المبين ، لكن تبقى الشكوى صيحة تنبه الجادين والعقلاء أن يمسكوا بالزمام فلا يطيش ، ولن يكون الشاكون وحدهم لأن كل هذه الحركات تفضى بلا ريب إلى الشعر الذى ينسب صحيحا إلى هذه الأمة، وهو الكلام الموزون المقفى ، وقد عجل الشاكون والمشكوون بهذه النهاية الصحيحة واللهم لاشماتة !!

● د.عبد اللطيف عبد الحليم - أبو همام

ندوة التراث العلمى العربى



الدكتور جابر عصفور ود. فؤاد زكريا ومحمود أمين العالم ود. الجبار فى الافتتاح

نبيل فرج

عقد المجلس الأعلى للثقافة ، فى إطار الاحتفالات باختيار القاهرة عاصمة ثقافية اقليمية لمنطقة العالم العربى هذا العام ، ندوة مهمة عن التراث العلمى العربى من ٢٢ إلى ٢٤ يونيه الماضى .

وتجيىء هذه الندوة العلمية وسط أو في ختام نشاط متصل ، يبدأ في سبتمبر ، وتتردد أرجاعه في الحياة الثقافية بدرجة أصبح بها المجلس الأعلي للثقافة بالفعل - كما قال محمود أمين العالم مقرر الندوة - بيتا للثقافة والمثقفين .

وهذا ليس بالشيء اليسير، في وقت تعاني فيه الحركة الثقافية من تضارب فادح، ومن تغلب لغة التجارة علي كل اللغات

ويشير محمود أمين العالم فى كلمته إلى أن هذا اللقاء العلمى، فى مضمونه وغايته ، لا يبعد عن اللقاء السياسى فى مؤتمر القمة العربى، الذى عقد فى الوقت نفسه فى العاصمة المصرية، مؤكدا ان وعينا العلمى المتفتح بحقائق حياتنا، يعد وسيلتنا لمعالجة شئوننا المعاصرة، ولعله يعنى مشاكلنا المتفاقمة.

وعلى الرغم من أن الفلاسفة العرب جمعوا بين الفلسفة والعلم، فإن دراسة الفلاسفة العرب، فى ملاحظة محمود أمين العالم، تتم معزولة عن إنتاجهم العلمى، مع أن الانجازات العلمية سارت مع أبنيتهم الفلسفية، فى ارتباط وثيق مع السياق الاجتماعى، متسماً بالتجريبية والاستقراء والعناية بالجانب الكمى، بخلاف ما اتسم به التراث اليونانى من طابع استدلالى كيفى.

● خطة قومية لنشر التراث

وحتى لا تمضى الندوة بلا أثر تأسيسى ، دعا محمود أمين العالم، فى نهاية كلمته، إلى وضع خطة قومية واحدة لنشر التراث العلمى العربى المخطوط، الذى لم ينشر منه إلا أقل القليل، وطالب بأن تغدو دراسة تاريخ العلوم مادة فى الكليات الإنسانية، لأنسنة الدراسات العلمية، على غرار علمنة الدراسات الإنسانية. كما دعا إلى انشاء معهد للتراث العلمى العربى فى مصر.

وبعد كلمة العالم تحدث الدكتور فؤاد زكريا، مقرر لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، فنوه بالبعد الفلسفى الذى تتحرك فيه الندوة، لأنه يمكنها من تجاوز الصيغ التقليدية للندوات المماثلة عن التراث العلمى العربى، التى يقصر همها على عقد المقارنات بين التراث العلمى العربى والتراث العلمى الغربى، وبيان أسبقية العرب لأوربا، أو تخطيهم لليونان. ولا معنى لهذه المقارنة، عند فؤاد زكريا، سوى جعل أوربا، قديما وحديثا، هى المعيار أو النموذج أو المثال الوحيد الذى يحدد القيمة .

● العرب والتراث الإنسانى

ويشير الدكتور فؤاد زكريا بذلك ، قضية منهجية فى تناول التراث العلمى العربى، فى علاقته الوطيدة بالمجتمع العربى، بعيدا عن هذه المقارنات العقيمة، التى تقف بالأبحاث عند حدود ما أخذ الغرب عن العرب، لا ما ابتكر العرب وأضافوه إلى التراث الإنسانى.

ويعتبر الدكتور فؤاد زكريا أن السؤال الخاص بانفصال العلم العربى عن الحياة العربية سؤال جوهرى، له بعده الفلسفى الذى تجيب عنه الندوة، باعتبار العلم العربى مكونا أساسيا من مكونات التراث والحياة.

وألقى المفكر الجزائرى أحمد جبار كلمة العلماء المدعوين من الخارج، وتتلخص في الدعوة الصريحة للاطلاع النقدي على التراث العلمى العربى، واتخاذ هذا الاطلاع أداة للتثقيف والتعليم.

● غياب الثقافة العلمية

أما الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس، الذى يقف وراء هذا النشاط، فقد التفت فى كلمته إلى غياب الثقافة العلمية فى تاريخنا الثقافى، موضحا أن الندوة لا تستهدف استرجاع الماضى لمواجهة المستقبل، أو التأسى به عن هوان الحاضر، وإنما تهدف إلى النظر إلى انجازات الماضي بوصفها مرحلة من مراحل تاريخ العلم، الذى يتقدم فى أيامنا المعاصرة تقدما مذهلا، وعلينا بالطبع أن نفيد منه فى اقامة أبنيتنا الجديدة.

ويلخص جابر عصفور المعانى المختلفة التى تمثلها الندوة بالنسبة للتراث العلمى، وإزاء الثقافة العربية التى درجت على أن تتحدث عن نفسها بمعزل عن العلم، ومن هنا تسعى الندوة إلى تصحيح هذا المفهوم المغلوط للثقافة، الذى باعد - بغير حق - بين الثقافة الأدبية والثقافة العلمية، وبالتالى بين ثقافة الأدباء وثقافة العلماء، وجعل الثقافة الأدبية تستأثر بكل شىء، وتزدرى ما وراءها!

ولو كان سؤال العلم مطروحا، مثل أسئلة الأدب واللغة والفقه .. لكان بامكانه أن يجيب على كثير من الأسئلة المعلقة عن هذا التراث، بحكم التأثيرات المتبادلة بين التيارات الفكرية والانجازات العلمية.

وهناك، أيضا، البعد القومى للندوة، ممثلا فى هؤلاء المتخصصين وفلسفة العلوم، الذين ينتمون إلى الأقطار العربية، وتقوية الصلات بينها، خاصة بين المشرق والمغرب، وهو ما يحققه التراث العربى بوجه عام، والتراث العلمى بوجه خاص، الذى يلتقى فيه البعد الفكرى بالبعد القومى.

● خطة قومية واحدة لنشر المخطوطات العلمية

ويرد الدكتور جابر عصفور ضعف العلم العربى إلى سيطرة النقل على العقل، وهو ما يعوق كل تقدم، وتسلط روح التقليد والتعصب على روح التسامح وضياء المعرفة.

● أصالة التراث العلمى

وعلى مدى ثلاثة أيام، تناولت الندوة عبر عشر جلسات، من الصباح إلى المساء، العلوم الطبيعية عند ابن سينا، وجابر بن حيان، والبيرونى. وتوقفت عند أسماء ووقائع وأحداث مجهولة تذكر فى

الندوة للمرة الأولى، بما يفصح عن أصالة التراث العلمى العربى، وجهلنا بالكثير منه.

ومن الموضوعات المهمة التى تناولتها الندوة تاريخ الزلازل، والأصول الفلسفية لتطور الطبيعة فى التراث العربى، وعلم الطب عند الفيلسوف ابن النفيس، وعند القوصونى رئيس أطباء مصر فى القرن الحادى عشر، الذى لم ينشر من مؤلفاته صفحة واحدة، وما يتصل بالطب من صناعة الأدوية، ومهنة الصيدلة.

وتناولت الندوة أيضا العلوم الرياضية، ومظاهر نشاطها فى كل من مصر، والأندلس، والمغرب، وبعض البلاد الإسلامية، واسهامات الرياضة السكندرية، وابن الهيثم وكتاب «ميزان الحكمة» للخازنى من النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى وفيه يجمع هذا العالم بين الهندسة والفيزياء، ويطرح نظرية الثقل ومقاييس الثقل النوعى.

وخصصت الندوة محورا عن المنهج العلمى، عرضت فيه مفارقة التجريد والتجريب فى الفكر العلمى العربى، وتأريخ الغرب لعلومهم، والنهضة العلمية العربية.

● منهج جديد

واختتمت الندوة بحوار عام، لا يقل أهمية عن الندوة، دار حول البحث عن منهج جديد فى دراسة تاريخ العلم العربى، ينبغى أن يكون تكامليا، وحول مصر والتراث العلمى العربى، والمخطوطات العلمية العربية فى العالم.

ولابد أن أنوه، هنا، بأن أبحاث الندوة لم تقتصر على التراث العلمى العربى من خارجه، كما كانت دراسات الباحثين السابقين، وإنما درست نصوصها من داخلها، وفى صلتها بالأحداث الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية المعاصرة، التى انبثقت هذه المؤلفات العلمية تحت تأثيرها

○ التجريد والتجريب فى الفكر العلمى العربى

ولم يفت الندوة أن تشيد بالجهود الرائدة في هذا المجال، التي قام بها باحثون في مصر، نذكر منهم مصطفي مشرفة، ومصطفي نظيف، ومحمد مرسي أحمد. وأضيف إليهم علي سامي النشار.

إن النسق الجامع الذى قدمته الندوة فى دلالتها الكلية، أو، على الأقل، دعت إليه، لكى يحتل التراث العلمى العربى مكانه الجدير به فى تاريخنا الحضارى، يعد قفزة طيبة ذات خطر، أهم جوانبها بلا شك التحولات النوعية المتبادلة التى تنطوى عليها هذه الدلالة، وتعد بها، إذا استكملت شروطها المعرفية النابعة من التراث والحياة المعاصرة.

وأخيرا .. تحقق حلم الستينيات !

أنس الوجود

أول أوبرا مصرية متكاملة
فى ميزان النقد

بقلم : كـــريمان حـــرك

الأوبرا ، فن أوربي له أصوله الفنية الراسخة ، وقد قدمت أعمال فنية من هذا الفن في مصر منذ فترة مبكرة من القرن الماضي، أشهرها اوبرا عايدة التي وضع ألحانها الموسيقار فيردي لتقدم في احتفالات افتتاح قناة السويس ، ومازالت تقدم حتي اليوم كأبرز الاوبرات العالمية.

والاوبرا عمل مسرحي غنائي متكامل يعتمد علي الموسيقي والغناء ويؤدي الحوار بالغناء (بطبقاته ومجموعاته المختلفة) .

وتشمل الاوبرا الشعر والموسيقى والغناء والباليه والديكور والفنون التشكيلية والتمثيل الصامت مع المزج بينها، كما تتضمن الاغانى الفردية والثنائيات والثلاثيات والالقاء المنغم (ريستاتيف) بالاضافة للغناء الجماعى «الكورال» بمصاحبة الاوركسترا الكامل.

وقد بدأ رواد الموسيقى والغناء فى مصر فى العشرينيات من هذا القرن محاولات جادة لتقريب هذا اللون للجمهور، فقدموا روايات مسرحية تتخللها الاغانى الفردية والجماعية لكن بأسلوب مبسط يعتمد على اللحن الواحد، بحيث اقتصر الجانب الدرامى فيها على الرواية والتمثيل، ومن هذه المحاولات التى ظلت حبيسة النوت الموسيقية ولم تر النور اوبرا «مصرع انطونيو» للرائد الموسيقى حسن خورشيد (١٨٩٦ ـ ١٩٦٩) واوبرا «عنترة» «لعزيز الشوان» . واوبرا «حسن البصرى» للمؤلف «كامل الرمالى» التى عرضت



عزيز الشوان

أخيرا على شكل «كونسير».

ازدهار الستينيات

و«انس الوجود» من علامات ازدهار الستينيات حين تولى د. ثروت عكاشة وزارة الثقافة وبدأ في ارساء دعائم الفنون الرفيعة في مصر مع الحرص على البحث في جذورنا الشعبية. وجاء بناء اكاديمية الفنون بمعاهدها المختلفة، وبدأ في ايفاد ابنائها الى الخارج لدراسة التأليف والقيادة والعزف وكان من بينهم عزيز الشوان الذى درس على يد الموسيقار الارمني الكبير ارام خاتشودريان (١٩٠٣ ـ ١٩٧٨) ـ ولأول مرة تم انتاج الاوبرات العالمية بعناصر مصرية ثم تبع ذلك التفكير في تقديم ابداعات لهذا الفن تحمل هويتنا .. وتحمس الشوان والشاعر سلامة العباسى وعكفا لمدة ثلاث سنوات على ابداع اوبرا (انس الوجود) في اطار عالمي وبمضمون مصرى ناطق باللغة العربية الفصحى وتم انجازها في اواخر الستينيات وحالت ظروف كثيرة دون تقديمها ثم شاءت الاقدار ان ترى النور في التسعينيات بعد ان رحل المبدعان الشوان والعباسى عن دنيانا.

● عزيز الشوان

وعزيز الشوان (١٩١٦ ـ ١٩٩٣) من ابرز رجال النهضة في مجال الموسيقى، له انتاج غزير كثير منه تم عزفه بواسطة اوركسترات عالمية منه كونشرتو البيانو ولوحات سيمفونية بعنوان «ابو سمبل» ومقطوعة «عطشان يا صبايا» وسيمفونية «عمان» وموسيقى «باليه ايزيس واوزوريس» وكنتاتا (القسم) و«ارفعي رأسك يا افريقيا» وغيرها (والمستمع لهذه الاعمال يتضح له ان الشوان كان يكتب موسيقاه على نهج المدرسة الرومانسية المتأخرة التى تتميز بالكثافة الهارمونية والحرص على الميلوديات (الالحان) واتباع القواعد التقليدية في البناء والهارموني ويمكن القول ان موسيقاه تونالية وتنزع الى بعض اللمحات المقامية كما انه كان يطعم مؤلفاته ببعض التنافرات البسيطة كما تميزت معظم اعماله بلمحات مصرية وعربية تبدو واضحة في ألحانه الجميلة واستعماله للالات والمقامات الشرقية الخالية من ارباع النغمات مما يؤكد ان التأليف الموسيقى بالنسبة له كان هدفا قوميا حضاريا بهدف تطوير الموسيقى العربية

● حكاية أنس الوجود

«وانس الوجود» هي القصة الوحيدة من الف ليلة وليلة التى تدور احداثها في في مصر فقد صاغها سلامة العباسى بالشعر الحديث واخرجها المخرج الفرنسى ميشيل جياس وصمم الديكور آلان روسيل وقام بالبطولة طاقمان من نجوم فرقة الاوبرا المصرية وشارك في الاداء كورال الاوبرا بقيادة الدو دومانياتو وفرقة باليه أوبرا القاهرة التى ادت رقصات من تصميم د عبدالمنعم كامل وبوريس ستورشكوف .

وقاد كل هذا الحشد المايسترو يوسف السيسى الذى يحسب له تحمله بشجاعة

مسئولية تقديم عمل فنى لاول مرة فى غياب مؤلفه وقد نجح تماما فى تفسير فكر الشوان الموسيقى واستطاع ان يقدم عملا موسيقيا متكاملا بروح مصرية صميمة.

والاوبرا تحكى قصة حب بين ابنة الوزير ورد الاكمام والجندى الشاعر (انس الوجود) ولكن اباها يرفض هذا الحب لان السلطان طلب يدها وينفيها الى جزيرة «فيلة» المليئة بالتماسيح والتى ينجح حبيبها فى الوصول اليها ليحلها من وعدها بالزواج منه وترفض ثم يصل ابوها والسلطان الذى يتعاطف مع حبهما ويقر زواجهما وأهداهما الجزيرة.

الصياغة الموسيقية

التناول الموسيقى لهذا العمل الذى شاهدناه على المسرح الكبير لدار الاوبرا المصرية يبدو ان عزيز الشوان قد صاغه وفق فلسفة خاصة يؤمن بها تتلخص فى ان تصل موسيقاه الى الأذن ووجدان الشعب العربى الذى يعشق الغناء واللحن الواحد والذى لم تواته الفرصة الكافية لتذوق فنون الموسيقى المتطورة القائمة على تعدد الأصوات وتركيب الالحان حيث نجد ان (انس الوجود) قامت صياغتها على بساطة متعمدة فى المعالجة الهارمونية والكونترابنطية مع تلوين اوركسترالى واضح ومحدد بهدف اتاحة مساحات كبيرة للأصوات المنفردة وابراز الكلمات العربية.

ومن منطلق هذه الفلسفة ايضا جاءت معالجته للأصوات البشرية ذات اسلوب اختلف الى حد ما عن الاوبرات التقليدية العالمية حيث تجنب تماما النغمات الحادة (النوت العالية) ولهذا اسند دور البطل «انس الوجود» لطبقة الباريتون والبطولة النسائية للميتزوسوبرانو، والادوار الثانوية للباص والالتو .. وقد وفق تماما فى ذلك ولذلك جاء النطق السليم للكلمات وجمال الصوت وحسن الاداء فى كل الشخصيات التى بدت طبقة صوتها لتتناسب مع ما رآه الشوان من هؤلاء النجوم بالتبادل عبد الوهاب السيد وحسام مصطفى وجيهان فايد التى قامت بدور ايزيس ويوسف الصباغ الذى قام بدور الاب ورضا الوكيل الذى ادى دور السلطان اما باقى اعضاء العرض فنجد ان الادوار اسندت الى طبقات لا تتناسب مع ما رغب الشوان من هؤلاء السوبرانو هالة الشابورى التى كتب دورها لطبقة «الالتو» وايضا دور الخادمة سعادة الذى أدته السوبرانو الشيماء سيف الدين ونلتمس عذرا لذلك بسبب أنه لدينا عجزا في هذه الطبقات كما ان من الصعب ان نستعين ببدائل من المغنين الاجانب والنص باللغة العربية الفصحى.

وبخلاف معالجة الشوان للأصوات البشرية نجد ان الاوبرا حفلت بكل العناصر والجماليات الموسيقية للاوبرات العالمية حيث بدأت بافتتاحية موسيقية تعتمد على لحنين اساسيين وهما من الالحان التى تتردد داخل الاوبرا، اللحن

الاول هادىء يعبر عن قصة الحب الرقيقة اما اللحن الثاني فهو ذاته لحن الاغنية «يا خالق الارض الفسيحة» التي يؤديها انس الوجود في الفصل الاول وهو اللحن الذى نسمعه مرة ثانية في ختام الاوبرا.

ولكن المخرج افسد هذه الافتتاحية حين فتح الستار اثناء اداء الاوركسترا لها مما جعل المشاهد مشتتا لم تتح له الفرصة الكافية للتعرف على الافكار الموسيقية داخل العمل والتى من اجلها تقام الافتتاحية.

وتتألف الاوبرا من ٣ فصول و ٨ مشاهد ويتخلل الفصل الاول انترتزو اوركسترالى بين المشهدين الاول والثانى اما الفصل الثانى فيتكون من ثلاثة مشاهد يتضمن الثانى منها بعض رقصات الباليه وكذلك الفصل الثالث حيث يتضمن مشهدين للباليه.

نقطة البداية

تميزت (انس الوجود) بسمات موسيقية خاصة تجعلها تستحق ان تكون نقطة البداية الحقيقية للتطور فى هذا المجال ومن اهم هذه السمات:

استخدام نماذج لحنية جميلة صاحبت الغناء المنفرد تختلف عن لحن الاغنية التى يتم اداؤها بالصوت البشرى مما يعطى تلوينا وعمقا موسيقيا كما حدث فى اغنية ورد الاكمام فى الفصل الثانى .

تضمنت الاوبرا بعض الالحان الغنائية المركبة منها الثنائية والثلاثية ، كان من اجملها اغنية الفصل الثانى بين الوزير وابنته ورد الاكمام والام حيث ادى كل منهم اشعارا وألحانا مختلفة وصاحبهم لحن رابع من الاوكسترا.

فى غناء المجموعة (الكورال) يتجلى اسلوب البساطة عكس اعماله الكورالية السابقة.

الموسيقى التعبيرية

لكن من اكثر ميزات هذا العمل ان الموسيقى قامت بدور درامى مهم وعبرت بشكل كبير عن الاحداث الدرامية بل عالجت عيوب النص الادبى منها الشخصيات المحدودة والثانوية.

ملاحظات

ويلاحظ فى موسيقى العمل بشكل عام ان المؤلف لديه مقدرة فائقة على الاستفادة من افكاره الموسيقية وتنميتها وتناولها فى اشكال متنوعة مثلا فى رقصات الفتيات الثلاث جاءت على ميزان رباعى استخدم فيها ايقاع الرق والدفوف فوق خشبة المسرح.

وبمتابعة اعمال الشوان السابقة يلاحظ ان هناك شذرات لحنية مختلفة فى ثنايا هذا العمل من موسيقى باليه ايزيس واوزوريس خاصة فى بعض رقصات الباليه.

كما يلاحظ ان عزيز الشوان يمتلك ناصية الهارمونى والاساليب البوليفونية

فى تناول الالحان سواء فى المجاميع المختلفة او المصاحبة الاوركسترالية.

● الاخراج المسرحى

لعب الاخراج وتصميم الديكور والملابس دورا مهما في هذا العمل خاصة ان المخرج الفرنسى ميشيل جياس كانت له رؤيته الخاصة فى تناول النص حين ابتكر شخصية جديدة فى العمل وألبسها ملابس الآلهة المصرية ايزيس وهى عبارة عن تجميع لادوار ثانوية فى النص الاصلى وهى العرافة وفتاة المعبد وبعض عبارات للخادمة جمعها فى هذا الدور حيث تظهر فى مشهدين بالفصل الاول والاخير واضاف ليحدث الترابط بين الشخصية اعادة لاغنية العرافة فى الفصل الاخير واعتقد ان هذا لم يتم الا بالاتفاق مع القائد الموسيقى للعمل المايسترو السيسى وعموما قد وفق فى هذا واعطى فرصة لاعطاء مساحة كبيرة لهذا الدور وبالتالى اسناده لمغنية جيدة مثل جيهان فايد التى كانت احسن الاصوات النسائية فى العمل على الاطلاق ايضا اضاف المخرج مشهد التماسيح الذى جاء التعبير عنه موسيقيا فقط وجعله فى شكل صراع مما اعطى حياة للحركة المسرحية واضاف ابهارا للعرض . اما الديكور والازياء فاجتهد الان روسيل فى التعبير عن الفترة الزمنية التى كان قد حددها النص للاحداث وهى بداية الفتح العربى ولهذا نجد الديكور والازياء يجمعان بين العربية والازياء المصرية القديمة ورغم حرصه وبحثه فى هذا المجال فإن النظرة الغربية غلبت على كثير من تصميماته ووقع فى اخطاء تاريخية شائعة مثل غطاء الرأس الذى لا يرتديه الا الملوك فاذا به يرتديه الراقصون فى المعبد، ايضا لم يوفق فى اختيار فتيات المعبد حيث جعلهم على هيئة توت عنخ امون ذوى بشرة سمراء وهذا اللون بالنسبة للتمثال له مغزى دينى رمزى ليست له علاقة بهذه الرواية جذب ولكن على الرغم من كل هذا فإن المخرج ومصمم الديكور قدما تصورا جميلا للاحداث واستفادا الى حد كبير من الدراما الموسيقية فى العمل ـ كما جاءت رقصات البالية ضمن نسيج العمل بشكل جذاب.

وأخيرا.. لقد اراد الشوان ان يقرب هذا العمل الاوبرالى للمستمع العربى وقد نجح فى هذا فنال العرض استحسانا جماهيريا كبيرا حيث شاهده فى اربعة ايام حوالى ٤ آلاف متفرج وحقق ايرادات تصل الى ٤٠ الف جنيه تقريبا وهذه ارقام خيالية بالنسبة للعروض المصرية فى الاوبرا.

واليوم فان تقديم اوبرا «انس الوجود» بالقاهرة يعد من اهم الاحداث الموسيقية لهذا الموسم ومن اهم الانجازات الثقافية التى تحسب لدار الاوبرا المصرية منذ اعادة افتتاحها عام ١٩٨٨ وحتى الآن.

كانت أمي منبع الفن والفلكلور

محمد الشريعي

●● ولدت يوم ١٦ أبريل سنة ١٩٤٨ فى أسرة «مفتكسة» من عائلات قبلى.. وقضيت خمس سنوات بعد مولدى هناك فى «سمالوط» على بعد ٢٥ كيلومترا من المنيا.. كانت عائلتى ينطبق عليها «الصيت ولا الغنى».. تمتلك أرضا وحالتنا تسير بشكل جيد، لم نكن أغنياء جدا ●●

● عرق الأم

هذا النوع من الأسر يورث أشياء كثيرة.. أهمها النظرة للفن، نظرة متلق غير مشارك، تستمع للغناء : أهلاً وسهلاً.. ولكن من العيب أن تمارس الغناء أو الموسيقى.

«عرق» أمى بشكل عام كان نواقاً وعنده إحساس رفيع بالغناء.. ولكن لايحدث فيه غناء جماعى.. كانت أمى تغنى على استحياء.. وكانت مخزنا عبقريا للفلكلور المصرى.. تحفظ التحنين والعديد وأغانى الفرح.. وزارة



عمار الشريعي

ثقافة فلكلور متنقلة.. وتمتلك سرعة استدعاء مذهلة.

قبل أسبوع من وفاتها دخلت عليها المستشفى فاستقبلتنى بأغنية «ردى يابنت أخت البيه» والتى لحنتها فى مسلسل «هو وهى».. وهذه الأغنية جعلتها تستدعى أغنية «البيه أبوها قال لها ماتخطى».. لقد عشت عمرى كله معها ولم أسمع منها هذه الاغنية التى جاءت «كده» قبل رحيلها بأسبوع.. وبسبب أغنية «يابنت أخت البيه».

أمى هى التى علمت منذ وقت مبكر أن هذا «الولد» المدعو عمار الشريعى يحب «المزيكا»..

وكانت تحكى لى عن بكائى عندما كانت تغنى «عدودة».. وعن سعادتى كلما غنت أغنية فرح.

لم أتذكر البكاء ولا الفرح.. ولكنى أذكر جلساتى فى حجرها .. و«الايقاع» على ظهرى.

خالى وحب الغناء

أما خالى «حسن الشريعى» فكان عذب الصوت وله أذن موسيقية.. ويحفظ أغنيات كثيرة، وعندما كان «يدندن» مع نفسه.. يغنى «ياسلام»، لحن: عبدالعظيم عبدالحق .. وكانت اختياراته خاصة جداً.. يحب اثنين حبا شديداً هما عبدالعظيم عبدالحق ورءوف ذهنى.. وكان الثانى صديقه.. وكثيرا ماكان يذهب إليه وهو فى حالة تلحين أو عندما كان يقوم بتسجيل لحن من ألحانه.. وأظن انه «انضرب علقة» بسبب رءوف ذهنى فى يوم من الأيام.

أذكر انه بعد موت والده «شم نفسه».. وبدأ يتحدث ويقول بصوت عال:

– كنت مع رءوف وحضرنا تسجيل «سنتين وأنا احايل فيك» ويحكى عن صولو الناى.. وعن الرق..

ولا أنسى يوم جاء يحكى عن حضوره تسجيل لحن كمال الطويل «سمراء».. (كان عمرى سبع سنوات).. وكيف كنت أستعيده وألح على معرفة التفاصيل، كانت هذه الموضوعات مثيرة جداً لى.. «أموت» وأعرف ماذا يفعلون!

وعندما رفضت عائلتى كلها عملى فى الموسيقى كان خالى هو الشخص الوحيد الموافق تماماً.. وجاء لى من وراء ظهرهم.. وقال لى:

– استمر.. استمر ودعك منهم.. سيعرفون قيمتك فيما بعد.. وكان جميلا وابن نكتة..

الحلب

أتذكر «الحلب» عندما كانوا يفدون الى مولد سيدى عبدالملك (بكسر الميم) بجوار بلدتنا، وكانوا من الغجر الذين يأتى معظمهم من الصعيد. أذكر «صباح» و«عمى فتحى».. وكانا من



«أبى نشت» وأذكر «نعيمة» وأغنيتها المحفورة فى ذاكرتى حتى الآن:

«ياحكام بلدنا اعملوا معروف
يا بشوات بلدنا اعملوا معروف
شرب الحشيش أكبر لذة
لا تقوللى ويسكى ولا مذة
لو يسمحوا لى أفتح غرزة
.. يا حكام بلدنا!!

كانت تغنى مثل هذه الاغنيات فى الميكروفونات لا أعرف كيف.. ولكن لم

يكن هناك اعتراض من أحد..

كنت أنتظر المولد الذى كان متنفساً لى.. تفتحت حواسى على «التياترو» ومن خلاله.. ولأننى ابن العمدة كنت أجلس بجوار المسرح مباشرة (وحتى الآن أحب الجلوس فى أقرب مكان الى خشبة المسرح).. وأعتقد أن هذا نتيجة لتربية الغجر لى.. ولا يضر أن ألعب مزيكا مع «عمى فتحى» الذى كان يحبنى هو ومن معه.

ولا أنسى «العلقة» التى أخذتها بسبب غنائى معهم، بعد أن حملت الى أمى التى ضربتنى بالخيزرانة والشبشب!

● المشايخ

ثم يأتى دور المشايخ الأربعة (كمال.. ومحمد أبواسماعيل، ومحمد عبدالقادر، ومحمد ابو صبرا) فى تكوينى.

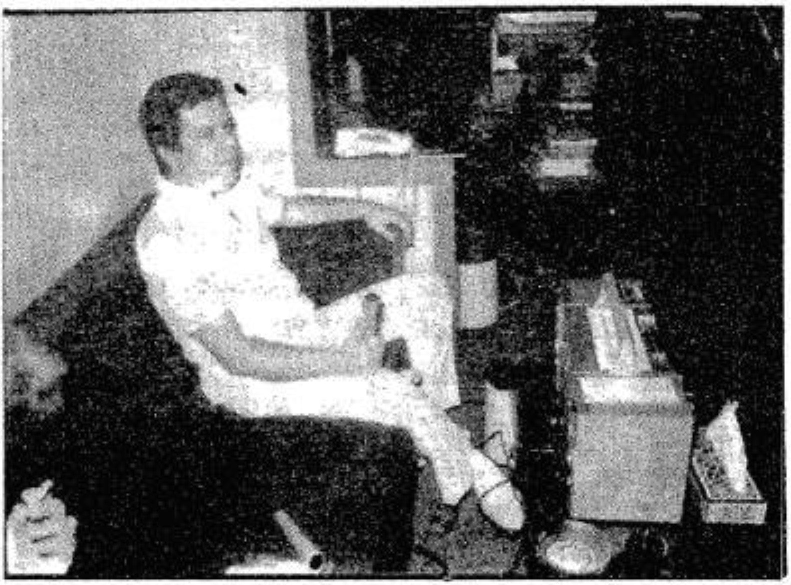
الأول كان شيخ موالد.. يقدم التواشيح.. يأتون به فى «ليلة لله» فى طهور، فى نجاح، وكان شاطراً فى «الحضرات»، يتوسطها، ويضبط إيقاعها.. له صوت جهورى.. ورغم محدودية موهبته فإن مقاماته كانت سليمة.

أما الشيخ محمد ابو اسماعيل فكان قارئا جميلاً، هادئا وموهوبا موسيقيا.

الشيخ محمد عبدالقادر كان يمتلك صوتا مليئا بالحنين، قويا وجميلا.. لحقت به ـ غالبا – وهو بدون أسنان.. لأن حروفاً كثيرة لديه كانت متآكلة، وبالرغم من ذلك أعتقد أن هذا هو الذى أكسبه جلالا، فلا أذكر اننى ضحكت عليه.. لم أسمعه من خلال «ميكروفون»، كان يصعد – فقط – مئذنة الجامع ويؤذن للصلوات الخمس.. ويقول «تواحيش» فى شهر رمضان مثل «لا أوحش الله منك ياشهر الصيام» ويقول أدعية لمدة ثلث الساعة قبل أذان الفجر كل يوم.

لم تكن له علاقة بالموسيقى.. ولكنه كان «يصطاد» المقام الموسيقى ويأتى عليه «يجيب داغه»..

لو قال فى مقام «حجاز» يستمر فيه ولا يذهب الى غيره.. ولكن يظل لمدة ثلث الساعة فى «الحجاز» ويأتى فيه



لحظة تأمل للفنان عمار الشريعي

بأفكار جديدة.

لم يكن صوته عريضا.. ولكنه من نوعية صوت الشيخ محمد رفعت، الذى يأخذك صوته فى حضنه.. صوت «يطبطب» عليك وأنت تسمعه..

وهذا الشيخ لم أسمعه وجها لوجه.. دائما كان يأتى صوته من أعلى، حاملا قدرا كبيرا من القداسة والجلال.

أما استاذى وأقربهم الى قلبى فكان الشيخ محمد أبوصبرا.. ولأنه لم يكن هناك تعليم للمكفوفين.. وكان الأزهر هو الطريق الذى مهد أهلى له لكى أكون طه حسين.. كان دور الشيخ فى حياتى هو تحفيظى القرآن.. ولكن الحصص تحولت - دون أن ندرى - الى موسيقى.

لم يكن «مزيكاتى» كبيراً.. ولكنه كان يحفظ الكثير من التواشيح .. ولكن ارتجالاته أضعف من الشيخ محمد أبو اسماعيل والشيخ عبدالقادر.. ولكنه كان يتميز برحابة الصدر.. نترك حصة القرآن ونجلس لنقول «أضاء النور»

التكوين

وأجلس «مذهبجى» أردد وراءه.. ومرات أجلس مكانه!

لا أستطيع أن أقول إنه يطاول الشيخ عبدالقادر ولا الشيخ اسماعيل كقامة موسيقية.. ولكنه كان الأقرب الى قلبى.

● الراديــو

العنصر الرئيسى فى تكوينى كان الراديو، لا أتحرك من جواره.. ويكون يوما أغبر يوم «توابع» المكواة.. وخصوصا يوم الجمعة.. لأن ذلك يعنى أننى لن أستمع الى «بابا شارو».. ولكنى كنت أصر على إطفاء المكواة حتى ينتهى.. وكذلك اذا كان الشيخ مصطفى اسماعيل أو الشيخ الشعشاعى يرتل القرآن فى صلاة الجمعة.

عرفنى الراديو على محمد عبدالوهاب.. أحببته وارتبطت به.. لا أعرف لماذا؟ وكان رباطا شخصيا قويا، وكان يسيطر على سيطرة كاملة.

بسبب عبدالوهاب وتركيزى معه، رحت أسمى الكمنجات العالية: منى، لا أعرف أنها كمنجات.. وأطلقت على الباص والتشيلو اسم: مكنة.. والناى: عفاطة، والرق: شخاليل.

لم تكن لدى أى فكرة عن الآلات ولا عن المقامات.. ولكن هذه التراكيب الصوتية التى أطلقت عليها منى أو مكنة.

عبدالوهاب هو أكثر موسيقى أحببته وبسرعة.. سيد درويش أخذ منى وقتاً لكى أحبه.. ثم جاءت مرحلة تعرفى بالموجى وكمال الطويل بعد الثورة.. وأعتقد أنهم جميعاً أمسكوا بمفاتيح هذا الطفل.

كان أبى مرحباً بفكرة ابنه الذكى، ولكنى لا أعتقد انه كان يظن اننى ساكون مشاركاً، ولكنى - الآن - أعتقد انه كان سيوافق، لأنه كان يريد إرسالى الى ايطاليا، واتفق بالفعل مع د. أحمد بدوى رئيس جامعة القاهرة آنذاك.. ولكن أمى هى التى جعلته يحجم عن ذلك.. ولا أدرى هل كان يريد أن اكون مشاركا - فقط - خارج مصر؟

كان يغرينى بالآلات التى أعرف العزف عليها، مثل «الفلاوت» الذى

كانت تنتجه شركة البلاستيك ويباع بـ «٦٠ صاغ»..

اما اذا انكسر منى يكون يوما «مهببا».. وكنت أمتلك «أوكرديون» صغيرا، ومخزنا لا بأس به من الآلات.. استعدادا لمرحلة المدرسة.

● المدرسة

فى سنة ١٩٥٢ كان عمرى خمس سنوات.. وكان ٩٥٪ من ثقافتى الموسيقية بسبب محمد عبدالوهاب وبابا شارو وهى السنة التى التحقت فيها بمدرسة للمكفوفين.. ولم يكن أهلى يعرفون قبل ذلك أن مدارس لنا موجودة.

وفى هذه المدرسة التى تجمع فيها المكفوفون.. اكتشفت السمات المشتركة بينى وبينهم.. وكانت الموسيقى من أهم السمات التى جمعت هذا القطيع.. لقد كان ٨٠٪ منا «مزيكاتية» وبالتالى كنا نفكر معاً.

فى البداية كنا نتعلم تعليما عاماً.. والموهوب منا موسيقياً يذهب الى شعبة الموسيقى.. والذى تكمن موهبته فى يديه يذهب الى شعبة الاشغال. أما الذى لا يمتلك احدى الموهبتين فيذهب الى القسم الدينى..

لم ندخل معهد الموسيقى بعد الابتدائية، لان أهلنا كانوا غير متأكدين من أننا سنكمل تعليمنا.. وكان تقسيمنا الى شعب ثلاث، على أساس اذا لم نكمل تعليمنا العام، يذهب أفراد شعبة الموسيقى الى معهد الموسيقى، وأفراد شعبة الدين يذهبون الى الأزهر وهكذا.

● الأساتذة

كان اساتذتى فى معهد الموسيقى على مستوى كبير من الاحترام..

اذكر سيد حسانين عفيفى - رحمه الله - الذى كان يأتى فى بداية العام ويستخرج نسخاً من مفاتيح غرفة الموسيقى.. ويسلمها لنا.

وأذكر واقعة تعرفك بهذا الرجل.. كان هناك مؤلف موسيقى اسمه توفيق الصباغ.. وكان له «سماعى» صعب جداً اسمه «عجم توفيق الصباغ».. وعلم سيد حسانين أننى بدأت أتعلم العود فجاءنى وقال لى:

- «فيه سماعى بتاع توفيق الصباغ حاول تقوله.. بس ماتزعلش اذا لم تستطع لانه صعب جداً»..

جلست الى هذا الشىء الصعب وتعلمته وذهبت الى الاستاذ ومسكت

العود وبدأت العزف وبكى الاستاذ حسانين من الفرحة، فرحة الأب الذى شاهد قامة ابنه تطول.

أما عبدالله محسن.. ياللعجب.. كان مدرساً للتربية الرياضية «قلة وسفيف».. كان يقسم انه بطل «بوكس».. ولم أكن أصدقه لأن مشاعره لم تكن مشاعر رياضي.. ولكنها مشاعر فنان.. ويتعامل مع الحياة بعقلية الفنان..

الاستاذ محسن هو صاحب الفضل الأساسي والأول فى تعليمي شخصياً، لأنه راسل مدرسة أمريكية اسمها «هاولى» لتعليم المكفوفين شتى أنواع المعرفة بالمراسلة.. وكان يستذكر الدروس معي.. وعندما يرسلون الىّ الكتب، كان يملى على وأنا أكتب، ويراجع ورائي وأنا أعزف امامه.. كان يفعل هذا بدون مقابل، وبدون أى غرض مثله مثل سيد حسانين، والاستاذ حسنى ابراهيم.. كان كل هذا تطوعاً.. وكم أكلت على حساب الاستاذ عبدالله محسن شخصياً.

هذا الرجل ظل معي تسع سنوات.. وعندما قلت له «أنا زهقت» لأنه هو الذى أدخلنى تأليف موسيقى وهارموني.. وطلبت منه أن أتعلم «عربى».. وحددت له العود.. فقال:

لن أفيدك فى «العود» لأنك تعرف امكانياتى (كان عوادا خفيفاً) رغم انه كان لايلعب على آلة اخرى غيره.. وقال لى اعتمد على نفسك ولم يتركنى.. وعندما اكتشف اننى بدأت أتطور فى العزف.. أتى بكتب الموشحات وبدأنا نحفظها معا.

وأعتقد أن ٧٠٪ من ثقافتى الموسيقية كان الاستاذ عبدالله محسن هو السبب فيها.

● أيهما أفضل ؟!

فى المعهد كنت أمثل التيار الوهابي، وابراهيم محمد ابراهيم يحب الموجى، وكان صوته عاليا وكنا دائما نتشاجر على أيهما أفضل: انت عمرى، أم للصبر حدود؟.. ونقضى جلسات تحليلية لكلا العملين.

محمد صديق كان يحب السنباطى ويتزعم طائفة السنباطية بيننا.. وكان

هناك من يحب شكوكو.. بالاضافة الى الناس «الخايبة» مثل زميل كان يحب عبداللطيف التلبانى!

فى وقت من الأوقات تركنا حفظ الأغانى وقررنا أن نحفظ التوزيع، فى هذا الوقت كانت خطوط على اسماعيل اللحنية واضحة.. وكان من الممكن فصلها عن بعضها.

فى غنوة «بعد إيه» حدد على اسماعيل «خطوطا» للتشيلو والخشب.. حفظت «خطين».. وغيرى حفظ ثلاثة.

كانت «المزيكا» تأخذ من حياتنا وقتا كبيرا جدا من مجموع ساعات اليوم.. سواء للمناقشة .. سواء فى التنفيذ..

أما أول أغنية قمت بتلحينها فكانت من تأليف «ولد صاحبنا» ، كان قد تعرف على فتاة فى الاعدادية ، وكان اسمها «فى الاعدادية عرفتها» وقام بتلحينها ثلاثة من الاصدقاء.. وقدم كل واحد لحنا مختلفاً.. وهاجت المدرسة.. من يقول لحن عمار هو الاحسن.. ومن يقول لحن أحمد ناصر هو الأحسن، ومن يقول لحن صلاح عبدالعزيز هو الأفضل.

بعد ذلك توالت ألحانى لأصدقائى..



وتم التلحين لى، الاستاذ عبدالله محسن لحن «غنوة» من تأليفى كانت الدنيا ساخنة!!

هذه التشكيلة هى التى كونت طفولة «مزيكاتى» قدر له أن يدخل هذه اللعبة!

أنت والهلال

دسائس صهيونية

● دأبت فى رحلاتى إلى الخارج على ارتياد المتاحف والمكتبات بحثا عن المزيد من المعرفة والمستجدات من المطبوعات مما له علاقة بشئون وطننا العربى.. فوقع نظرى فى رحلتى إلى مدينة (لوس انجلوس) فى مطلع هذه السنة، لدى احدى المكتبات، على كتاب بعنوان Jewish Literay وهو ما يمكن ترجمته إلى (معرفة اليهود) لمؤلفه الكاتب اليهودى الامريكي (رابى جوزيف تيلوسكين Rabbi Joseph Telushkin ويتألف الكتاب من ٦٨٨ صفحة وطبع في نيويورك .

يتحدث هذا الكتاب عن الديانة اليهودية وشعب وتاريخ اليهود والصهاينة ، فى محاولة لجعله كمصدر عصري لمعرفة اليهود وما يدور حولهم من أحداث وتطورات.

وقد راعنى – من جملة ما راعنى – هجوم الكاتب على الرسول – صلى الله عليه وسلم مستشهدا بما ورد فى بعض أيات الذكر الحكيم بسوء في التفسير ، واثارة النصارى على المسلمين ، وعدم تأثر اليهود والمسيحيين بما ورد فى تعاليم الاسلام من ضرب الزوجات العاصيات – (سورة النساء /٣٤) . ومن قبيل ما ذكره الكاتب أن الرئيس أنور السادات الذى كان يتهجم على اليهود قبل سنوات عندما تغلبت مصر على إسرائيل مستشهدا بالآية الكريمة (.. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله – سورة البقرة/ ٦١) . مشيرا إلى أن السادات الذى كان مولعا بترديد هذه الآية، لم يلبث فى النهاية أن قام بعقد معاهدة السلام مع إسرائيل .

وفى موضع آخر بعنوان «ميثاق عمر Pact of Umar تحدث الكاتب عما كان يعانيه اليهود والمسيحيون من مذلة ومهانة. حيث كان عليهم أن يقوموا من مجالسهم إذا أراد المسلمون الجلوس، وألاّ يرفعوا أصواتهم عند تشييع جنازتهم. مع منعهم من امتطاء الخيول والبغال. والسماح لهم بامتطاء الحمير فقط بدون أسرجة، مع الزامهم على ارتداء ألبسة مزرية . وغير ذلك من الادعاءات عن الازدراء الذى كان اليهود يلاقونه فى عهدى العباسيين والفاطميين.. وما ادعوه بالتالى من تعرضهم لمذبحة جماعية نالت أكثر من ٦٠٠ يهودى فى الثورة العراقية فى يونيو ١٩٤١.

ومن المفارقات أن الكاتب ذكر فى بحثه عن العمالقة Amalek بأنهم كالنازيين فى قساوتهم حث هاجموا الاسرائيليين بينما هم لايزالون هائمين فى الصحراء.. وبدلا من

مباجمتهم من الامام، هاجموا معسكراتهم من الخلف وأبادوا أطفالهم وشيوخهم.

ويذكرنا هذا الحدث بالمذبحة التى قاموا بها فى (قانا) وقيامهم بإبادة المدنيين والشيوخ والنساء والاطفال، والأبرياء. فهل كانوا بذلك أفضل من هؤلاء العمالقة إن صحت الرواية !!

وهناك كتب أخرى تحمل نفس السموم منها على سبيل المثال لا الحصر.

1- S.D Goiten Jews and Arabs : Their Contacts through the Ages.
2 - Batye or the Dhimmi : Jews and Chris Tians under Islam.
3 - David Landes "Palestine before the Zionists."
4 - Bernard Lewis the Jews of Islam
5 - Dennis Prager and Joseph Telushkin why the Jews? the Reason for Antisemitism.

إن الكتب المشار إليها أعلاه وغيرها منتشرة فى أوربا وأمريكا لم تجد من يتصدى لها من العرب والمسلمين والقاطنين هناك بصورة خاصة. الأمر الذى أدى إلى تفاقم المغالطات وإساءة الفهم لدى تلك الشعوب عن تعاليم الإسلام. لذا فاننا نهيب بالعلماء والمثقفين متابعة ما يصدر مثل هذه المطبوعات للرد على مثل هذه الادعاءات بنفس اللغة المنشورة، حيث لا يكفى أن تكون الردود بلغتنا العربية التى يتعذر فهمها من أبناء تلك الأقطار.

د. عمر عباس العيدروس –
العين – أبو ظبى – الامارات العربية المتحدة

شبح كانترفيل

● أسعدتنى اعادة نشر (شبح كانترفيل) التى ترجمت فى الأربعينات على يد الناقد الأستاذ الدكتور لويس عوض.

والحقيقة أن الاضافة التى أضفاها الزميل الدكتور ماهر شفيق فريد بدراسته لأوسكار وايلد قد جعلت من اعادة نشر الترجمة شيئا متجددا يبصر الشباب بقيمة المؤلفين الكبار.

ولما كان الزميل الدكتور ماهر شفيق قد عرض لترجمة الدكتور لويس عوض بالتعليق الذى فهمنا عنه أن لويس عوض قد اجبر من قبل طه حسين على الترجمة لهذا العمل فانه قد كان من الواجب أن يتفضل زميلنا – بما عهد عنه من دقة وتحر – بأن ينشر تعليق طه حسين على الترجمة وهأنذا أصدره عن مجلة الكاتب المصرى / المجلد الثانى فى العدد السادس مارس ١٩٤٦ ص ٣٥٦.

ويتضح من كلام الدكتور ماهر شفيق فى ص ٥٨ إذ يقول

لا مآخذ لي عليها سوى أمرين شبئين ...

.. .. وثمة هفوات لغوية أخـرى مثل قوله «كانت عيناه حمراوان وكأنهمـا جمـرتين» أ . هـ .

ان الزميل العزيز الدكتور ماهر قد نسب إلى نفسه انه مكتشف (لامآخذ لى) الأخطاء الهينة على حد قوله فى اللغة والنحو. ولكن صاحبها أولا عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين. أو ليس هذا هو الحق العلمى؟ ثم كيف يقول الدكتور ماهر أن الخطأ فى النحو خطأ هين - لا أعتقد - حذار يا دكتور ماهر وإلاّ جاز فيك نقد طه حسين للويس.

سامى منير عامر
أستاذ مساعد الأدب والنقد
كلية التربية - الاسكندرية

القارىء والثورة العلمية

● كنت ولا أزال أتابع قراءة مجلتكم ولقد بدأت العلاقة منذ سنوات عديدة ولا أخفى عليكم اعجابى بما تكتبونه من مقالات أدبية متنوعة ولا أنكر ما للأدب من دور فى حياة الإنسان ولكن مالاحظته فى صفحاتها هو غياب الطابع العلمى فيها ولا أقصد تحويلها إلى علمية بحتة بل الذى أقصده هو أن تخصصوا قسما أكبر من الذى تخصصوه الآن لهذا الجانب من العلم حتى يستطيع القارىء أن يساير عن طريق الهلال التطور العلمى فى شتى مناطق العالم المتطور. وكما أشار فى الجزء الخاص من «الهلال» بونبه الدكتور إسماعيل صبرى عبداله تحت عنوان . «مصر والعالم فى القرن الواحد والعشرين ان الثورة العلمية والتكنولوجية تتطور بسرعة مذهلة ولابد من ملاحقتها فالرجاء تحقيق هذا الاقتراح خدمة للعلم والقارىء خاصة ونحن على مشارف قرن جديد فبالأدب والعلم معا يمكننا أن نساير كل التطورات فى العالم .

الأستاذ حبيب الحلفاوى
الروضة - ٨٠١٠ منزل بوزلفة - تونس

جائزة للابداع النسوى

● تعلن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عن انشاء «جائزة الايسيسكو للابداع الأدبى النسوى» تخصص لأحسن نص أدبى يقدم فى شكل مقالة أدبية أو قصة قصيرة، بإحدى اللغات الثلاث: العربية، الانجليزية، الفرنسية، التى هى لغات عمل المنظمة الإسلامية.

وتهدف (جائزة الايسيسكو للابداع الادبى النسوى) إلى تمكين المرأة فى العالم الإسلامى من ممارسة دورها الادبى فى المجتمع الإسلامى وتشجيعها على الاهتمام بالابداع الأدبى، وحثها على المشاركة فى الحياة الادبية.

ويشترط ألا يكون النص المرشح قد سبق نشره، وألا يتجاوز عشر صفحات مرقومة.

وحددت المنظمة الإسلامية نهاية شهر أغسطس ١٩٩٦ آخر موعد لقبول الترشيحات وسيتم الاعلان عن أسماء الفائزات الثلاث فى يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٩٦ وستقدم لهن شهادة ومكافأة مالية.

وستقوم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بترجمة النصوص الثلاثة الفائزة ونشرها.

وترسل الترشيحات إلى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – ايسيسكو – ص. ب 2275 الرمز البريدى 10104 حى الرياض – الرباط – المملكة المغربية.

المنظمة الإسلامية للتربية

الرباط – المغرب

● أقصوصة : استئصال

● ألقيت عدة أجزاء من جسدى فى محاولة لزيادة سرعتى، فساويت سرعة السلحفاة، وصلت متأخرا للتى أعشقها.. عشرين عاما نقضت.. تعجلت هى .. لم تنتظر.

عشرون أخرى وأنا أدخر من وجباتى الثلاث.. كى اشترى ملابسى .. لم تعلم كم أحبها.

بعد انقضاء عدة سنوات أخرى، أجمع فيها ثمن الحذاء نظرت فى مرآة العمر فظللت أدخر كى أوفر ثمن الكفن، الذى قارب طريقه طريقى.. لم ينتظرنى كى أجمع سنوات عمرى المبعثرة.. ما بين الأنين .. الشكوى .. الصبر، وكثير من الدعاء الملقى بعناية بجوار حائط معبدنا، دعاء مازال حارا جدا لأصل دائما فى موعدى.

مدحت يوسف -سمالوط

كرمة ابن هانيء

● يحتفل فى شهر أكتوبر القادم بالذكرى الرابعة والستين لرحيل امير الشعراء أحمد شوقي، وسوف يشهد منزله التاريخي الذى سماه كرمة ابن هانيء حفلات الذكرى.

والمتحف يطل على النيل يحمل ذكريات شاعر تربع على عرش امارة الشعر العربى وظل اميرا له حتى اليوم دون منافس.. يعد كر مة ابن هانى مركزا للابدا ع الفنى ومنارة للاشعا ع الفكرى والثقافى والفنى.. اطلق شوقى على بيته هذا الاسم نسبة إلى الشاعر الحسن بن هانيء الذى عرف بأبى نواس الذى احب شعره وتأثر به. وكان شوقى من قبل يسكن بحى المطرية وبعد عودته من منفاه سنة ١٩٢٠ ترك المطرية وبنى بيتا على النيل بالجيزة وفى سنة ١٩٧٢ تقرر تحويل البيت إلى متحف يحمل اسم صاحبه وافتتح رسميا سنة ١٩٧٧ .. كانت تقام بهذا البيت الامسيات الشعرية والندوات التى كان يحضرها كبار الشعراء والادباء وهو يضم حجرة مكتب أحمد شوقى ومكتبة بها مئات الكتب فى شتى فروع الثقافة ومسودات بخطه لقصائد من الشعر كما تضم حجرة للاوسمة والنياشين التى حصل عليها شوقى فى حياته وملابس التشريفة وبعض الهدايا والوثائق التى قدمت له بمناسبة تتويجه أميرا للشعراء وبعض الصور الفوتوغرافية النادرة له مع زوجته واولاده واحفاده واصدقائه وبعض الشخصيات السياسية والفنية مثل سعد زغلول ومحمد عبدالوهاب وفى الطابق الارضى حجرة صغيرة تسمى حجرة عبدالوهاب التى كان شوقى يستقبل فيها الفنان محمد عبدالوهاب وشهدت ميلاد القصائد التى نظمها شوقى وغناها عبدالوهاب وفى الفترة الأخيرة تم ترميم الحجرة وتجهيزها بالة تسجيلات تسمح لثمانية اشخاص الاستماع إلى تسجيلات موسيقية مختلفة فى وقت واحد أما حديقة المتحف فيوجد بها تمثال كبير لشوقى من أعمال الفنان جمال السجينى وهو نسخة من التمثال البرونزى الذى وضعته الحكومة الايطالية سنة ١٩٦٢ بحديقة الخالدين فى روما إلى جوار تماثيل عدد من عباقرة العالم تكريما للشاعر الكبير.

إن متحف كرمة ابن هانيء لم يعد مجرد رمز لعصر ادبى بل هو مراة تعكس معالم نظرة معاصرة لمصدر اشعا ع ثقافى لا يقتصر دوره على كونه متحفا لعرض المقتنيات بل أيضا لتقديم خدمات متعددة لجوانب الابدا ع الفكرى .

محمد امين عيسوى - الاسماعيلية

رأى العقاد فى الشعر الحديث

زاد طنين الشعر المسمى بالحر أو الحديث إذ تجعل مساحات واسعة من كثير من المجلات الأدبية. ورأى الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد فى هذا الشعر. عندما سئل عنه رحمه الله بانه متحرر من الشعر، وهذا اصدق وصف قيل فى هذا الشعر المتسيب من الوزن والقافية.. وكان يكتب فى يوميات جريدة الاخبار فى الستينيات ففوجئت به ذات يوم ينشر فيها شعراً ترجمه عن الشاعر الانجليزى توماس هاردى ١٨٤ - ١٩٢٨ فقلت : «لقد وقعت على صيد سمين» وشمرت عن ساعدى. وسطرت له رسالة أقول فيها أنا أعلم رأيك فى الشعر الحر عندنا فلماذا تحفل بالشعر الاجنبى وهو بدوره شعر متحرر؟ فرد علىّ ردا طويلا مخضبا على صفحة الاخبار آخذاً على شدة اللهجة وملخصه أن أعجابه بالمعانى الشعرية فى الشعر الاجنبى لا يحول بينه وبين قراءته وترجمته فحمدت الله على أنه لايزال على موقف الرفض من هذا الشعر. ورأيه فى صلاح عبدالصبور أحد زعماء هذه المدرسة الشعرية معروف. وأنا مقتنع تماما بما قاله العقاد عن المعانى الشعرية فى الشعر الاجنبى. فإن الشاعر الاجنبى يستعيض عن الموسيقى الظاهرة (الوزن والقافية) بالموسيقى الباطنة (صدق المشاعر والاحاسيس) فيكون عميق المعانى. ولقد قرأت فى مجلة (الرسالة) التى كان يصدرها الاديب الكبير الاستاذ أحمد حسن الزيات قصيدة بعنوان (القبرة) للشاعر الانجليزى شيلى وقصيدة البحيرة للشاعر الفرنسى لامارتين فالفيت الشاعرين الكبيرين يحلقان بالقارىء فى آفاق من المعانى البليغة التى تحبس عليه انفاسه حتى يفرغ من قراءته.. وهذا يذكرنى بما قرأته قريبا من الشعر الحديث - إن جاز تسميته شعرا - فقد وقعت عينى بالمصادفة على قصيدة منه باحدى المجلات العربية بعنوان أعشاب صالحة للمضغ فتقززت نفسى. فاى معنى شعرى لهذا الكلام ثم انظر إلى ما فيه من استعارة سخيفة حولت الانسان إلى حيوان يتلذذ بقضم الحشائش . وكان الاستاذ العقاد يقول إن لكل فن قاعدة والقواعد التي يقوم عليها الشعر باعتباره عملا فنيا هى الوزن.

مصطفى محمود مصطفى
كفر ربيع - منوفية

حديث القلب

كنا واصـــبحنا ولا جـــــدوى ... من ذكريات الحب والنجـــوى
ما كـــان كان ولن يغيـــره ... فيـــض من العبرات والشـــكوى
ايامـــنا ذبلت نضـــــارتها ... وغـــدت حكاية حبنا لغــــوا

والذكـــريات تمـــر في كـــل
تمضـــي بلا شيء يخـــالجني
ما عدت أغنية على شـــفتي
ما عاد وجهك مشرقا نضـــرا
لا شيء في الاحـــداق يجذبني
لا تأملي في الوهـــم واصطبري
فالوجـــد مات وناره خمـــدت

وكأنهـــا مخلـــوقة ســـــهوا
لو طـــاف بي فلربمـــا عفوا
ما عدت لحنـــا ناعما حلوا
يوحي إلى الشـــعر والشدوا
لا حب.. لا ايمـــان .. لا سلوى
قد تعثرين غـــدا على مثوى
وبرئت منه ولم بعـــد شجوا

محمود عبدالعزيز عبدالمجيد - كفر الشيخ

كلام أطفال

أنا طفل وأنت طفـــل فهيا
ونعيش الحضارة البكر .. فالواقع
هل بين الكبـــار مدأ وشدا
وانقسام الكبـــار ثلج ونار
فالورود التي تصـــير دمـــاء
وإذا فسر الظـــلام ضـــياء
أنا طفل . وأنت طفـــل .. فهيا
فلنا قاسم الطفـــولة والاحلام
وطريق الكبـــار ماض، مشـــيناه
ولنا حاضر الحياة وآتيها جميعا

نصنع الحـــب والجمـــال سويا
مـــازال حـــائرا فوضـــويا
فتخـــلى عن المســـار وفيـــا
فلنصب منهما طعاما وريا
تمنح الارض خصبها الابديا
قال قول النهار فسر ليـــلا
نمنح الكون سرنا العبقـــريا
غيم انفـــلاتنا - تتفـــيا
كشفنا مـــداه رشـــداً وغيا
إذا اردنـــــا المضـــيا

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

رسالة إلى الدنيا

قصيرة إنت كالاحلام كالســـفر
كضحكة أبحرت من ثغر عاشقة
كدمعة أغرقت أجفـــانها حزنا
انت التحدى وكم حطمت لى سفنا

كنغمـــة عبرت بوابـــة الوتر
نحو الحبيب مساء أو إلى القمر
واغرقت بالجوى أمـــال منتظر
قبل الوصول إلى الميناء والثمر

وقبل أن أسال الامواج عن صدفي   وعن قصيدة حب في ثرى الجزر
أرى غيومك لا تهمي سوى لهب   أرى نهورك لا تسقي سوى ضجري
ماذا سأكتب يا دنيـا ومزرعتي   بلا طيور.. بل ورد.. بلا شجر
رسالتي من دم الوجدان اكتبها   هل تقرأين إذا انساب الدجى خبري
أم أنت أمية لا تعرف القلما   لا تفهم الاحرف المذعورة الفكر
في كل فجر رماح اليأس تطعنني   وفي المسا خنجر الاشواق في نحري
ياليتني كنت يا دنيا على فنن   طيراً يغرد للغيمـــات للمطر
ولم اكن شاعرا يرتاد بادية   بين النجوم.. بكفي خيمة السفر
اني احبك رغم الليل ينثرني   فوق الروابي شهابا نازف الشرر
أهواك بحرا وارضا زلزلت فرسي   وغابة انجبت ذنبا من البشر
اهوى نسائك اغفو فوق حالة   شقراء أنسى بشعر اشقر عمري

د. هيثم الحوريح العمر-دمشق - سوريا

سراب حلم

أو كلمـــا أخبرتهـــا خبري   خجلت . وعضت اصبع الخفر
شتان ما حـــالي وحال احبتي   من طول ليل عـــاقد السهر
أنا ما نســيت تلهفي وتلطفي   بالنـاقر المشـغول بالـــوتر
ألقى بزهري تحت ظل لوائها   رغم الأسى من ضربة القدر
كانت منارة عاشق ازهى بها   أرنو اليهـــا ســاهم النظر
حتى شقيت من الهوى واجتاحني   ما يشبه المصدوم من خطر
فبقيت أحيانا احاذر رغبتي   وبقيت احيانا .. بلا حذر
وأنا الذى نسجته اصداء الضحى   ودعتـــه : اقبـــل واتبع اثرى
يكفي على طول الحياة وعرضها   أن يسبح المحبوب فى نهرى
لا تسمعي لشماتة من شامت   يعوى وما هو بالوفاء حرى
كنا. وكانت في الرضا ضحكاتنا   تسقى بضـــوء الشمس والقمر
ثم انتهت. لم ندر الا أننا   كسراب حـــلم مر بالبصــر
ياحبنا اشعل طـــريق غرامنا   واجعل لهيبـــك آية الشرر
في غفلة الانواء عشت بمهجة   حرى وقلب دائـــم الضـــجر
قد عذبوه فراح في خفقانه   يبكى وينعى غـــربة السفر
ما كنت الا خاطراً في خاطر   يسرى . وانســـانا من البشر

أحمد عبداللطيف حسب الله
مديرية التربية والتعليم - دمنهور



الكلمة الأخيرة

علمني كتابة السيناريو

نجيب محفوظ

صلاح أبوسيف الذى فقدته السينما المصرية، يعد من الطبقة الأولى للمخرجين المصريين، وله مدرسة وله تلاميذ، وله رؤية خاصة فى الاخراج.

بدأت علاقتى بصلاح عام ١٩٤٧ من خلال الدكتور فؤاد نويره، والذى قال لى وقتها أن المخرج صلاح أبوسيف يود التعرف عليك، والعمل معه فى السينما، وكان الوقت صيفا ولم أكن مرتبطا بأى عمل.

ذهبت اليه وتعرفت به، وقال لى صلاح أبوسيف إنه قرأ «عبث الأقدار» واشتم من خلالها أن الذى كتبها من الممكن أن يكتب السيناريو.. ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف كلمة السيناريو هذه!

علمنى صلاح كيفية كتابة السيناريو فى أول فيلم اشتركنا فيه معا «عنتر وعبله» وعرفت منه كيف أقسم السيناريو الى نقط يسمونها «السنبسز» بمعنى أننى بدأت معه خطوة خطوة حتى عرفت أسرار هذا العمل من الألف الى الياء.

وفى نفس اللقاء الأول بيننا.. وقبل أن أقرأ أى كتاب عن هذا الفن، وحتى الكتب التى قرأتها فى البداية عن السيناريو، كانت من مكتبة صلاح أبوسيف، وكنت أقرأ هذه الكتب.. وأعود اليه مستفسرا عن بعض المواقف التى يذللها ويوضحها لى:

وبدأ العمل المشترك بيننا، وكان صلاح قد حدد لنفسه فيلما واحدا يخرجه كل سنة.

وأذكر أننا عملنا معا فيلم «عنتر وعبلة» ثم فيلم «المنتقم» الذى مثله أحمد سالم.. ثم فيلم «لك يوم يا ظالم» و«ريا وسكينة»، و«الوحش»، و«الفتوة»... وعملت له سيناريوهات لقصص إحسان عبدالقدوس التى أخرجها للسينما.

كان صلاح أبوسيف مدققا جدا.. كان يعمل وينقد كل كلمة تقال، وكان إرضاؤه صعبا، وكان الشك من طبعه بهدف الإتقان.. فبعد أن ننتهى من العمل فى السيناريو ويقول تمام جدا.. يبدأ الشك فى الموضوع من الألف للياء.. لدرجة أننى كنت أظن أنه سوف يعدل عن إخراج الفيلم.

كان وهو يقرأ السيناريو القراءة الأخيرة، وبعد أن وافق عليه جملة جملة.. يبدأ فى القلق، ويقول لى أنا غير مرتاح!

وحين أعرف أنه بدأ التصوير أقرأ الشهادتين فرحا بقراره الذى يريحنى تماما من هذا الشك..

رحم الله صلاح أبوسيف الصديق..



مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب . وقصة . ودراسة . وسير . وبحوث . وفكر . ونقد . وشعر . وبلاغة . وعلوم . وتراث . ولغات . وقضايا . وتاريخ . واجتماع . وعلم نفس . ورحلات . وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الابراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسي .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفي .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسان المتعدد .	طيبة أحمد الابراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الاعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الابراهيم
- شعرة معاوية . وملك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الابراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٢ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى
الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٥٨٦١٩٧ ج . م . ع / فاكس ـ 586650


الهلال
سبتمبر ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشاً
رجاء
جارودى
والأساطير الإسرائيلية !
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



«نانا» إحدى بطلات رواية اميل زولا.. كما تصورها ريشة الفنان ادوارد مانيه

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الإدارة القاهرة – ٦٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدي : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمي التوني المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج م. ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٣٠ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 4741116413079

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

هذا العدد



تصميم :
حلمى التونى

رجاء جارودى

جزء خاص

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنــــون

شعر وقصة

التكـوين

الأبواب الثابتة

من الهـــلال إلى الهـــلال

الإرهاب خارج حقول القصب

قصب السكر هو مشكلة مصر فى هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين !..

ففى داخل حقول القصب بصعيد مصر، يختبىء الإرهاب ويتحصن ويكمن، ثم يخرج من مكمنه ليشن الغارة على الشرطة وعلى المارة فى الطريق، كلما سنحت له الفرصة، وكثيرا ما تسنح!

أما خارج حقول القصب ، وبعيدا عنها، فإن الإرهاب يكشف البرقع عن وجهه، ويرمى القناع عن رأسه، ولا يتوارى خلف النقاب، بل يخرج شاهرا سيفه، يضرب به الأعناق جهارا نهارا، لايخاف ولا يتردد، لأنه يضرب وفق قوانين مدونة فى الدواوين، تقف حيالها الجهات المسئولة بين العجز والإغضاء والاستحياء ، ويمالئها أصدقاء كثيرون وحلفاء أقوياء، منهم الناعق والنابح، والمتخذون مجالس الوعظ والافتاء، يتغلغلون فى كل مكان، ويبسطون نفوذهم من الاسكندرية الى أسوان !

ولا مفر لنا ولا مناص، من أن نعترف بأن الإرهاب قد حقق انتصارا علينا ـ نحن المجتمع المصرى ـ بينما نحن فى غفلة وحسن نية ننشد الأغانى، ماضين الى القرن الواحد والعشرين، والإرهاب يشدنا عنوة واقتدارا الى الزمان السحيق، ويمشى بنا القهقرى فوق القبور، على نحو ما قال أمير الشعراء أحمد شوقى فى مكتشف «مقبرة» توت عنخ آمون:

ومشى القرون القهقرى حتى أتى ... فرعون بين طعامه وشرابه

فلو تابعناهم ضارعين مستسلمين لوجدنا أنفسنا ذات يوم أسرى فى حرب داحس والغبراء . أو خدما فى بلاط كسرى أنو شروان!

وقد قيل لنا منذ زمن أن الخديو اسماعيل باشا حاول أن يجعل مصر قطعة من أوروبا القرن التاسع عشر، وها هم أولئك الارهابيون داخل حقول القصب وخارجها يحاولون الآن أن يجعلوا مصر قطعة من أوروبا القرن الخامس عشر، اوربا محاكم التفتيش. أو ـ على الأقل ـ قطعة من اليمن السعيد كما كان تحت حكم الامام يحيى حميد الدين فى الثلث الاول من القرن العشرين.

وما عاد عجيبا ولا غريبا أن تحارب الشرطة هؤلاء الاشقياء داخل حقول القصب،

«عزيزى القارىء»

ثم تغض الطرف عن اخوانهم «الاشقياء» داخل حقول الارهاب الفكرى، المتحصنين فى حقولهم هذه. كما يتحصن حلفاؤهم فى حقولهم تلك، فالشرطة تبادر الى مصادرة كتب تناهض الارهاب والتخلف الفكرى، تنفيذا وتأييدا لأوامر «لجنة» نصبت نفسها للإفتاء . فى حين يسقط رجال البوليس كبارا وصغارا صرعى رصاصات الفتاوى المختبئة بسلاحها وراء أعواد القصب..!

هؤلاء الاشقياء ، وأولئك ينطلقون من فكر إرهابى واحد، يجمع الذبح بالسيف الى الذبح بالقلم . ويمضى على غير هدى من الله الى هدف دموى مشترك!

إن لكل قوة مسلحة فى الميدان، احتياطيا أو رديفا يظاهرها فى الوقت المناسب .. وأن القوة المسلحة بالمدافع الرشاشة داخل القصب، لتحشد احتياطيها الكبير خارج القصب بزعامة رجال «الأكليروس» المسلحين بدعاوى التكفير، يحف من حولهم غانيات الرقص الشرقى التائبات الى الله بلا توبة! وكلهم ، مع كلهن . يتفيأون ظلال خيمة الدين بلا تدين، ويقطعون رقاب الناس، ويتسللون الى الأركان القانونية والتعليمية والتشريعية والتنفيذية والاعلامية والمدرسية والجامعية والصحفية.. حتى الرياضية.. فكأنما صودر المجتمع المصرى كله لحساب الظلاميين على اختلاف مشاربهم وألوانهم. وتعدد صيحاتهم داخل القصب وخارج القصب!

إن تحالف الإرهابيين فى جبهة واسعة موحدة الأهداف داخل القصب وخارجه، ليس لهوا ولا لعبا، وإنما هو اجابة منهم بالأسلحة الاتوماتيكية والفتاوى التكفيرية عن هذا السؤال الذى يساورهم ويساورنا: هل تتقدم مصر نحو القرن الحادى والعشرين وما يليه، أم تمشى القهقرى نحو القرون الأولى؟!

ولعلنا فهمنا الآن أن المزيد من الاغضاء وقصر النظر والتوانى والتواكل والتهاون، ستكون عاقبته أن يقفز المسلحون ذات يوم من حقول القصب، وينضم اليهم احتياطيهم من «الوسطيين» و«المعتدلين» ومحترفى التكفير، المتأهبين لليوم الموعود، وفوق رءوسهم أعلامهم السود، وتحت أقدامهم انقاض المجتمع المنهار فوق جثث أصحابه!

فيا أيها المفكرون الساذجون الذين تحاربون الارهاب بأقلامكم ، لا تتعلقوا بأوهامكم، فليس لكم حليف ولا ظهير، وليبحث كل منكم لنفسه عن «هولندا» يلجأ اليها، فانه لا ملجأ لكم فوق أرضكم! دمكم مباح! زوجاتكم طوالق، كتبكم مصادرة! وقد اعذر من أنذر، فلا تلقوا بأيديكم الى التهلكة!

«المحرر»

الهلال

تحتفل بالسنة الخامسة بعد المائة

عزيزى القارىء :

إنها الشابة الوحيدة في العالم التي تستقبل هذا الشهر عامها الخامس بعد المائة إنها مجلة الهلال ..

وماذا يعني أن مجلة قد بلغت هذا العمر المديد الذي لم تبلغه قط أي مجلة ثقافية عربية ، ولا المئات من المجلات العربية الأخري؟

هذا يعني الكثير ففي المقام الأول هناك تجدد في الدماء .. والعطاء . ومواكبة العصر، والحياة بين أصالة الماضي ، والحاضر المعاش ، والتطلع إلي مستقبل مأمول.

وقد كانت هذه خريطة الشرايين الحية لمجلة الهلال طوال أعوامها الماضية ، قرن ونيف من الزمان ، كانت المنبر المفتوح لجميع تيارات التنوير والمحافظة ، فتحت علي جنباتها صفحات البحث عن الأفضل ودار السجال بين أصحاب الآراء ، والفكر، والمبدعين .

وقد كان هذا كله وغيره سببا لبقاء المجلة ، في الوقت الذي حملت فيه مجلات أخري عوامل فنائها مع الأعداد الأولي لصدورها . وقد سار علي نهجها كل من تولوا رئاسة تحريرها منذ عام ١٨٩٢ وحتي الآن ، قرأوا نبض واحتياجات القارىء العربي وقدموا علي صفحاتها أبرز الأسماء في كل الأجيال.

وإذا كانت الهلال ستبدأ هذا الشهرعامها رقم ١٠٥ ، فإن عمرها الحقيقي هو آلاف السنوات ، لأنها استطاعت أن تتوغل في التاريخ، وأن تضمه في أحضان صفحاتها ، وقدمته إلي القارىء موضوعيا جذاباً، كما احتوت كافة المعارف، والإبداع، وتفاعلت مع الأيام ، فكانت شاهداً علي القرن العشرين بأكمله، أكثر القرون سخونة ، وتقدما ، كما استطاعت أن تعايش القرون

عزيزى القارىء





القادمة وإذا أردت أن تتأكد فراجع الأعداد الخاصة بالمستقبليات.

وبمناسبة الأعداد الخاصة ، فإن أكبر رصيد منها ، لمجلة ثقافية ، موجود في مكتبة الهلال، أعداد حول موضوعات يهم القارىء أن يتعرف فيها علي وجهات نظر متعددة ،ورؤي متباينة، وأعداد أخري حول أشخاص لهم مكانتهم الأدبية ، فكانت الهلال بذلك أول من قدم أعداداً عن أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم، وطه حسين ، والعقاد ، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وفتحت ملفات خاصة عن جمال عبد الناصر ، ويوسف إدريس، ويحيي حقي، وإحسان عبدالقدوس وغيرهم .

واليوم، والهلال تستقبل عامها الجديد ، فإنها تشعر بمسئولية جديدة ، هي مواكبة العصر في زمن الانصراف عن القراءة وفي ظل منافسة بين مطبوعات كثيرة أكثر جاذبية ، وأقل فكراً ، وأكثر سطحية ، والمسئولية هنا تبدو في الاحتفاظ بقارئها التقليدي ، وجذب اهتمام أكبر ، وعدد أكثر من القراء الشباب الذين يسعون للبحث عن هوية ثقافية في ظل متغيرات حادة..

وسوف تجد الهلال نفسها تحمل شعاراً جديداً هو من أجل التعامل الجاد مع المتغيرات الحادة . مستقبل عامنا الجديد، وكل عام جديد .. حتي نحتفل بالعام المئوي بعد الألف من الأعوام .. وربما أكثر من هذا بكثير..

جزء خاص

محنة جارودى

أم محنة الإعلام ؟

بقلم : بهاء طاهر

أحتفظ فى بيتى بتسجيل تليفزيونى قديم يتحدث فيه رجاء جارودى، أو ربما كان الأصوب أن أقول ، يظهر ، فيه جارودى . كان ذلك إبان الحملة الإعلامية الصاخبة التى صاحبت فتوى الإمام الخومينى بإهدار دم الكاتب سلمان رشدى ، وقتها امتلأت الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية بالأحاديث والندوات التى تهدف إلى إظهار مدى تخلف المسلمين عن ركب الديموقراطية الذى يترعرع - بطبيعة الحال - فى الغرب !.. وكانت الندوة - التى شارك فيها جارودى - أو دعى للمشاركة فيها - معروضة فى القناة الثانية فى التليفزيون الفرنسى ، وتمثلت فيها كل ، مظاهر ، الديموقراطية .

كان هناك ضيوف مسلمون ومسيحيون ويهود ، ونجوم من أهل الفن والأدب والفكر إلى جانب جمهور عادى ، وحفلت الندوة بدروس كثيرة وغير مقصودة . وسأقتصر هنا على حدثين يدخلان فى صلب الموضوع ، أولهما عندما طلب مقدم الندوة من جارودى أن يبدى رأيه ، فقال إنه يستنكر فتوى القتل لأى كاتب ، ولكنه تساءل عما اذا لم تكن الديموقراطيات الغربية تصادر هى أيضا بعض الكتب ، وضرب مثلا بمصادرة كتاب ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ، مردفا أن مصادرته مبررة لأنه كتاب مزيف ولكن هناك كتبا أخرى ...

وهنا سحب منه مقدم الندوة الكلمة وأعطاها لمتحدث آخر ، قال جارودى : ولكنى لم أكمل وجهة نظرى ، فوعده المذيع بأنه سيعود إليه ، غير أن ساعة أو أكثر مرت والحديث ينتقل من شخص لآخر ، وكلهم يقولون الكلام نفسه عن حرية الفكر، وكم هى مهمة ، ولكن أحدا لم يعط لجارودى الكلمة ! انتهز الرجل لحظة صمت فذكر مقدم الندوة بوعده ،

ورد هذا بسرعة « حاضر ! » ثم تحدث إلى شخص آخر ، لم يبق أمام جارودى إلا أن يفعل ما فعله بالفعل : قام وانسحب من الندوة ، فلم يهتم أحد !

الحدث الثانى ، بعد انسحاب جارودى كان عندما أعطى مقدم الندوة الكلمة لواحد من الجمهور ، هو الوحيد الذى تحدث من القاعة الغاصة بالناس ، أشار بيده ، كأنما عفوا ، إلى شاب مميز تماما بشعره الأحمر ، فقال هذا إن فتوى الخومينى عن سلمان رشدى تثبت أن الفلسطينيين إرهابيون وأنهم لا يستحقون الاستقلال !.. كيف ياسيدى بالله عليك ؟ هنا بادر الشاب فلوّح بصورة ضخمة كانت جاهزة (بالمصادفة طبعا !) ويظهر فيها ياسر عرفات وهو يعانق الخومينى .

بدا على الشاب الزهو وعلى الجمهور الامتنان ، فقد قطعت الصورة قول كل خطيب !

● الفرق بين الديمقراطيتين !

وبعد تلك الندوة المهزلة بشهور ، شاهدت على شاشة التليفزيون الفرنسى ذلك الشاب الأحمر الشعر نفسه : كان قد أصبح رئيس اتحاد الشبيبة اليهودية فى الجامعات . قلت لنفسى إذن فهذا هو الفرق الحقيقى بين ديموقراطية الغرب وديموقراطية الشرق : هم هناك يجيدون إخراج التمثيليات .

غير أن جارودى يوضح لنا المسألة بتفصيل أكبر فى البـاب الثالث من كتابه الأخير « الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » . فهـو يفتتح القسـم المعنـون « اللوبى (الصهيونى - الإسرائيلى) فى فرنسا » بعبارة للجنرال ديجول فى نهاية مدة رئاسته لفرنسا يقول فيها : « هناك فى فرنسا جماعة ضغط (لوبى) مناصرة لإسرائيل تمارس نفوذها بصفة خاصة فى أوساط الإعلام » . ويذكر جارودى أن ديجـول كـان هو الرئيس الفرنسى الوحيد الذى جرؤ على أن يعلن ذلك ، ولكن لا يوجد من بعده أى مرشح للرئاسة فى فرنسا ، مهما كان الحزب الذى ينتمى إليه، إلا وقام بزيارة إلى إسرائيل لكى يحصل على رضا وسائط الإعلام ، ومع أن اليهود فى فرنسا



لا يمثلون سوى ٢٪ من السكان فإن الصهيونية تسيطر على أغلبية واضعى السياسات فى الإعلام الفرنسى سواء فى التليفزيون أو الإذاعة أو الصحف اليومية أو الأسبوعية ، بل انهم يسيطرون على دور النشر جميعا ، ويسيطرون على السينما أيضا ، لاسيما مع غزو هوليوود .

والدليل على ذلك كما يقول جارودى أن كل الصحف تتبع خطا واحدا مناصرا لإسرائيل فى تفسيرها للأحداث ، إذ تسمى العنف الذى يمارسه الضعفاء «الإرهاب» والعنف الذى يمارسه الأقوياء (الإسرائيليون) « مكافحة الارهاب » ، لا تشذ عن ذلك أى صحيفة ، ويقدم جارودى شهادة من تجربته الشخصية : فحتى عام ١٩٨٢ لم يكن يواجه أى مشكلة فى إخراج كتبه فى كبرى دور النشر أو فى التعامل مع الصحف الرئيسية أو الإذاعة أو التليفزيون ، ولكنه فى عام الغزو للبنان نشر مع آخرين إعلانا مدفوع الأجر فى صفحة كاملة من صحيفة لوموند يندد فيه بالمذبحة فى لبنان ويثبت أنها ليست مغامرة بل هى خطوة محسوبة فى إطار السياسة الصهيونية .

● تهديدات بالقتل !

ثم يضيف : «وبعدها تلقيت عن طريق الخطابات والتليفون تسعة تهديدات بالقتل» وبعدها أيضا رفعت عليه منظمة «ليكرا» (اختصار اسم المنظمة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية) دعوى قضائية بتهمة معاداة السامية والتحريض على التفرقة العنصرية .

غير أن القضاء برأ ساحة جارودى وزملائه من ناشرى الإعلان من المرحلة الابتدائية إلى الاستئناف فالنقض ، ولكن ما من صحيفة نشرت شيئا عن هذا الحكم بتبرئة جارودى وإدانة منظمة ليكرا ، التى يصفها الكاتب بأنها المنسق الرئيسى لنشاط اللوبى الصهيونى .

ثم بدأ بعد ذلك الحصار أو الخنق الإعلامى لجارودى فى مجالات النشر والإذاعة والتليفزيون (راجع البداية !) ، وهكذا فإن أيا من دور النشر لم تقبل كتابه الأخير عن إسرائيل ، واضطر إلى طبعه على نفقته من خلال دار صغيرة مقيدة لا توزع كتبها إلا على المشتركين فيها (La Vielle Taupe)

وبالرغم من هذا النشر المحدود الضيق النطاق للغاية فقد بدأت الحرب على الكاتب والكتاب ، بصورة أعنف من كل ما تعرض له من قبل ، كان جارودى قد مد يده إلى عش الزنابير مرتين من قبل ، وتقبل اللدغات راضيا أو كارها . ذلك أنه بعد حرب لبنان كان هو المفكر الغربى الوحيد تقريبا الذى احتج على تدمير العراق أثناء حرب الخليج . أما فى هذه المرة الثالثة فقد تجاوز بالفعل كل حد حين جرؤ - لا على انتقاد الأساطير

السياسية الإسرائيلية وحدها ، بل وعلى أن يشير بإصبع الاتهام إلى أمريكا - والغرب فى مجمله باعتباره المؤسس الحقيقى للأسطورة التى أصبحت كابوسا اسمه إسرائيل .

• كتاب عالم متبحر ، - الأب بيير

وليس فى نيتى تلخيص كتاب جارودى، فهناك فيما أعلم ترجمتان عربيتان صدرتا له حتى الآن ، سأشير فقط إلى عناوين القضايا التى يتناولها وإلى نماذج محدودة لأسلوب استخدامه للوقائع ، ذلك أن المنهج فى هذا الكتاب هو فى رأيى سبب تفرده ، وهو سر الغضبة العارمة على جارودى من جانب أنصار الصهيونية .

ففي الباب الأول من الكتاب يتناول الأساطير المنسوبة لمصدر لاهوتي ، أي أسطورة الوعد ، وهل هى أرض موعودة أم أرض مغتصبة ؟ ويشير إلى أن القراءة الخاطئة لأسفار العهد القديم ، فضلا عن الأخطاء التاريخية فى تلك الأسفار التى نجمت بالضرورة عن تدوينها بعد وقوع الأحداث بقرون قد ولدا تلك المفاهيم الصهيونية الخاطئة فى تفسير العهد مع ابراهيم (عليه السلام) على أنه وعد أبدى بأرض فلسطين لليهود ، وبأن اليهود هم شعب الله المختار ، ويضرب مثالا للاستعلاء العنصرى الذى يولده ذلك الاعتماد على الأسطورة بقول الحاخام كوهين فى كتاب « التلمود » الصادر فى باريس عام ١٩٦٨ « يمكن تقسيم سكان الأرض ما بين إسرائيل وبقية الشعوب مجتمعة ، فإسرائيل هى الشعب المختار وتلك عقيدة أساسية » !

ويوضح جارودى كيف يمكن لهذا الاستعلاء العنصرى أن يفضى بسهولة الى الجريمة فينقل من مذكرات مناحم بيجين ما جاء عن ارتكابه لمذبحة دير ياسين مع عصابة الإرجون لدفع العرب إلى الخروج من الأرض الموعودة وتخليصها للشعب المختار ويضيف أن التطبيق العصرى لأوهام الماضى أصبح سياسة ثابتة ، ثم يعلق جارودى بقوله : « ومن هنا خطورة استغلال ماض أسطورى يوجه المستقبل إلى ما يمكن أن يكون انتحارا كونيا » ، وذلك كما يرى بفضل التأثير الإسرائيلى على سياسة الغرب وبالذات على الولايات المتحدة باعتبارها القوة الكونية العظمى .

• موقف مزدوج للصهاينة !

ويواصل جارودى فى الفصل الثانى من كتابه المعنون « أساطير القرن العشرين » دحض بعض الأساطير الأساسية للصهيونية : أولا أسطورة معاداة الصهيونية للفاشية ، ويثبت أن موقف الصهاينة كان مزدوجا ونفعيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فبينما حارب بعضهم مع الحلفاء ، فإن كثيرين منهم كانوا يرون أن النازية يمكن أن تساعدهم على إقامة وطن فى فلسطين ، ومن هنا تعاونوا معها ، ويشير بصفة خاصة إلى إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق ، وزعيم الليكود البارز ، الذى كان يتصل مع آخرين بمكتب المخابرات النازية فى دمشق لتوطيد التعاون الصهيونى - النازى الى أن

ألقي الإنجليز القبض عليه في ديسمبر ١٩٤١ بتهمة « الإرهاب والتعاون مع العدو النازي» .

ثم ينتقل جارودي إلى الحديث عن أسطورة عدالة نورمبرج . ويشرح أن ما أعلنته تلك المحكمة منذ البدء من أنها تمثل مواصلة للجهود الحربية للدول الحليفة ضد ألمانيا، ينفي عنها أي مفهوم للعدالة الموضوعية . وينتقد إجراءات تلك المحكمة وشهودها وأحكامها . ويضرب مثالا لايقبل الطعن : فقد أدانت المحكمة النازيين بتهمة قتل ١١ ألف ضابط بولندي فيما يعرف بمذبحة كاتين . ولكن بعد ما يقرب من نصف قرن (في عام ١٩٩٠) ثبت أن السوفييت هم الذين ارتكبوا المذبحة.

وفي أخطر أجزاء الكتاب يناقش جارودي أسطورة (الهولوكست) أو محرقة اليهود في معسكرات النازي . ويشكك في الرقم الرسمي المعتمد لضحايا النازية من اليهود (وهو ستة ملايين لا أقل) . ومرة أخرى يضرب مثالا لايقبل الطعن – فقد تعرضت بعض الأرقام الفرعية للتخفيض بصفة رسمية : كانت اللافتة الموضوعة على معسكر أو شفتيز لاعتقال اليهود تقول إن الضحايا الذين لقوا حتفهم داخله في فترة الحرب اربعة ملايين معظمهم من اليهود .

ولكن اللجنة الدولية لدراسات معسكر أوشفيتز ، التي يرأسها يهودي ، قررت بعد الأبحاث تغيير اللافتة لتعدل عدد الضحايا إلى مليون ونصف .

لماذا الملايين الستة ؟!

ومادامت الأرقام الفرعية قابلة للتعديل، وما دام كل المؤرخين المتحمسين لإدانة هتلر لم يستطيعوا إثبات أنه أصدر أي أمر بتصفية اليهود عن طريق قتلهم فلماذا الإصرار على رقم الملايين الستة ؟

يقول جارودي بوضوح إنه لاينكر أن هتلر قد ارتكب جرائم ضد اليهود غير أنه ارتكب ما هو أفظع منها ضد شعوب أخرى . ولكن تضخيم عدد ضحايا اليهود بشكل مبالغ فيه يهدف إلى إظهار أن معاناتهم لم يكن لها مثيل ، ويفضي إلى أن تحقق دولة إسرائيل التي لم تكن قائمة وقت الحرب ، مكاسب سياسية ، فضلاً عن التعويضات المالية الباهظة التي حصلت عليها من ألمانيا ومن النمسا.

ويختتم جارودي الفصل الثاني من الكتاب بتلك الأسطورة التي نعرف عنها نحن العرب الكثير وهي أسطورة أن فلسطين كانت أرضا بلا شعب فذهبت إلى شعب بدون أرض !

وفي الفصل الثالث أيضا يتحدث عن أسطورة نعرفها نحن جيدا ، وهي «أسطورة المعجزة الإسرائيلية »، أي الدولة الصغيرة التي استطاعت في زمن قياسي أن تحقق

التفوق العسكرى على جيرانها العرب رغم كثرتهم العددية . ومنذ البداية يقدم التلخيص الفعلى لتلك المعجزة فى عبارة بليغة لكاتب يهودى هو يشياهو ليبوفيتز إذ يقول :

«إن قوة القبضة الإسرائيلية مستمدة من القفاز الفولاذى الأمريكى الذى يكسوها ومن الدولارات المحشوة فيها !»

وفى ختام هذا الكتاب القيم الذى اقتصرنا على عرض عناوينه يقول جارودى :

«ليس لهذا الكتاب من هدف غير أن يطرح على الجميع تلك العناصر التى تتيح لهم أن يحكموا على أخطار الأساطير الصهيونية، التى استطاعت بفضل ما تلقاه من دعم غير مشروط من الولايات المتحدة أن تثير خمس حروب ، والتى تشكل بسبب النفوذ الذى يمارسه اللوبى (الإسرائيلى) على الدولة الأمريكية ، ومن خلالها على الرأى العام العالمى، تهديدا دائما على وحدة العالم وعلى السلام.»

اللوبى فى مأزق !

تلك كما قلت لمحات سريعة جدا عن القضايا التى يتناولها الكتاب . ونحن فى وطننا العربى نعرف ، بثمن فادح من الدماء مدى ما فى هذا الطرح من صدق، ونعلم بالقدر نفسه أننا لم نستطع أن نكسب العالم إلى صفنا للأسباب التى يبين جارودى بعضا منها.

غير أن الجديد فى هذا الكتاب هو المنهج الذى استخدمه جارودى ، فقد اختط منهجا يحرج خصومه منطقه إلى أبعد حد ، ومن هنا بالذات سر ثورتهم عليه . فالمألوف بالطبع فى الكتب العلمية أن يوثق الإنسان آراءه بالرجوع إلى المصادر الأصلية والمراجع ، وقد تحتوى الصفحة هامشين أو ثلاثة لإثبات تلك المصادر أما فى هذا الكتاب فإن ما أعتدنا أن يكون الهوامش هو صلب الكتاب ، إذ يقدم أفكاره الرئيسية المتفجرة من خلال سلسلة لا نهاية لها من الاقتباسات تثبت من خلال تتابعها وبفضل تعليقات المؤلف الموجزة واللاذعة كل ما يريد أن يقول .

وأهم من ذلك بكثير أن الأغلبية الساحقة من تلك المراجع - أكثر من تسعين فى المائة تقريبا - هى لكتاب من اليهود أو الصهاينة أو الإسرائيليين ويكفى كمثال أن نثبت هنا قائمة المؤلفين والاقتباسات التى يرجع إليها فى مقدمة الكتاب ، وهو يتابع بدقة تطور الفكرة الصهيونية منذ القرن الماضى كمشروع استعمارى توسعى ، لا علاقة له حتى بالديانة اليهودية .

تشمل المراجع والاقتباسات فى المقدمة ما يلى : صحيفة واشنطن بوست الأمريكية ، دائرة المعارف الصهيونية (نيويورك ١٩٩١) ، مذكرات وكتب تيودور هرتزل مؤسس المشروع الصهيونى (٧ اقتباسات متعاقبة) ، المؤتمر المركزى للحاخامات الأمريكيين (١٨٩٧)، النشرة الإعلامية اليهودية (يونيه ١٩٥٨) ، الكاتب اليهودى مارتين بوبر

(١٩٤٨)، الكاتب نورمان بنتريتشن : كتاب «من أجل صهيون» (١٩٥٤) ، العالم البرت أينشتاين ، الحاخام موشى مينوهين (١٩٦٩) ، المجلس الأمريكى للديانة اليهودية (مقتبسا فى صحيفة لوموند الفرنسية ١٩٦٠) ، صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية .

كل ذلك فى صفحات المقدمة القليلة ، ويستمر المنهج ذاته عبر مئات من الاقتباسات والأسماء المختارة بعناية فائقة فى فصول الكتاب جميعا . ومن المؤكد أن ذلك الجهد العلمى الفذ هو الذى جعل الأب بيير يصف الكتاب بغزارة العلم والتبحر . والأب بيير واحد من أبطال المقاومة الفرنسية وأشهر نصير للفقراء فى فرنسا ، وهو لهذا أكثر الشخصيات شعبية فى فرنسا ، أو هكذا كان إلي أن جرؤ على هذا التصريح ! .. وتلك مأساة أخرى .

فإذا كان الأمر كذلك ، والأقوال فى الكتاب أو معظمها هى أقوال الإسرائيليين وأصدقائهم ، موثقة فى كل مرة بالتاريخ والصفحة ، فما الذى يمكن أن يقولوه للتشهير بالكاتب والكتاب ؟

يمكنهم القول بطبيعة الحال إنه أخطأ فى فهم النصوص أو فى تحليلها . ولكن هذا سيقتضى من نقاد جارودى أن يعرضوا أولا القضايا التي يتناولها لكى ينقدوا بعد ذلك آراءه وتحليلاته . غير أن ذلك بالضبط هو ما قضوا أجيالاً من التعتيم والتزييف لكى لا يحدث . إذا ما أطلع الناس على نطاق واسع على وجهات النظر المناقضة لوجهات النظر الإسرائيلية ، وقد أقيمت عليها أدلة قاطعة فقد يتساءلون ويبحثون وقد ينحسر غسيل المخ الجماعى الذى قضى اللوبى الصهيونى فى فرنسا وفى غيرها عشرات السنين لكى يحدث ولكى تستقر الأكاذيب فى أدمغة الناس .

لم يبق إذن إلا قتل الكتاب إن لم يكن قتل الكاتب!

والسؤال هو : كيف ؟ .. وتحت يدى الآن مجموعة كبيرة من المقالات التى صدرت فى فرنسا وفى كندا والولايات المتحدة وسويسرا توضح للدارس بكل جلاء ملامح خطة موحدة وشاملة لتلافى الآثار الممكنة للكتاب ولقتل جارودى معنويا (على الأقل).

وسيتضح لكل إنسان أن هناك عقلا مدبرا وراء هذه الحملة.

(سواء كانت هى منظمة ليكرا أو غيرها فالامر سيان) . ذلك أن كل المقالات تكاد تكون فى الواقع مقالاً واحدا : تتبع منهجا واحدا ، وتكرر الأفكار نفسها ، من الصحف الشيوعية فى أقصى اليسار إلى الصحف اليمينية ، بل وحتى الفكاهية! .. يبدو فى جميع الأحوال أن الاجتهاد المتروك لأصحاب الأقلام هو صياغة الأسلوب ، أمّا الملامح العامة التى لم يخرج عنها أى كاتب فهى ما يلى:

١- عدم التطرق مطلقا إلى المضمون الفعلى للكتاب أو مناقشة منهجه أو القضايا التى يطرحها.

٢- حصر نقد الكتاب فى جزئية واحدة هى أن الكاتب يشكك فى الرقم الرسمى المعتمد لضحايا النازية من اليهود ، وأنه يطعن فى أحكام واستنتاجات محكمة نور برج (غير القابلة الطعن)!

٣- اختيار اسم واحد من بين عشرات الاسماء التى اقتبسها المؤلف ، هو اسم المؤرخ البريطانى دافيد إيرفنج ، والتركيز على أن هذا المؤرخ (الذى لم يرد ذكره فى الكتاب إلا مرتين فى اقتباسين لا أهمية لهما) هو مؤرخ من اليمين المتطرف وأنه قريب من النازيين الجدد ومعاد للسامية وانه مرجع أساسى للكاتب.

وتكفى هذه الكذبة وحدها ، وتكرار اسم دافيد إيرفنج من مقال إلى آخر ومن صحيفة إلى أخرى - لإثبات الطابع المنسق للحملة الذى صدرت فيه التوجيهات بكل تأكيد من منسق أعلى مجهول لتعميمه على كل وسائل الإعلام .

٤- تلويث اسم جارودى وسمعته ككاتب ، بإظهار أنه شخص متقلب فى أفكاره تحول من الشيوعية إلى المسيحية إلى الإسلام ، والتركيز بصفة خاصة على مسألة اعتناقه للإسلام ، مع الغمز بصفة مستمرة بأنه «متأسلم» Jslaimiste ، وهو مصطلح يعنى فى فرنسا التعصب الدينى ومعاداة الغرب والعداء للسامية (أى اليهود كيهود) .

٥- التلويح باستمرار بسيف العدالة وبأن جارودى قد خرج على القانون والاشارة إلى أن هناك قضايا مرفوعة ضده استنادا إلى قانون جديد صدر منذ سنوات قليلة يجرم نقد أحكام محكمة نورمبرج ، والتذكير بأن الكتاب ممنوع من التداول وبأن دار النشر التى طبعته محظورة (وهنا كذبة أخرى ، فدار النشر المذكورة مقيدة كما ذكرنا بمعنى أنها لا تطرح كتبها فى السوق ، بل توزعها على المشتركين فيها ، ولكنها غير محظورة) .

٦- فرض تعتيم على الكتاب والقضية خارج فرنسا ، والبلاد التى يمكن أن يصل إليها الكتاب رغم القيود المفروضة على توزيعه . وما كان لى أن أعرف تلك النقطة لولا أننى التقيت بكاتبين من كينيا والنرويج وفدا إلى مصر مؤخرا فى زيارة تتعلق ببحث القيود على حرية التعبير فى العالم . وأدهشنى أن أجد أن الكاتبين معاً لم يسمعا - مجرد السماع - شيئا عن هذا الموضوع ولا عن حرية التعبير المقيدة فى فرنسا!..

والخلاصة أن الإنسان يمكنه الآن بكل اطمئنان وراحة ضمير أن يجزم بأن حرية التعبير ضائعة فى الشرق والغرب معا خارج الفكر المؤسسى السائد.

أو هناك ما هو أفضل من ذلك الجزم - أن يجمع المثقفون فى هذا الوطن شملهم ، وأن يعلنوا بصوت موحد وقوى وقوفهم إلى جانب جارودى وإلى جانب كل مفكر يقع ضحية القمع والاضطهاد . وإذا ما فعلوها فسيجدون أن كثيرين فى العالم متعطشون إلى سماع هذا الصوت وإلى العمل معهم يداً واحدة لضرب كل أشكال الإرهاب الفكرى.

جـزء خـاص

رجاء جارودى

وحدود الخطاب الحضارى الغربى

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

تربطنى بجارودى علاقة خاصة للغاية، رغم أننى لم أقابله سوى مرتين فى (بغداد عام ١٩٧٧ ثم فى باريس عام ١٩٩٢) ، وتعود هذه العلاقة الى منتصف الستينيات حين سمعت عن مواقفه الشجاعة داخل الحزب الشيوعى الفرنسى ، وعن رفضه للنظام الشمولى السوفييتي وفضحه للاقتصاد الحر ولا إنسانيته . وكنت قد قرأت بعض ماترجم من كتاباته الى العربية ، ولكننى لم أدرك مدى أهميته كمفكر ثورى وإنسانى الا بعد ان قرأت بعض أعماله النظرية عن تطور فكر ماركس .

وقد شهدت الستينيات الضمور التدريجى للفكر الإنسانى (الهيومانى) الغربى وبداية ظهور الفكر المعادى للإنسانية الذى يزيح الإنسان عن مركز الكون ليأتى بعالم جديد مركزه البنية التى تتحدث من خلال الإنسان ولايتحدث هو من خلالها (البنيوية) او بعالم عبثى لا مركز له لايختلف كثيرا عن عالم السوفسطائيين والماديين القدامى (مابعد البنيوية وما بعد الحداثة) .

وقد تصدى جارودى لهذه الاتجاهات ، فكتب دراسة عن «البنيوية وموت الإنسان» وهاجم اتجاهات «ألتوسير» الذى كان يحاول «تخليص» الماركسية من نزعتها الإنسانية لتصبح «علما» محضا لايختلف عن العلوم

الطبيعية الدقيقة ، وكأن الإنسان شيء بين الأشياء .

في تلك الآونة قرأت بعض أعمال جارودى عن أصول فكر ماركس فوجدت محاولة دائبة لاكتشاف وجه الماركسية الإنسانى ، وتأكيد دور الإنسان الفعال في صياغة المجتمع الإنساني ورفض الحتميات المادية التي «تحرر» الإنسان من الأعباء الأخلاقية وتعفيه من مسئولية الاختيار الحر ، ومن ثم تنهي وجوده المتميز كإنسان يختلف في جوهره عن الظواهر الطبيعية والمادية . ولعل هذا هو الذي دفعه الى اعتناق الاسلام في نهاية الامر ، بعد ان وجد الايديولوجيات اللادينية المختلفة تسقط في هوة الحتمية ، وتنفي الارادة الإنسانية .

ويبدو ان بحث جارودى الدائب وشجاعته الفائقة ورغبته في ألاّ تضيع الحقيقة هي التي دفعته لأن يصدر كتابه الأخير «الأساطير المؤسسية للسياسة الاسرائيلية». وقد اتهم الإعلام الغربي رجاء جارودى بالعداء للسامية (أي لليهود واليهودية) مع ان كتاباته لاتحتوى



على كلمة عنصرية واحدة وكتابه الأخير بالذات يؤكد ان الجريمة النازية جريمة لاتغتفر ، لافرق في هذا بين إبادة مليون او ستة ملايين ، وجارودي في موقفه هذا متسق تماما مع نفسه، فقد وقف ضد كل الاتجاهات التفكيكية المعادية للإنسان سواء كانت نظرية مثل ما بعد الحداثة او عملية فعلية مثل اقتصاديات السوق الحر والنازية . وانطلاقا من ولائه هذا للإنسان يرى جارودي أن من واجبه ان يعلن الحقيقة الإنسانية ، حتى ولو تناقضت مع بعض مسلماتنا ، خاصة اذا كانت هذه المسلمات تستند الى تحيزات ضالة وعنصرية خانقة . ويبدو أن العالم الغربي المتخندق داخل ذاته لم يعد يسمع سوى صوته ، ولم يعد يطيق اى شخص يتحدى مسلماته .

ومن ضمن المسلمات الآن الايمان بأنه تمت إبادة ستة ملايين يهودي على ايدي النازيين بشكل مخطط ومبرمج ، وقد ظهر في الخطاب الغربي الحديث مصطلح «إنكار الإبادة» وهو يشير الى أى كتاب أو مؤلف تجرأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين ، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي . وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور .

وقد صدرت في السنوات الأخيرة ثماني دراسات بأقلام دارسين لهم مكانتهم ، بعضها يثير الشكوك بخصوص أفران الغاز ذاتها ، وعملية الإبادة ، وبعضها يقلل من عدد اليهود الذين أبيدوا ، والبعض الآخر يدين اليهود من اعترافاتهم هم انفسهم في محاكمات نورمبرج .

● الإبادة النازية

وعلى هذا ، فإن قضية الإبادة النازية ، وهل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ، وعدد الضحايا من اليهود ، وهل عددهم يبلغ ستة ملايين بالفعل ام أنه أقل من ذلك بكثير ، هي قضايا خلافية ، فالدراسات التي سبقت

الاشارة اليها دراسات علمية ، بمعنى أنها ليست دراسات لا عقلانية تآمرية ترى أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم ، وإنما هي دراسات علمية ، ذات مقدرة تفسيرية معقولة ، تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول الى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير) إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات. وهناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين ولا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لاتدلل على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة . ولابد من الإشارة أن هناك دراسات كتبها علماء اسرائيليون يعبرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة ملايين !

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يهاجم هذه الكتب بشدة ، العلمي منها وغير العلمي ويشجبها بعصبية واضحة ويهيج ضدها بطريقة غوغائية ، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن ينكر الابادة أو يثير الشكوك حول موضوع الستة ملايين حتى لو كان من العلماء المتخصصين . ولعله كان من الأجدى أن يميز الاعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية ، وأن يخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادىء وان يطالب بفتح كل الملفات السرية والارشيفات الغربية والشرقية لنتبين مدى صحة هذه الأطروحات ، وقد أصبح هذا متيسرا بعد سقوط الاتحاد السوفييتي اذ اصبحت وثائقه متاحة للدراسة . ولعل حالة «ديمانجوك» الذي اتهم بأنه «ايفان الرهيب» الذي اشترك في ابادة اليهود وغيرهم في معسكر «تربلينكا» ، قد تكون مثلا على الخطوات المطلوب اتخاذها فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والاسرائيليون تبين أن ديمانجوك هو «ايفان الرهيب» ، وأصدرت المحاكم الاسرائيلية حكما ضده بالفعل ولكن ، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ، ظهرت وثائق تبين بما لايقبل الشك ان هناك شخصا آخر هو الذي قام بعمليات الابادة فأفرج عن «ديمانجوك» .

● إثارة الشكوك

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الاعلام الغربى والصهيونى ازاء عمليات اثارة الشكوك حول الابادة وعدد الملايين الستة، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية . ونحن نذهب الى ان الخطاب الحضارى الغربى له حدوده التى يفرضها على عملية الادراك . فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمى والتخصيصى، فقام باختزالها وفرض منطق غربى ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال نزعها من سياقها الغربى ، الحضارى والسياسى الحديث .

أ – بالنسبة للمسئول عن الجريمة : تخضع الابادة النازية لعمليتين متناقضتين :

★ يتم تضييق نطاق المسئولية الى اقصى حد بحيث تصبح الابادة النازية جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود .

★★ يتم توسيع نطاق المسئولية الى اقصى حد بحيث تختفى كل الحدود وتصبح الابادة النازية جريمة كل الأغيار بشكل مطلق ، أو جريمة كل من الألمان والأغيار ، أو الألمان باعتبارهم أغيارا ، أو الألمان بموافقة وممالأة الأغيار.

ب – بالنسبة للضحية : تخضع الابادة كذلك لعمليتين متناقضتين :

★ يتم تضييق نطاق الجريمة الى اقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهم)

★★ يتم تعميم الجريمة الى اقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود ، كل اليهود ، لا يهود العالم الغربى وحسب .

وبعد ان تم تعريف الابادة بهذه الطريقة، وبعد ان تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب، قام الغرب

بأيقنة الإبادة، اى جعلها مثل الأيقونة تشير الى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بخصوصها، فهى مصدر المعنى النهائى ، فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات، التى تشكل فهم الإنسان الغربى المسبق، شأنها فى هذا شأن مقولة «عبء الرجل الأبيض » فى القرن التاسع عشر، وشأن إحساس الغرب بمركزيته فى القرن العشرين أو الايمان بالتقدم المادى وتحقيق الذات باعتبارها الغاية النهائية لوجود الإنسان فى الأرض . والمسلمات هى الركيزة الأساسية للنموذج، فهى التى تحدد حلاله وحرامه ، وماهو مقدس وما هو مدنس . ومن ثم أصبح التساؤل بخصوص الابادة هو تساؤل بخصوص إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات ، ان شئت) وهو مالا يمكن لأى حضارة ، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله . وقد يقال أنهم فى الغرب ينتجون أفلاما تعرض بالسيد المسيح عليه السلام ، إن كانوا يفعلون ذلك فلم لايقبلون بفتح ملفات الإبادة ؟ والرد على هذا هو ان السيد المسيح لم يعد من ضمن المقدسات ، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك ؟

ولنا الآن ان نطرح السؤال التالى: لم تم تحويل الابادة الى ايقونة مقدسة، ومسلمة نهائية ؟ والاجابة عن هذا السؤال ستتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات الى عالم محفوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضارى والنماذج الحضارية ولذا سنحاول ان نقدح زناد الذهن وان نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقينى عال . ونحن ابتداء سنستبعد الصيغة الغربية الجاهزة للاجابة عن كل الاسئلة ، اى «اللوبى الصهيونى» او «المؤامرة اليهودية» او «النفوذ اليهودى» او مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تفسر كل شىء ، ومايفسر كل شىء لايفسر شيئا !

ونحن نذهب الى أن ثمة خطابا غربيا واحدا بخصوص الإبادة ، يتفرع عنه الخطاب الصهيونى الذى لايختلف عن الخطاب الغربى العام الا فى التفاصيل ، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة ، وعلاقة الواحد بالآخر

هى علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع . وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيونى فى تعميق الجوانب اليهودية وفي اضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة فالخطاب الصهيونى ، ينزع هو الآخر حادثة الإبادة من سياقها الحضارى والتاريخى الغربى ، كما انه يتلاعب بالمستوى التعميمى والتخصيصى ، فيحول واقعة الابادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها الى جريمة ألمانية أو جريمة الأغيار ضد اليهود . ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقا من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التى تسبغ القداسة على اليهود) يعمق من عملية التخصيص فتتحول الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية الى اشكالية غير إنسانية تستعصى على الفهم الإنسانى ، والى سر من الاسرار يتحدى العقل ، والى نقطة نهائية ميتافيزيقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ . والاختلاف هنا هو اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع ، اذ تظل هناك وحدة أساسية ، ولذا لايجوز فى الخطاب السياسى الغربى والصهيونى تشبيه إبادة اى أقلية بإبادة اليهود .

ويمكننا الآن ان ندرج بعض الأبعاد التى أدت الى أيقنة الابادة :

أ - يعيش الغرب فى اطار أن الإبادة جريمة ألمانية نازية وحسب ضد اليهود وليست جزءا من سلسلة الجرائم الإبادية التى ارتكبتها الحضارة الغربية ضد شعوب العالم ، وقد استقر هذا المفهوم وأصبح إطارا مرجعيا ينظر الإنسان الغربى إلى نفسه وإلى تاريخه من خلاله . ومن ثم فعملية الأيقنة تفصل هذه الجريمة عن نمط حضارى عام متكرر ولاتذكر هذه الحضارة بماضيها الإبادى، كما أنها تعفيها من مسئولية الجريمة النازية ذاتها .

ورغم ان الإبادة هى احدى ثمرات النازية فإن عملية ايقنة الإبادة (النتيجة) تصاحبها عملية عكسية تماما ، وهى عملية تهميش النازية (السبب) بحيث انحراف عن الحضارة الغربية . والتخلى عن هذا الاطار (بجانبيه المتناقضين) سيكشف فضيحة الحضارة الغربية ومسئوليتها عن

هذه الجريمة البشعة المنظمة وعن غيرها من الجرائم .

وفي هذا الاطار يمكن فهم الحرج الزائد الذي يسببه اكتشاف تورط كثير من الشخصيات الفكرية الاساسية فى الحضارة الغربية (مثل هايدجر) مع النازيين ، ومحاولة إخفاء هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق . فإبراز تورط هايدجر قد يشير الى تورط الحضارة بأسرها وقد يقوض المعنى الغربي المفروض على الإبادة.

ب - لايمكن انكار الدور الذي يلعبه شعور الغربيين بالذنب تجاه ماحدث لليهود على يد النازيين . ولكن الاحساس بالذنب هنا يوجه نحو الأيقونة (الفريدة التى تشير الى ذاتها) ومن ثم يتحول من إحساس خلقي عميق ورغبة في اقامة العدل الى حالة شعورية تدغدغ الاعصاب بل والى مصدر راحة ، اذ يمكن للإنسان الغربي ان يهنيء نفسه بأنه لايزال يمارس مثل هذه المشاعر النبيلة . ولذا بدلا من ان يحفز الشعورُ بالذنب الإنسانَ الغربى نحو التصدى لما يجرى فى العالم من عمليات إبادة (تقوم بها حكوماته او تقف موقف «الحياد» تجاهها) نجده يتجه نحو تأكيد تفرد الهولوكوست والمبالغة في أهوالها ، وبالتالى يتحول الحس الخلقي الى حس جمالى او حالة شعورية لا تترجم نفسها قط الى فعل فاضل ، الى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وأيقنة الإبادة بذلك تغطى على مايجرى من مذابح سواء فى فيتنام او البوسنة والهرسك او الشيشان او لبنان .

جـ - لكن الفضيحة الاساسية التى تغطيها عملية ايقنة الإبادة النازية هي الجريمة التى ارتكبتها الحضارة الغربية فى حق الشعب الفلسطيني الذي تم طرده من أرضه بموجب وعد بلفور وقرار هيئة الأمم المتحدة وبدعم كل الدول الغربية . فاذا كانت الجريمة هى حقا جريمة الألمان على وجه الخصوص او الاغيار على وجه العموم ، وضد اليهود على وجه العموم وضد اليهود وحدهم كما يدعى الخطاب الحضارى الغربي ، فلابد اذن من حلها على مستوى عالمى وألمانى ولابد ، من تعويض الضحايا اليهود وحسب

واهمال الضحايا الآخرين . ومن ثم ، يصبح من المنطقى أخذ (لا اغتصاب) فلسطين من «الأغيار» وردها «لليهود» بسبب الجرم الذى حاق بهم على يد هؤلاء الاغيار كما يمكن أخذ التعويضات من الألمان وتمويل المستوطن الصهيونى باعتباره المأوى الذى «عاد» اليه ضحايا الإبادة . واذا كانت الإبادة هى حقا جريمة موجهة ضد اليهود وحسب ، فإن المتحدثين اليهود هم وحدهم أصحاب الحق فى فرض المعنى الذى يريدونه على الواقعة، ويصبحون هم وحدهم أصحاب الحق فى التعويض .

ولهذا أصبح الخطاب الصهيونى يستند بشكل شبه كامل الى الإبادة النازية ، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند الى حادث الإبادة والشرعية عادة لاتستند إلا الى مطلقات ، لايمكن اخضاعها للتساؤل

ويميل كاتب هذا المقال الى القول بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لاشك فيها ، وأن أفران الغاز هى الأخرى حقيقة (ومن ثم لايمكن انكار الإبادة باعتبارها تصفية جسدية متعمدة) ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظل كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمى والوثائقى بل وتتطلبها، فهى موضوعات خلافية. وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض فى ان يضخمها او يقلل من أهميتها . فاذا كان الحياد الكامل مستحيلا فى مثل هذه الأمور (كما فى غيرها) فلابد، على الاقل، أن ننفصل الى حد ما عن الظاهرة موضوع الدراسة ونعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب باتاحة كل الوثائق السرية ، خاصة وان الموضوع اصبح موضوعا تاريخيا مر عليه اكثر من خمسين عاما وهذا ما حاول جارودى انجازه، فهو لم ينكر الإبادة ولم يقلل من حجم الجريمة النازية، وانما طرح بعض الاسئلة التى يمكن من خلالها فهم ظاهرة الإبادة بشكل أعمق وداخل حدودها الحقيقية فاتهامه بمعاداة اليهود هو شكل من أشكال الارهاب الذى يدل على خوف الغرب من الحقيقة وعلى عصبيته الزائدة ، والله أعلم .

أقـــوال معاصرة


أسامة الباز


مانديلا


وديع الصافي

● «التقسيم الماضي بين دول غنية تملك ودول فقيرة لاتملك، سوف يصبح تقسيما بين دول غنية تعلم ودول فقيرة لا تعلم..»

أسامة الباز مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية

● «اللامعقلانية زابت بصورة مؤسفة فى نسيج الثقافة المصرية

فؤاد زكريا

● «انا نجم سينمائي ولكن كمارلون براندو فى أيامه الأخيرة»

الشاعر السورى محمد الماغوط

● «مايمزق الوطن العربى بالفعل هو الجهل بامكانيات الوحدة»

الكاتبة العراقية آمال السعدى

● «اذا واصل حزب العمال السير على منوال التنازلات الحالي، فسيصبح قريبا الي يمين حزب المحافظين»

بول فلاين النائب العمالي البريطانى

● «مشهد المكسيك يبدو وكأنه حديقة أسطورية مسكونة بديناصورات سياسية وكائنات جديدة اكثر خطرا.. ديناصورات المخدرات»

الأديب المكسيكى كارلوس فوينتس

● «لايوجد أحد نجح في لبنان ابدا ، نحن حيتان كبيرة فى بحر صغير»

المطرب وديع الصافى

● «الثراء الحضاري ينبع من حوار الثقافات»

فيليب دوست بلازى وزير الثقافة الفرنسى

● «سيحين موعد رحيلي ، لكن النظام سوف يستمر ، سوف تستمر الحياة بعد ذهابي»

نلسون مانديلا رئيس جمهورية جنوب افريقيا

القفز على الأشواك

غرناطة

بقلم : د. شكرى محمد عياد

لم تنزلق رضوى عاشور إلى مستنقع البكاء السهل بالوقوف على أطلال غرناطة، ولم تدحرج وقائع الحاضر العربي المشين لتسقطها - كما يفعل لاعب البلياردو المتمرس - في فجوة الأندلس الرحيبة، ولا هي استعملت الرمزية الرثة لتعجن تراب الواقع بخميرة «الفن». «غرناطة»، رضوى عاشور هي غرناطة ذاتها، آخر الممالك الأندلسية الصغيرة حول آخر القرن الخامس عشر الميلادي - التاسع الهجري - وأشخاص الرواية ناس عاديون : رجال ونساء، شيوخ وشباب وأطفال، بينهم الغني والمستور والفقير، بينهم من يقاوم السقوط الأخير بما تملك يداه من قوة، وبينهم من يقاومه بالحيلة، وبينهم من يتناساه أو يتجنبه، منشغلا حينا بعواطفه الشخصية، وحينا بمطالب الحياة التي لا تنتهي.

فنحن أمام رواية واقعية تستحضر التاريخ بمختلف جوانبه، وأمام هذه الخلفية العريضة التي تشمل غرناطة بشوارعها وأسواقها وضواحيها، بمساجدها وبيوتها وحماماتها، والتي لا تغفل امتدادات الواقع التاريخي الجغرافي تارة إلى إيطاليا والمغرب القريبين، وتارة إلى ما وراء «بحر الظلمات» حيث هبط المغامرون الأوربيون على شعب وجدوا لديه الكثير من الذهب





رضوى عاشور

والقليل من الحرص، أمام هذا العالم الذى بدأ ينفتح بعضه على بعض من خلال الفتح والخداع والخيانة والقسوة والاستعباد، تتشكل المصاير الفردية لأناس كالناس الذين نعرفهم فى كل زمان ومكان، جهاد مستمر لتحقيق الذات، لا ينغلق أبدا بنهايات يصنعها الفكر المجرد، ولا ينفتح دون ضابط على عالم سديمى من صنع الخيال. ووراء هذه الحياة الجياشة تقف الكاتبة، لا تقول شيئا فى الظاهر، ولكنها تترك الرواية تقول، ولعل أهم ما تقوله هو عيشوا تاريخكم بعمق، لتصنعوا حاضركم ومستقبلكم بقوة .

● نقض العهود

فالإشارات التاريخية المتناثرة فى الرواية تذكر أبناء هذا العصر بأن الصراع بين الشرق والغرب، باسم الإسلام والمسيحية، امتد طوال العصور الوسطى، ومعنى ذلك أنه لم يكن فيه حادث واحد مفاجىء أو حاسم حتى سقوط غرناطة لم يكن هذا الحادث الحاسم، فقد كان أمام أهلها خيارات عدة: إما أن يبقوا فى وطنهم واثقين بعهد الأمان الذى أعطاه الفاتحون: ألا يتعرضوا لهم بأذى فى ممتلكاتهم أو دينهم أو أسلوب حياتهم (وهو عهد نقضوه فى أيام) وإما أن يلحقوا بالكثيرين الذين هاجروا من مدن الأندلس إلى الشاطىء المغربى وإما أن يعتصموا بالجبال ويدافعوا عن مجتمعاتهم الصغيرة بما ملكت أيديهم حتى تأتيهم النجدة من اخوانهم فى المغرب أو من العثمانيين فى المشرق أو من سلاطين المماليك فى مصر.

ولكننا نعلم أيضا أن هذه الخيارات الفردية، التى تؤلف النسيج الإنسانى للرواية، لم تمنع السقوط التاريخى للمجتمع الأندلسى، وما تلاه من صعود الغرب على حساب الشرق. وهذا التشابك بين حظوظ الأفراد ومصير المجتمع يدفعنا إلى مزيد من التأمل فى مسئوليتنا

القفز على الأشواك

التاريخية - فى الماضى والحاضر - قد يتجاوز حدود الرواية ولكنها تشير إليه أو تحوم حوله. فى الفصل الأول تحكى ما تناقله الناس عن اجتماع الحمراء الذى أقر معاهدة التسليم وكيف بكى أبو عبدالله محمد الصغير - آخر ملوك غرناطة - وقال إن الله كتب عليه أن يكون شقيا وأن يتم ضياع البلاد على يديه، وكيف طالب موسى بن أبى الغسّان برفض الاتفاق ولكنه لم يجد من يسانده فغادر القصر مغضبا، أما الآخرون فقالوا انه لا مفر من قضاء الله وأن شروط المعاهدة هى أفضل ما يمكن الحصول عليه، وبكوا ووقعوا. وفى حمام أبى منصور يدور نقاش أكثر حرارة الأغلبية معجبون بموقف ابن أبى الغسان وان كانوا يجهلون مصيره ولكن هناك أقلية ترى أن الملك لم يكن أمامه خيار آخر وأن قبول المعاهدة خير من أن تلقى غرناطة مصيرا كمصير مالقة التى عانت من الحصار حتى أكل أهلها البغال والحمير وأوراق الشجر ثم سقطت آخر الأمر.

يتحدث أهل غرناطة كما يتحدث الفارون من مالقة عن المدافع المباردية والألفاظ اللمباردية بأصواتها المرعبة وقذائفها التى تدك الأرض، فهل كانت هذه المدافع اللمباردية مفاجأة أيضا، وهل أصبح الاستشهاد فى معركة خاسرة، هو الحلم الوحيد الذى يليق بشرف المجاهدين الرافضين؟

الرواية التاريخية ليست تاريخا روائيا، بله أن تكون تاريخاً محضا، أو فلسفة للتاريخ.

● مسئولية الهزائم

ولكن «غرناطة» تدفعنا دفعا لأن نقلب صفحات التاريخ.

فقبل ثلاثة قرون تقريباً وصف أسامة ابن منقذ مدافع الصليبيين .. أو على الأصح مجانيقهم - التى ترسل قذائفها الثقيلة إلى أبعد مما يبلغه السهم. وبعد ذلك بسنوات قليلة حدث فى أثناء الحملة الصليبية الخامسة أن جنحت إحدى السفن المغيرة قرب دمياط فقام المصريون بتفكيكها فتبين لهم أنها مصفحة بالحديد بحيث لا تؤثر فيها النار ووجدوا فيها مسامير يبلغ وزن الواحد منها خمسة أرطال.

إذن فلم يكن تفوق الفرنجة فى الصناعة خافياً على المسلمين ولكنهم لم يحاولوا أن ينافسوهم أو يجاروهم فى «الصناعات الثقيلة»، وظلوا على اعتقادهم بأن الحصان هو حصن المحارب وأن السيوف والرماح والسهام هى عدة الحرب التى لا تغلب. فهل كان ذلك غباء أو غفلة منهم؟ إلى أى حد نعد مسلمى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر، فى المشرق أو فى المغرب، مسئولين عن الهزائم المتلاحقة التى أدت إلى ضياع دولة الأندلس خلال القرون الثلاثة التالية؟ وهب

أن الأسلاف غفلوا أو عجزوا، أفما كان على الأجيال التالية، وهى ترى بعيونها مصدر الخطر، أن تتدارك ما فات، وتحسب حساب المستقبل؟ .

فى أى لحظة من التاريخ اختل التوازن ، وما الذى جعل إحدى الكفتين ترجح، وجعل الأخرى تشيل ؟ أهى مسئولية فرد، أم مسئولية جيل، أم هى قوى تتجمع أو تتفرق، أنا هنا وأنا هناك، ولا شأن لها بإرادة البشر؟ .

هل كان للشعب اللومباردى الذى سكن شمال إيطاليا فضل على غيره من الشعوب، جعله يقيم مدنا مستقلة من مواطنين أحرار، تجار وصناع، تسبق النهضة الأوربية بقرنين أو أكثر، وتحول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة أوربية، منتزعة السيادة عليه من أساطيل العرب والبيزنطيين، أم هى موافقات التاريخ العجيبة، التى مكنت هذه البقعة المحدودة من الأرض أن تنعم بالحرية، بفضل المنازعات بين جيرانها الأقوياء الثلاثة : بابوية روما، وامبراطورية الجرمان، وملكية الفرنجة؟

● حكم التاريخ

إذن، كان لابد من أن تنهزم السيوف العربية أمام المدافع اللومباردية. هذا حكم التاريخ.

ربما كان حكم التاريخ أيضا أن يغادر



القفز على الأشواك

معظم الأمراء والكبراء العرب أرض الأندلس، بعد أن باعوا ممتلكاتهم للقشتاليين، السادة الجدد. ولعل التاريخ لا تهتز له شعرة حين يرى بعض هؤلاء الأمراء والكبراء العرب يدخلون فى دين النصارى، ويتسمون بأسماء قشتالية، ويندمجون فى طبقة الحكام الجدد. فقد ذرّ قرن عصر جديد، عصر القوميات. وأصبح الكثيرون من سكان أسبانيا المسلمون يشعرون أنهم مختلفون عن مسلمى الشرق، بل عن جيرانهم فى عدوة المغرب، بعد أن ذاقوا الأمرين من حكم المرابطين والموحدين!

ولكن هذا الشيخ الوقور الذى نسميه التاريخ يسكن فى الأعالى، ويتعامل مع النفوس كأنها أعداد صماء، وكأنه ينتقم منها، هى التى تظن أنها تصنع التاريخ! هناك أناس نقول عنهم باحتقار إنهم يركبون الموجة، هؤلاء هم الأشخاص الذين يتقدمون الصفوف الصماء، لا يعذبون أنفسهم بالسؤال عما يريده ذلك الشيخ الجليل، ولكنهم ينصاعون لأوامره، يوماً بيوم، إن قال شمالاً فهو الشمال، أو قال يمينا فهو اليمين، أو قال لهم دوروا على أعقابكم انقلبوا يهرعون.

ولكننا نظلم أى إنسان إذا قلنا إنه قادر على كل هذه البهلوانيات. لا يوجد إنسان واحد يستطيع أن يُعدِم إرادته حقا. لا يوجد الانتهازى الكامل ولا الصوفى الكامل، هناك فقط أشكال مختلفة، ومتفاوتة الدرجات، من العذاب الإنسانى.

ولكن التاريخ يسجل حصار المدن، ولا يسجل حصار الأرواح.

ربما بكى المجتمعون فى قصر الحمراء قبل أن يوقعوا على وثيقة الاستسلام، ولكنهم أمضوا أياماً أو شهورا - ولماذا لا نقول سنين ؟ - ينتظرون تجمع العاصفة. ربما خدعوا أنفسهم، ربما حاولوا الصمود بدون جدوى، ربما أضمر بعضهم الخيانة، وربما انتظر بعضهم الهزيمة النهائية كمخرج نهائى. أما الذين تلقوا الصدمة حقاً فهم شعب غرناطة.

أبو جعفر الوراق يبدو كمن أصابه مسّ، يسمع بنود الوثيقة من فم المنادى، يتبعه من مكان إلى مكان ليسمعها مرة بعد مرة، وكأنه لا يصدق. المعاهدة تمنح سلطات المدينة مهلة أقصاها ستون يوما حتى يسلموها للقشتاليين - ولكن أبا جعفر لا يصدق، «كان يجتهد فى تهدئة نفسه المطوّقة وهى تضرب بجناحيها مستريعة (كذا) على حد السكين، يكرر لها : غرناطة محروسة وباقية» (ص ١١) .

ولم يمض من مهلة الستين يوما إلا سبعة وثلاثون حتى جلس القشتاليون فى الحمراء، فارتفع فوقها صليب فضى، وعامل المحتلون شعب غرناطة بشىء من الرفق أول الأمر، ولكن المدينة أخذت تفقد لونها وطابعها، وخصوصا حين يطوف بها

موكب الجنود بموسيقاهم وأزيائهم الغريبة، وتعود أبو جعفر أن يخرج من بيته عند الفجر ويظل يطوف بالمدينة حتى يصلي الظهر في المسجد الجامع ثم يقصد إلى حانوته الذي أصبح العمل فيه قليلاً. وهل عاد في غرناطة أحد يهتم بقراءة الكتب أو تجليدها وتزيينها؟

● سقوط الرجل المؤمن

سبع سنين مرت على الاحتلال، لا يبالي أبو جعفر بضيق الحال بل يصر على تعليم حفيديه سليمة وحسن، كل ما بقي له من أمل في الدنيا بعد موت ابنه الوحيد. يكاد لا يشعر بما يجرى حوله، ولا بمرور السنين، إلى أن ينادي المنادي يوماً بأن حامدا الثغرى، بطل المقاومة الذى وقع أسيرا فى جبال مالقة، سوف يفرج عنه، وأن الأهالى يمكنهم أن يروه بأنفسهم في باحة كنيسة سان سلفادور (التي كانت مسجدا) ويسمع أبو جعفر النداء، ويسمعه مساعده سعد، الفتى الذى جاء هاربا من مالقة بعد أن قتل أبوه وسبيت أمه وضاعت أخته، ويسمعه جارهما أبو منصور الحمامي. هل كان غريبا أن يتأثر هذان الرجلان الكبيران بكلام الفتى الذى يلح في ضرورة الذهاب إلى هذا الاحتفال، فالثغرى بطل قومي، ولا يصح أن يخرج من أسره الطويل عاريا من أهله وناسه. «سنخرج به من ساحة المسجد محمولاً على الأعناق كما يليق به وبنا».

حين يقاد حامد الثغرى بادي الذل، في أسمال وقيود، حتى يقف أمام الكردينال المتربع على كرسي كبير فخم، يكاد الناس لا يصدقون أنه هو، لولا أن يتعرف عليه رجل من مالقة. وحين يعلن حامد أن هاتفا جاءه بالليل يأمره أن يتنصر تسيل الدموع من عيني أبى جعفر، ويحاول سعد أن يقنعه بالخروج ولكنه يأبى إلا أن يبقى حتى يشهد منظر التعميد، وقد أصبح اسم حامد الثغرى الآن جونزاليز فرنانديز زجرى.

وما هى إلا أيام حتى يسرى الخبر بين الناس أن القشتاليين يجمعون الكتب من المساجد والمدارس، فينقل الوراقون ما في خزائنهم من الكتب إلى أماكن آمنة. أما الكتب التى جمعها القشتاليون فقد احرقت في ساحة عامة، وكان أبو جعفر يحدق في المشهد ذاهلا، لا ينطق بكلمة. ولكنه حين أوى إلى فراشه فى تلك الليلة قال لزوجته:

سأموت عاريا ووحيداً لأن الله ليس له وجود!

هكذا سقط الرجل المؤمن الجليد كما سقطت غرناطة.

أما الصغار فيكبرون في الوطن المحتل، وتخفق قلوبهم بالحب، ولكنه حب محاصر بالخوف. ويعرف بيت أبى جعفر بعض الأفراح، ولكنها أفراح متكتمة. فقد كان عليهم أن يمارسوا شعائر الزواج والميلاد والطهور كما يمارسون شعائر الوفاة سرا. تزوجت سليمة من سعد الذى كان يكبرها بست سنوات، وأقام معهم في دار أبى جعفر، وتزوج حسن مريمة التى

القفز علي الأشواك

رآها مع أبيها وأخويها يعزفون الموسيقى في خان، وسأل عنهم فعرف أنهم كانوا ينشدون الأغاني الدينية في الحفلات والمواسم قبل أن يستولى القشتاليون على غرناطة. وبعد أن أغلق حانوت أبي جعفر كان على مساعديه سعد ونعيم أن يبحثا عن أعمال أخرى، استقر سعد في العمل مع إسكاف أما زميله وصديقه نعيم فقد التحق بخدمة قس قشتالي، وأثمر تعليم أبي جعفر لحفيديه فعمل حسن مع كاتب عقود وراحت سليمة تمارس علاج المرضى مستعينة بعدد قليل من الكتب خبأتها في صندوق مريمة.

● أسوار الخوف

لم يكن أهل الدار يشكون الفقر، ولكن الخوف أقام بينهم أسواراً، وأسراراً، لم يعد الخيار الجماعي ممكناً، فأصبح كل يختار لنفسه، والخيار يزداد صعوبة بمرور الزمن، والزلزال الذي هز كيان الأمة يصدع جدران البيت.

حسن، الذي يعد نفسه مسئولا عن الأسرة بعد وفاة أبيه، يرى من واجبه أن يبعد الشبهات عن أهل البيت، وإن حرص على تعليم الأطفال اللغة العربية وفرائض الدين، وحين تفرض السلطات التنصر على جميع العرب يكون من رأيه أن يهاجروا، ولكن أم جعفر – جدته ترفض أن تغادر بلدا فيها بيتها وقبر زوجها ، وزوجته مريمة تقول إن الإيمان في القلب لا تغيره المظاهر ولا الأسماء، فيبقون، وحين تموت جدته يدعو القسيس ليصلي عليها. وحين يشعر بأن زوج أخته على اتصال بالثوار يحاول منعه، فيضطر سعد إلى ترك المنزل، وحين يصمم أخوا مريمة على دفن والدهم بالطريقة الإسلامية ويكتشف أمرهم ويحكم عليهم بالسجن، لا يسمح حسن باستضافتهم بعد انقضاء مدة العقوبة.

أما سعد الذي لا ينسى ما أصاب أسرته في حصار مالقة وبعد سقوطها فلا يمكنه أن يقف موقفا سلبيا من المجاهدين الذين يعتصمون بالجبال ويساعدون المغيرين القادمين من عدوة المغرب، ولا يلبث أن ينضم إليهم. وأما نعيم الذي ازداد شعوره بالوحدة بعد أن ناهز سن الأربعين دون أن يوفق للعثور على زوجة في مدينة غرناطة كلها، رغم جهود أم جعفر، ورغم أن قلبه كان يهفو إلى كل فتاة يصادفها، فقد ترك البلاد كلها ورحل إلى العالم الجديد مع مخدومه القسيس، وهناك التقى بامرأة قتل الغزاة زوجها، فاقترن بها وعاش مع قومها.

وكانت مريمة بارعة في خداع

السلطات، تساعد جاراتها، وتنقذهن من المزق، وتجعلهن يضحكن من الطفاة، ونادرا ما تذهب إلى الكنيسة، كما كانت سليمة تعالج المرضى من الأطفال والنساء، وكان لغز الموت الذى حيرها منذ وفاة أبيها وهى طفلة حتى وفاة بكرها وهو رضيع يدفعها الي التفكير في اسرار الروح والبدن ، وخصوصا حين عثرت على قصة «حى بن يقظان» بين الكتب القليلة التى استنقذتها من ثروة جدها. .

فى حياة المرأتين : مريمة وسليمة نرى جيلاً جديدا من النساء يختلف عن الجدة والأم. جيل لم يعد يعيش للرجل، رجلهن، وحده إنهما تمنحان الأبناء جل اهتمامهن، وتساعدن نساء الحى، الأقل ذكاء أو علما، فى مهمة المحافظة على الحياة - وحتى شيء من السعادة، وسط الخطوب المتلاحقة. يعرفن فى الرجل الإنسان، الصديق، لا «الذكر» فحسب، ولا السيد، وربما ضاق الرجل بهذه الاستقلالية، كما ضاق سعد بانشغال سليمة فى كتبها وعقاقيرها، ولم يعد يعرف كيف يحبها، ولكنها أحبته حباً عميقا حين أمضت معه ليالى الزفاف الأولى تستمع إلى قصته عن محنته ومحنة أهله، وظلت تحبه في غيابه، حتى إذا هبط عليهم زائراً بعد ثلاث سنين فى الجبال منحته حبها شهدا صافيا، مريمة لم تبعد عن زوجها بالجسم ولكنها لم تعد ترضى عن أفعاله، لم يعجبها حين خاف أن يؤوى أخويها ، ولم يعجبها حين زوج بناتها فى أسرة ثرية فى بلنسية البعيدة . ولعلها شعرت أنه يبحث عن لذة الجنس خارج بيته ولكنها لم تبال. وأصبحت صداقتها لسليمة هى التى تجعل لحياتها فى المنزل الكبير طعما.

وسليمة التى كانت ترى نفسها بنت أبى جعفر لم تكن مثله فى إيمانه. كان إيمانها مليئا بالتساؤل. ولكنها حين كانت تسير إلى المحرقة لم تتزعزع أحشاؤها، بل كانت تقول لنفسها : العقل فى الانسان زينة والكبر في النفس جلال. بإمكانها آن تمشى الآن كانسان يملك روحه وإن كان يمشى لنار المحرقة. وكانت مريمة تحكي هذه الحكاية لعائشة الصغيرة التى لم تعرف أمها :

«فى السماء يا عائشة شجرة كبيرة تحمل أوراقا خضراء بعدد أهل الأرض كل أهل الأرض، الصغار والكبار، البنات والبنين، من يتكلمون العربية مثلنا ومن لا يتكلمونها. شجرة كبيرة يا عائشة تتساقط منها أوراق وتنبت أوراق بلا توقف، وفى ليلة القدر من كل سنة تزهر الشجرة زهرة غريبة عجيبة. وفى تلك السنة التى حدثت الحكاية فيها أزهرت الشجرة ....».

ماذا حدث للمصريين؟

دفاع عن الشخصية المصرية

بقلم : د. أحمد أبو زيد

منذ بضع سنين ، اهتمت إحدى المؤسسات الأكاديمية بدراسة الأوضاع التى تحيط بالإنسان المصرى وتعرض ملامح ومقومات شخصيته وتحديد الجوانب السلبية ونواحى الضعف التى تعانى منها هذه الشخصية وأسباب ذلك الضعف وأساليب معالجته والتغلب عليه . والملاحظ هنا أن الاهتمام كان موجها الى تحديد الجوانب السلبية أكثر من معرفة النواحى الإيجابية فى تلك الشخصية لتقويتها والإفادة منها. وربما كان ذلك راجعا الى حد ما على الأقل الى تردد الأحاديث والكتابات عن تلك الجوانب السلبية ، وكثرة الاتهامات التى كانت توجه الى الانسان المصرى ووصفه بالسلبية والتواكل أو الاتكالية ، واللامبالاة وعدم الشعور بالمسئولية وانعدام الانضباط فى السلوك والتسيب فى العلاقات والقيم ، الى جانب اتهامه بالخضوع والخنوع والنفاق والتهور وعدم الجدية فى العمل وضعف الشعور بالولاء والانتماء والبعد عن النظرة العلمية فى معالجة أمور الحياة والإغراق فى الخرافات ، وغير ذلك من الاتهامات التى تؤلف قائمة طويلة يصعب ذكرها هنا ، إن كان ثمة مايدعو على الإطلاق لذكرها .

ومع ذلك ، فإن هذه الدراسة كانت تهدف في آخر الأمر الى الإفادة من تحديد تلك الجوانب السلبية في اقتراح وضع سياسة شاملة لتنمية الانسان المصري وقد استخدمت تلك الدراسة مصطلح «تنمية الانسان المصري» قبل أن تشيع عبارة «التنمية البشرية» بسنوات ، على أساس أن الانسان هو العنصر الأساسي في حياة المجتمع ، كما أن كل مشروعات التنمية ومحاولا ت الاصلاح تهدف الى الارتقاء بالانسان الذي هو أداة التنمية ووسيلتها وهدفها في الوقت ذاته .

وقد شارك في البحث عدد كبير من الباحثين والعلماء المتخصصين في عدد من فروع المعرفة ، كما انفقت عليه أموال طائلة - بتقديرات الفترة التي أجري فيها البحث ، وظهرت بعض النتائج في شكل تقارير قوبلت بارتياح وإعجاب وتقدير ، ثم حدث أن اختفى من الميدان بعض المشتغلين في البحث لظروف خاصة بهم ، كما صرفت هموم الحياة ومشاغلها البعض الآخر عن العطاء ، وفترت همم بعض الآخرين ، وبرز على السطح كثير من النقاد والمتشككين في جدوى البحث ، وانكمشت الميزانيات المخصصة ، ثم توقفت مما أدى الى توقف البحث تماما بحيث لم يعد أحد يسمع عنه. وأصبحت قصة البحث نفسه مؤشرا على أحد جوانب الشخصية المصرية التي قام البحث لتحديدها وتشخيصها ومعالجتها. وهذا الجانب هو التحمس الشديد الذي قد يصل الى حد الاندفاع ، والذي تليه فترة هدوء وتكاسل وفتور ، ثم الانصراف التام عن الهدف المنشود ونسيانه كلية ، والمفارقة التي تبلغ حد السخرية هنا ، هي أن البحث الذي كان يهدف الى دراسة الجوانب السلبية في الشخصية المصرية راح هو نفسه ضحية تلك الجوانب نفسها.

● درجة عالية من التقدير

ولكن على الجانب الآخر ، وفي فترة زمنية غير بعيدة عما حدث لبحث الإنسان المصري الذي كان يطلق عليه اسم «إعادة بناء الإنسان المصري» أتيح لي أن أقوم بمهمة علمية لإحدى الهيئات الدولية حملتني الى بعض مناطق إفريقيا وإلى منابع النيل ، وهناك صادفت مالم أكن أعرف عنه مسبقا الشيء الكثير ، وأعني بذلك وجود عدد من مهندسي الرّي المصري وزوجاتهم وأولادهم يعيشون في شبه عزلة عن العالم الخارجي حيث تحيط بهم الأدغال الأفريقية الكثيفة وقد ذهبوا لتنفيذ بعض مشروعات الري الكبرى ومراقبة حياة النهر العظيم ومتابعة أحواله وتقلباته وتصرفاته كما لو كان كائنا حيا . وكانوا يباشرون عملهم في إيمان وإخلاص ويستمتعون بحياتهم الصعبة الشاقة ويكشفون عن درجة عالية من تقديس العمل وتقدير الرسالة التي يحملونها ، وهي نفس الرسالة التي حملها منذ آلاف السنين أوزيريس إله الخصب والزرع والنماء وباعث الحضارة. وهذا النمط من السلوك الذي يرتبط بدور حيوي يقوم به هذا الفريق من العاملين المخلصين المجهولين هو الذي يعبر عنه الدكتور

حسين فوزى فى كتابه الشهير (سندباد مصرى) حين يصف المصريين بأنهم صناع حضارات وليسوا صناع حروب ، ولم يكن حسين فوزى يعنى بذلك أن المصريين غير قادرين على الحرب أو أنهم يفتقرون الى الشجاعة والوطنية ، فتاريخ مصر ملىء منذ القدم بالحروب سواء للفتح والغزو أو للدفاع عن الوطن ، وكان للمصريين فى بعض الأوقات امبراطوريتهم الواسعة، ولكن كان يقصد أن للإنسان المصرى رسالة واضحة ومحددة كان ولايزال يحملها خلال كل تاريخه فى إيمان وصدق وإخلاص ومثابرة وإدراك للمسئولية والقدرة على الأداء وهى صورة تختلف تماما عن الصورة التى تبدو راسخة فى أذهاننا عن الإنسان المصرى ، والتى كانت وراء تلك الدراسة التى أشرنا إليها فى بداية هذا المقال .

***

هذا الاختلاف بين الصورتين المتزامنتين تقريبا يدعو الى التساؤل عن أسباب مثل هذا التناقض الصارخ فى موقف الإنسان المصرى من الحياة والعمل والعلاقات الانسانية والقيم التى تحكم السلوك والتصرفات . وقد يمكن رد الاختلاف الى الظروف السائدة التى تؤثر بغير شك فى اتخاذ المواقف وتشكيل النظرة الى الأشياء ، والرأى السائد على أية حال – وهو رأى يعتمد على المشاهدة البحتة وليس على الدراسة الميدانية الدقيقة ـ أن الانسان المصرى يبدى كثير ـ من الاهتمام والالتزام فى السلوك والعمل فى المجتمعات الأجنبية التى قد تحمله الظروف الى أن يعمل فيها وأن صورته العامة فى هذه المجتمعات بعيدة تماما عن الصورة التى يوصف بها سلوكه فى مجتمعه المصرى من سلبية ولا مبالاة وتهاون واتكالية الى آخر تلك القائمة الطويلة من الخصائص السلبية وقد يكون للشعور بالأمان والاطمئنان النسبى داخل المجتمع الوطنى دخل فى ظهور تلك الجوانب السلبية خاصة مع شيوع التراخى فى المتابعة والمؤاخذة والحساب .

ومهما يكن السبب فمن الواضح أن سلوك الإنسان المصرى بعيدا عن مصر – مع وجود استثناءات كثيرة بغير شك – يحكمه الالتزام بقيم العمل مع مراعاة تقاليد ونظم المجتمع الذى يعيش ويعمل فيه، ولا يعتبر ذلك مؤشرا على الضعف أو الجبن كما قد يتوهم البعض ، وإنما هو أمر إيجابى يحسب له ، ودليل على الاعتداد بالرسالة التى يؤديها من خلال العمل وهو بذلك يعتبر علامة على الشعور بالقوة الذاتية الداخلية التى تمثل الفارق الجوهرى بين صانع الحضارة التى تقوم على الفهم ونضج التفكير وحسن الإدراك والتقدير ، وبين صانع الحرب الذى يثير الفتن والقلاقل والخصومات وينضم الى المؤامرات ، ولايكاد يرى فى الحياة إلا

أنها مجال الصراع والتآمر والاقتتال ، ولايكاد يعرف من مظاهر القوة سوى الجانب الفيزيقي القائم على العدوان ، ولكن هذا كله لايجيب على التساؤل عن أسباب ظهور تلك الجوانب الايجابية حين يقيم الانسان المصرى فى مجتمع غير مجتمعه الوطنى بينما تختفى ولو الى حد من سلوكه داخل الوطن . وذلك إذا نحن قبلنا وسلمنا بوجود كل تلك الجوانب السلبية التى نحب إلصاقها به .

●تعذيب الذات

وللمصريين ولع غريب بإبراز عيوبهم وتضخيمها بشكل مبالغ فيه ، كما أن ثمة ميلا واضحا بينهم للحديث عن بعض الجوانب السلبية فى سلوكهم على انها خصائص مميزة للشخصية الأساسية المصرية واعتبارها من ثوابت هذه الشخصية. وهذا الميل الذى يكاد يصل الى حد الرغبة فى تعذيب الذات وإيلامها يظهر فى كتابات عدد كبير من الكتاب والمؤرخين المصريين الذين تعرضوا فى كتاباتهم لمقومات الشخصية المصرية وخصائص وصفات الإنسان المصرى ، ويكفى أن نشير هنا – على سبيل المثال – الى المقريزى الذى كتب فى القرن الخامس عشر فى الجزء الأول من كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والمشهور باسم «الخطط المقريزية» حيث يقول عما يسميه «أخلاط المصريين» إن بعضها شبيه ببعض ، لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستمالة والتنقل من شيء الى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة عن العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعى الى السلطان وذم الناس. وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة النفس» ، ولكنه يستدرك مع ذلك استدراكا يؤيد ويؤكد رأيه فيهم إذ يقول : «وليست هذه الشرور عامة فيهم ، ولكنها موجودة فى أكثرهم» .. وليست هذه القائمة من المثالب التى يذكرها المقريزى سوى بعض مايتردد بيننا نحن أنفسنا حتى الآن مما يؤخذ على أنه من خصائص ومقومات الشخصية المصرية ، ولكن المفارقة هنا هى أن المقريزى يصل به الأمر الى أن ينفى الصبر عن أبناء وأحفاد «أم الصابرين» الذين يحمل الكثيرون منهم أسماء مستمدة من صفة الصبر نفسها (صابر وصبرة وصابرين وعبد الصبور وغيرها) ، ولكنه كما قلت هو ولع المصريين – أو بعضهم – بإلصاق كثير من المساوىء والعيوب الى أنفسهم . وللدكتور محمود عودة كتاب طريف نشرته له وزارة الثقافة (المجلس الأعلى للثقافة) بعنوان «التكيف والمقاومة : الجذور الاجتماعية والسياسية للشخصية المصرية» يذكر فيه كثيرا من آراء الكتاب والأدباء والمفكرين والمؤرخين عن خصائص ومقومات ، تلك

الشخصية ، وكثير منها يبرز الجانب السلبي . ولكن للدكتور السيد الأسود كتاب آخر عن «الصبر فى التراث الشعبي المصرى : دراسة أنثربولوجية» يذكر فيه مايكفى للرد على المقريزى العظيم - فى هذه الجزئية بالذات .

والغريب أننا نجد على الجانب الآخر عددا من الكتاب الغربيين الذين جاءوا الى مصر فى فترات مختلفة من تاريخها الحديث والمعاصر ، كانوا أكثر تعاطفا مع الإنسان المصرى والشخصية المصرية ، وحاولوا أن يكشفوا عن الجوانب الايجابية فى السلوك والعلاقات والقيم ، وأحد هؤلاء الكتاب ، على سبيل المثال أيضا - جاء الى مصر مع بداية هذا القرن ليعمل مدرسا فى إحدى المدارس الثانوية ، ولكنه التحق بالبوليس الذى كان يسيطر عليه الانجليز أثناء الاحتلال البريطانى لمصر ، وشارك بالضرورة وبحكم عمله فى تفريق المظاهرات التى قامت فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى واستخدم كل وسائل العنف والقهر. ولكن هذا الضابط الانجليزى الذى يعرف باسم «البمباشى ماكفرسون» كان قد كتب فى إحدى رسائله لأحد أقاربه بعد وصوله الى مصر يقول : «أظن أننى سوف أحب المصريين ، إنهم شعب رقيق حلو الطباع ، ومظهرهم يدل على النبل ، ويبدو أنهم ينتمون الى نموذج من البشرية أفضل بكثير من نموذج الفرنسيين مثلا» وعلى أى حال ، فإن البمباشى ماكفرسون أحب - رغم كل شيء - مصر والمصريين وعاش فيها إلى أن مات ودفن بالقاهرة .

والأمثلة كثيرة ، ولا داعى للاستشهاد ، فإذا لم يكن ثمة مايدعو الى تعذيب الذات وتحقيرها ، فليس ثمة مايدعو أيضا الى تعظيم الذات والمبالغة فى رفع شأنها ، على أساس أو على غير أساس .

● مصر .. عالم ذهبى !

ومع ذلك، فهناك مايغرينى بأن أشير إلى مثال آخر مختلف عن ذلك تماما ، وهو مثال سيدة ارستقراطية بريطانية جاءت الى مصر فى القرن الماضى (١٨٦٢) للاستشفاء ، وعاشت فى الصعيد واختلطت بالطبقات الفقيرة التى كان الأجانب يترفعون عن الاتصال بها ، كان اسمها ليدى لوسى دف جوردون ، وكانت تكتب باستمرار لزوجها ، ووصفت له مصر بأنها «عالم ذهبى تغمره أشعة الشمس ... إنه ملىء بالرقة والدماثة» وعلى الرغم من إدراكها لما كان يعانيه المصريون تحت الحكم الاجنبى فإن «الناس لايزالون على ماكانوا عليه يتمتعون بجاذبية فائقة الى أبعد الحدود» وأن «الشيء الذى يسترعى الانتباه أكثر من غيره هنا هو روح التسامح التى ألمسها فى كل مكان .. ومازلت انتظر أن أرى ذلك التعصب الذى يتكلم (الأجانب) عنه كثيرا ، ولكننى لم أر حتى الآن أى

علامة من علاماته» وأن «ثمة أموراً كثيرة غريبة يصادفها المرء في الدين هنا ، فقد يصلي المسلمون في قبر مارجرجس (سان جورج) وفي مزار ستنا مريم وسيدنا عيسى» بل إنها تكتب لزوجها تقول «إذا كان هناك من يحاول أن يقنعك بأن كل حديث عن الحضارة في مصر هو مجرد لغو وهراء فارجو ألا تسمع إليه وأن تهزأ منه» وليس من شك في أنها افلحت في أن تتعرف على الجوانب (الايجابية) في حياة الإنسان المصري نتيجة لنظرتها الموضوعية بعد أن تحررت من نظرة الاستعلاء التي كان الأجانب ينظرون بها الى الأهالي وكثير من رسائلها يأخذ على الأوربيين بعامة ، والانجليز بخاصة، هذا الموقف المتعالي وينعته بالغباء ، لأنه – على أقل تقدير – لا يساعد الأجانب على فهم ذلك الشعب الذي قدر لهم أن يحيوا معه على أرض واحدة . ولذا فإنها أخذت على عاتقها منذ البداية أن تدخل الى ذلك المجتمع والى الثقافة الوطنية وأن تعيش عيشة الأهالي أنفسهم ، وبذلك أدركت أبعاد الشخصية المصرية في إيجابياتها وسلبياتها مع تغليب جانب الايجابيات على السلبيات .

***

هذا الاختلاف الكبير بين ما ينكره الكتاب والمفكرون والمؤرخون عن الشخصية المصرية يرجع في بعض أبعاده إلى اختلاف اهتمامات هؤلاء الكتاب حول الجوانب التي يريدون رصدها ، ولكنه يرجع من الناحية الأخرى إلى الميل إلى التعميم من الحالات التي يتم رصدها في واقع الحياة اليومية ، وهي كلها تفتقر في آخر الأمر إلى الدراسة المتعمقة المنهجية المنتظمة . إلا أنها على الرغم من كل شئ تكشف عن تعدد جوانب الشخصية المصرية كما تنعكس في حياة وسلوك الأفراد ، وهذا التعدد هو الذي يظهر في بعض الكتاب في شكل «ازدواجية الشخصية» أو ازدواجية المعايير . وهذه الازدواجية نصادفها في الكتابات التي تناولت شخصيات الشعوب والمجتمعات الأخرى ، كما هو الشأن مثلا فيما ذهبت إليه عالمة الانثربولوجيا الأمريكية الشهيرة روث بنديكت حين وصفت الشخصية اليابانية بأنها تجمع بين العنف والقسوة من ناحية والرقة وحب الجمال والروح الفنية الراقية التي تتمثل بوجه خاص في الاهتمام بالزهور وتنسيقها من الناحية الأخرى . ولكنها كانت أكثر تحوطا حين استخدمت مصطلحات اجتماعية وثقافية مثل بناء الثقافة اليابانية أو الصيغة العامة للثقافة اليابانية وما إليها من مصطلحات مستمدة بغير شك من دراسة الشخصية الفردية بعد تحويرها بحيث تتلاءم وتتفق مع أهداف الأنثربولوجيين وتميزها عن الدراسات السيكولوجية في مجال

الشخصية .

والمهم هنا هو أنه من الصعب ، بل ومن الخطأ والخطر أن نطلق الأحكام العامة الفضفاضة التي لا تستند إلى بحوث ميدانية دقيقة وعميقة عن الشخصية المصرية في عمومها . وقد تكون هناك بعض جهود في هذا المجال ، ولكنها حتى الآن ، وبقدر ما نعلم ، جهود فردية من ناحية، أجريت على عينة صغيرة ومحدودة من ناحية أخرى، ولذا جاءت الدراسات مبتسرة وقاصرة إلى حد كبير وإن كان الجهد يستحق التقدير .

وبصرف النظر عن المنطلق النظرى الذى يوجه مثل هذه الدراسات عن الشخصية المصرية إلى الاهتمام بها فلابد من أن يؤخذ دائما فى الاعتبار عدد من الأمور ، لعل أهمها هو ضرورة تعرف العلاقة بين التراث الاجتماعى والثقافى الشامل الذى يعيش فيه الأفراد ويتأثرون به بطريقة شعورية أو لا شعورية ، على اعتبار أن اختلاف ذلك التراث يؤدى إلى اختلاف أنماط السلوك السائد فى المجتمع، وإن كان هذا لا يمحو تماما كل الفروق المزاجية ، التى تميز الأشخاص بعضهم عن بعض داخل الثقافة الواحدة بحيث يصبحون جميعا نسخة واحدة ، متكررة .

● مظاهر السلوك

ولو كان لى أن أعود إلى الإشارة إلى ذلك البحث الذى قامت به تلك المؤسسة الأكاديمية منذ سنوات طويلة ثم توقف فى منتصف الطريق ، فإننى أود أن أشير إلى أنه جاء كنوع من الاستجابة المباشرة للاتجاه العام الذى كان يسود المجتمع المصرى - والذى لا يزال يسوده حتى الآن - من التحسر على الماضى وعلى القيم الضائعة وعلى التسيب ومظاهر السلوك السلبى ، والحاجة إلى علاج هذه الأوضاع التى تسئ إلى صورة مصر والمصريين ، ليس فى نظر الآخرين فحسب، بل وأيضا فى نظر المصريين أنفسهم . وما أشبه اليوم بالبارحة بل وبالأمس البعيد الذى سجله المقريزى منذ خمسة قرون . ولقد اتخذت تلك الدراسة (الإنسان) وليس المجتمع نقطة مركزية يدور حولها البحث وإن كانت أقرب ميلا إلى البحث عن (السلبيات) لعلاجها .

● البعد المكانى

وليس من شك فى أن مثل هذه البحوث يجب أن تركز على عدد من الأبعاد التى يلزم بحثها بعمق للوصول إلى نتائج محددة . فهناك أولا البعد التاريخى أو الزمانى ، وذلك على اعتبار أن الشخصية المصرية - أيا ما يكون المراد بهذا المصطلح ودون الدخول هنا فى تعاريج ومنعطفات ومنحنيات التعريفات المختلفة - هى نتاج لتفاعل عدد كبير من العناصر التى سادت فى المجتمع المصرى

لقرون طويلة ، وهى عناصر تتصل بالتراث الفرعونى والمؤثرات اليونانية والرومانية والقبطية .

وكذلك بالبعد الإسلامى والإفريقى والبعد المتوسطى والتاريخ الاجتماعى لمصر فى العصر الحديث وما طرأ على مصر من تغيرات نتيجة للاستعمار التركى والفرنسى والانجليزى ثم الاستقلال والحركات الوطنية الحديثة وظهور روح التمرد لدى الكثيرين وعدم الرضا الذى يتخذ أحيانا شكل اللامبالاة والبحث عن تحقيق أهداف ذاتية وشخصية بحتة . ثم هناك ثانيا البعد الجغرافى أو البعد المكانى المتعلق بايكولوجية المجتمع المصرى والخصائص الديموجرافية العامة وتنوع الثقافات الفرعية والجماعات العرقية الداخلة فى نسيج المجتمع المصرى والتى تتمثل فى بعض الجماعات المحلية المتمايزة. ثم هناك إلى جانب هذا كله ذلك التراث الضخم من الكتابات العلمية والأدبية والتاريخية والاجتماعية التى تناولت الإنسان المصرى فى مختلف مراحل التاريخ والتى حاول الدكتور محمود عودة الإحاطة بجانب كبير منها فى كتابه الذى أشرنا إليه . ولكن هذا كله لا يغنى أبدا عن الدراسات والبحوث الميدانية المركزة المتعمقة التى يجب أن تجرى على عدد من الشرائح الاجتماعية المختلفة التى تعطى فى مجموعها صورة متكاملة للإنسان المصرى . وربما كان هذا يتمثل فى مشروع بحثى كبير ورائد يهتم به المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية منذ سنوات عن النظرة إلى العلم فى المجتمع المصرى المعاصر ، وهو فى عمومه يحاول تجنب نواحى النقص التى عانى منها البحث القديم عن «إعادة بناء الإنسان المصرى» . ويزيد من أهميته أن يقوم ليس على رصد وتسجيل سلوك الأفراد ، وإنما يهتم فى المحل الأول بتعرف آرائهم وأفكارهم وتقويمهم هم أنفسهم لسلوكهم والقيم التى تحكم هذا السلوك من وجهة نظرهم الشخصية . وهذا خليق بأن يساعد على الوصول إلى فهم أعمق وأكثر إحاطة وشمولا للشخصية المصرية ومقوماتها وعناصرها الأساسية ، من تلك الانطباعات التى تخرج بها من الملاحظة البسيطة ومن الأسئلة المباشرة السريعة التى تغفل فى كثير من الأحيان التعمق فى دراسة المشكلة من كل جوانبها والتعرف على أبعادها المختلفة بما فى ذلك المبادئ الأساسية الذهنية التى تؤثر تأثيرا مباشرا فى تشكيل الأوضاع السائدة فى المجتمع وتشكيل سلوك الأفراد وتصرفاتهم والعلاقات التى تقوم بينهم وتعطى المجتمع صورته النهائية التى تعكس الينا الأساس لشخصية أعضائه وللثقافة السائدة فيه .

ماذا حدث للمصريين؟

إصلاح النظام القانونى والشخصية المصرية

بقلم : على فهمى

عرفت مصر النظام القانونى للشريعة الغراء منذ الفتح العربى الاسلامى وحتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . هذه المقولة صحيحة فى عموميتها ، بيد أن ثمة استثناءات قليلة عرفها النظام القانونى والإدارى المصرى على مر التاريخ الاسلامى ، إلا أن هذه الاستثناءات كانت تؤكد القاعدة العامة ، من أن الفقه الاسلامى وتخريجاته كان يسود الحياة القانونية جميعا .

فعلى سبيل الاستثناء ، كانت التشريعات الكنسية هى النافذة فى ميدان الأحوال الشخصية لقبط مصر ، على أساس من القاعدة الفقهية الشهيرة المطبقة لدى فتح المصر صلحا . كما أن ثمة شواهد حول تطبيق التشريعات الكنسية على الأوقاف القبطية . وحتى فى مجال الإدارة والمحاسبة ، فان السلطة الاسلامية إرتأت ترك القواعد التى كانت سائدة على ما هى عليه ، ضمانا لاستقرار المعاملات .

وجدير بالاشارة الخاصة؛ أن مصر قد عرفت - مبكراً - نوعاً من الاستقلال الذاتى عن مركز دار الخلافة ، منذ الدولة الطولونية تحديداً . ولقد انعكست هذه الذاتية المصرية على بعض جوانب الاجتهاد الفقهى (فى الفروع بالطبع دون الأصول العامة). ألم تر كيف غير الامام



محمد على



الخديو إسماعيل



د. السنهورى

الشافعي ، في بعض جزئيات مدرسته الفقهية بعد قدومه إلى مصر ؟ وألم تر كيف كانت اجتهادات الإمام الليث بن سعد مختلفة عن اجتهادات غيره من الفقهاء ؟ وإن كان لم يقدر لمذهبه الفقهي الذيوع لتقاعس تلاميذه ،على حد رأى الامام الشافعي . ونحن نعتقد أن هذا الاستقلال النسبي لمصر وهذه الذاتية ، قد جنبا المجتمع المصرى الكثير من مظاهر الفرقة التي عرفها العديد من أقطار دار الاسلام نتيجة الصراع المرير بين الفرق الفقهية والكلامية المختلفة. وحتى تحت الحكم الفاطمي ، فان المجتمع المصرى ظل متمسكا بالأصول السنية المعتدلة بدون صدام مباشر مع الآراء الفقهية والسياسية للسلطة الحاكمة. بل إن هذه السلطة لم تعمد إلى قهر مسلمي مصر على اتباع مذهبها الرسمي .

نخلص من هذا إلى أن الصورة العامة للاجتهادات الفقهية وللأحكام القضائية في مصر طوال العصر الاسلامى بمختلف دوله، كانت تميل إلى نوع من الاعتدال المتوازن أو التوازن المعتدل . بيد أن غروب شمس الحضارة الاسلامية وجمود الحلول الفقهية باغلاق باب الاجتهاد منذ القرن الرابع الهجرى ، كل ذلك قد ترك آثاره – بالسالب – على الصورة العامة للنظام القانوني والقضاء في مصر ، وبخاصة منذ الغزو العثماني لمصر (١٥١٧) ، الذى جعل مصر إيالة تابعة للباب العالي .

المحاولات الأولي للإصلاح القانوني فى مصر «محمد علي» .

بعد أن واجه العاهل «محمد علي» بنجاح – أهم تحديين كبيرين لسلطته ، ألا وهما : سلطان المماليك ونظام الالتزامات، فرغ هذا العاهل لرسم ولإنفاذ سياساته التحديثية الكبرى وفى الميدان القانوني

- تحديدا - واجهت «محمد علي» عقبات عديدة يمكن إدراجها تحت أمرين هما :

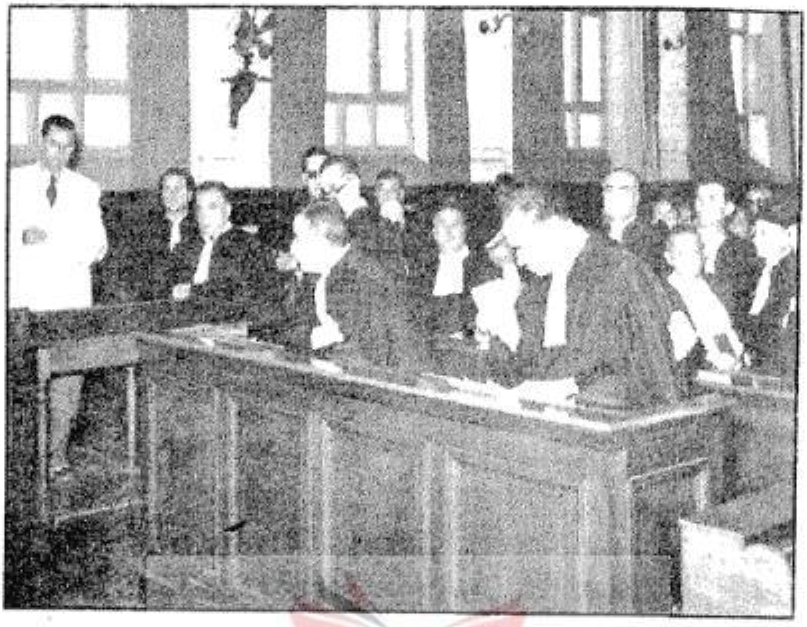
أولاً : تجمد الحلول الفقهية الفرعية ، وعدم قدرتها على مواجهة المستجدات الطارئة، في مجالات كثيرة يتطلبها التحديث ، مثل : تنظيم الري والزراعة وتحديث الإدارة والضرائب والنظم المالية ونحو ذلك . وقد يضاف إلى ذلك ، أن المؤسسة الدينية الإسلامية الكبرى في مصر (الأزهر الشريف) ، كانت قد بلغت حالة مؤسفة من التخلف والجمود والعناد. ومع ذلك نجح «محمد علي» ، في إصدار تشريعات خاصة بالزراعة وبالوظيفة العامة .

ثانيا : أن مصر ، وهي إحدى الولايات العثمانية ، كانت تلتزم - بالضرورة بالاتفاقيات الدولية التي يعقدها الباب العالي مع الدول الاجنبية في أمور التشريع .

وكان الباب العالي، منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر ، قد اضطر تحت تأثير الضغوط الدولية وبدايات ضعف الدولة العلية إلى أن يوافق - بمعاهدات ثنائية في البداية على منح رعايا دول أوربية عديدة، الكثير من الامتيازات القانونية والتي تتمثل في إعفاء هؤلاء الرعايا المقيمين في ربوع الامبراطورية العثمانية، من الخضوع للقانون العام الذي يقوم على الشريعة الغراء ، وأيضا من الخضوع لولاية القضاء الشرعي الذي يطبق هذا القانون العام . وقد ترتب على هذه الامتيازات للرعايا الأجانب نتائج خطيرة تخل بالمساواة المفترضة أمام القانون والقضاء، وتحمل معنى الخروج عن سيادة الدولة المضيفة. وإذ تكون مصر «محمد علي» إيالة عثمانية، فان نظام الامتيازات الجائر هذا ، كان مطبقا - بالتالي - في مصر . ولقد حاول «محمد علي» - جاهداً - أن يخرج مصر عن دائرة الخضوع للامتيازات الأجنبية . ونزعم أن هذه المحاولات - مع عوامل أخرى - كانت وراء توتر العلاقات بين «محمد علي» والباب العالي» . وليس أدل على هذا ، من أن معاهدة لندن (١٨٤٠) ، قد نصت صراحة - على خضوع مصر لنظام الامتيازات

الإصلاحات القانونية الكبرى في عصر إسماعيل وحتى الآن

وإذ نجح الخديو إسماعيل الذي حكم مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩)، في توسيع سلطاته بفرمانات خاصة من الباب العالي، فقد حاول التصدى لاشكالية الامتيازات الأجنبية في مصر ، عن طريق



المحاكم المختلطة (١٨٧٥)

مفاوضات عسيرة مع العديد من الدول الأوروبية، ثم باتفاقيات ثنائية الطابع وكان محور هذه الاتفاقيات ، أن تخضع العلاقات القانونية ذات الطرف الأجنبى لولاية نوع من القضاء المصرى سمى بالقضاء المختلط ، حيث يكون القضاة من مصريين وأجانب (يعتبرون موظفين لدى الحكومة المصرية) .

وقد اقتضى الأمر ، تشكيل لجان فنية على مستوى قانونى رفيع (من مصريين وأجانب) ، لوضع تقنينات حديثة مستهدية بأحدث التشريعات الأوروبية آنذاك ، وبخاصة المجموعات القانونية الفرنسية ذائعة الصيت ، وبذلك أمكن توحيد ولاية القضاء بالنسبة للأجانب في مصر ، بإحداث المحاكم المختلطة (١٨٧٥) ، والتى ظلت تعمل حتى عام (١٩٤٩) ، بعد الاتفاق على حلول القضاء المصرى الوطني محلها ، وفقا لأحكام اتفاقية مونترو لعام (١٩٣٧) .

وموازيا للتقنينات وللمحاكم المختلطة، شكلت لجان تشريعية رفيعة المستوى من كبار رجال القانون والفقه الاسلامى (من المصريين فقط) ، برئاسة شريف باشا

الفقيه القانونى المتميز وابن مفتى الاستانة . وقد أنجزت هذه اللجان أعمالها باصدار التقنينات الأهلية (الوطنية) ، لتغطى كافة العلاقات والميادين القانونية، فيما عدا ميدان الأحوال الشخصية والوقف. وقد صدرت هذه المجموعات القانونية الكبرى عام (١٨٨٣) . وفى العام نفسه، انشئت المحاكم الأهلية (الوطنية) ، من قضاة مصريين فقط، لتقوم بالفصل فى كافة المنازعات والدعاوى القضائية (خارج اختصاصات المحاكم المختلطة) ، وذلك وفقا لأحكام التقنينات الأهلية .

ويلاحظ أن هذه المجموعات القانونية ، قد تاثرت كثيراً بالمجموعات القانونية الفرنسية فى الأساس، وبالمجموعات البلجيكية بدرجة أقل ، مع تأثيرات إضافية من بعض الآراء فى الفقه الاسلامى.

وقد لعب القضاء المصرى أدواراً بالغة الأهمية في مجال التطبيق طوال هذه المسيرة الطويلة، لدرجة يمكن التقرير معها - بثقة - بأن هذا القضاء المجيد، قد طوع - باقتدار - أحكام التقنينات المصرية لظروف ومواصفات المجتمع المصرى. وقد أفاد المشرع المصرى كثيرا من الاجتهادات القضائية المتميزة هذه، في إجراء تعديلات كثيرة على التقنينات المختلفة. بل إن بعض المجموعات القانونية قد عدلت بالكامل (قانون العقوبات عام ١٩٠٤ ، وعام ١٩٣٧ والقانون المدنى عام ١٩٤٩ وقانون الاجراءات الجنائية عام ١٩٥٠) ويكفى الاشادة - بقدر من الزهو الوطني - بالمجموعة المدنية المصرية (١٩٤٩) ، التى استطاعت عبقرية أستاذنا العلامة السنهورى وزملائه ، المزج المحكم بين أبرع الحلول القضائية الوضعية وأبرع الحلول فى الفقه الاسلامى، فى نسيج قانونى متفرد ورفيع المستوى فى آن واحد.

كما لعبت الجهود الفقهية البارعة لأجيال متعاقبة من فقهاء القانون المصريين، أدوارا بالغة الأهمية على صعيد التعليق الفقهى على الأحكام القضائية والبحوث القانونية والفقهية الرصينة والشروح والتدريس وإصدار المؤلفات المطولة والوسيطة والوجيزة . كما لابد من الاشادة بالجهود الفقهية الدوبة لكبار المحامين المصريين جيلا إثر جيل ، فى إثراء الحركة القانونية والفقهية فى مصر . وقد يكون من المفيد ، مجرد الإشارة إلى الجهود العلمية المتواصلة فى النشر فى مجالات التشريع الوضعى والفقه الاسلامى ؛ فى بعض الدوريات الرصينة

على مدى عشرات العقود ، وقد نخص بالذكر منها، مجلة مصر المعاصرة التى تصدرها الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع منذ عام (١٩٠٩)، وحتى الآن . وكذلك مجلة القانون والاقتصاد ومجلة العلوم القانونية ومجلة «الحقوق» ، التى تصدرها جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية على التوالي، منذ عشرات الأعوام. وأيضا مجلة المحاماة التى تصدرها نقابة المحامين منذ زمن بعيد.

ونعتقد – على نحو علمي وموضوعي ووطنى – أن هذه الجهود الجليلة كافة ، قد أسفرت عن بناء قانونى مصرى شامخ رفيع المستوى . ويكفى هذا الصرح المكين لدى المحاجاة مع من ينادون العودة إلى تطبيق أحكام الفقه الاسلامى ! ، الذى نكن له تقديرا متميزا.

ولعل هذا المبحث أن يكون من أدق مباحث تاريخ القانون فى مصر باطلاق ! ذلك أننا نعتقد أن المسكوت عنه لهو أخطر بكثير من المعروف المذاع . فتزخر أدبيات تاريخ القانون المصرى بتقديم أسباب بمثابة الخلفيات لهذه الحركة البالغة الأهمية والخطورة جميعا ، والمتمثلة فى النقلة النوعية الكبرى للتشريع المصرى، من نطاق الشريعة الغراء إلى نطاق النظام القانونى الوضعى الحديث .

وتشير معظم هذه الأدبيات إلى أن هذه النقلة هى آلية من آليات سياسات التحديث والعصرنة التى انتهجها العاهل «محمد على» وبعض خلفائه وبخاصة «الخديو اسماعيل» . ومما يزكى هذا التفسير، أن محاولات تحديثية قد جرت فى الدولة المركز ألا وهى الدولة العلية (العثمانية) ، مثل إصدار خط «كلخانة» وحتى «المجلة العدلية» والمحاولات الفردية المتميزة لقدرى باشا .

كما تشير بعض هذه الأدبيات ، إلي أن الاصلاح القانونى والقضائى بمصر الحديثة ، قد قصد به قطع الطريق أمام خطورة الامتيازات القانونية والقضائية التى طالما حظى بها رعايا الدول الأوروبية فى ربوع الدولة العثمانية وإيالاتها العديدة، ومن بينها مصر . فباحداث القضاء المختلط ، يتم توحيد جهات «التقاضى للاجانب» ، والتي كانت موزعة – على نحو مسف بين القنصليات الأجنبية ووفقا لقوانين تتعدد باختلاف قوانين الدول ؛ مع ما فى ذلك من مفاسد ومخاطر لاتخفى . كما تشير بعض أدبيات التاريخ القانونى المصرى ، إلى ما اعترى القضاء من فساد فى الدولة العلية والايالات التابعة لها . ومن بين ما تقدمه هذه

الأدبيات أن الاجتهادات فى الفقه الاسلامي وقد جمدت منذ زمن طويل، فان الحاجة قد اقتضت إجراء هذه النقلة النوعية الكبرى من الشريعة الغراء إلى نظام القانون الوضعي، لمواجهة ما طرأ وجد من أمور الحياة الاجتماعية .

هذه هى الصورة العامة فى تلخيص وجيز - لأبرز الأسباب التى تقدمها أدبيات التاريخ القانونى لمصر الحديثة . بيد أن للصورة جانبا آخر ، أكثر عمقا وأكثر دراية. فبعض الأكاديميين المصريين قد اقتربوا كثيرا من الخلفيات الحقيقية المستورة ، والتى نراها هى الحاكمة وراء هذه النقلة التشريعية والقضائية النوعية الكبرى ولعلنا أن نخص بالذكر، أستاذنا الجليل «ثروت أنيس الأسيوطى» ، رد الله تعالى غربته فى شيخوخته، وأصدقاءنا الأجلاء «محمد دويدار ومحمد نور فرحات وحسام عيسى» . فلقد أشاروا وهم كوكبة لامعة من أجل علمائنا إلى الخلفيات الحقيقية الاجتماعية والاقتصادية لهذه التحولات الكبرى والخطيرة معا .

ولا مشاحة فى أن الأسباب (التي هى بمثابة خلفيات وحيثيات) لهذه التغيرات الكبرى فى الميدان القانونى والقضائى فى مصر ، والتى تقدمها غالبية أدبيات التاريخ القانونى المصرى ، هى أسباب حقيقية. فسياسات التحديث تقتضي هذه التغيرات، كما أن احتذاء خطى الدولة المركزية (العثمانية) يقتضي مثل هذا. ولاشك فى أن محاولة حصار الامتيازات القانونية والقضائية الجامحة للأجانب المقيمين يقتضى مثل هذا بيقين . وأيضا المفاسد التى إعتورت الجهاز القضائى فى مصر وغيرها من ربوع الدولة العلية، هي حقيقة تاريخية ناصعة.

بيد أن الأسباب والخلفيات المسكوت عنها، لهى - بالتأكيد - الأكثر فاعلية وأهمية . وبهذا الصدد، فنحن نعود بالقارىء إلى تلك النقلة القانونية الخطيرة فى ميدان ملكية الأرض الزراعية، والتى سبقت - بسنوات قلائل - حركة الاصلاح القانونى والقضائى بمصر .

فنحن نعرف أن مصر لم تعرف ملكية الرقبة على الأراضي الزراعية إلا فى العصر الحديث . وهى أى مصر ، وإن عرفت حقوق الانتفاع (التى قد تورث فى بعض الاحيان) ؛ عرفت أيضا نظام الوقف بشقيه الأهلى والخيرى . والوقف هو حبس العين على حكم ملك الله تعالى بحسب الشروح بالغة الدقة التى عرفها الفقه الاسلامى . غير أن تبدلا قانونيا واضحاً ، قد حدث على نظام الحيازة بالنسبة للأرض الزراعية منذ صدور «اللائحة



المحاكم الأهلية التى انشئت عام ١٨٨٣

السعيدية» الشهيرة في عهد «سعيد باشا» (١٨٥٩)، ثم فى تصاعد مثير بصدور «قانون المقابلة» فى عهد الخديو اسماعيل (١٨٦٨)، وأخيرا فى مجموعة القانون المدنى الأهلى (١٨٨٣)، والتعديلات العديدة عليه والتى توجت عام ١٨٩٢؛ بأن استقرت - لأول مرة فى التاريخ الاجتماعى الاقتصادى المصرى - حقوق الملكية الكاملة (الرقبة والمنفعة)، على الأراضى الزراعية فى مصر.

هذه الجزئية - بالتحديد - هى الأساس الحقيقى لكافة التحولات القانونية والقضائية التى حدثت فى مصر الحديثة كما أشرنا. فانفتاح المجتمع المصرى على أوروبا فى إطار سياسات التحديث، والثورة فى عالم المواصلات البحرية (البواخر)؛ كل هذا أدى إلى مزيد من الاتصالات المصرية الأوروبية، ومحاولة ربط الاقتصاد المصرى (المتخلف) بالاقتصاد الرأسمالى الأوروبى البازغ بآلياته العديدة. ومن ثم عرفت مصر تقاطراً مكثفاً من هجرات أوروبية كثيرة، ضمت - بالضرورة - بعض ممثلي المصارف وبعض المتمولين (وكل هؤلاء وأولئك ليسوا بعيدين عن الشبهات).

ونتيجة لاسراف وإبذخ الدولة من ناحية ، وللأزمات المتعاقبة الناجمة عن الاعتماد على محصول رئيسي في الصادرات المصرية (القطن) ، وتقلبات الأسعار والمضاربات في الأسواق العالمية، فان الحالة الاقتصادية للمنتج المصري (المزارع بالأساس) كانت شديدة التقلب وقد نجم عن هذا ، تقاطر المرابين الأجانب، لاقراض كل من الخديو والحكومة والمزارعين بفوائد ربوية باهظة، وبشروط مجحفة .

وإذ يكون ذلك ؛ بات من الضروري إحداث آليات قانونية لضمان حقوق هؤلاء المرابين من الدائنين . ومن الضروري أن تكون هذه الحقوق من قبيل الحقوق العينية، حتى يمكن للدائنين (المستندين إلى سلطان دولهم)، استيفاء حقوقهم قبل المدينين. ومن ثم تكون الملكية العقارية على الأرض الزراعية بخاصة ، هي الضمان القانوني لدى الوفاء بالديون؛ وذلك من خلال الآليات القانونية المعروفة: مثل حقوق الرهن والاختصاص والامتياز ونحو ذلك ومن ثم يتحتم تغيير النظام القانوني والقضائي بالكامل . وقد ترتب على هذه الدراما السوسيو اقتصادية خراب الاقتصاد المصري من ناحية ، وإفقار مطرد لجمهرة حائزي الأرض الزراعية ، وأخيرا وقوع المالية المصرية برمتها في أيدي الأجانب ؛ بل وحدوث الاحتلال البريطاني لمصر بالتعلل بحماية الأجانب وحماية حقوق الدائنين منهم (مصارف وحكومات وأفرادا) .

وعلى ضوء هذا ؛ فان ظاهرة التحديث القانوني والقضائي ، وإن كانت خطوة مهمة وضرورية، في سياق تحديث المجتمع المري ؛ إلا أنها - لاشك - كانت إحدى الآليات الضرورية لربط الاقتصاد المصري (المتخلف والهش)، بالاقتصاد الرأسمالي العالمي (الأوروبي آنذاك) .

وقد يحاج بأن الضمانات القانونية لضمان الوفاء بالديون، للجهات الدائنة الأجنبية وللأفراد ؛ كان يكفي بشأنها إقرار حق الملكية الكاملة على العقارات وبخاصة الأراضي الزراعية، بدون حاجة إلى إحداث تغييرات شاملة على النظام القانوني والقضاء .

بيد أن هذه المحاجاة لاتصمد أمام عدة حقائق معروفة . فالبناء القانوني في أي مجتمع وعلى مدى تاريخ الحضارة البشرية، هو بناء متسق متكامل لايصلح معه الأخذ بجزئيات من بناء قانوني آخر وترك بعض الجزئيات . وعلى الرغم من أن الفقهاء المسلمين الأوائل ، قد شادوا بناء قانونيا شامخا ومجيدا ، يفوق - في نظر الكثيرين من الباحثين القانونيين الثقاة والمحايدين - بناء القانون الروماني نفسه الذائع الصيت . فان تدهور البنيات السياسية بخاصة وبسرعة، لظروف تتعلق

بفردية الحكم المطلق وبتسلط العبيد (الأجلاب) ، على دوائر السلطة والثروة والحرب؛ كل هذا قد أسهم في جمود البناء الفقهي وتهافت فقهاء السلطان ، مما أدى في النهاية إلي الحركة المريبة بقفل باب الاجتهاد . وقد ترتب على هذا ، أن جدت على مستوى الحياة (اجتماعيا واقتصاديا)، أمور وتفاصيل ، لاتجد حلولاً حقانية في مدونات الفقه الاسلامي . ومن ثم ، كان من الملائم إطراح النظام القانوني القديم (فيما عدا بعض التاثر وفيما عدا بعض الميادين كالأحوال الشخصية والوقف) واشادة بناء قانوني وضعي مغاير .

وفي المثال المصرى، فإن الحلول الفقهية لم تكن بقادرة على مواجهة الجديد في نظام العلاقات الاجتماعية الاقتصادية، على ضوء بزوغ النظام الرأسمالي العالمي وألياته وتجلياته . لنأخذ أمثلة قليلة لمجرد الاشارة والتدليل:

نظام الفوائد في المعاملات المالية والمصرفية.. نظم التأمين العديدة. الضمانات القانونية للوفاء - أدوات الوفاء المحدثة ونحو ذلك . كما أن تطور وتعقد نظم المجتمع بما في ذلك المعاملات المالية والتجارية ، اقتضت حلولا إجرائية تقوم علي طرائق جديدة في الاثبات والتوثيق لم تعرفها حلول الفقه الاسلامي وقد جمدت منذ قرون عددا .

وحتى في المجال الجزائي (الجنائي والعقابي) ، فقد كانت العدالة في مصر وفي معظم الاقطار الاسلامية ، قد تحولت إلى أداة للقهر والبطش بخصوم السلطة ، لدرجة أن السلطان العثماني - نفسه - قد أمر بمنع تنفيذ الأحكام القضائية بعقوبة الاعدام ، مالم يفت مفتي الأستانة بجواز ذلك .

ونحن نعرف باستقراء العديد من أحكام المحاكم الشرعية في مصر بخاصة، وفي بعض الأمصار الأخرى كالجزائر ، كم كانت الكثير من الاحكام الجزائية جائرة ، وكم كان الفساد والرشوة يعتور العديد من مجالس القضاء والشهود .

وإذا يكون ذلك؛ كان من المنطقي وقد طرأت المتغيرات المتعلقة بالسوق الرأسمالي والمعاملات الرأسمالية ، أن يعمد المشرع المصرى في سياق السياسات التحديثية ، إلى القيام بهذه الحركة الاصلاحية الكبري في ميدان التشريع والقضاء .

ونزعم أن من حقنا، بل ومن واجبنا أيضا ، أن نطرح - هنا - تساؤلا مشروعا، عن مدى إمكان الافادة من دروس الماضي القريب ، لتفادي ما قد نقع فيه من أخطاء في حاضرنا الراهن، وما قد نتعرض له - بالتالي - من أخطار .

«مضغة» الدخول إلى القرن الواحد والعشرين

بقلم : مصطفى الحسينى

أصبح الحديث عن دخولنا إلى القرن الواحد والعشرين مضغة فى الأفواه، ليس من سوء السمعة، إنما من سوء التناول. نتناول الأمر بخفة واستهانة تجعلان من الصعب معرفة إذا كان قصد المتحدث هو الجد أو الهزل، لأن المتحدثين كثرتهم، تنظر إلى الأمر الجليل عفو الخاطر وكأنه من سامر الكلام، وكأن الصعب - إن لم نقل المستحيل - يتحقق بمجرد أن نقول إنه سيتحقق ، عز وجل من يقول كن فيكون .

لا يسأل أحد الأسئلة الضرورية، وهى أيضا بديهية .

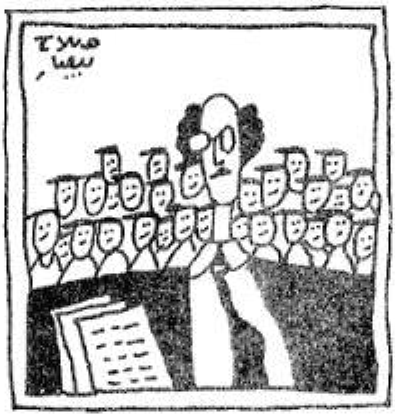
ماذا يعنى القرن الواحد والعشرون ؟

وماذا يقتضى الدخول إليه ؟

هل نملك عتاد الدخول اليه وعدته ؟

هل نستطيع امتلاك ما لا نملك من ذلك العتاد وتلك العدة فيما تبقى على حلول القرن من وقت قصير ؟

بل وهل نستطيع اللحاق بمن سيسبقوننا إلى الدخول حتى بعد أن يكونوا قد عبروا عقدين أو ثلاثة من ذلك القرن الواحد والعشرين ؟



ما هو القرن ٢١ ؟

بالتأكيد ليس المقصود تعداد السنين، ففى الانتقال من سنة إلى أخرى ومن قرن إلى آخر لا يحتاج أحد إلى قرار ولا إلى عتاد ولا إلى عدة ، فهذا تتكفل به دورة الفلك والناس نيام.

أما المقصود فهو باختصار الانتقال إلى زمن تحكمه وتديره الثورة العلمية والتكنولوجية، وباختصار أيضا فهذه بدورها هى ثورة المعلومات والاتصالات، وباختصار ثالثا ، معنى ثورة المعلومات ليس مجرد توافرها ولا مجرد سهولة تداولها وتناولها، وإنما المعنى الأهم هو أن دور المعلومات فى حياة الناس أصبح أكبر وأهم، إن لم نقل أصبح حاسما وحاكما، فدور المعلومات فى العمليات الانتاجية - مثلا - قد زاد زيادة كبيرة ولايزال يزيد، بحيث إلى تغير دائر فى أساس العملية الاقتصادية، فلم تعد عناصر الإنتاج هى الطبيعة والعمل ورأس المال حسب ما تقول كتب الاقتصاد المتداولة حتى الآن، إذ أضعفت المعلومات دور الطبيعة وغيرت طبيعة العمل ونافست رأس المال، أى أن دور الموارد الطبيعية فى العملية الاقتصادية يتناقص، فهناك كفاءة مستجدة فى استخدام الخامات، وهناك بدائل للخامات وهناك تخليق للمواد الأولية، كما أن المنجل والمطرقة.. رمزى الزراعة والصناعة أو الفلاح والعامل الصناعى، لم يعودا لا رمزا للعمل ولا إشارة بليغة إلى مناحى الانتاج الاقتصادى، إذ إن ما ينطوى عليه نشاط العمل من المعارف (المعلومات) أصبح أهم كثيرا من مجهود العضل وجهد البخار أو طاقة الفحم والنفط والغاز، أصبحت ميزة العامل فى دماغه أكثر منها فى بنيان

جسمه المتين، وكذلك فإن امتلاك ناصية المعلومات ومعالجتها وتهيئتها للاستخدام أصبحت رأس مال يفوق في قيمته كم التراكم الذي عرفه عصر الصناعة.

وباختصار، رابعا، أن الاتصالات أصبحت تزيح الحاجة إلى الانتقالات، فنقل المعلومات عن طريق الاتصالات أدى إلى تعدد مراكز الانتاج الصناعي وتوزعها بدلا من انفرادها وتركزها، وهذا حديث يطول .

وباختصار أيضا، قد يثبت أن القرن الواحد والعشرين هذا، ليس عصر الثورة العلمية والتكنولوجية كما نقول الآن، قد يكون مطلعه الوشيك كذلك، بل إن واقع الأمر أن تلك الثورة العلمية والتكنولوجية سائدة الآن حيث أمكن أن تسود، أي حيث تأهلت المجتمعات لسيادتها، لكن هذه الثورة العلمية التكنولوجية، وحيث سادت قد تتحول إلى مؤهل لتلك الاجتماعات للدخول إلى ثورة أخرى، قد تكون ثورة الفضاء، وقد تقوم سفينة الفضاء بالدور الذي قامت به السفينة عابرة المحيطات في زمن غابر: جعلت التجارة الدولية ممكنة، وجعلت هجرات الناس بأعداد غفيرة حلا لمشكلة ازدحام السكان وما يترتب عليه من معضلات، بالطبع ستلعب سفينة الفضاء عندئذ دورا شبيها وإن يكن مختلفا .

حيث تسود الثورة العلمية التكنولوجية، لم تقفز إليها المجتمعات من الفراغ، ولم تراودها عنها لا أحلام النوم ولا أحلام اليقظة .

فهذه الثورة العلمية التكنولوجية، أو ثورة المعلومات وثورة الاتصالات، هي بنت الثورة الصناعية، أي أنها حصيلة ما بين قرنين إلى ثلاثة قرون - حسب تفاوت تاريخ دخول البلدان إليها - من الصناعة والتجارة والبحث والابتكار والاختراع، وهي أيضا من بنات سلسلة من الثورات الديمقراطية والاجتماعية والاستقلالية، وهي ثالثا نتاج صراع عرفته تلك المجتمعات كلها ما بين العنف والعطف وما بين القسوة والحنو.

وفي ذلك كله لم تكن تلك المجتمعات تنظر إلى مجتمعات سواها لتحاكيها أو لتستعير منها أو لتنقل عنها، كانت أوضاعها تطرح عليها مشكلات فتسعى إلى حلها، ولم تكن تحلها بقرارات سلطات، إنما هو أقرب إلى تفاعل الوقائع مع الأسئلة مع المعوقات مع المطامح. وقد يصعب تفسير ما جرى في تلك المجتمعات تفسيرا على طريقة لماذا اخترعت الباخرة أو الطائرة ، أو لماذا اكتشفت قدرة البخار على تدوير العجلة، إنما يمكن اكتشاف هذا كله في ثنايا التاريخ الاجتماعي لتلك المجتمعات. وهذا أيضا حديث يطول .

● هل نحن مؤهلون ؟

لسنا مؤهلين ، ولا مجال لخداع النفس .

لسنا مؤهلين لأننا لم ندخل إلى الثورة الصناعية بعد، بل ولامحل للقول إننا لم ننجز ثورتنا الصناعية بعد. نحن لم ندخلها، دققنا بابها مرة ومرات، لكننا لم نكد نخطو حتى تراجعنا، لا يهم إذا ما كنا قد اخرجنا عنوة أو خرجنا نكوصا، المهم أننا لم ندخل. فالثورة الصناعية ليست مجرد بناء مصانع ومصانع تنتج المصانع، وتنتج سلعا من عصر الصناعة. الثورة الصناعية منظومة علاقات اجتماعية لم نكد نعرفها، تنبنى على منظومة قيم لم نكد نتبناها. القيم هي أن الإنتاج يسبق الاستهلاك ، وأن الإهدار يؤدى إلى العوز، وأن الادخار أهم من الترف، وأن البذل شيء غير السرف، وأن المخاطرة شرط للكسب، وأن العمل هو صك الحق في الراحة. أما العلاقات الاجتماعية المحكومة بتلك القيم فهي التي تنتظم المجتمع أطرافا تربطها قواعد للتعامل فيما بينها، ركنها هو أن حرية السوق تملي حقوقا للعمال وحقوقا للمستهلكين، وأن الوفرة هي شرط حرية الاختيار، وأن الندرة تولد الاحتكار والاستبداد معا.

ونحن لم نعرف من الثورة الديمقراطية إلا قليلا وإلا قشورا، ولم نحقق استقلالنا الوطني بمعنى كونه استقلال الارادة الوطنية الا سحابة من الزمان، ثم لم نلبث أن كبلت إرادتنا الوطنية قيود منظورة وغير منظورة، أقوى مصادرها هو الحاجة ومهانة العوز على مستوى البلد والمجتمع.

وهذه كلها مؤهلات ومقتضيات لخوض الثورة الصناعية وتحقيقها ، وهي بدورها المؤهل الضروري للدخول إلى عصر ثورة العلم والتكنولوجيا التي هي سمة القرن الواحد والعشرين، الذي لا نفتأ نلوك الحديث عن الدخول إليه، بل عن قدرتنا على الدخول إليه.

هل التدارك ممكن ؟

إذا كان التدارك يعني أنه في خلال السنوات الأربع الباقيات على مطلع القرن الواحد والعشرين (بمعناه الفلكي) سيكون بوسعنا أن ندخل إلى الثورة الصناعية وأن ننجزها، فهذا كلام لا يستحق النظر.

وإذا كان التدارك يعني أن «نقفز» من فوق الثورة الصناعية لندخل إلى عصر الثورة العلمية والتكنولوجية، فلعل القائلين هذا القول غافلون أو باعة أوهام، فليس الدخول إلى عصر تلك الثورة مجرد «شراء شوية كمبيوترات» وتوزيعها بين المراكز والإدارات، ولا هو انشاء قناة فضائية للتليفزيون، تبث عن طريق تابع فضائي، أجرينا مناقصة دولية لبنائه ، ودفعنا ثمن هذا عدا ونقدا ملايين

الدولارات من مـــواردنا الوطنيـــة أو من المعونات.

فـهـذا «التـدارك» يعني بلغـة «أولاد البلد» أن «نلبس مـزيكا» أي أن نتـزيا بأزياء الموسيقيين ونحمل آلاتهم ونندس في صفهم، إنما لا نعزف لأننا لا نعرف.

أمـا إذا كـان التدارك يعنى أن ندخل إلى عـمليات التـجـمـيع والتـغليف لسلع حديثة من بنات الثورة العلمية التكنولوجية كـالالكترونيات وغيرها، أو أن «نشـغل مـوقـعـا» في الأسـواق المالية العـالميـة مـعـتـمـدين على التدريب على استـخـدام أجهزة المعلومات والاتصالات من ناحية، وعلى أن زمننا الفلكي يتـوسط الزمنين الفلكيين لأكبر مركزين ماليين في العالم في شرق الباسيفيكي وغرب الأطلسي.

فما يعنيه هذا التدراك في الحقيقة أن ندخل إلى الثـورة العلمـيـة التكنولوجـيـة خداما لدى أربابها وأسيادها.

ويبـدو أن هذا عندنا هو أقـصى مـا يطمح إليه الطامحون.

أن نكون في عـصـر الثـورة العلمـيـة والتكنولوجـيـــة ، أو أن يكون منا في عصرها خدام صغار ومستهلكون كبار.

● ما الذي ينقصنا ؟

كثير، وإدراكه عسير.

أوله : ألا نـخـدع أنفسنا عن حـقـيـقـة حالنا، وإلينا بطرف منه :

● ان نصـفنا – على أفضل الأحوال – أميـون لا يقرأون ولا يكتبـون، في وقت يقول لنا دعاة تأهلنا لدخول القرن الواحد والعشـرين أنه في هذا العـصـر لم تعد الأمية هي عدم الإلمام بالقراءة والكتابة، إنما هي عـدم التـمكن من اسـتـخـدام الكمبيوتر.

ويصعب أن تعرف هل هم ينبهوننا أم أنهم يعيّروننا.

● إننا لا نسـتطيع أن ندخل إلى أى عصر من عصور الحداثة، التي أنتجتها الثورة الصناعية في مراحلها المختلفة، بينما نسبة معتبرة من مساكننا مبنية باللبن تفتقر إلى أبسط مقتضيات السكن الصـحى، وأبرزها الماء الجارى الصـالح للشرب والكهرباء؛ نسـبة غيـر قليلة من المساكن في مدننا، وليست قرانا فقط – تفتقد إلى ذلك.

● إن طرقنا قليلة، شبكات مواصلاتنا محدودة، موانيـئنا البـحـرية والجـوية معدودة، طرقنا القليلة ما بين غير مرصوفة أو رديئـــة الرصف، بل إن شـــوارع عاصمتنا، الكثير منها غارق في التراب.

● إننا نتـحـدث عن ارتياد الثـورة العلمية التكنولوجية، بينما قطاعات مهمة من اقتصادنا مازالت تعيش بقواعد زمن ما قبل الرأسمالية، التي هي ناتج الثورة الصناعية وقاطرتها وقاعدتها الاجتماعية في أن – الزراعـة عندنا مـازالت تعـيش عصر ما قبل الرأسمالية . هل ندرك معنى

أنه فى نطاق سياسة إصلاحية عندنا، أصدرنا منذ حوالى خمس سنوات قانونا ينظم العلاقة بين المالك والمستأجر فى الأراضى الزراعية..؟ هل ندرك أن معنى إصدار هذا القانون أننا نجرى إصلاحا لتقوية «علاقة اقطاعية» أي سابقة على الرأسمالية ؟

ومع ذلك ، فليس هذا كله الا طرفا يسيرا من مسألة ما الذى ينقصنا.

فلعل ما ينقصنا حقيقة هو طريقة التفكير التي تلزمنا كي نتدارك ما فاتنا من انتقالات تاريخية.

فى تفكيرنا السائد خاصيتان معوقتان للتفكير السديد.

أولى هاتين الخاصيتين هى أننا نخلط بين التاريخ والميتافيزيقا التاريخية، أو أننا نحول التاريخ إلى حالة ميتافيزيقية.

يندرج فى هذا الحديث عن حضارتنا «التى عمرها سبعة آلاف سنة» كما يندرج فيه الحديث عن «العرب الذين أرسوا أساس العلوم» وعنهم أخذت أوربا .

ونعتبر هذه وتلك من مؤهلاتنا للدخول إلى القرن الواحد والعشرين.

ثم يندرج فيه القول أننا بحكم موقعنا أو بحكم عبقريتنا «مستهدفون» قد يكون كل من هذه المقولات صحيحا فى ذاته، لكنه فى الوقت نفسه ليس صحيحا كسياق للتاريخ.

فهل تأملنا ثنائية الانقطاع والاتصال، وثنائية التكامل والتنافى، وثنائية التراكم والتبدد فى مسيرة «حضارتنا التى عمرها سبعة آلاف سنة» ؟

وهل سألنا لماذا لم تتحول اكتشافات العرب للقوانين العلمية، إلى مخترعات ومبتكرات ثم إلى صناعات ؟

وهل سألنا أنفسنا ما الذى منعنا من «التحصن» مادمنا «مستهدفين» ؟

أما الخاصية الثانية فهى أننا اعتدنا أن نخلط بين الفرضية والواقعة، أو ما بين ما هو حالنا، وما يجب أن نعتقد أنه حالنا ثم نعتمد على الفرضيات التى حولناها فى أذهاننا إلى وقائع فى إقناع أنفسنا بجدارتنا للدخول إلى القرن الواحد والعشرين .

من هذا القبيل مثلا أن نقول إن لدينا فى مصر «كذا» مليونا من خريجى الجامعات، أو «كذا» عشرة آلاف من العلماء، دون أن نتأمل فى «نوع» الخريج الذى ينتج عن «نوع» التعليم وعن النظام التعليمى، وغير هذا الكثير من العناصر والعوامل التى تحدد القيمة الحقيقية للأعداد، ودون أن نفرق بين «العالم» وحامل الدرجة العلمية العالية، ولا بين «العالم» والمعلم .

وهى مجرد أمثلة

ولعل خواص التفكير تحتاج إلى عودة.

مستقبل المشروع العربي القومي

بقلم : هاني عبد المنعم خلاف ★

كثيرة هى التجارب الوحدوية التى شهدها الانسان العربى وشهد عليها فى تاريخه القومى المعاصر . وقليلة- بل تكاد تكون منعدمة -- هى الخبرة المتطورة التى اكتسبها من تلك التجارب ، ففى كل مرة تقريبا كان الساعون للوحدة يحرصون على احياء القديم وتكراره أو البحث فى افضل الأحوال عن تخريجات وتطبيقات جديدة لنفس الأفكار الرومانسية والمناهج التقليدية فيقع اللاحقون فى نفس ماوقع فيه السابقون ، وتتكرر مشاعر الاحباط والانكسار لدى المخلصين ويدفع المواطن العربى وحلمه القومى فى النهاية ثمن التجريب والخطأ .

★ وزير مفوض بالخارجية المصرية

لم يلتفت العربي ذات مرة وهو يبحث في صياغة مشروعه القومي - يستطلع تجارب وخبرات الآخرين من حوله في الشمال او الشرق او الغرب . لم يتوقف ليسائل نفسه وأهله : كيف نجحت بعض هذه التجارب ولماذا اخفقت أخرى؟ وكأن في هذا البحث خيانة أو كأن فيه تبعيضا للذات العربية وقدراتها.. مع ان المقصود هو دراسة المناهج والسبل والأدوات وليس محاكاة المبادىء والسياسات !

تصور بعض الساسة العرب انهم يملكون وحدهم الحكمة ، وانهم قادرون على التفكير والسلوك بمنأى عن تأثيرات العالم من حولهم .. لذلك جاءت معظم تجاربهم الوحدوية ومشروعاتهم القومية قاصرة دون التأثير في الذات وفي الآخرين .

ظلت معظم نظريات ومناهج الوحدة العربية حتى التسعينيات اسيرة التفكير الشوفيني والتبسيطي ، والاحتفالية الشكلية، والنظرة العاطفية الانفعالية قصيرة المدى .. واعتمد معظمها على القوالب الايديولوجية او المثاليات الرومانسية او الزعامات النرجسية والبدايات الفوقية وعمل البعض على توظيف المشروع الوحدوي لخدمة أغراض محلية وقطرية ضيقة أو لبناء أمجاد شخصية .. وبلغ الأمر في بعض الأحيان حد فرض الوحدة بالقوة والاجبار او الابتزاز والتهديد وأحيانا بالغزو وسادت في معظم هذه التجارب نغمة الاستعجال في بناء المؤسسات وتوزيع المناصب، وفلسفة «كل شيء مرة واحدة» ولم تهتم في معظمها بالتريث والتخطيط العلمي لمعالجة المفارقات في نقاط البدء ومستويات النمو الاقتصادي والثقافي بين أطراف المشروع الوحدوي . وبينما كان العرب يعانون من الاخفاق والانتكاس في تجاربهم الوحدوية ومشروعاتهم القومية كانت اقاليم العالم من حولهم تطور تجاربها الوحدوية وتعزز سياساتها نحو التكامل الواقعي والاندماج التدريجي بخطى وئيدة ولكن واثقة ظهرت في شرق العالم العربي وغربه وفي شماله وجنوبه تجمعات - اقليمية قوية اثبتت فاعليتها في تسريع مسارات التنمية الاقتصادية لشعوبها - فرادى ومجتمعة وفي تغيير التوازنات السياسية العالمية والاقليمية - وفي تطوير علاقات الأمن والتعاون عبر الحدود . ومن العجيب ان تلك التجمعات الاقليمية الجديدة لم يكن لديها كل ماكان للعرب من مقومات مشتركة للتكامل والاندماج والوحدة .

● اضعاف الهوية العربية

وفي زماننا المعاصر بدأت تظهر هناك عدة مخططات عالمية وتوجهات وسياسات ومشروعات جديدة قد يكون من

شأنها اذابة الهوية العربية وإضعاف المزايا النسبية المتوافرة فى البلدان العربية وذلك بإدراج بعض الوحدات العربية فى تقسيمات وترتيبات اقليمية جديدة على نطاقات جغرافية جديدة تتداخل فيها عناصر أخرى غير عربية ، وتهمل فيها عناصر عربية أخرى لتبقى خارج الترتيبات الجديدة ، وبجانب هذه التطورات المهمة فى البيئة الخارجية بدأت تلوح فى أفق القرن الحادى والعشرين مشكلات اختلال جوهرية النمو السكانى ، والتركيبة السكانية ، ومايقترن بذلك من مشكلات فى تدبير الغذاء الكافى والرعاية الصحية والتعليمية واحتمالات تآكل الاحتياطى الاستراتيجى فى البترول وأخطار الجفاف والتصحر والتلوث والصراعات المحتملة على موارد المياه المحدودة ومشكلات الأقليات ، واهتزاز نظم الحكم التقليدية امام تأثير الطارق الاسلامى الثورى ، والثغرات الطائفية والشعوبية الأخرى والأمراض وأنماط الجريمة الجديدة التى دخلت البيوت العربية بعد ان ظلت محصورة فى الشوارع والمواقع النائية . وستواجه الهوية الثقافية العربية تحديات من نوع جديد بسبب الانفتاح قسرا على الثقافات العالمية تحت تأثير الأقمار الصناعية .

فاذا اضيف ذلك كله الى احتمالات استمرار - وربما تفاقم بعض المشاكل الجوهرية الراهنة كتفشى الأمية ، وانفصال النخب الحاكمة ، وغياب المشاركة السياسية الكافية ، وعسكرة الحياة المدنية ، وتخلف الادارة الحكومية ، وسوء توزيع الثروة ، واهدار حقوق الانسان .. لظهرت بوضوح الحاجة الى وقفة عربية عاجلة وجريئة وغير تقليدية لمراجعة الذات والتأهل للمستقبل بمنطق جديد وفلسفة جديدة .. وأدوات جديدة ايضا .

● بعث المشروع القومى

ان كل هذه المتغيرات والتحديات الراهنة والأخطار تجعل تجديد المشروع القومى العربى وتحديثه وتفعيله على اسس وأهداف ووسائل جديدة ضرورة حياة إن لم يكن الشرط الوحيد للبقاء الفاعل والآمن - بعد ان كان هذا المشروع العربى فى المراحل السابقة اشبه بشعار عاطفى تحكمه نوازع أدبية واعتبارات وجدانية وتستخدمه القوى السياسية كأداة للمناورة - فى علاقاتها الداخلية والخارجية .

ولاشك ان أول مايحتاجه العرب فى بحثهم عن آفاق المستقبل والأسلحة اللازمة لهذا التحدى الكبير هو اعادة الثقة فى قيمة العروبة وفى استمرارية الانتماء العربى ذاته ، وليس يعنى ذلك العودة مرة اخرى الى التغنى بأمجاد الماضى والتيه بالتاريخ واجترار اشعار امرىء القيس والبحث فى سوابق الماضى

العربي عما يماثل مستحدثات العصر الجديد .. وانما المقصود هو تحرير الذات العربية المعاصرة من عقدة الاحساس بانقطاع التاريخ او توقفه عند امجاد الماضى ، وشحذ همم الأجيال المعاصرة لاستكشاف مايملكه العرب اليوم وماقد يملكونه مستقبلا من قدرات وأدوار وثروات ، والعلم بشروط هذا الامتلاك وطرق توظيفه بفاعلية في عالم الغد .

ان فى حياة العربي وفى ثقافته وفنونه وفى جوف ارضه وأجواء سمائه وفى بحاره وعلى هضابه ووديانه ثروات يمكن ان تغنى كثيرا من الأمم والشعوب . وقد حباه الله فوق ذلك بموقع فريد وسط العالم يطل منه على أركان المعمورة الأربع وينشر من خلاله رسالته الحضارية والانسانية المقدرة له فى النبوءات الدينية وبحكم التاريخ والجغرافيا – فى ربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .. وهى الرسالة التى قصدها الله له حين حكم عليه بالوسطية فى المعنى وفى المبنى ، وهى ذاتها الحكمة التى يؤمن بها العرب فى القرآن الكريم من وراء خلق الناس «شعوبا وقبائل».

ورغم شطط البعض فى فهم هذه الرسالة ورغم فداحة الأخطاء والانتكاسات التى ألمت بممارسات العرب المحدثين وتجارب التفريط والافراط فى ممارسة الدور .. فإن كثيرا من العرب لايزالون – بحمد الله – يؤمنون بأن ماشهدوه أو شهدوا عليه فى حياتهم المتأخرة من أخطاء وانتكاسات وخلافات عربية ليس الا نتاج سياسات فوقية افرزتها ومارستها نخب محدودة العدد ومحدودة الرؤية .. بعيدة عن جذور التربة الشعبية العربية العريضة ، يدفعها او يغذيها اعداء العروبة الواقفون امامها جهارا او المخططون لتدميرها سرا او البعض من ابنائها الرافعين لراياتها نفاقا وتشدقا بغير عمل او العاملين فى ميدانها بغير علم ولاخبرة «ويحسبون انهم يحسنون صنعا»..

● وتمهيد ضرورى

وهناك من اصحاب الدعوة الى القومية العربية والمنظرين لها من يذهب فى رؤية الخلافات العربية وفى تكييفها التاريخى الى ماهو اعمق من ذلك فيرى «ان الحساب العائلى العسير الذى يجرى بين الوحدات العربية انما هو فى حقيقته مكسب كبير وتمهيد ضرورى لقيام الوحدة القومية والتى يخدمها فى الواقع – ومن حيث لايشعر – من يتردد فى مسايرة قواها الجديدة الدافعة الى التقدم لأنه حينئذاك يعتبر (السالب) الذى لابد منه مع (الموجب) لكهربة المناخ وتهيئته للتمخض عن عمل عظيم» . ويرى اصحاب هذا المنطق أنه (من الخطأ أن يتسرب «الحقد او اليأس» الى النفوس العربية بسبب هذا الحساب العسير مهما بلغت فى بعض الأحيان مراحل الصدام ،

وان هذا الصدام قد يبدو غير لائق في ظاهر المنطق القومي عند المجاملين لكنه عند التفكير يبدو وكأنه لابد منه لاتمام عملية «لحام» في الشعور القومي بين الشعوب العربية بعد ان مضى على ذلك الشعور دور طويل من الانفصال)، (وأنه لولا هذا الدور وعنفه وحدته لما وصل الادراك والوعي القومي لدى الجماهير الى أعماق الشعور والاهتمام والايمان) . (من مقدمة كتاب «القومية العربية في ربع قرن» للمرحوم الاستاذ عبد المنعم خلاف المستشار السابق بجامعة الدول العربية - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨)

ورغم ان هذه النظرية في فهم وتكييف الخلافات العربية قد قامت في سياق احداث الخمسينيات والستينيات فان كثيرا من القوى العربية المعاصرة لاتزال تؤمن بامكانية انطباقها في فهم ومعالجة الخلافات والأعطال العربية الراهنة .

وتذهب دوائر أخرى الى تأكيد استمرار الهوية العروبية ومشروعها القومي رغم كل التحديات والانتكاسات التي يمر بها العالم العربي ، وفي ذلك يرى السفير الدكتور مصطفى عبد العزيز في مؤلفه الشيق (العرب بين مفترق الطرق) «ان فشل التوجيهات القومية كإطار للتفكير والعمل العربي المشترك ، وتكرار الانتكاسات القومية التي شهدها العالم العربي ، لا يعني زوال العرب كجماعة ذات ميراث مشترك وروابط وآمال خاصة ولازوال العروبة كصفة ملازمة لثقافة مجموعة من الشعوب الناطقة بالعربية . كما ان اخفاق الحركة القومية العربية الداعية لتوحيد العرب لايعني بالضرورة ان العروبة اختلاق ووهم ، وأنه لاشيء يجمع بين العرب لا الآن ولا في المستقبل، وفي نفس المعنى يقول الكاتب - نقلا عن د. برهان غليون «فاذا كانت استراتيجية العمل العربي المشترك في المرحلة الماضية لم تضمن ايصال العرب الى التعاون والاندماج الاقليمي المنشود من الوحدة فان استراتيجية القوقعة القطرية قد قادت الى تدمير المصالح الوطنية وتفجير الصراعات والنزاعات الاقليمية » .

وهكذا يمكن القول بأن المشروع القومي العربي لايزال أمرا واردا بل مطلوبا بقدر ما هو أمر تحتمه الدواعي والأخطار وتكلفة الفرص البديلة .

غير أن النجاح في تحقيق هذا المشروع مرهون - مع ذلك . بمدى القدرة على اكتساب الخبرة من التجارب السابقة ، وتطوير الأهداف ، وتحديث المناهج والآليات بما يتلاءم مع مستجدات العصر واحتياجات المستقبل .

أما المشروع القومي العربي والشرق أوسطية فسأتناوله في مقال آخر

كتاب الهلال

يقدم

المدينة العربية

بقلم: جمال حمدان

يصدر

٥ سبتمبر ١٩٩٦

روايات الهلال

تقدم

ترانيم في ظل تمارا

بقلم: محمد عفيفي

تصدر

١٥ سبتمبر ١٩٩٦

كيف يرى الشرقيون الغرب؟!

بقلم : د . يوسف زيدان

يمثل الدكتور حسن حنفى قيمة فلسفية مهمة فى ثقافتنا المعاصرة، بحيث لا يمكن الكلام عن الفلسفة فى مصر - والوطن العربى - دون الوقوف عند حسن حنفى وأفكاره ورؤاه ومواقفه وجهوده التى لا تهدأ.

والجيل الذى انتمى إليه، من أهل الفلسفة، مدين للدكتور حسن حنفى بالكثير، فبالإضافة إلى ماتعلمناه من كتبه ومن حركته الدءوب، كان الفضل له دوما فى أننا (تجرأنا) على خوض الغمار وطرح الأفكار.. واعترف هنا أن ما فعله حسن حنفى من خلال (الجمعية الفلسفية) ومن خلال مناوشتنا الدائمة ، كان أحد أهم الأسبابالتى دفعت بجيلى إلى الاشتباك والاحتكاكالحقيقى فى أرض الأفكار (كان أفلاطون يقول: المعرفة تتولدباحتكاك النفوس) وقد كان حريصا - دوما - على الزج بنا فى هذا البحر، مشجعا لنا على التجديف بكل قوة .. ولاشك فى أنه إحتمل منا - قبل الآن - الكثير، وأطاله اليوم، شخصيا، بمزيد من الاحتمال! لأننى بصدد مناوشته والاشتباك الفكرى معه فى مشروعه الأخير.



د. حسن حنفى



رفاعة طهطاوى

أواخر سنة ١٩٩٠ ميلادية، صدر كتاب (مقدمة فى علم الاستغراب) وهو كتاب ضخم يقترب من التسعمائة صفحة .. فكان مؤلفه هو أول من أبرز لفظة «الاستغراب» على هذا النحو اللافت، وأثار الكتاب بصدوره ضجة واهتماما واسعا، فكتبت وكتب غيري من المهتمين بالعلاقة بين الشرق والغرب، عن الكتاب وقضاياه المهمة، وناقشناه كثيرا فى عدة ندوات.

وتحت عنوان (من الاستشراق إلى الاستغراب) يقول الدكتور حسن حنفى ، مانصه : الاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل بل والنقيض من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، يهدف علم الاستغراب إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر .. وإذا كان الاستشراق هو دراسة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى، ولهم بناء شعورى مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها، فإن الاستغراب هو العلم المضاد له .. فى الاستغراب انقلبت الموازين وتبدلت الأدوار ، فأصبح الأنا الأوربي الدارس بالامس ، هو الموضوع المدروس اليوم، كما أصبح الآخر اللا أوربى المدروس بالأمس هو (الأنا) الدارس اليوم .

محور الكتاب الأساسى يكمن فى الفصل الأول، إذ السبعة الأخرى بمثابة تطبيق للفكرة الرئيسية (دراسة الغرب) من ذلك المنظور الذى يسميه المؤلف (منظور الأنا) بيد أن الدكتور حسن حنفى، فى الحقيقة، لم يستقر على مفهوم محدد لهذه الأنا، فأحيانا يعنى بها الشرق وأحيانا الإسلام، وأحيانا دول الجنوب أو العالم الثالث، وأحيانا العروبة .. وعلى أى حال، فهى (دوائر) متداخلة يصعب الفصل بينها، إذ كلها تشكل (الأنا) الذى يتحدث عنه الدكتور حسن حنفى، وقد كنت أود أن يحدد مقدار كل دائرة منها فى هذا التشكيل الخاص بالذات الحضارية التى تنتمى إليها .

وللكتاب أهميته من خلال الجهد الضخم المبذول فيه وفى الفصول التطبيقية، ويحسب له أيضاً هذا الشعور الجارف بضرورة تأكيد الذات والهوية ضد عمليات التغريب المستمرة التي تغلغلت فى وجدان أمتنا .. وهذاالوعى العميق بحرج اللحظة التى تعيشها الأمة على كل المستويات ، وهو الوعى الذى ينطق فى كل صفحة من صفحات الكتاب .. مما يدعونا للقول إن هذه الدعوة لتاسيس شكل جديد للفكر، يخضع الغرب للدراسة، ولا ينفعل به دوما ، هى دعوة نابعة من أغراض نبيلة، لاشك فى جدواها وأثرها الإيجابى حاضرا ومستقبلا .

● إرهاصات علم الاستغراب

لكن الدكتور حسن حنفى لم يكن هو أول من دعا إلى هذا الاتجاه الجديد، وقد أشار هو بنفسه إلى أن لهذا (العلم) جذورا تمتد منذ نشأة (الأنا) الحضارى فى التراث الإسلامى عبر أربعة عشر قرنا أو يزيد، إذ تمتد الجذور إلى النموذج القديم فى علاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة اليونانية إلى موضوع دراسة .. ثم أتت مرحلة أخرى حين صور ابن خلدون أهل الشمال وتحدث عن (الفرنجة) وبلادهم وتاريخهم وعمرانهم .. ثم بدأت، كما يقول الدكتور حسن حنفى بنفسه : إرهاصات علم الاستغراب فى جيلنا، وتحدث الكثير منا عن إمكانية إنشاء هذا العلم ، بل ضرورة ذلك حتى يساعدنا على الخروج من نطاق التبعية الثقافية للغرب، ولكن الغالب على هذه الإرهاصات أنها تعبير عن نوايا نعلنها جميعا دون أن تتحول هذه النوايا إلى علم دقيق .. ولكن خروج هذه المقدمة فى (علم الاستغراب) فى هذه اللحظة يدل على أن لحظة الإعلان عن النوايا قد تم تجاوزها ، وأن الإرهاصات الأولى قد تم تحويلها إلى علم دقيق أو كاد .. والمحاولة الأولى هى هذه المقدمة فى علم الاستغراب .

ونرى من جانبنا أن مقدمة الدكتور حسن حنفى - على أهميتها - جاءت متأخرة .. فالحقيقة الثابتة أن (تجاوز الإعلان عن النوايا) تم منذ فترة طويلة ، وأن مقدمة الدكتور حسن حنفى لم تكن هى المحاولة الأولى ، فقد سبقته - على الأقل - محاولتان مشهورتان ، الأولى لرفاعة الطهطاوى فى كتابه (تخليص الإبريز فى تخليص باريز) والثانية لخير الدين التونسى فى كتابه (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك) وهناك من بعدهما الكثير من الجهود التى بذلت لقراءة الفكر الغربى القديم والمعاصر من منظور الذات .. ولسوف نتوقف فيما يلى أمام جذور هذا الاتجاه عند الطهطاوى والتونسى ، ثم نستعرض الصعوبات والمشكلات التى تواجه ذلك (الاتجاه المعرفى) المسمى بالاستغراب .

● جذور الاتجاه

كانت السنوات الخمس التى قضاها الطهطاوى فى باريس (من سنة ١٨٢٦ حتى ١٨٣١) من أخصب سنى عمره ، فقد انكب على دراسة اللغة الفرنسية ، وبحث أحوال الفرنسيين ، ووضع خلاصة بحثه فى كتابه الذى يعد أول دراسة فى

(الاستغراب) وهو الكتاب الذى اختار له الطهطاوى عنوانا تراثيا مسجوعا على عادة القدماء ، وهو تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» .. وهو عنوان – كما نرى – ملىء بالدلالة ، إذ يشير إلى سعى مؤلفه لاستخلاص الفوائد الذهبية (الإبريز هو الذهب الخالص) من دراسة الحياة الأوروبية متمثلة فى مدينة باريس .. وهكذا انطلق الطهطاوى بالفعل من الأنا ، حين أراد رؤية الآخر .

وهكذا ، يقوم الطهطاوى ببحث مظاهر الحياة الأوربية من منظوره الخاص كرجل عربى مسلم ، فنراه يقدم دراسة نقدية ، لاتستسلم لواقع الحضارة الغربية وتنبهر بها ، ولا تحاول – من الناحية الأخرى – الغض من قيمة هذه الحضارة والحط من شأنها .. باختصار : قدم الطهطاوى دراسة موضوعية .

ولم يكتف الطهطاوى فى هذا الكتاب برؤية المجتمع الغربى من زاويته الخاصة فحسب، بل نراه يدخل فى نقاش مع الرؤى الأخرى، فهو حين يتعرض لأحوال الديانة يقول ما نصه : وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه .. ثم أن مسيو «دى ساسى» لما أطلع على ذلك (يقصد ماكتبه الطهطاوى) كتب عليه «قولك إن الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وانهم ليسوا نصارى إلا بالاسم، فيه نظر .. وإن دخلت كنائسنا زيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى» . يقول طهطاوى : هكذا انتهت عبارته، والحامل له على ذلك ، كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر ولا حكم له!

وقد نال كتاب الطهطاوى «التخليص» شهرة عظيمة ، وترجم إلى اللغة التركية، ولاتزال طبعاته العربية تتوالى إلى اليوم من حين لآخر، وقد كتب الطهطاوى – وترجم عن الفرنسية – الكثير من الاعمال المهمة، لكن ما يعنينا هنا مادمنا نتحدث عن جذور الاستغراب هو كتابه «التخليص» الذى يعد بحق : أول جهد مبكر يقوم به أحد علماء الشرق لدراسة

---

(١) الطهطاوى: تخليص الإبريز فى تخليص باريز (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ – مصورة عن نشرة مهدى علام ، أنور لوقا ، أحمد بدوى ؛ القاهرة ١٩٥٨) ص ٢٥٢.

واقع الغرب وتاريخه وأفكاره .. ومن هنا نقول إن الطهطاوى كان رائد الاستغراب فى تاريخنا الحديث .

***

وبعد صدور «تخليص الإبريز» بربع قرن من الزمان أو يزيد ، تيار «الاستغراب» قوة واستمرارا مع صدور كتاب خير الدين التونسى : «زقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» سنة ١٨٦٧ ميلادية . ليكون هذا الكتاب هو الحلقة الثانية ، المبكرة ، فى مسيرة هذا التيار الرامى إلى تأسيس معـرفة عميقة بالغرب.

ويتجاوز خير الدين فى كتابه المبكر «زقوم المسالك» حدود الاستغراب بمفهومه الجديد - الذى يدعو إليه الدكتور حسن حنفى - حين يجمع بين غايتين، الأولى دراسة الواقع والتاريخ الغربى من وجهة نظر شرقية ، وبيان تطور مسيرة الحضارة الأوربية فى سياقهاالخاص (وذلك هو الاستغراب) ثم الغاية الثانية وهى تصحيح صورة الشرق المسلم فى ذهن الإنسان الغربى والرد ، ضمنا ، على الصورة التى صاغها الغربيون فى دراستهم للشرق المسلم (وهو ما يعرف بالاستشراق فنراه وهو يشير فى مقدمة الكتاب - صفحة ٢٠٥ من نشرة الدكتور / معن زيادة - إلى أنه « هذا مادعت الحاجة إلى تحريره من زسباب التقدم والتأخر للأمة الإسلامية . ملخصا جلة من الكتب الإسلامية والإفرنجية ، وبع يعلم من لا خبرة له بأحوال المسلمين من الأورباويين وغيرهم ، ما كان للأمة الإسلامية من التقدم فى المعارف وغيرها وقت نفوذ الشريعة فى أحوالها ودخول الولاة تحت قيودها ، وأن الشريعة لا تنافى تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن ونمو العمران ، كما يعتقده الكثير ممن ذكرنا ، حتى صاروا يدرجون ذلك فى صحف أخبارهم ومستحدثات تآليفهم، وقد لاحظ ليون براون الذى قام بترجمة الكتاب للإنجليزية، المعنى المراد من العبارة السابقة ، فأشار إلى أنها تدل على أن التونسى كان ينوى منذ البداية إصدار ترجمة فرنسية لكتابه، لأنه يتوجه بالحديث هنا إلى الجمهورين العربى والإسلامى والأوربى .

وفى الكتاب عبارة مهمة ، توضح لنا - اليومان ما يسمى بالنظام الجديد ، ليس جديدا! تقول عبارة خير الدين سمعت من بعض أعيان أوربا ما معناه «إن التمدن الأورباوى تدفق سيله فى الأرض ، فلا

يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تيارة المتتابع ، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار ، إلا إذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية ، فيمكن نجاتهم من الغرق».

ولم يقف خير الدين التونسي أمام هذا الوضع العالمي - آنذاك - موقف الرافض المتشنج ، وإنما أقر بواقع الأمر ، معقبا على العبارة بقوله «وهذا التمثيل المخزن لمحب وطنه ، مما يصدقه العيان والتجربة» وهكذا يعترف خير الدين بالواقع الحاصل، لكنه لا يقف أمامه مكتوف الأيدي ، وإنما يشرع في درس متمهل لطبيعة التمدن الأوربي وأطواره المتعاقبة وتجلياته العلمية والسياسية.

وهكذا بدأ مشروع النهضة عند خير الدين التونسي من هموم الواقع ، فاستقرأ الأحوال ، ثم نظر في أحوال الآخر (الأوربي) ثم عاد مرة أخرى لواقعه يحمل مفتاح النهضة .. وكان هذا المفتاح هو الديمقراطية والحسبة على الحكام : لكن التونسي - وغيره من الإصلاحيين - لم يمسك بهذا المفتاح فضاع المشروع النهضوي كله ، وضاعت الأمة الإسلامية أيام العثمانيين .. ولاتزال ضائعة .

المشكلات الأساسية

بعد جهود رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي باعتبارهما مؤسسين لهذا الاتجاه في عصرنا الحديث لم تتوقف محاولات الباحثين الشرقيين لقراءة الثقافة الغربية من منظور الذات ، وقد أشار الدكتور محمود حمدي زقزوق في خاتمة كتابه (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري) إلى تزايد الدعوة لتأسيس اتجاه الاستغراب ، من خلال عبارة الدكتور السباعي الذي يقول : «كثيرا ما أتمنى أن يتفرغ منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة الغربية وتاريخ علمائها بالأسلوب نفسه الذي يكتب به المستشرقون ، من تتبع الأخبار الساقطة وفهم النصوص على غير حقيقتها» ثم يعقب الدكتور زقزوق قائلا : «وفكرة إنشاء اتجاه مقابل للحركة الاستشراقية سبق أن أثيرت في بعض المؤتمرات الإسلامية . ويشير المستشرق رودي بارت إلى ذلك بقوله : ولا بأس من أن ننتهز هذه الفرصة فنثير سؤلا ، ولو من ناحية المبدأ ، عن إمكانية أن ينشأ في الناحية الأخرى ، أي في العالم العربي الإسلامي ، اتجاه للبحث شبيه بالدراسات الإسلامية عندنا ، ولكن في الوجهة المقابلة ، بهدف إلى

دراسة تاريخ الفكر فى العالم النصرانى الغربى وتحليله بطريقة علمية .. وقد دعا الدكتور محمد رحبار فى المؤتمر الإسلامى العالمى الذى انعقد فى لاهور سنة ١٩٥٧ بحماس إلى هدف من هذا القبيل ، ولكنه لقى معارضة شديدة» .

وهكذا يظهر لنا أن الدعوة إلى (الاستغراب) قديمة سواء كانت دعوة متعصبة كما فى (أمنية) الدكتور السباعى، أو كانت دعوة موضوعية كما فى (اقتراح) الدكتور محمد رحبار .. وقد رأينا من قبل أن الطهطاوى والتونسى قاما بالفعل بدراسات استغرابية .. فما الذى يبقى للدكتور حسن حنفى ، صاحب كتاب: «مقدمة فى علم الاستغراب»؟ يبقى له لفت الأنظار بقوة ، إلى ضرورة الاهتمام بهذا الاتجاه ويبقى له التأكيد على مصطلح (الاستغراب) الذى يعود الفضل فى انتشاره وذيوعه إليه ، وتبقى له محاولته (الاستغرابية) فى كتابه هذا الذى خصص فيه سبعة فصول لدراسة نشأة وتطور الأوربى المعاصر

ومع هذا ، فإننى أرى جملة صعوبات أساسية ومشكلات تواجه ذلك الاتجاه (الاستغراب) وتحول دون نجاحه كما نجح الاتجاه المقابل له (الاستشراق) من قبل ... وهذه الصعوبات المشكلات على وجه الإيجاز هى.

أولاً : لاتزال المبادرات (الاستغرابية) محض جهود فردية ، فلم تتأسس لدينا ، بعد الطهطاوى ، مدرسة لهذه الدراسة بحيث تتنامى الجهود وتتراكم المعارف .. هذا فى الوقت الذى كان فيه الاستشراق (مؤسسة) غربية ، ترعاها الحكومات وتخصص لها الأقسام الأكاديمية فى جماعات الغرب ، وتمدها بالتمويل اللازم ، وذلك ما يفتقده - حتى الآن - مشروع الاستغراب.

ثانياً : كان الغرب يدرس الشرق من موضوع القوة والتفوق ، وقد سهل ذلك عملية الحصول على المادة البحثية والمخطوطات وغير ذلك من القدرة المعلوماتية المهدة للبحث .. هذا فى الاستشراق ، أما الاستغراب فهو يواجه نقصا معلوماتياً ، إذ لا يسمح الغرب - لأنه فى موضع القوة - إلا بالمعلومات التى يريد هو أن نعلمها عنه .. بل أكثر من ذلك، ففى كثير من الأحيان ، نستمد

معلوماتنا عن ذاتنا من الغرب ! وتلك مسألة خطيرة .

ثالثاً : كان الاستشراق موظفا فى خدمة الأغراض السياسية والاستعمارية للغرب ، ولا يزال ، أما عندنا فالحال مختلف ، إذ لا ينظر أصحاب القرار فى العالم العربى الإسلامى إلى المادة البحثية بنفس الجدية ، مما يعرض نتائج البحث (الاستغرابى) لخطر الإهمال، كغيره من البحوث ، وبالتالى يتراجع تيار البحث فيه .

رابعاً : مسألة « المنظور » الذى يتم من خلاله قراءة الحضارة الغربية .. إذ أننا ، حتى الآن ، مازلنا نعانى من مشكلة الهوية واضطراب مفهوم الذات ، والتذبذب بين الانتماء العربى والإسلامى والشرق أوسطى (المزعوم) ... إلخ ، وهذا بدوره سوف ينعكس على ما يقدمه الاستغراب الجديد ، وبالتالى سوف نختلف على نتائج الاستغراب!

خامساً : تبقى صعوبة « الانبهار بالغرب » وهى خطورة عظيمة على الدراس فى حقل الاستغراب .. فالمستشرقون درسوا الحضارة الإسلاميه والتراث العربى وهما فى حالة سكون وجمود ، أما الحضارة الغربية فهى لا تزال حية متطورة ، وهنا تنشأ إمكانية الانبهار واحتمالية أن يغرق الباحث الاستغرابى فى تيار الحضارة الغربية المتدفق ، ولايستطيع الوقوف على الثابت والمتحول فيها.

***

وبعد .. فإن الصعوبات التى ذكرناها لا تمثل (استحالة قيام اتجاه الاستغراب) ، فهى صعوبات من الممكن التغلب عليها لإفساح المجال أمام هذا الاتجاه البحثى الجديد الذى سيكون له نتائج مهمة ، بل هو ضرورة مستقبلية فى رطار ما يسمى بالنظام العالمى الجديد .. فهو نظام لا يمكن لنا أن نرفضه ، فلا يبقى لنا إلامحاولة فهمه - من خلال فهم بنية الحضارة الغربية - وبالتالى نضمن أن نتعامل معه تعاملا جيدا يحفظ لنا هويتنا الحضارية كعرب مسلمين. ❑

يظل الأديب العالمي نجيب محفوظ هو رمز العطاء للحركة الثقافية في مصر علي مدى نصف قرن ، وهو الذى حقق لمصر والعرب مكانة رفيعة بين كتاب هذا العصر، بحصوله علي جائزة نوبل، حرصت «الهلال» على اللقاء به في الشهر الماضي ، لكى يحدثنا عن صديقه ورفيق عمره الراحل صلاح أبوسيف، وبكل تواضع قال كلمة تفيض رقة وعذوبة عن أبوسيف، وبكل تواضع قال إن صلاح هو الذي علمني كتابة السيناريو، وهو الذي أعطاني الخبرة في هذا المجال ، وفتح لي آفاقا رحبة في عالم السينما، ولم يبخل عني بأسرارها .

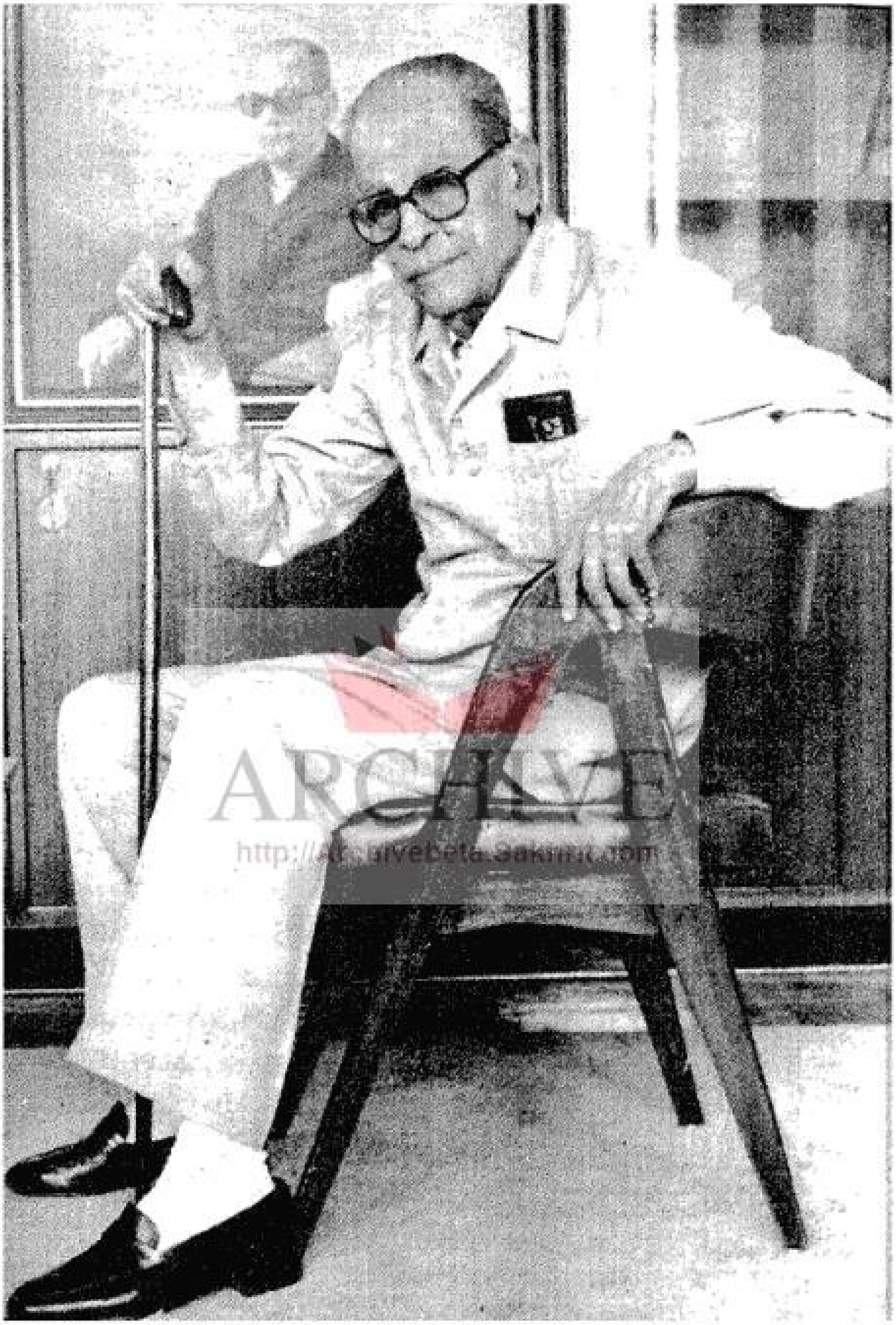
لكن هل نلتقي بنجيب محفوظ ولا نسأله عن شئون الثقافة والسياسة ؟ .



كتبت السيرة الذاتية في لحظة ضيق وملل

نجيب محفوظ

عاطف مصطفى



لقد كان الرجل كريما كعادته وكانت ضحكته المجلجلة تقطع حديثه العذب ، ليضيف جديدا ، أو يؤكد على فكرة يحرص على إبرازها من خلال الحوار ، فبرغم السنوات الخمس والثمانين وبرغم الأهوال التى مر بها إثر محاولة اغتياله ، فإن «محفوظ» سيظل شامخا قوى الإرادة والعزيمة .

● هل كانت علاقتك بالسينما من خلال صلاح أبوسيف فقط ؟

- أنا مغرم بالسينما منذ كان عمرى خمس سنوات ، ولا يمر أسبوع دون أن أشاهد فيلما أجنبيا ، وفيلما عربيا ، بمعنى أننى من الناس الذين يحبون السينما جدا .

أما عملى فى السينما ، فكنت أعتبره إجازة من الأدب ، فحينما كنت أعمل بالأدب ، أتوقف تماما عن العمل بالسينما، وحينما أنتهى من كتابة كتاب ، فلا مانع لدى من أن أنشغل فى كتابة سيناريو مع مخرج مثل صلاح أبوسيف ، حيث اعتدنا إعداد فيلم واحد كل عام .

والسينما ميزة مهمة ، هى الجزاء المادى الذى لم نتعود عليه فى الأدب ، لأننا فى ذلك الوقت كنا نكتب الأدب ونصرف على الأدب .. ولأول مرة بعد العمل فى السينما أحصل على «قرشين» بشكل جيد لكى أقوم بالصرف على الأدب!

● أجمع النقاد على اختيارك لتكنيك جديد فى كتابتك للسيرة الذاتية ما صحة ذلك ؟

- لقد كتبت السيرة الذاتية هذه بعد أن انتهيت من إجراء العملية الجراحية بلندن عام ١٩٩٢ ، وقتها لم يكن لدى موضوع معين أكتب فيه ، أو رغبة فى الكتابة ، أشعر بالملل الشديد ، فكان كل ما يخطر على بالى أقوم بتسجيله ، وعدت إلى مصر لكى أنهى هذا العمل .

وبعد أن انتهيت منها قرأتها مرة واحدة ، ووجدت أننى أكتبها على اعتبار أن شخصا يريد أن يملأ الفراغ الذى يحيط به ، شخص فى ضيق يود أن يملأ فراغ حياته، واكتشفت أنه بالإمكان إصلاح بعض الخلل بها ، ولكننى حينما قمت بقراءتها مرة ثانية

لم أنشىء جائزة باسمي ولكن وضعت مبلغا فى البنك يوزع على المحتاجين


جمال الغيطانى


إبراهيم أصلان

وأعددتها للنشر ، شككت فى أنها تصلح للنشر ، وكل أصدقائى عرفوا أننى لن أنشرها ، وكثير من أصدقائى فى القاهرة وفى الإسكندرية اقترحوا علىّ قراءتها ، وأقسموا لى أنهم سوف يقولون لى بمنتهى الصراحة ، إذا كان يمكننا نشرها أم لا .

ثم أبعدتها من ذهنى تماما ، ثم طلب منى «الأهرام» شيئا للنشر ، وبالتالى راودتنى من جديد فكرة إعطاء هذه النصوص ونشرها وأصداء السيرة الذاتية، كتبتها قبل القصص التى تنشر لى حاليا ، وهذه القصص كنت أعدها حتى قبيل محاولة الاعتداء على ، وكتبتها بنفسى ، وأولى وهذه القصص الجديدة فى «حديقة الورد» .

وأؤكد أننى لا أعرف حكاية التكنيك التى يتحدث عنها النقاد ، فقط أكتب خواطر شخص يحس بالضيق الشديد ، وجاءت كما ترى إما ذكرى أو شىء من الصبا ، أو تأملات ، ولذلك كما أشرت حينما أعددتها ساورنى الشك فى إمكانية نشر هذه الخواطر، وأهملتها مدة كبيرة ، وحتى بعد أن نشرت فى «الأهرام» ، لم أكن أفكر فى نشرها فى كتاب ، فى ومجموعة القصص .

وذات يوم زارنى السحار فى بيتى ، وقال لى : «إنت ناوى تنشر عند غيرنا .

قلت له : أبداً

قال لى : لقد قرأنا لك القصص القصيرة والسيرة الذاتية التى نشرت فى «الأهرام» ، وكان من المفروض فور انتهاء نشرها فى صحيفة «الأهرام» أن تقدمها لكى ننشرها كما اعتدنا بالنسبة لكل أعمالك السابقة .

قلت للسحار : ليس لدى أى رغبة فى النشر ، وعلى كل حال فكل ما تسأل عنه قد




صلاح أبوسيف — مصطفى محمود

وضعته فى درج هذا المكتب وأشرت إليه بإصبعى .

وعلى الفور طلب منى رؤية هذه القصص ، وكانت كل واحدة منها قد وضعت داخل مظروف مستقل .

وعلى الفور أخذها السحار.

لكننى استوقفته قائلا : عليك أن تعلم الأسباب التى منعتنى عن نشرها ، وأولها أننى لن أستطيع مراجعتها ، وثانيها أننى لن أستطيع أن أحضر عندك كما كان يحدث من قبل ، لكى أكتب كلمات الإهداء للأصدقاء على الهدايا من كتبى ، والتى اعتدت عليها .

قال لى السحار : كل هذه أشياء ثانوية ، فنحن نقوم بمراجعة كل أعمالك داخل المطبعة ، والهدايا ليست مهمة ، فلقد أهديت لأصدقائك ولن تحب خمسين كتابا صدرت لك من قبل !

● لماذا لم تعد أعمالك مغرية للسينما الآن ، هل لأن المخرجين الآن غير قادرين على اصطياد العالم القديم ؟

- أغلب كتبى استغلت فى الإذاعة والتليفزيون والسينما ، لذلك فإن الذى لم تأخذه السينما قليل جدا وبالتالى لن يجد أى من المخرجين الشبان ما يقدمونه من أعمالى ، فضلا عن أننى سمعت من الصديق توفيق صالح أن المخرجين الجدد أغلبهم يقومون بالتأليف والكتابة ، وبالتالى فهم لا يحتاجون إلى مؤلفين !

●● معركتك مع نزار قبانى أخذت أبعادا فى وقت حساس فى الصراع العربى الاسرائيلى ماذا كنت تريد من ذلك ؟

- ليس لى أى اعتراض على شعر نزار قبانى ، ووقت هذه المعركة التى تتحدث عنها، كانت قد بدأت خطوات السلام مع اسرائيل ، وكنا نسير فى طريق السلام ، وكان هناك كثيرون من المعترضين على السلام ويهاجمونه بكل ضراوة ، وينقدونه انتقادات حادة .

وكان سؤالى وقتها : ما هو البديل؟ .. أنت لا تريد السلام ، إذن ماذا تريد ؟ هل تريد الحرب مثلا ؟!

كنت في هذه الأثناء أذهب فى ندوة أسبوعية بكازينو قصر النيل وكان يأتى إلىّ الكثيرون ويبدون أمامى اعتراضهم على السلام ، وهو متحقق ، ويعترضون على التطبيع وكنت أكرر نفس السؤال .. ما البديل ؟! فمن يعترض على شيء ينبغى أن يقدم بديلا له، أم أنه اعتراض فقط !

●● اسرائيل تنقض عهودها ومواثيقها الآن .. هل التطبيع الثقافى معها مازال مجديا ؟

- كل الذى جاء بعد الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة ، والتصريحات الاسرائيلية أيضا ، أرى أنها تنطوى على تهديد للسلام ونسف كل المجهود الذى بذل فى عملية السلام بيننا وبين اسرائيل .. بين العرب من ناحية ، وبين اسرائيل وبيريز من ناحية أخرى .. والكلام المتشدد الذى صرحوا به فور الانتهاء من عملية الانتخابات غير نفوس العرب جميعا .

ونحن فى انتظار أن يتضح الموقف ، وليس هذا هو الوقت الذى تحدثنى فيه عن التطبيع ، فكل ما بداخلى يأبى التفكير فى ذلك الآن !

إن أمامى شخصا يقول لا .. لا .. لا !

وأقول له طبّع ، أو يقول لي كلاما عن التطبيع .. وأي تطبيع هذا ؟!

وأنا الآن لا أوافق على أى شىء حتى يتضح الموقف بيننا وبين اسرائيل .. فأنا لا أدرى ماذا يريدون ، وحينما يلتقى معهم الرئيس مبارك ، ونسمع تعليقاته ، نعرف هل نحن سائرون فى طريق السلام ، أم أن هذا الطريق قد انسد ، أم أنه سلام من نوع جديد ، وقد نوافق عليه ، أو لا نوافق عليه ، وتبعا لكل هذه النتائج ، يكون التطبيع والعمل أو عدمه !

●● أحببت عددا من كتاب القصة وأثنيت عليهم من بينهم يوسف القعيد وجمال الغيطانى وابراهيم أصلان ومحمد البساطى وخيرى شلبي، هل مازلت تتابع كتاباتهم ؟

- منذ ست سنوات وأنا لا أقرأ اللهم إلاّ إذا تفضل البعض وقرأ لى قصة أو قصيدة ، وبالنسبة لأصلان والبساطى ، فأنا قرأت كتاباتهم التى بدأوا بها واقتنعت بها تماما ، ثم ساروا هم بعد ذلك ، وأنا توقفت .

وهناك من لم أقرأ لهم ، ومن بينهم بهاء طاهر ، وحينما كنا نجلس معاً ، لم أقرأ له سوى قصة قصيرة واحدة ، وأيام أن ابتدأ التأليف ، كنت أنا قد امتنعت عن القراءة ، وهو الآن نجم لامع ، وأصبح كل شيء لدى الآن من خلال السمع ! ففى بعض الأوقات كما أشرت تلخص لى بعض القصص ، ودعنى أؤكد لك بأننى مقتنع بأن جيل الستينات ، جيل ممتاز جدا ، وفى مقدمته الصديقان جمال الغيطانى ويوسف القعيد وقد قرأت لمحمد المخزنجى وهو قاص جيد جدا ، كما قرأت ليوسف أبو ريه ولمحمد المنسى قنديل .

وابراهيم عبد المجيد - للأسف - بدأ يكتب قصصا جيدة فى الوقت الذى لا أستطيع فيه أن أقرأ الآن ، وقد حدثنى عنه الصديق حسين حموده وقال بأنه أصدر روايته الأخيرة (روايات الهلال ، الاسكندرية لا تنام) وقال لى إنها رواية جيدة جدا ، مما أسعدنى للغاية .

●● قيل إنك أنشأت جائزة باسمك تعطى لشباب القصة وخصصت مبلغا من المال لذلك !

- لم يحدث هذا ، إنما هناك جائزة أعلن عنها المجلس الأعلى للثقافة وهناك جائزة أعلنت عنها الجامعة الأمريكية ، لكن ما أعلنت عنه هو جائزة للخير ، فقد وضعت مبلغا فى البنك ، والريع الذى يأتى منه سنويا يوزع على المحتاجين . والبعض قال لى وقتها كان ينبغى أن يكون ذلك على هيئة جوائز للأدب ، وكانت فكرة جيدة ، ولكننى وقتها كنت أفكر فى مساعدة المرضى !

●● هل أصبحت الرواية العربية المعاصرة تلعب دورها المنشود، الذى كان يلعبه الشاعر العربى القديم ؟

- لاشك فى أن الرواية الآن ، تعتبر مركز قوة ، وأنا دائم السؤال عن التوزيع، فيقولون لى : إن دواوين الشعر لا تباع ، والشكل الأدبى الوحيد الذى يباع هو الرواية ، وكما يحدث عندكم فى دار الهلال ، فروايات الهلال الجيدة يباع منها الكثير ، وكلنا يعلم





نزار قباني — بهاء طاهر

ذلك ومن الواضح أن هذا هو عصر الرواية ، لكن للأسف فإن الثقافة «مضروبة» ، ونسبة القراءة ضئيلة، ففي مصر وحدها ٦٠ مليوناً وتجد نسبة البيع من العمل الجيد ، ضمن سلسلة لها قراؤها ضئيل . وعلى سبيل المثال في بداياتي القصصية كنا نقوم بطبع ألفي نسخة ، وكان عدد السكان قليل ، وكانت نسبة الأمية وقتها ٩٠٪ ، أما الآن فنسبتها أقل.

●● هل أنت موافق على تسمية القصة ديوان العرب؟

– لماذا تجعلنا «نتخانق» مع الشعراء، فتاريخهم قديم والأدب العربي شعر في الأساس .. فاجعلها دواوين!

●● وماذا تقول عن جائزة الدولة التقديرية ، وهل أنت راض عن القيمة المادية لها ؟

– لقد جاءت الجائزة التقديرية هذا العام في محلها تماما ولا اعتراض عليها، ولكني كنت أستغرب كيف لا يحصل مصطفى محمود على الجائزة والحمد لله أنه حصل عليها أخيرا ، كما أن الدكتورة لطيفة الزيات تشرف هذه الجائزة .. أيضا كانت دهشتي كبيرة أن الدكتور فؤاد زكريا لم يحصل على الجائزة إلا هذا العام

وكنت قد اقترحت أن يكون المقابل المادي لهذه الجائزة ٥٠ ألف جنيه ، والتشجيعية ١٠ الاف جنيه .

وأنا أتعجب أنه لم يتم شيء من القرارات التي اتخذها المجلس الأعلى للثقافة لزيادة الجائزة .

●● وقبل أن أنهي حواري مع الأستاذ سألته ؟هل تقولون كلمة للمجلات الثقافية في مصر؟

قال : الله يكون في عونكم !

أرنولد توينبى
وإعادة كتابة التاريخ

بقلم : د . السيد أمين شلبى

لم ينل مشتغل بالتاريخ فى القرن العشرين من الشهرة والمكانة العالمية مثلما نال المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) ، وترتبط هذه المكانة التى احتلها توينبى بين مؤرخى زمنه بمنهجه فى دراسة التاريخ ورؤيته العريضة للحضارات التى تعاقبت عليه وأدوارها فى بناء الحضارة البشرية .



المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى

فعلى عكس غيره من المؤرخين الذين اكتفى أفضلهم بإلقاء نظرة جزئية على التاريخ البشرى وحصروا أنفسهم فى فروع تخصصهم ، قدم توينبى نظرة رحبة وبانورامية للتاريخ ومفهوما شاملا يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى سجلها التاريخ .. ومثل هذه النظرة الشاملة هى التى ميزته على المؤرخين الغربيين وجعلته يتحدى تمركزهم حول ذواتهم واعتبارهم أنهم بحضارتهم الغربية انما يقفون موقفا متميزا يحتكرون فيه التاريخ وكأن التاريخ قد توقف تماما

عند عالمهم الغربى ، لذلك اعتبر المؤرخون المنصفون ان مساهمة توينبى الأساسية فى تقاليد المعرفة هى رؤيته للتاريخ البشرى من منظور اوسع وتذكير لأبناء حضارته بالحقيقة البسيطة أن الأسيويين والأفريقيين بل وشعوبا مثل الهنود الحمر ، والاسكيمو لهم تاريخ مستقل عن تاريخ الغرب لذلك كان اهتمام توينبى الأساسى هو النظر إلى التاريخ من منظور عالمى Globaly وأنه لكى يتحقق لمؤرخى الغرب هذه النظرة العالمية المتوازنة فإن عليه ان يخلص نفسه من وهم أن بلدا معينا أو مدينة أو ديانة ،التى تصادف أن تكون مدينته أوديانته هى مركز الحضارة، فمثل هذه النظرة هى أكبر عائق لرؤية البانوراما العالمية فى نسبها الصحيحة .

● رؤية الجانب الآخر

وحين سئل توينبى عام ١٩٦٥ كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب وبشكل يتفق مع شخصيته «مثل من حاول ان يرى الصورة فى مجموعها .. وليس من مجرد وجهة النظر الشخصية» ، واضاف فى مناسبة أخرى «اود ان اعتقد انى فعلت عملا صغيرا فى حث الشعوب الغربية لأن يفكروا فى العالم ككل . لقد كانت رغبتى دائما ان ارى الجانب الآخر من القمر.. مضيفا.. أنه تعلم منذ طفولته ان يتساءل عن الشعوب التى تركزت خارج التاريخ التقليدى مثل : الفرس ، والقرطاجيين والمسلمين ومن شابههم . وهكذا كان هذا الاهتمام وتوسيع نطاق التعاطف والمعرفة فيما وراء الحدود التى رسمها مؤرخون آخرون ، من الاسهامات الرئيسية المؤكدة التى قدمها توينبى لرؤية التاريخ أو بالتحديد إعادة رؤيته وهو ما انعكس فى عمله الضخم دراسة التاريخStudy OF Hisroty والذى كتبه على مدى عشرين عاما : ١٩٣٤ - ١٩٥٤، وكان يذكر اكثر المحاولات طموحا وبشكل لم يجرؤ عليه احد من قبل لا فى حجمه أو فى إحيائه للخيال التاريخى فقبل ان يقدم توينبى هذه الرؤية العريضة للتاريخ ، كان التاريخ الذى يدرس فى الجامعات والمدارس الغربية لايتعامل الا مع الأوروبيين القدماء والعصور الوسطى الحديثة، ومن انحدر منهم ومن سلالتهم فيما وراء البحار ولم تدخل شعوباً اخرى إلى المسرح الا عندما اكتشفت أو تمدنت أو غزاها الاوربيون . ورغم ان الجميع كانوا يعلمون ان الهند والصين وعالم الاسلام كان لهم تاريخ طويل ، فإن هذه كانت ميادين خاصة فى البحث لاينظر اليها المؤرخون وانما كانت

مجالا لدراسة علماء اللغات ودارسي الاديان المقارنة. حقيقة ان عقولا شجاعة قبل توينبي حاولت ان تربط بين التاريخ الاوربي وغير الأوربي مثل هـ .ج ويلز الا ان كتابه out Line of History الذي نشره عام ١٩٢٠ كتبه في اقل من عامين وكما ذكر ويلز نفسه فان معظم معلوماته استمدها من دائرة المعارف البريطانية ، واكثر من ذلك فقد كان التاريخ الذي قدمه ويلز هو تاريخ التقدم كما نشأ في معظم اجزاء اوربا ولم تلعب فيه الشعوب الاخرى الا دوراً هامشيا . وفي القرون التي سبقت عام ١٥٠٠ الامر الذي كان تشويها ضخما ولذلك فان جهود ويلز في تصحيح الاخطاء الاكاديمية في الدراسة التاريخية لم تفعل الكثير في تعدي الحدود القديمة .. كذلك كان المفكر الالماني سبنجلر الذي جاء ايضا مثل ويلز من خارج المؤسسة الاكاديمية اكثر علما وكانت رؤيته للمدنيات والحضارات غير الاوربية هي التي قدمت لتوينبي مفتاحا اساسيا في بناء دراسته للتاريخ ، كما أن سبنجلر قد عامل الحضارة العربية وبعض الحضارات غير الاوربية كحضارات متساوية. الامر الذي فشل فيه ويلز ، كما كان سبنجلر هو الذي أحيا تقليدا للقرن التاسع عشر كان ينظر الى حكماء الصين. وغيرهم من حكماء الشرق كاقران وربما متفوقون على اقرانهم الاوربيين . غير ان ما يميز توينبي عن هذه المحاولات هو ان عمله كان أغزر استيعابا ، وولعه بالتفاصيل اضاءه بالمقارنات المدهشة عبر الزمان والمكان ، لذلك كان توينبي اكثر من اي مؤرخ آخر هو الذي ادخل في وعي اقسام واسعة من قراء العالم الحقيقة البسيطة ان شعوبا اخرى لها تاريخ مستقل عن تاريخ الأوربيين وجعل الغرب بوجه خاص يتجاوز صورته القديمة التي لم يكن فيها مكان الا لحضارته وباختصار دفع الغرب لان يرى التاريخ ، بعيون جديدة» .

● عشق التاريخ

وقد توقفت حياة ارنولد توينبي مع أضخم انفجار في المعرفة والخبرة الانسانية ورغم ان زملاءه من المؤرخين الذي عاصروه قد اختبروا معه هذا الانفجار وعاشوه . فانه كان اكثرهم الذي اشتعل خياله بهذا الانفجار ، وبحدود رؤية الشئون البشرية ، فحيث اكتفى افضل المشتغلين بمهنة التاريخ بالتقاط

بعض المظاهر الجزئية التى لاتحمل الا علاقة صغيرة بالاحداث التى يعيشونها ، فإنهم فى هذا كانوا يحيون فى الوقت الذى كان توينبى يجتاز ويقطع عدة اميال وكان هو الوحيد الذى قدم منظورا شاملا يغطى الوجود البشرى منذ بداية الحضارات التى عرفها التاريخ حتى ما شهدته حياته من تكون حضارة عامية يعتمد بعضها على البعض بشكل لا رجعة فيه .

ولعل هذه النظرة الرحبة للتاريخ عند توينبى تعود الى تعليمه ودراسته الموسوعية للكلاسيكيات التى جعلته يعتقد ان الشئون البشرية يمكن فهمها بوضوح حين تعالج فقط بشكل شامل . كما علمته ان يدرس الأدب ، والفن والفلسفة والسياسة والتاريخ لا كموضوعات منعزلة وانما كوجوه لوجهة نظر متميزة عن العالم. .

وفقا لهذا المفهوم جاء تناول توينبى للتاريخ عالميا ، وشملت دراسته وبحوثه كل حضارات العالم التى اختفت وتلك التى ما زالت قائمة . ووفقا لهذا المفهوم ، ايضا اعتبر توينبى انه لكى نفهم القوى التاريخية التى سببت نمو وانهيار الحضارات فانه من الضرورى مقارنة تاريخ مختلف الحضارات ، وان مثل هذه المقارنة هى التى ستسمح للمؤرخ ان يكتشف مبادىء عامة وانماطا تشترك فيها كل الحضارات ، والاهمية الحقيقية لهذا المنهج هى انها ستحث المؤرخ على ان يفكر بشكل نقدى وحول موضوعات عريضة فى التاريخ وحول نماذج مشتركة فى الشئون البشرية ، كما سوف تجبر المؤرخ التحليلى على ان يعلو على مجال تخصصه المهنى وان يعالج ويتعامل مع المعنى الاوسع للخبرة البشرية لذلك دعا توينبى المؤرخ الى البحث عن المعنى الاوسع للتاريخ الذى يجب ان يكون اكثر من مجرد البحث عن الحقائق . وان يكون اكثر من مجرد اثرى يجمع المعلومات بشكل انسكلوبيدى . وان يكون اكثر من المتخصص الذى يجزىء الشئون البشرية الى اجزاء صغيرة متعددة. ويلخص توينبى رؤيته للتاريخ بقوله «ان حساسيتى للبيئة التاريخية هى جزء من العيش فى البعد الزمنى : انه شعور نحو أجدادنا وأحفادنا والشعور باننا أوصياء على التاريخ على كل التاريخ البشرى وان علينا أن نسلم ما سلم الينا وان نتأكد اننا حافظنا عليه» .

غير ان مكانة توينبى بين مؤرخى القرن العشرين لاتتأتى فحسب من منهجه فى رواية التاريخ أورؤيته التاريخية العريضة أو من نظريته التي استخلاصها من هذه الرؤية ، وانما تتأتى كذلك من جرأته وأمانته فى مواجهة أبناء حضارته الغربية بمأزقهم التاريخى ما بين الارتفاع المادى والتكنولوجى لهذه الحضارة وسيطرتها ، وبين ما تحتويه من بذور تحللها ، ورغم ان الكثيرين من المفكرين الغربيين قد شاركوا توينبى فى هذه الرؤية، فإنه كان اكثرهم تماسكا، فى التعبير عن هذا المأزق التاريخى الذى سجله منذ ان عاش تجربة الحرب العالمية الاولى والتى صدعت التصور الجميل الذى صاحب بداية القرن العشرين من ان البشرية تتجه نحو «جنة ارضية»، كما جاءت الحرب الثانية لكى تكشف، كما عبر توينبى بعبارات قاسية، عن الاجرام الذى يتقبع تحت سطح الحياة فى العالم الغربى فالالمان لم يكونوا ليرتكبوا جرائمهم بدون هذه الحقيقة وغياب الامل الذى صاحب بداية القرن العشرين بالتقدم المضطرد وبتغطيتنا على حقيقة أن الانسان الغربى واهماله لم يعد محصنا ضد الخطر اكثر من انسان الحضارات التى فنت لنفد وقد تعرض توينبي بسبب هذه الامانة الفكرية لتعد عنيف من غيره من المؤرخين الذين رأوا فيه عدوا للحضارة الغربية يتمنى لها الفناء. بل ان احد نقادة وهو H.I Tro-vev Ropev اعتبر ان توينبى هو الحليف الفلسفى لاى فاتح أو غاز يمكن ان يدمر الغرب ان توينبى يمقت الحضارة الغربية لانها اساسا ليبرالية وعقلية وهو بما يحمله لها من كراهية يود لو يراها قد تحطمت. اما ما كان يقصده توينبى حقا فهو أن يذكر ابناء حضارته الغربية بسيطرة الجانب المادى عليهم وتحذيره لمجتمعه الغربى بان تكنولوجيته هى عقلانية مفترسة وانها تفعل مثلما يفعل الانسان الفاوستى فى تصميمه على البحث عن الحقيقة واخضاع الطبيعة، وانه اذ يفعل ذلك فانه يصنع عالما مصطنعا من اجل حاجات متخيلة وصنع تكنولوجيا تدمر من صنعها وتجرده من شخصيته وقد تدمر الكرة الأرضية، وينبههم إلى ان الأساس الوطيد للحضارة هو ليس سيطرة الانسان على الطبيعة ولكن السيطرة الاخلاقية على طبيعته الخاصة ونوعية علاقاته مع زملائه البشر وقد اصر توينبى وهو يواجه اتهامات نقاده على ان

امراض المجتمع الحديثة لايمكن علاجها فقط من خلال تغيرات فى منظماته ومؤسساته. فالبشرية تحتاج تغييرا فى القلب واتجاها روحيا افضل وقد دفع هذا الموقف الفكرى والفلسفى احدث شراح توينبى وهو Mcnill William يعتبر ان توينبى هو اكثر من عبروا عن أزمة الضمير الغربى، وأنه سيظل تعبيرا عميقا عن العذاب والقلق الذى حل بالغرب فى القرن العشرين.

تأكيده على العالم

غير ان ما يجب التنبيه اليه ان اتجاه توينبى فى نقد سيطرة القيم المادية والنظرة إلى العلم والتكنولوجيا كمعبود جديد، لا يعنى ان توينبى يقلل من شأن العلم وتطبيقاته. فالواقع ان توينبى كان دائم التأكيد على العلم كقوة رئيسية فى التقدم البشرى، اما ما كان ينبه اليه فهو ان العلم واستخداماته قد تطور إلى قوة ليس وراءها القوة والرصيد والفهم الخير الذى يوجهها ويستخدمها الاستخدام السليم، الامر الذى نشأ معه هذا الاختلال فى العلاقة بين الجانب المادى والجانب الروحى فى الانسان.

كذلك تبدت الاستقامة الفكرية لارنولد توينبى تجاه حضارته الغربية فى نقده لتوسعها الامبريالى الذى وضعها فى مواجهة مع العالم كله تقريبا، دعوته للغرب اذا اراد ان يتعرف على ابعاد توسعه الامبريالى ان يتخلص للحظة من تحيزه وان ينظر إلى هذه المواجهة بعيون الأغلبية غير الغربية من البشرية، فأياً كان اختلاف الشعوب غير الغربية بعضها عن بعض فى العنصر واللغة والدين والحضارة فانه اذا ما سألهم سائل عن رأيهم فى الغرب فسوف يسمع.. إجابة واحدة سواء كانوا روسا أو مسلمين أو هندوس أو صينيين أو يابانيين أو غيرهم. سوف يقولون له ان الغرب هو المعتدى فى العصور الحديثة.

ومن المواقف المحددة التى تعكس استقامة توينبى الفكرية وتضرره الاخلاقى ونزاهته العلمية من مؤرخى ومفكرى عصره انه فى الوقت الذى كان معظمهم يتجاهلون الحقائق التاريخية بالنسبة لدراما بشرية مثل القضية الفلسطينية وحقوق الفلسطينيين فى ارضهم بل ويتعاطفون مع الغاصب والمعتدى كان توينبى ومنذ البداية ينبه الى هذه الحقائق ويعتبر الوجود الصهيونى فى فلسطين اغتصابا لاراضى الغير وامتداداً للامبريالية والظلم نحو الشرق بل ويعتبر ان بلاده – بريطانيا بموقعها غير المسئول قد مهدت لهذا الوضع.

بهذه المعانى فانه بين الشخصيات التى صنعت القرن العشرين فى ميادين السياسة والاقتصاد والعلم والثقافة والفنون الخ .. يقف ارنولد توينبى من ابرز شخصيات القرن فى ميدان الدراسة التاريخية وعلى اسس من الجهد العلمى الخارق، والموضوعية والخيال التاريخى.

زكي مبارك

قلب شاعر وعقل مفكر
ونضال قائد بغير جنود

إننى أكرم خلق الله فى رعاية الجمال

بقلم : سيد خميس

أخيرا افتتحت فى سنتريس مسقط رأس الدكاترة زكى مبارك مكتبة باسمه اعترافا وتقديرا لفضله بعد أن رحل عن دنيانا فى بداية عام ١٩٥٢ ، بعد كفاح طويل فى سبيل الفكر والفن .

كان غريبا أن تبتلعه ذاكرة النسيان الثقافى واسعة الذمة ، وهو الذى عاش أكثر من ثلاثين عاما مالئا دنيا الثقافة والصحافة والإذاعة ، وشاغلا قراءه وطلابه ومستمعيه بمعاركه الفكرية والأدبية والعاطفية المتصلة ، ضد كل مشاهير عصره ، وضد كل قيم ومفاهيم عصره «غريبا فى كل أرض وأجنبيا فى كل بيئة» - كما وصف نفسه - ذلك هو زكى مبارك (١٨٩٢ - ١٩٥٢) الدكاترة لا الدكتور فقط . كان قدره بعد رحيله كقدر أحمد أمين ، وأمين الخولى ، ومحمد فريد وجدى ، واسماعيل مظهر ، وأحمد ضيف ، وشفيق غربال ، وغيرهم من الذين صنعوا ثقافتنا الحديثة منذ أوائل القرن .. كان قدره مثلهم تستعيده ذاكرة ثقافتنا بصعوبة وبالمصادفة مكتفية



زكى مبارك



أحمد أمين



أمين الخولى

بالتذكر الدائم لعلم أو اثنين من معاصريهم !

عندما تعرف الشيخ المرصفى فى دروسه الأزهرية بذلك الفتى الريفى النابغة القادم من قرية «سنتريس» فى أول أقاليم دلتا مصر ، وكان ذلك فى عام ١٩١٤ وهو نفس العام الذى شد فيه تلميذه السابق طه حسين رحاله إلى فرنسا بعد أن نال درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية عن أبى العلاء ، وكأنه كان يرسم لزكى مبارك الطريق الذى سيسير فيه بعد ذلك ، وهو الأمر الذى لم يفت أستاذهما الأول الشيخ المرصفى فعبر عنه بقوله : «إنى لأخشى أن يضيع منا زكى مبارك كما ضاع طه حسين» وإذا كان الاثنان قد ضاعا من الأزهر وصدقت نبوءة الشيخ المرصفى ، فإن الحياة الثقافية العربية قد كسبت بهما كثيرا

من سنتريس إلى الأزهر

جاء زكى مبارك من قريته إلى

الأزهر شابا يافعا متوهجا يمتلئ وعيه ووجدانه بأسرار المتصوفين وخيالات الشعراء .. ثم كان لقاؤه بعد خمس سنين مع الشيخين المهدي والمرصفى كما التقى بهما قبله طه حسين .

وأدرك الشيخ المرصفى أن تلميذه الجديد سيتبرم بالأزهر ويتمرد على طرقه فى التعليم كما فعل من قبل تلميذه القديم ، ولكن الذى لم يدركه الشيخ المرصفى هو أنه أحد أسباب تمرد تلميذيه فقد فتح أمامهما بتجديده فى دراسة الأدب العربي والبلاغة وعلوم اللغة الطموح العلمي والثقافى غير المحدود .

ودور الشيخ المرصفى فى إصلاح الدراسة الأدبية واللغوية يماثل دور الشيخ محمد عبده فى إصلاح الدراسة الدينية ، بدأ زكى مبارك بتعلم الفرنسية معتمدا على جهده الشخصى حتى أتقنها وبدأ يقرأ فيها روائع الشعر الفرنسى .. ثم انتقل إلى الجامعة المصرية ليستكمل تعليمه فيها وكانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت .. ولم تمض غير شهور حتى بدأت نذر الثورة الوطنية ١٩١٩تدق أبواب الحياة فى مصر .

فى ركب الثورة

ترك زكى مبارك الجامعة المصرية التى تلهف طويلا على الالتحاق بها ، وألقى بنفسه فى غمار الثورة العارمة ، يشارك فى المظاهرات ويحرض عليها ، ويخطب فى الثائرين ، ويلقى الأشعار الملتهبة فى التجمعات الشعبية ويبث الحماس للثورة فى كل مكان يذهب إليه مستنفرا محفوظه من أشعار الحماسة العربية القديمة ، وناسجا على هديها أشعاره التحريضية :

فلا حمدت مسعاى آل مبارك
إذا لم أبث أعداء مصر على جمر
لئن لم يبن طوعا عن النيل غاصب
نرى لبثه فينا أمر من الكفر
لأستمطرن الشعب سخطا ونقمة
على ما جنت يمناه فى مصر من فكر !

ورأت السلطة العسكرية البريطانية أنه جاوز حده فى تأليب الجماهير فقررت اعتقاله مع من اعتقلت من شباب الثورة ، وكتبت صحيفة «الأهرام» بتاريخ ١٩٢٠/١/١ الخبر التالى فى صفحاتها : «اعتقل البوليس صباح أمس الأستاذ زكى مبارك وهو شيخ معروف بذلاقة اللسان والنظم الرشيق ، وكان له فى كل اجتماع كلمة يلقيها ، أو قصيدة يتلوها»

ومنذ ذلك التاريخ وزكى مبارك يجوب الأرض من معتقل إلى آخر ، مضت السلطات الإنجليزية تضغط

محمد فريد وجدى



على المعتقلين من أرباب الفكر ، وتحاول أن تأخذ منهم تعهدا يقضي بعدم الاشتراك في الثورة ومقابل هذا التعهد يطلق سراحهم ، وقد ارسلوا من يغري زكي مبارك بالافراج عنه بعد أن يوافق على ذلك الشرط فأبى وظل في المعتقل حتى بعد أن أفرج عن زملائه ، وذلك لأنه رفض التوقيع على تعهد بألا يشتغل بالسياسة . ولكن رئيس المعتقل أمر بالافراج عنه بعد أن يئسوا منه فخرج وقد تعبت عيناه من كثرة القراءة !

أجنبي في كل بيئة .. وغريب في كل أرض

كان لابد من الذهاب إلى باريس ، فهي العاصمة الثقافية التي تدشن هؤلاء الطامحين من أبناء الأزهر لتردهم أعلاما مشاهير !

وقصة اجتياز أجيال من المثقفين المصريين منذ علي مبارك باشا في النصف الأول في القرن العشرين قصة اجتياز هؤلاء الحدود والسدود لكي يصلوا إلى «مدينة النور» ، كما كانت باريس تسمى ، ليكتسبوا علما وحضارة يعودون بها إلى الشرق ، هي قصة الإرادة الإنسانية التي لا تعرف المستحيل من أجل التقدم .



شفيق غربال

وكان أقصى ما ينتظر من هؤلاء ويحمد لهم أن يصلوا إلى الأزهر الشريف فينالون بعض علمه التقليدي المتاح لأمثالهم من الفقراء وأواسط الناس مجانا .. لكنهم كانوا على موعد من الطبقة الوسطى التي رأت أن الظروف المحلية والعالمية تتيح لها أن تسود وأن تشارك في السلطة لو اكتسبت العلم والمعرفة العصريين .. وكان هؤلاء رسلها إلى ذلك الهدف .. وكان كفاح هؤلاء الشاق والمثمر يحمل دلالة رمزية لمصير الطبقة الوسطى ، طبقتهم التي اصبحوا إليها ينتمون !

وإذا أخذنا زكي مبارك مثالا رمزيا على ذلك فإننا سنجد أن هذا الرجل لم يكتف بالوصول إلى الأزهر فانتقل منه إلى الجامعة المصرية ونال إجازتها .. ثم نال درجة الدكتوراه منها وكانت رسالته فيها عن «التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق» وعين بعقد في كلية الآداب .. لكن لابد من باريس وإن طال الانتظار وقل الزاد .

في باريس

ترك زوجته وأولاده في مصر واتجه إلى باريس عام ١٩٢٧ فعاش عيشة تقارب في مشقتها مشقة حياته في حي «الغورية» أيام طلبه العلم بالأزهر .. كان يقسم العام قسمين .. يقضي القسم الأول في القاهرة يحصل رزقه من الاشتغال بالتدريس والصحافة .. ويقضي النصف الثاني في جامعة

السوريون يبحث ويدرس ويناقش المستشرقين والعلماء - وكان موضوع اطروحته للدكتوراة الثانية موضوعا موسوعيا يحتاج إلى التفرغ الكامل والطويل .. فقد اختار أن يدرس الإبداع النثري للقرن الرابع الهجري .. وهو القرن الذي يسميه «آدم ميتز» بعصر النهضة في الإسلام . لذلك قرر زكي مبارك بعد أن أدرك عبث رحلة الشتاء من أجل الرزق ورحلة الصيف من أجل العلم أن ينقطع للدراسة كلية مكتفيا بما يصله من نقود قليلة من صحيفة البلاغ وكان أحد محرريها الرئيسيين !

وينال الدكتوراه في عام ١٩٣١ عن كتابه القيم «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» والكتاب في مجلدين وهو ليس دراسة فنية في أساليب الكتابة كما قد يوحي عنوانه ولكنه دراسة موسوعية في الحياة العقلية لذلك العصر الذهبي من عصور الثقافة العربية الإسلامية لا يضارعها غير دراسة «آدم ميتز» عن نفس العصر .. ورغم أنه ظل يحمل لباريس حبا عظيما فإنه في الحقيقة لم يعرف من باريس غير وجه المشقة في طلب العلم والغربة الموحشة التي تطارد المثقف الفقير الغريب ذا الوجدان الرومانسي «فأنا في كل بيئة اجنبي وفي كل أرض غريب» كما كتب عن نفسه وهو في باريس عام ١٩٢٩ .. لذلك يأتي شعره الذي كتبه هناك انعكاسا للتجربة التي يحملها من القاهرة وامتدادا لأساليب الشعر العربي :

يا جيرة السين يحيا في مرابعكم
فتى إلى النيل يشكو غربة الدار
جنت عليه لياليه وأسلمه
إلى الحوادث صحب غير أبرار
أحال الدهر في لأواء غربته
روحا معنى وجسما نضو أسفار
يسعى إلى المجد ترميه مخاطره
بنافع من شظاياها وضرار !

ليلى المريضة بالعراق

على الرغم من أن زكي مبارك لم يقض في بغداد غير عام واحد ١٩٣٧ - ١٩٣٨ فإن ذلك العام ترك بصمات قوية على روح وانتاج زكي مبارك .. كما ترك بصمات قوية على جيل من المثقفين العراقيين . طلبته حكومة العراق للتدريس بدار المعلمين العالية ، فرحب بذلك ، وملأ أيام عامه العراقي ولياليه بعمل متواصل في التدريس والمحاضرات العامة والتأليف ومساجلة الشعراء العراقيين وتوهم الحب العفيف على غرار قيس بن الملوح «فقد خلق خيال زكي مبارك الشعري ليلى ثانية مريضة حباء .. ومزج بين ليلى الأنثى العاشقة المعشوقة


طه حسين

، وبين ليلى الرمز الدالة على اللغة العربية وآدابها .. وجعل من نفسه «الطبيب المداويا» لكل منهما . وحرر كتابه عن ليلى المريضة فى العراق من جميع القيود ليكون درسا فى الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى ينفع فى إذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية ، وتلقف خصومه الكتاب ليتهموه بأبشع التهم فقد كان الكتاب اقرب إلى الاعترافات الذاتية، التى كان فيها رائدا، وهو لون لم تكن الحياة الأدبية العربية تألفه أو تطيقه مما دفعه ليكتب عن نفسه وكتابه:

«إن كتاب «ليلى المريضة فى العراق» فضح عيوبى فضيحة أبدية مع أنى برئ من أكثر ما وصمت به نفسى فقد اردت أن أجعل سريرتى مثقلة بالأوزار والعيوب وكذلك دنست سمعتى ظلما وعدوانا لأقدم وقودا جديدا لعلم النفس وعلم الاخلاق ولأصور غرائز الناس تصويرا لاتمحى رسومه من جبين الزمان» !

وهو يعترف فى كتابه «وحى بغداد» بأن حياته هناك ، كحياته فى باريس والقاهرة كانت عملا متصلا وبحثا مستمرا فى الأدب وتاريخه وفى المجتمع وظواهره .. وقد انجز فى عام واحد فى بغداد ما يحتاج من غيره إلى سنين .. يقول عن حياته فى بغداد :

«لقد كوتنى بغداد ، ثم شفتنى بغداد ، كوتنى هذه المدينة لأنى عشت فيها محبوسا لا أدرى أين أذهب ، وشفتنى لأنى أنست بسواد الليل حين فاتنى الأنس بسواد العيون فخرجت من ذلك بمحصول ضخم سيملأ خمسة مجلدات» . وقد انجز فعلا خمسة مجلدات فى عام بغداد ذاك :

- ليلى المريضة فى العراق
- وحى بغداد
- عبقرية الشريف - جزءان
- ملامح المجتمع العراقى

ليلى المريضة فى الزمالك

لم تكن من بنات خيال زكى مبارك ولكنها كانت امرأة حقيقة .. ممثلة مشهورة فى الاربعينات وتنتمى إلى نفس القرية التى ولد فيها وتعيش فى الزمالك .. تمثل فى المسرح والسينما والإذاعة وتلهم الشعراء .. لم يكن اسمها ليلى بالطبع ولكن تقاليد المجتمع المصرى أيامها جعلت زكى مبارك الزوج والأب والمفكر والكاتب الذائع الصيت لا يسمى تلك الممثلة التى اشتهرت بأدوار الاغراء باسمها الحقيقى ، خاصة وقد عانى من استخدام خصومه لاعترافاته الذاتية فى الهجوم عليه والتشنيع على سمعته - يقول الشاعر والصحفى الراحل صالح جودت :

لقد عرفت زكى مبارك سنوات طويلة وكنت قريبا إلى موضع اسراره،

كان زكى مبارك كصاحبه الشاعر إبراهيم ناجى خفيف القلب يحب كل امرأة يلتقى بها فى طريق الحياة .

ولكن هل تعرف من هى ليلى التى هزته من اعماقه وأوحت إليه اجمل شعره .

إنها فنانة كبيرة كانت من لدات طفولته ، لأنها هى الأخرى من بلدته سنتريس ، إنها نفس الفنانة التى ألهمت ناجى «قصيدة الاطلال» .

ومن غزل زكى مبارك فى ليلاه الفنانة قصيدته «نور القمر» التى يقول فيها :

تبارك خلاق هذا الكلام
ومبدع هذا الجمال الخطر
أفانين منها زهور الخدود
ومنها حلاوة هذا النظر
فمن منقذى من سواد الفؤاد
وفى جوفه جمرة تستعر
أرانى افتضحت بحبى لكم
ومن يفتضح بالهوى يشتهر
أمجنون ليلى أنا .. ربما
إذا امر الحسن قد تأتمر !

ولا يقف طويلا عند هذا الغرام الفنى ، فالرجل مشغول بمعاركه النقدية ضد أحمد أمين وضد طه حسين الذى يصف زكى مبارك بأنه حاد الشباب عنيف» ويجد نفسه مفصولا من عمله بعد تعريضه بوزارة صدقى باشا المعادية للشعب وبوزير معارفه العشماوى باشا الذى اغلق الجامعة رعاية لمصالح الانجليز .. وتسقط وزارة صدقى المواليه للاحتلال البريطانى لتحل محلها وزارة النقراشى والتى لا تقل عنها ولاء للانجليز .. وتستمر ثورة الطلبة ضد النقراشى والسنهورى وزير معارفه ، ويستمر زكى مبارك فى هجومه الشعرى على حكومات الاقليات المعادية للشعب .. تلك الحكومات بادية العرى قبيحة اللؤم التى تستخدم الشرطة فى العدوان على الطلبة والتى قتلت بعضهم : إن المجرم فى حق الشرطة والطلبة معا هم رؤساء الوزارات الرجعيين .

أزمة مالية عنيفة

يفصل زكى مبارك من عمله وهو الذى يعيش واسرته الكبيرة من كد قلمه وعقله ويمر بضائقة مالية عنيفة - ويحاول قسم الدعاية بالسلطة العسكرية البريطانية باسم الدفاع عن الديمقراطية والعالم الحر وباسم معاداة الفاشية والنازية أن يشترى قلم وضمير زكى مبارك ، كما اشترى اقلام بعض الكتاب العرب والمصريين خلال الحرب العالمية الثانية ، لكن زكى مبارك يرفض بحسم أن يبيع ضميره وقلمه لمحتلى بلاده مهما كانت وجاهة الحجج .

محمد عبده



ويقضى بقية

سنوات عمره في عزلة ممضة .. و لكنه لا يتوقف عن كتابة الشعر ولا عن كتابة مقاله الأسبوعي الشهير تحت عنوان دائم هو «حديث ذو شجون» إلى أن يرحل عن دنيانا في بداية عام ١٩٥٢ عن ستين عاما من الكفاح المتواصل الدءوب في سبيل الثقافة والشعر ..

ستون عاما لم يعرف فيها طعم الراحة أو الرفاهية لكنه قضاها مقاتلا في سبيل معتقداته الفكرية والأدبية ..

لم يضعف من قدراته القتالية أن بعض معاركه كانت ضد طواحين الهواء .. وانه كان في بعضها «جنرالا بلا جنود» .

النرجسية .. لماذا ؟

ربما كان في ذلك تفسير لنرجسيته التي لم يستسغها القراء إلا بفضل خفة دمه وسخريته اللاذعة .. فعندما لم ينصفه الزمان ولا معاصروه راح ينصف نفسه .. وعندما يكتب عن كبار الكتاب والشعراء كان لا ينسى نفسه بل يقيس مواهبهم وعبقرياتهم بالقياس إلى مواهبه وعبقريته .

فهو يكتب عن أبي تمام «انه شاعر عظيم إلى ابعد حدود العظمة ولو ترجمت اشعاره إلى احدى اللغات الأجنبية لراعت من وراء البحار في الممالك الاوربية والامريكية ، لا أنا ولا ألوف من أمثالي يصلون إلى منزلة أبي تمام الشعرية» .

وهو يكتب عن الشريف الرضي «وقد وقفت من الشريف الرضي موقف الصديق من الصديق والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جدا ، ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق فقد عاني في حياته ما عانيت في حياتي ، كافح في سبيل المجد ما كافح وجهله اهله وزمانه ، وكافحت في سبيل المجد ما كافحت وجهلني قومي وزماني» .

ويحدث قراءه عما سيفعل حين يحضره الموت «سأذكر أن الدنيا كان فيها رجل واحد يشقي ليسعد الصديق ويموت ليحيا الصديق» .. ثم ماذا ؟ «سأذكر حين أموت أنني كنت أكرم خلق الله في رعاية الجمال وسأذكر أن الله اصطفاني لهذه الرسالة الروحية ، سأسي عليكم يا بني آدم حين أموت فقد كان في نيتي أن اسعى لتحقيق فكرة السوبرمان لتعيشوا في دنياكم عيشة شاعرية ولكن وماذا أصنع وأنا كما تعلمون لا أملك فسحة الاجل ولا طول البقاء .. ؟ سأتحسر يوم أموت على ضياع الثورة الشعرية التي تموج في قلبي ووجداني ولن يكون لي إلا عزاء واحد هو أن الله شاء ان يحرم العالم من رجل كله قلب ووجدان لأن العالم لا يستحق أن يحيا فيه قلب مثل قلبي ولا يستأهل أن يعيش فيه رجل يملك من عظمة النفس وقوة الروح .. والعالم من بعدي هباء في هباء» .. !

المدن المتفجرة فى العالم

الاهتمام بالإسكان ينال عناية كبيرة الآن ، كان آخرها مؤتمر المستوطنات البشرية الثانى ، والذى عقد مؤخرا فى اسطنبول ، وشارك فى أعماله حوالى ٤٠ ألف خبير جاءوا إلى العاصمة التركية من جميع أنحاء العالم ، لبحث نمو المدن العملاقة ، ومايصاحب ذلك من تلوث ومرض وفقر وعنف .

ونحن نشهد العشوائيات التى تشهدها مدينة القاهرة التى يزيد عدد سكانها على ١٥ مليون نسمة ، مما عرضها لكى تزيد فيها نسبة التلوث بشكل كبير ، فضلا عن هذا التضارب الغريب فى عمارتها ونظافتها والزيادة الرهيبة على الصرف الصحى ، والزحام الذى لم يعد يطاق .

ومشاركة من «الهلال» فى إلقاء الضوء على مشكلة المدن الكبرى التى تؤرق بال الإنسانية ، تنشر مقال أوجين ليندن عن المدن المتفجرة .

على مدار التاريخ ، تجسد ايقاع الأحداث فى صعود المدن وانهيارها ، وأحيانا ميلادها من جديد.

فحتى عهد قريب كان سكان الحضر ، يتذبذب عددهم بين النمو والانكماش ، بفعل المرض ، وما كان يطرأ على التجارة والتكنولوجيا من تغيرات ، وعلى السياسة من تحولات ، كانت تتسبب تارة فى مكافأة بعض المدن ، وتارة فى معاقبة بعضها الآخر غير أنه فى أثناء هذا القرن، حدث فى العالم النامى أمر أدى إلى انقطاع هذا الإيقاع .

ذلك الأمر هو نمو سكان الحضر على نحو مطرد ، دون انقطاع .

فتحت تأثير عدة عوامل ، من بينها إغراء الأضواء ، اجبار سكان الريف على



عشوائيات

تلوث



مغادرته بفعل الاضطرابات السياسية والاقتصادية أو الانفجار السكاني وانهيار البيئة ، أخذ يتدفق على المدن آلاف الملايين من المهاجرين .

ولقد كان من آثار ذلك التدفق أن استنزفت الموارد ، وأجهدت القيادات والبنيات التحتية في بلاد تنوء تحت وطأة أعباء تفوق طاقاتها بكثير.

ومع ذلك فالمهاجرون من مجاهل أفريقيا ، جنوب الصحراء الكبرى ، فرارا من الفاقة المبئسة ، مازالوا يتدفقون على كانشاسا عاصمة زائير ، رغم انهيار اقتصادها وخدماتها ،على وجه أدى إلى تفشي المرض وسوء التغذية ، الأمر الذي انتهى بها إلى شفا هاوية الفوضى.

والباكستانيون مازالوا يتدفقون على كراتشي، رغم العنف الطائفي ، وأبرز مظاهره السيارات الملغومة والاشتباكات في الشوارع بنيران الرشاشات.

● مستقبل المدن العملاقة

هذا ، وتثار التساؤلات حول مستقبل مدن عملاقة أخرى، تلوث هواؤها مثل ريو دي جانيير ، سان باولو ، جاكرتا ، مكسيكو سيتي، القاهرة ، دلهي وبكين، وغيرها من مدن أصغر ، تعد بعشرات الآلاف نراها منتشرة في ربوع آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

وهذه التساؤلات لاتثار بالنسبة لتلك المدن وحدها ، وإنما تثار كذلك بالنسبة لبعض المدن الكبرى في العالم المتقدم حيث تعاني تلك المدن من مشاكل ناجمة عن موجات الفقراء الوافدين إليها ، في وقت تتآكل فيه قاعدتها الضريبية ، نتيجة لهجرة الشركات ، تخلصا من أعباء ارتفاع التكاليف ، وهجرة المواطنين ميسوري الحال حماية لأنفسهم من مخاطر الجريمة وتدني نوعية الحياة .

ويلاحظ هنا أن مصير المدن أخذ وبشكل متزايد ، يرتبط به مصير الأمم والأقاليم .

فكراتشي على سبيل المثال تستأثر بنصف الدخل الإجمالي لحكومة باكستان، وبحوالي عشرين في المائة من إجمالي الناتج المحلي ، وذلك بحكم أنها المركز المالي الرئيسي للبلاد ، وميناؤها الوحيد ، فضلا عن أنه تتمركز فيها أعلى نسبة من المتعلمين .

ولو أخذنا في الاعتبار الصلات الوثيقة بين الجماعات العرقية في كراتشي، وبين القبائل القوية في أنحاء أخرى من البلاد وإذا ازدادت حدة العنف الطائفي الآخذ بخناق المدينة فقد يؤدي ذلك إلى اتساع نطاق القلاقل ، واجتياحها باقي باكستان ، حيث معظم السكان يحملون السلاح .

وفوق هذا ، فربما تؤدي هذه القلاقل إلى صراعات دولية ، وتحركات كبرى للشعوب عبر الحدود .

ومع تزايد اندماج العالم ، فالمشكلات التي قد تنشأ في إحدى المدن ، سرعان ما تنتشر في اقليمها ، وربما يمتد انتشارها إلى العالم بأسره .

فحماية الصحة في مدن العالم المتقدم تعتمد بعض الشيء على ماتبذله الدول

النامية من مجهودات سعيا إلى التحكم في الأمراض الجديدة ، والأمراض القديمة المقاومة للأدوية ، والمتوطنة في الأحياء الفقيرة المزدحمة بالسكان .

سوء التقدير

في بداية القرن العشرين ، كانت المدن التي يزيد تعدادها على مائة ألف نسمة ، لايقيم فيها سوى خمسة في المائة من سكان العالم .

والآن ، يسكن في المراكز الحضرية ، حوالي خمسة وأربعين في المائة ، أي مايزيد قليلا على ألفين وخمسمائة مليون نسمة.

وفي أثناء السنوات الأخيرة ، حدث النمو الأكثر تفجرا في العالم النامي فخلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ قفز عدد المدن في العالم المتقدم التي يفوق عدد سكانها المليون ، من تسع وأربعين مدينة إلى مائة واثنتي عشرة مدينة .

وفي نفس الفترة تضاعف ست مرات عدد المدن في العالم النامي التي يتجاوز عدد سكانها المليون نسمة ، بحيث قفز من أربع وثلاثين مدينة إلى مائتين وثلاث عشرة مدينة .

وتقدر الأمم المتحدة لسكان الريف أن يبقى عددهم ثابتا .

في حين أنها تتوقع لسكان المدن ، بحلول سنة ٢٠٢٥ ، أن يرتفع عددهم إلى خمسة بلايين نسمة ، بحيث يشكلون نسبة واحد وستين في المائة من الانسانية.

وتحديد الخطوات التي في وسع الحكومات أن تتخذها ، تخفيفا لوقع الصدمات المواكبة لعصر المدن العملاقة القادم ، ذلك التحديد يستوجب أن يكون لديها المعلومات اللازمة غير أن هذه المعلومات غير متوافرة الآن .

فعلى سبيل المثال يصعب تحديد حجم المدن الكبرى .

فقبل أربع سنوات (١٩٩٢) حددت بعض التقديرات عدد سكان مكسيكوسيتي بعشرين مليون نسمة .

والآن حددت الأمم المتحدة عددهم بما لايزيد على خمسة عشر مليونا وستمائة ألف نسمة ، أي بنقص يعادل سكان بغداد.

وعدد سكان كراتشي يتراوح بين تسعة ملايين ونصف واثني عشر مليونا.

وسان باولو بسكانها الستة عشر مليونا ، تقل عدة ملايين عن تقديرات سابقة .

كما يصعب تحليل الهجرة إلى المدن أو التنبؤ بها .

فهي ثمرة عاملين أولهما قوة الجذب المتمثلة في توافر الفرص والخدمات داخل المدينة العملاقة ، وثانيهما قوة الطرد المتمثلة في البطالة المتفشية في الريف ، والناجمة عن ميكنة الزراعة ، والافراط في تقسيم وتفتيت الأراضي الزراعية ، فضلا عن تدهور البيئة .

فمثلا في مقاطعة سيشوان الريفية بالصين ، حيث الأرض لاتكفي لإشباع احتياجات الشعب ، تضطر الفاقة العمال إلى ترك الريف ، والانضمام إلى صفوف عمال التراحيل في المدن ، البالغ عددهم حوالي مائة مليون نسمة.

المدينة المريضة

الصورة العامة للعالم النامي في

النصف الأخير من القرن العشرين ، كما رسمتها الهيئات الدولية ، صورة مشرقة لتقدم كبير ، ظهرت ثماره فى تحسن الصحة وارتفاع الدخول .

فموتى الأطفال انخفض عددهم إلى النصف ، والدخول ارتفعت إلى النصف ، وفقا لتقارير البنك الدولى .

غير أن هذه الاحصائيات جاءت مشوهة ، وذلك لأنها لم تضع فى الاعتبار أن النجاحات التى تحققت فى مجالى الصحة والدخول ، إنما ترجع إلى المكاسب الكبرى التى تحققت للصين والنمور الآسيوية فى مجالى الصحة والنمو الاقتصادي .

وغاب عن ذهن واضعى هذه الاحصائيات أن حوالى ألفى مليون يعيشون فى ظروف تعسة ، تستحق الرثاء .

وأن آمال معظمهم فى مستقبل أكثر اشراقا ، فى سبيلها إلى أن تكون مجرد اضغاث أحلام .

هذا فى الوقت الذى تتفكك فيه أواصر الصلات داخل العائلة الواحدة ، وداخل الجماعة ، ويتعرض مستوى المعيشة لهجمات ، تزداد ضراوة ، مع اشتداد حدة الأزمات .

وحتى أعظم المدن ، وأكثرها صمودا ، هى الأخرى ، تبدو هشة فى مواجهة تحديات التحولات الطبيعية والسياسية والاقتصادية .

فالفقر والبطالة والمرض والجريمة والتلوث ، أمر مرير تعرضت له المراكز الحضرية على امتداد عشرة آلاف سنة ، أى منذ أن نمت المدن الأولى حول مخازن الغلال والسلاح فى الأناضول والهلال الخصيب .

زحام وضوضاء



وبعد تدهور روما القديمة ، انقضى حوالى ألف وثمانمائة عام ، قبل أن يصل عدد سكان مدينة إلى المليون .

وهذه المدينة كانت لندن فى القرن التاسع عشر .

فحتى هذا التاريخ ، كانت الأحياء الفقيرة المزدحمة ، تفتقد المياه الجارية وشبكات المجارى ووسائل حماية الصحة العامة ، مما كان سببا فى انتشار الميكروبات ، وبالتالي الأوبئة التي كثيرا ما كانت تعرض قطاعات كبيرة من السكان للفناء.

وإذا كانت الأمراض تختلف من مدينة إلى أخرى .

فالأكيد رغم ذلك أن جميع المدن العملاقة فى العالم النامي ، بينها قاسم مشترك ، متسبب فى الأمراض ألا وهو التلوث .

فكونك تعيش فى مكسيكو سيتى أو دلهى، يعنى أنك تعيش فى مكان أصبحت فيه عناصر الحياة الأساسية، الهواء ، الماء والتربة معادية للصحة .

ويعرف عن الصين أن بها مدنا كثيرة تعانى من مستوى تلوث ، يفوق التلوث فى مدن العالم الأول ، بما يعادل من خمسة إلى عشرة أضعاف .

والمرض مع التلوث ، مظهر لخطر أكبر يتعرض له سكان الحضر إنه الفقر .

هذا ، ويتحمل الفقراء كل هذه المخاطر، بأمل أن العمل فى المدينة ، سيكون مجزيا ، يتيح لهم فى نهاية الأمر فرصة الوصول بأسرهم إلى بر الأمان.

ولكن كلما استمرت المدن فى التضخم بسبب الهجرة وكثرة المواليد ، واجه العمال حشودا من المنافسين .

فيكين الآن مرتع لحوالى مليون عامل ، يبحثون عن عمل ، لايجده، من بينهم ، إلا أقل القليل ونسبة البطالة فى العديد من المدن الأفريقية تجاوزت العشرين فى المائة.

وجميع المؤشرات تفيد أنها لن تنخفض فى المستقبل القريب.

ولعل أكثر الأمور خطورة تفاعل المرض والقذارة واليأس والتوتر ، مع غياب القيود التقليدية الثقافية فى المدينة المعاصرة .

وأن يؤدى هذا التفاعل إلى خطر آخر على الصحة ، ألا وهو العنف .

فالقتل وجرائم العنف الأخرى ، شكلت نسبة ستة وثمانين فى المائة من جميع الوفيات بين الصبية المراهقين فى سان باولو .

وحوالى أربعة ملايين عاطل فى كراتشى معظمهم مراهق، يجرى تجنيدهم فى ميليشيات عرقية وفرق للاغتيالات .

وعن ذلك يقول مسئول فى البنك الدولى «تعثر على الكثير من المتبطلين جالسين وفى حوزتهم الكثير من الأسلحة النارية».

وكل ماتحتاج إليه ، قدر ضئيل من الأيديولوجية وعندئذ فى وسعك أن تمتلك جيشا .

عن مقال بقلم أوجين ليندن
منشور فى عدد يناير وفبراير ١٩٩٦ من مجلة فورين افيرز.

. .



الصيادون
١٩٥٦

تحية حليم

فنانة مصرية أصيلة

بقلم : د. صبري منصور

يندر أن يصادف المرء شخصية يتمنى فيما بينه وبين نفسه أن تكون شخصية كل المصريين ، ولقد توفر لشخصية الفنانة المصورة تحية حليم صفات عديدة تبعث على الاحترام والتبجيل ، وتدعو للإشادة والتقدير ، وقد جاء فنها الجميل يحمل في طياته مايشير الى هذه الصفات ، فهو في مجمله فن انساني مشحون بالعاطفة والبساطة والصدق كما انه فن أصيل يمتد بتراث مصر الفني ، ويشي ببعض وجدان البلاد النشأة والتكوين .


المرأة والمصباح - ١٩٦٥

تحية حليم

ولدت تحية حليم عام ١٩١٩ ، ولاشك أنها قد عاشت فى طفولتها أصداء صحوة الشعب المصرى وثورته ، وترك ذلك فى نفسها أثرا عمق إحساسها بمصريتها ، وزرع لديها الرغبة فى تحقيق أمل المصريين فى تحقيق التقدم فى شتى نواحى الحياة الانسانية ، كما أنها عاصرت فى شبابها المبكر الدعوة التى كانت لاتزال سارية منذ أوائل القرن والتى تولاها الكتاب والمثقفون بدءا من رفاعة الطهطاوى ومن بعده قاسم أمين لتحرير المرأة من قيود الجهل واستعادة انسانيتها المهدرة واستثمار امكانيتها المعطلة لكى تساهم بايجابية فى بناء البلاد وتحديثها .

وكانت نشأة الفنانة فى أسرة ارستقراطية اهتمت بتعليمها وتلقينها فنون الرسم والموسيقى تمشيا مع تقاليد العائلات العريقة فى ذلك الوقت ، وحين تكشف ميلها الطبيعى نحو فن الرسم - ولم يكن مسموحا للبنات حينذاك بالالتحاق بكلية الفنون الجميلة - فالتحقت تحية حليم بمرسم فنان سورى يدعى يوسف طرابلسي وتتلمذت من بعده على يد الفنان اليونانى اليكوجيروم ، وانتهى بها المطاف فى تعلم فنون الرسم والتلوين الى مرسم الفنان المعروف حامد عبد الله الذى مالبث ان اقترن بها عام ١٩٤٥ وسافر الزوجان بعدها الى فرنسا حيث التحقت الفنانة بأكاديمية جوليان ودرست فيها دراسة منتظمة لمدة ثلاث سنوات.

وهكذا أتاحت الدراسة الحرة والاكاديمية للفنانة تحية حليم تكوين مهارات فنية اسفرت عنها لوحاتها الأولى التى أبدعتها فى الأربعينات والخمسينات ، ولقد تناولت لوحات تلك الفترة موضوعات اجتماعية ركزت فيها على التعبير عن الانسان العادى البسيط، فشملت الموضوعات التى رسمتها الفنانة الصيادون وأطفال القرية الفقراء ووجوه الناس الكادحين التى عبرت من خلالهم عن معان انسانية نبيلة ، كما اشتملت اللوحات أيضا على بعض المناظر الطبيعية التى تناولتها الفنانة بطريقة شبيهة بأسلوب التعبيريين .

مع الفنان حامد عبد الله

وقد كان للفنان حامد عبد الله - الذى كان فارسا فى مجال التعبير عن الحياة الشعبية المصرية - تأثيره الواضح على اتجاه تحية حليم نحو الموضوعات الشعبية المنتمية لقاع المجتمع وتصوير معاناتها الانسانية .

وتميزت اللوحات المبكرة للفنانة بالمعالجة الفنية الرقيقة المتأثرة الى حد كبير بالنماذج الفنية الأوروبية التى اطلعت عليها فى باريس وخاصة الاتجاه التعبيرى ، وذلك ماتوضحه لوحة «الصيادين» عام ١٩٥٢ ، وقد قامت فيها الفنانة بتحليل الأجساد الواهنة للصيادين تحليلا دراميا عليتا بالايحاد والتعبير عن طريق اظهار العظام الناتئة للأجساد الضعيفة فى اشارة لمدى افتقادهم للحد الأدنى لمتطلبات الحياة ، وتكشف لوحة «الأم» عام ١٩٥٣ عن اتجاه الفنانة نحو تناول الناس البسطاء الذين تطحنهم ظروف الحياة ، ويعانون من قسوة الفقر والحاجة . واللوحة تمثل أما تحمل طفلها الرضيع بينما تعبر وجوه الاطفال الثلاثة فى مقدمة اللوحة عن مظاهر التعاسة والبؤس .

وفى لوحتها «حنان» عام ١٩٥٨ التى حازت بها على جائزة جوجنهايم فانها تمثل رجلا متواضعا يحتضن طفله وكأنه يحميه مما تخبئه له الأيام من قسوة ومعاناة وذلك فى جو من الألوان المقبضة القاتمة والموحية بالمأساة .

● شخصياتها الواقعية

ومن الأعمال المتميزة التى تمثل هذه الفترة فى فن تحية حليم لوحة «الشيخ ابراهيم بائع الكتب » وقد رسمتها عام١٩٦١ لشخصية واقعية كانت من ملامح حى الازهر العريق فالرجل أعمى ومع ذلك كان عمله تجارة الكتب ، والفنانة تصوره محتضنا مجموعة من الكتب ، وهو يبدو كقديس يؤمن برسالته النبيلة فى نشر المعرفة بالقراءة التى حرمه القدر من ممارستها ، وتؤكد هذه اللوحة بداية ملامح فن تحية حليم فى التحوير المبسط للأشكال ، وتلقائية التعبير وصدقة ، كما أنها تشير الى بداية تأثر الفنانة بفنون التراث المصرى وبخاصة الفن القبطى .

● اكتمال الشخصية :

ويظل أى فنان فى بداية تجربته يبحث عن عثير يقوده الى اكتمال عناصر هذه التجربة ونضوجها ، وبلورة شخصيته الفنية وتفردها عن الآخرين ، الى أن تضعه الظروف فى موقف او تجربة بعينها تكون هى الحافز والباعث على اجراء التحول والتغيير ، وهكذا جاءت رحلة تحية حليم الى بلاد النوبة - ضمن وفد من الفنانين التشكيليين اوفدتهم وزارة الثقافة لتسجيل آثار النوبة قبل غرقها عند بناء السد العالى عام ١٩٦٢ - وهناك تعثر الفنانة على منبع خصب تنهل منه ، وتستقى عناصر شخصيتها الجديدة ، وتعدى الموضوع عندها مجرد تسجيل آثار فى سبيلها للاندثار الى احياء أسلوب فنى متكامل اتخذ من اشكال النوبة وعناصرها الطبيعية مظهرها الواضح ، ولكنه امتد عن طريق الأسلوب

عمــــر ابراهيم بائع الكتب - ١٩٦١



حنان - ١٩٥٨



الفنى والصياغة التشكيلية بجذور التراث الفنى المصرى منذ عصر الفراعنة ومرورا بالفن القبطى ثم الفن الاسلامى ، والأمر المثير فى هذا التحول عند تحية حليم والذى قادها الى الاتصال بفنون مصر التاريخية انه قد تم بطريقة طبيعية لايشوبها زيف أو اصطناع ، وقامت بعمل مزيج رائع من هذه الفنون جميعا مع اضافة اللمسة المعاصرة ، بحيث لاتستطيع ان تفصل بين عناصره المختلفة ، وهذا هو سر تجربتها وتفردها ضمن تجارب التحديث فى التصوير المصرى المعاصر

● جماليات الفن المصري

وفى أعمال هذه المرحلة الجديدة الثرية بالايحاء والقوية بالانتماء جمعت تحية حليم بين جماليات الفن المصرى القديم وروحانية الفن القبطى ورقة وعذوبة المنمنمات الاسلامية ، وكل ذلك قد تم تجسيده بأسلوب تلقائى رقيق الأداء ، واستمرت هذه التجربة فى فن تحية حليم منذ الستينات وقدمت فيها تنويعات غزيرة على اسلوبها الجديد ، وتنوعت موضوعات لوحاتها مابين الموضوعات الاجتماعية كلوحات «مهاجر من النوبة» ١٩٦٤ «ووفاء النيل» ١٩٦٤ «وزواج فى النوبة» ١٩٦٣ «وموضوعات سياسية مثل لوحات «فرحة النوبة بجمال عبد الناصر» ١٩٦٤ «وهذه الأرض لنا» ١٩٦٥ . كما أبدعت الفنانة أيضا بعض المناظر الطبيعية لبلاد النوبة ببيوتها ذات الطراز المعمارى المميز .

ومن اللوحات المهمة فى هذه المرحلة من انتاج تحية حليم لوحة «السيدة والمصباح» ١٩٦٥ والتى يتضح فيها التناول الفنى الذى يتسم بالرقة والبساطة مع الاختصار البليغ للمساحات والألوان ، والحرية والانطلاق فى استخدام الخطوط التى تحدد الاشكال .

وفى لوحة «أربعة نوبيات فى مركب» ١٩٦٢ تتضح تأثيرات المنمنمات الاسلامية والفن القبطى فى اسلوب بناء اللوحة ورسم الاشخاص وقد استطاعت الفنانة بذكاء الاستفادة من هذين الفنين دون أن تتورط فى المحاكاة والتقليد لهما .

وتؤكد لوحة «السلام» ١٩٦٤ أسلوب الفنانة فى التبسيط واختزال العناصر والمساحات مع المحافظة على اصالة العمل وانتمائه من خلال التأكيد على مصرية الملامح والألوان البنية الداكنة التى تميز البشرة المصرية .

وتأتى لوحة «الخبز من الصخر» التى ابدعتها تحية حليم عام ١٩٦٤ لتتوج بها

اسلوبها الجديد المغرق فى المصرية ، وهى عمل سيمفونى بديع جدير بأن يحتل مكانة مرموقة ضمن اهم ابداعات فن التصوير المصرى المعاصر ، وتمثل خلفية اللوحة منظرا لمجموعة من بيوت النوبة المميزة ، وفى مقدمة العمل تنكفىء سيدة تقوم بعجن خبيزها على الصخر ، وهو تقليد من تقاليد تلك المنطقة ، وقد تكاملت اللوحة تكاملا مزيدا من ناحية الصياغة التشكيلية ، فهناك الحوار بين الخطوط الرأسية للأبنية مع خط السيدة الأفقى ، والتناقض ما بين الألوان الفاتحة فى الخلفية مع اللون الداكن للسيدة ، وذلك بالاضافة الى مضمون العمل ودلالاته والذى يشى بقسوة الحياة فى بلاد النوبة وشظف العيش الذى يعانيه اهلها البسطاء واللوحة تتخطى حاجز التعبير عن موضوع محدود مغرق فى المحلية الى الاشارة والتلميح لمعانى انسانية اشمل وارحب توحى بصراع الانسان وعنائه من أجل البقاء .

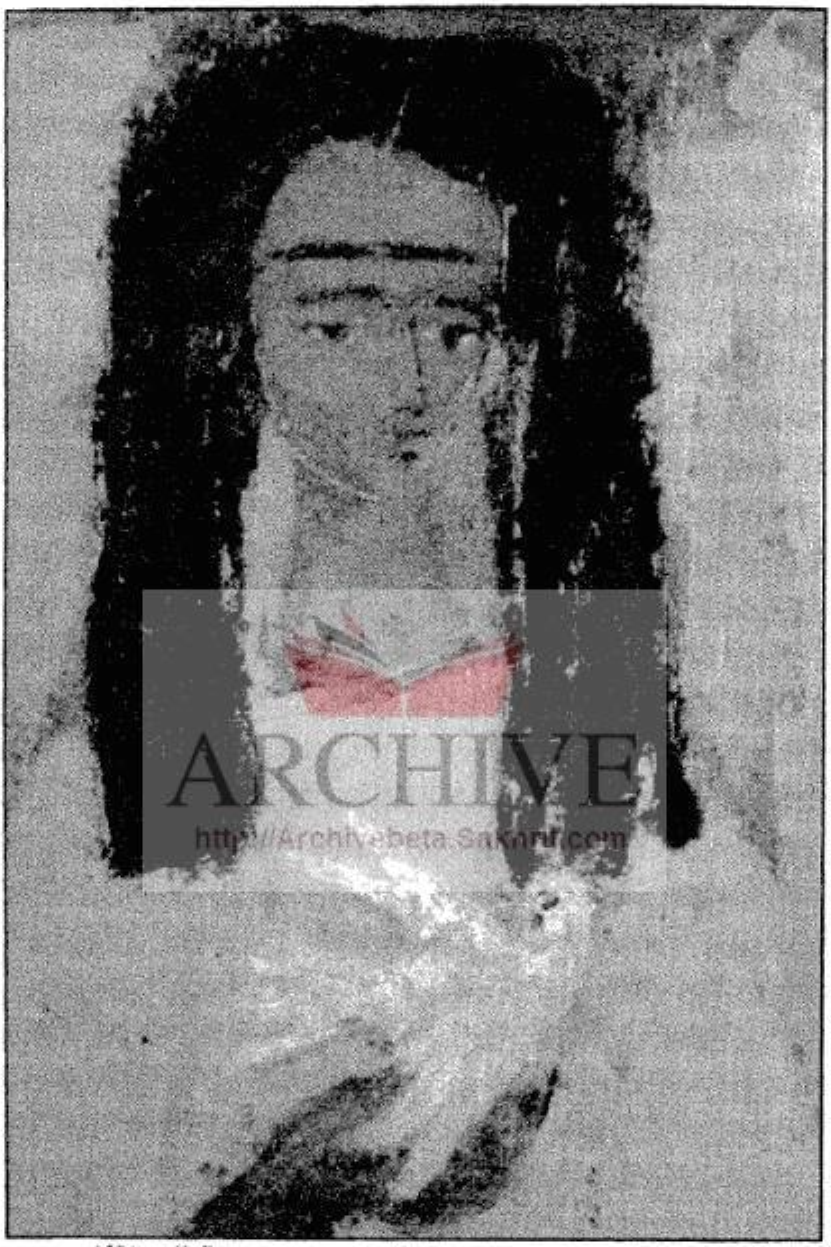
التقدير :

ولقد نالت تحية حليم جائزة الدولة التشجيعية فى فن التصوير عام ١٩٦٨ عن لوحتها «الخبز من الصخر» ، وبعد مايقرب من ثلاثين عاما حصلت على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون هذا العام ، وقد جاء هذا التقدير متأخرا ، وقد سبقها إليه آخرون لايقارن ماقدموه للفن المصرى بما قدمته ، ومع هذا فليس ذلك هو فقط التكريم الذى نتوقعه لفنانة موهوبة اعطت حياتها لفنها وأخلصت له ، وأبدعت فيه أسلوبا هو بحق اسلوب فنى حديث ينتمى الى مصر قلبا وقالبا ، ويضرب فى أعماق جذور تراثها العريق ، ويقدم نموذجا فريدا على قدرة المصريين المعاصرين على التحديث فى الفنون دون فقدان الهوية القومية ، وفى نفس الوقت فان تحية حليم تجسد نموذجا للمرأة المصرية المبدعة جديرا بالاحتذاء ، ومشوار حياتها وما أبدعته فيه هو أبلغ رد على تلك الدعوات السلفية التى تحاول اليوم إعادة الزمن الى الوراء وتطالب المرأة المصرية بالعودة الى محبسها القديم أيام عصر الحريم .

لذلك فإننا نأمل أن يكون تكريم تحية حليم الى جانب فنانى مصر الذين نفخر بهم – مثل محمود سعيد ومحمود مختار وعبد الهادى الجزار وحامد ندا وجمال السجينى – باصدار كتب تجمع أعمالهم المشتتة مع اقتناء أعمالهم المتاحة لنا اليوم ، لأن هؤلاء هم تاريخ مصر الثقافى الحقيقى ، وعدم الاعتناء به واظهاره فى احسن صورة ممكنة هو تقصير فى حق بلدنا قبل أن يكون تقصيرا فى حق هؤلاء النوابغ .

ثلاث نوبيـــات فى مـــركب - ١٩٦٢





السلام - ١٩٦٤

شعر

قربان إلى الطبيعة

للشاعرة الفرنسية: أنا دو نواى
ترجمة: محمد محمد السنباطى

أيتها الطبيعة ذات العمق الذى تتكىء عليه السماء
لا أحد يمكن أن يحب بهذا الهيام مثلى
ضياءَ النهار وعفويةَ الأشياء
الماءَ البرّاقَ والأرض التى عليها تدبُّ الحياة
الغابة والمستنقعات والسهول الخصبية
كل ذلك استحوذ على عيونى
وأنا أتأبط جَمال العالم
وأمسك بيدىّ عبقَ الفصول
حملت شموسكِ كتاجٍ على جبينى
الملىء بالزهو والبساطة
تساوت مسراتى مع كدح الخريف
وبكيت حبا فى أحضان صيفك
لقد قصدتكِ لا خائفة ولا متوجسة
واهبةً إياكِ حكمى على الخير و الشر
متمثلةً لكل فرحةٍ وكل تعبير،
روحكِ المندفعة الماثلة فى أحابيل الحيوان
كزهرةٍ متفتحةٍ يسكنها النحل
تعبقت حياتى بالأريج والأهازيج

الشاعرة انا دونواى بريشتها



صار قلبى الغض وكأنه إحدى السلال
حيث يخرج إليكِ اللبلاب والأعواد الطرية المائلة
خاضعةً طائعةً كنبعةٍ تنعكس فيها شجرة
عرفتُ الوجد الذى يتضرم فى أماسيكِ
حيث ينبجس فى قلوب الناس والدواب
التوق الجميل والرغبة المقدسة
أحملك مدى الحياة بين ذراعىَّ أيتها الطبيعة
آه! أيتحتم أن تمتلىء عيناى بالظلال ذات يوم
وأن أمضى إلى أرض لا نسيم فيها ولا خضرة
ولا يشرق الحب عليها ولا الضياء؟!

تعـــــريف

أنا دو نواى 1876-1933

★ ليس ما قدمته الكونتيسة دو نواى للأدب سوى قربانا للحياة والحب والطبيعة وذلك فى أعمالها الشعرية

١ ـ القلب الذى لايحصى ١٩٠١	Le Coeur innombrable
٢ ـ التألقــــــــات ١٩٠٧	Les Eblouissements
٣ ـ الأحيــاء والموتــى ١٩١٢	Les Vivants et Les Morts

زرطيور

قصة قصيرة

بقلم :
أحمد الخميسي



أكثر ويحسد في
[illegible] الليل الدافئ
كان [illegible] في
[illegible] كان
الأول . [illegible]
[illegible]
[illegible] زوار اللبنة
الكابية . [illegible]
[illegible] الفناء الريفي

العيد . [illegible]
[illegible] إلى [illegible]
الكبرى التي تقع خلف
[illegible]
[illegible] على
[illegible]
[illegible] في [illegible]
[illegible] على
[illegible]

نظرة ثابتة لا تحيد إلى لاشيء فى البعيد . وراءها قبة الجامعة الشاهقة التي تغيم فى الضباب ، وهذا الصمت المستديم الذى يتحرك فى الهواء والظلال وخرير النهر.

لاشيء يحدث فى هذا الليل.

كل شيء باق فى موضعه.

مامن نجمة باهرة تخطر ، ومامن قمر يرفل فى بهائه . ما من حريق يدهم الظلمة ولا نوى يزلزل الأرض . كل شيء على عهده ، وستنقضى نوبة الحراسة مثل مئات النوبات السابقة يحدث نفسه فى ساعاتها الطوال ، وتتوالى عليه الصور والخواطر ، وحين ينفد رصيده منها سيتطلع إلى عينى الفلاحة بنفس السؤال القديم : إلى أين تنظر ؟ إلى من ؟ أما ذكرى أيام الإجازة الأربعة التى

قصة قصيرة

قضاها فى بلدته فقد امّحت بمجرد أن عاد إلى موقعه لحماية اليهود. نأت وجوه أمه وأخواته وعينا سعدية الواسعتان اللتان لاتزال تخفضهما بسرعة إذا رفعتهما إليه ، بينما يتقد الحب مطمورا ساخنا يتشقق عنه صوتها المرتبك ، تباعد مشيه بالجلابية فى طين الأزقة المنير بضوء القمر، تباعد سروره والجميع يشدون على يده وهم يقسمون أن يدخل ليتمشى معهم ، وأم عبد الرحيم بثوبها الأسود المنسدل حين قبلته وحلفت عليه أن يزورها لخاطر حبيبه الشهيد المرحوم ، ثم بكاؤها فجأة وهى تتحسس كتفيه بكفيها كأنها تستحضر ذكرى ابنها ، ووقوف الناس له عند أبواب البيوت وهم ينفضون التراب عن الجلابيب صائحين «ابن عم الشهيد» . نعم ابن عمه ، لكن وجهه كان يمتقع ويفيض قلبه ـ إن سأله أحد بشكل عابر عن شغله فى القاهرة ـ فيجيب باقتضاب إنه يخدم فى معسكر بالعباسية ، ويوجه الحديث لمسار آخر . أكان يجرؤ على القول بأن القدر ساقه ليقف حارسا لليهود ؟ وليحمى ببندقيته طيلة الليل قتلة ابن عمه؟. قرب دكان الحاج فرج لمح مصطفى مساء ، كان جالسا بنصف وجهه المحروق فوق صندوق خشبى فارغ بجاكيت على جلابية، تدلت أمامه ساق واحدة ، الثانية فقدها فى الحرب ، كم بدلته الأيام وبان الكبر والإهمال عليه وهو يتناول باستكانة بواكى الشاى من يد الحاج ويمدها للعيال التى تشترى . أية هالة

أحاطت به عند رجوعه وأية حلقات تجمعت حوله تضايفه الشاى والدخان وتنصت لحكاياته عن الحرب . صاح مصطفى مندهشا حين تعرف عليه : «سليمان» ، ثم أسقط الصندوق تحته وهو يحاول النهوض مستندا بذراعه اليسرى إلى جدار الدكان خلفه ، أراد أن يقدم له كوكا كولا لولا نظرة زاجرة من الحاج كف بعدها عن الإلحاح محرجا يسأله عن أخباره، امحت أيام الإجازة الأربعة كأنها لم تكن ، وتروغ منه الآن القرية ، وعينا سعدية الواسعتان كلما حاول تثبيتهما أمامه ، ووجه والدها الذى حدق فيه منتظرا حديثه عن الزواج ثم غض بصره وهو يحنى عنقه على ناحية كأنه انكسر ، صوت سعدية وحده مازال يتحدر بنبراته المرعوشة فى مسارب قلبه منذ أن

سمعها صغيرا تغنى مع أخواته البنات : «يابلح سيسى ، عريسى قال لى ماتخافيشى .. ماتخافيشى» ، مرة واحدة ضمها إليه فى حقل فتلاحقت أنفاسها بسرعة بين ذراعيه واحمر وجهها كالنار . لكنها لم تصدقه حين همس لها أنه أحبها منذ سمعها تغنى صغيرة، فقط غمرها الخجل وفرحة بريئة وهى واقفة تتلقى قبلاته باستسلام كنبات جديد تحت مطر جديد.

لاحت سيارة ملاكى صغيرة عند مطلع الكوبرى من على يساره ، نظر إلى ساعة يده فوجدها تقارب الثانية فجراً فهز بندقيته فى يده وقوس ظهره للخلف يلصق لحمه بقماش البدلة الصوفية استجلاباً

للدفء، تمهلت السيارة قرب الحاجز الحديدى الذى يعترض منتصف الطريق . وجال ضابط اللجنة بنظرة سريعة على وجوه الركاب ، ثم رفع يده اشارة بالمرور فعبرت السيارة بمحاذاته ببطء ، وتطلع من نافذتها رجل حدق فيه باستغراب واحتقار هين بدا فى تقوس حاجبيه لأعلى بارتعاشة خفيفة ، ومالبث أن مال بعنقه إلى الصالون ، ثم مضت السيارة عن يمينه بهدوء تنزلق إلى الميدان وتمثال الفلاحة .

لاشىء يحدث.

نغص عليه الإجازة القصيرة شعور مقلق بأنه سرعان مايعود إلى الخدمة حارساً ، وحين افترش مطرحا بين عيدان القطن مع جاد الله وعوضين ومحمود وقرقرت الجوزة بينهم مع الشاى الأسود فى ضوء

القمر لم تضحكه الحكايات التي طالما جعلته يقهقه من قبل ولم يبتسم وهم يستعيدون من حكايات الصبا قصة وهدان الغلبان . وكان وهدان بائعا في السوق على باب الله لاعزوة له ولاسند يقف بقفص برتقال وموز بجلابيته المرتوقة وحذائه القديم الذي ينتعله من دون جورب ، وعندما أمله صبى بفصال في سعر بطيخة ذات يوم نهره ثم صفعه بعظمة وثقة على قفاه دون أن يعنى حتى بالتطلع إليه . ولم يكن يدرى أن الصبى ينحدر من «رشدى» أقوى عائلات البلد ، فلما عرف انهار بعينين مذهولتين يحثو التراب على رأسه صائحا : «سيقتلونني . ياخرابك ياوهدان» ، ثم ينظر إلى كفه التي صفع بها الولد كأنها عدوه أو أنه مندهش مما فعلته يسأل نفسه : «اقطعها

قصة قصيرة

واخلص؟ «اقطعها واخلص؟» وكان يعلم أن أمامه سبيلا واحدا يفتدى به عمره : أن يشترى كفنه ويجوب به وهو على يديه أزقة القرية كلها بين نظرات الكبار والصغار حتى يصل إلى بيت عائلة رشدى لتسامحه لأنه أصبح في حكم «الميت».
ولما وصل الخبر لأولاد محفوظ ــ وهم أقاربه من البياعين الفقراء ــ ثاروا وقال عبد السميع الخضرى . «سيجلب العار علينا وعلى نفسه وولده» . وقرر اثنان منهم أن يسرقا الكفن قبل مطلع النهار ، لكن وهدان لم ينم لحظة ، ظل طيلة الليل قاعدا على حجر في عشته الخوص ، كفنه أمام عينيه وبندقيته بيده يحرسه بها .

بعدها بصق عبد السميع في وجهه أمام الأولاد قائلا له : «الواطى بس يعمل عملتك تقعد طول الليل تدافع عن عارك ؟» بعدها لم يعد وهدان يتحدث مع أحد ، صار يقف قرب قفصيه في السوق صامتا متطلعا إلى ناحية أخرى، لم تضحكه هذه المرة المفارقة بين عظمة وهدان وهو يصفع الولد وبين خوفه الشديد فيما بعد . وبدلا من الابتسام دوت كالمطرقة في رأسه عبارة «تدافع طول الليل عن عارك ؟» وهدان ظل حارسا على كفنه ، فما الذي يفعله هو عند الكوبرى أمام العمارة ؟ أيحرس من كفنوا ابن عمه وقريته ؟ يقف طيلة الليل ثم يمضي بعد ذلك إلى نومه المضطرب تناوشه الكوابيس ؟ وسأل نفسه : لماذا يمتحنه الله من دون الخلق جميعا بهذه الوقفة؟. وحاول تهدئة روحه بأن الله طالما

امتحن الأنبياء من قبل ، وأنه لن يتخلى عنه ، ولن يدعه فى نوبات النهار نهبا لخوفه أن يلمحه أحد من أبناء قريته هنا . ما الذى سيقولونه عنه فى ساعة كهذه ؟ أيعقل أن يغفل الرحمن عن عذابه على الكوبرى ؟ كلا . لكن أيضعه الواحد الأحد فى حسابه وهو محض ذرة فى ملكوت الأرض والسماء الواسع ؟ أم أنها المعكوسات كما قيل له : «برجك معاكس لا أكثر . وفور أن يعتدل المشترى وزحل على مستوى واحد ستفرج ، وتهل سنواتك الطيبة وتنال راحة البال؟»

لاشيء ..

تابع ببصره تاكسى تهادى من عند مطلع الكوبرى ، ومر أمام اللجنة ، ثم عبر أمامه فلمح بداخله شابة صغيرة ، وجهها مصبوغ بألوان فاقعة أطلقت ضحكة ساخرة مسموعة فى أذن رجل بدين استرخى ملتصقا بها وقد تساقط رأسه على مسند الكنبة الخلفية ، ثم غاب التاكسى يمينا .

هاهم يتجهون إلى بيوتهم وينعمون بنوم عميق أولئك الذين يطلقون الضحكات الساخرة والذين يلوح الاستغراب فى نظراتهم ، أما هو فإن نداءات الهامات تناوشه كل ليلة حتى يفز من تحت بطانيته بوجهه فى دموعه . النداءات التى رافقته كالداء منذ أن كان فى الحادية عشرة عندما عاد عبد الرحيم ذات مساء محمولا فى نعش مع ثلاثة آخرين . ليلتها خرج نساء ورجال القرية كلها على ضوء الكلوبات ووقفوا أمام أبواب الدور المغطاة بحزم الحطب وأقراص الجلة ، ولم يكن ثمة مايفعلونه . فقط خرجوا يقدمون خطواتهم ويؤخرونها بحيرة وعجز . وعندما أوغل الليل تحلق الرجال تحت جميزة الجامع حول الشيخ العصرة ، ولعن الشيخ الضرير اليهود القتلة وقال إنهم أوساخ لا ملة لهم ولاصاحب ، فهز الأستاذ سامى مدرس النحو رأسه متمتما «الاستعمار والصهيونية يامولانا يكرهون لنا التقدم» ، فرفع الشيخ إلى السماء عينيه اللتين لاتريان هادرا برذاذ من فمه : «سمعها ماشئت فإننى رأيت الهامات تخرج من رءوس عبد الرحيم وإخوته ساعة الموت وتصيح: اسقونى ، ومامن ساق ، فيما بعد عرف أن الهامات طيور صغيرة ينشق عنها رأس القتيل فتداوم على صياحها «اسقونى» حتى

يؤخذ بثأره ، لم يكن أحد يدرى كم كان عبد الرحيم عزيزا عليه . فهو أول من قال له «صرت رجلا ياسليمان وأمك طافحة المر تقلى طعمية طول النهار للتلاميذ عند سور المدرسة» واشترى له إبر مواقد الغاز ومشابك ودبابيس مع أنه نفسه كان فقيرا يحمل السباخ على الحمير عند أصحاب الطين ويدور طول السنة بجلابية واحدة . وفى ليلة يوم الدفن تشابكت فى نومه طيور من كل ناحية بأجنحتها وصياحها حتى استيقظ على شهيق متصل يتردد فى حلقة ودمعه ينهمر . وكان يمكن للطيور أن ترحل عنه ، لولا مصطفى الذى عاد من الحرب بساق واحدة وصار يحكى عما شاهده شرق القناة من أبدان انصهرت بحديد الدبابات ، وأحشاء هرست فى ذرات الرمال، ورءوس تدحرجت وحدها

قصة قصيرة

بعيون فارغة بعيدا عن أصحابها ، ولاحقته الطيور ليلة بعد أخرى تنوح وهى تمسح صفحتى وجه بريشها الرقيق ، وكان يمكن للعقل أن يغفو فى النسيان لولا القدر الذى ساقه وحده من دون الخلق جميعا ليقف حارسا على اليهود إلى أجل غير معلوم ، فغدت الطيور تتوالد ما إن يهمى الندى فجر كل يوم وتتراءى له وهى تسد الأفق بطيران منظم كفصائل شهداء لايراها أحد ، لايسمعها أحد سواه وحده فى وقفته على الكوبرى.

لاشىء.

تخلى الجميع عنه : نام من نام ، وسهر الليل الساهرون ، وهو هنا وحده تروغ عينا سعدية منه فى السكون ، وما من شىء يحدث ، وما من خطر . مرة واحدة صدرت إليهم التعليمات بالتأهب حيث شقت السماء هتافات الطلبة من ناحية قبة الجامعة ، وردت عليها طلقات متفرقة ، فعلت الصيحات كالرعد ثم تكسرت وارتدت وتلاشت فى الغبار . اليهود أنفسهم أحسوا بزوال الخطر فكفوا عن التلفت من حولهم عند دخولهم وخروجهم من المبنى ، اطمأنوا بعد كل مافعلوه: فالناس يتجنبون المرور من عند رصيف العمارة ، ولايترك أحد كيسا ورقيا على الرصيف المقابل ، والسيارات تعبر بسكون إلى الميدان ، الناس مشغولون بعيالهم فى المدينة الضخمة . ما من أحد خال يرى الطير فى السماء ، ولا العلم المرفرف من أعلى المبنى : لا الأرض تتقصف من

لهب ولا السماء تنشق
عن نور ينجو به من وقفته
هنا. لكن لماذا يفترى على
الخلق؟ لولا أنه يخدم هنا
لانشغل كالآخرين بلقمة
خبزه يلمع الأحذية كما
رتب لنفسه فى مقهى
بباب الشعرية يرسل
جزءا من فلوسه إلى أمه،
ويستبقى شيئا منها
ليتزوج ، وماالذى يسعه
أن يقوم به وهو عسكرى
عبد مأمور ؟

لاشيء

لايلوح خلاص ، ما
من حريق يدهم المكان
ولو أحرقه ، ولا انفجار
يقوض كل ماحوله ولو
أطاره فى كل اتجاه .
لاشيء سوى الصمت
يسيل على سطح النهر
بأنفاس ملايين الظلال
الصغيرة المتهدلة من
البيوت الغافية والشجر
والشرفات وضوء
المصابيح الواهنة ومظلات
الدكاكين ، وعما قريب
ستلوح السيارة

السوزوكى عند مطلع
الكوبرى فيشتبك ضوء
مصباحيها الأماميين
بالعتمة الرقيقة الطافية
فوق الأسفلت ، وستتوقف
عند نقطة الحراسة على
الكوبرى فيهبط من بابها
الخلفى أفراد النوبة
الجديدة تتأرجح بنادقهم
فى أياديهم ، ترى هل
ترد إليهم خواطر كتلك
دون أن يعلنوا شيئا
مما يدور فى نفوسهم ؟
أيضمرون هوانا كهذا
الذى يجرى مريرا فى
ريقه كل يوم ؟
لاشيء يحدث فى
هذا الليل .
ما من طلقة وما من
معجزة . وهذه المدينة
الضخمة كلها عشة من
الخوص لملايين من
وهدان، ألقت بى وحدى
وتلومنى ، مرة تنادينى
بابن عم الشهيد ، ومرة

تدعونى أن أرضخ
حارسا على فنائى
مدافعا عن موتى لكى
تقودنى إلى الموت أو
الجنون .

أحس برطوبة الندى،
الآن ترشح السماء بين
العتمة والفجر بالطيور
فتسد الأفق تعذبه .
وتوامضت فى عقله صور
لايلحقها الادراك : عينا
سعدية تهويان مع
النجوم، أمه، ساق واحدة
لم يكن لها وجود ، رأس
عبد الرحيم المشقوق ،
ولاحت الهامات من عمق
الفضاء ، وبدأت
صغيرها، وانتظمت
تستعرض أمامه مشيتها
فى الجو كالشهداء ، دون
أن يستطيع شيئاً لها .
وشملته رجفة وبرودة ذلك
الوقت من كل ليلة ، وراح
ينقل بصره الزائغ بين
أجنحتها البيضاء وبين
النجوم الهاربة ، وهو
يرتعد وحيدا من عذابه
أمام السماء

هوليوود مراقبة

محنة مصنع الأحلام مع جماعات الاحتشام !!

بقلم : مصطفى درويش

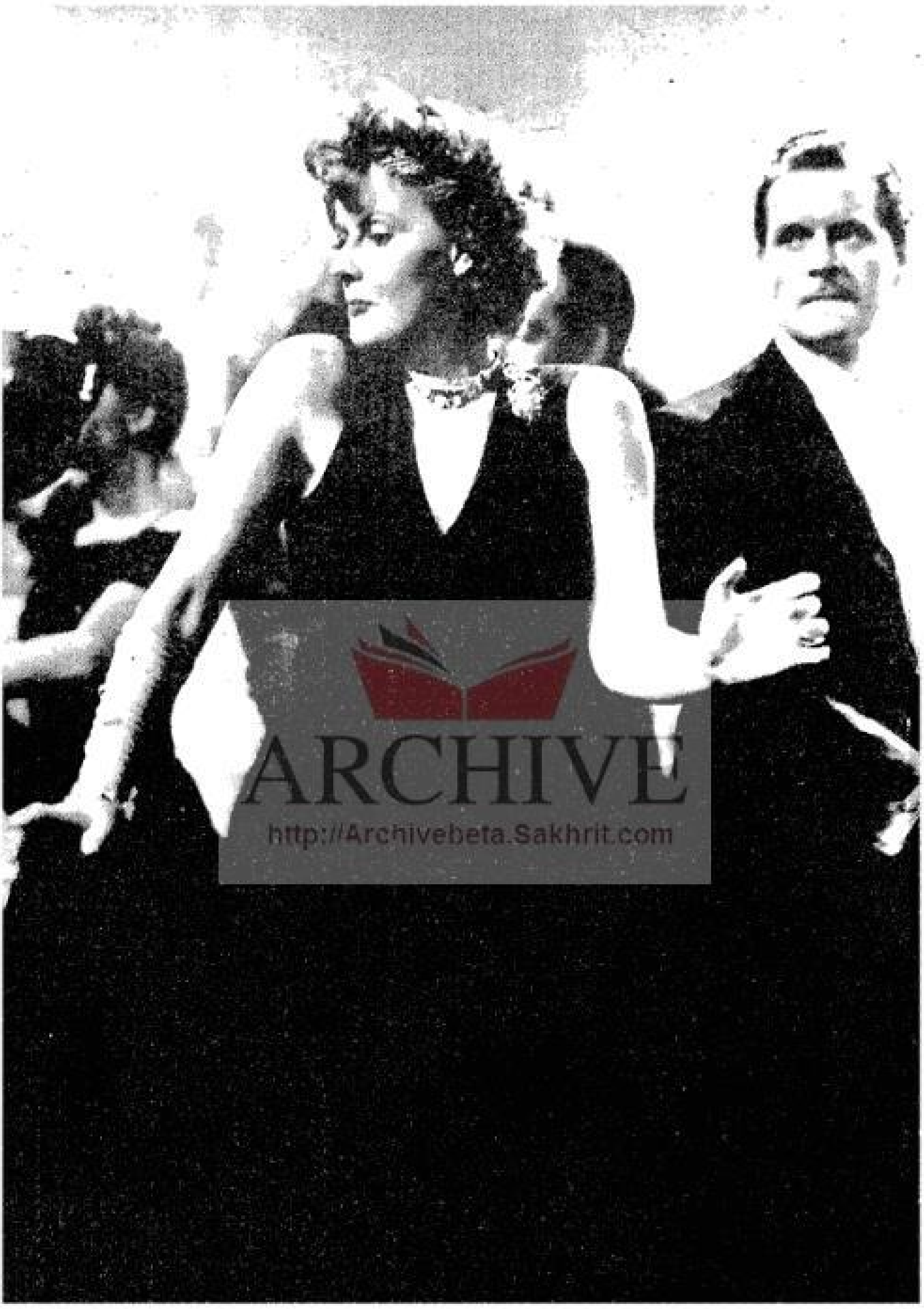
كان أول ما لفت نظرى فى الكتاب الضخم الذى ألفه ، جريجورى بلاك ، بعنوان ، هوليوود مراقبة ، ، أن ثمة عنوانا آخر ، القواعد الأخلاقية ، الكاثوليك والأفلام ، ، طبعت كلماته بأحرف صغيرة ، احتلت الجزء الأسفل من غطاء الكتاب ، على عكس الحال بالنسبة للعنوان الكبير .

وكان أول ما استخلصته من ذلك العنوان الثانى أن صاحب الكتاب إنما يعرض للرقابة على أفلام مصنع الأحلام فى هوليوود من منطلق كشف الدور الذى لعبته الكنيسة الكاثوليكية من أجل التأثير على عملية الإبداع السينمائى فى الولايات المتحدة إيجابا أو سلبا .

والحق أن أخص ما نلاحظه فى هذا الكتاب أنه بدءا من أولى كلمات فاتحته ، وحتى آخر كلمات خاتمته ، لم يترك شيئا صغيرا أو كبيرا فى صناعة هوليوود للأفلام ، من قبل أولى الأمر فى تلك الكنيسة ، إلا وأحصاه عليهم ، واتخذ من ذلك سببا لاتهامهم بما آل إليه حال السينما الأمريكية إبان عقود ثلاثة ، بدءا من عقد الثلاثينات .

● تشويه العقول

فتلك السينما ، نتيجة لتدخلهم ، استطاعت ، حسبما زعم ، بن هشت ، كاتب السيناريو الشهير فى سيرته الذاتية ، ابن القرن ، أن تشوه العقل الأمريكى بمعلومات مضللة ، فاق حجمها فى ليلة واحدة حجم ما كانت تستطيعه ، عصور الظلام إبان عقد كامل من عمر الزمان .



هوليوود مراقبة

ففي خمسة عشر ألف دار سينما كان يتكرر يوميا عرض موضوع واحد لا يتغير محوره انتصار الأخيار واندحار الأشرار

وأعود إلى فاتحة الكتاب لأقول : إنها استهلت بكلمات جاءت على لسان « روجر ماهونى » كاردينال لوس أنجلوس فى بيان وجهه الى اتحاد معاد للأفلام الجنسية، مركزه هوليوود .. ومتى ؟

فى فبراير١٩٩٢ ، أى فى أيامنا هذه، والقرن العشرون على وشك الرحيل .

● السينما عدوان

وكان من بين ما جاء فى كلمات ذلك البيان أن صناعة الأفلام تشكل عدوانا على القيم التى يؤمن بها أغلب الناس فى المجتمع الأمريكى ، وان تلك الصناعة لم يعد فى وسعها الاختباء وراء صرخة حرية التعبير ، تطلق فى غير محلها بين الحين والحين .

ولم يكتف بيان الكاردينال بذلك الاتهام ، وإنما طالب بإحياء قواعد الرقابة على الأفلام ، التى كان معمولا بها بدءا من ١٩٣٠ وحتى ١٩٦٦ ، تاريخ استبدال نظام تصنيف الأفلام ، الجارى العمل به الآن ، بتلك القواعد ، وكانت حجته التى تذرع بها للمطالبة بالعودة إلى الماضى هى موجة الجنس المفرط والعنف المسرف التى اجتاحت الأفلام ، وضرورة وضع حد لها ، حفاظا للقيم المهددة بالزوال .

● أهل الكهف

والأمر العجاب فيما تقدم أن الكاردينال فى بيانه لم يضع فى الاعتبار الأهوال التى مرت بها الانسانية ، ومن بينها الحرب العالمية الثانية ، وإلقاء القنبلة الذرية على كل من هيروشيما وناجازاكى ، وحرب فيتنام .

كما لم يضع فى الاعتبار ، لا الاختراعات المذهلة التى أنجزتها الانسانية ، ومن بينها غزو الفضاء ، وثورتا المعلومات والاتصالات .

ولا القفزات الكبرى نحو الديمقراطية وحرية التعبير ، إثر اندحار الفاشية ، وسقوط الشيوعية وما شابهها من نظم شمولية ، طابعها الفساد والاستبداد .

فالكاردينال ، والحق يقال ، إنما يريد بمطلبه إحياء القواعد الرقابية ، العودة الى نظام عفا عليه الزمان ، جرى فرضه على هوليوود ، بضغوط من تيارات فكرية متشددة ، ارتأت فى السينما ، وهى لاتزال تحبو فى بداية القرن العشرين ، مثل ذلك الذى ارتآه القس « ويلبور كرافيس » ، عندما وصف ، فى أثناء اجتماع من أجل الطفولة (١٩٠٩) ، الدور التى تعرض فيها الأفلام بأنها مدارس للرذيلة والجريمة ، تبعث بروادها فى



رحلات إلى الجحيم ، مقابل نكلة واحدة لا تزيد .

● المسخ الكبير

وعلى كل ، فالكتاب ينطوى ، فيما بين فاتحته وخاتمته على تسعة فصول ، كشف فيها صاحبه بالتفصيل المدعم بالوثائق والمستندات ، كيف نجحت الكنيسة الكاثوليكية فى فرض رقابة صارمة على انتاج الأفلام فى استديوهات هوليوود ، مما كان سببا فى أن شكلا فنيا كان من الممكن أن يتمحور حوله تعبير جديد ، يفيض نفعا وخيرا ، أصابه مسخ تحول به إلى صناعة لا تنتج ، فى الأغلب الأعم ، سوى أفلام تافهة ، كالزبد لا تفيد .

● العصر الذهبى

وما أريد أن ألخص خير ما فى ثلاثمائة وست وثلاثين صفحة تضمها دفتا هذا الكتاب ، وهو كيف أحكمت الكنيسة قبضتها على ما تنتجه الاستديوهات من أفلام ، على امتداد ثلاثين عاما ، مستعينة فى ذلك بالقواعد الرقابية التى إستنها أحد قساوسة سانت لويس ورابطة الاحتشام الكاثوليكية المنتشرة فروعها بطول وعرض البلاد .

وكيف انتهى الأمر باستديوهات هوليوود الكبرى ، إبان عصر عاصمة السينما المسمى بالعصر الذهبى ، وقد تكبلت بأغلال الرقابة ، إلى إفلاس فى التعبير ، كان من نتيجته أنها لم تنتج ، حسب قول « دافيد سلزنك » صاحب «ذهب مع الريح» ، سوى سيل من الهراء ، كل عشرة آلاف فيلم من بين هذا السيل ، لا يستحق أن يبقى منه على شاشة الذاكرة ، سوى أقل القليل ، والذى قد لا يصل إلى عشرة أفلام وذلك مع التفاؤل الشديد .

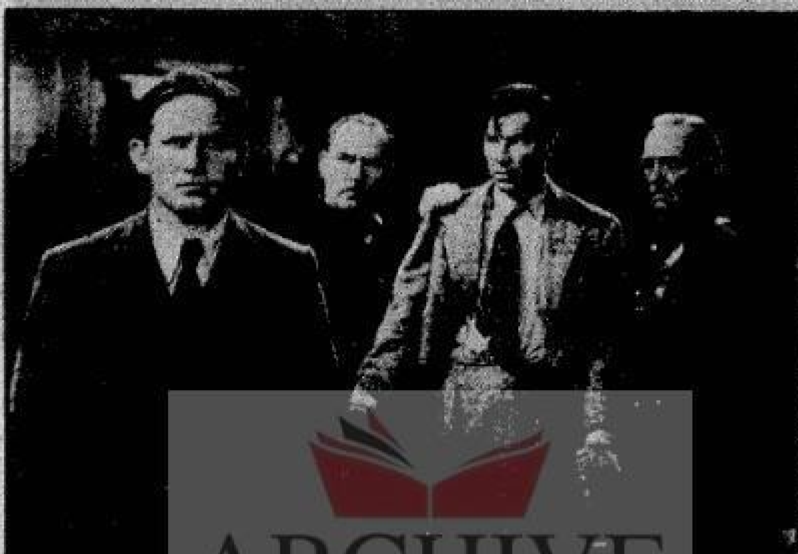
فتلخيص خير ما فى الكتاب أمر يطول ، وضيق المجال لا يسمح به بأى حال .

ولنفس السبب ، فلن أعرض بالتفصيل للأفلام التى تعرضت لمحنة الرقابة ، بضغط من دعاة الاحتشام ، وما أكثرهم فى تلك الأيام .

● ضحايا الاحتشام

ولعله يكفى هنا ، لاثبات المخاطر الجسام التى تعرض لها فن السينما ، أن

هوليوود مراقبة



الغضب... أول فيلم أمريكي لفريتز لانج

أذكر أن الأفلام التي ذاقت مرارة الاتهام من جديد من قبل رابطة الاحتشام في شيكاغو وحدها، خلال عام ١٩٣٤، وصل عددها إلى سبعة وستين فيلما.

وبالمناسبة فشيكاغو أول مدينة في العالم ابتدعت الرقابة على الأفلام.

ولقد كان من بين الأفلام محل اتهام تلك الرابطة «نانا» عن قصة «إميل زولا» الأديب الفرنسي صاحب «إني أتهم» الكتاب الذي أثار قضية «دريفوس»

و«الامبراطورة الحمراء» رائعة المخرج «جوزيفا فون شترنبرج» مع نجمته المفضلة «مارلين ديتريش».

و«حياة هنري الثامن الخاصة» رائعة المخرج «الكسندر كوردا»، والفائز ممثلها الرئيسي «شارلز لوتون» بأوسكار أفضل ممثل عن أدائه لدور ذلك الملك.

أما الأفلام التي لم تر النور أصلا،



جاربو .. أنا كارنينا

نظرا إلى منعها رقابيا، بدءا من المنبع، قبل أن تدخل مرحلة التصوير، والأفلام التى تم تشويهها بواسطة الرقباء سواء فى مرحلة السيناريو أو فى مرحلة التوليف، أو حتى فيما بعد عرضها فى دور السينما، استجابة لتهديدات جماعات الاحتشام، وغيرها من الجماعات الشبيهة، التى فرضت نفسها حامية للقيم والتقاليد الأمريكية المهددة بفحش انتاج مصنع الأحلام.

● مذبحة الأفلام

فتلك الأفلام تعد بالمئات، أذكر من بينها فيلم «المخبر» الفائز صاحبه جون فورد بأوسكار أفضل مخرج.

و«الغضب» أول فيلم للمخرج فريتزلانج، بعد هروبه من ألمانيا الهتلرية، وفيه يعرض لآفة التعصب العنصرى فى الجنوب الأمريكى.

وعن «الفئران والرجال»، و«أعناب الغضب»، وكلاهما عن قصتين لـ«جون شتاينبك» الأديب الأمريكى الفائز بجائزة نوبل.

و«طريق التبغ» المأخوذ عن قصة للأديب الأمريكى «ارسكين كالدويل».

و«جبريل فوق البيت» و«الرئيس يختفى»، وكلاهما عن هموم رئيس الولايات المتحدة، والتحديات التى يواجهها من قبل أصحاب المصالح ذوى النفوذ، لاسيما تجار السلاح.

وهنا لا يفوتنى أن أذكر «المرأة ذات الوجهين» آخر فيلم «لجريتا جاربو» قبل اعتزالها التمثيل نهائيا، وهو من اخراج «جورج كوكور» صاحب «غادة الكاميليا» و«ستيفن الجميلة» وغيرهما من روائع الأفلام.

و«الأرملة المرحة» الفيلم المأخوذ عن أوبريت بنفس الاسم للموسيقار النمساوى «فرانز ليهار»، ومثله «موريس شيفالييه» أمام «جانيت ماكدونالد»، والفضل فى ترجمته إلى لغة السينما انما يعود الى «أرنست لوبتش»، ذلك المخرج المنحدر من أصل نمساوى، والذى يعتبر فى نظر مؤرخى السينما واحدا من عباقرة الإخراج، قلّ أن يجود بمثله الزمان.

ومع ذلك فـفيلمه لم ينج من غضب دعاة الاحتشام.

هوليوود مراقبة



جاربو نجمة هوليوود

فكان أن أعيد توليفه بعد عرضه ، بحيث حذف منه أكثر من مشهد مخل بالآداب فى رأى الدعاة الغاضبين .

ونفس المحنة تعرض لها فيلم « أنا كارنينا » المأخوذ عن قصة ليون تولستوى التى بنفس الاسم ، وإن كان بشكل أخف قليلا .

ففى أثناء مرحلة السيناريو ، طلبت الرقابة من منتج الفيلم « دافيد سلزنيك » أن يهذب قصة « تولستوى » بحيث تبدو « أنا كارنينا » وتؤدى دورها جريتا جاربو زوجة خائنة ، مذنبة فى حق المجتمع ، هى وعشيقها الضابط « فرونسكى » ويؤدى دوره « فردريك مارش » وبحيث ينتهى بهما الفيلم ، وقد عوقبا أشد عقاب ، هو بالفصل من خدمة الجيش القيصرى ، وهى بالانتحار .

ورغم استجابة المنتج لطلب الرقابة ، فالفيلم عند عرضه استهجنته رابطة الاحتشام فى شيكاغو ، وطلبت مقاطعته لا فى شيكاغو وحدها ، وإنما فى جميع مدن الولايات المتحدة .

وليس من شك أنه فى مناخ كهذا يسوده إرهاب المتشددين ما كان يمكن لأفلام هوليوود أن تعبر بصدق عن المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى كانت تواجه المجتمع الأمريكى فى تلك الأزمنة العصيبة

ومن هنا سيل الأفلام التافهة ، ذلك السيل الذى وصفه « سلزنيك » بحق بالهراء .



محنة مصنع الاحلام مع جماعات الاحتشام فى هوليوود



وداعا صالح مرسى



الكاتب كالبحر .. كلاهما لايموت

بقلم : محمود قاسم

□ سيظل صالح مرسى بالنسبة للناس هو المؤلف الذى كتب مسلسل رأفت الهجان. بل والغريب ان صالح مرسى نفسه قد تعامل مع هذه الشخصية باعتبارها توأم روحه، فلم يكن يتحدث عنها سوى باعتبارها الشخصية التى سكنت فى أعماقه ، وهى صاحبة الفضل عليه فى تلك الشهرة الجماهيرية التى حققها فى السنوات الأخيرة ، وكان كثيرا ما يتكلم عن أوجه الشبه والمقاربة بينهما ، حتى تحدث كأنهما من مواليد نفس السنة، ويحملان نفس الأفكار ، والميول ، وهما الشخصان اللذان لم يلتقيا قط ، سوى من جانب واحد على الورق .

والحق ان ظهور رأفت الهجان فى حياة الأديب صالح مرسى قد ظلمه كثيرا بقدر ما أعطاه من شهرة وجماهيرية ، فقد أضفى البريق الهائل الذى انعكس من الكاتب على الهجان، ومن هذا الأخير على المؤلف، الكثير من جوانب مهمة فى عالم صالح مرسى ، وقد يعلم بعض المقربين منه، والمتابعين لابداعه بعضا من مراحله التى عاشها ، لكن كل هذا تلاشى تدريجيا بظهور رأفت الهجان. ليس فقط



لقوتها التى أحدثت فعلها في وجدان الناس ، بل لأن أعماله التى ظهرت له بعد ذلك لم تكن من الأهمية أو النجاح بنفس القدر الذى عرفناه عن ذلك الجاسوس المعروف باسم ١١٣ فى ملف الاستخبارات المصرية .

وتجىء المشكلة هنا فى ان صالح مرسى قد عاش أطول فترة ممكنة مع الهجان ، فتقمصه مرة عندما كتب روايته الطويلة (٣ أجزاء) المعروفة باسم وكنت جاسوسا فى إسرائيل ، ثم طوال ست سنوات قدم فيها التليفزيون الأجزاء الثلاثة من المسلسل ، وحشد له كل الإمكانات. وقد عاش صالح مرسى عالم الهجان بكل حذافيره ، باعتباره هو الذي كتب السيناريو ، وكان يجالس النجوم، وخاصة محمود عبد العزيز ، ويقرأ معهم السيناريو ، وقد أطال هذا من مدة تقمص المؤلف للشخصية التى كتب عنها .. وكان

صالح مرسى مع زوجته وابنه أحمد



من المتوقع أن يخرج من دائرة الهجان لبعض الوقت لو نجح مسلسل «الحفار» الذى لم يوكل الى صالح مرسى أن يكتب له السيناريو ، وكانت تلك غلطة تحسب ضد التليفزيون ، فحتى الآن لم يبرع كاتب فى التوغل فى هذه العوالم مثلما حدث لصالح مرسى .

وأمام فشل «الحفار» ، ارتد الكاتب مرة أخرى إلى شخصيته يحاول أن يثبت لذاته أنها مرآته الإنسانية ، وظل نجاحه ، ليس فقط طوال حياته ، بل لعقود عديدة بعد وفاته .

وصالح مرسى هو بلا شك أهم من كتب هذا النوع الأدبى فى اللغة العربية ، وهو مؤسسه ، وكاتبه الوحيد ، رغم أن هناك من اتيحت لهم فرص الدخول فى نفس الحلبة ، ولعل هذا قد ساهم فى أن تتعاظم صورة الكاتب كرائد لهذه الكتابات وهو أدب متميز إذا وجد من يتعامل معه بموهبة ومهارة ، مثلما يحدث الآن ، ومنذ عام ١٩٦٣ على وجه التحديد مع الكاتب البريطانى چون لوكاريه ومع كتاب آخرين نجحوا فى أن ينقلوا هذا النوع من الروايات من الهامشية إلى بؤرة الأدب المتميز ومنهم على سبيل المثال أيضا أريك آمبلر ، وكان قد سبقهم كتاب رشحت اعمالهم لجائزة نوبل مثل جراهام جرين وسومرست موم .

الكذاب .. الذى اكتشف الحقيقة

ولا شك ان مؤلف رأفت الهجان قد ظلم نفس المؤلف الذى قدم روايات من طراز «الكذاب» و «زقاق السيد البلطى» و«المهاجرون» ، و«البحر» وهى كلها أعمال متميزة فى حياة الكاتب ، ترتبط فى المقام الأول بتجربته الحياتية ، ورؤيته الاجتماعية والسياسية ، ومواقفه من مساندة الثورة والوقوف معها ، ولعل هذا كان سبب التحول الذى حدث للكاتب وهو تحول لم يسع اليه المؤلف ، بل جاء إليه ، وقد روى صالح مرسى تجربته فى مقدمة روايته «الصعود إلى الهاوية» المنشورة فى كتاب الهلال - أغسطس ١٩٧٦ قائلا :

«فعندما طلبت منى صوت العرب فى مطلع هذا العام ١٩٧٥ أن اكتب مسلسلا عن الجاسوسية بدا لى الأمر مثيرا بعض الشئ ، وعندما قرأت قصة ذلك الجاسوس الذى كنت بصدد الكتابة عنه ازداد الأمر إثارة ، ذلك أنى كنت أعرفه فى فترة من الزمان معرفة عابرة » .

وقد كان يمكن لصالح مرسى أن يكتفى بكتابة المسلسلات الإذاعية ، لكنه آثر أن ينقل هذا العالم إلى الأدب ، وقدم فى البداية مجموعة عن قصص الجواسيس. ومن النادر ان يكتب مؤلفون هذه القصص فى أعمال قصيرة ، لكن المؤلف ما لبث أن اكتشف رحابة هذا العالم وسعته ، فجاءت رواياته التى نشرها أولا فى مجلة «المصور» مليئة بكل أساليب الجاذبية للقراء، ومع كل رواية جديدة .

صالح مرسى الذى تقمص كل تجاربه



الروائية السابقة ، بدا صادقا وهو يسعى لمصادقة الجواسيس أو المندوبين الذين زرعتهم الاستخبارات المصرية ، أو الذين عملوا معها ، وأيضا رجال الاستخبارات الذين تكرر ظهورهم فى رواياته بنفس الأسماء ، وإذا كان المؤلف قد خلع يوما ملابس «الأفندى» الصحفى الذى يعمل فى مجلة صباح الخير وارتدى جلبابا شعبيا ، وطاقية ، وعمل فى إحدى المقاهى بالسيدة زينب ، قد صب هذه التجربة فى روايته «الكداب» فى فترة كان المثقفون المصريون يتشدقون بالوجودية نظريا ، ويتحدثون عن الجوانية ، والتغير الاجتماعى شكليا فإن صالح مرسى قد حول بطل روايته إلى مثقف تائه بين المكاتب ، عليه ان يثرى تجربته الانسانية بالاحتكاك الحقيقى مع الناس ، ورغم ان الصحافة قد تعاملت مع ما فعله الكاتب باعتباره «خبطة صحفية» فان النص الادبى الذى طلع به المؤلف على الناس اثبت أنه اديب يتحدث عن التغير الداخلى، واعماق بطله ، والأشخاص الذين التقاهم أكثر من التركيز على أشكال الأشياء من الخارج.

من البحر .. إلى الجاسوسية

وبنفس الصدق دخل صالح مرسى عالم البحر، وهو البحار الذى ركب الموج لسنوات طويلة وأكدت هذه التجربة أن الرحيل بين السماء والماء يخلق أدباء كبارا من طراز هرمان ملفيل ، وجوزيف كونراد، وحنا مينا صحيح أن تجربة صالح مرسى الأرضية كانت أكثر ثراء ، وانه لم يخلص للبحر مثلما فعل زميله السورى ، لكن تبقى أعماله فى الإبداع المصرى عن هذا الموضوع بمثابة محطات يجب الوقوف عندها .

وفى رأيى ، ورأى الكاتب الراحل أيضا أن الحس الأدبى كان عاليا لديه وهو يكتب «زقاق السيد البلطى» أكثر من رواياته الاربع عن عالم التجسس ، وقد اعترف الكاتب فى حديث سجلته معه أن هذه الكتابات هى تحقيق روائى أو «مجرد عملية تسجيل استخدمت فيه اسلوبى كقصاص فى الكتابة فقط، ليس هناك أى خيال ممتزج بالواقع » .

وقد ترجع رؤية صالح مرسى هذه أنه ليس صاحب القصة الأصلية ، وأن الموضوع جاهز أمامه ، عليه أن يصوغه كقصاص ، ولكن من منطوق المقارنة ، فإن هذه التجربة قد اتيحت إلى كتاب آخرين ، وبفرص أكثر عددا مما منحت لصالح مرسى ، ويبدا كم ان موهبة صالح مرسى قد افادت هؤلاء الجواسيس الذين كتب عنهم ، سواء عملوا ضد الوطن ، أو لصالحه ، فالجواسيس هنا كائنات إنسانية ، وليسوا مجرد هياكل عليها أن تقوم بعمليات استخباراتية ، وهو بذلك



ينقل ابطاله من الهامش ، ويكفى أن نراجع صورة عبلة كامل «بطلة الصعود إلى الهاوية» كى نعرف أننا أمام كيان إنسانى انهزم فى حياته الخاصة عدة مرات قبل أن تقوم قائمته مع الاستخبارات الإسرائيلية .

وقد جاءت خطورة عبلة أنها القت كل احساس بأى شعور وطنى أرضا ، ويبرع الكاتب فى أن يجعلنا نكرهها دون استخدام الألفاظ الفجة ، أو الرنانة ، فهو يذكر أن عبلة زارت إسرائيل وشاهدت الجبهة - المصرية من مواقع الجيش الإسرائيلى وزارت مبنى الكنيست ، وحضرت إحدى المناقشات الحادة ، وهى تردد بشكل يذهل الجميع : «لست بطلة أنا جاسوسة» .

ولا شك أن موهبة صالح مرسى هذه قد ساعدت فى إحياء شعور عام لدى العرب بأن لهم ابطالهم الذين استطاعوا أن يكتموا أشياء كثيرة ، وحملوا مصائرهم فوق اكفهم ، وهم يعملون لصالح هذا الوطن فى إسرائيل. وإذا كنا قد أشرنا فى بداية المقال ان صالح مرسى مدان بالكثير من شهرته لشخصية رأفت الهجان ، أو جمعة الشوان ، فاننا نقول من منظور آخر إن هاتين الشخصيتين ستئول مدانتان بشهرتهما للمؤلف فى المقام الأول وعلينا أن نتصور كيف يمكن أن تكون صياغة كل منهما لو كتبها آخرون غير صالح مرسى ، كما يمكن أن نتخيل ما ستئول إليه روايات أخرى لو اسندت كتابتها إلى كاتبنا الراحل .

قصص المستحيل

وقد ظل صالح مرسى مؤرقا دوما بين الأديب المبدع من داخله، وبين القصص الذى عليه ان يستمد وقائعها من ملفات سرية ، ويبدا فى مقدمة روايته ، «رأفت الهجان» كأنه يقدم تبريرا أو اعتذارا عن أشياء لم يكن هو صاحب القرار فيها : « إذا كانت قصص التجسس فى العالم كله .. إذا ما خرجت إلى النور لا تخرج بعضها وكما حدثت ، لأن هذا يبدو من وجهة النظر الفنية مستحيلا وهو أيضا يبدو من وجهة النظر الأمينة من رابع المستحيلات .

وإذا كانت علاقة صالح مرسى برواية التجسس قد بدأت قبل واحد وعشرين عاما ، فإنه بدا كم هو صعب أن يبدأ مرحلة جديدة ، ورغم أنه توقف عن التعامل مع ملفات الاستخبارات فإنه ظل يكتب عن الجاسوسية ، وبدا أن ضياء هذا العالم أقوى من خرير البحر ، وفى الأسابيع الأخيرة راح ينشر آخر رواياته فى شكل مسلسل فى احدى المجلات الأسبوعية . ومن الواضح أن القدر لم يدعه يستكمل كتابتها ، والذين تابعوا حلقاتها يؤكدون أنه بدا فى أشد حالات تألقه .

النحو العربي

والحمى المستباح

بقلم : د. محمود الطناحى

من أمثال العرب الشائعة قولهم : «ذكَّرْتَنى الطَّعنَ وكنتُ ناسيا» ، ويضرب فى الحديث يستذكر به حديث غيره، كما قال الزمخشرى ، وقال أبو هلال العسكرى : يضرب مثلا للشيء ينساه الإنسان وهو محتاج إليه. وقد ذكرت ذلك حين قرأت فى جريدة الأهرام ١٩٩٦/٦/٢٦م مقالة للأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ، عنوانها «حين يستوى الصمت والكلام» ، وقد أعاد فى هذه المقالة كلاما قديما عن اللغة والنحو ، كان قد كتبه فى الأهرام أيضا بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م و ١٩٩٢/٨/٢٦م، وكنت قد رددت عليه فى عددين من الهلال (نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢ م).

ويقول الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى فى كلمته الأخيرة هذه : «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التى نثيرها؛ لأن القيامة فى رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعا ، فجعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا بدلا من أن نجعله مرفوعا كما يطالبنا النحاة يم والحقيقة أن هذا فهم بالغ السذاجة ، فاللغة ليست النحو، والمبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة ، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السَّليقة وانحطاط الملكة ..

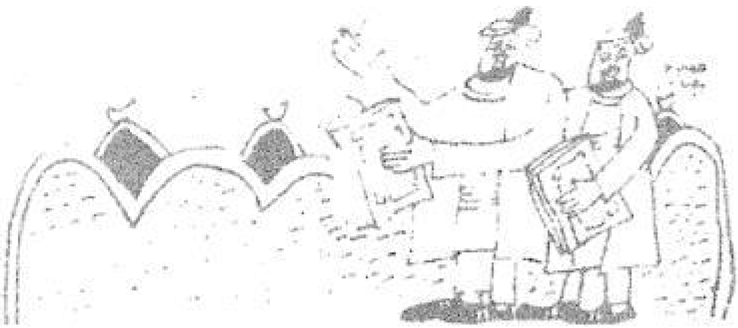
هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التى شهدتها الآداب اليونانية فى المرحلة الهللينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض ، وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدتها روما فى القرن الرابع الميلادى ، وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدها الأدب العربى فى العصر المملوكى ، ففى ذلك العصر الذى تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام» .

هكذا قال الأستاذ حجازى ، وقد قرأت كلامه هذا أكثر من مرة ، وأعطيته حظه من النظر والتأمل ، ثم قلَّبته ظهراً لبطن ، والتمست لكاتبه المعذرة ، فما استقام على وجه ، ولا كشف عن جديد مما يكتبه الأستاذ حجازى ، وما يكتبه غيره الآن عن النحو ، هذا العلم الذى هو ملاك العربية وقوامها ، والذى يقول عنه أبو العباس ثعلبَ أحد أئمة العربية فى القرن الثالث : «لا يصح الشعر ولا الغريب ولا القرآن إلا بالنحو ، النحو ميزان هذا كله» (مجالس ثعلب ص ٣١٠) ، وكان ينبغى على أبى العباس ثعلب أن يضيف «ولا الفقه» ، فقد قال أبو بكر الشنتريني من علماء القرن السادس « ولقد رأيت جماعة من الفقهاء المتقدمين الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين قد تكلموا فى مسائل من الفقه فأخطأوا فيها ، وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولا لقلة محفوظاتهم ، ولكن لضعفهم فى هذا العلم – يعنى عالم النحو – وعدم استقلالهم به » تنبيه الألباب على فضائل الإعراب ص ٦٣ .

● كتاب سيبويه والقياس

وروى أن أبا عُمر الجَرمى – من نحاة القرن الثالث – قال : « أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه » فحدث ابنُ شُقَيْرٍ بهذا الحديث المبرِّدَ ، على سبيل التعجب والإنكار! فقال المبرد : «أنا سمعت الجرمى يقول هذا – وأومأ بيديه الي أذنيه – وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث ، فلما علِم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث ، إذ كانَ كتاب سيبويه يُتعلَّم منه النظر والتفتيش» (كتاب سيبويه ١٥/١) ، وروى ياقوت هذا الخبر برواية أخرى « قال الجرمي : أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس فى الفقه من كتاب سيبويه ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ قال : أنا رجل مكثر من الحديث ، وكتاب سيبويه يعلمنى القياس ، وأنا أقيس الحديث ، وأفتى به » (معجم الأدباء ص ١٤٤٣ ، طبعة د. إحسان عباس) ، وهى أصح الطبعات .

هذا وقد روى الزجاجي قصة تؤكد هذا الخبر ، قال : « وكان أبو عمر الجرمي يوما في مجلسه ، وبحضرته جماعة من الفقهاء ، فقال لهم : سلونى عما شئتم من الفقه ، فإني أجيبكم على قياس النحو ، فقالوا له : ما تقول فى



رجل سها فى الصلاة ، فسجد سجدتى السهو فسها ؟ فقال : لا شىء عليه ، قالوا له : من أين قلت ذلك ؟ قال : أخذته من باب الترخيم؛ لأن المرخَّم لا يُرخَّم » .

ورويت هذه القصة أيضا عن أبى زكريا الفراء ، بإجابة أخرى شبيهة بالسابقة ، وذلك قوله « أخذته من كتاب التصغير؛ لأن الاسم اذا صغر لا يُصغَّر مرة أخرى » (مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٥١ ، ٢٥٢) .

ومما ينبغى التنبه له أن بعض علماء الفقه كانوا يلجأون الى بعض علماء النحو؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية ، ومن ذلك ما ذكره السَّرْخَسِيّ صاحب كتاب المبسوط ، فى أثناء شرحه لكتاب السِّيَر الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة ، قال « اعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها فى أبواب الأيمان ، فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه ، وكان – أى محمد بن الحسن – شاور فيها علىَّ بن حمزة الكسائى رحمه الله تعالى ، فإنه كان ابن خالته ، وكان مقدما فى علم النحو » شرح السير الكبير «١٠/٢٥٢» .

وفى مكتبتنا العربية كتاب حاشد ، يدور حول ربط الفقه بالنحو ، هو كتاب « الكوكب الدرىّ فى تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية » لجمال الدين الإسنوى ، من علماء القرن الثامن .

ولا أظننى بحاجة الى الاحتشاد والاستشهاد على سلطان النحو على سائر علوم العربية ، ودورانه فى نسيج الثقافة العربية ، فهذا شىء مسطور فى الكتب ، ومحفوظ فى صدور الذين أوتوا العلم ، لكن لا بأس من الإشارة الى بعض الأمثلة التى تؤكد سلطان النحو على اللغة وعلى الفكر والفن معا ، وهذه الأمثلة التى تأتيك أيها القارىء الكريم مما لا يتنبه له كثير

من الناس ؛ لأنها مطروحة فى أخبار لا يقف الناس عندها كثيرا : حكى المسعودى قال : « وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه فى تفضيل صنعة الكلام - وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية - أن الخليل بن أحمد من أجل إحسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الإيقاع وتراكيب الأصوات » مروج الذهب ٣٢٤/٤ .

أرأيت أيها القارىء العزيز ، كيف قاد الإحسان فى النحو والعروض إلى الموسيقى ؟ ولعل هذا خير تفسير لما قاله الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف ، فيما نقله الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف فى كتابه الجيد : النحو والدلالة ، مدخل لدراسة المعنى النحوى الدلالى . يقول الدكتور مصطفى ناصف : « فالنحو ليس موضوعا يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية ، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ ، أو يرون الصواب رأيا واحدا ، النحو مشغلة الفنانين والشعراء ، والشعراء أو الفنانون هم الذين يهتمون بالنحو ، أو هم الذين يبدعون النحو ، فالنحو إبداع » .

نعم النحو إبداع ، ولا يعرف هذا إلا من قرأ القرآن الكريم قراءة تبصر وإحسان ، ثم أطال النظر فى كلام العرب: نثرها وشعرها ، وصبر نفسه على قراءة الكتب والسير فى دروبها ، وحمل تكاليف العلم وأعبائه .

ونعم إن فى النحو مناطق فن وإبداع ، فإذا أنت تركت نحو الصنعة المتمثل فى التعريفات والإخراج بالمحترزات والحدود والقوالب والنظام والاطراد ، وما تقتضيه القسمة العقلية التى تفترض أشياء لا وجود لها؛ لاستواء الصنعة النحوية ليس غير ، وسائر هذه الأمور التى جعلت أبا سعيد السيرافى يقول «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة» (الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١١٥/١) .

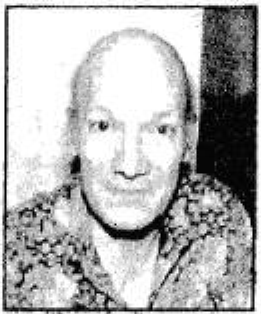
أقول : إذا أنت تركت هذا كله ، وجئت الى نحو التراكيب وبناء الجملة العربية وجدت ذلك النحو العربى الشامخ القائم على رعاية المعانى والدلالات ، التى خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطراد، الى العلاقات بين أجزاء الكلام ، وتلك المدارج الواسعة ، من التقديم والتأخير ، والحذف والتقدير والإضمار والفصل والاتساع والحمل والتضمين والجوار والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل ، ومعانى الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض ، وتبادل وظائف الأبنية ، ثم لغة الشعر التى يسمونها الضرائر .

● مقتضى المعنى وحق الإعراب

وحين انفسحت هذه الآفاق أمام

النحاة الأوائل فطنوا الى ما قد يكون من تعارض بين مقتضى المعنى وحق الإعراب، الذى هو أبرز شيء في الصنعة النحوية ، فحاولوا الإبقاء على الصنعة والنظام ، مع إعطاء المعاني والدلالات حقها ، وكان أبو الفتح بن جنى أسبق النحاة الى هذا التوفيق ، وقد عالجه في غير موضع من كتبه، وفي مقدمتها كتابه الفذ «الخصائص» فعقد في ص ٢٧٩ من الجزء الأول منه بابا سمّاه (باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) قال فيه : « ألا ترى إلى فرق ما بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى ، فإذا مرّ بك شيء من هذا عن أصحابنا ، فاحفظ نفسك منه ولا تسترسل إليه ، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سَمت تفسير المعنى ، فهو ما لا غاية وراءه ، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى ، تقبّلت تفسير المعنى على ما هو عليه ، وصححت طريق تقدير الإعراب ، حتى لا يشذ شيء منها عليك ، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه » .

وقال في (باب تجاذب المعانى والإعراب) الخصائص ٣/٢٥٥ «هذا موضع كان أبو على - الفارسى - رحمه الله ، يعتاده ويلمّ كثيرا به ، ويبعث على المراجعة له ، وإلطاف النظر فيه ، وذلك أنك تجد في كثير من المنثور والمنظوم ، الإعرابَ والمعنى متجاذبين ، هذا يدعوك الى أمر ، وهذا يمنعك منه ، فمتى اعتورا كلاما أمسكت بعُروة المعنى ، وارتحت لتصحيح الإعراب » .



أحمد عبدالمعطي حجازي

ثم كانت القفزة الثانية في ربط معاني الكلام ودلالته بالنحو على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه العظيم ، دلائل الإعجاز» وكانت نظريته المعروفة في النظم هي مجلَى ذلك الربط، وبتأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلي المحكم الذى سار عليه عبد القاهر «هو الذى قاده الى اعتماد النحو التقعيدى (نحو الصنعة) أساسا لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة ، وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية» . كما قال الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ص ٢٨٦ .

ومما ينبغي التنبه له أن عبد القاهر الجرجاني هذا مع شهرته الواسعة في البلاغة بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، يُعرف عند الأقدمين بعبد القاهر النحوى .

فهذا النحو القائم على رعاية التراكيب

والدلالات فى الكلام العربى الملفوظ والمكتوب هو النحو الذى ينبغى معرفته وتأمله والاستكثار منه ؛ لأنه بهذا المفهوم ملاك العربية وقِوامها ، بل إنه كان يُعبر عنه أحيانا فى القديم بالعربية ، حكى ابن جنى عن أبى العباس ثعلب ، قال : «وكان يعقوب - يعنى ابن السكيت - وضيئا عظيم الخَلْق ، وكان ذكيا حافظا عالما بالشعر واللغة ، صالح المعرفة بالعربية ، وكان ابن قادم وغيره من أصحابنا يحتاجون اليه فى الشعر واللغة ، ويحتاج هو اليهم فى العربية» (الخاطريات ص ١٩٨) ، وكذلك عبر ابن خلدون عن النحو بعلم العربية . انظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢) .

● وجهان للفعل الواحد

ومن الشواهد على سلطان النحو على اللغة ما ذكره أبو حيان التوحيدى ، قال : «سمعت فى مجلس أبى سعيد - يعنى السيرافى - شيخا من أهل الأدب يقول : ومن الأفعال ماله وجهان ، كشىء ينصرف على معنيين ، مثل أصاب عبدَ الله مالا ، وأصاب عبدُ الله مالٌ ، إذ أصابه مالٌ من قسمة ، ووافق زيدٌ حديثَنا ، إذا صادفهم يتحدثون ، ووافق زيدا حديثنا، إذا سره وأعجبه ، وأحرز زيدٌ سيفَه ، إذا صانه فى غمده ، وأحرز زيدا سيفُهُ ، اذا خلّصه من القتل وشبهه ، ولو قلت : أحرز امرؤ أجله لم يجز ؛ لأن الرجل لا يحرز أجله ، ولكن أجله يُحرزه ، إلا أن تذهب الى قولك : أحرزت أجلى بالعمل الصالح .

ثم يقول أبو حيان : انظر - فديتك - الى أثر النحو فى هذا القدر اليسير ، وتعجب عنده من أبى حنيفة الصوفى حين قال لك : ان الله عز وجل أمرنا بالطاعة والإيمان ، وإن لم يأمرنا بالنحو ، وإلا فهاتِ أنه يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم «ضرب عبد الله زيدا» ، وقد رأيت روغانه عن تحصيل الحجة فى معرفة ذلك: ألا يعلم أن الكلام كالجسم والنحو كالحلية وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة والأعراض الحالة فيه ، وأن حاجته الى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ والصواب، كحاجته الى نفس الخطاب ، وليس على كلامه قياس ، ولا فى ركاكة بنى جنسه التباس ، وإنما غرّه من هو أنقص منه فطرة ، وأخس نظرا وفكرة ، أتراه يصل الى تخليص اللفظ المبنى على معنى دون اللفظ المبنى على معنى آخر ، إلا بحفظ الأسماء وتصريفها ؟ أو تراه يقف على تحصيل المعنى المدفون فى هذا اللفظ دون المعنى المدفون فى هذا اللفظ إلا بتمييز وجوه حركات اللفظ ؟» (البصائر والذخائر ١١٧٩/ ، ١٨٠) .

وفى هذا النص - فوق ما أوردته له - إشارة الى ضيق بعض الناس بالنحو من

قديم ، وهذا مما يرجع الى ضعف الهمم وقصور الخطى ليس غير ، على نحو ما قال ربنا عز وجل : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) سورة الأحقاف ١١ ، فما ينبغى أن يتخذ مثل ذلك حجة على اطراح النحو أو إهماله .

على أن مثل « أبى حنيفة الصوفى » هذا لا ينبغى أن يهتم برأيه فى النحو واستصعابه له ، وذلك لجهالة شأنه وخفوت ذكره ، أما أن يأتى شاعر ضخم مثل الفرزدق فيسخر من قواعد النحو ، فيما أجاب به عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فى القصة المشهورة ، وقوله « علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا » ، أو أن يؤثر عن الفيلسوف الشهير « ابن الراوندى » - على زندقته وإلحاده - طعن فى النحو ونقض على النحويين ، فهذا الذى ينبغى الوقوف عنده والاحتفال به ، وقد قلت رأيى فى قصة الفرزدق تلك ، فى الهلال (ديسمبر ١٩٩٢ م) ، وانتهيت يومئذ الى أن قول الفرزدق وقول سواه من الشعراء الذين أظهروا سخطهم على النحو وقواعده إنما هو من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء ، وكأنهم يريدون أن يقولوا : إن نحوكم أيها النحاة صنعة ، ونحونا فطرة ، وآية ذلك أن شعرهم الذى حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شىء خارج عن النظام النحوى، أو خارقٌ لقواعده ، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو .

ومع هذا المأثور عن الفرزدق من استخفافه بالنحاة وخروجه أحيانا قليلة عن النظام النحوى ، فقد بقى جمهور شعره على الجادة النحوية ، وظل مددا ثريا للنحاة ، ينتزعون منه شواهدهم فى الدرس النحوى واللغوى والصرفى والصوتى .

وأما « ابن الراوندى » أحمد بن يحيى ابن إسحاق (٢٩٨ هـ) الفيلسوف المعروف ، والزنديق المجاهر بالإلحاد ، فقد عرف عنه الطعن على النحويين ، وذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدى ، قال : « وأما قوله - يعنى أبا حنيفة الصوفى - : قد نقض على النحويين ابن الراوندى نحوَهم ، فانه ذاهب بهذا القول عن وجه الرشد ؛ لأن ابن الراوندى لا يلحن ولا يخطىء ، لأنه متكلم بارع ، وجهبذ ناقد ، وبحاث جَدِل ، ونظارٌ صبور ، ولكنه استطال باقتداره على علل النحويين ، ورآها مفروضة بالتقريب ، وموضوعة على التمثيل ؛ لأنها تابعة للغة جيل من الأجيال ، ومقترنة بلسان أمة من الأمم ، فلم يكن للعقل فيها مجال إلا بمقدار الطاقة فى ايضاح الأمثال وتصحيح الأقوال » (البصائر والذخائر ١٨١/أ) .

وهذا النص مهم جدا ، وهو شاهد صريح على ما قلته أنا منذ أربع سنوات بمجلة الهلال ، من أن الذين يهاجمون النحو قديما لا يلحنون ولا يخطئون ، وإنما هو الضيق بنحو الصنعة ليس غير ، و « علَل النحويين » التى ذكرها أبو حيان، إنما هى من أبرز نحو الصنعة ،

ومن التوافق العجيب أن هذا النص الشاهد لما قلته قد جاء فيه لفظ « الاستطالة » أيضا ، وقد استعملته أنا وصفا لموقف الفرزدق من النحاة ، واستعمله أبو حيان وصفا لموقف ابن الراوندى من النحاة أيضا .

***

وضح إذن أن النحو نحوان : نحو الصنعة ، ونحو التراكيب ، فالأول هو النظام والقواعد والتعريفات والقوالب ، وما صحب ذلك كله من العلة والعامل . ولبعض خلق الله الحق فى أن يضيقوا بالنحو على هذا الوصف ، لأن فيه أحيانا ما يكُدُّ الذهن ويصدّع الرأس ، مع ما فى بعض النحويين قديما وحديثا من ثِقل وغثاثة ، ولكنه على كل حال علم ينبغى أن يُعرف ويُحاط به .

والنحو الثانى : نحو التراكيب ، وهو الذى اتكأ على النظام وانطلق منه الى إدراك العلائق بين أجزاء الكلام ، وتلك المدّارج الواسعة التى ذكرتها من قبل ، وهذا تستطيع أن تدركه من أول كتاب سيبويه الى النحو الوافى لعباس حسن ، على تفاوت بين النحاة فى ذلك ، وتستطيع أن تدركه أيضا فى كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذ ، وشروح الحديث النبوى وفى شروح الشعر وكتب الأمثال وعلوم البلاغة . والنحو بهذا الوصف لا يصح أن يُطعن فيه أويُنتقص منه ، لأن الطاعن فيه منتقص للعربية كلها ، ذاهب عنها جميعها .

ومن أعجب العجب أننا لا ننتبه لمناطق العظمة فى تراثنا إلا إذا نبَّهنَا اليها غيرنا من الطارئين على ثقافتنا وفكرنا ، وهم طائفة من المستشرقين الجادين الذين عملوا بإخلاص وتفان فى الكشف عن كنوزنا وإبرازها ، فحين التفتوا الى ابن جنى وعبقريته الفذة التفتنا نحن أيضا اليه ، ويوم أن خرج اللغوى الأمريكى المعاصر «تشومسكى» بنظريته فى النحو التحويلى التوليدى ، وما قاله عن «البنية العميقة» و «البنية السطحية» فرح كثير من المشتغلين بالدراسات النحوية عندنا ، وقالوا : إن ذلك يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء فى معالجتهم لتفسير الجمل فى العربية ، وجهد بعضهم فى المقارنة بين جهود عبد القاهر الجرجانى وجهود تشومسكى فى هذا السبيل ، ويرد الدكتور محمد حماسة عبداللطيف ذلك فيقول : «ومهما تكن أسباب هذا التشابه أو التقارب فى أسس المعالجة فإنه ينبغى ألا نعد ذلك من جانبنا شهادة للنحو العربى ، بل قد أبالغ فأقول وبغير تواضع كاذب أو ادعاء خادع إن العكس هو الصحيح ، أى أن هذا التقارب أو التشابه قد يُعد شهادة لنظرية تشومسكى» (من الأنماط التحويلية فى

النحو العربي ص ٦)

***

● اللغة ليست هي النحو

وإذ قد فرغت من التفرقة بين نحو الصنعة الذي هو النظام، ونحو التراكيب الذي هو التراكيب والعلاقات بين أجزاء الكلام، أعود الى ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وأول ما يلقانا من كلامه - حفظه الله - قوله : «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها ؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعا، فجعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا، بدلا من أن نجعله مرفوعا، كما يطالبنا النحاة» .

وأقول : أما أن اللغة ليست هي النحو، فهذا صحيح، وقد قاله أهل العلم من قديم، ومن أقرب من قاله من القدماء أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني (٧٤٥ هـ) قال في كتابه الطراز ٤٤٢/3 «إن المقاييس النحوية تابعة للأمور اللغوية، فيجب تنزيلها على ما كان واقعا في اللغة، فإذا ما ورد ما يخالف الأقيسة النحوية من جهة الفصحاء، وجب تأويله، ويُطلب له وجه في مقاييس النحو، ولا يجوز رده لأجل مخالفته للنحو» .

ومع استقلال اللغة عن النحو وتبعيته لها، فإن له سلطانا بضوابطه الإعرابية على دلالات اللغة، وقد مر بك كلام ذلك الأديب، الذي حكاه أبو حيان .

أما قول الأستاذ حجازي عن بعضهم «إن القيامة لن تقوم إذا جعلنا الفاعل منصوبا أو حتى مجرورا، بدلا من أن نجعله مرفوعا كما يطالبنا النحاة» فالأمر في العلامة الاعرابية ليس بهذه السهولة وذلك اليسر، والذين يقولون هذا إنما يستشهدون بجملة مثل «جاء محمد» ويقولون : إن الفاعل معروف، سواء سكنّا الدال أو رفعناها أو نصبناها أو جررناها، وهو كلام ركيك، لأن جملة كهذه لاتكاد توجد، لا في الفصحى ولا في العامية، فالذي يستعملها فصيحة لابد أن يضم الدال، ولا يُسَكِّنها إلا إذا وقف على الدال، أما في العامية - وبخاصة العامية المصرية - فلا يكاد الناس يستعملون في هذا الموضع إلا الجملة الفعلية «محمد جه» وعلى لهجة أهل دمياط وما حولها «إجه» وفيها قلب مكاني، مثل جذب وجبذ، وأرانب وأنارب ومسرح ومرسح .

والعلامة الإعرابية هي قضية القضايا في النحو العربي بقسميه : نحو الصنعة ونحو التراكيب، وقد أكثر الدارسون القدامى والمحدثون من الكلام عنها، ومن العامل الذي جلبها، وهل هو عامل لفظي أو معنوي، مما لا يتسع المقام هنا لبسطه وشرحه، ومن أجمع ما كتب فيها كتاب «العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث» للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف .

وهذه العلامة هي إحدى القرائن النحوية، ومهما اختلف الدارسون في وضع هذه العلامة مع القرائن الأخرى،

سبقا أو توسطا أو تأخرا ، فلن يستطيع الدارس المستند الى قراءة واسعة فى كتب النحو وفى غير كتب النحو ، أن يغفل أثر هذه العلامة ، وأنها أحيانا تكون حاسمة فى تحديد المعانى والدلالات . لا يشركها معها غيرها ، ولا يقوم شىء مقامها ، وأمثلة ذلك مما يطول به الكلام جدا ، وأظن أنه لا يخفى على القارىء اختلاف الدلالة فى قوله تعالى : (إن الله برىء من المشركين ورسوله) سورة التوبة ٣ ، برفع اللام وجرها من (رسوله) ، وكذلك اختلاف تقدير عدد النسوة فى قولنا : « جاء سبعة رجال ونسوة » بين جر «نسوة» ورفعها ، فإذا قلنا و «نسوة» بالجر ، كان عددهن سبعا ، لأن «نسوة» حينئذ تكون معطوفة على « رجال » وهم سبعة ، وإذا قلنا «نسوةٌ» بالرفع ، كانت على الابتداء ، والخبر محذوف ، وتقدير الكلام « ونسوةٌ لا يُعلم عددهن » .

سأترك هذا وأشباهه لأذكر مثالين اثنين على الإعراب وأثره فى توجيه المعنى، وعلى المعنى وأثره في توجيه الإعراب ، وإنما ذكرت هذين المثالين لأن الناس لا تلتفت اليهما ولا تقف عندهما :

● الفرق بين الرفع والنصب

المثال الأول ، ذكره ابن هشام فى المغنى ٢/٥٢٨ ، قال الشلوبين (٦٥٤ هـ): حكى لى أن نحويا من كبار طلبة الجزُولى سُئل عن إعراب (كلالة) من قوله تعالى (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة) سورة النساء ١٢ ، فقال : أخبرونى ما الكلالة ؟ فقالوا : الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا ، ولا ابن فما سفَل . فقال : فهى إذن تمييز » قال ابن هشام : «وتوجيه قوله أن يكون الأصل : وإن كان رجل يرثه كلالة ، ثم حُذف الفاعل وبُنى الفعل للمفعول ، فارتفع الضمير واستتر ، ثم جىء بكلالة تمييزا » ثم عقب ابن هشام برأيه فى المسألة .

أما المثال الثانى : فهو ما ذكره معربو القرآن الكريم فى الفرق بين الرفع والنصب فى جواب « ماذا » من قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) سورة النحل ٢٤ ، وقوله تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) السورة نفسها ٣٠، وواضح هنا أن سياق الآيتين واحدا ، فى (قيل) المبنى للمجهول، ثم فى صورة السؤال (ماذا أنزل ربكم) ، ومع ذلك فقد جاء الجواب فى الآية الأولى برفع (أساطير) ، وفى الثانية بنصب (خيرا).

وتوجيه الرفع فى (أساطير) أنه خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره « هو » ، أما توجيه النصب فى (خيرا) فهو أنه مفعول به لفعل محذوف ، تقديره « أنزل » .

قال المعربون وانما قُدر فى الأول «هو» ولم يُقدر « أنزل » ، لأن الآية إخبار

عن الكافرين ، والكافر جاحدٌ لإنزال القرآن، وإنما هو عنده كذب وأساطير ، كما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا) سورة الفرقان ٥ ، وقُدِّر في الثاني « أنزل » لأنه من جواب المؤمنين بأن القرآن منزّل من عند الله .

قال الزمخشري عقب تلاوة الآيتين : « فإن قلت : لِمَ نصب هذا ورفع الأول ؟ قلت : فصلا بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعني أن هؤلاء لما سُئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّنا مكشوفا مفعولا للإنزال فقالوا خيرا : أي أنزل خيرا ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال ، فقالوا : هو أساطير الأولين ، وليس من الإنزال في شيء » (الكشاف ٤٠٧/٢) .

فهذا أثر العلامة الإعرابية في تحديد الدلالة والفصل بين المعاني ، وسوف تقوم القيامة فعلا في هذا ونحوه لو رفعنا ما حقّه النصب ، أو نصبنا ما حقّه الرفع. وترى لذلك نظائر كثيرة في الشعر ، وفي غيره من مأثور كلام العرب .

ثم يقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي : « والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة ، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السليقة وانحطاط الملكة ، هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهلينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض ، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي .... » ويجيء بعد ذلك كلام نستبقيه الى حين .

● ضعف الحجة

وهذا كلام غريب حقا ، وبدءة ذي بدء، فليس صحيحا ولا عدلا أن نضع نحو أولئك القوم وعروضهم بإزاء نحونا وعروضنا ، فالجهة منفكة كما يقول أهل المنطق . فإن الأمر على نحو ما قال أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حِمْيَر وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيّتهم بعربيتنا » .

على أن الزج بهذه الكلمات : الآداب اليونانية ، والمرحلة الهلينية والسكندرية ، وروما في القرن الرابع ... كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب الى القارىء أو السامع – وبخاصة المبتدىء – فيهزه هزا ، ثم يُدهشه ويرعش عقله ويخيفه (ويخضّه) فتضعف حجته في الرد عليه أو دفعه لو وجد اليهما سبيلا ، على ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما : «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» .

ثم نعود الى كلام الأستاذ حجازي الذي يقول إن المبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية ... الى آخر ما قال وانتهى اليه من أن الاهتمام بالنحو دليل على ضعف السليقة وانحطاط الملكة .

وليس بيننا وبين الأستاذ حجازى إلا التاريخ نلوذ به ونحتكم اليه : تاريخ نشأة النحو وتاريخ الاهتمام به ، ولنترك ونحن بسبيل ذلك القرن الأول وما قيل عن وضع النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بإشارة من أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، ففى تلك الحقبة بعض غموض لا يُفضى الى الاطمئنان الى رأى ، ولنقفز الى القرن الثانى ، حيث نلقى الخليل بن أحمد ، عبقرى العربية ، وتلميذه سيبويه الذى ترك لنا كتابا مكتملا محكما لا سبيل الى الطعن فيه أو الغض منه . وتوفى سيبويه على الأرجح سنة (١٨٠ هـ) فكان هذا القرن الثانى هو بداية التصنيف النحوى الذى مهد لما بعده ، فجرى الناس فى أثره . ولنأخذ القرنين التاليين : الثالث والرابع وننظر فى حال النحو فى هذه القرون الثلاثة معا : تأليفا ومدارسة واهتماما ، وإنما اخترت تلك القرون الثلاثة لأنها تمثل البداية والتدرج والنضج، وسوف ننظر بعد ذلك فى حال اللغة والأدب فى تلك القرون الثلاثة أيضا ، لنرى أثر الاهتمام بالنحو فيها علوا أو انحطاطا وفق رؤية الأستاذ حجازى .

على إنه مما ينبغى التذكير به أنه كان هناك اهتمام بالنحو فى القرنين الأول والثانى قبل ظهور كتاب سيبويه ، ولكنه كان اهتماما بالنحو ، لا من حيث هو علم ذو قوانين وضوابط ، ولكن من حيث الاستعانة به فى محاصرة اللحن الذى بدأ يطفى ويفشو نتيجة اختلاط اللسان العربى بغيره من ألسنة الأمم الوافدة على المجتمع العربى . ونستطيع أن نقول : إن النحو فى تلك الفترة المبكرة كان نحو السليقة والفطرة العربية المتوارثة ، وهى تلك السِليقة التى عبر عنها الشاعر بقوله :

ولست بنحوى يلوك لسانه
ولكن سليقىٌ أقول فأُعربُ

وأخبار التصدى للحن ومحاصرته فى ذلك الزمان المبكر كثيرة ، من أبرزها خبران يتصلان بلحنين وقعا من شخصيتين كبيرتين ، لم يمنع مركزهما الاجتماعى من تنبيههما على ما وقعا فيه من خطأ .

الخبر الأول : ما وقع من الحجاج بن يوسف الثقفى « وقد سأل يحيى بن يعمر: أتسمعنى ألحن ؟ قال : حرفا ، قال : أين؟ قال : فى القرآن ، قال : ذلك أشنع له ! فما هو ؟ قال : تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله) سورة التوبة ٢٤ - قرأها برفع (أحبُ) وحقها النصب لأنها خبر كان - قال الحجاج : لا جَرَمَ ، لا تسمع لى لحنا أبدا . فألحقه بخراسان» (طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٣) ، كأن الحجاج غَضِبَ فنفاه .

والخبر الثاني : عن الأخفش ، قال : كان أمير البصرة يقرأ (إن الله وملائكتُه يصلون على النبي) سورة الأحزاب ٥٦ ، برفع (وملائكتُه) ، فمضيت إليه ناصحا له ، فزبرني وتوعدني ، وقال : تلحنون أمراءكم .

وفي رواية أن اللاحن كان محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة أيضا ، وأنه رضي عن الأخفش لتنبيهه إياه ، وأجازه . (إنباه الرواه للقفطي ٤١/٢) .

وقد قلت إن القرون (الثاني والثالث والرابع) تمثل بداية التأليف في النحو وتدرجه ونضجه ، ففي القرن الثاني ظهر كتاب سيبويه الرائد ، وفي القرن الثالث جاء أبو بكر بن السراج بكتابه الأصول ، الذي قيل فيه : « كان النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله » . وفي القرن الرابع جاء العلم الضخم أبو علي الفارسي، إمام الصناعة النحوية ، وتلميذه العبقري أبو الفتح ابن جني . وفي وسط هؤلاء الأعلام ظهر نحاة كثيرون ، في البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والأندلس .

وفي تلك القرون الثلاثة ظهر النحو ظهورا بينا على ساحة الفكر العربي ، وأخذ الاهتمام به أشكالا كثيرة : تآليف في النحو خالصة، وأعاريب للقرآن الكريم، وكتبا في توجيه قراءاته والاحتجاج لها، مثل : معاني القرآن للفراء (٢٠٧ هـ) - والمعاني في ذلك الوقت يراد بها الإعراب - ومجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٠ هـ) ومعاني القرآن للأخفش (٢١٥ هـ) ومعاني القرآن للزجاج (٣١١ هـ) وإعراب القرآن للنحاس (٣٣٨ هـ) والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٣٧٧ هـ) والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (٣٩٢ هـ) .

ثم تجلى الاهتمام بالنحو أيضا في شروح الشعر الجاهلي والاسلامي ، وقد عُنيت هذه الشروح عناية فائقة بالنحو ، مثل شروح الأصمعي ، وأبي نصر الباهلي وابن السكّيت وأبي العباس ثعلب، وأبي العباس الأحول ، وأبي بكر بن الأنباري ، وأبي سعيد السكري .

مظاهر الاهتمام بالنحو

ومن وراء ذلك كله كان هناك مظهر رابع للاهتمام بالنحو ، وهو تلك المجالس التي كانت تعقد بين عالمين أو أكثر من علماء النحو واللغة ، وقد عرفت بالمجالس النحوية ، ومن أشهرها مجلس سيبويه مع الكسائي ، حول المسألة الزنبورية « كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو فإذا هو إياها » . وقد حضرها هارون الرشيد . وقد جمع هذه المجالس - التي بلغت ١٥٦ مجلسا - أبو القاسم الزجاجي ، في تأليف مستقل ، باسم : مجالس العلماء ، نشرها شيخنا عبد السلام هارون ، برد الله مضجعه .

أرأيت اهتماما بالنحو أكثر من هذا ؟

البقية في العدد القادم

ظاهرة أهداف سويف فى الأدب العالمى

زمـار الرمل

بقلم : د. ماهر شفيق فريد

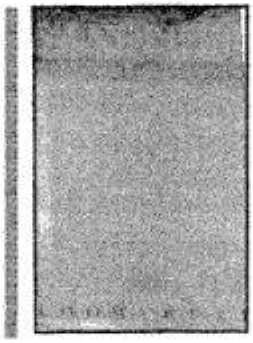
زمـار الرمل (أو الطيطوى) اسم طائر، وهو اسم قصيدة للشاعرة الأمريكية إليزابيث بيشوب، ومن هذه القصيدة استمدت الدكتورة أهداف سويف، الأديبة المصرية التى تعيش فى بريطانيا وتكتب بالانجليزية، عنوان مجموعتها القصصية الجديدة (الناشر : بلومزبرى، لندن، ١٩٩٦) .

لأهداف سويف مجموعة قصصية نحيلة عنوانها «عائشة» ورواية جسيمة عنوانها «فى عين الشمس» . وقد لاقت هذه الأعمال استقبالا نقديا (مبالغا فيه فى رأيى) فأثنى عليها رجال من طبقة فرانك كيرمود وإدوارد سعيد (انظر الملف الذى خصصته مجلة «فصول» لترجمة ما قاله النقاد الانجليز عن هذه الأعمال) .

لاشك عندى (وإن لم أكن من محبى أهداف سويف) فى تفوق هذه الكاتبة على سائر قبيلة النساء الكاتبات : فهى سليلة بيت علم وإبداع ، يعبق جوه بأنسام الثقافة والفكر . والدها هو عالم النفس الدكتور مصطفى سويف ، ووالدتها هى أستاذ الأدب الانجليزى الدكتورة فاطمة موسى محمود . وسجل الابنة الأكاديمى لامع حقا .

فقد بدأ نبوغها منذ نعومة أظفارها ،





أهداف سويف

وكانت الأولى دائما على أقرانها ، وقد عينت معيدة بقسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة لدى تخرجها ، ثم حصلت على الدكتوراه من جامعة لانكاستر البريطانية فى ١٩٧٨ بأطروحة فى علم الأسلوب موضوعها الاستعارة فى الشعر الانجليزى . أما عن إتقانها للانجليزية التي تكتب بها فهو يجاوز قدر المدح .

لقد اختارت الطريق الصعب ، وآثرت أن يوزن عملها بالمقاييس الدولية لا المحلية، دون أن تفقد لحظة واحدة ارتباطها بهذه الأرض المصرية ، ودون أن تغفل عن حدة التناقضات التى وضعتها اختياراتها الفكرية والحياتية – إزاءها وجها لوجه ، من هذا التوتر بين الانتماء والاغتراب تستمد شخصيات أهداف سويف حيويتها الديناميكية .

فى قصة «ميلودي» المروية بضمير المتكلم يخيم شبح الفقدان علي جو القصة – الفقدان المادى والمعنوي من خيوط أهداف الأساسية – وذلك حين تصدم سيارة طفلة صغيرة فتودي بها ، وتدفن الطفلة فى موطن أسلافها : تركيا ، وكأنما تقول الكاتبة: إن دائرة الانتماء لاتكتمل إلا بالموت .

وفى قصة «زمار الرمل» – وهى أيضا بضمير المتكلم – نجد انجليزية متزوجة من مصرى ، وهى الآن حامل . ويتصدع

زمار الرمل

الزواج (تصدع الزيجات من خيوط أهداف الأثيرة) تحت وطأة الاختلافات الثقافية : أجنبية الزوجة التي كانت مصدر جاذبية للزوج في البداية تغدو باعثا على الضيق ، عجزها عن تذكر الأسماء المصرية وعن متابعة الأحداث السياسية داخلية وخارجية في هذا الجزء من العالم ، نضالها من أجل إجادة اللغة العربية ، حاجتها إلى الحماية من قسوة أشعة الشمس ،البعوض ، المقبلات ، ماء الشرب. حين تزول غاشية السحر الأول - وهو انجذاب جنسي أساسا - يغدو الزوجان إزاء الحقيقة التي لا مهرب منها : إنهما غريبان أغلق عليهما باب واحد ، وطلب إليهما أن يعيشا معا إلى آخر العمر !

● **أقوى قصص المجموعة**

وفي قصة «عندميلو» - وهي من أقوى قصص المجموعة - نرى انكسار الأحلام، وتراجع الأماني إلى الوراء ، واستطالة الظلال : إن ميلو - وهي يونانية - تقع في حب فيليب الذي يصغرها بأربع سنوات ، ولايجد هذا الحب استجابة ولا تحققا ، فتولى شمس شبابها دون زواج ولا أولاد ، بينما فرح - ممثلة الجيل الجديد ، وابنة لطيفة صديقة ميلو - ترى في وضوح أن فيليب منجذب إليها ، وهي مترددة هل تبادله هذا الانجذاب أم لا . وانكسار ميلو صورة مجددة من إنكسار أبيها : فإن ثيوفاسيلاكس كان زوجا لامرأة فرنسية هجرته من أجل جندي تركي (تذكر العداوة التاريخية بين اليونانيين والأتراك) فرحل الأب بابنته ، ومعهما خادمة ، إلى القاهرة حيث افتتح مطعما يحمل اسم «عند ميلو» في شارع عبدالخالق ثروت . إن الشباب قاس ولايعرف الندم - كما يقول إليوت في إحدى قصائده الباكرة - وفرح لاتدرى أي سهام مسمومة تسددها إلى صدر ميلو حين تحدثها عن ولع فيليب بها !

قصة «ماندي» نشارة من كتلة الخشب الكبيرة التي صنعت منها رواية «في عين الشمس» هنا نجد (كما في روايات روائي أعظم من أهداف بما لايقاس : چون أبدايك) صورة لتوترات الزواج الحديث ، وسلسلة العذابات والخيانات المتبادلة والمصالحات التي تصنع حياة الرجال والنساء في الغرب اليوم . إن آسيا التي انفصلت عن زوجها سيف تلتقي - كما يجمل بالمتحضرين - بصديقة زوجها ماندي . ونرى القصة من خلال وجهة نظر

المرآتين (تصطنع أهداف هنا تقنية الرسائل) .

أما «الشيطان» (والشيطان هنا اسم قط) فتنويع آخر على نفس الخيط : وتبرع أهداف هنا فى نسج شبكة العلاقات الاجتماعية المذبذبة بين محافظة الشرق وتحرر الغرب وذلك من خلال رسمها الممتاز لشخصية عديلة هانم ، والدة سيف وحماة آسيا . وإذ يرمى حسين - أخو سيف - بالقط إزاء الحائط دون رحمة ، تقرر آسيا أن تأخذ القط معها وترحل عن هؤلاء الناس . إن نزعات العنف المكبوت تتخذ لها متنفسا هنا فى العدوان على حيوان برئ ، لأن قشرة الحضارة تمنع توجيهها إلى أهداف الحقيقية .

● صديقة لنهاد جاد

والقصة الأخيرة فى المجموعة «أفكرفيك» مستوحاة من حياة الكاتبة المسرحية الراحلة نهاد جاد . القصة مونولوج طويل على لسان المتكلمة - وهى صديقة لنهاد - تصور ، بحساسية أنثوية مرهفة ، سقوط هذه الكاتبة الموهوبة فى قبضة مرض أليم لا يرحم . هنا تعاطف بين النساء لاتقدر على تصويره سوى امرأة ، لأنه يستمد مادته من خبرة أنثوية مشتركة تضرب بجذورها فى أعماق البيولوجيا والسيكولوجيا والثقافة ، ولايستطيع الكاتب الرجل - مهما أوتى من قدرة على التقمص الوجدانى - أن يراها إلا من بعيد .

بقيت قصة واحدة لم أشر إليها حتى الآن رغم أنها - عندى - درة هذه المجموعة ، لأنى أريد أن أفردها بذكر خاص : قصة «السخان» التى نقلت إلى العربية، ورآها قراء هذه المجلة ، بالعربية، منذ شهور قليلة . هنا تقتحم أهداف سويف - بشجاعة وأمانة - منطقة من مناطق الخبرة لايكاد يجرؤ أحد من كتابنا، ذكورا أو إناثا ، على سبر أغوارها : منطقة الزنا بالمحارم أو سفاح القربى ، ولو فى الفكر والخيال فتحت وطأة الحرمان الجنسى وسياط الرغبة اللاهبة التى يكبح من جماحها تدين عميق وحس أخلاقى قوى وكوابح اجتماعية وقانونية وشرعية ، يجد صلاح رغباته تتجه إلى أخته فاتن . إن صلاح طالب فى السنة النهائية بكلية الحقوق ورجل البيت - بعد رحيل أبيه - الذى يعيش مع أم عجوز مريضة ، وأخت - كالزهرة البريئة المتفتحة - فى الفرقة الثانية الثانوية ، وفى مشهد حلمى رائع تصور أهداف سويف كيف يحلم الأخ بأخته حلما شهوانيا ويخلط بينها وبين امرأة من بائعات اللذة ، ثم يصحو مخنوقا بالشعور بالذنب ، وحس الخطيئة ، والاشمئزاز من الذات والآخرين (السخان معادل موضوعى

زمار الرمل

لمشاعره الملتهبة) ، القصة توكيد ، بلغة الفن ، لما قاله فرويد منذ سنوات طويلة : إن الرغبة الجنسية المكبوتة ، والتى لاتجد لها متنفسا صحيا ، تتخذ لها مسارب من التطرف والعدوان . فصلاح يسقط على أخته مشاعره الخاصة ، ويحاسبها عليها - وهو يحاسب نفسه فى الحقيقة - ثم يقذف بها فى غمرة زواج متعجل ، صونا لعرضها فى الظاهر، ونجاة بنفسه من جحيم الغواية فى حقيقة الأمر . هذا هو الأدب المقتحم حقا أدب جرىء يغوص على أعمق المخاوف والذكريات والرغبات ، ترفده بصيرة نفسية نافذة وحس بالأزمة الفردية فى سياقها الاجتماعى . لإدوار الخراط أن يزعم - وما أكثر مزاعمه - أن أليفة رفعت وأضرابها يكتبن أدبا مقتحما فإنما الاقتحام الحق - الاقتحام بلغة الفن - هو ما تحققه أهداف سويف هنا .

ماذا عن تقنيات أهداف التى لم أقل عنها إلا أقل القليل ؟ إن البعد الثقافى هو الغالب على عملها ، ومن ثم كان تركيزى عليه ، فهى - فى المحل الأول - مشغولة بقضية اللقاء - أو فلنقل الصدام - بين حضارتين ، وليس من همها (كما فى قصص اعتدال عثمان مثلا) أن تجرى تجارب شكلية أو تستكشف البعد الصرفى - والمجاوز للوظيفة التوصيلية - فى اللغة . وهى تستخدم المجاز - من تشبيهات واستعارات وكنايات وتشخيصات - بقدر ، وتبرع فى إدارة الحوار وفى وصف الأجواء بضربات سريعة واثقة من فرشاتها . هذه كاتبة متمكنة مقتدرة ، ولكن تشويقها راجع إلى ثراء المادة الإنسانية التى تتناولها أكثر مما هو راجع إلى جدة الأدوات الفنية التى تنقل بها رؤيتها للناس والأشياء .

أهداف سويف (مثل أستاذتها العظيمة چورج إليوت من قبلها) كاتبة جادة ، أخلاقية الاهتمامات ، مفتوحة العقل ، واسعة الثقافة ، حادة الذكاء ، عالية النظرة . لكنها تفتقر إلى صفات الخيال المبدع الذى ينشىء علاقات جديدة بين الأشياء ، وتعانى من افتقار إلى حس الفكاهة ، وتظل رؤيتها - رغم كل ثقافتها - محدودة بحدود الاهتمامات النسائية التقليدية التى لاتكاد تنجو منها كاتبة امرأة . فى كاتبة محيرة ، يحترمها المرء - هذا موقفى على الأقل ! - ولكنه يجد من الصعب أن يحبها . ربما كان هذا يومىء الى قصور أو تحيز فى رؤية الناقد، ولكنه من يدرى ؟ - قد يكون أيضا مؤشرا إلى قصور فى موهبة الكاتبة .



الفعل المسرحي

في ملاعيب أبو نضارة

بقلم: حازم شحاتة

يتخذ العرض المسرحي «ملاعيب أبو نضارة» (قدمته الفرقة المركزية بالثقافة الجماهيرية من إعداد وإخراج مهدي الحسيني) فعلا مسرحيا خاصا، تنبع خصوصيته من اختياره اللعبات التياترية ليعقوب صنوع من ناحية، والأسلوب الفني الذي قدمت به هذه اللعبات من ناحية أخرى.

ملاعيب أبو نضارة

فـ «مـلاعـيب أبو نضـارة» هو أول عرض مسرحى يلجأ الى كتابات يعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) مباشرة وليس إلى ماكتب عنه أو عن مسرحه. وهو يلجأ الى لعباته التياترية وليس مسرحياته التى نشرتها د. نجوى عانوس في كتاب عام ١٩٨٧ (عن هيئة الكتاب) والى حواريات وتعليقات وكلمات وخطب يعقوب صنوع ولأزجاله التى نشرها فى مجلاته الشهيرة عبـر ٣٢ عـامـا (١٨٧٩ - ١٩١١) فى باريس نشـرتها دار صـادر عـام ١٩٧٤ وهى فى الحقيقة مجلة واحدة اتخذ لها أكـثـر من اسم : أبو نضـارة زرقـا، أبو نضـارة ، ابو زمـارة، ابو صـفـارة ، النظارات المصرية، مصر للمصريين، الحاوى، وذلك تحايلاً على قرارات المنع المتوالية. وقد صاغ مهدى الحسينى من كل هذا نصا مسرحياً ليكون أساساً لفظيا لعرض مسرحى .

● شكل مسرحى قديم

والعودة الى اللعبات التياترية هو عودة إلى شكل مسرحي يعد من أقدم الاشكال المسرحية المصرية يلجأ إليه البعض الآن ويسميه «اللوحات» للتعليق على أحداث معاصرة (مساء الخير يامصر على سبيل المثال) وما كان يعرف فى فترة سابقة باسم الكباريه السياسى. وقد أراد مهدى الحسينى باختياره للعبات التياترية أن يحقق أكثر من هدف : أولا - التأصيل لهذا الشكل، وثانيا - إبراز وظيفته ودوره فى المقاومة الوطنية عند يعقوب صنوع ، وثالثا تاكيد الدور الوطنى الذى قام به المثقف المصرى الكبير يعقوب صنوع ، دفاعا عنه ضد البعض الذى نال من هذه الوطنية استناداً إلى ديانته اليهودية ، ولكن العرض يؤكد لنا أنه لم يكن متعصباً لديانته بدليل مهاجمته لروتشيلد اليهودى فى «لعبـة سلطان الكنوز» وإنما كـان متعصبا لمصريته . فالفصل بين الديانة والمواطنة هنا أساسى لتحليل مواقف الرجل التاريخية ، وهى الوظيفة الأساسية لافتتاحية العرض التى أضافها المعد والمخرج للعبات .

كذلك تنبع خصوصية الفعل المسرحى لعرض (ملاعيب أبو نضارة) من الأسلوب الفنى الذى قدمت به اللعبات والذى يعتمد على أربعة عناصر هى التشخيص والارتجال والغناء والسينوغرافيا .

التشخيص

يقول أحد أفراد فرقة يعقوب صنوع (فى مقدمة العرض) معلقاً على اختياره لشخصية الخديو اسماعيل ليشخصها : «سيبوهولى.. أنا حاشخصه وأجرسه» فالتشخيص وجهة نظر نقدية كاريكاتورية

فى الشخصية تظهر فيها شخصية المؤدى (على عكس التقمص حيث ينوب الممثل فى الشخصية) ولابد هنا من أن يعثر «المشخص على الفكرة الأساسية للشخصية حتى يختار لها الاشارات والتعليقات المناسبة. ولكننا فى العرض المسرحى (ملاعب ابو نضارة..) سنجد تفاوتا بين اساليب الممثلين. فبعضهم مثل يوسف رجائى يلتقط الفكرة الاساسية ليعقوب صنوع ويبرهن لنا عليها فيتنوع أداؤه بين السخرية الشعبية والمونولوج المليء بالشجن والخطبة السياسية التى تنطوى على فلسفة الحكم، بينما يلجأ البعض مثل سامى مغاورى (الخديو) زايد فؤاد (غوبار، راتب) وحسن الديب (فانوس تريكو قنصل فرنسا)، الترجمان الى التشخيص البسيط الشكلى الذى يفتقد إلى رسم مضمون الشخصية وقد لجأ بعض الممثلين الى التشخيص المبالغ فيه مثل محمد حسن (شاويش الواد الأهبل) شريف الخواجة شمعدان ، خلخال أغا، جون بول) أو إلى التشخيص الخارج عن الموضوع مثل سامى أنور (فلسن، تحسين، جيلا) . .

وإن كان ذلك كله فى إطار اسلوب التشخيص فإن بعض الممثلين اتخذ أسلوبا مخالفا هو أسلوب التقمص مثل مصطفى درويش وبخاصة فى (سلطان الكنوز ، القواص التركى) واحمد عبد عبدالحى (ابو الخير، رياض) وسمية الامام (زمزم - زعفران) فقد اعتمدوا على الملابس والماكياج وطبقة الصوت بوصفها أدوات للتقمص ولم يستخدموها بوصفها سمات كاريكاتورية للشخصية، وربما اختلفت عنهما سمية الامام حينما تخلت عن طبقة صوت السيدة العجوز فى مشهد السوق. ويؤدى ذلك التجاور بين اسلوبى التشخيص والتقمص إلى إصابة الإيقاع العام للعرض بالخلل فى بعض المناطق بحيث بدا مرة وكأنه مسرحية تاريخية عن عصر اسماعيل تعتمد على مبدأ «الايهام» ومرة أخرى على أنه لعبة تشخيصية تؤديها فرقة مسرحية تتستر وراء القناع المسرحى ، وتعتمد على مبدأ «الايحاء» .

وكان لابد للمخرج أن يصر على أسلوب التشخيص وتدريب الممثلين عليه طالما أنه اتخذ من مبدأ الايحاء لا الايهام أساساً لفعله المسرحى .

الارتجال

وهو السمة المميزة لمسرح يعقوب صنوع وما تفرع عنه من مسارح مرتجلة حتى بدايات القرن واستمر بعضها حتى الآن على النحو الذى رصده د. على

الراعي في كتابه الكوميديا المرتجلة (كتاب الهلال ١٩٦٧) . وهو أسلوب جعل المتفرج عنصراً من عناصر تشكيل العرض، حيث يدرس المخرج و الممثلون اسلوب التعامل مع الجمهور قبل العرض تاركين مساحة للمسافة التي تنشأ بالضرورة بين الافتراض والواقع كما كان يفعل يعقوب صنوع نفسه في مسرحه. ويبدو أن العرض قد صمم على أنه تجربة في الشكل الفني تحتاج إلى جمهور من المثقفين والمتخصصين لتطويرها، ولكن ظروف الانتاج في مصر لا تسمح بمثل هذا الشكل من التجارب. فالتنقلات بين اللوحات تتم بناء على استعراض شخصية الخديو وطرده من مصر وفضائحه في باريس وهو ما غاب عن الجمهور الحقيقي للعرض الذي تكون معظمه من أهالي حي الغورية وأطفالهم ، فلم يستوعبوا حتمية توالي اللوحات فتواصلوا مع العرض عن طريق تواصلهم مع هذا الممثل او ذاك. وبالتالي خرج الارتجال عن الطريق المرسوم له. كذلك أدت أجهزة الصوت الثابتة على المسرح إلى وقوف الممثلين خلفها فلم يسعوا لفتح خطوط ارتجال مع الجمهور ، واكتفوا بخطوط الارتجال فيما بينهم. ايضا، لجأ ممثلو الادوار الصغيرة إلى ارتجالهم «الخاص» الذي يصل الى حد الخروج عن السياق حيث ارادوا اثبات خفة ظلهم فجاءت النتيجة عكسية بل أفسدت عددا من خطوط الارتجال التي كان يبنيها الممثلون أصحاب الخبرة.

الغناء والاستعراض

وهو عنصر اساسي في فعل مسرحي يقوم على التشخيص والارتجال. وهو ايضا العنصر الرئيسي الذي لجأ اليه رواد المسرح المصرى فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن حتى أن د. شمس الدين الحجاجي في كتابه المسرحية الشعرية كتاب الهلال ١٩٩٥ يراه الاسلوب الذي مازال يشكل عروضنا المسرحية التي يقبل عليها الجمهور المصرى حتى الآن، استناداً الى فنونه الشعبية .

وقد نجح المخرج في تحقيق ذلك الأسلوب في استعراضات انظر بنظارتي الزرقا ، والحوار الغنائى الثنائى بين يعقوب صنوع ونوبار، ومشهد خروج اسماعيل من مصر «افرحوا يا أهل النيل.. النهاردة يوم عظيم» الذى اجتمع فيه كل ممثلي العرض على خشبة المسرح، وكان لموهبة الفنان عادل ماضى الذى كان يقود المجاميع فى الغناء والتمثيل والحركة على المسرح دور كبير فى انجاح المشهد.

وقد اتسمت موسيقى الاستعراضات بالوعي بالتيمات الشعبية وبخاصة في

أغاني «شوفوا شيخ الحارة ده.. هالك مصر بالفردة» التي أسسها الملحن سيد أبو العلا على ايقاع لعبة من ألعاب الأطفال الشعبية، و «شرم برم حالي غليان» التي استعار لها لحنا تراثيا شعبيا أيضا من الشعراء الجوالين. فوضع يده على الأسلوب الموسيقى الملائم للفعل المسرحي للعرض. ولكنه لم يلتزم بذلك الأسلوب في أغنية الختام التي أراها زائدة على جسم العرض إذ جاءت أشبه بتعليق خارجي من الفرقة المعاصرة على يعقوب صنوع رغم صياغتها البارعة التي قام بها الشاعر مسعود شومان .

السينوغرافيا

اختار المخرج وكالة الغوري بمعمارها المملوكي لتكون إطاراً مادياً للعرض المسرحي ووضع يافطة فوق خشبة المسرح تعلن عن «مقهى ومسرح ابو نضارة» موحيا بالحي الشعبي الذي تنتمي إليه فرقة يعقوب صنوع وجمهورها ، ثم صمم بنية مشاهدة تجعل الجمهور يحيط بالمسرح حتى تتسق مع عنصري التشخيص والارتجال ، ولكن مع دخول أسلوب التقمص في الأداء التمثيلي وتعثر الارتجال أصبحت الوكالة بمعمارها وبنية المشاهدة من عناصر الإخلال بالايقاع العام للعرض، وبخاصة أن مصمم الديكور محمد هاشم وقع أيضا في فخ «الإيهام» حينما صمم ملابس الخديو ونوبار بما لا يتسق مع أسلوب فرقة جائلة او شعبية تقدم عروضها في مقهى بحي شعبي . ولكنه نجح في إضفاء الطابع العام للعرض على وحدات القصر والشارع وبوابة سرايا قصر النيل حيث تلتقى جموع الشعب بالخديو اسماعيل وتطرده، والتي اتخذ لها مبدأ «الايحاء» الشعبي .

لقد كتب يعقوب صنوع اللعبات التياترية في صورة «نص لفظي» ولم تتح لها أن تقدم على المسارح المصرية طوال مائة عام حتى قدمها اليوم عرض (ملاعيب ابو نضارة) من ناحية أخرى فإن اللعبات مليئة بالفجوات التي يجب أن يملأها المخرج والممثون حتى تتحول الى عرض مسرحي وبخاصة أن فعلها المسرحي غير واضح في صيغتها المنشورة وهي المغامرة الفنية التي أقدم عليها مهدي الحسيني ونجح فيها إلي حد كبير والتي نعدها اقتحاما لأرض مجهولة ومحاولة لإجابة جديدة عن سؤال الشكل المسرحي المصري يستحق عليها صفة الريادة مع إدراكنا لنواحي القصور فيها والتي عادة ماتشوب المغامرات الريادية ..

ساحر الصحراء

رواية النفاذ إلى روح العالم واكتشاف أسطورة الذات فى بحثها عن اليقين

هل كانت رؤيا
أم كانت حلم يقظة ؟
هربت الأنغام . أيقظان أنا
أم نائم ؟

كيتس

بقلم: سعيد الكفراوى

بعد أن جاب الأرض ، وتعرف على السحرة ، والحقائق الأولى المدهشة للحياة، وعاش عمرا من الفوضى وابتذال الذات ، عاد «باولو كويلهو» الكاتب البرتغالى ، المولود بالبرازيل إلى حى الفقراء بتلك البلدة الهامشية ليكتب الكتب.

فشل فى «يوميات مشعوذ» وهاجمه النقاد ، وحين كتب «ساحر الصحراء» وضع على قائمة كبار الكتاب بالبرازيل ، وأصبح أحد كتاب الطليعة فى القارة اللاتينية . و «كويلهو» كأحد كتاب الطليعة الذى يمارس الابداع بموهبة تنهض على معرفة دينية وفلسفية وخبرة بثقافات العالم بالذات الثقافة المشرقية والجانب الصوفى



منها ، كتب بجانب «ساحر الصحراء» «حاج من كومبوستله» و «فوق ضفاف نهر بدرا» و «جلست وبكيت» . ولحسن طالعه ، وتفرده ، وإدراكه فيما يكتبه بأن الكتابة تعين على فهم الحياة ، وتدافع عن الانسان وتنقله من فعل الضرورة إلى فعل الحرية. ترجمت أعماله إلى ما يزيد على أربعين لغة، بعد ذلك أصبح أحد كبار كتاب العالم، إلا أنه بعد أن أدركه الغنى لم يفارق حي الفقراء .

بداية التعرف على الدهشة:

«لكي تصل إلى السر لا بد أن تنفذ إلى روح العالم ، لايلزمك حتى أن تشق الصحراء لكي تفهم ، يكفى أن تتأمل ذرة واحدة من الرمل ففيها كل بدائع الخلق» .

النص

هذا ما قاله «السيمياني» للشاب اليافع «جارسيا» الراعي أعلى قلب الصحراء العميق . وبعد أن غادر جبال الأندلس بحثًا عن كنزه الخاص ، عن أسطورته . ومن خلال هذه العبارة تتكشف طبقات هذا العمل الأدبي النادر الذي يطرح أسئلته على الكون الإنساني الرحب، ويحاول الغوص عميقا حافرا عن أصول الكلمات والعــــلامات ، والمعنى المطلـــق لوجودنا، وألمنا الانساني وروح هذا الألم على أرض هذا الكوكب الملتبس . مع هذا النص تعيش روحك زمنا من البهجة وتحاول بعقلك وروحك معًا النفاذ إلى : معنى الحياة ، ومن خلال تتبعك لرحلة البحث عن الكنز من الأندلس وحتى الصحراء العربية إلى أهرام مصر بحقيقتها الأسطورية ، ووجودها المادى الراسخ القديم تكتشف أنك لست بإزاء رحلة عبر الرمال والجبال وريح السموم ، برفقة القوافل وضغائن القبائل ، وحوارات

الطبيعة المتنافرة ، واكتشاف معنى الحب العذرى . لكنك فى نهاية الأمر أمام رحلة عميقة داخل الروح الإنسانية بحثا عن الأسئلة العميقة للوجود التى تبدأ بالسؤال والتى تشكل إجابتها فى ذات السؤال .

رحلة تستهدف المعنى الشعرى للعالم، وتستبطن ما هو صوفى فى مطلق المكان ، ومطلق الزمان .

● أصل الحكاية

الشاب الذى يرعى الغنم على جبال الاندلس يسعى للتعرف على محرفة تخصه، يبحث عنها مستعينا بكتب الأفاضل من القدامى ، يرن بوعيه مع مطلع الشمس ومغربها أجراس الكنائس على الجبل ، ينتظر الفتاة التى يحبها ، والتى يبيع لأبيها صوف غنمه .

هناك على الرابية العالية حيث يسوق غنمه صوب مشرق الشمس حيث المبرر الاقصى لوجوده ، وعلى أرض الكنيسة ، وتحت ظل شجرة الجميز العتيقة تهب ريح الجبال فيأتيه فى نومه الحلم مرة ومرة : «هناك فى أرض مصر وتحت أهرامها كنزك» ، ويلجأ إلى العرافة الغجرية ، ثم يلتقى بملك «سالم» الذى يكتشف أنه يعرف عنه كل شىء عندما يكتب له على الرمل اسمه واسم والده وحكاية كنزه المخبوء ، ثم يحدثه عن أسطورته الذاتية ، وبأنها تنتمى إلى الحلم ، وتنتمى إلى ما يتمنى الانسان أن يفعله برغم تلك القوى الغامضة التى تبدو على نحو ما سيئة ولكنها «تعلمك كيف تحقق أسطورتك الذاتية» . وعندما يخبره الشاب أنه يرغب فى الرحيل يجيبه . إن روح العالم تتغذى من سعادة البشر أو من تعاستهم والالتزام الوحيد للانسان هو أن يحقق أسطورته الخاصة . كل الأشياء شىء واحد ، وعندما ترغب فى شىء يتآمر الكون كله ليسمح بتحقيق رغبتك . ثم يخبره ملك سالم : لكى تصل إلى الكنز فيجب أن تنتبه إلى العلامات . لقد خط الله فى العالم الطريق الذى ينبغى على كل منا أن يسلكه ، وما عليك الا أن تقرأ ما خطه لك .

ومن خلال حوارات عن الحكمة ، ومعرفة الأشياء ، وعن الظاهر والباطن ، وعن ذات الكون ينتبه الشاب وكأن صوت ملك سالم هو صوته الخاص . جرسه الذى يقرع فى فراغ صحرائه ليدفعه للسير فى رحلة المجهول ليصنع أسطورته مكتشفا روح العالم .

تبدأ الرحلة بعبور المضيق إلى المغرب وهناك يتعرف الشاب على الشفافية عندما يلتحق بائعا فى محل الكريستال . وبعد أن سُرق ماله يجمعه من عمله ويقرر العودة خائبًا إلى الأندلس لكنه يفاجأ بكلمة تبرز له من عمق التراث العربى والاسلامى ، وصلب العقيدة ، كلمة

«المكتوب» كيف الرجوع إذن وكل شيء مقدر من البدء وحتى النهاية ؟ . وينتبه الشاب إلى أن الحركة في المكان هي حركة في الزمان ، والزمان دوائر تدور فيها لتؤكد من جديد صيرورة هذا المكتوب الذي يتشكل وفق سرمدية تشمل أحلامنا ورغباتنا وسعينا الدائم في رحلة الحياة لتأكيد اسطورتنا التي كونت وعينا بحقيقة الزمن الدائري المقدر علينا والعميق مثل بئر .

يندفع جارسيا مع قافلة تقطع الصحراء إلى الفيوم ممتلئاً قلبه بأن الانسان لا يستطيع أن يهرب مما قدر عليه ، وما دام قد كتب أن يحقق أسطورته الخاصة فلا مهرب له من أن يمضي حتى النهاية» .

وفي واحة الفيوم يلتقي بفاطمة ، ويعيش أيام تحقيق الأسطورة في الحب، ويكتشف معنى جديدا للحب. إن الفطرة المكتسبة من وحدة الصحراء ، من الاتساع المطلق ، من الفهم الأولى لطبيعة الحياة القائمة على مجاهدة الذات ، ومجابهة المخاطر هي أول ادراك القلب للحقيقة . لكن الحلم والأسطورة يدفعان به إلى الرحيل عند ذلك تجيبه : «إنك حدثتني عن أحلامك وعن الملك العجوز وعن الكنز ، وحدثتني عن العلامات وعن أسطورتك ، وأنا أريد أن تتابع طريقك نحو ما جئت تبحث عنه» .

ومع صحبة السيميائي الذي التقى به في الواحة ينطلقان نحو أهرام مصر في صحراء ينيرها بدر غير مكتمل ، ومع السيميائي يكتشف معنى العلامات والاشارات ويرى معه حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن الخسيسة إلى ذهب ، ويرى قارورة بداخلها اكسير الحياة عند ذلك يتأكد أن السيميائي قد وجد اسطورته الخاصة .

وتحت سفح الهرم يبدأ الحفر بالليل ويواصل عمله دون أن يجد شيئاً ، كان يحفر تحت القرون التي تطل من قمة الهرم في صمت ، ولحظة مجابهة خيبات الرجاء يسمع خطوات رجال قادمة نحوه ، وعندما سألوه عما يفعل رفض الاجابة فضربوه حتى أدموا وجهه وأخيرا اعترف لهم بحكايته . ضحك الرجال منه ساخرين وقال له زعيمهم : «لن تموت . ستعيش وتتعلم أن الانسان يجب الا يكون غبيا إلى هذا الحد ، فمنذ قرابة عامين حلمتُ أنا نفسي بحلم يتكرر بأنني يجب أن أذهب إلى الأندلس وأن أفتش عن كنيسة محطمة دائما ما يذهب الرعاة اليها للمبيت فيها هم وأغنامهم وتنمو في موضع هيكلها جميزة وهناك سنجد كنزا مطمورا . لكني لست من الغباء بحيث أعبر الصحراء لأنني رأيت نفس الحلم مرتين » ثم انصرفوا عنه.

نهض جارسيا ونظر إلى الأهرام وقلبه مفعم بالغبطة ، لقد وجد كنزه ! .

ساحر الصحراء

وعندما عاد إلى الكنيسة ، وشجرة جميزه وجد الكنز هناك عند مكان ميلاده وموته .

● الأسئلة

هذا سياق الرواية العام ، وخطها الصاعد ، والذى ترجمها بشفافية وخبرة المبدع الكاتب والروائى المصرى بهاء طاهر فاضفى عليها من خبرته الكثير ، وصدرت عن دار الهلال المصرية .

ما الذى تطرحه تلك الرحلة المضنية للشاب الأندلسى والسيميائى المجهول عبر الصحراء ، وعلى أرضها الملتبسة بالسحر والغموض والاشارات ؟ .

ما هى الدلالات ، وتشكيل البنية الجمالية التى تمثلها مستويات القص والحكى بها ؟

أى أسئلة قصوى تبتعث من خلالها أسطورة الذات الخاصة والتى ينسجها الانسان فى أحلامه ، ومواقيته ، وميراثه ، وحقيقة ادراكه لمعنى المصير ؟ .

ما حقيقة هذه الأسطورة الخاصة وعلاقتها بأسطورة الكون الجامعة ؟ .

أى الأماكن هذا المكان الساحر الذى يقدمه النص بانفتاحه النهائى على الصحراء غير المنتهية والتى تبدأ من الذاكرة ولا تنتهى ، مفتوحة على كل الاحتمالات ، وانكشاف مخاوف القلب القديمة ، وأساطيره الغامضة ؟ .

يبقى السؤال الصعب . اذا كان تراثنا بمكوناته اللغوية والفلسفية وحكاياته الاسطورية يمتلك قدرته على بناء مثل هذه الاعمال باعتباره المادة الخام ، فلماذا عندما نستخدمه نحن يكون بهذا التهافت والمباشرة والافتعال ؟ .

علينا إذن أن نعرف قيمة الدور المعرفى الذى لعبته الحضارة الاسلامية والتى ساهمت فى نقل الفكر والابداع الإغريقيين إلى الثقافة الغربية بالذات من الأندلس التى كانت بمثابة المعبر الذى انتقلت منه مدارس الفكر والأدب والترجمة والتراث الصوفى لدى ابن عربى والنفرى وجلال الدين الرومى ليتمثلها تاريخهم الثقافى ويتعرف عليها هؤلاء المبدعون .

● الإجابات

يطرح النص الروائى أسئلته ، ونجتهد فى الاجابة بالقدر الذى أعانتنا فيه القراءة على الفهم والتلقى ، ومحاولتنا بصبر التعرف على معنى الرحلة الانسانية فى المكان والزمان .

تحاول الرواية من خلال البحث الوصول إلى يقين للوجود ، وان هذا اليقين يوازى الكنز فى رحلة الانسان فى التاريخ الذى تجسده الخبرة فى المكان وفى الرمز. الكنز تحت قدمى الذات الضمنية التى يحكم عليها المكتوب انها لكى تجد كنزها عليها أن تقطع رحلة وجودها الانسانى عبر المكان والزمان والمنفى والمتاهة فى

الصحراء والأسئلة الغامضة حتى تغنى القناعات الأولى لتحتل مكانها مطلق المعانى التى تتجسد آخر الأمر فى الأسطورة التى هى روح العالم .

إن أسطورة الذات التى ينشغل بها النص الروائى ، والذى يعود دائما للتأكيد عليها وابرازها ، وجعلها دوماً فى مقدمة المشهد الإبداعى . يقول شتراوس «إن الانسان قد لجأ إلى الأسطورة كوسيلة لإدراك معنى الحياة أو بهدف تأكيد طبيعة الفعل الإنسانى» . ومن يومها والأسطورة تسعى أن تلعب دورا حاسماً فى ابراز وتشكيل رؤية الانسان إلى الوجود الواقعى والوجود المطلق . ذلك الوجود الذى يظل ماثلا حتى بعد الفناء فى مخيلة الانسان .

لقد جسدت الأسطورة شخصية جارسيا والسيميائى الذى أفنى عمره فى البحث عن الأسطورة الذاتية .

يقول للشاب : «إنك الآن فى قلب الصحراء هى تساعد على فهم العالم ، على فهم روحه» .

البناء الروائى فى هذا العمل يقوم على بناء لغوى أشبه بالمرايا المصقولة . ثمة سهولة عميقة فى الكلمات ولكنها تقود إلى معانى تنفذ إلى الجوهر . لغة تعانق الشعرى ، وتجسدالجمالى الذى يكشف عن حقائق الوجود الثابتة والمتغيرة على حد سواء .

الصحراء والنجوم والرمال وصوت الرياح وقرع الأجراس ، والتعرف على الحكمة الجوهرية للوجود . كل هذه الظواهر الفنية تشكل الخطاب اللغوى الذى يسعى لتوصيل رسالته للمتلقى مستعينا بتلك اللغة السهلة التى يقول عنها المترجم «انها لا تسعى لتعليم الجديد لدارس الفلسفة أو الباحث عن الحكمة ، لكن اللغة تقود إلى المنتهى .

يدهشنا أن ينهض هذا العالم على قصة فارسية شرقية كتبها يوما الارجنتينى كبير المقام «خورخى لويس بورخيس» فى كتابه المرايا والمتاهات ، ونقلها عن تراثنا العربى .

نحن لم نستطع – الا فى القليل من المحاولات – أن نجعل من مثل هذه الأعمال بنية مهمة تشكل وعينا الفنى ، نستخدمها على نحو يثرى ما نكتبه ، ونوظفها ذلك التوظيف الذى أقامه «باولو كويلهو» لاحقا، وأقامه سابقا «بورخيس» .

عالم غرائبى ، وزمان سحرى وأشخاص يدركون تأويل الأشياء خلال نص ينفتح على الاحتمالات لإعطاء الإنسان قيمته باعتباره فى الأول والآخر «آخر مراتب الوجود وأرقاها من حيث كونه أقدرها على طرح السؤال» .

تحية للصديق بهاء طاهر على ترجمته الرائعة ، ولقاء جديد ليختار لنا ما يعين الانسان على ادراك وجوده وسعيه نحو الحرية .

□

أنا والليل .. ووحدتى

شعر : جليلة رضا

ربة الصمت وأخت الليل ياسر الزمان '
وحدتى الأم ' ويا أعمق حب وحنان
ها أنا عدت إلى حضنك فى ظل الأمان
بعد أن مثلت دورى كاملا بين البرايا ...

● ● ● ●

اخلعى عن قناعى ، مزقى الآن ستارى
انفضى عنى عبئى وأمرحي الآن بدارى
هؤلاء الناس . ما أسخف أحداث النهار
اغلقى الباب علينا ، إننا صرنا عرايا ...

● ● ● ●

ادخلى المحراب إنى قبيه وحدى لا أنام
ثم حيى الراهب الأسود عملاق الظلام
أنت عذراء ، وهذا الليل بكر وغلام
إننا أقدس ثالوث على أرض الخطايا

● ● ● ●

قبلى فى الليل يا أختى جبينى ، قبلينى '
نحتنى لى ، إننى أغلى رفيقات السنين
فيك كم أعشق حرية شكى ويقينى
، صراع الخير والشر بأعماق بجايا

● ● ● ●

تريكنى الآن أمشى فى مسافاتى الخفيه
اتركى عينى ترنو نحو أجوائى الدجيه
إنها أسطع نورا من قلوب البشريه
فهى كم تحمل أعباء وكم تطوى بلايا

● ● ● ●

فإذا الساعة دقت أخمدى الدقات فيها
ما لنا والوقت فى خلوة روح نشتهيها
وإذا الأشباح مرت ، أبعديها ، أبعديها
دعيها تقلق حلمى وانطلاقى ورؤاي

من
الهلال
إلى
الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



ص ١٦٨

كتب

طبقات الشعرانى

كتاب : (لواقح الأنوار فى طبقات الأخبار)
تأليف : عبدالوهاب بن أحمد بن على الشعرانى

□ «هذا كتاب لخصت فيه طبقات جماعة من الأولياء الذى (كذا) يقتدى بهم فى طريق الله عز وجل من الصحابة والتابعين الى آخر القرن التاسع وبعض العاشر. ومقصودى بتأليفه فقه طريق القوم فى التصوف من آداب المقامات والأحوال لا غير» . هكذا صدر أبو المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن على الشعرانى كتابه الذى أسماه «لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار» وهو الكتاب الذى اشتهر باسم طبقات الشعرانى أو الطبقات الكبرى.

وإذا كان الشعرانى قد حدد بذلك التصدير موضوع كتابه وغرضه من تأليف الكتاب، فإن متابعة قراءة خطاب الشعرانى الممتد على صفحات الكتاب (التى تبلغ أربعمائة) تكشف أن معالجة الشعرانى لموضوعه تتجاوز مجرد

التأريخ لطريق القوم فى التصوف، أو أنها مجرد تتبع لسلسلة رجال التصوف وتواليهم ، بداية من أبى بكر الصديق والخلفاء الراشدين، فى سنوات الاسلام الاولى ، حتى منتصف القرن العاشر الهجرى، وبذا شملت هذه السلسلة أكثر من ٣٨٧ صوفيا. وإنما فاضت معالجة الشعرانى لموضوعه بوجهة نظره فى طبيعة التصوف العقائدية والمسلكية. وعندما عرض الشعرانى حياة الشخصيات، التى سلكها فى سلسلة رجال التصوف، قدمها على انها نماذج معنوية وأمثولات سلوكية يبسط من خلالها أراءه وتفسيراته لأحوال المتصوفة وأقوالهم.

ولكى يحدد الشعرانى - بداية - زاوية القراءة المرغوبة لكتابه، وضع مقدمة له فى أربع عشرة صفحة «تزيد الناظر فيه اعتقادا فى هذه الطائفة (الصوفية) الى اعتقاده» وتفتتح المقدمة ببيان تؤكد فيه «أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة» ولكنها تنطلق بعد ذلك لتلح على خصوصية الحال الصوفى، وتجاوز الصوفى للأعراف فى أفعاله وأقواله، ذلك أن معارفه لا تتحصل اكتسابا وإنما عن طريق الكشف. لذا يجب «التصديق والتسليم لهذه الطائفة، ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة» وتأخذ المقدمة فى تعديد أنماط توهمات المنكرين لأحوال أولياء المتصوفة مفندة حججهم. ومن ثم تتحول المقدمة الى منافحة مفندة ضد محدودى التفكير وذوى الأغراض من المتمسكين بالظاهر، وأهل النقل الآخذين بالظنة والمتسرعين الى التكفير، بل تبرز أن مظاهر الإنكار

والتنكيل التى يتعرض لها الأولياء هى - فى حد ذاتها - شهادة على ولايتهم.

وهذه المنافحة ضد منكرى أفعال الصوفية وأقوالهم تمتد لتهيمن على خطاب الكتاب كله. وعندما يمضى الشعرانى فى تتبع أجيال رجال الصوفية مبرزا جوانب من مسلكهم، ونصوصا من أقوالهم، تصبح الشخصيات وسيلة ايضاحية لمشروعية الطريق الصوفى كما يراه هو. وفى سبيل تأكيد هذه المشروعية حفل خطاب الكتاب بالتسويغات والتبريرات، وإن جفت تعاليم الشرع أو قياس العقل أو مستقر العرف، بل وان سلمت بالمخاريق والخزعبلات. ومن هذه الوجهة، اصبح خطاب الكتاب خطابا جامعا، حوى الكثير من المبادىء والمقولات الايجابية ولكنها تنجرف فى التيار المتدفق من المقولات والتقريرات السلبية اللاعقلانية. ورغم محاولات الشعرانى التوفيق بين وجهات النظر المتناحرة والمزاوجة التلفيقية بين المتناقضات، وإظهار كل ذلك بمظهر النسق المنسجم، إلا أن خطابه يبقى حافلا بكثير من ألوان التناقض وتهافت التعليل وغلظته ، إن على المستوى الروحى أو المستوى العقلى.

ويعمد الشعرانى الى سلك الشخصيات التى عرضها فى سلسلة متتابعة الحلقات وكأنه يؤكد نسبتها جميعا الى نفس الطريق الذى يراه وهو بهذا التوحيد والتماهى بين هؤلاء الرجال يذيب تمايزاتهم الفكرية والمسلكية، وفقا لاختلاف منطلقاتهم المعرفية والاجتماعية. بل، إنه طمس على أخصب تيارات التصوف الاسلامى تيار التصوف الفلسفى، الآخذ بالنظر العقلى والتأمل الفكرى، صاحب

المذاهب المتميزة فى طبيعة المعرفة والوجود وارتقاء المكانة البشرية. وكان هذا الطمس لصالح تصوف عملى يقوم على استلاب المريد ونبذه لوعيه، ويرتكز على حشد المريدين فى مؤسسات نظامية هيراركية تتراسل مع هيراركية السلطة ولاعقلانيتها.

ومن اللافت أن الشعرانى، وقد عاصر سقوط دولة المماليك وعاش نصف قرن بعد دخول العثمانيين القاهرة؛ استطاع ان ينفذ وسط هذه الأحداث وان تنمو ولايته وزاويته. غير أن محاولة إقامة طريقة صوفية تنتسب اليه لم يقيض لها النجاح، بينما بقيت الكتب المنسوبة اليه، وعلى الاخص كتاب «الطبقات الكبرى» وأصبح هذا الكتاب مصدرا مرجعيا لكثير من الطوائف الصوفية، وغدا كتابا تأسيسيا فى عمليات التكوين والتثقيف الفكرى لدى غير قليل من المتطلعين من ابناء الثقافة الشعبية. وهذا أحد وجوه خطورة خطاب هذا الكتاب مما يحفز الى الانشغال بدرسه ومحاولة سبر مكوناته.

● عبدالحميد حواس

غناء

انها أنغام مطربة مصر الأولى

□ أعتقد أني لا أكون مبالغا بإطلاق لقب (مطربة مصر الأولى) على الفنانة الشابة أنغام، فالمستعرض للساحة الغنائية حاليا يواجه مجموعة من الحقائق أبرزها ندرة المطربات المصريات، أما هجمة المطربات الوافدات الجديدات التي تشهدها الساحة الغنائية فهى وإن استعانت بمؤلفين وملحنين مصريين إلا أنها أقرب إلى الفن التجارى الذى لا ملة له ولا وطن، والذى يتعامل مع مصر على أنها سوق غنائية يحصل من يريد منها على



انغام

الشهرة والمال . هناك أيضا مطربات مصريات ، لكنهن إما يتعاملن مع الغناء بنفس النظرة التجارية أو يمتلكن قدرات فنية عادية أو ضعيفة في الغالب . خارج هذا السياق غير المطمئن تبرز استثناءات مثل أنغام وحنان ماضي وغادة رجب ، ولأن أنغام أكثرهن خبرة بل ونجاحا حتى الآن فإننا نستطيع باطمئنان أن نعتبرها مطربة مصر الأولى وأن نعلق عليها آمالا عريضة لكي تضيف إلى فن الغناء المصرى بعض ما أضافته رائدات هذا الفن أم كلثوم ، ونجاة ، وفايزة أحمد ، وشادية وصباح في مرحلتها المصرية وسعاد محمد وغيرهن .

رصد مسيرة أنغام الغنائية يمدنا بما يشجع على هذا الأمل ، فقد استطاعت أنغام بذكاء ومجهود متميز منذ ألبومها (ببساطة كده) الذى تلاه ألبومها (إلا أنا) ثم ألبومها الأخير (باقولك إيه) أن تحقق مستوى الألبوم كامل الأوصاف الذى لاتوجد به أغنية ضعيفة المستوى ، مما يدل على حرص غير عادى على اختيار الكلمات والألحان أما فى الألبومات السابقة على (ببساطة كده) والتى بدأتها أنغام بـ (الركن البعيد الهادى) ولع من بينها ألبوم (أول جواب) ، ويمكن أن نخرج من بينها تماما ألبوم (شكرا) الذى غنته باللهجة الخليجية فقد كانت عدة أغان فقط هى التى تلمع فى الألبوم أداء وكلمات وألحانا أما الباقى فقد كانت أنغام تحاول أن (تشيله) بصوتها الرائع - حسب التعبير الدارج .

ولست خبيرا فى علم الأصوات لكننى أزعم أنه لا أحد يقدر على التشكيك فى الخصوصية التى يتميز بها صوت أنغام ، سواء على مستوى قريناتها حاليا ، أو على مستوى المطربات المصريات سابقا ، كما أنه يمكن ملاحظة الخصوصية التى تتميز بها أغانيها فى التعبير عن البنت المصرية بعواطفها ومشاكلها وهمومها ، وهى (الأرض الفضا) التى تلعب أنغام فيها براحتها ، مستقلة تفردها بمنطقة لم تسبقها إليها واحدة

من المطربات اللواتي كن يعبرن عن مشاعر وعواطف المرأة بشكل عام ، أما خصوصية البنت فلا مثيل لأنغام في التعبير بحساسية بالغة عن هذه الخصوصية ولنعط أمثلة على ذلك بأغانيها الرائعة (أول جواب - أهواك ياهوا المصايف - ببساطة كده - إلا أنا) أو أغانيها التي تنتقل من مجرد التعبير عن العواطف والمشاعر إلى التعبير عن الهموم والمشاكل - ليس على طريقة الأغاني الوطنية ذات الجعير في حب مصر - وإنما بإحساس فريد لاياري ولايجاري ، راجع أغاني (شنطة سفر - على باب المطار - طال السفر) .

في ألبومها الأخير (باقولك إيه) تتجلى هذه (الخصوصيات) التي ندعيها لأنغام ، في اختيار الكلمات تقدم أنغام ٧ أغان لمؤلفين شبان رائعين ، وفي الألحان يتفرد الموسيقار المتميز أمير عبد المجيد بألحان الشريط ، أما عن خصوصية الأداء فحدث ولاحرج، يكفي أن أنغام لاتقدم في الألبوم أي أغنيات سريعة الإيقاع والتي أصبحت قاعدة السوق وقائمته أيضا - سوى أغنيتين (باقولك إيه - باحبك) ، ولو أنك قارنت الأغنيتين بما تسمعه الآن - أو بما لا تسمعه بمعنى أصح - لأدركت حقا تفرد أنغام في تعبيرها عن معاني كلمات وائل هلال الرائعة ، ولو أنك أمعنت السمع في أغاني (طال السفر) و (الوحسيت) من كلمات ناصر رشوان و (معنى حبي) من كلمات وائل هلال و (تقدر ع المشوار) من كلمات جمال بخيت لهزك من الأعماق أداء أنغام الحالم والعاصف بالروح في آن، ثم إن أنغام وأمير لاينسيان لك حقك وسط كل هذه الأغاني المفتقرة إلى ضجة الإيقاع أو الغنية ببعدها عنه بشكل أدق فيعطيانك لحنا راقصا رقصا شرقيا ولايحتاج لصخب يستجدي انتباهك ويهتم بحركات جسدك قبل خفقات قلبك - ذلك كله في أغنية ليل وفرح من كلمات ناصر رشوان

● بلال فضل

مع الإبداع

أدب الأظافر الطويلة

- الأديبة العربية حائرة بين العقل والعاطفة !
- رحلة الأديبة العربية بين التقاليد وحرية التعبير !
- د. رجاء نعمة: سلطة الرجل أصبحت حكاية بائدة.
- اعتدال عثمان : قررت أن أعيش بالعقل.

نجوى صالح

□ فى رحلة الأديبة العربية مع الإبداع تعكس تجربتها الإنسانية وشخصيتها وذاتها فى الشكل الأدبى الذى تختاره ، وإذا قيل عن المرأة إن العاطفة فيها تتغلب على العقل ، فإن ذلك ليس شيئا ثابتا ، فهناك من تستطيع أن تقيم التوازن المنشود ، وبعضهن يغلبن العقل على العاطفة ، وفى النهاية فإن لكل أديبة سماتها وشخصيتها وذاتها المبدعة التى تعبر عنها وتعكس شخصيتها.

وفى حوار مع أديبتين عربيتين من لبنان ومصر نضع أيدينا على ملامح كل منهما ونكتشف فى النهاية أنهما قبل كل شىء تعكسان ملامحهما الشرقية وبيئتيهما مهما سافرتا وقرأتا وشرقتا أو غربتا .

رجاء نعمة : سلطة الرجل حكاية بائدة !

«منذ ستة وسبعين عاما ، وبالتحديد فى سنة ١٩٢٠ أقلعت سفينة من ميناء بيروت متجهة إلى أمريكا ، يستقلها شاب فى الثامنة عشرة من عمره، عيناه تملؤهما الحيرة والقلق والتحفز، يستنفر الشاب كل طاقاته حين تطأ قدماه أرض الوعد والثراء! هذا هو أبى» !

هكذا بدأت الأديبة اللبنانية رجاء نعمة حديثها معى ..

وتستطرد فتقول :

كان أبي يقص علينا هذه الواقعة وهو جالس بين أخوتي السبعة ، أنا أصغرهم بعد أن عاد إلى مدينتنا «صور» بعد أربع سنوات قضاها في القرية، بعد أن شده الحنين لوطنه وأهله رغم كل مارآه من تطور وحضارة ومدنية .

«كان أبي «سي السيد» في البيت ، ينهي ويأمر ، وكانت كلمته هي النافذة لكن عن حق ودراية وتجربة ، وقد اكتشفت فيما بعد أن تربية أبي الجادة الصارمة قد شكلت داخلى طبقات كثيرة من المحاذير والتقاليد ! وبالرغم من أن أسرتي لم تصب قدرا كبيرا من التعليم ، فقد اكتسبت قدرا أعمق من التجربة والثقافة».

«تفتحت عيناى، وأنا بعد طفلة على قراءة مجلة «سندباد» ومؤلفات كامل كيلانى وعطية الإبراشى ، ثم بدأت فى سن الحادية عشرة أقرأ توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد ، وانتقلت من الطفولة إلى النضج فى سن الخامسة عشرة والتحقت بالمدرسة الفرنسية فى «صيدا» وبدأت أقرأ بالفرنسية مؤلفات «كوليت» و«فرانسواز ساجان» بالإضافة إلى قراءاتي الدينية ، وهو اتجاه عائلى ، مثل «نهج البلاغة» و«تفسير القرآن» بجانب كتب التراث مثل «الأغاني» للأصفهاني وأيضا مؤلفات الأدباء المعاصرين .

كانت صور في مرحلة الخمسينات بوتقة من الغليان السياسي، آراء أخوتي الشباب متحمسة، تتابع القضايا الساخنة على الساحة العربية ، في تلك الحقبة كنا نقرأ ونسمع ونتناقش ، بيننا الأخ الماركسي والشورى ، والأم تقرأ جوركى ، وأبى بكل عنفوان ثوريته يحب جمال عبد الناصر ويبارك كل خطواته وأذكر أنه فى يوم تأميم قناة السويس ، خرج جريا من المنزل إلى الحديقة يهلل من السعادة ، ويثب مثل طفل صغير .. كان الاتجاه السائد فى أسرتى هو النقاش والحوار بلا تعصب فى كل اتجاه سياسى أو اجتماعى أو دينى، فنحن من الشيعة ولكن بلا انغلاق أو تعصب !

كنت فى وسط هذا المناخ أبحث عن هوية لنفسى ، وأحاول أن أجد شكلا أدبيا أعبر به عن نفسى بعد أن تأثرت بالرومانسية فى مطلع صباى ، وعندما



د. رجاء نعمة



اعتدال عثمان

ذهبت للمدرسة الداخلية فى بيروت فى الخامسة عشرة من عمرى وجدت الفتيات يتحدثن عن أحلامهن مع من يحببن من الشباب ، بينما كنت أبكى لفراق أمى !

واصطدمت بالتعصب الأعمى ، وبرغم ذلك اندمجت فى الحياة البيروتية بكل تفتحها الثقافى والاجتماعى ، وتبلورت أفكارى تجاه المدينة المغلقة «صور» وسلطة الأب والأخوة والمتاريس الاجتماعية الصارمة ورأيت من بيروت عن بعد علاقتى بأمى التى كانت متميزة جداً .

أنهت رجاء دراستها الثانوية والتحقت بالجامعة ثم تزوجت عن حب بعد أن اختارت ممارسة حرية بنات جيل الستينات بكل طموحاته المفعمة بالأيديولوجيات والمثل ولكن بعد ذلك اكتشف الاثنان التفرق فى المشاعر والطموحات ، واتفقا على الانفصال بشكل متحضر بعد أن أثمر هذا الزواج «وليد» الذى انضم إلى حضانتها .

اندلعت الحرب فى بيروت سنة ٧٢ ، وكانت استحالة الحياة بين الدمار والتقلص الثقافى والاقتصادى ، وقررت «راجاء» الرحيل إلى باريس ودراسة علم النفس ، واصطحبت ابنها واستقرا فى باريس لمدة خمس سنوات ، وانتسبت إلى «الكوليج دى فرانس» . وأخيراً وجدت دربها ، وقدمت الدكتوراه فى علم الدلالات «سميولوجى» . وتضيف «رجاء نعمة» «أن النقد هو أن أقرأ وأعطى انطباعى العام عن العمل ، ولكن علم «الدلالات» هو الوقوف على عدة دلالات نستخلص منها النتائج . مثلا لماذا يختار الكاتب كل أبطاله من الأطفال أو كلهم من النساء ، وقد أخذت قصص «الطيب صالح» لتحضير رسالة الدكتوراه ، وركزت على قصة «موسم الهجرة إلى الشمال» ، إن نصف أبطال القصة ينتحرون وهذه دلالة .

أدب الأظافر الطويلة

لماذا الحب طاهر فى القرية ، ومرذول فى المدينة وهذه دلالة أخرى ، وهكذا ، وحينما أخذ جانب التحليل النفسى فى قصة «موسم الهجرة إلى الشمال» أجد أنه صراع المقهور مع السلطة وليس صراع الشرق ضد الغرب ، إن المأساة فى هذه القصة هى عالم السودان القديم وصراعه ضد السلطة ومعناها الاستعمار، ومن هنا تنبثق جميع الصراعات الأخرى.

فرنسا ٧٤ عصر الحرية الثقافية والتسامح وعدم العنصرية لماذا تركتها إلى القاهرة «القاهرة وطنى الثانى ، أول مرة حضرت إليها فى سنة ٨٠ إن مناخ القاهرة الثقافى لا يقل إطلاقا عن المناخ الفرنسى أضف على ذلك ثراء الناس الداخلى ، والرضاء . إن أعظم سلبية فى مصر التلوث وضخامة المدينة ، ولكن الظاهرة العجيبة فى سكان المناطق العشوائية ان الناس هناك ، ظرفاء متقبلين لجميع الأوضاع بصدر رحب.

أما بالنسبة لبيروت فهى وطنى وأهلى، ولكن اغترب جميع إخوتى كل فى بلد فى أوربا أو إفريقيا ، أو أمريكا اللاتينية ، لدرجة أن تمر السنون ولم نر بعضنا البعض ، وأخت واحدة مازالت فى لبنان . «رجاء نعمة» من عائلة ووطن مهاجر ، كان السفر بالنسبة لها مغامرة جميلة قبل الحرب ، أما بعد الحرب ، فقد أصبح مصدر تشرد وألم وغربة للنفس والجسد.

مكثت «راجاء» فى اليمن خمس سنوات وتصف اليمن على لسانها وهى مبهورة بجمال الطبيعة فى تلك البلاد . «يوجد مناخ صوفى ، اقترب هناك من أعماق الدنيا من الخالق ، جبال عالية من الحجر بين اللونين البنى والبنفسجى ، حجارة شاهقة حادة ، الناس هناك لهم خصوصية، شعب له كبرياء ، وأصل ، ليسوا مجاملين.

ومكنتنى الحياة هناك أن أكتب جزءا كبيرا من قصتى «مريم النور» ، إن الحياة فى اليمن تعطى فرصة كبيرة للتأمل ، وقد واتتنى الفرصة لكى أعيد النظر فى كثير من أفكارى ولواعج نفسى ، فقد تحررت داخليا ، أطلقت عقلى بحرية مطلقة ، واكتشفت أننا جيل عشنا بردود العقل ، ولكن ليس بالنضج الحقيقى ، إن عصر الأيديولوجيات سلطة ضد الإبداع ، فهى تلك الأفكار الثابتة ، والتقاليد التى تعشش فينا ، توجد ثمة سلطة خارجية اعتقلتها فى أعماقك ، وعليك عند النضج والتغيير ، وإطلاق حرية العقل الحقيقية أن تزيح عن نفسك كل تلك الطبقات المتراكمة ، طبقة تلو أخرى ، حتى تصل إلى حرية العقل الحقيقية .

وبرغم أننى درست فى فرنسا على يد المستشرق «جاك بيرك» وعلى أيدى أساتذة عظام . ولكن الحرية هى الاقتناع الكامل بإطلاق العقل ، وقد ظهر هذا فى

أعمالى الأخيرة ، وقد وضع فيها جو الفنتازيا الذى أميل إليه والدمج بين الرمز والواقع . فى رواية «مريم النور» (١٩٩٤) أذكرها بدون ألم . هى تعبير عن أعماق النفس بما فيها من ألم وفرح وعلاقات ، منبع النفس البشرية بتعقيداتها . وبالمقارنة بـ «كانت المدن ملونة» سنة ٩٠ روايات الهلال ، إنها قصة حرب منبعها الألم .

★★★

وتستطرد «رجاء نعمة» فى مضمار إطلاق حرية العقل . إن الحب ينتج من العقل ، نحن جيل اقتنع بالحب البدائى الشديد الرومانسية بسلبياته ، ككاتبة يوجد حرية التعبير عن فجوره ونداثيته ، ورومانسيته أيضا . أهنىء الناس الذين يحبون ويتحملون ما قد يحمله من غدر وخيانة إن مأساة الإنسان التقابل ، والصواب أن يتطور ، وأن يقبل الإنسان الآخر على علاته ، وأهم إنجاز قبول ضعف الرجل أما سلطة الرجل فهى حكاية بائدة ، أصبح التوزيع رجل كاذب، ورجل صادق . !

اعتدال عثمان : قررت أن أعيش بالعقل

فى مجموعتها القصصية «يونس البحر» نجد فى قصة «بحر العشق والعقيق» تجربة مريرة، فقد الأب مبكراً ، وهناك إحساس نقص ما، لقيمة ما غائبة مع وجود تمرد على هذه القيمة ، نجد مرارة الحصار والقضبان حولها .

يقول مارد بطل القصة :

«الرجال يا ولدى يهدون الجبال، والنساء تهد الرجال ، قاومت لأننى كنت أعرف ماذا أفعل، كيف أخضع المرأة، أو كيف يكون خضوعى لها، عالمى كله رجال ... أمر ونهى وتحصيل بدون مضاعفة ، الثروة والمنافحة عن الإرث التليد حتى أمى خذلتنى بغير إرادتها ، ماتت بعد مولدى مباشرة ..»

وتضيف اعتدال : «بالرغم من أننى كنت طفلة وحيدة ، ومدللة ، والوحدة تصاحبنى طول حياتى، فأنا فى محاولة دائمة للتواصل ، حتى أبعد إحساسى بالغربة والوحدة وكانت وسيلتى لنفى الوحدة القراءة، واكتشفت العالم الواسع، دنيا بكل ألوانها ، وضجيجها ، تأتى من خلال الكتاب .

تفتحت عيناى فى «طوخ» ، طفلة هادئة ، أحلم دائما أننى أطير ، كنت أعشق حياة الفلاحين وأعيش نمط حياتهم، إنهم يملكون الإحساس الحقيقى للحياة وممارستها بشكل واقعى ، لا زيف، ولا تصنع ، ولاحتكاكى الدائم بهذه المدينة لمست تغيرا جذريا فى حياة الفلاح بعد سنة ٥٢ فتح مجال التعليم ، وتحقق

مستوى اجتماعي على واقع الحياة، إذ إن التغيير الاجتماعي ليس قدرا ، ولكنه توجيه مباشر للفلاح

فأنا منذ طفولتي أحمل إحساسا مرهفا للمقهورين ، وبرغم التصاقي بمدينة طوخ والفلاحين ولكن أمي صممت على الانتقال إلى القاهرة في بيت جدي في العباسية ، والتحقت بمدرسة الجيزة الثانوية، وأذكر في سنة ٥٦ جاء الكاتب الصحفي أحمد بهاء الدين إلى مدرستنا في ندوة، وتناقشت معه كرئيسة اللجنة الثقافية، وفي آخر الندوة قال لي : «لك مستقبل باهر في الصحافة» .

وأعتقد أنه من يومها وأنا ملتصقة بجميع المكتبات ، ولكن المكتبة التي أثرت في هي مكتبة بيت جدي فهي مصممة على شكل زخارف المخلوقات البحرية من الأسماك ونجوم البحر والأخطبوط ، حتى الكراسي على نفس الطراز ، لونها أخضر قاتم . كنت وأنا بعد طفلة مبهورة بتلك الأشكال الزخرفية وبالتالي أنا أعشق البحر ، لذا معظم قصصي تدور في هذا الجو.

وبدأت القراءة في الأدب العربي «نجيب محفوظ» و«توفيق الحكيم» وغيرهما ، وتأثرت بالأدب الغربي ولكني لم أنبهر به نتيجة ما قرأت من ثقافتي ولكنني شعرت بعدم الرضا عن ثقافتي العربية، ووسعت استقبالي للثقافة العربية، واهتممت بقضايا الوجود البشري ومعاناه الإنسان، وأسئلة البشرية السيريالية والميتافيزيقية في تلك الأثناء تخرجت في كلية الآداب قسم إنجليزي ، وأقيمت مسابقة للقصة «٦٢» باللغة العربية، وفازت قصتي «الطائر»، وكانت من بين هيئة التحكيم د.لطيفة الزيات، التي قالت : «توجد موهبة مؤكدة، وقارنت أدبي بالكاتبة الانجليزية «كاترين مانسفيلد» ، أعتقد أنه كان بدافع التشجيع .

***

«اعتدال عثمان» تتحدث في بطء وهدوء تغوص داخل نفسها وتصمت، وأعاود حثها على الكلام وتطفو ثانية، وتسرد ببعض الحماس المشوب بالحيطة دائما.

أسألها : عن الزواج ، وهل أعاقك عن تنمية الموهبة ؟

«تزوجت سنة ٦٣ من طبيب بشري ، ورزقت بولدين تزوجا وأنا الآن جدة للمرة الأولى، زوجي ، منذ تزوجنا ، وكنت مازلت طالبة في الجامعة ، يعطيني حرية الحركة، واحترام أوقات وحدتي الاختيارية، وانطوائي داخل نفسي، ثم إنه ليس من اهتماماتنا العلاقات الاجتماعية

الواسعة، أهم شيء في حياتنا أولادى وزوجاتهم ، ولكن هناك على ما أعتقد احتجاج صامت وهادىء ومتسامح ، فهو لايقرأ ما أكتب .!

إن من أكثر القضايا التي تشغل تفكيرى وتحدد أهدافى هو عطائي للجيل القادم. مع تفهم لأهمية الأدب بشكل عام لهذا فقد تحولت إلى النقد، وأمارسه بهواية ومزاج خاص !

والأدب تابع من تصور فلسفى للعالم، وموقف اجتماعى مرتبط بالواقع، ويستطيع الفنان تجسيد هذه التصورات فنيا ، فى شخصيات أو حيثيات فى اللغة التي يستخدمها . فنجد مثلا أن نجيب محفوظ مرتبط وجدانيا بالشعب المصرى والطبقة المتوسطة على وجه الخصوص، فهو خلاصة الثقافة المصرية فى امتدادها، والدين عنصر أساسى فى حياتنا وثقافتنا بجانب العلم ، نجيب محفوظ «أبونا» .

- كلمينى عن ذاتك المبدعة ؟

- ذاتى المبدعة ، أو المحافظة على نواة الفن الصلبة، ان الفنان يلتقط أشياء من الحياة قد تكون عادية من وجهة نظر الآخرين ، ولكنه يحولها ويعيد تركيبها بشكل مختلف ، من خلال اللغة والتجسيم، والخيال ، مع الاستفادة بجوانب من التراث والتاريخ، فهى أخيرا خصوصية رؤية تخرج من النواة ، وتضيف تكوينى النفسى ، والوجدانى والثقافى ، وهو تطلع دائم للنضج ، تمثل كيانه المشاعر والعقل وفهم العالم .

وأنا رغبتى فى تكامل العمل الأدبى عالية جدا ، خاصا وأنا أمارس النقد، وكل عمل أدبى يحقق شيئا ما ، لايوجد الكمال بالطبع ، والكتابة أفضل طريق ممكن أن أصل به إلى الناس ، وأنقل لهم إحساسى ، وأملى أن يلاقى صدى عندهم.

- والإنسانة ؟

- «عصبية ، تعلمت أنه فى التعامل الانسانى ، خطوط حمراء ، إذا تجاوزتها برأى خارج، يمس صورة الشخص المقابل عن نفسه ، أو مفتاح يفتح على المجهول فى خصمك ، هنا يبدأ . منحدر العلاقات الخطير ، وعلى جميع مستوى العلاقات البشرية .

يجب إدراك طبيعة النفس البشرية وتناقضاتها وهذا جزء من الأدب أما عيوبى الحقيقية فأنا لا أهتم بالتفاصيل، ولكن الأساسيات الصحة، والأخلاق والتعليم ماعدا هذا ، فمن حولى لهم مطلق الحرية فى التعامل بندية، أتجنب الصراعات الصغيرة ، وقانونى الخاص الصدق مع النفس .

إنسانة عاطفية ، قررت أن أعيش بالعقل وهو وسيلتى للاختيار والتحكم فى العواطف ، وأحوى قدرا من الحساسية والاستجابة للمشاعر الانسانية مع قدرة على تلجيم هذه المشاعر فى الوقت نفسه!.

التكوين: ٥

ليس هناك أسوأ من يساري سيء

محمد عودة

تقضى لوائح دار الوثائق البريطانية بالافراج عن الملفات بعد ثلاثين عاما من تاريخ الأحداث ولكن هذا لايمنع أن هناك وثائق يؤشر علي ملفاتها بأن لايفرج عنها إلا بعد خمسين عاما، بل وهناك أيضا مالا يفرج عنه إلا بعد خمسة وسبعين عاما ، ولكن أخطر الملفات وأهمها يؤشر عليها بأنها في أرشيف الوزارة ، ولايفرج عنها إلا بطلب خاص وإذا تقدمت بهذا الطلب تكون الإجابة أن هناك من سبق وطلب الاطلاع ويظل هذا العذر قائما حتى تمل وتستغنى .

وفى العام الماضى أفرجوا عن بعض الوثائق عن ثورة المهدى فى السودان قبل أكثر من مائة عام ، وكانت هناك وقائع جديدة وغريبة أشد الغرابة ، وتكشف لأى حد كان يمكن أن يذهب الاستعماريون البريطانيون من أجل «صبغ خريطة العالم باللون الأحمر» وكان ذلك مثلهم وهدفهم النهائى ، ولكن لم يهتم أحد سوى البريطانيين أنفسهم ، وقال لى موظف المكتبة أن أحدا من السودانيين أو المصريين لم يشتر نسخة واحدة من الكتاب».

وربما كان الفرنسيون متناسقين مع أنفسهم وقليلى الخبرة فى فن التعاون

ولهذا فانهم لا ينشرون وثائقهم، ويحتفظوا بكل «الغسيل القذر»!!

وهذه مقدمة أتذرع بها لعدم نشر حقائق ووثائق الفترة العصيبة الكالحة التي بدأت بعودتي فاشلا إلى القاهرة، وأوجلها إلى جزء ثان أو ثالث من التكوين، والأفراد مثل الامبراطوريات ولا فرق.

وقد كان الإنذار الأول بما سوف تصبح عليه تلك الفترة خطاب من الأستاذ يخبرني فيه أنه قرر البقاء في بريطانيا لمدة عام كامل ولظروف خاصة وعامة، ويتمنى لو استطعت أن أدبر أي وسيلة للسفر إليه هناك . !

وكانت الغربة والوحدة تشتد يوما بعد يوم وتحولت إلى تيه وضياع ولم أكن أريد أن أعود إلى الريف ، ولم أكن قادرا على البقاء في العاصمة ، بلا مورد ولا عمل .

وقررت في يوم ثقيل تعيس أن أتصل بقريب لي من بعيد ، كانت تربطني به ألفة ومودة شديدة ، وإن كنا نلتقي على فترات متباعدة ، وقد فكرت عدة مرات في الاتصال به ولكن كنت أتردد بمبررات اجتماعية وايديولوجية وطرحتها جميعا استنادا إلى قول شهير للرفيق للينين «ابورجوازي طيب خير من شيوعي سيئ» وقد آمنت بهذه الحكمة عن تجارب مريرة بل وأضفت إليها ليس هناك من هو أسوأ من يساري سيئ» ! ولهذا قصة أخرى .

وتلقى المكالمة بترحيب حار جارف وألح أن أحضر على الفور أو أن يأتي إلى في أي مكان .

وذهبت إليه وخلال الطريق عاودتني ذكرى أبرز أحداث شاركنا فيها معا بأدوار رئيسية ، وكانت إحداهما سياسية كوميدية وكانت الأخرى عاطفية تراجيدية.

وذات يوم خضنا معا معركة حامية دامية دفاعا عن حق الوفد في الاصرار على الرئاسة وأغلبية الأعضاء في الوفد المشترك لمفاوضة بريطانيا خلال حكومة صدقي باشا ، وكان ذلك في مأدبة كبيرة أقامها أحد أتباع الباشا الشديدو الولاء ، ودعا إليها نخبة من أعيان السعديين والدستوريين ، و بعضا من شباب



التكوين

المحامين والأطباء والمهندسين ، وكان يتباهى دائما بتشجيع الشباب واستكمل الحشد بدعوة أحد النواب الوفديين أيضا .

وبعد أن خرجنا ظافرين قلت له :

– هزأنا الرجل فى بيته وأمام ضيوفه.

وقال

– هذا وغد كبير وكلهم مثله ، ولاتقلق سوف يبيع ويشترى ما حدث ويشيع ويذيع أن الوفد يتربص به ويشن عليه حملة ضارية وغدا صباحا سوف يكون على مكتب دولة الباشا تقرير مفصل ، وفاتورة بثمن تضحياته .

– ألم يدهشك مثلى أن النائب الوفدى المحترم لم يفتح فمه بكلمة واحدة .

– لقد دعا كل النواب الوفديين ولم يرد على الدعوة أو يلبها سوى هذا الوغد ولولا أنه بمثابة عمى لكنت سفحت دمه هل تعرف أنه شريكه فى المحلج الجديد الذى يشيده وأنه شريكه أيضا فى محطات الديزل والبنزين الجديدة وأن ابنته سوف تتزوج ابن شقيق المضيف المحترم.

وبالمناسبة هل وصلتك دعوة للعرس.

– لا .

وضحك طويلا وقال اسمع هذه القصة طبع ألف تذكرة دعوة طباعة فاخرة مذهبة وذكر فى الدعوة تحيى الحفل كوكب الشرق أم كلثوم وبعدها ويشرف الحفل دولة رئيس الوزراء ، وبعد أن وزع مائة بطاقة لفت أحدهم نظره إلى أن لابد أن يسبق ذكر رئيس الوزراء ذكر كوكب الشرق ، وأن الباشا لن يسر لهذه الهفوة، وسارع على الفور بطبع ألف تذكرة أخرى، وأصبح كل همه أن يسترجع الدعوات التى وزعت وألاتتسرب دعوة منها قد تصل إلى «دولة الباشا» وجاءنى رسول يطلب الدعوة القديمة ويحمل الجديدة ولكننى تذرعت بأنها فى مكتبى بالقاهرة وسأبعث بها وبالطبع احتفظ بها ذكرى عزيزة .

واقترحت عليه أن يضع الاثنان معا فى برواز ويحتفظ به شهادة ، على العصر!!

وكانت الذكرى الثانية مأساوية لم تبرح ذاكرة أحد عاشها أو شارك فيها ، ولما كنت أحد أبطالها ، فقد ظللت أشعر بالالتزام أن اتركها تراثا يروى ورويتها بالفعل لكثير من أصدقائى الروائيين والمسرحيين والشعراء والموسيقيين لعلها تلهم أحدا عملا «نابعا» من واقعنا التراجيدى بلا جدوى ، واستبسلت ذات مرة حتى اقنعت «الأستاذ زكريا أبو الفنون الشعبية» ولكنه بعد أن سار شوطا فى العمل أصر على تغيير النهاية لأن

الشعب الآن «لايحب النهايات الأليمة».

وقد بدأت بداية رومانسية بأن تزوج أخوه الأصغر من فلاحة جميلة وكان قد تخرج في كلية الزراعة في نفس العام الذي تخرجت فيه وكنا أصدقاء خلال الجامعة ، وتقرر أن يتولى إدارة أرضهم وزراعتهم الواسعة وكان أحد أخوة أربعة اختارت الأم لهم أسماء الخلفاء الراشدين وقد سافر الأولان للدراسة في الخارج وكانت ترى أنهم «أولاد أبوهم» وأما الاثنان الآخران فهم «أولادها» ولهذا يتمتعون بكل الفضائل والخصال الحميدة.

وكان الأخير «آخر العنقود» ويتربع على العرش لم تكن تفترق عنه أو يفترق عنها ، وكان يقوم لها بكل المهام الكبيرة والصغيرة .

كانت تستأمنه على توزيع صدقاتها وحسناتها على الفقراء والمحتاجين وعائلات كريمة «أخنى عليها الدهر» وكان يحصل لها ايرادها الخاص من أملاكها ويحاسب خاله الكبير ، وكان يصحبها إلى القاهرة لزيارة أولياء الله الصالحين في الصباح ومشاهدة الريحاني ويوسف وهبي، وأفلام أم كلثوم وعبد الوهاب في المساء وكان يصحبها أيضا إلى الغورية والصاغة لشراء البخور والعطور والحلى وإلى شيكوريل ومدام صالحة للكسوة وآخر الأزياء . على أن أهم ما كان يقوم به هو «تزييف» خطابات شقيقيه في الخارج، وكانت قد «أخذت على خاطرها» من الخطابات التي يرسلونها إلى الوالد ، ويذكرونها في سطرين في الآخر «وسلامي وقبلاتي إلى والدتي الحبيبة وأرجو أن لاتنقطع عن الدعاء لي بالنجاح» ولذا كان يكتب خطابا كاملا وخاصاً لكل منهما إلى والدته «والدتي العزيزة الحبيبة أقبل يديك ووجنتيك وأفكر ليلا ونهارا في اليوم الذي أعود فيه إليك وأحمل الشهادة التي سوف تفرحين بها ، أنني لا أنام قبل أن أقبل صورتك وأول ما أفعله في الصباح أن أقبلها ثانية وأرجو ياأمي العزيزة الحبيبة الغالية ألا تنسي دعواتك الصالحة لي في صلاة الفجر «الخ» وكان ذلك أسعد ماتفرح به وتردد «عرفوا معنى الأم في القرية»!.

وقد استطاع بذلك أن ينتزع منها حق لبس فانلة واحدة صوف في الشتاء بدلا من اثنتين، وحق الاستحمام بالماء البارد في الصيف .

وكانت هناك شخصية غامضة تنشر صورتها كثيرا في الصحف باسم «السكرتير الخاص لعظمة السلطانة ملك» ولم نكن نعرف من هي أو ماذا تعمل ولكن قررنا الانعام بنفس اللقب «سكرتير خاص السلطانة» على آخر العنقود وقبل الانعام شاكرا ممتنا وأصبح لقبه الشائع .

وفرحت الأم حينما عهد إليه أبوه الاشراف على الأرض ، ولما كان «يساري الميول» فقد انسجم مع الفلاحين ، واكتسب حب الجميع وأثبت نجاحا كبيرا

وسريعاً ، ولم يكن غريبا أن يقع في حب «ملكه» الفلاحة الجميلة جمالا مبهرا ، ولم تكن فلاحة عادية ، كانت أمها أنيسة ونديمة ويمكن أن تدعى وصيفة للسلطانة ، ونظرا لأنها لم تنجب بناتا فقد تبنت الصغيرة وكلفت ناظر المدرسة الالزامية أن يعلمها القراءة والكتابة ويحفظها القرآن وكان اسم «ملكة» مقصوراً على بنات العائلات ولكن أحدا لم يعترض على أن تحمله بالجدارة وليس بالوراثة، وذات يوم رآها مخرج سينمائي كبير كان يصور فيلما في الريف وعرض عليها وألح أن تعمل في السينما . وسوف يتولى تدريبها وتعليمها حتى تصبح نجمة، وبالطبع رفض طلبه ، ولكنه أظهرها في الفيلم في صورة بطول الشاشة وعرضها ولم تستغرق أكثر من بضع ثوان ولكن لفتت انتباه المشاهدين ، وذكر ذلك أحد النقاد.

وأثمر الحب «المحرم» بأن حملت «ملكة» وأسر إلى أمة بما حدث ، وأنه قرر أن يتزوجها وفوجئت الأم ولكنها وافقت ، وربما سعدت وارتاحت سوف يعيش الاثنان معها في البيت وسوف ينجب الحسن والحسين ، كما كانت تتمنى وتقوم بتربيتهم .

وكانت المشكلة والمعضلة والتي لايجرؤ أحد على طرحها هي الأب وماذا يكون موقفه .

وكان الأب قطبا سياسيا وطنيا وكان يثير اعجابنا خلال حملاته الانتخابية التي كنا نصحبه خلالها باصراره أن يطوف الدائرة قرية قرية ويدخل كل بيت ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة ويردد في كل مناسبة مصر هي الفلاحين والفلاحين هم مصر وأنا أولهم .

ولكن أن يحب مصر ويتعاطف مع الفلاحين شيء وأن يتزوج ابنه من فلاحة، شي مختلف.

وتقرر أن نعقد مؤتمرا لبحث الأمر واخترنا بيت خاله الأصغر المتعاطف معه وانتهينا إلى قرار جريء نتحداه به وتلقى القفاز في وجهه ، وأن نعقد الزواج ونحتفل به سرا ، وأن نواجهه بالأمر الواقع ولانترك له مجالا للاختيار وإذا ما عاند أو كابر يترك على البيت ويذهب ليعيش في بيت ريفي في إحدى «العزب» القريبة .

وأحيطت الأم علما بالقرارات وباركتها واعتمدت كل النفقات اللازمة .

وشحذنا كل قدرتنا على التخطيط والتنظيم ووضعنا أدق التفاصيل لإقامة عرس بكل الطقوس والتقاليد واتفقنا مع أشهر فرقة غناء شعبي ومع أشهر «غزية» في المديرية ، ووفرنا كمية كبيرة من البيرة الانجليزية السوداء مشروب خاله المفضل

ثم بضعة زجاجات من الشمبانيا ودعونا خمسين شخصا فقط من الأصدقاء والزملاء المقربين جاءوا بحشد من الهدايا وحافظوا تماما على السر .

وتأمل أحد المدعوين العروس وهي تجلس في الكوشة وبفستان الفرح وقال «كان محمد كريم على حق ، أي نموذج للجمال المصري»!.

وتسللت الأم قبل بدء الاحتفال ، وصحبت «أمي» صديقتها الحميمة ، وقبلت العروسين وشربت كوبا من الشربات ، وأخرجت علبة فتحتها وأخرجت عقدا ثمينا وقالت :

- هذه هي الشبكة يا ملكة ، ولكن هديتي سأقدمها لك يوم الفرح الذي سوف أقيمه في السراي ، أنت بنتي وأصبحت زوجة ابني وسوف تصبحين ست البيت واستريح أنا .

والقت ملكة بنفسها بين ذراعي حماتها وأجهشت في البكاء وهي تقول :

- أنت ستي وتاج راسي وسوف أظل طول عمري أخدم التراب تحت أقدامك.

وانطلقت الاثنتان في البكاء وقام الخال بفض الاشتباك قائلا :

«الليلة فرح .. كفاية»

وغادرت الأم

وبدأ الاحتفال بعد انتهاء المشهد الدرامي وكانت ليلة مرحة صاخبة تذكر في تاريخ الأفراح والليالي الملاح .

وصعد العروسان إلى غرفتهما وجلسنا أولا لنهنيء أنفسنا على إحكام التدبير والتنظيم ثم لنحسب العواقب والاحتمالات وأولها بالطبع موقف «البك الكبير».

قال الخال «أنه لن يجرؤ أن يغضبها وأمامها يغدو كالقط الأليف ، وسوف يسخر ويقول هذه نهاية التدليل، وهو ابنك وأنت حرة فيه وإن شاء الله لايكون قد أتى لك بضرة في البيت ، وهكذا ، ولم يقتنع أحد منا تماما ولكن قررنا الصمود لكل ماسوف يحدث .

وذهبت «ملكة» في الصباح لتخبر أمها وأبيها وقالت:

- باركي لي ياأمي وقولي صباحية مباركة أنا تزوجت «على بك» وهذه هي القسيمة، وزغردت الأم ، التي يبدو أنها كانت تعرف ودخلت على الأب تخبره وقال.

- ربنا يهنيكي يابنتي ، وربنا يستر .

وانطلقت زغاريد الأم لتذيع النبأ في البلد ، وكان الأب شيخ الخفر في القرية وكان من طراز خاص لا يتقاسم الغنائم مع عصابات اللصوص ، ولايتقاضى الفدية لرد المسروقات ولايفشي أسرار الحكومة وحملاتها لتجار المخدرات ويرهبه المجرمون ولا يقربون من حدود منطقة نفوذه ، ولاشك روعه الخبر ولكنه تقبله راضيا .

وبدأت المأساة في السراي ، أسوأ مايمكن أن يخطر ببال أحد ، ومن الثقيل الأليم استرجاعه حتى الآن .

التكوين

دخلت الأم في الصباح تحمل له القهوة وبدأت في هدوء ورقة تروى له القصة وقبل أن تكملها فوجئت بانقلابه إلى وحش كاسر مجنون أسرع وجاء بمسدسه وشهره في وجهها وأخذ يصرخ.

- كل هذا يحدث في بيتي ومن وراء ظهري ، أحملي كل ماالديك واصحبي أولادك وأخرجي من البيت قبل أن أقتلكم ، أخرجي ولاتعودي أبدا .

وأمسك بقسيمة الزواج وانهال باللعنات والسباب على شاهدي العقد عثمان وأنا واختصني بتهديد فريد ، سوف يجعلني أشحذ ، وسوف لا أدخل أي محكمة بعد اليوم .

وكان طرد زوجته بكل هيبتها ومكانتها ومقامها الكبير لدى الجميع أمرا لم يسبق وكان قانون أسرتها والذي لم يكسر قط أن البنت تخرج من بيت أبيها إلى بيت زوجها وتبقى حتى تخرج لترى وجه ربها ، ولم يحدث أن غضبت واحدة أو طلقت أو نشزت . وعاشت إحداهن خمسة عشر عاما إلى جوار سرير زوجها المشلول وعاشت شقيقتها الكبرى عشرين عاما مع زوج أفلس وبدد ثروته على الخمر والنساء ولكن صنعت من ابنها سفيرا ومن ابنتها مفتشة تعليم تزوجت وكيل وزارة ، وكان يضرب بهن المثل ، ثم حدثت السابقة الأولى من نوعها .

وأقسمت له أنها لو تخطت عتبة هذا البيت فلن يرى وجهها أبدا ولم يكترث وواصل الصراخ.

وتتالت «الكوارث» .

أقام الدنيا وأقعدها ولم يهدأ أو يبرد السعير حتي طلق على من «ملكة» .

وأصرت «ملكة» أن تجهض نفسها رغم كل مابذلناه من جهد لتحتفظ بالجنين وأنه شرعي وابن حلال وله الحق أن يرث ، إلا أنها كانت تعيش في رعب دائم فقد وصلها التهديد أنه سوف يقتلها ويقتل الطفل يوم يولد.

وماتت ملكة وهي تجري عملية الاجهاض عند «داية» القرية.

واستبد به الحقد والجنون واستولت عليه كل الشياطين ، وسعى حتى فصل شيخ الخفر من منصبه ثم طرده من ثلاثة أفدنة كان يؤجرها له ويعيش من ايرادها .

وأصاب على مرض لم يستطع الأطباء المحليون تشخيصه وذهبت أمه إلى القاهرة واتضح أنه اكتئاب شديد ولابد من دخوله «المصحة» وظل ثلاثة أشهر وأمه تلازمه ولاتفارقه .

وتماثل على للشفاء واستعد للخروج وطلب إلى أمه أن تشتري له حلوى يحبها « جاتوميلفي» ونزلت فرحة لتشتري لكل

نزلاء المصحة وعادت لتفاجىء بالصدمة التى زلزلت مابقى من حياتها ، لفظ على أنفاسه الأخيرة بينما كانت تشترى له الحلوى التى يحبها !!

وترددت فى الذهاب إلى سرادق العزاء خوفا مما قد يحدث وكنت قد حرصت على تجنب أى مكان يكون فيه الأب ، وفوجئت به يحتضننى بحرارة ، ويقول: سامحنى يابنى - سامحنى يابنى

- ألم يكن فيكم من يضع عقلى فى رأسى!

ووجدت شيخ الخفراء فى السرادق ولم استغرب موقفه وجلست إلى جواره ، وقال لى البك «مسكين» أصابه مرض السكرى ولاياكل أو ينام وكما تراه «مهدود» لايكاد يقف على رجليه .

وجاء «عثمان» وأخبرنا أنا وشيخ الخفراء أن «الوالد» يريد رؤيتنا بعد نهاية العزاء .

ورافقناه إلى «السراى» التى كان يعيش فيها مريضا وحيدا ، وقال أن له طلباً واحداً عندى هو أن أخبر أمى أنه يشعر بقرب نهايته وأن تقنع «الست» بالعودة إلى بيتها .

وطلب منى ومن عثمان أن تقنع شيخ الخفر بأن يقبل العودة إلى منصبه من أجل مصلحة الناس ، وأن يعود إلى زراعة الأفدنة الثلاثة وأنه على استعداد أن يكتبها باسمه لو أراد .

وكان شيخ الخفر قد رفض تماما وأصر على أن يعمل فلاحا أجيرا ولايعود.

وتعهدنا له بذلك ، بعد أن قبل رأسه واعتذر له وقال

- ذنب ملكة عند الله يحاسبنى عليه .

- وحينما نقلت رسالته إلى أمى قالت: قالت لى أمى هذا مستحيل إنها تريد أن تبلغ النيابة وتتهمه بقتل ابنه.

★★★

ووصلت إلى المكتب وانتظرت بعض الوقت قبل أن أصعد ، لابد أن أرد هذه الذكريات وكل مايصاحب بعثها من آلام وأن أعيدها إلى «مدفنها» البعيد ، والتقينا واحتضن كل منا الآخر بحرارة وشوق عارم ، وارتفعت الكلفة على الفور ، وبدا وكأننا كنا معا بالأمس ولم يمر مايقرب من عامين على آخر لقاء .

- والله سلامات يابو حميد .

- والله زمان ياأبو عفان .

- أظن نخرج نتعشى.

- لا مانع .

- أين تريد أن تأكل .

- فى الأوبرج طبعا .

- مع جلالة الملك .

- والله وحشنا ونحن مقصرون فى حقه .

وحينما اتجه نحو الملهى قلت له

- إنى أمزح.

- ولماذا لا تقلبها جد.

أنا أيضا وحشنى جلالته .

واتجهنا إلى الملهى «الملكى» الشهير.

• تنقية التراث فى الأزهر •

● ردا على ما نشر بمجلتكم الغراء بعدد يونيو ١٩٩٦ فى باب (أنت والهلال) بقلم السيد / فتحى حافظ أحمد الحديدى بخصوص ما نشرته الصحف عن انشاء مركز للدراسات الاسلامية لتنقية التراث بجامعة الأزهر ، نريد أن نوضح أن المراد هو تصحيح ما يوجد من أخبار مكذوبة وأحاديث موضوعة وضعيفة لا أساس لها ، ومهمة المركز بيان درجتها وتنقيتها ، برجاء التكرم بتوضيح ذلك ونشره .

● أ. د. أحمد عمر هاشم
رئيس جامعة الأزهر

• حسرة •

لام التاريخ أبا موسى .. خدعته أحابيلُ الفطنه
ضحى بكريم الوجه لكى لا ترقص أشباح المحنه
ومضى بالوزر الأكبر فى إقبال الناس على الفتنه
فإذا أحفاد أبى موسى .. قد ضموا العار إلى اللعنه
وعيون الخصم الطامع ليست تترك من يومض عينه
لا ترحم ذلا فى امرأةٍ .. لا ترعى لكبير سنه
وذكرت زمانا بزغت فيه الشمس على أفق المشرق
تنثر حبات النور تمزق ثوب الظلم وتتألق
كانت فيضا من نور الله تضىء العالم أو تحرق
والتف حواليها التاريخ ليغرف نورا يتدفق
والفسق الآثم يهرب من عفو الرحمن ويتمزق
وارتشف الناس رحيق النور أمانا بالحكمة ينطق

شوقى محمود أبو ناجى
أبو تيج

● طريق السالكين ●

● ان اهتداء السالكين أمر تابع ومعقب لجودة نظرهم فى مستقبلات ارتحالهم والتى عنها تجيء التوابع .

وإن من سلك دربا مهولا مهلكا ونجا أضاء له مصباح رأيه حين يبتغي سلوكه مرة أخرى .

وإني لعلي مذهب شيخى أبى العلاء حين يخاطب أهله فى المعرة حيث يقول :

أإخواننا بين الفــــرات وجلّق
يدَ الله لا حدثتكم بمحـــــــال
أنبئكم أني على العهد سالم
ووجهي لمـــــا يبتذل بسؤال
وأنى تيممت العراق لغير ما
تيممه غيــلان عنــد بلال

وإذا كنت أغتر وأدعي لنفسي حقوقا هي لي ولست بمفتر ، وإذا كنتم لا تعاملون الحق فى ذات البحث عن السمو وإن المحاباة غاية ومرمي ، وإذا كان الحال ليس حالكم وحدكم فعلى المرء أن يبحث لنفسه عن مرحب يتنفس فيه والمرء يبحث عن عذر لكم فلا يجد إلا التوهم .

وعلى المرء مادام ساعيا الى ربه وباحثا عن جنة فى دنياه ليست على ربه بعيدة ، والله مقصودنا وغايتنا ، والله المساكين .

آمن القلب بالصفــاء	برحــيل إلى العـــلاء
وســرور مــعــقب	جاءنى فى ربا المساء
سـائرا كنت نحـوها	وهى تنأى إلى الفضاء
ســار صــوتى مناديا	سار صوتى إلى الهباء
أين كــانت ســعادتى	يــا بــلادا بــلا إبــاء
يا مــروجــا أحــبـهــا	فى جنان من الرخـــاء
ســار نهــر ومــركبى	فى اشتياق إلى النجاء
إن قــلـبى كـطـائـر	طار فى جنة النقـــاء
لسـت آسى لأى شىء	ليس شىء على بقـــاء
غــيــر أنى ســعــادتى	فى ظلال من اللقـــاء

سامح النجار
فارسكور

● **تعليق :**

● لم نفهم ما ترمي إليه بكلماتك هذه ، نثرا وشعرا ، ثم إن شعر أبى العلاء المعرى الذى تستشهد به لا يدخل فى باب التصوف ولا يسلك طريق « السالكين » الذى تتحدث عنه !!

● قصيدة الطموحات ●

طموح الشمس ان تغفو ... على حور اللمي ليلا
وتدرس سر حقل الثغرِ ... تحصى القمح والنخلا
وتحسو خمرةً حمراء ... إذ يحبو الدجى جذلى
طموح البحر أن يشرى ... لآلىء عينك الشهلا
وموجا عاشقا كم فى ... رذاذ لجينه قتلى
وفيروزا وأصدافا ... سفينة سندسٍ عجلى
طموح البدر أن يهوى ... بغمازل آيةً تُتلى
يمرغ أنفه بالترب ... تحت خطاك يا نجلا
ويهدى ضوءه لضفيرة ... من حزنها خجلى
طموحى أن أجن كقيس ... كُونى فى دمى ليلى

د. هيثم الحويج العمر
دمشق

● مر ... وحلو ●

أيها القلب تصبر ... قد تعودت التغير
إن يكن أدماك جُرح ... آنفا أدماك أكبر

فاقبل الآلام واضحك		واخلط المر بسكر
وانس دمعا ياسمينا		يخمش الوجه المنور
وترنم بجراحى		غن لحنا يتكرر
قل أماتوا الزهر لكن		سيفوح الزهر أكثر

طارق محمود مراد

• حب الله •

● أرجو من سيادتك التفضل بقراءة إحدى خواطرى ، التى لا أريد أن أتجنى على الشعر وأطلق عليها لقب « شعرا » ، وأتمنى أن أجد رأيك فيها :

أين من قلبى العشق
أين من نفسى الحب
أتوق لحب ، يملاء ، القلب
أتوق لحبيب يهذب النفس
أين أجد حبى الأول
أين أجد نصفى المكمل
أيتها الزهرة المجهولة
أنا ، لكى ، ربيعا وطيورا
أسأل القلب دوما :أيا منهم ، يملاءك ،
حب الله ورسوله ، أم حب الأنثى وجنونه
أجاب : ثلاثة لا غنى عنهم : الله ورسوله والهوى

حسن أبو الوفا فواز
طالب بكلية الحقوق (أولى)
- جامعة عين شمس

● تعليق :

● كلامك مبهم وغائم ، وفى شعرك ونثرك أغلاط إملائية ولغوية ونحوية ، خصوصا فى شعرك الذى هو نثر لا أثر فيه للأوزان الشعرية !

أنت والهلال

• قصة السخان •

• قرأت في الهلال عدد يولية قصة الكاتبة أهداف سويف « السخان » ولاحظت أن الحدث الرئيسي للقصة يدور حول موضوع الكبت الجنسي حيث يعاني بطل القصة الذي لا تفوته صلاة ، ويتم التنفيس عن هذا الكبت برغبته الشديدة في شقيقته ذات الستة عشر عاما ، تلك الفتاة اليتيمة التي يتولى هو أمرها بعد وفاة والدهما .

والقصة بهذه المعالجة اللامنطقية تفتقر الى الصدق الفنى ، لبعدها عن واقع شبابنا ومخالفتها لأخلاقنا وقيمنا، وربما من المناسب إعادة كتابتها بحروف لاتينية لنشرها على القارىء الأوربى أو الأمريكى ، فقد تعتريه الدهشة من أحداثها مثلما تعترينا الدهشة ونحن نقرأ رحلات جلفر أو رينسون كروزو أو نحو ذلك .

د. محمد على ريان
ادارة المطرية التعليمية

• تعليق :

• هذه مصادرة تامة منك ياعزيزى القارىء لوجهة نظر الكاتبة !

• شوقى ضيف والدراسات الأدبية والنقدية •

• عرض الدكتور شوقى ضيف سيرته الذاتية فى كتابه « معى » بجزئيه ، ويتناول الكتاب رحلته من القرية الى الأزهر وصولا الى الجامعة وهو طالب بكلية الآداب قسم اللغة العربية ، تجلت موهبته الأدبية وهو فى السنة الثانية من الجامعة حين كتب مقالة تحت عنوان « حول الوضوح والغموض » فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٤ ، والتى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وكان يكتب بمجلة الرسالة فى تلك الآونة كوكبة من الأدباء ومفكرى مصر .

وتعد مؤلفات الدكتور ضيف من ذخائر المكتبة العربية ، وتتنوع مؤلفاته بين الدراسات القرآنية ، ودراساته فى تاريخ الأدب العربى ، وفى الدراسات النقدية والأدبية، والدراسات البلاغية والنحوية ، وفى مجموعة نوابغ الفكر العربى ، وفى مجموعة نوابغ وفنون الأدب العربى ، وفى التراث المحقق ، نهاية بتفسيره الميسر للقرآن الكريم والذى توج به أعماله ، ومازالت هذه المؤلفات هى نبعا ومعينا لدارسى اللغة العربية وآدابها .

علاء الدين عمرو حمودة

• أقطف زهـــرة •



أقطف زهره
وفتاة تركض فوق العشب
تمسك بالحبل وتقفز ،
فيبوح الجسم بكل الأسرار !
وأنا أرقبها لحظات
تلمحني .. تخجل مني ..
وتهندم ذاك الفستان !
تذهب عني ..
تقطف بعض الأزهار
أتبعها .. نتلاقى ..
في منتصف البستان
أهديها الزهرة مبتسما
ترمقني .. تمضي !
والعطر يفوح برقتها
فيصيب فؤادي بدوار !
يشرد ذهني .. أقطف زهره
ألتفت حولي أنظرها ..
ألمحها فوق رصيف الشارع ،
تتأبط شخصا ..
أهدته .. كل الأزهار !
أقطف زهره !

السيد السمرى
بور سعيد

أنت والهلال

● دثرينى ●

دثرينى
دثرى قلبى على هذا اليقين
واسكبى أنغامك السكرى .. حنينا يحتوينى
إن نور الفجر لا يجفو عيونى
دثرينى
واذكرى .. أن نخيل الصبح ينمو فى جبينى
وربى الآفاق تمتد غصونا فوق أشجار حنينى
دثرينى ..
واتبعينى ..
وانقلى الخطو على دربى المبين
دثرينى
أنت تسبيحة فجر
وعقود مرمريه
فيك أسرار أبيه
وعلى أشواقك الخضراء
ينمو شوق « ليلى الأخيليه »
فامسحى عن جبهتى حر شجونى
دثرينى
من رياح الخوف والأمواج تجتاح سفينى
وأزيلى بقعة الأحزان من جفن عيونى
قد نمت أغصان حب .. وهدى حلو اليقين
يكمل الدورة فى قلبى ..
فضاءات .. وألوانا .. وشوقا يعترينى
وتسابيح طيور غردت فاقت ظنونى
دثرينى .. دثرينى .

محمد فؤاد محمد على
مطاى – المنيا

• الباقى والمنصرف •

تفجر شريان أغنية ، غمر الكون :
فيض دم أنبت الحزن ،
يابلدى .. شهقت زهرة المولد ، ارتج والدها فى الزجاج
وألقى على روحه نظرة ،
يسبح الروح فى مخمل الدم ، والجسم ملتحف بالعدم !
بلدى .. شهقت زهرة العرس ساقطة من على فرس ،
والعريس يقيس بأغنية حشرجات الرؤى ،
الوقت مرتحل ، والمرافىء : وصل السنا بالتراب !
وتبقى البلاد تذكر ظبيا بوكر الذئاب الذى كان ،
والظبى شمسا يصير وأغنية ،
شجرا وينابيع ،
والوكر يهرب فى الظل ،
يكمن فى جبل فى محيط الضياء يضيع !

عبد الرحيم الماسخ
سوهاج

• مع الأصدقاء •

● **حمدى عبد المالك العوامرى – أسيوط :**

– قصيدتك « دعينا » طويلة نسبيا ، وهى كثيرة الأغلاط العروضية واللغوية والنحوية ومع ذلك يبدو أنكم بذلتم جهدا كبيرا فى نظمها !

● **عبد الحميد بن عبد العزيز السلمان – الرياض :**

– نرجو لكم حظا حسنا فى الحصول على جائزة الملك فيصل ، والمجال – كما ترى – ضيق فلا يمكن نشر تاريخ حياتكم وأعمالكم الكثيرة .

● **المهندس باهر سرى – مصر الجديدة :**

– نشكر لكم بحثكم القيم عن المياه الجوفية فى صحارى مصر ، ونعتذر اليكم من العجز عن النشر لضيق المقام .

● **خالد ماضى – القاهرة :**

– نشكركم على مقالكم بعنوان : « إطلالة على أهل السنة فى مصر » ونعتذر اليكم من عدم نشره لأنه يخوض فى خلافات دينية مذهبية معقدة !.

● **ونشكر أصدقاءنا السادة : علاء العوانى ومحسن عبد المعطى عبد ربه ، وأسماء محمود عبد الحميد الجلاد (ورأينا أن قصيدتها التى تلقيناها تحتاج الى مراجعة عروضية ولغوية ونحوية) وعاصم فريد البرقوقى ويحيى السيد النجار وابراهيم على أبو رمان وطلال السعيد السيد المنفى ورمضان أبو غالية وعبد العزيز بيومى على وأنور عبد الحليم وحمدى محمد عبد الملك العوامرى .**

الكلمة الأخيرة

... ولكنه وريد الحياة وشريانها



بقلم : صافى ناز كاظم

❑ عشت عمرى كله أتمنى زيارة السودان. عام ١٩٥٣، وأنا طالبة فى الثقافة العامة بمدرسة العباسية الثانوية، كانت هناك رحلة مدرسية إلى السودان لم يستطع أحد أن يشارك فيها إلا خمس طالبات من المدرسة كلها لأن الاشتراك كان يتطلب جنيهات ثلاثين لم تكن بحوزة أحد إلا بنات التجار، وبما أننى مع صديقاتى والغالبية كنا من بنات المثقفين وأهل التربية والتعليم فظللنا نتحرك شوقا، ولم أتمكن من زيارة السودان إلا أخيرا، شعرت وأنا أطل من غرفة الفندق على صفحة النيل الأزرق، الممتدة عريضة بين الشاطئين، والمتدفقة سريعة، رغم حمل الطمى الثقيل، نحو الشمال، نحو مصر، شعرت أننى فى بيتى وفاضت بى مشاعر الحب الفياض. يقولون لى : «أهلا بك فى السودان»، فأقول «أهلاً بكم فى السودان» لم أكن أجامل أو أمارس البراعة اللفظية وأنا أقول : «هنا وادى النيل المكون من اسم واحد له مقطعان: مصر والسودان».

فأنا من جيل تربى على هذا الاعتقاد الذى تربع فى القلب وجرى فى الشرايين والأوردة. كنا أطفالاً دون العاشرة وأم كلثوم تغنى قصيدة «السودان» لأحمد شوقى:

«ومصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها/ وماهو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها/ تتمم مصر ينابيعه كما تمم العين إنسانها».

لم أحفظ هذه الأبيات من الديوان. ترسبت بلحنها ولفظها فى ذاكرتى بصوت أم كلثوم الريان، وغنيتها لزميلاتى وغنتها زميلاتى بدورهن ونحن نمتحن فى ألعابنا قدراتنا المتفاوتة على الغناء وضبط النَّغم والنَّفس، وكانت هناك قصيدة أخرى زميلة لها لأحمد شوقى وكذلك غناها ولحنها عبد الوهاب مطلعها «إلام الخُلْفُ بينكم إلاما ؟ وهذى الضجة الكبرى علاما؟/ وفيم يكيد بعضكم لبعض وتُبدون العداوة والخصاما؟» وكانت تساؤلات الشاعر شوقى الغاضبة تلك التى يمتصها صوت عبد الوهاب المنون والهادىء بطبعه تصلنا أنات تؤلمنا خاصة حين يصل التساؤل إلى :

«وأين ذهبتمو بالحق لما ركبتم فى قضيته الظلاما؟/ شببتم بينكم فى القُطر ناراً على محتله كانت سلاما!

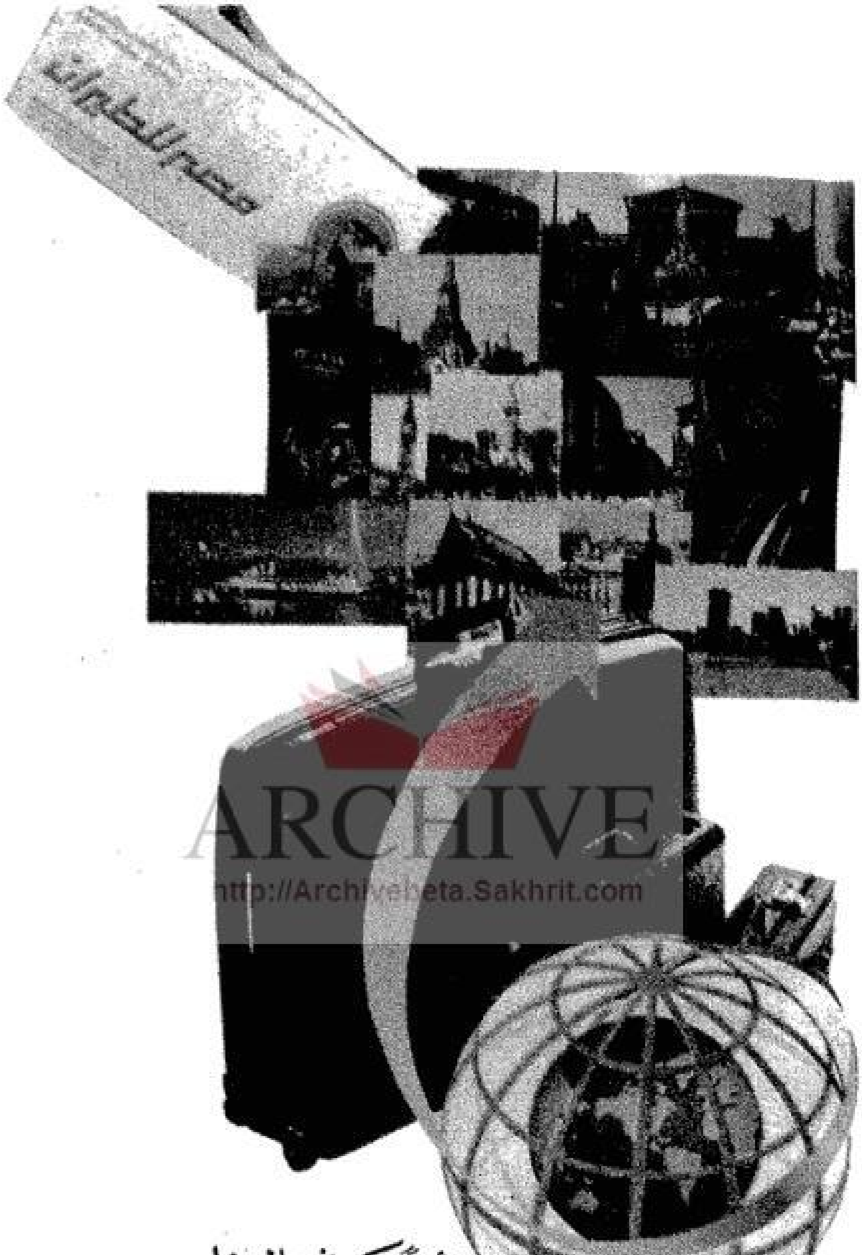
***

وفى واد مدنى ، أثناء زيارة مشروع الجزيرة وخلاوى تحفيظ القرآن الكريم – جمع خلوة – كانت الصبايا النحيفات الرشيقات الوسيمات ملتفات حولى قلت : «ياناس أموت عطشا ألا أجد كوب ماء فى أرض النيلين الأزرق والأبيض؟» جرت أكثر النحيفات نحافة وأحضرت لى كوبا مثلجاً ممتلئا بماء يتراوح لونه بين البنى والرمادى .

ترددت. قالت الصبايا : «إشربى» قلت : «كوب ماء نيلى بطميه؟» قلن: بخيره ! هكذا نحن نشربه» قلت : «أنتن تشربنه ، ومادمت معكن سأشربه» وتجرعته دفعة واحدة ولسان حالى يردد : يقولون إذا كنت فى روما إفعل كما يفعل الرومان فلماذا لا أقول : إذا كنت فى واد مدنى فاشرب كما يشرب أهلها؟!».

***

بطَمْيه بطَمْيه «فما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانُها!»



مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

أكتوبر ١٩٩٦ • الثمن ١٥٠ قرشاً

الهلال

أحمد بهاء الدين





جلسة .. تصوير زيتى للفنان العالمى بول جوجان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

الادارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدي : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

مصطفى نبيل رئيس التحرير

حلمي التوني المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

هـذا العـدد



تصميم : حلمي التوني

أحمد بهاء الدين

جزء خاص

فكر وثقافة

شعر وقصة

فنـــــــون

التكـــوين

الأبواب الثابتة

من الهـــلال إلى الهـــلال

السلام فى ذكرى أكتوبر

● يقبل علينا شهر أكتوبر حاملا معه ذكرى النصر المصرى والعربى فى عام ١٩٧٣، وحاملا معه أيضا شجون الأمة العربية وشئونها بعد أن انقضى على انتصارها التاريخى ضد الصهيونية والتوسع العنصرى المجنون على حساب الأرض العربية ثلاث وعشرون سنة ..

لم يهبط نصر أكتوبر علينا هبوط مائدة من السماء ، ولم يكن هدية من العدو ، بل جاء نتيجة مؤكدة لتلك الجهود العظيمة التى أعادت بناء قدراتنا العسكرية والشعبية فى ست سنوات بعد أن قصمت الهزيمة الشنعاء ظهرنا فى معركة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، واستطعنا أن نستوعب السلاح المتطور ، واستعدنا الثقة بأنفسنا فى سلسلة من المعارك الشاقة خلال حرب الاستنزاف عبر الشاطئين الشرقى والغربى لقناة السويس!..

لقد كانت حرب الاستنزاف هى التمهيد بالدم والنار لحرب رمضان ، وكان أبطالها هم أبطال العبور ، وفى لحن أكتوبر المجيد اشترك جميع المصريين فى أداء أنشودة العبور المهيبة !..

وجاءت معركة أكتوبر لتقفز بالأمة العربية كلها فوق حاجز العجز النفسى أمام إسرائيل وأمريكا ، وكانت بداية لمرحلة تاريخية جديدة أشرقت فيها الشمس على أرضنا وأعطتنا بعض حقوقنا السليبة ، وكادت تحطم أسطورة السلاح الصهيونى الذى لا يمكن قهره !..

واليوم ، بعد انقضاء ثلاث وعشرين سنة على النصر الذى عبرنا فيه من شاطىء الهزيمة إلى الشاطىء الآخر ، يبدو لنا أن ما حققناه بجهودنا المضنية ، مازال عرضة لامتحانات شتى ، فالتطورات بيننا وبين العدو القديم لا تنتهى إلى شىء حتى تبدأ شيئا جديدا ، كأنها فى صيرورة دائمة ، بل فى جنون دائم ، فالعدو لم يجمع جموعه من وراء البحار – كما فعل الصليبيون قديما – إلا لكى يغتصب بالحديد والنار أرضنا ويبقى فيها ، وقد بقى الصليبيون فى الأرض العربية مائتى عام ..

لقد انتزعنا نصر العبور فى عهد الحرب الباردة وقيل يومئذ إن حرب اكتوبر هى آخر

الحروب بيننا وبين إسرائيل ، لأن القطبين اللذين كانا يحكمان العالم لن يسمحا بحرب أخرى يشنها العدوان الصهيوني !.. ولكن زوال القطب السوفيتي أوقعنا في براثن القطب الأوحد الأمريكي الذي يضع على كتفه ربيبه الصهيوني الصغير صاحب الأنياب النووية !..

ويتأمل العرب الآن موقفهم فيتذكرون قول طارق بن زياد لجنوده في الأندلس منذ ألف وثلاثمائة سنة : أين المفر ؟!.. العدو أمامكم ، والبحر وراءكم !..

وعادت «المسألة الشرقية» مرة أخرى كما كانت في عهد الاستعمار القديم في القرنين التاسع عشر والثامن عشر عندما كانت الدولة العثمانية هي رجل العالم المريض ، وكان العالم يرشحها للزوال من خريطة العالم !..

وقد زالت دولة بني عثمان بعد أن أورثت العرب مرضها المزمن الذي قضى عليها ، ويتلخص في ثلاث كلمات : الجهل والضعف والتخلف !..

فما العمل الآن ؟!..

هل تستطيع أمتنا - من الأطلسي إلى الفارسي - أن تتغلب على الجهل والضعف والتخلف ، وتجد لنفسها دواءً من هذا الداء ؟!

لو استمرت روح أكتوبر فينا لقطعنا أشواطا واسعاً في هذا السبيل ، ولما كنا الآن في هذا المأزق التاريخي الذي توشك فيه كلمة السلام أن تحمل معنى الاستسلام !.

ولقد رضي العرب بكل ما تمخضت عنه المباحثات والمفاوضات السرية والعلنية مع إسرائيل ، مع أن العرب هم القتلى وإسرائيل هي القاتل ، ولكن القاتل لا يرضى ولن يرضى ، عملاً بقول الشاعر القديم : يرضى القتيل وليس يرضى القاتل !..

لقد أهدرنا ثلاثا وعشرين سنة بعد حرب أكتوبر ، لم ننتصر فيها على الجهل والضعف والتخلف ، بل شدتنا إلى الوراء دعوات نكراء يشعوذ بها دعاة مشبوهون ، وتعطي مجتمعاتنا التنازل بعد التنازل لدعاة التخلف والجهالة والظلام ، وتزداد العوامل التي تجعل المواطنين أقل انتماءً ، لأنهم صاروا أكثر عجزا وفقرا ويأسا !..

وفي غمرة هذه الخطوب القاصمة تجيء ذكرى أكتوبر القريبة منا كما تجيء ذكريات أمجادنا الموغلة في التاريخ !.. ما أعظم الأمجاد وما أقسى الذكريات !..

المحـــرر

من تراث الهلال



مطلوب مجلة تقدم
النظرة العربية الجديدة الى الحياة

بقلم :أحمد بهاء الدين

عندما جلسنا ـ الزميل كامل زهيرى وأنا ـ نفكر فى الصورة التى يجب أن تكون عليها «الهلال» لم نلبث أن اتفقنا على أنها يجب أن تكون مجلة تقدم النظرة العربية الجديدة الى الحياة .

إن مجتمعنا ـ فى مصر وفى كل قطر عربى ـ يمر بمرحلة من التجديد والتطور ، لم يسبق لها مثيل ، منذ ألف سنة !

كيف كان ذلك ؟

لأكثر من ألف سبب .

انفجار عوامل الثورة فى داخل المجتمع ذاته بعد أن طال اختمارها والتحضير لها .
اشتباك مجتمعنا بكل مجتمعات العالم عن طريق ملايين من «الاسلاك» الموصلة للتيار : أسلاك المواصلات . والصور . والسينما والإذاعة والورق ، والسفر ، اهتزاز العالم من حولنا بعشرات من التحولات الكبرى التى أحدثها ـ ولايزال ـ العلم ، والنضال الاجتماعى ، والفكر ، الطموح الغامر الى المساواة : المساواة فى الكرامة ، وفى الحرية ، وفى متعة الحياة.

هكذا تفجرت الينابيع وتدفقت الشلالات . وامتزج في الموج الصاعد المتلاطم كل شيء. القديم والجديد . الماضي والمستقبل . الألم والأمل . العقد القديمة والاندفاعات الجديدة . ومن يشك في عمق التحول وسرعته ، يكفيه أن يلقى نظرة واحدة الى أى علاقة من العلاقات المحيطة به ، وسوف يجد أنها محل جدل ، وصراع ، وتأمل : علاقة الشاب بالفتاة . علاقة الأب بالبنات والأبناء . علاقة الغني بالفقير . علاقة السلطة بالمواطنين . علاقة المادة بالفكر . علاقة الإنسان بالطبيعة ، علاقة الفن بالمجتمع . علاقة الدول ببعضها . علاقة العلم بالحرب والسلام . علاقة الأفراد بالنظم . علاقة الشكل بالموضوع.

كل هذا يثور حوله الجدل والصراع . خصوصا في مجتمعاتنا العربية . فإذا كانت بعض هذه القضايا قد وصلت الي مستقر نسبي لها في بعض الدول الأخرى هنا أو هناك فهي في بلادنا بالذات ، بوصفها بلاد نامية ناهضة في مرحلة اليقظة والتساؤل والعمل ، مازالت كلها قضايا ساخنة .

وفي هذا الموج المتلاطم لابد أن تكون لنا «نظرة» واضحة، وإلا فقدنا رءوسنا ، واختل توازننا وسحبتنا دوامات الموج الى القاع بدلا من أن تدفعنا الى السطح .. وهذه «النظرة العربية الجديدة الى الحياة» .. ليست جديدة بمعنى أنه لاجذور لها . ولكنها جديدة بمعنى أنها تنضج تحت كل شمس جديدة يطلع بها صبح جديد . إن الطائرة تحلق من مطار . والصاروخ ينطلق من قاعدة . والقمر الصناعي يسبح في الفضاء باشارات تصدر له من الأرض . كذلك فان «النظرة الجديدة» مهما بلغت ثوريتها فهي لاتغفل لحظة واحدة عن تراثها القديم .. تعتز به ، وتستلهمه ، وتعيد النظر فيه ، وتنقيه من الأوهام ، والأفكار الخاطئة ، أى تنظر اليه نظرة جديدة لا هي معتدة به ولا هي متبرئة منه .

وهذا ما يجب على «الهلال» أن تساهم فيه . إن المجلة الشهرية صديق أطول وفاء للقارىء من الجريدة اليومية أو المجلة الأسبوعية . إنها تعاشر القارىء شهرا كاملا ، قبل أن تنضم الى مكتبته حيث تعيش سنوات. إنها هناك دائما لساعات فكره أو قلقه أو تأمله ، إنها دائما هناك تنتظر ساعة فراغه من ضجة الحياة اليومية ، لمحاولة الارتفاع فوق هذه الضجة ومحاولة فهمها وتفسيرها ووضعها في «نظام» ..

وهذا مايجب أن تحاوله الهلال وما نرجو أن يتضح شهرا بعد شهر .. مع كل عدد جديد .

الهلال يوليو ١٩٦٤



أحمد بهاء الدين
شهادة للعقل والحوار

جزء خاص

بقلم : غسان تويني

الكاتب غسان تويني ، أحد رموز الصحافة والثقافة فى لبنان ، والذى كانت تربطه علاقة حميمة بالكاتب الراحل أحمد بهاء الدين . ننشر له هذا المقال الذى اختص به مجلة الهلال..

فى الكتابة عن أحمد بهاء الدين فى «الهلال» بالذات، ومن صحافى لبنانى وريث اختبار مصرى عتيق ، شىء من الشهادة.

شهادة وفاء، وشهادة فى طبائع الوفاء التى تحلى بها «بهاء»

وتتكاثر ، وتتراتب أبعاد الشهادة. بين عصارة حبر، من القلب، واحترام متناه لمن كان يكتب بصفاء عقل ولا أندر فى عصرنا العربى التائه ، مترفعا عن التعاسات التى سربلت العقول، والصغائر التى جفت بها القلوب ففسدت كلها أو تكاد، بفعل متماد من تسلط الدولة على الصحافة .. الصحافة إياها التى كان لها نصيبها كذلك، ولنعترف فى إفساد كل حكم وكل حاكم تسلط عليها. فكيف بمن عجز؟ .



تزدحم ، فى ذاكرة الزمالة ، مقالات «بهاء» التى يود واحدنا الرجوع إليها مستشهدا ، ساعة يهم بالكتابة فى ذكراه . والكثير من مقالاته ساهم فى صناعة أحداث عربية، من حيث هى الصحافة فريق فى فعل الخلق التاريخي، بقدر ما كانت المقالات هذه تفتح أمام القارئ أبواب التاريخ وهو يحدث ، فيدرك أسراره والمكتنهات.

تزدحم المقالات الذكريات ـ أقول غير أن واحدة من الأقلها أهمية تحضرنى كتبها «بهاء» فى «يومياته» عام ١٩٨٢ متحدثا عن أخلاقيات العمل الصحفى عبر استذكار أميل زيدان صاحب «دار الهلال» وكيف اكتشفه من غير أن يلتقيه، أيام خلفه فى رئاسة مجلس الإدارة، وعمل من مكتبه بالذات.

● رد الاعتبار

فى عمود واحد من «اليوميات» رد أحمد بهاء الدين الاعتبار الى الجيل اللبنانى الذى حمله ايمانه بالحريات وبمصر الى التمصر، وتأسيس بعض أكبر الدور الصحفية العربية فى القاهرة. وكانت بعدها ، كما قبلها، أيام تحتفل فيها «دار الهلال» كشقيقاتها ، بأعيادها المئوية وليس من يذكر، غير بهاء الدين للأسلاف لا فضلا ولا حتى اسما.

طبعا ، فضل أحمد بهاء الدين على لبنان والصحافة اللبنانية وأبناء جيله من أهل الصحافة اللبنانية ليس هذا فقط لعله كان وحده ... لا ، بل كان وحده الوحيد الذى هاجر معنا فى هجرتنا الثانية، من سنوات الى «المستقبل» والى «النهار» والى سوى هذه وتلك وصولا الى رئاسة تحرير «العربى» لانه كان بالفعل، لا بالقول ، يؤمن بأننا كلنا واحد لا تنفصم العروة الوثقى بيننا. حتى اذا صارت الأرض مرا سكناها . كانت الصحافة العربية



هى الوطن. ولا حدود تميز بين عرب وعرب. تمذهب المؤمنين بالقلم، يخاطب به عربى اللسان عربا آخرين ـ أولئك الذين يحملون فى صدورهم كل هموم الانسان العربى أينما كان، متى يكون توّاقا الى ممارسة حقوقه الطبيعية وجوهرة استقلال دولته بالحرية وباحترام كرامة الاحرار.

أما بعد . فلنا من سيرة أحمد بهاء الدين ـ والكتابات هى صورة الحياة النقية ـ أمثولة الأمثولات، كيف أن جيل الثورة المتمثل فيه عرف ان يثور على الثورة من غير ان يتنكر لها، بل على العكس: هو حمل أهدافها الى المدى الارفع، فى حوارية، بل جدلية عقلانية ولا أبلغ منها على بساطة التعبير، ولا اشد منها صفاء.

● شواهد بارزة

هكذا كان يتجاوز «بهاء» المفارقات التى يغرق سواه فى عذاباتها ، بل متناقضاتها . يتيه حينا ثم يبدو فى وجهها منكسرا جاحدا . وتتكاثر ، فى مواقف «بهاء» وكتاباته الشواهد على سلامة هذا المنطق، منطقه . وليس اقلها شأنا تجاوزه القطيعة بين الاجيال بتوجهه الدائم الى الشباب ، فضلا عن دعوته الى الحداثة والتجديد من غير خروج على الإرث والتقليد المقيم، وأبسط من ذلك: التوفيق بين الشغف بمنجزات الغرب المتفوقة ، والدعوة الى تعلمها بتواضع والتحضر بها من غير أن نقع هكذا فى مأزق مع طبائعنا الشرقية. ويصير السعى إلى «التنوير» هو مفتاح التفوق فى «صراع الحضارات» بل مفتاح التغلب على المتفوقين علينا الى حين.

ولا بأس أن حمل واحدنا، فى مراحل الايام العجاف ، أثقال الاساطير المتحطمة وهمومها، أليس كذلك يا بهاء؟

ذلك أن للديمقراطية و «بهاء» يعرف أسرارها . ولها جمالية فى الكتابة كما فى التصرف لا يفقهها، ولا يجيد العطاء على دروبها، الا المتواضعون أملم الحقائق البينات.

وذلك بالذات هو الفرق بين صحافة العقل العاقلة ـ وقل الهادئة الهادية ـ وصحافة المهرجانات التى تظن أن القلب شفيعها لأنها تثير فيه الهواجس وهى عن القلب أبعد، لانها الابعد عن أخلاقيات المعرفة والحوار.

وبعد، ثم بعد..

تسمح يا «بهاء»؟ يساورنى هم أريد أن أسألك عنه حيث أنت، وقد قيل انك مت مرتين!

ألا يستمر الحوار بعد الموت، أقوى من الموت؟

أظنه كذلك، والا فكيف كنت لاتزال حاضرا تخاطبنا . ولو بكتاباتك السابقات، وأنت عنا مغيب لست سنوات؟ ثم عدت اليوم تدعونا بمماتك الى مراجعة كل الذى كتبت. كأنما القول المأثور عنك أنت كذلك قد قيل: كانت لنا من حياتك عظات، وأنت لنا اليوم أبلغ منك حيا .

لا ، لا .. بطل أن يكون كل شيء قد صار «سداح مداح».

أقوال معاصرة



نزار قباني



د. أحمد جويلي



صائب عريقات

● «نجيب محفوظ راهب من رهبان الكتابة ، والرواية العربية فى حاجة الى رهبان»

الشاعر نزار قباني

● «كفاح البشرية كلها يكاد يكون محصورا فى النضال ضد غول الدولة المتوحش»

الأديب محمد عفيفي مطر

● «مصر لن تكون مستودعا لنفايات العالم»

د. أحمد جويلى ـ وزير التموين

● «لاحكم بالردة على من قال أنا مسلم»

د. أحمد كمال أبو المجد

● «نعانى الآن من أفكار ضاغطة ، خارجة عن أطر حياتنا الطبيعية ، تكرس للتفرقة بين الأديان»

الأديب ابراهيم عبد المجيد

● «عملية السلام كانت تتحرك ببطء كسلحفاة ، وكل ما فعلته الانتفاضة حتى الآن هو أنه قلب السلحفاة على ظهرها»

صائب عريقات
المفاوض الرئيسي عن منظمة التحرير الفلسطينية

● «أرض الميعاد أكذوبة»

الأب الكاثوليكي «بيير»

● «ليس لدينا دار سينما واحدة ، والمسرح غير معترف به»

المخرج السعودى سمعان العانى

● «لا سلطة دينية للحاكم بعد الخلفاء الراشدين»

الأديب سليمان فياض



”

من يصاحب أحمد بهاء الدين قارئا ، ويتنقل بين كتبه ومقالاته ويومياته ، يأخذه إلى عالم رحب، واسع الآفاق ، ويقوده إلى الأفكار الجديدة. والفنون المختلفة، ويغوص معه إلى داخل النفس البشرية فى ضعفها وعنفوانها ، ويتجول معه فى عالم غنى بالألوان والأنغام ، يختفى فيه القبح ويتألق الجمال .

ويطل على كل ذلك من خلال حس وطنى عال ، منزه عن التعصب ، ومتسلح بالعقلانية والحكمة .

“



أحمـــد بهـاء الدين وابراهيـم نافـــع



اهتم بهاء بكل ما يتعلق بالصحافة كمهنة
اجتماعات فى النقابة للاعداد لمؤتمر الصحفيين



وهذه ملامحه كاتبا ومفكرا وصاحب رسالة تدعو للحرية والتقدم طوال العقود الأخيرة من القرن العشرين ، وسيقف بحق الى جانب عمالقة الفكر محمد عبده ولطفى السيد وطه حسين وأحمد أمين .. وغيرهم .

وهو من الكتاب القلائل الذين لم تغيرهم تقلبات الأحوال ، فلم يتنكر يوما لرؤيته وفكره .

وهو برغم الصورة المطبوعة عنه ، الابن البار للمدرسة الليبرالية المصرية ، يعتبر كاتب الصفوة صاحب الثقافة الراقية ، عبرت كتاباته الاجتماعية عن توق عميق للعدل ، وله مزاج النخبة ويدعو للثقافة الرفيعة ، ولم يتجاهل يوما حقوق ومطالب الجماهير الواسعة ..

ينادى دائما بضرورة مواجهة شطط الرأى العام وعدم الاستسلام لكل اتجاهاته ، وخاصة عندما تكون غير صحيحة .

فبهاء كاتب مستقل الرأى ، فردى النزعة ، لا يرى أن خطر «الارهاب» يقتصر على العنف وحده ، ويحذر من خطر الارهاب الفكرى من حركة الغوغاء وصيحاتهم الغاضبة على غير أساس، فالاستقلال عنده لايكون تجاه الحكومة فقط بل وتجاه حلقات الغوغاء أيضا .

وكان يرى بنظره الثاقب وتحليلاته العميقة ما لا يراه الكثيرون ..

أرهق عينيه

أتاحت لى علاقتى به الولوج الى عالمه الرحيب ، والتعرف على بعض جوانب شخصيته ، ومنها ماذا يقرأ ..؟ وكيف يقرأ ؟ بعد أن أرهق عينيه فى القراءة ، وكانت متاعب عينيه أحد أسباب آلامه ، وها هو من يجد راحته وسعادته فى القراءة عاجزا عن القيام بما يحب ، فمنذ شبابه الباكر وهو يجلس على مقهى «أسترا» المطل على ميدان التحرير وينهمك فى قراءة كتاب ، وهو قارئ» لايبارى للصحف والمجلات ، وأكسبته عادة قراءة الصحف القدرة على الإلمام بما فيها بسرعة مذهلة ، بعد أن اكتسب القدرة على التمييز بين الغث والثمين ، ولا يتابع فى الدوريات السياسية وحدها ، بل تتعدد اهتماماته إلى مجالات مختلفة ، يتردد بانتظام على المكتبات لاقتناء الجديد من الكتب ، وجزء مهم من رحلته إلى أى بلد فى العالم زيارة مكتباتها ، فهو قارئ» نهم ومن أكثر المتابعين لأعمال الأجيال الجديدة الشابة ، ويسعى للقاء الأبناء الشبان والتعرف عليهم وتشجيعهم .

وإذا كان بهاء يتميز بالسرعة الشديدة فى القراءة، فهو يتميز أيضا بالسرعة فى الكتابة ، فمثلا أنجز كتابه عن حرب اكتوبر خلال عشرة أيام . ولم يكن يستغرق كتابة عموده اليومى

الذى كان ينشره فى الأهرام سوى بضع دقائق . وعندما أبديت له دهشتى من هذه القدرة ، قال : إن معاناتى الحقيقية فى الوصول الى الفكرة وطريقة معالجتها. هذا هو الذى يستغرق الوقت، وعندما تكتمل فى ذهنى فلا تستغرق كتابتها وقتا ، ويبدى دهشته للمقالات الطويلة التى يكتبها البعض ، والتى لاتقوم أحيانا على أية فكرة !

ووصل تأثيره الى ما لا يحلم به كاتب ، حتى أصبح إذا تناول أحد الكتب فى كتاباته فسرعان مايبحث عنه القراء ، وإذا قدم مسرحية أو فيلما أقبل عليها المشاهدون، أو كتب عن أحد المعارض يتردد عليه الكثيرون، بعد أن عرف عنه ذوقه الرفيع ومصداقيته العالية .

مفتاح شخصيته

إذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين، أو سعيت للتوصل الى مفتاح شخصيته، وسبب جاذبيته، والقبول الكبير الذى يتمتع به والمصداقية التى تحققها كتابته ، فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة ، المزيج بين الحس الوطنى العالى والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ الى المستقبل ، مع مسحة انسانية وهى كلها بادية للعيان فى شخصيته وأعماله .

ولم يكن غريبا لمن شجت رأسه فى حادث كوبرى عباس يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦، خلال مشاركته فى مظاهرة تطالب بالجلاء، أن يكون أول مانشره من كتب عنوانه «الاستعمار الأمريكى الجديد» والذى صدر فى منتصف يونيه سنة ١٩٥١، ويكتب قائلا .. «كنا قرأنا تاريخ بلادنا وعرفنا أن الحرب العالمية الأولى أعقبتها الثورة المصرية الأولى على الإستعمار الانجليزى، ثورة ١٩١٩ ، واقتنعنا بأن هذه الحرب العالمية الثانية لابد أن تعقبها ثورة أخرى نخوضها ونكون وقودها» ..

وظلت المسألة الوطنية – طوال حياته – على رأس اهتماماته ومركز كتاباته .

واحتل مكانته فى الحياة الفكرية والصحفية كالشهاب ، معتمدا على قدراته ومواهبه ، ففى مايو عام ١٩٥٦ ، تقدم «كتب للجميع» كاتبها فى كتاب «مبادىء وأشخاص» ويومها كان عمره تسعة وعشرين عاما ، ورئيس تحرير مجلة «صباح الخير» ، ونشر أربعة كتب هى «الإستعمار الأمريكى الجديد» و «فاروق ملكا» و «أيام لها تاريخ» و «شهر فى روسيا» وترجم عن الزعيم الهندى نهرو كتاب «الثورات الكبرى» ، وهذا يعنى إن مصر عام ١٩٥٦ ، كانت تفتح ذراعيها لأولئك الذين يملكون الموهبة، وتغلب على المجتمع روح التشجيع والاحتفاء من جيل قائم بأجيال جديدة على عكس مانشاهده اليوم ! .

الكاهن والفرعون

وعالج بهاء باقتدار المعادلة القديمة بين الكاهن والفرعون، أو الكاتب والسلطان ، فالكاتب يسعى لاستقلاله ، والسلطان يسعى ليجعله صدى لأفكاره وكيف له أن يكون كاتبا مؤثرا



ومرموقا والسلطان يمسك بالمنابر التى يخاطب الكاتب من خلالها قراءه ، مما يفرض عليه تجنب الصدام مع المؤسسة، ولكن كيف يحقق مكانته إذا نادى بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وتبقى المسألة كيف للكاتب أن يحقق مكانته ويحافظ فى ذات الوقت على مسافة بينه وبين السلطان، لاتتسع حتى تتحول الى هوة عميقة !

ولعل هذه المسألة كانت قضية بهاء الأولى التى جاء حلها على حساب صحته عندما تمزق بين الفكر والفعل .

ودفع ثمنا غاليا للحفاظ على حريته واستقلاله ، وكثيرا ما ناله الأذى ، وخاصة مع بهاء الذى ترتبط مشاعره وأحزانه بتجارب وطنه ، وما يحققه من تقدم ، تتغير حالته الصحية مع حالة أمته ، مما أدى إلى إرتفاع السكر والضغط وإصابة القلب فى وقت مبكر ، عندما رأى مشروع النهضة فى عنفوانه ، ثم رآه وهو يهوى ويتراجع ، ونصحه الأطباء بأن يتقاعد .

فماذا جرى بين الحاكم والكاتب ؟!

لم يعرف بهاء الرئيس عبد الناصر طوال فترة حكمه ، ولم يلتق به لقاء شخصيا رغم وجود مساحة مشتركة بينهما ، ورغم مصاحبته للرئيس فى كثير من رحلاته الخارجية ، وقال لى الاستاذ هيكل : أن لديه تسع رسائل كتبها الاستاذ بهاء لعبد الناصر فى ظروف مختلفة ، وأن فى نيته نشرها .

ولم تمض الأمور بينهما فى يسر وسلاسة دائما ، فاعتبر بهاء انتقاله من رئاسة تحرير أخبار اليوم الى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال بمثابة نفى له ، أو أحد صور تحديد الإقامة ، يقول بهاء .. «إن نقلى من جريدة يومية هى أوسع الصحف إنتشارا الى مجلة اسبوعية بالنسبة للكاتب كنقل مطرب من ميكروفون الإذاعة إلى ميكروفون فى سرادق ..» ولكن ذلك لم يحدث ، ونجح بهاء فى القفز وتخطى تحديد الإقامة وانتقل بمجلة المصور الى آفاق واسعة عندما أصبحت أهم مجلة أسبوعية فى الوطن العربى، ينتظرها القارىء العربى فى كل مكان .

وتوالت الأحداث وفيها مايوجع القلب ، فكان تأثير الانفصال بين مصر وسوريا عليه كبيرا ، أما هزيمة يونيو فكان لها تأثير سلبى على صحته ، ووقعت الهزيمة وهو فى باريس ، وشهد الهزيمة غلا وحقدا فى عيون الغرب .

ويرسل من باريس رسالة دامية الى زوجته تقطر حزنا وألما ، ويسيل الدمع من جديد عندما تطأ قدماه أرض الوطن .

ويأتي عهد الرئيس السادات ، وينقله تعسفا من دار الهلال ويستقيل مرة وينقل مرة أخرى من الأهرام الى هيئة الاستعلامات ، ويستقيل ويعتبر مفصولا مرة أخرى ، ويعود ويحتل أهم منصب فى الصحافة المصرية رئيسا لتحرير الأهرام ، ويصاب في هذه الفترة بأول جلطة فى الدماغ .

أخذ النظام يبدل أفكاره وأهدافه مع تولى الرئيس السادات السلطة ، وكان مطلوبا تطويع الصحافة لأهداف المرحلة الجديدة ، وخلال هذه الفترة صدر قرار نقل بهاء من دار الهلال الى روزاليوسف ، ويرفض بهاء ويقدم استقالته ، ويكتب رسالة الى الرئيس السادات يقول له فيها.. «لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتابا ودكاترة في كل مجال ، ولكني لست أحد إختراعات الثورة ، وقد كنت رئيسا لتحرير أكبر جريدة فى مصر وهى أخبار اليوم .. ومن حقى أن يؤخذ رأيى فى أى أمر يتصل بى ، ولا أتحرك كقطعة شطرنج من مكان الى آخر!..».

وعمل كاتبا فى الأهرام ، وإذا طاشت هذه الضربة معه ، فلتستمر أنواع أخرى من الضغوط ، ويدفع بهاء ثمن عناده ، ويصدر قرار بنقله من الأهرام الى مصلحة الاستعلامات مع مائة وعشرين صحفيا وكاتبا منهم يوسف إدريس ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ، ويرفض بهاء مرة أخرى تنفيذ النقل ويكتفى بالبقاء فى البيت .

وتظهر محنة الكاتب الحقيقية ، فها هو ذا بعد أن احتل أرفع المناصب فى الصحافة المصرية ، يجد نفسه بلا عمل أو سند ، وبجرة قلم ، وفى وضع لايستحق فيه حتى معاشا من مؤسسة التأمينات الاجتماعية ، التى اشترطت - وقد قامت فى أوائل الستينيات - أن يكون قد مضى خمسة عشر عاما لكى يستحق أى فرد الحصول منها على المعاش!!

ويبدو أن قرارات النقل هذه استهدفت تطويع الصحافة فى ظل العهد الجديد ، عن طريق الصدمة الكهربائية التى كان يجيدها الرئيس السادات .

ولم تنجح هذه الطريقة مع بهاء ، فهل إذا فشل العقاب ينجح الإغراء ؟.. وهل تنجح الجزرة بعد فشل العصا ؟..

تولى بهاء رئاسة تحرير الأهرام بدلا من على أمين فى ظروف دقيقة ، ومرت سنتان على حرب أكتوبر دون الوصول الى نتيجة ، وبدأ التململ من جديد بعد فرحة الانتصار ، وظهرت الدولة عاجزة ، وفى هذه الأثناء أصيب بهاء بجلطة فى الدماغ فى أوائل عام ١٩٧٥ ..

ويروى فى كتاب «محاوراتي مع السادات» .. «أنني لا أتعب من العمل الصحفى ، بل أشعر فى نهاية أى يوم مهما طال من العمل الصحفى المحض بنشوة وراحة نفسية .. ولكن الإرهاق الحقيقى يأتى من التوتر والقلق والضيق وعدم اليقين مما يحيط بالعمل ، وشعرت..



أني أدافع عن قيثارتي ، ولا أعزف ألحاني» .

ويضيف بهاء .. «ومن أول لحظة لمرضي سألني كل طبيب فحصني نفس السؤال .. ما الذي أزعجك بشدة في الثماني والاربعين ساعة السابقة على المرض في ذلك الصباح؟.. قلب كياني في هذه الفترة خبر قرأته يتحدث عن ضبط مؤامرة «التفاحة» . وهي قضية تجسس لبلغاريا ضمت عددا من خيرة المثقفين ، وبرأتهم المحكمة – ويكمل بهاء وأذكر كيف زلزل هذا الخبر كياني ، وسألت نفسي . كيف استمر في الحياة العامة في ظل هذه الظروف؟..

وانتهت تجربة بهاء المريرة بترك رئاسة تحرير الأهرام ، وذهب بعيدا رئيسا لتحرير مجلة العربي في أوائل عام ١٩٧٦، بناء على نصيحة الأطباء ، واستمر يكتب مقاله الأسبوعي «حديث الأحد» في الأهرام ، ويكتب خطب الرئيس السادات بين وقت وآخر . واستمر هذا الوضع حتى كتب مقالا يعترض خلاله على إلغاء وزارة الثقافة وضمها الى وزارة الإعلام وترك هذا المقال استياء كبيرا .

ومرة أخرى يصدر الرئيس السادات أمرا بمنع بهاء من الكتابة ، فعندما أعلنت نصوص اتفاقيات كامب ديفيد كتب مقالا تحليليا نقديا للإتفاقية ، ولم ينشر المقال ، وصدر الأمر الثاني بمنع بهاء من الكتابة .

ويكون بهاء قد تعرض خلال ثماني سنوات الى النقل من مكانه كعقاب مرة ، وفصله من العمل الصحفي مرة ، ومنعه عن الكتابة مرتين".

جريمة العصر

وجاء عهد جديد ..

وعاد أحمد بهاء الدين الى القاهرة ، يكتب يومياته في الأهرام ، وإذا أعدنا السؤال الذي وجهه له الأطباء خلال أزمته الصحية السابقة .. ما الذي أزعج بهاء خلال الثمانية والأربعين ساعة السابقة على إصابته بإنفجار في شرايين المخ ؟.. مع تسليمنا بامتزاج حياة الكاتب برسالته وارتباط الظروف العامة بحالته الصحية؟.

يبدو إن مطلع عام ١٩٩٠ كان بصفة عامة، عام انكسار وإنحسار ، لاحت بشائر هيمنة المشروع الصهيوني ، وبدأت الضغوط المؤثرة المطالبة بالغاء كل مظاهر المقاطعة لإسرائيل ، واتخذت خطوات مهمة لالغاء قرار الأمم المتحدة الذي يقرر أن الصهيونية حركة عنصرية ، وبدأت .. «إحدى جرائم العصر الكبرى بكل المعايير، وهي نقل حوالي نصف مليون يهودي



الكتاب الأول لبهاء صدر عام ١٩٥١



أحمـــد بهـاء الدين وحديث مع مصطفى نبيل

روسى الى إسرائيل ، ليشغلوا الضفة الغربية ، وتساءل بهاء في يومياته (٢٧ يناير ١٩٩٠) ألسنا شركاء في جريمة العصر هذه ..؟!

وأثبتت الأيام أن هذه الهواجس والمخاوف كان لها مايبررها ، فبالفعل يقوم المهاجرون الروس اليوم بإقامة المستوطنات في الضفة والقطاع ، وأصبح لهم سبعة أعضاء في الكنيست الإسرائيلي الراهن!..

وظهر أن أحداث هذه الفترة كانت التمهيد للانقسام الحاد الذى شهده العالم العربي بعد غزو العراق للكويت وما أعقب الغزو من عاصفة الصحراء .

وسقط بهاء فريسة الصمت والمرض ، وهو يعمل على إصدار بيان حول جريمة العصر ، وشاركته في الأسبوع السابق على مرضه في الاتصال من أجل توقيع البيان ، وصاحبته خلال هذا الأسبوع الى مكتبه في الأهرام ، أحاول أن أخفف عنه عبء إنجاز البيان وجمع التوقيعات عليه .

ولم ينقطع الزوار من التردد على مكتبه ، كل يأتى يحمل شكواه ، يسمع لكل واحد منهم في صبر ، ويتألم من عجزه عن تقديم يد العون لهم ، وظهر خلال هذا الأسبوع بادى الإرهاق، ولم أفلح في إقناعه بالراحة وتركى أقوم بما يريد القيام به .

وكانت إصابته يوم جمعة (٢٣-٢-٩٠) ، إتصلت به صباحا ، وقال لى بالحرف الواحد «إنى متعب جدا ، وأشعر أنى مضعضع» ورجوته أن يستريح وطلب منى أن أذهب اليه بعد الظهر ، وأن أتولى نشر البيان في أخبار اليوم .

وقبل الموعد ، إتصلت بى السيدة قرينته تبلغنى بإصابته ، فسارعت إليه ، وتم نقله الى المستشفى في رحلة استمرت مايزيد على ست سنوات .

رحم الله أحمد بهاء الدين كاتبا مصريا، أعطى لوطنه الكثير ، وكان مثالا فريدا للولاء والانتماء للوطن ، الذى ينبع عن إيمان عميق بحق المصريين في حياة أفضل .



سر الاجماع على

أحمد بهاء الدين

جزء خاص

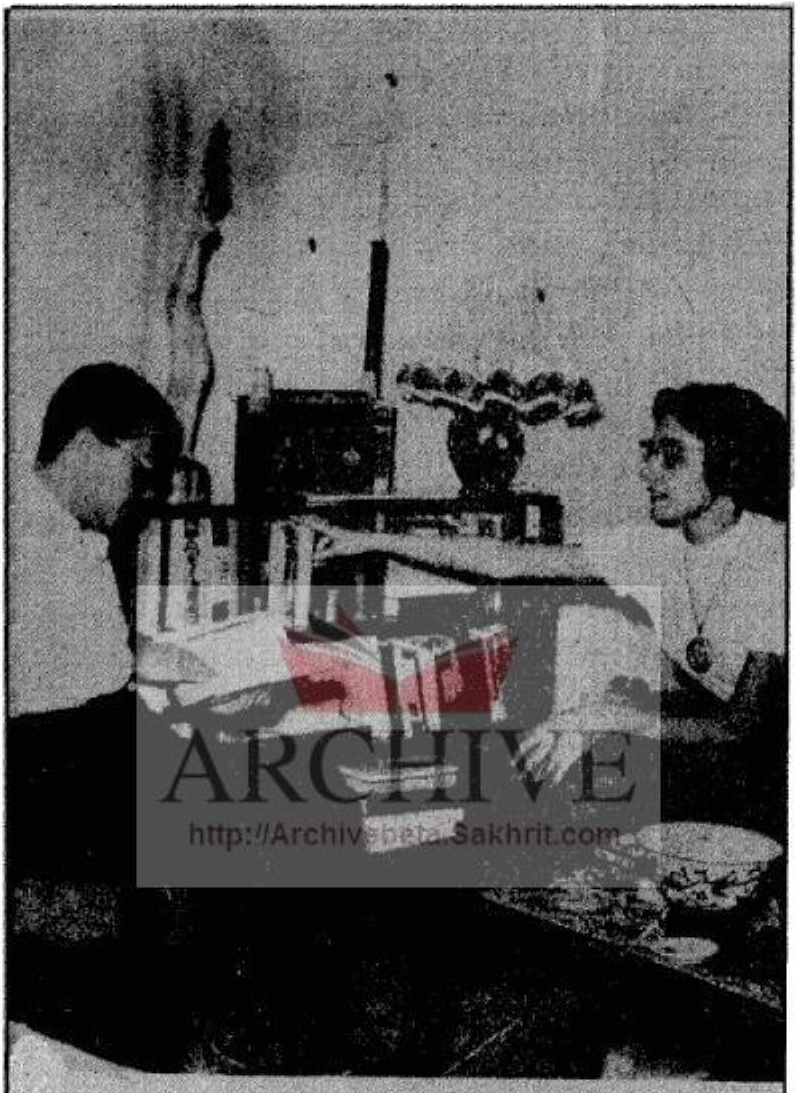
بقلم د. جلال أمين

لابد أننا جميعا قد لاحظنا هذا الاجماع على تقدير وحب أحمد بهاء الدين الذى ظهر بمجرد سماع الناس بخبر رحيله. والظاهرة جديرة بالتأمل إذ أنها لاتتكرر كثيرا ، بل إنى أجد من الصعب جدا أن أتذكر مثلها .

نعم كان حزننا عميقا علي فتحي رضوان وصلاح جاهين وجمال حمدان ، وكتب كثيرون كلاما رقيقا جدا علي ليلي مراد بعد وفاتها ، ولازالت ذكري عبد الحليم حافظ تثير مشاعر المحبة والحزن لفقده لدى الكثيرين عاما بعد عام . ولكن الاجماع علي أحمد بهاء الدين من نوع مختلف : في مداه وشموله لطوائف متعددة من الناس : سياسيين ومثقفين وصحفيين وفنانين وقراء عاديين ، ومنتمين الي مختلف الأحزاب : حاكمة ومعارضة ، ومختلف الاتجاهات السياسية ، محافظين ويساريين ، متحمسين للعروبة أو متحمسين للمصرية ، ومختلف الاتجاهات الفكرية : علمانية وإسلامية .. إلخ .

خطر لي أن السبب قد يكون شعوره الوطني القوي ، وقد كان الرجل كذلك بالفعل ، ولكن الوطنيين كثيرون ، ومنهم من ضحى بدخول السجن أو التشرد سنوات طويلة بينما لم يدخل بهاء السجن قط ، وظل بهاء دائما يحظي بالمنصب الرفيع فى عالم الصحافة وبيسر الحياة ، حتى عندما اضطر لأسباب سياسية الى الابتعاد عن مصر بضع سنوات .

وخطر لى أن السبب قد يكون تعدد اهتماماته فهو كاتب صحفي ولكنه أيضا يحب ويكتب فى الأدب والتاريخ والموسيقى والسينما والفنون الشعبية ويهوى تخطيط المدن ، ويهتم بالاقتصاد ومختلف القضايا الفكرية ، السياسية والاجتماعية ، حتى ما كان منها



أحمد بهاء الدين مع زوجته ديزى



على درجة عالية من التجريد، والمثابرة فى بلده أو فى أقصى مكان فى العالم .

قد يكون هذا هو السبب في انتشار قرائه بين مختلف طوائف الناس مع اختلاف مشاربهم واهتماماتهم ، ولكن هذا لايفسر الاجماع عليه حتى من بين أصحاب المواقف المتصارعة فى كل قضية من هذه القضايا .

نعم ، كان مؤدبا رقيق الحاشية ، ولكن ما أكثر المؤدبين رقيقى الحاشية ، الذين لا يحفل بهم أحد . وعلى أى حال فإن بهاء لم يكن ملاكا ولا أحد يتمنى لو كان كذلك فهو شديد الغضب اذا غضب ، قد يعبر عن استيائه بهدوء ، ولكنه لايترك هذا الاستياء محلا للشك أو التخمين.

كان شريفا لايستعبده منصب أو مال ، ولكن ما أكثر الشرفاء أيضا ، الذين ليستعبدهم المنصب أو المال ، وفى كل شارع فى مصر يمكن أن تجد عشرات المصريين الشرفاء الذين لم يرتكبوا فى حياتهم سلوكا شائنا أو باعوا أنفسهم للشيطان ، ولكن لايسمع بهم أحد ولايحس بهم أحد . صحيح أن الشيطان لايعرض كل من هب ودب للاغراء ، ولايستطيع كل شريف أن يجمع من المال والنفوذ لو شاء ما كان يمكن لبهاء جمعه وتحقيقه لو أراد ذلك، والشرف على أى حال لايقاس بعدم الخضوع للإغراء الا إذا كان هناك إغراء أصلا .ومع كل ذلك فليس من الصعب على المرء أن يضرب أمثلة لشرفاء كثيرين من نوع أحمد بهاء الدين تعرضوا للاغراء فلم يرضخوا له .

قد يقال إن الحزن العميق على بهاء هو كالحزن العميق على صلاح جاهين وفتحى رضوان وجمال حمدان ، وأمثالهم ، هو فى الحقيقة حزن على مرحلة تاريخية بأكملها كانت عزيزة علينا ثم انتهت ، وكان كل من هؤلاء يعبر تعبيرا واضحا عن أحد جوانب هذه المرحلة ، ومن ثم فإننا كلما فقدنا واحدا منهم تذكرنا من جديد مافقدناه بانقضاء هذه المرحلة الى غير رجعة . هذا صحيح أيضا ، ولكن لماذا هذا الاجماع الذي لم يتوافر فى رأيى ، لكل هؤلاء الذين ذكرتهم بمثل ماتوافر لأحمد بهاء الدين ؟.

صفة نادرة

إن التفسير الذى ارتحت اليه هو الآتي : إن أحمد بهاء الدين كان يتمتع بصفة هى الصفة النادرة حقا بين الموهوبين من الناس ، وهى «عدم تضخم الشعور بالذات» أو عدم

المبالغة فى تقدير الذات . قد يستخدم وصف «التواضع» للتعبير عن هذه الخصيصة ولكن المتواضعين «تواضعا حقيقيا» من يعانى فى الحقيقة من هذا التضخم فى الشعور بالذات وإنما يكون التواضع عنده حتى إن لم يكن مصطنعا نتيجة مجرد اعتقاد بأنه على المرء ألا يتعالى علي الآخرين ، دون أن يكون هذا هو الشعور الداخلى أما بهاء فكان بالفعل «فيما بدا لى» خاليا من هذا الشعور بالمبالغة فى تقدير النفس ، أو بعبارة أكثر عامية «لم يكن يأخذ نفسه مأخذ الجد بأكثر من اللازم» . وقد ترتب على ذلك بعض الصفات الأخرى المهمة للغاية فى الكاتب والرجل العام ، منها تغليب الصالح العام علي الصالح الخاص، والنفور الشديد من الكلام عن النفس بأكثر مما يجب ، ومن الانشغال بالصغائر وتوافه الأمور بمبرر وبدون مبرر ، والقدرة على التعبير الصادق عن الموضوع حتى لو أصاب الكاتب نفسه بعض الأذى منه ، وعلي التمييز بين المهم وغير المهم ، والزهد في أى محاولة للتظاهر بماليس فيه بما في ذلك انتهاج أسلوب معقد وملتو فى الكتابة لإخفاء مالا يجب أن يخفى أو للايهام بما ليس حقيقيا ، فضلا عن الأدب الجم فى الكلام عن الناس ، وعدم المبالغة فى الهجوم والنقد ، وسرعة السيطرة علي النفس عند الغضب ، والميل الى رؤية المغزى العام للحدث والتغاضى عن آثاره الفردية والخاصة وتشجيع الموهوبين من غير المشهورين وافساح مجال الشهرة أمامهم ، والشعور بالفرح الحقيقى لدى رؤية نجاحهم ومساهمتهم فى النفع العام .

هذا هو السبب الأساسى «فى رأيى» في الاجماع علي أحمد بهاء الدين إذ غفر له حتى خصومه فى الرأى «فيما عدا أصحاب الذوات المتضخمة جدا» مواقفه المختلفة عن موقفهم لأنهم كانوا جميعا يشعرون بهذه الصفة فيه : تجرده الرائع «فى الحدود الممكنة طبعا» دون أن يفقد المرء أى رغبة فى العمل» من ذلك التغليب الشائع للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة بسبب تضخم الشعور بالذات . أكاد أتخيل أحمد بهاء الدين وهو يتصرف ويشعر «كأب» حتى وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، فما بالك وقد حظي بأقصى درجات النجاح والمجد التى لم يكن يمكن أن تتاح لصحفى وسياسى يقاوم من أجل الاصلاح ؟

لابد أن هذا النجاح وهذا المجد قد جعلاه سنة بعد أخرى ، أكثر زهدا في تحقيق مصالحه الخاصة ، وأكثر حربا علي الآخرين ، وهذا هو بالضبط مالمسناه منه في الحقيقة



أحمد بهاء الدين

أكثر بساطة . أكثر وضوحا . أعم فائدة

جزء خاص

بقلم : مصطفى الحسينى

اذا كان الواحد قد عرف أحمد بهاء الدين شخصيا، تلامست حياته بحياته أو تقاطعت أو تداخلت، فمن الصعب جدا ان يكتب عنه كتابة غير شخصية. فما بالى اذا كان هو الذى أدخلنى الى هذه المهنة . مهنة الصحافة والكتابة، أو بالأحرى وعلى الأدق هو الذى استدرجنى إليها، وكنت طالب حقوق، دخلت كليتها عن غير رغبة، وببساطة لا أعرف ماذا سوف أفعل بنفسى، وكنت مشغولا بالسياسة، إنما ليس بالكتابة ولا بالصحافة، وفى التاسعة عشرة من عمرى .. وسعيت الى التعرف عليه فى نطاق اهتمامى بالسياسة، لكنه استدرجنى الى الكتابة. ولن أروى القصة، لأن مغزاها لا يتجاوز الكثير مما كتبه غيرى، عن الذين ادخلهم بهاء الى المهنة وتولى رعاية من احتاج لرعايته، وقطع حبل الرعاية عمن رآه فى غير حاجة اليها ، أو من اعتبره قد شب عن طوقها، أو عمن ضاق به منهم مقتنعا انه أخطأ اختيارهم.

لكنني سأحاول أن أكتب كتابة غير شخصية، ولأسباب كثيرة لا محل لها هنا وانما منها، أنني لا أتذكر ان بهاء قد كتب «مرتين» لأحد. قد يكون قد فعل، لكنني لا أتذكر، وأظن أنه لو فعل، أو لو كان فعل، لما كتب كتابة شخصية، أي لما كتب عن علاقته بمن يرثى أو يؤبن، ولا عن «مناقبه» الشخصية، تفضيلا للحديث عن المناصب العامة، أي التي تتصل بالناس وما يهم الناس.

ثم إنني منذ سنوات قليلة فوجئت بملاحظة عن علاقة «بهاء» بالأشخاص الذين يكتب عنهم وان كان لا يعرفهم معرفة شخصية، والملاحظة لها بداية أو مقدمة لابد من سردها. كان «بهاء» معجبا بكاتبين بريطانيين شقيقين هما الدوس وجوليانى هكسلى، وكثيرا ما أشار اليهما في كتاباته خصوصا، كتاباته المبكرة (هل كانت له كتابات مبكرة وأخرى متأخرة؟ أظنها كلها مبكرة، تسبق غيرها، انما نتصالح على التقسيم بمعيار الزمن) وحسب ذاكرتى يبدو انه كان اكثر اهتماما بكتابات الدوس، وقد تعرفت على افكارهما، قبل ان أقرأ القليل الذى قرأت من أعمالهما. عن طريق كتابات «بهاء» وفى تلك الكتابات كان الدوس هكسلى يبدو مثل «بهاء» أى باختصار نير التفكير. منضبط السلوك.

منذ سنوات قليلة وقعت مصادفة على بعض الاعداد القديمة من مجلة «باريس ريفيو» وهى مجلة كان يصدرها (لعلها مازالت تصدر . لا اعرف) عدد من الكتاب والفنانين الامريكيين الذين اختاروا الاقامة فى فرنسا بالذات وفى اوروبا على العموم، وفى أحد هذه الاعداد القديمة قرأت حديثا اجرته المجلة مع الدوس هكسلى الذى كان قد انتقل إلى امريكا وعاش فى كاليفورنيا. أين المفاجأة؟ فى الحديث اكتشفت ان الدوس هكسلى ليس منضبط السلوك كما رأيته من خلال كتابات بهاء . ففى جزء من الحديث يتكلم بشغف شديد عن مخدر الـ «ال . اس . دى» الذى عرف عندنا باسم «عقار الهلوسة» . بل ويدعو الناس الى استخدامه. ويدعو القوانين الى اباحته، لانه على حسب قوله يساعد الانسان على اكتشاف نفسه وعلى رؤية حقيقية وعميقة للعالم!

وجدت نفسى أتساءل ، ولم يكن ممكنا ان أسأل بهاء وبسبب حالته الصحية لماذا قدم لنا الرجل على هذا النحو. لماذا اخفى عنا هذا الجانب من شخصيته؟.

واسترحت الى اجتهاد بينى وبين نفسي: ان بهاء قرر اعادة صياغة الرجل، لانه سيقدمه الى قراء قد يتأثرون به، وهو يريد ان يتأثروا بالنير والمفيد من افكاره ولايريد ان يتاثر هؤلاء القراء بسلوكه ، الذى قد تزينه لهم افكاره، خصوصا انه كان يعرف ان كثيرا من قرائه شباب قد يربطون بين افكار الرجل التى تعجبهم وبين عقار الهلوسة..



ما أردت أن أقوله . هو انه فى تصورى هكذا كانت علاقة بهاء بالكتابة عن الاشخاص يكتب عن افكارهم ولا يكتب عنهم. وفى الكتابة عنه أحاول السير على منواله.

* * *

من آثار أحمد بهاء الدين الباقية فى الصحافة العربية «بابان» أو «زاويتان» استحدثهما فى مجلة «صباح الخير» عندما اصدرها عن دار روز اليوسف سنة ١٩٥٦ الزاوية الاولى كان اسمها «درس فى المبادىء» والثانية كان اسمها «صفحة نظرية».

وقبل هذا لم يكن لهما فى الصحافة العربية والمصرية نظير أو شبيه. وبعدها عرفت الصحافة العربية افساح صدرها لهذا اللون من الكتابة.

وكانت هناك صلة بين الزاويتين أو الصفحتين، تتضح لو تجرأنا بالتعديل على عنوان الثانية منها. فبدلا من صفحة نظرية نقول حوار بين المذاهب وهنا تتضح الصلة.

المبادىء هى القيم اما المذاهب فهى التعبير عن هذه القيم فى التفكير أو فى السلوك هى الاجتهاد فى ممارسة المبادىء على سبيل المثال: العدل قيمة، أى مبدأ، اما الاشتراكية فهى مذهب فى تفسير العدل، صورة من تطبيقات العدل. لكنها ليست العدل نفسه، ولذلك استطاعت الرأسمالية ـ فى بعض مذاهبها، ان تقدم نفسها هى ايضا وكأنها تفسير للعدل وتطبيق . كما فى القول إن العدل يتحقق بالمساواة امام القانون، وانها وحدها تكفى لاقامته، أو انه فى مبادلات السوق يأخذ كل واحد ما يستحقه وهذا هو العدل.

وقد كان هذا فقط للتوضيح الذى يكف اللسان والقلم عن الاستطراد، حققت هاتان الزاويتان لدى قرائهما ذلك التمييز الضرورى بين المبادىء والمذاهب. وهو تمييز وليس فصلا، وبذلك فهو يعنى انك تستطيع الاختلاف على المذهب . لكنك لا تستطيع الاختلاف على المبدأ.

وهذا مهم جدا فى التأسيس للحوار، أى لأى حوار مفيد.

وكان احمد بهاء الدين هو الذى يكتب دروساً فى المبادىء اما «صفحة نظرية» فقد كانت مفتوحة للجميع، يتحاور فيها اصحاب المذاهب حول المبادىء.

وفى كتابات بهاء نفسه . نقرأ بين السطور هذا التمييز بين المبادىء والمذاهب انما على تعديل يثير الانتباه.

فهو لم يتمذهب في كل ما كتب، انما لم يكن ابدا محايدا حيال المبادىء .

أما التعديل. فهو ان المذاهب في نظره ، أو بمعنى أدق ما اقتنع به من مذاهب، كانت مثلا علميا يتطلع إليها وتتطلع اليها الانسانية وانما دون ان يحتويها قالب محدد، والقوالب المحددة من أهم صفات المذاهب.

فالحرية ، بمستوياتها المتعددة . بدءاً ، من حرية التفكير والاعتقاد ـ حرية الضمير ـ الى حرية ابداء الرأى، الى حرية ممارسة هذا الرأى، اى تحويله الى سلوك ، كانت كما تقرأها في كتاباته، مثلا اعلى.

ومن صفات المثل الاعلى انه لا يتحقق ابدا، أى لا يتجسد ابدا كاملا مكتملا . لذلك يبقى ملهما وحافزا ودافعاً ويبقى اساسا للسعي الانساني الذى لا يهدأ ولا يكل.

الحرية مبدأ ومذهب

كانت الحرية، فيما كتب احمد بهاء الدين، مبدأ ومذهبا في الوقت نفسه، أو مبدأ تتوزعه مذاهب، من الاختيار الوجودى، الى الديمقراطية البرلمانية.

ولم يكن ينحاز إلى هذا او ذاك. يراها كلها طرقا الى الحرية وسبيلا ، كل منها سبيل الى مستوى من مستويات الحرية القيد الوحيد عنده. وربما اعتبرته مذهبا. هو الحساسية . الحساسية حيال حريات الأخرين، وحيال قيم المجتمع وظروفه وربما لانه كان يعتنق هذه الحساسية لم يقع في ذلك التمييز الذى شاع في زمنه بين الحرية السياسية والحرية الاجتماعية ، وهو التمييز الذى اتخذ تبريرا لبعض سياسات العدل، كما لبعض سياسات القمع.

الاشتراكية ايضا مثل اعلى، قد تتحقق عن طريق الملكية العامة لوسائل الانتاج . هذا مذهب قد تحقق بالادارة الذاتية. مذهب أخر، قد تتحقق عن طريق الضرائب التصاعدية ، التى تأخذ من الذين يملكون لتعطى الذين لا يكسبون ما يصون كرامة انسانيتهم. مذهب ثالث. الحكم في صلاحيتها جميعا للظروف والبيئات والتطورات والتفاعلات، انما تبقى الاشتراكية تعبيرا سلوكيا عن العدل، مثلا اعلى . مكانها في الحياة وفي التاريخ هو مكان المثل العليا. لا تحقق انما لا تذوى ولا تموت. انما تلهم.

لم يكن المتعامل مع المذاهب باعتبارها مثلا عليا هو موقف بهاء . اى لم يكن هو مجرد موقفه، انما كان منهجه ايضا.



من يقرأ ماكتب يراه يحتفل بالتفاصيل وبالجزئيات . بما يعتبره كتاب كثيرون مسائل صغيرة، بينما مهمتهم هي القضايا الكبيرة.. لكنه لم يكن يقف عند التفاصيل والجزئيات والمسائل الصغيرة، انما كان يمشي عليها الى القضايا الكبرى، الى الكليات من يترك حنفية ماء مفتوحة لا يحرص على المال العام مثلاً .

وكان هذا الدخول من التفصيلي الى الشامل ومن الجزئي الي الكلي، متصلا برؤيته الى المذاهب فأصحاب المذاهب، يفعلون العكس. ينظرون الى التفصيلي والجزئي واليومي من خلال الكلي والشامل، لذلك يغفلون عن كثير من حقائق الامور وجواهرها .

ولعل هذا المنهج هو الذي جعل ما كتب احمد بهاء الدين اكثر بساطة واكثر وضوحا وأعم فائدة.

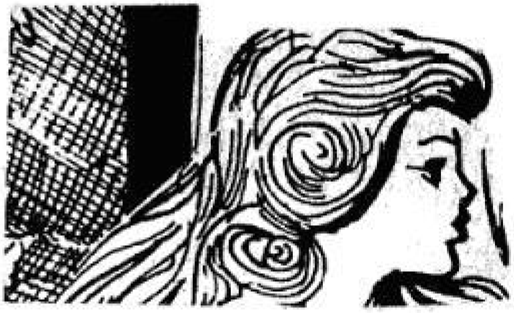
وقد يلفت النظر لانه يخالف القاعدة أنه رغم انه كان يكتب عن مسائل ، جارية راهنة فان الكثير مما كتب قد بقي وسيبقى لتقرأه اجيال لاحقة .

ياريم

شعر :

محمد خليل الزروق
بنغازى

لأنت المنى ، ياريم ، والحب والغزل ★ وما تألف الأرواح ، أو تعشق المقل
أيوقد مصباح ، ويضرب معزف ★ وينكر بعد الطيب والخز والعسل ؟
فما بال إبعادى ونفسي مشوقة ★ إليك ، وتعتلين ، ياريم ، بالعلل ؟
وتستسهلين الهدم فيما بنيته ★ وتقتيل ما أحييت ، يا ريم ، من أمل
ومن شأن مقرورين أن يتقاربا ★ وكيف ؟ ومالي منك ، ياريم ، من بدل
فلا تتركيني للمواجيد أرتجي الـ ★ مقادير أو أحتال ، ياريم ، بالحيل
ورفقا بنا من «لا» ، فلاؤك فتنة ★ وقولى : «أجل» ، ياحبذا قوله «أجل»
وإن تغفلى عن أمرنا أو تغافلى ★ فما القلب يوما عنك فى ساعة غفل
وقد هدنى العذال فيك ملامة ★ فلم ألق بالا للذى قال أو عذل
فأما هوى نفسي فعندك كله ★ ولا شيء لى منكم سوى الشوق والوجل
ضربنا ربيعا موعدا لقائنا ★ فهذا ربيع قد حل ياريم، وارتحل
حريص عليها ، وهي ليست حريصة ★ عليّ ولكنى بها دائم الشغل



كيف تناول أحمد بهاء الدين التاريخ



جزء خاص

بقلم : د. عاصم الدسوقى



لم يكن أحمد بهاء الدين مجرد كاتب صحفي تشغله الهموم الجارية من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، يعلق عليها معارضا أكثر منه مؤيدا ، وناقدا شديد النفاذ الى جوهر المشكلة حتى ليجعل القارىء يصل معه الى حلول، ويتبنى وجهات نظر من تلقاء نفسه . ولم يكن هو ذلك الكاتب الذى يسعى الى الضوء بغية الشهرة والانتشار على حساب مايعرف من حقائق الموضوع الذى يكتب عنه . وأذكر أنه قال مرة أن ما يكتبه من حقائق عن موضوع معين أقل مما يعرفه لأنه لايستهدف التجريح والتشهير ، وانما يسعي للجدل الموضوعي الذي يربط النتيجة بأسبابها الموضوعية وليس بعوامل ذاتية لأن هذه العوامل أقرب الى العاطفة وأبعد عن العقل .

وهذا السعى للفهم الموضوعى للظاهرة هو الذى جعل من أحمد بهاء الدين قارئا متميزا للتاريخ ، وليس باحثا مدرسيا يكتفي بالتنسيق بين المادة العلمية المأخوذة من مختلف المراجع ليصوغ منها فى النهاية بحثا يبدو موضوعيا ، ذلك أن بهاء الدين يقرأ وقائع التاريخ فى ضوء العقل لأنه يعلم أن التاريخ دراسة عقلية أى سببية تقوم على البحث عن علة الشيء.

وعلى هذا فلقد كانت لبهاء ملاحظات دقيقة على مراحل التحول وتجارب الشعوب والحكومات فى الحركة السياسية استخلصها من تحليله للظروف الموضوعية فى ضوء فلسفة العقل التى قيد نفسه بها ، وقبل أن تبدأ دراسة التاريخ فى الجامعة المصرية فى ضوء التطورات الاجتماعية والاقتصادية على يد نفر قليل جدا بفعل تيار الواقعية الذى حفرته ثورة يوليو ، كان أحمد بهاء الدين قد قدم لنا رؤية منهجية فى تاريخ حركة الشعوب المناضلة وتاريخ مصر على وجه الخصوص كما سوف نرى . وهو بهذه الصفة يقف على رأس المدرسة الاجتماعية الاقتصادية المصرية فى تفسير التاريخ حتى قبل أن يصدر شهدى عطية الشافعى فى عام ١٩٥٧ كتابه الشهير «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦» .

رؤية تاريخية

وقبل أن ينتصف عام ١٩٥٦ كان القارىء قد تعرف على رؤية أحمد بهاء الدين فى



التاريخ والتى نثرها فى كتاباته المختلفة على التوالى وهى : النقطة الرابعة أو الاستعمار الأمريكى الجديد . وفاروق ملكا ، وأيام لها تاريخ ، وشهر في روسيا، والثورات الكبرى ترجمة عن نهرو ، ورسائل نهرو لابنته ترجمة لكتاب لمحات من تاريخ العالم ، ثم مبادىء واشخاص (مايو ١٩٥٦) ، وبعد حرب يونيه ١٩٦٧ وفى إطار التأكيد على الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل قدم كتابه «اسرائيليات» للتعرف على طبيعة الصراع وأصوله ، هذا فضلا عن يومياته المثيرة الفنية التى جمع بعضها الأهرام ونشرها فى ١٩٩١ تحية له بعد أن توقف عن الكتابة .

وإذا كان أحمد بهاء الدين لم يكتب كتابا تحت عنوان تاريخى بالمعنى الاصطلاحى فإن هذه المقالة عبارة عن محاول أولية لتحديد مفهوم التاريخ عنده من خلال أفكاره التى نثرها فى صفحات كتاباته .

تبدو أهمية التاريخ عند كاتبنا فى قوله أن الانسان حيوان ذو تاريخ وليس حيوانا ناطقا أو ضاحكا أو عاقلا .. لأن التاريخ هنا مصدر المعرفة والتعلم .. وكل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذى سبقه يستفيد منها .. والانسان بهذه الميزة وحدها يتطور ، وهو ما لايتعلمه الحيوان . ومن شأن التجربة المعروفة أن تجعل الانسان يعلم فى أى طريق يمضى التاريخ ، ويتعلم كيف يتجنب أن يكون رجعيا . وهذا يعنى فى النهاية أن التاريخ هو الفرق بين الانسان الواعى وغير الواعى (أيام لها تاريخ ص ٥ -٧) أما الحقيقة التاريخية فإنها تظل على الدوام ناقصة وتحتاج الى جهد جهيد لاستكمالها (شهر فى روسيا ص ٧) . وعدم وجود الحقيقة لايعنى أن يكون التاريخ نبشا للقبور ، وأن تكون كتابته على هوى الكاتب لأن من يفعل ذلك يخلق سابقة محزنة ، والفرق بين السياسة والتاريخ يجب أن يكون واضحا ، وأن محاولة كتابة التاريخ المعاصر فى هذه الحالة يجعل الأمر أشبه بحرب أهلية كلامية لأن الصراع يكون على تاريخ قريب وأطرافه المشاركون فيه لا يزالون أحياء ، وقضاياه لا تزال بعيدة عن قول الكلمة الأخيرة فيها (يوميات هذا الزمان).

التاريخ حلقات متصلة

ويؤكد بهاء الدين على أن تاريخ أى شعب من الشعوب عبارة عن حلقات متصلة

بصرف النظر عن اختلاف درجة المد والجزر بين هذه الحلقات من حيث تغير النظام السياسي ، إذ يبقى الشعب هو الوقود الأساسي لحركة التاريخ.. ففي روسيا لاحظ أن الحزب الشيوعي الحاكم لايقول للناس أن تاريخ روسيا وكفاحها يبدأ بثورة ١٩١٧ ، بل إن الناس ينقبون فى زوايا تاريخهم عن كل بطل مجهول لينفضوا الغبار عنه (شهر فى روسيا ص ٢٦) .

ولكل شعب من الشعوب درجة من الخصوصية في تطوره تتصل بالظروف الموضوعية ، ومن هنا فإن المقارنة مثلا بين اليابان ومصر تكون مقارنة غير موضوعية .. فمصر التي كانت تسبق اليابان في النصف الأول من القرن التاسع عشر ضربت وخربت لأنها وسط الدنيا ومعبر القارات ومنطقة الوصل بين الشرق والغرب ، وعروبتها وإسلامها يجعل نفوذها القوى عدوى تنتشر في دائرة أفريقية أسيوية كبرى ، وهذا أمر غير مقبول من القوى الكبرى في كل زمان (يوميات ١٩٨٤/١٠/٦) .. وجزء من خصوصية الشعوب ما ينعكس في عاداته وأدبه وفنونه المختلفة (مبادىء وأشخاص ص ١٢١) .

***

لقد بدأ تعرف أحمد بهاء الدين على التاريخ بدراسة الأبطال والبحث عن دور الفرد .. يقدم للناس الفكرة من خلال الرجل ، والحقيقة أن البحث عن البطل يتفق الى حد كبير مع تكوين الانسان في مرحلة مبكرة من عمر الشباب الذى يتطلع الى المثل ليحتذيه فى حياته ، ومن ثم فليس أقرب الى الوجدان من قراءة سيرة الزعماء في كل زمان وفى كل مكان وفي كل مجال . غير أن كاتبنا بدأ تدريجيا يتخلى عن الإطار المثالى المجرد للحركة ويقدم البطل من خلال الفكرة .. البطل باعتباره تجسيدا لظروف موضوعية وليس استحضارا من عالم خفى . ولقد ساقه هذا المنهج الى الاهتمام بدراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية أكثر من الاهتمام بدراسة نفسية الاشخاص ومشاعرهم ، لأن تلك الظروف هى التي تصنع الأشخاص وتحدد لهم مشاعرهم وأفكارهم وتصرفاتهم .

وعلى هذا الأساس نراه في قراءاته المتنوعة يبحث عن الظروف التى تكمن وراء التحولات ويركز عليها في استعراضه لما يقرأ .. فيختار كتاب «التفسير السياسى للموسيقى» ليقول لنا أن موسيقى الشعب في عهد الاقطاع تقدمت موكب التطور واتخذت شكلا نضاليا لتتغنى بقصص وأناشيد يرددها الفلاحون .. قصص تمجد البطل الخارج على القانون السائد والذى يسعى لمساعدة الفقراء وتحقيق العدالة (قصة روبين هود) ثم



كيف تحول الموسيقى من عازف خصوصى للنبيل فى بيته الى موسيقى يعزف فى مكان عام يؤمه عدد كبير من الناس .. ومع سيادة المذهب الاشتراكى استمدت الموسيقى مادتها من حياة الطبقات العاملة وهكذا .

احتكار العلم

ونراه يركز فيما يقرأ على أن التقدم العلمى ليس له نتيجة سوى تعزيز استغلال القوى الكبرى للقوى الصغرى والاستبداد بها ، وهذا معناه أن احتكار العلم وحجب أسراره يعد مرحلة متقدمة فى تاريخ الامبريالية . وبما أن مبدأ «لا أخلاق فى السياسة» هو الذى أصبح سائدا فإن العلاقات الدولية فى إطار هذا التفوق العلمى تسير على أساس التوازن الدقيق الذى لايسمح بانفراد دولة واحدة بقوة غير عادية . ومع هذا فإن بهاء الذى يدرك حقيقة انفصال الاخلاق عن السياسة فى العلاقات الدولية يرى أن الاتفاق العلنى بين الدول أفضل من الاتفاق السرى لأن الاتفاق العلنى يجعله أمام رقابة الرأى العام وما يتبع ذلك من وضع مصالح الشعوب فى الدرجة الأولى من الاهتمام فضلا عن أن العلنية تعلى من قيمة المبادىء الاخلاقية والانسانية فى ساحة المنازعات (مبادىء وأشخاص ص ١٩/٣٣/٤٠/٤١/٤٣ - ٥٤) .

وفى هذا الإطار الموضوعى لحركة التاريخ فى المجالات المختلفة استوعب أحمد بهاء الدين طبيعة الحركة الثورية التى تستولى على السلطة وكيف أن كل ثورة لايمكن أن تنجح دون إجراءات دكتاتورية تضع مبادئها موضع التطبيق .. ذلك أن التطور والتغير لايتم سلميا .. ولو كان يتم سلميا وبالاقناع لما قامت الثورات ، ولكن واقع الأمر فى تاريخ كل البلاد أن كثيرا من التغيرات التقدمية تمت بطريقة الثورة .. هكذا عرفت الثورة الانجليزية دكتاتورية كرومويل ، وعرفت الثورة الفرنسية دكتاتورية اليعاقبة ، والثورة الأمريكية عرفت دكتاتورية جورج واشنطن . وكل ثورة من هذه الثورات كانت تضطر الى إنكار حق الحرية على القليلين الذين قامت الثورة ضدهم من أجل الكثيرين الذين قامت الثورة لحسابهم .. والسبب بسيط .. أن الثورة عمل عنيف يستهدف تحطيم كيان قديم يدافع عن نفسه بالعنف ايضا (شهر فى روسيا ص ٨١ / ٨٢) .

ويدرك كاتبنا تماما الفرق بين الثورة الاجتماعية الجذرية التى تحتاج الى شخصية

دكتاتورية لتحقيق المبادىء وبين الانقلاب على السلطة لصالح عصبة معينة تسعى لاختزال القوى الاجتماعية فى شخصية الزعيم الواحد ، ومن هنا كان شديد النقد للفاشية فى ايطاليا التى عاشت عشرين سنة خنقت الفن خلالها وعجزت عن إظهار عبقرية واحدة فى أرض خصبة تاريخيا لنمو العباقرة ، ذلك أن الفاشية نظام يعامل البشر على أنهم قوالب من الطوب (مبادىء وأشخاص ص ١٦٥) .

الفرد .. البطل

وحتى عندما كان يكتب عن الفرد باعتباره بطلا فى مجاله كان يستهدف التأكيد على دلالة معينة فى صناعة المبادىء من خلال الظروف .. فنراه يقرأ لنا كتاب مرجريت كولم عن شخصية بياتريس زوجة سيدنى وب أعضاء الحركة الاشتراكية الفابية وجهودهما من أجل القضاء على الفقر بدلا من الانصراف الى علاج آثاره .. ويقرأ لنا ما كتبته ابنة فيجايا لاكشيمى شقيقة نهرو عن ذكريات السجن والملاحقة لوالدتها ليشرح من خلال الكتاب حركة العصيان المدنى بقيادة غاندى وقيمة العمل السياسى للمرأة (مبادىء واشخاص ص ٧١ – ٨٧) . ثم نراه يختار من التاريخ المصرى مواقف نسبت الى أفراد صاروا أبطالا كل فى مجاله .. عبد الله النديم وقيمة النضال الثورى ، وقصة زواج الشيخ على يوسف وسطوة الفروق الطبقية التى كانت تحكم المجتمع المصرى ، ثم محمد فريد وديوان وطنيتى للشيخ على الغاياتى ليوجه سهام النقد الى الرقابة على حرية الفكر، وعن يوسف الجندى وامبراطورية زفتى ليقول أن التاريخ لثورة ١٩١٩ لم ينقب وراء سر الفلاحين الذين حاربوا الانجليز لأنه لم يقتنع بما رددته كتب التاريخ أنذاك من أن ماحدث كان عفوا وارتجالا إذ لابد من وجود منظمين (أيام لها تاريخ) .

كيف فهم بهاء الدين أسلوب الاستعمار وآلياته فى احتلال الشعوب والسيطرة عليها ؟!

لقد استخلص كاتبنا من تاريخ الاستعمار البريطانى فى مناطق العالم الثالث أسلوب هذا الاستعمار وآلياته فى إخضاع الشعوب وتحويل قياداتها لعبة فى أيديها .

ويتلخص هذا الأسلوب فى أنه كان على انجلترا أن تأخذ بإحدى وسيلتين فى الحكم .. أما أن تحكم مستعمراتها بشكل مباشر بواسطة حاكم بريطانى ، وأما أن تصطنع لها انصارا من أبناء المستعمرات أنفسهم يعملون لحسابها . وقد وجدت مع الزمن أن الوسيلة الثانية توفر النفقات وتقلل إحساس شعب المستعمرة بالاستعمار . وكان الطريق



الى هذه الوسيلة يبدأ من احتضان أسرة فى البلد الخاضع ذات مكانة مرموقة وتتمتع بقدر من القداسة وسط شعوب متدينة بطبيعتها، وتصنع من أحد أفرادها ملكا ..

وهكذا أقامت انجلترا العرش الهاشمى فى العراق والأردن . وفى السودان حيث السيد عبد الرحمن المهدى الذى يقال أنه من سلالة النبى ، والسيد ادريس السنوسى فى ليبيا ، وبعد أن تجلس الملك المختار على العرش تجعله فى احتياج دائم لها .. فإذا كانت بلده فقيرة (الأردن - ليبيا) أمدته بالأموال اللازمة وربطته بسياستها ، وإذا كانت البلدة غنية دعمت ثروة الحاكم وجعلته أكبر الملاك الاقطاعيين حتى يصبح من كبار أصحاب المصالح الضخمة التى يخاف عليها من الشعب إذا تحرر ، ومن ثم فإن هذا الحاكم لابد وأن يركن الى حماية انجلترا له . وهذا ما فعلته فى السودان حيث منحت جزيرة أبا للسيد المهدى ، وفى مصر جعلت فؤاد وفاروق يقتنيان الأرض حتى كان فاروق يخشى خروج الانجليز لأن ذلك سيضعف مصالحه ، والدليل على ذلك أن النظام الاقطاعى فى مصر لم يبدأ فى التغير إلا بعد أن خرج أحد حلفاء هذا النظام ألا وهو الملك ، وفى الهند طبقت إنجلترا الأسلوب نفسه حين خلقت عشرات العروش فى صور المهراجات ، ومضت تقوى سلطتهم وهم يردون الجميل بالوقوف ضد الشعب الهندى فلما زال الاستعمار الانجليزى تلقى هؤلاء المهراجات ضربات الإصلاح (فاروق ملكا ص ١١٦ - ١١٨) .

ومع طول فترة الوجود البريطانى فى تلك المناطق تم اصطناع كل الطبقات المؤهلة للحكم . ففى المنطقة العربية مثلا لم تخرج هذه الطبقات عن دائرة بريطانيا منذ أن أعاد الانجليز الخديو توفيق الى العرش فى مصر بقوة السلاح فى ١٨٨٢ بعد إخماد الثورة العرابية ، ومنذ ارتدى لورنس العقال فى قيادة الثورة العربية عام ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين . وقد كان لهذه التبعية آثرها على قضية فلسطين إذ لم يكن هؤلاء الحكام يملكون سوى رجاء الانجليز ومفاوضتهم والغضب منهم يوما لمهادنتهم يوما آخر ، وإنجلترا تبيعهم يوماً بعد يوم وهم يقبلون منها هذا يوما بعد يوم ، ولم يحدث التحول فى هذا الموقف إلا بظهور عبد الناصر الذى وضع القوة الذاتية والإرادة الذاتية فى أساس مقاومة اسرائيل حتى أصبح نصف العالم (المعسكر الشرقى) يعادى اسرائيل ، وأصبحت كتلة أسيوية أفريقية كبيرة تدير ظهرها لاسرائيل ، ويتردد المعسكر الغربى نفسه طويلا قبل

أن يجاهر بمساندة اسرائيل .. وهذا التحول لم يتم بالتخاطب المنبرية في الأمم المتحدة أو بتقديم مذكرات قانونية ترسل الى وزارات الخارجية في العالم . ولعل بهاء يشير في ذلك الى أسلوب مقاومة بريطانيا في مصر قبل ١٩٥٢ (اسرائيليات ص ٢١٢ - ٢١٤).

وعندما كتب أحمد بهاء الدين كتاب «فاروق ملكا» كان عليه أن يفسر سقوط النظام الملكي .. فتراه يرفض التفسير النفسي للتاريخ الذى قال اصحابه أن فاروق مجنون وأنه كان يعاني من عقدة نفسية ما .. لأن هذا المدخل هو من قبيل الدفاع عن فاروق وليس ادانته وأشبه بدفاع المحامي عن القاتل بوصمه بالجنون لينقذه من حبل المشنقة . وعلى العكس من ذلك يلجأ كاتبنا الى الظروف الموضوعية لتفسير الظاهرة ويحددها في تحطيم الدستور وتجاوزه ، وفساد الحياة الحزبية مع ظروف تربية فاروق وتنشئته (الكتاب ص ١٥ - ١٨) .

تحطيم الدستور

على أن قيمة ما انتهى اليه أحمد بهاء الدين في هذا المقام تتحدد بالزمن الذى قاله فيه ، وهو زمن مبكر كما سبقت الاشارة لأن القارىء المعاصر قد لايرى جديدا في اجتهادات كاتبنا .. ففيما يتعلق بتحطيم الدستور فإن الذى عاون فاروق في ذلك ما يسمى باحزاب القصر ودور أحمد حسنين والحاشية التى أطلقت الملك من قيد الدستور وعلموه أن كل شيء رهن اشارته ، وهي حاشية ليست من الأصدقاء الانداد بل عناصر من الخدم الذين يتسابقون على إرضائه بأى ثمن (فاروق ملكا ص ٢١ - ٢٢) .. وآية ذلك كما يقول بهاء الدين أن القصر كان يريد أن يحلف الضباط يوم تولى فاروق سلطاته الدستورية قسم «أن تكون مخلصين أوفياء للملك ومطيعين لأوامره الكريمة» .

وأما بالنسبة للحياة الحزبية التى لم تصنع تراثا من النضال الحقيقى بل كان أصحابها يبحثون في كيفية الوثوب الى السلطة والاستمرار فيها بأى ثمن أو على الأقل كان زعماؤها يتصفون بقصر النظر .. نجد أن كاتبنا يستعرض طبيعة هذه الأحزاب بنظرة دقيقة .. فالحزب الوطنى بصرف النظر عن دور مصطفى كامل في بعث الأمة من مرقدها أخطأ في طلب استقلال مصر طبقا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ ، وأخطأ في التحالف مع الخديو عباس حلمي الثاني ولم يدرك مصطفي كامل أن هذا التحالف لم يكن لتحرير مصر وإنما كان لتوسيع سلطة العرش بعد الاصطدام مع الانجليز ، فضلا عن مواقف هذا الحزب الرجعية من الأمور الاجتماعية .. إذ هاجم زواج الشيخ على يوسف ، وهاجم



قاسم أمين فى دعوته لتحرير المرأة ، وهاجم الشيخ محمد عبده مفتى الديار الذى أباح للمسلمين ارتداء القبعة مادام القصد ليس الخروج عن الاسلام (أيام لها تاريخ ص ١٠٧ - ١٠٩) .

وحزب الأمة دعا الى حكم العائلات وطالب بالجلاء بالتدريج وطالب بالدستور ليشارك فى الحكم (أيام ص ١١١ - ١١٢) وكيف أن عدم الفرق الدقيق بين هذين الحزبين أوقع سعد زغلول فى حيرة إذ كان يرى كل منهما يحمل جوانب من القوة وأخرى من الضعف حتى أنه لم ينضم الى أى منهما وإن كان صديقا لزعامتهما وكذا للشيخ على يوسف زعيم حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية (حزب الخديوى)، وقد مكنه هذا الاستقلال كما يقول كاتبنا من الفوز فى انتخابات الجمعية التشريعية عام ١٩١٣ الى أن تدفعه حركة الجماهير الى قيادة ثورة ١٩١٩ .

غير أن زعامة سعد زغلول للثورة أثارت صفوة الملك من أنصار حزب الأمة فخرجوا من الوفد مكونين حزب الأحرار الدستوريين لمناوأة سعد زغلول ، ويلاحظ بهاء الدين أن هؤلاء المنشقين هم الذين أوقفوا الدستور وألغوه وعطلوه بشتى الصور ، وهم الذين وقفوا من الانجليز مواقف سلبية فى اللحظات الحاسمة ، وهم الذين مكنهم فؤاد ثم فاروق من أن يحكموا البلاد أطول مدة ممكنة .

أما حزب الوفد ذو المكانة الشعبية الجارفة فإن كاتبنا لم يخليه من مسئولية فساد الحياة الحزبية وإن كان فى زاوية أخرى .. فالبنيان القديم للحزب أخذ يتحلل تدريجيا .. فمن ناحية فإن مكافأة الزعماء القدامى على جهادهم أتاح لهم مستوى من الحياة كاد أن ينقلهم الى طبقة جديدة فضعف ارتباطهم بالقديم .. ومن ناحية أخرى تسربت الى الوفد عناصر غريبة عنه كما يتسرب الماء الى شقوق الجدار حتى يهوى متصدعا .. عناصر ليست فيها سابقة جهاد معين ، أو تضحية بارزة ، أو بلاء مذكور وذلك بسبب أسلوب التعيين لقيادات الوفد ، ومن هذه العناصر فؤاد سراج الدين ، وعبد اللطيف محمود ، وهذا التغيير فى قيادات الحزب جعل لقيادة الوفد مصلحة أخرى تستوجب الحرص عليها بمحاولة البقاء فى الحكم أطول مدة ممكنة والمحافظة على الأوضاع التى كان يحاربها قديما .. وأصبح الوفد فى نظر كاتبنا «طبعة شعبية» من أحزاب القصر (فاروق ملكا ص ٤٢ - ٤٣) .

ولأن التاريخ حقيقة موضوعية فقد حرص أحمد بهاء الدين منذ فترة مبكرة على تصويب الإدعاءات التي أطلقت جزافا على موقف النظام الشيوعي من الدين وذلك من خلال المتابعة الواقعية وليس من خلال وكالات الأنباء .. ففي الوقت الذي كانت المطبوعات في زمن الحرب الباردة تخرج من بلاد الغرب الأوربي الأمريكي تقول أن الأديان دفنت في الاتحاد السوفييتي وتحولت الكنائس والأديرة الى متاحف يكتب بهاء الدين ويقول أنه زار في روسيا (عام ١٩٥٥) ديرا للرهبان ووجد على بابه مئات من الناس ينتظرون دورهم في الدخول .. مئات من المتدينين رجالا ونساء ومنهم بعض الشباب ، ووجد في بيت أحد الفلاحين صورة العذراء معلقة على الحائط وتحتها الانجيل تحيطه شمعتان .

ونخرج من متابعته لواقع الحياة الدينية في روسيا بأن كل شيء في روسيا تابع للدولة عدا الدين .. وإذا كانت الدولة في الاتحاد السوفييتي لاتؤمن بالدين فإنها لا تحاربه إذ تتركه لنفسه يذبل أو يزدهر . ومن ناحية أخرى فليس صحيحا أن كل الروس أعضاء في الحزب الشيوعي طبقا لكتب الدعاية .. ففي إحدى المزارع الجماعية وكان عدد أهلها ٢٥٠٠ نسمة وجد أن ٣١ منهم فقط مقيد بالحزب .. وكل فلاح في المزرعة يتمتع بملكية قطعة أرض مساحتها نصف هكتار (حوالي نصف فدان) يقيم فيها بيتا ويزرع الباقي بما شاء ويبيع انتاجه كما يستطيع .. ويقول لنا أخيرا أن الاشتراكية في روسيا لاتعني المساواة الكاملة كما يقول انصارها والذين يظنون ذلك مخطئون .. ذلك أن الناس هناك طبقات ولكنها طبقات لاتقوم على أساس الميراث أو الاملاك وإنما تقوم على أساس المركز الذي يشغله الفرد في العمل (شهر في روسيا ص ١٢٧/٢٧/٣٦/٣٣/٣٢) .

***

وهكذا .. وقبل أن ينشغل أحمد بهاء الدين بأمور الإدارة في الصحف كان في منتصف الخمسينات وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره قد حدد موقفه من القضايا العامة وحدد رؤيته للتاريخ ، وكانت كل هذه القراءات وراء تحليلاته العميقة في يومياته الشهيرة وأخذ بعد ذلك يدور في نطاق هذه العظمة الفكرية .

ولعل في شأنه تصدق مقولة عباس العقاد «لكي تكتب سطرا أصيلا.. ينبغي أن تكون قد قرأت ألف سطر» ..

أحمد بهاء الدين



وماذا حدث للمصريين ؟

جـــزء خـــاص

بقلم : كمال سعد

اهتم الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين بسلوك الناس فى حياتهم اليومية، فقد كان قارئا جيدا استوعب كل ما فى الصحف القديمة، وأصبح الفارس الوحيد الذى ينعش رسالة كاتبنا الكبير فكرى أباظة فى بابه الشهير «مناظر مؤذية»، وبيرم التونسى بمدافعه الثقيلة لايقاظ الناس، وكل الذين وهبوا أقلامهم لمكافحة الجهل والتلوث والاهمال واللامبالاة «والزنب» والهوان الاجتماعى وبقية المصائب الأخرى التى كادت أن تحول حياتنا إلى عمارات آيلة للسقوط !

كان بهاء لا يهتم فى «يومياته» بالسياسة فقط وهمومها الكبيرة، ولكنه كان مثل الجراح الذى وهب مبضعه لاستئصال كل معاناة الإنسان المصرى، ولهذا كانت معظم كتاباته سيفا مسلطا على سلبيات المجتمع وأحواله المتدنية التى لا تعجب الحبيب قبل العدو، وذلك بالاضافة إلى اهتمامه بالذوق الفنى للناس، وسلوكهم، وضرورة مراعاتهم للأصول والتقاليد، والتخلص على وجه السرعة من الآفات التى تخرب النفوس ولا تعطينا إلا عقولا ضعيفة بلهاء!

● وقد قام بهاء قبل مرضه بحملتين هامتين، حملة لمقاومة بناء

عـمـارة مكان كليـة دار العلوم، ونجح فى المقـاومـة وفى اقناع المسئولين ببناء حديقة عامة مكان أنقاض الكلية القديمة.. أما الحملة الثانية فكانت ضد تحويل مزارع وزارة الزراعة إلى عمارات لصالح العاملين فى الجامعة، واستطاع بقلمه الواضح الصريح أن يعمل على ايقاف هذا المشروع.

● وكان يرى دائما أننا نبعثر الماء، ونمتص الكهرباء، ونبنى المباني على الأرض





الخضراء، والنيل مهدد بنقص جذرى، مع أن الإنسان اكتشف ندرة المياه وسعى إلى استنباط موارد جديدة يواجه بها المصادر الناضبة لاستخراج الطاقة الكهربائية من الشمس وأمواج المحيطات وغيرها، فالادخار فى استخدام الموارد التقليدية ما هو إلا محاربة للسفاهة فى الاستهلاك !

○ وينبهنا إلى مسألة استقرت فى أذهاننا، فيؤكد أنه لا يوجد بلد سياحى، إنما الأهم هو وجود الشعب السياحى، لذلك يجد السياح هناك فى متعة الجلوس على مقهى فى زقاق رومانى ما لا يجدونه أثناء جلوسهم على شرفة فاخرة تطل على أبى الهول !

○ ويزداد اصراره على أن التقدم لا يتم فى جبهة دون أخرى، فالنهضة لا تتم إلا شاملة متكاملة، فلا يوجد بلد قمة في مجال وجاهل في مجال، لابد من أرضية ثقافية شاملة تجذب المجتمع كله إلى الأعلى والأرفع، فلا يوجد نهوض فى المعمل وانحطاط فى الذوق !

○ ويطالبنا بما يسمى الاتقان الصعب، بالاصرار على الترجمة من اللغة العربية لا عن الانجليزية أو الفرنسية، وتيسير مصدر لمؤسس علم الاجتماع «ابن خلدون» فى لغة أى دارس.

فالمعرفة عندهم هى الجدية والعمق.. إنها مفتاح الحياة الناصعة، وليس السطحية والتهريج وتسديد الخانات !

○ ويتعجب من حال التحزب عندنا وكيف أنهم لن يكسبوا أى أحد بالضرب واللكم والهتافات، ولكن المناقشة الحرة الديموقراطية هى الطريق الوحيد فى سبيل النضج، والبعد عن الطفولة السياسية، وأن تكون الديموقراطية أكثر من كلمة، وتكون حقيقة يطالب بها الحكم والمواطنين معا، ويتحدث عن الأغلبية الصامتة وسط التيارات الحركية الثلاث : الماركسيين والناصريين والجماعات الدينية، وهى أغلبية لها بالتأكيد ميول وأراء ، والمفروض أن تتنافس أى تيارات على كسب قلوبها وعقولها .

• ويتوقف عند خبر أعلنه وزير الداخلية من رفض اللواء صلاح بهجت والنقيب سامر الكيلانى لرشوة قدرها ٣٠٠ ألف جنيه من عصابة مخدرات ومكافأتهما على ذلك، فيقول إننا لا نعتبر هذا المثل شذوذا، فهناك الكثير من الرجال الشرفاء فى كل مكان، ولكننا فى مرحلة من تشاؤم الناس لما يرونه حولهم من فساد بحيث صار واجبا أن نبرز الأمثلة المشرقة فى حياتنا، لأننا بذلك لا نزيد فى مساحة الأمل فحسب، ولكن نساهم فى تغيير نمط القيم الذى سيطر على عقولنا زمنا، فى الحصول على المال بأى سبيل، ونسينا أن المال الشريف المكتسب بالعرق والجهد هو وحده الجدير بالاحترام، وأن الأمانة تجلب للمواطن فى بيئته وفى بلده قيمة لا يسبغها عليه المال الحرام ولا الانفاق الباذخ ولا الكذب والتجنى على الآخرين .

• ويلاحظ أن الناس تعودت على أن تنشط أجهزة الدولة على ايقاع الحوادث والكوارث ، ثم تخلو إلى الروتين من جديد، فالقاعدة أنه عندما تأخذ القيادة المبادرة وتتحمل مسئولياتها، يمكن فقط بعدها مطالبة الناس بالسير وراءها فى الطريق، فسطوة القانون يجب أن تقترن بالدعوة والتوجيه ولا تختلف عنها .

• ويرى أن العالم لايزال يعرفنا بالأهرامات والكرنك وأبو الهول ومآذن السلطان حسن وابن طولون، فنحن نركن ظهورنا إليها ونستريح فى ظلها، بينما الآخرون يقاومون الجليد والعواصف والبحار والزلازل والبراكين ومع ذلك يتقدمون، بينما تراكمت علينا ،ولا مؤاخذة، صفات التراخى والتواكل والبلادة وانعدام روح المغامرة، فهل كانت الطبيعة رحيمة بنا أكثر من اللازم، فجلسنا القرفصاء ؟! أم أن هذه فلسفة فارغة، من تأثير الاغتراب والتأمل، أم أن الأسباب غير ذلك؟!

• وينتقد الألقاب التى نطلقها على أصحابها بدون وجه حق، فهو يطالبنا بأن نتنازل عن ألقاب لاصقة بأداء العمل وتنتهى بانتهائه، مثل لقب ،مستشار، الذى يجب أن يستخدمه فقط من يعمل فى هذه المهنة، وبمجرد خروجه من المهنة عليه أن يودع اللقب، فالغريب أن



نجد أحيانا محامى كان يعمل مستشارا وخرج على المعاش، فيكتب على لافتته «فلان المحامى المستشار السابق بمحكمة كذا» ولأن هذا يحدث تحت سمعنا وبصرنا ونتقبله عن طيب خاطر، فهو يطالب وزير العدل بأن يتخذ اجراءا معنويا لمنع هذه الفوضى المنتشرة التى تسيء إلى كرامة القضاء.

● وعندما يدخل إلى قاعة «ألبرت هول» أكبر قاعة للموسيقى فى لندن يكتشف أنهم يتعلمون كل ما يهذب النفس ويرهف السمع، فهم يجلسون للاستماع وكأن على رءوسهم الطير، فقد حدث التقدم هناك والتخلف العثمانى يزداد وحشة واظلاما وانحلالا. تمكنت أوربا من غزونا اقتصاديا وعسكريا، ومازالت تغزونا ثقافيا، ونحن نكابر بالدفاع عن صفحات التخلف البائدة وكأننا لا نريد أن نتطهر ونتقدم .

العنف والاثارة

● ويطالب موزعى الأفلام بأن يتوقفوا عن ارسال نفايات الأفلام إلينا، فقد استطاعوا أن يقنعوا العالم بأن لدينا جمهورا لا يقدر الفيلم الممتاز، والمثل التقليدى الذى يضربونه لذلك هو فيلم «غاندى» الذى جاء إلى القاهرة وعرض فى دار واحدة، ولكنه لم يكمل الأسبوع الواحد، ولهذا أصبحنا نُقبل على أفلام الكاراتيه والعنف والاثارة الرخيصة، وليس السبب بالتأكيد خلو القاهرة من جمهور الفيلم الجيد، بالعكس، فإننى أرى أن الشباب المثقف يحاول الالتفاف على هذه المأساة بالبحث عن أندية السينما، ويشير إلى القوى الطاردة التى أخرجت الجمهور الجاد من دور السينما واعتقلته أمام التليفزيون والفيديو، فأصبحت دور العرض قذرة، والشاشة مهترئة، والمؤثرات الصوتية متخلفة، والبلطجية والسابلة الذين «يأخذون راحتهم» فى ظلام قاعة العرض فيجرحون المشاعر بالسلوكيات النابية والعبارات البذيئة دون حسيب أو رقيب، فهل تهتم وزارة الثقافة أم مؤسسة السينما أم القطاع الخاص الذى يجفل من إقامة سينما جديدة ويتحدث عن شراء مصانع القطاع العام بعشرات

آلاف العاملين منها.. أم أن محافظة القاهرة التى يقال إنها تقيم العقبات أمام التصاريح بإقامة دور جديدة.. أم أن المشكلة ترجع إلى السينمائيين أنفسهم؟!

ليس بالمعدات فقط !

● ويصل إلى وهم مازلنا غارقين فيه، وهو أن حصولنا على أحدث المعدات يجعل مهمتنا أسهل.. ويعتبر هذا الوهم مسئولا عن أننا كثيرا ما نحصل على أحدث المصانع أو الآلات، ولا شيء يتغيرا

لماذا ؟

لأن أهم عنصر فى هذا كله سيبقى - كما كان دائما - الإنسان.

فإذا لم نكن كبشر نمارس دورنا بأمانة، وكمخططين ندرك كلمة تطور، وكإداريين نعرف قيمة التحديث، فسوف تستولى على ميناء دمياط الجديد مثلا جماعات المهربين، وسوف تستولى على بواباته عصابات المخدرات، وسوف يكون بدل الموظف مائة وبدل العامل ألفا ! فأجهزة الكمبيوتر التى تنظم تفريغ كل حبة قمح فى صوامع الغلال لن تحدد مسئولية فرد واحد فى هذه الظروف !

ويصل إلى حقيقة تؤكد أن ميناء دمياط الجديد يمكن أن يجلب لنا من العملات الحرة ما يساوى دخل قناة السويس !

ولقد نجحنا فى إدارة القناة لأننا خضنا «معركة» سحب المرشدين، ونجحنا فى إقامة السد العالى لأننا «خضنا معركة» بناء السد، فلماذا لا ندير الألف مصنع بمثل هذه الكفاءة؟.. لماذا لا نزود كل موقع جديد باستقلال جديد وعقلية جديدة ولوائح ونظم جديدة؟ إننا لو فعلنا ذلك لطوينا بالتدريج موجة التسيب والزحام والركام والروتين والخمول !

ويمضى فارس الكلمة أحمد بهاء الدين شاهرا سيفه فى وجه كل السلبيات والأخطاء الشائعة، ولا يتعب أو ييأس أو يتوقف إلا عندما فاجأه المرض وحرمنا لست سنوات من أفكاره الرائعة، وقلمه الجميل، ولغته السهلة البسيطة ..

هامش :

اعتمد المقال على بعض يوميات بهاء فى عام ١٩٨٢ حتى عام

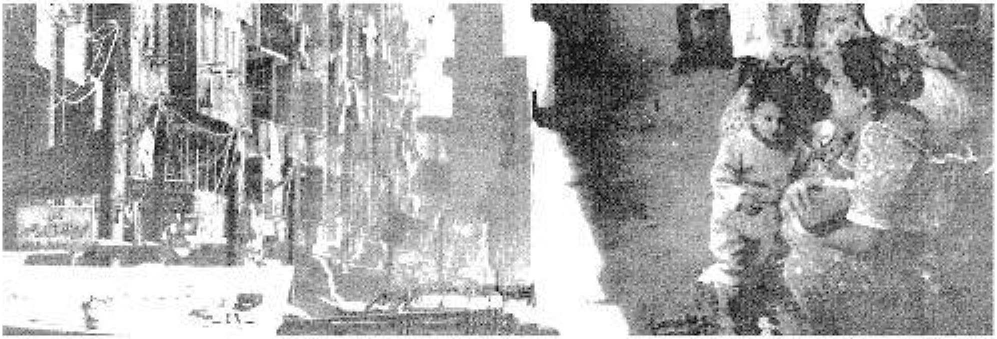


بهــــاء.. وخريطة جديدة لمصر

بقلم: عاطف مصطفى

هموم كثيرة كانت تشغل الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، من أبرزها الأخطار التي تواجه القاهرة ومن بينها التلوث والزحام الخانق الذي تشهده الآن والتخطيط العشوائي، كما كان يفكر في كيفية دمج المحافظات ليصبح عددها عشر محافظات بدلا من ٢٥ محافظة، كما كانت تشغله مشكلات البيئة.

كان بهاء يحلم من خلال مقاله الأسبوعي «حديث الأحد» برسم خريطة جديدة لمصر، تعيد النظر في توزيع مراكز التجمع السكانية، وتضع خطط النمو الصناعي والزراعي في إطار هذه الخريطة الاستراتيجية الجديدة، وذلك بهدف أن تخرج من التركيز السكاني الرهيب من الوادي القديم، إلى مناطق أخرى، تنقل إليها مرافق عمران جديدة، فيسكن مليون مصري غرب الاسكندرية، ومليون مصري في سيناء، ويندفع العمران إلى جنوب السد العالي.





هل نقول إن بهاء هو عاشق القاهرة بكل ماتحمله من تراث حضارى ينتشر فى أرجائها وربوعها، ويكفى فقط أن تدخل إلى القاهرة المعزية لترى حضارة إسلامية شامخة، هى الآن قد تهالكت، كما تنبأ بهاء، ودون أن ينقذها أحد. كان بهاء يكتب عن مشكلات القاهرة ومعاناتها، لدرجة أن الدكتور عبدالحميد يونس أستاذى وأستاذ الأدب الشعبى بجامعة القاهرة قال لي بأن شقيقه الدكتور محمود يونس قال له ذات مرة إن الرئيس السادات غير راض عن بهاء.. وبعصبية شديدة قال عن بهاء.. إلى متى سيظل يكتب عن الكبارى العلوية فى القاهرة وعن شوارعها ومشكلاتها دون أن يكتب عني سطرا واحدا!.

شغل بهاء نفسه بالقضايا العامة، دون أن يفكر فى مجد شخصى يخصه، بل كان يبحث عن آلام الناس وآمالهم وما ينفعهم. فى عام واحد هو عام ١٩٨٢ كتب عدة مقالات متتابعة عن القاهرة التى يحلم بها وتناول كل مشكلاتها.

فى يوميات بتاريخ ١٠ مارس ١٩٨٢ طالب بهاء بعملية إنقاذ سريعة للقاهرة، وأكد أن محور هذه العملية، هو أن تقسو الحكومة علينا بعض الشيء، وأن تضع هيبتها مع تطبيق النظام، وتقدم ببعض الاقتراحات فى المجالات المختلفة.

ففى مجال المرور طالب باقتصار حركة السيارات، يوما على الأرقام الفردية، ويوما على الأرقام الزوجية.

وفى مجال النظافة اقترح أن تنزل الدولة بثقلها على منطقة ثم منطقة من مناطق القاهرة، توجد فيها الدولة بدرجة تضمن تنفيذ كل قوانين ولوائح النظافة والمرور.

وذكر بهاء مثالا أنه فى كثير من البلاد، توجد قوانين تحتم على أصحاب المباني على إعادة طلاء العمارات والمباني. وتناول جانبا آخر، هو اعتبار الرصيف مسئولية العمارة والمحال التجارية المطلة عليها، وعلى المستفيدين منه إصلاحه بشكل محدد، والاحتفاظ به عند درجة معينة من السلامة والنظافة.

● حذر منذ اربعة وعشرين عاما من التدهور الذى تعيشه القاهرة

وفي ١١ مارس ١٩٨٢ اقترح أن يتم وقف المباني السكنية والحكومية، وعمليات الارتفاع وتعلية العمارات لمدة ثلاث سنوات في القاهرة الكبرى، الأمر الذي سينقل حركة البناء الاستثماري إلى الأقاليم، وهي في حاجة شديدة إليه، وسيوقف تدمير المرافق الأساسية للقاهرة، ويعطيها فرصة للتنفس، وللناس وقتا للنظر في السكن في غير القاهرة.

واقترح بعدم السماح بقيام أي مشروع صناعي أو مصنع جديد أيا كان في القاهرة الكبرى لمدة ثلاث سنوات، بشرط عدم الاستثناء، الأمر الذي سوف يدفع المشروعات الجديدة إلي الأقاليم العطشى، إلى المشروعات، أو إلى المراكز العمرانية الجديدة.

وفي يومياته في ١٠ ابريل ١٩٨٢ طالب أحمد بهاء الدين بالبحث عن الخرائب المهجورة والمباني الآيلة للسقوط في القاهرة وتحويلها إلى مراكز جديدة للنور والإشعاع.

وطالب بالإندفاع إلي الصحراء، وإقامة مرافق الحضارة الجديدة فيندفع الدم في شرايين المدينة إلى أطراف أخرى جديدة مع الزمن.

وضرب مثالا بمسرح سيد درويش عندما أقيم في آخر الدنيا وقتها، غرب شارع الهرم، الذي يمتلىء الآن بالناس إلى آخره.

ويؤكد أحمد بهاء الدين على ضرورة إقامة مناطق جذب سكانية جديدة خارج الوادي الضيق في مصر، ونظرا لقرب المدن الجديدة من القاهرة، فإنه سيحولها إلى ضواحي للقاهرة.

وهذا ماحدث الآن بالنسبة لمدينة العبور ومدينة ١٥ مايو، ومدينة ٦ أكتوبر والعاشر من رمضان! كان أحمد بهاء الدين ذا حس قوي وهو يناقش هذه المشكلة ووقتها قال بشكل محدد تصوره للمدن الجديدة، وكيفية ومكان إنشائها!

إن إقامة مدينة جديدة تشكل فعلا نقطة جذب للسكان، خارج الوادي، يتوفر فيها كل شيء من المصنع إلي الجامعة إلي الملهى، خير من عدد من المدن يتحول في عشر سنوات إلى ملحقات للقاهرة، يضاعف مشكلات المواصلات والحركة، ويضاعف نفقات الطريق وما إليها، ولا يحل مشكلة!

ويعود بهاء في عموده اليومي في الأهرام في ١٦ مايو ١٩٨٢ ليستأنف حديثه عن مشكلة إقامة المدن الجديدة، وقربها الشديد من القاهرة مثلا: «إن القاهرة قد

● طالب أن تصبح محافظات مصر عشر محافظات



صارت كالقلب المرهف المجهد التالف، لأنه يتحمل من الضغط فوق ما يطيق، وإقامة مدن قريبة ليس إلا إضافة أكبر وأكبر على طاقة نفس القلب.

واقترح حلولا من بينها قوله: اختاروا أولا فى خطة شاملة مواقع الرزق الجديدة، ثم أقيموا فيها منشآت هذا الانتاج ثانيا، زراعيا، أو صناعيا، أو خدميا، وعندما يوجد مصدر الرزق الأحسن، سيبدأ ذهاب الناس هناك، للاستيطان والإقامة الدائمة، وتنمو الخدمات تدريجيا، واختاروا هذا فى أبعد أماكن ممكنة عن القاهرة، وهنا فقد تصبح حقا «مراكز جذب» جديدة، تمتص من القاهرة الحالية، وتستوعب الزيادة الجديدة.

ويجب أن يوضع فى الاعتبار شيئا مهما وهو أن التوسع فى بعض المدن القديمة أرخص فى التكلفة، وأسرع فى النتيجة، وأقرب إلى المنطق. ويجب ألا نركز على شيء، ونترك شيئا آخر، حتى لانبدو وكأن كل شيء «موضة» نجرى وراءها دون حساب.

وضرب بهاء المثل بالعديد من المدن القديمة ، مثل مرسى مطروح مؤكدا أن فيها بذرة ونواة ومطارا وميناء وموقعا وبعدا فى عمق الصحراء، ولكنها قرية، فلماذا لاتحول لمدينة.

ورشيد وتحويلها إلى ميناء كبير.

ودمياط وإعادة الحياة إلى صناعاتها العريقة فى الأثاث والجلود والألبان.

وكان من بين اهتمامات بهاء الدور الذى ينبغى أن تلعبه القوات المسلحة فى المساهمات النوعية للوطن، خاصة وأن لديها إمكانيات ضخمة يمكن الاستفادة بها فى عملية قومية للبناء والتجديد والتطوير، وخلق عادات عمل، وإنجازات جديدة، يجعلها قادرة على أن تكون أقوى قوى ضاربة فى أى خطة طموح.

ولم ينس السياحة خاصة أن مصر بلد به أماكن كثيرة جدا تصلح لأن تكون أماكن سياحية، ولكن الأسلوب الصحيح فى بلد كمصر، أن يكون إنشاء المناطق السياحية نابعا من خطة قومية ، لا من خطط إقليمية.

فإن منطقة سياحية، سواء للسياح من الخارج إلى الداخل معناها، مرافق وطرق ومجموعة من العناصر التى تملأ وقت السائح، وتغريه بالبقاء وبالتالى، لابد من انتقاء الموقع الذى له أولوية فى هذا المجال، ونحوله تدريجيا إلى منطقة سياحية.

ولكن إقامة قرية هنا، وفندق هناك، وكازينو على النيل في مكان ثالث، هذه ليست سياسة سياحية، وكثير من هذه المشروعات الصغيرة لم تنجح!

إن كل ماتنبأ به بهاء في مقالاته سواء في مجال البيئة أو السياحة، وعن القاهرة التى عشقها ودافع عنها وتحدث من أجل مستقبلها، قد حدث، ونحن الآن على مشارف القرن الحادى والعشرين وزاد تعدادها بشكل مخيف.

يقول بهاء: «لقد قرأت دراسة تقول إن القاهرة الكبرى في السنوات الأخيرة تغتال كل سنة ١٥٠٠ فدان من الأرض الزراعية، والصحراء متوافرة من حولها، وقد وقع ذلك أساسا في اتجاه الجيزة من جهة، والمطرية من جهة ثانية، وشبرا الخيمة من جهة ثالثة.

١٥٠٠ فدان أرض زراعية تمحوها القاهرة كل سنة، وإذا سارت الأمور على ماهي عليه فسيكون سكانها سنة «٢٠٠٠» حوالي ١٦ مليونا!

خريطة جديدة

وإذا انتقلنا إلى المقالات التى تحدث فيها بهاء عن مستقبل مشرق لمصر، وهو يلقى الضوء على ضرورة رسم خريطة جديدة لمصر، طالب باختصار عدد المحافظات من ٢٥ محافظة إلى عشر محافظات.

يقول: إن فكرة الحكم المحلي في جوهرها، هي أن يتولى كل إقليم شئون نفسه إلى أقصى درجة ممكنة، وأن يقل تركيز كل المرافق القيادية، وكل القرارات في القاهرة، وإن تجميع المحافظات في عدد أقل، سوف يقلل الكثير جدا من المصروفات الإدارية، التى تبدد في وظائف إشرافية، وفي تكرار وتعدد للاختصاصات، وسوف يقضي على مشكلة ضيق مجال الحركة والتخطيط، وقلة الإمكانيات داخل كل محافظة.

ويقول بهاء إنني أتصور أن تكون منطقة القنال وسيناء والبحر الأحمر كلها محافظة واحدة، وتختزل الدلتا في ثلاث محافظات: شرق الدلتا ووسط الدلتا وغرب الدلتا، وتصبح مدينة القاهرة هي «القاهرة الكبرى» التى تضم مدينة الجيزة، وبعض الأطراف، وأن يختزل عدد محافظات الصعيد كذلك إلى رقم معقول.

والهدف من كل ذلك كما يشير أحمد بهاء الدين، حين يصبح عدد المحافظات أقل، سوف يكون لكل محافظة وزن أكبر، ويكون كل محافظ في درجة وزير، وسوف تكون لديه الفرصة لتوفير جهاز فنى كفء على مستوى أجهزة العاصمة، وسوف يكون المجلس الشعبي للمحافظة في صورتها المكبرة برلمانا محليا حقيقيا،



وسوف تنمو عاصمة المحافظة، بحيث يصبح ممكنا أن تتوفر فيها مايتوافر في القاهرة من جاذبية المدن الكبيرة ومسارحها وملاهيها ومرافقها، وجوها الاجتماعي العام.

ويؤكد على أن العبرة في النهاية هي تطوير الإنسان لا الجدران، ولابد أن يشعر المواطن أن له قضية، وأن عليه في هذه القضية دورا، وأن دوره له أثر في دفع العجلة كلها إلي الأمام.

وفي مقال بعنوان «عواصم التوازن لمواجهة قوة جذب القاهرة قال أحمد بهاء الدين: إنه من الضروري رسم خريطة جديدة لمصر، تنتقل الكثافة السكانية من الوادي الضيق إلى المناطق والآفاق الجديدة التي يتيحها التطور الصناعي والاجتماعي في بلادنا، وحين نقوم بمواجهة مشكلات مدينة القاهرة ـ قبل أن تغرق تحتها ـ مواجهة جذرية بإعادة تخطيطها، وبإقامة مناطق جذب حضارية أخرى، تمتص منها، وتخفف عنها.. لا نقول كلاما نظريا، ولكن نقول كلاما يجب البدء في مواجهته قبل أن يفوت الأوان.

مشكلات البيئة

ففي مقاله «من أجل حياة تستحق الحياة» قال: إن بحث مشكلات البيئة الإنسانية، ليس ترفا يجب أن يتراجع أمام قضية التنمية، ولكنه بعد آخر من أبعاد قضية التنمية، يجب أن يمشي معها جنبا إلى جنب، لأن هدف التنمية في النهاية بكل عناصرها، أن يعيش الإنسان حياة أحسن، وأن التنمية بمعناها الرقمي فقط، ربما تحقق لهذا الإنسان هدفا ناقصا، أو تهزم جزءا من هدفها النهائي، وهو الحياة الأحسن للمواطن فمثلا التنمية من أهدافها رفع دخل الفرد، لأن هذا الدخل الزائد، يجعله يحصل على ما يفقده في حياته، ولكن لو أننا أعطينا الفرد أجرا أكبر، وبنينا له مدارس أكثر، ثم لم يحسب حساب أمر واحد بسيط جدا هو الحركة التي تضطره إليها حياته، سوف نجد أنه سينفق من المال والجهد والإرهاق في السعي الرهيب بين البيت ومقر العمل، ومدارس الأولاد، وأسواق السلع، مايكلفه من المال أرقاما تنقص، إن لم تلتهم الزيادة التي حصل عليها في الأجر.

ويقول بهاء: إن النظرة الحديثة إلى تقدير الهدف النهائي للتنمية وهو الدخل القومي للبلد، لم نعد نكتفي بحساب ماينتجه هذا البلد، ولكنها تقوم بعملية «خصم» لما يضطر البلد إلى انفاقه حيث لا يضطر بلد آخر إلى انفاقه.

ويقول مرة أخرى: إن الحساب الحقيقى للنجاح فى رفع الدخل القومى من شقين: زيادة الإنتاج، وتقليل مايمكن تقليله من فاقد.

وحول مؤتمر للبيئة عقد فى استوكهولم كتب مقالا حول البيئة أشار فيه إلى أن أكبر مشكلات البيئة هى تلوث الجو، وتلوث البحار، وتضخم المدن، فنجد أن حياة المدينة هى قمة الحياة المرجوة، حيث توجد تسهيلات الحياة ورفاهيتها.

وحذر من الأضرار التى تلحقها بالبيئة، خاصة إغراق المواد الضارة فى المحيطات، حيث تغرق أمريكا الغازات السامة، وغيرها من المخزون الذى يطول به العهد فى أعماق المحيطات.

وتناول قضية أخرى، تضع الدول الغنية، والدول الفقيرة وجها لوجه، هى قضية استهلاك الموارد، وخاصة البترول.

وحين تنضب هذه الموارد، وتنقرض ثروات البيئة فى تلك البلاد تكون التكنولوجيا الحديثة قد أغنت الدول المتقدمة عنها بشكل أو بآخر.

إن العالم الغنى إذا كان يعجل فى استهلاك موارد البيئة بأسلوب، فالعالم الفقير، يعجل فى استهلاك نفس الموارد بأسلوب آخر رهيب أيضا: هو الزيادة الهائلة فى النسل!

والإحصاءات تقول إن عدد السكان بالمعدل الحالي، يتضاعف مرة كل ٢٥ سنة.. معنى ذلك أن عدد سكان العالم سيكون ستة آلاف مليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ ثم سيكون ١٢ ألف مليون نسمة فى سنة ٢٠٢٥، وهى أرقام تأكل الأخضر واليابس.

فالهجوم إذن على موارد البيئة عنيف من الجانبين، كل جانب له سلاحه الخاص به، والنتيجة إذا استمرت الأمور على هذا النحو هى أن هذه السفينة المشتركة، التى اسمها الكرة الأرضية، سوف تغرق بكل ركابها. ويحذر أحمد بهاء الدين تلك البلاد التى تمتلك ثروات طبيعية ضخمة كالبترول أو سواه، ليس أمامها أكثر من ربع قرن، عليها أن تكسر فيه حاجز التخلف، فلا تخدعها سهولة الحياة الوقتية، وأن عليها فى هذا الربع قرن على الأكثر أن تتم سيطرتها على مواردها، وأن تصل إلى أحسن وسائل استخدام هذه الموارد.

لقد عشق بهاء مصر، وأحب ترابها، ودافع عن حاضرها ومستقبلها بكل التجرد والحياد، ونستطيع القول بأنه وضع بحق خريطة لمستقبل مشرق لمن يعمل ويخلص، فهل نقرأ من جديد كل أحلام الرجل لكي يتحقق لنا وللأجيال القادمة الخير العميم؟!..

دردشة مع أحمد بهاء الدين



حول حسين أحمد أمين !!

جزء خاص

بقلم : صافي ناز كاظم

كتب حسين أحمد أمين ، الكاتب المصرى والسفير السابق ، مقالاً بعنوان «شروط السعادة الإنسانية بين الذات والموضوع ، بين النسبية والإطلاق» ، فى جريدة الحياة اللندنية بتاريخ ٩٦/٨/٢٩ فى صفحة «أفكار» ص ١٧ ، وقد قرأت المقال من البداية إلى النهاية من دون أن تقف لقمة واحدة فى المرىء – وأرجو أن يكون المرىء هو المعادل الفصيح لـ «الزور» . عادة أنا أقرأ ولا أقرأ حسين أحمد أمين فهو يحيرنى على المستوى الثقافى الفكرى وعلى المستوى الإنسانى الاجتماعى الشخصى . لا آمن له البتة لكنى لا أستطيع أن ألغيه كذلك ، بأن أطبق معه سياستى الـ «فيانيجاتيفا» أى «الإلغاء» التى اقتبستها من فنية المسرح الفقير وتتلخص فى إسقاط كل ما «يفور» دمى وأواصل حياتى من بعده كأنه لم يكن مثل المذياع المرئى والمسموع – باستثناء إذاعة القرآن الكريم – وغالبية كتابة الكتاب الذين كان لهم ماض تليد فى الكتابة ثم أصيبوا مع إصابات الزمن بمرض «اللكلكة» ، مع تيار الكتاب والمفكرين الذين لايزالون يناقشون «قل هو الله أحد ..» ويطالبون بالاجتهاد فيها .. إلخ .

مع حسين أمين تشدنى قدماى من طريق الإلغاء إلى ضرورة إعطاء الفرصة لعلىّ أستطيع مصاحبته ولو لبعض أسطر. ربما لأنه دائما له مدخل طيب دمث مسالم جذاب خفيف الظل لا يسوغ انحرافه بعد ذلك إلى سياسة «التلطيش» التى تدهمك فجأة وأنت فى منتصف المقال عندها أجد نفسى أمام تصرفين الأول – وأنفذه أحيانا – هو : المواصلة لأصبر له فى التذييل حيثيات الإدانة توطئة لإلغائه ، والثانى أجرى سريعا بعينى إلى النهاية لأصل إلى الهدف الذى يريده ، فأجده قد عاد ولملم حول نفسه عباءة الطيب الدمث المسالم الجذاب خفيف الظل الذى لا يبيت أى سوء نية تجاه من هم أمثالى من الناشدين للحق والعدل والخير والجمال من منطلقات «قل هو الله أحد ..»





حين يغلقني حسين أمين أقرب إلى د. جلال أمين . فحسين أمين ليس له كبير تشتكي إليه سوى شقيقه الأصغر الأقرب مودة للذين هم من أمثالي – وقد عرفتم من هم – أقول له : شايف يا دكتور جلال ماذا يقول حسين أحمد أمين ؟

وقبل أن أكمل سخ ج زفرة سب جياش من د. جلال أمين نحو حسين أحمد أمين بل بلوم حسين . ؟» الله ! أولة احمديين .

وطبعا لا أملك أن أسترسل ، فأنا أقدر وأحترم وشائج الأخوة والقرابة وأعلم كم هي موجعة حين تؤذى . ثم إن عائلة أحمد أمين لها فى فولكلورى العائلى مكانة محبوبة . بشكل نغبم تفصيلاته أتذكر إشارات من جهة والدتي وخالاتي وجدتي نحو بيت «الشيخ أحمد أمين» ، وكلها تصحبها ابتسامات مودة نحو والدته وزوجته ، وإشارات أخرى من جهة أسرة والدى تحمل نفس دلالات المودة بالإضافة إلى الكلام والكتابة الصريحة التى عبر بها خالي المغفور له – إن شاء الله - محمد فريد أبو حديد عن تقديره وإعزازه لصديقه وزميله الأستاذ أحمد أمين . هذا الزخم الفولكلورى الذى يجعلنى بالميراث محبة لأحمد أمين وآله يقيد رغبتي الشديدة فى التجهم بوجه حسين أحمد أمين كلما لقيته فى مناسبة أو بيت أو مكان فأبدأ معه بالمعروف مغترة فى الدقائق الأولى بابتسامته العريضة التى يلقانى بها لكن ما أن أظن الاطمئنان لأريح ظهرى من انحناءة التحفز حتى يبادرنى بلطشة تؤذينى فى عزيز لدى وتجعلنى أندم على كل كلماتي الودود التى صفتها بحرص السائر فى طرقات سكة العلمين الملغومة وما زالت بألغام الحرب العالمية الثانية التى مضى على انتهائها نصف قرن .

★★★

هذا الصباح ٢٩ / ٨ / ١٩٩٦ حين طالعتني صفحة أفكار بجريدة الحياة تحمل مقال حسين أحمد أمين عن السعادة تملأ نصف الصفحة هالني الحيز الكبير فحايلت نفسي وقلت :

أتوق المطلع . فاستطعمته : «أما وقد قاربت الخامسة والستين فقد بات بالوسع أن أتأمل من فوق قمة الجبل ماسرت فيه أثناء صعودى إليها من دروب متعرجة ....» وإذا بقضماتي تتوالى حتى أكلت الطبق ، الذى استكثرت امتلاءه إلى نهايته ، فرحة بالطزاجة والمزج والتسبيك . يا سلام «حسين .....؟!» .

طيب أمام وجبة شهية غير متوقعة على ريق النوم لابد أن أمارس إزاءها تقليدى المعتاد مع كل كتابة جميلة ، أرسل برقية شكر لكاتبها أو أخابره هاتفيا . ليس لدى عنوان برقاوى لحسين أحمد أمين فلابد أن أخابره عظيم . اسم حسين أحمد أمين أبحث عنه تحت حرف «ج» جيم وليس حاء لأني أضع رقمه تحت رقم «جلال أمين» . أدرت الرقم .

– السلام عليكم حلواني السعادة ؟

– حلواني السعادة ؟

– حضرتك حسين أمين ؟

– أى ... وه ...

ثم التقط النكتة على الفور وضحك بمرح لكن الضحك عند حسين أمين لا يستمر عادة لأكثر من المساحة التى تستحقها النكتة أو الملحة أو القفشة به ..! يكبو صوته وهذه حالة إذا لم أعالجها، أو أعاجلها ، بصيغة ضاحكة مازحة أخرى ، تضعنى فى موقف مهدد . ألهمنى الله بكلمات متتابعة يتقبلها تذوقه لروح الفكاهة ، لكن بعد كل جملة لابد أن أتوقف لأتأكد من سماع ضحكه بنفس فنية التوقف فى المخابرة الهاتفية الدولية من بلد لبلد التى تمكنك من الاستماع إلى الطرف الآخر حتى لايضيع فى الشوشرة التى تنتج من صدى صوتك .

★★★

قلت له إن مقاله سرحة فكرية تأملية لها طعم ورصانة مقالات الأربعينيات التى كان يكتبها كبار الكتاب من ذلك الزمن، والتى كنا نقرؤها ونحن أطفال فى مجلة الهلال أو نسمعها فى الإذاعة ومازلت أذكر من بينها مقالا بعنوان «المرأة لعبتها الرجل» ولعلها كانت بقلم أحمد أمين الأب ذاته . وقلت له إننا فى فقر شديد لمثل هذه الكتابات التى لها مذاق الموسيقى الكلاسيكية ، التى تعلو فوق زحمة المرور ، واختناقات الرطوبة والحر ، ومانشيتات الصحف، وتصريحات نتنياهو وكلينتون ووارن كريستوفر وجابر عصفور وصيد الفرانكوفونيين فى الزحمة فى الماء العكر وأخبار الجوائز وآخر إنجازات إدوار الخراط ومحمد سلماوى ... إلخ .

وقلت له : أنت عدوى الفكرى لكننى ضعيفة أمام الكتابة المحكمة الجميلة ، فقال لى مقاطعا : هل قرأت .... مثلا ؟

وذكر اسماً يقتلنى مللاً ، فواصلت الكلام بنصيحة : دعنا نتكلم فى المجردات بلا أسماء لاتجسد لدى بالضرورة القيم والمعانى التى نتفق عليها .

★★★

يداخل حسين أمين «طفل شرير» – وهذه ترجمتى للتعبير الفرنسى «أنفانتريبل» ، وهذا الطفل لايحب جلسة الصالون أو لياقات المائدة أو أصول التنزه فى الحدائق أو ابتسامات الجيران فى المصعد ولو ذهب إلى متحف فيكون من أجل أن يضع لبورتريه المرأة شنبا ولصورة الكاتب مصطفى لطفى المنفلوطى أحمر شفاه ولا يرتاح إلا إذا «نكد» على من يلاطفه .

كانت مكالمتى الهاتفية معه مبادرة سلام بمدلول «السلام» الذى لم يتلوث بعد، لكن هاهى النتيجة .. اتفرجوا !

★★★

ملحوظة : كان هذا خطابا منى إلى صديقى أحمد بهاء الدين مثل كل خطاباتى التى تعودت أن أكتبها له وأرسلها إلى بيته : ١١ شارع هارون ، الدقى ، القاهرة .

ماذا حدث للمصريين ؟!

متغيرات فى الشخصية المصرية

بقلم : فاروق خورشيد

الذى لاشك فيه أن الاستعمار البريطانى قد قام بدور رئيسى ومهم فى المتغيرات التى طرأت على الشخصية المصرية . فلم يكن المصريون عند دخول القوات الانجليزية الغازية الأراضى المصرية فى حالة الموات والجمود نفسها التى كانوا عليها حين غزت القوات الفرنسية بلادهم : فإذا تصورنا - كما هو الشائع على أقلام الكتاب والمؤرخين أن الغزو الفرنسى لمصر كان بالدرجة الأولى صدمة حضارية أيقظت المصريين - والمثقفين منهم على وجه الخصوص - على حقيقة ماجرى فى العالم من حولهم من قفزات هائلة فى دنيا الحضارة، ابعدهم الاستعمار العثمانى عن معرفتها أو تتبعها او مسايرتها .. فنحن لن نستطيع ان نقول هذا عن الاستعمار البريطانى لمصر - فالجيش البريطانى هزم مصريا صميما ، وفلاحا من ابناء الارض ، ولم يهزم المماليك او العثمانيين الاتراك .. هو هزم مصر نفسها هنا فى المواجهة المباشرة بين الفلاحين المصريين والجنود الانجليز الغزاة - ولم ينس المصريون هذه الحقيقة لحظة واحدة حتى اخرج مصرى فلاح صعيدى آخر - هو جمال عبد الناصر - آخر جنود الاستعمار البريطانى من مصر . وان كان المصريون قد استسلموا للولاة الاتراك والانكشارية والمماليك ، قبل غزو الفرنسيين لهم . فقد كان عنصر الولاء الاسلامى يلعب دورا كبيرا فى هذا الاستسلام .

فالوالى معين من الخلافة العثمانية الاسلامية ، والولاء للخلافة الاسلامية أيا كان مقرها ، كان دائما طبيعة عند المصريين ، فهكذا عاملوا الخلافة الاموية ، والخلافة العباسية ، ومن كانت تعينهم من ولاة متمثلين فى الويلات المختلفة التى حكمتهم حتى الايوبيين وكذلك عاملوا الخلافة الفاطمية حتى أزالها صلاح الدين الايوبى ، وظل هذا الولاء قائما فى الخلافة العثمانية حتى محمد على ، حتى رغم وجود الحملة الفرنسية التى لم تستمر كثيرا للمقاومة العنيفة التى اشعلها المصريون ووراءهم الخلافة العثمانية من ناحية ، وتآمر الانجليز على الفرنسيين من ناحية اخرى - أخر الامر دخل الانجليز ليحلوا عند المصريين محل الخلافة العثمانية وأصبح ملوك وسلاطين مصر يتلقون الأوامر والتأييد من ملكة بريطانيا الكاثوليكية ، لا من الخليفة العثمانى السنى - ومنذ لحظة هزيمة عرابى وانتصار الانجليز وتوفيق ، وبدأت نهاية اسرة محمد على فى عمق ضمير المصريين ... فتوفيق والسلاطين والملوك من بعده ليسوا الا أدوات فى ايدى باب عال جديد هو الانجليز ، وان كان هناك ولاء قديم للباب العالى الاسلامى . فليس هناك ولاء للباب العالى البريطانى الكاثوليكى - وازعم أنه من هذه اللحظة بدأ المعنى الاسلامى يرتبط بالسياسة ، ويصبح عاملا فعالا ومؤثرا فيها - فلم يكن للتيار الدينى - وهو أصيل فى مصر - اى مجال للشكوى او الاحتجاج، فالوالى مسلم سنى ، مرتبط بالخلافة الاسلامية العثمانية المسلمة السنية - وكل مايصدر عن خليفة المسلمين من أوامر ، او حتى من عذابات ومعاناة ،



الملك فاروق

فهو أمر مبرر ، والشكوى منه لنفس الخليفة المسلم ، سواء سمع الشكوى أو حجبت عنه .

● الخليفة .. هو هارون الرشيد

والعقلية الشعبية المصرية رأت دائما ان الخليفة هو هارون الرشيد رمز العظمة الاسلامية ، والتفوق الحضارى الاسلامى ، رمز الامبراطورية الاسلامية الراشدة التى هى معنى الوجود الاسلامى - وهارون الرشيد عند هذه العقلية الشعبية المصرية

ماذا حدث للمصريين ؟

الجمعية ، هو الخليفة سواء كانت الخلافة عباسية أو فاطمية او عثمانية – الخليفة دائما هو هارون الرشيد ، الباحث دائما عن الظالم ، والمقيم دائما للعدل ، وتكون هارون الرشيد او (الرشيدى) فى الضمير الشعبى من الوزير اليقظ العادل جعفر البرمكى ، والسياف الحاسم مسرور .. والنديم الظريف (ابو النواس) الشاعر الرقيق الذى سيتحول عند الضمير الشعبى الى ثنائى هو (جحا والنواس) – وهذا التكوين الشعبى لمعنى الحكم ارتبط فى الضمير الشعبى بمعنى العدالة المرتبطة بالخليفة، والمتوقفة على عقل الوزير ، وسيف السياف ورقة الشاعر النديم – هذه العناصر كونت فى الضمير الشعبى المصرى معادلة حلت الكثير من القضايا الحياتية والمصيرية للافراد، والمجموع ولكنها فى ظل الاحتلال البريطانى ، والباب العالى الانجليزى الكاثوليكى لم .. اما موضع على الاطلاق – وقد تقبل الـ ى المصرى عسف الولاة من المنتسبين الى الايوبيين لانتمائهم الى خليفة عباسى ، وقد تقبل الفلاح المصرى عسف الولاة لانتمائهم الى خليفة فاطمى ، وقد تقبل الفلاح المصرى عسف الولاة والمحتسبة والحياة فى ظل خليفة عثمانى .. ولكن ان يقبل هذا كله فى ظل خليفة انجليزى .. هذه هى المعادلة التى أثرت جذريا فى التحولات الثقافية والمعيشية المصرية فى عهد الاحتلال البريطانى ، حدثت متغيرات جذرية فى عمق الشخصية المصرية جعلتها ترفض والى الخلافة البريطانية ، كما ترفض الاحتلال الانجليزى سواء بسواء – ومن لحظتها قررت الشخصية المصرية القضاء على الاسرة التى بدأت امتدادا للفرنسيين ، وانتهت مخلب قط للانجليز ، وهى على طول العهد ، تعيش فى ولاء موهوم، وتتعثر مع الخلافة العثمانية – وسنجد هذه النغمة تتحول الى حس شعبى عارم يعبر عنه بيرم التونسى بأزجاله الفاضحة التى أدت الى نفيه خارج مصر .. كما ستجد (السراى) ان مخرجها الوحيد هو الاستعانة برجال الدين المصريين ليضعوا لها غطاء فى مواجهة ارتفاع الغطاء الاسلامى لها بالولاء إلى الخلافة العثمانية ، واصبح شيخ الازهر محط الاهتمام الكبير من هؤلاء السلاطين والملوك ، كما اصبحت الجمعيات الصوفية تحظى بالرعاية الملكية الواضحة والبارزة ، كما حظيت الكسوة الشريفة التى ترسل الى مكة المكرمة ، باحتفالية ضخمة

يحضرها السلطان او الملك بنفسه - وتشارك فيها قوى الشعب الرسمية المختلفة من شرطة وموسيقاها ، وجيش وموسيقاه ومواكبه - ورتبه التي تتقدم هذه المواكب - بل لقد غدا تقليدا متبعا في كل محافظة ومركز وقسم ، ان تتم الاحتفالات بالموالد للأولياء المحليين تحت رعاية المحافظ والمأمور وضابط القسم، وباشتراك كل المهنيين والحرفيين واصحاب التجمعات العمالية والفلاحين والدينية الصغيرة ، وباشتراك طلاب المدارس الشبان والصبيان والاطفال ومدرسيهم على السواء - وبهذا يعلو المد الديني ، كما تريده السراى ، لا مدا دينيا فكريا حضاريا مبدعا ، وانما هو استغراق في كل ماحول الدين من ممارسات طقسية ومعبدية قديمة منحدرة من الموروث الشعبي القديم للشعوب التي دخلت الاسلام ، ومازالت تذكر ممارستها المعبدية القديمة .

● معنى الخلافة الإسلامية

ولكن هذا لايهم ، فالمهم ان يتمحور المد الاسلامي حول الملك الجديد ، ويدور برعايته وتحت حمايته .. بلا ارتباط بالجذور العثمانية او معنى الخلافة الاسلامية بعامة ، هذا المعنى الذى استمدت منه الخلافة العثمانية كل قوتها في صدارة الزعامة الاسلامية .. وهذا التصور الجديد ، جعل الإيمان بالاولياء ، وبالجذبة ، والطرق الصوفية ، والممارسات السحرية المرتبطة بالمعنى الاسلامي ، هي السائدة ، ومعها الرضا بما هو موجود لانه قدر الله الذى لافكاك منه ، والطاعة لولي الامر التي لافكاك منها ، والرضا بالولاء للسلطان والملك لانه ظل الله في أرضه . وقد ارتبط هذا بمحاولات الملوك المصريين وآخرهم



طه حسين

فاروق ، بخلق سلسلة نسب تصل بينه وبين النبي عليه السلام، ليكون من الاشراف اصحاب القداسة المعماة، التي لايقدم لها اى تفسير الا النسب بالرسول عليه السلام - ووجدت أسرة محمد علي من السلاطين والملوك من العلماء الجاهزين بالفتوى من يصدرون هذه النسبة الشريفة ، ومن يدافعون عنهم ، ومن ينسبون اليهم كل فضل وتقوى وورع في خطب الجمع في المساجد ، وفي الندوات العلنية

ماذا حدث للمصريين ؟

كالاحتفالات الرسمية برمضان وليلة القدر والنصف من شعبان وأعياد الهجرة ومولد الرسول ، مايرفعهم الى مصاف التقاة من اتباع الرسول واصحابهم ، ثم يرفعهم درجات ليغدوا من نسب الرسول نفسه ..

ومن هنا كان رد الفعل القاسي والعنيف عند علماء الازهر ، ورجال الفكر الدينيين من باحثين ، وعند الحركات الشعبية الدينية المستنيرة من ناحية اخرى .

وهنا يمكن لنا ان نقدم فهما جديدا لحركة التنوير ، فهي لم تكن موجهة الى الاسلام وأحكامه وعباداته وأصوله- وانما هي كانت موجهة الى هذا الفهم الغيبي لمعنى الاسلام، وموجهة أيضا لمحاولة جعل الاسلام مطية ليتوطد حكم الانجليز في مصر مختفيا تحت حكم ملوك وسلاطين محمد علي، المرتبطين بالمعنى الاسلامي الذي قدمناه .

من هنا كانت ثورة مصطفى عبدالرازق ، وطه حسين ، وامين الخولي ، واحمد امين ، وعبد الوهاب عزام ، في ظلال الدراسات الجامعية .

ومن هنا كانت ثورة سيد قطب ، ومحمد مندور ، وانور المعداوي ، وعبد القادرالقط ، ولويس عوض ، وعلي الراعي ، في مجال الحياة النقدية .

ومن هنا كانت فكرة ظهور اليسار التقدمي على يد سلامة موسى ، وشهدي عطية ، وانور عبد الملك ، وعبد العظيم انيس ، ومحمود امين العالم ، في اليسار السياسي .

ومن هنا كانت دعوة السنة المحمدية، وانصار السنة الاسلامية ، والاخوان المسلمين كحركات اسلامية شعبية تنويرية واضحة من البدء في المبادىء والاتجاه - فهي تنكر كل ما اقامه السلاطين والملوك ، من ارتباط بالخرافات والبدع والاذكار والجماعات الصوفية ، والحكايات المرتبطة بالبدع الوثنية التقليدية القديمة ، وهي تدعو الى اسلام متحرر من العبودية للسلطة ، والعبودية للمعتقد المتخلف ، والعبودية للمعتقد الجامد - كما تدعو الى التسلح بالعلم ، والتنوير والعلوم الحديثة في اطار الاسلام ومفاهيمه ومبادئه ، ولعل ابرز هذه الجماعات والرؤى الجديدة التنويرية كانت جماعة الاخوان المسلمين .

نعيد اذن التفكير في ظل هذه الظواهر ونحاول ان نربطها بالوضع السياسي الحاكم في وجود الاستعمار البريطاني من ناحية ، والاسرة العلوية من ناحية اخرى .

هو تمرد ثورى وطنى بالدرجة الاولى، اذكاه الاستعمار الانجليزى حين أكد معنى الوطنية المغلقة ، فى مقابل الولاء الاسلامى العام للخلافة العثمانية .

● تمرد ثورى وطنى

وهو تمرد ثورى وطنى بالدرجة الأولى ، ولدته هزائم العثمانيين امام اوربا ، وأكدته نهاية الدولة العثمانية - الرجل المريض - وتقسيم اجزاء جسده على الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى وهو تمرد ثورى وطنى بالدرجة الأولى على تبعية حكام المناطق التى اصبحت ارثا للمنتصر على مفاهيم المنتصر، ومحاولة لى الحقائق لتصبح فى صالحه ، بما فى ذلك حقيقة الحاكم الذى ارتضاه ليقهر له شعوب المنطقة التى ورثها ، وليجعل تبعيته لهما تسوقها إلى ان تصبح مستعبدة متخلفة، متساقة ومدمرة لنفسها بنفسها

هنا تبرز مرحلة مهمة تلقف فعلها فى الشخصية العربية بعامة وفى الشخصية المصرية بخاصة ، بشعارات سياسية مرحلية ، فعلى الناس ان يؤمنوا ان الملك هو البديل للخلافة العثمانية او الاسلامية فى منظوره ، وان كل سلوكياته مبررة حتى التبعية الكاملة للحاكم الوافد بكل لغته و ثقافته ودينه ، وقوانينه وتغيراته التى يحاول ان تكون جذرية فى التعليم والادارة والعلاقات بين الحاكم والمحكوم - بل وبين المحكومين بعضهم وبعض .. ومن هنا تدخل كل العرقيات الموجودة فى مصر .. القبلية فى الصعيد ، والقبطية فى مصر ، والسودانية فى الجنوب ، بل والبدوية فى البحيرة وسيناء .. ثم خلق الفرق الرهيب حين خلق المكان المتميز ، لأتباع السفارات الأجنبية لانها كانت



سيد قطب

بالفعل مدخله الى الاحتلال وتثبيت الاقدام ، فأصبح لكل قومية مخالفة وصف متميز فيما سمى بالامتيازات الأجنبية ، وهو وضع متميز فى المعاملة الادارية والقانونية والانسانية ، وقد مكن هذا للجاليات ومعظمها يدين بالولاء للحاكم الانجليزى - مكان التميز والصدارة فى الحياة المصرية - بل قد وصل الامر الى التدخل فى عمق اللغة ، فحاول وليم ويلكوكس ، مسئول الرى الانجليزى فى الحكومة المصرية ، ان

يكون داعية لسيادة العامية المصرية على اللغة العربية الفصحى السائدة رغم كل المتغيرات ، والاحداث .

هذه الحملة كانت ببساطة تستهدف عدة أهداف .. أولها محاولة تحويل التيار الاسلامى من تيار داع لرسالته الدينية والحضارية والخلقية ، الى تيار رجعى ليغرق فى الانعزالية والانغماس فى الخرافات والممارسات الشعبية المتخلفة - وثانيها هو تثبيت وجود الحس الثقافى الوافد مع الجاليات الاجنبية ليكون تيارا ثقافيا مغيرا وبعنف من التماسك الثقافى المصرى من ناحية - ولأن يكون تيارا خالصا . ومؤكدا للدونية المصرية فى مقابل الاستعلاء التركى الموروث والاستعلاء الغربى الوافد ، وفى قمته الانجليز كشعب مميز خلقيا وسلوكيا ، وفى القاعدة تأتى باقى شعوب اوربا المنتشرة فى كل الارض المصرية من شمالها الى جنوبها - وثالثها خلق قمة الطبقة المتوسطة ، وهى طبقة المدينة ، من الاثرياء المرتبطين فى مصالحهم بالانجليز، ومن المتعلمين الجدد المرتبطين بالتعليم الانجليزى والثقافة الانجليزية بخاصة والغربية بعامة . هذا الطبقة ، الرافضة للانتماء التركى العثمانى الدينى من ناحية - والمتكبرة على الطبقات الفقيرة فى المجتمع المصرى ، من فلاحين ، وصعايدة ، ونوبيين ، وسودانيين ، وبدو - واصحاب الحرف من ابناء المدن على السواء - من ناحية اخرى هى الطبقة التى خلقت الثقافة المصرية الجديدة فى هذه الفترة - وهى طبقة رافضة للتبعية الفكرية والاستعمارية والثقافية معا ، سواء كان مصدر هذه التبعية الموروث التركى ام الهجمة الانجليزية الاستعمارية الضاغطة - ومن هذه الطبقة خرجت الدعوات الجديدة ، وكلها دعوات تريد تغيير النمط الثقافى المصرى رؤية ومعنى وسلوكا .

اولى هذه الدعوات رفض الاحتلال . ورفض التغريب .. وانبثقت من هذه الدعوة ثورة سنة ١٩ . كما انبثقت منها ثورة طلعت حرب .. وربما انبثقت منها ايضا برامج احزاب مصر للمصريين ، واحزاب الانفصال عن التبعية العثمانية .. بل والاحزاب التى اتخذت موقفا شوفينيا يدعو الى العصبية المصرية الخالصة مشابهة لدعوات برزت فى العالم انذاك كالفاشية النازية .

وثانية هذه الدعوات هى محاولة البحث عن الهوية الإسلامية كتيار

رافض للتغريب ، ولعل من اوائلها انصار السنة وشباب محمد والشبان المسلمون ، ثم اخيرا الاخوان المسلمون - وهم وحدهم الذين خلطوا فى دعوتهم بين تحديث الاسلام ، والارتباط بالتراث ، والبحث عن هوية جديدة لاعلاقة لها بالخلافة العثمانية الميتة ، والتى يجب - وبسرعة البحث عن دعوى جديدة تحل محلها ، بحيث لاتختفى فكرة الوجود الاسلامى السياسى عن الواقع - المصرى اولا والعربى ثانيا ، والاسلامى بعامة ثالثا.

● الدعوة للتنوير

وثالثة هذه الدعوات هى التنوير - وهى دعوة تبنتها الجامعة المصرية الوليدة ، ومجمع اللغة العربية الأهلى النشأة ، والجماعات المصرية المثقفة والمتعددة من جماعة ابوللو الى جماعة الديوان ، الى رابطة الادب الحديث، الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الى جماعة الشعر ، الى جماعة الامناء ، الى جماعة الجمعية الادبية المصرية ، الى جماعة وادى النيل ، الى جماعة رابطة العروبة .. وكلها جماعات تقوم على الاعتراف بالماضى مع محاولة تحديثه ، ثم الاتجاه الى التجديد مع محاولة تأصيله - ومحور كل هذه الجماعات كان هو البحث عن الشخصية المصرية الاصيلة وتثبيتها ، بدءا من الحضارة الفرعونية الى الاضافات الفارسية والبطلمية والرومانية والقبطية والعربية - محاولة تأصيل الوجود المصرى المرتبط بالحضارة الغربية من حيث هى أم هذه الحضارة ، ومن حيث هى منبع الحضارة اليونانية ومحاولة تأصيل الوجود المصرى المرتبط بالمعنى العربى الاسلامى ، ومن حيث هى صاحبة الدور الفعال فى الوجود الحضارى الاسلامى



محمد مندور

عبر عصور الانحلال والتدهور ، وفى خلال عصور المقاومة والصمود ، والرائدة فى عصور البعث والوجود الحضارى الجديد .

ورابعة هذه الدعوات هى الحرية والعدالة ، وهما معنيان مرتبطان باستمرار ارتباطا منطقيا وفلسفيا واكيدا - ولهذا لم تتعارض الدعوة الى حقوق المرأة ، مع الدعوة الى نشر التعليم الجامعى ، ولم يتعارض هذا مع دعوات حق الانسان فى التعليم وانه

ماذا حدث للمصريين ؟

ينبغي ان يكون له كالماء والهواء ، ولا الدعوة الى تنظيم الثروات ، والتكافل الاجتماعي ، وعودة الملاك الى القرية لتحمل مسئولياتهم تجاه رعاية القرية والاشراف على كل مرافق التنمية فيها .. فى نفس الوقت الذى تأكدت فيه الدعوة الى انشاء النقابات المهنية والحرفية على السواء ، حفاظا لحق العاملين فى حقل كل نقابة من ناحية ، وان تكون النقابة راعية لتطوير المهنة والحرفة لتوليد حركة المجتمع الجديد الباحث عن التطور المهنى والحرفى من ناحية ، والباحث ايضا عن حرية التعبير ، وابداء الرأى وحق المشاركة للجميع من ناحية اخرى .. والى جوار هذه المعركة الثقافية التى اظهرت حزب العمال وتبناها الى مرحلة كبيرة أحد نبلاء الاسرة المالكة ، ظهرت الأفكار الجديدة المترجمة عن الغرب من ناحية ، وعن الفكر الماركسي اللينيني من ناحية أخرى فظهرت كلمات كالبلوريتاريا والبرجوازية كما سادت تعبيرات الكادحين ، ودعاوى حقوقهم فى عائد الربح من ناحية ، وفى سيادة الحكم من ناحية اخرى .. وظهرت الاحزاب الشيوعية السافرة ، كما ظهرت الجماعات الشيوعية شبه السافرة ايضا – وماجت الحياة المصرية بالافكار الجديدة والفلسفات الجديدة ، وأثر هذا كله وانعكس على اسلوب حياة جديدة وسلوك جديد، وظهرت اثاره فى حياة مصر مكونة ثقافة جديدة ثقافة تتحدث عن الوطن .، وظلم الاقطاع والرأسمالية ، وكراهية الملكية ، وبغض الانجليز وضرورة التوجه الى صناعة مصرية وثقافة مصرية جديدة .

اذن الجامعة المصرية وجدت، دعوة قاسم امين نجحت ، وشعارات الشيوعية اثرت، ثم برز الاصلاح الشعبى الاسلامى على الساحة مؤثرا وفعالا. ودخلت السينما الامريكية ، وتحول الريحانى من كشكش الى ايوب صابر ، وظهرت السينما المصرية ، وظهر اعلام الفكر والشوامخ فى الادب والابداع والنقد معا، بل واعلام العلم فى الطب والفيزياء والفلك والهندسة واعلام الدارسين فى القانون والدين والتاريخ ، وشتى مناحى الحياة التى اصبحت متاحة للجميع .

وطرحت قضايا الحرية والديمقراطية بل والشتراكية .. كما طرحت قضايا السلف والانتماء الاسلامي. والعربى والمصرى، كما طرحت قضايا حرية المرأة وحق المصرى فى التعليم، وحقه فى العمل وحقه فى صحافة حرة مستنيرة وفى برلمان حر متوازن.

● الإحساس بالانتماء للوطن

وتصبح الحياة الثقافية فى مصر حوارا دائما بين قوى السلفية وقوى التنوير، وبين القوى الاسلامية المستنيرة، والقوى الاشتراكية المعتدلة .. وبين رجال الفكر المندفعين فى مجال نحو الاكتشاف، والتمرد على المسلمات ومحاولة التعرف على الذات، وعلى الجذور واستشراف المستقبل بحثا وابداعا معا .. مصر اذن وعند هذه المرحلة كانت الجدل المستنير والحر فى اكبر حيز ممكن .. كما كان الرفض الكامل لوضع الملكية والاستعمار والطبقة الاقطاعية، والفقر والجهل والمرض والرفض للدجل السياسي، والافلاس الفكرى، وواقع الامية المرير السائد فى الغالبية العظمى من الشعب .. وهذا كله نابع من احساس بالانتماء الى الوطن، والوطن هنا يعنى مصر والنيل والقرية والمصنع .. واحساس غامض بانتماء آخر يضاف الى الانتماء الى مصر ويتكامل معه .. ومن هنا ظهرت الجمعيات الثقافية التى تحاول ان تدرس وتحقق وتترجم معنى ثقافيا يتكامل فيه الاحساس



قاسم أمين

بالامس بالاحساس باليوم فظهرت ندوات العقاد وناجى ومحمد كامل حسين، كما ظهرت لجنة التأليف والترجمة والنشر والامتاع ورابطة الادب الحديث، والجمعية الأدبية المصرية ورابطة النهر الخالد، ورابطة العروبة، وجماعة الفن الحديث، واصدقاء سيد درويش، وجمعية انصار التمثيل والسينما، واللجنة التيمورية،

والجمعية الجغرافية المصرية ، وجماعة علم النفس ، وجمعية المسر الحر ، وغيرها كثير وهى كلها رغم انها تتجه الى الثقافة بمعناها الواسع فتعقد الندوات ، وتنظيم المحاضرات ، وتصدر المجلات فإن ارتباطها السياسي جميعا واضح وبارز ، لابد ان يتحرر الوطن من الاستعمار والجهل والملكية والاقطاع والانغلاق الفكرى ، والتطرف السياسى ، والانتهازية الاجتماعية ، والامية .

وشعارها فى الغالب الاعم هو التحام طبقات المثقفين بطبقات الشادين الى الثقافة ايام كان مستواهم التعليمي .. وهو ايضا قتل القديم بحثا لفهمه ، واستخراج اروع مايعني الحياة منه ، ورفض المسلمات التى لاتخضع للرؤية المستقبلية والمغامرة الدائمة بالاكتشاف القائم على التعليم ، واكتساب اللغات الجديدة ، والارتباط بالحركة الثقافية فى العالم كله ، والتعرف على الموجات الثقافية التى تمور بها دنيا المثقفين فى كل مكان .

ودون ان يقصد احد كان هناك التحام غريب بين طبقات الشعب كلها ، فقد تواصلت هذه الطبقات وخرج ابناء الطبقات العاملة والفقيرة الى دنيا التعليم والوظائف ، ثم الى دنيا الجامعة والطموح الى معنى العدالة والحرية والعدل .

وظلت هناك مظلة مصرية تضم الجميع ، تعلى مكانة الام المكافحة والصابرة لضيافة الاسرة وصنع غذائها، وتوفير الأمن لها ، وتعلى مكانة الأب المكافح المستميت من اجل توفير حياة كريمة حتى ولو كانت فقيرة .. ولكنها كريمة ومتماسكة ، وتعلى مكان الاجيال الطالعة الى البوتقة الثقافية الملتهبة والقائمة ، وتحس نجاحاتها وتحرس طموحاتها ، وتصون اندفاعاتها .. وظل التماسك الاسرى والعائلى بل والقبلى فى احيان كثيرة عنصرا رئيسيا فى تكوين مجتمع يقوم على الاحترام للتفكير ، ولمعنى التضحية ، والاحترام الصغير ، ولمعنى المغامرة ، وهذا هو المناخ الذى يصل بنا الى مرحلة مارت فيها الحياة المصرية بالمظاهرات والاضرابات والمواجهات الساخنة مع السراى ومع

الانجليز ، ومع الاحزاب معا .. فى المصانع والمدارس والجامعات وفى الندوات واللقاءات ، و فى المعطيات الفنية والادبية معا .

نحن على مشارف ٢٣ يوليو عام ٥٢ ، هذا هو واقع المتغيرات الثقافية التى شكلت الحياة الثقافية مؤذنة بلحظة التغير الثورى .. اعنى ثورة ٢٣ يوليو عام ٥٢ . فقد كنا حتى الآن فى مرحلة تعبير جمعى، تقوم به الجماعة مدركة لرسالتها ولمتطلباتها ولدورها وفعالياتها واجتهاداتها فى احداث هذه التغيرات .

أما لحظة الثورة فقد بدأ شىء جديد ، فبدلا من ارادة الجماعة سادت ارادة الأفرد ، وبدلا من العقل الجمعى المتحرك والمتمرد ، برز العقل الفردى المخطط والمحدد والمنفذ ، اى أن الجماعة سلب دورها، وأى أن مرحلة الجدل المستمر داخل المجتمع توقفت ليبرز رأى واحد وفكر واحد وارادة واحدة.

وهنا نقف فى رصدنا للمتغيرات الثقافية فى الحياة المصرية ، فهنا صفحة جديدة ، تسمح لنا ان نتوقف عندها ، وان ننهى كلام الثقافة الجمعية لحظة أصّلت ووجدت ..

فقد اعلنت الثورة منذ البداية الاولى استقلالها بالقرار ، والتفكير والتغير ، واعلنت نفسها نائبا عن الفكر المصرى الثقافى المستقل ، وعن المفكرين



احمد عرابى

المصريين فى كل مجال .

فالثورة منذ هذه اللحظة تعرف كل شىء فى كل مجال ، وتنفذ كل شىء كما ترى وتشاء ، وتنوب عن كل المثقفين المصريين فى خلق حياة ثقافية جديدة ولست أظننا قد أخطأنا حين اخترنا هذه اللحظة لنتوقف عن الحديث عن المتغيرات الثقافية فى الحياة المصرية .

النحو العربي
والحمى المستباح

بقلم : د. محمود الطناحي

يستكمل الدكتور محمود الطناحي في هذا المقال ما بدأه في العدد الماضي عن النحو العربي ، ومناقشة الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي فيما قاله ، من أن الاهتمام بالنحو ليس دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية

الاهتمام بالنحو كان متزامنا مع النهضة العامة التي كانت آخذة في النمو والاتساع ، في علوم العرب وفنونها في ذلك الزمان ، لكن التركيز هنا يكون على النهضة اللغوية والنهضة الأدبية اللتين يرى الأستاذ حجازي أنهما لا يجتمعان مع الاهتمام بالنحو :

فالعلماء الرواة يغدون ويروحون لمشافهة الأعراب في البوادي ، وكذلك رواة الشعر وجامعوه في نشاط دائب ، واللغة تدون في تلك الرسائل الصغار القائمة على الأجناس ، مثل كتب خَلْق الانسان والبهائم والحشرات والخيل والإبل والنخل والنبات والمطر والسحاب واللبن ، والمذكر والمؤنث ، ثم تظهر المعاجم في ذلك الوقت المبكر ، مثل العين للخليل بن أحمد أو الليث بن المظفر ، وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني.

ثم يتجه التأليف اللغوي وجهة أخرى ، فينهض العلماء الى تنقية اللغة ، فيما عُرف بلحن العامة ، وقد جاء ذلك صريحا فيما صنفه الكسائي من « لحن العامة » أو ما جاء ضمنا كالذي صنعه ابن السكيت في « إصلاح المنطق » ، وما صنعه ابن قتيبة في « أدب الكاتب » .

أما النهضة الأدبية المواكبة لذلك الاهتمام النحوي في القرون الثلاثة المذكورة، فلست أعرف سبيلا التدليل عليها، ولا أحسب أن الأستاذ حجازي

يخفى عليه مكان هذه الكتب واجتماع النحو واللغة والأدب فيها : البيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، وأمالي أبى على القالي ، ويبرز كتاب الكامل من بين هذه الكتب ، بعنايته الفائقة بالنحو .

أما الشعر والشعراء فلا يخفى تألقهما فى تلك القرون الثلاثة التى اهتم فيها أهل العلم بالنحو ، وهاتان قائمتان بأبرز النحاة وأبرز الشعراء الذين تعاصروا فى ذلك الزمان ، أسوقهما تذكرة للمبتدئين ، أما أهل العلم فهم أقدر منى على معرفة ذلك :

النحاة : سيبويه (١٨٠ هـ) الكسائى (١٨٩ هـ) الفراء (٢٠٧ هـ) المبرّد (٢٨٦ هـ) ثعلب (٢٩١ هـ) الزجاج (٣١١ هـ) ابن السراج (٣١٦ هـ) السيرافى (٣٦٨ هـ) أبو على الفارسى (٣٧٧ هـ) ابن خالويه (٣٧٠ هـ) ابن جنى (٣٩٢ هـ) .

الشعراء : بشار بن برد (١٦٧ هـ) أبو نواس (١٩٨ هـ) مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوانى (٢٠٨ هـ) أبو العتاهية (٢١١ هـ) أبو تمام (٢٣١ هـ) ابن الرومى (٢٨٣ هـ) البحترى (٢٨٤ هـ) ابن المعتز (٢٩٦ هـ) المتنبى (٣٥٤ هـ) أبو فراس الحمدانى (٣٥٧ هـ) الشريف الرضى (٤٠٦ هـ) .

ومن المعروف أنه كانت هناك خصوصية بين بعض هؤلاء النحاة وبعض هؤلاء الشعراء ، أذكر منها ما كان بين أبى العباس المبرد والشاعرين البحترى وابن الرومى ، فالبحترى يدعو المبرد الى حضور مجلسه على النهر ، فى قصيدة يقول فيها :

ودوام المـــدام يُدْنيك ممّنْ
كنت تهوى وإن جَفاك الحبيبُ
فأتنـــــا يا محمـــد بن يزيد
فى استتار كى لا يراك الرقيبُ

ثم يمدحه بشعر آخر ، يقول فيه :

ما نال ما نال الأمير محمد
إلا بيمن محمـــد بن يزيد .

ديوان البحترى ص ١٣٢ ، ٧٧٤ (تحقيق حسن كامل الصيرفى) .

وابن الرومى يمدح المبرد أيضا فى قصيدة طويلة ، بلغت عدة أبياتها (٩٨) بيتا ، يقول فى أولها :

طرقتْ أسماءُ والركبُ هُجودُ
والمطـــايا جنّح الأوزار قُودُ

ديوان ابن الرومى ص ٧٥١ (تحقيق د. حسين نصار) .

ثم أذكر أيضا الخصوصية التى كانت بين ابن خالويه وأبى فراس الحمدانى ، وقد شرح ابن خالويه ديوانه الذى نشره الدكتور سامى الدهان .

ومن أشهر الصلات بين نحوى وشاعر ما كان بين أبى الفتح بن جنى وأبى الطيب المتنبى ، فقد اجتمعا معا فى بلاط سيف الدولة بن حمدان بحلب ، وفى مجلس عضد الدولة بن بويه بشيراز ، وكانا يتبادلان الإعجاب ، ويتقارضان الثناء ، وكان المتنبى يقول عن ابن جنى : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس» وكان اذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف فى شعره يقول :

« سلوا صاحبنا أبا الفتح » ، ثم كان اذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دل عليه ، وقال : « عليكم بالشيخ الأعور ابن جنى فسلوه ، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد » .

الاستشهاد بالشعر

وأما ابن جنى فقد كان يجل المتنبى ، وهو أول من شرح ديوانه ، وقد شرحه شرحين : أحدهما كبير يسمى « الفسر » أى التفسير ، وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور صفاء خلوصى ، والشرح الآخر صغير يسمى « الفتح الوهبى على مشكلات المتنبي » ، وقد طبع فى جزء واحد بتحقيق الدكتور محسن غياض

ومن وراء ذلك فقد كان ابن جنى يثنى على أبى الطيب ويستشهد بشعره ، متجاوزا بذلك ما حدده متشددو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند الشاعر ابراهيم بن هَرْمة (١٧٦ هـ) ومما قاله ابن جنى فى ذلك عندما استشهد بشعر المتنبى : « ولا تستنكر ذكر هذا الرجل - وإن كان مولدا - فى أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولُطف متسربه ، فان المعانى يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون » الخصائص ٢٤/١، ومن أقواله فيه أيضا .

« وحدثنى المتنبى شاعرنا ، وما عرفته إلا صادقا » (الخصائص ٢٣٩/١ ، « وذاكرت المتنبى شاعرنا نحوا من هذا » الخصائص ٤٠٣/٢ ، وكان يفاوضه فى أمور من النحو والصرف ، منها قوله ·

« ودار بينى وبين المتنبى فى قوله « وقلنا للسيوف هلُمُّنا » كلامٌ فيه طول » سر صناعة الإعراب ص ٧٢٢

وحين مات المتنبى رثاه ابن جنى بقصيدة أولها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب
وصوحت بعد رى دوحة الكتب

فهل تصدق بعد ذلك ما يقال عن عداوة ومدابرة بين النحاة والشعراء ؟

ثم هل بقى بعد ذلك موضع لقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى « والمبالغة فى الاهتمام بالنحو ليست دائما دليلا على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة ، بل ربما كانت بالعكس دليلا على ضعف السليقة وانحطاط الملكة » ، هل بقى موضع لهذا الكلام ؟ إلا أن يكون الأستاذ حجازى يريد نحوا آخر، وأدبا آخر غير اللذين يعرفهما الناس فى تراثنا العربى

كلام فظيع جدا

ثم نأتى الى أخطر شىء فى كلام الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى، وهو قوله فى سياق الحديث عن عصور الانحطاط التى يسود فيها الاهتمام بالنحو والعروض ، يقول : « وكذلك فى عصور الانحطاط التى شهدها الأدب العربى فى العصر المملوكى، ففى ذلك العصر الذى تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام » . انتهى كلام الأستاذ حجازى بنصه وفصه ، وهو كلام فظيع جدا، مفزع جدا ، وهو فظيع جدا ، ومفزع

جدا؛ لأنه دال بصريح اللفظ على أن ابن منظور وابن هشام آيتان من آيات الضعف، ومظهران من مظاهر الانحطاط.

وأنا أسأل الشاعر الكبير، وأقول له: من أنبأك هذا؟ ثم ما هى جريرة ابن منظور وابن هشام عندك حتى تهوى بهما الى مكان سحيق من التخلف والانحطاط؟ أهو شىء استنبطته أنت بقراءاتك، وقامت لك شواهده، ولمعت أمامك أدلته، فنبئنا بتأويله؟ أم هو كلام سقط اليك مما نقرأه من البلايا التى تصب علينا هذه الأيام، تريد أن تغتال تاريخنا اغتيالا، تحت شعار: تنوير العقل العربى؟ فدلّنا على مصدر هذا الكلام، واخرج من العُهدة فيه.

وابن منظور هنا: هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرّم بن على الأنصارى الافريقى المصرى، ينتهى نسبه الى الصحابى الجليل رُويفع بن ثابت. والافريقى فى نسبه معناها التونسى، فقد كانت إفريقية فى ذلك الزمان يراد بها تونس الآن.

ولد ابن منظور يقينا بالقاهرة سنة ٦٣٠ هـ، ونشأ بها وتعلم وصنّف، وتوفى بها أيضا سنة ٧١١ هـ، وخلاصة أمره أنه كان مشتغلا بالأدب نظما ونثرا، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى وظيفة كاتب الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ ذا خط حسن.

وقد عُرف ابن منظور باختصاره الكتب، فاختصر كتاب الأغانى، وهذبه ورتبه على الحروف، وقد طبع هذا المختصر فى ثمانى مجلدات.

ومن الكتب التى اختصرها ابن منظور أيضا: الحيوان للجاحظ، وزهر الآداب للحصرى، ويتيمة الدهر للثعالبى، والذخيرة لابن بسام، ونشوار المحاضرة للتنوخى، وتاريخ بغداد للخطيب، والذيل عليه لابن النجار، وصفة الصفوة لابن الجوزى، ومفردات ابن البيطار، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشى، نشره الدكتور إحسان عباس، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويقوم على تحقيقه الآن الدكتور رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية.

وقد تغيا ابن منظور من تأليف معجمه هذا غايات، أبَنْتُ عنها فى مقالة لى بالهلال (مارس ١٩٩٢م) لكنى أستأذن قارئى الكريم فى أن أعيد ذكر غاية واحدة من تلك الغايات - لاتصالها بموضوعنا الآن - وهى غاية قومية وطنية، باعثها الغيرة على العربية والعصبية لها، بعد أن اطرح بعض الناس الحديث بالعربية وهجروها الى اللغة الأعجمية، وهى التركية فى ذلك الزمان.

● اختلاف الألسنة

يقول ابن منظور فى مقدمة اللسان: «وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردودا،

وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا ، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا في غير اللغة العربية ، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون »

فهذا حديث ابن منظور ، سقته على سبيل الوجازة والاختصار .

أما حديث أبن هشام فمُجمل القول فيه أنه : جمال الدين أبو محمد عبد الله ابن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري المصري ، ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨ هـ) وتوفى بها سنة (٧٦١ هـ) ، حصّل علوم العربية ، واشتغل بالتدريس والإقراء ، وصنف تصانيف كثيرة ، جمهورها في علم النحو ، وقد بلغت تآليفه فيه نحو (٣٠) مصنفا ، ما بين رسالة صغيرة ، إلى كتاب كبير ، ومن أشهرها : الاعراب عن قواعد الإعراب ، وقطر الندى وبل الصدى ، وشذور الذهب ، وأوضح المسالك ، وشرح الفية ابن مالك ، المسمى أوضح المسالك . ويأتي على رأس مصنفاته النحـوية كلهـا . كتابه المانع : « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو الذي يقول عنه ابن خلدون : « ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وسـ اه بالمغنى في الإعراب .

وكان ابن خلدون قد وصف أمر ابن هشام على الجملة ، فقال وهو يتحدث عن صعوبة تحصيل علم من العلوم من جميع جهاته ، والإحاطة به كله ، ومثّل لذلك بعلم العربية ، وهو علم النحو ، فقال في سياق حديث طويل : « كيف يُطالَب به المتعلم وينقضى عمره دونه ، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر ، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تآليف رجل من أهل صناعة العربية ، من أهل مصر ، يعرف بابن هشام ، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة ، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جنى وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفَن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ، ودلَّ على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين » المقدمة ص ٥٣٢

(تحقيق) شاعت عن ابن خلدون في حق ابن هشام كلمة تناقلها مترجموه ، وهي قوله : « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية ، يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه » ولم أجد هذه الكلمة بسياقها هذا وحروفها في مقدمة ابن خلدون ، وإن كان الكلام الذي نقلته من المقدمة يؤول إليها ويدلّ عليها . وقد تتبعت الكلمة فوجدت أن الذي ذكرها بهذا النسق والسياق : هو ابن حجر العسقلاني، في ترجمة ابن هشام من الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤١٦/٢ ، ويلاحظ أن ابن حجر صدّر هذه الكلمة بقوله « قال لنا ابن خلدون » فهو سماع إذن ، وقد ذكر شمس الدين

السخاوى فى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٤٨/٤ ، أن ابن حجر اجتمع بابن خلدون مرارا ، وسمع من فوائده .

● تعمق مذاهب النحاة

ويقول أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عن ابن هشام « وقد تحول يتعمق مذاهب النحاة ، وتمثلها تمثلا غريبا نادرا ، وهى مبثوثة فى مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والسديد ، مع إثارته ما لا يحصى من الخواطر والآراء فى كل ما يناقشه وكل ما يعرضه » ... ويقول أيضا من مصنفاته: « وهو يمتاز فيها جميعا بوضوح عبارته ، مع الأداء الدقيق الى أبعد حدود الدقة ، مسهبا مطنبا ، أو موجزا مجمــلا » المدارس النحوية ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

فهذا ابن هشام يراه الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى مظهرا من مظاهر الضعف والانحطاط ، ويراه ابن خلدون وشوقي ضيف : محيى صناعة النحو فى تلك العصور الوسطى بعدما كادت تؤذن بالذهاب ، وأنه قرين سيبويه وابن جنى ، وأنه قد تعمق مذاهب النحاة وتمثلها ثم أحسن عرضها ومناقشتها ... وهذا على نحو ما قال ربنا عز وجل (إنهم يرونه بعيــدا . ونراه قريبــــا) ســـورة المعـــارج ٦ ، ٧ .

وهذا ابن منظور يراه الأستاذ حجازى مظهرا من مظاهر الانحطاط والضعف أيضا ، ويراه أهل العلم بالعربية صاحب أول معجم عربى كبير ، جمع جذور اللغة العربية بمناهج المعاجم المختلفة « لسان العرب » تذكره ولا تصفه ، لأنه أحد معالم حضارتنا العربية .

على أن للقضية وجها آخر ، هو ما ذكره الأستاذ حجازى وينكره غيره من الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين ، من وسم العصر المملوكى بالانحطاط والتخلف لضعف الأدب والشعر فيه . ورد هذا الكلام ونقضه فى غير هذا المكان ، لكنى أشير هنا إلى أنه لولا ما صنعه ابن منظور وابن هشام ومن إليهما من لغويى ونحاة وعلماء القرن الثامن (وهو العصر المملوكى) من هذه الأعمال الموسوعية لضاع علم كثير ، ولضعفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت ، وهو (الدور) العظيم الذى اضطلعت به مصر والشام فى ذلك الوقت غداة سقوط بغداد ، وإيذان شمس الأندلس بالغروب ، فكانت القاهرة ودمشق ملاذا وملجأ لعلماء بغداد والأندلس ، فواصلوا المسيرة التى بدأوها فى بلدانهم قبل أن تغشاها النوائب ، وشاركوا قرناءهم من علماء مصر والشام فى تلك الأعمال التجميعية الضخمة ، لابن منظور وابن هشام وصلاح الدين الصفدى ، وشمس الدين الذهبى وشيخ الاسلام ابن تيمية ، وأبى الحجاج المزى ، وأبى حيان الأندلسى ، وابن سيد الناس اليعمرى ، وشهاب الدين النويرى ، صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » الذى يقول فيه المستشرق فازيليف « إن نهاية الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوى أخبارا خطيرة عن صقلية ، نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم ، مثل ابن

الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيرهم » .

فما ينبغي أن تكون بعض مظاهر الضعف في الشعر والكتابة الأدبية في العصر المملوكي ، صارفة الأنظار عن مظاهر الحضارة العربية في ذلك العصر ، فلنكف إذن عن ثلب هذا العصر وتجريحه. ومرة أخرى : لولا ابن منظور وابن هشام وأشباههما من الحَفَظة لضاع الإرث والورثة ، ولم يجد الأستاذ حجازى عربية يقيم بها لسانه ، وينسج منها شعره .

وليعلم الشاعر الكبير أن مكانته العالية التي اقتعدها في دنيا الشعر في زماننا هذا ليست مؤهلة له لأن يذهب هذه المذاهب في دنيا اللغة والنحو ، فاللغة بحر لا ساحل له ، والنحو صعب وطويل سلّمه، ولست آمن إذا ظل الشاعر الكبير ماضيا في هذا الطريق : طريق الجراة على اللغة والنحو ، لست آمن أن يقوم له أحد المعيدين الصغار الذين تخصصوا في هذين العلمين ، فيقعد له كل مرصد ، ويأتيه من كل مكان ، حتى ينقض كلامه عروة عروة » وأول راض سنّة من يسيرها » كما يقول خالد بن زهير الهذلي

هجوم وازدراء

على أن هذا الذي ذكره الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى عن النحو العربي إنما هو نفخٌ في نار خامدة ، شبتْ في العقود الأخيرة من هذا القرن ثم طَفِئتْ ، ثم شبت ثم طفئت ... وهكذا ، على نحو ما قال ربنا سبحانه : (كلما خَبَتْ زِدناهم سعيرا) سورة الإسراء ٩٧ .

وإذا كانت ثقافة هذه الأمة العربية كلها قد تعرضت للتنقص والتجريح ، كقولهم في تفسير القرآن إن به إسرائيليات ، وقولهم في الحديث إن به وضعا وضعفا ، وإن في الشعر انتحالا ، وفي الأدب ذاتية ، وفي البلاغة تكلفا وزخارف وأصباغا ... إلى آخر هذا الكلام المعاد الممجوج ، فإن النحو العربي قد ذهب بالهجوم كله وبالازدراء كله. على أن أغرب ما في الأمر أنه قد صار (مَلْطَشَةً) يتكلم فيه من يعرف ومن لا يعرف ، فإن بعض الذين يكتبون عن النحو الآن لا صلة لهم به ، لا من قريب ولا من بعيد ، وإنما هي نُقُول ومتابعات ينقلها لاحق عن سابق، ثم ينسبها إلى نفسه ويتنفخ بها على خلق الله ، وهذا هو الزور بعينه ، على ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما « المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور » ، وهكذا تسير الأمور ، وكأن الأمر في الكتابة عن النحو قد صار (على المشاع) .

ومن ذلك ما كتبه الأستاذ بدر نشأت في الأهرام ١٩٩٦/٧/٥ م بعنوان « بين فصحى نعرفها وعامية نجهلها » وفي هذه الكلمة ترديدٌ لأقوال السابقين ، مع تخليط كثير ، وجرأة عجيبة ، من مثل قوله : « إن القراءة الصحيحة السليمة تفتقد السرعة والمباشرة ، فالقراءة بالتنوين تطيل الوقت، وتضاعف جهود النطق ، وهي أمور ماعادت تتفق وإيقاع العصر وتتعارض مع النزوع البشري المطرد إلى الاقتصاد في الجهد والوقت ، فاللغة كائن حي ، لابد لها

من أن تلاحق إيقاع الحياة وتتكيف معه ».
وأنا لا أفهم معنى القراءة بالتنوين هذه ؟ هل التراكيب النحوية كلها تجرى فى نطقها على التنوين ؟ فما بال الأسماء التى لا يجتمع معها التنوين ، مثل الأسماء المعرفة بأل ، والأسماء المعربة المضافة ، والأسماء المبنية ، والأسماء الممنوعة من الصرف ، والمثنى والمجموع ؟ ثم ما بال الأسماء الموقوف عليها ؟

ويقول الأستاذ بدر نشـأت أيضـا : « ويجب أن يعلم النحويون عندنا أن علم النحو العربى يحتاج فى كثير منه إلى صياغة جديدة ، فقد قام على رؤية معيارية، وعمد إلى الافتراض ، واستنباط القواعد التى تضبط الجانب الكتابى ، وأهمل الجانب الصوتى الذى هو موطن اللغة الأصلى ، وهو ما أدى إلى ما نشكو منه اليوم من تعقيد فى اللغة العربية ».

وهذا كلام مكرور ومُعاد ، أعرف منابته ومغارسه ، كما قالت العرب فى أمثالها : « شِنْشِنة أعرفها من أخْزَم » ، ولا تغرنك هذه العبارات : « إيقاع العصر، واللغة كائن حى ، وصياغة النحو صياغة جديدة ... » أفبعد أربعة عشر قرنا من جهود الرجال الكبار تطلب للنحو صياغة جديدة ؟ (صياغة إيه ياراجل ؟ وحِّد الله وصلى على اللى حيشفع فيك !) ولا بأس علينا إن شاء الله من الإلمام بشيء من العامية ، فإنها تحلو فى هذا الموضع ، ولا تقوم الفصحى مقامها ، وأيضا فإن ذلك من باب المناسبة أو المشاكلة ، كما يقول علماء البلاغة ؛ لأن الأستاذ بدر نشأت قصاص بارع ، ومكانه فى الأدب معروف، ومازلت أذكر مجموعته القصصية الجيدة التى نشرها فى الخمسينات « مساء الخير ياجدعان » وقد مزج فيها بين الفصحى والعامية مزجا رائعا ، مع تطويعه العامية المصرية لبعض المحسنات البديعية ، كالجناس والتورية ، على نحو ما كان يفعل الشاعر العظيم فؤاد حداد ، رحمه الله ، لكن أن يسلك الأستاذ بدر نشأت تلك الدروب الضيقة فى النحو والصرف واللغة، فهذا ما لا يجمل به ، ولا يحسن منه .

أقول قولى هذا ، وأنا أعلم يقينا أننا جميعا أصحاب هذه اللغة ، لنا أن نتحاور حولها ، وأن نبدى الرأى فيها ، لكن الأمر مشروط بتقدم الأهلية وامتلاك الأدوات ، كما قالت العرب فى أمثالها « ثَبِّتْ نَسَبًا واطلُبْ ميراثا » .

ويبدو لى أن مجال الحديث مع من يهاجمون النحو العربى ينبغى أن يأخذ منحى آخر ، ففى نيتى إن شاء الله أن أسأل من يكتب عن النحو الآن جملة من الأسئلة ، فمثلا أقول له : ماذا تعرف عن نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ؟ ماذا قرأت من كتب النحو الأولى ؟ وماذا فى مكتبتك الخاصة منها ؟ ثم أسأله عن طائفة من المصطلحات النحوية التى تدور فى كتب القوم ، وبعد ذلك أضع أمامه بعض أبيات من الشعر وقطعة من النثر ، وأطلب إليه أن يقرأ هذا وذاك قراءة صحيحة أو مقاربة ، فإن جاءت الإجابة على ذلك كله وَفق المراد ، قلت : أجل ونعمى عين ، هات ما عندك ، ومددت حبال

الحديث بيني وبينه، وإن تعثر وكبا قلت : حسبك فقد سقطت مؤونة الكلام بيني وبينك ، فأنت غريب المحل ، ناء عن الديار

★★★

ثم أزيدك عجبا أيها القارىء الكريم – ومن يعش ير عجبا ، كما قالت العرب – أن النحو العربي الآن يهاجم أيضا من بعض الإسلاميين الذين يصرخون ليل نهار، دفاعا عن الإسلام وخوفا عليه ، ولكن كيف يهاجم هؤلاء النحو ؟ سمعت كبيرا منهم فى محفل عام يقول : « إن المسلمين الأوائل شُغلوا بإعراب القرآن عن تطبيقه » وقد غَفَل هذا الغبى – نستغفر الله من فاحش القول – عن أن كثيرا من كلام ربنا عز وجل لا يُفهم ولا يطبق إلا إذا عُرف وجهه النحوى الصحيح ، والأمثلة من ذلك كثيرة لا أريد أن أطيل بذكرها ، وقد ذكرت شيئا منها فى صدر كلمتى .

★★★

وما بقى إلا الإشارة إلى أن النفخ فى نار الهجوم على النحو العربى فى هذه الأيام ، إنما خرج من كير الزميل العزيز الدكتور أحمد درويش ، الذى كتب خمس مقالات بجريدة الأهرام أيضا ، اختار لها عنوانا جذابا هو « أنقذوا اللغة من أيدى النحاة » ، وفى هذا العنوان من الإثارة وفتح الشهية ما ترى . وأخطر ما فى كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه ، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التى تخطف بصر القارىء وتهزه هزا وتخيفه و (تَخُضُّه) على ما وصفت من كلام الأستاذ أحمد عبد المعطى حجازى من قبل . وهو نمط من الكلام إن أعجب بعض الناس فإنه عند كثير منهم خفيف هيّن ، كما قال الشاعر « وخمرُ أبى الرُوْقاءِ ليستْ تُسْكِرُ » .

وليس من همى هنا أن أنقض كلام الزميل العزيز أو أرده ، فلذلك موضع آخر، لكنى أريد أن أذكره فقط بأن هذا النحو القديم الذى سخر منه ومن أعلامه ، ثم دعا الى إنقاذ اللغة منه ومنهم : هو الذى أنطق لسانه وفجّر بيانه ؛ فإن الزميل العزيز ممن ينتمون الى جيل الحفظة : حفظة المتون ، فقد التقى وهو فى طراءة الصبا ثم فى ميعة الشباب بالتحفة السنية شارحة الأجرومية ، وتنقيح الأزهرية وقطر الندى وشذور الذهب وابن عقيل وأوضح المسالك ، ولو أن زميلنا العزيز تعلم النحو بعيدا عن هذه الكتب ، ووفق منهجه الذى يقترحه اليوم لما استقام له بيان ، ولا نهضت له حجة .

وهذا الإعلال والإبدال الذى يهزأ به زميلنا العزيز : هو الذى أعانه على معرفة المعجم العربى ، بمعرفة الزوائد والأصول فى الأبنية العربية ، ولولا هذا الإعلال والإبدال لما عرف أن « تراث » من «ورث» وأن « ميناء » من « ونَى » ، وأن « تترى » من « وتر » ... وهلم جرا . فهذا موضع المثل « أكلا وذما » .

وما ينبغى أن يكون فى تسويغ الزميل العزيز لكلامه أنه يغار على النحو العربى ، وأنه يريد له أن ينهض من كبوته ، ويقوم

من عشرته ، لا ينبغي أن يقول هذا ؛ لأنه نَقَبَ نقبا وأباح حِمى ، فاتكأ بعض الناس على ما قاله في مقالاته الخمس ، واندفع يمينا وشمالا ، يحارب بسيفه وينزع عن قوسه ، فالزميل العزيز شريك في هذه الحملة الشرسة على النحو العربي ، شاء أم أبى ، على ما قال الشاعر :

فإلاَّ يكونوا قاتليه فإنه
سواء علينا مُمْسِكاه وضاربُهْ

ولو لم يكن إلا الوفاء لهذه السنوات التسع التي قضاها الأستاذ الدكتور أحمد درويش بالأزهر الشريف ، فملأت شرايينه بدم العربية ، وكست عظمه لحم الفصحى، لكان في ذلك ما يزعه عن الهجوم على النحو العربي ، الذي هو مِلاك العربية وسُلطانها .

إن الأيام الأولى عزيزة علينا ، نحرص عليها ، ونذود عنها ، ونفخر بها ، أليس كذلك يا دكتور ؟

ولشد ما يعجبني ويؤنسني كلام الأستاذ الشاعر محمد ابراهيم أبو سنه ، الذي ما يفتأ يذكر فضل الأزهر عليه ، وعلى لسانه ، فيقول : « كانت دراستي في الأزهر قد أمدتني بفيض من الأبيات المتناثرة في كتب النحو والبلاغة ، وأصبح الشعر هم الليل والنهار » تجربتي مع الإبداع (الهلال يونيه ١٩٩٤ م) ، وأشار الى مثل هذا أيضا في الأهرام ١٩٩٦/٦/٢٥ م .

★★★

وبعد ...

فقد كتب الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كلامه هذا الذي أدرت عليه مقالتي ، بجريدة الأهرام ، يوم ١٩٩٦/٦/٢٦ م ، وتأخر ردي عليه الى هذا الوقت ، لأني كنت أريد أن أمهد له العذر ، لعله يستدرك ما فرط منه ، أو يفسر ما أشكل على الناس من كلامه ، ولم يفعل الأستاذ حجازي شيئا من ذلك ، ولكنه على العكس حشد في صفحته في الأسابيع التي أعقبت مقالته ، طائفة من كتابات القراء : رِضاً عما كتب ، وحفاوة بما قال ! ولله الأمر من قبل ومن بعد .

تصويب

جاء في صفحة ١٤٣ - العمود الثاني - من العدد الماضي : « لا يكاد الناس يستعملون في هذا الموضع إلا الجملة الفعلية » ، والصواب : «الجملة الإسمية».

البنيوية وجرثومة مابعد الحداثة

بقلم : د. عبدالوهاب محمد المسيرى

من المصطلحات التي تم تداولها، في الآونة الأخيرة، مصطلح «مابعد الحداثة» والتي يري البعض أنه مرادف لمصطلح «مابعد البنيوية» . وقد شغلنا مصطلح «البنيوية» بعض الوقت ، بعد أن شغلنا مصطلحي «الوضعية المنطقية» و «الوجودية» ، وقبل كل هذا شغلتنا «الماركسية» ، والتي ظلت تشغلنا إلي أن سقط الاتحاد السوفيتي هذا السقوط المريع المرعب .

وحينما يتم تعريف هذه المصطلحات للقارئ العربي، فإن هذه العملية تتم بمستويات مختلفة من السطحية والعمق .. ولكن إلى جانب هذا أزعم أننا حينما ننقل هذه المصطلحات فإننا ننقل «أفكارا» لا «فكرا» والفرق بين الأفكار والفكر ، أن الأفكار متناثرة ، مستقلة الواحدة عن الأخرى ، أما الفكر فهو منظومة واحدة متكاملة . وينتج عن هذا غياب الرؤية العربية النقدية المستقلة ، ويتخفى كل هذا تحت قناع «الموضوعية» و «التجرد من الذات» ، بينما نجد أن ما يحدث هو إلغاء للذات المدركة الواعية المبدعة وترد شنيع فيما أسميه «الموضوعية المتلقية» التى تكتفى بالرصد والوصف والإذعان المذل للواقع المادى المباشر . (على عكس «الموضوعية الاجتهادية» التى ترصد وتصف، وتتجاوز الواقع لتدرك الكل، وتصل إلى ركائزه وتقدم وجهة نظر نقدية جديدة مركبة تتجاوز الموضوع المرصود) .

إن المصطلحات التى ذكرناها ليست مجرد لاعبين فى لعبة كبيرة ، وإنما هى تعبير عن منظومة واحدة متكاملة ، لكنها تأخذ شكل متتالية متعددة الحلقات تتحقق تدريجيا ، ولها منطق داخلي . ولايمكن فهم هذه المصطلحات المتعددة حق الفهم إلا فى إطار وحدتها وتجانسها وانتمائها إلى منظومة واحدة . ونحن نذهب إلى أن ثمة نمطاً أساسياً فى تاريخ الفكر العربى الحديث ، فهو فكر بدأ بإعلان مركزية الإنسان، وتفوق الذات على الموضوع (التمركز حول الذات، والفلسفة الإنسانية الهيومانية) . ولكنه انتهى بتهميش الإنسان وإعلان تفوق الموضوع (المادى)

على الذات (التمركز حول الموضوع والوضعية المنطقية وكل الفلسفات الحتمية المادية) . وأخيرا هاهو ذا التيار الأساسى فى الفكر الغربى يعلن اندماج الذات فى الموضوع (الفلسفة الظاهراتية الفينومونولوجية) ثم الغائهما (فلسفة ما بعد الحداثة) . وفى هذا المقال سنحاول ان ندرس هذا النمط من خلال عرضنا للفلسفة البنيوية ولفكر أهم البنيويين (كلود ليفى شتراوس ١٨٩٨ - ١٩٨٢) .

ولفهم فكر ليفى شتراوس (وظهور ما بعد الحداثة) ، لابد من فهم الفكر البنيوى، (فى سياقه الغربى) باعتباره تجلياً لإشكاليات العلمانية الشاملة والتأرجح بين التمركز حول الذات، والتمركز حول الموضوع .

و«البنيوية» هى المقابل العربى للكلمة الإنجليزية «ستركتشر اليزم Structu-ralism». وهى فلسفة لاعقلانية مادية تشكل ثورة ضد الوضعية وضد تشيؤ الواقع واللغة (والتمركز حول الموضوع) وتحاول فى الوقت ذاته ألا تسقط فى الذاتية (والتمركز حول الذات) . وهى تدعى أنها تتجاوز الميتافيزيقا ، ولذا فهى ترفض الوجودية والنزعة التاريخانية (بالإنجليزية: هيستوريسيت Historicit) والفكر الإنسانى الهيومانى بشكل عام .

البنيوية فلسفة إنسانية ؟

إن الفلسفة البنيوية ترفض الفلسفة الهيومانية ، إلا أنها فلسفة متمركزة حول الإنسان . وبالفعل ، تظهر الطبيعة البشرية أحيانا فى الفكر البنيوى كمعيار (بل وكمطلق وكمرجعية نهائية) حينما يتحدث ليفى شتراوس عن رغبة البشر فى التواصل باعتبار أن هذه الرغبة هى إحدى السمات الأساسية للإنسان ، وهى رغبة تعزله عن عالم الطبيعة / المادة وتخلق مسافة بينهما . وتتبدى الرغبة فى التواصل فى واقع أن الانسان ينتج أنظمة إشارية . والإنسان البدائى، رغم بدائيته وبساطته ، لايبحث مثل الحيوان عن طعامه وحسب (كما يتصور النفعيون) ولا يبحث عن لغة طبيعية نفعية مباشرة (كما يتصور الوضعيون) ، وإنما يبحث دائما عن رموز وإشارات للتواصل ولتفسير العالم. فهو حينما يجد شيئا لايسأل «هل هذا الشيء صالح للأكل (بالفرنسية : بون أ مانجرييه bon a manger) كما يتصور دعاة النفعية المادية ، وإنما يسأل «هل هو صالح للتفكير من خلاله (بالفرنسية : بون أ بانسيه bon a penser) أو صالح لاستخدامه رمزاً (بالفرنسية : بون أ سيمبوليزيه bon a symboliser) . وهذا الإنسان البدائى الذى يرغب فى التواصل يبحث عن الحقيقة ويصل إليها من خلال منطقه الخاص . ولأن الأساطير ليست مجرد قصص خيالية وإنما لها منطقها الخاص (بالفرنسية : ميثولوجيك mythologique) الذى يختلف عن منطقنا الخاص (بالفرنسية : لوجيك logique) فإن الإنسان البدائى قد لايعرف علمنا المجرد ولكنه يملك علمه الخاص الذى يدركه بمنطقه الخاص ومن خلال نظامه الإشارى المتعين ومقولاته المتعينة ، ولذا فقد سمى ليفى شتراوس هذا العلم «علم المتعين» (بالإنجليزية : ساينس أوف ذى كونكريت science of the concrete) .

بل إن النزعة الإنسانية تظهر عند ليفي شتراوس بشكل متطرف في قوله إن العقل الإنساني له وظيفة رمزية ويتسم بمقدرته على توليد دوال أكثر من عالم المدلولات ، إذ أن الإنسان يجد أن العالم ليس مفعما بما فيه الكفاية بالمعنى ، وأن العقل يحوى من المعانى ما يفوق ما يوجد فى الواقع من أشياء ، وهذه هى طريقة ليفى شتراوس فى الحديث عن أسبقية الإنسان على الطبيعة . ويرى ليفى شتراوس أن مشكلة الإنسان الحديث هى أنه قد قمع هذا الاتجاه فى العقل الإنسانى نحو توليد الرموز والإشارات .

هل هذا يعنى أن الإنسان هو المرجعية النهائية فى الكون وأن العقل يولد معياريته النهائية من داخل ذاته ؟ هنا سنكتشف نمط التمركز حول الذات الذى يؤدى إلى التمركز حول الموضوع ، وسنجد أنه قد بدأ يؤكد نفسه بشكل حاد ولكن التمركز حول الموضوع سيأخذ فى حالة البنيوية شكل التمركز حول البنية .

وكلمة «بنية» لها معنى محدد فى الفلسفة البنيوية. فهى تستخدم فى علم اللغة البنيوى للإشارة إلى المنهج الذى يدرس السمات اللغوية المختلفة لا كتفاصيل فى حد ذاتها وإنما كجزء من بنية عامة لايمكن أن ترد إلى ما دونها . وقد استخدمت الكلمة بعض الوقت فى علم اللغة للإشارة إلى منهج العالم اللغوى بلومفيلد حيث كان يقوم بتقسيم السمات المباشرة للكلام وتصنيف هذه السمات ، وهذا ما سماه تشومسكى «البنية السطحية» وفى مقابل ذلك ، طرح تشومسكى مفهوم «البنية العميقة» أو «البنية الكامنة» . ولذا سمى تشومسكى اتجاهه فى علم اللغة «النحو التوليدى» . ولكن يمكن القول إن كلمة «توليدى» كما يستخدمها تشومسكى ترادف تقريبا كلمة «بنيوى» كما يستخدمها ليفي شتراوس (فى علم الأنثروبولوجيا) أو جان بياجيه (فى علم النفس) .

وواضع أساس علم اللغة البنيوى (ورائد الثورة البنيوية) هو عالم اللغة السويسرى فرديناند دى سوسير (١٨٥٧ - - ١٩١٣) الذى ذهب إلى أن علاقة الدال بالمدلول (الاسم والمسمى - الكلمة ومعناها - الإشارة والمشار إليه) لا تستند إلى أى صفات موضوعية لصيقة بالدال أو كامنة فيه ، ومن ثم فالعلاقة بين الدال والمدلول ليست ضرورية أو جوهرية أو ثابتة بل اعتباطية . ويرى دى سوسير أن النظام اللغوى هو نسق إشارى مبنى على علاقة الاختلاف بين الثنائيات المتعارضة، فمعنى كل إشارة ينبع من اختلافها مع إشارة أخرى . والنظام اللغوى ككل يعمل من خلال سلسلة الاختلافات والثنائيات المتعارضة هذه ، فالمعنى - كما أسلفنا - ليس كامنا فى الإشارة ذاتها ولا حتى يضاف إليها وإنما هو أمر وظيفى يتحدد داخل شبكة العلاقات داخل النص نفسه ، أى أن المعنى يولد من داخل اللغة نفسها وليس من الواقع .

وقد بين ليفى شتراوس أن الأساطير ، مثل اللغة، نظام يتسم باعتباطية وعشوائية علاقة الدال بالمدلول فالاسطورة (أو الكلمة) ليس لهامعني في حد ذاتها ، فعلاقتها بالواقع (معناها) مسألة عرضية ليست كامنة في الأسطورة أو الكلمة ذاتها أو في الواقع ذاته وإنما هي مسألة عرفية (اتفاقية) ، كما أن الكلمة والأسطورة

لايمكن أن يظهر لهما معني إلا إذا أصبحا جزءا من شبكة أكبر منهما . هذه الشبكة تتسم بما يسمي « التعارضات الثنائية » (بالإنجليزية : بايناري أو بسيشنز binary oppositions) فما يحدد المبتدأ من الخبر ليس خاصية مادية في أي منهما وإنما علاقة تعارض بينهما . واللغة والأساطير ليس لهما وجود موضوعي بل وليس لهما مضمون محدد ، ولكن لكل منهما منطقه الشكلي المجرد العام .

ما هي البنية ؟

وانطلاقا من هذا ، يمكن أن نعرف البنية بأنها ليست صورة الشيء أو هيكله أو عناصره أو أجزاءه أو وحدته المادية أو شيئيته الموضوعية ولا حتي التعميم الكلي الذي يربط أجزاءه. وقد حدد بياجيه خصائص البنية بأنها ثلاث :

١ - الكلية، وتعني أن البنية ليست موجودة في الأجزاء .

٢ - التحولات ، وهي التي تمنح البنية حركة داخلية، وتقوم في نفس الوقت بحفظها وإثرائها دون أن تضطرها إلى الخروج عن حدودها أو الانتماء إلى العناصر الخارجية .

٣ - التنظيم الذاتي ، ويعني أن البنية كيان عضوي متسق مع نفسه منغلق عليها مكتف بها ، فهي كل متماسك له قوانينه وحركته وطريقة نموه وتغيره، ومن ثم فهي لا تحتاج إلى تماسكه الكامن.

ويرى بياجيه أن المثل الأعلى للبنيوية هو السعي إلى تحقيق معقولية كامنة عن طريق تكوين بنايات مكتفية بذاتها، لاتحتاج من أجل بلوغها إلى الرجوع إلى أي عناصر خارجية.

والبنية ليست بذاتية أو موضوعية ، ولاهي مادية أو مثالية ، وهي ليست كامنة في العقل ولا انعاكسا لشي في الواقع علي عقل الإنسان ، وليس لها وجود متعال، وهي ليس لها وجود ذاتي أو تجريبي أو موضوعي أو وضعي . فالبنية ، في واقع الأمر ، هي شبكة العلاقات التي يعقلها الإنسان ويجردها ويرى أنها هي التي تربط بين عناصر الكل الواقعي أو تجمع أجزاءه ، وهي القانون الذي يتصور الإنسان أنه يضبط العلاقات بين العناصر المختلفة . وهذا القانون هو الذي يمنح الظاهرة هويتها ويضفي عليها خصوصيتها . ويتم التعرف علي البنية من خلال علاقة التعارض والتشابه بين العناصر المختلفة (ويطلق عليها «قوانين التركيب») ولا يهم أصول البنية التاريخية ولا عوامل تكوينها ولا مضمونها ولا فاعليتها الوظيفية ، فهذه عناصر يجب تعليقها (وضعها بين قوسين) للتوصل إلى البنية المجردة .

ولكن ما هي علاقة البنية بالإنسان الفرد؟ تبدأ المنظومة البنيوية في الانتقال التدريجي من تأكيد أسبقية الإنسان على الطبيعة (أو الكل) إلى إعلان المساواة والتسوية بينهما . ولإنجاز ذلك، يلجأ البنيويون إلى الحل الحلولي الكموني التقليدي ، وهو الزعم بأن ثمة تماثلا (بالإنجليزية : هومولوجي homolo-gy) بين العقل والواقع . وأن البنية بهذا المعنى متطابقة مع كل من العقل والواقع والبنية التي تماثل الواقع كامنة في العقل الإنساني ، لا بمعنى عقل الأفراد وإنما العقل الجمعي للإنسانية بأسرها منذ بداية التاريخ حتى الآن ، لافرق في هذا بين

العقل البدائي والعقل المتحضر . وهي بنية ثابتة لاتتغير بتغير الزمان أو المكان ولا تتأثر بتغير الأفراد أو المجتمعات أو التحولات التاريخية ، وهي لاتعكس الواقع المادي أو مشاعر الفرد أو التاريخ الإنساني وإنما تعيد إنتاجها كلها حسب أشكالها الثابتة الكامنة .

لكن ، كما هو الحال دائما مع النظم الحلولية ، يتساقط هذا التماثل بين الإنساني وغير الإنساني . ويتحرك غير الإنساني إلى المركز ليؤكد أنه له الأولوية والأسبقية (في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير) ومن ثم يتحرك الإنساني إلى الهامش وينزوي ويختفي ويذوب في الكل اللا إنساني . وبالفعل ، نكتشف أن البنية التي قيل إنها كامنة في عقل الإنسان هي أمر لاشعوري تقع خارج إرادة الإنسان . فالإنسان داخل المنظومة البنيوية ليس له إرادة مستقلة أو وعي مستقل ، هو مجرد مفردة تتشكل منها جمل لغوية ومنظومات أسطورية . والذات الإنسانية الواعية إن هي إلا جزء من بناء ضخم شامخ يتحرك حسب هواه أو قوانينه ، وما الذات سوى حامل ترتكز عليه البنية .

إن المعنى لايبدأ وينتهي من تجربة الإنسان الفرد الحر الذي يفرض المعنى على الكون أو يجده كامنا فيه . فالمعنى ، إن وجد ، هو شيء يحدث للإنسان وللكون. فما يُنتج المعنى في واقع الأمر هو البنية (النظام الدلالي والعلاقات الإنسانية في حالة اللغة، والمنظومة الأسطورية في حالة الأسطورة) . وما حديث الأفراد أو قصصهم أو رؤاهم إلا تجلياً لهذا النظام وتلك المنظومة . فاللغة والأسطورة ليس لهما بداية في أي وعي خاص ، فهما يسبقان وجود العقل البشري ، ولذا فهو يدرك الواقع من خلال اللغة والأسطورة ويقوم بتصنيف الواقع من خلالهما (دون وعي منه) . فالإنسان (بمعنى الذات المتفردة) لايفكر من خلال الأساطير وإنما الأساطير (كبنية مستقلة) هي التي تفكر من خلاله ، وهو لايتحدث من خلال اللغة وإنما تتحدث اللغة من خلاله ، وهي تحرك الإنسان أينما كان وتتبدى في رسائله (رغم أنفه) وفي أي موضوع ينتجه.

وقد ذكر ليفي شتراوس أكثر من مرة أن العقل البشري ما هو إلا تعبير عن منطق صارم وحتمي وأن فكرة الإبداع إن هي إلا وهم . كل هذا يعني ، في واقع الأمر، أن الذات لم تعد ذاتية وأن الواقع لم يعد موضوعيا ، وأن التفسير ليس ثمرة تفاعل الذات مع الموضوع ، فثمة أسبقية للأداة (اللغة - الأسطورة) على الغاية (التواصل الإنساني - التفسير) ، وثمة أسبقية مطلقة للبنية وللعلاقات البنيوية على الوعي الإنساني والذوات الفردية، تماما كما تفترض المادية القديمة أسبقية المادة على الوعي الإنساني ولكن المادية الجديدة تضيف أن هذا المطلق الجديد له أسبقية على الواقع الموضوعي ذاته.

لكل هذا ، يركز المبحث البنيوي لا على السمات الخاصة المتعينة للظاهرة الإنسانية أو الأهداف والدوافع الإنسانية ، ولا حتى على العلاقات المادية التي تحقق الترابط بين عناصر البنية ، وإنما يركز على النسق العقلي الذي يزودنا بتفسير البنية وتحولاتها . ولكن هذا النسق العقلي هو في واقع الأمر نتاج بنية أولية قبلية تتجاوزه وتتجاوز كل التفاصيل الإنسانية والمادية . ولذا ، فإن علم الأنثروبولوجيا

بالنسبة لكلود ليفي شتراوس هو علم العلاقات المنطقية بين الظواهر الاجتماعية أو هو علم دراسة البنية الكامنة والعلاقات البنيوية المختلفة . ومهمة عالم الأنثروبولوجيا هي تحويل الكامن إلى ظاهر والأسرار إلى قواعد منطقية عامة ثابتة ، وبذلك تتضح العلاقات البنيوية الكامنة في مختلف الأنساق الاجتماعية .

أسطورة الأساطير

في هذا الإطار ، يحاول ليفي شتراوس أن يثبت أن كل أساطير العالم عامة (وأساطير الأمريكتين بصفة خاصة) إن هي إلا تعبير عن حكمة خفية وما هي إلا أسطورة واحدة في النهاية (على حد تعبيره) . وقد حاول ليفي شتراوس إنجاز ذلك من خلال نسق تحليلي منطقي صارم يتم فيه تحويل رموز الأساطير واستبدال بعضها بالبعض الآخر من خلال مجموعة معادلات رمزية وجبرية والأساطير في تصوره تتبع قانونا عاما ولذا فهي تقبل التحول إلى معادلات جبرية لأنها بنى اختزالية بسيطة، ولكن الأساطير هي أيضا المنطق الخفي في كل الحضارات. فهي بمثابة اللوجوس الذي يمنح المجتمع تماسكه ومعقوليته، ولكنه لوجوس علماني، ليس لها غرض نهائي، فهو لوجوس بلا تيلوس، مطلق بلا غاية وميتافيزيقا بلا مسئولية أخلاقية (مثل روايات الخيال العلمي).

ويمكن القول إن البنية تشبه من بعض النواحي المثل الأفلاطونية المستقلة عن الظواهر التي تتبدى من خلالها وعن الأفراد الذين يعبرون عنها ، وإن كانت المثل الأفلاطونية، رغم استقلالها عن الانسان وتجاوزها له ، تترك له مجالاً كبيراً لحرية الاختيار وفعل الخير والشر، ولذا فهي في واقع الأمر تشبه فكرة العقل الأول في الأفلاطونية المحدثة الذي تصدر عنه كل العقول الأخرى داخل سلسلة صارمة لاتسمح بحرية الاختيار ، وتشبه نفس العالم (أنيموس موندي) عند الرواقيين ، كما تشبه الروح المطلقة (جايست) عند هيجل . وهي لاتختلف كثيراً عن وثبة الحياة (بالفرنسية : إيلان فيتال elan vital) عند برجسون ، أو الايدوس عند هوسرل ، أو عالم الحياة عند هوسرل وهايدجر وهابرماس (بالألمانية : ليبنزفلت Lebensvelt) ، وقوة الحياة عند كثير من الفلاسفة الحيويين (بالإنجليزية : لايف فورس life force) ، وهي قوة تتجاوز الذات والموضوع وإن كانا يحققان اتحادهما من خلالها ، وهي مقولة غيبية ميتافيزيقية رغم كل ادعاءاتها المادية ترتدي مسوح العقلانية والموضوعية . ولكنها ، في واقع الأمر، ليست بعقلانية ولا موضوعية، فهي لايمكن قياسها أو رصدها أو فحصها أو ملاحظتها . ولا يمكن ادراكها بالحواس الخمس. هذه المقولة هي افراز الرؤية العضوية الداروينية النيتشوية للواقع وهي المعادل الموضوعي (في عصر المادية الجديدة) لفكرة قوانين الحركة المادية في عصر المادية القديمة).

ويفرق البنيويون بين التعاقب (بالإنجليزية : دياكرونيك diachronic) والتزامن (بالانجليزية : سينكرونيك syn-chronic) ويرون أن البنية خالية من الزمان (ومن هنا معارضتهم للنزعة التاريخية والتاريخانية) . بل يمكن القول إن البنية المثلى هي البنية المجردة تماما

من الزمان ، أي البنية الرياضية (فصدق المعادلات الرياضية لاينبع من أنها متسقة مع واقع خارج عنها وإنما من اتساقها مع نفسها) . ويتضح الانتقال من الإنساني إلى اللا إنساني في التحليل البنيوي ، فهو بالرغم من أنه يهدف إلى اكتشاف بنية العقل الإنساني عن طريق تحليل نواتج هذا العقل من أساطير ونظم اجتماعية ولغة وطقوس ، فإنه لاينتهي في عالم الإنسان وإنما ينتهي في عالم الأرقام والأشكال الهندسية ومعادلات السالب والموجب . فالتحليل البنيوي يأخذ شكل تصاعد في عمليات التجريد ، وتعليق متصاعد للمضامين الفردية والإنسانية ، واختزال التفاصيل المتعينة وتصفية الثنائيات ، بهدف التبسيط من أجل الوصول إلى مقولة أساسية وإلى بناء أساسي كامن وراء كل الأنساق . ويمكن تصوير البنية على أنها ذات طابع هرمي ، ويسود نفس القانون الذي يضبط العلاقة بين العناصر على كل المستويات من قاعدة الهرم إلى أن نصل إلى قمته حيث نجد أن المبدأ البنيوي هو أعلى درجات التجريد، مبدأ لايعرف المكان ولا الزمان ، ولا الضحك ولا البكاء، ولا الإنسان ولا التاريخ.

وإن طبقنا هذا على المفردات المختلفة للحضارة الواحدة (من طعام وطقوس وعادات) فإننا سنكتشف من خلال عملية تجريد متصاعدة أن ثمة لغة كلية واحدة تضمها جميعا ، ويمكننا فهم بنية هذه الحضارة من خلال فك شفرة هذه اللغة. ولكن ثمة تصاعداً لمعدلات التجريد، وتعليق متزايد للمضامين الفردية المتعينة للحضارات المختلفة يكشفان لنا أن ثمة لغة كلية شاملة تضم كل لغات الحضارات المختلفة وأن ثمة تماثلاً بنيوياً بين لغات الحضارات المختلفة، وأنها في واقع الأمر لغة واحدة.

وتستمر معدلات التجريد بلا هوادة وبكل صرامة إلى أن نصل إلى الثنائيات البسيطة المتعارضة (التي تختزل هي ذاتها أحياناً) لتصل إلى بنية البنيات وأسطورة الأساطير ونموذج النماذج ، أي عالم الواحدية . وعلى حد قول ليفي شتراوس ، فإنه «إن كان ثمة قانون في أي مكان، فإن القانون موجود في كل مكان» ، وكذلك فهو موجود في كل شيء ويتجاوز كل شيء (الإنسان والطبيعة) ، ويتحقق في كل المجتمعات بشكل جزئي رغم وجوده الكلي . وهو قانون يمكن ترجمته رياضيا ويشبه المعادلات الرياضية في تجريديته واختزاليته .

وقد عبر ليفي شتراوس عن رغبته في أن يتوصل إلى جدول يشبه جدول مندليف لتصنيف المواد ، وهو الجدول الذي تم عن طريقه التنبؤ بوجود مواد في الطبيعة لم تكن معروفة للعلماء ، ثم تم اكتشافها فيما بعد . كما يحاول كثير من البنيويين أن يصلوا إلى نوع من الجدول الرياضي أو المصفوفة الجبرية التي تغطي كل التحولات والتجمعات: الفعلية والممكنة في الماضي والحاضر والمستقبل .

ويمكن أن نري هنا كيف أن التحليل البنيوي ، رغم كل هذا الحديث عن العقل الإنساني ، يعيش في ظلال العلوم الطبيعية والرياضية ، ومن هنا الرغبة العارمة في تصفية الخصوصية والفردية ، ومن هنا العداء للنزعة التاريخية والنزعة الإنسانية وكل مايمت بصلة لعالم الإنسان

الفرد ، ومن هنا الرغبة في الوصول إلى درجة عالية من اليقينية لايمكنها أن تتحقق إلا في المنظومات الرياضية والقوانين العلمية .

البنيوية فلسفة معادية للإنسان

ويثير دعاة الاتجاه الإنساني الهيوماني التاريخي الاعتراضات التالية على البنيوية :

١ – التحليل البنيوي يتجاهل كلا من الواقع المادي والإنسان الفرد، ويعلقهما (كما يفعل الفينومولوجيون مع الواقع) ويرد كل شيء إلى مبدأ واحد لا هو بالموضوعي ولا هو بالذاتي ، لا هو بالمادي ولا هو بالعقلي ، فالبنيوية من ثم هي شكل من أشكال التفكيك والتقويض الجذري الذي يهدف إلى إلغاء الذات الفردية (أو على الأقل إزاحتها عن مركز الكون) وفي تعليق الموضوع المباشر (المضمون الحقيقي) ، وبالفعل ، نجد أن فوكوه (البنيوي التفكيكي) يتنبأ باختفاء ظاهرة الإنسان كلية ، لأنها ظاهرة غير ذات بال ، بل إنها نوع من أنواع التصدع في النسق الكوني الطبيعي . وهو أيضا يهاجم سارتر لأنه يدافع عن الواقع الإنساني التاريخي . ويتحدث ألتوسير عن تاريخ يتحرك دون ذات تاريخية فاعلة – تاريخ كله مبني للمجهول إن أردنا استخدام مصطلح بنيوي .

٢ – تدور البنيوية في إطار نموذج واحدي تطبقه تطبيقاً شاملاً على كل شيء ولذا فهي مذهب أحادي تبسيطي (بل وإرهابي على حد قول أحد النقاد الإنسانيين الهيومانيين) .

٣ – النموذج البنيوي مستمد من أصل علمي (لغوي – رياضي) ويميل نحو التجريد المخل الذي يسقط التجربة الإنسانية المتعينة كما أنه يهتم بشكل متطرف بقواعد البنية دون مضمونها . ومن هنا ، فإن البنيوية تصلح لمجتمع تسوده وتحكمه التكنوقراطية، ولا يهتم بالرؤية الكلية، مجتمع سيطر عليه تماماً العقل الأداتي والترشيد الإجرائي والالتزام بالقواعد دون الهدف والغاية. والبنيوية لاتهتم بالتغيير الذي يتطلب إدراك مثل هذه الرؤية الكلية (ويرى ليفي شتراوس أن سارتر وأمثاله من فلاسفة التجربة المعاشة يصعدون مشاغلهم الشخصية إلى مرتبة المشكلات الفلسفية القائمة، أي أنهم يعودون إلى مرحلة ما قبل العلمية ويتناسون العلم بتجريداته ونماذجه الشكلية).

٤ – البنيوية فلسفة معادية للتاريخ، تغرق في تجريدات شكلية تنصب على حضارات بدائية يصفها ليفي شتراوس بأنها خارج التاريخ، (كما يشير ليفي شتراوس إلى المجتمعات الميدانية بأنها مجتمعات باردة في مقابل المجتمعات التاريخية المعاصرة الساخنة) . ولذا ، فإن البنيوية لاتفهم الانتقال التاريخي ولا حركة التاريخ ، فهي تتعامل مع التاريخ المجمد، (ويرد ليفي شتراوس على هذا بأن الوجودية لاتفهم التاريخ بتأكيدها على المستقبل ، كما أنها أيديولوجيا متمركزة حول الذات وحول الحاضر ، ولذا فإن التاريخ بالنسبة لها ليس الماضي بكل تركيبيته وإنما هو ما يؤدي إلى الحاضر ، ولذا فهي لاتفهم الماضي وتغض نظرها

عن أشكال أساسية فى التجربة الإنسانية مثل الطقوس والأساطير) .

ويثير أنصار ما بعد الحداثة بعض التحفظات بخصوص البنيوية ومفهوم البنية . ولابد أن نتوقف هنا لنشير إلى ظاهرة ذات دلالة عميقة من وجهة نظرنا، وهى أنه ، بينما يتهم الوجوديون البنيوية بأنها معادية للإنسان ، يتهمها أنصار ما بعد الحداثة بأنها مثل الوجودية متمركزة حـول الإنسـان . ونحن نذهب إلى أن التناقض الظاهرى يدل على تصـاعـد معدلات العداء للإنسان والحلولية الكمونية فى الفلسفة الغربية - فما كان معاديا للإنسان متطرفا فى عدائه فى الماضى ، أصبح هو ذاته متمركزاً حول الإنسان ، متطرفاً فى تمركزه فى الثمانينات :

ويمكن إيجاز تحفظات أنصار ما بعد الحداثة فيما يلى :

١ - البنية ، رغم ادعاءات البنيويين عن ماديتهم ، ليس لها وجود مادى وإنما هى كامنة فى العقل الجمعى للإنسان وفى بنية هذا العقل ذاته ، أى أنها تشبه إلى حد ما مقولات كانط الأولية القبلية المستقلة المفطورة فى عقل الإنسان ، فالبنيات برامج تماثل بناء عقل الإنسان ، وثمة إمكانية تواصل من خلال العقل الإنسانى والأساطير ذاتها تشاكل بناء عقل الإنسان. فالبنية ، من ثم ، لها وجود ميتافيزيقى سابق على الواقع المادى .

٢ - رغم كل ادعاءات البنيويين عن اختفاء الموضوع الإنسانى تماماء فإنه يعاود الظهور وبحدة فى كتابات البنيويين . بل إن المشروع البنيوى بأسره محاولة لتطوير مفهوم الإنسان وتأكيد لمقدرة البشر على الترميز والتواصل ، بينما تحاول ما بعد الحداثة التحرر تماماً من مفهوم الإنسان ومركزيته .

٣ - تحاول البنيوية أن تنفى الأصول الربانية أو حتى الإنسانية للإنسان بأن تجعل البنية (بديل المادة) هى الأصل . ولكن البنية (مثل المادة فى الفلسفات المادية القديمة) تتسم بشيء من الثبات ، ولذا فهى ميتافيزيقا مادية .

٤ - البنية ، حسب تصور البنيويين ، لها قانون واللغة والأسطورة والنصوص الأدبية والأعمال الفنية (مهما بلغت من تجريد) تخبر عن الواقع ، أى أن الدال له علاقة أكيدة بالمدلول، مما يشى بإيمان بالثبات.

٥ - وجود البنية يشير إلى وجود مركز وهامش وحقيقة كلية تتجاوز الأجزاء وكذلك أجزاء خاضعة للكل. والحقيقة الكلية تتسم بالثبات وبالاستقلال عن الطبيعة / المادة وتشير إلى وجود جوهر ثابت لايتغير بتغير الأجزاء أى أنها شكل من أشكال الميتافزيقا.

٦ - تسقط البنيوية بسبب هذا كله فى الثنائيات المتعارضة ، وتحتفظ بالثنائية باعتبارها طبيعية وحتمية وذات دلالة . ومن هذه الثنائيات ما يلى : جسد / عقل - داخل / خارج - كتابة / قراءة - حضور / غياب - مكان / زمان - الحرفى / المجازى - ذكر / انثى . وافتراض مثل هذه الثنائيات يعنى تجاوزا للصيرورة ولعالم الحس المادى المباشر.

٧ - من أهم الثنائيات المتعارضة فى البنيوية ثنائية الطبيعة / الحضارة فقد حدد شتراوس هدفه بأنه الوصول إلى

الطبيعة الأساسية للذهن البشرى ، وهو ما يوحى بأن لهذا تركيبا طبيعيا ثابتا . لكن هذا التركيب الطبيعى ليس مصدره الطبيعة / المادة، وإنما النظم الثقافية (اللاطبيعة ومن ثم اللامادية) . فطبيعة الإنسان مرتبطة بخروجه عن الطبيعة (المادة) . فالمبادىء الكلية للذهن البشرى بوجه عام ليست كامنة فى تكوين طبيعى لم يتدخل فيه الإنسان ، وإنما هى مبادىء اهتدى إليها الإنسان فى ذلك التنظيم الثقافى الذى يتحكم به فى حياته والذى يعبر مباشرة عما هو أساسى فى طريقة تفكيره .

والشائع فى النظريات المادية هو النظر إلى الطبيعة التى لم يخلقها الإنسان على أنها هى الأصل وإلى الثقافة على أنها الفرع أو الناتج، لكن ليفى شتراوس يقلب الآية ويرى الثقافة أصلا والطبيعة (فى حالة الإنسان بالذات) مشتقة منها . وإذا كان من الشائع أيضا وصف الطبيعة الخام بأنها ثابتة والثقافة بأنها نسبية متغيرة ، فإن ليفى شتراوس يؤكد أن الثقافة هى العنصر الثابت فى تكوين الإنسان ومنها يستمد الإنسان ثبات طبيعته ، فالإنسان يصنع طبيعته عن طريق ثقافته . فمنذ اللحظة التى يحظر فيها زواج المحارم ، يظهر عنصر ثقافى فى المجتمع الإنسانى (وهو الحظر ، أى التنظيم الاجتماعى ، والقانون) يشكل الطبيعة متمثلة فى غريزة الجنس ويتحكم فيها . ففى هذا الحظر وذاك التحريم ، تتجاوز الطبيعة ذاتها وتبدأ فى تكوين بناء جديد يحل فيه التنظيم المعقد المميز للإنسان، محل العفوية والعشوائية المبسطة التى تميز بناء الحياة الحيوانية (فؤاد زكريا) .

كل هذا يعنى أن ثنائية الثقافة والطبيعة تحل مشكلة أصل الإنسان بطريقة غير مادية وتشير إلى أصل الإنسان الربانى بشكل حيى متعثر . كما يعنى ذلك ببساطة أن البنية تفلت من قبضة الصيرورة وتتسم بقدر من الثبات والتجاوز والمعنى وأنها لاتزال متمركزة حول اللوجوس والتيلوس ، وأن البنوية متمركزة حول الإنسان ككائن ثابت متجاوز لعالم الطبيعة / المادة . وكل هذا يشير إلى عالم وراء عالم الصيرورة والواحدية المادية ، أى أن البنيوية لاتزال ملوثة بالميتافيزيقا (حسبما يقول أنصار ما بعد الحداثة) وفى الإطار الحلولى الكمونى الواحدى فإن هذا يمثل فضيحة لايمكن قبولها ،فهذا يعنى أن الإله لايزال يلقي بظلاله على العالم على الرغم من أن الإنسان قد أعلن موته ، ومن ثم ظهرت مابعد البنيوية وما بعد الحداثة لتحقيق المشروع النيتشوى لا لقتل الإله وحسب ، وإنما لإزاحة مايكون قد تركه من ظلال على الطبيعة والإنسان ولتطوير نظام حلولي كموني لايفلت أى عنصر فيه من دوامة الصيرورة اللامتناهية ، ولايطفو فوق سطح المادة ، وهكذا ، فإن ماكان جنينيا متعثرا في البنيوية ، يصبح واضحا متبلوراً في مابعد البنيوية وما بعد الحداثة .. والله أعلم

القفز على الأشواك

نهاية الأندلس

بقلم : د. شكرى محمد عياد

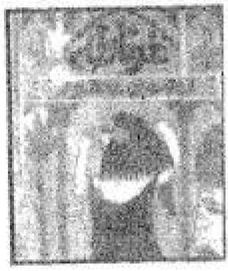
أشك فى أن كلمة ، نهاية ، تناسب هذا العنوان فلا نهاية لشىء . يقول الفقيه عمر الشاطبى فى رواية «الرحيل» لرضوى عاشور : «لا اليوم آخر يوم فى العمر ، ولا هو الفيصل فى القادم من الأيام» ، والكاتبة تجعل عمر يموت فى اليوم نفسه - هل هو تأكيد للمعنى أم تعليق ساخر عليه ؟ الرواية على كل حال حافلة بتناقضات الحياة ، لاتعوزها الفكاهة رغم قسوة الموضوع ، وفكاهتها ليست دائما مرة .

فليس فى وسع أحد أن يمحو الوجود العربى من تاريخ الأندلس ، حتى ولو غلب عليها اليوم اسم أسبانيا ، لقد اختارت رضوى عاشور موضوعا بالغ الصعوبة ، تاريخيا وقوميا وإنسانيا ، موضوعا يتحدى قدرة أى كاتب ، لأنه حافل بالمشاعر المتضاربة ، والأفكار المتناقضة ، شديد العلاقة بالحاضر ، ولكنها تركت العلاقات السطحية كما ابتعدت عن المواقف السهلة ، فاختارت لثلاثيتها الأندلسية أصعب فترة من تاريخ العرب فى أسبانيا ، حتى من ناحية التوثيق التاريخى ، وهى فترة السنين المائة التى أعقبت سقوط آخر الممالك الإسلامية فى يد الغزاة المسيحيين ، والتى يسميها المؤرخون الغربيون الفترة المورسكية، دلالة على أن قسما كبيرا من السكان العرب بقى فى البلاد ، ولكن التحقيق التاريخى ليس إلا العمل التمهيدى الذى يقوم به الروائى ، لأن العمل فى المادة الإنسانية هو الأصعب .. ولا يكفى أن نقول إن الناس فى ثلاثية رضوى عاشور يعانون القهر ، وتحطم الآمال ، وفقدان الأرض ، وفراق الأحبة . أفدح من هذا كله شعور الانسان بأن العالم ليس مبنيا على العدل، أنه خدع خدعة كبرى حين قذف به فى هذا العالم وقيل له إن الفاضل محبوب من الله ، وإذا كان الله قد أراد امتحانه بهذا البلاء ؟ فكيف يمكنه ، هو ، أن يستقبل هذا البلاء ؟ بالحيلة ؟ أم بالصبر ؟ أم بالاستسلام؟ .

كل يبحث عن خلاصه

قد نجد أنفسنا حين نستعرض شخصيات الثلاثية ونجد منطقا واحدا يحكمها : منطق الانفصال ، كل يبحث عن خلاصه الخاص نتساءل . هل نمت





«الفـرديـة» العـربيـة فى مناخ الهـزائم ، فجاءت فردية سوداوية غير مستقرة ، تحن الى التواصل الإنسانى أحيانا ، وتسطو أو تستـوحش أحـيـانا ، وهل يؤدى المزاج السـوداوى إلا إلى مـزيد من الهـزائم ، وكيف يمكن الخروج من الدائرة الجهنمية ؟

تشبه الرواية حياة عرب الأندلس طوال هذه المائة عام بدهاليز مظلمة ، لايخرجون من دهليز إلا إلى دهليز ، فهل أنارت هذه الحياة – أو بعض جوانبها – بمصباح الفن ؟

رغم كل التمزق الذى صورته الرواية الأولى «غرناطة» فقد كسبت الشخصية المحورية – أبو جعفر الممتد فى حفيدته سليمة – كسبا عظيما : إن الايمان الحقيقى ، الذى يصمد للمحن ، هو الايمان أولا بكرامة الانسان ، لايكفى أن نقول إن الايمان «لايناقض» العقل الايمان لايثبت إلا بالعقل ، وإعمال الانسان لعقله هو مظهر لشعور الإنسان بكرامته لتقبله لمسئوليته بما هو إنسان، فى الرواية الثانية (مريمة) لانجد مثل هذا المحور الأساسى، بل إنها فى الحقيقة تتألف من قسمين لا يربط بينهما إلا المدينة «غرناطة» التى يتغير الكثير من معالمها كل بضع سنوات، وإلا بيت أبى جعفر الذى كاد يقفر من ساكنيه . فسليمة ماتت على المحرقة وزوجها سعد مات حزنا عليها وحتى بنتها عائشة ماتت بعد أن ولدت ابنها على وبنات حسن الخمس متزوجات فى بلنسية لاترد منهن أخبار . وولده الوحيد هشام – الذى تزوج من عائشة – هجر البيت الى الجبال، يسميه الوطنيون مجاهدا ويسميه المحتلون قاطع طريق .

حياة التمزق

لم يبق فى البيت الكبير إلا حسن – وقد أصبح مقعداً – وزوجته مريمة ترعاه مع حفيدهما على، الذى نراه فى مفتتح الرواية ابن خمس سنين ، ولم يبق لهم مورد رزق إلا ما تكسبه مريمة من صنع الكعك وبيعه فى السوق ، الزوجان الشيخان دائما الشجار . وعندما يرجع نعيم من مهجره فى العالم الجديد ، وقد أصابه ما يشبه المس بعد أن ماتت زوجته

الهندية وهى حامل حين أغار الغزاة على حلتهم ، يصبح الشجار ثلاثيا ، حياة على مقسمة بين البيت والحارة ومدرسة الإرسالية مثل حياة لداته الأطفال وهم بين قشتالي وعربي اندمج أهله في المجتمع الجديد ، وكبيرهم «فديريكو» ابن جارية سوداء انتقلت من آخر ملوك غرناطة الى أحد السادة الجدد . وفي البيت يستمع على إلى قصص جدته وقصص نعيم الذى يدعوه أيضا جده ، وفى عطلة الصيف يعلمه جده حسن الكتابة والقراءة بالعربية

تسيطر على الفصول الأولى روح غنائية مشبعة بالحنين والحزن ، روح «مريمة» التى أصبحت تتعلق بالأحلام وتلتمس تفسيرها عند جارة تثق فى معرفتها بمعاني تلك الرموز، هي تحلم بنصر قريب ، يعيد إليها الغائبين جميعا ، تصبر على تحقيق الحلم سنين - كما قالت لها الجارة - ويكون علي قد كبر وترك المدرسة وأصبح يعمل في دكان إرناندو بن عامر في النجارة وحفر الخشب ، ويأتيها بالأخبار من السوق، قامت الثورة في «البشرات» وبايع الثوار ملكا مسلما من الأمراء السابقين. سرت الحماسة بين الأهالي وتبرعوا للمملكة الجديدة بما قدروا عليه ولكن الثورة دحرت ورأى علي حرائر البشرات يعرضن شبه عاريات على خشبة المزاد والطامة الأخرى أن السلطات كانت قد سجنت مائة من أعيان العرب فأعدموا جميعا . وأخيرا صدر قرار بترحيل عرب غرناطة - إلا من تأذن لهم السلطات بالبقاء - إلى مدن أخرى ، بدعوى الخوف عليهم من المجاعة لأن الحرب أتلفت المحاصيل .

إيقاع سريع

من هنا يتسارع إيقاع الرواية وتعلو النغمة ، ففى أثناء الرحلة الطويلة الشاقة تموت مريمة، وبعد أن يواريها علي التراب يترقب فرصة للهرب ، ويتمكن من الاستيلاء على حصان أحد الحراس ، فى مثل هذه الأزمنة المضطربة يمكن أن يبدع خيال الروائى فى نسج المغامرات ينزل على بستان إمرأة ناضجة - يبدو أن الحظ ينعم عليه بالأنثى المشتهاة والأم المفتقدة في شخص واحد ، ثم يلتقى بقاطع طريق يسمى نفسه روبرتو البطل ، ولكن عليا لايستحل سفك دماء الأبرياء ولا سرقتهم ، فيجعله روبرتو حارسا على أمتعة العصابة ودوابهم ، وفى هذه الازمنة المضطربة يمكن أن تختلط الطيبة بالشر ، وأن يكون البطل مجاهدا وقاطع طريق ، وهكذا يعرف علي أن روبرتو وجماعته حاربوا في صفوف محمد بن أمية ، الملك السيء الحظ .. ولكنه - يقول روبرتو لعلي - كان - مثلك يخاف سفك الدماء ، فلم يكن صالحا لقيادة ثورة .

بينما يخبط علي وحيدا في الجبال

والأودية ، يسأل نفسه كيف خرج أبوه هشام من الدار ليواجه هذه الحياة، ويجعلها حياته. فليس في شخصية على إلا القليل من أبيه ، كان هذا الأب لا يجيئه إلا لينجده في الأزمات ، ولكننا نرى فيه الكثير من حنان جدته لأبيه ، والكثير من حساسية جدته لأمه ، ينشد الحب ويعطيه ، يألف الأمكنة ، ويعشق النباتات، يحب الناس ويحب الحياة .

لم يعد يطيق البعد عن غرناطة ، ولو أنه لم يعد له فيها أهل ، ولكن العودة إلى البيت القديم ، وبستان جدته ، لم يزل يراوده . ينسل إليها ويأوى إلى بيت من بيوتها المهجورة ، وفي الصباح يقصد إلى متجر إرناندو بن عامر ، مخدومه القديم ، فيعلم أنه مات ، ويجد مكانه ابنه خوسيه ، الذى كان علي يستثقله ولكنه يصبر عليه إكراما لمحبوبة طفولته ، وردة أخته .

خمس سنوات غابها على غيرت المدينة والناس . الكل الآن نصارى بحكم القانون ، ولم يعد أحد يعرف العربية، ولذلك أصبحت لعلى مكانة خاصة فهو يقرأ لهم الرسائل التي ترد من أقاربهم في عدوة المغرب. وقد عاد الى عمله القديم وسكن في البيت القديم بعد أن عقد صفقة مع خوسيه الذى رتب له اوراق اقامة ومكنه من السكنى في هذا البيت. بعد أن وقع له على وثيقة ببيعه وأخرى ببيع بيت ثان كانت تملكه الاسرة في الضاحية.

ولكن عليا لا يهنأ بهذه العيشة طويلا، فقد استدعي للتحقيق معه حول علاقته بأبيه ، وعلاقته بأنسبائه في بلنسيه، الذين يشتبه في اتصالهم بأعداء الملك، ومع أن المحققين اظهروا اقتناعهم ببراءته فقد بقي في السجن زهاء ثلاث سنوات ونصف السنة، ولم يكن يسأل عنه وهو في سجنه، ويبعث اليه ببعض المأكولات، إلا فضة أم صديقه القديم «فديريكو» وحين يخرج من سجنه يجد عندها الحنان الذى ينشده ولكنه يصطدم بخوسيه الذى استولى على المنزل في غيابه وأراد أن يحرمه من السكنى فيه بعد اطلاق سراحه. وفي هذه المرة ايضا يلجأ على الى العنف، ويهدد خوسيه بالقتل. ولا يلبث أن يخبره صديق أن خوسيه يعد له مؤامرة ما، فيهرب من غرناطة بلا أمل في العودة ، وبلا وداع إلا ورقة يبعثها الى فضة باسم ابنها الغائب والذى تظنه حيا، ويعرف هو أنه ميت، ولكننا لا نفهم لماذا يكتب على هذه الرسالة الى فضة باسم إبنها فديريكو، إذا كان هو على الذى يريد أن يودعها ؟ هل تريد الكاتبة واعية أو غير واعية، أن تجسم في «على» معنى الفقد، فهو المفقود والفاقد وهو المفتقد والمفتقد ؟

التعمق في الذات

واذا كانت « مريمة» رواية مختلفة النفس «بالتحريك» فإن الرواية الثالثة

الرحيل تبدو واحدة النفس، بل واحدة الصوت، وكأننا نكتشف ، من خلال على أن السبيل الوحيد للتغلب على تنافر الفرديات ، هو التعمق في الذات .

بينما يستعد على للرحيل الأخير، في مفتتح هذه الرواية الثالثة، يرن في ذهنه بيت من الشعر :

يا طالبا لطريق السير تقصده
ارجع وراءك فيك السر والسنن

ولكن بين هذا المفتتح وبداية الأحداث المسترجعة سبعا وعشرين سنة. عمرا آخر، وتجربة أخرى ، وكأن الكاتبة تريد أن تستوفي التجربة العربية من جميع جوانبها .

فنحن هنا في قرية اسمها «الجعفرية» قرية منعزلة على سفح جبل، جاءها على يسأل عن انسبائه الذين قيل لهم إنهم تركوا بلنسيه ليعيشوا في هذه القرية فإذا هم قد هاجروا الى تونس ولكن شيخ القرية عمر الشاطبي زين له الاقامة فأقام واشتغل بالفلاحة كسائر أهل القرية، وتحمل معهم أذى السيد الاقطاعي، ربى الاشجار كأنها أطفال، وعلم أطفال القرية اللغة العربية، كما كان الشيخ عمر الشاطبي يعلمهم الدين، وينير الطريق المظلم أمام الكبار . ليس في وسع على أن يفعل الشيء الكثير غير هذا ولكنه من موقع المعلم والرفيق المقرب إلى شيخ القرية، يعرف الكثير من أحوالها. يعرف -على الخصوص - ذلك النظام العشائرى البغيض الذى يفرق بين أهلها، وهم أشد ما يكونون حاجة الى الائتلاف. وقلبه مازال يهفو ، ولكنه معلق بنظرة الى صبية توشك أن تكون طفلة، ولا سبيل اليها بالزواج - حتى لو تناسى فارق السن وغربته عن البلد - لأن عشيرتها لا يزوجون إلا منهم . غير أن انشغال فكره بها يدخله فى قصتها، فشقيقتها التوأم قد خرجت على سنة العشيرة وأحبت شابا من عشيرة أخرى، فقتلها أهلها ، وانتهزت هى فرصة قدوم بعض المحققين الى البلد فوشت بأهلها. وهرب أخوها، وسجن الأب.

وقد أخذها المحققون الى المدينة، فجعل على يفتش عنها فى الاسواق، حتى وجدها وعرض عليها أن تتزوجه ولكنها رفضت ولعلها لم تقتنع بأنه جاد، ولعلنا، ونحن نقرأ القصة، لا نقتنع ايضا بجديتها فالواقع أن «الرحيل» تحمل اضافات كثيرة، وخصوصها حين ينزل على فى خان بالمدينة ويلتقى مرة بتجار عرب متجولين، ولهم قصة، ومرة بمومسات ، ولهن أيضا قصة ومنهن فتاة عربية صغيرة السن، وقصتها أطول، وقد اكتسبت عطفه، ونفحها بمال لتفتدى نفسها من مالكها .

والمسعى الذى يقوم به عمر الشاطبى مع بعض زعماء المسلمين لتدبير ثورة

داخلية تتزامن مع حملة يقوم بها ملك فرنسا، تثير حماسة على فيطلب من الشيخ عمر أن يضمه الى صفوف المجاهدين، ولكن الحملة لا تأتى ، ولا تقوم الثورة. وبدلا من ذلك يصدر قرار بترحيل جميع العرب من البلاد إلا أولئك الذين يشهد القسس بأنهم مخلصون للدين الجديد، ولا يخالطون عربا آخرين .

هناك قرى قررت أن تتمسك بالأرض وتعصى القرار ، ولكن الجعفرية اتخذت قرارا إجماعيا بالرحيل .

مع أن عليا كان بين الذين اجتمعوا في المسجد وقرروا الرحيل، ومع أنه كان معهم حين ذهبوا الى الشاطىء لتنقلهم السفن، فقد انفرد على الشاطىء يحلم، وحده.. وحين سمع صفير المركب، ولاها ظهره ورجع، وحده !

فهذه الرواية هي رواية القرار الوحيد، حين يبدو أن كل الطرق أصبحت مسدودة حين لا يبقى مهرب من مواجهة الذات.

وكان يمكن لهذه الرواية أن تكون أكثر ذاتية، وأقل اضافات. فالكاتبة تملك الرؤية وتملك الأسلوب . ولكن الكاتبة - فيما يبدو لى - كانت قد تعبت أو سئمت. وإلا فكيف يمكن أن يولد الأخ بعد أخته بثلاثة أشهر، إلا إذا كانت غلطة مطبعية؟ (مريمة ص٥٢). كذلك نسيت في وصفها الجميل لوقفة مريمة أمام اللوحة الجدارية في بيت النبيل الاسباني إنها جعلتها تلمس قدمي المسيح في غرناطة ص ٢٠١، مريمة، ص٤٨.

ربما كان في هذا الشطر (ارجع وراك فيك السر والسنن) .. بعض ما أرادت الكاتبة أن تقوله . ربما كان ارهاصا بالخاتمة ولكننا كنا في حاجة الى أن نتعمق في داخل على أكثر ممافعلنا. كنا في حاجة مثلا الى الكثير من هذه التأملات :

«هل الماضي يمضى حقا أم يعرش على أيامنا أم أننا نعيش كالبيت فيه؟ (ص٢٤١) .

هل في الزمن النسيان حقا كما يقولون ؟ .. الزمن الأصيل في حياة الانسان يعلو موجه، يدفع الى القاع، يغمر، ولكنك إذ تغوص تجد شجيرات المرجان حمراء ، وحبات اللؤلؤ تتلألأ في المحار، ص ٢٤٢..

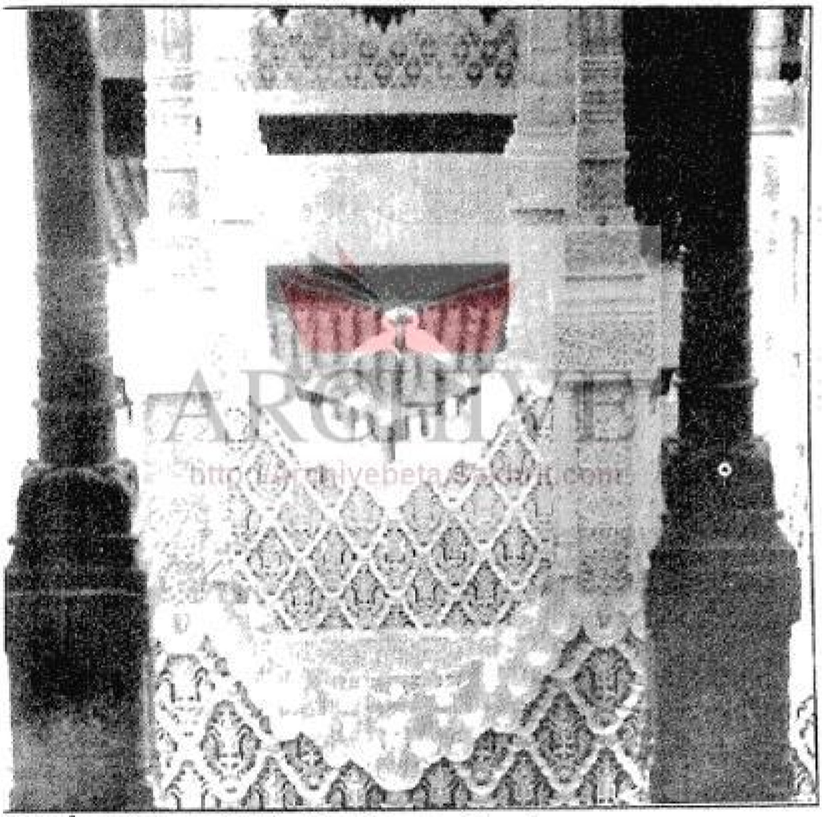
وربما كانت التأملات هي المرحلة الأولى فقط لكى نغوص حتى نشاهد حبات اللؤلؤ وشجيرات المرجان. وربما ألفنا الزمن حتى ألفيناه، وربما التقى الحس الصوفي بالزمن السرمدى مع الحس العملي بالزمن المتجدد عند رجل مثل عمر الشاطبي الذي يقول:

«لا اليوم آخر يوم في العمر، ولا هو الفيصل في القادم من الأيام. » .

سقوط غرناطة
وصعود قصر الحمراء

بقلم : مصطفى درويش

● هذا المقال حصيلة زيارة للأندلس وكتاب عن قصر الحمراء



قصر الحمراء وامامه فناء الشقيقتين على الصفحة المقابلة



ينسب إلى أم آخر سلاطين غرناطة أبو عبد الله محمد الحادى عشر ، أنها قالت له وهو يلقى نظرة أخيرة على قصره ودموعه على خديه تسيل :

« يحق لك أن تبكى كالنساء ملكا ، لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال »

وما هى إلا أيام على بكاء السلطان لضياع ملك لم يصنه ، ومغادرته قصرِ الحمراء ، القائم شامخاً على سفح تل مطل على عاصمة ملكه غرناطة ، لؤلؤة الأندلس ، وآخر معاقل المسلمين فى شبه جزيرة أسبانيا حتى كان جند الملكين الكاثوليكيين «فرديناند» و«ايزابيللا» فى عاصمة ذلك الملك الذى ضاع ، فاتحين ، يطوفون شوارعها بمواكب ، وهم يدقون طبول الانتصار .

وحتى كانت رايات كاستيل وأراجون وغيرهما من مقاطعات أسبانيا فى ذلك الزمان ترفرف فوق قصر الحمراء ، يعلوها صليب فضى ، يشق عنان السماء ..

ذلك الحدث الجلل ، يرتد تاريخه إلى مستهل عام ١٤٩٢ ، وبالتحديد يوم الثانى من يناير ، أى قبل حوالى خمسة قرون من عمر الزمان .

● العالم الجديد

ومن سخرية الأقدار أنه ما كانت تمر عشرة شهور على سقوط غرناطة ، حتى كانت قدما « كريستوفر كولومبس » تلمس، بفضل مال ايزابيللا ، البرّ الآخر لبحر الظلمات ، فاتحا بذلك المملكة الكاثوليكية أبواب امبراطورية لا تغرب عنها الشمس ، ولو إلى حين

وكما تعرّض سكان تلك الامبراطورية لمآس يشيب من أهوالها الولدان ، تعرض قصر الحمراء بدوره ، وعلى امتداد ثلاثة قرون أو يزيد ، لمآس ، من بينها الإهمال ،

وطمس الرسوم والنقوش ، وتبديد نفائس الرياش .

والأخطر من ذلك كله محاولات العمل على إزالته بوصفه أثرا إسلاميا ، محل إعجاب وإجلال ، وذلك انطلاقا من تعصب أعمى ، لا يقيم وزنا لإبداعات الانسان .

● تشويه وتخريب

ففى عصر الملك « شارلز » الخامس (١٥١٦/١٥٥٦) أعيد بناء أجزاء من القصر بالأسلوب الحديث السائد حينذاك، كما جرى هدم جزء منه ، حتى يفسح المجال لقصر ايطالى (١٥٢٦) ، أدى بناؤه إلى تشويه أثر نادر ، متكامل معماريا .

بعد ذلك بأربعة قرون ، وفى أثناء احتلال بونابرت لأسبانيا ، دمر القصف المدفعى بعض أبراج القصر .

وعلاوة على التعصب الكاثوليكى ، والمدفعية الفرنسية وأهوال أخرى ، ساهمت الطبيعة من جانبها بنصيب ، فى صورة زلزال ، أحدث فى القصر قدرا لا يستهان به من الدمار .

ومع ذلك ، فما تبقى من قصر الحمراء بعد كل هذا التخريب ، يعتبر آية من آيات المعمار .

● إعادة الروح

والحق أن الفضل فى إعادة ما تبقى منه إلى سابق عهده ، إنما يرجع إلى المهندس المعمارى «جوزيه كونتريراس» (١٨٢٨) الذى راعه تدهور حاله على نحو انحدر به إلى أطلال .

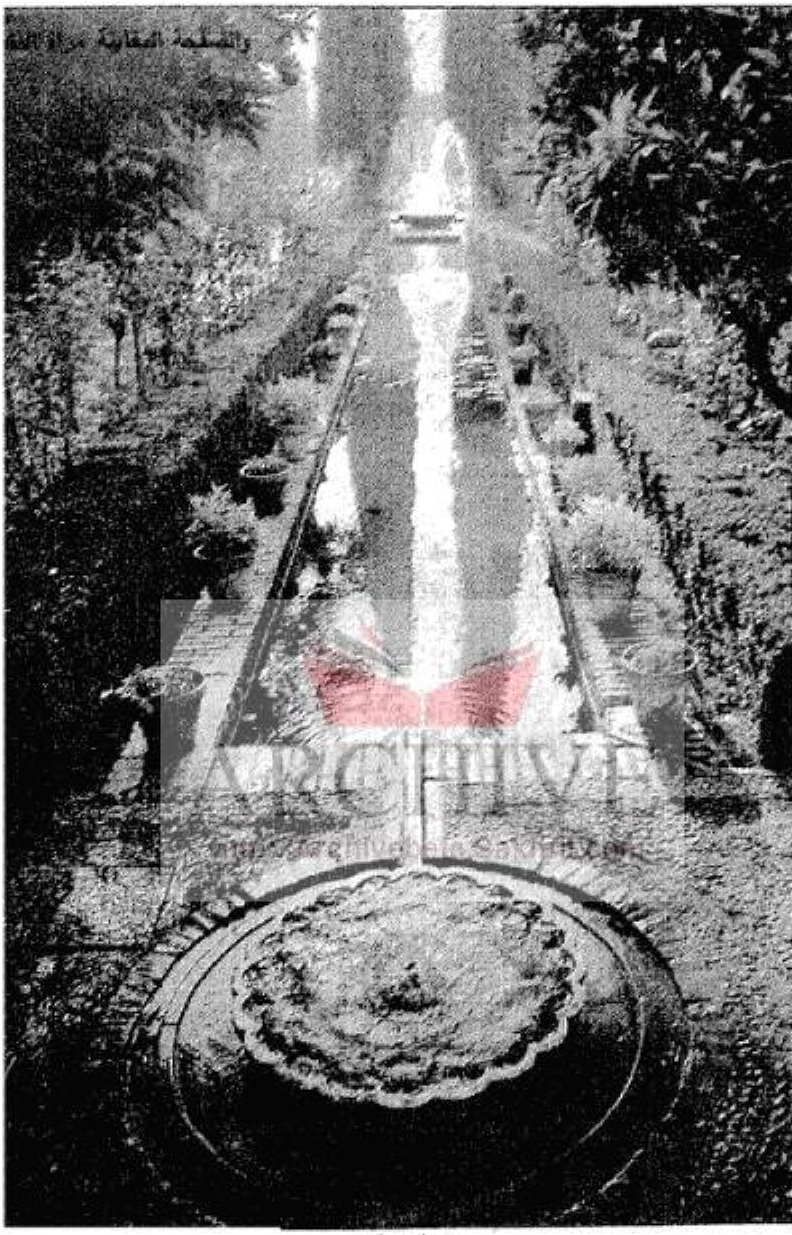
والقصر مع قلعته التى لم يتبق منها سوى أسوارها الخارجية وأبراجها واستحكاماتها ، تشغل مساحة من سهل مرتفع تبلغ طولا ٢٤٢٠ قدما ، وعرضا بما لا يزيد عن ٦٧٤ قدما فى أكثر الحالات اتساعا .

ويبرز من بين روائع القصر المتبقية حتى يومنا هذا ، « قاعة المسجد » ، وعلى بابها توجد قرميدة ، مكتوبا عليها «ادخل، ولا تخف أن تطالب بالعدالة ، فانت واجدها » .

وفناء الرياحين ، مركز النشاط الدبلوماسى والسياسى فى القصر ، وربما المكان حيث كان ينتظر السفراء وكبار الزوار لحظة السماح لهم بالمثول أمام السلطان

● مرآة أم لجين ماء

ولعل أكثر ما يبهر فى تلك القاعة ، ذلك المسطح الطويل من الماء ، تنعكس على مرآته أعمدة الرخام ، مرتعشة مثل رمال الصحراء ، وهى تتحرك بفعل الرياح.





وفكرة استعمال المياه مرآة تنعكس عليها الأشياء الجميلة ، جرى استعمالها ، بعد ذلك ، بعدة قرون في تاج محل بالهند على بعد آلاف الأميال

وفناء الرياحين يتفرع عنه فناء البركة ، ففناء السفراء المربع ، بجوانب كل واحد منها طوله ٣٧ قدما ، وبقبة مركزها ارتفاعه ٧٥ قدما

وفي تلك الصالة يوجد العرش ، قبالة باب الدخول ، حيث كان السلطان يجلس ، عند استقبال كبار الزوار .

ولا يفوتني أن أذكر هنا قاعة الأسود ، ومساحتها طولا ١١٦ قدما ، وعرضا ٦٦ قدما ، يحيط بها بهو يستند على ١٢٤ عمودا أبيض من الرخام .

وفي المنتصف نافورة من المرمر ، قائمة على اثنى عشر أسدا من الرخام الأبيض ، يرمز بهم إلى القوة والشجاعة .

● أسطورة متكررة

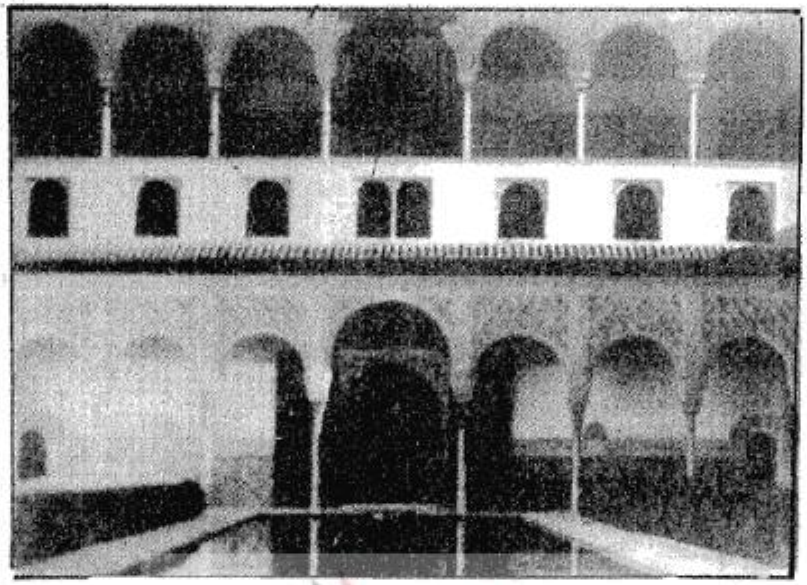
ويتفرع عن تلك القاعة ، عدة أفنية أذكر من بينها فناء الشقيقتين ، وفناء بني سراج ، وعند الأخير أقف قليلا ، لأقول انه من بين الأساطير التي حكيت حوله أسطورة ستة وثلاثين من فرسان بني سراج ، كاد لهم السلطان بأن دعاهم إلى مأدبة أقامها لهم في الفناء ، حيث أبادهم عن بكرة أبيهم في مذبحة ، تذكرني بمذبحة المماليك في قلعة القاهرة ، بعد ذلك بمئات السنين

ومن بين كل الحدائق الفناء المحيطة بالقصر ، وما أكثرها ، عندما كان أشبه بجنة تجري من تحتها الأنهار ، لم تبق سوى حديقة واحدة « جنة العريف » حيث كان السلطان يعتزل ، بأمل الابتعاد عن مشاغل البلاط ، واسترداد راحة البال .

يبقى لي أن أقول انه رغم القدم ، ورغم ما تعرض له القصر من خطوب على مر العصور ، فلايزال من ناحية الفكرة العامة والبناء ، مجمعا معماريا ، شديد الحداثة .

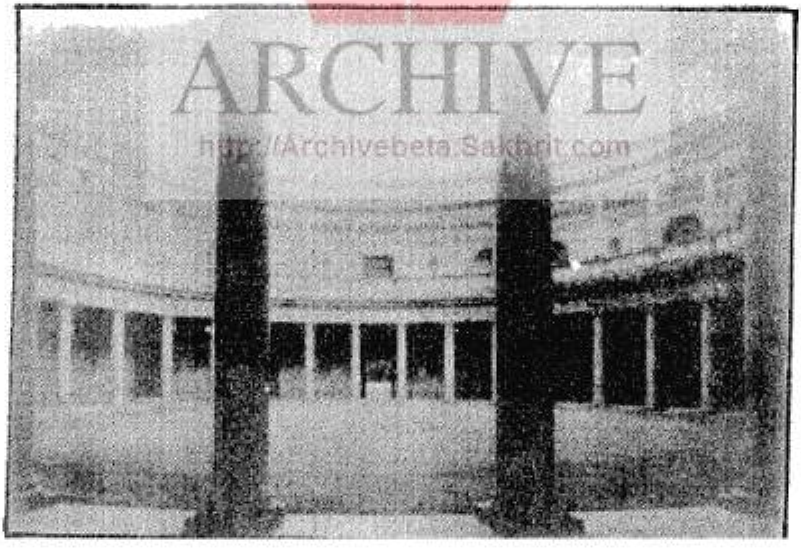
وآية ذلك تأثر «لوكوربيزييه» المهندس المعماري الذائع الصيت بقصر الحمراء ، حتى أنه ضمن كتابه الشهير ، نحو معمار ، (١٩٢٣) ، الشيء الكثير من معمار مباني القصر وحدائقه ، باعتباره مثلا يحتذى في التناغم بين الأحجام

سقوط غرناطة وصعود قصر الحمراء



فناء الرياحين

القصر القبيح



فناء قصر الحمراء وعلى الصفحة المقابلة مدخل صالة السفراء





الفنان محمد راتب

ومتحف تائه فى المجهول

بقلم: عز الدين نجيب

مر يوم ١٠ مايو (يوم وفاته عام ١٩٩٤) كما مر من قبله يوم ٢ يونيو (يوم مولده عام ١٩١٧) دون أن يذكره أحد، لا من أتيليه القاهرة (جماعة الفنانين والكتاب) التى أمضى محمد راتب صديق الثلاثين عاما الأخيرة من حياته رئيسا منتخبا لها، تتجدد الثقة فيه كل عام من مجلس الإدارة المنتخب بدوره، وكل ثلاثة أعوام من جموع المثقفين المصريين أعضاء الجمعية ـ فنانين وأدباء ونقادا ومسرحيين وسينمائيين ومحبين للثقافة والفنون ـ ولا من وزارة الثقافة، التى وهبها قبل وفاته منزله بقرية المنيب بالجيزة مع كل تراثه الفنى وتراث زوجته المثالة عايدة شحاته، ليصبح متحفا مفتوحا للمواطنين، ومراسم للفنانين التشكيليين، ولا من النقاد الذين طالما أحترم كلماتهم واستضافهم بمنزله فى ندوات وولائم سنوية!



الفنان محمد راتب صديق

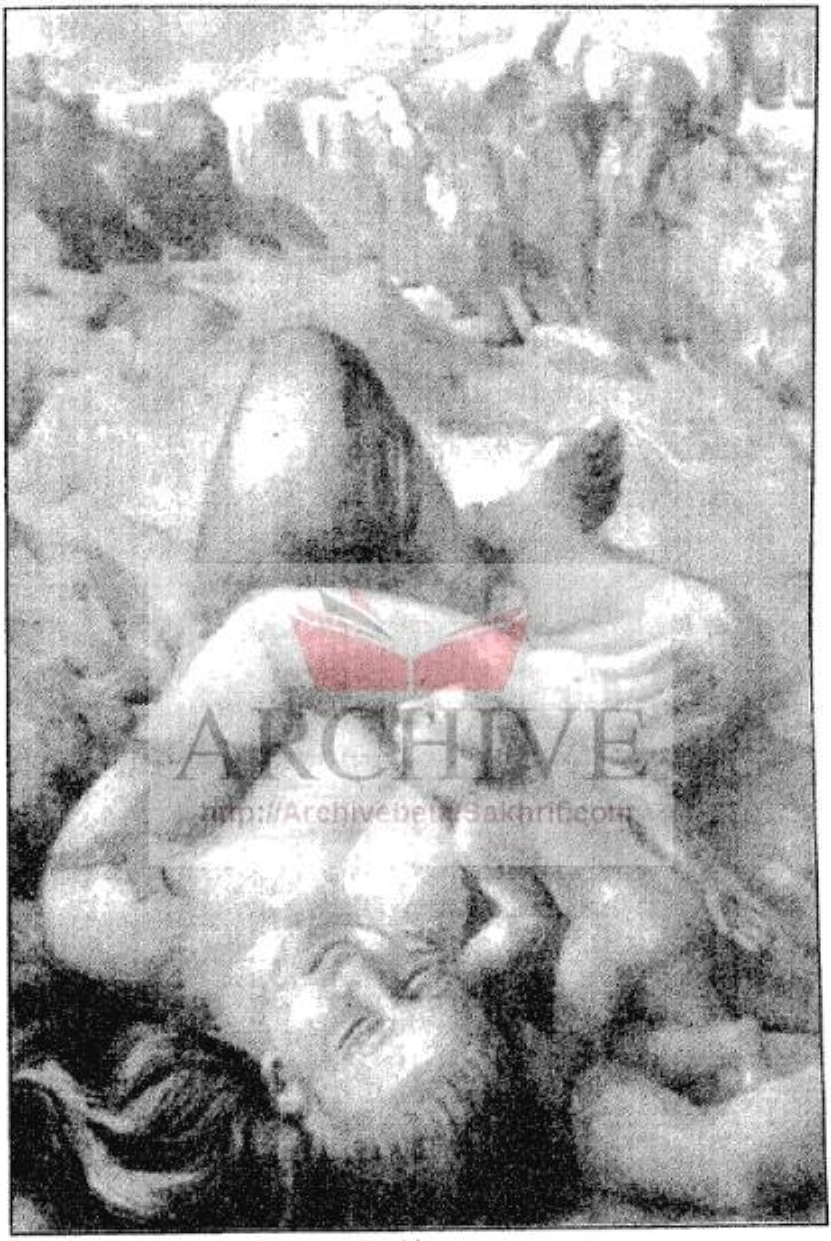


بورتريه .. دراسة بالقلم الرصاص

● بين الأصالة والحداثة

ومحمد راتب صديق أحد رموز الحركة الفنية في الأربعينيات ومابعدها، وكان بين أول دفعة من الفنانين المصريين تحصل على منحة للتفرغ للفن من وزارة الثقافة عام ١٩٦٠ وظل حاصلا عليها سنوات طويلة. شارك جيل النهضة الفنية الحديثة منذ الأربعينيات في إرساء قاعدة جمالية تنطلق من الجذور الحضارية المصرية وتمتد نحو آفاق إنسانية شاملة.. من هنا فقد كان حميم الصلة بالطرفين النقيضين وسط جماعات ذلك العصر.. من ناحية بجماعة الفنان الرائد حامد سعيد، التي تعمق مفاهيم الأصالة المصرية والإنتماء الحضاري لحلقاتها المتتابعة، ومن ناحية أخرى بجماعة الفن والحرية ورموزها المعروفين: رمسيس يونان، كامل التلمساني، فؤاد كامل، بدعوتهم إلى التحرر من التقاليد المتوارثة، وإلى اللحاق بالثقافة الغربية (التقدمية آنذاك)، واعتناق مدارس الفن الأوربي الحديث . لكن تراثه الفني ـ في النهاية ـ كان نسيجا متميزا يصعب تصنيفه في اتجاه معين، إلا الاتجاه الإنساني الممتد عبر كل زمان ومكان.

وإذا كانت جماعة «الأتيليه» قد ضاع منها موعد الذكرى، لأنه قد ضاع منها الطريق بعد وفاة راتب


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



صديق، وانفض عنها أغلب رفاق الكفاح، ونشب الصراع بين أعضائها حتى تدخلت الجهات الرسمية وحلت مجلس إدارتها وعينت بدلا منه مجلسا مؤقتا يشمل بعض موظفى وزارة الشئون الاجتماعية . وإذا كانت جماعة النقاد قد ضاع منها موعد الذكرى لأسباب لا تختلف كثيرا عن أسباب جماعة الأتيليه، فيبدو أن وزارة الثقافة قد نسيت الأمر برمته فى غمرة الأحداث الجارية والمهرجانات المتلاحقة، بل يبدو أنها نسيت - حتى - الهبة المتحفية التى سلمها الرجل إليها، فما زال المنزل على حاله موصدا أمام الجمهور، لم تمتد إليه يد الرعاية، ولم تدرج له أية ميزانية للترميم والتطوير، ولم تستغل المراسم المؤثثة والمجهزة لمعيشة الفنانين ومعايشتهم للبيئة الريفية المحيطة.. وهكذا لم يبق مع الأعمال الفنية بداخل (المتحف) - الذى بناه عبقرى العمارة حسن فتحى حاملا روح المعابد المصرية والمساجد المهيبة، بجدران شاهقة الارتفاع تعلوها القباب - لم يبق معها غير الصمت والأتربة والذكريات، أما بالخارج، حيث الحديقة العتيقة والحقول الممتدة، فليس ثمة غير أصوات الطيور الليلية الحزينة.. كأنها تنعى من بناه!

● الطيور المسافرة

ينتمى راتب صديق إلى الطيور المسافرة من الجنوب إلى الشمال فى رحلة البحث عن المجهول، مأخوذا ببريق الغرب، وبالوهج الرومانسى لتجربة جيل الرواد، بدءا من النحات مختار ثم المصورين ناجى وعياد وكامل وصبرى وصباغ.. بعضهم عاد مدفوعا بالظمأ إلى ماء النيل لائذا بشواطئه، والبعض الآخر ظل يحوم كالفراشات محترق الأجنحة حول مصابيح أوربا، أما راتب صديق فقد أعادته إلى بيته بالمنيب قرب أهرام الجيزة - رغم أنفه - نيران الحرب العالمية الثانية التى اندلعت وهو فى فرنسا يدرس على يد المصور «فرناند ليجيه» بعد أن أمضى سنوات من الدراسة على يد المصور «أوزانفان» فى مدرسة «تشيلسى» بلندن، وقد صدر له منذ سنوات الجزء الأول من مذكراته عن هذه الرحلة، وقد سلم الجزء الثانى قبل وفاته إلى الهيئة العامة للكتاب ولم يصدر بعد، وهو كتاب بالغ الأهمية، كوثيقة تاريخية لحقبة من تاريخ الفن المصرى الحديث، حقبة التمرد والتغيير وآلام المخاض لولادة رؤى فنية جديدة، بعد أن خمدت قوة الدفع فى انطلاقة جيل الرواد وخيم الجمود على الحركة الفنية، إضافة إلى أنه كتاب مشوق كسيرة ذاتية، ذات مذاق أدبى يتسم بالصدق والذكاء، بعيدا عن التقريرية والانتفاخ بالذات، بل على العكس من ذلك: نجده يعترف

فى كثير من مواضعه بمرارة الفشل عبر محاولات البحث المضنى عن قيم الفن ومعنى الحياة، ولا يكاد يوجد فى المكتبة العربية كتاب يناظره لفنان تشكيلى آخر.

إن «راتب» من ذلك النوع النادر من الفنانين المصريين والعرب الذى تفرغ طوال حياته لفنه وحده، وجعل فنه كمصباح «ديوجين» يبحث به عن الحقيقة، وكان قد أمضى سنوات الغربة يبحث عن بلاغة خاصة للغة التشكيل الخالص، وبنفس القدر من الشجاعة والإخلاص توقف عن التصوير قبل وفاته بما يناهز عشرين عاما، عندما أحس أنه قال كلمته ولم يعد لديه جديد يضيفه، فعاش للتأمل والكتابة والعطاء للآخرين من خلال أتيليه القاهرة، مواصلا رسالة رفاقه فيها، من الموسيقار أبوبكر خيرت إلى الرسامين رمسيس يونان وفؤاد كامل والتلمسانى وانجى أفلاطون وفتحى البكرى وأنور كامل، حتى لحق بهم تاركا خلفه «الأتيليه» مؤسسة أهلية للمثقفين فى مصر، وكان لى شخصيا شرف ترشيحه لى لأتولى رئاسة الجمعية من بعده، وهذا ماحدث فعلا، حيث انتخبت من مجلس الإدارة.. لكننى لم أستمر أكثر من ستة أشهر، وانسحبت حين انطلقت المعاول تهدم كل ميراث الأجيال.. ولم تكن لدى

الفنان محمد راتب صديق

«حصانة» راتب صديق ـ ككبير للعائلة، مدعم بثلاثين عاما فى رئاسة الجمعية، تسمح له بممارسة دور «المستبد العادل».. فوق موهبته فى تحقيق التوازن بين جميع التيارات والقوى والمصالح المتعارضة.

● عالم ميتافيزيقى

أما الحقيقة التى كان يبحث عنها فى فنه فهى السلام، وهل يمكن أن يتحقق على الأرض وسط غابات الغرائز والنزعات الوحشية للإنسان، وبحثه الدائب عن الأمان والملاذ ونور الحق؟.. لم يقدم فى لوحات فرضيات جاهزة، بل قدم مراحل الرحلة المعذبة للإنسان على الأرض منذ قابيل وهابيل، متأرجحا بين عذابات الأنبياء وبين ثكالى الأمهات، مرورا بنوازع الشر ودوافع الأنانية، مستوحيا ما تحمله الكتب السماوية من تصور ليوم الحشر، حيث تلقى كل ذات حمل حملها، وحيث ترى الناس سكارى وماهم بسكارى.. فيتداخل الأسطورى بالدينى، والخيالى بالحقيقى، والنزعات الفردية بالجمعية، ويتجسد الكل فى واحد بقدر ما تنوب ملامح الواحد فى المجموع. ذلك أن الحقيقة التى ينشدها لا تمت إلى زمان أو مكان معينين، إنها



الحقيقة الكونية للإنسان على كوكب الأرض منذ الأزل وإلى الأبد.

وأما الأسلوب الذى اتخذه للتعبير عن هذه الرؤيا، فهو أسلوب صرحى كلاسيكى يذكر بجداريات عصر النهضة الإيطالية، مبنى وفق أسس عقلانية ورياضية صارمة، قائم على التوازن والتماسك والحركة الداخلية المتواصلة للكتل والخطوط والأضواء والظلال، أسلوب يعتمد التجسيم الأسطوانى للأعضاء والمنظور الثلاثى الأبعاد وسيلة للإيهام بالواقع، تجسيما للمشخصات ومناخا جغرافيا حولها، لكن بالرغم من ذلك كله تأتى اللوحة أبعد ما تكون عن الواقع.. شىء ما يجعلها أقرب إلى السريالية أو الميتافيزيقا.. إن الأجساد المتراصة بكثافة توحى بالمئات والآلاف تعدو فى حركتها الموجهة فى اتجاه واحد وفى خطوط متوازية مائلة مندفعة، أو خائفة مذعورة، أو حانية متلاحمة، وكأنها جذوع أشجار فى غابة، مدفوعة بريح عاتية، أو كأنها قطعان بشرية تسوقها الأقدار إلى مصير مجهول لكنه محفوف بالرعب، أو كأنها شعوب أخرجت من ديارها تطاردها سنابك الغزاة.

وتتمثل الحركة ليس فحسب من خلال الخطوط المباشرة القوية فى ليونة، المندفعة فى تواز واطراد، بل

الفنان محمد راتب صديق

كذلك فى الخطوط الوهمية لبقع الضوء المتراصة تعبيرا عن الأيدى والأصابع والوجوه والعيون، وسط كتل الأجساد المتشحة بالأزرق والأسود والرماديات، أو حتى غير المتشحة بما يستر عريها.. كما تأتى الحركة من ذلك التماثل المتكرر بغير نهاية للأعضاء المكتنزة بغير غواية أو اشتهاء.. ذلك أن الهول الذى يترصدها وينعكس فى عيونها، ينتقل إلى المشاهد فيزيل أى التباس بحس شهوانى، ويشركه فى حالة التوجس والتأمل فى المصير المجهول.

هذه الحركة المحمومة، بالرغم من أساسها العقلانى الرياضى المحسوب، وتلك الرؤية البصرية ذات المذاق الشرقى، بالرغم من أساسها الأوربى أو الهلينى، تجعل الناقد ميالا إلى أن يغفر للفنان ما قد يبدو أحيانا من ضعف النسب أو ركاكة التفاصيل، ذلك أن قضيته الأساسية ليست مهارة الرسم والمحاكاة، بل هى البناء الرصين والشكل المتوازن والإيقاع المتذبذب فى حركة ترددية منسابة بغير نهاية، وهى كذلك قوة التعبير وشحنة الدراما.

وإذا كانت الألوان المستخدمة تبدو متقشفة، فالحقيقة أنها ألوان مختزلة من عدد لا يحصى من الألوان، لكن الفنان شاء أن يكتم صراخها ويطمس

الفنان محمد راتب صديق

نصاعتها بالظلال القاتمة، كي يتيح للضوء المشع من داخل اللوحة ـ وليس من مصادر واقعية معلومة ـ فرصة أكبر للإشراق فوق الوجوه وللقيام بتجسيم الأشكال، وتأكيد حركتها الإنسيابية.

● طريق الأشواك

كان الطريق لبلوغ هذه القيم الجمالية الصعبة مليئا بالأشواك، يقول راتب صديق في مذكراته: «محاولة تلو محاولة.. فشل تلو فشل!.. عجينة اللون فوق الخشب.. فوق القماش.. فوق كرتون.. عجينة اللون من الأنبوب رأسا، تنزلق على سطح اللوحة في سهولة زائدة.. عجينة اللون وقد نزع الزيت الزائد منها، يسحب بورق النشاف.. أصبح قوامها مستقيما.. الرسم على الورق بالقلم الرصاص.. نقل الرسم النهائي على اللوحة.. ثم التلوين.. استيعاب الدراسة على الورق.. ثم الرسم على اللوحة مباشرة بالفرشاة المحملة بعجينة اللون.. تجارب مستمرة.. وفشل مستمر.. لم يكن لي أستاذ ولا مرشد في ذلك المضمار سوى ما استوعبته من مشاهداتي لأعمال كبار المصورين في متاحف لندن وباريس».

وكان خير أستاذ له ـ بعد أستاتيه الأولين «ليجيه وأوزانفان» هو المصور «سيزان» في استعماله النقط واللمسات اللونية المتجاورة للتحكم في صلابة وهندسية الشكل، بعكس التأثيريين من أمثال مونيه.. أما أكثر الخبرات الإنسانية تأثيرا في رؤيته الفلسفية فكانت مجموعة من عصافير الحقل في حديقة بيته بقرية المنيب، حين كان يراقبها وهي تتخبط في شرك أثيم فوق أشجار الكرم، بعد أن تشبع من طيباته وتحاول الخروج لكن الشباك تردها، وتروح دائخة تترنح مستميتة بغير يأس بحثا عن مخرج، وهناك من ثقب ضيق ينطلق البعض فائزا بحريته ومغردا، والبعض الآخر يظل يطعم من حلو العنب حتى تثقل حركته، وتهد قواه الصدمات حتى يسقط سكران ثم يرتمي صريعا!!

وحركت هذه الصورة وجدان الفنان بعد أن ظلت تداعب خياله سنين طويلة، وقد أنضجها الفكر والتأمل وهو يطبقها على الإنسان إذ يأتي إلى الدنيا.. يطعم بحلوها.. يسكر ثم ينام.. ربما إلى الأبد.. وثمة قلة يدفعها الشوق إلى السير في طريق الشوك.. تنطلق في مسيرة.. تنفذ من ثقب صغير.. تتقدم .. تجذبها طاقة من نور لاتكاد ترى، لكنها تتألق كلما تقدمت المسيرة.. النور هو السلام.. والسلام هو الله..

وهكذا انطلقت سلسلة لوحات «في

موكب السلام» .. ملحمة متعددة الحلقات، بلغت خمس عشرة لوحة من الحجم الكبير.. استنفدت عمر الفنان وقواه.. حتى لم تترك له شيئا يضيفه بعدها.. إلا أنها بحساب الإبداع ثروة ضخمة.. استحقت أن يهبها إلى الدولة كمتحف للأجيال..

● ما مصير المتحف؟

ومن حق الجميع أن يسألوا اليوم: ما مصير هذا المتحف؟.. ولابد أن يكون السؤال موجها إلى الرجل المسئول عن المتاحف الفنية ـ بل والأثرية أيضا ـ في مصر: الفنان الدكتور أحمد نوار.. رئيس المركز القومي للفنون التشكيلية بوزارة الثقافة.. ولا نشك لحظة في إخلاصه لقضية إنقاذ المتاحف الفنية في مصر بل ومضاعفتها كلما توفرت لديه الإمكانيات لذلك، لكن ينبغي القول أن الإمكانيات المالية ليست كل شيء.. ذلك أن البنية الأساسية للمتحف متكاملة، بل وكان المنزل في حياة صاحبه يؤدى رسالته المتحفية والثقافية على نحو ما.. فماذا يمنع من مواصلة هذا الدور اليوم بفتحه للجمهور وللفنانين التشكيليين وتنظيم بعض المعارض والندوات الفنية به وجعله مركزا للإشعاع في بيئة محرومة تمام الحرمان من أى خدمة ثقافية؟.. وكم يصاب المرء بالحيرة حين يرجع إلى كلمات الدكتور أحمد نوار نفسه في تقديمه للكتالوج الذى طبعه المركز القومي للفنون التشكيلية بالتعاون مع أتيليه القاهرة عن الفنان الراحل، حتى قبل استلام الوزارة للمنزل تنفيذا للوصية.. فبعد أن يتحدث عن فضل راتب صديق عليه في تشجيعه بروحه الأبوية وإيمانه بالشباب، بإتاحة الفرصة له لإقامة معرضه الأول، بالأتيليه وهو لايزال طالبا بكلية الفنون الجميلة، ثم بإتاحة الفرصة أمامه فيما بعد للانضمام إلى مجلس إدارة الأتيليه وتولى منصب السكرتير، وهو نفس ما فعله مع الكثيرين.. يقول:

«هكذا أعطانا ذلك الرائد الفسيح القلب، الواسع الثقافة، المليء بالاعتداد والأنفة والحب أيضا.. أعطانا درسا لما ينبغي أن يكون عليه الفنان الكبير صاحب الرسالة، ولكيفية تواصل الأجيال في غير صراع أو مزاحمة، ففي العطاء متسع للجميع، أما في الأخذ في أضيق المساحة التى يقف فوقها المتسابقون!»..

فإذا كان ذلك هو قدر الوفاء للرجل ودوره على لسان المسئول الوحيد عن افتتاح متحفه.. أفلا يحق لنا أن نسأل: وإذن ماذا كان المانع من إعداده على مدى أكثر من عامين؟...ومتى يتم افتتاحه؟.

قصة قصيرة

بقلم : محمد البساطى

بريشة : سميحة حسنين



عـادة تأتى الداورية يوم السوق ، تثير غبارا فى الأفق ، وقبل أن تتضح الصورة نسمع الضجة المكتومة لركض الجياد ، ونراهم قـادمين على الطريق.

أحيانا تقتحم فجأة

بيننا يخترقون زحام السوق ، ونكون فى وقفتنا أمام الباتعين ، ونحس الرجفة تسرى فى الزحام ، يقذف بنا الضغط جانبا ، ونرى الضابط على صهوة جواده بملابسه البيضاء، ساكنا لايهتز مع حركة الجواد ، والكاب يميل على رأسه ، مسبلا عينيه كأنما يزعجه ضوء الشمس ، وعسكرى مترجلا أمامه يهوى بخيزرانته على الجانبين فينشق الزحام عن طريق يأخذ فى الاتساع ، والجواد المدرب يخب خفيفا رشيقا ، يتوقف ثم يمضى ، تميل رأسه تكاد تلمس الركاب ثم يعتدل ، يشب بساقيه الأماميتين ويصهل ، نتحاشى ضربات الخيزرانة ونقف مبهورين ننظر اليه يأخذون شارع السوق من أوله لآخره ويعودون ، يميلون الى

محابيس

قصة قصيرة

مقهى قريب ، يدخله العسكر ، ويجلس الضابط فى الطرقة الخارجية يدخن الشيشة والمعلم صاحب المقهى يقعى بجواره يخدمه بنفسه .

ونراه وقت الظهيرة فى قيلولته مسترخيا على مقعد فى ظل شجرة خلف مبنى المحطة ، أنفاسه ثقيلة هادئة ، والكاب يغطى وجهه ، وزجاجة مثلجات فارغة ملقاة بين قدميه ، يصمت كل شىء حوله ، حتى الكلاب ترقد بلا حراك فى ظل المبنى ، وحصانه يرعى بين قضبان السكة الحديد ، وناظر المحطة يتحرك دون صوت داخل مكتبه ، ويكون أفراد القوة فى مقهى المحطة يلعبون الدومينو ، كانوا يعرفون موعد يقظته، ينهضون فجأة ويسحبون جيادهم ويقفون أمامه ، يبدون فى كل مرة وكأن شيئا لايشغلهم ، يذهبون ويأتون ويقشرون البرتقال، نكاد نطمئن إليهم وننسى حذرنا ، ويهاجموننا ساعة رحيلهم وقد أخذوا البعض منا معهم ، يسوقونهم بين الجياد حتى المركز ، وكان يبعد بمسافة سبعة كيلومترات ، ونركب القطار وراءهم .

نحوم من بعيد حول مبنى الشرطة ، وحين تهدأ الحركة أمامه نقترب ، ننظر خلال الباب المفتوح على مصراعيه ، ونرى دهليزا طويلا شبه معتم ، وعساكر يقفون فى الزوايا وأمام أبواب الحجرات ، نقعد بجوار السور الخارجى ننتظر ، ويخرج الضباط قرب العصر ،

ويخيم صمت على المبنى ، نختلس النظر إلى الداخل ، ونرى الأبواب مغلقة والقهوجي يجمع أدواته فى ركن بالحوش الداخلي .

تدب الحركة فجأة بعد العصر بقليل ، يخرج العساكر بالمحابيس ، يوزعونهم هنا وهناك لتنظيف المبنى . عادة مايكون نصيب أبناء بلدتنا فى الخارج ، فهم يجيدون الحفر وتشذيب الحشائش والأشجار ، يرافقهم عسكرى يرتدى الأفرول وشبشب فى قدميه ، يحملون الفأس والجاروف والمقص والمقاطف ، يمرون بنا ويبادلوننا النظرات فى صمت ، يقف بهم العسكرى عند نهاية سور المبنى ، يلقى إليهم بأوامره ويعود ، ننتظر حتى يختفى داخل المبنى ونتبعهم كانوا بعد أن يتناولوا ماجئنا به



من طعام يقومون للعمل ، ونقوم معهم ، نحمل المقاطف التى يملئونها ونفرغها بعيدا ، لايسمحون لنا باستخدام مامعهم من أدوات ، ونكنس الطريق حول المبنى ونرشه بالماء ، ونقص الحشائش الطويلة، ونقطع فروع الأشجار الميتة ، ونعمق قناة المياه ، ونزيل ماتراكم من أتربة وطين على الأسوار ، ونمسح ما كتبه البعض عليها من شتائم فى الحكومة ، أحيانا تكون محفورة فنكشطها ، وأحيانا تأخذ شكل رسومات نرى فيها الضابط فى أوضاع قبيحة، نتأملها قليلا ونضحك دون صوت ثم نحكها حتى نزيل معالمها. ننتهى والشمس توشك على المغيب ، ونجلس جانبا .

يبدو المكان وقد استرد رونقه ، والمياه تتدفق بالقناة فى صوت ناعم ، ولمعة الغسيل على الأسوار، ونرى العسكرى قادما ، يشير إليهم وكانوا يجلسون بعيدا عنا ، فيذهبون إليه ، ويعود بهم، وحين يكون فى مزاج طيب يشير إلينا أيضا . ونهرع إليه .

يسألنا إن كنا نريد أن نبيت معهم فى الحبس؟

ننظر إلى أبناء بلدتنا، نتردد قليلا ، ونقول إننا نريد .

فى الصباح نكنس الطرقات الداخلية ونزيل الغبار عن المكاتب ، بعدها يطلقون سراحنا .

لطيفة الزيات

رائدة الكتابة كفعل للتحرر والعمل الوطنى العام

بقلم : د. صبرى حافظ

يؤلمنى بحق أن أكتب عن الدكتورة لطيفة الزيات فى وقت الرحيل، فقد رحلت تلك الكاتبة الرائعة فى زمن تشتد فيه حاجتنا إليها بعدما عزت الأصوات التى تدافع عن الثقافة القومية وتتصدى لموجة التردى والتخلف والدمار . ويؤلمنى أيضا أن أكتب عنها فى محفل العزاء لأن الاعتراف الفادح بغياب لطيفة الزيات من حياتنا ، وقد كانت ملء السمع والبصر ، مر وأليم. فكم أحببت هذه السيدة الرائعة، وكم تعلمت منها من قيم أدبية وإنسانية ، وكم قدرتها منذ أن عرفتها قبل أكثر من ثلاثين عاما . وإذا ما قدر لى أن أذكر أسماء حفنة قليلة من الكتاب والمثقفين الذين أدين لهم ثقافيا وإنسانيا، فسيجىء اسم الدكتورة لطيفة الزيات بالنسبة لى مباشرة بعد اسم أستاذنا الكبير يحيى حقى.

فقد غمرتنى بعلمها فى مطلع حياتى الثقافية ، وبرعايتها فى بداية عملى الجامعى . وظلت مع ذلك تشعر بالسرور وبشىء من المفاجأة ، ولا أقول الدهشة ، كلما سمعت من تلميذاتى بجامعة لندن اللواتى عكفن على دراسة أعمالها أو ترجمتها إلى الإنجليزية ، أو بلورة دورها الكبير فى ريادة الكتابة الأدبية النسائية الجادة، إننى أعترف بفضلها علىّ ، أو أشيد بدورها فى حياتى الأدبية وبما تعلمته منها كناقد وكإنسان ، فقد كانت لطيفة الزيات من هذا النوع النادر من البشر الذى يعطى من نفسه الكثير دون حساب للربح والخسارة ، أو توقع لأى عائد مادى أو معنوى . ومازلت أذكر هذا الحفل الحاشد الذى اجتمع لتكريمها فى







د. لطيفة الزيات

مكتبة القاهرة فى يوليو الماضى للاحتفال بحصولها على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، ومازلت أذكر ابتسامتها العريضة ونحن نتقاطر عليها فى موكب من الحب والفرح بها ، والاعتراف بفضلها الكبير على الحياة الثقافية فى مصر ، فقد جاء إلى هذا الحفل عدد غفير من مثقفى مصر والعرب من مختلف المشارب ، ومن تلميذات لطيفة الزيات من الباحثات الشابات اللواتى مازلن فى بداية طريقهن . وتتابعت فيه كلمات كانت أقرب إلى فلذات القلوب التى تقدم كقرابين امتنان وعرفان على مذبح هذه السيدة الرائعة التى أعطت لمصر وللأدب العربى الكثير . ولا أكاد أصدق أن وقفتها الجميلة فى الصف الأول فى هذا الحفل ، وهى تحنو

على حفيداتها من الباحثات الشابات ، كانت وقفتها الأخيرة قبل أن يتمكن منها المرض ، ويهجم عليها بشراسة حتى ينتزع الحياة من هذا الجسد المترع بالحيوية والعناد . فقد كانت حياة لطيفة الزيات الحافلة ملحمة من الحيوية والإبداع ومعاندة الاستسلام للتردى والهوان .

فورة الغليان الشعبى

ولا غرو، فقد برز اسم لطيفة عبد السلام الزيات أول مابرز للوجود فى فورة الغليان الشعبى المصرى الذى يرفض الاستسلام والتردى والهوان فى منتصف الاربعينات ، ويطالب بمستقبل أفضل لمصر ، تنفض فيه عن نفسها الاستعمار البريطانى ، وتتطلع لمستقبل أفضل ، وناضلت فى صفوف الحركة الوطنية إبان سنوات الطلب بالجامعة حتى انتخبت سكرتيرا للجنة الوطنية للطلبة والعمال . وهى اللجنة التى قادت مظاهرات عام ١٩٤٦ الحاشدة ، ولعبت دورا كبيرا فى زعزعة الاحتلال الانجليزى لمصر . وكانت لطيفة الزيات المرأة الوحيدة فى هذه اللجنة، فى زمن كانت فيه المرأة تتصدى بجسارة للعمل العام دون أن تكبلها قيود الظلام الذى حط نقابه على العقول قبل الوجوه ، فلم تفصل لطيفة عبد السلام الزيات ، الطالبة الشابة فى قسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة. فى هذا الوقت، التحصيل المعرفى لعلوم الأدب والنقد عن العمل الوطنى من أجل مستقبل أفضل لمصر ، فالمعرفة لديها موقف والتزام منذ بواكير حياتها وحتى آخر عمل لها ، فلا خير لديها فى معرفة لاتعود بالخير على الوطن كله ، ولا تحقق لديها فى عمل لا ينشغل بالمجموع قبل انشغاله بالفرد .

وظل هذا الرباط العميق بين المعرفة والعمل من أجل الوطن سمة رحلة هذه الكاتبة الكبيرة عبر خمسين عاما من النضال والإبداع الجميل فى النقد والرواية والقصة والمسرحية وفن السيرة الذاتية، ولم يثنها عن هذا الربط الوثيق بين الاثنين أنها تعرضت للسجن فى بواكير حياتها العملية ، فقد سجنت عام ١٩٤٩ ، وهى شابة فى السادسة والعشرين من العمر، ولا أنها تعرضت له مرة أخرى عام ١٩٨١ وقد شارفت الستين، وهى ملء سمع الحياة الثقافية العربية وبصرها ، فى موجة اعتقالات السادات الشهيرة فى سبتمبر الكئيب ، لأنها ترأست لجنة الدفاع عن الثقافة القومية منذ عام ١٩٧٩، وتصدت لكل دعاوى التطبيع مع العدو الصهيونى بينما لايزال يحتل أراضى ثلاث دول عربية. وكان لدورها البطولى فى هذه اللجنة أبلغ الأثر فى كبح جماح التردى والتسليم ، وفى ارهاف الوعى بضرورة طرح الذاكرة

التاريخية والوطنية إزاء كل الاعاوى الاستسلامية التى تنادى بالخضوع للهزيمة والخنوع لها. وقد أرسى عملها الهادىء والدءوب فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية مجموعة من القيم المهمة فى العمل الثقافى العام الذى يعى أهدافه، ويتقدم بثبات نحوها دون طنطنة أو زعيق . فقد انطلق من وعى راسخ بالحق العربى، وضرورة الدفاع عنه بدأب واصرار إزاء هجمة تزييف الوعى وتشويه التاريخ الصهيونية الضارية، ولذلك استطاعت اللجنة بامكاناتها المادية الفقيرة، وثرائها الإنسانى الكبير - فقد كانت على رأسها لطيفة الزيات ، هذا النبع الدفاق من الفكر والحيوية والعطاء - أن تتصدى لمخططات دول ضخمة فى المنطقة ، وأن تهزمها، بالرغم من امكاناتها السياسية الإعلامية الضخمة ، وأن تستنهض فى الشعب العربى كله روح المقاومة والصمود .

ثلاث جبهات

ويتوزع عمل الدكتورة لطيفة الزيات عبر مسيرتها الثقافية الكبيرة على ثلاث جبهات أساسية : أولاها هى جبهة العمل الوطنى الذى بدأ بكفاحها فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال من أجل استقلال مصر وطرد الاحتلال الانجليزى ، واستمر حتى نضالها فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية من أجل الاجهاز على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيونى ، والحفاظ على الوضع الطبيعى الوحيد معه ، وهو الكفاح المستمر ضده ، واليقظة الدائمة إزاء مخططاته الخبيثة فى المنطقة ، واستباحته لحقوق أهلها جميعا ، وثانيتها هى جبهة العمل الإبداعى الذى بدأ بروايتها الكبيرة «الباب المفتوح» عام ١٩٦٠ واستمر فى «الشيخوخة» عام ١٩٨٦ ، و«حملة تفتيش : أوراق شخصية» عام ١٩٩٢ ، و«صاحب البيت» ١٩٩٤. و«بيع وشراء» ١٩٩٤ و«الرجل الذى عرف تهمته» عام ١٩٩٥ ، وكلها أعمال مهمة يستحق أى منها دراسة ضافية .

ولكن المهم أنها خرجت فيها بكتابة المرأة من حصار الأدب النسائى الضيق الذى فرض عليه لزمن طويل، وطرحته فى ساحة الاهتمام الثقافى العام ، وأرست فيها جميعا مجموعة مهمة من القيم الإبداعية والفكرية على السواء أولاها أن الحرية الفردية لا تنفصل بأى حال من الأحوال عن الحرية الاجتماعية للمجموع ، أو عن حرية الوطن السياسية عامة . وثانيتها أهمية الوعى بالتراسل أو التناظر المستمر بين بنية العمل الفنى ، وعالمه العام وبنية الواقع الاجتماعى والسياسى الذى يصدر عنه ، بالصورة التى ينعكس كل منهما على مرايا الآخر ، ويرهف وعينا بآلياته. فليس العمل الفنى لديها مجرد تعبير عن الواقع ، ولكنه كشف لآليات

حركته الداخلية ، وارهاف لوعي القارىء بمدى تورطه فيها . وثالثتها أن عالمها الابداعي مسكون بفكرة أساسية وهي أن الخلاص الفردى قد يمنح الفرد حلولا مؤقتة ، ولكنه لايحقق عبره نفسه وذاته الفردية ، ولا سبيل إلى هذا التحقق الفعلى الا بالخلاص الجمعي والوطني العام. ورابعتها أن على الكاتب أن يكتب عملا إبداعيا كلما كان لديه ما يقدمه من جديد للقارىء ، وألا يكتب لمجرد الكتابة أو تكرار النفس ، أو تأكيد الوجود .

فقد توقفت لطيفة الزيات عن الكتابة لربع قرن بين روايتها الرائدة «الباب المفتوح» ومجموعتها القصصية «الشيخوخة» لأن «الباب المفتوح» كانت قد أصبحت علامة فارقة في تاريخ الكتابة النسائية العربية . إذ فتحت بحق بابا جديدا لإبداع المرأة العربية تحولت معه الكتابة إلى أداة للكشف والتحرر معا . لأنها لم تعد ، كجل الروايات التي سبقتها . مجرد رواية عن سعي المرأة للتعبير عن ذاتها في مجتمع رجالي ، وإن تضمنت ذلك كله ، بل أصبحت رواية مصر كلها في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها والتي انتهت بالعدوان الثلاثى عليها عام ١٩٥٧، ثم جاءت «الشيخوخة» إضافة حقيقية على صعيدى المبنى والمعنى معا لكل ما قدمته في روايتها الرائدة . وجاء التباين بين العملين في البناء واللغة والتجربة وطبيعة الشخصية تجسيدا للتباين بين مرحلتين وموقفين مختلفين من العالم والفن على السواء ، وبلورة فنية خالصة للفروق الأساسية بين مصر الطالعة من بوتقة العدوان الثلاثي معتزة بذاتها رغم الجراح، ومصر التى تعانى من واقع الثمانينات المبهظ الكئيب وقد أثخنتها جراحها الداخلية أكثر مما نالت منها حراب الأعداء .

تجديد فن السيرة

فلما جاء كتابها الإبداعى الثالث «أوراق شخصية» شكل هو الآخر إضافة جديدة ، لا لعالم لطيفة الزيات وحده ، وإنما لجنس السيرة الذاتية فى الأدب العربى كله ، لأنه كتاب يغير مفهوم هذا الجنس الأدبي ويبدل بنيته حتى تتوام مع تاريخ المرأة وتجربتها فى عالمنا العربى ، وهى تجربة تعانى من التمزق والتفتت وغياب الاستمرارية السببية أو المنطقية ، وهل يمكن العثور على منطق سببى يبرر ما يدور للمرأة فى مجتمعاتنا ؟ ناهيك عما دار لامرأة جميلة مثقفة ومشغولة بالهم الوطنى العام مثل لطيفة الزيات ؟ وتطرح فيه مفهوم الأوراق المتناثرة والمتحاورة ، برغم الفجوات المتعددة بينها ، بل بسببها، في مقابل مفهوم السيرة التقليدى الذى يتابع فيه الكاتب سيرته بشكل متسلسل يتماهى فيه الراوى مع الشخصية ، أو ينفصل عنها ، ولكنه يلتزم فى جميع الأحوال بالتسلسل الزمنى أو التاريخى. أما «أوراق شخصية» فإنه عمل يتحرر من التسلسل الزمنى من أجل بلورة نوع من

التفاعل الخلاق بين الماضي والحاضر ، كما يطرح أهمية الفجوات في الكتابة الشخصية لأن السكوت عنه في الخطاب الذاتي خاصة ، وفي الخطاب النسوي عامة ، لا يقل إفصاحا في كثير من الأحيان عن المصرح به ، ويقدم بنية الأوراق المختلفة التي يمتزج فيها البوح الذاتي بالمذكرات بالكتابة الابداعية ، بالمشروعات المجهضة ، بالأسئلة الملحة التي ترافق الكاتبة في رحلة العمر ، باعتبارها البنية الأكثر ملاءمة للبوح النسائي والأشد تجسيدا لتجربة المرأة في عالمنا . وهذا الوعي بمحتوى الشكل الأدبي يمتد الى بقية أعمال لطيفة الزيات الإبداعية ، ويحولها جميعا إلى إضافات مهمة ، لا لكتابة المرأة العربية فحسب ، وإنما للكتابة الإبداعية العربية عامة .

العمل الجامعي

أما الجبهة الثالثة والأخيرة فهي جبهة العمل الجامعي الذى قامت فيه بدور استمر منذ أن التحقت بالعمل في الجامعة عام ١٩٥٢ ولم تتوقف عن أداء هذا الدور ـ كما أظهرت لنا شهادة أحدث طالباتها الشابات في الاحتفال بتكريمها في مكتبة القاهرة ـ حتى توقف القلب عن الخفقان ويتمثل انجازها الملموس على هذه الجبهة في سلسلة أعمالها النقدية التي تنقسم حقيقة الى قسمين : بدأ أولهما برسالتها المهمة للدكتوراه عام ١٩٥٧ عن «حركة الترجمة في مصر من القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين»، والتي كانت تريد أن تترجمها للعربية وتنشرها على القراء ، واستمر عبر أعمالها النقدية المكتوبة باللغة الانجليزية والمنشورة في كتيبات عديدة تدور حول محور مهم هو نظرية المفارقة في النقد والمداخل المختلفة للتعامل معها فيه، وفي أعمال نقدية تتواصل حلقاتها، وتتكامل عبرها مجموعة من الرؤى النقدية والنظرية للعمل الجامعي، لم تحظ بعد بالاهتمام الذى تستحقه .



أما ثانيهما : فإنه يتمثل في أعمالها النقدية المنشورة بالعربية والتي ظهرت في أربع كتب هي « نجيب محفوظ : الصورة والمثال» ١٩٨٩ ، و«من صور المرأة في الروايات والقصص العربية» ١٩٨٩ ، و«أضواء: مقالات نقدية» ١٩٩٤ ، و«فورد مادوكس فورد والحداثة» ١٩٩٦ ، وهي أعمال تتراوح بين النقد التطبيقي لأعمال كاتب بعينه هو نجيب محفوظ ، أو استقراء الفكر الأدبي لكاتب آخر للتعرف على أسس نظريته الأدبية عن الحداثة كما هو الحال مع فورد مادوكس فورد الذى

استأثر بأكثر من بحث من أبحاثها المنشورة باللغة الانجليزية إلى جانب الكتاب العرب . أو الاهتمام بموضوع محدد هو موضوع المرأة ومختلف تجليات صورتها فى الكتابة الأدبية العربية . ويرسي كتابها المهم عن صورة المرأة قواعد أول عمل نقدى رائد فى هذا المجال يلتفت للمسارات المضمرة فى هذه الصورة فى مختلف تجلياتها الأدبية ، ويكشفها للقراء والأدباء على السواء .

أما انجازها غير الملموس على هذه الجبهة، والذى يتوزع فى العشرات من طلابها وقرائها ، فإننى أظن أن تلميذتها النجيبة الكاتبة المرموقة رضوى عاشور أقدر منى على الحديث عن هذا الجانب ، وكل ما أستطيع الاسهام به هنا هو الحديث عما تركته لطيفة الزيات فى نفسى من أثر إنسانى ومعرفى . ولا أتذكر الآن متى التقيت بلطيفة الزيات لأول مرة ، ولكنى أتذكر بوضوح شديد مقالها الأول الذى قرأته لها فى مطالع الستينات ، وتعلمت منه الكثير ، وكان هذا المقال عن رواية نجيب محفوظ «اللص والكلاب» وقد نشر فى مجلة بيروتية لم يقيض لها الاستمرار ، لا أذكر اسمها الآن ، ولكنها وقعت فى يدى ، وقرأت المقال بعد أن كنت قد كتبت عن الرواية نفسها فانبهرت به ، وتعلمت منه الكثير ، فقد جاء لقائى بهذا المقال فى مرحلة التكوين النقدى المبكر ، وفى الوقت الذى قررت فيه الاهتمام بالنقد، وكنت من البداية أشعر بنوع من الاستقلال عن واقع النقد العربى وقتها ، ناجم عن قدر من عدم الرضا عما فيه ، ولم يكن قد وقع نظرى على مقال لناقد عربى تمنيت لو كنت أنا الذى كتبته حتى قرأت مقال لطيفة الزيات ذاك ، فأخذتنى جدته المنهجية وحدوسه المعرفية معاً .

النقد الجديد

وبدأت منذ ذلك الوقت فى متابعة كل ما تكتبه لطيفة الزيات، الى الحد الذى اشتريت معه مقالاتها التى كانت تنشرها فى كتيبات صغيرة باللغة الانجليزية فى مكتبة الانجلو المصرية ، وكنت أكابد مشقة قراءتها بالانجليزية فى هذا الوقت بمساعدة القاموس من شدة شغفى بأن أتعلم منها ، وأن أكشف سر طريقتها المدهشة فى التعامل مع النصوص . فقد كانت تلك هى الفترة التى ساد فيها النقد الاجتماعى ولكن نقد لطيفة الزيات ـ وأعرف الآن بعد عمل طويل فى هذا المجال أنه ـ كان ابن اهتمام مدرسة النقد الجديد الأمريكية باستقلالية النص وبضرورة توليد دلالاته من داخله ، ولكنه لم يقع فى سلبيات هذه المدرسة ، ولم يفصل العمل عن سياقاته الثقافية أو الاجتماعية أو عن أطره المرجعية أو النصية الأوسع . ولهذا ظل النقد نسيج وحده فى مرحلة ساد فيها نوع من النقد الاجتماعى البسيط إن جاز التعبير ، وظل منهجها المتميز فيه رافدا أساسيا من روافد منهجي النقدى مهما تعددت روافده

أو تنوعت طرائق تعامله مع النصوص .

ثم أتاحت لى الظروف لقاء الدكتورة لطيفة الزيات فى منتصف الستينات فى مجلة «المجلة» . فسحرتني شخصيتها العذبة المنطلقة منذ اللقاء الأول ، ولما ذكرت لها المقال وإعجابي به ، رجتني أن أعيره لها ، لأنها لم تتمكن من الحصول على نسخة من المجلة التي نشرته ، ففعلت، وبدأت معرفتي بها منذ هذا الوقت تتوطد بالتدريج وأخذت أتابع عملها النقدى، ثم أتاحت لى الظروف أن أتتلمذ عليها عندما التحقت بقسم الدراسات العليا فى المعهد العالي للفنون المسرحية لدراسة الأدب والنقد المسرحي ، وكانت هى رئيسة قسم النقد بينما كان أستاذنا الدكتور شكرى عياد ـ مد الله فى عمره ـ عميدا للمعهد ، وكانت هي والأستاذ بدر الديب ـ مد الله فى عمره ـ أهم من تعلمت منهم من الأساتذة فى هذه المرحلة من حياتي ، بل هما الأستاذان الوحيدان اللذان جلست اليهما بحق مجلس التلميذ من الأستاذ ، وأدين لهما بفضل أدبي ومعرفي ملحوظ . فقد تعلمت منها ـ حينما درست لى مادة النقد التطبيقي ـ أن النقد الأدبي فن قبل أن يكون علما له قواعده وأصوله ، وأن للعمل النقدى بنيته الداخلية التى لابد أن يهتم بها الناقد اهتمام المبدع ببنية عمله الإبداعي . وكانت دروسها ، التى تمتد عادة لساعات متوالية ، ساعات من المتعة والعلم والحدوس الفنية الخالصة ، فقد تعلمت منها كيف يحشد الناقد كل معارفه وهو يقترب من العمل الأدبى ، ويتجرد فى الوقت نفسه إزاءه من أى موقف مسبق ، ليدخل الى العمل بعقل مفتوح ، وزاد معرفي متوقد .

وتعلمت منها أيضا وأنا أشاهد كيف التفت مثقفات مصر حولها فى محنتها المرضية الأخيرة ، أن العطاء لايذهب بددا مهما ظهر غير ذلك ، وأن نساء مصر من المثقفات اللواتي واصلن المسيرة بعدها من رضوى عاشور وأمينة رشيد وفريال غزول وحتى اعتدال عثمان ، وإيلى الشربيني وغيرهن وقد تجمعن حول سريرها ، وسهرن عليها فى أيامها الأخيرة قد تعلمن منها درسا لم يتعلمه الرجال ، وهو ضرورة التضامن والارتفاع عن الخلافات الصغيرة فى وقت يتفشى فيه التفتت والتناحر ، وتندلع بين المثقفين فيه الصراعات والإحن ، بينما يتكاتف أعداء الثقافة والعقل فى الداخل والخارج فى استهدافهم المستمر لدور الثقافة واستباحتهم لدماء المثقفين .

فوداعا يا أستاذتنا الكبيرة فإن كنت ترحلين الآن عنا فقد تركت لنا أعمالا أدبية باقية ، ومجموعة من القيم الفكرية والوطنية الأصيلة، كما تركت لنا بعضا منك فى كل كاتبات العربية من مختلف الأجيال، أثرا باقيا لا يحول .

قاموس التقاليد والعادات والتعابير الشعبية

رسالة إلى الاستاذ «أحمد أمين بك»

بقلم : د. نبيلة إبراهيم

عفوا أستاذى الفاضل أن أضيف كلمة «الجديد» إلى عنوان سفرك الخالد : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ولكنك كنت تتوقع أن تصدر طبعة جديدة مزيدة لقاموسك من قبل الباحثين من بعدك . ألم تقل فى المقدمة المهمة لكتابك : وقد أقدمت عليه وأنا وجل لأنه موضوع جديد أظن أنى لم أسبق إليه، والجديد عادة غريب . وأنا أعتقد أنه فتح بابا يكمله من يأتى بعدى. ؟

ولقد جال بخاطرى أن أنبئك بقصة هذا القاموس الجديد الذى لم ير النور بعد ، وإن كانت ألفاظه تعيش بقوة على ألسنة الناس ، وتلح على أن ترصد لتكون سجلا لهذا العصر المضطرب القلق الذى تعيشه ، تماما كما كانت ألفاظ قاموسك سجلا لعصرها ، وإن كان البون شاسعا بين العصرين .

وإذا كان لكل عصر همومه وأحداثه ، فإن ما يفرق بين العصور ، مقدار صلابة الناس فى مواجهة الأحداث ثم كيفية تنظيم رصيدهم المعرفى بحيث يكون بمثابة جهاز ارسال لكل الناس فيجتمعون من حوله ويستقبلون شفراته ويعون مغزاها ويتحركون ، بناء على ذلك ، ومن خلال رصيد القيم المستقرة فى داخلهم ، حركة منسجمة تقودهم إلى هدف واحد .

ولتسمح لى أستاذى الفاضل أن أبدأ



أحمد أمين

معك من البداية ، فأتناقش حول قاموسك الأول ، حتى أصل معك إلى قصة قاموسنا الجديد الذى لم ير النور بعد ، كما سبق أن ذكرت . وبادئ بدء أسألك عن الدافع الذى دفعك إلى تأليف هذا القاموس ، وأنت المعنى بدراسة الأدب العربى والحضارة العربية ، كما تشهد على ذلك مؤلفاتك ، بل أهم مؤلفاتك الممثلة فى موسوعتك الضخمة، فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام . والإجابة جاهزة فى مقدمتك لقاموسك ، وهى مقدمة أثرت فيها قضايا معرفية على جانب كبير من الأهمية ، ويستحق أن يقف عندها كل مصرى مثقف ، فيتدبرها ويتأملها ويعى ما ترمى إليه . قلت يا أستاذى الجليل :

«ولقد دعانى إلى تأليفه ، ما رأيت من عادات وتقاليد وتعابير كانت حية فى زمانها ثم أخذت تندثر ، حتى أن أولادى قل أن يعرفوا منها شيئا ، فالمؤرخ فى حاجة شديدة إلى تدوينها والانتفاع بها» . وقلت :

«وقد ينظر إليه (أى إلى قاموسك) بعض الارستقراطيين من العلماء نظرا شزرا ويعجبون كيف أن أستاذا جامعيا يتنزل إلى قيد عادات وتعابير شعبية يعنى بها العوام ، ولكن عذرى أنى أرى أن هذه ناحية تهم المؤرخ الصادق كما يهمه أدق شئ وأصغره . وإنى أعتقد أن فى العادات والتقاليد دلالة على نوع الأخلاق ونوع عقلية الشعوب ، وأن فى التعابير الشعبية من أنواع البلاغة ما لا يقل شأنا عن بلاغة اللغة الفصحى ، وأن هناك من أمثلة المصريين وتعبيراتهم وزجلهم ما يعجب به عالم البلاغة كما يعجب بامرئ القيس وزهير . وشاء القدر أن أعنى بالناحيتين فى آن واحد . فقد كنت أحضر الجزء الثانى من ظهر الإسلام فأتغرق فى تاريخ الطبرى وفلسفة إخوان الصفا وابن سينا ، وأخرج من ذلك فأنظر إلى المجلات الشعبية الخفيفة لألتقط منها بعض التعبيرات ، وأعتقد أن فى كل خيرا ومنفعة» .

التراث الشعبى .. سيرة الشعوب

وأول ما يلفت النظر إلى نصك هذا ، إدراكك ببصيرتك أن التراث الشعبى بمثابة السيرة الذاتية للشعوب . وكما أن الفرد لا تعرف هويته إلا بسيرته الذاتية

التى يختزنها فى ذاكرته ، ولا هوية لمن فقد ذاكرته ، كذلك لا مجال للحديث عن هوية شعب إلا من خلال الحديث عن تقاليده وعاداته ، وفنون تعبيره المختلفة ، المدون منها والشفاهى ، ثم ها أنت ذا تشفق على أبنائك وأبناء الآخرين بطبيعة الحال ، أن يعيشوا حالة من الانفصال بين حاضرهم وماضيهم ، ولهذا شئت أن توصل إليهم ما يربط بينهم وماضيهم برباط وثيق ، وما يمكن أن يختزنوه فى ذاكرتهم ، فإن سمعوه فهو تواصل معرفى شفاهى ، وإن قرءوه فهو تواصل معرفى كتابى وهذا وذاك يكون أكبر زاد لهم فى سلوكهم وإبداعهم .

ثم إنك أكدت ، أستاذى الفاضل ، أكثر من مرة ضرورة أن يتسع أفق المؤرخ لأن يسجل، متوازيا مع تسجيله للأحداث الكبرى وصنع أهل القمة لها ، حركة الشعب الفكرية فى تفاعلها مع هذه الأحداث . فالزمان والمكان ليسا مفهومين مجردين ، إنما الزمان أحداث متراتبة ، والمكان جماعة من الناس يمارسون حياتهم فيه وتربط بينهم عادات وتقاليد مصطلح عليها ، فضلا عن رباط الدين واللغة .

ونعود إلى مقدمتك فنجدك تشير إلى طبقة من المثقفين الذين تنعتهم بالاستقراطيين الذين توجست منهم أن ينظروا لعملك هذا نظرا شزرا ، ذلك لأنهم يحقرون من شأن التعبير الجمعى أو الشعبى ، اعتقادا منهم أنهم من معدن آخر مميز فكرا وشعورا وثقافة عن عامة الشعب ، وهم يجهلون أو يتجاهلون أن جل مفكرى مصر ومبدعيها قد خرجوا من القرى والنجوع .

وهكذا تضع يا سيدى الفاضل يدك على السبب الجوهرى فى عدم عنايتنا بتراثنا الشعبى منذ زمن مبكر كما فعلت الشعوب المتحضرة ، بل أكثرها حضارة وغنى ، وهى تلك الشعوب التى خططت لتماسك شعبها وتماسك ثقافته ، حتى لا يكون عرضة للتفكك والتشرذم ، فبدأت بخطط علمية مدروسة فى تسجيل تراثها وإذاعته ، بل وتلقينه للأبناء منذ نعومة أظفارهم وذلك من خلال مراكز البحوث التى قدموا إليها كل دعم لتعنى بالتراث جمعا وتصنيفا ودراسة ، وكان ذلك منذ القرن الثامن عشر .

وأما ملاحظتك التى تتسم بالصدق والصراحة فهى أن فى التعابير الشعبية من أنواع البلاغة مالا يقل شأنا عن بلاغة اللغة الفصحى ، وأن هناك من أمثلة المصريين وتعابيرهم وزجلهم ما يعجب به عالم البلاغة كما يعجب بامرئ القيس وزهير .

كشف سر الإبداع

فالتعبير الجمعى وجد قبل التعبير الفردى ، ولقد عاشت الملاحم الشعرية الكبيرة والقص الشعبى الثرى قبل أن يوجد الشعر الفردى والقص الفردى . وينطبق هذا القول على التصوير والنحت

والموسيقى والرقص . فالفن الجماعى بصفة عامة القولى منه وغير القولى ، هو الذى يقودنا إلى كشف سر الإبداع عند الإنسان وهو السر الذى أودعه الله فى الإنسان منذ أن قدر له أن يعمر الأرض

ثم لا ننسى فى النهاية أن نشير إلى ملاحظتك الطريفة وهى أنك كنت منشغلا بعملين كبيرين فى آن واحد ، الأول الذى يعد سجلا كبيرا للحضارة العربية والآخر يعد سجلا للشخصية المصرية . وقد كنت تنشغل بالعمل الأول تارة ، ثم تتركه لتنشغل فى البحث الآخر تارة أخرى . وبذلك كشفت عن النظرة الشمولية المتكاملة التى ينبغى أن يتحلى بها كل باحث ، فالبحث عن الهوية العربية لابد أن يكمله البحث عن الهوية المحلية . ولهذا ، بقدر ما كانت موسوعتك العربية سجلا لتاريخ الحضارة الإسلامية ، فجرها وضحاها وظهرها ، كان قاموسك سجلا ، قابلا للاكتمال ، للشخصية المصرية ، وكان قد شاركك فى مهمتك الثانية الاستاذ الكبير أحمد تيمور بأعماله الخالدة : معجم الأمثال العامية ، ومعجم الألفاظ العامية ، ثم معجم الكنايات العامية .

ولابد أن هذه الأعمال كان لها التأثير الكبير على نمو الوعى بمفهوم الشعب فيما بعد ، إذ ليس الغرض من هذه الكتابات ، كما سبق أن ذكرت.

وليس غريبا ، مع تطور الوعى الشعبى فى الستينيات ، أن يصدر على وجه التحديد فى عام ١٩٥٧ قرار وزارى رقم ٣٧٦ بإنشاء مركز الفنون الشعبية تابعا لوزارة الإرشاد القومى .

ولن نعرض بالتفصيل لهذا القرار ، ولكننا نكتفى بذكر تفصيلات المادة الثانية فيه وهى التى تنص على مهمة هذا المركز، وقد وردت على النحو التالى :

أولا : تسجيل التراث الشعبى المصرى فى مختلف ميادين الفن والأدب ودراسة خصائصه

ثانيا : تدريب جيل من أهل الفن والأدب ليكونوا خبراء فى الفنون الشعبية الوطنية .

ثالثا : الإعلام عن التراث الشعبى المصرى بوسائل العرض المتحفى والنشر والإذاعة المختلفة .

رابعا : تحقيق الصلات وتوثيق الروابط بين التراث المصرى المذكور ونظائره فى محيط القومية العربية وغيرها

خامسا : إتاحة المادة الأصلية فى هذا التراث للمشتغلين بالفن والأدب للانتفاع بها فى تأصيل الطابع القومى فى إنتاجهم .

سادسا : التبادل الفنى والأدبى فى المجال المتقدم على نطاق عالمى .

ثم تنص المادة التالية على «أن يلحق بالمركز هيئة من العلماء والفنيين والدارسين ، ويكون اقتراح تعيينهم وتحديد أعمالهم وما قد يصرف لهم من مكافآت بقرارات من مجلس الإدارة . وللمجلس

كذلك اقتراح إرسال بعوث داخلية أو خارجية للقيام بمهام أو دراسات مما يدخل ضمن أغراض المركز» .

ويتضح من هذه البنود أن الوعي كان مكتملا بضرورة إنشاء مركز علمي يقف على قدم المساواة مع مراكز البحوث التي تأسست في البلاد المتقدمة للحفاظ على تراثها القومي ، فلا يظل موضوع جمع التراث ودراسته على نشاط الهواة العاشقين للتراث الشعبي .

ويتضح كذلك مدى الوعي برسالة هذا المركز التي تتجاوز تسجيل التراث وحفظه، إلى أن يكون مركز اشعاع لتراثنا القومي في الداخل والخارج معا .

وبهذه الفلسفة يا استاذى الفاضل. انشئ المركز ، وهي فلسفة تكمل فلسفتك في وضع قاموس للتقاليد والعادات والتعابير المصرية ، وفلسفة أحمد تيمور في وضع أكثر من معجم لصيغ التعابير الشعبية .

على أنه مما يدعو إلى الدهشة والتساؤل ، أن الكثير من المشروعات ، عندنا التي يخطط لها في البداية على أساس علمي ، بهدف أن تكون دفعة لتقدم مجتمعنا وتقوية أواصره ، لا يكتب لها الاستمرارية والاطراد في أداء رسالتها . وكأن هناك قوى خفية تتعمد قتل كل ما يمكن أن يعمل على تماسك مجتمعنا حتى لا تدور فيه عجلة التنمية السليمة بين جميع طبقاته في آن واحد ، وحتى لا تقوى فيه دعائم الحركة الثقافية القوية الموحدة عندما تظل مرتبطة بقيم هذا الشعب وطموحه وآماله . فهل تصدق يا سيدى أن هذا المركز الطموح أصبح على وشك أن يصفى؟!

عبق الماضى

لقد عز عليك أستاذى الفاضل أن تتلوك أجيال لا تعرف شيئا عن ماضيها، إدراكا منك أن التقاليد والعادات والتعابير ليست مجرد سلوك يمارس وكلام يردد ، بل هي عبق الماضى الذى ترسخ فيه القيم ورؤى الكون والحياة ، من هذا الماضى نستمد الحكم وأنماط السلوك الرشيدة والفلسفة البناءة مما يعيننا على مواجهة حاضرنا المهدد بالتقلبات والمخاطر . وبعبارة أخرى ، لقد حرصت استاذى على أن تسلم هويتنا للأجيال التى ربما تصورت أنها ستكون أمينة على حفظ الرسالة فيضيف إليها كل جيل بما عنده ، وبذلك تتواصل الأجيال بتواصل الفكر والسلوك والقيم . ولا يعنى هذا قط ، نقل الماضى بحذافيره إلى الحاضر ، كما لا يعنى إدارة الظهر لتغيرات العصر وما يقدمه من وسائل التطور ، بل يعنى أن نكون مسلحين بكل ما يحافظ على هويتنا ومثلنا مع استقبال الوافد الغريب الذى يمكن أن يكون على نحو ما يقول مثلنا الشعبى : «فى الوش مرايا وفى القفا سلاية» .

وربما سألتنى أستاذى الفاضل عما يمكن أن تفعل مؤسسة مهمتها رصد التراث وتسجيله ودراسته ، إزاء المتغيرات التى تعترى المجتمعات اليوم ؟ وكيف يمكن أن نتصورها ، وهى المنوط بها أولا

جمع التراث الشعبى من مكانه فى القرى والبوادى والسواحل وكل أماكن التجمعات الشعبية داخل المدن وخارجها ، درعا واقيا ضد كل دخيل خبيث يهدف إلى الهدم والتخريب ، سواء نما هذا الدخيل فى الداخل كالنبت الشيطانى ، أو جاءنا من الخارج ؟

وتسمح لى أستاذى الفاضل أن أسهب فى القول بعض الشئ فى مهمة هذه المراكز العلمية التى تعمل اليوم على قدم وساق حرصا منها على التمسك بهوية شعبها فى خضم هذا العالم الموحد الذى ندفع إليه دفعا بلا رحمة أو هوادة . فهذه المراكز تعمل اليوم على محورين رئيسيين : المحور الأول هو حفظ التراث ونشره وإذاعته كما تنص على ذلك لائحة مركزنا ، بهدف الربط بين طوائف المجتمع بأسرها ، فى شفرة حضارية واحدة .

والمحور الثانى مساهمة هذه المراكز فى عملية التنمية الحقيقية وليست التنمية البراقة الخادعة ، فمما لاشك فيه أن الاطمئنان إلى صلابة القاعدة الشعبية وقوة تماسكها يعد الأساس الأول الذى يبنى عليه صرح التنمية السليمة، وبتعبير آخر إن التنمية الحقيقية لابد أن تبدأ بالجماعة الشعبية ، ولا يتحقق هذا إلا بدراسة العناصر المكونة لفكر هذه الجماعة وسلوكها مع رصد المتغيرات فى حياتها وأشكال تعبيرها وأنماط سلوكها ، ثم إخضاع كل هذا للتحليل والدراسة بهدف الحفاظ على تماسك المجتمع الشعبى قبل أن ينفرط عقده .

وهنا نصل إلى مانود إبرازه من كل ما سبق ، وهو أن الدولة التى لا تمتلك مركزا كبيرا للتراث الشعبى ، بل لابد أن يكون أكثر من مركز ، يعمل على أعلى مستوى من الكفاءة سواء فى الجمع والتصنيف ، أو البحث والدراسة أو فى سرعة تقديم المادة الموثقة للباحثين والمبدعين ، أو المادة العلمية التى يعول عليها فى موضوع التنمية ، فإنها تكون قد قصرت ، لا فى الحفاظ على هوية شعبها فحسب ، بل تكون مسئولة عن انفراط عقد الجماعة التى لا يمكن أن تقوى أواصر الرباط بين أفرادها إلا بمقدار التقائهم حول شفرات حضارية هم صانعوها .

ظواهر غريبة

وهل يمكننا أن نقول إنه كان هناك تزامن فى تضاؤل رسالات مؤسساتنا العلمية ، وفى توجيه أنشطتنا الثقافية بصفة عامة ، فلما أفقنا إذ بنا نفاجأ بظواهر غريبة تكاد تطيح بنا ثقافيا وأخلاقيا ودينا ؟

وتسألنى أستاذى عن السبب الخفى الذى يمكن أن يكون قد أوصلنا إلى هذه الحال . وقد يدفعنا الإحساس بالخطر الداهم إلى أن نغوص قليلا فى أعماق الأشياء ولا نكتفى بترديد ما نسمعه وما نقرؤه كل يوم . وإذا سلمنا بأن السبب الجوهرى هو تفريطنا فى العمل بإصرار

على استمرار تماسك البنية الشعبية على نحو ما فطرت عليه عبر أجيال طويلة ، فإن السؤال مازال يلح علينا لأن نبحث فى سر هذا التفريط .

وربما لا يكون هناك ما هو أبلغ فى هذا المقام ، من أن نلوذ بتراثنا ، فنأتى بأمثولة تغنينا عن الكلام الكثير . وهى أمثولة ترد لها روايات مختلفة فى تراث الشرق والغرب مما يعنى أنها صدرت عن ضمير الجماعة المجهولة لتثبت بوصفها الصيغة الكلامية الحكيمة التى يمكن أن يستعين بها كل من تعوزه الحاجة لأن يقول أشياء كثيرة فى كلام فنى قليل .

يحكى أنه كان هناك ملك مغرم بالملابس الجميلة إلى درجة أنه كان ينفق الكثير من الأموال على ملابسه الفاخرة وكانت البلدة التى يحكمها هادئة إذ كان الناس يعيشون فيها بعيدين عما يجرى فى مملكتهم . وذات يوم وفد على المملكة رجلان ، وروجا بين الناس إشاعة أنهما يعملان بالنسيج ، وأنهما ينسجان أروع الأقمشة . ولم تكن هذه الأقمشة تتميز بألوانها ونقوشها الجميلة فحسب . بل كان للقماش خاصية أخرى وهى أنه يكون غير مرئى لكل من كان يشغل منصبا غير مؤهل له ، أو إذا كان أفاقا أو أحمق . وفكر الملك أنه إذا حصل على هذا القماش، وصنع لكل رجاله أردية منه، فإنه سوف يكتشف الأحمق والأفاق وغير المؤهل لمنصبه . وعندئذ أصدر الأمر للرجلين أن يصنعا له هذا القماش .

وذات يوم أراد الملك أن يتأكد من سير عملهما ، فأرسل لهما رئيس ديوانه ليقدم له تقريرا عن إنتاجهما . ودخل عليهما رئيس الديوان بغتة فوجد الأنوال فارغة ، ووجدهما يصطنعان أنهما يغزلان القماش. وانزعج رئيس الديوان لأنه لم ير القماش ، ولكنه خشى أن يكون هو أول من يفقد منصبه إذا أعلن أنه لم ير القماش . ولاحظ الرجلان ماهو عليه من حيرة وارتباك ، فبادراه بالسؤال عن رأيه فيما يراه ، عندئذ رد متلعثما : إنه يرى شيئا رائعا لم يسبق له أن رآه . وكان هذا هو التقرير الذى رفعه للملك . وسر الملك بذلك وقرر أن يذهب بعد ذلك ليرى القماش بنفسه . وما إن خطت قدماه الحجرة التى يتظاهر فيها الرجلان بغزل القماش ، حتى وقف مبهوتا ، إذ أنه لم ير قماشا قط ، فى الوقت الذى يستمر فيه الرجلان فى الغزل ، ولما رآه رئيس ديوانه مضطربا ، ابتدره بالسؤال أليس ماتراه شيئا رائعا ؟ وتردد الملك وهو يقول فى نفسه : أننى لا أرى شيئا ، إنها حقا كارثة . ولكنه سرعان ما أفاق من حيرته ورد على الفور : إن القماش رائع حقا ، وإنه يروقه كثيرا .

على أن الملك تأكد فيما بعد أن الرجلين أفاقان ، ولكنه شاء أن يتمادى فى اللعبة ، ثم كان بعد ذلك يوم احتفال كبير فى الدولة ، فأمر الرجلان أن يصنعا أردية من قماشهما لكل رجال دولته . وبهذه

الأردية يسيرون فى المدينة حتى يصلوا إلى قصره .. واصطنعا النساجان مرة أخرى أنهما يصنعان الأردية . ثم أعلنا بعد فترة أن الأردية جاهزة . وعلى رجال الدولة أن يحضروا ليرتدوها وخلع الكل أرديته الخارجية ليرتدي بدلا منها الرداء الجديد . واصطنع الرجلان أنهما يلبسان كلا منهم رداءه الجديد المصنوع من القماش السحرى . وخيم على الجميع جو من الصمت الرهيب ، إذ لم يجرؤ أحد منهم أن يعلن أنه لم يرتد شيئا خوفا من أن يفقد منصبه .

وسار الموكب على هذا النحو فى شوارع المدينة ، والرجال لا يرتدون سوى ملابسهم الداخلية . وكان كل من رآهم من الناس الذين سمعوا كذلك عن سر القماش السحرى ويخافون كذلك من أن يفقدوا مناصبهم ، يبتدرونهم بالهتاف بحياتهم وحياة الملك ويمتدحون الأثواب الجديدة الجميلة .

وكان صبى صغير يسير بجوار والده ويسمع أباه وهو يلهج بالثناء على الحاشية وأرديتها ، فصرخ فى صوت مرتفع وقال : ولكنهم لا يرتدون شيئا ! وأخذ الصبى يكرر عبارته حتى سمعه الناس ، فنظر بعضهم إلى بعض وهم يرددون فى همس: حقا إنهم لا يرتدون شيئا . وسرعان ما سرى الهمس بين الناس ثم تحول الهمس إلى أصوات عالية ثم إلى مظاهرة . وارتبك رجال الدولة وشعروا بالخطر .

ولكنهم لم يعدموا الحيلة ، إذ أشاروا فى سرعة إلى جوقة الموسيقى المحيطة بهم أن يعلو صوتها فوق صوت الجماعة وبهذا وصل الركب بسلام إلى الملك ، وبدأ الرجال يقدمون له واجب التحية ، ولما لم يعلن أحد منهم أنه لم ير القماش أو الرداء فقد ظلوا من مناصبهم وظلت الأمور تسير على نحو ماهى عليه . أما صوت الشعب فقد أخذ يخفت حتى تلاشى .

سيدى وأستاذى ، آثرت أن ألوذ بك لأنك أول من ألفت قاموسا تسجل فيه هوية الشخصية المصرية الأصيلة .

ولابد أنك فى النهاية متشوق لأن تسمع بعض المفردات التى سندرجها فى معجمنا الجديد ليكون امتدادا لمعجمك وشاهدا على عصرنا . فمن بين الكلمات التى سوف نسجلها ، ونحن لم نحصرها بعد : كوسة . وأرنب . وزلموكا . وناس هايصة وناس لايصة . ثم مجموعة «كو» مثل عادل كو ، وحسنين كو . ولكن نفسى أن نسجل عبارة حزمنى يا بابا ، أو هى بالأحرى حزمنى يا .. إذ لا يجوز أن نقحم البابا المسكين فى الموضوع .

أما أمثالنا الشعبية فسوف ينقلب بعضها رأسا على عقب . فالمثل الذى يقول بيت النتاش ما يعلاش ، لابد أنه سيصبح بيت النتاش يعلو ويعلو ، والمثل الذى يقول : إمشي دغرى يحتار عدوك فيك ، لابد أنه سيصبح ، امشى ملتوى يلتم حبايبك حواليك! .



محمد ناجى فى لحن الصباح

بقلم: فوزية مهران

عالم «محمد ناجى» المثير والغريب كتابة مشحونة بالخيال الجامح والرؤى المدهشة – وجذور واقعية مذهلة .

روايته الأولى «خافية قمر» قلنا إنها جاءت على مستوى أعمال «جارسيا ماركيز» الحاصل على جائزة نوبل ١٩٨٢ .

(تحقق تجانسا وتآلفا بين الواقع والخيال .. وتعكس حياة وصراع عالم بأكمله) .

يقدم فى روايته الثانية «لحن الصباح» قصيدا سيمفونيا تحيط بنا نغماته وتتسلل إلى الأعماق .

تصدح بالحماس والانفعال وتنهد إلى الحزن والشجن .. تحلق بين شواهد التاريخ وتتكسر على صهد الطريق . ورغم القسوة والمرارة والزهق يمد بنا نور القمر – إلى الجنون أو الحكمة .

لحن الصباح – بناء موسيقى درامى دائرى .

جو مشحون بالتوتر والقلق مثل مسرحية – فى انتظار جودو – لصامويل بيكيت (حاصل على جائزة نوبل أيضاً) .

– ويبدو أن المقارنة فرضت نفسها علىّ للمستوى الراقى لأعمال «ناجى» والتى تستحق منا التقدير والاعجاب والجوائز .

مسرحية جودو – تبدأ بمشردين بأرض جرداء وتحت شجرة عارية – وقيل إنها تمثل الإنسانية كلها وموقف الانتظار والقلق .

– ولا شيء يحدث .. لا أحد يجيء – وتبدأ كما تنتهي .

تبدأ الرواية بلحن الصباح المعتاد من دكان الحاجة ويكا «سوبر ماركت العهد الجديد» – يبدأ الموقف بمثلث الحركة هذا ... وينتهي به .

يظل المثلث يتسع وتحيط به الدوائر حتى يسع هموم المدينة كلها والوطن . الرواية قصيرة مركزة في تسعة عشر مشهدا.

والمشاهد قسمة بينهما – والأخير يلعبانه معا وينتهيان معا .

هي دورة الزمان من الصباح إلى المساء وحتى لحن الصباح الأخير.

المفارقة الحادة أن عباس صرف مبلغ «التعويض» وأضاعه في اللعب وينتظر ضربة حظ واحدة ليعتدل الكون .

ونوفل ينتظر «التعويض» ليعالج الرعشة ويتحقق العدل ويعتدل الكون.

في ظل الواقعية الشديدة يطل جو أسطوري عن قاض عادل يقيم في بيت أثري والكل في انتظاره ليقيم العدل .

متسولة مخبولة تقيم تحت شرفته وتناجيه ليخرج إلى الناس .

وخلفية وردية في الأفق مشبعة بلون القمر وضريح المرعشلي . توجد أيضا شخصية «فانوس» – يعرف كل الحكايات والسير – يعزفها على الناي – من أسرة تحترف المواويل والسرد والحكي – ويوجد دائماً من يسمع .

ومن يسمع .. يفهم – هذه «حكمة» علينا أن نتمسك بها لنصغي إلى «لحن محمد ناجي» ونفهم جيدا .

● مصدر الابداع

ميزة الكاتب أيضا أن حكاياته الخرافية تأتي من قلب الحكايات الشعبية – من مصدر الإبداع والفن عند الناس – والحكايات التي يتوارثونها ويحفظونها عن ظهر قلب وتنتقل من جيل إلى جيل – وتلعب دورا مهما في الحياة والفن .

– يعبرون بها تعبيرا روحيا عن مدى أشواقهم وأحلامهم .

في انتظار فانوس.

شخصية «فانوس» في لحن الصباح مثل المشاعلي في رواية «خافية قمر» يضيء الفوانيس ويقول له حكيم القرية:

«أشعل لنا نجمة لنرى الكلام».

وهو نفس معنى «الحكيم» – لأن من يرى الكلام يتأمله .. يفهمه.

مع لحن الصباح المعتاد يبدأ عباس تمرينه الصباحي أيضا – شقلباظ سريع ويقفز على صدر نوفل – يرقبه الأخير باضطراب .. يطاوعه ويقع معه على الأرض – لما يطول الموقف تفك ويكا الاشتباك .

الغريب حقا ما يفكر به نوفل «ذات يوم سأموت ويروح في داهية – سينظر إليه القاضي بعين الغضب الحمراء – القاضي لا يرحم القاتل ولا الزانية».

يخشى نوفل أن يقرأ الأكتع أفكاره

فيحول نظره إلى اللافتة - الأثر الباقى الشاهد على فنه الجميل - يعرف أن الرعشة فى يده هى التى أقعدته على الرصيف - لا شفاء منها إلا بمسبحة من الكهرمان أو العقيق الحر - لو صرف التعويض سيشترى مسبحة وياقوتة حمراء.

حدثت ويكا الاكتع عن عروس - امرأة تبحث عن ونيس بعد أن طردوها من بيوت الخدمة عندما كبرت - تريد لتتزوجه .

لم يصدق نفسه - فكر .. ثم فكر فى «فتاة البرتقال».

- لم يقل لنا الكاتب المزيد بعد عن فتاة البرتقال هذه وتركنا وسط الإثارة والتشويق ونحن نتتبع تفكير الرجل وما يحدث له من تداعى الذكريات والصور.

لابد أن هذه التداعيات متصلة بذلك «الشق» الذى يسكن فيه الأكتع «شق طويل بين بيتين» سقفه وصنع له بابا يعلق على جدرانه صور نجوم السينما والكرة .. صورة له بزيه العسكرى وشريطين على ذراعه - وبسخرية مريرة يكتب على الباب «تجارة أبطال التحرير».

لافتة نوفل معلقة فوق الحارة ..

«ترف وتسطع بنورالشمس الغاربة .. عرائس الشفق تطوف بها فى الملكوت».

يستطيع محمد ناجى أن يحول أى شىء بسيط إلى قيمة ومعنى وتكوين جمالى وتشكيل فنى .

وعندما تنسحب الشمس خلف البيوت تترك اللافتة - «كأنها مركب فى بحر من نور».

تسلل نوفل إلى ضريح الشيخ المرعشلى «أمير المرعوشين وولى أهل الرجفة» لو جاء فانوس سيسأله : لماذا جعلوا ضريحه بجانب ضريح الجارية؟

ثم يحكى لنا حكاية خرافية وهمية وحاضرة - تسكن وجدان الناس منذ زمن طويل - يحكى فانوس ويعلق على الأحداث وينمى السرد ويجيب على الأسئلة!

«كانت هناك تلال أسس عليها الأمير فرغلى مدينته وأقام حصونه - ضاع الأثر والتلال من هول ما حدث».

فانوس يلقى ببعض الأسئلة أثناء الحكى:

«التلال أسوار المدينة كيف يقدر عليها عدو؟ وتسع بوابات مطلسمة كيف يدخلها من لا يعرف سرها؟».

هل وقعت فى هذا الزمان أحداث مشابهة - فى المضارع القريب أو البعيد-؟

وليست الأسئلة للاستفهام..

أسئلة تستنكر .. تؤكد - تثير الوعى وتحرق .. تستمر فى السرد : «مكان الضريح كانت أعلى القمم .. يصعد على حصانه الأسود ليرقب مدينته بعقل أمير وقلب ولى».

جوف الشعب مسكون بحكايات خرافية ومعجزات - لولا الخيانة - يعلق فانوس : «لم يقدر عليه فارس وأذلته الجارية».

- من الجارية يافانوس .

ويجيب الكاتب بصوت التعميم ولسان الشخصية :

- كل امرأة جارية .

عن عمد يقابل الكاتب بين المأساة في قمة الأسطورة القديمة وتحت السفح في الدراما المعاصرة .

بين البطل التراجيدي .. وواحد من عامة الناس - بين «حدث» متأجج في لحظة الذروة - و«حادث» بسيط في الواقع - وهي أشبه بحبكة بديلة - تؤكد فكرتها الأساسية وتومض بانعكاساتها .

يجعل نوفل يفكر .. تتبع تفكيره .. كل ذلك بأسلوب التقطيع السينمائي والمونتاج السريع .

«عرفت أسرار البوابات التسع».

يفكر نوفل : هل كان يحبها؟

«في جوف الصخر أمان المحارب .. يخلع سيفه ويسلم نفسه للجارية».

يفكر نوفل : من كان يستطيع أن يخمن.

«ذات ليلة أضاءت القناديل - خلف التلال عزف وغناء وفرح».

فكر نوفل : وقتها لم يكن يعرف.

قالت : اطلق الشعب ليفرح.

«لم يكن يسمع قلبه كان مشغولا بالولد».

يفكر : ترى من أبوه؟

تتجسد الصورة بين أيدينا .. صاحت: «أطلق الشعب» .

صاح الأعداء : أسلم الشعب.

يرسم لنا الكاتب ببراعة وقوة نهاية المشهد الأسطوري .

«برق سيفه .. لكن قلبه انكسر ويده كانت ترتعش .. علق زنديه على السيف فبترهما».

في المقابل نعرف سبب رعشة يد نوفل وفقده القدرة على رسم الحروف والكلمات. (إنها مهنة الكتابة والفن الجميل موجودة) واللوحة الأخيرة «الشمس خجلت .. انفرطت التلال والجبال . وتكومت خلف المدينة».

المشاهد وخلفيتها الأسطورية والشخصيات المهولة تنزل بنفسها أشد العقاب - ونظل نشهد التنقل بين شاعرية الوصف وجمال التكوين وندرك عزة الكبرياء وألم الانكسار . خلفية مأساوية مشيدة فوق مشهد عار - المحارب القديم مبتور الأعضاء يحتقر المرعوش :

«جسده مكتمل لكن الرعشة في روحه».

ود لو يقفز داخله ويطرد روحه ويتمدد في أعضائه - ليتزوج . يصفو لحظة .. وفي لقطة مبهرة يصوره محمد ناجي .. والصورة تصلح لأن تكون قصة قصيرة فائقة:

« في الطريق استوقف طفلا صغيرا
تمهل الولد بين خوف ودهشة
- لا تخف .. افرد قامتك وابتسم
أخرج المشط من جيبه .
- أنت مرآتي الآن - دقيقة واحدة وتنصرف».

***

يعود للتصوير العبثي والساخر .

تسأل ويكا الأكتع : لماذا يطارد نوفل .

وتأتي أعجب إجابة : كيف آمن لرجل

لا أستطيع أن أرى أسنانه؟
يعود عباس إنساناً - يتذكر فتاة البرتقال - كان على سطح القطار - رمت برتقالة له - تأخذ الواحدة من حجرها وترمى له ، ثمار البرتقال تتدحرج ويده ممدودة .
صورة متحركة ملونة صاخبة - كان من الضرورى أن يتذكر جسده كاملا ونظرات البنت له ..
الآن يقف وحيدا على ناصية الطريق «غبار فى الأفق وحر وقمر وكلاب تلهو .. يشرب عصير القصب بالسبرتو ولا يعجبه المنظر .. يقول للقمر :
«لو كنت مكانك لعجنتها وبنيتها من جديد».

● شخصيات فى قلب المشهد

من شباكه تأمل نوفل الشرفة الواسعة فى بيت القاضى .. والمتسولة المخبولة مازالت تنادى ..
هكذا يلتقط محمد ناجى نماذجه وشخصياته .. يجمعها بطريقة غريبة ويجعلها فى قلب المشهد ويرسم لها الحركة فتجعل الصورة أشد واقعية وأكثر جمالا وتأثيرا .
مازال ينتظر المغنى فانوس - الكل ينتظر بشكل أو بآخر - وموقف الانتظار ممض وعسير .. ولكن ثمة أمل..
شخصية «فانوس» مثل شخصيات بيكيت والمسرح التجريدى عموما . هل له وجود حقيقى؟ هل سيأتى .. هل مرّ بالباب يوما .. أم يزورنا من خلال الحواديت..
- مازال الموقف كما هو .. لا أحد يأتى .. لا شىء يحدث والانتظار قائم ليعدل الكون.
وحكايات فانوس لا تنفد أبداً «جدى الأكبر كان أول من أجرى القوس على وتر - أحفاد عبد المولى وحدهم يحفظون الحكايات» .
ظهر «عبد المولى» فى الرواية الأولى «خافية قمر» و«عبد الغفار» ، «الآن أصبح من أسمائنا ونيس وسرحان وفانوس».
من هم ؟ قدماء - معاصرون - حفظة السيرة والمواويل؟
يظن نوفل أن فانوس يكذب أحياناً - لأنه يحكى على نحو مختلف محمد ناجى يتبع نفس أسلوب السرد - تتوحد النغمة الأساسية لديه .. وكل مرة بإيقاع مختلف.
ثم إنه يوجد «الخلاء» فى الروايتين .. والمرأة التى تنادى فيتبعها الرجال . والرغبة العارمة .. واللعنة فى ذروة النشوة.
«لمّا همّ بها انشقت الأرض وابتلعتها سطعت الشمس فى منتصف الليل تفتحت شرفات السماء»..
سخرية مريرة تتبع الصور العبثية تتداخل الحكايات ويرتفع السرد إلى مقام الشعر - فانوس يصر على صدق القصد وروايته لها . عليه فقط أن يفكر لا أن يتعجب - فى مهنة الرواة والمنشدين سر الأسرار «ليس المهم من يحكى .. المهم من يسمع».
فانوس نفسه له حكاية .. يحب المجنونة «مسكينة وقلبها موجوع».
والمرأة تحبه وتقول عنه «الحكيم» - ولكن من هى - هل هى أم القاضى؟.
ودائماً يبدو القمر فى الأفق .. شاهدا .. شاخصا يطل على الجميع - يفكر

فانوس:
«بالتأكيد هناك رجل في المدينة يمكن أن يسمع».
والقاضي : «لايرحم القاتل ولا الزانية» – وهذه الجملة بالذات تتردد كثيراً . تمثل الشوق إلى القصاص والعدل.

***

نوفل ينتظر أن تبرق الياقوتة في الظلام – فانوس يقول له :
«إذا حدثك قلبك طاوعه».
حكاية القاضي لا يعرفها غير فانوس – وضع بين جفنيه ياقوتة بدل عينه التي خلعها ورماها أمام الناس – من عدله أضاءت وأبصر بها ..
حكايات أخرى مرحة وموحية – لص بكى بين يديه وطلب أن يحكم بالعدل – طلب القاضي المدينة كلها للشهادة ..
«أطلق اللص وسجن المدينة كلها».
نوفل يفكر – المدينة كلها؟
مازال يسأل وتتلقى معه إجابات فانوس محيرة .. غامضة ساخرة .
– وتقال بجدية شديدة – وتضيف إليها الأجيال وتقصها على نحو مختلف .
يدا الوالي ضاعت إثر هزيمة محزنة وواقعة خيانة .
وأرجل عباس في الحرب.
ويد نوفل من الرعشة والهم والقهر.
هل نكمل كل قصته الأخرى – هل تظل تدور على هذا النحو .. وهل تستعمل كقطع غيار ووقائع بديلة لنمو وتطور «الحدث» لكل الحكايات؟

***

طابور الكلاب «المشهد المألوف في نهاية كل ليلة».
تذكر عباس بكلاب الصحراء التي أكلت أعضاءه .. نوفل يتحول إلى كلب بينهم ..
ومع القبح العاري على وجه الطريق – يتطلع إلى القمر وتبدو صورة مناقضة.
«القمر يغطس خلف البيوت كأنه طلقة مضيئة .
ولكي يحتفظ بالحالة «معلقة» بين الأرض والسماء يقول إنها – طلقة إنذار – يطلع الصباح وتبرز كل أدوات الاقتتال .
المرأة المدرعة – والرجال الهاونات – والطائرات – والعربة المقصوفة يبث راديو ويكا – لحن الصباح .
ويأتي لحن الختام .
المشهد الأخير في الرواية – التاسع عشر – نفس بداية النغمة الأولى للحمة كل الأطراف الكراهية تشتعل على الرصيف استدار نوفل ليرى اللافتة – ربما ليكتسب بها بعض قوة عباس يستعد لتمرينه الصباحي.
كأنما رأى نوفل الجارية تبحث عنه .. هل عرفت؟والخطر يقترب «ضربت الرعشة كل البدن» – هجم عليه الأكتع – كانت ومضة ..
هل هي الياقوتة ؟ عين القاضي يحكم بالعدل.
انفرط على الأرض «عين جاحظة ونقطة دم على زاوية الفم» وشحب لون الأكتع.

في ذكرى د. طه حسين

الحب والتحدي

بقلم : مها محمود صالح

هذا كتاب صدر وقرأناه منذ سنوات، لكنه كقطعة الفن اليدوي ، يمر عليها الزمان فلا تفقد جمالها وقوة تأثيرها، ليس فقط لدقة صنعها ، وإنما أيضا لروح الإنسان الفنان التي تسري خلالها ولا تموت .

إنه كتاب «معك» ★ الذي كتبته الفرنسية سوزان عن زوجها عميد الأدب العربي د. طه حسين .

تمر السنون على الكتاب فلا يفقد جماله وتميزه اللذين يستمدهما ، في رأيي، من خصوبة وثراء الحياة التي يستعرضها ! حياة ذلك الشاب القروي المكفوف الذي ركب الباخرة إلى فرنسا متعثرا في قفطانه الأزهري عام ١٩١٤ ثم عاد عام ١٩١٩ مستندا على ذراع زوجته الفرنسية بعد أن حصل خلال تلك السنوات على الليسانس ١٩١٧ ثم الدكتوراه ١٩١٨ ودبلوم الدراسات العليا ١٩١٩ ، فضلا عن زواجه وإنجابه ابنته أمينة ١٩١٨

رحلة حنان

ولكي نكون أكثر دقة فإن الكتاب يستعرض رحلة الحنان التي بدأها طه حسين وسوزان عندما التقيا لأول مرة في مايو ١٩١٥ ولم تنته أبدا ! حتى بعد رحيل طه حسين عن العالم بهدوء في أكتوبر ١٩٧٣ ، ورحيل سوزان بعد ذلك بسنوات .

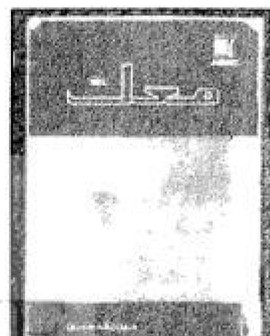
كانت بداية الرحلة عندما طرقت الفرنسية الشابة «سوزان»، على استحياء، باب غرفة الطالب المصري المكفوف طه حسين في مدينة «مونبلييه» الفرنسية . وذلك بغرض تنظيم لقاءات يومية تقرأ له فيها كتبا في الأدب والفلسفة والتاريخ .

وفتحت القراءة للشابين باب الصداقة ثم انتقلا من الصداقة إلى الحب يحكي طه حسين عن ذلك التحول فيقول : «لقد كنت أسمع صوتها وهي تقرأ لي وتتحدث





سوزان طه حسين



إلى فأشغل بهذا الصوت عما كان يحمل إلى من الألفاظ ، وعما كانت تدل عليه هذه الألفاظ من معان ، ولو أن سائلا سألنى فى وقت من هذه الأوقات عما سمعت أو عما وعيت لما استطعت أن

أجيب إلا بأنى سمعت أجمل الموسيقى وأعذبها ، ولو أن سائلا سألنى عما وعيته من هذه الموسيقى الجميلة العذبة لما استطعت أن أجيب إلا بأنى أحب مصدرها.. كنت أسأل نفسى وأجيب نفسى ، وأغتبط بما كنت أجد من سعادة، ولا أحفل بما كنت أضيع من وقت ودرس».

يبدو مفهوما أن يقع طه حسين فى غرام صديقته التى تسللت بصوتها الرقيق عبر جدران عزلته ، التى فرضتها عليه آفة العمى التى أصابته ، والتى زاد منها - أى عزلته - إصراره على تجنب المواقف التى قد تثير إشفاق الناس عليه أو سخريتهم منه . ثم إنها عاملته باحترام ورقة ، بعد أن عانى من المعاملة السيئة التى تعرض لها معظم الوقت ، والتى كانت تتراوح بين التجاهل والإشفاق والغلظة . أما الغريب بل والمدهش هو أن تقبل سوزان الزواج منه !

لم يكن طه حسين عندئذ فقط غريبا وأعمى ، كما قال فى مقدمة رسالته للدكتوراه ، وإنما كان أيضا مسلما بل أزهريا ، وكانت هى كاثوليكية متدينة .. ولم يكن فى حياته حينئذ ما يغرى مثلها بالارتباط به !



فلا ثروة.. ولا شهرة .. ولا مكانة علمية .. بعد !

هو الحب إذن الذى ربط بينهما برباط لم ينقطع .

ومنذ ذلك الحين أصبحت سوزان له ، على حد تعبير الأديب الكبير ، «نورا بعد ظلمة ، وأنسا بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس» لقد أصبحت عينه التى يرى بها ، تصف له الأشياء والطبيعة والناس فكأنما يراهم بعينيه .. ما هو يقول لها فى إحدى رسائله : «بدونك أشعر أنى أعمى حقا ، أما وأنا معك ، فإننى أتوصل إلى الشعور بكل شيء ، وإلى أن أمتزج بكل الأشياء التى تحيط بى» ، واعتادت سوزان أن ترافق زوجها دائما .. تلقى عنه محاضرة .. أو تجلس بجواره فى مأدبة .. أو ترقبه من بعيد وتهرع إليه إذ يتركه الآخرون فجأة وسط الجمع .

أجمل ما يمنحه الرجل !

ولم يكن ما منحه طه حسين لزوجته

أقل مما منحته إياه ، لقد منحها أعظم هبة يمكن أن يبذلها القلب الإنساني وهى الحب . وما أجمل تعريفه للحب إذ يقول لها : «لم أكن أعتقد على الإطلاق بقدرتى على مثل هذا الحب . وستبقى دوما فى أعماق نفوسنا زاوية كانت ، وستبقى دوما وحشية ، ولن يمكن تقاسمها إلا بين كائنين ، كائنين فقط ، أو أنها لن تقتسم على الإطلاق ، هذه الزاوية الوحشية المتوحدة هى أفضل مافينا » لكن ذلك كله لا ينفى أن حياة طه وسوزان عرفت الخلافات الزوجية . تصف سوزان إحدى النوبات السوداء المخيفة التى كانت تنتاب زوجها أحيانا فتقول : «كان إذ ذاك يحبس نفسه وراء صمت شرس مخيف ، كما لو أنه سقط فى أعماق حفرة لا يستطيع أى شىء على الإطلاق أن ينتزعه منها» .

ولأن كلا منهما كان حينذاك متباعدا .. عنيدا .. قاسيا ، فقد آذى كل منهما الآخر بكلماته . لكن نهر الحب لا يتوقف عن الجريان ! إنه يكتب لها : «أظن أننى سأظل كما أنا بعد كل شىء من أجلك وبفضلك . أسألك الغفران بإخلاص عن كل ما سببته لك من أذى. لكن لا تتألمى لوحدك ، فأنا مازلت قادرا على التألم معك، لأننى لست بعيداً عنك ..» .

حياتهما فى مصر

ونجحت سوزان إلى حد كبير فى التكيف مع حياتها الجديدة ، صحيح أنها لم تكن سعيدة دوما فى مصر ، لكنها تقول :

«لقد غدت مصر بالنسبة لى ولأكثر من سبب وطنا ثانيا ، أحبها كما أحبها طه ، ولست أحتمل أن يراد بها شر أو أن يتجاهلها العالم» . وقد ساعدها على التكيف الحفاوة التى استقبلت بها من حمويها وأصدقاء زوجها . أما والد طه فهو يصحبها بمجرد وصولها فى جولة بالبلدة دون أن يلتفت لغرابة منظرهما وهو الشيخ المعمم وهى الفرنسية السافرة مرتدية القبعة !

أما الحماة فإنها تسأل – وهى المسلمة المتدينة – عن أى نوع من النبيذ يجب شراؤه من أجل سوزان ؟ وتتردد عبر صفحات الكتاب أسماء أصدقاء كان لهم دور مهم فى حياة الزوجين طه وسوزان ، من هؤلاء آل عبد الرازق وهم حسن ومصطفى وعلى عبدالرازق وأحمد لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى ومحمود خليل والشاعران حافظ إبراهيم وخليل مطران ، ثم أصدقاؤه الزناتى وضيف والمرصفى وغير هؤلاء أصدقاء آخرون ترد أسماؤهم بكثرة تربك القارىء أحيانا ، لكنها تشى بالحياة الثرية التى عرفتها تلك الأسرة الصغيرة .

وكان هناك أيضا أولئك الذين لم يكونوا أصدقاء بالمعنى الحرفى للكلمة ، لكنهم فى لحظات قليلة أو كلمات بسيطة منحوه دفء صداقات العالم كله ! من

هؤلاء مثلا عدة أشخاص عرض كل منهم أن يتنازل عن إحدى عينيه لطه حسين ، ومنهم أيضا طلبته الذين جاءوا إليه عندما منع من التدريس بالجامعة ١٩٣٢ وقالوا له : «أنت معلمنا فلا تتخل عنا» فخصص للقائهم الجمعة من كل أسبوع . وعندما عاد إلى كرسيه في الجامعة ١٩٣٤ حمله أولئك الطلبة منتصرين في ساحة الجامعة .

ولكن هل تأثر طه حسين في كتاباته وأفكاره بزوجته الفرنسية المسيحية ؟ هل صحيح أنها - كما دأب على القول بعض مهاجميه - كانت وراء ميله للثقافة الفرنسية ومحاولاته التقريب بين الشرق والغرب ؟

لا أظنني أقف موقف المدافع عن الأديب الكبير ، لكنه يبدو لي أن في ذلك التصور جهلا أو تجاهلا لطبيعة طه حسين الشخصية .

التحدي مفتاح مهم وأساسي من مفاتيح شخصية العميد .

فبجانب التحدي الأكبر الذي لازمه طوال حياته وهو تحدي العمى ، كانت حياته سلسلة متتابعة من التحديات التي بدأها ، حتى قبل سفره إلى باريس وراء الدكتوراه .



لقد اختلف في الرأي مع شيوخه في الأزهر متحديا نمط التفكير السائد حتى وصل إلى اقتناع أن الأزهر لم يعد يشبع أغراضه فتركه والتحق بالجامعة المصرية وفي عام ١٩١٤ نال الدكتوراه عن رسالته عن أبي العلاء المعري ، وقد استثارت تلك الدراسة انتقاد ، بل سب وتجريح أولئك الذين استفزهم خروج طه حسين عن المألوف في ذلك النوع من الدراسات الأدبية .

وما كان سفره إلى باريس لإكمال دراسته ، على ضعفه في اللغة الفرنسية ، إلا تحديا آخر ، خاصة أن ظروفه الصحية لم تكن تساعده على تحسين مستواه ، على الأقل ليس بالسرعة المطلوبة . تنقل عنه د. سهير القلماوي قوله : «أنا لا أحب الطرق القصار ولا الأبواب الواسعة ، بل أحب الطرق الطويلة والأبواب الضيقة» . لقد كان على حد قول تلميذته : «يأخذ نفسه بالشدة ويستسهل الصعب ويناطح المستحيل» .

هذه الطبيعة تكفى وحدها لتفسير تبنيه – فى مواقف وموضوعات عدة – وجهات نظر تخالف الأفكار السائدة وتتمرد على الأوضاع القائمة . وهى ، أى طبيعته المتحدية ، من ناحية أخرى تجعل من الصعب تصوره مستسلما على طول الخط لتأثير زوجته على أفكاره ! هذا كله بالطبع لا ينفى تأثير سوزان على ذوقه وتذوقه لما حوله . لقد كانت – كما قلنا – عينه التى يرى بها ، ويتعرف على مظاهر الطبيعة المختلفة وأشكال الأشياء ، بل ويتذوق الفنون المختلفة .

هل بالغت ؟!

ولكن .. هل قدمت سوزان وصفا حقيقيا لحياتهما ؟ ألا يمكن أنها ، وهى تنشر تفاصيل تخص حياتها الزوجية – تتعمد أن تؤكد على كل ما هو جميل وإيجابى وتتجاهل أو على الأقل تتناول بشىء من التعتيم أى جانب سلبى فى علاقتهما ؟

هو بالطبع احتمال وارد ، لكننا لا نظن الأمر تعدى بعض المبالغة المقبولة ، فقد كان ما ترويه سوزان يتردد صداه بشكل عام ، وأحيانا بالتفصيل ، فى كتب أخرى عن طه حسين ، منها :

«شعاع من طه حسين» لثروت أباظة ، و«ذكرى طه حسين» لـ د. سهير القلماوى ، و«مع طه حسين» لسامى الكيالى .

وفى كل الأحوال فإن الكتاب يقدم خبرة إنسانية جميلة اختلط فيها الحزن بالفرح . والألم بالأمل . وضعف الجسد بقوة الروح، ونتج عنها ، ليس فقط ذلك الكتاب الذى نحن بصدده ، وإنما ، وهو الأهم ، ما يزيد على أربعين عملا ما بين ترجمة وتحقيق وإبداع أدبى قدمها طه حسين للثقافة العربية ، بالاضافة إلى التدريس الجامعى ، والكتابة فى الصحف ، وتولى الوزارة . ثم قبل ذلك وبعده العديد من المحن السياسية والفكرية والصحية التى تعرض لها طه حسين وتخطاها . وهل كان كل ذلك ممكنا ، خاصة وهو يعانى فقدان البصر ، إلا بوجود قلب محب يؤازره ويد حانية ترافقه ، تلك اليد التى كتب يقول لصاحبتها : «ولما كنا متحابين ، فإننا سوف نسير من جديد ، أقوياء بهذا الحب نحو المستقبل الذى ربما سيشبه الماضى ، أو لعله سيكون أفضل منه ، أو ربما سيكون أسوأ منه ، ولكن ما همنا ؟ سوزان ، لنتابع المسير ، أعطنى يدك » .

---

* «معك» : كتبته بالفرنسية سوزان طه حسين . وترجمه إلى العربية بدر الدين عرودكى ، وراجع الترجمة محمود أمين العالم وأصدرته دار المعارف .

عالم جورجى آمادو

رائحة الكاكاو تهب من ناحية البحر

بقلم : محمود قاسم



تصدر هذا الشهر روايات الهلال ترجمة لأحد الأعمال المهمة للروائي البرازيلي جورجي آمادو ، وهى رواية «بحر ميت» ، وآمادو أحد المرشحين لنيل جائزة نوبل فى الأدب هذا العام.

ونصاحب القاريء للتعرف علي عالم آمادو أحد أهم أدباء القرن العشرين .

هذا العام ستمنح جائزة نوبل لروائي، فالدور الآن على الروائيين .

وهناك أربعة أدباء كبار ، لو خرجت الجائزة عنهم ، فإن أكاديمية استكهولم ستفقد الكثير من أهميتها . لأن الأدباء المتميزين يعطون للجائزة قيمتها مثلما تفعل الجائزة بالحاصلين عليها .

هؤلاء الأربعة الذين هم فى الصدارة لدى المثقف العالمي والعربي : جونتر جراس الألماني واسماعيل قدري الالباني، وميلان كونديرا التشيكي ، والبرازيلي جورجي آمادو . أكبرهم سنا ، وأكثرهم عطاء . ولعله أهمهم فى ابداعه .

ونحن لا نكتب اليوم عن آمادو باعتباره الكاتب الأكثر أهلية لنوبل فى كل عام ، وليس أيضا لأن روايات الهلال تصدر له هذا الشهر روايته «بحر ميت»، وهو الكاتب الذى لم يترجم من قبل فى مصر، وإن كان القراء العرب قد قرأوه مترجما إلى لغتهم فى طبعات صدرت بالمغرب ولبنان .

لكن الكتابة اليوم عن آمادو بسبب ذلك النجاح الهائل الذى حققته سيرته الذاتية التي صدرت منذ عدة أشهر ، ولاقت نجاحا هائلا فى طبعتها الفرنسية عندما صدرت بعنوان «إبحار الملاح» فى يوليو الماضي .

ومن عنوان السيرة الذاتية للكاتب ، وبقراءة الكثير من أعماله التي تدور غالبيتها على ساحل باهيا ، يمكننا اعتبار أن آمادو هو أهم من كتبوا عن البحر فى القرن العشرين ، بعد البريطاني جوزيف كونراد ، إنه بحر مجنون ، متمرد ، ملىء، بالقسوة ، والحنين ، يئوي اليه الاشرار ، والعشاق، ويشهد مولد البشر ، ويقوم بدفن وابتلاع الكثيرين ممن يركبونه. والعلاقة بين الناس والبحر تختلف تماما عن كل العلاقات الموجودة في ابداع ملفيل ، وكونراد ، وصالح مرسي ، وبيتر بنشلي، وحنا مينا .

آمادو من الكتاب البارزين الذين ارتبطوا دوما بالمكان الذى ولدوا فيه وعاشوا سنوات حياتهم ، لم يشاءوا أن

يبرحوه الى مكان آخر . وقد ظلت مياه بحر باهيا ، ورمالها التي ولد بها الكاتب عام ١٩١٢ بمثابة المنبع الذي نهل منه أمادو دوما . وقد راح يعبر عن الحياة والناس هناك منذ روايته الأولى « بلاد الكرنفال» عام ١٩٣٢ ، وحتى كتابه الأخير. ونحن هنا لسنا بصدد تتبع سيرته الحياتية أو التعريف برواياته ، قدر ما يهمنا قراءة كتابه الأخير هذا ، ولكن من المهم الاشارة إلى بعض محطات الكاتب ، فرغم روعة رواياته الأولى ومنها «بحر ميت» الصادرة عام ١٩٣٦ . فإن روايته «جابريلا» هي التي لفتت اليه الانظار ، وقيل إن الكاتب قد صنع ما يسمى بالوثائقية الطبيعية ، وبالواقعية الجديدة .

أنا ضد كافكا .. وبروست

في عام ١٩٣٥ كان أمادو قد نشر أول رواية من سلسلة اعماله عن باهيا بعنوان «جوبيابا» وذلك تحت اسم «باهيا كل القديسين» وكانت رواية «بحر ميت» بمثابة العمل الثاني في هذه السلسلة والتي كتبها اثناء منفاه في بيونس أيريس ، ورغم أن المؤلف قد كتبها عام ١٩٣٦ ، فإنه لم ينشرها سوى في بداية الأربعينات وفي هذا العام أيضا قدم «فرسان الرمل» حول الغلمان الضائعين في باهيا ، والذين يشكلون خطراً عليها . ثم قدم «لويز كارلوس ، فارس الأمل» . وهي كلها اعمال كفيلة أن تصنع المجد لصاحبها .

أما روايته «جابريلا» ١٩٥٨ فقد كانت بمثابة الشمس الوضاحة التي أعطته مايستحق من تقدير ، وتتابعت أعماله ومنها «دونا فلور» و«دروب الحرية السفلية» و«طفل الكاكاو» و«توكايا الكبير وكيف اكتشف الاتراك أمريكا» .. والجدير بالذكر أن للعرب والاتراك مكانة بارزة في روايات أمادو . ويتضح ذلك في الفصول الأخيرة من رواية «بحر ميت» .

يقول أمادو في سيرته الذاتية .

«الوحدة ليست هي مناخي الخاص . فأنا رجل دنيوي ، أحب أن أعيش ، وأن أكون مع الناس ، أضحك وأثرثر ، وأكون في أحسن حالاتي وأنا في حالة اتصال» .

وقد علقت زوجته الأديبة زيليا جاتا على هذا الأمر في نفس الكتاب قائلة :

«لايشعر جورجي انه على أحسن مايكون إلا عندما ينشغل بالعمل وهو في الصالة الرئيسية ، فهو هناك أفضل حالا ، يجلس في قاعة الطعام (ولم لا) كي يشغل المائدة، ويضع عليها آلته الكاتبة وأوراقه ويبدأ في الكتابة» .

ويرى أمادو ان الكثير من كتاب عصره المتميزين قد انفصلوا عن العالم ، وكتبوا من وراء الجدران مثل كافكا



جورج أمادو مع الممثل آلان ديلون

وبروست، أما هو فقد آثر أن يشارك فى الحياة نفسها ، وأن يرتبط بالناس ، لذا فإن أبطال رواياته هم من الذين عاش بينهم . ولم يكن آمادو بمثابة ساكن برج العاج ، ولا الغرف المليئة بالسجاد ، ويعترف الكاتب ان كل الشخصيات التى عرفها القراء وجدت اساسا فى الواقع مثل «دونافلور» التى تزوجت رجلين فى نفس الوقت .

وقد جاء الكتاب غريبا ، فهو يضم قسما كتبه المؤلف عن ذاته ، وسيرته ، وقامت الزوجة بالتعليق على كتابات زوجها باعتبارها كاتبة ، وشريكة حياة طويلة الأمد ، فهى تتحدث عن مرحلة التحول إلى النضال ، وانتهاج الشيوعية فى حياة زوجها ابتداء من عام ١٩٤٦ ، وقد ارتبط هذا بإيمان الكاتب بالحرية ، والإيمان بالبرازيل لكن آمادو سرعان ما تنبه أن الشيوعيين أنفسهم قد أساءوا التعامل مع أيديولوجيتهم ، فتصدى للمحاكمات التى سادت أوروبا الشرقية ، وتم فيها قهر المعارضين على اختلاف مشاربهم .

وقد كانت هذه هى المرحلة المهمة من حياة الكاتب . حيث اكتشف كم هو

مخدوع ، وإن الثورة الموعودة قد أصبحت قناعا للديكتاتورية ، وقد ظل أمادو عضواً في الحزب الشيوعي رغم كل هذا التحول لأنه كان يرى أن في ذلك وفاء للناس وللشعب . وتعاطفا مع ملايين الموجودين في البرازيل .

أكتب لزوجتي .. وهي تكتب لي

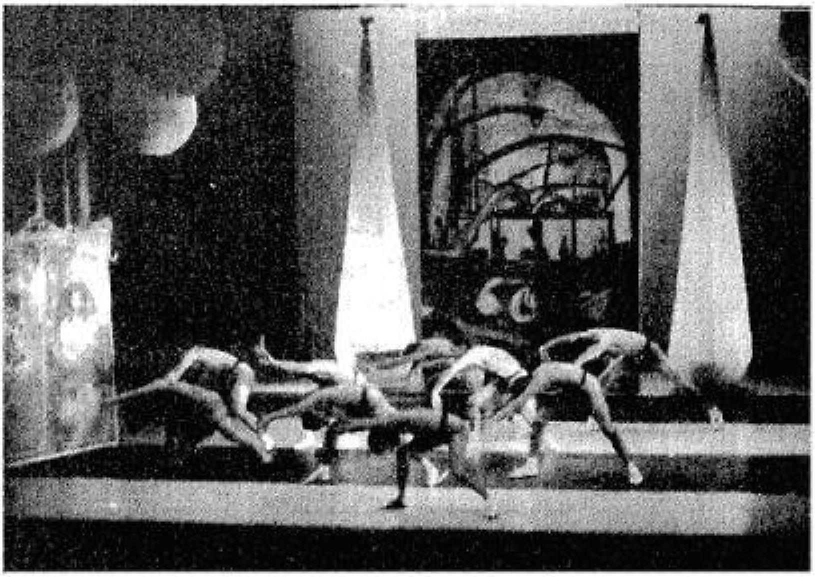
ويقول أمادو إنه قد سار على نهج مكسيم جوركي ، فبسذاجته يواجه تعقيدات الآخرين، وبعداله يتصدى للظلم، ولكن السؤال هو : هل يمكن لكل الآخرين أن يتفهموا معنى الصفاء الذي يتمتع به الكاتب . وقد ظلت شخصية الثوري تتماوج في داخله . وتدفعه إلى الكتابة عن المقهورين من ابناء باهيا ، ليس القهر هنا سياسيا ، ولكن حياتيا فهؤلاء البسطاء يطلبون القليل من الدنيا ، ويرتضون بما قسم لهم . ولذا فإنهم لايحلمون حتى بالخروج عن دائرة المقاطعة ، لأن العالم في منظورهم يقف هناك ، قد يأتي آخرون من عوالم أخرى إلى باهيا للاقامة بها ، باعتبارها منطقة جذب، مثلما حدث للعري في رواية «بحرميت» وفي كتابه «كيف اكتشف الأتراك أمريكا» ..

اعترف أمادو في مذكراته بتأثير كتاب بأعينهم عليه ، ورفضه لكتاب آخرين، فاذا كان قد سخر من الحياة التي عاشها كل من بروست وكافكا ، فإنه معجب بالكاتب البرازيلي جيلبرتو فريير صاحب رواية «سادة وعبيده» ويقول الروائي الفرنسي دومنيك فرنانديز في مقاله عن أمادو – ١١ يوليو ١٩٩٦ في مجلة لونوفيل أوبسرفاتور. إن جورجي لم يكتب سيرته الذاتية ، بقد ما سرد سيرة سياسية لبلاده ليكشف الأوجه الإباحية ، والحسية ، والألوان المتباينة للناس والطبيعة في البرازيل، وخاصة باهيا التي تنام في أحضان البحر . انها أرض الكاكاو كما أطلق عليها أمادو في عنوان احدى رواياته. ويرى فرنانديز انه من النادر ، أن نرى في عصرنا الحديث كاتبا له نفس قامة ديكنز و بلزاك ، وأن أمادو قد ارتفع إلى نفس القامة – من الواضح أن فرنانديز لم يقرأ نجيب محفوظ – فكل هؤلاء عاشوا مع أبطالهم في أماكن ضيقة، لكن هذا لم يمنعهم من الرحيل عبر شخصياتهم إلى أطراف العالم .

وفي سيرته يقف أمادو عند الذين اعلنوا عليه الخصومة : « أما هؤلاء الذين لم تفتهم أي فرصة لمهاجمتي ، والذين تجاهلوا قيمة ما بكتبي فإنني أقول إن لا أحداً منهم لم يستطع أن يصل إلى المعنى الحقيقي لحدود كتاباتي . فأنا كاتب مليء بالوعي ، ولم أترك الشهرة تفسدني

وأحس أن الشخصيات التي ابتدعتها هي أيضا مثل نفخة في حياة الشعب البرازيلي، قد تطير مع الريح، فأنا لست مغروراً، ولا مدعياً. ولكنني مليء، بالكبرياء».

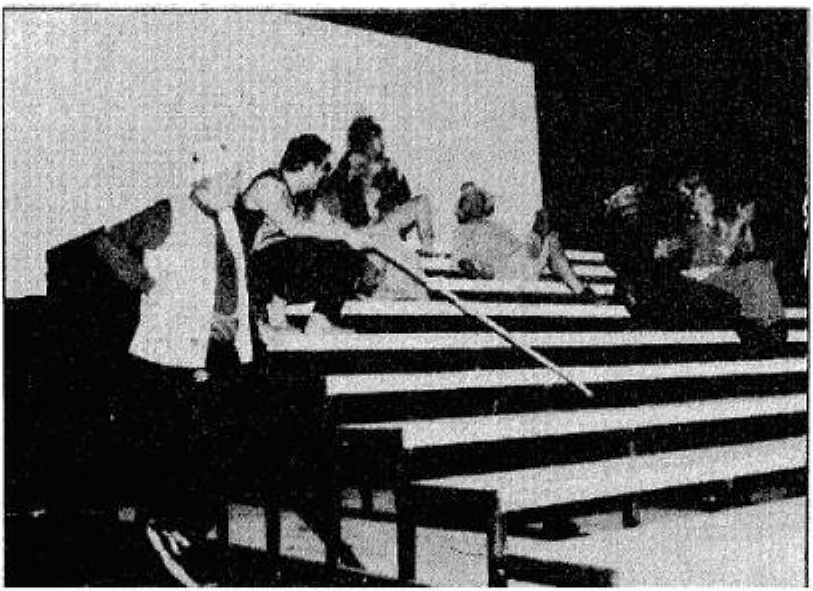
وأهم مافي هذا الكتاب أنه قد أعاد إلى الأذهان الثنائي الذي تكون بين سيمون دي بو فوار وجان بول سارتر، وأيضاً بين الكاتب الايطالي البرتو مورافيا والسامورانته، قبل أن ينفصلا، فالعلاقة الحميمة بين أمادو وزيليا جاتاي تجعل القاريء يحس وكأن كلا منهما يكتب للآخر، وكأن لا حدود منفصلة بين أسلوبيهما، ولا بين أفكارهما. فهي تكتب عنه قائلة: «بعد سنوات عديدة من التواصل عاد جورجي إلى الكتابة مع جابريللا التي سببت له المزيد والمزيد من البهجة. وترجمت نوصوصها إلى اللغة الانجليزية، وكان الكتاب على قمة المبيعات في الولايات المتحدة، وتجولت الرواية في كل شوارع باريس، تتكلم الفرنسية. لقد منحته هذه الرواية منزلا في باهيا، ثم جاءت بعد ذلك روايته «البحارة العواجيز» التي اكدت على مايملكه المبدع من حق الحلم، ومالديه من بذور روائية مغروسة في رأسه. لقد ترك أمادو نفسه دوما لنوم عميق كي يمنح نفسه أكبر قدر من الأحلام».



التجريبي الثامن وتصحيح المسار

بقلم : مهدى الحسينى

لا يخفي علي أحد أن المهرجان في دوراته الثلاث الأخيرة خاصة ، يقل مستواه دورة بعد أخري ، ولا ينكر أحد إستياء أغلبية واسعة من المهتمين بالحركة المسرحية المصرية من سوء أغلب العروض، وإرتباك البرامج سيما في دورته الثامنة الأخيرة ، وانصراف قطاع من الجمهور من حوله ، وهذه أمور تدعو للأسف لا الشماتة ، حيث أن المهرجان قد فرض نفسه كموسم ثقافي فني ينتظره المثقفون والمخالفون سواء من عام لعام ، كما أخذ بعدا دوليا لا بأس به بغض النظر عن أهمية الفرق المشاركة .



إلا أن المهرجان ـ رغم كل مافيه ـ قد حقق انجازات فنية وثقافية نوجزها فيمايلي :

١ ـ ساهم في تطور الحركة النقدية المسرحية كي تنتقل من النقد الأدبي إلى النقد الفني ، فلم يعد الناقد مكتفيا بقراءة «النص» ومشاهدة «العرض» وإنما سعى كي يغمس أدواته النقدية في فنون العرض المختلفة ووسائله السمعية والبصرية ، وينتقل من النص «إن وجد» إلى كواليس العرض وبروفاته ، فاحصا جهود المخرج وأدواته وتصميمات هيئة الفنانين المساعدين من مصممين للمنظر، والزى والاكسسوار، والضوء ، وللحركة التعبيرية أو الايقاعية، وواضع الموسيقى تاليفا أو صياغة أو اعدادا ، وممثلين وراقصين ، بل مضى الناقد متخيلا نفسه عنصرا من عناصر العرض فيحدد موقفه منه سلبا أو إيجابا ثم يحشر نفسه بين الجمهور ليفسر ردود أفعال المشاهدين وانفعالاتهم وآراءهم، محاولا القبض على العلاقة غير المرئية ـ والملموسة ـ بين الإبداع وبين التلقى ، وهكذا أصبح النقد جزءا ، لايتجزأ من مكونات العرض .

٢ ـ فتح الأذهان علي أهمية فن الممثل المدرب جيدا ، والقادر على التعبير المتنوع بالغناء والرقص والعزف والتمثيل واستخدام الزى والاكسسوار وتوظيف مختلف أدواته الصوتية والجسدية في خلق حالة مسرحية تتميز بالثراء والمتعة الفنية .

٣ ـ قدم علي مدى دوراته الثمانية

عروضا مسرحية من مختلف قارات العالم عدا استراليا ، منها أعمال بارزة مثل «جلسة سرية» من المانيا ، و «دون جوان» من بلغاريا و«المعطف والميديفال والمهرج وياهذا إن الموت قد مات» من رومانيا و«منبوذ مثل طفل حالم ميت ومعمار الليل» من اليابان، و«اليد اليسرى وعطيل في الحرب الفيدرالية» من فنزويلا ، «حلم ليلة صيف وتورول» من المجر، و«لاكشاباتي والقفص البشرى» من الهند و«في انتظار جوبو والملك يخرج» من مولدافا و«روميو وجوليتا» من ايطاليا ، «والدب» من سوريا و«المجداف والزهرة» من التشيك ، و«بحارة الزمن» من النمسا ، و«بانتو ميما» من رومانيا و«الرجل ١/٨ مللي» من سويسرا ، ومع ذلك فإنها أعمال قليلة إذا قيست على الكم الهائل من العروض فى الدورات الثمانية ، إذ تزيد على ٤٠٠ عرض فضلا عن غياب الفرق التجريبية الأكبر التى نقرأ ونسمع عنها ولانراها التى عدم حضورها يظل عنوان المهرجان موضع شك وتساؤل .

٤ ـ استقدم المهرجان عددا من المثقفين المسرحيين من مختلف أنحاء العالم ليشارك فى ندوات المهرجان وفى لجان التحكيم به ، هذا ولم يحدث تعريف الجمهور المسرحى المصرى بأى من هؤلاء، وماهى حيثيات المشاركة فليس من المفترض أن يكون المثقف المسرحى المصرى والعربى علي علم واف بكل أعلام الحركة المسرحية في مختلف بلدان العالم، بل هذه فرصة متاحة للتثقيف والتعريف، وإن كان هذا الأمر قد حدث باقتضاب بالنسبة الى لجنة التحكيم ولأول مرة هذا العام .

٥ ـ قدم للحركة المسرحية اصدارات مترجمة مهمة عن حركة المسرح فى العالم، تنظيرا وتأليفا ونقدا وتوصيفا ، وقد استجابت ادارة المهرجان لمطلبنا بالهلال فطبعت هذه الاصدارات طبعة شعبية ونشرتها .

إذن لقد خلق المهرجان باستمراريته ، وباستجابته البطيئة والجزئية للنقد حالة مسرحية وثقافية نرجو أن تتطور بالتفاعل مع النقد ومع ضرورات ملحة لتطور الحركة المسرحية المصرية .

أسباب الضعف

١ ـ يبدو أن اعتماد إدارة المهرجان على التبادل الثقافى الخارجي ، واستبدال اختيار العروض عن طريق المشاهدة المباشرة بواسطة مندوبين متخصصين ، بمشاهدة أشرطة الفيديو وفحص ملفات الفرق والعروض ، قد قلل فرصة مصر وقدرتها علي الاختيار الدقيق والمجدى وأيضا ـ كما سبق لوزير الثقافة أن أشار ـ أن هناك ضرورة لتعديل ميعاد المهرجان كي يتوافق مع حضور الفرق التجريبية الأكبر والأهم ، مع التنبيه ـ بل والتحذير ـ

بأن فتح الباب علي مصراعيه للمشاركة في هذا المهرجان دون مواصفات فنية وثقافية سوف يهدر سمعته وقيمته بين كبار المسرحيين علي مستوى العالم فينظر اليه علي أنه مهرجان لكل من هب ودب أو تجمع دولي للهواه ، أو محاولة من محاولات بلدان العالم الثالث ، أو مجرد نزهة شبه مجانية لزيارة الأهرامات !!

إن فرقا عديدة في الدورات الثلاث الأخيرة خاصة الثامنة قد حضرت ولم تعرض أو تقاعست عن الحضور أو حضرت بعد الموعد أو عرضت لليلة واحدة فقط ، وهناك فرق أخرى كانت لممثل واحد، أو لاثنين من الممثلين ، قد عرضت مهارات متراوحة المستوى ، لم تقدم موضوعات كبيرة أو قضايا مهمة أو تقنيات غير عادية مثل عرضي «مارلين مونرو» من بيلو روسيا «وإديث بياف» من لاتفيا اللذين يعكسان فقط عقدة بعض أبناء الاتحاد السوفييتي السابق تجاه النموذج الغربي ، ومثل العرض الإذاعي «امرأة عصرية» من ماليزيا والعرض اللامسرحي «ماكبث» من أوكرانيا ، والعرض الذي لا صلة له بأي فن «التعبير» من اندونيسيا ، والعرض المبتدىء «قطعة مسرحية ١٠٠» من ألمانيا .. وغير ذلك وهنا يجب ألا تغــر من جــانب زوارنا عبارات المديح ، فهي رد لبق علي كرم ضيافتنا أو خبث يقول لنا إن ابقوا مكانكم هكذا ولاتفكروا في الأفضل .

٢ ـ انفصال موضوع الندوة الرئيسية عن برامج العروض ، فبالرغم من أن أغلب مطبوعات وندوة الدورة الثامنة تدول تدور مسرح أمريكا اللاتينية ، فلم يمثلها سوى عرض واحد هزيل من البرازيل الأمر الذى يعنى غياب فكرة النسق والمشروع الفكرى المتجانس لكل دورة .

فضلا عن عدم تنظيم ندوة فنية مباشرة بعد كل عرض مع فنانيه ، بحضور مترجم فورى أو أكثر حتى تتسع الفائدة وتعمق أكثر وأكثر ، فهكذا يتطور النقد والذوق ، وهكذا يحدث التفاعل الخلاق بين فنانى العروض وبين الجمهور والنقاد .

٣ ـ عدم الحرص على اعتماد اللغة العربية لغة أساسية في مطبوعات وبامفلت العروض الأجنبية ، وعدم توافر المترجمين الفوريين والعارفين بفن المسرح والمصاحبين للفرق ، وعدم حضور مترجم إلى العربية مع كل فرقة ، الأمر الذى أدى الي محدودية الفائدة ، سواء بالنسبة للمتخصصين أو غيرهم ، فلم يوجد لدينا بعد ذلك المشاهد الذى يعرف الروسية والألمانية والهندية واليابانية والفرنسية والاسبانية .. وغيرها في آن واحد ، في حين ليس كل فنانى المسرح في العالم قد تخلوا عن لغاتهم القومية واستبدلوها بمفردات حركية سمعية بصرية يمكن تفسيرها لدي كل شعوب العالم .

٤ ـ تركيز جدول العروض علي الساعة التاسعة مساء ، بينما يسمح مناخ سبتمبر القاهرى بتقديم عروض مسرحية

ابتداء من الرابعة مساء حتى الواحدة صباحا ، مما يوفر توزيعا مرنا ومريحا لجموع العروض ، كما لاتمكن النظم الحالية أعضاء الفرق من مشاهدة عروض أغلب الفرق الأخرى ، ومن ثم مناقشتها كفرصة للتفاعل الخلاق بين مسرحيي العالم . مع ملاحظة أن أغلب دور العرض عندنا في حاجة ماسة الى الترميم وتطوير امكاناتها الفنية وزيادة عددها بما يليق بمهرجان دولى .

خطأ فادح

تقول «مارتا كوريجنى» رئيس لجنة التحكيم الدولية لهذه الدورة في تصريح لها بالعدد الثانى من النشرة الاعلامية «مسألة المعيار صعبة لأن المسرح ليس علما والمقارنة بين العروض صعبة .. عموما .. بغض النظر عن رئاستي للجنة التحكيم فأنا ضد فكرة لجان تحكيم في المهرجان» !! وبالمثل يقول المخرج المغربى «عبد الواحد عوزرى» عضو لجنة التحكيم في العدد السادس : « .ولكن في أعماق نفسى لا أخفى بأننى ضد فكرة لجنة التحكيم وضد فكرة المسابقة . وأعتقد أن لقاءات من هذا النوع ينبغى أن تبقى مفتوحة ولاتسجن في اطار جوائز لا تعبر دائما عن واقع المهرجان ذاته . فالعروض مختلفة متباينة من حيث التناول الفنى بشكل يستحيل معه تطبيق نفس المقاييس في الحكم على العروض» .

هذا وقد سبق لنا أن اعترضنا أكثر من مرة على مبدأ التحكيم ، وطالبنا باستبداله بتقليد لعله يكون جديدا وذا قيمة وأثر ، ألا وهو أن يقوم هؤلاء الأساتذة بوضع تقرير فنى نقدى يقيم العروض من حيث اتجاهاتها الرئيسية ، المشتركة والمتباينة ، وأنواعها وطابعها ، وأساليبها ، والبارز والجديد فيها ، وآثارها ، وكل مايتبع ذلك من أطروحات فكرية وجمالية هذا فيما أظن درس مطلوب وأجدى من جوائز متعسفة ونتائج زائفة واعتبارات سياسية ومجاملات اجتماعية أو شخصية .

عرضان مصريان

تعكس المشاركة المصرية سواء داخل المهرجان أو على هامشه أزمة عميقة فى المسرح المصرى ، وبغض النظر عن جائزة هنا وجائزة هناك فنحن وغيرنا من النقاد وبعض أعضاء لجنة التحكيم رفضوا مبدأ الجوائز ، فالأمر يتعلق ببنية المسرح المصرى، الدور الوظيفى لمبدعيه والمشتغلين فيه، وكيفية وجودهم فى اطاره، ومناهج تأهيلهم له ، ومصادر ابداعهم ، وفن معالجة موضوعاتهم ، وأساليب طرح رؤاهم ، وتقنية عروضهم ، كل ذلك من حرية البحث والاختيار والتعبير، وفى مناخ من المنافسة العادلة المثمرة وفى ظل حماية وطنية وأهداف قومية وآفاق إنسانية .

وبدون حركة اصلاحية شاملة لسرحنا، سيصبح مثل هذا المهرجان خطرا ضدنا ، اذ هو سلاح ذو حدين ، فسوف يقبل المستسهلون ليقلدوا تقنيات عروضه بلا وعى ، فينتزعون من أساليبه بلا أصول ، ويستعيرون من ملامحه مايشوه ملامحنا ، لينتجوا لنا أعمالا سطحية مليئة بالحركات المستعارة ، وعروضا محشوة بتقنيات مبهرة بلا معنى وهكذا تذوب الفروق المميزة لنا عن الاخرين «بينما الشعوب الأخرى تحتفظ بكل مايميزها» فينتج لنا فنا مختلطا بلا هوية.

المقابلة الأخيرة

كان هذا هو عرض افتتاح المهرجان ، وفى هذه المرة يعالج فيه مصممه ومخرجه «وليد عونى» بأسلوبه الغريب موضوعا مصريا يخصنا ونكاد نعرفه على وجه التقريب بالنسبة للبعض ، وبالتأكيد بالنسبة للبعض الآخر ، أو على الأقل نستطيع أن نتعرف عليه ، أو وهو فن «تحية حليم» الفنانة التشكيلية الكبيرة .. مرتبطا بسيرتها الذاتية فى اطار عالمها الفنى والحياة المصرية أى مصادر الهامها، فهى تحكى بصوتها الحنون «غير الواضح أحيانا والمرهق» فقرات من حياتها ، فى حين يكرر المصمم/ المخرج مفرداته الأثيرة التى سبق أن استخدمها فى موضوعات أخرى من قبل ولاعلاقة لها بتحية حليم أو فنها ، إلا تلك الصور من رسومها التى اسقطها على شاشة خلفية ، أو بعض المفردات من فتاة نوبية أو أقنعة فرعونية ، أو قطط تحلم أن يظلوا معها أصدقاءً حتى آخر لحظة من حياتها ، وهنا بدا عالم تحية حليم من خلال تلك المفردات وغيرها على هامش العرض أو اطار له أو اضافة عليه ، فهو لم يتأمل لوحاتها جيدا ولم يكتشف الصلة بينها ، ولم يعدها الى مصادرها، ولم يحللها وإنما اسقط عليها هواجسه وأفكاره وأشكاله ومفرداته التى تخصه وحده ، ولم ينقدها ، ولم يبث فيها الحياة مكثفة بلغة الرقص ، بل وضع جل اهتمامه بقلماته الذين ينتفضون منبطحين على الأرض أو مرتعشين في الهواء ، وبأشيائه المعلقة الغامضة المجهولة عديمة الأثر والمعنى ، هو قد رآها من الخارج فلم ير الانطباعية عندها ممتزجة بالحس الفطرى الإنسانى لم يدلف إلى ثقافتها البصرية المصرية الخالصة فى مفرداتها الفرعونية القبطية الإسلامية رغم أصولها الانعزالية ودراستها الأجنبية لم يستطع أن يقول لنا كيف ولماذا كانت «المصرية» هى الأقوى فى وجدان تحية حليم ، بينما لم تكن كذلك فى وجدانه وأعماله .

الطوق والأسورة

فى الستينيات كتب الراحل يحيى الطاهر عبد الله روايته القصيرة تلك ، وقد

تميز بين كتابنا حينذاك بعالمه الخاص والمجهول لكثير منا ، وعرف بنثره المتراوح بين كثافة الشعر واللغة الواقعية المختزلة والصارمة وانتقالاته القافزة الفاجعة البارعة ، وكانت قرية «الكرنك» ينبوعه الابداعي الخاص الذى لم يكن يعرفه أحد من كتاب القصة الآخرين ، ولكنه كان سوداويا ساخرا متشائما ، يكثف الأحزان والاحباط فى جانب ، بينما لايوجد فى الجانب الآخر أى شىء !! فأسرة «حزينة» يمرض عائلها طويلا ثم يموت فى غياب ابنه مصطفى الذى كان قد رحل إلى السودان ليعمل فاعلا والذى تحدي الريس عبد الظاهر ، وذهب إلى الشام وعمل وكسب وتزوج وطلق حين غدرت به زوجته وقد أمسى عقيما لاينجب ، كما لم يسفر بره بأهله وجدعنته وكفاحه وعرق جبينه عن ثمرة واحدة ، فحين عاد تكون أخته «فهيمة» قد ماتت بالحمى بعد زواج فاشل من «الحداد» العقيم أيضا والذى ينتحر حارقا نفسه بعد فشله فى زواج ثان تاركا ابنتها التي انجبتها بواسطة تلقيح صناعى قام به أحد الدجالين خلف تمثال فى معبد الكرنك !! ويضطر مصطفى أن يدفن ابنتها «نبوية» حية كى تبوح باسم حبيبها الذى نفخ بطنها ، وحين يقتلها «السعدى» ابن الحدادة عمتها ، ويحمل رأسها وهو فى حالة من الجنون ليضعها في الجردل الذى يغسل فيه مصطفى أواني الشاى والقهوة التي كان قد احترف تقديمها للزبائن بعد عودته من الشام ، ويصاب مصطفى بالشلل التام ويصل الى مايقرب الموت ، ولايبقى سوى أمه حزينة وقد عجزت عن السمع والبصر .. موت وحرق وانتحار وعقم وفشل وقسوة وظلام وجهل وعجز وحزن بلا نهاية ، هذا هو عالم الرواية ، فلماذا بقت قرية الكرنك الى اليوم ؟ ولماذا اختارها سامح مهران معدا وناصر عبد المنعم مخرجا ليتقدم بها كعرض للمهرجان التجريبى ؟.

وأغلب الظن أن المصدر الأساسى لهذا العرض هو الفيلم الذى أخرجه «خيرى بشارة» عن القصة نفسها التي اعتبرت مصدرا ثانيا ، فالانتقالات سينمائية والاختصار كان موافقا لسيناريو الفيلم واختزال الأحداث كان سينمائيا أيضا ، هذا وقد وضع العرض عالم «حزينة» وأسرتها فى مواجهة المعبد ، ويصل العالمين طريق ممتد تدور عليه بعض الأحداث وثمة أركان أخرى من المنظر المسرحي، كل هذا يجعل عناصر العرض تحيط بنا كالطوق والأسورة ، ولكن ماذا يحدث داخل هذا الاطار المتجهم ؟ من

الناحيـة الشكلية ثمة أخطاء فـادحـة ، فـواجـهـة منزل الأسـرة نوبيـة وليست أقـصـرية ولا أقـول الكرنك الذى يتـمـيـز ببيوته الطينية يتخللها «البلاليص» القديمة أو الطـوب اللبن ، وأزياء النســـــاء فـى «الملس» المنتفخ وهذه مقصورة على نساء قرى الجيـزة وبعض قـرى الشرقيـة ، أما الغناء فنوبي، وأمـــا رقص الرجـــال فصعيدى ، وأما رقص النساء فأقرب الى وسط الدلتـا ، وأمـا اللهـجـة فلم تكن صعيدية خالصة ، ولا أقول أقصرية ، فما بالكم ولهجة أبناء الكرنك المميزة ؟ وأما الخطأ الجسيم فيتضح في تغطية المسلات وجدران المعبد بالقماش الأسود!! فعلام يدل هذا ؟ أي شـؤم ؟ أرجـو ألا يشكل وجـهـة نظر مـعـادية للحضارة المصرية القديمة ، وخاصة أن الربط كان واضحا بين التمـثـال الفرعوني وواقـعـة الحمل المصطنع الذى حدث للهيبة.

سارت المسرحية نفس مسار القصة والفـيـلم من حـيـث التراكم الميلودرامي لوقـوع الكوارث ، وكـانت دقـات «الهون» النحاسي ودورة الرحاية فى مطلع العرض انذارا مميتا ، وكانت النهاية «النهايات» الفاجعة غير مبررة كما فى القصة والفيلم، ولم تفلح المناقشة التى افتعلها العرض بين مـصطفى والحـداد والشيخ فى اقناعنا بمنطقية أو درامية أو حتى عبثية ماحدث ، كـمـا لم يفلح الجـو الفلكلورى المخـتـلط والزائف في خداع كل من يعرف الشعب المصـــرى بالعين والســـمـع واللمس والرائحة .

وبعد

نرى ضـرورة تكوين هيئـة مسـتقلة دائمـة للمـهرجـان على غرار مـهرجـان القـاهرة السـينمـائى الدولى ، تأخـذ فى اعتبارها وضع مشروع فنى ثقافى متكامل لدورات المهرجان بما يعود بالأثر الايجابى على المسـرح المصـــرى ، وذلك المشـروع يتـضـمـن فـيـمـا نرى الندوات النظرية والتطبيقية «بعد العروض» والاصدارات ومندوبى اخـتـيـار العـروض .. واصـدار المطبوعات اللازمة قبل المهرجان لتهيئة الوعى المسرحى المصرى لاستقبال ملامح الدورة القادمة مبكرا ، وكذا المطبوعات التى تعقب انتهاء مباشرة لرصد الفعاليات والنتائج ، وتنظيم اللقاءات والمحاضرات مع المكرمين واعـضـاء لجنة التـحـكيم وأصحاب التجارب المهمة فى العالم وتنظيم سفر الفرق المشاركة لبعض المدن المصـرية الكبـرى ، وتوسـيـع جـمـهـور المهرجان .

إن قـيـام هيئـة مـسـتقلة ومـتـفـرغـة للمـهـرجـان طوال العـام ضـمـان لتطويره وترقيته بما يخدم نمو مسرحنا المصرى نحو الأفضل وبما يدعم حضورنا العالمى بين الأمم على أسس راسخة .

حلم النيل

شعر : سليم الرافعي

طرابلس – لبنان

إنه ينصت .. ماذا يسمع ؟ * انه يزفر .. ماذا يوجع ؟
انه يحلم فى محرابه * كبر الحلم .. وعز الطمع
حين غني الطير من أدواحه * عشق الأفق وماد البلقع
شع دينا .. راع دنيا .. همست * حوله الأطياف : ماذا تصنع ؟
هذه مصر التى يشربها * حينما تشربه أو ترضع
هذه مصر التي يملؤها * قلبه الأخضر مما يترع
هذه مصر شعاعات الصبا * تتهادى فوقه أو تلمع
هذه مصر التي قد كتبت * قصة الروح التى لاتهجع
لايصلي النيل إلا رافعا * رأسه المارد .. لا يستشفع
وعلى صومعة فينانة * وشراع .. راهب لا يركع

كان فى النيل إله . فبكى * جبروت ضاق عنه الموضع
ذكريات نبحت من قمم * وعلى السفح ثوى مستنقع
ورؤوس ما بناها هرم * تقتنق الطين بها والضفدع
أيها النيل .. لمن أنت .. على * صهوة المجد .. فدتك .. الأضلع ؟
لا تفارق دمعة حائرة * إن فى الدمع وفاء ينبع
حلم مصر أنت فى أهرامها * أم .. هو الشرق .. مداك الأوسع ؟
أم .. هو العالم يجرى فى ثرى * مصر ؟ فالأحلام فيها تزرع ..
عبقرى الأمس للجن بنى * عالم الانس .. فمنذ يبدع ؟
قطرة منك أضاءت جنة * أنها الروح .. إليها المفزع ؟
أكبر الأحلام نهر عاشق * سال جرحا عطرته الأدمع

من

الهلال

إلى

الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



ص ١٦٥



ص ١٧٠

القاهرة عاصمة ثقافية.. لماذا؟

□ يرى العالم الجليل جمال حمدان انه اذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم فالقاهرة واردة بالتأكيد فى العشرة الأولى.. فهى المدينة الأولى المطلقة فى قطاع هائل متصل من العالم القديم حتى الآن.

لمدينة مثل هذه التاريخية، والعمق الحضارى، والكثافة الانسانية، والتعدد الثقافى المترابط، والغنى بقيم الحضارات التى مرت بها منذ فجر التاريخ وحتى اليوم لمثل هذه المدينة التى تمتلك هذا الإرث.

اذن هى تمتلك شرعية أن تكون عاصمة ثقافية للعالم وليس لمنطقة الشرق الأوسط وحدها.

إن النظر إلى القاهرة على طول تاريخها وربطها بفكرة التنوير الثقافى والاشعاع الفكرى حيث قدم دورها الكثير فى تكوين وعى الأمة من خلال جامعاتها ووسائط التعبير فيها - المسرح، السينما ، الصحيفة، الكتاب، الغناء - وأيضا ثقل كونها السكانى المتعدد والمتكون تاريخيا من ثقافات وأعراق



استقرت فى هذا المكان حتى قال البعض عنها : ان تاريخ مصر ليس إلا تاريخ العاصمة.

تلك صورة بلاشك ايجابية لمدينة القاهرة التى نحلم دائما أن تكون عليها. العاصمة المركز التى تعكس كل حركة ثقافية متعددة فى المنطقة من خلال وسائلها المختلفة والتى يمكن استخدامها فيما هو ايجابى لمواجهة أشياء كثيرة سلبية. لكن ـ وبكل أسف ـ ونظرا للظروف التاريخية التى مرت بها مصر، ومرت بها القاهرة، نتيجة لأحداث كثيرة مروعة حدثت فى نصف القرن الاخير، وفى ظروف التغير ذلك يحدث وبشكل سلبى كل يوم مما حدا بالقاهرة أن يتغير دورها الحقيقى.

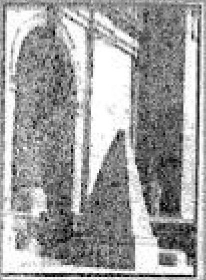
لقد قرأنا ما قاله وزير الثقافة والمشتغلون معه من أنهم يزمعون إقامة احتفالية هائلة حول دور القاهرة فى الثقافة العالمية، وفى الفكر، وفى الفن، باعتبار القاهرة رائدة ضمن عواصم التنوير، وهاهى ذى السنة ينصرم ثلثاها ولا يبقى منها سوى شهور قليلة وتنتهى سنة الفرح بالعاصمة، وفى الوقت الذى تزدحم فيه تلك المدينة بالمهرجانات المتعددة ذات الطابع السياحى من سينما وأغنية ومسرح وأزياء لا نرى أحدا يهتم



اهتماما حقيقيا بعيد القاهرة الثقافى ويحاول ابراز دورها الحضارى الحقيقى والابداعى المتعدد القسمات، تشكيل، وسينما وآثار، ورواية، وشعر، وفكر، وفنون شعبية.

ثمة اهتمام عام بالذات من الاعلام بما هو سطحى ويومى فى الوقت الذى يغيب فيه الاهتمام بعيد القاهرة، حتى يمكن أن نطلق عليها حقيقة أم الدنيا وعاصمة ثقافية للعالم.

سعيد الكفراوى



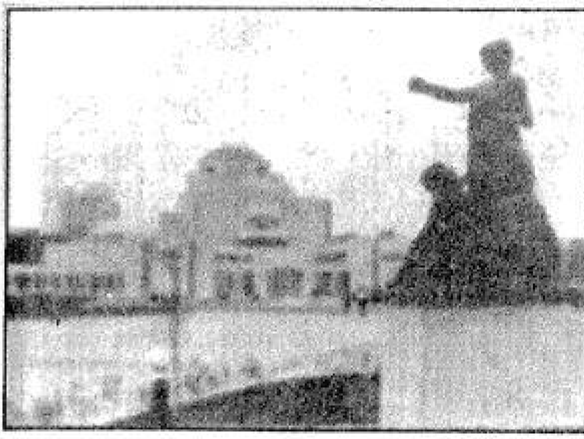


اختيار القاهرة عاصمة ثقافية .. وجريمة المثقفين

عندما اختار المثقفون العرب الشوام والمغاربة القاهرة كعاصمة ثقافية لهم، فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن الذى يودعنا، غير مأسوف علينا، لم يأت ذلك الاختيار لأن هناك قرارا سياسيا وثقافيا عربيا رسميا قد صدر بذلك .. فلم يكن العرب وقتها يملكون جامعة لدولهم، أو مجالس لتعاونهم .. كما لم يتم ذلك الاختيار لأن القاهرة قد سبقت باقى العواصم العربية، الى معرفة المطبعة والصحافة ودور العرض المسرحى، فبيروت وحلب قد عرفتا كل ذلك قبل القاهرة على أيدى المبشرين الغربيين.

ولم يكن ذلك أيضا لأن القاهرة كانت تدفع بسخاء للمبدعين والعلماء والكتاب، لأن الذين قدموا إليها لم يكن ينقص معظمهم المال، ولم تكن تتأبى على كثرتهم وسائل كسبه، وكان المثقفون جميعا، عربا ومصريين، على باب الكريم!

لقد اختار المثقفون العرب، فى ذلك الوقت، القاهرة كعاصمة لثقافتهم، لأن القاهرة – ببساطة – كانت تملك المناخ الضرورى للإبداع الحر، وللتفتح الثقافى والفكرى، وكانت

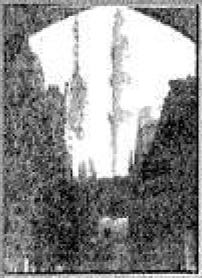


تعض بأسنانها ، أو بمعظمها ، على التقاليد النبيلة فى تراثها القديم المصرى والعربى . كانت قاهرة ، رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ويعقوب صنوع ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده، والأفغانى ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، وقاسم أمين ، وآل عبد الرازق ، واسماعيل أدهم وغيرهم !

والآن .. كيف حال الثقافة والمثقفين فى القاهرة ؟ تتسابق الدولة عبر مؤسستها القضائية والتشريعية والتنفيذية ، مع جماعات التعصب الدينى ، على اغتيال عقول وأجساد وأرواح أكثر أبنائها موهبة وابداعا .. جماعات التعصب والجهالة بالتصفيات الجسدية ، والدولة بكل مؤسساتها بالاغتيال السلمى القانونى .

لقد فتحت القاهرة نوافذها منذ أيام الراحل المؤمن ، أمام رياح السموم الفكرية، وأخرجت الأرض المصرية أثقالها، بفضل جهوده والمعجزات التى حققها ، فعرفت القاهرة تحالفا طبقيا حاكما ، لم ينجب التاريخ المصرى الحديث أكثر منه انحطاطا وعداء للثقافة والانسان ..

وانظر حولك فى حسرة وغضب - إن استطعت - الى صانعى القرار فى المؤسسات الثقافية والإعلامية ، والدينية ، لتعرف ماذا يمكن لهذه المؤسسات أن تعطى الجمهور من ثقافة:



أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكى من عواقبها اللبيب

لست نادبة مستأجرة ، ولكنى واحد من الثكالى الذين رأوا بأعينهم ، عاصمتهم العظيمة ، تغتال تدريجيا - خلال ربع القرن الماضى - فيعاد بها الى أعتاب القرن التاسع عشر، تنتظر السماح لها بدخوله !

لقد شاركنا - كمثقفين - فيما حدث من جرائم ثقافية .. بالصمت ، واللامبالاة ، بالتبرير والاستعلاء الكاذب ، وبإنج سعد فقد هلك سعيده ! وكانت جريمة المثقفين الكبرى أنهم لم يجعلوا من ثقافتهم هما جمعيا ، وتكوينا أساسيا فى خبز شعبهم ، وعاشوا كالمنبت الذى لم يقطع أرضا ، ولم يبق ظهرا!

فلما وقعت الواقعة ، وضربوا على أم رءوسهم ، وقذف بهم خارج حلبة الفعل والقرار، حشروا بين مطرقة سلطة تكن لهم كراهية لاحد لها ، وتحرص على أن تجمع فى جوفها بين قبضة الشمولية وفساد الاقتصاد الحر .. وبين سندان جماهير مسحوقة كتب عليها الركض اليومى السريع، معظم ساعات النهار والليل ، لتعود من ركضها المأساوى ، بقوت يكفيها - بالكاد - لمواصلة الركض من جديد .. جماهير لاتعرف عن الثقافة الا أنها وجع قلب وعقل ، وعمل من لايستطيعون عملا آخر .

وبعد .. فأنا أعرف - يقينا - ويعرف ذلك كثيرون ، أن القاهرة تستطيع عن جدارة ، أن تكون عاصمة ثقافية للعرب ، تلعب فى حاضرهم الدور الذى لعبته بغداد وقرطبة والقاهرة نفسها فى الماضى ، اعرف أن قاهرة الأربعة عشر مليون مواطن ، تملك من الامكانات البشرية والمادية ، ومن المخزون الحضارى ، والموقع الجغرافى والتاريخى مالا تملكه عاصمة عربية أو أفريقية أخرى .. ولكنى أعرف يقينا أيضاً، أنها لكى تكون عاصمة ثقافية للعرب حقيقة ، لاطنطنة إعلامية فقط ، عليها أن تعيد العلاقة المفقودة بين الثقافة والناس ، فهذا وحده الكفيل بعلاج جسدها المريض مما أصابه من قروح الخارج والداخل .

● سيد خميس



الفيلم : ناصر ٥٦
سيناريو :
محفوظ عبدالرحمن
إخراج :
محمد فاضل

ناصر ٥٦ : الحلم والتوثيق

بعيدا عن الضجة الإعلامية الممهدة لعرض فيلم «ناصر ٥٦» والمصاحبة له - تلك الضجة التى لم تخدم الفيلم بقدر ما أسهمت فى اختزاله إلى شكل من أشكال البيانات الرسمية عن تواصل أجهزة الإعلام الحكومية مع الخطاب الناصرى ومساندتها لصناعة السينما خلال هذا الإنتاج الضخم الذى لا يحمل المقومات التقليدية للنجاح التجارى - يحتل هذا الفيلم «رقما» فنيا فى الانتاج السينمائى الحديث، من حيث إنه ينتمى إلى النوع التاريخى، لكن بطريقة تختلف عن التناولات المعتادة التى تقدم إما تاريخ قرون ماضية للأمة، ملحمى (مثل الناصر صلاح الدين) أو لحظات من تاريخ مصر أو ما يتعلق بفترة الثورة فى شكل رومانتيكى لايخلو نسيج من قصة حب تنسج حولها الخيوط (مثل «رد قلبى» و «فى بيتنا رجل») فـ «ناصر ٥٦» يعرض لنا ١٠٠ يوم فى حياة الأمة المصرية من خلال زعيمها جمال عبدالناصر، ويختار المخرج محمد فاضل أن يعرض الصورة بالأبيض والأسود فيأخذنا الى ذلك الزمن الذى مر منذ أربعين عاما ويضعنا فى سياقه من جديد، لأن تقديم الصورة بهذا الشكل يجعلها تعطى تطابقا فنيا بين زمن السينما (سينما الأبيض والأسود) وزمن الأمة المعروض خلالها، وكأن الوسيط السينمائى ذاته يتخذ حالة سابقة من

محفوظ عبدالرحمن





ذاكرته، مما يجعل عين الإخراج وأسلوب العرض مستغرقين في الأحداث وفي الشخصية المحورية فيحدث السرد من الداخل وليس خلال عين خارجية تنتمى الى زمن التسعينيات وتتخذ موقفه. وتقودنا هذه التقنية إلى تقنيات أخرى تتكامل لإضفاء طابع الفيلم التوثيقى على «ناصر ٥٦» ـ الذى لايخلو رغم ذلك من شحنة عاطفية قوية تذكرنا بالحالة الرومانتيكية على الأقل لأفلام الثورة لكنها شحنة تنصب على شخصية جمال عبدالناصر وتبدو استجابة طبيعية للكاريزما الخاصة به ومعايشة لها ـ ومنها استخدام الإشارات الكتابية أسفل الشاشة لتحديد زمان ومكان الموقف، والالتزام التام بملابس تلك الفترة الزمنية وبطرز سياراتها وتسريحات الشعر ونمط الأثاث المنزلي والمكتبي وبالتحديد فيما يتعلق هنا بشخصيات تاريخية معروفة، وكذلك استخدام لقطات من أرشيف السينما لأماكن أو ظروف الأحداث في تلك الفترة وكأنها من المتن الأساسى للفيلم لأنه لا يتباين معها لونيا أو إيقاعيا، واستخدام قصاصات الجرائد لمصاحبة موقف ما، وتقطيع اللقطات، وتنقلات المشاهد وحركة الكاميرا، واستخدام عدسة الزووم على الوجه، وقبل تلك التقنيات نجد عنصر الديكور الذى أعاد بناء بورصة الاسكندرية مقدما مشهدا تاريخيا نادرا، ونجد بطل



الفيلم «أحمد زكى» الذى استطاع بعبقرية ألا يستنسخ صورة جمال عبدالناصر بمساعدة الماكياج (كما فعل بن كينجسلى فى «غاندى») ، وإنما يتقمصه أدائيا لدرجة التوحد الذى لاينطوى فحسب على درجة عالية من الارتباط العاطفى بتلك الشخصية بل ينطوى أيضا على ملاحظة دقيقة ودراسة لأسلوب النطق وإيقاع الكلام ونبرة الصوت وطريقة الحركة والإيماء وتعبيرات الوجه ونظرة العينين، أى أنه جسد لنا التصور الفنى الدقيق لشخصية جمال عبدالناصر ، فكان نموذجا للجسر الذى يصنعه الفيلم ككل بين التوثيق وبين الفيلم كحلم (ولو كان حلما بزمن ماض) فنحن أمام لقطات ذات أحجام محددة مستوحاة من أرشيف لقطات جمال عبدالناصر (التى ترتبط به شخصيا كما ترتبط بأسلوب نمطى لتصوير الزعماء ورؤساء الدول) وتكوينات الكادر فيها، وفى الوقت نفسه نحن أمام قصة الحلم بالاستقلال ، وبالاكتفاء الذاتى ، وبناء الدولة الحديثة خلال تأميم قناة السويس (ولعلنا مازلنا نحلم حتى الآن باستعادة تلك اللحظة المجسدة للقدرة على التمرد والتغيير) أى أننا أمام توثيق لحلم ماض يعطى الأحداث السياسية صورة الحلم بالقدر نفسه الذى يتعامل به مع صانع الحلم كإنسان وليس كأسطورة. وإذا كان مشهد خطاب التأميم يمثل عصب الفيلم أو مركزه الذى يجذب الأحداث ويتحكم فى بنائها الفنى ، وتتفجر فيه الروح الأساسية لقصته (وقمة الأداء لبطله) فإن هذا المشهد كفيل أيضا بمد جسر لا تقوى عليه إلا السينما، بين جيل السبعينيات ـ وما بعدها ـ الذين لا يعرفون معنى كلمة وطن ولايدركون تاريخ استقلاله ومعاناته، وبين هذا الزمن الذى يصلح أن يكون حلما للسينما أيضا مثلما هو حلم فى سياق هذا الواقع.

● نـورا أمين

القــــدرة على إثــارة الحنيــن .. لاتعــنى الجــودة



❑ بعد طول انتظار خرج لنا فيلم « ناصر ٥٦» ، بعد أن استغرق عامين كاملين من الإعداد تابعته خلالهما الصحف باهتمام زائد، ليس فقط لأنه الفيلم الأول عن حياة الزعيم الراحل « جمال عبد الناصر »، بعد عدة محاولات لم تتم لمخرجين معروفين مثل مصطفى العقاد وأنور القوادرى ومؤخراً أوليفر ستون، ولكن أيضا لأن الفيلم روائى يؤدى دور «ناصر» فيه النجم أحمد زكى، ويتولى إنتاجه قطاع الإنتاج بالتليفزيون المصرى فى محاولة منه لمساعدة السينما المصرية للخروج من أزمتها .

ورغم محاولة الجميع التى هدفت لتحقيق فيلم كبير جاء الفيلم - الذى بدأت عروضه الجماهيرية فى القاهرة الاثنين ٥/ ١٩٩٦/٨ - متواضعاً ، ومخيباً للآمال خاصة لهؤلاء الذين تابعوا عمليات الإعداد الطويلة والإمكانيات التى أتيحت للفيلم لإخراجه فى أحسن صورة .

بدت مشكلة الفيلم الأولى فى إسناد مهمة الإخراج للمخرج التليفزيونى « محمد فاضل » ، فهو على تفوقه وسمعته الطيبة فى الدراما التليفزيونية ، لم يتمكن من شد إيقاع الفيلم ، الذى جاء بطيئا للغاية بفضل تواضع مستوى المونتاج والذى خلق فجوات فى الصورة ساعد على تحقيقها عدم تجانس المواد الفيلمية ، والتى انقسمت مابين مشاهد مصورة حديثة، وأخرى


أحمد زكى


فردوس عبدالحميد

وثائقية قديمة (stock - shots) أثر فاضل أن يستخدمها بكثرة - رغم إصراره على كون الفيلم روائيا وهو الاستخدام الذى يعنى إما عدم ثقة فاضل فى تحقيق الجو المطلوب من دون هذه اللقطات وبالاعتماد فقط على الديكور والازياء والإكسسوارات أو التخلص من تنفيذ مشاهد مكلفة (تكنيكياً ومادياً) ، مثل مشهد العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦، أو مواكب ناصر الجماهيرية ، وربما رغبة منه فى إثارة حنين المشاهدين ، وعلى ذلك فإن أهمية الفيلم الأولى - كعمل روائى - لم تكن استعادة أحداث مثلما كانت استعادة شخصية زعيم كناصر وإبراز الجوانب الإنسانية في حياته - وهنا تكمن مشكلة الفيلم الثانية فالأجزاء التى عالجت حياة ناصر الشخصية بقيت أضعف مناطق الفيلم ، غلبت عليها السطحية والفتور ، وساعد على ذلك اختيار فردوس عبد الحميد - زوجة فاضل - للعب دور تحية زوجة الزعيم الراحل والتى كانت بعيدة شكلا ومضمونا عن الشخصية ، كذلك أفسد إلحاح فاضل ومعه المؤلف محفوظ عبد الرحمن على التفاصيل المتعلقة بإنسانية ناصر فجاءت مفتعلة ' (إنت بتاكل ايه باريس - مش عارف إيه الحاجات اللى بتاكلوها دى) .

ولعل فاضل كان يقدر حجم المغامرة التى يبذلها وهو يحقق فيلما عن رجل يعرفه الجميع - ومازال قائما فى أحلامهم كعبد الناصر. (تسبقنا هنا تجربة فيلم نيكسون لأوليفرستون، والتى أسقطها الأمريكيون بمقارناتهم الدقيقة بين نيكسون وأنتونى هوكنز) أسند البطولة لممثل فى حجم «أحمد زكى» - الذى يعد حاليا ابرز ممثلى جيله وأكثرهم موهبة واحترافاً وهو الذى اختار منذ البداية أن يقلد ناصر على المستوى الشكلى - الأنف، المشية، الوقفة، النظرة، وحتى الصوت، وفي غمرة تركيزه ضيع أحمد زكي الممثل جوهر الشخصية التى يؤديها، ولم يستطع أن ينقل لنا روح ناصر التى ظلت أبعد من التماعة العين والجهامة الشديدة والظهر المثنى.

أحمد زكي كان قادرا بكفاءته كممثل على أن يمنح الشخصية روحا مثلما فعل بن كنجسلى فى غاندى أو أنتونى كوين في عمر المختار. بل مثلما فعل هو نفسه فى الأيام عندما

(كان يلعب دور عميد الأدب العربي طه حسين) ، بدلاً من التقليد الخالى من الروح والمحرج، لانه يجعلنا نستدعي ناصر وصورة ناصر الحقيقي، وهى مقارنة من الصعب أن تكون لصالح زكى من ناحية أخرى لم يوفق فاضل فى اختيار بقية الممثلين الذين أدوا أدوار رجال مجلس قيادة الثورة، والذين اختارهم فاضل ممثلين تليفزيونيين لا يلائمون أدوارهم – سنا وشكلاً – ومعظمهم من نجوم الصف الثانى والثالث الذين لايمكنك تمييزهم بسهولة .

ومع أن فاضل استخدم فى محاولته لإثارة حنين المشاهدين – لضمان نجاح الفيلم – المشاهد الأرشيفية (الوثائقية) والأغانى القديمة ومانشيتات جرائد تلك الفترة فانه أصر على تنفيذ فيلمه بالكامل بالأبيض والأسود، وهو ما أغراه باستخدام اللقطات الوثائقية بإسراف وأحيانا بدون هدف وبأسلوب غير مدروس مثل استخدام اللقطات الوثائقية لأنتونى إيدن الحقيقى – رئيس وزراء بريطانيا إبان العدوان الثلاثى – بينما كان ناصر ونهرو – فى الفيلم – ممثلين عابيين ، ومع أن فاضل حرص على عدم استخدام صورة واحدة لعبدالناصر الحقيقى -ربما خوفاً من المقارنة بينه وبين أحمد زكي، وربما لعدم تشتيت المشاهد – فإنه من جهة أخرى سلك طوال الفيلم – عن غير قصد – طريقاً يسمح للمشاهد – إن لم نقل يدفع المشاهد – لاستدعاء ناصر الحقيقى فى ذهنه بدءاً بتعديل وجه أحمد زكي بالماكياج ليصير أشبه بناصر وانتهاء باختيار مواقف درامية خالدة فى ذاكرة الجميع لناصر (مثل خطبتيه الشهيرتين فى الأزهر والمنشية) وتصوير أحمد زكى من نفس الزوايا المشهورة لناصر .

أخيرا .. هل يقاس نجاح فيلم كـ «ناصر ٥٦» بكم الحنين الذى يثيره داخلنا . بكم الانفعال الذى يدفع الناس فى دار العرض للتصفيق ويجعل عيونهم تدمع رغم كل مشاكله الفنية ؟! ربما ولكن حتى لو نجح الفيلم فى إثارة حنين البعض – بسبب الموضوع، وربما المشاهد الأرشيفية، وربما الأغانى القديمة، وربما مانشيتات الجرائد – فإن ذلك لايعنى أبداً أنه فيلم جيد .

هالة لطفى

أمينة رزق



طارق دسوقي



التكوين

سنوات تكويني صاغت ملامح الدراما التليفزيونية

أسامة أنور عكاشة

فى سن الثامنة تلقيت اللطمة التى شكلت حياتى وحفرت مجراها الرئيسي وكان لها الفضل الأكبر - إذا اعتبرناه فضلا بمنطق رب ضارة نافعة - في تحديد ملامح المستقبل!

كانت اللطمة هي فقدان الأم ..

وفقدان الأم بالنسبة لطفل في سنوات البكور مأساة حقيقية خاصة اذا كان الطفل مثلي شديد التعلق بأمه قريبا منها الي حد الالتصاق.. فجأة .. يفرغ العالم ويصمت حوله .. ويجد نفسه بلا ظل.. ولا صدي .. ويحس بالخواء في أعماقه الطفلة ..

وهذا ماحدث لي ..

لم أعد الطفل الذي كان ! .. وانهار جزء من كياني .. احسست بالنقص .. فلم اعد مكتملا كباقي الأطفال حولي .. فانزويت عنهم وعزلت نفسي .. فلم أعد أشاركهم ألعابهم وشجاراتهم ومتع عالمهم الملون المليء بمباهج الخيال ورؤي الأحلام وحواديت الشطار وحسناوات التيهات والنبات .. ومن خيوط أحزاني واحباطاتي نسجت شرنقة اختبيء فيها عن عالم غادر لم أعد أحبه .. وقررت اعتزاله وصنعت لنفسي عالما خاصا لايشاركني فيه غير ما أجده أمامي من صحف ومجلات وكتب ..

كان والدى تاجرا صغيرا من تجار مدن الأقاليم .. وكانت كفر الشيخ قد انفصلت عن مديرية الغربية وأصبحت عاصمة لمديرية جديدة سميت «بالفؤادية» نسبة إلي الملك فؤاد والد الملك الحالي - وقتها - فاروق !



اسامة أنور عكاشة

ورغم ان والدى لم يكن متعلماً ولكنه أيضاً لم يكن أمياً .. فقد تلقى نزراً يسيراً من المعرفة فى شىء كان يسمى «المكتب الراقى» كما سمعت منه ولا أعرف إلى الآن ماذا كان هذا المكتب يمثل فى مراحل التعليم ، وربما كان منتميا إلى التعليم الأهلى غير الحكومى .

وفيما يبدو استطاع هذا النزر اليسير من التعليم أن يفتح شهية أبى للقراءة فقد تفتحت عيونى على حجرة بشقتنا فى منزل جدتى مليئة بالكتب والإصدارات المختلفة للدوريات والمجلات الأدبية والفنية والسياسية ..

فى هذه الحجرة المغبرة ذات الضوء الخافت التقيت لأول مرة بطه حسين، والمنفلوطى ، والعقاد ، والحكيم وتيمور والرافعى ، وأمين وهيكل .. جنباً إلى جنب مع مجلات الرسالة والثقافة والمصور واللطائف المصورة وروز اليوسف ومسامرات الجيب والاثنين والدنيا .. إلخ..

وجدت روايات الجيب وروايات الهلال.. وكتاب الهلال ... وأعداد ريدرز دايجست ورزم من الجرائد اليومية .. فكنت كمن يقفز إلى المحيط ليتعلم السباحة !

وغرقت فى لجة الكتاب ..

لن أستطيع يوما أن أنسى ماذا حدث للطفل القارىء حين دخل عالم طه حسين فى الكتاب الأول من «الأيام» ! وكيف تحول الكتاب إلى «إنجيله» «وقرآنه» يقرؤه المرة تلو المرة ... وفى كل مرة يبكى مع سطور الأستاذ العميد وهو يحدثه عن طفولة «صاحبنا» المتوحدة وانعزاله عن العالم ونور العالم يخبو ومرأياته تغيب وتتلاشى فى عينيه !

ولن أنسى صفحات مجدولين التى ترجمها المنفلوطى عن ألفونس كار ... ولا صفحات «نداء المجهول» رومانسية تيمور الجميلة ... التى تناغمت مع أحزانى وبحثى عن الضائع والمفقود .. ثم تلك القصة التى قرأتها فى أحد أعداد مجلة الهلال مترجمة عن إيفان تورجنيف وكان اسمها «آسيا» وكيف اسهدتنى ليلة بأكملها أبلل الوسادة بدموعى ...

كان اللون الرومانسى فيما أقرؤه يهزنى بقوة ويترك فى أعماقى دفقات من الشجن ومشاعر الحزن الهادىء الذى يعبر عن نفسه بالدموع الصامتة ... وهو الأمر المنطقى فى ظروف طفولتى «المبتسرة» وما زالت هذه المشاعر

تصاحبني حتى الآن دليلا على أنى لم أشف بعد من جرح سنوات البكور، وما زلت حتى الآن أرتعد غضباً وحزناً أمام دموع الأطفال ولا أتحمل بأي قدر أن أرى الحزن أو الخوف في عيون طفل ...

وبعيدا عن المشاعر والوجدان ... استطاعت سنوات انغماسى فى القراءة وغرقى بين الأوراق وحروف الطباعة السوداء أن تفعل ما هو أهم أن تحرك وعيي تحفر قنوات التخيل التى ظننتها فى تحليل مبكر للذات مجرد ممارسة لأحلام اليقظة ولكنى الآن أدرك أنها كانت عملية اكتشاف لأداة من أدوات الكاتب لابد من استكناه طبيعتها قبل أن يمسك قلما ...

وجدت نفسى دائم التحليق فى اجواز الخيال ... افكر وأتصور وافترض حكايات أو قصصاً ... وأمثلها .. آجل..

بابا شارو

فى الصباح الباكر كنت أوقظ شقيقى الأصغر . . ونلجأ معا إلى مكان غير مطروق ولا يرتاده أحد من أهل المنزل وأبدأ فى تصور حكاية معينة .. وأحكى له بداياتها ثم يختار كل منا الشخصية التى يتقمصها أو يروى الأحداث على لسانها ونظل «نروى» «ونمثل» حتى نتشاجر لإصرارى على أن أكون وحدى من يقرر تطورات القصة ويعترض هو ... وأصمم أنا ... وتنتهى اللعبة !

ثم كانت حكاية «بابا شارو» ...

و«بابا شارو» هو الاستاذ الرائد الإذاعى العظيم محمد محمود شعبان .. وكان يقدم فى سنوات طفولتى برنامجاً للأطفال كان يطلق عليه وقتها ركن الأطفال... ولم يكن هناك تليفزيون طبعاً... وكانت السينما ما زالت من المحرمات فى أسرتنا ... فالذهاب إلى السينما يساوى اقتراف الذنوب والكبائر!... فالراديو إذن هو سيد الموقف... هو الذى يستأثر بأسماعنا فنظل ملتصقين به نرهف آذاننا لكل ما يقدمه ... خاصة ما يقدم للأطفال ... وبصوته الرخيم الجذاب يقص علينا «بابا شارو» حكايات «بطة واخوتها الستة» و «سوسن العجيب» و «محروس بياع العرقسوس» و«تنابلة السلطان» فتتفتح أمام مخيلتى عوالم من السحر بلا حدود ... أرسمها وأعطيها أثوابا من واقع حىّ وأعاشر شخوصها التى استحضرها مساء كل ليلة حين أضع رأسى على الوسادة ... ثم أضيف إليها شخوصا من عندياتى وأنسج بين هؤلاء وأولئك علاقات وصراعات انتصر فيها لما أحب ومن أحب ... وكثيرا ما تخيلت نفسى بديلا للبطل ... اتقمص مشاعره وآماله وأهزم أعداءه وأعلو به إلى السما ... وقد اندمج وأفاجأ بالدموع تنساب من عينى وأنهنه حزنا على المصير أو تعاطفاً مع مظلوم !

وذات ليلة نبتت الفكرة فى رأسى كالإلهام . لماذا لا أكتب قصة كالتى يروى لنا مثلها بابا شارو ؟ . ولم أنتظر ... قررت أن أبدأ على الفور ...

وطوال سبع ليال متوالية جندت شقيقتى الكبرى لتكتب ما أمليه عليها ... طوال ساعات كل ليلة كنت أملى وأملى حتى امتلأت كراسة ضخمة بأول عمل

إبداعي في حياتي ... رواية أسميتها «المغامرة العجيبة» ... طويتها وحشرتها في ظرف كتبت عليه عنوان الاذاعة بشارع الشريفين واسم «بابا شارو» ... ومكثت أنتظر بصبر فارغ ما سوف يحدث...

وبعد ما يزيد على شهر ... وكنت قد فقدت الأمل أو كدت جلست أستمع كالعادة إلى ركن الأطفال وفجأة سمعت الصوت الرخيم العذب يقول : ومن أصدقاء بابا شارو الجداد يا أطفال الطفل أسامة أنور عكاشة ... وأشكرك يا أسامة على محاولتك الجميلة وإن شاء الله تكبر وتبقى كاتب ناجح !...

لا أستطيع وصف ما حدث لي تلك الليلة ... وكيف تلقيت التهاني والتبريكات من كل أفراد اسرتي ، بل اندفع إلى بيتنا الكثير من زملائي في المدرسة يهنئونني بحماس وفي عيونهم تلتمع معان جديدة أعتقد أنه كان من بينها معنى الاحترام ...

وإذ تمر الأيام بعد حادثة «بابا شارو» وقبل أن أخشى نسيان المسألة ... ظهرت إشارة أخرى

مرحلة الشعر

عام دراسي جديد قد بدأ ... وكان إجازة الصيف المنصرمة كانت برزخا بين حياتين مختلفتين تماما ... فها هي كراسة الإنشاء العربي ترد لي بعد تصحيح الموضوع ... لأجد عبارة باللون الأحمر مكتوبة مع الدرجة التي بلغت تسعة من عشرة ... «أحسنت وإلى الأمام» ... ومدرس اللغة العربية يوجه لي تحية شفوية علنية أمام كل زملاء الفصل ويطلب منهم أن يصفقوا لي .. وأعود يومها إلى المنزل وأنا أخطو على ريش نعام وأحس بنفسي أخف من زغب الريش ... أطير مع كل هبة نسيم تدغدغ أرداني ... ثم تتوالى التحيات والنجاحات وأدعى ذات يوم مشهود لألقي خطبة في طابور الصباح في ذكرى إحدى المناسبات الوطنية ... وأقف أمام ميكروفون لأول مرة في حياتي وأسمع رنين صوتي وهو يجلجل في «الهورن» ويتردد صداه في حوش المدرسة...

بدأت أحس عن يقين أن هناك شيئا ما يربطني باللغة ... بالإنشاء والتعبير ... بالإبداع الأدبي حتى كانت المرحلة الثانوية وتخطت انتصاراتي الأدبية مرحلة موضوعات الإنشاء وخطب الصباح ودخلت مرحلة الشعر ...

كانت المراهقة ... ومع المراهقة دائما يولد الشعر !...

ففي تلك السنوات التي يهفو فيها الصبي إلى الشاب وتتبرعم في كيانه زهرة «الرجل» ترق المشاعر ويرتجف الوجدان ويصبح الشعر هو اللغة ... فهناك المحبوبة الأولى .. «بنت الجيران» وهناك السهر والقمر ولوعة الانتظار وغصة الهجران ... ورسائل تكتب ولا ترسل ...

وبلا أي دراسة للعروض أو الأوزان .. وبلا معرفة بقواعد الشعر الصحيح ... كتبت أقول :

لست أدري ما بعيني غير أني لم أنم
حيرة في السهد تبدو ثم يغشاها الألم

طيف ليلات الغرام ثم أطياف الندم
ثم أغدو كالغريق بين أمواج العدم

ومائة بيت أخرى فى نفس القصيدة لأتصور نفسى شاعراً عبقرياً لا يقل عن إبراهيم ناجى أو على محمــود طه أو ابو شادى ... أو أى من فرسان مدرسة ابو للو الرومانسية العتيدة .. وذهبت بأشعارى إلى أستاذ اللغة العربية ... ليقرأها .. ثم يرميها بطول ذراعه : - هذا كلام فارغ ولا يمت للشعر بصلة !

وقبل أن يغوص نصل العبارة القاتلة فى صدر طموحى وثقتى بنفسى ترسل لى العناية الإلهية مدرساً آخر ... ولكن فى اللغة الإنجليزية هذه المرة .. ليوازن الصدمة بطريق يفتحه أمام عينى على مصراعيه ..كنت مع الشعر قد بدأت أكتب القصة ... ملأت «كشكولاً» كاملاً بالقصص .. وكلها تنتمى أيضا للعالم الرومانسى الشاعرى الذى أجد فيه نفسى...

وكان يدرس لنا اللغة الإنجليزية شاب فى أواسط عشرينياته يومذاك - أوائل عام ١٩٥٦ - وكان يحدثنا فى حصته بطريقة جذابة آسرة .. حتى سقانا المقرر - كما يقال بالملعقة - وكان لشرحه الفياض المتمكن لمسرحية «مايلزستون» ورواية «أوليفرتويست» الفضل الأول فى انبهارى بالأدب الإنجليزى وعشقى له ...

وأدركت من خلال شرح الرجل أنه مثقف حقيقى ، وأنه الوحيد الذى يمكنه الحكم على ما أكتب وتقدير ماأتمتع به من موهبة أو العكس ! وذات يوم اعترضت طريقه بعد إنتهاء الحصة ... وقدمت له كشكول القصص ! ووعدنى بأن يقرأها ثم يرد علىّ ... وبعد ثلاثة أيام لا أكثر دعانى لحجرة «المدرسين» وأجلسنى أمام مكتبه وبابتسامة غامضة كابتسامة أبى الهول قدم لى الأستاذ إبراهيم راشد قاسم كشكول القصص ومعه رواية ...فى آخر صفحتين فى الكشكول كتب ملاحظاته على القصص التى قرأها باستفاضة ... ثم كتب لى عن مبادىء كتابة القصة والأسس الفنية لكتابة القصة القصيرة بالذات .. وطلب منى قراءة ما كتبه بدقة وفهم ثم نصحنى بقراءة قصاص مصرى هو يوسف إدريس... وأستاذ هو يحيى حقى ... ثم مترجمات كاتب روسى يدعى «انطون تشيكوف» وآخر فرنسى يدعى «جى دى موباسان» وأخيراً ناولنى الكتاب وقال لى: هذه هى رواية «الأرض» لكاتب فى منتهى الأهمية اسمه عبد الرحمن الشرقاوى ... اقرأها ثم أعدها لى لنتناقش فيها !....

سنوات الحمى

انفتحت أمام ناظرى دنيا حافلة زاخرة .. دنيا لم أحلم بها من قبل... وكانت منبعا أساسيا لعناصر التكوين لشخصية الكاتب ...

هل أسمى هذه الفترة باسم قد يبدو غريباً وصادماً ؟ هل أسميها «سنوات الحمى» ؟

اذا فعلت فلن أكون بعيدا عن الحقيقة فما حدث لى لايمكن ان يكون غير حمى ! حمى القراءة واللهفة عليها وتخزين



المؤلف أسامة أنور عكاشة مع أبطال مسلسل الحلمية

المعارف ومراكمتها .. والإبحار مع كل حرف مكتوب ..

وكانت ملاحظات الاستاذ ابراهيم راشد قاسم هي عود الثقاب الذى اشعل نيران الحمى .. اقرأ .. واقرأ .. وناقش .. وحاور ... واختلف وتشاجر ! وصدعت بالأمر حتى أصبحت مصدر ازعاج لجميع اقراني .. في كل شيء اخالفهم واعارضهم واسفه آراءهم وأحلامهم .. تحولت الى شخص عدواني هجام .. لا أقبل ان يباريني أحد أو ينافسني في نقاش يدور حول الأدب وقضاياه .. ولحسن الحظ لم تطل هذه الفترة .. اذ انتهت بانتهاء مرحلة الدراسة الثانوية .. وتفرقنا بين الكليات والجامعات المختلفة .. وكان هذا ايذانا بدخولنا عصرا جديدا وطورا مختلفا من اطوار النمو ..

جئت الى القاهرة .. مراهقا في السابعة عشرة من عمره .. يحمل بداخله مجموعة من الاحلام والمثل تتعلق كلها «بالجامعة» و«العاصمة» .. ففي أواخر الخمسينيات لم تكن هناك بعد جامعات اقليمية تنتشر في كل ربوع ومحافظات مصر كما هو الحال اليوم .. واعتقد ان التطورات التي حدثت بالنسبة لانتشار الجامعات قد افقدت الاجيال الحالية طعما رومانسيا فريدا انتشينا به جميعا ..

فقد كانت رحلة الانتقال الى الجامعة بالنسبة للفتى الفلاح او ابن الاقليم الصغير .. كأنها رحلة من رحلات

السندباد فى ليالي الف ليلة .. تبدو لنا من خلال الرؤى الموشاة بالاحلام الرومانسية فالعاصمة .. مدينة ضخمة من مدن الاساطير .. لها الف باب وباب تتيح مباهجها للقادمين من ابناء الريف وتحتضنهم وتمنحهم من المسرات ما تشتهيه الأنفس وتقر به الأعين .. والجامعة هى ذلك الكيان المسحور الذى يعبر بالشاب في زورق الحب الأول الى سنوات النضج واعتصار الرحيق .. كان هذا الطعم غير المرحلة كلها ويعطيها نكهة خاصة تعد فى الحقيقة بطانة دافئة لأيام قد تبلغ برودتها حد التجمد..

فى كلية الآداب جامعة عين شمس كانت المصادفة تخبىء لى الكثير من المفاجآت ! .. ولنتحدث قليلا عن المصادفة .

علمنا نقاد الأدب والفن ان الاعتماد على المصادفة فى حل موقف روائى او قصصي او درامي معين يعد من العيوب المشينة والسقطات التى لاتغتفر مما جعلنا نحرص بشدة على الابتعاد عنها مهما بدت احيانا ضرورية ومنطقية .

ولكننا لانملك ان نرفض المصادفة حين تواجهنا يوميا في الواقع ولانملك الا ان نعترف بوجودها وبسطوتها وفداحة تأثيرها أحيانا .

أسرة الطلائع

كنت أؤهل نفسى للالتحاق بقسم اللغة الانجليزية بعد ان نجح ابراهيم راشد فى توثيق صلتي باللغة وجعلنى أحبها وأحلم بدراسة الأدب الانجليزى والاقتراب من عالم ديكنز ومارلو وشيكسبير وايلد ، وشو ، وسائر اساطين المسرح والرواية على ضفتى الاطلنطى . وكانت قواعد القبول بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب يومها تشرط ان يكون الطالب حاصلا على ثلاثين درجة على الاقل فى مادة الانجليزى بالثانوية العامة .. وكنت انا حاصلا على ثمانى وعشرين درجة لا غير اى بفارق درجتين عن الحد الادنى المطلوب .. ولم يكن ممكنا ان ارضخ او استسلم فدخلت الى مكتب رئيس قسم اللغة الانجليزية وكان يومها الاستاذ الجليل الدكتور لويس مرقص .. الذى استقبلنى برفق ابوى عذب ، وبعد ان حدثته عن شدة تعلقى بدراسة الادب الانجليزى واصرارى عليه وعدنى بعرض طلبى على مجلس القسم وطمأننى لوجود احتمال كبير لقبول طلبى .. ثم طمأننى اكثر بان صرح لى بحضور محاضرات القسم .. وفعلا .. واظبت على حضور المحاضرات واشتريت الكتب ووطنت نفسى على أنى اصبحت طالبا بقسم اللغة الانجليزية وآدابها .. حتى جاء ذلك اليوم الشاتى فى منتصف نوفمبر لأرى اسمى مع اسماء اربعة طلبة آخرين فى ورقة بلوحة الاعلان تفيد رفض طلباتهم للالتحاق بقسم انجليزى وان عليهم البحث عن قسم آخر .. كانت صدمة لم افق منها

الا وانا جالس فى مدرج قسم الاجتماع انعى لنفسى احلامى المنهارة ، ولم اطق المواظبة على الانتظام فى حضور محاضرات القسم الجديد .. واستبدلته بالمواظبة على الوجود فى «بوفيه» الكلية .. وهناك تعرفت بأصدقاء مازلوا الى اليوم اقرب الناس الى قلبى .. كانوا فنانين .. بوهيميين مثلى .. «صياع» ادب وكتاب قصص وشعراء .. محمد شعلان ، ومجدى مجاهد وفخر الدين صلاح ، ومحمد عفيفى مطر ، وحسن النجار ، وحسين عبد القادر ، ومحمد ابو الاسعاد ، وحسن حامد ، ومن خارج الكلية سيد حجاب، وامين ريان، والعم صلاح جاهين .. وفى كلية الاداب أنشأنا اسرة «الطلائع» وكان رائدها الدكتور عز الدين اسماعيل .. وراعيها الروحى الدكتور عبد القادر القط .. وكان اقترابى من هذين الرجلين مصادفة أخرى طيبة من المصادفات التى لعبت دورا ايجابيا فى مسار ارتباطى بالأدب .. لقد قرأ كلاهما محاولاتى الجديدة فى كتابة القصة القصيرة وتحمسا لما قرأه ونصحانى بأن أواصل الكتابة بلا تردد .. وفى أول مسابقة أدبية نظمها اتحاد طلاب الكلية فزت بالجائزة الاولى عن قصة اسمها «حكاية غريبة» وفى ندوة اقيمت لتكريم الأعمال الفائزة تحدث الدكتور القط عنها طويلا ووجه لى عددا من النصائح اعتقد انها كرست انتمائى لمستقبل ادبى واضح ورسخت ايمانى بأن هذا هو طريقى الذى يجب ان اسلكه ولا طريق لى سواه .. وتشجعت لأتقدم بقصصى لمسابقة نادى القصة السنوية لاحرز على مدى سنوات ثلاث خمس جوائز دعمت ثقتى بقلمى وحسمت الى الابد اتجاهاتى وميولى واختيارى للكتابة مهنة وعملا . ليس بمعنى التكسب «وأكل العيش» .. ولكن بمعنى انها مجالى الحيوى وميدان اسهامى الأساسى كإنسان له «دور» لابد ان يلعبه !

ولابد ان اقف طويلا عند سنوات الدراسة الجامعية ! فهى بلاشك سنوات التكوين الحقيقية ومقتبل العمر الذى تتفتح عنده كل الأبواب للتلقى والتأثير والتفاعل .. ان التربة فى هذه الفترة مترعة بالخصوبة لا تكاد تتلقى بذرة من اى نوع حتى تحتضنها وترويها فتورق وتزدهر وتمد فروعها فى الأعماق ..

هنا أتذكر .. الصعلكة ! .. و«الصياعة» الأدبية ..

من أرصفة «ريش» و«ايزافتش» و«مقهى الحرية» و«على بابا» .. لندوة كازينو اوبرا ظهر كل جمعة مع الاب «نجيب محفوظ» .. وندوة العقاد فى مصر الجديدة .. وندوة حسين قبانى فى كازينو الجزيرة .. وندوات الجمعية الادبية فى عابدين .. ثم ندوات الشجار والعراك الملتهبة فى بيوت الاصدقاء حيث

تندلع حمى الجدل والاستعراض والتعالي والازدراء بالغير وكل العقد ومركبات النقص التي تملأ نفوس مثقفي الأرصفة.

فلنتأمل مثلا السباق اليومي الى اقتناء الكتب وقراءتها والتباهي بها ثم الاندفاع للانضواء تحت راية اى «تقليعة» ادبية جديدة . واذكر يوم سرت الهمسات كتيار كهربائي يتحدث عن رجل يسمى «كولن ويلسون» وكتابه الذى انفجر حدثا ادبيا في اوساط الثقافة الانجليزية والادبية .. وكان «اللامنتمى» موضوع الحديث لشهور طويلة .. بعد ان ظلت الواقعية الاشتراكية هي الدين الرسمي طوال عقود .. ثم انسحبت وانحسرت موجتها ليخرج جيل كامل من كهف الحرب العالمية الى صراعات جديدة . وشطنان غير مألوفة .. لنسمع ونقرأ عن السريالية والدادية والأبسوردية ... موجات من التمرد الكامل على كل القوالب وكل المقدسات وكل التابوهات !..

وفي نفس الفترة تكونت في اعماقنا بالتدريج قواعد مايمكن ان نسميه «الاحساس بوحدة الفن» .. لم نظل اسرى «الادب المكتوب» .. بل شكلت زياراتنا للمسارح ودور السينما مايشبه الارتباط اليومي .. لنطل من نوافذ اخرى على فنون لم نكن نعيرها من قبل اهتماما الا من زاوية التسلية وتمضية الوقت كلعب الطاولة أو منافسات الشطرنج في «زهرة الميدان» و«الحرية» و«انديانا» و«بالميرا» لنكتشف بعد ذلك العالم الساحر للفنون المرئية وكم سحرنا ان نرى ادب شيكسبير ووليامز وهيمنجواى وديستوفسكي وتولستوى منحولا الى رؤية بصرية أخاذة في افلام سينمائية ليتواكب ذلك مع عروض «حاملات القرابين» و«اجاممنون» وبيت «برناردا البا» ودائرة الطباشير القوقازية على مسارح الدولة ..

وتلك هي الستينيات العظيمة .. سنوات المجد الفني التي لم تتكرر ولم تبعث مرة اخرى حتي اليوم ايام «كتاب كل ست ساعات» .. وسلسلة الالف كتاب وروائع المسرح العالمي والترجمات الكاملة وافلام العرب وأمهات التراث وكتب من الشرق والغرب وتراجم للجوائز .. بوليتزر في امريكا وجونكور في فرنسا .. ونوبل للعالم كله !

وعلى المستوى المحلى .. كان محفوظ في اوج عطائه وابداعه .. كنا نتلقف جديده في لهفة حين يبدأ نشره على حلقات في الملحق الادبى للأهرام .. وكان توفيق الحكيم مازال يكتب ويؤلف أهم أعماله رغم حالة فقدان الوعى التي اعترف بأنه كان يعاني منها ثم عاد اليه وعيه ونضبت موهبته وعن مندور والمعداوى ولويس عوض ورشاد رشدى ورشدى صالح والعالم وأنيس وعياد وضيف وكل أفراد الفيلق النقدى العظام .. عن هؤلاء حدث ولا حرج ..

ويكتمل الحشد بالموهوبين من الجيل التالى .. حين يبزغ محمود دياب كالشهاب .. ويطل الفريد فرج وسعد وهبة ونعمان عاشور .. من نافذة عربة المسافرين وهى تقطع بهم فيافى الابداع وبراري المغامرة واقتحام المجهول .. وفى هذه الأيام يكتب عبد الرحمن الشرقاوى الفتى مهران لتكون مع مأساة جميلة ورواية «الأرض» ثلاثية تنقش على لوحة الذاكرة فلا تمحى . فى تلك الايام الخصبة المفعمة بحرارة الابداع المتدفق .. كتب عمنا نجيب محفوظ .. «الطريق» .. و«السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«الشحاذ» .. ثم ينهيها بقصيدته الروائية «ميرامار» ..

ونحن تلامذته المتدثرين بعباءته نتلقى الرحيق باكفنا لنعب فيسرى فى عروقنا دما للحياة والعطاء ..

أدب الدراما التليفزيونية

ويكتب يوسف ادريس مجموعاته التى تلت «أرخص ليالى» و«حادثة شرف» «ليقوبنا» «الى آخر الدنيا» و «الاورطى» و«بيت من لحم» ... لنقرأ .. ونلتهم السطور .. لنشبع ونسمن ونذهب فى نفس الأونة لمسرح حى نابض بالحياة .. هكذا كنانعيش ونقتات على ثمار عصر من التقدم والتطلع الى ركب الحضارة .. ذلك الركب الذى سبقنا وتركنا نتسكع على ارصفة قرن مضى لولا ان بعثت حركة التنوير فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن فعلمتنا ان نجرى ونسرع الخطى .. وهو ماحدث حتى نهاية العقد السادس من هذا القرن ..

لقد اكتمل التكوين واستطعت ان اشب عن طوق التلمذة .. وربما اكون قد استطعت ان اصنع لنفسى نسقا ابداعيا خاصا .. وهذا أمر يحدده النقاد .. اما عن نفسى فلاشك ان سنوات تكوينى قد صاغت بقوة حدود وملامح ما انتجه فى أدب الدراما التليفزيونية .. وهو التعبير والاصطلاح الذى اصر عليه لأنه ينم عن تمسكى بما استقر فى كيانى من إسهام ادبى .. كان هو مفتاح السر !..

ومازلت الى الآن أحن لتلك السنوات..

سنوات البكور فى برارى كفر الشيخ.. وسنوات البدايات الرومانسية .. وسنوات الصعلكة على أرصفة الفن فى قاهرة الستينيات .. ثم سنوات العنفوان..

ويبقى السؤال العتيد ..

أترانى أحس بالرضا ؟ ..

مساحة يحار فيها الرأى ويتردد الاختيار .. ولكنى أقنع بأن عدت من رحلة السنين حاملا بصماتها على جبهتى .. ووشمها على قلمى ..

ولابأس من ان يكون هناك شيء من الرضا .. لأن الاحساس بالاكتفاء والامتلاء لايعدو ان يكون ضربا من الوهم!

أنت والهلال

• فيلم أكتوبر وحكايته •

● طالعنا فى الصحف هجمات على الكاتب الروائى أسامة أنور عكاشة ، كما طالعنا هجمات مضادة على من بدأوا بمهاجمته ، وكل ذلك بسبب ما قيل من أنه تلقي تكليفا أو اقتراحا بكتابة سيناريو فيلم سينمائى عن حرب أكتوبر ، فالفريق الأول يتخوفون من انحياز اسامة أنور عكاشة ، إلى وجهة نظر مؤيدة لعبدالناصر ، والفريق الثانى ينفى هذه التهمة عن أسامة ! .. يا سبحان الله .. لقد كان الاتفاق بين مصر وسوريا على شن حرب أكتوبر أو تشرين الأول ، أسهل كثيرا من اتفاق أصحاب الأقلام فى الصحف المصرية على «من الذى يكتب سيناريو» هذه الحرب ..

عبدالغنى شفيع الوهابى - الأسكندرية

• بهاء الأستاذ علمني الثقافة •

● «أنا مغترب وأقيم حاليا فى منطقة كابيماس ولاية سوليا جمهورية فنزويلا .. هجرت وطنى العربى منذ ٣٨ سنة سعيا وراء الرزق ، وكان عمرى ١٥ سنة ، وبعد ثلاث سنوات من وجودى فى «مهجرى» عثرت على مجلة عربية كانت موجودة عند أحد أصدقائى المقيمين هنا فى منطقتى ، واسمها مجلة المصور ، وكان محررها فى ذاك الوقت الأستاذ أحمد بهاء الدين ، وفى الحال أرسلت للاشتراك فى المجلة لمدة سنة ، وكتبت رسالة إلى الأستاذ أحمد بهاء الدين بدون سابق معرفة ، وطلبت منه أن يرسل بقواعد اللغة العربية الثانوية ، فما كان منه وفقه الله إلا واستجاب لطلبى، وبعث لى قواعد اللغة العربية الابتدائية والثانوية دفعة واحدة مع رسالة يقول فيها :

«صديقى سامح . اطلب منى ما تريده من كتب وسأكون على استعداد لأن

أرسلها لك» .. وتوالت رسائل الأستاذ لى وفى كل رسالة كان يحثنى على العلم ومطالعة الكتب العربية ، وكل شهر كان يرسل شيئا من الكتب العربية الأدبية الثقافية .. من كتب الهلال وغيرها ، وفى شهر بعث لى مجموعة كبيرة من مؤلفات الخالد جرجى زيدان (٢٢ كتابا) ..

إن الاستاذ أحمد بهاء الدين له فضل كبير على علمى وتثقيفى ، تفضل على أكثر من أهلى .. ولن أنسى فضله «مدى عمرى» .

منذ أشهر علمت أنه مريض وغير ذلك لا أعرف عنه شيئا ، ولا أدرى كيف حاله .. «وكيف الدهر عليه.. اننى لا أدرى» ..

استحلفكم بالعروبة وبالأدب العربى الأصيل الصادق أن تخبرونى عن وجود أستاذى أحمد بهاء الدين .. «أين هو موجود» وكيف حالته الصحية ، وهل مازال حيا أم فارق الحياة وأنا لا أعلم ؟

إن حياة الاستاذ أحمد بهاء الدين تهمنى كاعتمامى بحياتى .

شامخ فارس صعب

كابيماس - ولاية سوليا - جمهورية فنزويلا

الصديق شامخ : البقاء لله

● تتويج المطربة أنغام ●

● ما هذا الذى نشرتموه فى عدد سبتمبر المنقضى عن المطربة الناشئة «أنغام»؟! .. لقد رفعها كاتب المقال إلى عنان السماء : فهل خرجت مجلة الهلال العريقة عن رسالتها .

لقد تناولت الهلال فى عهد جرجى زيدان وما تلاه من عهود قضايا فن الغناء وقرأنا فى ذلك بحوثا رصينة ، وكذلك فعلت مجلة «الرسالة» التى نشرت فى الثلاثينيات مقالات رصينة عن أم كلثوم وعبدالوهاب وغيرهما ، فهناك فرق بين الكتابة الفنية فى مجلة كبرى كالهلال وبين ما تنشره مجلات الإثارة والفقشات وأخبار الوسط الفنى ! ..

نسرين عبدالراضى - الاسكندرية

● المعارك الفاصلة في تاريخنا ●

● لمناسبة الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر ، لماذا نخص هذه الحرب بالاحتفال ، وننسى الاحتفال بالمعارك الكبرى الفاصلة فى تاريخنا العربى (ولا نتحدث هنا عن تاريخنا الفرعونى) .. وأين ذهبت معركة القدس ومعركة حطين اللتين انتصرنا فيهما بقيادة صلاح الدين على الإفرنج أو الصليبيين ؟! وأين ذهبت معركة عين جالوت الكبرى التى انتصرنا فيها على التتار بقيادة قطز وبيبرس ؟! .. وأين معركة المنصورة التى استطعنا بعدها أن نأسر لويس التاسع ملك الفرنسيين وقائد الحملة الصليبية التاسعة ؟! .. وأين المعارك التى حرر فيها السلطان قلاوون ساحل الشام كله ما عدا عكا وصور وبعض المواقع الأخرى ؟! .. ثم أين معركة عكا التى انتصرنا فيها بقيادة السلطان خليل بن قلاوون على الإفرنج وأغلقنا صفحات الحروب الصليبية إلى الأبد ؟! ..

من المحزن جدا أن نتذكر ونحن نشيد بهذه المعارك العظمى ، أن جميع مواقعها تقريبا تقع الآن تحت الاحتلال الصهيونى ، فكأننا حررناها من الإفرنج الصليبيين لنسلمها غنيمة باردة إلى الإفرنج الصهيونيين !

سعد الدين عبدالوهاب - القاهرة

● تراث الهلال ●

● لماذا لا تعودون إلى نشر الباب المهم الذى كنتم تنشرونه فى الثمانينيات تحت عنوان «تراث الهلال» وهو مختارات من المقالات التى نشرها الهلال على امتداد عهوده ؟!

عبدالغفار رجب - كفر الشيخ

أمواج الليل

ليل طويل الوجه فوق جبينه ... نجمات حزن حول بدر ذابل
عرنينه رغم الكآبة شامخ ... وشهيقه وزفيره فى منزلى
يروى ويروى حكمة وحكاية ... عن حرب داحس عن قبيلة وائل
عن دمع قيس عن قصائد سافرت ... محمولة فوق الرمال الرحل
عن رحلة الضليل من نجد إلى ... تيجان قيصر حالما بالمخمل
ليل تطاول أين من أمواجه ... أمواج شاعرنا بقمة يذبل
كيف السبيل إلى الرقاد وجفنه ... صقر يهاجم أيكتى وعنادلى
كم نظرة شزراء ألقت ظلها ... حول السرير الشاحب المتبتل
فإذا المخدة خيمة لحبيبتى ... وإذا الستائر رمح حب قاتل
يا أيها الليل انصرف فالشمس خلفك ... طفلة شقراء فى ثوب طلى
فى وجهك الغريب يأس عابس ... أغمضت جفنى ساعة .. لم يرحل
دعنى ودع تلك السماء فإننى ... صب سترحل فى الصباح قوافلى

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

الإنسان فى عالم متغير

● قرأت فى عدد أغسطس ١٩٩٦م من الهلال مقال تطورات «الإنسان» فى عالم متغير للدكتور أحمد أبو زيد الذى تحدث فيه عن علم دراسة الإنسان «الأنثربولوجيا» وأعجبت به أيما إعجاب . وأرجو من المجلة أن تقوم بدعوة أحد أساتذة الكليات أو المعاهد العليا للخدمة الاجتماعية بإعداد مقالات تتناول مستقبل الخدمة الاجتماعية فى القرن الحادى والعشرين .

محمد صلاح ياسين غازى
الفرقة الثانية بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية
كفر الشيخ

مجلة النداء الجديد

● تلقينا الرسالة التالية من الأستاذ الكبير الدكتور شكرى محمد عياد حول مشروعه الصحفى الثقافى :

لعلكم علمتم بصدور قانون الصحافة الجديد متضمنا تعديلا مهما فى أحد الشروط التى كانت تحكم إصدار الصحف المستقلة (فى قانون ١٩٨٠) وهى تلك التى كانت تنص علي ألا تتجاوز مساهمة العضو المؤسس خمسمائة جنيه مصرى .فنصت المادة المعدلة على ألا تتجاوز مساهمة العضو عشرة فى المائة من رأس المال . كما حدد القانون الجديد رأس مال المجلة الشهرية بمائة ألف جنيه .

لقد بلغ عدد المؤسسين حتى وقت تحرير هذا الخطاب مائة وستة وخمسين عضوا. ولم نعد فى حاجة إلى ضم أعضاء جدد ، إذا استطعنا أن نجمع رأس المال المطلوب . وقد بلغ ما جمع حتى الآن (شاملا الأقساط ومصروفات التأسيس) ٧٨٦٠٨.٣٠ وسبق أن أبدى عدد من الزملاء استعدادهم لزيادة مساهماتهم ، ولكننى أطمع فى أن تأتى الزيادة من أكبر عدد ممكن من المؤسسين ، حتى تحتفظ مجلتنا بطابعها الفريد بوصفها عملا جماعيا ديموقراطيا .

يسرنى أن أستقبلكم فى مقر «أصدقاء الكتاب» (٣ شارع فوميل لبيب - عدنان المدنى سابقا - مدينة الصحفيين) يوم الثلاثاء من كل أسبوع بين العاشرة صباحا والثالثة بعد الظهر ، أو يوم السبت فى مقر المجلة (٢ طريق مصر حلوان الزراعى - حدائق المعادى) فى الساعات نفسها . وإذا لم يكن أحد هذين الموعدين مناسبا لكم فأرجو التكرم بالاتصال بى على هاتف المنزل ٣٥٠٩٧٨٣ فى أى وقت . ويمكنكم أيضا إرسال شيك باسم (مجلة النداء - تحت التأسيس) بالبريد المسجل على العنوان الأول ، ويحسن أيضا أن تضيفوا القسم البريدى (بريد امبابة - الجيزة ١٢٤١١) . وأرجو ألا تنسوا إرفاق صورة بطاقتكم الشخصية أو جواز سفركم ، لحاجتنا إليها عند التقدم إلى المجلس الأعلى للصحافة بطلب الرخصة . أود أن أضيف إلى ما سبق أن العدد التجريبى الثالث قد اكتمل تحريرا ، ونأمل أن يوافق ظهوره البدء فى اجراءات الحصول على الرخصة ، وأن يكون ذلك قريبا جدا .

د. شكرى محمد عياد

لا ذنب للزمان

منصف يا زمان رغم المآسي ... رغم من يزعمون أنك قاسي
أنت لم تكتب الشقاء علينا ... زاعما أنه نظام سياسي
ما أتت منك كاذبات الأماني ... حين بعناك بهرجات الأماسي
بشر نحن والشرور لدينا ... لم نحدد لحجمها من «قياس»
أصبح الحق تائها وحزينا ... وغدا الباطل المقيم الأساسي
يقتل المرء من يراه شقيقا ... ثم يمضي لأهله كي يواسي
نعبد الله في النهار جهارا ... ومع الليل نستلذ المعاصي
ونغني : سنملأ الأرض عدلا ... ولنا الظلم آخذا بالنواصي
هكذا نحن يا زمان نقيض ... عكس ما ندعي فعله بالتواصي
وترى الحرب بالكلام سعيرا ... مثلما الحرب سعرت بالرصاص
كلهم حملوك كل الخطايا ... جعلوا منك في البلاء «اختصاصي»
وأنا لا أراك إلا بريئا ... وأرى فيك نزهتي وخلاصي

درهم جباري - تعز - اليمن

أسئلة وأجوبة

● في عدد الهلال الصادر في أبريل عام ١٩٤٧ ، تم اختيار بعض الأسئلة والملاحظات التي وردت في بعض رسائل القراء ، ومن ضمن الأسئلة التي تم الإجابة عليها هي :

س - كم يطبع من الهلال ؟

جـ - فاق إقبال القراء ما قدرناه فقد طبعنا من العدد الأول (يناير ٤٧) ٥٠,٠٠٠ نسخة ، وطبعنا من العددين الثاني والثالث (فبراير / مارس ٤٧) نحو ٧٥,٠٠٠ نسخة ، وهذا العدد الرابع (أبريل ٤٧) قد طبع منه ٨٠,٠٠٠ ألف نسخة .

- حدث هذا حين كان عدد السكان في مصر أقل من ١٨ مليون نسمة ، ونسبة الأمية أكثر من ٨٠ ٪ .. وسؤالي الآن كم يطبع حاليا - منتصف عام ١٩٩٦ - من الهلال ، وقد صار عدد السكان أكثر من ٦٠ مليون نسمة ، ونسبة الأمية أقل من ٤٠٪ حسب الاحصائيات الرسمية . علما بأنه من المفروض أن يطبع حاليا من الهلال بالنسبة لما اتضح في عام ١٩٤٧ هو ٣٥٠,٠٠٠ نسخة دون النظر إلى زيادة الوعي.

محمد السيد سالم - إمبابة

أنت والهلال

تعليق

● يطبع من الهلال عشرين ألف نسخة ، وفى عام ١٩٤٧ ، كانت الهلال هى المنبر الثقافى العربى الوحيد ، وكانت تصل إلى أبعد المهاجر العربية ، واليوم أصبح لكل بلد عربى مجلته الثقافية ، وهو مانعتبره نجاحاً لرسالة الهلال ، وبغض النظر عن أن بعض هذه المجلات مدعومة من حكومتها وتباع بثمن أقل من الهلال ..

كما أنه بعد الاستقلال ، وضعت كثير من العقبات في طريق إنتقال الكتاب والمجلة الثقافية بين الأقطار العربية .

● الشاعر العاشق ●

منـــاى اليـــوم أغنيـــة   يهـــامس ســـرها النظرا
وفضـــل العمر سـيدتى   يحمـــل وعـــــده مطرا
وحسب الحرف أن يهدى   إلى عينيـــك ما ســـبرا
أمـــد إليـــك أشرعتى   بيارق رحلـــة سيتكرى
تعـــالى نرســـم الدنيـــا   دروبا تســـعد البشـــرا
ويذهب عن مغـــانى الروح   ليـــل شـــاقها كـــدرا
نعيـــش العمر أشـــواقا   ونكتب للهـــوى ســـطرا
فـــؤادى يخـــطف الأفراح   مـــن أيامـــــه غـــررا
وشعرى فى مدى اللحظات   حلـــم يغصـــب الوترا
فـــلا فـــن بلا قـــلق   وهـــل وجـــد بلا ذكـــرى

عبدالكريم دندى - دمشق

● مع الأصدقاء ●

● **أحمد عبد اللطيف حسب الله – دمنهور :**

– لا ننشر الشعر الحلمنتيشى لأن مكانه المجلات الفكاهية ، أما قصيدتكم التى عنوانها « إليها » فلماذا « تزنق» نفسك فى الأوزان التى يمكن أن تتكسر بسهولة ، والتى تسميها الأوزان غير المطروقة !

● **عبير أرياب – قصر ثقافة الطفل بجاردن سيتى – القاهرة :**

– قصيدتك التى تسمينها « حين تلقانى » تدل على أن لك نفساً شاعرة ، ولكن القصيدة تفتقر إلى الأوزان ، فهى نثر بحت ، فضلا عن الحاجة إلى ضبط النحو واللغة .

● **السيد السمرى – بورسعيد :**

– الأوزان فى قصيدتكم تحتاج إلى مراجعة ، ولم نفهم قولك : « إذا م تحديتث » .. فهل تقصد أن تقول : « إذا ما تحدثت » ؟

● **سلوي فؤاد عبد الله – المعادى – القاهرة :**

– اجتهادك واضح فى قصتك القصيرة وفى قصيدتك التفعيلية ، ولكن أوان النضج لم يحن بعد – كما يبدو – لصغر سنك ، فلننتظر هذا الأوان ! ..

ونشكر للأساتذة الفضلاء مساهماتهم ، ونعتذر إليهم من ضيق المجال : السيد عبد الرحمن الهلبى وإيهاب رضوان سعد الدسوقى وماهر منير كامل وعاصم فريد البرقوقى وياسر عبد العزيز الشهالى وعبد الرحيم الماسخ وأحمد بديع وأحمد جاسم الحسينى ورجب عبد الحكيم بيومى الخولى ومحمد أمين عيسوى وبهجت صميدة خميس والحسين محمود خضيرى ورمضان أبو غالية وعقيل بن ناجى المسكين وسعاد حسين رشدى وعبد الشهيد غالى وهيب ولطفى خليل الخولى ..

الكلمة الأخيرة



بهاء كان بهاء ينير ويستنير

بقلم : د . ابراهيم حلمى عبد الرحمن

كانت كتابات أحمد بهاء الدين المبكرة يغلب عليها طابع النقد الفنى ولو أنه فيما بعد برز فى مقدمة المحللين السياسيين ولعل الجانب الفنى فى حياته - وليس فقط فى كتاباته - لم يظهر بوضوح فى كثير مما نشرته أخيرا الصحف عنه بعد وفاته، وعندما دخلت منزله لأول مرة بهرتنى الأناقة الفنية الرائعة التى لا شك قد اشتركت فى تحقيقها السيدة الفاضلة زوجته ولكنه كان هو أيضا يشرح لى الجوانب الفنية فى اللوحات والأثاث والألوان والإضاءة . عندئذ تذكرت أنه ربما كان بطبيعته مهيأ للفن والنقد الفنى ولكن جرفته السياسة فكان شهابا لامعا فى سمائها الداكنة وبحورها المظلمة وكثيرا ما كنت أقرأ بعض كتاباته - خاصة يومياته القصيرة - وأعيد قراءتها دون ملل فكانت تبدو لى أنها أشبه شئ بلوحة فنية وليست كلمات مسطورة ، وأفكاراً معروضة بدقة وسلاسة ووضوح وشمول .

وفى مجال السياسة والأحداث كان بهاء ، يصل دائما بسرعة إلى لب الموضوع تاركا جانبا التفاصيل وقلما اختلفت معه فى رأى إلا بشأن إتفاقية كامب دافيد التى ناصرت ما ذهب إليه السادات وعارضه هو معارضة شديدة وربما كان قد تأثر . رحمه الله فى ذلك بالآراء السائدة فى الأوساط العربية الشابقة التى كان يعيش فى وسطها

وأذكر أنه بعد وفاة عبد الناصر نشأت مقترحات مختلفة بشأن تخليد ذكراه فى صورة مؤسسة علمية قومية وأبديت له إستعدادى للمشاركة فيها ولكن لم تنشأ - كما أذكر أنه عندما تولى رئاسة تحرير الأهرام كان يعنى عناية كبيرة بمركز الدراسات الناشئ حينئذ وكان يعرض على رئاسته ولكن الله سلم .

وفى فترة إقامته - أو هجرته - إلى الكويت كانت لى معه جلسات طويلة اشترك فى الكثير منها الدكتور صائب جارودى وكان الحديث يدور حول جوانب مختلفة من قضية القومية العربية التى كان يعنى بها دائما عناية فائقة ، بينما كنت ولازلت أميل إلى اسقاط هذه القضية على خلفية التطورات الدولية بما يظهرها فى حجم محدود بعد استبعاد العاطفة الجياشة والخيال الواسع والآمال العريضة .

وكان بهاء على الرغم من صلته الوثيقة بالرؤساء وكبار القوم ، يحتفظ دائما بذاتيته الفكرية وقناعته الخاصة فى مختلف المواقف .

وحينما ذكر لى ذات يوم أنه أحيانا يفقد القدرة على الاتزان فيسرع إلى الارتكاز لأقرب سند ثم يزول العارض بعد ثوان قليلة ، علمت من الأطباء أن تلك ظاهرة تكشف عن بؤرة معيبة فى المخ ، فكان ، ذلك أول إشارة لما حدث له فيما بعد ولكننى كنت بعد ذلك ودائما أخشى عليه من الإنفعال وخاصة الإنفعال الصامت الذى تتولد عنه الضغوط الداخلية المكبوتة .

وفى آخر لقاء معه - بعد أن كان قد استشرى به الداء كنت فى زيارة له مع الزميل الدكتور إبراهيم سعد الدين وكان صامتا طول الوقت وحينما نبهته زوجته إلى وجودى أمامه قال على الفور «هذا ليس إبراهيم حلمى - أين هو» حينئذ أيقنت والأمر له من قبل ومن بعد «هذا ليس أحمد بهاء الدين» الذى فقدناه ، إفتقدناه .

إن كان لى أن أصف أحمد بهاء الدين فى كلمات لقلت أنه كان (بهاء) حقا ينير ويستنير ويدرس ويحلل ويرسم صوراً بالكلمات يقرأها الناس مرة بعد مرة دون ملل كأنها كما قلت فى أول هذه النبذة - صورة فنية رائعة وتحفة أدبية قيمة تبقى على الدهر فسبحان من له الدوام .


أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران



أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ودراسة ، وسير ، وبحوث ، وفكر ، ونقد ، وشعر ، وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ، ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ، واجتماع ، وعلم نفس ، ورحلات ، وسياسة ... إلخ .

صدر من هذه السلسلة :

- الإنسان الباهت .	طيبة أحمد الابراهيم
- الحياة مرة أخرى .	نوال مصطفى
- التنويم المغناطيسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- نوم العازب .	محمد حسن الألفى
- من شرفات التاريخ جـ ١ .	د . محمد رجب البيومى
- أم كلثوم .	مجدى سلامة
- المرأة العاملة .	سوزان عبد الحميد أغا
- قادة الفكر الفلسفى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الملامح الخفية (جبران ومى) .	لوسى يعقوب
- عبد الحليم حافظ .	مجدى سلامة
- انقراض رجل .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المتطورة .	يوسف ميخائيل أسعد
- محمد عبد الوهاب .	مجدى سلامة
- الشخصية السوية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الشخصية القيادية .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإنسانُ المتعدد .	طيبة أحمد الإبراهيم
- الشخصية المبدعة .	يوسف ميخائيل أسعد
- فكر وفن وذكريات .	لوسى يعقوب
- ساعة الحظ .	محمد حسن الألفى
- سيكولوجية الهدوء النفسى .	يوسف ميخائيل أسعد
- الإعلام والمخدرات .	د . نوال محمد عمر
- من شرفات التاريخ جـ ٢ .	د . محمد رجب البيومى
- الشخصية المنتجة .	يوسف ميخائيل أسعد
- الأسرة مشكلات وحلول .	مجدى سلامة
- ظلال الحقيقة .	طيبة أحمد الإبراهيم
- شعرة معاوية ، وملك بنى أمية .	عرفات القصبى قرون
- مذكرات خادم .	طيبة أحمد الابراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ ، ١٠ ، ١٢ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١١ شارع كامل صدقى بالفجالة ـ ١ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى ـ روكسى بمصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٢٨٣٥٥٥٤ ـ ٩٠٨٤٥٥٤ ـ ٢٨٦٩١٩٧ ع . م . ع / فاكس ـ 2596650

الهلال

المصريون والسينما

جزء خاص

نوفمبر ١٩٩٦ ● الثمن ١٥٠ قرشاً





(فتاة أمام المرآة)
من أعمال بابلو بيكاسو - عام ١٩٣٢ - متحف الفن الحديث - نيويورك

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

الإدارة القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدي : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : Hilal un 92703 فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلساً، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبي/ أبو ظبي ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٥٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٣٠ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

هـــذا العـــدد



تصميم الفنان : حلمى التـــونى

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنـــون

المصريون والسينما

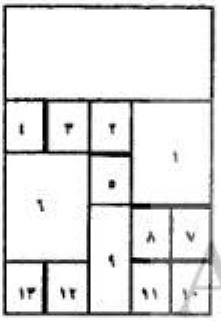
جزء خاص

شعر وقصة

التكوين

الأبواب الثابتة

من الهلال إلى الهلال



١ – فاتن حمامة
٢ – عبد الوارث عسر
٣ – ليلى مراد
٤ – أنور وجدى
٥ – بدر لاما
٦ – بهيجة حافظ
٧ – زكى رستم
٨ – عماد حمدى
٩ – راقية إبراهيم
١٠ – حسين رياض
١١ – صلاح أبو سيف
١٢ – إسماعيل ياسين
١٣ – محمود المليجى

الجهاد الوطنى والأعداء الثلاثة

فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بدأت أول حركة وطنية حقيقية لإقامة دولة مصرية مستقلة عن السيادة البريطانية، بعد أن استقلت عن السيادة العثمانية التى جثمت على أنفاس مصر أربعمائة عام من تاريخها!..

فى ذلك اليوم الذى جاء بعد قليل من خمود الحرب العالمية الأولى، أحست مصر أنها لأول مرة منذ سقوط دولتها المستقلة الأخيرة التى كان يتسلطن عليها قنصوة الغورى فى أوائل القرن السادس عشر، قد بدأت تستعيد شخصيتها الحضارية، وتستعيد اسمها وعاصمتها وأعلامها بعد انطوائها وانضوائها تحت علم السلطنة العثمانية التى أرادت باسم الدين أن تجعل مصر مزرعة للباشبوزق، يكدح فيها الفلاح المصرى، والعامل المصرى، وكل إنسان مصرى، فى سبيل الجالس على عرش الخلافة فى دار السعادة أو اسطنبول أو الأستانة العصماء التى تحكمت طويلا فى رقاب البلاد والعباد..

فى ذلك اليوم تمثلت مصر فى ثلاثة من رجالها الكبار: سعد زغلول وعلى شعراوى وعبدالعزيز فهمى، إذ نهض الثلاثة الكبار ليخاطبوا المحتل البريطانى وجها لوجه: أخرج من بلادنا!..

كان الاستعمار البريطانى قد ورث مصر من الاستعمار التركى وظن أنه قادر على البقاء فيها أربعمائة عام كما بقى الأتراك من قبل، ولكن مصر عاجلته بهذه الضربة التاريخية المفاجئة التى كانت أول ضربة تسددها مصر إلى خصومها منذ انهزمت فى معركة مرج دابق أمام العثمانيين سنة ١٥١٧، ثم فى معركة التل الكبير أمام الإنجليز سنة ١٨٨٢ استطرادا لتلك المعركة التاريخية الفاصلة التى طرحت مصر أرضا أربعة قرون متوالية حالكة الظلام..

هكذا كانت بداية الحركة الوطنية المصرية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، ومنها انبعثت ثورة ١٩١٩ التى كانت أول ثورة شعبية فى البلاد العربية والإسلامية كلها فى الشرق كله، تضارع الثورات الحديثة فى أوربا وأمريكا، بنتائجها وآفاقها التى انطلقت فيها، ومن هنا بدأت مصر الحديثة وتكونت القومية المصرية بسماتها الخاصة، وتنبهت ذاكرة المصريين بعد النسيان الطويل، أو بعد فقدان الذاكرة تحت سنابك خيل الإغريق والرومان والعثمانيين والبريطانيين أكثر من ألفى سنة، وانبعث «المواطن المصرى» فى الوطن المصرى، وشرع يجيل بصره فيما حوله، ويتعرف على ملامحه التى أوشك

أن يمحوها الزمان!..

كانت ثورة ١٩١٩ التى انبعثت شرارتها الأولى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ - فيما سمى بعد ذلك بعيد الجهاد الوطنى - نسيج وحدها بين انتفاضات وثورات الشعب المصرى طوال العصر العثمانى، فقد اندلعت تلك الثورات تحت ظلال الأعلام العثمانية، وكانت ثورة مصر على نابليون بونابرت وكليبر ثورة عثمانية، وإن كان وقودها من المصريين، لأن روح القومية لم تكن قد استيقظت بعد، ولم يكن ممكنا أن تجىء هذه الروح قبل أوانها، فلما جاء أوانها فى ثورة ١٩١٩ انبعثت بعنفوانها كله، وبها بدأ عصر القوميات فى الشرق، بعد أن كان قد استكمل رسالته فى الغرب، وذلك هو السبق التاريخى الذى امتازت به ثورة الشعب المصرى سنة ١٩١٩.

وعلى الفور بدأت مصر تنسج أعلامها الوطنية الخاصة. وتنظم أناشيدها القومية، ولم تكن لها أناشيد قومية طوال ألفى سنة، وسارعت مصر تنفض الغبار عن تاريخها القومى وتتعرف إليه وتستذكره وتربط ماضيها بحاضرها، وتستمد من الأجداد زادا للأحفاد، ثم أدركت مصر أن الشعوب من حولها هم قرابتها الأدنون، وبينها وبينهم رحم ماسة وتاريخ مشترك ولغة واحدة!..

لقد كانت ثورة ١٩١٩ التى انقدحت شرارتها فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، ثورة للتقدم واللحاق بالحضارة الحديثة فى علومها وفنونها ونظمها السياسية والاجتماعية، ولم يمض إلا القليل حتى انبعث الإنسان المصرى نافضا عن رأسه الجهالة والخرافة، متحررا باحثا عن حقائق الحياة والمجتمع والكون بلا سدود ولاقيود، وعادت مصر موئلا للعلوم والفنون والآداب كما كانت فى حضارتها الأولى..

وكانت الأمور تبشر باطراد التقدم، فما بالنا اليوم، بعد الذى بذلناه من دم وعرق ودموع، نجد فريقا ضالا منا يحاول إعادتنا إلى العصر العثمانى بعد انعتاقنا منه؟!.. ومن الذى يضيق علينا الخناق؟!.. أهو الاستعمار العالمى بنظامه الجديد ومعه المستوطن الاسرائيلى الجشع الضارى، ومعهما عدو ثالث بيننا يتاجر بالدين، ويخادع الناس بالشعوذة والخرافة وأوهام الظلاميين؟!..

إذا أردنا ألا نخدع أنفسنا فالجواب: نعم.. فنحن الآن حيال ثلاثة أعداء غلاظ أشداء متحالفين علينا، وإذا أردنا ألا تنطفىء الشرارة التى انبعثت فى عيد الجهاد الوطنى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، فإن علينا أن نهزم الأعداء الثلاثة!..

• المحرر •

التواصل الحضارى

بقلم : د. مصطفى سويف

نشرت، منذ أكثر قليلا من سنتين، مقالا فى هذه المجلة، مجلة الهلال التى أعتز بالانتساب إلى أسرة كُتَّابها، أؤكد فيه أن إحدى المسئوليات الاستراتيجية ،بعيدة المدى فى خطرها، التى يلزمنا الاهتمام بها، كمصريين بوجه عام، وكمثقفين بوجه خاص. دعم كل ما من شأنه تنشيط عملية التواصل عبر الأسوار والحواجز الحضارية التى تفصل بيننا وبين المجتمعات الأخرى على اتساع العالم، وقد اكتفيت حينئذ بمعالجة هذا الموضوع معالجة محدودة بالقدر الذى سمح به السياق. ومع ذلك فقد كان هذا الاكتفاء فى حقيقته نوعا من الإرجاء إلى حين. وقد آن الأوان للعود إلى تناول الموضوع بتسليط مزيد من الضوء على عدد من جوانبه الرئيسية. وليس الهدف من ذلك أن نقدم إجابات على جميع الأسئلة التى يثيرها الموضوع. ولا على معظمها، ولكن الهدف هو تقديم تصور ينطوى على معالم واضحة ومحدّدة راجين لهذا التصور أن يعين القارىء على تكوين وجهة نظر مسئولة فى هذا الموضوع .



وجدير بالذكر أن كثيرين من أساتذتنا وأصدقائنا سبق لهم أن كتبوا حول هذه المسألة من زوايا متعددة؛ يأتى فى المقدمة فى هذا الصدد ما كتبه طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر»، ويأتى كذلك على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه الدكتور عزت قرنى أستاذ الفلسفة فى كتابه «الفلسفة المصرية : شروط التأسيس» تحت عنوان «إعادة اكتشاف الثقافة اليونانية فى الوعى المصرى الحديث». وما كتبه الأستاذ بهاء طاهر فى كتابه «أبناء رفاعة» ، تحت عنوان «ضد التغريب والتتريك»، وما كتبه الأستاذ سيد ياسين فى أكثر من موضع وأكثر من مناسبة .. إلخ. ومع ذلك فالموضوع فى تقديرنا لا يزال يحتاج إلى مزيد من العناية بما يفوق أضعافا مضاعفة ما لقى ويلقى حتى الآن. وفى رأينا أن المطلوب الآن أساساً هو التناول المنظّم الذى يساعد على تكوين تصور واضح له أول وله آخر، لأننا بصدد أمر يمس مسيرة حياتنا الاجتماعية فى الصميم، سواء على سبيل تقييم الماضى، أو توجيه المستقبل، بل ولأننا بصدد أمر يمس جوهر الحياة الاجتماعية وفلسفتها. وفى محاولتنا الراهنة سوف نتجه إلى بيان أن التواصل الحضارى أمر قائم فعلا أردنا ذلك أم لم نرد، فهو واحد من سنن الحياة الاجتماعية بغض النظر عن الإرادات الفردية، ومعنى ذلك أنه لا جدوى من الدعوة إلى مقاومته، فمهما اشتدت هذه الدعوة واتسع نطاقها فمآلها ومآل آثارها إلى زوال. ومن ثم فإن التمسك بها لا يجلب سوى بلبلة العقول وتشتيت الجهود، بينما الأجدى من ذلك أن

تتصرف النفوس وتتضافر العزائم فى السبيل إلى إتخاذ التدابير اللازمة لترشيد هذا التواصل ما أمكن بحيث يصبح تواصلا انتقائيا إلى أقصى المدى.

معنى التواصل الحضارى.

يثير هذا الموضوع مشاعر متباينة وأحيانا متضاربة عند الكثيرين ممن يتصدون لمناقشته، وغالبا ما تكون المناقشة مشحونة بقدر كبير من الانفعال، وهو بهذا الوصف ينتمى إلى فئة الموضوعات شديدة القابلية للتفجر. من هذا القبيل موضوعات تغير الوضع الاجتماعى للمرأة، وحرية التعبير عن الأفكار والمعتقدات، والتربية الجنسية، وتعاطى المخدرات.. إلخ. وليس مجديا بالنسبة لهذه الموضوعات جميعا أن نتحاشى أو نحرّم الكلام فيها، لأن عواقب محاولات التحاشى بالتجاهل أو بالتجهيل او بالتحريم عواقب وخيمة على المستوى الخاص والعام، ولا يجدى كذلك أن يكون الحديث فيها بطريق الاستفزاز أو الإثارة حتى وإن كان لهذا الطريق فوائد عاجلة. فالإثارة بعيدة المدى بالغة السوء بما سوف تجلبه على المستثير والمستثار معاً، لذلك كان من الحكمة عند التصدى لمناقشة هذه الفئة من الموضوعات ومنها الموضوع الذى نحن بصدده الحرص على الابتعاد عن الإثارة ما أمكن، والإعانة على الفهم والتفاهم ما أمكن كذلك، ولهذا الأسلوب عدد من المقومات يأتى فى مقدمتها تحديد معانى الألفاظ وخاصة ما كان منها ذا وظيفة مفتاحية فى الموضوع، مثل لفظ التواصل، ولفظ الحضارة فى مقالنا هذا. وأن نتجنب صياغة حديثنا بأسلوب الاتهام للطرف «الآخر» والدفاع ضده، وإلى جانب هذين الشرطين هناك شرط ثالث أعم منهما وأسبق نفسيا ومنطقيا، وخلاصته ألا نتقدم إلى مناقشة الموضوع مفترضين سوء النية عند الطرف الآخر. وأن نكتفى بالبدء من كونه مختلفا عنا، ثم نتحرك نحو بيان أنه إذا كان متسقا مع نفسه فى معارضته رأينا فإن وجهة النظر التى يدافع عنها يترتب عليها بالضرورة «المنطقية أو العلمية» كذا وكذا من النتائج، ثم نعمل على الكشف عن هذه النتائج من خلال مناقشاتنا، وكيف أنها لا يمكن قبولها باسم كذا وكذا من مقتضيات التفكير السليم، أو التفكير العلمى أو الحرص على تصور معين لمستقبل الوطن. أما إذا افترضنا سوء النية عند الآخر فلا معنى لمواصلة النقاش أصلا. هذه هى الشروط الثلاثة التى نعتبرها الحد الأدنى لضمان سلامة المناقشة وسلاستها.

وسنبدأ هنا بأنفسنا. ففى مقالنا الراهن نحن ملتزمون بتعريف التواصل بأنه عملية تجرى بين طرفين «أو أكثر» ويتم

من خلالها تبادل عدد من الرسائل، ويعتبر التخاطب اللفظى نوعا من أنواع التواصل، كما تعتبر اللغة «المنطوقة أو المكتوبة» إحدى الخزائن التى نستمد منها نوعا معينا من رسائلنا، وهناك خزائن أخرى نستمد منها أنواعا أخرى من الرسائل. ويلاحظ أن العنصر المهم فى هذا التعريف للتواصل هو عنصر الايجابية فى دور كل من الطرفين المشاركين فى التواصل «التبادل وليس التلقى فقط أو الارسال فحسب». وإلى جانب الالتزام بهذا التعريف للتواصل سوف نلتزم بتحديد لا يقل عنه وضوحا وكثافة لمفهوم الحضارة. ومن أفضل التعريفات المطروحة فى هذا الصدد قول هيرسكوفتش إن الحضارة هى الجزء من البيئة الذى صنعه الإنسان. فنحن نعيش فى بيئة ذات شقين، أحدهما هو الشق الطبيعى الذى لم يصنعه الإنسان «كالضوء والحرارة والجاذبية ... إلخ» والآخر هو الشق الحضارى بمقوماته المادية «كالبيوت والآلات والطرقات .. إلخ» ومقوماته المعنوية «كالقيم والقوانين والفلسفات الإنسانية والكونية».

لمحة تنظيرية

ينظر أهل الاختصاص إلى الحضارة «أو الإطار الحضارى» من حيث بنائها باعتبارها منظومة، والمقصود بذلك أن جزئيات هذه الحضارة تعمل معاً لاحداث أثر موحَّد رغم أن لكل جزئية وظيفة وطبيعة مختلفة، وعلى ذلك فالجزئيات أو المقومات متساندة ومتفاعلة فيما بينها، ومن ثم يصعب على دارس حضارة ما «وخاصة إذا كان منتميا إلى حضارة أخرى» أن يفهم بدقة أى جزئية فى هذه الحضارة موضوع الدرس ما لم يفهم علاقات الاعتماد المتبادل بين هذه الجزئية وسائر مقومات السياق الحضارى الذى يضمها. وبالمنطق نفسه يصعب على كل من يحاول أن ينقل جزئية بعينها من إطار حضارى إلى إطار آخر أن يوائم بينها وبين الإطار التى تنقلها إليه، فهى إما أن يجرى عليها تعديل شديد حتى يتسنى استيعابها فى الإطار المنقول إليه، أو يكون مآلها الطرد باعتبارها جسما غريبا. وينظر أهل الاختصاص كذلك إلى الحضارة كائنا هى سياج نصف مُنفذ، تشبيها لهذا الكيان بما هو معروف فى الدراسات البيولوجية تحت اسم الأغشية نصف النفذة. ولهذا التصور مضامين متعددة، أهمها : أن الكيان الحضارى لا يتأثر بكل ما يرد إليه «من خارجه» من مؤثرات ولكنه كذلك لا يرفضها جميعا، ومن ثم يقال إنه انتقائى يقبل البعض ويرفض البعض «حسب قوانين أو قواعد محددة»، كما أن التَقَبُّل نفسه يتفاوت فى يسره وسرعته بتفاوت أنواع هذه المؤثرات، وبتفاوت الأزمنة التاريخية التى ترد فيها هذه المؤثرات أو تلك.

هذه اللمحة التنظيرية بما تقدمه من تصور للحضارة على أنها منظومة، وأنها نصف منفتحة أو نصف منفذة تعتبر لمحة

شديدة الأهمية لأن بإمكانها أن توفر علينا كثيرا مما نتورط فيه من مناقشات عقيمة تتولد عنها مشاق أشد عقما .

لمحة تاريخية

للتواصل بين الحضارات أشكال مختلفة، كما أنه يتم بدرجات شديدة التفاوت من حيث العمق والاتساع. ومن استقراء أحداث التاريخ يمكننا الوقوف على كثير من حقائق العوامل الحاكمة لهذا التواصل. كما أن التاريخ يمدنا بأمثلة محددة من شأنها أن تفصل القول فيما تنطوى عليه اللمحة التنظيرية السابقة من أفكار، ومن ثم فإننا نسوق للقارىء هنا وقائع من تواريخ عدد من الشعوب التى تجسد سيرة كل منها إطارا حضاريا له سماته المميزة .

نستمد المثال الأول من الحضارة المصرية القديمة: إذ يجمع المؤرخون على أن المصريين لم يعرفوا الحصان ولا العربة الحربية التى يجرها حصانان إلا فى أواخر حكم الهكسوس ومن خلالهم، وكان ذلك حوالى القرن السابع عشر وأوائل السادس عشر قبل الميلاد. ومنذ عرفوا الحصان ساد استعماله لديهم ولكن بطريقتهم الخاصة، فالنبلاء لا يركبونه ولكنهم يركبون «العــربة الحربية التى يجرها». أما من هم دون النبلاء فيمكنهم أن يركبوه. وبقى الحصان فى الحياة المصرية بعد ذلك، لكن أهل مصر لم يدُخلوه ضمن حيواناتهم المقدسة «كالبقرة، والتمساح، والثعلب، والعجل، والقط... إلخ»، حتى الحمار كانوا قد أدخلوه تحت باب القدسية، ولكنها كانت قدسية شريرة، فقاتل أوزوريس كان يلبس رأس حمار. المهم أن الحصان لم يدخل ضمن المقدسات، لا بالخير ولا بالشر، ربما لأنه لم ينشأ معهم ، أى مع نشوئهم وارتقائهم معاً كمجتمع يتكامل فيه الإنسان والحيوان. هذا مثال لشكل من أشكال الانفتاح تلقى به حضارة ما مؤثرا يأتيها من خارجها، وهو فى الوقت نفسه مثال على الحدود التى تفرضها هذه الحضارة على عملية الاستيعاب التى تتناول بها هذا المؤثر، ومن المحقق أن الهكسوس جلبوا معهم مؤثرات أخرى استوعب المصريون بعضها ولم يستوعبوا البعض الآخر فتم طردها مع جالبيها .

ونستمد المثال الثانى من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وفى هذا الصدد يأتى فى المقدمة ذكر حركة الترجمة، وبوجه خاص ترجمة التراث اليونانى القديم إلى العربية. والترجمة هنا فعل انفتاح إرادى مخطَّط له ومدبَّر. وبحسبى أن أنقل هنا السطور القليلة التالية عن كتاب «الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب» الذى نشرته المنظمة

العربية للتربية والثقافة والعلوم، تحت إشراف المغفور له الدكتور محمد كامل حسين. جاء في صفحة ٣١٢ ما يلي : «وقد مرت الترجمة في العصر العباسي بثلاثة أدوار: الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد... ويبتدىء الدور الثاني من ولاية المأمون واشتهر فيه من التراجمة قسطا بن لوقا البعلبكي، وحنين بن اسحق، وابنه اسحق ابن حنين،... وقد بذل المأمون جهده في استخدام التراجمة، وكان ينفق في ذلك بسخاء... وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون إلى عدد من خلفائه. أما تراجمة الدور الثالث الذي يبتدىء من ٣٠٠ هـ وينتهي في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري فكانوا أكثر اشتغالا بنقل المنطق والطبيعة، منهم ابن يونس، وسنان بن ثابت بن قرة» .

وجدير بالذكر هنا أن عملية الترجمة في هذا السياق لم تكن مجرد نقل للتراث اليوناني القديم واليوناني السكندري من لغته الأصلية إلى اللغة العربية، ولكنها كانت خطًا مدبرًا على مستوى الدولة ، أي كانت بمثابة طريق تشقه الحضارة العربية الإسلامية، من خلال رموزها وقادتها، وبدرجة ما من الوعي، لتتلقى من خلاله المضمون المعرفي «العلم والفكر» لهذا التراث وتستوعبه. فإذا أمعنا النظر في خطوة الاستيعاب هذه فسنجد أن هذه الحضارة كان لها أسلوبها الخاص لانجاز هذا الاستيعاب. ولكي تتضح هذه الحقيقة للقارىء الذي يهمه الأمر فربما كان أفضل الطرق إلى هذه الغاية هو المقارنة بين الاستيعاب كما جرى في الحضارة العربية الإسلامية ونظيره الذي جرى «كذلك على التراث اليوناني نفسه» في الحضارة الأوربية المسيحية مع تباشير عصر النهضة.

ومن هذا المنظور نختار مثالنا الثالث وهو مثال تتوافر فيه ميزتان، فهو يكشف من ناحية عن اللجوء إلى الترجمة مرة أخرى كحركة مرشدة تقوم بها حضارة تالية فتنفتح بها على حضارة سابقة، ويكشف من ناحية أخرى عن صورة ونتيجة للاستيعاب الذي أمكن للحضارة العربية الإسلامية أن تحققه بالنسبة لما نقلته مترجما عن الحضـــارة الهلينية وامتداداتها الهلينستية.

هذا المثال الثالث نستمده من تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة. وفي هذا الشأن نجد أن عملية جديدة للترجمة «وفي هذه المرة من العربية إلى اللاتينية» تنشط لتحقيق التواصل بين الحضارة العربية الإسلامية بمنجزاتها المستمرة والحضارة الأوروبية بتوجهاتها حديثة النشأة «منذ حوالي القرن الثاني عشر الميلادي». وفي هذا السياق تم نقل كثير من الكتابات العربية التي هي أصلا ترجمة عن الكتابات العلمية والفلسفية اليونانية، كما تم نقل كتابات مؤلفة بالعربية أصلا، وحول هذا الموضوع يقول المحقق الفاضل الدكتور رشدي راشد في مقدمة تحقيقه

لكتاب «صناعة الجبر لديوفنطس» الذى كان قد ترجمه إلى العربية أصلا قسطا بن لوقا البعلبكى، يقول «هذه الترجمات نفسها كانت فى بعض الأحيان هى السبيل الوحيد لمعرفة الأوروبيين بهذه النصوص نفسها. فلقد فقد الأصل اليونانى لبعضها ولم تبق إلا الترجمات العربية». وينقل كتاب «الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب» عن چورج سارتون مؤلف «تاريخ العلم» قوله فى هذا الصدد . «وإنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظون عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة». كذلك ينقل كتاب «الموجز .....» عن لكليرك مؤرخ الطب العربى قوله «إن كان يوجد بطليطلة (فى القرن الثانى عشر) تسعون كتابا مترجما من العربية إلى اللاتينية فى الطب، منها أربعة لأبقراط، وخمسة وعشرون لجالينوس...». ويقول فى موضع آخر (كتاب «الموجز... أيضا) «وقد بلغ من شيوع التعلم بعد توافر الكتب العربية المنقولة إلى اللاتينية فى الطب والعلوم أن أنشئت ثمانون جامعة بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر... وكانت مؤلفات أرسطو طاليس التى قدمها ابن رشد من طليطلة أساسا للمعرفة». على أن حركة الترجمة إلى اللاتينية عن اللسان العربى فى بواكير نشوء أوروبا الحديثة لم تقتصر على ترجمة ما سبق له أن ترجم عن اليونانية، بل امتد ليشمل ترجمة كثير من المؤلفات العربية اعترافا بأن أصحابها كانوا قد بلغوا من النضج قدرا سمح لهم بالاضافة والابتكار وهذا بالضبط ما أردنا الاشارة إليه منذ قليل بقولنا إن العرب لم يقفوا عند حدود النقل الذى أتاحته لهم الترجمة ولكنهم استوعبوا الكثير مما نقلوا وتمثلوه بحيث وصلوا إلى النضج الذى سمح لهم بالتأليف المبتكر فى عدد من المجالات، وفى هذا الصدد نذكر أن رسالة الرازى عن الجدرى والحصبة نشرت مصحوبة بترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦، ويقول عنها نيو برجر المؤرخ الطبى إن هذه الرسالة تعد حلية فى جيد الطب العربى، وإن لها أهمية عظمى فى تاريخ الامراض الوبائية لأنها أول بحث كُتب عن مرض الجدرى. كذلك من المعروف أن كتاب الطبيب الجــــــراح أبو القاسم الزهراوى «فى القرن الحادى عشر الميلادى» بعنوان «التصريف لمن عجز عن التأليف» تُرجم إلى اللاتينية عدة مرات. أما كتاب «القانون فى الطب» للشيخ الرئيس أبى على بن سينا فبلغ من المكانة ما بلغته كتابات جالينوس وابو قراط، وأقر البابا كلمنت الخامس (سنة ١٣٠٩م) أن نمتحن الطلبة اجباريا فى كتابى ابن سينا

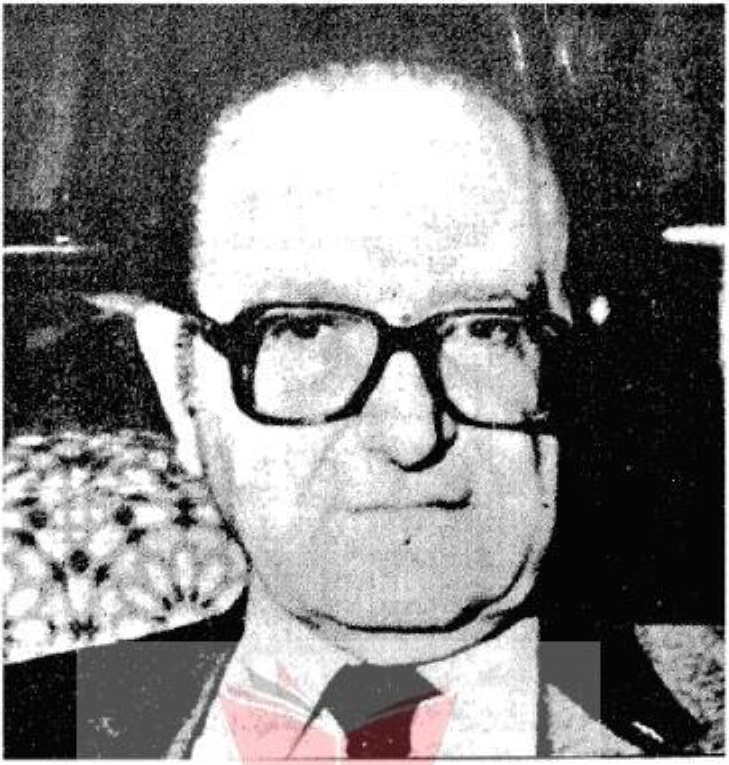
والرازى للحصول على الإجازة فى الطب. وكان كتاب القانون يدرس فى جامعة مونبيليه حتى أواسط القرن السابع عشر، وكذلك كان كتاب المأثورات وأجزاء من أعمال ابن رشد ويوحنا سرابيون وكتاب تاريخ الأطباء للقفطى.

وإلى هنا ينتهى مثالنا الثالث.

وأخيرا..

فى هذا الموضع نختم هذا القسط من الحديث عن التواصل الحضارى ويمكن تلخيصه فى النقاط الآتية: أولا ينطلق الحديث من مقدمة مؤداها أن العمل على تيسير التواصل الحضارى بيننا وبين الحضارات المحيطة بنا مسئولية استراتيجية يقع عبئها علينا كمصريين بوجه عام، وكمثقفين بوجه خاص، وأن عملية التواصل الحضارى على هذا النحو جارية فعلا بغض النظر عن اراداتنا الفردية، ولا سبيل إلى تعطيلها، ولذلك كان من الحكمة أن نتصدى لها بالانتقاء والترشيد. ثانيا ألزمنا أنفسنا بتحديد دقيق للمصطلحين الرئيسيين اللذين نعتمد عليهما فى إدارة دفة الحديث، وهما التواصل، والحضارة، ومن خلال التحديدين اللذين سقناهما يتضح أن هناك جذرا مشتركا بينهما، هو عنصر «الايجابية» أو الفاعلية: فعملية التواصل ليست مجرد استقبال أو تلقى، والحضارة منظومة لها تفاعلاتها الداخلية التى تملى شروطها على ما تسمح له بالتسرب إلى داخلها. ثالثا، انتقلنا بعد ذلك إلى تقديم ثلاثة أمثلة من تاريخ الاتصال بين الحضارات المختلفة، وقد راعينا فى انتقاء هذه الأمثلة أن تنقل للقارىء أكثر من رسالة، ففيها نموذج للتأثر غير المقصود ولكن عنصر التأثير يجرى عليه قدر من التعديل يوائم بينه وبين أمور مادية وقيمية تقتضيها خصائص المنظومة الحضارية التى تتقبله، وفيها نموذج للتأثير الموجه والمقصود وما يتبع ذلك من استيعاب يصل بالمنظومة المستوعبة إلى مستوى الإنتاج الإبداعى الذى لا تلبث منظومة أو منظومات أخرى أن تسعى إلى الانفتاح أمامه لتنهل من معينه. وفيها نموذج للتأثر بالأمور المادية وآخر للتأثر بالأمور المعنوية، وفيها أكثر من ذلك لمن أراد مزيدا من الافادة.

والآن وقد فرغنا من هذا الحديث سوف يكون أمامنا مهام تالية تتلخص فى محاولة الإجابة عن عدد من الأسئلة الجوهرية فى الموضوع، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتى: ما وجه الضرورة فى التواصل الحضارى، بغض النظر عن كون التواصل حقيقة تاريخية فى الماضى والحاضر والمستقبل؟ وهل صحيح أن الانفتاح على الحضارات الأخرى خطر على الشخصية القومية؟ وأليس لدينا (حتى بوضعنا الراهن) ما نقدمه عبر قنوات التواصل؟ نرجو أن نوفق للإجابة فى حديث أو حديثين قادمين .



الإسلام والحداثة

بقلم : رجاء جارودى

من أجل دراسة العلاقات التى تربط بين الحداثة والإسلام يتعين علينا تعريف الحداثة من منظور ثقافة عالمية وجمعية لا ثقافة أوروبية أو ثقافة تسير فى اتجاه واحد .

فالحداثة انما هى شكل ثقافى وأسلوب حياة . أما الثقافة فهى مجموعة العلاقات التى تربط مجتمع أو فرد بالطبيعة وبباقى الأفراد وبالمستقبل وهى بهذا المعنى ما يطلق عليه البعض «الله»

المحاضرة التى ألقاها جارودى فى جامعة عين شمس

ويمكن تلخيص الافتراضات الأولية للحضارة الأوروبية فى ثلاثة افتراضات أولية :

الأول : لديكارت والقائل : يتعين علينا أن نصبح سادة ومالكى للطبيعة .

الثانى : لآدم سميث القائل : إذا سعى كل منا إلى تحقيق مصلحته الشخصية فإن ذلك سيؤدى فى نهاية المطاف إلى تحقيق المصلحة العامة إذ أن هناك يدا خفية تحقق هذا التناغم .

الثالث : لمارلووى الذى تضمنه كتابه «فاوست» وهو : « يصبح الانسان قديرا تمام القدرة بدلا من الله حتى يتمكن من تسيير العالم » .

توصلت هذه الثقافة إلى نتائج تتناقض والتى كانت قد حددتها لها هذه الافتراضات الأولية فقد انتهت إلى : -

أ - تلوث الطبيعة وتلفها والإمكانية التقنية لتدميرها .

ب - تزايد كبير للعنف البشرى : فقد بات واضحا أن منطق السوق بما يتضمنه من منافسات إنما هو منطق حرب يخلق نوعا من عدم التوازن المتزايد بين الشمال والجنوب كما يخلق تباينات متزايدة فى داخل الشعب الواحد بسبب تراكم الثروات لدى أحد قطبى المجتمع وتراكم الفقر لدى القطب الآخر .

جـ - إن ادعاء تسيير العالم بدلا من الله وأستبعاد الإيمان بالقيم المطلقة وجعل الفرد والأمة مركزا ومقياسا لكل شىء خلق نوعا من الغاب تتناحر فيه الطموحات لتحقيق السلطة والمتعة وتنمية الأفراد والجماعات ينتج عنها فوضى العنف فى المدن وإختلال التوازن الناتج عن الرعب فى العالم .

أما «الحداثة» المزعومة التى تعرض علينا فما هى إلا ديانة لا تجرؤ على الافصاح عن اسمها ، بيد أنها فى حقيقة الأمر السوق الواحد التى أختص بها الغرب وحده اعتبارا من عصر النهضة وفى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى وتحطيم العراق وسيطرة الولايات المتحدة لا على العالم الثالث فحسب ولكن على أوروبا ، يعتبر الغرب حريته «غاية التاريخ» وذلك وفقا لعنوان كتاب فوكوياما مفكر البنتاجون .

ويعد الإقتصاد السياسى علما كثيبا كما كان يطلق عليه كارلايل ، أو بالأحرى (بما أنه لا يتمتع بخصائص العلوم) إيديولوجية لتبرير الوضع الراهن الذى تحدث الرائد آدم سميث عن مبدئها الأساسى قائلا : إذا سعى كل شخص إلى تحقيق مصلحته الشخصية فسوف يؤدى ذلك فى نهاية المطاف إلى تحقيق المصلحة العامة إذ أن هناك يدا خفية تحقق هذا التناغم .

ومن هذا المنظور أصبح تدخل الدولة ضارا : فقد أخذ السوق فى تنظيم نفسه وأصبح المنظم لكل العلاقات الإجتماعية ، واقتصر دور الدولة على الحفاظ على هذا النظام كما لو كانت شرطيا أو حارسا .

وبعد مضى قرنين من تطبيق هذه المبادىء التى نادى بها ميلتون فريدمان وآل فون هايك وأتباعهما من الأمريكيين مثل ريجان ومن الإنجليز مثل تاتشر أو من الوزراء الفرنسيين اليساريين واليمنيين ظهرت عيوبها جليا ، إذ تؤدى إلى تراكم متزايد للثروات والسلطة فى أحد قطبى المجتمع وإلى التبعية والبطالة والاستعباد فى القطب الآخر .

وينطبق هذا الوضع على المستوى العالمى : فبعد خمسة قرون من الاستعمار الذى قضى على الزراعات الغذائية فى البلاد لزراعة محصول واحد ومنتج واحد يمثل ملحقا لاقتصاد الدول المستعمرة القديمة مما سمح بالإبقاء على التبعية حتى بعد الاستقلال السياسى الشكلى وذلك عن طريق القناع المزدوج للمساعدة التى يقدمها المستعمرون القدماء وإدارة الديون التى يقوم بها صندوق النقد الدولى والنتيجة أنه فى الفترة بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٨٩ زاد نصيب الـ ٢٠٪ الأكثر ثراء فى العالم من ٧٠٪ إلى ٨٣٪ من الدخل العالمى، أما العشرون بالمائة الأكثر فقرا فقد انخفض نصيبهم إلى أقل من ٥ر١٪ .

ولا يفتأ هذا الاستقطاب أن يزداد أيضا فى الدول الأكثر ثراء ، ففى الولايات المتحدة يسيطر ١٪ من الأكثر ثراء على ٤٠٪ من الثروة القومية وذلك وفقا لما أكدته مجلة الـ Tnternational Herald Tribune فى عددها الصادر بتاريخ ١٩ أبريل ١٩٩٥

إن الحساب النهائى لانهيار الحضارة الغربية ثقيل للغاية ويمكن تلخيصه فى بضع كلمات : هناك أقلية غنية لا تتعدى خمس سكان العالم تسيطر وتستهلك ٨٠٪ من الموارد الطبيعية فى هذا العالم و «النموذج الغربى» للتنمية يكلف العالم الثالث (بسبب الفقر وسوء التغذية والجوع والأمراض البسيطة العلاج) حياة ٤٥ مليون شخصا سنويا من بينهم ١٥ مليون طفل دون السنوات الخمس . أى ما يعادل عدد قتلى هيروشيما مرة كل يومين ولا يمكن تصور إدارة أسوأ من ذلك لكوكبنا من جانب الذين يدعون تلقين دروس فى الديمقراطية وفى الحرية وفى حقوق الانسان .

فجرائمهم تحجب عنهم أهلية تلقين تلك الدروس .

ووحدة السوق التى سميت الحداثة تأخذ شكل إنهيار للعلاقة الاجتماعية لصالح منظور داروني إجتماعي كما كان يتصورها سبنسر وتتلخص فيها الحرية الممنوحة للأقوى لإلتهام الأضعف .

وقد أعلن من قبل الأب لاكوردير عن هذه البدهية والتي يمكن التحقق منها اليوم أكثر من أى وقت مضى وهى أن العلاقة بين القوى والضعيف توجد الحرية مجالا واسعا لممارسة الظلم .

وتجربة «الألينا» أى السوق الحرة بين الولايات المتحدة وكندا حيث يتعدى أجر العامل ٢٠ دولارا يوميا والمكسيك حيث يقل عن ثلاثة دولارات قد أعطت مجالا لتقل مراكز الشركات إلى المكسيك مما أدى إلى تفشى البطالة بين العمال الأمريكيين واستمراوية وضع العبودية المجحف الذى يعانى منه العمال المكسيكيون وقد أظهرت هذه التجربة حقيقة مهمة وهى أن القلاقل التى قام بها الشياباسى إنما هى تعبير عن رفضهم للتضليل الآثم الذى يتسم به ما يعرف باسم التجارة الحرة .

وقد أعلن السيد بوش - الرئيس الأمريكي السابق - أنه يتعين إقامة منطقة للتجارة فى ألاسكا فى أرض النار ؟؟ ثم أضاف وزير خارجيته بيكر من فانكوفر حتى فلادى فوستك والسؤال الذى يثور اليوم هو هل ستترك الإنسانية لتصلب على «هذا الصليب الذهبي» ؟.

والأمر يتعلق بمسألة متداخلة الجوانب سواء ما كان منها اقتصادى أو سياسى أو دينى .

فالطابع الدينى إنما يتجلى فى الغايات الأخيرة للأنسان والتى تتمثل فى معرفة ما إذا كانت تنمية العلوم والتقنية تؤدى بالضرورة إلى تحطيم الانسان أم ازدهاره ؟

والحق أننا نرى بصورة واضحة وجلية آثار وحدة السوق التى تعتبر النتيجة العليا للحداثة الغربية .

وبادىء ذى بدء هناك تدهور فى العلاقة الإجتماعية فى نظام قال عنه هوبز عند نشأته - أن الفردية والمنافسة يجعلان فيه الإنسان وحشا لأخيه الانسان .

ويمكن ترجمة ذلك فى أرقام

ففى فرنسا تم تسجيل ١١٥٠٠ حالة انتحار عام ١٩٩١ مقابل ١١٦٠٠ عام ١٩٩٢ و ١٢٠٠٠ عام ١٩٩٣ . وبالنسبة للسكان زاد عدد الجرائم حتى بلغ خمسة أمثال ما كان عليه أى من ٨٣٧٠٠٠ جريمة وجنحة فى عام ١٩٦٥ ليصل إلي ٣٨٠٠٠٠٠ فى عام ١٩٩٠ و ٦٦٠٠٠ جريمة مخدرات فى ١٩٩٢ مقابل ١٠١٠٠٠ عام ١٩٨٥ .

الاسلام والحداثة

ويتجاوز اليوم عدد الذين يعانون من البطالة في فرنسا ثلاثة ملايين فرد ، وفي الوقت الذي يسيطر فيه ١٠٪ من الفرنسيين على ٥٥٪ من الثروة القومية يعيش ٥ ملايين شخص على دخل يقل عن ٢٣٠٠ فرنك شهريا بينما يبلغ دخل السيد ميشيل أينيار رئيس مجلس إدارة شركة والت ديزني ٢٠٣ ملايين دولار سنويا .

وتتكرر نفس هذه الصورة في كل البلاد التي تسود فيها الحداثة و «وحدانية السوق»

ففي الأتحاد السوفيتي منذ إقامة النظام الرأسمالي عن طريق الدعارة السياسية التي يمارسها يلتسن إزداد استهلاك المخدرات حتى بلغ نفس مستوى الاستهلاك في الولايات المتحدة . ففي أوزباكستان زادت مساحة الأرض المزروعة بنبات الخشخاش بمقدار ستة أمثال أي من ١٥٠ هيكتاراً في ١٩٩٢ لتصل إلى ١٠٠٠ هيكتار في ١٩٩٥ .

وفي الولايات المتحدة التي تعتبر رائدة في مجال التدهور بلغ رقم الأعمال في مجال المخدرات نفس قدره في مجال صناعة السيارات والصلب .

ويشهد الانتحار والمخدرات على الرغبة في الانطلاق من عالم في طريقه لأن يصبح غير صالح للحياة .

بيد أنه توجد علامات أخرى للتدهور غير التباين في الثروات أو الإنطلاق ، ولن أذكر هنا إلا اثنتين وهما الفساد والمضاربة . فإقتصاد السوق يحمل في طياته الفساد كما تحمل السحب الرعد . ففي نظام يباع ويشترى فيه كل شيء حتى السلطة والضمائر يعلن الفيلسوف المعروف بتحفظه الشديد «الآن كوتاه في كتابه» الرأسمالية في كل الدول أن الزيادة في الفساد إنما ترتبط ارتباطا وثيقا بزيادة الأنشطة المالية والأعلامية فعندما يسمح الاعلام بمناسبة اجراء عمليات مالية مختلفة النوعية ولاسيما عمليات الاندماج والاكتساب ببناء في بضع دقائق ثروات ضخمة لا يمكن تحقيقها حتى من خلال العمل المضني طوال العمر فإن اغراء البيع والشراء يصبح صعب المقاومة. ومما يهيىء تنمية اقتصاد السوق تطوير هذا السوق الأصلي ويختتم عالم الاقتصاد بقوله: يلعب الفساد دورا قريب الشبه من التخطيط .

المضاربة

وأخيرا فإن أهم نتائج وحدانية السوق وأهم نتائج الحداثة بمفهومها الغربي نذكر المضاربة .

فالمضاربة لها معنى محدد مدون فى قاموس الروبير ونجد فى هذا التعريف المضاربة : عملية مالية تقوم على أساس الاستفادة من تذبذبات السوق (الأوراق المالية والسلع) لتحقيق الأرباح .

وتأسيسا على معطيات بنك التسويات الدولية يسجل السيد موريس أليس والحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد : تبلغ التدفقات المالية فى المتوسط ١١٠٠ مليار دولار يوميا أى ما يعادل أربعين مثل قيمة إجمالى التدفقات المالية المتعلقة بتسويات تجارية .

(المرجع : موريس أليس : الغرب على حافة الكارثة حديث لصحيفة ليبراسيون الصادرة فى ٢ أغسطس ١٩٩٣ وكتابه أخطاء ومآزق البناء الأوروبى (الناشر جوجلار) .

وهذا يعنى أنه من خلال النظام الحالى لوحدة السوق يكسب الشخص ٤٠ مرة أكثر عن طريق المضاربة على المواد الأولية والعملات الحرة أو على ما يطلق عليه رجال الاقتصاد اسم المنتجات المشتقة أو على كل ما لا يفترض تسديدا نقديا لقيمة المنتجات أو الخدمات ولكن يقوم على التزام بتسوية مستقبلية للعمليات (عقود بأجل - سعر العملات .. الخ) بدلا من العمل فى الانتاج أو تقديم الخدمات .

إن الدور الأساسى للبنوك إنما يتلخص فى جمع المدخرات وإستثمارها فى مجال الإنتاج إلا أنه قد تغير بصورة حتى أن رءوس الأموال أصبحت تستخدم فى المراهنة على إرتفاع وأنخفاض رءوس أموال أخرى دون خدمة اقتصاد حقيقى .. فتحولت البنوك إلى صالات قمار وأصبحت كالطفيليات الضارة بالشركات المالية التى يلعب فيها بالولد الذهبى وعلى تذبذبات الأسعار .

تلك هى الحداثة التى نرفضها .

وعندما أقول نحن فإننا لا أقصد المسلمين وحدهم ولكن كل من يعتقد أن للحياة معنى . فالنطق بكلمة الله يعنى الاعتراف بأن للحياة معنى وأننى مسئول عن اكتشافه وتحقيقه .

ولا تقولون لنا أننا نحكم على الحداثة الغربية من منطلق إنحرافاتها وإنحلالاتها: فالنهاية التى آلت إليها الآن تلك الحداثة والتى تعرض بقاء كوكبنا للخطر - هى على العكس من ذلك ، نهاية منطقية بحتة فرضياتها الأولى التى تم تعريفها منذ عصر النهضة . وقد تنبأ شكسبير فى دقة أثينا وسرفانت فى دون كيشوت بما سوف تئول إليه الحضارة القائمة على هيمنة المال وهما لم يشهدا إلا بداياتها أما اليوم فنحن شهود على نهايتها وفاعلون لاراديون لها وأعنى بتلك النهاية فقدان الحياة والعالم لكل معنى .

وقد أثبتت كل الفرضيات الأولى لتلك الحداثة المزعومة كذبها وإفتراءها .

ويأتي في المقام الأول الفرضيات الأولى الخاصة بالديمقراطية وبالدفاع عن حقوق الإنسان فدوما كانت الديمقراطية تعتيما لأقلية يمتد نطاقها من ملاك العبيد إلى ملاك الثروات . فالديمقراطية التى يطلق عليها اسم ديمقراطية أثينا وعرف بها عهد بريكليس والتى تعتبر نموذجا لأم الديمقراطيات لم تكن إلا حكم ٢٠ ألفا من المواطنين الأحرار لمائة ألف عبد محرومين من جميع الحقوق .

الديمقراطية للسادة

ينادي إعلان استقلال الولايات المتحدة بالمساواة فى الحقوق لكل البشر ، وعلى الرغم من صدور هذا الإعلان الرسمى ، ظلت العبودية قائمة بعده لما يزيد عن قرن أما التمييز العنصرى ضد السود فمازال قائما حتى يومنا هذا .

ويؤكد إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذى أصدرته الثورة الفرنسية على ما يلى يولد كل البشر احرار ومتساوون فى الحقوق إلا أن الدستور الخاص باقتراع دافعى الضرائب - والذى جاء هذا الإعلان فى ديباجته - يحرم ثلاثة أرباع الفرنسيين من ممارسة حقهم فى التصويت لأن فقرهم يجعل منهم مواطنين سلبيين .

وبوسع كل فرد أن يستند إلى حقوق الإنسان فالمساواة تكون كاملة أمام القانون . فلكل من العاطل والملياردير نفس الحق فى تأسيس جريدة أو إنشاء قناة تليفزيونية . وهذه المساواة أمام القانون تكون تامة بدرجة لا تعرف معها الإستثناءات . فمحظور على هذا الملياردير كما هو على هذا العاطل سرقة رغيف خبز وإذا ما حدث ذلك فسوف يحكم عليهما بنفس العقوبة .

هذه الأمور كلها منصوص عليها فى إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ وفى قوانين الدول التى يقال عنها ديمقراطية كما تتحدث تلك القوانين عن حق العمل لملايين العاطلين علاوة على حق التصويت . ولكن هناك قوانين أخرى أكثر إلزاما تسود فى الواقع : فلقد حلت الورقة النقدية محل البطاقة الانتخابية .

ليس فقط لأنه فى الولايات المتحدة - على سبيل المثال - يحتاج الشخص ٥٠٠ مليون دولار للقيام بحملة إنتخابية ليصبح عضوا فى مجلس الشيوخ أو النواب ولكن لأن الثروات فى كل تلك الدول تسمح بشراء الأداتين الرئيسيتين للحكم ألا وهما: وسائل الاعلام من أجل التأثير على الرأى العام وصناعات التسليح لإقناعهم فى نهاية الأمر .

وهذا لا يمثل انتهاكا لمبادىء الديمقراطية الليبرالية البورجوازية ولكن تطبيقياً حرفياً لها : فلقد كتب بوضوح الفيلسوف الإنجليزى . ج . لوك الذى كان يعرف عن تجربة أسس أول «ديمقراطية» أوربية وهي الديمقراطية الإنجليزية وممارستها فى كتابه «دراسة ثانية عن الحكومة المدنية» : إن الهدف الأكبر الذى يسعى كل البشر إلى تحقيقه هو الإبقاء على الملكية . ويستنتج من ذلك وفى منطقية كاملة أن من لا يمتلكون يستبعدون من الديمقراطية .

وقد أكد الكاتب العظيم ديدرو عشية الثورة الفرنسية - في إحدى مقالات موسوعته التى حملت عنوان «النائب» - على الأفكار السياسية للوك حيث قال فى لهجة حازمة : «المالك وحده هو المواطن» .

وعلي الرغم من المظاهر الشكلية فإن نفس هذا المبدأ ما زال سائداً اليوم فى «ديمقراطياتنا» الليبرالية محققا حكم روسو فى «العقد الاجتماعى حين قال أبداً لم يحدث أن كانت هناك ديمقراطية» وذلك لسببين :

١- انعدام الإيمان العام فى الموت والحساب والحياة الأخرى .

٢- تفاوت الثروات .

ويحول هذان السببان دون تكون تلك «الإرادة العامة» التى تمثل حجر الزاوية لمفهومه عن الديمقراطية الحقيقية .

وقد برهن قرنان من التجربة على صدق نبوءة روسو التى أقامها على تجارب الماضى .

ويبدو اليوم واضحا للعيان كذب التماثل القائم بين الديمقراطية وحرية السوق هذا المبدأ المخادع للسياسة الأمريكية .

وتكمن وراء ذلك أسباب رئيسية ذكرها روسو وهى : لا يمكن التوصل لإرادة عامة إلا إذا كان للمجتمع بأسره أهداف مشتركة إلا أن السوق لا يعرف إلا إيرادات فردية لأفراد وجماعات يتصادمون ويتنافسون فيما بينهم كما فى الغاب . فوحدة السوق - من حيث المبدأ نفسه - نقيض الديمقراطية .

وينادى روسو بالثيوقراطية (نفس المرجع ص ٢٣٧) ولكنه يريدها أن تكون ديمقراطية لا تفسر الكنيسة إيمانها كما هو الحال فى العصور الوسطى الغربية بل يكون الإيمان قائما فى قلب كل عضو من أعضاء المجموعة وأن يكون مدركاً بذلك - على عكس ما هو قائم فى الفردية - أنه مسئول عن قدر الآخرين .

ومفهوم روسو هذا شديد الشبه بمفهوم القرآن الخاص بتفاوت الثروات : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» (سورة الإسراء - آية ١٦) أو

الاسلام والحداثة

مفهومه الخاص بالشورى حين جعلها ضرورية لرجال الدين من أجل إتخاذ القرارات المصيرية . وتجدر الإشارة إلي أن الشهادة التى يطالب بها روسو لا تتخذ من أى ديانة أخرى مرجعية لها وهذا هو الحال أيضا بالنسبة للقرآن الذى لا يزعم أنه يحمل للناس ديناً جديداً ولكنه يدعوهم إلى تلبية نداء الإيمان الموجود فى قلوبهم:

«بعد أن نفخ الله فى الانسان من روحه» (سورة الحجر ، آية ٢٩).كما أكد القرآن الكريم مراراً وتكراراً أنه «لا إكراه فى الدين» .

إذن يتبقى علينا التفكير - حين اعتبارنا للماضى فى الظروف المهيئة لنهضة إسلامية حقيقية تكون باعثا لحداثة جديدة .

إن التوسع الكبير للإسلام في القرن الأول الهجرى لم يكن أبداً غزواً عسكرياً فسكان شبه الجزيرة العربية كان عددهم ضئيلا إذا ما قيس بهذا التوسع الهائل كما أنه لا سبيل للمقارنة بين تقنياتهم العسكرية وتقنيات الإمبراطوريات العظمى مثل بيزنطة وفارس .

فللنجاح أسباب ثلاثة وهى :

١- تجديد دينى .

٢ - ثورة إجتماعية .

٣ - طفرة ثقافية .

- الإسلام ليس دينا جديداً ولد مع دعوة النبى محمد .

- الله ليس إله خاص بالمسلمين فكلمة الله «بمعنى» «الإله» هى ترجمة حرفية للكلمة التى تعنى الله الواحد فالمسيحى - الذى يتحدث العربية - يذكر كلمة «الله» حين يدعو الله فى صلواته وطقوسه.

- الإسلام يعنى الخضوع اللاإرادى والحر لله الواحد . وهذا هو القاسم المشترك الأعظم فى كل الديانات السماوية : اليهودية والمسيحية والإسلام منذ أن نفخ الله فى الإنسان من روحه حيث يقول الله فى كتابه العزيز . «ونفخت فيه من روحى» (سورة الحجر آية٢٩) أى منذ آدم أى منذ بدء الخليقة .

- وهكذا يعرف القرآن الإسلام بصورة واضحة ويأمر الله محمداً بأن يقول : «قل ما كنت بدعاً من الرسل» (سورة الأحقاف ، آية ٩)..

- وهو يذكر كثيراً بأنه ليس النبى الأول : «لقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين» (سورة ابراهيم، آية ٢٠ ، الحجر، آية ١٠ ، النحل ، آية ٤٣ ، الروم، آية ٤٧ ، غافر ، آية ٧٨).

ويقول القرآن : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (سورة آل

عمران ، آية ١٤٤) جميعهم كانوا رسلاً لإله واحد .

ويؤكد الله فى حديثه إلى نبيه على إستمرارية الرسالات النبوية (ما يسميه القرآن سنة) أو «حديث شريف» وكثيراً ما يأمره قائلاً :

«سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» (سورة الزخرف ، آية ٤٥ ، سورة يونس ، آية ٩٤ ، سورة النحل، آية ٤٣ ، سورة الأنبياء ، آية ٧) .

وفى القرآن ، يأمر الله المسلمين بتكريم أنبياء اليهود ومسيح النصارى (سورة النساء ، آية ١٥١ سورة الحديد ، آية١٨) .

ويذكر الرسول محمد البشر أجمعين بالديانة الأولى : «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر لا يعلمون» (سورة الروم ، آية ٣٠)

وهذا النداء موجها لكل الشعوب يقول القرآن أن الله قد أرسل رسله لكل الشعوب وجعلهم يتحدثون لغتهم حتى تفهم رسالتهم وذلك يشمل من لم يتحدث عنهم القرآن مثل الهند والصين .

تحدد الرسالة الاجتماعية لمجتمع المدينة الشروط الواجب توافرها فى كل مجتمع انسانى أي الهى وهذه الرسالة هى رسالة الشريعة الرئيسية : الله وحده المالك ، الله وحده الأمر ، والله وحده العالم .

– الله وحده المالك «له ما فى السموات والأرض» (سورة البقرة ، آية ١١٦ ، ٢٨٤ سورة آل عمران ، آية ١٠٩)

الإنسان – خليفة فى الأرض – مكلف بإدارة هذا الملك فى سبيل الله

– وهذا المفهوم يتعارض مع مفهوم الحق فى قانون جوستان الذى يعرف الملكية بالحق فى الإستخدام وإساءة الإستخدام وعلى العكس من ذلك، فإن الواجبات – بالنسبة للمسلم– تأتى قبل الحقوق .

ولا يمكن للإنسان المسئول عن إدارة ملك الله أن يتصرف فيه كما يشاء – فلا يمكن له أن يدمره وفقاً لنزواته أو أن يبدده أو أن يترك الأرض بلا زراعة دون أن يجعلها تثمر بالعمل ولا يمكن له أيضا أن يجمع المال ويكنزه : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» (سورة التوبة ، آية ٣٤) واللعنة الكبرى فى القرآن موجهة ضد الثرى أبى لهب الذى تبينه ثرواته : «تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب» (سورة المسد ، آية ١ ، ٢ ، ٣) .

وكل تعاليم القرآن تنادى بالزكاة والتى تتمثل فى إنتقال إجتماعى للثروات كأحد متطلبات الدين وتحظر الربا أى كل زيادة فى الثروات بلا عمل فى خدمة الله .

وهى تعاليم تهدف إلى الحيلولة دون تكديس الثروات فى أحد قطبى المجتمع وتفشى البؤس والفقر فى القطب الآخر .

القفز على الأشواك

بقلم : د. شكرى محمد عياد

لغة النقد

●● «إن الأدب فى أمة من الأمم هو بمثابة مجمع خصوصياتها الثقافية ، فيه تتقاطع مسالك الأفراد والجماعات وعلى مرآته تنعكس صور التراكم الفكرى والإبداع الفني .. وعن كل ذلك تترتب خصوصية القاموس اللفظى الذى به يتم الأداء : فالمديح والنسيب والمقامة والموشح والوقوف على الأطلال ، كلها من المفاهيم المقيدة بالخصوصية العربية ، تماما كتلك التى ترتبط بخصوصيات الأمم الأخرى إذا تحدثنا عن الدراما والتراجيديا والأوبريت .. فإذا جئنا إلى النقد أنجزنا بصفة طبيعية التحول الكيفى من مجال الخلق الفنى إلى مجال إحكامه بأدوات ذهنية هدفنا بها السيطرة على الظاهرة بواسطة العقل».

ليس هذا كلامى ، ولا كلام واحد ممن تصيبهم أحيانا نوبة «الأصالة» فيطالبون بنظرية عربية فى النقد ، ولكنه كلام ناقد يعد بين أقطاب الحداثيين (الدكتور عبدالسلام المسرى) وكتابه الذى نقلت منه هذه العبارات «المصطلح النقدى» (تونس ١٩٩٤) يمكن وصفه إجمالا بأنه محاولة لوضع دستور لنقل المصطلحات النقدية الجديدة إلى اللغة العربية ●●

وإذا تحدثنا عن «النقل» ، لا نقل المصطلحات النقدية فقط بل نقل الثقافة عموما ، فيجب ألا نخادع أنفسنا ، فنحن ننقل منذ أكثر من مائة سنة ، وليس العيب فى أن ننقل عن الثقافة الغربية التى سبقتنا بعدة قرون ، ولكن العيب هو أننا لا ننقل بهمة كافية ، والدليل هو أننا وقد بدأنا حركة نقل الثقافة منذ عصر محمد على نجد أنفسنا اليوم أشد بعدا عن النهضة العلمية الحديثة مما كنا فى عهده .

فلنترك الكلام الآن عن حركة الترجمة وتعريب العلوم ، فشرحهما يطول ، ولنقتصر على لغة النقد وطوفان المصطلحات الجديدة التى لا يزال يفاجئنا بها النقاد الحداثيون . وقد كاد الأمر أن يصل إلى حد الانقسام - بل الحرب الأهلية أحيانا - بين قبيلة النقاد ، فهناك - مرة أخرى - أنصار القديم ودعاة الجديد ، ولكن الصراع يتركز هذه المرة على اللغة ، أو على قضية المصطلحات .

فمن قديم دخلت العربية مصطلحات تتعلق

بالفنون الأدبية المستحدثة (والمنقولة عن الغرب) فى الرواية والقصة والتمثيل وما يتعلق بها ، وعربت على الأقل فى البداية كلمات مثل روقان وتياتر إلخ . ، ولكن أنصار القديم لم يهتموا بهذه الترجمات والمعربات ، بل ولوها ظهورهم كأنها غير موجودة ، فى حين أن أنصار الجديد أنفسهم تركوها على الهامش . أما الآن فالأمر مختلف : فيمكن أن يكون الكلام عن عمل أدبى واحد ، قصة أو رواية أو قصيدة ، ولكن الناقد الحداثي يكتب عنه نقدا يبدو للناقد «القديم» شبيها بالألغاز ، فى حين أن الناقد القديم لو كتب عن العمل نفسه لنظر الناقد الحداثى إلى ما كتبه الآخر على أنه مجرد ثرثرة ، هذا لو نظر فيه أصلا . أصل الخلاف إذن هو اللغة ، أو «الخطاب» النقدى كما يحب أنصار الحداثة أن يقولوا . وهذا «الخطاب» نفسه كلمة نجحوا فى فرضها على اللغة المشتركة ، فأصبح خصومهم يتكلمون عن «الخطاب» أيضا ، بحكم أن لكل جديد بهجة ، وكلمة «الخطاب» أشيك من كلمة «اللغة» ، وربما حسبوا كذلك أن لهذا «الخطاب» صلة بما مر بهم فى أصول الفقة تحت اسم «دليل الخطاب» وجلية الأمر فى هذا «الخطاب» - حسبما استطعنا أن نفهم - أنه ترجمة لكلمة discours التى سبكها الفرنسى فوكو بناء على نظرية شبه ماركسية عن علاقة اللغة (أو الأسلوب) بالسلطة ، وثبات أسلوب معين تبعا لظروف معينة مهما اختلف الأفراد الذين يستعملون اللغة ، وهو ما أعطاه علماء الأسلوب الإنجليز اسما ساذجا لا يحمل أصداء فلسفة اجتماعية ما (register) . ومن هنا يتضح أن كل «خطاب» يرتبط بمؤسسة اجتماعية ما . فهل لدينا «خطاب» نقدى ، قديم أو حديث ، يتوافر له هذا الشرط ؟

البحث عن اصطلاح آخر

أما النقد القديم فالقول بأنه ينطوى على «خطاب» معين ، أو عدة خطابات معينة ، يحتاج إلى دراسة متأنية ، ويحتاج قبل ذلك إلى أن نقبل فلسفة فوكو الاجتماعية عن السلطة ، فإن لم تقبلها فعليك أن تبحث عن اصطلاح آخر ، أو تضع اصطلاحك الخاص . وأما «الخطاب» النقدى الحديث فعلينا أن نعترف بأنه خطاب مترجم ، مثل كلمة «الخطاب» نفسها . والترجمة ، كما قلنا ، ليست عارا على ثقافتنا فى هذا العصر ، كما أنها لم تكن عارا عندما ترجمنا علوم اليونان قبل أكثر من ألف سنة . وإنما العار أننا نسير فيها متباطئين ومتخبطين . كما أن من آفات الترجمة أن يتصدى لها من لا يحسنونها ، وأن يستخدم الألفاظ المترجمة من لا يفقهون معناها ، ولكنهم ينشرونها فى كلامهم لمجرد «الشياكة» ، أو للاستعلاء على الغير ، أو الانتساب إلى أهل الحداثة ، وهم فى كل أمة ابتليت بالتخلف ، وفى فئة النقاد كما فى كل فئة أخرى ، أهل الوجاهة الذين يتقدمون فى المحافل ، وتسند إليهم الرياسات .

فمصاب الحداثة ممن يتطفلون عليها أشد من مصابها ممن يسخفونها ولا يجدون فيها نفعا . ومن هؤلاء وهؤلاء يقول ناقدان جامعيان متخصصان فى الأدب المقارن ، الدكتور ميجان الرويلى والدكتور سعد البازعى : «غير أن مشكلة

الثقافات غير الغربية فى عالمنا اليوم ، ومنها الثقافة العربية بكل أسف ، تكمن فى أن من أفرادها من يقع على مالدى الغرب وقوع العطشان على الماء لا يستطيع إلا أن يعب منه عبا دون أن يقدم بديلا لما أخذ منه ، ودون تمييز لصافيه من كدره . تأتى البنيوية وما بعد البنيوية أو الحداثة أو ما بعدها فلا تكاد تجد إلا منافحا يحارب بسيوفها باسم التجديد ما يراه قديما لا يصلح لحياة ، دون أن يبالى فى خضم ذلك بما قد يكون فى سيوفه من فلول ، أو تجد متحجرا يجد فى كل جديد آفة ينبغى عليه (كذا) محاربتها دون أن يكلف نفسه عناء التفكير.» («دليل الناقد الأدبى» - الرياض ١٩٩٥)

هكذا يمكن أن نرجع الفوضى فى لغة النقد إلى حالة من الفوضى أعمق وأشمل، فوضى ثقافية أو فوضى حضارية إن شئت . والفوضى كما نلاحظ فى مختلف مظاهر الوجود ، لا يمكن أن تستمر .. فلابد أن يعقبها استقرار ، إما على حالة من الدمار حين تأكل القوى المتصارعة بعضها بعضا ، وإما على حالة جديدة متطورة تنصهر فيها العناصر الصالحة للبقاء، والقادرة على التفاعل ويذهب الخبث الذى علق بالخامات الأولى. وأنت تشم من هذا الكلام - ولا شك - أننا نكاد نخرج من دائرة النقد ، أو - إذا أردت مزيدا من الدقة - من دائرة نقد الأدب أو نقد النقد الأدبى إلى دائرة نقد الحياة . ولعلك ستقتنع - حين تنتهى من هذا المقال - أننا لا نقتحم تخوما بعيدة ، وأن سبيل نقد الأدب هو بالفعل سبيل نقد الحياة .

ولكن لنبدأ من الأصل . نحن نترجم ، ويجب أن نترجم ، وليتنا نستطيع أن نسمى عصرنا ، ولو فى وجه من وجوهه ، بعصر الترجمة . ولكن حركة الترجمة عندنا جزء من الفوضى الشاملة ، فنحن لا نترجم الأصول ، ولا نترجم ما نحتاج إليه ، وحسبك أننا لم نترجم العلوم الحديثة ولا الكتب الأصول التى شكلت الفكر الغربى . والمشكلة يجب أن تطرح لمناقشة جادة : هل الأوفق أن ننطلق من الأحدث (أخذا بفكرة «حرق المراحل» التى يتحدثون عنها فى الاقتصاد مثلا) أم أن الانطلاق من قواعدنا الحضارية يقتضى أسلوبا آخر فى الاختيار لتحقيق التطور الصحيح ؟ ولنترك هذه الدائرة الواسعة ولنبق فى حدود دائرتنا الضيقة - بل الشديدة الضيق - وهى دائرة النقد الأدبى الذى يعانى فى الوقت الحاضر هجوما كاسحا من المصطلحات النقدية الجديدة . لنفرض أننا نترجم الأعمال الأساسية فى هذا النقد (ونحن لا نهتم غالبا إلا بالأحداث ، بصرف النظر عن القيمة) . ولنفرض أننا نترجم بدقة وأمانة، وهما مستحيلتان بغير الفهم الواضح (وقلما تتوافر هذه الثلاثة فى مترجم) ولنفرض أيضا أن الدارسين الذين يستعملون هذه المترجمات يلزمون أنفسهم بفهم ما يقرأون قبل نقله (ونادرا ما يحدث ذلك) فماذا نفعل بكل هذه الكلمات الجديدة التى تملأ «فضاء» «النص» .

ولنبدأ بهاتين الكلمتين : «فضاء» و«نص» . هما كلمتان جديدتان أيضا ،

في مثل هذا السياق ، فالفضاء معروف والنص كذلك معروف ، ولكن «الفضاء» في الاستعمال العادي يتضمن معنى الخلاء أو الفراغ ، و«النص» كان – إلى أن تناوله النقد الحداثي – يشير إلى كلام معاد ، مع الإشارة إلى تدقيقه وضبطه ، ولذلك كانت تستعمل في نوع خاص من النشاط العلمي ، وهو «تحقيق النصوص» ، ولم يكن الشخص الذي يكتب قصة أو قصيدة يقول إنه يكتب «نصا» . فما الذي تغير في الاستعمال ؟ هل أصبح «النص» مكانا ذا أبعاد ثلاثة أو أربعة ، والكلمات أجساما يمكن أن تنضد في هذا المكان ، أو كائنات حية من نوع ما ، يمكن أن تسبح في «فضائه» ؟

ليست هذه محاولة للسخرية ، ولكنها تساؤلات يمكن أن تخطر في ذهن أي قارئ جاد . وقد يجد تفسيرا لها في أن النقد الحداثي يتجه نحو العلمية، ويصطنع لغة تشبه لغة العلوم البحتة (الرياضية والطبيعية) . وقد أصبح استخدام الخطوط والأشكال الهندسية في النقد الحداثي أمرا شائعا ، وموضوعا للتندر أحيانا ، ولكننا يجب ألا ننسى أن لغة العلم تستخدم المجاز أيضا ، وإن كانت القاعدة في المجاز العلمي (أو النموذج) هي المشابهة في الوظيفة ، لا المشابهة في التأثير الوجداني كما يفعل الشعراء ، وهكذا يمكن الكلام عن «نواة» الخلية، أو عن «ثقب» الأوزون . ولعلنا نستطيع أن نتجاوز الفهم الأسطوري (أو الخيالي) «لفضاء النص» لنقترب من اللغة العلمية التي يشرح بها النقد الحديث بنية اللغة الشعرية، حين نقرأ هذه العبارة المشهورة: «إن الوظيفة الشعرية هي إسقاط مبدأ التعادل من محور الاختيار في محور التضام» .. هذه العبارة التي كثر تداولها عن أحد أقطاب البنيوية «رومان جاكوبسون» ، نجد لها شرحا في كتاب «المصطلحات الأدبية الحديثة» للدكتور محمد عناني (القاهرة ١٩٩٦) (ص ١٣) ، مترجما عن بنيوي آخر «جوناثان كلر» :

«وأدى ذلك إلى دراسة طرق توزيع العناصر المتعادلة من حيث انتمائها إلى نموذج واحد (أي التي ترتبط بعلاقات الانتماء إلى طبقة واحدة ، نحوية كانت أو معجمية أو صوتية) في تتابعات لغوية (على محور التضام) ».

ولا بأس بأن نزيد الشرح شرحا فنقول إن هناك أنواعا من علاقات التشابه والتضاد والتقارب والتباعد بين الوحدات اللغوية (ابتداء من الحروف حتى أشباه الجمل والجمل) . ونحن حين نهم بقول ما، نستحضر في عقولنا – بطريقة شبه تلقائية لأنها صقلت بكثرة التكرار – مفردات نتخير بعضها دون البعض ، وطبيعي أن الكلمات أو الوحدات التي تحصل في أذهاننا تكون بينها تلك العلاقات التي أشرنا إليها . ومجموع هذه العلاقات تؤلف ما يسميه اللغويون النموذج Paradigm ، وبما أننا نتوقف – ولو لحظة قصيرة – لنقوم بعملية اختيار من داخل هذا النموذج ، فهم يسمون هذا الجانب من النشاط اللغوي بالمحور الرأسي . ولكن النشاط اللغوي لا يتم إلا بجانب آخر ، وهو ضم

بعض العناصر إلى بعض لتكون سلسلة مترابطة . وعندما ننطق بهذه السلسلة أو نكتبها نكون قد قمنا بعمل لغوى ، أى نكون قد بلغنا «رسالة» إلى مستمع أو قارىء .

● مبدأ الاختيار

هذا ما يحدث فى كل اتصال لغوى ، ولكن الناقد الأدبى الحداثى مشغول بنوع خاص من الاتصال اللغوى ، وهو القول الفني من شعر أو نثر . ومن ثم يبحث عن الخاصية التى تميز هذا القول الفنى ، داخل كل الأقوال التى تنطبق عليها القاعدة اللغوية العامة :قاعدة المحور الرأسى والمحور الأفقى . فيلاحظ أن مبدأ الاختيار من بين مفردات النموذج، وهو المبدأ الذى يحكم المحور الراسى ، ينتقل إلى المحور الأفقى ، فنجد فى السلسلة اللغوية ما نسميه مجازا أو استعارة أو جناسا إلخ .

واضح إذن أن النقد الأدبى الحداثى ينطلق من علم اللغة ، ويستخدم بعض مصطلحات هذا العلم . وواضح أيضا أنه يريد أن يكون نقدا علميا ، ومن خصائص المنهج العلمى أنه يبحث عن قوانين عامة ، ومن ثم يحتاج إلى عدد من المصطلحات التى يمكن أن تجمع الحالات الجزئية الكثيرة تحت اسم واحد ، ولا بأس بأن يستعير هذا الاسم من العلوم الرياضية أو الطبيعية إذا كان وافيا بالغرض . وأهم من هذا فى المنهج العلمى أن يقتصر البحث عن جانب محدد من الظاهرة المدروسة . فإذا كنا نطلق اسم العلوم الطبيعية على مجموعة كبيرة من العلوم منها ما يختص بتركيب المادة غير الحية (الكيمياء) ومنها ما يعنى بخصائص المادة وتأثيراتها (الطبيعة) ومنها ما يقصر اهتمامه على تركيب نوع معين من المادة الحية (فسيولوجيا الحيوان أو النبات) - إلى آخر هذه الفروع التى يتفرع كل منها بدوره إلى تخصصات أدق - فكذلك يرى الناقد الحداثى (العلمى) أنه يختص بدراسة نوع معين من اللغة ، وهى اللغة الشعرية .

هذه المحاولة الطموحة ، والتى تبدو تقدمية جدا ، تخلق لغة خاصة للنقد ، لا تشبه اللغة العادية التى ألفها الكتاب والقراء حين يتحدثون عن الأدب ، كما أنها لا تشبه اللغة «المتخصصة» القديمة التى التصقت بالظواهر الجزئية وحشدتها تحت اسم البيان أو البديع . ولكن «الفوضى» التى أشرنا إليها لا ترجع إلى تعارض هاتين اللغتين فحسب ، بل إلى كون اللغة النقدية الجديدة ، فى منبعها الأصلى ، لم تتجاوز مرحلة التكوين إلى مرحلة النضج ، بينما ظلت اللغة النقدية القديمة حبيسة ما نسميه ظلما «التراث» ، وما هو إلا قشور التراث، والحقيقة أنها مهجورة مجفوة منذ بدايات النهضة الأدبية الحديثة .

وأهم من كل ذلك ، المشكلة التى صدرنا بها هذا المقال ، مقتبسين عبارات ناقد «حداثى» كبير . أعنى مشكلة استيعاب فكر منقول ، فى داخل لب اللب من ثقافة لها خصائصها المميزة العميقة الجذور .

أقـــوال معـاصـرة

● «الثقافة السائدة داخل المجتمعات العربية تتسلط فيها تيارات النقل على تيارات العقل.»

الدكتور جابر عصفور

● «المرأة مثل الوردة أو الزهرة ، ترويها وتحتفظ بها لنفسك في البيت ، لتراها وتتنفسها.»

سيد حياء الدين

القائم بأعمال وزير التعليم

فى حكومة طالبان بأفغانستان

● «العنف فريضة والديمقراطية شرك.»

أبو محمد المقدسى

أحد زعماء العرب الافغان

● «ليس لدينا فلاسفة ، نحن فقط عارضون لفلسفة الآخرين.»

الدكتور محمد فتحى عبدالله

رئيس قسم الفلسفة بكلية آداب جامعة طنطا

● «أشفق على السينما الفرنسية لأنها تفتقر إلى الأموال، وأشفق على السينما الأمريكية لأنها تفتقر إلى الأفكار.»

رائد الموجة الجديدة الفرنسية - جان لوك جودار

● «النساء تستحق حقوق الانسان كاملة، غير منقوصة.»

كاتا بوليت

الصحفية الأمريكية صاحبة كتاب مخلوقات عاقلة

● «الغد ملك النساء.»

جاك لانج - وزير الثقافة الفرنسية الأسبق

● «الملكية الخاصة شيء بغيض.»

بول اردوس - عالم الرياضيات الذائع الصيت

● «أنتم يامن سرقتم المال، واستثمرتموه هنا في زائير لا في الخارج .. اهنئكم!!.»

موبوتو سيسى سيكو كوكو -رئيس جمهورية زائير

● «إن توقفت عن الضحك ، فقدت صوابي.»

نجمة الإغراء شارون ستون



د . جابر عصفور



موبوتو



شارون ستون

ماذا حدث للمصريين ؟!

بقلم : د. عبدالعظيم أنيس

عندما قرأت فى أعداد الهلال الماضية هذا السؤال مطروحا فسرته على أنه سؤال استنكارى، أى أنه يستنكر ما وصلت إليه أحوالنا، ويتساءل عن السبب!

كان هذا تفسيرى الشخصى ، وهو سؤال صحيح واستنكار حقيقى أيضا فى تقديرى الشخصى ، خصوصا أن أجهزة إعلامنا تدير طوال النهار والليل أغانى الفخار وأحاديث الزهو مع أن واقع حالنا يثير الرثاء، ويقتضى من كل مفكر جاد أن يبحث عن إجابة حقيقية ، حتى ولو لم ترق هذه الإجابة للذين لا يعجبهم الاعتراف بحقائق الأمور .

وبالطبع فإن هذا السؤال يثير جوانب عديدة من الأسئلة ، بعضها يتعلق بأوضاعنا الاقتصادية وبعضها يتعلق بأوضاعنا الاجتماعية ومنظومة القيم التى تدهورت خلال العشرين سنة الأخيرة ، وبعضها يتعلق بأداء جهاز الدولة ذاته . ومصر دولة مركزية تاريخيا منذ ألوف السنين بسبب النيل ومركزية الرى وضيق الوادى المأهول بالسكان ، لكن هذه المركزية تخلخلت فى العقدين الأخيرين ولا أتذكر شبيها لها فى تاريخ حياتى إلا فى السنين الأخيرة من الاربعينيات وأوائل الخمسينيات ، باستثناء قبضة الدولة على قضية «الأمن» التى لا تزال قوية . .



زحام .. زحام



مهرجان الاسكندرية السينمائى عام ١٩٩٦

ونظرا لتشعب البحث فى كل هذه الجوانب ، فسوف أقتصر على أداء جهاز الدولة فى العديد من النواحى المتصلة بحياة الشعب اليوم ، وهو أداء يصدق عليه تعبير د. جلال أمين «بالدولة الرخوة» فى بعض مقالاته فى الهلال ، وبمعنى آخر نحن بصدد وصف حالة التسيب التى لا تصدق .

وأبدأ بموضوع «مهرجان الاسكندريات» الذى جرى مؤخرا فى الاسكندرية بترتيب من محافظة القاهرة وهيئة تشجيع السياحة بالاسكندرية ، ودعى له عدد من الفرق الفنية والشخصيات الاجنبية ، وكان الهدف منه تنشيط السياحة فى مصر كما قيل .

لكن هذا المهرجان تحول إلى فضيحة بكل المقاييس ، لا لمحافظة الاسكندرية أو هيئة تنشيط السياحة فقط ، وإنما لمصر كلها . ويكفينى هنا أن أسرد بعض ما كتبه الاستاذ محمود كامل (المحرر المسئول عن شئون السياحة بالاهرام) فى عدد ٣ أكتوبر من الصحيفة :

فقد قال إن رصيد المهرجان الذى بلغ عشرة أيام دون داع هو عرض واحد لأوبرا عطيل بلغ عدد مشاهديه ثمانين متفرجا جلسوا وسط ثلاثة آلاف مقعد خال. وفى العرض الثانى انسحب الفنانون بعد الفصل الأول وناشدوا الجمهور أن يتدخل لاسترداد حقوقهم المالية ، ووصل التسيب إلى حد قطع الكهرباء عن المسرح أثناء العرض ، وأصبحت كل الاطراف المشتركة فى المهرجان زبائن دائمة التردد على أقسام الشرطة يقدم كل منهم بلاغا فى الآخر . وقال محمود كامل فى تعليقه هذا وفى إشارة واضحة إلى مسئولية محافظ الاسكندرية : «إن المهرجان بدلا من أن يكون مناسبة دولية تدعم الدعوة لزيارة مصر تحول إلى لطمة على وجه التنشيط السياحى بسبب عنجهية بعض المحافظين الذين يتصورون أن أى محاولة للمعاونة هى تدخل مرفوض فى الشئون الداخلية لامبراطورياتهم التى يديرها كل منهم بمنطقه الخاص بعيدا عن سلطان الدولة الأم» ويختتم تعليقه قائلا : «إن على الذين لا يفهمون فى المهرجانات أن يتفرغوا - على الأقل - لتنظيف الشوارع من تلال القمامة وإيقاف مسلسل الحفر وأن يوقفوا صرف المجارى فى البحر . هذه هى مهامهم الاصلية أما المهرجانات فلها أناس آخرون» .

سوف اكتفى بهذا ولن أذكر ما قاله الآخرون فى الصحافة المصرية عن نفس هذا الموضوع .

وأتساءل : كيف حدث هذا ؟ ولماذا لم يتخذ إجراء رادع من المسئولين عنه ؟

نحن نعلم من حديث رئيس الوزراء د. الجنزورى فى الاهرام منذ أسابيع قليلة أن الرئيس مبارك اتصل به تليفونيا عقب محاولة سرقة المتحف المصرى مؤخرا وسأله : كيف يحدث هذا ؟ وقد أدى هذا إلى إعفاء مسئول الآثار فى وزارة الثقافة وتشديد آليات الحراسة على المتحف المصرى الذى لا تقدر محتوياته بثمن ،

وإن كنت قد تمنيت أيضا أن يؤدى هذا إلى إعفاء الشخص المسئول عن شرطة السياحة والآثار كذلك .

وقد تمنيت أن يكون الرئيس مبارك قد اتصل بمحافظ الاسكندرية ووزير السياحة يسألهما : كيف حدث ماحدث فى مهرجان السكندريات ؟ وأن يكون قد اتخذ إجراء رادعا لمحاسبة المقصرين وللاعتذار للفرق والشخصيات الأجنبية التى شاهدت كل هذا العبث الذى لا يحدث حتى فى بلاد الواق الواق ؟

وليس معنى إعفاء أى مسئول كبير عن منصبه عند وقوع خطأ ما أن يكون هو نفسه مسئولا مسئولية مباشرة عن الخطأ، ففى كل بلاد العالم عندما يقع خطأ كبير فى وزارة أو مؤسسة ما يستقيل المسئول الأول سواء أكان وزيرا أو مديرا لأنه مسئول مسئولية أدبية أحيانا أو غير مباشرة أحيانا أخرى . لقد أعفينا مدير مصلحة السكة الحديد من منصبه بسبب تكرار حوادث تصادم القطارات مع السيارات عند المزلقانات ، وكان هذا ضروريا ، لكن الأكثر ضرورية هو وضع الاساليب والحلول التى تمنع تكرار هذه الحوادث .

★ ★ ★

فإذا تركنا هذا الجانب ونظرنا إلى ما يحدث فى قطاع الأعمال من فساد واسع النطاق وسرقات بالملايين ، أذهلنا هذا الحد من تراخى الدولة فى مواجهة هذا الفساد . والقصة الأخيرة عن هذا المسئول فى قطاع الأعمال الذى قيل إنه سرق أربعين مليون دولار ، ولم يعد منها غير تسعة عشر مليون دولار فقط بعد ضغوط شديدة ، وكيفية اكتشاف الموضوع بالمصادفة ، إنما هو دليل واضح على حالة التسيب فى أجهزة الدولة المختلفة .

لقد دخل هذا الرجل السجن مؤخرا ، لكنه بقى طليقا زمنا طويلا بعد افتضاح موضوعه ، بل لقد تحدى المسئولين فى حديث بمجلة روز اليوسف أن يحاكموه .

ولا ينبغى أن يقال هنا إن الفساد موجود فى كل بلدان العالم .

نعم الفساد موجود فى كل بلدان العالم ، لكنه ليس بهذا الاتساع كالمرض المستفحل فى بلد فقير تتسع الفجوة باستمرار بين أغنيائه وفقرائه .

وسوف نستشهد بخطاب رئيس البنك الدولى الذى ألقاه منذ أيام فى الاجتماع السنوى المشترك لصندوق النقد والبنك الدوليين . لقد طالب الدول النامية - وقادتها خصوصا - بالتصدى لسرطان الفساد إذا أرادوا جذب استثمارات أجنبية ، وقال إن مواطنى هذه الدول يطالبون بإجراءات فعالة لأنهم يعلمون أن الفساد يستنزف مصادر الثروة ويلحق الضرر بالدعم المطلوب لبرامج المعونة .

★ ★ ★

وإذا تركنا مجال الفساد المالى وانتقلنا إلى ميدان آخر ، هو مجال المرور فى شوارع القاهرة والمدن الأخرى فى

مصر ، لهالنا ما وصل إليه الحال من فوضى شبه كاملة فى ميادين عامة عديدة فى القاهرة وفى شوارع رئيسية ، فلا احترام لإشارات المرور الحمراء أو الخضراء ، أو لاتجاهات المرور إذا كان اتجاها واحدا . ومازلت أتذكر أننى منذ عامين صحبت فى سيارتى أستاذا بريطانيا للرياضيات هو وزوجته كانا يزوران مصر لمدة شهر لإلقاء سلسلة من المحاضرات بجامعة عين شمس ، عندما كانا يرغبان فى مشاهدة آثار مصر الفرعونية والاسلامية وقد أذهلتهما حالة المرور فى مدينة القاهرة . وقال الرجل إنه زار عددا من البلدان العربية منها الكويت والأردن ولم يشاهد فى تلك البلدان حالة الفوضى المرورية الموجودة بالقاهرة .

وكم سمعنا من وزراء داخلية فى السنوات العشر الأخيرة عن قرارات وحملات اعادة الانضباط المرورى فى الشارع المصرى ، فإذا بهذه الحملات المعلنة فى الصحف لا تتمخض عن شىء ذى بال أو تستمر أياما ثم ترتخى القبضة بعد ذلك . وربما كان السبب فى هذه الظاهرة أن الحلول المتخذة إنما هى بمثابة مسكنات للمشكلة ولا تنفذ إلى صميم المشكلة الذى يتطلب حلولا جذرية من نوع آخر .

ونستطيع أن نضيف إلى مشكلة المرور حوادث تصادم السيارات المتكررة – خصوصا فى طرق الصعيد – والتى تؤدى كل يوم إلى وفيات بالعشرات مما تمتلىء به صفحات الحوادث بالصحف اليومية ، وحوادث غرق العبارات فى البحر الأحمر المتمثلة بالحجاج ، أو فى النيل كما حدث مؤخرا ومات فيه أكثر من أربعين .

نعم إن حوادث تصادم السيارات أو غرق العبارات تحدث فى العديد من بلدان العالم ، لكنها لا تحدث بهذه الكثرة ، وتكرار وقوعها دليل على خلل ما فى أحد أجهزة الدولة المسئولة عن هذه الأمور ، ولا يمكن أن ننسبها إلى مجرد خطأ فردى أو إلى المصادفة .

★ ★ ★

وهل من الضرورى أن نشير إلى دورة أتلانتا للأوليمبياد ، والنتائج السلبية التى حققتها الفرق المصرية فى كل الألعاب ؟

لقد كنت آنذاك فى كندا ، وكنت أتابع كل يوم عن طريق التليفزيون أحداث ومباريات الدورة الأوليمبية فى أتلانتا ، وسعدت فى يوم الافتتاح برؤية الوفد المصرى حاملا علم مصر ، وتوقعت أن نحصل على القليل من الميداليات الذهبية أو الفضية أو حتى البرونزية فى بعض الألعاب مثل السباحة وحمل الأثقال والاسكواش .. إلخ .. لكنى فوجئت بأن كل المشتركين من مصر خرجوا فى التصفيات قبل النهائية ، ولم يدخل المسابقات النهائية واحد منهم .

لقد حصلت فتاة من الحبشة على الميدالية الذهبية فى الجرى ، وكذلك فتاة من سوريا ، وشاب من نيجيريا

أو بوروندى . لكننا لم نحصل على شيء على الإطلاق رغم الملايين التي ننفقها على أجهزة الرياضة فى مصر . أليس هذا دليلا على الخلل والتسيب الذى أصاب أجهزة الرياضة فى مصر ؟ ومتى يحدث إعفاء للمسئولين الكبار إن لم يحدث فى مثل تلك المناسبة ؟

* * *

إننى لو أردت أن أحدد حصرا كل المجالات التى يظهر فيها التسيب فى كل أجهزة الدولة فربما احتجت إلى تأليف كتاب كامل لا مقال واحد . لكنى سوف أختتم هذا العرض السريع بالاشارة إلى حالة التسيب فى منح شهادات الماجستير والدكتوراه فى العديد من جامعاتنا ، وإلى أخطاء تصحيح الثانوية العامة فى العام الماضى على وجه الخصوص . لقد طعن مئات من الطلاب أمام مجلس الدولة فى نتائج تصحيح أوراق امتحاناتهم ، وأثبتت الاحكام صحة هذه الطعون فى العديد من الحالات ، ووصل بعضهم إلى حد الحصول على أربعين درجة زيادة نتيجة مراجعة مجلس الدولة لأوراق الامتحان ، بل وصل الأمر إلى أن أصدر مجلس الدولة حكما بإعطاء طالب ضاعت أوراق امتحانه الدرجة النهائية . وعندما طعن الوزير فى الحكم رفض مجلس الدولة الطعن ، ومازال هذا الطالب منذ العام الماضى بلا كلية بسبب ضياع أوراقه وموقف الوزارة المتعنت حتى اليوم .

وأود أخيرا أن أعبر عن خشيتى من أن تتحول شهادات الجامعات الخاصة التى تستهدف الربح والتى يمولها مستثمرون لا صلة لهم بالتعليم الجامعى من قريب أو بعيد - إلى سلع تباع وتشترى كما يحدث فى الأسواق ، وكما يحدث فى مثل هذه المعاهد الاستثمارية فى الخارج .

* * *

ويبقى السؤال المطروح : لماذا حدث هذا ؟

أعتقد أن الاجابة على هذا السؤال متشعبة ، لكن أحد جوانبها الرئيسية يتمثل فى رأيى فى سياسة الانفتاح كما طبقت وما أدت إليه من نتائج سلبية . إننى لست ضد القطاع الخاص ، فقد كنت ومازلت أؤمن أننا فى حاجة إلى قطاع خاص نشيط فى مصر ، لكننا فى حاجة أيضا إلى قطاع عام كفء فى مجالات رئيسية من النشاط الوطنى لا يستطيع القطاع الخاص دخولها ، وفى حاجة إلى استخدام جزء محترم من مدخراتنا كاستثمارات جديدة ، وفى حاجة إلى وضع حد أعلى للدخول وحد أدنى للاجور، وفى حاجة إلى انضباط حقيقى ، وإلى المحافظة على ثروة مصر فى يد المصريين ، وإلى مزيد من الانفاق فى الخدمات .

أما الانفتاح الذى هو سداح مداح - كما قال صديقنا المرحوم أحمد بهاء الدين - فلن يؤدى إلا إلى ما نحن فيه اليوم ، مهما حاول الاجانب أن يخدعونا بالقول بأننا على وشك الانطلاق .

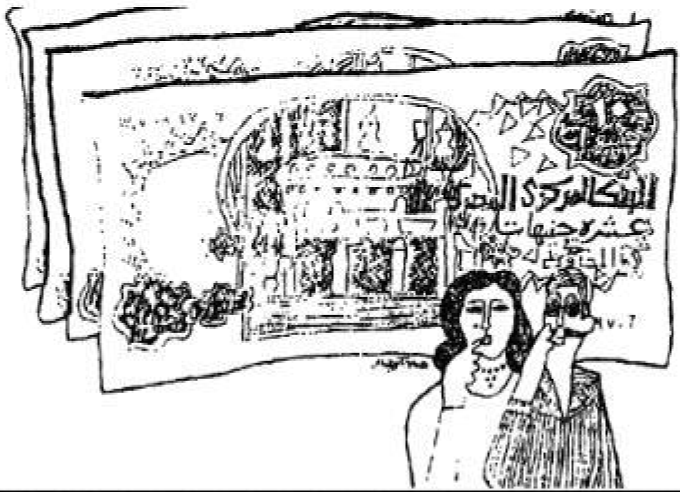
ماذا حدث للمصريين؟

إن فاتك الميرى...

صفحة من تطور مصر الاجتماعى فى نصف قرن

بقلم : د. جلال آمين

عندما تقدم أبى لخطبة أمى فى أوائل الحرب العالمية الأولى (أي منذ نحو ثمانين عاما) كان من المزايا التى رشحته للقبول لدى أهل الفتاة، انه كان يشغل «وظيفة ميرى» ، أى يعمل فى هيئة حكومية .. كان مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى ، ومن ثم يخضع لنفس قواعد التعيين والتثبيت والترقية والمعاش الحكومية ، وهذه القواعد كانت وقتها توفر للشخص الخاضع لها حياة كريمة وأقصى درجات الاستقرار والاطمئنان إلي المستقبل. ترتب علي ذلك أن كل أسرة لها بنت في سن الزواج، ولكنها لاتنتمى لطبقة الملاك الزراعيين الكبار، ومن ثم لايمكن أن تطمح فى أن يتقدم لابنتها صاحب أطيان ثري وإن كان عاطلا عن أى عمل ، مثل هذه الأسرة لم يكن من الممكن أن تجد لابنتها زوجا أفضل من رجل ينتمي بشكل أو بآخر إلي الحكومة ، أى إلى «الميرى» هكذا انتشر المثل المصرى الشهير «إن فاتك الميرى تمرغ فى ترابه.» ، وكان هذا هو المقصود بالطبع : ليس هناك أفضل من الوظيفة الحكومية .



المجتمع المصرى منذ ثمانين عام

لم تكن فى الأمر أية غرابة فى ذلك الوقت . كان من الممكن قبل الحرب العالمية الأولى تقسيم المجتمع المصرى إلى طبقات من حيث الدخل والثروة والمركز الاجتماعى على النحو التالى : طبقة عليا لايمكن أن تزيد نسبتها على واحد فى المائة من السكان ، وطبقة دنيا قد تزيد نسبتها على ٩٠٪ وطبقة وسطى لاتزيد نسبتها على ١٠٪ من السكان . وحيث إن اجمالى سكان مصر فى هذا الوقت كان نحو ١٢ مليونا، فإنه من الممكن القول بأن السكان كانوا ينقسمون بالتقريب إلى عشرة ملايين ممن يمكن وصفهم بالطبقة الدنيا وأقل قليلا من مليونين من الطبقة الوسطى تعلوها طبقة رقيقة للغاية ربما لايزيد عددها على مائة ألف نسمة هى الطبقة العليا .

وحيث إن نسبة كبيرة من الطبقة الوسطى كانوا من الأجانب «سواء من بين ملاك الأراضى الزراعية أو من التجار أو المهنيين» وأن نسبة المشتغلين من الطبقة الوسطى بالصناعة كانت هزيلة للغاية، وأن الملكية الزراعية كانت تتسم باستقطاب حاد بين عدد قليل من الملاك الكبار وغالبية من المعدمين أو شبه المعدمين ومن ثم كانت الطبقة الوسطى الزراعية صغيرة بدورها، فإن جزءا كبيرا (ربما كان هو الجزء الأكبر) من الطبقة الوسطى من المصريين فى ذلك الوقت كان يحصل على دخله بشكل أو بآخر من الحكومة : إما مشتغلين بالتعليم أو شئون الزراعة والرى وغيره من الأشغال العامة، أو بالصحة العامة أو الأمن أو الجيش أو القضاء ، أو بشئون الضرائب والأوقاف والمساجد، أو المواصلات ، أو بالكهرباء

ومياه الشرب اللتين كانتا تكادان تقتصران اقتصارا تاما على سكان المدن الذين لم تكن تتجاوز نسبتهم إلى مجموع السكان ٢٠٪ قبيل الحرب العالمية الأولى .

لا أعرف أحدا من أسرة أبي أو أسرة أمي ، قبل الحرب الأولى، كان يحصل على دخله كله، أو دخله الأساسي ، من مصدر غير الحكومة . لم يكن أي من أفراد الأسرتين يشتغل بالتجارة أو الصناعة أو يعمل في بنك أو كان طبيبا أو محاميا أو يعمل في الصحافة. إلخ ، كان منهم المدرس أو القاضي ، أو الموظف بوزارة الأوقاف أو بمصلحة الآثار .. إلخ. نعم ، كان منهم من يملك قطعة صغيرة من الأرض الزراعية التي تدر عليه بعض المال ولكنها لم تكن تكفي لمتطلبات الحياة. كانت الوظيفة الحكومية لهم جميعا هي المصدر الأساسي أو الوحيد للدخل.

وعلى الرغم من كل ما طرأ على مصر من تطورات اقتصادية واجتماعية في النصف الأول من القرن . ظلت الصورة العامة في منتصف القرن، من حيث المركز النسبي «للوظيفة «الميري» كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى - لقد زاد بالطبع ، خلال تلك الأربعين عاما الفاصلة بين بداية تلك الحرب وبين ثورة ١٩٥٢ ، حجم الطبقة الوسطى المطلق ونسبتها إلى مجموع السكان ، مع انتشار التعليم، ومن ثم زيادة عدد المهنيين ونمو الصناعة ، بسبب الحربين العالميتين وجهود طلعت حرب وشركات بنك مصر ، ومع ذلك لم يكن حجم الطبقة الوسطى المصرية في منتصف القرن يزيد على ٢٠٪ من السكان، أي نحو أربعة ملايين من نحو ٢٢ مليونا من السكان . من بين هذه الملايين الأربعة كان هناك بالطبع عدد أكبر بكثير (بالمقارنة بالحال قبل الحرب الأولى) من المشتغلين بالمهن «الحرة» ، التي كان يقصد بوصفها «بالحرة» أن أفرادها ليسوا من موظفي الحكومة ، كالأطباء والمحامين والمهندسين العاملين لحسابهم والفنانين .. إلخ . كما زاد حجم المشتغلين بالتجارة والصناعة بالنسبة إلى إجمالي السكان ، ومع هذا فقد ظل موظفو الحكومة والمعتمدون في دخولهم الأساسية على الحكومة يشكلون نسبة عالية من الطبقة الوسطى من المصريين في منتصف القرن، ولعلهم كانوا يمثلون معظم هذه الطبقة . ذلك أن الطبقة المتوسطة من الملاك الزراعيين لم تنم نموا كبيرا خلال النصف الأول من القرن بل زاد الاستقطاب في الملكية حدة بين كبار الملاك وصغار الملاك أو المعدمين . وكثير من أفراد الطبقة المتوسطة التي كانت تملك أرضا زراعية كانوا يعملون في الحكومة في نفس الوقت. وعلى الرغم من النمو

الصناعي فإن نسبة المشتغلين بالصناعة إلى إجمالي السكان لم تزد بدورها زيادة كبيرة، فلم تكن النهضة الصناعية بهذا القدر. وأما المهنيون، فإنه من المؤكد أن نسبتهم إلى اجمالي السكان قد زادت بدرجة ملحوظة خلال تلك الفترة بسبب التقدم الكبير في التعليم، ومع هذا فإن معظم هؤلاء قد استوعبهم القطاع الحكومي: إما كمدرسين، أو في مختلف الخدمات الحكومية الأخرى، الصحية والأمنية والقضائية والأشغال العامة.

مركز الوظيفة «الميرى» قبيل الثورة

في منتصف القرن إذن، ظل المثل السائر «إن فاتك الميرى تمرغ في ترابه» صحيحا تماما، إذ ظل صحيحا أنه إذا لم تكن مولودا والملعقة الذهبية في فمك، بأن تكون منتميا إلى طبقة كبار الاقطاعيين، ولم تكن سيىء الحظ لدرجة أن تنتمى إلى الطبقات الدنيا في قاع المجتمع، ممن لايمكن أن يطمحوا إلى أكثر من البقاء على قيد الحياة، فإن هدفك يجب أن يكون الحصول على وظيفة حكومية تضمن حياة مادية لائقة، ومركزا اجتماعيا محترما، وزواجا من أسرة طيبة، واطمئنانا إلى مستقبلك ومستقبل أولادك.

والحياة في أسرتنا في منتصف القرن كانت تؤكد هذه الحقيقة. لقد كنت أصغر إخوتي، وكنا ثمانية، ستة ذكور وبنتين.

أما إخوتي الذكور فلم يشتغل أي منهم إلا بوظيفة حكومية: منهم اثنان بالتدريس بالجامعة، والثالث اشتغل مهندسا بوزارة الصناعة والرابع بهيئة كهرباء مصر، والخامس بالإذاعة المصرية ثم وزارة الخارجية، واشتغلت أنا أيضا بالتدريس في الجامعة. وأما البنتان فقد تزوجتا من رجلين يعملان بالتدريس ويحصلان على دخلهما من الحكومة أيضا. كنا جميعا «موظفين حكوميين» بصورة أو بأخرى، ولم يحصل منا، (تماما كما كان الحال مع والدى) على أي دخل يستحق الذكر من «الأعمال الحرة» حتى أبي الذي كان يؤلف الكتب ويكتب في الصحف، لم يدر بخلده قط أن هذه الكتب وتلك الصحف يمكن أن توفر له دخلا يتيح له مستوى لائقا من الحياة. ومثال نجيب محفوظ، الأديب الناجح جدا، معروف للجميع، إذ لم يخطر بباله أن يتخلى عن وظيفته في وزارة الأوقاف إلا في سن متأخرة، وسرعان ما تلقفته من جديد صحيفة مملوكة للحكومة بصورة أو أخرى هي التي توفر له حتى الآن «الاطمئنان إلى المستقبل»!

يحكى لي أخي الذي بلغ من العمر السادسة والستين، أنه خطر ببال أبي مرة، عندما تخرج هذا الأخ في كلية الهندسة، أن يشركه معه في تنفيذ مشروع خاص هو إقامة دار نشر لها مطبعتها الخاصة، ويتفرغ لها أخي عوضا

عن الوظيفة الحكومية كمهندس في هيئة الكهرباء، فإذا بأصدقاء أبي يجمعون على نصحه بأن يترك التفكير في هذه المجازفة الخطيرة التي يمكن أن يترتب عليها تدمير مستقبل إبنه، إذ إنه بعد مرور الزمن، وفشل دار النشر والمطبعة. (هذا الفشل الذي كانوا يعتبرونه أمرا حتميا) سوف يشعر أخي بالأسى الشديد عندما يجد أن زملاءه المهندسين قد حصلوا على الدرجة الرابعة أو الثالثة في سلم الترقي الحكومي ، وأن عليه هو أن يبدأ من نقطة الصفر، أي من الدرجة السادسة! ومن ثم تخلى أبي عن الفكرة اخلاصا لمبدأ «إن فاتك الميري»

ماذا فعلت الثورة بالوظيفة الميري» ؟!

قد يبدو لأول وهلة أن العقدين التاليين (الخمسينات والستينات)، قد زادا هذا المبدأ رسوخا وأن التعلق بالوظيفة الحكومية اشتد قوة، بسبب اتساع نشاط الحكومة اتساعا مذهلا خلال هذين العقدين، مع ما حدث من تأميمات وحراسات وإنشاء المصانع والمدارس والجامعات والمسارح الجديدة المملوكة كلها للدولة، وزيادة التدخل الحكومي في كل نشاط من أنشطة الحياة الزراعة، عن طريق الاصلاح الزراعي، والصناعة والتجارة، عن طريق التأميم وفرض القيود على الاستثمارات الجديدة، والبناء، عن طريق اشتراط التراخيص والتصاريح، والسفر والهجرة، باشتراط الحصول على تأشيرات الخروج، والثقافة والاعلام، بتأميم الصحف وازدياد النشاط الحكومي في النشر والترجمة وإنشاء التليفزيون، بالاضافة، بالطبع، إلى التوسع الكبير في حجم الجيش والخدمات المتصلة بالأمن والمخابرات العامة.. إلخ .

لم يكد يبقى هناك في الحقيقة غير «الميري»، فكيف يتصور أن يفوتك الميري؟ وأي تراب هناك غير ترابه يمكن التمرّغ فيه ؟

كل هذا صحيح ولكن من الصحيح أيضا أن هذين العقدين، إلى جانب ما اتسما به من اتساع نفوذ الحكومة، اقترنا كذلك بتهيئة الأرض لنمو القطاع الخاص والنشاط «الحر» نموا كبيرا . بدأ بالطبع على استحياء أو في الخفاء في الخمسينات والستينات ولكن ما أن فتح أمامه الباب مع بداية السبعينات حتى انهمر كالفيضان ليكتسح كل شيء.

يرجع ذلك أولا إلى أن الخمسينات والستينات أضافت إضافات مهمة إلى أصول المجتمع الانتاجية، بعد عقود طويلة من الركود النسبي. كانت هناك إضافات مهمة إلى الأراضي الزراعية والأصول الصناعية والمباني والمنشآت من مختلف

الأنواع، التى صاحبت أو انعكست فى الارتفاع الملحوظ فى معدل النمو الاقتصادى. صحيح أن كثيرا من هذه الاضافات الجديدة إلى الثروة القومية بدأ بوقوعه فى يد الدولة، ولكن مع ما حدث من تحول فى النظام الاقتصادى فيما بعد، آلت ملكية كثير منها إلى القطاع الخاص. بعبارة أخرى، إن كثيرا مما كانت تملكه الدولة فى أواخر الخمسينات وطوال الستينات لم يكن نتيجة تأميم، أى نقل ملكية ما كان خاصا إلى الملكية العامة، بل لم يكن موجودا أصلا وأنشأته الدولة من العدم، وهذا الانشاء كان يمثل اضافة محتملة فى المستقبل للملكية الخاصة.

أضف إلى ذلك أن ما أنشأته الدولة من أصول انتاجية وخضع فى البداية للملكية العامة، استدعى قيام العديد من أوجه النشاط الأخرى لخدمته، مما تستلزم بطبيعتها أن يقوم بها القطاع الخاص كأنشطة المهنيين، من محامين ومهندسين ومحاسبين وتجار ومقاولين ووسطاء من مختلف الأنواع وحرفيين وأصحاب وسائل النقل الصغير.. إلخ.

الحراك الاجتماعى والوظيفة الحكومية

ولكن ربما كانت المساهمة الأساسية للخمسينات والستينات فى نمو القطاع الخاص فى المدى الطويل (أى بعد انحسار سيطرة القطاع العام) هى ما فعلته من كسر للحواجز الحديدية التى كانت تفصل بين الطبقات وفتح الباب على مصراعيه أمام ما يسمى «بالحراك الاجتماعى» أى إمكانية انتقال المرء من طبقة اجتماعية إلى أخرى كان الانقسام بين الطبقات قبل الثورة، انقساما حديديا ركن فى ظله الناس إلى فكرة أنه يكاد يستحيل على المرء أن يغير الطبقة التى ينتمى إليها. فإذا كنت من الطبقة الدنيا فأنت على الأرجح باق فيها أنت وأولادك وأحفادك إلى الأبد لم يعد الأمر كذلك بعد سنوات قليلة من قيام الثورة، مع ما حققته من تقليم أظافر الطبقات العليا وما فتحته أمام الطبقات الدنيا من أبواب التعليم والتكسب والترقى الاجتماعى، أدى ذلك إلى خلق طموحات لم تكن موجودة، والتطلع إلى الارتقاء على السلم الاجتماعى وتحسين نوعية الحياة على نحو لم يكن قائما من قبل وقد أدى هذا بدوره إلى حفز النشاط الخاص والحافز الفردى وتشجيعه، مما أوجد أمامه المجال واسعاً بعد أن بدأ انحسار سيطرة الدولة على الاقتصاد فى أوائل السبعينات.

* * *

فى السبعينات بدأت فكرة «إن فاتك الميرى..» فى الانحسار، إذ بدأت تتكاثر الأمثلة الدالة على إمكانية تحقيق نجاح مادى ملحوظ بقيامك بنشاط اقتصادى

حر لا علاقة له بالدولة ظهر ذلك أولا فى المشروعات التجارية الصغيرة، فى الاتجار بالعملة والسمسرة وأعمال المقاولات. وفى البناء وتأجير المساكن مفروشة للاجانب والسياح العرب، ثم ظهر فيما يمكن أن تحققه الهجرة إلى بلاد الخليج من ثراء أو تحسن ملحوظ فى مستوى المعيشة والمركز الاجتماعي. ثم ظهر بوضوح تام مع الارتفاع الملحوظ في معدل التضخم ابتداء من منتصف السبعينات، الذى فتح الباب واسعا أمام «الإثراء بلا سبب»، طالما اقتنصت بعض الفرص المتاحة للشراء ثم البيع، ثم تكاثرت فرص تحقيق ثروات طائلة للقطاع الخاص عن طريق استغلال ما أصاب القطاع العام من تدهور وضعف وفساد، وانحسار سلطة القانون وانتشار التجاوزات والمجاملات والمحسوبيات.. إلخ.

فى الجانب الآخر كان العاملون بالحكومة يعانون الظاهرة العكسية بالضبط تراجع واضح فى مركزهم النسبى إذا قورن بالأمثلة الناجحة نجاحا صارخاً في القطاع الخاص. فالتضخم الذى ساعد على تكوين أمثلة ناجحة جدا فى القطاع الخاص، عمل على تحطيم وتدمير المركز الاقتصادى والاطمئنان النفسي اللذين كان يتمتع بهما الموظف الحكومي. لقد استمرت الحكومة تضمن الوظيفة لخريج الجامعة، ولكن أى وظيفة تلك التى لا تزيد مكافآتها إلا ببطء السلحفاة في مواجهة الأسعار التى تطير بسرعة الصاروخ ؟

بدأ الشك ينمو بسرعة فى صحة القول بأنه «إذا فاتك الميرى عليك أن تتمرغ فى ترابه» بل كان كل شيء يشير إلى عكس ذلك : إذا جاءك الميرى حتى الباب فعليك الفرار منه بأقصى سرعة!» كان هذا هو أحد المعانى الأساسية فى رواية «أهل القمة» لنجيب محفوظ التي صورت ببراعة مشاعر المذلة والانهزام التى أصابت ضابط الشرطة وهو يجد نفسه عاجزا عن حماية أخته من الوقوع فى حبائل رجل ذكى ونشيط من رجال القطاع الخاص وإن لم يكن شريفا مائة بالمائة !

سمعة القطاع الخاص

استمرت هذه الظاهرة طوال الثمانينات وما انقضى من التسعينات حتى اليوم، وإن كان قد طرأ عليها تحسن مهم لحسن الحظ . فإذا كانت سمعة العمل الحكومى قد استمرت فى التدهور، فإن سمعة الاشتغال بالقطاع الخاص قد تحسنت تحسنا ملحوظا عبر الخمسة عشر عاما الماضية. مازالت صور الاثراء غير المبرر أخلاقيا شائعة، ولكن كثيرا من الصور الصارخة لهذا الاثراء قد أصابها الانحسار، كبناء المبانى السكنية التى

تسقط على رءوس سكانها بسبب استعجال الثراء، أو استيراد الأغذية المغشوشة، أو اقتراض الملايين دون مسوغ ثم الهرب إلى خارج البلاد. وفى نفس الوقت، زادت أمثلة النشاط الخاص المنتج، الذى يضيف اضافة حقيقية إلى أصولنا الانتاجية وينتج سلعا وخدمات يحتاجها الناس حقيقية.

كانت النتيجة إذن أنه خلال الثلاثين عاما الماضية لم يتحسن المركز النسبى للنشاط الخاص على حساب العمل الحكومى، من الناحية المادية فقط، بل تحسنت سمعته كذلك، ومن ثم أصبحت الأسر الطيبة على استعداد تام لأن تزوج بناتها لشباب ليس لديهم أى وظيفة دائمة ولا معاش ، ولا تأمين صحى، ولكن يقومون بنشاط خاص يبشر بمستقبل لا بأس به، مادام الشاب تبدو عليه دلائل الذكاء والطموح والإصرار على النجاح.

* * *

إنى أقارن الآن بين جيلى وبين الجيل التالى، بين نفسى أنا وإخوتى، وبين أبنائى وأبناء إخوتى ، فماذا أجد؟ كنا ثمانية إخوة، الذكور منا كلهم يكسبون عيشهم من وظيفة حكومية، والبنتان متزوجتان من موظفين حكوميين. أما أبناؤنا فعددهم تسعة عشر، بين ذكور وإناث، منهم ثلاثة إما لا يزالون فى طور الدراسة أو بنات أتممن دراستهن وفضلن التفرغ لأولادهن. من بين الستة عشر الباقين، يعمل فى القطاع الخاص تسعة، ويعمل واحد فى بنك مختلط يجمع بين الملكية العامة والخاصة. وهاجر ثلاثة هجرة دائمة إلى الخارج، ولا يعمل فى الحكومة أو القطاع العام إلا ثلاثة، وإن كانت واحدة منهم قد فضلت مؤخرا الاستقالة من وظيفتها الحكومية قانعة بما تحصل عليه من معاش زهيد، إذ وجدت أن تكاليف الخروج من المنزل أكبر من الفارق بين المرتب والمعاش ! وهكذا انخفضت نسبة العاملين بالحكومة بين جيلى وجيل أبنائى من ١٠٠٪ (مائة بالمائة) إلى ١٦٪ (ستة عشر بالمائة)!

* * *

ليس فى هذا التطور الذى اعتبره مذهلا، ما يمكن وصفه بالخير المحض أو الشر المحض. إنه دليل على مزيد من الحيوية بلا شك : نشاط أكبر، وحركة أسرع، ومستوى معيشة أعلى، وطموح أبعد، ولكنه أيضا ينطوى على استقرار أقل وتوتر أشد ووقت فراغ أقصر وإجازات أندر وقدر أقل من الاطمئنان إلى المستقبل. هل ينطوى أيضا على حرية أكبر؟ لست متأكدا تماما من هذا، فالحرية قد تزيد مع زيادة الرخاء، ولكنها أيضا تقل مع زيادة الخوف من المستقبل وقلة الوقت المتاح للاستمتاع بهذه «الحرية» .

ويسألونك .. عن الجامعات الخاصة !

بقلم :د . سعيد إسماعيل على

أعرف أنه من المرغوب فيه أن يبدأ الكاتب قارئه بما يفتح شهيته للقراءة . ومن المؤكد أن مواجهة القارىء بما يثير فى نفسه الاستياء والحسرة ، ليس مما يفتح هذه الشهية . ولكن ماذا أفعل وأنا . كمواطن ، تفاجئنى الأحداث كأنها أمواج عاتية تلطمنى من مختلف الجهات بحيث لا أجد نفسى مستعدا لمواجهتها الا بالصراخ والعويل ؟!

لقد وضع العلماء والخبراء العديد من المعايير التى يصنفون بها المجتمعات إلى مجتمعات متقدمة وأخرى متخلفة . ومعظم هؤلاء العلماء علماء سياسة واقتصاد ، ثم انضم اليهم مؤخرا علماء آخرون من بعض التخصصات الأخرى العلمية ، ومن بين هؤلاء علماء النفس الاجتماعيون ، فقد لاحظوا أن المجتمع المتقدم ، عادة ما تقوم سياسته على (التحسب) و (التوقع) ، لا من باب الرجم بالغيب ، ولكن من باب التحوط والاستعداد ، ومن هنا يعدون (سيناريوهات) لاحتمالات مختلفة يمكن أن يجىء بها المستقبل فلا تفاجئهم ، ويكون الاستعداد لها متوافرا ، وهكذا اذا ما جدّ على الساحة جديد ، وجدوا بين أيديهم خطة شبه كاملة جاهزة لمواجهة الموقف .

وعلى سبيل المثال ، فإن ما حدث فى منطقة الخليج عام ١٩٩٠ ، كان أحد الاحتمالات المتوقعة ، التى تمت دراستها من قبل ، وتم التفكير فى الاستعدادات والاجراءات التى يمكن اتخاذها .





مصطفى كامل عثمان أحمد عثمان د . رفعت المحجوب

أما في المجتمعات غير المتقدمة ، فإن المستقبل لديها مجهول دائما ، ولذلك تتركه إلى أن تهب رياحه ، فلا يكون هناك من تصرف إلا ما يقع تحت باب رد الفعل، وآية ذلك أن العرب «فوجئوا» بفوز (الليكود) في الانتخابات الاسرائيلية ، مع أن هذا كان احتمالا واردا ، فكان عملهم هو (رد فعل) ، بل تناثرت أصوات تقول : فلننتظر شهورا أخرى حتى نرى ماذا سيفعل نيتنياهو ، ثم نفكر فيما يجب عمله، وبذلك نكون قد أعطيناه الفرصة !!

في الحالة الأولى ، يجد الانسان نفسه سيد الموقف ، يستطيع التحكم فيه وتوجيهه إلى ما يريد .. وفي الحالة الثانية، يجد الانسان نفسه تحت رحمة الظروف ، تسيره كما يراد له من قبل آخرين .. ويتركز جهده في تحجيم الأضرار إلى أدنى حد ممكن .. وقد يستطيع ذلك وقد لا يستطيع .

هكذا نحن الآن أمام قضية الجامعات الخاصة ..

فلقد صدر القانون ، وأصبح الأمر واقعا .. وهكذا يجد الفكر نفسه فاقدا لأهم وظيفة يمكن أن يقوم بها ، فهو عندما يسبق القرار .. يقود ويوجه ويغير ويصحح، لكنه عندما يفاجأ بالقرار فماذا يكون له من دور إلا الشرح والتبرير والتقريظ أو الصراخ والعويل والقدح ؟!

***

منذ أن بدأت مصر تعلم أبناءها بالصورة النظامية المعروفة في مدرسة أو في معهد ، أو ما شابههما كان هذا الجهد (أهليا) ، ولم تضع الدولة في اعتبارها أن تعليم الناس مهمة من مهامها ووظيفة من وظائفها ينبغي أن تخصص لها الأموال ويعين لها العاملون .

ودون أن نستطرد ونوغل في التاريخ ، يكفي أن نشير إلى ما كان عليه الأمر في العصور الاسلامية ..

● التعليم والتشريع السماوى

كان التعليم ينظر اليه على أنه عمل من أعمال (البر) و (الخير) التى عرف المسلمون أن المطلوب منهم أن يقوموا به ويبذلوا فى سبيله الجهد والمال ، واستند هذا إلى كم غير قليل من النصوص الشرعية ، قرآنية أو نبوية أو منهما معا ، تحض على طلب العلم ، الى حد تشبيه (المداد) الذى يستخدمه العلماء بدم الشهداء ومساواته به . والمتأمل فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إذا مات ابن أدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية وابن صالح يدعو له ، وعلم ينتفع به) ، نجد أن أمرين من الثلاثة يتطلبان تربية وتعليما ، والصدقة الجارية ، يدخل فيها انشاء مدرسة تنتفع بها الاجيال المتتالية ، فجريان الصدقة ، أن يظل الانتفاع بها مستمرا ، مثل شق طريق يسهل للناس الانتقال .

وهكذا اندفع أغنياء كثيرون (يوقفون) جزءا من ثرواتهم للانفاق منها على مدرسة ينشئونها أو مسجد (إلى ما شاء الله بعد وفاتهم) ، يفتح أبوابه للتعليم ، مثلما يفتحها للصلاة ، وبذلك حلت (العقدة) الكبرى ، اذ توافر للمدارس والمساجد (التمويل) اللازم للانفاق منه على عملية التعليم ودفع مرتبات المعلمين . من هنا لم تطلب (مصروفات) أبدا من الطلاب ، بل لقد كانت تدفع لهم «رواتب» نقدية وكثيرا ما تكون كذلك عينية .

ولأول مرة فى تاريخ مصر تقوم الدولة بصفتها الرسمية بإنشاء المدارس فى ظل حكومة محمد على . ولأن مفهوم (الحكومة) أنها هى «ولى الأمر» ، فقد تكفلت الدولة بالإنفاق على ما أنشأته من معاهد دون أن تطلب من الطلاب تحمل أى جزء من كلفة التعليم .

ولم تبدأ مطالبة المواطنين بالمشاركة فى تحمل نفقة التعليم إلا فى عهد الاحتلال البريطانى الذى حصر جهده التعليمى فى إنشاء عدد محدود من المدارس يكفى لسد حاجة الجهاز الحكومى الى بعض الموظفين . وأدركت الحركة الوطنية ، كما عبر مصطفى كامل، أن إحدى الوسائل التى يمكن بها إيقاظ وعى الأمة ، أن تتوافر لديها كوادر وطنية تسلحت بالعلم المتقدم والفكر الحر والعقل الناقد ، فدعا إلى انشاء جامعة (أهلية) حتى تكون بعيدة عن توجيه الحكومة الخاضعة لسياسة الاحتلال .

ولم يتحقق لمصطفى كامل ما تمنى ، إلا بعد وفاته ، فخرجت الجامعة المصرية الأهلية إلى النور فى عام ١٩٠٨ .

● الجامعة الأهلية .. والجامعة الخاصة

وهنا لابد أن ننتبه إلى أهمية التفرقة

بين الجامعة (الأهلية) والجامعة (الخاصة)، حتى لا تختلط الأوراق ، وينتهز البعض الفرصة لتبرير ما يحدث الآن ، بأن الحركة الوطنية المصرية نفسها تنادت إلى انشاء جامعة أهلية ..

فالجامعة الأهلية مشروع (قومي) ، ليس ملكا لأحد ، ولا لجمعية خاصة .. مشروع شارك في تمويله عشرات المواطنين ، لا من باب (الاستثمار) كمن يكتتبون الآن في مشروعات اقتصادية ، ولكن (تبرعا) دون انتظار لعائد مادي .

أما الجامعة الخاصة ، فهي مشروع اقتصادي ، استثماري يكتتب له بعض الأفراد ، بهدف الكسب المادي بالدرجة الأولى .

وهنا أيضا يبرز أمر آخر (لعب) عليه البعض عندما يشيرون إلى أن معظم الجامعات الكبرى في الدول المتقدمة إنما هي غير حكومية . والحق أن هناك فرقا كبيرا ، فالجامعات التي يشيرون اليها ليست (خاصة) بالمعنى الذي أشرنا إليه .. ليست ملكا لفرد أو مجموعة أفراد يحصلون منها على عائد ، وإنما تمولها جهات ومؤسسات وأفراد (يتبرعون) لها ، فضلا عما يجيئها من دخل نتيجة قيامها بمشروعات وخدمات بحثية لحساب جهات أخرى . إن عائد هذا كله لا يذهب غالبا إلى جيوب أفراد ، وإنما لتوسيع نطاق ما تقدمه من خدمة تعليمية وبحثية والارتفاع بجودتها ، فالأنسب أن يقال إذن إنها (قومية) أو (أهلية) وليست (خاصة) .

وإذا كانت الجامعة المصرية الأهلية قد تحولت إلى حكومية عام ١٩٢٥ ، نظرا لتعثرها المالي ، فقد أصبحت مصر ، حتى وقت قريب ، خالية تماما من أية جامعة خاصة ، باستثناء الجامعة الأمريكية .

واذا كانت ثورة يوليو معروفة بسياستها التي تقوم على هيمنة الدولة على النشاط العام ، فإن الأمر لم يخل من بعض المعاهد العليا الخاصة في مجال الخدمة الاجتماعية و (التعاون) سواء التجاري أو الزراعي .

وقد لا يعرف كثيرون أن التعليم العالي الخاص قد بدأ التصريح به في أواخر عهد ثورة ٢٣ يوليو ، عندما صدر القانون رقم ٥٢ لسنة ١٩٧٠ في شأن تنظيم المعاهد العالية الخاصة ، والذي نجد من قواعده :

– يعتبر معهدا عاليا خاصا كل منشأة تعليمية غير حكومية أيا كانت تسميتها أو جنسيتها ، يلتحق بها الطلاب الحاصلون على شهادة إتمام الثانوية العامة أو دبلوم المدارس الثانوية الفنية أو ما يعادلهما ، وتقوم أصلا أو بصفة فرعية بالتعليم واعداد الفنيين لمدة لا تقل عن عامين دراسيين .

- تنشأ المعاهد العالية الخاصة لتحقيق أحد الأغراض الآتية :

● المعاونة في تحقيق الأهداف التعليمية المقررة لبعض المعاهد الحكومية ، وفي هذه الحالة تسير الدراسة فيها وفقا لخطط ومناهج الدراسة بالمعاهد الحكومية المماثلة .

● تحقيق أهداف خاصة بها طبقا لخطط ومناهج دراسية تقرها وزارة التعليم العالي قبل تنفيذها .

● المشاركة في تحقيق خطط التنمية ووضع المعلم في خدمتها

- تخضع المعاهد العالية الخاصة لإشراف وزارة التعليم العالي ، ولها حق التفتيش على هذه المعاهد .

- لا يجوز انشاء معهد عال خاص أو التوسع فيه إلا بترخيص سابق من وزير التعليم العالي ، بعد أخذ رأى مجلس المحافظة التي بدائرتها مقر المعهد .

- يشترط في صاحب المعهد العالي الخاص أن يكون من الشخصيات الاعتبارية العامة أو من الوحدات الاقتصادية التابعة للمؤسسات العامة أو من النقابات أو من الجمعيات المشكلة وفقا لأحكام القانون المتمتعة بالجنسية المصرية أو جنسية إحدى الدول العربية بشرط المعاملة بالمثل .

وهكذا نجد أنه ، مع الاقرار بمبدأ خصخصة التعليم العالي ، وضعت الضوابط والقيود التي تطمئن بها الدولة إلى أنه لن يخرج عن فلسفتها الاجتماعية وسياساتها العامة .

أخطاء متكررة !

وإذا كانت مصر قد شهدت بناء على ذلك عددا من المعاهد العالية الخاصة ، فقد كان التفكير المنطقي والمنهج العلمي يقتضيان منا ، ونحن ننتقل من هذه المرحلة إلى أخرى ننشيء فيها (جامعات) خاصة أن ندرس أولا تجربة المعاهد العالية الخاصة ونقوم بتقويمها ، حتى لا تكرر الجامعات الجديدة عددا من المثالب والأخطاء والثغرات التي وجدناها في المعاهد الخاصة .

لكننا مع الأسف الشديد ، نزعم أننا نطور التعليم ، دون أن نقوم بالخطوة العلمية الأولى في منطق التطوير ، ألا وهي الدراسة التقويمية للخبرة السابقة .

لقد بدأت الأصوات تتنادى إلى انشاء الجامعة الخاصة متزامنة مع بداية سياسة الانفتاح عام ١٩٧٤ ، والتوجه نحو فك الارتباط مع السياسات الاشتراكية ، وبدء الارتباط بمنظومة الدولة الرأسمالية على وجه العموم ، والولايات المتحدة على وجه الخصوص ، ومن ثم فقد كانت احدى نتائج ذلك أن أصبح «النموذج الأمريكي» أملا يتطلع إليه البعض . وباتت الأمر

ســار على هذا الطريق سليـمــا ، ووفق الأصـول العلمـيـة ، ولكن الذى حـدث هو (التـقليد المـسـوخ) ، والوقوف عند حد القشور ، والانبهار بما على السطوح من مظاهر تخطف الأبصار فـتـعـميـهـا عن الرؤية المدققة الفاحصة الواعية .

كان المهندس عثمان أحمد عثمان وزيرا للتعمير عام ١٩٧٤ ، عندما أطلق صيحته مناديا بالجامعة الخاصة . وقتها كان (الانفتـاحيون) قلة ، وكانت مظاهر الردة مـترددة خائفة ، فـقـام كـثـيـرون يستنكرون ويهاجمون ، فإذا بالصـحـية تؤد فى الحال .. ولكن ، إلى حين .

وهكذا ظلت الفكرة تطل برأسـهـا بين حين وآخر ، لكنها كانت تجد رأيا عاما شعبيا معارضا مستنكرا ، فتتوارى .. ولو إلى حين .

ومـا زلت أذكـر مناقـشـة دارت فى مجلس الشعب حول هذه القضية ، وكان المرحوم رفعت المحجوب رئيسا ، والرجل كما هو معروف ، كان مشبعا إلى حد بفكر الستينات ، فـهب بنفسه مـسـتنكرا مهاجما قائلا : إنه سيقف بالمرصاد لهذا المشروع، وإنه لن يمر إلا «على جثتى» !!

وبالسخرية الأقدار حقا !! لقد أغتيل الرجل فى هجوم ارهابى ، قوبل باستنكار شـــديد . فـــهل كـــان ذلك مـــؤذنا - وبالمصادفة- بأن تـصـــدر القـــوانين والتشريعات التى تسمح بإنشاء جامعات خاصة ؟

- إننا إذ نسجل تحفظاتنا هنا ، إنما نستحضر إلى الأذهان توجه رأس المال الخاص بعد أكثر من عشرين عاما من التوجه نحو الرأسمالية ، فالعدد الأكبر من الجهود المبذولة يكاد يتركز حول اقتصاد الخدمـات لا اقـتـصـاد الانتـاج : قـرى سياحية ، فنادق ، استثمارات عقارية ، مصانع شيكولاتة ولبان ، ملابس ، تجميع سيارات .. الخ . وعادة ما يشكل النشاط الاقتصادى موجها للنشاط التعليمى ، فماذا - مثلا - فى التعليم قبل الجامعى وخاصة الثانوى ؟

هل وجدنا جهودا تتجه إلى إنشاء مدارس صناعية ؟

هل وجدنا جهودا تتجه إلى إنشاء مدارس زراعية ؟

لقد اتجه الكم الأكبر من جهود رأس المال الخاص الى الثانوى العام والثانوى التـجـارى .. انه نوع من التـعليم قليل الكلفة، سريع الكسب .. نفس المنطق الذى رأيناه فى معظم المشروعات الاقتصادية الخاصة . أما ذلك التعليم الذى يستلزم نفقات كبيرة، ويغل عائدا قليلا ، فلا إقبال عليه .

أفلا يعطينا هذا مؤشرا للتوجه الذى

يمكن أن يتجه إليه التعليم الجامعى الخاص ، فتنشأ صور منه ترتبط باقتصاد الخدمات فيتجه إلى تعليم ما يتصل بالعمل التجارى بالدرجة الأولى ، واللغات والسياحة والفنادق مبتعدا عن ذلك التعليم باهظ التكاليف الذى يرتبط باقتصاد الانتاج ؟

– إن القول بأن الجامعات الخاصة سوف تعنى بإيجاد تخصصات جديدة قول يصعب اثباته ، لأن هذه الجامعات لم تتوافر بها أعضاء هيئة تدريس مؤهلون فى تخصصات جديدة أو قديمة ، وستلجأ الى الاستعانة بأعضاء هيئات التدريس من الجامعات القائمة . واذا كان الأمر كذلك ، فهل لا تستطيع هذه الجامعات ، بامكاناتها أن تنشىء مثل هذه التخصصات ؟ واذا أضفنا أن هذه التخصصات سريعة التغير ، وفقا لتسارع تغير التكنولوجيات ، وأعداد الطلاب المطلوب دراستهم لهذه التخصصات ستكون أعدادا قليلة ، والتكلفة ستكون عالية ، والقائمون على هذه الجامعات لابد أن يربحوا ، فكيف سيتم حل هذه الاشكالية ؟

وان تجربة انشاء معاهد خاصة عالية ليست تجربة مضيئة ، فهى لم تقدم جديدا، بل على العكس من ذلك آضاف وجودها عبئا على التعليم العالى ، وأفرزت زيادة كبيرة لأعداد الخريجين ، الذين لا يتطلبهم العمل وفقا لمؤشرات سوقه ، بل إن هناك صيحات بشأن بعضها تنادى بضمها إلى وزارة التعليم .

ثم ان بطالة خريجى الجامعات أصبحت ظاهرة شملت معظم التخصصات الجامعية ، وهى لاشك ذات دلائل خطيرة ، وبعيدة المدى ، أليس مثل هذا الوضع جديرا بأن يكون له الاعتبار الأول عند النظر فى انشاء الجامعات الخاصة ؟

ونتوقع أن يرد علينا البعض بخصوص هذه القضية بالذات ليقول إن سياسة الدولة فى التعليم الآن هى أن تُعلم، لا أن توظف ، فالعمل والبحث عنه مسئولية الخريج ، وقد ظهر هذا واضحا فى سياسة القبول للجامعات ، فحتى أعوام تقل عن أصابع اليد الواحدة ، كانت السياسة تتجه إلى التقليل من أعداد المقبولين ، ثم اذا بها تتجه الآن إلى العكس من ذلك .

ولكننا ننسى أن الوضع فى مصر لن يتماثل مع الوضع فى الدول الرأسمالية التى تُعلم أبناء الناس دون أن تكون مسئولة عن (التشغيل) ، ذلك أنه فى المقابل ، هناك حركة نشطة فى التنمية ، وفى تعدد وتنوع وكثرة المشروعات الاقتصادية الخاصة ، مما يفتح مجالات

متعددة للعمل . لكننا ما زلنا حتى الآن بطيئى النمو الاقتصادى وفرص العمل محدودة ومعدودة . وفضلا عن ذلك فإن المجتمع المصرى بصفة خاصة يعانى كثيرا من احتمالات ارهاب وعنف ، وأكثر أنواع التربة صلاحية لزراعة العنف والارهاب ، أن يتكاثر آلاف من الشباب الذين يجدون أنفسهم ، بعد سنوات طويلة من إنفاق أهلهم عليهم نفقات أصبحت تتزايد الآن بدرجة ملحوظة، حتى وصلت إلى آلاف سنويا عن كثيرين ، لاتمام التعليم ، بعد كل هذا يصبحون عاطلين عن العمل !!

معادلة صعبة !

وما يرتبط بهذا أيضا ، تلك القضية المعروفة والخاصة (بتكافؤ الفرص) والتى أصبح تكرار الحديث عنها مدعاة للسخرية منها من أنصار الجامعات الخاصة ، ولن نكرر هنا القول بأن هناك من سيحصل على فرصة التعليم الجامعى وهو غير قادر علميا لأنه قادر ماليا ، وهناك من سيحرم من هذه الفرصة لأنه غير قادر ماليا ، رغم أنه قادر علميا .. وانما نريد التنبيه والتذكير بالظروف الخاصة بمصر .

ففى الدول المتقدمة ، هناك العديد من المظاهر التى يجد فيها المواطن نفسه صاحب حق حتى أمام أعلى الرءوس ، وأن السبل تتيسر للحصول عليه دون مذلة .. يقف فى طابور وقد يجد وراءه فى الصف كبيرا من كبار رجال الدولة ... يستطيع أن يكتب ويقول ما يشاء .. اذا تعطلت له مصلحة أو تعطل فى طريق ، له الحق أن يرفع دعوى ضد الحكومة ويكسبها ويأخذ تعويضا .. فضلا عن خدمات أخرى لا حصر لها .. وهكذا .

هذا المواطن ، اذا وجد آخر يحصل على فرصة تعليم جامعى لأنه يملك نفقتها، بينما يحرم هو منها لأنه لا يملك نفقتها ، لن يعتبر ذلك انتقاصا من حقوقه ..

لكن مواطننا يقابل يوميا مظاهر لا حصر لها يجد نفسه فيها لا يعامل كإنسان له قيمة فى حد ذاته ، ويحاصر بعدد غير قليل من القيود ، ويقف فى طريق حياته كثير من الحواجز والعراقيل .. هذا المواطن كان سعيدا ومطمئنا وفخورا بأن الدولة تعلمه حتى آخر مراحل التعليم مجانا ..

فماذا يكون حاله عندما يفقد هذه الميزة النادرة ، وهو أصلا محروم من حقوق ومميزات كثيرة ؟!

سيقولون له : حتى تكون مثل المواطن الأمريكى والانجليزى والفرنسى !!

عندئذ ، لابد أن يصرخ بأعلى صوته : افتحوا لى نصف الفرص المتاحة لهؤلاء ، وساعتها يمكن ألا أطمع فى تعليم جامعى

اذا عدمت القدرة المالية .

لكن ، ماذا وقد حدث ما حدث وصدر القانون الخاص بإنشاء جامعات خاصة ؟

لابد من تحكيم المنطق الاقتصادى نفسه ، لا حتى يسلم التعليم الجامعى ويصح فحسب ، وإنما كذلك حتى يضمن مسئولو هذه الجامعات الخاصة أيضا اقبالا من الزبائن .

مشروع اقتصادى خاص

أليست هناك دائما مقومات أساسية تمثل الحد الأدنى الضرورى لإقامة المشروع الاقتصادى ؟

كذلك الجامعة الخاصة .. إنها ليست فقط مشروعا (ماديا) بحتا . ولكنها مشروع اقتصادى لتقديم سلعة ذات طابع خاص .. تعليم جامعى ، هذه السلعة لها شروط . ولها مواصفات ، لابد من توافرها حتى يمكن تسويقها . فهل توافرت هذه المقومات وتلك المواصفات ؟

إننى هنا سأشير إلى بعض منها ، وهى ليست نتيجة تأملات شخصية ، ولكنها حصيلة دراسة ، شاركنا فيها ، تمت فى المجلس القومى للتعليم ، الذى هو تجمع لنخبة من الخبراء والعلماء ، ويشكل مجلسا استشاريا للسيد رئيس الجمهورية، ولننظر ، بعد قراءتها إلى ما تم بالفعل من جامعات خاصة : هل توافرت فيها ؟

من هذه المقومات والمواصفات :

- يجب أن تعكس المخططات الهندسية لمشروع الجامعة الأهداف التربوية والتعليمية والتدريبية .
- أن يكون الهدف . إنشاء حرم جامعى متكامل ، وأن يشمل اسكانا للطلاب بما يرسخ حياة جامعية حقيقية .
- ألا يتم قبول الطلاب والتحاقهم بالجامعة إلا بعد التأكد من تمام إنشاء المنشآت الجامعية المناسبة ، وتوافر التجهيزات العلمية والامكانات المادية والبشرية .
- أن يتضمن نظام الجامعة أساسا واضحا لرعاية الطلاب الموهوبين والمبدعين غير القادرين ماديا .
- يجب أن تتناسب أعداد الطلاب مع أعداد أعضاء هيئة التدريس ، ومع الامكانات المتاحة بالجامعة - وفقا للمعدلات العالمية .
- مراعاة تفرغ أعضاء هيئة التدريس والقيادات الجامعية لعملهم فى الجامعة .
- يجب أن تتوافر لكل وحدة تعليمية من وحدات الجامعة ما لا يقل عن ٥٠٪ من العدد المطلوب من أعضاء هيئة التدريس كل الوقت ، وأن يمنح أعضاء هيئة التدريس أجورا ومرتبات مجزية توفر لهم عناصر الاستقرار ، المعيشى والنفسى .

– أن تطلق حرية الالتحاق بالجامعة الخاصة للطلاب ، دون التقيد بسنة الحصول على شهادة الثانوية .

– الاهتمام بالتقنيات والتخصصات الجديدة والحديثة التي تحتاجها مجالات التنمية المختلفة ، مع الدراسة المستمرة لآليات سوق العمل واحتياجاته المتطورة والمتسارعة في التغيير وأن تتسم هياكل الجامعات الخاصة وأنماطها بالمرونة التي تتابع كل جديد وتعديل هياكلها وأنماطها وفقا لذلك .

– أن تعلن الكليات عن كل مقرر دراسي من المقررات : بعنوانه ومحتوياته، والهدف منه ، والمراجع الخاصة به حتى يمكن التعرف على اتجاهات هذا المقرر ، وتيسير مستوى الدراسة بواسطة المتخصصين .

– مراعاة مصداقية شهادات التخرج من الجامعات المصرية خاصة في الكليات العملية (طب ، هندسة ، زراعة .. الخ) لمزاولة المهنة بعد الحصول على شهادة التخرج وفقا لمعايير مقننة تتفق مع متطلبات مزاولة المهن المختلفة .

– توفير الوسائل التكنولوجية الحديثة التي تيسر عمليات البحث والاطلاع ، والعمل على الاستخدام الأمثل لتقنيات التعليم الحديثة وطرقه المتطورة .

– اعداد المكتبات على مستوى فني وتقني رفيع ، واعداد الكوادر المؤهلة والمدربة على تشغيلها وادارتها ، والاهتمام بنظم ومصادر المعلومات ، وربطها بقواعد وبنوك المعلومات على المستوى المحلي والعالمي .

– يجب أن تخضع الجامعة الخاصة (والحكومية) لتقويم دوري كل عدد من السنوات لتحديد مستواها ومستوى الدراسة والتخصصات المختلفة ، والطالب، والبرامج الدراسية وادائها ومقرراتها ، والدرجات العلمية التي تمنحها الجامعة .

– يتعين أن يبدأ قبول الطلاب بعد أن تستكمل الانشاءات المختلفة المناسبة ، والتجهيزات الحديثة ، والبرامج الدراسية المطلوبة ، وتوفير أعضاء هيئة التدريس اللازمين ...

***

وأغلب الظن ، أن معظم هذه الضوابط لم تتوافر ...

وأغلب الظن أن قطار الجامعات الخاصة سوف يواصل سيره مخرجا لنا لسانه ، ولا نملك إلا أن نردد :

«اللهم لا نسألك رد القضاء وانما نسألك اللطف فيه » !!

الحقيقة والوهم

بقلم : محمد حسنين هيكل

تفضل الكاتب الكبير الأستاذ «محمد «حسنين هيكل بكتابة هذه المقدمة للكتاب الهام «الحقيقة والوهم» .. فى الواقع المصرى المعاصر» للدكتور رشدى سعيد ، والذى سيصدر فى كتاب الهلال ، يوم الثلاثاء المقبل .

حين طلب منى صديقى الكريم الدكتور رشدى سعيد أن أقدم كتابه هذا لعامة القراء لم أتردد لحظة واحدة عن شعور عميق الى درجة اليقين بأن ذلك واجب عام أكثر منه حماسة لصديق شخصى .

والشعور إلى درجة اليقين بالواجب العام فى هذه الحالة ينشأ بالدرجة الأولى من مشكلة عانت منها مصر ، وما زالت تعانى ، وهذه المشكلة تتمثل فى مفارقة مؤداها أن كثيرين من الذين ليس لديهم ما يقولونه فى شئون هذا البلد وشجونه لا يكفون «عن الكلام ، بينما الذين لديهم «ما يقولونه لا يملكون فرصة كافية لقوله ، وبنفس المقدار فإن كثيرين من القادرين على الخدمة العامة محجوبون عنها، فى حين أن المجال مفتوح – إلى درجة العربدة – أمام ثلاثية الجهل والعجز والفساد .

إن هذه المشكلة– أو المفارقة – أشد ما تكون وضوحا فى حالة رجل مثل الدكتور رشدى سعيد . فنحن أمام أستاذ فى الجيولوجيا خطا من الجامعة الى المجتمع ومن العلم الى الثقافة حين استطاع أن ينفذ من طبقات الأرض إلى حياة البشر الذين يعيشون فوقها ، ثم استطاع أن يحيط بطبقات الأرض وحياة البشر فى وطن بذاته إحاطة تربط الجغرافيا والتاريخ ، وتصل الحاضر والمستقبل ، وتكشف بالعلم والحكمة مطالب التقدم والعمران حين تصنع نوعا راقيا من المعرفة المتكاملة القادرة على الإلهام والتأثير .





محمد حسنين هيكل

إن رشدى سعيد رجل تسعى إليه جامعات الدنيا وتستضيفه محافلها – لكن وطنه بشكل ما لا يسمعه بالقدر الكافى ، وهو رجل مطلوب فى كل مكان ولكن وطنه لم يستدعه للخدمة العامة إلا لفترة قصيرة فى منتصف الستينات وأوائل السبعينات ، ثم أزاحته أهواء السياسة عن مواقع التفكير والتنفيذ وتخلت عنه لكى يحتضنه هؤلاء الذين عرفوا قدره من خارج وطنه لسوء الحظ .

لكن الرجل حيث ذهب وحيث كان لا يرفع عينيه عن وطنه يتابع من بعيد مسيرته ، ويشارك من بعيد فى همومه ، ويتحامل على نفسه بين وقت وآخر يكتب أو يتكلم .

وكانت مجلة الهلال – وهذه شهادة لدورها أو دورانها الدائم والدائب حول أفق التنوير والتجديد – هى المفتوحة أمامه وهي الحفية بما يكتب أو يقول ، وقد نشرت له بالفعل فصولا تجمعها الآن فى غلاف كتاب يستحق القراءة باهتمام ، ويستحق التفكير فى أناة ، ويستحق بعد ذلك أن يجد طريقه لينضم الى المخزون المعرفى والتجريبى والثقافى للأمة حين تحتاج الأمة الى هذا المخزون ذات يوم كى تعيد الاستثمار فى الغد وبعده .

ذكريات يمنية

بقلم : مصطفى نبيل

أحمد محمد نعمان.. أحد قادة الحركة الوطنية فى اليمن خلال نصف قرن، وأحد رموزها، فهو واسطة العقد بين أحداث تاريخية عديدة، منذ أول إنقلاب عربى يقع فى اليمن سنة ١٩٤٨ وحتى رحيله عن عالمنا.

ساهمت علاقتى الوطيدة بالأستاذ نعمان فى التعرف المبكر على اليمن وقضاياه. عندما كنت أتابع نشاط اليمنيين الأحرار اللاجئين فى القاهرة، وبروح المعلم يتحلق حوله الشباب، ويأخذ فى الشرح والتفسير، ويروى الكثير عن أحداث اليمن وأوضاعه، ويسمع لكل صاحب رأى.

وعلاقتى الشخصية باليمن قديمة، عشت قضاياها منذ مايزيد على ثلاثين عاما، ليس فقط كمراقب بل كأحد أبنائها، واليوم وبعد أن بلغنى رحيل أحمد نعمان، أقلب أوراقى القديمة، وذكرياتى التى أثارها الحنين، أسجلها خشية أن تروح مع الزمن.

فاجأنا قيام الثورة فى اليمن يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، فها هو ذا التغيير يلحق بأكثر الحلقات العربية ضعفا، سارعت للقاء أحرار اليمن الذين شردهم الإمام واحتضنتهم القاهرة، أجمع أطراف الحدث وأسعى للإلمام بتفاصيله فالتقيت بالأستاذ نعمان والقاضى محمد محمود الزبيرى ومحسن العينى. وأخذ كل منهم يروى تقديراته وتحليلاته.

وآخر من التقيت به مساء ذلك اليوم هو د. عبدالرحمن البيضانى فى شقته فى إحدى العمارات المطلة على النيل فى المنيل، يصحبنى الصديق محمود عبدالفضيل، ولفت نظرى عند لقائه وجود كمية كبيرة من صوره كتب تحتها «نائب رئيس الجمهورية»، وأدهشنى أنه الوحيد المطلع على مايجرى فى اليمن بالتفصيل، ولم يخف دوره فى الإعداد للثورة، وكان

ذلك بالنسبة لى فرصة لاتعوض، وأخذت فى توجيه العديد من الأسئلة، ولاحظت قلقه وانشغاله، ولكنى أصررت على استكمال أسئلتى. وفجأة أطل علينا من باب غرفة المكتب أنور السادات، وقال للدكتور البيضانى بعد أن حيَّانا... «يبدو أنك ستتأخر، ولابد لى أن أذهب»...

فاعتذرت، وغادرت المكـــان، بعد أن تأكدت أن البيضانى صاحب دور بارز فى ثورة اليمـــن، كما ظهر الدور المصرى المساند لهذه الثورة، وخاصة بعد أن سافر على طائرة خاصة إلى صنعاء كل من السادات والبيضانى، والزبيرى والعميد على عبدالخبير ومحمد عبدالسلام وغيرهم.

وأثير فى حينها ســـؤال.. لماذا لم يصحبهم أحمد نعمان فى رحلتهم تلك، وهو الذى عمل طويلا من أجل هذا اليوم؟ وهو رئيس الأحرار اليمنيين أول تنظيم سياسى يمنى، ولماذا اقتصر على سفر نائبه القاضى الزبيرى؟!

□□□

ذهبت القوات المصرية إلى اليمن فى مهمة مقدسة، ورغم عظم المهمة التى تتم فى ظروف بالغة التعقيد، فإنه يبدو أنها مهمة لم يستعد لها بالقدر الكافى، وهى مهمة تفوق إمكانياتنا..

حقا.. لقد أنجزت هذه القوات بعض ماذهبت إليه، ولكن الثمن كان فادحا، ويعود ذلك إلى أن القوات ذهبت إلى



أحمد محمد النعمان

اليمن، وليس لديها المعرفة الكافية بما هى مقدمة عليه، ســواء النظام القبلى الذى يحكم اليمن، أو معرفة الفارق بين حياة السهل الشـــافعى السنى وحياة الجبل الزيدى الشيعى الذى كان يحكم ويسيطر أيام الإمام. وامتزاج ماهو طائفى بما هو اجتماعى فيها.

بل إن الخرائط المتوافرة كانت قديمة وبمقياس غير منـــاسب كما ذكر الفريق صلاح الحديدى فى كتابه شاهد على حرب

ذكريـــات يمنيـــة

اليمن، ويضيف... «أما عن العلاقات الطائفية، فلم يكن من الممكن إدراك أن الهوة السحيقة بين الشافعية والزيدية ولا بين حاشد وبكيل أو الشماليين والجنوبيين، وبدت هذه الخلافات متاهات بالنسبة إلينا..»!

والمفارقة اللافتة، أن هذه المعرفة كانت متوافرة في مؤسسات البحث، وفي الجامعات، ولكنها لم تتوافر لأصحاب القرار السياسي والعسكري، مما يضع أيدينا على مسألة مهمة وهي خطورة الانفصال بين الفكر والفعل، وعدم التواصل بين مراكز اتخاذ القرار السياسي وبين مراكز البحث.. وقد رأينا أن هذا الانفصال أدى إلى إطالة أمد الحرب وزيادة خسائرها.

كما لم يكن لدى القوات المصرية معلومات حول دور وخطورة يهود اليمن.

□□□

وعندما قامت ثورة اليمن عام ١٩٦٢، وتعاقبت الأحداث والتغييرات والتطورات، عرفت شعراءها وأدباءها وسياسييها، وربما كانت اليمن أكثر بلد أنجب الشعراء، هل لأنه البلد الذي يعيش أكثر قربا من حياة العرب الأولى؟

وكان الأستاذ نعمان ينظم الشعر ويرويه، وهو آخر ظرفاء عصره واليمنيون من أكثر أبناء الأمة العربية ذكاء وفطنة، شعب له طبيعة ذكية نشيطة، بدليل النجاح الذي يحققه من يهاجر إلى أي بقعة في الارض من كاردف البريطانية إلى بروكلين الأمريكية.. وهذا الشعب الذكي كان يحكمه أكثر النظم تخلفا.

ويحضرني هنا ماذكره لي أحمد نعمان «لقد صدق الشعب بأن الله اختار الإمام ونصبه، وكان الشعب يقدس حكامه، ولم تستطع الأمة أن تفيق إلا بعد الكثير من التجارب والعديد من السنوات».

فنظام الإمامة الذي قام في اليمن واستمر أحد عشر قرنا منذ القرن الثالث الهجري، والذي استمر حتى سقوط البدر آخر الأئمة كان يرى عدم جواز الصلاة جماعة إذا غاب الإمام.

وهو ما كانت معالجته تحتاج إلى خبرة طويلة.

□□□

وقد استاء عدد من الأطراف الوطنية اليمنية من أن ينقض د. عبدالرحمن البيضاني على الثـــورة.. منذ النصف الثاني من عام ١٩٦٢، وأخـــذ يظهر كشخصية قيادية وسط القيادات المعروفة، وظهر وكان الســـلطة حكرا عليه هو والرئيس الســلال وانتقـــدوا سلوكه

وممارساته. فالبيضاني عاش طوال حياته خارج اليمن، ومثلا وجه البيضاني هجوما حادا إلى الهاشميين، وهو يجهل أن بعض المنضمين إلى صفوف الثورة من بينهم، وجاء بأفكار تمثل الرفض الكامل لكل ماهو قبلي أو طائفي بصرف النظر عما في هذه النظرة من تجاوز للواقع أو جهل بأبعاد المشكلات في اليمن.

وعرقل مسيرة الثورة اليمنية في بدايتها ذلك الصراع بين القيادات الثلاث نعمان والزبيرى والإيريانى فى جانب وبين البيضانى من جانب أخر ووقعت مصر والقوات المسلحة ضحية هذا الخلاف، فالقيادات الثلاث تمثل أفضل الاحتمالات لمرحلة انتقالية فى مجتمع لايتصور أن يتولى الحكم فيه سوى سيد علوى فاطمي، فكل من الإيرياني والزبيري زيديان وقادران على الانتقال السلمي نحو اليمن الجديدة، علاوة على أن القادة الثلاث مهدوا الأرض للثورة، وقضوا الكثير من حياتهم فى السجون والمنافى، وهم أصحاب أول تنظيم سياسي في اليمن، وكل منهم لديه خبرة طويلة ويشكلون النواة الصلبة للعمل الوطني.

ولكن الذين لايعرفون، اعتبروهم قيادة تقليدية عفى عليها الزمن.

وانتهى الحال بالقاضى الإيريانى إلى العيش فى منفاه الاختيارى فى دمشق، وأن يعيش نعمان فى جنيف.

□□□

وكان كل من أحمد نعمان ومحمد الزبيرى وعبدالرحمن الإيريانى ضمن الرعيل الأول الذى درس فى المعاهد الأزهرية في القاهرة، وعندما وافق الإمام على إرسال بعض شباب اليمن للتعليم فى مصر وافق بشرط ألا يعيش الطلبة فى القاهرة تلك المدينة الكبيرة. وهى بالضرورة خطرة. واتفق على أن تكون مقر أول بعثات يمنية في بني سويف في صعيد مصر، وفي طنطا قلب الدلتا..

وفى الموجة الثالثة من الطلبة قبل الإمام بأن توجد مقر البعثة فى مدينة جنوب القاهرة فى منطقة صحراوية هى «حلوان»، وهكذا انتقلت البعثة اليمنية إلى حلوان..

ومن هؤلاء الطلبة الذين درسوا فى حلوان محسن العيني وعبدالله جزيلان وعادوا جميعا إلى اليمن يسعون إلى تغيير الأوضاع التي يعاني منها شعبهم.

□□□

تعددت رحلاتى إلى اليمن لتغطية أحداثها، وكانت صلتى بالأستاذ نعمان جواز مرور للكثير من الدوائر..

فقد كان بطبيعته معلما يوزع تلاميذه فى كل مكان، وقد ولد فى الحجرية عام ١٩٠٤ من أسرة شافعية، ودخل المدرسة الدينية فى زبيد ثم الأزهر الشريف فى القاهرة.. وعاد فى الثلاثينات معلما..

ذكريــــات يمنيـــــة

يحكى قائلا.. «ست سنوات قضيتها فى مدرسة الحجرية مدرسا ومديرا، وثلاث سنوات في تعز مدرسا ومديرا للمعارف، وستة أشهر فى مدرسة بإذرعة الخيرية فى عدن. وأربع سنوات فى حجة مدرسا ومديرا للمعارف.. وثلاثة أشهر ونصف الشهر مستشارا لمعارف اليمن كلها، قضيت كل هذه السنوات فى حقل التعليم الذى تلاحقنى مهنته، وتجذبنى حتى فى السجن والمنفى».

◻◻◻

قام أول انقلاب عربى فى اليمن عام ٤٨ بقيـــادة عبد الله الوزير الزيـدى الهاشمى. وخلاله لقى الإمام يحيى مصرعه، وفى الوزارة التى شكلها عبدالله الوزير اختار محمد محمود الزبيرى وزيرا للمعارف، وأحمد محمد نعمان وزيرا للزراعة..

واستمرت الحكومة الجديدة ٢١ يوما، وانتهت بقطع رأس الوزير وثلاثين من أصحابه، وأودع نعمان والإيريانى سجن حجه الرهيب.. وفلت الزبيرى وجاء القاهرة، وتكونت نواة حركة اليمنيين الأحرار.

وعاد الشعب اليمنى يرفض التخلف والعزلة، وقامت ثورة الثلايا عام ١٩٥٥ قادها المقدم أحمد يحيى الثلايا، وعاد يومها أحمد نعمان إلى اليمن فى صحبة وفد مصرى برئاســة حسين الشافعى، وبعد فشل الثورة أعدم الثلايا كما أعدم الإمام أحمد أخويه عبدالله والعباس وصـــاحب نعمان الوفـــد المصرى إلى القاهرة. وعاش فترة طويلة بين القاهرة وعدن.

ولعب نعمان دورا سياسيا مهما فى هذه الفترة وبايع البدر لولاية العهد، وكان معلما له. وكان محسن العيني سكرتيره الخاص.

ويعلق نعمان على هذه الفترة قائلا.. «إن الأحرار التفوا حول البدر ونصروه ليضربوا السيوف جميعا (أمراء أسرة حميد الدين). مثلما حالفوا بيت الوزير ضد الإمام يحيى».

فى عام ١٩٤٨ وقف الملك عبدالعزيز والملك فاروق مع أسرة حميد الدين ففشلت محاولة إسقاطها، وفى عام ١٩٥٥ وقفت القاهرة والرياض مع أسرة حميد الدين وفشلت المحاولة الثانية، بينما فى عام ١٩٦١ وقفت السعودية مع الإمام ووقفت مصر مع الثورة.

واتهم الأحـــرار اليمنين والأقطاب الثلاثة بأنهم كانوا ثوارا أكثر من اللازم عام ١٩٤٨، وثوارا أقل من اللازم عام ١٩٦١.

◻◻◻



كانت رحلتى إلى اليمن هذه المرة لتغطية مؤتمر المصـــالحة اليمنى فى حرض.. بعد إعلان الاسكندرية الذى وقعه كل من عبدالناصر وفيصل خلال مؤتمر القمة عام ١٩٦٤، ثم ما أعقبـــه من مباحثات في أركويت بالسودان، من أجل إنهاء الحرب فى اليمن، وتحدد للمؤتمر يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٦٤.. وأقام عبدالناصر سياسة تهدف إلى دعم تيار يمنى مستقل يعتمد على نفسه.

وأيد الأقطاب الثلاثة نعمان والزبيرى والإيريانى هذا الاتجاه.. رغم ذلك لم يعقد المؤتمر، فقد عملت على إفشاله العناصر اليمنية التى تريد أن تحكم فى حماية القوات المصرية.. وكان السفير المصرى فى اليمن محمد شكرى.. يبذل قصارى جهده من أجل نجاح المؤتمر، أما بعض الدوائر فى القيادة العسكرية ، فكانت تقوم بدور يجعل احتمالات عقد المؤتمر مستحيلة، وهى الدوائر التى استفادت من حرب اليمن وزادت امتيازاتها، وكان فشل مؤتمر حرض يعنى عدم انسحاب القوات المصرية لمرحلة جديدة.

وكان نعمان يرى.. «أن سنة التطور تقضى بالتدرج من نظام إلى نظام حتى تستقر الأوضاع عن نظام ثابت».

وأدرك أحمد نعمان، أن الحرب الأهلية لاتنتهى سوى بالمصالحة والحل الوسط هو الذى يقبله كلا الطرفين المتنازعين، وإذا انتهت الحرب بفرض شروط طرف على الطرف الآخر، فهذا يعنى أن الاتفاق مجرد وقفة يتجدد بعدها القتال، لذلك سعي القادة الثلاثة إلى المصالحة، ودعا الزبيرى إلى قيام قوة ثالثة، ودفع حياته ثمنا لهذه الدعوة عندما لقى مصرعه فى جبال برط وهو فى زيارة القبائل بكيل.

وأغضب هذا التحليل الطرف الذى لايرى ولاتحركه ســـوى مصالحه! أولئك المنتفعين باستمرار القتال فى اليمن.

□□□

وبرزت فى هذه الفترة مجموعة قوية تضم الإيريانى والنعمان وحسن العمرى، ويحكى أحمد نعمان بسخريته اللاذعة.. «عاملنـــا المصريون معاملــــة الأنبياء!. وأسأله.. كيف؟، يجيب: «ألم يضع فرعون مصر النبى يوسف عليه السلام فى السجن»..

وهو يقصد ما وصل إليه الصراع فى اليمن، والذى أدى إلى دخول نعمان والعمرى وعدد من الوزراء اليمنيين السجن

ذكريات يمنية

الحربي. عندما جاءت طائرة تحمل وفدا يمنيا يضم حسن العمرى وأحمد نعمان والقاضي الإيرياني. بعد أن وضع قائد القوات المصرية في اليمن طائرة تحت تصرفهم استقلوها إلى القاهرة، وهبطت الطائرة في مطار القاهرة، ومن المطار إلى المعتقل في السجن الحربي، واستثنى القاضي الإيرياني الذى تم تحديد إقامته في بيته بالهرم.

وهى سابقة ليس لها مثيل في تاريخ العلاقات بين الدول.

ويلاحظ أنه بعد عودة القوات المصرية من اليمن، تولى القاضي عبدالرحمن الايرياني رئاسة الجمهورية ونعمان مساعده وعضو المجلس الجمهورى الرئاسي، والذى قدم استقالته. أما حسن العمرى فقد أصبح رئيسا للوزراء في نهاية عام ١٩٦٧، وهو الذى قاد الدفاع عن صنعاء ضد القبائل الملكية التي حاصرتها.

□□□

وقدر لى أن أرى المشهد الأخير لوجود القوات المصرية في اليمن، عندما سافرت إلى الحديدة مع الزملاء مكرم محمد أحمد ومصطفى الحسيني، بعد يونيه ١٩٦٧، وتنقلنا خلال هذه الرحلة بين الحديدة وصنعاء وتعز وعدن، قاصدا متابعة انسحاب القوات البريطانية من اليمن الجنوبى واعلان استقلاله، كأحد نتائج الوجود العسكرى المصرى في اليمن.

وشاهدنا إنسحاب القوات المصرية من اليمن، وانسحاب القوات البريطانية من جنوب اليمن. وشتان بين دور كل منهما، رغم ذلك انسحبت القوات المصرية، ولم تترك خلفها مصرى واحد مدرسا كان أم طبيبا، بل وتم سحب جميع الدبلوماسيين المصريين من صنعاء، وأطفئت أنوار السفارة المصرية. ونصحنا قائد القوات المسلحة في الحديدة بألا نسافر إلى صنعاء خوفا على حياتنا.

أما الإنسحاب البريطانى من الجنوب، فقد تم في احتفال مهيب ومشهد امبراطورى كل شيء فيه محسوب.

وما لقيناه في هذه الرحلة من الشعب اليمنى في الشمال والجنوب، لايوصف، بوصفنا مصريون، مما أعاد لنا الثقة في المستقبل.

ففى الشمال يوم وصولنا صنعاء، كان لنا شرف حضور اجتماع مجلس الوزراء اليمنى برئاسة محسن العيني، وعندما أقمنا في السفارة المصرية وأشعلنا الأضواء تدفق علينا اليمنيون، متصورين أن ذلك دليل على رجوع المصريين، وعندما زرنا بعض قرى حضرموت استقبلنا استقبالا حافلا، وخرجت لاستقبالنا قرى



الوفد اليمني بعد انقلاب ١٩٥٥ مع السيد حسين الشافعي
ويقف أحمد النعمان على يسار حسين الشافعي

بكاملها، تقدر فى أشخاصنا الدور العظيم الذى قام به المقاتل المصرى فى بطاح اليمن، والذى سالت دماؤه الزكية ثمنا لنهضة الشعب اليمنى.

□□□

سنوات خمس غيرت المنطقة بعد قرون خمسة من التخلف.. وصلت القوات المصرية إلى اليمن وهى تحمل رسالة مقدسة، وهى تحمل مشاعل التقدم، وساهمت فى كتابة صفحة مهمة من التاريخ، ولكنها ذهبت وعادت ولم تسجل تجربتها، ولم تترك كتاب مثل ذلك الكتاب «وصف مصر» الذى تركته الحملة الفرنسية فى مصر، وهو ما نبه إليه الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين، ولم يستجب إليه أحد.

هذا رغم أن الفارق كبير بين الحملتين، أحدهما استعمارى أما القوات المصرية فتهدف إلى كسر عزلتى الزمان والمكان عن الشعب اليمنى.

ضمت الحملة الفرنسية بين صفوفها عدداً كبيراً من العلماء، والعلماء هم الذين تجاهلتهم الحملة المصرية، ولم تلتفت لبحوثهم.

وأخيرا...

لابد من صنعا...

وإن طال السفر...

دائـــرة حـــــوار ٢

بقلـم: د. هـانى عبدالمنعم خلاف

مســـتقبل المشروع القومى العربى والشــرق إوســطيـة

□□ بافتراض تزامن استهلال القرن الجديد - اربع سنوات من الآن - مع استئناف العلاقات العربية البينية على أساس من المصالحة، والدعوة الى حظيرة العمل العربى المشترك، وبافتراض ان يكون خيار السلام الاستراتيجى بين العرب واسرائيل قد استقر فى فكر وتخطيط الطرفين وانتقل على المستوى العملى الى اتفاقات للسلام والتطبيع وترتيبات ثنائية للأمن بين اسرائيل ودول الجوار المباشر فسوف تبقى مع ذلك رهن البحث - مسألة الاطار المؤسسى الجامع الذى ينتظم تلك العلاقات والترتيبات، وهو ما تقيم له اسرائيل والاطراف الدولية الكبرى وزنا مهما فى استراتيجياتها المستقبلية وبما لايمكن تجاهله عربيا، فوق انه بذاته قد يحقق مصلحة عربية مهمة فى ضبط الحركة الاسرائيلية على المحاور المختلفة وتحجيم طموحاتها أو التحكم فى مناوراتها داخل اطارات مؤسسية ذات صلاحيات وآليات محـددة □□

وحول حدود وطبيعة هذا النظام الاقليمى او الاطار المؤسسى للعلاقات العربية الاسرائيلية يمكن رصد عدة سيناريوهات يجرى الإعداد لبعضها بمعرفة اسرائيل والاطراف الدولية الكبرى، وسيناريو آخر يحاول الفكر العربى استطلاع ملامحه العامة وضروراته دون ان يتقدم فيه بتصورات وعناصر عملية محددة.

السـيـنـاريـو الأول: الشــرق أوسطية

وفيه ازاحة تدريجية للاطار

المؤسسى الراهن للجامعة العربية واحلال اطار سياسى وجغرافى ومؤسسى مختلف يشمل الى جانب الدول العربية كلا من اسرائيل وتركيا وايران.. وتكون لهذا الاطار الجديد قواعد ومبادىء ومؤسسات ومشروعات على نحو ما عرف فى أوربا بمؤتمر الأمن والتعاون CSCE.

السيناريو الثانى : المتوسطية

وبرغم انه لا يتضمن بالضرورة ازاحة النظام الحالى للجامعة العربية - فإن فيه احتمال اضعاف العلاقات العربية حيث إنه - بترتيباته الراهنة - يقسم الدول العربية الى مجموعة مشاطئة للبحر المتوسط يجرى التعاون بينها وأوربا، ومجموعة عربية أخرى خارج هذا الاطار.. وهذا السيناريو مع السيناريو الاول يحققان لاسرائيل الاندماج مؤسسياً مع الدول العربية ولكن بدرجات وفى نطاقات جغرافية متفاوتة.

السيناريو الثالث : التفتيت الى نظم فرعية (دون اقليمية) متعددة.

وفى هذا السيناريو يتم تفتيت النظام الاقليمى الشامل الى نظم فرعية متعددة (نظام خاص بدول الخليج ويضم اليه العراق وايران) نظام آخر يضم اسرائيل الى مجموعة دول الطوق العربية المحيطة بها)، (نظام ثالث لدول المغرب العربي وشمال افريقيا)، (نظام رابع يضم مصر والسودان ودول حوض النيل - رؤية شخصية للدكتور بطرس غالي) (نظام خامس لدول البحر الاحمر وامتداده الى القرن الافريقى).

ويلاحظ ان هذا السيناريو يسمح بتداخل بين بعض النظم الفرعية فى بعض الدوائر اى ان يكون بعض الاطراف اعضاء فى اكثر من نظام فرعي واحد.

السيناريو الرابع : تطوير النظام الاقليمى العربى الراهن على ضوء حقائق السلام والمتغيرات الجديدة

ويتضمن هذا السيناريو الابقاء على الجامعة العربية كإطار عربى خالص مع تطوير اهدافها ومؤسساتها وآلياتها وبرامجها على نحو يأخذ فى الاعتبار حقائق السلام ودواعى المرحلة الجديدة فى العلاقات العربية الاسرائيلية اى العمل من منطلق الاعتراف باسرائيل كحقيقة سياسية تمثل طرفا اقليميا مهما يلزم التعامل معه، ولكن بمنطق عربى جماعى وبنفس المنطلق يكون التعامل مع الأطراف الإقليمية والدولية الأخرى غير العربية (كايران - وتركيا - والولايات المتحدة - والاتحاد الأوربى

وروسيا) ووفقا لهذا السيناريو يمكن ان تنشأ قنوات اتصال بين الجامعة العربية وهذه الاطراف الاقليمية والدولية ذات المصلحة فى الشرق الاوسط المستقر والآمن.

ونظرا لتعدد الكتابات والشروح التى قدمت من قبل فى استعراض دواعي ومحاذير كل من السيناريوهات الثلاثة الأولى، ونظرا لعدم التقدم حتى الآن بتصورات تفصيلية كافية للسيناريو الرابع، اى فكرة تحديث وتفعيل النظام الاقليمى العربى على ضوء حقائق السلام والمتغيرات الاقليمية والدولية الجديدة.. فقد رأينا أن نتقدم بالاسهام التالى كاجتهاد شخصى فى هذا الاتجاه.

النظام الجديد للجامعة العربية فى ضوء حقائق السلام والمتغيرات الجديدة.

١ - تطوير النظام القانوني والهيكل المؤسسى للجامعة العربية وعلاقاتها الخارجية:

ويشمل ذلك:

أ - احتفاظ الجامعة بهيكل عضويتها الحالي وطابعه العربي الخالص على ان تنشأ فيما بينها والأطراف غير العربية ذات الأهمية وذات الاهتمام - قنوات اتصال وتنسيق فى شكل مجالس جغرافية أو نوعية: (مجلس للعلاقات العربية الايرانية) (مجلس للعلاقات العربية الأمريكية) (مجلس للعلاقات العربية الآسيوية)، و(آخر للعلاقات العربية الأوربية)، وبنفس المنطق ينشأ (مجلس للعلاقات العربية الاسرائيلية).

ب - يكون التمثيل فى هذه المجالس على مستوى الامانات العامة للمنظمات وللتجمعات الاقليمية أو على مستوى وزارات الخارجية أو سفاراتها فى الدول الفردية كايران واسرائيل والولايات المتحدة وروسيا (أى على غرار الحوار الجارى الآن بين سكرتارية حلف الأطلنطى وفرادى الدول المتوسطية الواقعة جنوب المتوسط).

جـ - يمكن لمجلس الجامعة العربية أن يرخص للمنظمات والوكالات العربية المتخصصة والمنبثقة عن الجامعة - اجراء اتصالات مع الأطراف غير العربية المذكورة وذلك لبحث مشروعات تعاونية محددة وذلك فى حدود تفويض سياسي محدد.

د - يمكن فى حالة عدم وجود أو عدم كفاية المؤسسات والآليات العربية القائمة فى مجالات معينة الاتفاق مع الأطراف غير العربية على انشاء مثل

هذه المؤسسات - بصفة مشتركة - بحيث تمثل الجامعة العربية طرف التعاقد العربى فيها (قد يكون ذلك واردا مثلا فى حالة انشاء نظام اقليمى للرقابة على الأسلحة - او فى حالة انشاء نظام شامل لاخلاء الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل - أو نظام اقليمى للاشراف على مدينة القدس - او نظام اقليمى لتسوية المنازعات - او نظام اقليمى للحفاظ على البيئة البحرية أو لمواجهة الكوارث.

هـ - قد يستدعى هذا التصور اعادة هيكلة فى الأمانة العامة للجامعة العربية بحيث تضاف الى ادارتها وأجهزتها المتخصصة وحدات جديدة وربما عناصر بشرية، وصلاحيات قانونية جديدة.

و - وعلى مستوى العلاقات العربية البينية سوف يكون من الضرورى اجراء مراجعة عامة لوضعية التجمعات العربية دون الاقليمية بما يفضى الى مزيد من التنسيق فى توزيع الأدوار والتكامل بين المصالح العربية المشرقية والمغربية.

ز - سوف تدعى الجامعة العربية فى اطارها الجديد وفى ظروفها الاقليمية والدولية الجديدة إلى اجراء مراجعات أخرى لبعض مواثيقها وأجهزتها الراهنة بهدف تعديل أو تحديث او تفصيل او استحداث مايلزم ويدخل ضمن ذلك (مكتب المقاطعة - آلية التحكيم العربية - مشروع السوق العربية المشتركة - معاهدة الدفاع المشترك - وضعية مؤتمرات القمة العربية بالنسبة لأجهزة الجامعة العربية - نظام اتخاذ القرار فى الجامعة... الخ).

٢ - أهداف ومجالات العمل العربى الجديدة:

أ - الأمن العربي :

- سوف يكون من أوائل أهداف المشروع القومى فى مرحلته القادمة ايجاد قواعد جديدة للأمن العربى تراعى مختلف ابعاد الأمن ولا تحصرها فى مجرد أمن الجيوش وأمن الحدود وأمن النظم السياسية وانما تراعى بنفس القدر مشكلات الأمن الاقتصادى والأمن الاجتماعى وأمن الأفراد والجماعات.

- وسوف يدخل فى اطار المطلوب الجديد للأمن الجماعى معالجة المفارقات القائمة فى مستويات النمو والرفاهية فيما بين الوحدات العربية ذاتها وفيما بينها والاطراف الاقليمية الاخرى، ومعالجة المفارقات بين برامج التسلح واعداد الجيوش من ناحية

وطموحات التنمية الاقتصادية والاجتماعية من ناحية أخرى.

- يلزم أن تتضمن ترتيبات الأمن الجماعى العربى أيضاً الالتزام مسبقاً بآليات محددة لتسوية ما قد يطرأ من خلافات أو نزاعات بينية.. بما فى ذلك تفعيل آليات التحكيم العربية، محكمة العدل العربية وربما التفكير فى إنشاء قوة عربية مشتركة للتدخل فى الحالات التى تستلزم تدخلا.

- وسوف يقتضى المفهوم الجديد للأمن العربى الجماعى التفاوض مع الأطراف غير العربية من خلال صوت جماعى واحد فيما يتعلق بترتيبات اخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل وترتيبات المشاركة الاقتصادية مع بعض التجمعات والقوى الدولية.

- لابد من معالجة عربية جديدة وجريئة لمشكلات التوزيع السكانى، والتركيب السكانى بما يجهض أية احتمالات لتفجر نزاعات أو قلاقل فى المستقبل.

- وتحسبا لاحتمال التآكل التدريجى فى موارد البترول العربى فسوف يكون من الضرورى صياغة استراتيجيات وسياسات طويلة المدى بهدف استبقاء علاقات التحالف القائمة بين العالم العربى وبعض الأطراف الأخرى فى أفريقيا وآسيا والعالم الاسلامى، وكفالة امتداد هذه العلاقة واستمرارها حتى من بعد انزواء العنصر البترولى الذى يمثل احدى أكبر دعاماتها فى الوقت الراهن.

ب - التركيز على دعم المجتمع المدنى فى البلدان العربية.

كذلك أثبتت الجامعة العربية خلال عمرها البالغ نصف قرن أن شعار الوحدة العربية والتضامن العربى لايزال فى احتياج الى امتدادات وكوادر منظمة على المستويات الشعبية العريضة بما يحمى مفهوم التضامن ويصون مبادئه وأهدافه فى مختلف المواقع السياسية والاجتماعية وبما يكفل توسيع وتعميق فهمه بين الناس والمؤسسات فهما صحيحا وايجابيا، ورغم تعدد الاتحادات العربية النوعية والمهنية، ورغم وجود اتحاد رئيسى يضم البرلمانات العربية المفترض لها ان تكون معبرة عن الجماهير العربية فى سائر الأقطار فإن الصلة لاتزال قاصرة بين عمل هذه الاتحادات والبرلمانات من ناحية وبين عمل الجامعة العربية ومؤسساتها من ناحية أخرى ويعتبر هذا المجال من المجالات المرشحة للتعزيز فى اطار العمل

المشترك خلال المراحل القادمة.. وسوف تكون الدول العربية مدعوة لاجراء دراسة معمقة حول تجربة الاتحاد الاوربى وآليات العمل الجارى فيما بين مؤسساته المختلفة، والنظر فيما يمكن الافادة به عربيا من هذه التجربة الاوربية الناجحة، والتى يعمل مؤتمر مراجعة ماستريخت على مزيد من تقويتها وتعزيزها.

اساليب ومناهج عمل جديدة للجامعة العربية ومؤسساتها:

قد يستلزم تحديث الجامعة العربية ومنظماتها ادخال عدد من اساليب العمل والأدوات الجديدة من بينها مايلى:

- اعطاء أولوية خاصة للمشروعات القومية الميدانية ذات المردود الملموس على مستوى القواعد الجماهيرية بجانب العمل على مستوى السياسات العامة والنظم الرسمية.

- تأسيس الاعمال والمشروعات الكبرى على ضوء دراسات تعتمد منهجية الرصد المستقبلى والتنبؤات العلمية متوسطة وبعيد المدى.

- الاهتمام بعمليات تخطيط البرامج والتقييم الدورى لتلك البرامج والمشروعات واللجوء فى مثل هذا التقييم الى هيئات أو مؤسسات مستقلة على نحو ما أدخلته بعض منظمات الأمم المتحدة مؤخرا فى أعمالها توفيرا للحيدة والموضوعية فى عمليات المراجعة والتقييم.

- تشجيع مشاركة التجمعات المهنية والنقابية والمنظمات غير الحكومية فى اجتماعات الجامعة العربية والأنشطة الميدانية القطرية والقومية لمنظماتها المتخصصة.

- تكافؤ التوزيع الجغرافى للمؤسسات والمشروعات فيما بين الدول العربية الأعضاء حسب معايير المزايا النسبية، وكفاءة الأداء.

- تجنب ازدواجية العمل بين مؤسسات وأجهزة الجامعة العربية.

- ادخال مفهوم الموارد الاضافية التى يمكن الحصول عليها خارج مصادر الميزانية العادية، وذلك من خلال مشروعات مدرة للدخل تتولى الجامعة العربية الاشراف عليها، مدارس لتعليم اللغة العربية فى العواصم الخارجية - صحف أو دوريات تصدر عن الجامعة باللغات الأجنبية - خدمات استشارية تقدمها المنظمات العربية المتخصصة للشركات والبنوك ذات الاهتمام بالعمل والاستثمار فى العالم العربى......... الـــخ..

حقوق المسلمين في روسيا وجاراتها

بقلم : عبدالرحمن شاكر

واقعة غريبة طيرتها وكالات الأنباء ونشرتها الصحف في الثاني من أكتوبر الماضي، حيث داهمت السلطات الروسية أحد المساجد في وسط موسكو، واعتقلت عشرين من المصلين، دون سبب واضح مفهوم، وكان الجنود شاهرين أسلحتهم، مرتدين أحذيتهم .. وبعدها أفرجوا عن هؤلاء المعتقلين من المصلين، بعد أن أوسعوهم ضربا!

ولو أن الواقعة المذكورة حدثت من جانب جماعة متطرفة تعادى الإسلام في روسيا لكان أمرا مفهوما، أما أن تحدث من جانب رجال الشرطة، المفروض فيهم حماية المواطنين، والعمل على استتباب الامن بينهم وصيانة أرواحهم وممتلكاتهم واعراضهم ومقدساتهم، فذلك هو وجه الغرابة.

وبالطبع لا يمكن رد هذه الواقعة إلى الالحاد الشيوعي، الذى كثيرا ما رميت به الحكومة السوفييتية السابقة، ولا يذكر التاريخ واقعة من هذا النوع في العهد الشيوعي، رغم كل ما قيل آنذاك، عن إغلاق المعابد وتحويلها إلى متاحف، والدعاية المضادة للمعتقدات الدينية. إلخ.

والذين يحلو لهم أن يتحدثوا عن حقوق الإنسان.. من الذى أسقط حقوق المسلمين الروس على هذا النحو؟ أم ان هذه الحقوق قد سقطت تلقائيا مع سقوط الشيوعية، التى كانت تنادى بالمساواة؟ ما بين جميع الأجناس واتباع مختلف العقائد والديانات؟.

هل يكون الدافع لما اقدم عليه رجال الشرطة الروسية، هو أن هؤلاء المصلين مثلا، قد عبروا عن استنكارهم لما يحدث في القدس من عدوان على المسجد الاقصى، الذى أثار استياء جميع المسلمين في العالم، وسمعت الشرطة أصواتهم



تعبر عن هذا الاستنكار خلال الميكرفونات الموجودة داخل المجلس، فمرضهم ضابط يهودى - مثلا - على اقتحام المسجد لتأديب المصلين فيه ؟!

أم يكون الدافع هو الانتقام لما حدث فى جروزنى عاصمة الشيشان فى التاسع من شهر أغسطس الماضى، حيث اقتحمتها جماعة من المقاتلين الشيشان المسلمين، وحاصرت القوات الروسية هناك، وربما كانت من القوات التابعة للشرطة وأسرت بعضهم، وقتلت وجرحت كثيرا منهم، حتى كان اتفاق السلام الذى توصل إليه الجنرال الكسندر ليبيد مستشار الرئيس الروسى للأمن القومى مع مسخادوف رئيس أركان حزب المقاتلين الشيشان ويقضى بانسحاب القوات الروسية وقوات المقاومة معا من عاصمة الشيشان، ووقف إطلاق النار لمدة خمس سنوات يتم خلالها التوصل إلى الوضع السياسى النهائى لتلك الجمهورية الصغيرة المطالبة بالاستقلال عن الاتحاد الروسى؟

إن واقعة الاعتداء على المصلين فى أحد مساجد موسكو لا تدخل فى باب الانتقام لما حدث فى الشيشان فحسب، بل يعتبر عدوانا على حقوق المسلمين فى روسيا، مضافا إلى العدوان الأصلى الذى راح ضحيته قرابة أربعين ألفا من أبناء

تلك الجمهورية الصغيرة، فضلا عن الذين شردوا من سكانها لمجرد أن الأغلبية المسلمة فيها تطالب بالاستقلال!

طلب الحماية الروسية!

على الجانب الآخر من الصورة، صورة ما يحدث للمسلمين فى روسيا، نجد أن قادة الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا التى استقلت عن الاتحاد السوفييتى بعد تفككه، والتى تنضوى الآن تحت لواء ما يسمى «كومنولث الدول المستقلة» قد اجتمعوا. أى هؤلاء القادة مع فيكتور تشيرنو مردين، رئيس وزراء روسيا، والقائم تقريبا بمعظم سلطات رئيسها المريض بوريس يلتسين، وذلك لبحث التطورات الجارية فى أفغانستان حيث تتقدم قوات حركة «الطالبان» المتطرفة فى اتجاه الشمال بعد استيلائها على العاصمة الأفغانية كابول، وإسقاطها حكومة ربانى «المؤقتة»، وتصطدم حاليا بقوات أحمد شاه مسعود وزير الدفاع السابق فى وادى بنجشير، ويهدد القائد الأوزبكى الأصل عبد الرشيد رستم، المعروف بأنه شيوعى، بالانضمام إلى مسعود فى مواجهة «الطالبان»، ويبدى قادة الجمهوريات الإسلامية السابقة فى اجتماعهم مع تشيرنو مردين تخوفهم من أن تصل قوات الطالبان إلى حدود بلادهم، وتحاول الالتحام مع حركة المقاومة الإسلامية فى طاجيكستان، أو تحاول من جانب آخر اجتياح الحدود مع أوزبكستان والاستيلاء على منطقة بخارى، موطن الإمام البخارى صاحب الصحيح المشهور من الحديث النبوى، ويطلبون مساندة الحكومة الروسية، وهى بالفعل قائدة القوات المسلحة لدول الكومنولث، فى صد هذا الخطر، ولو بتقديم العون إلى عبدالرشيد رستم للتصدى لحركة الطالبان.

ومن الطبيعى أن يبدى قادة الجمهوريات المذكورة فى آسيا الوسطى تخوفهم من امتداد التطرف الدينى، ولو تحت لواء الإسلام، إلى بلادهم ذات النظام العلمانى الموروث عن العهد السوفييتى ، حيث كان من مظاهر مايوصف بأنه تطبيق للشريعة الإسلامية على يد حركة الطالبان فى المناطق التى استولوا عليها فى أفغانستان، هو حظر خروج النساء من منازلهم سواء للعمل أو التعلم ! وكذلك إجبار الرجال على الصلاة فى المساجد ومعاقبتهم بالضرب إذا تخلفوا عن ذلك !

وهكذا نرى أن جزءاً من محنة المسلمين فى تلك الأصقاع التى كانت تعرف باسم الاتحاد السوفييتى، وقبله الامبراطورية الروسية أنهم يجدون أنفسهم واقعين بين نارين : نار التطرف

المعادى للإسلام الذى يضربهم لأنهم يصلون فى موسكو، ونار التطرف باسم الإسلام الذى قد يضربهم لكى يصلوا فى أوزبكستان أو طاجيكستان !

احتمالات التفكك

على أن القضية شديدة التعقيد فى تلك الأصقاع التى شهد تاريخها، وبالتالى تركيبها البشرى تداخلا شديدا بين مختلف الأجناس والديانات والعقائد، وقامت فى أرضها على التعاقب دول تدين كل منها بإحدى الديانات السماوية الثلاث، فكانت هناك دولة البلغار المسلمين على ضفاف الفولجا، التى أعقبتها دولة القبيل الذهبى التترية التى اعتنقت الإسلام هى الأخرى، وفى القوقاز عند مصب نهر الفولجا كانت تقوم دولة الخزر التى اعتنقت اليهودية فى أواخر القرن الثامن الميلادى، وأخيرا قامت الدولة الروسية المسيحية التى فرضت هيمنتها على تلك المناطق وضمت إليها بالفتح ممالك إسلامية قديمة فى آسيا الوسطى حيث كان يقوم ملك تيمور لنك فى سمرقند، وخوارزم شاه فيما يعرف الآن باسم كازاخستان، فضلا عما انتزعته بالحروب من الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية، مثل أذربيجان والقرم وهلم جرا، وامتد سلطان الدولة الروسية فى توسعها الأسيوى شرقا حتى شمل سهول سيبيريا شمال الصين وصولا إلى المحيط الهادى، حيث تتنازع مع اليابان حتى الآن على جزر صغيرة هناك تعرف باسم جزر الكوريل، فضلا على خلافات حدودية مع الصين تدور حول أجزاء من سيبيريا ومنغوليا .. إلخ .

ولقد حاولت الثورة البلشفية فى روسيا فى عام ١٩١٧ أن تضع حدا للاضطهاد الذى لحق بالقوميات غير الروسية تحت اسم سياسة «الترويس» التى فرضها القياصرة منذ بداية القرن التاسع عشر، وذلك عن طريق إقامة نظام اجتماعى يقضى بالمساواة بين مختلف أبناء القوميات واتباع الديانات، فضلا عن المساواة الاجتماعية فى ظل النظام الاشتراكى. ولكن الاستبداد السياسى الذى استمر باسم ديكتاتورية البروليتاريا، كان له انعكاس سلبى على الأهداف السامية لتلك الثورة، وخاصة بعد تحوله إلى إرهاب بوليسى خانق فى عهد ستالين. وحينما كان التحول إلى الاشتراكية الديموقراطية يبدو تطورا طبيعيا بعد الكشف عن فظائع عصر ستالين فى المؤتمر العشرين للحزب البلشفى فى عام ١٩٥٦ - كما نادينا بذلك فى كتابنا عن «الثورة الاشتراكية العالمية» الصادر فى عام ١٩٦١، فإن تلكؤ قادة الحزب البلشفى فى إقرار هذا التحول بحكم المصالح الخاصة لهم التى جعلت منهم فى واقع

الأمر طبقة جديدة تحتكر مختلف الامتيازات فى المجتمع السوفييتي، قد جعل من ذلك التطور الحتمي حينما حدث فى عهد جورباتشوف فى عام ١٩٨٥، بمثابة زلزال مدمر : أدى إلى العصف بالنظام الاشتراكى من أساسه. وتفكك الاتحاد السوفييتي، الذى قيل إن من أهم أسبابه أن العنصر السلافى الذى يدين معظم أبنائه بالمسيحية، قد خشى من أن يصبح المسلمون بعد عقود قليلة أغلبية فى الاتحاد السوفييتي «السابق» لكثرة التوالد فى صفوفهم !

وساعد على هذا الانهيار أن النظام السوفييتي كان قد تورط - قبل سقوطه - لمدة تزيد على عشر سنوات فى الحرب الأهلية فى أفغانستان، تلك الدولة الصغيرة التى تقوم على حدوده الجنوبية، والتى توهم القادة السوفييت أنهم بتأييد الانقلاب الشيوعى فيها عن طريق التدخل المسلح، سوف يمكنهم من سلكها فى عداد الجمهوريات السوفييتية الإسلامية فى آسيا الوسطى ! ولكن الولايات المتحدة الأمريكية وقفت بصرامة هى وحلفاؤها فى باكستان وغيرها وراء خصوم الانقلاب الشيوعى، وأمدتهم بمختلف المساعدات التى جعلت من التورط السوفييتي جحيما حقيقيا، وفضيحة تاريخية لا تقل بشاعة عن التورط الأمريكى السابق فى فيتنام، والعاقل من اتعظ بغيره، ولكن قليلا ما يحكم العقل قرارات الحكام المستبدين !

فإذا كان حكام الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، يستغيثون الآن بالحكومة الروسية لتحميهم من المتطرفين فى أفغانستان هذه، فهل الحكومة الروسية قادرة على ذلك وهى تواجه خطر التفكك من وجهين:

أولا - التفكك القومى، بسبب أشكال التعصب داخل روسيا المتخلصة من امبراطوريتها السوفييتية، بما فى ذلك التصريحات المعادية للإسلام وأعمال من نوع حادث اقتحام الشرطة للمسجد الذى بدأنا به المقال، ولشعور الجمهوريات الصغيرة ذات الأغلبية الإسلامية بالغربة داخل الاتحاد الروسى بعد أن فقدت روسيا وحدتها فى الجمهوريات الإسلامية الكبرى فى آسيا الوسطى والقوقاز، وكانت ثورة الشيشان من أجل الاستقلال هى أوضح مظاهر هذا الشعور، واليوم يصرح بعض المسئولين الروس، بعد أن فشلت الحكومة الروسية فى القضاء على ثورة الشيشان بالحرب التى استمرت قرابة عامين، بأن انفصال الشيشان المرتقب، قد يعقبه انفصال كل من داغستان وأنجوشيا وأوسيتيا العليا، بحيث تكون جميعها مع الشيشان «حزاما إسلاميا أخضر» يتصل بالثوار المسلمين فى إقليم أبخازيا المطالب

بالاستقلال عن جورجيا ، الجمهورية السوفييتية السابقة، وبأذربيجان ، مما يمثل تهديدا خطيرا للمصالح الروسية فى القوقاز، وخاصة فيما يتعلق بامدادات البترول .

ثانيا : كان عجز القوات المسلحة الروسية عن قمع الثورة الشيشانية علامة واضحة- على التدهور الذى أصاب هذه القوات، بسبب عجز الحكومة عن دفع مرتبات الضباط والجنود الذين يعانون من الجوع وفقدان المأوى ويضطر بعضهم إلى بيع سلاحه ولو «للأعداء» لكى يحصل على القوت.. فضلا عن فساد القادة من الجنرالات الذين تجرى محاكمتهم.. كل ذلك بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية فى روسيا الاتحادية، وسائر الجمهوريات السوفييتية السابقة، التى كانت منشآتها الاقتصادية يعتمد بعضها على بعض فى الحصول على ما يحتاجه من مواد خام أو مصنعة أو نصف مصنعة .. إلخ وانتهى ذلك كله إلى التمزق وأصبيت معظم تلك المنشات بالشلل بعد حل الاتحاد السوفييتى، ثم سقوط الاشتراكية وظهور عصابات المافيا التى تحاول الاستيلاء على كل ما كان ملكيته عامة عن طريق الرشوة، وأعمال النصب والاحتيال، وعند اللزوم استخدام القوة المسلحة للعصابات، أما عجز الحكومة عن إعالة جيشها الذى كان يحمى امبراطوريتها، بسبب التدهور الاقتصادى الشنيع، فهو يهدد إما بوقوع انقلاب عسكرى، أو تقوض الدولة ووقوعها فى هوة الفوضى والانحلال.

بعد الثورة البلشفية حصلت كل من فنلندا وبولندا ودويلات البلطيق ومعظم سكانها من المسيحيين على استقلالها، وبعد انحلال الاتحاد السوفييتى حصلت أوكرانيا وبيلوروسيا وهما دولتان سلافيتان مسيحيتان على استقلالهما واستردت دويلات البلطيق استقلالها الذى كانت قد فقدته خلال الحرب العالمية الثانية.

أما الخزر اليهود، فقد هاجر معظمهم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يشكلون الآن الجالية اليهودية الكبرى فى العالم ذات النفوذ والثراء العريضين، والباقون منهم شكلوا الحركة الصهيونية التى استطاعت بمعاونة الدول الكبرى الاستيلاء على فلسطين ولاتزال تجلب المهاجرين منهم من روسيا لاغتصاب المزيد من الأرض العربية .

إلا المسلمين فى تلك الامبراطورية المنهارة .. فهم الذين لايزالون مهدرى الحقوق.. لا يعرف أحد ما يكون عليه مصيرهم حتى الآن !

ماجدة الرومى

مطربة أوبرالية تغنى بالعربى

بقلم : كمال النجمى

المطربة اللبنانية ماجدة الرومى أثارت جدلا فى الشهرين الماضيين بعد أن أقيمت لها ثلاث حفلات فى مسارح القاهرة ، غنت فيها ألوانا من الغناء ، واستقبلها الحضور بإصغاء تام ، على عكس ما يقع فى أيامنا هذه من الهرج والمرج ، والرقص باليدين والرجلين فى حفلات الشبان والشابات الذين قذفت بهم الموجة الغنائية الهابطة على أسماع الناس ، كأنهم قدر مقدور لا يمكن الفرار منه !

وقرأنا فى الصحف إشادة بماجدة الرومى ، فقد أحب كثير ممن شهدوا حفلاتها ما أظهرته من وقار واحتشام ، مع خفة ظل وجاذبية ، ناهيك بصوتها الذى رشحه بعضهم ليكون امتداداً لصوت أسمهان ، بطريقة أكثر تطورا ، وأقرب إلى أساليب الغناء «العالمية» التى هى الأساليب الأوروبية والأمريكية وما يجرى مجراها ..

عودة التقاليد الأصيلة

ولعل إشادة المعلقين فى الصحف بالمطربة ماجدة الرومى ، تعكس لهفتهم على عودة تقاليد الغناء فوق المسرح ، أو إلى قدر كاف من هذه التقاليد ، كما كان الحال على عهد أم كلثوم - رحمها الله - أو قريبا مما كان فى ذلك العصر الذهبى للغناء العربى المتقن !



ماجدة الرومى

وقد استحقت ماجدة الرومى الإعجاب بما أظهرته من «ضبط للنفس» وهى تغنى ، وهذه حال تختلف كل الاختلاف عن حال المغنيات الراقصات اللاتى احتللن مسارح الغناء فى الزمن الأخير ..

ولكن ما أثارته ماجدة الرومى من قضايا فنية كان أبعد أثرا من وقارها وضبطها للنفس فوق المسرح ، والتزام جمهور حفلاتها بالإصغاء والصمت الجميل ، وهذا هو ما يصر صديقنا الأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير على بيانه للقراء ، وقد تفضل فتقدم إلى كاتب هذه السطور أن يؤدى هذه المهمة !

منذ أربعين عاما ونحن نكتب عن الغناء والشعر حتى مللنا ويئسنا من صلاح

الحال ، فقد انقطع فن الغناء العربى كما انقطع فن الشعر ، وهذا هو حكم الزمان الذى لا مرد له إلا بعد أن تنقضى مرحلة تاريخية كاملة لا ندرى أتطول أم تقصر ، وإن كان الأرجح عندنا أنها سوف تمتد ثلاثمائة سنين وتزداد تسعا كنومة أهل الكهف فى سالف الزمان !

ولكن لابد من قول شئ على كل حال ، فى هذه القضايا أو المسائل الفنية التى أثارتها السيدة ماجدة الرومى فى طلوعها الخاطف فوق مسارح القاهرة كأنها لمحة برق فى سماء الصيف الصافية ، لمعت واختفت !

إن ماجدة تغنى منذ عشرين عاما ، فهى من المخضرمات فى الغناء وإن لم تبلغ الأربعين من عمرها بعد .. وقد كان والدها حليم الرومى مطربا .. سمعناه فى الإذاعة المصرية واللبنانية فى الخمسينات وما تلاها ، ولكن الفرق بينه وبين ابنته أنه كان عربى الغناء ، أما هى فالغناء العربى يتعثر على حنجرتها ولهاتها وبين شفتيها ، ويختلط برنة أوبرالية تخلط بين الصوت الطبيعى والصوت المستعار ..

شروط الغناء

وقد تعبنا طوال السنين الماضية فى أن نقول أو نكتب إن الصوت الأوبرالى لا يصلح للغناء العربى ، ولا بد من فك عقدة هذا الصوت قبل أن يقال إنه يغنى بالعربى كما كان يغنى المغنون والحداة والناحة فى الزمان الأول ، أو كما كان يغنى عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وأم كلثوم وأسمهان فى الزمن الأخير ..

أما اقتحام الغناء العربى بصوت مستعار أوبرالى ، فهو مخالف لطبيعة هذا الفن العربى القائم على الصوت الطبيعى وأصول التدريبات الصوتية ، التى يسمونها «الفوكاليز» .. ولا يمكن التمويه أو المداراة فى هذا الشأن بكلام بلا أساس ! ... وإذا قيل إن ماجدة الرومى تتقدم خطوة بعد فيروز أو بعد أسمهان .. قلنا : لا هذه ولا تلك فما أبعد الشقة بينهما وبينها !

إن ماجدة الرومى مغنية أوبرالية الصوت ، دربت صوتها على هذا اللون من الغناء فخرج عن نطاق الصوت الطبيعى - وهو الصوت العربى فى الغناء - إلى ما يسمونه الصوت المستعار ..

ويا طالما تحدثنا فى هذه القضية ، فكنا نضرب مثلا لتقريب هذا المعنى بما يحدث للإنسان - أو للإنسانة - حين

ينفرد بنفسه فى الحمام ، فيعجبه صوته فيرفع عقيرته إلى أقصى مداها حتى يسمعه المارة فى الطريق تحت نافذة الحمام !

وكنا نقول : إذا غنيت فى الحمام فارتفع صوتك زاعقا حتى شعرت بطنينه يخرج من رأسك فليس هذا صوتك الطبيعى ، وإنما هو - إن صح التعبير - صوتك الصناعى أو صوتك المستعار ، مع أنك تستخدم فيه الحنجرة وأوتارها التى تشبه أوتار الآلات الموسيقية ، ويقال لها «الأحبال الصوتية» وهى أحبال تكتسب بالدربة الحديدية شكلها المستعار الذى هو قوام الغناء الأوبرالى ، ولا يمكن فى الحقيقة أن تكتسب هذا الصوت بمجرد رفع عقيرتك فى الحمام ، فما أشق ما يتكبده طلاب هذا الصوت فى معهد «الكونسرفاتوار» من تدريبات تنقله من حال إلى حال ، وتربطه فى النهاية ربطا فولاذيا بأسلوب فى الأداء لا فكاك له منه !

الغناء بالصوت العربى

وبين التغنى بهذا الصوت المستعار ، والتغنى بالصوت العربى ، فروق فنية وفسيولوجية تتصل بوظائف أعضاء الصوت والتنفس والبلع والأسنان والجيوب الأنفية اللينة ، والجيوب الأنفية العظمية ، وسقف الحلق الذى يرتفع خلال الغناء الأوبرالى ارتفاعا شديدا ، ويكون أقل ارتفاعا فى الغناء الطبيعى - العربى - الذى يستجمع مناطق صوتية تقتضى خفض سقف الحلق قليلا أو كثيرا حسب الحاجة ..

بل أن العلاج عند طبيب الأنف والأذن والحنجرة يختلف بالنسبة للمطرب الأوبرالى عنه بالنسبة للمطرب ذى الصوت الطبيعى ، ولقارئ القرآن بطبيعة الحال ، الذى يخرج عن القراءات السبع والعشر أيضا إذا خرج قيد شعرة عن الصوت الطبيعى ، وهو أصل التصويت فى اللسان العربى !

ومنذ مدة كان المدرسون الروس يتحكمون فى «الكونسرفاتوار» بأكاديمية الهرم ، فكانوا يحكمون على تلاميذهم الأوبراليين بالامتناع المطلق عن الغناء العربى ، حفاظا على جهازهم الصوتى الهائل الذى اكتسبوه بالدربة العنيفة سنوات عدة ، وصار محكوما عليهم بالعجز عن الاحساس بمقامات الغناء العربى ، وبخاصة المقامات ذات

الأرباع الصوتية ، كمقام الراست ، والبياتى ، والسيكاه والصبا ، بل إن جهازهم الصوتى الهائل صار محكوما عليه بالعجز عن الإحسـاس بالمقامين الكبير والصغير الأوروبيين : الماجير والمينور ، إذا اتخـذا شكلا عربيا فى مقـام «العجـم» ومقـام «النهاوند» وهما - نظـريا - يساويان الماجير والمينور ..

كيف تفعل المغنية الأوبـرالية إذن حين تريد أن تحترف الغناء العربى وترتزق منه ؟!

- فى هذه الحالة لابد من فك عقدة الصوت المستعار ، أو الأوبرالى ، وهذه عقدة لا حيلة فيها ، يقف حيالها الأوبراليون عاجزين ، ولم يحدث قط أن نجحت مطربة أوبرالية فى فك عقدة صوتها الأوبرالى والغناء بالعربى ، إلا المطربة عفاف راضى ، ولكنها لم تستطع ذلك إلا بعد عناء وفشل ويأس ، ثم جاءها الخلاص على يد الملحن الكبير المرحوم محمد الموجى الذى أنطق حنجرتها بالغناء العربى فى فيلم سينمائى يقال له : «مولد يا دنيا» ..

أما بقية المطربات والمطربين الأوبراليين المصريين فلم يتح لأحد منهم أن يفك عقدة صوته الأوبرالى ، ولهذا تجنبوا جميعا الغناء العربى ، واتجه بعضهم للغناء فى أوروبا باللغة الإيطالية بوجه خاص ، لأنها اللغة التى يجرى بها تدريس الغناء الأوبرالى فى مصر .. وهكذا يحتاج المغنى الأوبرالى العربى إلى لغة أجنبية يغنى بها ، لأن هذا اللون من الغناء هو ابن تلك اللغـات ، ولا يمكن بحال تركيب توزينات اللغة العربية وعروض الشعر العربى على ذلك الغناء كما حاول صديقنا المرحوم عبد الرحمن الخميسى قبل ثلاثين عاما وأخفقت محاولته ..

هذه الخواطر ، وأخرى أمثالها ، طافت بى وأنا أتابع أغنيات ماجدة الرومى فى حفلاتها التى أقامتها فى القاهرة ، وكانت فى الحقيقة بدعا بين الحفلات الغنائية ، لأن الحضور لم يقفوا للرقص والتصفيق كما اعتادوا أن يفعلوا منذ اجتاحت الأغانى الهابطة جميع الحفلات !

الفارق فى الأداء

ولكن ماجدة الرومى ذات الصوت الأوبرالى التدريب لم تستطع فكاكا من آثار هذا التدريب وإن بدت أحسن حالا مما كانت منذ سنوات ، فقد حاولت أن تغنى شيئا من أغنيات عبد الحليم حافظ ولكنها لم توفق كل التوفيق ، مع أنها اختارت الأغنية الشعبية : «أنا كل ما أقول التوبة» .. وهذه موزعة توزيعا أوركستراليا كثيفا طمس معالمها العربية

وألحقها بالغناء الأوروبي ، ولكن أصلها العربي المصري دل عليها ، وتجلى الفارق بين أداء عبد الحليم حافظ وأداء ماجدة الرومي – أي بين أداء مغن عربي وأداء مغنية مستعربة ..

بقى أن نقول إن فن الغناء العربي كان يراد له المحو والإلغاء التام في الماضي القريب ، وقد انقطع هذا الفن أخيرا بعد أن اكتسحت موجة الغناء الهابط معاقله عقب رحيل أم كلثوم وعبدالوهاب وكبار المغنين والملحنين الذين احتمى بهم هذا الفن طويلا ، فإذا أردنا الآن إحياء هذا الفن ، فالطريق إلى إحيائه لا يمر بالأصوات المستعارة ، ولا بالأغاني «الفرانكو آراب» التي كانت هي الغالبة – مع الأسف – على حفلات السيدة ماجدة الرومي !

وفي كلمات : إن السيدة ماجدة الرومي لها صوت ذو مساحة وذو رنين ، ولكنه لا يصلح للغناء العربي ! .. دعك مما يقال إنها خطوة إلى الأمام في صناعة الغناء العربي بعد أسمهان وبعد فيروز ، فقد فات هؤلاء القائلين حساب خطوتين إلى الوراء بعد كل خطوة إلى الأمام !

وربما بدا أن اقتصار ماجدة الرومي على غناء الشعر العربي في هذه الأيام التي لا يغنى فيها المغنون إلا الأزجال الركيكة ، يدل على جرأة فنية وتحد للإسفاف ، وقد يكون كذلك ، ولكن الشعر هنا يدفع الثمن، إذ يتكسر تحت أسنان المطربة بيتا بيتا أو تفعيلة تفعيلة ، أو سطرا سطرا ، فإنني لم أتبين – في الحقيقة – أي نوع من الشعر تغني هذه السيدة : أهو الشعر ذو الأوزان ، أم ذو التفعيلات أم القصيدة النثرية ، وقديما كانت فصاحة نطق الشعر – إذا كان شعراً حقاً – من عناصر الطرب عند المطربين والمستمعين ، أما اليوم فكيف يكون الشعر ولا طرب ، أو يكون الطرب ولا شعر ؟!

وقصارى القول : إن ماجدة الرومي كانت جميلة ظريفة على المسرح ، ولكنها لم تؤد لحنا واحداً أداء عربيا صحيحا يأتلف بالمقامات العربية إئتلافا لا عوج فيه !

ولها علينا في كل حال حق النصيحة ، ونصيحتنا لها : لاتقتربي من أغاني أسمهان في الفيلم السينمائي الذي يقال إنك ستمثلين فيه حياة أسمهان ، فإن اقترابك من أغانيها سيكون تمثيلا بهذه الراحلة العزيزة .. والتمثيل بالموتى حرام ! ..



العزيمة



الوردة البيضاء

مولد السينما

المصريون والسينما
جزء خاص

بقلم : الناقد مصطفي درويش

قبل عام وبعض عام طلعت الهلال علينا بعدد تذكارى «١٠٠ سنة سينماء» كرسته للاحتفال بمرور قرن من عمر الزمان على يوم ٢٨ من ديسمبر ١٨٩٥ ، ذلك اليوم الاغر الذى تحركت فيه الاطياف فى اول عرض لافلام على شاشة كبيرة بيضاء معلقة على حائط مقهى ، مطل على شارع كابوشين فى باريس ، مقابل تذاكر مدفوعة الثمن الى الاخوة لوميير ،أصحاب تلك الافلام.

وكانت الهلال سباقة بذلك الاحتفال فالهلال . كما هو معروف - كان لها بين جرائدنا ومجلاتنا ، فضل الريادة فى تنبيه الاذهان الى ان الصور على وشك ان تتحرك عندما كتبت فى مايو ١٨٩٥ خبرا من ثلاثة اسطر «يشتغل مصورو اوروبا فى اختراع تظهر به الصور الفوتوغرافية وكأنها تتحرك .



اولاد الزوات



عزيزة أمير فى ليلى

على ضفاف النيل

ولم يمر على نشر ذلك الخبر سوى ثمانية شهور ، حتى كانت الصور قد تحركت على حائط مقهى شارع كابوشين.

وكانت الافلام المنطوية على تلك الصور المدهشة من اخراج الاخوين اوجست ولويس لوميير، وكل واحد منها عبارة عن لقطة ، مدتها دقيقة واحدة لاتزيد ولم تكن هذه الأفلام الفاتحة لعصر جديد من النوع الروائى ، وانما من نوع آخر يسجل وقائع حدثت بالفعل ، من بينها وصول القطار الى محطة سيوتا بمدينة ليون ، ذلك الفيلم الذى كان يثير الفزع فى قلوب مشاهديه ، حتى ان البعض ، لدى رؤية القطار يدخل المحطة ، كان يهب واقفا ، مؤثرا الفرار من امام القطار ، التماسا للنجاة .

ومن أجل تسويق أفلامهم ، انتقل الاخوان لوميير بها الى نيويورك ، حيث جرى عرضها فى سوقها الدولى ، باعتبارها من غرائب وعجائب الاختراعات.

كما انتقلا بها الى بلاد اخرى كثيرة من بينها مصر حيث جرى عرضها اولا فى الاسكندرية باحدى قاعات طوسون باشا مقابل اربعة قروش للرجال (١٨٩٦/١١/٥) وفى القاهرة بعد ذلك بايام (١١/٢٨) بقاعة حمام «شيندر» ، حيث توالت خمس عشرة صورة من «موضوعات مسلية وناجحة الى حد الكمال» ، كان من بينها فيلم «وصول القطار» .

وهكذا تحركت الصور على ارض مصر ، ولما يمض على تحركها فى فرنسا

سوى بعض العام ، ولم يبق من القرن التاسع عشر سوى شموع اربعة لاتزيد .

وحي ام كشف

وهذه المناسبة التى لها من العمر الآن مائة عام بالتمام ، ماكان للهلال ان تتركها دون احتفال ، ولاسيما وقد عرف عن المصريين انه ما ان رأت عيونهم الصور تتحرك ، حتى كان وقعها فى نفوسهم وحيا ، أو كشفا ، فهاموا بها هياما شديدا .

ولعل خير بيان لذلك الهيام ، ما جاء على لسان اديبنا الكبير «يحيى حقى» وقد استرد على شاشة ذاكرته ايام طفولته وصباه فى اثناء العقد الاول من القرن العشرين ، ومابعده بقليل فاذا به يقول .

«نشأت فى اسرة تتعشق السينما ، رجالا وصبيانا ، لايخرج حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة ، وعن ترديد اسماء الممثلين فى ايطاليا والمانيا وامريكا والمقارنة بينهم.

وانتبهت فاذا بى انتظر يوم الخميس بفارغ الصبر ، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب الى السينما ارتقبه منذ صباح الجمعة ، واعد الايام والساعات ، اريد ان ينفذ العمر فيها كغمض العين .

فاذا جاء الخميس – مرحبا بغرة الايام – تناولت غذائى مسرعا وانا قلق متلهف وأخذت ألح على اخى الاكبر لنخرج ولما تدق الساعة الرابعة – وأسير بجانبه وانا الهث : اى ساحر سحرنى ؟

ليست هى دار السينما وحدها ، ولا الرواية، ولا الممثل بل جو خليط من هذا او ذاك : واجهة الدار باعلاناتها وصورها الضخمة تكاد تنطق ، وانوارها المتحركة، والتزاحم على بابها ، تلك الضجة العظيمة التى اسمعها ولما ندخل

احلام ام اوهام

وكما يبين من قول اديبنا الكبير ، فمشاهداته ايام صباه قد انحصرت فى افلام اجنبية ، بعضها قادم من اوروبا والبعض الآخر من وراء المحيط.

ولم يكن هذا بالامر الغريب ، فالسينما المصرية وقتذاك كانت لاتزال حلما ، بل لعلها كانت فى نظر البعض اضغاث احلام.

فرغم هيام المصريين بالسينما ، فان استيراد المعدات اللازمة لابداع الافلام، و بناء الاستديوهات ودور العرض المجهزة باحدث الآلات ، كل ذلك وهو لازم لاقامة بنية سينمائية صناعية متكاملة كان امرا عسيرا ، بل قل شبه مستحيل.

ومن هنا انحصار ثمار الربع الاول من عمر السينما على ضفاف النيل ، في أفلام قصيرة تسجل لوقائع مثل «جنازة مصطفى كامل» (٨ اغسطس

١٩٠٩) وسفر المحمل الشريف الي ارض الحجاز (اكتوبر ١٩١٢)

وحتى هذه الافلام التسجيلية لم يجر تصويرها بواسطة مصريين ، وانما بواسطة اجانب او متمصرين

البراعم الاولي

ولكن ما ان اقتربت الحرب العالمية الأولى من القاء سلاحها حتى كان قد ظهر اول ممثل سينمائي مصري «محمد كريم» في فيلم «شرف البدوي» (١٩١٨) ، حيث أدى دور عسكري ومن بعده ظهر فيلم ثان «الازهار الميتة» الذي منعت الرقابة عرضه.

وكلا الفيلمين من انتاج شركة سينمائية ايطالية ، توقفت بعد ذلك عن العمل تماما.

كما بيعت معداتها ومعاملها الي المصور الايطالي «الفيزي اورفانيللي»

وللاخير يرجع الفضل في تصوير «مدام لوريتا» (١٩١٩) للمخرج الايطالي «ليونار لاريتشي»

واهمية هذا الفيلم انما ترجع الى انه اول عمل سينمائي تسند بطولته الي ممثل مصري «فوزى الجزائرلي» ذلك الكوميدي الذى جاءته الشهرة ، عندما تكلمت السينما المصرية ، بفضل ادائه لدور المعلم «بحبح» امام ابنته «احسان» التي برعت في اداء دور زوجته «أم أحمد» في أكثر من فيلم . ومن الأعمال السينمائية التي جرى انتاجها عقب ذلك مباشرة فيلمان احدهما وثائقي سجل جنازة الزعيم الوطني «محمد فريد» (يونية ١٩٢٠) والآخر روائي قصير «الخالة الامريكانية» استوحاه اصحابه من مسرحية «الخالة تشارلي» وقد اسندت بطولته لنجم المسرح الشهير «على الكسار» الذى أدى دور رجل متخفى في ثياب امرأة

ارهاصات التمصير

وتظهر تباشيرالتمصير بعد ذلك بثلاثة اعوام ، عندما وقف «محمد بيومي» بعد عودته من المانيا ، حيث درس فن السينما والتصوير ، وقف وراء الكاميرا ، ليكون بذلك اول مصري ينتج ويصور اول جريدة سينمائية «أمون» تلك الجريدة التي كان لها الفضل في تسجيل عودة سعد باشا زغلول من المنفى (١٩٢٣) وهو التسجيل الوحيد لذلك الحدث التاريخي الكبير.

وفوق هذا ، فقد كان «بيومي» اول مصري يصور فيلما روائيا «في بلاد توت عنخ أمون» الذى انتجه واخرجه «فيكتور روسيتو» المحامى القاهرى المنحدر من اصل ايطالي .

واول مصري يخرج ويصور فيلما روائيا قصيرا اسماه الباشكاتب (١٩٢٤) ومدته نصف ساعة اما تكلفته فحوالى مائة جنيه ، وقصته تدور حول باشكاتب يقع في حبائل راقصة فيختلس مبلغا من المال ، ينفقه عليها وبطبيعة الحال ، ينتهى الامر به مسجونا.



ليلى بنت الأغنياء



طلعت حرب

هلال شوقي

ولم يمر على باشكاتب «بيومي» سوى ثلاثة اعوام الا وكانت «عزيزة امير» تنتج وتمثل في القاهرة فيلما روائيا طويلا اسمته «ليلى»

ولقد جرى عرضه بدءا من ١٦ من نوفمبر ١٩٢٦ في سينما متروبول بشارع فؤاد الأول «٢٦ يوليو حاليا» ، حيث رحب حضور حفل الافتتاح بعرض اول فيلم روائي طويل ، تم تنفيذه برأس مال مصري ، وصفقوا طويلا «للسيدة عزيزة أمير» تقديرا لشجاعتها باقدامها علي اقتحام هذا المجال المحفوف بمخاطر جسام وكان من بين الحضور المشجعين امير الشعراء احمد شوقي الذى قال لعزيزة أمير ارجو ان اري هذا الهلال ينمو حتي يصبح بدرا كاملا.

ومؤسس بنك مصر وشركاته «طلعت حرب» الذى قال لها انها حققت بفيلمها مالم يستطع ان يفعله الرجال.

وفي تعليق لها علي الفيلم كتبت جريدة الاهرام (اول نوفمبر ١٩٢٧)

«ولد التمثيل الصامت في مصر .. .. أخيرا .. ظهر في جو نجم لامع وكوكب ساطع يريد ان يخدم مصر وابناء مصر .. يريد ان يقوم ببروباجاندا (دعاية) هائلة لمصر وابناء مصر.

ماهذه البروباجاندا التي تخدم الوطن اكبر خدمة

هي السينما .. السينما المصرية القومية البحتة .. هل تعوزنا المناظر .. لماذا لاتكون لنا في سنين قلائل مدينة كهوليوود ، ولتكن «امبابة»

ليلى مراد محمد عبد الوهاب



وداد



قامت السيدة الفاضلة عزيزة امير .. وهى كوكب من اشهر كواكب التمثيل في مصر .. لن تقل عن «ماري بيكفورد» و«ماي مواري» و «كونستانس كالمادج» .. قامت ببدء المشروع الخطير ، وهو احياء فن السينما في مصر.

«ليلى» هو اسم الرواية تدور حول الشرف المصرى والمشروع موجود .. يحتاج الي تعضيد وتشجيع .. ولاخوف من المنافسة.

امبابة

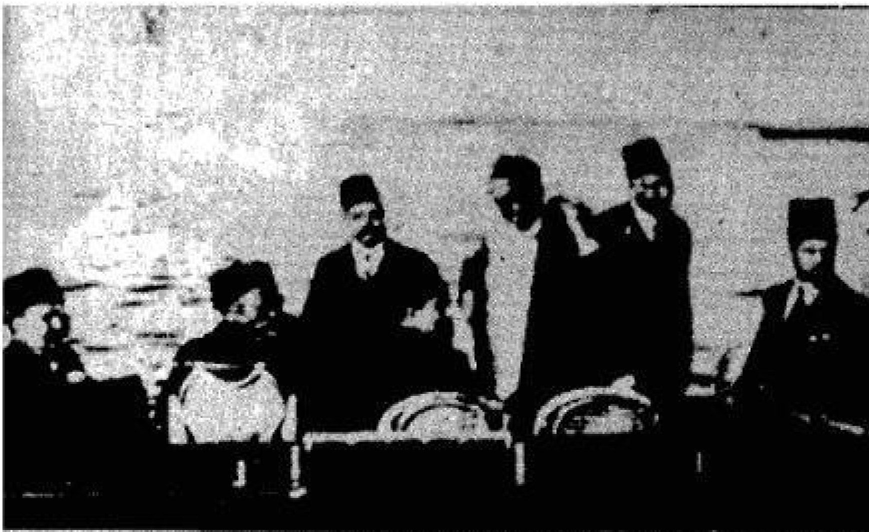
أجل امبابة سوف تضارع هووليود حقق الله الآمال !!

وكم كان طلعت حرب بعيد النظر ، عندما لم يعر هذا الهراء أننا صاغية .

وظل مهتديا بخطاب ألقاه فى حفل ساهر بمناسبة عرض بعض الافلام التسجيلية القصيرة التي انتجتها شركة مصر للتمثيل والسينما ، عرضها في حديقة الازبكية ، وذلك قبل عرض فيلم «ليلى» بسبعة شهور.

وكان من بين ماجاء في ذلك الخطاب أن «صناعة السينما صناعة واسعة الاطراف ، متعددة النواحي وان الحكمة تقضى علينا بالتدرج فيها ، فنأخذ بالبسيط من عناصرها اولا ، حتي اذا اتقنا صنعه انتقلنا الي تركيب مزيج وسط من هذه العناصر ... ثم ارتقينا في النهاية الي وضع الروايات بالصور المتحركة وعرضها علي اللوحة البيضاء .

ليس في نيتنا ان نشجع الآن علي وضع رواية السينما ، لا علي طبعها



عودة سعد زغلول من المنفى

وعرضها لأن الرواية ، وان كانت هي العامل الأقوى في حياة السينما ، الا اننا لا نستطيع ان نعض فيها وأسنانا مازالت في هذا الميدان طرية.

ثم خلص في نهاية خطابه الى ان نشاط تلك الشركة في مجال السينما سيبقى منحصرا في انتاج الأفلام القصيرة الاخبارية والتسجيلية وذلك لزمن قد يطول.

بدر طلعت

وعلى كل فبعد ليلى مرت الايام ، اعواما بعد اعوام في اثنائها لم تقم تلك الشركة بانتاج اى فيلم روائي طويل

حتى اذا ماجاء العام الثامن اعطى طلعت حرب الضوء الاخضر لانتاج فيلم روائي طويل تسند بطولته لكوكب الشرق «ام كلثوم»

وفي ذلك الفيلم لعبت ام كلثوم دور «وداد» حيث شنفت الاذان بأغان من تأليف «احمد رامي» وتلحين الثلاثة الكبار «زكريا احمد، محمد القصبجي ، ورياض السنباطي».

ومع ان اسرتي لم تكن تعشق السينما مثل اسرة ابينا الكبير «يحيى حقي» ، فان والدى انطلاقا من ولعه بصوت ام كلثوم اصطحبني الى السينما رويال حيث كان يعرض فيلم وداد ، بنجاح فاق كل التوقعات ، فيما عدا توقع طلعت حرب بطبيعة الحال.

ولقد فرحت بمشاهدة وداد فرحا شديدا.

ولا غرابة في هذا ، فوداد كان اول



فاطمة رشدى مع بدر لاما

فيلم مصرى أشاهده.

ولحسن الحظ جاءت مشاهدتي له، وسط جمهور متذوق ، يسمع ويطرب لصوت ام كلثوم الساحر ، ذلك الصوت الذي يصل اعجابهم الى حد اشاعة الحياة فى الجماد.

عباءة وداد

قبل وداد وعلى امتداد ثمانية اعوام انتجت السينما المصرية ٤٤ فيلما روائيا طويلا ، لعل اهمها اولاد الذوات أول فيلم مصرى ناطق ، او بمعنى اصح نصف ناطق.

و«الوردة البيضاء» و«دموع الحب» لمحمد عبد الوهاب مطرب الملوك والامراء.

وفيما عدا الفيلمين الاخيرين ، فحسب ماعندى من معلومات اختفت جميع الافلام الاخرى ، لم يبق منها سوى الذكرى.

اما وداد ، فلانه كان ثمرة اجتهاد وحسن تقدير طلعت حرب ، رجل المال والاقتصاد ، فلا يزال حتى الان باقيا ، نراه ونستمتع بجمعه ، وهى تشدو بصوتها الى الزلفن والانين «ياطير ياعايش حزين» هذا وقد كان لنجاح وداد فضل مابعده فضل على السينما المصرية.

فمن عباءته خرجت اهم أفلام الزمان ، لاشين ، العزيمة ، السوق السوداء ، غرام وانتقام وغيرها كثير.

وازدانت سماء السينما المصرية باسماء جيل كامل متعدد المواهب من صانعى الأطياف

مشاهد من أمسيات سينمائية

بقلم : الروائية سلوى بكر

مشهد : ١

غروب داخلى

خالتى جالسة على سجادة الصلاة، أمى تجلس بالقرب منها على الكنبة، تقول بعصبية لأخى الصغير الذى مد رجله على حجرها لتربط له «أبزيم» الجزمة.

- اعدل رجلك عدل ، واثبت وبطل حركة. خلينى أشوف الخرم .

يرد الصغير ممتثلا :

- طيب .. طيب

يستمر فى تحريك جسمه جزلاً، تختم خالتى صلاتها وتشرع فى أخرى قائلة :

عماد حمدى مع شادية   الليلة الأخيرة



- نويت أصلي ركعتي سنة .

أصرخ مع أختي بغيظ وأقول :

- لا .. لا يا خالتي، خلي السنة لما ترجع، عاوزين نتفرج على المناظر من الأول .

ترد الخالة مماطلة إيانا :

- يعني كل شيء جهز .خلاص، يعني الدنيا طارت، كلها دقيقة أخطف فيها السنة وخلاص. الله ؟

نجادل بدورنا فتقول أختي :

- كل شيء جاهز ، حتى طنط تريز جاهزة ومنتظرة .

تبوء محاولتنا بالفشل، وتواصل خالتي صلاتها كاملة.

لم تكن طنط تريز وعيالها ، هم الذين يذهبون معنا إلى السينما فقط، لكن كانت جارات أخريات يذهبن معنا كذلك، وأحيانا كنا نصطحب ابنة المكوجي الكائن محله أسفل العمارة، وكانت أمي تدعوها إلي السينما على سبيل المجاملة، لأن البنت وحيدة وعيلة عاوزة تفرح، خصوصاً أنها يتيمة الأم ولا تجد من تذهب معه إلى السينما، أما عندما يكون بدار السينما فيلم متميز، فإن الوفد كان يضم جيراناً آخرين أو أصدقاء أمي من الحي نفسه، فنشكل حشدا حقيقياً من النساء والعيال، وقد تجهزنا بالساندوتشات وزجاجات الليمونادة، واللب والفول السوداني والحمص ، وكانت طنط تريز متخصصة في احضار قلة المياه، والتي تبخرها عادة ببخور تحضرها خصيصاً من الكنيسة، وتضعها في حقيبة جلدية صغيرة،



فريد الأطرش وسامية جمال



هادئة شرف

خاطتها طنط تريز بنفسها لمثل هذه المناسبات، وكانت هذه القلة بمثابة إشكالية دائمة بيننا قبل الذهاب إلى السينما فنحن البنات كن نرفض حملها حتى لا تقل قيمتنا وتفسد أناقتنا، أما الصبيان فيرفضون شيلها من منطلق أنها تعيق حركتهم فلا يستطيعون الجرى على الطريق إلى السينما، والحقيقة أن القلة كانت تقع عادة فى قرابيز طنط تريز نفسها بعد أن يسقط في يدها، فتنعتنا بمنظومة شتائمية تنوع على لحنها الأساسي، بمشاركة أمى، بكلمات تدور حول قلة الحياء والدم، وتتضمن تهديداً لنا بعدم الشرب خلال الاستراحة، حتى لو عطشنا وجفّ ريقنا، وتدلت ألسنتنا ككلاب الشوارع الجربة .

لكن ذلك لا يمنع مفاجآت طنط تريز المتخصصة ، فبمجرد إظلام القاعة، وبداية تشغيل آلة العرض، تبدأ طنط تريز فى توزيع الترمس المملح أو الحلبة المنبتة علينا، أما الساندوتشات المقررة من قبل أمى فى مثل هذه الأمسيات، فكانت تتكون من الجبن الاسلامبولي مع الخيار الشنبر «نصف رغيف»، وحلاوة طحينية «نصف رغيف آخر»، الحلاوة كانت تستبدل أحياناً بمربى الجزر أو البلح، أو العجوة المقلية فى السمن.

كان الذهاب إلى السينما آنذاك من أمتع الطقوس فى حياتنا، أما المتعة، فكانت تبدأ من اللحظة التي نرتدى فيها ثيابنا ونتهيأ للخروج، فأجمل مالدينا من ثياب كان للسينما ، والحرص علي أفضل مظهر كان للسينما، وكنا نسير فى الطريق عادة بهدوء وتهذيب على الأرصفة، «كانت هناك أرصفة آنذاك»، أما شراء التذاكر، فكانت مهمة واحد من الصبيان، وكنا نحرص على الانتظار حتى يدخل الجميع، فلا يزاحمنا أحد.

وعندما نأخذ مقاعدنا، كانت أمي وجارتنا العزيزة تجلسان عند بداية ونهاية الكراسي، بينما نجلس نحن جميعاً فى الوسط حتى لا يضايقنا أى من الغرباء، إذا ما جلس بجانبنا.

وكنا نحرص على مشاهدة «الإشارات»، حتى نقرر الأفلام التى سنراها فى المرات المقبلة، وكانت هذه المشاهد المقتطعة من أفلام لم تعرض بعد تجعلنا نعيش فى نوع من أحلام اليقظة، حتى نرى الأفلام بكاملها، وكان أبطال هذه الأفلام يعيشون معنا طوال الوقت، فشادية وعماد حمدى وفاتن حمامة وحسين رياض وغيرهم من فنانى هذا الجيل العظيم، كانوا يقاسموننا الحياة ونتمثلهم دائما، ولأن خالتى كانت تهوى الخياطة والتطريز، فقد كانت تراقب وتتمحص ملابس البطلات وسرعان ما تفاجئنا، بأنها، حاكت ثوباً من الموجاشيل الوردى، كالذى كانت ترتديه فاتن حمامة فى فيلم كذا، أو أنها رفعت شعرها وثبتت فيه وردة ساتان صنعتها بنفسها كالتى ظهرت بها مديحة يسرى وهي تراقص شكرى سرحان فى آخر فيلم رأيناه.

مشهد : ٢

ليل داخلى

صالة السينما ممتلئة عن آخرها، فريد الأطرش يعانق مريم فخر الدين بينما تنزل على الشاشة كلمة النهاية، تضىء الصالة إيذاناً باستراحة قصيرة، يعقبها عرض الفيلمين التاليين بينما يصفق الجمهور، البعض يصفر، صفنا يصفق وهو واجم، الدموع مازالت بأعيننا بعد أن ذرفنا منها كميات تفوق تصور أرسطو شخصياً، محدثة كل التطهير أو «الكاثارسيس» الذى طالما تحدث عنه، بل وزيادة أيضا، يطلب أخى الصغير كازوزة على خلفية من موسيقى «زينة» لعبد الوهاب، تنهره أمى وتقول له : اشرب ليمونادة، رادار بائع الكازوزة، يلتقط سريعاً اشارات أخى، فيسارع بالوقوف فوق رأس أمى ويفتح زجاجة بسرعة البرق ويقدمها للصغير، تمتثل أمى للأمر الواقع وتفتح حقيبة يدها لتخرج نقوداً للبائع وهى تقول : مصيبة، مصيبة وحلت على والله العظيم.

فى الاستراحة، نكتشف معارفنا فى الحى، ننهض لنحيى أصدقاءنا، النساء يقبلن بعضهن البعض، بينما يرمقن الملابس، يبدين الملاحظات على الفيلم، يتناقشن سريعاً فى أهم الأحداث التى جرت أو تجرى فى الحى: تجديد مواسير المجارى، رصف شارع جديد، بناء مدرسة.. إلخ .

كنت فى هذه اللحظات، مثلما لحظات أخرى عديدة فى حياتنا، أشعر اننا مجتمع، توحدنا أشياء، ونتوقف جميعاً عند أشياء، جماعة بينها رابط، علاقاتنا الإنسانية، بسيطة سلسة، بها من الحب والمودة أكثر مما بها من البغض والأحقاد، كنا آنذاك جميعاً، متساويين، متقاربين، فى المدرسة وعلى المقاعد المدرسية ذاتها تجلس إلى جوارنا بنات وزراء ورجال مهمين فى البلد «كنت شخصياً فى سراى القبة الإعدادية مع هدى ومنى بنات عبدالناصر»، كان هناك نسيج واحد قوى ومتين، نسيج من الآمال والأحلام والقيم الإنسانية التى تجعل منا مجتمعاً واحداً، وكانت السينما مثلها مثل العديد من التفاصيل الأخرى فى حياتنا، تسهم فى تشكيل وجداننا، وتعمل على أن تصهرنا فى بوتقة واحدة.

ورغم كل ما قيل عن السينما المصرية التجارية خلال تلك الفترة، ورغم محاولات الإدانة المستمرة لها، فإن هذه السينما استطاعت أن تعبر عنا وترسم ملامح الشخصية المصرية كما كانت فى الواقع، ولم تكن شخصياتها النمطية التى جرى تجسيدها عبر أداء ممثلين عظام كعلى الكسار، أو إسماعيل ياسين، أو زينات صدقى، أو عبد الوارث عسر، أو حسين رياض أو محمود المليجى، ببعيدة عن نماذج حية نعايشها وتتحرك بيننا فى الحياة، إن هذه الأفلام التى طالما نعتناها نحن المثقفين بالسطحية والتجارية، وغياب العمق، هى التى وثقت – فى



شادية وإسماعيل ياسين

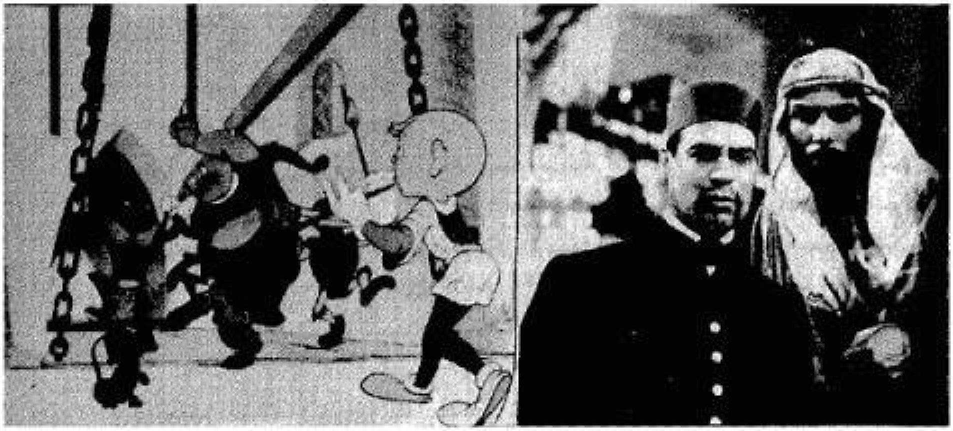


يوم فى العالى لمارى منيب

العقيقة - ملامحنا الإنسانية، وعلاقتنا الاجتماعية، مثلما وثقت شوارع وحوارى مدننا ، مر - خضرة الريف المنسحبة، وعمارة المدينة الراقية. جمال نسائنا ووسامة رجالنا فى أواسط هذ القرن. إن هذه الأفلام التى طالما نعتناها بالسذاجة والسخف، هى دليل شاهد على جانب من حياتنا. حياة جميلة تسربت من أيدينا، ومازالت تتسرب حتى الآن، لتغوص فى الفج والقبيح الزاحف عليها بعنف من هنا وهناك.

وكنا نحن البنات أنذاك نحاول أن نكون كفاتن حمامة وشادية ونادية لطفى وماجدة، نحاول أن نكون رقيقات، خفيضات الصوت، نسلك برقة وشاعرية، ونحلم أن يقع فى حبنا ذات يوم واحد كشكرى سرحان أو عمر الشريف، أو أحمد مظهر أو كمال الشناوى، كانت السينما بالنسبة لنا هى الرقى والظرف واللطافة. حتى أشرار السينما وقتها كمحمود المليجى وفريد شوقى مثلا، كانوا رائعين فى شرهم، كان شراً عظيما فارقاً فى علاماته عن الخير الذى يبقى بعده، ويتراكم فى أعماقنا دائما.

فى عصر سينما، طالما ساهمت فى صنعنا، كانت بطلات الأفلام، رشيقات، أنيقات، بسيطات المظهر والسلوك، يعبرن بحق عن روح البنت المصرية أنذاك، لم يكن عريهن ابتذالا، فالأذرع والسيقان العارية ، لم يكن معناها لحمــاً أبيض يستهدف الغرائز والشــهوات، لم يكن تعريف الجمبلة فى السينما وقتها، كتلة من اللحم الأبيض البارز من هنا وهناك يعلوها شعر أصفر مصبوغ ومكياج صارخ. حتى ممثلات الاغراء، كن فاتنات بلا تبذل، كانت هند رستم فاتنة وراقية فى آن معاً، وكانت تؤكد بأدائها المحســوب ، أن للجسد حضوره التمثيلى، وليس ذلك الحضور المسف الذى يجعل السينما ، مجرد علبة ليل رخيصة فى متناول الفقراء.



فريد شوقى ويوسف خليل فى استديوهات روما

مشهد : ٣

غروب خارجى

• أمى، خالتى، نحن «بنات وصبيان» كلبة أرمنتية سوداء فى الخلف السيدة خديجة صديقة أمى.

السيدة خديجة .

– على مهلكم يا أولاد.. لأن الكعب وجعنى جداً. ترد ابنتها – وهى تكبرنا قليلا – قائلة :

– قلت لك فى البيت ، ألبسى جزمة زحافى، يعنى هل لازم لبس جزمة بكعب رفيع وعالى؟ ترد أمى مستنكرة.

– يوه ؟ يعنى عاوزة ماما تروح السينما بكعب زحافى على تايور؟

تؤمن السيدة خديجة على كلام أمى.

– شوفى والنبى الجليطة ياست صفية.

كانت السيدة خديجة بلغة شجرة النسب الشريف المعلقة فى غرفة استقبال بيتها، أو طنط خديجة بلغتنا، هى نجمة أمسياتنا عندما نذهب إلى سينما روكسى، فقد كانت امرأة قوية الشخصية لها حضور، متكلمة، اضافة إلى تجربتها المتميزة الخاصة، فقد كانت من طلائع المدرسات المصريات اللواتى ذهبن إلى ليبيا فى ذلك الزمن، واكتشفن هناك الذهب الأسود، أما تميز هذه «الطنط» الحقيقى خلال أوقات السينما المندثرة هذه، فيأتى من ارتدائها عادة لعقود من الكريستال، أهداها لها أخوها الضابط بالجيش، وهذه العقود مثلت أحدث صيحة فى عالم الاكسسوار عند نهاية الخمسينات من هذا القرن، وقد انتشرت انتشار النار فى

الهشيم داخل البلاد، كواحدة من أهم الانجازات الملموسة المترتبة على صفقة الأسلحة التشيكية لمصر سنة ١٩٥٦.

عادة كنا نعرج من بيتنا إلى بيت طنط خديجة في شارع العزيز بالله بالزيتون. ونصطحبها مع أولادها حتى سينما روكسي الصيفي، فنستمتع بمرأى شوارع مُشجرة خالية نظيفة، ونسير حتى نعبر شارع جسر السويس، ثم نسير بجانب ساحة نادي سباق الخيل، فنشاهد من خلال سوره الحديدي المكشوف سندساً من الحشائش الخضراء المرعرعة والمقصوصة بنظام على مدى البصر، وعندما نصل السينما، كنا نشترى قبل الدخول الكاستا بالمارون جلاسيه «ثلاثة قروش للقطعة الواحدة»، فنلتهمها بتلذذ قبل دخول قاعة العرض، وتظل «حنونة» (ركسي سابقا)، كلبة طنط خديجة معنا، حتى نكون على وشك الدخول إلى مكان العرض، فتأمرها صاحبتها بأن تعود مرة أخرى إلى البيت وهي تقول لها «خلاص . روحي يا حنونة، متشكرين». ولكن حنونة كانت تفاجئنا أحياناً، فتبقى فى انتظارنا حتى منتصف الليل، وعندما كنا نكتشف ذلك، كانت تأخذنا المفاجأة، فنهرع إليها منقضين عليها لنقبلها ونقول «ياه .. لسه واقفة؟» والحقيقة أن حنونة كان لها فى قلوبنا معزّة خاصة، فقد أظهرت هذه السوداء الصعيدية شهامة ونبلا قلما يوجدان بين بني الإنسان. فلقد كانت لطنط خديجة قطة مشمشية دلوعة انتقلت إلى الدار الآخرة إثر حادث أليم، بعد أن وقع عليها باب قديم «فطسها» فى التو، وكانت المسكينة قبل ذلك بأسبوع قد ولدت ثلاث قطط «ذكران وأنثى»، تيتمن بعد وفاتها، فتكفلت «ركسي» وبالجهود الذاتية بإرضاعها جميعا مع أربعة من صغارها، كانت قد وضعتهم قبل ذلك بقليل، فكانت هذه اللفتة الأمومية الحانية من «ركسي» من أهم حوادث سنة ١٩٥٩ المشهورة فى تاريخنا المجتمعي الحديث، وبعدها تغير اسم «ركسي» إلى «حنونة»، وظل ملازما لها حتى قتلت بخرطوش غادر أثناء غارة من الغارات التى تشن على الكلاب لإعادة الانضباط للشارع المصرى!

فى سينما روكسي شاهدت فى طفولتي أجمل أفلام الكارتون، توم وجيرى أبيض وأسود، توم وجيرى ألوان، ميكي ماوس، أعظم الأفلام فى صباى فكانت علاء الدين والمصباح السحرى، جليفر، رحلة إلى منتصف الأرض، وكان ستيف ريفز فى أدوار هرقل وطرزان له مذاقه الخاص على شاشة سينما روكسي «ربما لأنها كانت سكوب»، وكان يبدو لى ضخماً جدا، ووسيماً جداً.

وعندما بدأت مداركي تتفتح، كانت سينما روكسي الصيفية، قد تحولت إلى سينما شتوية، وهكذا تبددت متعة سينما الهواء الطلق التى طالما استمتعنا بها فيها، متعة الجلوس على كرسى من خشب البامبو وقراءة الحوار المترجم على خلفية من أصوات الميدان الواقعة

عنده، السينما وحركة عبور المترو، وفى الدار التى فقدت انفتاحها السماوى، تعرفت على سينما مصرية من نوع جديد، ففيها شاهدت فيلم فجر يوم جديد ليوسف شاهين، وكان هذا الفيلم بداية تلمس لملامح سينما عربية مختلفة، تدفع المشاهد للتأمل والبحث والتفكير.

وكان «الخريج» لداستين هوفمان، هو بداية تعرفى على سينما عالمية من نوع آخر، كان الخريج، يختلف عن أفلام الغرب وأفلام الإثارة وكل تلك التوليفة الأمريكية المبهرة التى تعودنا عليها، وكان هوفمان ممثلاً مختلفاً عن ستيف ريفز بالنسبة لى، وهكذا بدأت أفتش عن سينما أخرى، سينما تقدم ما هو أبعد من المتعة والتسلية والبهجة المنظورة.

لقد دخلت «الخريج» مع ابنة خالتى وخطيبها الضابط الشاب، والذى دعانا مع خالتى وامه وأخته لحضور هذا الفيلم، ويبدو أنه كان يحمل دعوة مجانية للعرض وقتها، فقد جلسنا «لوج»، كما أننى اكتشفت بعد زواجه من قريبتى، أنه غير مهتم بالسينما على الإطلاق.

مشهد أخير : ليل داخلى
زوجى ، أنا ، الأطفال

زوجى : : قومى نروح السينما.

أتابع قراءة صفحة الحوادث، قتل محارم، سرقة ، اختلاس، أغتصاب، أقول له وأنا أزفر:

– بلا سينما بلا نيلة .

يحاول اقناعى .

– فى سينما التحرير فيلم معقول ، أخوك قال لى الصبح على التليفون.

أفكر فى المشوار، زحام الطريق، ثمن البطاقات المرتفع، استدعى فى مخيلتى جيراننا فى العمارة، والذين لا نتبادل معهم أكثر من صباح الخير أحياناً، أنظر إلى أطفالى الصغار، بينما أتذكر جارتنا أبلة حسنية، التى كانت تترك رضيعها عادة عند جارتنا الأخرى نينة حكمة، لتذهب معنا إلى السينما، أنظر إلى الأطفال وأسائل زوجى :

– والعيال ؟.

يرد بضيق :

– آه .. نتركهم عند اختك ونرجع لهم بعد السينما .

يعرف أنه اقتراح مرفوض، فهذا معناه التوجه أولا إلى شبرا، ثم الذهاب بعد ذلك إلى الدقى، وإعداد الأولاد للخروج يحتاج جهداً ووقتاً، لا يستحقه الذهاب إلى السينما .

تتوالى السنون، لا نذهب إلى السينما، تخرج السينما من حياتنا شيئاً فشيئاً، «اشارات» الأفلام العربية فى التليفزيون مقرفة، تزداد عزلتنا، نتسائل طوال الوقت : هل نحن مجتمع حقاً ؟ .



الفتى الشرير

ناصر ٥٦

الشعر والسينما

بقلم الشاعر : محمد ابراهيم أبو سنه

أحدث ظهور السينما فى الثلث الأول من هذا القرن ثورة بصرية هائلة، بل لقد انشأت لغة جديدة تعتمد على الصورة الموحية أو الصورة التى تتكلم. إن الصورة هى اللغة الأولى للبشرية حيث كان العقل البدائى أقرب إلى إدراك المحسوس من العقل المتحضر الذى أصبح قادرا على إدراك المجرد . ولذا ارتبطت اللغة فى بداياتها بالصور كما ترى فى الصور التى تمثل أبجدية اللغة الديموطيقية «الفرعونية الشعبية أو الدارجة» وها هى نفس اللغة تعود من جديد ولكنها مرتبطة هذه المرة بأحدث وسائل التكنولوجيا فى عالم العدسات كما ارتبطت بشكل أساسى بحركة الصور ذاتها . والفرق بين اللغة البدائية للصورة واللغة السينمائية الجديدة هو أن الصورة فى اللغة القديمة ذات دلالة فى علاقة محدودة بصور أخرى .



عماد حمدى　　　　خلى بالك من زوزو

أما في اللغة السينمائية فإن الحركة ونسق تعاقب الصور والمونتاج والفلاش باك. باختصار، الصورة + الحركة في تلازمهما مع المؤثرات الصوتية الموسيقي والخلفيات هي التي تؤسس للغة جديدة . اللغة البدائية عملية تؤدى غرضا ماديا اجتماعيا فكريا دينيا طقسيا أو احتفاليا أما اللغة الثانية فهي لغة فنية في المقام الأول تهدف إلى المتعة والفهم والوعي بمستوياته المختلفة. إذن فالحركة هي التي تحدد الدلالة الحاسمة لمغزى اللغة السينمائية وبدونها لا معنى للصور المفردة بل إنها تصبح وحدها ضد اللغة لأن وظيفتها الاتصالية تنعدم تماما بسبب عدم الترابط «ومازلت أذكر وقع الصورة السينمائية في حركتها الصادمة حين دخلت لأول مرة إحدى دور السينما بشارع الجيش بالعباسية . كنت في العاشرة من عمري قادما من قرية صغيرة على النيل لأحفظ القرآن الكريم في مدرسة «شيوه كار قادن» استعدادا للالتحاق بمعهد القاهرة الديني . ولا شك أن الشغف بكسر حاجز الغربة هو الذي دفعني إلى التعرف على المدينة الهائلة التي قدر لي أن انتقل اليها وهي قاهرة الاربعينيات حيث الكآبة السياسية وتفكك الرؤية الاجتماعية بعد انتهاء الحرب العالمية واحتشاد الموقف العربي لخوض حرب فلسطين ١٩٤٨ . لا أذكر الآن أي فيلم هذا الذي شاهدته مع بعض رفاقي من الصبيان. غير أنني مازلت أذكر الرعب الذي زلزلني عندما رأيت قطارا يقبل في مقدمة الشاشة بحجمه الهائل الأسود المخيف . ساعتها انتفضت في مقعدي واقفا ووليت الأدبار وأنا عاجز عن الفهم كيف أتيح لهذا القطار أن يجرى بهذه السرعة وبهذا الحجم فوق الشاشة البيضاء . وربما ضاعف من فزعي مارسب في وجداني منذ الطفولة حول القطارات .. تقع قريتي التي ولدت بها «الودي» مركز الصف على الشاطيء الشرقي للنيل جنوبي حلوان بحوالى ٤٥ كيلو مترا . وكنا نشاهد من ضفتنا الشرقية حركة

القطارات القادمة أو العائدة من الصعيد وإلى القاهرة عبر مسافة تزيد على سبعة كيلو مترات مما كان يسمح لخيالنا بالتحليق حين نرى أضواء القطارات المتلألئة في الليالي التي لا يطلع فيها القمر . وكنا نسمي القاطرة التي تقود عربات القطار «العفريتة» وهي تسمية ترتبط ارتباطا عميقا بعالم الأطفال في القرى المصرية حيث تمثل العفاريت جزءا رئيسا من قصص الأمهات والجدات لتخويف الأطفال من التأخر في طرقات القرية في الليل. وكثيرا ما كانت العفاريت تملأ قصص الفلاحين الذين يعملون في الخلاء وقد يبيتون في حقولهم أو يقطعون الصحراء لحاجة ضرورية

وحين حضرت مع أبي للقاهرة لأول مرة وكنت في الرابعة من عمري كانت السيارة تنقلنا من القرية إلى حلوان ومن حلوان ننتقل بالقطار إلى محطة باب اللوق. وأذكر أنني صرخت حين رأيت القاطرة السوداء وهي تمر محاذية للعربات متجهة إلى الأمام لتقود القطار من حلوان إلى القاهرة وكان الليل قد أرخى سدوله على المدينة بينما تلمع مؤخرات السيارات الصغيرة بأضواء حمراء وكان الجنود البريطانيون يملأون الشوارع (١٩٤٢) إبان الحرب العالمية الثانية. هكذا ارتبطت السينما بالعفاريت منذ الوهلة الأولى وكان الإحساس الأول الذي أثارته في نفسي هو الفزع ولكنني لم أنقطع عن دخول دور السينما بعد ذلك بعد أن فتنت بهذا الفن الجديد المدهش الذي يقوم على الإبهام. وعندما قرأت كلمة «جورج طومسون» بأن الشعر هو فن التعبير بالصورة رأيتني أتنبه لاكتشاف هذه العلاقة الحميمة بين السينما والشعر.

ناصر ٥٦

والنظرة الأولى قد توحي بأن السينما تحد الخيال من خلال صور محدودة لشخصيات روائية تقوم بتجسيدهم في شخصيات ممثلين قد يكونون أقرب من حيث الشكل إلى هذه الشخصيات. وبذا تحكم على العقل بالربط الخائن بين شخصيتين عن طريق المقارنة الخارجية وقد يكون فيلم «ناصر ٥٦» أقرب النماذج لوأد الخيال أو لتحجيره حسب وعي المشاهد. بينما تلعب الصور الشعرية دورا في انفساح الحدود المدركة للعالم عبر إنشاء علاقات جديدة بين مفردات الواقع ورؤية الفنان أو الشاعر. الصورة السينمائية تقضي على الخيال بتجسيده في نموذج واحد، والصورة الشعرية تحرر الخيال من خلال التلاعب باللغة

لكن هذه المقارنة السريعة لا تلبث أن تسعى إلى التوازن من جديد فتعطى للخيال فى السينما دورا مساويا للخيال الشعري ذلك أن حرية حركة الكاميرا وقدرتها على ابراز التفاصيل والتنقل عبر مساحات من المكان تشمل الأرض والفضاء والماء بل وفى اعماق البحار تحمل هذه الحركة الحرة على إعادة تشكيل الخيال الانسانى بوضع أساس مادى لجوهره. فالحركة تقابل مرونة التلاعب اللغوى كلاهما إذن يعبر بطريقة خاصة عن الجمع بين الواقع والخيال فى نسق يعتمد على المجسد فى السينما وعلى المجرد فى الشعر. ولعل من أكثر الافلام التى هزتنى أفلام «ابنة ريان» و«إنهم يقتلون الجياد» و«زوربا» و«خلى بالك من زوزو» و«الأسد الأكبر» من افلام الكارتون وآخر ما شاهدته هو «ناصر ٥٦» وأذكر أننى رأيت فى متحف الطيران بواشنطن فيلما تسجيليا عن تطور الطيران وقد هزنى هذا الفيلم الذى استخدم الصوت المجسم وحمل تحذيرا لضعاف الاعصاب بعدم مشاهدته. وفى هذا الفيلم رأيت مناطق فى البحار والمحيطات والغابات ما كان يخطر ببالى أن أشاهدها كما أن الفيلم استعان بأشرطة من أفلام التقطت بواسطة الاقمار الصناعية ورأيت أجمل صورة للأرض وهي تدور وحدها فى الفضاء وفوقها كرنفال من الألوان السحرية ولكن اللون الأزرق يلف الكرة الأرضية بشال حريرى مشع وشفاف ولا تملك إلا أن تصيح «سبحان الله القادر العظيم» كما صور الفيلم لحظة هبوط نيل ارمسترونج على سطح القمر وكنت قد كتبت قصيدة عند هبوطه بعنوان «عصر الانسان». السينما والشعر اذن رفيقان يقومان بدور رائع فى تنشيط الخيال الانسانى وفى إبداع الواقع الجديد.

بين الشعر والسينما

ولا شك أن السينما التى تلعب فيها وسائل الجذب الفنية مثل جمال الوجوه والموسيقى والمناظر الطبيعية تهدف إلى المتعة والنشوة بصورة تحاصر المشاهد أما الشعر فهو يهدف إلى نشوة أعمق ويهدف إلى خلق صورة جديدة للعالم صورة يصنعها الشاعر لنفسه ويصدرها إلى القارىء الذى قد يقوم هو الآخر بخلقها داخل نفسه إن أعجبته القصيدة. لقد كنت شديد الاهتمام بمشاهدة الافلام السينمائية فى شبابى واعجبت بمارلين مونرو وجينا لولو برجيدا وصوفيا لورين اعجابا يستمد قوته من الحواس ومن ولع المراهقة ولكن التى ملكت على وجدانى وحسى فهى إنجريد برجمان ومن المصريات سعاد حسنى وفاتن حمامة



صوفيا لورين (الحب الملعون)



زوربا اليونانى

وشادية . وأفضل من الممثلين محمود ياسين ونور الشريف ومحمود عبد العزيز وعماد حمدى وكمال الشناوى ومن القدامى نجيب الريحانى وليلى مراد وسليمان نجيب . تأثرت فى مطلع شبابى بحركة الكاميرا السينمائية وقد تجلى هذا مبكرا فى قصيدتى «طائر الشباب» التى كتبتها فى عام ١٩٦٣ ونشرت ضمن ديوانى «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» الصادر فى ١٩٦٥. وقد التفت إلى علاقة هذه القصيدة بفن السينما الدكتور محمد غنيمى هلال عند تعليقه على عدد من مجلة الكاتب «١٩٦٣» كانت القصيدة قد نشرت فيه . فالقصيدة تركز عبر الحركة السريعة من خلال عين الطائر على انقضاء الفصول أو المراحل الزمنية لحياة هذه الفتاة التى تجلس من أجل فارسها منكبة على غزل ثياب عرسها وكأنها بنيلوبى فى الأسطورة اليونانية فى الالياذة والأوديسة لهوميروس . فالجواد الذى يركض فى المتاهة الخراب رمز للأمل الذى يتحرك فوق زمن عقيم . أما طائر الشباب فهو رمز للقوة والفتنة والنشوة والتطلع إلى الحياة. وكأن عين الطائر قد تحولت إلى شاشة سينمائية تتحرك فوقها الفصول : وتعبر الفصول فى عينه إلى الهباء، وتبدأ الفصول بفصل الشتاء مقترنا بالطفولة .

القصيدة ورصد مراحل الحياة

وربما كانت لاقتران الطفولة بالشتاء دلالة خاصة وثيقة الصلة بنشأتى فى القرية حيث قضيت طفولتى قبل أن انتقل إلى القاهرة، وتظهر صور الحب الأولى ممتزجة بمؤثرات حسية حول الجنس فى مرحلة بدائية حيث تعبث الفتاة والغلام فى الخلاء بعيدا عن الرقباء وكأن القصيدة تحاول رصد مراحل حياتها ووقائع هذه الحياة وبعد مرحلة الطفولة يأتى الربيع المجدب فصدرها بلا قباب إشارة إلى ضعفها . وربما كانت أنوثتها الضعيفة وراء ضياع فرصتها فى الحب والزواج . لأن القصيدة تركز على مأساة هذه الفتاة العانس التى فاتها



سيف الجلاد



حياتى انت

قطار الرحمة والالتحاق بالمجتمع من خلال عربة الأسرة، الربيع إذن شاحب مجدب صدرها بلا قباب / خدها بلا ورود، وهى تحلم بانجاب الاطفال الذين يعصرون فوق صدرها تفاحة العذاب ثم يأتى الصيف رمز النضج الذى يسبق الاحتراق، هذا الصيف ليس فيه سوى الهجير .. لا ظل نخلة ولا طريق ويتمزق ثوب العرس إيذانا بضياع الفرصة فجأة كما فى السينما تظهر «البئر» وهى رمز لليأس والفشل وربما الموت، ألا تشبه البئر القبر ، القمر مصدر الضوء والبهجة والأمل يصير هدفا تتطلع البئر المشئومة إليه، ولا يلبث القمر أن يسقط فى هذه البئر التى أطبقت الشفاه على الضجر . أليس الضجر هو مصير كل عانس لم تتزوج ولم تنجب، ثم يأتى الخريف ليسقط الثوب عن حجرها . وسالت دماء الرجاء واختفت السماء . انسحبت الفتاة إلى أعماق البيت وراء الجدران حيث اصطفقت الأبواب وظهر فى الأفق من النافذة هذا الغراب الذى يقول للمرأة العانس .. «لا إياب» أى لا عودة لما فات، بينما تعلن الريح : مات طائر الشباب. ليست هذه هى القصيدة الوحيدة التى تأثرت بفن ألسينما بل إن كثيرا من قصائدى قد تأثرت بهذا الفن الرائع «فن السينما» وإذا كنا قد أقمنا نوعا من المقارنة سعيا للتقريب بين السينما والشعر فإن المقارنة قد اعتمدت على الشكل بينما تقوم العلاقة الحميمة بين الفنين على رؤية الشاعر للعالم ورؤية مخرج الفيلم . الشاعر يفكر دائما بالصورة قبل أن يبحث عن الالفــاظ وكذلك المخرج وإذا كان المخرج يضع الموسيقى ضمن المؤثرات الفنية أو الخارجية فإن الموسيقى هى جوهر الشعر وهى التى تحرك الشاعر مع الصور للبحث عن لغة جديدة وتشكيل مبدع غير مسبوق تطير السينما بأجنحة من الفولاذ ويطير الشعر بأجنحة من الحرير ولكنهما معا يحلقان فى نفس الآفاق ويحطان على نفس الشواطىء

هل تعلم



يوسف وهبى



محمد كريم

أول دار لعرض الأفلام السينمائية فى مصر ، هى سينما توغراف «باتيه» بالأسكندرية عام ١٩٠٤ .

❑ أول دار سينما مكيفة الهواء هى «مترو» بالقاهرة عام ١٩٤٠.

❑ أول صحافى مصرى تحول من الصحافة الى السينما هو «أحمد جلال» ، وقد اشترك فى فيلم «ليلى» كمؤلف وممثل ومخرج

❑ أول استديو اقامه فنان مصر ، وفقا لاحدث المواصفات الفنية ، وقتذاك هو «استديو رمسيس» الذى اقامه يوسف وهبى فى أوائل الثلاثينيات .

❑ أول قصة أدبية لكاتب كبير ظهرت على الشاشة المصرية ، كانت «زينب» للدكتور

محمد حسين هيكل وقد اخرجها «محمد كريم» ١٩٣٠ .

❑ أول فيلم صامت يعاد انتاجه متكلما ، وبنفس مخرجه السابق كان زينب ١٩٥٢.

❑ أول مطربة ظهرت فى السينما المصرية كانت «نادرة» فى فيلم انشودة الفؤاد ١٩٣٢.

❑ أول فيلم مصرى صادرته الرقابة ، بعد عرضه بيومين ، كان «لاشين» من انتاج استديو مصر ٨ يناير ١٩٣٩.

❑ أول فيلم كوميدى غنائى ، استعراضى راقص مصرى كان «مصنع الزوجات» للمخرج نيازى مصطفى انتاج استديو مصر ١٩٤١ .

❑ أول فيلم مصري كامل بالألوان الطبيعية، كان «بابا عريس» بطولة نعيمة عاكف واخراج «حسين فوزي ١٩٥٠ .

❑ أول عميد لمعهد السينما هو «محمد كريم» ١٩٥٩.

❑ أول فيلم مصرى فاز بعدة جوائز دولية «كان» المومياء لشادى عبد السلام.

نعيمة عاكف

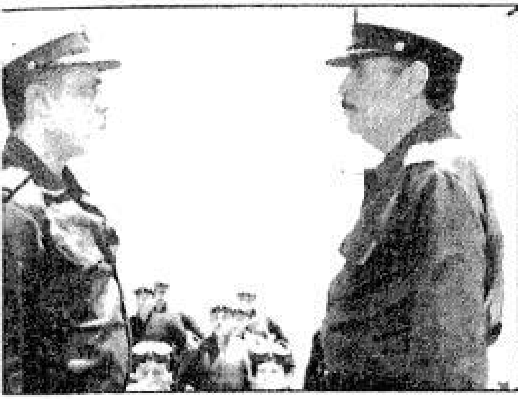


نيازى مصطفى





سواق الاتوبيس



الطريق إلي إيلات

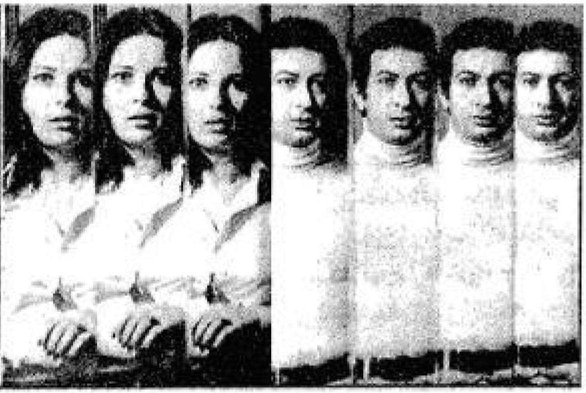
رحلة العشق لفن السينما

بقلم المصور : سعيد شيمى

كثيرا ما أفكر كيف اتجهت أفكارى وميولى للفن السينمائى، وأنا أصلا من أسرة بعيدة تماما عن مجال الفنون، وحين استعرض ملابسات الزمن والبيئة والأسرة المحيطة بطفولتى أرجع تأثير والدى بدون قصد منه لأسلك طريق السينما بالذات

كانت السينما وسيلة للتسلية والملهاة من والدى لشغلى عن اتجاه فى الحياة يريدنى أن أبعد عنه، فوقعت راضيا فى غرام هذه التسلية والملهاة وأصبحت هدف حياتى .. كيف حدث ذلك؟

أنا ابن أسرة تنتمي جذورها إلي محافظة المنيا، ولدت عام ١٩٤٣ فى حى عابدين بالقاهرة بمسكن يطل على الميدان أمام القصر الملكى وثكنات الحرس (مبنى محافظة القاهرة الآن)، تفتحت عيونى ومدركاتى على الموسيقا العسكرية وهى تستعرض يوميا الحرس الملكى أمام شرفتنا المطلة على الميدان، كنت أقف بالساعات مغرما بهذا الاستعراض اليومى - التدريب - متناسيا الزمن والمأكل وكل شىء كنت مبهورا بالايقاع الموسيقى والخطوة العسكرية المنتظمة وجمال التشكيل الحركى لطابور الاستعراض،





ضربة شمس

جحيم تحت الماء

المصريون والسينما
جزء خاص

وكان جوابي الدائم وأنا طفل عن السؤال التقليدي، ماذا تريد أن تعمل عندما تكبر؟ أجيب أن أصبح مثل هذا الرجل الذي يتقدم الموسيقيين، حاملا هذه العصا السحرية الرفيعة برشاقة متناهية ملوحا بها مختالا كطاووس نافش الريش، جميل الألوان، قاذفاً بها إلى عنان السماء بحرفة واتزان وإيقاع مدهش، وحين يلتقطها من هذا العلو الشاهق، يكون قلبي قد سقط بين ضلوعي لخوفي أن تسقط منه مرة، ويخيب ظني دائما فهي لاتسقط أبداً!

● حلمي أن أكون مايسترو عسكريا!

كان حلمي البكر أن أكون هذا الرجل، لقد خلق في وجداني هذا المايسترو العسكري، والخطوات الرشيقة المنتظمة في الميدان من هذه الفرقة الموسيقية ميلا شديدا لحب العسكرية، وربما جعل هذا الميل الظاهر على تصرفاتي أن يجعل والدي يشدني إلى اهتمام آخر بلفت نظري إلى مشاهدة السينما ومصاحبتي باستمرار لدور العرض وخاصة أنه هاو في ارتياده للسينما منذ صغره.

وعندما كبرت علمت من تاريخ أسرتي لماذا كان أبي يبعدني عن حب العسكرية ويريدني أن أصبح طبيبا مثله. فنحن عائلة قاست الأمرين من العسكرية الوطنية، فأنا حفيد علي فهمي باشا أحد أقطاب الثورة العرابية الشهيرة فهو والد ستي حميدة فهمي، الذي نفي إلى جزيرة سيلان وتشتتت أسرته وأملاكه كما نعلم من تاريخ بلدنا، زد على ذلك أن زوجها أي جدي محمد سعيد شيمي نفي من مصر عام ١٩١٤ مع الخديو عباس حلمي الثاني، لكونه عسكريا مناوئا للاستعمار الانجليزي طوال حياته مناضلا من خلال الحزب الوطني القديم من أجل استقلال مصر.

● السينما .. عشقي !

فعندما لمس والدى عشقى للروح العسكرية المبكر، أراد أن يبعدني ، ولكنه وضعني بدون أن يدرى في بوتقة صهرتني بالتدريج ليكون هدف حياتي بعد ذلك سينما ولا شيء غير السينما .

وحين لم يتجاوز عمري السابعة مرضت أمي وأقامت بالمستشفى فترة طويلة - وأمي من أصل سورى لها جذور أندلسية - تعمل عائلتها في صناعة وتجارة الحلويات، وباختفاء أمي زاد والدى من مصاحبتي أنا وأختي إلي دور السينما، فكانت ترويحنا اليومي بعد رجوعه من العيادة وفي الإجازات الصيفية بالذات

كان حي عابدين تحيط به دور العرض من كل جانب في الشمال سينما «كرنك» و«باردای» في أرض شريف، وعلى بعد خطوات من الميدان سينما «رويال» - مسرح الجمهورية حاليا - و«ايديال» و«اوليمبيا» و «حديقة الازبكية» و«رمسيس» ثم في وسط المدينة «ركس» و «سان جيمس» و«متروبول» و «ديانا» و«كورسال» و «كوزمو» و «لوكس» و «ستوديو مصر» وغيرها في غرب الحي سينما «ستراند» - مكان عمارة ستراند حاليا «وريو» وهي باقية وصامدة حتى الآن، هذا بخلاف سينمات منتصف المدينة المعروفة والموجودة حتى الآن

● العصر الذهبي للسينما

كان العصر الذهبي لاشك لدور العرض، ولقد شاهدت منذ طفولتي باقة من الافلام الإيطالية والفرنسية والانجليزية غير الامريكية والعربية بالطبع بل إن الفيلم الهندى كان قد وصل، وكان شغلي الشاغل في هذه السن البحث عن أفلام الحركة بين اعلانات الصحف واشارات العروض القادمة، وكثيرا ما قام الشجار بيني وبين أختي الكبرى لاختياري مشاهدة فيلم حركة وهي تريد مشاهدة فيلم رومانسي لليلى مراد أو سوزان هيوارد، وكان يعضدني دائما على اختياري صديقي (ميمى) فهو الآخر مهووس سينما مثلنا وتصادق عائلته عائلتي ويجمعهما حب مشاهدة الأفلام، وميمى هو المخرج الموهوب حاليا محمد خان.

● عالم الخيال

ورويدا رويدا بدأ سحر السينما يتسرب إلى دمى، عالم غريب فانتازى عالم خيالي تشاهد فيه كل شيء، وتفرغ فيه طاقتك كطفل وتطلق لخيالك العنان بلا حدود، ممالك كثيرة تفتح مداركا كانت مغلقة، كان جلوسي دائما بجوار والدى في دار العرض لكي يمسك يدى بقوة طوال العرض حتى لا انفعل بأحداث الفيلم ويجدني فوق الكرسي الذي أمامي، أو ضاربا (بوكس) من بجانبي، كنت أذوب في الفيلم وكانت الأحداث تذيب

خيالى الصغير، وكثيرا ما كنت اقترب ناظرا إلى الشاشة العملاقة وكان يدهشنى أن أجد الصورة أصبحت (حبيبية) مليئة بالنقاط الملونة أو السوداء والوجه والأجسام أصبحت أكثر استطالة لرؤيتها من منظور منخفض.

أخذت أسجل كل فيلم أشاهده فى دفتر خاص وأعطيه درجة من تقديرى، وأجمع صور إعلانات الأفلام من الصحف والمجلات، وأعيد تمثيل بعض المشاهد مع أصدقائى أولاد الجيران، بل إننى ابتكرت من صندوق الأحذية الكرتونى شاشة عرض مصغرة، فكنت أفتح فتحة مربعة فى واجهة الصندوق ومن خلال عمودين من الخشب شمال ويمين الفتحة من الداخل ألف الصور المسلسلة من مجلة (على بابا) و (سندباد) على أحد الأعمدة ويشدها بعد لصقهم مسلسلين تمر الصور أمام الفتحة وأقص أو أقرأ مايدور على الأولاد الجالسين وكأنهم فى دار للعرض، أو يكون الصوان (الدولاب) هو الجبل الشاهق (الشجيع) أقفز من فوقه معترضا صديق طفولتى ميمى متعاركا معه، وكانت نتيجة إحدى هذه القفزات كسر ذراعى لانزلاق البساط أسفلى . كانت السينما حتى هذا السن فعلا ملهاة وتسلية طفولية بريئة نلعب من خلالها.

وذات يوم من صيف عام ١٩٥٥ كنت بجوار والدى كالعادة فى دار عرض حديقة سينما «كرنك»، وأتذكر أننى كنت أشاهد فيلما عن الحرب البحرية فى المحيط الهادى أثناء الحرب العالمية الثانية انتبهت أن والدى ترك يدى، اختلست النظر سريعا إليه حتى لايفوتنى شيء من الفيلم، لاحظت من خلال انعكاس ضوء الشاشة الدموع تنساب على وجنتيه، تعجبت فالفيلم ليست به أحداث مؤثرة، ولم أهتم واعتقدت أن أبى أدرك وفهم أشياء لم أفهمها، وعندما انتهى الفيلم و أضيئت الأنوار، وجدت أبى جالساً لا يقوى على الوقوف وازدادت دموعه الصامتة، ومن معايشتى للأفلام أيقنت بواقع مر أن أبى قد أصيب بالشلل. انفجرنا أنا وأختى بالبكاء وأخذنا هو على صدره وتحامل على نفسه إشفاقا علينا ووقف لنساعده فى السير وهو مصاب فى ساقه ويده حيث كان المرض فى بدايته .

● الواقع المر!

وقد كان لمرض أبى هذا وقع سيىء على نفسى، ففجأة انتهت الطفولة البريئة واللعب مع السينما، وأصبح الواقع شيئا آخر علقماً، أبى طبيب لايملك إلا رزق يومه من العمل فى عيادته، بل فى أحيان كثيرة كان يعالج مرضاه بدون مقابل عندما يستشعر منهم ضيق ذات اليد.

ويموت أبى فى صيف ١٩٥٩ عشت فى وحشة كبيرة، فحتى وهو مريض كان يشعرنى بالحماية، كان عطوفا محبا لأولاده وخاصة أن أمى كانت غير موجودة معنا، وكانت عمتى الكبيرة تشرف على تربيتنا وفى نفس هذا العام قرأت فى جريدة الأهرام عن افتتاح

معهد السينما في ٢٤ أكتوبر، وكنت لا أعلم أن السينما علم يدرس ولها معهد أكاديمي، وقلت هذا هو طريقي في الحياة.

ذعر خالي الكبير الذي أصبح ولي أمري حين أخبرته عن عزمي دراسة السينما، كان تفكيري بالنسبة له درباً من الجنون، واعتبرني ابنا عاقاً لايعرف مصلحته، فهو كان قد خطط لي أن أدخل كلية التجارة لكي أعمل معهم في متاجرهم ورفض هذا الهراء مني، وانتقلت للإقامة في بيت جدي والد أمي.

● بداية التكوين

وجدت مكتبة ضخمة متنوعة لخالي الصغير عدنان، كانت كنزا للمعرفة بالنسبة لي، قرأت فيها أمهات الكتب كما قرأت للعقاد ونجيب محفوظ ولويس عوض فضلا عن أعداد كثيرة من مجلة (الهلال) و (كتابي) لحلمي مراد هذه القراءة فتحت مدركات عقلي وتفكيري لرؤية أكثر فهماً واتساعاً للحياة ومفهوم الفن، وعرفت طريق سور الأزبكية التاريخي لاجمع لنفسي الكتب التي تستهويني وأكون مكتبتي الخاصة بأسعار زهيدة للغاية.

واختلفت نظرتي ومشاهداتي لنوعية الأفلام، فأصبحت اختارها أكثر فنية فالقراءة واستيعاب النواحي الاجتماعية والتاريخية والفنية، جعلتني أكثر وعيا لمفهوم السينما، وفي مدرستي الثانوية (النقراشي النموذجية) كتبت في مجلتها الشهرية المطبوعة نقدا للأفلام التي أشاهدها، وتطور النقد إلى محاولة لفهم لغة السينما تحت عنوان (ليس مجرد سينما) فقد كان سني وقتها لم يتجاوز السابعة عشرة وبدأت أبحث عن مفهوم ذي قيمة للسينما بعيدا عن الملهاة فقط وكانت بدايات التكوين الحقيقي كما سيأتي.

محمد خان انتقل للإقامة في لندن مع عائلته، وكنا نتراسل بمنشورات فنية عن أخبار ما يشاهد وأشاهد، كان خان بالنسبة لي نافذة قريبة للسينما العالمية، وكنت أنا نافذته المستمرة عن السينما المصرية حب فن السينما، جمعنا بعد سنوات الصبى، ودخلت الجامعة (كلية الآداب) جامعة القاهرة بعد فشلي بالالتحاق بمعهد السينما، لأدرس التاريخ وأخرج وأصور أول أفلامي باسم (حياة جامعية) فقد جمعت حولي طلبة قسم التمثيل في كليتنا وأقنعتهم بعمل فيلم تسجيلي عنهم من خلال معايشتهم اليومية في الكلية، وهو فيلم مقاس ٨ مللي، وفي العرض الخاص تعرفت على الطالب سامي السلاموني في قسم الصحافة وكان أول من سجل حديثا معي لمجلة الحائط في الكلية، وليصبح صديقا عزيزا ننهل من حب فن السينما معا.

وكان التحاقي (بجمعية الفيلم) في دور تكوينها في أوائل الستينات ولأتعلم فيها حرفة التذوق الحق من خلال عرض ومناقشة الأفلام، بل العمل على إخراج وتصوير أفلام

للهواة فكان فيلم (الإنسان) ١٦ مللي الذى حصلت بسببه على جائزة دولية ومحلية، ولأكرر التجربة مع خان فى إحدى زيارته للقاهرة فى فيلم (الهرم) ١٦ مللي.

● عقبات مستمرة!

كنت أريد أن أتعلم التصوير السينمائي علميا، فأنا مؤمن أن الموهبة مهمة ولكن العلم هو الثقل والإبداع لأى موهبة، فحصلت على شهادة دبلوم بالمراسلة من مدرسة أمريكية عن الفوتوغرافيا والتصوير عموما، وكنت كلما أقدم للالتحاق بمعهد السينما أجد عقبات، حتى ألتحقت عام ١٩٦٧ وكنت الأول على مجموع المتقدمين.

فى تفكيرى الخاص لكى أكون سينمائيا فاهما، يجب أن أدرس اللغة السينمائية، التى هى أولا وأخيرا لغة صورة، وهذا ما جعلنى أهتم بدراسة التصوير، ولكن مع مرور الوقت والفهم أيقنت أن أهمية التصوير لاتستغنى عن المعالجة الجيدة للسيناريو والأداء المتقن، وتحريك وانفعال الأشخاص والكتل داخل اللقطة لمفهوم الحدث الدرامى، الذى يقوم به المخرج، وأهمية المونتاج والموسيقى وأصغر عامل، فالسينما عمل إبداعى جماعى جميل وأنا (ترس) يعمل بداخله لتحريك مجموعة من (التروس) ونعمل على إظهار هذا الفن بأحسن صوره.

كانت أفلام الموجة الجديدة الفرنسية قد شدنى أسلوب التصوير بها، فهو اسلوب أقرب إلى الواقع بحرية حركة الكاميرا، وطريقة الإضاءة وبعيدا عن أسلوب التنميق داخل البلاتوهات والتركيز على تصنيع جمال الصورة، فتأثرت بأعمال مصورين مثل راؤل كوتار، شاسا فيرنى، وهنرى ديكا والمصور الإيطالى جيانى دى فينانزو.

وحين بدأت أصور الأفلام التسجيلية أولا ثم الروائية، كان أسلوب هذه المدرسة له تأثيره الكبير على، فانطلقت بالتصوير حرا خارج البلاتوهات، وكان ذلك غريبا فى وقتها على السينما المصرية، ففيلم مثل (ضربة شمس) لمحمد خان أو (سواق الأتوبيس) لعاطف الطيب أو (شارع السد) لمحمد حسيب وغيرها من الأفلام الكثيرة كان التصوير بالكامل فى الأماكن الحقيقية الطبيعية والشوارع.

والتصوير تحت الماء فتح جديد لمكان التصوير، ومواضيع لم تطرق فى السينما من قبل وفيلم مثل (جزيرة الشيطان) أو (جحيم تحت الماء) أو (الطريق إلى إيلات) كانت لن ترى النور لا بهذا التخصص فى التصوير الذى تأخر كثيرا فى مصر.

إننى سعيد جدا برحلة الكفاح التى أنارت بصيرتى واستطعت من خلالها أن أخطو خطوات إلى الأمام، كما خطى من قبلى أساتذة عظام خطوات إلى القمة، وأتمنى لأبنائى مصورى المستقبل أن يتقدموا بثقة ولايستكينوا أبدا للصعاب، فنحن مازلنا نحتاج إلى جهد شديد فى فروع العمل السينمائى لم تتطور بعد، مثل المؤثرات الخاصة والخدع البصرية، والتأثيرات غير المحدودة لدراما ومعالجة الألوان، والمجال مفتوح والاجتهاد وارد، وكقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «أطلب العلم من المهد إلى اللحد».

الفن الفارسى

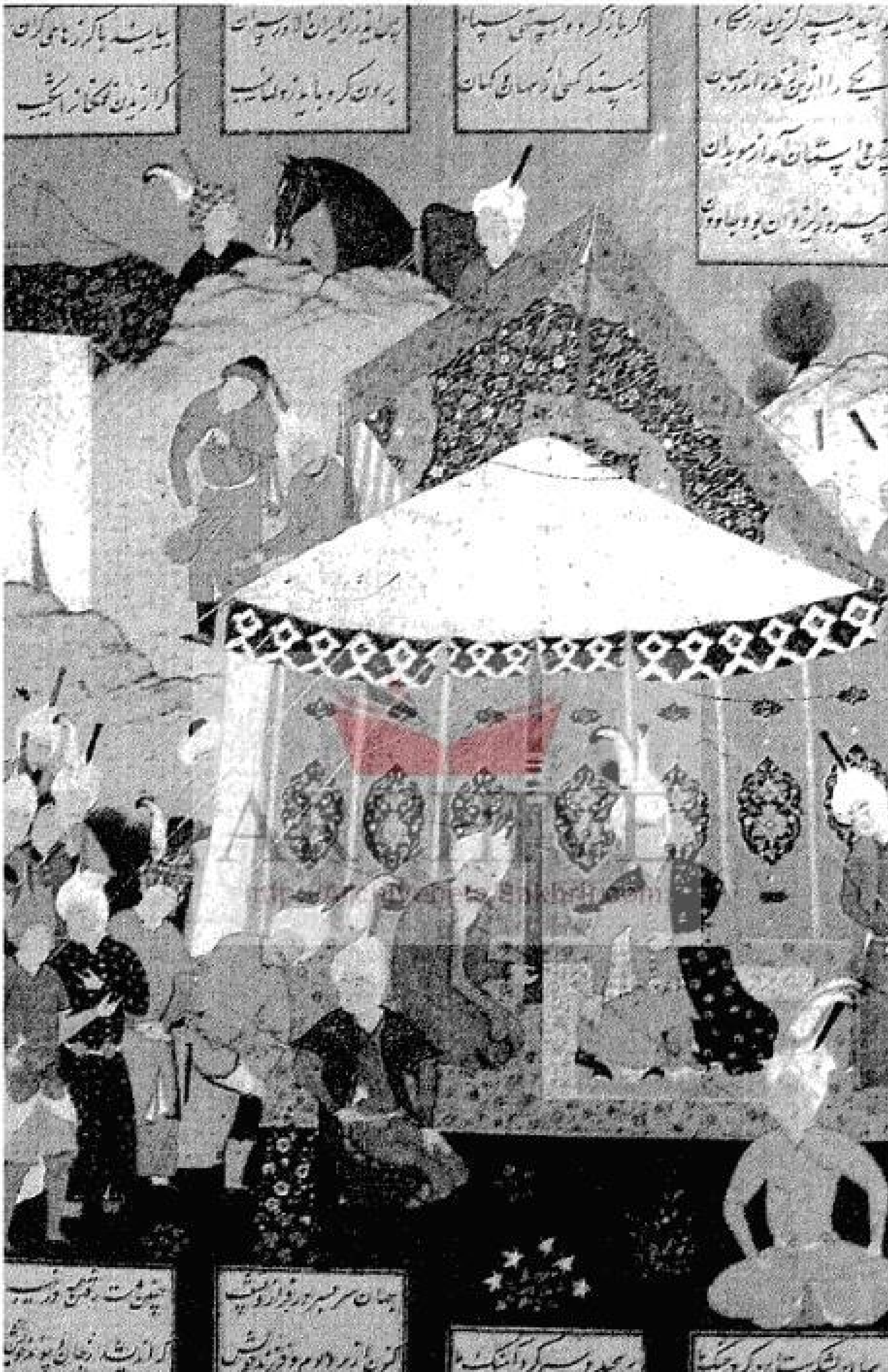
عبر العصور

بقلم: د . ابراهيم الدسوقى شتا

إنتشرت الفنون الفارسية من الأناضول إلى الهند - موطن المد الحضارى الفارسى - فى حقب عديدة من عمر الدولة الإسلامية.. فنون الخط وفنون التصوير ، أو إذا شئنا الدقة الفنون التى قامت على خدمة الكتاب ، والتى جعلت الكتاب من بدايته إلى نهايته تحفة فنية سواء من ناحية التجليد أو الكتابة أو التذهيب والتشعير والتصوير وحتى تصوير المناظر الطبيعية إلى تصوير الحيوانات إلى تصوير البشر .. بتجاهل شبه مطلق كراهة التصوير فى الاسلام ، بتلك الكراهة التى لم يشهد عليها نص صريح ، لكن تم توارثها ، واعتبرت من المسلمات. فى بعض المذاهب المعاصرة .

على كل حال .. لابد وأن يطرح السؤال المهم نفسه . لماذا إيران بالذات ؟! وبالطبع لا يمكن أن يكون الرد لأن إيران كانت ذات حضارة وذات ماض فى الفنون قبل الاسلام.

رئيس قسم اللغات الشرقية - كلية الأداب-جامعة القاهرة



فمصر كانت أسبق من إيران وأكثر تقدما في هذا المضمار ،لا يبقي إلا أن الأسر الحاكمة ذات الأصول المغولية والتركية وذات التأثير الواضح تماما بالحضارة الصينية كانت هى التي تبنت هذه الفنون وصعدت بها إلى مستويات صارت فيما بعد الخطوط المميزة للفنون الفارسية الأصيلة (الخطوط - المينياتير (المنمنمات) من بين الفنون العالمية .. كما انتقلت تأثيراتها أيضا إلى مستويات غير مستويات البلاط (الجماعات الصوفية .. والمستويات الشعبية ذات الأصول المتوارثة فى بعض الفنون الإيرانية الأصيلة مثل فن نسج السجاد) وثمة محاولات لربط الفنون الإيرانية بالابداع الإيرانى فى مجالات الأدب على وجه العموم .وبالأدب الصوفى على وجه الخصوص ، ويتجلى فى ذلك الاطار التجريدي .. والألوان الباهتة المحايدة .. ومساحات امتداد الرؤية ، ثم وحدة الملامح فى رسم الصور البشرية .. وكلها سمات تميز الفنون الإيرانية التقليدية عن غيرها من الفنون . ومعظمها - حتى تلك السمات التى حافظت على التقاليد الصينية - خضعت لتأثير إسلامى شديد الوضوح .. ولم يكن الفن الإيرانى - كما يحلو للقوميين الإيرانيين - ردود أفعال ضد الغزو العربى .. أو هجرة إلى الإيرانية أو ما إلى ذلك .. فهو فن إسلامى تماماً يستوحى الإسلام .. ولا ينجو من تأثيره - حتى فى مفردات تصوير الأساطير الإيرانية والتي ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام (وإن كانت قد دونت بعد الإسلام وباللغة الفارسية الإسلامية وبتأثيرات إسلامية لا تخفى) ومن العسير ربط هذه الفنون بالنماذج التى قدمها صاحب الكتالوج الذى بين أيدينا Art of the persian Courts لفنون إيران قبل الإسلام .. مع أنه يمكن الربط بين فنون الكتاب فى قمة تطورها ، وبين النماذج الأولى لفنون الخط ..

التأثيرات المغولية

ومن الغريب .. أن يكون العصر المغولي هو البداية الحقيقية للفنون الإيرانية الأصيلة (ملامح الوجوه ظلت مغولية حتى فى عصور متأخرة جداً) ... وليس من المستغرب أن يكون أخلاف الخانات المغول الكبار، هم كبار مشجعى الفنون في إيران، فضلا عن الميراث الصينى عند المغول ، فان مغول إيران والذين يشتهرون تاريخيا باسم الايلخانيين (١٢٦٢ - ١٣٣٥) سرعان ما تهذبوا حضاريا بدخولهم فى الإسلام، وإلى هؤلاء ترجع النماذج الأولى من الخطوط العربية المفرسة ، وإلى هذا العهد أيضا ترجع بداية ظهور الشاهنامه المصورة وتصور صفحات من الشهنامه موجودة في مخطوطة مشهورة باسم فرير شاهنامه (لأنها فى متحف الفرير للفن فى واشنطن) وتصور اللوحات قيام أردشير (رأس الأسرة الساسانيه) بالصين مع

اردوان (آخر البارثيين) ومعارك شابور الساساني مع الرومان .. وعودة رماة السهام من المعركة .. ومن اليسير جدا تمييز هذه الصور عن الصور المرسومة في العصور التالية ، فالشخصيات والملابس صينية تماما، والصورة مزدحمة بالشخصيات والحيوانات، والألوان متباينة بين القاتم والفاتح وأرضية الصورة شبه خالية ، وكلها ليست من سمات المدرسة الإيرانية في العصر التيموري والتي سيطرت على الفنون الإيرانية في بقية عصورها - وإلى عهد أبي سعيد بهادرخان (حكم من ١٣١٧ - ١٣٣٥) آخر الإيلخانيين العظام ، وترجع بعض الأعمال المتميزة فيها صفحة من القرآن الكريم بخط ارغون كمالي وتشعير سيف الدين القاسم وصورة وجدت أيضا من شاهنامة الفردوسي .

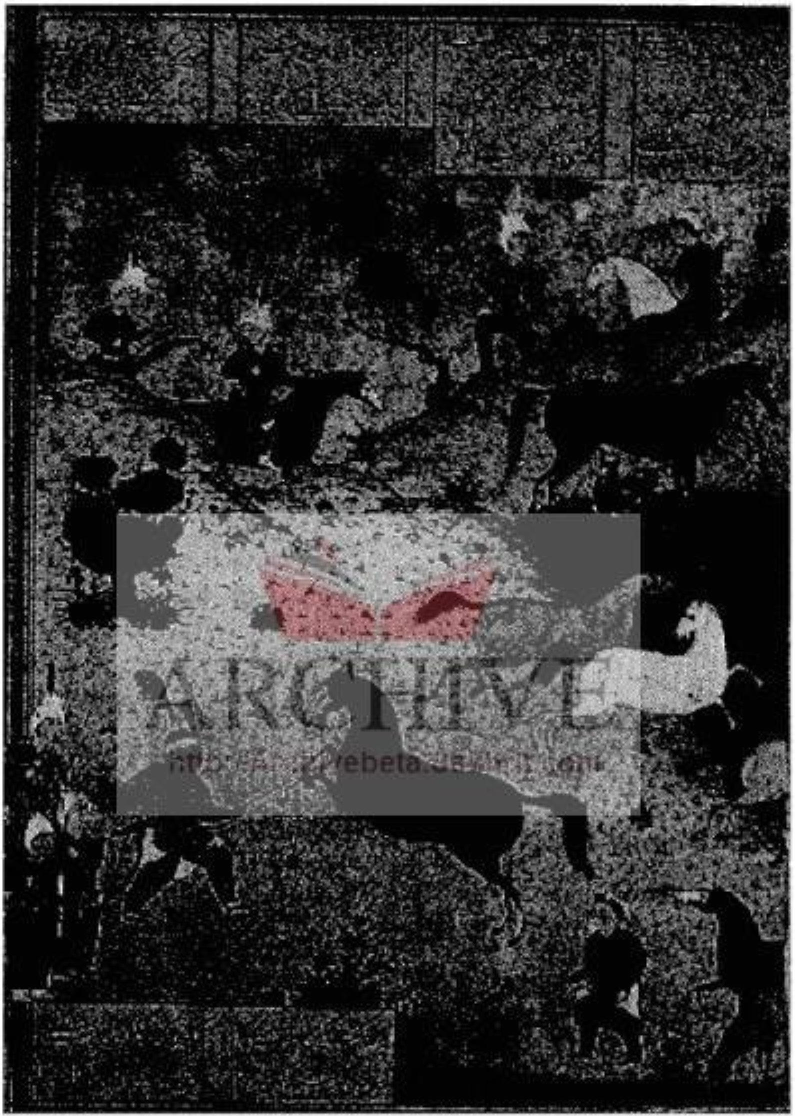
وظلت التقاليد المغولية مرعية إلى حد كبير عند الأسر الحاكمة في مناطق عديدة في إيران في الفترة ما بين نهاية حكم المغول الايلخانيين وظهور التيموريين آل اينجو ، وآل مظفر، وآل جلاير وتحت حكم أبي اسحق اينجو (ممدوح حافظ الشيرازي وخواجو الكرماني) وكانت شيراز مركزا فنيا كبيرا ليس تحت إشرافه فحسب بل وتحت اشراف والدته طاش خاتون ووزيره قوام الدين حسن . وإلى قوام الدين حسن هذا تنتسب شاهنامه مصورة وبقيت منها صورة واحدة تمثل تتويج كسرى الثاني أنو شيروان وفي الصورة تحفظ تقاليد المدرسة المغولية مع ميل إلى التخفيف من قتامة الألوان كإرهاص للمدرسة التيمورية - وعن آل مظفر بقي لنا عملة سكها الشاه محمود بمناسبة استيلائه على شيراز (١٣٦٤م/٧٦٦هـ) ومرآة منسوبة للشاه شجاع (٧٧٧ - ١٣٧٥) والغلاف الخارجي لمخطوطة صحيح البخاري .

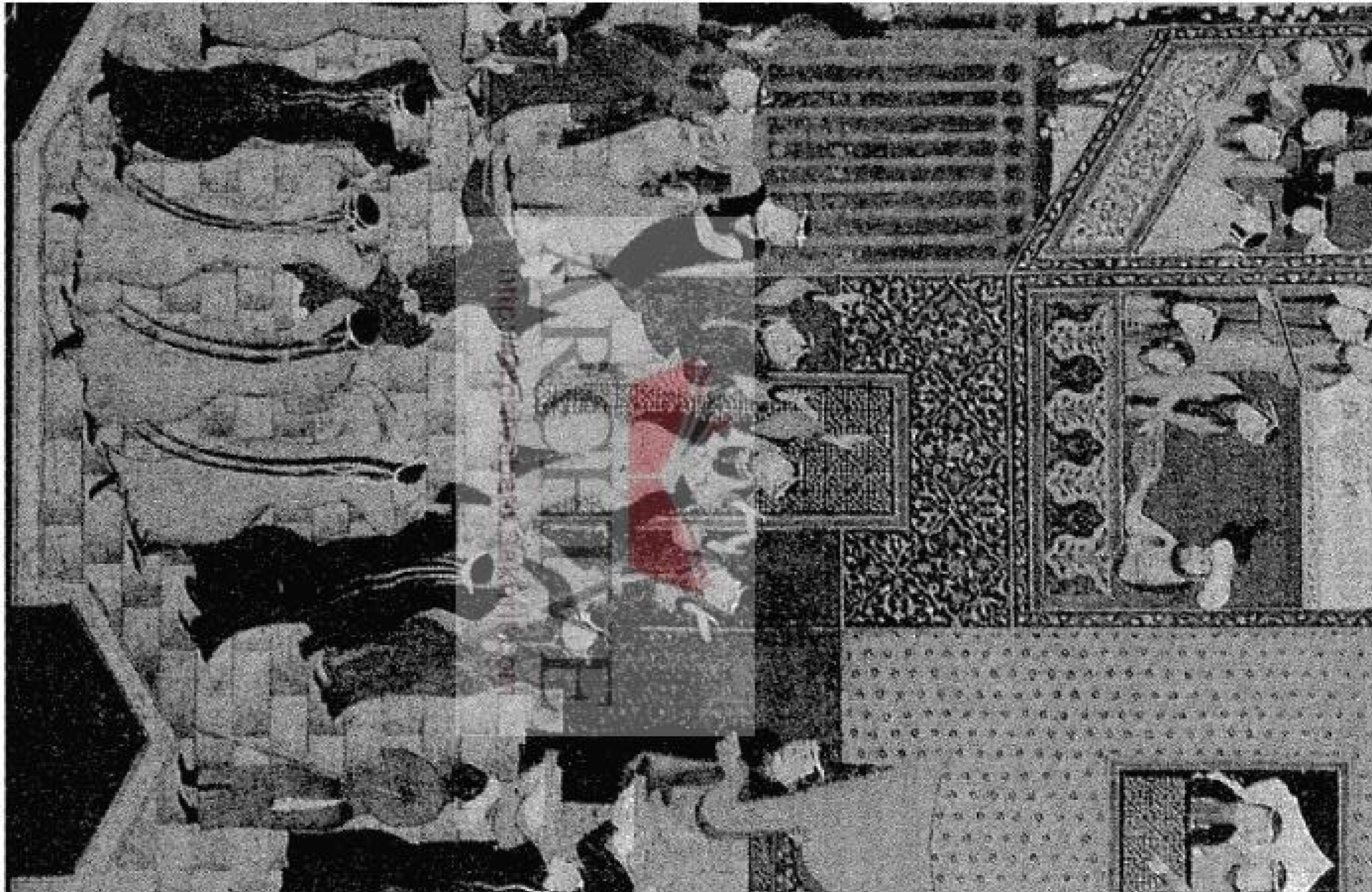
وفي بغداد تحت حكم آل جلاير كان تطور المدرسة المغولية في التصوير كما كانت هناك أيضا نهضة فنية في تبريز تحت حكم السلطان أحمد بهادر جلايري وبرغم المخطوطات العديدة المنسوبة إلى هذه المدرسة ومن أهمها نسخة من كتاب عجائب المخلوقات للقزويني ونسخة من منظومة هما وهمايون للشاعر خواجو الكرماني مما يعد إرهاصا للمدرسة التيمورية إلا أن المجموعة التي بين أيدينا لا تقدم لنا إلا صفحة واحدة من القرآن الكريم .

المدرسة التيمورية

ويعد العصر التيموري أزهى عصور التصوير الايراني ويمتد طوال قرنين من الزمان (الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والحادي عشر الميلاديين) وعدة عواصم فنية كانت في نفس الوقت هي العواصم السياسية : سمرقند وهراة هذا وإن لم تترك مدرسة سمرقند آثارا

الصورة تمثل رستم يروض الرخش وهم اسم جواده بريشة مير مصور تبريز ١٥٢٥م





حريم السلطان حسين ميرزا بايقرا منسوبة إلى النقاش مير مظفر وموجودة فى نسخة من ديوان أمير خسرو الدهلوى

فنية تذكر . وإلى هراة تنتسب معظم الأعمال الفنية فى المدرسة التيمورية بحيث يطلق عليها أيضا لقب مدرسة هراة. ومن الطبيعى أن نذكر أن عهد تيمور نفسه شهد مرحلة الانتقال من المدرسة الإيرانية المغولية إلى مدرسة هراة كما يظهر فى مخطوطين محفوظين فى المتحف البريطانى – وأعظمها نسخة من منظومة الشاعر خواجو الكرمانى هما وهمايون كتبها الخطاط المشهور مير على التبريزى وعلى إحدى صور المخطوط إمضاء المصور الإيرانى جنيد السلطانى الذى كان فى خدمة السلطان أحمد آل جلاير ، وهى الصور التى ترجع إلى نهاية القرن الثامن تظهر فيها أهم الزخارف والأساليب الفنية التى صارت فى القرن الحالى من أخص مميزات التصوير الإيرانى فى مدرسة هراة : مناظر الزهور والحدائق وآثار فصل الربيع ثم الألوان الساطعة التى لا يكسر حدتها تدرج ما والمناظر الطبيعية ذات الأشجار والتلال المرسومة على شكل اسفنجى وفضلا عن ذلك فإن الفنانين استطاعوا الوصول إلى نسب معقولة بين الأشخاص المرسومين فى الصورة وبين ما يحيط بهم من عمائر ومنازل . وبرغم الغنى الملحوظ فيما تركته المدرسة التيمورية حتى فى عهد تيمور نفسه فإن المجموعة التى بين أيدينا لا تقدم لنا سوى صورة لصفحتين من نسخة من القرآن الكريم كتبت لتيمور نفسه وصورة تمثل تيمور فى رحلة صيد من مخطوط الكتاب ظفرنامه لشرف الدين على اليزدى ومؤرخه عام ٨٣٩/١٤٣٦ وبعض الصور التى وردت فى مخطوط لكتاب جامع التاريخ لمؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله وبعض صور من زيج الوغ بك (حفيد تيمور).

ومن الطبيعى أن تقليد رسم الشاهنامات ظل متبعا، بل وفاق العصور السابقة ومن أهم الشاهنامات المذكورة فى ذلك العصر شاهنامه كتبت فى سمرقند سنة ١٤٤٠وتقدم صورة لافراسياب يجرب قوساً وبعض الصور من نسخة أخرى من الشاهنامة أكثر وضوحا وأكثر تميزاً ، وتعد صورها من أجمل ما تقدمه الشاهنامات المصورة (وهناك على سبيل المثال عدد من الصور التى تقدم أحداثا من الشاهنامة عن الأمير هوشنك يقتل الشيطان الأسود والملك جمشيد محمولا بالشياطين ومولد رستم ، ورستم يقتل الشيطان الأبيض واجتياز سياوش لاختبار النار وصراع اسفنديار مع السيمرغ ودخول الاسكندر الظلمات .. والصور كلها تتميز بالحفاظ على الجو الأسطورى وبخاصة فى خلفياتها وألوانها – كما تتميز بالحركة والايحاء وفتح آفاق الخيال وكلها بلغت قمتها فى مدرسة هراة تحت حكم السلطان حسين بايقرا . والعصر الذهبى للتصوير الإيرانى يبدأ من عهد خلفاء

تيمور: ابنه شاهرخ وحفدته بايسنقر وابراهيم سلطان واسكندر بن عمر شيخ ، اذ أصبحت للصور الإيرانية فى عصرهم ذاتية قوية تمثل روح الفن الإيرانى بعد أن هضم كل ما استعاره من أساليب الفنون فى الشرق الأقصى .. كانت إيران مقسمة إلى مقاطعات مختلفة يحكمها أمراء لهم نصيب وافر من الاستقلال ولهم حاشية وبلاط . وفى مدينة هراة أسس شاهرخ مكتبة ومجمعا لفنون الكتاب ثم جاء ابنه بايسنقر فأنشأ مكتبة أخرى ومجمعا للفنون فانتقلت صناعة التصوير والتذهيب من تبريز وسمرقند وشيراز إلى هراة ، ومن هنا تنتسب أكثر الصور الإيرانية فى القرن التاسع الهجرى إلى هراة . وتمتاز مدرسة هراة بطموح الفنانين فيها الى التطور والتجديد وبظهور بعض المصورين من ذوى الذاتيــة الفنيــة وبغنى الألوان وتلازمها واتزانها وكثرة استخدام اللون الذهبى وبتـغطية الأرضيـة برسـوم الحشائش والزهور والشجيرات . وإلى هذه المدرسـة تنتسب الشاهنامة البايسنقرية ابدع نسخ الشاهنامة المصورة على الاطلاق (فى حاجـة إلى عرض خاص إذ لا تحتوى المجموعة التى بين أيدينا على شيء منها) .

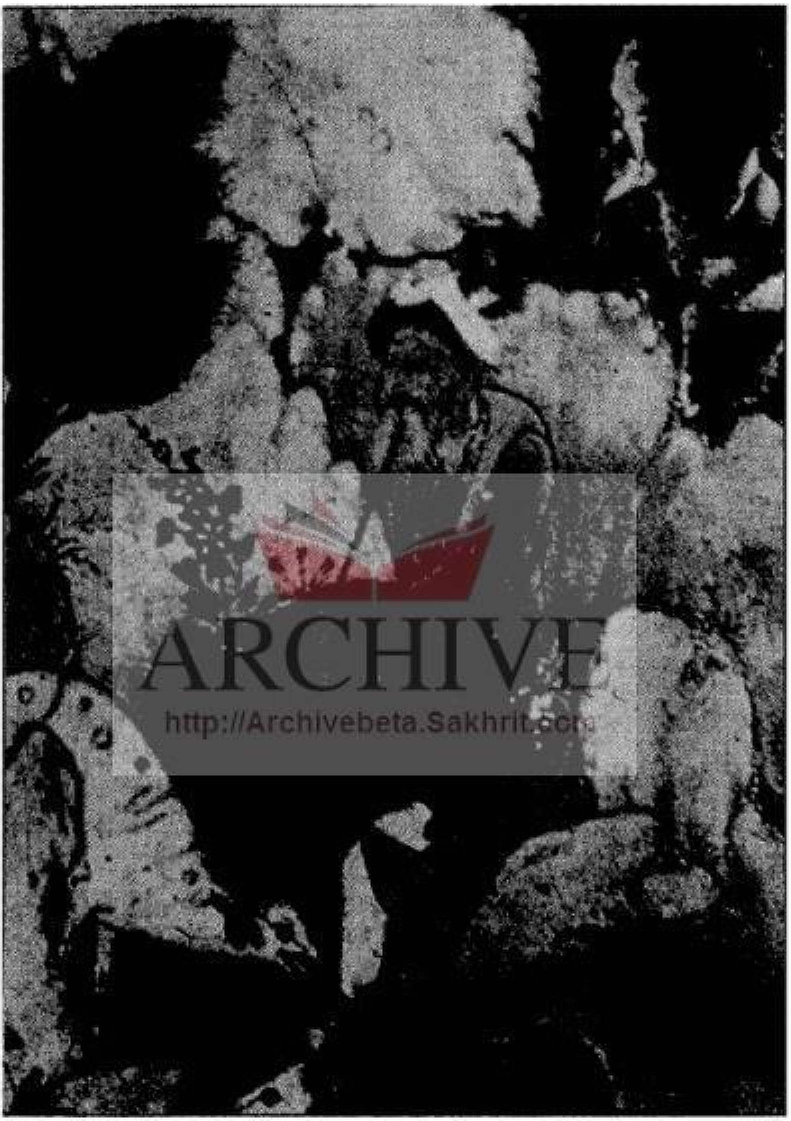
ويحتفظ بلاط السلطان حسين ميرزا بايقرا بمركز الصدارة فى تاريخ الفنون الإيرانية ، فالسلطان حسين نفسه كان أيضا خطاطا شاعرا مصورا ووزيره الشهير الشاعر باللغتين التركية والفارسية مير على شيرنوائى كان مصورا وخطاطاً أيضا .

وفى هراة نبغ مصورا البلاط المشهورين : شاه مظفر وأشهر المصورين الإيرانين قاطبة كمال الدين بهزاد . وتقدم المجموعة التي بين أيدينا بعض الصور أكثرها لفتا للنظر صورة من رسم شاه مظفر فى ديوان امير خسرو الدهلوى لجناح الحريم فى قصر السلطان حسين بايقرا . وتنتسب إلى بهزاد مخطوطة فى دار الكتب المصرية لبستان سعدى (فى حاجة إلى عرض خاص فلا توجد منها نماذج فى هذه المجموعة) . وتقدم المجموعة التى بين أيدينا عددا من الصور المنسوبة إلى شاه مظفر أجملها تلك الصور الموجودة فى مخطوط هما وهمايون وتتميز صورة قيام هما بالصيد بجمال ألوانها وتدرج اللون الأزرق فيها وبنوع من الحركة تتميز به صور المصطاد (مكان الصيد) عموما وصورة المعسكر وصورة استقبال شيرين لخسرو فى قصرها ، حيث تقدم تناسقا غريبا بين صور المعمار الفارسي والشخوص كما تقدم المجموعة من نفس المدرسة عدة صور رائعة لبهزاد تتميز من بينها منظر الشتاء حيث محادثة بين صوفي ومريده فى جو شتائى شديد الايحاء وصورة مولد أمير حيث تصور مولد الأمير بهرام الساسانى كما صورها الشاعر نظامى



منظر غرامي بين أمير وأميرة بريشة ميرزا على - قزوين ١٥٤٤ م

غرام المجنون (مجنون ليلى) لوحة للفنان محمد على هراة ١٥٧٥



فى منظومة (هفت بيكر وهفت كنبد الصور السبعة أو القباب السبعة) والتناسق الموجود فى الصورة بين المبانى والأشجار والشخوص غريب، وتختفى الملامح الصينية من الوجوه تماما. كما يختفى أيضا التكرار فى ملامح الشخوص . كما تقدم بعض صفحات كلستان سعدى بخط أحد مشاهير خطاطى هراة· سلطان على الكاتب أو سلطان على المشهدى وفيها صور رسمها شاه مظفر من أهمها صورة المصارعين وصورة منسوبة إما إلى حاجى محمد رئيس النقاشين فى مجمع ميرى على مشير أو اغا ميرك رئيس النقاشين فى مجمع ميرزا حسين بايقرا وصورة أخرى منسوبة لبهزاد تصور حكاية سعدى مع الشاب فى كاشغر .

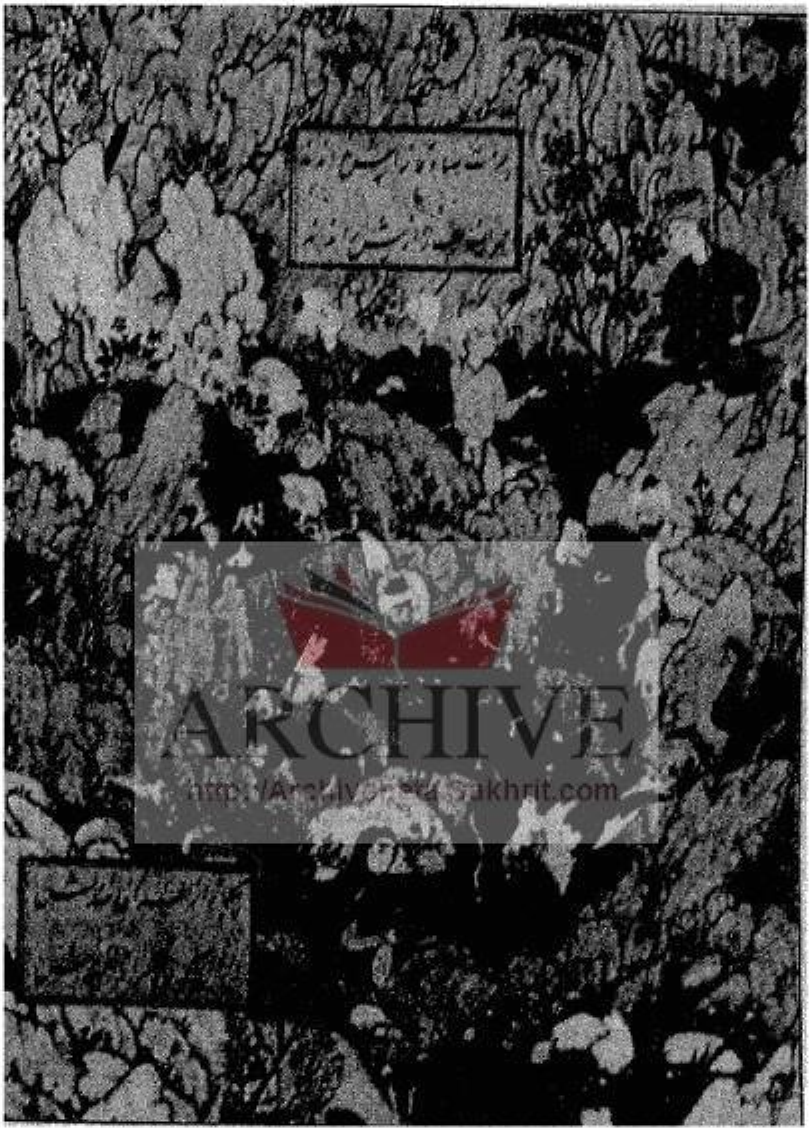
التقاليد الفارسية

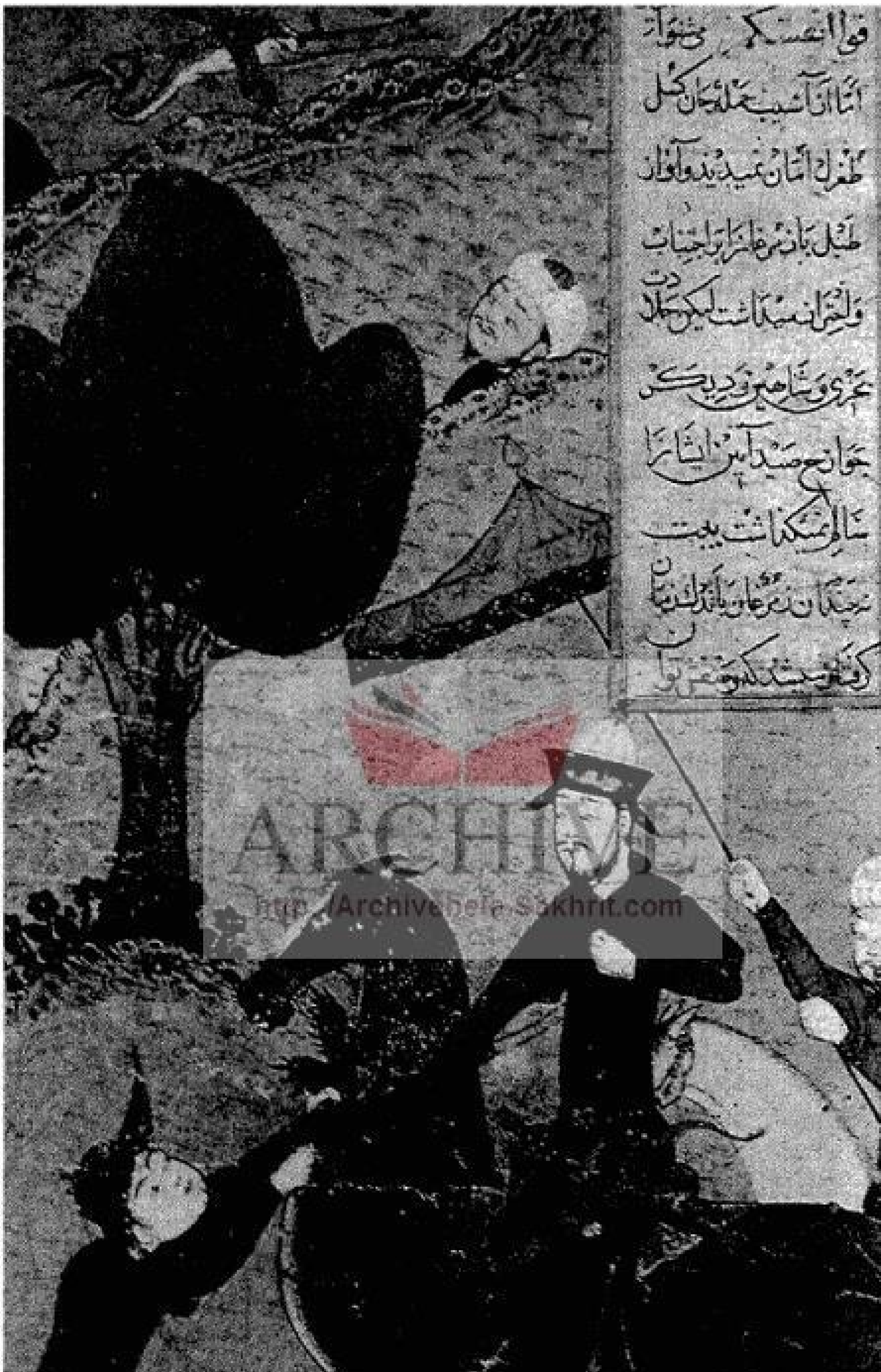
تخصص المجموعة بعد ذلك فصلا خاصا عن ميرك أستاذ بهزاد ، ويتحدث عن مخطوطة خمسة نظامى الموجودة فى المتحف البريطانى التى تنتسب صورها إليه وتقدم المجموعة عدة نماذج من رسم ميرك لمخطوطة ظفرنامه التى تقص تاريخ تيمور أهمها صورة تيمور يجلس على عرشه ويتجلى فيها التناسق الرائع بين الأرضية السوداء للصورة وملابس الحضور الزاهية وحركات الراقصين فى صدر الصورة .. والزخارف الدقيقة حول الموسيقيين وفى الأرضية .. وتقدم المجموعة عدة صور أخرى من مدرسة هراة فى عهد السلطان حسين بايقرا على احتمال أنها لميرك ومن العسير بالفعل تحديد رسام معين من مدرسة هراة لها فالصورة يبدو عليها طابع هراة وقد تكون لبهزاد وقد تكون لحاجى محمد وقد تكون أيضا لميرك أو رسام من نفس المدرسة حاول تقليد الأساتذة تقليدا تاماً : ولعل أجملها هنا صورة سليمان عليه السلام على عرشه من مخطوطه لمنطق الطير .

فى الفصل الرابع من المجموعة التى بين أيدينا يقدم العارض متابعة التقاليد الفنية للمدرسة الفارسية عند الأسر التركمانية الحاكمة فى فترة ما بين التيموريين والصفويين القره قويونلو (أصحاب الخراف السوداء) والآق قويدنلو(أصحاب الخراف البيضاء)، ويقدم عددا من الصور ذات الطابع التركمانى . الخلفية الواسعة الفاتحة ، بعض باقات الزهور المتناثرة ، العمامة التركمانية على الرؤس والوجوه التركمانية ، وثمة صورة للمعراج النبوى من مخطوط مهر ومشترى كما قدم نسخة مصورة من خمسة نظامى تحتوى على خمس صور من منظومات مختلفة وصورتين من شاهنامه مصورة .. ومن العسير أن نلاحظ الطابع التركمانى فى كل الصور المعروضة بل تكاد تكون مزيجا من صور مدرسة هراة فى عصرها الذهبى مع بعض التغييرات الطفيفة فى الوجوه والألوان.

ينتقل الجامع بعدها إلى المدرسة الصفوية فى الفن الإيرانى : الوريثة الشرعية لمدرسة هراة فى عهد السلطان حسين بايقرا وقد قامت على اكتاف بهزاد وآقا ميرك كما تنتسب بعض الصور أيضا إلى مظفر على وكلهم كانوا تحت رعاية الشاه طهماسب الصفوى الذى كان يطمح أيضا - وخاصة قبل توليه الحكم - إلى أن يكون مصورا .. واستطاع بهزاد ورفيقاه تأسيس مدرسة فى التصوير ضمت شيخ زاده وخواجه عبد العزيز وسلطان محمد وميرسيد على ومحمد وسيد مير النقاش وشاه محمد ودوست محمد . واستطاع شيخ زاده أن يهضم تقاليد مدرسة هراة بحيث يخطىء الخبراء كثيرا وينسبون بعض صوره إلى آقا ميرك (خاصة مخطوطة خمسة نظامى) التى كتبها سنة ٩٣١هـ الخطاط المشهور سلطان محمد نور. ومن مصورى المدرسة أيضا خواجه عبد العزيز ومن آثاره الفنية الثابتة صورة أمير صفوى محفوظة فى متحف طوبقابو سراى وعليها توقيعه مضيفا إليه أنه تلميذ بهزاد . وتقدم المجموعة التى بين أيدينا نماذج للصور الصفوية : بعضها يحتفظ بتقاليد مدرسة هراة وبعضها الآخر يقدم تجديدات تتمثل فى رسم الوجوه الارستقراطية والشبان الارستقراطين، وتظهر الفخامة الصفوية فى صورة منسوبة إلى سلطان محمد من مخطوطة لديوان حافظ الشيرازى وتمثل الاحتفال بالعيد وبرغم كثرة الشخوص فى الصورة إلا أن مراعاة النسب شديدة الوضوح فيها ولنفس الرسام تقدم مجموعة من صور شاهنامة مخطوطة سنة ١٥٢٥ هوشنك يقتل الشيطان الأسود وصورة رستم يقتل الشيطان الأبيض وتظل المجموعة تقدم روائع هذه النسخة من الشاهنامة المشهورة باسم شاهنامة السلطان طهماسب الصفوى التى استغرق العمل فيها أكثر من عشرين عاماً واحتوت على ٢٥٨ صورة رسمها فى مراحل متتالية: سلطان محمد ومير مصور وآقا ميرك : ومن أجمل الصور الموجودة فى المخطوطة تقدم المجموعة صورة زال عندما تشاهده إحدى القوافل ، ويلفت النظر فيها الألوان الزرقاء بدرجاتها المختلفة وصورة العنقاء تصيد نمرا فى أعلى الصورة ومجموعة الصخور الاسفنجية فى أسفلها وجنباتها ، وصورة رستم يروض جواده «الرخش» حيث تمثل حركة الجياد وألوانها فى الصورة تناسقا باهر الجمال . وتخصص المجموعة بعدها فصلا للنقاش ميرزا على (من ١٥٢٠ إلى ١٥٧٠م) وله صورتان فى نسخته الخاصة بالشاه طهماسب كما ان له ثلاث صور فى نسخة البستان . وتقدم المجموعة نماذج من عمل ميرزا على المصور من أهمها صورة حب ارستقراطية بين أمير

لوحة تبين إلقاء المدعى (فى الطريق الصوفى) من فوق الجبل بريشة محمدى (١٥٨١م)





تيمور لنك يصطاد احدى لوحات ابراهيم سلطان شيراز ١٤٣٦م

وأميرة وأربع صور ذات موضوعات مختلفة من بستان سعدي ويخصص صاحب المجموعة الحديث عن قاسم بن علي كزسام في بلاط حسين بايقرا كما أدرك العهد الصفوى ثم يعود للحديث عن أفاميرك ويقدم بعض الصور المنسوبة له . والمصور الصفوى عبد العزيز بن المصور عبد الوهاب ويقدم بعض الصور المنسوبة له من احدى مخطوطات لبستان سعدى والمصور الصفوى شيخ زاده الذى هاجر إلى بخارى كى يعيش فى بيئة سنية ويقدم بعض صور نسخة البستان التى كتبها قاسم بن شادي شاه ، ويخصص الجامع بعدها فصلا عن فنانى هراه الذين هاجروا إلى بخارى (التى كانت تحت حكم الأوزبك من أهل السنة وانتجوا بعض المخطوطات المصورة لشيباني خان الأوزبك وخليفته عبيد الله ومنها نسخة لخمسة نظامى مجهولة الكاتب والمصور ونسخة من ديوان حافظ مجهولة التاريخ والمصور أيضا ونسخة آخرى من خمسة نظامى مكتوبة بخط سلطان محمد نور وأضيفت إليها الصور فى بخارى ثم نسخة عن منظومة يوسف وزليخا لعبد الرحمن الجامى مكتوبة لعبد الله خان بخارى بخط محمود بن اسحق الشهابى وصور أيضا لمصورين أغلب الظن أنهم من مدرسة هراه وان لم يذكروا اسماءهم حيث يقدم مناظر مختلفة من القصة .

الخطاطون

ويخصص الجامع فصلا للرسامين محمدى الهروى كأكثر الرسامين موهبة فى الربع الأخير من القرن السادس عشر . ويقدم بعض اشهر أعماله الأميرة الجالسة وغرام المجنون ويقدم فصلاً عن التصوير في مدرسة شيراز منذ القرن الخامس عشر (العصر التيمورى وحتى القرن السادس عشر (العصر الصفوى) وكيف أنها قد تميزت ببعض الخصائص في الألوان ورسم الأشخاص وقدم بعض الصور المأخوذة من إحدى الشاهنامات التي كتبت في شيراز كما قدم مدرسة قزوين من خلال إحدى مخطوطات الشاهنامة وهى الشاهنامة المشهورة باسم شاهنامة الشاه اسماعيل الثانى وهى من رسم المصور مير زين العابدين كما يخصص فصلا للرسام الصفوى المشهور رضا عباسى ومدرسة اصفهان خاصة فى عهد الشاه عباس الصفوى، وتطور الرسم الايرانى التقليدى وخاصة فيما يتصل برسم البورتريهات أو الصور الشخصية ونبغ فيها غير رضا عباسى عدد لا بأس به من الرسامين منهم معين وأفضل - كما قام رضا عباس برسم شاهنامه الشاه عباس وتعد نسخة مخزن الأسرار التركية للشاعر حيدر خوارزمى من أهم المخطوطات التى قام رضا عباسى برسم صورها فضلا عن أنها تتميز بأنها مكتوبة بخط واحد من ... خطاطى إيران فى العصر الصفوى

هو مير عماد الحسني (أو الحسيني) وهناك نسخة من بوستان سعدى تنتسب إلى نفس المدرسة كتبها أيضا مير عماد ورسم صورها رضا العباسي.

وفى بلاط المغول التموريين فى الهند (بداية من أوائل القرن السادس عشر وفى منتصف القرن التاسع عشر) واصلت المدرسة الايرانية فى التصوير تقاليدها ، كما واصل سلاطين المغول المسلمين فى الهند بابر واكبر همايون واورنكزيب وشاهجهان والأمراء المثقفين من أمثال داراشكوه تقليد تكوين المرقعات (مرقع البوم) التى تجمع العديد من الصور لمصورين مختلفين ومن أشهرها مرقع همايون ، ومرقع ظفر خان من رجال بلاط شاهجهان ومرقعان جهابكير ، وتقدم المجموعة التى بين أيدينا بعض النماذج من مرقع كلشن وهو من المرقعات المغولية المشهورة وهى تحتوى على بعض صور لمعارك تيمور وصفحة بخط النستعليق لعلي الكاتب (ميرعلى) كما يقدم أيضا نماذج من مرقع شاهجهان تحتوى على صور لأكبر وجهانكير وصورة لشاهجهان فى شبابه وصورة لسيد هدايت صدر وصورة لشاهجهان فى كهولته وصورة لشاه شجاع وصورة لملاشاه وثلاث صفحات من خط النستلق لمير على . ومن الملاحظ اذن ان كل تراث الهند المغولية فى الفن كان من أعمال كبار فنانى إيران الذين كانوا يهاجرون إلى الهند لفترات قصيرة يقومون خلالها بتعليم بعض الفنانين .. ومن ثم تصادف اسماء كبار فنانى إيران سلطان على المشهدى وميرعماد الحسنى وميرعلى وغيرهم ومن أفضل ما تقدمه المجموعة فى هذا المجال نسخة مخطوطة لنسخة من كل بستان سعدى الشيرازى بخط سلطان على المشهدى والتشعير والرسوم لآقا ميرك ونخوه الصورة على تصوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الطبيب المجوسى وهى لمصور هندى يسمى عابد وهناك صور اخرى لباباج ولبالجند ولمراد، وهناك أيضا نسخة بستان سعدى المحررة فى الأسرة سنة ١٠١٤ هـ وهى بخط عبد الرحمن الهروى المشهور يعنبرين قلم (صاحب القلم العنبرى) والصورة الموجودة لمصورين من الهند (ميرزا غلام) وآثار رضا جهانكيرى وسور داس كجراتى ويخصص الفصل التاسع للتأثيرات الأوربية والهندية وبخاصة عند الرسام بهرام سوفريكش والرسام الصفوى المرتد (محمد زمان) الذى سافر إلى روما وعاد بتقاليد المدرسة الاوربية وتظهر التأثيرات الاوربية بوضوح فى صور على قلى بك جبادار والصورة لمحمد زمان .. وتختم المجموعة بالحديث عن بعض الصور من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (عهد زند الأنكشارية والقاجارية) تمثل ابتعاد الفن الايرانى عن أصوله الأولى واقترب من التصوير الزيتى الغربى اقترابا شديدا.

قصة قصيرة

متون الجدران

بقلم: شحاته عزيز جرجس



فى البدء، كانت الأمور تسير فى يسر ورقة ولين ونعومة وهوادة، على خلاف ما هو معتاد فى أشباه هذه الاحوال. ثم فى مرحلة تالية تفرعت المسائل وتماوجت ثم انسكبت وانسابت واستقرت وانتهت فى يسر - أيضا - ورقة ولين ونعومة وهوادة، وآلت ملكية البيت القديم المتهدم إلي مالكه الجديد الذي أسرع بالهدم من أجل البناء، فظهر من تعهد بالهدم، وظهر من تعهد بالبناء، كما ظهر أيضا من يشترى الانقاض من أتربة وقوالب طوب وحديد وأخشاب السقوف والنوافذ والأبواب، ولا مشكلات البتة، وكل الناس تبيع بيوتا، وكل الناس تشترى بيوتا،

وتبنيها ، ثم تهدمها ، ثم تبنيها من جديد ، ولا شئ دائم على حال ، فلا دائم إلا من له الدوام ، وعلى الفور بدأت عمليات الهدم قبل – طبعا – الشروع فى البناء ، فاختفى الطابق الرابع ثم لحق به الثالث والثانى وأعالى الطابق الأول ، ثم لم يلبث أن أصبح البيت كومة من التراب يخفيها جدار واحد هو الجدار الخارجى المواجه للشارع وهو آخر الجدران ، حيث أطل على الشارع – والناس – متهدما ذليلا ومنكسرا ومن غير نوافذ ولا أبواب ، منتظرا نهايته ليلحق ببقية الجدران كومة من التراب وهنا ، وقبل أن تكتمل النهاية وتبدأ البداية ، أخذت الأمور تتعقد فجأة وتأخذ منحى جديدا وخطيرا ، أيضا على غير ما هو معتاد فى أشباه هذه الأحوال بعد استوائها وانتهائها واستقرارها ، حيث ترددت همسة غريبة وغامضة مفادها أن واحدا قد أقدم على شراء هذا الحائط ، آخر الجدران ، شريطة أن يحصل عليه كتلة واحدة متراصة متماسكة ، بل وأعلن أنه مستعد لأن يدفع فيه حتى قدر ما دفع فى البيت كله وزيادة ، وقت أن كان بيتا بكامل الأخشاب والجدران ومتماسك البنيان . حائط !! تشترى حائطا !! .. الناس تشترى بيوتا وأرضا ومعاصر وبهائم وغلال ودواجن . ولكن حائطا !! .. هذا هو ما حدث بلا زيادة ولا نقصان ، ولله فى خلقه شئون ، وكل واحد حر فى أن يشترى ما يبغى أن يشتريه مادام معه المال ، طبقا لأعرق ، وأعتى النظريات فى الطلب والعرض والأسعار والناتج والإنتاج والتراكم والاستثمار ودراسة الجدوى وأعتى نظريات علم الاقتصاد . ولكن حائطاً !! .. يا حفيظ !!

قال بلى ، ومستعد أن أدفع فيه دم قلبى وسنوات عمرى وكل ما أملك . ضحك الناس ، كل الناس ، ثم تساءلوا عما يحويه هذا الجدار ليقدم الرجل من أجله على التضحية بسمعة عقله الراجح والناضج وبشهرته فى الاتزان ، وبالمال الذى تعذب لنيله عبر الأيام . وإذا كان هناك من باع التراب يوما فلا لوم على البائع لأنه نصاب ، ولا لوم على المشترى لأنه عبيط . ولكن حائطا !! .. لا حول ولا قوة إلاّ بالله !! .. بالطبع ، وفى مثل هذه الأحوال ، وحين يعجز الناس عن ربط الأسباب بالنتائج وتحليل الظواهر والتعمق فى مكنون الأمور وكشف المستور من المسائل عسيرة الفهم ، والمبهمة ، فإنهم يبحثون من داخل أنفسهم – هم – عن أية أسباب . وهكذا قيل إن الرجل قد فقد

عقله ، كما وتحسروا على العقل الذى هو زينة الإنسان ، وأسرفوا فى رثاء الإنسان حين يفقده ويعيش من خيره ، إنسان بلا أحلام ولا طموحات ولا آمال . ولكن سرعان ما ظهر نفر من الحكماء ، ولابد من أن يكون فى أى زمان وأى مكان حكماء ، وهؤلاء فطنوا إلى أمر غاب عن كل الآخرين ، فنحوا جانبا وهمّشوا كل ما قيل وأبرزوا فقط عبارة نطق بها الرجل وهو يواجه الحائط المتهدم قائلا ورأسه نحو السماء فى اعتداد :

– هذا الحائط يمثل بالنسبة لى كنزا ..

ثم وهو يميل بجسمه وكأنما هو مستند إلى عصا بجانبه غير مرئية :

– ولسوف أدفع فيه عمرى ..

آه .. هنا مربط الفرس يا بطل . الحائط يمثل كنزا . إذن فالحائط يحوي بين ثناياه كنزا . ولكن من أى نوع ؟! .. ومن أى عصر ؟! .. حتما ولابد من عملية تأريخ للبيت القديم المتهدم . وهذا الجدار الذى هو آخر الجدران . وبسرعة ترسخت فى الأذهان أنه يحوى قدرا من الذهب أخفاه أحد الجدود أو أحد جدود الجدود ليناله وقت عوز ولم يلحقه به الزمان ، لا يهم . الأهم أن الجدار يحوى كنزا . ولكن الناس – كل الناس حتى الحكماء – أسقطوا عمدا ما قاله الرجل حول ما يعنيه بالكنز ، حين راح يصف لهم حالما محلقا فى أعالى السموات أن هذا الحائط يمثل له سجلا زاهيا وحيا ومجيدا لحياته ، متمثلا فى رسوم وكلمات وعبارات رسمت وكتبت فوق سطحه فى مناسبات شتى . أنظروا ، هذا الرسم للجندى الهابط بالمظلة والآخر ينتظره بسلاحه ، وتحتهما «سنقاتل» ، وفوقها «الله أكبر» ، وجنبها «النصر لنا» ، متى وضع هذا الرسم فوق الحائط ؟ ، أنتم لا تذكرون ، ولا تعرفون ، أنا أذكره . لقد رسم وقت حدوث العدوان سنة ستة وخمسين . وكنا وقتها صبية . ورسمه الكبار ، وقلدناه برسم مجاور نحن الصغار ، هذا الجندى من بورسعيد ، أما الهابط بالمظلة فهو انجليزى أو ربما فرنسى ، أو صهيونى ، أو ربما هم الثلاثة معا . وانظروا أيضا ، «ناصر لا زعيم غيرك يا ناصر» رسمناه وقد كبرنا وقت أن أعلن الزعيم تنحيه ولم نتركه يتنحى ، وهذه أيضا «لك الخلد يا ناصر» يوم مات ، وفى ركن آخر «انتخبوا فلانا فهو خير ما يمثلكم ، أما علان فهو ابنكم البار ، وترتان خادمكم الأمين ، ألم أقل لكم إنه كنز ؟!. إنه حياتى، طفولتى وصباى وشبابى الذى يجب أن يظل حتى مماتى ، إنه

كنز . وضحك الناس – كل الناس حتى الحكماء – وأسقطوا كل الكلمات ولم يبق منها سوى إنه كنز . ولم يتقبل أحد طبعا فكرة الرسوم والكلمات والتاريخ والمجد والعزة والكرامة والكبرياء . واعتبروا الرجل إما أنه في قمة الدهاء والذكاء ، أو أنه على حافة الجنون أو هو بالفعل مجنون . المهم .. إن المسائل عادت تتماوج وتتعرج وتتفرع وتتجمع وتتسكب وتنساب ولكنها هذه المرة لم تنته ولم تستقر ، فعاد صاحب البيت يطالب ببيته ، وعاد المشترى يطالب ببضاعته ، ومقاول الأنقاض يطالب بإتمام الهدم والحصول على بقية الأنقاض ، لأن من بين الأنقاض هذا الجدار، وانقسم الناس إلى فريق مؤيد ، وفريق معارض ، وفريق مشاهد، وفريق مشارك ، وتشابكت كل الأطراف وسالت دماء ، والجدار لا يزال منتصبا ، ولكن في مذلة وانكسار ، طللا من غير نوافذ ولا أبواب ، والجندى في انتظار ، والهابط بالمظلة معلق في الهواء ، والصرخات تتردد «سنقاتل حتى النصر» . والرجل يتشبث بالشراء ، لينقل الجدار متماسكا ليعيد زرعه في أرض جديدة حاملا الذكريات وشاهدا على الأيام . ومن الناس من يحلم ، ولكن الأحلام درجات ، والمقدرة أيضا درجات ، ومن بين الحالمين هناك لصوص يحلمون ويفكرون ويدبرون ويخططون ، ولكن هناك أيضا حكومة . وهكذا اللعبة دوما ، عسكر وحرامية ، وناس تتفرج على العسكر والحرامية ، وكان لابد أن يوضع هذا الحائط تحت الحراسة ، فالحكومة هي الأحق بالحائط ، فإن كان يحوى كنزا فهي حامى حمى البلاد ، وإن كان تاريخا فهي الحارث على التراث ، وإن كان لا يحوى شيئا فالأمر لله وعليها أن تتحمل غباء الأغبياء في صبر وأناة ، ولعبة العسكر والحرامية متجددة دوما ، وحتما ، وإن كان لها في كل طور نهاية ، وصحا الناس يوما فإذا بالحائط قد تهدم ولحق ببقية الأنقاض التى لم يعد يسترها جدار . وتدحرج الهابط بالمظلة وارتكن متوسطا الشارع هاربا مبتعدا عن الجندى الذى كان بالانتظار ، واختفى مرشح تحت الأكوام ، وتمزق آخر فصار أبوه في جانب وهو في جانب، وانكفأ ثالث على وجهه ، ومن بين الأنقاض انبعث الصوت الصارخ الحاد «سنقاتل» ، مختلطا بالرثاء الذى يحمل كل معانى الوفاء «لك الخلد يا ناصر» والهتاف «النصر لنا» فرددته أصوات كثيرة من بين الأنقاض .

خلاصة العمر الجميل

بقلم : مها محمود صالح

أعلن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب فى ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ فاز بها بعد سنوات من العمل الدءوب المثابر. لكن نوبل لم تكن جائزته التى قضى العمر يسعى إليها ! جائزته الموعودة هى الحقيقة .. حقيقة المعانى والمشاعر والأشياء !

نوبل إذن لم تكن إلا محطة توقف عندها الكاتب الكبير قليلاً لالتقاط الأنفاس وتلقى التهانى ثم عاود السير، بنفس الإخلاص والإحساس بالمسئولية، باحثاً عن الحقيقة .. عن ذلك الجوهر الباطن الذى يجمع كل التفاصيل المتباينة إلى حد التناقض أحياناً التى تزدحم بها الحياة. وعلى مدى عقود عدة، أمتعنا نجيب محفوظ خلال رحلته الطويلة، بالعديد من الأعمال المهمة التى تكفى كل منها أن تبنى مجد الروائى الموهوب.

فى الثلاثينات كتب محفوظ رواياته التاريخية وفى الأربعينات صدرت «القاهرة الجديدة» و«زقاق المدق» وفى الخمسينات آتحفنا بالثلاثية ومن بعدها «أولاد حارتنا» وفى الستينات قدم لقرائه «اللص والكلاب» و«الطريق» و«الشحاذ» و«ميرامار» أما السبعينات فقد افتتحها برواية «المرايا» ثم «حكايات حارتنا» و«قلب الليل» وختمها برائعته «الحرافيش» وفى الثمانينات صدرت «ليالى ألف ليلة» و«الباقى من الزمن ساعة» و«رحلة ابن فطومة» و«العائش فى الحقيقة» .

وبعد ذلك الحشد من الأعمال، وغيرها، هل علينا أستاذنا فى التسعينات بعمله البديع «أصداء السيرة الذاتية» وهو عمل ذو شكل خاص ونكهة متفردة .

فى ليست سيرة تقدم تأريخاً لتفاصيل حياة مؤلفنا الكبير وتطوره الإنسانى والفكرى ، وإنما هى ومضات ذات مغزى فى حياة الانسان .. كل إنسان وأى إنسان :

ـ صدمة التعرف على الموت فى سن الطفولة والحيرة فى مواجهته .

ـ تلمس الوجود الإنسانى المختلف للأنثى .. ثم التعرف المنبهر على ذلك الكيان المختلف .

ـ صداقات العمر التى تكون فى زمانها قوية مؤثرة ثم تغيب عن الذاكرة



ويبتلعها النسيان .

ـ وأخيرا ، نظرة مسكونة بالشجن مغلفة بالتحنان يلقيها الإنسان على تلك الرحلة الطويلة التى قطعها وتعلم منها الحكمة .. ولكن للأسف بعد فوات الأوان.

يقول صاحب السيرة :

ملخص التاريخ

«أحببت أول ما أحببت وأنا طفل ولهوت بزمني حتى لاح الموت في الأفق وفى مطلع الشباب عرفت الحب الخالد الذى يخلفه الحبيب الفانى ، وغرقت فى خضم الحياة ، ورحل الحبيب ، واحترقت الذكريات تحت شمس الظهيرة ، وأرشدنى مرشد فى أعماقى إلى الطريق الذهبى المفروش بالمعاناة ، والمفضى إلى الأهداف المراوغة . فطوراً يلوح السيد الكامل وطوراً يتراءى الحبيب الراحل .

وتبين لى أن بينى وبين الموت عتاب؛ ولكننى مقضى على بالأمل»

خلاصة العمر الجميل

كان نجيب محفوظ مشغولاً منذ بدء ممارسة الكتابة بالأفكار ، ولقد طرح تساؤلاته فى عدة مقاولات فكرية وفلسفية ثم اتجه بعد ذلك إلى الرواية، ومع اتجاهه إلى الأدب بدأ اهتمامه بالشخصيات وبالقضايا الاجتماعية والسياسية، وإن لم تخل حياة أبطاله من أسئلة فلسفية تؤرقهم، كمال عبد الجواد فى الثلاثية، وعمر الحمزاوى فى «الشحاذ» على سبيل المثال .

وها هى ذى الدائرة إلى اكتمال ! يعود نجيب محفوظ إلى اهتمامه الأصيل بالأفكار والتساؤلات الفلسفية وبعد أن عشنا مع أبطال أعماله حيرة متنقلة

بالمعاناة فى مواجهة تساؤلاتهم عن الموت والحياة ، ها نحن ننطلق معهم من مقام الحيرة إلى مقام اليقين حيث يقدم لنا محفوظ خلاصة إجابات عمر كامل من الأسئلة الوجودية . إن «أصداء السيرة الذاتية» هى فى رأيه الشخصى خلاصة العمر الجميل أو على الأصح هى خلاصة عمر من الفن الجميل !

ولقد اختار أستاذنا أن يقدم عمله على شكل فقرات متتالية لكل منها عنوان منفصل ، وهناك شخصيتان رئيسيتان نتعرف منهما على خلاصة العمر وهما الراوى الذى يقدم لنا لمحات من السيرة الذاتية ثم الشيخ عبد ربه التائه الذى يصبح الراوى واحداً من مريديه فيجد «فى صحبته مسرة وفى كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحياناً» وعلى لسان الشيخ نتلقى بعض النفحات من مقام اليقين .

فى الموت والحياة

للموت حضور طاغ فى عالم نجيب محفوظ القصصى ! هو الصخرة التى تصطدم بها أحلام الشخصيات وأقدارهم، وكثيرا ما تمضى أعمارهم فى محاولة فهمه وتقبله أو التغلب على آثاره بل وأحياناً المحاولة اليائسة للتغلب عليه! جلال فى «الحرافيش» على سبيل المثال .

أما فى الأصداء فالموت هو «الحقيقة الراسخة» بل إنه صديق لا غنى عنه ! ولو أنه كف عن عمله عاماً واحداً «لانتزع منا جميعاً الإقرار بفضله» .

أما الوجه الآخر للموت وهو الحياة فهى «سر من أسرار الوهاب» لا تجيب عن سائليها إلا بأسئلة جديدة وعلى من يبحث عن معنى الحياة أن يتحرك دون إبطاء «فالمعنى كامن فى الحركة» . وهى على كل حال لا تستحق اللعنة فهى تكاد ألا يكون لها شأن بما يقع فيها .

خطبة الفجر

«قال الشيخ عبد ربه التائه لسمار الكهف :

أسكت أنين الشكوى من الدنيا ، لاتبحث عن الحكمة وراء المحير من فعالها وفر قواك لما ينفع ، وارض بما قسم ، وإذا راودك خاطر اكتئاب فعالجه بالحب والنغم»

والحياة جوهرها الحب فلولاه «لجف الماء ، وفسد الهواء ، وتمطى الموت فى كل ركن» .. والحب هو حب المرأة ، وهو حب الناس .. والأشياء إنه حب الحياة بكل ما فيها !

صفحة القلب

«قال الشيخ عبد ربه التائه :

رحت أشاهد قلبى فى مرآة كاسى ، فهالنى صفاؤه ، وقلت له : «من يصدق أنك خفقت بذلك الحب كله» ؟ كيف كنت عالماً يموج بالنساء والرجال والأشياء؟ ولم يبق من دليل ياقلبى على حقيقة ما كان إلا دموع تفجرت فى الهواء وتلاشت فى الفضاء» .

بين الشك واليقين

الدين أيضا واحد من الموضوعات التى أرقت أبطال نجيب محفوظ ! فمنهم من قبله بدون تحفظ ومنهم من تأرجح بين الشك واليقين ، ومنهم كذلك من اقتلعه من قلبه ومن حياته بلا ندم ! أما فى «أصداء السيرة الذاتية» فإن الشيخ عبد ربه التائه يحمد الله الذى «أنقذنا وجوده من العبث

فى الدنيا ومن الفناء فى الآخرة» وهو يؤكد أن «من خسر إيمانه خسر الحياة والموت» . لكن إيمان الشيخ لا يتعارض مع حبه للدنيا الذى يعده «آية من آيات الشكر ، ودليل ولع بكل جميل ، وعلامة من علامات الصبر» أما الانشغال بهموم الأسرة ومطالب الشئون العامة فهو ضرب من العبادة الصادقة ! وهو إيمان يؤكد على حرية الإنسان ولا ينفيها : «أقرب ما يكون الإنسان إلى ربه وهو يمارس حريته بالحق» .

لكن تقبل فكرة غياب الكمال عن العالم وضرورة الموت كنهاية لكل حى لا يعنى أن يصل الإنسان إلى الحكمة الكاملة استظل الحياة تواجه الإنسان بمفارقاتها المضحكة أو المبكية فلا يملك لها إلا الدهشة أو الألم . أو كليهما معاً !أما قدر الموت فيتقبله الإنسان بالأسى والشجن ـ ودائماً فى نفسه تلك الغصة المؤلمة : كيف يأتى الموت فجأة فيسلبنا الحياة ، التى كانت مهما طالت قصيرة ! لماذا يتسلل الموت خفية فينقلنا فى لحظة من وجود معلوم يغص بالحركة إلى مجهول مخيف !

قال الشيخ عبد ربه : «تبدو الحياة سلسلة من الصراعات والدموع والمخاوف ولكن لها سحر يفتن ويسكر» وقال أيضاً : «مانكاد نفرغ من إعداد المنزل حتى يترامى إلينا لحن الرحيل» .

عن الشكل

تتميز الأصداء ، بشكلها المنفرد الذى لا يندرج تحت جنس أدبى محدد ، على الأقل تبعاً للتقسيم الغربى ، فهى ليست سيرة ولا رواية وليست قصة قصيرة ولا مسرحية ، لكنها فى فقراتها المتتابعة تقترب أحياناً من بعض هذه الأنماط سواء فى الشكل أو فى الأسلوب .

بعض الفقرات على سبيل المثال تقترب جداً من شكل القصة القصيرة ، هى فى الحقيقة أقاصيص يتبدى جمالها فى انضغاطها من حيث الحجم مع التركيز على الحدث ، وإسقاط لكل التفاصيل فى سبيل الوصول الى خلاصة القصة . من هذه الفقرات واحدة بعنوان «رجل يحجز مقعداً» وهى تحكى عن رجل فقد حياته وهو فى طريقه ليحجز مقعداً فى قطار الصعيد ، وذلك عندما انحصر بين أتوبيس قادم من الزيتون وسيارة قادمة من حلوان .

الأصدقاء والأحلام

ومن التيمات التى استخدمها صاحب الأصداء «تيمة» الأصدقاء وتيمة الحلم .

فى الأعمال السابقة كانت «تيمة» شلة الأصدقاء الذين يجمعهم زمن ما ثم تتفرق بهم السبل «قرشة» نتعرف منها على التيارات الفكرية والاجتماعية المتباينة التى تتصارع فى المجتمع من خلال تباين انتماءات مجموعة الأصدقاء لهذه التيارات فى «المرايا» و «قشتمر» على سبيل المثال.

أما فى الأصداء ، فإن الحديث عن أصدقاء الزمن القديم هو فى الغالب مدخل للتأمل فى أحوال الحياة والموت . مثلاً الزمن «الذى هو أقوى من أية قوة مدمرة ولكنه يحقق أهدافه دون أن يسمع له صوت» أو الموت الذى يلتقم الأصدقاء واحداً وراء الآخر حتى يتفرق الجمع .

الهجر

«لم أشعر بأنه مات حقا إلا فى مأتمه»

شغلت المقاعد بالمعزين وتتابعت تلاوة القرآن الكريم - وانهمك كل متجاورين في حديث، فذكرت حوادث لا حصر لها. إلا الراحل فلم يذكره أحد.

حقاً لقد غادرت الدنيا أيها العزيز، كما أنها قد غادرتك»

ولعل ذلك الحضور لشلة الأصدقاء في أعمال نجيب محفوظ ما هو إلا انعكاس لوجودهم المؤثر في حياته!

نجد في «أصداء السيرة الذاتية» أن معظم الفقرات التي تستخدم صيغة الحلم تهدف كما نبهنا د. عبد المنعم تليمة الى بث روح الأمل والرجاء، فهذه الأحلام تنتهي بعبارات مثل: «لابد من انجاز المهمة». «لكن اليأس لم يعرف سبيله إلي قلبي»، «لكنني لم أكف عن التطلع أو السبر أو النداء». وبالإضافة إلى تلك الأحلام، فإن هناك جو حلمي، إذا صح التعبير، يغشي العمل كله! فالماضي عند صاحب السيرة ما هو إلا حلم كبير، لا يهم دقائقه أو تفاصيله، وإنما الجدير بالتمثل حقاً هو ذلك الشذ الطيب الذي يتركه في النفس، وتلك المشاعر الجميلة التي يغمر بها القلب والتي يمتزج فيها الشوق بالشجن بالحنان.

ويقدم لنا صاحب السيرة شخصيات عمله الفريد كما هي في نفسه، مغلفة بضباب عالم الحلم الذي انبثقت منه، غامضة بلا تفاصيل، إلا ذلك الانطباع الخاص الذي تركته في نفس المؤلف، ورغم ذلك، أو لعله بسبب ذلك، فهي نفاذة التأثير على وجدان القارىء!

ومن هذه الشخصيات الحدة، الست نفوسة، الجارة، بنت الجيران.

سر النشوة

«حلمت بأنني صحوت من نوم ثقيل على أنفاس رقيقة لامرأة عابة في الجمال، رنت إليّ بنظرة عذبة وهمست في أذني. إن الذي أبدع في سر النشوة المبدعة قادر على كل شيء فلا تيأس أبداً».

السياسة والتصوف

كلاهما تكرر ظهوره في أعمال نجيب محفوظ، أما السياسة فلا يكاد يخلو منها عمل من أعماله.

قد يكون العمل رؤية معينة لواقع سياسي مثل «ثرثرة فوق النيل» و«ميرامار» وقد يتم تناول السياسة بشكل فلسفي كما في «أولاد حارتنا» التي تدور حول الصراع على الوقف أي على السلطة.

وفي «أصداء السيرة الذاتية» توجد السياسة على شكل تأملات متناثرة تحمل مغزى سياسيا يتراوح بين الغموض والوضوح، وتتناول موضوعات «الفساد السياسي، دولة المخابرات وغيرهما».

التحدي

في غمار جدل سياسي سأل أحد النواب وزيراً.

هل تستطيع أن تدلني على شخص طاهر لم يلوث؟

فأجاب الوزير متحدياً.

- إليك - على سبيل المثال لا الحصر - الأطفال والمعتوهين، والمجانين، فالدنيا مازالت بخير.

أما التصوف فهو يظهر في الأصداء

على شكل أسلوب حياة يطرحه عليه الشيخ عبد ربه التائه ويدعونا إليه . إن تصوف الشيخ عبد ربه لا يزهد فى الدنيا ولايروم الهرب منها ، على العكس من ذلك هو مشغول بها .. لكنه ليس انشغال الغارق فى بحر المتع والملذات وإنما انشغال المدرك أن الخلافة هى وظيفته الأساسية يمارسها الإنسان بخدمة الناس وذكر الله .. وحب الدنيا بصدق!

الوسط

«قال الشيخ عبد ربه التائه :

أناس شغلتهم الحياة ، وأخرون شغلهم الموت .

أما أنا فقد استقر موضعى فى الوسط».

واللغة فى هذا العمل الجميل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالموضوع . هى بسيطة واضحة فى الفقرات التى يتميز المعنى فيها بالوضوح والبساطة . وهى مراوغة تخفى مثل ماتبدى ، أو أكثر قليلاً فى فقرات أخرى .

الريح تفعل ما تشاء

«قد ضجرت الساعة من دقة عقاربى فى الزمان الأول . وعقدت حبال العزيمة حول ذراع الأمان ونمت ولكن حملتنى ريح الغربة فوق السحاب صادعة بأمر المجهول.

لم يكن فى نيتى ما أفعل ولافعلت ما كنت نويت ، وأيقظنى رفيقى الرقيق من غفوتى قائلاً :

«غداً نسفك الدماء» فقلت مشهداً الكون على استسلامى المطلق «لتكن مشيئة الله» .

وقد بلغ نجيب محفوظ درجة عالية فى تطويع اللغة حيث تواكب التغيير الذى حل باهتماماته ميوله ككاتب . مثلا بعد لغة السرد التقريرى المسهب التى عرفناها فى الثلاثية وفى رواياته الواقعية بشكل عام ، ظهرت لغة شعرية مكثفة ، وتجاور الأسلوبان اللغويان فى أعمال لعل أهمها ملحمة الحرافيش «راجع رسالة الدكتوراة المقدمة من د. نادية عبد الوهاب لكلية البنات جامعة عين شمس بعنوان «الفن الروائى عند نجيب محفوظ من ١٩٧٢ ـ ١٩٨٨ ـ ص ١٩٢» ولعله من الجدير بالملاحظة أن أستاذنا اتجه إلى الاختزال فى اللغة حتى عند استخدامه للاسلوب السردى التقريرى . وهو فى ذلك يستجيب، كما أعلن غيره مرة ، للايقاع السريع للعصر وللمتلقى نفسه .

يمكن للقارىء المقارنة بين الثلاثية كرواية أجيال بحجمها الضخم وعدد صفحاتها الذى قد يصل الى ألف صفحة وبين رواية «الباقى من الزمن ساعة» وهى أيضاً رواية الأجيال لاتزيد صفحاتها على مائتى صفحة كتبها محفوظ بدون تقسيمها لفصول وكأنها شهقة شعورية وفكرية واحدة !

أما أصداء السيرة الذاتية فهى تجمع بين الاختزال فى التعبير والكثافة فى المعانى ، والايحاءات والدلالات ،

لطيفة الزيات

بقلم : صافى ناز كاظم



فى مدرسة العباسية الثانوية ، فى شهر ما من عام ١٩٥٣ ، دخلت مدرسة اللغة الانجليزية الصف الرابع - الثقافة العامة - وهى السنة قبل إنهاء الدراسة الثانوية فى ذلك الوقت . ما أن أطلت المدرسة على الطالبات حتى شهقن «هييه» .كانت شهقة عدم توقع وتلونها ظلال من خيبة الأمل ، فالطالبات كن ينتظرن دخول «سعد أفندى» ، أقدر مدرس للغة الإنجليزية بالمدرسة ، بالإضافة إلى وسامته ودماثته الشديدة التى جعلته هدفاً لاستجاشات العواطف عند فتيات فى مطلع سن المراهقة وكن قد أصلحن من هندامهن ودعكن وجناتهن بشدة لتتلون بإحمرار طبيعى وتألقت عيونهن بالشغف استعدادا لاستقبال المدرس المحبوب «سعد افندى الجبلاوى» ، لم تكن الطالبات متوقعات لدخول مدرسة ، ناهيك عن مدرسة جديدة لم يختبرنها بعد ! لم تتجاهل المدرسة الشابة - ٣٠ سنة فقط - الشهقة الآسفة للمراهقات فاندفعت غاضبة تقول بالإنجليزية : «هل من الأدب إستقبالي هكذا ؟ كنتن تنتظرن مستر سعد ، ليس لأنه مدرس جيد، ولكن لأنه رجل !»

كانت هناك بين الطالبات واحدة فى السادسة عشرة من عمرها ، لكنها كانت لا تزال بضفيرتين ولعلها كانت من أشد الطالبات حباً لسعد أفندى ، خاصة أنه كان قد قرظها فى اليوم السابق وقال لها بإعجاب شديد : «إكسلانت !» حين استطاعت أن تضع كلمة «موتو» التى تعنى «شعار» فى صياغة سليمة لها أبعاد حماسية حين قالت «أور موتو إز يونيتي ، ديسبلن آند وورك!» وكان شعار الثورة الجديدة لا يزال يتردد : «الإتحااد ، النظاام والعمل !»

غضبت الطالبات من التنديد الجارح ، الذى وإن كان به ظلا من الحقيقة ، لكنه لم يكن الحقيقة كلها فسعد أفندى كان مدرساً بارعاً فعلاً قادراً على توصيل الصعب ليستقر سهلاً فى أذهان الطالبات . سكتت الطالبات مكيوسات ، لكن تلك «الواحدة» ذات الضفيرتين لم تسكت : «نحن آسفات يا ميس ولك حق أن تغضبى ، لكن حتى لو كنا نخفى حبا لستر سعد فلماذا تحرجينا ؟» . التفتت المدرسة منتبهة ثم أغرقت فى الضحك وهى تسأل الطالبة : «ما اسمك» قالت الطالبة : «صافى ناز كاظم» وكان هذا لقائى الأول

مع «لطيفة الزيات» التي كانت تحرر وقتها صفحة المرأة بجريدة المصرى ، ويبدو أنها قد كرهت - من خلفتنا - التدريس بالمدرسة كلها فلم نرها بعد ذلك ، وأكملت بعدها «مس إستر» تدريسنا ، التى لم تكتم أحقيتها هى - قبلنا - فى حب مستر سعد !

***

فى قسم صحافة بكلية آداب القاهرة بعد سنتين أو أكثر كان لقائى الثانى بالدكتورة لطيفة الزيات ، التى كانت قد حصلت على درجتها «الدكتوراة فى الترجمة» .كانت فى ذلك الوقت قد تزوجت من الدكتور رشاد رشدى ، رحمه الله ، وكانت تسكن بالقرب من الجامعة أمام حديقة الحيوان تقريبا ، وكنت أحب ، كلما رأيتها تسير فى شارع الجامعة متوجهة إلى بيتها ، أجرى لألحقها وأصاحبها ، فقد كان هذا طريقى مع معظم الطلبة نحو محطة ترام ١٥ الذى يأخذنا جميعا إلى ميدان محطة مصر لنتوزع كل فى اتجاه : العباسية أو شبرا .

كنت أكلمها بتودد وتقرب لكنها كانت مع لطفها متحفظة حريصة على مسافة بيننا لا تغرينى بصداقة .

***

صدرت روايتها «الباب المفتوح» عام تخرجى ١٩٥٩ أو مطلع ١٩٦٠ ، قرأتها وكنت قد ترسخت فى عملى بدار أخبار اليوم بمجلة الجيل .فرحت بالرواية فاتصلت بها هاتفيا وقلت لها أريد أن أرسل لك باقة ورد ، وذهبت لإجراء مقابلة معها . أذكر من هذه المقابلة تهليلا وسعادة من دكتور رشاد رشدى لنجاحها وبدا يومها فخوراً بها جداً وكانت شقتهما ساطعة النور مرتبة ترتيبا ملائما لزوجين مثقفين كاتبين تسود بينهما روح الندية الواضحة التى ترى الاتفاق والاختلاف حقا مكفولا للطرفين كانت قريرة ترتسم على وجهها ثقة المتأكد من مكانته العزيزة لدى الآخر :مكانة عزيزة على المستوى العاطفى والإنسانى والعقلى . لذلك دهشت عندما أخبرنى عبد العزيز حمودة - وهو يزورنى هو وزوجته فى شقتى بنيويورك بين عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ - بعد هذا المشهد بأربع أو خمس سنوات بالطلاق الذى تم بين د. لطيفة والدكتور رشاد . كان عبد العزيز حمودة لا يزال يحضر للدكتوراة فى جامعة قريبة ويأتى مدينة نيويورك زائرا ليتابع العروض المسرحية من حين لآخر وكان ينقل لى خبر الطلاق كأنه صاعقة ألمت بأستاذه : «خطاب د. رشدى يقطر ألما وهو يقول : تصور لطيفة تركتنى» !

***

عندما عدت من أمريكا عام ١٩٦٦ كان معى شوط لرواية أكتبها عنوانها «طريق إلى منزلى» وطلبت من د. لطيفة أن تبدى لى رأيها فيما كتبته . قابلتها فى مقهى الشرفة العلوى بفندق النيل بجاردن سيتى وكانت تجلس مع شقيقتها

وزوج شقيقتها وأطفالهما : منى وعلى . كان صباح يوم جمعة وغالبا كنا فى الشتاء لأننى مازلت أذكر وجهها مشرقا متمتعا بالشمس . كان مزاجها رائقا وبودا ورحبت بى ترحيبا مخالفا لتحفظها السابق معى وقالت : «تبقى مجرمة لو لم تكملى هذا العمل النابض الجميل» ولم أكمل الرواية أبدا ، ومازلت أحتفظ بها وكلما راجعتها تثقل على صدرى فأطويها وأعيدها إلى الرف .

فى مطلع يناير ١٩٦٧ تعرضت لتجربة زواج تبطنت وتلفعت بخديعة تصل إلى مرتبة الجريمة المدبرة ، ولم أكن وأنا فى خضمها مدركة لحقيقتها التى رأيتها بعد ذلك بوضوح . كنت فى البداية حريصة على سرية المشكلة ولكنى أردت مشاركة أمينة وعاقلة فلم أجد أمامى سوى الاتصال لتحديد موعد مع د . لطيفة الزيات . وذهبت إليها فى مسكنها الذى اتخذته بين أشقائها ووالدتها فى المهندسين كان مساء والطريق جديد وغامض فى تلك الناحية ، لكن سيارات الأجرة وقتها كانت طيبة ومتاحة . صعدت إليها فى غرفة إستقبال خارجية ، وقلت لها : «أنا مثلك برج أسد وستفهمين أن صراحتنا وصدقنا هما السبب فى سهولة خداعنا إذ نتصور أن كل ما نسمعه هو كذلك صراحة وصدقاً .. وأزمتى الآن هى .. وقلت لها كل شئ . لم تندهش وإن تعاطفت وقالت ما معناه باختصار ، إن الطلاق قد يكون من الأشياء المرة والمؤلمة ولكنه فى أحيان : الخلاص من الدمار الأكثر خطورة من المرارة والألم ، قلت لها إنها شجعتنى من حيث لا تدرى على قرار كنت قد عزمت عليه . وقلت لها : «هل تعرفين يا دكتورة أن عبد العزيز حمودة قال لى فى أمريكا كذا .. كذا .. ابتسمت فى تهكم وأشاحت بيدها ثم قالت : «ولو أن أزمتى كانت نقيض أزمتك !».

***

فى ١١ نوفمبر ١٩٧٦ فوجئت بها بين المعزين لوفاة والدتى ، ولم أعرف هل جاءت من أجلى أم من أجل شقيقتى الدكتورة زميلتها فى هيئة تدريس كلية بنات عين شمس . قلت لها : «شفت يا دكتورة» . وكنت أعبر أزمة زواج أخرى . وأثير موضوع خاطفات الأزواج وخاربات البيوت ، فمدت ذراعها ويدها فى تشكيل سيف قاطع وهى تقول ، بلا انفعال ، ولكن فى نبرات عالية مستقيمة : «ليس هناك شيء اسمه نساء خاطفات أزواج ، هناك أزواج خونة . هو الزوج عيل يتخطف ؟» ، قلت لها باقتناع : «أيوه يا دكتورة : عيل ينخطف .. وغضبت منها فى سرى ، أو لعلى كنت مرتبكة بتداخل الأحزان .

***

بعد منتصف الليل ، الذى يمكن أن يقال عنه الساعة الثانية صباح الخميس ٣ سبتمبر ١٩٨١ دهمت مباحث أمن الدولة بيتى واعتقلتنى ، كالعادة منذ رشحنى

يوسف السباعي لقوائمهم لأكون معتقلة مستديمة فى كل مناسبة ومن دون مناسبة أخذونى من صلاة قيام الليل لأوضع تحت بند قضية إنشاء وتكوين تنظيم شيوعى ! أبقونى ساعات فى قسم النزهة ثم أوصلونى بعد شروق الشمس إلى سجن القناطر للنساء .كنت ضمن القطفة الأولى لما أصبح يسمى الآن «إعتقالات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة !».

أدخلونى قسم سجناء الرأى بمبنى مستشفى السجن ثم وجدت نفسى نزيلة غرفة مع معتقلتين سابقتين هما : شاهندة مقلد وفريدة النقاش ، كنت قد أرسلت زيارة لصديقتى شاهندة منذ أسبوعين عن طريق حزب التجمع : سألت شاهندة : «ما رأيك فى زيارتى» ؟ قالت : أى زيارة ؟ ، قلت : «كذا وكذا» قالت : الله ؟ هل كانت زيارتى أم لفريدة ؟ وفهمت أنه قد حدث لبس وأن أمينة النقاش أخذت ما أرسلته لشاهندة وأعطته لفريدة وتصورت فريدة أنها أشياء تخصها ! قالت شاهندة : «معلهش» . قلت وأنا أكتم غيظى : «بسيطة» وحملت هم أيام قادمة فى زنزانة واحدة مع فريدة رفقة السجن مثل رفقة السفر مثل رفقة الزواج، ليس المهم بالدرجة الأولى الاتفاق أو الاختلاف فى الرأى أو المنطلق السياسى ، المهم بشكل نهائى : التعاون النفسى وإنسانية المشاركة .

وهذا ما خشيت ألا أجده مع فريدة . كانت الغرفة بها حوض تنتشر من مواسيره ليلا صراصير حمراء كبيرة وتغطى الجدران ، ومن خبرة اعتقالين سابقين عام ١٩٧٣ و ١٩٧٥ بنفس الغرفة، توصلت لحل هو إضاءة النور ليلا حتى لا تخرج الصراصير بكثافة وضمان عدم زحفها فوقى وأنا نائمة طلبت من شاهندة وفريدة السماح بترك النور مضاء عند النوم . اندفعت شاهندة بكرمها وشهامتها المعهودة : «الذى يريحك طبعاً» . قالت فريدة : «معرفش أنام والنور والع» . قلت لها : «وتعرفى تنامى والصراصير ماشية فوقك؟ وسكتنا وقلت : «ليلة زى بعضها» ! فى صباح اليوم التالى بعد ليلة رعب مع الصراصير قلت لشاهندة : «ويقولوا ما فيش تعذيب ، والسجن مع فريدة ما اسمه إذن !» ضحكت شاهندة تخفف بثرائها الإنسانى حدة التوتر .

إخراس كل مصر

لم أكن أعرف بعد أن إعتقالى جاء ضمن هجمة حاشدة على كل مثقفى وكتاب وسياسى مصر تقريبا وبلا إستثناء فى محاولة من الرئيس السادات ليثبت - لمن يريد أن يثبت لهم - أن مركزه قوى وبإمكانه إخراس كل مصر من دون أن تهتز شعرة ، حتى جاء مساء الجمعة ٤ / ٩ / ١٩٨١ وإذا بباب الغرفة يفتح وتدخل معتقلة جديدة تقول للسجانة : «مرسى ، إتفضلى حضرتك بقى» والسجانة تغلق الباب علينا بالمفتاح كنت أرقد على سريرى يمين الداخل من الباب

أفكر بصراصير النوم . وسرير فريدة النقاش إلى اليسار - جاء الوضع هكذا من عند ربنا ! - لم أتعرف على المعتقلة الجديدة ، حتى سمعت صرخة فريدة «أمونة .. أمونة .. » ثم إحتضان وبكاء . وهلت شاهندة ضاحكة تقول : «أهلا .. أهلا ..» كأنها صاحبة الدار . لم أهتم بمعرفة من هي «أمونة» .. طالما هي «أمونة» فريدة التي بدا لي أنها تبالغ في الاحتفال لتعطيني الانطباع أن مدد عزوتها قد وصـــل لدعم موقفها في قضية إطفاء النور .قالت فريدة «إحكي» وبدأت «أمونة» تتحدث بصـــوت عربي فرانكفوني : «أبدا» .. أنا كنـت ألم كتبي في صناديق العزال ومروان ابني يســاعدني وصاحبتين وبعدين فتحت الباب لواحد قال : إحنا مباحث أمن دولة ممكن يا دكتورة تتفضلي معانا ؟ قلت : فين ؟ قال : شـوية كده نتكلم سوا . قلت له : حضرتك شــايف إني أعزل مش ممكن نأجــل الكلام ده أسـبوع ؟ قال : لا .. دول خمـس دقـائق بس وترجعي .قلت : إذا كان كـــده مافيش مانع . مروان قـال : مـامـا دول بيكـذبوا قلت له مـروان عيب نتهـم الناس .. لكن لقيتهم ماشيين في سكة غريبة وبعدين جابوني هنا .. مش همه كده يبقوا بيكذبوا ؟!

كنت أتابع الصوت وعند النهاية لم أملك نفسي من الاغراق في الضحك حتى كـدت أموت ! يا نهار أبيض «أمونة» داخـل الـزنزانة ولا تزال تتساءل بكل جدية وبراءة - «حتى لا تتهم الناس» - إذا كان وفد الاعتقال كاذبا أم صادقا !

نهضت جالسة وقلت لأمونة : «أنا فلانة .. وتأكدي حضرتك إنك في سجن القناطر .. وكان هـذا هو لـقائي الأول مع صديقتي العزيزة الدكتورة أمينة رشيد أستاذة الأدب الفرنسي بآداب القاهرة.

بعد ساعات في توغل الليل والنور والحمد لله مضاء بسبب سهرة التحليل والتكهنات التي وجدت شاهندة فيها مرتعاً تنطلق فيه بإبداعات تصورات برجها العقرب المزيج من أجاثا كريستي وشارلوك هولمز وميتشكوك ..الخ.

فتح الباب مرة أخرى ودخلت شابة منقبة وما أن رفعت النقاب حتى طلع البدر علينا بعينين دامعتين .

قلت : «أرجوك لا تبكي» . قالت بالفصحى الريفية : «جـزاك الله الخير ، أنا صعبان على والدتي ..» في الثامنة عشرة وفي الشهور الأولى من حملها ، وقالت : باقتضاب اسمها : «أمل عبدالفتاح إسـماعيل من دميـاط» . انقلبت كل تحليلات شاهندة رأسا على عقب وران على وجه فـريدة ما تصورته إحساسا بخيبة الأمل لأن الضـربة شـملت كذلك الجانب الآخر وهذا يعني أن لقـب «النضـال» سـوف يعطيهم أيضا

جاء يـوم السـبت ١٩٨١/٩/٥ بأنباء عن خطاب سـوف يلقيه الرئيس السـادات مسـاءً . وقبّت شـاهندة بجهاز تليفـزيون ، اسـتعارته من تاجرة

حشيش تعيش فى مملكة عامرة بالدور العلوى فوقنا ، وأخرجته من مخبئه بعد إغلاق «التمام» . تحلقنا داخل الزنزانة أمام شاشة التليفزيون نشاهد ونستمع إلى السادات يطيح فى كل إتجاه متوعدا ، هادرا ، منطلقا بالسباب الطائش ليمس الكافة والجميع بلا استثناء . وألجمتنا المفاجأة و«لن أرحم ..» شعار مرفوع لا يمكن لأحد التكهن بأبعاده التى قد تبدأ بالسجن مدى الحياة حتى الإعدام ، عقوبات لتهم لم نعرفها .

★ ★ ★

فى صباح الأحد ٦ / ٩ / ١٩٨١ جاءت المشرفة ونادت إسمى وأمينة رشيد وأمل اسماعيل : «معايا على عنبر المتسولين !» . وهو عنبر يضرب به المثل فى السجن لقذارته وإمتلائه بالجرب ويشتكى منه المتسولون .

قلت للمشرفة : «من حقنا البقاء فى قسم جرائم الرأى» .

قالت هامسة : «حق إيه ؟ ليس لكم حتى الحق فى زيارة أو طعام من الخارج أو ملابس أو تحويلات للكانتين !»

ودخلنا العنبر ، الذى كان ينفصل عن بقية السجن بفناء خاص به له باب حديد مغلق ، غير بوابته الحديدية الخاصة به والمغلقة كذلك معظم اليوم . كانت هناك أربع فتيات تتراوح أعمارهن بين ١٥ سنة و٢٠ سنة ، بين منقبة ومختمرة ، ثم توالى قدوم د. نوال السعداوى ود. لطيفة الزيات . قالت د. لطيفة وهى تضحك : «أنتهى من حيث بدأت !» ، وسرحت فى كلمتها : هل عدنا إلى غليان الأربعينيات حين كانت الشابة لطيفة فى خضم مظاهرات الطلبة فنالت جزاءها إعتقال فى زمن ملكى واحتلال انجليزى ؟ . وكان يبدو على نوال الذهول : «كسروا بابى ...» لاحظت أنهن جميعا لم يحضرن ملابس أو أشياء خصوصية مثل الليف والصابون وفرشة الأسنان والمعجون والملعقة والكوب البلاستيك والمناشف .. إلى آخر لوازم المعتقل الضرورية» ، التى بت أحفظها ظهرا عن قلب ، فقد صدقن جميعا حكاية «كلمتين شوية كده وراجعين !» .

وبما أنى كنت معتادة إعتقال فأخذت احتياطاتى وكانت حقيبة الاعتقال شبه جاهزة لدى ، بل إننى كنت من خبرتى أضع فى حسابى احتمال وجود معتقلات لأول مرة ، فأضيف مناشف زائدا وليفا زائد وصابونا تجنبا لمشكلات الأمراض الجلدية التى قد تنشأ من الاستعمال الجماعى . قسمت المناشف قطعا متساوية ووزعتها . وكنا حوالى ١١ معتقلة بعد وصول شابة مسيحية ووصول الدكتورة عواطف عبدالرحمن قادمة مباشرة من المطار ومعها حقيبتها التى وفرت نصيبها ليس فقط من الاحتياجات بل ومن الزيادات .

* * *

أسفر الوضع في العنبر عن وجود أربع دكتورات : د. لطيفة الزيات ود. أمينة رشيد ود. نوال السعداوى ود. عواطف عبدالرحمن وخمس شابات من المنقبات والمختمرات وأنا أفكر : ترى من بينهن عزائي ومن بينهن عذابي ؟

أقفز الآن فوق تفاصيل كثيرة أختزنها ولا أحب الخوض فيها ، رغم طرافتها وأهميتها إلى حد كبير ، كان نصيبي في الجانب العلماني على صعيد المكسب الإنساني د. أمينة رشيد ود. لطيفة الزيات ، وعلى الجانب الإسلامي - إن جاز هذا التعبير - أمل وصباح التى كانت في مطلع عامها السادس عشر لكنها بحجمها الصغير تبدو كطفلة طيبة باشة حنون مسارعة في العون نشطة في المساعدة .

لم أستطع لحظة واحدة في عنبر المتسولين نسيان أن دكتورة لطيفة «أبلتي» ، مدرستي بالثانوي وأستاذتي بالجامعة - رغم أن فارق السن بيننا لا يزيد على ١٤ سنة - فكانت لغة مخاطبتي معها دائما «حضرتك يا دكتورة ..» بينما كانت أمينة رشيد - التى تصغرني بستة أشهر - تناديها مع الأخريات : «لطيفة ..» وكان يبدو لي أن نوال السعداوى مغتاظة من تبجيلي للدكتورة لطيفة ، لذلك ما أن نشبت المشادة بيني وبين عواطف عبدالرحمن حتى إنحازت إليها بمبالغة بدت لي كاريكاتورية . كانت نوال متلمظة بالغيرة من د. لطيفة ، والدكتورة لطيفة معتصمة بالصبر والتسامح وأنا وأمينة رشيد نرقب ونتبادل رؤانا الإبداعية في تحليل الشخصيات . كانت أمينة بأدائها «الباشاواتي» ولهجتها العربية الفرانكفونية تقول بجدية شديدة أشياء مثل : «كويس أنا كنت عاوزة أمر بتجربة السجن ، لكن مرة واحدة بس كفاية !» فأميل على دكتورة لطيفة : «كأنها بكيفها يا دكتورة !» فتنخرق في ضحكتها المميزة التي تجعل عينيها الواسعتين الجميلتين مغلقتين خطا طويلا: تحب النكتة والبشاشة وتلتقط المفارقة ولا يغيب عنها الجانب الفكاهي حتى في المصائب والآلام . قلت لها ولأمينة رشيد : «تعالوا اسمعوا الأغاني التى ألفتها ولحنتها عنكم ..» فتأهبت بالابتسامة وانتبهت أمينة بجديتها الطريفة فبدأت بالشخصية التي يقول لسان حالها :

«أنا أومف الاشتراكية ،
أنا فاتنة الماركسية ،
لو ماركس عاش، كان حبني،
بس البركة في الرفاق ،
بس البركة في الرفاق !»

ضحكت وقالت : «فين غنوتي ؟» قلت لها : «أخاف تزعلي ..» قالت : «إزاي أزعل ؟» . كانت الدكتورة شديدة القلق على أخيها الدكتور محمد عبدالسلام الزيات ، وكلما صادفت جريدة ممزق منها صفحة تشحب وتقول : «لازم فيها خبر عن

أخويا ..» وتبكي حتى تتأكد أن ظنها في غير محله . قلت لها : «أنا عاملة غنوة على حكاية قلقك الدائم يا دكتورة تقول :

أنا لطيفة الدكتورة ،
وأحب أخويا الزيات ،
وكل يوم علشانه
أعيط فوق الصفحات !»

قالت أمينة : «في كمان علشـانى واحدة ؟» قلت : «طبعا :

أنا أمينة عاقلة رزينة
أحب روحي لكن في السِّر !»

وكنت أحاول أن أبرز التناقض الصارخ بين شخصية أمينة رشيد وشخصية نوال السعداوى التى كانت أغنيتها تقول :

«أنا أنا أنا أنا أنا ،
أنا أنا أنا اسمي نوال ،
أحب روحي، أموت في روحي،
أنا أنا أنا اسمي نوال !»

* * *

بعد أسبوع تقريبا من اقامتنا بعنبر المتسولين الملىء بالجرب ، بدأت أحك جلدى أنا وأمينة رشيد فطلبنا عرضنا على طبيب السجن الذى قرر ضرورة علاجنا السريع من بداية جرب . أصبت بالهلع وانتـابنى غضب إنفجرت به فى وجه ضابط المباحث الموجود دائما فى صحبة المأمور قال : «ماتقـوليش عنـدك جرب تطلع عليك سمعة ..» قلت : «وهل جئت بالجرب من بيتنا ؟ دع الناس تعرف ما هى السجون الديمقراطية !»

المهـم أن الموقف انتهى بوضعى فى زنزانة التأديب ، قلت : «تأديب تأديب يعنى اسم الله منقولة من القصر !»

وفى التأديب صليت وقلت : «ياربى أنت تسمع وترى .»

بعد ساعات جاءت السجانة وأخذتنى إلى غرفة المأمور حيث وجدت الدكتورة لطيفة ، وقال المأمور : «بس علشان خاطر الدكتورة ..» وفي الطريق إلى العنبر نظرت إلى بعتاب : «وضعتنى فى موقف لا أحبه وهو الرجاء من المأمور ..» قلت لها بضيق : «يا دكتورة أنا غير فارقة معى ، مستعدة أرجع التأديب ..»

قالت : «يا دمك ..» ودخلنا العنبر مبتسمتين .

* * *

يوم الثلاثاء ٢٩ / ٩ / ١٩٨١ وافق أول ذو الحجة ١٤٠٢هـ ، كنت صائمة كعادتى فى صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى الحجة . قبل المغرب بنصف ساعة داهمنى صداع لم أعتاده ، وعندما رأتنى أمل متألمة قالت : «إفطرى ..» قلت «خسارة ..» وأكملت الصيام بشق الأنفس. بعد الإفطار ساءت حالتى بالقئ والإسـهال وارتفاع كبير فى درجة الحرارة . إنتابنى خوف خشية أن أكون حالة كوليرا وأتسبب فى عدوى الأخريات . كنت فى علاقة خصام مع عواطف عبدالرحمن ولم أكن أعرف أن نوال السعداوى قررت مقاطعتى من جانبها ، لكنى لاحظت أنها منزوية بعيدا فى سريرها بينما د. لطيفة وأمينة والأخريات ملتفات حولى فى حالة تأثر بالغ . ناديت : «يا نوال بصفتك طبيبة ما هى أعراض الكوليرا ..» قالت فى تأفف

: «رحت الحمام كام مرة ؟»

قلت : «أربع مرات ..» ، قالت : «لم أرك تذهبين إلا مرة واحدة !» قلت : «هل هذا معقول يا ناس ؟» . توجهت الدكتورة لطيفة ناحية البوابة الحديدية المغلقة وإذا بى أسمعها تنادى نداء السجينات الليلى عند الطوارئ» : «يا سهاااراااه .. يا سهارة الليييل ..» - و«سهارة الليل» تعنى السجانة المسئولة عن نوبتشية الليل أثناء إغلاق السجن ويتم الاستنجاد بها لاستدعاء الطبيب وفتح الزنزانة أو العنبر فى حالة المرض - واستمرت الدكتورة فى النداء وأنا واعية ، رغم حالتى الحرجة ، بطرافة الموقف فالنداء بصوت الدكتورة لطيفة كان أشبه بالغناء لشطرة من بيت شعر رومانسي : «يا سهارة الليييل ..» . استجابت السجانة للنداء وجاءت بالتومرجى قائلة : «الدكتور غير موجود ..» أخرج الرجل ميزان الحرارة وأراد أن أضعه في فمي ، صرخت : «من دون مطهر ؟» فبدأ يمسحه فى ثيابه القذرة فإذا بأمينة رشيد تندفع : «دى وساخة زيادة .. إنت شايف هى سخنة خالص إيه لزوم ترمومتر ؟» . ومرت أزمة المرض الشديد الذى لم يكن كوليرا وحمدت الله .

★ ★ ★

احترمتها دائما ، واختلفت مع آرائها كثيرا ، وحين ذهبت لأزورها في غرفة الإنعاش بمستشفي مصر الدولي ، لتنسحب سويا ، عـرفت أنني أحببتها كل الوقت . أسأل الله لها الرحمة والمغفرة وما هو خير وأبقى .

الشعر .. على طريقة موتسارت

بقلم : محمود قاسم

يمكن تسميتها بصندوق المفاجآت ..

ذلك هو حال جائزة نوبل فى السنوات الأخيرة ، فهى تطلع على الناس بما ليس متوقعا ، فتخيب الآمال ، أو تصنع الدهشة على الألسنة ، والأقلام ، ويتم دائما طرح السؤال المتكرر : لماذا ؟ وتبدو الإجابة شديدة الغموض ، فلا أحد من داخل الأكاديمية يرد ، وليس من أوراق سوى فقرة صغيرة مصحوبة باسم الفائز فيها حيثية بالغة الاقتضاب ، يلقيها ممثل الأكاديمية أمام ممثلى الإعلام ، ثم يغلق الباب على صندوق المفاجآت لمدة عام جديد .

وقد أثار فوز الشاعرة البولندية فيسلافا شيمبروسكا دهشة بالغة ، ليس فقط لأن اسمها بدا غريبا على ألسنة الناطقين باللغات اللاتينية ، بل ولأن الدور كان يقينا على روائى أيا كانت أهميته ، وفى صباح اليوم التالى لاعلان الجوائز ، أشارت وسائل الإعلام إلى أن عدد القصائد المترجمة الى اللغتين الانجليزية والفرنسية قليل للغاية ، حتى وان كانت تتمتع بأهمية فى عالم الشعر .

ولأنه ليست هناك اجابات محددة عن أسباب اختيار هذه الشاعرة أو غيرها ، فان المهتمين بالجائزة كثيرا ما تكون أسئلتهم المطروحة حول غرابة أكاديمية



فسلافا شيمبروسكا

ستكهولم أكثر من الاجابات الصحيحة لهذه الأسئلة . ولا شك أن التوزيع الجغرافي الذي تحرص عليه الأكاديمية يلعب دورا أشبه بالروليت الروسي ، في التكهن والاختيار . كما أن الأكاديمية تبدو خاصة في مجال الشعر ، وكأنها تخرج اسم الفائز من القبو ، لالقاء الضوء عليه لمدة عام تقريبا ، ثم يدخل بشكل تلقائي الى مقبرة النسيان حتى لو ظل على قيد الحياة لمدة طويلة .

وفي عالم الشعر ، فاننا نتساءل عن عطاء كل من التشيكي ياروسلاف سيفيرت (نالها عام ١٩٨٤ ومات في صمت عام ١٩٨٩) ، ثم أين كل من النيجيري وول سوينكا (١٩٨٦) والروسي برودسكي الذي مات العام الماضي ، والترنداوي ديريك والكوت (١٩٩٢) ، ثم أين شيموس هيني الايرلندي الذي فاز بالجائزة في العام الماضي ، كلهم يحملون الآن لقب حامل نوبل ، ولا يذكرون إلا بهذا الوسام الأدبي، ولم نر الجديد لأي منهم ، وكأن دور الجائزة هو احياء اسم مجهول لبعض الوقت .

فيسلافا شيمبروسكا هي المرأة التاسعة في تاريخ الجائزة ، وثالث سيدة تفوز بها في التسعينات ، أي أن عدد الرجال الذين فازوا بالجائزة في عقدنا الأخير من القرن العشرين يساوي عدد النساء . كما أنها الكاتب الرابع الذي يفوز بالجائزة في بولندا بعد هنريك سنكفيتش (١٩٠٥) صاحب الرواية الشهيرة « كوفاديس » ، ثم الروائي فلاديسلاف ريمونت (١٩٨٠) ، ثم الشاعر شيزلاف ميلوش الذي نال الجنسية الأمريكية ، والذي اكتسب شهرته من انتقاداته الخفيفة لسياسة بلاده الشيوعية سابقا ، وهي نفس النقطة التي تم التركيز على الشاعرة شيمبروسكا عند إعلان سيرتها الحياتية .

● ضد التاريخ .. والمعرفة .. والخلاعة

جائزة نوبل لاتزال تمنح إذن للمنشقين بدرجاتهم المختلفة كنوع من المكافأة على مواقفهم المناصرة للغرب ، وانظر الحيثيات المعروفة عن الشعراء الأربعة

الذين نالوها منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، والذين ينتمون الى أوروبا الشرقية وهم ميلوش، سيفيرت، برودسكي، وشيمبروسكا، بالاضافة إلى الروائي الياس كانيتي، والغرب لا ينسى أبدا أنه كانت هناك قوة أيديولوجية ضارية تنافس، وتجابه، ولذا من المهم مناصرة من جابهوا هذه القوة.

وعلى المستوى الشعرى، فإن شيمبروسكا هي «موتسارت الشعر» كما جاء في حيثيات منحها، وهي تعبيرات تنكر لغير المتابعين لأعمال كاتب أو فنان، وذلك اختصارا للتعريف بها، فيكفي على من يسمع هذا التعبير أن يتأكد أن مكانتها في الشعر، مثل مكانة موتسارت، دون أن نعرف أي مكانة بالضبط، هل الشعر بشكل عام في كل تاريخه، أم في بولندا، أم شعر القرن العشرين، أم شعر الحقبة التي أبدعت فيها شيمبروسكا؟

وكما يلاحظ القارىء، فان تساؤلاتنا لاتزال أكبر مساحة من الاجابات، ودعنا نطرح كل هذه التساؤلات لنتعرف على موجز تاريخ الشاعرة، فهي من مواليد الثاني من يوليو ١٩٢٣ في مدينة كورنيك الواقعة في غرب بولندا، تلقت تعليمها في جامعة كراكوتيا، العاصمة التاريخية لجنوب البلاد، وهي المنطقة التي عاشت بها طوال حياتها.

نشرت الشاعرة قصائدها الأولى عام ١٩٤٥، أي وهي في الثانية والعشرين من عمرها، وقال النقاد ان شعرها المكتوب في الخمسينات ينتمي إلى الواقعية الاشتراكية، وذلك في دواوينها الأولى «لهذا نحن نعيش» عام ١٩٥٢، و«أسئلة مطروحة على الذات» عام ١٩٥٤.

وقد توقفت فيسلافا عن كتابة الشعر لفترة، عقب وفاة ستالين عام ١٩٥١، وعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي، واتجهت الى كتابة النقد، والمقالات الفلسفية، وبدأت في الاهتمام بالميتافيزيقا، وبدت كم هي متأثرة بدراستها عن ديكارت، وباسكال، ومونتيني، ومالارميه، والشاعران بول فاليرى، ورسيكه، واهتمت في كتاباتها بابتداع مصطلحات جديدة بدأت تجد طريقها الى لغة النقد الأدبي مثل «ضد التاريخ»، «ضد المعرفة»، «ضد الخلاعة». ثم عادت الكاتبة للنظم عندما كتبت ملاحم صغيرة تدور أحداثها في بلاد خيالية متحفظة، وذات رؤى طوبوية.

● شاعرة مقروءة في العبرية والعربية !!

في عام ١٩٥٧ واجهت فيسلافا أول معارضة من الرقيب السياسي عندما نشرت ديوانها «نداء الى يتي»، وحسب جريدة ليبراسيون في ٤ أكتوبر الماضي، فان هذا الديوان قد تمت ترجمته الى ١٦ لغة والعهدة على الجريدة، منها العبرية، والعربية، والصينية، واليابانية. وتقول الصحيفة نفسها ان للشاعرة اثنى عشر

ديوانا ، ومقالات في الشعر الفرنسي القديم ، وان قصائدها تتسم بالقصر ، والوضوح ، وتبدو أحيانا كأنها قادمة من خارج التاريخ ، وهي تحمل نظرة مليئة بالنقاء تجاه العالم والبشر ، كما أنها رؤية مزاجية ثابتة : « لم يعد يوجد هناك ابن آوى الذي يمارس نقده التسلطي » ، وهذه العبارة تفسر رؤية الكاتبة للإبداع الذي كانت تتناوله بالنقد .

ورغم ما قالته الجريدة عن اللغات التي ترجمت قصائد فيسلافا ، فإنها تعود للاشارة الى أن القارىء البولندي العادي كان يمكنه أن يجد كتبها في أرفف المكتبات ، وقد علاها النسيان وذلك قبل اعلان فوزها بقليل .

ويتفق النقاد الذين تابعوا أعمال الشاعرة أن ابداعها اتسم باستقلالية الروح ، وابتعادها عن ممارسة السياسة بشكل مباشر ، وإن كان هذا لم يمنع أن تكون من المعارضين للشيوعية ، فقد كانت عضوا في حركة « Kor » وهو اختصار لاسم « منظمة المفكرين المعارضين » ، وهي المنظمة التي أيدت بقوة نقابة التضامن ، وساعدت في ميلادها عام ١٩٨٠ ، وقد عبرت الشاعرة عن آرائها في كتاباتها النثرية أكثر من أشعارها ، حيث كانت تكتب مقالا شهريا في جريدة «فيبروسكا» التي يصدرها المثقفون المناهضين للشيوعية واليسار .

وليست نوبل هي أول جائزة أدبية دولية تحصل عليها الكاتبة ، فقد سبق أن حصلت على جائزة جوتة من مدينة فرانكفورت ، وعلى جائزة « هردر » النمساوية ، وقد كتب عنها شيزلاف ميلوش في كتابه عن « الشعر البولندي المعاصر » انها صاحبة رؤية فلسفية في قصائدها ، أو ما أسماه بالشعر الفلسفي: « بلا شك ، فقد أبدعت أحسن ما لديها عندما حملتها غريزتها النسوية أن تبحث في جذور وجودها :

أنا قريبة
قريبة جدا من الحلم الذي يسكنني
أسحب ذراعي من تحت رأسي النائم
أحس كأنني محاطة بسنون الابر
فوق كل واحدة منها . تنتظر أن تحصيها
وهناك تقف الملائكة خائبة كالبشر

ومن قصيدتها « بورتريه لامرأة » تقول :

عليها أن تغير نفسها لاختيارها
وان تغير الصنف الذي لم يتغير
الأمر سهل ، ومستحيل ، وصعب ، ومؤلم
عيناها زرقاوان ، رماديتان
لكنها تطمع في عينين سوداوين ، مبتهجتين
لا تملأهما الدموع بلا سبب
تنام معه وكأنها لأول مرة
وكأنه وحيدها ، وعالمها الفريد
لذا فسوف تمنحه اربعة أطفال

شعر :
سليم الرافعي

دمشق



املأ العين بهجة من دمشق   واملأ الكأس سكرة من صباها
وترفق بين الدهاليز حبوا   تسمع الخالدين تحت ثراها
أرض (آرام) من صخور أطلت   نقشت أحرفا سمعنا صداها
خطوات الانسان منذ استقرت   قرب ماء الغدير .. من أحصاها ؟
وعلى مسمع العواصف نادى   عابد تحت كهفه إلهها
ورعى الضأن ثم أدى صلاة   عمته التقوى لثاب هداها
يا شعوبا بادت بأرض ويباب   كم سألنا من حيرة : ما دهاها ؟
غيبتها الرمال .. لم تبق دار   أو جدار على الثرى ينعاها
وسألنا التاريخ : هل عاشق قوم   جهلوا أن في الوجوه شفاها ؟
غير أني أكاد أسمع شعرا   هائل الصمت والرنين رثاها
كنت صحراء يا دمشق فجاءت   غيمة عبقرية من سماها
وتثنى بين البطاح صناع   (بردى) خالقا يصوغ المياها
وسعت تحرك الشعوب فلولا   جرية الماء .. ما تلاقت قلباها
بكروا يمرحون فوق تلال   وسهول أو يمسحون الجباها

وعدوا كالظباء في كل حقل   وصحا العشب واسترق الشفاها
وحكى الماء قصة فوق صخر   عاشت القصة التي قد حكاها
للفراعين وقصة فوق أرض   أذهل (النيل) ما حوت جنتاها
وسرايا (آشور) والفرس كانت   بجبال تسير تحت دجاها
وتهادى (الاسكندر) الضخم مهما   وجلالا بجيشه .. وتباهى
وتسامى (الرومان) كأسا دهاقا   (بردى) حانة يفوح شذاها

***

إملأ الكون عن (دمشق) حديثا   وارفع الرأس من تليد علاها
واخفض الرأس في محاريب رؤيا   (أموي) من الهداة بناها
لو دعي من الدهاة .. تحدى   أمم الغرب فارسا فطواها
ولواء الصحراء .. يبدل فجرا   من دم الشمس خافقا في سناها
ملهمون استووا على الروح عرشا   ومضوا كالشعاع لا يتناهى
يسأل المجد ما أمية ؟ إني   لا أرى أمة الخلود سواها

السحر والتنجيم ودفاع عن العلم والعلماء

بقلم: د . أحمد مستجير

كنت أظن أننا وحدنا من ابتلى بهذه الردة الثقافية وهذا الكم الخطير من كتب الشعوذة والسحر والتنجيم . ثم فوجئت بأننا لسنا وحدنا بعد أن قرأت كتابا رائعا لميكائيل ألابى صدر عام ١٩٩٥ عنوانه «مواجهة المستقبل» . وفى هذا المقال أود أن أعرض بعضاً مما جاء به من أفكار مثيرة تهمنا.. يقول ألابى إن الاعتقاد فى السحر والتنجيم لايزال قائماً فى كثير من مناطق العالم ، وأنه قد بدأ يظهر ثانية فى أوروبا وأمريكا بعد أن قضى الدين عليه فيهما . اذهب إلى أى محل لبيع الكتب اليوم فى انجلترا فستجد رفوفاً قد خصصت لكتب السحر والتنجيم ، ولقد نجد أن المساحة المخصصة لهذه الكتب تزيد كثيرا على المساحة التى تشغلها كتب العلوم ، بل وهناك فى بعض المدن مكتبات بأكملها لا تعرض إلا كتب السحر والدين المحرف وكتب الباذرجة!

ذاعت اللاعقلانية ثانية وازدهر ما كان يوماً يسمى «الخرافات» . عاد عالم الشعوذة وتحضير الأرواح . فى دراسة مسحية أجريت مؤخراً فى انجلترا اتضح أن نصف المختبرين يعتقدون فى العلاج بالأرواح ، وأن ثلثهم يستشيرون أبواب الحظ فى الجرائد والمجلات . وفى أمريكا ظهر أن واحداً من كل ثلاثة اختبروا يدعى أنه تحدث مع روح أحد أقاربه المتوفين، وأن واحدا من كل خمسة يعتقد أن قدم الأرنب تجلب الحظ الطيب ، كما كان هناك من بين أساتذة الجامعات من يعتقد فى القوة السحرية للأهرام!

ما الذى قد حدث حتى تنتشر مثل هذه الأفكار اللاعقلانية المعادية للعلم؟

لماذا ظهرت كل هذه الفئات المتباينة تريد وقف سير العلم؟ أعداء العلم والبحث العلمى يعارضون نشاطا تحض عليه



الأديان ويتجذر في الحضارة من زمان طويل طويل . وإنكار هذه الجذور هو إنكار لما يميز الحضارة ، هو لا يعني فقط التخلي عن الماضي ، إنما يعني أيضا أن نخسر المستقبل ، فتفضيل الجهل على العلم لا يشبه إلا تفضيل الخبيث على الطيب.

موقف الناس من العلم والعلماء

كان العلماء قبل الحرب العالمية الثانية يظهرون في الروايات وقصص الأطفال كشخصيات مجلوبة إن تكن ذاهلة، وربما اتسمت أيضاً بمسحة من الجنون ، لكنهم كانوا خيرين على العموم ، لا يؤذون، يبتكرون آلات تصنع الأشياء البسيطة بطرق غاية في التعقيد ، ثم إنها في نهاية الأمر لا تعمل !

بدأ الموقف تجاه العلماء يتغير بعد عام ١٩٤٥ . كان العلماء في زمان الحرب يبجلون ، فهم من يبتكر الأسلحة ومن يبتكر طرق الوقاية منها . لعبوا دوراً متميزاً خلال الحرب في الدفاع عن أوطانهم وعن الفلسفة الديمقراطية الليبرالية . فلما انتهت الحرب بقيت الأسلحة دون ما هدف توجه إليه . وظلت الأسلحة الذرية بالذات تبث الرعب في القلوب ، وأصبحت تحت السيطرة الكاملة للعسكريين، الذين وقعوا تحت الرقابة الكاملة للسياسيين . لم يعد من الممكن استخدام هذه الأسلحة إلا بموافقة السياسيين ، لكن اللوم لم يكن يقع على السياسيين بقدر ما كان يقع على العلماء، فهم الذين ابتكروا هذه الأسلحة .

أصبح رجل العلم في الرواية والمسرحية والفيلم رمزاً للسلطة ، شريراً أحياناً ، وساذجاً أحياناً أخرى، لكنه في كل الأحوال لعبة في أيدي آخرين يستغلونه . لم يعد رمزاً للهزل البريء.

يقال كثيراً إن الفنانين والكتاب يصورون العلماء بنوع من الموضوعية يضفي عليهم شيئاً من التجرد والاستقلال. لكنهم في الحق مثلنا جميعا لا يستطيعون أن يهربوا من آراء المجتمع ومواقفه – المجتمع الذي يحيون فيه . إن أعمالهم تحمل رؤيتهم الخاصة ، لكنها رؤية يشترك في صياغتها المجتمع ككل . الصورة القبيحة لرجل العلم في الرواية إنما تعكس فكرة منتشرة بين الناس، أوسع من أن تكون فكرة المؤلف وحده.

والرسالة التي تنقلها الروايات والأفلام عن العلماء رسالة واضحة : قد يكون

العلماء دمثى الأخلاق . قد يكونون غريبى الأطوار - لكن من الحكمة ألا نثق بهم، ولا هكذا تعرض الشخصيات من المهن الأخرى فى الأفلام والروايات. صور الشعراء والرسامين والموسيقيين والكتاب والممثلين تعرض بحيث لا يتشكك أحد فى قيمة أعمالهم . العلماء وحدهم هم من يعاملون معاملة غير منصفة . لا أحد يسلم بقيمة أعمالهم . قد تكون مفيدة - نعم ، لكنها قد تكون خبيثة. ومثل هذه الصورة عن العلماء كشخصيات يتأصل فيها الخطر تحطم ثقتنا وأملنا فى المستقبل ، وتشجع على رفض الأساس العقلانى لتفحص عالمنا .

العلماء والكتاب

يصور العالم كثيرا على أنه إنسان بلا روح ولا خيال ، هو آخر من نتوقع أن يقرأ الشعر، ناهيك عن كتابته . يقال إنه ليس بين العلماء من يتصور أن الشعراء «يفكرون» أو أن الشعر ذاته فن صارم منضبط للغاية . فهل هذا صحيح؟ كان فرانسيس بيكون يقرض الشعر، ومثله كان جيلبرت هوايت وجيمس كلارك ماكسويل والسير جوليان هكسلى . كتب تيم رادفورد فى جريدة الجارديان فى ٢ سبتمبر ١٩٩٣ يقول إن أشهر الشعراء عام ١٧٩٢ لم يكن ويردزورث ولم يكن بليك، إنما كان عالما إسمه إراسموس داروين . كان كتابه «حديقة النباتات الذى نشر عام ١٧٩٢ من أكثر الكتب رواجاً ، وجودة مافيه من شعر كانت لا شك هى السبب.

ثم كان هناك من الشعراء أيضا من استمد الإلهام من العلماء وأفكارهم . كتب بيرون عن زواحف ماقبل التاريخ ، التى أطلق عليها فيما بعد اسم الديناصورات . كان صمويل تايلور كولريدج يحضر محاضرات دافى بحثا عن أفكار جديدة . أما شيلى فقد مضى حتى لأبعد من هذا ، لقد أجرى تجاربه العلمية الخاصة ثم صاغها شعراً. ما وجه العجب؟ الرواد من كل مهنة كثيرا ما يكونون مثقفين كبارا ، يحبون الفن والموسيقى والأدب والعلم . ابداع العلماء والفنانين يفيض من نفس النبع .

الربيع الصامت

وفى عام ١٩٦٢ ظهر كتاب «الربيع الصامت» لراشيل كارسون ، نبهت فيه المؤلفة إلى مخاطر الاستعمال الطائش للمبيدات على الانسان وعلى البيئة . اعتبر هذا الكتاب «أخطر وثيقة تاريخية بالنسبة للجنس البشرى ظهرت فى القرن العشرين» ولابد أن يقرأه كل مواطن مسئول» . ستقتل المبيدات الطيور ليأتى الربيع صامتاً بلا طيور تغنى . ومن بعده ظهرت فى الستينات والسبعينات سلاسل كاملة من الكتب وأعداد لا تحصى من المقالات بالمجلات والصحف كرست لما أطلق عليه «أزمة البيئة» التى تواجه كوكب الأرض . كان معظمها مكتوباً بلغة مثيرة ، ويفضى إلى نتائج كئيبة . وانحى الكثير من الكتاب باللائمة على التوسع فى الصناعة وعلى الابتكارات التكنولوجية .

ثم ينتهي وقود الجدل ، ويفقد الصحفيون اهتمامهم، ويتجه القراء إلى أمور أخرى أكثر إلحاحاً ، وتتوقف الحملة في أواسط السبعينات لمدة بلغت نحو عقد من السنين.

وعلى أواسط الثمانينات ازداد حديث العلماء عن ثقب الأوزون وظاهرة الصوبة (ارتفاع حرارة الغلاف الجوى للكرة الأرضية) والمطر الحمضي ، وتآكل التنوع الحيوى ، وظهر جيل جديد يتبنى قضية «أزمة البيئة» ويثيرها ثانية . ووجه الاتهام إلى الصناعة والتكنولوجيا التي يغذيها العلماء . لم يدرك هذا الجيل أن معظم مايعرضونه معروف جيداً وأن الجدل فيه قد استنفد . غير أن الحكومات والمؤسسات الدولية استجابت لهم، فسهل عليهم أن يتحدوا مفهومي «النمو» و«التقدم» - ليطلبوا بالحاح ضبط التقدم على الأقل ، إن تعذر إلغاؤه.

العلماء غير جديرين بثقتنا - هكذا يقولون - لقد أفسدوا الأرض ، أمنا الأرض . وعدم الثقة في العلماء يعني رفض فكرة التقدم التي بنيت عليها حضارتنا ، رفض التطور الصناعي والتكنولوجي (والتكنولوجيا هي تطبيقات الأسس والقواعد العلمية) . ثمة خلط ذاع بين العلم والتكنولوجيا - يلام عليه العلماء - فلقد ارتباطا العلم بالتكنولوجيا في أيامنا هذه ارتبطا وثيقا بحيث أصبح التمييز بينهما غير واضح . فالمكتشفات العلمية تجد الآن طريقها سريعا إلى الاستغلال التجارى والصناعي . لكن هذا أمر حديث. فعلى طول التاريخ كان مبتكرو الأجهزة لا يفهمون عن الأساس العلمي لمبتكراتهم إلا القليل . هم يدركون الطرق لتشغيل الأشياء - يبتكرون السهم والقوس مثلا - ثم يأتي العلماء من بعدهم يدرسون كيف ولماذا تعمل . والحقيقة أن العلماء كانوا يرفعون مستوى معارفهم بالبحث عن تفسيرات للطرق التي تعمل بها مثل هذه الأجهزة . وبذا ارتبط مفهوم «التقدم» بالصناعة والتكنولوجيا . ورفض الابتكار التكنولوجي إنما هو رفض لمفهوم التقدم.

التشاؤم ورفض التقدم

والتقدم يعني التطلع إلى مستقبل يحيا فيه أبناؤنا وأحفادنا حياة أكثر سعادة وأكثر صحة . هو يعني الأمل . فإذا رفضناه فلن تكون لدينا أهداف بعيدة المدى ، لن نجد ما يستحق أن ندافع من أجله . هل يجوز لنا أن نسمح لأحد أن يجعلنا نخشى المستقبل؟ لابد أن نثق في احتمالات التقدم - الأديان تسمح بالبحث العلمي وتشجعه ، والعلم يقود إلى ارتقاء المجتمع ونوعية الحياة . لكن هذا هو مالا يسمح به أعداء العلم . ولما كان «ابتكار المستقبل» من صنع فكرة التقدم ، فهم يرفضون المستقبل . والخوف من المستقبل يولد التشاؤم . الكثير من التنبؤات الشائعة التي يطلقها أعداء العلم تحذرنا من أن المستقبل سيكون بالتأكيد أسوأ، ومن أن غطرسة العلماء من شأنها أن تقضي علينا . ليس من المستغرب إذن أن يتسبب هذا الخوف الذى ذاع ، في

انشغال الناس بالـ «هنا والآن» سننهمك لنحظى من الحاضر بلذاته . ننشد الربح المادي السريع ونجرى وراء المتعة العابرة ونجعل للثروة أعلى القيم . ينكفيء البعض على نفسه في عدمية ذاهلة : ويرتد البعض يبحث عن ماض ذهبي جميل ولى ، أو إلى فكرة في الماضي عفا زمانها ، فيقبلون بحكم الكهول والموتى. ويهيم آخرون في يوتوبيا يأملون أن يقيموا مجتمعا جديدا لم يسبق أن كان له مثيل، مجتمعا أبداً لن يتحقق ويدعي البعض أنهم يبحثون عن الحقيقة ، عن معنى في الطبيعة يمكن أن يرتبطوا به ويتناغموا معه - فالحقيقة عندهم لا يمكن ادراكها إلا بالحدس ، لا بالعلم ولا بالعقلانية وتهرب جماعة أخرى تنشد «التطور» فلا تأكل الأطعمة الملوثة بما يسمى «الكيماويات»، ولا تسمع من الموسيقى إلا خرير الجداول تثرثر فوق الأحجار ، وصوت الريح في الشجر يداعب الأوراق ، وغناء الطير يشدو بالحان التزاوج ثم يتركون جميعا المشاكل الحقيقية التي تواجه البشر تتفاقم بلا حل. فإذا مضينا في هذه الحماقات وسمحنا لمعارضي التقدم أن يحكموا قبضتهم ، فسينزلق المجتمع ، هذا الخائف، خارجا في رفق من التاريخ إلى عالم النسيان!

نجح أعداء العلم إذن نجاحا واضحاً في إثارة مخاوف الناس من العلم ومنتجاته. يقولون لنا إننا نجري وراء أوهام عفا زمانها ، وراء أحلام التقدم الاجتماعي والمادي التي ترتكز على الاعتقاد الساذج فيما يقال له «علم». فالمعلومات العلمية تفتقر إلى المعنى الحق، هي تحكي عن كل شيء وتصمت عما يهمنا - عن الموضوعات المتعلقة بالطريقة التي نشعر بها، بالطريقة التي نحس بها بأنفسنا . هي لا تحكي عمن نكون . المادية توجه العلم. وينسون أن المادية التي يستند إليها البحث العلمي لا تعني على الاطلاق رفض الروحانية . صحيح أن العلماء قد دربوا على أن يتشككوا وأن يطلبوا أن تكون التأكيدات العلمية مدعمة بالشواهد والجدل المنطقي، لكن الكثير جدا من العلماء مؤمنون متدينون، ويندر فعلاً أن نجد بينهم من لا يحس بالدهشة من الجمال الذي كشفته أبحاثهم .

اللؤلؤة مرض بالمحارة

لابد لنا أن نتنفس، لابد أن نأكل، لابد أن نحمي أنفسنا، لابد أن «نفعل» . فالمستقبل من صنع أفعالنا ، والأغلب أن يكون مثلما نتوقعه . هم يطلبون أن ننسى أن الناس يعيشون الآن حياة أطول وأن حياتهم أكثر صحة من آبائهم - فالناس يتسممون!.. أن ننسى أن مزارعنا تنتج الآن مثلما لم تنتج أبداً - فالطعام ملوث والزراعة تبدد الحياة البرية!.. أن ننسى أن الكثير منا يقود سيارة أو يركب حافلة - إنها تحتاج طرقا تكلفنا أرضاً وتدمر مواطن الحياة البرية وتلوث الجو . إنهم يروجون للتشاؤم ويعرضون المشاكل في صيغة لا تقبل الحل كي نقعد عن العمل - ثم لا يقدمون بدائل صالحة . هم يطلبون منا ألا نعمل لأن نتائج أعمالنا ستكون

بالضـــرورة ســالبـة. لا يجـوز أن نجـمع المعارف لأنها تفسـد أرواحنا . لابد أن نتحاشى المنطق فهو جاف مجدب لا يلائم عواطفنا ، علينا أن ننسحب إلى طمأنينة المتشائم ونتلذذ بمعاقبة أنفسنا .اللؤلؤة ليست سوى مرض بالمحارة . ورفضنا العلماء – قيمهم وطرقهم فى التفكير – هو هروب من العقل إلى ظلمات التشاؤم العقيم : رفضنا الروح العلمية ، رفض الدين ، رفض الإيمان بإمكانية التقدم ، إنما يفضي إلى الفزع مما قد يكون عليه الغد – فإذا اقترن هذا الرفض بتلك النزعة الاستهلاكية اللاهية – نتباهى بها أو ننشد بها تأكيد وجودنا ، فإن هذا لا يعنى سوى التدهور .

جيمس لفلوك وفكرة «جايا»

للناس على طول التاريخ علاقة غامضة عـميـقـة بالأرض – تربة تنبت الزرع ، وكوكبـاً نحـيـا على ظهره . فى أوائل الستينات كـان جيمس لفلوك يبحث عن كلمـة يصف بهـا فكرة له جديدة عن الطريقة التي يعمل بها كوكب الأرض . واقترح عليه الروائي وليم جولدنج (وكان يسكن معه فى نفس القرية) اسم «جايا» – اسم إلهة الأرض عند الاغريق . وجدها لفلوك ملائمـة فـتبناها . نما الاهتمام بنظريته ونما التحمس لها بين بعض البيئيين، وعنهم انتشرت الفكرة إلى مجاميع أخرى لتلهمهم بإعادة الحياة إلى الأفكار الدينية عن «أمنا الأرض».

أدرك لفلوك أن الكائنات جـمـيـعـا تشترك في شيء واحد : أنها تحور بيئتها بأن تأخذ منها العناصر الغذائية وتعيد إليها منتجات التمثيل الثانوية . وعلى هذا فمن الممكن أن نعرف بوجود الحياة من خلال مـا يحدث من تغير فى كيمياء الكوكب، وبالذات في غلافه الجوى . نشرت هذه الأفكار في بضع مجلات علمية ووصلت إلى الجمهورالعريض عندما نشرها سنة ١٩٧٩ في كتابه «جايا: نظرة جديدة إلى الحياة على الأرض» . تستطيع هذه النظرية أن تفسر التركيب الكيماوى للغلاف الجوى وللمحيطات ، وتقترح أن العمليات البيولوجية هى التى تدفع الدورات البيوجيوكيمـاوية ، التى بها تتحرك العناصر بين اليابسة والبحر والجو. كان لفلوك يرى أن الكائنات الحية هى الأساس فى هذه الدورات ، هى التى تتحكم حتى فى درجة ملوحة ماء البحر ، بل وحتى فى الحركة التكتونية لألواح قشرة الأرض . لكن ربما كان المهم هو أن الكائنات الحية تحفظ التوازن في مناخ الكرة الأرضية بأن تنظم محتوى الجو من ثاني أكسيد الكربون.

ظلت النظرية موضع جدل . هي كما يقال دائرية : وجود بيئة ملائمة يثبت وجود جايا ، ووجود جايا يفسر وجود البيئة الملائمة . وقيل إنها تفسر أكثر من اللازم ، فـأيا كانت الظاهرة فلدى جايا التفسير لها . وقيل إنها غائية إذ تفترض هدفا تتعاون الكائنات لتحقيقه – ومن الصعب أن نتخيل تعاونا موجها تشترك فيه الكائنات بأنواعها جميعا . لكن لفلوك

يرفض هذه الغائية بالذات رفضا تاما، فجايا عنده ليست بأكثر من ماكينة واستجاباتها ليست بأكثر من آليات أوتوماتيكية تظهر عن الأنشطة الطبيعية كالتنفس والحصول على الغذاء وتمثيله، وتؤدى إلى مفهوم عن الأرض كما لو كانت كائنا حيا واحدا، لكنها لا تعنى أبدا ذكاء موجها ولا سعيا واعيا نحو هدف . هى ليست كائنا ذكيا . ثم إن النظرية ليس بها مكان للحيوانات الكبيرة كالبشر . إن تدوير العناصر هو أساساً عمل البكتريا . وتنظيم الجو يرجع إلى الكائنات وحيدة الخلية وبعض اللافقاريات المائية تساعدها النباتات . أما نحن والكائنات الكبيرة الأخرى فليس لنا دور كبير . لو أننا اختفينا ومعنا الماسية والحيتان والافيال ... إلخ ، لما تأثر كوكبنا إلا قليلا .. لن تبالى جايا بالتلوث الصناعى أو بتجوير المناخ . حتى لو أدى هذا إلى فناء البشر وكل الحيوانات الكبيرة . سيبقى الكوكب حيا بعدها .

جذبت فكرة جايا انتباه البيئيين، وأصبحت لديهم «أمنا الأرض» . تحولت لتصبح شيئاً مقدساً لم يفكر فيه لفلوك ، أصبحت جايا الفكرة الملاذ، بيتنا الدافئ، سفينة الفضاء التى تحملنا وتحمينا . لابد أن نحنو عليها مثلما تحنو علينا، أن نحفظها كما تحفظنا . لمصلحتنا لابد أن نصونها ، أن نصون كل ما على سطحها ونتركه كما أرادت «هى» . لابد أن نمتثل لإيماءاتها . فإذا كانت قد حفظت كل هذه المخلوقات على ظهرها، فإن هذا لسبب تعرفه «هى» ، ولابد أن نحمى لها هذه الكائنات فلا تنقرض.

التنوع الحيوى

سيوافق معظمنا على ضرورة الحفاظ على الأنواع الحية - لكن .. ليس كل نوع، وليس بأى ثمن ! من ذا يوافق على الحفاظ على القمل أو البراغيث أو البعوض الناقل للملاريا أو بكتريا السل؟ من ذا الذى سيعترض على القضاء على فيروس الإيدز ؟ نحن فى الحق انتقائيون . إننا نحكم العاطفة . ومثل هذه النظرة قد لا تفيد حتى مانود أن نحميه من الكائنات. وعندما نحمى الأرض فلا يجب أن نحميها باعتبارها «أما» متفهمة حنونا - فالأرض على أية حال لا تحمل الآن أكثر من ١٪ مما ظهر يوماً على ظهرها من كائنات (يبدو أنها لم تكن أبداً تلك الأم الرءوم التى يدعون!). الحفاظ على الأرض لا يكون إلا من خلال الملاحظة العلمية الصارمة ، من خلال التجريب والجدل العلمى . فإذا وجدنا أن ما نرمى إليه غير ممكن ، فما معنى المحاولة؟ وإذا كان ممكنا ، فلنقم به، لأنا بهذا نخطو نحو مستقبل أفضل . المحافظة على الأنواع وعلى البيئة وقبول المنهج العلمى أساساً لبلوغ الهدف يعنى الإيمان بمستقبل أفضل . هل لنا حقا أن نحفظ كل تلك المساحات الشاسعة من أراضى المستنقعات ونبقيها كما هى كمتاحف لمجرد أن نرضى حنيننا إلى الماضى؟

قصة الـ «د. د. ت»

حذرت راشيل كارسون فى كتابها

«الربيع الصامت» من النتائج السلبية التي ستحدث من جراء الاستعمال الطائش للمبيدات . أهدت كتابها إلى «ألبيرت شفايزر» الذي قال «لقد فقد الانسان القدرة على التنبؤ والحيطة وسينتهي بأن يدمر الأرض». ابتكر العالم السويسري بول مولر مُركبا أطلق عليه عند تسجيل براءته عام ١٩٤٣ اسم «د. د. ت»، ليستخدم بديلا عن مبيدات حشرية أكثر سمية ترتكز على الزرنيخ والنيكوتين ، اللذين يقتلان الحيوانات ذات الدم الحار، وبديلا عن مركبات نباتية مثل البيرثريوم كان من الصعب توفيرها بكميات كبيرة ، كما كانت تفقد سميتها بسرعة عند التعرض للهواء وضوء الشمس . حصل مولر باكتشافه هذا على جائزة نوبل عام ١٩٤٨ (وتبرع بقيمتها لمساعدة شباب العلماء).

استخدم الـ «د. د. ت» لأول مرة ضد القمل الذي ينقل مرض التيفوس . عفرت به ملابس الجنود وملايين من المدنيين أثناء الحرب العالمية الثانية ، فمنع انتشار هذا المرض الخطير . ثم ظهرت بعض حالات تسمم بين بعض من تعرض لكميات كبيرة منه مذابة في الزيت أو في الأسيتون، ولكنهم جميعا شفوا . أنقذ هذا المبيد في الحقيقة حياة الملايين من البشر . كتبت كارسون تقول إن الـ «د. د. ت» إذا ما دخل جسم الإنسان خزن في الأعضاء الغنية بالمواد الدهنية مثل غدة فوق الكلية والخصيتين والغدة الدرقية، كما يرسب بكميات كبيرة في الكبد والكلى. لم يكن معروفا عندما نشرت كارسون كتابها أن مستوى الـ د. د. ت» إذا ما وصل إلى حد معين بدأ الجسم في إخراجه، فهو لا يتراكم في الجسم إلى مالا نهاية . ثمة تقارير أفادت بالعثور عليه في لبن الأمهات، وكان أعلى مستوى كشف عنه هو ٠.٠١ ملليجرام في اللتر . أما الرقم الذي تسبب في ذعر كبير فكان في «دهن» اللبن، إذ بلغ ٠.٣ ملليجرام . كما عثر على الـ «د. د. ت» أيضا في دهن بعض الحيوانات البحرية كالفقمة ، بل وحتى في القارة القطبية وفي الغلاف الجوى .. كانت التركيزات منخفضة جدا ، لكن المعرفة بوجوده قد تسببت في اندلاع هلع واسع ، فقامت حركة هائلة تنادي بالتوقف عن استخدامه وحظر في نهاية الأمر في معظم الدول .

لكن ، دعنا نرى ما حدث في سرى لانكا . بدأت هذه الدولة عام ١٩٤٨ في استخدام الـ «د. د. ت» لمقاومة بعض الأنوفليس الناقل للملاريا . كان عدد حالات الإصابة بهذا المرض في ذلك الوقت هو ٢.٨ مليون حالة . وعلى عام ١٩٦٣ كان العدد قد وصل إلى ١٧ حالة (سبعة عشر شخصا فقط) . ثم صدر قرار حكومي بوقف استخدام الـ د. د. ت» لأنه خطر على الصحة . وعلى عام ١٩٦٩ كان عدد المرضى بالملاريا قد ارتفع إلى ٢.٥ مليون حالة ! الخوف من استخدام الـ د. د. ت» لأنه قد يؤذى البشر قد أدى مباشرة إلى زيادة الأذى، وليس ثمة دليل على أن إيقاف استخدامه

قد أدى أية فائدة للبيئة في سرلانكا . عندما يمنعنا الخوف من الفعل خشية أن نضر أنفسنا فقد يحدث الأذى الذى نخشاه، بل وقد يكون الأذى أكبر.

حدثت حالات تسمم كثيرة من المبيدات، وفرت معلومات قيمة أدت إلى تعديل استخدامها . الحوادث مؤسفة حقا لكن العلماء يتعلمون منها - مادامت قد وقعت - وكذا الجمهور . وربما كان فيما حدث بالنسبة لطيور كارسون ما يستحق النظر.

وما زالت الطيور تغني

فبعدما نبهت كارسون في «الربيع الصامت» إلى احتمال أن تفنى الطيور بسبب المبيدات، أخذت السلطات وشركات انتاج المبيدات والناس موقفا حاسماً تجاه المبيدات واستعمالها الطائش .. في فصل من هذا الكتاب عنوانه «ولا طيور تغنى» حذرت كارسون من احتمال انقراض أربعين نوعاً من الطيور - ذكرتها بالاسم . وفي مسح أجرى بالولايات المتحدة لتعداد هذه الأنواع في الفترة ما بين عامي ١٩٦٦ و١٩٩٣ ، وضح إليستربروك (في كتابه «لحظة فوق الأرض» الصادر عام ١٩٩٥) أن أعداد ١٩ نوعاً (نحو النصف) ظلت ثابتة، بينما تزايدت أعداد ١٤ نوعاً (نحو ٣٥٪) بنسب بلغت ٤ . ٥٪ سنوياً في بعض الأنواع ، ولم ينخفض العدد إلا في سبعة أنواع من بين الأربعين (نحو ١٥٪) - لكن البعض من هذه الأنواع الأخيرة (المهاجر منها خاصة) قد انخفض عدده بسبب تصحر أماكن تشتيته في المكسيك والكاريبي أو بسبب جفاف المستنقعات التي تحيا بها . لو أن الاتجاه في استخدام المبيدات ظل كما كان عند ظهور كتاب كارسون لحدث فعلا ما توقعته . لقد أدى الكتاب وظيفته في التحذير ، وأدى العلماء وظيفتهم في الحد من الأضرار أوتجنبها.

الخوف من المستقبل

والموقف من المبيدات ليس سوى واحد من أمثلة كثيرة للخوف من المستقبل. من الأمثلة أيضاً معارضة التخلص من النفايات الخطرة في البحر ، عندما تكون تكاليف الطرق البديلة أعلى، وتكون - ربما - أكثر خطورة . ثمة اقتراح للتخلص من النفايات الذرية ذات الاشعاع المنخفض في حاويات مغلقة تلقى في أعماق المحيط بعيدا عن الشاطيء . قوبل الاقتراح بالمعارضةالشديدة، فقد تتسرب المواد المشعة إلى الماء فتلوث سلسلة الغذاء حتى تصل إلى الأسماك التي نأكلها . لكن العلماء يقولون إن التبادل بين الحياة السطحية في المحيط ومياه الأعماق بطيء للغاية ، ففي المحيط الهادىء تبقى المياه العميقة معزولة عن مياه السطح مدة تصل إلى ١٠٠٠ - ١٦٠٠ عام ، وتبقى نصف هذه المدة في المحيط الأطلسي والهندي . هذا هو الزمن الذي تتطلبه المواد الملوثة لو حدث وتسربت من الحاويات لتدخل سلسلة الغذاء حتى تصل إلى الانسان . وهذه المدة طويلة بما يكفي لأن يصل النشاط الاشعاعي إلى

مستويات غير مقلوبة . والحل البديل؟ التخلص من النفايات على اليابسة مثلما يحدث مع غيرها من النفايات، بكل مافي ذلك من مخاطر حقيقية!

أساليب الحركة المضادة للعلم

تعتمد الحركة المضادة للعلم على تجاهل منجزاته وتتفيهها وإنكار ما قدمه للبشرية من منجزات أو محاولة اخفائها، وتحميله تبعة ما يحدث من أخطاء ومخاطر في التطبيق التكنولوجي ، وتضخيم ما قد يقع على الناس من أذى بسببها وتأكيده والإلحاح عليه في كل الوسائل الاعلامية - ثم حجب الحقائق العلمية بكل وسيلة عن الجماهير (فالناس أعداء ما يجهلون، ويميلون إلى المبالغة في حجم المخاطر إذا جاءت كما يبدو خارج نطاق تحكمهم ، وبث الذعر في قلوب الناس بربط العلم بمشاكل هو برىء منها ، وتلفيق قضايا وهمية زائفة والتهويل فيها إعلاميا ، ألم يصل الأمر يوماً إلى الادعاء بأننا نقترب حثيثا من زمن يزيد فيه إحراق الوقود إلى حد ينخفض فيه محتوى الهواء من الأكسجين حتى نختنق؟! في الوقت الذى تقول فيه الحسابات العلمية إننا لو أحرقنا كل ما يمكن استخراجه من الوقود الحفرى بالعالم (الفحم والبترول والغاز الطبيعي) فستنخفض نسبة الأكسجين في الجو من ٢٠،٩٤٪ (معدلها الحالي) إلى ٢٠،٨٪

وجهت دعوة إلى بروس إيمز - استاذ الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية ، ومدير مركز علوم الصحة البيئية بجامعة كاليفورنيا بيركلي، وعضو أكاديمية العلوم الأمريكية، وعضو الأكاديمية الملكية للعلوم بالسويد - وجهت إليه دعوة لكتابة مقال ليصدر في عدد مايو ١٩٩٢ من إحدى مجلات جمعية بيئية . كتب الرجل مقاله وهاجم فيه سوء التفهم الواسع الانتشار وسوء استخدام البيئيين للمفاهيم العلمية والبيانات . قال «إنهم يتهمون تلوث الجو بأنه السبب في ظاهرة الصوبة وثقب الأوزون ، ويتهمون المبيدات بأنها السبب في انتشار السرطان، لكن هذه والكثير غيرها من قضايا البيئة ترتكز على علم ضعيف أو ردىء، فالحقيقة هي أن مستقبل هذا الكوكب لم يكن أبداً بمثل هذا الاشراق» . ورفضت المجلة نشر المقال! أعلنت منظمة الصحة العالمية في ١١ مايو ١٩٩٣ أن هناك نحو ١٤ مليون مريض بالسرطان في العالم، وأن المتوقع أن يزداد العدد ، وقالت إن أهم أسباب ذلك : التدخين ، ومعه - بالعجب - الرعاية الصحية الأفضل التى يتلقاها الناس! الناس يعيشون بسبب الرعاية الصحية الأفضل حياة أطول ، ومن ثم تتاح فرصة أطول لظهور السرطانات ، فالسرطان من أمراض الشيخوخة ، فهل نلوم العلم والعلماء لأن عمر الإنسان في عصرنا هذا قد غدا، في المتوسط ، أطول؟

تلوث البيئة لاشك أمر بغيض ، لكن من السخف أن نفترض أنه يهدد بقاء الانسان أو غيره من الأنواع . البعض منا - حسن نية - يهولون من المخاطر إذ

يأملون أن «يوقظوا» الجمهور وينبهوه ليأخذ حذره ، وينبهون العلماء إلى ما استجد من مشاكل ليتصدوا لها . وهم يصدقون فعلا ما يقولون . غير أن هناك من له هدف آخر هو الاعتراض الأساسي على التصنيع من أى لون، والتكنولوجيا بعامة . ومن الغريب حقا أن نجد هؤلاء يقفون بمجهوداتهم على الاعتراض على التنمية الاقتصادية للدول الفقيرة ، لأنهم يرون أن الناس سيكونون أسعد وأكثر صحة إذا ظلوا فقراء، ولأنهم من ناحية أخرى يخشون أن مثل هذه التنمية قد تضر العالم ككل.

العلم يرفع انتاج الحبوب

والفقر هو السبب الرئيسي للتزايد السكاني والتزايد السكاني يعني ضرورة أن ننتج من الغذاء أكثر . ظهرت الحاجة إذن إلى سلالات من الحبوب تنمو جيدا بالمناطق الحارة وشبه الحارة ، حيث تتركز الدول الفقيرة، وتستجيب لزيادة التسميد بأن تنتج بذورا أكثر . ونجح فريق من العلماء في مركز متخصص بالمكسيك في استنباط سلالات من القمح تقابل هذه الاحتياجات . بدأ توزيع أولى هذه السلالات عام ١٩٦٢ ، وكانت تنتج ١٥ - ٢٠ طنا للهكتار (الهكتار = نحو ٢.٥ فدان) بينما تنتج السلالات المحلية نحو ٨ أطنان . بهذه السلالة تضاعف انتاج القمح فى الهند ثلاثة أضعاف فيما بين عامى ١٩٦٦ و١٩٧٩ . وحدث نفس الشيء بالنسبة للأرز ، إذ استنبط العلماء بالمعهد الدولى لبحوث الأرز بالفلبين فى أوائل الستينات سلالات من الأرز وزعت الأولى منها على نطاق تجارى عام ١٩٦٦ ، وكانت ترفع انتاج الهكتار من الأرض من أقل من طنين إلى ما قد يصل أحياناً إلى ١٦ طنا . صحيح أن هذه السلالات تحتاج إلى كميات كبيرة من الأسمدة لتصل إلى أعلى انتاج لها، لكن محصولها دون الاضافات السمادية يفوق السلالات المحلية كثيرا . وهى تحتاج أيضا إلى الكثير من المبيدات لتقليل الفاقد من المحصول في الحقل وعند التخزين . وبالنظر إلى انتاجها الوفير فإن الأمر يتطلب شبكة مواصلات أفضل، وتسهيلات بنكية للفلاحين.

وفر العلماء والتكنولوجيون إذن الوسيلة لتفادى أزمة الغذاء العالمى التى تهددنا . ومازالو يفعلون الكثير، وستسهم الهندسة الوراثية لاشك فى زيادة عطائهم.

التنبؤ - لاسيما بالمستقبل - أمر صعب

يقول المثل الصينى القديم «إن التنبؤ صعب، لاسيما إذا كنت تتنبأ بالمستقبل» المتنبيء يحيا فى زمان بذاته ومكان بذاته وظروف بذاتها، ومن هذه لابد أن تكون كل تنبؤاته . تحاول التنبؤات أن تصف ما سيكون عليه العالم بدءا من نقطة معينة ، وهى تأتى عن طريق معرفة مايبدو فى الحاضر أنه اتجاه، ثم يستقرأ منه ، وبذا يكون المستقبل هو الحاضر مؤكدا فيه على نواحى بذاتها . ويكاد يكون من

المستحيل أن نتخلص من هذا التحيز .. ونحن نبخس في التنبؤات من أهمية الإبداع البشري ، فليس من يستطيع التنبؤ به. والإبداع البشري مورد لا ينضب، فهو متجدد أبداً لا يمكن استنزافه.

تقول التنبؤات إن الصناعة بخطواتها الحالية ستؤدى إلى نضوب موارد الأرض غير المتجددة . ويتعلق أنبياء التشاؤم النائمون - إذا استعرنا تعبيراً لكارل بوبر - بهذه النبوءة. يحاولون بها وقف أو إبطاء عجلة التصنيع: سيختفي التصدير كمادة خام خلال عقد الثمانينات (لايزال موجوداً حتى الآن!) ، وقبل نهاية هذا القرن ستغدو معادن الفضة والذهب والرصاص والزنك غير متاحة!! أما احتياطات الأرض من النحاس فستنضب على عام ٢١٠٠.كان هذا المعدن (النحاس) يستخدم بكميات هائلة في صناعة كابلات التليفون والتلغراف تحت سطح البحر، وكذا في صناعة أسلاك التليفون ، لكنا نعرف أن المحادثات التليفونية تجرى اليوم عبر القارات من «فوق البحر» - تمر المكالمات في خط أرضي إلى محطة بث ، ومنها بالراديو إلى قمر صناعي يدور ، ينقلها إلى محطة استقبال ، ومنها بخط أرضي إلى المستقبل . لم يعد هناك لزوم للكابلات تحت سطح البحر . ثم إن الخطوط النحاسية الأرضية تستبدل بها الآن كابلات من ألياف مصنوعة الزجاج المصنوع من الرمل . لم يكن هذا كله استجابة للخوف من نضوب موارد النحاس ، وإنما لمقابلة الطلب المتزايد على وسائل اتصال أكثر كفاءة . لم يعد استنزاف المورد المعدني (النحاس) مشكلة على الاطلاق! الإبداع البشري الذي لا يمكن التنبؤ به قد ألغى المشكلة تماماً من أساسها!

المبيدات الحشرية التي تستخدم في مقاومة دودة ورق القطن بمصر تسبب مشاكل صحية وبيئية خطيرة لا يمكن تجاهلها . علينا أن نجد حلاً لوقف هذا المصدر الرهيب للتلوث . لم يكن أحد - ولا حتى واطسون وكريك - يتصور أن كشف التركيب الجزيئي لمادة الوراثة سيقود إلى الهندسة الوراثية، التي تقدم هذا الحل. لقد تمكنت شركة أمريكية من تطعيم المادة الوراثية لنبات القطن الأمريكي بجين من إحدى بكتيرات التربة يتسبب في انتاج مادة تسمم اليرقات وتقتلها. صنعت الشركة نباتا ذاتي المقاومة يمكن به الاستغناء تماما عن المبيدات!

تاريخ العلم يخرج على العرافين بعفاريت لم يتخيلوها تفزعهم :عربات تسير بسرعة تزيد على ٥٠ كيلومترا في الساعة دون أن يفنى ركابها! (تحل محل عربات تجرها الخيول تنبأ البعض في أوائل القرن أن روثها - مع تزايد حركة المرور - سيدفن بعض أحياء لندن ، بل وحسبوا التاريخ الذى سيحدث فيه ذلك!)، مركبات فضائية تحمل بشرا، طاقة نووية، كمبيوترات .. شياطين خرجت من لاشيء في هذا العصر لتذهل كل من ظن يوماً أنها مستحيلة . إنه الإبداع البشري الذى

بجعل التنبؤ مستحيلا. تكاد كل التنبؤات تكون خاطئة . لكننا لابد أن نخطط للمستقبل على أساس فروض معقولة . إننا هنا لانتنبأ ، وإنما نتكهن ونتوقع . وهناك فارق. أنت تتوقع أن تحال يوما إلى المعاش، ومن المعقول أن تدبر أمورك من الآن . لكن ليس أن تعتبر هذا أمراً مسلماً به، فقد تموت غدا . يتعامل التكهن أو التوقع مع ما هو ممكن .

من حولنا الآن المنذرون تغمرنا تنبؤاتهم . لكن هذه التنبؤات ليست بأكثر من تكهنات ، والتكهن يحمل قدراً كبيراً من الرأى . التكهنات الكئيبة قد تحكى عن شخص المتكهن ذاته أكثر مما تحكى عن المستقبل؛ هم ينتقون عادة القضايا التى تقلقهم، ثم ينحون باللائمة على العلم والعلماء، وهدفهم هو نزع الثقة مقدما من أى نقد علمى يوجه إلى تحليلاتهم ، ومن أى مشروع يقدم حلولا مستقيمة مباشرة، ثم يؤكدون على صعاب فيها من التعقيد ما يقعدنا عن الفعل ويدمرنا .

هل يجوز أن نترك الفرصة لمن يخافون العقلانية ان يمنعونا من التفكير؟ إذا ما اعتبرنا التكهنات اليائسة آراء لا أكثر ولا أقل . فلنا عندئذ أن نسمح بآراء بديلة ، وأن نمنح هذه نفس المكانة والاعتراف . ومواجهة التحديات ليست أمراً جديدا على البشر . طول عمرنا نواجه التحديات . ومن الخطأ أن يصيبنا الاحباط إذا قابلناها فنبحث عن الملجأ بمحاولة تدمير البنى الاقتصادية على أمل عقيم أن نعيد نعيما ماضيا . مواجهة المشاكل ستولد أمامنا حلولا كثيرة تظهر من تلقاء ذاتها . النظرة المتفائلة تؤدى دائما إلى النجاح.

المصالحة بين الثقافتين ضرورة

فى مساء ٧ مايو ١٩٥٩ ألقى سنو محاضرة فى جامعة كمبريدج اشعلت حربا لاتزال قائمة – تختص بقضية الهوة التى ظهرت بين العلماء وبين الأدباء (ولقد قدم هذا الكاتب عرضا مختصرا لها بمجلة «الهلال» – مارس ١٩٩٦) . لكن المحاضرة لم تحقق عمليا إلا القليل ، واستمرت الفجوة تتسع . ولقد أصبح من الضرورى أن تجسر هذه الفجوة ، والآن ، لأن نجاحات أعداء العلم ومعارضيه فى ثقافتنا تهدد بإغلاق عقولنا وتعطيل كل خيار مأمول فى مستقبل أفضل . وفى زمان الغموض والتقلب الذى نحياه يصبح التفاؤل هو المطلوب . وإذا لم نهزم هذا التشاؤم بدا هؤلاء على حق .

لن تحدث المصالحة بين العلماء وغير العلماء من المثقفين إلا من خلال التفاهم والرغبة فى التعلم . على العلماء أن يتحرروا من موقفهم القائل ان الفنون والآداب والانسانيات هى الاختبار العقلى «اللين» . إن التصوير الزيتى والتمثيل على أية حال يتطلبان دقة عالية قد لا نجدها فى بعض التقارير العلمية . هذه المهارات وهذه الأنشطة الفنية تحمل قيما . الفنون تثرى حياتنا ، والإنسانيات تسهم كثيرا فى تفهم مجتمعنا وفى سعادتنا. على العلماء أن يفهموا ذلك ويقدروه . لكن التحرك الأكبر لابد أن يأتى من غير

العلماء . العلماء كمواطنين يقرأون الروايات ويستمعون إلى الموسيقى ويشاهدون السينما والتليفزيون ويرتادون المعارض الفنية ولهم آراؤهم السياسية ويعرفون بما يدور في مجتمعاتهم . والبهجة التي نحسها من معرفة الأفكار العلمية عندما نتعرض لها لا تقل عن البهجة التي تقدمها لنا الفنون والآداب - إن يكن استيعاب الأولى ليس سريعا .

وربما كانت الخطوة الأولى هي أن تفسح الجرائد والمجلات مساحات أكبر للأخبار العلمية ، وأن تخصص الإذاعة والتليفزيون وقتا أطول لها . فإذا كانت هناك ثقافتان حقا ، واحدة علمية والأخرى ليست كذلك ، فلابد أن تعطى الاثنتان قدراً متساوياً من الاهتمام ، يجب أن تحظى تغطية الموضوعات والقضايا العلمية بنفس القدر من المساحة والوقت اللذين تحظى بهما الآداب والفنون المرئية والتمثيلية . بل ربما تطلب الأمر بعضا من التحيز نحو المواد العلمية لتعويض سنين طويلة من اختلال التوازن .

والهدف النهائي ليس هو أن تعلو إحدى الثقافتين فوق الأخرى، إنما هو أن نوحدهما بحيث يصبحان مألوفين للكافة . وإلى أن يستطيع الأدباء والفنانون أن يناقشوا البيولوجيا الجزيئية مثلما يتحدث أهل البيولوجيا الجزيئية عن الروايات أو الموسيقى ، إلى أن يحدث هذا فليس لنا أن ندعي أننا مجتمع مثقف ، ولا أن نخطو الخطوة التالية الأكثر صعوبة . تتطلب هذه الخطوة من الثقافة الموحدة أن تنازل المشاكل التي ولدتها ما قد غدت الآن ثقافة «ثالثة» - تلك التي ينشرها أعداء العقلانية والعلم ، ثقافة التشاؤم والتخويف من المستقبل والهروب إلى الخرافات - تنازلها لتفضح ما تذيعه من هراء ، إذا حققنا هذا فسنكون قد أنجزنا تغيرا هائلا ، ليس فقط لأن أعداداً منا أكبر ستعرف وتفهم ما يقوم به العلماء ، وإنما أيضاً لأن المجتمع ككل سيتأثر بالمنهج العلمي وموقفه النقدي . وهذا لن يحولنا جميعا إلى علماء ، إنما سيصبغنا بعنصر مهم من عناصر «الموقف العلمي» . عندئذ سنصبح قادرين على مواجهة المشاكل الحقيقية للعالم . ستهزمنا بعض المشاكل، نعم ، لكنا سنجد أن معظمها قابل للحل، ولن نجد بينها ما يهدد بقاء البشرية ولابقاء كوكب الأرض!

وسنرى مع الوقت أن العلم يقود إلى غد أكثر اشراقا ، تكون فيه حياة أطفالنا غذاؤهم ، كساؤهم ، سكنهم ، رعايتهم ، صحتهم - أفضل من حياتنا نحن الآباء . وسنحس أيضا بالأمان ، لأن توحيد الثقافتين سيسمح بأن ندرك أن كلاً منا قادر على الاجابة على ما يطرحه الآخر من أسئلة ، وقادر على أن يفهم الاجابة على أسئلته . فإذا بدا المستقبل أقل جهامة ، تخلصنا من الخوف ، وتخلصنا معه من هذاالتدهورالذي حل بمجتمعنا .

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



شعر

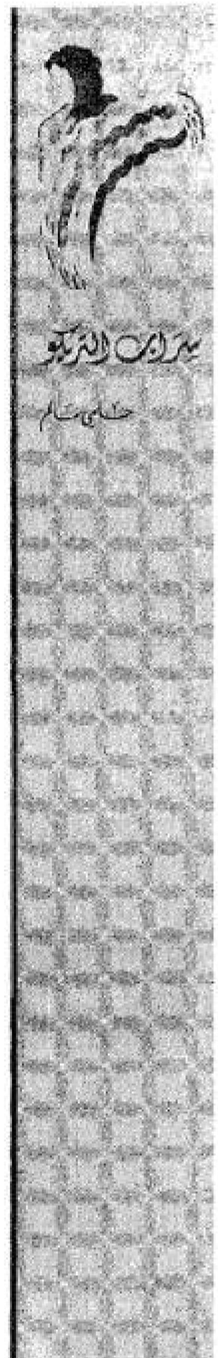
الديوان : سراب التريكو
الشاعر : حلمى سالم
الناشر : شرقيات

سراب التريكو.. سراب التجربة

مع كل غرزة من غرز التريكو يضع الصانع الماهر جزءاً من تركيزه ومن انفعاله ومن وقته . ومع كل غرزة ايضا تنتهى علاقته بالغرزة التى تسبقها رغم أنها سبب وجود ما بعدها .

ثم يصبح امام الصانع قطعة من التريكو تجتمع بين خيوطها أجزاء منه لكنها فى الوقت نفسه لم تعد منه بمجرد أن انتهى الغزل وصار جزءاً من قطعة تريكو «ما» لايجوز الفصل بين غرزها وغزلها.

هكذا الشاعر حلمي سالم في ديوانه الأخير «سراب التريكو» الصادر عن دار شرقيات، أو لنقل هكذا هو فى قطعة التريكو هذه التى تضم إحدى عشرة قصيدة تشكل ظلالاً متدرجة للون العام للقطعة. فالمجاز العام للديوان، والذى



يطالعنا في العنوان «التريكو» ينتقل من الإيحاء بالمعاني التقليدية ذات المرجعية التراثية - الأدبية والحياتية - كالانتظار والصبر والتأمل إلى إرساء حالة عميقة تتشابه فيها بنية الديوان مع غزل قطعة التريكو . ومن ثم تتشابه حالتا صانعيهما ، فالشاعر في هذا الديوان يصنع كلاً متماسكا لايمكن فصل إحدى قصائده عن الأخرى أو إسقاطها دون الإخلال بالمعنى العام للتجربة وببنيتها ، وذلك ليس فحسب بسبب تكامل زوايا الرؤية عبر القصائد وإنما أيضاً - بل أساسا بسبب تقنية غالبة هنا في الكتابة، تقوم على استدعاء عبارة أو تعبير من قصيدة سابقة كاقتباس يوضع بين علامات تنصيص في قصيدة تالية عليها ، لكنه اقتباس داخلي لأنه من داخل الديوان ذاته وليس من خارجه، وهو يقترب من التناص الداخلي - إذا جاز التعبير - بين القصائد ، بيد أنه من المؤكد - بفعل دراسة الشكل الثابت والمميز الذي يرد به هذا الاقتباس - أنه نوع من «الكتابة عن الكتابة» التي يغزلها حلمي سالم بدقة ووعي تجعلها جزءاً من البناء العضوي للنص لا سيما عندما يطابق بين صوت الراوي الذي هو أيضا البطل في معظم القصائد وبين شخصية الشاعر ذاته (حلمي سالم) خلال إشارات متعددة ، بل أن الأمر يزداد تشابكا ، ومرجعية أيضا من النص إلى نفسه، ومن التجربة الحياتية الى تجسيدها الشعري بدلاً من العكس - عندما يدمج الشاعر اقتباسه داخل القصيدة ويتلوه بتعليق عليه أو على تأثيره في مسار القصيدة السابقة المأخوذ منها كي يعدل في المعنى ومن ثم في المسار السابق لكن في داخل قصيدة أخرى يتأثر معناها بدورها بهذه التقنية فكأننا أمام شكل من أشكال إعادة الكتابة التي تجعل من قصائد الديوان التي تبدو كالمسودة محاولات متتالية ومتشابكة لإعادة تشكيل المعنى ولتعميقه وهي في تشابكها تشبه التريكو كما أنه في تتاليها لا يمكن أن تحدها إلا الحدود المادية لدفتي الكتاب مما يقربها الى المعنى المجازي الآخر المتضمن في العنوان «سراب» فمثلما أن كل لحظة جديدة في الحياة تتيح إدراكا مختلفا لتلك التي قبلها وهو مايبيحه أيضا

الحاضر في علاقته بالماضي وبالجدل اللانهائي بينهما فإن كل لحظة كتابية جديدة تتيح في نص حلمي سالم الذي يلازم رحلة الحياة - إدراكاً جديداً لما سبقها . وإذا كانت الكتابة وإعادتها وصيرورتها يمكن أن تتحول الى عملية سرابية ولا نهائية ، فإن الحياة المتجسدة فيها بدورها يصبح من الصعب الإمساك بها أوالرسو فيها على يقين حتى أن النص يبدو هنا في النهاية كمحاولة لإعادة التماسك والعلاقات «والشاعرية» إلى سيرة الشاعر ، وبالوسيط الأمثل الذي يعرفه «الكتابة» كي يعيد بذاكرته وبقلمه إبداع الماضي وتجسيده في آن بينما مع صدور العمل الأدبي يكون قد تجاوز استغراقه فيه بدرجة أو بأخرى .

يقول الشاعر حلمي سالم في ديوانه «أن السيرة مشروع الدنيا «قصيدة» مرفرفات على الجسر بينما ينطوى شعره وشاعريته الحزينة على إيمان دفين بأننا لاننفعل في الدنيا سوى تعقب لحظات الحياة التي تنفلت منا بالزمن خلال وسائل تثبت رجع صداها وتعيننا على استحالة رغبتنا في الارتداد إليها «إلا فنياً». فهل «للسراب» هنا هو سراب الحياة، أم الكتابة ، أم الإثنين (إن جاز فصلهما) ؟...

● نورا أمين

مسرح

الطوق والأسورة

قصة : يحيى الطاهر عبد الله

اخراج : ناصر عبد المنعم



الطوق والأســـورة !

كان الاقتراب من عالم يحيى الطاهر عبد الله القصصي لتحويله إلى دراما مرئية ، يحمل في ذاته مغامرة فنية ، فذلك القصاص المنفرد والذى لمع فى سماء القصة المصرية كالشهاب الذي سرعان ما انطفأ ، قد ترك على الابدا ع القصصي بصمة خاصـة ، لا تقل أثرا عن أثر المدرسة الحديثة فى الربع الأول من القرن ، أو يوسف إدريس بعد منتصف القرن !

عالم خـاص ومتفرد فى مفرداته ورموزه ورؤاه وصوره وايقاعاته حيث يتداخل الشعر مع السرد ، والسحر مع الطقس والحلم مع الواقع .. إنها ليست قصصا عن جنوب مصر بقدر ما هى رؤية تستمد مفرداتها من هذا الجنوب لتعيد تشكيل الواقع الانسانى فترة مليئة بالوعود والاحباطات فى تاريخ مصر الحديث .

كان تحويل «الطوق والاسورة» إحدى روايات يحيى الطاهر عبد الله القصيرة إلى عرض مسرحى مغامرة فنية شجاعة من معد العرض د . سامح مهران ، ومؤلف العرض المخرج الموهوب ناصر عبد المنعم ، خاصة وأن السينما قد تعرضت لنفس العمل فى واحد من أفلام المخرج السينمائى المتميز خيرى بشارة ، مع ما للسينما من إمكانات خاصة .. وقد نجح المخرج ناصر عبد المنعم فى أن يجعل من مغامرة الاقتراب من هذا العالم الخاص عرضا مسرحيا جذابا ، وشديد الأسر ، وإذا كان هذا العرض قد نال جائزة أحسن إخراج فى مهرجان المسرح التجريبى هذا العام ، كما نال جائزة النقاد ، مسجلا للمسرح المصرى - بعد ثمانى سنوات من عمر المهرجان - تفوقا متأخرا .. فإن تأمل عناصر هذا العرض المسرحى الناجح والمتميز ، تجيب متأخرة أيضا على ذلك السؤال القديم عن الهوية الخاصة بالمسرح المصرى ، والتى شغلت بال النقاد والباحثين والفنانين منذ الستينات .

لقد استبعد المخرج والمعد بداية صيغة المسرح التقليدى فى

صورته الايطالية ، وتحول فضاء المسرح إلى ساحة يتلاحم فيها الجمهور المشاهد بفناني العرض - بينما أصبحت الاضاءة والموسيقى والغناء ومفردات الديكور والاكسسوار عناصر فاعلة فى تجسيد الجوّ ، لا الايحاء به أو تجميله زخرفيا ، فقامت بالبوح عما سكت عنه الكلام أو الحركة أو التعبير التمثيلى .. كما كان تكامل ما هو بدائى وشعبى كالغناء والموسيقى والرقص الفلكورى ، مع ما هو فنى ومصقول كعناصر السينوغرافيا ، وأداء الممثلين وتأثيرات الاضاءة ، تجسيدا لروح النص الأدبي وتقنياته المتميزة.. لقد أبرز المخرج الموهوب إشارات النص ورموزه الموحية ، عبر تجسيده لطقوس الموت والزواج والميلاد ، أو طقوس العبور الانسانى كما يسميها علماء الانثروبولوجيا والفلكور .. ولم تستجب للإغراءات التى يحتملها النص الأدبى ، سواء على المستوى السياحى (التوسع فى الرقصات والأغانى) أو على المستوى السوقى التجارى (التركيز على العقم والعنُة الجنسية) واستطاع أن يولف من كل هذه العناصر عرضا متفردا ، لا يتنكر للأصل الأدبى ، ولا يتجاهل ضرورات الرؤية الدرامية والبصرية ، محترما طوال الوقت المرتكزات الأصيلة لما هو تراثى ليغتنى بها ما هو معاصر وعصرى وحداثى .. فالحداثة لا تتساقط من السماء ، ولا تجلب من الغرب وحده ، لكنها مرهونة بالاخلاص فى الرؤية والتأمل والاستيحاء ..

ولسنا فى مقام تقييم هذا العرض الجذاب نقديا أو التكلم عن ابداعات المشاركين فيه ، وكل منهم أدى ما عليه في تناغم مفتقد في حياتنا المسرحية والثقافية . ولكننا نكتفى هنا بالتأكيد على المعنى الكبير لفوز هذا العرض بالاعجاب والجائزتين وهو أننا لن نصنع فنا كبيرا إذا ما أدرنا الظهر لموروثنا الفنى الخاص .

ما بعد التكوين (٦)

سهرة مع الملك

محمد عودة

توقفنا بالسيارة وقال صديقي الليلة ليست ليلة الأوبرج .

– ماذا تعني ؟

– جلالة الملك يقسم ليالي الأسبوع بالعدل والقسطاس بين ثلاثة ملاه ليلية، ويستريح في اليوم السابع بلعب القمار ويحصل على نفقات الأسبوع التالى والملك لايخسر أبدا ويكسب دائما ..

واستدار بالسيارة وتحولنا الي ملهي في الطرف الآخر من المدينة ، وكان موضوع حديثنا طوال الطريق واحدا، كان حديث البلاد كلها في ذلك الحين وهو غراميات ومغامرات جلالته .

وكانت تصل حتى غرفة المحامين فى المحكمة الجزئية ، وكانت آخر قصة متداولة هى سفره الى قبرص بدعوى بحث الدفاع المشترك وحلف الشرق الأوسط .

وقابله هناك الحاكم البريطاني بحفاوة كبرى واستضافه فى قصر الضيافة التابع له وبكل الطقوس والمراسم البريطانية ثم شاركت جماهير المسلمين الأتراك هناك فى الحفاوة بأول وأهم ملك مسلم يزور الجزيرة وقرروا دعوته ليؤم صلاة الجمعة وتم ذلك ولم تلبث المخابرات البريطانية أن اكتشفت أنه يتسلل كل ليلة إلى فندق صغير فى أطراف المدينة ليقضي الليل مع ممثلة مصرية صغيرة .. ويهودية وأن ذلك كان كل هدف الرحلة .

وحينما غادر الجزيرة ودعه ياور الحاكم العام ولم يخرج أحد من المسلمين.

وكان لنا مصدر خاص مطلع تمام الإطلاع وهو قريب «جنتلمان» ريفى يعمل مستشارا لأميرة محترمة مثقفة ووطنية وزوجة نبيل درس القانون فى

اكسفورد ودرس العلوم العسكرية فى ساندهرست وانتسب الى حزب الوفد ، وكان يعده ليكون وزير خارجية المواجهة الحاسمة فى الوزارة القادمة .. وكانت الملكة تسرى عن نفسها وتتعزى عن تعاستها بالتردد عليهما دائما.

وذات ليلة اكتشفت جلالتها أن زوجها يصحب عشيقاته الى غرفة نومه فى القصر. ونشبت معركة وفضيحة صاخبة استيقظ خلالها كل من كان فى القصر ووصلت اصداؤها الى لندن فى تقارير السفير .

ويروى صديقى أن جلالته كان غارقا فى قصة حب مع الأميرة «فاطمة» التى رفضته وفضلت برازيليا من سلالة الامبراطور وتزوجته وسافرت معه.

وصادر جلالته أملاكها وجردها من اللقب ثم أرسل نائب رئيس الديوان الى البرازيل لطلب تسليمها واعتذرت البرازيل بأن ليس هناك معاهدة تبادل «العشاق» مع مصر .

وتدفقت القصص والروايات كان أطرفها قصة الراقصة الشهيرة التى قضت ليلة معه ولما تسلمت المكافأة - صرخت محتجة بأنها اشترت فستانا للقاء جلالته بخمسة أضعاف المبلغ !!

* * *

وقوبلنا بحفاوة فى الملهى دلت على أن صديقى من رواده وهمس فى اذن المتر..

- الاستاذ قادم من البلد ليسهر مع جلالة الملك .

- يحدث إن شاء الله .

ولم تلبث أن جاءت بعد قليل فتاة أجنبية سلمت علينا بحرارة وقالت بلكنة إنجليزية صميمة.

- قالوا أى مفاجئة عجيبة . قبل ساعات فقط قالت لى أمى ، يبدو أنهم وضعوك فى قائمة المقاطعة معى .. حتى عثمان لم يعد يسأل أو يتكلم .

والتفت إلى قائلا بالعربية .

- ما رأيك فى هذه الخواجاية .

- مدهشة .. ألا تعرفنى .. ؟

وقال : هذه قريبتك ولكن لها أربعة أسماء لا أدرى أى اسم أقدمها به وضحكت هى وقالت بلهجة شرقاوية قحة.

- أنا بنت خال البيه وأنا أعرف الأستاذ وإن كان لايعرفنى

وتذكرت على الفور .

كانت ابنة الخال الذى أقمنا لديه عرس المرحوم على وكان ابوها قد ذهب للدراسة فى بريطانيا وانضم لحلقة مبعوثين قرروا تأليف كتاب يعارض كتاب «سر تقدم الإنجليز السكسون» للفيلسوف الفرنسى جوستاف ليبون والذى ترجمه فتحى باشا زغلول ، وأثر فى جيل أوائل القرن - وكان مقررا أن يحمل الرد عنوان «سر تقدم وتخلف الإنجليز السكسون» .

وتعرف الأب خلال ذلك بطالبة زميلة له




الملك فاروق وعشيقته كاميليا

فى الجامعة كانت أمها تملك مطعما وحانة انجليـزية (بب) فى حى «شلسى» حى الفنانين والكتـاب فى لندن وأخذ يقـضى بالمطعم وقتا أكثر مما يقضى فى الجامعة، وذات يوم قالت له الأم :

• إذا كنت تريد أن تعرف كل أسرار بريطانيـا اشـتـرى الانسكلوبيـديا البريطانية:

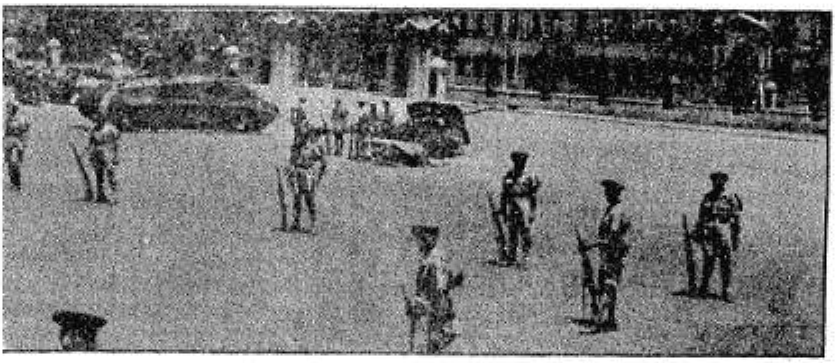
واتبع النصيحة حرفيا وعكف على تنفيذها وأدمن معها البيرة السوداء البريطانية وعاد الى مصر بزوجة إنجليزية «الابنة» وبالانسكلوبيـديا مـؤكـدا أنه المصرى الوحيد الذى قرأها كاملة والذى يعرف عن بريطانيا ما لا يعرفه مكرم عبيد أو أحمد حسنين وأنه سوف يدخل الساحة السياسية ويثبت ذلك وأنجب بنتا واحدة واسماها زينب ولقبها «أم هاشم» وكانت أهم شيء حققه فى حياته ولم يتحقق أى شيء آخر .

وأصبح لها ثلاثة أسماء «أم هاشم» كـمـا يدعـوها أبوها وزينب زنوبة كـمـا تسميها عماتها وزوزو كما تسميها أمها .

وبعد سنوات قليلة ساءت العلاقة بين الأب والأم وضـاقتْ بالحـيـاة فى الريف وانفصلت وذهبت الى القاهرة ، وافتتحت مطعما وحانة إنجليزية صغيرة فى الزمالك حققت نجاحا كبيرا .

وشاع أنها فتحت «خمارة» للإنجليز فى مصر وقرر أن يسترد «أم هاشم» خاصة بعد أن خاض الانتخابات وخسرها بسبب هذه الإشاعة وردت الأم على الفور بأن أرسلتها الى إنجلترا لتكمل تعليمها هناك عند جدتها وبتوصية شديدة أن تحرص على تعليمـهـا اللغة العربيـة والاسلام لأنها فى النهاية سوف تعود لأبيها وتتزوج أحد أقاربها واكتسبت اسما رابعـا هو الحـروف الأولى من زينب «حقيقتى المصرية المسلمة» .

وقـاطع الأب زوجتـه ونسى الابنة وحينما عادت تحمل شهادة فى «إدارة



حادث ٤ فبراير (الدبابات تحاصر قصر عابدين)

الفنادق» لم يكترث بها ولكن استعادت كل حب ودلع «عماتها» الأربع .

وأغلقت الأم المطعم والحانة بناء على رغبة الابنة التى أرادت أن ترضى أبيها ولكن لم تعد العلاقة كما تصورت !!

وهكذا رأيت «أم هاشم» التى طالما حدثنى عنها المرحوم على .

وسألها :

– جلالة الملك سوف يشرف الليلة

– أظن .. ومادامـوا يعدون المائدة فلابد أنه سوف يشرف

وقال لها مرة ثانية :

– الاستاذ قادم من البلد مخصوص لكى يسهر مع جلالته .

ونقلتنا الى مائدة قريبة من المائدة الملكية وضحكت وقالت لى :

– خطوتين وسوف يدعوكم الى مائدته.

وسألها · – ماذا تنصحين على العشاء

وقال لى :

– حضرتها مديرة التغذية هنا

وقالت :

– صوانى وطواجن بالطبع

ونظرت الى الناحية الأخرى وقالت ·

– المدير رجع منشرحا الحمد لله

وسألها :

– راجع من أين

– إلى أن وصلتم كان الجميع يضعون أيديهم على قلوبهم ويدعون أن تمر الليلة بسلام

– لماذا ؟

وجلست وقالت

– كنا مهددين بانفجار قنبلة

– ضد الملك

– شخصيا

– من ؟ الإخوان ؟

وضحكت طويلا وقالت :

– البريمادونا الأسبانية .



- ورويت لنا القصة

أمضى جلالته ليلة مع البريمادونا وفي الصباح قال لها أنه تأكد أنه لم يعرف الحب قبل ذلك وأهداها أسورة مرصعة بالأحجار الكريمة لم يبق أحد لم ترو له القصة وتبرز «الإسورة» وبعد يومين إكتشفت أنها مزيفة لا تساوى شيئا وانفجر بركان الغضب وأخذت تصرخ «الوغد » أنا لم يخدعني رجل في حياتي ولن أسمح لهذا الوغد بذلك .. سوف ألقنه درس حياته ».

وبالطبع وصل الأمر الى المدير الذى مات رعبا وعرض أن يشترى لها أسورة ، بأى ثمن .. ولكنها رفضت وقرر إلغاء البرنامج الليلة وذهب ليقابل «بوللي» .. وضحكت «أم هاشم» وقالت نصحتها أن تفعل ما فعلته المغنية الفرنسية التى كانت هنا منذ أشهر ومثل معها نفس القصة ، ولكنها لم تفش السر وحصلت على صورة مع جلالته وبعد أن عادت باعت القصة كاملة لإحدى مجلات الإثارة.. بمبلغ كبير وصورة الغلاف ورفضت البريمادونا وقالت الفرنسيات عاهرات ولكن دماء الأسبانيات حارة لاتسكت أبدا عن ثارها!!

وقامت «أم هاشم» لتباشر عملها وبدأ توافد الزبائن وفجأة انطفأ النور وساد الصمت - ثم عادت الأضواء وظهر جلالة الملك والحاشية وقال لى أن ذلك أصبح عرفا في الملاهى الثلاث ليعطي فرصة للمسئولين الكبار الموجودين للمغادرة .

والسبب أنه حدث ذات ليلة أن كان هناك ثلاثة وزراء وحينما وصل جلالته انسحب أحدهم ولم ير الآخران مبررا لذلك .

وفي اليوم التالى طلب جلالته إلى رئيس الوزراء طردهما فورا ولم تفلح كل

توسلاته بأن يعفو عن أحدهما وزير الدفاع لأنه كان أكفأ قائد فى الجيش وقد تحتاجه البلاد اذا ما تفاقم الموقف فى فلسطين واختار جلالته ضابطا من مصلحة السجون ، لأنه يسخر المساجين فى العمل فى المزارع الملكية بلا أجر وقدر له أن يقود حرب فلسطين .

وعجبت حينما رأيت الملك عن كثب وعلى بعد خطوات ودهشت كيف تزيف الأسطورة وتجوز على الناس ، لم يكن هناك أى هيبة أو هالة بل كتلة من اللحم والشحم مترهلة قبيحة .

وفاض طوفان من البغض، هذا الوغد هو المسئول عن تغير حياتى من محامى على أبواب النجاح الى عاطل ضائع لايرى حلا وتذكرت «الشبراوى» وأن هناك مليون شبراوى يتضورون جوعا وبطالة الآن، وهناك ثلاثة أضعافهم فلاحين فقراء ومعدمين جهلة أميين ومرضى بمتوسط خمسة أمراض متوطنة، فقراء تحت كل خطوط الفقر وبأدنى مستوى حياة فى العالم .. وتمنيت لو أن «الشبراوى» خرج من السجن عضوا فى عصابة من الذين يفرضون الأتاوات على الاقطاعيين والأعيان ويسرقون مواشيهم ويحرقون محاصيلهم ويثأرون لأنفسهم مباشرة ! .

وكنت منذ انتهيت الى الحل النهائى عكفت على التنقيب عن كل تاريخه منذ وقفت فى ميدان عابدين مع الألاف نهتف له ونرحب بعودته أميرا وسيما حزينا مثل أبطال «الحواديت» .

قرأت ذات يوم حديثا لأنتونى ايدن وزير خارجية بريطانيا يبرر فيه أحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وقال :

– قررت الذهاب بنفسى الى مصر لتقصى الحقيقة بعدما تكاثرت التقارير على مكتبى وحرصت على أن أقابل كل الزعماء من كل الأحزاب صدقى وهيكل والنحاس وقضيت أطول وقت مع النحاس وأجمع الكل بلا استثناء على أن الملك هو مصدر كل المساوئ، وطالما بقى فلا أمل فى الإصلاح. وحينما بعث لى لامبسون يقترح خلعه وافقت رغم تردد تشرشل ودهشت بالطبع لأن كل هؤلاء الزعماء بلا استثناء واصلوا تمجيده وتعظيمه حتى أصبح حامى الإسلام وراعى العروبة والفلاح الأول والعامل الأول وحتى «البطل» حين هرب من المذبح لجأ مستجيرا الى قصره.

وأيقظنى صديقى من الاسترسال وقال:

– أنظر هذه المرأة التى ترافقه.

وقلت – هذه «كليوباتره» من تكون

قال . هذه أشهر قوادة فى مصر وهى هاوية وليست محترفة لأنها مليونيرة ومن إحدى الأسر اليهودية الخمس التى تتحكم فى بنوك ومالية مصر، ونفوذها لدى النساء لايعادله سوى نفوذها لدى الساسة تحيط بها الإشاعات وأنها تعمل بهمة مع الأجهزة الأجنبية .



آنتونى ايدن



النحاس باشا



حيدر باشا

وجاء العشاء كما وعدتنا أم هاشم فاخرا وأبعد مما تصورنا كانت هناك زجاجة من النبيذ الفرنسي وزجاجتان من مياه «ايفيان» المعدنية .. ثم بطاقة بالانجليزية «أنتم ضيوفي الليلة» وقال لي مبتسما :

- يبدو أنك دخلت دماغها

- لماذا ؟

- هذه أول مرة تعملها

- ما رأيك نخطبها لك - كانت أمي - وأمها متفاهمتان على أنها ستكون من نصيب على ، ولو لم تهربها أمها لانجلترا لتغير القدر .

- وكيف اتفق عليها

- لن تحتاج .. أنها تتقاضى مرتب خمسة أو ستة وزراء ، ولديها مشروع طريف لفتح كافتيريا وبوفيه للطلبة فى الجامعة ووافقت عمتها على تمويله.

وواصل الحديث .

- اجازتها بعد غد وقبل أن ننصرف ندعوها ونرد لها الدعوة ، وتدخل انت فى الخط على بركة الله .

وقطع الحديث الإعلان عن البرنامج وفرقة «الفلامنجو» وظهرت البريمادونا ، وتقدمت نحو المائدة الملكية وانحنت ثلاث إنحناءات عميقة أكدت أن المشكلة انتهت الى حل سعيد .

واستغرق صديقي في متابعة الرقص، واستغرقت فى وادى آخر أحاول أن أجيب عن السؤال :

- لماذا يسرح ويمرح ويفعل مايشاء ويمارس كل رذيلة ويرتكب كل جريمة وبلا حسيب أو رقيب .

كتب السفير البريطانى بعد نهاية الحرب «اصبح الملك خرقة بالية ليس هناك

من يستطيع أن يعتمد عليه سوانا ونستطيع أن نسخره كما نشاء» .

وكان جلالته عند حسن الظن وتعهد لهم بأن يفعل مايريدون

ذهب جلالته فى زيارة سرية خاطفة الى السعودية ورد له الملك عبد العزيز الزيارة .

وتعهد الاثنان أمام السفير البريطانى على تعبئة العالم العربى والإسلامى لمقاومة الشيوعية وصد الزحف السوفييتى وتصاعد حماس جلالة ملك مصر وأعلن أنه سوف يقود بنفسه الجيوش حاملا سيفه ويكفر بذلك عن انحيازه للمحور خلال الحرب السابقة .

وكان كل شىء مستباح للحاكم الذى يختار هذا الطريق .

ومكافأة له .. استجابت الحكومة البريطانية لطلبه الذى لم يحصل عليه أحد فى تاريخ الامبراطورية سوى «ملك نيبال» وأنعم جلالة الملك والامبراطور على أخيه الملك فاروق بلقب «جنرال شرف» فى الجيش البريطانى وأوفد أحد أبرز أمراء الأسرة المالكة ليقدم الوسام فى إحتفال كبير .

وكانت الرتبة الشرفية تلقى على جلالة الامبراطور مسئولية حماية ومساندة الجنرال مهما كان الثمن .. ولايمكن السماح بهزيمة أو خلع جنرال من ضباط الامبراطورية والتزمت بريطانيا بالعهد وذات يوم أرسل السفير لوزير الخارجية نموذجا «لوثائق» نهاية الأمبراطورية ..

– لايتورع الملك فاروق عن شىء ويرتكب الملك فاروق كل الموبقات الممكنة والمستحيلة ولم يعد هناك سوى أن يعين حصانه رئيس وزراء . كما فعل الامبراطور كاليجولا الرومانى ولكن يظل جلالته ورقتنا الرئيسية فى مصر ولذلك أرجو أن تقنع رئيس الوزراء أتلى أن يتصل وديا باللورد بيفر بروك وأن يقنعه باسم صالح بريطانيا العظمى أن يخفف الحملة التى تشنها صحفه على الملك والتى تثيره وتستفزه الى أقصى مدى واقترح ايفاد اللورد كنروس وهو صديق سابق لجلالته ليكتب سلسلة مقالات تبيض وجهه وتقنعه أننا نظل أصدقاءه وحلفاءه .

وكان لدى جلالة الملك من الذكاء مايجعله يدرك القاعدة الذهبية التى تحكم علاقات بريطانيا وأن ليس لها أصدقاء دائمون أو أعداء دائمون وبهذا بدأ [illegible] يغازل الطرف الآخر الذى كان يزحف ليرث العالم .

وابتسم القدر حينما توقف روزفلت فى البحيرات المرة لدى عودته من يالتا ليقابله ثم يوجه اليه دعوة لزيارة الولايات المتحدة بعد اقرار السلام وبعدها توقف روزفلت فى جدة والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود وأدركت كل الأطراف أن ثمة اتفاقا فى يالتا ، حول الشرق الأوسط وأن مصر والسعودية سوف يكونان محور تطلعات

أقوى أطراف المحالفة العظمى .

كانت مصر مفتاح المنطقة طوال التاريخ ، وكانت السعودية تحوى أكبر كنز فى التاريخ اكتشفته الشركات الأمريكية .

ولهذا نشب الصراع بين الحليفتين بأشد مما كان ضد الخصم الآخر .

وراهنت الولايات المتحدة على الملك فاروق واستغل جلالته ذلك إلى أقصاه وأثار أشد الحنق والغيظ لدى السفير البريطانى .

وحينما دشنت الولايات المتحدة وجودها فى العالم العربى بأول انقلاب عسكرى فى سوريا ونقلت النموذج الأمريكى اللاتينى. كان أول مافعل زعيم الانقلاب حسنى الزعيم أن جاء الى مصر وبحث مع جلالته، تتويجه ملكا على سوريا وأن يستظل الملك ونائبه بالمظلة الأمركية

وحينما تفاقمت أزمة اللقب «كما سميت» وأصرت بريطانيا على ان لاتعترف لجلالته بلقب مصر والسودان، قررت الولايات المتحدة فى نهاية المطاف أن تقوم بأعتراف منفرد .

وحينما وقف العرش على حافة الخطر.. سارعت على الفور وقررت تجهيز وتدريب وتسليح ثلاث فرق خاصة لاجهاض أى محاولة ضده .

ولم يفقد السفير كافرى حتى اللحظة الاخيرة ثقته فى ايدى شجاعة الملك، وقدراته.

وانه الضمان الوحيد لكى لا تسقط مصر فى براثن الشيوعية ويمدها الطوفان ولهذا كان جلالته مطمئنا تماما .. لايكترث.

***

ولكن أهم ما انتهت اليه تلك الليلة كان أن المهمة أبسط بكثير من كل العناء الذى تكبدته ولن يحتاج الامر لاكثر من خلية رباعية ويتولى احدهم الاقتحام واطلاق الرصاص، ويقوم الثانى بإطفاء الأنوار ويفجر الثالث قنبلة صوت لاثارة الرعب والفزع، وينتظر الرابع فى سيارة فى الخارج عند نقطة تجمع.

سوف لاتستغرق العملية أكثر من عشرين دقيقة تهز العالم وتغير التاريخ، وتحرر مصر، وتتوج أربعة أبطال.

وقدرت أن الأفضل أن تتم العملية فى الأوبرج «الاكثر شهرة والقريب من بيت الأستاذ فى شارع الهرم» الذى سنلجأ اليه وتمنيت أيضا لو كانت تصحبه ليلتها القوادة .

- سوف تخرج صحف العالم

بعناوين ضخمة على صفحاتها الأولى «مصرع فاروق وإصابة إحدى عشيقاته فى ملهى ليلى فى طريق الهرم أو نهاية منتظرة فى الوقت والمكان المناسب».

وامتد الخيال الى الصدى فى مصر .. سوف تخرج الصحف مجللة بالسواد.

«العالم ينعى الفاروق» أيدى مجرمة أثيمة ترتكب جريمة العصر «الملايين فى ميدان عابدين وتزحف من الاقاليم إقامة صلاة الجنازة فى كل مساجد مصر» ملوك العالم ورؤساؤه يتوافدون لتشييع الجنازة..

وسوف يصدر كل حزب بيان استنكار .

الوفد: الملكية الدستورية ضمان الاستقرار. مات الملك - عاش الملك.

الاخوان: عاش للاسلام واستشهد فى سبيله.

الشيوعيون: جريمة طائشة. «وطريق مسدود» .

وسوف تخرج جريدة بعنوان أيدى صهيونية وراء الحادث «سبق وأعلنت العصابات الصهيونية أنها لن تغفر اعدام قتلة اللورد سدين، وحملت جلالته المسئولية».

وتوقفت قليلا عند بلاغ صادر من وزارة الخارجية البريطانية يقول أن تحرك قوة بريطانية من قاعدة القناة الى القاهرة، تم بناء على طلب الحكومة المصرية وذلك لمواجهة الاضطرابات وحركات التمرد التى نشبت فى انحاء متفرقة من البلاد والتى قامت بها عناصر شيوعية واسلامية متطرفة وسوف تنسحب القوات فورا بمجرد أن تطلب الحكومة المصرية ذلك» .

سوف يهب الشعب للمقاومة وتبدأ حرب التحرير الوطنية الاشتراكية » !! .

وفجأة انطفأ النور وللحظة عابرة تصورت أن اطلاق الرصاص سوف يتبع ولكن عادت الأضواء وأن جلالته انصرف . بسلامة الله ».

وقال صديقى سرحت طويلا .. فى ماذا .. جمال كليوباترة .. وضحكنا وطلبنا إلى الجرسون استدعاء «أم هاشم» لنشكرها ونودعها ولكنه قال إنها تنصرف عادة بعد إعداد العشاء وانصرفنا .

وخلال الطريق قال لى :

- اين تنزل

- فى شيرد

- مستريح هناك

- أفكر فى الانتقال إلى سميراميس.

وقال ضاحكا - ما رايك في مكان

أرخص وأحسن .

- نراه أولا

ووقفنا عند عمارة كبيرة فى وسط المدينة ، وصعدنا إلى الدور التاسع وكان شيئا جديدا فى القاهرة ودخلنا شقة صغيرة أنيقة غرفة نوم ودولاب مكتظ بالملابس وغرفة استقبال ثم حمام طربت له خاصة لأنه كان يحوى كل انواع العطور والصابون والمعاجين الانجليزية ..

واعطانى المفاتيح قائلا - لك حق ارتفاق على كل شيء هنا وبشرط واحد أن لاترد مطلقا على أي تليفون مهما دق !

وودعنى وخرج ، بعد أن دعانى للغداء واكتشفت أنه ترك لى مظروفاً يحوى قدرا غير قليل من المال .. وخجلت .

ونظرت في المرآة لأرى هل كان يبدو على ما يدفعه لهذا التصرف ولكننى تجاوزت لأنى كنت لا احتاج لشيء مثلما احتاجه .

وفجأة دق التليفون ثم واصل الرنين وخشيت ان يكون قد نسى أن يخبرني بسر أخر من اسرار الشقة ولم أكد ارفع السماعة.. حتى انطلق صوت مختنق .

لماذا لم تكلمنى . لماذا تعاملنى هكذا لا أستطيع أن أنام .. سوف أرتدى ملابسى وأتى الآن .. .

وعرفت لماذا اشترط ألا أرد ورددت بهدوء ووقار .

- النمرة غلط .. يا هانم هذا منزل عائلى والساعة الثانية ونصف .

ولم استطع أن أمنع شريطا من الذكريات فقد كان عثمان شديد التدين وكان ابوه يسميه ازدراء «الشيخ عثمان» وكانت أمه تردد دائما عثمان هو الذى سوف يصحبني للحج والعمرة وزيارة بيت الله وقبر الرسول وكنا نشك جميعا أنه من الاخوان ، وها هو ذا قد أصبح من رواد الملاهي ويملك «جرسونيرة» وله عشيقة تبكى وتختنق من أجله .

ووضعت المظروف بالنقود تحت الوسادة ونمت سعيدا انتظر الصباح بفارغ الصبر سوف اتحرر من حجر الطاحونة الذى يلتف حول عنقى سوف اسدد الديون التى تراكمت خلال الأشهر الثقيلة الكالحة .

أنت والهلال

عجائب أفغانستان

برغم معرفتنا فى السنين الماضية بأصابع الاستخبارات الأمريكية التى كانت تحرك «المجاهدين» فى أفغانستان ، فإننا كنا نؤيد المجاهدين فى حربهم للخلاص من الاحتلال الروسى ، أما الآن - بعد جلاء الروس - فإننا لا نفهم ألاعيب الاستخبارات الأجنبية التى تتلاعب بالدين الاسلامى فى أفغانستان ، وتحشد لهذه الألاعيب الدموية الجماعة المسماة «طاليبان» التى تعود بأفغانستان إلى القرون الوسطى ، بل إلى العصر الحجرى تقريبا ، فلم يسبق فى التاريخ كله أن أصدرت «حكومة» قانونا بوجوب إطلاق اللحى فى مدة لا تزيد على خمسة وأربعين عاما ، كما فعلت ذلك حكومة طاليبان «الأرجوزية» التى ترفع شعار «تطبيق الشريعة الإسلامية» وتعمل بهذا الشعار تحت راية الاستخبارات الأمريكية التى لا مانع عندها من تطبيق الشريعة بهذه الطريقة مادام هذا التطبيق يحقق مصالح الاستعمار الأمريكى ، ويفتح للصهيونية طريقا إلى أفغانستان وباكستان والبلاد الإسلامية التى كانت ضمن الامبراطورية الروسية السابقة ! ..

عبدالخالق محمد شعيب - القاهرة

شروق الأربعين

غازلتها .. وفوجئت بشاعر
نثرت فوق عينها قصائدى
قالت : أنا فى الأربعين يا فتى
هل أنت حقا مولع بزورق
أم أنت سكير تراتى غابة
لا توقظ النجمات فى ليلى إذا
لاتزرع الأقمار فى صدرى فقد
أجبتها شعرا فأضحت ربوة
أحلى من البدور أنت كيف لا

يحمل أقلام السحاب العاشق
فذاب خدها بنور الشفق
ومن سنين شاب شعر المفرق
مرتعش فى بحر عينى الأزرق ؟
وبعد أن تصحو ستنسى زنبقى ؟
كنت شراعا عابرا فى الغسق
أغرق فى مستقبل مراهق
خضراء بين المنحنى والنفق
يذوب حبا كل من فى المشرق ؟

د. هيثم الحوريج العمر - دمشق

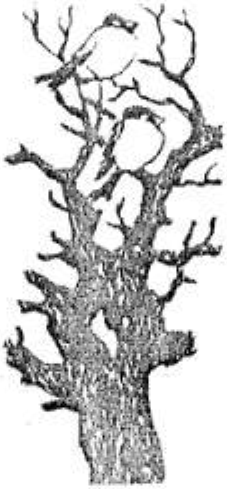
الميلاتونين بين الوهم والحقيقة

تشكلت ظاهرة معاصرة بعقار الميلاتونين كأنه طوق النجاة للجنس البشرى من وهن الشيخوخة والامراض الخطيرة كالسرطان .. لكن العلماء تخلوا عن وهم هذا العقار .. ووجهوا تحذيرا من الآثار الجانبية لتعاطى كميات كبيرة منه تضعف قدرة الجسم على مقاومة الهرمونات ومع كلام العلماء أصبح عقار الميلاتونين يحمل الوهم والخداع ... فالإنسان إذا أراد تحقيق السعادة .. فالتساؤل كيف تتشكل ؟؟ وحكمة الله عز وجل أن خلق الإنسان من جنسين ذكر وأنثى .. حتى يتم التوالد منهما وغرس فى كل جنس الميل العاطفى للآخر .. لكن الشباب فى المجتمعات المادية شباب مستهتر.. أو رجال لهم مغامرات جنسية .. وظهور الايدز لم يكن مصادفة .. وحياة اللهو أسوأ حياة مهما تجمل اصحابها لانها تتشكل من بريق زائف .. لكن حياة الاسلام تحمل تزكية النفس وتحل الزينة .. وتزجر من يحرمها .. فالجمال من سنن الكون .. إذن كيف يروج لعقار يؤمن حياة أطول ؟؟ والله عز وجل لم يحرم الإنسان من المتع المادية .. لكن الهدف عدم الانحراف أو الشطط .. وقوانين الله عز وجل ترد جماع الهوى .. وتنبه عقل الغافل .. واليوم الحياة المعاصرة أصبحت تشكل عبئا وكلفة على الإنسان وأوهنت الجسد وانتشرت الامراض .. برغم النشر الاعلامى الثقافى والطبى والوقائى ، إذن بات السؤال كيف نحمى الإنسان العربى من التلوث الفكرى والثقافى والاخلاقى .. فى زمن انتشرت فيه الجريمة والمخدرات والجنس وزوبعة اعلامية اعلانية استغلالية بشعة ..

يحيى السيد النجار - دمياط / شارع الحزاوى

كاريكاتير

تنقلب البئر على الراعى
يمضى يرعى الأغنام
ويظل الراعى
فى القاع ليرفعه يوما
حبل الأوهام
وغراب أرهقه سفر
يختار جوار
أغصان الورد تخاطبه
ينبذها يتولى عنها



يكره رائحة الأزهار
فوق المضمار على الساحة
انطلقت أفراس النهر
لكن رهانا أوقعها شبك الصياد
كى ترقص فى سيرك الدنيا
فانفضت داحس والغبراء
المعول يرفض تقليب التربة
يرفض قتل الديدان
يرفض بتر الحسك النابت
يلقيه غريبا صاحبه
يصدأ من فعل الأيام

د. حسنه عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

• مرثاة قلب •

ويحى ، أفى الصدر الوسيع جنان .. أم قطعة أودت بها الأحزان ؟!
فلقد تعودت السماع لنبضه وبنبضه تتردد الألحان
غنى فأطرب كل قلب عاشق وبكى فناحت مثله الأشجان
كم خلته بحرا تلاطم موجه ودا ، وفاض بشطه التحنان
وحسبته كونا حوى برحابه كل الكواكب ، زانه الرحمن
قد كان يحمل كل هم صامدا ويثور لما يظلم الإنسان

وبرى جمال العيـــش حبا سائدا
كل الدنا يعلــــو به الإيمـــــان

كم ذا تسائل وحـــده متحيـــرا
أمع الفساد ستعمر الأوطـــان ؟!

أتراه أصبح ساكنا أم ذاهـــلا ..
أم مات قهـــرا ذلك الولهــــان ؟!

أترى سارثى حبـــه فى مـــوته
أم حسبه مايصـــنع النســـيان ؟!

درهم جبارى
تعز - اليمن

المياه تحت الصحراء المصرية ●

● لعل أهم الأنباء العلمية بالنسبة إلى مصر ما نشرته مجلة Neue Revue الألمانية بتاريخ ٢٢/٤/١٩٩٤ ، كما يلى :

قد ثبت من البحوث الجيولوجية أخيرا وجود كميات كبيرة جدا من المياه العذبة تحت الصحراء الكبرى ، فى النصف الشمالى من أفريقيا ، على عمق نحو خمسة كيلو مترات، وهذه المياه غير المياه الجوفية الموجودة فى طبقات الحجر الرملى النوبى على أعماق من (١٠) إلى (٣٠) مترا أو نحوها ؛ فإن تلك المياه قرب السطحية منشؤها نشع من النيل على مر العصور القريبة ، وعمرها لا يتجاوز العصر الجيولوجى الترياسى منذ نحو مائة وستين مليون سنة فقط . أما المياه الموجودة على عمق خمسة كيلو مترات فمنشؤها مختلف تماما ، فإن العمر الجيولوجى لتلك المياه ، العميقة منذ كانت على سطح الأرض يعود إلى العصر الباليوزوى الذى كانت فيه تلك المياه متجمدة جليدا ، وكان ذلك منذ أكثر من أربعمائة وعشرين مليون عام .

وهذا الخزان المائى الجوفى الهائل هو الأكبر من نوعه فى كل الأرض ، إذ تعادل مساحته مساحة كل القارة الأوروبية ، ويبلغ حجم المياه المختزنة به (١٥٠٠٠٠) مائة وخمسين ألف كيلو متر مكعب من المياه العذبة ، أى ما يعادل كل كميات المياه ، التى تجرى فى مجرى النيل على مدى ألفى سنة .

وإن ضخ المياه من عمق خمسة آلاف متر إلى سطح الأرض هو فى نطاق القدرة

التكنولوجية لمعدات صناعة تعدين البترول العصرية . هذا بالإضافة إلى أن تلك المياه الجوفية فوقها ثقل سمك خمسة كيلو مترات من سمك القشرة الأرضية ، بحيث إنه من المنتظر حين ندق الماسورة بحيث تصل فوهتها إلى منسوب المياه الجوفية على ذلك العمق العظيم ، أن تندفع المياه إلى أعلا فى الماسورة الفارغة حتى تصل إلى سطح الأرض على هيئة نافورة قوية ولنذكر فى هذا الصدد أن من أنسب الأماكن لبدء دق أول ماسورة لاستخراج هذه المياه الجوفية العميقة هو أقصى شمال الواحة الخارجة ، قرب حافتها الصحراوية المرتفعة ، وذلك لأن مستوى سطح التربة فى أرض الواحة ينخفض عن الصحراء حولها بنحو العشرين مترا .

كما سيقتضى الأمر إنشاء بحيرة تجميع للمياه بالواحة الخارجة مساحتها نحو أربعة أفدنة عند أقصى شمال الواحة بحيث تلامس حافتها الصحراوية المرتفعة . وتحاط بحيرة التجميع هذه بسور دائرى سميك ارتفاعه لا يقل عن خمسة وعشرين مترا . وبذلك يتكون لدينا خزان مائى مساحة قاعدته نحو خمسة أفدنة يستخدم لتجميع المياه الجوفية وتبريدها ، ثم نمد منه قنوات لرى قطاع كبير من الصحراء الغربية قد تصل مساحته إلى مائة وأربعين مليون فدان ، أو عشرين ضعف كل المساحة المزروعة حاليا بمصر .

ونلاحظ أن المياه التى سنحصل عليها من ذلك المشروع ستكون بالغة النظافة والنقاء كمياه المطر ، بعكس مياه الترع والمصارف الحالية الموبوءة بالبلهارسيا . وستكون المياه فى الخزان المجمع الرئيسى ساخنة ، وفى أوائل الرياحات التى تخرج منها ستكون المياه دافئة ، وبعد ذلك فى امتداد مسارات الرياحات والترع التى تخرج منها تكون المياه فى درجة حرارة الجو ، بحيث لا تضر الزراعات ولا المواشى

المهندس باهر سرى
روكسى - مصر الجديدة

• بلاد النيل •

بلادى إلى المجد سيرى وهبى • وثار الهوان على الكبد صبى
وسـيف الكـرامة يا قلعتى • فشـدى الوثاق والحق لبى
وشـقى الصعاب إلى شمس • فإنا على العهد فى كل حين
بلادى عـزمنا تنال العـلاء • فـداك الحياة لدفـع البلاء

شاكر صبرى محمد السيد
كفر سليمان البحرى - دمياط

• شيخ المترجمين •

● رحيل شيخ المترجمين العرب عبدالعزيز توفيق جاويد (٧٧ عاما) :

ولد بالقاهرة وتخرج فى كلية المعلمين العليا ١٩٢٩ اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية عام ١٩٥١ فمديرا للمركز الرئيسي للتدريب بمنشية البكرى سنة ١٩٦٣ شغف بآداب الانجليزية والفرنسية وانضم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ ، فاز بجائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة عام ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

وعنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية :

١- فى التاريخ : معالم تاريخ الإنسانية تأليف هـ . ج . ويلز فى أربعة أجزاء .

٢- فى تاريخ الحضارات :

حضارة الإسلام جرينى باروم ، الحضارة البيزنطية ، الحضارة الهلينستية تاون ، ميلاد العصور الوسطى (موص) اضمحلال العصور الوسطى هويزنجا .

٣ - فى علم النفس والتربية :

مدخل إلى علم النفس الحديث ذا نجويل ثلاثية أرنولد جزل فى تربية الأطفال .

٤ - كتب فى السياسة ومتفرقات :

أسيا والسيطرة الغربية بانيكار ، حول منع الحرب جون استراتش .

٥ - كتب أخرى : أعلام وأفكار (هويزنجا) التاريخ وكيف يفسرونه (رينجرى) التربية عن طريق الفن.(هوبرت ريد) بيت الذئب (ستانلى ويمان) حاجى مراد تولستوى - فينوس وادونيس وليم شكسبير .

٦ - كتب الأطفال : أليس فى أرض العجائب ، أليس فى المرآة ، كنوز الأقدمين كتاب معالم تاريخ الإنسانية ٤ أجزاء تأليف هـ . ج . ويلز الكتاب موسوعة تاريخية شاملة موجزة لحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الأديب الانجليزى الشهير هـ. ج.

ويلز الجزء الأول من الكتاب نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التى تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والاجناس القديمة المندثرة ويعرض الفكر الإنسانى ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماته ثم لأقدم الحضارات فى مصر والعراق والهند أما الجزء الثانى فيعرض الحضارة الاغريقية والهيلنستية والرومانية ولمحة من تاريخ العبرانيين أما الجزء الثالث فيعني بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث .

رحم الله شيخ المترجمين عبدالعزيزتوفيق جاويد

رجب عبدالحكيم بيومى الغولى - القاهرة

• النشرة رقم ٨ لمجلة النداء •

الزميل الفاضل :

يطيب لنا أن نعود إلى لقاءاتنا الدورية مع بدء الموسم الجامعي والثقافي ، وكلنا ثقة أن هذه البداية سوف يعقبها انتظام صدور المجلة شهريا بعد أن كنا نستكمل الشروط المطلوبة للحصول على الترخيص الرسمي .

ونـود أن نشـير أولا إلى ما جـاء في كتـاب وكيل المؤسسين بشأن رأس المال وما نص عليه القـانون الجـديد من السماح للعضو الواحد بامتـلاك عشرة فى المائة مـن رأس المـال (بحد أقصى) ، والرغبة المشتركة فى الاسـتفادة من هـذا النص مع الحرص على نقاء الصورة للمشروع . وقد بلغ مجموع الزيادات التى قدمها المؤسسون حتى وقت اعداد هذه النشرة ٧٨٠٠ يضاف إليها ألفان من مشتركين جدد . وبذلك بلغت جملة المبالغ المسددة لحساب رأس المال ٨٨٤٠٨,٣٠ وبذلك يتبقى مبلغ ١١٥٩١,٧٠ لتكملة الحد الأدنى لرأس المال .

ولجنة التحرير تهيب بجميع الأعضاء أن يعجلوا باضافة ما يمكنهم إضافته دون إرهاق لميزانياتهم ويمكن لكل عضو إضافة مبلغ مائة جنيه أو إحدى مضاعفاتها ، حتى

تخرج المجلة من دور التجريب إلى دور العمل المنتظم والصدور المنظم . ونحب أن نذكر الزملاء في هذه المناسبة بأن مبلغ المائة ألف جنيه المستهدف هو الحد الأدنى لرأس المال طبقا للقانون ، وأن كل زيادة عليه ستدعم موقف المجلة ، وفي رأس أولوياتنا أن نلحق بالمجلة وحدة للجمع التصويري تسهل إعداد المجلة للطبع وتخدم الأعضاء (بسعر التكلفة) وتسهم في زيادة موارد المجلة .

إن العدد التجريبي الثالث (والأخير) قد تم إعداده للطبع . ولعلنا نعبر عن الرأي الغالب حين نقول إن المجلة استطاعت في هذه المرحلة التمهيدية أن تحدد طابعها ، وأن تعقد صلة بينها وبين فئة غير قليلة من القراء ، مع أن التوزيع لم يتجاوز مدينتي القاهرة والاسكندرية ، إلا أعدادا قليلة أمكن إيصالها إلى بعض الأقاليم وهذا ما يطمئننا إلى نجاح المشروع عندما يتضاعف عدد النسخ المطبوعة ويصبح في الإمكان إسناد التوزيع إلى إحدى الشركات المختصة (وهو ما لا يسمح به قبل صدور الترخيص) .

أخيرا نأتي إلى برنامج المحاضرات :

ستكون لقاءاتنا في يوم الأربعاء الأول والثالث من كل شهر – ابتداء من الأربعاء ١٦ أكتوبر – عند تمام الساعة السادسة مساء ، وذلك حسب الجدول الآتي :

الأربعاء ١٦ أكتوبر : الدكتور عز الدين اسماعيل : النقد الأدبي إلى أين

الأربعاء ٦ نوفمبر : الدكتور رواش الديب : الطب والتكنولوجيا

الأربعاء ٢٠ نوفمبر : الدكتور نعيم عطية : من تجاربي في ترجمة الشعر

الأربعاء ٤ ديسمبر : الأستاذ طلعت الشايب : من تجاربي في ترجمة الرواية

الأربعاء ١٨ ديسمبر : الأستاذ فكري باسيلي : تجربة الإصلاح الاقتصادي في مصر

مع أطيب تمنيات لجنة التحرير

مجلس التحرير

حاشية : ما زلنا نفتقد بعض صور جوازات السفر أو البطاقات الشخصية ، ونرجو من الأعضاء الذين لم يسلمونا إياها من قبل أن يتفضلوا بإمدادنا بها ، لأن القانون يشترط أن يكون جميع الأعضاء مصريي الجنسية .

الكلمة الأخيرة

الندواتيـــــة



بقلم : د . محمود الطناحى

وأخيراً وبعد صبر وترقُّب وطول انتظار منَّ الله عليّ ودعيت إلى ندوة من تلكم الندوات التى تتوالى فى هذه الأيام كما تتوالى دفعات المطر، وقد كثرت هذه الندوات كثرة ظاهرة، فلا تُمسى بك ليلة بندوة حتى يأتيك صباح بأخرى.

وفى تلك الندوات تلتقى بثلاث فئات : رئيس الجلسة والمتحدّث والمعقب، وترى بين الثلاثة وداً صافيا وأُنساً عذبا : فهذا غنى عن التعريف، وذاك ترك أعمالاً جليلة ليشارك فى ندوتنا هذه، وثالث يتواضع ويقول : إنه لا يستحق كل ذلك الثناء (ويعلم الله أن بداخله كِبْراً يكفى أمّة) .

ويمضى النقاش بين الثلاثة ملفَّفاً فى ثياب المصانعة والمس الرقيق، ثم يختم بهذه العبارة الحانية : إن هذه الملاحظات لا تغض من قيمة البحث الذى استمتعنا به اليوم «ويعلم الله أنها تغض وستين تغض كمان». وهكذا تسير الأمور، وإذا سمعت شغبا أو حدة أو ارتفاعا فى الأصوات، فلا تظن أن المسألة دخلت فى باب الجدّ، وإنما هو من قبيلِ قول الأحوص فى عاتكة :

إنى لأمنحك الصدود وإننى قَسَماً إليك مع الصدود لأمْيَلُ

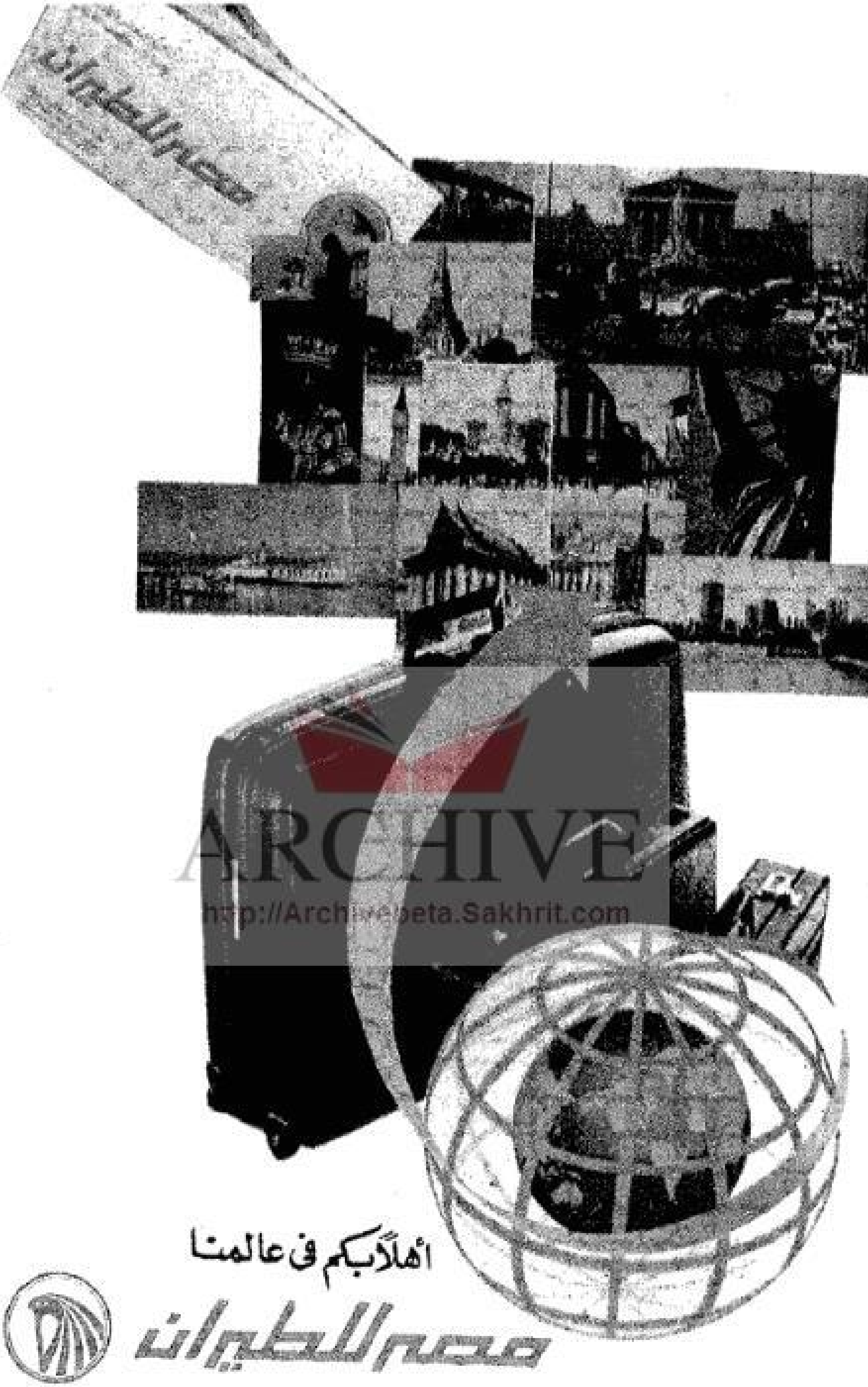
لأن «النّدواتية» يحب بعضهم بعضا، ويحرصون على استبقاء الودّ بينهم، ترقُّباً للندوات القادمة، ولعلهم مقدمون على خطوة كالتى خطاها كتاب بريد الأهرام، فنسمع عن تكوين «أصدقاء الندوات»، وقد أصبحت أسماء «الندواتية» مكرورة ومعروفة كأسماء كتاب بريد الأهرام تماما.

لكنى أشهد أن بعض هذه الندوات تعالج قضايا جادة، وتتناول شخصيات كبيرة، وأنها يُعَدّ لها إعداداً جيدا، ولكن يُفسد ذلك كله المصانعة والاستخفاف، والمشاركة دون الاحتشاد وامتلاك الأدوات «وانظر الكلمة الأخيرة فى عدد سابق من الهلال لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى».

ثم أشهد أيضا أن من بين هؤلاء «الندواتية» أناساً أهل فضل وعلم، لو أنفقوا هذا الوقت مع تلاميذهم فى الجامعة، أو مع كتبهم وتصانيفهم لكان ذلك أنفع وأجدى على الفكر والأدب، لأن كثيرا مما يطرح فى هذه الندوات ومثلها المؤتمرات العلمية كلام فى كلام، وقديما ما نبّه الناس إلى أن كثرة القول مفسدة للعمل، فقال القائل : «زيادة القول تحكى النقص فى العمل»، وقال أبو العلاء فى لزومياته :

إذا كثُر الناس شاع الفسادُ كما فَسد القولُ لمّا كثُرْ

والله أعلم.

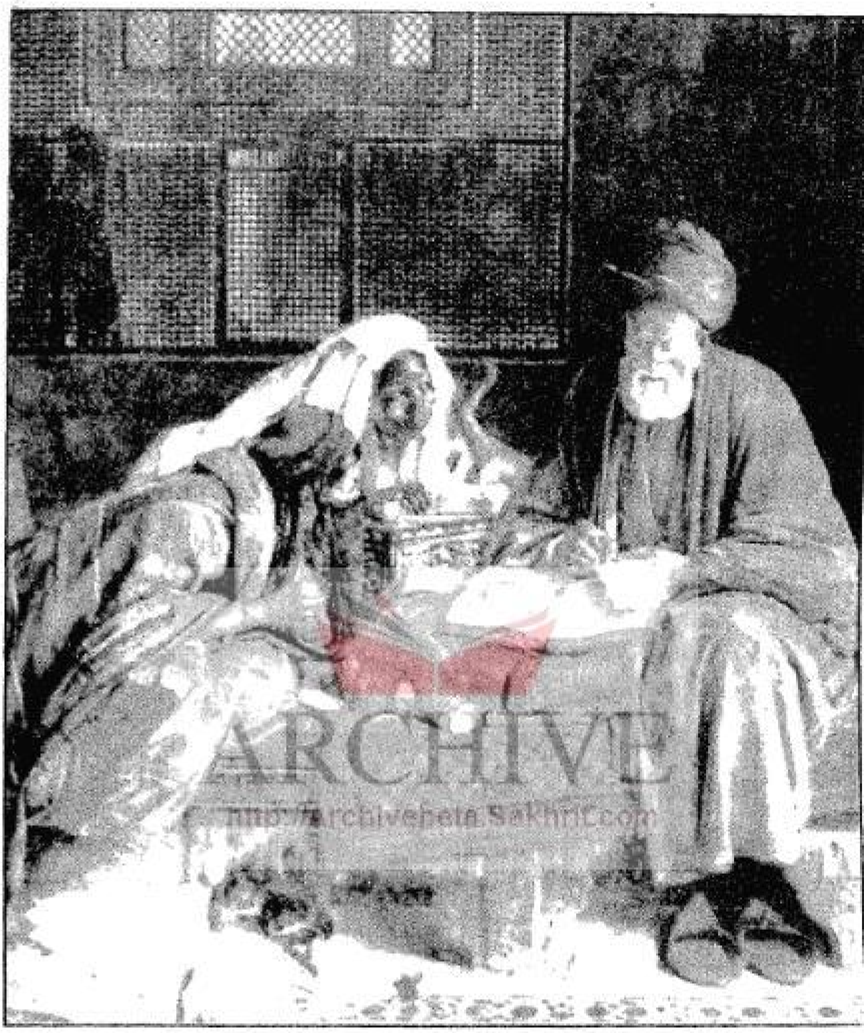

مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران

الهلال

ديسمبر ١٩٩٦ ● الثمن ١٥٠ قرشا

هل عثروا على قصر
كليوباترا
... نابغة التاريخ
ملهمة الشعراء؟





الكاتب العمومى

الفنان العالمى فردريك لويس

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الخامس بعد المائة

الإدارة القاهرة – ٦٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) . المكاتبات : ص.ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا – المصور – القاهرة ج. م. ع. مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١ – تلكس : 92703 Hilal un فاكس : FAX : ٣٦٢٥٤٦٩

ثمن النسخة سوريا ١٠٠ ليرة – لبنان ٣٠٠٠ ليرة – الأردن ١٢٠٠ فلس – الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ١٠ ريالات – تونس ١.٧٥٠ دينار – المغرب ١٥ درهماً – البحرين ١ دينار – قطر ١٠ ريالات – دبى/ أبو ظبى ١٠ دراهم – سلطنة عمان ١ ريال – الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال – غزة/ الضفة/ القدس ١ دولار – إيطاليا ٤٠٠٠ ليرة – المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع. تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٠ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت – ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

هـــذا

العـــدد



الغلاف

بريشة الفنان :

حلمى التـــونى

فكر وثقافة

دائرة حوار

فنـــــون

شعر وقصة

التكـــوين

الأبواب الثابتة

من الهـــلال إلى الهـــلال

معرض الكتاب وحرية الكاتب

فى الأسبوع الأخير من الشهر الحالى ، يعاودنا معرض القاهرة الدولى للكتاب، فى عامه التاسع والعشرين ، مثيراً فى الأذهان كثيراً من الخواطر و الشجون..

فمما لاشك فيه أن هذا الملتقى الثقافى العربى والعالمى قد طرأ عليه كثير من نواحى التطور ، وعظم دوره فى الثقافة المصرية خاصة والعربية عامة ولاسيما فى الأعوام الأخيرة.. فقد أصبح هناك المزيد من الاهتمام بإقامة الندوات الجماهيرية الحاشدة التى تستضيف أعلاماً فى السياسة والثقافة العربية، وتسهم فى إضاءة المصابيح على طريق التنوير الذى لازال مظلماً ! .. كما صار المعرض بؤرة للاهتمام بالفنون الشعبية والمسرح والشعر ، وكثرت أجنحته وازداد عدد الدول التى تشارك فيه، الأمر الذى ساعد على تحريك المياه الآسنة فى حياتنا الفكرية .. هذا جانب إيجابى لانستطيع له إنكاراً ونتمنى له الاستمرار والتطور ..

.. ولكننا نكون متعامين عن الحقيقة التى لا يجحدها عاقل ، إذا تجاهلنا أساس مشكلة المعرض وغيره من الملتقيات الثقافية العربية الدورية والصغرى .. إنها مشكلة الكتاب العربى الذى يبدو غريب الوجه واليد واللسان فى هذا المعرض .

إن الكتاب العربى – وهو بطل تلك الملحمة السنوية – قد وقع تحت حصار محكم ، تمتد جذوره إلى بعيد .. ففى الثلاثينات كان الكاتب المصرى والعربى حراً يكتب فيما يشاء ، يقتحم المواقع الفكرية مهما كانت حصانتها، وكانت حياتنا العقلية ممتلئة بالحوارات المثمرة، وكان الكتاب منتعشا نتيجة لتلك الحركة الثقافية النشطة ، ولم تكن هناك ضرورة لإقامة معارض الكتاب، لأن الكتاب كان معروضا ومقروءا ..

ولكن الأزمة التى اغتالت – أول ما اغتالت – حرية الكاتب والكتاب ، وارتفاع سعر الورق العالمى الذى أدى إلى رفع السعر النهائى الذى يباع به الكتاب، جعلت إقامة هذا المعرض أمراً ضروريا لتنشيط الحركة الثقافية فى المجتمع ، وتشجيع الجمهور الذى أضرب عن القراءة ، والأخذ بيد منتج الكتاب ، الذى يسمونه «دار النشر» .. وقد توجد الدار ولايوجد النشر ، لأن الكثير من دور النشر الآن واقع فى قبضة الرجعيين ، أو فى قبضة العابثين !..

إن معرض الكتاب الدولى بالقاهرة – والذى لاننقطع عن زيارته فى كل عام – تفوح منه الرائحة الاستهلاكية التى لاشك فيها ، فإذا زار القارىء المعرض لفت نظره كثرة محال الأطعمة المتنقلة الغالية ، وبيع الألعاب والتسالى للأطفال ، وتلك الأكشاك التى تبيع للزوار أشرطة الكاسيت الغنائية الهابطة ! .. كما يخاطب التجار غرائز الشباب والفتيات ببيع الصور الكبيرة الملونة للفنانين من أهل التمثيل والرقص والغناء بأسعار عالية .. وصور أخرى تكاد تكون فاضحة !!

.. فهل لهذه الأمور دواع تستوجب وجودها فى المعرض ؟ .. وإذا تركنا كل هذا لادارة المعرض ، فما حل مشكلة الغلو الفاحش لمعظم أسعار الكتب المعروضة، الأمر الذى حول

المعرض فى السنوات الأخيرة إلى مكان مخصص للتعرض إلى عناوين الكتب فقط دون شرائها ؟!

.. ولا يكاد الكتاب المصرى ينتهى من أمر أعدائه الذين ذكرناهم سالفا، حتى يواجه عدواً شرسا يضرب بأرجله الأخطبوطية فى جوانب شتى للمجتمع، إنه الإرهاب الفكرى وجماعات التكفيريين وهواة المصادرة الذين تبعث بهم «لجنة الفتوى» المشهورة !

فهل ستصادر مجموعة جديدة من الكتب فى معرض هذا العام ؟!..

وهل ستصادر كتب هذا الكاتب أو ذاك كما حدث من قبل ؟ وهل ستخضع المواد المعروضة لتلك اللجان التى تنصب نفسها قاضيا وجلاداً فى نفس الآن، دون استناد إلى قانون ؟ .. وهل ستكون يد المصادرة هى ضيف شرف المعرض (الدولى) كما حدث من قبل ؟! وهل تصبح دور النشر التى تملكها الجماعات الدينية المتطرفة هى سيدة الموقف فى معرض هذا العام؟!..

إن مشاكل الكتاب المصرى كثيرة ضخمة، لاتقف عند ارتفاع سعره أو عند مشكلة الحريات العامة والإرهاب الفكرى ، بل هناك مشكلة أخرى تتمثل فى هجمة الكمبيوتر وثقافة شبكات المعلومات و«الإنترنت» و «الدش» التى جعلت الإنسان العربى أميل إلى التسلية المرئية وأبعد عن صحبة الكتاب ..

.. فهل لنا أن نأمل فى أن يكون المعرض الدولى التاسع والعشرون للكتاب فى مصر ، على وعى بتحديات هذه المرحلة؟ وهل لنا أن نحلم بكتاب عربى سليم معافى لايصادره ظلامى ، ولايمتنع قارئ عن شرائه لغلو ثمنه الفادح ، ولاتستطيع ثقافة الأجهزة المرئية أن تبدد شغف القارئ به ؟

وهذه اقتراحات محددة نرجو الأخذ بها: الاعلان عن أكثر الكتب توزيعاً خلال أيام المعرض، وأجمل الكتب إخراجاً، إلى جانب جوائز المعرض المعروفة.. وهذا معمول به فى كل معارض الكتب فى العالم ، وأصبح ميسراً بعد استخدام الحاسب الآلى.

والإقتراح الثانى إقامة ندوة تعالج مصاعب انتشار الكتاب وتوزيعه فى مصر والعالم العربى تضم الناشرين والكتاب وتستعين بدراسات علمية حول الموضوع.

.. عزيزى القارئ ..

إننا نتمنى لهذا المعرض أن ينجح وتنمو فيه جوانبه الإيجابية ، وأن تخفت حدة سلبياته ، وتصح نظرته لمشكلة الكتاب ، حتى لايأتى على هذا المعرض وقت غير بعيد لايجد فيه ما يعرض من كتب .. ويتحول إلى ذكرى سنوية أليمة !!

ونقدم فى مناسبة معرض الكتاب والذى تقرر تأجيله والمجلة ماثلة للطبع عددا من الدراسات لكتب مهمة صدرت هذا العام ضمن موضوعات الهلال بالداخل من ص ٤٢ إلى ٦٣ .

المحـــــرر

ماذا فعلنا باللغة العربية؟

بقلم : د. جلال أمين

لايمكن لمن لايزال يذكر مثلى ، ماكانت اللغة العربية تتمتع به من مكانة رفيعة فى مصر منذ نصف قرن ، إلا أن يشعر بالأسى الشديد عندما يتأمل حالها الآن . كان لايزال مما يمكن أن يفخر به المرء ، فى ذلك العصر ، أنه يكتب بلغة عربية صحيحة ، وكان الخطأ فى النحو والإعراب ، كتابة أو القاء ، مما يمكن أن يخجل منه المرء ويحاول تجنبه .

وكان الأمر متيسرا .. فقد كان لنا مدرسون للغة العربية يجيدون العربية ، هم أنفسهم ، ويعشقونها عشقا . كما كان المناخ المحيط بنا كله يحترم العربية ويرعى مكانتها ، كان من الشروط الواجب توافرها فى الكاتب الصحفى مثلا ، ولو كان يكتب خبرا صغيرا ، أو المذيع ، أن يكون قادرا على الكتابة أو الكلام بلغة عربية صحيحة وكان الوزراء والسياسيون إذا ألقوا خطبهم ألقوها بلغة عربية جميلة، وكان أحد معايير الحكم على هذا السياسى أو ذاك قوة بيانه وجمال لغته .

باختصار لم يكن الأمر مما يجوز التساهل فيه . وكان مجمع اللغة العربية



الذى كان يضم أئمة الأدب والعلم والفكر فى مصر يتمتع بالاحترام الشديد والمهابة التى كان جديرا بها . كان يرأسه أحمد لطفى السيد حتى وفاته ، ثم طه حسين حتى وفاته وكان الحصول على عضوية هذا المجمع شرفا لايدانيه شرف، وتتويجا لحياة الأديب أو العالم أو المفكر لايطمع بعده فى المزيد من المجد .

لم يعد الأمر كذلك ، بكل أسف ، الخطأ فى اللغة ، لم يعد شيئا يستحى منه المرء ، بل أصبح لفت النظر إلى الخطأ وإعطاؤه أى اهتمام هو مايستحى منه المرء .

لم تعد إجادة العربية شرطا لتعيين المذيع أو المذيعة ، وأصبح الصحفى يكتب أن الاجتماع سيعقد مساءا (بالألف) ، أو أن نجاح الحكومة فى تنفيذ سياستها الاقتصادية كان نجاحا (مضطردا) (إذ أنه لايعرف الفرق بين الاضطراد والاطراد) . وعلى العموم فقد أصبحت كفاءة الصحفى أو فشله لاعلاقة لهما بمعرفته أو جهله باللغة العربية ، أما الوزراء والسياسيون فحدث عن لغتهم العربية بلا حرج . وذلك أنه لم يعد من الجائز مع كثرة مشاغلهم وكثرة تعاملهم مع الأجانب أن تطالبهم بالالتفات الى مثل هذه الصغائر ، أما أعضاء مجمع اللغة العربية فلايكاد يعرفهم أحد وقد انقضى على أى حال ، ذلك العصر الذى كنا نسمع فيه من حين لآخر عن لفظ جديد صكه المجمع كمقابل للفظ الأجنبى الذى بدأ استخدامه بكثرة ، فلم يعد المجمع ، فيما يبدو ، قادرا على ملاحقة هذا التيار الكاسح لغزو المصطلحات ، والتعبيرات الأجنبية لحياتنا.

الفخر بالجهل بالعربية

على أن الأمر ، إذا أردت الحقيقة كاملة ، أسوأ من هذا بكثير . فقد انقلب

الأمر في الحقيقة رأسا على عقب ، لم يعد التزام الكلام والكتابة بلغة عربية صحيحة هو مجال الفخر ، بل العكس بالضبط هو الصحيح ، لقد أصبحت المذيعة التليفزيونية مثلا ، تبدو وكأنها تفخر بأنها لاتستطيع أن تنطق الكلمات كما يجب ، إما بسبب أنوثتها الطاغية ، أو بسبب انغماسها في بيئة أجنبية حتى أذنيها ، والمتحاورون في برنامج تليفزيوني أو إذاعي أصبحوا يسمحون بالكلمات الأجنبية بالدخول في كلامهم من حين لآخر ، ويتظاهرون بأن ذلك يحدث لاشعوريا أو بالرغم عنهم ، إذ أنهم للأسف ، لايجدون المقابل العربي لهذه المصطلحات الأجنبية الصعبة ، وهم في الحقيقة يريدون التفاخر والتشدق بمعرفتهم ببعض الكلمات الأجنبية ، والكاتب في الصحيفة أو المجلة ، حتى ولو كانت شعبية ، شأنه شأن الأستاذ الجامعي اليوم ، ينتهز أية فرصة ليضع المقابل الأجنبي للمصطلح العربي أو الكلمة العربية ، بمناسبة وغير مناسبة ، حتى لو كان المقابل العربي كافيا تماما ، وواضحا تمام الوضوح ، بل وأوضح من اللفظ الأجنبي ، بل وحتى لو كانت الكلمة ليست اصطلاحا أصلا ، كأن يكتب الاقتصادي بجوار كلمة رخاء كلمة (prosperity) أو بجوار كلمة ثروة (Wealth) ، وكأن العرب لم يعرفوا الرخاء أو الثروة قبل أن يعرفها الأوربيون بعدة قرون ، فإذا ببعض الكتب التي يضعها أساتذة الجامعة لطلبتهم مرصعة بالكلمات الأجنبية كل بضعة سطور للإيحاء للطالب بأن هذا الكلام صعب وخطير ، وأن استاذهم علم علامة ، أحاط بالعلم من كل أطراف الكرة الأرضية ، وهو لم يفعل في الواقع إلا أن أضاع وقته ووقت طلبته فيما لاينفع ، وأرهق عامل المطبعة دون أي داع .

التفكير بلغة أجنبية

وقد زاد مع الوقت عدد الكتّاب وأساتذة الجامعة الذين يبدو من كتاباتهم أنهم لايفكرون في الواقع باللغة العربية ، بل بلغة أجنبية ، لدرجة أن القارىء كثيرا مايحتاج ، لكي يفهم مايقرأه ، أن يكون ضليعا في اللغة الأجنبية ، فيقوم بترجمة مايقرأه بالعربية الى تلك اللغة ، في ذهنه حتى يتضح أمامه المعنى !

الأمر مدعاة للسخرية والرثاء حقا : أن يكون فهمك لكلام مكتوب بالعربية متوقفا ، لا على مدى اتساع معرفتك بمفردات العربية وقواعدها ، بل على مدى معرفتك بلغة أجنبية وتقاليدها ! وسأضرب للقارىء بعض الأمثلة ، وإن كنت واثقا أنه متى انتبه جيدا لما يقرأ لبعض الكتاب (بعضهم للأسف من أصحاب الأسماء السيّارة ومن الكتاب الكبار) سيجد أمثلة أخرى كثيرة لما أعنيه . فمثلا ، كنت أقرأ في كتاب حديث في الاقتصاد لأستاذ كبير في هذا العلم ، طلب مني أن أكتب تقييما له لمجلة اقتصادية متخصصة ، فوجدت صعوبة بالغة في أن أفهم مايقوله

المؤلف من أول قراءة لكل جملة ، ووجدت أن عليّ في كثير من الأحيان أن أعيد قراءة الجملة قبل أن أتبين مقصده ، وأسفت لذلك أسفا شديدا فأنا أيضا أستاذ في الاقتصاد ، والموضوع الذى يتناوله الكتاب ليس غريبا عليّ ، فكيف تكون قراءتي له مهمة بهذا القدر من الصعوبة ؟ أثناء القراءة صادفت قوله «ويعتقد الكاتب الحالي...» واستغربت من التعبير إذ أن المؤلف لم يكن في هذا السياق يتكلم عن كاتب بعينه فسألت نفسي : من هو ياترى هذا «الكاتب الحالي»؟ ثم تبينت أنه لايقصد إلا نفسه ، فهو ، أي المؤلف ، هو «الكاتب الحالي» والتعبير هو ترجمة للتعبير الانجليزي الذي بدأ يشيع في العقود الأخيرة (ولم يكن شائعا ولا حتى مستخدما في حدود علمي منذ نصف قرن ولا في اللغة الانجليزية نفسها) وهو The present writer وهو تعبير ثقيل سقيم يستخدمه بعض المؤلفين للإشارة إلى أنفسهم ، مراعاة لعادة أن يتجنب الكاتب الإشارة الى نفسه باللفظ المألوف وهو «أنا» ، من قبيل التواضع ، فيما يبدو ، أو التظاهر بالموضوعية وإنكار الذات . التعبير ، كما ترى سخيف ولا داع له ، ولكن حتى إذا فضله الانجليز أو الأمريكيون فهو تعبير عن عادة وتقليد ليس لهما مقابل عندنا ، ومن ثم فلا يمكن للمؤلف أن يتوقع أن يفهمه القارىء العربي إلا إذا كان عارفا بعادات الأجنبي في الكتابة ، وإدخال هذه العادة إلينا ليس له ، في رأيي ، أي مسوغ مقبول .

الغموض المتعمد من باب التباهي

مثال آخر لتعبير شاع للأسف عندنا بلا مسوغ أيضا ، وهو التعبير عن «الكتابات» بلفظ «الأدب» ، ذلك أن لكلمة literature في الانجليزية معنيين : أحدهما هو الأدب بمعنى العمل الأدبي ، كالقصة والرواية والمسرحية والشعر ، والآخر هو مجرد «الكتابات» أيا كان موضوع هذه الكتابات ونوعها . ومن ثم فيجوز أن نقول بالانجليزية (economic literature) بمعنى الكتابات الاقتصادية . ولكننا لأسف نقلنا الكلمة وترجمناها بمعناها الأول (الأدب) للتعبير عن المعنى الثاني (وهو الكتابات) ، فنقول «الأدب الاقتصادي» مثلا ، أو «الأدب الاجتماعي» ، ولا أدري كيف قدر لهذا التعبير الانتشار لهذه الدرجة ، اللهم إلا إذا افترضنا أن كثيرا من الكتاب يتعمدون استخدام تعبيرات غامضة وغير مفهومة (وهي كثيرا ماتكون غير مفهومة لأنها خاطئة) لإيهام القارىء بأن وراء مايقولونه أو يكتبونه معاني خطيرة ، وعميقة لاتسعه عقول أمثالنا ! وقل مثل ذلك عن إنتشار كلمات ثقيلة وغريبة مثل «آلية» و «مصداقية» و «اشكالية» .. الخ

إني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاعتقاد بأن انتشار هذا النوع من السلوك في الكتابة العربية يكمن وراءه في

كثير من الأحيان نفسية معقدة وغير سوية وأن الكاتب كثيرا مايعرف درجة غموض ما يكتب ودرجة تعقيده ، بل وكثيرا مايعرف طريقة لتجنبه ، ولكنه يسترسل في الأمر استعذابا للغموض وتفضيلا لهذا التعقيد ، متظاهرا أمام القارىء المسكين بانه عالم كبير ، ومستغلا انتشار الجهل باللغات الأجنبية في بلادنا . فيستخدم القليل الذى يعرفه منها في التمويه على الناس الذين وجدهم هذا الكاتب تحت رحمته . سواء كانوا طلبة في الجامعة أو قراء لصحيفة أو مستمعين سلبيين للإذاعة والتليفزيون لايستطيعون استيضاح الأمر منه .

الأمر محزن كما ترى ، ويثير التساؤل عن السبب . قد يتبادر الى الذهن أولا هذا التوسع المذهل فى التعليم الذى حدث خلال نصف القرن الماضي ، وأدى إلى تدهور مستوى التعليم بصفة عامة ، بما فى ذلك تعليم اللغة العربية ليس فقط بسبب ازدحام الفصول والتساهل الذى يصاحب عادة زيادة عدد المتقدمين للحصول على الشهادة . بل والانخفاض الملحوظ فى مستوى المعلمين ، بما فى ذلك معلمو اللغة العربية ، الذين لم يزد عدد المؤهلين منهم لهذا العمل الخطير بنفس نسبة الزيادة في عدد التلاميذ ، هذا طبعا صحيح ، وصحيح أيضا أثر التغير فى نوع الاداة أو الوسيله التى تنتقل بها المعرفة باللغة من شخص لآخر ، فالمدرسة لم تعد هي الوسيلة الوحيدة (وربما ولا الوسيلة الأساسية) التي يتلقى من خلالها الناس المعرفة باللغة ، ولا الجامعة ، بل انضمت الى المدرسة والجامعة ، بدرجة متزايدة القوة، الصحف والمجلات والإذاعة ثم التليفزيون ، وهذه الأدوات أو الوسائل الأخيرة لها سمات معينة تختلف عن المدرسة والجامعة ، من بينها اتساع جمهورها اتساعا كبيرا ، وسرعة إعداد المادة التى تلقى إلى هذا الجمهور الواسع . فقراء الصحيفة وجمهور المستمعين الى الإذاعة ومشاهدو التليفزيون ، جماهير واسعة ، مستوى تعلمهم فى المتوسط أقل من مستوى تلميذ المدرسة أو طالب الجامعة ، ومن ثم يغفر الكاتب فى الصحيفة لنفسه ، أو معد برنامج الإذاعة والتليفزيون ، التساهل فى قواعد اللغة بحجة أن جمهوره لايتطلب أكثر من ذلك ، أو لا يستطيع أن يستوعب أكثر من ذلك ، وسرعة إعداد المادة الصحفية والإذاعية والتليفزيونية تؤدى إلى نفس النتيجة ، بحجة أنه ليس هناك وقت كاف للالتفات إلى قواعد اللغه ، وأن المهم هو «المضمون» كل هذا صحيح أيضا ، ولكنه لايصل فى رأيى إلى الأصل الحقيقى للعلة التى نحن بصددها .

عدم القدرة أم عدم الرغبة ؟

ذلك أن العلة التى أصابت اللغة

العربية لاتتعلق فقط ولا أساسا «بعدم القدرة» ، بل «بعدم الرغبة» ، بعبارة أخرى : المرض الحقيقي لايكمن في أن عددا متزايدا من الناس لم تعد لديه القدرة على التعبير السليم بالعربية بسبب عدم معرفته بقواعد هذا التعبير السليم، بل إن عددا متزايدا من الناس لم تعد لديه الرغبة في ذلك، أو لم يعد يحرص بدرجة كافية على احترام اللغة العربية ، وإذا كان هذا صحيحا ، وهو في رأيي كذلك ، فلن يكفي لعلاج هذه العلة أن نخرج العدد الكافي من المعلمين الأكفاء ، وأن نراعي ألا يتم التوسع في الكم على حساب الكيف ، إذ أن أصل العلة في رأيي يكمن في «النفس» لا في «العقل» .

الحراك الاجتماعي وتدهور اللغة العربية

التفسير الأساسي في رأي يتعلق بما يسميه علماء الاجتماع «الحراك الاجتماعي» الذي خبرته مصر في الخمسين سنة الماضية ، فقلب التركيب الطبقي للمجتمع المصري رأسا على عقب ومن ثم خلق أنماطا من السلوك ومواقف نفسية لم تكن معروفة في مصر بهذه الدرجة على الإطلاق قبل نصف قرن ، ومن بين هذه المواقف النفسية هذا الموقف المؤسف من اللغة العربية .

ذلك أني أريد أن أميز بين ثلاثة أجيال من المتعلمين في مصر من حيث انتمائهم الطبقي ، وموقفهم من التراث وموقفهم من الغرب ، ومن ثم موقفهم من اللغة العربية : جيل الثلاثينات والأربعينات ، وجيل الخمسينات والستينات ، وجيل السبعينات والثمانينات . أما جيل الثلاثينات والأربعينات من المتعلمين ، فقد كان ينتسب في الأساس لطبقة اجتماعية مستقرة نسبيا ، بمعنى أن النسبة الغالبة منهم لم يكونوا قريبي العهد بالانتماء إلى الطبقات الدنيا ، وفي نفس الوقت كانوا أقل تطلعا الى الصعود الاجتماعي إلى أعلى ، كانت طبقة يشعر أفرادها باطمئنان نسبي إلى مركزهم ، ليس وراءهم ماض قريب يحتقرونه ويريدون نسيانه ، ولا يشعرون بالتوتر الناتج من اللهفة على الصعود إلى أعلى ، إذ لم يكن هذا ليبدو ممكنا في ظل الظروف الاقتصادية والسياسية السائدة ، وفي ظل الحاجز الحديدي الذي كان يفصل بين الطبقات قبل ثورة ١٩٥٢ . انعكس هذا الاطمئنان النسبي في موقف معين من التراث وفي موقف معين من الغرب ، كانت هذه الطبقة من المتعلمين تحترم تراثها ، بما في ذلك لغتها القومية ، لأنه لم يكن لديها سبب نفسي يدفعها للنفور منه والتنكر له ، كما أن موقفها من الغرب كان يتسم بقدر عال نسبيا من الثقة بالنفس . نعم كان هناك انبهار بالغرب ، يرجع تاريخه إلي أول اتصال لنا بالغرب الحديث مع قدوم الحملة الفرنسية ، ولكن الانبهار

أنواع ودرجات ، وكان انبهار هذه الطبقة بالغرب في ذلك الوقت لايصل الى درجة الانهيار النفسى والتسليم للغرب بالتفوق فى كل شيء ، بما فى ذلك اللغة والآداب .

جيل الخمسينات والستينات

كان هذا هو السبب الأساسى فى نظرى لتمتع اللغة العربية بمكانتها العالية (نسبيا) فى ذلك الوقت ، إذا قورن بما حدث لها بعد ذلك ، فقد تغير الأمر تغيرا كبيرا فى الخمسينات والستينات ، فنتيجة لثورة ١٩٥٢ ، وما اتخذته من إجراءات اقتصادية ، وما ترتب على هذه الإجراءات من تغيرات إجتماعية عميقة ، بما فى ذلك ارتفاع درجة الحراك الاجتماعي ، وفتحها أبواب التعليم على مصاريعها ، بالاضافة الى ماحدث من توسع فى التعليم فى العقد السابق عليها ، أصبحت النسبة الغالبة من المتعلمين في الخمسينات والستينات ، ينتمون إلى طبقة إجتماعية «أقل استقرارا» بمعنى أنها كانت أقرب عهدا بالطبقات الدنيا (إذا قورنت بالجيل السابق من المتعلمين) ومن ثم أقل اطمئنانا إلى مركزها ، فضلا عن أنها بدأت تظهر درجة أقوى من التطلع إلى الصعود الاجتماعى نتيجة الفراغ الذى أحدثته الثورة فى الدرجات العليا من السلم الاجتماعي ، كان موقف هذه الطبقة من المتعلمين ، فيما أزعم ، أقل إجلالا للتراث (بما فى ذلك اللغة القومية) من الجيل السابق من المتعلمين ، كما أن انبهارها بالغرب كان أشد تأثيرا على ثقتها بنفسها ، قد يرجع ذلك إلى أن الثورة رفعت شعار النمو الاقتصادى والتقدم ، وتقدمت بخطوات سريعة نحو تحديث المجتمع ، على الرغم من كل مايقال عن انغلاقها على نفسها وانكبابها على الذات ، وكان هذا التحديث بالضرورة يعنى مزيدا من التغريب ، نعم لقد اشتبكت الثورة فى عراك مع الغرب ولكنه كان عراكا سياسيا واقتصاديا وليس عراكا ثقافيا أو حضاريا ، فضلا عن أن هذا الجيل من المتعلمين ، بحكم ماحققه من صعود إجتماعي قريب العهد ، كان من الطبيعي أن يكون أكثر انبهارا بالتفوق التكنولوجى للغرب من الجيل السابق عليه وبما تحققه التكنولوجيا الغربية من توفير الراحة وتخفيض الأعباء والمشقة المرتبطة بالعمل العضلى وقد انعكس كل هذا فى موقف أقل ولاء للتراث بصفة عامة ، بما فى ذلك اللغة القومية وأكثر استهانة بهذه اللغة .

قد يساعدنا فى تصور هذا التغير الذى حدث للموقف من اللغة العربية فى الخمسينات والستينات ، بالمقارنة بالثلاثينات والأربعينات ، أن نقارن خطب قادة ثورة ١٩٥٢ وخطب السياسيين السابقين على الثورة ، أنظر إلى أى حد كان يستهين قادة الثورة بقواعد اللغة وجمال التعبير ، ويسمحون لأنفسهم بالخطابة بالعامية ، بالمقارنة بسياسيى

العهد السابق لقد أصبح المهم هو «التغيير الثورى» ، وفى سبيل ذلك تهون كل «الشكليات» بما فى ذلك قواعد اللغة القومية .

* * *

على أن الأمر زاد استفحالا فى السبعينات والثمانينات نتيجة ماحدث من معدل غير مسبوق للحراك الاجتماعى ، أحدثته سنوات الثورة السابقة من ناحية ، واستمرار التوسع فى التعليم ، وارتفاع معدل التضخم ثم الهجرة الواسعة إلى دول النفط ، كلنا لايزال يذكر كيف كان جيل المتعلمين فى السبعينات والثمانينات قريب العهد جدا بالطبقات الدنيا ، كما نعرف جميعا كيف زاد الاتصال والانبهار بالغرب فى هذين العقدين بما فى ذلك الانبهار بأبسط منتجات الغرب وأقلها شأنا وأقلها دليلا على التفوق ، كان طبيعيا جدا لهذا الجيل الجديد من المتعلمين أن يلقى بقواعد اللغة عرض الحائط ، ويتفاخر بإقحام الكلمات الأجنبية فى كلامه وكتاباته ، فهو جيل لديه ثأر حقيقى مع التراث والماضى بصفة عامة ، يستعجل نسيانه ودفنه ، ويريد الانفتاح الكامل على مصادر الرزق والثروة الجديدة التى غيرت من مكانته الاجتماعية إلى الأفضل ، فى مثل لمح البصر .

أما الاحتجاج على ذلك بأن السبعينات والثمانينات قد شهدتا أيضا نمو قوة تلك الحركات المنادية بتمسك أكبر بالتراث فالرد عليه سهل ، ذلك أن هذه الحركات المناصرة للتراث تضم فى طياتها نوعين من الناس :

النوع الأول : يتكون من المنتصرين للتراث من باب رد الفعل للظاهرة التى أتكلم عنها ، ظاهرة التغريب والانفتاح بلا ضوابط على الحياة الغربية وميل الكثيرين الى التنكر للتراث والاستهانة به ، ويضم هذا الفريق أفرادا كثيرين ممن لايسمح لهم تكوينهم النفسى لسبب أو آخر بالتنكر لتراثهم على هذا النحو المهين والذليل ، ولكن هناك نوعا آخر من المنتصرين للتراث يتكون من شرائح اجتماعية فشلت فى تغيير مركزها الاجتماعى على نفس النحو التى نجحت به شرائح أخرى ، أو بنفس الدرجة التى كانت تطمح إليها .

* * *

هذا هو تشخيص للسبب الأساسى لتدهور صحة اللغة العربية فى مصر خلال نصف القرن الماضى ، وهو تشخيص يشير إلى أسباب اقتصاديات واجتماعية ، ولكنه يشير أيضا إلى مرض نفسى نتج عن هذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، وكما هى الحال فى سائر الأمراض النفسية ، نجد هنا أيضا أن تشخيص الداء أسهل بكثير من وصف الدواء .

لغة النقد (٣)

المشكلة الأساسية التى تعترض قارىء النقد الحديث هى مشكلة المفردات : أى اللبنات التى يبنى منها المقال . دعنا من بعض الكلمات التى شاعت اليوم طلبا للأناقة أو قل جريا وراء «الموضة» فأصبح القارىء مستعدا لقبولها كما يقبل وردة فى عروة جاكتة الشخص الآخر أو منديلا ملونا فى جيب الصدر - كلمات مثل «الخطاب» أو «الاشكالية» أو «المقاربة» ، فهو - القارىء - يفهمها ببساطة على أنها لا تعنى أكثر من «اللغة» أو «المشكلة» أو «البحث» - دعنا من هذه الإضافات غير المفيدة إلى لغتنا المتضخمة فعلا بكثرة المترادفات وكثرة الكلمات التى فقدت معناها وتلك التى تحشر لملء الفراغ ، وانظر معى إلى هذه الكلمات التى التقطتها من «ثبت مصطلحات» ألحقه الدكتور عبد السلام المسدى بكتابه «المصطلح النقدى» .

اللا تاريخانية - السوسيوبنائى - التفسيبنيوى - الزمكانى - التحليلنفسى

ليس الثبت كله ولا معظمه من هذا النوع - حمدا لله ! - ولكنك قد تعجب حين تعلم أن الدكتور المسدى لم يتصيد هذه الكلمات ليظهر مبلغ سخافتها ، بل هى التى دخلت عليه ، لا اقتحاما أو استفزازا بل من طريق مشروع جدا . فحين أراد وضع قوانين لغوية لترجمة المصطلحات النقدية الأجنبية عمد إلى الخطوة الأولى التى يتخذها كل عالم لغوى حين يتصدى لعمل من هذا النوع : جمع مادة لغوية مناسبة لاستخلاص القوانين المطلوبة منها ، ورأى أن عناوين الكتب والمقالات هى أنسب مصدر لهذه المادة ، فالكاتب لايضع فى العنوان - عادة - إلا كلمات ارتقت إلى مرتبة الاصطلاح ، أى إلى مرتبة الاسم الفنى الذى يدل على مفهوم محدد . والكلمات التى أوردناها

بقلم : د. شكرى محمد عياد

هنا قد تكون محددة المفهوم ، قابلة للشرح ، ولكن الذوق يرفضها لمنافاتها للصيغ العربية . وإذا كنت قد أطقت سماعها أيها القارىء فحاول أن تجربها على لسانك .

● المعنى غير المتوقع

ولكن هناك قسما آخر من الألفاظ قد لاتمجه الأذن أو يثقل على اللسان ، إلا أنها يمكن أن تحير القارىء من جهة معناها، ويرجع ذلك غالبا إلى اختلاف المنشأ . فقد كان النقاد الجدد فى أمريكا يتحدثون كثيرا عما يسمونه Paradox ، ونترجمه بالمفارقة ، وهو المعنى غير المتوقع أو المناقض للفكرة الشائعة، أو لما يقتضيه السياق عادة . ولكن ثمة كلمة أخرى نشأت في بيئة الأسلوبيين الأوربيين ، وهى كلمة devriation أو ècairt ، ونترجمها بالانحراف ، وقد كادت تطرد الكلمة الأولى من السوق . فالمنافسة قائمة على قدم وساق بين المصطلحات . وفى الوقت الحاضر نقرأ عن «ما بعد الحداثة» (post - modermism) و «ما بعد البنيوية» post - struct uralism فلا ندرى هل هما شيء واحد أو شيئان ؟ ولايمكننا أن نعزو اللبس إلى أن كليهما «ما بعد» (post) فهناك أيضا تلك «التفكيكية» (deeonstruetion) وإن كانت الترجمة العربية قد أخفت قرابتها لهما، وكان يمكن أن نترجم أيضا «نقض البنيوية»

فلسفة النقد قد تصبح أكثر قبولا حين نخضعها لطرق العربية في صياغة الألفاظ وسبكها على المعانى كما يقترح المسدى ، ولكنها لاتصبح أكثر وضوحا إلا حين نبحث عن أصلها وفصلها ، ونتحرى عن سلوكها مع جيرانها . وقبل كل شيء يجب أن نتأكد أن اللفظ الذى نتعامل معه هو حقا مصطلح ، وليس مجرد كلمة جديدة نزلت إلى السوق . ولا عيب مطلقا فى أن نعتمد معجما أو أكثر من معاجم المصطلحات الأدبية الأجنبية ، فأهل مكة أدرى بشعابها ، لكن بشرط ألا ننسى أننا واقفون على الشاطىء الآخر ، أى أن لدينا مصطلحاتنا نحن أيضا ، كما أن لدينا تاريخا فى التعامل مع المصطلحات الأجنبية، التى تعد هذه المصطلحات الحديثة امتدادا لها، حتى ولو كانت ثورة عليها .

وهذا هو ما يفعله الدكتور محمد عنانى فى أحدث كتبه «المصطلحات

الأدبية الحديثة» : (دراسة ومعجم إنجليزى عربى)

أتمثله فى هذا الكتاب ممسكا تاريخ النقد العربى بيمينه وتاريخ النقد الأوربى بيساره ، بل أتمثله ناظرا مرة إلي هذا ومرة إلى هذا ، وممسكا بيده «طباشيرة» وأمامه سبورة يعلم ويشرح.

هو يريد أولا - أن ينبه إلى العقبات والعثرات فى طريق المترجمين ، وهو يريد - بل هذا هو هدفه الأساسى - أن يوضح «معانى» المصطلحات النقدية الجديدة، لا أن يترجمها فحسب . لذلك جعل الكتاب قسمين : الدراسة التى شغلت أكثر من نصفه ، والمعجم الذى ألحق به كشافا بالمصطلحات الإنجليزية ، يحيل إلى شروحها إما فى الدراسة وإما فى المعجم وإما فيهما معا . فكأنه «يحاصر» المصطلح حتى لايفلت معناه من يد القارئ» ، فإن أمكن تحديد معناه مستقلا فهو فى المعجم ، وإن احتاج إلى ربطه بغيره فهو فى الدراسة والمعجم ، ومع أن «المصطلحات الأدبية الحديثة» التى وضعت الدراسة والمعجم لشرحها هى تلك التى لم تأخذ فى الانتشار عندنا إلا منذ السبعينيات ، فقد حرص أن يبدأ الدراسة من «البدايات» ، أى بدايات تعرفنا إلى المدارس الحديثة فى النقد ، وكانت طليعتها «مدرسة النقد الجديد» التى سادت عالم الأدب فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ أواخر الأربعينيات ، وبشر بها فى مصر ، منذ الخمسينيات، الدكتور رشاد رشدى الذى كان الدكتور عنانى أحد حوارييه . وهذا الجزء من الدراسة مهم جدا، مع أنه سابق للفترة التى شغل بها باقى الكتاب ، والمدارس التى ظهرت فى هذه الفترة . فمدرسة النقد الجديد يمكن أن تعد مقدمة للمدرسة البنيوية التى ظهرت أولا فى فرنسا ، وإن كان من النادر أن يعترف البنيويون للمدرسة الأمريكية بدين ما ، ولكنهم - على العكس - احتفوا بالشكليين الروس ، حتى أصبحت هذه المدرسة تعد من الروافد الأولى للبنيوية . وربما كان للبنيويين الذين قدموا إلى فرنسا من أوربا الشرقية ، وعلى رأسهم تودوروف وجوليا كريستيفا ، يد فى ذلك . ولكن ثمة علاقة أخرى غامضة بين المدرسة الروسية ذاتها ومدرسة النقد الجديد، وكان فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أثناء ازدهار مدرسة النقد الجديد ، مهاجرون من أوربا

الشرقية أيضا ، وعلى رأسهم رينيه ولك ورومان جاكوبسون ، قد تكون العلاقة غامضة بين المدرستين من الناحية التاريخية، أما من الناحية الموضوعية فإن المفاهيم متقاربة جدا، وهذا ما ينبه إليه الدكتور عنانى ، ولا يمنعه ذلك من الوقوف طويلا عند اصطلاح ساعد أحد أقطاب النقد الجديد فى إذاعته ، مع أنه بعيد عن روح النقد الحديث، وقد يعد من بقايا النقد الرومنسى ، لولا أن الشاعر الناقد الرومنسى الذى ينسب إليه هذا المصطلح، وهو كولردج ، لم يقل به فى الحقيقة ، بل قصد معنى آخر .

● الوحدة العضوية

هذا المصطلح هو «الوحدة العضوية» تلك الوحدة التى احتفلت بها مدرسة الديوان احتفالا عظيما، وفهموا منها ، وتبعهم الكثيرون ، أن العمل الأدبى لايقبل حذفا ولاتقديما ولا تأخيرا، كما أنك لاتقدر أن تقطع أنفا من جسم إنسان ، أو تضع ساقا محل ذراع ولم يقصد كولردج شيئا من ذلك ، وإنما كان يتحدث عن الفرق بين (الشكل الآلى) أى القالب المفروض على العمل الأدبى سلفا ، والشكل الحى ، الذى يتطور من داخل العمل الأدبى ، كما تتطور المادة الحية فى الطبيعة . وقد جاء النقد الحديث فى أيامنا هذه فتكلم عن «نسب (بالتحريك) العمل الأدبى . (فوكو)

كما تكلم عن «التناص» (كرستيفا) أى أن العمل الأدبى لاينشأ فى فراغ ، بل يستمد - تلقائيا - من أعمال سابقة .

وكأنما أراد عنانى أن يرتق فتقا فى النقد الجديد ليحكم الصلة بينه وبين المدارس التى جاءت بعده .

ويمضى المؤلف فى تصحيح المفاهيم الخاطئة التى التصقت بمدرسة النقد الجديد (أو بصورتها المصرية على وجه التحديد) فيقف وقفة أخرى عند اصطلاح «المعادل الموضوعى» (Objectise correlatisr) ويعزو سوء الفهم إلى الترجمة ، وإن لم يقل إن فى الترجمة خطأ ما ! إنما المشكلة فى كلمة «موضوعى» و «موضوع» . . فقد يراد بها «شىء» وهو ما أراده إليوت ، ورشاد رشدى من بعده ، أى التعبير عن العاطفة من خلال واقع خارجى محسوس ، فهو يناقض العاطفية المائعة التى غلبت على الرومنسية زمن انحدارها ، ولا يراد به «الموضوع» الذى هو مقابل للشكل ، ولم يكن النقد الجديد ليقبل تصورا للأدب يفصل بين الشكل والموضوع .

أما الذى يمكن أن يثير اعتراضا شديدا فى هذا التمهيد التاريخى فهو قول الدكتور عنانى : «وأكاد أجزم بأن تعبير المسرح باعتباره مصطلحا حديثا لم يكتسب ثباته واحترامه إلا عندما أشاعه

محمد مندور في الصحف وفي محاضراته عقب عودته من فرنسا وبعد تركه الجامعة .» فإن يجهل عناني أن محمد مندور بعد تركه الجامعة كان يلقي محاضراته تلك في معهد اسمه «معهد التمثيل» ، أم يريد أن يقيم حاجزا بين «التمثيل» و«المسرح» ، أم يريد أن يعزو الى محمد مندور ، دون غيره، قيام مؤسسة اسمها «مؤسسة المسرح» ونشاطها الكبير طوال الخمسينيات والستينيات ، أم يرى أن ظهور مجلة اسمها «المسرح» في العشرينيات لم تكن له علاقة «بمؤسسة المسرح» إذا كان يريد المؤسسة بمعناها الواسع؟ .

أكبر ظني أن الدكتور عناني يعرف هذا كله ، ولكنه أراد أن يقول كلمة طيبة في حق الدكتور مندور أيضا ، وقد كان بين الدكتورين مندور ورشدي خصومة من خصوماتنا الأدبية المضحكة ، رحمهما الله

● النقد الأدبي النسائي

بعد هذا الاستطراد – وصديقي الدكتور عناني هو المسئول عنه – أرجو ألا يشغلني شيء آخر عن الفصول المتتابعة القيمة التي جعلت المدارس النقدية المعاصرة واضحة المعالم أمام القارئ العربي . فهو يستطيع أن يبحر بشيء من الأمان بين المدرسة الشكلية الروسية ومدرسة براغ ومدرسة تارتو (ولعله سمع من رائدها الكبير لوتمان) والبنيوية الغربية والتفكيكية وما رافق هذه المدارس كلها أو تولد عنها من «علوم» تعد اليوم روافد للنقد الأدبي ، وعلى رأسها «السميولوجيا» (علم العلامات ، أو كما ترجمها غيره «علم الأدلة») ، و«الهرمنيوطيقا» (التفسيرية – كما ترجمها) ، و«الأسلوبية» أو «علم الأسلوب» وهما ترجمتان يستخدمها لاصطلاح Stylistics أو Stylitque وهذا الأخير لايحظى – رغم أهميته – إلا بصفحة ضمن الكلام على البنيوية . ويختم هذه الفصول بفصل عن «النقد الأدبي النسائي» ، وهذه حركة لاتزال بادئة عندنا، ولعل تسميتها «حركة» أوفق من اعتبارها مدرسة ، لأنها لاتعتمد على منهج وإن كانت تستند إلى نظرية عن مكانة المرأة الاجتماعية في الماضي والحاضر والمستقبل ، تستتبع اتجاهات معينة في تفسير الأدب وإبداعه .

أقول إن هذه الفصول المكثفة تقودك

فى بحر من الأفكار الجديدة . فليس من المعقول أن تستوعب - حتى ولو أضيف إليها المعجم - كل المفاهيم ولا كل المعلومات التى تتعلق بالمدارس النقدية الحديثة . ولكنها على الأقل لاتترك مصطلحا مهما إلا أثبتته وعرفته . فإذا كنت ملما بمدارس النقد المعاصرة فستجد فى هذا العمل المعجمى مرجعا ينجدك حين يرد عليك اصطلاح جديد ، وإن بقيت المشكلة أمام القارىء العربى أنه لايجد كشافا بالترجمات العربية لتلك المصطلحات (ولو كانت مجرد اجتهادات) أو بأكثرها شيوعا . وهى إضافة يمكن أن تزيد حجم العمل كثيرا ، ولكنها - فى تقديرى - إضافة ضرورية .

● دائرة معارف صغيرة

وإذا كنت ملما بمدارس النقد المعاصر فستجد أن هذا العمل المعجمى يضيف الكثير إلى ما سبق أن حصلته وستجد نفسك مغرى بأن تتخذه كتابا للقراءة لا مجرد معجم ترجع إليه حين تشكل عليك كلمة (ولعل هذه هى الطريقة المثلى للانتفاع به) . وقد عرفت أمر «الدراسة» فوجب أن أعرفك أيضا بالمعجم . فهذا المعجم - شأن المعاجم المتخصصة - أشبه بدائرة معارف صغيرة . وأعطيك مثالا مادة Pragmatics التى ترجمها المؤلف بالتداولية والسياقية والمواقفية وهى علم من تلك العلوم الوثيقة الصلة بالنقد الأدبى ، فقد كتب عنها فى المعجم زهاء صفحة ونصف صفحة . وتقاربها فى الطول مادة Phenomenology (وترجمها المؤلف «الظاهراتية») وهى مذهب فلسفى كان له فى النقد الأدبى المعاصر تأثير كبير .

وقد قلت لك إن المؤلف يشرح ويعلم ، وإنه يحاصر المصطلح بالشروح . وأنت لن تشعر أن المصطلح قد حصل فى يدك حقا إلا حين تعرف منشأه ، وتطلع على بيئته . وبيئته المباشرة هى المصطلحات الأخرى التى يتصل معناها بمعناه ، سواء أكانت من نفس الحقل ، أم من حقل آخر مجاور. ومع أن الشىء المؤلم فى قراءة الموسوعات هو أنها تعطيك دائما أسماء وعناوين كتب تشعرك بمقدار جهلك - ولم يقصر كتاب عنانى معى من هذه الناحية - فإنك لاتعدم معلومة قائمة بذاتها ، تشعر أنها ملأت فراغا كان فى عقلك . من هذا القبيل ما قرأته فى هذا الكتاب عن تأثر دريدا بالوضعية المنطقية ، فقد رأيت فى هذه المعلومة تفسيرا ناصعا لما جرى للبنيوية على يديه ، ولو أننى لا أكتمك - أيها القارىء - حاجتى إلى معرفة كيف جرى هذا الذى جرى ؟ .

الخوف من التواصل الحضارى

بقلم د. مصطفى سويف

التواصل عبر الأسوار الحضارية حقيقة تاريخية، فى الماضى والحاضر وسوف يظل كذلك فى المستقبل. ومع أن أحداثه تتخذ من الإرادات الفردية وسائط لوقوعها فليس معنى ذلك أن تيار وقوع هذه الأحداث رهن فى وجوده أو عدمه بنزوات هذه الإرادات، والواقع أن مفهوم الإرادة يحتاج إلى قدر كبير من الانضاج حتى يصبح مفهوما يعتد به بين أدوات الاستيعاب والتفسير لمظاهر حياتنا النفسية الاجتماعية. ولكن هذه قصة أخرى لا يتسع لها السياق الراهن. أما الذى نحتاج إليه الآن فهو أن نتمثل نقطتين اثنتين بقدر معقول من الوضوح، أولاهما التفرقة بين الإرادات الفردية والإرادة الجماعية، فهذه الأخيرة ليست حاصل جمع الإرادات الفردية فى الجماعة ولكنها مركب يستمد عناصره من الإرادات الفردية ثم يبزغ ككيان له خصائصه وقوانينه المختلفة التى لا نستطيع أن نستنتجها من خصائص مكوناته. هذا عن النقطة الأولى. والنقطة الثانية هى أن ننظر إلى الإرادات الفردية على أنها (فى قدر كبير منها لا فى كلها) النهايات الطرفية للاحتياجات بجميع مستوياتها. والذى نراه بعد إبراز هاتين النقطتين هو أن التمثل العقلى الواضح لهما معاً شرط لابد منه لكى نفهم معنى القول بأن التواصل الحضارى حقيقة واقعة بغض النظر عن توجهات إراداتنا الفردية. ويصبح السؤال الذى يستوجب أن يثار طلبا لإجابة تنير أمامنا الطريق هو : كيف نفهم هذا التواصل حتى نحسن التعامل معه؟

ثم يلى ذلك سؤال: ولماذا الخوف من التواصل كما يبدو من بعضنا؟ ثم يلى ذلك فى نهاية المطاف سؤال هو قصد السبيل: كيف يكون التعامل الرشيد مع هذا التواصل ؟ وسوف نكرس هذا المقال للسؤالين الأول والثانى، ونرجىء الإجابة على الثالث إلى مقال تال نرجو الوفاء به.

• التواصل الحضارى، وظيفته وآلياته :

أحد الأساليب المهمة للتفكير العلمى فى أمور السلوك، سواء فى ذلك سلوك الأفراد أو الجماعات والمجتمعات هو البحث فى وظيفة هذا السلوك أو ذاك، أى مجموع الخدمات التى يؤديها هذا السلوك للفرد أو للجماعة. ومعنى ذلك أن هذا السؤال مطروح بالنسبة لموضوع التواصل فما هى الوظيفة أو الوظائف التى يؤديها التواصل بين الحضارات لهذه الكيانات وساكنيها ؟ الجواب هو أن هناك وظائف متعددة ، لكن هذه الوظائف رغم تنوعها وتعددها ليست سوى تفريعات تولدت ونمت فى ثنايا تطور المجتمعات والحضارات الإنسانية فى مجموعها ، أما الجذر الأساسى الكامن وراءها فهو السعى بها إلى حفظ البقاء ، فقد اكتشفت الجماعات البشرية منذ فجر الحياة الإنسانية على الأرض أنها (أى هذه الجماعات) موزعة بين توجهين رئيسيين : أحدهما إلى الإنغلاق على نفسها حفاظا على كيانها المادى والمعنوى، والثانى هو الانفتاح فيما بينها لسد بعض احتياجاتها التى لا تجد عندها ما يشبعها بينما هذا المطلوب موجود عند جماعة أو جماعات أخرى تقع فى نطاق إدراكها وتدبيرها. وعلى تربة هذا التوزع نشأت البراعم الأولية لوظيفة التواصل بين هذه الكيانات الاجتماعية الحضارية ينبغى لنا أن نتذكر دائما هذه الحقيقة الأساسية كلما لاحت فى الأفق أية بادرة للوقوف فى وجه التواصل عبر الأسوار الحضارية، أو للدعوة إلى هذا الوقوف، فمثل هذه البادرة عبث لا فائدة منه ولا معنى له، لأن التواصل الحضارى فى جوهره وظيفة ضمن مجموعة الوظائف التى نسعى بها إلى حفظ البقاء. وفى هذا السياق نفهم كيف أن ممثلى الكيانات الاجتماعية الحضارية ذات التوجهات العدوانية نحونا هم الذين يروق لهم أن يغلقوا فى وجوهنا بعض مسارات التواصل الحضارى أحيانا. والمثال الصارخ على ذلك فى الفترة التاريخية الراهنة هو منعنا من استيراد التكنولوجيا المتقدمة. هذا نفهمه، ونفهم على غراره أمثلة أخرى مشابهة، لأن هذه الأمثلة جميعا تعنى معنى واحدا هو أن نبقى فى موقف الضعف الذى يتولد عن وجود احتياجات لدينا لا سبيل إلى سدها إلا بالحصول على بعض هذه المنتجات التى تتوافر عند الكيانات المعادية أو الشبيهة بالمعادية.

والسؤال الذى يلى ذلك مباشرة هو السؤال الخاص بالآليات، فما هى الآليات الرئيسية التى ابتكرتها المجتمعات الإنسانية واستعانت بها على امتداد مسيرتها التاريخية لتحقيق هذا التواصل؟ والإجابة أن الإنسانية اخترعت (حتى الآن) أربع آليات أو طرق رئيسية لتحقيق هذا التواصل، هى : التجارة، والحرب،

الخوف من التواصل الحضاري

والحمل، والتعرض أو التعريض. فأما التجارة والحرب فأمرهما معلوم، وأما الحمل فيقصد به الاشارة إلى تحرك الأفراد بين الكيانات الحضارية يحملون معهم بعض منتجات حضاراتهم (المادية والمعنوية) إلى حيث يقصدون. ثم يعودون من المناطق الحضارية التي زاروها وقد جلبوا معهم منتجات طريفة يقدمونها إلى مجتمعاتهم لأغراض قد تكون تجارية وقد لا تكون. ومن أطرف الأمثلة التاريخية في هذا الصدد رحلة هيرودوت إلى مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ورحلة ماركو بولو من البندقية إلى الصين سنة ١٢٧٥، ثم عودته إلى البندقية سنة ١٢٩٥، ورحلات الرحالة الغربيين إلى مناطق الشرق الأوسط في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر. وتعتبر حركات السياحة من أهم الامتدادات الحديثة لهذه الآلية، آلية الحمل. وأما التعرض والتعريض فالمقصود بهما الاشارة إلى فئة واسعة من النشاطات تضم نشاط أجهزة الإعلام في الدولة الحديثة.، كما تضم المعارض والمهرجانات والمؤتمرات عبر القومية، وزيارات الفرق الفنية والعلماء والمبعوثين العلميين، وما تتناوله اتفاقيات التبادل الثقافي بوجه عام، وتضم كذلك حركات الترجمة بجميع أشكالها ومستوياتها. هذه هي الآليات أو الوسائل أو الطرق الأربع الرئيسية التي اختطتها المجتمعات المختلفة لكي تتيح للتواصل الحضاري أن يشق طريقه.

● حرصا على سلامة الفهم :

يتعرض خطاب الكاتب إلى القارىء أحيانا إلى سوء الفهم أو ما يشبه ذلك. ولكي نقلل من ورود هذا الاحتمال رأينا أن نضع خطوطا تحت النقاط الثلاث التالية:
النقطة الأولى ما يلاحظ من أن ثلاثا فقط من بين الآليات الأربع سالفة الذكر هي التي ينطبق عليها تماما تعريف التواصل كما ذكرناه من قبل وهو تعريف ينطوي على توافر عنصر التبادل بين الأطراف المعنية، وهذا ينطبق على التجارة والحمل والتعرض أو التعريض. أما الحرب فيبدو أنها تعني أساسا الأخذ أو النهب من جانب واحد. ورغم ذلك فقد أدرجناها تحت التواصل لأن الأمر ينتهي فيها في كثير من الأحيان (ولكن على المدى الطويل) إلى تبادل الأخذ والعطاء بين الغالب والمغلوب، كما حدث بين روما وأثينا في العصر القديم، وما حدث بين العرب الفاتحين والمصريين المغلوبين في العصر الوسيط، وما حدث بين أوروبا الغربية وعدد من المجتمعات البدائية في جزر المحيط الهادي في العصر الحديث.
والنقطة الثانية التي يلزمنا التنبيه إليها

هى أن الحديث عن التواصل الحضارى بنغمة الرضا لا يعنى قبول جميع أنواع الآليات التى يتم بها، ولكننا نرصد الواقع هنا كما هو قائم، تماما كما نرصد ما حولنا من نباتات بما فيها الأعشاب المفيدة والنباتات السامة، ولنا أن نختار بعد ذلك من بينها ما يلائم توجهاتنا واحتياجاتنا. والنقطة الثالثة مؤداها أن كل ما نعنيه بما قلناه حتى الآن هو أن التواصل الحضارى ضرورة حياة، ولكن شأنه شأن جميع ضرورات الحياة ليس خيرا كله ولا يمكن أن يكون شرا كله، بل لابد من ترشيده بحيث يمكننا أن نقترب به من حده الأمثل، تماما كتناول الطعام والشراب، واستنشاق الأوكسيجين فى الهواء، وتناول الأدوية عند المرض. ومن ثم فالمشكلة التى تواجهنا فى هذا الصدد يجب تحديدها على أنها تتعلق بالترشيد لا بوظيفة التواصل نفسها، وما يقوم بيننا من حوار يجب أن يدور حول الأسلوب الذى نختاره لكى نحقق الترشيد، هل نحققه بأسلوب الوصاية على المواطنين، أم نحققه بأسلوب انضاج الفكر العام، وتنمية الحس النقدى، ودعم القدرة على الرؤية المتوازنة فترى جوانب الخير وجوانب الشر فيما يعرض لها، ومن ثم تصل إلى اتخاذ القرار المتوازن، ليكون لها من هذا المران طريق إلى الإرادة المتوازنة متينة البنيان؟.

● مخاوف تبدو مشروعة :

يتعرض موضوع التواصل عبر أسوار الحضارات لعدد من المخاوف التى تراود أعدادا كبيرة من مواطنينا، وكثير منها تبدو مخاوف مشروعة، بغض النظر عن أن أصحابها لا يعنون بتوضيح أفكارهم حولها بما فيه الكفاية، مع أن هذا التوضيح قد يكون الخطوة الأولى نحو التفكير المجدى فيما ينبغى عمله إزاءها. وتدور معظم هذه المخاوف حول ما يمكن أن يترتب على محاولات التواصل مع كيانات حضارية مهيمنة أو تدعى لنفسها حق الهيمنة. والمنطق البسيط الذى يكمن وراء هذه المخاوف يمكن صياغته على ألسنة أصحابها بطريقة تكشف عن أن له محاور ثلاثة. أما المحور الأول فخلاصته أنه قد يكون لدى المهيمن ما نحتاج إليه نظراً للتقدم العلمى والفنى المتحقق عنده، وللطول النسبى لتاريخه «الحديث» فى إحراز هذا التقدم، أما نحن فليس لدينا من عناصر هذا التقدم ما يجعلنا نقترب منه كما ولا كيفا، ومن ثم فالإنفتاح عليه سينتهى به إلى أن يصدّر إلينا أشياء كثيرة، وفى المقابل لن نجد لدينا ما نصدره إليه. والخوف كل الخوف من أن ما يصدره إلينا يكون غالباً مشبَعاً

بعناصر من قيمه التي تقوم كدعائم لحياته المعنوية. والذي نخشاه فعلا هو تسرب هذه القيم إلينا، وما قد تحدثه من تخريب في بنائنا القيمي مع ما يستتبع ذلك من تدهور شامل في حياتنا. هذا وجه للخوف، ثم هناك محور آخر مؤداه أن انفتاحنا على الحضارات الأخرى (ذات التوجه الغربي بوجه خاص) يمكن أن يصير منفذا إلى اغراء شبابنا وإغوائهم إذ ينبهرون بما يُعرض عليهم من أساليب ووسائل يسود توظيفها عند أبناء تلك الحضارات، وهو ما قد يؤدي بنا إلى فقدان شبابنا وشاباتنا بولاءاتهم وربما بكامل حياتهم. وفى هذا ما فيه من استنزاف وإفقار لنا. ثم هناك محور ثالث يمضي على النحو الآتي: من بين ما نلاحظه على الدول المهيمنة حرصها على أن تكوّن لنفسها ركيزة من الأشخاص فى الدول النامية تربطهم بها بصورة أو بأخرى، وهى تكوّنهم أو تجندّهم عادة من بين أفراد الشرائح العليا فى القطاعات المؤثرة فى المجتمع، وهؤلاء يصبحون شيئا فشيئا كتيبة من الميسرين لقضاء مصالحها داخل الدول النامية التي ينتمون إليها. وقد يصل موضوع تيسير قضاء المصالح هذا إلى حافة الخطر على السياسات الخارجية والداخلية لهذه الدول النامية، ومن المؤكد أنه يصيبها فى إمكان تكوين إرادة سياسية مستقلة، فإذا لم تصب الدولة فى قدرتها على تخليق الإرادة أصلا وأمكن لها تخليقها فغالبا ما تكون هذه الإرادة عجفاء شديدة الضعف والهزال. هذه الفئات الثلاث من المخاوف تمثل فيما نرى أهم ما يراود نفوس الكثيرين من مواطنينا ممن يستقبلون الحديث عن ضرورة التواصل الحضارى بالكثير من التوجس. وغنى عن البيان هنا أننى أتكلم عن المواطنين المخلصين فعلا فى مخاوفهم لا أولئك الذين يثيرون هذه المخاوف كجزء من لعبة سياسية مرسومة. وفى رأينا أن المخاوف التى أتينا على ذكرها مخاوف مشروعة بمعنى أن مبرراتها واردة فعلا، وما أيسر أن نحصى الأمثلة التى تشهد على صحتها فى واقعنا المعاش، الوطنى والعالمى معاً. غير أننا ونحن نسلّم بمشروعيتها نرى أنها مشحونة بقدر كبير من الانفعالية التى تؤدى إلى المغالاة فى تقدير وزنها. وأنا أتكلم هنا عن الوضع فى مصر. ومع علمي بأننا مصنُفون على اعتبار أننا بلد نام، فأنا أعلم فى الوقت نفسه أننا لسنا زائير ولا أفريقيا الوسطى ولا تشاد .. إلخ.

• الترشيد العقلاني لانفعالاتنا :

عالم الانفعالات فى حياتنا النفسية عالم كبير، أكبر مما يتصور معظمنا، كما أنه شديد الوطأة علينا، أشد مما يتخيل معظمنا. ولكن إحدى جبهات المسيرة التاريخية للإنسان هى جبهة ترويض هذه الانفعالات. ويعتبر تاريخ الفنون، وتاريخ الأديان، وتاريخ الفكر التربوى جزءاً من هذه المسيرة فى هذه الجبهة. وفى جميع الأحوال تتجلى معظم انجازات هذه التواريخ فى حقيقة واحدة شديدة التركيب هى تحويل خضم الانفعالات الهوجاء إلى مكامن تضخ فينا طاقة دفع متكاملة وراء كل انجازاتنا. ومعنى ذلك أن انفعالاتنا بدون رباط العقل هوجاء، كما أن عقولنا بدون دفقة الانفعال جرداء عاجزة عن العطاء.

هذه مقدمة لابد منها فيما يتعلق بوضع النقاط على الحروف عندما نأخذ على بعض وجهات النظر استسلامها للانفعال فى مثل هذا الموضوع الذى نحن بصدده، مع أنه موضوع بالغ التعقيد يتطلب قدرا من هدوء النفس نستعين به على حسن التفكير وجلاء البصيرة.

نحتاج ونحن نناقش هذا الموضوع أن نضع نصب أعيننا بضع الحقائق الآتية:

أولاً : أن تسرُّب القيم من كيان حضارى إلى كيان آخر لا يتم بالصورة الآلية ولا بالسهولة التى توحى بها مخاوف بعضنا، حتى وإن يكن هذا التسرب صادراً عن أحد الكيانات الحضارية المهيمنة، بل يتم حسب قواعد أو قوانين علمية محددة تدور أساساً حول محاور الانتقائية، والزمن أو المدة، والصلاحية الوظيفية للقيم المناظرة الموجودة لدينا فى مقابل القيم الجديدة التى تتحفز لازاحتها، والتساند الوظيفى بين القيم المرشحة للإزاحة وقيم أخرى فى بنيتنا الحضارية. ولعل القارئ يذكر هنا حديثنا السابق عما أسميناه بـ «السياج نصف المنفذ» الذى هو جزء لا يتجزأ من أى كيان حضارى، وقد آن الأوان لكى نضيف إلى الحديث السابق أن هذه القواعد أو القوانين الأربعة هى أهم مظاهر توظيف هذا السياج نصف المنفذ أو هى مكوناته الوظيفية. والأمثلة التاريخية على صحة هذا القول لا حصر لها بالنسبة لنا نحن فى مصر سواء رجعنا فى ذلك إلى التاريخ القديم أم إلى تاريخنا الحديث.

ثانياً : إن الاغراء أو الاغواء الذى نخشى منه على شبابنا نتيجة للتواصل

الخوف من التواصل الحضاري

الحضاري والذى ينتهى بنا وبهم إلى التباعد المعنوى أحياناً والمادى أحياناً أخرى مسألة تحتاج إلى نظرة شاملة، تجمع بين الدقة والحس النقدى والأمانة. ولنركز الانتباه على من يتباعدون عنا ماديا لأن الحديث عنهم قد يستوعب بشكل أو بآخر مجموع فئات المتباعدين عامة. هناك نسبة من هؤلاء يرحلون إلى الغرب ويصيبون كثيرا من الفلاح العلمي أو المهني. ونسبة أخرى يغادروننا إلى الدول النفطية وهناك يصيبهم قدر من المال. وبين هؤلاء وهؤلاء نسبة لا يصيبهم غير الخيبة والاغتراب. ومع أن بعض الأسى واقع وواجب بالنسبة لهذا الرحيل كله، لأن الراحلين هم فى نهاية الأمر أبناؤنا وبناتنا، زينة حياتنا الدنيا، وبلدهم أولى بهم، مع ذلك فلا يجوز لهذا الأسى أن يحجب عن ناظرينا كل حقائق الاحباط والحرمان التى أحاطت بهؤلاء ودفعت ولا تزال تدفع بمعظمهم دفعا إلى الرحيل، ومن سخف القول أن أنطلق هنا فأحصى حقائق الاحباط والحرمان هذه لأنها أصبحت منتشرة فى حياتنا كالماء والهواء. ولكن ما يهمنى أن أقرره فى هذا الصدد أن هذه الحقائق تتساند فيما بينها جميعا لتكوّن فى نهاية الأمر محصلة تزداد مع الأيام قدرة على طرد أعداد متزايدة من أبنائنا. أمام هذه الحقائق يلزمنا أن نعيد النظر فى أحكامنا على النازحين والنازحات من مواطنينا، هل نظل ساخطين على فرص الاغراء والاغواء التى لاحت لهم، أم إذا لم يكن من السخط بدٌ فالأولى به مجموع العوامل التى كوّنت المحصلة الطاردة؟ إن قوة الاغراء والاغواء فى هذا السياق لا ترجع مسئولياتها إلى حضارة التصدير وحدها، ولكنها مسئولية مشتركة بين حضارة التصدير وإطار حياتنا الراهنة. ومن أراد أن يخدم مصر فى هذا الصدد فعليه أن يبدأ بقول الحق فى النسبة والتناسب بين طرفى هذه المسئولية المشتركة، وربما انتهى الأمر به بعد ذلك إلى أن يرى فى التواصل الحضارى رحمة بالعباد، حتى ولو كانت رحمة مؤقتة.

ثالثاً : أما مسألة تكوين مجموعات من المدافعين عن مصالح الطرف المهيمن ففى رأينا أنها أيسر الاعتراضات الثلاثة على عملية التواصل، ذلك أن الحق فيها بين والباطل بيّن. فالقانون الجنائي كفيل بالحالات التى تتجاوز حافة الخطر أو تقترب منها، ثم إنها كانت دائما موجودة بدرجاتها المتفاوتة بغض النظر عن

مستوى كثافة التواصل الحضارى ارتفع أم انخفض. وهى مرتبطة أشد الارتباط بما تحدثنا عنه فى الفقرة السابقة حول عوامل تنشيط الاغراء والاغواء أو تثبيطه. واللوم معظم اللوم يقع إذن على هذه العوامل الخبيثة لا على التواصل فى ذاته.

رابعاً : وأخيرا، فإن ما لا يجوز أن ننساه أو نتجاهله أثناء مناقشة هذا الموضوع أن التواصل قائم فعلا أردنا أم لم نرد، هذه حقيقة ذكرناها أكثر من مرة، ولا نمل من تكرارها. وقد أصبح مع التقدم العلمى والتكنولوجى المتحقق الآن أقدر على تخطّى مزيد من العقبات التى لم نكن نتصور أن يأتى حين من الدهر تصبح معه قابلة للتخطى. ومن ثم فما كان ممكنا لبعض الحكام أن يفعلوه فى الماضى من مقاومة (هى على أى حال جزئية) لعملية التواصل أصبح الآن ضربا من المحال أو كاد. وتشير جميع الدلائل إلى أن الأمور ستمضى فى هذا الاتجاه قُدُماً، على امتداد المستقبل المنظور. لهذا كله نعود فنكرر ما قلناه من قبل من أنه لا جدوى من الدعوة إلى مقاومة التواصل لأنها لا تجلب سوى بلبلة العقول وتشتيت الجهود. ولا يعنى هذا العود إلى تكرار قول قلناه فى بداية الحديث أن هذا الحديث برمّته لم يكن سوى ثرثرة لا طائل من ورائها. ذلك أن الحديث فى هذا الموضوع وما كان على شاكلته يحتاج إلى الارتياد من حين لآخر للتذكرة بأمور تتآكل الذاكرة من حولها، ولمزيد من الشرح والتوضيح لجزئيات فيها تظل مبقية على رواسب تجدد الحاجة إلى مزيد من النظر طلبا لمزيد من الفهم والاقتناع.

والخلاصة أننا ناقشنا فى هذا المقال وظائف التواصل الحضارى باعتبارها جميعا مختزلة فى وظيفة أساسية هى حفظ البقاء للكيانات الحضارية، وفى هذا السبيل فقد ابتكرت الإنسانية أربع آليات رئيسية تنجز بها مجريات التواصل، هى التجارة والحرب والحمل والتعرض أو التعريض. وانتقلنا من ذلك إلى مناقشة المخاوف الرئيسية التى تبدو مشروعة لدى أصحابها ضد التواصل، وأوضحنا فى هذه المناقشة كيف أن النظرة الفاحصة الموضوعية تعفى التواصل نفسه من لوم لا يستحقه، ناهيك عن أنه لوم لا جدوى منه.

ويبقى أمامنا الآن أن نجيب فى مقال تال عن سؤال اعتبرناه هو قصد السبيل، وهو كيف يكون التعامل الرشيد مع التواصل الحضارى.



لماذا يستمر تدهور التعليم ؟!

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

رغم جهود المسئولين فى وزارة التعليم فى السنوات الأخيرة فإن واقع الحال يشير إلى أن مجمل أوضاع التعليم فى مصر تسير فى طريق التدهور .

ففى التعليم الجامعى مثلا يكفى أن نشير إلى أربعة تطورات دالة تنبىء عن هذا التدهور ، أولها هو عجز الجامعة عن حماية حرية البحث الاكاديمى متمثلا فى بحوث الدكتور نصر أبو زيد التى تقدم بها للحصول على لقب الاستاذية ، ووصول الامر إلى أحكام فى القضاء بالتفريق بينه وبين زوجته الاستاذة فى نفس الجامعة ، وهو أمر لم يحدث فى مصر فى أشد عصور التخلف والاستعمار الاجنبى .

وثانيها موافقة الحكومة على مشروع الجامعات الخاصة التى تستهدف الاستثمار والربح بمساهمات من تجار السيراميك والسجاد والعطور ومضاربى البورصة ، وهى عملية وإن كانت تشبه شركات توظيف الاموال من ناحية فإنها أخطر بمراحل على توجه شباب مصر وعلى قيم ومستقبل المجتمع بأسره وتجعل من النص الوارد فى الدستور عن مجانية التعليم وتكافؤ الفرص أضحوكة ليس بعدها أضحوكة . لقد اكتملت دائرة الخصخصة فى كل مراحل التعليم بهذا التطور الجديد الذى جعل من أصحاب مدارس الحضانة الخاصة مفكرين وأكاديميين جدد !

أما التطور الثالث فهو زحف التدريس باللغات الاجنبية (الانجليزية والفرنسية) إلى كليات جامعات القاهرة وعين شمس وحلوان ، وذلك فى كليات التجارة وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، فضلا عن أنه ثمة استعداد فى عدد من كليات التربية للمضى فى نفس هذا الاتجاه ، وهو شىء لم يحدث فى مصر من قبل ، وقد أدى إلى الاستعانة بأساتذة أجانب ترشحهم سفاراتهم لتعليم أولادنا التجارة باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، الأمر الذى اعتبر من مستلزمات الانفتاح واحتياجات العمالة .

لمـــــاذا يستمر تدهور التعليم ؟

عندما دخلت طالبا في كلية العلوم عـام ١٩٤٠ اجـتـمـع بنا - نحن الطلبة الجدد في قسم العلوم الطبيعية - عميد الكلية آنذاك الدكتور على مصطفى مشـرفـة - وقـال لنا إننا سـوف ندرس العلوم الرياضية والفيزيائية باللغة العربية في السنتين الاولى والثانية ، لكنه اعتذر لأننا سـوف ندرس مواد السنتين الثالثة والرابعة باللغة الانجليزية وقال إننا بصدد التعريب الكامل للكتب والمناهج وأنه يأمل أن ينتهي هذا خلال خمس سنوات .

لكننا وبعد مرور ستة وخمسين عاما على هذه الواقـعـة تدرس فى كل سنوات الدراسة بكلية العلوم باللغة الانجليزية ، ويتولى القيام بهذا أساتذة بعضـهم لا يجيد هذه الانجليزية أصلا . وفى العالم كله تدرس مناهج الجامعات فى كل قطر بلغته القومية ، ويعتبر هذا دليلا على تقدم ذلك القطر وعلى توفر أحد شروط نجـاح البحث العلمي فيه ... إلا فى مصر حيث نمضى إلى الخلف منذ الانفتاح تحت وهم الرخـاء الذى لا يأتى أبدا ، وحـيث تنزلق البلاد بسرعة إلى شبكة التبعية ، ويباع القطاع العام - ثروة مصـر وعرقـهـا - للاجانب والصهاينة .

التطور الرابع والأخـيـر فى اتجـاه التدهور لجامعاتنا هو تعيين العمداء بدلا من انتـخـابهم بمقـتـضـى قـانون مـر فى مـجلس الشـعـب في دقـائق ، وهو تطور ينبيء عن فقدان الجامعة للبقية الباقية من استـقلالها ويشـيـر إلى تحـول الإدارة فى كليات الجـامـعـة لصـالح الاجهزة وكتّاب التقارير .

تأثير سلبى

وإذا تركنا الآن التـعليم الجـامـعى وتحولنا إلى التعليم فى أسفل السلم ، أى التـعليم الابتدائى ، فـسـوف نجد أيضا الصـورة نفسـهـا . فرغم بناء مـدارس جديدة - وهو أمر جـيـد - فـان مـعـاول الانفتاح وإلغاء السنة السادسة الابتدائية قـد أحـدثت تأثيـرها السلبى على هذا التعليم الذى هو القاعدة الاساسية للتعليم فى مصر لأنه يضم بين جنباته فى التعليم المدنى والازهرى نحو تسعة ملايين طفل . ويشير تقرير اليونيسيف فى مصر صدر أخيراً إلى أن معدلات القبول فى التعليم الابتدائى راكدة لا تتحسن وأن الفجوة بين الإناث والذكـور فى مـعـدلات القـبـول لم تضق ، وأن مـعـدلات دخول أبناء الفقـراء فى التـعـليم الابـتـدائى فى هبـوط ، وأن مسـتـوى التـحـصـيل فى اللغـة العربية

والحساب سيء ومتدهور ، وأن عدد الاطفال من سن ٦ إلى ١١ سنة الموجودين خارج التعليم الابتدائي قد ارتفع من ١,١ مليون طفل عام ١٩٩٠ إلى ١,٦ مليون طفل عام ١٩٩٥ . كما يشير تقرير اليونيسيف إلى أن معدلات القيد في التعليم الابتدائي ليست ٩٥٪ كما يزعم تقرير التنمية البشرية وإنما لا يتعدى ٨٦٪ ، بل إن هذا المعدل قد هبط في الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٥ .

أما التعليم الثانوي فإن التطور الرئيسي الذي حدث له هو تغيير نظام الامتحان في الثانوية العامة بتوسيع قاعدة الاختيار لمواد الدراسة وجعله بنظام السنتين بدلا من سنة واحدة . ولقد كانت إحدى الحجج الاساسية في تبرير هذا التعديل منذ عامين هو الرغبة في القضاء على آفة الدروس الخصوصية .

ولكن ما الذي حدث بالضبط ؟

الحقيقة أن مافيا الدروس الخصوصية قد زاد توحشها واتسع نشاطها خلال العامين الأخيرين . وبدلا من اختصار الدروس الخصوصية في الغالب على المواد العلمية أو اللغات ، إذا بنا نشاهد على شاشات التليفزيون وصفحات الصحف إعلانات لمدرس علم نفس وفلسفة ومنطق يعطي دروسا مسائية . في سبعة مراكز في شبرا ومصر الجديدة وبولاق الدكرور والمرج وعزبة النخل ، ثم مراجعة صباحية في حلمية الزيتون والهرم والعباسية . وتعد الاعلانات الطالب الذي يحجز في هذه الدروس أن ترسل له مندوبا ببطاقة مواعيد دروسه . ويحاول تلاميذ السنة الأولى الثانوية أن يحجزوا في مراكز الدروس الخصوصية المنتشرة في الأحياء أماكن لهم لمواد العام التالي ويدفعون في سبيل ذلك مئات الجنيهات .

وليس خافيا على أحد أن ظاهرة مافيا الدروس الخصوصية لا تقتصر على مرحلة التعليم الثانوي أو الاعدادي وإنما هي تمتد إلى التعليم الجامعي أيضا خصوصا في كليات القمة كالطب مثلا . وقد وصل الأمر إلى أن بعض الدروس العملية الخصوصية تعطى في معامل الجامعة الرسمية . وقيل إن عددا من مدرسي كليات الطب الشبان وجدوا أن ممارسة الدروس الخصوصية أكسب لهم من فتح عيادات للمرضى . ومن هنا سميت مراكز الدروس الخصوصية في الحديث الشعبي بالعيادات .

ولقد اتهم وزير التعليم في العام الماضي مافيا الدروس الخصوصية بأنهم يدفعون الطلاب لرفع قضايا أمام مجلس الدولة طاعنين في نتيجة الثانوية العامة

لماذا يستمر تدهور التعليم ؟

لعام ٩٤ / ١٩٩٥ . وأيا كان القدر من الصحة فى هذا الاتهام فإن أحكام مجلس الدولة قد أنصفت المئات من الطلاب ، وبعضهم أعادت إلى مجموعه أكثر من أربعين درجة . هذا مع العلم بأن مراجعة مجلس الدولة لأوراق الامتحان إنما اقتصرت على التأكد من صحة مجموع درجات الاجابة على الاسئلة المختلفة فضلا عن التأكد من أنه لم يحدث نسيان لتصحيح بعض الاجابات .

وأخيرا ربما كانت هذه الاطلالة السريعة على بعض جوانب التعليم بجناحيه: الجامعى وما قبل الجامعى كافية لدعم دعوانا من أن التعليم - رغم جهود المسئولين فى السنين الأخيرة - يسير فى طريق التدهور والسؤال الحتمى : لماذا يحدث هذا ؟

هناك أسباب عدة ، لكن يأتى فى المقدمة السبب الأول والرئيسى فى رأيى ، وهو أن الوزارة تعمل تحت وهم أنه يمكن إصلاح قطاع التعليم وحده معزولا عن قطاعات النشاط الوطنى الأخرى كالصحة والعمالة والاجور ... إلخ ، ودون إدراك لمدى الافرازات السلبية لسياسة الانفتاح - الذى هو سداح مداح بتعبير صديقنا الراحل العزيز بهاء - على كل قطاع النشاط الوطنى .

فالجامعات الخاصة بنتائجها المدمرة على التعليم الجامعى هى أحد إفرازات الانفتاح التى عجزت الوزارة عن مقاومتها، والسر بأن التعليم الابتدائى هو أحد ثمار الانفتاح لأن أطفال الفقراء يتركون التعليم الابتدائى مبكرا ودون إكمال بحثا عن عمل لدعم أحوال الأسرة.

والدروس الخصوصية التى انتشرت كالوباء هى أحد ثمار الانفتاح وما صاحبه من تضخم أدى إلى تدهور القوة الشرائية للاجور والمرتبات . ومن هنا اتجه المدرسون إلى الدروس الخصوصية حلا لمشكلتهم ، أما موظفو الدولة الآخرون فقد اتجه بعضهم إلى البحث عن عمل آخر بعد الظهر لمواجهة احتياجات الاسرة وانخرط البعض الآخر فى الرشوة والفساد لنفس الأسباب .

والمدارس الخاصة التى تتوجه نحو المناهج والشهادات الاجنبية هى أيضا أحد إفرازات الانفتاح ، بحيث تحول التعليم فى مصر بالتدريج إلى نوعين : نوع لأبناء الأثرياء بمصروفات باهظة متصل بالمناهج الاجنبية والتعليم الاجنبى يؤهلهم للحصول على مراكز السلطة المهمة ، ونوع آخر لابناء الفقراء يفقد

صفته المجانية سنة بعد أخرى ، وهم ينضمون غالبا إلى جيش العاطلين الذى يعد اليوم بالملايين .

الفقراء يزدادون فقرا !

لقد أدى الانفتاح إلى اتساع الفجوة بين الفقراء والاغنياء فى مصر . فالاغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا ، والطبقة الوسطى مضروبة فى مقتل مما أدى بمعظم شرائحها إلى الهبوط التدريجى إلى مستوى معيشة الطبقات الشعبية . وكل هذا لابد أن ينعكس على التعليم الذى استرد صفته الطبقية التى كان عليها أيام الملكية قبل ثورة يوليو .

ولقد بذلت وزارة التعليم جهوداً مشكورة فى السنين الاخيرة لمحاصرة الفكر السلفى الرجعى المتخلف الذى يتغلغل فى التعليم العام ، ويحاول السيطرة على عقول الطلاب بالخرافات ، والخزعبلات والعداء للعلم ، ومع ذلك فيبدو أن هذا الفكر السلفى قد عاد من جديد يتغلغل فى كتب ومناهج الوزارة .

ودليلنا على ذلك كتابان للشيخ الشعراوى قررا فى مناهج التربية الدينية هذا العام . أحدهما كتاب (معجزة القرآن) للصف الثالث الاعدادى ، والآخر (الادلة المادية على وجود الله) للصف الثالث الثانوى . والشيخ الشعراوى الذى صلى ركعتين لله شكرا عندما هزم جيش مصر عام ١٩٦٧ يقول إنه لم يقرأ كتابا – سوى القرآن – منذ خمسين سنة . ولذا فليس غريبا أن نجد الكتاب الأول يمتلأ بالغمز واللمز على الكتب السماوية للمسيحيين واليهود . أما الكتاب الآخر فقد امتلأ بالخرافات التى لا صلة لها بالعلم من قريب أو بعيد كالادعاء بأن جسم الانسان مكون من ستة عشر عنصرا ، وأن طين الارض مكون من نفس العناصر، فضلا عن محاولات الرد على نظرية داروين فى التطور بكلام ساذج لا يقنع عاقلا .

والسؤال هو : كيف قبلت الوزارة تقرير مثل هذه الكتب ؟

الرد الواضح عندى هو أن الذين يراجعون هذه الكتب لتقريرها على الطلاب هم من نفس شيعة الشيخ الشعراوى ولعل هذا يوضح حقيقة الوضع الوظيفى فى جهاز الديوان العام لوزارة التعليم وفى المناطق التعليمية المختلفة المليئة بالعناصر المنساقة وراء التيارات السلفية .

وهذا بالطبع يطرح السؤال التالى :

كيف يمكن إصلاح التعليم بالاعتماد على مثل هذا الجهاز ؟

وكيف يمكن دخول معركة التعليم دون جيش تعليمى متفتح من المدرسين والنظار والمفتشين والاداريين يعتمد عليه ؟ .

استمرار حرب أفغانستان وصناعة الأفيون

بقلم: د. سامي منصور

إن استمرار الحرب بين جماعات المجاهدين فى أفغانستان،رغم كل الجهود الدولية ،هو مأساة بكل معنى الكلمة.. فأفغانستان واحدة من أفقر دول العالم، إن لم تكن هى افقرها بالفعل، وهى لاتملك شيئا يستحق الصراع عليه. حتى الموقع الاستراتيجى الذى كان يعطى لها تميزا فقدته مع انتهاء الحرب الباردة، وانتهاء التقسيم العالمى الى كتلتين ايديولوچيتين. والمؤسف حقا أن ذلك كله يجرى تحت عنوان كبير هو الاسلام، ولو أنفقت أموال العالم للإساءة الى الإسلام ما استطعت أن تصل الى قليل مما صنعه المجاهدون الأفغان وخاصة حركة طالبان.

والحقيقة اننى لا أريد معالجة حرب افغانستان ولا حشر الإسلام فى دروبها مع أن ذلك فيه إغراء شديد لكثرة مايمكن أن يقال ويكشف، لأن هدف هذا المقال أبعد من أفغانستان أو غيرها، فهو يعالج علاقة السياسة بالمخدرات فى أى مكان وكل مكان وأفغانستان هنا تفرض نفسها باعتبارها أكبر منتج للأفيون فى العالم.

وبداية أود تسجيل احدى سمات المجتمع الدولي والسياسة الدولية، وهي أن السياسة لاتعرف خلقا أو قيما دينية أو اجتماعية، وكان ذلك أول درس تعلمته فى السياسة منذ أربعين سنة .. ويومها كنت بكل حماس الشباب أجادل وأناقش رافضا هذه المقولة واستاذى يصر ويشرح أن هناك مستوى نظريا وآخر واقعيا أو متيقنا والخلط بينهما فى السياسة للتغطية ، فالسياسة لا تعرف غير المصالح. وتخرجت من الجامعة وظلت تلك المقولة تثير قلقى وأتابعها باستمرار أملا فى أن اكتشف اننى كنت على صواب وليس بحماس الشباب ولكن الأيام والدراسة والعمل كلها اكدت تلك المقولة وخاصة أننى على مدى الأعوام الخمسة عشر الأخيرة شغلت بتجارة السلاح ، فإذا بالمقولة تزداد عمقا وتصبح جذورها فى أعماق الواقع!

فتجارة السلاح والمخدرات والبغاء مثلث مغلق يرتبط كل ضلع فيه بالآخر. فكلما ازدادت الحروب راجت تجارة السلاح وزادت صناعة المخدرات واتسع انتشار البغاء .

وقد أكد تقرير مركز كارتر الأمريكى أن العالم اليوم يشهد ٢٤ حربا غير ١١٢ نزاعا أهليا..

والعالم وفق تقديرات مركز كارتر ينفق ألف مليار دولار سنويا على التسلح وتمويل الحروب والنزاعات الأهلية، بينما يصل الناتج القومى العالمى الى حوالى ٢٥ ألف مليار دولار.. والغريب ان الخدمات الصحية والاجتماعية والبيئية بمختلف أنواعها لا تحصل الا على ربع ماينفق على السلاح والحروب مع أنها هى الاساس فى وجود الانظمة ، والمهمة الرئيسية للحكومات.

والغريب أنه ليس هناك حكومة فى العالم لاتجرم صناعة المخدرات، وليس هناك حكومة فى العالم ليس بها شرطة لمكافحة المخدرات، ومع ذلك فالاغلبية الساحقة من دول العالم متورطة فى صناعة المخدرات سواء كان ذلك بزراعتها أو تصنيعها أو تجارتها أو غسيل أموالها.

غسيل الأموال

ففى آخر تقرير امريكى أن هناك ٦٠ دولة فى العالم تورطت بعض بنوكها فى عملية «غسيل الاموال القذرة» لتجارة المخدرات، وهى ليست دول الكاريبى فقط التى تقدم تسهيلات مصرفية لتجار المخدرات ، بل هناك دول أوربية منها بريطانيا، وآسيوية، والتى تبلغ حوالى ٢٥٠ مليون

دولار سنويا.

والحقيقة ان قيام الولايات المتحدة بإعلان هذه الحقائق وتحذير دول العالم لايعنى انها فوق الشبهات ولكنها تتبع أسلوب أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع، فهي تضع دول العالم في موقف الدفاع عن نفسها وبالتالي لايفكر احد في دور الولايات المتحدة الفذ نفسه في تجارة المخدرات.

فالتحقيقات التي يجريها الكونجرس كثيرا ماتكشف عن قيام أجهزة امريكية مثل المخابرات المركزية المعروفة بحروف «سي. أي. ايه» أو غيرها بصفقات مخدرات، وقد ادين أوليفر نورث مساعد مستشار الأمن القومي للرئيس ريجان بتهمة الكذب على الكونجرس حيث كان هناك قرار للكونجرس بوقف عمليات تسليح متمردي الكونترا في نيكاراجوا.

والغريب ان الادانة حدثت لنورث بتهمة الكذب ولكنها لم تعالج مسالة تجارة المخدرات التي وردت في التحقيق.. وتأكد أنها لتغطية احدى صفقات السلاح لثوار الكونترا ، فإنه عقد صفقة مخدرات للتمويل بعيدا عن الكونجرس.

والواضح أن قيام جهاز المخابرات المركزية الامريكية أو غيره بالاتجار في المخدرات لتمويل عمليات غير مشروعة لم يعد سرا وقد تناقلته لجان التحقيق في الكونجرس اكثر من مرة كما أشير اليه في أجهزة الاعلام الامريكية.

وتقارير الأمم المتحدة تشير الى أن الحكومة الامريكية وحكومة باكستان كانتا تشجعان جماعات المجاهدين في افغانستان على استعمال المخدرات لتمويل صفقات السلاح وغيره، وذلك في الفترة التي كان الجيش السوفييتي يحتل فيها افغانستان..!

واستمرت الحرب في افغانستان بعد خروج السوفييت.. بل وبعد انهيار النظام الشيوعي وتفكك الدولة السوفييتية حتى اليوم.

أفقر دول العالم

والسنوات العشر تعني انفاق ملايين الدولارات . ولعله من السذاجة تصور أن المساعدات الخارجية للمجاهدين يمكن أن تغطي نفقات هذه الحرب المأساوية.. بل ولا حتى دخل افغانستان نفسها والتي توضع في جداول الأمم المتحدة باعتبارها أفقر دول العالم حيث لايصل دخل الفرد الواحدإلى ٧٠ دولارا سنويا وهنا يبرز السؤال عن مصدر تمويل حرب «المجاهدين» مع بعضهم البعض.

تقرير الأمم المتحدة لمكافحة

المخــــدرات عن ١٩٩٢ يؤكـــد أن افغانستان تحتل المركز الأول فى انتاج المخدرات باعتبار ذلك وسيلتها للحصول على العملات الصعبة.

وجاء فى التقرير صراحة ان جماعات المجاهدين تتولى بنفسها الاشراف على زراعة وتصنيع وتصدير الافيون، وان الجيش الافغانى الرسمى قد اقام صندوق حرب يتم تمويله عن طريق تهريب المخدرات، حتى الخطوط الجوية الافغانية متورطة فى هذه المسألة.!

وقد بلغ انتاج افغانستان من الافيون ٢٥٠٠ طن يتحول أغلبها الى هيروين من خلال المعامل المنتشرة هناك فى ظل سيطرة المجاهدين لتمويل حربهم الأهلية.

والمعروف أن هناك مراكز تزرع فيها المخدرات بشكل كثيف، ومن السذاجة البالغة تصور أن كميات المخدرات الهائلة التي تنتشر فى العالم هى نتاج زراعات خفية أو مجرد زراعة سرية وسط الحقول، بل الحقيقة هى انها زراعات واسعة تغطى مئات الافدنة علنا.

وهناك مراكز معروفة للمخدرات، اشهرها ثلاثة هى: الكاريبى، وجنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط. واذا كانت دول الكاريبى هى الاكثر حظا فى الحديث والنشر بالعالم، فإن دول الشرق الأوسط هى أقلها حظا فى النشر.. وبينهما تقع دول أسيا، وعدم النشر لايعنى عدم وجود الظاهرة، بل هو يرجع لاسباب أخرى خارج الموضوع.

فالمثلث الذهبى فى آسيا يشمل عدة دول سوف اذكرها بالاسم دون تعليق أو توصيف دينى أو اخلاقى واترك للمتابع تلك المهمة فهى باكستان، وايران، وتركيا وافغانستان بالاضافة الى بورما وتايلاند.

وقد انخفض انتاج باكستان - مثلا- هذا العام من الافيون ليصبح ١٢٠ طناً بعد أن كان ٨٠٠ طن فى العام الماضى، ومعنى ذلك أن موقع كل دولة فى ترتيب الانتاج قد يتغير ولكنها تبقى داخل مثلث الانتاج الذهبى.

بل ان هناك تقارير دولية تشير الى أن صناعة المخدرات فى افغانستان تجد التشجيع من ايران وباكستان كوسيلة لتخفيف اعباء الحرب بين المجاهدين على هذه الدول من جانب وتشجيع زراعة المخدرات فى كل منهما للانتقال الى افغانستان، وإن كان ذلك لم يحقق النجاح المنتظر.

وأشهر دول الشرق الأوسط هي اسرائيل ولبنان والمغرب، وان كانت زراعة الحشيش هي الاساس في الشرق الأوسط وليس الافيون.. وقد طالبت المغرب في حوار المشاركة الأوربية بتعويض يصل الى عشرة مليارات دولار لاتخاذ اجراءات فعالة لمنع زراعة المخدرات.

وقد نشرت الصحف المصرية نقلا عن صحف اسرائيل سقوط ثلاثة ضباط بالموساد في ثلاث دول هي فنزويلا، والولايات المتحدة وامارة موناكو بتهمة ترويج دولارات مزيفة بطريقة متقنة مقابل مبادلتها بالهيروين.. واشارت صحف اسرائيل إلى أنه يوجد مصنع صغير تابع للموساد لتزوير العملات وجوازات السفر.

وقد اشارت التقارير المنشورة الى أن المحطة المقصودة بهذه الدولارات هي عاصمة عربية مجاورة لاسرائيل لضرب اقتصادها وخلق أزمة بينها وبين الولايات المتحدة.

ودور اسرائيل في تصدير المخدرات والعملات المزورة ليس سرا، وان كان البعض لاسباب سياسة يحاول التغطية عليه اذ على الاقل جعل النشر عنه في اطار محدود الى حد أن الافراج عن احد كبار تجار المخدرات الاسرائيليين والمحكوم عليه بالاعدام في احدى الدول العربية من خلال مفاوضات مشتركة لم تنشر كلمة واحدة عنه ولا عن عملية الافراج التى جرت بعيدا عن الاضواء..!

ولعل المفاجأة التى حدثت منذ سنوات حين سقطت طائرة تحمل ايزام بير مدير مكتب بيريز في رحلة الى المكسيك وظهر ان هناك اتفاقا لم يطرح على الكونجرس بين اسرائيل والولايات المتحدة.. وقعه عن اسرائيل بير وعن الولايات المتحدة فورث للقيام بعمليات قذرة.. كما تسمى فى السياسة ، وهى العمليات غير المشروعة مثل الاغتيال وتجارة المخدرات وتزوير العملات..!

ولعل آخر المفاجآت التي صنعتها مصادفة أخرى مثل مصادفة سقوط طائرة مدير مكتب بيريز هى أيضا مصادفة حادث السيارة بتركيا التى استقال بسببها وزير داخلية أول حكومة اسلامية فى تركيا بعد ان ظهر أن بين الضحايا أكبر زعماء المافيا بتركيا مع احد قادة الشرطة وملكة جمال.. وفور استقالة الوزير جرت فى البرلمان التركى مناقشة حول علاقة

الدولة بالجريمة المنظمة استمع خلالها البرلمان لكلمات الحكومة والاحزاب، والاتفاق حول اجراء وتحقيق برلماني أو حفظ الملف والاكتفاء باستقالة الوزير المسئول عن الأمن.

دور الولايات المتحدة

وهناك حقيقة خطيرة قد تغضب البعض وقد يرفضها البعض الآخر وهي أن الذين يرفعون شعارات الاسلام واسم الاسلام سواء كانوا منظمات مثل افغانستان أو حكومات مثل تركيا أو باكستان وغيرها كثير سوف نجد اسم الولايات المتحدة مختفيا وراء الأقنعة.. صحيح أنها ليست الممول مع أنها تملك الكثير ولكنها تستخدم أموال دول وحكومات أخرى في حربها القذرة، ونموذج مثالي على ذلك هو حرب افغانستان التي نظمتها واشعلتها وقامت بتدريب كل فصائلها الولايات المتحدة، ولكن بأموال دول أخرى بعضها عربية وأخرى أسيوية.. بل انني أقول والشواهد كثيرة أن وراء استمرار حرب افغانستان تقف الولايات المتحدة وهو موضوع آخر اكتفي بالاشارة اليه حتى لايضيع خيط الحديث الاصلي وهو علاقة السياسة والحكومات بالمخدرات.!

فالقوانين توجه عادة الي معاقبة تجار توزيع المخدرات ولكنها لاتعالج مصدر المشكلة وهو زراعة وصناعة المخدرات التي تشرف عليها حكومات وتعيش عليها دول وهي احدى الادوات القذرة لسياسات دول وليست دولة واحدة أو اثنتين ولا هي فقط في دول الكاريبي التي تخضع للسيطرة والهيمنة الامريكية.

ونؤكد أن الموضوع شيق والمعلومات فيه اكثر تشويقا ولكنني لا أقصد به تشويق القارىء أو تسلية النفس، ولكنني فقط أريد اثارة قضية لعلها تنال نصيبها من الاهتمام وخصوصا أن دراما مأساة افغانستان تلعب فيها المخدرات الدور الرئيسي ويدفع شعب افغانستان الثمن من حياته ومستقبلة ويدفع الاسلام ثمنا بذلك التشويه وتلك الاساءات.!

وإذا كان الواجب هو معالجة الأصل وهو منابع المخدرات، فإنني أقول إن السياسة سوف تجد أدوات أخرى لتحقيق المصالح بعيدا عن القيم الأخلاقية والدينية، وإن كنت على يقين من استمرار مثلث الدمار... تجارة السلاح، المخدرات، البغاء كأداة من أهم ادوات الانظمة والحكومات قبل العصابات والافراد على الاقل في المستقبل المرئي..!

كتابان عن عالم الكتب

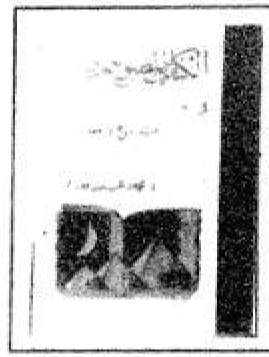
بقلم: عبدالرحمن شاكر

لا أستطيع أن أترك عام ١٩٩٦ ، الذى يوشك أن ينصرم، غير متذكر إلا النكد الذى كان فيه من عوامل الهدم، مثل تجرؤ حكومة «نتانياهو» فى فلسطين المحتلة على حفر أنفاق تحت المسجد الأقصى فى القدس تهدده بالانهيار، وتجرؤ بعض ذوى الضمائر الميتة فى ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة على تحطيم بعض الأعمدة فى إحدى عمائرها، وتعلية مبناها على غير أساس وعدم تنفيذ قرارات التنكيس الصادرة بشأنها حتى انهدمت على رءوس سكانها فى مشهد فاجع استمر أياما، ولكننى أذكر بعض ما سرى عنى فى هذا العام، وهو مطالعة كتابين عن الإعمار الثقافى وبناء النفوس..

والكتابان المذكوران يتناولان عالم الكتب، من مولد الكتاب إلى منتهاه، من الطبع إلى الجمع: الطبع بحيث تتوافر نسخة فى أيدى الناس ليطالعوها ويثقفوا أنفسهم، والجمع فى المكتبة الوطنية العامة الكبرى، لتكون مرجعا دائما للباحثين والدارسين.

أول هذين الكتابين، وبينهما وشائج كثيرة، هو بعنوان «الكتاب المطبوع فى مصر فى القرن التاسع عشر ـ تاريخ وتحليل» للدكتور محمود محمد الطناحى، وقد نشر فى سلسلة كتاب «الهلال» عدد أغسطس ١٩٩٦، والثانى بعنوان «دار الكتب المصرية ـ تاريخها وتطورها» للدكتور أيمن فؤاد سيد، نشرته مكتبة الدار العربية للكتاب فى ١٩٩٦ أيضا.

يقول الدكتور الطناحى فى مقدمة كتابه: «لقد كان من صنع الله لى وتوفيقه إياى أن أرتبط بالمطبعة والطباعة منذ عقلت إلى يوم الناس هذا، فقد نشأت وربيت فى حى عريق





من أحيـاء القـاهرة القـديمة «الدرب الأحمر»، ذلك الحى الذى يكتنفه تاريخ مصر الإسلامية من قلبه ومن جهاته الأربع، وعلى مقربة منه يوجد الأزهر الشـريف، ودار الكتب المصـرية «الكتبخانة الخديوية» فكان حقا وواجبا أن تنتـشـر المطابع حـول هذين الصرحين الكبيرين من صروح العلم والفكر فى القاهرة المعزية.

● لعبة الحروف!

ويمضى الدكتور قائلا: ولقد كان من مظاهر اللهو عندى وأنا صبى أن أدور أنا وأترابى من الصبيان حول تلك المطابع التى تجاوز بيوتنا، نجمع تلك الحروف الطباعية القديمة المستهلكة التى يلقى بها خارج المطبعة ونضم بعضـها إلى بعض، لنصنع منها أسماءنا وأسماء آبائنا، حتى إذا اجتمع لنا من هذه الحروف عدد وفير صنعنا منها البسملة، وكان السعيد منا الذى يقع فى يده «كليشيه» قديم بقلم أحد الخطاطين الكبار مثل نجيب هواوينى ومكاوى وعبدالعزيز الرفاعى وسيد إبراهيم.. ليقول بعد قليل:

«ثم كان اتصالى الوثيق بالمطابع، حين عملت زمن الشباب مصححا بمطبعة عيسى البابى الحلبى.. وفى هذه المطبعة تجمعت عندى روافد كثيرة عن تاريخ الطباعة فى مصر، وذلك من خلال كبار المصححين الذين عملوا بالتصحيح بمطبعة بولاق، وحين أحيلوا إلى التقاعد عملوا بمطبعة الحلبى، وكنت كثير المجالسة لهم والرواية عنهم..

نحن إذن بإزاء «جنرال من تحت السلاح»، فكاتب تلك السطور هو الآن

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلوان، ويعرفه قراء «الهلال» جيدا من خلال مقالاته الرصينة على صفحاتها، وتلامذته من حملة الدكتوراه يملأون جزيرة العرب، وكتبه المؤلفة والمحققة تملأ المكتبات، ومايكتبه في هذا الكتاب يدخل بعضه في إطار السيرة الذاتية والرواية عن شيوخه الذين حرص على إنصافهم حيث غمطهم التاريخ حقهم أو حظهم من الذكر..

يقول الجنرال.. أقصد الدكتور: «وفي أوائل الستينات اشتغلت بنسخ المخطوطات بدار الكتب المصرية (خبرة أخرى لزوم «الجنرالية» من تحت السلاح!)، وفي قاعة المخطوطات الشهيرة لقيت العلماء من عرب وعجم، وشافهتهم وأخذت عنهم، وفي مقدمة هؤلاء عالم المخطوطات الكبير فؤاد سيد «والد الدكتور أيمن مؤلف الكتاب الآخر عن دار الكتب!»، وحين عملت بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية (أذكر أن الدكتور أيمن فؤاد قد زامله فترة في هذا العمل)، في منتصف الستينات، عرفت محمد رشاد عبدالمطلب، وكان إلى جانب علمه الواسع بالكتاب العربي المخطوط، عالما بالكتاب المطبوع، علما لايدانيه فيه أحد ممن عرفت في ذلك الزمان.. إلى أن يقول عنه: ولو عاش هذا الرجل لكان خير تسجيل لنشأة الطباعة في مصر وأطوارها المختلفة..

يقول الدكتور الطناحي: «إن ثقافة العالم العربي والإسلامي في ذلك القرن التاسع عشر قد خرجت من عشرة كيلومترات في وسط القاهرة ـ هي تلك المطابع التي قامت في تلك المنطقة، مضافا إليها تلك الرقعة المحدودة في رملة بولاق، على ضفاف النيل، التي سميت مطبعة بولاق».

وأهم فصول كتاب الدكتور الطناحي هو ما كتبه عن هذه الأخيرة، يقول: «في مجال «تقييم» أعمال مطبعة بولاق تبرز هذه الحقائق:

[أسجل هنا أن العالم اللغوى النحوى الأستاذ الدكتور محمود الطناحى خبير المجمع اللغوى قد استخدم لفظ «تقييم» بمعنى تقدير قيمة الشيء، وهو استخدام كان مرفوضا من جانب بعض اللغويين الذين يقولون إن صحتها هو «تقويم» الذي يختلط المعنى المقصود به مع معان أخرى، فهل نعتمدها رخصة لسواه من الكتاب؟!]

أولا: كان إنشاء محمد على مطبعة بولاق متزامنا مع إرساله البعثات لتلقى العلم في أوربا، ومن أعلام هذه البعثات رفاعة الطهطاوى، وسنرى في أوائل

مطبوعات بولاق كثيرا من الترجمات بقلمه.

ثانيا: إذا كانت مطبعة بولاق قد أنشئت سنة ١٨٢١ فإن أقدم مطبوع بها هو قاموس إيطالي عربي.. وفي تلك السنوات المبكرة في هذا القرن نلاحظ غلبة الكتب المترجمة في الشئون الطبية والصحية، والزراعة والهندسة وتدبير المعاش..

ثالثا: إن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة هي إبراز كنوز الفكر العربي والإسلامي فعمدوا إلى نشر الأمهات والأصول في كل علم.. فنشرت مطبعة بولاق: «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية في أربعة أجزاء ثم طبعت الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي في أربعة أجزاء أيضا.. وطبعت تفسير الطبري والفخر الرازي والألوسي وإسماعيل حقي البرسوي، وصحيح البخاري وشرحه لابن حجر.. ثم طبعت ألف ليلة وليلة طبعتين، «ورجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه» لابن كمال باشا، وهو «أشهر كتاب جنسي في المكتبة العربية»!! ويستدرك المؤلف في الهامش بقوله إن طبعة بولاق كانت في ١٨٩١، وقد طبع قبل ذلك بمطبعة شرف في عام ١٨٨٠.

رابعا: تزامن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة إلى العامية التي تولى أمرها نفر من الأجانب الذين حلوا بمصر، منهم ولهلم سبيتا، وكارل فولرس، وديلكوكس، وسلدن ولمور، وزويمر.. ومما لاشك فيه أن طبعات بولاق من أصول التراث العربي.. كانت خير وسيلة للوقوف في وجه تلك الأفكار.. ثم إنها من وراء ذلك قد غذت عقول أرباب العلم وأهل الأدب حين وضعت أمامهم زادا شهيا من علوم الأوائل وآدابها من أمدهم بفيض زاخر من العربية الصحيحة، وأعانهم على ماهم بسبيله من الإبداع والإحسان، فكان البعث والتنوير الذي حمل لواءه رفاعة الطهطاوي ومحمود سامي البارودي والشيخ حسين المرصفي ومن نسج على منوالهم وسار في ركابهم..»

● أكاعد خانة!

ننتقل على سبيل الإيجاز إلى البند «سابعا» فيقول:

«حظيت مطبعة بولاق بعناية فائقة في الإدارة والتصحيح والمراجعة، وقد تولى إدارتها نفر من علية القوم، كان من أبرزهم وأعلاهم حسين باشا حسني، وخلاصة أمره أنه تعلم بمدرسة الهندسة، ثم عمل بها معلما للعلوم الرياضية.. وفي عام ١٨٧٤ توجه مع الخديوي إسماعيل لمشاهدة معرض

باريس.. ثم تنقل فى بعض بلدان أوربا كالنمسا ولندن لرؤية إنتاجها من آلات الطباعة، فاشترى جملة من تلك، وفى سنة ١٨٨٤ توجه إلى لندن مرة ثانية فأحضر منها فابريقة (مصنعا) للورق، أقامه ببولاق على شاطىء النيل بجوار المطبعة، وهى (الكاغدخانة) أى دار الورق، وقد أنتجت هذه الفابريقة ورقا جيدا، يقول على مبارك فى وصفه: «حتى جاء منها ورق عجيب الشكل كاد يعطل على ورق أوربا .....»!

ثم يذكر المؤلف القائمين على تصحيح الكتب بتلك المطبعة العريقة مثل الشيخ نصر الهوريني الذى تعلم فى الأزهر وأرسله محمد على فى بعثة إلى فرنسا على غرار رفاعة الطهطاوى والشيخ قطة العدوى وسواهما، ووصفهم بأنهم كانوا «يقومون بعملهم فى أمانة تامة وحرص شديد، فندر فى مطبوعات بولاق التصحيف والتحريف، وجاءت النصوص كاملة موفورة، لا سقط فيها ولاخلل»، وأنهم إذا إلتبس عليهم أمر لجأوا فيه إلى كبار العلماء مثل الشيخ محمد عبده، وعالم اللغة العربية الشهير الشيخ حمزة فتح الله، وغيرهما، بل يذكر الدكتور الطناحى فى موضع آخر أن شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد الخضر حسين قد عمل خمس سنوات مصححا بمطبعة دار الكتب!

ويقول المؤلف إن روح مطبعة بولاق قد سرت فى المطابع الأهلية ومطابع الصحف التى يفرد لها الفصل الثالث من كتابه بعد أن يخصص الفصل الثانى للحديث عن مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية، « من حيث العناية بالإخراج.. ثم العناية الفائقة بالتصحيح» ويقول: «كان المصححون من العلماء المتميزين، وكانوا يقومون بما يقوم به المحققون، وإن لم يضعوا أسماءهم فى صدر الكتب.....»!

وفى خاتمة كتابه يشير الدكتور الطناحى إلى أن كثيرا من المطبوعات القديمة تعد الآن فى حكم المخطوطات من حيث ندرة وجودها وصعوبة الوصول إليها ويدعو إلى جمعها وفهرستها، ويقول «إن حركة نشر الكتب فى القرن التاسع عشر قد وقف وراءها نفر من عظماء الرجال، ناشرون ومثقفون وأصحاب مطابع ومصححون، حتى جاءت ظاهرة الكتب التصوير (الأوفست) فاغتالت تاريخ هؤلاء الرجال العظام اغتيالا، حين أغفلت زمان ومكان الطبع، وتمادت فأسقطت أواخر المطبوعات، التى كان ينص فيها على اسم مصحح الكتاب واسم ناشره واسم من أنفق على طبعه، وطمس خاتم المطبعة بالسواد!!»

أن أن ننتقل إلى الكتاب الثانى الذى يختص بجمع الكتب مخطوطة أو مطبوعة، كتاب «دار الكتب المصرية» الذى ألفه الدكتور أيمن فؤاد سيد كما تقدم القول، وهو كتاب جامع، ويخصص المؤلف الفصل الأول منه لذكر المكتبات الإسلامية وفكرة المكتبة الوطنية فيقول:

«عرفت حواضر الخلافة الإسلامية فى دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وكذلك مدن أخرى شهيرة مثل حلب والبصرة والموصل والقيروان خزائن الكتب التى كانت تحوى هذه المؤلفات التى تعد السجل الحافل عما أنتجه الفكر العربى الإسلامى على امتداد العصور.

«ومن أشهر خزائن الكتب التى كانت تعد فى ذلك الوقت مكتبات عامة تفتح أبوابها لجمهور العلماء والباحثين «بيت الحكمة» فى بغداد الذى بلغ ذروته فى زمن المأمون العباسى، وجمع لها أهم الكتب الموجودة وأمر المترجمين والنقلة أن ينقلوا إلى العربية أهم المخطوطات اليونانية والسريانية.

ويذكر المؤلف كذلك خزانة كتب القصر الفاطمى بالقاهرة التى كانت تضم ستمائة ألف مجلد، والمكتبة التى كونها الخلفاء الأمويون فى قرطبة بالأندلس وقد شرع فى تكوينها «الخليفة الحكم الثانى»، واستعان فى ذلك بوكلاء ودلالين انتشروا فى العالم الإسلامى يجمعون له الكتب حتى بلغ ما احتوت عليه هذه الخزانة أكثر من أربعمائة ألف مجلد.. وقد فقدت هذه المكتبة الضخمة بعد سقوط غرناطة خاصة بعد أن أمر الكاردينال سيزنيروس بإحراق كل الكتب المكتوبة بالعربية فى الميدان العام بغرناطة!».

ويقول المؤلف: «مع ظهور السلاجقة وانتشار المدارس كمؤسسة سنية تعمل على تدريس الفقه على المذاهب الأربعة ولمحاربة الفكر الشيعى، وكذلك دور الحديث التى تخصصت فى تدريس الحديث النبوى، حلت مكتبات المدارس فى الشرق محل مكتبات قصور الخلفاء ودور العلم والحكمة».

«وباستيلاء صلاح الدين على السلطة فى مصر عرفت المدارس طريقها إليها وحلت محل دار العلم الفاطمية... إلى أن يقول:

«وهكذا ظلت المدارس فى مصر وأروقة الأزهر بعد إعادة افتتاحه تحتفظ بهذه الكتب وتضيف إليها ما أنتجه العلماء المسلمون من مؤلفات.

«وقد حرص واقفو خزائن الكتب فى المدارس والمساجد الجامعة على أن يضعوا لها من الشروط والأحكام

مايصون نخائرها من الضياع، وضمنوا وقفياتهم أو تحبيساتهم شروطا دقيقة كان من أهمها حظر خروج الكتب منها.. بل وضعوا للمنتفعين بها والمترددين عليها حدودا وآدابا يلتزمونها في استعارة الكتب والإطلاع عليها والاستنساخ منها وإعادتها، وغير ذلك من الأمور التي تعتبر نموذجا رفيعا لما يعرف الآن «بالخدمة المكتبية».

وينهي المؤلف حديثه عن المكتبات الإسلامية بذكر أنه مع «الفتح العثماني لمصر، أخرج السلطان سليم المصاحف والمخطوطات وحملها معه إلى تركيا، وكذلك من سائر البلاد العربية التي فتحها العثمانيون، كانت نواة المجموعة الضخمة من المخطوطات التي تحتفظ بها الآن مكتبات تركيا والتي تزيد على ثلاثمائة ألف مخطوط!

وطوال العصر العثماني ونتيجة لتقهقر موقع مصر من دولة مستقلة إلى مجرد ولاية في الامبراطورية العثمانية، ونتيجة لتردد العديد من الرحالة والمغامرين، وعن طريق قناصل الدول، خرجت من مصر بطرق غير شرعية أقرب إلى السرقة والنهب الكثير من المخطوطات والممتلكات الثقافية التي استقرت في مكتبات ومتاحف أوربا، ثم جاءت الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر لتستولى كذلك على العديد من المخطوطات النادرة التي عرفت طريقها إلى المكتبة الأهلية في باريس».

ويعرج المؤلف في آخر الفصل على المكتبات في أوربا فيقول: «عرف المسلمون الحاجة إلى وجود المكتبات العامة قبل الغرب بزمن ليس بالقصير ونستطيع أن نؤكد دون مخاطرة أن المكتبات الإسلامية وجدت على كل وجه في بلاد الإسلام قرونا قبل المكتبات الغربية.

وكانت مكتبات الكنائس والأديرة وقصور الملوك والأمراء هي أيضا أصول المكتبات العامة في أوربا، وكانت البدايات الأولى لها في فرنسا حيث أنشأ ملوكها مكتبات ملكية في قصورهم على غرار مكتبات قصور الخلفاء المسلمين إلى أن يقول:

«.... يرجع الباحثون ظهور «المكتبة الوطنية» في العصر الحديث إلى عام ١٧٩٥، وهو العام الذي صادرت فيه الثورة الفرنسية المكتبات الملكية واعتبرتها ملكية للدولة، وقد أصبحت المكتبة الوطنية الفرنسية نموذجا احتذته الدول الأوربية الأخرى بل والولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك..

«.... وتتركز مهمة المكتبة الوطنية في الأساس في جمع وحفظ

المخطوطات القديمة، والوثائق التاريخية، والطبعات النادرة وذات القيمة الخاصة، وجمع الإنتاج الفكرى القومى وحفظ هذه المجموعات سليمة للأجيال المتعاقبة..

«.... وأصبح من مهام المكتبة الوطنية كذلك جمع أهم الإنتاج الفكرى العالمى وذلك بفضل جهد السير أنطونى بانتزى أمين مكتبة المتحف البريطانى فى منتصف القرن التاسع عشر الذى أكد على ضرورة أن تضم مكتبة المتحف أحسن مجموعات الإنتاج الفكرى الانجليزى وأحسن مجموعات الإنتاج الفكرى فى كل الدول الأخرى خارج نطاق الدول الناطقة بالانجليزية» وقد حذا حذو مكتبة المتحف البريطانى أغلب مكتبات العالم، لذلك فإن المكتبة الوطنية فى أية دولة تعد بصفة عامة أكبر وأغنى مكتبة فى تلك الدولة».

«وتعمل المكتبة الوطنية على تيسير الانتفاع بهذا الانتاج مع تقديم خدمات المعلومات والخدمات الببليوجرافية اللازمة، وإتاحة أقصى استخدام علمى للمقتنيات، وتعمل كذلك على المشاركة فى تخطيط خدمات المكتبات والمعلومات فى الدولة.»

هكذا ينهى المؤلف هذا الفصل الوجيز الممتع الذى يثبت جدارته كمؤرخ إسلامى «خططى»، على غرار المقريزى وعلى مبارك، وكمثقف معاصر تتلمذ على يد أساتذة أوربا الذين منحوه دكتوراه الدولة من السوربون عن رسالة موضوعها «عاصمة مصر»، ليبدأ حديثه المستفيض عن دار الكتب المصرية أو «الكتبخانة الخديوية» التى أنشئت بقرار من الخديو إسماعيل صادر فى عام ١٨٧٠ بناء على اقتراح قدمه إليه على باشا مبارك بـ «إنشاء دار كتب على نمط دور الكتب الوطنية فى أوربا»، وأسند الخديو إليه فى قراره «جمع المخطوطات النفيسة التى لم تصل إليها يد التبديد مما حبسه السلاطين والأمراء والعلماء والمؤلفون على المساجد والأضرحة ومعاهد العلم، ليكون من مجموع هذا الشتات مكتبة عامة» ضمت فى أول عهدها نحوا من عشرين ألفا من المجلدات والمراجع ومجاميع الخرائط هى كل ما أمكن انقاذه فى هذا الوقت من تراث مصر المخطوط وأوائل المطبوعات وضم إليها سائر كتب المكتبة الأهلية، ومكتبتى وزارة الأشغال والمعارف العمومية، مع مايرد إليها من الكتب من أى نوع وبأية لغة ومن أى جهة!

والمكتبة الأهلية المذكورة كان محمد على قد أنشأها وجعل مقرها القلعة وكلف رفاعة الطهطاوى بتزويدها بالمطبوعات الأوربية إلى جوار ماتضمه من كتب عربية وتركية وفارسية.

وهكذا تكونت الكتبخانة الخديوية التي جعل مقرها بالطابق الأرضي بسراى مصطفى فاضل باشا شقيق الخديوى إسماعيل بدرب الجماميز، وابتداء من عام ١٨٨٦ «أخذت إدارة الكتبخانة فى العمل على إيداع جميع الكتب التى تطبع فى مصر وخاصة فى مكتبة بولاق بكيفية منتظمة ويقول المؤلف:

«وفى بداية عام ١٨٩٥ أضيف إلى رصيد الدار المخطوطات التى كانت موجودة فى كتبخانة مكتبة بولاق التى ربما كان بعضها هو الأصول التى قوبلت عليها أمهات الكتب التى أخرجتها مطبعة بولاق ابتداء من عام ١٨٤٤».

ذلك أحد مواضع الالتقاء بين الكتابين اللذين خصصنا لهما هذا المقال.

وفى عام ١٩٠٣ فى عهد الخديو عباس تم بناء مبنى دار الكتب فى باب الخلق على نظام المتحف البريطانى الذى كان حتى عام ١٩٧٤ يحوى كذلك المكتبة الوطنية الفرنسية.

ثم يبدأ المؤلف فى تفصيل فصوله عما تحتويه دار الكتب من مجموعات المخطوطات وأوراق البردى المصرية والنقود الإسلامية ولوحات الخط العربى والخرائط والدوريات والمكتبات المهداة والمضافة، ويستعرض فهارسها ثم يرد على ذكر القسم الأدبى لدار الكتب ومركز تحقيق التراث، ومركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ومركز الببليوجرافيا والحاسب العلمى، ومركز توثيق وبحوث أدب الطفل، ويورد ثبتا بأسماء مديرى الدار الذين تعاقبوا عليها وكذلك مطبوعاتها بعد أن صارت لها مطبعة خاصة، وبهذا ينتهى القسم الأول أو الكتاب الأول كما سماه المؤلف، أما الكتاب الثالث فيضم جميع القوانين واللوائح التى نظمت دار الكتب المصرية، مرورا بالكتاب الثانى، وهو مشروع تطوير دار الكتب بعد فصلها عن الهيئة العامة للكتاب، وهو المشروع الذى أعده المؤلف ذاته، حيث يعمل حاليا مستشارا لدار الكتب والوثائق القومية..

إن بعض المعلقين على كتاب الدكتور أيمن فؤاد سيد قد ذكر أنه اتخذ الفصيصنا دعما لموقفه فى خلاف ناشب بينه وبين رئيس الدار حول إدارتها وسلطات كل منهما. فإن صح ذلك فقد أثبت الدكتور أيمن بتأليف هذا الكتاب أنه أعلم الجميع بهذه الدار ومشكلاتها، حتى إشعار آخر، لا ينكر ذلك إلا مكابر...

أقـــوال معاصرة



البابا جون بول الثاني



بناظير بوتو



روجيه جارودى

★ «نظرية التطور أكثر من مجرد افتراض»

البابا جون بول الثاني

★ «انتخبت رئيسة للوزراء، وسأعود رئيسة للوزراء»

بناظير بوتو
رئيسة وزراء باكستان سابقا

★ «قناعتي ان الاختلاف شيء ايجابي فنحن نستفيد ممن نختلف معهم اكثر مما نستفيد ممن يشاركوننا نفس الرأي»

الروائى اللبنانى أمين معلوف

★ «لا أقبل ان يتحول ابن رشد فى فيلم يوسف شاهين الى احمد عدوية!

الدكتور عاطف العراقى
استاذ الفلسفة

★ «الفيلسوف ينشأ حين تكون هناك حاجة للفلسفة ومجتمعاتنا للاسف ليست فى حاجة اليها»

الدكتور حسن عبدالحميد رئيس قسم الفلسفة بجامعة عين شمس

★ «الخيار لم يعد بين شيوعية الامس بلا حرية، ورأسمالية اليوم بلا عدالة»

الاديب المكسيكى كارلوس فوانتيس

★ «أصبح الجميع مثل جرار مثقوبة، يتسرب منها الحلو والمر، لم يبق فى جدارها غير الحسرات»

الشاعرة العراقية أمل الجبوري
عن الحالة الادبية في العراق

★ «إذا لم يتحمل المثقفون مسئولياتهم فليلقوا بأنفسهم فى النيل!!»

المفكر الفرنسي روجيه جارودى

★ «أعطوني الاوسكار، ومنحتني الملكة شيئا ما، وحتى الآن لا أعرف لذلك التكريم سببا!!»

انطوني هوبكنز الممثل الانجليزي الفائز باوسكار ولقب سير

★ «الهدف الذي يبرر كل الوسائل ليس هدفا، إنما هوس فاسد»

الكاتب الاسرائيلي اموس اوز

★ «في اثناء سنوات حرب التحرير، فقدنا نحن الافغان كل شيء، ولكن الحرب فيما بيننا أكثر سوءا لانها موجهة ضد عقولنا»

خليلا فوروز
صاحبة برنامج أدبي في راديو الحكومة الافغانية، قبل فقد وظيفتها بامر الطالبان

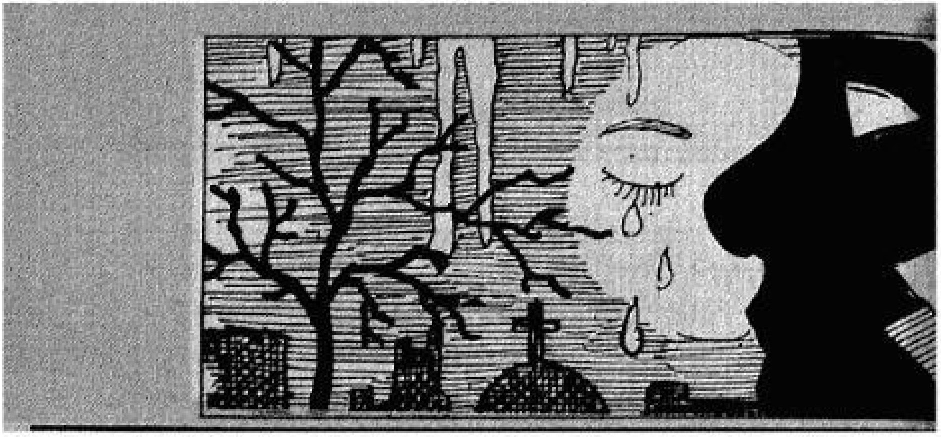
عندما يتحدث السفير

بقلم: د. أحمد السيد عوضين





• حياة السفير، بما تضفيه على صاحبها من «مهابة»، وبما تحيطه به من مظاهر، وبما تتيحه له من ارتياد مجالات مختلفة، ومن لقاء شخصيات كبيرة، ومن حضور مآدب، وندوات، ولقاءات نادرة، بما قد لا يتاح للكثيرين ممن لا يشغلون مثل هذا المنصب الرفيع .. هذه «الحياة» التى يحياها أعضاء السلك الدبلوماسى تبدو حياة رائعة - بل وفاتنة، يتمنى الكثيرون مثلها، وقد تمتلىء أنفسهم بالغبطة لمن تتاح لهم تلك الحياة.



ولسنا فى حاجة الى أن نذكّر بأن « حيـاة السـفيـر » وإن كـان ظاهرها يبدو جميلا براقا ، وإن كـانت مظاهرها الخـارجـيـة تفتن الآخـرين وتبهرهم، فإنها فى الحقيقة ليست حياة كلها متع وحفلات ومآدب ولقاءات ممتعة ، بقدر مـا هى - فى الواقع - حيـاة تقوم على الكد والتعب ، وتستلزم ممن قدر عليه أن يحياها أن يكون دائم اليقظة ، سريع التصرف ، حاضر البديهة ، ولا يغفل ، ولا يتغافل عما يقع على عاتقه من واجبات .

ومع ذلك ، فليس من شك فى أن تلك الحياة لها وزنها وثقلها فى عوالم السياسة والاقتصاد ، بل وفى عوالم الفكر والأدب والفن فى كثير من الأحيان ، وبما تهيئه له من زيارات يتعرف فيها على ما يجرى فى العالم ، هذه الحياة إنما تعمق من تجاربه، وتصـقل فكره ، وتوسع من أفـقـه الفكرى والثقافى الى درجة كبيرة .

فإذا كان السفير ممن يجيدون الافادة من هذه الفـرص الثـمـينة ، فـلا شك أنه يخرج فى نهاية الأمر بزاد كبير من العلم والمعرفة ، حتى ليمكن اعتباره من عناصر « الثروة القومية » التى ينبغى أن تتضافر الجهود للإفادة من خبراته ومعارفه .

على أن كـثيـرين من هؤلاء السـفـراء رأوا أن يشركونا فى بعض جوانب حياتهم الدبلومـاسيـة ، بل وينقلونا لنعيش معهم وهم يتنقلون بين مـخـتلف بلدان العـالم ممثلين لمصر ، وكان سبيلهم إلى ذلك هو تأليف العـديد من الكتب يحـمّلونهـا ذكرياتهم ويتحدثون فيها عن العالم الرحب الفسيح من خلال تجاربهم وممارساتهم الواقعية لمهامهم كسفراء لمصر ، وكثيرة هى الكتب التى قدمها الى المكتبة العربية سفراء مصريون ، إلا أنها - رغم ذلك - مازالت تعتبر قليلة العدد جدا بالنسبة الى أعداد سفرائنا على طول الفترات الماضية.

عندما يتحدث السفير

وبخاصة بعد أن اتسع نطاق تمثيلنا الدبلوماسي لشمل العالم كله

● ماذا يحدث في الخفاء ؟!

وتبدو أهمية هذه المؤلفات في أنها تتحدث عن تجارب حية ، وتنقل الى القارىء العادى صورة مما لا يتاح له أن يراه رأى العين ، أو بعبارة أخرى تصور له ما يجرى وراء « الكواليس » ، وما يدور بعيدا عن الآخرين ، بل مما قد لا يكون التحدث عنه إلا بالبرقيات «المشفرة» والمكاتبات التى تحمل « أقصى درجات السرية » .. ويأتى السفير بعد ذلك ليكشف النقاب عن تلك الأمور ، وليروى الصورة على حقيقتها ، وإن كان حديثه لا يأتى إلا بعد انقضاء فترة طويلة على الأحداث

من هذه المؤلفات كتابان صدرا في الفترة الأخيرة أولهما : كتاب السفير د محمود سمير أحمد ، وقد صدر فى جزءين يحمل الجزء الأول منهما عنوان «حول العالم » ، ويحمل الثانى عنوان «العالم بعيون دبلوماسى » وقد تحدث فيهما عن تجاربه منذ التحق بالسلك الدبلوماسى في وزارة الخارجية المصرية فى أولى درجاته الى أن أصبح سفيرا لمصر فى كل من ليما وايطاليا وأثيوبيا – كما تحدث عن فترة عمله كمندوب مناوب في الأمم المتحدة، كما تحدث عن فترات عمله السابقة كعضو دبلوماسى فى مختلف السفارات قبل أن يصبح سفيرا يمثل مصر في الدول المعتمد لديها

وثانيهما كتاب « حكايات دبلوماسى مصرى » قدمه السفير عبد الفتاح شبانة الذى شغل مناصب سفير مصر فى ساحل العاج وفي اليابان وفى ألمانيا فضلا عن شغله لمناصب عديدة قنصلية ودبلوماسية كعضو فى البعثة المصرية .

ونشهد أن الكتابين قد حفلا بالكثير جدا من المعلومات القيمة والمعارف الغزيرة، فضلا عما أعطياه من صور دقيقة لبعض ملامح الحياة الدبلوماسية وما يكتنفها من متاعب ، وما يتعرض له العاملون فى مجالها من مآزق ومواقف محرجة .

يحدثنا السفير محمود سمير أحمد عن حصاد السنين فيقول .

« ان ما جرؤت على وضعه تحت أنظار جمهور قرائى هو حصيلة تجارب العمر ، تجارب تسع وثلاثين سنة فى السفر والتجوال وفى التفكير والتأمل نتيجة العمل الدبلوماسى عبر سنوات امتلأت بكثير جدا من الأحداث الجسام من ١٩٤٨ حتى ١٩٨٦ كما أن هذه الصفحات وإن لم تحو تسجيل اسهامى أو

مشاركتي في « أعمال جسام وأحداث تاريخية » - فإنها تحوي حصيلة تجاربي ونبضات قلبي وخلجات فكري وحصيلة زياراتي لثلثي العالم ومشاهداتي وتأملاتي عن كل هذه الشعوب وتلك الأماكن ، وعن تقاليدها وعاداتها ، وأحوالها وسياساتها عن تلك السنين ، وتلك تجربة قل أن تتاح إلا لنفر قليل من المحظوظين » .

وهو يتحدث عن بريطانيا فيقول « لا شك لديّ أن لبريطانيا - مدنها وريفها - طابعها المميز ، والذي يخالف كل ما رأيته في أوربا وهذا الطابع المميز قد لا يستهويك أو يؤثر فيك لأول وهلة ولكنه ينفذ إلى أعماقك رويدا رويدا ، ويستولى على قلبك في النهاية بما يحويه من صفات الهدوء والصفاء والراحة النفسية والاطمئنان » .

وعن المرأة الافريقية يحدثنا قائلا « أما المرأة الافريقية فتحتل مكانا مهما وتلعب دورا بارزا في المجتمعات الافريقية بل وفي النشاط التجاري في الأسواق اليومية والأسبوعية في افريقيا كلها شرقا وغربا وهي تملك زمام حريتها الاجتماعية والجنسية ، وهذا الكلام ينطبق على أغلب افريقيا السوداء فيما عدا بعض المجتمعات الاسلامية المحافظة بطبيعة الحال مثلما في النيجر وشمال نيجيريا ومالي والسنغال ، وفي بلاد المغرب العربي بطبيعة الحال ، ولاحظت كما لاحظ الكثيرون غيري أن في البلاد التي ينقسم أهلها إلى من يدين بالاسلام وإلى من يدين بالمسيحية أو الوثنية فان العائلة الواحدة قد تنقسم أيضا الى نفس الأقسام ، كما أن الفوارق بين الديانات تكاد تكون مطموسة غير واضحة المعالم بسبب انتقال بعض الأفراد من دين الى آخر عدة مرات وفقا لمقتضيات الموقف ، وبعض من يحمل أسماء مسلمة قد يكون مسيحيا في تلك الآونة أو العكس ، والزواج المختلط بين الديانات شائع سواء بين الرجال والنساء » .

وكتاب السفير عبد الفتاح شبانة حافل هو الآخر بالمعارف الفياضة ، والمواقف الشائكة ، والتي يخرج من كل منها بنتيجة ترضيه وترضي الدولة التي يمثلها ، وقد حرص في مطلعه على أن يوضح منهاجه ، فكتب يقول « عندما بدأت في استعادة شريط الذكريات التي مرت بي خلال عملي الدبلوماسي في خمس دول، وجدت أن الحصيلة تشكل كما كبيرا من الأحداث والوقائع والحكايات ، وقدرت أن الأحداث السياسية الجادة قد يكون من الأفضل جمعها في كتيب مستقل ، واكتشفت صدق الحكمة القائلة « ليس كل ما يعرف يقال ، وليس كل ما يقال قد

عندما يتحدث السفير

حان أوان الحديث عنه » ، لذلك اخترت من مجموعة الذكريات بعض حكايات بعيدة عن دوائر المحظورات ، وتقدم في الوقت نفسه معلومة عن حضارة البلد الذى عشت فيه ، وقدمت نماذج لبعض المآزق التى يمر بها الدبلوماسى ، ومدى الحرج الذى يعانيه فى حياته التى يعتقد البعض أنها مقصورة على الحفلات الرائعة ، المليئة بالمأكل والمشرب فى صحبة الجميلات الفاتنات ، كل ذلك مع حصانة دبلوماسية تسمح لسيارته بالوقوف فى الممنوع - اذا شاء - ويرتدى الملابس الرسمية الأنيقة التى تزينها النياشين والأنواط » .

وعن مقابلته لامبراطور اليابان (السابق) فقد وصفها فى هذه العبارات « أما مقابلتى مع الامبراطور التى لا تنسى ، والتى أعتبرها من أسعد لحظات عمرى وأكثرها ثراء وشفافية ، فقد تمت بناء على قواعد البروتوكول الامبراطورى ، فإن السفير الذى يمضى أكثر من عامين سفيرا فى اليابان ، فله أن يتشرف هو وزوجته بتناول الغداء مع الامبراطور .

وكان يدعى لكل حفل يقام ثلاثة من السفراء مع زوجاتهم ، وثلاثة من الجانب اليابانى من كبار الأسرة ورجال القصر .

وقد حالفنا الحظ ، زوجتى وأنا ، فكنت أقدم السفراء الثلاثة وبذلك جلست زوجتى على يمين الامبراطور وجلست فى مواجهته على يمين الأمير شقيق الامبراطور .

وكان السفيران الآخران بدون زوجات، لأن أحدهما أعزب لم يتزوج ، والآخر لم تستطع زوجته تحمل التزاماتها فى اليابان، وآثرت البقاء مع أولادها فى وطنهم ، وبذلك أصبح عدد الحضور محدودا للغاية والمائدة صغيرة والكراسى متقاربة ، وكان البروتوكول يقضى بأن يكون لكل سفير عشر دقائق للحديث مع الامبراطور قبل الغداء ، ثم خمس دقائق بعد الغداء ، أما على المائدة فالحديث متروك لظروف الحفل ، وأتذكر أن الحديث قبل الطعام بين الامبراطور وبينى كانت تسوده روح الود والمجاملة الى أقصى درجة ، بحيث أحسست أن هناك علاقة ما بين أكبر رمز للحضارة اليابانية وبين ممثل الحضارة المصرية العريقة فى طوكيو ، ودار الحديث سهلا ممتعا بعيدا عن السياسة ووجدت أن الامبراطور رغم سنه المتقدم قد استوعب جيدا ما قدم له من معلومات عن مصر وعن السفير المصرى مما جعل الحديث بنّاء ومستمرا ، أما روعة الانفعال وثراء النفس فقد كان أثناء الغداء ، وطبعا لا أتذكر ما تناولته

من طعام ، فلم يكن الأكل هو مرادى ، بل كان تركيزى على استيعاب كل لحظة من هذه اللحظات النادرة فى عمر الانسان ، بدأ الامبراطور حديثه مع زوجتى وهما يتناولان ما قدم لهما من أرز مسلوق على الطريقة اليابانية بسؤال عن انتاج مصر من الأرز ، وهل هو طبق شعبى ، والفرق بينه وبين الأرز اليابانى ، واذا بالامبراطور يستطرد فى الأسئلة التفصيلية التى جعلت الحديث يمتد حتى وصل الى أرز السمك ، والأرز بالخلطة ، وبرام الأرز والأرز باللبن وكل ما يتعلق بطبخ الأرز وتقديمه فى مصر »

***

وأرجو أن يأذن لى المؤلفان بأن أعبر عن بعض الخواطر - والتساؤلات - التى أثارها لدىّ بكتابيهما الممتعين .. ولست فى حاجة الى أن أشير الى ما تضمنه الكتابان من معلومات غزيرة ، وما رسماه من صور دقيقة - ومشوقة - لألوان من الحياة والمواقف تهز المشاعر بصدقها ، وعمقها - فإن ما نقلناه من فقرات كاف فى الدلالة على ما ذكرنا - ولعله مما ساعد المؤلفين على بلوغ هدفيهما فى يسر وسهولة ، ما حباهما به الله من مقدرة متميزة على حسن التعبير ، وجمال العرض ، ورقة الأسلوب ، وسلاسة العبارة، مما يجعل قراءة مؤلفيهما متعة للقراء

غير أن ذلك يدعونى للتساؤل : لم كان هذا الالتزام الصارم فى كل من الكتابين بكل ما هو جاد من المواقف ، ومن صور الحياة ؟ وهل الحياة كلها جدٌ خالص ، وليس فيها ما يثير الفكاهة أو يدعو الى السخرية ؟ طبعا هناك الكثير من الصور الفكهة والأحداث الطريفة التى حرص المؤلفان - الى حد كبير - على الابتعاد عنها - وتجنبها - تماما ، حتى ليخيل الىّ أن المؤلف كان يحرص - عند شروعه فى كتابة صفحات كتابه - على أن يكون « بكامل الملابس الرسمية » لأنه بصدد كتابة « رسمية » سوف تتخذ طريقها للعرض !!

لقد ضمن السفير شبانة كتابه قسما عما مر به من مآزق وطرائف ، ورغم ما فى هذه المواقف من مواطن عديدة للفكاهة، مما كان يستتبع منه تبسطا فى العرض ، ومسايرة للأحداث ، فإنه ألزم نفسه - حتى فى روايته للطرائف - بحدود صارمة لا يعدوها ولا يتعداها ، مع أن كل ما قدم من مآزق كان يصلح لرسم صور طريفة ، وممتعة ، وأحسب أن روحه المرحة كانت تسمح له بذلك - فيما لو سايرها - بأن يرسم لنا صورا بالغة الرقة ،

والطرافة والعمق فى ذات الوقت ، ولكنه لم يفعل ، وكان ذلك منه عن عمد وليس عن عدم مقدرة !

وكذلك كان السفير محمود سمير أحمد فانه لم يغفل أبدا - حتى وهو يقدم العديد والغزير من المعارف والنظرات الصائبة والآراء المتعمقة - عن أن يقرن ذلك بالعديد من الملاحظات الذكية - والانسانية - التى تلتفت الى الطبيعة البشرية ، وتتحدث عن النقص البشرى ، ولكن جاء ذلك فى تلميح خاطف ، واشارات موجزة ، وكأنى به يلجم قلمه ويقول له : قف .. لا تتجاوز حدودك ، فأنت إنما تتحدث بلسان ممثل مصر ، بلسان من تحسب على دولته كل كلمة تصدر منه، بل وكل نظرة توجه منه ، وهو حريص على أن يظل - فى تصرفاته وأحاديثه - معليا رأس دولته دائما !

ومع أن الأحاديث جميعها إنما هى ذكريات لفترة طويلة من الحياة استغرقت قصة حياة السفير على مدار خدمته ، أو بعبارة أخرى حياته فى فترات الشباب ، ثم اكتمال الرجولة حتى تمامها ببلوغ ما يعرف بـ « السن القانونى » وهى فترة تشهد توهج العواطف ، باستقرارها ، كما تشهد أجمل ما فى العمر من متع الألفة والائتلاف ، لا نقول الحب والمحبين - ونقرأ صفحات الحياة التى بين أيدينا فإذا بها خالية تماما من الحديث عن «العواطف» اللهم إلا من عبارات عابرة تعبر عن لحظات جمعت بين الأليفين إزاء مشكلة طارئة ، أو مأزق حرج ، فكان من الضرورى أن يواجهاها معا ، ولسنا ندرى لم كان كل هذا الحرج والتحرج من الكشف عن المكنون ، والتبسط فى الحديث عما فى « القلوب » ؟ ولم كان الاقتصار على ما هو دون التلميح فى الاشارة الى ما خفق به القلب ، أو ثار فى النفس من مشاعر أو أحاسيس .

كم كنا نود التبسط فى هذه النواحى العاطفية ، بما يجلى ملامح الصورة على حقيقتها ، فبذلك تكتمل فى جانبها العاطفى ، وهو ولا شك من أهم جوانب الحياة ، ان لم يكن هو الحياة نفسها .

ومازال السبيل ميسرا ، والباب مفتوحا ، ومازلنا نطمع من السفراء الأدباء المبدعين أن يحدثونا - فى شيء من الصراحة - عن حياتهم العاطفية ، وأن يرسموا صورا صادقة ومعبرة عن خفقات القلوب ، ونزعات النفوس ، وهم يحيون حياتهم المتنقلة ، يرون - ويخالطون - أنماطا من البشر رجالا ونساء مختلفى المشارب والنزعات ، ويعيشون بين ألوان من الجمال متعددة

عندما يتحدث السفير

المذاق ، مثيرة للجديد من المشاعر – فما هو وقع ذلك كله على القلوب الرقيقة التي تفيض حبا – أو على الأقل عطفا – أمام الحسن الخلاب ، دون أن ندعوها الى أن تتابع الشاعر فتهوى ذلك الحسن ، ولكن عليها على الأقل أن تنصفه ، وتقدره حق قدره ، ولن يضير أقلامهم – ولن ينقص من قدرها – أن تخصص عددا من الصفحات لأحاديث الحسن ، ونجوى الفؤاد !!.

أأكون قد جاوزت قدرى وأنا أطلب ذلك ممن يقضون حياتهم أسرى «مراسم» معينة ، لا يملكون منها فكاكا ؟ ومع ذلك فإن كنت قد تجاوزت الحدود «المرسومة» أو «الرسمية» فان ثقتى كبيرة فى أن الصديقين الكبيرين سوف يغفران لى هذا التجاوز ثقة منهما فى حسن نيتى ، وتقديرا منهما لأننى عبرت عما يودان – لولا القيود – التعبير عنه .

ومن عجب أنك تجد هذا المنهج يمتد كذلك عند الحديث على ما يجرى خارج نطاق عمل السفير ، وهو يتحدث عما صادف فى حياته – أو عمله – من مظاهر أو مشاهد أو مشاكل فهو يرويها رواية المحايد ، ورغم ما يكون قد بذل من جهد ، أو عانى من تأثر ، فانه يحرص على عدم رواية شىء من ذلك ، أو التعبير عنه ، بل يكتفى بالخطوط الرئيسية ، دون إضافة أى تفصيل يشى عن مدى التأثر ، أو صدى الانفعال بالحدث ، أو بالمنظر .

وكذلك الشأن فى الحديث عن أهل تلك البلاد ، فذلك الحديث يقف عند حدود الأرقام والمعلومات الاقتصادية والسياسية دون أن يتجاوزها الى ما يتصل بالناس فى حياتهم العادية عندما يعملون ويصيحون ويمرحون ويتبادلون العواطف والحياة ، تلك الحياة الفنية العاطفية الاجتماعية النابضة ، لا نجد لها إلا صدى ضئيلا – مجرد اشارات عابرة – بين ثنايا الصفحات العديدة التى تناولت الكثير وقدمت الكثير فيما عدا ما يتصل بالحياة العادية ومما كنا نأمل أن يصورها على نحو ناطق ومعبر .

كم كنت أتمنى لو تخلى الكاتبان لعدة صفحات عن السمة الرسمية وأطلقا لفكريهما العنان يصور ما بقى – فى النفس والقلب والخيال – من ملامح لتلك الحياة العريضة التى عاشاها ، ومن صور تتوالى فتبعث فى النفس طربا ، وفى القلب نشوة ، وفى المشاعر حياة وأى حياة حتى لو جاوز الكاتب الستين من عمره ، فصاحب الفكر لا يشيخ ، والقلب العامر بالحب لا يعرف هرما أو عجزا مهما بلغ من عمر .

العرب بعيون صهيونية

بقلم : محمد طه*



كتب

كتب

تركز الدراسات العربية - الجادة - حول الصراع العربى - الإسرائيلى على محاولة فهم الكيان الصهيونى فى فلسطين ، سواء فى مرحلة الاستيطان أو بعد قيام دولة إسرائيل . فالباحثون - على اختلاف تخصصاتهم وعلى تفاوت قدراتهم - معنيون أساساً بفهم الجوانب المختلفة للحركة الصهيونية بدءاً من أسسها الفلسفية حتى انعكاساتها النفسية مروراً بالنواحى التاريخية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والتقنية والاجتماعية . وعلى الرغم من ذلك فلم يتجه الاهتمام إلى دراسة الادراك أو الرؤية الصهيونية للعرب .. فبإستثناء بعض التحليلات السياسية والأدبية لصورة العرب فى الصحف الإسرائيلية أو فى الأدب العبرى والتى تمثل رصداً لانعكاسات هذا الادراك أكثر منها تحليلاً له -أقول بإستثناء ذلك لانجد صدى لهذه النقطة ، فنحن فى غمرة انشغالنا برؤية إسرائيل لم نتوقف لنسأل أنفسنا كيف ترانا إسرائيل ؟ .

من هنا كانت أهمية كتاب «أسرار العقل الصهيوني» للدكتور عبدالوهاب المسيري للكاتب العربي والمتخصص فى حقل الدراسات الصهيونية ، والذى يحدد هدف الكتاب بأنه إلقاء الضوء على «قضية علاقة ادراك الانسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك فى السلوك الانسانى» ص٢، مستعينا على ذلك بدراسة حالة لدور الادراك فى الصراع العربى الإسرائيلى . وتنبع أهمية هذه الإشكالية من واقع أن

* المدرس المساعد بآداب عين شمس

الانسان بما هو إنسان لا يتعامل مع معطيات فيزيقية بل مع عالم من الأنساق والرموز التى تعيد تشكيل الواقع المادى وإكسابه «معنى» وقيمة» ، إذ أصبح من الحقائق المستقرة لدى علماء النفس أن الانسان يدرك الواقع من خلال مخطط عقلي Schema يحدد له ماهو مركزى وما هو هامشي وما يستبعده من الواقع وذلك على أساس معتقداته ورغباته وآماله ومخاوفه ومقدساته ومحرماته ، وبالتالى لا يتوقف إدراك الانسان للواقع على مجرد تراكم الوقائع الصحيحة، بل يعمل هذا المخطط فى جانب منه كمرشح Filter يمرر أو يستبعد . وهكذا يكتسب العقل بعداً إيجابيا فلا يقتصر دوره علي التلقي السلبي للمعلومات بل يعمل كمعالج نشط لها . وعلى هذا الأساس يسعى د . المسيرى إلى فهم وتحليل المخطط العقلى أو النموذج المعرفى للواقع العربى والإسرائيلى كما يراه الإسرائيليون، وهو الفهم الذى يؤدى إلى تعميق جوانب فهم إسرائيل والتنبؤ بسلوكها وادارة الصراع معها على نحو أفضل نظراً لأن القرار لا يتخذ على أساس الواقع المادى فقط بل – بالدرجة الأولى – على أساس «رؤية» هذا الواقع أيضاً .

● العرب على المتصل الادراكى الصهيونى

الحركة الصهيونية – ربيبة الغرب فى القرن ١٩ بكل ظروفه وملابساته فى أوربا من تطور رأسمالي وحركة إستعمارية عنصرية تبرر مركزية الذات وتجعل الآخر مجرد وسيلة يمكن استخدامها أو عائق يجب إزالته، وهى – أى الحركة الصهيونية – فى هذا تستلهم خطى التراث الاستعمارى الغربى وخاصة الإستعمار الاستيطانى الإحلالى فى كل من الأمريكيتين واستراليا وجنوب أفريقيا (قبل التحولات الأخيرة فيها) . من هنا كان تحقيق الذات الصهيونية يعنى غياب العربى «بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسى وغرضها النهائى وقصدها الخفى فى معظم الأحيان والمعلن فى أحيان قليلة» ص ٢٨ . إلا أن هذا الغياب في صورته النهائية لا يمثل سوى الطرف الاقصى للمتصل أو الهدف النهائى الذى يتم الوصول اليه تدريجيا . (ربما حسب تطور توازنات القوى) ، ولذلك يقدم د . المسيرى تصنيفاً لمقولات الادراك الصهيونى للعرب بحيث يشمل :

١ – العربي المتخلف وهو العربي باعتباره متخلفاً وجاهلاً أتي المستوطنون الصهاينة «الرواد» لتنويره وتمدينه ، وهنا نلاحظ التشابه مع أدبيات الاستعمار الغربى التقليدية التى تتحدث عن «عبء الرجل الأبيض» ودوره فى نشر المدنية .

٢ – العربي كممثل للاغيار . هو العربى كممثل لكل ماهو غير يهودى ولكل ماهو عدائى واضطهادى لليهود : الأمر الذى يوفر نوعاً من الامن النفسى . إذ مهما ارتكب الجانى فإنه «ضحية أبدية».

٣ – العربى الهاش ويأخذ شكل إنكار أى كيان سياسى أو قومى للعرب أو الفلسطينيين، واعتبار الثورات العربية مجرد حركات غوغائية ناتجة عن التعصب الدينى أو الاعتبارات الاقطاعية أو القبلية. وكذلك اختزال الفلسطينى إلى «مخلوق اقتصادى» باحث عن الربح دائماً وبالتالي يصبح حل مشكلة فلسطين شراء الأرض من اصحابها الذين تنازلوا بذلك عن حقوقهم .

٤ – العربى الغائب حيث يتم تغييب العربى وانكاره وبالتالى تنتفى المشكلة وتصبح

فلسطين «أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض» ويتم اختزال شعب فلسطين إلى «سكان محليين» ومشكلة لاجئين .

ويمكن النظر إلى تتابع مقولات الادراك الصهيوني ثم الإسرائيلي للعرب على أنها تمثل متصلا يعكس ميلا متزايداً نحو التجريد، أي نحو إنكار الوجود العياني التاريخي للفلسطيني كصاحب أرض وحضارة، وذلك بدءاً من وصمه بالتخلف ثم دمغه ببطاقة هوية مصطنعة تبرر التمييز العنصري ضده كممثل للاغيار يدفع ثمن جرائمهم ، أو كشخص هامشي يفتقد الهوية القومية وصولاً إلى إنكاره التام وتحويله إلى لاجيء لا حقوق له، وإن كان كاتب هذه السطور يرى أن العربي الهامشي أكثر عيانية وأقل قابلية للانكار من العربي كممثل للاغيار: والعربي الهامشي - رغم كل شيء - فلسطيني يعيش في فلسطين وليس في غيرها وهو صاحب ارض يدخل المستوطنون معه في علاقة بيع وشراء ، وهو يقوم بثورات بالرغم من بحثهم عن دوافع غير شريفة لها . أما العربي كممثل للاغيار فهو مجرد اسقاط لكل ماهو معاد لليهود ، وبالتالي يصبح أقل عيانية . بل قد يتساوى العربي هنا - في المنظور الادراكي للصهيونية - مع النازي مثلا أو حتى مع الهنود أو سكان الاسكا وسيبيريا . فالعربي كممثل للاغيار - على هذا النحو - أقرب إلى العربي الغائب من العربي الهامشي.

وبالرغم من ذلك المتصل الادراكي بدءاً من وصم العربي بالتخلف وانتهاء بإنكاره وتغييبه، إلا أنه لم يحل دون ادراك العربي الحقيقي ، أي العربي صاحب الأرض والتاريخ وصاحب الوجود الحقيقي في فلسطين . وهو ادراك لا يقتصر على بعض الأفراد الهامشيين بل يورد د . المسيرى نصوصاً لبن جوريون وموشيه شاريت وديان توضح إدراكهم لصورة العربي الحقيقي ، وهو الادراك الذي أدى لدى قلة من الصهاينة إلى احياء ضمائرهم والتخلى عن الصهيونية والعودة إلى أوربا أو إلي محاولة التوفيق بين الصهيونية ووجود العربي الحقيقي وهي استجابات لم تظهر سوى لدى قلة تم تهميشها في المشروع الصهيوني ، أما الاستجابة الغالبة والاكثر شيوعاً لادراك العربي الحقيقي فكانت المزيد من الشراسة والعنف الصهيوني .. هنا يطرح د . المسيرى مشكلة عدم اتساق ذلك الادراك للعربي الحقيقي مع السلوك السياسي الإسرائيلي ، بمعنى سيطرة الاتجاه الداعي إلى التمادي في العنف رغم ذلك الادراك ، « لم هذه الاستجابة الشرسة من هؤلاء؟»

والأهم من ذلك بم نفسر شيوع هذا النموذج ؟ ص ٥٧ . ويرجع د . المسيرى - في إجابته على هذا السؤال - العنف الصهيوني رغم ادراك العربي الحقيقي إلى حقائق «موازين القوى» حيث «لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثوري نضالي قادر على تعبئة الجماهير .. ضد من يتهددها كلها بالطرد والفناء ، لكل هذا كان العربي الحقيقي حينما يظهر على شاشة الوعي الصهيوني ويبهت ويشحب ثم يصبح هامشيا تماماً ويختفي أمام موازين القوة التي لم تكن في صالحه» ص٥٨ ،

وبالرغم من وجاهة الحل الذي يقدمه د . المسيرى إلا أنه يقرر واقعاً مادياً ولا يفسر غياب دور الادراك في تغييره أو عدم وجود رأى عام في ذلك الاتجاه على الاقل . ويرى كاتب هذه السطور أن مشكلة الصهاينة مع

العربي الحقيقي لم تكن نتيجة تشويهات ادراكية بحيث يؤدى فض المجهلة إلي حل المشكلة . إذ أن الادراك الحقيقي لا يعنى بالضرورة السلوك الامثل، تماماً كما أن أى مريض نفسي يستطيع ادراك كل شيء عن مرضه من خلال قراءة كتاب في علم النفس المرضى ولكن ذلك لا يؤدى إلى شفائه - بل ان صورة العربى الحقيقى كامنة دائماً فى الوعى الصهيوني باعتباره صاحب حق يجب اغتصابه ، أما حسنو النية الذين لم تقبل ضمائرهم هذا فكان عليهم إما أن يعودوا ادراجهم من حيث أتوا . أو أن يقنعوا بدور هامشى فى المشروع الصهيونى . ومما يؤكد هذا التفسير «أن الأكثر ادراكاً حقيقياً هم الأكثر تحيزاً ضد ورغبة فى تغييب العربى» ص ٥٩ . فهؤلاء - بسبب ادراكهم الحقيقى وليس بالرغم منه - أكثر وعياً بالحق العربى وبان نجاح المشروع الصهيونى إنما يتوقف على القضاء على العربى الحقيقى، وبالتالى لموقفهم العنيف تجاه العربى الحقيقى أكثر اتساقاً مع رؤيتهم الحقيقية له .

الانتفاضة :

هذا ويقدم الكتاب إسهاماً متميزاً فى فهم الانتفاضة الفلسطينية وجوانب الادراك الإسرائيلى لها، فهو لا يكتفى بالتقسيم التقليدى إلى متشددين ومعتدلين أو صقور وحمائم ولكنه يرصد بالإضافة إلى ذلك مايسميه د . المسيرى «طيوراً ادراكية» أخرى كالدجاج الذى يفزع عند الخطر أو النعام الذى يرفض رؤية الحقيقة أو يطلب حلاً سحرياً للمشكلة دون تكلف جهد النفاذ إلى أعماقها ، وتقدم هذه التصنيفات - بجانب اثرائها للواقع وقدرتها التفسيرية العالية - تطبيقاً فريداً لما يمكن أن يقدمه فهم رؤية الآخر أو ادراكه للموقف من قدرة على النفاذ إلى اعماقه والتنبؤ بسلوكه . فموقف الصقور المتشدد قد لا يعبر عن القوة بقدر ما يعبر عن القلق الناتج من ادراك العربى الحقيقى (صاحب الأرض والتاريخ) ، بينما لا يعكس الاعتدال سوى صلف يتخفى فى عبارات مهذبة عن ثقة بإتمام تغييب العربى ولكنه على استعداد للكشف عن وجهه الحقيقى عند أول بادرة لظهور العربى الحقيقى (راجع ماحدث فى قانا)، فإن «خاب العربى وان قنع وخنع ؟؟ أى لم يتحدى الشرعية الصهيونية فبوسع الصهيونى أن يتخذ موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربى مستأنس تم تطبيعه ، أما إن تحول العربى إلى صقر ذى هوية يهاجم دفاعاً عنها فإن الاعتدال يختفى ويتخلى العدو عن ديمقراطيته الغربية المزعومة ويضرب بيد من حديد» ص ١٠٤ .

وهكذا فنحن بازاء كتاب يقدم اجتهادات لاثراء جانب من أهم جوانب الصراع العربى - الاسرائيلى على نحو يتجاوز الأرقام المحددة أو المقولات سابقة التجهيز ، على اعتبار أن رؤية الأخر ، وادراكه للموقف يمثل عنصراً أساسياً فى فهمه وادارة الصراع معه على كل المستويات ، على أن هذا لا يعنى بحال من الأحوال (هل أصبح هذا يحتاج إلى تأكيد؟!) اختزال الصراع العربي الاسرائيلي الي مجرد «مشكلة نفسية» وان كان العامل النفسى يمثل أحد الجوانب الرئيسية التى توسع أفق الرؤية.

فنحن إذن أمام كتاب جدير بقراءة واعية متأملة .

حقيقة الاكتشافات الأثرية فى الميناء الشرقى بالاسكندرية

بقلم د. فوزى عبدالرحمن الفخرانى

عندما وصل الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢/٣٣١ ق. م إلي موقع قرية راقودة (وهو الموقع الذي قامت عليه فيما بعد مدينة الأسكندرية) شاهد جزيرة فاروس فتذكر الصعاب التي اعترضته سابقا فى الاستيلاء علي جزيرة صور (لبنان حاليا) بسبب المقاومة التى صادفها جيشه لوجود الاسطول الفينيقى عليها وكان يمثل جزءا مهما من الأسطول الفارسى الموجود فى البحر المتوسط . ولم يستطع الاسكندر أن يحتل جزيرة صور إلا بعد أن وصل الجزيرة بالساحل الأسيوى المقابل بواسطة جسر ، ونظرا لأن الأسكندر لم يكن لديه اسطول للتصدى للأسطول الفارسى فى البحر المتوسط لذلك وصل جزيرة فاروس بالساحل الأفريقى المقابل الذى تقوم عليه راقودة بجسر طوله سبعة استاديا ولذلك عرف باسم «الهبتاستاديون».

ونتيجة لذلك نشأ عندنا ميناءان كبيران أحدهما شرق الهبتاستاديون ويعرف باسم الميناء الكبير ويسمى حاليا الميناء الشرقي والآخر غرب الهبتاستاديون ويعرف قديما باسم ميناء يونوستوس وهو الميناء المستعمل حاليا لرسو سفن البضائع والركاب.

وقد تعرض الميناء الشرقي لكثير من النكبات إذ غارت الشواطىء فى البحر المتوسط وغطت موانيها ومبانيها مياه البحر على مر العصور . لم يكن انزلاق الساحل هو كل المصائب التى نكب بها الميناء الشرقى بل تعرضت المنطقة لحروب وتدمير منذ العصر الرومانى وأكثر من ذلك الزلازل العديدة التى دمرت مايسمى بالمسرح الرومانى القائم حاليا فى كوم

(-) أستاذ الآثار بجامعة الاسكندرية



تمثال رأس كليوباترا ويوجد بالقسم المصرى بمتحف الفاتيكان

الدكة وأعيد بناؤه فى العصر البيزنطى ثم لدينا الزلزال الكبير الذى ضرب المنطقة عام ١٣٧٥ م ودمر منارة فاروس الشهيرة احدى عجائب الدنيا القديمة السبع . لقد تهدمت المبانى القائمة على ساحل الميناء الشرقى بمافيها تلك القصور الملكية القائمة على لسان السلسلة (كاب لوخياس كما كانت تسمى قديما) وجزيرة انتيرودوس واللسان الممتد امام الجزيرة وسقطت المبانى مهشمة فى البحر لتغمرها أو أكثرها الرمال التى تقذف بها رياح الخماسين سنة بعد أخرى.

تاريخ الأسكندرية

ولكن الطامة الكبرى التى حلت بالميناء الشرقى جاءت بفعل حاميها «قراجا» الوالى المعين على الاسكندرية من قبل صلاح الدين الأيوبى فى القرن ١٢ حينما قذف بالأعمدة المهشمة والآثار المحيطة بعمودالسوارى فى الميناء الشرقى وعند مدخله (بوغازه) خشية أن يغزو الصليبيون مصر بحرا عن طريق ميناء الأسكندرية الرئيسى (وهو الميناء الشرقى حتى ذلك الوقت) ونتيجة لعمل قراجا هذا أصبح الميناء الرئيسى للاسكندرية (الميناء الشرقى) غير صالح للملاحة ولاستقبال السفن مما إضطر أهالى الاسكندرية المشتغلين بالملاحة والتجارة (استيراد وتصدير) يتركون الاسكندرية الى ميناء آخر هو ميناء رشيد فانتعشت رشيد وازدهرت بعد القرن الثانى عشر وتدهورت الاسكندرية وتقلصت بعد أن هجرها أهلها حتى أن الرمال غطت كل المناطق شرق محطة الرمل واستغلت هذه المناطق المهجورة للدفن حتى زمن محمد على كما نرى فى مدافن الارثوذكس اليونانيين والكاثوليك وغيرهم من الجاليات وحتى مقابر المنارة كلها لا تبعد كثيرا عن محطة الرمل مع انه عند اختيار موقعها للدفن كانت خارج المنطقة السكنية غرب محطة الرمل . ظل الحال كذلك حتى أحيا محمد على باشا الميناء الغربى (يونوستوس قديما) فجذب العمران والسكان من جديد الى الاسكندرية وأصبح الميناء الغربى هو ميناء الاسكندرية الرئيسى بينما ظل الميناء الشرقى ميتا رغم مساحته الضخمة.

إن الاهتمام بالآثار الغارقة نشأ حديثا ومتأخرا كثيرا عن الاهتمام بالآثار التى فى باطن الأرض ، نشأ خاصة بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية بفضل غرق الكثير من السفن بما عليها من بضائع وكنوز ومنها السفينة تايتانك ونتيجة لذلك اهتم الناس بانقاذ محتويات هذه السفن خاصة وقد سجل غواصو الاسفنج مشاهدتهم للسفن والآثار الغارقة وسجلت الخرائط الجغرافية والكتاب القدامى والخرائط الملاحية المسار الأمين للسفن ومواقع الاثار والسفن الغارقة مما تطلب اختراع أجهزة الأمان فى السفن مثل «السونار» والجهاز المتطور عنه المعروف باسم «سايد سكان سونار» والذى يرسل موجات تصطدم بالقاع فان كان القاع عليه آثار او سفن غارقة ترفع مستوى القاع ترد الموجات بشكل اسرع فتنبه ربان السفينة لتفادى الخطر أو عالم الاثار ليحدد مكانه وانتشاله ان امكن. هذا الاهتمام جعل العلماء يطورون طرق الغوص على الاعماق المختلفة سواء فى غواصات متنوعة يركبونها أو بدون اى مركبة .

كما يحدث فى سياحة الغطس كما فى الغردقة أو شرم الشيخ كما استخدم البالون حديثا لفرع الآثار حتى السطح تم ينقلها ونش وبالنسبة للبحث الاثرى فى الأعماق حدث تطور كبير باستخدام الأجهزة الجيوفيزيقية التى تعرفنا بنوع الآثار الغارقة عن طريق الاختلافات فى قراءة المغناطيسية الارضية حينما تمر من خلال احجار او رمال وغير ذلك من مواد كما نستطيع معرفة الأعماق التى توجد عندها هذه المواد سواء كانت مبانى او تماثيل من احجار مختلفة سواء كان من الرخام او الجرانيت او الحجر الجيرى وهكذا او المعادن. هذا التطور الكبير فى الاجهزة والملابس الخاصة بالغوص وتسجيل مسار الساحل وأجهزة التصوير والتخطيط تحت الماء باستخدام التصوير بالفيديو وبالكاميرات والقياس افاد منها جوديو فى تسجيل شكل الساحل القديم ومواقع الاثار المختلفة بالنسبة للساحل والظواهر الجغرافية والجيولوجية فى الموقع مع استخدام احدث اجهزة الكمبيوتر والمضخات الماصة للرمال فى القاع.

حقا لقد كان هناك تسجيل لبعض الآثار الغارقة بمنطقة الاسكندرية من قبل

الخريطة الجديدة للميناء الشرقى والحى الملكى



ولكن لم يتم ذلك داخل الميناء الشرقى كما انه لم يتم بالدقة التى تسجلها الأجهزة العلمية فى نهاية القرن العشرين فلقد سجلت لنا الحملة الفرنسية على مصر زمن نابليون جزيرة تحت الماء تعرف بجزيرة الماس عليها بعض الآثار الغارقة وتقع هذه الجزيرة خارج الميناء الشرقى شمال قلعة قايتباى واعتقد جراتيان لوبير احد علماء الحملة الفرنسية في مقال له فى كتاب الحملة الفرنسية «وصف مصر» ان منارة فاروس الشهيرة كانت قائمة على هذه الجزيرة الا انه ثبت ان ابعاد قاعدة المنارة أكبر من مسطح الجزيرة بما يحتم استحالة ان المنارة كانت قائمة عليها. ولقد سجل جونديه فى أوائل هذا القرن هذه الجزيرة ضمن الارصفة والموانى الغارقة الواقعة شمال جزيرة فاروس وغربها ومن بينها مخطط الميناء الفرعونى الغارق المرتكز فى جانبه الشرقي على النهاية الغربية لجزيرة فاروس ويعرف حديثا باسم رأس التين وموضحها امتداد هذا الميناء الغارقة حتى جزيرة صغيرة غارقة تعرف باسم أبو بكار قرب الورديان ولكن لم يسجل لنا جونديه اى آثار غارقة بخلاف الأرصفة على عكس ما فعل جوديو فى الميناء الشرقي اذ سجل لنا جوديو اكثر من ١٦٠٠ أثر عبارة عن اعمدة من أنواع وطرز مختلفة وتماثيل شخصية لأفراد سياسية مثل تمثال من الرخام وآخر من الجرانيت بزى فرعونى لمارك انطونى وتماثيل لأبى الهول وجزء من مسلة وما الى ذلك من آثار.

الاهتمام بالآثار الغارقة

لقد توالى الغطاسون الهواة على تحديد مواقع الآثار خارج الميناء الشرقى حديثا ومنهم أبو السعادات كما قامت جماعة من هواة الآثار من الامريكان تعرف باسم موبيوس جروب بتصوير بعض الاعمدة الغارقة في الميناء في فيلم تسجيلى دون استناد الى اساس علمى، كما قامت احدى الامريكيات بعملية مماثلة وكان لاهتمام هيئة الاثار بالآثار الغارقة ان قامت بمساعدة السلاح البحرى برفع تمثال للمعبودة ايزيس من المنطقة الواقعة خارج الميناء الشرقى شمال قلعة قايتباى محفوظ حاليا فى منطقة عمود السوارى وقام المسيو امبرير بانتشال العديد من القطع الاثرية والتماثيل من نفس المنطقة حديثا.

أما ما حققته بعثة جوديو فبالنسبة لمخطط الاسكندرية القديمة فكبير جدا إذا أدركنا أن استرابون الجغرافى اليونانى القديم . الذى زار الاسكندرية فى ٢٥ ق. م أى خمسة أعوام فقط بعد حكم ملوك البطالمة وآخرهم كليوباترة السابعة التى انتحرت فى عام ٣٠ق.م بعد أن هزم مارك أنطونى وكليوباترة أمام الجيش الرومانى بقيادة أوكتافيانوس والذى أصبح أول امبراطور رومانى عام ٢٧ ق.م كما

أصبحت مصر وعاصمتها الاسكندرية ولاية رومانية منذ لحظة هزيمة كليوباترة وأنطونى عام ٣٠ ق.م لقد ذكر استرابون فى كتابه الجغرافيا وصفا لمخطط الاسكندرية فى أوج عظمتها اسكندرية آخر ملكات البطالمة وذكر على التوالى المبانى سواء على سواحل المدينة أو بداخلها وللأسف لم تحقق أى خريطة رسمت للاسكندرية من الخرائط العديدة التى تعد بالعشرات منذ الحملة الفرنسية لم تحقق أى منها موقعاً لأى مبنى من المبانى التى ذكرها استرابون لأن كل هذه الخرائط لم تخطط انطلاقاً من مبانى يونانية بطلمية أو حتى رومانية بل من معالم كانت واضحة من العصر الاسلامى ولكن ما سجله جوديو من معالم وآثار فى الميناء الشرقى ومخطط للساحل يتفق تماما مع ماورد ذكره عند استرابون هذا علاوة عن الدقة المتناهية التى سجلتها هذه الأجهزة العلمية المتطورة عن المخطط والمواقع والآثار الثابتة أو المنقولة وليس أدل على ذلك من ذكر استرابون للميناء الكبير (الميناء الشرقى) أنه يحتوى على عدة موانى وهذا ماثبت فى الواقع فى الخريطة التى سجلها جوديو إذ نجد - كما جاء فى وصف استرابون أنه كان القصور الملكية للبطالمة الأوائل الواقعة على رصيف السلسلة (كاب لوخياس) ميناء صغير مختفى عن الانظار لأنه ميناء خاص بالقصور الملكية البطلمية وفى الخارج منه نجد ميناء أكبرله رصيف صناعى وليس طبيعياً يتلو هذا الميناء ميناء أكبر محدد بالرصيف الصناعى المذكور ومحدد فى الجانب الآخر بلسان من الأرض ينتهى برصيف بناه أنطونى بعد هزيمته أمام أكتافيانوس فى معركة أكتيوم البحرية باليونان عام ٣١ ق.م ثم هناك ميناء طبيعى يأخذ شكل حجرة تكون جزيرة أنتيرودوس جزءا منه هذا بالإضافة لموانى صغيرة أخرى .

و صف لبعض الآثار

أما بالنسبة لوصف استرابون للمبانى والمنشآت القائمة على هذا الجزء من الساحل فهى تطابق نص استرابون فهناك صخور بعد دخول الميناء (بوغاز الميناء الشرقى يتلوها رصيف السلسلة بما عليه من قصور ملكية وميناءه المختفى عن الأنظار ثم يأتى المسرح عن نهاية رصيف السلسلة يليه الساحل فى اتجاه محطة الرمل حتى إذا وصلنا إلى لسان الأرض نجد أرضية مرصوفة بكتل من الحجر الجيرى ملتصقة ببعضها بمونة رمادية اللون تعلوها أجزاء كثيرة من أعمدة دورية تمثل بقايا معبد بوزيدون . ونجد هنا اللسان ينحنى على شكل كوع وعليه أرضية مرصوفة كالسابق عليها أعمدة تمثل بقايا مبنى التيمونيوم وهو المبنى الذى لجأ إليه انطونى بعد أن هجر كليوباترة بعد معركة أليتوم والأعمدة الموجودة عليه كورنثية ومن الجرانيت وبدن

العمود أملس تماماً مثل عمود السوارى وان كانت أصغر حجما بكثير يمتد الساحل بعد معبد بوزيدون باتجاه محطة الرمل ونجد أرضية مبلطة بنفس الطريقة وعليها أعمدة كورنثية من الجرانيت كالسابق وهى تمثل مبنى الامبرايوم وهو الحى التجارى الذى تخزن فيه البضائع المصدرة قبل تصديرها والمستوردة وبه المحلات التجارية وينتهى الامبرايوم بلسان ممتد فى البحر صغير الحجم يترك بينه وبين جزيرة انتيرودوس معرا مائيا ضيقا أما الجزيرة فهى بلا أى نزاع الجزيرة الوحيدة فى المنطقة ويتفق موقعها مع وصف استرابون كما أن استرابون أخبرنا أن عليها قصراً ملكياً ولقد وجدت على هذه الجزيرة أرضية مبلطة بكتل من الحجر الجيرى ملتصقة ببعضها بمونة رمادية اللون فوقها أجزاء من أعمدة كورنثية من الجرانيت الوردى وجزء كبير من مسلة عليها نقش هيروغليفى محفور.

من الواضح أن الأرضيات المبلطة مبنية كلها من كتل صغيرة من الحجر الجيرى مربوطة بعضها بمونة رمادية اللون . مثل هذا التبليط للأرضيات نجده فى بعض المبانى والمنازل فى جزيرة ديلوس باليونان وبعض مبانى مدينة بومبى فى العصر نفسه الذى ساد فيه حكم البطالمة فى مصر أى العصر الهلينستى وهى بالتقريب منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حتى نهاية العصر البطلمى أى تقريبا نهاية القرن الأول قبل الميلاد . ولو كانت هذه الأرضية رومانية لكانت المونة حمراء اللون لأنها حسب توصية المهندس المعمارى الرومانى فيتروفيوس فى كتابه «عن العمارة» الذى قدمه هدية لأغسطس أول امبراطور رومانى وذلك لأن المونة الحمراء ممزوج بها مسحوق شقف الفخار الذى يسد المسام فلا يتخلل المونة أو المحارة الممتزجة بمسحوق الفخار أى رطوبة أو ماء أو سوائل ولذلك تستعمل فى بناء أرضيات الأحواض والحمامات وفى أحواض معاصر العنب أو فى الأماكن الرطبة وساد استعمال المحارة والمونة الحمراء فى العصر الرومانى والعصر البيزنطى حتى العصر العربى .. نجدها مستخدمة فى حمامات كوم الدكة مثلا.

من هذا نستدل علي أن جميع الأرضيات المبلطة التى كشف عنها جوديو علي الساحل أو علي لسان الأرض أو علي جزيرة أنتيرودوس جميعها من العصر السابق لحكم الرومان لمصر أي في العصر الذي كانت فيه الاسكندرية في أوج عظمتها . ونظرا لوجود ، أعمدة علي الأرضيات فهذا يدل على أنها بقايا لمبان أقيمت في العصر البطلمي أي قبل الرومان .

نوعان من الأعمدة

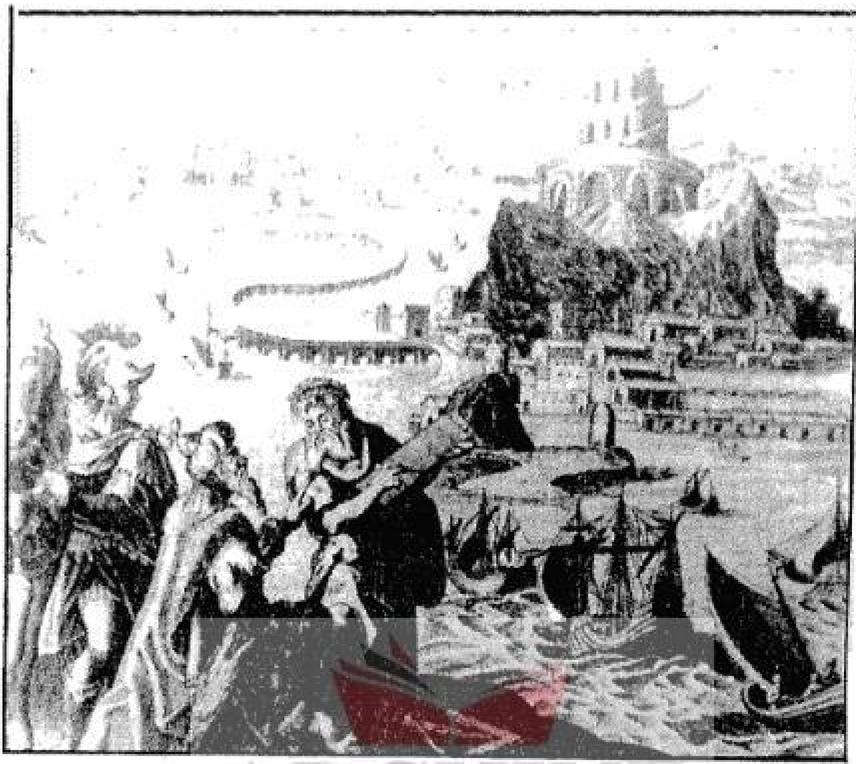
ومن الملاحظ أنه كشف عن نوعين من الأعمدة بعضها دورية الطراز كالتى نجدها فى مقابر الشاطبى البطلمية ومقابر مصطفى باشا البطلمية وكلاهما يرجع للفترة المبكرة من العصر البطلمى أى زمن البطالمة الأوائل ونظرا لأن أول قصور كانت على رصيف لوخياس

(السلسلة) لذلك فإن القصور على رصيف لوخياس بنيت من زمن حكم بطلميوس الأول (سوتر) ولكن لا يعقل أن يكون القصر ظل على رونقه ثلاثة قرون أو حتى قرنين ونصف ولذلك بنى قصر على جزيرة انتيرودوس والدليل على أن هذا القصر أحدث هو أن أعمدة كورنثية من الجرانيت بنفس شكل عمود السوارى ومثل هذا الطراز استعمل فى أواخر العصر البطلمى أى فى عصر كليوباترة وكان محببا لدى الرومان بدليل أنه استمر كما فى عمود السوارى الذى يرجع لعصر الامبراطور «قلديانوس» لذلك فإن القصر الذى على جزيرة انتيرودوس قصر بطلمى استعملته كليوباترة فى حياتها حتى مماتها .

تقع جزيرة أنتيرودوس فى مواجهة مبنى التريانون بمحطة الرمل حيث كانت المسلتان اللتان احضرتهما كليوباترة من المعبد بعين شمس (هليوبوليس القديم) قرب القاهرة ليقاما أمام معبد القيصرون الذى شيدته كليوباترة لابنها من يوليوس قيصر هذا المعبد الذى كرسه أغسطس للقياصرة من بعده ومن الواضح أنها أحبت المسلات فأخذت لقصرها القائم على جزيرة انتيرودوس مسلة بقى منها جزء على الأرضية فوق الجزيرة أما بقية الأجزاء مثل المبانى الأخرى فى الميناء الشرقى فرمى بها فى الزلزال فى البحر وهذا يؤكد أن المسلة كانت أمام القصر الذى كانت تقيم فيه كليوباترة .

لهذه الأسباب نجد أنه من المؤكد أن الأعمدة والمسلة والأرضية القائمة على جزيرة أنتيرودوس كانت تنتمى لمبنى القصر الذى عاشت فيه كليوباترة وإن كان من غير المؤكد أنها شيدت هذا القصر وربما شيده أحد البطالمة المتأخرين أو كليوباترة ذاتها .

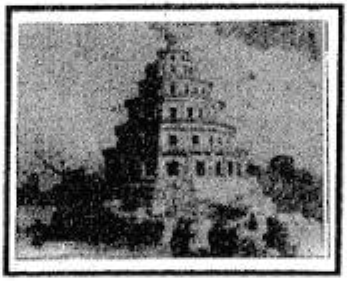
من الملاحظ أنه لو قام جوديو برفع الأعمدة التى فوق أرضية الجزيرة وجزء المسلة لما استطعنا أن نجزم بأنها بقايا قصر كليوباترة ولكن وجود الأثر فى محيط الآثار التى وجدت أو سقطت بجواره يعطينا البعد الحضارى للموقع وإلا كانت خسارتنا كبيرة ولذلك يجب ترك الآثار فى موقعها حتى لا نفقد أى شىء من المعلومات التى يبثها الأثر ثم تسجل فى موقعها بالنسبة للآثار الأخرى التى حولها وبجوارها لأنه لو انتزع الأثر من الماء قبل تسجيله فى بيئته لأصبحت المعلومات التى يبثها أقل ونفقد الكثير بذلك وتصبح المعلومة قاصرة على قيمة الأثر المادية والفنية وربما العقائدية ان صور الأثر معبودا أو خلافه وهذا عمل علمى سليم ونظرا لأن الميناء الشرقى مساحة ضخمة لايستفاد بها لذلك فإن اكتشاف الأرصفة وبقايا قصر كليوباترة وغيرها من الآثار سواء على الأرضيات أو فى البحر يمكن الافادة منها لتحويلها إلى متحف للآثار تحت الماء كما يمكن أن يزورها السواح فى مراكب زجاجية القاع مع الإفادة بتحويل أنابيب المصارف عن هذه المنطقة أو استعمال كشافات ضوئية قوية لتصبح الرؤية أوضح فى هذه المياه العكرة الملية بالشوائب .

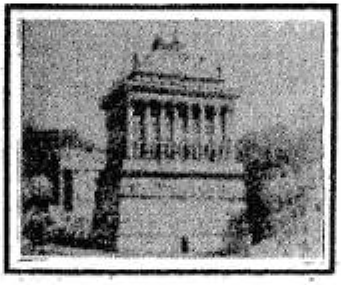


كليوباترا بين الخيال والواقع

هل حقا .. وجدوا قصر كليوباترا تحت الماء ؟

تحقيق : محمود قاسم





المنارة .. حالات ماقبل الانهيار

سيناريو ما قبل الكتابة :

● رئيس التحرير يسترعيه خبر قصير عن اكتشاف أطلال قصر كليوباترا ضمن الآثار الغارقة فى الميناء الشرقية بالإسكندرية .

● يطلب من المحرر سرعة السفر الى الإسكندرية ومعه مصور لاستطلاع ذلك الخبر .

● كتابة رسائل إلى المسئولين لتسهيل المهمة ، خاصة التصوير .

● مسئول آثار فى الإسكندرية ، يطلب موافقة رئيس الآثار بالقاهرة قبل السفر .

● محادثة تليفونية إلى مسئول الآثار بالقاهرة : نريد السماح بالتصوير .

● المسئول د. على حسن يرد فى مودة شديدة : ولماذا السفر ، كل الأوراق معى هنا ، ويأتى التصوير فيما بعد .. اتصل بالسكرتيرة وحدد الموعد .

● السكرتيرة : أجندة المواعيد مغلقة لخمسة أيام ، الأربعاء فى الثانية عشرة.

● فى الثلاثاء : لدىّ موعد غدا مضبوط ؟ لا .. للأسف .. ليست هناك مواعيد .. الأمر عاجل .. ماذا نفعل ؟ يمكنك الحضور فى الثالثة .

● الحضور فى الثالثة ، والجلوس ثلاث ساعات على باب مسئول الآثار لنتمكن من مقابلته عدة دقائق .

● المسئول رجل لطيف ، لكن بابه موصد إلا بمواعيد مؤجلة لمدة ثلاث ساعات ، وعدة أيام : معذرة الأوراق التى قلت عنها فى الهاتف عبارة عن تقرير موجود فى المنزل .

● خلاصة هذا اللقاء أن المسئول كان مشغولا بأمور جسام فى لجان عديدة ، وماس كهربائى فى أحد المتاحف ، وعلى طريقة التلميذ الشاطر نسى الاوراق فى المنزل .

● الآن مسموح بالتصوير والتقرير فى الدار .

● فى العاشرة والنصف مساء : الاتصال بالمسئول هاتفيا بالمنزل: انه نائم .

● فى التاسعة صباح اليوم التالى : الاتصال بمنزله : « لسه نازل » ..

وصعد قيصر سلالم القصر العريضة.

ويبدت فى خلفية المشهد منارة ضخمة، ترتفع قامتها لأكثر من مائة متر ، قد تصل الى ١٣٠م كما ذكر المؤرخون . وامتد البحر الواسع خلفها يعكس روعة جزيرة فاروس التفت قيصر بمهابة الى المدينة ، التي اعتبرها أبناء عصره «فردوس الأرض» ، انه فى قمة زهوه وهو يأتى إلى الاسكندرية بعد أن حقق نصره الحاسم فى معركة «فارسالاه .

يعرف أن فى هذه المدينة يمكن للمرء أن يجد كل ما يتمناه : الألعاب الرياضية، والعروض الفنية ، وفلاسفة عصره الكبار ، والمال ، والغلمان ، والخمور ، والحسناوات.

ولم يكن يوليوس قيصر يدرى أنه وهو يخطو بقدميه إلى داخل القصر سوف يلتقى بها .

اختارت الحسناء التى سحرت لب قيصر الذى يكبرها بخمسين عاما أن تلف نفسها فى سجادة فخمة ، وراح خادمها يحمل السجادة إلى قيصر كهدية غالية لنصره ، وعندما فوجىء بها رآها ترتدى ما يبرز سحرها ، وانفردت أمامه بسمارها المبهر كى تخلب لب أقوى رجل فى ذلك العصر .

إنها كليوباترا السابعة ..

هنا بدأت قصة سحرت أقلام القصاصين والشعراء ، والباحثين فى التاريخ والآثار ، ولعل هذا هو ما دفع المهتمين بأبحاث البعثة الفرنسية فى الميناء الشرقية ، وخلف قلعة قايتباى إلى نسج عشرات القصص حول كل حجر تم العثور عليه منذ أن غاص الغواص الأول فى الأعماق بحثا عن أطلال جزيرة فاروس التى كانت تقع قريبا من الاسكندرية .

حسب جريدة لوموند ، ٢٥ سبتمبر ١٩٩٥ ، فإن الفضل الأول فى اكتشاف هذه الآثار الغارقة يرجع الى المخرجة السينمائية المصرية أسماء البكرى ، التى كانت تقوم بإخراج فيلم عن المتحف الرومانى بالثغر ، والتقت بالباحث الفرنسى جان - إيف امبرور مؤسس مركز الأبحاث السكندرية ، والذى عرض عليها قطعة من الآثار تؤكد أن هناك المئات منها غارقة فى البحر ، فى المنطقة التى ظلت عسكرية طويلا وراء قلعة قايتباى ، وقد اكتشفت أسماء أن الكتل الخرسانية التى استخدمت كحاجز للأمواج موضوعة فوق قطع أثرية مهمة .

أسرعت أسماء بتوصيل صوت امبرور إلى المسئولين بالقاهرة ، وتحمس الأثرى الشهير محمد عوض للأمر ، كما تحمس الدكتور محمد نور الدين ، رئيس هيئة الآثار آنذاك ، والذى أعطى الضوء الأخضر للبحث فى أعماق المياه .



اليزابيث تايلور وريتشارد بيرتون «كليوباترا»

انتشال قطعة من الآثار الفرعونية الغارقة ضمن آثار عصور مدينة قديمة



في أكتوبر عام ١٩٩٤ ، كان امبرور قد كون فريق عمل من ستة غطاسين فرنسيين ، ومثلهم من المصريين ، وكانت الميزانية آنذاك ٣٠٠ ألف فرنك دفعها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، لكن المبلغ لم يكف إلا ستة أسابيع من البحث الدءوب ، تمت فيها دراسة منطقة الآثار الغارقة .

كل عصور مصر القديمة .. غارقة

وحسب حديث امبرور .. لمجلة باري ماتش ، فإنه قرر أن يتخلى عن الأمر ، لقلة التمويل ، إلا أن دخول مؤسسة جيديون الإعلامية قد غير الأمر ، «تناقشنا معا طوال الليل وطلبوا منى الاستمرار ، وفى اليوم التالى أعطيت أوامرى بالعمل . كانت الصعوبات بالنسبة لى هى جمع الرجال والأشياء التى تلزمنا ، وكان من المهم الاستفادة من الطقس الرائع فى نهاية الربيع أو بداية الصيف وبداية الخريف » . وفيما بعد انضم إليهم أكثر من ثلاثين غواصا ، وتم تدبير مواد الغطس ، وخاصة الإضاءة تحت الماء .

بدت أهمية البحث فى أن اتساع المنطقة التى يتم فيها التنقيب تصل إلى ٢٢ ألف متر مربع ، والتى تضم أكثر من ألفي قطعة أثرية تنتمى إلى عصور تاريخية متعددة ، وليس فقط إلى عصر البطالسة ، منها قواعد أعمدة ، ورءوس لتاك الأعمدة ، وتماثيل معابد ، يصل ارتفاع بعضها إلى ١٣م ، وهناك أيضا أكثر من ١٢ تمثالا لأبى الهول منحوتة فى عصر البطالمة ، وقطع أثرية من كل الأنواع ، بلغ وزن بعضها قرابة ٧٥ طنا .

سقطت هذه الأحجار والقطع الأثرية يوما ما من أعلى ، واستقرت فى أغوار المياه ، عند عمق سبعة أمتار ، والكثير من هذه الأحجار الجرانيتية استطاعت أن تقاوم عوامل النحر أسفل المياه ، وبقى القليل منها سليما ، وتحطم الكثير منها أيضا .

يقول امبرور فى نفس حديثه بأن هذه القطع الأثرية التى تم العثور عليها تعود بالفعل إلى عصور مختلفة ، فإلى العصر الفرعونى تم العثور على تماثيل أبى الهول، وعلى مسلات مكتوب عليها باللغة الهيروغليفية أسماء العديد من ملوك الفراعين ، والبعض الآخر ينتمى إلى العصر البطلمى ، وعليها أسماء ملوك تلك الحقبة من اليونانيين ، أو حكام مصر بعد الاسكندر الأكبر ، كما أن هناك صلبان تنتمى إلى العصر القبطى الذى بدأ فى مصر فى القرن الثانى الميلادى ، واستمر فى عنفوانه حتى القرن الرابع ، « يمكن أن نفترض أن هذه الآثار قد غرقت على اثر زلازل ضخمة اصابت المدينة فى الفترة بين القرن الرابع ، والقرن الرابع عشر الميلادى » .

ولا شك أن أغلب هذه الأطلال الغارقة هي من بقايا انهيار منارة الاسكندرية التي تم بناؤها عام ٢٨٥ ق.م ، وهو نفس العام الذي تولى فيه بطليموس الثاني عرش مصر ، واستغرق البناء خمس سنوات ، وظلت المنارة تستخدم في ارشاد السفن طوال ستة عشر قرنا .

وحسب عالم الجغرافيا اليوناني سترابون (٥٨ ق.م – ٢٥ ميلاديا) فإن المنارة كانت مشيدة كلها من الرخام ، مما لا يتفق مع هوية قطع الصخور الجرانيتية التي تم العثور عليها في أعماق البحر ، ويرجح أن تلك الأحجار كانت لبرج آخر . غير المنارة المربعة الشكل التي يبلغ ارتفاع قاعدتها ستين مترا ، يرتكز على برج مثمن الأضلاع مقام فوقه برج دائري ، عليه تمثال لزيوس رب الأرباب .

وتختلف الروايات في المصادر التي لدينا حول سبب سقوط المنارة ، فمن قائل أن حريقا كان سببا في انهيارها ، ومن قائل أن السبب هو الزلازل السابق الإشارة إليها . أما المؤرخ العربي المسعودي فقد وصفها كما رآها عام ٩٥٦ ميلاديا قائلا : « ارتفاعها قرابة مائتي وثلاثين ذراعا ، وقد كان الارتفاع فيما سبق يصل إلى أربعمائة ذراع ، وقد دمرته الزلازل والأمطار » .

قصر كليوباترا .. ليس هناك الآن

وعن هذه المنارة تحدث الرحالة العربي ابن جبير الذي مر بمدينة الاسكندرية عام ١٢١٧م ، وقال انه كان يمكن رؤية المنارة من على مسافة سبعين كيلومترا ، ووصف داخل المبنى بأنه كان رائعا بسلالمه وممراته البالغة الاتساع ، وعدد الغرف الكبيرة ، وفي أعلاه ، كان يمكن رؤية المؤذن يطلق أذانه ، وقد وصل ابن بطوطة الى الاسكندرية عام ١٣٢٥ الذي أكد أن احدى واجهاته كانت مدمرة ، وحسب ما ذكره في رحلاته فانها كانت بناء مربعا ، وكان يوجد أمامها مبنى آخر له نفس الارتفاع ، وهناك فيما بين المبنيين معابر خشبية ، وقد عاد ابن بطوطة إلى المدينة وهو راجع من المغرب عام ١٣٤٩ م ورأى المنارة في حال سيئة للغاية ، وكأنها مؤهلة أن تنهار عند أول هزة أرضية .

من أبرز القطع الأثرية التي تم العثور عليها تمثال لأوزوريس من الجرانيت الأحمر ، تم إخراجه بدون رأس أو قدمين، طوله ١٢ مترا ، ومن المرجح أنه منحوت في العصر اليوناني على الطريقة المصرية، ويعتبر أكبر تمثال من نوعه تم نحته في مصر في تلك الآونة . ويقول الأثري جان - بيير كورتيجياني إن « هناك علاقة ما بين تمثال أوزوريس هذا وبين رأس إيزيس الشقيقة الزوجة للإله ، الذي تم اكتشافه منذ عشرين عاما ، وقد تم العثور على تاج في قاع البحر ، لعله الجزء الذي كان ينقص تمثال إيزيس .

ولعل كورتيجياني يقصد بتمثال «إيزيس» ذلك الذي عثر عليه الغواص المصري كامل أبو السعادات عام ١٩٦٢ وسجلت هذه الاكتشافات باسمه في

كليوباترا بين الخيال والواقع

مراجع منظمة «اليونسكو» ، ومن بين اكتشافاته الأخرى شعلات منارة الاسكندرية .

ترى مـــاذا تشكل كل تلك القطع الأثرية؟

هل هي بقايا ، ومحتويات منارة الاسكندرية بعد أن ضربتها الأزمنة ، وعوامل التعرية ، والزلازل ؟ أم أنها بقايا جزيرة فاروس ؟، وهل هناك مؤشرات الى وجود قصر كليوباترا ضمن تلك القطع الأثرية ؟

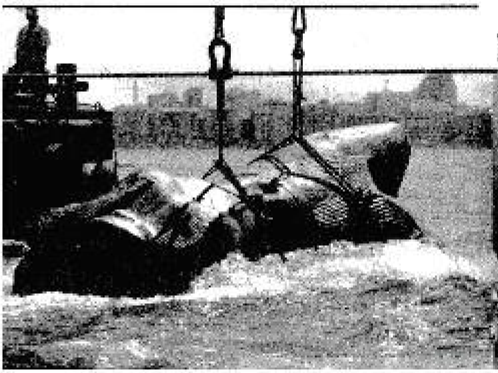
أغلب الظن أن بقايا قصر كليوباترا ، لم يتم العثور عليها ، وذلك لأن البعثة الفرنسية في حالة بحث عن هوية القطع الأثرية ، وكما ذكرنا فإنها ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة ، ولاتزال البعثة في مرحلة التجميع ، وفي هذه المرحلة بالذات فإن التساؤلات والتخيلات تكون أكثر من الحقيقة العلمية ، خاصة وسط المتاعب العديدة التي يتعرض لها الغواصون ، والدمار الأكيد الذي حدث لهذه القطع بعد أن تم إسقاط الاف من قطع الأحجار الأسمنتية في هذه المنطقة المتلاطمة الأمواج ، والتي تعرف باسم مصدات الأمواج ، كي تحطم الآثار أو تقوم بتغطيتها واخفائها إلى الأبد ، رغم ما قيل إن عمرها الافتراضي لا يتجاوز بضع سنوات ، أن عليه أن ذلك .

انهيار قلعة قايتباي !!

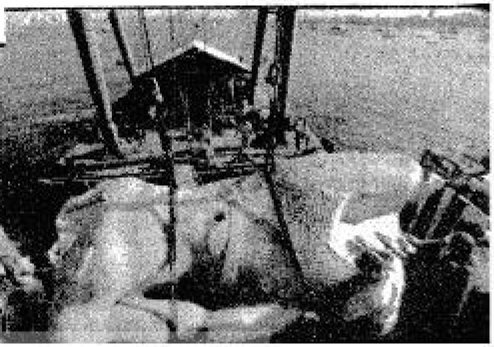
من المهم محاولة تفسير أسباب وجود قطع أثرية تنتمي لأكثر من أسرة فرعونية ، بالإضافة إلى الآثار البطلمية ، فهناك قطع ترجع إلى أسرة الرعامسة (التاسعة عشرة) ، وأخرى ترجع إلى الأسرة ٢٦ ، وقد فسر د. لطفي عبد الوهاب هذا التنوع في مقاله المكتوب بجريدة الأهرام - ٢ ديسمبر ١٩٩٥ - أن « ملوك البطالمة نقلوا هذه الآثار الفرعونية من أنحاء مصر ليقيموها في الاسكندرية ، وهو تفسير سمعته في أكثر من مناسبة سواء من العلماء الأثريين أو من المسئولين القائمين على هذه الآثار ، بل لقد تجاوز انتشار هذا التفسير المطروح دائرة المتخصصين إلى أوساط الرأي المثقف العام في أكثر من موقع .

ومادمنا في مرحلة التجميع ، فإنه لايمكن التأكيد على الشكل النهائي أو الأمثل لما سوف تتحول إليه هذه القطع ، فحسب مجلة «ستوريا» عدد أغسطس الماضي ، فإن منارة الاسكندرية من الممكن إعادة بنائها أخيراً ، وبحسب الوضع الراهن فإن الكتل الخرسانية التي لاتزال تحت قلعة قايتباي تشكل عقبة أمام اكتمال التخيل ، والعثور على ما يؤكد ذلك ، فالآثار التي تم انتشالها حتى الآن ، بعد عامين ونيف من بدء العمل ، لا تتصل مباشرة بصورة المنارة ، وهناك قطع بارزة

لحظة الخروج من القاع لتمثال أيزيس



تمثال أيزيس بعد انتشاله



فى تاريخ المنارة لم يجدها الغواصون بعد، مثل تمثال الاله زيوس .. الذى كان يوضع فى أعلى قمة المنارة . والذى اعتقد البعض أنه تمثال لإله البحر بوزيدون .

ويرى فريق البعثة وعلى رأسهم «امبرور» أن من الحتمى رفع الكتل الخرسانية . فيما يتخوف المسئولون أن هذا قد يؤدى إلى انهيار قلعة قايتباى التى قامت فوق الأطلال القديمة للمنارة .

ومن الواضح أنه سوف يصير هناك تخبط . يحتاج الى دقة شديدة قبل التصريح المتعجل بهوية القطع المعثور عليها ، وذلك لأن من الأرجح ان منارة الاسكندرية لم تهبط وحدها إلى قاع البحر ، سواء فى تلك المنطقة ، أو قريبا منها . فحسب الباحث التاريخى ربشار ليبو فى مجلة ستيرن السابق الاشارة اليها ، فان الاسكندرية كانت بمثابة مجموعة من القصور الفخمة ، والمسارح والمعابد . ولعل التخيل الذى رأيناه لشكل المدينة فى بداية فيلم « كليوباترا » الذى أخرجه جوزيف مانكفيتس عام ١٩٦٦ يعد نموذجيا لنعرف كيف كانت المدينة . وحسب التفسيرات السابق ذكرها . فان أصحاب هذه القصور قد لملموا اجمل التحف الفنية والأثرية التى ترجع إلى تاريخ الأسرات . واحتفظوا بها فى تلك الأبنية الرخامية .

فاروس .. جزيرة فرعونية !

هناك متاعب أخرى صغيرة تتمثل فى التعامل مع ما تم إخراجه من قطع أثرية من أعماق البحر . وهى متاعب ظهرت عقب الانتشال . فقد تخوف الباحثون من تعرض القطع للتحلل لو ظلت فى الهواء الطلق . بعد أن غرقت لقرون عديدة فى المياه . ولم يكن بالمستطاع الاحتفاظ بها إلى جوار أماكن التنقيب . وذلك لأن مدة جمع أكبر عدد من القطع يؤهل لاعادة تركيب المنارة قد يستغرق وقتا طويلا .

وكان الحل النموذجى هو وضع ما تم العثور عليه فى أحواض موجودة الآن بالمسرح الرومانى بكوم الدكة . وملء هذه الاحواض المائية بنسب من الأملاح تضمن البقاء على هذه القطع بنفس الكيفية التى تم العثور عليها .

ومن الواضح أن هناك توحدا بين جان ايف امبرور وبين المنارة . فكل ما يحلم به هو أن يعيد بناء المنارة مرة أخرى ، أيا كان المكان الذى سوف تشيد عليه ، بعد أن تم تشييد قلعة قايتباى على أطلال المنارة المنهارة . وإذا كان هناك توحد قديم قام بين اليونانى اسكليوس وبين مقبرة الاسكندر التى ظل يبحث عنها سنوات طويلة دون أن يعثر عليها ، ولكن هذا الحلم لم يخب يوما . فان امبرور كان يحلم بأن تعثر فى الاسكندرية على اثار سكندرية قديمة . ومنذ مقدمه إلى المدينة لاول مرة . وهو يفتش عما يتهدد من اثار . فعمل مجسات أسفل سينما ماجيستك . ومسرح دياما . وسينما راديو . وأيضا أسفل بلياردو « بالاس » وكلها تقع فى مركز المدينة . لكن القائد بأسماء البكرى .

حسبما تقول مجلة لونوفيل أوبسرفاتور في ١١ أبريل ١٩٩٦، كان حاسما حين غاصا في الأعماق، ومعهما غواص ثالث من مدينة طولون الفرنسية.

وقد أسس «امبرور» المركز القومي للدراسات السكندرية عام ١٩٩٠، وعلاقته بمصر قديمة، فرغم أنه عمل لمدة اثنتى عشرة سنة في اليونان، فانه قام بتدريس اللغة الفرنسية، بجامعة القاهرة بين عامي ١٩٧٦، ١٩٧٨، وأثناء هذه الفترة حصل على دكتوراه في الآثار عام ١٩٧٧.

أما مؤسسة جيريون التي تمتلك حق التصوير تحت الماء، والتي شاركت في تمويل المشروع فقد ساهمت بمبلغ ١,٧ مليون فرنك فرنسي في مقابل الحصول على حق التصوير الفوتوجرافي، والسينمائي، ويحدوها الأمل أن تتمكن من تصوير الباب الملكي للمدينة، وقصر أنطونيو، والفيلات الملكية لكليوباترا السابعة، وهو أمل يحدو الكثيرين أيضا من العاملين في المشروع.

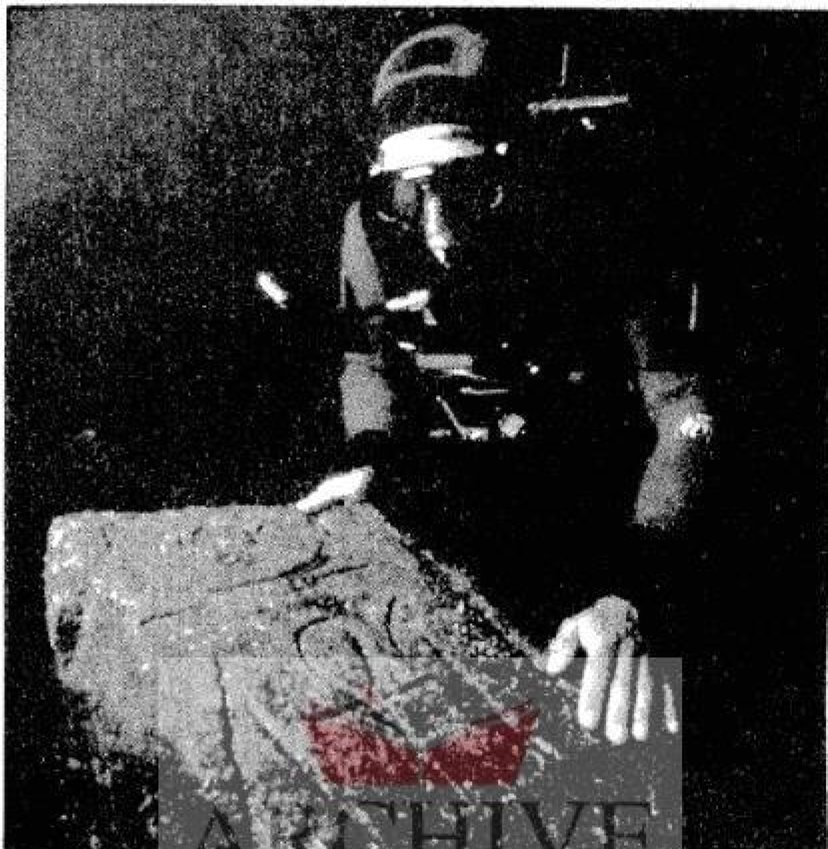
إلا أن التركيز حتى الآن ينصب على المنارة، ولذا فلم يكن - حسبما تقول أسماء البكرى - ذلك الخبر المنشور حول اكتشاف أطلال قصر كليوباترا في الأسبوع الأول من نوفمبر المنصرم سوى فرقعة إعلامية ليس لها أساس من الصحة. بدليل أن الخبر مات في مهده بعد نشره في احدى الصحف الكبرى.

وهناك في هذا الصدد رأى بالغ الأهمية أدلى به كورتيجياني بانه «بتأمل جزيرة فاروس سوف نلاحظ أنها أكثر مصرية، وأقل يونانية مما يتصور المتخصصون أنفسهم، فالمهندسون المعماريون للحضارة الهيلينية كانوا منبهزين بالإعجاز المعمارى المصرى، ولذا فقد راحوا يفكرون في نوعين من البدائل، البديل الأول هو المواد المستخدمة كديكور مثل: المسلات وأبي الهول والتماثيل .. الخ. وبديل مواد مثل قطع الجرانيت المجلوبة من أسوان، وهذا يفسر وجود عدد كبير من الآثار الفرعونية في قاع البحر، وهو أمر لم يتخيله أحد من قبل».

كانت «فاروس» في الزمن السكندرى القديم بمثابة جزيرة موازية للساحل، يحوطها الصمت، والمهابة، تطل على البحر من كل الأنحاء، فوق شريط من كتل الأحجار الجيرية، وكان لها بابان رئيسيان، الباب الغربي يسمى اينستوس (العودة الجميلة)، أما الباب الشرقي فهو الباب الأكبر، وفوق هذه الجزيرة تولدت فكرة إقامة المنارة، أو مصباح البحر، من أجل إرشاد السفن القادمة من كل أنحاء تلك الآونة.

وقد تحمس الحكام الأجانب دوما لزيارة هذه الجزيرة، وعرفوا أهميتها، ولعل آخر من زارها الرئيس الفرنسي جاك شيراك في ابريل الماضي، الذي جاء لتحية كل الأثريين الذين عملوا في هذا الحقل في القرنين الماضيين، مثل ماربيت (مؤسس المتحف المصرى)، وماسبيرو وحتى امبرور وفريقه، ويدالسؤال المطروح هو: هل يمكن استعادة بعض الشكل القديم لجزيرة فاروس؟

وسرعان ما تعددت الرؤى، فالبعض يرى أن من الأفضل إقامة متحف لهذه القطع، وغيرها تحت الماء، وأن تصير تلك المنطقة بمثابة أولي المدن الغارقة التي يغوص الهواة والسائحون لرؤيتها. أما البعض الآخر، فإنه يتخيل اسكندرية القرن الحادي والعشرين، وقد أعيد فيها بناء المنارة القديمة، وفي أعلاها تمثال زيوس رب أرباب اليونان.



الإسكندرية
مدينة التاريخ والأسرار
والآثار الغارقة

بقلم : د. فاروق القاضى

- ٨٢ -

ديسمبر ١٩٩٦

● لا تفتأ مدينة « الاسكندرية » الخالدة عبر العصور تثير طموحات علماء الآثار وآمال المؤرخين المتطلعين إلى كشف ما خفى من أسرارها ، تماما مثلما أثارت وتثير خيالات الأدباء منذ أيام شاعريها العظيمين القديمين كاليماخوس وأبولونيوس حتى شاعرها الحديث المبدع كفافيس ، وكما أوحت بإبداع روائى أصبح الآن فى عداد الكلاسيكيات ، ومنه « رباعية الاسكندرية » للورنس داريل L. Durrell وغيرها كثير .

وتأتى الأنباء الأخيرة عن اكتشاف آثار المدينة القديمة الغارقة فى مياه البحر ، فيتحفز الباحثون المتخصصون لإعمال النظر فى قضايا قديمة حديثة فى آن معا ، أما محبو التاريخ من غير المتخصصين فتتداعى عندهم صور تترى ، بدءا من ذلك القائد والسياسى المقدونى الشاب الذى أمر بتأسيسها منذ ما يربو على ثلاثة وعشرين قرنا فكانت أخلد أعماله على مر الزمان ، وعن منارتها الشهيرة التى غدت عجيبة من عجائب العالم القديم ، وعن مكتبتها العظيمة ودار العلم الجامعة اللتين أسسهما ملوك البطالمة الأوائل فكانتا « منارتين » أخريين للمعرفة على نحو أروع وأنفع ، ثم عن ملكتها الساحرة كليوباترا وزعماء الرومان الذين قهرتهم بفتنتها وسحرها وملكت زمامهم بذكائها ، قبل أن يغلبها واحد منهم آخر الأمر على أمرها ، ثم عن أباطرة روما الظافرة يأتونها بعد ذلك زائرين متفقدين أحوالها حينا ، ضاربين عليها الحصار أحيانا ، وأخيرا عن كفاح آباء كنيستها فى صراعهم المرير من أجل عقيدتهم القويمة فى مواجهة المدرسة الوثنية فى أول الأمر ، ثم من أجل العقيدة وتأكيدا لاستقلالية وتفرد الروح المصرية ضد سطوة بيزنطة الغاشمة بعد ذلك .

● أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس .

ومثلما كان في ضمير الدهر أن تصبح المدينة في وقت سريع أهم مدن البحر المتوسط وأجملها وأغناها منذ بدايات القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن تؤدى دورها الحضارى العظيم الفذ على مدى يزيد على التسعة قرون ، وهى الفترة التى ظلت فيها عاصمة الحكم فى مصر ، يأبى الزمان إلا أن تظل المدينة القديمة ذاتها ملء السمع والبصر بين المعاصرين تذكر الناس بأمجادها ، فكان الحديث الموصول عن إحياء مكتبة الاسكندرية القديمة فى مشروع يجرى الآن تنفيذه على أرض الواقع لتدخل به مصر الألفية الثالثة بعد الميلاد ، واصلة ماضيها بحاضرها فى سياق حضارى عميق المغزى ، ثم كان الحديث المتجدد منذ عامين عن مكان قبر مؤسسها الاسكندر ما بين مدينته هذه ومعبد إله الوحى زيوس - آمون فى زمانه بواحة سيوة ، والآن يدور الحديث حول ذلك الكشف عن جزء كبير من معالم آثارها فى العصرين البطلمى والرومانى فتتردد أصداؤه فى الأنباء والتعليقات .

● كشوف قديمة

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تحدث فيها العالم عن آثار الاسكندرية الغارقة ، فمنذ ما يزيد على الثمانين عاما مثلا اكتشف الفرنسي جاستون جونديه Jondet عند المكان الذى كان يعرف قديما باسم جزيرة فاروس (منطقة رأس التين والأنفوشي الآن) بقايا أرصفة وحواجز أمواج ومنشآت بحرية ضخمة بنيت بكتل حجرية يصل وزن بعضها إلى ستة أطنان ، ورجح جونديه وقتها أن فراعنة الأسرة التاسعة عشرة هم الذين أنشأوها لأغراض دفاعية (وقد خص منهم بالذكر رمسيس الثانى) ، أى أنه أرجع تاريخ هذه الآثار الغارقة إلى ما قبل تأسيس الاسكندر لمدينته بعدة قرون ، وبالرغم من اختلاف العلماء حول طبيعة هذا الميناء القديم الغارق ، فإن الكشف عن وجوده قد أيد عندئذ بعض الشواهد التى ترددت فى بعض المصادر القديمة مشيرة إلى الأهمية السابقة لهذا الموقع من الناحية الدفاعية على الأقل ، ومن يدرى فقد يوحى الكشف الجديد الراهن بافتراضات علمية جديدة بشأن هذا الميناء عندما يزاح الستار عن تفاصيله .

وعلينا أن نذكر بداءة فى موضوع آثار الاسكندرية الغارقة ، أن مستوى أرض المدينة قد انخفض عند الشاطىء عما كان عليه فى عصرى البطالمة والرومان بنحو أربعة أمتار فى تقدير الأستاذ برتشيا ، وأن هذا الانخفاض حدث بالتدريج نتيجة تغيرات جيولوجية أو زلازل عنيفة تعرضت لها المدينة فى عصور متعاقبة ، أو نتيجة ارتفاع مستوى مياه البحر بحيث طغت على مساحات

واسعة من الشاطىء يقدرها البعض بنحو كيلومترين تقريبا . وأدى ذلك بالطبع إلى غرق الجانب الأكبر من المدينة البطلمية بكل منشآتها ومبانيها العظيمة التى تردد ذكرها فى المصادر التاريخية القديمة ، بل إن من المرجح أن مياه البحر تغمر كل طبقات العصر البطلمى جميعا .

والمصدر القديم الأساسى الذى نرجع إليه عادة للتعرف على معالم الاسكندرية فى العصر البطلمى وأوائل العصر الرومانى هو الجغرافى المؤرخ «استرابون» الذى زار مصر فى عام ٢٥ ق.م. حيث أقام بالاسكندرية بضع سنين ، وأفرد للحديث عن شوارعها وأبنيتها وسكانها جانبا من الجزء السادس عشر من كتابه الكبير المعروف « الجغرافيا » . وفى ميزان النقد التاريخى اعتبر استرابون من الكتاب الثقاة ، وسيكون من الطبيعى أن يفيد البحث فى الآثار الجديدة المكتشفة من مرجعية هذا الكاتب الثقة .

● الميناء الغارق !

ويورد استرابون فى بداية حديثه كلاما يوحى بأهمية الموقع قبل أن تطأه قدما الاسكندر ، حيث يقرر أن ملوك مصر الأوائل أقاموا حامية عسكرية فى الموقع الذى يسمى (راكونيس) لتقوم بصد المغيرين ، وراكونيس هذى هى راقودة (رع - قدت) وكانت الموقع الأكبر بين ستة عشر موقعا ذكرت المصادر أنها كانت قائمة على شقة الأرض الواقعة ما بين البحر شمالا وبحيرة مريوط جنوبا ، وقد أيد ما ذكرناه عن كشف جونديه للميناء القديم الغارق كلام استرابون هذا عن أهمية الموقع منذ عهود بعيدة . ولابد من أن الاسكندر عندما تأمل هذا الموقع حال مروره به ، قد أدرك ببصيرته النافذة ما يتمتع به من ميزات استراتيجية متعددة، أبرزها ارتفاعه على ربوة ومواجهته جزيرة قريبة من الساحل هى جزيرة فاروس . ولعل ما جال بخاطر الاسكندر هو إمكان الوصل بين الشاطىء والجزيرة بجسر كبير ينشأ عنه ميناءان فى وقت واحد ، وهو ما حدث بالفعل ، وكان الاسكندر أدرك ما يتيحه ذلك من إمكانات دفاعية وفرص اقتصادية فأصدر أمره إلى مهندسه دينوقراطيس ليضع تخطيطها الذى قيل إنه أقره بنفسه، وقد كان أهم ما يميز هذا التخطيط هو الشوارع المستقيمة المتقاطعة بعضها مع بعض فيما يشبه رقعة الشطرنج ، حيث يتبين من وصف استرابون أن ثمة شارعين رئيسيين عريضين يبلغ عرض كل منهما بالمقاييس الحديثة نحو ثلاثين ياردة كان أحدهما يجرى من الغرب إلى الشرق والثانى من الجنوب إلى الشمال ، ومن تقاطع هذين الشارعين تكون بالطبع ميدان فسيح ، أما الجسر الكبير الذى ربط الشاطىء بجزيرة فاروس فقد

أطلق عليه اسم «الهبتاستاديون» Heptastadion (ومعناها السبع ستاديات) نسبة إلى طوله الذى نقدره الآن بنحو ألف وثلاثمائة متر ، حيث نشأ عنه كما ذكرنا ميناءان أحدهما الميناء الشرقى الكبير ، والآخر ميناء غربى أصغر منه . وقد خدم هذا الوضع حركة التجارة بالطبع ، وهو ما يؤيد أن الهدف فى جعل المدينة مركزا تجاريا كبيرا كان ماثلا فى تفكير من وضع خطة المدينة منذ البداية . وقد تحقق هذا الهدف بالفعل ، إذ سرعان ما أصبحت الاسكندرية أهم ميناء فى البحر المتوسط ، وبلغ حجم المصادر والموارد من تجارته قدرا عظيما .

وعلى الميناء الشرقى الكبير كان يطل حى القصور الملكية الذى عرف باسم بروخيون Broucheion والذى تتحرك الآمال الآن نحو فكرة احتوائه الآثار الجديدة المكتشفة على جزء منه . وقد كان هذا الحى يكون الركن الشمالى الشرقى مما عرف بالمدينة الجديدة بما يزيد على ربع مساحة المدينة الكلى (٣٠ استاداً طولا = نحو ستة آلاف متر × سبع أو ثمانية استادات عرضا = من ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠ متر عرضا طبقا لرواية استرابون) ، وفيه كانت تقوم أروع وأجمل القصور الملكية والحدائق والنافورات وبعض المبانى العامة المهمة مثل دار القضاء والجمنازيوم الـ ـــى فى الاسكندرية وحدائق الحيوان والنبات . على أن أهم معالم هذا الحى كان مبنى دار العلم (الموسيون mouseion) ومبنى المكتبة الكبرى الملحق به (وهى المكتبة الشهيرة التى طبقت شهرتها آفاق العالم القديم) ، كذلك كان يقوم فى هذا الحى - على ما يحدثنا به استرابون أيضا - ضريح ضخم عرف باسم « السوما » (أو السيما) ، وكان يضم قبر الاسكندر الاكبر وقبور خلفائه البطالمة .

وتهمنا بالدرجة الأولى هنا دار العلم التى كانت مركزا للدراسة أشبه ما يكون بأكاديميات البحث العلمى ، وقد اتخذ الخطوة الأولى نحو تأسيسها أول ملوك البطالمة على الأرجح ، مستعينا بخبرة أحد السياسيين والمفكرين البرزين فى زمانه وهو ديمتريوس المعروف بالفاليرى ، لكن خليفته بطليموس الثانى هو الذى أفاض عليها من الرعاية وسخاء الإنفاق ما جعلها أعظم مؤسسة علمية فى العالم أنذاك . وقد اجتذبت هذه المؤسسة العلماء من جميع الأنحاء وفي كل فروع المعرفة ، حيث توافرت لهم كل أسباب الراحة فى المعاش وأجريت عليهم الرواتب والأرزاق ليتفرغوا للبحث العلمى دون شاغل ، كما توافرت لهم كل إمكانات البحث العلمى بشقيه النظرى والتطبيقى ، وقد حقق هؤلاء العلماء بفضل ذلك نتائج باهرة فى العلوم التطبيقية كالفلك والفيزياء

والميكانيكا وأهم من هذا جميعا الطب والتشريح . أما الدراسات الأدبية والنقدية وتحقيق النصوص فكان لها كذلك نصيب موفور ، إذ كان في متناول أيدي الدارسين محتويات المكتبة الكبرى التي لم يأل البطالمة الأوائل جهدا في سبيل زيادة مقتنياتها مستخدمين في ذلك وسائل مشروعة أو غير مشروعة أيضا ، حتى قيل إن عدد لفائف البردى بها بلغ سبعمائة ألف لفافة . ولم تكن نفائس مكتبة الاسكندرية تضم كتبا يونانية فقط ، بل شملت كتبا مصرية وعبرية وأثيوبية وفينيقية وغيرها ، لكن معلوماتنا المستمدة من المصادر عن نظم دار العلم ومبانيها وعن موقع المكتبة الكبرى منها تعتبر معلومات طفيفة ، ومن ثم يراود الدارسين الأمل في أن يمدهم الكشف الجديد بمزيد.

● أعظم أعمال البطالمة

والحق أن إنفاق البطالمة السخي على حركة البحث العلمي في « الموسيون » يعتبر أعظم أعمال هؤلاء الملوك نظرا لما أسهم به ذلك في تقدم الانسان . وقد اعتبر البعض أن فترة القرن الثالث قبل الميلاد أعظم فترة عرفتها الحضارة الانسانية ، ففي هذه الفترة وجد أسلوب البحث الجماعي ، وعملت كوكبة من أعظم العلماء في كل فروع المعرفة ، ويكفي أن نذكر منهم إقليدس صاحب كتاب « العناصر » الذي ظل أساسا لدراسة النظريات الهندسية في العالم كله إلى وقت قريب ، وهيروفيلوس نابغة الطب والتشريح، وإراتوشنيس نابغة الرياضيات والفلك الذي توصل إلى تقدير لمحيط الكرة الأرضية لا يختلف عن تقدير العلم الحديث له بأكثر من خمسين ميلا .

وفي مجال إنجاز العقل الاسكندري من الناحية العملية التطبيقية يبرز أهم معالم الاسكندرية البطلمية وهو المنارة المشهورة التي اندثرت معالم بنائها منذ عدة قرون وإن أمكن التوصل إلى تصور يكاد أن يكون كاملا عن هندسة بنائها وأقسامها الثلاثة من خلال بعض البحوث الحديثة واعتمادا على وصف رحالة أندلسي عاش بالاسكندرية نحوا من عامين في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي ، وعاين المنارة - وكانت لاتزال قائمة - ووصفها وصف معماري خبير ، وهذا المعماري هو أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف « بابن الشيخ » . ويبدو أن بناء هذا الأثر العظيم بدأ في عهد بطلميوس الأول وتم في أوائل عهد خليفته، وكان بناء المنارة الشامخ مواجها للحي الملكي على صخرة تقع شرقي جزيرة فاروس . في الموقع الذي تقوم فيه الآن قلعة قايتباي ، فإذا تركنا هندسة بناء المنارة جانبا ونظرنا إليها من زاوية أخرى وهي أنها ثمرة من ثمار الدراسات

الرياضية التي كانت تجرى في دار العلم، لتصورنا أن جميع الاكتشافات العلمية التي عرفها ذلك العصر قد وضعت في خدمة هذا المشروع . والحقيقة أن الطريقة التي كانت تعمل بها المنارة لاتزال سرا لا نستطيع أن نسترجع كل جوانبه : فمثلا ، ما شأن هذه المرآة التي كانت تعكس الشمس نهارا وتعكس النار ليلا . ومن أى مادة صنعت ؟ وهل توصل العلماء الاسكندريون إلى اكتشاف العدسات وهل صنعوا منها أنواعا خاصة كانت تمكّن الجالس في المنارة من رؤية ما يجرى بعيدا في البحر مما لا تراه العين المجردة؟ لقد دارت حول المنارة أقاصيص عجيبة كثيرة هي أشبه بالأساطير ، بل اعتبرها الناس في العصور الوسطى من عمل الجن .

ولعلنا نترك الحديث هنا عن معالم المدينة المهمة كما وردت عند استرابون لننظر في التركيبة السكانية الفريدة التي كانت تقطنها . ولقد كانت خطة الاسكندر العامة في إعمار المدن التي كان يؤسسها هي أن يقيم حامية من الضباط والجنود المقدونيين ، مع جماعة من الأهالي المحليين ، وهؤلاء تألفوا من سكان بلدة راقودة وأعداد من سكان كانوب (أبو قير حاليا) أمر الاسكندر بنقلهم إليها . وكذلك جماعات من اليونان ممن كانوا يعيشون في مصر من قبل في مدينتي ممفيس (منف) ونقراطيس ، إلى جانب أعداد أخرى من الجنود المرتزقة الإغريق في جيشه . وإزاء ما نعرفه من سرعة نمو المدينة وتطورها ، نستطيع أن نتصور أنها أصبحت مقصد المهاجرين من كثير من جهات العالم القديم ، لكن أكثر هؤلاء كانوا بالطبع من اليونان ، بل يحتمل أنه كان لبطلميوس الأول سياسة منظمة في استيراد فئات معينة منهم من مدن بذاتها ، وقد اجتذبتهم شهرة مصر بالثراء عند اليونان منذ القدم ، فضلا عن شهرة بطلميوس بالكرم والسخاء . وإلى جانب هؤلاء السكان الأوائل والمهاجرين من اليونان ، وفدت عناصر أسيوية شتى من السوريين والأناضوليين والفينيقيين واليهود ، ومن غربي البحر المتوسط من الايطاليين بل وأيضا القرطاجيين . وهكذا كان مجتمع المدينة يضم خليطا عجيبا من السكان منذ البداية ، وقد ظل هذا الطابع المختلط هو السمة المميزة لمجتمع الاسكندرية إبان حكم البطالمة والرومان . وتوحي لنا مقاطع من قصيدة لأحد شعراء الاسكندرية من القرن الثالث ق.م. وهو ثيوكريتوس بأن لغات كثيرة ولهجات أكثر كانت تسمع في شوارع الاسكندرية .

كذلك لدينا إشارات من الأدب القديم تشير إلى قوة جذب الحياة الرغدة الفارهة في الاسكندرية البطلمية للعناصر الأجنبية لتتخذ فيها مقاما ، فهناك مثلا أبيات

طريفة لقصيدة لشاعر آخر من القرن الثالث أيضا وهو هيروداس يقول فيها على لسان عجوز تحاول أن تثنى امرأة وفية عن انتظار صاحبها الذى رحل عنها إلى مصر قائلة لها أنه قد نسيها أمام مغريات الحياة فى الاسكندرية . تقول العجوز : « هناك فى مصر (ويعنى الشاعر الاسكندرية) يوجد كل شىء مما يمكن أن يوجد فى أى مكان غيرها . هناك الثراء ومؤسسات الجمنازيوم والسلطان والرخاء والمجد والمسارح والفلاسفة والذهب والشباب .... هناك الملك الكريم ومجمع العلماء ، والخمر وكل ما تشتهى النفس من طيبات الحياة .. وهناك نساء يفقن عدد نجوم السماء ويتنافسن فى جمالهن الإلهات اللاتى احتكمن إلى باريس » .

● عدة مدن فى مدينة واحدة

ولا مجال هنا للحديث عن الخلافات بين الباحثين حول أوضاع مختلف الفئات التى سكنت المدينة حتى أن فيلسوفها اليهودى « فيلون » قال عنها « إنها عدة مدن فى مدينة واحدة » ولعله كان متأثرا بوضع قائم وهو أن كل جالية من الأجناس المتعددة كانت تؤلف جماعة قومية وأن بعضها تمتع بقدر من الاستقلال الذاتى ، ويذكر فى مقدمة هذه جاليته هو اليهودية التى شغلت حيا كاملا من أحياء الاسكندرية الخمس ، وهو حى «دلتا» أى الحى الرابع ، غير أنه يستدل من عبارة أوردها استرابون نقلا عن مؤرخ يونانى مثقف ذكى زار الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م. وهو بوليبيوس أن العناصر الأجنبية فى المدينة، بما فيهم اليهود ، قد توحدت فى طابع يونانى عام ، فلم يكن الزائر للمدينة يميز فيها سوى طائفتين : اليونان والمصريين على أساس لغة الحديث والأزياء ، لكن علينا أن نتذكر أن ثمة حقا للمواطنة كان فى المدينة لأنها كانت مدينة يونانية ذات وضع قانونى ودستورى خاص ، وأن ثمة فرقا بين مواطنين كاملى الحقوق وآخرين دون ذلك ، وللمؤرخين فى هذه المسائل كلام كثير .

وبعد ... فتلك لمحات سريعة متفرقة عن مدينة الاسكندر وكليوباترا واثناسيوس وهيباشيا مدينة دار العلم والمكتبة والمنار .. المدينة التى ملأت الدنيا وشغلت الناس فى الآونة الحاضرة ، فياسكندرية الاسكندريات .. يا أيتها اللؤلؤة التى ظلت تتألق فى الوجود على مدى قرون عشرة .. أيتها الدرة الناصعة البياض بمبانيها المرمرية الفارهة .. يا من دعاك لورنس داريل بحق «مدينة الذكريات» ، ماذا تخبىء لنا أرضك بعد من أسرار، ثم ماذا تضمه مياه بحرك الجميل الآن من مفاجآت !! .

أطفالنا .. لهم قانون !؟

صدر القانون وبقى التحرك الفعلي لتنفيذه

بقلم : د. سعيد إسماعيل على

●● فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٩٩٦ وقَّع السيد رئيس الجمهورية قانونا خاصا بالطفل ، ونشر القانون بالجريدة الرسمية - العدد ١٣ / تابع - فى الثامن والعشرين من نفس الشهر .

ومن الغريب حقا أن هذا القانون لم يحظ حتى بالحد الأدنى من الاهتمام بين الكتاب ، على الرغم من أنه يشكل طفرة كبرى فى هذا القطاع الضخم من أبناء الأمة .

إنه يختص بفئة أجد نفسى بغير حاجة إلى أن أنفق سطورا عديدة من هذا المقال تنبيها لأهميتها وخطورة شأنها ، فهى حقيقة ناصعة كالشمس ، لا تحتاج إلى بيان ولا تحتاج إلى برهان ●●

وأول ما يلفت نظرنا فى هذا القانون هو تحديده لما هو مقصود بالطفل ، ففى دراسات علماء النفس والتربية هناك اختلاف فى هذا الشأن فيما يختص بالحدود الزمنية التى تشكل مرحلة (الطفولة) ، وليس هناك خلاف بالنسبة للبداية التى هى لحظة الميلاد ، لكن الحد الأقصى ، هناك من ينتهى به عند سن الثانية عشرة ، وهناك من يراه فى الخامسة عشرة ، وقل من يراه فى الثامنة عشرة ، وهو السن الذى اختاره القانون ، فهناك من الباحثين من يرى أن الفترة التي تلى سن الثانية عشرة هي فترة مراهقة

ومن ثم فإذا كان القانون يصل بعمر الطفل إلى سن الثامنة عشرة ، فمعنى هذا اتساع نطاق الرعاية الخاصة به بحيث تمتد إلى نهاية التعليم قبل الجامعى ،



ويعد هذا كسبا حقيقيا .

كذلك تنبه القانون إلى قضية قد يعتبرها البعض (شكلية) لكن استقراء بسيطا لواقعنا يشير لنا إلى خطورة تأثيراتها السلبية على مسار حياة أبنائنا ، وتلك هي قضية (التسمية) ، فقد شاع لدى قطاعات اجتماعية ، بالنسبة للمولود الذكر بصفة خاصة ، أنه درءا للحسد عنه ، يسمونه اسما يقلل من شأنه ، مثل (شحات) . صحيح أن الأسماء لا تعلل ، لكن من يختارون هذا الاسم يعلمون أنه صفة لسلوك غير مرغوب اجتماعيا ، وهو (التسول) وربما يسميه البعض (خيشة) . وربما يسمي البعض المولودة الأنثى شديد السمرة (قمر) وهما منه أن الاسم يعوضها عن نقص متوهم في الجمال ، ومثل هذه الأسماء تسبب حرجا بالغا للطفل بين أقرانه

اختيار الاسم الحسن

وهناك أسماء جيدة ، لكنها مختلطة بين الأناث والذكور مثل (احسان) ، و (رضا) ، و(حكمت) .. إلخ ، فمثل هذه الأسماء تدفع البعض - أحيانا - إلى السخرية من صاحب أو صاحبة الاسم وبخاصة بين ذوى الأعمار الصغيرة ، وبصفة أخص إذا تصادف أن وجد شخصان أحدهما أنثى والآخر ذكر ولهما نفس الاسم .

وقد روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم) كما روى الترمذي عن عائشة : «كان يغير الاسم القبيح» .

ومن هنا جاء في المادة الخامسة من القانون أنه «لا يجوز أن يكون الاسم منطويا على تحقير أو مهانة لكرامة الطفل أو منافيا للعقائد الدينية» ويرى البعض بالنسبة لهذا الجزء الأخير أنه لا يجوز دينيا التسمية بـ (عبد النبى) ، و(عبد الرسول) وما شابه ، على أساس أن العبودية لله وحده .

وقد خصص القانون المواد من ٣١ إلى ٤٥ لدور الحضانة ، بينما المواد من ٥٥ إلى ٥٨ لرياض الأطفال ، وهذا يشير إلى تفرقة مهمة بين دور الحضانة ورياض الأطفال حيث يخلط كثيرون بينهما ، فدور الحضانة هي تلك الدور المخصصة لرعاية الأطفال من الميلاد حتى سن الرابعة ، أما رياض الأطفال فهي تختص بهذه الرعاية من سن الرابعة حتى السادسة ، سن الالتحاق بالمدرسة ، وهناك عديد من الدول التي تدخل مرحلة رياض الأطفال في سلم التعليم الرسمي ، ومع الأسف الشديد ، فمازلنا نعتبرها خارج السلم .

وتهدف دور الحضانة إلى تحقيق الأهداف التالية :

(أ) رعاية الأطفال اجتماعيا وتنمية مواهبهم وقدراتهم .

(ب) تهيئة الأطفال بدنيا وثقافيا ونفسيا تهيئة سليمة بما يتفق مع أهداف المجتمع وقيمه الدينية .

(جـ) نشر الوعي بين أسر الأطفال لتنشئتهم تنشئة سليمة .

(د) تقوية وتنمية الروابط الاجتماعية بين الدار وأسر الأطفال .

وبطبيعة الحال ، فلابد وأن توفر الدار من الأدوات والتجهيزات ما يساعدها على تحقيق هذه الأهداف وهنا لابد لنا من وقفة :

– إذا كان القانون يوجب في المادة (٧٢) على صاحب العمل الذي يستخدم مائة عاملة فأكثر في مكان واحد أن ينشيء داراً للحضانة أو يعهد إلى دار حضانة برعاية أطفال العاملات ، فإننا لا نفهم تحديد العدد بمائة ! غالبا فإن المعيار المتحكم هنا هو معيار الاقتصاد والتكلفة ، وهذا لا ينبغي أن يكون في مثل هذه القضية الخاصة بتنشئة أجيال جديدة ، فهذه التنشئة لها معيارها الذي يجيز إن يتجاوز الاتفاق العائد المادي ، لأن العائد الاجتماعي والتربوي لا يقدر بمال وفضلا عن ذلك فهناك من يتحايل بأن يحرص على الوقوف بأعداد العاملات عند رقم (٩٩) حتى يفلت من القانون .

وإذا كان المشروع قد تنبه إلى حد ما إلى ما نقول فأشار إلى المنشآت التي تقع في منطقة واحدة ، ويستخدم كل منها أقل من مائة عاملة ، فألزمها بالاشتراك في تنفيذ الالتزام السابق ، إلا أننا نعلم أن (التشارك) ليس دائما سبيلا سهلا ، فهو أحيانا ما يكون مجالا للتنازع و (تعويم) المسئولية والخدمة .

– إن أوضاع الكم الأكبر من دور الحضانة القائمة لا يتوافر فيها الحد الأدنى مما يجب أن يكون ، إذ قد تكون مجرد (مأوى) يأوى عددا من أطفال العاملات أثناء فترة عملهن ، الأمر الذي يحتاج إلى وضع مواصفات دقيقة وتفصيلات للمقومات الضرورية لدار الحضانة يتفق عليها المتخصصون من الأطباء وخبراء التربية وعلم النفس .

الأنثى هي الأفضل

ليست هناك اية أشارة في القانون إلى (المربيات) والشروط الواجب توافرها فيهن ، فلقد استقر الرأي على أن (الأنثى) هي الأفضل والأنسب للعمل بدور الحضانة ، بل وحتى السنوات الأولى من التعليم الابتدائي ، وأنها لابد أن تكون قد حصلت على مقدار متفق عليه من الدراسات الاجتماعية والتربوية والنفسية ، والتدريبات العملية ، ومرة أخرى ، نجد أن واقع الدور يشير إلى العكس من ذلك ، على أساس خاطئ

يرى أن القائم بالعمل أو القائمة به هي مجرد (حارسة) للأطفال حتى تجئ أمهاتهم !!

ثم ماذا عن هؤلاء الأطفال الذين حرموا من أن ينشأوا في أسرهم الطبيعية ؟

يشير القانون في مادته (٤٦) إلى نظام (الاسر البديلة) من حيث أنه يهدف إلى توفير الرعاية الاجتماعية والنفسية والصحية والمهنية للأطفال الذين جاوزت سنهم سنتين ، وذلك بهدف تربيتهم تربية سليمة وتعويضهم عما فقدوه من عطف وحنان .

وهناك كذلك (نادي الطفل) ومفروض فيه أن يكون مؤسسة اجتماعية وتربوية تكفل توفير الرعاية الاجتماعية للأطفال من سن السادسة إلى الرابعة عشرة عن طريق شغل أوقات فراغهم بالوسائل والأساليب التربوية السليمة . والمفروض كذلك أن يسعى هذا النوع من النوادي إلى تحقيق ما يلي :

– رعاية الأطفال اجتماعيا وتربويا خلال أوقات فراغهم أثناء فترة الأجازات وقبل بدء اليوم الدراسي وبعده .

– استكمال رسالة الأسرة والمدرسة حيال الطفل والعمل على مساعدة أم الطفل العاملة لحماية الأطفال من الإهمال البدني والروحي ووقايتهم من التعرض للأنحراف .

– تهيئة الفرصة للطفل لكي ينمو نموا متكاملا من جميع النواحي البدنية والعقلية لاكتساب خبرات ومهارات جديدة والوصول إلى أكبر قدر ممكن من تنمية قدراته الكامنة .

– معاونة الأطفال على زيادة تحصيلهم الدراسي .

– تقوية الروابط بين النادي وأسر الأطفال

– تهيئة أسرة الطفل ومدها بالمعرفة ونشر التوعية حول تربية الطفل وعوامل تنشئته واعداده وفق الأساليب التربوية الصحيحة

ويقصد بمؤسسة الرعاية الاجتماعية للأطفال المحرومين من الرعاية الأسرية كل دار لايواء الأطفال لا تقل سنهم عن ست سنوات ولا تزيد عن ثماني عشرة سنة ، المحرومين من الرعاية الأسرية بسبب اليتم أو تصدع الأسرة أو عجزها عن توفير الرعاية الأسرية السليمة للطفل

بل لقد أجاز القانون حق فئات من الأطفال في الحصول على معاش شهري من وزارة الشئون الاجتماعية وفقا لقانون الضمان الاجتماعي لسنة ١٩٧٧ ، بحيث لا تقل قيمة المعاش الشهري عن عشرين جنيها لكل طفل . أما هذه الفئات فهي

– الأطفال الأيتام أو مجهولو الأب أو الأبوين

- أطفال المطلقة إذا تزوجت أو سجنت أو توفيت .

- أطفال المسجون لمدة لا تقل عن عشر سنوات .

وقد خصص القانون الباب الرابع منه كله لقضية تعليم الطفل .

ولأن قانون التعليم ١٣٩ لسنة ١٩٨١ قد حدد مراحل التعليم وأهدافها ونظامها وبرامجها ، فإن قانون الطفل مر عليها مرورا سريعا تفاديا للتكرار .

إعداد المواطن المنتمى لوطنه

ويستوقفنا هنا هذا الهدف العام الذى أشار إليه القانون من تعليم الطفل بصفة عامة ، حيث يقول فى المادة (٥٣) : «يهدف تعليم الطفل إلى تكوينه علميا وثقافيا وروحيا وتنمية شخصيته ومواهبه وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى امكاناتها ، بقصد إعداد الانسان المؤمن بربه ووطنه وبقيم الحق والخير والانسانية وتزويده بالقيم والدراسات النظرية والتطبيقية والمقومات التى تحقق انسانيته وكرامته وقدراته على تحقيق ذاته وانتمائه لوطنه والاسهام بكفاءة فى مجالات الانتاج والخدمات أو لاستكمال التعليم العالى ، وذلك على أساس من تكافؤ الفرص» .

وعندما يشير القانون إلى (رياض الأطفال) فإنه يشير إلى تبعيتها إلى وزارة التعليم ، بينما أشار إلى تبعية دور الحضانة إلى وزارة الشئون الاجتماعية، ولا ندرى حقا ما الحكمة فى هذه التفرقة ؟ أنهم يقولون أن دار الحضانة هى فترة (رعاية) أما رياض الأطفال ففيها (تعليم) ، وهذا منطق خاطئ؛ فالمفروض فى المرحلتين معا أنهما مرحلتا (نشاط) وتهيئة نفسية وتربوية وثقافية واجتماعية ، ومن خلال النشاط نستطيع أن نغرس فى أطفالنا العديد من المفاهيم والقيم والاتجاهات التى تشكل أساسا مهما فى تكوين شخصياتهم .

ولا يوجد لدى وزارة الشئون ما يهيئها لأن تقوم بواجب (التربية) ، و(التنشئة) للأطفال فى سنواتهم الأولى ، إلا إذا نظرت - كما هو حادث فعلا - إلى أن المسألة هى (إيواء) للأطفال ، فكيف يحرم أطفال فى أخطر سنوات التكوين الأولى من مقومات التربية المتخصصة نتيجة تنازع وزارى غير منطقى وعمليات تحديد لمناطق النفوذ ؟

كذلك فإن استمرار مرحلة الرياض خارج السلم التعليمى الرسمى وتركها حرة تلقائية لمن يريد ، قد أتاح الفرصة لفئات قليلة من الميسورين أن يوفروا لأطفالهم مناخا وبيئة ، هم غير محرومين أصلا منها ، ويصل ما يدفعه الطفل الواحد إلى عدة الاف من الجنيهات ، وأحيانا من الدولارات وطريق القاهرة /

الاسماعيلية خير شاهد على ذلك، ومناطق أخرى بطبيعة الحال !!

هذا في الوقت الذي يرتع فيه ملايين الأطفال في الأوحال ومعاشرة الحشرات، والتكدس في غرف تفتقد الحد الأدنى لمقومات المعيشة الانسانية، الأولون يردون منهلا «عذب فرات سائغ شرابه» والآخرون يردون منهلا قوامه (ملح أجاج) !!

أما بخصوص (تشغيل الأطفال) فهي قضية يقف الانسان أمامها متعجبا مما تراه من (رخاوة) رسمية في تطبيق القانون أنه على سبيل المثال يقول بمنتهى الصراحة : «يحظر تشغيل الاطفال قبل بلوغهم أربع عشرة سنة ميلادية كاملة» - مادة ٦٤ - وهذا لأن قانون التعليم ١٣٩ لسنة ١٩٨١ يؤكد الزامية التعليم في المرحلة الأولى والتي كانت من سن ٦ - ١٥، ثم أصبحت من ٦ - ١٤، حيث أصبحت فترة التعليم الأساسي ثماني سنوات.. لكن القراء جميعا يعلمون ويشاهدون الآلاف من الاطفال ممن تقل أعمارهن من ١٤ يعملون في الورش والمحلات بحيث نستطيع أن نؤكد أنه لا توجد ورشة تخلو منهم !

ويشير القانون إلى أمور أخرى يستحيل أن يلتزم بها أحد، مثل حظر تشغيل الأطفال الذين صرح بجواز تشغيلهم ممن تقع أعمارهم من ١٢ - ١٤ في أعمال موسمية لمدة تزيد عن ست ساعات، فكيف يمكن ضبط هذا ؟

ويرى البعض أن الدولة تغض النظر عن تشغيل الأطفال لأنها حتى الآن لم تستطع أن تلتزم بالقانون الذي وضعته لالزام التعليم، فمازال ما لا يقل عن ٢٠٪ من الأطفال الذين يبلغون ست سنوات في عمر كل منهم، لا يجدون أماكن في المدارس !!

ومن أهم ما أشار إليه القانون، هذه الفئة من الأطفال المعوقين الذين طال النظر إليهم على أنهم (كم مهمل)، بينما هم في الحقيقة أناس أسوياء، إذا كانوا قد فقدوا سمعا أو بصرا أو طرفا من جسمهم أو غير هذا وذاك من اعاقات، فانهم يملكون العديد من الطاقات والقدرات التي تمكنهم من العطاء والتعلم.

وليست لدي احصاءات دقيقة عن أعدادهم، ولكن ما يشبه الاجماع، أنهم يشكلون نسبة تتراوح بين ١٠ - ١٢ ٪ من المواطنين، وهذا يعني أن هناك ملايين لا يحظون - دون مبالغة - بالحد الأدنى الضروري، وقد أوجب القانون على وزارة الشئون أن تنشيء المعاهد والمنشآت اللازمة لتوفير خدمات التأهيل للأطفال المعاقين، لكنه بالنسبة لوزارة التعليم فإنه يذكر «لوزارة التعليم

أن تنشىء مدارس أو فصولا لتعليم المعاقين» ! .

تأهيل المعوقين

وفضلا عن قضية تعليم المعوقين ، فهناك أيضا قضية تأهيلهم لممارسة العمل المناسب لقدراتهم . وقد أشارت المادة (٨١) إلى أن وزير القوى العاملة يصدر ، بالاتفاق مع وزيرة الشئون الاجتماعية قرارا بتحديد أعمال معينة بالجهاز الإدارى للدولة والهيئات العامة ووحدات القطاع العام وقطاع الأعمال تخصص للمعاقين من الأطفال الحاصلين على شهادة تأهيل .

كذلك أوجب القانون على صاحب العمل الذى يستخدم خمسين عاملا فأكثر، استخدام الأطفال المعاقين الذين ترشحهم مكاتب القوى العاملة بحد أدنى ٢ ٪ من بين نسبة الخمسة فى المائة المنصوص عليها فى القانون رقم (٣٩) لسنة ١٩٧٥ بشأن تأهيل المعاقين .

أما بخصوص (ثقافة الطفل) فقد أوجب القانون على الدولة اشباع حاجات الطفل الثقافية فى شتى مجالاتها من أدب وفنون ومعرفة وربطها بقيم المجتمع فى اطار التراث الإنسانى والتقدم العلمى الحديث وفى سبيل ذلك طالب القانون بإنشاء مكتبات للطفل فى كل قرية وفى الأحياء والأماكن العامة . وأن تنشأ تباعا نوادى ثقافة الطفل ويلحق بكل منها مكتبة ودار للسينما والمسرح .

وحظر القانون نشر أو عرض أو تداول أى مطبوعات أو مصنفات فنية مرئية أو مسموعة خاصة بالطفل تخاطب غرائزه الدنيا أو تزين له السلوكيات المخالفة لقيم المجتمع أو يكون من شأنها تشجيعه على الانحراف .

وبعد ...

أن لنا أن نشعر بايات التقدير لاتجاهات هذا القانون الذى سعى إلى تربية وتعليم وحماية أطفالنا .. فلذات أكبادنا .. رجال المستقبل .

لكننا - من واقع الخبرة المجتمعية الماضية والحاضرة - نعلم علم اليقين أن القضية ليست قضية قانون فقط ، ولكنها قضية التحرك الفعلى من كل القطاعات ذات المسئولية والاهتمام ، وكثيرا ما نتذكر فى مثل هذه الحالة أن القانون الظالم الذى يطبقه قاض عادل ربما يكون أخف وطأة من قانون عادل يطبقه قاض ظالم .

وأمنيتنا هنا التى لا نظن أنها تجاوز امكانية التحقق أن نرى مع هذا القانون العادل ، قوى مجتمعية لا تقل وعيا وعدلا ، تحرص على تطبيقه والعمل به .

دائـــرة
حـــوار

« هضم المعلومات » هو القضيـــــة

بقلم : هـــانى الحسينى

□ تطالعنا أينما ننظر الكتابات والأحاديث التى تدعونا لولوج أبواب الحضارة الحديثة ممثلة فى تعبيرين «عصر المعلومات» و «الثورة التكنولوجية» تزين لنا هذه الكتابات الأمر حينا بوعود التقدم والمنافع التى ستعود علينا إذ نطلع على الآداب والفنون والعلوم الحديثة بيسر وبساطة ونتنتج تلك الأجهزة الغالية محليا وبذلك «نلحق بركب البشرية القافز» حسب تعبير أحد الخطباء، وحينا اخر يسوق لنا دعاة التقدم الدلائل على أننا والجون فى هذا العصر الحديث لا محالة، فالعالم قد أصبح قرية صغيرة و التفرد أصبح من آثار الماضى .

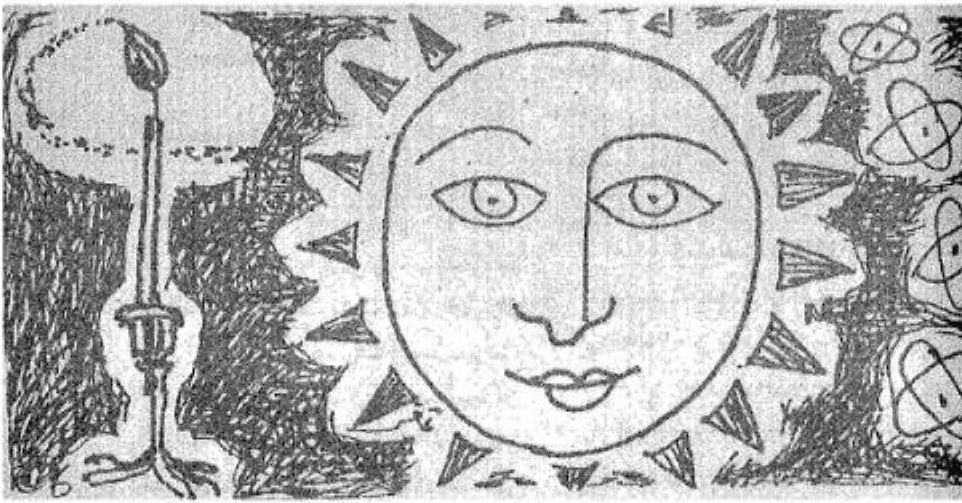
فى المقابل نرى نفرا من المتشائمين يحذروننا من خطط السيطرة علينا «فى نفس القرية الصغيرة» عن طريق المنتجات الثقافية الفاسدة التى «ستقتل فى الأمة مناعتها» بإبعادها عن جذورها الحضارية فتسهل ابتلاعنا وربما تلحقنا بقائمة الشعوب المنقرضة .

اى هاتين الرؤيتين اقرب للواقع ؟ وما هى النقاط الجديرة بالاختبار فى كلتيهما ؟

فى الصفحات التالية ادعوك عزيزى القارىء لنختبر معا التعبيرين الاساسيين فى كل هذه المعمعة : «عصر المعلومات» و «الثورة التكنولوجية» ، سنحاول ان ندقق معانيهما وننظر فيما يمثلان بالنسبة لنا. وفى النهاية سأحاول أن أقدم مقابلين لهما «مستعملا لغة العصر» فى «هضم المعلومات» و «التحول الديمقراطى للتكنولوجيا» .

عصر المعلومات

الفكرة المركزية هنا هى أن المنتجات الفكرية للبشــر (أى المنتجـات الادبيـة والفنية وبالذات العلمية) قد اصبحت اكثر انواع المنتجات ربحية ، وبالتالى اصبح الحصـول على هذه المنتجـات او على



عناصرها الاولية هدفاً ذا قيمة كبيرة للأفراد والمؤسسات والدول وأصبح تبادلها يمثل جزءا مهما من التجارة الدولية . .. مهلا المنتجات ؟ العناصر الاولية؟ .. هل هذه هي اللغة المناسبة للحديث في هذا المجال؟

حسنا، فلنأخذ مثالا .. بل مثالين : مسلسل تليفزيوني وابتكار رياضي لتمثيل الاشكال المستوية (مثل الصور) بعدد قليل من البيانات .

المثال الاول : لا شك ان المسلسل التليفزيوني منتج له قيمة تجارية (أهم من قيمته الفنية) وأن الكثير من عناصره الاولية موجودة في السوق فالموسيقى التصويرية لكثير من المسلسلات عادة ما تكون تركيبا من ألحان معروفة وديكورات التصوير يمكن اختيارها باستخدام اجزاء منشأة في مناسبات اخرى ، ويستخدم المخرجون لقطات وثائقية موجودة في أرشيف ، ناهيك عن التكرار المعتاد للافكار والشخصيات بناء على قياسات «شعبية موضوع ما» . كل هذه العناصر (المقتطفات الموسيقية ، أجزاء الديكور.. الافكار) يمكن الحصول عليها من سوق المعلومات .

المثال الثاني : الضغط الكسوري للصور (وعذرا لاستخدام المصطلح) هو طريقة لتمثيل صورة بتخزين القليل جدا من المعلومات عنها ولكن بما يكفي لاستعادتها بأقل قدر من التشويه ، وتعتمد

دائـــــرة حــــــوار

هذه الطريقـــة على بعض نظريات الرياضيات التي تدرس التماثل بين شكل وبين اجزائه حتى اصغرها . تستخدم هذه الطريقة عند الحاجة لنقل كميات كبيرة من الصور كما في حالة قنوات التليفزيون التي توصل بالكابل لمشتركيها. المنتج في هذه الحالة يكون برنامج حاسب لضغط الصور وبرنامجا اخر لفكها، والعناصر الاولية تتضمن النظريات الرياضية عن الكسوريات وطرق ووسائل البرمجة .

فلنعـد الآن لسـيـاق الموضـوع الابتكاران الجديدان اللذان يميزان «عصر المعلومـات» همـا عـصـارات المعلومـات وقنوات نقل المعلومـات . تقوم عصارات المعلومـات (وهي الحاسبات المجهزة لخدمات المعلومات والمحطات التليفزيونية.. الخ) بدور الصناعة الاستخراجية: فتحول ركام المعلومات الخام الى انواع مصنفة ومنظمـة بالعديد من الطرق، بل تقوم العصارات التجارية الكبرى بما هو اكثر من ذلك اذ تعد للمستخدمين المحتملين خليطا صحيا مناسبا لأذواقهم (او لما يجب أن تكون عليه اذواقهم). أما قنوات النقل – أي قنوات البث الفضائية وخطوط الإنترنت – فتقوم بعملية التوزيع للمستهلكين في حاسباتهم المنزلية أو أجهزة التليفزيون .

آه.... لا تتحفز اخي القارىء ، اتظن أنك وجدت الحكومة العالمية التي تسيطر على مصائرنا ؟ تلك المؤسسة السرية التي تتحكم في عقولنا عن طريق تزويدنا بما تريد هي من معلومات ؟ .... فلنتريث قليلا، فعصر المعلومات عصر ديمقراطي .

يحكم عصر المعلومات مبدأن قد يكونان متعارضين: مبدأ الملكية الفكرية ومبدأ حرية تبادل المعلومات . الملكية الفكرية تعطي للمبتكر الاصلي حق التصرف الكامل في ابتكاره بما في ذلك حق التنازل عن هذه الملكية ، وحرية تبادل المعلومات تكاد تكون المعادل لحرية التجارة :إذ ليس لأي سلطة حق منع تبادل المعلومات بين طرفين اتفقا على هذا التبادل، ولأن الكثيرين من منتجي المنتجات الفكرية يتمتعون بحس ديمقراطي فستجد في سوق المعلومات وبالذات على الانترنت الكثير من المعلومات الخام والعديد من خلطات المعلومات التي قد تناسب احتياجاتك، كما أن فضاء المعلومات لا يخضع لأي سلطة مركزية محددة، فإن وجدت فيه نقصا وأمكنك

تدارك هذا النقص فمرحبا بك .. بشرط أن تتمتع بالامكانات المادية المناسبة .

من يحتاج المعلومات ؟

الاجابة الاولى عن هذا السؤال هي : جميع البشر ، فلكي نوسع مداركنا ونعمق فهمنا للعالم لابد ان نطلع على الانتاج الفكري للبشر الآخرين. لكن هل نطلع على أكوام من المنتجات الفكرية أم نبحث عادة عن شيء معين وسطها ؟ ثم الا يحتاج المرء لدرجة عالية من المعرفة ولتربية خاصة كي يقوم بالبحث والانتقاء ؟ وسؤال آخر: علما بأن قلة قليلة في بلادنا سيكون لديهم إمكانية الوصول لقنوات المعلومات الحرة (أي البعيدة عن التلفزة) فما هي الوسائل التي تمكن عموم المجتمع من الإفادة بالمعرفة الناتجة ؟

لنختبر مثالا قريبا ونحاول ان نفهم من يحتاج المعلومات ؟ او بالأدق ماهي المعلومات التي قد نحتاجها بشدة ؟ وفي أي صورة؟

سنطرح سؤالا : كيف نميز ونعزل الحيوانات المصابة بمرض ما (جنون البقر مثلا) ؟ وبالذات لو كان هذا المرض حديثا ومازال موضوعا للابحاث العلمية. الدور الاساسي في مثل هذا العمل هو للطبيب البيطري الممارس والذي سيحتاج في عمله لمعرفة دقيقة متجددة بسير الابحاث العلمية في المعامل التي تدرس المرض الجديد، ولنفترض أن لدى هذا الطبيب امكانية استخدام الانترنت. سيواجه البيطري الممارس بمشكلتين: الأولى هي كيف يجد في غابة المعلومات ضالته من البيانات العلمية الدقيقة والواضحة والموثوق في مصادرها ؟ إذ سيواجه بعشرات المقالات التي لا تحوي سوى أخبار مثل تلك المنشورة بالصحف كما سيقع في بعض التقارير المضللة والتي قد يكون هدفها تهوين المشكلة او تعسيرها . المشكلة الثانية قد تكون في إمكانية استيعابه لتقارير كتبها باحثون على مستوى عال من العلم ولكن دون اي قدر من التبسيط اللغوي ولا العلمي . ما يحتاجه طبيبنا في الحقيقة هو وسيط للمعلومات «موثوق» و «واضح» يقوم بغربلة المعلومات المتوافرة و تقديمها بصورة مناسبة لمستوى معرفة الطبيب الممارس وذلك دون أي رقابة سياسية، هذه العملية الوسيطة هي مانسميه هضم المعلومات، فمن يقوم بهذا الدور ؟

ربما يكون اكثر الناس احتياجا للمعلومات وقدرة على الحصول عليها وعلى غربلتها هم منتجي المعلومات مثل الباحثين العالميين ، وهم في بلادنا قلة قليلة ومحاصرة ، واتصالهم بمصادر المعلومات لا يضمن تعميم المعرفة في المجتمع . ولعل النظام التعليمي

دائـــرة حـــوار

(وخصوصا المعلمين) يكون وسيلة تعميم المعرفة في مجتمعنا . ولكن هذا النظام هو في واقعه عقبة في سبيل نشر روح البحث والانتقاء . ثم قد يتبنى مجتمعنا مبدأ حرية تبادل المعلومات في صوره العملية (وأدناها حرية النشر)، ولكننا مازلنا بعيدين عن هذه الروح الديمقراطية . في كل الاحوال علينا أن نعرف أننا (بمستوى ابحاثنا العلمية وأسلوب تعليمنا وبعدنا عن الروح الديمقراطية) لسنا قادرين على هضم المعلومات التي تصلنا حتى لو عصرت في أفواهنا .

● الثورة الرمادية

يروج الكثيرون ان بامكان مصر ان تنتقل من الصناعات التجميعية البسيطة والصناعات قليلة الربح مثل صناعة المنسوجات الى صناعات أخر موضة مثل صناعة المعالجات الدقيقة (الاجزاء التى تقوم بالعمليات الحسابية والمنطقية فى الحاسب) ، ويؤكدون ان هذا الانتقال مفيد لبلادنا وضرورى لننتقل لمصاف الدول سريعة النمو. سنناقش هنا عنصرى الامكانية والفائدة نبدأه بسؤال : لماذا تفتح شركة انتل Intel (وهى كبرى شركات صناعة المعالجات الدقيقة) مصنعا لها في اسرائيل دون مصر ؟ بالطبع قد يكون ذلك جزءا من اجزاء مؤامرة صهيونية ولكن دعونا ندرس دورنا (دور الضحية) في هذه المؤامرة . الضحية عادة قليلة الحيلة وضعيفة . فما موطن ضعفنا ماذا يمنعنا عن الدخول (رغم النداءات العديدة) في صناعات التكنولوجيا المتقدمة.. مواطن الضعف كثيرة، بعضها يتعلق بالبنية الاساسية وبعضها بالعقلية الاستثمارية ولكن اهمها فيما اعتقد هو ضعف استيعاب التكنولوجيا .

هل قمت أخيرا بجولة فى الموسكى ؟ وهل قارنت أثناءها بين المنتج المصرى والمنتج المستورد ؟ من حيث الجودة ؟ من حيث السعر؟ بالطبع لن تدهش لو قلت لك ان الكثير من المنتجات المستوردة اجود وأرخص من مثيلاتها المصرية ، فقد اعتدنا على ذلك.. ولكن ما علاقة الموسكى بالتكنولوجيا المتقدمة ؟

لنتفق بداية على أن التكنولوجيا تتطلب من مستخدمها درجة من الكفاءة تزيد كلما تقدمت التكنولوجيا وكلما زاد سعرها . فالخطأ في تشغيل الة لحام عادية يكلف أقل ويصلح بشكل اسهل من الخطأ في ضبط آلة لحام بالليزر ، فالغرض من تشغيل الأخيرة هو رفع مستوى دقة اللحام لدرجة اعلى من مستوى الملاحظة البشرية لذا يصعب

التعرف اصلا على الخطأ دون اتباع خطوات محددة واجراء اختبارات دقيقة .

ولنتفق ثانيا على أن تقدم التكنولوجيا يهدف لتقليل التكلفة عن طريق زيادة انتاجية كل من العامل ووحدة رأس المال، فشرط الاستفادة من تقدم التكنولوجيا هو أن يرتفع المستوى الفني للعمالة وتزيد انتاجيتها .

فماذا حدث في التاريخ القريب للصناعة المصرية ؟ لقد قامت معظم الورش والمصانع (التي ترى منتجاتها في الموسكي) بتحديث آلاتها ولكن دون رفع لا لكفاءة العمالة ولا لإنتاجيتها . قد يكون هذا الحكم قاسيا وهو بالتأكيد حكم غير مبني على دراسة علمية ولكن على الأقل هكذا تنبيء الظواهر. فستجد الكثير من المنتجات المطروحة للبيع معيبة (مخدوشة، مخالفة للمقاس، .. الخ) وهو مايظهر ضعف استيعاب العامل لمتطلبات العمل. كما سنجد (لو ألقينا نظرة على الورش القريبة) تكدسا عماليا في منشآت ذات حجم اعمال صغير جدا، يعوضه المستثمرون بالطبع بدفع اجور شديدة التدني .

في الحقيقة لقد قامت التكنولوجيا في الصناعة المصرية بعكس المتوقع، فقد احلت العامل ضعيف الكفاءة والته كثيرة الاعطال محل الحرفي الكفء العارف بأصول مهنته .

التكنولوجيا والتقدم الاجتماعي

يؤدي بنا هذا الحديث لنقطة أخرى . فتقدم التكنولوجيا لابد أن يفيد الانسان ليس فقط من خلال منتجاتها المادية ولكن من خلال القدرات والمهارات التي ينفتح عليها مستخدم الآلة، فاستخدام الآلات الدقيقة يعلم الانسان درجة من الدقة والانضباط لابد وأن تنعكس على جملة تصرفاته . والعكس بالعكس، فانتشار قيم الدقة اللفظية والعملية يساعد على استيعاب اساليب التكنولوجيا ومنتجاتها . كما أن وجود المرء في مجتمع يقلل من قيمة الدقة والانضباط يجعله اقل قدرة على استيعاب تكنولوجيا الدقة والانضباط. مصر بلد كبير ، سكانه نصفهم على الاقل اميون يعيش الكثير من مواطنيه في حالة بالغة من الفقر والبؤس فما يحتاجه حقا هو التحول الديمقراطي للتكنولوجيا أي نمو تكنولوجي متوازن يتناسب مع رفع مستوى التعليم والتدريب ومع رفع مستوى دخول المواطنين ليتمكنوا من استخدام المنتجات التكنولوجية الحديثة ، نمو تكنولوجي يغطي الاتساع الجغرافي لبلادنا فلا تحرم منه منطقة ، نمو تكنولوجي يغطي كل قطاعات العمل والحياة ويواكب نمواً اجتماعيا فكريا يجعلنا منتجين للفكر ومخترعين للآلات ..

شمس الشعر الغاربة

بقلم:د. الطاهر أحمد مكى

تنشر «الهلال» هذين البحثين على هامش «ندوة الشعر» التى عقدت بالقاهرة على مدى خمسة أيام فى الفترة من ٢٣ إلى ٢٧ نوفمبر الماضى وشارك فيها نخبة من الشعراء والنقاد العرب.

حجبت لجنة التحكيم الخاصة بالشعر جائزة أحسن ديوان، المقدمة من أحد الأثرياء العرب، لأنها لم تجد بين الشعراء المتقدمين إليها من قلب العروبة وأطرافها، ويتجاوزون المائة عددا،واحدا يرقى إلى مستوى الجائزة، رغم أنها متوسطة القيمة والقامة، فهى دون جائزة سلطان العويس قدرا، ودون جائزة الفيصل شهرة، ويكفى من ينالها أن يحبو فى عالم الشعر واثقا وجادا، ولكنها فيما يبدو لم تجد حتى هذا الطفل الحابى، فأعلنت قرارها الشجاع!

كنت بين الذين حمدوا للجنة هذا القرار الجرىء، وأنا لا أعرفهم، لأنهم فى قرارهم هذا اتسموا بالجرأة والشجاعة، فلم ينافقوا ولم يجاملوا، ولم يخونوا الأمانة، ولابد أن الذى قدم إليهم كان من التفاهة والهزال بقدر يصبح معه منح الجائزة لشاعر منهم سبة تلحق بالمموّل الذى يدفع، والناقد الذى قوّم، وتجعل من أدب الأمة التى ينتسب إليها هذا الشعر أضحوكة ومثلة!

نحن إذن أمام وضع أتمنى أن




نصارح أنفسنا بحقيقته، لندرك حجمه، ونشخص داءه، ونعرف علاجه، لأن المكابرة لاتصمد ولاتجدى، والزهو الكاذب لايخدم غرضا جميلا، ولايثمر في نهاية المطاف غير التفاهة، فالشعر في الأقطار العربية بعامة، وفي مصر بخاصة، يمر بأزمة خانقة، وتزدحم ساحته بالمشعوذين والأدعياء، وتوجد الآن هوة واسعة بين الجمهور المتلقي والشعراء (ودعونا نسميهم كذلك تجاوزا) وعاد هؤلاء يغنون لأنفسهم، ويتحدثون عن نواتهم لايتجاوزونها إلى غيرهم، ولأن الجمهور لايجد نفسه ولا ذوقه ولاهمومه فيما يقولون، أدار لهم ظهره، وانصرف عنهم إلى متع أخرى، يجيء التراث الشعرى في مقدمتها، وعلى الذين يشكون في الأمر أن يسألوا الوراقين كم يبيعون في العام من دواوين المتنبي وشوقي وحافظ والبارودي وعلى الجارم ومحمود طه وابراهيم ناجي، وغيرهم كثيرون، رغم غلو دواوينهم وهي أثمان مرتفعة، يدفعها الناس راضين

لاتحتاج إلى بينة واضحة، لمن يعرف أن الشعر فن العربية، وأنه ديوان العرب، ليدرك أي عواطف خامدة، وقرائح ناضبة، بين جمهرة من يزعمون أنهم سادة الشعر اليوم، فالأحداث حولنا عاصفة على كل المستويات، الوطنية والقومية والعالمية، وهي كافية لأن تهز المشاعر، وتفجر الأنغام عند الشاعر الحق، ولكنك لاترى لذلك أثرا

شوقي والأحداث الجسام

عندما اشتعلت الثورة السورية على الاحتلال الفرنسي في ١٦ يوليو ١٩٢٥، وتجاوبت أصداؤها في الوطن العربي، حياها أمير الشعراء بنونيته التي مطلعها:

قم ناد جلق وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم أحداث وأزمان

وعندما ضرب الفرنسيون دمشق بالمدافع أربعا وعشرين ساعة، ثم اقتحموها بعد ذلك، وثبت الثوار المرابطون في غوطة دمشق إلى يوليو ١٩٢٦، نهض العرب لإغاثة المنكوبين، وألقى شوقي رائعته:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لايكفكف يا دمشق

وقد اشترت جريدة السياسة حق سبق نشر هذه القصيدة بأربعين جنيها (تساوى ألف جنيه في أيامنا هذه)، تبرع بها أمير الشعراء لتضم إلى ما كان يجمع لسوريا من أموال . وصنع الشيء نفسه

عندما ضرب الأسطول الإيطالي بيروت إبان احتدام الحرب في ليبيا، وعندما أعدم الإيطاليون البطل الليبي عمر المختار ولم يقف من أي حدث مصري موقفا محايدا أو لا مباليا، ولم يكن وحده في هذا الاتجاه، فنحن نقرأ قصيدة حافظ ابراهيم في حريق ميت غمر الذي التهم المدينة عام ١٩٠٢ فيثير فينا التشجن حتى يومنا هذا:

سائلوا الليل عنهم والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم (م)
وكيف اصطلى مع القوم نارا

وهو لايقف عند أحداث مصر والعروبة والإسلام فحسب، وإنما يهزه الزلزال الذي وقع في مدينة مسينا جنوبي إيطاليا عام ١٩٠٨.

ولم يكن شوقي وحافظ استثناء في جيلهما، وإنما اتخذت منهم مثلا، ولم يكن الآخرون دونهما

أين شعراؤنا من الأحداث؟!

ما الذي جرى فأصاب شعراءنا ببلادة الحس أمام أحداثنا الكبرى، وأنزل عليهم غاشية في مواقف تحرك كل من يملك القدرة على التعبير؟

هل قرأت لشاعر حق بيتا في زلزال القاهرة أو في مأساة العمارة التي انهارت على سكانها في مصر الجديدة، أو حين قتلت الطائرات الاسرائيلية مبنى للأمم المتحدة في قانا في جنوب لبنان، ودكته بالمدافع قاصدة، لأن أطفال القرية ونساءها وشيوخها لاذوا به احتماء فازهقت أرواحهم؟

هل تعرف من صور مأساة شعب العراق، وهو يعاني من قسوة حصار قاس، فرضته عليه قوة طاغية، تفني أطفاله بسوء التغذية، وتقتل شبابه بسلاح الجوع، وتهلك شيوخه بآلام المرض؟

لقد قهرت الشيخوخة القاسية، وأزيد من تسعة عقود يحملها على كتفيه شاعر العروبة الأكبر محمد مهدي الجواهري فسكت مكرها، وترهل نزار قباني بعد أن كان شعره مدفعية ثقيلة موجهة لأعدائنا، ومبشرة بأمانينا، وعاد يكتب كلاما لاتميز بين شعره ونثره، تكتب القصيدة أفقيا فتصلح مقالا لأي صحيفة، وتكتب المقال، الذي تجده في صحيفة ما رأسيا فيصبح قصيدة، من ذاك الذي يزعمونه شعرا، وهو كلام ينساه الناس وهم يقرأونه.

ولاأعرف أين عبد الله البردوني الحائز على جائزة «سلطان العويس» في الشعر، والتي تعدل مستوى وقيمة جائزة نوبيل، وصاحب قصائد «أبو تمام وعروبة اليوم» «وردة من دم المتنبي»، وغيرهما كثير، أين هو من همومنا القومية، أتراه أيضا شغلته هموم أصغر، أم أن بعد الدار، وتقطع الأوصال، وتمزق الأرحام، جعل قصائده لاتصلنا، وجعل مجلاتنا الأدبية

تدير ظهرها لإبداعه، لأنه لايكتب الشعر الحر، أو الجديد، أو التفعيلة، فأصحابه بعد نصف قرن من الزمان من قوله لم يستقروا على اسم له بعد؟

إننا لانجد الآن من يبشر بغد أفضل، أو يدعو إلى وحدة، أو يشد عزيمة، أو يقوى جهدا، أو يجسم آمال الناس، وهذه كانت رسالة الشعر العربي منذ ردده أقدم شاعر على بطحاء أرض الجزيرة العربية



على محمود طه



على الجارم

انهيار الشعر!

أحسب أن وراء انهيار دولة الشعر، وفي هذه النقطة بالذات أتحدث عن مصر لأنى أعرفها، عدة أسباب يأتى فى مقدمتها أن الذكاء المصرى بعامة بدأ يفقد بريقه، وأن مستواه هبط درجات فى مجالات العلم والإبداع على السواء، وهو أمر يجب أن يقلقنا بقوة، لأنه وليد عوامل جدت فى بيئتنا، وتقوم بدورها المدمر فى هدوء على مهل، من تلوث البيئة، وسوء التغذية، وشيوع المعلبات والجوامد، فى القرية والمدينة على السواء، وكثرة الأغذية الفاسدة المستوردة، والإسراف فى استخدام المواد الكيماوية فى تخصيب الأراضى صناعيا لزيادة الإنتاج، وفى استخدام المبيدات لمقاومة الآفات، وتراجع كل ماهو طبيعى فى حياتنا، هذا إلى جانب ماخسرناه مما كان يحمله طمى النيل كل عام قبل إنشاء السد العالى.

أما العامل الثانى، فهو انخفاض مستوى التعليم بعامة، بقدر مخيف، وتضاؤل ثقافة من يتصدون للشعر بزعم أنه موهبة، وأنه إلهام يهبط عليهم من السماء . كيف يصبح شاعرا من لايحسن قراءة جملة صحيحة فى كتاب، أو قراءة بيت شعر لغيره دون أن يخطىء فى ضبطه، أو نظم أبيات دون أن يضطرب فى عروضها، أو يتعثر فى قافيتها، واسميهما العروض والقافية باسمهما التقليدى الموروث، دون أن أتظاهر بالتقدم فأتخفى وراء تعبير النغم والموسيقا، وهو جهل لايعترف أصحابه به، وإنما يلفونه فى ادعاءات عريضة، يلبسونها أثوابا براقة، من الحداثة، وما بعد الحداثة، وكلام آخر كبير وعريض، وغير مفهوم لا لهم، ولا لغيرهم، ويعينهم عليه نقاد أكاديميون، كالنقاد الصحفيين، أصبحوا أصحاب «بوتيكات» أدبية، يبيعون ويشترون، يأخذون ويعطون، ويتقارضون، و «اللى تربح بيه ألعب بيه»، وحل الإعلام بمعناه الشرقى محل النقد بمعناه العلمى، والإعلام الآن كيمياء الجماهير، يحول الحجر إلى ذهب، ويجعل من الأمى الجاهل

حكيما وقورا، ومن الشعرور شاعرا عبقريا.

حفظة الشعر

كان أبو تمام يحفظ، فيما يحفظ، سبع عشرة ألف أرجوزة، والأراجيز من أصعب الشعر العربي، لأنها تحوى غريبه ونادره، وكان أبو العلاء المعرى يحفظ ديوان المتنبي ويسميه «معجز أحمد» وكان ابن عبدون الأندلسي - يحفظ كتاب الأغاني كاملا بكل أشعاره ونثره ومصطلحاته الموسيقية، وذلك كان بعض زادهم لقول الشعر.

وأحب أن أقدم مثلا لشاعر مثقف فى التراث، وكان رأس المحدثين فى عصره، غزير الانتاج بلا حدود، لنعرف كيف يتكون الشاعر، وما الإبداع الذي يجعل منه شاعرا، ذلكم الشاعر هو : بشار بن برد.

كان بشار عليما بأسرار اللغة، شأن شوقى فى عصرنا الحديث، حتى اعتبره اللغويون حجة، وكان حاضر الجواب، سجاعا خطيبا، صاحب منثور ومزدوج ورجز ورسائل مختارة، ولكن التمكن من العربية، والتعمق فى أساليبها، والاستحواذ على غريبها لايعنى التقعر ولا التحجر، ولا الهروب من الجديد، إذ كان بشار من أرق المحدثين ديباجة كلام، وسمى أبو المحدثين، لأنه فتق لهم أكمام المعاني، ونهج لهم سبل البديع، فاتبعوه، وكان ابن الرومي يقدمه، ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر، ولم يكن بالبصرة غزل ولا غزلة إلا يروى شعره، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به.

لم يصبح بشار شاعرا بالقليل الذى وصلنا من شعره، وإنما بالكثير الذى عرف على أيامه، وضاع فى الطريق إلينا، فالشاعر الحق هو الذى تتحول حياته إلى شعر لايتوقف، ولذلك يقول فى زهو معه الحق فيه: «أنا أشعر الناس، لأن لى اثنى عشر ألف قصيدة، فلو اختير من كل قصيدة بيت لاستُندر، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس»، والقصيدة التى تكتب بالطريقة التقليدية، إذا وزعت كلماتها على طريقة الشعر الحر، كما فعل البياتى أو أمل دنقل فى بعض قصائدهما العمودية، يمكن أن تصنع نصف ديوان كامل!

حياتنا التعليمية والشعر!

لن يصلح أمر الشعر فى وطنى الآن إلا بما صلح به فى أوله، أن نرد حياتنا التعليمية إلى تراثنا ردا جاداً، فنقرىء تلاميذنا فى المدارس ما كان يقرأه أندادهم فى الثلاثينيات والأربعينيات، كانت الوزارة توزع على تلاميذ الثانوى مجموعة مختارة من أشعار شوقى تحمل عنوان «الشوقيات للمدارس الثانوية» وكتاب «المنتخب من أشعار العرب»، فى جزئيه، يضم روائع الشعر العربى من

العصر الجاهلي حتى وقت ظهور الكتاب، ويقرأون في النثر كتاب المكافأة لابن الداية، وحضارة السلام في دار السلام لجميل نخلة، ومهذب رحلة ابن بطوطة، وكليلة ودمنة، ومختار الأغاني، ومهذب الكامل، وغيرها، أما في الجامعة، فكانت الدراسة تقوم على العودة إلى الأصول، فلا تصرف ولا تلخيص ولاتهذيب، ولا مذكرات!

وكان التلاميذ في المرحلتين الابتدائية والثانوية يحفظون قدرا كبيرا من الشعر في شتى عصوره، وفي الوقت نفسه كانت دار الكتب المصرية، إلى جوار مطبعة بولاق، تصدر أمهات كتب التراث شعرا ونثرا، في طبعات محققة جيدا، وشكل جذاب، مثل ديوان زهير بن أبي سلمى، ومهيار الديلمي، إلى جانب كتب الأغاني، والأمالي، وعيون الأخبار، وصبح الأعشى، ونهاية الارب، وتفسير القرطبي، وتقدمها للقارىء بأسعار مناسبة، فترتفع بمستواه في القراءة والاختيار.

متى ترحمنا الهيئة العامة للكتاب من سلاسلها السخيفة التي لايقرأها أحد، وتهبط بمستوى الذوق بدل أن ترتفع به، وتشجع غير الموهبين على أن يعتبروا أنفسهم كتابا وشعراء وقصاصين، وتقعد بهم عن التجويد، وتنمي فيهم روح الغرور القاتل، وتبعثر المال العام فيما لا يفيد؟

الأمل يكمن في الريف

من يتابع حركة الثقافة في مصر واعيا ، لاتخطئه ظاهرة أن الأمل يكمن في الريف، هناك المواهب المتفتحة، تنتظر من يعنى بها، تعيش ظروف غير مواتية ، حياتيا وثقافيا، إذا رعيناها بتهيئة وسائل التثقيف لها، وتعهدنا إبداعها بالتشجيع، فسوف نقع معها على خير كثير، وعلينا ألا ننسى أن معظم شعرائنا المحدثين كانوا ريفيين، وأن جل شعراء العربية تحدروا من البادية، غير أن ما يحدث الآن أننا لانلتفت إليهم، ولانهتم بأمورهم، ودعك من صخب الثقافة الشعبية، ومن الاسم الطنان «قصور الثقافة» فهي في جملتها تظاهرات إعلامية، ذات ضجيج أجوف، وعائد محدود، مع أنها يمكن أن تقوم بدور بالغ الخطورة، إذا أخذت أمورها بجدية أكثر، ومع استمرار الإهمال للمواهب الريفية، وقلة التغذية الثقافية، وغيبة التشجيع الذي يدفع الموهوبين إلى المواصلة، تجف الآمال، وتذبل البراعم، وتموت شابة.

يرتبط بأمر البعث الشعري بخاصة والأدبي بعامة أمران على قدر كبير من الأهمية، ويتصلان ببعضهما، الأول منهما



إبراهيم ناجي



محمد مهدي الجواهري

يرتبط بحرية التعبير، فلابد أن نفسح أمام المبدعين والكاتبين حرية المغامرة، إذ بدونها لن نتوصل إلى أعمال عظيمة فى مجالات الفنون المختلفة واعين أن أى مغامرة فكرية لها ثمنها، يتحمل المبدع وحده ثمنها إذا أخطأ أو انحرف، وأود أن أكون فى هذا الأمر واضحا، إن المؤسسات الثقافية الرسمية، كتبا ومجلات، لاتحمى المغامرات ولاتحملها، لأنها محكومة باتجاهات الرأى العام، الذى ينفق عليها عن طريق الضرائب، ولايصح للدولة أن تنفق منها على مطبوعات لايرتضيها، ولكن أى كاتب أو ناشر من حقه أن ينشر مايراه فكرا، مادام يتحمل تكاليف طبعه ونشره، وأن يكون له هذا الحق مطلقا، فى رقابة القضاء وحده

جهود ضائعة !

والجانب الآخر من هذه القضية هو المجلات الرسمية التى تصدرها وزارة الثقافة، أو الهيئة العامة للكتاب، وهى مجلات ميتة، لاتقوم بأى دور ، وليس لها أى عائد، وتصدر أو تختفى، وتظهر فى وقتها أو تتأخر، دون أن يحس بها أحد، وقد يكون بين كتابها، أو مايكتب فيها، مايستحق التقدير، ولكن حاجزا نفسيا قديما يقف حائلا بين الرأى العام وأية مطبوعة حكومية، فهو لايثق فيها، ويراها دائما تخادعه، وتحتال عليه، لتقنعه بما ليس صحيحا، وتجرعه مايكره، ومن ثم فهو معرض عنها دائما حتى لو جاءته مجانا

هذه المجلات على امتداد سنوات طوال من تاريخها، لم تكتشف موهوبا، ولم تقدم شاعرا عظيما، وإنما تزحم صفحاتها بأن يجيئون ويذهبون، يظهرون ويختفون، دون أن يلفتوا نظر أحدهم، ويشعر القارىء، إن صدقا وإن وهما، أن هذه المجلات تتحرك بين خطوط فكرية محددة سلفا، إذا لم تكن بفعل الدولة فهى بفعل أصحابها القائمين عليها، حفاظا على مكانتهم، وتجنبا للمتاعب، مع أن الحياة الأدبية تتسع لكل ألوان الصراع الفكرى، دون المس بأمور السياسية القريبة، ذات المزالق الخطرة، التى يخشاها رؤساء التحرير

تشعر وأنت تقرأ هذه المجلات أنها باردة جامدة، لاتثير فى أعماقك حب التفكير، ولاتمتعك بفن حق، وأنها تصدر لنوع معين من الكتاب والمبدعين، لا تجدد ولاتبتكر ولا تغامر ربما لأن رؤساء التحرير فيها موظفون حكوميون، الجهد الذى يبذلونه محدود، والرغبة فى التجويد عندهم فاترة، وتضخم الذات يخلق عندهم

إحساسا بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان، ولذا فهي في كل يوم أقل توزيعا، وأخف صوتا، وأدنى مستوى في الكاتبين، دون أن يرعب هذا مسئولا في المجلة، وماذا يهم، إن وزارة الثقافة تدفع آخر كل شهر!


البارودي


نزار قباني

مهمة محددة

لاتعرف البلاد الديمقراطية العريقة شيئا اسمه وزارة الثقافة، هي في وطننا نتاج النظام الاشتراكي الذي تخلينا عنه، وأدرنا له ظهرنا، وإذا كان من الضروري أن تبقى فلتكن مهمتها التخطيط والدعم، وأن تترك أمر إصدار المجلات الأدبية والثقافة للأفراد والمؤسسات الأهلية، وأن تكتفي بدعم الصالح منها عن طريق الإعلانات الحكومية، والاشتراك في أعداد كبيرة منها، توزع على المكتبات، ومراكز الثقافة، والمعاهد العلمية، وهي طريقة أثبتت في سالف الأيام أنها أكثر فاعلية، وما ينفق على مجلة فاشلة واحدة من مجلاتها التي تصدرها الآن، يمكن أن يدعم عددا أكبر من المجلات غيرالرسمية، فتخلق حركة فكرية ناشطة، وصراعا أدبيا ايجابيا، وتبرز على صفحاتها مواهب مدفونة، تواصل طريقها صعدا بعد أن تلفت إليها الأنظار!

لقد عمل كثيرون من الذين يتصدرون أجهزة الاعلام المختلفة، مقروءة ومسموعة، ومن نقاد لايحسن جلهم أن يقرأ قصيدة دون أن يخطئ، أو أن يسمي كوكبة من أسماء شعرائنا الكبار تزيد على أصابع يديه، على إلقاء حاجب صفيق كثيف على قلة من الشعراء المجيدين الحقيقيين الملتزمين، ليفسحوا لأنفسهم، أو لغيرهم من رفاقهم مكانا، ومع ذلك لا الشعر ازدهر، ولاهم كبروا، وجنوا على المواهب الشاعرة حقا، وكان خيرا للجميع، لو تركنا مائة زهرة تتفتح، والبقاء للأصلح!

الشعوب العظيمة، والعريقة في حضارتها، هي التي لاترضى بواقعها أبدا، وتطمح في التقدم، وترنو إلى آمال بعيدة، تأمل وتحلم، وتعمل على تحويل الأحلام والآمال إلى واقع، وكنت أرى مصر في الجانب الأكبر من تاريخها كذلك، ولذلك أحسست بأننا تنكبنا جادة الصواب، وبهتت أحلامنا، حين رأيت المثقفين في وطني راضين عن واقعه الشعري، ويتصورون أننا شعب يعيش خير لحظاته في عالم هذا الفن الجميل!

الوادى

السالك يمشي مبتسماً وسرور السالك لا ندريه
السالك سر لا أدريه وأغنية الأحباب بفيه
هو يمشى فى الظلمات ولكن نور الحب عليه يتيه
ويتيه بأن النور به مجهول ، أن الحب تجلى فيه
هو يعرف ماذا فى درب الوادى مكتوب عند أبيه
وأبوه السالك قبل السالك عاش لدى طلل يبنيه
والسالك ذا مسكين ضل وعاد ، وعاد لأرض التيه
والسالك ذو سر نورى ظل على قلبى يخفيه
السر لديه سرور جنان الروح وزهر لا يهديه
السر كعصفور مسكين ضل ؛ وسالكنا يؤويه.

* * *

الوادى بان له والسالك يدرى السر لهذا الوادى
الوادى بين جبال تشأى العين وتطمح فى الآماد
وبه شجر يخضر ويذهب فى قلبى كصدى الأعياد
وبه عين طابت ، وبه النجمات وتاريخ الرواد
وتراب الوادى أفئدة جاءت لتشاركنى أورادى
وعويلُ الريح به كعواء الذئب ، كصوت صراخ الضاد
تلتف الريح كما الأفعى وتطير إلى ليل ببلادى
وتظل تغنى الريح غناء الشوق إلى عهد الإسعاد
والسالك يمشى مبتسماً يتذكر أعياداً لحصاد
يتذكر قريته وحبيبته وعهوداً ما خلف الأطواد.

* * *

السالك يمشى درباً ظلمته سلواها تذكار الأحباب
وحكايات عن إنسان ضلت عن صحبته الأسراب
والناس بهذا الدرب المظلم يتساقون وراء سراب
والظلمة تأكل ما حملوا والليل كذئب أو كغراب

شعر : أبو الطير سامح النجار

والناس بهذا الوادى كل نحو حقيقته ينساب
والوادى مثل النهر سرى والقلب على شجن يرتاب
والوادى يمضى مثل مدى شجر من خلف الليل حراب
والصمت كنهر الوادى يسرى مثل مسافته أعشاب
وربيع الوادى فيه ذئاب فى حملان ، كالأتراب
والراعى يرعى العشب يخاف على واديه من الأجداب
السالك يمشى فى جنبات الوادى يضحك للأزهار
أو يعبس فى وجه الذؤبان وللثعبان وللأشرار
السالك نحو بلاد الله وراء الوادى سار وسار
والضوء بعيد خلف الوادى ليس لذاك السالك دار
تعشو عيناه وخوف الدرب على هذى الطرقات شعار
السالك ليس يخاف لأن الله له والخوف العار
السالك كالأطيار يود يعود إلى زمن مدرار
فى عيد حصاد مسرور ينداح به بين الأوكار
كجداول ماء صافية تنساب ببط للأنهار
كنخيل تعلو شامخة تتسمع ألحان الأوتار

* * *

الوادى سار وسالكنا ينداح به أو لا ينداح
الوادى سال بسالكه والسالك فى درب الأدواح
والراح حديقتها تنمو والكرم بها ملء الأدواح
والنور بدا والوادى الورد لديه زها ، زهر فواح
هو يمشى صوب بلاد الله ونور القلب به يجتاح
والسالك إنسان يمشى لحقيقته رجل ينساح
الوادى سكته لبلاد الله بها نور قد لاح
السالك سر القلب به والقلب لديه عهود براح
لا ريب لدىّ بأن السالك موصول بعهود فلاح.

الشعر العربي

مشكل التأريخ قبل مداخل قراءة النص

بقلم: د. عبدالمنعم تليمة

☐ سمى العلماء والدارسون القرن الماضي - التاسع عشر الميلادي - قرن التاريخ، وقصدوا أن لكل شيء تاريخا، وأن لهذا التاريخ قوانين ونواميس عامة يمكن للعلم أن يصل إليها وأن يحددها، وصاغ دارسو الفن على هذا الأصل تاريخا عاما للفن، وقرنوا في هذا التاريخ بين الأنماط الأساسية للفن وتطور الحضارات في كل التاريخ البشري المدون والمعروف. وفي هذا الصدد ميز هؤلاء الدارسون ثلاثة طرز أو أنماط من الفن، يواكب كل منها مرحلة حضارية طويلة من مراحل التاريخ: فالأول هو النمط الرمزي ومثاله فن العمارة في الطور الأول من الحضارات القديمة المصرية والهندية والفارسية والصينية. والثاني هو النمط الكلاسيكي ومثاله فن النحت في الطور الثاني من الحضارة المصرية القديمة وفي الحضارتين اليونانية والرومانية. والثالث هو النمط الرومانسي ومثاله فن التصوير ومعه الموسيقي والشعر في الحضارة الحديثة. لقد اعتد من وضعوا هذه الصياغة لتاريخ الفن - وفي طليعتهم: هيجل - بانتقال الفن من الحجوم إلي الجسوم إلي الرسوم، من كثافة المادة المشكلة إلى رهافتها، من الموضوعية إلى الذاتية. الغلاظة سمة المادة التى تنهض بها العمارة، وتخف هذه الغلاظة في النحت، ثم تشف في التصوير الذي ينهض علي مادة سمتها اللطافة، وتبلغ اللطافة مداها في الفنون التي تنهض بالصوت، الموسيقي والشعر. والشعر هو مجمع الفنون، إذ يبلغ الصوت فيه كماله، فالصوت في الشعر مطاوع، يشيد ويجسم ويشكل ويوقع ويحكي... إلخ.

فالشعر إذن أقدر الفنون على التجرد من المحسوس، وأقدرها على تمكين الروحي من السيطرة على الحسي. بل إن الشعر أغنى من كل الفنون في إمكاناته وطاقاته التعبيرية. فهو لاينقل الحركة جامدة كما ينقلها فنا النحت والتصوير، ولاينقلها متحركة إلى الأمام كما ينقلها فن الموسيقى، بل هو ينقلها في جميع مراحلها، كذلك يفعل في نقله العاطفة والفكرة، فإنه لايقف في الأولى عند لون من ألوانها ـ فرحا .. حزنا .. إلخ ـ ولايقف في الثانية عند لحظة من لحظاتها. إن الشعر فن كلي كامل، يستوعب طاقات الفنون وإمكاناتها، ولهذا فإنه فن الفنون.

● طبيعة النص الشعري

وحددت الصيغة السالفة أمرين مهمين، أولهما صلة تاريخ الجماعة العام بتاريخها الإبداعي، وثانيهما طبيعة النص الشعري وصلته بالموروثات بعامة وبالتراث الشعري بخاصة. بدهي أن تاريخ الجماعة ـ عاما وإبداعيا ـ واحد في انتقالاته الأساسية، وعلى هذا فإن الصلة بين الوجهين أصل، غير أنها ليست صلة تطابق. هي أصل لأن العلم يحدد ماهو تاريخي في حياة المجتمعات بالمراحل الاستراتيجية الكبرى أو بالانتقالات التاريخية الأساسية من مرحلة تميزها علاقات اجتماعية إلى مرحلة قائمة على علاقات اجتماعية أخرى، ويحدد أن المثل الجمالي الأعلى يفصح عن جمالية مرحلة تاريخية كاملة من حياة المجتمع ولا يتغير هذا المثل تغيرا حقيقيا إلا بتغير هذه المرحلة. إن الفنان ينتج آثاره في ظل ظروف محددة من تطور جماعته من حيث أدوات العمل الاجتماعي وخاماته وعاداته وعلاقاته ومن حيث (تقسيمه) والتخصص فيه، كذلك فإن التشكيلات الجمالية والتقاليد الفنية ليست منعزلة عن سعي الجماعة الى تثبيت خبرتها التكنولوجية والاجتماعية في أسلوب وإطار. لكن الصلة ـ كما سلف ـ ليست صلة تطابق. ثمة مشكلات نظرية ومنهجية يجد مؤرخ الفن أن عمله متوقف على صياغتها صياغة فكرية وعلمية صحيحة.. وفي مقدمة هذه المشكلات الاستقلال النسبي لتطور صور الثقافة، بل لتطور كل صورة من صورها وفي مقدمة هذه المشكلات فيما يتصل بالإبداع خصوصية الظاهرة الفنية بين صور الثقافة المختلفة. الأساس المنهجي هنا أن الفن يتعامل مع (مادته) تعاملا (خاصا) يجعل للظاهرة الفنية نوعيتها المتميزة وقانون تطور خاص، لايتطابق والقوانين التاريخية على الرغم من عمله وفق حقائقها العامة. هذا الأساس المنهجي معين على بيان مراحل تاريخ الفن وعلل تطوره أو تخلفه وبيان الحاجات الجمالية

المؤدية إلى نشوء الأنواع الفنية وعلل تطور هذه الأنواع أو انقراضها أو تعدلها أو استمرارها في غيرها.... إلخ. وبيان المبادىء والأصول الجمالية لنشوء المدارس والنظريات والاتجاهات والأساليب الفنية.. إلخ. وثمة دقيقة من دقائق تاريخ الفن تتصل بمفهومي (التطور) و(التقدم) في هذا التاريخ. التطور معناه (التغير) والتقدم معناه (التغيير إلى الأفضل)، والفن يتطور لكنه لا يتقدم.. وبطبيعة الحال فإن تغير الواقع والتقدم الإنساني عامة قد أثرا تأثيرا عميقا في مجرى التطور الفني، إذ أمد الفنون بخبرة واسعة بالمادة وخصائصها وطاقاتها، وبخبرة تكنيكية مساعدة في التنفيذ والتشكيل والعرض، وبتراكم معرفي كبير.... إلخ. ولقد أتاح كل ذلك للفنون أن تتنوع وأن تتعاون وأن تتداخل. كما أن كل ذلك قد (عقد) الخبرة والمدارك الجمالية وصقلهما، وقد أفضى كل هذا إلى أن يكون نموذج الواقع في الفن نموذجا (مركبا). غير أن الفيصل في الموقف الفني ليس التركيب أو البساطة في طرائق أداء هذا الموقف وتوصيله، وإنما الفيصل هو القدرة على التشكيل، ولايحدد هذه القدرة تركيب ولا بساطة في الأداء، إنما تحددها (طاقة) الفنان المبدع نفسه. ورب موال (بسيط) يبدعه فلاح أمي في قرية نائية من قرى مصر أقدر على هذا التشكيل من عمل (مركب) وقفت وراءه كل خبرة التكنيك وتعقيده. والشعر المعاصر أكثر (تطورا) من الشعر القديم، لاعتماده ـ الشعر المعاصر ـ بناء الصورة المركبة والعنصرين القصصي والدرامي، لكن هذا الشعر ليس أكثر (تقدما) من الشعر القديم. إن تطور الفن يتبدى في البحث الدائب عن تشكيل يلائم التعميم الجمالي لوضع تاريخي اجتماعي بعينه. ويتخذ هذا البحث صورة نشأة أنواع فنية جديدة، وانقراض أنواع أخرى وسيادة نماذج إنسانية بعينها وطرائق في البناء والأداء، ونظريات ومدارس فنية، ومناهج نقدية وجمالية... إلخ. إن الحديث هنا ليس (أفضل) من القديم ولا أرقى منه وإنما هو أكثر ملاءمة لتشكيل تعميم جمالي جديد، ولهذا يحل القانون العلمي الحديث محل القانون العلمي القديم، أما في الفن فإن الحديث لايَجُبّ القديم ولاينفيه أو يقوم مقامه. إن مرثية الشاعرة المعاصرة فدوى طوقان في أخيها إبراهيم طوقان ـ مثلا ـ لاتغني عن مرثية الشاعرة القديمة الخنساء في أخيها صخر. لايميز بين القصيدتين قدم ولا حداثة، إنما يميز بينهما الاقتدار التشكيلي.

● مشكل الشاعر

وفي الأمر الثاني ـ النص الشعري ـ كانت نتيجته مهمة. النص الأدبي كيفية

خاصة فى التعامل مع أداة عامة وهى اللغة. وفى بيان هذا الأمر خلاف عريض مع غلاة الأخلاقيين من ناحية، ومن غلاة الشكليين من ناحية ثانية. إن غلاة الأخلاقيين يسألون: لم أنشأ الشاعر قصيدته، طالبين (معنى) مفارقا لتشكيله، وهنا تضيع (الكيفية) التى هى جوهر الشعر. أما غلاة الشكليين فيسألون: كيف أنشأ الشاعر قصيدته، طالبين بناء شكليا مفارقا لسياقه التاريخى والاجتماعى، وهنا تضيع (بنية الموقف) وهى الدلالة النهائية لبنية التشكيل. إن مشكل الشاعر - الكاتب المبدع الأدبى عامة - ليس مشكل توصيل وإنما هو مشكل تشكيل. إنه لا يتوجه بمعنى مسبق يسعى إلى توصيله كما أنه لا يتوجه إلى غرض يسعى إلى التعبير عنه. ولكن توجهه إنما إلى أن يثير فى اللغة طاقاتها الخالقة حتى يكمل له التشكيل الجمالى الذى يوازى به رمزيا واقعه النفسى والفكرى والروحى والاجتماعى. ولبنية التشكيل دلالتها النهائية فى بنية الموقف. ولايمكن الفصل بين البنيتين لأن من جدلهما تنشأ وحدة القصيدة والعمل الأدبى عامة. إن فضاء لنص تشغله ثلاثة عناصر: أولها ذات الشاعر حيث تسعى إلى الإفصاح من موقف هو ثمرة التجادل بين ماهو ذاتى من أحلام ورؤى وماهو موضوعى من شرط تاريخى اجتماعى. وثانيها مطلق الشعر. حيث يسعى (الشعر) - حركة خلق - إلى التحقق مؤسسا على التقاليد والأشكال الشعرية المتواترة ومزلزلا ومعدلا لها ومضيفا إليها فى آن واحد. وثالثها اللغة حيث تسعى إلى التحقيق بالتشكيل الجمالى الذى يتخطى المألوف اللغوى إلى غير المألوف المبدع، وليست هذه العناصر الثلاثة متوازية، بل إنها لمتعانقة ومتداخلة ومتفاعلة ومتجادلة. إن الشاعر يلوذ بعين خياله يقع بها على ما لا تراه كل عين، ثم يشكل باللغة جسدا - نصا - ما سطع وضاء في خياله. ومدار المحاكمة النقدية ليس ماتصور الشاعر بعين خياله، وإنما ما صور وشكل بأداته. وليس الأمر طرفين - الموقف والتشكيل - إنما الأمر عملية واحدة، تشكيل جمالى لموقف: فالشأن - كل الشأن - للتشكيل إن الموقف لا يبين - حتى لصاحبه الفنان - إلا بعد تشكيله، ومن هنا فإن العملية النقدية - فى هذا المنظور - لاتنتهى ببيان موقف للفنان إلا بتمام درس اجراءات التشكيلية وطرائق البناء والأداء فى عمله. وكل قول نقدى لاينهض على قرائن تشكيلية هو من ذات الناقد وليس من عمل الفنان. وهنا أيضا تبلو إحدى الدقائق الجمالية المهمة.

القول هنا يتجاوز ثنائية (الشكل

والمضمون). وقد يرى راء أن مايعتمده هذا القول من أن النص (تشكيل جمالي لموقف) يوجد ثنائية جديدة هي ثنائية التشكيل والموقف. وليس هذا بشيء، لأن مذهبنا إنما يعني - في البدء وفي الانتهاء - أن النص تشكيل، ينتهي مع آخر وحدة من وحداته إلى موقف بمعنى أن التشكيل عماد النص والفيصل في (وجوده)، وأن الموقف ثمرة لهذا التشكيل وليس طرفا موازيا له في ثنائية جديدة تحل محل الثنائية القديمة. شكل ومضمون. ولابد في هذا الشأن من النص على أمرين. أولهما أن عمل الفنان إنما يرتد جملة وتفصيلا إلى اقتداره التشكيلي. وليس معنى الاقتدار (الحذق) - الذي ينتظم درجة استيعاب تقاليد النوع الفني وتشكيلاته المتواترة - وحده، بل معناه هذا الحذق موجها بموهبة مغزاها العميق أن الفنان (يرى) واقعه متشكلا، وثانيهما أن (موقف) الفنان . إنما يرتد إلى طائفة معقدة من العناصر والمكونات الموضوعية والذاتية، الاجتماعية والفردية، الفكرية والوجدانية، الماثلة والمثالية، ولما كان موقف الإنسان - فنانا وغير فنان - يمكن أن (يقرر) بوسائل إشارية وتعبيرية لانهائية، فإن الموقف في الفن لايمكن أن (يبين) إلا بوسائل تشكيلية جمالية . من هنا كان المدار في قراءة النص التشكيل، مذاهبه وطرائقه وأساليبه واجراءاته.

ما المستخلص؟

القصيدة وليد التراث الشعري كله إن الشاعر يتعامل بلغة جماعته، ولغة الجماعة وعاء يحتفظ بالهيئات والطرائق والقوانين والمقررات التعبيرية ، حقيقية ومجازية. وتاريخ التراث الشعرى وعاء يحتفظ بالتراكيب والتشكيلات والأنواع والأجناس الفنية والجمالية. ولاتتم قراءة القصيدة العصرية إلا بأن يعرض القارىء الناقد هذه القصيدة على كل ما سبقها من شعر بلغتها، لينتهي إلى تحديد ما أحدثه التراث الشعرى بها وماأحدثته به. إن القصيدة العظيمة مجلى للطرائق والتشكيلات الشعرية الموروثة، وهي في ذات الوقت تعديل لتلك الموروثات وإضافة إليها. قال ناقد جهير. عندما يتم الشاعر قصيدته يقول لها: «إذهبي واحتلى مكانك في تاريخ الشعر). وهو يعني أن القصيدة العظيمة حدث فني فريد، يحكي الأبنية المتواترة المتوارثة، ويزلزل أعمدتها بما يضيفه إليها من فتوح تشكيلية جديدة، لهذا نصصنا - في عنوان هذا الحديث - على أن تاريخ الشعر لازم لقراءة النص الشعرى العصرى.

وما المشكل؟

يتبدى المشكل في أن النقد العربي الحديث يجتهد اجتهاده في قراءة القصيدة العربية العصرية، مستعينا بما انتهت إليه الثقافة الإنسانية من نتائج ومناهج وإجراءات، بيد أنه يفتقد القاعدة

(التاريخية) التى أشرنا إليها. ذلك أن تاريخ الشعر العربى لم يصغ صياغة متكاملة جامعة، بحيث تتجلى أطواره ومراحله، وبحيث تسطع جمالياته من تشكيلات ومقررات وأساليب وأداءات. كل ذلك لازم وقاعدة لقراءة القصيدة العربية العصرية، لتحديد ما سقط فيها من المتواتر وماجاءت هى به من جديد، وبغير ذلك تبدو القصيدة العربية العصرية مغلقة منبتة الأواصر، لا أب لها ولا أم إن التصور الراهن لتاريخ الشعر العربى ضيق فقير: يقف هذا التصور عند قرنين قبل الإسلام ويرشح من هذين القرنين المعلقات، ويقف فى القرن الأول الهجرى عند ثلاثة شعراء هم الأخطل وجرير والفرزدق، وفى الثانى الهجرى عند ثلاثة هم بشار وأبونواس وأبو العتاهية، وفى الثالث عند ثلاثة هم أبوتمام والبحترى وابن الرومى، وفى الرابع عند المتنبى، وفى الخامس عند أبى العلاء، ويهمل هذا التصور ابداعات آلاف السنين قبل الإسلام فى مصر والشام ووادى الرافدين، وهى الإبداعات التى تمثل ـ مع اختلاف اللغات ـ عمقا جماليا للشعر العربى ويهمل هذا التصور الإبداعات الشعبية والمحلية فى العصور الوسيطة، حتى تراثنا الشعرى القريب، فى القرنين التاسع عشر والعشرين، لم يحط الدارسون بدائرته الجمالية كاملة، لقد نص مؤرخو الأدب على أن محمود سامى البارودى (رائد) الشعر الحديث، ومع ذلك فإن ديوان البارودى لايزال فى حاجة إلى التحقيق والنشر كاملا، بل لاتزال للبارودى أشعار بالفارسية والتركية لايدرى هؤلاء المؤرخون عنها شيئا. ونص مؤرخو الأدب على أن أحمد شوقى (شاعر) العصر الحديث، ومع ذلك نشر الدكتور محمد صبرى السوربونى سنة ١٩٦١، مجلدين ضخمين يضمان (الشوقيات المجهولة)، بيد أنه ـ من أسف ـ بعد التثبت وتحقيق النسبة إلى شوقى قطع أبياتا من بعض القصائد بدعوى أنها لاتتفق وذوق العصر، وهكذا يظل شوقى ـ شاعر العصر الحديث ـ تائها بين المعلوم والمجهول. فهل نضيف أن لشوقى عشرات القصائد بالعامية، تبلغ شاعريته فى بعضها ما بلغته فى قصائده بالفصحى، ولا يدرى المؤرخون والدارسون شيئا عن هذه القصائد.

إن تاريخنا الإبداعي، الشعري خاصة، طويل عريض ثري. يرجع قديمه إلي آلاف السنين من التفاعل الحضاري بين ثقافات مصر وشبه الجزيرة ووادي الرافدين والشام. ويتسع وسيطه ليضم خوالد من المحليات والعاميات والشعبيات. وينفتح حديثه علي جميع الأبنية الثقافية الحديثة. غير أن تاريخنا الإبداعي هذا لم يدون بصورة منهجية منظمة تحيط بأصوله وروافده، وتحدد مراحل تطوره، وتبين تقاليده البلاغية والتشكيلية والجمالية، هذا (التأريخ) لازم لذاته، وهو ألزم لدرس الشعر العربي الحديث وقراءة نصوصه.

ليس حنيننا إلى الماضي لكنه : بحث عن «الحلم»

بقلم : صافي ناز كاظم

عندما يدير الإنسان ظهره لمرحلة لاتعجبه، فيغمض عينيه بقدر الإمكان عن إفرازاتها الثقافية والفنية ونتائجها السياسية والبشرية متبعا منهج «الإلغاء» لكل مايزعجه، يحتاج إلى وسائد يملأ بها الفراغ من حوله: يسند بها ظهره، ويتكىء عليها من هذا الجانب وهذا الجانب، أو يمد فوقها ساقيه ليرتاح. هذه الوسائد يختارها الإنسان عادة من ماضيه السعيد. الماضى السعيد ليس بالضرورة هو الماضى المبتسم أو الرَّغد الخالى من الأعباء والهموم، بل الحقيقة أنه الماضي الذي كانت به المعاني والدلالات والمؤشرات: الماضى الذى نبتت فيه «الأحلام» أو ارتوت أو ترعرعت.

وعندما ينظر إنسان من مواليد الثلاثينيات إلى ماضيه يجده في مرحلة طفولته التي تكون في هذه الحالة هي فترة الأربعينيات، من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٥٠ مثلا. لو راجعنا تلك السنوات العشر نجدها، حتى عام ١٩٤٥، مرحلة حرب عالمية ثانية طاحنة وموجعة للمنتصر والمنهزم على مستوى العالم. ونجدها ـ السنوات العشر كلها ـ على أرض مصر مرحلة ملكية تزداد فسادا يوما بعد يوم، ومرحلة أغنياء حرب جشعين، وملاك أراض لا رحمة في قلوبهم نحو الفلاح الأجير، ومرحلة احتلالٍ انجليزي، في أوْجه، يجد من بين رجال الدولة من يهادنه ويتملقه ويأتمر بأمره بل ويحبِّذه. ونجدها فوق كل هذا مرحلة قيام دولة الكيان الصهيوني في مايو ١٩٤٨ بعد هزيمة للجيوش العربية على رأسها جيش مصر الذى عاد بقائده ضبعا ـ لا سبعا ـ صفة مخففة ـ كالعادة ـ لكونه



محمود حسن اسماعيل



على مبارك



سلامة حجازى

قائدا مهزوما. ونجدها مرحلة أصيبت مع فضيحة الأسلحة الفاسدة بوباء الكوليرا وضعف دخل المواطنين وغلاء الأسعار التي عبر عنها شكوكو في أحد مونولوجاته المذاعة من المذياع في حينها تقول:

«آه م الأسعار،
عند التجار،
بتولع نار،
آه م الأسعار،
ورغيف العيش،
شكله ده عيرة،
مايكفي حتى لمسح الزور،
وأنا عندي يابوي،
صبيان وبنات،
ومراتي ما بتبطل طلبات!»

كما أننا نجدها مرحلة ساد فيها التميز الطبقي لأمراء ونبلاء، وأرستقراطية اختارت الاستعلاء على الشعب بالمستعمر الغربي، الفرنسي والإنجليزي، والمتمرد بينهم يختار الإعجاب بالألماني، فكانت لهذه الطبقة تقاليدها وسماتها المنفصلة تماما عن تقاليد وسمات الشعب المصرى بغالبيته المسلمة، فالفرنسية كانت هي لغة التخاطب لمجتمع السراى ومن يلوذ به من حاشية وأرستقراطية، كأنها لغته الأم، والإنجليزية تكون اللغة الثقافية أما الألمانية فتكون المربية لأطفال هذا المجتمع فى صورة إمرأة ألمانية أو سويسرية حازمة.

وإذا تكلمت هذه الطبقة ـ التي كانت تسمى كذلك الطبقة الراقية ـ اللغة العربية ، فهي لغة عامية عاجزة لاتنطق الحاء أو القاف ولكنها كافية لغرضها المحدود وهو التفاهم مع الخدم.. ومع حرص هذه الطبقة على أسماء مثل خديجة وأمينة وفاطمة وزينب وخيرية وفخرية ومحمد وأحمد وعلى وحسن وحسين وإسماعيل وإبراهيم.... إلخ لانجد لديها حرصا على إسلامها ـ إلا في النادر ـ فهي طبقة في كل أحوالها «ألافرانك» ـ أي تابعة للنموذج الغربي الغالب عليه الفرنسة. وتنحصر طقوسها الإسلامية في احترامها الشكلي للشعائر خاصة في شهر رمضان فنمتنع عن إقامة حفلاتها الصاخبة، بالخمر والخنزير والرقص والمجون، خلاله أو على الأقل لاتنتشر أخبارها بالصحف. فالإسلام في محيطها محصور كذلك في نطاق الخدم حين يكون من بينهم صائم أو مصل. باختصار يمكننا أن نقول إنها طبقة «لم تتعرف» على الإسلام أكثر من كونها «خارجة» عليه أو «تاركة» له. وحين يستجيش في صدر أحد أعضائها حنين ديني يكون أقرب إلى الكنيسة الغربية منه إلي المسجد، فالمربية الألمانية أو الإنجليزية أو الفرنسية لم تستطع أن تلبي الاحتياج الديني لهؤلاء الناس في طفولتهم إلا عبر مفاهيم عقيدتها المسيحية. بالإضافة إلى ماذكرناه عن أنها طبقة انتمت بحذافيرها للنموذج الغربي بحذافيره، : فضائله فضائلها ورذائله رذائلها . والطريف، وإن كان مؤسفا مقززا، أن علاقة هذه الطبقة بالقرآن الكريم كانت علاقة تشاؤمية فهو مرتبط عندها بالموت، لاتسمعه إلا في جلسات العزاء . في تلك المرحلة كانت مصر تعج بالأجانب بمستوياتهم المختلفة، من الخواجة الصديق المتاخم للطبقة الراقية، إلي يهود أحياء الظاهر والسكاكيني وحارة اليهود مع الإيطالي والأرمني واليوناني واليهود المصريين المحتمين بحماية فرنسية أو إيطالية أو..... إلخ. ومعظمهم كان يتكلم إلي جانب لسانه الأصلي ـ إذا توفر له ـ اللغة الفرنسية التي كانوا يحبون أن يترفعوا بها عن سواد الشعب المصري وليكونوا أقرب إلى الطبقة الحاكمة الأرستقراطية والراقية، فكان بإمكان أي يهودية «فشلاتة» من يهود الظاهر، والتي عادة ما كانت عاملة في أي من المحلات الكبرى، أن ترطن مع زميلتها بالفرنسية لتخلق جوا من الترفع المحرج لزبونة مصرية بنت بلد. والإنشاد في تعداد مساوىء تلك المرحلة لا نهاية له.

★★★

لكن :

في كل هذا المحيط الفاسد الشائه والقبيح ، كانت تلك السنوات الأربعينية شاهدة على وعي شعبي ثاقب، تبلور من جهود قيادات وطنية من الطبقة الوسطى على مدار سنوات طويلة، رافض للاحتلال ولضياع فلسطين، رافض للفساد، رافض لهيمنة طبقة

منسلخة عن ثقافة ولغة، ودين أمتها، رافض للظلم والقهر والاستعباد والاستبداد، ناهض بالإعتزاز بلغته وتقاليده وصناعته وقدراته.. وعى شعبي مفعم «بال أ م ل» ترفرف فوق رأسه طيور الأحلام الجميلة: خضراء وبيضاء وذهبية. «ال أ ح ل ا م».

***

لم يكف الأزهر أبدا عن استقبال أولاد الفقراء ـ من جميع أنحاء الوطن الإسلامي ـ يعلمهم ويربيهم ويهذبهم بلا مقابل ولوجه الله يعطيهم فوق ذلك «الجراية» من طعام وملبوسات إن احتاج الأمر. وكلمة «جراية» ـ التي كان من الطبيعي أن يجعلها تيار «الألافرانك» مادة سخرية وإضحاك ـ تأتي من «جرى» ولها عدة معان من بينها «الجارى من الوظائف» أي المستمر. وكان الأزهرى الموهوب يصعد حتى العالمية ويرتقى المناصب المسئولة في توجيه الأمة ـ وهنا أحيلكم إلى كتاب المغفور له بإذن الله الأستاذ فتحى رضوان طيب الله ثراه: «دور العمائم في تاريخ مصر الحديث» ـ الذى صدر في سلسلة كتاب الزهراء، العدد الأول، إبريل ١٩٨٦ ـ وفيه يرصد عمائم السيد عمر مكرم، والشيخ رفاعة الطهطاوى، والشيخ محمد عبده، وعلي يوسف: عمامة عظيمة على رأس فلاح، والشيخ عبدالعزيز جاويش، والشيخ الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي ـ ويقول الأستاذ فتحى رضوان رحمه الله في مقدمته ص ١٤: «يحسب أكثر الناس أن تاريخ مصر صاغته أيدى رجال طلبوا العلم في المدارس المصرية المدنية في درجاتها الثلاث: الإعدادية والثانوية والعليا، وأنهم كانوا علمانيين، لا ينتسبون إلى معاهد العلم الديني ولا يحسنون التعبير عن أنفسهم ومنهم ممن يحفظون القرآن، أو ممن حفظوا جانبا منه ثم نسوه، وممن درسوا الحديث وتعلموا كيف يميزون بين ما كان منه حسنا وما كان ضعيفا وما كان منكرا، ثم طوحت بهم الأقدار إلى دنيا إخوانهم ممن حصلوا العلم في مدارس الحكومة، التي لم تكن تلقن من الدين إلا أقل القليل ولم تكن تعنى باللغة العربية إلا إلى الحد الذى يعين الطالب على معرفة القواعد الأصلية، فيرفع الفاعل وينصب المفعول، ويعرف الفرق بين اسم كان وخبرها واسم إن وخبرها، ثم يجهل ما وراء ذلك جهلا تاما...». نهاية مقتطف وبداية آخر ص ١٥: «إذا تأمل الإنسان في تاريخ مصر الحديث، منذ بدأ حتى اللحظة التى تكتب فيها هذه السطور، ظهرت له حقيقة غريبة، وهي أن مصر الحديثة صاغها وصورها وألهمها بالفكر ودعاها إلى العمل ورسم لها طريق النهضة: شيوخ لم يتخلوا عن العمامة ولا عن الجبة والقفطان وحرصوا على أصول الحياة القديمة في الدار وفي خارج الدار، فأكلوا وشربوا، وتبادلوا أحاديث الأنس على النسق الذى حرص عليه وتابعه آباؤهم وأجدادهم، وأن هؤلاء الشيوخ، على شدة حرصهم على سالف العادات وقديم المناهج، كانوا قادة حركات تجديد ورواد نهضات تحرر، وناثرى بذور ثورة وطليعة عهد جديد، وأنهم ثاروا وتمردوا واصطدموا بقوى أكبر منهم، ولكنهم لم يتزلزلوا ولم يتخلوا عن رسالتهم ولم يداخلهم الخوف أو يتسرب إليهم الشعور بالنقص.» ـ نهاية مقتطف ـ وبعد هذه المقدمة يعدد في فصل

بعنوان: «المعممون في كل مكان» ـ إلى جانب شخصيات كتابه، أسماء يضيفها من شيوخ أزهريين: «...... من أضخم الزعماء تأثيرا على عقول الأجيال التى عاصرتهم والتى جاءت من بعدهم وفي مقدمة هؤلاء: على مبارك، وسعد زغلول، وإبراهيم الهلباوى، وطه حسين، وأحمد حسن الزيات، وأحمد أمين، وحسن البنا، وسيد قطب، ومحمد الههياوى، وصادق عنبر، وعلى الجارم، ومحمود حسن إسماعيل، ومحمد عبدالحليم عبدالله ـ (نجم الرواية فى الأربعينيات)..... وبقي كبار مطربي مصر بلقب الشيخ ينادون به دائما أمثال: الشيخ سلامة حجازى والشيخ سيد درويش والشيخ زكريا أحمد والشيخ محمد أبوالعلا، والشيخ سيد مكاوى. ولا يفوتنك أن بيرم التونسي... بدأ حياته أزهريا فى معهد دينى بالاسكندرية لعله معهد الشيخ إبراهيم باشا».. انتهى المقتطف.

★★★

ـ جملة اعتراضية بعد كلام الأستاذ فتحى رضوان وقبل أن أسترسل أود من القارىء أن يتأمل الحزن والأسى فى نبرة الأستاذ فتحى رضوان وهو يذكر أن المدارس الحكومية ـ قطعا ليس الآن ـ لم تعد تعلّم إلا مبادىء وأصول الدين واللغة العربية، ويرى أن معرفة أصول الضمة والفتحة واسم وخبر كان وإن فقط، معرفة قاصرة وتدهور مروع، فكيف به لو أنه استمع إلى خطاب يلقيه الأستاذ حسين مهران ـ القطب الكبير فى محافل الثقافة الجماهيرية ـ يوزع فيه الضمة والفتحة والكسرة عشوائيا كخطابه الذى استمعت إليه فى واحد من احتفالات المسرح القومى، ولا تعرف لماذا لا يهتم هو وأقرانه بوزارة الثقافة بتكليف مراجع لغوى يضبط لهم الكلام بالشكل، ولاشك أن الدكتور جابر عصفور الذى يعرف الأعمق من الضمة والفتحة، بوسعه من موقعه أن ينهض لمواجهة تكسير الأعمدة الخرسانية للعربية المنطوقة فى محافل وزارة الثقافة، لكنه معنى بقضية «تناص الشعر الإحياني» الذى يقول إنه «نص من النصوص المتناصة...» ـ رجاء مراجعة مقال د. جابر عصفور بجريدة الحياة اللندنية، ١٤/١٠/١٩٩٦ ، فالدكتور مشغول بالتنوير يا ناس! - ومما هو جدير بالذكر، والتداعيات تتوالى، أن الضابط الأديب فارس السيف والقلم يوسف السباعي، الذى هو فى ذمة الله، كان قد صرح فى أكثر من حديث تليفزيونى أنه: نعم يخطىء كثيرا فى النحو ولا يهمه وحتى لو ضبطت كلماته بالشكل فهو يطوح بالضبط ويتكلم على هواه، هذا وقد كان وزيرا سابقا للثقافة! -

★★★

وأعود إلى مسار كلامي الأصلي فأواصل: أما الذين لم يحالفهم الحظ من طلاب الأزهر ولم يكملوا الشوط، فقد توزعوا يعلمون الصبية فى الريف من خلال ما كان يعرف بنظام «الكتاتيب». وعلى الرغم من كل عيوب «الكتاتيب» التى تحدث عنها من تربى فيها



عبد العزيز جاويش



المنفلوطى



رفاعة الطهطاوى

فلقد ساهمت فى محو أمية الكثيرين، ومن خرج منها إلى حياة الثقافة ولم يستطع المواصلة المنتظمة للتعلم، خرج راسخ القدم فى اللغة العربية والخط والمعرفة الدينية الضرورية، وأضرب مثلا بالشاعر أحمد فؤاد نجم، الذى أجمع النقاد على كونه من كبار شعراء العامية فى مصر، فهو لم يدخل أى مدرسة على الإطلاق ولم يتعلم إلا فى «كتاب» قريته، لكننا لو قارنا بين «خطه» وسلامة لغته العربية وبين خريج من كليات الآداب الحالية فسوف يشعر الشاعر بالإهانة لمجرد اقتراح المقارنة، رغم أن المقارنة لن تكون فى دائرة الوعى والثقافة التى اكتسبها الشاعر نجم بعد ذلك من مناهل كثيرة غزيرة، فمرحلة «كُتّاب القرية» فى الثلاثينيات حين كان طفلا يدرس بها، علمته أصول الخط الجميل المصقول ودربته على النطق السليم للغته العربية الفصحى فعرف كيف يأخذ بها شدات لغته العامية الثرية، وضبطت له فنية الترتيل القرآنى الصحيحة فتربت أذنه على صحيح الإيقاع وأرشدته إلى النغم الفطرى فى الأحرف والكلمات.

إلى جانب «الكتاتيب» كان هناك التعليم «الإلزامى» ثم المدارس «الأوَّلية». والذى أذكره من طفولتى فى مدارس رياض الأطفال الحديثة الحكومية ثم الابتدائية بعدها، الإشارات السلبية التى كانت توجه إلى «الإلزامى» و«الأوَّلى» ناهيك عن «الكتاتيب». فكانت هناك كلمة «مش عاوزين شغل الكتاتيب!». وكانت هناك نظرات فوقية لأى تلميذة تحولت من «الأوَّلى» إلى «الابتدائى». كانت هناك بالقرب من حى السكاكينى مدرسة اسمها «سيدى كمال الأولية». وعندما اضطررنا ـ بعد وفاة أبى عام ١٩٤٤ ـ إلى الانتقال من الاسكندرية إلى القاهرة، خافت والدتى أن أنسى ما درسته فى روضة الاسكندرية فوضعتنى مؤقتا فى مدرسة «سيدى كمال الأولية» حتى يتم تحويلى وقبولى بروضة أطفال العباسية الملحقة. ومازلت أذكر الألم على وجه أمى تتصعب لوضعى

المؤقت ذلك، وسمعتها تقول: «مدرسة سيدى كمال الأولية مدرسة لمَّة!»، وكانت تقصد طبعا أن بها أطفالاً من طبقات شعبية، لكنني وقتها لم أفهم كلمة «لامَّة»، وعندما دخلتها أخذت أبحث كيف تكون المدرسة «لامة»، وبالطبع لم أستدل على أى مؤشر يغضبني من المدرسة، فالبنات لطيفات، وكان بينهن من يتكلم بلهجات ريفية وبلدية أعجبتني حكاياتهن وأغنياتهن ونكاتهن، فعدت إلى أمي أقول لها بصدق لأطمئنها: «المدرسة مش لمة يا ماما»، لكنني عندما تم تحويلي لروضة أطفال العباسية الملحقة لم تحبني مدرسة الفصل، التي كانت شخصية مهمة جدا لأنها مؤلفة كتاب قراءة الأطفال المقرر على كل مدارس رياض الأطفال، وكان اسمها أبلة إحسان أبو زويع، وعاملتني بقسوة وإهمال ـ وهي تجربة في حياتي مازالت توجعني إلى الآن وقد أفرد لها كتابة منفصلة ـ وذلك لأنها أُرغمت على قبولي ـ بواسطة خالي أبوحديد لمركزه المهم بوزارة المعارف حينئذ ـ وكانت نقطة رفضها لي هي أنني قضيت وقتا بالمدرسة الأولية فلم أعد بنظرها لائقة لروضة الأطفال. والذى لاحظته فيما بعد أن تلك المدارس «الإلزامية» و«الأولية» كانت تعتنى باللغة العربية عناية فائقة وتقريبا كل الذين تفوقوا فى المدارس الابتدائية والثانوية فى اللغة العربية والحساب كانوا من الذين تم تحويلهم من «الإلزامى» إلى «الأولى» إلى سلك المدارس الحكومية الابتدائى والثانوى المؤدى إلى الجامعة. ومثال ذلك على مستوى المشاهير، الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطىء» وأبو الأطفال العظيم بابا شارو، محمد محمود شعبان ـ فقد قال لى بابا شارو أنه تخرج فى الجامعة وعمره ٢٧ سنة وسبب ذلك أنه كان قد بدأ دراسته بالمدرسة الأولية ثم حوله أبوه إلى الابتدائى والثانوى ليحق له دخول الجامعة، التى تخرج فيها من كلية الآداب قسم الدراسات اليونانية واللاتينية وكان من المتفوقين بدرجة امتياز وظلت لغته العربية التى تأسس عليها فى مرحلة دراسته بالمدرسة الأولية هى شراع إبحاره نحو نجاحه الباهر كرائد من عباقرة الفن الإذاعي ـ ولاشك أن الفصاحة التى تتميز بها خطابة الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى ولغته العربية المتمكنة ونطقه السليم الواثق لها وراءها دراسته الإلزامية التى أهلته كذلك للمزيد حتى وصوله إلى المحاضرة فى «الكوليج دى فرانس» وهى فرصة ـ كما قال ـ لا تتاتى إلا لخاصة الخاصة من النبهاء فى العالم بأسره

★★★

إذا كانت تلك المدارس «الإلزامية» و«الأولية» مع «الكتاتيب» قد أدت مهمتها بكل جدارة فى تعليم اللغة العربية والدين، فلماذا كان كل هذا التعنت إزاءها ولماذا كان كل دارس بها يستشعر الدونية أمام نظام المدارس الحكومية فى تلك الفترة؟ السبب الأول أنها كانت لاتقوم بتدريس أى لغة أجنبية، والسبب الثانى أنهم قطعوا مسارها إلى أبواب

الجامعة. والسبب الثالث ربما لأنها كانت «مجانية» أي مدارس الفقراء!.

هنا أنصح القارئ بالرجوع إلى مقال د. سعيد إسماعيل على «ويسألونك عن الجامعات الخاصة» عدد هلال أكتوبر ١٩٩٦، ص ٤٦. فهو يغنيني عن شرح الروح الوطنية والقومية التى كانت تفكر وتخطط لتطوير التعليم فى مصر، وتبين كيف كان التعليم حقا متاحا كالماء والهواء «مجانا» للشعب المصرى ومنذ أمد طويل سابق لما بعد ١٩٥٢. فالأزهر كان مجانا بل ويدفع جراية، والكتاتيب والإلزامى والأولى مجانا، والبعثات التى كانت تشجع المتفوقين مجانا، أما سلك الدراسة الحديثة: الروضة والإبتدائى والثانوى والجامعة فكانت بها مجانيات على مستويات ثلاثة: مجانية التفوق، مجانية الكوارث ـ لمن فقد الأب أو العائل ـ ثم مجانية الفقر!.

أما المستوى الجامعى فقد كانت هناك معاهد عليا تعطى طلابها ثلاثة جنيهات شهريا فوق المجانية للجميع.

لم يكن التعليم الوطنى مكلفا، وهذا لا يعنى خطأ المجانية العمومية، لكن الذى يجب أن ننوه به أن التعليم الوطنى فى الأربعينيات كان يتازل ويتفوق على التعليم فى المدارس الأجنبية التى تخصصت فى تخريج الراطنين بالفرنسية والإنجليزية والمعوقين فى اللغة العربية. وكان خط التعليم الأجنبى بمدارس تحمل أسماء استفزازية لعقيدة الأمة مثل «المير دى ديو» أى «أم الله» ـ لا إله إلا الله الذى لم يلد ولم يولد ـ ونلاحظ هنا أن مثل هذه الأسماء كانت اتجاها لاتجده إلا لدى المخططين لإنشاء المدارس الأجنبية فى مصر من ذوى الهدف التنصيرى الموالى للاستعمار، خاصة الإنجليزى والفرنسى، وهو إتجاه يخالف تماما الاتجاه المسيحى المصرى الذى شارك بمساهمته فى إنشاء المدارس الوطنية بأسماء تعكس الطبيعة المتسامحة والمتعاونة للمصريين كافة بمسلميها ومسيحييها، فكان من بعض مساهماته مدارس التوفيق القبطية، «لاحظ كلمة التوفيق»، وكذلك تأسيس كلية البنات القبطية سنة ١٩١٠ التى انتقلت عام ١٩٢٦ إلى مبناها الحالى ١٩ ش السرايات بالقرب من ميدان العباسية، وهى مدرسة ابتدائية وإعدادية وثانوية تكاد تكون متزامنة مع ميلاد فكرة الجامعة الأهلية (١٩٠٨)، نواة جامعة فؤاد الأول (١٩٢٥) التى أصبحت جامعة القاهرة حاليا، ومدارس بنات الأشراف لرائدة التعليم نبوية موسى. على أن الاستفزاز التنصيرى لتلك المدارس الأجنبية، على مستوى الأسماء، أو على مستوى الدس فى المناهج الدراسية والقيم التربوية، لم تقابله سوى سياسة (الطناش) - وهى غير التناص - المصرية التقليدية التى تتلخص فى - (اتركه يجف يقع وحده) فأطلقت حرية اختيار الأسماء أيا كانت باعتبار أنها تفصيلات هامشية للكارثة الكبرى والأهم وهى: الاحتلال نفسه.

وكان هذا الخط الأجنبى بالغ التكلفة ولا يقبل عليه إلا المنسلخون عن ثقافة الأمة من الأثرياء وأبناء الطبقة الأرستقراطية والمسماة الراقية المعزولة ـ أما المدارس الحكومية فقد تعززت فيها الشخصية التى أرادت أن تجمع بين المعرفة الوطنية والمعرفة الندية

لثقافة العالم، فاهتمت بإدراج اللغة الإنجليزية والفرنسية بصفتها «لغة ثانية» ليتساعد المصري بها في الدفاع عن مصالح الوطن واللغة الأم!. خذوا بالكم هنا جيدا: كان الهدف الواضح لتعليم اللغة الاجنبية هو: الدفاع عن الذات القومية ونهضتها، ولم يكن أبدا للانسحاق وتحقير النفس أو الخدمة للاستثمارات الأجنبية وتحقيق مصالحها، فهذه الخدمة كان يقوم بها على أكمل وجه اليهود والأجانب المتمصرون أو العرب المتغربون.

★★★

صحيح أن المدارس الحكومية في الأربعينيات لم تعطنا ـ كما قال الأستاذ فتحي رضوان ـ الكفاءة المنشودة في اللغة العربية والدين بالمقارنة بالأزهر والمدارس المستمدة منه، لكننا كنا نستكمل النقص بما كانت تخرجه لنا دور نشر، مثل دار المعارف رحمها الله، من سلسلة أولادنا ورواياتها رفيعة المستوى لغويا وفكريا، وبما كانت تذيعه الإذاعة من برامج ممتعة تجمع بين المقصد الوطني في تربية النشء ولغة سليمة مسموعة تلح على آذاننا لنستشعر جمالنا ولغتنا في مواجهة يومية مع محتل وراطنين بالفرنسية لايملون من وخزنا بالاستعلاء لغرس عقدة «الخواجة»، ويجتمع صوت عبقرى الفن الإذاعى عبدالوهاب يوسف ـ طيب الله ثراه ـ و«الآنسة أم كلثوم تنشد أغنية السودان، شعر أمير الشعراء أحمد شوقي بك وموسيقى رياض السنباطي». قامات أربع تتساوى فوق أرض راسخة. ويسمع جيلي من أبناء الثلاثينيات وأطفال الأربعينيات شدوا يجتذبهم يقال فيه، لحنا وغناء في مذياع وطن محتل بالأجنبي وفساد سراى ملكية:

«وقى الأرض شر مقاديره ... لطيف السماء ورحمانها
ونجى الكنانة من فتنة ... تهددت النيل نيرانها
وعند الذي قهر القيصرين ... مصير الأمور وأحيانها
ويخلف الدهر حتى يبين ... رعاة العهود وصوانها
فما الحكم أن تنقضي دولة ... وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلاد ... وبالعلم تشتد أركانها
ولن نرتضي أن تقد القناة ... ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيه ما كالصباح ... وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه ... كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منذ جرى ماؤه ... عشيرة مصر وجيرانها
وكم من أساك بمجموعة ... من الباطل الحق عنوانها
ودعوى القوى كدعوى السباع ... من الناب والظفر برهانها»



عائشة عبد الرحمن



رياض السنباطى



أحمد شوقى

تخيلوا أطفالا يغنون «فما الحكم أن.....» «ولن نرتضى......» «وحجتنا فيه........» «وليس بمعييك ....». وهذه القصيدة كتبها شوقى قبل وفاته عام ١٩٣٢ .

★★★

كان الأمل يشد قامتنا، والحلم يرفع رءوسنا، ووراءنا زعماء فكر ووعى ولغة وثقافة، يختلفون قدر ما يختلفون لكن على الهدف كان الإجماع: «نهضة مصر»، ووجوه الشهداء تزرع فينا العزة والكرامة.

★★★

حين أسترجع الماضى وأستجلب منه الوسائد أبحث فى حشوها عن الأحلام والآمال وعن خريطة البناء الذى وضعت أساساته أجيال تولدنا منها جيلا لايزال معظمه على قيد الحياة ويحق له أن يتساءل: ماذا جرى لأعمدة البناء الرئيسية؟

★★★

مطلب : أرجو من أبنائى المسئولين عن صف كلماتى عن طريق «الكومبيوتر» أن يقتدوا باجدادهم الذين قاموا بصف «يدوى» لديوان الحماسة – ٩٠٠ صفحة – عام ١٩١٣ بواسطة «مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر»، من دون خطأ فى الحرف أو الشكل، وأن يحترموا اقواس الفتح والقفل لكل مقتطف ليعرف القارئ، متى يبدأ وينتهى كلام المأخوذ عنه، حتى لاتختلط كلماته مع كلامى وتصبح مقالتى كمثل الأبحاث والمقالات العلمية والأدبية للباحثين العظام والكتاب الأعظم فى عصرنا التنويرى المجيد .

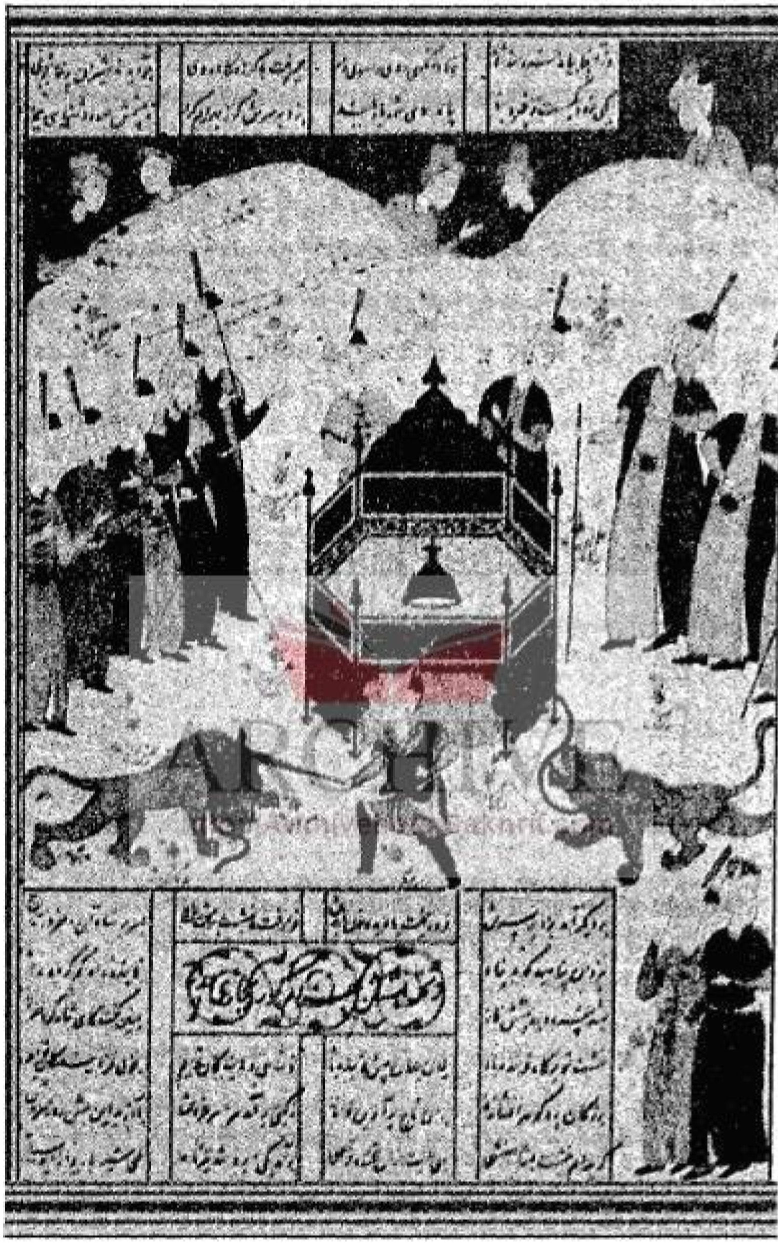
الشاهنامة البايسنقرية

سجلت أجمل اللوحات الفنية

بقلم: د. إبراهيم الدسوقى شتا

يظل نص شاهنامة الفردوسى أكثر النصوص الأدبية الفارسية الكلاسية إثارة لشهية فنانى الكتاب الفارسى من خطاطين ومذهبين ومشعرين ومصورين أو رسامى منمنمات، ولايكاد يمر عصر من عصور التصوير الإيرانى الأصيل دون أن يتحفنا بمخطوطة للشاهنامة كتبها أعظم خطاطى العصر وصورها عمد مصوريه. ومن بين مخطوطات الشاهنامة الموزعة فى أنحاء متاحف العالم ومجموعاته، تظل نسخة الشاهنامة التى كتبت للأمير بايسنقر بن شاهرخ بن تيمور (١٣٩٧ ـ ١٤٣٤م) تتصدر هذه النسخ، فقد كتبت فى العصر الذهبى لفنون الكتاب، وبالرغم من أن المخطوطة المحفوظة فى مكتبة طهران القومية لاتتضمن اسما لناسخها أو لمصوريها، فإنه يمكن بقليل من المقارنة مع المخطوطات التى حفظت أسماء نساخها ومصوريها فى العصر التيمورى التوصل إلى خطاطها ومصوريها فى معظم الصور على الأقل.. أما الخطاط فهو ميرزا جعفر الذى ينسب إلى بايسنقر فيطلق عليه لقب البايسنقرى وتغلب النسبة على نسبته الأصلية أى التبريزى، وهو التلميذ النجيب لمير على التبريزى ،كان الخطاطون والمصورون البارزون ينعم عليهم بلقب الأمير، وميرزا على التبريزى هو المبتكر الأول لخط النستعليق ،مزيج من النسخ والتعليق، الذى صار الخط المميز للمخطوطات الفارسية، وكان ميرزا جعفر رئيسا لأربعين خطاطا فى المكتبة البايسنقرية.

بهرام يقتل الأسود من عمل أقاميرك



وقد يكون قد حدث ثمة اشتراك فى كتابة المخطوطة التى بين أيدينا، ومن ثم لم يكتب المصورون أسماءهم.. وبالرغم من أن هذا التقليد كان سائدا فى كثير من المخطوطات التى وصلتنا، فإنه فيما يتصل بالشاهنامة البايسنقرية، يظل عدم كتابة أسماء المصورين لغزا من الألغاز، لايفسره إلا أن الأمير بايسنقر أراد أن يخلد اسمه هو فحسب، وثمة سبب آخر يرجع إلى أن التصوير الفارسى كان مجرد صنعة، وكان عنصر التقليد سائدا، بمعنى أن بعض المصورين كانوا يذيلون أعمالهم بتوقيع مصورين مشهورين بعد محاولة تقليد أسلوبهم تقليدا تاما، وإذا كانت الرواية التى تقول أن المكتبة البايسنقرية كانت تضم أربعين ألفا من الخطاطين والمصورين والمذهبين، فلنا أن نتصور أن عملا مثل الشاهنامة البايسنقرية كان من العسير أن يحتفظ بأسماء مصوريه ومشعريه ومذهبيه، ومن المتوقع بالطبع أن يكون أكثر من مصور قد اشترك فى رسم صورة واحدة، ومن المرجح أن عددا من المصورين كان لهم النصيب الأكبر فى رسم صور المخطوطة التى تبلغ اثنتين وعشرين صورة وأشهرهم مير مظفر وآقا ميرك وكمال الدين بهزاد وقاسم على وغياث الدين، وبعض الصور يبدو فيها طابع واحد من هؤلاء المصورين بشكل واضح كما سنرى من خلال عرضنا لها.

● بين الخيال الشعري والخيال الفني

والواقع أن الصور الموجودة فى الشاهنامة البايسنقرية تمثل قمة التصوير الإيراني فى مدرسته الأصيلة: مدرسة هراة، وهى فى رأى الخبراء تراث وحيد في بابه وفي قيمته، يتميز مصوروه بتمثل فذ لقصص الشاهنامة ولحكمة الفردوسي وبقدرة على المطابقة بين الخيال الشعرى والخيال الفنى، وتمكن من تصور الحدث موضع الصورة بدقة شديدة، والصور الموجودة بين أيدينا ذات تمكن فذ فى استخدام الألوان، والتأليف بينها وإظهارها، وملاحظة التباين فيما بينها، وفى الوقت نفسه الملاءمة بينها مما يدل على معرفة تامة بعلم الألوان، وعلم الملابس، وتاريخ الأسلحة، ومعرفة السحن والأصول والأجناس وعلم الحركة ومعرفة لابأس بها بعلم التشريح، وفوق كل ذلك تدل الصور على دراية بفن المعمار والقيشانى وأعمال الجص وبقية الفنون الخاصة بتنظيم ميادين القتال وحلقات

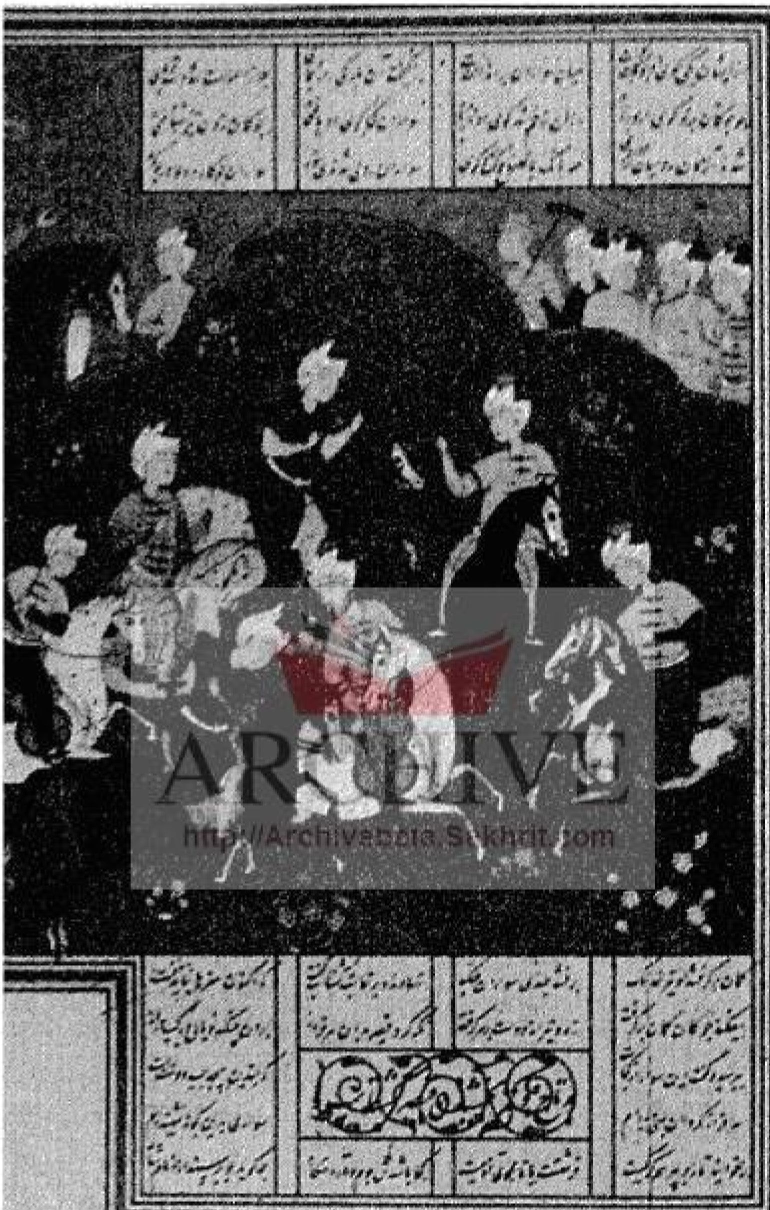


مقتل نوذر على يد أفراسيا من عمل بهزاد

أسر الخاقان على يد رستم من تصوير أقاميرك



إبدام كشتاسب للقونه في الميدان من أعمال بهزاد



الصيد والقلاع والأبراج والمهاجع وأجنحة الحريم والبلاطات، وساعد على ذلك أن نص الشاهنامة كان يقدم التفصيلات الشديدة للمنظر والحدث، كما حاول المصورون إضفاء طابع تاريخي على الصور ولسة لاتخطؤها العين للعصر الذي تم فيه تصوير المخطوطة «العصر التيموري». وفي الصورة الأولى ـ التي تبدو من عمل بهزاد وميرك مناصفة ـ تجد تصويرا للقاء فريدون أفريدون في الروايات العربية، لابنتي جمشيد اللتين أتيتا إليه للشكوى من الضحاك، ولتحريضه على الثأر منه لأبيهما واسترداد عرش إيران من الضحاك المغتصب، وتضم الشاهنامة صورة ـ وتبدو شأنها شأن صورتين من أعمال بهزاد ـ وذلك من الأرضية الذهبية والألوان الباهتة الحالمة وتعدد الفراغات والمسحة الصوفية على الوجوه وعدم ازدحام الصورة، وهذه الصورة تمثل مصطاد أو حلقة صيد الخاصة بزال والد البطل الشهير رستم، والصورة عامرة بالحركة وبالتعبيرات الحية من البشر والحيوانات معا، وهناك صورة تمثل كشتاسب بن لهراسب يبدى فنون الميدان أمام عظماء الروم الذي كان قد أرسل إليهم خاطبا، وتمثل إحدى الصور ذهاب خسرو «كسرى برويز» إلى الصيد ورؤيته لمحبوبته شيرين تقف فى شرفة فى أعلى قصرها.

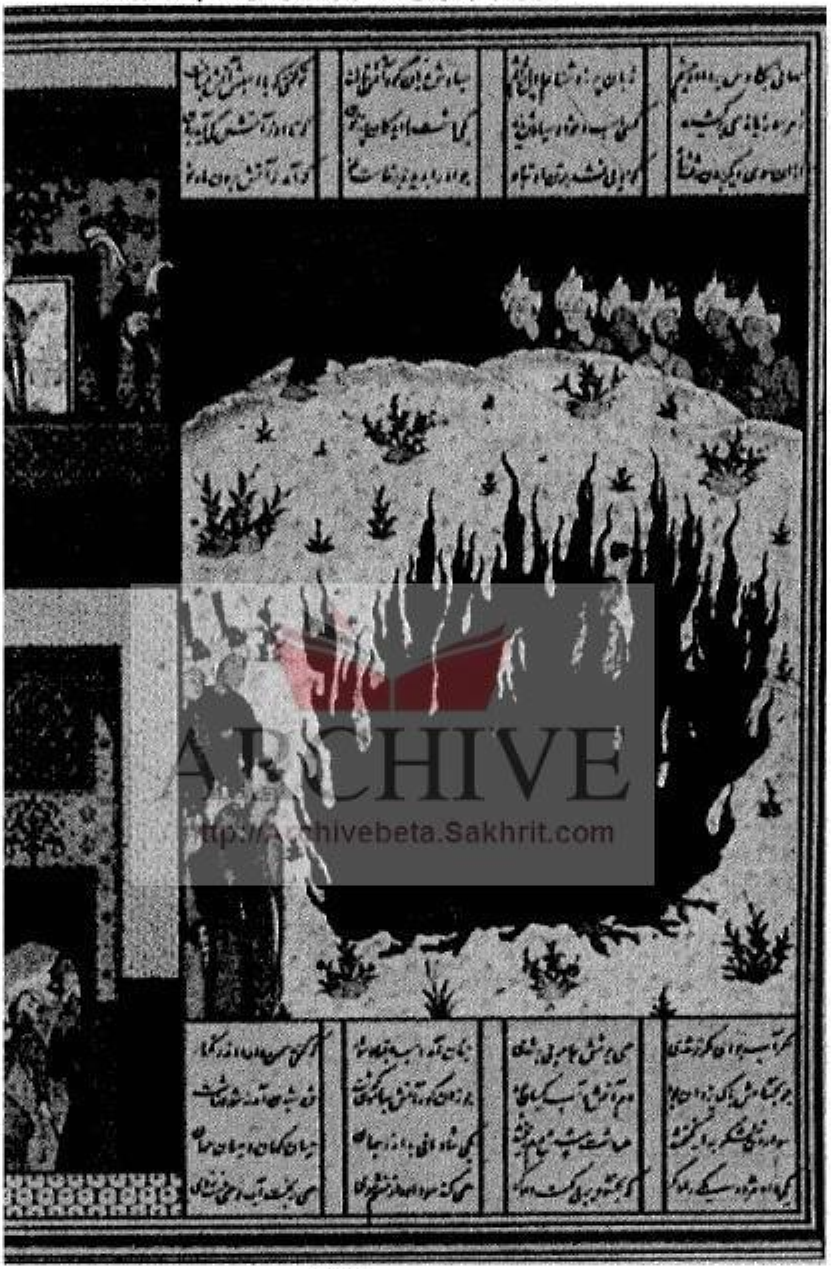
***

وتضم الشاهنامة البايسنقرية صورة تبين مقتل نوذر بن منوجهر على يد افراسياب ملك توران، فتبدو فيها خصائص الرسام أقا ميرك، الوقار الشديد البادى على الوجوه، والأرضية الإسفنجية البيضاء، واستخدام اللون الأزرق بدرجاته المتعددة فى الزخارف وفى ملابس الشخصيات، ثم ذلك الجو العام من الشجن الذى يسيطر على الصورة، وتشترك معها فى هذه الخصائص صورة أخرى وتمثل خضوع سياوش لاختبار النار بعد أن اتهمته زوجة أبيه بأنه حاول النيل منها فى حين أنها هى التى راودته عن نفسه فى الأصل، وتوجد صورة أخرى تمثل سقوط خاقان الصين أسيرا فى يد رستم، وهناك صورة تمثل المنافسة بين ابنى يزدجرد الأول بهرام وخسرو على العرش بعد وفاة أبيهما، وانتصار بهرام بعد تمكنه من قتل عدد من الأسود، وصورة أخرى تمثل القتال بين جوه بن ملك كشمير وطلحند أخيه من أمه وابن عمه.

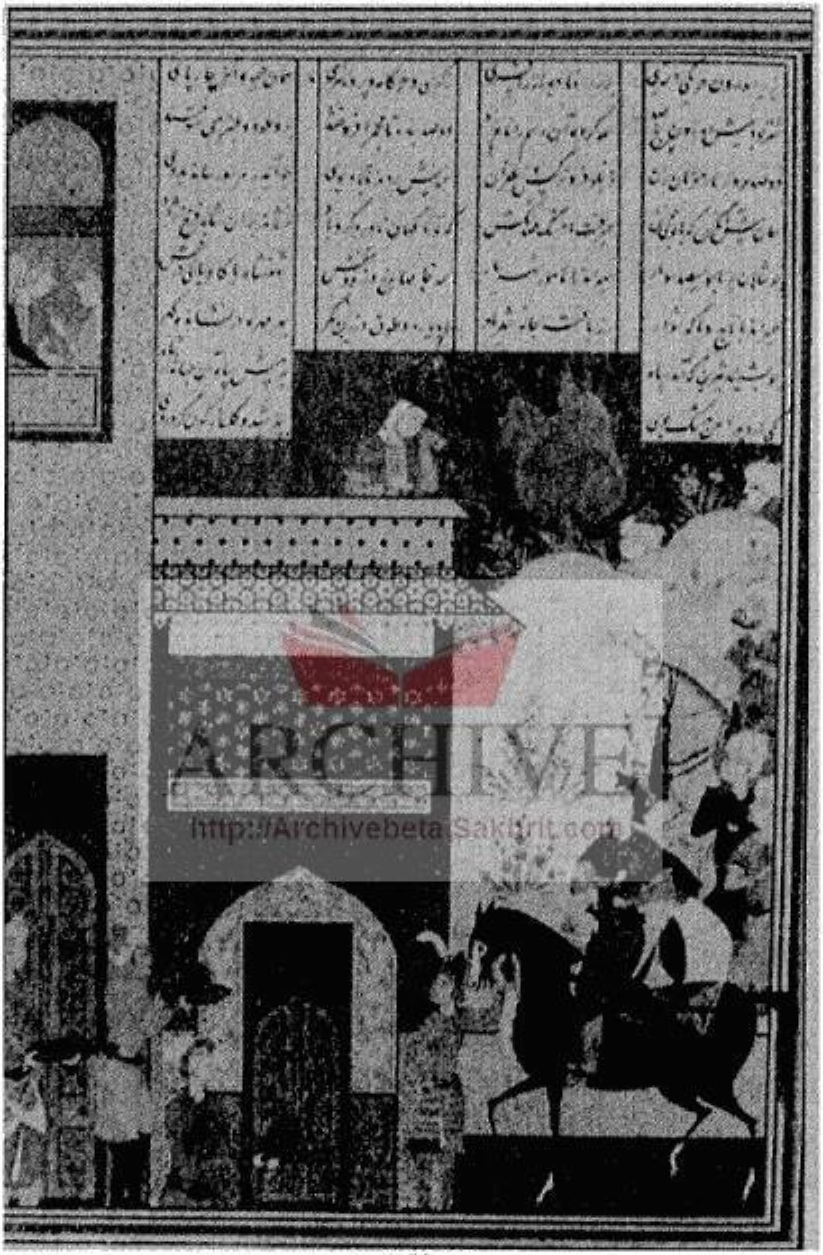
وهناك صورة تمثل مصرع سياوش في أرض توران بعد أن هجر أرض إيران لبقاء الشك في قلب والده كيكاوس. وتتضح في الصورة شأنها شأن عدد آخر من الصور خصائص الرسام غياث الدين الذي كان قد قضى فترة في الصين: تأثيرات صينية واضحة في رسم الشخوص والنباتات، وألوان مشتقة ومولدة ومتدرجة بين الباهت والقاتم من نفس درجات اللون الواحد، وطابع صيني لاتخطؤه العين للنباتات المرسومة في أرضية الصورة، ووجوه تبدو ـ رغم انفعالها الواضح ـ محايدة إلي حد كبير وذات سحنة صينية بالطبع، ومراعاة متقدمة على عصرها للنسب بين أحجام الشخوص في مقدمة الصورة وفي وسطها وفي خلفيتها، وتمثل صورة أخرى موكبا لأردشير بابكان رأس الأسرة الساسانية يصل إلي جماعة تلعب البولو، ومنها يعلم بمولد ولده وخليفته سابور بن أردشير، والطابع الصيني للسحن الموجودة في الصورة شديد الوضوح كما أن الأجساد صينية، وتناسق الحركات والإيقاع عند اللاعبين تدل على تقدم كبير في رعاية الطبيعة في التصوير الإيراني، والعظمة الملكية شديدة الوضوح في ملامح أردشير بابكان ونشاهد في الشاهنامة صورة تمثل جلوس كسرى برويز على العرش، ويعلو الصورة رسم لشكل تنيني يبدو أنه كان يرمز للرسام «التنين مأخوذ عن الصين»، وبرغم الملابس الشرقية، فإن الملامح الصينية لايخطؤها النظر، وأرضية الصورة سمة مشتركة بين كل رسامي هرات في عصرها الذهبي، الأشكال الإسفنجية للأرض ذات اللون الواحد تزينها الزهور ذات الألوان المختلفة والتي تتميز بالرقة الشديدة.

وتتضمن الشاهنامة عددا من الصور لاتكاد العين تخطيء أسلوب المصور الشهير مير مظفر «أو شاه مظفر» الإنسيابية والبراعة والشفافية الشديدة مع مميزات مدرسة هرات ككل في استخدام الألوان المولدة الحالمة حتى في صور الصيد والقتال، فهناك صورة تمثل العاشق الشهير بيزن في محضر افراسياب التركي بتهمة الاختلاء بالمحبوبة منيزة، كما نرى صورة تبين إغارة البطل التوراني نستيهن على إيران ومصرعه في هذه الغارة. وهناك صورة تمثل مصرع البطل التوراني «شيده» على يد كيخسرو، كما تمثل صورة أخرى

سياوش يتعرض لاختبار النار من رسم أقاميرك



ذهاب خسرو إلى الصيد ورؤيته لمحبوبته شيرين من أعمال بهزاد



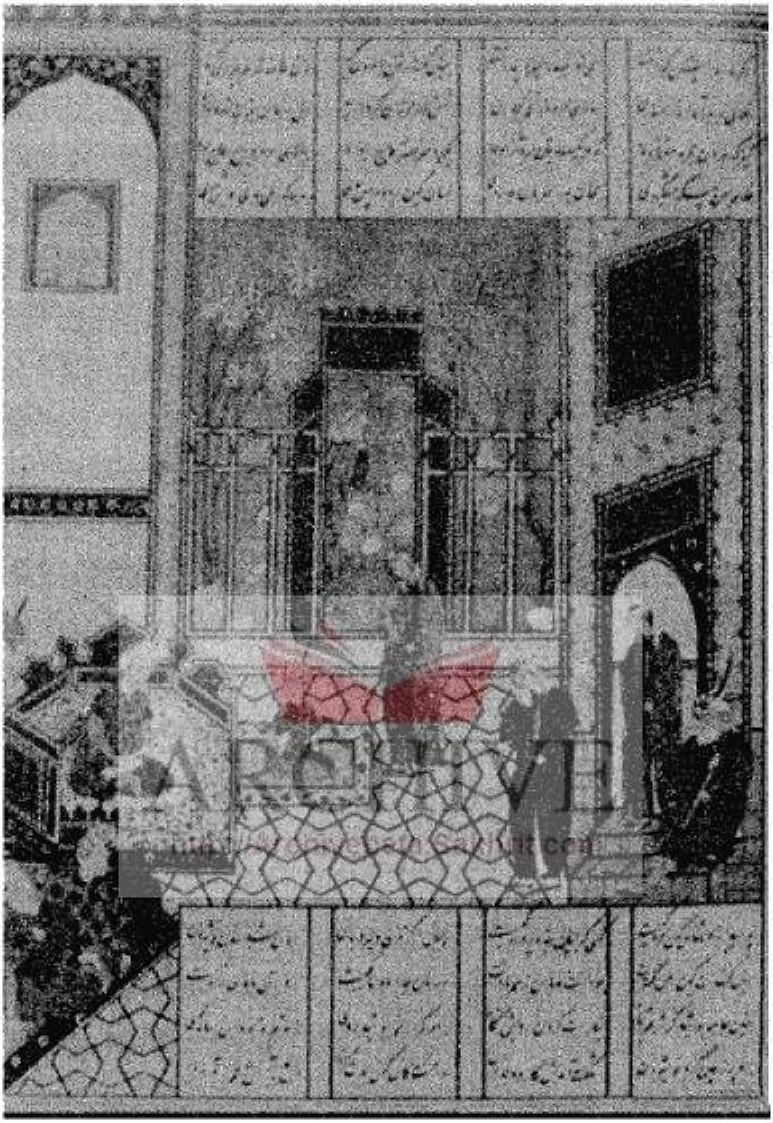
مصرع بطل أبطال توران افراسياب على يد رستم. وتضم الشاهنامة صورة لمصرع دارا الثالث بعد هزيمته من الإسكندر على أيدى الخائنين الشهيرين ماهيار وجانوسبار، وخلال استعراضنا للصور فى الشاهنامة نرى صورة تمثل حفلا لبهرام ومن المحتمل أن تكون مشتركة بين مير مظفر وبهزاد، الشخوص والأرضية لمير مظفر والمبانى والخلفية لبهزاد، ونشهد صورة يقطع أنها لمير مظفر وتبين رسوم أجساد النساء الموجودة فى الصورة والتى تماثل تماما الصورة التي تحمل توقيعه والتى تصور حريم السلطان حسين بايقرا والمنشورة في العدد الماضى، أما الصورة هنا فتمثل رؤيا كسرى أنو شيروان وتفسير الحكيم بوزر جمهر لهذه الرؤيا

وقبل أن أختم هذا العرض للصور الموجودة فى الشاهنامة البايسنقرية، أسوق عدة ملاحظات، الأولى: أن اختيار مواضع التصوير فى هذه النسخة من الشاهنامة قد يكون للأمير بايسنقر نفسه، وكان خطاطا بارعا، وقد يكون قد شارك فى بعض الصور، وأغلب الصور الموجودة فى الشاهنامة البايسنقرية تمثل مصارع ملوك أو أمراء أو أبطال من إيران وتوران رغم قابلية نص الشاهنامة لتصوير مواضع أخرى، ولم يكن للمصورين أن يجرؤوا على تصوير مصارع الملوك والأمراء ـ وبخاصة من توران وبايسنقر تركى أو تورانى ـ دون أن يكون هذا باختيار بايسنقر نفسه.

الثانية: أن تحديد المصورين هنا اجتهادى بحت، اعتمد أخص ما اعتمد على ماهو معلوم للمصورين الموجودين، مع العلم بأن مصورى مدرسة هرات بالذات متشابهون فى الأسلوب، ويفرقهم عن بعضهم البعض مجرد سمات دقيقة جدا.

الثالثة: أن بعض الصور التى نسبت إلى بهزاد فى هذه المجموعة قد تكون للمصور قاسم على الذى كان تلميذا لبهزاد، وكان مغرما بتقليده بشكل واضح، بحيث يعد من الصعوبة بمكان الفصل بين أسلوبى المصورين.

الرابعة: أن هذا العرض معتمد على نسخة مصورة نشرت فى إيران سنة ١٩٩٠ بمناسبة مؤتمر عن الفردوسى وقد تكون قد تعرضت لبعض التغيير والتبديل على يد الرسام الذى نقلها وأعدها للتصوير.



رؤية أنو شيروان من أعمال مير مظفر

قصة قصيرة

والموج ينكسر عند الشاطئ

بقلم : فاروق خورشيد

بريشة : سميحة حسين



- ١ -

- أتحلم؟..

- وهل تملك إلا أن تحلم، والحلم أملنا العظيم، وعذابنا العظيم.

- أتحلم!..

- وهل الحلم إلا ما بقى لنا بعد كل عذابات ما عشناه.

أسندت رأسها إلى صدره وهمست:

- أحبك، ولكنى أخافك، وأخاف أن تخون!

وصمت.. لم يتكلم، فقط ضم رأسها بعنف إلى صدره وراح فى سبحات عظيم.

- ٢ -

الشك أخطبوط له ألف ذراع، يلف ذراعه اللينة بالحمامات الماصة حول جسد، فإذا الجسد لعبة بين يديه وإذا الجسد مزقا بين أنيابه، وإذا الكل ضاع - حين تريد، حين شاء، حين أتاح للذراع الأخطبوط الواحدة من الألف أن تلف حوله، أن تلاشيه، أن تضيع كل شيء فيه. أن تمتصه، وأن تستنزف رحيقه، ويضيع كل شيء فيه.

- ٣ -

- أتحسب أنك تستطيع أن تنسى؟

- أحسب أن الحب يغفر، فإن غفر فهو النسيان.

- أى نسيان، إن وقع الأقدام يدق، يدق كأنه شيء ثابت مقيم لا ينتهي، حتى ليتحول إلى طبول جارفة لاتبقى أى نغم إلا نغم الوقع الأليم والحزين.

- وهل كل هذا يعني؟

- كيف أنسى ونبضها حين يرتبط بقلبي، يذكرني بنبضها حين ارتبط بقلب أحب وخفق قلبها الخفقات نفسها، وأحس اللهفات نفسها.. ومات، حين مات ما عندي من ألم، وبدأ حين بدأ ماعندي من عطاء، وسعد كما سعد حين سعد ماعندي من وجود.

- ألا تنسى؟...

- أريد أريد أن أنسى، ولكن كل شيء يقلقني بصورة ورؤاه بأهوائه، وروائحه، وعطاءاته، وأنه الحقيقة كان..

- طريق كله عناء ولكن عذاب ولا عطاء فيه، إلا معنى الغدر ومعنى النسيان، ومعنى التجدد الدائم، والاستعداد الكامل لغدر جديد، ونسيان جديد.

- واسمع منك، وأهيل التراب على وجودى، وأدفن رأسي في الرمال

قصة قصيرة

وانتظر.

- ٤ -

ويبقى أنها تحيلك إلى أمثولة، إلى ضحكة عابرة، عبرت وسط ضحكات انطلقت من قلبها عبر حياتها، وعبر وجودها، وعبر كل حياة عاشتها، وعبر كل وجود ارتبطت به.

ويبقى أنك ألعوبة اليوم المتاح، صدى لا لعوبات كانت ومضت، عشقت صاحبة الألعوبات ومضت، أحبت ومضت، ضحكت ومضت، وقدمت كل ماعندها ومضت، وأنها تعيش رهن عذاب كل هؤلاء.

وأنها حين عاشتهم خانتهم، وحين خانتهم أنهتهم وضاعوا، فهى الوجود الأعظم، يمتص كل وجود، وهى الكيان الأقوى يأكل كل الكيانات المهتزة، المحبة، المحترقة المحبة التي لاترجو من وجودها إلا لحظة الغفران والحب - سبحان الله العظيم.

- ٥ -

- وتقول إن الحب كان

- وأقول إن الحب ما كان.

- ونحن الآن؟

- ظل حب قديم، ظل حلم قديم - عاش حين كان الصراع هو رغبة التفوق، رغبة النصر، رغبة هزيمة الحب القديم.. وحين هزمناه استمتعنا بأنا هزمناه وقهرناه، وأننا نعيش رغم كل عطاءاته، وأننا نبدأ العصر الجديد، الحب الجديد، دون خطاياه، هذا الحب القديم الذى كناه.

- وتقول إن الحب كان

- وأقول إن الحب ما كان.

- ياتعسك، أحقا الحب

كان.

ـ والحب يخـــون حين يقـــارن، حين يضع الأشياء أمام الأشياء، حين يضع التجربة أمام التجربة ـ حين يخون حبه الآن فى تذكر حبه القديم، حين يربط حبه بمعنى الحب القديم.

ـ أتنسى؟

ـ حين ينتصر الحب ليقهر الحب القديم.

ـ فيكون حبا قهر، ولكنه أبدا حب موجود.

ـ يا عذابك حين تصر أن الحب القـديم حب موجود.

ـ ياعـذابى حين أحس أن الكذب عـــاشت، وكانت، وأعطت وجودها لـلـكـذب.. إن هـى صدقت ـ وما وأنا إلا واحد من هذه الأكاذيب، الصادقة، المعبرة، المخلصة الدائمة، يانفس الكلام العظيم.. دفء

والموج ينكسر عند الشاطئ

الكلمات كذب ـ دفء الكلمات المهتزة يبرر الوجود، كذب... وتنهمر الثلوج ـ ويعـــيش الكذب..

ـ أكل دفء عطائهـا كذب..... يانفسك إذن..

ـ ويانفـــسى إذن ويانفسى أبدا ودائما.

ـ ٦ ـ

بعض النفوس ولدت، لتعيش الشك، ولتخلق الشك، ولتكون من الشك شبكات تمتص رحيق أى زيادة حب سرت وعبرت، فطالها حبل من عنكبـــوت الظلام، واجتذبها، واحتواها، ثم مص رحيقها، وجفاها.. فـــإذا هـى همل من الهمل، وإذا هى بقايا من البقايا، ولايذكر أحد من كانت وكيف كانت، ولم كانت، ويموت حب لم يولد أبدا ـ ولم ير النور.

ـ ٧ ـ

ـ ومعنى أن نعيش؟

ـ ليس بعيدا عن معنى أن نموت.. فالبداية نهاية.. النهاية لاتحكى إلا لحظة توقف البداية عن العطاء.. وعن الأمل، وعن الألم وعن الوجود.

ـ فيا تعسا للحظات يتساوى فيها كل شىء بكل شىء، ويصبح العدم هو الوجود ويصبح الوجود هو العدم.

ـ ٨ ـ

ـ أنت من الوحـــدة والقلق تصنع كلاما.

ـ وأنا من الوحــدة والقلق أصنع وجودا.

ـ فالوحدة والقلق وجود.

ـ الوجود والقلق وجود، ولكن وجود كالعدم.

ـ والكلام الذى نصنعه من الوحدة والقلق؟

ـ وهو كلام يمتزج فيه

ـ ٩ ـ

شاه حب تنكر حتى على وجوده، لأن وجوده معنى أن نكسب انسانا، أن نكسب عطاء أن نكسب عمقا، وثراء وبهجة.

ـ شاه حب تكرر حتى تشابه وجوده، بوجوده فهو هو، فى كل مرة، نفس ماتجده فى هذه المرة.. أن نرغب، أن نعايش، أن نتطلع، أن نحصل، أن نحب.. والحب من كل هذا، يرقب من بعيد، عبث المعنى، وضياع الوجود

ـ وإن كل شىء متكرر

ـ يحدث ويمر.. ثم يمضى بلا وقع أقدام، بلا آثار فى الرمال، بلا بقايا تؤكد أنه يوما كان هنا.. أنه يوما كان حبا أو أنه كان...

ـ ١٠ ـ

ـ وتفيق؟

ـ وهل كتب لنا أن نفيق

ـ قدر هو إذن أن نعيش

قصة قصيرة

نفس القلق، أن نحيا نفس العناء، أن نحس نفس الاشتهاء، أن نستسلم لنفس الضعف، أن نغرق فى نفس البحر، أن نموت من جديد.

ـ ولن تفيق؟

ـ وهل كتب لنا أبدا ألأ نفيق؟

ـ ١١ ـ

ـ وهل يعيش العشق بعدنا؟

ـ عاش ويعيش.

ـ وهل يعيش العذاب مثلنا؟

ـ عاش وكان ونمر.. ويعيش .

ـ وهل يحب الحب ما أحببنا؟

ـ ما أحببتم احببناه منذ خلقنا، ومنذ كان الوجود.. ولكن الحب الحب فى أيديكم مات ـ فما عشتم العشق حين عشقناه، ولا عانيتم العذاب كما عانيناه، ولا كرستم وجودكم كما فهمنا فيه معنى أن نحب، فله ولاستمراره كرسناه..

ـ وأقول ...

ـ اصمت ولاتتكلم.. فالقول من كثرة ماتكرر عرفناه، وجفونا، وكرهنا تكراره، ومللناه فالصمت ياحبى الصمت، الصمت.. فلا رؤياه بعده ولامغزى إلاه ..

ـ ١٢ ـ

ـ والرجل الذى قدم العار والخدعة.

ـ رضيناه لانه قدم مع العار، معنى أن يكون حبا جديدا، مغايرا مستفزا لكل الركود الذى عشناه..

ـ والرجل الذى قدم

العار والخدعة.
ـ هو الرجل الذى باع لنا معنى التحدى فاشتريناه ـ باع لنا معنى الانتقام فرضيناه، باع لنا معنى أن نبتذل أنفسنا لننتقم من كل معانى الاحترام فقبلناه.
ـ والرجل الذى قدم معنى العار والخدعة.
ـ وماذا كان إلا العار والخدعة.. وحين تعرينا أمامه لم يبق لنا إلا أن نكون نحن العار والخدعة.. فكنا العار والخدعة، وكنا العار والخدعة.

ـ ١٣ ـ

شاه رجل وجه وجهه إلى أسافلة، فلم يعد يرى إلا عطاء أسافله ولم يعد يشم إلا ريحها، ولم يعد يعيش إلا فى وجودها، فكان هو كل أسافله.

والموج ينكسر عند الشاطئ

ـ ١٤ ـ

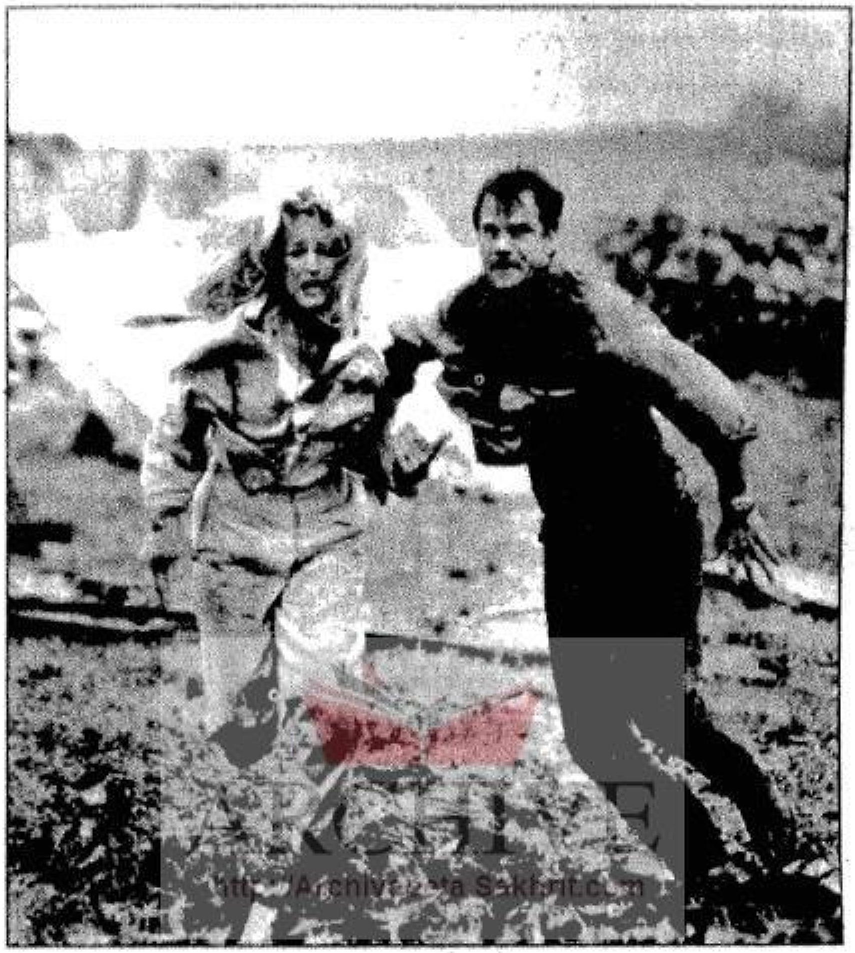
أنتدنى حتى يموت المعنى فينا؟...
ـ تدنينا حتى مات الحب فينا، فكيف يعيش المعنى فينا؟

ـ ١٥ ـ

ـ أما أمل أن ترى النور؟
ـ النور فى داخلنا فكيف لاترى النور؟
ـ أما أمل أن ترى النور؟
ـ إن لم ننظر إلى داخلنا فلن نرى النور، ونحن لاننظر أبدا إلى داخلنا.. فكيف سنرى النور؟
ـ أما أمل أن ترى النور؟
ـ نسأل عن النور، ونحن هو النور.. فكيف نرى ما ليس إلا نورنا؟
ـ أما أمل أن نرى النور؟
ـ تاه المعنى فنحن لانريد أن نفهم، ولا أن نفتح عيوننا فنرى النور.. النور غاب..
ـ أما أمل أن نرى النور؟
ـ لن نرى أنفسنا، أعماق وجودنا، من نحن، ومن نكون، فابدا لن نرى النور...

ـ ١٦ ـ

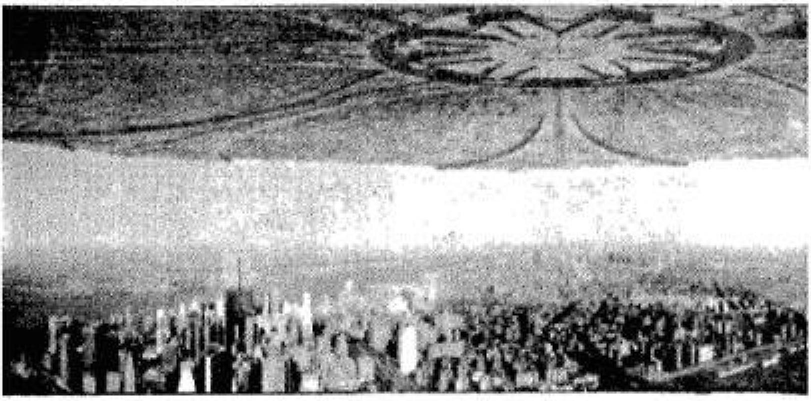
ـ صفحة فتحها الزمن.
ـ صفحة كتبنا فيها وجودنا حروفا تجسد الزمن.
ـ والزمن مر ومعه مرت أعمار جسدت الزمن، وحين عبرت باخ الزمن، وآن لنا أن نستريح، ونعبرها، كما عبرها كل من أحبنا.. وصفحة نطويها بأيدينا قبل أن يطويها الزمن.



الاعصار

هيمنة هوليوود توابعها الاقتباس فالافلاس

بقلم : مصطفى درويش



البيت الأبيض تدكه صواريخ غزاة الفضاء



كثر ترددى على «دسلدورف» و«باريس» ، ففى أقل من شهرين زرت هاتين المدينتين مرتين ، فى كلتيهما كنت أبحث عن الأفلام الألمانية والفرنسية ، وسط زحام أفلام هوليوود ، فلا أعثر عليها إلا بعد جهد جهيد .

وهذه الهيمنة اللافتة للنظر ليست مقصورة على هاتين المدينتين ، فآثارهما رأيتها واضحة على طول الطريق من شمال ألمانيا ، حتى مدينة «بيزا» فى وسط ايطاليا ، مرورا «بزيوريخ» ، و«لوسيرن» فى ربوع سويسرا .

فنادرا ما كنت أعثر على ضالتي في فيلم ألماني أو ايطالي أو سويسري معروضا في دور السينما المنتشرة بطول وعرض تلك البلدان .

فمثلا دور السينما في «زيوريخ» ، بما في ذلك دار «البل فو» (المنظر الجميل) المطلة على بحيرة تلك المدينة، يسبح البجع على سطح مائها العذب الرقراق متهاديا في أمن وأمان ، تلك الدور لم يكن بين أفلامها المعروضة أو المعلن عنها لأجل قريب ، أي فيلم غير أمريكي .

ولعل الملصقات الثمانية على واجهة تلك الدار العريقة تؤيد وتؤكد تلك الهيمنة ، فكلها ، والحق يقال ، كانت لأفلام امريكية من بينها بطبيعة الحال الأفلام الثلاثة التي حقق عرضها خلال الصيف في الولايات المتحدة أعلى الايرادات ، وهي بترتيب نجاحها في الشباك «يوم الاستقلال» «مهمة مستحيلة» و «الاعصار»

دعاية داهمة

والحق أن الدعاية لهذه الأفلام كانت على أشدها ، فما من دار سينما دخلتها في «دسلدورف» و«باريس» ، إلا وطاردتني مقدمة أحدها ، تنشب انيابها في ذاكرتي عنها لا تنمحي إلا بعد حين .

وما أكثر المرات ، لعلها لا تعد ولا تحصى ، التي رأيت فيها مشهد تدمير البيت الأبيض والكونجرس الأمريكي بواسطة صواريخ منطلقة من سفينة فضاء تحجب السماء ، وذلك المشهد من يوم الاستقلال ، يقال عنه من بين ما يقال أنه في كل مرة كان يدمر مبنيا البيت الأبيض والكونجرس أمام الجمهور الأمريكي ! كانت دار العرض تدوي بتصفيق حاد !

الغريب من أمر الدعاية للأفلام الثلاثة أنها لم تقتصر على جمهور الدول المقول بانها تدور في الفلك الأمريكي خاصة ، أو الفلك الغربي عامة ، بل امتدت إلى دول لا شبهة في استقلالها عن أفلاك الآخرين.

ففي بكين على سبيل المثال ، فاقت تلك الدعاية ، كل ما سبقها من دعايات للسينما الأمريكية ، وانتهت بعرض الأفلام الثلاثة بنجاح كبير ، في جو مشبع بهيمنة هوليوود ، خاصة وأن السينما الصينية ، تعاني من أزمة حادة ، أخذت بخناقها ، بدءا من

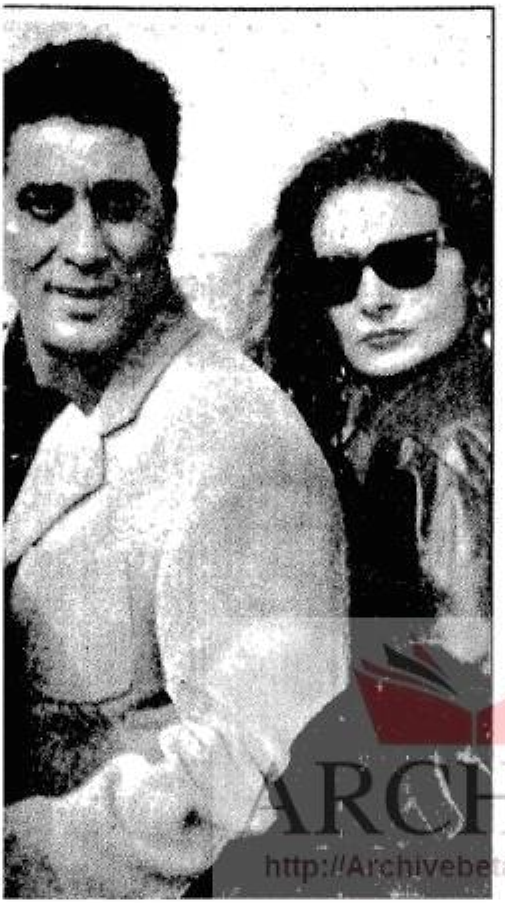
الثورة الثقافية ، ولا أقول الردّة الثقافية ، وما اختلف على الصين أثناءهما ، وبعدها من خطوب كثيرة متباينة ، وجهت السينما في الصين الشعبية ألوانا من التوجيه لم تكن في صالحها باى حال من الأحوال .

صمود الصفوة

وعلى كل ، ففى مواجهة هيمنة هوليوود ، جنحت الصفوة السينمائية فى أوروبا ، وغيرها من القارات ، لا إلى تقليد أفلام مصنع الأحلام ، تقليدا أعمى ، باسم الاقتباس ، وغير ذلك من مسميات ، تخفى عجزا فى الإبداع ، وإنما إلى العمل بلا كلل أو ملل من أجل ابتكار أفلام مستوحاة من واقع الحياة كما يعيشها الناس دون تزويق ، الصفة الحاسمة المميزة لها هو التحرر من بهرجة ، وزيف أغلب ما ينتجه مصنع الأحلام .

وتحضرنى هنا روائع بريطانية ثلاث «القسيس» للمخرجة «أنطونيا بيرد» ، «كار ينجتون» للمخرج «كريستوفر هامبتون» و«مراقبة القطارات» للمخرج «دانى بويل» .

فهذه الأفلام أصبحت روائع ، لأن



ثروة الدنيا - بدر خان
بين يسرا وأحمد زكى

مبدعيها قد التقطوا ما يعتمل داخل المجتمع البريطانى من صراعات بين القديم والجديد ، باقدام وجراة ، قل أن يكون لهما نظير .

فقد خرجت الروائع الثلاث إلى النور ، دون شبهة أى تنازل من قبل مبدعيها أمام ضغوط الفئات المحافظة فى المجتمع ، تلك الفئات التى ترى فى صدق التناول ، وفى فتح النوافذ على السبل التى تمكن المشاهد من تقبل الانتقال إلى العصر الجديد ، ترى فيه خطرا يتهدد أمنها الاجتماعى ، ونظامها العام .

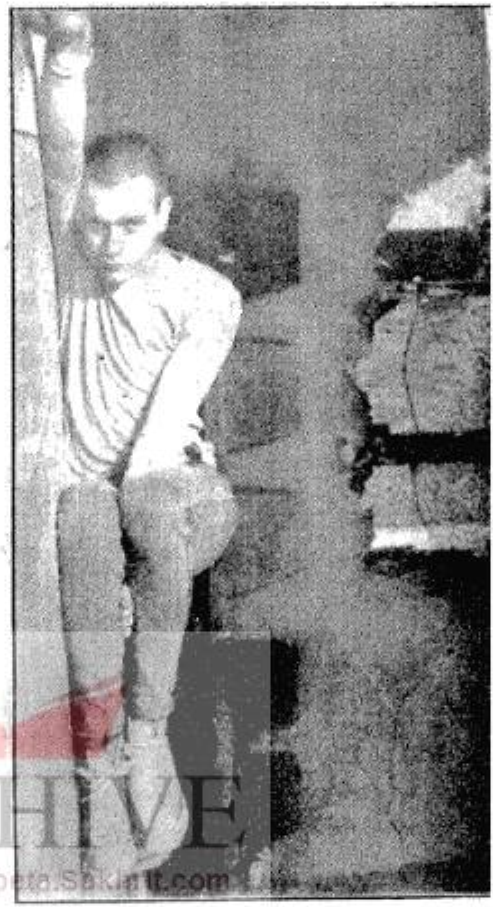
وإذا كان الأمر كذلك ، هكذا سألت نفسى ، فكيف يكون الأمر فى مصر ؟

الصدمة الكبرى

ما أن لمست قدماى أرض الآباء ، حتى جاء الجواب سريعا .

وجدت حال السينما عندنا لايختلف كثيرا نفس الهيمنة ، نفس الضجة الكبرى حول الأفلام الثلاثة ، وفى مقدمتها بطبيعة الحال «يوم الاستقلال» .

هكذا بدا لى الأمر ، للوهلة الأولى غير أننى ما أن قرأت ما كتب عن



مراقبة القطارات أو مأساة تعاطى الهيروين

أفلامنا المصرية التى جرى عرضها، فى أثناء غيابى الطويل، حتى استشعرت أن ثمة اختلافا.

وما أن شاهدتها، هى وغيرها من الأفلام التى جرى عرضها أثر عودتى، حتى تحول استشعارى إلى يقين.

الاستسلام التام

فأول ما لفت نظرى، وأنا أشاهدها، أنها مقتبسة من أفلام أمريكية، بل أن بعضها يكاد يكون منقولا بلا حياء، من أول لقطاته لآخرها.

ولعل أهمها «اغتيال» و«نزوة» فالأول منقول نقلا فاضحا عن فيلم «المطارد» مع تغيير طفيف، انحصر فى التحول بجنس البطل من رجل مطارد إلى امرأة مطاردة تقمصتها «نادية الجندى»، نجمة الجماهير.

أما «نزوة» فمنقول عن فيلم امريكى آخر «الفتنة القاتلة»، مع تغيير طفيف، معظمه انحصر فى استبدال «أحمد زكى» بمايكل دوجلاس، واستبدال «يسرا» بـ «جلين كلوز»

وأقف عند نزوة قليلا، لا لسبب سوى أنه قائم على سيناريو لبشير الديك، ترجمه إلى لغة السينما المخرج «على بدرخان»

فكلاهما ينتمى إلى صفوة السينمائيين عندنا، «الديك» بفضل سيناريو «سواق الاوتوبيس»، وعدد أخر من السيناريوهات، و«بدرخان» بفضل فيلمه الأول «الحب الذى كان»، وعدد آخر من الأفلام، جد قليل

حكم الضرورة

ومع ذلك، فكلاهما ارتضى أن ينحدر بفنه إلى مستوى ليس له ما تحته، عندما بعث فيلما تجاريا امريكيا من قبره، وجر حوادثه إلى واقع مجتمعنا المصرى، ضاربا عرض الحائط بالضرورة الخطيرة، ضرورة أن تكون أفلامنا مرآة لواقعنا، لا لواقع غيرنا، مهما كان.

وأمام هذا الاستسلام الذى يدعو إلى العجب حقا، أرى لزاما علىَّ أن أذكر بما كنا نعتبره إلى عهد قريب من البديهيات.

إن طبيعة السينما الوطنية أن تمتاز، وتأبى الفناء فى أى قوة، حتى وأن كانت هذه القوة هوليوود ذات الجلال.

قراءة فى رواية : عطر التفــــاح

لـ إرادة الجبورى

لاشك فى أن تقييم إبداع الشعوب فى الفترات الحرجة من عمرها ـ هو أمر محفوف بالمخاوف والحرج وشبهة إضاعة الوقت، إذ لابد من أن يأتى إبداع تلك الفترات ابن الفترة ذاتها ـ مباشرا ـ عالى النبرة ـ حماسيا ـ مولولا، خاصة إذا كان من يتصدى للتقييم محبا ومتعاطفا مع الشعب المأزوم.

ولا يزيح تلك المخاوف وذلك الحرج سوى قليل من الإبداعات التى تنبىء عن أن مبدعها ـ مبدعتها ـ موهوب حقيقة يهضم واقعه المأساوى المعاش ببطء ويمرره عبر عدة مرشحات ويكون جل همه فنية العمل، فيصل إبداعه إلى المتلقى هامسا ـ موحيا ـ مؤثرا.

بقلم : حسين عبدالعليم

وليس بخاف على أحد أن العراق يمتلك تاريخا متميزا فى الإبداع قديما وحديثا، وهو أمر ليس بمستغرب على شعب ينتمى لحضارة عريقة، وليس بخاف على أحد أيضا أن العراق ـ ومنذ سنوات يعيش فى محنة حقيقية بداية من الحرب العراقية الإيرانية ثم حرب الخليج مرورا بالحصار وانتهاء بالقصف الأمريكى الذى اتخذ من المشكلة الكردية تكئة واهنة، الأمر الذى يجعل المرء يتساءل: هل مازال العراقيون قادرين على إبداع حقيقى؟!

وقد صدر ببغداد أخيرا ١٩٩٦ رواية

عطر التفاح للكاتبة العراقية: إرادة الجبوري (سبق لها أن أصدرت مجموعتين قصصيتين ـ شجرة الأمنيات ١٩٩٠، غبار المدن ١٩٩٣) وتلك هي روايتها الأولى.

يحيى (مدرس التاريخ المريض) ـ تتركه شقيقته الأرملة في المنزل بمفرده وتذهب لزيارة قبر زوجها الشهيد. يتعرف إلى مريم النحيلة فتقضي معه بعض الوقت ثم تغادره كالحلم، فلا يعد يعرف هل أتاه أحد أم لم يأت!

هذه هي الخطوط العامة للرواية ـ التي جاءت تشتبك مع وضعية المثقف العراقي ـ العربي ـ وسط الأزمة.

تقول الكاتبة على لسان يحيى : وأنا منهمك بالنظر إلى عناوين الكتب قلت لها: ابتعدي عن النافذة .. الإنفجارات قريبة.. وقد يتشظى الزجاج .فترد عليه مريم بحزن ولا مبالاة: لم أعد أكترث للأمر، إنه تشظ آخر.. ماذا يعني؟!

نعم، ما فائدة صافرات الإنذار إذا كانت جميع الأوقات والأماكن خاضعة لدائرة الموت، لم يعد المرء بحاجة إلى الإختباء!!

نعم، تشظيات الروح كثيرة، ويحيى يشعر بأن الشهداء في حاجة دائمة إلى الحماية من عواطف الأحياء، ويأمل ألا تتحول أخته إلى شبح مؤذ في العالم المعاش، إنها عبارة عن روح منشغلة معلقة بقبر، وهو يدرك عمق اليأس في روحها عندما تنكب على حياكة ملابس الأطفال.

يلحظ يحيى السواد في كل شيء، في الصوت في الإطراقة في الإنحناءة في الإبتسامة في الحياة، تطوف أخته الأرملة حول الضريح، ثم تطوف مرة أخرى حتى تغيب عنها تفاصيل المكان ويتحول كل شيء فيه إلى ضباب وأصوات بعيدة غير ذات معنى، وتجلس منهكة في إحدى الزوايا وقد نالت حصتها من الهدوء لذلك اليوم. يدرك يحيى أننا نستسلم لليأس من فرط الحياة.

ومريم تخاف. تخاف من الشعور بالفقدان، افتقاد الكلمات الحمقاء والخطب المضحكة المويوعة بالحكمة ، إفتقاد حتى الذين ألفت عدوانيتهم، إفتقاد أن تقول الحقيقة ولا يصدقها أحد، خوف الفقدانات قد أشعرها بتعب الروح.

يحيى مدرس التاريخ ، اختار أن يصبح كذلك ليحظى بعزلته هذه، يقرأ ويسمع الموسيقى الكلاسيكية ، روض نفسه على الصمت لينجو من ضرائب الحياة، يتوائم مع آلهة سومر وبابل، يغوص في ملحمة جلجاميش. يعيش بإيقاع خاص، كثرة بحثه في أساطير الخليقة وقصص التكوين أوجدت في داخله حنينا لسكون ظلام عميق، مريح وخالص لا تشوبه شائبة. منذ سنوات وهو معتاد

على الإستلقاء طويلا قبل النوم متلبسا حالة العماء والظلام والسكون السابقة لولادة جميع قصص الخليقة فى الأساطير القديمة.

يحيي مريض، مرضه غير مصنف ولا مسمى فى الرواية، فقط ـ ينتج عنه ارتفاع الحرارة والوهن والغثيان ، يستمر كامنا لأعوام ولا يظهر إلا فى حالة الاستفحال.

ونظن أن تسمية المرض وتصنيفه يضيق من إطار الرؤية فى العمل، وأن تركه هكذا كاللغز يدفع لإعتباره معادلا موضوعيا لأمراض المثقفين فى كل زمان ومكان وأزمات.

على لسان مريم تسوق الكاتبة كشفها ـ رؤيتها ـ اشتباكها مع أمراض المثقفين هؤلاء هم أطفال الناس الذين لم يغادروا المدينة لأنهم لا يمتلكون مكانا آخر ، يموتون فيه أو يواصلون فيه الحياة، المدينة التى تتنفس فيها هواء هو مزيج من الحميمية والفقر ورائحة الجوع، الألفة فى منعطفاتها يختلط فيها عبق الظل برائحة البول. هذه المدينة لم ترحل، تحولت إلى ظهور منحنية تلتقط بقايا الأشجار والأغصان والأوراق المتشابكة والصحف والأكياس التى تلوح بها العواصف الترابية لتصبح وقودا تحت قدور الطعام الفقيرة.

تواجه مريم يحيى: أنت لا تعرف هذه المدينة لأنك قابع فى مكانك وحنفيتك تقطر ماء، ولا أطفال عندك يبكون أو يطلبون الطعام، تركت لك أختك الأرملة خزينا يكفيك شهورا ، تجلس مسترخيا فى كرسيك تقرأ كتبا تتحدث عن أوهام.

حقا، ربما يشعر يحيى بالإمتعاض لأن هاتفه لا يعمل وضوء الشموع يؤذى بصره وصوت الطائرات لا يدعه ينام فى هدوء، يزعجه صمت أنثى الكنارى المحتضرة مثلما كان يزعجه صراخها هى ورفيقها من قبل، يستيقظ من النوم رافضا الطعام لأنه يشعر بالغثيان.

تجابهه مريم: غثيان .. ها .. من ماذا.. هل رأيت جثة امرأة معلق بين فخذيها رأس طفل لم تمهله لعبة الموت دقائق للخروج فبقي عالقاً .. هل رأيت شيخا وقورا وامرأة تنم ملامحهما عن عفة نفس وهما يبحثان في النفايات عما يمكن ان يؤكل؟!

يحيى لا يعرف هذه الأشياء ، إنه يجلس إلى طاولته لا يفعل سوى اجترار زكريات سعيدة وحكايات مسلية تعينه على تبديد وحدته، قابع فى مكانه ينتظر نهاية الأشياء أو بداياتها ثم يفكر بعد ذلك بالرداء الذى سيخرج به الى المدينة ـ رداء البطولة.

يحيي هو البطل الذى وحده يجهل أن

الأبطال لا تسنح لهم الفرصة للحديث عن بطولاتهم لأنهم عاشوا الحكاية حتى النهاية، لأنهم شهداء - دائما شهداء.

وما الذى سوف يقوله التاريخ عن أناس جمعته بهم الأماكن والاعتيادات الصغيرة والكبيرة، الكلمات الحمقاء والحكيمة، جمعته بهم الحياة - وفجأة لا يجد من يدله على أنهم كانوا حقيقة عاشها؟!

تقول مريم: منظرنا وكلماتنا وسلوكنا تثير ضحككم، كأننا فئران فى مختبراتكم تخضعوننا لتجاربكم ، تجارتكم فى الحياة، تقهقهون وأنتم ترون الضحايا تدفع ثمن استهتاركم بكل ماهو إنسانى ومقدس، وعندما تنتابكم لحظة إنسانية نادرة تتوقفون مليا ثم تحمدون ربكم لأن هذا يحدث لنا وليس لكم.

تستمر مريم فى قسوتها المبالغ فيها: هل أنت متقاعد عن التدريس أم عن البطولة؟! فيجيب يحيى بأسى: متقاعد عن الحياة.

بالجملة - تكشف إرادة الجبورى عن عطر التفاح الصناعى الذى يجتاح الوجود المثقفى فى مواجهة أزمات الوطن - وفى تفعل ذلك بحذق وهدوء وثقة وفنية عالية. وتصنع من بطلتها مريم مفجرة حالة الكشف - الوجد - الحزن الشفيف الذى ينتاب المثقف، وبعدها - بعد ان يسترد يحيى طمأنينة الإعتياد بعودة أخته الأرملة سيفقد الأدلة على أن مريم - الحالة كانت هنا.

تقول الروائية فى آخر سطور روايتها على لسان يحيى : لا .. لا .. لم يأت أحد.

إرادة الجبورى أدانت الآخر مثقفا أم غير مثقف، الآخر المصمت ولعنته على الجملة بكل شجاعة، قسمت المسألة إلى نحن - الشعب العراقى المطحون - وهم.

الرواية حافلة بالصدق مكتوبة بلغة بسيطة أقرب إلى لغة الشعر، أوردت كاتبتها ٣٨ عنوانا فرعيا (الرواية ٩٩ صفحة من القطع المتوسط) فكأنها تشك فى قدرات المتلقى على فهم الكتابة المتصلة فضلا عن أن العناوين الفرعية تفتقد للتوظيف فى البناء الدرامى - إلا إذا كانت الروائية تقصد نقل حالة التشظى الواقعى إلى العمل الابداعى وبالتالى إلى إحساس وعقل القارىء - ولا نظن ذلك.

رواية عطر التفاح جديرة بالقراءة والاحتفاء - تنبىء عن مبدعة عربية حقيقية تنحت بالأظافر فوق الصخر الجرانيتى الأسود.

من الهلال إلى الهلال

سينما
كتب
مسرح
تليفزيون
الفن الجميل
فولكلور
كاسيت
نقد
مجلات
شعر



صـ ١٦١



صـ ١٦٤

كتب

بين قاموس «مسرح» وقاموس مسرحي

☐ أيهما أفضل للقارئ العربي وأنفع ؟ أن يعرف أن «بوبري» اسمه بالكامل نيقولا ليون بوبري وأنه ممثل فرنسي التحق بفرقة أوتيل دراجان هو وزوجته مادلين ليموان بوبري (وهذا هو كل اسهامه في تاريخ المسرح العالمي) أم يعرف أن حسن أحمد حسن مؤلف مصري في الستينيات له ثلاث مسرحيات منشورة هي (تنويعات على حكاية شعبية) ، (إخوان الصفا) ، (الدنس) تتسم بالتجريب في الإجابة عن سؤال التراث . ومع ذلك فإن قاموس المسرح الذي تصدره هيئة الكتاب (وظهر منه جزءان يضمان الحروف من الألف إلى الراء) يذكر بوبري ولا يذكر حسن أحمد حسن . وأيهما يفيد القارئ الممارس للمسرح أو الباحث المهتم بالحركة المسرحية المصرية أن يعرف أن سيرماكس بيربوم ناقد مسرحي إنجليزي حل محل برناردشو في كتابة النقد المسرحي (وهذا أيضا كل شئ عنه) أمن يعرف أن مهدي الحسيني ناقد مسرحي مصري يكتب في مجلات المسرح والطليعة والآداب منذ الستينيات ، والآن بمجلة الهلال ، وأنه شارك في تأسيس عدد من الفرق المسرحية

بالأقاليم وكورال الطليعة وكورال أطفال العسيرات ، وأنه معد درامي أيضا من أشهر أعماله (الكل في واحد) عن أعمال توفيق الحكيم ، وأوبريت الليلة الكبيرة عن صلاح جاهين ، وأنه أول من أعد وأخرج لعبات صنوع التياترية ، بعنوان ملاعيب أبو نضارة ، ومع ذلك يذكر القاموس «بيريوم» ولا يذكر «الحسيني» . كذلك لا يذكر القاموس عبلة الرويني ومحمد الرفاعي وعبدالرازق حسين ومحمد فتحي التهامي ، وأبو بكر خالد وكلهم نقاد لهم إسهامهم الواسع في حركة المسرح المصري .

والقاموس المذكور قاموسان في الحقيقة : الأول هو «قاموس أكسفورد» الذي ترجمه نخبة من أساتذة اللغة الإنجليزية وآدابها ، و«قاموس المسرح العربي» ويكتبه سمير عوض منفردا ، ولكن «أكسفورد» يختلف عن «عوض» كلية ! فأكسفورد غير انتقائي بدليل ذكره لبوبري وبيريوم أي لكل من له صلة - ولو من بعيد - بفن المسرح ، أما قاموس عوض فيعتمد على الذاكرة الشخصية والتقييم الشخصي ، كما يفتقر قاموس عوض إلى دقة المعلومات .

فمثلا يذكر عن ميخائيل رومان أن مسرحياته قد تجاوز عددها (١٤) مسرحية ، والثابت في المصادر التي كتبها عوض - ولم يرجع إليها على ما يبدو - أنها (١٧) نصا ، بالإضافة إلى مسرحية ظهرت في العام الماضي باسم (النمل والنظام) فيكون المجموع (١٨) مسرحية ، ولا حجة بالطبع للباحث سمير عوض أنه ذكر أن عددها تجاوز (١٤) ، فهذه عبارة من لم يبحث ، فلماذا لم يقل إن عددها تجاوز ١٦ أو ١٣ مثلا ؟! إن القارئ المتخصص مضطر بعد ذلك إلى التدقيق في كل معلومات القاموس، مما يفقده الثقة ، وهي أول شروط استخدام القاموس .

ويحكم «عوض» أحيانا رأيه المسبق في لغة التوصيف التي يجب أن تجئ محايدة ، فهي تهلل لشخص وتتحفظ تجاه آخر . فيقول عن لينين الرملي «من ألمع كتاب الكوميديا المعاصرين» بينما يقول عن ميخائيل رومان «كاتب من جيل الستينيات» وعن رشاد رشدي «كاتب وناقد» ويقول عن توفيق الدقن «من أبرع

نجوم المسرح القومي المصرى» وعن أحمد حلاوة «أدى بطولة العسل عسل والبصل بصل» رغم أن أحمد حلاوة في رأيي - إذا كنا سنأخذ بالآراء الشخصية - من ألمع نجوم مسرح الطليعة في الثمانينيات هو ويوسف رجائي الذي لم يذكره القاموس بجملة واحدة ولو من قبيل شارك في بطولة العسل عسل والبصل بصل . متى يستخدم عوض اللغة المحايدة ؟ ومتى يستخدم أفعل التفضيل ؟ فهل يعتمد عوض معيار السن أم الموهبة ، أم النجومية ، أم التأثير ، أم النفوذ ، أم الموقف السياسي ، أم الوضع الاجتماعي في اختيار شخصيات قاموسه وأوصافها ؟ أم ماذا ؟

وإذا كنا لا ننكر أهمية صدور القاموس والدعوة للاحتفاء به فإن ذلك لا يمنع من التشديد على نقد منهجه ورؤيته ابتغاء لكمال العمل ونشدانا لتأثيره المأمول ، وبخاصة تلوح بالمنطقة العربية ومصر بوادر إصدار قواميس متخصصة مثل قاموس المصطلح النقدى وتعكف عليه الباحثتان مارى الياس وحنان قصاب ، ويختص بالمصطلحات المسرحية التي استخدمها النقاد العرب في دراساتهم وبحوثهم النقدية (ويالهول المهمة !) وفي المقابل يضم قاموس عوض الأشخاص والفرق المسرحية والمباني والتكنولوجيا المسرحية والمصطلحات (القديمة وغير المعاصرة على أية حال) وتاريخ المسرح في بلدان الوطن العربي ، وهو طموح نظن أن من الشجاعة النادرة أن يزعم شخص واحد أنه قادر عليه ، ويجب أن تضطلع بالأمر لجنة موسعة من النقاد والممارسين ضمانا للحيدة وحفاظا على مصداقية الريادة .

القاموس خطوة نحو الاحتفاظ بذاكرة مصر ، وهي مسئولية وطنية لا مجال فيها للاجتهادات الشخصية وهي مسألة علمية بوصفها توثيقا تاريخيا لا مجال فيها للانتقائية ، الشمولية أحد طموحاتها والحيدة والدقة في المعلومات مبدؤها ، والتأثير في الحركة المسرحية وتطويرها إحدى نتائجها .

● حازم شحاتة

الغجري : سياسة وفن

بهيج اسماعيل



طارق الدسوقي



□ مبدئيا أنت تندهش عندما تدخل قاعة مسرح السلام ولا تجد إلا عشرين متفرجا في عرض مؤلفه بهيج اسماعيل ومخرجه شاكر عبداللطيف وأبطاله توفيق عبدالحميد وطارق الدسوقي (بعد الجماهيرية التي حققاها في المسلسلات التليفزيونية) ، لكنك سوف تندهش أكثر عندما يبدأ العرض نفسه وتجده غير متناسب أساسا مع توقعاتك للمستوى الفني الذي ينبغي أن يقدمه هذا الفريق إما بناء على أعماله السابقة أو على موقعه من الخريطة المسرحية عامة (حيث إن المخرج هنا هو نفسه مدير المسرح الحديث) . فعالم الغجر الذي يطرحه العرض يتلخص في صنع الأحجبة والتمائم و «التعزيم» عليها والقاء التعاويذ مع بعض الملابس زاهية الألوان ، لتكتشف أن المراد هنا ليس «الغجري» لذاته وانما المراد به كناية عن بشر آخرين يتفقون مع الغجر في أنهم طردوا من أوطانهم فقط، وهو ما يتأكد على مدار المسرحية ومسارها حيث «عزام» وعروسه مهددان في ليلة عرسهما بأن يحتل غجري ما البستان المقترن بقصة حبهما بل بحياتهما كلها، مستحوذا بالعنف تارة ، وبالسحر تارة ، على العروس الجميلة أيضا (وهي صورة رمزية للبستان). وخلال جمل حوارية محددة ، وخلال نسيج الأحداث الذي يصعد الدراما يبزغ البعد الرمزي أمامنا ، (احتلال الأرض عامة) وكان الأولوية في التكوين قد أصبحت له ، بل أن الظرف التاريخي الذي يقدم فيه العرض (في القاهرة تحديداً) يرجح في ذهن المتلقي احتلالا بعينه ومغتصبا بعينه - مما يضع الرسالة السياسية التي ينطوي عليها النص خاصة بقضية الشعب الفلسطيني فحسب بدرجة أو بأخرى - كحال العروض



شاكر عبداللطيف

ذات البعد الرمزى كلها . ومع ذلك فالشخوص الدرامية التى يقدمها النص كى تحمل أفكاره وتنسج رسالته تتراجع فى اتجاه مؤكد لتبدو أشباحا ولتفقد حضورها الانسانى الأساسى كشخوص يفترض أنها من لحم ودم وذات داخليات وتفاصيل حية (فيما عدا مونولوجا واحدا تحكى فيه العروس عن بدايات حبها لعزام حيث تتجسد لمرة وحيدة تفاصيل حكاية الحب الظاهرية) مما يؤثر بدوره على قدر الامتاع الذى يحصل عليه المتفرج فبدلا من أن يتابع الحكاية ويتسلل إليه البعد الرمزى تدريجيا يجد نفسه أمام هياكل عارية يبدو خلالها الرمز جزءا من خطاب سياسى مباشر لايتكلف عناء بناء عرض درامى ثرى فنيا فى جميع عناصره النصية والاخراجية (وهو عناء لاغنى عنه لأى عمل حتى يقف على قدميه فنيا أولا ويحقق الركيزة التى تمكنه بعد ذلك من تضمين العمل الرسالة السياسية الرمزية التى يريدها) حتى أن المتفرج بدلا من أن يخرج مؤازرا رأى فريق العرض فى القضية المطروحة مؤازرة تكتسب ثراءها من القوة الفنية التى تكسوها وتغذيها ، يخرج مرددا الرأى كفكرة سديدة وردت فى منشور سياسى عرض على خشبة مسرح .

للأسف أن النص لم يختزل وحده ثراء شخصية الغجرى(رمز المحتل المغتصب رغم أن واقع ترحاله الدائم ، وعدم ثأره من الغبن الذى وقع عليه، وتفرق شعبه فى بقاع الأرض دون وطن ، يقربونه من صورة المظلوم أكثر)، بل اختزل الاخراج الطرح الفنى الممكن له أيضا وحبسه فى شكل صورة مصغرة لشيطان مكير . ولم تتح المادة النصية لممثل رائع من طراز توفيق عبدالحميد أن يستمتع بالدور الذى يقدمه ولا أن يمتعنا به ، لاسيما أن الاخراج لم يقم بأى مجهود ابداعى واكتفى بالتحريك النمطى للممثلين وببعض الرقصات التافهة بينما خشبة المسرح مضغوطة المساحة للاحتفاظ بديكورات «الجنزير» لحفل السواريه . وتظل القوة الفنية لأى ابداع هى السبب الأول لتأثيره على المتلقى ولامتاعه ولاستقطابه حتى فى نسق «الفن الملتزم بقضية سياسية» لأنه فن قبل أن يكون سياسة ..

● نورا أمين

الغجرى واغتصاب الأرض

□ يأخذك المسرح المفعم بالثورة والعمق إلى آفاق التفكير والوعى على أجنحة المتعة والجمال . وقد توافرت لهذا العرض كل الإمكانات التى توفر له هذه القيم ومع ذلك افتقد الحرارة والجمال. كاتب النص هو بهيج إسماعيل وهو أحد أهم كتاب المسرح المصرى حاليا حيث وصل قلمه إلى مرحلة من النضج .

يطرح النص علاقة (الغجرى) المطرود من حب وولاء أهل القرية ، بالفتاة (ريم) التى يحبها ويهيم بها ، فيعود فى ليلة عرسها على الشاب الذى تحبه (عزام) ويريد اغتصابها وينجح بمساعدة (الغجرية حنة) عن طريق السحر والتنجيم والوشم فى اغتصاب شرف «ريم» بل وأرض عزام التى يزرعها ويعيش فيها . لكن ريم وعزام يواصلان المقاومة حتى النهاية .

يطرح النص بصورته تلك امكانات عديدة لتفسيره منها الصراع بين الخير والشر ، حيث يمثل عزام وريم الخير والحب والرومانسية التى ترتبط بالقمر ومظاهر الطبيعة والجمال ، وبين الغجرى والغجرية اللذين اتخذا الشر طريقا . كما تشى الفكرة الدرامية بإمكانية تفسير سياسى مهم نعيشه كل يوم وهو اغتصاب إسرائيل لأرض فلسطين . وهناك تفسير اجتماعى يحتمله النص وهو مشكلات الأقليات العرقية مثل الغجر والهنود وغيرهما . لكننا نجد أن المخرج شاكر عبداللطيف آثر تقديم الحدوتة الدرامية كما هى دون التأكيد على تفسير النص أو تقديم رؤية له .

إذن فلننتظر الجانب الآخر وهو المتعة الجمالية خاصة وأنه

توفيق عبدالحميد



كمدير للمسرح الحديث يمتلك كل العناصر المادية والفنية ولكن انتظارنا جاء هباء . فرغم اعتماد المخرج على مجموعة من الممثلين المتألقين وهم الدكتورة سميرة محسن والنجمان طارق دسوقى وتوفيق عبدالحميد والشابة الواعدة آن تركى، فإن العرض جاء باهتا مفتقدا للمتعة وللوحدة بين عناصره . المنظر المسرحى تجريدى فقير الدلالة بخلاف ماحدث للممثلين من إجهاد صعودا وهبوطا فوق السلالم المرتفعة ، الملابس تقليدية فى تفسير الشخصيات ، العروس ترتدى الثوب الأبيض رمز العفة والطهارة ، العريس يرتدى أسود مع أبيض. فى حين تغلب الألوان النارية الأحمر والبنفسجى فى ملابس الغجرى والغجرية. أما الموسيقى والاستعراضات فهى فى واد آخر لا علاقة لها بأى دلالة . تبقى من هذا العرض حرارة النهاية وهى استنفار «ريم» للناس من أجل حسم الصراع على الأرض بين عزام والغجرى، بين المغتصب والغاصب ذلك الصراع الذى لم يحسم حتى نهاية المسرحية .

● سامية حبيب

فن تشكيلى

زهور فاروق بسيونى المتناثرة وأوانيه الساكنة

❑ بمعرضه الأخير الذى أقيم بقاعة نقابة التشكيليين بالقاهرة، يطالعنا الفنان «فاروق بسيونى» بأحدث نتاجاته الفنية، تلك التى تحوّل فيها عن رسم الأراجوز وعروسة المولد ، اللذين شكلا محور تجربته السابقة خلال السنوات العشر الماضية ، بما حملاه من مضامين إجتماعية ونقدية اتسمت



زهور من أعمال فاروق بسيوني

بطرافة لاذعة وخصوصية في الرؤية والتناول معاً ، تحول نحو رسم الزهور والأواني بأشكالهما المختلفة وألوانهما الزاهية المتعددة ، تحولاً بدا بنتاجه مؤكداً أن العناصر والمفردات بل والموضوعات التعبيرية ، هي وسائط إيحائية لفعل الفن ، بعد أن تتحول إلى «موضوعات فنية» أي بعد أن تنتزع من سياقاتها الفعلية في الطبيعة لتنتظم في سياقات جديدة وفق لغة التشكيل وبناءاته التي ترتبط بذاتية الفنان وقدراته الأدائية ووعيه الفكري.

ولعل الفنان «فاروق بسيوني» بتحوله إلى رسم الطبيعة الساكنة والزهور ، يبدو كمن يبحث عن سكة جديدة في بناء اللوحة ، ومنطق بناء الأشكال وصياغة السطوح، حيث برغم رسمه للزهور كما هي تقريباً دون تحوير ، يبدو غير مهتم بأشكالها كزهور قدر اهتمامه بإيقاع الحركة الذي يحدثه تناثرها على السطوح تارة أو تجمعها في هيئات هندسية تارة أخرى ، وكذا قدر التناقض بين إيحاء الحركة فيها والسكون البادي دائماً في شكل الأواني التي تحملها ، سكون يتأتى عن وضعها دائماً رأسية على قاعدة أفقية تماماً . وسواء جاءت



أشكالها مخروطية أو اسطوانية ، فإنها دائماً تبدو مناقضة بسكونها لبقية العناصر فى الصورة المتمثلة فى أشكال الزهور، وكذا تقسيمات السطوح الخلفية بخطوط وأشكال مائلة دائما، أى أنه يبحث هنا فى ذلك التلاقى بين نقيضين هما الحركة والسكون ، ومدى تأثيرهما فيما يتولد عن تلاقيهما من تعبير مجرد .

ولعل استخدامه لعديد من الألوان الزاهية المتباينة بين السخونة والبرودة معاً قد أضفى على الأشكال حيوية تعبيرية فرحة ، متوافقة بشكل حميم مع تأثير الزهور فى الطبيعة ، وكأنما يقول إن الأمر لابد أن يبدأ دائماً من الطبيعة التى سرعان ما تتحول مفرداتها إلى عناصر جديدة فى بناء اللوحة، وفق رؤية الفنان ومزاجه الإبداعى .

وأعمال فاروق بسيونى فى معرضه الأخير هذا يمكن اعتبارها لمسة وفاء وتحية حب لأستاذه وصديقه الفنان الراحل زكريا الزينى .

● حلمى التونى

من ظرفاء هذا الزمان

«الثنائى الساخر»

أحمد رجب ومصطفى حسين

بين الكلمة الساخرة

والكاريكاتير اللاذع !

بقلم : نجـــوى صـــالح

●● ارتبط الشعب المصرى منذ أقدم العصور بروح الفكاهة والظرف حتى أصبحت سمة من سمات هذا الشعب العريق حيث أن هذا الفن يتطلب سرعة البديهة ورهافة فى الذوق والشعور، وسرعة الجواب.. فضلا عن الذكاء ودقة الحس.

وإذا أردت أن تبحث عن تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى لوجدته فى هذا التراث الضاحك لسبب بسيط، وهو أنه ينبع من صميم الشعب ويعبر عن روحه ومزاجه بتلقائية وسلاسة.

وإذا كانت ألوان الفكاهة تختلف ما بين سخرية وهجاء ونادرة ودعابة ونكتة.. فإن التصوير الساخر «الكاريكاتير» أصبح بعد انتشار الصحافة من أبرز ألوان هذا الفن الراقى الظريف ●●

وقد اشتهر في تاريخ الصحافة المعاصرة العديد من نماذج الارتباط بين الكلمة الساخرة والرسم الكاريكاتيري اللاذع من خلال ثنائيات ربطت بين صاروخان، ود. سعيد عبده، ورخا، ومصطفى أمين.. ومن أشهر الثنائيات المعاصرة الكاتب الساخر أحمد رجب وفنان الكاريكاتير اللاذع مصطفى حسين ما بين هجاء سياسي لاذع أو نقد اجتماعي ساخر الى ابتكار شخصيات نمطية اشتهرت وذاع صيتها.. ولكن قبل أن نتناول هذا الثنائي الساخر علينا ان نتعرف على كل واحد منهما على حده .

أحمد رجب كاتبا ساخرا

منذ الخمسينات والكاتب الساخر أحمد رجب يحترف الكتابة الصحفية بعد تخرجه في كلية الحقوق بالاسكندرية والتي حضر بعدها الى القاهرة تلبية لرغبة الكاتب الكبير مصطفى أمين، والذي تعلم من هذا الرائد الصحفي الكثير في دنيا الصحافة والقلم.

وبدأ أحمد رجب رحلته الصحفية في صحف أخبار اليوم ومجلاتها من خلال كتابة التحقيقات الصحفية والموضوعات الجديدة التي تتسم بروح الجرأة والتحدي، وانتهى به الأمر إلى اختزال أفكاره الساخرة المتحدية في عالم السياسة والمجتمع الى «نصف كلمة» استجابة لروح العصر التي استعاضت بالتعليق السريع المركز عن الافتتاحية المطولة واستطاع بتمكن وقدرة فذة أن يكثف أفكاره وينقلها للقارىء في سطور قليلة مشحونة بكل الايحاءات والأفكار والسخرية اللاذعة التي تثير الابتسام.. وفي الوقت نفسه تثير التفكير والتساؤل!

لقد استطاع أحمد رجب الكاتب الساخر أن ينقل فن الفكاهة نقلة واسعة من فن المقامات والشعر الحلمنتيشي والنوادر والقفشات الى فن الكلمة المركزة التي تثير الابتسامة والتأمل في الوقت نفسه !

وبرز هذا الفن بعد أن كادت تختفي ظاهرة الندوات ومجالس الفكاهة والطرب في المقاهي وبيوت العائلات الكبيرة التي اشتهرت بها مصر في العشرينات والثلاثينات والاربعينات من هذا القرن والتي واكبها في الوقت نفسه ظهور عدد كبير من المجلات الفكاهية الشهيرة مثل «البعكوكة» «حمارة منيتي»، «والفكاهة» و«أبونظارة»، «والمسامير»، «والكشكول» وغيرها من المجلات الفكاهية التي اختفت للأسف من حياتنا الثقافية وتألقت على صفحاتها كتابات أعلام الفكاهة والظرف مثل بيرم التونسي وحسين شفيق المصري وإمام العبد ومحمد البابلي والشربتلي



أحمد رجب

وعبدالعزيز البشرى ومحجوب ثابت وغيرهم.

الثنائي الساخر

ينتظر القراء بلهفة الكاريكاتير اليومى الساخر الذى يضم فن مصطفى حسين الكاريكاتيرى وفكرة وتعليق أحمد رجب الساخر، وقد لايعرف القارىء مدى الجهد والوقت الذى يستغرقه هذا الكاريكاتير اليومى الذى يكون ثمرة لقاء يومى منذ اثنين وعشرين عاما يمتد من الساعة الحادية عشرة صباحا حتى الواحدة والنصف ظهرا.. وتبدأ الجلسة بأن يقرأ أحمد رجب «نصف كلمة» على مسمع مصطفى حسين الذى يستوحى فكرته من خلال ما سمعه بعد تبادل الآراء والأفكار.. واستعراض الأحداث الراهنة حتى تتبلور الفكرة.. يكتبها أحمد رجب فى شكلها الأخير وتدور ريشة مصطفى حسين للتعبير عنها رسما.

ومن ينظر الى ملامح كلا الفارسين خلال هذه الجلسة، يدهش لمظاهر الجد والانشغال على ملامحهما، أحمد رجب بأناقته وتنميقه لكل ما حوله ونظراته الحالمة، ومصطفى حسين ببنيانه الضخم وعينيه النافذتين، ولا يتصور أن هذا الثنائى المقطب الجاد مشغولان بإبداع صورة كاريكاتيرية لاذعة تثير البسمة والضحكة.. وفى الوقت نفسه تثير التعمق والتفكير!

كمبورة وكحيت! وشخصيات أخرى!

فى هذه الحجرة التى تضم جلسة فارسى الظرف والفكاهة مصطفى حسين وأحمد رجب ابتكرت شخصيات نمطية حازت الشهرة والذيوع كأنها شخصيات حقيقية تعيش بيننا وهى شخصيات عبده مشتاق، كمبورة، قاسم السماوى، كحيت، الفلاح الفصيح، فلاح كفر الهنادوه.. وكل شخصية من هذه الشخصيات النمطية أصبحت لها سماتها وابعادها الخاصة، وقد دفع نجاحها وذيوعها إلى تجسيد تلك الشخصيات فى حلقات تليفزيونية تحت عنوان «ناس وناس» التى قدمت فى شهر رمضان .

ومن أطرف المواقف الفكاهية لاحدى تلك الشخصيات وهى شخصية «قاسم السماوى» أنه ذهب لعيادة رجل فى أحد المستشفيات وهو فى غرفة الانعاش فى حالة يرثى لها، وقد تدلت الخراطيم من جسمه، وقاسم السماوى يطل عليه ويقول بحسد «جتنا نيلة فى حظنا الهباب ، أنت قاعد فى التكييف واحنا بنتشوى بره من الحر!»

ومن ملامح تلك الشخصيات الكاريكاتيرية المبتكرة.. شخصية «كمبورة بك» محدث النعمة الذى لاتقف فى وجهه عقبات والذى يذللها كلها بسلطان المال والفهلوة والنفوذ!

عبده مشتاق: صورة هزلية صارخة للرجل الوصولى.

كحيت: شخصية الفقير المغرور المنفوش كالطاووس الذى يتباهى بامكانياته الضخمة التى تفوق امكانياته الحقيقية، والذى يعيش فى عالم الخيال والأحلام وهو الفقير المطحون!

وتبلغ قمة السخرية بين التناقض المذهل بين ملابسه الرثة وحذائه المتهرئ، وبين مباهاته المريضة بأحلام العظمة والمال والحياه!

المذيعة التافهة: التى تتقعر بكلمات متفرنجة تظهر الجهل باللغة والغرور الجامح وحب المظاهر الكاذبة!



مصطفى حسين

مشغول .. وحياتك . مشغول

ويؤكد مصطفى حسين: أن هذه الصور مقتبسة من الحياة، فقد استقينا أبعاد هذه الشخصيات من أناس يعيشون بيننا، ويملكون منطقهم المحدد الذى يفكرون ويتصرفون على أساسه، وشخصية «كحيت» الفقير «المتعنطظ» هى شخصية ساع يعمل لدينا فى دار أخبار اليوم!

ويضيف مصطفى حسين: تخيلى انى لا استمتع بتاتا، بأى عمل كوميدى على الشاشة أو على خشبة المسرح، وأجد نفسى بدلا من الاسترخاء والفرجة حيث أبدأ فى تحليل الكلمات، والمواقف من هنا وهناك، وأغير وأبدل فى الكلام والمواقف، وأفترض الافتراضات، وأنتقد..



صلاح جاهين بريشة مصطفى حسين

لقد أصبح يحتل الفن الكاريكاتيري بالجريدة أو المجلة لأنه يمثل في مضمونه تعبيراً عن ... كما يقول الآن المواطن وطابع التميز وروحه.

وعن النكتة أيضاً يقول مصطفى حسين:

- أضحك من المفارقة الصارخة مثل واحد شب في بيته حريق وهو يحاول إنقاذ نفسه، فقفز من النافذة ليقع في ترعة.

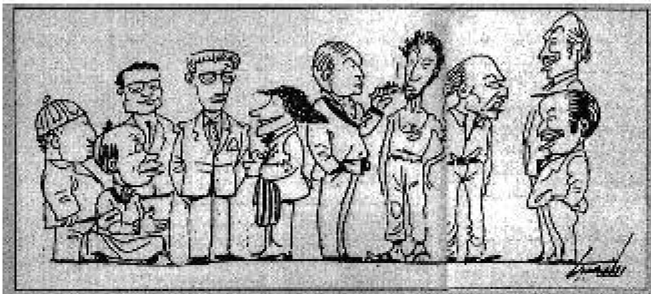
هذه لقطة كانت الضحكة تنفجر منها لأنها غير متوقعة، وتحدث رد فعل سريعاً حين تأخذ المتلقي إلى قمة الدهشة، ثم تعود به إلى مستقر الضحكة، وهو ما لم

من تلاحم الموقف والضحكة سواء في شكله التشكيلي ... الأداة الحقيقية لتجربة الكاريكاتير ... وهو نوع من التبسيط لوجوه الناس فيها، فكيف لا تستخدم هذه الصفة كما يجب؟!

ومصطفى حسين خريج قسم تصوير بكلية الفنون الجميلة فهو يحاول أنه رسام كاريكاتير يدرس الفن الأكاديمي الكلاسيكي في ... المقربين الذين يعرفون مدى تمكنه من هذا النوع من الفن.

ويقول مصطفى حسين:

- الحس التصويري لا يمكن أن



شخصيات تعيش بيننا كصورة: عبد الروتين، الكحيت، فلاح كفر الهنادوة

فرضت ... وهذا يظهر في اختياري لزوايا أو لأبعاد خاصة بي، ثم التزامي بالقواعد الفنية التشكيلية، والكاريكاتير ليس معناه أن أبالغ في كل شيء، فالمبالغة لها أصول وإلا أصبحت تشويهاً.

وبالرغم من حبي لعملي كفنان كاريكاتير، ثم حبي للاتصال المباشر بمن حولي، فإن أملي أن أتخذ مكاناً في الريف، وأبني عليه بيتاً، يضم أتيلييه متسعاً أملؤه بالكمبيوتر ... من الأقمشة الأثرية القديمة، وملابس قديمة كتلك التي كانت موجودة في عصر النهضة، وتماثيل وبقايا أعمدة والحجر

بمساحة هذه ... لوحة خاصة ... وبالطبع فإن ذلك سوف يستغرق مني زمناً طويلاً. ولكن السؤال: هل سأستطيع الاستغناء عن هذا التواصل والتلاحم الدائم بيني وبين الجمهور؟

إن الحياة تبدو رائعة في ظل أحاسيسي، وكذلك ... العلاقة المتبادلة بين الرجل والمرأة التي لا غنى عنها، والأحاسيس التي تمنح ... جمالاً ورحلة.

مصطفى حسين إنسان متيم بالعمل، الوقت الوحيد الذي يقضيه مع نفسه في الساعات الأخيرة من الليل قبل بزوغ الفجر، في تلك الساعات فقط يمنح نفسه بكامل مساحة هذه ...

أعتز بدوري في حركة كتاب آسيا وأفريقيا

مرسى سعد الدين

إنى أعتقد أن لكل إنسان أكثر من حياة واحدة ، أو لعل من الأوفق أن نقول إن هناك مستويات مختلفة لحياة الإنسان، خاصة إذا كان هذا الإنسان يعيش حياته كاملة شاملة . وحياة أى إنسان فى حد ذاتها لا أهمية لها إلا بالقدر الذى يسهم به فى حياة مجتمعه ونموه ، وكذلك فى إطار الأحداث التى يعيشها ومدى تأثيره أو تأثره بتلك الأحداث .

ولعلى كنت ومازلت من المحظوظين الذين أعطيت لهم فرص لم تعط لغيرهم ، سواء فى إطار العلم والتعلم أو الثقافة أو الوظائف التى تقلدوها . وسأرجع هنا إلى أيام الجامعة بالرغم من أهمية ماسبقها من دراسة فى المدارس الثانوية. كانت الجامعة أيامنا - جيل ما بين أواخر الثلاثينات ومنتصف الأربعينات - مركز أشعاع تعليمى بقدر ما هو ثقافى . كنا عشرين طالبا وطالبة في قسم اللغة الإنجليزية وكان لكل خمسة منا مشرف علمى [illegible] مهمته شرح ما قد يخفى عنا فى المحاضرات ومعرفة مشكلاتنا ومحاولة حلها .



د. مرسى سعد الدين

كانت علاقتي بأساتذتي الانجليز فرصة للتعرف علي الجماعات الأدبية المختلفة

وكانت مجموعتى تحت إشراف د. لويس عوض الذى اعتبره واضعنا على أولى درجات الثقافة والفنون ، لقد عرفت الموسيقى الكلاسيكية الرفيعة عن طريق جماعة الجراموفون التى أسسها وكنا نجتمع لننصت إلى روائع النغم مع شرح من د. لويس . ومازلت أذكر أول قطعة سمعناها وكانت شهر زاد لريمسكى كورساكوف، وحين انتهينا من الإنصات لتلك القطعة البديعة طلب منا د. لويس كتابة موضوع إنشاء عن تأثرنا بما سمعناه . وكانت تلك بداية اقتناعى بتشابك الفنون ووحدتها ، سواء أكانت فنون الموسيقى أو المسرح أو العمارة أو الشعر أو القصة.

وتعد سنوات الجامعة فترة وضع الأسس العميقة لعملية التعلم، ولا أقول التعليم ، فإنى دائما أفرق بينهما فالتعليم هو السير حسب مناهج محددة والاستماع إلى دروس أو محاضرات ، أما التعلم فهو نوع من الاختيار الشخصى ، فهناك من يعلم نفسه الموسيقى أو الكتابة أو الفلسفة وغيرها - والتعلم يأتى عن طريق التجربة الشخصية والقراءة وإن كان للقراءة دور أساسى فى التعلم فعن طريق القراءة نعرف تجارب الآخرين وممارساتهم لحياتهم ، وهى عملية تثرى حياتنا وتقدم لنا غذاء متنوعا جاهزا .

كانت دراستى للأدب الانجليزى بكل جوانبه نوعا من التوجه إلى ثقافة معينة هى الثقافة الانجلوساكسونية ، ولكن ، وهذا هو المهم ، أن هذه الثقافة لم تقف فى طريق الثقافات الأخرى ، وأذكر على سبيل المثال أنه ضمن ما درسناه من دراما كانت مسرحيات ابسن وتشيكوف وروايات تولستوى وأشعار الشاعر الألمانى ريلكه . وكنا ندرس أيضا اللغة الفرنسية وآدابها وبذلك أخذنا ثقافة واسعة ومتنوعة . وهناك نقطة مهمة أود أن أذكرها وهى تعكس الفرق بين التعليم الجامعى أيامنا وهذه الأيام . كان الهدف من التعليم فى زمننا هو دفعنا إلى متابعة التعليم والتعلم ولم تكن مهمة الاستاذ هى إلقاء محاضرات يدونها التلاميذ ويفرغونها فى أوراق الامتحان ، بل كانت مهمته فتح المجال أمامنا لتتابع الآراء التى عبر عنها . ومازلت أذكر كيف كنا نهرع بعد انتهاء محاضرة ما، الى مكتبة الجامعة لاستعارة الكتب والمراجع التى ذكرها الاستاذ، كنا ننهل العلم كما ينهل العطشان الماء ولم نكن نكتفى بتدوين المحاضرات كما يحدث الآن.

تلك كانت فترة التعليم والتعلم والتثقيف الأولى . ثم جاءت الفترة الثانية حين عينت سكرتيرا للمعهد المصرى فى لندن ، وأود هنا أن أذكر كيف تم اختيارى

التكوين

لهذه الوظيفة . فعند تخرجى من الجامعة عملت فى جريدة الاجبشان جازيت ورشحت لبعثة فى لندن لدراسة الصحافة ، وسبب اختيار الصحافة بالذات أنى كنت رئيسا لتحرير مجلة باللغة الانجليزية فى القسم . كان يكتب فيها بعض أساتذتنا من الانجليز وكان منهم الشعراء المعروفون مثل برنارد سبنسر وبترنس تيللر أو كتاب الرواية والنقد مثل روبن فيدن .

انتفاضة أدبية

أود أن اتوقف هنا لحظة لأتحدث عن فترة الحرب العالمية الثانية فى مصر ، ليس فقط لأنها انتهت بفوز الديمقراطية على الديكتاتورية ولكن لأنها كانت فترة انتفاضة أدبية وفنية فى مصر وفى القاهرة بالذات . وقد انتهت حياتى الجامعية بالحرب فقد دخلت الجامعة فى عام ١٩٣٩ وتخرجت منها عام ١٩٤٣ ومن ثم فقد تعايشت وتلك الفترة المهمة فى تاريخ العالم . لقد التقى فى القاهرة عدد من كبار الكتاب والشعراء الانجليز الذين هربوا إلى مصر من أوربا بعد سقوط دولها «مثل أوراق الكوتشينة» كما يقول لورنس دوريل . جاءوا من اليونان ومن ايطاليا ومن رومانيا حيث كانوا يعملون فى المعهد البريطانى فى تلك الدول، أو مستشارين ثقافيين فى سفارة بريطانيا. وحين وصلوا إلى مصر عمل بعضهم فى جامعة القاهرة كما ذكرت من قبل والبعض الآخر فى السفارة البريطانية والامريكية مثل لورنس دوريل مؤلف رباعيات الاسكندرية.

التعرف على الأدب الانجليزى

كانت علاقتى بأساتذتى الانجليز فرصة للتعرف على الجماعات الأدبية المختلفة وكنت عضوا فى الاتحاد المصرى الانجليزى – وهو الآن نادى الضباط فى الزمالك – وبذلك سنحت لى فرص عديدة للتعرف على أساتذتى اجتماعيا وعلى عدد كبير من الأدباء الإنجليز ومنهم لورنس دوريل وج. س. فرازر وجون والر . إنى أذكر ذلك لأنه عن طريقهم تعرفت على بعض معالم الأدب الانجليزى الحديث ، فقد قدمونى إلى ت . س . اليوت وإلى ويليام بتلر ياتس شاعر أيرلنده العظيم ، وسنج كاتبها المسرحى المعروف والشعراء المحدثين مثل أودين وسيسيل داى لويس . وقد شاهدنا فى القاهرة فى تلك الفترة بعض مشاهير الفنانين الانجليز مثل نويل كوارد وبيجى اشكروفت وأميلين ويليامز وبعض عظماء العازفين مثل بنيتا سالزمان وبولستوف وشاهدنا فرق شكسبير والبنوفيك وأوركسترات عالمية .

كان لذلك النشاط الثقافي أثره على جيلي من خريجي الجامعات وخاصة كلية الآداب . فقد استطاع اساتذتنا ومن قابلناه من كتاب وشعراء وما شاهدناه من مسرحيات أن تترك فينا آثارا بقيت معنا طوال حياتنا ، كما أن مصر استطاعت أن تؤثر على الكتاب الذين عاشوا فيها وقت الحرب ، فنجد لورنس دوريل يكتب رباعيات الاسكندرية ويؤلف أشعارا عنها ، وروبن فيدن ينشر كتابا بعنوان «مصر : أرض الوادي» من أحسن ما كتب عن مصر.

وكما قلت لقد تعرض جيلنا لفيض الثقافة الانجليزية أو الفرنسية ، ولم يكن نهلنا من تلك الثقافات مصدره شعور بأن ثقافتنا غير كافية وإنما كان نابعا من رغبة عميقة وحقيقية للتعرف على تلك الثقافات ومقارنتها بثقافتنا والأخذ منها بما يتفق مع واقعنا وماكنا نرى أن في الإمكان تطبيقه عندنا ، سواء في الأشكال الأدبية أو الأسس الفنية أو قواعد النقد . وقد يكون من الحديث المعاد أن أقول إن الثقافة لا تعرف الحدود ، ولذلك فإني لا أتفق مع تعبير «الغزو الثقافي» لأنه اعتراف بالضعف وعدم صلاحية ثقافتنا . إن انفتاحنا على ثقافة أخرى لا يعني بأي شكل من الأشكال أننا أصبحنا تابعين لها ، وأمامنا أمثلة عديدة : طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وحسين مؤنس وحسين فوزي وزكي نجيب محمود ورشاد رشدي ونعمان عاشور وعلي الراعي وغيرهم . وما من أحد يستطيع أن يتهم هؤلاء العظماء بأنهم فقدوا جذورهم الوطنية ، إن كتاباتهم مصرية تماما مثل نهر النيل وطبيعة مصر .

أعود إلى ترشيحي لبعثة في لندن .

حين وصلني الترشيح كان عليَّ أن أذهب لأقابل مدير البعثات في وزارة التربية وكان المرحوم أحمد نجيب هاشم الذي عمل سفيرا في إيطاليا ووزيرا للتعليم ، ولم أجد أية صعوبة في مقابلته وتلقاني بترحاب وبابتسامة كانت طابعه المميز . وأخرج نجيب بك خطابا من درج مكتبه وقال لي : إنه من صديق له انجليزي ويريد الرد عليه ، ثم تلا علي بالعربية ما أراد كتابته ، وحين انتهيت من كتابة الرد بالانجليزية قرأه وهنأني على مستوى لغتي الانجليزية . كانت تلك طريقته المهذبة لاختباري في اللغة الانجليزية التي كان يجيدها حيث إنه تخرج في جامعة ليفربول .

ولم تتم بعثة لندن لأن معهد الصحافة الذي كنت سألتحق به أغلق أبوابه لأن أساتذته تطوعوا في الجيش أو عملوا مراسلين عسكريين . ومر عام ودق جرس

التكوين

التليفون في منزلي وإذا بالمتحدث نجيب بك هاشم يطلب مني زيارته في مكتبه . فرحت واعتقدت أن البعثة قد تجددت . دخلت مكتبه واستقبلني ببشاشته المعهودة وأخبرني أن وزير التربية أصدر قرارا بتعيينه مديرا للمعهد المصري في لندن وأنه يريدني أن أرافقه سكرتيرا للمعهد ، وأخرج «فورمة» من مكتبه وطلب مني ملأها للتوظف في وزارة التربية. ملأت الاستمارة دون مناقشة فقد كانت فكرة العمل في لندن حلما لم أتصور أنه سيتحقق بتلك السرعة .إني أنكر هذا الحدث لأبين الفرق بين ما كان يحدث هناك في الماضي وما يحدث الآن وتذكرت جملة بدأ بها الكاتب الانجليزي هارتلي روايته الجميلة «المرسال» The go Between يقول فيها : إن الماضي بلد غريب عنا الآن - كل شيء فيه يحدث بطريقة لا نعرفها.» .

حقا إن الماضي بلد غريب ، يتصرف الناس فيه بطريقة تختلف عن طريقتنا ، القيم والمفاهيم والسلوك والتعامل بين الناس والعلاقات الإنسانية . الصداقات تضرب جذورها في أرض الماضي ، أرض خصبة خصوبة وادي النيل ، صداقات شامخة وقوية كشجر البلوط الذي يعيش أبد الدهر ، ورجولة ونخوة ، وإحساس قوي بالانتماء الذي نبحث عنه الآن فلا نجد له أثرا والذي نحاول أن نغرسه ولكن الأرض جدباء كالصحراء وليس هناك من بئر ترويها - إن العودة إلى الماضي تشبه تماما من يتمتم بنغمة موسيقية حبيبة إلى قلبه ، يكررها لنفسه في ظروف معينة فتروح عنه وتهدئه وتجعله يحلق في سماء الموسيقى ، هكذا الماضي بالنسبة إلى ، وحين أفكر فيه يمتلئ قلبي بالحنان والحنين ، بالحب والاشتياق ولكن هذا لا يعني أني أريد أن أعيش في الماضي أو أني أتحسر عليه ، فإني من المعتقدين في ديناميكية الحياة إذا كان لهذه الحياة أن تستمر ولهذا السبب فإني لا أعترف بما يسمونه صراع الأجيال ، بل تعاون الأجيال وتواصلها ، فالأجيال مثل سباق التتابع يسلم العداء الأول الراية للعداء الثاني الذي يسلمها للثالث ، وهكذا نحن جيلا بعد جيل نتم السباق معا .

وهكذا بعدت مرة أخرى عن الموضوع الأساسي ، وهو ذهابي إلى لندن ، لم تمض أسابيع قليلة حتى كنت وزوجتي على أول سفينة «حاملة جنود» سمحوا لبعض المدنيين بالابحار عليها . كنت أشارك عنبر الرجال مع مجموعة من موظفي السفارة البريطانية وأساتذة الجامعات ، وكانت زوجتي تشارك

زوجاتهم في عنبر خاص ، وبدأت الرحلة تحت حراسة السفن الحربية . كان ذلك في عام ١٩٤٥ وكانت الحرب في أوربا قد انتهت ولكن حرب الشرق الأقصى كانت لاتزال مستمرة ، وكان هناك دائما خوف من هجوم الغواصات على السفن البريطانية التي تمخر مياه البحر الأبيض المتوسط . وبعد حوالي اثنى عشر يوما وصلنا إلى ميناء تلبري في لندن وبدأت حياتي الجديدة في عاصمة الانجليز .

كان المعهد المصرى يقع فى أرقى أحياء لندن وهو الماى فير ، وهو قريب من السفارة المصرية التى تقع فى شارع ساوث أودلى . كان المعهد فى قصر اشتراه د. سليمان حزين حين كان مديرا للمعهد من لادى، ودفع فيه ٧٠ ألف جنيه استرلينى، وفى ذلك الوقت وجهت إليه الوزارة اللوم لدفع مثل هذا المبلغ الضخم، وللحقيقة والتاريخ لقد تقدم البعض لشراء

لقطة تجمع بين مرسي سعد الدين وجيهان السادات



المعهد ، وهو الآن مكتب البعثة التعليمية والنادى المصرى ، بعشرين مليون جنيه !

كانت نهاية الحرب هى بدء وصول البعثات المصرية إلى إنجلترا ، ووفد عدد غفير منهم ، أذكر د. اسامة الخولى ، د. عبدالعظيم أنيس ، د. عبدالرزاق حسن ، د. عبدالعزيز حجازى ، د. فؤاد محيى الدين وعشرات من أطباء مصر الذين جاءوا لدراسة MRCP عضوية الكلية الملكية للأطباء أو FRCS لزمالة الكلية الملكية للجراحين وغيرهم . كان المعهد المصرى مركزا لتجمع المبعوثين ، وكنا ننظم ندوات نناقش فيها أحوال مصر وعلاقتها ببريطانيا . كنا جميعا نميل إلى اليسار وكانت انجلترا فى ذلك الوقت تعكس مثل هذا الاتجاه وخاصة بعد تحالف الاتحاد السوفييتى مع الغرب ودوره فى القضاء على النازية . كانت صور ستالين تملأ شوارع لندن بعنوان «العم جو» .

جاءت انتخابات ١٩٤٥ فى بريطانيا بفوز ساحق landslide لحزب العمال . وكان حزب المحافظين متأكدا من فوزه ، أفليس زعيمه هو ونستون تشرشل الذى حقق النصر لبلاده . وتعكس تلك النتيجة مدى الوعى السياسى والتقدم الفكرى للشعب البريطانى الذى استطاع أن يفرق بين العاطفة والصالح العام . كان احساسه عميقا وطاغيا لتشرشل من حب وإعجاب وتأليه ولكن وعيه السياسى جعله يرى أن قائد النصر الحربى ليس بالضرورة قائدا للسلام وإعادة البناء .

كانت أول نتيجة لمناقشاتنا أن أصدرنا كتيبا بعنوان «مصر وحكومة العمال» وزعناه على أعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات والأحزاب السياسية والصحف الانجليزية والجامعات وغيرها من مراكز السياسة والفكر فى بريطانيا ، وكنا فى الوقت نفسه نلقى محاضرات فى الجامعات والمعاهد والتنظيمات الحزبية وخاصة أمانات الشباب سواء فى حزب العمال أو المحافظين أو الأحرار ، بالاضافة إلى مقابلات مع أعضاء البرلمان.

وأذكر هنا إحدى المحاضرات التى ألقيتها فى جمعية الصحفيين فى مليت ستريت ، شارع الصحافة المعروف وكان رئيسها فى ذلك الوقت جامس كاميرون نائب رئيس تحرير الدايلى كرونيكل لسان حال حزب الأحرار . وفى تلك المحاضرة تحدثت بحرية عن بعض عيوب القائمين بالحكم فى مصر وعن العلاقات المصرية الانجليزية وبعد انتهاء المحاضرة جاءنى جامس كاميرون وهنأنى على المحاضرة وعلى حرية التعبير قائلا «أنت موظف فى

السفارة المصرية ألا تخاف من رد الفعل الرسمي؟» ولم نكن فعلا نفكر فى رد الفعل الرسمى إذ كان الحماس يغلب علينا ويحملنا إلى آفاق من الحرية ، كنا ننسى أحيانا أننا جئنا من مصر ، من بلد بعيد عن الحرية والديمقراطية وكان الجو الحر الديمقراطى يطغى على المحاذير والأخطاء.

وقد لاحظت أن هذا هو الاحساس العام لمن يسافر من المصريين إلى بلد ديمقراطى ليشارك فى مؤتمر أو ليلقى محاضرات. إن جو البلد الذى يحاضرون فيه أو يشاركون فى مؤتمر فيه غالبا، إن لم يكن دائما، ما يتغلب على الحذر والتعقل ، وفى انجلترا يعيش الانسان فى جو من الديمقراطية لا تجده فى أية دولة ديمقراطية أخرى سواء فى أمريكا أو أوربا . وهنا أود أن أتوقف لحظة لأبين أهمية دور أولادنا فى الخارج وضرورة توعيتهم سياسيا وثقافيا قبل سفرهم فهم سيصبحون سفراء لبلادهم فى الخارج ، فعمل السفارة أو المكاتب الثقافية والاعلامية مركز فى لندن وفى بعض المدن الكبرى ، أما المبعوثون فهم ينتشرون فى جميع أنحاء بريطانيا - سواء فى اسكتلنده أو ويلز أو ايرلنده - فى مدن لا يعرف أهلها أين توجد مصر أو لا تزيد معلوماتهم عن الاهرامات وأبو الهول . بالإضافة إلى أن الدبلوماسيين حركتهم مقيدة ومرتبطة بتقاليد السلك الدبلوماسى.

حركة ثقافية مستمرة

كانت مدة عملى فى لندن فرصة للتثقيف . فمجرد انتهاء الحرب تحولت لندن إلى مركز اشعاع ثقافى لا نظير له ، أو لنقل عادت إلى ما كانت عليه من قبل . لقد جاءت إليها الفرق المسرحية من أوربا ومن أمريكا ، وشاهدنا على مسارح لندن مشاهير الممثلين والممثلات من أمريكا مثل كاترين هيبورن وهى تقدم مسرحية «المليونيرة» وادوارد . ج . روبنسون فى «موت بائع جائل» وتايرون باور فى مستر جيم وغيرهم. وشاهدنا فرق الباليه من جميع أنحاء العالم ، وحضرنا حفلات البروموناد فى الألبرت هول The Promenade Concert ، ومهرجان ادنبره ومسرح شكسبير فى سترانفورد واستمعنا إلى مشاهير الفرق السيمفونية وكبار العازفين وقائدى الأوركسترا ، كنا نهمين ، جوعى التهمنا طعامنا الفنى والأدبى .

شئ آخر عرفته فى لندن ، بلدى مصر. إن ماكتبه الانجليز عن مصر يعد بالمئات من الكتب ، مصر الفرعونية ومصر الاسلامية ومصر القبطية ومصر الحديثة كتب لا نهاية لها ، قرأتها وعرفت بلدى

التكـــويـن

كما لم أعرفها من قبل ، وقد ساعد حنينى لمصر على بحثى الدائم عن الكتب التى صدرت عنها . ونظمنا فى المعهد المصرى وفى أحد المعاهد الليلية موسما دراسيا عن مصر شارك فيه معنا عدد من المبعوثين وكان من بينهم د . زكى نجيب محمود وكان يدرس لدرجة الدكتوراه فألقى محاضرات عن الفكر المصرى الحديث وعن العقاد شاعرا ، وألقى مصطفى مشرفة محاضرات عن الموسيقى الشرقية والغربية وألقيت أنا سلسلة عن الصحافة فى مصر . وبمناسبة الصحافة فى مصر فحين حضر إلى لندن إحسان عبد القدوس عام ١٩٤٧ على ما أعتقد طلب منى كتابة مقالات لروز اليوسف فكنت أرسل له مقالا أسبوعيا عن الحياة فى انجلترا وكذلك ملخصات لبعض الكتب المهمة التى صدرت ، وكان ذلك أول عهدى بالصحافة العربية فى مصر .

وإنى أذكر حين اتصل بى سكرتير نادى القلم الدولى هرمون أولد وطلب منى استعمال قاعة محاضرات المعهد لتنظيم سلسلة من المحاضرات وطبعا وافقت فى الحال . والقلم الدولى هو هيئة دولية للكتاب تكونت بعد الحرب العالمية الأولى بغرض العمل ككتاب فى وقف الحروب .

وقد بدأت الهيئة انجليزية، رأسها بعض كبار الكتاب الانجليز منهم هـ . ج ويلز ثم شارك فيها الكتاب الفرنسيون ثم الألمان إلى أن أصبحت هيئة دولية كانت مصر من الأعضاء المؤسسين فيها وكان سكرتير الفرع المصرى عبد الرحمن عنان. وبعد ظهور النازية وحرق هتلر للمكتب قرر نادى القلم الدولى حل نفسه ولم يعد تكوينه إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. .. وكان من شروط موافقتى للنادى إعادة تسجيل مصر عضوا ، فوافق السكرتير العام فأرسلت إلى يوسف السباعى وكان فى ذلك الوقت قد بدأ فى تكوين المجلس الأعلى للفنون والآداب واتحاد الأدباء ونادى القصة ، فأرسل رده فى الحال باختيار طه حسين رئيسا للفرع المصرى ويوسف السباعى وأنا للسكرتارية ، وكان ذلك بدء علاقتى بالقلم الدولى الذى عملت سكرتيرا للفرع المصرى لأكثر من أربعين عاما .

علاقاتى بكبار الكتاب

كنت فى ذلك الوقت قد نشرت مجموعة من الأشعار بالانجليزية ومجموعة قصص مصرية مترجمة إلى الانجليزية لمحمود تيمور وتوفيق الحكيم وسعيد عبده وعبد القادر المازنى ، كما كنت قد كتبت مقدمة كتاب ادوارد لان المشهور «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» فأهلنى ذلك لعضوية

الفرع الانجليزى للقلم وكان الرئيس فى ذلك الوقت هو الكاتب الانجليزى المشهور تشارلز مورجان ، وعن طريق عضويتى فى الفرع الانجليزى تعرفت على أ . م فورستر الذى كتب «الاسكندرية تاريخ ودليل»، وجراهام جرين وجون ليمان وأسرة سيتويل وغيرهم من عظماء كتاب العالم . لقد استطعنا بمجهود يوسف السباعى الذى يدين له الأدب المصرى بالكثير ، أن نبنى قنوات بين كتابنا وكتاب العالم ، وقد ساعدنا على ذلك حضورنا لمعظم المؤتمرات الدولية للقلم والتى كانت تناقش فيها موضوعات مهمة عن المسرح والقصة والرواية والشعر والترجمة وغيرها مما يرتبط بهذا الجانب من حياتنا .

عدت إلى القاهرة وبدأت عملى مع صديق العمر يوسف السباعى . عملت معه فى كل مكان عمل فيه ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب كما كان يسمى قبل إزالة كلمة «رعاية» وفى التضامن الإفريقى

فى واحد من المؤتمرات الأدبية الوفد من مشاهير أدبائنا وبينهم مرسى سعد الدين



الآسيوى ، واتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ونادى القلم الدولى ووزارة الثقافة ونشرت مقالاتى فى الصحف والمجلات التى تولى رئاسة تحريرها مثل روز اليوسف وآخر ساعة والأهرام وقبلها الرسالة الجديدة .

لقد ارتبطت حياتى وعملى بيوسف السباعى ، عرفته رئيسا وصديقا وأخا كبيرا . وحين عدت عملت فى كلية المعلمين وكلية آداب القاهرة وعين شمس ولكن مكانى الدائم كان فى المجلس الأعلى ووزارة الثقافة ، ثم رئيسا للهيئة العامة للاستعلامات ومتحدثا رسميا لمصر ، ولكنى لن أتصدى للجانب السياسى من حياتى ، ذلك الجانب الذى أخذنى إلى جميع دول آسيا وأفريقيا تقريبا ، وإلى الأمم المتحدة والذى أعطانى الفرصة لإقامة صداقات مع رؤساء جمهوريات افريقية كانوا يرأسون مكاتب تحرير بلادهم فى مصر وكنت مسئولا عنهم ، ثم تقلدوا الرئاسة فى بلادهم فأكرمونى وكرمونى ، ورؤساء فى آسيا أذكر منهم لى كوان يو رئيس وزراء سنغافورة والرئيس ماركوس فى الفيلبين وغيرهم.

فترة خصبة فى حياتى

كانت فترة عملى وكيلا لوزارة الثقافة للعلاقات الخارجية وهو منصب خلقه د. ثروت عكاشة حين كان وزيرا للثقافة وتقلده صديق العمر مجدى وهبه كانت فترة غنية بالأعمال ، أحضرت فيها فرقا مسرحية وموسيقية وباليه من أعرق الفرق، البولشوى من روسيا ونيوفيك والبروسكين من انجلترا والكوميدى فرانسيز من فرنسا والسكالا من ايطاليا ، كانت فترة إحياء لما قدمته دار الأوبرا قبل حرقها ، حين كانت مصر منفتحة على العالم ولم يكن هناك ذلك التعبير القاصر «الغزو الثقافى» إن الثقافة القوية التى تضرب جذورها فى عمق لا يجب أن تخاف من ذلك الغزو المزعوم ، وهنا أذكر كلمات غاندى الخالدة «دعونا نبنى بيتنا على أسس قوية ونفتح كل النوافذ» .

ومن المناصب التى تقلدتها والتى أفخر دائما بها ، منصب مستشار وزير الثقافة - وكان فى ذلك الوقت د . ثروت عكاشة - لثقافة الطفل ، فحين قرر د ثروت إنشاء المكتب الإستشارى لثقافة الأطفال اختارنى مشرفا عليه وكان ذلك المكتب يعكس أول اهتمام للحكومة بثقافة الطفل ، ولا أريد هنا أن «انفخ نفيرى» كما يقول التعبير الانجليزى ولكن كان لذلك المكتب دور مهم فى خلق مفهوم جديد ووعى عام لثقافة الطفل ، قدمنا المسرحيات وأنتجنا الأفلام ونظمنا المعارض وبنينا الأندية التى يستمتع بها الأطفال الآن ، كان كل ذلك فى عهد د . ثروت عكاشة الذى كلفنى بذلك المنصب الذى اعتز به أيما اعتزاز .

جانب آخر من عملى أعتز به وهو

دوري في حركة كتاب آسيا وإفريقيا ، فقد كلفت بتنظيم أول مؤتمر لكتاب القارتين عقد في طشقند عاصمة ازبكستان في عام ١٩٥٨ . كان ذلك أول تجمع لكتاب القارتين وعرفنا لأول مرة كتاب إفريقيا بالذات الذين وقف الاستعمار في طريق تعارفهم بعضهم ببعض . إن دور مصر سيذكره التاريخ دائما، دورها في إعطاء كتاب القارة فرصة التنفس الحر بعيداً عن الاستعمار البغيض ، وتكون المكتب الدائم للكتاب وكان مقره كولومبو في سيلان (سري لا نكا الآن) وكنت مندوب مصر الدائم فيه ، ثم عقد المؤتمر الثاني في القاهرة عام ١٩٦٢ .

وانتقل المكتب الدائم إلى القاهرة ومرت الحركة بفترة ازدهار لم تشهدها بعد ذلك حين انتقل المكتب بعد مبادرة الرئيس السادات ، إلى بيروت حيث مات بهدوء لم يفق منه حتي الآن .

تلك كانت فترة تستحق التنويه ، ففيها أصدرنا مجلة «لوتس» التي بدأت مع يوسف السباعي وكان رئيسا لتحريرها وكنت نائب الرئيس وهو المنصب الذي تولاه بعد مني الصديق عبد العزيز صادق. كانت لوتس تصدر باللغات العربية والانجليزية والفرنسية وكانت أول وسيلة لكتاب افريقيا بالذات لنشر أعمالهم، اشعار من زولد جنوب افريقيا ، وقصص من تانزانيا ونيجيريا وأشعار من السنغال ومقالات وقصص من الهند واليابان وماليزيا وسنغافورة ، لقد فتحت مصر في تلك الفترة ، وعن طريق لوتس طاقاتها، لأدب القارتين وكان لي دور اعتز به كل اعتزاز .

عملت في مناصب عديدة ولكن الصحافة كانت دائما تجري في دمي فبعد أن أحلت إلى المعاش بدأت في إصدار مجلة القاهرة اليوم Cairo to day التي أصبحت الآن مصر اليوم ، ثم Business to day ثم قبلت أن أعمل المحرر الثقافي للأهرام ويكلي، وكانت فلسفة صفحات الثقافة هي تقديم الأدب المصري الحديث للقراء الاجانب ، فكنا ننشر كل اسبوع ترجمات لأشعار وقصص لاقت نجاحا كبيرا ، بل أنها كانت تستعمل في حصص الترجمة في كليات الآداب .

إن الحديث عن حياة الإنسان لا ينتهي، ولكن لابد من التوقف في مكان ما. وهنا أود أن أؤكد نقطة مهمة عن دور المثقف في مجتمعه . أعتقد أني ، بتواضع شديد، من الذين يطلق عليهم لقب مثقف بفتح القاف ، ولكني أعتقد أن أي مثقف لابد أن يكون أيضا مثقِفا . إن ما تتلقاه كثقافة لابد أن تعطيه للآخرين وإلا أصبحنا مجموعة مثالية تعيش في برجها العاجي ، مزيدة طول الوقت من ثقافتها وعلمها . إن رسالة المثقف يجب أن تكون مشاركة ثقافته مع الآخرين .

• الشوام في مصر •

في عدد مارس / اذار ١٩٩٤ من الهلال مقال بعنوان : «مصر والمنفعون الشوام» للدكتور عبد العظيم أنيس . بدأه بالإشارة إلى خطاب جاءه من الأديب اللبناني عبود عطية ، يشكو فيه من وصف الصحفيين الشوام بأنهم كانوا «حلفاء الرجعية والاستعمار» ورد في مقال للدكتور رؤوف سلامة موسى . وانتظرت ، أتوقع المزيد في اعداد قادمة لما لهذا الموضوع من أهمية في علاقة القطرين : مصر وسوريا . فلم يحصل . ولعلي فيما يلي من المساهمة ألقي مزيدا من الضوء مفيدا ويقتضينا فهم عبارة آن الشوام كانوا في يوم ما في مصر حلفاء الاستعمار ، أن نحيط بالظرف الداعي لهذا القول . وهو أن مصر كانت تعاني الاحتلال البريطاني وتأمل في العون العثماني ، وهي مرحلة مصطفى كامل ومحمد فريد لم تقطع فيها انجلترا، مع احتلالها لمصر، علاقة مصر بالدولة العثمانية ، فابقت الوبركو . بينما كان المشرق العربي : بلاد الشام ، يناضل للتحرر من حكم العثمانيين ولا هم له إلا محاربة الدولة العثمانية ، وتعلقت آماله على الغرب : فرنسا وانجلترا خاصة ، فكان ذلك تناقضا كبيراً بين الاتجاهين ، كان الاستعمار يريده مباعدا نهائيا بين القطرين لولا أن تطور الصراع ضده صهر هذا التناقض وأعاد الإلتحام .

أما أن الشوام كانوا حلفاء الرجعية فهو كلام لا ينطبق تماماً على الحقيقة والواقع . فلا ننسى أن «الشوام» أتوا مصر وغير مصر كفرنسا ، مثلاً ، لم يكونوا صحفيين كلهم ، كان بينهم الأطباء ، كجورج سمنة وشبلي شميل وعبد الرحمن الشهبندر وبينهم الكتاب المفكرون كأصحاب المقتطف والهلال ، ثم الصحفيون كأصحاب المقطم في مصر وخير الله خير الله ، في الطان في باريز ، غير الكتبة والمحاسبين . وخير من فصل في سيرتهم كراس الأب بولس قرألي ، الموجود في دار الكتب .

كان نزوح هؤلاء «الشوام» متنوع الأسباب ومتعدد الدوافع ، طلبا لمجالات أوسع للرزق ، أو هرباً من ملاحقات العثمانيين . فالذين استهوتهم رياح مصر (أبو خليل القباني ، الريحاني، روزاليوسف ، أم فريد واسمهان الأطرش .. الخ) ومثل هؤلاء وغيرهم هم الذين قدموا «لمصر خدمات جليلة في ميدان الثقافة والفنون والصحافة ...» ، ولكن مهدوا للكثيرين غيرهم . ولابد أن نعرف قبل ذلك وبعد ذلك أن دروب الوافدين إلى الأزهر لم تنقطع طوال العصور قبل أن تؤسس الجامعات الحديثة . يشهد «رواق الشوام» فيه ، وقد لعب طلابه دوراً ناجحاً في مقاومة الحملة

الفرنسية، وكان سليمان الحلبي ، الذي اغتال قائد الحملة الفرنسية أحد هؤلاء الطلاب .

تلك الفئات ، التي كانت قلوبها تهفو إلى مصر ، من فلسطين ومن سوريا ولبنان كانت مشاعرها مهيأة للإندماج ، لا يسكنها الإحساس بالاغتراب ولم يكن منها الذين «رموا جيوش البريطانيين بالرياحين» ، فهؤلاء هم من الذين هيىء لهم من خلال ثقافتهم الغربية المشوهة والنهل من مدارس التبشير أن فرنسا الأم الرؤوم وان انجلترا الدولة الصادقة التى تعمل بمثالية علي تحرير الشعوب من النير التركى : لذلك عندما ألغي السلطان عبد الحميد الدستور واستدعي مدحت باشا من لبنان واشتدت وطأة الاستبداد إلى حد لم يعد يمكن أن يتحملها اعضاء الجمعية السرية الوحيدة التى دأبت منذ أن تشكلت فى عام ١٨٧٥ على التعبير عن أفكارها بلصق نشرات علي الحائط ، وحملت آخر نشراتها برنامجها السياسي ، وكان أول برنامج عربى لوحدة بلاد الشام ، يجب أن يتم بحد السيف ، يتهم العثمانيين بالتجاوز على الإسلام، ودب الخوف فى قلوب الأعضاء فاتلفوا وثائق الجمعية وهربوا ومنهم فارس نمر جاء إلى مصر أسس المقتطف .

كان ثمة أمور كثيرة في الدولة العثمانية تغري المفكرين ورجال السياسة بإصاخة السمع لالتقاطها واطالة أنوفهم للانحشار فيها .. ثم اثارتها للرأى العام وكانت الصحف الأجنبية ، إلى جانب ما يصدر من غمز الصحف المحلية ، تشارك فى التوريط مما يعاظم اعداد المعارضين ، الناقمين على السلطان والدولة ، العاملين على تقويضها . ولدينا مثل فى سيرة الشاعر ولي الدين يكن . إلا أن سيرة شكرى غانم أقرب إلينا وأكثر جلاء . وكان شكرى ، نائباً فى مجلس «المبعوثان» وتقدم فى بحث الموازنة بسؤال حول نفقات حريم السلطان ، وكانت غير محدودة ، كنفقات بعض الحكام العرب اليوم ، فأخطره السفير البريطاني بالانتقال إلى حي السفارات هرباً من الاعتقال ليركب من هناك باخرة إلى فرنسا ، حيث عاش مندمجاً ، إلا أن شكرى غانم هذا الذى قضى معظم حياته ، متألقاً ، مبدعاً فى باريس وكان نائباً لرئيس المؤتمر العربى الأول فيها للمطالبة بحقوق العرب من الدولة العثمانية ، ورأس وفداً إلى مؤتمر الصلح يطالب بالانتداب ... سرعان ماخبا نجمه بعد أن انكشف الغرب على حقيقته واسفر عن نواياه فقضى بقية حياته يغالب اليأس وخيبة الأمل.

لم تواجه عملة بعض «الشوام» برمي الجنود البريطانيين بالرياحين استنكار أهالى القاهرة ، وكاتب مصر عبد الله النديم ، المناضل الذى كتب وكانت كتابته العاتبه أمضى من السيف قائلاً : «أنا أخوك لماذا انكرتني؟» .. فحسب .. وانما هبت الشام عندما جاءها الخبر تستنكر ، وتبرأ من فعلة هؤلاء الشوام وتناقلت قصيدة شاعرها خليل مردم التى تقول :

إن الذين تجافى عنهم الشرف ★ الشام تبرأ من عار الذين اقترفوا
كانوا لها قبل أن كانوا لمصر فلا ★ تؤاخذوها بذنب منه تنتصف
اخواننا ولنا في الصالحات يد ★ لكننا لكم بالسيف نعترف
تأبى الأواصر من قربى ومن لغة ★ إلا الوفاق فكيف اليوم نختلف
حلفت بالدم في القطرين جيد به ★ وهل وراء دم جدنا به حلف
أنا على العهد نصفيكم مودتنا ★ مافي مودتنا منٌ ولا سرف

وتلقفت ذلك صحف دمشق بين مستغرب ومستنكر وكل منها راح يكيل لهم بمكياله.

د . ذوقان قرقوط - دمشق - جديدة عرطور

• ورثة الأنبياء •

هبطوا من فم السما تسبيحا ★ وهبطنا من جرحها تبريحا
فالتقينا على المحبة والإخلاص ★ روحا تحب في الله روحا
نسحب الضوء من مغازله في الشمـ ★ ـس ، نبني به الجمال الصريحا
ونزيح الظلام من صفحة البدر ★ فيلقي على الجمال الوضوحا
وليزان ربه يخضع الكو ★ ن مريحا لجهده ، مستريحا

عبد الرحيم الماسخ - المراغة

• ثقافة الإسكندرية القديمة •

كان الرحالة والمؤرخ الكلاسيكي «إسترابون» ، الذي زار مصر بعد الإحتلال الروماني لها عام ٣٠ ق .م ، قد شاهد جبانة الإسكندرية اليونانية - التي كانت من بقايا العصر البطلمي - ووصفها وصفاً دقيقاً يظهر جمال تشييدها وعظمة فنونها وأطلق عليها تسمية «نيكروبوليس - Nicropolis بمعنى «جبانة».

وهو اللفظ الذي صار علماً على جميع جبانات العالم وبمختلف اللغات .

.. وقد وصف «استرابون» تلك الجبانة – التي بموقع القباري في الجانب الشرقي من جبانة الإسكندرية القديمة – ويبدو أنها كانت تقع أنئذ على مساحة شاسعة.

وقد جرى أخيراً الكشف عن ست مقابر ، بعضها تداعي سقفه بمرور الزمن ، والباقي مازالت أسقفه قائمة على شكل قباب ضحلة ملساء جميلة منحوتة في الصخر .. وأجملها وأهمها على الإطلاق مقبرة ضخمة متعددة الطوابق تنتمي للنمط المعماري «كتاكومب» ، كما نسميه في علم الآثار اليونانية – الرومانية .

وهناك آثار اقتحام سابق للمقبرة في عصور قديمة ، أو محاولة لسرقتها ، وتحتوي الطوابق المتعددة لهذه المقبرة على مقابر فرعية كثيرة بنظام دقيق ، وتقع خلف تلك المقابر الفرعية غرف سرية ومخازن . وقد عثر في تلك المقبرة المهمة على أباريق ومسارج فخارية تستخدم في أغراض الإضاءة ، وقد عثر على «قنينات» من النوع الذي يسمى « أبومينا » وهو القديس الذي عرف عند المصريين إبان اعتناقهم المسيحية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وكان من رموز عصر الشهداء.

ربما دل ذلك على استخدام المسيحيين لهذا المكان في العبادة السرية أيام الاضطهاد وفي اجتماعاتهم التي ذكرتها كتب التاريخ . ونستبعد – حتى الآن فكرة استخدامهم تلك المقبرة – وما يماثلها – في أغراض الدفن ، لأنه لا يوجد هناك ما يشير إلى ذلك من الناحية الأثرية حتى الآن . وقد لونت الجدران بألوان زاهية ترجع إلى العصر البطلمي ، وتفنن النحات الذي نفذ العمل على جدران المقبرة في عمل خطوط هندسية «قليلة الضوء» توحي بأن الجدار مشيد من أحجار ثقيلة، بينما هو منحوت في الصخر .. لاشك أنه كشف هام جديد عن ثقافة الإسكندرية القديمة وعقيدتها وفكرها الديني والدنيوي ، وإضافة تؤكد استمرار عبقرية المصري القديم التي استمرت حية نابضة حتى في العصور الأجنبية ..

د/ أحمد عبدالفتاح يوسف
مدير عام آثار غرب الدلتا

أنت والهلال

• الواهمة •

يامذه لا تسخرى .. لا تعبثى بمشاعرى
ماذا تراه العين فيك ليستثير خواطرى
لا أنت الهام القصيد ولا خيال الشاعر
إن كان غرك ما يقال من المديح السائر
من أن حسنك ساحر يوحى بشىء ساحر
أو أن ثغرك باسم مثل الصباح السافر
إن كان غرك ما يقال تمهلى لا تسخرى
خدعوك عباد اللذائذ والطلاء الظاهر
هذا الجمال هو الجمال السرمدى العبقرى
فإذا سلكت طريقه للحب لن تتعثرى
يا أنت ياتمثال شمع للجمال تدبرى
وإلى الجمال تقربى وإلى حقيقتك انظرى
وتمهلى لا تسرفى فى الوهم لا تتبخترى
لا أنت الهام القصيد ولا خيال الشاعر
ماذا تراه العين فيك ليستثير خواطرى

شعبان صقر – إسنا

• الكاتب الكبير على أدهم •

إننى من القراء المدمنين على مطالعة مجلتنا الرصينة «الهلال» منذ قرابة ثلاثين عاماً وقد مر على صفحاتها العشرات، لا بل والمئات من الكتاب الذين أثروا الساحة الثقافية بما سطروا من أبحاث وقصص وتحقيقات ورسوم ... إلخ...

وقد كنت أرى ولمدة طويلة مقالات دبجها يراع الأستاذ القدير على أدهم . ومنذ سنوات لم أعد أرى اسمه فى فهرس مجلتنا المحبوبة ولا فى غيرها من مطبوعات مصرنا الحبيبة . لذا أرجو من سيادتكم أن تكتبوا لنا عنه وأن تخبرونا هل مازال على قيد الحياة؟.

أخوكم : محمد جويرو – منزل حرب 5036. تونس

• الهلال :

- توفى الكاتب الكبير الأستاذ على أدهم منذ سنوات وهذا هو السبب فى اختفاء اسمه من الصحف المصرية التى كان من أبرز كتابها ، وكان من الرعيل الأول مع العقاد والمازنى وطه حسين وغيرهم .. وهذا حظ الأديب فى البلاد العربية ينساه الناس وتنساه الصحف بعد أن يرحل عن هذه الدنيا ، وقد دل سؤالكم عنه على أنه مازالت فى البلاد العربية بقية من القراء لا تنسى كبار المفكرين والكتاب.

• الشذوذ بين المحارم •

قرأت في باب (أنت والهلال) ماكتبه د . محمد ريان تحت عنوان «قصة السخان» وذلك في عدد سبتمبر ٩٦.

علق الدكتور علي قصة السخان للأستاذة أهداف سويف ، وقد لاحظ : «أن الحدث الرئيسي للقصة يدور حول الكبت الجنسي حيث يعانى بطل القصة الذى لا تفوته صلاة ، ويتم التنفيس عن هذا الكبت برغبته الشديدة في شقيقته ..الخ» وقد خرج من قراءته للقصة برأى مفاده أن : «القصة بهذه المعالجة اللامنطقية تفتقر إلى الصدق الفنى لبعدها عن واقع شبابنا ومخالفتها لأخلاقنا وقيمنا وربما من المناسب إعادة كتابتها بحروف لاتينية لنشرها على القارىء الأوربى أو الأمريكى .. الخ».

وقد علقت الهلال على هذا الرأى بالقول - حرفياً - : « هذه مصادرة تامة منك عزيزى القارىء لوجهة نظر الكاتبة.» فلو قلت بأن المجلة قد صادرت ، أى القارىء .. اكون قد صادرت رأى المجلة بدورى، وبالتالى سندخل فى متاهة من مصادرة الآراء، وهذا مالا نريده .

ومن ناحية أخرى فقد كتب د . ماهر فريد - فى نفس العدد من الهلال - تحت عنوان (ظاهرة أهداف سويف فى الأدب العالمى : زمار الرمل) .

وفى قراءة الدكتور ماهر للمجموعة القصصية (زمار الرمل) للكاتبة أهداف سويف، والتى من ضمنها قصة (السخان) - لعل الدكتور محمد ريان مرتاح الآن بعد أن علم أن القصة مكتوبة بالانجليزية أصلا - يقول الدكتور (ماهر) عن قصة (السخان) : «هنا تقتحم أهداف سويف - بشجاعة وأمانة - منطقة من مناطق الخبرة لايكاد يجرؤ أحد من كتابنا ذكورا أو إناثاً ، على سبر اغوارها : منطقة الزنا بالمحارم أو سفاح القربى .

ويقول فى فقرة لاحقة : «القصة توكيد بلغة الفن لما قاله فرويد منذ سنوات طويلة أن الرغبة الجنسية المكبوتة والتى لا تجد لها متنفسا صحيا ، تتخذ لها مسارب من التطرف والعدوان».

ولنا أن نتساءل ماهي نسبة الزنا بالمحارم - إن وجدت - فى مجتمعاتنا وهل تصل إلى حد الظاهرة؟! وهل وصلت المسألة إلى حد يتطلب علاجها بشتى الوسائل؟ وخصوصا ان الدكتور (ماهر) قد وصف الكاتبة بأنها : « ... جادة اخلاقية

الاهتمامات.»! وهل المسألة كما يقول الدكتور ماهر : «تؤكد بلغة الفن لما قاله فرويد.. الخ» أم أنها تطبيق لما قاله فرويد؟! ونتساءل مرة أخرى - وبكل براءة - مامعنى أن تكون القصة مكتوبة بالانجليزية إصلاً؟!

أما قراءتي الخاصة للقصة ، أو فهمي لما ترمي اليه الكاتبة ، دون أن يكون في ذلك مصادرة لرأي الكاتبة أو الناقد . فإنني أرى أن الكاتبة قد وضعت (صلاح) بطل القصة في مأزق ، فهو متدين ، مواظب على الصلاة في الجماعة وتدينه هذا يمنعه من الدخول في علاقات جنسية للتنفيس عن رغباته الجسدية .. أي أنه بلغة (فرويد) يكبت رغباته مما يجعله يسقطها على أخته.

فهل تريد الكاتبة أن تقول بأن الانسان إما أن يدخل في تجارب جنسية حتى لو كانت مع بائعات الهوى - اصدقاء (صلاح) الذين يفعلون ذلك غير مأزومين - وإما أن تنحرف تلك الرغبات إلى شهوة منحرفة نحو المحارم ؟ وهل تريد الكاتبة أن تقول بأن التدين مأزق؟

يقول الدكتور (ماهر) في قراءته للقصة : «صلاح يسقط على أخته مشاعره الخاصة ، ويحاسبها عليها - وهو يحاسب نفسه في الحقيقة ، ثم يقذف بها في غمرة زواج متعجل ، صونا لعرضها في الظاهر ، ونجاة بنفسه من جحيم الغواية في حقيقة الأمر.» فهل تزويج (صلاح) لأخته يعد حلا للمشكلة؟ إن ذلك يشبه شخصا تسلق شجرة فدخلت شوكة في قدمه ، فأخذ فأسا وكسر الشجرة ، بينما ظلت الشوكة في مكانها .. وتؤلم . هذا بالضبط هو حال (صلاح) فزواج أخته لن يميت رغباته الجنسية فعلى من سوف يسقطها في المرة القادمة .

محمود المختار الشنقيطي - المدينة المنورة

● قالت

قالت :
إن كنت صغيرا مثل القلب
أخضر
(تتلون حينا بخضاره)
أصفر
تتلون مثل دموع الشهب
تتأوه ليلاً
تقصف تعصف
تتحرج أحياناً
تترنح تحت صهيل الماء
تتكسر .. تتفتت .. تتحدر
إن كنت كذلك
لو تعرف
إن كنت
إن كنت سخيا .. وقويا وصفيا
وبطول النور ولون النار وعنف الشوق
تتأرجح فوق اليوم
والأمس صغير وصغير أخرس
فلتقرب مني ولتجلس
ولتلثم - بالأحرف - شفتي
وترنح مثلي
بين الحلم العاصف والأزلام

أنور محمد عبدالحليم - القاهرة

• نبيذ الفنان •

وقـــالت لى تعــــال اسكر ★ ببـحــر الخـمــر فلنبـحــر
فـهذا الحــــب أغنيــــة ★ ملحنهـــا الطلا الأحــمــر
فـــقلت مــجـــاوبــاً ويدى ★ على فــســتــانهــا الأخـضـر
وضـــوء الليل منسكب ★ وهمس الشـــوق مــســتنفـر
أنا سكران مـــذ عـــرفت ★ عـيـــوني الشــمـس والأبحـر
فـلـلـفـنـان أقــــــــداح ★ مـلـونة من الـعـنـبـــــر
وليس بحــــاجـــــة أبداً ★ لأن يحــســـو دم المنكر
فـمذ ولــــدته حـــــــواء ★ هـو السكران أو أكــثـــر
وعــينك خـمــرة خـضـــراء ★ لم يعــرف لهــا مــصــدر
إذا ســــالت دمـــوعك ★ فـوق هذا الكوكب المقـمـر
ترنحت البـــحـــار .تهـــاوت ★ الغـــابات فى الأنهـــر

د . هيثم الحويج العمر – دمشق

• مع الأصدقاء •

● ونشكر لأصدقائنا الأساتذة الشعراء والكتاب الذين ضاق المجال بنا وبهم فى هذا الشهر ، ونرجو أن نلتقى فى الأشهر القادمة إن شاء الله :

– أحمد عبد اللطيف حسب الله ومجدى سماحة كامل وأيمن عبد الرسول ومحمد يوسف أحمد التاجى ويوسف على الشاعل ومحمود عبد العزيز عبد المجيد وسلوى فؤاد عبدالله وحسن رجب محمد الفخرانى والسيد السمرى وعاصم فريد البرقوقى وصلاح السيد السيد وحامد نفادى محمد والسيد طه خميس وعلاء الدين عمرو حمودة ورمضان الهجرسى وحسن منتصر ووفاء محمد أبو زيد وخليل إبراهيم الجبل ومحمد أمين عيسوى.



الكلمة الأخيرة

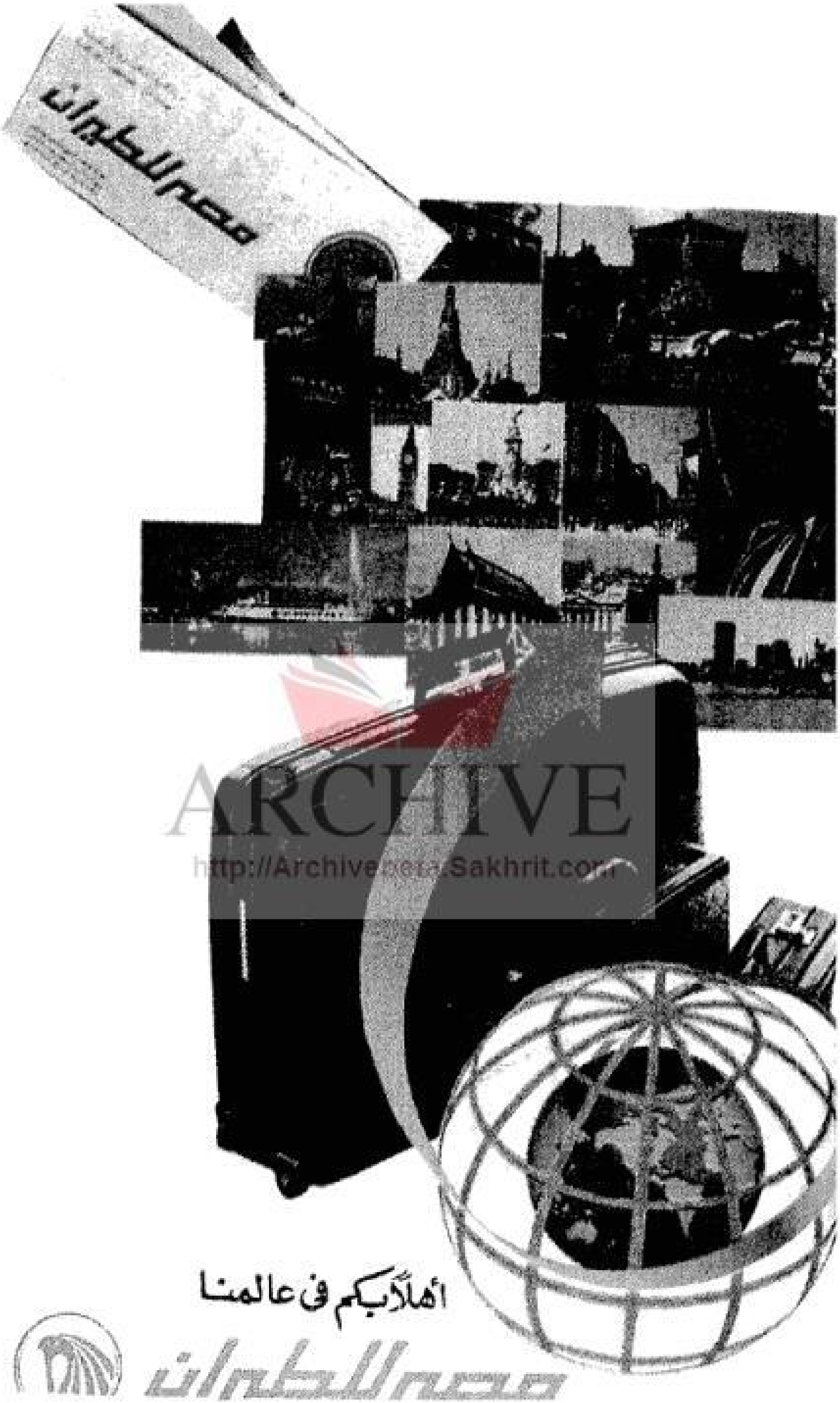
حصار

بقلم : محمد مستجاب

يقف النص الأدبى - المصرى بالذات - وحيدا ، ومحاصرا بأنواع متعددة ومتناقضة من المحظورات الضاغطة ، فليس للنص الأدبى حق اختراق السموات ومداعبة الملائكة والعبث مع الشياطين ، كما أنه يجب أن يراعى أحاسيس العامة وجمهور الفقهاء فى مسائل استقرت فى الدين مثيرة السخرية الواضحة ، ولايجوز للنص الأدبى أن يداهم لصا قبطيا أو يتيح لعاشق نصرانى حب فتاة مسلمة حتى لاتتعرض البلاد لخطر الفتنة ، فإذا ماوقع بطل النص المسلم فى دباديب جميلة مسلمة : ففى حدود التلامس السريع على درجات السلم أو فى المصعد أو خلال خطابات ساخنة دون الدخول أكثر فى العالم الذى أنشأنا بسببه النص ، - وليست هذه دعوة للفجاجة أو قلة الأدب أو استخدام الألفاظ المنافية للأخلاق - هذا لاعلاقة له بالنص الأدبى الذى أقصده ، كما لايجوز للنص الأدبى تجاوز حدود معينة فى النقد والانتقاد ، مع ضرورة الاستعداد بالمستندات لمواجهة العواصف ، كما أن النص الادبى - من نفسه - ينظر باستحياء واختناق لعالم وحضارة وقيم جديدة انتشرت فى عصر البترول - أهل البترول أنفسهم يقومون بتنفيذها ونقدها والهجوم على ذلك بشكل واضح كاسح ، لكنه محظور علينا ، كما أن هذا النص غير مباح له التنديد أو التعريض بالمؤسسات الدينية أو القضائية وبعض المؤسسات السياسية السيادية ، مع أن الأمور لم تعد كسابق عصرها ، إذ أننا نتكلم كثيرا مما اصابها ، ثم ان العلاقات المحرمة التى ظهرت آثارها فى صفحات الحوادث لايصح للنص الأدبى أن يهتم بها ، وإن تناولها فلابد من ارجاع هذا الدنس الأسرى الى أوديب الاغريقى أو أى من هؤلاء الذين صنعوا تراثا للدنس بالمفهوم الدينى والأخلاقى المتخلف .

ويقف النص الأدبى المصرى وسط كل هذا الحصار مبتسما صابرا ، يقاوم فى أسى عوامل تدميره والقضاء على أهم أسباب قيامه ..

والله مع الصابرين.


مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران